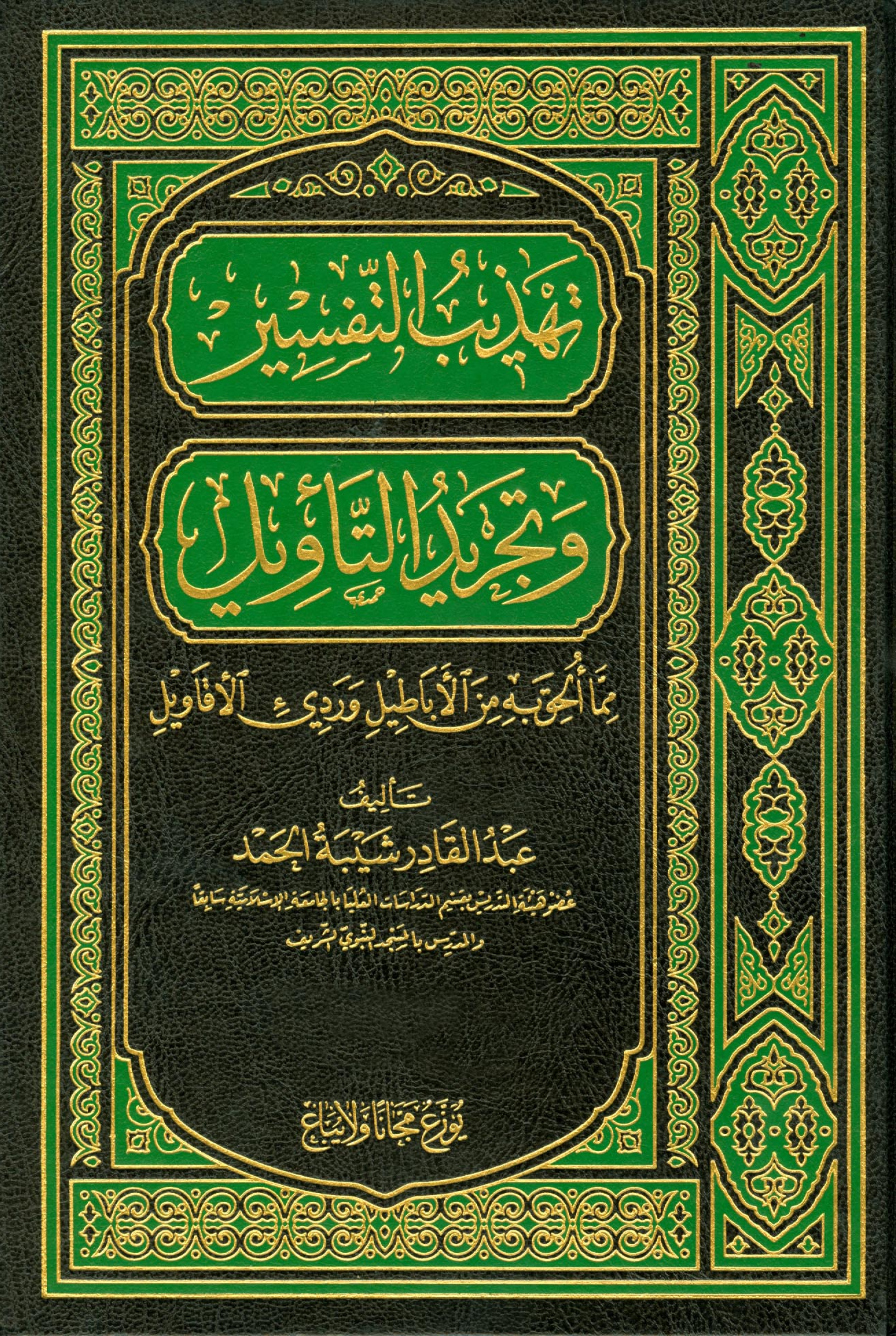

تهذيب التفسير
وتجريد التأويل
مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل
تأليف
عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف
يوزع مجاناً ولا يباع

تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

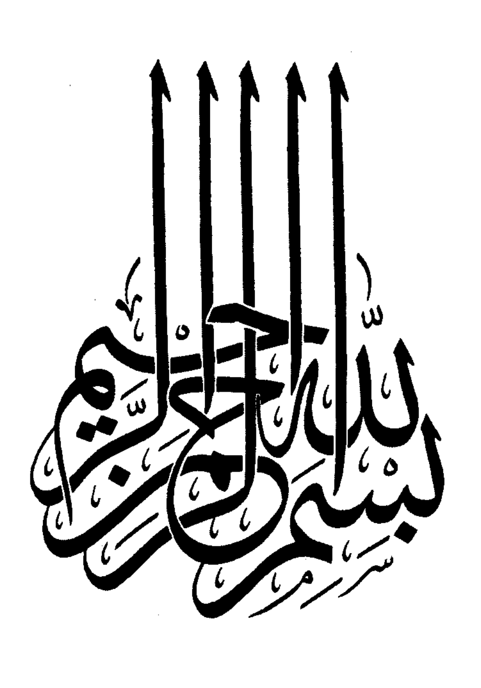
عبد القادر شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا

بالجامعة الإسلامية سابقاً

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم


ربنا تقبل منا
إنك أنت السميع العليم

ح عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٩ -٧٧٥١-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج١)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٩-٧٧٥١-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج١)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

مقدمـــــــــــة

الحمدلله الذي أنزل على عبده الكتـاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الـذين قالـوا اتخذ الله ولداً * مـا لهم بـه من علم ولا لآبـائهم كبرت كلمةً تخرج مـن أفواههم، إن يقـولـون إلا كذبـاً * والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد خير خلق الله أجمعين وعلى آله الطيبين وأصحـابه الغُـر الميامين ومن سلك سبيلهم وتـرسم خطـاهم ونهج منهجهم إلى يوم الـدين ، أمـا بعد : فهـذا تفسير سهل يسير جمعت فيه أصح طرق التفسير بالروايـة وأدق مسالك التأويل بالدراية وتجنبت ما تسرب إلى كتب التفسير من أقـوال رديئة ، وروايات موضـوعة أو ضعيفة ، وقد سميتـه «تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق بـه من الأباطيل ورديء الأقاويل» وأسأل الله تعـالى بأسمائه الحسنى وصفاتـه العُلى أن يجعله خـالصاً لوجهه الكريم ، إنه رءوف رحيم .

عبد القادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * الحمدلله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

أبتدئ باسم الله الرحمن الرحيم، وهذه السورة المباركة تسمى سورة الفاتحة، وأم القرآن والحمد وأم الكتاب، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، قال البخاري في صحيحه: حدثنا مُسَدَّدٌ حدثنا يحيى عن شُعْبَةَ قال: حدثني خُبَيْبُ بنُ عبدالرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أُجِبْهُ، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾؟ ثم قال لي: لأعلمنَّكَ سورةً هي أعظم السُّور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنَّكَ سورةً هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه. وأخرج البخاري هذا الحديث أيضاً في تفسير سورة الحجر فقال: باب قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآنَ العظيم» حدثني محمد بنُ بَشَّار حدثنا غُنْدَرٌ حدثنا شعبةُ عن خُبَيْبِ بن عبدالرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المُعَلَّى قال: مرَّ بي النبيُّ ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آتِهِ حتى صليت، ثم أَتَيْتُ، فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول» ثم قال: ألَا أُعَلِّمك أعظم سورة

في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج ، فَذَكَّرتُهُ ، فقال : «الحمد لله رب العالمين» هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيتُه . حدثنا آدم حدثنا ابنُ أبي ذُؤيب حدثنا سعيد المَقْبُرِيُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أم القرآن هي السبع المثاني والقرآنُ العظيمُ . وقال مسلم في صحيحه : حدثنا حسن بن الربيع وأحمد بن جَوَّاس الحنفي قالا حدثنا أبوالأحوص عن عمار بن رزيق عن عبدالله بن عيسى عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سَمِع نَقِيضاً من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا بابٌ من السماء فتح اليوم ، لم يُفْتَح قَطُّ إلا اليومَ ، فنزل منه مَلَكٌ ، فقال : هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض لم يَنْزِلْ قط إلا اليوم ، فَسَلَّمَ وقال : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لم يُؤْتَهُمَا نبيٌّ قبلَك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيتَهُ . وقد أخبر رسول الله ﷺ أن فاتحة الكتاب رُقْيَةٌ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي بِشْر عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أَتَوْا على حيٍّ من أحياء العرب فلم يَقْرُوهُمْ ، فبينما هم كذلك إذ لُدِغَ سَيِّدُ أولئك ، فقالوا : هل معكم من دَواءٍ أو رَاقٍ ؟ فقالوا : إنكم لم تَقْرُونا ، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً ، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء ، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بُزَاقَه ويَتْفل ، فَبَرَأ ، فَأَتَوْا بالشاء ، فقالوا ، : لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ ، فسألوه فضحك وقال : وما أدراك أنها رُقْيَة ؟ خذوه واضربوا لي بسهم . وأخرج مسلم من طريق أبي بِشْر عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر ، فَمَرُّوا بحي من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يُضيفوهُمْ ، فقالوا لهم : هل فيكم راقٍ فإن سيد الحي لَدِيغ أو مُصَابٌ ؟ فقال رجل منهم : نَعَم ، فأتاه فَرَقَاهُ بفاتحة الكتاب ، فَبَرَأَ الرجل ، فَأُعْطِيَ قطيعاً من

غنم، فأَبى أن يقبلها وقال: حتى أذكر ذلك للنبي ﷺ فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله ما رَقَيْتُ إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم، وقال: وما أدراك أنها رُقْيَةٌ؟ ثم قال: خُذُوا منهم واضربوا لي بسهم معكم. وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن سيرين عن أخيه مَعْبَد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري قال: نَزَلْنَا مَنزلا، فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد الحي سَليمٌ لُدِغَ، فهل فيكم من راقٍ؟ فقام معها رجل منا ما كنا نَظُنُّه يُحْسِنُ رُقْيَةً، فَرَقَاه بفاتحة الكتاب، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غنماً، وَسَقَوْنا لبناً، فقلنا: أكنت تحسن رقية؟ فقال: ما رَقَيْتُهُ إلا بفاتحة الكتاب قال: فقلتُ: لاَ تُحَرِّكُوهَا حتى نأتي النبيَّ ﷺ، فأتينا النبيَّ ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: ما كان يُدْرِيهِ أنها رُقية، اقْسِموا واضربوا لي بسهم معكم. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس أن نَفَراً من أصحاب النبي ﷺ مرُّوا بماء، فيهم لديغ أو سَليم فَعَرَضَ لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل فيكم من راقٍ؟ إن في الماء رجلاً لديغاً أو سَليماً، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب على شاءٍ، فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكَرِهُوا ذلك، وقالوا: أخذتَ على كتاب الله أجراً؟ حتى قَدِمُوا المدينة، فقالوا: يا رسول الله، أَخَذَ على كتاب الله أجراً، فقال رسول الله ﷺ: إن أَحَقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله. وقد أطبق المسلمون على قراءة الفاتحة في الصلاة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب فقد روى البخاري ومسلم من طريق الزهري عن محمود بن الرَّبيع عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب. ولذلك أطلق رسول الله ﷺ اسم الصلاة على فاتحة الكتاب فقد روى مسلم في صحيحه من طريق سفيان بن عيينة عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِدَاجٌ ثلاثا غيرُ تَمَام. فقيل لأبي هريرة: إنَّا نكون وراءَ الإمام؟ فقال: اقرأ بها

في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نِصْفَيْنِ ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين * قال الله تعالى: حَمِدَني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم * قال الله تعالى: أثنى عَلَيَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين * قال: مَجَّدَنِي عبدي، وقال مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين * قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين * قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. قال سفيان: حدثني به العَلاَءُ بنُ عبدالرحمن بن يعقوب دخلت عليه وهو مريض في بيته فَسَأَلْتُهُ أنا عنه اهـ وقوله تعالى: الحمد لله رب العالمين أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يَسْتَحِقُّها الله المعبود بالحق وحده سيد كل شيء وخالقُه ومالكُه ومصلحه ومربيه لا إله غيره ولا ربَّ سواه. والحمد هو الثناء على الله رب العالمين بالجميل على ما أسدى من النعم، وعلى ما اتصف به من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، والرضا بقضائه وقدره فهو المحمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين، والشكر هو الاعتراف والإقرار للمنعم بنعمته، وضده الكفر، والمدح نقيض الذم، والرضا ضد السُّخْط، وكلٌّ من الشكر والمدح والرضا داخل في حقيقة الحمد، فَحَمْدُ الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله، والإقرار بآلائه ونِعَمِه التي لا تُعَد ولا تحصى، ووصْفَ الله عز وجل بجميع صفات الكمال التي وصف بها نفسه أو وَصَفَهُ بها رسوله ﷺ وتَنْزِيهَهُ عن كل نقص، وخُضُوع القلب والجوارح واللسان لله عز وجل، لأن جميع ما يصدر عن الله عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يَعُدُّه العبد ضُرًّا أو نفعاً كالعافية والبلوى، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك، فالله عز وجل محمود على كل حال، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة وقد

وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستدلاً بقول الشاعر:

أفادتكُم النعماء مني ثلاثـةً　　　　يَدِي ولساني والضمير المُحَجَّبَا

فإن الحمد يشمل الشكر والمدح والرضا، وسائر الكائنات في الوجود تسبح بحمد الله بلسان الحال أو المقال على حد قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ له السمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا﴾. ولعظيم منزلة الحمد افتتح الله تبارك وتعالى به فاتحة الكتاب وأربع سُوَر من القرآن العظيم وهي سورة الأنعام وسورة الكهف وسورةُ سبأ وسورة فاطر، وفي حَيِّز الحمد من هذه السُّوَر يلفت الله انتباه الخلق إلى موجبات حمده وشكره ومدحه والرضا بما يصدر عنه ففي سورة الفاتحة لفت الانتباه إلى أنه رب العالمين، الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين، وأنه وحده هو المستحق للعبادة فلا يجوز أن يُصْرَفَ شيء منها لغيره، وأنه وحده المستعان، وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم، وفي سورة الأنعام لفت الانتباه إلى أنه وحده هو خالق السموات والأرض وجاعلُ الظلمات والنور، وفي سورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمته العظمى وحجته البالغة حيث أنزل القرآن العظيم والذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسله وخاتمِ أنبيائه عبده محمد ﷺ ليرسم للإنسانية طريق سعادتها ومنهج رشدها وعزِّها. وفي سورة سبأ يلفت الانتباه إلى أن جميع ما في السموات وما في الأرض لله عز وجل مِلْكاً ومُلْكاً فهو المستحق للحمد في الدنيا والآخرة، وفي سورة فاطر يلفت الانتباه إلى أنه وحده هو الذي فطر السموات والأرض، وجعل الملائكة رسلاً وأنه على كل شيء قدير ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسكْ فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾. كما نَبَّه الله تبارك وتعالى عباده إلى حمده في الصباح والمساء

والظهر والعشي حيث يقول في سورة الروم: ﴿فسبحان الله حين تُمْسُونَ وحين تُصْبِحُون * وله الحمد في السموات والأرض وعَشِيا وحين تُظْهِرُون﴾ كما نَبَّه عز وجل إلى افتتاح الخطب بحمده حيث يقول: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خيرٌ أما يشركون﴾. كما اختتم السلام على المرسلين بحمده حيث يقول: ﴿وسلام على المرسلين* والحمد لله رب العالمين﴾ كما لفت انتباه عباده إلى حمد ربهم واستغفاره عند تمام نعمه عليهم ليحفظها لهم حيث يقول عز وجل: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ فلله الحمد في الأولى والآخرة كما قال عز وجل في سورة القصص: ﴿وهو الله لا إلَه إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾. ويقول في سورة لقمان: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولُنَّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون* لله ما في السمٰوات والأرض إن الله هو الغني الحميد﴾، ويقول في سورة المؤمنون: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلك فقل الحمد لله الذي نَجَّانا من القوم الظالمين﴾ وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ وقال عن داود وسليمان: ﴿وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾ وقال لنبيه محمد ﷺ «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا» ونبه عباده إلى أن أهل الجنة يختمون أذكارهم بحمد الله حيث يقول في سورة يونس: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أنِ الحمد لله رب العالمين﴾ وأشار عز وجل إلى تسبيح ملائكته بحمده حيث يقول في سورة البقرة عن الملائكة: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونُقَدِّس لك﴾ ويقول في خواتيم المسك من سورة الزُّمر عن أهل

الجنة والملائكة: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدَقَنَا وعده وأورثَنَا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حآفِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقُضِيَ بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ كما قال عن أهل الجنة أنهم يقولون: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أَحَلَّنا دار المُقَامَةِ من فضله لا يَمَسُّنَا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ﴾ وقد بَيَّن رسول الله ﷺ أن الله يحب أن يَحْمَدَهُ العبدُ ويشكرهُ ويُثْنِيَ عليه عند طعامه وشرابه وعند حصوله على ثوب جديد أو نعل جديدة وعند حدوث أية نعمة له فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لَيَرْضى عن العبد أن يأكلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عليها أو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فيحمده عليها» كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اسْتَجَدَّ ثوباً سماه باسمه — عمامةً أو قميصاً أو رداءً — يقول: اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صُنِعَ له وأعوذ بك من شره وشر ما صُنِعَ له. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدتَه قال: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مَكْفيٍّ ولا مُسْتَغْنًى عنه رَبُّنَا. كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من أكل طعاماً فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حَوْلٍ مني ولا قوةٍ غُفرَ له ما تقدم من ذنبه. كما كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من نومه حمد الله فقد روى البخاري عن حذيفة وأبي ذر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور. كما كان رسول الله ﷺ يستفتح التهجد بعد تكبيرة الإحرام بحمد الله فقد روى البخاري ومسلم

واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد لَكَ مُلْك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت مَلِك السموات والأرض ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق. الحديث. كما كان من دعاء استفتاحه للصلاة ﷺ أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّك ولا إله غيرك. وقد صار حمد الله عز وجل في كثير من شعائر الإسلام كقوله في الرفع من الركوع سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. وفي الركوع والسجود: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي. وفي التلبية في الحج أو العمرة: لبيك إن الحمد والنعمة لك والمُلْك لا شريك لك. وبيَّن رسول الله ﷺ أن من قال مائة مرة في يوم سبحان الله وبحمده حُطَّتْ خطاياه. فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّتْ خطاياه وإن كانت مِثْلَ زَبَد البحر. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، كما روى مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الطُّهُورُ شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، وقد أمر رسول الله ﷺ من عَطِسَ أن يَحْمَدَ الله، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: إذا عَطِسَ أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له يرحمك الله

فليقل لـه : يَهْديكم الله ويُصْلِحُ بـالكم ، كما روى مسلم من حـديث أبي موسى رضي الله عنه قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول إذا عَطِسَ أحـدكم فحمِدَ فَشَمِّتُـوه فإن لم يحمد الله فلا تُشَمِّتُـوه . كما روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنـه قال : عَطِسَ رجـلان عند النبي ﷺ فَشَمَّتَ أحـدَهما ولم يُشَمِّت الآخـر فقـال الـذي لم يُشَمتـه : عَطِسَ فـلان فَشَمَّتَّـهُ وعَطِسْتُ فلم تشمتني فقال : هذا حَمِدَ الله و إنك لم تحمد الله .

وقد وصف رسول الله ﷺ قـوله تبارك تعالى : ﴿الرحمن الـرحيم﴾ بأنه ثناء على الله عـز وجل حيث قـال في حـديث أبي هريـرة عنـد مسلم : و إذا قـال الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : أثنى عليَّ عبدي . وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن العبد مهما كَمُلَ لا يستطيـع أن يُحْصِيَ الثناء على الله عز وجل حيـث يقول رسـول الله صلى الله عليـه وسلم فيما رواه مسلم في صحيحـه من حـديث الصـديقة بنت الصـديق عائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ قال : لا أُحْصِي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك . والرحمن الرحيم من أسماء الله الحسنى . وأهل السنة يُثبتون لله عز وجل مـا أثبته لنفسه أو أثبته له رسـوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفـات العُلَى من غير تأويل ولا تعطيلٍ ، ولا تكييفٍ ولا تحريفٍ ، ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ، ومهما خطر ببالك فإن رحمة الله فوق ذلك ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال : قدم رسـول الله ﷺ بسبيٍ فإذا امرأة من السَّبْي تَسْعَـى إذا وَجَدَتْ صبياً في السَّبْي أخذتـه فألزقته ببطنها فأرضعته فقال رسـول ﷺ : أَتُرَوْنَ هذه المرأةَ طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله ، فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها . كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رسـول الله ﷺ : لما خلق الله الخلق كتب في كتـاب فهـو عنـده فـوق العـرش . إنَّ رحمتي تغلب غضبي ، وفي رواية : غلبت غضبي . وفي روايـة :

سبقت غضبي . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : جَعَلَ الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءًا واحداً ، فَمِنْ ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى تَرْفَع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه . وفي رواية : إن لله تعالى مائة رحمة ، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فَبِهَا يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تَعْطِفُ الوحشُ على ولدها ، وأَخَّر الله تعالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة . ورواه مسلم من حديث سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن لله تعالى مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلقُ بينهم . وتسعة وتسعون ليوم القيامة . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِعَ بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنِط من جنته أحد . وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه أرحم الراحمين . وأن رحمته وسعت كل شيء كما قال عز وجل : ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ . وقد جعل الله عز وجل اليأس من رحمة الله علامة الكفر حيث يقول عز وجل : ﴿ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون﴾ وقال عز وجل : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ ولله دَرُّ القائل :

فؤادي من ذنوبي في لهيب ... توهُّجَ حَرِّ مِسْرَى أو أبيب
ولست بقانط أبداً لأني ... رأيت الله أرحمَ من أبي بي

وقد وصف الله عباده الصالحين بأنهم يرجون رحمة الله ويخافون عذابه حيث يقول عز وجل : ﴿ويرجُون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ وكما قال عز وجل : ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن

عـذابي هو العـذاب الأليم﴾ . وقولـه عـز وجل : ﴿مالك يـوم الدين﴾ هـو تمجيد لله تبارك وتعـالى كما جاء في حديث أبي هريـرة عند مسلم : وإذا قال : مالك يـوم الدين قـال : مَجَّدَني عبدي . وقد قـرأ عاصم والكسـائي ويعقوب ﴿مـالك يـوم الـدين﴾ وقرأ البـاقـون ﴿ملك يـوم الـدين﴾ وهي قـراءةُ أهل الحرمين . فكلتا القراءتين سبعية متـواترة ، والمِلِك بفتح الميم وكسر اللام من لـه المُلْك بضم الميم وسكون الـلام أي من لـه السلطان القـاهر ، والاستيـلاء البـاهر والغَلَبَـة التامـة ، والحُكْمُ في جميع شؤون الخلائق ، فمعنى ملك يـوم الدين أي المتصرف في شـؤون خلقه وحده يوم القيامـة ، فكُلُّ ذي سلطان في الدنيـا قد انقطع سلطانه ، وقـد أشار الله عز وجل إلى ذلك في كتابـه الكريم حيث يقول عن مشهد من مشـاهد يوم القيامة : ﴿لمن المُلْكُ اليـوم لله الواحد القهـار﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿المُلْك يـومئذ الحقُّ للـرحمن وكـان يومـا على الكـافرين عسيرا﴾ . والله تبـارك وتعـالى هـو الملك الحق دائما وأبدا وكما قـال الحق تبارك وتعالى : ﴿قوله الحق وله الملك يوم يُنْفَخُ في الصور﴾ . والمالك مَنْ له المِلْك بكسر الميم وسكـون اللام وهو من يملك الرقبـة . والله تبارك وتعالى هـو مالك الـرقـاب ومَلِكُهَـا ، فهو المهيمن على جميع خلقـه ، ونـواصي كل العالمين بيده يحكـم فيها بما يشاء ويقضي ما يريـد ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمـه ، والـدِّين الجزاء والحساب ومنـه قـولـه تعالى : ﴿أئنـا لمدينـون﴾ أي لمحاسبُون ومجزيون بأعمالنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ قال البخـاري في صحيحه : والدين الجزاء في الخير والشر، كما تدين تدان ، وقـال مجاهد : بالدين : بـالحساب ، مدينين محاسبين اهـ وقال لبيد :

حَصَادُك يوماً ما زَرَعْتَ وإنما | يُدَانُ الفتى يوما كما هو دائن

وعلى حد قول الشاعر:

ولـم يبـق سـوى العُـدْوَان   دِنَّــاهــم كـمـا دَانُـوا

وتخصيصـه تعـالى بأنه المَلِـك المالك ليوم الـدين — وإن كـان هـو الملك المالك لجميع الدنيـا والآخرة — لأنه إذا جاء يـومُ القيامة لا يدعي أحـد فيه مُلْكاً ولا مِلْكاً على حد قوله تعالى: ﴿يوم يأت لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه فَمنهم شقيٌّ وسعيد﴾ وكقولـه تعالى: ﴿يوم يقوم الرُّوح والملائكـة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقـال صوابا﴾. وكقولـه تعالى: ﴿وخشعت الأصواتُ للرحمن فلا تسمع إلا همسا﴾. وكقولـه تعالى: ﴿وعَنَتِ الوُجُوهُ للحي القيوم وقد خاب من حَمَل ظلما﴾. وقوله تعـالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: أي لا نعبـد إلا إيــاك. ولا نتـوكل إلا عليك. وهذا هو كمال الطـاعة، والدين كله يرجع إلى هـذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحةُ سرُّ القـرآن، وسِرُّها هذه الكلمة ﴿إيـاك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأولُ تَبَرُّؤٌ من الشرك، والثاني تَبَرُّؤٌ من الحولِ والقوةِ، والتَّفْوِيضُ إلى الله عـز وجل، وهــذا المعنى في غير آيـة من القـرآن، كما قــال تعـالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون﴾، ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾، ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إلَـه إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾ اهـ.

والعبـادة هي بذل أقصـى غايـة الحب مع أقصى غـايـة الذل للمعبـود ولها مراسيم قد حـددتها شريعة الإسلام من توحيد الله عز وجل والصـلاة والزكاة والصيـام والحج وجميع ما يتقـرب بـه إلى الله عز وجـل وحده لا شريك لـه، ومنها الرغبة والرهبة وخوف السر والرجاء والإنابة والقنوت والإخبات، وهذه الحقيقــة هي التي من أجلهــا خلق الله الإنس والجن، وأقــام السمــوات والأرض، وينصب يـوم القيامة سـوق الجنة والنـار، حيث يقول عـز وجل: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ ولتحقيق التوحيد أرسل الرسل

وأنـزل الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَيَّ عن بينـة ، فالسعيـد من عبد الله وحـده واستعان به ، وإذا حقق العبد معنى ﴿إيـاك نعبد وإياك نستعين﴾ انطبق عليه قـول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويـه عن ربه عز وجل في حـديث أبي هريـرة عند مسلم : فإذا قـال : ﴿إياك نعبـد وإياك نستعين﴾ قـال : هذا بينـي وبين عبدي ولعبـدي مـا سأل . ولا شك أن من عبـد الله وحده وتـوكل عليـه واستعان بـه كفاه الله مـا أهمه من أمـور الدنيـا والآخـرة ، وجعل له من كل ضيقٍ فـرجاً ومن كل كـرب وشدة مخرجـاً ، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول : ومن يتق الله يجعلْ لـه مخرجا ويرزقْه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ . ولله در القائل :

إذا كان عـون الله للعبـد مُسْعِفاً تَأَتي لـه من كـل شـيء مـرادُهُ
وإن لم يكن عونٌ من الله للفتـى فأول ما يقضي عليه اجتهـاده

وما أحسن ما أنشد ابن دقيق العيد :

وقـائـلـةٍ مات الكـرام فمـن لـنـا إذا عَـضَّـنَـا الدهر الشـديـد بنـابـه
فقلـت لهـا من كـان غايـة هـمـه سـؤالاً لمخـلـوق فليس بنـابـه
لئن مات من يُرجَى فمعطيهم الذي يـرجـونـه بـاق فلـو ذوا بـبـابـه

وما أجملَ قولَ القائل :

يـا مـن ألوذ بـه فـيـمـا أؤمـلـه ومـن أعـوذ بـه مـمـا أحـاذره
لا يجبر الناس عظمـاً أنت كاسـره ولا يهيضـون عظمـاً أنت جابـره

وتحقيق ﴿إياكَ نعبـد وإياك نستعين﴾ يَعْصِمُ المسلمَ من مـذهـب الجبرية والمعتزلة القدرية .

وقوله تعـالى : ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دُلَّنَا وأرشدنـا ووفقنا وأَلْهِمْنَا طريقك المعتدل الـذي لا اعوجاج فيه المُوصِلَ إلى مـرضاتك وجنات النعيم

بمتابعة رسولك والعمل بكتابك والـوقوفِ عند حدودك والثبات على ذلك، فإنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فـلا هادي له، هذا وفي تقديم: الحمد لله رب العـالمين * الرحمن الرحيم * مالك يـوم الدين * إياك نعبد وإيـاك نستعين بين يَدَيْ قـوله: اهـدنا الصراط المستقيم. الخ السـورة لفتُ انتبـاه المسلمين إلى استحباب التـوسل إلى الله عـز وجل قبل الدعـاء بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وحمده والثناء عليه وتمجيده والإقرار بأنه لا معبود بحق سـواه وأنه لا يستعـان إلا بـه لأن ذلك أرجى للإجـابـة، وقد أشـار إلى ذلك رسـول الله ﷺ حيث لفت انتبـاه المسلمين إلى أن الإنسان المسلم إذا دعـا الله تعالى بعـد أن يذكـر أَرْضَى عمل تقـرب به إلى الله عز وجـل، وعَمِلَه لـوجهه الكريم حَرِيٌّ أن يستجاب له، حيث ذكر قصة الثلاثة الذين آواهم المبيتُ إلى غار، فـانطبقت عليهم الصخرة، فتضرع كلٌّ واحد منهم إلى الله تعـالى وذكر عمـلا صـالحا وقـال: اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلـك ابتغـاء وجهك فافْرِجْ عنا مـا نحن فيه، فانفرجت عنهم الصخرة وخـرجوا يمشون وقد رواه البخاري ومسلم مُطَـوَّلا من حديث عبـدالله بن عمر رضي الله عنهما، وقـوله تعالى ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ الخ. عطـفُ بيان أو بدل كل من كل من قوله: الصراط المستقيم، وهو تفسير للصراط المستقيم، وأن سالكيه هم المُنْعَمُ عليهم، وقـد بين الله تبارك وتعـالى المنعم عليهم حيث يقول في سـورة النساء: ﴿ومن يطع الله ورسوله فأولَئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهـداء والصالحين وحَسُن أولَئك رفيقاً﴾ وفيـه إيماء إلى الثناء على أبي بكر وعمـر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فإن هؤلاء رأس المنعم عليهم بعـد رسـول الله ﷺ من أمـة محمد ﷺ فقـد وصف رسـول الله ﷺ أبـا بكـر بالصديق وعمر وعثمان بالشهيدين كما أنه لا شك في أن علياً رضي الله عنه قد مات شهيـداً، ولم يوصـف بالصديقيـة من أمـة محمد ﷺ أحـد غير أبي بكر رضي الله عنـه فهـو أفضل الخلق بعـد النبيين عليهم السـلام، فقـد روى البخاري من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ صَعِدَ أُحُدا وأبو

بكـر وعمـرُ وعثمانُ فَرَجَفَ بهم فقـال : اثْبُتْ أُحُـدُ فإنما عليك نبي وصـديق وشهيدان ، وفي لفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صَعِدَ النبي ﷺ إلى أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فَرَجَفَ بهم فضربه برجله وقال : اثبت أحد فما عليك إلا نبـي أو صِديّق أو شهيدان . كما روى مسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على حـراء هو وأبو بكر وعمـر وعثمان وعلي وطلحة والـزبير فتحركـت الصخرة فقـال رسول الله ﷺ : اهـدأ فما عليك إلا نبي أو صِـدِّيـق أو شهيـد . أمـا المغضـوب عليهم والضـالـون فهم كلُّ من كفـر بـالله وكـذَّب المرسلين من اليهـود والنصـارى والمنافقين والمشركين وسـائر الملاحدة والـدهريين ، أصحـاب الصراط المعوج المنحرفين عن سـواء السبيل ممن غَضِبَ عليهم رب العزة جل جـلاله وتَـاهوا عن طريق الـراشدين . وقد أخبر رسـول الله ﷺ في حديث أبي هـريرة عنـد مسلم أن العبد إذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . قال : «يعني الله» هذا لعبدي ولعبدي ما سأل . هـذا ويستحب لمن قرأ الفـاتحة أن يقول بعـدها : آمين ومعنـاه اللهم استجب . فقـد روى أحمد وأبو داود والترمـذي وحسَّنه من حـديث وائل بن حُجْـر قـال : سمعت النبي ﷺ قرأ ﴿غير المغضـوب عليهم ولا الضـالين﴾ فقال : آمين مدَّ بها صـوته . كما روى البخاري ومسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول ﷺ قال : إذا أَمَّن الإمـام فَأَمِّنُوا فإنه مـن وافق تأمينه تأمين الملائكـة غفر لـه مـا تقدم من ذنبـه ، كما روى مسلم من حـديث أبي مـوسى مـرفـوعـاً : وإذا قـــال — يعني الإمـام ﴿غير المغضـوب عليهم ولا الضالين﴾ فقولوا : آمين يجبكم الله . وفي لفظ البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله أن رسـول الله ﷺ قـال : إذا قـال الإمـام غير المغضـوب عليهم ولا الضالين فقـولوا : آمين ، فمن وافق قـولُه قـولَ الملائكة غفـر له مـا تقدم من ذنبه .


تفسير
سورة البقرة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾

هذه سورة البقرة، وإنما سميت سورة البقرة لأن الله تعالى ذكر فيها قصة بقرة بني إسرائيل، المنبئة عن تعنت بني إسرائيل وتنطعهم في دين الله — ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه — المقررةَ لإثبات رسالة الرسل، وقدرةِ الله تعالى على إحياء الموتى، وبعض مظاهر آيات الله عز وجل وعلامات قدرته ليعقل الناس ويسلكوا صراط الله المستقيم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقْرَأ فيه سورةُ البقرة» كما روى مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزَّهْراوَيْنِ البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فِرْقانِ من طير صَوافَّ تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أَخْذَها بركة وتَركها حسرة ولا يستطيعها البَطَلَةُ. كما روى مسلم في صحيحه من حديث النَّوَّاسِ بن سمعان الكِلابي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُه سورةُ البقرة وآل عمران. وضرب لهما رسول الله ﷺ

ثلاثة أمثـال ما نَسيتُهُنَّ بعدُ، قال: كأنهما غَمامتـان أو ظُلَّتَان سَوْدَاوَان بينهما شرقٌ أو كأنهما حِـزقَان من طَيْر صَـوافَّ تُحَاجـان عن صاحبهما. اهــ ومعنى الزهراويـن أي المضيئتين فالزهراوان تثنية الـزهراء والزهراء تأنيـث الأزهر وهو المضيء الشـديـد الضوء، وقـد وصفت البقـرة وآل عمـران بهذا الـوصف لما اشتملتـا عليـه من أنـوار الأحكام الشرعيـة، والأخـلاق العَلِيَّـة، وأسماء الله الحسنى وصفاته العُلَى، وقوله: كأنهما غمامتان أي سحابتان تُظِلاَّن صاحبهما عن حَرِّ الموقف عند دُنُوِّ الشمس من رؤوس الخلائق يوم القيامة. وقوله: أو كأنهما غيايتان أي كأنهما ظلتان فالغياية كل شيء أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابـة وغيرها. . وقوله: كأنهما فرقان أو كأنهما حِـزْقان هما بمعنى واحد ومعناهما قطيعان وجماعتـان، وقوله صَوافَّ هي جمع صَـافَّة وهي الطير التي تبسط أجنحتها في الهواء، وقـوله: تُحَاجَّانِ عـن أصحابهما أي تدافعـان النار والزبـانية عن وجـوه أصحابهما يـوم القيامـة وتَشْفَعَان لقُـرَّائهما بقوة وقـوله: سـوداوان أي كثيفتـان لا يَتَسَرَّبُ منهما شيء من حر الموقف، وقـولـه: بينهما شَرْق هـو بسكون الـراء ويجوز فتحها ومعنـاه الضَّـوْء. ولا خلاف عنـد أهل العلم أن سـورة البقرة كلَّهـا مدنية نـزلت على رسـول الله ﷺ بعد هجـرته إلى المدينة المنورة وقد افتُتِحتْ سورة البقرة بقـوله عز وجل ﴿الٓـمٓ﴾ وقد افتتح الله تبارك وتعـالى تسعا وعشرين سـورة بالحروف المفـرقة فـافتتح بقولـه عز وجل ﴿الٓـمٓ﴾ سورة البقـرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجـدة وبقوله عز وجل ﴿الٓـمٓصٓ﴾ الأعراف وبقـوله عز وجل ﴿الٓـر﴾ سُوَرَ يـونس وهود ويوسف وإبراهيم والحِجْـر وبقوله عز وجل: ﴿الٓـمٓـر﴾ الرعد وبقـوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ مـريم وبقولـه عز وجل ﴿طٰـه﴾ سورة طـه وبقولـه عز وجل ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء والقصص وبقوله عـز وجل ﴿طسٓ﴾ النمل وبقوله عز وجل ﴿يسٓ﴾ سورة يسٓ وبقـوله عز وجل ﴿صٓ﴾ سورة صٓ وبقـوله عز

وجل ﴿حمٓ﴾ سُوَر غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف وبقوله عز وجل ﴿حمٓ . عٓسٓقٓ﴾ الشورى، وبقوله عز وجل ﴿قٓ﴾ سورة قٓ وبقوله عز وجل ﴿نٓ﴾ سورة القلم ومجموع الحروف المفرقة المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعةَ عَشَرَ حرفا وهي ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن يجمعها قولك: نَصٌّ حكيم قاطعٌ له سرٌّ، وهي نصف حروف الهجاء عددا وقد اشتملت على أصناف أجناس الحروف من المهموسة والمجهورة ومن الرخوة والشديدة، ومن المُطْبَقَة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقة، وقد عُلِم قطعا أن رسول الله ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب على حد قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين﴾ فمجيء هذه الحروف في افتتاحيات هذه السور بهذه الصفة معجزةٌ ظاهرة لرسول الله ﷺ وبرهان قطعي على أنه من عند الله، ولذلك ذهب جماعة من محققي العلماء إلى أن المقصود من هذه الحروف هو الإعجاز والتحدي للعرب والعجم والإنس والجن كما أن مجيئها على حرف واحد كقوله ص ن ق وعلى حرفين كقوله: حم وعلى ثلاثة أحرف كقوله الم وعلى أربعة أحرف كقوله المر والمص وعلى خمسة أحرف كقوله كهيعص وحم. عسق يلفت انتباه ذوي العلم الذين يعلمون أن الكلام إنما يجيء على حرف أو حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة لا غير بأن هذا القرآن من عند الله لأنه مركب من نفس الحروف التي يتركب منها كلامهم وعلى الأساليب التي يعبرون بها، ومع ذلك فقد تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله، وبين الله عز وجل عجزهم حيث يقول: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هٰذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وعلى مدى ثلاث وعشرين سنـة التي نزل فيها القرآن وإلى اليوم لم يظهر على وجـه الأرض مَنْ يَدَّعِي أنه يقـدر على أن يعارض هذا التحدي مهما ارتفعت معـارفهم وتقدمت مـدارسهم، ومما يؤيـد أن المقصود من ذكر هذه الحروف المفـرقة في أوائل السور هو الإعجـاز والتحدي وإثباتُ أنه من عند الله تبـارك وتعالى أن الله يذكر عَقِبَ هـذه الحروف في افتتاحيات السـور القرآن صراحـةً أو ضمناً ثم يـذكـر اختلاف النـاس بين مؤمنٍ بـه أو مُكَـذِّبٍ له وأن المُؤمنين يحصل لهم عـز الـدنيا وسعـادة الآخرة وأن المكـذبين يرجعون بخزي الـدنيا وعذاب الآخرة، ثم يختم السورة بمثل ما بـدأها به من مدح القـرآن والمؤمنين به وذم المكـذبين وبيان سوء عـاقبتهم. كقولـه تعالى: ﴿الـمَ. ذٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾. وكقوله تعالى: ﴿المٓ * الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبلُ هدًى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديـد والله عزيز ذو انتقام﴾ وقال: ﴿المص * كتابٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منـه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ وقال: ﴿الرَ تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وقال عز وجل: ﴿الرَ * كتاب أحكمت آيـاته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير﴾ الخ هذه الافتتاحيـات الكريمة.

وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك الكتاب﴾ أي هـذا الكتاب العالي المنزلـة الرفيع الدرجة الكـاملُ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، فالإشارة بقـوله ﴿ذٰلك﴾ لعلـو منـزلتـه ورفيع درجته وأل في ﴿الكتـاب﴾ للكمال كما تقـول: زيد الـرجل أي الكـامل في الـرجوليـة، و﴿الكتـاب﴾ هو القـرآن، والقرآن هـو كلام الله تعالى المنزلُ على رسـوله محمد ﷺ بواسطـة جبريل عليه السلام المنقول إلينا تواترا المعجزُ بأقصر سـورة منه المتَعَبَّدُ بتلاوته. وهو حجة الله البالغـة ومعجزته الباقيـة لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثـرة الرد، كلما

تكرر زادت حلاوته، أنزله الله تبارك وتعالى تبيانا لكل شيء، من حكم به عدل، ومن استمسك به فقد هُدِي إلى الصراط المستقيم. وقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتطرق الرَّيْبُ إلى معانيه أو مبانيه، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وبعض القراء يقف على قوله: ﴿لا ريب﴾ ويبتدئ بعد الوقف بقوله: فيه هدى للمتقين. وبعض القراء يقف على قوله: ﴿فيه﴾ ثم يبتدىء بقوله: ﴿هدى للمتقين﴾ والقاعدة عند القراء هنا أن من وقف على أحدهما لا يجوز له الوقف على الآخر والوقف على قوله: ﴿لا ريب فيه﴾ أولى لقوله عز وجل في أول سورة السجدة: ﴿الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ ولا شك أن كون القرآن هدًى أولى من كونه فيه هدى، والهُدَى النور والإرشاد والبيان والدلالة والدعوة والتنبيه والاهتداء ونقيض الضلال، كما يطلق الهُدَى على توفيق الله تعالى للعبد وتأييده وتسديده وعونه، واستعماله في طاعته، وحفظه من الشيطان، ودفع الشر عنه، حتى يصل به إلى جنات النعيم، والهدى الذي بهذا المعنى من التوفيق والتأييد تَفَرَّد الله عز وجل به فلا يقدر عليه ملَكٌ مقرب ولا نبي مرسل، وفي ذلك يقول الله عز وجل لخاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولَكنَّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ ويقول رسول الله ﷺ في خطبته في حديث ضماد الذي أخرجه مسلم في صحيحه: من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، والله تعالى يهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً وله الحكمة التامة والحجة البالغة، أما الهُدَى الذي معناه البيان والدلالة والإرشاد والدعوة والتنبيه إلى الخير فهو وظيفة الرسل والدعاة إلى الله على بصيرة من أتباع المرسلين وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ ويقول عز وجل: ﴿ولكل قوم هاد﴾ ومنه قوله

عز وجل: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بينا لهم طريق الخير ليسلكوه وطريق الضلالة والكفر ليجتنبوه فاختاروا طريق الكفر وتركوا طريق الإيمان. والمراد بالمتقين في قوله عز وجل: ﴿هدى للمتقين﴾ هم الذين يخافون عذاب الله ويرجون رحمته ويحرصون على طاعته. وقد وصفهم الله تبارك وتعالى في هذا المقام بقوله عز وجل: ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزلَ إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾ وأصل التقوى في اللغة العربية التَوَقي مما يكره مأخوذة من الوقاية قال النابغة:

سقط النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْـهُ واتَّقَتْنَـا بِالْيَـدِ

وإنما خصَّ الله تبارك وتعالى المتقينَ بهدَى القرآن لأنهم هم الذين يحرصون على الانتفاع به، والوقوف عند حدوده وتحليل حلاله وتحريم حرامه، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقْرٌ وهو عليهم عمًى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونُنَزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خَسَارًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدًى ورحمةٌ للمؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى إنما يتذكر أوْلوا الألباب﴾. وقد قَسَّم الله تبارك وتعالى الناس في هذا المقام إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول هم المتقون، والقسم الثاني هم الكافرون والقسم الثالث هم المنافقون. والواقع أن جميع الناس الذين بلغوا حدَّ التكليف لا يخرجون عن هذه الأقسام الثلاثة، وقد تحدث عن المتقين في ثلاث آيات من الآية الثالثة إلى الآية الخامسة وتحدث عن الكافرين المصرحين بكفرهم في آيتين من الآية

السادسة إلى الآية السابعة وتحدث عن المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر في ثلاث عشرة آية من الآية الثامنة إلى الآية العشرين. وقد وصف الله تبارك وتعالى المتقين هنا مع وصف التقوى بخمس صفات ثم حكم بأنهم على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون وقد بدأ الله عز وجل هذه الصفات الخمس بأنهم يؤمنون بالغيب، ولا شك أن الإيمان بالغيب هو أهم صفات المؤمنين المتقين، كما أن الكفر بالغيب هو أبرز صفات الكافرين ولا سيما الملاحدة والدهريين، ولذلك كان من أخص صفات الشيوعيين؛ أنهم لا يؤمنون إلا بالمادة، ففي صدر تعاليمهم الشِّرِّيرَة: لا إله والكون مادة. والمراد بالغيب الذي يسعد المؤمنون به هو الإيمان بالله وملائكته والقَدَرِ خيره وشرِّه، حُلْوِهِ ومُرِّه من الله عز وجل وجميع ما أخبر الله عز وجل به أو أخبر به رسوله ﷺ من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وسائر ما جاء عن الله أو صح عن رسوله ﷺ من أمور الغيب التي لا يشاهدونها عندما يجيئهم الخبر بها عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ. أما الصفة الثانية من صفات المتقين فهي إقامة الصلاة أي الإتيان بها مجودة بشروطها وأركانها في أوقاتها ابتغاء وجه الله عز وجل، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة فقد روى الترمذي بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أول ما يُحَاسَبُ به العبد يوم القيامة من عمله صلاتُهُ فإن صلحت فقد أفلح وأَنْجَحَ، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخَسِرَ، فإن انْتُقِصَ من فريضته شيء قال الربُّ عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع فَيُكَمِّلُ بها ما انْتُقِصَ من الفريضة، ثم تكون سائر أعماله على هذا كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة. كما روى الترمذي بسند حسن صحيح عن النبي ﷺ قال: العهد

الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر. أما الصفة الثالثة من صفات المتقين فهي أنهم يـؤدون زكاة أموالهم ومـا يلزمهـم من النفقات، أمـا الصفة الرابعـة من صفات المتقين فهي الإيمان بما أنـزل الله من كتاب سـواء عُلِمَ لهم كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور أو لم يعلم لهم، وهذا يقتضي الإيمان برسل الله، والإيمان بكتب الله ورسلـه من أركان الإيمان. أمـا الصفة الخامسـة من صفات المتقين فهي الإيمان بالآخرة، يعني التصديق بيوم القيامة وإنما سميت الآخـرة لأنها بعـد الأولى أي الـدنيا وهـو يقتضي الإيمان بـالبعث بعـد الموت وبـالحساب والعـرض على الله عز وجل والميـزان والصراط، والجنة للسعـداء والنار لـلأشقياء، وهـذا كله وإن كان داخـلاً في الإيمان بالغيب إلا أنـه يُعَدُّ ركناً مستقـلاً من أركان الإيمان، وقد كفـر به المشركـون أشد الكفر وعـارضوه أشد المعـارضة ولذلك كانت السـور المكية تدور في فلك حقـائق ثلاث وهي الإيمان بـالله والإيمان بالـرسالـة والإيمان بالبعث بعـد الموت، تقيم على ذلك الحجج وتسوق البراهين، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيَّ عن بينة.

وقـوله عـز وجل: ﴿أولٓئك على هـدى من ربهم وأولٓئك هم المفلحـون﴾ أي هٓؤلاء العظماءُ المتصفون بهذه الصفات الخمـس على هدى أي على نور وبيان وبصيرة وبرهان من الله عز وجل وأولٓئك هم الفـائزون الناجون الناجحون في الدنيـا والآخرة، والإشـارة بأولٓئك لعلو منـزلتهم ورفيع درجاتهم عنـد الله عز وجل، والتعبير بعَلَى في قـولـه عز وجـل: على هدى من ربهم للـدلالـة على تمكنهم في الهُدَى وبُعْـدِهـم عن كل ضـلالـة وانحـراف، إذ سلك الله بهم صراطه المستقيم، وهداهم إلى الدين القويم. والحمدلله رب العالمين.

قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذِرْهم لا يؤمنون * خَتمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشَاوةٌ ولهم عذابٌ عظيم﴾ .

بعد أن وصف الله تعالى القسم الأول من أقسام المكلفين وهم المتقون بخمس صفات ذكر هنا في هاتين الآيتين الكريمتين حال القسم الثاني من الناس وهم الكافرون المصرِّحون بكفرهم من المشركين واليهود والنصارى والملاحدة والدهريين وسائر من أنكر ما عُلِمَ من دين الإسلام بالضرورة، وهاتان الآيتان الكريمتان، في صنف خاص من الكفار وهم من عَلِمَ الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر وأنهم لن تتسرب أنوار الإيمان إلى قلوبهم، ولن يصل إليها شعاع من الهدى، بسبب انسياقهم وراء الشيطان، وقد أراد الله عز وجل أن يريحَ رسول الله ﷺ مما كان يعانيه بسبب شدة حرصه ﷺ على هداية الناس حتى كاد يبخع نفسه كما قال عز وجل في سورة الكهف : ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ . وكما قال في سورة الشعراء : ﴿لعلك باخع نفسك ألاَّ يكونوا مؤمنين﴾ فبين الله عز وجل له أن من كتب الله عليه الشقاوة فلا يُسْعده أحد ومن أضله الله بسبب انحرافه وزيغه فلن يهديه أحد، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تحزن بسبب استمرارهم على الكفر والعناد فإنما عليك البلاغ كما قال عز وجل : ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ . وكما قال عز وجل في سورة الغاشية : ﴿لستَ عليهم بمُصَيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ . وكما قال عز وجل في سورة الشورى : ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظًا إن عليك إلا البلاغ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ . أي إن من علم الله أنه

يموت على الكفر وكتب ذلك عليه يستوي عنده إنذارك وعدم إنذارك فلن يصل إلى قلوبهم نور الهداية ؛ لأن عليها أقْفَالَهَا . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي طبع الله على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان وطبع على سمعهم فلا يستمعون إلى الحق ولا ينتفعون بما يسمعون من الإنذار، ومعنى قوله تعالى : ﴿وعلى أبصارهم غِشاوةٌ﴾ أي وعلى عيونهم غِطاءٌ يُغَطِّيها عن مشاهدة آيات الله الكونية المنصوبة في الآفاق وفي الأنفس، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ . أي وللكافرين عذاب مُهين مؤلم كبير خطير لا يدور في الخيال ولا يخطر على البال وأصل الكفر الجحود والإنكار ومعاندة الحق فمن أنكر الله ولم يعترف به فهو كافر، ومن عرف الله بقلبه لكنه بارز الله بالعداوة وجحد حقه فهو كافر كإبليس واليهود فهم عرفوا الحق وكفروا به كما قال تعالي : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ . وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه لكنه لا يدين بدين الإسلام كأبي طالب حيث يقول :

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دِيناً
لولا الملامةُ أو حَذَارِي سُبَّةً ... لوجدتني سمحا بذاك مُبيناً

والإنذار إعلام مع تخويف وتحذير، والقلب في الأصل هو قطعة اللحم الصنوبريةُ الشكل الموضوعةُ في تجويف الصدر مع ميل قليل إلى اليسار غالباً، كما يطلق القلب على اللطيفة الربانية التي تقوم بالقلب اللحمي الصنوبري الشكل فبها يحصل منه الإدراك وترتسم فيه العلوم والمعارف، وإذا أطلق القلب في لسان الشرع فالمراد به اللطيفة الربانية وهي محل القوة العاقلة من الفؤاد وهى كالحرارة القائمة بالفحم عند اشتعال النار فيه ؛ لأن القلب اللحمي موجود في البهائم الأليفة والوحشية، فإذا استعمل الله تعالى العبد في طاعته استنارت بصيرة قلبه، وإذا خذله عميت بصيرته كما قال عز وجل :

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولَكن تَعْمَى القلوبُ التي في الصـدور﴾ . وقد أشار الله عز وجل إلى سبب الطبع والختم على قلوب الكـافرين حيث يقول : ﴿بل طبع الله عليها بكفـرهم فلا يـؤمنون إلا قليلاً﴾ . كما أشـار رسول الله ﷺ إلى سبب الختم على القلوب بأن الـذنوب إذا تتابعت على القلـوب أغلقتها حتى يختم عليها فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَـةٌ سوداءُ وأيُّ قلب أنكرهـا نُكِتَ فيه نُكْتـةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفـا فـلا تضره فتنة مـا دامت السمـوات والأرض والآخر أسود مُـرْبَادّاً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معـــروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه . كما روى الترمذي بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : «إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نُكْتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب صُقِلَ قَلْبُه وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فـذلك الران الذي قال الله تعـالى : ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كـانوا يكسبون﴾ . والسمع يطلق ويـراد به الأذن كما يـراد به مـا أودعه الله في الأذن من لطيفة تفرق بها بين ما تسمعـه من خير أو شر وهو المراد هنا فإذا ختم الله على القلب لا يفقه ولا يعقل كما قال عز وجل : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ وإذا ختم على السمع فإنـه لا يصله صـوت الحق ، والأبصار جمع بَصَر وهـو حِسُّ العين والمراد هنـا مـا أودع الله تعـالى في العين من لطيفـة تفـرق بها بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل ، وتكرير كلمة ﴿على﴾ في قوله تعالى : ﴿ختم الله على قلـوبهم وعلى سمعهـم﴾ للـدلالـة على أن ختـم القلب غير ختم السمع ، وإن لكل واحـد من القلب والسمع خَتْمَـهُ على حـدة . والمراد بالغِشاوة غطاء التعامي عن آيـات الله الكونية المبثوثة في السموات والأرض ، وإنما جمع القلوب والأبصار ووحَّد السمع ؛ لأن القلوب والأبصار تدرك أشياء

متعددة بخلاف المسموع فهو شيء واحد وهو الصوت، هذا وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ إشعار ظاهر بفساد مذهب المعتزلة القائلين بأ ن العبد يخلق أفعال نفسه، وهو مذهب فاسد كاسد؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو شاء ربك ما فَعَلُوه فذرهم وما يفترون﴾ في آيات كثيرة تؤكد أن الله يهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً. وكما قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان. فالله تبارك وتعالى ختم على قلوب الكفار وسمعهم وغطَّى أبصارهم جزاء وفاقاً لما اقترفوه وليس ذلك جبراً كما يقول الجبرية الجهمية بل بطريق الترتيب على ما اقترفوه من القبائح، ولا يظلم ربك أحداً، ولذلك قال في سورة الجاثية: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾. وقال في سورة النحل: ﴿ذُلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين* أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾ وقد خص الله تبارك وتعالى هذه الأعضاء الثلاثة أعني القلب والسمع والبصر لأنها طرق المعرفة والعلم فالقلب محل العلم، وطر يقه إما سماع الأذن أو رؤية العين. ولذلك وصَّى الله تبارك وتعالى بالمحافظة على السمع والبصر والفؤاد مُنبِّهًا عباده إلى أنهم

مسئولـون عنها حيث يقـول عز وجل في سـورة الإسراء : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولَٰئك كان عنه مسئولاً﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أهم أسباب صيانة القلب واستنارة بصيرته وهو الحرصُ على الطعام الطيب والابتعـادُ عن تناول المحـرمات حيث يقـول فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديـث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قـال : سمعت رســول الله ﷺ يقــول : «إن الحلال بَيِّنٌ ، وإن الحرام بَيِّنٌ وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضِـه ، ومَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام كـالراعي يَـرْعَى حول الحمى يُوشِك أن يرتع فيـه ، أَلاَ وإن لكل مَلِكٍ حِمًى ، ألا وإن حمَى الله محارمهُ ، ألا وإن في الجسـد مضغـة إذا صلَحت صلَح الجسـد كلُّه ، وإذا فسـدت فَسَـدَ الجسدُ كلُّـه ، ألا وهي القلب» اهـ. وفي هاتين الآيتين الكـريمتين صُورةٌ من صور الإعجاز القـرآني بالتنبيه على خصائص بعض الجوارح ، ومـا رُكِّب فيها من الآيات الباهـرات الشـاهدة على أنه تنزيل من حكيم حميد .

قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين* يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون* وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾

بعد أن بَيَّن الله تبارك وتعالى حَالَ المؤمنين المصدقين بالإسلام باطناً، المنقادين له ظاهراً، المتفقة سريرتُهم مع علانيتهم، وحالَ الكافرين المكذبين بالقرآن سراً وعَلَناً شرع يشرح أحوال المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ولما كانوا أشد خطراً على الإسلام والمسلمين، وأقدر على بث الفرقة بينهم، لاندساسهم في صفوف المسلمين، ومعرفة مخارجهم ومداخلهم لذلك تحدث الله تبارك وتعالى عنهم هنا في ثلاث عشرة آية فضح فيها نواياهم، ونبه المسلمين إلى معرفة أحوالهم وأقوالهم، حتى يحترزوا منهم ولا يغتروا بهم، فقال عز وجل: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ أي وبعض الناس يتلفظ بدعوى الإيمان والتصديق بالله جل جلاله وبالإقرار بالبعث بعد الموت وواقع حال قلوبهم يناقض ذلك فهم لم يصل نورُ الإيمان إلى قلوبهم، وإنما قالوا ذلك نفاقاً، ورغبةً في المشاركة فيما يصيب المسلمين من عز ورهبةً من سيوف المسلمين لا سيما بعد غزوة بدر الكبرى وإعزاز الله لدينه وأوليائه، وأصل النفاق في لغة العرب يعود إلى الرَّواج من قولهم: نَفَقَ البيع نَفاقًا أي راج والنِّفاق فعل المنافق، ولذلك قيل لإحدى جِحَرَةِ اليَرْبوع نافقاء لأنه يكتمها ويظهر غيرها فإذا أُتي من جهة القاصعاء ضَرَبَ النافقاءَ برأسه فانتفق وخرج، والقاصعاءُ هي جُحْر اليربوع

الذي يدخلـه ، ولم يكن بين المهاجرين منافق قط لأنهم لم يُكْـرَهُوا على الهجرة بل تركـوا أموالهم وأرضهم وأهلهم فـراراً إلى الله بدينهم ، وكـان عبدالله بن أُبَي ابن سلول رأس المنافقين قـد رأى أنه لا قبَلَ له بحرب الإسلام عـلانية فأظهر الـدخـول في الإسـلام وأبطن الكفـر وانضـم لـه طـوائف من المشركين وأهل الكتاب في المدينة وممن حولها من الأعراب ، وقـد ذكر الله تبارك وتعالى أحوال المنـافقين في مواضع كثيرة مـن القرآن الكـريم فـذكرهـم في سورة البقـرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة والعنكبوت والأحزاب والقتال والفتح والحديد والمجادلـة والحشر والمنافقين بـل عامة السُّـور المدنية لا تكـاد تخلو مـن بيان أحـوالهم ليحذرهم المؤمنـون ، وقد حكم الله عـز وجل عليهم بأن يكونـوا في الدرك الأسفل من النار حيث يقول في سورة النساء : ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾ وفي كل مقام من مقامات التحذير من المنافقين يبين الله عـز وجل بعض صفاتهم ، ففي هـذا المقام من سـورة البقرة بيَّن أحـوالهم الظاهـرة والبـاطنة ومـا هم عليـه من الكذب والخِداع ومـرض قلـوبهم وحـرصهم على الفسـاد في الأرض مع دعـوى الإصـلاح الكـاذبـة ، وجهلهم وسفاهتهـم ، وانقيادهـم لشياطين الإنـس والجن ، والاستهزاء وأنهم اشتروا الضلالـة بالهدى ثـم ضرب لهم مثلا ناريـاً ومثلا مـائياً يقـرران تَخَبُّطَ المنـافقين وتَنَـاقُضَهم ، وقولـه عـز وجل : ﴿يخادعـون الله والذين آمنـوا ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومـا يشعرون﴾ في هذه الآيـة الكريمة بيـان جَلِيٌّ لما عليه المنافقون من جهلهـم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بـأسمائه الحسنى وصفاته العلى إذ يظنـون بالله ظن السـوء ويحسبون أنـه تجوز عليه حيلهم وأنـه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسـلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك وأنهم ينجون مـن عذابه إذا نطقـوا بالشهـادتين وإن خالف ذلك سريـرتَهم وطَوِيَّتَهُمْ وأنهم يحسبـون أنه يَـرُوجُ على الله كما قد يـروج على بعض

المؤمنين والـواقع أن خداعهم إنما يـرجع وَبَالُـه عليهم وحدهم وأن الله تعـالى يدفع عن المؤمنين مكرهم وشرهم، ويدرأ في نحورهم، ولذلك قال عز وجل في سورة النسـاء: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهـو خادعهم﴾ وقـد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالأيمان الكـاذبة الفـاجرة كما كـانوا يفعلـون ذلك مع المؤمنين في الدنيـا حيث كانـوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقـون بالإسلام وأنهم يشهدون أن محمـداً رسـول الله واتخذوا أيمانهم جُنَّة وفي ذلك يقـول الله عـز وجل: ﴿يـوم يبعثهم الله جميعـا فيحلفـون له كما يحلفـون لكم ويحسبـون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون﴾ والخِداع أن يوهم الإنسان صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيـه من حيث لا يشعر، أو يُوهمه المساعدة على ما يـريد هو به ليغتر بذلك، وفي قـوله عز وجل: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهـم وما يشعرون﴾ أي ومـا يَغُـرُّون بخـداعهم هـذا إلا أنفسهم ولا يعـود وَبَـالُ ذلك إلا عليهم وحدهم دون المؤمنين وهم مع ذلك لا يشعرون ولا يدرون أن سوء صنيعهم لا يعود إلا عليهم، والآية مُسْتَأنفة استئنافـاً بيانياً حيث وقعت في جواب سؤال مُقدَّر نشأ عـن الآية السابقـة كأن سائلاً سأل: لماذا قـالوا آمنـا بالله وبـاليوم الآخـر ومـا هم بمـؤمنين، فكان الجواب: يخادعـون الله والـذين آمنـوا ومـا يخدعون إلا أنفسهم ومـا يشعرون. وقد أشار الله تبارك وتعـالى إلى مشهد من مشاهـد القيامة يُنَبِّـه فيه المؤمنون المنـافقين على ما خادعـوا به المؤمنين حيث يقول عز وجل في سورة الحديد: ﴿يوم يقول المنـافقون والمنافقات للذين آمنوا انْظُـرُونا نَقْتَبِسْ من نـوركم قيل ارجعـوا وراءكم فـالتمسوا نـورا فَضُرِبَ بينهم بِسُور له بـاب باطنه فيه الـرحمة وظاهره من قبله العـذابُ * ينادونهم ألم نكن معكم؟ قالـوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغـرتكم الأمانيُّ حتى جاء أمـر الله وغركم بالله الغَرورُ * فـاليوم لا يؤخذ منكم فـدية ولا من

الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير﴾ وقوله عز وجل: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يَكذبون﴾ أي في قلوب المنافقين شك وَرَيْبٌ ورِجْسٌ فَخَذَلَهُمْ الله عز وجل فامتلأت قلوبهم مرضا وشكاً وَرَيْباً ورجساً وقد أُعِدَّ لهم عذابٌ أليم مُوجِعٌ بسبب تكذيبهم بالدين وكَذبهم في دعواهم أنهم مؤمنون وما هم بمؤمنين، وأصل المرض هو ما يعرض للبَدَن فيخرجه عن حد الاعتدال ويصيبه بالخلل قال في القاموس المحيط: المرض إظلامُ الطبيعة واضطرابُها بعد صفائها واعتدالِهَا اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: والمرض: السُّقْمُ نقيض الصحة. ثم قال: والمرض في القلب يَصْلُحُ لكل ما خرج به الإنسان عن الصحة في الدين، ويقال: قلب مريض من العداوة وهو النفاق اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المؤمنين يزدادون إيماناً بسماع القرآن، وأن المنافقين يزدادون رجساً بسماعه حيث يقول عز وجل في خواتيم المسك من سورة التوبة: ﴿وإذا ما أُنْزِلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هٰذه إيمانا؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾. وقوله عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون* ألا إنهم هم المفسدون ولَكن لا يشعرون﴾ أي وإذا نصح هؤلاء المنافقين ناصح بأن يتركوا ما هم عليه من الأخلاق الشريرة والأفعال الرذيلة والكيد للمسلمين، وبث الفُرقة والصد عن سبيل الله وموالاة أعداء الله، وغير ذلك من أنواع الفساد في الأرض أجابوا الناصحين بأننا مصلحون، فهم يرون أن الكفر بالله والصدَّ عن سبيله، وتكذيب المرسلين، وموالاة أعداء الله وبثَّ الفرقة بين المسلمين، وإشاعة الرذيلة يحسبون أن ذلك إصلاح في الأرض لا إفساد فيها حيث انقلبت عليهم الموازين واعتقدوا الحقَّ باطلاً والباطلَ حقا، بل حصروا

الصلاح في أعمالهم الفاسدة وسلوكهم المَعْوَجّ فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بأن عملهم هو الفساد في الأرض وأنهم محصورون في دائرة هذا الفساد لأن من عَمِل على نقض موازين العدل التي تستقيم بها البلاد والعباد، كان غارقاً في بحار الفساد وقد وسمهم الله عز وجل مرةً أخرى بأنهم لا يدرون ولا يشعرون أنهم تائهون في مهامه الضلال فقد زيَّن لهم الشيطان أعمالهم فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً على حد قوله عز وجل: ﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا﴾ وعلى حد قول الشاعر:

يُقْضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

فالقبيح عند المنافقين حسن والحسن عندهم قبيح بسبب انقلاب فطرتهم، وانحراف قلوبهم عن صراط الله المستقيم، ومنهجه القويم، فهذه صورة من صور قبائح المنافقين، وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاءُ ألا إنهم هم السفهاءُ ولكن لا يعلمون﴾ وهذه صورة أخرى من صور قبائح المنافقين، وبيانٌ لِمَا هُمْ عليه من انقلاب الفطرة وفساد السلوك، والتكبر في الأرض بغير الحق، فكانوا إذا دعاهم داع إلى الإيمان بالله ورسوله وقال لهم: صَدِّقوا بمحمد رسول الله ﷺ وشرعه كما صدَّق به المهاجرون والأنصار قالوا: أنصدق بما صدَّق به أهل الجهل الذين لا عقول لهم ولا أفهام، ولفظ الناس هنا عام أريد به الخصوص على مثل قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾، والسفيه هو الجاهل الضعيفُ الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولا شك أن المنافقين قالوا هذه المقالة فيما بينهم فأعلم الله تعالى رسوله ﷺ بمقالتهم، إذ لو قالوها مجاهرة أمام المؤمنين لخرجوا عن حيز النفاق وانضموا إلى الكفار المصرحين بكفرهم، وقد تولى الله تبارك وتعالى جوابهم فقال: ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ فأكد حصر السفاهة في المنافقين، وبين سبب وصفهم

للمؤمنين بهذا الوصف وهو أن المنافقين لا يعلمون، فَهُمْ من تمام جهلهم لا يعلمون بحال أنفسهم في الضلالة والجهل، وما غُلِّفَتْ به قلوبهم من العَمَى والبعـدِ عن الهدى، ومناسبـةُ هـذه الآيـة لما قبلها هي أن المؤمنين لما نصحـوا المنافقين بترك الإفسـاد في الأرض وهو عبـارة عن التخلي عن الرذائل أمـروهم بالإيمان وهو عبارة عن التحلي بالفضائل، والتخلية مُقَدَّمَةٌ على التحلية.

قال تعالى: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزءون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولَئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾

وهذه صورة أخرى من صور أفعال المنافقين القبيحة وهي أنهم يلقون المؤمنين بوجه ويلقون شياطينهم بوجه آخر، فهم إذا كانوا بحضرة المؤمنين أظهروا الإسلام وادعوا الإيمان وإذا انْفَرَدُوا بشياطينهم قالوا: إنا على مذهبكم في الكفر بمحمد ودينه، وما تَلَفَّظْنَا به من دعوى الإيمان بمحمد ودينه هو استهزاء وسخرية من محمد وأصحابه، وكانوا بهذا شَرَّ الناس، فقد أخبر الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى حبيبُ الله ورسولُه وسيد خلقه محمدٌ ﷺ أن شر الناس ذو الوجهين الذي يلقى هؤلاء بوجه ويلقى هؤلاء بوجه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تَجِدُون شرَّ الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وقوله عز وجل ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ أي انفردوا معهم يقال: خلوتُ إلى فُلان أي انفردت معه وقد يستعمل بالباء فيقال خَلوتُ به، واللفظ القرآني هو أفصح اللغة وأعلاها، والشياطين جمع شيطان وهو المتمرد من الإنس والجن والدواب ولذلك أثر أن عمر رضي الله عنه ركب على بِرذون فتبختر به فقال: لقد حملتموني على شيطان حتى أنكرت نفسي، وقد ذكر الله عز وجل أن في الإنس شياطين وفي الجن شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً حيث يقول في سورة الأنعام: ﴿وكذٰلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوا شياطين الإنس والجنِّ يُوحي بعضهم إلى بعض زخرفَ القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون *

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ واشتقاق الشيطان من شَطَنَ إذا بَعُد؛ لأن الشيطان بعيد عن كل خير كما تدور مادة الشيطان على الخبث.

قال الشاعر:

نأت بسعاد عنك نَوَى شَطُونُ فبانت والفؤاد بها رهين

أي بعدت بها طريق بعيدة. ويقال: بئر شَطُون إذا كانت بعيدة القعر، قال في القاموس المحيط: ونِيَّةٌ شَطُونٌ أي بعيدة، والشاطن الخبيث والشيطان م وكل عات متمردٍ من إنس أو جن أو دابة اهـ وقيل: بل اشتقاق الشيطان من شاط بمعنى احترق لأن مصيره إلى النار وقد أنكر ذلك سيبويه وقال: العربُ تقول تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشياطين ولو كان من شاط لقالوا: تَشَيَّط اهـ وقد روى مسلم من طريق عبدالله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه مِثْلُ آخرة الرَّحْل، فإنه يقطع صلاتَه الحمارُ والمرأة والكلبُ الأسودُ. قلت: يا أبا ذر ما بالُ الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر؟ قال: يا ابن أخي سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتني فقال: الكلبُ الأسود شيطان اهـ ومعنى قوله: ﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ أي قالوا لشياطينهم ومن يتعاونون معهم على حرب دين الله ورسوله ﷺ: إنا معكم على دينكم، وظُهَرَاؤُكُم على من خالفكم، وأولياؤكم ضد محمد ودينه، إنما ما نتلفظ به عند محمد وصحبه هو استهزاء بالله وبكتابه ورسوله وأصحابه وسخرية منهم أما قوله عز وجل: ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي الله يجازيهم بعذاب يَحُسُّون به أنه من جنس عملهم فكما ضحكوا من المؤمنين وكانوا إذا مروا بهم يتغامزون سخرية واستهزاء فإن الله عز وجل يجعل المؤمنين يوم القيامة يضحكون من الكفار والمنافقين كما قال عز وجل: ﴿إن الذين

أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فَكِهِين * وإذا رأوهم قالوا: إن هؤلاء لضالون * وما أُرْسِلوا عليهم حافظين * فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون * هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون﴾ فقد جازاهم الله من جنس عملهم قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الاستهزاءُ والمكرُ بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم، وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حَسَناً، قال الله تعالى: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم إنما نحن مستهزئون.الله يستهزىء بهم﴾ فإن الجزاء من جنس العمل اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويَمُدُّهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي يَزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عُتوِّهم وتَمَرُّدهم كما فعل بنظرائهم في قوله عز وجل: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعنى نذرهم ونتركهم فيه ونملى لهم ليزدادوا إثماً إلى إثمهم وضلالاً فوق ضلالهم وعُتُواً على عُتُوهم. والطغيان مجاوزةُ الحد والغُلُوُّ في الكفر والإسراف في المعاصي والظلم. ومعنى ﴿يعمهون﴾ أي يتيهون في الضلالة ويتحيرون ويترددون ولا يهتدون سبيلاً.

قال في القاموس المحيط: العَمَهُ محركة التردد في الضلال والتَّحَيُّرُ في منازعة أو طريق أو أن لا يعرف الحُجَّةَ اهـ وقال الجوهري في الصحاح: العَمَهُ التحير والتردد وقد عَمِهَ بالكسر فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ والجمع عُمَّهٌ قال رؤبة:

وَمَهْمَهٍ أَطْرَافُهُ في مَهْمَهِ ... أَعْمَى الهُدَى بالجاهلين العُمَّهِ

وأرض عَمْهَاءُ: لا أَعْلَامَ بها، وذهبتْ إبلُهُ العُمَّهَى إذا لم يدر أين ذهبت اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأثير: العَمَهُ في البصيرة كالْعَمَى في البصر اهـ وقوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين اشْتَرَوُا

الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ الإشارة بقوله: ﴿أولئك﴾ للمنافقين الذين عدد صفاتهم القبيحة وأخلاقهم الشِّرِّيرة الذين وصفهم الله عز وجل بإظهار الكذب بألسنتهم بدعواهم التصديق بالإسلام وبما جاء به رسول الله ﷺ خِداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين عند أنفسهم، والاستهزاء بالمؤمنين. ومعنى ﴿اشتروا الضلالة بالهدى﴾ قال ابن جرير في تفسيره: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كفرا باكتسابه الكفر الذي وُجِدَ منه بدلاً من الإيمان الذي أُمِرَ به، أو ما تسمع الله جل ثناؤه يقول فيمن اكتسب كفرا به مكان الإيمان به وبرسوله. ﴿وَمَن يتبدَّلِ الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ وذلك هو معنى الشراء، لأن كل مُشْتَرٍ شيئاً فإما أن يستبدل مكان الذي يؤخذ منه من البَدَل آخر بدلاً منه، فكذلك المنافق والكافر استبدلا بالهدى الضلالة والنفاق، فأضلهما الله، وسلبهما نور الهدى فتَرَكَ جميعهم في ظلمات لا يبصرون وقوله تعالى: ﴿فما ربحت تجارتهم﴾ قال ابن جرير: وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا، لأن الرابح من التجار المُسْتَبْدِلُ من سلعته المملوكة عليه بَدَلاً هو أَنْفَسُ من سلعته أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به، فأما المستبدلُ من سلعته بدلاً دُونَهَا ودون الثمن الذي يبتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك، فكذلك الكافِرُ والمنافقُ لأنهما اختارا الحَيْرَةَ والعَمَى على الرشاد والهُدَى، والخَوفَ والرُّعْبَ على الحفظ والأَمْنِ، فاستبدلا في العاجل بالرشاد الحَيْرَةَ، وبالهدى الضلالَةَ، وبالحفظ الخوفَ، وبالأمن الرُّعْبَ، مع ما قد أُعِدَّ لهما في الآجل من أليم العقاب وشديد العذاب، فخابا وخَسِرَا، ذلك هو الخسران المبين. اهـ ولما كان الرابح أو الخاسر هو الشخص لا التجارةُ كان أصلُ الكلام: فما رَبِحُوا في تجارتهم لا فيما اشتَرَوْا ولا فيما باعوا، لكن العربَ قد استعملوا هذا الأسلوب الفصيح

حيث قـالوا: ربح بيعـه، ونام ليله، وخَسِر سعيُـه ولذلك جـاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبـو طلحة أكثـر الأنصار بـالمدينة مـالاً وكان أحبُّ أمـواله إليـه بيرحاء وكـانت مستقبلة المسجـد، وكان النبـي ﷺ يدخلهـا ويشرب من ماء فيهـا طيب، قال أنس: فلما نزلت ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقـوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحبَّ أموالي إليّ بيرحاء وإنها صدقةٌ لله أرجو بِـرَّها وَذُخْرَها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقـال النبي ﷺ: بخ بخ ذاك مـال رابح ذاك مال رابح الحديث وقال رؤبة بن العجاج:

حَارِثُ قد فَرَّجْـتَ عني هَمِّـي فَنـام ليلـي وتَجَـلَّى غَمِّي

وقولـه تعالى: ﴿وما كـانوا مهتدين﴾ أي ومـا كانوا راشـدين في اختيارهم الضلالـة على الهدى والكفر بَـدَلَ الإيمان، ولا شك أن التجارة الـرابحة هي المنجية مـن العذاب الأليم الجالبـة لسعادة الـدنيا والآخـرة وقد بينهـا الله عز وجل في قولـه تعالى: ﴿يا أيها الـذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عـذاب أليم * تـؤمنـون بـالله ورسـولـه وتجاهـدون في سبيل الله بأمـوالكم وأنفسكم ذٰلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكـم ويُدخلْكم جنـات تجري من تحتهـا الأنهار ومسـاكن طيبة في جنـات عـدن ذٰلك الفـوز العظيم * وأخـرى تحبـونها نصر من الله وفتح قـريب وبشر المؤمنين﴾ وكما أخرج مسلم من حـديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ الناس يغدو فبايع نفسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا».

قال تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون. أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾.

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى المنافقين في هذا المقام من سورة البقرة بما تقدم من صفات، وحكم عليهم بأنهم ما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ضرب لهم مَثَلاً نارياً ومَثَلاً مائياً لتقرير كشف أحوالهم وبيان مواقفهم والتشنيع عليهم وما هم فيه من الحَيْرَة والحسرة والتردد والتذبذب، وما يصيبهم من المخاوف وما ينتابهم من الرعب والهَلَع والفزع، وما يسلطه الله عز وجل عليهم من البلايا التي تحيط بهم من كل جانب حتى صاروا يحسبون كلَّ صيحة عليهم. والواقع أن المنافقين لم يكونوا على وتيرة واحدة. فبعضهم لاحت لهم أنوار الإسلام فآمنوا ثم ذهب الله بنورهم فكفروا فطبع الله على قلوبهم، وفي هذا الصنف من المنافقين يقول الله عز وجل في سورة ﴿المنافقون﴾: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ وبعض المنافقين لحقارة نفوسهم كانوا يحرصون على التظاهر بالإسلام لمجرد الحصول على بعض الصدقات فإن أُعْطُوا منها فرحوا ومالوا نحو الإسلام وإذا لم يُعْطَوْا امتلأت قلوبهم غِلاًّ وحقداً وسَخَطاً وفي هذا الصنف من المنافقين يقول الله عز وجل: ﴿ومنهم مَنْ يلمزك في الصدقات فإن أُعْطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون﴾ وبعض المنافقين عندما أعلن إسلامه لم يكن موقنا به بل كان مُتَرَدِّداً شاكاً، قد يرى بصيصاً

من نور يتسرب إلى قلبه لا يلبث أن يذهب عنه ويزول ويُغَلِّفُ قَلْبَهُ الظلامُ الدامسُ، وقد ضرب الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة البقرة مثلين للمنافقين أحدهما ناري والآخر مائي يقرران صفة المنافقين على أكمل وجه وأوضَحِه فقال في المثل الناري: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ والمثل بفتح الميم والثاء يطلق على معنى الصفة كأنه قال: صفة المنافقين كصفة الذي استوقد ناراً الخ، كما يطلق المثل على القول السائر الذي يُشَبَّهُ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ، والأمثال لا تُغَيَّر، وقد أكثر الله تبارك وتعالى من ضرب الأمثال في كتابه الكريم وفي ذلك يقول في سورة العنكبوت: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وقد شبه الله تبارك وتعالى في هذا المثل الناري المنافقين الذين آمنوا ثم كفروا في صيرورتهم بعد البصيرة إلى العمي حيث اشتَرَوُا الضلالة بالهدى بقوم مسافرين جَنَّ عليهم الليل واشتد الظلام وانطمست أمَامَهُم المعالم وصاروا لا يدركون شيئاً مما حولهم فلم يهتدوا إلى الطريق فأوقدوا ناراً ليستضيئوا بنورها، فلما أضاءت لهم النار ما حَوْلَهُم وبدؤا في الانتفاع بها أطفأ الله نارهم، وذهب بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون، ثم وصفهم وهم في هذه الحال المزعجة بما يزيدهم ضلالاً على ضلالهم، حيث وصفهم بأن الله عز وجل سلب منهم حاسة السمع فَأَصَمَّهُم وحاسة الكلام فأخرس ألسنتهم، وحاسة الرؤية فأعمى أبصارهم فصاروا في ظلمات بعضها فوق بعض وقوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله﴾ أي صفتهم كصفة الذين استوقدوا ناراً فلما أضاءت ما حولهم. والتعبير بالذي الموضوع في الأصل للواحد على وتيرة قوله عز وجل: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولَئك هم المتقون﴾ وقول الأشهب بن رميلة:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم   هم القوم كلّ القوم يا أم خالد

وقوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ وقوله عز وجل ﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نارَ جهنم خالدين فيها أبداً﴾ فهذا أسلوب من أعلى أساليب البلاغة، ومعنى استوقد أوقد، ومعنى ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أي أطفأ نارهم فلم يبق لهم نور، قال بعض أهل العلم: إن الضوء أبلغ من النور ولذلك قال الله عز وجل: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾ فلو قيل: ذهب الله بضوئهم ربما خطر ببال أحد أنه لم يزل لديهم نور فلما قال عز وجل: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ عُلِمَ أنه لم يبق لهم ضوء من باب أولى، وفي قوله عز وجل: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ إشارة إلى خذلان الله لأعدائه من المنافقين والكافرين، ومن خذله الله فلن تجد له نصيرا ولا هاديا. أما المثل الثاني وهو المثل المائي فهو قوله عز وجل: ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ وقوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾ أي أَوْ كمطر نازل من السحاب وقوله تعالى: ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ أي في السحاب ظلمات لشدة كثافة السحاب حتى صار الجو مظلماً فما بالك إذا كان الوقت ليلاً وفيه رعد وبرق، والرعد هو الصوت الذي يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب وتنتقض وترتعد، والبرق هو الذي يلمع من السحاب عند حدوث الرعد، ولا شك أنه إذا اجتمعت الظلمة الداجية والرعد القاصف والبرق الخاطف وتخللتها الصواعق وهي شدة صوت الرعد وقد يصحبها نار تسقط من السماء فإن الإنسان الذي يحدث له هذا يحس أن الموت قريب منه ولذلك وصفهم الله

عز وجل بأنهم يجعلـون أصابعهم يعني أطرافهـا في آذانهم خوف الموت حيث يقول عز وجل : ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت﴾ ثم بين الله عز وجل أن من كفر به لا يفلت من عقابه ، حيث قال : ﴿والله محيط بالكافرين﴾ فـلا سبيل لهم إلى الفرار من عقابه لأن قدرته تـامة وعلمه محيط بكل شيء . وقوله عز وجل ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهـم﴾ أي إن هذا البرق لشدة قـوته يَقْرُبُ من اختلاس أبصـارهـم واختطافها بسرعـة فهم لا يكادون يستفيدون من ضوئه لشدتـه وقوته ولا سيما إذا كان في ظلمات غير أنهم لشدة حاجتهم إلى السير يغتنمون فرصة البرق ليتحركوا من مكانهم غير أنه لا يلبث أن يزول فيقفوا في أماكنهم جامدين لا يتحركون من شدة الظلام ولا سيما بعد البرق فإن العيون تتأثر في هذا الحال وتعجز عن الإبصـار وقوله تعالى : ﴿ولو شاء الله لـذهـب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي ولو أراد الله تعـالى وسبقت مشيئته أن يُصِمَّهم ويُعْمِيَ أبصارهم الظاهرة كما عميت أسماعهم وأبصارهم الباطنة لفعل ذلك لأنه لا يعجزه شيء ولهذا ذَيَّل ذلك بقوله : ﴿إن الله على كل شيء قديـر﴾ وهذا المثـل المائي قد ضربه الله عـز وجل للمنافقين الـذين لم يـؤمنوا عندما أعلنوا أنهم دخلوا في دين الإسـلام ، لكنهم كانوا مترددين شاكِّين ، قد يرى الواحـد منهم بصيصاً من نور يتسرب إلى قلبه لكنَّ هذا النـور سرعان ما يزول ويـذهب عنه ويُغَلِّفُ قلبـهُ الظلامُ الدامـسُ ، ولا شك أن المقصود من ضرب الأمثال هـو تأثيرها العظيم في القلـوب ، وأنها أبلغ في تقريـب الحقائق وإيضاحهـا من الوصف وحده ، والنفـس تحرص على معرفة مـا احتواه المثل وينتقش فيهـا ؛ لأن الغــرض من المثل هـو تشبيـه الخفي بـالجليِّ والغـائب بالشاهـد فيتأكد الوقوف على ماهيتـه ، ويصير الحِسُّ مطابقاً للعقل ، وذلك أبلغ في الإيضاح فالترغيب في الإيمان مُجَرَّداً عن ضرب مثل لـه بالنور لا يعمل في النفس الإنسانيـة كما يعمل المثل الذي ضربـه الله عز وجل في قولـه تبارك

وتعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يُوقَد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم﴾ ولو زُهِّبَ من الكفر بمجرد الذكر من غير ضرب مَثَل له بالظلمة لم يتأكد قُبْحُهُ في العقول كما يتأكد بتشبيهه بالظلمات والضياع في مثل قوله عز وجل: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لُجِّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ ولو أراد واعظ أن ينبه إلى أن التعلق بغير الله لا يجدي صاحبه شيئاً فإن ذلك لا يقع في النفس الإنسانية مؤثراً فيها كما يؤثر ضربُ مثل لذلك بنسج العنكبوت في قوله تعالى: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الناس ضُربَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذبابُ شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ ولهذا أكثر الله تبارك وتعالى في القرآن العظيم من ضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون.

كما أن رسول الله ﷺ كان يكثر من ضرب الأمثال لتنتقش مدلولاتُها في النفوس كقوله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفةٌ طيبة قَبِلت الماءَ فأنبتت الكلأ

والعُشْبَ الكثير وكان منها أجـادبُ أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فَشَرِبُوا منها وسَقَـوْا وزرعوا وأصاب طائفـة منها أخرى إنما هي قيعـان لا تُمسِك ماءً ولا تنبت كَلأً فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعلَّم ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به .

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾

بعد أن قَسَّمَ الله تبارك وتعالى المكلفين من بني آدم إلى ثلاثة أقسام وأوضح صفات كل قسم وبيَّن مآله، من فلاح المؤمنين وخيبة الكافرين والمنافقين وجَّه الخطاب لجميع المكلفين من بني آدم، وأمرهم أن يُفْرِدُوا الله تبارك وتعالى بالعبادة ويخصوه بالتوحيد الذي من أجله خلقوا، وقد لفت انتباههم إلى أمرٍ يكادون يطبقون على الإقرار به، فجميع الأمم على مرِّ العصور واختلاف الأجناس وتباين الألسنة واللغات معترفون بالخالق العظيم، قد ورثوا ذلك من عهد آدم وتتابعت اعترافاتهم به إلى أمة محمد ﷺ ولذلك كَثُر في القرآن العظيم توجيه الأسئلة للمشركين بأنهم ما داموا مقرين بأن الله هو وحده خالق السموات والأرض وما فيها فلما ذا يشركون به ويعبدون معه غيره؟ حيث يقول عز وجل: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكَّرون * قل من رب السماوات السبع وربُّ العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كلِّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنَّى تُسْحرُون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ خلقهن العزيز العليم﴾ وقال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤفكون﴾ وحتى فرعون كان مقراً برب السموات والأرض في قرارة نفسه وإن جحد ذلك كما أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا * قال: لقد علمتَ ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ

السمٰوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا﴾ ففي قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هٰؤلاء إلا ربُّ السمٰوات والأرض﴾ دليل جَلي على أن فرعون وقومه كانوا مقرين بخالق السموات والأرض كسائر الأمم التي تُقِرُّ به رباً وتعبد معه غيره أو تجعل العبادة لغيره. وكما قال عز وجل: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولُن الله فأنى يؤفكون * الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نَزَّلَ من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولُن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون﴾ وهؤلاء مع إقرارهم بخالقهم وخالق السموات والأرض واعترافهم بربوبيته قد عبدوا غيره معه زاعمين أنهم إنما عبدوا هؤلاء مع الله ليكونوا شفعاء لهم عنده وليقربوهم إلى الله زلفى كما قال عز وجل: ﴿ألاَ لله الدين الخالص،والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار﴾ فالإقرار بربوبية الله مركوز في النفوس وإن كانت تحجبه أحياناً سُحُبُ الزندقة والإلحاد، فقد أثر أن بعض الزنادقة أنكر الخالق عند جعفر الصادق رحمه الله فقال له جعفر: هل ركبت البحر ؟ قال: نعم، قال: هل رأيت أهواله ؟ قال: بَلَى: هاجت يوما رياح هائلة فكسَّرت السفن وغرّقت الملاحين، فتعلقت أنا ببعض ألواحها ثم ذهب عنّي ذلك اللوح فإذا أنا مدفوع في تلاطم الأمواج حتى دُفِعْتُ إلى الساحل، فقال جعفر: كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ثم على اللوح حتى تنجيك. فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمتَ نفسك للهلاك أم كنتَ ترجو السلامةَ بعد ؟

قال: بل رجوت السلامة، قال: ممن كنتَ ترجوها فسكت الرجل، فقال جعفر: إن الصانع هو الذي كنتَ ترجوه في ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك من الغَرَق، فأَسْلَمَ الرجلُ على يده. كما أثر أن بعض الدهرية كانوا ينتهزون الفرصة لقتل أبي حنيفة رحمه الله فبينما هو يوما قاعد في مسجده إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله فقال لهم: أجيبوني عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا له: هات، فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال. مملوءة بالأثقال، قد احْتَوَشَها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملاح يُجْرِيها ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل ؟ فقالوا: لا، هذا شيء لا يقبله العقل، فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله إذا لم يجز في العقل سفينةٌ تجري في البحر مستوية من غير متعهد فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتَغَيُّر أعمالها وسَعَةِ أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ فبكَوْا جميعاً وقالوا: صدقتَ وأغمدوا سيوفهم وتابوا. كما أُثِر أن بعض الزنادقةِ سألوا الشافعي رحمه الله: ما الدليل على وجود الله ؟ قال: ورقة الفِرْصاَد (يعني التوت) طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم ؟ قالوا: نعم. قال: فتأكلُها دودة القز فيخرج منها الإبريسَمُ (يعني الحرير) وتأكلها النحل فيخرج منها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج منها البَعْر. وتأكلها الظباءُ فينعقد في نوافجها المسكُ، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد ؟ فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وكانوا سبعة عشر رجلا. وضرب أحمد بن حنبل رحمه الله مثلا للدلالة على الحكيم الخبير بقلعة حصينة ملساء لا فُرجةَ فيها، ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الإبريز، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فهل خرج من غير فاعل ؟ وقد أراد رحمه الله بالقلعة الحصينة البيضة وبالحيوان الفرخ،

ولا شك أن خروج الفرخ من البيضة آية عجيبة فقد ذكر أنه يختار موضعاً معيناً من البيضة كأنه باب لها فينقره بمنقاره الضعيف فتنشق البيضة ويخرج، كما أن ما تحمله الحوامل يستمر على وضع معين إلى قرب خروجه من بطن أمه فيتهيأ للخروج بطريقة هداه إليها الحكيم الخبير، وقد أثر أن مالكا رحمه الله استدل على الحكيم العليم باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات ولا شك أن القرآن العظيم أعلن ذلك في قوله عز وجل: ﴿ومن آياته خلق السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذٰلك لآيات للعالمين﴾ وقد سئل أعرابي: بم عرفتَ ربك؟ قال: البعرة تدل على البعير والرَّوْثُ على الحمير وآثار الأقدام على المسير، فسماءٌ ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟ كما استدل أعرابي لما قيل له: بم عرفت ربك قال: عرفته بنحلة بأحد طرفيها تَعْسل وبالآخر تلسع والعسل مقلوب اللسع، فالإقرار والاعتراف بربوبية الله مركوز في النفوس مُقَرَّرٌ عند جميع الأمم، لكن من انحرفت فطرته، عبد غير الله، فأرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيق أنه لا إله إلا الله وأنه وحده المستحق لأن يُفْرد بالعبادة ويُخَصَّ بالتوحيد ولذلك كان أولُ أمر بالعبادة في كتاب الله هو الأمر هنا في هذا المقام من سورة البقرة بعبادة الله حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وقد عبَّرَ بعنوان الربوبية التي يقرون بها لتكون دليلاً جلياً على وجوب إخلاص العبادة له وحده، الذي ربَّى خلقه بنعمه وجوده وإحسانه حيث لا تَمُرُّ طرفة عين في ليل أو نهار إلا ولله على خلقه نِعَمٌ ظاهرة وباطنة، فكأنه يقول لهم: مادمتم أقررتم بربوبيتي فلما ذا تشركون معي غيري في ألوهيتي، ولذلك كانت مهمة المرسلين والأنبياء تقرير توحيد الألوهية، وصار كلُّ رسول يأتي قومه يبدؤهم بقوله: اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره، وقد لفت الله عز وجل انتباه الناس في هذا المقام إلى دليلين

ظاهـرين بارزين أمـام الأعين يشهدان أنـه لا إله إلا الله ، الأول : في الأنفس والثاني في الكون والآفاق ، وقد أكثر القرآن الكريم من لفت الانتباه إلى هذين الـدليلين وهما النظـر في الأنفس وفي الآفـاق وفي ذلك يقـول : ﴿وفي الأرض آيـات للمـوقنين * وفي أنفسكم أفـلا تبصرون * وفي السماء رزقكم ومـا توعدون﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيـد﴾ وقد نبه الله عز وجل في هـذا المقـام إلى النظـر في جعل الأرض فراشـاً أي مهـاداً و مستقـراً وأودعهـا جميع مـا يحتـاجه النـاس ، والنظـر في جعل السماء بنـاء أي سقفـا محفوظـاً ، وأنزل من السماء أي السحاب ماء فـالسماء تطلق بإطلاقين : الأول السماء المبنية المحفوظة التي جعلهـا الله سكنا لملائكته ، والثاني السماء بمعنى العلـو والارتفاع فكـل ما عـلاك من سقف أو سحـاب أو غيره يسمى سماءً لغة ، فقوله أنزل من السماء ماء أي أنـزل من السحاب مطرا يسوقه إلى الأرض الجرز فيخرج بـه زرعاً تأكل منـه أنعامهم وأنفسهم ، ومع أن الماء واحـد ينزل على الأرض الواحدة والقطع المتجـاورة فيخرج ثمرات مختلفاً ألـوانها ومنافعها من قوت وفاكهة ودواء وجميع ما يحتـاجه الناس وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقـول : ﴿الله الـذي رفع السمٰوات بغير عمد تـرونها ثم استـوى على العـرش وسخر الشمس والقمـر كل يجري لأجل مسمى يـدبر الأمـر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمـرات جعـل فيهـا زوجين اثنين يُغْشي الليلَ النهـارَ إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأُكُل إن في ذلك لآيـات لقوم يعقلـون﴾ ولله در أبي نُوَاسٍ حيث يقـول :

تأمــل في نبات الأرض وانظـــر إلى آثار ما صنع المليـــك
عيـــون من لُجَين شاخصـــاتٌ وأزهارٌ كما الذهبُ السبيك
على قُضُب الزبرجـد شـــاهداتٌ بأن الله ليس له شريــــك

وما أحسن قولَ ابن المعتز:

فيا عجبا كيف يعصى الإلـــــ ـهُ أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيـــــــة تدل على أنه الواحـــــــــد

وقد ذيَّل الله تبـارك وتعالى الآية الأولى بقولـه: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي عسى أن تحجبوا عن وجوهكم النـار إذا أخلصتم العبادة لله وحده وتبرأتم من جميع ما عبد من دونه، ولعلكم تفوزون بعز الدنيا وسعادة الآخرة. كما ذيل الله عز وجل الآية الثانية بقوله: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ أي فلا تشركوا بـالله شيئاً ولا تتخـذوا لله نـدا ولا نظيرا ولا شبيهـا ولا شريكا في جميع ألـوان العبادة فإنه هو وحده المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له فالله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كـان خالصًـا لوجهه الكـريم، من توحيـد وصلاة وصيام وحج وزكاة ونذر وطواف وخوف السر وأكمل الحب، وأقصى الذل، والتوكل والرجاء والرغبة والاستعاذة والاستغاثة وسائر مراسيم العبادة فإن الله عز وجل لا يقبل العمـل إلا بشرطين: أن يكون خالصـاً لوجهـه الكريم وأن يكون على منهج محمد رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فَأْتُوا بسورة من مثله وادعُوا شُهَدَاءَكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وَقُودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾

بعد أن قرر الله عز وجل دلائل ألوهيته على أكمل وجه وأوضحه وأدقه وأبرزه للخاصة والعامة والعرب والعجم شرع في تقرير نبوة ورسالة عبده ورسوله محمد ﷺ، وقد كان من حكمة الله عز وجل أن يؤيد أنبياءه ورسله بمعجزات يؤمن على مثلها البشر، وقد كانت معجزات كل نبي تناسب أعلى ما وصل إليه قومه من العلم ليعرفوا أن هذه المعجزة تفوق كل ما وصلوا إليه وأنها ليست من قدرة البشر وإنما هي من مالك القوى والقُدَر، فقد علمنا أن قوم فرعون قد بلغوا في السحر شأوا لم يصل إليه من قَبْلَهم ولم يصل إليه من بعدهم فبعث الله عز وجل موسى عليه السلام بمعجزات تشبه ما بَرَعُوا فيه لكنهم يعلمون أنها ليست منه فأعطاه اللهمعجزة العصا واليد ومهّد لذلك حينما ناداه من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة بالوادي المقدس طُوَى: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى * قال: هي عصاي أتوكؤا عليها وأَهُشُّ بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال: أَلْقِهَا يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى * قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرَتَها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرجْ بيضاء من غير سُوءٍ آيةً أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ فلما جاء موسى إلى فرعون ودعاه إلى الله عز وجل وأعلمه أنه رسول من رب العالمين، قال له فرعون: ﴿لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين. قال: أَوَ لو جئتك بشيء مبين، قال: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. قال للملإ حوله: إنَّ هٰذا لساحر عليم،

يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ، قالوا : أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ، فَجُمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئنَّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذًا لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم مُلْقُون . فألقَوْا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون . فَأُلْقِي السحرةُ ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ﴾ وإنما كان السحرة هم أول المؤمنين لأنهم أعرف بضروب السحر وفنونه وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس في مقدور السحرة مهما أوتوا من علم السحر وأن ما جاء به موسى هو معجزة مؤيدة له من رب العالمين ، كما علم أن من بُعث إليهم عيسى عليه السلام كانوا أبصر الناس في عصرهم بالطب فجعل الله عز وجل معجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برعوا فيه فكانت معجزته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويُصَوِّر من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .
ولما كانت قريش ومن حولهم من سكان الجزيرة العربية هم أعلى الناس بياناً وأعظمهم فصاحة وبلاغة ، وكان من تمهيد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ قبيل بعثته أن جعل العرب يهتمون بلسانهم أشد اهتمام ، ويجعلون للكلام الفصيح من الشعر والنثر منابر في أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز يتحدث من فوقها الشعراء والخطباء ، ويجلس لهم الحكام ، ليُقَدِّرُوا لهم ما يستحقون من التقدير حتى كانت تُعلَّق أشعارهم التي بلغت القمة في الفصاحة على الكعبة ، فلذلك اختار الله تبارك وتعالى معجزة رسوله محمد ﷺ لتكون من جنس ما بَرَعَ فيه العرب الذين يشهد لهم بالفصاحة العجم ، فجعل معجزته الكبرى وآيته العظمى القرآن الكريم ، وإن كان رسول الله ﷺ قد أعطاه الله وأيده

بمعجزات حسية كثيرة كالمعجزات الحسية التي أعطاها لإخوانه الأنبياء إلا أن المعجزات الحسيــة إنما ينتفع بها من يشـاهدهـا غالبـاً ، ولابقاء لها ولا دوام لما علم أن رسالـة كل رسـول قبل محمـد ﷺ كـانت لقوم مخصـوصين ولـزمـان مخصوص ولم تكن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة ، أما محمد ﷺ فبعثه الله عز وجل بالشريعة الشاملة الكاملة التـامة الباقية ما بقى الليل والنهار والشمس والقمر، لا تنسخ حتى تقوم القيامة . لـذلك جعل الله تبارك وتعالى معجزته الكبرى معجزة معنـوية هي كلام الله وحجتـه البالغة ولـذلك روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «ما من الأنبيـاء نبي إلا أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمن عليـه البشر و إنما كان الذي أوتيت وحياً أوحـاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكثـرهـم تابعـاً يوم القيامـة» وقد أشـارت الكتب السماوية السـابقة إلى أن الله تعـالى يبعث محمدًا ﷺ وتكـون معجـزته كـلام الله ففي التـوراة : سأقيم لبني إسرائيل من إخـوتهم مثلك يـا موسى ، أُنْـزِل عليه تـوراةً وأجعـل كلامي على فيـه ، والمراد بالتـوراة في اللغة الشريعة ، فقد نص على أن معجزة هذا النبي هي كلام الله على فمه ، ولم يأت نبي قط بعد مـوسى عليه السـلام بدعوى أن معجـزته كلام الله سـوى محمد ﷺ ، وقوله عز وجل : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الخ أي و إن كنتم في شك من أن القرآن المنزَّل على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ أنه من عند الله فأتوا بسورة من مثل ما جاء بـه إن زعمتم أنه من عند غير الله وعارضوه بمثل مـا جاء بـه وقد بلغتم في الفصـاحة مبلغـاً لم يصل إليه سـواكم فأنتم أفصح الخلق وأعلمهم بالبـلاغة والبيـان فإني أتحداكم أن تأتوا بسـورة من مثل هذا القرآن البليغ الفصيح الوجيز المحتـوى على علوم الدنيا والآخرة المشتمل على الأخبـار الصادقـة من علوم الغيـب الماضية والآتيـة ، الآتي بأعدل الأحكـام والسلوك والعقيدة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد كان

تحداهم أن يأتوا بمثـل القرآن كما قال عـز وجل: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـٰذا القرآن لا يأتون بمثله ولـو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ فلما عجزوا تحداهـم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث يقول: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثلـه مفتريات وادْعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فلما عجزوا عن الإتيان بعشر سـور من مثله تحداهـم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله حيث قال في هـذا المقام من سورة البقرة: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسـورة من مثله﴾ وقوله عز وجل: ﴿وادْعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صـاقين﴾ أي واستنصروا أعوانكم وشهداءكم الذين يشاهـدونكم ويعاونونكم على تكذيبكم لله ورسولـه ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم إن كنتم محقين في جحودكم أن مـا جاء به محمد ﷺ اختلاق وافتراء فهاتوا سورة واحدة من مثل القرآن فإن عجزتم فكيف تظنون أن محمداً يأتي به وحده من عند نفسـه. ثم قطع كل أمل عندهم في التفكير في الإتيان بمثل سورة واحـدة منه حاضراً ومستقبـلاً فقال: ﴿فإن لم تفعلـوا ولن تفعلوا فاتقـوا النار التـي وقودها النـاس والحجارة أعـدت للكافـرين﴾ وقد كـانت قـريش تـؤمن في قـرارة قلـوبها أن محمداً رسـول الله وأن القـرآن من عنـد الله لعلمهم أن محمـدا أمي لم يقـرأ ولم يكتب وأنهم كـانـوا يلقبـونـه قبل البعثـة بالصـادق الأمين فمن أين لـه أخبار الماضين والقـادمين، والدنيـا والآخرة في نظام دقيق من الأحكام التي لم تعـرف الإنسانية أعدل ولا أدق ولا أشمل ولا أحسن منها، مع صلاحها لكل عصر ومصر وجيل وقبيل، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿قـد نعلم إنه ليحـزنك الذي يقـولون فإنهم لا يُكَذِّبـونك ولَكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي فهم يعلمون علم اليقين أنك لست بشاعر ولا سـاحر ولا كـاهن ولا كـذاب، وإنما جحـدوا مـا علموا ظلما وفسـاداً في الأرض كقوم فرعون لما جاءهـم موسى بالبينات أيقنوا أنها من عند الله ولكنهم

مع ذلك جحدوا على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرةً قالوا هٰذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعُلُوا فانظر كيف كانت عاقبة المفسدين﴾ ولم ينقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن وإذا كان قد علم قطعاً عجز العصر الأول من أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة عن الإتيان ولو بسورة من مثله فإن عجز من يجيء من بعدهم إلى يوم القيامة من باب أولى، وقد أُثِر أن عمرو بن العاص قد كان صديقاً لمسيلمة الكذاب، فاجتمع به مرة وقال له: يا مسيلمة ماذا نزل عليك من القرآن؟ فقال مسيلمة: يا ضفدع يا ضفدعين نقِّي كم تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفُها ولكن قريشاً قوم يجهلون. فضحك عمرو بن العاص وقال له: والله إني أعلم أنك تعلم أنك كاذب. ولما ارتد بنو حنيفة بعد رسول الله ﷺ وانحازوا إلى مسيلمة الكذاب قال لهم الصحابي الجليل ثمامةُ بن أُثال الحنفي رضي الله عنه: يا قوم أين عقولكم؟ أما سمعتم قول مسيلمة: يا ضفدع يا ضفدعين نقي كم تنقين نصفك في الماء ونصفك في الطين. أيخرج هذا من إلٍّ يعني من إلٰه أين هذا من قول الله عز وجل: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ وقد أثر أن الوليد بن المغيرة أرسلته قريش ليفاوض رسول الله ﷺ في الكف عن دعوته و إعطائه ما يريد فجاء الوليد إلى رسول الله ﷺ وقال: يا ابن أخي، إنك فرّقت بين الابن وأبيه والرجل وزوجته فإن كان الذي يأتيك من الجن عالجناك و إن كنت تريد المال جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا و إن كنت تريد الملك ملكناك علينا و إن كنت تريد الزواج زوجناك أجمل امرأة في قريش، فلما انتهى من كلامه أثر أن رسول الله ﷺ قال له: انتهيت يا عم قال: نعم فقرأ رسول الله ﷺ ﴿حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا و نذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا: قلوبنا في

أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلٰهكم إلٰه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون * قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذٰلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذٰلك تقدير العزيز العليم * فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فلما بلغ رسول الله ﷺ إلى هذا المقام في التلاوة وضع الوليد بن المغيرة يده على فمه وقال: ناشدتك الرحم أن تكف فلما سكت رسول الله ﷺ رجع الوليد إلى قومه فلما أبصروه أيقنوا أنه جاءهم بوجه غير الوجه الذي ذهب به وقالوا له: ما وراءك قال: إني والله أعرف السحر والشعر والكهانة والله إن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر ولا كاهن، إن للكلام الذي سمعته منه لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه وإنه ليس من كلام البشر. فلم يتركوه حتىَ قال: دعوني أنظر وكان منه ما حكى الله عز وجل حيث قال: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدًا * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً* سأرهقه صَعُودا * إنه فكر وقدَّر * فقتل كيف قدّر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال: إن هٰذا إلا سحر يؤثر * إن هٰذا إلا قولُ البشر * سأصليه سقر﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾. أي حطبها الكفار والحجارة التي عبدوها وغيرها. وقد هيئت النار لهؤلاء الجاحدين.

قال تعـالى: ﴿وبشر الذين آمنـوا وعملوا الصـالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رُزِقـوا منها من ثمـرة رزقا قالـوا: هٰذا الـذي رُزِقنا من قبل، وأُتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾

في الآية السابقة حذر المعاندين المكذبين من أنهم إذا لم ينيبوا إلى الله ويؤمنوا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليـه بعد أن تحداهم بعجزهم عن معارضة سورة واحدة من مثله أنهم يُعَرِّضون أنفسهم لِنَـارٍ وَقُودُها الناس والحجارة قد رَصَدَهـا الله وأعدها لأعـدائه الكافرين الجاحـدين، وفي هذه الآية الكـريمة بدأها بأمر رسوله وحبيبه محمد ﷺ أن يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنـات تجري من تحتهـا الأنهار. وهـذا الأسلـوب القـرآني في الترهيب والترغيب يأخـذ بالنفـس الإنسانيـة كلَّ مأخـذ ليحذِّر أعـداءه ممـا يوقعـون أنفسهم فيه من العذاب والبلاء في العاجلـة والآجلة وليبشر أولياءه بالسعادة في العاجلـة والآجلة. والتبشـير الإخبار بما يظهـر أثره على البشـرة ــ وهي ظاهر الجلـد ــ حيث تنطلق الأسارير فرحا عند سماع الخبر الذي يسرها كما تنكمش عند سماع الخبر الذي يَسوؤهـا. وفي الغالب أن تستعمل البشارة في السرور مقيداً بـالخير المبشَّر به وأن تستعمل مطلقـة من غير قيد أمـا البشارة بـالخبر الذي يسـوء فإنها لا تستعمل إلا مُقَيَّداً منصـوصاً على الشر المبَشَّر بـه كقـولـه عـز وجل: ﴿فبشرهم بعـذاب أليم﴾ وإذا وردت النـذارة والبشـارة متعاطفتين كان الإنذار للتخويف والتحـذير من الشر وكانت البشارة للخير كقوله تعـالى: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ وكقولـه تعالى: ﴿إنا أرسلناك شـاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ وقد أخرج البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: احتجت النـار والجنـة فقالت هـذه: يـدخلني الجبارون والمتكبرون، وقـالت هذه: يـدخلني الضعفاء والمسـاكين

فقال الله عز وجل لهذه: أنتِ عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، ولقَابُ قوسِ أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: غَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما. ولملأت ما بينهما ريحا، ولَنَصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفةٍ عَرضها ستون ميلا في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، وجنتان من فضة آنيتُهما وما فيهما. وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عَدْنٍ. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين، يُرَى مُخُّ سوقهما من وراء العظم

واللحم من الحُسن، يسبحون الله بكرةً وعشياً، لا يسقَمون ولا يبولون، ولا يتغوطـون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، آنيتهم الذهب والفضـة وأمشاطهم الذهب، وَوَقُودُ مجامـرهم الأَلُوَّةُ، ورشحهم المسك، على خَلْق رجل واحد، على صـورة أبيهم آدم، ستون ذراعـاً في السماء، وفي رواية لمسلم من حـديث جـابر رضي الله عنـه قـال: قال رسـول الله ﷺ: إن أهل الجنـة يأكلون فيهـا ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغـوطون، ولا يمتخطون قالوا: فما بالُ الطعام ؟ قال: جُشَاءٌ ورشح كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تُلْهَمُون النَّفَس، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: إن أهل الجنة يتراءَوْن أهل الغُـرف من فـوقهم كما تتراءَوْن الكـوكب الـدري الغـابـر في الأفق من المغـرب أو المشرق لتفاضل ما بينهم قـالوا: يا رسول الله تلك منـازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال: بلى والـذي نفسي بيده، رجـال آمنوا بـالله وصدَّقـوا المرسلين، كما روى مسلم من حـديث أنس رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: إن في الجنـة لسـوقـاً يأتونها كـل جمعة فتهب ريـح الشمال فتحثو في وجـوههم وثيـابهم، فيزدادون حُسنـا وجمالاً فيرجعون إلى أهليهـم وقد ازدادوا حسنـا وجمالا فيقولُ لهم أهلوهم: والله لقـد ازددتم بعدنا حُسنا وجمالاً، فيقولـون: وأنتم والله لقد ازددتم بعـدنا حُسنـاً وجمالاً. وقولـه عز وجل: ﴿وبشر الـذين آمنوا وعملـوا الصـــالحات أن لهم جنـــات تجري من تحتهـــا الأنهار﴾ أي وأخبر المؤمنين المصـدقين بالله ورسلـه وكتبه واليـوم الآخر والقـدر خيره وشره المؤدين شرائع الإسلام من الشهـادتين والصلاة والصيـام والزكـاة والحج الآمرين بـالمعروف والناهين عن المنكر، أخبر هؤلاء خبرا يدخل السرور والبهجة على قلوبهم بأن الله تبارك وتعـالى وعدهـم من فضله جنات تجري من تحتهـا الأنهار. والجنات جمع جنة وهي في اللغة البستان من النخل والشجر المتكاثف المظَلّل بالتفاف

أغصـانه، وقـولـه عز وجل: ﴿تجري من تحتهـا الأنهار﴾ قـال ابن جريـر في تفسيره: وإنما عنى جل ذكره بذكـر الجنة مـا في الجنة من أشجـارها وثمارهـا وغروسهـا دون أرضها فلـذلك قال عـز ذكره ﴿تجري من تحتهـا الأنهار﴾ لأنه معلوم أنـه إنما أراد جل ثناؤه الخبر عن مـاء أنهارها أنـه جار تحت أشجـارها وغروسها وثمارها لا أنه جـار تحت أرضها لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض فَلاَحَظَّ فيها لعيون مَنْ فَوقَها إلا بكشف الساتر بينها وبينه اهـ وقد وصف الله تبـارك وتعـالى أنهار الجنـة بأنها أنهار من لبن لم يتغير طعمـه وأنهار من عسل مصفى وأنهار من ماء غير آسن وأنهار من خمر لذة للشـاربين حيث يقول عز وجل: ﴿مثل الجنة التي وعـد المتقون فيهـا أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمـه وأنهار من خمر لـذة للشـاربين، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها مـن كل الثمرات ومغفرة مـن ربهم﴾ وقال عز وجل: ﴿مثـل الجنة التي وعد المتقـون تجري من تحتها الأنهار أُكُلُها دائم وظلهـا﴾ وقد وصف الله تبـارك وتعالى الجنـة في سـورة الرحمن حيث يقـول: ﴿ولمن خـاف مقام ربـه جنتان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* ذواتـا أفنان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* فيهما عينان تجريان* فبأي آلآء ربكما تكذبـان* فيهما من كل فاكهة زوجان* فبأي آلآء ربكما تكـذبـان* متكئين على فـرش بطـائنهـا من إستبرق وجَنى الجنتين دان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* فيهـن قاصرات الطـرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان* فبأي ألآء ربكما تكـذبان* كأنهن اليـاقـوت والمرجان* فبأي آلآء ربكما تكذبـان* هل جزاء الإحسـان إلا الإحسان* فبأي آلآء ربكما تكذبـان* ومن دونهما جنتان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* مدهـامتان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهما عينان نضـاختان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* فيهما فاكهة ونخل ورمان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* فيهن خيرات حسان* فبأي آلآء ربكما تكذبان* حور مقصـورات في الخيام* فبأي آلآء ربكما تكذبان* لم

يطمثهن إنس قبلهم ولا جان* فبأي آلآء ربكما تكـذبان* متكئين على رفرف خضر وعبقـري حسـان* فبأي آلآء ربكما تكــذبـان* تبـارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن في الجنـة جناتٍ منها الفردوس الأعلى فقد روى البخـاري في صحيحه من حـديث أنس رضي الله عنه أن أم حـارثة بن سراقـة أتت النبي ﷺ فقالت: يـا نبي الله ألا تحدثني عن حارثـة وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم غَـرْب ـ فإن كان في الجنة صبرت وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكـاء قال: يا أم حارثـة إنها جِنانٌ في الجنة وإن ابنك أصـاب الفردوس الأعلى، كما روى البخاري ومسلـم أن رسول الله ﷺ قال: إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة وفوقه عرش الـرحمن. وقوله عز وجل: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هٰذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابها﴾ أي كلما أطعموا من تلك الجنـات من نوع مـن أنواع ثمارهـا التي لا تخطـر على البال ولا تـدور في الخيال، ومن ألـوان فواكههـا التي ليس لها من فواكه الـدنيا إلا الأسماء قـالوا هـذا الذي رُزقنـا وقُـدِّم لنـا في الجنة قبل ذلك، وذلك مـن شدة الشبـه بين فواكهها في الحسن والجمال، ومعنى قوله تعالى: ﴿وأُتُوا به متشابها﴾ أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن وإن كانت الطعوم مختلفـة فكلما أكلوا من فاكهة تشبه الأخرى وجدوا طعمها كأنهم يطعمونه لأول مـرة، وقولهم هذا الذي رزقنا من قبل على وجه التعجـب لما يرونه من حسـن الثمرة وعِظَم خلقها، وأنـه ليس فيها شيء لا تشتهيه الأنفـس ولا تلَذُّ منه الأعين بل كل فاكهـة تقدم لهم فيها تشتهيها النفس وتلذ منها العين. وقـوله تعالى ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي ولهم في الجنة نساء من الحور الحين ومن نسائهم المؤمنات غير أنهن لا يحضن ولا يَبُلْن ولا يتغوطن ولا يبصقن محفـوظات من كل قذر وأذى وقولـه تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي باقون دائمون لا يموتون ولا يهرمون، وهذا من تمام

النعمة وكمال اللذة فإن الإنسان لو جلس في أفخم القصور وأجملها وسيق له من كل ما تشتهيه نفسه وتلذ عينـه ولكنه يعلم أن وراءه الموت ما تلذذ بما فيه إلا حين غفلته عن ذلك، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة ينـادي منادٍ: إن لكم أن تَحْيَوْا فـلا تموتوا أبداً و إن لكم أن تصحـوا فلا تَسْقَمُوا أبداً و إن لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُـوا أبداً و إن لكم أن تَنْعَمُوا فلا تبأسوا أبداً.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولَئك هم الخاسرون﴾.

قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد نارا﴾ عند الكلام على المثلين المضروبين للمنافقين أن المقصود من ضرب الأمثال هو تأثيرها العظيم في القلوب، وأنها أبلغ في تقريب الحقائق وإيضاحها من الوصف وحده لحرص النفس على معرفة ما احتواه المثل، وأنه ينتقش فيها لأن الغرض من المثل هو تشبيه الخفي بالجلي والمعنوي بالحسى فيتأكد الوقوف على ماهيته ويصير الحسُّ مطابقا للعقل. وقد بين الله عز وجل أن الأمثال التي يضربها للناس لا يعقلها إلا العالمون، ولذلك كان بعض السلف يبكي إذا مرَّ به مَثَلٌ في كتاب الله ولم يفهمه، غير أن الذين في قلوبهم مرض من المنافقين ومن طبع الله على قلوبهم من الكافرين كانوا إذا سمعوا مثلاً من أمثلة القرآن أخذوا يتساءلون: ماذا أراد الله من هذا المثل؟ ولا سيما إذا كان المثل المضروب لشيء حقير كالذباب مثلا الوارد في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لَنْ يَخْلُقُوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾ مع أن هذا المثل يتطامن أمام بلاغته البلغاء في بيان عجز معبوداتهم الباطلة وحقارتها، وتمام قدرة الله عز وجل وكمالها الذي جعل هذه الذبابة الضعيفة الحقيرة تُعْجز أصنامهم وتَسْلُبُ آلهتهم وهم عاجزون حائرون أمامها فبين الله عز

وجل هنا أن ضَرْبَهُ المثَلَ بالبعوضة فما فوقها حتى يلفت انتباه ذوي العقول إلى عظيم قدرة الله في خلق هذه البعوضة التي يعجز كل بني آدم عن خلق مثلها وإعطائها هذه الطبيعة التي طبعت عليها. وقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ يبين أن الله عز وجل لا يستحي من الحق، وقد أثبت رسول الله ﷺ صفة الحياء لله عز وجل فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ فأما أحدهما فرأى فُرْجة في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فَرَغَ رسول الله ﷺ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أمَّا أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه.

وقاعدة أهل السنة والجماعة أنهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى وينفون عن الله ما نفاه الله عز وجل عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ ويعتقدون أن ما ثبت لله من الأسماء والصفات لا يشاركه فيها أحد من خلقه فهي تليق بالله وحده، وما ثبت للمخلوقين من الصفات والأسماء تليق بالمخلوقين، فالله سمى نفسه حفيظاً عليماً ووصف عبده يوسف بأنه حفيظ عليم وشتان بين الرب الحفيظ العليم والعبد الحفيظ العليم، كما سمى نفسه رؤوفاً رحيماً وسمى عبده ورسوله محمد ﷺ رؤوفاً رحيماً وشتان بين الرب الرؤوف الرحيم وبين عبده الرؤوف الرحيم، ولذلك جاء في قصة الخضر وموسى الواردة في الصحيح: فركبا في السفينة قال: ووقع عصفور على حرف السفينة فَغَمَسَ منقاره في البحر فقال الخضر لموسى: ما عِلْمُكَ وعلمي وعلمُ الخلائق في علم الله إلا مقدار ما

غَمَسَ هذا العصفور منقاره. فالحياء الذي يوصف الله عز وجل به يليق بالله ولا يتصف به البشر، والحياء الذي يوصف به البشر لا يليق بالله ولا يتصف به تنزه عن صفات المخلوقين، والحياء في البشر هو تَغَيُّرٌ وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعَابُ به ويُذَم، وقد نفى الله تبارك وتعالى عن نفسه المقدسة أنه يستحي من الحق وقد سمع رسول الله ﷺ قولَ أمِّ سُليم رضي الله عنها: إن الله لا يستحي من الحق وأقرها رسول الله ﷺ على ذلك فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق زينب بنت أم سلمة رضي الله عنها عن أم سلمة قالت: جاءت أُمُّ سُلَيْم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غُسْل إذا احتلمت قال النبي ﷺ: إذا رأت الماء فَغَطَّت أُمُّ سلمة تعني وجهها وقالت: يا رسول الله وتحتلم المرأة؟ قال: نعم، تَرِبَتْ يَمينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا ولدُها؟ وقوله عز وجل: ﴿مثلا مَّا﴾ أيْ أيَّ مثلٍ كانَ لأن كل مثل يضربه الله عز وجل يلفت انتباه الخلق إلى آية من آيات الله، يعي ذلك ذَوُو العقل والعلم وإن جهل المرادَ منه مرضى القلوب من المنافقين والكافرين. وقوله عز وجل: ﴿بعوضة فما فوقها﴾ أي بعوضة فما زاد عليها في الجثة أو في الغرض المقصود من التمثيل كجناحها، والبعوضة واحدة البعوض وهو صغار البق، والبَقُّ يطلق على حيوان صغير شديد اللَّسع منتن الرائحة ضعيف جداً قد يقتله مجرد اللَّمْس، ويكون بجدران بعض الدور وفي فُرُشِها، وإذا ضُغِط عليه بضاغط انفجر دما. كما يطلق البَقُّ على الناموس وهو من عجيب خلق الله تعالى فإنه في غاية الصغر، وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وذَنَبٌ وخرطوم مُجَوَّفٌ، وهو مع صغره يَغُوصُ خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل فيبلغ منه الغاية حتى إن الجمل قد يموت من قرصته السَّامَّة أحياناً وقوله عز وجل: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي فأما الذين صدَّقوا

الله ورسوله فيعـرفون أن المَثَلَ الذي ضربه الله هو قَمِنٌ بأن تتنبَّـه له النفوس، وتَعِيهُ القلوب، وتَتَدارَسَهُ لما اشتمل عليه من الحِكَم الباهرة والآيات القاهرة، الشاهـدة بأن الله هو الحق وأن قولَه الحقُّ وأن مـا يضربه من الأمثال هـو مَنَارٌ على الطـريق يهدي بـه الله من يشاء إلى صراط مستقيـم، وقولـه عـز وجل: ﴿وأما الـذين كفـروا فيقولون مـاذا أراد الله بهذا مَثَلاً﴾ أي وأمـا الذيـن كفروا فَلِفَـرْطِ جهلهم، وشدة عمى قلـوبهم فإنهم يقولـون: ما الفـائدة من ضرب هذا المَثَل؟ كما قال الله تبارك وتعالى عنهـم في سورة المدثر عن سقر: ﴿عليها تسعـة عشر﴾ فقال الـذين في قلـوبهم مـرض والكـافرون: مـاذا أراد الله بهذا مثـلاً، وظن بعض السفهاء أنهم بجمعهم يغلبـون التسعة عشر خـزَنَةَ النـار فقال عز وجل: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكةً وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للـذين كفروا ليستيقن الذين أوتـوا الكتاب ويزداد الذين آمنـوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبهم مرض والكافرون مـاذا أراد الله بهذا مثلاً، كـذلك يضل اللهُ من يشـاءُ ويهدي من يشاء، ومـا يعلم جنود ربك إلا هو، وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ وقوله عز وجل: ﴿يُضِلُّ به كثيراً ويهدي بـه كثيراً وما يُضِل به إلا الفـاسقين﴾ أي يفترق الناس في فهم مـا يَضْرِبُه الله عـز وجل في القرآن من المثل فيخـذل الله كثيراً من الناس فـلا يعقلون هـذا المثل، ويُكَذِّبون بـه وهم الكافرون والمنـافقون، ويؤيـد ويُسَدِّدُ ويوفق كثيراً من النـاس وهم المستجيبون لله ولـرسوله فيعقلـونه ويعلمـون أنه الحق من ربهم وأهل الهدى وإن كـانوا قليـلاً بـالنسبة للنـاس فهم كثيرون في أنفسهم وإضلال الله لمن يشاء يكون بخذلانهم وعدم إعانتهم ولا يظلم ربك أحداً، وهدايـة الله تعالى لمن يشاء تكون بتأييدهـم وإعانتهم وتوفيقهم للحق فضلاً منه وإحساناً، وفي قوله عز وجل: ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين.﴾ أي ولا يخذل الله عـز وجل إلا من استحوذ عليهم الشيطـان فأنساهم ذكـر الله،

وانخرطوا في سلك جنده، وقد وصفهم الله تبارك وتعالى بالفسق وهو الخروج عن طاعة الله، وأصل الفسق في كلام العرب هو الخروج عن القَصْد قال في القاموس المحيط: (الفِسْقُ) بالكسر التَّرك لأمر الله تعالى والعصيان والخروجُ عن طريق الحق أو الفُجُور كالفُسُوق، فَسَقَ كنَصَرَ وضَرَبَ وكَرُمَ فِسْقاً وفُسوقا، وإنه لفِسْقٌ خروج عن الحق، وفَسَقَ جَارَ وعن أمر ربه خرج، والرُّطَبَةُ عن قشرها خرجت كَانْفَسَقَتْ قيل: ومنه الفاسقُ لانسلاخه عن الخير، ورَجُلٌ فُسَقٌ كَصُرَدٍ وسِكِّيت دائمُ الفِسْق، والفُوَيْسِقَةُ الفأرة لخروجها من جُحرها على الناس، ويا فَسَاقِ كقطام يافاسقةُ، ويا فُسَقُ كزفر يا أيها الفاسقُ، وليس في كلامٍ جاهلي ولا شعرهم فاسق على أنه عربي والتفسيق ضد التعديل اهـ. وقد حكى القرطبي في تفسيره عن أبي بكر الأنباري في كتابه (الزاهر) أنه لما تكلم عن معنى الفسق أورد قول الشاعر:

يَذْهَبْنَ في نجدٍ وغَوْراً غائرا فَوَاسِقاً عن قصدها جوائرا

وقول الشاعر: وغوراً غائرًا أي ويَسْلكْنَ غورا. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: خمسٌ فواسقُ يُقْتَلْنَ في الحِلِ والحرم الفأرةُ والعقربُ والغرابُ والحدأة والكلبُ العَقُورُ. ولفظ الفاسق يطلق على الكافر وعلى المسلم العاصي إلا أن المراد في هذا المقام هو المنافق والكافر بدليل قوله عز وجل بعد هذا الوصف مباشرة: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾. وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب هذه الصفات بالعَمَى واللعنة وسوءِ الدار حيث يقول في سورة الرعد: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى﴾ وبعد أن وصف الفريق السعيد قال في أهل العَمَى: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن

يـوصل ويفسـدون في الأرض أولَئك لهم اللعنـة ولهم سُوءُ الـدار. ﴾ والعهـد الذي ينقضه هـؤلاء من بعد ميثاقه أي توكيده عليهم هـو وصية الله عز وجل بالإيمان بـه وبرسلـه وبكتبه وبـاليوم الآخـر ويشمل كذلك مـا يعاهـدون به غيرهم ويوثقون ذلك بالأيمان ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون إذ من أبـرز صفـات هـؤلاء أنهم إذا عـاهدوا غـدَرُوا ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي ويقطعون أرحامهم، ولا يَصلُونَها، وهذا من أخبث أعمال النـاس أن يقطعوا أرحامهـم فإن من قطع رحمه كان لما سـواهـا أقطع ولـذلك تعهـد الله عـز وجل بقطـع من قَطَعَ رحمه ووصل من وصلها، كما جـاء في حديث الصحيحين عن جُبَيْر بن مطعـم رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: لا يدخل الجنـة قاطع أي قاطع رحم. كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فَـرَغَ منهم قامت الرحم فقالت: هـذا مقام العائذ بك من القطيعـة قـال: نَعَم أمـا تَـرْضِينَ أن أصلَ مـن وصلك وأقطعَ من قطعك، قالت: بلى: قال: فذلِك لكِ قال رسول الله ﷺ: اقرءوا إن شئتم: ﴿فهل عسيتم إن تـوليتم أن تفسـدوا في الأرض وتُقَطِّعـوا أرحـامكم. أولَئك الـذين لعنهم الله فأصمهم وأعمـى أبصـارهـم. ﴾. وقـولـه عـز وجل: ﴿ويفسدون في الأرض﴾ أي يقفـون في وجه شريعة الله ويحاربـونها فيُضَيِّعُون على الناس أعدل المناهج ويصرفونهم إلى الجَوْر والظلم. وقوله: ﴿أولَئك هم الخاسرون﴾ أي هـؤلاء هم الذين ضيَّعُـوا على أنفسهم أحسن الحظوظ وأوفـر الأرباح. وقـد أشار الله عز وجل إلى أن من يحارب دين رسـول الله محمد ﷺ إنما يحارب رحمه وقرابته حيث يقول عز وجل: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القـربى﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الـرسـالة إلا أن تَـوَدُّوا أقـاربكم وتحبوهم، وكما قـال في الآية المشار إليهـا قريبـاً: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾.

قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون* هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم.﴾

بعد أن وجَّهَ الله تبارك وتعالى عباده إلى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، شرع يشرح لهم نعمه، ويبين لهم آياته في أنفسهم وفي الآفاق، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ ذكرت في تفسيرها أن الله تبارك وتعالى لفت انتباه الناس في هذا المقام إلى دليلين ظاهرين بارزين أمام الأعين يشهدان أنه لا إله إلا الله، الأول في الأنفس والثاني في الكون والأفاق، وأن القرآن الكريم أكثر من لفت الانتباه إلى هذين الدليلين وهما النظر في الأنفس وفي الأفاق، وقد بدأ هذا المقام هنا بقوله عز وجل: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون.﴾ والاستفهام للتوبيخ والإنكار والتبكيت والتعنيف، أي كيف يقع منكم الكفر بالله وكيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره وقد أقام لكم الدلائل، ونصب أمام أعينكم البراهين في أنفسكم وفي السموات والأرض الشاهدة على أن الله وحده هو رب كل شيء وسيده ومليكه وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فكيف تغفلون عن التبصر في أنفسكم وفي السموات والأرض؟ وقد قرر الله تبارك وتعالى هنا أن الناس كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم ويشير عز وجل بذلك إلى أن الإنسان كان في طور من أطواره جماداً كالموات لا أثر فيه للحياة حيث كان أغذية ثُمَّ هضمها فتحولت إلى المنى، الذي لو وضَعْتَهُ تحت (المجهر) ما

رأيت أيَّ أثر لصورة الإنسـان فيه، وقد أخرج الله تبـارك وتعالى هذا المني من الإنسان مـاء دافقاً يخرج من بين الصلب والترائب منْدَفِعًا إلى قـرار الرحم ثم يتحول بعد مدة معينة إلى علقـة أي قطعة دم حمراء مستطيلة لا أثر للتخطيط الإنسـاني فيهـا، ثم بعـد مدة تتحـول العلقـة إلى قطعـة لحم لا شكل فيهـا للإنسان ولا تخطيط فـلا رأس ولا رقبة ولا أنف ولا أذنين ولا عينين ولا يدين ولا رجلين ثم بعـد مـدة معينة يجري فيهـا الـرسم والتخطيط ويجعل المضغـة عظاما ويكسو العظام لحما، وهـو في هذه الأطوار كلها كأنه ميت أو جماد ثم يَنْفُخُ فيه الـروحَ فيتحرك ويصير خلقـاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحـركة، على أن هذا التخطيط يتم في ظلمات ثلاث وهي ظلمةُ البطن وظلمةُ المشيمة وظلمةُ الـرحم، ويطبعه الله عز وجل على صورة لم يخلق قبلهـا مثلها من كل وجه ولم يخلق بعدها مثلهـا من كل وجه فجميعُ صُوَر بني آدم تتفاوت ومهما تشابهت فـإن الله عز وجل يجعل فيهـا علامـة فارقة تميـز بين الشخص وغيره ليتعارفـوا، ومع خلقه للإنسـان على هذه الصـورة التي ينفرد بها عن غيره من الناس فإن الله عـز وجل يطبعه كذلك في بطن أمه على أخـلاق من يشاء الله من آباء الجنين أو أمهـاته، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقـول: ﴿هو الـذي يصوركم في الأرحـام كيف يشـاء لا إلٰه إلا هـو العزيـز الحكيم﴾ وكما قال: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذٰلكم الله ربكم له المُلْك لا إلَـه إلا هو فأنى تُصْرفون﴾ ولا يستطيع أحـد أن يدعي أن الأب أو الأم أو غيرهما يتمكن من فعل شيء من ذلك فكم من رجل قـوي نشيط لا يـولد لـه، وكم من امـرأة صحيحة نشيطـة لا تلد. وكم من امـرأة تتمنى بنتًا فلا تلد إلا الذكور وكم من إنسـان يتمنى أن يولد له ذكر فلا يجيئه إلا الإنـاث كما قال عـز وجل: ﴿لله مُلْك السمٰوات والأرض يخلق ما يشـاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكـور﴾ أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل

من يشـاء عقيما إنـه عليم قـديـر﴾ كما أن لـون الإنسـان لا يستطيع أحـد أن يتحكم فيه لا الأب ولا الأم ولا الطبيب وقد أشـار رسول الله ﷺ إلى أن اللون قد ينجـذب لعرق من عروق آبائه الأولين فقـد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنـه قال : جاء رجـل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال : إن امـرأتي ولدت غلاما أسـود فقال النبي ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم ، قـال : فما ألوانها ؟ قال : حُمْرٌ، قـال : هل فيها من أورق ؟ قال : إن فيها لَوُرْقاً ، قال : فأنّى أتاها ذلك؟ قال عسى أن يكون نزعه عرق ، قال : وهذا عسى أن يكـون نزعه عرق . وإذا تأمل الإنسـان قليلا فيما احتواه الجسم الإنساني من دلائل وَجَدَ الآيات البينات والحجج الظاهرات ، فجميع البشر في مشارق الأرض ومغاربها مع اختلاف ألوانهم وتباعد بلادهم ولغاتهم وحاجاتهم وأطعمتهم تجد التركيب العضوي الواحد فلكل واحد منهم عينان ولسان وشفتان وأذنان وحُلقوم وأجهزة هضمية وأجهزة تنفسية وأجهزة دموية إلى غير ذلك مع اتحاد التركيب والتكـوين للقلب والكبـد والـرئتين والأمعـاء الغلاظ والأمعـاء الدقـاق وأجهزة الإخـراج ، وتشابـه ما بين هـذه الأجهزة في الإنسان والحيـوان ، وهداية كل جهـاز من هذه الأجهـزة إلى أداء وظيفته دون تدخل من أحـد إلا الله الذي لا إلـه إلا هو ولا معبود بحق سـواه ، ولما كان الإنسان هـو المكلف من بين الخلق بعمارة الأرض هداه سُبُلَ ذلـك مع عجزه وضُعفـه ، فإن الإنسان خلق ضعيفـاً كما قـال عز وجل : ﴿وخلق الإنسـان ضعيفا﴾ وهو الوحيد من بين المواليد الذي ينزل من بطن أمه بلا أسنان ، ولا يستطيع أن يتناول بيـده شيئا ولا يستطيع أن يرفع رأسـا مدة طويلـة بخلاف سائر مواليد الحيوانات فإنها بعد ولادتها بقليل تقوم وتمشي وتجري وتتبع أمها ، والفرخ عندما يخرج من البيضة ينطلق باحثا عن طعامه ، وجميع هذه السمات لـلإنسان وللحيـوان واحـدة مع تباعـد الديـار واختـلاف أحوال الأقطـار ،

والأعصار. وفي قوله عز وجل: ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم﴾ يعني بنفخ الروح في الجنين وفي قوله: ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ أي ثم يقضي عليكم بالموت بعد انقضاء أجلكم في الحياة الدنيا وقد قَهَرَ الله العبادَ بالموت ولم يجعل لأحد فيه سلطانا فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ثم يحيي الموتى بالبعث والنشور ويرجعون إلى الله ليضع لهم الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ولا يضيع من عملها شيء، كما قال عز وجل: ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ والتعبير بالفاء في قوله عز وجل: ﴿فأحياكم﴾ للإشعار بأن إحياء الموتى لا يحتاج إلى زمن. والتعبير بثُم للإشعار بالتراخي وهو الزمن الممتد بين نفخ الروح والموت الذي يحصل بعد الحياة الدنيا وانتهاء الآجال، وكذلك التراخي في الزمن بين وقت الموت ومدة البرزخ إلى البعث والنشور، ثم إلى جنات النعيم أو عذاب الجحيم أعاذنا الله منه، وفي قوله عز وجل: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ أي أوجد لكم الأرض وما فيها من الخيرات والبركات والأقوات، فكلها خلقت من أجل الإنسان وقد جعل فيها الطيب والخبيث ليمتحن بذلك عباده، حيث أباح لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والمراكب والملابس وسائر الشهوات والملذات المباحة، وحرم عليهم الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمراكب وسائر الشهوات والملذات المحرمة. وقوله عز وجل: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم﴾ أي ثم قصد إلى السماء وقال الإمام البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾ قال ابن عباس وأكثر مفسري السلف أي ارتفع إلى السماء وقال ابن كيسان والفراء وجماعة من النحويين أي أقبل على خلق السماء وقيل قصد لأنه خلق الأرض أولاً ثم عَمِدَ إلى خلق السماء اهـ وقوله عز وجل: ﴿فسواهن سبع سمٰوات﴾ أي

خلقهن مستوياتٍ لا فُطُورَ فيها ولا صُدُوع. وقد فصَّل الله تبارك وتعالى قوله هنا ﴿هـو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استـوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات﴾ في سـورة فُصلت حيث يقول: ﴿قل أئنكم لتكفرون بـالذي خلق الأرض في يـومين وتجعلـون له أنـداداً ذلك رب العـالمين * وجعل فيهـا رواسي من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طـوعا أو كرها قالتَا: أتينا طـائعين * فقضاهن سبع سمٰوات في يومين وأوحى في كل سماء أمـرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذٰلك تقدير العزيز العليم﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿في أربعـة أيام﴾ أي في يومين تُكمـلان مع اليومين السـابقين أربعة أيام، فخلقُ الأرض بما فيها من جبال وجعلُ بركـاتها فيها وتقديرُ أقواتها فيها تَمَّ في أربعـة أيـام، وخلقُ السمـوات السبع تَمَّ في يـومين فجميع أيـام خلق السموات والأرض كان ستة أيـام كما قال عز وجل﴿إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام﴾ وقال عز وجل: ﴿الله الذي خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في سـتـة أيام﴾ وقـال عز وجـل: ﴿ولقد خلقنـا السمٰوات والأرض ومـا بينهما في ستة أيـام وما مسنـا من لغوب﴾ وفي قـوله عـز وجل: ﴿وما مسنا من لغوب﴾ أي من تعب بسبب خلق السموات والأرض، فيه ردٌّ على اليهود قبحهم الله الذين حرفوا كـلام الله وكتبوا في التوراة كَذِباً على الله في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: فَأُكْمِلت السموات والأرض وكلُّ جندها وفَرَغ الله في اليوم السابع من عمله الـذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبـارك الله اليوم السابع وقدسـه لأنه فيه استراح من جميع عملـه الذي عمل الله خـالقا. اهـ وهذا من أكـذب مفتريات اليهـود وتحريفهم للتوراة تعالى الله عما يقولون علـوا كبيراً، هذا وقد ظن بعض الناس في قولـه تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بنـاها * رفع سَمْكها فسـواها *

وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذٰلك دحاها﴾ حسبوا أنه يدل على أن الأرض مخلوقة بعد السماء وهو فهم خاطئ لأن قوله عز وجل: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أي مع ذلك لأن قوله هنا: ﴿بعد ذٰلك﴾ أي مع ذلك، فبَعْد تستعمل بمعان منها مع الذي هو المراد هنا وكأنه يقول: إن في خلق السموات آيةً بينةً كافيةً شافيةً في قدرة الله على كل شيء ومع ذلك فقد خلق الأرض فهي آية أخرى كافية شافية وقد استعمل القرآن كلمة بعد بمعنى مع في قوله عز وجل: ﴿عتل بعد ذٰلك زنيم﴾ أي غليظٍ جافٍ ومع ذلك هو زنيم أي دَعِيٌّ. ولا شك أن هذا الوصف بكونه زنيماً عرف فيه قبل وصفه بالأوصاف السابقة إذ نسب إلى ذلك عندما جاءت به أمه لعنه الله، وصريح القرآن ناطق بأن الله خلق الأرض قبل خلق السموات في أكثر من مقام في الذكر الحكيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي وعلمه محيط بجميع الأشياء لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكـة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

إن الله تبارك وتعالى بعد أن وبَّخ الكافرين على كفرهم بالله وجحودهم لنعمه التي تتوالى عليهم من فضله وجوده وإحسانه مُقَبِّحا إليهم سُوءَ فِعالهم، واستمرارهم على ضلالهم، وكان من نعمه التي عددها عليهم أنه خلق لهم ما في الأرض جميعا وسخر لهم ما في السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها وكأنه يقول لهم: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم إذ خلقتكم ولم تكونوا، وأوجدتكم من العدم وخلقت لكم ما في الأرض جميعاً وسويت لكم ما في السموات، شرع هنا يُذَكِّرُهم بتكريمه لأبيهم آدم، وينبه عباده إلى حكمته التامة في إيجاد الإنسان على الأرض مع ما قد يوجد منه من الشر والكفر؛ لأن إيجاد ما يغلب خيره على شره تقتضيه الحكمة التامة، ولا سيما أن الإنسان قد رُكِّب من تراب الأرض، وركبت فيه الشهوات البهيمية، ومع ذلك لا يزال منهم من يذكر الله عز وجل ويسبح بحمده ويقدسه، فلله الحكمة البالغة. والملائكة جمع ملك ومعناه في اللغة مأخوذ من الملأك وهي الرسالة، تقول العرب: أَلِكْنِي إليه أي أرسلني إليه قال عدي بن زيد العبادي:

أَبْلِغ النعمانَ عني مَلْأَكاً   أنه قد طال حبسي وانتظارْ

والملائكة هم رسل الله بينه وبين أنبيائه وعباده وفي الاصطلاح: هم أجسام نورانية لطيفة لها قدرة على التشكل بالأشكال الجميلة أولو أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء شأنهم الطاعة ومسكنهم السموات لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون منهم جبريل الذي رآه

رسول الله ﷺ على صورتـه الحقيقية جالسا على كـرسي بين السماء والأرض له ستمائة جناح فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح، كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من طـريق مسروق قال: قلت لعائشة: فأين قوله: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قـالت: إنما ذاك جبريل ﷺ كان يأتيه في صـورة الرجال وإنه أتـاه في هذه المرة في صورته التي هـي صورته، فَسَدَّ أُفُقَ السماء وقـد ذكر الله تبارك وتعـالى خلقه للملائكـة في مطلع سورة فاطـر حيث حمد نفسه على هذه النعمة العظيمة حيث قال: ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث وربـاع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قـدير﴾ والإقـرار بالملائكـة ركن من أركان الإيمان كما جـاء في حديث أبي هريرة عند البخاري أن النبي ﷺ كان بارزاً يوما للناس فأتاه رجل فقال: مـا الإيمان قال الإيمان أن تـؤمن بالله ومـلائكته وكتبـه ورسله وتـؤمن بالبعث. الحديث وفي آخـره: ثم أدبر فقال ردوه فلم يَرَوْا شيئـا، فقال: هذا جبريل جـاء يعلم النـاس دينهم، وقـد رواه مسلم من حـديث عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه قال: بينما نحن عنـد رسول الله ﷺ ذات يـوم إذ طلع علينا رجل شديد بيـاض الثياب شديدُ سواد الشعر لا يُـرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفـه منا أحـد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيـه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمـد أخبرني عن الإسلام قال: الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدا رسـول الله وتُقيمَ الصـلاة وتُؤتي الـزكـاة وتصـوم رمضـان وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيـلاً. قال: صـدقت، فعجبنا لـه يسأله ويُصَدِّقُـه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بـالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتـؤمن بالقَدَر خيره وشره. قال: صدقت الحديث

وفي آخره: قال: ثم انطلق فلبثت مَلِيًّا ثم قال لي: يا عمر أتدري من السائل؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. وقد بين الكتاب والسنة كثيرا من أعمال الملائكة ووظائفهم كما بين رسول الله ﷺ أصل خلقهم، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال خُلِقَت الملائكة من نور وخلق الجانُ من مارج من نار وخُلق آدمُ مما وصف لكم.

وقد جعل تبارك وتعالى الملائكة رسلا وجعلهم حفظة لعباده حيث يقول عز وجل: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي يحرسونه ويصونونه بسبب أمر الله لهم بذلك.

ومن وظائف الملائكة قبض أرواح الناس فملائكة الرحمة يقبضون أرواح المؤمنين وملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿قل يتوفاكم ملَكَ الموت الذي وكل بك﴾ ويقول جَلَّ مِن قائل ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلُنَا وهم لا يُفَرِّطُون . ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو ترى إذ يَتَوَفَّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ومن وظائف الملائكة كتابة أعمال الناس، مَلَك عن اليمين وملك عن الشمال كما قال عز وجل: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ وقد وصفهم الله عز وجل بصفات تشير إلى أعمالهم حيث يقول: ﴿والصافات صفا﴾ وكما قال: ﴿وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون ﴾ وقال في وصف ملائكة الرحمة وملائكة العذاب الموكلين بقبض الأرواح: ﴿والنازعات غرقا * والناشطات نشطا﴾

وقد ذكر رسول الله ﷺ أن لله ملائكـة يسيحون في الطرقات يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأوا مجلسا من مجالس الذكر تنادوا : هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحة الـرحمة إلى السماء الدنيا ، في وظائف كثيرة ، وقـد سمى الله عز وجل من الملائكة جبريل وميكائيل ووصف الله عز وجل جبريل بأنه شديدُ القُوى حيث يقول عز وجل : ﴿علَّمـه شديد القُوَى * ذو مِرَّة فاستـوى ﴾ وقال عز وجل فيه أيضاً : ﴿إنه لقول رسـول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مُطاعٍ ثَمَّ أمين ﴾ وسماه الله عز وجل الرُّوحَ الأمين كما سماه روحَ القُدُسِ حيث يقولُ عـز وجل : ﴿وإنـه لتنزيل رب العـالمين * نزل بـه الرُّوح الأمين * على قلبك لتكـون من المنذرين ﴾ ويقـول عز وجل : ﴿قل نَـزَّلَهُ روح القـدس من ربك بـالحق ليثبت الـذين آمنـوا وهـدى وبشرى للمسلمين﴾ وقـال في حق عيسى عليـه السلام ﴿إذ أيـدتك بـروح القـدس﴾ حيث كان جبريل عليـه السلام هو رسول الله إلى جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وقد بين الله عز وجل أن الملائكة جنود الله وأنـه لا يعلم عددهم وكيفياتهم إلا الله عـز وجل حيث يقـول : ﴿وما يعلم جنـود ربك إلا هـو﴾ ومعنى قـوله عـز وجل : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي إني خالق في الأرض جِنْساً يخلف بعضهم بعضاً قـرناً بعـد قرن وجيـلاً بعد جيل وقبيـلاً بعد قبيل كما قـال عز وجل : ﴿وهـو الـذي جعلكم خـلائف الأرض﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿ويجعلكم خلفـاء الأرض﴾ وكما قال عز وجـل : ﴿ولو نشاء لجعلنـا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد قوم نـوح﴾ وقال عـز وجل : ﴿واذكـروا إذ جعلكم خلفاء من بعـد عاد﴾ ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمـاء﴾ يدل على أن المراد ذريـة آدم لا آدم نفسه وإن كـان هو والـد هؤلاء جميعا والخليفةُ قد يطلق على معانٍ منها الإمام الأعظم كأبي بكر وعمر وعثمان

وعلى رضي الله عنهم وسائر من يُلَقَّبُ بالخليفة من الحكام وليس هذا مراداً هنا، ولكنه مراد في قوله عز وجل: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ أي جعلناك وصيرناك إماماً وحاكماً وليس المراد أنه خليفة الله؛ لأن الله عز وجل لم يَغِبْ حتى يتخذ خليفة له، وقد سُمِّيَ أبو بكر رضي الله عنه خليفة لأنه صار الحاكم بعد رسول الله ﷺ لما غاب بالموت ﷺ، وكذلك كانت وظيفةُ هارون عليه السلام بعد ذهاب موسى لميقات ربه حيث قال لهارون عليه السلام: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ ولم يثبت في خبر صحيح عن رسول الله ﷺ تسمية الحاكم خليفة الله ولا تسمية ذرية آدم خلفاء الله في الأرض فإن الله مع عباده بعلمه أينما كانوا كما قال عز وجل: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ ولو جاز إطلاق كلمة خليفة الله على أحد لكان أبو بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما أولى الناس بها ولم يثبت أن واحداً من أصحاب رسول ﷺ ــ وهم أعلم بالألفاظ الشرعية واللغوية ــ سمى أبا بكر أو عمر خليفة الله وإنما كانوا يقولون لأبي بكر رضي الله عنه يا خليفة رسول الله ويقولون لعمر رضي الله عنه يا خليفة خليفة رسول الله ﷺ حتى خشي عمر رضي الله عنه أن يطول الأمر فيقال للخليفة من بعده: يا خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ فسمَّى نفسه أمير المؤمنين، وليس قوله عز وجل عن الملائكة: ﴿أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونُقدِّس لك؟﴾ سؤالَ اعتراض وإنما هو سؤال استعلام واستكشافٍ عن الحكمة في ذلك كأنهم قالوا: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يسفك الدماء ويفسد في الأرض ونحن نسبح بحمدك ونصلي لك ولا يصدر منا شيء من سفك الدماء أو الفساد في الأرض؟ فقال الله عز وجل: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي إني أعلم في خلق هؤلاء من

المصالح الراجحة المُقَدَّمَةِ على المفاسد التي ذكرتموها فيهم فإني سأجعل فيهم الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين، المستجيبين لله ورسله مع ما ركب فيهم من الشهوات، ولذلك تسارع الملائكة بالشهادة بالخير للمؤمنين والاستغفار لهم كما جاء في الصحيح: أن الملائكة الذين يتعاقبون في المؤمنين ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر حيث تمكث ملائكة الليل من العصر إلى الفجر وملائكة النهار من الفجر إلى العصر فإذا صعدوا إلى الرب سألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون فاغفر لهم يوم الدين. وكما قال عز وجل: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم* وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾

قـال تعـالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثـم عرضهم على الملائكـة فقـال: أنبئوني بأسماء هـؤلاء إن كنتم صادقين * قالـوا: سبحانك لا علم لنـا إلا ما علمتنـا إنك أنت العليم الحكيم * قال: يـا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قــال: ألم أقل لكم إني أعلم غيـب السماوات والأرض وأعلم مـا تبدون وما كنتم تكتمون﴾

إن الله تبارك وتعالى قد ذكر في الآية السابقة مشهداً من مشاهد الغيب التي جـرت في الملأ الأعلى وأعلم الله تبارك وتعـالى عباده بها ليعلمـوا أن الغيب لله وحده لا يعلمه ملك مُقَرَّبٌ ولا نبي مرسل إلا مـا تقتضيه الحكمة من إعلامه للملائكة أو المرسلين أو الأنبياء، وإذا كانت الملائكة لا يعلمون الغيب فمن باب أولى لا يعلمه الجن والكهنة والعـرافون والدجالون الذين يـدعون معرفة الغيب وأن الجن يأتونهم بأخبار ما كان وما يكون، وقد نص الله تبارك وتعالى في محكم كتـابـه أن الجن لا يعلمـون الغيب حيث قـال: ﴿ولسليمان الـريح غدوهـا شهر ورواحهـا شهر وأسلنـا له عين القطـر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنـا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور* فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأتـه فلما خر تبينت الجن أن لو كانـوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ وفي قولـه تبارك وتعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ الخ الآيـات الثلاث مشهـدٌ آخر من مشـاهـد الغيب التي يقصها الله تبـارك وتعـالى فيما أنـزلـه من القـرآن على النبي الأمي الـذي بعثـه في الأميين لتعليم الناس الكتاب والحكمة وليـزكيهم، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿وعلَّم آدم الأسماء كلها﴾ كان بعد الأمر بسجود الملائكة لآدم، وإنما قدَّمه في الذكر هنا

لاتصاله بقـوله عز وجل في ختام الآية السابقـة : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ ولتقرير ما قدمه في الآية السـابقة ممَّا يقتضي أن الغيب كلَّه لله ، وهو وإن كان المقصودُ منه بيان شرف آدم وعُلُوِّ منزلتـه فإنه تقريع لمن تَرَدَّدَ في الإيمان بالنبي الأمي الذي أعلمـه الله عز وجل بأخبار الملأ الأعلى وأعلمه مـا لم يكن يعلمُهُ هو ولا قومه من قبل كما عَلَّم أباه آدم الأسماء كلهـا فَعَرَفَ ما لم تعرفه الملائكة منها ، والمراد بالأسماء كلهـا ما لا غِنًى لآدم عنه مما يحتاج لمعـرفته ومنها أسماء الملائكة الـذين يُعَرفهم بأسمائهم . وهـذا كقوله في ملكـة سبإ : ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ يعني ممـا لا غنى لمثلها عنـه ، وكذلك قـوله تعالى في ريـح عاد : ﴿تدمـر كل شيء بأمر ربها﴾ أي تدمـر كل شيء أمرت بتـدميره بدليل أنها لم تدمر السموات والكواكب وما خرج عن دائرة أرض عاد ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : يجتمع المؤمنون يوم القيـامة فيقـولون : لـو استَشْفَعْنَا إلى ربنـا ؟ فيأتون آدم فيقـولون : أنت أبـو النـاس ، خلقك الله بيده ، وأسجـد لك ملائكتـه ، وعَلَّمَك أسماءَ كلِّ شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يُرِيحَنَا مـن مكاننا هذا فيقول : لستُ هناكم . إلخ الحديث . فقوله في هـذا الحديث المتفق عليه وعلمك أسماء كل شيء هو كما وصفتُ في معنى : ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ وقَـوْلِه : ﴿تدمـر كل شيء بأمر ربها﴾ وآدم هو أبـو البشر وأبو الناس كلهم قيل هـو مأخوذ من أديم الأرض وهو وجههـا ، ومنها خُلِقَ ، وقيل : هو مـأخوذ من الأُدْمَة وهي السُّمْـرَة وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي : حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ إن الله خلق آدم من قبضة قبضهـا من جميع الأرض فجـاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجـاء منهم الأبيض والأحمر والأسـود وبين ذلـك ، والسَّهْلُ والحَزْنُ وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك . ولا شك أن ما أورده القـرآن الكريم من قصـة آدم هذه

يقطع بكذب (داروين) ونظـريته الإلحادية في «التطـور والارتقاء». وقولـه عز وجل: ﴿ثم عـرضهم على الملائكـــة﴾ أي عـرض المسميـات التي علم آدم أسماءها على الملائكة والظـاهر أن المسميات المعروضـة كان منها لما يعقل ولما لا يعقل، وغلَّب العاقل تكريماً له فقال: «عرضهم» ولم يقل عَرَضَهَا، وقوله عز وجل: ﴿فقال أنبئوني بأسماء هـٰؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أي قال الله تبارك وتعالى للملائكة: أخبروني بأسماء هذه المسميات المعروضة عليكم إن علمتم أنكم تكونون صادقين في هذا الإعلام، فَسَارَعُوا إلى إظهار عجزهم عن معرفة أسماء هـؤلاء وبَـرَّءُوا أنفسهم أن يقـولوا على الله قـولاً بـلا علم، ونـزهـوا الله وسبحوه وقَدَّسُوه بين يَدَيْ جوابهم حيث قالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنـت العليم الحكيم﴾ وهذا منهم اعتراف بعجزهـم وقصورهم، وفيه إشعار بأن سؤالهم كان استفساراً وليس اعتراضا، وهذه صورة أخرى من صـور تقريـر أن الغَيْبَ لله وحـده وأنه تبـارك وتعـالى عنده مفـاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لن يصل إلى أحد شيء من علم الغيب إلا من الله وحده كما قال عز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسـول فإنـه يسلك من بين يـديـه ومن خلفه رصـدا * ليعلم أن قـد أبلغـوا رسـالات ربهم وأحاط بما لـديهم وأحصى كلَّ شيء عددا﴾ وفي هـذا الذكـر تقريع لليهود والمنافقين والكافرين الذين عَمُوا وصَمُّوا عما جاء في هذه القصة من علوم الغيب التي قصهـا الله تبارك وتعـالى في هذا المقام على رسـوله النبي الأمي محمـد ﷺ وإذا كانت الملائكـة الكرام يقـرون بأنهم لا يعلمون إلا مـا علمهم الله عز وجل فهل يليق بعاقل أن يقـول على الله بغير علم ؟ وقوله عز وجل: ﴿قال يـا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهـم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمـٰوات والأرض وأعلم ما تبـدون وما كنتم تكتمـون﴾ أي عندمـا أعلن الملائكة أنهم لا يعـرفون أسماء المسميـات التي عرضهـا عليهم

لأنهم لا يعلمـون شيئا إلا مـا علمهم الله عـز وجل وأنهم لا يقولـون على الله بغير علم قال الله تبارك وتعالى لآدم عليـه السلام: أخبر الملائكة بأسماء هذه المعـروضـات ولا مـانع مـن أن يكـون من بين الأسماء التي يتحـدث بها آدم للمـلائكـة تعريفُ كـل ملك باسمـه، فيقـول آدم لكل مَلَك من الملائكـة الحاضرين: اسمك كذا. وبعد أن أخبر آدم عليـه السلام الملائكة بأسمائهم قال الله عز وجل: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموٰات والأرض وأعلم ما تبـدون ومـا كنتم تكتمـون﴾ أي قـد أخبرتكم وقلت لكم إني أعلم السر في السموات والأرض ولا تخفى عليَّ خافية، فالغائب والشاهد في علمي سواء، وأعلم ما يظهره العباد وما يكتمونـه، كما قال عز وجل: ﴿قل إن تُخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلمُ ما في السموٰات وما في الأرض والله على كل شيء قـدير﴾ وكما قـال عـز وجل عن عيسى عليه السـلام: ﴿إن كنتُ قلتُـه فقـد علمتَـه تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك إنك أنت عـلام الغيـوب﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿قل اللهم فـاطـر السموٰات والأرض عـالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانـوا فيه يختلفون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبـةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين * وهـو الذي يتـوفاكم بـالليل ويعلم ما جـرحتم بالنهـار ثم يبعثكم فيـه ليُقْضَى أجـلٌ مسمًّى ثم إليـه مـرجعكم ثـم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ألا إنهم يَثْنُون صدورهم ليستخفـوا منه ألا حين يستَغْشون ثيابهم يعلم ما يُسِرُّون وما يعلنـون إنه عليم بذات الصدور﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿والله يعلم مـا تسرون ومـا تعلنـون﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يُسِرُّون ومـا يعلنون إنه لا يحب المستكبرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ وكما قال عز

وجل : ﴿قل أنـزلـه الـذي يعلم السرَّ في السمٰوات والأرض إنه كـان غفـورا رحيما﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿قل لا يعلم من في السمٰوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعـرون أيان يبعثون﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿وإن ربك ليعلم ما تكِنُّ صدورهم ومـا يعلنون . ومـا من غائبـة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ وكما قـال عـز وجـل : ﴿هـو الله الـذي لا إلَـه إلا هــو عـالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمـرات من أكمامهـا ومـا تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمـه ويـوم يناديهم أين شركـائي قالوا : آذناك مـا منا من شهيد﴾ ولذلك كـان أنبياء الله ورسله يعلنون أنهم لا يعلمون الغيب وفي ذلـك يقول الله تبارك وتعالى في حق حبيبه ونبيه ورسوله وسيد خلقـه محمد ﷺ : ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ، قل هل يستـوي الأعمى والبصير أفلا تتفكـرون ﴾ وقال في حق نـوح عليه السـلام : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للـذين تزدري أعينكم لن يـؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين﴾ وقـد ختم الله تبارك وتعـالى سورة هود عليـه السلام بقـوله : ﴿ولله غيب السمٰوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فـاعبد ه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون﴾ .

قال تعـالى : ﴿وإذ قلنا للمـلائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ .

هذه صورة أخرى من صور تكريم آدم عليه السلام حيث أمر الله ملائكته بـالسجـود لآدم، وقد ذكـر الله تبـارك وتعـالى قصة خلق آدم وأمـر الملائكـة بالسجـود له في سبع سـور من القرآن الكـريم، فذكـرها في سـورة البقرة وفي الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص حيث قـال في سورة البقرة هنا : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافـرين﴾ وقال في سورة الأعراف : ﴿ولقـد خلقناكم ثم صورنـاكم ثم قلنا للملائكـة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من السـاجـدين * قال : ما منعك ألاَّ تسجـد إذ أمرتك قال أنـا خير منه خلقتني من نـار وخلقته من طين* قـال : فـاهبط منهـا فما يكـون لـك أن تتكبر فيهـا فـاخـرج إنك من الصاغرين * قال : أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغـويتني لأقعـدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينَّهم من بين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثـرهم شـاكريـن * قال اخـرج منها مَـذْءُوماً مدحُوراً لَمَن تَبِعَك منهم لأمـلأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾ وقال في سورة الحجـر: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصـال من حمإ مسنون * والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السَّمُوم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصـال من حمإ مسنـون * فإذا سـويته ونفخت فيـه من رُوحي فقعـوا لـه سـاجـدين * فسجد الملائكـة كلُّهم أجمعـون * إلا إبليس أبى أن يكـون مع السـاجـدين * قال يـا إبليس مالك ألاَّ تكـونَ مع السـاجديـن * قال لم أَكُنْ لأسجد لبشر خلقته من صلصـال من حمإ مسنون * قال فاخـرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون *

قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا * قال: أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾ وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوٌّ بئس للظالمين بدلاً﴾ وقال عز وجل في سورة طه: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ وقال عز وجل في سورة ص: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أَستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين * قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾ وفي تكرير هذه القصة في هذه السُّور، وفي تصريفها هذا التصريف البلاغي المعجز حجةٌ قاهرةٌ وآية باهرة شاهدة ناطقة بأن القرآن من

عند الله، وفيه تنبيه أيُّ تنبيه وتحذيرٌ أشدُّ التحذير من إبليس عدوٍّ أبينا آدم وعَدُوِّنا، إذ المقصود من تصريف هذه القصة تأكيدُ العداوة بين إبليس وذرية آدم وأن كل فساد في الأرض إنما هو من عمل إبليس وجنوده، وفي ذلك ذكر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وقد وصف الله تبارك وتعالى خَلق آدم في هذه الصُّوَر المشرقة المبثوثة في كتاب الله في هذه المواضع السبعة بأنه خلقه من طين من صلصال من حمإ مسنون، وذلك أن الله تبارك وتعالى قبض قبضة من تراب الأرض وبلَّها بالماء فصارت طينا ثم مرت عليها مدة حتى تحجرت فصارت صلصالاً والصلصال هو الطين المتحجر لأن الطين إذا طبخ بالنار سُمِّيَ فخَّارًا وإذا لم يطبخ بالنار لكنه تُرِك حتى تحجر يسمى صلصالا، فقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ أي من طين تحجر حتى صار شبيها بالفخَّار وهو المطبوخ بالنار في تحجره وصلصلته إن قلنا: إنه من صلصل بمعنى صوت وإن قلنا: إنه من صَلَّ بمعنى تغير فإن الطين إذا مضت عليه مدة أَنْتَنَ واسْوَدَّ فيصير حمأً مسنونا أي أسودَ متغيرا له رائحة خاصة فإذا يَبِسَ وتحجر صار كالفخار، والطين اللازب هو اللاصقُ ويقال أيضاً: لَزِبَ الطين إذا صَلُبَ. والسجود في قوله تعالى للملائكة: ﴿اسجدوا لآدم﴾ قال القرطبي في تفسيره: واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة فقال الجمهور: كان هذا أمراً للملائكة بوضع الجباه على الأرض كالسجود المعتاد في الصلاة لأنه الظاهرُ من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارًا لفضله وطاعة لله تعالى وكان آدم كالقبلة لنا ومعنى لآدم: إلى آدم كما يقال: صلى للقبلة أي إلى القبلة. اهـ وأصل السجود في كلام العرب بمعنى التذلل والخضوع قال ابن فارس: سجد إذا تطامن، وكلُّ ما سَجَدَ فقد ذَلَّ. اهـ وقال في القاموس: سَجَدَ خضع وانتصب ضِدٌّ

. اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : الساجدُ المنتصب في لغة طيء . اهـ
وقوله تعالى : ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي فسارع الملائكة ممتثلين أمر الله عز وجل إلا إبليس فإنه لم يسجد ، وإبليس قيل هو مشتق من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله ومنه قوله عز وجل : ﴿فلما نَسُوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أي آيسون من رحمة الله وإنما مُنِعَ من الصرف تشبيها له بالأسماء الأعجمية لأنه لا نظير له في أسماء العرب ، وإبليس لم يكن من الملائكة وإنما كان من الجن ، وكان له ذرية وليس للملائكة ذرية فهم لا يتناسلون ، وقد نصَّ القرآن الكريم على ذلك في قوله عز وجل في سورة الكهف : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾ ولا شك أن العرب يستثنون من المتصل ومن المنقطع فيقولون : قام القوم إلا زيدا فَيَسْتَثْنُون من الجنس إذ أن زيدا من جنس القوم ، ويقولون قام القوم إلا حمارا فَيَسْتَثْنُون من غير الجنس وهو المعروف بالاستثناء المنقطع لأن الحمار ليس من جنس القوم ، وهذا لا اختلاف فيه عند علماء العربية ، ولم يثبت — ولله الحمد — خبر واحد عن رسول الله ﷺ أن إبليس كان من الملائكة . وقد وصف الله عز وجل الملائكة بأنهم : ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وقال عز وجل : ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الجن خلقوا من النار وأن الملائكة خلقوا من نور وقال الله تبارك وتعالى في شأن إبليس لعنه الله : ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فهذه أدلة قطعية يقينية في أن إبليس لم يكن من الملائكة ، وشمول الأمر له بالسجود في قوله عز وجل : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق من أمر ربه﴾ وإن

كان متوجها في اللفظ للملائكة فإنه من غير الممتنع في العقل واللسان أن يأمر الآمر أجناساً مختلفة ممن يُعْقَلُ توجُّهُ الأمر لهم ويكونَ اللفظ لأعلى هذه الأجناس قدرا، لأنه إذا أُمِرَ الأعلى بالعمل فإن دخول الأدنى تحت هذا الأمر من باب أولى، كما يشمل المُسَاوِيَ لو وُجِدَ كما قال رسول الله ﷺ للأنصار عندما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم قريظة: قوموا إلى سيدكم. والمقطوع به أن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان سيد الأوس. كما كان سعد ابن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنهم جميعاً. كما جاء في لفظ البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأَتَى على حمار فلما دنا من المسجد قال للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ أي امتنع عن السجود لآدم واستعظم وقد سبق في علم الله أنه سيكفر ويصير شر خلقه، وفي هذا تنبيه وتحذير من خطر الكبر وشره ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبْرٍ، قال رجلٌ: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حَسَناً ونعلُه حسنةً؟ قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس. ومعنى بَطَرُ الحق أي دَفْعُهُ وردُّهُ، ومعنى غمط الناس أي احتقارهم وقد جرَّ هذا الكبرُ على إبليس الخزي والحسرة في الدنيا والآخرة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا قرأ ابن آدم السجدة فَسَجَدَ اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا وَيْلَهُ — وفي رواية: يا وَيْلي — أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود فسجد فله الجنةُ وأُمِرْتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النار. نعوذ بالله من إبليس ونفثه ونفخه وهمزه ولمزه.

قال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزجك الجنة، وكلا منها رغدا حيث شئتما، ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين* فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ .

إن الله تبارك وتعالى بعد أن حكى ما جرى بينه وبين الملائكة من أمرهم بالسجود لآدم تكريما له وامتناع عدو الله إبليس عن السجود لآدم عليه السلام غرورا واستكبارا وما حكم الله عز وجل به على إبليس، عطف على ذلك قصة أخرى من قصص تكريم آدم عليه السلام وحسد إبليس له لتكون ذريةُ آدم على أشد الحذر من عدو الله وعدوهم وعدو أبيهم آدم إبليس لعنه الله، وفي هذه القصة إشارة إلى أول الأوامر والنواهي التي صدرت من الله عز وجل لآدم عليه السلام في أول تكليف كَلَّفَهُ الله عز وجل به حيث قال عز وجل له: ﴿يا آدمُ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ ولا شك أن هذا الأمر إنما صدر من الله عز وجل لآدم بعد أن خلق الله له زوجه حواء، حيث خلقها من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام ليسكن إليها كما قال عز وجل: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذَهَبْتَ تقيمُه كسرته، وإن تركتَه لم يزل

أعـوج، فاستـوصوا بـالنساء خيرا» والظـاهر أن سجـود الملائكة لآدم وتَـأَبِّي إبليس لعنـه الله عن السجـود كـان قبل خلق حـواء وكان قبل أن يـؤمـر آدم وزوجُه بأن يسكنا الجنة، ولا شك أن إبليس بعد تَأَبِّيه عن السجود طُرِدَ من رحمة الله، فـامتـلأ حقـداً وحسداً لآدم عليـه السـلام، وقـد أذن الله لآدم أن يسكن هو وزوجـه الجنة وأبـاح لهما ما في الجنة يأكـلان منه رغـدا حيث شاءا ونَهَاهُمَا عن الأكل من شجرة معينـة وحذرهما من إبليس، غير أن حكمة الله البالغـة اقتضت أن يَنْسى آدمُ هذا التحـذير، وأن يعمل إبليـس بما يستطيعه من وسوسـة ومن أَيْمَانٍ كاذبة بأنـه ناصح لآدم ولزوجـه حتى أكل آدم وزوجُه من الشجرة عن غير قصد وإنما عن نسيان كما قـال عز وجل: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسيَ ولم نجد له عزمـا﴾ وليس في القرآن أو في السنة النبوية مـا يدل على أن هـذه الوسـوسـة كانت في الجنـة، وظـاهر القـرآن أن إبليس وسـوس لآدم وحواء قبل دخـول الجنـة لمجيء ذكـر الوسـوسـة بعـد قولـه: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنـة وكـلا منهـا رغدا حيـث شئتما ولا تقربـا هٰذه الشجـرة فتكونـا من الظالمين * فـأزلهما الشيطان عنهـا﴾ وفي سورة الأعـراف ﴿فوسـوس لهما الشيطان ليبدي لهما مـا وُورِيَ عنهما من سوءاتهما وقـال: ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجـرة إلا أن تكونـا ملكين أو تكونـا من الخالدين﴾ وفي سـورة طه: ﴿فـوسوس إليـه الشيطان قـال يا آدم هل أدلك على شجـرة الخلد وملك لا يبلى﴾ وهـذ يفسر قوله: ﴿إلا أن تكـونا ملكين أو تكـونا من الخالـدين﴾ أي ما نهاكما ربكما عن الأكـل من هذه الشجـرة إلا لئـلا تكونـا ملكين أو لئلا تكـونا من الخالدين، وأنكما لو أكلتما من هـذه الشجرة صرتما ملكين أو صرتما من الخالدين. كما قال: هـل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. والعرب تترك لا في كلامهـا أحيانا لدلالة السياق عليهـا كما قال عز وجل: ﴿ولا يأتل أُوْلواْ الفضل منكم والسعة أن يـؤتوا أولى القربى والمساكين

والمهاجرين في سبيل الله﴾ إذ المراد: أن لا يؤتوا أولى القربى الخ وكما قال عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ فقد قال بعض أهل العلم بالتفسير والتأويل: المراد: وعلى الذين لا يطيقونه فدية طعام مسكين. وكما قال عز وجل: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا تالله لا تفتأ تذكر يوسف لأن فَتِئَ وبَرِح لا تستعمل إلا منفية كما هو مقرر عند علماء اللغة العربية، وقد قال الشاعر:

فقلت يَمِينَ الله أبرح قاعدا وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا. والمقصود أن الله تبارك وتعالى لحكمته البالغة مكّن إبليس من الوسوسة لآدم ليعرف بنوه أن إبليس حريص على حرمانهم من كل خير لعداوته لأبيهم آدم ولهم، وأنه كما حَرَصَ على إخراج آدم من الجنة فهو كذلك حريص على حرمان أبناء آدم من دخول الجنة كما قال عز وجل: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ قال القرطبي رحمه الله: في قوله تعالى ﴿اسكُن﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا تكون ملكا. اهـ. وقوله: ﴿وزوجك﴾ الزوج بغير هاء للأنثى هي لغة القرآن الكريم يقال لامرأة الرجل زوجُه ويقال لرجل المرأة زوجُها قال الأصمعي: ولا تكاد العرب تقول زوجة اهـ ولا شك أن كلمة زوجة وردت على لسان رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان مع إحدى نسائه فَمَرَّ به رجل فدعاه فجاء فقال: يا فلان هذه زوجتي فلانة. الحديث. والرغد هو الواسع من العيش الهنيء الذي لا يتعب صاحبه في تحصيله وقوله: ﴿حيث شئتما﴾ أي في أي مكان من الجنة أردتما. وقوله: ﴿ولا تقربا هٰذه الشجرة﴾ أي لا تَدْنُوَا منها واجْتَنِبَاهَا، ولم يصح عن رسول الله ﷺ خبر

في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها ، ولـو كان في تعيينها خير لَعَيَّنَها الله عز وجل وبينها ، ومـا دام أن الله تبارك وتعالى لم يُبَيِّن نوع الشجرة ، ولم يُبَيِّنه رسـول الله ﷺ فلا حـاجة إلى تَكَلُّفِ تعيينها ولا إلى معـرفةِ نـوعها ، وقولـه عز وجل : ﴿فـأزلهما الشيطان عنهـا﴾ أي فوسوس لهما الشيطـان حتى نسيا نصيحة الله لهما وأكلا من الشجرة ، وقوله : ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي تسبب في إخراجهما من العيش الهنيء الـرغيد في الجنة ، وقـد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة ، والله يعلم أنه آكل منهـا لا محالة لأنه لا بد وأن يُسْكِنَه الأرض ويَعْمُـرَها هـو وذريته من بعـده ويجعل فيهم خيراً كثيراً وعبادًا صالحين وأنبياء ومرسلين ، والله قـد أعلم الملائكة قبل خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفـة ، وإن كـان لا بـد من الابتلاء والامتحـان والاختبـار في هـذه الأرض ، وقد كـانت الصورةُ الأولى لـلامتحان والابتـلاء أن يَنْهَى الله آدم عن الأكل من الشجرة وينسى آدم ذلك النَّهي ويأكل آدم منها ، ليعود إلى الأرض كما قـال عز وجـل : ﴿منها خلقنـاكم وفيهـا نعيـدكم ومنها نخـرجكم تـارة أخرى﴾ وأكثـر السلف من هـذه الأمة المحمـدية على أن الجنة التـي قال الله لآدم : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنـة﴾ هي جنـة المأوى لأن الصفـات التي وصف الله عـز وجل بها هـذه الجنـة في قـولـه : ﴿إن لك ألا تجوع فيهـا ولا تعـرى* وأنك لا تظمأ فيهـا ولا تضحى ﴾ تـدل على أنها جنـة النعيم كما أن الحديث الصحيح في قصة الشفاعة يوم القيـامة أن آدم يقول للذين طلبوا منه الشفـاعـة : وهل أخرجكم من الجنـة إلا خطيئـة أبيكم ؟ وقـد ذهب بعض السلف إلى أنها جنة في مكان عـال من الأرض ، والراجح عند أهل العلم أنها جنـة المأوى لما وصفتُ . فلو قـال قـائل : إذا كانت هي جنـةَ المأوى فكيف يخرج آدم منها ، ومن سكن جنـة المأوى لا يخرج منها ؟ فـالجواب هو أن من يسكن جنـة المأوى ولا يخرج منها هو مـن يدخلهـا جزاء على عمله الصـالح

بعد أن يقضي عمره في الدنيـا إذا مات على دين الأنبياء والمرسلين وتفضل الله عليه بدخول الجنة فإنه لا يخرج منها ولا يتحول عنها؛ لأنها دار جزاء المتقين. أما كـون آدم يسكنها قبل أن يعمل شيئا فهـذا للامتحان والابتـلاء والاختبار لتكون هذه الصـورةُ ماثلةً أمام أعين ذريته دائما ليحذروا من طـاعة الشيطان الذي أخرج أبـويهم من الجنة. وقوله تعـالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الأرض مُستقـر ومتاع إلى حين﴾ أي وأمرنـا آدم وحواء وإبليس بـالهبـوط إلى الأرض وسكناهـا حـالـة كونهم متعـادين يحمل إبليس وذريتـه العـداوة لآدم وذريتـه كما قـال عـز وجل محذراً بني آدم من إبليس وذريتـه: ﴿أفتتخـذونه وذريتـه أوليـاء من دوني وهم لكم عـدو بئس للظالمين بـدلا﴾ ومعنى: ﴿ولكم في الأرض مستقـــر ومتـــاع إلى حين﴾ أي ولكم في الأرض منازل ومساكن تستقـرون فيها وتستمتعون بما أخرجت لكم منهـا وما جعلت لكم فيها من المعـاشِ والرياش والـزينة والملاذ إلى انقضاء آجـالكم في الحياة الـدنيـا، وقولـه: ﴿فتلقى آدم من ربـه كلماتٍ فتـاب عليـه إنه هـو التـواب الـرحيم﴾ أي فَأَلْهَمَ الله عـز وجل آدم كلمات يعتـذر بها إلى الله فاعتـذر هـو وزوجـه إلى الله عز وجل وقـالا: ربنا ظلمنـا أنفسنـا وإن لم تغفر لنـا وترحمنـا لنكـونن من الخاسرين، فتاب الله عليـه واجتبـاه وهداه. وقـوله عـز وجل: ﴿قلنا اهبطوا منهـا جميعا فإما يأتينكم مني هدًى فمن تَبِعَ هـداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولَئك أصحاب النار هم فيهـا خالـدون﴾ أي أمـرنا آدم وحـواء عليهما السـلام بالهبـوط إلى الأرض بما اشتملا عليه من الذريـة، وأعلن الله عز وجل أنه سيرسل إلى بني آدم الرسل ويُنْزِل الكتب لتكـون نبراسا للناس يهتـدون بمنارهـا، وأن من اتبع هدى الله عاش عـزيزاً ومـات سعيداً ورجع إلى الجنـة لا يخرج منها ولا يتحـول عنها، ومن كفر بالله وكتبه ورسله وحارب هُـدَى الله الذي أرسلت به الرسل وأنزلت

به الكتب فهـو من أهل النار الملازمين لها الـذين لا يتحولـون عنها مـا داموا ماتوا على الكفر. والخوف غم يَلْحَقُ الإنسان مـن توقع أمر يؤذيه في المستقبل والحزن غم يلحقه من فوات أمر في الـزمن الماضي. وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أمره لآدم وزوجه بأن يسكنا الجنة ولا يـأكلا من الشجرة المعينة وما كان من إبليس ومن آدم وزوجـه وما أهبطهم الله بسببه إلى الأرض في مـواضع من كتابه الكريم مُوجَزَةً ومطنبة ومُسَاوِيةً حسب مقتضيات الأحوال حيث يقول في سورة الأعراف: ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن النـاصحين * فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ونـاداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقـل لكما إن الشيطان لكما عـدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفـر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيهـا تموتون ومنها تخرجون﴾ وقال في سورة طـه: ﴿فوسوس إليه الشيطـان قال يـا آدم هل أدلك على شجرة الخلـد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقـا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فَغَوَى * ثم اجتباه ربـه فتاب عليه وهدى * قال اهبطـا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإمـا يأتينكم مني هدًى فمن اتَّبَعَ هُـداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خير يوم طلعت فيه الشمس يومُ الجمعة فيه خلق آدم وفيه أُدخل الجنة وفيـه أخـرج منهـا. وفي هـذا الحديث دليل صريح على أن آدم خلق خـارج الجنة.

قال تعالى: ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾

قد كان الكلام من قوله عز وجل: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ إلى هذا المقام من القرآن الكريم في دعوة الناس عموما إلى إخلاص العبادة لله وحده، وبيان نعمه عليهم، ومواقفهم من دعوة الله عز وجل، وبيان خَلْق آدم وتكريمه، وحسد إبليس له، وما جرى بسبب ذلك شرع هنا في توجيه الخطاب لبني إسرائيل حيثُ دعاهم إلى ذكر نعمة الله عليهم، وقد استمر الخطاب مع بني إسرائيل من هذه الآية الأربعين من سورة البقرة إلى الآية السابعة والأربعين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث قال عز وجل: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونَنَّ من الممترين﴾ قال ابن جُزَيّ الكلبي في تفسيره: لماَّ قدَّم دعوة الناس عموما وذكر مبدأهم دعا بني إسرائيل خصوصا وهم اليهود، وجَرَى الكلامُ معهم من هنا إلى حزب: ﴿سيقول السفهاء﴾ فتارةً دعاهم بالملاطفة وذكَر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارةً بالتخويف، وتارةً بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم وذَكَر عقوباتهم التي عاقبهم بها، فَذَكَر من النعم عليهم عشرة أشياء وهي: إذ نَجَّيناكم من آل فرعون، وإذ فَرَقْنَا بكم البحر، وبَعَثْنَاكم من بعد موتكم، وظَلَّلْنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى، وعفونا عنكم، ونغفر لكم خطاياكم، وآتينا موسى الكتاب

والفـرقان لعلكم تهتـدون، وانفجـرت منه اثنتـا عشرة عينـا، وذكر من سـوء أفعالهم عشرة أشيـاء: قولَهم سمعنـا وعصينا، واتخذتم العجل، وقـولهم أرنا الله جهـرة، وبـدَّل الذيـن ظلموا، ولن نصبر على طعـام واحـد، ويحرفـون الكلم، وتـوليتم من بعـد ذلـك، وقست قلـوبكم، وكفـرهم بـآيـات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حـق، وذكر من عقوبتهم عشرةَ أشيـاءَ: ضربت عليهم الذلـة والمسكنة، وباءوا بغضب من الله، ويُعطوا الجزيـة، واقتلوا أنفسكم، وكونـوا قردة، وأنزلنا عليهم رجـزا من السماء، وأخذتكم الصاعقـة، وجعلنا قلوبهم قاسيـة، وحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم. وهذا كُلُّـه جَرَى لآبائهم المتقـدمين وخُـوطِبَ بـه المعاصرون لمحمـد ﷺ لأنهم مُتَّبِعُـون لهم، راضُـون بأحوالهم، وقد وبَّخَ الله المعاصرين لمحمـد ﷺ بتوبيخات أُخَرَ وهي عشرة: كتمانهم أمر محمد ﷺ مع معـرفتهم به، ويُحرفون الكلم، ويقولـون: هذا من عند الله، وتقتلـون أنفسكم، وتُخرجون فريقا منكم من ديـارهم، وحِرْصُهُم على الحياة، وعـداوتُهم لجبريل، واتِّبَاعُهـم السحر، وقولهم نحـن أبناء الله، وقـولهم يد الله مغلولة. اهــ. وإسرائيل هو يعقـوب بن إسحاق بن إبـراهيم عليهـم السلام. ومعنى إسرائيل عبـدالله قال ابن جـرير الطبريُّ وغيرُه: إيل هـو الله وإسرا هـو العبد. اهـ والتعبير بقـولـه: يـا بني إسرائيل لحضهم على الطـاعة والامتثـال والمسـارعة إلى الـدخـول في دين الله الـذي بعث به عبـده ورسوله محمـدًا ﷺ وكأنه يقول لهم: يا أبنـاء العبد الصالح والرسـول الكريم يعقوب سـارعوا إلى الإيمان بمحمد رسـول الله ﷺ وكونـوا مثل أبيكم يعقوب في متابعـة الحق والإقرار بالإسلام الـذي وصَّى به يعقوب بنيـه عند الموت كما وصَّى به أبو الأنبياء خليل الرحمن بنيه كذلك كما قال الله عز وجل: ﴿ووصَّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من

بعدي قالوا : نعبك إلَهك و إلَه آبائك إبراهيم و إسماعيل و إسحاق إلَها واحدا ونحن لـه مسلمـون﴾ وقـد أمر الله عـز وجل بني إسرائيل هنـا بثمانيـة أمـور ونهاهم عن أربعة أمـور، فقد أمرهم بأن يذكـروا نعمة الله التي أنعم عليهم، وأن يُوفُوا بعهد الله، وأن يَـرْهبوا الله وحده دون سواه وأن يؤمنوا بـالقرآن الذي أنزله الله مصدقا لما يعلمونه من وصايا أنبيائهم ورسلهم، وأن يتقوا الله وحده ليحرزوا أنفسهم من النار، وأن يقيمـوا الصلاة وأن يؤتوا الزكـاة وأن يركعوا لله عز وجل مع الراكعين أتبـاع محمد ﷺ وقد نهاهم أن يكونوا أول كافـرٍ بالقرآن وأن يشتروا بآيات الله ثمنا قليلا وأن يلبسـوا الحق بالباطل، وأن يكتموا الحق وهم يعلمون. وقوله عز وجل : ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي لا تَنْسَوْا نِعَمَ الله التي أنعم بها على آبائكم وامتـدت آثارها إليكم إذ جعل فيكم أنبيـاء وجعلكم ملوكـا وآتـاكم مـا لم يؤت أحـدا من العـالمين، وخَلَّصَ بني إسرائيل من العـذاب المهين من فرعـون وقومـه، ومن التمكين لهم في الأرض وتفجير عيـون الماء من الحَجَـر، وإطعـامِهِـم المنَّ والسلـوى، وقَـوْلُـهُ تعـالى : ﴿وأوفـواْ بعهدي أوف بعهـدكم﴾ أي وأدُّوا مـا في ذمتكم من العهـد ليثيبكم الله على ذلك بما وعدكم به في قوله تعالى : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهـم اثنى عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئـن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذٰلك منكم فقد ضل سـواء السبيل ﴾ . فَمِنَ العهد الـذي أخذه الله على بني إسرائيل أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمـد ﷺ ويؤيدوه وينصروه وَيَبْذُلُـوا أموالهم في سبيل نشر الإسلام، وقـوله عـز وجل : ﴿وإيايَ فـارهبونِ﴾ يُشْعـر بجملتين كأنه قال : إياي ارَهَبُوا فارهبونِ أي إياي خـافوا واخشوا أن تَحِلَّ بكم عقوبة جبار السمـوات والأرض، والرَّهبـةُ خـوف معه تَحَرُّزٌ ، وَيَتَضَمَّـنُ الأمر بـه معنى

التهديد، وقوله عز وجل: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ أي وصَدِّقُوا بالقرآن الذي أنزلت على محمد ﷺ المشتمل على الحق المصَدِّق لما بين يديه من التوراة، ففي تصديقه تصديق للتوراة وفي تكذيبه تكذيب للتوراة إذ هو مطابق لها في القصص الحق والدعوة إلى توحيد الله والأمر بعبادته وحده لا شريك له، والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، والإقرار برسالة الرسل وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ يعني: ولا تصيروا أسرع الناس إلى تكذيبه فإن وظيفتكم واللائق بكم أن تكونوا أول من آمن به لما أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم وقد كنتم تستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مجيئه وتبشرون بزمانه وتعدون بنصرته، وليس المراد أنهم أولُ الكفار على الاطلاق لما عُلِمَ بالضرورة أن كفار قريش أسبق منهم بالكفر لكنهم يكونون أسبق الناس إلى الكفر بالكتاب الذي جاء مصدقاً لما معهم، وقوله عزل وجل: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلاً﴾ أي ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها من حب الرياسة وجمع الحطام فإن جميع ما في الدنيا من متاع لا يساوي شيئا من حُظوظ الآخرة وجنات النعيم، وقوله عز وجل: ﴿وإياي فاتقون﴾ أي وإياي خافوا فاحذروا أن تحل بكم عقوبتي ولا تَخْشَوْا أحدًا غيري فإن حياتكم وموتكم ونفعكم وضركم بيدي وقوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ أي ولا تخلطوا الحق المُنَزَّل من الله بالباطل الذي تَفْتَرُونَه على الله مما تكتبونه بأيديكم وتقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه من كتبكم غير المحرفة في وصف محمد ﷺ، وأنتم تعلمون في قرارة أنفسكم أن محمدا رسول الله وأن دينه هو الدين الحق. وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ أي وسارعوا إلى الانضمام والدخول تحت لواء محمد رسول الله ﷺ

والالتزام بشريعته في الصلاة والزكاة واحرصوا على صلاة الجماعة فإن ذلك يجلب لكم خير الدنيا والآخرة، هذا وفي أمر بني إسرائيل بالركوع مع الراكعين لفت انتباه المسلمين إلى الحرص على الجماعة، وقد أكد رسول الله ﷺ ذلك فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذِّ بسبع وعشرين درجة. كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: صلاةُ الرجل في جماعة تضْعُفُ على صلاته في بيته وفي سوقه خَمْساً وعشرين ضِعْفاً وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوُضُوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخْرجه إلا الصلاة لم يَخْطُ خَطْوَةً إلا رُفِعَتْ له بها دَرَجة وَحُطَّتْ عنه بها خطيئةٌ فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلاه ما لم يُحْدِثْ تقول: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده لقد هَمَمْتُ أن آمُرَ بِحَطبٍ فَيُحْتَطَبَ ثم آمُرَ بالصلاة فَيُؤَذَّنَ لها ثم آمُرَ رجلا فَيَؤُمَّ الناس ثم أخالف إلى رجال فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهم. كما روى أبو داود بإسناد حسن عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما مِن ثلاثة في قرية ولا بَدْوٍ ولا تُقَامُ فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. كما روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: من سرَّه أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادَى بهنَّ فإن الله شرع لنبيكم سُنَنَ الهُدَى وإنهن من سُنَنِ الهُدَى ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ولقد رَأَيْتُنَا وما يتخلف عنها إلا منافق معلومُ النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يُهَادى بين

الـرجلين حتى يُقَـامَ في الصف . بل قـد أشـار رسـول الله ﷺ إلى أن اعتيـاد المساجـد من أمارة الإيمان فقـد روى الترمذي بسنـد حسن أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فـاشهدوا له بالإيمان قال الله عز وجل : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فَعَسَى أولَئك أن يكـونوا من المهتدين﴾ بـل جعل رسول الله ﷺ كثرة الخُطـا إلى المساجـد بأنها رِبَاطٌ في سبيـل الله وأن الله يرفع بها الـدرجات ويمحو بها الخطايـا فقد روى مسلم في صحيحه من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحـو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ! قالوا : بَلَى يا رسـول الله قال : إسباغ الوُضوء على المكاره وكثرةُ الخُطَـا إلى المساجـد وانتظـار الصـلاة بعد الصـلاة فـذلكم الربـاط فـذلكم الرباط .

قال تعالى: ﴿أتـأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتـم تتلون الكتاب أفلا تعقلـون * واستعينوا بـالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقواْ ربهم وأنهم إليه راجعون﴾

قـد وصف الله تبارك وتعـالى هنا رؤسـاء بني إسرائيل المعاصرين لـرسولـه وحبيبه محمد ﷺ بأنهم يأمرون الناس بالبر ويَنْسَوْن أنفسهم فلا يحملونها على البر حالـة كونهم يقـرءون التوراة ويعلمـون عقوبة الله عـز وجل لمن نهى عن المنكر وهو يفعلـه، ويأمر بالمعروف وهو لا يفعله، وهـذا من أبرز الأدلة على أن صـاحب هذه الصفـة غير متصف بـالعقل إذ لو كـان لـه عقل ما حـذَّر الناس من الشر ووقع فيـه، والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿أتـأمرون الناس بـالبر وتَنْسَوْن أنفسكم وأنتم تتلـون الكتاب﴾ للتـوبيخ والتقريع والإنكـار، ومدار التـوبيخ والإنكار والتقـريع هو مـا تدل عليه الجملـة الثانيـة من هذه الجمل الثـلاث وهـو نسيـان أنفسهم مـن البر، فـالجملـة الأولى من الجمل الثلاث وهي: أتأمرون الناس بالبر ليست محلَّ توبيخ فإن أمر الناس بالبر من أحسن مـا يتقرب بـه العبد إلى الله عـز وجل، والجملـة الثالثـة وهي قولـه: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ ليست محل تقريع وتوبيخ لذاتها فإن تلاوة كتاب الله عز وجل من أفضـل ما يتقرب بـه العبد إلى الله عـز وجل كذلك، فـالتقريع والتـوبيخ والإنكـار مُنْصَبٌ على أن يَحْرِمَ الإنسـان نفسـه من البر في الـوقت الذي يرشـد فيه الناس إلى عمل البر وفي الوقت الذي يقرأ فيـه كتاب الله وما فيه من الوعيد الشديد على أن يكون قولُ الإنسان مخالفا لفعله إذ أن ذلك من أشـد مـا يمقت الله عز وجـل الناس عليـه كما قـال تبـارك وتعالى في كتـابـه الكـريم: ﴿كبر مقتا عنـد الله أن تقولوا مـا لا تفعلون﴾ والبر اسمٌ جـامع لجميع أنواع الخير والطـاعات وهو يشمل البر في طـاعة الله وطاعـة رسله كما

يشمل البِرَّ في معاملة الأقارب، والبرَّ في معاملة الأجانب، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى أنواع البر في قوله عز وجل: ﴿ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، والمُوفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولَئك الذين صَدَقُوا وأولَئك هم المتقون﴾ وكما ختم هذه الآية الكريمة بما يفيد أن ثمرة البر الصدق والتقوى حتى حصر البرَّ في التقوى في قوله عز وجل: ﴿ولكنَّ البرَّ من اتقى﴾ وأشار رسول الله ﷺ إلى أن ملازمة الصدق تهدي إلى البر، وأن البِرَّ يهدي إلى الجنة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يُكتبَ عند الله صديقا، وإن الكَذِبَ يهدي إلى الفجور وإن الفُجُورَ يهدي إلى النار وإن الرجل لَيَكْذِبُ حتى يكتب عند الله كَذَّابا. ومن أبرز سمات البررة أنهم يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر كما قال الله عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولَئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ وقوله عز وجل: ﴿وتَنْسون أنفسكم﴾ أي وتتركون أنفسكم فلا تحملونها على الخير، ولا تسلكون بها سبيل السلام والنجاة، حيث تأمرون الناس بما فيه مرضاة الله وطاعته وأنتم مقيمون على معصيته سادرون في غيكم وضلالكم وتكذيبكم لمحمد رسول الله ﷺ الذي تعلمون صفته من كتبكم وتعرفونه كما تعرفون أبناءكم، وقد بيَّن رسول الله ﷺ مآل من يأمر بالمعروف ولا يفعله وَيَنْهَى عن المنكر وهو يفعله. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله

عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُؤْتَى بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار فتندلق أقتابُ بطنه، فَيَدُورُ بها كما يَدُور الحمارُ في الرَّحَى، فيجتمع إليه أهلُ النار، فيقولون: يا فلانُ! مَالَكَ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بَلَى كنتُ آمُرُ بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه. وفي رواية لمسلم من حديث أسامة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فَيُلْقَى في النار، فَتَنْدَلق أقتابه، فيدور كما يدور الحمارُ برحاه، فَيَجْتَمِعُ أهلُ النار عليه، فيقولون: يا فلان: ما شأنك؟ أَلَيْسَ كنتَ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمُرُكُمْ بالمعروف ولا آتيه. وأنهاكم عن الشر وآتيه، ومعنى: تندلق أي تخرج سريعا والأقتاب: الأمعاءُ، وما أَحْسَنَ قول أبي الأسود الدؤلي رحمه الله:

تصف الدواء لذي السقام وذي الضَّنَى ... كيما يصحَّ به وأنت سقيم
لا تنه عن خُلُق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
وابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقْبَلُ ما تقول ويهتدى ... بالقول منك وينفعُ التعليم

وقوله تعالى: ﴿وأنتم تتلون الكتاب﴾ أي وأنتم يا أحبار اليهود تقرءون التوراة وتعرفون أن محمدا رسول الله، ولا تسارعون إلى الإيمان به وتأييده، وهذا توبيخ وتقريع وتبكيت لمن عَلِمَ شيئا من العلم ولم يعمل به وأن الجاهل الذي لم يَدْرُسْ ولم يَعْلَمْ خير منه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أذَهَبَتْ عقولكم فلا تفقهون ولا تفهمون؟ وهل ترضون أن تكونوا كالحيوانات العجماوات والحمير التي تحمل الأسفار والكتب ولا تعى ما تحمل ولا تدري عما فوق ظهرها؟ وقد انطبق على هؤلاء قوله عز وجل: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ والعقل في الأصل هو المنع

والإمساك ومنه العقال الذي يُشَدُّ به وَظيفُ البعير إلى ذراعه لحبسه عن الحرَاك وفي الاصطلاح هو لطيفة ربانيـة أودعها الله عز وجل في قلب الإنسان ليُميِّز بها بين الخير والشر والنافـع والضار وبها يمتاز الإنسـان عن سـائر الحيوان، وسميت هذه اللطيفة عقلا لأنها تَحْجُر الإنسان وتحبسه عن تعاطي ما يَقْبُح، وتَعْقِلُه على ما يَحْسُنُ ومحلها القلبُ وشُعَاعُهَا متصل بالدماغ كالنور المنعكس بالمرآة، وإذا فَقَدَ الإنسـان عقله صار أَخَسَّ الحيوانـات ولذلك حرَّم الله على الإنسـان كلَّ ما يُنْقِصُ العقـلَ أو يزيلـه، وقـد وصف الله عز وجل الكفـار بقوله: ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها﴾ وقال عز وجل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكـون لهـم قلـوب يعقلـون بها أو آذان يسمعـون بها فإنها لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور﴾ وقولـهُ عز وجل: ﴿واستعينوا بالصبر والصـلاة﴾ أي واطلبـوا المعـونـة على أموركـم ومنها الـوفـاءُ بعهـدي الـذي عاهـدتموني في كتابكم من طاعتي واتبـاع أمري والإيمان برسـولي محمد ﷺ، وتـرك مـا تحرصـون عليـه من الـريـاسـة والشهـوات التي تحول بينكم وبين الإسلام، والصبر في الأصل هو منع النفس عن شر محابِّها وكفها عن هواها، وبالصبر واليقين تُنـالُ الإمامة في الـدين، ولذلك يقول الله عـز وجل: ﴿إنه من يتق ويَصْبِرْ فإن الله لا يضيع أجـر المحسنين﴾ والاستعانـة بالصـلاة من أعظم العَوْنِ على القيام بأمـر الله والوفاء بعهد الله ولذلك أمـر الله رسوله ﷺ بـالصبر والصـلاة لـلاستراحـة من أذى المشركين حيث يقـول عـز وجل: ﴿فاصبر على مـا يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلـوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾.

وقد كرَّرَ الله عز وجل أمر بني إسرائيل بـالصلاة في هذا المقام حيث قال: ﴿وأقيموا الصلاة وآتو الزكـاة﴾ ثم قال: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي وصلوا مع المصلين من أمة محمد ﷺ، وإنما عبرَّ عن الصلاة بالركوع لتنبيه اليهود إلى

أن صلاتهم التي يصلونها لا قيمة لها لأنهم كانوا لا يركعون في صلاتهم، فَبَيَّنَ لهم أن الصلاة المعتبرة النافعةَ هي صلاة المسلمين التي من أهم أركانها الركوع، ثم قال هنا: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾. وقوله عز وجل: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ أي وإن الصلاة لثقيلة إلا على الخاضعين لله عز وجل، الخائفين سطوته، المتواضعين المستكينين المتذللين لله عز وجل، ولا شك أن الصلاة يفرح بها المؤمنون وهي عليهم سهلة يسيرة، ويَسْتَثْقِلُهَا المنافقون ولا سيما صلاة الفجر وصلاة العشاء فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ليس صلاةٌ أثقلُ على المنافقين من صلاة الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأَتَوْهُمَا ولو حَبْوًا. وقوله عز وجل: ﴿الذين يظنون أنهم مُلَاقُواْ رَبِّهِم وأنهم إليه راجعون﴾ هو وصف للخاشعين الذين يُحِبُّون الصلاة ويفرحون بها ويستريحون بأدائها أي الذين يعلمون أنهم محشورون إلى الله يوم القيامة وموقوفون بين يديه ومسئولون عن أعمالهم إذ أن من أيقن بالمعَاد والجزاء سَهُل عليه فِعْلُ الطاعات وترك المنكرات. فقوله ﴿يظنون﴾ أي يتوقعون لقاء الله وأن مصيرهم ورجوعهم إليه أو يتيقنون ذلك قال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: إنَّ العربَ قد تُسمي اليقين ظنا والشَّكَّ ظنا، نظير تسميتهم الظُّلْمَةَ سدفة والضياء سدفة والمُغِيثَ صارخا، والمستغيثَ صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تُسَمِّي بها الشيء وضدَّه ومما يدل على أنه يُسَمَّى به اليقين قولُ دُرَيد بن الصِّمة:

فقلت لهم ظُنُّوا بألْفَيْ مُدَجَّجٍ   سَرَاتُهُمُوا في الفارسِيِّ المُسَرَّدِ

يعني بذلك تَيَقَّنُوا ألْفَيْ مُدَجَّجٍ تأتيكم، وقولُ عُمَيْرَةَ بن طارق:

بأن يَعْتَزُوا قَوْمِي وأقعد فيكموا   وأَجْعَلُ مني الظَّنَّ غَيْباً مُرَجَّمَا

يعني: وأجعل مني اليقين غيبا مُرَجَّماَ. والشواهد من أشعار العرب

وكـلامِها على أن الظـنَّ في معنى اليقين أكثر من أن تُحْصَـى ، وفيما ذكرنـا لمن وُفِّقَ لفهمه كفاية ، ومنه قول الله جل ثناؤه : ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مُوَاقِعُـوها﴾ . اهــ وقد استشهـد العلماءُ كذلك على أن الظن هنـا على معنى اليقين بقـوله تبـارك وتعالى : ﴿إني ظننت أني مـلاق حسابيـه﴾ أي علمتُ ، وقول ابن جرير: تسميتهم الظلمةَ سدفة والضياءَ سدفة قال الفيروزآبادي في القامـوس المحيط : (السَّدْفـةُ) ويُضَمُّ الظُّلْمَةُ تميميـةٌ والضَّوْءُ قَيْسِيَّـةٌ ضدٌّ ثم قال : والسَّدَفُ مُحَرَّكَةً الصُبحُ و إقبالُه وسوادُ الليل كالسُّدْفة اهـ ولا شك عند أهل العلم أن من شكَّ في لقـاء الله فهـو كـافر، ولا ينفع في هـذا البـاب إلا الإيمان واليقينُ ، فقد روى مسلم في صحيحـه ، من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أَشْهَـدُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يَلْقَى الله بهما عبدٌ غَير شَاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة .

قال تعالى: ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾.

كرر الله تبارك وتعالى هنا نداءه لبني إسرائيل بقوله عز وجل: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ في الآية الأربعين من هذه السورة وأردف هذا النداء هناك بقوله: ﴿وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون﴾ وأردف هذا النداء هنا بقوله عز وجل: ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ وكرر هذا بعينه في الآية الثانية والعشرين بعد المائة من هذه السورة حيث قال: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ وقد أردف الآية الأولى بالآية التي ذيلها بقوله: ﴿وإياي فاتقون﴾ وأردف الآية التي هنا بقوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ وأردف الآية الثانية والعشرين بعد المائة بنفس المعنى الذي أردف به الآية التي هنا وإن تفاوتت العبارة حيث قال هناك: ﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ وهذا التكرير بهذه المثابة هو أحد معاني كون القرآن متشابها مثاني حيث يقول الله عز وجل في وصفه: ﴿الله نـزَّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جُلُودُ الذين يَخْشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذُلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ إذ معنى كونه متشابها أي يشبه بَعْضُه بعضا في البلاغة والفصاحة والصدق والإحكام والإتقان واستتباع منافع الخلق في المعاش والمعاد، ومعنى كونه: ﴿مثاني﴾ أي يردد المعنى ويكرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقض أو

اختـلاف، بحسب مقـامـات الأحـوال، مع اشتمالـه على القصص الحق، والإيفاء بـالقصد والتأكيد على المعاني التي تَـرد في هذا التكرير، ولما كـان بنو إسرائيل قبل مجيء الإسـلام يعتبرهم العرب المشركـون أفضل منهم لأنهم أهل كتاب وإن كـانت قريش وغيرها من العـرب والأوس والخزرج بخاصة كـانوا يرون أن اليهود والنصارى مقصرون في القيام بشريعة أنبيائهم فكانوا يقسمون بالله جَهْد أيمانهم لو جاءهم منذرٌ دون موسى ودون عيسى لسارعوا إلى الإيمان به وصـاروا أسعد بـه من اليهود والنصـارى، وفي ذلك يقول الله عـز وجل: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نـذير مـا زادهم إلا نفورا * استكبـارا في الأرض ومَكْرَ السَّيِّئ ولا يَحِيق المكـرُ السَّيِّئ إلا بأهلـه فهل ينظرون إلا سنـة الأولين فلن تجد لسنـة الله تبـديلا ولن تجد لسنـة الله تحويـلا﴾ فهم كانـوا يَتَمَنَّوْنَ نـذيـرا أيَّ نذيـر فلما جـاءهم شيخ المُنذرين وسيـد المرسلين محمد ﷺ مـا زادهم مجيئه إلا نفـورا، فبين الله عز وجـل أن بني إسرائيل لم يعرفـوا نعمة الله عليهم، إذ لـو عرفـوها لسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ. وتكريـر ندائهم بقوله: ﴿يا بني إسرائيل﴾ للَفت الانتباه إلى بلادة مشاعرهم وقصور أحاسيسهم، إذ لو كانوا ذوي فَهْم وعقل رشيد ما احتـاجوا إلى هذا التكرير، أمَّا مَـا وَصَفَهُم الله عز وجل به من أنه فضلهم على العالمين فقد أشار الله عز وجل إلى المقصود منه في غير موضع من القـرآن الكريم حيث يقـول: ﴿ولقـد آتينا بني إسرائيل الكتـاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين﴾ فلم يُعْرَفْ شَعْبٌ من الشعوب ولا أمة من الأمـم تكاثرت فيها الأنبياء والملـوك كبني إسرائيل، فقد كانوا تسـوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ بعث الله لهم نبيا آخـر كما جاء في رواية البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كـانت بنو إسرائيل تسـوسهم الأنبيـاء كلما هَلَكَ نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ وإنـه لا نبيَّ

بعدي . الحديث . ولذلك ذكرهم موسى عليه السلام بهذه المزية التي فُضِّلوا بها على العالمين كما حكى الله عز وجل ذلك في قوله : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾ كما أنزل الله عليهم المنَّ والسلوى، ولا شك أن المراد بالعالمين في قوله : ﴿وأني فضلتكم على العالمين﴾ هم عَالَمو زمان آبائهم قبل تحريفهم للكلم من بعد مواضعه والعالمون جمع عالَم والعالَم جمعٌ لا واحد له من لفظه كالأنام والرهط والجيش، والعالَم اسم لكل صنف من أصناف الأمم والمخلوقات، فالإنس عالَم، وكلُّ أهلِ جيل منهم عالَم ذلك الزمان، والجن عالَم، وكذلك سائر أجناس الخلق كلُّ جنس منها عالَم، كالطير وكلُّ نوع منه عالم، وسائر الحيوانات كل نوع منها عالم، وكذلك الحشرات كعالَم النمل وعالَم النحل وعالم الذباب وعالَم البعوض وسائر أجناس وأصناف وأنواع المخلوقات، فقوله عز وجل : ﴿فضلتكم على العالمين﴾ لَفْظُهُ لفظُ العموم والمراد به الخصوص كالناس في قوله عز وجل : ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ فالمراد به الخصوص وإن كان اللفظ للعموم، ولا شك أن أمة محمد ﷺ أفضلُ من بني إسرائيل لقوله عز وجل : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ وخير أمة محمد ﷺ قَرْنُهُ ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم . وقوله عز وجل : ﴿واتقوا يوما﴾ أي واخْشَوْا يوما واستعدوا له والمراد به يوم القيامة كما قال عز وجل : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوْا يوما لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ والمقصود من اتقاء اليوم هو الخوف من أهواله وعظائمه إذ هو يومٌ يجعل الولدان شيباً كما قال عز وجل : ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم

ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كلُّ ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولٰكن عذاب الله شديد﴾ وقوله: وما هم بسكارى أي ما شربوا خمرا ولا تعاطَوْا مسكراً في هذا المقام ولكنها أهوال يوم الدين نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى أن يلطُف بنا فيه وأن يعاملنا بفضله وإحسانه وجُودِه. وقد وصف الله تبارك وتعالى قولَه ﴿يوما﴾ بأربع صفات في أربع جمل: الأولى: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾ والثانية قوله: ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ والثالثة قوله: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ والرابعة قوله: ﴿ولا هم ينصرون﴾ ومعنى قوله: ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾ أي لا يغني فيه أحد عن أحد كما قال عز وجل: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ وقال: ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ وإذا كان الوالد والولد لا يغني أحدهما عن الآخر يوم القيامة شيئا فما بالك بغيرهم؟ وكما قال عز وجل: ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ أصل الشفاعة في اللغة يدور على معنى الازدواج والزيادة والإعانة فالشفع الزوج وهو ضد الوتر وتقول: شفع ناظري إذا صار يرى الخط خطين والشخص شخصين، ويقال: شفع لي فلان إلى فلان أي طلب منه أن يقضي حاجتي، فكأنه ضمَّ صوته إلى صوت المشفوع له فصار بعد أن كان صوته واحدًا صار له صوتان صوتُه وصوت الشافع، ومن المقرر في شريعة الإسلام أن الشفاعة قسمان: شفاعة مثبتة وشفاعة منفية، فالشفاعة المثبتة النافعة يوم القيامة هي ما تحقق فيه شرطان: الأول إذنُ الله عز وجل للشافع في الشفاعة، والثاني: رضا الله عز وجل عن المشفوع له ولا يرضى الله عز وجل عن الشفاعة إلا في المؤمنين وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿من ذا الذي

يشفع عنـده إلا بإذنـه﴾ ويقول عـز وجل : ﴿ولا يشفعـون إلا لمن ارتضى﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وكم من ملك في السملوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشـاء ويرضى﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿يوم لا يغني مـولى عن مـولى شيئـا ولا هم ينصرون * إلا من رحم الله إنـه هـو العـزيـز الرحيم﴾ وقد ثبتت الشفاعة لرسول الله ﷺ وهي الشفاعة العظمى فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في دعوة فرُفِعَ إليه الذراع فكانت تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ منها نَهْسَةً وقال : أنا سيد الناس يوم القيامة هل تَدْرُونَ مِمَّ ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فينظرهم النـاظر ويسمعهم الداعي وتدنـو منهم الشمس فيبلغ النـاسَ من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكـم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقـولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمـر الملائكة فسجـدوا لك وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فقال : إن ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثلـه وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبـوا إلى نوح فيأتون نـوحا فيقولـون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض وقد سمَّاك الله عبدا شكورا ألاَ ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا تـرى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنـا إلى ربك ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضبـا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعـده مثله ، وإنه قـد كانت لي دعـوة دعـوت بها على قـومي نفسي نفسي اذهبـوا إلى غيري اذهبـوا إلى إبـراهيم فيأتون إبـراهيم فيقولـون : يـا إبراهيم أنت نبي الله وخليلـه من أهل الأرض اشفع لنـا إلى ربك ألا تـرى إلى مـا نحن فيه فيقـول لهم : إن ربي قـد غضب اليـوم غضبا لم يغضب قبلـه مثلـه ولن يغضب بعده مثلـه وإني كنت

كذبت ثلاث كذبات نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيقولون يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فيقول ؛ إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثلَه وإني قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه وكلمتَ الناسَ في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا ، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ ــ وفي رواية ــ فيأتوني فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدا لربِّي ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سَلْ تُعْطَهُ واشفع تُشَفَّعْ . الحديث . وقول إبراهيم : ثلاث كذبات هي معاريض وليست من الكذب المحرم . كما روى البخاري من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة . أما الشفاعة المنفية فهي الشفاعة للكفار لقوله تعالى : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ ولقوله في الكفار: ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم﴾ وعليه يحمل قوله عز وجل : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعة﴾ ومعنى قوله : ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي بدل وفدية ولو جاءت بمثل الأرض ذهبا ما تقبل منها . وقوله : ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا يجرؤ أحد أن يُنقذهم من عذاب الله .

قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾

شرع الله تبارك وتعالى هنا في تعداد نعمه على بني إسرائيل التي أجملها في قوله عز وجل: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ فعدَّد لهم في هذا المقام عشر نعم أولها قوله عز وجل: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ وتنتهي هذه النعم العشر المذكورة في هذا المقام من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقد كانت الحالة السائدة بمصر عند ميلاد موسى عليه السلام أن يوقع فرعون ببني إسرائيل أقسى أنواع الظلم وأشدَّ ألوان العذاب، وقد بلغ بغي فرعون وطغيانه على بني إسرائيل وفساده في الأرض أقصى حدود البغي والطغيان وقد علاَ فرعون في الأرض وجعل أهلها شيعا يقرب بعضهم، ويستضعف طائفة منهم — وهم بنو إسرائيل — حيث بلغ الحال من البغي أن صار يُذَبِّحُ أبناءهم ويَسْتَبْقِي نساءهم ويستعمل معهم صنوف الذلة وأنواع الهَوَان والعذاب، وقد كان الحقد والبُغْض لبني إسرائيل قد اشتعل في قلب فرعون وهامان وجنودهما بسبب ما ألقي في روعهم من أن زوال ملكهم وتدميرهم سيكون على يد رجل من بني إسرائيل، ومع أن فرعون أنزل ببني إسرائيل أقسَى أنواع العذاب، فإن الحذَر لا ينجي من القدر، وَوُلد موسى عليه السلام، وشاء الله عز وجل أن ينشأ في بيت فرعون، ولما بلغ أشده وأرسله الله عز وجل إلى فرعون ودعاه إلى الإيمان بالله وحده، وتخليص بني إسرائيل من العذاب المهين ازداد فرعون في تعذيب بني إسرائيل وتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم وقد

وصف الله تبارك وتعالى ما أصاب بني إسرائيل على يد فرعون وجنوده في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذُلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ويقول في سورة الأعراف : ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف أيضا : ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذُلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ وقال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذُلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ وقال تعالى في سورة الدُّخان : ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين﴾ وقوله عز وجل : ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل نعمتنا عليكم حين أنجيناكم أي أنجينا آباءكم إذ أن تنجية الآباء هي تنجية للأبناء ، فلو هَلَك الآباء تحت التعذيب ما وُجد هؤلاء الأبناء المخاطبون بقوله : ﴿وإذ نجيناكم﴾ قال ابن جرير: كما يقول القائل لآخر: فعلنا بكم كذا ، وفعلنا بكم كذا ، وقتلناكم وسبيناكم ، والمُخْبِرُ إما أن يكون يعني قومه وعشيرته بذلك أو أهل بلده ووطنه ، كان المقول له ذلك أدرك ما فُعِل بهم من ذلك أو لم يدركه كما قال الأخطل يُهَاجي جرير بن عطية :

ولقد سَمَا لَكُمُ الهُذَيلُ فَنالَكُمْ ... بِإِرَابَ حيث يُقَسِّم الأنفالا
في فَيْلَقٍ يدْعو الأراقِمَ لم تكُنْ ... فُرْسَانُهُ عُزْلاً ولا أكفالاَ

ولم يلق جريرٌ هُذَيْلاً ولا أدركه ولا أدرك إِرَابَ ولا شهِدَه ولكنه لما كان يوما من أيام قوم الأخطل على قوم جرير أضاف الخطاب إليه وإلى قومه . فكذلك

خطاب الله عـز وجل من خَاطَبَهُ بقـوله : ﴿وإذ نجيناكم من آل فـرعون﴾ لما كان فعله مـا فعل من ذلك بقوم من خاطبه بالآية وآبـائهم أضاف فعله ذلك الذي فعله بآبائهم إلى المخاطبين بالآية وقومهم اهـ والآل أصله الأهل أبدلت الهاء همزة بـدليل تصغيره على أُهَيْل . . واستعمله العـرب مضافـا إلى الأسماء المشهـورة كقـولك : آل النبي ﷺ وآل علي وآل العبـاس ، وآل سعـود ولا يَسْتَحِبُّ العـربُ استعمال كلمة آل مع المجاهيـل وغير المشهورين , وفـرعون لقب لملـوك مصر في الجاهلية من العمالقـة وغيرهم كما أن كسرى لقب لملـوك الفرس وقيصر لقب لمن ملك الروم ، وخـاقان لقب لمن ملك الترك ، وتُبَّع لمن مَلَكَ اليمن ، والنجـاشي لمن ملك الحبشـة ، والمراد بـآل فـرعـون : فِـرْعَـوْنُ وأتباعـه ، كما قال عز وجل عن فـرعون : ﴿يقدم قـومه يوم القيـامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ وقـال في مؤمن آل فرعون : ﴿فوقـاه الله سيئات ما مكروا وحاق بـآل فرعون سوء العـذاب * النار يُعْرَضون عليهـا غُدُوًّا وعشيا ويوم تقـوم الساعة أدخلـوا آل فرعـون أشد العذاب﴾ ولا شك أن فـرعون في مقدمـة أهل النار هـؤلاء ، ومعنى : ﴿نجيناكم﴾ أي خلصنـاكم وأنقذنـاكم ورفعناكم يقال : نجاه وأنجاه إذا ألقـاه على نجوة من الأرض أي مكان مرتفع ليسلم من الغرق والآفات ثم سمي كل فـائز ناجيا وإن لم يُلق على نجوة من الأرض . وقـولـه عـز وجل : ﴿يسـومونكم سـوء العـذاب﴾ أي يـذيقـونكم ويولـونكم ويوردونكم أفظع العذاب وأشـده يقال : سامـه خطَّة خَسْفٍ إذا أولاه ذلك وأذاقه ومنه قول عمْرو بن كلثوم :

إذا ما المَلْكُ سَامَ الناس خَسفاً ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الخسف فينا

قـال في القـامـوس المحيط : والخسف النقيصـةُ ثم قـال : والإذلال وأن يحمِّلك الإنسان ما تكره يقال : سامـه خسفاً ويضمُّ إذا أولاهُ ذُلاًّ اهـ وقد قال عمرو بن سالم الخزاعي في وصف رسول الله ﷺ :

فانصـــر هــداك الله نصــرا أيِّدا   وَادْعُ عـــباد الله يأتـــوا مَدَدا
فيهــم رســـولُ الله قــد تجرَّدا   أبيــضُ مثل البــدر يَسْمُو صُعُدا
إن ســيمَ خَسْـــفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا   في فيــلق كالبحـــر يَجْرِي مُزْبِـدا

وقوله عز وجل: ﴿يُذبِّحُون أبناءكم ويستحيُون نساءكم﴾ تفسير لقوله عز وجل: ﴿يسومـونكم سوء العـذاب﴾ وفي سورة إبـراهيم ﴿يسُومـونكم سوء العذاب ويذبحـون أبناءكم﴾ بالعطف بـالواو للإشارة إلى أن فـرعون وجنده كانـوا يوقعون ببني إسرائيل ألوانـا من العذاب المهين وكان منهـا قتل أبنائهم واستحياء نسائهم، فعطف بالواو في سورة إبـراهيم لبيان أنهم كانوا يعذبونهم بالـذَّبح وغيره، إذ كانـوا يُكَلِّفُون الـذكور بـالأعمال القذرة والشاقـة من قطع الحجارة من الجبال وحملها ونقلها لبناء قصـور آل فرعون ومن الحراثة والزراعة وحمل القـاذورات، والتعبير بـالتـذبيح لإفـادة كثـرة الـذبح في بني إسرائيل والمبـالغـة في قطع رقـابهم، ومعنى ﴿ويستحيـون نسـاءكم﴾ أي ويستبقـون الإناث فلا يذبحونهنَّ لاستخدامهن في الأعمال غير الكريمة وفي خدمة نساء آل فرعـون مبالغة في إذلال بني إسرائيل وشدة إيـذائهم، ولفظ النساء يطلق على الإنـاث صغيراتٍ أو كبيراتٍ، وقـوله عـز وجل: ﴿وفي ذٰلكم بـلاء من ربكم عظيم﴾ الإشـارة فيه إلى مـا ذكر من تـذبيح الأبناء واستحيـاء النساء، والمراد بـالبـلاء المحنة والبليـة، وإنما كـان استحيـاء النساء محنـة وبليـة لأن استبقـاءهن كـان لقصـــد استعمالهن في الأعمال غير الكـريمـة، وفي الأعمال الشاقة زيادة في إهانة بني إسرائيل، وفي قوله: ﴿بلاء من ربكم﴾ إشعار بأن كلَّ ما يصيـب العباد من خير أو شر إنما هو مـن الله عز وجل لرفـع درجات الطـائعين، وتكفير خطـايـا العـاصين من المؤمنين، وتنبيـه الغـافلين، وإذا عصى اللهَ من يعرفـه سلَّط عليه من لا يعرفـه، وقوله عز وجل: ﴿وإذ فـرقنا بكم البحر فأنجينـاكم وأغرقنا آل فرعـون وأنتم تنظرون﴾ بيان للنعمة الثـانية

من النعم التي أنعم الله عــز وجل بها على بني إسرائيل أي واذكـروا إذ فلقنـا بسببكم البحـر حتى صرتم تمشـون في طـريق يبس بين فـرقين من الماء فصل أحدهما عن الآخر حتى صار كل فرق كـالطود العظيم وشهد تم غرق فرعون وقومه. وقد كانت مهمـة موسى عليه السلام ذاتَ شقين: الشق الأول دعوةُ فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله وحده والشق الثاني تخليص بني إسرائيل من العذاب المهين من فـرعون. وإلى ذلك يشير الله عـز وجل حيث يقول في سورة طه: ﴿إنـا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعـذبهم قد جئناك بـآية من ربك والسـلام على من اتبع الهدى﴾ وكما قـال في سـورة الدخـان: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعـون وجاءهـم رسول كريم * أن أدوا إليَّ عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعلوا على الله إن آتيكم بسلطان مبين﴾ ومع أن الله تبـارك وتعالى أيـد موسى وهـارون عليهما السـلام بالمعجـزات وسلط على آل فرعـون الطوفان والجراد والقمل والضفادع والـدم في آيات بينات فإن فـرعون رأى أنـه لا بـد من إعـلان الحرب على مـوسى ومن معـه من المؤمنين وأرسل فـرعون في المدائن مـن يجمع العُدَّةَ والسـلاح والـرجال للقضـاء على مـوسى وهـارون ومن معهما من بني إسرائيل وقـد أوحى الله عز وجل إلى مـوسى أن يخرج من مصر ليلا ببني إسرائيل مسرعين إلى سيناء وأعلمه أن فرعون وجنوده سَيَتْبَعُـونَهم فسـارع مـوسى عليه السـلام إلى امتثـال أمـر ربـه، وسرى ببني إسرائيل، ولما اجتمع جنـد فرعون سـارعوا إلى اللحـاق بموسى عليـه السلام يقـودهم فرعـون لعنـه اللهفأتبعوهم مشرقين أي وقت شروق الشمس، وكـان مـوسى عليه السـلام ومن معه قـد وصلـوا إلى مكانٍ عسير فـالبحر أمـامهم والعـدو خلفهم والجبـال عن يمينهـم وشمالهم، فلما تـراءى الجمعـان قـال أصحاب موسى: إنا لمدركون أي سيكون هـلاكنا على يد فرعون وجنده هنا، فأجابهم موسى عليـه السلام وقال لهم: كلا لن يدركونـا ولن يصلوا إلينا لأن

الله وعدني بـذلك يعني بذلك أنه لما قـال عندما بعثـه الله لفرعون : ربنـا إننا نخـاف أن يفرط علينـا أو أن يطغى قال : لا تخافـا إنني معكما أسمع وأرى ، لذلك قـال موسى لما قال لـه أصحابـه إنا لمدركون ، قـال : كلا إن معي ربي سيهدين . فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فلما ضرب موسى البحـر بعصـاه انفلق فكان كـل فرق كـالطـود العظيم أي كـالجبل العظيم ، فجعل الله لهم طريقا في البحر يبسا فصار موسى ومن معه يمشون على أرض صلبة يابسـة على كل جانب من جوانب طريقهم جـدار من الماء كأنه صخر منحوت ، وجـاوز الله ببني إسرائيل البحر، فأتبعهم فرعـون وجنوده فغشيهم من اليم مـا غشيهم حتى إذا أدرك فـرعون الغـرقُ قـال :آمنت أنه لا إلـه إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل ولم ينفعه إيمانـه وأضل فرعـون قومه ومـا هدى ، وكان ذلك في اليوم العـاشر من المحرم يوم عاشـوراء ، وفي ذلك يقول الله عز وجل هنـا : ﴿وإذ فـرقنـا بكم البحـر فأنجيناكـم وأغرقنـا آل فـرعـون وأنتم تنظرون﴾ وقـال عز وجل في سورة الأعـراف : ﴿فانتقمنا منهم فأغـرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانـوا عنها غافلين﴾ وقال عز وجل في سورة يونس : ﴿وجاوزنـا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فـرعون وجنوده بغيـا وعَدْوًا حتى إذا أدركه الغـرق قال آمنت أنـه لا إلٓه إلا الـذي آمنت به بنـو إسرائيل﴾ وقال في سورة طـه : ﴿ولقد أوحينا إلى مـوسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طـريقا في البحر يبسـا لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعـون بجنوده فغشيهم من اليم مـا غشيهم وأضل فرعـون قومـه وما هَـدَى﴾ . وقال عز وجـل في سورة الشعراء : ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبـادي إنكم متبعون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هـٰؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغـائظون * وإنا لجميع حـاذرون * فأخرجنـاهـم من جنـات وعيون * وكنـوز ومقام كـريم* كذالك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهـم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال

أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثَمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ كما ذكر الله عز وجل هذه النعمة في سورة الإسراء وفي سورةالقصص وفي سورة الزخرف .

قـال تعالى : ﴿وإذْ واعـدنـا موسى أربعين ليلـةً ثم اتخذتم العجل من بعـده وأنتم ظـالمون. ثم عفـونـا عنكم من بعـد ذٰلك لعلكم تشكـرون. وإذ آتينـا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾.

قد كان مـوسى عليه السلام عندمـا بعثه الله عز وجل إلى فـرعون إنما بعثه بأصـول الدين من التـوحيـد، وإقامـة الصلاة لـذكر الله، ووجـوب الإيمان بالبعث بعد الموت ولم يكن قد أنزل عليه التوراة فلما انتهت مهمة موسى عليه السلام الخاصـة بفرعـون وملئه، وأغـرق الله فرعـون وجنده، فـاستراح عليه السلام من متـاعب فرعـون وملائه وبـدأت متاعب موسى وهـارون من بني إسرائيل، فلما خلص مـوسى إلى سيناء، وصار مختصـا ببني إسرائيل وهم في حاجة ماسة إلى نظام يشمل حوائجهم في معاشهم ومعادهم ويفرق لهم بين الحق والبـاطل، ويبين لهم الحلال والحرام هيّـأ الله عـز وجل مـوسـى عليـه السلام ليلقـي عليه التوراة المشتملـة على الأحكام التي تسلك بـأهلها صراط الله المستقيم، وحالـةُ موسى عليـه السلام هذه تشبـه حالـة رسول الله ﷺ في حياته النبوية قبل الهجرة وبعدها فـإن القرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسـالة والإيمان بـالبعث بعد الموت أمـا القرآن المدني فإنـه زيادة على ذلك جاء بتقـرير نظـام الدولـة الإسلاميـة والمجتمع السعيد ومـا يحتاجه كـلّ فرد لصلاح معاشه ومعاده ولذلك سـاق القرآن العظيم ما أوصى الله عز وجل به موسى عليه السلام عندما بعثه بالتوحيد والصلاة والإيمان بالبعث بعد الموت حيث يقول عز وجل في سـورة طه : ﴿فلما أتاها نودي يـا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى* إنني أنا الله لا إلٰـه إلا أنا فاعبدني * وأقم الصـلاة لذكري * إن السـاعـة آتية أكاد أخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى * فلا يصدّنّك عنها من لا يؤمن بها

واتبع هـواه فتردى﴾ وكما قـال عـز وجل في سورة النـازعـات: ﴿ هل أتـاك حديث مـوسى * إذ ناداه ربّه بالـواد المقدّس طُوى * اذهب إلى فرعـون إنه طغى* فقل هل لك إلى أن تـزكّى * وأهـديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآيـة الكبرى * فكـذّب وعصى * ثم أدبـر يسعى، فحشر فنـادى * فقـال أنـا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخـرة والأولى﴾ ولما أغرق الله فرعون ونجّى بني إسرائيل صـار لموسى عليه السـلام دولـة في حاجـة إلى النظام الشـامل، والنور الـذي يسلكه موسى والمؤمنـون ليهتدوا بـه إلى الصراط المستقيم، وقد أمر الله عـز وجل موسى عليه السـلام بأن يستعد لتلقي الشريعة عنـد الطور وواعـده ربه أربعين ليلـة يتهيأ فيهـا موسى لتلقي الشريعـة، وعنـدما جـاء الميقـات قال مـوسى لأخيـه هـارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم ولتكن سياستك لهم سياسةً رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، ومـا أن انطلق مـوسى لتلقـي الشريعـة عنـد الطـور حتى أضل السـامري بني إسرائيل. فصنع لهم عجـلا من الذهب لـه خوارٌ أي صـوتٌ يسمع وصلصلةٌ شبيهة بصوت الثور، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، قد نسيه موسى هنا وذهب يطلب إلهه عند الطور، فعبده جملة من بني إسرائيل، وحاول هارون عليه السلام صرفهم عن عبادة العجل. وكان اللّين يغلب على هـارون ﷺ، وخشي إذا شـدّد عليهم أن يتفـرقوا، وقـد بـارزه عبّاد العجل العداوة وكادوا يقتلـونه عندما كان يحذّرهم مـن عبادة العجل ولم يكن مأذوناً له في قتالهم، فانتظر مجيء موسى عليـه السلام بالشريعة من عند الله، وكان موسى عليه السلام عنـد ما جاء لميقات ربه قد اختـار من قومه سبعين رجلا لهذا الميقات وقد سأله بعض المتنطعين المتعنتين من بني إسرائيل أن يريهم الله جهرة وأن يسأل ربه ذلك، وبعد أن أعطـى الله عز وجل موسى ﷺ التوراة أخبره أن قومـه عبدوا عجلا صنعـه لهم السامريّ فـرجع موسى عليـه السلام

بالتوراة إلى قـومه غضبان حزيناً على مـا فعله قومه، وأخـذ يؤنبهم ويوبّخهم على عبادة العجـل، وقال لهم بئس ما خلفتـوني من بعدي ألم يعـدكم ربكم وعدا حسنـا بإنزال التـوراة نورا لكم؟ أفطـالت غيبتي عليكم؟ أم أحببتم أن ينـزل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم وعـدكم إيـاي بالثبـات على الإيمان وإخلاص العبادة لله وحـده؟ فحاولوا الاعتذار بأنهم ما استطـاعوا ردّ ضلال السامري فإنـه سوّل لهم ما سوّل وغلب على عقولهم وزعم لهم أنـه إله موسى فقـال موسى لهارون عليـه السلام: يـا هـارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّـوا ألا تتبعني أفعصيت أمـري بأن تقضي على سبيل المفسـدين. وقـد بلغ الغضب بموسى عليه السلام مبلغا فألقى ألواح التوراة وأخذ برأس أخيه هارون ولحيته يجره إليـه فقـال هــارون: يـا ابن أم لا تأخـذ بلحيتـي ولا بـرأسي إن القـوم استضعفـوني وكـادوا يقتلونني فـلا تشمت بي الأعـداء ولا تجعلني مع القـوم الظالمين، وقد أخذ موسى هذا العجل وحـرّقه ونسفه في اليم نسفا. وقوله عز وجل: ﴿وإذ واعدنا مـوسى أربعين ليلة﴾ أي واذكروا ما حـدث من آبائكم وقت أن واعـدنا مـوسى أربعين ليلـة لإعطـائه بعد تمامهـا التـوراة، وقولـه: ﴿واعدنا مـوسى﴾ أي وعد الله عز وجل موسى عليـه السلام الطور في وقت معين فاستجـاب موسى عليـه السلام لميعـاد ربه، فكـان الوعـد من الله عز وجل والاستجابة من موسى عليه السـلام فالمواعدة على بابها وقيل: هذا من باب داويت العليل وعاقبت اللص، والميعـاد هو المواعدة والوقت والموضع، وموسى هـو ابن عمران من سبط لاوي بـن يعقوب بن إسحاق بـن إبراهيم عليهم السلام قيل وسمّي ﴿مـوسى﴾ أخذًا من كلمتين بالقبطيـة أو العبرية وهما ماءٌ وشجر فمـو هو الماء وشا هو الشجر واستعمله العـرب بالسين بدل الشين فقالـوا: موسى. وقد زعم مدّعـو ذلك أنه سُمّي بذلك لأنـه وجد في التابوت بين الماء والشجر عندما التقطـه آل فرعون فأطلقوا عليه هذا الاسم،

وقوله عـز وجل : ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي ثم اتخذتم العجل الذي صاغه لكم السامري إلها مـن بعد ذهاب موسى ومضيه لميقات ربـه وأنتم مـرتكبـون أفحـش الظلم بعبـادة غير الله لأن الشرك ظلم عظيم، وأصل الظلم وضع الشيء في غير مـوضعـه . وقولـه عـز وجل : ﴿ثم عفونـا عنكم من بعـد ذلك لعلكم تشكـرون﴾ أي ومع ارتكـابكم هـذه الجريمـة البشعة وهذا الظلم العظيم لم نعاجلكم بالعقوبة لكي تشكروا الله عز وجل ، والمخاطب بقوله عـز وجل : ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفـونـا عنكم من بعد ذلك لعلكـم تشكرون﴾ هم بنـو إسرائيل المعـاصرون لرسول الله ﷺ المعادون له ، والمقصود إخبارهم بما فعل آباؤهم من معصية الله ومخالفة المرسلين ، وبيان أن هؤلاء الأبنـاء من جنس هؤلاء الآباء ، والأولى بهم أن يسـارعوا إلى الإيمان بمحمـد ﷺ وأن يشكروا نعمـة الله التي أنعم بها على الإنسانية كلهـا حيث لم يعاجل العاصين بالعقوبة . وقـوله عز وجل : ﴿وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم إذ أعطينا موسى عليه السلام الكتاب وهو التوراة وأعطيناه الفرقان وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ، والعطف في قوله عز وجل : ﴿الكتاب والفرقان﴾ هو عطف تفسير فكأنه وصف الكتاب بأنه الفرقان وقد سمى الله عز وجل ما آتاه مـوسى وهارون بأنه فرقانٌ وضياء وذكـر حيث يقول في سورة الأنبياء : ﴿ولقد آتينا موسى وهـارون الفرقان وضياءً وذكرا للمتقين﴾ والعرب يعطفون عطف التفسير لتأكيد المعنى كما قال عدي بن زيد :

وقـدّدت الأديـم لراهشَـيْه ... وألفـى قولهـا كذبـا ومينـا

والمين هو الكذب وتقـديد الأديم تقطيعه والأديم الجلد والراهشـان عرقان في باطن الذراع . ومن العطف للتفسير أيضا قول عنترة :

حييـت من طـلل تقادم عهـده ... أقـوى وأقفـر بعـد أمِّ الهـيثم

وأقوى وأقفر بمعنى واحد. ومن ذلك أيضا قول الحطيئة:

ألا حبّذا هندٌ وأرض بها هنـــد   وهند أتى من دونها النأي والبـعد

فعطف البعـد على النأي وهما بمعنى واحد. وقـد ساق الله تبـارك وتعالى مواعـدته موسى عليـه السلام لإعطائه التـوراة وعبادة قومـه العجل من بعد ذهابه لميقات ربه، وموقف هارون من ذلك، ورجوع موسى إلى قومه غضبان أسفـا وما حـدث بينـه وبين هارون عليـه السـلام، وما صنع مـوسى بعجل السامـري وذكر ذلك في مواضع من كتـابه الكريم حيث قال في سـورة البقرة أيضـا: ﴿ولقد جـاءكم موسى بـالبينات ثم اتخذتم العجل من بعـده وأنتم ظالمون﴾ ويقـول في سورة الأعراف: ﴿وواعدنـا موسى ثلاثين ليلةً وأتممنـاها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لـن تراني ولٰكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكـانه فسوف تـراني فلما تجلى ربـه للجبل جعلـه دكـا وخر مـوسى صعقـا فلما أفـاق قـال سبحـانك تبت إليك وأنـا أول المؤمنين * قال يـا مـوسى إني اصطفيتك على الناس برسـالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكـرين * وكتبنا له في الألواح من كـل شيء موعظة وتفصيـلا لكل شيء فخذهـا بقوة وأمـر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كلّ آيـة لا يؤمنـوا بها وإن يروا سبيل الـرشد لا يتخذوه سبيـلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذٰلـك بأنهم كذبوا بآيـاتنا وكانوا عنها غـافلين * والذين كذبوا بآياتنـا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كـانوا يعملـون * واتخذ قوم مـوسى من بعده من حليهـم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين* ولما سقط في أيـديهم ورأوا أنهم قد ضلـوا قالـوا لئن لم يـرحمنا ربنـا ويغفر لنـا لنكـونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قـومه غضبـان أسفا قـال بئسما

خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليـه قـال : ابن أم إن القـوم استضعفـوني وكـادوا يقتلـونني فـلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلنـي مع القوم الظـالمين * قال رب اغفرلي ولأخـي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الـراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينـالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكـذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا مـن بعدها وآمنوا إن ربك من بعدهـا لغفور رحيم * ولما سكت عن مـوسى الغضب أخـذ الألـواح وفي نسختها هـدي ورحمة للـذين هم لـربهم يرهبون﴾ وقال تعالى في سورة طه : ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعـدناكم جـانب الطـور الأيمن ونـزلنا عليكـم المن والسلوى * كلـوا من طيبـات مـا رزقنـاكم ولا تطغـوا فيـه فيحلَّ عليكم غضبي ومن يحلل عليـه غضبي فقد هوى * وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى * وما أعجلك عن قومك يـا موسى * قـال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يـا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما أخلفنا مـوعدك بمَلكنا ولَكنـا حمّلنا أوزارا من زينة القـوم فقذفناهـا فكذلك ألقى السامـري * فأخرج لهم عجلا جسـدا له خـوار فقالوا هـذا إلهكم وإله موسى فنسي أفـلا يرون أن لا يرجع إليهم قـولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا * ولقد قـال لهم هارون من قبل يا قـوم إنما فتنتم به وإن ربكـم الرحمن فـاتّبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عـاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا * ألاّ تتّبعـن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ الآيـات إلى قوله : ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إلـه إلا هو وسع كل شيء علما﴾ .

قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾.

قد ذكر الله عز وجل في الآية الواحدة والخمسين والثانية والخمسين السابقتين ما يفيد أن بني إسرائيل اتخذوا العجل إلهاً بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربه وأن الله عز وجل عفا عنهم من بعد ذلك لعلهم يشكرون ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآية الثالثة والخمسين ما قضى به موسى عليه السلام بأمر من الله عز وجل على الذين عبدوا العجل وارتدوا عن الدين بأن يقتل بعضهم بعضاً تحقيقاً للتوبة من هذه الجريمة البشعة، وهو يدل على أن شريعة موسى عليه السلام وشريعة محمد ﷺ متفقتان على أن من بدَّل دينه يقتل فقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من بدَّل دينه فاقتلوه. ولا معارضة بين قوله تعالى في الآية الثانية والخمسين: ﴿ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون﴾ وقوله عز وجل هنا: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ لأن قوله ﴿عفونا عنكم﴾ لا يدل على أنه لا عقاب عليهم في الدنيا وذلك لجواز اجتماع العفو مع العقوبة الدنيوية. ولهذا فإن من قتل شخصا عمدا بغير حق وعفا أولياء القتيل أو أحدهُم عن القاتل فإنه يُنتَقَلُ من القصاص إلى الدية وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ وهذا يظهر الفرق بين العفو وبين المغفرة فإن العفو قد يجتمع مع العقوبة

بخلاف المغفرة فإنها لا تكون مع عقوبة، على أن العفو في قوله: ﴿عفونا عنكم﴾ يشمل عُبَّاد العجل وغيرهم من بني إسرائيل الذين لم يُغَيِّرُوا هذه المعصية عند ظهورها، وسكتوا عليها، إذ المعروف أن المعصية التي لم يستتر أهلها تستجلب سَخَط الله وعقوبته على مرتكبها وعلى من لم يغيرها ولم ينهَ عنها على حد قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ وقد تفضل الله تبارك وتعالى على من قُتل من عُبَّاد العجل وتابوا إلى الله وندموا على ما فعلوا أن لا يجمع لهم بين عقوبة القتل في الدنيا وعذاب الله في الآخرة وقد أخبر النبي محمد ﷺ أن من ابتلى بشيء من هذه القاذورات وأُخِذَ بها كان كفارةً له و إن تَابَ تاب الله عليه، وقد أخبر الله عز وجل أنه تاب على هؤلاء الذين قُتِلُوا من عُبَّادِ العجل حيث يقول في هذه الآية المباركة: ﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم .﴾ وعبَّر بالماضي لتحقيق ذلك فله الحمد وله الشكر وله المنة، والقوم في قوله عز وجل: ﴿و إذ قال موسى لقومه يا قوم﴾ أصل القوم في الاستعمال العربي يطلق على جماعة الرجال الذين ليس فيهم امرأة ويدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيرا منهن﴾ فجعلَ القومَ في مقابلة النساء. ومن ذلك قول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ

ولا يجوز إطلاق لفظ القوم على النساء وحدهن ألبتة، وأما قوله تعالى: ﴿كذبت قوم نوح﴾ وقولُه ﴿كذبت قوم لوط﴾ وهو لا شك يشمل الرجال والنساء فإنما ذلك من باب التغليب. وقوله: ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي فارجعوا إلى الله واندموا على خطيئتكم واعزموا على أن لا تعودوا لمثلها أبداً. والبارئ هو الله عز وجل يقال بَرَأَ الله الخَلْقَ أي خلقهم وأوجدهم من

العدم. وأصل مادة بَرَأَ يدل على انفصال شيء عن شيء وتَمَيُّزِه عنه يقال: برأ المريض من مرضه إذا زال عنه المرض وانفصل، وبرأ المدينُ من دينه إذا زال عنه الدين وسقط عنه، ومنه البارىء في أوصاف الله عز وجل لأن مَعْنَاهُ الذي أخرج الخلق من العدم وفَصَلَهم إلى الوجود، ومنه البرية أي الخليقة لانفصالهم من العدم إلى الوجود، وقوله: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي فليقتل بعضكم بعضا، والأمر مُوَجَّهٌ إلى من عَبَدَ العجل واتخذه إلهاً من دون الله. وقوله: ﴿ذٰلكم خير لكم عند بارئكم﴾ أي قَتْلُ أَنْفُسِكُمْ امتثالا لأمر الله وتحقيقاً للتوبة أنفع لكم عند الله يوم القيامة فإنكم إن لم تتوبوا خسرتم الدنيا والآخرة لأنكم مفارقون للدنيا لا محالة ومرجعكم إلى الله فيذيقكم عذاب السعير لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فلا مغفرة للمشرك إلا بتوبة نصوح. وقوله عز وجل: ﴿فتاب عليكم﴾ أي قبل توبة التائبين الذين استجابوا لما أمرهم الله عز وجل به لتحقيق توبتهم وهذا لتذكير المخاطبين بما حصل من آبائهم وما أنعم الله عليهم به من قبول توبتهم، وليس قتلُ المُذْنِب نفسه شرطا في تحقيق التوبة من الذنب عند جميع الديانات السماوية السابقة بل هذا الأمر خاص بهذه الحادثة حيث قضى الله به على عُبَّاد العجل من بني إسرائيل وقد جاءت الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ بما يدل على قبول توبة التائبين من بني إسرائيل من معاص كبار كالقتل ونحوه دون أن يؤمر المذنب بقتل نفسه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟

فقـال : نَعَم ومَنْ يَحُولُ بينه وبين التـوبـة ، انطلق إلى أرض كذا وكـذا فإنَّ بها أنـاساً يعبـدون الله تعالى فـاعبد الله معهم ، ولا تـرجع إلى أرضك فإنها أرضُ سَوْء . فـانْطَلَقَ حتى إذا نَصَّفَ الطـريق أتاه الموت فـاختصمت فيه مـلائكة الرحمة وملائكة العـذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تـائباً مُقْبِلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العـذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي فجعلـوه بينهم أي حَكَماً فقال : قيسـوا ما بين الأَرْضَين فإلى أيتهما كـان أدنى فَهُـوَ لَه ، فقـاسوا فـوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضتـه ملائكـة الرحمة . كما روى البخـاري في صحيحه من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ بينما كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّـةٍ كاد يقتله العَطَشُ ، إذ رأتْه بَغِيٌّ من بغايا بني إسرائيل ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها به ، وقوله : يطيف بركية أي يُـدِيمُ المرور حول بئـر ليحاول الشرب منهـا ولا يتمكن من ذلك ، وقولـه بَغيٌّ أي امرأة تحترف الـزنا والدعارة وقـوله فَنَزَعت مُوقَهـا أي خلعت خُفَّها ، ففي هــذين الحديثين الصحيحين دليل جَلِيٌّ على أن قبــول التـوبــة في بني إسرائيل لم يكن يُشْتَرَطُ فيـه أن يقتل التائب نفسه كما بينـت ، وأن قتل التائب نفسه إنما جاء في تـوبة عُبَّاد العجل خاصـة ، ولا معارضة بين قولـه عز وجل هنا : ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ وبين قوله : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمـاءكم﴾ لأن القتل المأمور به هنـا هو قتل عُبَّـاد العجل تحقيقا لتوبتهم من هذه الجريمة البشعة ، وأمـا القتل المنهي عنه الذي حرمه عليهم بقـوله : ﴿لا تسفكـون دمـاءكم﴾ فهو القتل بغير حق . وقـولـه : ﴿إنه هـو التواب الـرحيم﴾ أي إن الله هـو الكثير الفضل على عباده بكثـرة قبول تـوبة التائبين وهـو أرحم الراحمين فله الحمد ولـه الشكر . وقولـه عز وجل : ﴿وإذ قلتم يا مـوسى لن نؤمـن لك حتى نرى الله جهـرة فأخذتكم الصـاعقة وأنتم تنظـرون . ثم بعثنـاكم من بعـد موتكم لعلكم تشكـرون ﴾ أي واذكـروا أيها

اليهود المعاصرون ما طلبتموه من كليم الله موسى عليه السلام أن يريكم الله عيانا وقد طلب موسى عليه السلام من ربه أن يتجلى له حتى يراه عندما كلمه ربه فأخبره الله أنه لو تجلى له لأحرقه وقال لموسى عليه السلام: انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه إذا تجلى الله له فإنك سوف تراني فلما تجلى الله تعالى للجبل جعله دكًّا وأخذت الصاعقة موسى عليه السلام ومن معه وكانوا سبعين رجلا قد اختارهم موسى عليه السلام من بني إسرائيل ليشهدوا معه الميقات، ثم بعثهم الله من صعقتهم وكان أول من أفاق منهم هو موسى عليه السلام وقد رآهم بعينه وهم صَرْعَى فأخذ موسى عليه السلام يتضرع إلى الله ويقول: رب إن شئت أهلكتهم من قبل وإياي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ وإنما كان هذا الخطاب في هذا المقام كغيره من الخطابات السابقة واللاحقة في هذا السياق لليهود المعاصرين للنبي ﷺ تذكيرا لهم بما فعل آباؤهم وأسلافهم وهم منهم مع موسى عليه السلام ليلفت انتباههم إلى أن من لم يسارع من بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ﷺ فإنه يكون قد سار على نهج السفهاء من آبائهم وأسلافهم ففيه تسلية لرسول الله ﷺ ومواساة له وتبكيتٌ للمعاصرين من بني إسرائيل. وقد كان قول بعض سفهاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام: أرنا الله جهرة قبيل ذهابه لميقات ربه، وكان ذلك قبل عبادة بعضهم لعجل السامري وقد بين الله ذلك في سورة النساء في سياق تعداد بعض جرائم بني إسرائيل ومواساة رسوله وعبده محمد ﷺ وحَضِّه على الصبر على تعنتهم معه حيث طلبوا منه ﷺ أن يُنَزِّل عليهم كتابًا من السَّماء مختصا بهم موجَّهاً إليهم بأعيانهم من الله يخبرهم فيه أن محمدًا رسول الله حيث يقول عز وجل: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنَزِّل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذٰلك فقالوا: أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن

ذٰلك وآتينا موسى سلطانا مبينا﴾ وقوله: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام: لن نصدق أنك رسول الله حتى نبصر الله بأعيننا عيانا وقوله عز وجل: ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ أي فأصابتكم الرجفة عندما اندك الجبل لما تجلى الله له، وقوله: ﴿وأنتم تنظرون﴾ أي وقد أبصرتم ذلك عند وقوعه حيث كان الذي يفيق منهم قبل الآخر يشهد مصرعه. وقوله عز وجل: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ أي رددنا لكم الحياة من بعد ما أخذتكم الصاعقة. وهذا أول مقام من المقامات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة الشاهدة بقدرة الله على إحياء الموتى المنكرة على منكر البعث بعد الموت وكأنه يقول لهم: قد أحييت الموتى فعلاً، وكلُّ ما وقع فعلا فهو ممكن عقلا فكيف ينكر عاقل البعث بعد الموت؟ والمقام الثاني في قوله عز وجل في قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل: ﴿فقلنااضربوه ببعضها كذالك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ والمقام الثالث في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ والمقام الرابع قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام، وأحيا أمامه حماره الذي كان قد مات معه. وقال له: انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما. والمقام الخامس في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلم تؤمن قال بلى ولٰكن ليطمئن قلبي قال: فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. هذا ولا شك عند علماء أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وإن كانوا يعتقدون أن البشر لن يروْا ربهم حتى يموتوا وإن كانت الرؤية ممكنة في الدنيا، ولذلك سألها موسى عليه السلام

ولو كـانت مستحيلة ما سألها، وقـد أخبر الله عز وجل أن الكفار محجـوبون عن رؤية الله يوم القيامة، وقد أشار الله عز وجل إلى أن رؤية المؤمنين ربهم في جنات النعيم هي أعظم لذات الجنة حيـث يقول: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيـادة﴾ فقد فسَّر رسـول الله ﷺ الـزيـادة في الآية بـأنها النظر إلى وجـه الله الكريم وأنه ما أعطاهم شيئا هو أحبُّ إليهم من النظر إليه كما رواه مسلم في صحيحه من حديث صهيب رضي الله عنه وكما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناسا قـالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيـامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارُّون في رؤية القمر ليلة البـدر؟ قالوا: لا. قال: هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحـاب؟ قـالـوا: لا. قال: فإنكـم ترونـه كـذلك» وبنحــوه. من حــديث أبي سعيــد الخدري في الصحيحين أيضــا كما روى البخاري ومسلم من حديث جـرير بن عبدالله البجلي قال: كنا جلـوسا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقــال: إنكم ستَرَوْن ربكم عيانا كما تـرون هذا لا تضـامون في رؤيتـه. وقد حكم غير واحـد من أهل العلم بأن أحاديث الرؤيـة متواترة وقد روى أحـاديث الرؤية نحو ثـلاثين صحابيا عن رسول الله ﷺ، وقـد ادعى بعض أهل الأهـواء المنحرفين عن سنـة رسول الله ﷺ أن رؤية الله مستحيلة في الدنيا والآخرة مستدلا بقوله تعالى: ﴿لن تراني﴾ على أن (لن) تقتضي النفي على التأبيـد، وهـو خطأ في فهم اللسان العـربي، ولذلك قال ابن مالك صاحب الألفية رحمه الله:

وَمَنْ رأى النفـــي بلـــن مؤبَّـــدا   فقــوله اردُدْ وســواه فاعْضُــدَا

وقد أشار القرآن الكـريم إلى أن لن لا تفيد النفي على التأبيد حيث قال في اليهـود: ﴿ فتَمَنَّــوا الموت إن كنتم صـادقين * ولن يتمنـوه أبــدا بما قـدمت أيديهم﴾ وقـد أكد هـذا النفي بقوله: ﴿أبــدا﴾ ومعلوم قطعـا أن الكفار بما

فيهم اليهـود يتمنون الموت وهم في جهنم حيث أشـار الله إلى ذلك في قولـه :
﴿ونـادَوْا يـا مالك ليقض علينـا ربك﴾ نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفـاتـه
العلى أن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم .

قال تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المَنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قلنا ادخلوا هٰذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدلَّ الذين ظلَموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾.

إن النِّعم التي عدَّدها الله تبارك وتعالى وتفضل بها على بني إسرائيل من قوله عز وجل: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون﴾ إلى هذا المقام كان معظمها نعما لدفع نقم حلَّت ببني إسرائيل، ومن هنا تعداد لنعم أسبغها الله عز وجل على بني إسرائيل، وقوله عز وجل: ﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أي وجعلنا الغمام فوق رؤوسكم كالظلة يقيكم حر الشمس وأنتم في الصحراء، والمقصود آباؤهم الذين شهدوا هذه النعمة وتناقلها أبناؤهم جيلا بعد جيل ومع ذلك لا يشكرون نعمة الله عليهم وعلى آبائهم، والغمام جمع غمامة، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: والغمامة السحابة أو البيضاء اهـ وإنما قيل للسحاب غمام لأنه يَغُمُّ السماء أي يسترها، وقوله عز وجل: ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أي وألقينا عليكم المن والسلوى والمن هو صمغة حلوة شبيهة بعسل النحل والظاهر أنه لم يكن نوعا واحدا بل كان المنُّ أنواعا منها نوع يشبه خبز الرّقاق حلو ومنها نوع يشبه الترَّنجبين قال ابن البيطار في مفرداته: الترَّنجبين طلٌّ يقع من السماء وهو نَدًى شبيه بالعسل جامدٌ مُتَحَبِّبٌ. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الكمأة من المن الذي أنزله الله على بني

إسرائيل فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: الكمأة من المنِّ وماؤها شفاء للعين، ورواه مسلم في صحيحه من طريق عبدالملك بن عمير عن عمرو بن حُريث عن سعيد ابن زيد بن عمرو بن نُفيل عن رسول الله ﷺ باللفظ الذي أخرجه به البخاري ثم رواه مسلم من طريق الحسن العرني عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قال: قال رسول الله ﷺ: الكمأة من المنِّ الذي أنزل الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل وماؤها شفاء للعين وفي لفظ لمسلم من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: الكمأة من المن الذي أنزل الله على موسى وماؤها شفاء للعين. أما السَّلوى فهو طير قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: وقوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾. وقال مجاهد: المَنُّ صَمْغَةٌ والسَّلْوى طير اهـ قيل هو المعروف بالسُّمّاني وقيل هو يشبه السماني وقيل هو مثل الحمامة وهذه الطيور التي فُسِّرَ بها السلوى متقاربة. وفي قوله عز وجل: ﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ رَدٌّ على من زعم أن (أنزل) تكون في ما نزل جملة وأن (نزّل) تكون في ما نَزَلَ على التدريج لأنه لا نزاع أن المن والسلوى كانت تنزل على التدريج وهم يضطرون إلى تأويل نحو قوله عز وجل: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم﴾ بأن القرآن نزل جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزل على التدريج في ثلاث وعشرين سنة منجَّما بحسب الوقائع، وهو مذهب غير سديد ذهب إليه الذين ينكرون كلام الله من أهل الأهواء، وقد ردَّ عليهم مفتي الديار السعودية السابق العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله في رسالة مطبوعة، وقال القرطبي في تفسير سورة القدر بعد أن ذكر ما قيل من أن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ

إلى سماء الدنيا إلى بيت العـزة وأملاه جبريل على السَّفَرة ثم كان جبريـل يُنزَله علي النبي ﷺ نجوما نجـوما ثم قال القرطبي : قال ابن العـربي : وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله واسطــة ولا بين جبريل ومحمــد عليهما الســلام واسطة اهـ ومما يؤيد أنه لا فـرق بين أنزل ونَزَّل إلا في تلوين الأسلوب ما ذكره الله عز وجل عن العرب وهم أهل اللسان حيث قالوا : «لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة» فهم أعـرف خلق الله باللسان العربي وسألـوا : لماذا لم ينزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ فاستعملـوا نزَّل في نزول الشيئ جملة لا في التدريج مع أن الأمر في ذلـك واسع كما بينت آنفا . وقـوله عز وجـل : ﴿كلوا من طيبـات ما رزقناكم﴾ أي تَمَتَّعُوا بـالأكل من مستلذات ومشْتَهيَاتِ ما تفضلنـا به عليكم من المن والسلـوى . وقولـه عـز وجل : ﴿وما ظلمـونـا ولٰكن كانـوا أنفسهم يظلمون﴾ أي لم يشكروا هـذه النعمة العظيمة الجليلة وقـالوا : لن نصبر على طعام واحد يا موسى ادع لنا ربك يخرج لنـا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلهـا . وهم بكفرهم هذه النعمة لن يَضُرُّوا الله شيئا وإنما يضرون أنفسهم بارتكابهم ما يجلب لهم خزي الدنيا وعذاب الآخرة فإن العباد لـو كانـوا على أتقى قلب رجل مـا زاد ذلك في ملك الله شيئا ولـو كانـوا على أفجـر قلب رجل ما نقص ذلك من ملك الله شيئـا ، وإنما أفعال العبـاد من الخير والشر راجعة إليهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . وقـوله عز وجل : ﴿وإذ قلنـا ادخلوا هٰذه القرية فكلـوا منها حيث شئتم رغـدا﴾ أي واذكروا إذ أمـرنا بني إسرائيل بـدخول بين المقـدس وسُميَّ قـريـة لما فيه مـن التقري والسكـون والاجتماع ، من قـولهم : قَـرَيتُ الماء في الحوض أي جمعته وقـد سمى الله عز وجل مكة قـرية في قوله تبـارك وتعالى : ﴿وكأيِّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ كما سمى رسول الله ﷺ المدينة المنورة قريـة في قوله ﷺ : «أمرت بقرية

تأكل القرى» وقد رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما . وقوله : ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ أي فقد يسَّرتُ فيها ألوان العيش الرغيد الكثير الواسع ، والأمر في قوله : ﴿فكلوا﴾ للإباحة . وقوله : ﴿رغدا﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره : أكلا رغدا أي واسعا لا حجْر فيه ، وقوله : ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ أي وادخلوا باب هذه القرية واسجدوا لله عز وجل شكرا على نعمائه . وقوله عز وجل : ﴿وقولوا حطةٌ﴾ أي واطلبوا من الله أن يحط عنكم خطاياكم ويغفر لكم سيئاتكم ، وقوله عز وجل : ﴿نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم سيئاتكم ومحونا عنكم ذنوبكم وزدناكم من الخيرات والحسنات على حد قوله عز وجل : ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي فحرَّف هؤلاء الظالمون لأنفسهم وغيَّرُوا الأمر الذي أمرهم الله به فبَدَلَ أن يدخلوا الباب سجدا دخلوا يزحفون على أستاههم ، وبَدَل أن يقولوا حطة قالوا : حنطة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا : حطّةٌ حبّةٌ في شَعَرةٍ ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطةٌ يُغْفَر لكم خطاياكم فبدَّلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا : حبَّةٌ في شَعَرَةٍ . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي الحرص على تأدية الألفاظ والأفعال التي يطلبها الشرع من العباد من غير تبديل ولا تحريف بقدر الاستطاعة لقول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي بسند صحيح من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ

يقول: نَضَّر الله امرأً سمع منا شيئا فبلَّغه كما سمعه فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى له من سامع. كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أتيت مَضْجَعَك فتوضأْ وُضُوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلتَ، ونبيك الذي أرسلتَ فإن مُتَّ مُتَّ على الفطرة، فاجْعَلْهُنَّ آخر ما تقول، فقلت أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وبرسولك الذي أرسلت، قال لا: وبنبيك الذي أرسلت. فهذا الحديث يدل على أنه لا ينبغي تغيير الألفاظ الشرعية ولا سيما في الدعاء، ولذلك لما غيرَّ بنو إسرائيل وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم عاقبهم الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي فَسَلَّطْنَا على بني إسرائيل عذابا وأرسلناه عليهم من السماء بسبب فسقهم وخروجهم على أوامر الله، فلما بدلوا نعمة الله كفرا أنزل عليهم بدل المن والسلوى عذابا، وقوله: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ فوضع الظاهر موضع الضمير إذ الأصل أن يقال: فأنزلنا عليهم لتسجيل هذه الصفة القبيحة عليهم وهي الظلم والتعدي ووضع الأمور في غير موضعها.
وقد ساق الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم قصة أمرهم بدخول القرية وأن يأكلوا منها حيث شاءوا وما كان منهم من مخالفة الأوامر الشرعية وتحريفهم للكلم من بعد مواضعه حيث ذكر هذه القصة في سورة البقرة، وذكرها كذلك في سورة المائدة حيث يقول عن حديث موسى عليه السلام معهم: ﴿يا قومِ ادخلوا الأرض المقدسةَ التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا: يا موسى إن فيها قوما جبارين و إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من

الـذين يخافون أنعـم الله عليهما: ادخلوا عليهم البـاب فإذا دخلتمـوه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلـوا إن كنتم مؤمنين* قالوا يا موسى إنـا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافـرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قـال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هـٰذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقـولـوا حطة وادخلـوا البـاب سجَّـدا نغفـر لكم خطيئاتكم سنـزيـد المحسنين * فبدَّل الذين ظلموا منهم قـولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانـوا يظلمون﴾ وقوله عـز وجل: ﴿وإذ استسقى موسىٍ لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فـانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كلُّ أناس مشربهم﴾ وهذا تـذكير لنعمة أخرى من نعم الله التي أنعم بها على بني إسرائيل وقد كفروها ولم يشكروا الله عليها مع أنها معجـزة ظاهرة، وآية قاهرة وحجـة بـالغـة، أي واذكـروا يـا بنـي إسرائيل نعمـة الله عليكم إذ أصـابكم العطش واحتجتم للشرب فطلب مـوسى عليـه السلام من ربـه السُّقْيـا لكم فأمره الله عز وجل أن يضرب بعصاه الحجر فضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه. فانفجـرت وانبجست منه اثنتا عشرة عينا بعـدد أسباط بني إسرائيل لكل سبط منهم عين حتى لا يتشاحنـوا ولا يتنازعـوا على الماء حيث قد علم كل سبط من أسبـاط بني إسرائيـل العين التي اختصَّ بها، وقـد قطَّعَهُم الله اثنتى عشرة قبيلـة كل قبيلة تنتمي إلى ولـد من أولاد يعقوب عليـه السلام كما قـال عز وجل: ﴿وقطعنـاهم اثنتى عشرة أسبـاطا أممـا﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسـدين﴾ أي قد يسرنا لكم طعامكم وشرابكم رزقا من عندنا وفضلا تفضلنـا به عليكم فاعرفوا نعمة الله ولا تكفروهـا ولا تفسدوا في الأرض متعمـدين الإفساد فيهـا. فالعيـث شدة

الفسـاد يقال: عثِي يَعْثَى عُثِيًّا وعثَـا يَعْثُـو عُثُواً وعَـاثَ يَعِيثُ عَيْثـاً وعُيُوثـاً ومَعَاثاً، ويقـال أيضا عَثَّ يَعُثُّ ومنه العُثَّةُ وهي سُوسَةٌ تفسـد الصوف. وما أشبه اليهـود بهذه السوسة لعنهم الله. وقـوله عز وجل: ﴿مفسـدين﴾ حال مؤكـدة لمعنى عاملهـا كقولـه: ثم وليتم مدبرين كـأنه قيل لهم: لا تتمادوا في الفساد حـال كونكم مفسـدين. هذا وليـس هناك دليل على أن هـذا الحجر الذي ضربـه موسى عليه السـلام بعصاه هو حجـر كان يحمله مـوسى عليه السلام معـه، بل الظاهر أنه حجـر كا ن قريبـا منه عندما أمـره الله عز وجل بضربـه لتنبيه بنـي إسرائيل إلى أن قلوبهم قـد تقسـو فتكون أشـد قسـوة من الحجارة إذ أن بعض الحجـارة قد تتفجر منـه الأنهار وليس هو الحجـر الذي وضع موسى عليـه ثيابه لما أراد أن يغتسل فهرب الحجر بثيـابه حتى وقف بها على ملإ بني إسرائيل لدفع أذى عن موسى عليه السلام، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن موسى عليه السلام كـان رجلا حَيِيًّا ستيرا لا يـرى من جلده شيء استحياء منـه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالـوا: ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلـده إما برص وإمـا أدرة وإما آفة وإن الله عـز وجل أراد أن يبرئه مما قالـوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحـده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثـوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى مـلإ بني إسرائيل فرأوه عريـانا أحسن ما خلق الله. الحديث. فذلـك قوله: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصرا فإنَّ لكم ما سألتم، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله، ذُلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذُلك بما عصوا وكانوا يعتدون * إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذا تذكير آخر لجناية أخرى من جنايات بني إسرائيل من كفرانهم لنعم الله، ومَعْصِيَتهم لرسل الله وإخلادِهم للدناءة والخسَّة، مع اتصافهم بأكبر الجنايات بعد عبادتهم للعجل وهي قتل الأنبياء، وقد وُجِّه الخطاب هنا للمعاصرين لرسول الله ﷺ لاتحادهم مع آبائهم في الخسة والدناءة وعداوة الأنبياء والمرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل ما قال آباؤكم لموسى عليه السلام: لن نرضى بالاستمرار على تناول طعام واحد ولن نحبس أنفسنا على المن والسلوى. وسُمي المنُّ والسَّلوى طعاما واحدا مع أنهما نوعان لتكرارهما كلَّ يوم وفي كل غذاء على وتيرة واحدة، ومن الأساليب العربية أنك تقول لمن يداوم على الصلاة والصيام وأعمال البر الكثيرة: هو على أمر واحد، ولو أن الإنسان قُدِّم له في مائدته لأيام متطاولة ألوان كثيرة مُعَيَّنَةٌ لا يتخلف منها شيء ولا يُزَادُ عليها شيء لَصَحَّ له أن يقول: نحن نعيش على طعام واحد. أي ما نتناوله من الطعام ثابت على وتيرة واحدة. والعَجِيبُ أن المنَّ والسلوى مضرِبُ المثل في ألذ أنواع الأطعمة وأشهاها وأنفعها فإن هؤلاء أعلنوا لموسى

عليه السلام أنهم لن يصبروا عليها، فأنت تقول للئيم الذي لا يُقَدِّرُ النعمة: لو أطعمته المنَّ والسلوى ما أثمر فيه، وكذلك طِباعُ هؤلاء، والطعام قد يُطْلَقُ على ما يؤكل ويُشربُ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في كتابه الكريم في قصة طالوت رحمه الله حيث يقول: ﴿إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ فسمى تناول ماء النهر طعاما. وكذلك قال الله تبارك وتعالى في قصة من مات من المؤمنين قبل تحريم الخمر ممن كانوا يشربونها: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ فسمى شرب الخمر طعاما، وقد وصف رسول الله ﷺ ماء زمزم بأنه طعامُ طُعْم كما أثر الإمام أحمد رحمه الله ذلك في مسنده، وقوله تعالى: ﴿فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام: فاسأل ربك وقل له أخرج لنا من نبات الأرض المحبوب لنا يخرج من بقلها وقثائها وفومِها وعدسها وبصلها، والبقل ما تنبته الأرض من الخضر كالكراث والكرفس والنعناع، والقثّاء معروف ومنه الخيار، والفوم هو الثوم عند كثير من أهل العلم، وقد استدل من ذهب إلى أن الفوم هو الثُّوم ببيت لحسان رضي الله عنه يقول فيه:

وأنتم أُنَاسٌ لِئَامُ الأصول طعامكموا الفُوم والحَوْقَلُ

قال القرطبي رحمه الله: يعني الثوم والبصل وقيل هو الحنطة. والعدس معروف وكذلك البصل، وقد كان رسول الله ﷺ يمتنع عن أكل البصل ونحوه كالكراث والفجل ولكنه أباحه ﷺ لأصحابه في غير وقت الصلاة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا

— أو قال : — فليعتزل مسجدنا أو ليقعُدْ في بيته ، وإن النبي ﷺ أتي بِقِدْرٍ فيه خَضِرَاتٌ من بقول . فَوَجدَ لها ريحا ، فقال : قرِّبُوها إلى بعض أصحابه وقال : كلْ فإني أناجي من لا تناجى ، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتي بطعام أكلَ منه وبعث بفضله إليَّ ، وإنه بعث إليَّ يوما بقصعة لم يأكل منها لأن فيها ثوما . فسألته : أحرامٌ هو ؟ قال : لا ولكن أكرهه من أجل ريحه . قال : فإني أكره ما كرهت . وقوله تعالى : ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ أي أتأخذون لأنفسكم وتختارون لها الذي هو أخس خطرا وقيمة وقدراً من العيش بَدَلاً بالذي هو خير منه خطرا وقيمةً وقدرا ، وترغبون في الثوم والبصل والعدس والبقول بَدَل المن والسلوى ، وأصل الاستبدال هو ترك شيء لآخر غيره مكان المتروك ، ومعنى أدنى أي أخس وأوضع وأصغر قدرا وخطرا يقال : رجل دَنِيٌّ إذا كان خسيساً أو يتبع الأمور الخَسيسةَ . قال ابن جرير رحمه الله : ولا شك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعَدَسَ والبصلَ والثُّومَ فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه . اهـ وقوله تعالى : ﴿اهْبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾ أي انزلوا الأرض المقدسة وادخلوا بيت المقدس فإنكم تحصلون فيه على ما تشتهون من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل ، والمصر في اللغة المدينة ، وقوله تعالى : ﴿وضربت عليهم الذِّلَّةُ والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ أي فأبدلهم الله عز وجل بالعز ذلا وبالنعمة بؤسا وبالرضا عنهم غضبا فمعنى ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أي وجعلت عليهم وألزموها وقضي عليهم بها . والذِّلة الذُّلُّ والهوان والصَّغار والمسكنة أثر الفقر من السكون والخضوع والخزي فهي لازمة لهم محيطة بهم ولو كانوا أغنياء فلا يوجد يهودي على الأرض غنيَّ النفس ولا ترى أحدا من أهل الأديان أذل ولا أحرص على المال من اليهود قبحهم الله

ولعنهم، ومعنى: ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ أي رجعوا وانقلبوا بسخط من الله، وباء بالشيء ألزم نفسه به، ولا تستعمل إلا موصولة بخير أو شر كقوله عز جل: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ أي تنصرف وترجع حاملا لإثمي وإثمك، وكقول رسول الله ﷺ: «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفرلي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال بعض أهل العلم من أهل التفسير والتأويل: إن الكلام من قوله تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ معترض في خلال القصص المتعلقة بحكاية أحوال بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى، يدل على هذا قوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين﴾ فإن قتل الأنبياء لم يكن من الموجودين في عهد موسى عليه السلام وإنما كان من فروعهم وذريتهم اهـ وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي ذلك الجزاء الذي جزيناهم به من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ورجوعهم بغضب الله وسخطه وقع عليهم بسبب كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم للمرسلين، وقتلهم أنبياء الله المعصومين من الخطايا والمعاصي والسيئات الذين لا يصدر عنهم شيء يستحقون به أدنى عقوبة فمن قتلهم كان أبشع القتلة وأعظمهم جرما وإثما، فشر الناس على الإطلاق هم قتلة الأنبياء، والنبي من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها أو بعثه لتقرير شريعة سابقة والرسول من بعثه الله بشريعة جديدة يدعو إليها، والنبي أعم مطلقا بالنسبة للرسول، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، وقوله عز وجل: ﴿بغير الحق﴾ للتشنيع على اليهود لعنهم الله إذ أنَّ منْ سلمت فطرته لا يخطر على باله أن نبيا من أنبياء الله يستحق أن يقتل، قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبدالصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبدالله يعني

ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبيٌّ أو قتل نبيا وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين» وقد أكد الله تبارك وتعالى فظاعة جرم قتلة الأنبياء في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذي يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وماهم من ناصرين﴾ كما أكَّد أن اليهود رعاديد جبناء وأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة في أي مكان كانوا من الأرض إلا ما يصيبهم أحيانا من عون بعض أعداء الله لهم حربا للإسلام والمسلمين في بعض فترات التاريخ حيث يقول: ﴿لن يضروكم إلا أذًى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذُلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ والحبل الذي قد يمدون به من الله إنما يكون بسبب تقصير من يسلَّط اليهودُ عليهم بسبب تقصير هؤلاء المسلمين في حق الله وتفريطهم في جنب الله، فهم لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم، وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، وقوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذه قاعدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصار والأمصار وهي أنه لا يستحق أجر الله وحسن مثوبته والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات، فآمن بجميع النبيين وصدَّق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهم وسيدهم محمد بن عبدالله ﷺ الذي قضى الله بأنه بعد بعثته لن

يدخل الجنة أحد إلا من طريقه واتباع منهجه وسنته والعمل بشريعته كما جاء في الأثر القدسي: «وعزتي وجلالي لو جاءوا من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك» ولا شك أن عيسى ابن مريم عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان يلتزم الحكم بمنهج محمد رسول الله ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني المسلمين من أمة محمد ﷺ وقوله: ﴿والذين هادوا﴾ قال البخاري في صحيحه: هادوا: صاروا يهوداً، والنصارى هم المدَّعون أنهم على دين المسيح منسوبون إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام فإنها يقال لها الناصرة ويقال لها: نصرانة والصابئون هم عبدة النجوم والكواكب والملائكة، وقد كان العرب يطلقون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخر حتى كانوا يلقبون أفضل الخلق بعد الأنبياء أصحاب محمد ﷺ بالصباة ويسمون خاتم المرسلين : الصابئ لأنه خالف دينهم ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ أي لا سعادة ولا فلاح ولا فوز لأي طائفة من الطوائف ولا لأي فرد من الأفراد المكلفين إلا إذا حقَّقُوا الإيمان بالله في أنفسهم وآمنوا بالبعث بعد الموت، والتزموا بالعمل الصالح، وقد اشترط الله عز وجل لصحة العمل وصلاحه شرطين أساسيين الأول أن يكون خالصا لوجه الله والثاني أن يكون صوابا أي على منهج رسول الله محمد ﷺ ولذلك قال عز وجل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ فمن حقق هذ الأمور فإنه يكون من أولياء الله الذين قال فيهم: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وكما قال: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ .

قال تعـالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنـا فوقكم الطور خذوا مـا آتيناكم بقوة واذكـروا ما فيه لعلكم تتقـون * ثم توليتم من بعـد ذٰلك فلولا فضل الله عليكم ورحمتـه لكنتم من الخاسرين * ولقـد علمتم الذين اعتـدوا منكم فى السبت فقلنـا لهم كونـوا قردة خـاسئين * فجعلناهـا نكالا لما بين يـديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ .

هـذه حكايـة جنـاية أخـرى من جنـايات بني إسرائيل ونقضهم للعهـود والمواثيق وأنهم لا يستقرون على عهـد ولا يستقيمون على ميثاق على حد قـوله تبارك وتعـالى فيهم : ﴿أو كلما عاهدوا عهـدا نبذه فـريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ وقولـه عز وجل : ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فـوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنـا عليكم العهد الموثق بأن تحافظـوا على الشريعة وأن تـؤيدوا المرسلين، وأن تؤمنوا بما يبعث الله من نبي وما يرسل من رسول، وجعلنا لكم آية حسية للدلالـة على قدرتنا عليكم وأنكـم لا تستطيعون الإفلات من عقـوبة الله إن عصيتم أمـره وكـذبتم رسلـه إذ رفعنـا الجبـل فـوق رءوسكم كأنـه سحـابـة تظللكم، حتى صرتم في رعـب وفـزع تخشـون أن يسقط عليكم فيهلككم، وأمرنـاكم والحالـة هذه أن تحافظوا على الشريعـة وأن تلتزمـوا بأحكـام التوراة ووصـايـاهـا وأن تجتهـدوا في تنفيذ أوامـر الله وطـاعـة المرسلين لكي تجعلـوا لأنفسكم وقاية من عذاب النار وسخط الجبـار، وأخذ الميثاق في قوله تعالى : ﴿أخـذنا ميثـاقكم﴾ هـو إلـزامهم بالعهـد الموثق، والتـزامهم بـه، وقولـه : ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ أي نتقنا فوقكم الجبل حتى صار كأنه ظلةٌ، والطور الجبل كما فسرته آيـة الأعراف في قـوله تعـالى : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهـم كأنه ظلـة﴾ وبعض أهل اللغة يخصـون الطور بـالجبل الذي ينبت، فإنـه يسمى

جبلا ويسمى طـورا، أما الجبل الذي لا ينبت فإنـه يسمى طَوْدا، وقولـه عز وجل: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي خذوا ما أنزلنا عليكم من الشريعة بجدٍّ وعزيمة ونشاط واجتهاد. وقوله عز وجل: ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي احفظوه ولا تنسـوه واجعلوه دائما على ذُكْـرٍ منكم بـالعمل بـه وتطبيق مـا فيه على شئـون معـاشكم ومعادكم. وقـولـه عز وجـل: ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تجعلـوا لأنفسكم وقاية من سخط الله وعذابه ولتنتظمـوا في عداد عباده المتقين وقوله عز وجل: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ أي ثم نقضتم الميثاق وأعرضتم عن الوفـاء بها التزمتم به من بعد توكيده، فلولا إحسان الله وجـودُه وفضله عليكم بإمهالكم وعدم معاجلتكم بـالعقوبـة ولـولا حلم الله ورحمتـه لكنتم من الهالكين الذيـن ضيعوا دنيـاهم وأخراهم، وخسروا العاجلة والآجلة. وقـوله عز وجل: ﴿ولقدعلمتم الذين اعتـدوْا منكم في السبت فقلنـا لهم كـونوا قـردة خـاسئين﴾ أي ولقـد علمتم وعرفتم قصـة أهل القرية التي كـانت حاضرة البحر إذ ابتـلاهم الله عز وجل وامتحنهم فكـانت الحيتان تـرفع رءوسهـا فوق الماء مقبلـة على الساحل يـوم السبت ويسهل على من يريد صيدهـا أن يَصيدَها. والصيد محرم عليهم يوم السبت فإذا ذهب يـومُ السبت اختفت من الماء القـريب منهم فلا يـرونها إلى السبت الآخر فاحتـالوا على صيدها بوسائل كأن يحفـروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر فيصيدونها يوم الأحد والأيـام الأخرى غير السبت ثم تجاهروا بالمعصيـة وصاروا يصيدون يوم السبت، فـوعظهم بعض الواعظين وذكروهـم وخوفوهم عقـوبة الله فلم يتعظـوا، وقالت طـائفـة من بني إسرائيل: لم تعظـون هؤلاء وهم مستحقـون لعقوبـة الله؟ فقال الواعظـون: إنما وعظناهـم معذرة إلى الله ولعلهم يـرجعون عن ضـلالهم، فـلا نيأس من رحمة الله، فلما عَتَـوْا عَمَّا نُهُوا عنـه قـال الله

للمعتدين: كونوا قردة خاسئين، فمعنى قوله عز وجل: ﴿علمتم﴾ أي عرفتم يا بني إسرائيل، والخطاب لمعاصري رسول الله محمدﷺ من بني إسرائيل وقوله تعالى: ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي الذين تجاوزوا الحدَّ الذي وجب عليهم أن ينتهوا عنده فلم ينتهوا بل انتهكوه والمراد بالسبت يوم السبت، وكان قد حرم عليهم الصيد فيه، وقوله عز وجل: ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أي فصيرناهم قردة صاغرين مطرودين من شرف الإنسانية إلى أخوة القردة والأمر هنا في قوله تعالى: ﴿كونوا﴾ هو أمر كوني أي إنما قلنا لهم كونوا قردة فصاروا قردة، ويعبر البلاغيون عنه بأنه أمر تسخير وتكوين، والأمر الكوني لا يتخلف على حد قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وقد هلك هؤلاء الممسوخون بعد ذلك ولم يبق لهم نسل كما روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أمُّ حبيبة: اللهم مَتِّعْنِي بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: إنك سَأَلْتِ الله لآجال مضروبة وآثار مَوْطوءَةٍ وأرزاقٍ مقسومة، لا يُعَجِّلُ شيئا منها قبل حِلِّه ولا يؤخر منها شيئا بعد حِلِّه، ولو سألت الله أن يعافيك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر لكان خيراً لك، قال: فقال رجل: يا رسول الله، القردةُ والخنازيرُ هي مما مُسِخَ؟ فقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل لم يُهْلِكْ قوما أو يُعَذِّبْ قوما فَيَجْعَلَ لهم نَسْلاً وإنَّ القردةَ والخنازيرَ كانوا قبل ذلك اهـ أما ما يدعيه الملحد الزنديقُ (داروين) في نظريته الإلحادية في (التطور والارتقاء) بأن الإنسان نفسه من سلالة القرود، فهو قول كاسد فاسد عاطل باطل مردود، ولا يرضى به إلا الزنادقة الملاحدةُ الدهريون المنتكسون. وكَوْنُ القرود أقدر الحيوانات العجماوات على تقليد الإنسان في بعض الحركات لا يفيد أنها أصل الإنسان، والناس يشاهدون في جهات شتى من العالم ألوانا من القرود

يعتني بها ويلبسها أصحابها الديباج ومع ذلك لم تخرج عما عرفت به من آلاف السنين، وما ثبت في صحيح البخاري الذي أورده في باب أيام الجاهلية من حديث عمرو بن ميمون رحمه الله قال: رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قِرَدة قد زنت فرجموها. فإن هذا لا يدل على رابطة بين الإنسان والقرود، وقد أشار الله عز وجل إلى أنه أعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى، وقال تبارك وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾.
وقوله عز وجل: ﴿فجعلناها نكالا﴾ أي فصيرنا هذه العقوبة بمسخ هؤلاء المعتدين قردةً عبرة ورادعا وزاجرا، فالنَّكالُ الزجر والعقاب، والنَّكالُ والنُّكْلَةُ والمَنْكَلُ ما نكَّلْتَ به غيرَكَ والنِّكْلُ القَيْدُ الشديد، ويقال: نكَّل به تنكيلا أي صنع به صنيعا يُحَذِّرُ به غيره. وقوله عز وجل ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ أي عبرة لمن عاصرهم ولمن يجيء بعدهم ممن يعلم خبرهم ويعرف قصتهم، فلا يقعون في مثل ما وقعوا فيه من معصية الله ومخالفة أمره والاحتيال في نقض شرعه، وكما قال عز جل في فرعون لعنه الله ﴿فأخذه الله نكَالَ الآخرة والأولى﴾. وقوله عز وجل: ﴿وموعظةً للمتقين﴾ أي عبرة وزاجرا وتخويفاً للمتقين الذين يخافون الله ويخشَوْنَ عقوبته، وخَصَّ المتقين بالذكر لأنهم هم الذين يعتبرون ويحرصون على سلامة أنفسهم ووقايتها من عذاب الله، وصيانتها من أسباب سَخَطِه. وكما قال عز وجل: ﴿إن في ذلك لعبرةً لمن يخشى﴾ وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة أخذ الميثاق على بني إسرائيل. ورفع الجبل فوقهم وما كان منهم من نقض الميثاق، ومعصيتهم للأنبياء والاعتداء في السبت في غير موضع من كتابه الكريم بحسب مقتضيات الأحوال من الإيجاز والإطناب والمساواة فقال تبارك وتعالى في سورة البقرة أيضا: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا: سمعنا وعصينا، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل

بئسما يأمركم بـه إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ وقـال عز وجل : ﴿ورفعنـا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجَّدا وقلنا لهم : لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظـا * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلـوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فـلا يؤمنون إلا قليلا﴾ وقال عز وجل : ﴿وإذ نتقنا الجبل فـوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا مـا آتيناكـم بقوة واذكروا مـا فيه لعلكم تتقـون﴾ وقال عـز وجل : ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتـانهم يوم سبتهم شُرَّعـا ، ويوم لا يسبتـون لا تأتيهم ، كذلك نبلـوهم بما كانوا يفسقـون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قـوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابـا شديـدا قالوا معـذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسـوا ما ذكـروا به أنجينا الـذين ينهون عن السوء وأخذنـا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كـانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين * وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يـوم القيامـة من يسـومهم سوء العـذاب ، إنَّ ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ ولقد ابتلى الله تبارك وتعالى أصحاب محمد ﷺ في نحو مـا ابتلى به بني إسرائيل فنجح أصحـاب محمد ﷺ في الامتحـان وفازوا فيه ، حيث حرَّم على المسلمين صيد البَرِّ وهم حُرُمٌ وقد خرج أصحاب رسول الله ﷺ عام الحديبية يريـدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط عليهم تنالـه أيديهم ورماحهم فعصمهم الله عز وجل من تنـاوله وحماهم من معصية أمره سبحانه وتعالى وفي ذلك يقول الله عز وجل في سورة المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تنـاله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بـالغيب فمن اعتدى بعد ذلـك فله عذاب أليم﴾ هـذا وتذييل قوله عز وجل : ﴿وإذ أخـذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خـذوا ما آتيناكم بقـوة واذكروا مـا فيه﴾ بقـولـه : ﴿لعلكم تتقون﴾ وتـذييل قـوله عـز وجل :

﴿فجعلناهـا نكالا لما بين يـديها وما خلفهـا﴾ بقولـه عز وجل : ﴿ومـوعظة للمتقين﴾ تأكيـد ولفت انتبـاه إلى وجـوب الحرص على تقـوى الله عـز وجل وملازمة الخوف منـه والوقوف عند حدوده بتحليل مـا أحلّ وتحريم ما حرَّم، ولذلك جعل الله هـدى القرآن للمتقين في صـدر سورة البقرة حيث قـال عز وجل : ﴿ذٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ وبيَّن أن صلاح الأعمال واستجـلاب فرج الله والانتصـار على الأعداء إنما يكـون بتقوى الله عـز وجل حيث يقول : ﴿يا أيها الـذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قـولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفـر لكم ذنوبكـم ومن يطع الله ورسولـه فقـد فاز فـوزا عظيما﴾ وقـال تبارك وتعـالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجـا * ويرزقـه من حيث لا يحتسب﴾ وقال عز وجل : ﴿ومن يتق الله يجعل لـه من أمره يسرًا * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ وقال عز وجل : ﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذٰلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها، قالوا الآن جئت بالحق، فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها، كذٰلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾.

هذه قصة أخرى من قصص بني إسرائيل مع موسى عليه السلام لتسجيل تَعَنُّتِهم، وتَنَطُّعِهم وجَفَائهم وسُوء أخلاقهم في التعامل مع كليم الله موسى ابن عمران عليه السلام أحد أولى العزم من المرسلين عليهم صلواتُ الله وسلامه، وفيها كذلك معجزة من المعجزات الحسية التي جعلها الله عز وجل لموسى عليه السلام في إحياء قتيل بني إسرائيل الذي ادَّارَءُوا فيه وتخاصموا وتدافعوا، وفي هذه القصة توبيخ وبَّخَ الله به بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله محمد ﷺ الزاعمين أنهم أولى بالرسالة من النبي العربي الأمي حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله عليهم جميعا الصلاة والسلام وتذكيرٌ لهم بجنايات أسلافهم، وإذا كان هذا التنطع والتعنت يصدر من أسلافهم أصحاب موسى عليه السلام فما بالكم بهؤلاء الأخلاف الوارثين لجهالات آبائهم وأحقاد أسلافهم الذين وضعوا لهم التلمود المملوء بالازدراء والحقد والكراهية لجميع بني آدم عدا بني إسرائيل، وسياق هذه الآيات الكريمة

يدل على أنه حدث أن قَتِلَ قتيلٌ من بني إسرائيل ولم يعرفوا القاتل وتدافعوا وتنازعوا واختلفوا فيه وكلٌّ فريق منهم يدرأ عن نفسه أن يكون هو القاتل حتى سألوا كليم الله موسى عليه السلام أن يطلب من الله كشفه لهم، فأخبرهم موسى عليه السلام أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة فبدأ تَنَطُّعُهم وتعنتهم وجفاؤهم بالنَّيل من موسى عليه السلام وأنه يسخر منهم ويستهزئ بهم ثم التشديد في صفات البقرة المطلوب ذَبْحُهَا ما هي ؟ ما لونها ؟ ما هي ؟ وهكذا شدَّدوا فشدَّدَ الله عليهم حتى كادوا يعجزون عن الحصول عليها قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : استفاض عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أنهم أمروا ببقرة مطلقةٍ فلو أخذوا بقرة من البقر وذبحوها أجزأ عنهم ولكن شدَّدُوا فشَدَّدَ الله عليهم اهـ وقوله عز وجل : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ أي إن الله تبارك وتعالى يطلب منكم لمعرفة القاتل أن تذبحوا بقرة. والبقرة اسم للأنثى ويقال للذكر من جنسها ثور، كناقةٍ وجمل وامرأة ورجل، وقيل البقرة اسم جنس جمعي وهو يفرَّق بينه وبين واحده بالتاء المربوطة وتكون في المفرد غالبا كبقرة وبقر وشجرة وشجر، وعلى هذا فهي تشمل الذكر والأنثى، والتعبير بقوله : ﴿اذبحوا﴾ يفيد أن الأصل في البقر أن تذبح كالغنم كما أن الأصل في الإبل أن تنحر أي تُذَكَّى بالطعن في منحرها قال ابن المنذر رحمه الله : لا أعلم أحدا حرَّم أكل ما نحر مما يُذْبَحُ أو ذُبِحَ مما يُنْحَرُ اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ بتصدير الآية بإسناد الأمر بذبح البقرة إلى الله عز وجل وأنه تعالى هو الآمر بذلك غايةٌ في وجوب المسارعة إلى الامتثال، ومع ذلك فإن هؤلاء السفهاءَ يقولون لموسى عليه السلام : ﴿أتتخذنا هزوا﴾ وهو يشعر باستخفافهم بخبره واستبعادهم لقوله وهو الذي أنقذهم الله به من العذاب من فرعون وملائه، ومعنى : ﴿أتتخذنا هزوا﴾ أي أتسخر منا وتستهزئ بنا ؟ وهذا من جهلهم

بمقام الأنبياء وعدم معرفتهم أخلاق المرسلين، وجَهْلِهِم بحِكَم التشريع قال الماوردي: و إنما أمروا ـ والله أعلم ـ بذبح بقرة دون غيرها لأنها من جنس ما عبدوه من العجل، لِيُهَوِّنَ عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه ولِيُعْلَمَ بإجابتهم ما كان في نفوسهم من عبادته، وهذا المعنى عِلَّةٌ في ذبح البقرة وليس بعلة في جواب السائل ولكنَّ المعنى فيه أن يحيا القتيل بقتل حي فيكون أظهر لقدرته في اختراع الأشياء من أضدادها. اهـ وقوله عز وجل: ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ أي قال موسى عليه السلام: أستجير بالله وأتحصن به وألتجئ إليه أن يعصمني من هذه الصفة القبيحة التي لا تليق بعوام المؤمنين فهل يتَّصف بها أحد أولى العزم من المرسلين؟ وقد أثبت موسى عليه السلام بهذا القول أن الاستهزاء بالناس إنما هو من أخلاق الجاهلين السفهاء. وقوله عز وجل: ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي؟﴾ أي قالوا لموسى عليه السلام: اسأل لأجلنا ربك أي خالقك ومعبودك يوضِّح لنا صفة البقرة وكم سنها؟ وقولهم: ﴿ربَّك﴾ يشعر بنوع من السفاهة في نفوسهم وعُلُوٍّ في الأرض بغير حق ولو كانوا مستكينين لله عز وجل لقالوا: ربَّنَا ولو قالوا ذلك لشملهم وشَمِلَ موسى عليه السلام، وهذا مثال من أوائل أمثلة تعنتهم مع أنهم في أمس الحاجة إلى الامتثال، لكنها أخلاق بني إسرائيل وتنطُّعُهم. وقوله عز وجل: ﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكر عوان بين ذلك﴾ في قوله ﴿قال إنه يقول﴾ تنصيص لهم على أن هذا الطلب من الله عز وجل وأن موسى إنما عليه البلاغ، وقوله ﴿لا فارض﴾ أي لا مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ على حد قول علقمة بن عوف:

لعَمْرُكَ قد أَعْطيتَ جَارَكَ فَارِضاً ... تُسَاقُ إليه ما تَقُوم على رِجْلِ

قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: وفَرَضَت البقرةُ كَضَرَبَ وكَرُمَ فُرُوضاً وفَرَاضَةً طَعَنَتْ في السِّن اهـ وقوله تعالى: ﴿ولا بكر﴾ أي وليست

صغيرة لم تحمل وقولـه : ﴿عوان بين ذٰلك﴾ أي وسط ونصَف قد ولـدت بطنا أو بطنين وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه . قال الجوهري في الصحاح : العـوان النَّصَف في سِنِّها من كل شيء اهــ والإشـارة في قولـه : ﴿بين ذٰلك﴾ للمذكور من السِّنَّيْنِ. وقوله عز وجل : ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ أي فسارعوا إلى امتثـال أمـر الله واذبحـوا البقـرة التـي وصفت لكم ولا تُشَـدِّدُوا فَيُشَـدِّد الله عليكم . وقوله عز وجل : ﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها؟﴾ أي فتعنتوا وتنطعوا وقالـوا لموسى عليه السلام : اسأل لنا ربك يوضح لنـا لونها ، واللون واحد الألوان وهـو هيئة كالسواد والبياض والحمرة والصفـرة ، ويقال : فلان مُتَلَوِّنٌ إذا كان لا يثبت على خُلُق واحد ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين﴾ فيـه تكرير قوله ﴿قال إنه يقول﴾ للتأكيد على سفاهتهم حيث يُخبَرون أن الأمر بـذلك من الله العلي القدير ومع ذلك لا يسارعون إلى الامتثـال والمبادرة بفعل ما أمروا بفعلـه ، ومعنى ﴿فاقع لونها﴾ أي شديدة الصفرة ، يقال عنـد تأكيد اللون : أصفر فاقع ، كما يقال : أسود حـالك ، وأحمر قانئ وأبيض نـاصع ، ومعنى : ﴿تسر الناظـرين﴾ أي تـدخل البهجـة والسرور على نفس من ينظـر إليها من حسن لـونها وصفـائه وقوتـه . وقوله : ﴿قـالوا ادع لنا ربـك يبين لنا ما هي؟﴾ أي فَتَعَنَّتُـوا وتَنَطَّعُوا وتَشَدَّدُوا وطلبوا منه أن يسأل ربـه ليبين لهم حَقِيقَتَها حتى تتميز عن جميع ما عداها . وقوله : ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ أي الْتَبَسَ علينا ، وقوله : ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ أي وإنـا إن أراد الله عز وجل هدايتنـا لمهتدون أي لَمُوَفَّقُون لمعرفـة صفة البقـرة المطلوبـة من كل وجه . وكـان هذا القـولُ منهم أولَّ قول يُشْعِرُ بقرب عجزهم عن متابعـة السَّيْر في طريق التعنت والتنطع والتشديد . وقوله تعـالى : ﴿قال إنه يقول إنها بقـرةٌ لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأرض ولا تسقى الحرثَ مسلمةٌ لاشيـة فيها﴾ قـد كرر قولـه : ﴿قال إنـه يقول﴾ لتأكيـد التأكيد على

سفاهتهـم وقوله: ﴿لا ذَلُـولٌ تُثيرُ الأرض ولا تَسْقِي الحرثَ﴾ أي هـذه البقرة المطلـوب ذبحها متصفـةٌ بأنها غير مُـذَلَّلَـةٍ لجَرِّ المحراث لحراثـة الأرض وغير صالحة لِسَقْي الأرض المحـروثة المهيَّأة للزراعة فهي كأنها وحشيـة لا تُسْتَخْدَمُ في كِـرَابِ الأرض وحـرثها ولا يُسْنَى عليهـا لسقي الـزراعـة. وقولـه تعـالى: ﴿مسلمة لاشيـة فيها﴾ أي سليمـة من العـرج وسائر العيـوب الخِلْقية، ولا علامـة فيها فليس فيه لـون يخالف لونا بل كلهـا لونٌ واحد لا سـواد فيها ولا بياض ولا حمرة، والشية مأخـوذة من وشي الثوب إذا نُسِجَ على لونين مختلفين وثورٌ مـوشًى أي في وجهه وقوائمه سَـوَادٌ. وقوله تعالى: ﴿قـالوا: الآن جئت بالحق﴾ هذا أيضا لون من ألوان سفاهتهم فكأنهم يقولون له: ما جئت بالحق إلا الآن أي إلا في هذا الوقت وبهذا الوصف، حيث عينت لنا البقرة المطلوبة والآن عبارة عما بين الماضي والمُسْتَقْبَل. وقـوله تعالى: ﴿فـذبحوها ومـا كادوا يفعلون﴾ أي فذبح قوم موسى عليه السلام البقرة التي وصفها الله لهم وأَمَرَهم بذبحها وقد قَارَبُوا أن يَدَعُوا ذَبْحَها إما لغَلاَء ثمنها أو نُدْرة الحصول على بقرة في مثل أوصافهـا التي وصف الله عز وجل لهم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإذ قتلتم نفسـا فادَّارأتم فيهـا والله مخرج ما كنتم تكتمـون﴾ الخطاب فيـه لليهود المعاصرين لـرسول الله ﷺ و إسناد القتل والتَّدَارُؤ إليهم لما أشرت إليـه سابقاً من نسبة جنـايات أسلافهم إلى أبنائهـم لأنهم منهم توبيخا وتقريعـا وتبكيتا لهؤلاء المعاصرين الذين يَدَّعُون أنهم أحقُّ بالدين من العرب الذين جاء منهم أفضل الخلق محمد ﷺ وقوله تعالى: ﴿قتلتم نفسا﴾ يُسَجِّل عليهم أن القاتل إسرائيلي من بينهم وليس أجنبيـا عنهم، وقولـه تعالى: ﴿فادارأتـم فيها﴾ أي فتدافعتم وتخاصمتـم في شأن قاتلها مَنْ هـو؟ وكل فريق منهم يتهـم الفريق الآخر بأنه هو الذي قتلها. وقـوله ﴿فادارأتم﴾ أي تدافعتم مأخوذ من الدَّرْءِ وهو الدفع وهو مأخوذ من قول القائل: دَرَأْتُ هذا الأمر عني أي دفعته ومنه

قوله تعالى: ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ أي ويدفع عنها إقامة الحد عليها. وقوله تعالى: ﴿والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ أي والله معلن ما في نفوسكم من طوية وخليقة فإن هذه القصة المشتملة على قولكم لموسى عليه السلام: أَتَتَّخِذُنَا هزوا، وتنطعكم وتعنتكم في عدم المسارعة إلى امتثال أمر الله قد كشف الله بها بعض خفايا نفوسكم من عدم توقير الأنبياء وعدم سرعة الامتثال لما يأمركم به المرسلون. وقوله عز وجل: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ أي فقلنا لقوم موسى الذين ادَّارءُوا في القتيل: اضربوا القتيل ببعض البقرة التي ذبحتموها، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذا البعض أيُّ شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به، وخَرْقُ العادة به كائن، وقد كان مُعَيَّناً في نفس الأمر، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن المعصوم بَيَانُهُ فنحن نُبْهِمُهُ كما أبهمه الله اهـ وقوله تعالى: ﴿كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي فضربوه ببعضها فأحياه الله عز وجل وأخبر عن قاتله، وبهذا نبههم الله عز وجل إلى قدرته على بعث الموتى وعَرَفُوا قاتلَ قتيلهم، فجعل ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد، لعلهم يعقلون حِكَم الله وأحكامه، ويبادرون إلى امتثال أمره وطاعة رسله عليهم السلام وقد حث رسول الله ﷺ المسلمين على سرعة المبادرة لامتثال أمر الله ورسوله ﷺ وحذرهم أن يَقَعُوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل فقد روى النسائي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: إن الله عز وجل قد فرض عليكم الحَجَّ، فقال رجل: في كل عام؟ فسكت عنه حتى أعاده ثلاثا فقال: لو قلت نعم لوجبت، ولو وَجَبَتْ ما قمتم بها، ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بالشيء فخذوا به ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه.

قال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون. أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾

إن الخطاب لا يزال مع بني إسرائيل لذم الماضين منهم وتبكيت أخلافهم المعاصرين الذين يسيرون على منهاج هؤلاء المذمومين، وقوله: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ أي ثم صلبت قلوبكم وتحجرت من بعد رؤية هذه الآيات من فلق البحر وإنزال المن والسلوى وانفجار اثنتى عشرة عينا من الحجر وتظليل الغمام، وإحياء القتيل الإسرائيلي مما يوجب لين القلوب وخشوعها، والتعبير بثم لاستبعاد القَسْوَة عادةً بعد مشاهدة مثل هذه الآيات، والقَسْوَةُ عبارة عن الغِلَظِ والصلابة والجفاء قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد ذم الله قسوة القلوب المنافية للخشوع في غير موضع فقال تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوةً﴾ قال الزجاج: قَسَتْ في اللغة: غَلُظَتْ ويَبِسَتْ وعَسِيَتْ، فَقَسْوَةُ القلب ذهابُ اللِّينِ والرحمة والخشوعِ منه والقاسي والعَاسِي: الشديدُ الصلابة، وقال ابن قُتيبةَ: قَسَتْ وَعَسَتْ وعتت أي يَبِسَتْ، وقُوَّةُ القلب المحمودةُ غيرُ قسوته المذمومة، فإنه ينبغي أن يكون قويا من غير عُنْفٍ ولَيِّناً من غير ضُعْفٍ، وفي الأثر: القلوبُ آنية الله في أرضه فأحبها إلى الله أصلَبُهَا وأَرَقُّها وأصفاها. وهذا كاليد فإنها قَوِيَّةٌ لَيِّنَةٌ بخلاف ما يَقْسُو من العَقِبِ فإنه يابسٌ لا لين فيه وإن كان فيه قوةٌ. وهو سبحانه ذكر وَجَلَ القلب من ذكره، ثم ذَكَرَ زيادة الإيمان عند تلاوة كتابه عِلْماً وعَمَلاً اهـ وأوْ فى قوله تعالى: ﴿أو أشدُّ قسوة﴾ للتنويع

بمعنى أن قلوبهم على قسمين، قُلُـوبٌ كالحجارة قسوة، وقُلُـوبٌ أشدُّ قسوةً منها، ولَمْ تُشَبَّهْ بالحديد وإن كان أصْلَبَ لأنه يلين إذا وُضِعَ في النار بخلاف الحجارة فإنها لو وُضِعَتْ في النار لا تلين ولـذلك جعلها الله وَقُوداً للنار نعوذ بالله منها. وقوله تعـالى: ﴿وإن من الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماءوإنَّ منها لَمَا يَهْبطُ من خشية الله﴾ أي وإنَّ من الحجارة ما هـو أَلْيَنُ من قلوبكم، فمنها حجـارة تتفجر منها الأنهار أي تتفجـر منها المياه التي تُكَـوِّنُ الأنهار، ومنها حجارة تَتَصَـدَّعُ فتخرج منها العيـون، ومنها حجارة تَنْحَطُّ من عُلُـوِّها وتندك بسبب خشيتهـا من الله عز وجل كما حصل للطور عندما تجلى الله له، وقوله عز وجل: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي وما الله بناسٍ ولا تاركٍ ولاساهٍ عن شيء من أعمالكم الخبيثة وأفعالكم الشريرة وتكذيبكم لخير الخلق وأفضلهم وجحـدكم لنبوتـه ورسالته مع معـرفتكم به كما تعرفـون أبناءكم وتقـرون في قرارة نفـوسكم أنه رسـول من رب العالمين كما وصفـه لكم أنبياء بنـي إسرائيل وإن الله لكم بالمرصـاد مسجل عليكم سـائر أعمالكم وخلجـات صدوركم يـا ذوي القلوب المتحجـرة ولن يضيع على الله شيء من أعمالكم فـالله يحصى عليكم أعمالكم وسيجـازيكم بها، فالأجـدر بكم يـا أحبار بني إسرائيل أن تسـارعوا إلى الإيمان بمحمـد ﷺ لتفوزوا بعـز الدنيا وسعادة الآخرة. وقوله عـز وجل: ﴿أفتطْمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ أي أفَتَرْجُـونَ يـا معشر المسلمين أن ينقـاد لـدينكم وشريعتكم أحبـار اليهـود ويُصَدِّقُوكم بما جاءكم به نبيكم محمد رسول الله ﷺ من الدين الحق والشريعة الكاملة الشاملة والحال أنهم كاذبـون مفترون على الله غارقون في تقليد آبائهم وأسلافهم، متماثلون معهم في الأخلاق الـذميمة ومحاربة الأنبياء ومعاداتهم، وقد وصف الله تبارك وتعالى أحوال هؤلاء اليهود بما يفيد أنهم أربع فرق في كل

فـرقة منهم صفـةٌ تحسم مادة الطمع في إيمانها إن قلنـا : إن جملة ﴿وإذا لقـوا الذين آمنوا قـالوا آمنا﴾ مستأنفة لكشف حال فريق آخـر من اليهود . أما إذا قلنا : إن الجملة حاليـة معطوفة على الجملة الحالية قبلها فتكـون الفرق ثلاثا فـالفرقـة الأولى وصفهـا الله تبـارك وتعالى بقـولـه : ﴿وقد كـان فـريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد مـا عقلوه وهم يعلمون﴾ والفرقة الثانية وصفها الله تبارك وتعـالى بقوله : ﴿و إذا لقوا الـذين آمنوا قالـوا آمنا و إذا خلا بعضهم إلى بعض قـالـوا أتحدثـونهم بما فتح الله عليكم ليحـاجوكم بـه عنـد ربكم ، أفلا تعقلون﴾ والفرقة الثالثة وصفها الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ومنهم أميـون لا يعلمـون الكتاب إلا أمـانيَّ و إن هم إلا يظنـون﴾ والفـرقة الـرابعـة وصفها الله تبـارك وتعالى بقوله : ﴿فـويل للذين يكتبون الكتـاب بأيديهم ثم يقولون هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ ثم وصفهم بوصف جامع لجميعهم وهو اعتقادهم الفاسد وغرورهم بزعمهم أنهم إن عُذِّبـوا بالنار فلن يكون عذابهم فيها أبـديا سَرْمَدِيا كغيرهم من الأمم بل لن تمسهم النـار إلا أيـاما معـدودات بقـدر أيام عبـادة آبائهم للعجل ، ومن كانت هذه هي صفاتهم فكيف يطمع في إيمانهم؟ وقوله عز وجل : ﴿وقـد كان فريق منهم﴾ أي وقـد كانت طـائفة من بني إسرائيل وهو فعيل من التفـرق كما سميت الجماعة بالحزب من التحـزب ، قال أعشى بني ثعلبة :

أُخِذُوا فلما خِفْتُ أن يتفرقوا ... فريقين منهم مُصْعِدٌ ومُصَوِّبُ

والفـريق اسم جمع لا واحد لـه من لفظه كـالـرهط والقوم وقـوله تعـالى : ﴿يسمعون كلام الله﴾ أي يستمعون التوراة ثم يحرفـونه أي يغيرونه إما بتبديل حروفه أو صرف معانيه وتأويله على غير وجهـه وقوله : ﴿من بعد ما عقلوه﴾ أي من بعد ما فهموا المراد منه ، فهم أحبار سوء يتعمدون تغيير الحق بتحريفه

أو تأويلـه، وهم يحرفـون كـلام الله ويبـدلـونـه ويـردُّون المعنى الحق الـذي سمعوه. وقـوله تعالى: ﴿وهم يعلمـون﴾ أي يعرفون الحق لكنهم يَنْحَـرِفُون عنه، وأصل التحريف من انحراف الشيء عن جهتـه وميله عنها إلى غيرها، فهؤلاء الأحبار بَيَّنَ الله عز وجل أن تحريفهم للكلم من بعد مواضعه لم يحصل لهم عن جهل ونقص في معـرفـة الحق بل كانـوا يعـرفـون الحق ويعقلونـه ثم يبـدلونـه وهم واثقون في أنفسهم أنهم في تحريف مـا حرَّفـوا كاذبـون على الله مفترون مبطلـون. ولا شك أن هـذا الفـريق من بني إسرائيل هم شرُّ النـاس وأضرُّهم على الإنسـانيـة كلهـا فإن من يحرف كـلام الله عن جهل وقصـور في الفهم وإن كـان مستحقـا لغضب الله وسخطه لجرأتـه على تحريف كـلام الله وعلى القـول على الله عـز وجل بغير علم فإن من حـرَّف كلام الله بعـد فهمـه وعقله ومعـرفته يكون أعظم إثما وأفحـش جرما، وقـد اتفق المسلمون على أن اليهـود حرَّفـوا التوراة وغيَّروا فيهـا وبـدَّلوا إمـا في ألفـاظها وإمـا في معانيهـا وأحكـامهـا بسبب انحـرافهم، كتغييرهم حكم رجم الـزاني إلى تسخيمـه وتسويد وجهه وفضحه إن كـان من الأغنياء وأعيان بني إسرائيل ووجوههم، ورجمه إن كان من الفقراء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخـاري من حـديث عبـدالله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهـود جـاءوا إلى النبي ﷺ فذكـروا له أن رجـلا منهم وامرأة زنيـا فقال لهم رسـول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نَفْضَحُهُم ويجلدون قال عبد الله بن سلام رضي الله عنـه: كذبتم إن فيها الرجمَ، فـأَتَوْا بالتوراة، فنشروهـا فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام رضي الله عنه ارفع يدك، فـرفع يده، فإذا آية الرجم فقالوا: صَـدَقَ يا محمد، فيها آية الرجم، فَأَمَرَ بهما رسـول الله ﷺ فَرُجِمَا، فرأيت الرجل يَحْنِي على المرأة يقيها الحجارة، وفي لفظ للبخاري: قـال رسول الله ﷺ لليهود: ما تصنعون

بهما ؟ قالوا : نُسَخِّمُ وُجُوهَهُمَا ونُخزيهما قال : ﴿فَأْتــوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صــادقين﴾ فجاءوا فقــالوا لــرجل منهم مِمَّن يــرضَوْن أعــورَ: اقرأ، فقــرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه ، فقال : ارفع يدك فَرَفَع فإذا آية الرجم تَلُوحُ قال يــا محمد : إن فيها آية الــرجم ولكنا نتكاتَمُهُ بيننا ، فــأمر بهما فَرُجِما ، وفي لفظ مسلم : أن رسول الله ﷺ أُتِيَ بيهوديٍّ ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقــال : ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالــوا نُسَوِّدُ وجُــوهَهما ونُحَمِّمُهُما ونَحْمِلُهما ونخــالف بين وجــوههما ويُطــاف بهما قــال : ﴿فأتوا بــالتوراة فاتلوهــا إن كنتم صادقين﴾ فجاءوا بها فقرءوهــا حتى إذا مرَّ بآية الــرجم وضع الفتى الذي يقرأ يــده على آية الرجم ، وقرأ مــا بين يديها وما وراءها فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مُرْهُ فليرفع يده فَرَفع يده فإذا تحتها آيــة الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فَرُجِما . قــال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيهــا من الحجارة بنفسه . وقد وصف الله تبارك وتعالى هــؤلاء المحرفين لكلام الله بعد سماعــه وفهمه في جملة من الصفــات الــذميمــة حيث يقــول : ﴿يــا أيها الــرســول لا يحزنك الــذين يسارعون في الكفر من الذين قالــوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكــذب سماعون لقوم آخرين لم يأتــوك يحرفون الكلم من بعد مواضعــه يقولون إن أوتيتم هـٰذا فخذوه وإن لم تُــؤْتَوْهُ فاحــذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولٓئك الــذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خــزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ والشواهــد على تحريف اليهود للتــوراة كثيرة من واقع الأسفــار الخمســة التي تتكــون منها مجمــوعــة التــوراة عندهم ولا يستطيع أن ينكرها اليهود ولا غيرهم ، فاليهود يعتقدون أن موسى كتب أسفــار التوراة الخمسة بيــده ، مع أن فيها وصــف موت موســى ودفنه ، فكيف كتب موسى هــذا بيده؟ ففي الفصل (الإصحــاح) الحادي والثلاثين

من سفر التثنية ما نصه: (٢٤) فعندما كمَّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة بيده في كتاب إلى تمامها (٢٥) أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلا: (٢٦) خذوا كتاب التوراة هذا وضَعُوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم (٢٧) لأني عارف تَمَرُّدكم ورقابكم الصُّلْبَة، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي. (٢٨) اجمعوا إليَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض (٢٩) لأني عارف أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون من الطريق الذي أوصيتكم به. وفي الفصل (الإصحاح) الرابع والثلاثين من سفر التثنية: (٥) فمات هناك موسى عبدالرب في أرض موآب حسب قول الرب (٦) ودفنه في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم اهـ فهذه شواهد ثابتة لا يستطيع أحدٌ من كهنتهم وأحبار السُّوء فيهم أن ينكر أنها من صميم التوراة عندهم. وهي شاهد عدل على أنهم قد حرَّفوا الكلم من بعد مواضعه، وأنهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

قال تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم، أفلا تعقلون. أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم أُمِّيُّون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون. فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله﴾: أن جملة ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ يمكن أن تكون مستأنفة لكشف حال فريق آخر من اليهود وعليه فإن الفرق اليهودية التي ذكرها الله في هذا المقام تكون أربع فرق أما إذا قلنا: إن الجملة حالية معطوفة على الجملة الحالية قبلها فتكون الفرق ثلاثا، وقد جَنَحَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن الفرق ثلاث فقد قال في قوله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون﴾: فذمَّ هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ كما ذمَّ الذين يحرفون معناه ويكذبون فقال تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلُوهُ وهم يعلمون.﴾ إلى قوله: ﴿أفلا تعقلون.﴾ فهذا أحد الصنفين، ثم قال تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي تلاوة ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ ثم ذمَّ الذين يفترون كتبا يقولون هي من عند الله وما هي من عند الله، فقال: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ إلى قوله: ﴿يكسبون﴾ وهذه الأصناف الثلاثة تستوعب أهل الضلال والبدع، فإن أهل البدع الذين ذمهم الله ورسوله نوعان: أحدهما: عالم بالحق يتعمد خلافه، والثاني جاهل مُتبع لغيره فالأولون: يبتدعون ما يخالف كتاب الله،

ويقـولون: هـو من عند الله: إمـا أحـاديثُ مُفْتَرَيَاتٌ، وإمـا تفسيرٌ وتأويل للنصوص باطل، ويُعضدون ذلك بما يدَّعـونه من الرأي والعقل، وقصدهم بذلك الرياسة والمأكلُ فهؤلاء يكتبـون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا، فـويل لهم مما كتبت أيـديهم من البـاطل وويل لهم مما يكسبـون من المال على ذلك، وهؤلاء إذا عورضوا بنصوص الكتب الإلهية، وقيل لهم: هذه تخالفكم حرَّفوا الكلم عن مواضعه بالتأويلات الفاسدة، قال الله تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقـد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونـه من بعد ما عقلوه وهم يعلمـون﴾ وأما النـوع الثاني: الجُهَّـالُ، فهؤلاء الأُمِّيـون الذين لا يعلمـون الكتاب إلا أمـانيَّ، وإن هم لا يظنـون. فعن ابن عباس وقتـادة في قولـه: ﴿ومنهم أميـون﴾ أي غيرُ عارفين بمعـاني الكتاب، يعلمـونها حفظا وقراءة بلا فهم، ولا يـدرون ما فيه، وقولـه: ﴿إلا أمانيَّ﴾ أي تلاوة، فهم لا يعلمـون فقـه الكتـاب، إنما يقتصرون على ما يسمعـونـه يتلى عليهم، قـالـه الكسائي والـزجاج، وكذلك قـال ابن السائب: لا يحسنون قـراءة الكتاب، ولا كتابته إلا أمـاني، إلا ما يحدثهم به علماؤهم. وقال أبـو روق وأبو عبيدة: أي تلاوة وقـراءة عن ظهر القلب، ولا يقـرأونها في الكتب، ففي هـذا القول جَعْلُ الأمـاني التي هي التـلاوة تـلاوة الأميين أنفسهم، وفي ذلك جعلـه مـا يسمعونه من تـلاوة علمائهم، وكلا القولين حق. والآية تعمهما فإنـه سبحانه وتعـالى قال: ﴿لا يعلمـون الكتـاب﴾ لم يقل: لا يقرأون ولا يسمعـون، ثم قال: ﴿إلا أمـانيَّ﴾ وهذا استثنـاء منقطع، لكن يعلمـون أمانيَّ إمـا بقراءتهم لها، وإما بسماعهم قراءة غيرهم، وإن جَعَلَ الاستثناء متصـلا كان التقديرُ: لا يعلمون الكتاب إلا علم أماني، لا علم تـلاوة فقط بلا فهم، والأماني جمع أمنية وهي التلاوة ومنه قولـه تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم

الله آياته والله عليم حكيم﴾ قال الشاعر:

تمنـى كتـاب الله أول ليـله ... وآخـره لاقى حمـام المقـادر

والأميون نسبـة إلى الأمة، قال بعضهم إلى الأمـة وما عليه العـامة، فمعنى الأمي العاميُّ الذي لا تمييـز له، وقد قال الزجـاج هو على خلق الأمة التي لم تتعلم، فهو على جِبِلَّته، وقال غيره: هو نسبة إلى الأم، كأن الكتابة كانت في الرجال دون النساء ولأنه على ما ولدته أمه، والصواب: أنه نسبة إلى الأمة كما يقال عـامي نسبة إلى العـامة التي لم تتميـز عن العامـة بما تمتاز بـه الخاصة، وكـذلك هذا لم يتميـز عن الأمة بما يمتـاز بـه الخاصة من الكتـابة والقـراءة، ويقال: الأميُّ لمن لا يقـرأ ولا يكتب كتابا ثـم يقال لمن ليس لهم كتـاب مُنزَّل من الله يقرأونه وإن كان قد يكتب ويقـرأ ما لم ينزل، وبهذا المعنى كان العرب كلهم أميين، فإنه لم يكن عندهم كتاب منزل من الله، قال الله تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ وقال: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ وقد كان في العرب كثير ممن يكتب ويقرأ المكتـوب وكلهم أميون فلما نـزل القرآن عليهم لم يبقـوا أميين باعتبـار أنهم لا يقرأون كتابا من حفظهم، بل هـم يقرأون القرآن من حفظهم، وأناجيلهم في صدورهم لكن بقوا أميين باعتبار أنهم لا يحتاجون إلى كتابة دينهم، بل قرآنهم محفوظ في قلوبهم، كما في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ أنه قال: «خلقت عبـادي يوم خلقتهم حنفاء ــ وقال فيـه ــ إني مبتليك ومبتل بك، وأنـزلت عليك كتابا لا يغسلـه الماء تقرؤه نـائما ويقظانـا» فأمتنا ليست مثل أهل الكتـاب الذين لا يحفظـون كتبهم في قلوبهم بل لـو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا في قلوب الأمة، وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمـة أمِّية بعـد نزول القـرآن وحفظه. كما في الصحيح عن ابن عمـر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إنـا أمةٌ أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر

هكذا، وهكـذا، فلم يقل: إنَّا لا نقرأ كتابـا ولا نحفظ، بل قال: لا نكتب ولا نحسب فـديننا لا يحتـاج أن يكتب ويحسب، كما عليه أهل الكتـاب من أنهم يعلمـون مـواقيت صـومهم وفطـرهم بكتـاب وحسـاب ودينهم معلق بالكتب لـو عدمت لم يعـرفوا دينهم، ولهذا يوجـد أكثر أهل السنـة يحفظون القرآن والحديث أكثر من أهل البدع وأهل البدع فيهم شبهٌ بأهل الكتاب من بعض الـوجوه. وقـوله: ﴿فـآمنـوا بالله ورسـوله النبي الأمي﴾ هـو أمي بهذا الاعتبار لأنه لا يكتب ولا يقرأ ما في الكتب، لا باعتبار أنه لا يقرأ من حفظه بل كـان يحفـظ القـرآن أحسن حفظ والأميُّ في اصطـلاح الفقهــاء خـلاف القارئ؛ وليس هو خلاف الكاتب بـالمعنى الأول، ويعنون به في الغالب مَنْ لاَ يُحسن الفاتحة، فقوله تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي لا يعلمـون الكتاب إلا تـلاوة لا يفهمـون معنـاها، وهـذا يتنـاول من لا يحسن الكتـابـة ولا القـراءة من قبـل، وإنما يسمع أمـاني علما، كما قـال ابن السائب ويتناول من يقـرأه عن ظهر قلبه ولا يقرأه من الكتـاب، كما قال أبو روق، وأبو عبيدة ــ وقد يقال: إن قوله: ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أي الخط، أي لا يحسنون الخط، وإنما يحسنـون التلاوة، ويتنـاول أيضا من يحسن الخط والتلاوة ولا يفهم مـا يقرأه ويكتبه، كما قـال ابن عباس وقتـادة: غَيْرُ عارفين معاني الكتاب يعلمـونها حفظا وقراءة بلا فهم، ولا يدرون مـا فيه، والكتاب هنا المراد به الكتاب المنزل. وهو التوراة ليس المراد به الخط، فإنه قال: ﴿وإن هم إلا يظنـون﴾ فهذا يدل على أنـه نفى عنهم العلم بمعـاني الكتاب، وإلاَّ فَكَوْنُ الرجل لا يكتب بيده لا يستلزم أن يكون لا علم عنده، بل يظن ظنا؛ بل كثير ممن يكتب بيـده لا يفهم ما يكتب، وكثير ممن لا يكتب يكـون عالما بمعاني ما يكتبـه غيره، وأيضا فإن الله ذكر هذا في سيـاق الذم لهم، وليس في كـون الـرجل لا يخط ذمٌّ إذا قـام بالـواجب، وانـا الـذم على كـونـه لا يعقل

الكتاب الـذي أنزل إليـه سواء كتبـه وقرأه أو لم يكتبـه ولم يقرأه كما قـال النبي ﷺ: «هذا أوانُ يُـرْفَعُ العِلمُ. فقال له زيـاد بن لبيد: كيف يـرفع العلم وقد قرأنا القرآن فـوالله لَنَقْرَأَنّهُ ولَنُقْرِئَنَّهُ نساءنـا فقال: إنْ كنت لأحْسبكَ من أفقه أهل المدينـة أو ليست التـوراة والإنجيل عنـد اليهـود والنصـارى فماذا تغني عنهم؟» وهـو حديث معـروف، رواه الترمذي وغيره. ولأنـه قال تعـالى قبل هذا: ﴿وقد كـان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعـدما عقلوه وهم يعلمون﴾ فأولئك عقلـوه ثم حرَّفوه وهم مذمـومون سواءٌ كانـوا يحفظونه بقلوبهم ويكتبـونه ويقرأونـه حفظاً وكتابـةً، أو لم يكونوا كـذلك، فكان من المنـاسبِ أن يذكـر الذين لا يعقلـونه وهم الـذين لا يعلمون إلا أمـاني، فإن القرآن أنزله الله كتابا متشابها مثـانى، ويذكر فيه الأقسام والأمثال فيستوعب الأقسام، فيكون مثـانى، ويذكر الأمثال فيكون متشابها، وهـؤلاء وإن كانوا يكتبون ويقرأون فهم أمِّيُّون من أهل الكتـاب، كما نقول نحن لمن كان كذلك هـو أمي وسـاذج وعاميٌّ وإن كـان يحفظ القـرآن ويقـرأ المكتوب إذا كـان لا يعرف معنـاه. وإذا كان الله قد ذم هؤلاء الـذين لا يعرفون الكتـاب إلا تلاوة دون فهم معانيه، كما ذم الذين يحرفون الكلم عن مـواضعه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. دلَّ على أن كلا النوعين مذموم: الجاهلُ الذي لا يفهم معاني النصوص، والكاذب الذي يحرف الكلم عن مـواضعه وهذا حال أهل البدع فإنهم أحد رجلين: إما رجل يحرف الكلم عن مواضعه ويتكلم برأيه، ويؤَوِّلُه بما يُضِيفُهُ إلى الله، فهـؤلاء يكتبون الكتاب بأيـديهم ويقولون هـو من عند الله ويجعلـون تلك المقالات التي ابتـدعوهـا هي مقـالة الحق وهي التي جـاء بها الـرسـول والتي كان عليهـا السلف ونحـو ذلك ثم يحرفـون النصـوص التي تعارضها فهـؤلاء إذا تعمدوا ذلك وعلموا أن الذي يفعلونـه مخالف للرسول، فهم من جنس هؤلاء اليهـود، وهذا يـوجد في كثير من الملاحدة، ويـوجد في

بعض الأشياء في غيرهم .

فإن قيل : فقد قال بعض المفسرين : ﴿إلا أمانيَّ﴾ إلا ما يقولونه بأفواههم كذبا وباطلا وروي هذا عن بعض السلف واختاره الفراء وقال ﴿الأماني﴾ الأكاذيب المفتعلة ، قال بعض العرب لابن دأب ـــ وهو يحدث ـ أهذا شيء رَوَيْتَهُ أم تمنيته أي افْتَعَلْتَهُ؟ فأراد بالأماني التي كتبها علماؤهم من قِبَل أنفسهم ثم أضافوها إلى الله من تغيير صفة محمد ﷺ، وقال بعضهم : ﴿الأماني﴾ يتمنون على الله الباطل والكذب كقولهم : ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ وقولهم : ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وقولهم : ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ وهذا أيضا يروى عن بعض السلف . قيل : كلا القولين ضعيف ، والصواب الأول ، لأنه سبحانه قال : ﴿ومنهم أُمِّيُّونَ لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ﴾ وهذا الاستثناء إما أن يكون متصلا أو منقطعا ، فإن كان متصلا لم يجز استثناء الكذب ولا أمانيِّ القلبِ من الكتاب . و إن كان منقطعا فالاستثناء المنقطع إنما يكون فيما كان نظير المذكور وشبيها له من بعض الوجوه ، فهو من جنسه الذي لم يذكر في اللفظ ليس من جنس المذكور ولهذا لا يصلح المنقطع حيث يصلح الاستثناء المفرَّغُ ، وذلك كقوله : ﴿لا يذوقون فيها الموت﴾ ثم قال : ﴿إلا الموتة الأولى﴾ فهذا منقطع . لأنه يَحْسُنُ أن يقال : لا يذوقون إلا الموتة الأولى . وكذلك قوله تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾ لأنه يحسن أن يقال : لا تأكلوا أموالكم بينكم إلا أن تكون تجارةً . وقوله : ﴿وما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يصلح أن يقال : وما لهم إلا اتباع الظن . فهنا لما قال : ﴿لا يعلمون الكتاب إلا أمانيِّ﴾ يحسن أن يقال : لا يعلمونه إلا أمانيِّ ، فإنهم يعلمونه تلاوة يقرءونها ويسمعونها ، ولا يحسن أن يقال : لا يعلمون إلا ما تتمناه قلوبهم أو لا يعلمون إلا الكذب فإنهم قد كانوا يعلمون ما هو صدق

أيضا، فليس كلّ ما عَلِمُوهُ من علمائهم كان كذبا، بخلاف الذي لا يعقل معنى الكتاب، فإنه لا يعلم إلا تلاوة وأيضا فهذه الأماني الباطلة التي تمنوها بقلوبهم، وقالوها بألسنتهم كقوله تعالى: ﴿تلك أمانيهم﴾ قد اشتركوا فيها كلُّهم، فلا يُخَصُّ بالذم الأميُّون منهم، وليس لكونهم أميين مدخل في الذم بهذه، ولا لنفى العلم بالكتاب مدخل في الذم بهذه، بل الذمُّ بهذه مِنْ مَنْ يَعْلَمُ أنها باطل أعظم من ذمِّ من لا يعلم أنها باطل، ولهذا لما ذَمَّ الله بها عَمَّمَ ولم يخص فقال تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم﴾ الآية. وأيضا فإنه قال: ﴿وإن هم إلا يظنون﴾ فدلَّ على أنه ذمَّهم على نفي العلم، وعلى أنه ليس معهم إلا الظَّنُّ.

وهذا حال الجاهل بمعاني الكتاب، لا حال من يعلم أنه يكذب فظهر أن هذا الصنف ليس هم الذين يقولون بأفواههم الكذب والباطل، ولو أريد ذلك لقيل: لا يقولون إلا أمانيَّ. لم يقل: لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ بل ذلك الصنف هم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويَلْوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا، فهم يُحرِّفون معاني الكتاب، وهم يُحرفون لفظه لمن لم يعرفه ويَكذبون في لفظهم وخطهم. اهـ هذا ومعنى قوله تعالى: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾ أي وكان من شأن هؤلاء الأحبار اليهود أنهم ربما يجتمعون بالمؤمنين فَيسبِق من لسانهم وينفلت منها بعض ما يحرصون على كتمانه من صفات رسول الله ﷺ في كتبهم وأنهم يعلمون من هذه الكتب صفات رسول الله ﷺ كما عاينوها فيه لما اجتمعوا به وشاهدوه، فإذا رجع هؤلاء وجلسوا مع اليهود في مجالسهم الخاصة بهم تلاوموا على ما بَدَر من

بعضهم في إخبار المؤمنين بأن محمدا ﷺ موصوف في الكتب التي بأيديهم بنفس الوصف الذي شاهدوه لما أبصروا رسول الله ﷺ وقالوا لمن بَدَرَ منهم هذا الكلام : أتحدثون المؤمنين بمحمد بما عرفتم في التوراة من وصف محمد وأنتم بذلك تعطون المسلمين حجة عليكم ليخاصموكم بها عند الله عز وجل ، ويقيموا عليكم البرهان في ترك اتِّباعه مع علمكم بصدقه . وقوله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تفهمون أنكم تعطونهم حجة عليكم . وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى تشابه أخلاق اليهود وأخلاق المنافقين الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾ كما أن في قوله تبارك وتعالى في حق اليهود : ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء﴾ إشارة إلى تشابه أخلاق اليهود وأخلاق الكفار من المشركين الذين حكى الله عز وجل عنهم أنهم قالوا : ﴿ولن نؤمن لرُقيّك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه﴾ وهذا يشعر أن اليهود كانوا يتلاقون مع المنافقين والمشركين في الكفر والأخلاق الرذيلة . وقوله عز وجل : ﴿أَوَلاَ يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي ألم يَدْرُسْ هؤلاء في كتبهم أن الله يعلم ما يخفونه سواء حدَّثوا به أو لم يحدثوا فهو عز وجل يعلم السرَّ وأخفى ويعلم ما لا يتكلمون به كما يعلم ما يتكلمون به ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، فأيُّ فائدة لهم في لومهم من يُحَدِّثُ منهم بصفات رسول الله ﷺ وأنبياؤهم قد عَرَّفوهم بأن علم الله عز وجل محيط بجميع الكائنات ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السموات ، وتقديم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقُوع ما يحذرونه ، إذ الأشياء البارزة والأشياء الكامنة كلها في علم الله عز وجل سواء كما قال تعالى : ﴿إن تُخْفوا ما في صدروكم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ وقوله عز وجل : ﴿وإن هم

إلا يظنون﴾ أي ما هم إلا قَوْم قُصَارى أمرهم الظنُّ والتقليد من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم، ولما بيَّن حالَ هؤلاء المخدُوعين المتَّبعين للظن أتبع ذلك ببيان عاقبة فريق آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلالة بالزور والكذب على الله عز وجل الذين يختلقون أشياء من عند أنفسهم يفترونها ثم يزعمون لعَوام اليهود ورَعَاعِهم أنها من عند الله وما هي من عند الله ليأكلوا بها أموال الناس بالباطل، ويحصلوامن عوامهم ورعاعهم على الهدايا والهبات والسُّحْت وقوله تعالى: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿ليشتروا به ثمنا قليلا﴾ فهو تنبيه على أمرين الأول: أنه تنبيه على نهاية شقاوتهم لأن العاقل يجب أن لا يرضى بالوزر القليل في الآخرة لأجل الأجر العظيم في الدنيا فكيف يليق به أن يرضى بالعقاب العظيم في الآخرة لأجل النفع الحقير في الدنيا، الثاني: أنه يدل على أنهم ما فعلوا ذلك التحريف ديانة بل إنما فعلوه طلبا للمال والجاه، وهذا يدل على أن أخذ المال على الباطل وإن كان بالتراضي فهو محرم لأن الذي كانوا يُعْطونه من المال كان على محبة ورضا، ومع ذلك فقد نبَّه تعالى على تحريمه اهـ وقوله تعالى: ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ هذا وعيد شديد على أن يكتب الإنسان بيده شيئا ينسبه إلى الله عز وجل كذبا وزورا مهما كان الأمر سواء كان الباعث على ذلك دينيا أو دنيويا والعاقل لو أعطي الدنيا بحذافيرها ثمنا على أن يقول على الله زورا ويفترى على الله كذبا ما رضي بذلك فما بالك بمن يخطه بيده ويُسَجِّلُه على نفسه، ولله در القائل:

وما من كاتب إلا سَيَبْلَى ... ويُبلي الدهرُ ما كتبَتْ يَدَاهُ
فلا تكتبْ بخطك غير شيء ... يَسُرُّكَ في القيامة أن تراه

وهؤلاء اليهود يكتبون ما يسوؤهم ويسوِّد وجوههم عند الله يوم القيامة ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ وكذلك في هذا

وعيـد شديـد لمن اكتسب المال من غير طـريق شرعي فما بالك بمن اكتسبـه بـالافتراء على الله . وقـد جمع الله تبـارك وتعالى بعض صفـات هـؤلاء اليهـود القبيحة في القول على الله كـذبا وزورًا حيث يقول عز وجـل : ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قـالوا ما أنـزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتـاب الذي جـاء به مـوسى نورا وهـدى للناس تجعلـونه قـراطيس تبدونها وتخفـون كثيرا وعُلِّمتم مـا لم تعلموا أنتم ولا آبـاؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبـون . وهـٰذا كتـاب أنزلنـاه مبـارك مصدق الذي بيـن يديـه ولتنذر أمَّ القـرى ومن حولها ، والذين يـؤمنون بالآخرة يؤمنون بـه وهم على صلاتهم يحافظون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبـا أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليـه شيء ومن قال : سأنـزل مثل مـا أنزل الله ، ولـو تـرى إذ الظـالمون في غمرات الموت والملائكـة باسطواْ أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهُون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياتـه تستكبرون﴾ والويل هـو الهلاك والدمـار، وقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه قال : يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتـاب عن شيء ، وكتاب الله الذي أنـزله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرءونـه غضا لم يشب وقد حدثكم الله تعالى أنَّ أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عنـد الله ليشتروا بـه ثمنـا قليـلاً ، أفـلا ينهـاكم مـا جـاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله مـا رأينا منهم أحـداً قط سألكم عن الـذي أنزل عليكم . اهـ وقوله تعالى : ﴿مما كتبت أيديهم﴾ ومعلوم أن الكتابة لا تكون إلا باليد إذ المقصود تحقيق مبـاشرتهم بأنفسهم لما يفترونه ، ففي تقييد الكتـابة هنا بـاليد زيـادةٌ في تقبيح فعلهم ، والعـرب قـد يقيـدون بمثل هـذا القيـد للتحقيق والتأكيد ولفت الانتباه ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وقولـه تبارك وتعالى : ﴿يقولـون بأفواههم﴾ مع أن الطيران إنما يكون بـالجناح والقول إنما يكون بالأفواه .

قال تعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، قل أَتَّخَذْتُمْ عند الله عهدًا فلن يُخْلِفَ الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

هذه حكاية أخرى من حكايات قبائح أقوال اليهود لعنهم الله، وهو جَزْمُهُم بأن الله تعالى لا يعذبهم في النار يوم القيامة إلا أياما معدودةً قليلةً، وهم في هذه المقالة مفترون على الله مختلقون كاذبون لا دليل على مقالتهم من نقل أو عقل، أما من جهة العقل فلأن الله هو المالك لهم والمسيطر عليهم يعذب من عصاه عدلا ويرحم من يشاء فضلا، فالله هو المالك وحده وهو المتصرف وحده ليس ذلك لملك مقرب ولا لنبي مرسل، وهم مستوُون في البشرية مع سائر البشر فلماذا يقررون أن العذاب الدائم الأبديَّ السَّرْمَديَّ لغير بني إسرائيل، وأن اليهود إن عُذِّبوا يوم القيامة فلن يُعَذَّبوا إلا أياما قليلةً بقدر أيام عبادة آبائهم لعجل السامري وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان هنا من اليهود، فجُمِعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أبوكم فلان، فقالوا: صَدَقْتَ وبَرِرْتَ، فقال: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، قال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أهلُ النار؟ فقالوا: نكونُ فيها يسيراً، ثم تخلُفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ اخسَئُوا فيها، والله لا نخلُفكم فيها

أبدا ثم قال لهم: فهل أنتم صادقـوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم فقال: هل جعلتُم في هـذه الشاة سُمّاً؟ فقالوا: نعم، فقـال: ما حملكم على ذلك؟ فقـالـوا: أَرَدْنَـا إن كنت كـذَّابـاً أن نستريح منك، وإن كنت نبيـا لم يَضُرَّكَ. اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن غـرور اليهود وما مَرَدوا عليه من حُبِّ الافتراء في الدين هـو الذي حملهم على هذه المقولة الكـاذبة من أنهم لن يعذبـوا في النار إلا أيـاما معـدودات حيث يقول عز وجـل عنهم في سورة آل عمـران: ﴿ألم تر إلى الـذين أوتـوا نصيبا من الكتـاب يُـدْعَوْنَ إلى كتـاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذٰلك بأنهم قالوا لن تمسنا النـار إلا أيـامـا معدودات وغـرَّهم في دينهم مـا كـانـوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وقد افترى لهم أحبار السُّوء منهم مبادئ التمييز العنصري فكتبوا لهم التلمود زعما منهم أنه شرح للتوراة واستنباط من أصـولها مع أن بعض نصوص التلمود قد يخالف بعض نصـوص التوراة فـزعموا لهم في التلمود أن اليهـود أحبُّ إلى الله من الملائكـة وأنهم من عنصر الله فهم أبنـاء الله وأحبـاؤه، وأطلقـوا اسم «الأُمَمِيِّ» على كل من ليس بيهودي وقرَّرُوا لهم أن الموت جزاء الأُمَمِيِّ إذا ضرب اليهوديَّ وأنه لولا اليهودُ لارتفعت البركة من العالم واحتجبت الشمسُ وانقطع المطر، وأن اليهود يَفْضُلُـونَ الأمميين كما يَفْضُلُ الإنسانُ البهيمة، وأن الأمميين جميعا كـلابٌ وخنازير، وأن بيوتهم كحظـائر الماشية نجاسـةً، وأنه يحرم على اليهودي العطف على الأممي؛ لأنه عدوه وعدُّو الله، وأن التَّقِيَّةَ أو المداراة معه جائزة للضرورة تجنبـا لأذاه، وأن كل خير يصنعه يهودي مع أَمَمِيٍّ هـو خطيئة عظمى، وأن كلَّ شر يعملـه معه هـو قـربان لله يُثيبـه عليـه، وأن الربـا غير الفاحش يجوز مع اليهودي ونسبوا هذا القول إلى موسى وصموائيل، وأنَّ الربا الفاحش جائز مع الأممي، وأن كلَّ ما على الأرض ملك لليهود فما تحت أيدي

الأميين من الأموال مغتصب من اليهود وعليهم استرداده بشتى الوسائل، وهذه المبادئ التلمودية هي التي كونت نفسية اليهود الممتلئة بالغرور والافتراء. وقد ذكر عبدالله بن سلام رضي الله عنه ــ وكان سيِّد أحبار اليهود وابن سيِّدهم ــ أن اليهود قوم بُهتٌ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: سمع عبدالله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يَخْتَرِفُ، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: إني سائلكَ عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ، فما أَوَّلُ أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزعُ الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهن جبريل آنفاً، قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿من كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نَزَّلَه على قلبك بإذن الله﴾ أمَّا أَوَّلُ أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبدِ حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نَزَعَتْ. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهتٌ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تَسألَهُم يَبْهَتُوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: أيُّ رجلٍ عبدالله فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيِّدُنا وابن سيِّدنا، قال: أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدا رسول الله فقالوا: شَرُّنا وابن شَرِّنا، وانتقصوه، قال: فهذا الذي كنت أخاف يارسول الله. اهـ وقوله تعالى: ﴿وقالوا: لن تمسنا النار﴾ أي قالوا: لن تلمسنا النار ولن تصيب أجسامنا ولن نعذب بها. وقوله: ﴿إلا أياما معدودة﴾ أي إلا أياما قليلة يسيرة، كقوله تعالى: ﴿وشروْه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ أي قليلة. وكقوله تعالى عن أيام الصيام: ﴿أياما معدودات﴾ أي قلائل. وقوله تعالى: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدًا فلن يخلف

الله عهده أم تقـولون على الله ما لا تعلمـون﴾ أي قل يا محمـد لهؤلاء الزاعمين أنهم لن تَمَسَّهُم النار إلا أياما معدودة : أأخذتم بما تقولـون من دعواكم هذه ميثاقا وعهدا من الله ، وحصلتم منه على حجة وبرهان؟ فإن الله تبارك وتعالى لا ينقض ميثاقه ولا يخلف وعده. كما قال عز وجل : ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أَمْ لم تتخذوا عهدا من الله بما تقولون بل تقولونه وتفترونه من عند أنفسكم جهلا وغرورا وضلالا بلا حجة ولا برهان ولا عِلْم ؛ لأن الميثاق الذي جاء به النبيون والمرسلون أن من أطاعه أدخله الجنة ومن عصاه عذَّبه بالنار، فالجنة للمؤمنين المنقادين لله ورسله مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم والنارُ للكافرين المحادِّين لله ورسله مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصارهم فإن الله تبارك وتعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه وعباده نسب ، ولذلك لما قال اليهود : نحن أبناء الله وأحباؤه ردَّ عليهم افتراءهم هذا بأنهم لو كانوا أبناء الله وأحباءه ما عذبهم بالنار ولا أخذهم بذنوبهم فإن الحبيب لا يعذب حبيبه في النار وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿وقالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السمٰوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ ولذلك قال عز وجل هنا رداً عليهم افتراءهم ، ومؤكدا عهده الوثيق ووعده الحق بأن الناس عنده سواء وأن من ارتكب الجرائم وأحاطت به السيئات حتى مات على غير الإسلام فهو من أهل النار، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات حتى ماتوا على ذلك فهم من أهل الجنة ، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خَطِيئَتُهُ فأولٓئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولٓئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿بلى﴾ هو حرف جوابٍ مختصٌّ بنفي شيء متقدم كأنه قيل لا عهد لكم من

الله بها تفترونـه وتدعـونـه من أنكم لن تمسكم النار إلا أيـامـا معدودة . وقـد وضعت العـربُ كلماتٍ أجـوبــةٍ منهـا : بلى ونَعَمْ وجَيْرِ وأَجَلْ وإِي ، ولكل واحدة منها مقامها ، فإذا قال قائل : أليس زيد قائما؟ فقلت : بلى صار معناه أنه قائم ولو قلت نعم صار معناه أنـه ليس بقائم قال تعالى : ﴿ألست بربكم قالوا : بلى﴾ أي أنـت ربنا ، وقد أُثِر عن ابن عبـاس رضي الله عنهما أنه قال : لو قالوا : نعم لكفروا ، يعني لأنه يصير معنـاه : لستَ ربَّنا ، وهذا كفر وقوله تعـالى : ﴿من كسب سيئـة﴾ أي اقترف ذنبـا وارتكب معصيـة وعمل سـوءاً وقوله : ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي واستولت عليه معصيته وأحدقت به من كل جانب حتى مات كافرا ، وقـوله عز وجل : ﴿فأولٰئك أصحاب النار هم فيهـا خالـدون﴾ أي فهـؤلاء الـذين استولت عليهم المعـاصي وأحـدقت بهم جـرائمهم من كل جانب حتى مـاتوا على الكفـر هم أهل النار الملازمـون لها المخلَّدُون فيهـا ، وليس في هذه الآية الكريمـة دليل على أن أهل الكبائر التي دون الشرك والكفر يخلَّدون في النار لأن خَيْرَ ما يُفَسِّرُ القرآن هو القرآن والسنة وقد قال الله تبـارك وتعالى : ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفـر ما دون ذٰلك لمن يشـاء﴾ في مـوضعين من القرآن الكـريم ، كما روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه قـال : أتيت النبي ﷺ وهو نائم وعليه ثوب أبيض ، ثم أتيتـه وقد استيقظ فقال : ما من عبـد قال : لا إله إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دخل الجنــة ، قلت : وإن زنى وإن سرَقَ؟ قـال : وإن زنى وإن سَرَقَ ، قلتُ : وإن زَنى وإن سرق؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق؟ قـال : وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر. وكان أبو ذر إذا حـدث بهذا قال : وإن رغم أنف أبي ذر. وليس المقصود من حديث أبي ذر تهوين أمر الزنى والسرقـة بل المقصود أن مرتكبهما تحت مشيئة الله إن شاء الله عذبه وإن شاء عفا عنه ، بخلاف من مات على الشرك والكفر

فإنه مُخَلَّـدٌ في النار لقوله تعالى : ﴿إنـه من يشرك بالله فقد حـرم الله عليه الجنة ومأواه النار ومـا للظالمين من أنصـار﴾ وقوله تعـالى : ﴿والذين آمنـوا وعملوا الصالحات أولَئك أصحـاب الجنة هم فيها خالـدون﴾ أي وكلٌّ من آمن بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وبالقـدر وعمل صالحا على منهج محمد ﷺ فهؤلاء هم أهل الجنة الملازمون لها لا يريمـون عنها ولا يتحولون منها وهم فيها خالـدون، مهما كانت أجناسهم وألوانهم وأعصـارهم وأمصارهم جعلنا الله بفضله منهم .

قال تعالى : ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾ .

هذا هو النص الثاني في هذه السورة الكريمة بأخذ الميثاق على بني إسرائيل، سوى ما تكرر من مطالبتهم بالوفاء بالعهد وكان النص الأول موجّهاً إلى بني إسرائيل على طريق الخطاب للمعاصرين لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل ببيان فضائح أسلافهم من إعراضهم وتوليهم بعد أخذه الميثاق عليهم ونقضهم له، توبيخًا للمعاصرين الذين يقلدون أباءهم في كل شر ولا يحرصون على اتباع وصايا المرسلين، أما هذا النص الثاني بأخذ الميثاق عليهم فقد جاء بتعميمه نصاً لجميع بني إسرائيل الماضين والحاضرين؛ لأنهم جميعا مشتركون في هذه المخالفات التي وبخهم الله عليها في حيز أخذ الميثاق، حيث قال في النص الأول: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتم من بعد ذٰلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ وقال في النص الثاني هنا: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله﴾ الآية ثم قال في النص الثالث بعده مباشرة: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فلا يُخَفَّف عنهم العذاب ولاهم يُنْصَرون﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل: لا تعبدون إلا الله﴾ الآية شروع في بيان مواد الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل الشامل للماضين منهم والمعاصرين ــ وهو في الواقع ميثاق الله على جميع المكلفين من سائر أتباع النبيين والمرسلين ــ ويتكون هذا الميثاق من التكليف بثمانية أشياء لا سعادة لمجتمع من المجتمعات إلا بالاستمساك بها ومن طبّقها كان من أهل جنات

النعيم ومن كفر بها كان من أصحاب الجحيم وهذه التكاليف الثمانية جاءت بعد القاعـدة الكلية التي اشتملت عليها الآيتان السابقتان وهما قـوله تعالى: ﴿بلى من كَسَبَ سيئةً وأحـاطت به خطيئتـه فأولَئك أصحاب النـار هم فيها خالـدون * والذين آمنوا وعملـوا الصالحات أولَئك أصحاب الجنـة هم فيها خالدون﴾ والتكليف الأول من هـذه التكاليف الثمانية هو قـوله تعالى: ﴿لا تعبـدون إلا الله﴾ وهو يقتضي الأمـر بعبادة الله وحـده والتحـذير من عبـادة غيره، وهي الحقيقـــة الكبرى التي من أجلهـــا خلـق الله الجنَّ والإنس، والسموات والأرض وأقام سوق الجنة والنـار، وهذا الأمر يقتضي أيضا وجوب معرفـة الله وتوحيده في ربوبيتـه وألوهيته وأسمائه الحسنى وصفـاته العُلى، كما يقتضي هذا الأمر معرفة كيفية عبادته ولا سبيل لمعرفتها إلا بالوحي والرسالة، فهـو يقتضي الإيمان بالله وكتبـه ورسله ومـلائكته واليـوم الآخر والقَـدَر خيره وشرِّه، أما التكليف الثاني وهـو قوله تعالى: ﴿وبالوالـدين إحسانا﴾ أي وأن تحسنوا بـالوالدين إحسانـا ومقتضاه وجوبُ بِـرِّهما والقيام بحقهما، ودفعِ كل أذى عنهما، وطاعتِهما في غير معصيـة الله حتى ولو كـانا كـافرين؛ لأنهما هما السبب في وجود الولد بعد الله عز وجـل ولذلك قرَن الله تبارك وتعالى وجوب الإحسان إلى الـوالديـن بوجـوب عبادته وحـده في مقامـات كثيرة من كتـابه الكريم وأكَّد ذلك رسول الله ﷺ في أحاديث شتى، وفي ذلك يقول عز وجل في هذا المقام: ﴿لا تعبـدون إلا الله وبالوالدين إحسانـا﴾ ويقول عز وجل: ﴿واعبدوا الله ولا تشركـوا به شيئـا وبالـوالدين إحســانا﴾ ويقـول عز وجل: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبـالوالدين إحسانـا إمَّا يَبْلغَنَّ عندك الكبرَ أحدهما أو كـلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهـرهما وقل لهما قولا كـريما واخفض لهما جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا * ربُّكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونـوا صالحين فإنه كان للأوَّابين غفـورا﴾ ويقول عز وجل:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ويقول عز وجل: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهْنا على وَهْنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصيرُ * وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطِعْهُما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتَّبِعْ سبيل من أناب إلي ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ويقول عز وجل: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرْها وَوَضَعَتْهُ كُرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشُدَّهُ وبَلَغَ أربعين سنةً قال ربِّ أوزعْني أنْ أشكُرَ نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدَيَّ وأن أعملَ صالحًا ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين * أولَئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وَعْدَ الصدق الذي كانوا يوعَدون﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: برُّ الوالدين، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: رَغِمَ أَنْفُ ثم رَغِمَ أَنفُ ثم رَغِمَ أَنْفُ من أدرك أبويه عند الكبر أحدُهُما أو كِلاَهُما فلم يدخل الجنة. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أُبايِعُكَ على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله تعالى، فقال: هل لك من والدَيْكَ أحَدٌ حَيٌّ؟ قال: نَعَمْ بل كلاهما، قال: فتبتغي الأجر من الله تعالى؟ قال: نَعَمْ قال: فارجع إلى والدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُما، وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: جاء رَجُلٌ فاستأذنه في الجهاد قال؟ أحَيٌّ

والـداكَ؟ قـال: نعم، قـال: ففيهما فَجَـاهِـدْ. أمـا التكليفُ الثـالث من التكاليف الثمانية فهو قوله تعالى: ﴿وذي القربي﴾ وهو يقتضي الأمر بوجوب الإحسان إلى الأقارب، ولـذلك نبَّه الله تبارك وتعـالى إلى وجوب الإحسان إلى الأقـارب في غير موضع مـن الكتاب الكـريم حيث يقـول في بيـان مقاصـد الشريعة التي تكـوِّنُ المجتمع المثالي: ﴿إن الله يأمر بالعـدل والإحسان وإيتاء ذي القـربى وينهى عن الفحشاء والمنكـر والبغي يعظكم لعلكم تذكـرون﴾ وقد اعتبر الإسـلام قطيعة الرحم من أفظع الجرائم وأوجب على قـاطع الرحم لعنة الله حيث يقول عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقَطِّعُـوا أرحامكم * أولَئك الـذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصـارهم﴾ وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع» أي قاطع رحم كما رواه البخاري ومسلم من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه. ولا شك أن الذي لا يصل رحمه لن يصل من سـواهم فهـو قـريب من كل شر بعيـد عن كل خير. أمـا التكليف الرابع فهو قوله تعالى: ﴿واليتامى﴾ والإحسان إلى اليتامى أَمَارةٌ من أبـرز أمـارات المجتمع السعيـد، وهـو صـورة مشرقـة من صـور التكـافل الاجتماعي والمعنى الأصلي لليتم هـو الانفراد يقال: صَبِيٌّ يتيـم أي منفرد من أبيه، ودُرَّةٌ يتيمـة أي ليس لها نظير واليتيمُ من بني آدم من مـات أبوه قبل أن يبلغ الحلم أما اليتيم من سـائر الحيوانات فهو من مـاتت أمه قبل أن يتمكن من القيام بحـاجة نفسه، وقد وصَّـى الله تبارك وتعالى بوجـوب الإحسان إلى اليتامى في مقامات كثيرة من القرآن الكريم ونهى عن قهر اليتيم حيث يقول: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر.﴾ وجعل إيذاء اليتيم عـلامة التكذيب بالدين حيث يقول: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين * فـذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي يدفعه دفعا عنيفـا. وقد بشَّر رسـول الله ﷺ كافل اليتيم بـالجنة في منزل قـريب من منـزل رسـول الله ﷺ فقد روى البخـاري في صحيحـه من حـديث سهل بن

سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنـا وكافل اليتيم في الجنة هكذا. وأشـار بـالسَّبَّـابـةِ والـوسطـى وفَـرَّجَ بينهما». والتكليف الخامس من هـذه التكاليف الثمانية هو قولـه عز وجل: ﴿والمساكين﴾ وهو جمع مسكين. وهو مأخوذ من السُّكُـونِ كأن الفقر أسكنه من الحرَاكِ وأَثْخَنَـهُ عن التَّقَلُّب، وقد جعل الله تبـارك وتعـالى الفقـراء والمسـاكين مَصْرِفَيْن من مصـارف الـزكـاة في الإسلام، والقاعـدة عند أهل العلم: أن المسكين إذا ذكر وحده كـالذي هنا فإنه يشملُ الفقير كذلك، كما أن الفقير إذا ذكـر وحده يشمل المسكين أيضا أما إذا عطف أحـدهما على الآخر كقـوله في مصـارف الصدقـات: ﴿للفقراء والمسـاكين﴾ فإن المسكين يراد بـه من يملك دون النصـاب وأن الفقير من لا يملك شيئا ألبتة فهما إذا اجتمعا افترقـا و إذا افترقا اجتمعا. والمسكين أحسن حالا من الفقير إذ الفقير أصلـه مَنْ كُسِرَ فَقَارُهُ. والفَقَـارُ جمع فَقَارَةٍ وهـو ما انْتَضَدَ من عظـام الصُّلْب من لَدُنِ الكاَهِلِ إلى العَجْبِ، وقـد وصف الله عز وجل أهل السفينة بأنهم مساكين حيث يقول: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ أما التكليف السادس من هذه التكاليف الثمانية فهو قوله عـز وجل: ﴿وقـولـوا للنـاس حُسْنـا﴾ أي وخـاطبـوهم بـاللِّيِّن من القـول واستعملوا معهم الرِّفْقَ في الحديث مهما كانت أحوالهم، وقد وصَّى الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولا لينا حيث يقول عز وجل: ﴿فقُولا له قولا لينا لعله يتـذكر أو يخشى﴾ والرِّفْق ما كان في شيء إلا زانه والفُحْشُ ما كـان في شيء إلا شانه، ولذلك كثرت وَصَـايـاَ رسول الله ﷺ بـالحضِّ على الـرفق والإحسـان في القـول، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمـر كله» كما روى مسلم من حـديثهـا رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ قـال: إن الله رفيق يحب الرفق، ويُعْطي على الـرفق مـا لا يعطي على العُنْف

ومـا لا يُعْطِي على ما سـواه. كما روى مسلم من حـديثها رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرفق لا يكـون في شيء إلا زانه ولا يُنْزَعُ من شيء إلا شَانَهُ» كما روى مسلم من حديث جـرير بن عبدالله رضي عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: مَنْ يُحْرَمِ الرفقَ يُحْرَمِ الخيرَ كلَّـه. أما التكليف السـابع والثامن فهو قـوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتـوا الزكـاة﴾ وقد تقدم الحديث على هذين التكليفين عند قـوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الـزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ وهذه التكاليف الثمانية هي الأساس لكل مجتمع مثاليٍّ سعيد.
وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتـم معرضون﴾ أي نَكَثْتُم يا بني إسرائيل العهدَ، ونقضتم الميثاق، وبـدَّلْتُم نعمة الله كفراً وخالفتم أمر الله في هـذه التكاليف الثمانيـة، وأعـرضتم عن طـاعة الله وَدَاوَمْتُم على هـذا الإعراض حتى صار طبيعةً من طبائعكم وسَجِيَّةً من سجاياكم يرثها خلفكم عن سلفكم سوى عـدد قليل منكم استمسكوا بـالعهد ولم ينقضـوا الميثاق، ولذلك قال الله عـز وجل: ﴿ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمة قـائمة يتلون آيات الله آنـاء الليل وهم يسجدون﴾ وقـد كان من هـؤلاء القائمين على الحق عبدالله بن سلام رضي الله عنه.

قـال تعالى: ﴿وإذ أخـذنـا ميثـاقكم لا تسفكون دمـاءكم ولا تخرجـون أنفسكم من ديـاركـم ثم أقـررتم وأنتم تشهـدون* ثم أنتـم هٰـؤلاء تقتلـون أنفسكم وتخرجون فريقـا منكم من ديارهم تظاهرون عليهـم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسـارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم، أفتـؤمنون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذٰلك منكم إلا خـزي فى الحياة الدنيـا ويوم القيـامة يـردون إلى أشد العـذاب، وما الله بغـافل عما تعملون. أولٰئك الـذين اشتروا الحياة الـدنيا بالآخـرة فلا يخفف عنهم العـذاب ولا هم ينصرون﴾.

إن الله تبارك وتعالى بعد أن بيَّنَ مَـوَادَّ الميثاق المأخوذ على جميع بني إسرائيل من أَسْلاَفِهِم وأخـلافهم، والذي هـو في الواقع ميثاق الله تبـارك وتعالى على جميع المكلفين من سـائر أتبـاع النبيين والمرسلين، وبعـد أن بيَّن نقض بني إسرائيل لجميع مَـوَادِّ هذا الميثاق وإعـراضهم عن العمل به إلا مـن هَدَاهُ الله وهم قليل منهم، شرع في بيان مـواد الميثاق الخاص ببني إسرائيل دون غيرهم من أتبـاع النبيين والمرسلين، ووبَّخَهم وأنَّبَهم على أنهم لم يُحَرِّمُـوا حـرامـه ولم ينزجـرواعما نُهُوا عنه إلا ما وافق منـه هَوَاهُم في بعض الأحيان، ولما كـان هذا الميثاق خـاصاً ببني إسرائيل كما أسلفت فَصَلَـهُ عن موادِّ الميثاق الـذي قبله، ولم يُـدْخِلْهُ فيـه وفي ذلك يقول الله عـز وجل: ﴿وإذ أخـذنا ميثـاقكم﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل العهد الموثَّق الـذي أخذناه عليكم، لحماية نفوسكم، وصيانة دمائكم، ووضع أسباب استقراركم في دياركم، والظاهر والعلم عند الله عز وجـل ــ أن هذا الميثـاق المأخـوذ على بني إسـرائيل في هذا المقـام إنّما نَقَضهُ المعـاصرون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل، فقد استفـاض أن سكان يثرب كانوا من الأوس والخزرج ويَهُود بني النضير ويهود بني قريظة ويهود بني

قينقاع، وكانت العداوة بين الأوس والخزرج قد بلغت مداها. فكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين الأوس والخزرج، ولهم أيام مشهورةٌ منها يومُ بُعَاثَ وهي وقعة كانت بين الأوس والخزرج في مزرعة عند بني قريظة بالقرب من حصونهم. وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يومُ بُعَاثَ يوماً قدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهُم وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُم وَجُرِّحُوا، فقَدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام اهـ. وكان يهود بني النضير وبني قينقاع قد حالفوا الخزرج وكانت بنو قريظة قد حالفوا الأوس، فإذا وقعت حرب بين الأوس والخزرج قاتل كلُّ فريق مع حلفائه فيقتل اليهوديُّ حليفُ الأوس اليهوديَّ حليفَ الخزرج، ويقتل اليهوديُّ حليف الخزرج اليهوديَّ حليفَ الأوس، وقد يدخل الفريقُ الغالبُ بيوتَ الفريق المغلوب فيخرجونهم من ديارهم، وينتهبون ما فيها من الأموال والأمتعة والأثاث. وقد يقع بعض اليهود أسرى في يد العرب من الأوس والخزرج، وكان الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أن لا يقتل إسرائيلي إسرائيليا ولا يجوز لإسرائيلي أن يُخْرِجَ إسرائيليا من داره قهرا، وأنه متى وَجَدَ إسرائيليٌّ إسرائيليا في الأسْر وجب عليه تخليصه من الرِّقِّ ومُفاداته. فكانوا إذا وضعت الحربُ أوزارها بين الفريقين اجتهد اليهود سواءٌ كانوا من حلفاء الأوس أو من حلفاء الخزرج في فكِّ الأسَارَى اليهود بِغَضِّ النظر عن قبائلهم، فقد يفتدي اليهوديُّ النضيريُّ الأسيرَ القُرَظِيَّ ويفُكُّهُ من يد عدوه ويُحَررهُ، كما قد يفك اليهودي القرظي الأسير النضيري ويفتديه ويحرره بدعوى أن الميثاق المأخوذ عليهم من الله يوجب عليهم فكَّ أُساراهم. وهذا من التناقضات العجيبة والسفاهة في الرأي أن يَسْتَحِلَّ أحدهم قَتْلَ الآخر وهو محرم عليه ويشهد بذلك، ويُخْرِجُهُ من داره وهو مُحَرَّمٌ عليه، وهو يشهد بذلك أيضا ويُقَرِّرُ أنه حرام، ثم يَفُكُّ أساراهم زاعماً أنه لا يُحِبُّ أن يرى أَحَدَ

أتبـاع مِلّتِـه أسيرا. فـوبَّخهم الله تبـارك وتعـالى على ذلك، وفضحَهم في تنـاقضاتهم، وفي ذلك يقـول الله عــز وجــل: ﴿وإذ أخـذنا ميثـاقكم لا تسفكـون دماءكم﴾ أي واذكـروا يـا بني إسرائيل أننـا أخذنـا عليكم العهـد الموثَّق: ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ أي لا يُرِقْ إسرائيلي دَمَ إسرائيلي وقوله: ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ هو نفي بمعنى النَّهي أي لا تسفكوا دماءكم، والمقصود: لا يقتل بعضكم بعضا وإضـافة الدمـاء إليهم لتأكيد الـرابطة بينهم كأن دَمَ أخيـه في الدين هـو دَمُهُ، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولا تخرجـون أنفسكم من ديـاركم﴾ أي ولا يحل لإسرائيلي أن يُخْرِجَ إسرائيليـاً من داره قهـراً وظلماً. وإضافة الأنفس والـديار إليهم لنفس المعنى الموجود في إضافـة الدماء إليهم كأن من أخـرج أخاه في الـدين من داره إنما أخرج نَفْسـه من دَاره هو، وهـذا يُشعر بفظـاعة جـرم من يُخْرِج غيرَهُ من داره بغير حق لا سيما إذا كـان أخا في الدين. وقوله تعالى: ﴿ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ أي ثم اعترفتم بهذا الميثاق والتـزمتم به اعتقـادا، ولازلتم تقرون وتشهـدون أنه لا يحل لأحـدكم أن يقتل أخاه بغير حق كما لا يحل لأحـدكم أن يُخْرِجَ أخاه من داره قهـراً وبغياً وظلماً، وقوله تعالى: ﴿ثم أنتم هٰؤلاء تقتلـون أنفسكم﴾ إلخ الآية هو خطاب خاص بهؤلاء اليهود المعتدين على الميثـاق فيه توبيخ شديد واستبعـاد قويٌّ لما ارتكبوه بعـد الإقرار بـالميثاق والشهـادة على أنه حق، والتعبير بثمَّ لإفـادة تماديهم في الباطل، وقولـه: ﴿هٰؤلاء﴾ أي يا هؤلاء والعرب قد يتركـون حرف النداء وهو مراد كقوله تعالى: ﴿يوسف أعـرض عن هٰذا﴾ أي يا يوسف أعرض عن هذا كأنه قيل: ثم أنتم يا هؤلاء اليهود بعـد اقراركم بالميثاق يقتل بعضكم بعضا، ويخرج بعضكم بعضا مـن ديارهم تتعاونـون عليهم بالإثم والعـدوان، وأنتم مع قتلكم من تقتلـون وإخراجكـم مَنْ تخرجون إذا وجـدتم الأسير منكم في أيدي غيركم من الـوثنيين قمتم بفدائه وتحريره من أيـديهم، ألا تخجلون من

تناقضكم هـذا؟ وأنتم موقنـون بأن قهركم لبعضكم وإخراجهـم من ديارهم مُحرَّمٌ عليكم، أفتصدقـون ببعض ما في التوراة وتُكَذِّبون ببعـض أحكامها فما تستحقون على فعلكم هـذا، وتلاعبكم بكتابكم إلا الـذُّلَّ والصغار والخزي والعار في حياتكـم الدنيا، ويوم تقوم الساعة يُرَدُّ من فعل ذلك مع مـا ناله من خزي الحيـاة الدنيـا إلى أفظع العذاب الـذي أعده الله لأعـدائه الناقضين لميثاقـه المتلاعبين بكتـابه، ولا يخفى على الله تبـارك وتعالى شيء من أعمالكم فالله مُنَزَّهٌ عـن السَّهْوِ والنسيان، كما قال موسى عليـه السلام: «لا يضل ربي ولا ينسى» فيما حكى الله عز وجل عنـه. ومعنى قوله: ﴿تظـاهرون عليهم﴾ أي تتعـاونون عليهم، فـالتظاهـر هـو التعاون، لما في المتعـاونين من تقويـة بعضهم ظهر بعض، والإثم المعصيـة والعدوان هـو تجاوز الحد ظلما وبغيا، والأسَـارَى جمع أسير وهو من يـؤخـذ قهـرا، ويقال لـه: الأخيـذ أيضا قـال الفيروز آبـادي في القامـوس المحيط: والأسير الأخيذ والمقيَّـدُ والمسجون اهـ وقوله: ﴿تفادوهم﴾ أي تُنْقِذُوهم وتُخَلِّصُوهُم من الأسْر، وقوله تعالى: ﴿وهو محرم عليكم إخراجهم﴾ قولـه: ﴿هو﴾ يحتمل أن يكون ضمير الشأن والحال والقصة أي والحالُ والشأنُ أن إخراجهم من ديارهم محرم عليكم. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿هو﴾ كنايةً عن الإخراج الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وتخرجون فريقـا منكم من ديارهم﴾ كقـوله تعـالى: ﴿اعدلـوا هو أقـرب للتقوى﴾ أي اعدلـوا، العدل أقرب للتقـوى، وهو من دلالـة الفعل على الحدث وحده إذ هو موضوع للحدث والزمان، وتسمى هـذه الدلالة الدلالة التضمنية، وقوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض﴾ الاستفهام فيه للتوبيخ على هذا التناقض الواقع منهم باستباحة قتل بعضهم وإخراجهم من ديارهم وهو محرم عليهم، وهـم مع ذلك يفكون مـن يقع في الأسر منهم بدفع الفداء لتحريرهم من الرق، وقولـه تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي

في الحياة الـدنيا، ويوم القيـامة يُـرَدُّون إلى أشد العذاب﴾ أي فما عُقُـوبَةُ من يتـلاعب بالكتـاب فَيُحَـرِّمُ منه مـا يشتهي تحريمـه ويـرفض تحريم ما حـرَّم الكتابُ إذا لم يكن يشتهي تحريمـه إلا خزي أي هوان وذِلةٌ وصغـار في الحياة الدنيا، وقد أوقع الله ذلك بهم فأخـرج رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم لأول الحشر وقتل مقاتِلَةَ قُريظـة وسبي ذراريِّهم، ثم أخرج عمر رضي الله عنه جميع اليهود من جزيرة العـرب ولا يزال الخزي يلاحقهم حتى وصل الذروة في ذلك إبّان القرن التـاسع عشر الميلادي حيث كان اليهودي يستحـي أن يذكر في أوروبا أنـه يهودي وقد قـام كثير منهم بترك اليهوديـة هَرَبـاً من هذا الخزي وكان من بين هـؤلاء عدوُّ الله وعدو الإنسانيـة كارل ماركس داعية الشيـوعية فقد انتقل هو وأبوه وأمه وأختـه من اليهودية إلى النصرانية ثم انتقل إلى الإلحاد والكفر بفـاطر السموات والأرض لعنـه الله ولعن أتباعـه إلى يوم الدين وقـوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشـد العذاب﴾ أي ويوم تقوم الساعة يُحْشَرُ اليهود مع الملاحدة والـدهريين وفرعون وملائه في أفظع العـذاب وهو عذاب جهنم نعوذ بالله منها. وقوله تعالى: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أي وما الله بِسَاهٍ أو ناسٍ أو تـاركٍ شيئا من أعمالكم، وهو مُجازيكم بها، ولا يظلم ربك أحدا، وقـوله تعالى: ﴿أولَئك الـذين اشتَرَوا الحياةَ الـدنيا بالآخـرة فلا يُخَفف عنهم العـذابُ ولا هـم يُنْصَرون﴾ أي هـؤلاء الذيـن حرَّمـوُا من شريعتهم مـا اشْتَهَـوا تحريمـه واستباحـوا من محرمـات شريعتهم مـا اشْتَهَوا استبـاحتـه، وحَرَصُـوا على رياستهم على الضعفاء وأهل الجهـل والغباء من أهل ملتهم، واشتَرَوْا بعض مَلاَذِّ الحيـاة الدنيا الفانية وبعض شهـواتهم الجامحة فيها بثمن هو النعيم المقيم في جنات النعيم، فما أشـد خسارتهم في صفقتهم؟ وما أشد فـداحة مصيبتهم ومـا أقبح مـا فعلوا بـأنفسهم، وقد أعـدَّ الله لهم في جهنم عذاباً لا يخطر على البال، ولا يدور في الخيال، حيث يُنَادُون يا مالك ليقض

علينـا ربك قـال إنكم مـاكثون، لقـد جئنـاكم بـالحق ولكن أكثـركم للحق كارهون كلما نضجت جلودهم بدلهم ربهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، فلا تُخَفَّفُ عنهم شدته، ولا يَجْرُؤ أحد أن يدفع شيئا من عذاب الله عنهم، نعوذ بالله أن نسير سيرتهم، أو نَنْهَجَ مَنْهَجَهم، أو نَنْسِج على منوالهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيّدناه بروح القدس، أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذّبتم وفريقا تقتلون* وقالوا: قلوبنا غلفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾.

هذا بيان آخر لبعض نعم الله الجليلة وآلائه العظيمة التي تفضل بها على بني إسرائيل حيث أرسل لهم موسى عليه السلام كليم الله وأعطاه التوراة فيها هدى ونور، وأتبعه بالرسل الكرام كداود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وكيف قابل هؤلاء الإسرائيليون نعم الله بالجحود والكفران، وقد بيّن الله عز وجل أنهم كانوا لا يطيعون الرسل إلا فيما تشتهيه أنفسهم وأنهم كانوا يستكبرون على المرسلين فيكذّبون بعضهم ويقتلون بعضهم، وأنهم قالوا: ﴿قلوبنا غلف﴾. وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة. وتصدير هذه الجملة بالقسم الذي أرشدت له اللام الموطئة للقسم في قوله: ﴿ولقد﴾ لإظهار كمال الاعتناء بما في حيّزه، وقوله عز وجل: ﴿ وقفّينا من بعده بالرسل﴾ أي وأَتبعنا بعضهم بعضا من بعد موسى عليه السلام وأرسلنا كلّ رسول منهم في إثر الرسول الذي قبله، كقوله تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تَتْرَى﴾ أي متتابعين، وأصل التقفية الإتباع والإرداف مأخوذ من إتباع القفا وهو مؤخر العنق تقول: استقفيته إذا جئت من خلفه، كما يقال: قفوته إذا صرت خلف قفاه، والضمير في قوله: ﴿من بعده﴾ أي من بعد موسى عليه السلام، وقوله عز وجل: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي وأعطينا عيسى ابن مريم المعجزات التي أظهرها الله تبارك وتعالى على يديه التي تبيّن أنه رسول من رب

العالمين، من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويخبرهم ببعض الغيوب التي يعرفون أنه لا علم له بها من أي طريق سوى الوحي المنزّل عليه من الله، وقوله تعالى: ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي وقويناه وأعنّاه بالروح المقدّسة أي المطهّرة والمراد به جبريل عليه السلام، والإضافة في روح القُدس من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولك: حاتم الجود، والتأييد مأخوذ من قول العرب: آد يئيد أيدًا بمعنى اشتدّ وقوي، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: (آد) يئيد أيدا اشتدّ وقوى، والآد الصّلب والقوّة كالأيد، وآيدته مؤايدة وأيّدته تأييدا فهو مؤيَد ومؤيّدٌ قوّيته اهـ ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿والسّماء بنيناها بأيدٍ﴾ أي بقوة، وكذلك قوله تبارك وتعالى في حق داود عليه السلام: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ أي صاحب القوة في دين الله عز وجل وقد كان رسول الله ﷺ يدعو لحسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ورضي الله عنه فيقول: اللهم أيّده بروح القدس، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بحسّان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيّده بروح القدس». وفي الصحيحين أيضا عن البراء أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم ــ أو هَاجِهم ـ وجبريل معك ـ» وقال حسان رضي الله عنه:

وجبريلٌ رسول الله فينا ... وروح القدس ليس به خفاء

وقد كانت جميع رسل بني إسرائيل يحكمون بشريعة موسى عليه السلام وينفّذون أحكام التوراة، مع ما يوحيه الله عز وجل إليهم من بعض الأحكام في بعض القضايا التي تستجد، وكذلك أنبياؤهم غير المرسلين، كما قال عز

وجل : ﴿إنا أنـزلنا التـوراة فيها هدى ونـورٌ، يحكم بها النبيون الـذين أسلموا للذين هـادوا والربـانيون والأحبـار بما استُحْفِظوا من كتـاب الله وكانـوا عليه شهـداء ، فلا تخشَـوا الناس واخشـونِ ولا تشتروا بآيـاتي ثمنا قليـلا ، ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولَئـك هم الكـافـرون * وكتبنـا عليهـم فيهـا أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بـالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص فمن تصدق به فهـو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ وقد تقدّم في تفسير قوله عز وجل : ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أن النبي من بعثـه الله بشريعة جـديـدة يدعـو إليها أو بعثـه لتقـرير شريعـة سابقة ، وأن الرسول من بعثه الله بشريعة جـديدة يدعو إليها ، وأن كلّ رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، وقـد أنزل الله عز وجل الـزبور على داود والإنجيل على عيسى عليهما السلام وفي ذلك يقول الله عـز وجل : ﴿وآتينا داود زبورا﴾ ويقول : ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقا لما بين يديه من التوراة وآتَيْنَاهُ الإنجيل فيه هدى ونورٌ ومصدّقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾ . وقـولـه عز وجل : ﴿أفكلّما جـاءكم رسـول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كـذّبتم وفريقا تقتلون﴾ هذه هي القـاعدة عند بني إسرائيل مع أنبيـاء الله ورسلـه وأن مـدار قبـولهم للحق أو ردّه هـو شهـوات أنفسهم وأهواؤها فإذا أتاهـم الرسول بخـلاف ما يهوون كذّبوه وربّما قتلوه ، ولا يقبلون من الحق الـذي يجيء بـه الأنبيـاء والمرسلـون سوى مـا يشتهـونـه وتميل إليـه أنفسهم التي جبلت على حبّ العلـوّ في الأرض بغير الحق ، وجمع الحطـام ، واتّبـاع الشهوات ، وهـذا أقصى ما تـوصف به النّفس الإنسـانية من الـذّم ، وأقبح أخلاق بني آدم ، وفيه تسليـة ومواساةٌ لرسول الله ﷺ الذي كـان يعرفه أحبار بني إسرائيل قبل مجيئه كما يعـرفون أبناءهم ، ومع ذلك كذبـوه وتعاونوا مع المشركين والمنـافقين على محاربـة دعوتـه والصّـد عن سبيل الله ، والهوى :

الميل إلى الشيء ومحبّته والهُوِيُّ: السقوط، تقول: هَوِيَ فلان هذا الشيء يَهْوَى هوًى إذا أحبه ومال إليه، وتقول: هوَى يَهْوِي هُوِيًّا إذا سقط وانحدر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ وقوله: ﴿استكبرتم﴾ أي تكبّرتم عن اتباعه وطاعته، والاستفهام في قوله: ﴿أفكلما جاءكم رسول﴾ للتوبيخ لهم على هذا الخلق الذميم وللتعجب من هذا السلوك المنحرف المعوج. ومحلّ الاستفهام التوبيخي هو قوله: ﴿استكبرتم﴾ أي استكبرتم كلما جاءكم رسول الخ أي بادرتم فريقا من الرسل بالتكذيب وفريقا آخر بالقتل وقدّم التكذيب لأنه أوّل ما يفعلونه مع أنبيائهم ورسلهم من الشر، إذ هو مشترك بين المقتول وغيره فهم قد كذَّبوا الذين قتلوهم من الرسل والأنبياء أيضا، وإنما لم يصرح بأنهم كذّبوا من قتلوهم من الرسل؛ لأن جريمة قتلهم أكبر من جريمة تكذيبهم، والتعبير بالمضارع في قوله عز وجل: ﴿وفريقا تقتلون﴾ لاستحضار الصورة الفظيعة التي ارتكبوها وللإيماء بما حاولوه من قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة حيث عزموا على رمي حجر كبير فوق رأسه ﷺ وهو في بني النضير كما حاولوا قتله بالسّم في خيبر عندما قدموا له شاة مسمومة. وقد قتلوا من المرسلين زكريا ويحيى وغيرهما وكما همّوا كذلك بقتل عيسى فلم يمكنهم الله تبارك وتعالى من ذلك بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما. وقوله تعالى: ﴿وقالوا: قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون﴾ هذا بيان آخر لبعض قبائح بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ، وجيء به على سبيل الالتفات من الخطاب إلى الغيبة إشعارًا بأنهم مستحقون للإعراض عنهم تقبيحًا لشأنهم، وازدراءً لهم، و﴿غُلفٌ﴾ جمع أغلف وهو ما وضع في غِلاف وغطاء ولُفَّ به وعُصِب عليه، أي وقالوا: قلوبنا في أكنة وأغطية تغطيها فلا يصل إليها شيء مما يخبرهم به رسول الله ﷺ

من وجوب طاعتهم لله وإيمانهم برسوله والانقياد لشرعه، وقد صاروا بهذا القول متماثلين مع مشركي قريش الذين قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب﴾ وقوله تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي بل طردهم الله تعالى وأبعدهم عن رحمته، وأقصاهم وأخزاهم وخذلهم، بسبب كفرهم بالله وجحودهم لنعمه وتكذيبهم لرسله واتباعهم للشيطان و(بَلْ) في هذا المقام للإضراب الإبطالي، فليس عدم قبولهم للحق هو ما زعموه من أن قلوبهم غلف فإن الله تبارك وتعالى خلق عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحوّلتهم عن الطريق المستقيم، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كما تُنتَج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تُحسّون فيها من جدعاء» ثم يقول: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾، كما روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمارٍ المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم ممّا علّمني يومي هذا: كلّ مالٍ نحلته عبدا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنّما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان، وإنّ الله أمرني أن أحرّق قريشاً فقلت: ربّ إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزةً، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِك، وابعث جيشا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك». الحديث وقوله تبارك وتعالى:

﴿فقليلا ما يؤمنون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: أخبر أنه لعن الذين وصف صفتهم في هذه الآية ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان بما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، ولذلك نصب قوله: ﴿فقليلا﴾ لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره، ومعناه: بل لعنهم الله بكفرهم فإيماناً قليلا ما يؤمنون اهـ وقال القرطبي: وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره اهـ.

قال تعالى : ﴿ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين* بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين* و إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقا لما معهم، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ .

هذا نوع آخر من قبائح اليهود وسوء سيرتهم، وكفرهم بما سبق أن أعلنوا إيمانهم به، وذلك أنهم لمّا استفاض عندهم وصف محمد رسول الله ﷺ، بسبب وصف أنبياء بني إسرائيل ورسلهم له ﷺ، وأنه يبعث من برّية فاران ويهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وأن بين كتفيه خاتم النبوّة كزرّ الحجلة في أمارات لا تخفى سارع أحبار من بني إسرائيل إلى الخروج إلى أرض العرب ينتظرون مجيء هذا النبي ﷺ، وكان هؤلاء المهاجرون من بني إسرائيل هم آباء بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع، وقد اختار أكثرهم يثرب لانطباق وصف مهاجَر رسول الله ﷺ عليها، وكانت يثرب قبل مجيئهم إليها قد سكنها الأوس والخزرج، وقد حالف بنو قينقاع وبنو النضير الخزرج كما حالف بنو قريظة الأوس على ما تقدم في تفسير قوله تعالى : ﴿و إذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ إلى نهاية الآية السادسة والثمانين من هذه السورة المباركة وقد صارت اليهود إذا قامت حربٌ بينهم وبين العرب الوثنيين من الأوس أو الخزرج أو غيرهم استفتحوا عليهم وقالوا لهم : إن نبيًا مبعوث الآن قد أظل زمانه، وأنهم سيتبعونه إذا ظهر، وأنهم سيقاتلون معه أهل

الأوثان، وكان كـلام اليهود هؤلاء هو السبـب في مسارعة الأوس والخزرج إلى الدخول في الإسلام، فإن الله تبارك وتعـالى لما أراد إظهار دينه وإعزاز رسوله، وإنجاز وعده خرج رسول الله ﷺ في الموسـم ليعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنـع في كل موسم، فبينما هـو عند العقـبة لقي رهطـا من الخزرج أراد الله بهم خيرا، فقـال لهم رسـول الله ﷺ: «من أنتم؟» قـالـوا: نفرٌ من الخزرج، قـال: «أمن مـوالي يهود؟» قـالـوا: نعم، قـال: «أفـلا تجلسـون أكلّمكم؟» قـالـوا: بلى، فجلسـوا معـه، فـدعـاهم إلى الله وعـرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهـم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي تـوعّدكم به اليهـود فلا يَسْبِقُنَّكُمْ إليه، فسارَعـوا إلى الإيمان بالله والاستجابة لرسوله ﷺ، وبالـرغم من أن اليهود قد حاولوا كتمان صفة رسول الله ﷺ بعـد ظهوره صلـوات الله وسـلامه عليـه فإنهم قـد فاتتهم أشيـاء من صفاته لم يستطيعـوا كتمانها، حيث لم يزل موجودا في التـوراة وغيرها من كتب العهد القديم بعض صفات رسـول الله ﷺ ومن ذلك قوله في التوراة: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى أُنْزِلُ عليه توراةً وأجعل كلامي على فيه. ولم يأت رسـول قطُّ يذكـر أن معجزتـه كلام الله سـوى محمد ﷺ والمراد بالتـوراة في هذا النص الشريعة إذ إن معنـى التوراة هو الشريعـة، كما جاء في التوراة: جاء الله أو تجلّى الله من طـور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلى أو استعلن من جبـال فاران. وهـذا النص لا غموض فيـه إذ الجملة الأولى قـد قصد بها تقرير شريعة موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه في طور سيناء، والجملة الثـانية بشـارة بعيسى عليه السـلام المبعوث من ساعير بـالجليل من فلسطين، والجملـة الثالثـة بشارة بمحمـد رسـول الله ﷺ المبعوث من بـلاد فاران، التـي لاشك عند أهل العلم بجـزيرة العـرب أنها جبال مكـة، وهذه الأمـاكن الثلاثـة قـد أقسم الله بها في القرآن العظيـم حيث يقول عـز وجل:

﴿والتين والـزيتون * وطـور سينين* وهٰذا البلـد الأمين ﴾ فـالتين والزيتـون جبلان من جبـال بيت المقدس أنـزل الله الوحي على عيسى عنـدهما، وطور سينين هو الجبل الذي كلَّم الله موسى عنـده وآتاه التوراة، والبلد الأمين مكة التي بعث الله منهـا محمـدا ﷺ، والقرآن رتبهـا بحسب التـدريج إلى أعلى، والتوراة ذكرتها بحسب الترتيب الزماني.

هذا ولا يزال إلى اليـوم في كتب العهد القديم ذكر سَلْع وهـو الجبل الواقع داخل المدينـة المنـورة والمعـروف إلى اليـوم حيث أشير في النص الإسرائيلي إلى فرحـه وتهلله واستبشـاره بمقدمه ﷺ، فمعـرفة أحبـار بني إسرائيل بصفات رسول الله ﷺ بلغت حدّا يساوي معرفة الإنسان بولده، فلما جاءهم ما عرفوا كفـروا به، وفي هـذا يقول الله عـز وجل: ﴿ولما جـاءهم كتاب من عنـد الله مصدّق لما معهم وكانـوا من قبل يستفتحون على الذين كفـروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ أصل تقديـر الكلام: ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم كفروا به وكانـوا من قبل مجيئه يحلفون للمشركين من الأوس والخزرج وغيرهم من الـوثنيين العـرب أن زمـان النبي قـد أظلهـم وأنهم سينصرونـه ويؤيـدونه ويقتلون الـوثنيين وينتصرون عليهم معه فلما جـاءهم النبي الذي عرفوه كفروا به. فالكلام مكون في الأصل من جملتين شرطيتين وجملة معترضة بينهما، وقد حذف جواب الأولى لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه، وحذْف جواب الشرط إذا دل عليـه دليل هو شائع في اللسـان العربي قال ابن جـرير رحمه الله عن جواب الشرطية الأولى في هذه الآية الكريمـة: هو مما ترك جوابه استغناء بمعرفة المخاطبين به بمعناه، وبما قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن، وقـد تفعل العرب ذلك إذا طـال الكلام فتـأتي بأشياء لها أجـوبة، فتحـذف أجوبتها لاستغناء سامعيها بمعرفتهم بمعناها عن ذكر الأجوبة، كما قال جل ثناؤه: ﴿ولو أن قـرآنا سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِّعَتْ بـه الأرض أو كُلِّمَ به الموتى

بل لله الأمر جميعا﴾ فترك جوابه والمعني : ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سيّرت به الجبال لسيّرت بهذا القرآن، استغناء بعلم السامعين بمعناه، قالوا : فكذلك قوله : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم﴾اهـ.
والمقصود بالكتاب في قوله : ﴿ولما جاءهم كتابٌ﴾ هو القرآن العظيم.
ومعنى قوله : ﴿مصدق لما معهم﴾ أي موافق لما عند أهل التوراة من الإقرار بالله وبالرسالة وما اشتملت عليه التوراة وغيرها من كتب العهد القديم من النعوت والصفات والعلامات التي تشهد أن محمدا رسول الله. وقوله تعالى : ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي فخزي الله وسخطه على الجاحدين الكاتمين لصفات محمد ﷺ وهم يعرفونها أتم المعرفة، وكان مقتضى السياق أن يقول : فلعنة الله عليهم، لكنَّ مقتضى الحال يقتضي تسجيل صفة الكفر عليهم فلذلك وضع الظاهر موضع الضمير حيث قال : ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ وقوله تعالى : ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ أي قبح وذمّ ما استبدل واعتاض به هؤلاء اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله من القرآن الكريم على نبيه العظيم محمد ﷺ وما كان كفرهم إلا للبغي والحسد وطلب ما ليس لهم، وكان هذا البغي والحسد منهم لأجل أن الله نزّل القرآن من فضله على حبيبه ومجتباه وخيرته من خلقه محمد ﷺ، وهم يريدون حَصْرَ النبوّة فيمن يختارونه هم لا فيمن يختاره الله ويصطفيه، فما أقلّ حياءهم وما أفحش بغيهم وتعنّتهم، والعرب أكثروا من استعمال كلمة (اشترى) فيمن أخذ السلعة ودفع الثمن و(شرى) فيمن باع السلعة وأخذ الثمن، وقد يستعملون : شرى واشترى بمعنى باع قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط : شراه يشريه ملكه بالبيع وباعه كاشترى فيهما ضدٌّ اهـ وهؤلاء اليهود لعنهم الله قد خسروا أنفسهم بسبب حسدهم لرسول الله ﷺ لنزول القرآن العظيم عليه، ويريدون

حصر النبوة في ذرية إسحاق بن إبراهيم وحرمان ذرية إسماعيل منها وهم يعلمون علم اليقين أن إسماعيل و إسحاق هما ولدا خليل الرحمن عليهم السلام وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول: ﴿ألم تر إلى الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا: هٰؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا * أولٰئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا * أم لهم نصيبٌ من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما﴾ وقد أشار عز وجل في قوله: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا﴾ إلى أن اليهود لو كان لهم تصرّف في ملك السموات والأرض لحرموا الناس من كل خير وكانوا لا يعطون من الخير مهما كان تافها قدر النّقرة في ظهر النواة. وقد وافق اليهود في هذه السفاهة من إرادة التحكم في رحمة الله إخوانهم مشركي قريش حيث أرادوا حصر النبوة فيمن كان ذا مال ظنًا منهم أن مقاييس الرجال هي بقدر ما بأيديهم من المال فرد الله تبارك وتعالى عليهم مبينًا لهم أن النبوة والرحمة رزق من الله يؤتيه الله من يشاء وأن قريشا أو غيرهم ليس بيدهم شيء من خزائن السموات والأرض بل خزائن الرحمة بيده حيث يقول عن مقالة قريش: ﴿أَأُنزِل عليه الذكر من بيننا، بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب﴾ وقال عز وجل: ﴿وقالوا: لولا نُزِّل هٰذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضا سُخْريّا ورحمة ربك خيرٌ مما يجمعون * ولولا أن يكون الناس أمةً واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسُرُرًا عليها يتكئون * وزخرفا، وإنْ كل ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فباءوا

بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهينٌ﴾ أي فاستوجبوا واستحقوا، واستقروا ورجعوا بسخط ولعنةٍ ومقتٍ من الله عليهم لكفرهم بحبيبه ومصطفاه محمد رسول الله ﷺ مع ما استحقوه من غضب ومقت وسخط من الله عليهم لقبائحهم السابقة، وجرائمهم المتلاحقة بقتلهم للأنبياء وتكذيبهم للمرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ أي ولهؤلاء اليهود عقابٌ شديد عند الله عز وجل يهينهم ويذلّهم جزاء ما اقترفوه من تكذيبهم للرسل وقتلهم للأنبياء وحرصهم على العزّة الكاذبة والرياسة الزائلة في عذاب أبديّ سرمدي لا يخفف عنهم، ولا يشفع فيهم شافع ولا يدفع عنهم دافع، وكان مقتضى السياق أن يقال: ولهم عذاب مهين، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل صفة الكفر عليهم المشعرة بعلية استحقاقهم لغضب من الله على غضب ولذلك العذاب المهين. وقوله عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقا لما معهم قل فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ أي وإذا دعا اليهود داعٍ وطلب منهم المسارعة إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل الله من القرآن أجاب هؤلاء اليهود لعنهم الله بأنهم إنما يؤمنون بالتوراة وحدها ويكذبون بكل كتاب سواها حيث يكفرون بالإنجيل المنزّل على عيسى والقرآن المنزّل على محمد صلى الله عليهما وسلم، والحال أن هذا القرآن المنزّل على محمد ﷺ هو الحق الثابت المقطوع بحقيته لأنه لا يلحقه تغيير ولا تبديلٌ ولا تحريفٌ حالة كونه موافقا للأصول الموجودة في التوراة حيث شرع الله فيه ما وصّى به نوحا وإبراهيم وموسى عليهم السلام، ولو كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بالتوراة والالتزام بها فلم قتلتم أنبياء الله الذين بعثهم الله ليحكموا بالتوراة بينكم، وما دمتم قد قتلتم الأنبياء فإنكم غير مؤمنين بما في التوراة، وغير مصدقين للأنبياء، فدعواكم منقوضةٌ بسلوككم الشاهد على كفركم وجحودكم.

قال تعالى : ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون* و إذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا : سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين* قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين* ولن يتمنّوه أبدا بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين* ولتجدنهم أحرص الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون﴾ .

في هذا المقام الكريم من هذه السورة المباركة يكرر الله تبارك وتعالى التنديد ببني إسرائيل الذين كذّبوا رسوله محمدا ﷺ، وصدوا عن سبيل الله وتعاونوا مع المشركين والمنافقين على الإثم والعدوان ومعصية الرسول وزعموا أنهم لن يؤمنوا إلا بالتوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام ولن يؤمنوا بكتاب جاء بعدها ، فأكّد الله تبارك وتعالى بتكرير أن موسى جاءهم بالبينات وأنهم بعد رؤيتهم لهذه البينات الواضحة والمعجزات الظاهرة عبدوا العجل من بعد ذهابه إلى ميقات ربه ، وأنهم لما أمرهم الله عند أخذ الميثاق عليهم ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة : خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، لم يقولوا سمعنا وأطعنا بل قالوا سمعنا وعصينا ، ومن كانت هذه حالهم فهم قريبون من كل شر بعيدون عن كل خير، وفي هذا تسليةٌ لرسول الله محمد ﷺ ومواساةٌ له حتى لا ينزعج من سوء ردّهم لأنهم إذا كانوا فعلوا هذا مع موسى عليه السلام وهو من بني إسرائيل ، وقد رفع الله عنهم به شرور فرعون وملئه ، فلا يستكثر الشرّ منهم مع غيره ﷺ مع أن هذا التكرير في المعاني مع ما اشتمل عليه من ضروب الفصاحة وأساليب البلاغة والبيان هو أحد معاني كون القرآن العظيم

متشابها مثاني وهـو من دلائل الإعجاز. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿ولقد جاءكم موسى بـالبينـات﴾ أي وتـالله لقـد أتـاكـم مـوسى كليم الله عليـه السلام بالمعجزات الظـاهرات، والحجج القاهرات فأبصرتموهـا بعيونكم، وتأكدت لديكم كتأكّد رؤيتكم للشمس في رائعة النهار ليس دونها سحاب ومع ذلك عصيتم أمـره ونقضتم عهـده، والمراد بالآيـات في هـذا المقام هي المعجـزات الكونية وهي العصا التي تحولت ثعبانـا حتى كاد ينخلع قلب فرعون لها واليد التي أدخلها في جيبـه سمراء فخرجت بيضاء من غير بـرص ولا سوء والجراد الذي سلطـه الله على قوم فـرعون حتى صـار يخالطهم في كل شيء، والقمّل والضفـادع كـذلك والـدم الـذي يجدونـه في طعـامهم وشرابهم والسّنـون، والطوفان، وفلق البحـر بعصا موسى عليه السـلام حتى جعل لهم طريقا في البحر يبسا. وقوله تبارك وتعالى ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ أي عبدتم العجل الذي صنعه لكم السامري واتخذتموه إلـها من دون الله بعد أن فارقكم موسى ذاهبـا إلى ميقات ربه. وقد فعلتم مـا فعلتم وأنتم مرتكبون لأفحش الظلم وأعظمـه حيث أشركتم بـالله وإن الشرك لظلم عظيم، وهـذا تـوبيخ من الله تبـارك وتعـالى لليهـود وتبكيتٌ لهم على سـوء صنيعهم في إشراكهم بالله ومخالفتهم للأنبياء وتأنيب لهم على أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا من اتخاذ العجل إلـها مع أنهم يـرون أنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعـا وأن الله الملك الحق المبين الذي أيّـد موسى بالمعجـزات وأجرى على يديـه الأعاجيب التي أيقن فرعـون وملؤه أنهم عاجزون عـن مقارعتها ومع قرب مشـاهدة بني إسرائيل لما عاينوه من عجائب قدرة الله فهم إلى تكذيب محمد ﷺ وجحود ما في كتبهم التي يزعمون أنهم مؤمنون بها مـن صفات رسول الله ﷺ والتي كانوا يستفتحون على العرب بسبب وقوفهم عليها أسرع وأقـرب لطول الأمد، وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ قد

تقدم تفسيره، وقوله تعالى: ﴿واسمعوا﴾ أي وأطيعوا ما سمعتم من أوامر الله واعملوا بهذه الأوامر، وقوله تعالى: ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ هو أجلى بيان يصوّر سوء أخلاقهم وسفاهة نفوسهم، أي بدل أن يقولوا سمعنا وأطعنا قالوا: سمعنا وعصينا، ولذلك وبخهم الله تبارك وتعالى على هذا الخلق الذميم في مقام آخر من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل في سورة النساء ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مُسْمَعٍ وراعِنا ليًّا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا* يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردّها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾ وإذا كان أسلافهم قد قالوا سمعنا وعصينا مع مشاهدتهم رفع الجبل فوق رءوسهم فكيف يكون حال أَخلافهم الذين قد طال الأمد بينهم وبين آبائهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وأُشْرِبُوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾ أي وتغلغل حبّ عجل السامري في قلوبهم، يقال: أُشْرِبَ فلان حبَّ كذا أي تغلغل حبّه في قلبه وخالط شغافه، ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزنيّ:

فصحوت عنها بعد حبّ داخل   والحبُّ يُشربُهُ فؤادُك داءُ

ومنه قول الشاعر وقد عتب على زوجته عثمة في بعض الشئون فطلّقها وازداد ولهاً بها:

تغلغل حبّ عثمة في فؤادي   فباديه مع الخافي يسير
تغلغل حيث لم يبلغ شراب   ولا حزنٌ ولم يبلغ سرور
أكاد إذا ذكرت العهد منها   أطير لوَ انّ إنسانًا يطيرُ

وإنما لم يقل الله عز وجل: وأشربوا في قلوبهم حبّ العجل لأن ذلك

معلـوم عند العـرب، قـال ابن جريـر: ولكنـه تـرك ذكر الحب اكتفـاء بفهم السامع لمعنى الكلام إذ كان معلـوما أن العجل لا يُشْرَب القلـب، وأن الذي يُشْرَب القلب منـه حُبّـه اهــ وقد جـاء في الحديث الـذي أخـرجـه مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ قوله: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عـوداً فأي قلبٍ أشربها نكت فيـه نكتـةٌ سـوداء». والبـاء في قـولـه تعـالى: ﴿بكفــرهم﴾ للسببيـة أي وخــالط حبّ العجـل شغـاف قلــوبهم بسبب مسارعتهم إلى الكفر وانغماسهم فيه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ هذا أمر من الله عز وجل لحبيبه ورسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ يأمره فيه أن يوبّخ هؤلاء اليهـود الذين يزعمون أنهم لن يؤمنوا بمحمد ﷺ ولن يؤمنوا بالقرآن الـذي أنزله الله عليه لأنهم إنما يؤمنون فقط بما أنزل عليهم من التوراة وما اختص به بنو إسرائيل فلن يؤمنوا بنبي من غير بني إسرائيل فأمـر الله رسـولـه ﷺ أن يوبّخهم وأن يقـول لهم: بئسما يأمـركم بـه إيمانكم إن كنتم مؤمنين، أي قبح وذُمَّ هـذا النوع الذي سمّيتمـوه إيمانا وقبح وذم ما يأمـركم به هـذا الإيمان الزائف المفترى والـدعوى الكـاذبة لأن الإيمان الحق هو الذي جاء به المرسلـون وهو لا يأمر بتكذيب المرسلين وقتل الأنبياء فلو كانت دعواكـم بأنكم مؤمنون دعوى صادقةً ما قتلتـم الأنبياء وما كذبتم المرسلين، ولسـارعتم إلى الإيمان بمحمـد ﷺ الـذي تعرفـونـه قبل مجيئـه كما تعرفون أبناءكم بسبب ما وصفه الأنبياء لأممهم من صفاته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي أخبر اليهـود يامحمد وقل لهم: أنتم تزعمـون أن الجنة لكم خاصـة وأن نعيم الآخرة لن يشـارككم فيه أحـد، فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين في دعـواكم أن الجنة لكم خـاصّة وأنـه لن يدخل الجنـة إلا اليهود، حيث قلتم: لن يدخل الجنة إلا من كـان هوداً، فإذا كنتم محقّين في دعواكم

فتمنّوا الموت؛ لأن من أيقن أنـه من أهل الجنة فإنه يتمنى سرعـة دخولها والله تبارك وتعالى قضى أن الجنة خالصة لكل مؤمن من أي لون أو جنس أو مصر أو عصر حيث يقول في الطيبات من الرزق: ﴿قـل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيـا خالصة يـوم القيامـة﴾ أي يشترك فيها الكافـرون مع المؤمنين في الحياة الدنيا ويختص بها المؤمنـون يوم القيامة فلا يشـاركهم فيها أحد، كما ثبت أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ لما بشره رسول الله ﷺ بالجنة وكان يأكل تمرات في يده وهو في المعـركة ألقى التمرات وقال: إن عشت حتى آكلهـا فإنها لحياةٌ طويلـة وقاتل حتى استشهـد رضي الله عنه فقـد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه في قصة غزوة بدر قال: وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدّمن أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه»، فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عـرضها السموات والأرض» قال: يقول عُمَيْرُ بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله: جنـّة عرضها السموات والأرض، قال: «نعم» قـال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «مـا يحملك على قولك: بخ بخ»، قـال: لا والله يا رسـول الله إلا رجاءة أن أكـون من أهلها، قـال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تمرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحيـاةٌ طويلة، قال: فـرمى بما كان معه من التمـر ثم قاتلهم حتى قتـل رضي الله عنه. وقـد أعلم الله رسولـه ﷺ أن اليهود لن يتمنـوا الموت أبدا وأنهم أحرص الناس على حياة وأن الـواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة. ففضح اليهود وأكذبهم في دعواهم أنهم هم أهل الجنـة خاصـة وأنهم لن تمسهم النار إلا أيـامـا معدودة فقـال تبارك وتعـالى: ﴿ولن يتمنّوه أبدا بما قدمت أيـديهم والله عليم بالظالمين* ولتجدنهم أحرص الناس على حيـاة ومن الذين أشركوا يـودّ أحدهم لـو يُعَمَّرُ ألف سنة ومـا هو بمُزَحْزِحِهِ من العذاب أن يُعَمَّرَ والله بصير بما يعملون﴾ أي ولن يشتهي أحد

من اليهود أن يعجّل بمـوته لعلمهم بسوء صنيعهم، وقبيح أفعـالهم وفاحش ظلمهم وكفـرهم، بل هم أحـرص النـاس على الحياة زيـادة على عـدم تمني الموت بل هم أحـرص على الحياة من المشركين لأن المشركين لا يقرون بـالبعث ولا يخافون مـن النار لأنهم لا يقـرون بها، بخلاف اليهود فـإنهم يقرون بـالنار ومع ذلك لا يعملون إلا عمل أهل النـار، فهم أشد الناس كراهيـة للموت، ويتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة مع أنه مهما طـال عمره فلن يزحزح عن النار ولن يبعـد عنها فهـو من أهلها المخلّـدين فيها* ولا يخفى على الله شيء من قبيح أعمالهم، وكما قـال عز وجل: ﴿قل يـا أيها الذين هـادوا إن زعمتم أنكم أوليـاء لله من دون الناس فتمنـوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنّـونه أبدا بما قـدّمت أيديهم والله عليم بـالظالمين * قل إن الموت الذي تفـرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

قال تعالى: ﴿قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين * ولقد أنزلنا إليك آيات بيناتٍ وما يكفر بها إلا الفاسقون * أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريقٌ منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون * ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾.

لا تعلم الإنسانية في تاريخها الطويل أنّ أحداً عادى الملائكة سوى إبليس واليهود وبعض المتأثرين بعبد الله بن سبأ اليهودي من أهل الأهواء الذين يزعمون أن جبريل خان الأمانة لما نزل بالوحي على محمد ﷺ بدل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولذلك يقولون عند انصرافهم من الصلاة: خان الأمين، خان الأمين، وقد نال جبريل عليه السلام من عداوة اليهود ما لم ينله ملك من الملائكة الكرام سواه، وقد تقدم في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة﴾ أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما سأل رسول الله ﷺ عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي وهي أول أشراط الساعة وأول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه فلما قال له رسول الله ﷺ: «أخبرني بهن جبريل آنفا»، قال: جبريل؟ قال: «نعم». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية: ﴿من كان عدوا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله﴾، والمعروف أن جميع المقرين بالملائكة يحبونهم لأنهم عباد مكرمون وقد غالى بعض الغالين من محبي الملائكة فعبدوهم من دون الله، تعالى الله عن الشريك والنّد والنظير. وقد بلغ اليهود بعداوتهم للملائكة مبلغا من الوقاحة والسفاهة يؤذن بعدم انتظار أي خير منهم، ولا شك أن من عادى جبريل عليه السلام فقد عادى الله؛ لأنه من أئمة أولياء الله ورسله

من الملائكة الكرام المصطفين كما قال عز وجل: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ وقد آذن الله تبارك وتعالى من عادى وليّا من أوليائه بالحرب كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب». الحديث. ولذلك أمر الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ فقال له: ﴿قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لمابين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين* من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾ وذلك أنَّ من عادى ملكا من الملائكة فهو عدو لله ولجميع الملائكة ولجميع المرسلين ومن عادى رسولا من المرسلين أو نبيا من النبيين فهو عدو لله ولجميع الأنبياء والمرسلين، لأن القاعدة التي جاء بها الرسل أنّ معاداة نبي أو رسول تكون معاداة لجميع الأنبياء والمرسلين ولذلك كرر الله تبارك وتعالى هذا المعنى في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ مع أنهم ما جاءهم إلا نوحٌ عليه السلام لكن لما كان تكذيبهم لنوح عليه السلام تكذيبا لجميع المرسلين جعلهم مكذبين لجميع الرسل وكذلك قال عز وجل: ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ وقال: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ وقال: ﴿كذبت قوم لوطٍ المرسلين﴾ وقال: ﴿كذّب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ وقال: ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وقال: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ وكلّ هذا لتقرير أن من كذّب رسولا فقد كذّب جميع المرسلين. ومن عادى نبيا فقد عادى جميع الأنبياء، ومن عادى ملكا فقد عادى جميع الملائكة، وجواب قوله: ﴿من كان عدوا لجبريل﴾ مضمرٌ تقديره عاداه الله وآذنه بالحرب يدل عليه قوله تعالى في تذييل الآية التي تلي هذه الآية: ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ وقوله عز وجل: ﴿فإنه نزّله على قلبك بإذن الله﴾ أي فإن جبريل نَزَّل القرآن على قلبك يا محمد بأمر من الله

عـز وجل كما قـال عز وجل: ﴿وإنـه لتنـزيل رب العـالمين* نزل بـه الـروح الأمين* على قلبك لتكون من المنـذرين * بلسان عربي مبين﴾ وفي هـذا ثناء على جبريل عليـه السلام بأنـه حامـل الخير للإنسـانية لهداهـا وبشراها فـلا يعاديـه إلا من انتكست فطرتـه، وانحرف عن الصراط المستقيم، وفي التعبير بقوله: ﴿فإنه نزلـه على قلبك﴾ إشارة إلى معجزة كبرى وهي حفظ رسول الله ﷺ للقرآن لأن جبريل إنما يقـرؤه عليه عند نزوله مـرة واحدة فينتقش في قلب رسول الله ﷺ، وقـد يكون المنزل في الـدفعة الواحـدة طويلا كسـورة الأنعام التي نزلـت دفعة واحدة، كما قـد يتباعـد وقت النزول بين آيـة والتي تليها في تـرتيب المصحف إلى عشر سنـوات فأكثـر ومع ذلك لا يضيع منـه شيء ولا يختلط عليه تـرتيبه وهـو الأمي ﷺ مع أنه أشد تفلتـا من صدور الـرجال من الإبل المعَقَّلة. وقـوله تعالى: ﴿مصدّقـا لما بين يديه﴾ أي موافقـا لما سبقه من الكتب السماوية في أصول الدين، وقـوله: ﴿وهُدًى وبشرى للمؤمنين﴾ أي وهـذا القـرآن الـذي نـزل بـه جبريل على قلب رسـول الله محمـد ﷺ يـرسم للإنسانيـة أحسن المناهج ويدلّها على أرقى الأنظمة فيهتـدي به من شرح الله صدره لـلإسلام، وهـو بشارة لمن تمسّـك به بـالجنة دار السـلام، وقولـه عز وجل: ﴿من كان عـدوا لله وملائكتـه ورسله وجبريل وميكـال فإن الله عدو للكافرين﴾ هو لتقرير وتأكيد مضمـون ما تقدم في الآية السابقة من أن عدوّ جبريل عدوّ لله ومـلائكته ورسله، وهـو توبيخ لليهود الـزاعمين أنهم يحبون بعض الملائكة ويبغضـون جبريل كما يزعمون أنهم يؤمنون بمـوسى ويكفرون بعيسى ومحمد عليهما السـلام، فبين الله عز وجل أن من عـادى جبريل فقد عادى جميع الملائكة ومن كفر برسول من الرسل فقد كفر بجميع المرسلين وأن من فعل ذلك كان عدوا لله مهما ادّعى الإيمان ولذلك ذيل الآية بقوله: ﴿فإن الله عـدو للكـافريـن﴾ وكان مقتضى السيـاق أن يقـال: فإن الله عـدو لمن

عاداهم، لكنّ مقتضى الحال يقتضي وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل صفة الكفر عليهم حتى لا يتشدّقوا بدعوى الإيمان. وعطف جبريل وميكال على الملائكة هو من عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿تنزّل الملائكة والروح﴾ فإن الروح من الملائكة، وعطف الخاص على العام يكون لمزية في الخاص ومنزلة يتميز بها عن العام، وقد كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يخص جبريل وميكال وإسرافيل بالذكر فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته فقال: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي جبريل لغات صحيحة فيقال فيه: جِبْرِيل وجَبْرِيل وجَبْرَئيل وقد قرئ في المتواتر بها وفي ميكال لغات كذلك فيقال فيه ميكال وميكائل، وميكائيل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: فتأويل الآية: ولقد أنزلنا إليك فيما أوحينا إليك من الكتاب علامات واضحاتٍ تبيّن لعلماء بني إسرائيل وأحبارهم الجاحدين نبوّتك والمكذبين رسالتك أنك لي رسولٌ إليهم، ونبي مبعوث، وما يجحد تلك الآيات الدّالات على صدقك ونبوّتك التي أنزلتها إليك في كتابي فيكذّب بها منهم إلا الخارج منهم من دينه التارك منهم فرائضي عليه في الكتاب الذي تَديَّن بتصديقه، فأما المتمسّك منهم بدينه والمتّبع منهم حكم كتابه فإنه بالذي أنزلت إليك من آياتي مصدّق وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدّقوا رسوله محمدا ﷺ من يهود بني إسرائيل اهـ ولا شك أن إخبار رسول الله ﷺ لبني إسرائيل بخفايا علوم اليهود ومكنون أسرار أخبارهم وأخبار آبائهم الأولين،

التي لا يعلمها إلا علماؤهم وكبار أحبارهم والتي أرشدهم فيها إلى ما حرّفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه من كلام الله، وغيّروه من أحكامهم كرجم الزاني وقطع يد السارق، وغيرهما من الأحكام والحدود التي طبّقوها على فقرائهم دون أغنيائهم وذوي الجاه منهم، وهو يعلمون علم اليقين أن محمدا أميٌّ لم يخط بيده كتابا ولم يتل التوراة وغيرها من كتب العهد القديم، وإنما أطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك بما أنزله عليه جبريل من القرآن كلام الله، ولذلك يقول عز وجل: ﴿أو لم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريقٌ منهم﴾ هي صورة واضحة بينةٌ لأخلاق بني إسرائيل، وأن هؤلاء اليهود لا يوفون بعهد ولا يبرون بوعد، وأن ديدنهم ودأبهم هو نقض العهود والمواثيق فإذا عاهدوا الله أو عاهدوا رسله أو عاهدوا كائنا من كان لم يستقيموا على هذا العهد بل يسارع فريق منهم إلى نقضه، وفي هذا تسلية ومواساةٌ لرسول الله محمد ﷺ، وإخباره بأن هذه هي أخلاق بني إسرائيل المعاصرين لك ورثوها عن آبائهم غير الأنبياء والمرسلين، فهي كما قيل: شنشنة معروفة من أخزم، والاستفهام في قوله: ﴿أو كلّما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم﴾ للإنكار والتوبيخ والتبكيت وبيان فحش ما يقدمون عليه من نقض العهود والمواثيق، والنبذ في الأصل الطرح والرمي ولذلك قيل للّقيط أو الملقوط: المنبوذ وهو الذي يطرحه أهله بعد ولادته خوف لحوق العار بأهله، ومن ذلك قول أبي الأَسْوَد الدُّؤَلي:

نظرت إلى عنوانه فنبذته ... كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

والمقصود من نبذ الميثاق والعهد نقضه، وقوله تعالى: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ لتأكيد أن أكثر بني إسرائيل على هذا الخلق ودفع ما قد يتوهم من أن الفريق الذي ينبذ العهد هم قلّة منهم، إذ أن الفريق قد يطلق على العدد القليل فبيّن أن هذا حال أكثريتهم وإن كانت قلوبهم شتّى، وأما القليل فقد

آمنوا كعبد الله بن سلام رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّق لما معهم نبذ فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ أي ولما أتاهم رسول من عند الله تنطبق عليه جميع الصفات التي عرفوها في كتبهم ووصايا أنبيائهم طرحت طائفة من الذين عندهم علم من كتابهم هذا الكتاب وجعلوه وراء ظهورهم ، وكتموا ما فيه من صفات رسول الله ﷺ وما عرفوا من الحق ، وصاروا بمنزلة الجاهلين الذين لم يقرءوا كتابهم ولم يعرفوا ما فيه ، والتنكير في قوله تعالى : ﴿رسول﴾ هو للتعظيم والتفخيم وقوله : ﴿من عند الله﴾ لتأكيد التفخيم والتعظيم لمحمد ﷺ ، وقوله : ﴿مصدق لما معهم﴾ لتأكيد التأكيد وأنه لا مِرْية عند من عنده أدنى معرفة بهذه الصفات أن محمدا رسول الله ﷺ . والمراد بقوله تعالى : ﴿كتاب الله﴾ يعني التوراة وهو مفعول نبذوا ، وأضيف الكتاب يعني التوراة إلى الله وإن كان التحريف قد أصابها ؛ لأن الأصل أنها من الله ولا سيما ما بقي فيها من الحق المقتضي لتوحيد الله عز وجل وتصديق المرسلين وصفات محمد رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿واتّبعـوا ما تتلوا الشياطين على مُلـكِ سليمانَ وما كَفَرَ سليمانَ ولَكنَّ الشيـاطين كفروا يُعلِّمـون الناس السِّحـر ومـا أُنزل على الملكين ببـابل هـاروت ومـاروت ، وما يُعلِّمان من أَحد حتـى يَقولا: إنما نحن فتنة فـلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون مـا يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه مـاله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس مـا شروا به أنفسهم ، لو كانـوا يعلمون* ولو أنّهم آمنوا واتّقوا لمثوبةٌ من عند الله خيرٌ لو كانوا يعلمون﴾ .

ساق الله تبارك وتعالى فيما مضى صورا من صـور سلوك اليهود المخزية لهم في الدنيا والآخرة من نقضهم للعهود وغدرهم بالمواثيق ، وتكذيبهم للمرسلين وقتلهم للأنبياء مع عبادتهم للعجل وكفـرهم بنعم الله وآياته ، وفي هذا المقام الكـريم يبيّن أنهم لم يكـونـوا يكتفـون بتكـذيب الأنبيـاء أو قتلهم بل كـانـوا يكذبون عليهم ، وينسبون لهم أقـوالا ما قالوها وأفعالا ما فعلـوها ، وقد نال سليمان عليه السلام من كذبهم وافترائهم عليه الشيء الكثير، واتّبعوا في ذلك شياطين الجن والإنس التي تفتري وتختلق وتكذب على سليمان عليه السلام ، وقد كـانت اليهـود تكذّب بنبـوة داود وسليمان عليهما السلام ويـزعمون أنهما ملكان فقط من ملوك بنى إسرائيل وليسـا بنبيين ، وقد زعمت لهم شياطينهم من اليهـود وإبليس وجنوده من الجن والإنس أن سليمان كـان ساحـراً ، وأنه كـان يحكم بني إسرائيل بواسطـة خاتمه السحـري ، وأنه كـان إذا دخل بيت الخلاء دفع بـالخاتم لـزوجته لما فيـه من ذكـر الله حتى يخرج من الخلاء ، وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صـورة سليمان فدفعت إليه الخاتم ، فذهب الشيطان إلى كرسي الملك وجلس يحكم في بني إسرائيل ، وأن سليمان لما خرج من بيت الخلاء قال لامرأته : هـاتِ الخاتم ، فقالت : قد خرج سليمان قبلك

وأخذه، وأنكـرت سليمان، فهام سليمان على وجهه حتى عمل عنـد صَيّاد، وكـان الصياد يعطيـه أجرتـه كلَّ يـوم سمكتين، فكان سليمان يبيع سمكـة يشتري بثمنها خبزا، ويطبخ السمكة الأخرى، وأنه استمر على ذلك أربعين يوما، ثم إنّ بني إسرائيل قامـوا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهـرب منهم ــ ولا أدري كيف لم ينفعـه الخاتم ــ وألقى بـالخاتم في البحـر، فـابتلعتـه سمكـة، ثم وقعت في شبـاك الصيـاد، فلما دفع لسليمان أجـرتـه سمكتين بـاع واحدة وطبخ الأخـرى وهي التي كـان في جوفهـا الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه فلبسه ورجع إلى ملكه. والعجيب أن هذا الإفك اليهوديّ تسرّب إلى بعض أكـابـر أهل العلم فصـدقوه وفسَّر بعضهـم به قـول الله عـز وجل: ﴿وألقينـا على كرسيـه جسدا﴾ قـالوا: أي شيطـانا، وقـد انتشر على ألسنة العامة والخاصة ذكر خاتم سليمان وخواصه، وصار الدجّالون يرسمونه في أوراق دجلهم، مع أن رسـول الله ﷺ فسّر فتنـة سليمان المذكورة في قـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينـا على كرسيه جسـدا ثم أناب﴾ بأن سليمان عليه السـلام حلف ليطوفنّ على مـائة من نسائه فتحمل كـلّ واحدة منهن بفارس يحمل السـلاح ويجاهد في سبيل الله ونسي أن يقـول إن شاء الله فطاف عليهن فلم تحبل إلا واحدةٌ جاءت بشق ولد فأُخذ وأُلقي على كرسيه، فاعتـذر إلى الله عز وجل بأنه مـا طلب الولـد تكثرا وافتخارا و إنما ليقـاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقال: ﴿رب اغفر لي وهب لي مُلْكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهـاب﴾ فقبل الله معذرته واستجاب دعوتـه، وأبدله الريح كما قال تعـالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمـره رُخَاءً حيث أصاب * والشياطين كل بنّـاء وغواص * وآخرين مُقَـرَّنِينَ في الأصفاد * هٰذا عطـاؤنا فامْنُـنْ أو أَمْسِكْ بغير حساب * و إن لـه عندنا لـزلفى وحسن مـآب﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن

رسول الله ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة تلد كلّ امرأة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ونسي أن يقول إن شاء الله فأطاف بهن فلم تلد منهن امرأة إلا واحدة نصف إنسان فقال رسول الله ﷺ: لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته». وفي لفظ للبخاري: «فلم تحمل شيئاً إلا واحدا ساقطاً أحد شقيه فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»اهـ. وإن تعجب فعجب لمن يترك هذا التفسير النبويّ ويأتي بأكاذيب اليهود والشياطين، وقد وبّخ الله تبارك وتعالى اليهود في هذا المقام من سورة البقرة وبين أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وقوله: ﴿واتبعوا ما تتلواْ الشياطين على ملك سليمان﴾ أي طرح اليهود تعاليم الكتاب الذي بأيديهم واتبعوا ما تتلو أي تفتري وتكذب وتختلق الشياطين وهو إبليس وجنوده من مردة الجن والإنس ولا سيما أحبار السوء من اليهود حيث زعموا أن ملك سليمان وتسلطه على الجن لم يكن إلا لكونه ساحراً، ولم يكن نبيا ولا رسولا، وقوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان﴾ أي وما كان سليمان ساحرا لأنه لو كان ساحرا لكان كافرا، برّأه الله وصانه وعصمه من كل سوء، ومن دعاوى اليهود الباطلة المختلقة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾ أي ولكن مردة الجن والإنس من أصحاب النفوس الخبيثة، والطوايا الشريرة هم الكافرون الجاحدون، الناشرون بين الناس السحر، وفي هذا نصٌّ صريحٌ على كفر الساحر، وقد عدّه رسول الله ﷺ من الموبقات أي المهلكات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السّبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله ما هنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسِّحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

والسحـر في اللغة العـربية يطلق على كل شيء لَطُفَ مأخـذه ودقّ، ويطلق كذلك على الصّرف والتحويل عن الجهة المعتـادة والتمويه بالحيل والتخاييل وهـو أن يفعل الساحـر أشياء فيخيَّـل للمسحور أنها بخـلاف ما هي بـه في الواقع كالذي يرى السراب من بعيد فيخيّل إليه أنه ماء، وكالذي يركب مركبا شديـد السرعة (كالقطار) إذا كـان طريقه بين أشجار أو منـازل أو غيرها من الأشياء الثـابتة فَيُخَيَّلُ إلى راكبه أنـه واقف وأن الأشجار أو المنـازل أو الجبال هي التي تجري، كما يطلق السحر على الخداع من قولهم: سحرت الصبيّ إذا كان قد خدعه ومنه قوله لبيد:

فإن تسـألينا فيم نحـن فإنّـنا عصافير من هذا الأنام المسـحّر

كما يطلق السحر على الاستمالـة بقوة البيان ومنه قـول رسول الله ﷺ: «إن من البيـان لسحرًا» الـذي رواه البخاري. كما كـان يطلق على الساحـر اسم العالم حيث كانت مدارس تعليمه في مصر أيام فـرعون موسى قد بلغت حدا لم يعرف في التـاريخ أنه بلغـه أحد بعـدهم أو قبلهم، كما كانت مـدارسه في جـزيرة العـرب قبل الإسلام، وقـد أشار إلى ذلك رسـول الله ﷺ في الحديث الـذي أخرجـه مسلم من حـديث صهيب رضي الله عنـه في قصة أصحـاب الأخدود والراهب والساحر. وقد يكون السحر برقى شيطانية وطلاسم ونفث في عقد، وهو سحـر أهل بابل من عهد إبراهيم عليه السلام وكـانوا يعبدون الكـواكب، وقد يكـون السحر بخفـة اليـد كالشعـوذة، ولا شك أن النفس الإنسـانية قـابلة للتأثـر ولـذلك نهى الأطباء المرعـوف عن النظر إلى الأشيـاء الحمر، كما نُهي المصروع عن النظر إلى الأشياء القـوية اللّمعان والدّوران. كما أن بعض السحرة قـد يستعين بالمغناطيس ونحـوه، وأخطر أنواع السحـر ما كان بالرقى الشيطانية والنفـث في العقد، وهذا النوع من السحر لا يفعله إلا الكـافر بـالله، ولما كثر شرّ هـذا النوع من السحـر أنزل الله الملكين هـاروت

ومـاروت ببـابل من أرض العـراق يعلمان النــاس فكّ سحـر المسحـورين، ويحذرانهم من إيـذاء الناس بـالسحـر، ويقولان لكل من يعلمانـه: إنما نحن فتنة فلا تكفر، أي فلا تستغل فرصـة معرفتك لفك سحر المسحورين بسحر النـاس، وفي ذلك يقـول الله تبـارك وتعالى: ﴿ومـا أُنْـزِلَ على الملكين ببـابل هاروت ومـاروت وما يعلمان من أحد حتـى يقولا: إنما نحن فتنة فـلا تكفر﴾ وذلك أن تعليمهما كـان ذا وجهين، يمكن استخـدامـه في وجـوه من الشر ويمكن استخـدامـه في وجـوه الخير وهو فك المسحـور وكما قـال عـز وجل ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنـة﴾ وقد تكون معرفة طـرق الشر ضرورية للقضاء عليها وفي ذلك يقول الشاعر:

عرفت الشـر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيتعلمون منهما مـا يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي ويعرفـون من الملكين الطرق التي يُفَرّق بها السـاحر بين الزوج وزوجتـه، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن عمل الساحـر إنما يؤثر على عين المسحور فتتأثر نفسه حيث يقول الله عز وجل: ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجـاءوا بسحر عظيم﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿فإذا حبـالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهـم أنها تسعى﴾ فالمسحور قد يخيّل إليـه أنه فعل الشيء وهو لم يفعله، وقد منّ الله تبارك وتعالى على أمـة محمد ﷺ فأنزل المعوذتين فاستغنى المسلمون بهما وبتـلاوتهما عن تعلم السحر أو تعليمـه. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ومـا هم بضـارين بـه مـن أحـد إلا بإذن الله﴾ أي ولا يتمكن السحـرة أو غيرهم من إلحاق ضرر بـأحـد من خلـق الله إلا بقضـاء مـن الله امتحـانـا وابتلاء، وقوله تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي ويعرف هؤلاء السحـرة مـا يفسد دينهـم ولا يجلب لهم خيرا في دنياهم فـالسحـرة هم أشـد الناس عوزاً وفقـراً، وقوله تعالى: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه مـاله في الآخرة من

خلاق﴾ أي ولقـد علم اليهود الذيـن نبذوا كتاب الله وراء ظهـورهم وانقادوا للشياطين السحرة واختـاروا السحر على الكتاب المنزّل أنّ مـن اختار السحر لا حظّ له عند الله يوم القيامة وأنه لا نصيب له في الجنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لـو كانوا يعلمون﴾ أي وقد ذمّ وقَبح ما بـاعوا به أنفسهم من السحـر والكفر، ولـو كانـوا يعرفون حقيقـة ما يصيرون إليـه من العذاب مـا تعلموه. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولـو أنهم آمنوا واتّقوا لمثـوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾ أي ولو أن هـؤلاء اليهود تركوا السحر وصدقوا محمـدا ﷺ واتبعوه لأثيبـوا ثـوابا عظيما ولجزاهـم الله الجزاء الحسن الذي هـو أحسن لهم من السحـر، ولو كـان عندهم إدراك لسـارعوا إلى الاستجـابة لله ولرسوله ﷺ وفي ذلك من الخير لهم مالا يدور بخيالهم ولا يخطر ببالهم.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا: راعنا وقولوا: انظرنا واسمعوا، وللكافرين عذاب أليم* ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربكم، والله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم* ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير* ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض، ومالكم من دون الله من وليّ ولا نصير* أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

هذا بيان لبعض دسائس اليهود وما تنثره ألسنتهم من قول ظاهره الحسن وباطنه الخسّة والنذالة وسوء الأدب، كما كانوا يدسون بأن القرآن لو كان من عند الله ما كان يأمر بالشيء ثم بعد مدّة يغيّره كجعل القبلة إلى بيت المقدس ثم بعد مدّة يحوّلها إلى الكعبة، ويزعمون أن النسخ لا يجوز لأنه يدل على أن الحكم الأول المنسوخ كان غير صالح، وقد تأثر المشركون من العرب بدسائس اليهود هذه، والحامل لليهود ومن ينهج نهجهم من المشركين هو الحسد والحقد وجهلهم بحكمة التشريع. واليهود يزعمون أنهم يصدقون ما في التوراة، والتوراة قد تقرر فيها أن آدم كان يزوّج بناته من بنيه ثم حُرّم بعد ذلك في جميع شرائع الأنبياء، كما أن التوراة تقرر أن الجمع بين الأختين كان جائزا في عهد إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأن يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، وأن ذلك قد حرّم عليهم في التوراة، مع أن اليهود لعنهم الله هم أسوأ الناس اعتقادا في الله تبارك وتعالى، ويقررون أن الله بعد أن خلق الإنسان وكثر شره في الأرض حزن أنه عمل الإنسان. وهو صريح في القول بالبَدَاء على الله تبارك وتعالى، فقد جاء في الإصحاح السادس من سفر

التكوين في الفقرة الخامسة: ورأى الربّ أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كلّ تصور أفكار قلبه إنما هو شرّير كل يوم. وفي الفقرة السادسة منه: فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. اهـ وموقف اليهود هذا لعنهم الله ينطبق عليه المثل الذي يقول: رمتني بدائها وانسلّت، لأن نسخ بعض الأحكام من أجلّ وأعلى سبل التربية والتعليم، ومثله كمثل الطبيب الحاذق الماهر الخِرّيت الذي يصف دواءً لمريضه وهو يعلم عند وصفه له أن هذا الدواء مؤقت يلائم المريض الآن ولا يلائمه غدا، ولذلك يأمر المريض بمراجعته بعد مدة ليصف له الدواء الذي يناسبه حينذاك. ﴿ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ فالتطور في التشريع من أَجَلّ مقاصد الشريعة، فإن الخمر لو أمر بتحريمها دفعة واحدة من أول الأمر لحصل من وراء ذلك شرّ كبير، لكنه تدرّج في تحريمها، وله الحكمة البالغة والحجّة الدامغة، وقد علم علماء النفس أن هذا الأسلوب في التشريع هو السبيل السّويّ الملائم لأحوال النفس الإنسانية. وقد نبهت الآية الأولى من هذه الآيات إلى تنبيه المسلمين إلى لحن اليهود الخبيث في القول، إذ يقولون لرسول الله ﷺ عند محادثته: راعنا بدل قولهم له: انظرنا، وكلمة راعنا في لغتهم تستعمل للذم إذ هي عندهم من الرّعونة فكانوا يستعملونها للذم فنهى الله المؤمنين أن يقولوا لرسول الله ﷺ: راعنا و إنما يقولون له: انظرنا، وهذا يدل على أن المباح قد يمنع لسد ذريعة الشر لأن كلمة راعنا في اللغة العربية لا عيب فيها وهذا كما نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين إذا كان سبّ آلهة المشركين يؤدي إلى أن يسبّ المشركون الله عز وجل وفي ذلك يقول: ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عَدْوًا بغير علم﴾ وقد كان من لحن اليهود لعنهم الله إذا سلّموا على رسول الله ﷺ يقولون: السّام عليكم

وهم يريـدون : الموت عليكم فكان رسول الله ﷺ إذا قالوا لـه : السام عليكم قال : وعليكم . وقد سمعـت عائشة رضي الله عنها اليهود وهم يقـولون ذلك لرسـول الله ﷺ فقالت : وعليكم السّام واللعنة ، فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشـة رضي الله عنها قالـت : دخل رهط من اليهود على رسـول الله ﷺ فقـالـوا : السّـام عليك ، ففهِمْتُهـا فقلـتُ : عليكم السَّـام واللعنة ، فقـال رسول الله ﷺ : «مهلاً يـا عائشة فإن الله يحب الـرفق في الأمر كلّه» ، فقلت : يا رسول الله : أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ : «فقد قلتُ : وعليكم» . وقـد نبّـه رسـول الله ﷺ المسلمين إذا سلّـم عليهم أهل الكتاب أن يقـولوا : وعليكم ، فقـد روى البخاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إذا سلّم عليكـم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم» . هذا وقـد صدَّر الله تبارك وتعالى هـذه الآية بقوله تعـالى : ﴿يا أيها الذين آمنـوا﴾ قال الرازي في تفسيره لهذه الآيـة الكريمـة : اعلم أن الله تعالى خاطب المؤمنين بقوله تعالى : ﴿يا أيها الـذين آمنوا﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن اهـ، وقد أُثِرَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلا قال له : اعهد إليّ ، فقال ابن مسعود : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا﴾ فارْعَها سمعك فإنـه خير يأمر بـه أو شرٌّ ينهى عنـه . وقولـه تعـالى : ﴿وللكافـرين عذاب أليم﴾ أي ولليهـود عذاب مؤلم في جهنم بسبب قولهم لـرسول الله ﷺ ما قـالوا ، وقـوله تبارك وتعـالى : ﴿ما يـودّ الذين كفـروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّل عليكـم من خير من ربكم والله يختص بـرحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ في هـذا البيـان الكريم إعـلان لما تنطـوي عليه نفـوس اليهـود والمشركين من إرادة التحكم في رحمة الله ، وأنهم يريـدون تحجير فضل الله ورحمته فـلا يمنح الله رحمة ولا فضلا إلا مـن يوافق اليهـود والمشركون على منحه هـذا الفضل وهذه الرحمة ، فما أسـوأ أخلاقهم ومـا أشدّ قبح أنفسهم ،

وقد بين الله تعالى أنه لو كانت الرحمة بأيديهم ما منحوا أحدا منها نقيرا أي قدر النقرة التي تكون في ظهر النواة كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم وفضح ما هم عليه من سوء الطّويّة فقال: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي والله يعلم حيث يجعل رسالته، وقد تفضل على النبي الأميّ العربيّ الهاشمي محمد بن عبدالله فأعطاه الشريعة الكاملة الشاملة التامة الصالحة لكل زمان ومكان ومصر وعصر وجيل وقبيل، ولله الحمد والشكر وله الثناء الحسن الجميل، فنعمه لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. وقوله عز وجل: ﴿ما نَنْسَخْ من آية أو نُنْسِها نأْتِ بخير منها أو مثلها﴾ أصل النسخ في اللغة يطلق على معانٍ منها الإبطال والإزالة والنقل والتحويل، وفي الشرع هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متراخ عنه، والنسخ قد يكون للآية وحكمها كحديث عائشة رضي الله عنها الذي أخرجه مسلم في صحيحه: كان فيما أنزل: (عشر رضعاتٍ معلومات يحرّمن) فنسخن بـ خمس رضعاتٍ معلوماتٍ يحرّمن). وقد يكون النّسخ للتلاوة مع بقاء الحكم كرجم الزاني المحصن فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ يقول: إن الله بعث محمدا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل الله آية الرجم فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أُحصِن من الرجال والنساء إذا

قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف اهـ وقد يكون النسخ للحكم مع بقاء التلاوة كعدة المتوفّى عنها زوجها حيث كانت عدتها سنة كاملة لا تخرج فيها من بيتها لقوله تعالى: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج﴾ فقد نسخ حكمها مع بقاء تلاوتها بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾، ولما أنكر الجاهلون حكمة النسخ بين عز وجل أنه أعلم بما ينزّل حيث قال: ﴿وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما يُنزِّل قالوا إنما أنت مُفْتَرٍ، بل أكثرهم لا يعلمون * قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ وقال في هذا المقام من سورة البقرة: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ أي ما نبدّل من آية أو نترك تبديلها نأت بما هو خير لكم في المنفعة وأرفق بكم، أو بمثله في الحكم المراعي لمصلحة المكلفين المناسب للبقاء والدوام والعموم والشمول. وخالق العباد أعلم بما يعود عليهم بالخير من المناهج، وما يتمكنون من القيام به من الأحكام وقد وضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فله الحمد وله الشكر. وقوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوات والأرض، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي قد علمت أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وقد علمت أن السموات والأرض ملك لله، له فيهما التصرف التام، يحكم فيهما بما يشاء لا راد لقضائه ولا معقّب لحكمه، فلله الخلق ولله الأمر، وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وهو وليّ المؤمنين ونصيرهم لا يتولّون غيره ولا ينتصرون بسواه، وهو وليهم يخرجهم من الظلمات إلى النور وينصرهم على أعدائهم. وقوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما

سئل موسى من قبل ومن يتبدّل الكفـر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ أي بل إنكم معشر اليهـود جُبِلْتُم على كثـرة السـؤال لمن يبعثـه الله لكم رسـولا كشأنكم في تعنتكم وتنطعكم وكثـرة سـؤالكم لموسى عليـه السـلام في شأن البقرة وسؤالكم له أن يريكم الله جهرة، ومن يشتر الكفر ويدفع ثمنه الإيمان فقـد انحـرف عن الصراط المستقيم وتـاه عـن المنهج الحق، وقـولـه تعـالى: ﴿رسولكم﴾ يفيد التنصيص على أن محمدًا رسول الله إلى بني إسرائيل وغيرهم من الأمم كما أنه رسـول الله إلى العرب فهو المبعـوث للناس كافة بشيرا ونـذيرا صلوات الله وسلامـه عليه إلى يوم الديـن. وقد كره الإسلام كثـرة السؤال فقد روى البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبـة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال.

قال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحقّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وماتقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعملون بصير﴾ .

بعد أن بيّن تبارك وتعالى في الآية الخامسة بعد المائة أن أهل الكتاب والمشركين لا يحبون أن يُنزّل على المؤمنين خير أبدا حقداً على المسلمين وتحجيراً لرحمة الله أن تنزل على غير بني إسرائيل أو على رجل فقير، فاليهود لا يريدون النبوة في غيرهم ، والمشركون لا يريدون النبوة إلا في رجل غني من أهل مكة أو من أهل الطائف ، وهنا يؤكد الله عز وجل ما امتلأت به قلوب بعض أهل الكتاب ـــ مع كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله وأفضل خلقه محمد ﷺ ـ من الحقد والحسد للمسلمين على النعمة العظمى التي امتنّ الله تعالى عليهم بها حيث هداهم للإيمان بكتابه وتصديق رسوله ﷺ، فهؤلاء اليهود لعنهم الله يتمنّون أن يرجع المسلمون كفّاراً وأن يرتدُّوا عن الإسلام ، وما تمنّوا هذا التمنّي لعيب وجدوه في الإسلام أو حرصا على مصلحة هؤلاء المسلمين بل الحامل الوحيد لهم على رغبتهم في رجوع المسلمين عن دينهم هو الحقد على المسلمين والحسد الذي امتلأت به جوانحهم ، وفاضت به صدورهم ، من كراهية الإسلام والمسلمين بعد أن عرفوا أن محمدا رسول الله وأنه المنعوت من أنبياء بني إسرائيل بعلاماته الجلية الواضحة وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وأن بين كتفيه خاتم النبوة وأنه يهاجر من مكة إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين ، وحديث إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه شاهد عدل من علماء أهل الكتاب النصارى على معرفتهم لصفات رسول الله ﷺ قبل بعثته فقد قال ابن إسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن

لبيد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني سلمان الفارسيّ من فِيهِ قال: كنت رجلا فارسيا ـ وساق حديث خروجه من المجوسية ودخوله في النصرانية وهروبه من أبيه إلى الشام لدراسة النصرانية وتنقله من أسقف إلى أسقف حتى لحق بصاحب عمّورية وأنه أقام عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم وأنه لما حضره الموت قال له سلمان: إلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بنيّ والله ما أعلمه أصبح اليوم أحدٌ على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك به أن تأتيهُ، ولكنه أظل زمان نبي وهو مبعوثٌ بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علاماتٌ لا تخفَى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتمُ النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. ثم يذكر سلمان رضي الله عنه كيف أخذه نفرٌ من كلبٍ تجار وظلموه وباعوه عبدا بوادي القرى من رجل يهودي وأن هذا اليهوديّ باعه على ابن عم له من يهود بني قريظة وأنه احتمله إلى المدينة قال سلمان رضي الله عنه: فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفتها بصفة صاحبي، ثم يذكر سلمان خبر هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة فيقول: فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي، قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أني سأسقط على سيدي فنزلت عن النخلة ثم يقول سلمان: وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتكم أحقّ به من غيركم قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا»، وأمسك يده

فلم يأكل، فقلت في نفسي هـذه واحـدة ثم انصرفت عنـه فجمعت شيئـا، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينـة ثم جئته به فقلت لـه: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة فهذه هدية أكرمتك بها قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلـوا معه فقلت في نفسي: هـاتان ثنتـان. قال: ثـم جئت رسـول الله ﷺ وهو ببقيع الغـرقد، قد تبع جنـازة رجل من أصحابه، عليّ شملتـان لي وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صـاحبي فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرتـه عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره فنظـرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبلـه وأبكي فقال لي رسـول الله ﷺ: «تحوّل»، فتحولت فجلست بين يديه فقصصت عليـه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. وقـوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يـردونكم من بعد إيمانكم كفارا﴾ أي تمنى كثير من اليهود والنصـارى لو يتمكنـون من ردّتكم عن الإسلام وإعـادتكم إلى الكفر بالله. وقوله تعالى: ﴿حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحقّ﴾ أي حقدا عليكم وكـراهية أن ينالكم خير ولم يفعلوا ذلك لغير علّـة الحسد الذي ملأ نفوسهم وصدورهم عليكم مع يقينهم بأنكم على الحق وأنهم على الباطل وأن محمدا رسول الله، وقوله تعـالى: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ أي إذا سمعتم من اليهود أو المشركين أو رأيتم منهم أيها المؤمنون شيئا يسوؤكم فلا تحزنـوا واهجروهم هجرا جميـلا واغفروا للذين لا يـرجون أيام الله واتـركوا مؤاخـذتهم وأَعرضوا عنهم واصبروا على أذاهـم حتى يأذن الله لكم في قتالهم ويخذلهم ويذلّهم بنصره لكم وتأييدكم عليهم، والعفـو هو ترك المؤاخذة على مـا يبدر منهم، والصّفح إزالـة أثره من النفس حتى لا تحزن. وقـد حقق الله وعده لـرسوله وللمـؤمنين، فأذلّ المشركين واليهود وأعـزّ الإسلام والمسلمين. وقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديـث أسامة بن زيـد حِبِّ

رسول الله ﷺ وابن حِبّه أن رسول الله ﷺ ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فدكيّةٍ، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبيّ فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابّة خمّر عبد الله بن أُبيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تغبّروا علينا، فسلّم رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيّ ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبيّ ﷺ يخفّضهم حتى سكنوا، ثم ركب النبيّ ﷺ دابّته فسار حتى دخل على سعد ابن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حبابٍ ــ يريد عبد الله بن أبيّ ــ قال كذا وكذا» قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعفُ عنه، واصفحْ عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك؛ لقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يُتَوّجوه فيعصّبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبيّ ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ الآية. وقال الله: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفّارا حسدا من عند أنفسهم﴾ إلى آخر الآية، وكان النبيّ ﷺ يتأوّل العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل

الله بـه صناديـد كفار قـريش قـال ابن أبيّ ابن سلول ومن معـه من المشركين وعبـدة الأوثـان : هذا! أمـرٌ قـد تـوجّـه ، فبـايعوا الـرسـول ﷺ على الإسـلام فأسلمـوا ، اهـ وقـوله في الحديـث : على قطيفة فـدكية أي على كسـاءٍ غليظ منسـوب إلى فدكٍ وهي قـرية مشهـورة على مرحلتين من المدينـة المنورة قـرب خيبر، وقوله : قبل أن يسلم عبد الله بن أُبيّ أي قبل أن يظهـر الإسلام بلسانه ويبطن الكفر فقد صار عدوُّ الله هـذا رأس المنافقين لعنهم الله ، وقوله : على أن يتوّجـوه فيعصّبوه بالعصابـة أي فيتوجوه ملكا عليهم ويلبسـوه تاج الملك على أهل يثرب من الأوس والخزرج واليهود، وقوله : شَرِقَ بذلك أي غُصّ به وامتلأ قلبه حسدا . وقولـه تعالى : ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي إن الله لا يعجزه شيء فله القدرة التامة ، وما شاء الله كان ، وفي هذا وعد بتحقيق نصر الله لنبيه ﷺ وللمؤمنين ووعيد بخذلان اليهود والمشركين ، وقد أنجز الله وعده فنصر المسلمين وأذلّ اليهـود المشركين ، فله الحمـد والشكـر . وقـوله تعـالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتـوا الزكاة﴾ هو تأكيد لهذين الـركنين من أركان الإسلام ، وقد تقدم تفسيره ، وقـوله تعالى : ﴿وما تقـدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾ أي واستعينوا في الانتصـار على عدوكم بالأعمال الصالحة من الصـلاة والزكـاة وفعل الخيرات ، وكلّ عمل صالح تعملـونه لن يضيع عند الله وسيجزيكم به أحسن الجزاء فإنه مطّلع على جميع أعمال عباده ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ .

قال تعالى: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيّهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين* بلى من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذه صورة واضحةٌ لعنصريّة اليهود المبنيّة على الأمانيّ الكاذبة، وما اختلقه لهم أحبار السوء في تلمودهم حيث زعموا أن الجنة لن يدخلها يوم القيامة أحدٌ إلا من كان يهوديا، ولقد تأثرت النصرانية التي وضعها شاول اليهوديّ وحرّف بها دين المسيح عليه السلام حيث زعم لأتباع المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء بوقت قليل أنه رأى يسوع وأنه آمن به، وسمّى نفسه بولس، وقد احتال بذلك للقضاء على المسيحية بتحريفها وتغيير أصولها. وقد تم له ذلك بعد مصارعة مع الحواريين رضي الله عنهم حيث وضع ديانة جديدة ادعى فيها أن المسيح ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة ثم راح يدعي أنه معلم المسيحية الوحيد وصار يستمد تعاليمه من مذاهب الهندوس والبوذيين وفلسفة الإغريق وبعض تعاليم اليهود التلمودية، وقد ألّف برنابا أحد الحواريين إنجيله للرد على شاول حيث يقول برنابا في مطلع إنجيله: أيها الأعزاء إن الله العجيب العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم. والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذي أمر الله به دائما، مجوّزين كلّ لحم نجسٍ، الذي ضل في عدادهم أيضا بولس (شاول اليهودي) الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السّبب الذي من أجله أُسطّر هذا الحقّ الذي رأيته اهـ وقد ظهرت تعاليم شاول اليهودية التلمودية العنصرية في إنجيلي متّى ومُرقُص حيث قررا أن ما عدا بني إسرائيل من الأمم إنما هم كلابٌ، ففي الفقرة الواحدة

والعشرين من الإصحاح الخامس عشر إلى الفقرة السادسة والعشرين يقول إنجيل متى: ثم خرج يسوعُ من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيداء، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التّخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيّد يا ابن داود ابنتي مجنونةٌ جدا، فلم يجبها بكلمة، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعنّي، فأجاب وقال: ليس حسناً أن يؤخذ خُبزُ البنين ويطرح للكلاب. وفي إنجيل مرقص في الفقرة الرابعة والعشرين إلى السابعة والعشرين من الإصحاح السابع يقول: ثم قام من هناك ومضى إلى تخوم صور وصيداءَ، ودخل بيتا وهو يريد أن لا يعلم أحد، فلم يقدر أن يختفي لأن امرأة كان بابنتها رُوحٌ نجسٌ سمعت به فأتت وخرّت عند قدميه، وكانت المرأة أمميّة وفي جنسها فينيقيّة سوريّة، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها، وأما يسوعُ فقال لها: دعي البنين أولاً يشبعون، لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب. فهذان النصان من إنجيلي متى ومرقص يقرران أن عيسى يصف الأمميين - وهم من عدا بني إسرائيل - بأنهم كلاب. نزّه الله عيسى ابن مريم وصانه أن يقول مثل هذا الكلام أو يعتقده. مع ملاحظة ما في هذين النّصين من التناقض بين الإنجيلين في جنسية المرأة التي لحقت يسوع حيث وصفت في إنجيل متى بأنها كنعانية وفي إنجيل مرقص بأنها فينيقيةٌ سورية، وبهذه النصوص التلمودية تمكنت العنصرية من نفوس أهل الكتاب فغرتهم الأماني وزعموا أن الجنة لن يدخلها أمميٌّ وأنها خاصّة لهم، وقوله عز وجل: ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ أي وقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، لأن هذا التفصيل معلوم قطعا ولذلك أوجز الكلام هذا الإيجاز،

فإنّ مما لا شك فيه أن اليهود يكذّبون عيسى عليه السلام ويرمونه وأمّه بكل قبيح، ويعتقدون أن أتباعه كفّارٌ من أهل النار، وهودٌ جمع هائد كَبورٍ جمع بائرٍ. والمراد بهم اليهود وقد تكون مأخوذة من الهود بمعنى التوبة على حد قول موسى عليه السلام: إنا هدنا إليك أي تبنا إليك، ويمكن أن تكون مأخوذة من التهويد وهو الترجيع بالصوت في لين والتطريب حيث كان أحبار اليهود إذا قرءوا على العامة أتوا بنغمات صوتية خاصة مع غنّة شديدة ومدٍّ بالخياشيم على حد قول الله تعالى فيهم: ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ ويمكن أن يكون لفظ اليهود منسوبا إلى يهوذا أخي يوسف الصّديق وأحد أبناء إسرائيل ويكون إطلاقه على جميع بني إسرائيل على سبيل التغليب، وهو يقال فيه: يهوذا ويهودا حيث تتعاور فيه الذال المعجمة والدال المهملة. ولذلك أورده الفيروز آبادي في الهود وفي الهوذ فقال في الهود: ويهودا أخو يوسف الصديق وقال في الهوذ: واليهوذيّ اليهودي، ويمكن أن يكون لفظ اليهود مأخوذًا من المهاودة وهي المواعدة على حد قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر﴾ على أننا لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ إطلاق كلمة اليهود على سبيل المدح ولم تستعمل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ إلا على سبيل الذم. أما النصارى فهم جمعُ نصراني، والنصرانية في الأصل: نسبةٌ إلى نصرانة وهي قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمّى هذه القرية أيضا الناصرة ونصوريّة، ولا يُعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل ولم توجد هذه الكلمة في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام، وقد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين

قالوا إنا نصارى﴾ هذا ولا ينبغي إطلاق كلمة مسيحيين على النصارى لأنهم في الواقع لا يتبعون المسيح عليه السلام، ولذلك لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ تسميتهم مسيحيين وقد أطلق عليهم القرآن أنهم نصارى كما سماهم كذلك أهل الكتاب، وأهل الإنجيل. وقوله تبارك وتعالى: ﴿تلك أمانيّهم﴾ أي هذه هي شهواتهم الباطلة وأُمنياتهم الكاذبة الخادعة، والمراد من هذه الأماني هي ما ادّعوه من أن الجنة لهم ومن أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة، وبأنهم أهل الحق، وبأن الله خصهم وحدهم بإنزال الكتب السماوية عليهم ولا يجب عليهم الإيمان إلا بنبي من بني إسرائيل، ولا شك أن من أعظم أمنياتهم الكاذبة قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المغرورين المخدوعين أصحاب الأمنيات الكاذبة: هاتوا حجتكم ودليلكم على أن الجنة خاصةٌ بكم ولن يدخلها أحد سواكم إن كنتم صادقين فيما تزعمون فالدّعوى بلا برهان ولا حجة ولا دليل دعوى مردودة، والأمانيّ مركب العاجز ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأمانيّ». كما رواه الترمذي من حديث أبي يعلى شدّاد بن أوس رضي الله عنه وقال الترمذي: حديث حسن. وفي هذه الآية دليل على أن النافي للحكم يطالب بالدليل لأن أهل الكتاب لما نفوا أن يدخل الجنة أحدٌ غيرهم طالبهم الله عز وجل بالدليل على ما نفوه فقال: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾. وقوله تعالى: ﴿بلى من أسلم وجههُ لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ إبطالٌ لدعوى أهل الكتاب وإثبات لما نفوه، حيث قرّر قاعدة العدل والإنصاف والرحمة والإحسان وهي أن من أسلم وجهه لله وهو محسن فهو الموعود بالجنة مهما كان عنصره ولونه وبلده

وجيله وقبيلـه وغناه وفقره، وقـد كرّر الله تبارك وتعالى هـذه القاعدة في كتـابه الكـريم للقضاء على التمييـز العنصري الذي أفسـد قلوب اليهـود ومن نهج منهجهم التّلموديّ، حيث قال: ﴿فإمـا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فـلا خـوف عليهم ولا هم يحزنون * والـذين كفـروا وكـذبـوا بآيـاتنـا أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وكما قال: ﴿بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئتـه فأولَئك أصحاب النار هم فيهـا خالدون * والذين آمنـوا وعملوا الصـالحات أولَئك أصحـاب الجنـة هم فيهـا خـالـدون﴾ في آيـات كثيرة في مواضع شتّى مـن القرآن العظيم. وقولـه: ﴿بلى﴾ إثبات لما نفـوه وإبطال لما أثبتوه لأنفسهم، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أسلم وجهه لله﴾ أي من أخْلص العمل لله وحده لا شريك له، وكما قال تعالى: ﴿فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعنِ﴾ وقـوله تعـالى: ﴿وهو محسنٌ﴾ أي ويعمل على وفق شريعـة محمـد ﷺ وهذان هما الشرطـان الأساسيـان في قبول الأعمال، فـلا بدّ لقبـول العمل أن يكون خالصا لوجه الله ولا بـد أن يكون صوابا على منهج رسول الله ﷺ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمـل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». وإنما أفرد الضمير في قوله ﴿وجههُ﴾ وفي قوله: ﴿وهو محسنٌ﴾ وفي قوله: ﴿فله أجره عنـد ربه﴾ لمراعاة لفظ «مَنْ» وجمع الضمير في قوله: ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنـون﴾ لمراعاة معنى «مَنْ» فإن لفظها مفردٌ ومعنـاها جمع، كقولـه تعالى: ﴿من عمل سيئـة فلا يجزى إلا مثلهـا ومن عمل صـالحا من ذكـر أو أنثى وهـو مـؤمنٌ فأولَئك يـدخلـون الجنـة يُـرزقـون فيهـا بغير حساب﴾.

قال تعالى: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون* ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين، لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم* ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم﴾.

إنه لا شك أن اليهود يكفرون بعيسى عليه السلام وبالإنجيل ويعتقدون أن النصارى سواء كانوا من معاصري عيسى عليه السلام أو ممن جاء بعدهم إلى بعثة محمد ﷺ ليسوا على شيء معتدٍّ به، كما أنه لا شكّ أن النصارى يعتقدون أن موسى رسول الله وكليمه وأن التوراة حقٌّ من الله، بيد أنهم يعتقدون أن اليهود لما كفروا بعيسى عليه السلام أصبحوا ليسوا على شيء معتدٍّ به حيث لم يتّبعوا وصايا الأنبياء والمرسلين من بني إسرائيل بوجوب تصديق من يبعثه الله من الأنبياء والمرسلين. وبهذا يقرر اليهود أنّ النصارى ليسوا على صواب في دينهم، ويقرر النصارى أن اليهود ليسوا على صواب في دينهم، وقد ساق الله تبارك وتعالى مقالة اليهود في النصارى ومقالة النصارى في اليهود بعد أن ذكر قول اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقول النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، واتفاق اليهود والنصارى على أن الجنة لن يدخلها عربي ولا أعجمي غيرهم أوضح الله تبارك وتعالى هنا تناقضهم وتكذيب بعضهم بعضا، وهذا يدفع توهّم من قد يتوهّم أن اليهود أو النصارى قد بنوا ما زعموه من حرمان غيرهم من الجنة على شيء ثابت حيث قرّر أنهم متناقضون متباغضون، لا يسيرون على منهج رشيد ولا يأتون بقول سديد فهم كذبةٌ فجرة، لا يعرفون إلا الهوى، ولا يتجهون إلا إلى

الضلال، وقد شهد بعضهم على بعض بذلك، وقد بيّن الله عز وجل أن قول بعضهم في بعض هو الواقـع فليست اليهود على شيء وليست النصارى على شيء وفي ذلك يقول عـز وجل: ﴿وقالت اليهـود ليست النصارى على شيء وقالت النصـارى ليست اليهود على شيء﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿ وهـم يتلون الكتاب﴾ أي وهم يقرءون جميعا التوراة فهم يدّعون جميعا أنهم مقرون بها وأنها من عند الله، وهـذا يفيد أنهم في غـاية السفـاهة حيث يكفّـر بعضهم بعضا وهم يقـرّون بكتـاب واحـد وهـو التـوراة وكتب العهـد القـديم، وإن كـان النصارى يـزيدون على اليهـود أنهم يقرون بـالإنجيل المنزل على عيسـى عليه السلام في الوقت الذي يكفر فيه اليهـود بالإنجيل، ويزعم اليهود والنصارى أنهم أهل العلم، ولـو كانوا صـادقين في زعمهم لحملهم العلم بـالتوراة على المسارعة إلى تصديق محمـد ﷺ، لكنهم إذا كان هذا حال بعضهم مع بعض فهل ينتظر منهم أن يكـونوا أحسن حـالاً مع رسول الله محمـد ﷺ؟ وفي هذا التعبير تنـديـدٌ بهم، وتحقيرٌ لسلـوكهم ممـا يجعلهم هم والأميين من مشركي العـرب الذين ليسـوا من أهل الكتـاب ولا من أهل العلم والمعـرفة على حـد سواءٍ ولـذلك قال بعدها: ﴿كـذلك قال الذين لا يعلمـون مثل قولهم﴾ أي مثل مقالة اليهود في النصارى ومقالة النصارى في اليهود قال الجهلة من عباد الأصنام في اليهود والنصارى أنهم ليسوا على شيء وقـد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة فاطـر، وبين أن المشركين في جزيرة العرب كـانوا يحسّون مع جهلهم وشركهم أن اليهـود لم يقومـوا بما يجب عليهم من طـاعة لموسى عليـه السلام واتّباع للتوراة وأن النصارى لم يقوموا بما يجب عليهم من طاعة لعيسى عليـه السـلام واتبـاع لـلإنجيل حيث يقـول عـز وجل في مشركي قـريش: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكوننّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفورا* استكبارا في الأرض ومَكْرَ السَّـيِّئ، ولا

يحيقُ المكرُ السَّـيِّئ إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنّت الأولين، فلن تجد لسنّت الله تبديلا ولن تجد لسنّـت الله تحويلا﴾ وقوله تعالى: ﴿فـالله يحكم بينهم يوم القيامـة فيما كانوا فيـه يختلفون﴾ أي فـالله الملك الحق المبين يفصل بينهم يوم القيامـة ويقضي بينهم بالعدل ولا يظلم ربك أحـدا من المختلفين فيجازيهم على اختـلاقهم وافترائهم وغرورهم وأمنيـاتهم الكاذبـة وكفرهم بـرسولـه ﷺ وصدّهم عـن سبيله، ويعرفـون في عرصـات القيامـة ما تنـاقضوا فيـه، وما اختلقـوه ﴿ويوم يَعَضُّ الظـالم على يـديه يقـول يـا ليتني اتخذت مع الرسـول سبيـلا﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿إن الذيـن آمنوا والـذين هـادوا والصـابئين والنصارى والمجـوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيـامة، إنّ الله على كل شيء شهيد﴾. ومعنى: ﴿يـوم القيامة﴾ أي يوم يقـوم الناس لرب العـالمين من قبورهم لمحشرهم ويـؤتى كلّ إنسـان كتاب عملـه، فلا يغـادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا، وقد كان رسول الله ﷺ شديد الضراعـة إلى ربه يسأله أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنـه، فقـد تقـدّم في تفسير قـولـه تعـالى: ﴿من كـان عـدوًا لله وملائكـته ورسلـه وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافـرين﴾ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ عندما يفتتح صـلاة الليل أنـه قـال: «اللهم ربّ جبريل وميكـائيل وإسرافيل فـاطـر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبـادك فيما كانوا فيه يختلفـون، اهـدني لما اختلف فيـه من الحق بـإذنك إنك تهدي من تشـاء إلى صراط مستقيم». وأخبر رسول الله ﷺ أن الله هـدى المسلمين لما اختلف فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه أنـه سمع رسول الله ﷺ يقـول: «نحن الآخرون السـابقون يـوم القيامـة، بيد أنهم أوتـوا الكتاب من قبلنـا، ثم هذا

يومهم الذي فُرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبعٌ اليهود غدًا والنصارى بعد غد». هـذا لفظ البخاري، أما لفظ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون ونحن السـابقون يوم القيامة بيـد أنّ كلّ أمةٍ أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتينـاه من بعدهم، ثم هذا اليوم الـذي كتبه الله علينـا، هدانـا الله له، فـالناس لنـا فيه تبعٌ اليهـود غداً والنصارى بعد غدٍ». وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يُـذْكَرَ فيهـا اسمه وسعى في خـرابها أولَئك مـا كان لهم أن يـدخلوهـا إلا خـائفين﴾ أي لا أحـد أفحش ظلما ممن يمنع المؤمنين ولا سيما النبيّ ﷺ من الصلاة في بيوت الله التي أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه ولا سيما المسجد الحرام الذي جعله الله تبارك وتعالى مثـابة للناس وأمنا، ولا شك أن المشركين الذين أخرجوا رسول الله ﷺ من مكـة كانوا يجمعون بين الشرك الموصوف بأنه الظلم العظيم وبين الصد عن المسجـد الحرام، وهذا وعيد شديـد لكل صاد عن ذكر الله في المسـاجد، ولا يفعل ذلك عادة إلا المشركون الكـافرون بالله، وعمارة المسـاجـد تطلق على بنائهـا وعلى إقـامـة الصلاة فيهـا كما أن خـراب المساجـد قد يكون بهدمهـا و إفساد بنيانها وقـد يكون بالصـد عن الصلاة بها ومنع المصلين من دخولها، وقد وصف رسول الله ﷺ من يعتـاد المساجد بأنه يعمرها فقد روى الترمذي وقـال: حديث حسن من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسـاجد فاشهدوا له بـالإيمان قـال الله عـز وجل: ﴿إنما يعمر مسـاجـد الله من آمن بـالله واليـوم الآخر﴾» الآيـة. وقال البخـاري في صحيحه: باب بنيـان المسجد وقـال أبو سعيد: كان سقف المسجد من جريد النخل، وأمر عمر ببناء المسجد وقال: وأكنَّ الناس من المطـر و إياك أن تحمّر أو تُصفّر فتفتن النـاس، وقال أنس: يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلا. وقال ابـن عباس: لتزخرفنّها كما زخرفت

اليهود والنصارى اهـ وقد وصف الله تبارك وتعالى إخراج أهل المسجد الحرام منه بأنه أكبر من القتال في الشهر الحرام حيث يقول: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل: قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم﴾ هذا وعد للمؤمنين وعلى رأسهم سيد المرسلين ﷺ بتمكينهم من المسجد الحرام وسائر المساجد ووعيدٌ شديد لمن صدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام أو غيره من المساجد بأن الله يسلّط عليهم الذّل والهوان وأن يصيبهم بخزي الدنيا مع ما أعد لهم في الآخرة من العذاب الموجع المؤلم، وقد فعل الله ذلك فمكّن لرسوله ﷺ فدخل المسجد الحرام آمنا مطمئنا، وأذل المشركين حتى منعهم من دخولهم لنجاستهم حيث يقول: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون﴾ وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾. وقوله عز وجل: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وَجْهُ الله إن الله واسع عليم﴾ هذه بداية التمهيد لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل وتوطين النفوس على ذلك قبل الأمر به، لعلم الله عز وجل أن المشركين الجاهلين وأهل الكتاب سيستغلون نسخ القبلة من جهة بيت المقدس إلى جهة الكعبة أسوأ استغلال للتشويش على المسلمين بعد أن فضح تناقض اليهود والنصارى والمشركين، فبين عز وجل هنا أن الجهات كلّها لله عز وجل، وأن المسلم إذا توجه إلى جهة يأمره الله عز وجل بالتوجه إليها فهو على حق وهو محسنٌ في عمله، قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله: يقال: أردت هذا الوجه أي هذه الجهة والناحية ومنه قوله: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثَمَّ وَجْهُ

الله﴾ أي قبلـة الله ووِجْهـةُ الله . وبعد أن بيّن أنّ معنى : ﴿أينما تـولّـوا﴾ أي تتوجهـوا وتستقبلوا ، قال : فـإن قوله : ﴿ولله المشرق والمغـرب﴾ يدل على أن وجه الله هنـاك من المشرق والمغـرب الذي هــو لله كما في آية القبلـة ﴿سيقول السفهـاء من النـاس مـا ولاهم عن قبلتهم التي كـانـوا عليهـا قل لله المشرق والمغـرب يهدي من يشـــاء إلى صراط مستقيم﴾ اهـ ومعنى : ﴿إن الله واسع عليم﴾ أي إن الله تبارك وتعالى محيط بجميع خلقه يسعهم بـالكفاية والتدبير والجود، عليم بأفعـالهم ونـوايا قلـوبهم لا يخفى عليـه شيء في الأرض ولا في السماء .

قال تعالى: ﴿وقالوا: اتّخذ الله ولدا، سبحانه بل له ما في السمٰوات والأرض كلّ له قانتون* بديع السمٰوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون* وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم، قد بينّا الآيات لقوم يوقنون* إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض تناقضات اليهود والنصارى والذين أَشركوا حيث يكفّر بعضهم بعضاً، وأنهم إنما يتعاونون ويكونون يدا واحدة لإطفاء نور الله والله متمّ نوره، بيّن في هذا المقام الكريم تشابه أهل الكتاب من اليهود والنصارى مع المشركين الأميين من العرب حيث ادّعى كل فريق منهم أنّ لله ولدًا، إذ زعمت اليهود أن عزيراً ابن الله وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله وزعم الجاهلون العرب الأميّون أن الملائكة بنات الله، وهو قولٌ منكر تكاد السموات تتفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا بسبب هذه الدعوى الباطلة والفرية الكاذبة على الله عز وجل، وقد ردّ الله باطلهم ودحض مقالتهم باستحالة ما يزعمون وبطلان ما يدّعون حيث إنّ جميع ما في السموات والأرض ملكٌ لله، الذي أوجد السموات والأرض على غير مثال سابق بما فيهما وما بينهما، فكيف يكون له ولدٌ والكلُّ عبيده وخلقه، وليس لله نِدٌّ ولا شبيه ولا نظيرٌ ولا شريك، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.
ولما قال العرب الجاهلون: الملائكة بناتُ الله، قيل لهم: مَنْ أمّهاتهم؟ قالوا: سروات الجن أي شريفات الجن وقد نفى الله عز وجل عن نفسه اتخاذ الصاحبة وهو يقتضي نفي الولد، ولذلك قال عز وجل: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبناتٍ بغير علم، سبحانه وتعالى عما

يصفـون * بديع السمٰوات والأرض أنّى يكـون له ولـدٌ ولم تكن لـه صاحبـةٌ وخلق كلّ شيء وهو بكل شيء عليـم﴾ وقال عز وجل : ﴿إنما الله إلٰـه واحد سبحـانه أن يكـون له ولـد ، لـه ما في السمٰوات وما في الأرض ، وكفى بـالله وكيـلا* لن يستنكف المسيح أن يكون عبـدا لله ولا الملائكـة المقرّبـون ، ومن يستنكف عن عبـادته ويستكبر فسيحشرهـم إليه جميعـا* فأمـا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات﴾ الآية وقال في سورة يونس : ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني ﴾الآية . وقال في ختـام المسك من سورة الإسراء : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريكٌ في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبّره تكبيرا﴾ وقال في افتتاحية الخير من سورة الكهـف : ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبُرت كلمةً تخرج من أفواههم ، إن يقـولون إلا كـذبـا﴾ وقـال في سورة مـريم : ﴿مـا كان لله أن يتخـذ من ولـد سبحانه ، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكـون﴾ وقال فيها أيضا : ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقـد جئتم شيئا إدًّا * تكاد السمٰوات يتفطّـرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولـدا * إن كلّ من في السمٰوات والأرض إلا آتي الـرحمن عبدا﴾ . وقـال عـز وجل : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولـون * ولَدَ اللهُ وإنهم لكاذبـون﴾ ثم قال : ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبا ، ولقد علمت الجِنَّة إنهم لمحضرون﴾ وقال عز وجل : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلـد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾ وقد أكّد تبارك وتعالى في هذه الآيات الكريمة أنه رب كل شيء ومليكه والكلّ عبيـده ، والولـد لا يكون عبدا ، وقـد روى البخاري في صحيحـه من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «قـال الله : كذّبني ابن آدم ولم يكن لـه ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكـذيبه إيـاي فزعم أني لا أقدر أن أعيـده كما كان ، وأمـا شتمه

إيـاي فقولـه: لي ولدٌ، فسبحـاني أن أتّخذ صاحبـة أو ولداً». وقـوله تعـالى: ﴿وقـالوا اتخذ الله ولـدا﴾ أي وقـال اليهـود والنصارى والمشركـون: صنع الله لنفسه ولدا أو صيَّر له ولدًا وقولـه عز وجل: ﴿سبحانه﴾ أي تنزيها لله عما لا يليق به و إبعـادًا له عن كل نقص وبراءةً لـه من كل سوء. وقولـه عز وجل: ﴿بل لـه ما في السمٰوات والأرض كـل له قـانتون * بديـع السمٰوات والأرض و إذا قضى أمرا فإنما يقول لـه كن فيكون﴾ هذه هي أدلة بطلان مقـالة اليهود والنصـارى والمشركين في دعــواهم أن لله ولـدا، وذلـك بتقـريـــر أن اليهـود والنصـارى والمشركين يقرون بأن الله لـه كل ما سـواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع، والـولد إنما يكون من جنس أبيـه، والوالد يحتاج إلى الـولد لنفعه ودفع الأذى عنـه إذا كبر، والله الذي له ما في السمـوات والأرض مِلكًا ومُلكًا وجميع هذه المخلوقات المملوكات لله مقـرة له بالعبودية بلسان حالها أو مقـالها، و إن من شيء إلا يسبح بحمـــده، ولكن لا تفقهـــون تسبيحهـم، فالجميع قانت خـاضع له مقر بأنه رب كل شيء ومليكه وسيـده، وهو بديع السموات والأرض أي مـوجدهما على غير مثال سـابق ومخترعهما من العدم، وهو غني عن العالمين، وقضاؤه نافـذ، وسلطانه تام إذا أراد أمرًا لا يحتاج إلى مادة أو معالجة أو معاونة بل يقول له كن فيكون، كما قال للسموات والأرض ائتيا طوعا أو كرهًا قالتـا أتينا طائعين، و إذا كان هذا هو شأن رب السموات والأرض فكيف يتخذ ولدا، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿بل لـه مـا في السمـٰوات والأرض﴾: أي ليـس الأمـر كما افتروا، و إنما لـه ملك السمـوات والأرض ومن فيهـن وهـو المتصرف فيهم وهـو خـــالقهم ورازقهم ومقدِّرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له ومِلْك له فكيف يكـون له ولدٌ منهم؟ والـولد إنما يكون متولـدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعـالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريـائه، ولا صاحبة

له، فكيف يكـون له ولد؟اهــ وقولـه تعالى: ﴿وقـال الذين لا يعلمـون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آيـة﴾ هو بيان لنوع آخر من قبـائح أقوال المشركين العرب الأميين حيث يـرغبــون في أن يكلّمهم الله بـلا واسطـة، أو تجيئهم آيــة مما يقترحون وهـذه السفاهـة من هؤلاء السفهـاء تدل على بـلادة نفوسهـم وسوء أخلاقهم، وأنهم ما قدروا الله حق قـدره وكأنهم مع عجزهم التام عن الإتيان بمثل سورة من القـرآن الكريم لم يكتفوا بآيته العظمـى وحجته الكبرى، وقد حكى الله عنهم بعض مقترحاتهم حيث يقـول: ﴿وقالـوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُـرَ لنا من الأرض ينبـوعـا * أو تكون لك جنـةٌ من نخيل وعنب فتفجّـر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تُسْقِـطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفا أو تـأتيَ بالله والملائكة قَبِيـلاً * أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو تـرقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابًـا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا﴾ وقـد أوضح الله تبارك وتعـالى أنه لـو أجاب قـريشا إلى مقترحـاتهم فإنهم لن يؤمنوا؛ لأنهم يقرون في قلوبهم أن محمـدا رسول الله وأنه الصادق الأمين وأنهم ما جـرّبوا عليه كذبـا قط وأن الذي حملهم على التكذيب واقتراح الآيـات هو الحسدُ الـذي امتلأت به قلوبهم أن ينـزل القرآن على رجل فقير، إنما يريـدونه بحسب شهـواتهم أن يكون من أغنيـاء القريتين مكة أو الطـائف، وفي ذلك كلـه يقول الله عـز وجل: ﴿قـد نعلم إنـه ليحـزنك الذي يقـولـون فإنهم لا يكذّبونك ولكنّ الظـالمين بآيات الله يجحدون﴾ ويقول عـز وجل: ﴿ولو أننا نزّلنـا إليهم الملائكة وكلّمهـم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شيء قُبُـلاً ما كـانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلـون﴾. وقوله تعالى: ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قـولهم تشابهت قلوبهم﴾ أي كما قال الجاهلـون الأميون العرب المشركون الذين لا يعلمون قـال الذين من قبلهم من اليهود والنصارى مثل مقالتهم فاليهود قالـوا: أرنا الله جهرة، وقالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة عنـد ما مـرّوا بقـوم يعكفون على أصنـام لهم، وقـالوا: لن نصبر على طعـام

واحد، وقالوا في طالوت: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يُؤْتَ سَعَة من المال؟ في اقتراحات كثيرة يقترحونها على موسى عليه السلام ويقترحونها على أنبيائهم من بعده. والنصارى قالوا: هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء؟ وقوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي تماثلت قلوب الأميين من المشركين وقلوب أهل الكتاب من اليهود والنصارى في العناد والعمى فتشابهت أقاويلهم الباطلة الفاسدة ومقترحاتهم العاطلة الكاسدة. وقوله تعالى: ﴿قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد أوضحنا أننا قد آتيناهم بالآيات البينات والحجج الظاهرات على أن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا فلو كانت لهم بصائر لأيقنوا، لأن هذه الآيات التي بيّناها قد استجاب لها المؤمنون وآمن بها المتقون الموقنون. وقوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي إنا بعثناك أيها الرسول الكريم مصحوبا بالحق الثابت والآيات الكافية الشافية التي يؤمن على مثلها البشر تبشّر من أطاعك بالجنة وكريم ثوابها بالخبر الذي تنطلق له أساريرهم فرحا وسرورا، وتحذر من عصاك وتخوفهم من النار، ولست بمسؤول يوم القيامة عن أهل النار التي تتأجج بهم، فالبشارة هنا هي الخبر المؤثر على البشرة بما يسرّ والنذارة هي التحذير والتخويف، والجحيم هي النار الشديدة التّأجج بعضها فوق بعض. وقوله تعالى: ﴿بشيرا ونذيرا﴾ هما صفتان من صفات رسول الله ﷺ في الكتب السماوية السابقة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه وجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة ـ يعني بها هنا بعض كتب العهد القديم ـ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرْزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، ويفتح عيونا عمياً، وآذاناً صمّاً وقلوبا غُلفاً بأن يقولوا: لا إله إلا الله.

قال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم ، قل إنّ هدى الله هـو الهدى ، ولئن اتّبعت أهواءهـم بعد الذي جـاءك من العلم مالَـكَ من الله من وليّ ولا نصير* الذين آتينـاهم الكتاب يتلـونه حقّ تـلاوته أولئك يؤمنون به ، ومَن يكفر به فأولئك هم الخاسرون* يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين* واتّقـوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئـا ولا يقبل منهـا عـدل ولا تنفعهـا شفـاعـة ولا هم ينصرون﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض ما تـوافقت عليه فرق اليهود والنصارى والمشركين من زعمهم الباطل : أن الله اتخذ ولـدا ، ونزّه الله نفسه المقـدسة عما يقولـون ، وأبطل دعواهم بـالحجج العقلية القـاطعة التي لا مفرّ للعـاقل من الانقياد لها ، والإيمان بها ، والتي لا يستطيع اليهود ولا النصارى ولا المشركون جحـد شيء منهـا لأنها مبنيّـة على الأمـور التي يُسلّم بها اليهـود والنصـارى والمشركـون فهم جميعـا يقـرون بأن الله أكبر من كل شيء ، وأن السمـوات والأرض وما فيهما له وحده جلّ وعلاَ ، أوضح هنا لـرسوله ﷺ أنّ ما يقترحونه من الآيات لو جاءتهم لن يؤمنوا وأنهم مستمسكون بباطلهم أشدّ استمساك ، ولن يقفوا عند هذا الحد من الثبات على باطلهم بل هم يريدون منك أن تترك الحقّ الـذي أنت عليه وتتّبعهم في بـاطلهم مع تناقضهم ، فلن تـرضى عنك اليهود ولو خلّيتهم وشأنهم حتى تتّبع ملتهم ، ولن ترضى عنك النصارى ولو خلّيتهم ودينهم حتى تتّبع ملتهم ، مع أنّ رضا اليهود مباينٌ لرضا النصارى ، ولن تستطيع بحال أن تنال رضا الفـريقين المتناقضين المتباغضين ، لاستحالة الجمع بين الضدّين والنقيضين ، وقوله تعـالى : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾ أي ولن يـزول غضبُ اليهود والنصـارى وبغْضهم لك أيها النبي

الكريم والرسـول العظيم، ولن يرْضوا عنك، حتى تتبع ملتهم أي حتى تترك دينك الحقّ وتتّبع هواهم وباطلهم، والملّة الدين والمذهب سواء كان حقا أو باطلا، ولـذلك عبّر الله تبارك وتعالى عن ملة اليهـود والنصارى بأنها أهواء، وقـولـه تعـالى: ﴿قل إنّ هدى الله هـو الهدى﴾ أي أخبر اليهـود والنصـارى وغيرهم بأنّ دين الله الـذي بعث بـه محمـدا ﷺ هو الـدين الحقُّ وهـو سبيل الرشـاد، وهو الـذي يصلح أن يسمّى هدى وما سـواه فهو ضـلال، والذي عليـه اليهـود والنصارى ليـس هدى وإنما هـو هـوى، وليس بعـد الحق إلا الضـلال، ولـذلك لما قال اليهـود والنصـارى فيما حكى الله عـز وجل عنهم بقوله: ﴿وقالوا كونوا هـودا أو نصارى تهتدوا﴾ ردّ عليهم هذا الزعم الكاذب فقال: ﴿قل بل ملة إبـراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وقـال: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولَكن كـان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتبعوه وهٰذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولئن اتّبعت أهـواءهم بعـد الذي جـاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ أي وتـالله لئن وافقتهم على أقوالهم التي هي أهواءٌ باطلـةٌ وشهواتٌ جامحةٌ وأُمنياتٌ خادعة كـاذبة، بعد أن منّ الله عليك بالدين الحق المعلوم صحّته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة فلن تجد وليا يقيم لك أمرك ولا ناصرا ينصرك ويدفع عنك، والمقصـود من هذا الوعيد هو التهديد لمن أطـاع اليهود أو النصارى في مذاهبهـم الزائغة الباطلـة، وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والـزيغ، الذي صانه الله من كل إثم وعصمـه مـن كلّ خطيئـة واصطنعـه الله لنفسـه وربـاه على عينـه، واصطفاه لرسـالته وأمّنه على وحيه وفضّله على سائر خلقـه، إنما هو من باب قول القائل: إيـاك أعني واسمعي يا جارة، وذلك كقولـه عز وجل: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الـذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكـونن من

الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين﴾ ومن البدَهيّات المسلمة أن أنبياء الله معصومون محفوظون مصونون عن الوقوع في المعاصي والسيئات.

وقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولَئك يؤمنون به﴾ أي الذين أعطيناهم القرآن يقرءونه حق قراءته أي القراءة الحقة التي يستحقها من الترتيل والتجويد والخشية وتحسين الصوت وتحبيره، وتلاوته آناء الليل والنهار، والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والوقوف عند حدوده، والمحافظة على حروفه، وصيانته من التحريف والتبديل، ولا شك أن قوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يفيد العموم فيشمل الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ويشمل الذين آمنوا من العرب والعجم. وتفسير الكتاب في هذا المقام بالتوراة بعيد حيث إنه بعد نزول القرآن لا تُقرب تلاوة التوراة إلى الله عز وجل، وإنما قد يطلب تلاوة جملة أو جمل منها للاستشهاد على حكم تلاعب به أهل الكتاب كالرجم الذي حولوه إلى التحميم والتشهير إذا وقع من أغنيائهم، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من آمن من أهل الكتاب حيث يقول: ﴿ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولَئك من الصالحين* وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَرُوه والله عليم بالمتقين﴾ وقد بشّر رسول الله ﷺ هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بأنهم يُؤْتَوْن أجرهم مرتين فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي، وعبد مملوك أدّى حق الله وحقّ مواليه، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوّجها». ولا يجوز أن يوصف من آمن من أهل الكتاب بأنه يهودي أو

نصراني، ويُـزْجَـرُ من يصفـه بـاليهوديـة أو النصرانيـة بعـد أن منّ الله عليـه بالإسلام، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الـذي يتلو القرآن آناء الليل والنهار هـو الـذي ينبغي أن يغبط ؛ لأنـه بخير المنـازل وأفضل الأعمال فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا على اثنين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتـاه الله مالا فهو ينفق منه آنـاء الليل وآناء النهار». والمراد بالحسد في الحديث الغبطة وهي أن تتمنّى مثل ما للغير، لأنه تنافسٌ في الخير بخلاف الحسـد فإنه تمني زوال النعمة عن الغير وهـو مذموم، وقولـه تعالى: ﴿أولَئك يؤمنـون به﴾ الإشارة فيه لعلو منـزلة الذين أوتوا الكتـاب فتلوه حق تلاوته، ووصفهم بالإيمان به تقريرٌ لعلوٍّ شرف المؤمنين، وكريم منزلتهم عند الله عـز وجل، كأنه يقـول: هم المؤمنـون حقا المقـرون بكتاب الله المنقـادون لتعاليمه، وفيـه تعريض باليهود والنصارى الذين ضيّعـوا الكتاب واشتروا به ثمنا قليلا، وقد أثنى الله تبـارك وتعالى على من آمن من أهل الكتب السماوية السابقة الـذين سارعوا إلى الإيمان بمحمد رسـول الله ﷺ وبشّرهم بمضاعفة حسناتهم حيـث يقول عز وجل: ﴿الـذين آتيناهـم الكتاب من قبله هـم به يـؤمنون * و إذا يُتْلى عليهم قـالوا آمنـا به إنـه الحقّ من ربنا إنـا كنّا من قبلـه مسلمين * أولَئك يُؤْتَوْن أجرهم مرتين بما صبروا و يدرءون بـالحسنة السّيّئة ومما رزقنـاهم ينفقون * و إذا سمعـوا اللغو أعـرضوا عنـه وقالـوا لنا أعمالنـا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ وقـوله عز وجل: ﴿ومن يكفـر به فأولَئك هـم الخاسرون﴾ أي ومن يجحد حَقِّيَّـةَ القرآن ولا يصدّق أنـه من عند الله و يكفـر بمحمد ﷺ فهـؤلاء هم الـذين ضيّعـوا دينهم ودنياهـم وأهلكـوا أنفسهم، وفاتتهـم الحظوظ التي أعدهـا الله لأهل الإيمان فما ربحت تجارتهم وما كانـوا مهتدين، فلا استقرار لهم في الدنيا ولهم في الآخـرة عذاب النار كما

قال عز وجل: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبله كتابُ موسى إماما ورحمةً، أولٓئك يؤمنون به، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده، فلا تك في مريةٍ منه، إنه الحقُّ من ربك ولٓكنّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾ وقوله عز وجل: ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعةٌ ولا هم ينصرون﴾ قد تقدم في تفسير الآيتين السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من هذه السورة المباركة المتشابهتين مع هاتين الآيتين الكريمتين أن هذا التكرير هو أحد معاني كون القرآن متشابها مثاني، وأن معنى كونه متشابها أنه يشبه بعضه بعضا في البلاغة والفصاحة والصدق والإحكام والإتقان واستتباع منافع الخلق في المعاش والمعاد، وأن معنى كونه «مثاني» أي يردد المعنى ويكرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقضٌ أو اختلاف مع مراعاة مقامات الأحوال، وأن المعاني التي تكرّرُ يقصد بتكريرها التأكيدُ عليها، وذلك لشدة البلوى بها، مع عظيم خطرها، فإن أكثر المشركين مع اختلاف أعصارهم وأمصارهم كانوا يشركون بالله ويجعلون شركاءهم شفعاء عند الله كما قال عز وجل: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هٰؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السمٰوات ولا في الأرض، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

قـال تعـالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربّـه بكلمات فأتمّهن قـال إني جـاعلك للناس إماما قال ومن ذرّيتي قال لا ينال عهدي الظالمين* وإذ جعلنا البيت مثـابـةً للنـاس وأمنا واتخذوا مـن مقام إبـراهيم مصلّى وعهـدنـا إلى إبـراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكع السّجود﴾

بعد أن بيّن الله تبـارك وتعالى أنّ ما عليـه اليهود والنصـارى والمشركون من الدين هي أهواءٌ وشهواتٌ ، وأنّ هدى الله هو الهدى ، وأن من أسلم وجهه لله وهـو محسن سعـد بمرضـاة الله ورضـوانـه مهما كـان لونـه وجنسـه ، وعصره ومصره ، ومن اتّبع هـواه وتـرك هــدى الله شقي وكـان مستحقـا لسخط الله وعقابـه مهما كان لـونه وجنسـه وعصره ومصره ، بيّن في هذا المقـام الكريم أن إبـراهيم خليل الرحمن إمـام الحنفـاء الذي يـزعم اليهـود والنصارى والعـرب المشركون أنهم على ملته افتراءً وزوراً وكذبا ؛ لأنه عليه السلام لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولم يك من المشركين وإنما كـان حنيفا مسلما وبيّن هنـا أنه لما بشّره الله عز وجل بأنه جاعله للناس إماما قال : ومن ذريتي ، فأخبره الله عز وجل أن ذريته منهـا المنحرف عن دين الله الظـالم لنفسه ومنهـا المستقيم على هدى الله الذي يبعث به الأنبياء والمرسلين ، فمن كـان من ذرية إبراهيم على هدى الله فهو المستحق للكرامة ومن انحرف عن دين الله فلا كرامة له ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿وإذ ابتلى إبـراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جـاعلك للناس إماما قـال ومن ذريتي قال لا ينال عهـدي الظالمين﴾ أي واذكر إذ اختبر الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله وخليله إمام الحنفاء وأبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأوامر شرعية أمره الله عز وجل بها فقام بها على خير وجه وأكمله ووفّى بما أمره الله عز وجل به وقال الله عز وجـل له : إني مُصَيِّرك قدوةً يقتدي بها المؤمنون ، ويأتم بها الصـالحون ، فسأل إبراهيم ربّـه عز وجل أن يجعل من ذريتـه أئمةً

صالحين يكونون قدوةً في الخير والعمل الصالح فأخبره الله عز وجل أن ذريته سيكون منهم أئمة خيرٍ ورشدٍ وسيكون منهم ظالمون منحرفون عن سواء السبيل، لا يسلكون سبيل المرسلين ولا ينهجون نهج الصالحين فمن انحرف من ذريتك عن نهج الأنبياء وأشرك بالله فله النار، ولن ينفعه أنه من ذريتك، وتصدير هذه الآية بقوله: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه﴾ وهي أول حديث عن إبراهيم خليل الرحمن في هذه السورة المباركة للدلالة على عظم مسؤولية الأنبياء والمرسلين ولا سيما من كان من أولي العزم منهم وفي مقدمتهم خليل الرحمن عليه وعليهم السلام ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فقد قال البخاري في صحيحه: بابٌ أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وصدر هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه الدارميّ والنسائيّ في الكبرى وابن ماجه وصححه الترمذيّ وابن حبان والحاكم كلّهم من طريق عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أيّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلى الرجل على حسب دينه» الحديث. اهـ ولا شك أن أعظم صور البلوى هي ما أمر الله به إبراهيم عليه السلام بذبح ولده فانقاد لأمر الله ولم يتردد في تنفيذ ما أمره الله عز وجل به كما قال الله عز وجل: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين * ربّ هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السّعي قال يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدّقت الرؤيا، إنا كذٰلك نجزي المحسنين * إنّ هٰذا لهو البلاء المبين﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى أن إبراهيم عليه السلام وفّى بما أمره الله عز وجل به حيث يقول: ﴿أمْ لمْ يُنبَّأْ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفّى

* ألاّ تـزر وازرةٌ وزْرَ أخرى * وأن ليس لـلإنسـان إلا ما سعى * وأن سعيـه سـوف يُـرى * ثم يُجْزَاهُ الجزاء الأوفى﴾ وقـد أكّد الله تبـارك وتعـالى أن ذريـة إبراهيم ليسوا سواءً وأن منهم الظالم والمهتـدي، والصالح والطالح في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ليبطل دعوى بني إسرائيل العنصريين حيث زعموا أنه لن يدخل الجنـة أحدٌ غيرهم وأنهم لن تمسّهم النار إلا أيامـا معدودات وأنهم أبناء الله وأحباؤه، فوصف بعض ذرية إبراهيـم عليه السلام هنا بالظلم وقال عز وجل في سـورة الصافات: ﴿وبـاركنا عليـه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبينٌ﴾ وقـال تعالى في سورة الحديد: ﴿ولقد أرسلنـا نوحا وإبـراهيم وجعلنـا في ذريتهما النبـوّة والكتـاب فمنهم مهتـدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذ جعلنـا البيت مثابة للناس وأمْنًا واتخذوا من مقـام إبراهيم مصلى وعهـدنا إلى إبـراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطـائفين والعاكفين والـرّكّع السّجود﴾ هذا بيـان للناس يعلن الله تبارك وتعـالى فيه أن أعظم مكان على وجه الأرض يثوب إليه الناس من جميع أجناسهم وألوانهم، وأقطارهم وأمصارهم، في جميع أعصـارهم هو البيت الحرام والكعبة المشرّفة، يأمن فيـه كل من دخله لا يحلّ لأحـد كـائنا من كـان أن يثير فيه شَغْبـاً، ولا يزعج فيـه آمنا، حتى الطير، ومن أراد بـه سوءًا أذاقه الله من عـذابه الأليم، وفي هذا إيماءٌ إلى أنه أولى مكان على وجـه الأرض يستحق أن يتوجّه المسلمون إليـه في صلاتهم، وأن يكـون مهوى أفئـدتهم، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثـابةً للناس وأمنًا﴾ أي واذكـر إذ صيّرنا الكعبة المشرّفة مـرجعا للناس يثوبون إليه من جميع جهـات الأرض دون تفرقة لألوانهم أو أجناسهم فهم فيه سـواءٌ العاكف فيه والباد، يأتـونه من كلّ فج عميق مشاةً وركبـانا، وقد جعلناه مكـان أمن وأمانٍ، واستقرار نفس وراحة بـالٍ، على مرّ العصور والدهور، من دخلـه كان آمنا، لا يحل لأحد أن يثير فيـه رُعبا، أو يسبّب فيه

خوفا وفزعا، حتى كان الرجل يلقى فيه قاتل أبيه أو أخيه أو ولده فلا يهيجه ولا يزعجه، وقد أكّد الله تبارك وتعالى على أمن البيت الحرام ممتنًّا به على قريش في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾ ويقول في سورة آل عمران: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه فرض الأمن في المسجد الحرام وما حوله من مكة وما يحيط بها إلى حدود معلومة وجعل ذلك كلّه حرماً يأمنُ فيه الإنسان والطير، وأن إبراهيم خليل الرحمن كان يدعو ربّه ليديم الأمن والاستقرار في مكة حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هٰذا بلدا آمنا﴾ ويقول تبارك و تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم ربِ اجعل هٰذا البلد آمنا﴾ ويوبّخ الله تبارك وتعالى مشركي قريش على كفرهم برسول الله ﷺ وادّعائهم أنهم لو آمنوا به تخطّفهم الناس حيث يقول عز وجل: ﴿ وقالوا إن نتّبع الهدى معك نُتخَطّف من أرضنا، أو لم نمكّن لهم حرما آمنا يُجبَى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنّا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا ويتخطّف الناس من حولهم، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ وقال تعالى في بيان قواعد الخير التي أمر رسوله ﷺ أن يعلنها للناس: ﴿إنما أُمرت أن أعبد ربّ هٰذه البلدة الذي حرمها وله كلُّ شيء وأُمرت أن أكون من المسلمين﴾ ويقول عز وجل: ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهٰذا البلد الأمين﴾ وقوله تعالى: ﴿واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ أي واجعلوا أيها المستجيبون لله عند مقام إبراهيم مكان صلاة لكم، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ بفعله وقوله، كما جاء في قصة حجة الوداع عند مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فطاف سبعاً، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعا، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿واتّخِذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ فصلى ركعتين فجعل المقام بينه

وبين البيت . الحديث وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً ثم صلى خلف المقام ركعتين . الحديث . وروى البخاري في صحيحه في تفسير قوله تعالى : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال عمر: وافقت ربي في ثلاث، قلت : يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ . . الحديث، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه وهو يبني الكعبة وإسماعيل يناوله الحجارة وقد أثر قدماه في الحجر فصار موطئه فيه ظاهرا، وقد صار معلوما عند العرب من لدن إسماعيل جيلا بعد جيل إلى بعثة رسول الله ﷺ ثم إلى اليوم وفيه يقول أبو طالب في لاميته المشهورة :

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافيا غير ناعل

وفي تقديم ذكر الصلاة عند مقام إبراهيم على ذكر بناء إبراهيم للبيت مع أن الحجر إنما صار بهذه المثابة بعد بناء البيت للفت الانتباه إلى أن الله تبارك وتعالى جعله آية شاهدة باقية للدلالة على بناء إبراهيم للبيت لعلمه عز وجل أن اليهود سيجحدون أن يكون إبراهيم قد بنى الكعبة ولذلك قال عز وجل : ﴿إن أول بيت وضع للناس لَلّذي ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ . وقوله عز وجل : ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكّع السّجود﴾ أي ووصّينا وأمرنا وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن ينظّفا البيت الحرام من كل رجس ونجس حسّي أو معنوي، فيصونوه من جميع القاذورات ويحفظاه من الأوثان والأصنام، ليكون طاهرا للطائفين الذين يدورون حول الكعبة على الصفة المشروعة وللعاكفين أي المقيمين فيه بقصد الاعتكاف، وللرّكّع السّجود أي المصلين . وكما قال عز وجل : ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت

أن لا تشرك بي شيئا وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركّع السّجود﴾ وتقديم الطواف بالبيت في آية البقرة وآية الحج على الاعتكاف والصلاة؛ لأن الطواف من خصائص بيت الله الحرام ولا يحل لمسلم أن يطـوف حول أي مكـان آخر من قبر أو غيره؛ لأن الطـواف بغير الكعبة من أمـارات الشرك بالله. والـرّكع جمع راكع والسّجـود جمع سـاجـد. وهما كنـايــةٌ عن الصـلاة لأنهما من أهـم أركانها.

قال تعـالى : ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعـل هٰذا بلدا آمنـا وارزق أهله من الثمـرات من آمن منهم بـالله واليـوم الآخر قـال ومن كفـر فأمتّعـه قليـلا ثم أضطرّه إلى عـذاب النار وبئس المصير* وإذ يرفع إبراهيم القـواعد من البيت وإسماعيل ربنـا تقبل منا إنك أنـت السميع العليم* ربنا واجعلنـا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّـة مسلمة لك وأرنا منـاسكنا وتب علينـا إنك أنت التوّاب الرحيم﴾ .

كان دعاء إبراهيم عليه السلام بـأن يجعل الله مكة بلدا آمنا وأن يرزق أهله من الثمـرات مـرتين مـرّة قبل بناء البيت الحرام وقبـل أن تصير مكة بلـدا بـه ساكنـون وذلك حين وضع ولده إسماعيل وأمـه هاجر عنـد دوحة فـوق زمزم وليس بمكة يومئذ أحد ، ولذلك قال في دعائه : ﴿رب اجعل هٰذا بلدا آمنا﴾ أما دعـاؤه المرة الثانيـة فكان بعد أن سكنهـا مع إسماعيل وهاجـر جماعة من جُرْهُم وصـارت بلدا مأهولا بالسكـان ولذلك قال في دعائه في المرة الثـانية : ﴿ربّ اجعل هذا البلدَ آمنا﴾ وقد أفـاد الخبر الذي رواه البخاري من حديث ابن عبـاس أن دعوة إبـراهيم حيث قال : ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بـواد غير ذي زرع عنـد بيتك المحـرم﴾ إلى قـولـه ﴿يشكـرون﴾ كـانت قبل بنـاء البيت ، إلا أن الله تعـالى قـد ذكر في جملـة دعـوات إبراهيم في سـورة إبـراهيم قوله : ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ مما يدل على أن هذه الدعوات لم تكن كلها في وقت واحد . ودعاء إبراهيم بجعل مكة بلدا آمنـا معناه أن يـديم الله تحريمـه وأمنه ؛ لأن الله حـرّمـه يوم خلق السمـوات والأرض فقـد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخـاري من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ يـوم افتتح مكة : «لا هجرة ولكن جهـادٌ ونيةٌ ، وإذا استنفرتم فـانفروا فإنّ هـذا بلدٌ حرّمـه الله يوم

خلق السموات والأرض وهـو حرام بحرمـة الله إلى يوم القيـامة» . الحديث ، فتحريم إبراهيم لمكة إنما كان لأنه هو الذي أعلن ذلك وسأل الله ثباته ودوامه وعلى هـذا يحمل قول رسـول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخـاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال عنـدمـا أشرف على المدينة : «اللهم إني أحرّم ما بين جبليها مثل ما حرّم إبراهيم مكة ، اللهم بارك لهم في مـدهم وصاعهم» . كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري عن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «إن إبراهيم حرّم مكة ودعـا لها وحرمتُ المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ودعـوت لها في مدّها وصاعهـا مثل ما دعا إبراهيم لمكـة» فالمقصود أن إبراهيم عليـه السلام أعلن تحريم مكـة وسأل الله دوامه وثبـاتـه . وقد روى البخـاري في صحيحه قصـة مجيء إبراهيم بإسماعيل وهاجر إلى مكة وقصة دعائه عليه السلام وتردّده على مكة ثم بناء البيت الحرام من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماءٌ فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاءً فيه ماءٌ ، ثم قفّى إبراهيم منطلقا ، فتبعتـه أمّ إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أيـن تذهب وتتركنا بهذا الوادي الـذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيء؟ فقـالت له ذلك مـرارا وجعل لا يلتفت إليها ، قالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيّعنا ، ثم رجعت فـانطلق إبـراهيـم ﷺ حتى إذا كـان عنـد الثنيـة حيث لا يـرونـه استقبل بوجهـه البيت ثم دعا بهؤلاء الـدعوات فـرفع يديـه فقال : ﴿رب إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾ . حتى بلغ : ﴿يشكرون﴾ . وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفـد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال : يتلبّطُ ، فانطلقت

كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناسُ بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت: قد أسمعت، إن كان عندك غواثٌ فأغث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف ـ وفي رواية ـ بقدر ما تغرف. قال ابن عباس رضي الله عنهما قال النبي ﷺ: «رحم الله أمّ إسماعيل، لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضّيعة فإن هاهنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرّت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كَدَاء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم فأقبلوا وأمّ إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لاحقّ لكم في الماء قالوا: نعم، قال ابن عباس قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبّ الأنس فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا بها أهل أبياتٍ، وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم وأَنفَسَهم وأعجبهم حين شبّ فلما أدرك

زوّجوه امـرأة منهم وماتـت أمّ إسماعيل فجاء إبراهيـم بعد ما تـزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا وفي روايـة يصيد لنـا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقـالت: نحن بشَرّ، نحن في ضيق وشدة، وشكت إليه قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يغيّر عتبة بابـه، فلما جاء إسماعيل كأنـه آنس شيئـا فقال: هل جـاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فـأخبرته أنّا في جهـد وشدّة قـال: فهل أوصاك بشيء؟ قـالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبـة بابك قال: ذاك أبي وقد أمرني بأن أفـارقك، الحقـي بأهلك، فطلّقهـا، وتـزوج منهم أخـرى فلبث عنهم إبـراهيم ما شـاء الله ثم أتـاهم بعد فلم يجده فـدخل على امـرأته فسأل عنـه قـالـت: خـرج يبتغي لنـا قـال: كيف أنتم؟ وسـألها عن عيشهم وهيئتهم فقـالت: نحن بخير وسعـة وأثنت على الله فقـال: مـا طعـامكم؟ قـالت: اللحم. قال: فما شرابكم: قالت: الماء قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبي ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حبٌّ ولو كان لهم دعالهم فيه قال: فهما لا يخلـو عليهما أحد بغير مكـة إلا لم يـوافقـاه، وفي رواية: فجـاء فقـال: أين إسماعيل؟ فقـالت امـرأته: ذهب يصيـد فقـالت امـرأته: ألا تنـزل فتطعم وتشرب وقال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال: فقـال أبو القاسم ﷺ: بركة دعوة إبراهيم، قـال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُـرِيه يثبت عتبة بابـه، فلما جاء إسماعيل قـال «هل أتاكم من أحـد؟ قالت: نعم أتـانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرتـه فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير قـال: فأوصاك بشيء؟ قـالت: نعم يقرأ عليك السـلام ويأمرك أن تثبّت عتبـة بابـك قال: ذاك أبي وأنت العتبـة، أمـرني أن أمسكك، ثم لبث

عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبة من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، قال يا إسماعيل: إنّ الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك ربّك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك قال: فإن الله أمرني أن أبني بيتا هاهنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وقوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هٰذا بلدا آمنا﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم عليه السلام رب صيّر هذا المكان بلدا مطمئنا لا يروّع أهله بقتال، ولا يسلّط عليهم عدوٌّ. وقوله تعالى: ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ أي واجعل عيش المؤمنين فيه رغدا، واحفظهم من الجدب والقحط وأدرّ عليهم من خيرات الدنيا؛ لأن أهلها في واد غير ذي زرع، وقوله: ﴿من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ بدلٌ من قوله: ﴿أهله﴾ كأنه قال: وارزق ساكنيه من المؤمنين، وقد حمله على تخصيص المؤمنين بهذا الدعاء ما تأدبّ به من تنبيه الله له عندما سأل الإمامة لذريته فأجابه الله: لا ينال عهدي الظالمين، فحرص على تخصيص المؤمنين بهذا الدعاء، وقوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أي وسأرزق مع مؤمني أهل مكة كافرهم أيضا متاع الحياة الدنيا، ثم أدفع الكافر إلى عذاب الجحيم، فالدنيا أعطيها لمن أُحبُّ، ولكنّ الجنة أخص بها المؤمنين وإن كان الكافر إنما يتمتع بالنعيم الدنيوي تبعا للمؤمنين لأن الأصل أن الله أوجد الطيبات في الدنيا من أجل المؤمنين والكفارُ يشاركونهم فيها على سبيل التبعية، وفي الآخرة تكون خالصة للمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده

والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة﴾ وقوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ أي واذكر إذ يرفع إبراهيم خليل الرحمن وولده إسماعيل عليهما السلام أسس البيت الحرام ويعليان بنيانه برفع جُدره بعضها فوق بعض حيث بوأ الله تعالى لإبراهيم مكان البيت كما قال عز وجل: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي هيأناه له وأعلمناه به، وقوله تعالى: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ أي يقولان وهما يعملان هذا العمل الصالح: ربنا تقبل منا عملنا واجعله محلا لقبولك ورضاك عنا إنك لا تخفى عليك خافية ولا يغيب عن علمك شيء. وقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ أي واجعلنا اللهم منقادين لك على الدوام واجعل من ذريتنا أمة منقادة لدينك متبعة لشرعك وعلّمنا مانحتاج إليه من شرائع ديننا، وعاملنا بعفوك ومغفرتك إنك أنت العائد على عبادك بالفضل والجود والإحسان والغفران.

قال تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلواْ عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم* ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين* إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين* ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

تتابعت دعوات إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فبعد دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة أن يديم الله عزّها وأمنها وأن يجعل عيش أهلها رغدا، وقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاءه حيث أصبحت مكة تجبى إليها ثمرات كل شيء من رزق الله، ثم دعا إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة قائلين: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ثم ذكر دعاءهما بأن يثبتهما الله على الإسلام وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة منقادة لله مستجيبة لرسوله ﷺ وأن يتفضل عليهما وعلى المسلمين بتبصيرهم بشرائع دينهم، ومناهج سعادتهم، ومراسيم عبادتهم ثم دَعَوَا الله تبارك وتعالى هنا أن يبعث في ذريتهما الساكنين في أم القرى وما حولها رسولا من ذريتهما يقرأ عليهم القرآن ويبيّنه لهم، ويفقّههم في الدين ويطهّرهم من الشرك بدعوتهم إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، وفي تتابع هذه الدعوات وهذه التضرعات من خليل الرحمن ومن ولده إسماعيل عليهما السلام لفت الانتباه إلى فضل الدعاء ولذلك وصف الدعاء بأنه العبادة، فقد روى أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن صحيح عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾» وقوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ أي يا سيدنا

ومصلح شئوننا، ومدبّر أمورنا يا من ربّيتنا بجودك و إحسانك أرسل في ذريتنا رسولا من ذريتنا. وقد استجاب الله تبارك وتعالى من خليله إبراهيم ومن إسماعيل عليهما السلام دعاءهما وحققه لهما في نبيه الكريم ورسوله العظيم محمد ﷺ حيث أرسله من أهل البلد الحرام، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه دعوة أبيه إبراهيم فقد روى الإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام». قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: والمراد أن أول من نوّه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً وهو عيسى ابن مريم حيث قام في بني إسرائيل خطيبا وقال: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ اهـ وقد حصر الله تبارك وتعالى النبوة والكتاب بعد إبراهيم عليه السلام في ذريته حيث يقول عز وجل: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل كتاب أنزله الله تعالى بعد إبراهيم عليه السلام على نبي من الأنبياء ففي ذريته، وقد جعل الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم فرعين، أحدهما إسماعيل والآخر إسحاق وقد ولد لإسحاق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه ينتسب سائر أسباطهم، وكانت فيهم النبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم وهو من بني اسرائيل لنسب أمه فيهم أما الفرع الثاني من ذرية إبراهيم وهو إسماعيل فلم يأت من ذريته نبيّ غير الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين صاحب المقام المحمود والحوض المورود الذي يغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة محمد ﷺ الذي تفضل الله به علينا فجعله حظّنا وحظّ الإنس والجن من جميع الأجناس الذين سعدوا بالإيمان به من لدن بعثته إلى يوم القيامة عليه صلوات

الله وسلامه التـامان الأكملان إلى يوم الدين . وكـان من مكافأة الله عز وجل لخليله إبـراهيم على بناء الكعبـة أن جعله في السماء السـابعة يسنـد ظهره إلى البيت المعمور الذي تحجه الملائكة في السماء وكان من مكافأته على دعائه بأن يبعث الله من ذريتـه وذرية ولـده إسماعيل رسولا واستجـاب الله له بإرسـال سيد البشر ﷺ أن جعل الصلاة عليه مقرونـة بالصلاة على محمد ﷺ وأجرى ذكـره بالثنـاء عليه إلى يـوم القيامـة من عباد الله الصـالحين حيث يقولـون في تشهـدهم في الصلاة : اللهم صـل على محمد وعلى آل محمـد كما صليت على إبـراهيم وعلى آل إبـراهيم إنك حميـد مجيد ، اللهم بـارك على محمـد وعلى آل محمـد كما باركت على إبـراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميـد مجيد . وقـوله عـز وجل : ﴿يتلوأعليهم آياتك﴾ أي يقرأ عليهـم القرآن ، ولذلك ربط الله تبارك وتعـالى بين بعثة محمـد ﷺ في مكـة البلـد الحرام وبين تلاوتـه للقـرآن حيث يقول : ﴿إنما أمرت أن أعبد ربّ هٰذه البلدة الذي حرمها وله كلُّ شيء وأمرت أن أكـون من المسلمين * وأن أتلـو القرآن﴾ وقـولـه عـز وجل : ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾ أي ويبين لهم مجمل الكتـاب وقد يخص عمومه ويعمّم خصوصه ويقيد مطلقه ويطلق مقيّده حيث يندرج ذلك كلّه في قوله تعالى : ﴿وأنـزلنا إليك الـذكر لتبين للنـاس ما نزّل إليهـم ولعلهم يتفكرون﴾ والحكمـة هي الفقـه في الـدين واتبـاع سنـة النبي الكـريم ووضع الأمـور في مـواضعها ، ومعنى : ﴿يـزكيهم﴾ أي يطهرهم وذلك بترغيبهم في الطيبـات وترهيبهم من المحـرمات وتحذيرهم من سـائر النجاسات المعنويـة والحسية . وقوله : ﴿إنك أنـت العزيز الحكيم﴾ أي إنّك أنت الغالب القـاهر الفعّال لما يريـد الواضع للناس أسعد المنـاهج ، ولا يخلو أمرك أو نهيك عن حكمـة قد يعقلهـا العالمون ، وقـد تخفيها عن الخلق فيتعبّـد بأمرك أو نهيك المتعبـدون ، لإيمانهم أنك أنت الحكيم العليم وقـولـه عـز وجل : ﴿ومن يـرغب عن ملـة

إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ هذا توبيخ لمن انحرف عن ملة إبراهيم فأشرك بالله وابتدع دينا مناقضا لما جاء به إمام الحنفاء خليل الرحمن عليه السلام ومَن في قوله: ﴿ومَن يرغب﴾ للاستفهام الإنكاري فهي بمعنى النفي أي لا أحد يرغب أي ينحرف عن ملة إبراهيم أي شريعته في وجوب إخلاص العبادة لله وحده وإسلام وجهه لله عز وجل والاستجابة للرسول المبعوث بدين الإسلام الذي هو دعوة إبراهيم عليه السلام الذي سمّى نفسه وولده إسماعيل مسلمين وسمّى أمة محمد ﷺ المسلمين كما قال عز وجل: ﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ وقوله تعالى: ﴿إلا من سفه نفسه﴾ أي إلا من جهل نفسه واستخف بها وضيّعها ورضي أن يكون يهوديا أو نصرانيا أو وثنيا مشركا وقد برّأ الله عز وجل إبراهيم من اليهودية والنصرانية والوثنية حيث قال: ﴿ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ولقد اصطفينا ه في الدنيا﴾ أي اخترناه وفضلناه بالرسالة والنبوة وبعثناه بالهداية والرشاد، ومنحناه في الدنيا حسنة واتخذناه خليلا وأبقينا ذكره في العالمين وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّةً قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ وقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي وإنّ له في الآخرة لزلفى وفوزا وحسن مآب في عباد الله الصالحين الفائزين برضوان الله والمنازل العالية في جنات النعيم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين﴾ يبيّن الله تبارك وتعالى سبب اصطفاء إبراهيم في الدنيا وعلوّ منزلته في الآخرة أنه سريع المبادرة إلى امتثال أمر الله والانقياد له والاستسلام

والإذعان لما يطلبه الله منه مهما كان فيه من بلوى وامتحان. فهو بمجرد ما قيل له: أسلم أي أخلص لي العبادة واخضع لي بالطاعة بادر بقوله: أسلمت وخضعت وانقدت لأمر الله مالك كل شيء وسيده ومدبّره ومصلحه ومربيه. وأمر إبراهيم عليه السلام بالإسلام لا يدل على أنه كان خاليا منه، بل المقصود من الأمر بالإسلام هو الثبات عليه، وملازمة الاستمساك به، والقاعدة أن الأمر بالشيء لا يقتضي أن المأمور خال عند الأمر من التّلبّس بمضمونه، كما أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه. وقوله تعالى: ﴿ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أي وعهد إبراهيم عليه السلام عهدا مؤكّداً إلى بنيه أي إلى أولاده وذريته وكذلك عهد يعقوب عليه السلام إلى أبنائه عهدا مؤكّدا بوجوب الاستمساك بملة إبراهيم المقتضية لتجريد التوحيد لله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده والالتزام بشريعة الإسلام وترك الابتداع في الدين، وقال إبراهيم ويعقوب في وصيتهما لأبنائهما: إن الله اصطفى لكم الدين أي اختار لكم شريعة الإسلام فعضّوا عليها بالنواجذ والزموها وأديموا الاستمساك بها حتى يأتيكم الموت وأنتم على الإسلام، ولا يخطر على بال عاقل أن قوله: ﴿فلا تموتُنّ﴾ نهي عن الموت؛ لأن الموت والحياة بيد الله وحده فقد قهر الله تبارك وتعالى العباد على الموت فليس لأحد من خلق الله كائنا من كان أن يتحكّم فيه، وإنما المقصود بقوله عز وجل: ﴿فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أن يحرص الإنسان على الاستمساك بالإسلام حتى يأتيه الموت وهو ملازم لهذه الملة الحنيفية، فإن المرء يموت غالبا على ما يلتزم به ويحرص عليه كما أنه يبعث على ما ماتَ عليه. فمهما حاول الشيطان أن يصرفكم عن شريعة الإسلام وملة إبراهيم فلا تطيعوه، ولا تنقضوا هذه الشريعة في وقت من الأوقات فقد تأتيكم منایاكم في حال نقضكم للملة

فتمـوتـون على غير الإسـلام نعوذ بـالله . وكما وصّى إبـراهيم بنيـه ويعقـوب بملازمـة ملة الإسـلام إلى الموت فقد وصّى رسـول الله ﷺ أمته بـذلك ، فقد روى مسلم في صحيحـه من طريـق عبد الـرحمن بن عبـد ربّ الكعبة قـال : دخلت المسجـد فإذا عبـد الله بن عمرو بـن العاص جـالسٌ في ظل الكعبـة والناسُ مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليـه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً فمنّـا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جَشَره إذ نادى منـادي رسول الله ﷺ : الصلاة جـامعةً فاجتمعنـا إلى رسول الله ﷺ فقال : «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمّته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهـم شرّ ما يعلمه لهم ، وإن أمتكـم هذه جعل عـافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمورٌ تنكرونها ، وتجيء فتنةٌ فيرقّق بعضها بعضا وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هـذه ، فمن أحبّ أن يزحزح عن النـار ويدخل الجنة فلتأته منيتـه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحبّ أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر» . الحديث .

قال تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدا ونحن له مسلمون* تلك أمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾.

يؤكد الله تبارك وتعالى في هذا المقام وفيما قبله وفيما بعده من بدء حديثه عن إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهن﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة، يؤكد على أن الإسلام هو دين الله الذي بعث به أنبياءه ورسله، وأن اليهودية والنصرانية من الديانات المختلقة المنحرفة عن دين الأنبياء والمرسلين ولذلك كرّر مادة أسلم في هذه الآيات التي ذكرت سبع مرات حيث قال في الآية الثامنة والعشرين بعد المائة في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ وقال في الآية الحادية والثلاثين بعد المائة عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾ ثم قال في الآية الثانية والثلاثين بعد المائة: ﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ ثم قال في الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة وهي التي نحن بصدد تفسيرها: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحداً ونحن له مسلمون﴾ ثم قال في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ فبعد أن

بين عز وجل أن إبـراهيم وإسماعيل كانا مسلمين وقـد سألا الله عز وجل أن يجعل من ذريتهما أمـة مسلمـة ثم أكّـد أن ملـة إبـراهيم هي الإسـلام حيث يقول: ﴿إذ قال له ربه أسلم قـال أسلمت لرب العالمين﴾ ثم ذكر أن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام حرصا على إسـلام بنيهما، فوصّياهم بالتمسك بدين الإسلام الذي اصطفاه الله للنـاس حيث قال كل واحد منهما لبنيه: ﴿إن الله اصطفى لكم الـدين فـلا تموتُن إلا وأنتم مسلمـون﴾ ثم ذكر في هـذا المقـام الكريم أن أولاد يعقوب عليه السلام قرروا أمـامه عند موته بأنهم يستمسكون بـالإسلام ولا يفـارقونـه أبدا وأنهم يقيمـون على عبادة الله وحـده إله يعقـوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحـاق إلها واحدا وهم لـه مسلمون، ثمّ أمـر الله عز وجل رسولـه محمدا ﷺ أن يعلن أن ملـة إبراهيم هي الحنيفيـة السمحة التي يجب على جميع المكلفين من جميع الأجناس أن يتبعـوها وأن يعلنـوا جميعا أنهم مسلمـــون، و(أم) في قـولــه تعــالى: ﴿أم كنتم شهـداء﴾ بمعنـى بل التي للإضراب وهمزة الاستفهام والإضراب هنا للانتقال من توبيخهم على رغبتهم عن ملـة إبـراهيم التي لا يـرغب عنها إلا مـن سفه نفسـه إلى تـوبيخهم على انحرافهم عن دين يعقوب عليه السلام مع افترائهم وادعائهم أنهم على دينه.
والاستفهـام لإنكار أن يكـونـوا حضـورا عند وصيـة يعقـوب لبنيـه بوجـوب إخلاص العبـادة لله وحده وجـواب بنيه له بأنهم يستمسكـون بالحنيفيـة ملة آبائهم يعقـوب وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وأنهم مسلمون، ومعنى قـوله تعالى: ﴿أم كنتم شهـداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه مـا تعبدون من بعدي قـالوا نعبد إلهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحـاق إلها واحدا ونحن لـه مسلمـون﴾ أي لا تـدّعوا على أنبيـائي ورسلي أنهم كـانـوا يهودا أو نصارى وبخـاصة يعقـوب عليه السـلام وأنه كان على ملتهم فليـس لديكم برهـان على ما تدّعـون، أكنتم حضوراً عنـد حضور مقدمـات الموت يعقوب

عليه السلام حتى تعلموا ما قال لبنيه وماذا كانت وصيته لهم عند آخر عهده بالدنيا؟ لو كنتم شهداء عند ذلك لعلمتم أنّ وصيتَه لبنيه كانت للتأكيد عليهم بالاستمساك بالإسلام ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فلا تكذبوا أيها اليهود والنصارى على يعقوب عليه السلام، ولا تنسبوا له دينا يخالف دين الإسلام، وليس معنى كون هؤلاء الأنبياء مسلمين أن تكون شريعتهم متطابقة مع شريعة الإسلام التي بعث الله بها حبيبه محمدًا ﷺ في جميع أصولها وفروعها، بل المراد أن شرائع جميع المرسلين متطابقة في وجوب إخلاص العبادة لله وحده والمحافظة على الكليات الخمس التي تحفظ للإنسانية دينها وأنفسها وأموالها وأعراضها وعقولها أما الفروع وهيئات العبادات ومواقيتها فقد جعل الله تعالى لكل أمة شرعة ومنهاجا يتلاءم معهم ويناسبهم، ولذلك وصف رسول الله ﷺ الأنبياء بأنهم أولاد علات أو إخوة لعلات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علّات ليس بيني وبينه نبي»، وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلاتٍ أمهاتهم شتى ودينهم واحد». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة» قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من علّاتٍ وأمهاتهم شتّى ودينهم واحد». اهـ ومعنى قوله أولاد عَلّاتٍ أو إخوة لعلات أو إخوة من علات أنهم إخوة من أب، وأمهاتهم شتى، وأما الإخوة من الأبوين فيقال فيهم: أولاد الأعيان، أو إخوة الأعيان، والمقصود من الحديث أن أصل دين جميع المرسلين واحد في التوحيد والكليات الخمس التي هي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، أما الفروع والمناهج

فهي مختلفة بحسب أحوال أمة كل نبي ولذلك قال تبارك وتعالى بعد ذكر مجموعة من المرسلين: ﴿أولَئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقال: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وقال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجا﴾ وقوله عز وجل: ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا: نعبد إلَهك وإلَه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ أي حين قال يعقوب وقت احتضاره عليه السلام لأولاده أي شيء تتخذونه معبودا من بعد موتي وقد أراد يعقوب عليه السلام بسؤاله ذلك لبنيه تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما تتميما لوصيته لهم بقوله: ﴿فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ ولا شك أن إبراهيم جدٌّ ليعقوب وأن إسماعيل عمٌّ له وإسحاق والدٌ وقد سمّى الجميع آباء، والناس لا يختلفون في تسمية الجد أبا، أما العم وهو أخو الأب فقد أشار القرآن العظيم إلى تسميته أبا في هذا المقام الكريم من القرآن العظيم. وكذلك في سورة النور عندما ذكر محارم المرأة التي لا يمنعها من أن تظهر أمامهم بزينتها حيث قال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهنّ أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ فلم يذكر الله عز وجل في الآية العم والخال وهما لا شك من المحارم لأن العم يدخل في مسمّى الأب وقد أخبر الله تبارك وتعالى عن يوسف الصديق عليه السلام أنه قال: ﴿واتبعت ملة آبائي

إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ وإبراهيم جد أبيه وإسحاق جده ويعقوب أبوه وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صِنْوُ أبيه» كما روى البخاري من حديث البراء أن رسول الله ﷺ قال: «الخالة بمنزلة الأم»، وأثر أنه عليه السلام قال: الخال والد. وقال تعالى في قصة يوسف: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ والمقصود أبوه يعقوب وخالته وكانت زوجة أبيه على ما ذكر أن أم يوسف عليه السلام كانت قد ماتت. وقوله عز وجل: ﴿ونحن له مسلمون﴾ هي تتمة عهد أبناء يعقوب لأبيهم وهو المقصود حيث أقروا أنهم على ملة الإسلام دين الأنبياء والمرسلين والذي جعله الله عز وجل العَلَم الذي يطلق على أمة محمد ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم القيامة. وقوله عز وجل: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾ أي هؤلاء الأشاوس الأئمة الأماجد الكرام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأهل التوحيد والإسلام من أبنائهم قد مضوا إلى الله عز وجل وحازوا الفضل العظيم والثناء الجميل، وقد جعل الله تبارك وتعالى لهم ثواب ما قدّموا من الدعوة إلى الحنيفية السمحة والأعمال الصالحة التي اكتسبوها، وأنتم يا معشر من يزعم أنهم ينتمون إليهم وقد ثبت أنكم لستم على ملتهم فليس لكم من أعمالهم الصالحة شيء فلكل نفس ما عملت من خير أو شر، فلهم جزاء الخير الذي عملوه ولكم جزاء الشر الذي اقترفتموه، فإن الأبناء لا ينتفعون بعمل الآباء إلا إذا كانوا على منهجهم في الإسلام، على حد قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما أَلَتْنَاهُم من عملهم من شيء كلّ امرئ بما كسب رهين﴾ ولذلك نبه رسول الله ﷺ ابنته فاطمة الزهراء وعمّه العباس بن عبد المطلب وعمّته صفية بنت عبد المطلب بأن يشتروا أنفسهم فإنه لن يغني عنهم من الله شيئا فقد

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: «يا معشر قريش أو كلمةً نحوها، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا».

ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أُغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله سليني بما شئت لا أغني عنك من الله شيئا». وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أن من بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه كما رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين* قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النّبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون* فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله، وهو السميع العليم﴾

هذا شروعٌ في بيان لون آخر من ألوان كفر اليهود والنصارى وهو أنهم لم يكتفوا بما هم عليه من الضلال والانحراف عن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبنائهم المهتدين بل عملوا على إضلال غيرهم عن الدين الحق، وصدِّ الناس عن الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ بادّعاء اليهود أن الهدى في اليهودية وادّعاء النصارى أن الهدى في النصرانية، مع تكفير إحدى الطائفتين للأخرى وقد ردّ الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم هذا بحجة مفحمة ملزمة قاطعة لكل أثر لشبهتهم فأمر نبيه محمدا ﷺ أن يقول لليهود والنصارى ومن يدور في فلكهم من المشركين: ﴿قل بل ملّةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ أي اتركوا هذه الدّعاوى التي لا دليل عليها سوى الهوى والشهوة بدليل تناقضكم وتكفير بعضكم لبعض بل تعالوا نتّبع ملة إبراهيم إمام الحنفاء لأنه كان حنيفا مسلما ونحن وإياكم متفقون على صحة دين إبراهيم لكنكم انحرفتم عن هذا الدين بقول اليهود عزير ابن الله وبقول النصارى المسيح ابن الله واتخاذكم جميعا الأنداد والشركاء لله كما قال عز وجل: ﴿وقالت اليهود عُزَيْر ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذٰلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قاتلهم الله، أنّى يؤفكون* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما

أُمروا إلا ليعبدوا إلَهًا واحـدا لا إلَه إلا هو، سبحانه عما يُشركـون * يريدون أن يطفئوا نور الله بأفـواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافـرون﴾ وقوله عز وجـل : ﴿وقالـوا كونـوا هودا أو نصـارى تهتدوا﴾ هـو نظير قولـه تعالى : ﴿وقـالوا لن يـدخل الجنة إلا من كـان هودا أو نصـارى﴾ فهو إجمال يعـرف السامع تفصيلـه ، أي وقالت اليهود للمـؤمنين : كونوا هودا تهتـدوا : وقالت النصارى للمؤمنين : كونوا نصارى تهتدوا ، أي تصيروا على الهدى والاستقامة وقوله عـز وجل : ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفا ومـا كان من المشركين﴾ أي قل لهم يـا محمد على سبيل الـردّ عليهم وإلـزامهم بـالحجة التي لا مفـرّ لهم عن الإذعـان لها لو كـانت لهم قلـوبٌ وعقولٌ : بل نتبع نحـن وأنتم ملّة إبـراهيم حنيفـا ، وتتركون مـا أنتم عليـه من عبادة الأحبـار والرهبـان والعـزير وتـرك النصـارى لهذه الأنداد ولعبـادة المسيح ابن مـريم ، لأن إبـراهيم كان حنيفـا مسلما مـائلا عن الشرك إلى التـوحيـد ولم يكن من المشركين ، فإذا اتبعتم ملـة إبـراهيم البريء من كل شرك وأقـررتم بدين الإسـلام صرتم على الهدى ، أمـا نحن فعلى ملـة إبـراهيم ولن نحيـد عنها أبـدا حتى نمـوت عليهـا كما وصّى بذلك إبراهيم ويعقوب عليهما السلام . وأصل الحنيف في الشرع هو المستقيم على الحق المائل عن الباطل ، وقوله تعالى : ﴿قولـوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنـزل إلى إبراهيم وإسماعيـل وإسحاق ويعقـوب والأسبـاط وما أُوتي مـوسى وعيسى وما أوتي النّبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ هذا الأمـر «قولوا» للمـؤمنين الذين قال لهم اليهـود والنصارى كونـوا هوداً أو نصـارى تهتـدوا أي ردّوا عليهم باطلهم وأعلمـوهم أن هـدى الله الـذي من تمسّك به اهتـدى هو الاعتقاد بـالقلب والنطق باللسان وإعـلان الإيمان بالله وبالقـرآن المنزّل على محمد ﷺ وبصحف إبـراهيم عليه السـلام وبما أنزل الله تعـالى إلى إسماعيل وإسحاق ويعقـوب وما أنـزلـه الله تعالى على الأنبيـاء من

حفدة يعقوب عليه السلام من ذراري أبنائه الاثني عشر كزبور داود، وما أنزله الله على موسى من التوراة وما أنزله على عيسى من الإنجيل، وما أنزله على غير هؤلاء المذكورين من الأنبياء كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام فنؤمن بهذه الكتب المنزلة على الأنبياء تفصيلا لما علمناه تفصيلا، وإجمالا لما لم نعلمه تفصيلا، ولا نفرق بين أحد من الأنبياء والمرسلين، بل نؤمن بهم جميعا ولا نكون كاليهود والنصارى الذين يفرقون بين الأنبياء فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ويفرقون بين الكتب المنزلة فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض حيث ادعت اليهود أنهم يؤمنون بالتوراة وهم يكفرون بالإنجيل، ويدّعون أنهم يؤمنون بموسى وهم يكفرون بعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولذلك قال عز وجل: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذٰلك سبيلا * أولٰئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولٰئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفورا رحيما﴾ وقد أكّد الله تبارك وتعالى على هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وهاتان الآيتان الكريمتان آية البقرة وآية آل عمران من المتشابه المثاني الذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾ وكما قال عز وجل: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يلفت انتباه المسلمين بقوله وفعله إلى الآيات التي

تتضمن هـذا المعنى، فقـد روى البخـاري ومسلـم من حـديث أبي مسعـود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الآيتـان من آخر سورة البقرة من قـرأ بهما في ليلة كفتـاه». كما كان رسـول الله ﷺ يكثر أن يقـرأ في الركعـة الأولى من ركعتي السنة في الفجر قوله تبارك وتعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ الآية فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبـد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا﴾ والتي في آل عمـران ﴿تعـالـوا إلى كلمـة سـواءٍ بيننـا وبينكم﴾ وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿قولـوا آمنا بـالله وما أُنـزل إلينا﴾ الآيـة التي في البقرة، وفي الآخـرة منهما: ﴿آمنـا بـالله واشهـد بأنّـا مسلمون﴾ وقـولـه تبـارك وتعـالى: ﴿والأسباط﴾ هو عام أريد به الخصوص إذ المقصود به هنا الأنبياء من أحفاد يعقوب عليه السـلام، والأصل في اللغة إطلاق السّبط على ولد الـولد أو ولد البنت كما قيل في الحسن والحسين رضي الله عنهما إنهما سبطـا رسـول الله ﷺ وقـد يطلق السبط في بني إسرائيل بمعنى القبيلـة عنـد العـرب وقـد قطّع الله تعالى بنـي إسرائيل اثنتي عشرة قبيلة وكلّ قبيلـة من هذه القبـائل الإسرائيلية تنتمي إلى ولد من أولاد يعقوب عليه السـلام وهو إسرائيل كما قال عز وجل: ﴿وقطّعناهم اثنتي عشرة أسبـاطا أممـا﴾ فليس كلُّ سبطٍ نبيا، ومـوسى عليه الصـلاة والسـلام من الأسبـاط أباً وأمّـا وعيسى عليـه السـلام من الأسبـاط بالنسبة لأمه حيث إنه لا والد له، وإنما خصهما الله تبارك وتعالى بالذكر لِعُلُوِّ منزلتهما فهما أفضل أنبياء بني إسرائيل وهما من أولي العزم من المرسلين. وقوله عـز وجل: ﴿فإن آمنوا بمثل مـا آمنتم بـه فقد اهتـدوا وإن تولّـوا فإنما هم في شقاق﴾ أي فإن صدّق اليهود والنصـارى وقالوا آمنا بالله وبالقرآن وبصحف

إبراهيم وما أنزل على إسماعيل و إسحـاق و يعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيّـون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن لـه مسلمون وأذعنوا لـذلك وانقادت لـه نفوسهم فصـدّقوا بـذلك مثل ما صـدقتم وأقرّوا بمثل ما أقـررتم به أيها المؤمنون فقـد وفّقوا ورشـدوا واستقاموا وسلكـوا طريق الحق وهم حينئــذ منكم وأنتم منهم حيـث دخلـوا في ملتكم والتــزمــوا بشريعتكم، ومما يتحتّم أن لا يخطر على البال أن المقصود: فإن آمنوا بمثل الله الـذي آمنتم بـه فإن الله تعـالى ليـس لـه مثيل ولا نِـدٌّ ولا نظير ولا شبيـه ولا شريك، كما أنـه لا مثيل للقـرآن ولا نظير، قــال ابن جـريـر رحمه الله: فإن صدّقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا، فالتشبيـه إنما وقع بين التّصديقين والإقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء و إيمان هؤلاء، كقـول القائل: مَرَّ عمرو بأخيك مثل مـا مررتُ به يعني بذلك: مرّ عمرو بأخيك مثل مروري به، والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمـرو وبين المتكلم، فكـذلك قـوله: ﴿فإن آمنـوا بمثل مـا آمنتم به﴾ إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمَن به اهـ. ومعني قوله عز وجل: ﴿و إن تولّوا فإنما هم في شقاق﴾ أي فإن أعرض اليهود والنصارى فلم يؤمنوا بمثل إيمانكم أيها المؤمنـون بالله وبما جاء به الأنبيـاء، واستمروا على ما هم عليه من التفـريق بين الرسل وقـالوا: نؤمن ببعـض ونكفر ببعض، فإنما هم قـد اختاروا طريـق مشاقّتكم واستقـرت نفوسهم الشريـرة على العصيان وحرب الله ورسوله ومخالفتكم، والشقاق الفراق والمحاربة والعداوة، كأن كلّ واحد من الفـريقين صار في شق أي جـانب مناقض لشقّ عـدوه أي الجانب الــذي هـو فيــه، ولا شك أن كلّ واحـد منهما يحرص على إلحاق مــا يشقّ و يصعب على صاحبه، ومنـه قوله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسـول من بعدما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نـوله مـا تولى ونصلـه جهنم وساءت

مصيرا﴾ أي يجانب الرسول ﷺ ويعانده وقوله تبارك وتعالى: ﴿فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾ أي فسينصرك الله عليهم ويمكنك منهم ويحكمك فيهم، والله لا تخفى عليه خافية، فهو يسمع دبيب النملة على الصخرة الصّماء في الليلة الظلماء، ويعلم السر وأخفى، وقد قال في كفار قريش: ﴿ذٰلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ وقال في اليهود: ﴿ذٰلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب﴾ وفي هذه الآية الكريمة وعدٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين بنصرهم وتأييدهم وتمكينهم في الأرض، ووعيدٌ لليهود والنصارى بإذلالهم وقهرهم، وقد فعل الله ذلك وأنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ولم يمض طويل زمن حتى صارت راية الإسلام خفّاقة في مشارق الأرض ومغاربها ودخل الناس في دين الله أفواجا وصارت ملوك الصين يرتجفون من مهابة الإسلام والمسلمين، وحتى صار هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور يجلس في مجلسه فتمرّ به السحابة فيقول: سيري أينما شئت، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك.

قال تعالى: ﴿صبغة الله ومن أحسنُ من الله صبغة ونحن له عابدون * قل أتحاجّونـنا فى الله وهو ربّنا وربّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحنُ له مخلصون﴾.

بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى أن دعوى اليهود والنصارى بأنهم على الهدى دعوى باطلة عاطلة وأمر عز وجل باتباع ملة إبراهيم إذ فيها هدى الله الحقّ، وشرعه القويم وطلب منهم أن يدخلوا في ملة إبراهيم التي جاء بها محمدٌ ﷺ وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من الأسباط، وأن لا يفرّقوا بين الأنبياء، وأن يصدّقوا بهم جميعا، وأن من التزم بملة إبراهيم والأنبياء هو المهتدي، وتوعّد من أعرض عن الحنيفية ملة إبراهيم وانغمس في الشقاق بدحره، ووعد من تمسك بملة إبراهيم بنصره وَصَفَ في هذا المقام الكريم ملة إبراهيم والأنبياء من بعده بأنها صبغة الله أي الملة التي أمر بها وفطرته التي فطر الناس عليها، وهي الدين القيم، الذي اختاره الله لخلقه، وارتضاه لعباده، والذي لا يقبل من أحد دينا سواه، ولن يستطيع البشر كلّهم لو اجتمعوا أن يضعوا نظاما يقوم مقامه أو يسدّ مسدّه، لأن الإنسان مهما أوتي من الثقافة والمعرفة خاضع لتحكّم بيئته ومعارفه وتربيته وسلوكه. ومن القواعد المقررة أن الإنسان مدنيّ بالطبع ومعنى ذلك أن الله تعالى خلقه على طبيعة تجعله لا يستغني عن غيره من الناس في طعامه ولباسه وحاجاته، إذ قد ركّبه الله تعالى على صورة لا بقاء لها على الأرض إلا بالغذاء، وقد هداه الله إلى ابتغائه بفطرته غير أنَّ قدرة الواحد من البشر قاصرةٌ عن إدراك أقلّ ما يمكن أن يعيش به الإنسان، فلا يحصل له ما يكفيه إلا بعمل يقوم به الكثير من الناس، فالرغيف الذي يأكله الإنسان لم يصل إليه إلا بعد عملٍ كثير من حراثة وزراعة وريّ وحصاد ودياس وطحن وعجن وطبخ، وكلّ واحد من

هذه الأعمال لا يتم إلا بآلات تحتاج إلى العـديد من الصناعات لا يستطيع أن يقـوم الإنسان بمفـرده بها، ولما كانت طبيعـة الناس متفـاوتةً في مقـاصدهـا متنازعة الرغبات والميول والشهوات، وقد يركب الإنسان الصعب والذلول في سبيل قضاء مـآربه، وتحقيق شهوته، ممـا قد يتعارض مع شهـوات الآخرين وحاجاتهم، وقد يؤدي طلب تحصيلهـا إلى سفك الدماء وانتهاك الحرمات إذ قد يأكل القـويّ الضعيف، ويفني الكثير القليل، فلابدّ إذن للإنسـانية من نظام، ولما كان عقل الإنسـان قاصرا عن وضع نظام شامـلٍ لصلاح المعاش والمعاد، إذ قد يرى الإنسان الخير شراً، والشّر خيرا على حدّ قول الشاعر:

يُقْضَى على المرء في أيام محنتــه حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

والإنسان قد يعجز في كثير من الأحيان عن معـرفة مصلحة نفسه، لذلك كان النـاس محتاجين بالضرورة إلى نظـام يحمي دماءهم وأعـراضهم وعقولهم وأمـوالهم ويـوضّـح لكل ذي حق حقّـه، مع إرشـادهـم إلى أعظم الحقـوق وأوجب الواجبات وهو إخلاص العبادة لله وحده، ومعرفة مراسيم العبادة، ولو فرضنـا أن جماعة من أهل الفكر أرادوا أن يضعوا مثل هـذا النظام لعجزوا لتفاوت الأفراد والجماعـات والأمم والشعوب والأعصار في تقـديرات الأشياء على طبيعتها الصحيحة لأن الإنسان مهما اتسعت مداركه، وعظمت ثقافته، فإنـه من حيث يـدري أو لا يدري خـاضعٌ لتحكّم بيئتـه ومعـارفـه وتربيتـه وسلـوكـه كما أسلفت ولهذا كانـت القوانين والأنظمـة التي يضعهـا البشر لا استقرار لها ولا ثبوت ولا دوام ولا شمول وكانت دائمةً محتاجةً إلى التعديل أو التبديل مع قصـورها عن تربيـة النفس الإنسانية على أحسن المنـاهج لذلك كان النـاس محتاجين إلى منهج يضعـه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وربّ العـالمين الذي لا تخفى عليـه خـافية في الأرض ولا في السماء، وقـد اقتضت حكمـة الله تبارك وتعـالى أن يبعث في كل أمـة نذيـرا، يصطفيه من خلقـه،

ويختاره لرسـالته ويصطنعه لنفسه، ويـربّيه على عينه، وينزل عليـه الكتاب والشريعة التي تـلائم قومـه ليرسم لهم الطريق إلى الله، وليـدلّهم على مراسيم سعادتهم الدنيوية والأخروية، ولئـلا يقول المنحرفون : ما جاءنا من بشير ولا نذيـر، كما ذكر عـز وجل حيث قال: ﴿رسـلا مبشرين ومنذرين لئـلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيرا مما كنتـم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يهدي بـه الله من اتّبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنـه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أهل الكتاب قد جـاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا مـا جاءنا من بشير ولا نذير فقد جـاءكم بشير ونذيرٌ، والله على كل شيء قدير﴾ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿صِبْغـةَ الله﴾ بنصب ﴿صبغة﴾ على أنها بدلٌ من ﴿ملـة إبراهيم﴾ وتفسيرٌ لها في قولـه تعالى: ﴿بل ملة إبـراهيم حنيفا ومـا كان من المشركين﴾، والصّبغـة تطلق على معـان، قال الفيروزآبـادي في القاموس المحيط: والصّبغة بالكسر الدين والملّة وصبغة الله فطرة الله أو التي أمر الله تعالى بها محمدا ﷺ وهي الختانة اهـ. وقوله عز وجل: ﴿ ومن أحسن من الله صبغـــة﴾ أي ولا صبغـــة أحسن من صبغـــة الله، التي يـــربّيهم بها فيطهّـرهم مـن أقـذار الشرك وأدنـاس الضـــلال ويجعلهم متخلقين بأحسن الأخـلاق، وأصفى ألـوان السّلـوك ويتصبّغـــون بـالصّبغـة التي تجمّلهم في معاشهم ومعـادهم، ولا شك أن الفطرة التي فطر الله النـاس عليها تنصقل بطاعة الله واتبـاع شريعته وتصديق رسله، ولكنهـا تختلّ موازينها بـانحرافها عن شرعة الله ومنهاجه وكلما ازداد العبد طاعةً لله استنارت بصيرته، وازدانت فطرته على حد قول شاعر يثني على أخلاق آخر:

طُبـعت عليها صـبغة ثم لم تزل ... على صالح الأخلاق والدين تُطْبَعُ

أي طبعك الله على الأخلاق الفاضلة والسجـايا الحميدة التي صبغك الله وفطرك عليهـا ثم لم تزل وأنت تتخلّق بصالح الأخـلاق والدين . ولا شك أن تعـاليم الشريعـة لا تـدانيها تعـاليم المنحـرفين عنهـا ، لأنها تشريع الله ومن أحسن من الله تشريعـا ، وحكم الله ومـن أحسن من الله حكما ، وصبغـة الله ومن أحسن من الله صبغـة ، وقوله تعـالى : ﴿ونحن له عـابدون﴾ أي ونحن نتبع ملة إبـراهيم التي هي صبغة الله التي يصبـغ بها عباده المؤمنين ونحن لا نعبد إلا الله ولا ننقاد لمنهج سوى منهجه ولا نـزدلف إليه إلا بمراسيم العبادة التي يبعث بها رسله وينزل بها كتبه . وقولـه عز وجل : ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربّنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكـم ونحن له مخلصون﴾ هذا أمر من الله عز وجل لرسوله وحبيبه وسيد خلقه محمد ﷺ بأن يوبّخ اليهود والنّصارى الذين يجادلون في الله ويـزعمون أنهم أبناؤه وأحباؤه وأنه لن يعـذبهم بالنار إلا أياما معدودات وأن الجنّة لهم وحدهم دون سائر الأمم مع أنهم مقرون بأن الله هـو ربّ الأمم وربّ اليهود والنصـارى وأنهم مقـرون بأن الله هو خـالق جميع الأمم وسيدهم ومـالكهم ومربّيهم بإحسانه وجوده ورازقهـم من فضله ، فلا وجه لهذه المجـادلة لأنها جدال بالبـاطل ولجاجةٌ في القول على الله بلا بـرهان حيث إنـه من المعلـوم أن ملة إبـراهيم قـررت أن الجنة للمحسنين وأن النـار للكافرين من أي لـون ومن أي جنس ، والهمزة في قوله تعـالى : ﴿أتحاجوننا﴾ للإنكار والتوبيخ لليهود والنصارى ، أي أتجادلوننا في الله فتدّعون أنكم أحق بـه منا لعـرقكم التلمـودي العنصري؟ . وقـوله : ﴿وهـو ربنـا وربكم﴾ أي والحال أنه ربّ جميع الخلق فلا فضل لأحد عنده إلا بـالتقوى ، وقوله : ﴿ولنا أعمالنـا ولكم أعمالكم﴾ أي ولنـا أعمالنـا الحسنـة الموافقـة لشرعـه الخالصـة لـوجهه ، ولكم أعمالكم السيئـة المناقضـة لشرعـه الصادّة عن دينـه المكذّبـة لرسلـه ، المنافية لملـة إبراهيم والأنبياء مـن بعده ولا يسأل أحد عن أحـد يوم

القيامة، فلا تزر وازرة وزر أخرى، كما في صحف إبراهيم الذي وفّى. وقوله تعالى: ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي ونحن نعبد الله عبادة خالصة من الشرك صافية من الرياء وأنتم قد أشركتم بالله ما لم ينزّل به سلطانا فاتخذتم أحباركم ورهبانكم أربابا من دون الله وعبد اليهود العزير وعبد النصارى المسيح ابن مريم وأنتم إنما أمرتم بعبادة إله واحد كما هو في نصوص الكتب التي بأيديكم. ففي إنجيل متى في الإصحاح الثاني والعشرين: أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح الثاني عشر في الفقرة السادسة والعشرين منه: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العلّيقة كيف كلّمه الله قائلا: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب. وفي هذا الإصحاح أيضا: إنّ أوّل كلّ الوصايا هي اسمع يا إسرائيل: الربّ إلهنا ربّ واحد وتحبّ الرّبّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى. اهـ فهذه نصوص كتبكم تقرر وتؤكد أن الله إله واحد لا شريك له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ومع ذلك تشركون بالله ما لم ينزّل به سلطانا وعبد اليهود عزيرا وقالوا هو ابن الله وعبد النصارى المسيح وقالوا هو ابن الله، فنحن المسلمين نخلص لله العبادة ولا نشرك بالله شيئا، وأنتم تشركون بالله، وتدّعون أنكم أهل الجنة وأبناء الله وأحباؤه، وقد ذكر الله عز وجل عن موسى عليه السلام لما قال له بعض آبائكم: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال لهم: إنكم قوم تجهلون. وقال: أغير الله أبغيكم إلها، كما ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾.

قال تعالى: ﴿أم تقولون إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى، قل أأنتم أعلم أم الله، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون * تلك أُمّة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾.

بعد أن بين الله عز وجل أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من الأسباط كانوا حنفاء مسلمين على فطرة الله عز وجل وصبغته التي لم تغيّرها الأهواء ولم يتسلط عليها الشيطان وأن اليهودية والنصرانية من الديانات المبتدعة، المخالفة للحنيفية السمحة دين إبراهيم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعد أن وبّخهم على دعواهم أنهم هم وحدهم أهل الجنة وأنهم هم المهتدون وأفحمهم بالحجة الدامغة أنهم خلق من خلق الله كسائر بني آدم لا مزية لهم عليهم فمن أطاع الله واتبع ملة إبراهيم وصدَّق المرسلين ولم يفرق بين الأنبياء فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ودخل في دين الإسلام فله الجنة ومن عصاه فله النار من أي لون ومن أي جنس، وعلّمهم أن ميزان الاستقامة في اتباع ملة إبراهيم فمن اتبعها نجا ومن انحرف عنها ضل وهلك، وأن محمدا رسول الله والذين اتبعوه هم الحنفاء المسلمون وأن أعمالهم الصالحة لن تضيع عند الله عز وجل وأن اليهود والنصارى ليسو حنفاء ولا مسلمين فهم أبعد الناس عن ملة إبراهيم والأنبياء من بعده وأن أعمالهم السيئة مكتوبةٌ عليهم وسينالون من عقاب الله ما يستحقون. انتقل هنا لتأكيد توبيخ اليهود والنصارى مشيرا إلى أنهم أهل بهتان وافتراء على إبراهيم والأنبياء من بعده فقال: ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى﴾ أي أتستمرّون على باطلكم بعد سماعكم هذه البراهين القاطعة والحجج الدامغة الساطعة وتقولون بألسنتكم

كذبا وزورا وبهتانا ومكابرة ولجاجة ووقاحة: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هـودا أو نصارى، أي يقول اليهود منكم: إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا يهودا، ويقول النصارى منكم: إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا نصارى؟ وقد أخبر الله عز وجل أن هؤلاء الأنبياء ما كـانوا يهودًا وما كانوا نصارى؛ لأن اليهوديـة لم تعرف إلا بعـد نزول التوراة على مـوسى عليه السـلام وبعد وفـاته بزمان طـويل وبعد التحريف والتبديل، وأن النصرانية لم تُعـرف إلا بعد نزول الإنجيل على عيسى عليـه السـلام، ونحـن وأنتم متفقـون على أن التـوراة والإنجيل لم تنزل إلا بعد إبراهيم خليل الرحمن بمئات متطاولة من السنين كما قـال عز وجل: ﴿يـا أهل الكتاب لم تُحَاجـون في إبراهيم ومـا أُنْزِلَتْ التـوراة والإنجيل إلا من بعـده أفلا تعقلـون * ها أنتم هـؤلاء حاججتم فيما لكم بـه علم فلم تحاجّـون فيما ليس لكم بـه علمٌ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون * مـا كـان إبـراهيم يهـوديا ولا نصـرانيا ولكـن كـان حنيـفا مسلـما ومـا كـان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه وهٰذا النبي والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين﴾ ولا شك أن هــذه شهــادة من الله تبـارك وتعــالى لإبــراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط بـأنهم على الملة الحنيفية وليسوا يهودا ولا نصـارى، وأنتم في قرارة قلـوبكم ونفـوسكم تعلمـون بشهادة الله تبـارك وتعـالى هذه لهؤلاء الحنفـاء، وهي في وصايـا أنبيـائكم لكم، فهل أنتم أعلم بأنبياء الله ورسله من الله الذي اصطفاهم وأرسلهم؟ فصرتم تسمّونهم بأسماء وتصفونهم بصفـات برأهم الله عز وجل منهـا ونزههم عنهـا، وفي ذلك يقول الله عز وجل هنا توبيخا لهم وتقريعا: ﴿قل أأنتم أعلم أم الله؟﴾ فالاستفهام هنا للتـوبيخ والتقريـع وأنهم قد انحطـوا إلى درجة من السلـوك سقطوا بها في الحضيض، ولو كـانت لهم قلوب تفقـه لذابوا خجـلا، لكن قلوبهم قـاسية كالحجارة أو أشد قسـوة كما نبّه إلى ذلك ربّ العزة تبارك وتعالى في قوله: ﴿ثم

قسـت قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ وقوله عز وجل :
﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنـده من الله﴾ أي لا أحد أشد ظـلـما وأجحد حقّـا من هؤلاء اليهـود والنصارى الـذين يكتمون مـا عندهم من شهـادة الله لإبـراهيم وأبنائه الأنبيـاء بالحنيفيـة ، كما يكتمون مـا عندهـم من شهـادة الله لمحمد ﷺ بالرسـالة حيث أخذ العهد بها على الأنبياء أن يوصـوا أممهم باتباع محمد ﷺ والاستجابة له ، كما قـال عز وجل : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتـاب وحكمـة ثم جـاءكم رسول مصـدّق لما معكم لتـؤمننّ بـه ولتنصرنّه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنـا معكم من الشـاهـدين﴾ وقـولـه تبـارك وتعـالى : ﴿ومـا الله بغـافل عما تعملون﴾ هو وعيد شديـد لليهود والنصارى المفترين على الله عز وجل وعلى أنبيـائه وإنـذارٌ لهم بأن أعمالهم السيئة مسجّلـة عليهم لا يغفل الله عنهـا ولا ينسى شيئا منها وسيجزيهم بها ويؤاخذهم عليها ، وتذييل هذه الآية الكريمة بهذا الوعيد للتنبيه على أن الكذب على الله تعالى وعلى الأنبياء ليس كالكذب على غيرهم ، وأن كتمان الشـهادة الكـائنة من الله ليس ككتمان شـهادة كـائنة من عند غير الله مع أن كتمان الشهادة الكائنة من عند غير الله فيها إثم عظيمٌ ولذلك حذّر الله تبارك من ذلك في غير موضع من القرآن الكريم حيث يقول عـز وجل : ﴿ولا تكتمـوا الشهـادة ، ومن يكتمهـا فإنـه آثم قلبـه ، والله بما تعملـون عليم﴾ ويقـول عـز وجل : ﴿يا أيها الـذي آمنـوا شهـادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الـوصية اثنان ذوا عـدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصـابتكم مصيبـة الموت ، تحبسـونهما من بعـد الصلاة فيقسمان بـالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كـان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنّا إذا لمن الآثمين﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الذين يكذبون على الله ينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق ويلعنون فقد روى البخاري

ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق صفوان بن محرز المازنيّ قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين». أما لفظ مسلم من طريق صفوان ابن محرزٍ قال: قال رجل لابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرفُ؟ فيقول: أي ربّ أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق: هؤلاء الذين كذبوا على الله». كما أخبر رسول الله ﷺ أنّ الكذب عليه ﷺ ليس كالكذب على غيره من الناس فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». ورواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ولذلك أخبر عليّ رضي الله عنه أن سقوط الإنسان من السماء إلى الأرض أهون من الكذب على رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من طريق سويد بن غَفَلة قال: قال علي رضي الله عنه: إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أكذب عليه. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿تلك أمةٌ قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ هو تأكيد لمعنى الآية الرابعة والثلاثين بعد المائة، المتضمنة أن

هؤلاء الأئمة العظام والأنبياء الكرام إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب وأهل التوحيد والإسلام من أبنائهم قد مضوا إلى الله عز وجل وحازوا الفضل العظيم والثناء الجميل وقد جعل الله لهم ثواب أعمالهم الصالحة التي اكتسبوها ، وأنتم يا معشر من يزعم أنهم ينتمون إليهم وقد ثبت أنكم لستم على ملتهم فليس لكم من أعمالهم الصالحة شيء فلكلّ نفس ما عملت من خير أو شر فلهم جزاء الخير الذي عملوه ولكم جزاء الشر الذي اقترفتموه. فإن الأبناء لا ينتفعون بأعمال الآباء الصالحين إلا إذا كانوا على ملتهم ولا شك أن كلّ آية تكرر لفظها في القرآن الكريم فإنّها تفيد مضمون الآية المكررة بتأكيده ولفت الانتباه إليه لشدة حاجة الناس إلى معرفته ومع ذلك فإنها تشتمل على زيادة معنى يناسب المقام الجديد لاشتماله على معنى جديد أيضا مثل هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، وقوله تعالى : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ حيث ترد الآية التي كررت بعد إبراز أدلة جديدة أو أعمال مضافةٍ إلى ما سيق الكلام قبل الآية السابقة من أجله ولذلك يذكر قوله عز وجل : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بعد نعمة عظيمة أو دفع بلوى فإنه تبارك وتعالى قد كرر هذه الآية في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة منها ثمانية ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم ثم ثمانية بعدد أبواب الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف مقام ربه وذكر بعض صفاتهما ثم ثمانية بعدد أبواب الجنتين اللتين من دونهما ، وقد فصل بهذه الآية بين كل نعمتين بما نبّههم عليه ليفهمهم هذه النعم ويقررهم بها ، فله الحمد وله الشكر على ما منح من النعماء وما دفع من البلاء .

قال تعالى : ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرقُ والمغربُ يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم* وكذلك جعلناكم أمةً وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليُضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم* قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحقُّ من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

كان رسول الله ﷺ بعد مقدمه المدينة يصلي إلى جهة بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان اليهود يُعْجبهم أن يتجه رسول الله ﷺ إلى جهة بيت المقدس وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة قبلة أبويه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وكان رسول الله ﷺ يقلِّب وجهه في السماء ضارعا إلى الله عز وجل أن يحول قبلته إلى المسجد الحرام فاستجاب الله دعاءه وأنزل عليه : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ الآية ، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق زهير عن أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده ، أو قال : أخواله من الأنصار ، وأنه صلى قِبَلَ بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان يُعجبه أن تكون قبلتُهُ قِبَلَ البيت ، وأنه صلى أوّل صلاةصلاها صلاة العصر وصلى معه قوم ، فخرج رجلٌ ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهَدُ بالله لقد صليتُ مع رسول الله ﷺ قِبَلَ مكة ، فدَارُوا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ

بيت المقدس، وأهل الكتـاب، فلما ولّى وجْههُ قبل البيت أنكـروا ذلك. قال زهير: حدثنا أبو إسحاق عن البراء في حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تُحوّل رجالٌ، وقُتِلُوا، فلم نذْر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله لِيضيع إيمانكم﴾ وفي لفظ للبخاري من طـريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عـازب رضي الله عنهما قـال: كـان رسـول الله ﷺ صلى نحـو بيت المقدس ستة عشر أو سبعـة عشر شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يـوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله عز وجل: ﴿قـد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ فتوجَّه نحو الكعبـة وقال السفهـاء من الناس وهم اليهود: ﴿مـا ولاَّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، قل لله المشرقُ والمغربُ يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فصلى مع النبي ﷺ رجل ثم خرج بعـدما صلى فمرّ على قـوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال: هـو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنّه توجّه نحـو الكعبة، فَتَحرّف القومُ حتى توجّهـوا نحو الكعبة. وقد روى مسلم في صحيحـه من طـريق أبي الأحـوص عن أبي إسحـاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: صليت مع النبـي ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهـرا حتى نزلـت الآية التي في البقـرة: ﴿وحيث مـا كنتم فـولّوا وجـوهكم شطره﴾ فنزلت بعـدما صلى النبي ﷺ فانطلق رجل من القـوم فمرّ بناسٍ من الأنصار وهـم يصـلون فحدّثهم فـوَلَّوْا وجـوههم قبل البيت. وقولـه في لفظ زهير عند البخاري: نـزل على أجداده أو قال: أخوالـه من الأنصار، الشك فيه من أبي إسحاق السَّبيعي شيخ زهير، وفي إطـلاق لفظ أجداده أو أخواله تجوُّزٌ لأن الأنصار أقاربه من جهة الأمومة لأن أم جده عبد المطلب بن هاشم منهم وهي سلمى بنت عمرو أحـد بني عدي بن النجـار وإنما نزل النبي ﷺ بالمدينة على إخوتهم بني مالك بن النجـار. وقوله: ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهـرا، روايـةُ مسلم من طـريق أبي إسحـاق: ستة عشر شهـرا، بـلا

شك، وقد روى البزار والطبراني من حديث عمرو بن عوف: سبعة عشر، قال الحافظ في الفتح: والجمع بين الروايتين سهل بأن يكون من جزم بستة عشر لفّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا وألغى الزائد ومن جزم بسبعة عشر عدَّهما معا ومن شك تردّد في ذلك، وذلك أن القدوم كان في شهر ربيع الأول بلا خلاف وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس اهـ، وقوله: وأهلُ الكتاب، هو عطف على اليهود من عطف العام على الخاص أو المراد النصارى لأن قبلة المسيح كانت إلى بيت المقدس ولم يصلوا إلى المشرق إلا في عهد قسطنطين أو كان إعجابهم بطريق التبعية لليهود صداً عن سبيل الله. وقوله: مات على القبلة قبل أن تُحَوَّل رجال وقتلوا. . قال الحافظ في الفتح: ذكر القتل لم أره إلا في رواية زهير وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط وكذلك روى أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم صحيحا عن ابن عباس، والذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس، فبمكة من قريش: عبد الله بن شهاب والمطلب ابن أزهر الزهريان، والسكران بن عمرو العامريُّ، وبأرض الحبشة منهم: حطّاب بالمهملة ابن الحارث الجمحي وعمرو بنُ أمية الأسدي وعبد الله بن الحارث السهمي، وعروة بن عبد العُزّى وعديّ بن نضلة العدويان، ومن الأنصار بالمدينة البراء بنُ معرور بمهملات وأسعد بن زرارة فهؤلاء العشرة متفق عليهم، ثم قال الحافظ: ولم أجد في شيء من الأخبار أن أحدا من المسلمين قتل قبل تحويل القبلة لكن لا يلزم من عدم الذكر عدمُ الوقوع فإن كانت هذه اللفظةُ محفوظةً فتحمل على أن بعض المسلمين ممن لم يشتهر قتل في تلك المدة في غير الجهاد، ولم يضْبط اسمُه لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك اهـ. هذا وقد وطّن الله تبارك وتعالى نفوس المؤمنين على ما سينالهم من

السفهاء اليهود والمشركين والمنافقين من لمز بسبب تحويل القبلة وأرشدهم للجواب المفحم لكل لامز من هؤلاء وأنه إنما فرض عليهم التوجه لبيت المقدس ثمّ حوّلهم إلى الكعبة لامتحان أهل الإيمان ممن ينقلب على عقبيه وأن المشرق والمغرب وسائر الجهات لله وحده فقال: ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما الناس في صلاة الصبح بقباء إذ جاءهم رجل فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنْزِلَ عليه الليلة قرآن وقدأُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقْبِلُوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفي روايةلمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي نحو بيت المقدس فنزلت: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فمرّ رجل من بني سلمة وهم ركوعٌ في صلاة الفجر وقد صَلّوا ركعة فنادى: ألا إن القبلة قد حُوّلت فمالوا كما هم نحو القبلة. وقد كان تحويل القبلة إلى الكعبة سببا في مطاوعة بعض مرضى القلوب لليهود في الإنكار على المسلمين وبدأت أعناق النفاق تشرئبّ. وقد طمأن الله المسلمين بأن اليهود يعتقدون في قرارة أنفسهم أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق وإن كان الحسد يحول بينهم وبين الإذعان له حيث يقول: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم

وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿سيقول السفهاء﴾ أي سيتحدث الجهلة الحمقى الحاقدون الحاسدون من اليهود والنصارى والذين أشركوا عندما يسمعون أن الله استجاب لدعاء رسوله ﷺ وجعل القبلة إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل، والسين فيه للاستقبال، والمراد بإعلام رسول الله ﷺ والمسلمين بذلك توطين نفوسهم وإعداد الجواب للرد على هؤلاء السفهاء، وقوله تعالى : ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي أيُّ شيء صرف المسلمين عن التوجه لبيت المقدس في صلاتهم إلى التوجه إلى الكعبة؟ وقوله تعالى : ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي أعلمهم يا محمد أن الأمر كلّه لله، وأن الحكم له وحده يتصرف في شئون خلقه كما يشاء لا معقب لحكمه فما على العبد إلا أن يمتثل أمر ربه فحيثما أمره بالتوجه فليتوجه، ولو أمره بالتوجه في اليوم الواحد مرات إلى جهات متعددة وجب على العبد المسارعة لامتثال أمر ربه لأن المشارق والمغارب وسائر الجهات لله وحده، والبرّ في طاعة الله لا في نفس الجهة؛ ولذلك قال عز وجل : ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولٰكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ الآية، وقوله تعالى : ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يسدد ويوفق من يحب من عباده إلى سلوك المنهج القويم الموصِل إلى جنات النعيم ومرضاة ربّ العالمين، وقوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ أي وكما هديناكم إلى قبلة أبيكم إبراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وخليل الرحمن جعلناكم خير الأمم وأعدلها لنقيم منكم شهداء على الأمم يوم القيامة ولنقيم الرسول محمدا ﷺ شاهدا عليكم، وهذه مرتبة عالية ومنزلة سامية، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يُدْعَى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك

وسعديك يا رب، فيقول: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكُم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ اهـ والوسط هو العدل ومنه قوله تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾ أي أعدلهم وخيرهم ومنه قول زهير بن أبي سلمى المزني:

هُمُو وَسَطٌ يَرْضَى الأنامُ بحكمهم   إذا نَزَلَتْ إحدى الليالي بمُعْظَم

وهذا من فضل الله على أمة محمد ﷺ أهل السنة والجماعة الذين حماهم الله من غلو النصارى في المسيح ورهبانهم، ومن تقصير اليهود في حق أنبيائهم، كما جعل أهل السنة والجماعة وسطا بين جميع الطوائف الغالين والمقصرين من أهل الزيغ والأهواء حيث يوالي أهل السنة جميع أصحاب محمد ﷺ ويترضّون عليهم جميعا، وقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ الآية، أي وما فرضنا عليكم التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلا لامتحان أهل الإيمان وفضح من ينقلب على عقبيه، وقد استحوذ عليه الشيطان فأرغى وأزبد بخلاف أهل الهدى فإنهم يحبون ما أحب الله وما أحبّ رسوله ﷺ، وقد حفظ الله للذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة صلاتهم وتقبلها منهم، إن الله بهم لرءوف رحيم. وقوله تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ الآية أي قد رأينا تصرف وجهك نحو السماء متضرعا إلى الله أن يحول القبلة إلى الكعبة، فلنحوّلنّك إلى القبلة التي تحبها فحوّل وجهك في صلاتك جهة المسجد الحرام وحيث ما كنتم أيها المسلمون فاستقبلوا الكعبة من جميع جهات الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وما بين هذه الجهات. وإن اليهود الذين حملوا لواء التشنيع عليكم بسبب تحويل القبلة إلى الكعبة ليعلمون في قرارة نفوسهم أنكم على الحق، ولكن حملهم الحسد على التشويش عليكم وسيجزيهم الله ويخزيهم بأعمالهم.

قال تعالى : ﴿ولئن أتيت الذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تَبعوا قِبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعضٍ، ولئن اتّبعت أهواءهم من بعدِ ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين* الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنّ فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون* الحقُّ من ربك فلا تكوننّ من الممتَرين* ولكلٍّ وجهةٌ هوَ مُولّيها فاستبقوا الخيراتِ، أين ما تكونوا يأْتِ بكم الله جميعا، إنّ الله على كلّ شيء قدير* ومن حيث خرجتَ فولِّ وجهك شطْر المسجد الحرام ، وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون* ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثُ ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجّة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ .

بعد أن وطّن الله تبارك وتعالى نفوس المؤمنين لما سيستقْبِلونه من سفاهة السفهاء من اليهود والنصارى والذين أشركوا عندما يأمر الله تبارك وتعالى باستقبال المسجد الحرام في الصلاة بدل الصلاة إلى بيت المقدس، وأن الله تبارك وتعالى استجاب لما يحبه رسوله وحبيبه محمد ﷺ فأمر نبيه والمؤمنين أن يستقبلوا الكعبة في صلاتهم وبعد أن طمأنهم بأن صلاتهم التي كانوا يتجهون فيها إلى بيت المقدس غير ضائعة عند الله عز وجل لأنها كانت على وفق المشروع آنذاك وأطلق على الصلاة اسم الإيمان تعظيما لشأنها، وأعلم رسوله والمؤمنين أن الذين أوتوا الكتاب يعلمون في قرارة نفوسهم أن تحويل القبلة حق من الله عز وجل، ذكر هنا أمورا ثلاثة يقرّر الأول منها قطع كل رجاء في انقياد هؤلاء اليهود ومن يدور في فلكهم إلى الحق واتباع القبلة التي جعلها الله للمسلمين وهي قبلة إبراهيم عليه السلام ويقرر الثاني منها قطع كل أمل

لليهود والنصارى في أن يتبع محمد رسول الله ﷺ قبلتهم، ويقرر الثالث العداوة المتأصلة بين اليهود والنصارى في الوقت الذي يتعاونان فيه ضد الإسلام والمسلمين، وأن اليهود لن يتبعوا أبدا قبلة النصارى وأن النصارى لن يتبعوا أبداً قبلة اليهود وأن الحامل لليهود والنصارى على عدم اتباع قبلتك هو المكابرة والعناد، لا أنهم شاكون في حقية ما أنت عليه، ولو أنك أقمت لهم كلّ دليل على صحة ما جئتهم به لما اتّبعوك ولما تركوا أهواءهم وفي ذلك كله يقول الله عز وجل هنا: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ أما قوله تعالى: ﴿ولئن اتّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين﴾ فهو نظير قوله تبارك وتعالى في الآية العشرين بعد المائة من هذه السورة المباركة: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير﴾. وكذلك قوله تبارك وتعالى في الآية السابعة والثلاثين من سورة الرعد حيث يقول عز وجل: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واقٍ﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية العشرين بعد المائة من هذه السورة: أي وتالله لئن وافقتهم على أقوالهم التي هي أهواءٌ باطلة، وشهواتٌ جامحة وأمنيات خادعةٌ كاذبة بعد أن منّ الله عليك بالدين الحق المعلوم صحته بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة فلن تجد وليا يقيم لك أمرك ولا ناصرا ينصرك ويدفع عنك. والمقصود من هذا الوعيد هو التهديد لمن أطاع اليهود أو النصارى في مذاهبهم الزائغة الباطلة، وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والزيغ الذي صانه الله من كل إثم، وعصمه من كل خطيئة، واصطنعه الله لنفسه ورباه على عينه، واصطفاه لرسالته وأمّنه على وحيه وفضّله على سائر خلقه إنما هو من باب قول القائل: إياك أعني واسمعي يا جاره، وقوله تعالى: ﴿الذين

آتيناهم الكتـاب يعرفونه كما يعـرفون أبناءهم و إن فريقـا منهم ليكتمون الحقّ وهم يعلمون﴾ أي إن علماء أهل الكتاب لا يشك أحد منهم في أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا كما لا يشك أحـد من الناس في معرفة ابنه إذا رآه، وذلك بسبب ما كانـوا يتدارسونه من صفاته ﷺ، ولـذلك قال سلمان رضي الله عنه في الحديث الصحيح عنـه في ذكر الصفات التـي كان قد عـرفها من أسقف عمـوريـة عن رسـول الله ﷺ: أنه يهاجـر إلى أرض بين حـرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهديـة ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة، فيذكـر سلمان رضي الله عنه أنه لما وصل إلى المدينة قال: فـوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتهـا بصفة صاحبي اهـ غير أن أهل الكتـاب هؤلاء يكتمون الناس مـا في كتبهم من صفة رسـول الله ﷺ صداً عن سبيـل الله وحسداً أن تكون النبـوة في غير بنى إسرائيل. وقوله تعالى: ﴿الحق من ربك فـلا تكوننّ من الممترين﴾ المقصـود منـه تربيـة المسلمين على أنهم على الهدى وأن الـذي يجيئهم من عند الله هـو الحق الثابت الـذي لامرية فيـه ولا شك، وهو نظير قولـه تعالى في سـورة آل عمران عن عيسـى عليه السلام وأن مثلـه كمثل آدم الذي خلقـه الله من تراب فقـال له: كن فيكـون، وأن عيسى ولد من مـريم العذراء من غير أب ثـم قال: ﴿الحق من ربك فلا تكن مـن الممترين﴾ وقد ذكرتُ فيما مضى أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه. وقوله عز وجل: ﴿ولكل وجهة هـو موليهـا فاستبقـوا الخيرات﴾ أي لكل إنسان من المكلفين قصده الذي هو قاصده من خير أو شر فهـو ساع إليه مجتهد في الوصول له، فسـارعوا أيها المؤمنـون ويامن يـريد فكـاك رقبته من النـار إلى عمل المَبَرّات، وتنافسوا في الخيرات، وسـارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنـة عرضها السماوات والأرض، قد أعـدها الله للمتقين، وقـوله عـز وجل: ﴿أين ما تكـونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قديـر﴾ أي مهما عمل قاصد الشرِّ من شر

ومهما عمل قاصد الخير من خير فلن يضيع عند الله عمله، فإن الله تبارك وتعالى جامع الناس يوم القيامة وسيجزي كلّ عامل بما عمل، على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحا فمُلاقِيه* فأما من أوتي كتابه بيمينه* فسوف يحاسب حسابا يسيرا* وينقلب إلى أهله مسرورا* وأما من أوتي كتابه وراء ظهره* فسوف يدعو ثبورا* ويصلى سعيرا* إنه كان في أهله مسرورا* إنه ظنّ أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا﴾ فلو كان عمل الإنسان مثقال ذرة فسيأتي به الله الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء لأنه قادر على كل شيء. فعلى العاقل الكيِّس أن يبادر إلى الخيرات وأن يحذر كل الحذر من اقتراف السيئات ليحشره الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقا، وقوله عز وجل: ﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحقّ من ربك، وما الله بغافل عما تعملون* ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ هو تأكيد لأمره عز وجل رسوله محمدا ﷺ والمؤمنين بالتوجه إلى الكعبة البيت الحرام في صلواتهم حيث كانوا في أي مكان من الأرض في سائر الجهات، وقد كرّر الله تبارك وتعالى الأمر بالتوجه إلى جهة البيت الحرام ثلاث مرات حيث قال عز وجل: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون﴾ ثم قال في المرة الثانية: ﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ ثم قال في المرة الثالثة: ﴿ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني

ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ وهذا لأن أعداء الإسلام ما جادلوا في شيء كجدالهم في تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت القبلة إلى بيت المقدس التي جعلها الله لابتلاء المطيعين والعاصين ولتأكيد وجوب استقبال القبلة في أي جهة كان المصلي، فلو صلى المسلمون في المسجد الحرام كانوا كالدائرة المحيطة بالكعبة، وإذا صلوا في غير المسجد الحرام وهم بمكة كان اتجاههم إلى الكعبة وإذا صلوا خارج مكة في أي مكان من الأرض وجب عليهم أن يتجهوا في صلاتهم إلى الكعبة، ولو صاروا في مكان أرفع أو أسفل وجب عليهم أن يتجهوا إلى الكعبة، وفي هذا إشارة لعموم الشريعة وشمولها، ومعجزة للنبي الأمي محمد ﷺ، فإن المسلم بعد اختراع «الطائرات والصواريخ» إذا وجبت عليه الصلاة وهو في هذه الطائرات أو الصواريخ الصاعدة في طبقات الجو العليا وجب عليه أن يتحرى الاتجاه إلى الكعبة البيت الحرام، كما أن فيه إشارة إلى أن الإسلام سينتشر ويعم آفاق المعمورة، وقوله عز وجل: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ أي كيلا يكون لأحد من الناس سواءٌ كانوا يهُوداً أو نصارى أو وثنيين أو غيرهم عليكم سبيل يحاجّونكم به لكن من عاند لمجرد العناد فلا ينفعه دليل ولا برهان كما أن الأعمى لا يستضيء بالنور مهما كان ساطعا، فلا تخافوا منهم ولا تأخذكم في الله لومة لائم، واحصروا خشيتكم فيمن يستحق أن يُخاف ويُخشَى وهو الحي القيوم، وقد أمرت بتحويل القبلة إلى الكعبة لأتمّ عليكم النعمة باتباع قبلة إبراهيم إمام الحنفاء عليه السلام ولتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها، ولتهتدوا إلى ما ضلت عنه الأمم، فتكونوا على الصراط المستقيم.

قال تعالى : ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلواْ عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب و الحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون* فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾

بعد أن ساق الله تبارك وتعالى الحديث عن إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء وعن ابنه إسماعيل عليه السلام وعن رفعهما القواعد من البيت ودعائهما بأن يبعث الله في ذريتهما ساكني البلد الحرام رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، وبعد أن بين أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على الحنيفية السمحة وأنهم لم يكونوا يهودا ولا نصارى وبعد أن تفضل على رسوله محمد ﷺ وعلى المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة قبلة إبراهيم وإسماعيل وأقام الحجة القاطعة على أن اليهود والنصارى موقنون بأن محمدا ﷺ على الحق في توجهه إلى الكعبة وأنه رسول الله ﷺ وساق الكثير من أقوال اليهود والنصارى وأحوالهم المنبئة عن سوء سلوكهم وكثرة تناقضاتهم، وذكر في ختام المسك من هذا المقام قوله تبارك وتعالى: ﴿ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ شرع يبين استجابته لدعوة إبراهيم عليه السلام ببعث محمد ﷺ رسولا منهم منبهاً إلى أن محمدا ﷺ هو النعمة الكبرى التي امتن الله بها على المؤمنين الذين سارعوا إلى الاستجابة لله ورسوله ﷺ وأن الذين لم يؤمنوا به قد بدّلوا نعمة الله هذه كفراً، ووصف وظيفة رسوله محمد ﷺ بنفس الصفات التي دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث الرسول بها وهو قوله تعالى هنا : ﴿يتلواْ عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ وكانت دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلواْ عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ وقد تفضل الله تبارك

وتعالى فزاد محمدا ﷺ صفة كريمة أخرى وهي أنه يُعلِّم أمته ما لم يكونوا يعلمون حيث يقول عز وجل في تمام الآية التي هنا: ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم﴾ هو مرتبط بقوله تبارك وتعالى في الآية التي قبلها: ﴿ولأتمّ نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ كأنه قيل: وأمرتكم بهذه الأوامر لإتمام النعمة عليكم ولإرادتي اهتداءكم إلى الصراط المستقيم وهذا كالنعمة التي تفضلت بها عليكم فاستجبت دعاء أبيكم إبراهيم فأرسلت فيكم رسولا منكم، وفي بيان أن إرسال محمد ﷺ نعمة عظمى على المؤمنين الذين استجابوا له فسعدوا به يقول عز وجل مشيرا إلى وظيفة هذا الرسول الكريم التي وردت في دعوة إبراهيم: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذْ بعَث فيهم رسولا من أنفسهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ وقد ندّد الله تبارك وتعالى بمن لم يستجب لرسوله محمد ﷺ بأنه بدّل نعمة الله كفراً وأحل قومه دار البوار، ولا سيما إذا كان مطاعا في قومه حيث يقول: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البوَارِ* جَهَنم يصلونها وبئس القرار﴾ وقوله عز وجل: ﴿يتلواْ عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ هذه هي وظائف رسول الله ﷺ التي وردت في دعوة إبراهيم عليه السلام وقد مرّ تفسيرها، وقد وردت هذه الصفات أيضا له ﷺ في الآية التي سقت آنفا في كون رسول الله ﷺ نعمةً من الله عظمى ومنّةً كبرى، وقد وردت هذه الصفات أيضا في سورة الجمعة حيث يقول عز وجل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين* وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم* ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله عز وجل: ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا

تعلمون﴾ هذه صفة زائدة على الصفات السابقة وفيها إشارة إلى معجزة كبرى من معجزات رسول الله ﷺ حيث عَلَّمَ أمته ﷺ أصدق أخبار الأمم الماضية وعرفهم ما كان من الحوادث السابقة وما يكون من الحوادث اللاحقة، ووضع لهم أحسن الأنظمة التي أرشده الله إليها، الصالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل، والتي لم تعرفها الإنسانية في تاريخها الطويل، مما يعترف بفضله الأصدقاء والأعداء حتى بدأت أوروبا في وقت نهضتها الحديثة تأخذ ببعض التعاليم الإسلامية التي ما كانت تعرفها وقد رأت أن شريعة الإسلام أوفى من سائر الأنظمة بها حتى شملت الشفعة وغيرها، ونحن نعلم علم اليقين أن رسول الله ﷺ علمنا كل شيء نحتاجه في معاشنا أو معادنا حيث علّمنا ﷺ ماذا نقول إذا استيقظنا من نومنا وماذا نقول عند منامنا، وماذا نفعل أو نقول عند دخول منازلنا أو تناول طعامنا أو شرابنا وسائر حاجاتنا، وماذا نقول عند ركوب مراكبنا أو في سفرنا أو حضرنا، حتى قال بعض المشركين لسلمان الفارسي رضي الله عنه: لقد علمكم نبيكم كل شيء، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة فقال: أجلْ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم. وفي لفظ لمسلم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال لنا المشركون: إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة فقال: أجل إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة، ونهى عن الرّوث والعظام وقال: «لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار» اهـ. وقد صار أصحاب رسول الله ﷺ أئمة الدنيا في العلم وورّثوا ذلك للدنيا حتى كان علماء أوروبا يفتخر أحدهم بالذهاب إلى الأندلس ليشهد بعض حلقات العلم على علمائها، وبعد أن كان العرب أشد الناس جهلا وأبعدهم

ضلالة صاروا أعمق الناس علما وأبَرَّهم قلوبا، وأقلّهم تكلّفا وأصدقهم لهجة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ هو لفت انتباه العباد إلى ذكر الله وشكره على نعمه التي لا تحصى وعلى الأخص شكره على نعمته العظمى بإرساله محمدا ﷺ بدين الإسلام فإن النعمة صيْد وشكرها قيد ولذلك قال عز وجل: ﴿وإذ تأذَّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ وشكر الله عز وجل على إرساله محمدا ﷺ يملأ قلب الشاكر نورا، ويزيده بصيرة بتعاليم الشريعة وفقه دين الإسلام، ولذلك ذكر الله تبارك وتعالى أن ذكره سبب فلاح العباد ونجاحهم وفوزهم ونصرهم، حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ وقد أفاد قوله عز وجل: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وجوب ذكر الله تعالى وشكره، والذكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح، فالذكر باللسان تحميده وتسبيحه وتمجيده وتقديسه وتلاوة كتابه، وذكره بالقلب التفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما لاستحضار عظمة الله في النفس لتشرق فيها أنوار السعادة وينحسر عنها سلطان الشيطان الذي يخنس إذا ذكر العبد ربه، ومن ذكره كذلك طلبُ العلم ومعرفة كيفية العبادات وأحكام الله وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، وأما ذكره عز وجل بالجوارح فهو أن تكون جوارح الإنسان مشتغلة بطاعة الله منتهيةً عن معاصيه وقّافةً عند حدوده، فلا يراه حيث نهاه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿أذكركم﴾ أي أكافئكم على ذكركم لي بذكري لكم بعفوي ونعمتي وجودي وإحساني ومغفرتي فمن ذكر الله تبارك وتعالى في الرخاء ذكره في الشدة ففرّج كربته وقضى حاجته ودفع الضُّرَّ عنه، وأثنى عليه في الملأ الأعلى، وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى فوائد ذكر الله تبارك وتعالى فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله

ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحيّ والميت». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له: جُمدان، فقال: «سيروا، هذا جمدان، سبق المفرّدون» قالوا: وما المفرّدون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجّدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا، قال: فيقول: فما يسألون؟ قالوا: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها، قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصاً وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة، قال: فممّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: فهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربّ ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً

وأشد لها مخافة ، قال : فيقول : فأشهِدكم أني قدغفرت لهم ، قال : يقول ملَكٌ من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساءُ لا يشقى جليسهم» .

قال تعـالى : ﴿يا أيها الـذين آمنوا استعينـوا بالصبر والصـلاة، إن الله مع الصـابـرين* ولا تقولـوا لمن يُقتل فى سبيل الله أمـواتٌ، بل أحيـاءٌ ولٰكن لا تشعـرون* ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوعِ ونَقْصٍ من الأمـوال والأنفسِ والثمرات، وبشّر الصابرين* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله و إنّا إليه راجعون* أولٰئك عليهم صلواتٌ من ربّهم ورحمةٌ وأولٰئك همُ المهتدون﴾ .

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين بذكره وشكره لما أسبغه عليهم من النعماء أمرهم هنا بالصبر على ما قد يصيبهم من البلاء والضراء، ليجمعوا بين منازل الشاكرين والصـابرين فيكونوا في أحسن درجات السلـوك الإنساني في الحياة الـدنيا مع مـا يُعـدّه الله عز وجل لهم من المنـازل العـالية في جنـات النعيم، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمن في خير دائما إن أصـابته سراء شكر و إن أصـابتـه ضراء صبر، فقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث صهيب بن سنان رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «عَجباً لأمر المؤمـن، إنّ أمره كلّهُ له خَيْر، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، و إن أصـابته ضرّاء صبرَ فكـان خيراً لـه» . وقـد مرّ في تفسير الآيـة الخامسـة والأربعين من هذه السورة الكريمة معنى قوله عز وجلّ: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وأشرت إلى أن الصبر والصـلاة من أعظم العون على القيـام بأوامر الله والاستراحة من عناء الحياة ومشقتها، وأنـه بالصبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين وأن الله أمـر رسوله وحبيبه محمـدا ﷺ بالصبر والصلاة لـلاستراحة من أذى المشركين حيث يقول: ﴿فـاصبر على ما يقولـون وسبح بحمد ربك قبل طلـوع الشمس وقبل غـروبها ومن آنـاء الليل فسبّح وأطـراف النهـار لعلك تـرضى﴾ وفي قولـه عز وجل: ﴿إن الله مـع الصابـرين﴾ بشارة عظيمـة بأن الصـابرين يمنحهم الله مَعِيّتَـه الخاصّة التـي معناهـا النصر والعون والتأييـد

والتسديد والهداية والتوفيق، وذلك لأن مَعِيَّةَ الله لخلقه تنقسم إلى قسمين: معية خاصة بالمعنى الذي وصفت، ومعية عامة ومعناها العلم، فهو تبارك وتعالى مع جميع خلقه بعلمه لا تخفى عليه خافية مهما كانت من شئونهم وأحوالهم، والله تبارك وتعالى فوق عرشه العظيم بذاته، مباينٌ لجميع خلقه، ولا شك أن بشارة الله لعبده الصالح بأنه معه هي أعظم البشائر وأوثق أسباب النصر، ولذلك لما أمر الله عز وجل موسى وهارون بدعوة فرعون إلى الله عز وجل ذكرا أنهما يخافان أن يسبق فرعون إلى عقوبتهما بالسجن أو غيره أو أن يطغى فيقتلهما قبل سماع دعوتهما فطمأنهما الله عز وجلّ بأنه معهما وفي ذلك يقول عز وجلّ: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى* فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى* قالا ربّنا إننا نخاف أن يفرُط علينا أو أن يطغى* قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ وقد ذكر الله عز وجل أن فرعون وجنوده لما صمّموا على القضاء على موسى عليه السلام وقومه أوحى الله إليه بالخروج بقومه ليلا، وأشار عليه بسرعة السير فلما خرج موسى وقومه سارع فرعون وجنوده ليدركوهم ويستأصلوهم، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى لموسى عليه السلام: دنا وقت قضائهم علينا ولا مفر لنا؛ لأن البحر كان أمامهم والعدو وراءهم والجبال عن يمينهم وشمالهم فلا مفر لهم، فطمأنهم موسى عليه السلام بأنه لا خوف عليهم مبينا لهم أن الله عز وجل وعده أن يكون معنا وما دام الله معنا فلن ينتصر علينا فرعونُ ولن يتمكن من القضاء علينا، فأمره الله عز وجل أن يضرب البحر بعصاه فضرب لهم طريقا في البحر يَبَسًا، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وأوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي إنكم مُتَّبَعُون * فأرسل فرعون في المدائن حاشرين * إن هٰؤلاء لشرذمة قليلون* وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميعٌ حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل *

فأتبعوهم مُشْرِقِين * فلما تـراءى الجمعان قال أصحاب موسـى إنا لَـمُدْرَكُون * قـال كلا إنّ معي ربي سيهـدين * فأوحينـا إلى موسى أن اضرب بعصـاك البحر فانفلق فكان كلّ فِرْق كـالطَّوْدِ العظيم* وأزلفنا ثَمّ الآخرين* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذه المعية الخاصـة التي يؤيد بها عباده المؤمنين في مواضع من كتـابه الكريم لتكون نبراسا يهتدي بها المؤمنون ويسعى لطلبها الصالحون حيث يقول: ﴿إن الله مع الـذين اتقَوْا والـذين هم محسنون﴾ ويقـول عز وجل في قصـة اختفاء رسول الله ﷺ في غـار ثور من قـريش مع صاحبـه وحبيبه أبي بكـر الصديق رضي الله عنه وهما في طريق الهجرة إلى المدينة وقد بحثت قريش عنهما وتتبّعت آثارهما حتى وقفت على رأس الغـار فخاف أبو بكـر رضي الله عنه أن يصيب رسولَ الله ﷺ سوءٌ من قـريش وحَزِن لذلك فطمأنـه رسول الله ﷺ بنفس ما طمأن به مـوسى قومه الخائفين من فـرعون وجنوده حيث قـال رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: «لا تحزن إن الله معنا» وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الـذين كفروا ثانِيَ اثنين إذْ هما في الغـار إذ يقول لصـاحبـه لا تحزن إن الله معنا فأنـزل الله سكينتـه عليه وأيّـده بجنود لم تَرَوْها وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم﴾ وقـوله عز وجل: ﴿ولا تقولـوا لمن يُقْتَل في سبيل الله أمواتٌ، بل أحياءٌ ولَكن لا تشعـرون﴾ ينبه الله تبارك وتعالى المسلمين إلى عـدم إطلاق لفظ الموتى على الشهـداء الذين يُقتَلـون في سبيل الله سواءٌ كـانوا قـد قُتِلوا في معركـة مع الكافرين كشهـداء بدر وغيرهم أم قُتِلوا في غير المعركـة كسُمَيّة أمّ عمار بن ياسر رضي الله عنها التي كان عدُوّ الله أبو جهل يعذبها بالنار ويقول لها: اذكري آلهتنا بخير واذكري محمدا بسوءٍ، فتشهد أن محمدا رسول الله ﷺ فضربها بحربته فقتلها فكانت أول شهيد في الإسلام، وقد أخبر الله عز وجل

أن الشهداء أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقـون، وليس المقصود من هذه الحياة أنها حياةٌ دنيويـة بل هي حياةٌ برزخيّـة خاصةٌ منحهـا الله تبارك وتعالى للشهـداء، وقد فسرهـا رسول الله ﷺفقـد روى مسلم في صحيحـه من طريق مسروق قـال: سألنا عبـد الله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبنّ الـذين قُتِلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ الآية، قال: إنا قد سألنا عن ذلك. فقال: «أرواحُهم في أجـواف طير خضرٍ، لها قناديل معلقة بـالعرش، تسرح من الجنـة حيث شـاءت، ثم تأوي إلى تلك القنـاديل، فـاطّلع عليهم ربّهم اطّلاعـةً فقال: هل تشتهون شيئا؟ قـالوا: أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنـا، ففعل ذلك بهم ثلاث مـرات، فلما رأَوْا أنهم لن يتركوا من أن يسألـوا، قالـوا: يا رب نـريـد أن تردّ أرواحنـا في أجسادنـا حتى نُقْتل في سبيلك مرّة أخـرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُـركوا». وقولـه عز وجل: ﴿ولَكن لا تشعرون﴾ يـوحي بأن حياة الشهداء لا يعلمهـا إلا الله عز وجل، ومـا دام قد أخبر ربُّ العـزة جل وعلا أن الشهـداء أحياء عنـد ربهم يرزقـون وعلّمنا رسول الله ﷺ بعض صور من حياتهم التي أعلمه الله عز وجل بها فما علينا إلا التسليم، مع يقيننا أنهم فارقوا الحيـاة الدنيا، وأن أرواحهم خرجت من أجسادهم كما يدل عليه الحديث الصحيح المتقـدم حيث قالوا: نريد أن تردّ أرواحنـا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخـرى. لكننا لا نسميهم أمواتا وإنما نسميهم شهداء، وقوله عز وجل: ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصـابرين * الذين إذا أصابتهـم مصيبة قالـوا إنّا لله وإنّـا إليه راجعـون﴾ أي ولنختبرنكم بقليل من الخوف الـذي يحصل لكم من إرجاف عـدوكم بكم وبقليل من الجوع بسبب قحطٍ يصيبكم أو حصارٍ من عـدوكم وذهاب بعض أمـوالكم وموت بعض أحبابكم، وعـدم تمام ثمرة مزارعكم إمـا لجائحة أو غيرها، فـاصبروا على ما

يصيبكم وبشّر يا من تتأتى منه البشارة هؤلاء الصابرين الذين إذا نزل بهم بلاء من خوف أو جوع أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات واحتسبوا ما يصيبهم عند الله عز وجل واسترجعوا وحبسوا أنفسهم عن الجزع وأيقنوا أن الذي عند الله خير لهم وأن لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بمقدار، وقالوا: إنا لله مُلكا ومِلكا يتصرف فينا كيف يشاء ونحن راضون بقضائه حامدون له في السراء والضراء، وأن مرجعنا إليه. وقوله عز وجل: ﴿أولٓئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة وأولٓئك هم المهتدون﴾ أي هؤلاء الأماجد الكرام الصابرون المحتسبون لهم من الله عز وجل ثناء حسنٌ وعفوٌ عنهم ومغفرة لذنوبهم ورحمة وإحسان وجود من الله عليهم وأولٓئك هم أهلُ الاهتداء السالكون سبيل الرشاد، الموفقون لما يرضي ربّ العالمين. وقد بشّر رسول الله ﷺ المسلم بأن أيّ أذى يصيبه يكفّر الله به من خطاياه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمّ ولا حَزَنٍ ولا أذًى ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشَاكُها إلا كفر الله بها من خطاياه». وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنّا لله و إنا إليه راجعون اللهم أْجُرني في مصيبتي وأخلِف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيرا منها» قالت: فلما مات أبو سلمة قلتُ: أيّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة، أوّل بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلَفَ الله لي رسول الله ﷺ. الحديث. وفي لفظ لمسلم عنها رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله و إنا إليه راجعون، اللهمَّ أْجُرني في مصيبتي وأخلِف لي خيرا منها، إلا أَجَره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها» قالت: فلما توفي أبوسلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيرا منه رسولَ الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿ إنّ الصّفا والمروةَ من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطّوف بهما، ومن تطوّع خيرا فإنّ الله شاكر عليم﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ودعوتهما بأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فيهم رسولا منهم، وقرر أنّ الحق والهدى في ملة إبراهيم وليس في اليهودية ولا النصرانية، وبعد أن أمر رسوله محمدا ﷺ والمسلمين باستقبال البيت الحرام الذي هو قبلةُ إبراهيم وإسماعيل، وذكر أنه أتم النعمة على المسلمين ببعثة رسول الله ﷺ المتّبع لملة إبراهيم عليه السلام والداعي لإحياء الحنيفية السمحة عملاً بقوله عز وجلّ: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ وكان السعي بين الصفا والمروة من الشعائر الثابتة من عهد إبراهيم عليه السلام كما ذُكِرَ في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة سعي هاجر بينهما للبحث عن الماء لها ولولدها إسماعيل عليه السلام سبع مرات الذي رواه البخاري والذي سقت نصّه في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ حيث قال رسول الله ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» ذكر هنا أن الصفا والمروة من شعائر الله ومعالم دينه في شريعة الإسلام الذي بعث بها خاتم رسله وسيد أنبيائه محمداً ﷺ، ولزيادة تقرير وتأكيد أن الذي يزعم أنه يحبّ إبراهيم عليه السلام يجب عليه أن يسارع إلى الاستجابة لمحمد ﷺ المبعوث بملة إبراهيم عليه السلام، وسبب نزول قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية هو ما رواه البخاري في صحيحه من طريق الزهري قال عروة: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أرأيتِ قول الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما﴾ فوالله ما على أحدٍ جُناح

أن لا يطـوف بالصّفـا والمروة، قالت: بئسما قلت يـا ابن أختي، إن هذه لـو كانت كما أوّلْتَها عليه كانت لا جُنـاح عليه أن لا يتطوّف بهما، ولكنها أُنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يُهلّون لمناة الطـاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، فكان من أهلّ يتحـرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلمـوا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلـك، قالوا: يـا رسول الله إنّـا كنّا نتحـرّج أن نطوف بين الصّفـا والمروة فأنـزل الله تعالى: ﴿إنّ الصفـا والمروة من شعـائر الله﴾ الآيـة. قالت عـائشة رضي الله عنهـا: وقد سنّ رسـول الله ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطـواف بينهما، ثم أخبرتُ أبا بكـر بن عبد الـرحمن فقال: إنّ هذا لَعِلمٌ مـا كنتُ سمعتهُ، ولقـد سمعْتُ رجالا من أهل العلم يـذكرون أن الناس إلا من ذكـرت عائشة ممن كان يهلّ بمنـاة كانوا يطوفون كلّهـم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعـالى الطواف بالبيـت ولم يذكر الصفـا والمروة في القرآن قالوا: يا رسول الله كنا نطوف بالصفا والمروة و إن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطّوَّف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة مـن شعائر الله﴾ الآية، قـال أبو بكـر: فأسمعُ هـذه الآية نـزلت في الفريقين كليهما: في الـذين كانـوا يتحرجـون أن يطوفـوا بالجاهليـة بالصفا والمروة والذي يطوفون ثم تحرّجوا أن يطوفوا في الإسلام من أجل أن الله تعـالى أمر بـالطـواف بالبيت ولم يـذكـر الصفا حتى ذكـر ذلك بعـد ما ذكـر الطواف بالبيت. وقـد روى مسلم هذا الحديث من طريق الـزهري أيضا عن عروة بن الزبير قال: قلت لعـائشة زوج النبيّ ﷺ: ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا، وما أبالي أن لا أطوف بينهما، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، طاف رسول الله ﷺ وطاف المسلمون فكانت سنّة، وإنما كان من أهَلّ لمنـاةَ الطـاغيـةِ التي بـالمشلّل لا يطوفـون بين الصفـا والمروة، فلما كـان الإسلام سألنا النبي ﷺ عن ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿ إنّ الصفا والمروة من

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ ولو كانت كما تقول لكانت: فلا جناح عليه أن لا يطّوّف بهما، قال الزهري: فذكرت ذلك لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأعجبه ذلك وقال: إنّ هذا العلم، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون: إنما كان من لا يطوف بين الصفا والمروة من العرب يقولون: إنّ طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية، وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة، فأنزل الله عز وجل ﴿إنّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن فأُراها قد نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عاصم قال: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية حتى أنزل الله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ وقول عائشة رضي الله عنها في حديثها: وقد سنّ رسول الله ﷺ الطّواف بينهما. لا تريد رضي الله عنها بقولها: (سنّ) معنى السنّة المقابلة للفريضة بل مرادها شرعية الطواف بين الصفا والمروة بل أشارت رضي الله عنها إلى وجوبه بدليل قولها بعد ذلك مباشرة: فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

ومما يؤكد ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من طريق عمرو بن دينار قال: سألنا ابن عمر رضي الله عنه عن رجل طاف بالبيت في عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته؟ فقال: قدم النبيّ ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين فطاف بين الصفا والمروة سبعاً، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، وسألنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقال: لا يقربنّها حتى يطوف بين الصفا والمروة. اهـ والصفا والمروة جبلان معروفان بمكة هما أقرب الجبال لبيت الله الحرام كان يفصل بينهما الوادي، و(ال) فيهما

للتعريف بأن المراد الطواف بين هذين الجبلين المعروفين المعهودين، إذ الصفا في الأصل جمع صفاة وهي الصخرة الصماء الملساء الصلدة التي لا تنبت الخالية من الطين والتراب، والمروة قال الخليل: هي من الحجارة ما كان أبيض أملسَ صلباً شديد الصّلابة، وأشار بعضهم إلى أنه ما كان من هذه الحجارة حالة كونه صغيرا، وليس كلّ صفا أو مروة يطوّف بينهما فلذلك وصفت اللام في قوله تعالى: ﴿إن الصفا والمروة﴾ بأنها للعهد، وقوله عز وجل: ﴿من شعائر الله﴾ أي من معالم الدين التي جعلها الله تبارك وتعالى معلماً ومشعراً لعبادته عز وجل عندها بما يرسمه لهم من الطواف عندها فكأنه قيل: إن السعي بين هذين الجبلين من شعائر الله ومن أعلام دينه، وقد شرعه الله تبارك وتعالى لأمة محمد ﷺ كما شرعه لخليله إبراهيم عليه السلام من قبل فهو من المناسك التي أراها الله تبارك وتعالى لإبراهيم إذ دعاه بقوله: ﴿وأرنا مناسكنا﴾ ولما كان السعي بين الصفا والمروة لا يعتبر من شعائر الله إلا في حج أو عمرة فلذلك أوضح الله تبارك وتعالى ذلك حيث قال: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ والحج في اللغة هو القصد إلى شيء معظّم وفي الاصطلاح الشرعي هو أفعال وأقوال مخصوصة تؤدى في زمان مخصوص، والحج هو أحد أركان الإسلام، وأما العمرة فهي في اللغة الزيارة، وفي الإصطلاح زيارة البيت الحرام على صفة مخصوصة، ومعنى: ﴿فمن حج البيت﴾ أي قصد البيت الحرام للحج، وقوله: ﴿أو اعتمر﴾ أي أو زار البيت الحرام لأداء العمرة، وقوله عز وجل: ﴿فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ أي فلا تتحرّجوا يا من كنتم تتحرّجون في السعي بين الصفا والمروة، فإن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله التي شرعها لعباده ليزدلفوا بها إليه جلّ وعلاَ. وقد أعلن رسول الله ﷺ أن السعي بين الصفا والمروة من مناسك الحج وبيّن ذلك بفعله وقوله ﷺ، فقد روى مسلم

في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صفة حجة رسول الله ﷺ قال: حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرَمَل ثلاثا ومشى أربعا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ ﴿واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ فصلى ركعتين فجعل المقام بينه وبين البيت، ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقي علُيه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحّد الله وكبّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لاإله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبّت قدماهُ في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: إن معنى ذلك: ومن تطوع بالحج والعمرة بعد قضاء حجته الواجبة عليه فإن الله شاكر له على تطوعه له بما تطوّع به من ذلك ابتغاء وجهه فمجازيه به، عليم بما قصد وأراد بتطوّعه بما تطوّع به، وإنما قلنا: إن الصواب في معنى قوله: ﴿فمن تطوع خيرا﴾ هو ما وصفنا دون قول من زعم أنه معنيّ به: فمن تطوع بالسعي والطواف بين الصفا والمروة، لأن الساعي بينهما لا يكون متطوعا بالسعي بينهما إلا في حج تطوّع أو عمرة تطوّع اهـ.

قال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّنّاه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم، وأنا التواب الرحيم* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾.

بعد أن بين الله تبارك وتعالى في مقامات سابقة من هذه السورة المباركة أن أهل الكتاب يكتمون الحق وهم يعرفونه محذرا من سلوك طريقهم في هذا السبيل حيث قال في الآية الثانية والأربعين من سورة البقرة: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون﴾ ويقول في الآية السادسة والسبعين من هذه السورة: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم، أفلا تعقلون﴾ ويقول في الآية الأربعين بعد المائة من نفس السورة: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾ويقول في الآية السادسة والأربعين بعد المائة منها: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ وبعد أن عرّف الله تبارك وتعالى المسلمين بنعمة الله تعالى عليهم إذ أرسل لهم أفضل رسله، وخاتم أنبيائه محمدا ﷺ، وأمرهم بالصبر على ما يصيبهم، وبيّن لهم فضل الصابرين، وربط بين شريعة محمد ﷺ وملة إبراهيم بتعريفهم أن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله في الحج أو العمرة، وهما من المناسك التي أراها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ولمحمد ﷺ دعوة إبراهيم عليه السلام القائل: ﴿وأرنا مناسكنا﴾ حذّر المسلمين أشد التحذير من أن يسلكوا مسلك أهل الكتاب في كتمان شيء من العلم، وأنّ من يكتم شيئا من العلم والبينات والهدى التي بيّنها الله تعالى في الكتاب

يستحق لعنة الله من أي لون كان أو من أي جنس، حتى ولو كان منتميا للإسلام لأن المفروض على المسلمين أن يحذروا أشدّ الحذر مما وقع فيه اليهود والنصارى من كتمان الحق بعد أن علموا أنّ الله لعنهم على كتمانهم الحقّ، ولذلك قال هنا: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولَئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ أي إن كلّ من كتم الحق من دين الله الذي يجب بثه ونشره لمسيس الحاجة إليه وقد بيّنه الله في كتابه أو بيّنه رسول الله ﷺ مما لا غنى للمسلمين عن معرفته ليسلكوا به صراط الله المستقيم، ولا ينحرفوا عن المنهج القويم فإن الله تبارك وتعالى ينزل لعنته على هؤلاء الكاتمين للحق بعدما عرفوه ويطردهم من رحمته، ويحلّ بهم سخطه، كما أن الله تبارك وتعالى يجعل لعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين على هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب. ولذلك أكّد الله تبارك وتعالى هذا التحذير من كتمان العلم في الآية الرابعة والسبعين بعد المائة وفي الآية الخامسة والسبعين بعد المائة من هذه السورة المباركة حيث قال: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلاً أولَئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم* أولَئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدّثت حديثا ثم يتلو: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ إلى قوله: ﴿الرحيم﴾، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصّفْقُ بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العملُ في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبعِ بطنه، ويحضر مالا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون. وقد روى

أبوداود والترمذي وحسّنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة». ولا شك أن هذا الوعيد لا يشمل من علم من حال سائله أنه غير مدرك لما يسمع من العلم، وأنه ربما يحمل الكلام على غير محمله، ويذهب به في غير مذهبه، فلم يحدثه خوف أن يكون حديثه له فتنة، قال البخاري في صحيحه: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشدّ منه، حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود قال: قال لي ابن الزّبير كانت عائشة تسرّ إليك كثيرا، فما حدّثتك في الكعبة؟ قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ: «يا عائشة لولا قومك حديثٌ عهدهم» قال ابن الزبير: بكفر، «لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين، باب يدخل الناس، وباب يخرجون» ففعله ابن الزبير. ثم قال البخاري: باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا وقال عليّ: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذّب الله ورسوله. وقد ثبت أن عمر رضي الله عنه أراد أن يخطب بمنى خطبة للتحذير من بعض الأمور الخطيرة فأشار عليه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بتأجيل إلقائها حتى يصل إلى المدينة النبوية وذكر عبد الرحمن رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه أن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وأنهم ربما لا يفهمون ما يقول عمر رضي الله عنه فيحملون كلامه على غير محمله، ولكن المدينة إنما يكون حوله الفقهاء وأشراف الناس فيعي أهل العلم مقالته، فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت أقرئُ رجالا من المهاجرين، منهم عبد الرحمن بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجّة حجّها، إذ رجع إليّ عبد الرحمن، فقال: لو رأيت رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير

المؤمنين هل لك في فلان يقول لـو قد مات عمر لقد بايعتُ فـلانا ، فوالله ما كانت بيعـة أبي بكر إلا فلتـة فتمّت ، فغضب عمر ثم قـال : إني إن شاء الله لقـائم العشيـة في النـاس فمحذرهـم هؤلاء الـذين يـريـدون أن يغصبـوهم أمـورهم ، قـال عبد الـرحمن : فقلت : يـا أمير المؤمنين لا تفعل ، فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءَهم ، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس ، وأنـا أخشى أن تقوم فتقول مقالـة يطيّرها عنك كل مطيّر، وأن لا يعوها ، وأن لا يضعوها على مـواضعها ، فأمهل حتى تقدم المدينة ، فإنها دار الهجرة والسّنة ، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس فتقول ما قلت متمكنا ، فيعي أهل العلم مقالتك ، ويضعونها على مواضعها ، فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أوّل مقام أقومـه بالمدينة . الحديث . وقوله عز وجل : ﴿إلا الذين تابـوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنـا التواب الرحيم﴾ أي إلا الـذين رجعوا إلى الله ونـدموا على كتمان العلـم وأصلحوا الـذي كانـوا أفسدوه كما أصلحوا سرائرهم ونيّاتهم ، وبيّنوا للناس ما كانوا يكتمونه فإن الله تبارك وتعالى يتوب عليهم ويغفر لهم خطـاياهم ، ويبدّل سيئاتهم حسنات ، لأن الله هـو التوّاب الـرحيم ، فإن الله تبـارك وتعـالى يقبل التوبـة عن عبـاده ويعفو عن السيئات وهو أرحم الراحمين ، فمن تاب تاب الله عليه ، على حد قوله عز وجلّ : ﴿قل يا عبـادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هـو الغفور الرحيم﴾ فمهما كانت معاصي الإنسان وسيئـاته فإن عفو الله أكبر منهـا ، ولذلك لما قـال رجل في رجل كان كثير المعاصي : والله لا يغفـر الله لفلان ، فأحبط الله عمل المتألي عليـه وغفر ذنوب العـاصي ، فقد روى مسلم في صحيحـه عن جنـدبٍ رضي الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حـدّث «أن رجـلا قـال : والله لا يغفـر الله لفلان ، و إن الله تعالى قال : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان ، فإني قد

غفرت لفلان وأحبطت عملك» أو كما قال. وقوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ أولَئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ هذا بيان للتنبيه على أن من كفر بالله ولم يتب إلى الله عز وجل من كفره، واستمر على كفره بالله ورسله إلى أن مات على ذلك فإنه مستحق للعنة الله ومستحق لأن تلعنه الملائكة، ويلعنه الناس كلّهم، وقوله عز وجل: ﴿خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أي مستقرين في لعنة الله حتى يدخلوا نار جهنم، ومهما صرخوا في النار واستغاثوا فلن يخفّف عنهم من عذابها، وتأتيهم لعنة الله ولعنة ملائكته ولعنة المؤمنين والكافرين كما قال عز وجل: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولَئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هٰؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ وهذا دليل من الأدلة الكثيرة القاطعة بأن من مات على الكفر فهو من أهل النار المخلّدين فيها المستحقين للعنة الله الدائمة الأبدية وأنهم لا توبة لهم بحال كما قال عز وجل: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولَئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفّار أولَئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾، هذا وقد نقل غير واحد من أهل العلم أنه لا خلاف بين علماء الإسلام في جواز لعن الكفار غير المعَيَّنين، وقال ابن العربي رحمه الله: إن لعن العاصي المعَيَّن لا يجوز اتفاقا اهـ. أما لعن الكفار المعينين في الدنيا وكذلك العصاة من غير الكفار فإنه لا ينبغي لعنهم لجواز أن يختم الله لهم بخير، وأما العصاة غير المعينين ممن يرتكب جرائم معينة فإنه يجوز لعنه لقول رسول الله ﷺ: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده». على أنه ينبغي للمسلم أن لا يكون

لعّانـا، فقد روى مسلم في صحيحه مـن حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «لا ينبغي لصِدّيق أن يكون لعّـانا»، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الـدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعّانين لا يكـونون شهداء ولا شفعاء يوم القيـامة». فلا ينبغي لمسلم أن يلعن إلا من لعنـه الله عـز وجل وقـد حـذّر رسـول الله ﷺ أشـد التحذير من لعن المؤمن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد ثابت ابن الضحاك الأنصـاري وهو من أهل بيعة الرضـوان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين بملـة غير الإسلام كاذبا متعمـدا فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عُذِّب به يوم القيامة، وليس على رجل نذرٌ فيما لا يملكه، ولعنُ المؤمن كقتله».

قال تعالى : ﴿وإلهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهـار والفلك التى تجري في البحـر بما ينفع الناس وما أنـزل الله من السماء من ماء فأحيا بـه الأرض بعد موتها وبثّ فيهـا من كل دابّة وتصريف الـريـاح والسحاب المسخّـر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ .

هذه هي الدعـوى الكبرى وبرهانها الكبير، وقد كـان الكلام من أول هذه السورة المباركة عن أقسام المكلفين مـن عباد الله حيث بين أنهم ثلاثة أقسام : مؤمنون وكافـرون صرحاء بالكفر، ومنافقون . ثم دعـا الناس جميعا إلى عبادة الله وحده لاشريك لـه وأقام الـدليل على وجوب عبـادته وحده بـأنه خلقهم وخلق الذيـن من قبلهم وأنه جعل لهم الأرض فـراشا والسماء بناء وأنـزل من السماء مـاء فأخـرج بـه من الثمـرات رزقـا لهم ونهاهم عن عبـادة الأصنـام والأوثان ، وتحداهم بالقرآن ، وأنذر من كفر بالنار وبشر من آمن بالجنة ولفت انتباههم بما ضرب لهم من أمثـال ، ثم ساق قصة خلق الإنسـان وما تحدثت به الملائكة ، وبين بعض ما منحه لآدم عليه السلام من علوم ومعارف ، وذكر قصة إبليس عدوّ الإنسان ، وما تـرتب على ذلك من إهباط آدم وزوجه حواء وإبليس إلى الأرض ، وتحذير آدم وذريته من إبليس لعنـه الله ، ثم بيان أحوال بني إسرائيل ومـواقفهم من أنبياء الله ورسلـه ومعاداتهم لسيـد المرسلين محمد ﷺ الذي يعـرفونـه كما يعرفـون أبناءهم ، ثم نبّـه المسلمين إلى نعمته الكبرى بإرسـاله محمدا ﷺ الـداعي إلى ملة إبـراهيم عليه السـلام رافع القواعـد من البيت الحرام ، الذي أراهُ الله المناسك وعرّفه المشاعر التي منها الصفا والمروة ، ثم شـدّد النكير على من يكتم ما أنـزل الله من البينات والهدى الـذي بيّنه الله للناس في الكتـاب وأعلم خلقه بأن من مات على الكفر فهـو من أهل النار

الخالدين فيها، بـدأ من هذا المقام في هذه السورة المباركـة في توجيه الخطاب إلى جميع المكلفين من جميع الأجناس معلنـا كلمة التوحيـد التي لا يحل لأحد أن يكتمها لأنها الحقيقة الكبرى التي مـن أجلها خلق الله السموات والأرض ومـا بث فيهما من دابـة، ومن أجلهـا خلق الإنس والجنّ وأقام سـوق الجنـة والنـار، فقـال: ﴿وإلهكم إلَـه واحـد لاإلَه إلا هـو الـرحمن الـرحيم﴾ وقـد اشتملت هـذه الآيـة الكـريمـة على جملتين: الأولى ﴿وإلهكم إلَـه واحـد﴾ والجملة الثـانية ﴿لا إلَه إلا هـو الرحمن الـرحيم﴾ ومعنى الجملة الأولى: أي ومعبودكم الحق الذي يستحق وحده أن يُعْبَد وأن تُصْرَف لوجهه الكريم جميع ألوان العبـادة، وسائر أنـواع المناسك، وأن يُبـذل له أقصى غـاية الحب مع أقصى غاية الخوف والذّل، وأن تَألَهَهُ القلوبُ، وتتولّه بحبه النفوس لأنه ربّها وباريها ووليها ورازقها، وأصل التألّه التعبّد ومنه قول رؤبة بن العجّاج:

لله درّ الغـانيـــات المـــدّه سبـّحْن واستـرجعن من تـألهي

أي من تعبّـدي وطلبي الله بعملي، والله تبارك وتعـالى يتألّه الخلقُ إليـه في حوائجهم، ويتضرعون إليه عند شدائدهم، ولما كانت هذه الجملة وهي قوله عز وجل: ﴿وإلهكم إلَه واحد﴾ إثبات مجرّد أتبعه بـالجملة الثانية وهي قوله عـز وجل: ﴿لا إلَـه إلا هـو الـرحمن الـرحيم﴾ المشتملـة على نفي جميع من يستحق أن يكـون إلها وإثبات الإلهيـة لله وحـده بطريق الحصر، قـال ابن أبي العزّ الحنفي شـارح العقيدة الطحـاوية في قول الطحـاوي رحمه الله: (ولا إله غيره) هـذه كلمة التـوحيـد التي دعت إليهـا الرسل كلّهـم كما تقدم ذكـره، وإثبات التـوحيد بهذه الكلمـة باعتبار النفـي والإثبات المقتضي للحصر فإن الإثبات المجرّد قـد يتطرق إليه الاحتمال، ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى: ﴿وإلهكم إلَه واحد﴾ قال بعده ﴿لا إلَه إلا هو الرحمن الرحيم﴾ فإنه قد يخطر ببال أحدٍ خـاطر شيطاني: هب أنّ إلهنا واحد فَلِغَيْرِنا إلـه غيره، فقال تعالى:

﴿لا إلَـه إلا هـو الرحمن الرحيم﴾ . اهـ وإنما كـانت لا إلـه إلا الله هي كلمـة التوحيد لأنها تقتضي نفي جميع ما يعبد من دون الله وإثبات الإلهية لله وحده، وقد شهد الله تبارك وتعالى لنفسه بهذا التوحيـد وشهدت به له ملائكته الكرام وأنبياؤه ورسله وأولو العلم حيث يقول عز وجل : ﴿شهد الله أنه لا إلَه إلا هو والملائكة وأُوْلواْ العلم قائما بالقسط لا إلَـه إلا هو العزيز الحكيم﴾ وأوجب الله تبارك وتعـالى معرفـة معنى لا إله إلا الله حيث قـال: ﴿ فاعلم أنـه لا إلَه إلا الله﴾ وأخبر رسول الله ﷺ أنّ من كـان آخر كـلامه لا إلـه إلا الله دخل الجنة وأن الله تعـالى حرّم النـار على من قال: لا إلـه إلا الله، يعني موقنـا بمعناهـا ومـات على ذلك، فقـد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث عُتْبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله حرّم على النار مـن قال لا إله إلا الله يبتغـي بذلك وجـه الله»، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «ما من عبد قـال: لا إلـه إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دخل الجنـة». وكلمة التـوحيـد تقتضي من العبد إخـلاص التوحيد لله والإيمان بـأنه لا شريك له في ربـوبيته وألوهيتـه وأسمائه الحسنى وصفاتـه العلى وأنّ على العبد أن يثبت لله جميـع ما أثبته الله تعـالى لنفسه أو أثبته له رسـوله من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل ولا تشبيـه وأنه ليس كمثلـه شيء وهو السميع البصير، ولما كان توحيد الله عز وجل بهذه المثابـة أتبع الله تبارك وتعالى وجوب توحيده بالآية التي اشتملت على البراهين القـاطعة الدالة على أنه الإله الـواحد الذي خلق كل شيء وأحكمـه وأتقنـه فقـال عـز وجل: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التـي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء مـن ماء فأحيا به الأرض بعد مـوتها وبث فيها من كل دابـة وتصريف الريـاح والسحـاب المسخّـر بين السماء والأرض لآيات لقـوم

يعقلون﴾ وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على كتاب الكون الذي لا تنتهي صفحاته، والتي أودع الله تعالى في كل صفحة من صفحاته ما لا ينتهي من أدلة وحدانيته، التي لو أفنى جميع الباحثين أعمارهم في أنحاء الدنيا إلى يوم القيامة ما انتهوا من دراسة هذه الصفحات التي احتواها كتاب الكون، والتي تدور كلّها على إثبات أن الذي صنعها إله واحد، هو الحي القيوم الرحمن الرحيم الذي يقول: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة سبعة أنواع من أدلة وحدانيته، الأول منها: هو خلق السموات والأرض، والثاني: اختلاف الليل والنهار، والثالث: الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، والرابع: ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، والخامس: ما بثّه الله عز وجل فيها من كل دابة، والسادس: تصريف الرياح، والسابع: السحاب المسخّر بين السماء والأرض، وقد اشتمل كل نوع من أنواع هذه الأدلة على دقائق من العلم لا حدّ لها ولا حصر، وقد ذكر الفخر الرازي في تفسير هذه الآية فصولا طويلة، ومسائل كثيرة في شرح هذه الدلائل التي يستدل بها على وجوده سبحانه أوّلا وعلى توحيده وبراءته عن الأضداد والأنداد ثانيا، والمقصود من السموات في قوله عز وجل: ﴿إن في خلق السمٰوات﴾ ما يشمل السماء المبنية التي جعلها الله تبارك وتعالى سقفا محفوظا، وأسكنها ملائكته الكرام ويشمل سائر الجهات العليا التي فيها الكواكب، ولا شك أن مدار النظر والفكر يكفي فيه التفكر في الكواكب التي خلقها الله عز وجل بحيث تبصرها العيون مع الانتفاع العظيم بها في شئون الأرض مع البعد الشاسع بينها وأبرز هذه الكواكب هي الشمس والقمر وبينهما عطارد والزهرة وفوق هذه الأربعة المريخ ثم المشتري ثم زحل، وتسمّى الكواكب السبعة

السيارة، وقد ميَّز الله تعالى كل كوكب منها بلونه وطبعه وفلكه، وقد عرف الناس صفرة عطارد وبياض الزهرة وحمرة المريخ ودُرّيّة المشتري وكمودة زحل، وجعل السلطان الظاهر للشمس، إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب، وجعل كل واحد منها يسير في فلكه الذي لم يختل توازنه منذ خلقه الله من دهور طويلة وأحقاب بعيدة، وجعلها عز وجل على مقادير معينة من السرعة والبطء وجعلها مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق إلى المغرب، وبعضها من المغرب إلى المشرق، وبعضها شمالية وبعضها جنوبية كما قال الشاعر:

أيها المنكح الثريا سهيلا عمرك الله كيف يجتمعان

هي شامية إذا ما استقرت وسهيل إذا استقر يماني

فهذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك والكواكب وائتلاف حركاتها برهان ساطع على أنها صنع الحكيم العليم وأنها لم تكن كذلك جزافا وخبط عشواء، ولو قال قائل: إن بناءً عاليا وقصرا مشيدا وجد من غير موجد بل انضم التراب والماء من تلقاء أنفسهما ثم تولدت منهما لَبِنات ثم تركبت اللبنات من نفسها قصرا مشيدا، لحكم الناس على من يدّعي ذلك بالجنون، فثبت بالدليل العقلي القطعي أن هذه الكواكب صنع فاطر السموات والأرض الذي أتقن صنعته على حد قوله عز وجل: ﴿صُنْعَ اللهِ الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون﴾ وقد أدرك العلماء والعوام في جميع عصور التاريخ أنه لا غنى للإنسان عن معرفة حساب الشهور والسنين وقد نصب الله تبارك وتعالى لذلك الحساب الشمس والقمر كما قال عز وجل: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذٰلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ وقد أدرك الناس كلهم على اختلاف مللهم ونحلهم وأوطانهم منافع الشمس والقمر،

وما جعل الله عز وجـل لهما من أثر في حياة الناس ومعايشهـم وقد ربطوا بين المد والجزر في البحار وبين ضـوء القمر، فسبحـان الذي أودع في كل كـوكب من هذه الكواكب هذه الطبيعة، واختصـه بها اختصه به من المقدار والوضع والشكل والطبع والصفـة التي تشهـد بأنها من تـدبير الحكيم العليم السميع البصير الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، وأنه الإله الحق الذي لا إله غيره ولا معبود بحـق سواه، الذي أمسـك هذه الكـواكب في الفضاء وأجـراها في فلكها على هـذا النظام البـديع ﴿إن الله يمسك السمـٰوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليما غفورا﴾ .

أمـا الاستدلال على وحـدانية الله عـز وجل وبراءتـه من الأنداد والشركـاء بِخَلْق الأرض فذلك لأن الله عز وجل هيأها ومهّدها وأقام فيها جميع أسباب العيش لـلإنسـان في جميع أعصـاره وأمصـاره وأقطـاره، وأرساهـا بـالجبـال الشواهـق التي جعلها خزائن لخيرات ينتفـع بها الإنسان من المعـادن الجامدة والسـائلـة، وما أنبـت في الأرض من النباتـات التي يعيش بها الإنسـان ومـا يحتاجه من الحيوان وغيره، وهذه الأرض مع اتسـاع رقعتها وتباين تضاريسها كأنها قطعـة واحدة خلقت لإنسـان واحـد ومع ذلك يعيش عليها «بـلايين» البشر ويجدون حـوائجهـم فيهـا وقـد هيأ لهم مع أغـذيتهم فيهـا أدويتهم وأكسيتهم، وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه النـاس إلى أدلة ألوهيته وربوبيته وأنـه لا إلـه غيره ولا رب سـواه بما يبصرونـه في الأرض حيث يقـول : ﴿وفي الأرض قِطَع متجـاورات وجنـات من أعنـاب وزرع ونخيـل صِنْـوان وغير صِنـوان يُسْقَـى بماء واحـد ونفضِّل بعضهـا على بعض في الأُكُل إن في ذٰلك لآيـات لقـوم يعقلـون﴾ فمهما شرّقت أو غـرّبت أو اتّجهت شمالا أو جنـوبـا فستجـد الشواهـد الظـاهرة المعلنـة أن الأرض صنع الحكيم العليم الـذي لا شريك له ولا ربّ سواه، والنوع الثاني من أدلـة التوحيد التي اشتملت عليها

هذه الآية الكـريمة هو اختلاف الليل والنهـار ومعنى اختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما ومجيء كل واحد منهما خلف الآخر من أول الدنيا وإلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها مع اختلافهما في الطول والقِصَر والنور والظلمة والزيـادة والنقصان بحسب الأزمنة، كما أنهما يختلفان بحسب الأمكنـة. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره: فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الأرض صبح وفي مـوضع آخـر ظهـر وفي مـوضع ثـالث عصر وفي رابع مغـرب وفي خـامس عشـاء وهلم جرّا، هذا إذا اعتبرنـا البـلاد المختلفـة في الطول، أمـا البلاد المختلفـة في العرض فكلّ بلد يكـون عرضـه الشمالي أكثر كانت أيامه الصيفية أطول ولياليه الصيفيـة أقصر، وأيامه الشتوية بالضد من ذلك فهذه الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلدان وعرضها أمرٌ مختلف عجيب، ولقد ذكر الله تعالى أمر الليل والنهـار في كتابه في عدة مواضع فقـال في بيان كونه مالـك الملـك: ﴿يولـج الليـل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ وقال في القصص: ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إلَهٌ غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلَه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغـوا من فضله ولعلكـم تشكرون﴾ وفي الروم: ﴿ومـن آياته منـامكم بـالليل والنهـار وابتغـاؤكم من فضله إن ذٰلـك لآيات لقـوم يسمعـون﴾ وفي لقمان: ﴿ألم تـر أن الله يولج الليل في النهـار ويـولج النهار في الليل وسخّـر الشمس والقمـر كلّ يجري إلى أجل مسمّى﴾ وفي الملائكة: ﴿يـولج الليل في النهار ويولج النهـار في الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذالكم الله ربكم﴾ وفي يس: ﴿وآيـة لهم الليل نسلخ منـه النهـار فإذا هم مظلمـون﴾ وفي الزّمـر: ﴿يكـوّر الليل على النهـار ويكور النهـار على الليل

وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ وفي حم غافر: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ وفي عمّ: ﴿وجعلنا الليل لباسا* وجعلنا النهار معاشا﴾ والآيات من هذا الجنس كثيرة وتحقيق الكلام أن يقال: إن اختلاف أحوال الليل والنهار يدل على الصانع من وجوه: الأول، أن اختلاف أحوال الليل والنهار مرتبط بحركات الشمس وهي من الآيات العظام، الثاني ما يحصل بسبب طول الأيام تارة وطول الليالي أخرى من اختلاف الفصول وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء وهو من الآيات العظام، الثالث أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة في الأيام وطلب النوم والراحة في الليالي من الآيات العظام، الرابع أنّ كون الليل والنهار متعاونين على تحصيل مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافي من الآيات العظام؛ فإن مقتضى التضاد بين الشيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونا على تحصيل المصالح، الخامس أن إقبال الخلق في أول الليل على النوم يشبه موت الخلائق أوّلا عند النفخة الأولى في الصور ويقظتهم عند طلوع الشمس شبيهة بعود الحياة إليهم عند النفخة الثانية، وهذا أيضا من الآيات العظام المنبّهة على الآيات العظام، السادس أن انشقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل، فيه من الآيات العظام، كأنه جدول ماء صاف يسيل في بحر كدرٍ بحيث لا يتكدّر الصافي بالكدرِ ولا الكدر بالصافي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾، السابع أن تقدير الليل والنهار بالمقدار المعتدل الموافق للمصالح من الآيات العظام كما بيّنا أن في الموضع الذي يكون القطب على سمت الرأس تكون السنة ستة أشهر فيها نهارا وستة أشهر ليلا وهناك لا يتم النضج ولا يصلح المسكن لحيوان ولا يتهيّأ فيه شيء من أسباب المعيشة. اهـ ولا شك أن ما ذكره الفخر الرازي رحمه الله مع عظيم فائدته، وما لفت به انتباه الناس إلى بعض أسرار الكون في

اختلاف الليل والنهار إلا أن صفحات هذا السفر الإلهي من آيات الله في اختلاف الليل والنهار لا تستطيع الوفاء بها السطور الكثار ولا آلاف الأسفار فلله في الليل والنهار آيات لا يحصيها العدّ ولا يحيط بها أحد غير الخالق العظيم الذي أحاط بكل شيء علما وأحصى كلّ شيء عدداً. وأما النوع الثالث من أدلة التوحيد التي اشتملت عليها هذه الآية العظيمة فهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿والفُلْك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ والفلك بضم الفاء يستعمل مفردا بمعنى السفينة ويستعمل جمعا بمعنى السفن فإذا أريد به المفرد كان مذكراً كقوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ وإذا أريد به الجمع كان مؤنثا كقوله عز وجل: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ ويعرف الفرق بين المفرد والجمع بالسياق، وضمة الفاء في المفرد كضمة القاف من قفل، أما ضمة الفاء في الجمع فهي كضمة الحاء في حمر. أما الفَلَك بفتح الفاء واللام فهو مدار النجوم وهو موج مكفوف تجري فيه الشمس والقمر والنجوم، والمراد بالبحر في قوله عز وجل: ﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ هو المياه الواسعة الغزيرة كالمحيطات والأنهار الكبار، وقوله عز وجل: ﴿بما ينفع الناس﴾ أي بما يعود على بني آدم بالمنافع العظيمة والمصالح الكثيرة من التجارة والتنقل بين القارات، ووجه الاستدلال على وحدانية الله عز وجل بجريان الفلك في البحر بما ينفع الناس، أنك لو ألقيت مسمارا في البحر غاص إلى أعماقه وقد علّم الله عز وجل نوحا عليه السلام أن يصنع الفلك ليركب فيه هو والمؤمنون وأن يحمل معه من كل زوجين اثنين فصار نوح عليه السلام يهيئ المسامير العظام والأخشاب، وبدأ يصنع السفينة ولم يكن أحد قد عرفها قبل ذلك فسخر منه المشركون ولما أرسل الله الطوفان نجى نوحا والذين آمنوا معه، وكانت تجري بهم في موج كالجبال وهي مصنوعة من الخشب والمسامير على حد قوله تبارك

وتعالى: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودُسُر * تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفِر﴾ والدُّسُر جمع دِسَار وهو المسمار، فصارت السفن الشبيهة بالجبال تمشي على متن الماء ويرسل الله عز وجل الرياح فتدفعها فوق الماء وتسوقها، كما قال عز وجل: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ أي ومن دلائل ألوهيته وربوبيته وقدرته هذه السفن التي تجري في البحر كأنها جبال، وكما قال عز وجل: ﴿وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام﴾ ومن المعلوم أن الله عز وجل خصّ كل قطر من أقطار الدنيا المتباعدة بمزايا وأشياء معينة لا توجد في القطر الآخر وكان الناس في كل بلد قد يحتاجون إلى ما في البلد الآخر وقد يفصل بينهم وبين الجهات التي يحتاجون إلى حاصلاتها البحار الشاسعة والمحيطات العظيمة كالمحيط الهادي والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندي وغيرها وكان لا سبيل إلى الوصول إليها إلا بهذه السفن التي أرشدهم الله عز وجل إليها، مع ما في البحار من المنافع العظيمة كما قال عز وجل: ﴿وما يستوي البحران هٰذا عَذْب فُرَات سائغ شرابه وهٰذا مِلْح أُجاج ومن كلٍّ تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مَوَاخِر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾. وكما قال عز وجل: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ أما الدليل الرابع فهو ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا الدليل العظيم في مواضع من كتابه للاستدلال على وحدانيته وقدرته على بعث الموتى وأشار إلى أنه يرسل الرياح فتثير سحابا وأنه يسوق الماء إلى الأرض الجُرُز وهي الميتة المرتفعة كرءوس الجبال فينزل عليها هذا الماء فيحييها بعد موتها، والناس يبصرون السحابة فوق رؤوسهم تحمل «ملايين» الأطنان من الماء ثم ينزّله الله بقدر كما قال عز وجل: ﴿أو لم يَرَوْا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز فنُخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ وكما قال عز

وجل : ﴿والـذي نـزّل من السماء مـاء بقـدر فـأنشرنـا بـه بلـدة مَيْتًـا كـذلك تخرجـون﴾ وقـد جعـل الله عـز وجل من الماء كل شيء حي . وأمـا الـدليل الخامس فهو ما نشر الله عز وجل في الأرض من أصنـاف الدواب والحيوانات من كل زوجين اثنين لعلكم تـذكرون . وأمـا الـدليل السادس فهـو تصريف الرياح وهو تقليبهـا فتارة تكون شمالية وتارة تكون جنوبيـة وتارة تكون شرقية وتارة تكـون غربية وأحيانـا تكون بين مهبين من هذه المهاب فـالشرقية تسمّى الصّبا وهي التي نُصر بها رسول الله ﷺ وتهُب من مطلع الشمس عند استواء الليل والنهار، وتسمى القبول أيضا والغـربية تسمّى الدّبور وهي التي أهلك الله بها عـادًا ، والشمال وهي التي تهب من نـاحيـة القطب الشمالي والجنـوب وهي التي تقابلها ومـا بين هذه المهاب تسمى النكباء وقـد صرّفها الله كذلك حيث تجيء حـارة وبـاردة ورخـاء وعـاصفـة ، وقــد تأتي مبشرات كما تأتي مهلكـات ولا شك أن الماء والهواء آيتـان ظـاهرتـان في الـدلالـة على الحكيم الخبير، ولو حبس الهواء عـن الإنسان لحظات لمات ، كما أنـه لا يستغني عن الماء أبدا ولـذلك لم يجعل الله عـز و جل لأحد سلطـانا على الهواء سـواه تعالى وقد جعله الله لطيفا يتخلل الأشياء الدقيقة فضـلا منه و إحسانا . أما الدليل السابع فهو السحاب المسخـر بين السماء والأرض وتسخيره هو تحريكه حيث شاء الله عـز وجل ، ولما كان طبع الماء ثقيلا يقتضي النزول كـان بقاؤه في الجو من الآيات البينات .

قال تعالى : ﴿ومن الناس من يتّخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبّ الله والذين آمنوا أشدّ حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعا وأنّ الله شديد العذاب* إذ تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسبابُ* وقال الذين اتَّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرّأ منهم كما تبرَّءوا منّا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار.﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى الآية السابقة التي وصفتها بأنها تضمنت كتاب الكون الذي لا تنتهي صفحاته الشاهدة بأن الله ربّ كل شيء وسيده ومليكه ، وقد ذيّلها بقوله عز وجلّ : ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ . مما يؤكد أنّ من لم ينتفع بهذه الأدلة الكونية المشاهدة في جميع مشارق الأرض ومغاربها أنه لا عقل له حتى ولو كان في نظر الناس من أذكى الخلق وأعقلهم ، لأن العقل الذي لا يعقل صاحبه من إلقاء نفسه في النار، ولا يحجزه عن غيّه وضلاله فهو عقل بهيمي ينحطُّ عن كثير من الحيوانات العجماوات التي تعرف ما يضرها فتجتنبه وتعرف ما ينفعها فتقبل عليه ولذلك وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء الغواة بأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا حيث يقول : ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولَئك كالأنعام بل هم أضل ، أولَئك هم الغافلون﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم من سورة البقرة مثلا من أمثلة انحراف بعض الناس عن صراط الله المستقيم وتعلقهم بأنداد وشركاء لله عز وجل حتى صاروا يحبونهم حبا يعادل حبّهم لله رب السموات والأرض مع أن العاقل لا

يرضى أبـدا أن يساوي في حبّـه بين من أوجده من العـدم، ومنحه كل النّعم وبين مخلـوق ضعيف لا يملك لـه نفعـا، ولا يـدفع عنـه ضرّا، ولا شك أن الإنسان السوي يعرف لذي النعمـة نعمته، والإنسان أسير الإحسان كما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمو فطالما استعبـد الإنسـان إحسـان

فكيف يليق بعاقل أن يعـادل في حبه لله الحي القيـوم ذي الجلال والإكرام أحدا من الخلق مهما كان ونحن نعلم علم اليقين أن محمـدا رسول الله ﷺ قد جعله الله سببا لمنافع لنا في ديننـا ودنيانا لا تحصى وأنه أفضل خلق الله وأكرم عباد الله وأعظم البشر نفعا للبشر بل حتى للحيـوانات العجماوات التي كان يـوصي بـالإحسان إليهـا ﷺ ومع ذلك كلـه لا يجوز أبـدا أن نجعل حبّـه في قلوبنا كحبنا لله عز وجل الذي تفضل علينـا به، كما أننا نحب أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وسـائر أصحاب رسول الله ﷺ ونحب أنفسنـا وأبناءنا وبـلادنا ومع ذلك لا يجوز أن نساوي بين حبنـا لرسول الله ﷺ وحبّ أحـد من هؤلاء الذين نحبّهم وقـد نفديهم بأنفسنا ولـذلك لما ذكر عمر رضي الله عنه لـرسول الله ﷺ أنه يحبـه أكثر من كل شيء إلا من نفسه فأخبره رسـول الله ﷺ أنه لن يـؤمن حتى يحب رسول الله ﷺ أكثـر من حبه لنفســه فقد روى البخـاري في صحيحـه من حديث عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه أنه قـال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحبّ إليّ من كل شيء إلا نفسي فقال: «والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر رضي الله عنه: فإنك الآن والله أحبّ إليّ من نفسي، فقال: «الآن يا عمـر». وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، كما روى البخاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: «ثلاث من كنّ فيـه

وجد حلاوة الإيمان ، أن يكـون الله ورسوله أحبّ إليـه مما سواهما ، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعـد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النـار» . ولا شك أن حبّ العبـد لربـه يجب أن يكون فـوق حبه للنبي ﷺ وفـوق حبه لأصحـاب رسـول الله ﷺ وفوق حبـه لنفسـه ولولـده ووالده والنـاس أجمعين ، على أن محبة العبد لـربه ليست في معنى محبـة العبد لغير الله فإن المحبة التي يستحقهـا الله عز وجل هي محبـة العبودية المستلـزمة للذل والخضـوع والتعظيم وكمال الطاعـة وإيثاره على غيره ، فمن سـوّى فيها بين الله وبين أحد من خلقه فقد اتخذه نـدا لله ومن جعل شيئا من هذه المحبة بهذا المعنى لغير الله فقد أشرك بالله ، محبوبِ المؤمنين الـذي يحبونه ويخافونه ، وإذا تحققت محبة الله في قلب العبد أشرقت فيـه أنوار السعادة ، وإذا ذكر الله خاليا فاضت عيناه ، فانتظم في سلك السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . وقوله عـز وجل : ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا﴾ أي وبعض الناس يجعل لله عـز وجل أمثالا ونظـراء وشركاء فيرتكبـون بذلك أعظم الجرائم وأكبر الكبائر كما جـاء في ا لصحيحين من حديث عبـد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يـا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل لله نـدا وهـو خلقك» . وقولـه عـز وجل : ﴿يحبـونهم كحبّ الله﴾ أي يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم ، ولذلك يندمون يوم القيامة على ذلك أشد الندم فيقولون لأنـدادهم وهم في جهنم : ﴿تالله إنْ كُنّا لَفِي ضلال مبين* إذ نسويكم بـرب العالمين﴾ وقوله عـز وجل : ﴿والذين آمنوا أشـدّ حبا لله﴾ أي والذين آمنـوا قد أخلصوا المحبـة لله ولم يشركوا بـه فيها أحدا ولم يـذهب منها شيء لغير الله بخلاف هؤلاء المشركين الذين يفـرقون ويبعثرون هذه المحبة بين الله وبين خلقه ، ولذلك كانـت محبة المؤمنين لله أشد من محبة المشركين لله لأن محبة المؤمنين خالصة ومحبة المشركين مشتركـة ولا شك أنّ المحبة الخالصة أشد

من المحبة المشتركة، ولذلك حَمَلت هذه المحبـة الخالصة امرأةَ فرعون رضي الله عنها على طلب القـرب من الله في جنات النعيم حيث قـالت: ﴿ربِّ ابْنِ لي عندك بيتا في الجنة﴾ وقد جعلها الله عـز وجل قدوة ومثلا لكل مؤمن إلى يوم القيامـة حيث قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثـلا للذين آمنوا امرأة فـرعون إذ قـالت ربِّ ابْنِ لي عندك بيتـا في الجنة ونجني من فـرعون وعملـه ونجني من القوم الظـالمين﴾ وحذّر الله عـز وجل المؤمنين أن يكون آبـاؤهم أو أبناؤهم أو إخـوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم أو أمـوالهم أو تجارتهم أو مسـاكنهم أحب إليهم من الله ورسولـه حيث يقول عز وجل: ﴿ قل إن كان آبـاؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكـم وأموال اقترفتموهـا وتجارةٌ تَخْشَوْن كسـادها ومساكنُ ترضَوْنها أَحَبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربّصوا حتى يأتي الله بأمـره، والله لا يهدي القوم الفـاسقين﴾ ولا شك أن محبة رسـول الله ﷺ الواردة في هـذه الآية الكريمـة ليست بمعنى المحبة الواجبـة لله عز وجل على عبـده، وقد جعل الله عـز وجل عـلامة محبـة الله تبارك وتعـالى أن يطيع العبـد رسـول الله ﷺ حيث يقـول تبـارك وتعـالى: ﴿قل إن كنتم تحبـون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنـوبكم، والله غفور رحيم* قل أطيعوا الله والـرسول فإن تـولَّوْا فإن الله لا يحب الكـافرين﴾ فمحبـة العبد لله عـز وجل خاصة به وهي محبة العابد للمعبود ولذلك كان صرف شيء منها لغير الله من مَلِك أو نَبِي أو غيرهما شركا أكبر يخرج من الملـة ويصير صاحبه به مـرتدا عن الإسلام لو كـان قد أسلم، وقد أنكر شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله مرات كثيرة تفسير من فسّر قـوله تبـارك وتعالى: ﴿يحبـونهم كحبّ الله﴾ أي كحبّ المؤمنين لله وبيّن أنـه متنـاقض حيث قـال رحمه الله: هذا ينـاقض أن يكـون المؤمنون أشدّ حبّا لله من المشركين لأربـابهم فتبين ضعف هذا القول وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبـة المشركين لله ولآلهتهم، لأن أولئك أشركوا في

المحبة والمؤمنون أخلصوها كلّها لله . وقال أيضا : والمقصود أن الشيء إذا انقسم ووقعت فيه الشركة نقص ما يحصل لكل واحد ، فإذا كان جميعه لواحد كان أكمل ، فلهذا كان حبّ المؤمنين الموحّدين المخلصين له أكمل ، وقال أيضا : فمن أحبّ مخلوقا مثل ما يحبّ الله فهو مشرك ، ويجب الفرق بين الحبّ في الله والحب مع الله . اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوة لله جميعا وأنّ الله شديد العذاب﴾ أي ولو يعاين هؤلاء الذين أشركوا مع الله غيره في المحبة ما أعدّ الله لهم من العذاب والعقوبة في نار جهنم لما أشركوا معه غيره لأنهم لو عاينوا ذلك لعلموا أن القهر والسلطان والحكم لله وحده ، وأن هؤلاء الأنداد لا يملكون لهم نفعا ولا يدفعون عنهم ضرا بل يتبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا ولذلك قال بعدها : ﴿إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذي اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب﴾ أي إذ تنصل المتبوعون من أتباعهم وأنكروا إضلالهم ، وقد عاينوا عذاب الله ، وانقطعت بهم الحيل والحبال ، ولا شك أن بعض المعبودين لم يرض بأن يعبد من دون الله كالملائكة والمسيح ابن مريم ، أما من كان قد رضي من هؤلاء المتبوعين بأن يعبد من دون الله واستساغ أن يكون طاغوتا ، فهو مع عابديه حصب جهنم ، كما قال عز وجل : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ ثم قال : ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولّئك عنها مبعدون﴾ وقد ذكر الله عز وجل صوراً من تبرؤ المعبودين من عابديهم يوم القيامة ، حيث تبرأت الملائكة من عابديهم كما قال عز وجل : ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أي إنما كانوا يعبدون أهواءهم ، وقال : ﴿سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ وقال عز وجل في تبرؤ الشيطان من أتباعه : ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم

وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِيّ إني كفرت بما أشركتمونِ من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وقال الذين اتبَعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ أي وقال التابعون: يا ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا لنتبرأ من هؤلاء المتبوعين كما تبرءوا منا، حيث علموا أنه لا ينفع الظالمين معذرتهم في الآخرة وأن الدنيا هي دار العمل وقد أخبر الله عز وجل عن أمثال هؤلاء أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وكما أراهم شدة عذابه أراهم أعمالهم حسرات وندامات وهم خالدون مخلّدون في نار جهنم. نعوذ بالله من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبا ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين* إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾ .

هذا هو النداء الثاني للإنسانية كلها في كتاب الله عز وجل، وكان النداء الأول لهم حيث أمرهم بأن يعبدوا الله وحده الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم من الملائكة والجن وغيرهما، الذي جعل لهم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم، وفي هذا النداء الثاني لهم يأمرهم بالانتفاع بالحلال الطيب الذي أوجده لهم في الأرض، وأن يلتزموا حدود الله فيه، فلا يقربوا شيئا مما حرمه الله عليهم منه، وأشعرهم بأن الشيطان يحرص على تزيين المحرمات لهم، ويدعوهم إلى السوء والفحشاء وأن يفتروا على الله ما لا علم لهم به بسبب عداوة الشيطان لهم، وقد عرفت عداوته الظاهرة لأبيهم آدم عليه السلام، وقد أمر الله تبارك وتعالى الناس في هذا المقام بأن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا حيث يقول : ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ والأمر هنا يشمل الوجوب والندب والإباحة فقد يكون الأكل واجبا على الإنسان وذلك إذا كان لا غنى له عنه لقيام بنيته، وقد يكون الأكل مندوبا ومستحبا إذا كان مع ضيف ونحوه، وقد يكون مباحا وهو ما سوى الواجب والمندوب مما أباحه الله عز وجل للإنسان، وفي توجيه الخطاب للناس بالأكل مما في الأرض ليلفت انتباههم إلى جليل نعمه عليهم، وكما أنه قد تقرر في الآيتين السابقتين أنه لا إله إلا الله وأنه وحده له الخلق فإنه يقرر هنا أنه وحده له الأمر فلا يجوز لأحد أن يحلل شيئا أو يحرم شيئا من تلقاء نفسه وإنما الذي يحلّل ويحرّم هو رب العالمين، الذي يعلم الطيب من الطعام أو غيره فيحلّه ويعلم الخبيث من الطعام أو

غيره فيحرمه، والحلال هـو المأذون في تناوله شرعا وضـده الحرام وهو الممنوع من تناوله شرعا، والأصل في المأكولات الحلّ، فما لم يرد تحريمه من الشرع فهو مباح بالإذن العام وهو قوله عز وجل هنا: ﴿كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ والتقييد هنا بالحلال الطيب للتحذير من الحرام الخبيث، وكلّ ما عُلم ضرره على الإنسان فهـو حرام كما أن كلّ ما عُلم خبثـه فهو حرام كـذلك، ولذلك جاء في القاعـدة العامة التي بعث الله بها رسوله محمـدا ﷺ أنه يحل الطيبات ويحرم الخبائث كما قال عز وجل: ﴿الذين يتّبعـون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتـوبا عنـدهم في التوراة والإنجيل يأمـرهم بالمعروف وينهـاهم عن المنكـر ويحلّ لهم الطيبـــات ويحرم عليهم الخبـائث ويضـع عنهم إصرهم والأغـلال التي كانت عليهم﴾ وقـولـه عز وجل: ﴿طيّبـا﴾ أي مستطابـا في نفسه غير ضار للأبـدان ولا للعقول، ولا يشترط في الطيب أن يكون مُسْتَلَذا فإن الإنسان قد يلعق الصبر وهو لا لذة فيه لكنه طيب كثير المنافع و(مِن) في قوله عز وجل: ﴿مما في الأرض﴾ لـلإشعار بجليل عطائه وكثرة البركات التي وضعها الله عـز وجل في الأرض وأنهم لن يأكلوا إلا بعض مـا أخرجـه الله عز وجل لهم من الأرض كما أشار الله عز وجـل إلى ذلك بقوله في خلق الأرض في سورة فصّلت: ﴿وبـارك فيها وقدّر فيهـا أقواتها﴾ ومـا يصيب بعض الناس أحيانا من الجوع فهو بسبب ذنوبهم، أو لرفع درجاتهم، وقد حرص الشيطان على صرف الإنسان عن طريق الرّشد فـزين له الخبائث والمحرمات، كما زين لبعض النـاس تحريم مـا أحل الله فصار بعضهـم كبني عامـر بن صعصعـة يحرمون على أنفسهـم في الحج أن يأكلوا الودك أو يلبسـوا شيئا من مـلابسهم التي كـانوا يلبسـونها خارج الحرم، وكـانوا يطـوفـون بالبيت عـراة، الرجـال والنســاء، إذا لم يجدوا شيئـا من الملابس مـن أهل الحرم كما روى مسلم في صحيحـه من حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: كـانت المرأة تطـوف

بالبيت وهي عريانة فتقول: من يعيرني تطوافا تجعله على فرجها وتقول:

اليـــوم يبدو بعضـــه أو كلّه فما بـــدا منه فلا أحـــلّه

فنزلـت هذه الآية: ﴿خـذوا زينتكم عند كـل مسجد﴾ اهـ. كما كـانت العرب تحرم بعض الأنعام من الإبل والبقر والغنم وتجعلهـا لأصنامها، وكان الشيطان قد لعب بهم في ذلك كله حتى حرّموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعـالى: إنّ كلّ مال منحته عبادي فهو لهم حـلال» ـ وفي هـذا الحديث ـ: «وإني خلقت عبـادي حنفـاء فجـاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحـرّمت عليهم ما أحللت لهم». وقد ندّد الله تبـارك وتعالى بمن حـرّم ما أحلـه الله أو أحلّ ما حـرمه الله حيث يقـول: ﴿وقالـوا هٰذه أنعـام وحَرْثٌ حِجْـرٌ لا يَطْعَمُها إلا من نشـاء بزعمهـم وأنعام حُرِّمَتْ ظهـورُها وأنعـام لا يذكـرون اسم الله عليها افتراءً عليـه سيجزيهم بما كانـوا يفترون * وقالـوا ما في بطون هٰـذه الأنعام خالصـةٌ لذكـورنا ومُحَرَّم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم، إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهًـا بغير علم وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، قد ضلـوا وما كانوا مهتـدين﴾ ووبّخ الذين كانـوا يطوفون بـالبيت عراةً ويحرمون بعض الطيبـات من الرزق، وعرّفهم أنهم منقـادون في هذا لإبليس عـدوهم وعـدو أبيهم آدم عليـه الســلام وفي ذلك يقـول: ﴿يـا بني آدم لا يفتننكم الشيطـان كما أخـرج أبـويكم من الجنـة ينـزع عنهما لبـاسهما ليريهما سوْآتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون* وإذا فعلوا فاحشة قالـوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمـر بالفحشـاء أتقـولون على الله مـا لا تعلمون * قل أمـر ربي بالقسـط وأقيموا وجوهكـم عند كل مسجـد وادعوه مخلصين له الـدين، كما

بـدأكم تعـودون* فريقـا هـدى وفـريقا حق عليهم الضـلالـة، إنهم اتخذوا الشيـاطين أوليـاء من دون الله ويحسبـون أنهم مهتـدون * يـا بني آدم خـذوا زينتكم عند كل مسجـد وكلوا واشربوا ولا تسرفـوا إنه لا يحب المسرفين * قل من حـرّم زينة الله التي أخـرج لعـباده والطيبـات من الرزق، قل هي للـذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يـوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهـر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بـالله ما لم ينزّل به سلطـانا وأن تقولوا على الله مـا لا تعلمون﴾ وفي هذا المقـام الكريم من سورة البقـرة يوصي النـاس بالأكل من الطيب الحلال ويحذرهم من عدوهم إبليس الذي يعمل على صدهم عن سبيل الله بتحريم الحلال وتحليل الحرام فيقول: ﴿ ولا تتبعـوا خطوات الشيطان إنـه لكم عدو مبين﴾ أي ولا تستجيبوا لـه ولا تنقادوا إليه فيما يـدعوكم إليـه من معصية الله ومخالفة أمره، ولا تغتروا بما يزينه لكم من الفحشـاء والمنكر ولا تقفوا أثره فإنه لا يجر إلا إلى النار، فمن كـان له عقل فإنه لا يمشي وراء العدو الـذي أظهر العداوة للجنس البشري من لَدُنْ آدم، وتعهد بـإفساد ذرية آدم وأنه سيأتيهم من بين أيـديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، وأنه سيـزين لهم في الأرض ويغـويهم، وقد أكّـد الله تبـارك وتعـالى هذا المعنى وحـذّر من اتبـاع خطوات الشيطـان العدو المبين وهي حبـائله وخطـراته ووساوسـه وتزيينـاته وأعماله في مـواضع كثيرة من كتابه الكـريم حيث قال في سورة البقـرة أيضا: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بـالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم﴾. وقـال في سورة النسـاء: ﴿ويـريد الشيطـان أن يضلهم ضلالا بعيدا﴾. وقـال في سورة المائدة: ﴿إنما يريد الشيطـان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصـدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾. وقال في سـورة النور: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تتبعوا خطوات

الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمـر بالفحشاء والمنكر﴾ وقال في سورة القصص: ﴿إنه عدو مضلّ مبين﴾ وقال في سورة فاطر: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وقد أكد هـذا التحذيـر كذلك في هـذا المقام حيث يقـول: ﴿إنما يأمركم بـالسوء والفحشـاء وأن تقـولـوا على الله مـا لا تعلمـون﴾ أي إنما يحضّكم الشيطـان ويطلب منكم ارتكـاب المعـاصي التي تجلب لكم مـا يسـوؤكـم في الـدنيـا والآخـرة، وتوقعكم في الحزن الـذي ينبغي للعاقل أن لا يـوقع نفسه فيـه من عقـوبـة الله وسخطه وغضبـه كما يحضكم على ارتكـاب الفحشـاء، وعلى أن تفتروا على الله الكذب، وقد سـاقها الله تبارك وتعالى بطـريق التأكيد بـ «إنما» لإعـلامهم أن الشيطان لا يأمـر بخير أبـدا، وأصل السوء هـو ما يعـود على صـاحبـه بما يسـوء وجهه ويصيبـه بـالهم والحزن والضرر والمراد بـه المعـاصي والسيئات التـي تضر مرتكبها، والفحشـاء هي المسْتَبْشَع من كبـائر المعاصي والجرائم والسيئـات كـالـزنـا ومنع الزكـاة وشرب الخمـر وأكل الـربـا وسـائر الموبقات، وعطف الفحشـاء على السوء من عطف الخاص على العـام، وقد أشرت في تفسير قولـه تعالى: ﴿من كان عـدوًّا لله وملائكتـه ورسله وجبريل وميكال﴾ إلى أن عطـف الخاص على العام إنما يكون لمزيـة في الخاص حيث يفيـد الاهتمام بـه، وقـد جاء في كتـاب الله تعـالى عطف الخاص على العـام وعطف العام على الخاص كثيرا كقوله تعالى: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي﴾ وكقـولـه: ﴿ومن يتّبع خطـوات الشيطـان فإنـه يأمـر بـالفحشـاء والمنكر﴾ وكقـوله تعالى: ﴿فيهما فاكهـة ونخل ورُمّان﴾، وكقولـه عز وجل: ﴿قل إنما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق﴾ الآية. وقـوله عز وجـل: ﴿وأن تقولوا على الله مـا لا تعلمون﴾ أي وأن تفتروا على الله الكذب جهلا وسفـاهة وضلالة. وقد أشـار رسول الله ﷺ إلى طريق

الحذر من اتباع خطوات الشيطان بأن الله جعل لكل إنسان قريناً من الملائكة وقريناً من الشياطين، وأن الخواطر الرحمانية الحاضّة على الخير هي خواطر مَلَكية وأن الخواطر الباعثة على الشر هي خواطر شيطانية، فعلى العاقل الحريص على سعادة نفسه في العاجلة والآجلة أن يتبع داعي الخير وأن يعصي داعي الشر، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»، وقال الترمذي حدثنا هَنَّادنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرّة الهمداني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمّة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم». ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ الآية. هذا حديث حسن صحيح غريب.

قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون* ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون* يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون* إنما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه، إنّ الله غفور رحيم﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية الخامسة والستين بعد المائة ما يفيد أن بعض الناس يتخذ من دون الله أندادا، وأشار في الآية الثامنة والستين بعد المائة وفي الآية التاسعة والستين بعد المائة إلى أن بعض الناس أحلوا ما حرّم الله وحرّموا ما أحل الله مما شرحته في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين ذكر الله عز وجل هنا في هذا المقام الكريم أن هؤلاء الكفار لا يتّبعون في شركهم بالله أو تحريمهم ما أحل الله أو تحليلهم ما حرّم الله دليلا يستدلون به أو برهانا يبنون عليه دينهم سوى التقليد الأعمى لآبائهم الجاهلين الضالينَ، وأنهم لا يلتفتون لدعاة الهدى مهما جاءوا بالبينات، لأن حِجَاب هذا التقليد الأعمى يحول بينهم وبين قبول الحق مهما اتضحت براهينه وسَطَعَتْ حُجَجُهُ، فقال عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزلَ الله﴾ أي وإذا قال لهم رسول الله ﷺ أو قال لهم أحد الهداة المهديّين من دعاة الحق: اتبعوا القرآن والهدى الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ ودعوا هذه الأصنام والأنداد ولا تحلّوا إلا ما أحلّ الله ولا تحرموا إلا ما حرّم الله. وقوله عز وجل: ﴿قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي أجابوا دعاة الهدى بأنهم لن يتبعوا ما جاء به الرسول ﷺ وإنما يتّبعون ما وجدوا عليه آباءهم، فوبّخهم ربّ العزة جل وعلا على هذا السلوك المزري المستغرق في الضلال حيث قال: ﴿أو لو كان آباؤهم لا

يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ أي أيقتفون آثار آبائهم ويقلّدونهم هذا التقليد دون أدنى تبصر لمعرفة منزلة آبائهم في الوعي والإدراك حتى ولو كان هؤلاء الآباء أجهل من دوابهم التي يركبونها ويحملون عليها متاعهم وحتى لو كانوا صما بكما عميا لا يهتدون سبيلا، فالعاقل إنما يقلد آباءه لو كانوا معروفين بالهدى والرشاد، كما ذكر يوسف الصديق عليه السلام لصاحِبَيْ السجن حيث قال: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ فإن مثل هؤلاء الأئمة العظماء حقيق أن يُتَّبعوا، أما الآباء الجهلة الذين لا يعقلون شيئا ولا يهتدون لصواب فإن من يقلّدهم لا يقل جهالة عن الببغاء التي تحكي الصوت الذي تسمعه وهي لا تعي منه شيئا، وقد ندّد الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم بمن يردّ الهدى الذي يجيء به المرسلون مستمسكا بتقليد آبائه الجاهلين حيث يقول في سورة المائدة: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وَصِيلة ولا حامٍ ولّكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا: حَسْبُنا ما وجدنا عليه آباءنا أوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾. وقال تبارك وتعالى في سوة لقمان: ﴿وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا، أوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾. وقال عز وجل في سورة الزخرف: ﴿أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مهتدون * وكذّلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ هذا مثل شبّه الله عز

وجل فيه واعظ الكفار وداعيهم إلى اتباع ما أنزل الله بالراعي الذي ينعق أي يصوّت بالإبل أو بالغنم أو البقر التي يرعاها فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول، كأنه قيل: مثلك يا محمد أو يا داعي الحق ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم، والنعيق هو زجر الغنم والصياح بها قال الأخطل:

انعق بضأنك يا جرير فإنّما منّتك نفسك في الخلاء ضلالا

وكما شبّه الله تعالى الكفار بالبهائم التي لا تفهم من راعيها عندما ينعق بها إلاَّ سماع صوته بالدعاء والنداء شبّههم كذلك بالصم الذين انسدّت خروق مسامعهم فصاروا لا يسمعون، وبالبكم الذين لا ينطقون ولا يفهمون وبالعمي الذين لا يبصرون، ولا شك أن من كان بهذه المثابة من الناس كان أبعد عن العقل من البهائم وسائر العجماوات. وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ في هذا المقام الكريم ينادي الله تبارك وتعالى المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ﷺ ويأمرهم بأن يأكلوا من طيبات رزق الله ويشكروه، وكان قد نادى الناس في الآية الثامنة والستين بعد المائة بأن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا، فيكون الأمر بالأكل من الطيبات هنا تأكيدًا للأمر بالأكل من الطيبات هناك وإنما خصّ المؤمنين بالذكر هنا للفت انتباههم إلى الأثر الكبير للأطعمة الطيبة أو للأطعمة الخبيثة على النفس الإنسانية إذ أنّ أكل الحلال الطيب من أكبر العون على طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ وأن اللقمة من الحرام يقذفها الرجل في جوفه قد تحول بينه وبين قبول دعائه وعمله الصالح دهرا طويلا ولذلك حرص أصحاب رسول الله ﷺ على طيب مطاعمهم، وحذِروا أشدّ الحذر من تناول طعام محرّم أو فيه شبهة، فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج

له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ فقال: كنت تكهّنت لإنسان في الجاهلية وما أُحْسِنُ الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني لذلك هذا الذي أكلتَ منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كلّ شيء في بطنه اهـ

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أثر الحلال الطيب في صلاح القلب فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحِمَى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب»، ففي هذا الحديث العظيم إشارة إلى أن الحلال يؤثر في القلب صلاحا، وأنَّ الحرام يؤثر في القلب فسادا، وأنّ ترك المشتبهات التي يتردد الإنسان بين طِيبها أو خُبْثِهَا فيجتنبها ويبتعد عنها مخافة أن تكون خبيثة من أعظم ما يحمي الإنسان من الوقوع في المهالك، ولذلك ترك رسول الله ﷺ التمرة التي وجدها ملقاة على الأرض فلم يأكلها خشية أن تكون من تمر الصدقة وقد حرّم الله تعالى على أهل بيت النبي ﷺ الصدقات، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: «لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها». وقد نبّه رسول الله ﷺ الناس ولفت انتباههم إلى أن الله تعالى ذكر آيتين في كتابه الكريم يأمر في إحداهما المرسلين بالأكل من الطيبات وأن يعملوا صالحا ويأمر في الثانية عامة المؤمنين بالأكل من الطيبات وأن يعملوا صالحا وفي ذلك إشعار بأن العمل الصالح إنما يقبل ممن يقتصر في طعامه على الحلال

الطيب، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيّبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك». وفي هذا الحديث تهديد بأن الله لا يستجيب دعاء من كان مطعمه حراما أو مشربه حراما أو ملبسه حراما، أو غذي بالحرام، وقوله عز وجل: ﴿واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي وجدّدوا لكل نعمة من نعم الله عز وجل عليكم شكرا له على كل نعمة متجددة فاحمدوه على كل أكلة تأكلونها أو شربة تشربونها وأثنوا على الله بما هو أهله على النعم التي رزقكم وطيبها لكم، إن كنتم حريصين على تخليص أَنفسكم من النار بدوام إخلاص العبادة لله وحده فكلوا مما أباح لكم من الطيبات التي حلّلها وطيبها لكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان الذي يدعوكم لتحريم ما أحل الله لكم.

وقوله عز وجل: ﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله﴾ في هذا بيان لأنواع من المحرمات التي حرمها الله عز وجل وأولها الميتة وهي مات من الحيوان من غير تذكية أي ذبح شرعي وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو مترددية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وثانيها الدّم يعني المسفوح السائل بدليل قوله: ﴿أو دما مسفوحا﴾ في آية الأنعام، وثالثها لحم الخنزير وهو يشمل شحمه ولحمه، وتخصيص اللحم بالذكر إشارة لمعجزة علمية لا يعرفها العرب إذ قد ثبت بالتشريح للخنزير تداخل شحمه في لحمه مع احتوائه على الدودة الشريطية بنسبة عالية لا توجد في أي نوع من الحيوانات سواه مع قذارته التي تفوق كل أنواع الكلاب، ورابعها ما ذبح لغير الله عز

وجل، وأصل الإهلال رفع الصوت بالذكر وكانوا يرفعون أصواتهم بذكر أصنامهم وأوثانهم عند ذبح القرابين لهم ثم صار يستعمل في كل ذبح حتى ولو لم يرفع الذابح صوته، وقد وصف الله عز وجل لحم الخنزير بأنه رجس ووصف ما ذبح لغير الله بأنه فسق، وقوله عز وجل: ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ أي فمن ألجأته الضرورة لأكل شيء من هذه المحرمات لبقاء مهجته و إمساك حياته بالقدر الذي يدفع عنه المضرّة فلا إثم ولا حرج عليه ما دام غير باغ أي بأن يأكل فوق حاجته الضرورية أو أن يأكلها شهوة وتلذذا، وما دام غير عاد بأن يجد مندوحة عن هذه المحرمات، إن الله غفور رحيم يتجاوز عن معاصي العاصين ولا يؤاخذ عباده بما وقعوا فيه مكرهين مضطرين، وهذا من كمال الشريعة وشمولها، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيث قال في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذُبح على النُّصُب وأن تستقسموا بالأزلام ذٰلكم فسق﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إلي مُحَرَّما على طاعم يطعَمُه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أُهِلّ لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾وقال في سورة النحل: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون* إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ وقد نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير، وأباح ميتة البحر والجراد أما ميتة البحر فلحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في البحر: «هو الطّهور ماؤه الحِلّ ميتته». وقد أخرجه الأربعة وابن أبي شيبة واللفظ له وصححه ابن

خـزيمة والترمـذي . وأمـا ميتة الجراد فلحـديث ابن أبي أوفى الـذي أخرجـه البخـاري ومسلم قـال : غزونـا مع رسـول الله ﷺ سبع غـزوات نأكل معـه الجراد . أما ما أخرجه أحمد وابن مـاجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «أحلـت لنا ميتتان ودمان فأمـا الميتتان فالجراد والحوت وأما الدمان فالكبد والطحـال» . فهو حديث ضعيف لأنه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف .

قال تعالى: ﴿إن الـذين يكتمون ما أنزل الله من الكتـاب ويشترون به ثمنا قليلا أولَئـك ما يأكلـون فى بطونهم إلا النـار ولا يكلّمهم الله يوم القيـامة ولا يـزكيهم ولهم عذاب أليم* أولَئك الـذين اشتروا الضلالـة بالهدى والعـذاب بـالمغفـرة، فما أصبرهم على النار* ذلـك بأن الله نزّل الكتـاب بـالحق، وإنّ الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد.﴾

قـد ذكرت في تفسير الآيـة التاسعـة والخمسين بعـد المائة من هذه السـورة المباركة أن الله تبـارك وتعالى ذكر في مقامات من هـذه السورة أن أهل الكتاب يكتمون الحق وهـم يعرفونـه محذّرا من سلوك طـريقهم في هذا السبيـل، وأنه حذّر المسلمين في هذه الآيـة المباركة أعني الآية التـاسعة والخمسين بعد المائة أشـد التحذيـر من أن يسلكوا مسلك أهل الكتـاب فيكتموا شيئـا من العلم والبينات والهدى التي بيّنها الله في القـرآن وأن من كتم شيئا من ذلك استحق لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والمؤمنين إلا من تاب وأصلح وبيّن، وقد أكّد الله تبارك وتعالى هنا هذا التحذير مـرة أخرى لشدة خطورته وسوء عاقبته فقال: ﴿إن الـذين يكتمون ما أنـزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنـا قليلا أولَئك ما يأكلـون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامـة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقـد وصف الله تبارك وتعـالى هؤلاء هنا بأنهم يكتمـون ما أنزل الله من الكتاب وأنهم يشترون به ثمنـا قليلا، ورتّب على هذين الوصفين أربع عقوبـات: الأولى أنهم ما يأكلـون في بطونهم إلا النار، والثـانية أنهم لا يكلمهم الله يوم القيـامة، والثالثة أن الله لا يـزكيهم، والرابعة قـوله: ﴿ولهم عـذاب أليم﴾ ولا شك أن كل وعيـد في كتاب الله عـز وجل بلفظ عـام على معصية من المعـاصي فإنه يعم جميع مرتكبي هـذه المعصية من أي جنس ومن أي لـون ولا سيما إذا لم يكن قـد ثبت سبـب صحيح لنـزول الآيـة أو ورد عن

رسول الله ﷺ تخصيص عمومها بحديث صحيح عن رسول الله ﷺ وحتى لو صحّ خبر عن رسول الله ﷺ أو عن أحد الصحابة في سبب نزول الآية الواردة بلفظ عام ولم يرد عن رسول الله ﷺ تخصيص عمومها فإنّ القاعدة الأصولية المعتبرة عند أهل العلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبهذا يكون الوعيد الوارد في هذه الآية الكريمة شاملا لأهل الكتاب ولعلماء المسلمين ممن يكتم الحقّ المبيّن في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ولذلك قال أبو ذر رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ مع أن صدر الآية في ذكر سوء سلوك الأحبار والرهبان لكنه قال رضي الله عنه: هي فينا وفيهم، والذي حمله رضي الله عنه على ذلك هو عموم اللفظ الوارد فيها فقد روى البخاري في صحيحه من طريق زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر رضي الله عنه بالرّبذة، فقلت: ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال: كنا بالشام، فقرأت: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ قال معاوية: ما هذه فينا، ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت: إنها لفينا وفيهم. اهـ وقوله عز وجل هنا: ﴿ويشترون به ثمنا قليلا﴾ أي ويأخذون ثمنا تافها من حطام الدنيا في مقابلة كتمان الهدى الذي بينه الله في الكتاب، إما رشوةً أو محافظة على منصب أو جاه لابقاء له ولا دوام، وليس الوعيد بالعقوبات الأربع الواردة في هذه الآية مشروطا بهذه المقايضة الخاسرة بل هذا الوعيد ثابت للذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب حتى ولو لم يشتروا شيئا ولو لم يحصلوا على حطام الدنيا الفانية، فإن المقصود هنا هو تحريم الكتمان وهو الذي سيق الكلام من أجله، أما الصفة الثانية وهي قوله: ﴿ويشترون به ثمنا قليلا﴾ فهو بيان لخسة البدل الذي أخذوه في نظير الحق العظيم الذي ضيّعوه وكتموه، فهو تهجين لهم على قبيح فعلهم مع ما

يترتب على معاقبتهم بجعل ما أكلوه نارا في بطونهم. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي هؤلاء السفهاء الذين يكتمون هدى الله ويشترون به ثمنا قليلا ما يجلبون لأنفسهم إلا أن يملأ الله بطونهم نارا يوم القيامة، وقال ابن جرير في تفسير هذه الآية: كما قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾. معناه ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم، فاستغنى بذكر النار وفهم السامعين معنى الكلام عن ذكر ما يوردهم أو يدخلهم. اهـ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «إنّ الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ هذه هي العقوبة الثانية التي توعّد الله بها من كتم الهدى، ولا شك أن أهل السنة والجماعة يثبتون صفة الكلام لله عز وجل على الوجه الذي يليق برب العزة والجلال، ومن كلامه تبارك وتعالى القرآن الذي سمعه جبريل من الله عز وجل وألقاه على رسول الله محمد ﷺ، وقد قال الله عز وجل: ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمُدّه من بعده سبعة أَبْحُر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل لو كان البحر مِدَادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مَدَدًا﴾. وكما أشار الله عز وجل إلى أنه يسلم على المؤمنين في الجنة بكلام يسمعونه فيسعدون به سعادة فوق سعادتهم بنعيم الجنة حيث يقول جل وعلا: ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغُل فاكهون * هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يَدَّعُون * سلامٌ قولاً من ربّ رحيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة

فيقولون : لبيك ربّنا وسعديك والخير في يديك فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربّ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا» . اهـ ولما كان كلام الله تبارك وتعالى لأهل الجنة كلام تحية ورحمة وتكريم فإنه عز وجل يحرم من هذا الكلام أعداءه فلا يكلمهم بما يدخل عليهم سرورا وتكريما ، ولذلك كان كلام الله عز وجل لموسى عليه السلام من أعلى درجات التكريم حتى وصف موسى عليه السلام بأنه كليم الله كما قال عز وجل : ﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم مَن كَلَّمَ اللهُ ورفع بعضهم درجات﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وكلّم اللهُ موسى تكليما﴾ ولذلك جاء في حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فيأتون موسى فيقولون : يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك» . الحديث . وإذا كان كلام الرب جل وعلا تكريما لأوليائه فإنه يحرم منه من غضب عليهم ولذلك قال في هذا المقام الكريم في الذين يكتمون الحق الذي بيّنه الله في الكتاب ولا يتوبون ولا يبيّنون ولا يصلحون قال : ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾ ولا شك أن الكلام المنفي هنا هو ما كان لتكريمهم أما ما كان لتيئيسهم من رحمته ولتوبيخهم على كفرهم به فإنه غير مراد في هذا المقام الكريم ، ولما كان يوم القيامة يوما طويلا وفيه مقامات كثيرة فإنه تَعرض مقاماتٌ يوبّخ الله فيها الكافرين ، وتعرض مقامات لا يكلّمهم وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض هذه المقامات حيث يقول : ﴿قالوا ربنا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال : اخسئوا فيها ولا تُكَلِّمونِ * إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر

لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سِخْريا حتى أَنْسَوْكم ذكري وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ أما العقوبة الثالثة فهي قوله عز وجل: ﴿ولا يزكيهم﴾ أي لا يثني عليهم ولا يمدحهم بل يلعنهم ويمقتهم، أما العقوبة الرابعة فهي ما أعده الله لهم في نار جهنم بقوله عز وجل: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي ولهم عقاب مؤلم موجع. وهذه العقوبات قد ذكرها الله عز وجل في سورة آل عمران وأعدها للذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا حيث يقول عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولَئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقد توعد رسول الله ﷺ على بعض المعاصي بهذه العقوبات، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارٍ، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسْبِلُ، والمنّان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». وفي رواية له: «المسبل إزاره وثوبه أسفل من الكعبين للخيلاء». اهـ وأهل السنة والجماعة يعتبرون مثل هذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف إن وردت على معصية دون الكفر، من نصوص الوعيد، فبعضهم يجريها على ظاهرها تحذيرا وتخويفا كقوله عز وجل في قاتل المؤمن عمدا بغير حق: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ وكقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن». وبعض أهل العلم يفسرون مثل هذه

النصوص فيقولـون في قوله عز وجل في قـاتل المؤمن عمدا: ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ أي إن جازاه بعدله فعل به ذلك وقد يتفضل عليـه بفضله فيعفو عنه لقـوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر مـا دون ذلك لمن يشاء﴾ فجميع المعاصي التي لا يحكم بكفر صاحبهـا خاضعة لمشيئة الله إن شاء غفـر وإن شاء عذب، وإن يعذّب فبعدله وإن يغفر فبفضله، ويقـولون في قول رسول الله ﷺ: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مـؤمن». الحديث. أي وهو كامل الإيمان فإن المعاصي تنقص الإيمان حتى يُخْشَى ذهـابه، وهذا مـن فضل الله وتوفيقه لأهـل السنة والجماعـة حيث لم يضربـوا بعض النصـوص ببعض بخـلاف أهل الأهـواء المنحرفين عن مـذهب أهل السنة والجماعة الـذين يكفرون المؤمنين بالـذنوب التي دون الشرك، أو يـرجئون فيـزعمـون أنه لا تضر مع الإيمان معصيـة مهما كانت. عصمنا الله بفضله عن جميع مذاهب أهل الـزيغ والأهواء. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين اشتروا الضلالة بـالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار﴾ أي إن هؤلاء الـذين يكتمون ما أنزل الله مـن الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا الـذين توعدهم الله بالعقوبات الأربع المذكـورة قد رضوا بتحصيل الضلالة بـدل الهدى والرشاد ورضوا بعذاب الله بدل مغفـرته فما أشد صبرهم على نـار جهنم، وليس المراد إثبـات صبر لهم بل المراد التعجيب من جـرأتهم على ارتكاب ما يدخلهم نار جهنم التي لا يصبر أحد على حر نار الدنيا التي خففت كثيرا عن نـار جهنـم، لكنهم عنـدمـا يُـدَعُّـون في نـار جهنم دَعّـا ويصرخون ويستغيثون فيُيَأَّسُون من رحمة الله ويقـال لهم: ﴿اصْلَوْها فاصبروا أو لا تصبروا سـواء عليكم إنما تجزون مـا كنتم تعملون﴾ وقولـه عـز وجل: ﴿ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق وإن الـذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي ذلك الـذي قصصت عليكم حق لا مرية فيه لأن الله نـزّل القرآن

على محمد ﷺ حقـا وصدقا وجميع ما فيـه حق وصدق و إن الذين يكفـرون به مختلفون متنـاقضون واقعـون في شقاق وتناقض عميـق حيث وصفه بعضهم بأنـه شعر ووصفـه بعضهم بأنه سحـر ووصفه بعضهم بأنـه كهانـة ووصف بعضهم رسول الله ﷺ بأنه مُعَلَّم مجنـون ، وقد أطبق الناس على أن المجنون لا يقبل التعليم .

قال تعالى : ﴿ليس البر أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولَكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنّبيين وآتى المال على حبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسّائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضّراء وحين البأس ، أولَئك الذين صدقوا وأولَئك هم المتقون﴾ .

ما تقدم من أول السورة الكريمة إلى هذا المقام الكريم كان في أصول الدين ، وبيان اختلاف الناس فيه وتقرير الحنيفية ملة إبراهيم وتأكيد أن محمدا رسول الله ﷺ مبعوث بملة إبراهيم عليه السلام وأن من ادعى أنه يتّبع إبراهيم خليل الرحمن ثم يكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام هو في شقاق بعيد شرع هنا يقرر الأحكام الشرعية التفصيلية التي تنظم المجتمع المستمسك بها أحسن تنظيم وتربط بين أفراده بأوثق رباط في جميع الشئون الاجتماعية والجنائية والاقتصادية وأحكام الصيام والحج والقتال وشرب الخمر وأحكام النكاح والطلاق والرضاع والحضانة وعدة المتوفّى عنها زوجها وأحكام خِطبة النكاح وطلاق المرأة قبل المسيس وماذا يجب لها حينئذ مع بيان أحوالها ، والتأكيد على المحافظة على الصلوات الخمس في السلم والحرب ، إلى غير ذلك من الأحكام التي تقيم المجتمع المثالي المشرق المستنير، مما لم يخطر على بال أفلاطون وغيره من الفلاسفة أن يفكّروا في أن يروا ظلاً لمثل هذا المجتمع المتمدّن الراقي ، ولست بمقارن بين تعاليم الإسلام وتعاليم أفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة الإغريق وغيرهم لأن الفرق بينهما كالفرق بين الثرى والثريا وعلى حد قول الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا

وهذه الآية الكريمة التي بدأ الله عز وجل بها هذه التشريعات المشرقة توجّه

الناس عموما والمسلمين خصوصا إلى وجوب الاستمساك بشريعة محمد رسول الله ﷺ ونبذ حثالة أفكار اليهود والنصارى المتناقضة الذين لا يعرفون من الدين المحرّف إلا القشور، ويستمسكون بأمور تناقض مقاصد دين المرسلين ويظنون أن الشيء الذي شرع أو اخترع في وقت من الأوقات التي تناسبه يجب أن يكون مناسبا لجميع الأوقات مع أن الذي شرعه أو اخترعه لم يُرِدْ بقاءه وتأبيده، ومن ذلك استمساك اليهود بالصلاة إلى بيت المقدس واستمساك النصارى بالصلاة إلى المشرق، فبدأ الله عز وجل هذه الآية العظيمة ببيان أن المشرق والمغرب ليس طاعة في ذاته، فجميع الجهات لله عز وجل ولا فضل لجهة على جهة وإنما الفضل في اتباع أوامر الله، فحيث أمر الله عز وجل فالبرّ في طاعة أمره وحيث نهى الله عز وجل فالبر في الانتهاء عما نهى الله عنه، وقد اشتملت هذه الآية المباركة على أصول الدين وقواعد السلوك التي لا عز ولا سعادة إلا بالاستمساك بها وقوله عز وجل: ﴿ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي ليست التقوى والصدق في الدين تولية الوجوه جهة المشرق أو جهة المغرب، ولفظ البر إذا أطلق في الكتاب والسنة صار مرادفا لمسمى الدين ولمسمى الإيمان ولمسمى التقوى، وعطف التقوى على البر في قوله عز وجل: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ ليس من باب العطف بين المتغايرين بل من باب العطف بين المترادفين كما في قول نوح عليه السلام: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ فكل عبادة لله عز وجل وكل تقوى لله عز وجل وكل طاعة لله عز وجل ولرسوله هي من البر، وكلّ عمل صالح يمكن أن يوصف بأنه من البر كما قال رسول الله ﷺ البرّ حسن الخلق، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث النوّاس بن سَمْعان رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطّلع عليه الناس». وكذلك

إذا أطلق لفظ البرّ فإنـه يتناول جميع مـا أمر الله عـز وجل به، وقـد جعل الله تبارك وتعالى البرّ هو التقوى في قـوله تبارك وتعالى: ﴿ولَكنّ البرّ من اتّقى﴾. وقولـه عز وجل: ﴿ ولَكن البرّ من آمن بـالله واليوم الآخر والملائكـة والكتاب والنبيين﴾ هذه خمسة من أركان الإيمان الستة، أمـا الركن السادس من أركان الإيمان وهو الإيمان بالقـدر فقد أشار إليه ربّ العـزة ذو الجلال في نفس هذه الآية الكـريمة بقـوله تبارك وتعـالى: ﴿والصابـرين في البأساء والضرّاء وحين البأس﴾ وذلك لأن الذي يحمل المؤمن على الصبر في هذه المواطن هو الرضى بـالقضـاء والقـدر، كما اشتملت هذه الآيـة الكـريمـة على ركنين من أركـان الإسـلام وهما إقام الصـلاة وإيتاء الـزكـاة، وقد أفـرد الصيام والحج في مقـام قريب في هذه السورة المباركة كما سيجيء قـريبا بدءًا من الآية الثالثة والثمانين بعد المائة، وقد جـاء جبريل إلى رسول الله ﷺ في صورة رجل ليعلم المسلمين أركان الإيمان والإسـلام على طريقـة السؤال والجواب لتركيـز هذه الأركـان في نفوس المؤمنين لما عُلـم في علم التربية والنفس أن طـريقة المحـاورة والسؤال والجواب من أعظم أسباب تثبيت المعلـومات في النفس الإنسانية وتـركيزها، فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قـال: «الإيمان أن تؤمن بـالله وملائكتـه وكتبه ورسلـه ولقائه وتؤمن بالبعث الآخـر»، قال: يا رسول الله ما الإسـلام؟ قال: «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئـا، وتقيم الصلاة، وتـؤتي الزكاة المفـروضة وتصـوم رمضان» قال: يا رسول الله ما الإحسـان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك». قال: يا رسـول الله متى الساعة؟ قال: «مـا المسئول عنهـا بأعلم من السـائل، ولكن سأحدّثـك عن أشراطها، إذا ولـدت المرأة ربتهـا فذاك من أشراطهـا، وإذا كان الحفـاة العـراة رءوس الناس فـذاك من

أشراطهـا، في خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إن الله عنده علم السـاعة وينـزّل الغيث ويعلم ما في الأرحـام﴾ ثم انصرف الرجل فقـال: «ردّوا علي» فأخذوا ليردّوا فلم يـروا شيئا، فقال: «هـذا جبريل جاء ليعلّم النـاس دينهم». وفي لفظ لمسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «سلوني»، فهـابوه، فجـاء رجل فجلس عند ركبتيه فقـال: يا رسـول الله ما الإسلام؟ قـال: «لا تشرك بالله شيئـا، وتقيم الصلاة، وتـؤتي الزكـاة وتصوم رمضان»، قـال: صدقت، قال: يـا رسول الله ما الإيمان؟ قـال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كلّه»، قال: صدقت.. الحديث. كما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال: بينا نحن عنـد رسول الله ﷺ ذات يـوم إذ طلع علينا رجل شـديد بياض الثياب، شـديد سواد الشّعر، لا يـرى عليه أثر السفر، ولا يعـرفه منا أحـد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيـه إلى ركبتيه، ووضع كفّيـه على فخذيـه، وقال: يـا محمد أخبرني عن الإسـلام قال: «الإسـلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسـول الله، وتقيم الصـلاة، وتؤتي الـزكاة، وتصـوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليـه سبيلا»، قال: صدقت، فعجبنـا له يسألـه ويصـدّقـه، قـال: فأخبرني عن الإيمان. قـال: «أن تـؤمـن بـالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخـر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن السـاعة. قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: «أن تلد الأمة ربّتها، وأن تـرى الحفاة العـراة العالـة رعاء الشـاء يتطاولـون في البنيان». قـال: ثم انطلق، فلبثت مليّـا ثم قال لي: «يـاعمـر أتدري من السـائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم». وقوله عز وجل:

﴿ولٰكنّ البرّ من آمن بالله﴾ الآيـة، قال ابن جرير رحمه الله: فإن قـال قائل: فكيف قيل ﴿ولٰكن البر مـن آمن بـالله﴾ وقـد علمت أن (البرّ) فعلٌ و(مَنْ) اسمٌ فكيف يكون الفعل هو الإنسان؟ قيـل: إن معنى ذلك غير ما توهَّمْتَهُ، وإنما معنـاه: ولكنَّ البِرَّ بِرُّ مَنْ آمـن بالله واليـوم الآخر فـوضع (مَن) مـوضع الفعل اكتفاء بدلالته ودلالة صلتـه التي هي له صفة من الفعل المحذوف كما تفعلـه العرب فتضع الأسماء مـوضع أفعـالها التي هي بها مشهورة، فتقـول: الجودُ حـاتمٌ، والشجـاعـة عنترة، وإنما الجود حـاتمٌ والشجـاعـة عنترة. ومعناهـا: الجود جود حاتم فتستغني بذكـر حاتم إذ كان معروفـا بالجود عن إعادة ذكر الجود بعد الذي قد ذكرته، فتضعه موضع جوده لدلالة الكلام على ما حذفتـه، استغناء بما ذكرته عما لم تذكره كما قيل: ﴿واسأل القـرية التي كنا فيها﴾ والمعنى: أهل القرية، وكما قال الشاعر وهو ذو الخِرق الطُّهَوي:

حسبتَ بُغام راحلتي عناقًا ... وما هـي ويب غيركَ بالعنـاق

يريد: بغـام عناق أو صوت عناق، كما يقـال: حسبت صياحي أخاك، يعني به حسبت صيـاحي صياح أخيك. وقد يجوز أن يكـون معنى الكلام: ولكنّ البارّ من آمن بالله فيكون (البر) مصدرا وضع موضع الاسم اهـ. والمراد بالكتاب في الآية مـايشمل جميع الكتب المنزّلة من الله على رسله حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على مـا قبله من الكتب الذي انتهى إليه كلّ خير واشتمل على كل سعـادة في الـدنيـا والآخـرة ونسخ الله بـه كل مـا سـواه من الكتب قبلـه، وقـولـه: ﴿والنبيين﴾ يشمل وجـوب الإيمان بجميع الأنبيـاء والمرسلين لما ذكرتـه في تفسير الآية الحادية والستين مـن هذه السورة الكـريمة بأن كلّ رسول نبي فمن آمن بجميع الأنبياء فقد آمن بجميع المرسلين، وقوله عز وجل: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى المساكين وابن السبيل والسـائلين وفي الرقـاب﴾ أي وبـذل المال وهو لـه محبّ وهـو عليه حـريص

فأنفقه على أقـاربه المحتـاجين وعلى اليتامى وهم من مـات آباؤهم وهم دون البلوغ، وعلى المسـاكين وهـم الذين لا يجدون شيئـا أو يجدون مالا يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم. وقد تقدم مزيـد بيان لذلك في تفسير الآية الثالثة والثمانين من هذه السـورة المباركـة. والمراد بابن السبيل الغـريب المنقطع عن أهله ومـاله وهو المسـافر المجتاز فيُعْطَى من المال ما يـوصله إلى بلده ومـاله، وإنما سمّي بـابن السبيل أي ابن الطـريق، لملازمته السير على الطـريق كأن الطريق ولـدته، والمراد بالسائلين في الآيـة الكريمة هم الذين يسألـون الناس ويطلبـون منهم مـدّ يـد العـون لهم ولا يلـزم المعطي أن يتحـرّى عنهم قبل إعطائهم وقد حذّر الله تبارك وتعالى من زجرهم ونهرهم حيث قال عز وجل: ﴿وأما السائل فلا تنهـر﴾ والمراد بالرقاب في قوله عـز وجل: ﴿وفي الرقاب﴾ أي وفي تحرير العبيد والإماءوفي مساعـدة المكاتبين في دَين كتابتهم، وفي هذا لفت انتباه الناس إلى أنّ دين الإسلام قـد وضع للناس أعلى درجات التكافل الاجتماعي، فلله الحمد والمنة. وقد أشار الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿وآتى المال على حبه﴾ إلى أن الذي يبذل المال وهو لـه محبّ ليس كالذي يبذل المال وهو غير محب له لسبب من الأسباب كأن يكون المال رديئا كحشف التمر وشيصه ونحوه مما لـو عرض عليه ما أخذه إلا أن يغمض فيـه، أو أن يكون سفيها لا يعرف قدر المال أو مبذّرا ينشر يمينا وشمالا بدون وعي، وبهذا يلفت الإسلام انتباه الناس إلى أنـه ينبغي لهم المحافظة على أموالهم ومعـرفة فضل الله عليهم فيها فلا ينفقونها إلا فيما يعود عليهم بالخير في دينهم ودنياهم حتى وصف الله عز وجل المال بأنه قوام الحياة حيث يقول: ﴿ولا تؤتوا السّفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيـاما﴾ وقد وصف الكعبـة البيت الحرام بنفس هذا الـوصف حيث قال: ﴿جعل الله الكعبـة البيت الحرام قياما للنـاس﴾ ولذلك وصف رسـول الله صلى الله عليـه وسلم الـذي يتصـدق وهـو صحيح شحيح بأن

صدقته أعظم أجرا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيّ الصّدقة أعظم أجرا؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيحٌ تخشى الفقر وتأمُل الغنى، ولا تمهلُ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان». اهـ وليس هذا حضا على الشح فإن الشح مهلك كما قال عز وجل: ﴿ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ كما روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتّقوا الشحّ فإن الشحّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم»، إذ المقصود من قول رسول الله ﷺ: «أن تصدّق وأنت صحيح شحيح» هو أنّ من كان بهذه المثابة كان بذله للمال دليلا على حرصه على الخير والنفقة في هذا الوجه الذي بذل فيه وأنه استطاع أن يقاوم من نفسه دواعي الحرص وتغلب عليها فلذلك كان أعظم أجرا، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن البررة يحبون المال ويبذلون أغلاه عند أنفسهم في مرضاة الله وفي المواضع التي أمرهم الله عز وجل بالإنفاق فيها حيث يقول: ﴿إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا* عينا يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ وقال عز وجل: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا، وكان أحبّ أمواله إليه بيرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيّب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول:

﴿لن تنالـوا البرّ حتى تنفقوا مـا تحبّون﴾ وإن أحبّ أمـوالي إليّ بيرُحاء، وإنها صدقة لله أرجو برّها وذخرهـا عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ ذاك مالٌ رابـح ذاك مالٌ رابح، وقد سمعتُ، وأنـا أرى أن تجعلهـا في الأقـربين» فقال أبـو طلحـة: أفعل يـا رسـول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربـه وبني عمه. كما جاء في الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه أنه قال يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني بـه؟ قال: «احبس الأصل وسبّل الثمرة».
ولذلك أخبر رسـول الله ﷺ أنّ أفضل الرقـاب التي يحررها الإنسـان ويفكّها من قيد الرّقّ هي أغلاها ثمنـا وأنفَسُها عند أهلها فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ العمل أفضل؟ قـال: «إيمانٌ بالله، وجهـاد في سبيله»، قـال: قلت: فأيّ الرقـاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «تُعينُ صانعاً أو تصنعُ لأخرقَ». قلت: فـإن لم أفعل؟ قال: «تدَعُ الناس من الشر فإنها صدقة تصدّقُ بها على نفسك». وقولـه عز وجل: ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ أي وأدّى الصلاة وأتم أفعالها في أوقاتها بركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله وفعله. والزكاة هنا تحتمل أن يراد بها تطهير النفس من أدنـاس الشرك والمعاصي والأخـلاق الرذيلـة على حد قـوله تعالى: ﴿قد أفلح من زكـاها * وقد خاب من دسّاها﴾ وقـوله تعالى في سورة فُصّلت وهي مكية: ﴿وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون﴾ وكما ذكر الله عز وجل من قول موسى عليه السلام لفرعون لعنه الله: ﴿هل لك إلى أن تَزَكّى﴾ وتحتمل أن يـراد بالزكاة هنـا زكاة المال، ويكون قـولـه عـز وجل قبل ذلك في نفس هـذه الآيـة: ﴿وآتى المال على حبـه ذوي القربـى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل والسائلين وفي الـرقاب﴾ إمـا لبيان

بعض مصارفها قبل ذكرها في الآية أو أن المقصود هو التطوع والبرّ والصلة لهؤلاء المذكورين، ولا شك أن ذوي القربى واليتامى إذا كانوا فقراء ولا تجب نفقتهم على الإنسان فإن إعطاءهم من مال الزكاة أكبر فضلا وأعظم أجرا.

وقوله عز وجل: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ أي وأهل البر كذلك هم الذين إذا عاهدوا الله أو عاهدوا أحداً من خلقه، يوفون بعهدهم ويتمّونه على ما عاهدوا عليه من عاهدوه، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه الكريم ووصفهم بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق كما وسم المنافقين والكافرين الفاسقين فجعل أول صفاتهم أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وقد جعل رسول الله ﷺ من صفات المنافق أنه إذا عاهد غدر، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ مَن كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدَعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وقوله عز وجل: ﴿والصابرين في البأساء والضّراء وحين البأس﴾ فيه لفت انتباه لمنزلة الصابرين المؤمنين بقضاء الله وقدره المحتسبين ما يصيبهم عند الله عز وجل، وقد جاء هذا التنبيه بنصب الصابرين على المدح، وقطعهم في الإعراب عما قبلهم، وهذا شبيه بقوله عز وجل في الإشعار بعلوّ منزلة المصَلِّين: ﴿لكِنِ الراسخون في العلم منهم، والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾ فقد كان نسق الكلام أن يقال: والمقيمون الصلاة، بالرفع عطفا على قوله: ﴿والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ فقطع النّسق ونصب المقيمين الصلاة على المدح والاختصاص. وكذلك هنا كان مقتضى النّسق أن يقال: والصابرون في

البأساء والضراء وحين البأس بالرفع عطفـا على قوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عـاهـدوا﴾ فلما قطع النسق ونصبه على المدح عُـرف أن المقصـود هـو لفت الانتباه إلى علو منزلة الصابـرين في هذه المواطن الثلاثة وهي البأساء والضراء وحين البأس. قـال الراغب: ولما كـان الصبر من وجـهٍ مبدأً للفضـائل ومن وجهٍ جامعا للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيهـا أثر بليغ غيَّر إعرابه تنبيها على هذا المقصـــود اهـ. والبأسـاء هي الفقـر أو الجوع أو الحاجة، والضراء المرض والوجع، ومعنى: ﴿وحين البأس﴾ أي ووقت شـدة القتال في الحرب في سبيل الله وعنـد لقاء العـدو. وقـوله عـز وجل: ﴿أولئك الـذين صدقـوا وأولئك هم المتقون﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم الذين صدقوا الله في إيمانهم، وطـابقت أقوالهم أفعـالهم وهم المتقـون حقـا وصدقـا لا من ولّى وجهه قِبل المشرق والمغرب وهو يخالف أمر الله عز وجل في القبلة التي أمر الله عز وجل بها، وينقض عهـد الله من بعد ميثاقه، وقد ختـم الله تبارك وتعالى هذه الآية الكـريمة العظيمة بهذين الـوصفين الجليلين وهما الصدق والتقوى التي أكّـد الله عـز وجل في مـواضع من كتـابـه الكـريم أن المتصفين بهما هم المفلحون الفـائزون وأشار في قصة الثـلاثة الذين خُلِّفـوا وتاب الله عليهم إلى ذلك بقولـه: ﴿يا أيها الـذين آمنوا اتقـوا الله وكونـوا مع الصادقين﴾ وبين أن العـاقبـة الحسنـى للمتقين حيث يقـول: ﴿والعـاقبـة للتقـوى﴾ ويقـول: ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ويقول: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾ ولذلك لوحظ أن الله قَصَرَ هُدى كتابه الكريم على المتقين حيث قال في مطلع سورة البقـرة: ﴿ذٰلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ وكما أنـه ختم آية البرّ هنا بقوله: ﴿وأولئك هم المتقون﴾ ختم تشريع القصاص بقوله: ﴿ولكم في القصـاص حيـاة يا أولي الألبـاب لعلكم تتقـون﴾ وقـال في ختـام تشريع الوصية: ﴿حقّا على المتقين﴾ وقال في تذييل الآية الأولى في تشريع الصـيام:

﴿لعلكم تتقون﴾ كما قال في ختام تشريع الصيام : ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ وهكذا يبين الله عز وجل أن المقصود من تشريع الأحكام هو تربية النفس على تقوى الله عز وجل لتفوز بعز الدنيا وسعادة الآخرة، قال ابن تيمية رحمه الله عن آية البرّ: وهذه الآية عظيمة جليلة القدر، من أعظم آي القرآن وأجمعه لأمر الدين اهـ وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة : قال علماؤنا : هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام لأنها تضمنت ستّ عشرة قاعدةً: الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار والملائكة والكتب المنزّلة وأنها حق من عند الله، والنبيين، وإنفاق المال فيما يَعِنُّ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم، وتفقّد اليتيم وعدم إهماله، والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل والسؤّال وفكّ الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب اهـ.

قـال تعالى : ﴿يـا أيها الـذين آمنوا كتب عليكم القصـاص فى القتلَى الحرّ بـالحرّ والعبد بـالعبد والأنثى بـالأنثى ، فمن عُفي له من أخيـه شيء فاتّبـاع بـالمعروف وأداءٌ إليـه بإحسان ، ذٰلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتـدى بعد ذٰلك فله عذاب أليم﴾ ولكم فى القصـاص حياة يا أولى الألباب لعلّكم تتقون﴾ .

كانت بنو اسرائيل إذا قتل لهم قتيل لم يكن لهم حقٌّ في الدية ويقتصون من القاتل ، وكانت بعض القبائل العربيـة إذا قُتل لهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله فقط بل يتجـاوزون حـد القصاص فيقتلـون بـدل المرأة رجلا وبـدل الـرجل رجلين أو أكثر وبدل العبد حرا ولا يرضون بالمماثلة والقصاص فبين الله تبارك وتعـالى هنا أنـه شرع لهم القصـاص وخفّف عنهم الإصر الذي كـان على من قبلهم فشرع لـولي القتيل أن يتجاوز عن القصـاص ويقبل الدية ويعفـو عن قتل القاتل ، كما حذرهم من بغي أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون بدل المرأة رجلا وبدل الـرجل أكثر من رجل وبدل العبد حرّا فقـال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ الآيـة والخطاب هنا وإن كان مـوجّها لعمـوم المؤمنين الـذين يكوّنـون مجتمع الـرحمة والعدل فإن المقـصود بالخطـاب هو الحاكم الشرعي والسلطـان لأنه هو الـذي عليه تنفيـذ أحكام الشريعـة إذ لا يجوز قطعـا لمن قتل لـه قتيل أن يقتـل القـاتل إلا بعـد الحكم الشرعي على القـاتل بالقتل وبعـد أن يقدّم وليّ أمـر المسلمين القاتل لأوليـاء القتيل ويمكنهم من قتله معـرّفا لهم أنّ لهم الحقّ في قتله بقتيلهم الـذي قتله وأن لهم الحقّ أيضـا في العفـو وأن يأخـذوا الـديـة ، وليس لهم سـوى ذلك ، ولذلك جعل الله تبـارك وتعالى أعتى النـاس وأبغضهم عند الله من قتل غير قاتله أي من قتل رجلا وهو غير القـاتل الذي قتل قتيله ، فقد روى البخاري من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «أبغض الناس إلى

الله ثلاثة : ملحدٌ في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية ومُطَّلِب دم امرئ بغير حق ليهريق دمهُ». كما روى ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «وإنّ أعتى الناس على الله ثلاثةٌ : من قَتَل في حرم الله، أو قتل غير قاتله أو قتل لذحل الجاهلية» ومعنى قوله في الحديث : «أو قتل غير قاتله» أي أو سفك دم إنسان لم يقتل له قتيلا وإنما الذي قتل هو غيره حيث كان أهل الجاهلية لا يكتفون بقتل القاتل وإنما يقتلون معه بعض أقاربه البُرَآء من الجريمة بل كانوا يأخذون الجار بجاره والحليف بحليفه، ولذلك جاء النص الكريم في هذا المقام ببيان أنه لا يجوز أن يقتل بالحر أكثر من حر ولا أن يقتل بالمرأة أكثر من امرأة ولا أن يقتل بالعبد أكثر من العبد الذي قتله حيث قال عز وجل : ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ وليس في هذا النص نفي لقتل العبد بالحر، أو الحر بالعبد، ولا لقتل الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل فالآية الكريمة إنما جاءت مُبَيِّنَةً لحكم النوع إذا قتل نوعه فبينت حُكم الحُرِّ إذا قتل حرا، والعبد إذا قتل عبدا، والأنثى إذا قتلت أنثى، ولم تتعرض لأحد النوعين إذا قتل الآخر، وهي محكمةٌ وفيها إجمال بينه الله عز وجل بما كتبه في التوراة بقوله عز وجل : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ وهي وإن كانت في شرع مَنْ قبلنا فقد بَيَّنَها النبي ﷺ بسنته التي تقرر أنها كذلك شَرْعٌ لنا حيث قَتَلَ اليهوديَّ الذي قتل المرأة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن جاريةً وُجِدَ رأسها قد رُضَّ بين حجرين، فسألوها : من صنع بك هذا؟ فلان ؟ فلان؟ حتى ذكروا يهوديا، فأومأت برأسها، فأُخِذَ اليهودي فأقَرَّ، فأمر رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بين حجرين. ولا شك عند أهل العلم أن شرع من قبلنا إذا ورد في شرعنا نسخه فلا يكون شرعا لنا بالإجماع، وإذا ورد في شرعنا ما يقرر أنه شرع لنا كان شرعا لنا بالإجماع،

وإنما اختلف أهل العلم في شرع من قبلنا إذا لم يرد دليل من شرعنا بإثباته أو نفيه فهل يكون شرعا لنا؟ وقتل النفس بالنفس قد تقرر في شرعنا في نصوص كثيرة منها حديث الصحيحين المتقدم في قتل اليهودي قصاصا لقتله الجارية، كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنّفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وليس معنى قوله عز وجل: ﴿كتب عليكم القصاص﴾ أي أنه فرض فرضا لازما لا يجوز تركه بل المراد أنه إذا رُفع إلى الحاكم الشرعي وقضى بالقصاص وأصرّ أولياء القتيل على تنفيذ القصاص وجب وتحتّم على ولي الأمر أن ينفذه، فإذا رضي أولياء القتيل بالعفو وأخذ الدية بدل القصاص فلهم ذلك شرعا وإلى هذا يشير قوله عز وجل في نفس هذه الآية: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان ذٰلك تخفيفٌ من ربكم ورحمة﴾ وبهذا التخفيف وضع الله عز وجل عنا الإصر الذي كان على أهل الكتاب من قبلنا، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق مجاهد قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ﴿فاتّباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان﴾ يتّبع بالمعروف ويؤدي بإحسان ﴿ذٰلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فمن اعتدى بعد ذٰلك فله عذاب أليم﴾ قتل بعد قبول الدية اهـ وأصل القصاص مأخوذ من قصّ الأثر وهو اتّباعه ومنه القاصّ لأنه يتّبع الآثار والأخبار، كأن القاتل سلك طريقا من القتل فقُصَّ أثَرُه فيها ونُفِّذ فيه ما نَفَّذه في القتيل، ولذلك يُقْتَصُّ من

القاتل على وجه المماثلة إذ هي المعنى التام للقصاص، ولذلك يُقْتَصُّ في الجروح التي تتأتي فيها المماثلة وكذلك الأعضاء كما قال عز وجل: ﴿والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسّنّ بالسّنّ والجروح قصاص﴾ وقد أكّد رسول الله ﷺ أن هذا الحكم صار شرعا لنا فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن الرّبيّع بنت النضر عَمَّته كسرت ثَنِيَّة جارية فطلبوا إليها العفو فأَبَوْا فعرضوا الأَرْش فأَبَوْا، فأَتَوْا رسولَ الله ﷺ فأَبَوْا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتُكْسَر ثَنيّة الرّبيّع؟ لا، والذي بعثك بالحق لا تُكْسَرُ ثَنيّتها، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاصُ» فرضي القوم فعفَوْا، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبرَّه» وقوله عز وجل: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباعٌ بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ أي فإذا عفا أحد ورثة القتيل وأوليائه عن القاتل وتركوا القصاص ورضُوا بالدية سقط القصاص ووجب على القاتل دفع الدية بإحسان، وتنكير (شيء) في قوله: ﴿فمن عُفِيَ له من أخيه شيءٌ﴾ يفيد سقوط القصاص بالعفو عن بعضه ومن بعض الورثة فمتى عفا أحد من الورثة عن القصاص من القاتل سقط القصاص ولو لم يرض الباقون من الورثة، ولا شك أن هذا من فضل الله ورحمته وتخفيفه على أمة محمد ﷺ وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية العفو عن القصاص من الصدقات التي يُتَقَرَّب بها إلى الله عز وجل ولذلك قال عز وجل: ﴿فمن تصدّق به فهو كفارة له﴾. وفي التعبير بقوله: ﴿من أخيه﴾ إيذان بأن القتل لا يقطع أخوّة الإيمان، وهو من أدلة أهل السنة والجماعة على أن قاتل العمد لا يخرج من الإسلام ولا يكون مرتدا بهذه الجريمة النكراء التي ذكر رسول الله ﷺ أنها أوّل ما يُقْضَى بين الناس فيه يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أوّل ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» لكن الله تبارك وتعالى بين في موضعين من كتابه الكريم أنه لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء حيث قال: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وقال عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: رحم الله هذه الأمّة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعَفْو ليس بينهم أَرْش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أُمِرُوا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش اهـ وقوله عز وجل: ﴿فمن اعتدى بعد ذٰلك فله عذاب أليم﴾ أي فمن اعتدى من أولياء القتيل على القاتل بعد قبول الدية ولو من بعض الورثة فلهذا المعتدي عقوبة عند الله يوم القيامة مؤلمة موجعة. وكذلك من اعتدى من أولياء القتيل وتجاوز ما شرع الله من القصاص فقتل غير القاتل كما كان يفعل أهل الجاهلية فإن الله يعذبه يوم القيامة عذابا مؤلما موجعا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولكم في القصاص حياةٌ يا أُوْلي الألباب لعلكم تتقون﴾ أي ولكم في مشروعية القصاص حياة يا ذوي العقول لكي تعرفوا فضل الله عليكم فتأتمروا بأمره وتنتهوا عما نهاكم عنه وتقفوا عند حدوده التي شرعها لكم لتفوزوا بعز الدنيا وسعادة الآخرة ومرضاة الله. والمراد بالقصاص هنا ما يعم القصاص في النفس والقصاص في الأعضاء والجروح، فإن من أراد قتل شخص ثم تذكر أنه إن قَتَلَه أُخِذَ وقُتِلَ مكانه واقتُصَّ منه ارتدع عن القتل فكان ذلك الحكم سببا لحياته وحياة من كان قد عزم على قتله، وكذلك من أراد قطع عضو من أخيه أو جرحه وتذكر أنه سَيُقْتَصّ منه إن فعل ذلك ارتدع كذلك فكان سلامة له ولأخيه، ولذلك

نكّر الحياة حيث قال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ ليدلّ على أن في هذا الحكم نوعًا من الحياة عظيما لا يبلغه الوصف، وكون القصاص وهو قتل القاتل حياةً بيانٌ لمحاسن هذا الحكم المذكور على وجه بلغ ذروة البلاغة حيث جعل الشيء وهو القصاص محلاّ لضده وهو الحياة، قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعنى بالغة إلى أعلى الدرجات؛ وذلك لأن العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم: قَتْلُ البعض إحياءٌ للجميع، وقول آخرين: أكثروا القتل ليقل القتل، وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم: القتل أنفى للقتل، ثم إنّ لفظ القرآن أفصح من هذا، وبيان التّفاوت من وجوه: (أحدها) أن قوله: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أخصر من الكل، لأن قوله: «ولكم» لا يدخل في هذا الباب إذ لا بد في الجميع من تقدير ذلك، لأن قول القائل: قَتلُ البعض إحياءٌ للجميع، لا بد فيه من تقدير مثله وكذلك في قولهم: القتل أنفى للقتل، فإذا تأملت علمت أن قوله: ﴿في القصاص حياة﴾ أشد اختصارا من قولهم: القتل أنفى للقتل (وثانيها) أن قولهم: القتل أنفى للقتل ظاهره يقتضي كون الشيء سببا لانتفاء نفسه وهو محال، وقوله: في القصاص حياة، ليس كذلك، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص، ثم ما جعله سببا لمطلق الحياة لأنه ذكر الحياة منكّرة بل جعله سببا لنوع من أنواع الحياة (وثالثها) أن قولهم: القتل أنفى للقتل، فيه تكرار للفظ القتل وليس قوله: ﴿في القصاص حياة﴾ كذلك (ورابعها) أن قول القائل: القتل أنفى للقتل لا يفيد إلا الردع عن القتل وقوله: ﴿في القصاص حياة﴾ يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد (وخامسها) أن نفي القتل مطلوب تبعا من حيث إنه يتضمن حصول الحياة وأما الآية فإنها دالّة على حصول الحياة وهو مقصود أصلي فكان هذا أولى

(وسـادسها) أن القتل ظلما قتل مـع أنه لا يكـون نافيـا للقتل بل هـو سبب لزيادة القتل ، إنما النـافي لوقوع القتل هو القتل المخصـوص وهو القصاص ، فظاهر قولهم بـاطل ، أما الآية فهي صحيحة ظاهرا وتقـديرا ، فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب اهـ .

قال تعالى : ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصيّة للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين* فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه، إنّ الله سميع عليم* فمن خاف من موصٍ جنفًا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم﴾

هذا بيان لحكم آخر من الأحكام الشرعية التي ينظّم بها الإسلام تصرفات الإنسان في أمواله على وجه يرضي أرحم الراحمين، ويدْفع عن الإنسان أوضار الجنف والإثم ويربط بين المسلم وذوي قرباه برباط من الحب والعدل، بعد أن أشار في آية البر إلى أن من أعظم أماراته إيتاء المال على حبه ذوي القربى، وبعد أن أشار في آية القصاص إلى أن المال قد يكون بديل النفس، وقوله عز وجل: ﴿كتب عليكم﴾ أي فرض عليكم أيها المؤمنون ومعنى : ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي إذا نزل بواحد منكم مقدّمات الموت التي يُحَسّ بها أنه على وشك فراق الحياة الدنيا والانتقال إلى الدار الآخرة، وقد تقدم نحوه في قوله عز وجل : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوبَ الموتُ﴾ وقد قال الشاعر:

يا أيها الراكب المُزْجِي مطيّته سائِلْ بني أسد ما هذه الصّوت

وقل لهم بادروا بالعذر والتمسوا قولا يبرّئكم إنـي أنا الموت

وكما قال عنترة:

وإن الموت طوع يَدِي إذا ما وصلت بنانها بالهنْدُوانِ

يريد أنه إذا قبض بيده على سيفه الهندوانيّ يعني المصنوع في الهند حضر الموتُ أعداءه فكأَن الموت في يده، وقوله عز وجل: ﴿إن ترك خيرا﴾ أي إن خلّف مالاً. والتعبير بالخير عن المال إشعار بأنه نعمة جليلة من الله عز وجل وفيه ردّ على من زعم الزهادة وترك أسباب اكتساب المال، وقد يضطره الحال

إلى السؤال الـذي أخبر رسول الله ﷺ أنـه يأتي في وجـه صاحبـه كُدُوحـا يوم القيـامة فقـد روى البخاري ومسلـم في صحيحيهما من حديث عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تـزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعـالى وليس في وجهه مُـزْعةُ لحم» كما روى أبـو داود والنسائي والترمـذي وقال: حـديث حسن صحيح، من رواية سَمُرَة بن جُنْـدُب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما المسـائل كُدُوحٌ يكدح بها الرجلُ وجهَـه، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك» الحديث، وقد سمّى القرآن الكريم المال خيرا في مـواضع شتـى حيث يقـول الله عــز وجل: ﴿ومـا تنفقـوا من خير فلأنفسكم، ومـا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقـوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمـون﴾ وقال عن موسـى عليه السلام: ﴿فسقى لهما ثـم تولّى إلى الظل فقال: ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وإنه لحبّ الخير لشديـد﴾ وليس معنى ذلك أن الإنسان يجعل جمع المال كلّ همه، بل عليـه أن يسأل الله عز وجل أن لا يجعل الـدنيا كلّ همه ولا مبلغ علمـه، وأن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. وقوله عـز وجل: ﴿ الـوصية للـوالـدين والأقـربين بالمعـروف﴾ أي فـرض عليكم الوصيـة فهي مرفـوعة على أنها نـائب الفاعل وحذفت التـاء من «كتب» لأن الوصية ليست مؤنثا حقيقيا فيجوز إلحاق التاء وحذفها في مثل هذا التركيب، والفـاعل في الأصل هنـا هو الله عـز وجل: أي كتب اللهُ عليكم الـوصيـةَ، ويجوز أن تكون الوصيـة مرفوعة على أنها مبتدأ وخبره للوالـدين وتكون الجملة في موضع رفع بـ«كُتِبَ» كما تقول: قيل عبد الله قائم فقولك: عبد الله قائم، جملة من مبتدأ وخبر وهي في موضع رفع بقيـل. وأصل الوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويُعْهَد به في الحياة وبعد الموت ثم خصّصها العُرْف بما يُعْهَد بفعله وتنفيذه بعد الموت، ومن هـذا الاستعمال الخاص الشرعي للوصية هذه

الآية الكريمة التـي صارت تعرف بآية الوصية، وليس في القـرآن الكريم ذكر للوصيـة إلا في هذه الآية الكريمـة وفي سورة النساء في قولـه عز وجل: ﴿من بعـد وصية﴾ وفي سـورة المائدة: ﴿إذا حضر أحـدَكم الموتُ حين الوصيـة﴾ وقولـه عز وجل: ﴿للوالـدين والأقربين﴾ أي للـوالدين والأولاد وغيرهم من ذوي القرابـة. وقوله عـز وجل: ﴿بالمعروف﴾ أي بطـريقة جميلة خـالية عن شوائب القطيعـة. قال الفخر الرازي: أمـا قوله: ﴿بـالمعروف﴾ فيحتمل أن يكون المراد منه قدر ما يوصي بـه ويحتمل أن يكون المراد منه تمييز من يوصي له من الأقربين ممن لا يـوصي لأن كلا الوجهين يـدخل في المعروف فكأنـه تعالى أمره في الـوصية أن يسلك الطـريق الجميلة، فإذا فـاضل بينهم فبـالمعروف، وإذا سـوّى فكَمِثْلٍ، وإذا حرم البعض فكَمِثْلٍ لأنـه لو حـرم الفقير وأوصى للغني لم يكن ذلك معروفا ولو سـوّى بين الوالدين مع عظم حقهما وبين بني العم لم يكن معروفا، ولو أوصـى لأولاد الجدّ البعيد مع حضور الإخوة لم يكن ما يأتيه معروفا، فالله تعالى كلّفه الـوصية على طريقة جميلة خالية عن شوائب الإيحاش، وذلك من باب مـا يعلم بالعادة فليس لأحد أن يقـول: لو كانت الوصية واجبة لم يشترط تعالى فيه هذا الشرط الذي لم يمكن الوقوف عليه، لما بيّنّا اهـ وقولـه تعالى: ﴿حقـا على المتقين﴾ أي ثبت ذلك ثبوتـا، وتخصيص المتقين بهذا لأنهم هم أهل هدى القرآن الكريم كما تقدم وقد علم بالإجماع أن جميع الواجبات وسائر التكاليف هـى عامة في حق المتقين وغيرهم، والظاهر أن هذه الآيـة الكريمة الـدالة على وجوب الـوصية نـزلت قبل آيات المواريث التي حدّدت لكـل ذي حق من الورثـة حقه، يأخذه حتما مـن غير وصية ولا تَحَمُّلِ مِنَّـةِ المُوصي حيث يقول الله تبـارك وتعالى: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم للـذكـر مثلُ حظ الأنْثَيَيْن فإن كنّ نسـاء فـوق اثنتين فلهن ثلثا مـا تـرك وإن كانت واحدة فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان

له ولدٌ، فإن لم يكن له ولـدٌ وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان لـه إخوة فلأمه السدس، من بعـد وصية يوصي بها أو دين، آباؤكم وأبنـاؤكم لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً، فريضـة من الله، إن الله كان عليما حكيما﴾ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولـدٌ، فإن كان لهن ولـدٌ فلكم الرُّبُع ممـا تركن، من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهن الـربُع مما تركتم إن لم يكن لكم ولدٌ، فإن كان لكم ولدٌ فلهن الثُّمُن مما تـركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين، وإن كـان رجل يـورَثُ كـلالـةً أو امـرأةٌ ولـه أخ أو أخت فلكل واحـد منهما السـدس، فإن كانـوا أكثـر من ذٰلك فهم شركـاء في الثلث، من بعد وصيـة يُوصَى بها أو دين غير مُضَارّ، وصية من الله، والله عليم حليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكـلالة، إن امرؤ هلك ليس لـه ولد وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يـرثها إن لم يكن لها ولدٌ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثـان ممـا تـرك، وإن كـانوا إخـوة رجـالا ونسـاءً فللـذكـر مثل حظ الأنثيين، يبيّن الله لكم أن تضلّوا، والله بكل شيء عليـم﴾ والمراد بمن يورث كلالة في قوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت﴾ يعني من الأم فقط ولذلك تتسـاوى فيه المرأة والرجل ولا يـزيدون عن الثلث من التركة. والمراد بـالكلالـة في قولـه تعالى: ﴿قل الله يفتيكم في الكـلالة﴾ فالمراد بالأخت فيها أو الأخ ما كانا شقيقين أو لأب. وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يجوز لأحد من الورثة أن يستـأثر بشيء من الميراث دون سائر الورثة مهما كان فلا تختص البنت بما يحتـاجه النساء ولا يختص الرجل بما يحتاجـه الرجال من سيف أو غيره حيث يقول عـز وجل: ﴿للرجال نصيب مما تـرك الوالدان والأقربـون وللنساء نصيب ممـا ترك الوالـدان والأقربـون مما قلّ منـه أو كثر، نصيبا مفروضا﴾ وقـد رفع الإسلام ــ بوجوب الوصيـة للوالدين والأقربين ثم بـآيات المواريث ـــ مـا كـان يصيب المرأة من ظلم في الجاهلية حيث كـانت

تـورث ولا تَرث ويختص الـرجـال بالمال بـدعـوى أن المال لمن يحمي الذِّمَـار ويدافع عن القبيلة، فلله الحمد والمنة. ولما نزلت آيات المواريث التي سقتها قـال رسول الله ﷺ: «لا وصيـة لـوارث». فقـد روى الترمذي وقـال: هـذا حديث حسن صحيح، من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله قـد أعطى لكل ذي حق حقّه فلا وصية لـوارث». وقد تفضل الله تبـارك وتعـالى فجعل لـلإنسان حقـا أن يـوصي لغير الـوارثين من أقـاربه بما لا يـزيد على الثلث من مـالـه طُعْمَةً من الله عـز وجل له وتطييبا لخواطر ذوي قـرباه وصلة لرحمهم، ولـذلك لو أوصى لغير ذوي قربـاه وحَرَمَ ذوي القـربى صحت وصيته وكـان مسيئا كما أكّـد ذلك عامـة أهل العلم، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: لو غضّ الناس من الثلُث إلى الرّبُع، فقد روى البخـاري ومسلم من حديـث ابن عباس رضي الله عنهما قـال: لو غضّ الناس إلى الرُّبُع لأن رسول الله ﷺ قال: «الثلث والثلث كثير أو كبير». وابن عباس رضي الله عنهما يشير بذلك إلى ما قاله رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه قـال: جاء النبي ﷺ يعـودني وأنا بمكـة وهو يكـره أن يموت بـالأرض التي هاجـر منها، قـال: «يرحم الله ابن عفـراء»، قلت: يا رسـول الله أوصي بمالي كله؟ قـال: «لا» قلت: فـالشطر؟ قـال: «لا» قلت: الثلث؟ قال: «فـالثلث، والثلث كثير، إنك أن تَدَعَ ورثتـك أغنياء خير من أن تدَعهم عالَةً يتكفّفُون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة التي تـرفعها إلى في امرأتك، وعسى الله أن يرفعك فينتفعَ بك ناسٌ، ويُضَرَّ بك آخرون». ولم يكن له يومئذ إلا ابنة، وفي لفظ للبخاري من حديث سعـد رضي الله عنه قـال: مرضت فعـادني النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله ادع الله أن لا يردّني على عقبي. قـال: «لعل الله يرفعُك وينفعُ بك

ناسًـا». قلت: أريد أن أوصي وإنما لي ابنة، قلت: أوصي بـالنصف؟ قال: «النصف كثير»، قلت: فالثلث؟ قـال: «الثلث والثلث كثير أو كبير» قال: فأوصى الناس بـالثلث وجاز ذلك لهم. أمـا مسلم رحمه الله فقد أخـرج هذا الحديث بعدة ألفاظ، منها: قال: عـادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع من وجع أشفَيْتُ منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغنـي ما ترى من الوجع وأنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحـدة، أفأتصدق بثلثَيْ مالي؟ قال: «لا». قال: قلت: أفـأتصدق بشطره؟ قـال: «لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تـذر ورثتك أغنياء خير من أن تـذرهم عـالـة يتكففون النـاس». الحديث. وقول رسول الله ﷺ في حديث الصحيحين هذا لسعد رضي الله عنه: «وعسى الله أن يـرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخـرون». معجزة من معجـزات رسول الله ﷺ ممـا أطلعه الله عليـه مِن غَيْب فإن سعدا رضي الله عنـه لم يمت حتى فتح الله على يـديه العـراق وبـلادا من أرض فارس فـرفع الله بـه أقوامـا دخلوا في الإسلام على يـديه، وضرّ به آخرين قتلهـم على الكفر واستولى على بلادهم، وطال عمره وبقي بعد جماعات كثيرة من أصحابه، فكان كما أخبر رسول الله ﷺ. وفي قوله في حديث البخـاري: فأوصى الناس بالثلث وجاز ذلك لهم، دليل على أن وجـوب الـوصيـة قـد نسخ، وأن الأمـر صـار على الاستحبـاب. أمـا ما رواه البخـاري ومسلم من حـديث ابن عمـر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» فإن قـوله في لفظ الحديث: «يريد أن يـوصي فيـه» يشعر بـأن المقصود الاستحبـاب لا الإيجاب لأنـه علّقـه بإرادة الشخص ورغبته. أما إذا كان على الشخص دين أو حق لله تعالى وأولياؤه لا يعرفون ذلك فإنه يجب عليه أن يكتب وصية بذلك مخافة أن يبادره الموت قبل أداء ما عليه من الحق، وقد يؤدي عدم تحرير وصية به إلى ضياعه وعدم الوفاء

به فيعرّض نفسه لعقوبة الله يوم القيامة . وقوله عز وجل : ﴿ فمن بدّله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه إن الله سميع عليم﴾ أي فمن حرّف وغير الإيصاء من شاهـد أو كاتب أو غيرهما بعدما علم نصّ الوصيـة فإنما عقوبته عند الله عز وجل الذي يجازي كل عامل بما عمل وهو السميع العليم . وقوله عز وجل : ﴿فمن خاف من موصٍ جنفـا أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفـور رحيم﴾ أي فإذا علم الـوصيُّ أن الموصي مـال عن الحق خطأ أو عمـدا بأن زاد على الثلث أو وَصَّى لوارث أو خصّ بـوصيته عمـلا من أعمال الإثم التي يحرمها الشرع فعدّل في الوصية بما يتلاءم مع الوجه الشرعي فلا إثم عليه ولا حرج .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون* أيّامًا معـدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر، وعلى الذين يطيقـونه فدْية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خيرٌ لهُ ، وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ .

هذا بيان لحكم آخر من هذه الأحكام العظيمة التي تربّي النفس الإنسانية أحسن تـربيـة ، فتـزكّيها ، وتطهّـرهـا ، وتنمي فيهـا مسـالك الخير، وتضيّق مسـالك الشيطان ، حيث نـادى الله تبارك وتعـالى المؤمنين في هذا المقـام من سورة البقـرة وأعلمهم أنه فـرض عليهم الصيام كما فرضـه على مَن قبلهم مِن أمم الأنبياء السـابقين ليسلكوا سبيل المتقين حيث يقول عـز وجل : ﴿يا أيها الـذين آمنـوا كُتِبَ عليكم الصيـامُ كما كُتِـبَ على الـذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ وقد جعل الله تبارك وتعالى الصيـام أحد أركان الإسلام الخمسة التي بينها رسـول الله ﷺ في حديث جبريل مـن رواية عمر بـن الخطاب رضي الله عنه عند مسلم ومن رواية أبي هـريرة رضي الله عنه عند البخاري ومسلم كما سقت نصه في تفسير الآيـة السابعة والسبعين بعـد المائة . وكما روى البخاري ومسلم من حديث عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال : «بني الإسلام على خمس : شهـادة أن لاإله إلا الله وأن محمـدا عبده ورسـوله ، وإقام الصـلاة ، وإيتاء الزكـاة ، والحج ، وصوم رمضـان» . وأصل الصيام في اللغـة هو الإمسـاك عن الشيء والكفّ عنـه ، ومنه قـولـه عز وجل في قصـة مريم : ﴿فقـولي إني نذرت للـرحمن صوما﴾ أي إمسـاكا عن الكـلام ، بدليل قوله بعـد ذلك : ﴿فلن أكلّم اليوم إنسيّا﴾ ويقال : صـام النهار، إذا اعتدل وقام قائم الظّهيرة ، ومنه قول امرئ القيس :

فدعها وسَـلّ الهمَّ عنهـا بجَسْـرة ذمـولٍ إذا صـام النهار، وهَجَّـرا

وقال شاعر آخر:

حتى إذا صـام النهـار واعتـدلْ وسـال للشمس لُعَـابٌ فنَـزَلْ

ويقـال: صامت الـريح إذا ركـدت، وصامت الخيل إذا قـامت على غير اعتلاف، ومنه قول النابغة:

خيل صيـامٌ وخيـلٌ غير صـائمـة تحت العَجَـاج وأخـرى تَعْلِكُ اللُّجُما

ومَصَام الفرس موقفه، ومصام الشمس حيث تستوي في منتصف النهار، ومَصَام النجم مكانه الذي يُرى فيه كأنه ثابت، ومنه قول امرئ القيس:

كـأن الثّريـا عُلِّقَتْ في مَصَـامِـها بأمـراسِ كَتَّان إلى صـمِّ جَنْـدلِ

والصوم في الاصطـلاح الشرعي هو الإمسـاك من طلوع الفجـر إلى غروب الشمس عن المفطرات حال العلم بكونه صـائما مع اقتران النية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الـذين من قبلكم﴾ أي يـا معشر من آمن بالله ورسـوله ودخل في دين الإسـلام: فُرِضَ عليكم الصيام كما فرض على من كـان قبلكم من أمم الأنبياء السابقين، ولما لم يثبت بحـديث صحيح عن رسـول الله ﷺ أن عين فـريضـة الصيـام التي فرضت علينا هـي عين فريضة الصيام التي فرضـت على الأمم السابقة، ولما كان تشبيه شيء بشيء لا يلـزم منه أنهما متشابهان من كل الوجـوه فإنه لا يلزم من تشبيه صومنـا بصومهم أن يكون صومهم مختصا برمضـان أو بصيام شهر في السنة، والمقصود من إيراد هـذا التشبيه هو بيان أن إيجاب الصوم شرع الله على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهـد محمد ﷺ، وبهذا يَسْهُل الصوم على المسلمين لأن النفس من طبيعتها أن يسهل عليهـا ما علمت أنها غير مختصة بحمله، على حد قول الخنساء:

ولـولا كثـرة البـاكين حـولي عـلى إخـوانهم لقتـلت نفسـي
ومـا يبكيـن مثل أخـي ولكن أسلِّي النفـس عنـه بالتأسّـي

فالشرائع متفقة في الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والملائكة، ولكنها تختلف في شِرعتها ومنهاجها كما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ فالصلاة فرضت على جميع أمم الأنبياء لكنها ليست عند جميع الأنبياء خمس صلوات كما هو الحال لأمة محمد ﷺ ولذلك لما أخبر رسول الله ﷺ موسى عليه السلام ليلة الإسراء بأن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة قال له موسى عليه السلام: (إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلّ يوم وإني والله قد جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك) الحديث. على أن قوله تعالى: ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ إذا اعتبرت (ما) مصدرية يكون تقديره كَتْبا كَكَتْبه على الذين من قبلكم فيكون التشبيه في أصل الفرض لا في وصفه. وقوله عز وجل: ﴿لعلكم تتقون﴾ بيان لحكمة الصّوم وأنه يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقماع الهوى حيث أثره الظاهر في كسر شهوة البطن والفرج والرّدع عن الأَشَر والبَطَر والفواحش، مع مافيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقية الجسم من الأخلاط الرديئة والفضلات المضرّة والشحوم الزائدة التي ينبغي أن يتخلّص منها الجسم، وقد أقر بجليل فوائد الصيام أممٌ من أطباء المسلمين وغيرهم في سائر الأعصار، ولذلك وصف رسول الله ﷺ الصيام بأنه جُنّة كما وصفه بأنه له وِجاءٌ والجُنّة هي الوقاية التي يتّقي بها الإنسان المخاطر ويصون بها نفسه، كما يستتر المقاتل بالمِجَنّة وهي التُّرْسُ الذي يتترّس به من أعدائه، والوِجاء يؤول بصاحبه إلى تمكنه من قمع شهوة نفسه، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام جُنّة، فلا يرْفُث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين، والذي نفسي بيده لَخُلوفُ فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك يترك طعامه وشرابه

وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها». كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء»، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أياما معدودات﴾ أي أياما قلائل، والمقصود بهذه الأيام القلائل المعدودات هي شهر رمضان، والتعبير بكونها معدودات للإشعار بتيسيرها وتسهيلها وأنها يمكن ضبطها، وقد جرت عادة التشريع في الإسلام على مراعاة إعداد الأنفس لاستقباله، كما شرعت الصلاة ركعتين ركعتين ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر، وكذلك الصيام فقد كان رسول الله ﷺ في السنة الأولى من الهجرة قد حتّم صوم يوم عاشوراء وأمر به، فلما فرض رمضان في السنة الثانية للهجرة صار صيام يوم عاشوراء تطوعا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغرّق فرعون وقومه، فصامه موسى شكرا فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه. كما روى مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بصيام يوم عاشوراء، ويحثّنا عليه، ويتعاهدنا عنده، فلما فرض رمضان لم يأمرنا ولم ينهنا عنه، ولم يتعاهدنا عنده. اهـ ولمّا فرض رمضان جُعل الصيام من بعد صلاة العشاء أو النوم ولو بعد المغرب إلى غروب الشمس لكنه وسّع فيه وأذن للصائم إذا رغب في الفطر أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا على سبيل الحتم والإلزام مع ترغيب المسلمين بأن الصيام خير لهم، وكان المقصود بذلك هو تعريف المسلمين بنعمة الله عليهم

إذا جعل لهم الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وهو التشريع المستقر إلى يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ أي فمن كان منكم أيها المسلمون مريضا في رمضان أو مسافرا فإن الله تبارك وتعالى رفع عنه المشقة بسبب مرضه أو سفره فرخّص له في أن يفطر وقت مرضه في رمضان أو قت سفره فيه، وعليه ــ إذا زال عنه المرض أو إذا حضر المسافر وزالت عنه علة السفر ــ أن يقضي بعدّة ذلك من أيام في غير رمضان ولا فدية عليه. وقوله عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فإنه يجب عليه الصيام وجوبا مخيرا فإن شاء صام وإن شاء أفطر ولزمه عن كل يوم يفطره من رمضان فدية هي إطعام مسكين، فإن أطعم عن كل يوم أكثر من مسكين فهو خير له، وإن صام فهو أفضل من الإطعام. وكون بعض الواجب المخيّر أفضل من بعض لا إشكال فيه عند أهل العلم كما في خصال كفارة اليمين حيث أوجب الله تبارك وتعالى على من وجبت عليه كفارة يمين أن يُخَيَّر بين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، ولا شك أن تحرير الرقبة أفضل من إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، وقد ذهب عامة أصحاب رسول الله ﷺ عدا ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن قوله تبارك وتعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقوله عز وجل: ﴿شهر رمضان الذي أُنْزِل فيه القرآن هدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهرَ فليصُمْه﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي ليست بمنسوخة بل هي مخصوصة بالشيخ الكبير الفاني والمرأة الكبيرة ممن يشقُّ عليه الصيام فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم مسكينا. وكان يقرأ هذه الآية: ﴿يُطَوَّقُونه﴾ أي يُكَلَّفون إطاقته، وعلى تفسير ابن عباس يمكن أن يكون

الكلام على تقدير «لا» في قوله عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه﴾ أي وعلى الذين لا يطيقونه، والعرب قد تحذف الحرف وهو مراد، أو قد تذكره وهو غير مراد لعلم السامع بالمراد، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا: تالله لا تفتأ تذكر يوسف، وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أوْلواْ الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى﴾ أي ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى، ومنه قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ... وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا، لأن العرب لا يستعملون: فتئ وبرح إلا منفية فإذا جاءت بغير حرف النفي علم قطعا أنه مراد. ومثال زيادة (لا) وهي غير مرادة قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليعلم أهل الكتاب. ويكون الحذف أو زيادة الحرف لقصد بلاغي، قال البخاري في صحيحه: بابٌ ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية﴾ قال ابن عمر وسلمة بن الأكوع: نسختها ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾.

وقال ابن نُمير: حدثنا الأعمش حدثنا عمرو بن مرة حدثنا ابن أبي ليلى حدثنا أصحاب محمد ﷺ: نزل رمضان فشقّ عليهم فكان من أطعم كلّ يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه، ورُخص لهم في ذلك فنسختها ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ فأمروا بالصوم. حدثنا عيّاش حدثنا عبد الأعلى حدثنا عُبَيْد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قرأ ﴿فدية طعام مساكين﴾ قال: هي منسوخة. وأخرج مسلم من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسَخَتْها.

قال تعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ .

هذا هو الطَّور الثاني من أطوار الصوم وهو إيجاب صوم شهر رمضان على التعيين ونسخ ما كان من التخيير في وجوبه بين الصيام والإطعام، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في الآية السابقة : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أن عامة أصحاب رسول الله ﷺ ما عدا ابن عباس رضي الله عنهما قد ذهبوا إلى أن قوله تعالى : ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ منسوخ بقوله تبارك وتعالى : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ وأنه تعيّن على كل صحيح مقيم من المسلمين المكلفين صيام ما يشهده من شهر رمضان، وبذلك سقط إيجاب الصوم على التخيير وثبت التعيين، وحتى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقرر عدم إيجابه على التخيير كذلك وإنما يجب على التعيين إلا في حق الشيخ الفاني الكبير والمرأة الفانية الكبيرة، على أن عامة أهل العلم كذلك مع ابن عباس رضي الله عنهما في حق الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، ولذلك ثبت أن أنس بن مالك رضي الله عنه لما صار في عَشْر المائة من عمره كان يفطر رمضان ويطعم عن كل يوم مسكينا، فقد قال ابن كثير رحمه الله : قال البخاري : وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كَبِرَ عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا : خبزا ولحما، وأفطر، وهذا الذي علّقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا عمران عن أيوب بن

أبي تميمة قال: ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم، ورواه عَبْد بن حُمَيْد عن روح بن عبادة عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به، ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي الأيام المعدودات هن شهر رمضان، قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: وقد بينت فيما مضى أن «شهر» مرفوع على قوله: ﴿أياما معدودات﴾ هن شهر رمضان وجائز أن يكون رفعه بمعنى: ذلك شهر رمضان وبمعنى: كتب عليكم شهر رمضان اهـ وشهر رمضان عَلَمُ جنس مركب تركيبا إضافيا وكذا باقي أسماء الشهور من حيّز علم الجنس. وكانت ربيعة تطلق اسم رجب على شهر رمضان فهو رجب ربيعة، أما مُضَر فكانوا يسمونه شهر رمضان ولذلك لما خطب رسول الله ﷺ في حجته قال في ذكر الأشهر الحرم: «ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان» كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وإنما قال ذلك للاحتراز مما تطلقه ربيعة على شهر رمضان إذ تسميه رجبا. وقوله عز وجل: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ مدح من الله عز وجل وثناء على شهر الصيام من بين سائر الشهور حيث اختاره الله عز وجل من بينهن لإنزال القرآن العظيم والذكر الحكيم. ومعنى إنزال القرآن فيه أن الله بدأ بإنزال القرآن على نبيه ﷺ في هذا الشهر المبارك كما يقول القائل: جاء الشتاء، لأول يوم منه أي ابتدأ دخول الشتاء، لا أن الشتاء جاء كلّه في وقت حديثك عن دخوله. ولم يثبت خبر صحيح مرفوع مُسْنَد إلى رسول الله ﷺ بأن القرآن نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نجّمه جبريل على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. وقد ألف مفتي الديار السعودية السابق الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله رسالة لبيان بطلان القول بأن القرآن نزل جملة إلى السماء الدنيا وأن جبريل نجّمه على رسول الله ﷺ في

ثلاث وعشرين سنـة وبيّن رحمه الله أن هذا القول دسيسة اعتـزالية لإنكار أن يكون الله تبارك وتعالى تكلم بالقرآن لأن المعتزلة عن الحق ينكرون إثبات صفة الكـلام لله عز وجل، وإن تعجب فعجب لعـدم تفطن كثير من العلماء لهذه الدسيسة الاعتزالية، ومن العجيب كذلك أن القرطبي رحمه الله قال في مقدمة تفسيره: وذكر أبو بكر الأنباري في كتاب الردّ أن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا ثمّ فُرّق على النبيّ ﷺ في عشرين سنة. ثم قال القرطبي في تفسير هذه الآيـة: قوله تعالى: ﴿الـذي أُنزل فيه القرآن﴾ نصٌّ في أن القـرآن نزل في شهر رمضان، وهو يبين قوله عـز وجل: ﴿حم* والكتاب المبين* إنا أنزلناه في ليلة مباركـة﴾ يعني ليلة القدر، ولقـوله: ﴿إنا أنزلنـاه في ليلة القدر﴾ وفي هـذا دليل على أن ليلــة القـدر إنما تكـون في رمضــان لا في غيره. ثم قـال القـرطبي رحمه الله وعفـا عنـا وعنه: ولا خـلاف أن القـرآن أنـزل من اللـوح المحفوظ ليلة القدر ـ على ما بينـاه ـ جملة واحدة فوُضِعَ في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم كان جبريل ﷺ ينـزل به نجماً نجماً في الأوامر والنواهي والأسباب وذلك في عشرين سنـة، وقال ابن عبـاس: أنزل القـرآن من اللوح المحفـوظ جملةً واحدة إلى الكتبـة في سماء الدنيا ثم نزل به جبريل عليه السـلام نجوما ـ يعني الآية والآيتين ـ في أوقات مختلفة في إحدى وعشرين سنة ثم قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿إنا أنـزلناه في ليلة القدر﴾ وقال الشعبي: المعنى: إنا ابتدأنـا إنزاله في ليلة القدر، وقيل بل نزل بـه جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلـة القدر من اللوح المحفوظ إلى سماء الـدنيا إلى بيت العزة، وأملاه جبريل على السفرة ثم كان جبريل يُنزلـه على النبي ﷺ نجوما نجوما، وكان بين أولـه وآخره ثلاث وعشرون سنة قـاله ابن عباس وقد تقـدم في سورة البقرة، وحكى الماوَرْديُّ عن ابن عباس قال: نزل القرآن في شهر رمضان وفي ليلة القـدر في ليلة مباركة، جملـةً واحدة من عند الله من اللـوح المحفوظ إلى

السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنَجَّمَتْه السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة، ونَجَّمَه جبريل على النبي ﷺ عشرين سنة، قال ابن العربي: وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة ولا بين جبريل ومحمد عليهما السلام واسطة. اهـ وبهذا يتضحُ التناقض بين دعوى الإجماع التي أوردها في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ وبين قَوْلَة الحق التي فتح الله تعالى بها على القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله وأجزل مثوبته، ولتشريف الله تبارك وتعالى لهذا الشهر المبارك بابتداء إنزال القرآن فيه كان جبريل عليه السلام ينزل كلّ ليلة في رمضان يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يَعْرِض عليه رسولُ الله ﷺ القرآن، فإذا لقيهُ جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة اهـ ولذلك عُني المسلمون بكثرة قراءة القرآن في شهر رمضان حتى صار يسمّى شهر القرآن. وقوله عز وجل: ﴿هدًى للناس﴾ أي هاديا للناس من الضلالة. وقوله: ﴿وبينات من الهدى والفرقان﴾ أي وآيات واضحات جليّات مما يهدي إلى الرّشد في شئون المعاش والمعاد ويفرّق بين الحق والباطل. وقد وَعَت الجن هذه الحقيقة عندما سمعت القرآن فقالوا كما ذكر الله عز وجل عنهم: ﴿إنا سمعْنا قرآنا عجبًا* يهدي إلى الرّشد فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أي فمن كان منكم أيها المسلمون المكلفون مقيما غير مسافر صحيحا غير مريض في شهر رمضان فيتحتم عليه الصوم، وقد انعقد إجماع علماء المسلمين على أن الحيض والنفاس يمنعان المرأة من الصوم والصلاة لكنها تقضي ما يفوتها من صوم رمضان دون الصلاة، فقد روى البخاري ومسلم في

صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنـه قال: قال النبي ﷺ في قصة قوله ﷺ: «إنّكن نـاقصات عقل ودين». وفيه: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى. قـال: «فذلكنّ من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن: بلى، قال: «فذلكنّ من نقصان دينها». وقد روى البخـاري ومسلم من طريق معاذة قالت: سـألت عائشة فقلت: مـا بـالُ الحائض تقضي الصـوم ولا تقضي الصـلاة؟ قـالت: كـان يصيبنـا ذلك مع رسـول الله ﷺ فنـؤمـر بقضـاء الصوم، ولا نـؤمـر بقضـاء الصلاة. وقـوله عـز وجل: ﴿ومن كـان مريضا أو على سفـر فعدة مـن أيام أخر﴾ أي ومن كان مصابا بمرض يشقّ معه الصوم أو يؤخّر بُـرْأه أو كان على جناح سفـر، والمقصود بالسفـر هنا ما تتغير بـه الأحكام الشرعية وهـو ثمانية وأربعون ميلاً وهي أربعة بُـرُد وهي ستّـة عشر فَرْسَخا، وفي البخاري: وكان ابن عمـر وابن عباس رضي الله عنهم يقْصُـــران ويُفْطِران في أربعة بُـرُد وهي ستة عشر فـرسخا. ولما كانت هـذه الآية الكـريمة ناسخـة للطور الأول من أطوار الصيام، كان قوله عز وجل: ﴿ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخـر﴾ ليس لتكرار قولـه في الآية السـابقة: ﴿فمن كان منكم مـريضا أو على سفر فعـدة من أيام﴾ لأنه لـو خلا منـه هذا المقام ربما تـوهم متوهم أن هذا الحكـم نسخ مع الآية التي نسخ حكمهـا وهي قولـه عز وجل: ﴿أيـاما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ الآيـة، وقوله عز وجل: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يـريد بكم العسر﴾ أي يحب الله عـز وجل أن ييسّر عليكم في ما يَشْـرَعه لكم من الأحكام ويكره أن يعسّر ويشدّد عليكم فيما يَشْرَعه لكم من الأحكام لأنكم أمة النبـي الذي بعثه الله بـالتيسير ولم يبعثه بـالتعسير ووصفه بقـوله: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ والمراد بالإرادة هنا هي

الإرادة الشرعيـة لا الكونيـة القـدرية التي بمعنـى المشيئة، فإن إرادة الله عـز وجل تكون شرعية بمعنى المحبة وتكون كونية قدرية بمعنى المشيئة، والإرادة الكونية لا تتخلف أبدا فما شاء الله كان ومـا لم يشأ لم يكن وهي ملازمة للأمر الكـوني على حـد قولـه عـز وجل: ﴿إنما أمـره إذا أراد شيئا أن يقـول لـه كن فيكون﴾ والأمر الشرعـي ملازم للإرادة الشرعية فلا يأمـر الله عز وجل إلا بما يحب ولا ينهى إلا عما يكره تبارك وتعالى ولـذلك قال عز وجل: ﴿قل إنّ الله لا يأمر بـالفحشاء﴾ وقال عز وجل: ﴿ولا يـرضى لعباده الكفر﴾ وقولـه عز وجل: ﴿يريـد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ هـو القاعدة الأسـاسية للتشريع الإسلامي فمَبْنَاه على التيسير بحمد الله ومنتـه ولذلك ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختـار أيسرهما، وكان يكره التنطُّع والتشـدُّد فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنـه قال: كـان رسـول الله ﷺ إذا بعث أحـدا من أصحـابه في بعض أمـره قـال: «بشروا ولا تنفـروا، ويسروا ولا تعسروا». كما روى البخـاري ومسلم مـن حـديث أنس رضي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وسكنـوا ولا تنفـروا» كما روى البخاري ومسلم من طـريق ابن أبي بردة قـال: بعث النبي ﷺ جـدّه أبـا مـوسى ومعـاذا إلى اليمن فقـال: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعَا ولا تختلفا». كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قـالت: سمعت رسول الله ﷺ يقـول في بيتي هذا: «اللهم مَن وَليَ مِن أمـر أمتي شيئا فشقّ عليهم فـاشْقُقْ عليه، ومن وَليَ من أمر أمتي شيئـا فرفق بهم فارفق بـه». كما روى البخاري من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «إنّ الدين يسرٌ ولن يُشـادّ الدينَ أحـدٌ إلا غلبه فسـدّدوا وقاربـوا وأبشروا واستعينـوا بالغَـدْوَة والرَّوْحَـة وشيء من الدُّلْجَة». كما روى البخـاري ومسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها قالت: مـا خُيّر رسول الله ﷺ بين

أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختـار أيسرهما ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كـان أبعد النـاس عنـه . اهـ وكيف لا يكـون كـذلك وقد سماه الله الـرءوف الـرحيم ﷺ . وقولـه عـز وجل : ﴿ولتكملـوا العدة﴾ أي إنما رخص الله عـز وجل لكم في الإفطـار في شهـر الصـوم للمـرض أو السفـر ونحوهمـا من الأعذار لأنه يحب التيسير عليكم ، وإنما أمركم بـالقضاء لتكملوا وتتموا عدة شهركم . وقوله عـز وجل : ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتذكـروا الله عز وجل وتقـولوا : الله أكبر ، عنـد انقضاء عبـادتكم وشهر صومكم ولتشكروا الله الذي وفقكم للصيـام والعبادة التي يورثكم بها جنات النعيم . وقـد نبـه الله تعـالى المسلمين إلى ذكـره وشكـره عنـد قيـامهم بأداء شعـائرهم وعبـادتهم حيث يقـول : ﴿فـإذا قضيتم منـاسككم فـاذكـروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكـرا﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يكبرون دبر الصلوات فقـد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ بالتكبير.

قال تعـالى : ﴿وإذا سألك عبادي عنّى فإنى قريب أجيب دعـوة الدّاع إذا دعـان فليستجيبوا لى وليـؤمنوا بى لعلّهم يـرشـدون* أُحلّ لكم ليلة الصيـام الـرّفث إلى نسـائكم ، هنّ لبـاس لكم وأنتم لبـاسٌ لهنّ ، علم الله أنّكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلـوا واشربـوا حتى يتبيّن لكم الخيـط الأبيض من الخيط الأسـود من الفجر ثم أتمّوا الصيـام إلى الليل ، ولا تباشروهنّ وأنتم عاكفون فى المسـاجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذٰلك يبيّن الله آياته للناس لعلهم يتّقون﴾

هذا هو الطَّـوْر الثالث والأخير من أطوار الصيام الذي استقـر عليه حال الصوم في الإسـلام ، وقد ذكر الله تبارك وتعـالى آية الدعاء متخلّلـة بين آيات الصيام لإرشاد المؤمنين الصـائمين إلى الحرص على الدعاء والاجتهاد فيـه عند إكمال عدة الصـوم وعند كل فطـر، قال ابن كثير في تفسيره : وفي ذكـره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخلّلة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعنـد كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده : حدثنـا أبو محمد المُلَيْكي عن عمرو هـو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمـرو عن أبيه عن جـده عبد الله بن عمرو قـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة» فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وقال أبـو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه : حدثنا هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحاق بن عبد الله المدني عن عبيد الله بن أبي مُلَيْكة عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبي ﷺ : «إن للصائم عند فطـره دعوة ما تُرَدّ» . قـال عبيد الله بن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمرو يقـول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كلّ شيء أن تغفر لي . وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمـذي والنسائي وابن ماجه

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا تُردّ دعوتهم الإمام العادل، والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتُفتَحُ لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين» اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي وإذا استفهم منك المؤمنون عن ربهم فعرّفهم بأني قريب منهم بعلمي لا يحتاج من يدعوني ويسألني إلى وسطاء أو شفعاء أو صراخ ورفع صوت، وإني أشاهد حركاتكم وسكناتكم فادعوني تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول في أية ساعة شئتم ما دمتم في مكان كريم فإني أستجيب دعاءكم وأعطيكم مسألتكم وليكن توسلكم بالاستجابة لديني والانقياد لأمري فإنكم إن أفردتموني بالعبادة وطلبتم كلّ حوائجكم مني رشدتم واهتديتم. وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن قيس أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته».
قال أبو موسى: وأنا خلفه أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، في نفسي، فقال: «يا عبد الله بن قيس ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين أن يطلبوا من الله حوائجهم وهم واثقون في رحمته وجوده، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفرلي إن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته، إنه يفعل ما يشاء ولا مُكْرِهَ له» كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل:

اللهم اغفرلي إن شئت، ولكن ليَعْزِم، ولْيُعَظّم الرغبة فإنّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم». وقوله عز وجل: ﴿أُحِلّ لكم ليلة الصيام الرفَث إلى نسائكم﴾ الآية، هذه هي الآية الكريمة التي ختم الله بها أحكام الصوم في الإسلام، وقرر الطَّوْر الثالث والأخير من أطواره، وهو نسخ ما كان في الطَّوْر الأول والثاني من أطوار الصيام حيث كان وقت الفطر من غروب الشمس إلى صلاة العشاء أو النوم قبلها، فكان من صلى العشاء حرم عليه الأكل والشرب وسائر المفطرات إلى غروب شمس اليوم الثاني وكذلك من نام قبل صلاة العشاء يحرم عليه بمجرد النوم الأكل أو الشرب أو قربان النساء إلى غروب شمس اليوم الثاني، وكان المقصود من ذلك التشريع هو تدريب المسلمين على الصبر وتعريفهم بفضل الله عليهم إذا نسَخَ هذا الحكمَ وجعل وقت الإمساك من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، قال البخاري في صحيحه: بابُ قول الله جلّ ذكره: ﴿أُحلّ لكم ليلة الصيام الرّفَث إلى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ حدثنا عُبَيْد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البَرَاء رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صِرْمة الأنصاريّ كان صائما، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلقُ فأطلبُ لك، وكان يومَه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غُشِيَ عليه، فذُكِرَ ذلك للنبي

ﷺفنزلت هذه الآية: ﴿أُحِلّ لكم ليلة الصيام الرّفث إلى نسائكم﴾ ففرحوا بها فرحا شديدا، ونزلت: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾. هذا لفظ حديث البراء الذي أورده البخاري رحمه الله في كتاب الصوم من صحيحه من طريق أبي إسحاق عن البَرَاء، وأورده في التفسير من طريق أبي إسحاق أيضا قال: سمعت البَرَاء رضي الله عنه: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كلّه، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ أي أبيح لكم أيها المسلمون الذين كتب عليك الصيام قُرْبان زوجاتكم في ليلة الصيام، والليلة تطلق على الوقت من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق، والمراد بالرفَث هنا مقارفة الرجل أهله وغِشْيَانها، وقوله عز وجل: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ أي نساؤكم سِتْر لكم وأنتم سِتْر لهن، وهذا كناية عن صعوبة الصبر عنهن مع شدة مخالطتهن بما جبل الله عليه الرجل مع المرأة من الغريزة الجنسية، حيث يصير كل واحد منهما بالنسبة للآخر لباسا له لاعتناقهما واشتمال كل منهما على صاحبه كما يشتمل الثوب على لابسه، قال النابغة الجعدي:

إذا ما الضّجيع ثنى عِطْفَها ... تداعَتْ فكانت عليه لباسا

واللباس قد يطلق بمعنى السكن كما قال عز وجل: ﴿جعل لكم الليل لباسا﴾ أي سكنا، على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ كأنه عز وجل يقول: هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقوله عز

وجل: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم﴾ أي علم الله عز وجل ما كان يحدث بالليل بينكم وبين نسائكم من تزيين أنفسكم لكم حبّ وقاع نسائكم، كما أُثِرَ أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جاء إلى بيته قبل العشاء فأراد امرأته فقالت: إني قد نمت، فظن أنها تعتل وواقعها، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فسجّل في كتابه الكريم توبته عليهم، وعفوه عنهم، ورُبّ ضارة نافعة، وقوله عز وجل: ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي فقد أبحت لكم قربان نسائكم الآن فباشروهن متى شئتم من ليلة الصيام، وأصل المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة أي الجلد بالجلد وهو كناية عن مقارفة الرجل حليلته، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي ولتكن رغبتكم طلب الأولاد، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله: ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشُرَيْح القاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسُّدِّيّ وزيد بن أسلم والحكم بن عُتَيْبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحّاك وقتادة وغيرهم: يعني الولد اهـ. وقوله عز وجل: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أي وقد أبحت لكم سائر المفطرات فمتى أردتم الأكل أو الشرب في أية ساعة من ليلة الصيام فكلوا واشربوا إلى طلوع الفجر فإذا طلع الفجر فأَمسكوا عن سائر المفَطِّرات إلى غروب الشمس. قال البخاري في صحيحه في كتاب الصوم: باب قول الله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتمّوا الصيام إلى الليل﴾ فيه البراء عن النبي ﷺ، ثم ساق بسنده إلى عَدِيّ بن حاتم رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عَمَدْتُ إلى عِقَال أسود وإلى عِقَال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت

أنظـر في الليل فلا يستبين لي فغَـدَوْت على رسـول الله ﷺ فـذكرت لـه ذلك فقـال: «إنما ذلك سواد الليل وبيـاض النهـار». ثم ساق البخـاري رحمه الله بسنده إلى سهل بن سعـد رضي الله عنه قال: أُنزِلَتْ: ﴿وكلـوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسـود﴾ ولم يَنْزِلْ ﴿من الفجـر﴾ فكان رجـال إذا أرادوا الصوم ربط أحـدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسـود ولم يزل يأكل حتى يتبين له رؤيتُهما فأنزل الله بَعْـدُ: ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه إنما يعني الليل والنهـار. كما ساق البخـاري في كتاب التفسير من صحيحـه بسنـده إلى عدي بن حـاتم رضي الله عنه قـال: قلت يـا رسول الله مـا الخيط الأبيض من الخيط الأسـود؟ أهما الخيطـان؟ قـال: «إنك لعـريض القَفـا إن أبصرت الخيطين» ثم قال: «لا، بل هو سـوادُ الليل وبياض النهار» وفي لفظ للبخاري من طريق الشعبي عن عدي قال: أخذ عدي عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستَبِينَـا، فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلت تحت وسادتي عقالين. قال: «إنَّ وِسَـادَكَ إذًا لعريضٌ أن كان الخيط الأبيض والأسـود تحت وسادتك». وقولـه عز وجل: ﴿ولا تبـاشروهن وأنتم عاكفـون في المساجد﴾ أي ولا تقـربوا نساءكم وقت اعتكـافكم وإقامتكم في المساجـد. والاعتكاف في اللغة الملازمـة، وفي الشرع الإقامة في المسجـد وقتا مخصوصا التماسا لمرضاة الله عز وجل. وقد استنبط العلماء من ذكر الاعتكاف في آخـر أحكام الصيـام في القرآن الكـريم، ومن اعتكاف رسـول الله ﷺ في العشر الأواخر من رمضان أنهم يذكرون أحكام الاعتكاف بعد أحكام الصيام في كتبهم. وقـولـه عز وجل: ﴿تلك حـدود الله فـلا تقـربوهـا﴾ أي هـذه الأحكام التي فصَّلْتُها لكم عن الصيام هي مراسيم وضعها الله عز وجل لخير دنيـاكم وأخـراكم وقـد بينت لكم مـا حـرمتـه عليكم في وقت الصيـام فـلا تنتهكوهـا ولا تبدّلوا أو تحرفـوا منها شيئا وحافظـوا عليها. وقولـه: ﴿كذلك

يبين الله آياته للناس لعلهم يتقـون﴾ أي كما بين الله هذه الحدود يبين جميع ما يحتاجـه الناس ليفـوزوا بتقوى الله لينـالوا عـز الدنيـا وسعادة الآخـرة حيث يسلكون الصراط المستقيم والمنهج القويم.

قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج، وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتّقى، وأتوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك تعالى في ختام المسك من أحكام الصيام والاعتكاف أنه يبين آياته للناس ليسلك المستمسكون بها سبيل التقوى، ويندرجوا في سلك المتقين، شرع هنا يضع لهم قواعد المعاملات وأساس المعاوضات حيث يقول: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتابه أحكام القرآن: هذه الآية من قواعد المعاملات، وأساسُ المعاوضات يَنْبَني عليها وهي أربعة: هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وأحلّ الله البيع وحرّم الربا﴾ وأحاديث الغَرَر، واعتبار المقاصد والمصالح اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ يشمل أكل الإنسان مال غيره بالباطل، كما يشمل أكل الإنسان مال نفسه في غير ما أباح الله عز وجل، كأن يشتري بها لحم خنزير ليأكله أو خمرا ليشربه. ولا شك أن المقصود الأصلي هو الأول بدليل قوله عز وجل في نفس هذه الآية: ﴿وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ ومعنى: ﴿ولا تأكلوا﴾ أي ولا تأخذوا ولا تتعاطوا، لكن لما كان المقصود من أخذ المال هو التّمتّع به في شهوتي البطن والفرج التي شرع الصيام لقمعهما قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا﴾ فخصّ شهوة البطن لأنها المثيرة لشهوة الفرج. وقوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾ بإضافة الأموال إليهم مع أنها أموال غيرهم وأن المقصود الأول: لا يأكل بعضكم مال بعض، لأن الأصل في المسلم أنه

أخو المسلم، وعليه المحافظة على ماله كما يحافظ على مال نفسه، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى».

ومثل هذا التعبير في هذا المقام الكريم قوله عز وجل في سورة النساء: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ وكما قال عز وجل في سورة النور: ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ فقوله في آية سورة النساء: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضا. وقوله تعالى في سورة النور: ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أي فليسلم بعضكم على بعض. ومعنى قوله: ﴿بالباطل﴾ أي بما لا يحل شرعا ولا يفيد مقصودا لأن الشرع نهى عنه وحرّم تعاطيه، كالنّهب والغصب والخداع والقمار والرشوة وكلّ ما لم تَطِبْ به نفس صاحبه، أو حرمته الشريعة وإن رضي بذلك مالكه كمهر البَغِيّ وحُلْوان الكاهن وأَثمان الخمور والخنازير، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ أن أكل الحلال الطيب من أكبر العون على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وأن اللقمة من الحرام يقذفها الرجل في جوفه قد تحول بينه وبين قبول دعائه وعمله الصالح دهرا طويلا، وأشرت إلى أن الحلال يؤثر في القلب صلاحا وأن الحرام يؤثر في القلب فسادا، وقوله عز وجل: ﴿وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ أي ولا تُدْلُوا ولا تحاجّوا ولا تخاصموا ولا ترفعوا دعاوى باطلة إلى الحكام لتقتطعوا قطعة من أموال الناس ظلما وأنتم تعلمون في قرارة نفوسكم أنكم ظالمون آثمون. وبهذا كأنه يقول لهم: لا تجمعوا بين

أكل المال بـالباطـل وبين الإدلاء إلى الحكام بـالحجج البـاطلة، يقـال: أدلى الرجل بحجته أو بـالأمر الذي يرجو الغَلَبـة به تشبيها بالذي يـرسل الدّلو في البئر ليستخرج الماء، يقال: أدلى دلوه أي أرسلهـا في البئر. وفي الآية الكريمة إشعـار بأن من ادّعى عنـد الحاكم بدعـوى وهـو يعلم أنـه كاذب في دعـواه فحكم الحاكم بما ادعاه على خصمه فإن حكم الحاكم هـذا لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولا وزر على القاضي الذي حكم في هذه القضية ما دام قد قضى بما ظهر لـه من الأدلة التـي قد يكـون فيها شهادة زور؛ لأن القـاضي لا يعلم الغيب، ولا يعلم الباطن إلا الظاهرُ الباطنُ عـلاّم الغيوب. وقد حذر رسول الله ﷺ هؤلاء الـذين يدلـون بقضايـاهم إلى الحكام ليأكلـوا فريقـا من أموال الناس بالإثم حتى ولو كان القاضي محمدا رسول الله ﷺ الذي يقضي على ما يظهـر لـه ولا يعلم من الغيب إلا مـا أطلعه الله عـز وجل عليـه، فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قـال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمـون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكـون ألْـحَنَ بحجّتـه من بعض، فأقضي له على نحو مـا أسمع منه، فمن قَضَيْتُ له بشيء من حق أخيـه، فلا يأخُذَنّه، فإنما أقطع لـه قطعة من النار» كما روى مسلم من طـريق علقمة بن وائل عن أبيـه قـال: جاء رجل من حَضْرَمَـوْت ورجل من كِنْـدة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي: يـا رسول الله إن هـذا غلبني على أرض لي، فقال الكِنْدِي: هي أرضي وفي يدي، ليس له فيها حق، فقال النبي ﷺ للحَضْرَمِيّ: «ألك بينة؟» قال: لا. قال: «فلك يمينه» قال: يا رسـول الله إن الرجل فـاجرٌ، لا يبـالي على مـا حلف عليه، وليس يتـورّع من شيء، قال: «ليس لك منه إلا ذلك» فـانطلق ليحلف، فقال رسول الله ﷺ لمّا أدبر: «لئن حلف على ماله ليأكله ظلما لَيَلْقَيَنّ اللهَ وهو عنه مُعْرِضٌ». وقد روى مسلم كذلك من حـديث أبي ذر رضي الله عنه أنـه سمع رسول الله ﷺ

يقول: «من ادّعى ما ليس له فليس منا، ولْيتَبَوَّأْ مقعده من النار». وقوله عز وجل: ﴿يسألونك عن الأَهِلَّة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ لم يرد في خبر صحيح ثابت كيفية سؤالهم رسول الله ﷺ عن الأهلة وهل كان عن فوائدها أو كان عن حقيقتها؟ وظاهر الجواب في الآية أنه كان عن منافعها وفوائدها، فإن كان السؤال عن حقيقتها كان الجواب من الأسلوب البلاغي المعروف بأسلوب الحكيم، لأن السؤال عن حقيقتها وذاتها قليل الجدوى بالنسبة لعامة البشر كما لو سألك سائل عن تكوين شجرة من الشجر فتجيبه ببيان فوائدها ومنافعها لتلفت انتباهه بأن هذا هو الذي ينبغي أن يسأل عنه، وقد لفت الفخر الرازي رحمه الله الانتباه إلى أن سؤالهم رسول الله ﷺ ورد في القرآن الكريم في أربعة عشر موضعا قال: ثمانية منها في سورة البقرة، أولها: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ وثانيها هذه الآية ثم الستة الباقية بعدُ في سورة البقرة فالمجموع ثمانية في هذه السورة، والتاسع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿يسألونك ماذا أحلّ لهم﴾ والعاشر في سورة الأنفال ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ والحادي عشر في بني إسرائيل ﴿يسألونك عن الروح﴾ والثاني عشر في الكهف ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ والثالث عشر في طه ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ والرابع عشر في النازعات ﴿يسألونك عن الساعة﴾ ولهذه الأسئلة ترتيب عجيب: اثنان منها في الأولى في شرح المبدأ فالأول قوله: ﴿وإذا سألك عبادي عني﴾ وهذا سؤال عن الذات، والثاني قوله: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ وهذا سؤال عن صفة الخلاقية والحكمة في جعل الهلال على هذا الوجه، واثنان منها في الآخرة في شرح المعاد أحدهما قوله: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ والثاني قوله: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها﴾ ونظير هذا أنه ورد في القرآن سورتان أوّلهما ﴿يا أيها الناس﴾ إحداهما في النصف الأول وهي السورة الرابعة من سور النصف الأول فإن

أولاها الفاتحة وثـانيتها البقرة وثالثتها آل عمران ورابعتهـا النساء، وثانيتهما في النصف الثاني من القرآن وهي أيضا، السورة الرابعة من سور النصف الثاني، أولاهـا مـريم، وثانيتهـا طـه وثـالثتهـا الأنبياء ورابعتهـا الحج، ثم ﴿يـا أيها النـاس﴾ التـي في النصف الأول تشتمل على شرح المبـدأ فقـال: ﴿يـا أيها الناس اتقـوا ربكـم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ و﴿يـا أيها الناس﴾ التي في النصف الثاني تشتمل على شرح المعـاد فقال: ﴿يا أيها النـاس اتقوا ربكم إن زلزلـة الساعة شيء عظيم﴾ فسبحـان من له في هذا القـرآن أسرار خفية، وحِكَم مَطْوِيَّة لا يعرفها إلا الخواصُّ مـن عبيده اهـ والأهِلّة جمع هلال، ولا شك أن القمـر في أول ليلة من الشهـر يسمى هلالاً وإنما جمع وهـو واحد في الحقيقـة من حيث كـونـه هلالا واحـدا في شهـر غير كـونه هـلالا في سـائر الشهور، ومعنى قوله: ﴿هي مواقيت للناس والحج﴾ أي هذه الأهلة ليعرف النـاس بها مـواقيت شهر الصـوم وانتهـائه وعِـدَد نسائهـم، وآجـال ديـونهم ومعاملاتهم، ومدة الحمل والـرضاع والحج، إلى غير ذلك من مصالح العباد التي لا تحصى وكمعرفـة الأشهر الحرم التي لا يحل القتـال فيها. وتخصيص الحج هنا بالـذكر مع أنه داخل في عموم اللفظ الأول لأن أهل الجاهليـة كانوا يحجـون بـالعَـدَد ويبدلـون الشهـور ويصيرون إلى النسيء، فنص الله تبـارك وتعـالى على الحج هنـا لإبطـال أعمال أهل الجاهلية في الحج وجعلـه مقـرونـا بالأهلة، كما ربط رسول الله ﷺ الصيـام برؤية الهلال حيث قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غُمَّ عليكم فأَكملوا عدة شعبان ثلاثين». هذا وقد جعل الله تبارك وتعالى الـزمان مقـدّرًا من أربعة أوجـه وهي السنة والشهـر واليوم والسـاعة، فـالسنة عبـارة عن الـزمان الحاصل من حـركـة الشمس من نقطة معينـة من الفلك بحركتها الحاصلة عن خلاف حركة الفَلَك إلى أن تعود إلى تلك النقطة

بعينها، والشهر عبارة عن حركة القمر من نقطة معينة من فلكه الخاص إلى أن يعود إلى تلك النقطة. وأما اليوم بليلته فهو من مفارقة الشمس أفق المشرق وعَوْدِها إليه من الغداة. وأما الساعة فهي جزء من أربعة وعشرين جزءًا من اليوم بليلته. ولا شك أن معرفة المواقيت بالهلال أيسر على جميع الأمم من معرفتها بالشمس، إلا ما كان مرتبطا بالشمس كمواقيت الصلاة التي تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات. وقوله عز وجل: ﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولٰكنّ البرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ هو نظير قوله عز وجل: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب﴾ الآية. وقد تقدم بيان ذلك. قال البخاري في صحيحه: باب قوله: ﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولٰكنَّ البرَّ من اتقى وَأْتُوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله: ﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولٰكن البرّ من اتقى وَأْتُوا البيوت من أبوابها﴾ وقد ساقه البخاري في الحج من طريق شعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجّوا فجاءوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَل بابه، فكأنه عُيّر بذلك، فنزلت: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولٰكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ هذا وفي قوله عز وجل: ﴿ولٰكن البرّ من اتقى﴾ وقوله في نفس الآية: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيد لبيان أن تقوى الله عز وجل سبب للفلاح والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة وأن مدار الأحكام الشرعية على تربية النفوس عليها لتحصيل مَعِيّة الله عز وجل الخاصة بالتأييد والعون والنصر والتوفيق كما قال عز وجل: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ جعلنا الله بفضله منهم.

قال تعالى: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين* واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشدّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين* فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم﴾

بعد أن أكّد الله تبارك وتعالى الأمر بتقواه وبين أن تقواه عز وجل سبب لفلاح المتقين أمر في هذا المقام الكريم بأعلى درجات التقوى وأشد سبلها وأشقها على النفس الإنسانية وهو قتال المشركين وجهادهم لإعلاء كلمة الله الذي يستجلب لهم معية الله بنصرهم وتأييدهم كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يَلُونكم من الكفار وليجدوا فيكم غِلْظة، واعلموا أن الله مع المتقين﴾ وقد مرّ تشريع الجهاد بأطوار ثلاثة بعدد الأطوار التي مرّ بها تشريع الصيام، حيث كان القتال ممنوعا في أول الإسلام قبل الهجرة، وبعد أن صار للمسلمين دولة في المدينة أُذِن لهم بقتال من قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم، ثم أمروا بالقتال حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ لله، إذ بعد تمام بيعة العقبة الثانية قال العباس بن نضلة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ليلتها: والذي بعثك بالحق إن شئت لَنَمِيلَنَّ على أهل منى غدا بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك» كما جاء في حديث كعب بن مالك الذي أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح، وكان كثير من المسلمين يتمنون أن يأذن الله لهم في قتال أعدائهم، وإلى ذلك يشير الله تبارك وتعالى في محكم كتابه حيث يقول في سورة القتال: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزِّلت سورة﴾ أي يأذن الله لنا فيها بقتال الكفار بدليل قوله: ﴿فإذا أُنزلت سورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال رأيتَ الذين في قلوبهم مرضٌ ينظرون إليك نظر المغْشِيّ عليه من الموت

فأولى لهم* طاعةٌ وقولٌ معروفٌ فإذا عَزَم الأمرُ فلو صَدَقوا اللهَ لكان خيرا لهم﴾ . وكان المشركون لا يفتأون يصدون عن سبيل الله ويؤذون أولياءه، حتى قتلوا سُمَيَّة أم عمار وزوجها ياسرا رضي الله عنهم، فلما مكّن الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وللمسلمين بالمدينة أذِن الله تعالى لهم في قتال أعدائهم حيث يقول: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خَوّان كفور * أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا اللهُ ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لهُدِّمَتْ صَوَامع وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجد يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرا، ولَيَنْصُرَنّ اللهُ مَن ينصُرُه إن الله لقويّ عزيزٌ﴾ . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في كتاب المغازي: قال الزهري: أوّل آية نزلت في القتال كما أخبرني عروة عن عائشة: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا﴾ أخرجه النسائي وإسناده صحيح اهـ ولا شك أن شرعية القتال في الإسلام ليست بِدْعا في شرائع الرسل عليهم الصلاة والسلام ولا في أنظمة الأمم، بل كانت شريعة الإسلام في هذا الباب وغيره أرحم الشرائع وأكملها وأتقنها وأحسنها؛ إذ كانت تنهى عن قتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين وتنهى عن الغدر والتمثيل بجثث الأعداء، وقد حاول بعض أعداء الإسلام من اليهود والنصارى والملاحدة أن يُلَبّسوا على بعض الأغرار بأن الإسلام إنما انتشر بالسيف، فقال بعض الناس من المنتسبين للعلم: إن القتال في الإسلام للدفاع فقط، وتغافلوا عن الآيات الكثيرة والأحاديث الصحيحة الثابتة في أن الجهاد الحقّ إنما هو ما كان لإعلاء كلمة الله، ونسي هؤلاء أو تناسوا أن الشرائع السماوية السابقة كلّها متّفقة على الجهاد لإعلاء كلمة الله، وأنها ما كانت تُبِيحُ الأسْر إلا بعد التقتيل الشديد في أعداء الله، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿ماكان لنبي أن يكون له أَسْرى حتى يُثْخِنَ في الأرض﴾ أي حتى يبالغ في قتل الكفار ويُوسِعَهم

جِراحــــة إلى أن تَغْلُظ الأرض من دمــائهم وجثثهم، وفي الإصحـــاح العشرين من سفر التثنية في الفقْرة العاشرة إلى السادسة عشرة من التوراة التي بيد اليهود والنصارى يقول: حين تقـرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجـابتك إلى الصلح وفتحـت لك فكلّ الشعب الموجـود فيهـا يكون لك للتسخير، ويُسْتَعْبَـد لك، وإن لم تُسالمك بل عملت معك حـرباً فحـاصرهـا، وإذا دفعها الـربّ إلهك إلى يـدك فـاضرب جميع ذكورهـا بحـدّ السيف، وأمـا النساء والأطفـال والبهـائم وكلّ مـا في المدينة كلُّ غنيمتهـا، فتغتنمها لنفسـك، وتأكل غنيمة أعـدائك التي أعطاك الـربّ إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيـدة منك جـدا، التـي ليست من مـدن هـؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الربّ إلهك نصيبا فلا تَسْتَبْقِ منها نَسَمةً مـا اهـ على أن اليهود والنصـارى لعنهم الله لم يقفوا في هذا البـاب عند حدود ما كان قد شرع لهم على ألسنة أنبيـائهم، بل كانوا لا يتركون حيًّا يمشي على الأرض في المدن والقرى التي يحاربـونها، وما محاكم التفتيش التي أقـامها النصـارى ضـد مسلمي الأندلس ولا مـذابح اليهـود للمسلمين في فلسطين ولبنان بخافية على أحد مع الفارق العظيم بين معاملة أهل الإسلام لمن يكون تحت أيديهم من الكفـار من الرحمة والإحسان وبين معاملـة هؤلاء الضالين.

وقوله عز وجل: ﴿وقاتلـوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي وحـاربوا ابتغاء مـرضاة الله الذين يحاربـونكم من الكفار ولا تتجاوزوا قتالهم فلا تمثّلوا بجثثهم ولا تغدروا ولا تقتلوا صغيرا ولا امرأة ولا شيخـا مُسِنًّـا ممن لا همّ لهم بقتـالكم، ولا يكن لكم قصـد في قتـال من تقاتلونهم سـوى إخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإسـلام، ولذلك روى مسلم في صحيحه مـن حديث سليمان بن بُرَيْـدة عن أبيه بـريدة قـال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّـر أميرا على جيش أو سريّة أوصـاه في خاصتـه بتقوى الله

وبمن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بـالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِروا، ولا تمثّلـوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عـدُوك من المشركين فادْعُهُم إلى ثـلاث خصال فأَيَّتُهُن أجـابوك إليهـا فـاقْبَلْ منهم وكُفَّ عنهم: ادْعُهُم إلى الإسلام فإن أجـابوك فـاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحـوّل مـن دارهم إلى دار المهـاجـرين، فإن أَبَـوْا فأخبرهم أنهم يكـونــون كأعـراب المسلمين ولا يكــون لهم في الغنيمـة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أَبَـوْا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابـوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أَبَـوْا فاستعن بالله وقـاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمـة الله وذمة نبيه فـلا تفعل، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحـابك، فإنكم أن تُخْفِروا ذممكم وذمم أصحـابكم أهون من أن تُخْفِروا ذمة الله وذمة رسـوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنْزِلَهم على حكم الله فـلا تنـزلهم على حكم الله ولكـن أنـزلهم على حكمك فإنّك لا تـدري أتصيب حكم الله فيهم أمْ لا» كما روى البخـاري ومسلم من حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ رأى امرأة مقتولة في بعض مغازيه فأنكر قتل النساء والصبيان. وقولـه عز وجل: ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي إنّ الله يُبْغِض الظـالمين من أي جنس ومن أي لـون لأنه حـرّم الظلم على نفسـه وجعلـه بين عباده محرّمـا، وقـولـه عز وجل: ﴿واقتلـوهـم حيث ثقفتمـوهـم وأخـرجـوهم من حيث أخـرجـوكم﴾ أي اقتلـوا المشركين حيث وجـدتموهم وحيث أصبتم مَقَاتلهم وتمكّنتم من قتلهم، واحرصـوا على تطهير مكة شرفها الله من المشركين النّجس، ولستم بظـالمين لهم لأنكم أحق ببيت الله وحـرمـه منهم وقد أخـرجوا المهاجرين منـه وأبعدوهم عن ديارهم. وقولـه عز وجل: ﴿والفتنة أشـدّ من القتل﴾ أي وإصرار المشركين على الكفر بـالله والصدّ عن سبيله، وتعذيبهم لمن يتمكنون منه من المسلمين ليرجع عن دين الإسلام أبلغ

وأشد وأعظم وأطمّ من قتل هؤلاء المشركين. وقوله عز وجل: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فـإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾أي ولا تبدؤوا المشركين بالقتال في مكة بلـد الله الحرام حتى يبدؤوا هم في قتالكم فإن شرعوا في قتالكم عند المسجد الحرام فاحـرصوا على قتلهم واجتثاث جذورهم، وفي قولـه: ﴿فإن قاتلـوكم فاقتلـوهم﴾ ولم يقل: فقاتلـوهم. لإفادة أن مـن بدأ بالقتال في مكة يجب قتلـه لانتهاكه حرم الله الذي حرّمـه يوم خلق السموات والأرض، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿كذلك جزاء الكافرين﴾ وهو يفيد أن من بدأ بالقتـال في حرم مكة صار مرتـدّا عن دين الإسلام واستحق القتل لو كان في الأصل منتسبـا للإسـلام لأن قوله: ﴿فـاقتلوهم﴾ مُـرَتَّب على بدئهم بـالقتال عنـد المسجد الحرام لا على كفـرهم الأصلي إذ لـو كان على كفـرهم الأصلي مـا اشترط فيه، وقـد روى البخاري ومسلـم من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكـة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهـو حرام بحرمة الله إلى يوم القيـامة، وإنه لم يَحِلّ القتال فيـه لأحد قبلي، ولم يَحِلّ لي إلا ساعـة من نهار، فهو حرام بحـرمة الله إلى يوم القيامـة، لا يُعْضَدُ شوكُه، ولا يُنَفَّـرُ صَيْدُه، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطَتُه إلا من عرّفهـا، ولا يُخْتَلَى خلاهـا» فقال العباس: يـا رسول الله إلا الإِذْخِـرَ فإنه لِقَيْنِهِم ولبيوتهم؟ فقال: «إلا الإِذْخِـر» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي شُرَيْح العَدَوِي رضي الله عنه أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدّثـك قولا قام به رسول الله ﷺ الغَـدَ من يوم الفتح، سمعَتْـهُ أذناي ووعـاه قلبي وأبصرتْـهُ عيناي حين تكلّم بـه، حمد الله وأثنى عليه، ثـم قال: «إنّ مكة حَرّمها الله ولم يحرّمْها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بـالله واليوم الآخر أن يَسْفِـك بها دمًا، ولا يَعْضِدَ بها شجـرة، فإن أحَدٌ تَرَخّص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله أَذِن لرسوله ﷺ ولم يأذَنْ لكم،

وإنما أَذِنَ لي ساعةً من نهار وقد عادت حُرْمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس، ولْيُبَلّغ الشاهدُ الغائبَ» فقيل لأبي شُرَيْح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شُرَيْح، إنّ الحرَم لا يُعِيذُ عاصيا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بِخَرْبَةٍ. اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم ودخلوا في دين الإسلام وأنابوا إلى الله فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله لأن الله تعالى لا يَتَعَاظَمُه ذنبٌ أن يغفره لمن تاب وآمن ثم اهتدى.

قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين* الشّهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين* وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التّهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل بالجهاد في سبيله وملاحقة أعدائه أينما ثُقفوا وبيَّن أن فتنة الإنسان عن دين الإسلام أعظم من قتله وأشد خطرا وأكثر ضررا، وحذّر من القتال عند المسجد الحرام وأن من قاتل المسلمين عند المسجد الحرام وجب قتله، وأن من تاب تاب الله عليه، كرر الله تبارك وتعالى هنا الأمر بقتال الكفار إلى غاية هي انقضاء فتنتهم، وأن تكون كلمة الله هي العليا، حيث يقول عز وجل: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ لله﴾ ولا شك أن تكرير الأمر بالجهاد في سبيل الله للقضاء على فتنة المشركين الصادين عن شريعة الله وحتى تكون كلمة الله هي العليا يقضي بأن الجهاد ذِرْوة سَنَام الدين، وقد وصفه رسول الله ﷺ بذلك، فقد روى أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذِرْوة سنامه الجهاد». وقد ذكر الله تبارك وتعالى فضل الجهاد في سبيله وأمر به في مواضع كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الأنفال: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾ وقال عز وجل في سورة التوبة: ﴿انفِرُوا خِفَافا وثِقَالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ وقال عز وجل: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم

بأن لهم الجنـةَ ، يُقـاتِلون في سبيل الله فيَقتُلـون ويُقتَلـون وعْـدًا عليه حقّـا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومَن أوْفَى بعهده من الله ، فاستبشروا بِبَيْعكم الذي بايَعْتُم به ، وذلك هو الفوز العظيم﴾ في آيات كثيرة، وأخبر رسول الله ﷺ أن عمل المجـاهــد في سبيل الله هـو أعظم الأعمال ، فقــد روى البخـاري من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا قـال : يا رسول الله دُلّني على عمل يعدل الجهاد ، قال : «لا أجده» ثم قال : «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقـوم ولا تَفْتُر، وتصوم ولا تُفْطـر؟» فقال : ومن يستطيع ذلك؟ .
ورواه مسلم بلفظ : قـال : قيل يا رسـول الله مـا يعدل الجهـاد في سبيل الله؟ قال : «لا تستطيعـونه» فأعـادوا عليه مـرتين أو ثلاثا ، كـل ذلك يقول : «لا تستطيعـونـه» ثم قـال : «مثل المجـاهـد في سبيل الله كمثل الصـائم القـائم القانت بآيات الله لا يَفْتُرُ من صـلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهـد في سبيل الله» ، وقـد أوضح رسول الله ﷺ أن فضـل الجهاد في سبيل الله إنما يكـون لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليـا ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه أن أعرابيـا أتى النبيّ ﷺ فقال : يـا رسول الله الرجل يقاتل للمَغْنَم ، والرجل يقاتل ليُذْكَرَ، والرجل يقاتل ليُرى مكانُه ، وفي رواية : يقاتل شجاعةً ويقاتل حَـمِيَّة ، وفي رواية : يقاتل غضبا فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وقـوله عـز وجل : ﴿فإن انتهـوا فـلا عدوان إلا على الظـالمين﴾ أي فإن انتهى المشركون عن شركهم وعن فتنتهـم للمسلمين وصدّهم عن سبيل الله ، وصارت كلمة الله هي العليا ، فلا عـدوان عليهم أي فلا تقاتلوهم ، قال ابن كثير رحمه الله : والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقـاتلة كقوله : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتـدوا عليه﴾ وقوله : ﴿وجـزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلهـا﴾ ﴿وإن عاقبتم فعاقبـوا بمثل ما عُـوقِبْتُم به﴾ اهـ وقال البخاري في صحيحـه : باب قـوله

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ ثم ساق بسنده عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضُيّعُوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أنّ الله حرّم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾؟ فقال: قاتَلْنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

وفي رواية للبخاري من طريق نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجّ عاما وتعتمر عاما وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغّب الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت، قال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ماذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تَبْغي حتى تَفِيءَ إلى أمر الله﴾، ﴿قاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلا، فكان الرجل يُفْتَنُ في دينه، إما قتلوه، وإما يُعَذّبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أمّا عثمان فكأنّ الله عفا عنه وأما أنتم فكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما عليّ فابن عم رسول الله ﷺ، وختنه، وأشار بيده فقال: بيته حيث ترون. اهـ وقوله تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُمات قِصَاصٌ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ هذا تأكيد لحرمة الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام، وأنه يجب على المسلمين ألا يبدؤوا المشركين بقتال عند المسجد الحرام أو وهم في حالة الإحرام أو في الشهر الحرام، فإذا بدأهم المشركون بقتال في الشهر الحرام، أو في البلد الحرام أو في حالة الإحرام

فإنهم يجوز لهم الـردّ عليهم بالمثل ولا إثـم عليهم في ذلك ولا حرج، ولـذلك أخرج أحمد بسند صحيح من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لم يكن رسـول الله ﷺ يغزو في الشهـر الحرام إلا أن يُغْزَى . . الحديث، قـال ابن كثير رحمه الله: ولهذا لما بلغ النبيّ ﷺ وهـو مخيّم بالحديبيـة أن عثمان قُتِل وكان قـد بعثه في رسالة إلى المشركين بـايع أصحابه وكانـوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتـال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفّ عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان، وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حُنَيْن وتحصّن فَلّهم بالطـائف عدل إليها فحاصرها ودخـل ذو القعدة وهو محاصِرٌ لها بـالمنجنيق واستمر عليهـا إلى كمال أربعين يومـا، كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابـه انصرف عنها ولم تُفتَحْ ثم كرّ راجعا إلى مكة واعتمر من الجِعـرانة حيث قسم غنائم حنين وكانت عمـرته هذه في ذي القعدة أيضـا عام ثمان، صلوات الله وسلامـه عليه اهـ وفي قولـه عز وجل: ﴿فمن اعتـدى عليكم فاعتـدوا عليـه بمثل مـا اعتدى عليكم واتقـوا الله﴾ إشعار بوجوب العدل حتى مع المشركين وهو تأكيد لقوله تبارك وتعالى في أول آية من آيات القتال في هذا المقام: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتـدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وتسميـة معـاقبة المعتـدي والقصاص منـه بمقدار اعتدائه اعتداءً مع أنه حق وصـواب وعدل جاء على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع باسم المشاكلة على حد قول الشاعر:

قالـوا اقترحْ شيئا نُجِدْ لك طَبْـخَه   قلتُ اطبُخُـوا لي جُبـَّة وقميـصا

فبـدل أن يقـول: خيطـوا لي جبـة وقميصا قـال: اطبخـوا لي، مشـاكلـة لقولهم: نُجِـدْ لك طبخه. قال أهل العلـم: ومن ذلك قوله تبـارك وتعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ وقولـه عز وجل: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ وقال القاضي أبو بكـر بن العربي في أحكام القرآن: والذي أقول

فيه: إنّ الثـاني كالأول في المعنى واللفظ، لأن معنى الاعتـداء في اللغة مجاوزة الحدّ، وكـلا المعْنَيَيْن موجـود في الأول والثاني وإنما اختلف المتعلِّق من الأمـر والنّهي، فـالأول منهيّ عنه، والثاني مـأمور به، وتعلّق الأمـر والنهي لا يغيّر الحقـائق ولا يقلب المعاني بـل إنه يُكْسِبُ مـا تعلّق بـه الأمـر وَصْفَ الطاعـة والحُسْن، ويكسب ما تعلّق به النّهـي وصف المعصية والقبح، وكلا الفعلين مجاوزة الحدّ، وكلا الفعلين يسوء الـواقع به، وأحدهما حق والآخر بـاطل اهـ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿واعلمـوا أن الله مع المتقين﴾ تـرغيب للمسلمين في الثبات على تقـوى الله عز وجل التي تجلب لهم النصر مـن الله، وترهيب لهم من الاعتداء على المشركين بغير الحق الذي أمرهم الله عز وجل به فيهم. وقوله عز وجل: ﴿وأنفقـوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ أي وابذلوا أيها المسلمون من أموالكم في طريق نشر دين الله وأَعطـوا المجاهـدين من أمـوالكم لإعلاء كلمـة الله، ولا تُقَصِّروا في ذلك فَتُهْلِكوا أنفسكم، لأن تركَ الجهاد أو عدم إعانة المجاهدين يمكّن لأعدائكم فيتسلّطـون عليكم ويُذِلّـونكم ويُهلكونكم فتكـونون أنتم السبب في إهـلاك أنفسكم. قال البخاري في صحيحه في كتاب التفسير: باب قوله: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقـوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ التّهلكـة والهلاك واحد. حـدثني إسحاق حـدثنا النضر حـدثنا شعبـة عن سليمان قال: سمعت أبا وائل عن حـذيفة: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ قال: نزلت في النفقة. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح البارى في قـوله: نزلت في النفقة، أي في ترك النفقـة في سبيل الله عز وجل وهذا الذي قـاله حذيفة جاء مفسّرا في حديث أبي أيـوب الذي أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود والترمـذي وابن حبان والحاكم من طريق أَسْلَم بن عمران قال: كنا بالقسطنطينية فخرج صفّ عظيم من الروم فحمل رجل من

المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ثم رجع مُقْبِلا، فصاح الناس: سبحان الله، ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: أيها الناس إنكم تُؤَوِّلون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنّا لمّا أعزّ الله دينه وكَثُر ناصروه قلنا بيننا سرّا: إنّ أموالنا قد ضاعت، فلو أنّا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله هذه الآية فكانت التهلكة هي الإقامة التي أردناها، وصحّ عن ابن عباس وجماعة من التابعين نحوُ ذلك في تأويل الآية. اهـ وقد روى البخاري ومسلم من حديث زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهّز غازيا فقد غزا». الحديث. وفي تذييل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ إرشاد للمسلمين بأن يجمعوا في سلوكهم بين تقوى الله وبين الإحسان الذي هو أعلى مقامات الطاعة حتى في قتالهم لأعدائهم ليفوزوا بما وعدهم الله عز وجل في قوله: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقد روى مسلم من حديث أبي يَعْلَى شَدّاد بن أَوْس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، ولْيَحُدّ أحدُكم شَفْرَته ولْيُرِحْ ذَبِيحته».

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين، والحمد لله رب العالمين.



الفهرس

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة البقرة

تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الثاني

ⓒ عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦ -٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦-٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى: ﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدْي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدْيُ محِلّه، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك، فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعُمرة إلى الحج فما استيسر من الهدْي، فمَنْ لم يجد فصيام ثلاثة أيّام فى الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرةٌ كاملة، ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، واتّقوا الله واعلموا أنّ الله شديد العقاب﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أحكام الصيام وهو ركن من أركان الإسلام ثم بين بعض أحكام الجهاد في سبيل الله شرع هنا يذكر بعض أحكام الحج للصلة الوثيقة والرابطة القوية بين الحج والجهاد حتى وصف رسول الله ﷺ حجّ النساء أو عمرتهن بأنّ ذلك جهاد، فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لَكُنّ أفضل الجهاد حج مبرور». ووصفه بأنه جهاد لا قتال فيه كما روى أحمد وابن ماجه بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، على النّساء جهاد؟ قال: «نعم، عليهن جهادٌ لا قتال فيه: الحجّ والعمرة» كما رتّب رسول الله ﷺ أفضل الأعمال فذكر الحجّ بعد الجهاد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أيّ العمل أفضل؟ فقال: «إيمانٌ بالله ورسوله» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» قيل ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرور». وقوله عز وجل: ﴿وأَتموا الحج والعمرة لله﴾ هو أمر من الله عز وجل بإتمام الحج والعمرة وإخلاص عملهما لله عز وجل، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر﴾ الآية تفسير الحج والعمرة وتعريفهما، ولا نزاع عند أهل العلم أن قوله تبارك

وتعـالى: ﴿وأتموا الحج والعمـرة لله﴾ الآية . نـزلت في السنـة السـادسـة من الهجرة بعد شروع النبـي ﷺ في العمرة عام الحديبية لما صـده المشركون ومنعوه من الوصول إلى البيت الحرام فأنـزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكـريمة وأمر فيهـا بإتمام الحج والعمـرة وبين حكـم المُحْصَرِ الـذي تعـذر عليـه الإتمام، ولذلك لما تم صلح الحديبية كان في شروط الصلح أن يعتمر رسول الله ﷺ في العام القابل، وسميت العمرة التي اعتمرها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة سبع عمرة القضاء. وظاهر القـرآن العظيم يدل على أن الحج إنما فرض بقوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وقد نزلت هذه الآية الكريمة سنة تسع من الهجرة على الصحيح، وأن الحج لم يفرض إلا في السنـة التاسعة بهذه الآية الكـريمة، ولم يرد في صريـح القرآن ولا صحيح السنـة وجوب العمرة ابتـداء، وإنما أوجب الله تبارك وتعالى بقوله عز وجل: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ إتمام الحج وإتمام العمرة بعـد الشروع فيهما، وسائر الأحاديث الصحيحـة ليس فيها إلا إيجاب الحج وأنـه أحد أركـان الإسـلام الخمسة، وأكثـر أهل العلم على أن المتطـوع بالصـلاة أو الصيام هـو أمير نفسه، كما جـاء في حديث أم هـانئ عند أحمد والترمذي أن رسـول الله ﷺ قال: المتطوع أمير نفسـه إن شاء صـام وإن شاء أفطر» وقد جاء كذلك ما يؤيده عن أنس مع أبي طلحة رضي الله عنه في قصة أكله من البرد وقـد كان متطـوعا بـالصيام. فلـو شرع في صيام تطـوعا أو في صلاة تطوعا ثم بدا له أن لا يتم هـذه النافلة فله ذلك ولا قضاء عليه، لكن أجمع أهل العلم على أن من شرع في الحج أو العمرة متطـوعا وجب عليه إتمام ما شرع فيه وليس له رفضه بحال. فلو أفسده وجب عليه قضاؤه مع ما يلزمه من الفديـة، ولا شك أن ذلك الإجماع مستنده قـوله عـز وجل هنا: ﴿وأتمّوا الحج والعمرة لله﴾ ولم يرد في القـرآن ذكر العمرة إلا مقرونة بذكـر الحج كقوله

تبارك وتعالى: ﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما﴾ وكما قال هنا: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ والمراد بإتمام الحج والعمرة وجوب المضي فيهما وإكمال أركانهما وشروطهما وسائر حقوقهما من غير إخلال بشيء منهما ابتغاء وجه الله عز وجل، مع الابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، وقد بشر رسول الله ﷺ من حج لله وصان حجّه من الرفث والفسوق بالجنة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حجّ لله فلم يرفُث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». كما أخبر ﷺ أن العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». وقوله عز وجل: ﴿فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى﴾ أي فإن مُنِعْتُم أيها المُحْرِمون بالحج أو بالعمرة من الوصول إلى البيت الحرام لإتمام حجكم أو عمرتكم بسبب عدو أو مرض أو غيرهما من الحوائل التي تحول بينكم وبين المضي في نسككم فانحروا أو اذبحوا ما تَيَسَّرَ لكم من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز، وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ أن البدَنَةَ تُجْزِئُ عن سبعة وأن البقرة تجزئ عن سبعة وأن الشاة تجزئ عن واحد، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي جمرة أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهدي، فقال: فيها جَزُور أو بقرة أو شاة اهـ يريد أن الجَزُور والبقرة تجزئ كل واحدة منهما عن سبعة، كما روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البَدَنة عن سبعة والبقرة عن سبعة. وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُحْصِرَ رسولُ الله ﷺ فحلق رأسه وجامع نساءه ونحر هديه حتى اعتمر عاما قابلا. كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع النبي ﷺ فحال

كفار قريش دون البيت فنحر النبي ﷺ هداياه وحلق وقصّر أصحابه. وقوله عز وجل: ﴿ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهَدْيُ محلّه﴾ أصل مَحِلّ الهدي الموضع الذي يحلّ فيه ذبحه وهو البيت العتيق كما قال عز وجل: ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ وليس المرادُ من البيت العتيق عَيْنَ المسجد الحرام لأنه مَصُون عن الدماء والأقذار، وقد بين رسول الله ﷺ المقصود بذلك فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحرت هاهُنا ومِنى كلّها مَنْحَر فانحروا في رحالكم». الحديث. وقال أبو داود في سننه: حدثنا الحسن بن علي ثنا أبو أسامة عن أسامة بن زيد عن عطاء قال: حدثني جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «كل عرفة مَوقِف وكل مِنًى مَنْحَر وكل المزدلفة مَوقِف وكل فِجَاج مكة طريق ومَنْحَر» أما المُحْصَر فمَحِلّ هديه حيث أُحْصِر ما دام لا يتمكن من إيصاله إلى مكة، ولذلك وصف الله عز وجل هَدْي النبي محمد ﷺ وأصحابه يوم أُحْصِرُوا في الحديبية بقوله عز وجل: ﴿والهَدْيَ معكوفا أن يَبْلُغَ مَحِلّه﴾ وقد نحر النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم هداياهم بالحديبية، وقوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذًى من رأسه ففِدْيةٌ من صيام أو صَدَقة أو نُسُك﴾ أي فمن كان منكم أيها المُحْرِمون بحج أو بعمرة مصابا بمرض كصداع ونحوه، أو به أذى من رأسه كقمل ونحوه، فاحتاج إلى حلق رأسه فإنه يحلق وعليه فدية من صيام أو صدقة أو نسك أي ذبح شاة، وقد أجمع أهل العلم على أن المُحْرِم ممنوع من حلق شعره وجزّه وإتلافه ولو بنُورة أو غيرها إلا في حالة العلة كما نص على ذلك القرآن الكريم، كما أجمع أهل العلم على وجوب الفدية على المحرم إذا حلق رأسه من غير علة. وقد أخرج البخاري في صحيحه قصة نزول قوله عز وجل: ﴿فمن كان منكم مريضا أَوْ به أذًى من رأسه ففِدْية من صيام أو صدقة أو نُسُك﴾. من طريق عبد الله بن مَعْقل

قال: جلست إلى كعب بن عُجْرَة رضي الله عنه، فسألته عن الفدية فقال: نزلت فيّ خاصة وهي لكم عامّة، حُمِلْتُ إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أُرى الوجَعَ بلغ بك ما أرى، أو ما كنت أُرَى الجَهْدَ بلغ بك ما أرى، تجد شاة؟» فقلت: لا، فقال: «فصُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع» وقد أخرجه البخاري كذلك من طريق عبد الرحمن بن أبي ليلى أن كعب بن عُجْرة حدثه قال: وقف عليّ رسولُ الله ﷺ بالحديبية ورأسي يتهافت قملاً فقال: «يؤذيك هوامُّك؟» قلت: نعم، قال: «فاحلق رأسك» أو قال: «احلق» قال: فيّ نزلت هذه الآية: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه﴾ إلى آخرها، فقال النبي ﷺ: «صُمْ ثلاثة أيام أو تصدّق بفَرَق بين ستة أو انْسُكْ بما تيسّر». وقوله عز وجل: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ هذا بيانٌ لأحد الأنساك الثلاثة التي يخيّر المسلم بينها في الحج وهي الإفراد والتمتع والقِرَان، وقوله عز وجل هنا: ﴿فإذا أمنتم﴾ أي فإذا تمكنتم من أداء مناسككم ولم تكونوا في حالة خوف، وغلب على ظنكم أمن الطريق إلى بيت الله الحرام، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هنا بعض أحكام الحج من هذه الآية الكريمة إلى الآية الثالثة بعد المائتين، وذكر بعض أحكامه في سورة آل عمران من الآية السادسة والتسعين إلى الآية السابعة والتسعين، كما ذكر بعض أحكام الحج وشئون البيت الحرام في سورة الحج من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين منها، ولا شك أن ذكر أحكام الحج وصفاته قبل فرضيته لا إشكال فيه، وقد نقل غير واحد من أهل العلم الإجماع على أن المسلم مُخيَّر بين أحد الأنساك الثلاثة التي يعرف العرب الكثير منها من مواريثهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وليس ذكر التمتع

هنا وحده دليلا على أنه النّسـك الوحيد المشروع، كما أن أمر رسول الله ﷺ في حجة الـوداع من لم يَسُقْ الهَدْي من المُفْرِدين أو القَارِنين بـالتمتع ليس دليلا على بطلان الإفراد أو القران ممن لم يَسُقْ الهَدْي بل أراد رسول الله ﷺ أن يبطل اعتقادا جاهليا إذ كانوا يعتقدون أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: كانوا يَرَوْن أن العمرة في أشهر الحج من أفجـر الفجور في الأرض، ويجعلون المحرم صَفَرًا، ويقولون: إذا برأَ الدَّبَـر، وعفَا الأثَر، وانسلخ صَفَر حَلّت العمرة لمن اعتمـر، قدم النبـي ﷺ وأصحابـه صَبيحـة رابعة مُهِلّين بـالحج فأمـرهم أن يجعلوها عمرة، فتعاظم ذلك عندهم، قالوا: يا رسول الله: أيّ الحِلّ؟ قال: «حِلّ كلّه». اهـ والتمتع هو أن يُحرم بالعمرة في أشهر الحج وبعد الانتهاء من أعمالها يتحلل ويقيم بمكـة حـلالا حتـي يحج من عـامـه، والقِـرَان أن يحرم بـالحج والعمرة معـا فيقول: لبيك حجـا وعمرة، وتـدخل العمرة في أفعـال الحج، أما الإفراد فهو أن يحرم بالحج وحده فيقول عند إحرامه: لبيك حجا، والواقع أنه لافرق في العمل بين المُفْرِد والقارِن فإن أداء النسُك للمُفْرِد كأدائه للقارن تماما لا يختلفان في شيء إلا في النية، وفي أن القارن عليه دم والمُفْرِد لا يجب عليه الهَدْي. وقـد أوجب الله تبارك وتعالى في هـذه الآية الكريمة هـديا على المتمتع حيث يقول: ﴿فمن تمتع بـالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم، تلك عشرة كاملة﴾ أي فمن استمتع بأداء العمـرة في أشهـر الحج وتمتع بمكـة وبالمسجـد الحرام حيث أقام بها حـلالا إلى أن يُحرِم بالحج من عـامه فليـذبح ما قـدر عليه من الهدي وهـو شاة أو سُبْع بقـرةٍ أو سُبْع بَـدَنـةٍ، فمن لم يقدر على هـذا الهدي فعليـه بدل ذلك صيـام ثـلاثة أيـام في الحج أي في أيـام المناسك بأن يقـدّم إحرامه بـالحج قبل يوم عرفة بثـلاثة أيام ليتمكن من صيامهـا فيها أو بيومين

ليصومها ويصوم يوم عرفة كذلك ، والأوْلَى أن يقدمها قبل يوم عرفة ، وإذا لم يتمكن من ذلك صامهـا في أيام التشريق ، ولم يرخص الإسلام في صيـام أيام التشريق إلا لمن لم يجد الهدي ، فقـد روى البخاري من حـديث عائشـة وابن عمر رضي الله عنهم قالا: لم يـرخّص في أيام التشريق أن يُصَمْنَ إلا لمن لم يجد الهَدْي . ويجوز صيام هذه الأيام الثلاثة متتابعة ومتفرقة ، وكذلك يجوز صيام الأيام السبعة متتابعـة ومتفرقة ، وهو مخير في صيام هذه الأيـام السبعة كذلك إن شاء صامها بمكة بعد فراغه من أعمال الحج وإن شاء صامها بعد رجوعه إلى أهله ، وصيـامها بعـد رجوعـه إلى أهله أفضل لقـوله تعـالى : ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ ولأنـه أرفق بـه وأيسر لـه ، وقد ألحقت السُّـنة القـارِن بـالمتمتع في وجوب الهَدْي عليه ، ولا خلاف فيه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ذلك لمن لم يكن أهلـه حاضري المسجد الحرام﴾ أي ذلك التمتع ووجوب الهدي أو الصيـام عند عدم القدرة على الهدي لغير أهل الحرم ومن كـان ساكنا حول الحرم دون مسـافـة القصر، أما أهـل الحرم ومن في حكمهم فـلا يتمتعون بـالعمـرة إلى الحج ، لأنهم متمتعون دائما بالحرم . وقولـه تعالى : ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ ترهيب من مخالفة أوامر الله التي شرعها لعباده ليسعدوا في الدارين .

قال تعالى: ﴿الحجّ أشهر معلومات، فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله، وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التقوى، واتّقون يا أولي الألباب﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بإتمام الحج والعمرة ابتغاء مرضاة الله وبيّن حكم المحصر، وحكم من كان محرما بحج أو عمرة ثم أصابه مرض أو أذى في رأسه واحتاج إلى حلق شعر رأسه فحلق، وبيّن حكم المتمتع بالعمرة إلى الحج، وأن أهل الحرم المكي ومن في حكمهم لا يشرع لهم التمتع بالعمرة إلى الحج، وذيّل الآية بالأمر بتقواه وحذّر من شدة عقابه لمن يخالف أمره شرع هنا في بيان مواقيت الحج الزمانية، وحذّر من الرفث والفسوق والجدال في الحج حيث يقول عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات إذ المعلوم للمخاطبين أن المراد: وقت الحج أشهر معلومات، لا أنّ نفس أفعال الحج هي الأشهرالمعلومات، والعرب في أساليبها البلاغية يحذفون من الكلام ما يكون معلوما للمخاطَبين، كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

وحذْفُ ما يُعلَم جائز كما ... تقول زيدٌ بعْدَ مَن عِندَكما

فإنّ العرب يستحسنون إذا سأل سائل فقال لك: من عندك؟ فتقول في جوابه: زيد، أي عندنا زيد فتحذف كلمة عندنا من جوابك لأنها معلومة للمخاطَب، فإذا سمع العربي قوله عز وجل: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ علم يقينا أن المراد: وقت الإحرام بالحج في أشهر معلومات، وهي شوال والقعدة وعشر ليال من ذي الحجة، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: معلوم أن أوقات الحج أشهر معلومات ليس المراد أن نفس الأفعال هي الزمان، ولا يفهم هذا أحد من اللفظ ولكن قد يقال: في الكلام محذوف تقديره: وقت

الحج أشهر معلومات، ومن عادة العرب الحسنة في خطابها أنهم يحذفون من الكلام ما يكون المذكور دليلا عليه اختصارا كما أنهم يوردون الكلام بزيادة تكون مبالغة في تحقيق المعنى اهـ وقد جعل الله تبارك وتعالى للحج ميقاتا زمانيا وميقاتا مكانيا، فالميقات الزماني هو المذكور في هذه الآية أما الميقات المكانيّ فقد حدّده رسول الله ﷺ كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقّت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحُلَيْفَة ولأهل الشام الجُحْفَة ولأهل نجد قَرْن المَنَازِل ولأهل اليمن يَلَمْلَم، فهُنّ لهنّ، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج والعمرة، فمن كان دُونَهُنّ فمُهَلّه من أهله، وكذاك وكذاك، حتى أهلُ مكة يُهِلُّون منها. كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مُهَلُّ أهلِ المدينة من ذي الحُلَيْفة، والطريق الآخر الجُحْفة، ومُهَلّ أهل العراق من ذات عِرْق، ومُهَلّ أهل نجد قَرْن، ومهلّ أهل اليمن يَلَمْلَم». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري في قول البخاري (باب فرض مواقيت الحج والعمرة): المواقيت جمع ميقات كمواعيد وميعاد، ومعنى فرض قدّر أو أوجب، وهو ظاهر نص المصنف، وأنه لا يجوز الإحرام بالحج والعمرة من قبل الميقات ويزيد ذلك وضوحا ما سيأتي بعد قليل حيث قال: ميقات أهل المدينة ولا يُهِلّون قبل ذي الحليفة، وقد نقل ابن المنذر وغيره الإجماع على الجواز وفيه نظر فقد نقل عن إسحاق وداود وغيرهما عدم الجواز وهو ظاهر بجواب ابن عمر، ويؤيده القياس على الميقات الزماني فقد أجمعوا على أنه لا يجوز التّقدم عليه، وفرّق الجمهور بين الزماني والمكاني فلم يجيزوا التّقدم على الزماني وأجازوا في المكاني اهـ وقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: فرض قدّر أو أوجب هو شرح من الحافظ رحمه الله لأول لفظة وردت في الحديث الذي ساقه البخاري تحت العنوان المذكور من طريق زيد بن جُبَيْر أنه أتى عبد الله

ابن عمر رضي الله عنهما في منزله وله فُسْطاط وسُرَادِقٌ، فسألتُه : مِن أين يجوز أن أعتمر؟ قال: فرضها رسول الله ﷺ لأهل نجد قرنًا ولأهل المدينة ذا الحليفة ولأهل الشام الجحفة. اهـ ولا شك أن العمرة ليس لها ميقات زماني فهي تجوز في جميع السنة، وقد وصف الله تبارك وتعالى أشهر الحج بأنها معلومات ولم يسمّها في كتابه الكريم لأنها كانت معلومةً عند العرب غير أنهم كانوا يَنْسِئُون فيقدمون بعض الشهور على بعض وقد يسمونها بغير اسمها ويجوز أن يكون المراد أنها معلومات ببيان الرسول ﷺ وعلى كل حال فالمراد أن الحج لا يكون في كل أيام السنة ولا في كل شهورها وإنما في وقته المعلوم المحدّد لا يجوز تقديمه ولا تأخيره عن وقته. وقد اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ كلّها في ذي القَعْدة إلا التي كانت مع حجته، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ كُلُّهُنَّ في ذي القعدة إلا التي كانت مع حَجَّته: عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل، وعمرة من الجِعِرّانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة وعمرة مع حجته. وكان عمر وعثمان رضي الله عنهما يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج ويحضّان على ذلك حتى لا يهجر البيت الحرام، كما ثبت أن رسول الله ﷺ قال: عمرة في رمضان تعدل حجة، أو تعدل حجّة معه ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق عطاء قال: سمعت ابن عباس يحدثنا قال: قال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيتُ اسمها: «ما منعك أن تحجي معنا؟» قالت: لم يكن لنا إلاّ ناضحان فحجّ أبو ولدها وابنها على ناضح وترك لنا ناضحًا نَنْضِح عليه، قال: «فإذا جاء رمضان فاعتمري فإنّ عمرة فيه تعدل حجّة».
وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما رجع النبي ﷺ من حجته قال لأم سنان الأنصارية:

«ما منعك من الحج؟» قالت: أبـو فلان تعني زوجها كان لـه ناضحان حج على أحـدهما والآخر يسقي أرضـا لنـا، قـال: «فإن عمرة في رمضـان تقضي حجة أو حجة معي». وقوله عز وجل: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي فمن ألزم نفسـه بالحج في هـذه الأشهر المعلـومات بأن أحـرم بالحج فيهـا فأصبح متحتما عليـه، وهذا التعبير مع قـولـه عز وجل: ﴿وأَتموا الحج والعمـرة لله﴾ يدل دلالة ظاهـرة بأن الحج لم يكن قد فرضه الله تبارك وتعـالى عند نزول آيات الحج هـذه في سـورة البقـرة، وأن من أحرم بـالحج في أشهـر الحج أو أحـرم بالعمـرة في أي وقت من السنة متطـوعا بذلك لـزمه المضيّ فيـه وتحتم عليه.

وقوله عز وجل: ﴿فـلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج﴾ أي فلا يحل لمن أحرم بالنسك أن يرفث أو يفسق أو يجادل. وكما حذر رسول الله ﷺ الصائم من الرفث والفسـوق والرّد على من سابّـه أو شاتمه فقد نهى الله تبـارك وتعالى هنـا من صار مُحْرِمـا عن الوقـوع في الرفَث والفسـوق والجدال، والرفَث هـو غِشْيان النسـاء ودواعيه من المبـاشرة أو التقبيل أو نحو ذلك، والفسـوق هو عصيان الله عـز وجل بأي صورة من صـور المعاصي، ولما كـان الحج يكتنفه ضرورة مخالطـة الناس ومـزاحمتهم في الأسفـار والمشاعـر والمنازل والموارد فقـد طلب الإسـلام من المسلم الـذي دخل في الإحـرام أن يبتعد عن المخـاصمـة والمنازعة والمجـادلة مع أي أحد من الناس، وقـد بشر رسول الله ﷺ من ترك مجادلة الناس ومماراتهم وإن كان محقّا ببيت في ربض الجنة، فقد روى أبو داود واللفظ له وابن ماجه والترمذي وحسّنه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنـا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقّـا» اهـ فعلى الحاج أن يتجنب كلّ ما يـؤذي أحدا من المسلمين، وأن يصون لسـانه إلا من الخير، وأن يحفظ سَمْعَه فلا يستمع إلا إلى مـا يرضي الله عز وجل، وأن يحفظ بصره فـلا يتتبع به العورات، وأن يحفظ يـده فلا تبطش

في ضرر أحد، وأن يصون رجله فلا تمشي في أذية أحد وأن يجعل في فكره دائما قول الله عز وجل: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ ولا شك أن من شاهد مسيرة الحجيج ومنازلهم وتنقلاتهم في المشاعر عرف سموّ التشريع في الإسلام، وسرّ تخصيص التحذير من الرفث والفسوق والجدال. وإذا كان الرفَث مُحَرَّما مع الحليلة على المُحْرِم فما بالك بالرفث مع غير الحليلة في الإحرام أو في الشهر الحرام أو في البلد الحرام؟ وكذلك إذا كان الفسوق محظورا في جميع السنة وعموم الأوقات فما بالك في الإحرام والشهر الحرام والبلد الحرام؟ ومع أن مَن هَمَّ بسيّئة فلم يفعلها لا تكتب عليه فإن الله تبارك و تعالى هدّد من همّ بسيئة في الحرم بأن الله يذيقه من عذاب أليم حيث يقول عز وجل: ﴿ومَن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم نُذِقْه من عذاب أليم﴾ وقوله عز وجل: ﴿وما تفعلوا من خير يعلَمْه الله﴾ هو ترغيب في عمل الخير بعد الترهيب من عمل الشر، فمن يعمل خيرا ولا سيما في الأماكن المقدسة يجد ثوابه عند الله خيرا عظيما، ومن يعمل شرا ولا سيما في الأماكن المقدسة يجد عقابه عند الله عذابا أليما، ولن يضيع من عمل الإنسان شيء كما قال عز وجل: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قال البخاري في صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ ثم ساق بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ قال الحافظ ابن حجر في الفتح: قال المُهَلَّب: في هذا الحديث من الفقه أن ترك السؤال من التقوى، ويؤيده

أن الله مدح من لم يسأل الناس إلحافا، فإن قوله: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ أي تزوّدوا واتقوا أذى الناس بسؤالكم إياهم والإثم في ذلك، قال: وفيه: أن التوكل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكل المحمود أن لا يستعين بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب كما قال عليه السلام: «اعقلها وتوكل» اهـ وقد اشتمل قوله عز وجل: ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾ على لون من الهدى والرشاد والبلاغة بديع حيث أمرهم بالزاد لسفر الدنيا ولفت انتباههم في نفس الوقت إلى الحرص على زاد الآخرة من تقوى الله عز وجل، وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يُوَارِي سَوْآتِكم وريشًا ولباسُ التقوى ذُلك خير﴾ حيث ذكّرهم بنعمته عليهم فيما أوجد لهم من اللباس الحسّي الذي يستر عوراتهم ثم لفت انتباههم إلى اللباس المعنوي الجميل الذي لا يَبْلَى وهو لباس التقوى، الذي يجب أن يتَحَلَّى به الإنسان دائما، ولا يتخلّى عنه أبدا لأنه أجمل أنواع اللباس، وأكرم أنواع الزينة. وما أجمل قول الشاعر:

الموتُ بحر طامِحٌ مَوْجُه ... تذهب فيه حِيلة السابح
يا نفسُ إني قائل فاسمَعي ... مقالةً مِن مُشفِق ناصح
لا يَصْحَبُ الإنسانَ في قبره ... غيرُ التُّقى والعملِ الصالح

وما أحسن قول الأعشى ميمون بن قيس:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التُّقى ... ولاقَيْتَ بعد الموت مَن قد تَزوَّدا
نَدِمْتَ على ألاّ تكون كمثله ... وأنّك لم ترصُدْ كما كان أرْصدا

وقد نبه الله تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ إلى أن ذوي العقول المستنيرة والقلوب المبصرة هم الذين يحرصون على التزود بتقوى الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربّكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين* ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أول مناسك الحج وهو الإحرام به بقوله: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ وحذر من الرفث والفسوق والجدال فيه، وحضّ على فعل الخير في هذا العمل الصالح الذي صار أحد أركان الإسلام الخمسة، وعالج أحد الأمراض السلوكية في الإنسان الذي يزعم التوكّل على الله فيحج بغير زاد مع أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولا خبزا، فأرشد هؤلاء الذين يسلكون هذا الطريق المعوج إلى الصراط المستقيم حيث أمرهم بالتزود بما تحتاجه أجسامهم في موسم الحج كما أمرهم بالتزود بتقوى الله التي تسعدهم في الدينا والآخرة، شرع هنا في هذا المقام الكريم يعالج سلوكا آخر من سلوك الإنسان المتّبع لهوى نفسه في التحريم والتحليل حيث كانوا يتأثمون من البيع والشراء وهم حُجّاج، فأرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى جواز البيع والشراء في موسم الحج وأن الاتجار في الحج لا ينافي إخلاص العبادة لله تبارك وتعالى ما دام التاجر محافظا على مناسك الحج، مقيما له على الوجه المشروع مُريدًا بحجه وجه الله عز وجل، وأن حضوره الموسم ليس لمجرد التجارة، وإنما يَتَّجِر طلبا للفضل من الله والاستعانة على ما يحتاجه لمعاشه ومعاده، وهذا شبيه بأمر رسول الله ﷺ من لم يستطع الباءة من الشباب أن يصوم، والصيام لا يُقْبَلِ إلا إذا كان خالصا لوجه الله كسائر العبادات كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إني أُمِرْتُ أن أعبدَ اللهَ مخلصا له الدين﴾ وقال عز وجل: ﴿قُلِ اللّهَ أعبدُ مخلصا له ديني﴾ وقال عز وجل: ﴿ألا لله

الدين الخالص﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ ولكنّ هذه العبادة الخالصة تشتمل على منافع لدُنْيَا الإنسان وقمع شهوته الجنسية، فلذلك أمر بها رسول الله ﷺ الشباب لأن تعاليم الإسلام لنفع بدن الإنسان وروحه، فالاتجار في الحج لا يضر مناسك الحج، والأعمال بالنيات. قال البخاري في صحيحه: باب ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ حدثني محمد قال: أخبرني ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عُكَاظ ومَجَنّة وذو المَجَاز أسواقا في الجاهلية، فتأثّموا أن يتّجروا في المواسم، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ في مواسم الحج اهـ ومعنى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ أي لا حرج ولا إثم عليكم في أن تطلبوا فضلا ورزقا من الله الذي رباكم بإحسانه وجوده وفضله وأَنتم في موسم الحج حيث تتّجرون مع أدائكم لمناسك الحج. وقد وصف الله تبارك وتعالى التجار المسلمين بأنهم يبتغون من فضل الله في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ كما قال هنا: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ وكما قال أيضا: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وقد قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: حدثنا طَلِيقُ بن محمد الواسطي قال أخبرنا أسباط قال: أخبرنا الحسن بن عمرو عن أبي أمامة التيمي قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نُكْرَى، فهل لنا حجّ؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المُعَرَّف، وترمون الجِمَار، وتحلقون رءوسكم؟ فقلنا: بلى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يَدْرِ ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام عليه بهذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ إلى آخر الآية فقال النبي ﷺ: «أنتم حُجّاجٌ». وقوله عز

وجل: ﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ إلى قوله: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي فإذا دفَعْتُم من عرفات بعد وقوفكم بها مندفعين إلى مزدلفة.

والوقوف بعرفة من أهم أركان الحج، وقد بين رسول الله ﷺ وقت الوقوف بعرفة والاندفاع إلى مزدلفة ثم الإفاضة منها إلى منى فمكة، وخالف ما كان عليه أهل الجاهلية من قريش حيث كانوا لا يرون الوقوف بعرفة ولا يُفيضون منها، وإنما كانت قريش ومَن دَانَ دينَها يقفون بمزدلفة ويُفيضون منها، فقد روى البخاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسَمَّوْن الحُمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها، ثم يُفِيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾. وقد روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة رسول الله ﷺ، وفيه: فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلّوا بالحج وركب النبي ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأَمَر بقُبَّة من شَعَر تُضْرَب له بنَمِرَة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أَمَر بالقَصْواء فرُحِلَتْ له فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قَدَمَيَّ موضوعٌ، ودماءُ الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دَمَ ابن ربيعة بن الحارث وكان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد فقتلته هُذَيْل، ورِبا الجاهلية موضوعٌ، وأول رِبًا أضع رِبَانَا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كلّه، فاتقوا الله في النساء،

فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهنّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسْأَلُون عني فَمَا أنتم قائلون؟»
قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبّابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشْهَدْ» ثلاث مرات ثم أذّن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يُصَلّ بينهما شيئا ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصُّفْرة قليلا حتى غاب القُرْص وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواء الزّمام حتى إن رأسها ليصيب مَوْرِكَ رَحْلِه ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلّما أتى حَبْلاً من الحِبَال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يُسَبِّح بينهما شيئا ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبّره وهلّله ووحّده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما فلما دفع رسول الله ﷺ مرّت به ظُعُنٌ يَجْرِين فطَفِق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحوّل الفضلُ وجهَه إلى الشِّقِّ الآخر ينظر فحوّل رسول الله ﷺ يده من الشِّقِّ الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه، حتى أتى بطن مُحَسِّرٍ فحرّك قليلا ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حَصَيَات يكبّر مع كل حصاة منها مِثْلِ حصى الخَذْفِ

رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ثم أعطى عليا فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بَدَنة ببَضْعةٍ فجُعِلَتْ في قِدْر فطُبِخَتْ فأكلا من لحمها وشربا من مرقها ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت . الحديث. وذكر البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه حديثا قال فيه: ثم لينطلق حتى يقف بعرفات من صلاة العصر إلى أن يكون الظلام ثم ليدْفعوا من عرفات إذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جَمْعًا الذي يبيتون به ثم ليذكروا الله كثيرا، وأكثروا التكبير والتهليل قبل أن تصبحوا، ثم أفيضوا فإن الناس كانوا يُفيضون، وقال الله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ حتى ترموا الجمرة اهـ ولا شك أن بعض ما فعله رسول الله ﷺ يوم عرفة وليلة المزدلفة وصبيحة يوم النحر منه ما هو ركن من أركان الحج كالوقوف بعرفة وطواف الإفاضة، ومنه ما هو واجب كالمبيت بمزدلفة ورمي جمرة العقبة، ومنه ما هو سنة كالتهليل والتسبيح، وقد روى أحمد وأصحاب السّنن بإسناد صحيح عن عبد الرحمن ابن يَعْمَر الدِّيلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفة - ثلاثا - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» كما روى البخاري ومسلم من طريق محمد بن أبي بكر الثقفي أنه سأل أنس بن مالك وهما غاديان من منى إلى عرفة: كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله ﷺ؟ فقال: كان يُهِلّ منا المُهِلّ فلا يُنكَرُ عليه، ويكبّر المكبر منا فلا يُنكَرُ عليه. كما جاء في حديث مسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وقفت هاهنا وعرفة كلّها موقفٌ ووقفت ههنا وجمعٌ كلّها موقف» كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: إنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يُعْتِقَ الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة، وإنه لَيَدْنُو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟» كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن

عبـاس رضي الله عنهما أن أسامـة بن زيد كـان رِدْفَ النبي ﷺ من عرفـة إلى المزدلفة ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى ، فكلاهما قال : لم يزل النبي ﷺ يلبّي حتى رمى جمرة العقبة . اهـ والمَشْعَر الحرام هـو جُبَيْل بالمزدلفة كان يقال له في الجاهليـة قُزَح وكان يسمى الـمِيقَدَة لأن الناس كـانوا يوقـدون عنده . وأصل المشعـر المعلم وسُمّي مَشْعَـرا لأن الله جعلـه معلما من معـالم العبـادة ووصفه بالحرام لأنـه من الحـرم أو لحرمته ، والمزدلفـة يقـال لها جَـمْعٌ أيضا ، وقوله عـز وجل : ﴿واذكروه كما هداكم﴾ أي واذكروا الله لهدايتكـم لمعالم دينه ومناسك حجه ، فالكاف هنا في قوله : ﴿كما﴾ للتعليل ، وقوله : ﴿و إن كنتم من قبلـه لمن الضـالين﴾ أي و إنكم كنتم من قبل هـداكم لمن الضـالين ، فـ(إنْ) مخفّفـة من الثقيلة . وقولـه عز وجل : ﴿ثم أفيضـوا من حيث أفاض النـاس﴾ أي ثم أفيضوا من المزدلفـة إلى منى فمكـة إذ كانت المزدلفـة يفيض منها العرب جميعا بخلاف عرفات فلم تكن قريش تفيض منها في الجاهلية ، ولا تقف بها . وقـوله : ﴿واستغفـروا الله إن الله غفور رحيم﴾ أي واطلبـوا في هذه الأمـاكن الطيبة وفي أعقـاب هذه الأعمال الصالحة مغفـرة الله ورحمته ولا تغتروا ، وقـد حض الإسـلام المسلمين على الاستغفـار في أعقـاب الأعمال الصالحة كما كان رسول الله ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثا .

قال تعالى : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أَشدّ ذكرا، فمن النّاس من يقول: ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق* ومنهم من يقول: ربّنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار* أولَئك لهم نصيبٌ ممّا كسبوا، والله سريع الحساب* واذكروا الله فى أيام معدودات، فمن تعجّل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه، لمن اتّقى، واتّقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون . ﴾

بعد أن أذن الله تبارك وتعالى للحجاج بجواز الاتجار أثناء أداء مناسك الحج، وأرشدهم إلى ذكره عند المشعر الحرام بعد الإفاضة من عرفات، وأكّد عليهم بذكره لهدايتهم إلى مناسك الحج حيث كانوا قبل بَعْثَة رسول الله يضربون في مناسكهم على غير هدى من الله، ثم أرشدهم إلى الإفاضة من مزدلفة إلى منى فمكّة، وأمرهم بالاستغفار من خطاياهم، لرفع درجاتهم وتقبّل طاعاتهم، وعدم الاغترار بما قاموا به من أداء المناسك والوقوف بالمشاعر لأن الطاعة التي تورث فخرًا وعُجْبا واستكبارًا شرّ من المعصية التي تورث ذُلّاً وتوبة وانكسارا، ولذلك أكّد هنا في هذا المقام الأمر بذكره بعد قضاء المناسك حيث يقول : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكرا﴾ وقوله عز وجل : ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ أي فإذا أديتم شعائر الحج إذ أن ﴿قضى﴾ تستعمل بمعنى أدّى وأتم ووفّى كما تستعمل بمعنى ألزم ووصّى، فإذا كان القضاء معلقا بفعل النفس فالمراد به الأداء والوفاء والإتمام ومنه قول الشاعر:

قضى كلُّ ذي دَيْن فوفّى غريمَه — وعَزّةُ مَمْطولٌ مُعَنًّى غَريمُها

أما إذا كان معلّقا بفعل الغير فالمراد به الإلزام ومنه قوله عز وجل : ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ والمراد بالمناسك التي أديت في هذا

المقام هي الوقـوف بعرفة والإفاضة إلى المزدلفة وذكـر الله عند المشعر الحرام ثم الإفاضة مع الناس من المزدلفة إلى منى لرمْي جمرة العقبة ونحر الهدي أو ذبحه والحلق أو التقصير ثم الإفاضـة إلى مكة لطواف الإفاضـة والسعي بين الصفا والمروة كما بين ذلك رسـول الله ﷺ الذي أسنـد الله عـز وجل لـه وظيفة بيـان مجمل القرآن حيث قال عـز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للنـاس ما نُزّل إليهم﴾ وليس المراد قضاء جميع مناسك الحج والفراغ منها تماما لأن الله تبارك وتعالى ذكر بعد ذلك أعمال الحج في الأيـام المعدودات وهي أيام التشريق من رمي الجمار والمبيت بمنى كما سيجيء في تفسير قولـه عز وجل: ﴿واذكروا الله في أيام معـدودات﴾ وقوله عز وجل: ﴿فـاذكروا الله كذكركم آبـاءكم أو أشد ذكرا﴾ أي أكثـروا من ذكر الله وتسبيحه وتحميـده وتقديسه وتمجيـده وأشغلوا ألسنتكم بالثناء عليه فإن كثرة الذكر تدل على الحب فإن من أحبّ شيئا أكثر من ذكره في سائر أحواله كما قال عنترة:

ولقد ذكـــرتُكِ والرمـاحُ نـواهِـــلٌ   مِنّـي وبيِضُ الهنـد تَقْطُـرُ من دَمِـي

ولما كان الإنسان لا يكاد ينسى أباه أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يلهجوا بالثناء عليـه وذكره أعظم من ذكر الإنسان أباه، وقولـه: ﴿أو أشد ذكرا﴾ أي بل أعظم ذكـرا من ذكر الإنسان أبـاه، لأن الله عز وجل هـو المنعم المتفضل على الإنسان وعلى أبيه. وقـد نبّه الله تبارك وتعالى عباده إلى سـؤاله حوائجهم وذكر ذلك هنا في مقام سياقـه أحكام الحج كما نبههم إلى ذلك في مقام سياق أحكـام الصيـام حيث قال هنـاك: ﴿وإذا سألك عبـادي عني فإني قـريب أجيب دعـوة الداع إذا دعـان﴾ وأرشـدهم هنـا إلى أنه لا يحب من كـان همّه الدنيا ولا تعلُّق له بالآخرة، وأنه يحبّ من يبتغي الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، فإنّ القسم الأول من الناس كـالبهائم التي لا همّ لها إلا ما تأكله وهي غافلة عن أنها يطعمها صاحبهـا لتسمن ويذبحها، كما قال عز وجل:

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ فينبغي للمسلم أن يسأل ربه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة والله ذو الفضل العظيم لا تنفد خزائنه، وقد نبه الله تبارك وتعالى إلى دناءة همة بعض الناس الذي يقرون بالله ويجعلون كلّ همهم حطام الحياة الدنيا فيسألون الله لدنياهم وينسون أخراهم، بخلاف المؤمنين أصحاب الهمم العالية الذين يسألون الله عز الدنيا وسعادة الآخرة في غير موضع من كتابه الكريم حيث قال هنا: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خَلاَق﴾ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ وقال عز وجل: ﴿من كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نُؤْتِهِ منها وما له في الآخرة من نصيب﴾. وقوله عز وجل: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ يشعر بأن هؤلاء لا يكادون يميزون بين ما ينفعهم من متاع الدنيا وما يضرهم، فكلّ همهم ما يجمعون دون التمييز بين ما ينفعهم منها وما يضرهم. وقوله عز وجل: ﴿وما له في الآخرة من خَلاق﴾ أي وما له حظ من نعيم الآخرة وإنما له عذاب النار. وقوله عز وجل: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ هذه أجمع آية في الدعاء أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين لسؤال الله عز وجل بها، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر في دعائه من ذكرها والدعاء بها فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وفي لفظ مسلم من طريق عبد العزيز بن صُهَيْب قال: سأل قتادة أنسا: أيّ دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ؟ قال: يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. كما روى

مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت مُعَاقِبِي به في الآخرة فعَجّلْه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لا تطيقه أوْلا تستطيعه، فهلاّ قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» اهـ وقد جمعت هذه الدعوة الكريمة التي اشتملت عليها هذه الآية المباركة كلّ خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن حسنة الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوي من العافية وطيب المسكن ورغد العيش والأمن والاستقرار والعلم النافع والعمل الصالح والمركب الحسن والثناء الجميل وطمأنينة النفس، وراحة القلب، واجتماع الأحبة وأن تكون الزوجة والأولاد قرة عين. وقد جمع الله تبارك وتعالى ذلك في قوله عز وجل: ﴿فلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبة﴾ وأما حسنة الآخرة فالأمن من الفزع الأكبر في عرصات القيامة، وتخفيف الحساب، وتيسير المرور على الصراط، ودخول جنات النعيم ورضوان رب العالمين، والنظر إلى وجهه الكريم. وقوله عز وجل: ﴿وقنا عذاب النار﴾ أي واصرف عنا عذاب جهنم وصُنّا من لهيبها، ونجّنا منها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولَئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ أي ولكل واحد من هؤلاء الفريقين حظ من عمله فللكافر عقاب شركه وللمؤمن ثواب عمله ودعائه في طاعة ربه، ومحاسبة كل عامل بعمله أمر سهل هَيِّن على الله عز وجل لأنه عز وجل كامل القدرة باهر السلطان. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى﴾ المراد بالأيام المعدودات هي أيام التشريق الثلاثة التي تلي يوم النحر، وسميت أيام التشريق لأن العرب كانوا يُشَرّقُون فيها لحوم الهدايا والأضاحي أي يُقَدّدُونها، أو لأن الهدي لا ينحر حتى تشرق

الشمس، أما الأيام المعلومات الواردة في قوله عز وجل: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ فهي عشر ذي الحجة، ووصفها بأنها معلومات لحرص العرب على معرفتها، وقد علق البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما بصيغة الجزم أن الأيام المعلومات هي العشر يعني الأُوَل من ذي الحجة، كما روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». اهـ وذِكْرُ الله تبارك وتعالى في الأيام المعدودات يتمثل في رمي الجمار الثلاث التي جعلتها الشريعة الإسلامية من مناسك الحج وواجباته حيث أوجبت على الحاج أن يبيت بمنى ليلتين بعد العيد إنْ تعَجَّل، وثلاث ليال إنْ تَأَخَّر، وأوجبت عليه أن يرمي الجمار الثلاث بعد الزوال كل يوم من اليومين الأوّلَيْن من أيام التشريق إن تعَجَّل وفي الثالث كذلك إن تأخر، وقد وصف رسول الله ﷺ أيام التشريق بأنها أيام أكل وشرب وذكر الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث نُبَيْشَةَ الهُذَلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». وإنما كان رمي الجمار ذكرًا لله عز وجل لأن هدي رسول الله ﷺ في رمي الجمار أنه كان يذكر الله عند كل حصاة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه انتهى إلى الجمرة الكبرى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ورمى بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة، ثم قال: هكذا رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة. يعني رسول الله ﷺ. كما أوضح رسول الله ﷺ أن رمي الجمار إنما جعل لإقامة ذكر الله عز وجل، فقد روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما جعل رمي

الجمار والسعي بين الصفا والمروة لإقامة ذكـر الله» . وقوله عز وجل : ﴿ فمن تعجل في يـومين فـلا إثم عليه ومن تـأخر فـلا إثم عليـه﴾ أي من أحب أن يتعجل في أيام الرمي فيرمي في يومين فقـط وهي اليوم الثاني والثالث التي تلي يوم عيد النحـر فلا حرج عليه ولا إثم ، ومن أحب أن يتأخـر فيرمي في ثلاثة أيام فـلا إثم عليه كذلك ، فالأمـر على السعة إن شاء نَفَرَ في اليـوم الثاني من أيام التشريق و إن شـاء نَفَرَ في اليوم الثـالث منها بعد رمي الجمار الـذي حدّد رسول الله ﷺ وقته بما بعد الزوال . وقد روى أحمد في مسنده وأصحاب السنن بسند صحيـح من حديث عبـد الرحمن بن يَعْمَـر الدِّيلِيّ رضي الله عنـه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : «أيام مِنًى ثلاثة فمن تعجل في يـومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» . وقـوله عز وجل : ﴿لمن اتقى﴾ لإفادة مراعاة تقـوى الله عز وجل في إقـامة هـذه الشعائر ابتغـاء وجه الله ، والـوقوف عنـد حدوده ، فلا يغتر من يرمي في ثلاثـة بازدراء من رمى في يومين ، لأن المقصود هو امتثـال أمر الله وأمـر رسوله ﷺ فيما يفعل المسلم أو فيما يـدعُ . وقولـه عز وجل : ﴿واتقوا الله واعلمـوا أنكم إليه تحشرون﴾ إشعار بالمقصود مـن إقامة الشعائر، وقد ذيـل بذكر التقوى عـامة الأحكام المتقدمـة كما أشرت سابقا إذْ أهلُها هم أهل هُـدَى الله المنتفعون بأحكام شرعه ، المستقيمـون في سلوكهم ، كما أنه لما كـان اجتماع الناس بعـرفة ومنى وقد جـاءوا من كل فج عميق ، ثم نَفْرُهم من عرفة ومنى شبيها بالحشر والنشر والوقوف في عرصات القيامة لفت انتباه الخلق إلى ذلك حيث يقول : ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ .

قال تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهِد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام* وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنّسل، والله لا يحبّ الفساد* وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم، فحسبُهُ جهنّم، ولبئس المهاد* ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، والله رءوف بالعباد﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالي صنفين من الناس أحدهما لا همّ له إلا الدنيا ولا يتعلق قلبه بغيرها، والثاني مسترشد بنور الإسلام وهَدْي الدين الحنيف فهو يعمل للآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، ذكر هنا صنفين من الناس أحدهما منافق عليم اللسان، والثاني باع نفسه ابتغاء مرضاة الله عز وجل يحرص على الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله. ولا شك أن القسم الأول من هذه الأقسام الأربعة ينطبق على ا لمشركين الذين يقرون بربوبية الله ويعبدون معه غيره، والقسم الثالث ينطبق على المنافقين الذي يكتمون الكفر ويعلنون الإسلام، أما القسم الثاني والقسم الرابع فهم المؤمنون، ولا معارضة بين هذا التقسيم للناس في هذا المقام وتقسيمهم في مطلع سورة البقرة إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين، وكافرين صرحاء الكفر ومنافقين، إذ أن المؤمنين ينقسمون إلى قسمين: أصحاب الدرجات العُلَى من السابقين وبقية المؤمنين من أصحاب اليمين، ولذلك يجمع الله الكافرين والمنافقين معا في جهنم كما قال: ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ليَمِيزَ الله الخبيث من الطّيّب ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض فيركُمَه جميعا فيجعله في جهنم أولَئك هم الخاسرون﴾ . ولذلك قسّم الله تبارك وتعالى الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام فجعل جميع الكافرين والمنافقين مع اختلاف نحلهم ومذاهبهم قسما واحدا، وجعل المؤمنين

قسمين حيث يقول عـز وجل في مطلع سورة الواقعة: ﴿إذا وقعت الـواقعة* ليس لوقعتها كاذبة* خـافضة رافعة* إذا رُجَّت الأرض رَجًّا* وبُسَّت الجبال بَسّـا* فكـانت هَبَـاء مُنبَثّـا* وكنتم أزواجـا ثلاثـةً* فأصحـاب الميمنـة مـا أصحـاب الميمنة* وأصحـاب المشئمـة ما أصحـاب المشئمـة* والسابقـون السابقـون* أولَئك المقربون﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿ومن الناس﴾ أي وبعض بني آدم. وقـوله: ﴿يعجبك قـولـه في الحياة الـدنيـا﴾ أي هو عليم اللسـان فصيح البيان إذا تكلّم بهر السامع بكلامـه فلسانه أحلى من العسل وإن كان قلبه أمرّ من الصّبر، ولباسه لباس الضأن وقلبه قلب الذئب، والتقييد بقوله: ﴿في الحيـاة الدنيـا﴾ لأنه في الآخـرة مهين حقير ذليل مشتغل بما هو فيـه من الهم والغم والكرب العظيم. وقـوله عز وجل: ﴿ويُشْهِدُ اللهَ على مـا في قلبه وهو أَلَـدُّ الخِصَام﴾ أي ويحلف بالله ويوثّق يمينـه بأن يدّعي أن الله يعلم بأن قلبه مؤمن بمحمد رسول الله ﷺ وأنه يحب رسول الله ﷺ من كل قلبه، وهو شديـد العداوة لله ولرسولـه، قوي الخصومة، وقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الصـديقة بنت الصديق حبيبة رسـول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن رسـول الله ﷺ قال: «إن أبغض الـرجال إلى الله الألَدّ الخَصِم». وأصل الألـدّ هو المعـوج القوي الخصومـة الفاجـر الذي لا يثبت على طريق بل يزوَرّ عن الحق ويفتري ويفجر، وقد وصف الله عز وجل المنافقين هنا بهذا الـوصف كما وصف كفار قريش بذلك في قـوله عز وجل: ﴿ولما ضُرِبَ ابن مريم مَثَـلا إذا قومك منـه يَصِدُّون * وقالـوا: أآلهتنا خير أم هـو، ما ضربـوه لك إلا جـدلا بل هم قـوم خَصِمُون﴾ وكما قـال عـز وجل فيهم: ﴿فإنما يسّرناه بلسانك لتبشر بـه المتقين وتنذرَ به قوما لُـدّا﴾ أي عوجا يجادلون بالباطل. وقد نبه الله تبـارك وتعالى إلى مثل صفات المنافقين المذكورة هنا وأرشد إليها للحذر منها في مـواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إذا

جاءك المنـافقون قـالوا نشهـد إنك لرسـول الله، والله يعلم إنك لرسـوله والله يشهد إنّ المنـافقين لكاذبون* اتخذوا أيمانهم جُنَّـة فصدّوا عن سبيل الله، إنهم ساء مـا كانوا يعملـون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفـروا فطُبِعَ على قلوبهم فهم لا يفقهـون * وإذا رأيتهم تعْجبُك أجسـامُهم وإن يقولـوا تسمَعْ لقـولهم كأنهم خُشُب مُسَنَّدة يحسَبون كل صيحة عليهم، هم العدوّ فاحذَرْهم، قاتلهم الله أنّى يُؤْفكـون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويحلفون بـالله إنّهم لمنكم وما هم منكم وَلَكنهم قوم يَفْـرَقُون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اتخذوا أيمانهم جُنّـة فصدّوا عن سبيل الله فلهم عـذاب مهين﴾. وقـولـه عـز وجل: ﴿وإذا تـولّى سعى في الأرض ليُفْسِـدَ فيها ويُهْلِـك الحَرْث والنَّسْل﴾ أي وإذا أدبر هـذا المنـافق من عندك يـا محمد انصرف بكلّيتـه لمحاربة دينـك، وإثارة الفتن بين المسلمين، لتفريق كلمتهـم، وتشتيت شملهم ليقتل بعضهم بعضا، ويبيـد حرثهم أي مـزارعهـم ويبيـد نسلهم أي ذريتهم. وقـولـه عــز وجل: ﴿والله لا يحب الفسـاد﴾ أي والله عز وجل لن يُمَكِّنـه من تحقيق مـا يسعى له، لأن الله عـز وجل ناصر رسوله والمؤمنين، وممكّن لهم في الأرض وهو يبغض أهل الفساد، ويبطل عملهم، كما قـال عـز وجل: ﴿فلما ألقَـوْا قال مـوسى مـا جئتُم بـه السحْرُ إنّ الله سيُبْطِلُه إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾. وقوله عز وجل: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخـذته العـزّة بالإثم، فحسبـه جهنّم، ولبئس المهاد﴾ أي وإذا اطّلع أحد المؤمنين على ما يعمله هـذا المنافق من الفساد في الأرض، ونصحه وقال له: اتق الله واحذر سَطْوته وعقوبته لك على ما تبثّه من فتنة وما تنشره من فسـاد في الأرض، حملته الأنَفَـة والحَمِيَّـة والتكبّر وأخـذته عِـزَّة من جَهْله فتولّـى مغضبا، وفي نـار جهنم كفايـةٌ لهذا الأثيم. وفي قولـه تعالى: ﴿أخذتـه العزة بالإثم﴾ أسلـوب بلاغي يسميه علماء البـديع (التتميم) وهو إرداف الكلمة بكلمـة أخرى ترفع عنهـا اللّبس وتقرّبها من الفهم، وذلك أن

العـزة تكون محمـودة ومـذمومـة، فمثل المحمودة قـولـه تعالى: ﴿ولله العـزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت في هذا المقام لَتوهَّم فيها بعضُ مَن لا دِرَايةَ له أنها المحمودة، فقيل: بـالإثم، توضيحا للمراد ودفعـا للالتباس. على أنّ العزة التي عنـد الكافر هي عـزة غرور وجهل وعناد كما قـال عز وجل: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ أي في حميـة جاهلية وكبر. وكما قال عز وجل: ﴿إذْ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحَمِيّة حَمِيّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين وألزمهم كلمةَ التقـوى وكانوا أحقَّ بها وأهْلَهـا وكان الله بكل شيء عليما﴾. وقـوله عز وجل: ﴿ومـن الناس من يَشْري نفسَـه ابتغاء مـرضاة الله﴾ أي وبعض النـاس يبيع نفسه ويجود بها في سبيل رضى الله عـز وجل وطلب مرضاته وإعلاء كلمتـه وإعزاز دينه، ونصر رسوله ﷺ، وابتغاء الجنة، كما قال عـز وجل: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أَنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقـاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلـون وعدًا عليه حَقًّـا في التوراة والإنجيل والقـرآن، ومن أوْفَى بعهـده مـن الله، فـاستبشروا بِبَيْعِكُم الـذي بـايَعْتُم بـه، وذلك هو الفـوز العظيم﴾ وقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حـديث البراء رضي الله عنـه قـال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ مُقَنَّع بـالحديد فقـال: يا رسـول الله: أقـاتل أوْ أُسْلِم؟ فقال: «أَسْلِمْ ثم قـاتِلْ»، فأسْلَم ثم قاتَل فقُتِل فقال رسـول الله ﷺ: «عمِل قليلا وأُجِرَ كثيرا» كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: أين أنا يا رسول الله إن قُتلت؟ قـال: «في الجنـة» فألقى تمراتٍ كُنّ في يـده ثم قـاتل حتى قُتل. كما روى مسلم من حـديث أنس رضي الله عنـه قـال: انطلق رسـول الله ﷺ وأصحـابـه حتى سبقـوا المشركين إلى بـدر وجـاء المشركـون فقـال رسـول الله ﷺ: «لا يُقدِّمنّ أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عـرضها السموات والأرض» قال: يقول عُمَيْر

ابن الحُمَام الأنصاري رضي الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعَم» قال: بَخ بَخٍ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فأخرج تَمَرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تَمَراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل. كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غِبتُ عن أول قتال قاتَلْتَ المشركين، لئن اللهُ أشهدني قتالَ المشركين لَيَرَيَنّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابَه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين، ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد ابن معاذ الجنةَ وربِّ النَّضْر إني أجد ريحها من دون أُحُد، قال سعدٌ: فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بِضْعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتِلَ ومَثّل به المشركون فما عرفه أَحَدٌ إلا أُخته بِبَنَانِه. قال أنس: كنّا نُرَى أو نظنّ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه﴾ إلى آخرها. وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مِن خير مَعَاش النّاس لهم رجل ممسك بِعِنَان فرسه في سبيل الله، يطير على مَتْنِه، كلّما سمع هَيْعَة أو فَزْعة طار على مَتْنِه، يبتغي القتل أو الموت مَظَانّه، أو رجلٌ في غُنَيْمة أو شَعَفة من هذا الشَّعَف، أو بَطْن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربّه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير». كما روى مسلم في صحيحه من طريق أبي بكر ابن أبي موسى الأشعري قال: سمعت أبي رضي الله عنه وهو بحضرة العدو

يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجل رَثُّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أأَنْت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جَفْنَ سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قُتِل. وقوله عز وجل: ﴿والله رءوف بالعباد﴾ أي رحيم بهم محسن إليهم يعاملهم بلطفه، والرأفة أعلى معاني الرحمة وأشدها وأدقّها، فمن رحمته ورأفته بعباده أنه اشترى من عباده نفوسا هو مالكها وأموالا هو رازقها بجنة عرضها السماوات والأرض، وجَعَل الجزاء الجليل على العمل القليل، ولا يكلف نفسا إلا وسعها، ويقبل توبة التائبين الذين أسرفوا على أنفسهم، فلله الحمد والشكر.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السّلم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدوّ مبين* فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم* هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقُضي الأمر، وإلى الله ترجع الأمور* سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة، ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإنّ الله شديد العقاب* زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا، والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة، والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾

بعد أن أشار الله عز وجل إلى بعض فرق الناس وبَيَّن أن بعضهم لا هَمَّ لهم إلا الدنيا وهم يكفرون بالآخرة، وأن بعضهم يرغب في حسنات الدنيا وحسنات الآخرة، وأن بعضهم باع نفسه طلبا لمرضاة الله، ولا شك أن المؤمنين ليسوا بمعصومين من الشيطان إلا من عصم اللهُ منهم، ناداهم الله تبارك وتعالى هنا وأمرهم بالدخول في جميع تعاليم الإسلام حتى تكون للواحد منهم كمنزله الذي يدخل فيه ويسكنه وأن يَحْذَروا أشدّ الحذر من خطوات الشيطان ودسائسه ووساوسه، لأنه ذئب الإنسان الذي يحرص على افتراسه وإهلاكه. فقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافّة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوّ مبين﴾ وقد سبق عين هذا التحذير في الآية الثامنة والستين بعد المائة من هذه السورة وقد ذكرت أن الله تبارك وتعالى حذّر من اتباع خطوات الشيطان العدو المبين في مواضع كثيرة من كتابه الكريم وقد سقتها في تفسير تلك الآية، والمراد بالسِّلْم هنا الإسلام، كما قال الشاعر وهو امرؤ القيس بن عابس الكندي رضي الله عنه لما ارتد قومه عن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ:

ألا أَبْلِغْ أبا بكر رسولا وأَبْلِغْها جميع المسلمينا

فلستُ مجاورًا أبدا قَبيلا   بما قال الرسول مكذّبينا
دعوتُ عشيرتي للسِّلم لمّا   رأيتُهموا تولّوا مُدْبِرينا

وأَصل السلم بكسر السين وفتحها يأتي في كلام العرب بمعنى الإسلام كهذه الآية ، ويأتي بمعنى المسالمة والمصالحة كقوله عز وجل : ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ وكقوله عز وجل : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعْلَون والله معكم﴾ ومعنى قوله : ﴿كافَّة﴾ أي عامَّة جميعا كقوله عز وجل : ﴿وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي ولا تسلكوا طرق وساوسه ودسائسه ، ونفثه ونفخه وهمزه ولمزه . وقوله عز وجل : ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ هو تأكيد ولفت انتباه للمؤمنين بشدة الحذر منه ، كأن الذي يطيع الشيطان قد نسي أنه عدوّه وعدوّ آبائه من لدن آدم عليه السلام ، على حد قول الشاعر:

جاء شقيق عارضا رُمْحَه   إنّ بني عمّك فيهم رماح

فالذي يتّبع خطوات الشيطان كمن يريد أن يدخل يده في فم الأفعى ، فيقول له ناصحه الذي يريد سلامته : إن هذه أفعى ، ولا شك أن الشيطان أخطر على الإنسان من سائر الأفاعي . وقوله عز وجل : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أنّ الله عزيز حكيم﴾ يقال : زلّت قدمه ، إذا زَلِقَتْ في طين أو نحوه ، وزلّ لسانه إذا زلق في كلامه والزَّلَّة السَّقْطة ، والمراد بالبينات حجج الله على خلقه ومعجزاته المؤيدة لرسله وأعظمها القرآن العظيم الذي هو حجّة الله البالغة ومعجزته القاهرة الباهرة ، الذي أنزله على أفضل خلقه ، وأكمل رسله محمد ﷺ الذي كان وجهه ينبئ عن أنه رسول الله ﷺ كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آياتٌ مُبيِّنة   كانت بديهَتُه تأتيك بالخبر

وكما قال عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه في رسول الله ﷺ: فلما تبينتُ وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، كما رواه أحمد وأصحاب السنن عنه رضي الله عنه وصححه الترمذي. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فإن زللتم من بعدما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ أي فإن زلت أقدامكم عن صراط الله المستقيم، ووقعتم في حبائل الشيطان، وارتكبتم ما حرّم الله عليكم فلا تتمادَوْا في طاعة الشيطان ولا تصرّوا على معاصيكم، وسارعوا إلى التوبة النصوح والرجوع إلى الله عز وجل، وتذكّروا أن الله قاهر غالب قادر على الانتقام ذو عزة لا يمنعه من الانتقام من العاصين مانع، ولا يدفع عقابه عنهم دافع، وهو الحكيم في أفعاله، التي لا تخلو من حكمة يعلمها العليم الخبير، وقد أقام الله عز وجل البراهين الساطعة والحجج القاطعة وأيد رسوله ﷺ بالمعجزات الدالة على أنه رسول الله ﷺ، فلا تخالفوا أمره ولا تطيعوا الشيطان الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿ واعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ ترهيب من مخالفة أمره، وإذا كان هذا التحذير موجّها لأوليائه فهو أشد تحذيرا لأعدائه.

وقوله عز وجل: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَل من الغَمَام والملائكةُ وقُضِيَ الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ هذا توبيخ للكفار الذين لم يسارعوا إلى الدخول في دين الإسلام ولم يستجيبوا لرسول الله ﷺ بعد أن أيده الله تعالى بالمعجزات التي يؤمن على مثلها البشر، كأنه قيل لهم: لماذا لا تسارعون إلى الدخول في الإسلام؟ ألم تأتكم الآيات الشاهدات على أن الله حق وأن وعده الحق وأن محمدا حق، وماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون قيام الساعة ومجيء يوم القيامة، يوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا، وجاء ربك والملك صفا صفا؟ إذا جاء هذا اليوم فقد قضي الأمر، وليس هناك للكافرين إلا النار، كما قال عز وجل: ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيَ ربُّك

أو يأتيَ بعضُ آيـاتِ ربك يـومَ يأتي بعضُ آيـاتِ ربِّك لا ينفع نفسًـا إيمانُها لم تكنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسبَتْ في إيمانها خيرا، قل انتظروا إنّـا منتظرون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿كـلاّ إذا دُكّت الأرض دكًّا دكّـا* وجاء ربّك والملك صَفًّـا صَفًّا* وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾ ومعنى: ﴿ينظرون﴾ أي ينتظـرون، يقال: نظـرته وانتظرتـه بمعنًى. ولذلك قـال عز وجل: ﴿هل ينظـرون إلا أن تأتيهم الملائكـة﴾ ثم قال في آخـر الآيـة: ﴿قل انتظـروا﴾. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿وقُضِيَ الأمـر﴾ أي وفُصِل القضـاء بـالعدل بين الخلق، فـلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، إذ أنـه إذا قـامت القيامـة آمن وقتئـذ جميع الكـافرين كما قـال عـز وجل: ﴿إذا وقعت الواقعة* ليس لوقعتها كاذبـة﴾ أي ليس عند وقوع القيامة نفسٌ تكذب بها، لكن لا ينفع الكـافرين إيمانهم يـومئـذ. وقولـه عز وجل: ﴿وإلى الله تـرجع الأمـور﴾ أي وإلى الله وحده يـؤول القضـاء بين الخلق يـوم القيـامة فيجـازي المحسن بإحسانـه والمسيء بإساءتـه ولا يستوي الصـالحون والفجـار، كما قال عز وجل: ﴿أم نجعل الـذين آمنوا وعملوا الصـالحات كـالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾. وقوله عز وجل: ﴿سَلْ بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بيّنة﴾ هذا توبيخ للمشركين واليهود الذي لم يسارعوا إلى الاستجابة لله ورسولـه والدخـول في دين الإسلام بأنه مهما جـاءتهم من الآيات فلن يـؤمنوا بها؛ لأن الله عـز وجل ختم على قلـوبهم بسبـب فسقهم ومعـاصيهم، فلـو سألت بني إسرائيل كم من الآيات البينـات شاهدوا مع موسى عليـه السلام ومع ذلك فما أقلّ انتفاعهم بها، فهم يعلمون أن الله عز وجل أيّده بمعجزات منها اليد والعصا وفلق البحر وضربه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا وما كان مـن تظليل الغمام وإنزال المَنّ والسلـوى في آيات كثيرة ومع هـذا أعرض كثير منهم عنها، وفي اليوم الذي شاهدوا فيه انفلاق البحر ونجاتهم رأوا قوما

يعكفون على أصنام لهم فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فبدّلوا نعمة الله كفرا، وكذلك أهل الكتاب والمشركون رأوا ما أيّد الله به نبيه محمدا ﷺ من المعجزات والآيات البينات ومع ذلك بدّلوا نعمة الله كفرا، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿ومن يُبَدّلْ نعمةَ الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ألم تَرَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلّوا قومهم دار البَوَار * جهنَّمَ يصلونها وبئس القرار﴾ وليس المراد بقوله عز وجل: ﴿سل بني إسرائيل﴾ هو أن يسألهم عن شيء لا يعرفه، أو يستفهم منهم عن خبر ما عنده علم به، بل المقصود هو توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم مع ما فيه من مواساة رسول الله ﷺ وتسليته في نفس الوقت، لأن السؤال مُتَضَمّن أنّ محمدا وهو النبي الأمي ﷺ قد أطلعه الله وعرّفه بالآيات التي أعطاها موسى عليه السلام وأنها كثيرة جدا، ولذلك لا يحتاج هذا السؤال إلى جواب لأن السؤال إذا كان لغير الاستعلام لا يحتاج إلى جواب.
وقوله عز وجل: ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ أي فإن عقوبة الله شديدة لهؤلاء المجرمين. وقوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا﴾ أي حَسُنَتْ في أعينهم، وأُشْرِبَتْ محبّتها في قلوبهم، فتهالكوا عليها، وتهافتوا فيها وصارت كلّ همهم ومبلغ علمهم، وصاروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنّار مثوى لهم، وقد جعل الله تبارك وتعالى ما على الأرض زينة لها ليختبر عباده بها فالكفار تعلقوا بها وقالوا ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق.
والمؤمنون يقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.
وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لِنَبْلُوَهُم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جُرُزا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ تقييد لقبيحة عظيمة من قبائح الكفار وهي استهزاؤهم بالمؤمنين، فكانوا إذا مرّ بهم

المؤمنون يتغامزون، ويسخرون منهم ويستهزئون بهم، وما كان ذلك منهم إلا لاستغراقهم في الجهل لأن الاستهزاء بالناس لا يصدر إلا عن جاهل ولذلك لما قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ ولذلك سجّل الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن المؤمنين الذين سخر المشركون منهم سيكافئهم المؤمنون بذلك يوم القيامة حيث يقول عز وجل: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون* وإذا مرّوا بهم يتغامزون﴾ ثم قال عز وجل: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون* على الأرائك ينظرون* هل ثُوِّبَ الكفار ما كانوا يفعلون﴾. وقوله عز وجل: ﴿والذين اتّقوا فوقهم يوم القيامة﴾ أي المتصفون بصفة التقوى في عِلِّيِّين يوم القيامة. والذين كفروا في أسفل السافلين في نار الجحيم، كما قال عز وجل: ﴿يوم يرون الملائكة لا بُشْرى يومئذ للمجرمين ويقولون حِجْرا محجورا* وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَاء مَنْثُورا* أصحاب الجنة يومئذ خير مُسْتَقَرا وأحسن مَقِيلا* ويوم تَشَقّق السماء بالغَمام ونُزِّلَ الملائكة تنزيلا* الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي ولا حَجْر على فضل الله فهو يعطي الجزيل، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أَنْفِقْ أُنفقْ عليك، وقال: يد الله مَلأَى لا تغيضُها نفقة سَحَّاءُ الليلَ والنهارَ، وقال: أرأيتم ما أنفق مُذْ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغِضْ ما في يده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع».

قال تعالى: ﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتّى يقول الرّسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألاَ إنّ نصر الله قريب﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى في المقام السابق ما يفيد أنّ سبب إصرار الكفار على الكفر هو حبّهم للحياة الدنيا وحرصهم عليها وحسدهم وبغيهم، وأن المؤمنين قد هُدُوا إلى الصراط المستقيم فمنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ومنهم من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، ذكر هنا ما يفيد أن الناس كلّهم كانوا على الحق وأن الشياطين اجتالتهم عنه حتى عبدوا غير الله، وضلوا عن سواء السبيل، فأرسل الله عز وجل الرسل وأنزل الكتب فاختلف الناس، فمنهم من هَدَى اللهُ ومنهم من حقت عليه الضلالة، فقامت الرسل يبشرون من أطاعهم بنعيم الجنة وكريم ثوابها وينذرون من عصاهم بالنار وأليم عقابها ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأن اختلاف الناس ليس أمرا جديدا مختصا بزمان بعثة رسول الله محمد ﷺ بل هو قديم عميق في التاريخ. ولا شك أن آدم وذريته كانوا جميعا على الهدى وإخلاص العبادة لله وحده واستمر ذلك في ذرية آدم عشرة قرون كما ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. فمعنى قوله عز وجل: ﴿كان

الناس أمـةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنـزل معهم الكتاب بـالحق ليحكم بين النـاس فيما اختلفـوا فيه﴾ أي كـان بنـو آدم مجتمعين على الهدى ودين الحق مدة من الزمان بيّنهـا ابن عباس بعشرة قرون ثم وسوس لهم الشيطان حتـى عبدوا بعض الصـالحين كما أخرج البخاري في صحيحـه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قـوله تعالى: ﴿وقـالوا لا تَـذَرُنّ آلهتكم ولا تَذَرُنّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْـرًا﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطـان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابـا وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِيَ العلم عُبِـدَتْ اهــ فبعث الله عـز وجل رسـلا أوّلهم نـوح عليـه السـلام وأنـزل معهم الكتب لتكـون نظـاما إلهيـا يحكم بها حكـام الشريعـة ويتحـاكم إليهـا أتباع الأنبيـاء والمرسلين فيما يحدث بينهم من الاختـلاف في الحقـوق ونحـوها، ويسيرون على منهـاجهـا المستقيم، ليفـوزوا بعز الـدنيـا وسعادة الآخرة. ولا شك أن الأمم عندما كانت تجيئهم رسلهم بالبينات كانوا يختلفـون على رسلهم فمنهم آمن و منهم كفر، وقـد ورد الاختـلاف في كتـاب الله عز وجل على نـوعين: أحدهما يـذم الله فيه المختلفين جميعـا، كقولـه عز وجل: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ وكقوله عز جل: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ أما النوع الثاني من الاختلاف فهو ما يقع من الاختلاف بين المؤمنين والكافرين فيمدح الله المؤمنين ويذم الكافرين كقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولَكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفـر، ولو شاء الله مـا اقتتلوا ولَكن الله يفعل ما يريد﴾. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ وما اختلف فيه إلا الذين أُوتُوه من بعد ما جـاءتهم البينات بَغْيًا بينهم﴾ تحذير من مشـابهة أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يدّعون أنهم جميعا يـؤمنون بالتوراة وبموسى ثم يكفر

اليهود بعيسى وبالإنجيل كما يكفر اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وبالقرآن مع أنهم قبل مجيئه ونزول القرآن عليه كانوا مطبقين على وجوب الإيمان به إذا جاء، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. ثم أثنى الله تبارك وتعالى على المؤمنين وأنهم أُرْشِدُوا إلى الحق وهُدُوا إلى الصواب فآمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والإنجيل وبمحمد ﷺ والقرآن حيث يقول: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ وهذا المقام في القرآن الكريم شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ بيان لفضل الله عز وجل على المؤمنين الذين وفقهم إلى الهدى وأرشدهم إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقد جعل الله تبارك وتعالى حقا على كل مؤمن أن يدعو الله عز وجل مرات في كل يوم وليلة يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فيكررها في صلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء وصلاة التطوع ولقد كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم من كل انحراف يَضْرَعُ إلى الله عز وجل أن يهديه عند الاختلاف إلى الهدى والرشاد، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته فقال: «اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». ولا شك أن دعوة رسول الله ﷺ هذه قد

استلهم فيها قوله تبارك وتعالى: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض ما اختلف فيه أهل الكتاب فهدى الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ له فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تَبَعٌ، اليهود غدا والنصارى بعد غدٍ». وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة، ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أُوتُوا الكتاب من قبلنا وأُوتِينَاه من بعدهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، هدانا الله له، قال: يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى». وقوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتِكم مَثَلُ الذين خَلَوْا من قبلكم مَسَّتهم البأساء والضراء وزُلْزِلُوا﴾ في هذا المقام الكريم لفت انتباه المؤمنين الذين هداهم الله للحق بإذنه أي بأمره وإرادته ومشيئته، إلى أن سِلْعتهم وهي الجنة سلعة غالية قد بذل المؤمنون الأولون كلّ غالٍ ونفيس في سبيلها، وتعرضوا لأنواع من البأساء والضراء وزلزلوا، لِتَتَوطَّن نفوس المؤمنين على ما يصيبهم في سبيل الله، فيَصْبروا ويَحْتَسِبوا، و(أمْ) في قوله عز وجل: ﴿أم حسبتم﴾ للاستفهام المقصود به الحض على الصبر وتحمّل المشاق في سبيل الله، وقوله عز وجل: ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي والحال أنه لم يصبكم مثل ما أصاب المؤمنين الذين مَضَوْا من قبلكم ولم تُبْتَلُوا بمثل ما ابْتُلُوا به، وقوله عز وجل: ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ استئناف بياني كأن سائلا سأل: ماذا أصابهم؟ فقال: ﴿مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾ والبأساء شدّة

الفقر، والضراء الآلام والأسقام، ومعنى: وزلزلوا، أي وخُوِّفوا وحُرِّكوا بأنواع البلايا والرزايا من جهة أعدائهم المخالفين لهم المختلفين معهم، ونظير هذا قوله عز وجل: ﴿ألم* أحسب الناس أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمَنَّا وهم لا يُفْتَنُون* ولقد فَتَنَّا الذين من قبلهم فلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾، وقد روى البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث خَبَّاب بن الأرَتِّ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم يُؤْخَذُ الرجلُ فيُحْفَر له في الأرض فيُجَاءُ بالمنشار فيُوضَع على رأسه فيُجْعَل نصفين ويُمْشَط بأمشاط الحديد ما دُونَ لحمِه وعظمِه فما يصدّه ذلك عن دينه، والله لَيتِمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون». ولا شك أن أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم قد أصابهم مثل ما أصاب المؤمنين السابقين مع الأنبياء والمرسلين كما قال عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تَرَوْها، وكان الله بما تعملون بصيرا * إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا* هنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالا شديدًا﴾. وقوله عز وجل: ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنّ نصر الله قريب﴾ أي يصل البلاء بالمسلمين إلى حالة يحسّ المؤمنون أن أعداءهم لن يؤمنوا فعندئذ يطلبون من الله عز وجل أن يهلك الكافرين ولا يُبْقِيَ منهم أحدا كما قال عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبُوا جاءهم نصرنا فنُجِّيَ من نشاء ولا يُرَدّ بأسُنا عن القوم المجرمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأُوحِيَ إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا مَن قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون﴾.

قال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإنّ الله به عليم* كتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئا وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

هذا هو المقام الثالث في هذه السورة المباركة الذي يوصي الله تبارك وتعالى فيه المؤمنين ويحضّهم على توجيه العناية بذوي القربى واليتامى والمساكين والإحسان إليهم، حيث كان المقام الأوّل في بيان ما أخذه من الميثاق على بني إسرائيل حيث قال: ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية، وكان المقام الثاني في آية البرّ حيث قال: ﴿وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين﴾ الآية. وقال في هذا المقام الكريم: ﴿قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ الآية، وقد أورد هذا المقام الكريم هنا بعد أن حضّ على الإنفاق في سبيل الله في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة حيث ختم بها هناك بعض أحكام القتال في سبيل الله وقبل الشروع في بيان أحكام الحج وذكر بعض أركانه وواجباته، وقد ذكر في هذا المقام قبل هذه الآية ما قد يبتلي به عباده المؤمنين من البأساء والضراء والزلزلة كما ذكر بعدها مباشرة أنه كتب عليهم القتال ليلفت انتباه المؤمنين إلى أنه لا ينبغي لهم أن يشغلهم شاغل مهما كان شديدا عن رعاية ذوي القربي واليتامى والمساكين. وهذه التنبيهات الإلهية شبيهة بجرس الإنذار الذي يحذّر من إضاعة ذوي القربى واليتامى والمساكين، ولا شك أن جميع الأنظمة البشرية التي توضع للرعاية الاجتماعية والتكافل الاجتماعي تعجز عن بث هذه الروح الكريمة في نفوس الناس للعناية بهذه الفئات من المجتمع

لتستشعر الكرامة والعزة بين سائر الطبقات، وقد قدمت في تفسير قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة﴾ أن عرض العلم بطريقة السؤال والجواب من أعظم أسباب ترسيخ المعلومات في أذهان السامعين، وقد أطبق على هذا علماء النفس والتربية. وقوله عز وجل: ﴿ يسألونك ماذا ينفقون﴾ ليس سؤالا عن طلب ماهية النفقة بل السؤال عن طلب مصارف النفقات التي تكون أحبّ إلى الله ورسوله بعد ما أمرهم بالإنفاق في سبيل الله في الآية الخامسة والتسعين بعد المائة، فأجابهم بأنّ خير ما ينفقونه ما كان على الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، ولا شك عند أهل العلم أن من كانت نفقته واجبة على شخص فإنه لا يجوز لهذا الشخص أن يعطي زكاته لمن تجب عليه نفقته، لكن الله تبارك وتعالى يعطي من فضله الأجر الجزيل كلّ من أنفق نفقة يبتغي بها وجه الله حتى إطعام الزوجة كما في صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث قال له رسول الله ﷺ: «وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة حتى اللّقمة التي ترفعها إلي في امرأتك» وتقديم الوالدين لأن حقهما أعظم من حق غيرهما فوجب تقديمهما على غيرهما في رعاية الحقوق، ثم ذوي القربى لأن رعاية حقوقهم تجمع بين الصلة والصدقة، ثم اليتامى لأن الطفل الذي مات أبوه قد عدم الكاسب وأشرف على الضياع لعدم قدرته على الكسب فصار من حقه أن يبادر كل محسن برعايته حتى يحسّ بأنه وإن كان مات أبوه فقد صار كل ذوي البرّ بمنزلة الوالد الحنون له، وقد أخر المساكين عن اليتامى لأن حاجتهم أقل من حاجة اليتامى، لأن قدرة المساكين على الكسب أكثر من قدرة اليتامى عليه، وقد جعل ابن السبيل في المرتبة الأخيرة من هؤلاء لأن حاجته نادرة، فما أجمل هذا الترتيب الدقيق في كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، وقوله عز وجل: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله

به عليم﴾ أي ومهما صدر منكم من فعل خير وعمل معروفٍ فإن الله يعلمه وسيجزيكم عليه أحسن الجزاء، وقد بشّر رسول الله ﷺ من تصدق بناقة مخطومة أي فيها خِطَام وهو ما تُجَرُّ به من أنفها، بأن له يوم القيامة سبعمائة ناقة مخطومة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه ناقة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلّها مخطومة». وقوله عز وجل: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم﴾ أي فرض عليكم الجهاد في سبيل الله وملاقاة أعدائه الذي تتعرضون فيه للموت وبذل النفس، ولما كان حبّ الحياة غريزة في نفوس الأحياء من الناس والحيوانات قد غرسها الله عز وجل في كل حيوان وقد علم الناس في جميع الأعصار والأمصار والقرى والبوادي أن غريزة حبّ البقاء غريزة جُبل عليها الإنسان لذلك وصف الله تبارك وتعالى فرض القتال بأنه كُرْهٌ أي شاق على النفس الإنسانية، وليس معنى ذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون أن يفرض عليهم القتال في سبيل الله بل ثبت أنهم كانوا يتمنونه قبل فرضيته كما أشرت إلى ذلك عند الكلام على أطوار الجهاد في سبيل الله في تفسير قوله تبارك تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ وقد سقت للدلالة على تمني المسلمين أن يشرع لهم قتال أعدائهم قوله عز وجل: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزّلت سورة﴾ أي يشرعُ فيها للمسلمين قتال أعدائهم بدليل قوله تعالى في نفس الآية: ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذُكِرَ فيها القتال رأيتَ الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المَغْشِيّ عليه من الموت فأَوْلَى لهم * طاعةٌ وقولٌ معروف، فإذا عزم الأمرُ فلو صَدَقوا اللهَ لكان خيرا لهم﴾ ومع كون القتال شاقا على النفس الإنسانية فإن المسلم ولا سيما من أصحاب رسول الله ﷺ قد يبذل نفسه رخيصة في سبيل الله دفاعا عن

دينـه و إعلاء لكلمتـه، وقد سقت أمثلـة لبعض أصحاب رسـول الله ﷺ في تفسير قوله عز وجل: ﴿ومن النـاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد﴾ ولا شك أن من آمن بالله واليوم الآخـر يغلّب ما أُمِرَ به شَرْعا على ما جُبِلَ عليـه طَبْعا، ليقينه بأن بـذل نفسه في سبيل الله يورثه الـدرجات العلى في جنـات النعيم، وأكثـر أوامـر الشرع ونـواهيــه إنما تـربّي في النفس الإنسـانية تقـديم مراد الشرع على مـراد الطبع ولـذلك حرمت الاعتـداء على الأعراض والأمـوال والعقول حتى لا ينـدفع الإنسان وراء شهوتـه وغريـزته، والإنسان يشرب الـدواء المرّ لعلمه بحسن عـاقبته وحـلاوة مآلـه، وقولـه عز وجل: ﴿وعسى أن تكرهـوا شيئا وهـو خير لكم، وعسى أن تحبّوا شيئـا وهو شر لكم﴾ هذه قضيّة مسلّمـة عند سائر البشر، فكم يمر بـالعاقل من تجرُبة يتحقق فيها صـدق هذه القضية، حيث يرغب الإنسـان في شيء ويسعى له ويبذل النفيس في الوصول إليه وتحصيله وتكـون عاقبته له غير حميدة ويتمنّى أنه لم يكن سعى لـه ولا حصل عليه لما يجلبه له من تعـاسة في حياته الـدنيا، وكم ينزل بالإنسان شيء يكرهه وتكون عـاقبته له حميدة، ويفرح بحصوله له ويتأسف على ما سبق من كراهيتـه له، والإنسان لا يعلم الغيب، والعبرة في الأمـور بحسن عاقبتهـا، ولذلك أُثِـرَ في الدعـاء: «اللهم أحسن عاقبتنـا في الأمور كلهـا وأَجِرْنـا من خِزْي الدنيـا وعذاب الآخـرة» كما في مسند أحمد من رواية ابنـه عبدالله قـال: ثني أبي ثنا هيثم بن خارجـة ثنا محمـد بن أيوب بن مَيْسَرة بن حَلْبَس قال: سمعت أبي يحدث بُسْر بن أرطأة القرشي يقول، وذكر الحديث، ولذلك كـذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحـابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن فقد روى البخاري في صحيحه من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قـال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخـارة في الأمور كلها كما يعلمنـا السورة من القـرآن، يقول: «إذا

همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولاأعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : في عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسّره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أنه شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضّني به ، ويسمّي حاجته» . وقوله عز وجل : ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي والله أعلم بعواقب أموركم منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ومعاشكم ومعادكم ، فأيقنوا أنّ ما يفرضه عليكم يجلب لكم خير الدنيا والآخرة وعزّ العاجلة والآجلة وإن كان على خلاف ما تشتهيه غريزة النفس الإنسانية ، التي تميل إلى الراحة والبقاء الدنيوي ، فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولّئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولّئك أصحاب النار هم فيها خالدون* إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولّئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾.

لما ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أنه كتب القتال على المسلمين ليجاهدوا أعداء الله ولتكون كلمة الله هي العليا استفسر بعض الناس من رسول الله ﷺ عن القتال في الأشهر الحرم وهي ذو القعدة وذوالحجة والمحرم ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان فأنزل الله عز وجل: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه﴾ الآية. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله عز وجل جعل السنة اثني عشر شهرا يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حُرُم، ثلاثة مُتَواليات: ذوالقعدة وذوالحجة والمُحَرَّم، ورجب مُضَرَ الذي بين جُمادى وشعبان» وقد بَيَّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث مجمل قول الله عز وجل: ﴿منها أربعة حرم﴾حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾ولا شك أن العرب قبل الإسلام كانوا يعرفون بها ورثوه من دين إبراهيم عليه السلام هذه الأشهر الحرم، إلا أنهم كانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدّة تحليلَ المحرَّم فأخَّرُوه إلى صَفَر حيث جعلوا

صَفَرا مُحَرَّمـا والمحرم صَفَـرا ، ليتمكنوا من القتـال وليواطئـوا عدة مـا حرّم الله فيُحِلّـوا ما حـرّم الله ، وقـد افتخر شـاعر منهـم بذلك حيث يقـول عمير بن قيس :

لقـد علمَـــتْ مَعَـدّ بأن قـومـي — كـــرامُ النـاس إنّ لهــم كـرامـا

أَلَسْـنَا الناسِـــئين على مَعَـــدّ — شهـــورَ الحِلّ نجعلهـا حـرامـا

وقد بين الله تبـارك وتعالى أن النّسيء من زيـادة الكفر عنـد أهل الجاهلية حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿إنما النسيء زيادة في الكفـر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلّونه عاما ويحرمونه عاما ليـواطئوا عدّة ما حرّم الله فيحلوا ما حرّم الله ، زُيّن لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ وفي شهر جمادى الآخرة من السنـة الثـانيـة للهجرة بعث رسـول الله ﷺ سريّـة وأمّـر عليهم عبـد الله بن جحش رضي الله عنه وكتب لـه كتابا وأمره أن لا يقـرأه إلا بعد مسيرة يومين ، وأنه لا يُكْرِهُ أحدا من أصحابه على المسير معه بعد قراءة كتاب رسول الله ﷺ عليهم ، فلما بلغ المكان الذي أمره رسول الله ﷺ بقـراءة الكتاب فيه ، ويُذْكَرُ أنه «بَطْنُ مَلَـلٍ» وقرأ الكتاب على أصحـابه تَبِعُـوه جميعا سـوى رجلين تخلفا للبحث عن راحلتهما ، فلقوا ابن الحضرميّ في ناس من قريش راجعين بتجارة من الشام فقتلـوهم ، واتّفق وقوع ذلك في أول يـوم من رجب ، ولم يكونـوا قد رأوا هلال رجب ، وكانوا يظنون أن هذا اليوم هو الثلاثون من جمادى الآخرة ، وقتلوا ابن الحضرمي وأخذوا الذي كان معهم ، فاستغلّت قريش هذه الحادثة أسوأ استغـلال ، وقالـوا : محمد يـزعم أنه يعظّم الشهـر الحرام ويقاتـل فيه ، فأنـزل الله عز وجل : ﴿يسألـونك عن الشهر الحرام قتـالٍ فيه ، قل قتـالٌ فيه كبير، وصدّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يـزالون يقاتلـونكم حتى يرُدوكم عن دينكم إن استطاعـوا ، ومن يرتدد منكم عن دينـه فيَمُتْ وهو كـافر فأولَئك حبطت

أعمالهم في الـدنيا والآخـرة وأولّئك أصحاب النـار هم فيها خـالدون﴾ فقـال بعضهم : إن لم يكونوا أصابوا وِزْرا فإنهم لم يصيبوا أجرًا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجـروا وجاهدوا في سبيل الله أولّئك يرجون رحمت الله ، والله غفـور رحيم﴾ . وقد أشـار البخاري في صحيحـه إلى قصة سريّـة عبـدالله بن جحـش هـذه حيث قـال في كتـاب العلـم : واحتج بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتابا وقال : لا تقرأه حتى تبلغ مكـان كذا وكـذا ، فلما بلغ المكان قـرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ اهـ وقال السيوطي في الدر المنثور في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾ الآية : أخـرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في سننـه بسند صحيح عن جنـدب بن عبد الله عن النبي ﷺ أنـه بعث رهطـا وبعث عليهم أبـا عبيـدة بن الجراح أو عبيـدة بن الحارث فلما ذهب لينطلق بَكَى صبابــة إلى رسـول الله ﷺ فجلس ، وبعث مكانـه عبدالله بن جحش ، وكتب لـه كتابـا ، وأمره أن لا يقـرأ الكتاب حتى يبلغ مكـان كــذا وكـذا ، وقـال : «لا تُكْـرِهَنّ أحــدا على السّير معك من أصحـابك» فلما قرأ الكتـاب استرجع وقـال : سمعـا وطاعـةً لله ولـرسولـه ، فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتـاب ، فرجع رجـلان ، ومضى بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلـوه ، ولم يـدروا أن ذلك اليـوم من رجب أو جمادى ، فقـال المشركـون للمسلمين : قتلتم في الشهـر الحرام؟ فأنـزل الله : ﴿يسألـونك عن الشهـر الحرام قتال فيـه﴾ الآيـة ، فقال بعضهم : إن لم يكـونـوا أصابـوا وِزْرًا فليس لهم أجر، فـأنزل الله : ﴿إن الذين آمنـوا والذين هـاجروا وجـاهدوا في سبيل الله أولّئك يرجون رحمت الله ، والله غفور رحيم﴾ اهـ وقد ساق ابن كثير رحمه الله في تفسيره وفي (البـداية والنهـاية) حـديث جندب بن عبـد الله من رواية الحافظ أبي محمد بن أبي حاتم قال : حـدثنا أبي حدثنا محمد بن أبي بكر

المقَدَّمي حـدثنا المعْتَمِرُ بن سليمان عن أبيه حـدثني الحضرميّ عن أبي السَّوَار عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطا، وساق الحديث باللفظ المتقدم إلى قوله: فأنزل الله: ﴿يسألـونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ﴾ الآيـة اهـ، ولا شك أن ابن أبي حـاتم أحد الثقات الحفـاظ، وأبوه أحـد الأعـلام الثقـات، ومحمـد بن أبي بكـر المقَـدَّميّ من رجـال البخـاري ومسلم، والمعتمـر بن سليمان من رجال الجماعـة، وأبـوه سليمان بن طرخـان التيميّ من رجال الجماعة أيضا، والحضرميّ قد ذكـر أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الـرازي في كتابه: (الجرح والتعـديل) أن عبد الله بن أحمد بن حنبل سأل يحيى بن معين عن الحضرمي الـذي يـروي عنه التيمـيّ فقال: ليس بـه بأس، اهـ وذكر الحافظ ابن حجـر في (تهذيب التهذيب) في ترجمة أبي السَّوَار فقال: روى عنه الحضرمي اهـ وأبو السَّوَار من رجال البخاري ومسلم، وبهذا يتبين أن الـذين توجهـوا بالسـؤال إلى رسـول الله ﷺ هم المشركون، وقصـدوا بـذلك التشويش على الإسـلام والمسلمين فردّ الله كيـدهم في نحورهم وذكـر قَواصِمَ الظهـر من قبائح أفعالهم، وأثبت مغفـرته ورحمته لأهل هـذه السَّرِيَّة رضي الله عنهم، وقد قال عبد الله بن جحش رضي الله عنه يوبّخ كفار قريش على كفرهم بالله وصدّهم عن سبيل الله:

تعُدّون قَتْـلا في الحـرام عظيمـة ... وأعظـم منه لـو يرى الرُّشْـدَ راشدُ
صُدُودكُمُـو عمـا يقـول محمـد ... وكفـرٌ بـه واللهُ راءٍ وشـاهـدُ
وإخـراجُكم من مسجد الله أَهْلَـه ... لئـلاّ يُـرَى لله في البيت ساجـدُ
فإنّـا وإن عيـّرتـمونا بقتلـه ... وأرجف بالإسلام بـاغٍ وحـاسدُ
سَقَيْنا من ابن الحضرمي رماحَنـا ... بنَخْـلَـة لمّا أوقد الحـربَ واقـدُ
دَمًـا، وابنُ عبـد الله عثمانُ بيننـا ... يُنـازعـه غُـلٌّ من القَيْـد عانـدُ

وقوله: بنخلـة، يشير إلى المكان الذي حصلت فيه المعركة، وقـوله: أوقد

الحربَ واقد، يـريد أن واقد بن عبـد الله اليَرْبُوعيّ حليف عمـر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي رمى ابن الحضرمـي بسهم فقتله، وكان واقدٌ رضي الله عنه في هذه السرية المباركـة، وقوله: وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا، يشير إلى أنهم أخذوا عثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزوميّ أسيرا. وقـوله عز وجل: ﴿قتال فيه﴾ بدل اشتمال، وقوله تعـالى: ﴿قل قتال فيه كبير﴾ أي أخبرهـم أن القتال في الشهر الحرام إثم عظيم يعني لمن تعمّـد القتال فيه ولم يكن دفاعـا، وقوله عز وجل: ﴿وصـد عن سبيل الله وكفر بـه والمسجد الحرام وإخراج أهلـه منه أكبر عنـد الله﴾ أي ومنع للنـاس من الـدخـول في الإسـلام، وكفـركم أيها المشركون بـالله وصدّكم المؤمنين عن المسجـد الحرام وإخراجكم النبـيّ محمدا ﷺ والمؤمنين حتى اضطررتموهم إلى الهجرة من مكـة هو أعظم إثما وأكبر ذنبا من القتال في الشهر الحرام، وقولـه عز وجل: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي وكفـركم بالله و إكـراهكم للمسلمين على الكفـر بالله أكبر إثما من القتـال في الشهـر الحرام ومن قتل النفس مطلقـا بغير حق. وقـولـه عـز وجل: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ الآيـة. أي وسيستمر كفار قريش في حرب المسلمين لكي يصدوهم ويحملـوهم على الردة عن الإسلام لو تمكنـوا من ذلك، ومن يرجع إلى الكفر بعد الإسلام حتى يمـوت على الكفر فهؤلاء بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا بهدر دمهم، وفي الآخرة بضياع أجرهم، وهؤلاء أهل النار المخلدون فيها، وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا﴾ الآية أي إن المؤمنين المهاجرين المجاهدين أصحاب سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنهم هم طلاب رحمة الله، والله يدخلهم في رحمته ومغفرته.

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكَّرون* في الدّنيا والآخرة، ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تخالطوهم فإخوانكم، والله يعلم المفسدَ منَ المصلحِ، ولو شاء الله لأعنتكم، إنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل الناس أن يأكلوا مما في الأرض حلالاً طيباً كما مرّ في الآية الثامنة والستين بعد المائة ثم أمر المؤمنين بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم كما في الآية الثانية والسبعين بعد المائة ثم نهاهم أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل في الآية الثامنة والثمانين بعد المائة وشرع القصاص لحماية أرواح الناس وسلامتهم، ثم الصيام لقمع شهوتي البطن والفرج، ثم الحجّ لإقامة ذكر الله ثم كتب الجهاد لصيانة دين الله وإعلاء كلمته، ذكر في هذا المقام أحد أطوار تحريم الخمر والميسر لما فيهما من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ولإفسادهما للقلب والعقل، ولما فيهما من أكل أموال الناس بالباطل، وتجاوزهم من الطيبات إلى الخبائث، وقد مرّ تحريم الخمر بأطوار أربعة على طريقة التّدرّج في التشريع كما حدث في تشريع الصيام والجهاد بحسب ما تقتضيه تربية النفوس وإعدادها لتلقي الأحكام التي تأتي للحجر على النفوس من الانطلاق وراء الشهوات والمضار، وقبل البدء في الحديث عن أطوار تحريم الخمر في الإسلام أشير هنا إلى أن الخمر لم تكن مباحة قبل هذه الأطوار بنص من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ وإنما كان يشربها من يشربها من المسلمين اتباعا لعاداتهم قبل الإسلام، وقد امتنع بعض ذوي العقول فحرمها على نفسه في الجاهلية قبل الإسلام، منهم قيس بن عاصم المنقري وقد كان شرّابا لها في الجاهلية فلما سَكِرَ مرة غمز عُكْنَة ابنته وسبّ أبويه ورأى القمر فتكلم

بشيء يخزي، فلما أفاق أُخْبِر بذلك فحرم الخمر على نفسه وفيها يقول:

رأيت الخمر صالحةً وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا ... ولا أُشْفَى بها أبدا سقيما
ولا أعطي بها ثمنا حياتي ... ولا أدعو لها أبدا نديما
فإنّ الخمر تفضح شاربيها ... وتجنيهم بها الأمر العظيما

وقد قيل للعباس بن مرداس في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في جرأتك؟ فقال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

ولما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها، وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة لِيُسْلِمَ وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ فقالوا: لا تَصِلْ إليه فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الربّ واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: إن اصطناع المعروف واجب، فقالوا له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات فلم يصل إلى منزله. فكان من حكمة العليم الخبير التّدرّج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدّدُ آلاءه ونعمه على خلقه، ويذكّرهم بآياته وآثار قدرته فقال في سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقا حسنا﴾ ففي هذا

إمـاءة إلى التنديـد باتخاذ المسْكِـر من ثمر النخيل والعنب بجعلـه خمرا حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم: تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا، ولا شك أن هذا الأسلـوب في لفت انتباه النفس إلى التـوقف عن شرب الخمر في الـدرجة العليـا من أساليب التربيـة والتعليم والتحـذير، قـال في القامـوس المحيط: والسَّكَر محرّكـة الخمر. أما الطور الثـاني فكان في هذا المقـام الكريم من سورة البقرة حيث يقول: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ والاستفهام والسؤال هنا من المؤمنين للاستفسار عن حكم الخمر والميسر، والخمر مـا خامر العقل وغطاه وغيّبه، من عصير العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، وسـائر ما يصنعه الناس مما يُسْكِـر سواء كـان مائعا أو جـامدا أو مشمـوما، مـا دام يخامر العقل أي يغطيه ويغيبه. والميسر هو القمار، قال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيب وعطاء وقتـادة ومعاويـة بن صالح وطاوس وعليّ بـن أبي طالب وابن عبـاس رضي الله عنهم: كل شي فيه قمار من نـرد وشطرنج فهـو الميسر حتى لعب الصبيان بالجَوْز والكِعَاب إلا ما أبيح مـن الرّهان في الخيل، والقرعة في إفراز الحقوق كما ذكر القـرطبي رحمه الله. ومن أشهر ميسر العرب قمار الأزلام ومراهنتهم بها حيث كانـوا يتراهنون على الجزور ويجعلونها أسهما ويكتبون على كل سهم نصيبا معينا منها ويجعلون بعضها مهملا لا نصيب لمن تصيبه، ثم يضعونها في خـريطة ويدفعونها إلى يـد رجل فَيُجَلْجِلُها ويدخل يـده فيُخْرج منهـا باسم كل واحـد منهم واحـدًا منها فكـل من خرج لـه سهم من ذوات الأنصباء أخذ من الجزور بقَدْره، ومن خرج له سهم مُهْمَل لا نصيب له غُرِّم ثمن الجزور وكانوا يدفعون أنصباءهم إلى الفقراء ولا يأكلونها ويتباهون بذلك ويتفاخرون به ويذمون من تخلف عن هذا الرهان، وكانت الخمر والميسر هي شغل العرب الشاغل يتمدحون بهما وفي ذلك يقول أعشى بني ثعلبة:

وسَبيئةٍ مـمـا تُعتـّق بـابـل	كدم الذبيح سَلَبْتُها جِـرْيالَـها
وغريبةٍ تأتـي الملـوك حكـيمـة	قـد قلتها ليقـال : مـن ذا قالـها
وجزور أيسار دعَوْتُ إلى النّدى	ونياطِ مُقْفِرة أخـاف ضـلالـها

وقولـه عز وجل : ﴿قل فيهما إثم كبير﴾ أي في تعـاطي الخمر والميسر ذنب عظيم وجرم فاحش، وقوله عز وجل : ﴿ومنافع للناس﴾ هو ما كانوا ينثرون من أموالهم لمن حولهم عند شرب الخمـر وما يحصل لهم من بعض اللذة وقت شرابها على مـا توهمتـه نفوسهم كما كـانوا يصيرون بعـد شربها إلى جرأة تـدفع الواحد منهم إلى ارتكاب الصعاب كما قال حسان رضي الله عنه :

ونشـرَبُهـا فتتركنـا ملوكـا	وأُسْـدًا ما يُنَهْنِهُهَـا اللّقـاء

وكما قال الأعشى :

من قهـوة باتَتْ ببابـل صـفوةٍ	تدَعُ الفتى ملكا يَميل مصُرَّعَـا

وقد أشار الأعشى إلى بعض أوضارها مع بعض لذاتها حيث يقول :

لَعَمْرُك إن الرّاح إن كنت شـاربا	لمختلف آصـالهُـا وغداتُـهـا
لنا من ضحاها خُبْثُ نفسٍ وكَأْبة	وذكـرى هموم مـا تُغِبُّ أَذَاتُـهـا
وعنـد العِشاء طيبُ نفس ولذّة	ومـال كثيـرٌ عـزّة نشَـوَاتُهـا

ومنافع الميسر ما كان يصيب الفقراء من لحوم الجزور التي يقامرون عليها، وليس في قولـه عز وجل : ﴿ ومنافع للنـاس﴾ ما يفيد مدحـا للخمر والميسر بحال من الأحوال، إذ وجود منفعة ما في شيء مع وجود شرّ كبير فيه لا تجعل هـذا الشيء ممدوحـا، والعقلاء يقـررون : أن درء المفـاسد مقـدّم على جلب المصالح، كما هـو في قواعد التشريع، والخمـر هي الخمر، وقـد ذكر ابن أبي الدنيا أنه مرّ على سكران فوجده يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضئ ويقول : الحمد لله الذي جعل الإسلام نـورا، والماء طهورا. وقوله عز وجل : ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ تقـرير لضـآلـة ما في الخمـر والميسر من منـافع

بالنسبـة لما فيهما من الذنب والجُرْم والقبح، غير أن بعض الناس قـد يرى أن ذلك ليس تحريما للخمر، فكان الطور الثالث هو النهي عن شرب الخمر عند قربان الصـلاة حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقـربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم كان الطور الرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقـا حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطـان فاجتنبوه لعلكم تفلحـون* إنما يريـد الشيطـان أن يـوقع بينكم العـداوة والبغضاء في الخمـر والميسر ويصـدكم عن ذكـر الله وعن الصلاة فهل أنتـم منتهون﴾ فقـد روى أحمد وأبـو داود والترمذي والنسـائي من طريق أبي مَيْسَرة عمـرو بن شرحبيل عن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه قـال: لما نزل تحريم الخمـر قال عمـر: اللهم بيّن لنا في الخمـر بيانا شفـاءً، فنزلت الآية التي في البقـرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية، قال فـدُعِيَ عمر فقُرِئَتْ عليه، قال: اللهم بيّن لنـا في الخمر بياناً شفـاءً، فنزلت الآية التي في النسـاء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصـلاة ينـادي: ألا لا يقـربنّ الصـلاة سكـران. فـدُعِيَ عمـر فقُرِئَتْ عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيـاناً شفاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فهل أنتم مُنْتَهُـون﴾ قال عمر: انتهينـا. وقد صحح هـذا الحديث علي بن المديني والترمذي. وقوله عز وجل: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ قد تقدم قـوله عـز وجل في الآية الخامسـة عشرة بعد المائتين: ﴿ يسألـونك ماذا ينفقـون﴾ وكان سـؤالهم فيهـا عن المصرف فبينه عـز وجل بقـوله: ﴿قل مـا أنفقتم من خير فللـوالدين والأقـربين ﴾ الآيـة. والسؤال هنـا عن كمية مـا ينفقون ولذلك قال عز وجل في الجواب: ﴿قل العفو﴾ أي ما سهل وتيسّر مما يكون فاضلا زائدا عن الكفاية وحاجة صاحب المال، ثم بينتها بعد ذلك آية

الزكاة التـي بينها وفسرها رسول الله ﷺ وحدّد فيهـا الكمية التي تجب في كل نوع من الأمـوال الزكـويّة، وقولـه عز وجل: ﴿كـذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون* في الدنيا والآخرة﴾ أي كما أوضح الله عز وجل لكم وفصّل وبيَّن ما تقدم من الأحكـام يوضح لكم ويبين ويفصل جميع ما تحتـاجونه من أحكام في شئون دنياكم وأخراكم ومعـاشكم ومعادكم لكي تتدبروا فضل الله عليكم حيـث أرسل لكم النبـي الأميّ محمـــدا ﷺ بأكمـل الشرائع وأفضل الأنظمـة وأحسن المناهج، وقـوله عـز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتـامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخـوانكم، والله يعلم المفسد من المصلح، ولـو شاء الله لأعنتكم، إن الله عـزيـز حكيم﴾ بعـد أن ذكر الله عـز وجل في الآية السابقة بعض الأنظمة المالية ذكر هنا الأمر بحفظ أموال اليتامى ومراعاة صيانتها، وقـد روى أبو داود والنسائي واللفظ لأبي داود قـال: حدثنا عثمان ابن أبي شيبة ثنا جرير عن عطـاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أنـزل الله عـز وجل: ﴿ولا تقربـوا مـال اليتيم إلا بـالتي هي أحسن﴾ و﴿إن الذين يأكلـون أموال اليتامى ظلما﴾ الآيـة، انطلق من كان عنـده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يَفْضُل من طعامه فيُحْبَس له حتى يأكله أو يفسد، فـاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لـرسول الله ﷺ فأنزل الله عـز وجل: ﴿ويسألونك عن اليتـامى قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطـوهم فإخوانكم﴾ فخلطـوا طعامهم بطعامـه وشرابهم بشرابه. اهـ وقـوله: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ أي وعند الله عز وجـل علم بمن كان قصده ونيته الإصلاح أو من كانت نيته وقصده الإفسـاد، وقوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عـزيـز حكيـم﴾ أي ولـو أراد عنتكم ومشقتكم لأوقعكم في الحرج والضيق والمشقة لأنه عزيز قـاهر حكيم حميد، وقد رحمكم ويسر لكم التشريع وخفّف عنكم لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر.

قال تعـالى: ﴿ ولا تنكحوا المشركـات حتّى يؤمـنّ، ولأمةٌ مؤمنـة خيرٌ من مشركةٍ ولـو أعجبتكم، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا، ولعبـدٌ مؤمن خيرٌ من مشركٍ ولو أعجبكم، أولٓئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبيّن آياته للنّاس لعلّهم يتذكرون﴾.

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعالى ما يـوجب صيانة العقول شرع في هـذا المقام يبين أحكام النكـاح والطلاق ممـا تصانُ بـه الفروج، فقـال عز وجل: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ﴾ أي ولا تتزوّجوا امرأة مشركة وثنية حتى تدخل في دين الإسلام، وكما لا يجوز الزواج من امرأة مشركة فإنه لا يحل إمساكها لو كـانت زوجة لقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ ولا تمسكـوا بِعِصَمِ الكوافـر﴾ ولفظ المشركات قد لا يتنـاول الكتابيات فقد جـاء في لسان الشرع كثيرا عطف أهل الكتاب على المشركين كقوله تعالى: ﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم من خير من ربكم﴾و كقولـه تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهـل الكتاب والمشركين مُنْفَكِّين حتى تأتيهم البيّنـة﴾ وقد نصّ الله تبـارك وتعالى في محكم كتـابـه على جواز نكـاح المحصنـات من الذين أوتـوا الكتاب حيث يقول عز وجل: ﴿اليوم أُحِلّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصنـاتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الـذين أوتــوا الكتـاب مِن قبلكم إذا آتيتمـوهـنّ أجـورَهن مُحْصِنين غير مسافحين ولا مُتّخِذي أخدان﴾ وقد أباح الله تبارك وتعالى نكاح الكتابية وهو يعلم أنّ قولها يضاهئ قول الذين أشركوا لكنّ حكمته فوق ما يخطر بالبال وما يدور في الخيال، فما حرّمه فهو الحرام وما أحله فهو الحلال، وقد أباح ذبيحة الكتـــابي ولم يبح ذبيحـة المشركين، ولا يحل لمسلم أن يتقـــدم على الله أو على رسوله بقول أو عمل كما قال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُقَدّموا بين

يَـدَي الله ورسولـه واتقـوا الله إن الله سميع عليم﴾ وقـد أشار ابـن جريـر في تفسيره إلى أن الأمة مجمعة على جواز نكاح المسلم الكتابية يهودية أو نصرانية . وضعّف القـول المنسوب إلى بعض السلف بتحـريمهـا وذكر أنـه روي عنهم خلافـه بسند أصحّ منه ، ولا شك أن كلّ كـافرٍ مشركٌ ، وعلى هذا فقولـه عز وجل : ﴿ولا تنكحـوا المشركات﴾ إمّـا عامٌّ أريـد به الخصـوص ، وإما عـامّ مخصوص بقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ والمحصنـاتُ من الذين أوتـوا الكتاب من قبلكم﴾ على أن الإسلام مع إبـاحته للمسلم أن يتزوج يهوديةً أو نصرانيـةً قد حضّ المسلم على أن يختار الزوجة الصالحة المستمسكة بتعاليم الإسلام ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بـذات الدين ، تَرِبَتْ يداك» كما روى مسلم في صحيحـه من حديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «الدنيا كلّهـا متاعٌ ، وخير متاع الدنيـا المرأة الصالحة» . اهـ ولا شك أن دين الإسلام عنـدما أباح للمسلم أن يتزوج الكتـابية راعى ما قـد يحدث لبعض المسلمين من سفر إلى بلاد الكتابيين ، وهو محتاج إلى إعفاف نفسه ، وصيانة عرضه ، وقد اشترط في نكاح المسلم للكتـابية أن تكـون معروفة بطهـارة العرض حيث يقـول الله عز وجلّ : ﴿والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتـاب من قبلكم﴾ فالمسلمة يكفي فيها أنها مسلمـة وغير معروفـة بسلوك مَشِين ؛ أمـا الكتابيـة فلا بـد فيها من التأكد من عفتها وطهارة عرضها ، إذ الإحصان المشْتَرَط في الكتابية معناه : أن تكون حرة عفيفة غير متساهلة في عـرضها . وقد أجمعت الأمة على أنه لا يجوز للمسلمة أن تـتزوج كافـرا مهما كان ، ولقـد أحسن بعض أهل العلم عنـدما سُئِلَ : لماذا يبيح الإسلام للمسلم أن يتزوج كتابية ولا يبيح الإسلام للمسلمة أن تتزوج كتـابيا؟ فأجـاب : بأن المسلم يكرّم مـوسى وعيسى عليهما السلام

فإذا كانت تحته كتابية فلن تسمع منه إهانة لموسى أو لعيسى عليهما السلام بخلاف الكتابي فإنه لا يؤمن بمحمد ﷺ ولا يبعد أن يهين المسلمة بتكذيب رسولها ﷺ فلصيانة كرامة المرأة في الإسلام أباح للمسلم أن يتزوج كتابية لأنها لن ترى منه إلا احتراما وتكريما لها، وحرّم على المسلمة أن تتزوج كتابيا لأنها تتعرض عنده للإهانة والأذى لكفره بنبيّها محمد ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ولأمَة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ اللام في قوله: ﴿ولأمة﴾ هي لام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد، والأمة هي المرأة المملوكة وقوله: ﴿خير﴾ ليست على بابها من التفضيل بل هي من باب قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ و(لو) في قوله: ﴿ ولو أعجبتكم﴾ بمعنى (إنْ) إذ القاعدة اللغوية أنّ كلمة (لو) إذا وليها فعل ماضٍ كانت بمعنى (إنْ)ويَطَّرِد حذف كان واسمها بعدها، أي وإن كانت المرأة المشركة أعجبتكم، ونظيره قوله عز وجل: ﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ أي وإن كان أعجبك كثرة الخبيث. ومعنى هذه الجملة الكريمة: أي ولزواجكم من امرأة مملوكة مؤمنة خير من زواجكم من امرأة حرّة نسيبة حسيبة مشركة وإن كانت هذه المرأة المشركة أعجبتكم لجمالها ولحسبها ونسبها، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن زواج الحرّ المسلم من الأمة إنما يكون عند عدم قدرته على الزواج من حرة عفيفة حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهنّ أجورهنّ بالمعروف محصناتٍ غيرَ مسافِحاتٍ ولا مُتَّخِذاتِ أخدان فإذا أُحْصِنّ فإنْ أَتَيْنَ بفاحشة فعليهنّ نصفُ ما على المحصَنات من العذاب ذٰلك لمن خَشِيَ العَنَتَ منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ وإنما اشترط الإسلام في نكاح الأمة المؤمنة هذه الشروط لأن

الإسلام يكره الرّق للإنسان والمعلوم أن أولاد الحرّ من الأمة المملوكة لغيره يكونون أرِقّاء لأهل الأَمَة، إذ أن من مقررات الشريعة الإسلامية أنّ الولد يتبع خير الأبوين دينا، ويتبع الأم حرية ورِقًّا، وقد بشّر رسول الله ﷺ من كانت له أمة مسلمة فأعتقها وتزوجها بأنّ له أجرين، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ثلاثة يُؤْتَوْنَ أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ ﷺ فآمن به واتّبعه وصدّقه فله أجران، وعبد مملوك أدّى حقّ الله تعالى وحقّ سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغَذَاها فأحسن غذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران». وقوله عز وجل: ﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ أي لا تُزوّجوا يا أولياء النساء كافرا حتى يرجع عن كفره ويدخل في دين الإسلام، فلا يجوز أن يتزوّج رجل من الكفار امرأة مسلمة أبدا، وقد أجمع المسلمون على أنه لا يجوز للمسلمة أن تتزوج من الكافر ألبتّة على اختلاف أنواع الكفرة سواء كان وثنيا أو كتابيا أو مجوسيا أو صابئا أو ملحدا أو غير هؤلاء ولا تتزوج المسلمة إلا مسلما، وقد ألحق أهلُ السنة أهلَ الأهواء المعادين لبعض أصحاب رسول الله ﷺ بهؤلاء في باب النكاح فلا يجيزون تزويج امرأة من أهل السنة لرجل من أهل الأهواء كما أنهم يحرمون أكل ذبائحهم كذلك تعزيرا، وقوله عز وجل: ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ أي ولو زوجتم مملوكا مؤمنا المرأة المسلمة هو خير من المشرك الحر الحسيب النسيب وإن كان أعجبكم في حسبه ونسبه، فهو عند الله لا يساوي شيئا، وليس هذا حضّا على تزويج المملوك المسلم من الحرة المسلمة وإنما هو لبيان أن المسلمة لا تكون فراشا لكافر أبدا، وفي قوله عز وجل: ﴿ولا تُنكحوا المشركين﴾ إشارة إلى أن المرأة لا تزوج نفسها، ولا تزوج المرأةُ المرأةَ، وأنه لا بد من الولي في عقد النكاح، ولا بد أن يكون الولي رجلا، قال

البخاري في صحيحه: باب من قال: لا نكاح إلا بولي لقول الله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تَعْضُلُوهنّ﴾ فدخل فيه الثيب، وكذلك البكر، وقال: ﴿ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾ وقال: ﴿وأنكحوا الأَيامى منكم﴾ ثم ساق من طريق عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته: أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليّته أو ابنته فيُصْدِقُها ثم يَنْكِحُها، ونكاحٌ آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثها: أرسلي إلى فلان فاستَبْضِعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تَسْتَبْضِعُ منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومرّ ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد وَلَدْتُ، فهو ابنك يا فلان، تُسَمّي من أحبّت باسمه فيَلْحَقُ به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهُنّ البغايا كُنّ يَنْصِبْنَ على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حَمَلَتْ إحداهن ووضعت حملها جُمِعُوا لها ودَعَوْا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالْتَاطَتْه به ودُعي ابنَه لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم. ثم ساق البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها تفسيرها لقوله تعالى: ﴿وما يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء﴾ ثم ساق البخاري من حديث ابن عمر قصة عرض عمر رضي الله عنه على عثمان و أبي بكر رضي الله عنهما الزواج من

حفصة رضي الله عنها حين تأيمت من ابن حذافة السهمي، ثم ساق البخاري من حديث معقل بن يسار قصة نزول قوله تعالى: ﴿فلا تَعْضُلُوهن﴾ قال الحافظ في الفتح: استنبط المصنف هذا الحكم من الآيات والأحاديث التي ساقها لكون الحديث الوارد بلفظ الترجمة على غير شرطه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿أولَئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون عن مناكحتهم لا يألونكم خبالا ويتسببون في دخولكم النار، والله يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة ويسبب لكم المغفرة بما أذِنَ لكم فيه، والله يوضح لكم أدلة سعادتكم في الدنيا والآخرة، لتتعظوا وتعتبروا.

قال تعـالى : ﴿ ويسألونـك عن المحيض قل هو أذى فـاعتزلـوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إنّ الله يحب التوابين ويحبّ المتطهرين﴾

في هـذا المقـام الكريـم من كتاب الله عـز وجل يـرسم الله تبـارك وتعـالى للمـؤمنين منهج الرشـد في مسألـة تتكرر في جميع الأعصـار والأمصار، وقـد اضطربت فيهـا الأمم اضطرابا شديـدا ، وساروا فيها على مناهج متنـاقضة ، وهي صلة الرجل بحليلته الحائض ، فقـد كان اليهود والمجوس يخرجونها من منازلهم ويعـزلونها عن فراشهم عـزلا كامـلا ، وكان النصارى لا يفـرقون بين الطُّهْر والحيض فكان النصراني يقـارف زوجته وهي حائض ولا يعتبر الحيض شيئا ، وكان العرب من أهل يثرب وما جـاورها قد استنّوا في هذا الباب بسنة اليهود فكانوا يتجنّبون مؤاكلة الحائض ومساكنتها ، فهدى الله الذين آمنوا إلى الحق وأرشدهـم إلى الصواب الذي لا يحرمهـم من متعةٍ حـلال ، ولا يعرض المرأة لمهونـة لا حاجـة لها ألبتّة ، وفي نفس الـوقت يحمي الرجل مـن التعرض لأذى قـد يجلب لـه الأمراض والأسقـام . فقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حـاضت امرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعـوهن في البيـوت ، فسأل أصحـابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ فأنـزل الله تعالى : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فـاعتزلوا النساء في المحيض﴾ إلى آخر الآيـة ، فقال رسـول الله ﷺ : «اصنعوا كلّ شيء إلا النكـاح» ، فبلغ ذلك اليهود ، فقالـوا : ما يريد هذا الـرجل أن يدع من أمرنا شيئـا إلا خالفنا فيه ، فجاء أُسَيْد بن حُضَيْر وعَبَّاد بن بِشْر فقالا: يا رسول الله إن اليهود تقول كذا وكـذا أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجـه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أنْ قـد وَجَد عليهما ، فخرجـا ، فاستقبلهما هديّـةٌ من لبنٍ إلى النبي ﷺ ، فأرسل في آثارهما

فسقاهما، فعرفا أن لم يَجِدْ عليهما. اهـ وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى قد ذكر قوله عز وجل: ﴿ يسألونك﴾ في الآية الثامنة والثمانين بعد المائة، وفي الآية الخامسة عشرة بعد المائتين، وفي الآية السابعة عشرة بعد المائتين، وفي صدر الآية التاسعة عشرة بعد المائتين بدون أن تسبقها الواو، ثم ذكرها ثلاث مرات مسبوقة بالواو، والظاهر أن هذا التغاير في الأسلوب يشعر بأن الأسئلة التي وردت بدون واو العطف وقعت في أزمنة متغايرة حيث يقع كلّ سؤال في وقت على حدة، أما هذه الأسئلة الثلاثة التي اقترنت بواو العطف فقد وقعت كلها عند السؤال عن الخمر، والمحيض قد يستعمل بمعنى الحيض ويستعمل بمعنى مكان الحيض، وقد أكّد الفخر الرازي أن المراد بالمحيض في الآية هنا مكان الحيض لا نفس الحيض، قال رحمه الله: إذ لو كان المراد بالمحيض ههنا الحيض لكان قوله: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ معناه: فاعتزلوا النساء في الحيض، ويكون المراد: فاعتزلوا النساء في زمان الحيض، فيكون ظاهره مانعا من الاستمتاع بها فيما فوق السّرّة ودون الركبة، ولما كان هذا المنع غير ثابت لزم القول بتطرّق النسخ أو التخصيص إلى الآية، ومعلوم أن ذلك خلاف الأصل، أما إذا حملنا المحيض على موضع الحيض كان معنى الآية: فاعتزلوا النساء في موضع الحيض، ويكون المعنى: فاعتزلوا موضع الحيض من النساء، وعلى هذا التقدير لا يتطرق إلى الآية نسخٌ ولا تخصيصٌ، ومن المعلوم أن اللفظ إذا كان مشتركا بين معنيين وكان حمله على أحدهما يوجب محذورا، وعلى الآخر لا يوجب ذلك المحذور فإنّ حمل اللفظ على المعنى الذي لا يوجب المحذور أولى، هذا إذا سلّمنا أن لفظ المحيض مشترك بين الموضع وبين المصدر مع أنّا نعلم أن استعمال هذا اللفظ في الموضِع أكثر وأشهر منه في المصدر. اهـ والحيض هو دم معروف كتبه الله عز وجل على النساء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

خرجنا مع النبي ﷺ لا نرى إلا الحجّ فلما كنت بِسَرِف حِضْتُ فدخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قال: «مالَكِ ؟أنَفِسْتِ؟» قلت: نعم، قال: «إن هذا أمرٌ كتبه الله على بنات آدم فاقضي ما يقضي الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت». الحديث، وقد جعل الله تبارك وتعالى للحيض صلة وثيقة بعملية التناسل، وهو أمارة بارزة من أمارات بلوغ المرأة، كما أن انقطاعه لغير مرض دليل على بلوغ المرأة سن اليأس، ودم الحيض يتميز عن سائر الدماء التي تراها المرأة، فهو دم أسود خاثر ثخين تعلوه حمرة كأنه محترق من شدة حرارته، يخرج برفق ولا يسيل سيلانا، له رائحة كريهة تخالف سائر الدماء.
وكل دم تراه المرأة مخالفا لهذه الصفة لا يكون دم حيض. وقد روى أبو داود والنسائي من حديث فاطمة بنت أبي حبيش رضي الله عنها أنها كانت تُسْتَحاض فقال لها النبي ﷺ: «إذا كان دم الحيض فإنه دم أسود يُعْرَف فإذا كان ذلك فأمسكي عن الصلاة، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلّي، فإنما هو عِرْق» وقد صحح هذا الحديث جماعة من أهل العلم بأخبار رسول الله ﷺ.
وقوله عز وجل: ﴿قل هو أذى﴾ يعني أخبر يا محمد السائلين عن المحيض وقل لهم: مباشرة الرجل زوجته في مكان حيضها يعني في قُبلها هو ضرر وقذرٌ ولا شك أنّ هذا الفعل قد يسبّب لفاعله أمراضا خطيرة قد تنغّص عليه عيشه وتسبّب له آلاما وبثوراً تجلب له الإزعاج، وقد علم بالاستقراء التام أن الله عز وجل ما نهى عن شيء إلا لما فيه من المضار وما أمر بشيء إلا لما فيه من المنافع والخير. وقوله عز وجل: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي فتجنّبوا قربان الحائض في محل حيضتها أي في فرجها. وقوله عز وجل: ﴿ولا تقربوهنّ حتى يطهرن﴾ هو تفسير وتأكيد لقوله عز وجل: ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي ولا تباشروهن في فروجهن ولا تدنوا من مكان الحيض في زمان الحيض حتى ينقطع دم حيضهن. وقد بيّن رسول الله ﷺ ما يحلّ للرجل

من زوجته وهي حائض، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض. كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان النبي إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. وقد صرح رسول الله ﷺ كذلك بما يحل للرجل من زوجته وهي حائض فقال: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» كما تقدم في حديث أنس في سبب نزول هذه الآية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي فإذا انقطع دم حيضهن واغتسلن من الحيض فقد أبيح لكم منهن ما كان محظورا عليكم بسبب الحيض حيث أذن الله لكم في مقارفة نسائكم طاهرات نظيفات من الأذى. وكان رسول الله ﷺ يأمر النساء عند الاغتسال من الحيض أن يأخذن شيئا يسيرا من المسك يتطيبن به، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غُسلها من المحيض فأمرها كيف تغتسل قال: «خذي فِرْصة من مِسْك فتطهّري بها» قالت: كيف أتطهر؟ قال: «تطهّري بها» قالت: كيف ؟ قال: «سبحان الله تطهّري» فاجتبذتها إليّ فقلت: تتبعي أثر الدم. وفي رواية لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت أسماء بنت شَكَلٍ على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله كيف تغتسل إحدانا إذا طهرت من الحيض؟ فقال: «تأخذ إحداكن ماءها وسِدْرَتها فتطَهّر فتحسن الطّهور ثم تَصُبّ على رأسها فتَدْلُكُه دَلْكا شديدا حتى تبلغ شئون رأسها ثم تصب عليها الماء ثم تأخذ فِرْصة مُمَسَّكة فتطهّر بها». الحديث. كما روى مسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إني امرأة أشدّ ضَفْر رأسي فأَنقضه للحيضة والجنابة؟ قال: «لا». هذا ولا شك أن الحائض لا تحل لها الصلاة حتى تغتسل من

حيضتها، فعليها بمجرد انقطاع الدم عنها أن تغتسل كاغتسالها للجنابة، وهي كذلك ممنوعة من قراءة القرآن حتى تطهر من الحيض. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ أي إن الله عز وجل يرضى عن عباده الرجاعين إلى مرضاته الواقفين عند حدوده التائبين من ذنوبهم ومعاصيهم مهما عظمت، وقد ضرب رسول الله ﷺلذلك مثلا، ولله المثل الأعلى، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مَهْلَكَةٌ ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتد عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده» وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأَيِسَ منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بِخِطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» وفي قوله عز وجل: ﴿ويحب المتطهرين﴾ لفت انتباه الناس إلى أن الله يبغض من يقارف زوجته وهي حائض لأن هذا الفعل قذارة يبغضها الله عز وجل ولذلك حرّمها، والتطهر هو التنزه عن الأقذار والأذى، وهو معنوي وحسّي، فالمعنوي: هو التطهر من الشرك وسائر المعاصي، والحسّي: هو الوضوء والغسل وإزالة النجاسة من البدن والثوب، ولذلك لا يقبل الله صلاة أحد إلا أن يكون طاهر الثوب والبدن والمحل، وقد بشر رسول الله ﷺ المتوضئ بمغفرة خطاياه، فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفّان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن

الـوضوء خـرجت خطايـاه من جسده حتى تخرج من تحت أظفـاره» كما روى مسلم من حديث أبي مـالك الأشعري رضي الله عنه أن رســول الله ﷺ قال : «الطُّهُـور شطر الإيمان» . كما روى مسلم من حـديث عمر رضي الله عنـه أن رســول الله ﷺ قال : «مـا منكم من أحـد يتـوضأ فيُسْبغُ الـوضوء ثم يقـول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيّها شاء» .

قال تعالى: ﴿نساؤكم حَرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم، واتقوا الله واعلموا أنّكم ملاقوه، وبشّر المؤمنين* ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا بين الناس، والله سميع عليم﴾.

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى منهاج السعادة في معاملة الزوج لزوجته الحائض، وحذّر أشد التحذير من قربانها في مكان الحيض زمان الحيض، ذكر هنا أن الزوجة كالحرث لزوجها، وأنه له أن ينتفع بحرثه على أي وجه يحبّ ما دام في حدود ما أذن الله عز وجل له فيه، مبطِلاً بذلك عقيدةً يهوديّةً منحرفة عن الحق منغمسةً في الخرافة حيث كان اليهود يعتقدون أن مقارفة الرجل لزوجته وهي باركة كالساجدة يجعل الولد الذي تنجبه من هذا الوقاع أحول، وقد تأثر العرب من سكان يثرب بهذه الخرافة اليهودية، فكانت المرأة اليثربية تمنع زوجها من مقارفتها على هذه الصفة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول، فنزلت الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ زاد مسلم في رواية عن الزهري: إن شاء مُجبِّيَةً، وإن شاء غير مُجبِّيَةٍ غير أن ذلك في صمام واحد. وقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكتُ، قال: «وما أهلكك؟» قال: حوّلْتُ رَحْلي البارحة، قال: فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئا، قال فأوحي إلى رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ قال: «أقبِلْ وأدْبِر، واتق الدّبُر والحيْضَة». ومعنى قوله في الحديث: «مُجَبِّيَة» أي باركة كهيئة الساجدة، وقوله: غير أن ذلك في صمام واحد. أي في منفذ واحد وهو القبل إذ هو

موضع الحرث، وقال القاضي أبو بكر بن العربيّ في كتابه أحكام القرآن: قال النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أُكْثِرَ عليك القول، إنك تقول عن ابن عمر: إنه أفتى بأن يأتوا النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا عليّ، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر؟ إن ابن عمر عرض المصحف يوما، وأنا عنده أسمع، حتى بلغ: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ قال: يا نافع هل تعلم ما أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: كنّا معشر قريش نُجَبّي النساء، فلما دخلنا المدينة، ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن ما كنا نريد من نسائنا، فإذا هنّ قد كرهن ذلك وأعظمنهُ، وكان نساء الأنصار إنما يُؤْتَيْن على جنوبهن، فأنزل الله سبحانه: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾. وقوله عز وجل: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي وليكن همّكم هو طاعة الله عز وجل والانتهاء عما نهاكم عنه ولا يكن همّكم مجرد قضاء الشهوة، واطلبوا من الله عز وجل أن يرزقكم الذرية الصالحة التي ينفعكم الله بها في حياتكم وبعد موتكم، واحرصوا على ذكر الله عند قربانكم نساءكم ليحفظ لكم ما يرزقكم من ذريتكم، فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث منها: ولد صالح يدعو له، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفعُ به، أو ولدٍ صالح يدعو له» كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضرّه شيطان أبدا» وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله﴾ أي واحذروا بأسه وعقوبته لمن يخالف أمره ويقع في معاصيه، وقوله عز وجل: ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي وأيقنوا أنكم

ستقفون بين يديه يوم الحساب ، وسيجزي كل عامل بما عمل ، كما قال عز وجل : ﴿وما تقدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي وأخبر يا محمد المستجيبين لله ورسوله بأن الله أعد لهم في جنات النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الجزاء الحسن الجميل ، وتذييل الآية الكريمة بهذا للفت انتباه المؤمنين حتى يكونوا على حذرٍ شديد فيما يكون بينهم وبين نسائهم وأن يخافوا الله عز وجل ويراقبوه في كل شأن من هذه الشؤون التي أوضحتها هذه التعاليم الإلهية ليندرجوا في سلك المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم . وقوله عز وجل : ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضةً لأيمانكم أن تَبَروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ لما أمر الله تبارك وتعالى بأبواب الخير المتقدمة من الإنفاق في سبيله ، والإنفاق على الوالدين وذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل وحسن عشرة النساء ، وحذّر من معاصيه كشرب الخمر ولعب الميسر وأنواع القمار وقربان النساء في المحيض أو مكان محذور، وكان بعض الناس قد يلعب به الشيطان فيحمله على الحَلِف بالله أن لا يفعل الخير من بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الأيتام أو المساكين أو يحمله الشيطان على الحلف أن يفعل معصية من المعاصي ، فنهى الله عز وجل المؤمنين أن يحلفوا بالله أن لا يفعلوا الخير أو أن يحلفوا بالله أن يفعلوا المعاصي ، يقال : هذا عُرْضة لكذا أي معترض مانع منه كما يقال : هذا عُرْضةٌ لك أي عُدّةٌ تبتذله في كل ما يَعِنّ لك ، وقوله عز وجل : ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ أي ولا تجعلوا الحلف بالله مانعا معترضا بينكم وبين ما يقربكم إلى الله عز وجل من فعل الخيرات تعتلّون به أن لا تفعلوا الخير أو تعتلون به في قطيعة رحم أو عمل شر. أو : لا تكثروا من الحلف فتجعلون الحلف على ألسنتكم

في كل كبيرة وصغيرة وتجعلـونه مبتـذلا حتى يوصـف الواحـد من هؤلاء بأنـه حـلاّف ، وقد كـره الله ذلك وعدّه في جملـة الصفات المذمـومة حيث قـال : ﴿ولا تُطع كلَّ حلاَّف مَهِين﴾ وقد أوصى رسول الله ﷺ من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها أن يفعل الذي هـو خير وأن يكفر عن يمينه ، وأن هذا أحبّ إلى الله عـز وجل من الاستمســاك بـاليمين في عمل الشر، فقـد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال : قال لي رسـول الله ﷺ : «و إذا حلفتَ على يمين فرأيتَ غيرهـا خيرا منها فأت الـذي هو خير وكفّر عن يمينك» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنـه أن رســول الله ﷺ قـال : «إني والله إن شـاء الله لا أحلف على يمين ثم أرى خيرا منهـا إلا كفّـرت عن يميني وأتيتُ الـذي هـو خير» . كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفّر عن يمينه ، وليفعل الذي هـو خير» . كما روى البخاري ومسلم مـن حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لأن يَلَجَّ أحدكم في يمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطي كفـارته التي فرض عليـه» . أي إنّ أحدكم إذا حلف على الإساءة لأهلـه فإن تماديه على ذلـك واستمراره عليه أكبر إثما وأعظـم معصية من الحنث في يمينه والتكفير عنها ، وقد تفضل الله عز وجل فأرشد المسلم إذا حلف على شيء يحول بينـــه وبين الأعمال الصــالحة إلى أن يعمل الأعمال الصالحة ويكفـر عن يمينه حيث يقول عـز وجل : ﴿قد فـرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم ، والله مـولاكـم وهـو العليم الحكيم﴾ كما أرشـد الله تبـارك وتعـالى المؤمنين إلى عـدم الإكثار من الحلف وإلى عـدم ابتذال اليمين والتّلفظ بـه في كل سـاعة حيث يقـول عـز وجل : ﴿واحفظـوا أيمانكم﴾ ، والعرب تمتـدح الرجل بقلة أيمانه حيث يقول كُثيِّر:

قليــل الألايا حافــظ ليمينــه وإنْ صَــدَرَتْ منه الألِيــّة بَـرَّتِ

ولا شك أن الإنســان إذا تعوّد كثرة الحلف فـإنه لا يستطيع المحـافظة على يمينـه ، ولذلك ربط الله عـز وجل بين وصف الرجل بكـونه مهينـا أي حقيرا وبين كثرة الحلف حيث يقول : ﴿ولا تُطِعْ كل حـلاّف مهين﴾ وقد أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنهم لا ينبغي لهم أن يحلفوا على ترك فعل الخير حتى لو حصلت لك إسـاءة ممن تفعل الخير معه فإنـه لا ينبغي لك أن تحلف على قطع الخير عنه وفي ذلك يقول الله عـز وجل : ﴿ولا يَأْتَلِ أُولُواْ الفضل منكم والسَّعَـة أن يؤتـوا أولي القـربى والمسـاكين والمهاجـرين في سبيل الله ولْيَعْفُـوا ولْيَصْفَحوا ، ألا تحبّون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم﴾ وقد نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنـه وقد كان ينفق على مِسْطَح بن أُثاثة لقـرابته وفقره فلما عَلِمَ أنـه كان ممن يتحـدث بحديث الإفك الـذي جاء بـه عدو الله رأس المنافقين عبـدالله بن أُبَيّ ابن سَلُـول حلف أبو بكـر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وقال : والله لا أنفق على مسطح شيئـا أبدا . فقـد روى البخاري من حديث الصـديقة بنت الصـديق حبيبة رسول الله ﷺ عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في قصة الإفك ونزول القرآن في براءتها قالت : فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصـديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منـه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذي قـال لعائشة مـا قـال ، فأنزل الله : ﴿ولا يـأتل أولواْ الفضـل منكم والسعة أن يـؤتـوا أولي القربى والمسـاكين والمهاجـرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحـوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحبّ أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مِسْطَح النفقـة التي كان ينفق عليـه وقال : والله لا أنزعهـا منه أبدا . اهــ وقولـه عـز وجل : ﴿والله سميع عليم﴾ أي والله عـز وجل سميع لأقوالكم عليم بنيّاتكم لا يخفى عليه شيء من شؤونكم وأحوالكم فراقبوا الله عز وجل في جميع أعمالكم .

قال تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولٰكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حليم﴾

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجعلوا الله عرضةً لأيمانهم أن يبرّوا ويتّقوا ويصلحوا بين الناس بيّن هنا أن الله عز وجل لا يؤاخذ المؤمنين باللّغو في أيمانهم ولكن يؤاخذهم بما كسبت قلوبهم، والأيمان جمع يمين وهو الحَلِف والقسم، والأيمان تنقسم بالنسبة للمحلوف به إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحوال فهو محظورٌ أبدا لا يحل لمسلم أن يتلفظ به مهما كان لأنه شرك بالله وهو الحَلِف بغير الله كالحلف بالنبي أو الوليّ أو الكعبة أو المَلَك أو المِلك أو الأب أو الأم أو الولد أو البلد أو غير ذلك من كل ما سوى الله عز وجل وقد سماه رسول الله ﷺ كفرا وشركا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في رَكْب وعمر يحلف بأبيه، فناداهم رسول الله ﷺ: «ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعت رسول الله ﷺ نهى عنها، لا ذاكرًا ولا آثِرًا. اهـ وقول عمر رضي الله عنه: لا ذاكرًا ولا آثرا، يعني لا أحلف أنا بها ولا أنقل عن غيري أنه حلف بها. كما روى مسلم من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم». كما روى الترمذي وحسّنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك. كما روى أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون». كما روى أبو داود بسند صحيح من حديث بُرَيْدة رضي الله عنه

أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بالأمانـة فليس منا» وقد حذرت الشريعة الإسلاميـة أشد التحـذير مـن الشرك ووسائلـه ، والشرك نوعـان: أكبر وهو الذي يُخْرج من المِلّة ومن مات عليه خُلّد في النار، وشرك أصغر وهو لا يُخْرج عن المِلّة، وصاحبـه لو مات عليه لا يُخلّد في النار لكنه داخـل في عموم قوله عز وجل: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفـر ما دون ذٰلك لمن يشاء﴾ ومن الشّرك الأصغـر الحَلِف بغير الله، وهـو أكبر من القتل والـزنـا وشرب الخمـر والسرقة لأن الله تعـالى لا يغفر الشرك إلا بتـوبة بخـلاف سائر المعـاصي التي دون الشرك فإنها تحت مشيئة الله إن شـاء عَذب عليهاو إن شاء عفـا عنها ولو بـدون توبـة من العـاصي، كما هو صريح الآيـة، أمَّـا قَسَم الله تبارك وتعـالى بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة والتنبيه على عظيم قدرته وجليل نعمته وعظمته فليس من هذا القبيل لأن الله تعالى لـه أن يُقْسِم بما شاء، ولا يدخل في شيء من القياس مع خَلْقـه تبارك وتعالى. وأمـا ما جاء في لفظ في إحـدى روايات حديـثٍ: «أفلح وأبيه إن صـدق» فقد قـال ابن عبد البر: هـذه اللفظة غير محفوظـة من وجه صحيح فقد رواه مالـك وغيره من الحفاظ فلم يقولوهـا فيه اهــ يعني لم يـذكـروا لفظة: وأبيـه، وإنما لفظـه: «أفلح إن صـدق»، وفي روايـة: «أفلح والله إن صـدق». قـال الحافظ ابن حجـر في فتح البـاري في كتاب الأيمان: وأما ما وقع مما يخالف ذلك كقـوله ﷺ للأعرابي: «أفلح وأبيه إن صـدق»، فقد تقـدم في أوائل هذا الشرح في بـاب الـزكاة من الإسـلام في كتـاب الإيمان الجواب عن ذلك وأن فيهم من طعن في صحـة هذه اللفظـة، قـال ابن عبـد البر: هذه اللفظـة غير محفـوظـة وقد جـاءت عن راويها وهـو إسماعيل بن جعفر بلفظ: «أفلح والله إن صدق»، قال: وهذا أولى مِن رواية مَن روى عنه بلفظ: أفلح وأبيـه، لأنها لفظة منكرة تردّهـا الآثار الصحاح، ولم يقع في رواية مالك أصـلا اهـ أما القِسْم الثاني من أقسـام اليمين بالنسبة

للمحلوف بـه فهو الحَلِف بـالله عز وجل بذاتـه المقدسـة أو باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول يمين اللغو والثاني اليمين المنعقـدة والثالث اليمين الغَمُوس ، أمـا يمين اللغو فهو ما يجري على اللسان من الحلف بغير قصـد القَسَم كقول الإنسان : لا والله ، بلى والله ، ممـا يجري على لسـان الإنسان بغير إرادتـه ولا يقصـد منـه اليمين ، وكذلك أن يحلف الإنسـان على شيء يظنّه كما قال والواقع بخلافـه كأن يرى شخصا قادمـا من بعيد فيظنّه محمدا مثلا فيقول لشخص معـه : هذا محمد ، فيقول له صـاحبه : لا ، هذا إبراهيم ، فيحلف بالله أنه محمـد بناء على غالب ظنه ، ثم يتبين أنه إبـراهيم فهذا كذلك من يمين اللغـو ، وقد روى البخاري عن عـائشـة رضي الله عنها في قـولـه تعـالى : ﴿لا يـؤاخذكم الله بـاللغـو في أيمانكم﴾ قالت : هـو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله . ومعنى قولـه تعالى : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم الله ولا يحمّلكم إثما ولا كفارة بما يقع منكم من الأيمان لغـوًا ، وأصل اللَّغْو واللَّغَا : ما لا يعتـدّ به من الكلام وغيره ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح : قال الراغب : هو في الأصل ما لا يعتـدّ به من الكلام ، والمراد بـه في الأيمان ما يورد من غير رَوِيّـة فيجري مجرى اللَّغَـاء وهو صـوت العصـافير اهـ أمّـا اليمين المنعقـدة فهي أن يحلف الإنسـان على شيء يفعلـه أو أن يحلف على شيء أن لا يفعلـه ، فإن حَنِث في يمينـه بأن فعل مـا حلف أن لا يفعلـه أو لم يفعل ما حلف أن يفعلـه ، فقـد أوجب الله عليـه الكفـارة ، وقـد ذكر الله تبـارك وتعـالى يمين اللغـو واليمين المنعقدة في كتابه الكريم هنـا وفي سورة المائدة حيث قال : ﴿لا يؤاخذكـم الله بـاللغو في أيمانكم ولٰكن يـؤاخذكـم بما عَقَّدتم الأيمانَ فكفـارتُه إطعـامُ عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكـم أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبة فمن لم يجد فصيام ثـلاثة أيام ذٰلك كفارة أيمانكم إذا حَلَفتم ، واحفظـوا أيمانكم ، كذٰلك

يبيّن الله لكم آياتـه لعلكم تشكرون﴾ وقوله عـز وجل في آية المائدة: ﴿ولّكن يؤاخذكم بما عَقَّدتم الأيمان﴾ يفسر قولـه عز وجل هنا: ﴿ولّكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فالقلب هو الملك الـذي تصدر الأقوال والأفعال عنه فإذا لم يعلم الإنسـان مـا يقـول لم يكن ذلك صـادرا عن القلب بل يجري مجرى اللغو، والشارع لم يرتب المؤاخـذة إلا بما اجتمع فيه كَسْب القلب وقَصْده مع عمل الجوارح. وهذا من فضل الله وإحسـانه وجوده أن لا يؤاخـذ الناس إلا بما كسبت قلـوبهم، وأن يعفو عما وقع منهـم من اللغو في أيمانهم، أمـا يمين الغَموس فهي أن يحلف الإنسـان كاذبـا، ولا يكون إلا على شيء مضى كأن يحلف على شيء أنه ما فعله وهو قد فعله أو أن يحلف على شيء أنه فعله وهو لم يفعله. وسميت هـذه اليمين الكاذبة الفاجـرة يمين الغَموس لأنها تَغْمِس صـاحبها في نـار جهنم، وهي لا كفارة لها إلا النـار أو عَفْو الجبـار، وتُسمّى أيضا اليمين الصّبر واليمين الفـاجرة، واليمين الكاذبـة واليمين الزور، وهي من أكبر الكبائر فقد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال: «من حلف على مال امـرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبـان» قال: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصـداقه من كتاب الله عز وجل: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنـا قليلا﴾ إلى آخر الآية. كما روى مسلم من حديث أبي أمامة إياس بن ثعلبة الحارثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «من اقتطع حقّ امـرئ مسلم بيمينه فقد أوجـب الله له النار وحـرّم عليه الجنة». فقـال له رجل: وإن كان شيئـا يسيرا؟ قال: «وإن كان قضيبا مِن أراكٍ». كما روى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «الكبـائر: الإشراك بالله وعقوق الـوالدين وقتل النفس واليمين الغَموس». وفي روايـة له أن أعرابيا جـاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله مـا الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قـال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين

الغموس»، قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقتطع مال امرئ مسلم» يعني بيمين هو فيها كاذب. اهـ ومع أن اليمين الغموس من أكبر الكبائر فإنها أصغر من الحَلِف بغير الله لأنه شرك بالله. ولا شك أن اليمين الغموس تدع الديار بَلاقِع وقد جرت العادة أن الله يعجّل بهلاك أصحاب اليمين الغموس، فقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن أول قَسَامة كانت في الجاهلية لفينا بني هاشم، كان رجل من بني هاشم، استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى فانطلق معه في إبله فمر رجل به من بني هاشم قد انقطعت عُرْوة جُوَالقه، فقال: أَغِثْني بعِقال أشدّ به عروة جُوالقي، لا تَنْفر الإبل، فأعطاه عِقالا فشدّ به عروة جُوالقه فلما نزلوا عُقِلَت الإبل إلا بعيرا واحدا، فقال الذي استأجره: ما شأن هذا البعير لم يُعْقَلْ من بين الإبل؟ قال: ليس له عِقال، قال: فأين عقاله؟ قال: فحذفه بعصا كان فيها أجله، فمرّ به رجل من أهل اليمن، فقال: أتشهد الموسم؟ قال: ما أشهد، وربما شهدته، قال: هل أنت مُبْلِغٌ عني رسالةً مرةً من الدهر؟ قال: نعم. قال: فكنت إذا أنت شهدت الموسم فناد: يا آل قريش، فإذا أجابوك فناد: يا آل بني هاشم، فإن أجابوك فسل عن أبي طالب فأخبره أنّ فلانا قتلني في عِقال، ومات المستأجَر، فلما قدم الذي استأجره أتاه أبو طالب فقال: ما فعل صاحبنا؟ قال: مرض فأحسنت القيام عليه فَوِليتُ دَفْنَه، قال: قد كان أهل ذاك منك، فمكث حينا، ثم إن الرجل الذي أوصى إليه أن يُبْلِغَ عنه وافى الموسم، فقال: يا آل قريش، قالوا: هذه قريش، قال: يا آل بني هاشم، قالوا: هذه بنو هاشم. قال: أين أبو طالب؟ قالوا: هذا أبو طالب. قال: أمرني فلان أن أبلغك رسالة، أنّ فلانا قتله في عِقال. فأتاه أبو طالب فقال له: اختر مِنّا إحدى ثلاث، إن شئت أن تؤدّي مائة من الإبل فإنك قتلتَ صاحبنا، وإن شئت حلف

خمسون من قـومك إنك لم تقتله، فإن أبيتَ قتلنـاك به ، فأتى قـومه فقـالوا : نحلف، فأتتـه امـرأة من بني هـاشم كانـت تحت رجل منهم قد ولـدت لـه فقالت : يا أبا طـالب أُحب أن تُجيز ابني هذا برجل من الخمسين، ولا تصبر يمينه حيث تُصْبَر الأيمان ففعل، فأتاه رجل منهم فقال : يا أبا طالب، أردتَ خمسين رجلا أن يحلفوا مكـان مائة من الإبل يصيب كلَّ رجل بعيران، هذان بعيران فـاقبلهما عني ولا تصبر يميني حيث تُصْبَر الأيمان، فقبلهما، وجـاء ثمانية وأربعون فحلفـوا . قال ابن عباس : فوالذي نفسي بيـده ما حال الحول ومن الثمانيـة والأربعين عينٌ تَطْرِف . اهـ وتذييل الآيـة الكـريمـة بقولـه عـز وجل : ﴿والله غفور حليم﴾ لتقريـر مضمون قوله عـز وجل : ﴿لا يؤاخذكم الله بـاللغو في أيمانكم﴾ مع إفـادة أن مغفرة الله وحلمـه هي أساس صفحه عنكم وتـرك مؤاخذتكـم باللغو في أيمانكم، وقبـول الكفارة فيما عَقَّـدتم من الأيمان تيسيرا في التشريع ورفعا للإصْر و الأغلال عنكم .

قال تعالى: ﴿للـذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعـة أشهرٍ فإن فاءُوا فإنّ الله غفور رحيم* وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم﴾ .

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين أن يجعلـوا الله عرضة لأيمانهم أن يبرّوا ويتقوا ويصلحـوا بين الناس، وبيّن أنـه لا يؤاخـذ المؤمنين باللغـو في أيمانهم وإنما يؤاخـذهم بما كسبت قلوبهم، ذكر هنا نـوعا خاصا من الأيمان وهـو ما كان أهل الجاهلية يحلفون فيه على عدم قـربان نسائهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿للذين يُؤْلُون من نسائهم تَـرَبُّص أربعة أشهر﴾ والإيلاء في اللغة مشتق من الأَلِيَّة وهي اليمين، والجمع أَلايا على وزن عَطَايا كما قال كُثَيِّر:

قليـل الألايـا حافـظ ليميـنه   فإن سَـبَقَتْ منه الأَلِيَّـة بَرَّتِ

وكما قال الشاعر:

فآليت لا أنفك أَحْذُو قصـيدة   تكون وإياها بها مثَـلا بعـدي

وكما قال الأعشى :

فآليت لا أَرْثِي لها من كَـلاَلـة   ولا من حفًى حتى تلاقي محمدا

ومنه الحديث: آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهرا. أي حلف على اعتزالهن وعـدم الدخـول عليهن لمدة شهـر. أمـا الإيلاء في الاصطـلاح الشرعي فهـو الحَلِف على ترك قربان الزوجة مدة تزيد على أربعة أشهر، وقد كان الإيلاء في الجاهلية لونا من ألـوان الأذى والإضرار بالمرأة حيث يحلف عليها الزوج أن لا يَمَسَّهـا لمدة قد تصل إلى السنـة والسنتين فـرفع الإسلام عن المرأة هـذا الأذى حيث ضرب للـرجل المؤلي أجلا هـو أربعة أشهـر إن رجع في أثنائهـا وقارف زوجتـه فليس عليـه سـوى كفـارة يمين ويستغفـر الله، وإن لم يَقْـرَبْها حتى مضت أربعة أشهر اعتُبِرَ عازما على الطلاق وأُلْزِم به. ولا يحل له بعد الأربعة الأشهر إلا أن يُمْسِك بمعروف أو يفارق بإحسـان. فرفع الإسلام بهذا الحكم

عبئـا ثقيلا كـانت تنوء بـه المرأة في الجاهلية ويُسَخِّـره الرجـال في العبث بهن والنّيل منهن، فلله الحمـد وله الشكر، قال البيهقي: أخبرنـا أبو الحسين بن بشران ببغداد، أنا أبو جعفر محمد بن عمـرو الرزاز، نا محمد بن عبيد الله بن المنادي، نا يـونس بن محمد، نا الحارث بن عبيد، نا عـامر عن عطاء بن أبي ربـاح، عن عبـد الله بن عبـاس رضي الله عنهما ح وأخبرنـا أبـو الحسين بن الفضل القطان ببغداد، نا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عَمْرَوَيْه الصفار، نا محمد بن إسحاق الصغاني، نـا موسى بن إسماعيل، نا الحارث (بن عبيد) أبو قدامة حدثني عامـر الأحول حدثني عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقّت الله عز وجل لهم أربعة أشهر، فإن كان إيلاؤه، (وفي رواية يونس: فمن كان إيلاؤه) أقلّ من أربعـة أشهر فليس بإيـلاء اهـ وقولـه في الحديث: كان إيـلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، أي كـان الرجل في الجاهلية قبل أن تشرق شمس الإسـلام إذا أراد أن يلحق الأذى والإهـانـة والإضرار بـزوجتـه حَلَف أن لا يَقْرَبَها مـدة طويلة قد يصل بها إلى سنـة وقد يصل بها إلى سنتين وقد يصل بها إلى أكثر من ذلك إمعـانا في الأذى و إغراقا في الإهانـة، وقوله: فوقّت الله عز وجل لهم أربعة أشهر، أي فجعل الله تبارك وتعالى للمؤلين من نسائهم وقتا محدّدا هـو أربعة أشهر يُوقَفُ بعـدها المؤْلي حتى يفيء إلى زوجته أو يطلّقها، وقد جاء ذلك التوقيت في قوله تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ وقولـه في الحديث: فإن كان إيلاؤه أقلّ من أربعة أشهر فليس بإيـلاء، أي فإن كان حلف أن لا يقـرب زوجتـه مدّة تقل عن أربعـة أشهـر فلا سبيل لأحـد عليه؛ لأن المرأة قـد تتحمل ذلك بلا كبير ضرر فـلا يعتبر ذلك إيلاء بالمعنى الـذي ذكرته الآية الكريمة، لأن الآيـة ذكرت الإيلاء بـالمعنى الشرعي لا بـالمعنى اللغـوي الـذي هـو مطلق الحَلِف. وقـد قـال

الشافعي رحمه الله : أنا ابن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار قال : أدركت بضعة عشر من الصحابة أي من أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم يقول : يُوقَفُ المؤلي . قال الشافعي رحمه الله : فأقل بضعة عشر أن يكونوا ثلاثة عشر اهـ وقد قال البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ إلى قوله : ﴿سميع عليم﴾ فإن فاءوا : رجعوا . ثم ساق من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : آلى رسول الله ﷺ من نسائه ، وكانت انفكت رجله ، فأقام في مَشْرُبة له تسعا وعشرين ثم نزل ، فقالوا : يا رسول الله آليْتَ شهرا؟ فقال : «الشهر تسع وعشرون» . ثم ساق البخاري من طريق نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول في الإيلاء الذي سمّى الله تعالى : لا يحلّ لأحد بعد الأجل إلا أن يُمْسك بالمعروف أو يعزم بالطلاق كما أمر الله عز وجل . ثم ساق البخاري من طريق نافع أيضا عن ابن عمر: إذا مضت أربعة أشهر يُوقَف حتى يطلّق ، ولا يقع عليه الطلاق حتى يطلّق ، ثم قال البخاري : ويذكر ذلك عن عثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة واثني عشر رجلا من أصحاب النبي ﷺ . اهـ وقوله في حديث أنس : وكانت انفكت رجله ، أي بسبب سقوطه ﷺ عن الفرس وقد صلى بأصحابه جالسا ، ومن العجيب إيراد البخاري رحمه الله حديث أنس رضي الله عنه تحت قوله تعالى : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر﴾ لأن حديث أنس ليس الإيلاء فيه من قبيل الإيلاء الاصطلاحي الشرعيّ بل هو من قبيل الإيلاء اللغوي إذ أن رسول الله ﷺ لم يحلف على أن لا يَقْرَب نساءه بالمعنى الشرعي للإيلاء ، بل المراد هو الحلف مطلقا دون إرادة عدم مباشرتهن وقربانهن ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري : وأنكر شيخنا في (التدريب) إدخال هذا الحديث في هذا الباب فقال : الإيلاء المعقود له الباب حرام يأثم به من علم بحاله فلا تجوز نسبته للنبي ﷺ

اهـ وقـد جاء في حديث البخـاري ومسلم قصة اعتزال رسـول الله ﷺ نساءه لمدة شهر وأنّ ذلك كان لمَوْجِـدَة عليهن بسبب تَحَزُّبِهِن وتظاهر بعضهن على سائر نساء رسول الله ﷺ وإكثارِهن من سؤاله النفقة، ولم يثبت أن رسول الله ﷺ حرّم نساءه على نفسه قط، والصحيح الثـابت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يـا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مـرضات أزواجك، والله غفـور رحيم﴾ هـو أن رسول الله ﷺ قـد حـرّم على نفسه العسل بسبب قـول بعض نسائه رضي الله عنهن لـه ﷺ: أكلت مغافير، وكان يكره أن يوجـد منه ريح غير محبوبة ﷺ والمعروف في ريح المغافير أنها شبيهـة بريح الخمر وكان رسول الله ﷺ قد شرب عسلا عنـد بعض نسائه فغارت بعض زوجاتـه، وقُلْن هذه المقالة حتى لا يشرب عسلا عند التي كـانت تسقيه هذا العسل من نسائه كما هو ثـابت في الصحيحين من حديث عـائشة رضي الله عنها. وتحديـد أربعة أشهر للـذين يؤلون من نسـائهم تشريع الحكيم العليم الذي يعطي كلّ ذي حق حقّه، إذ أن هذه الأشهـر الأربعة قد عُرِف من عـادة النساء أن المرأة قد تصل في صبرها على زوجها إلى هـذه المدة دون أن يلحقها كبير ضرر، ويقف عنـدهـا صبر المرأة غـالبـا، كما أن من حق الـرجل أن يـؤدب زوجتـه بهجـر مضجعها كما قال عز وجل: ﴿واللاّتي تخافون نشوزهنّ فعظوهن واهجروهن في المضـاجع واضربوهن فإن أطعنكم فـلا تبغـوا عليهن سبيلا، إن الله كـان عليّا كبيرا﴾ وقـد جعل الله تبارك وتعـالى الحد الأقصى للهجر أربعـة أشهر، فرض عليه بعـدها الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسـان، وقد روى مالك في الموطأ عن عبـد الله بن دينـار قـال: خـرج عمـر بن الخطـاب من الليل، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسوَدَّ جانِبُه ... وأرّقَنـي ألاّ خـليـل أُلاعِبـه

فوالله لـولا الله أني أُراقبـه ... لحُرّك من هذا السريـر جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت : ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر رضي الله عنه : لا أحبس أحدا من الجيش أكثر من ذلك . وقد ذكر القرطبي في قصة عمر رضي الله عنه وسماعه لشعر هذه المرأة أنه لما كان من الغد استدعى عمر بتلك المرأة وقال لها : أين زوجك؟ قالت : بعثتَ به إلى العراق ، فاستدعى نساء فسألهن عن المرأة : كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن : شهرين ، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر، وينفد صبرها في أربعة أشهر. فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر. اهـ وقد يستفاد ذلك من قوله عز وجل : ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ أي جُعِل للذين يحلفون بالله عز وجل على عدم قربان نسائهم انتظار أربعة أشهر توسعة عليهم هذه المدة ، وقوله عز وجل : ﴿فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾ أي فإن رجعوا عن يمينهم وقارفوا نساءهم في مدة التربّص واختاروا طريق البرّ وكفّروا عن يمينهم استرشادا بقول رسول الله ﷺ : «من حلف على يمين ورأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه» كما مرّ في تفسير قوله عز وجل : ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ فإنّ من فاء من الأزواج الذين يؤلون من نسائهم بهذه المثابة فإن الله عز وجل غفور رحيم ، يغفر له زلاته ويتجاوز له عن هفواته وهو رحيم بعباده ، ولذلك شرع لهم هذا الشرع الحكيم الذي يجلب لهم سعادة الدارين ، وقد اشتمل على الرحمة والإحسان للزوجة والزوج جميعا . وقوله عز وجل : ﴿ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم﴾ أي وإن قصدوا الطلاق وأصروا على عدم قربان نسائهم بعد مدة التّربّص المحدّدة بأربعة أشهر وجب على الحاكم الشرعي إيقافه وسِجْنه حتى يُجبَرَ إما على الإمساك بمعروف ومباشرة زوجته وإما على التسريح بإحسان وإلزامِه بالطلاق ، فإن امتنع عن الطلاق في هذه الحالة طلّق عليه الحاكم طلقة واحدة . وبهذا تحفظ الشريعة الإسلامية للمرأة حقّها ولا تهضم

حقّ الرجل لكنها تمنعه من التعسف والجور في حق زوجته، ولا شك أن هذا النظام الذي شرعه الله عـز وجل هو أكمل الأنظمة في كل شيء، ولعل نساء المسلمين يشكرن الله عز وجل على هذه النعمة الجليلة التي صان بها كرامتهن ودفع الأذى بها عنهن، وليس في قولـه عز وجل: ﴿وإن عزموا الطـلاق﴾ ما يفيد أن مجرد نية الطـلاق تكون طلاقا، إذ أن المراد هـو أنه إذا أصر المؤلي على عدم الفيئة كان قصده الإضرار بالمرأة فَيُجْبَرُ إما على الفيئة وإما على الطلاق، فإذا قصد الطلاق وصمَّم عليه وطلّق فإن الله لا تخفى عليـه خافية منه أو من غيره، والإسلام لا يعتبر نيّـة الطلاق طلاقـا، فلا يقع الطلاق بمجـرد العزم عليه ونيتـه بل لا بد من التلفظ بـه وهذا من دفع الإصْـر عن المسلمين، أما عند اليهود فإنه متى نوى اليهودي الطـلاق حرمت عليه امرأته بمجرد النية، ووجب عليـه تنفيذ مـا عزم عليـه في الحال. والطلاق في اللغـة هو الإرسـال والتخلية، وفي الاصطلاح هو حَلّ عقدة النكاح وفكّ رابطة الزوجية. ونظام الطلاق في الإسـلام لا نظير له عند جميع الأمم فهـو أعدلها وأدقها وأوفـاها، حيث كـان اليهـود يطلقـون لعذر ولغير عـذر، كما أن الطـلاق مشروع عنـد النصارى وإن كـانوا اقتصروا في إباحتـه على علة الـزنا واستباحـوه في عصرنا لأتفه الأسباب، وكان أهل الجاهلية لا يقفون عند حدّ في الطلاق، فجاءت شريعة الإسـلام وحددت حق الرجل بثلاث تطليقـات، وحضته على الصبر على مـا قـد يكـره من زوجتـــه، وأوصت بالإصـــلاح عنـد النـزاع بين الـزوجين. والمسْتَقْرئ لـوصـايا الإسـلام في هـذا الباب يعلم أن الطـلاق في الإسلام ليس من الأمـور المحبوبة وأنه عنـدما تسوء العلاقـة بين الزوجين إلى حـد يتعذر الصلح فيـه يصبح الطـلاق من مقتضيـات الفطرة للخـروج من نحس الدنيا ونكدها على حد قول الشاعر:

ومِن نكَد الدنيا على الحُر أن يَرى عـدوًّا له مـا مِـنْ صداقته بُـدّ

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِن سَعَتِه﴾.

قال تعـالى : ﴿والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثـة قروء، ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحـامهن إن كنّ يؤمنّ بـالله واليوم الآخـر، وبعولتهن أحق بردّهن في ذلك إن أرادوا إصـلاحا، ولهنّ مثل الذي عليهن بـالمعروف، وللرجال عليهن درجةٌ، والله عزيز حكيم﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل حكم الإيلاء ومـا أوجبه فيه على الزوج من الفيئة إلى قُربان زوجته أو إلزامه بالطلاق شرع يبيّن أحكام الطلاق، وبدأها بإيجاب العدة على الـزوجة، حيث قـال عز وجل : ﴿والمطلقـات يتربّصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء﴾ ولا شك أن الرجل لو قـال لامرأة قبل أن يتزوّجها : أنت طالق، ثم تزوجهـا، فلا عبرة بطلاقـه هذا ولا عـدة عليها من هذا الطـلاق الباطل بإجماع أهل العلم، وإذا طلّق الرجل زوجته التي لم يدخل بها فلا عدة عليها كـذلك لقولـه تبـارك وتعالى : ﴿يـا أيها الـذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنـات ثم طلقتموهنّ من قبل أن تمسّـوهنّ فما لكم عليهنّ من عِدّة تَعْتَـدُّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهن سراحا جميلا﴾ أما إذا كانـت المطلقة مدخولا بها فهي إما أن تكون حائلا أو حاملا، فإن كانت حاملا فعدّتها بوضع الحمل لقوله تبارك وتعالى : ﴿وأُولاتُ الأحمال أجلُهن أن يضَعْن حَمْلَهن﴾ وأمـا إذا كانت المطلقـة حائلا فإما أن تكون من ذوات الحيض، وإما أن تكون ممن لا تحيض، إمّا لصِغَرِها وكونها لم تبلغ، وإما لكونها قد تقدمت بها السّن ويئست من المحيض، فإذا كانت المطلقة لا تحيض إما لصِغَر وإما لكِبَر فعدتها بالأشهر لا بالأقراء لقوله تبارك وتعـالى : ﴿واللائي يَئِسْن من المحيض من نسـائكم إن ارتبتم فعِدَّتهن ثـلاثة أشهـر واللائي لم يَحِضْـن﴾ أي واللائي لم يحضـن أصـلا لصغـر أو لمرض فعِدّتهن ثلاثة أشهر كذلك كـاليائسة، وإذا كانت المطلقة المدخول بها أمةً من ذوات الحيض فعدتها حيضتان، وإذا كانت حرّة فعدتها ثلاثة قروء،

وهي المرادة بقوله تبارك وتعالى هنا: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قُرُوء﴾ ومعنى: ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ أي تنتظر إحداهن بعد طلاقها من زوجها ثلاثة قروء لا يحل لها أن تتزوج في مدة هذه القروء الثلاثة، وأسند التربص والانتظار لهن لأنهن هُنّ اللائي يعلمن قروءهنّ متى تجيء ومتى تنتهي، والمعنى: فعليهن عدّة من الطلاق مقدارها ثلاثة قروء لا يحل لهن فيها الزواج من غير المطَلِّقين لهنّ، ولفظ القُرْء من الأضداد، فالعرب يستعملونه بمعنى الحيض ويستعملونه بمعنى الطُّهْر، والسياق هو الذي يحدد المراد، فإن من سمع قول الأعشى ميمون بن قيس:

وفي كل عام أنتَ جاشمُ غزوةٍ　　تشدّ لأقصاها عزيم عزائكا
مُورِّثةٍ مالاً وفي الذكر رِفْعة　　لما ضاع فيها من قروء نسائكا

علم يقينا أن الأعشى يريد بالقروء في شعره هذا الأطهار، لأنه يمدح هَوْذة بن علي الحنفي الذي آثر الغزو على القعود حتى ضاعت أيام الطّهر من نسائه، كما أن من سمع قول الله عز وجل: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر﴾ علم أن الله عز وجل أقام الأشهر الثلاث مقام الحيضات الثلاث عند اليائسات من المحيض، ولما كان الغرض من العِدَّة هو استبراء الرحِم، واستبراؤه إنما يكون بالحيض لا بالطهر، كان ذلك دليلا ظاهرا على أن المراد بالقروء في قوله عز وجل: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ أي ثلاث حيض، وهذا بخلاف من تعتد بالأشهر فإن الرجال والنساء في علمه سواء. وقوله عز وجل: ﴿ ولا يحل لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كُنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ فيه إشعار بأن المرأة جُعِلَتْ أمينة على عدتها، لأن انقضاء العدة مبني على انقضاء القروء الثلاثة في حق ذوات الأقراء، وعلى وضع الحمل في حق الحامل، وقد يخفى على الرجال علم ذلك بل يتعذر الوصول

إليه من طريق الرجال غالبا، وإنما المرأة هي الخبيرة به لذلك جُعِلَتْ أمينة فيه مع تخويفها من الله عز وجل بقوله: ﴿إن كُن يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ كما قال عز وجل: ﴿فإن أَمِنَ بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتق اللهَ ربَّه﴾ وكما قال عز وجل في حق مريم: ﴿فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها رُوحَنا فتمثّل لها بَشَرا سويا* قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا﴾. والذي يمكن أن تكتمه المرأة مما خلق الله في رحمها يشمل دم الحيض كما يشمل الحمل، إذ قد تكون لها مصلحة في كتمان شيء من ذلك، قال الفخر الرازي: أما كتمان الحبل فإنّ غرضها فيه أنّ انقضاء عدّتها بالقروء أقلّ زمانا من انقضاء عدتها بوضع الحمل فإذا كتمت الحَبَل قصّرت مدة عدتها فتتزوج بسرعة، وربما كرهت مراجعة الزوج الأول وربما أحبت التزوج بزوج آخر أو أحبت أن يلتحق ولدها بالزوج الثاني فلهذه الأغراض تكتم الحَبَلَ، وأما كتمان الحيض فغرضها فيه أن المرأة إذا طلقها الزوج وهي من ذوات الأقراء فقد تحبّ تطويل عدتها لكي يراجعها الزوج الأول، وقد تحبّ تقصير عدّتها لتبطيل رجعته، ولا يتمّ لها ذلك إلا بكتمان بعض الحيض في بعض الأوقات، لأنها إذا حاضت أولا فكتمته ثم أظهرت عند الحيضة الثانية أن ذلك أوّل حيضتها فقد طوّلت العدة، وإذا كتمت أن الحيضة الثالثة وُجِدَتْ فكَمِثْلِ، وإذا كتمت أن حيضها باقٍ فقد قطعت الرجعة على زوجها فثبت أنه كما أنّ لها غرضا في كتمان الحَبَل فكذلك في كتمان الحيض فوجب حمل النّهي على مجموع الأمرين. اهـ فمعنى: ﴿ولا يحلّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي ولا يجوز للمرأة أن تخفي شيئا مما أوجد الله تبارك وتعالى في رحمها من حيض أو ولد، والأرحام جمع رَحِم وهو بيت مَنْبِت الولد ووعاؤه، ولا شك أن الحيض دم يخرج من الرحم، كما أن الولد يخرج منه، وقوله عز وجل: ﴿إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر﴾ هو تهديد ووعيد شديد

لمن تكتم من النساء شيئـا مما خلق الله في رحمهـا لتتلاعب بعِـدَّتها كما تشاء، وكأنه يقول: إن المؤمنة بالله واليوم الآخر لا تكتم شيئا مما خلق الله في رحمها، وليس المراد أن ذلك النهي مشروط بكـونها مـؤمنـة. وقـولـه عـز وجل: ﴿وبعولتهن أحق بردّهن في ذٰلك إن أرادوا إصلاحا﴾ البُعُولة جمع بَعْل والمراد به هنـا الزوج، إذ البعل في الأصل يستعمل في الأرض المرتفعة تمطـر في السنة مـرّة، وكل نخل وشجـر وزرع لا يُسْقَى، أو مـا سقته السماء، والـذّكَـر من النخل، والسيـد والـزوج، وقـد أجمع علماء المسلمين على أن الحرّ إذا طلّق زوجته الحرة تطليقـة أو تطليقتين طلاقا رجعيًّـا وكان قـد دخل بها فهو أحقّ برجعتها ما لم تنقض عدتها، سواء كـانت راضية أو كارهة ولا يحتاج إلى عقد جديد أو مهر جديد أو وليّ، فإن لم يراجعها المطلّق حتى انقضت عدّتها فهي أحقّ بنفسها وتصير أجنبيـة منه، لا تحل له إلا برضـاها وبعقد جديـد ومهر جديد ولا بـد في ذلك من الولي، قال القرطبي: وهـذا إجماع من العلماء قال المهلب: وكلّ من راجع في العدة فإنـه لا يلزمه شيء من أحكـام النكاح غير الإشهاد على المراجعـة فقط وهذا إجماع من العلماء لقولـه تعالى: ﴿فإذا بلغن أجَلَهن فأمسكـوهنّ بمعـروف أو فـارقوهـن بمعروف وأشهـدوا ذَوَيْ عَـدْلٍ منكم﴾ فذكـر الإشهاد في الرجعـة ولم يذكره في النكاح ولا في الطـلاق. قال ابن المنذر: وفيما ذكـرناه من كتاب الله مع إجماع أهل العلم كفايـة اهـ ومعنى قوله عز وجل في آية سورة الطلاق: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي قارَبْنَ انقضاء عـدّتهن وهـو شبيـه بقـولـه تعـالى: ﴿وإذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعـروف﴾ فقد أجمع العلماء على أن قوله: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قـاربن الخروج من عـدّتهن، إذ بعـد بلـوغ الأجل والخروج من العدة لا خيار للزوج في الإمسـاك، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿وبُعـولَتُهن أحق بِـرَدِّهن في ذٰلك﴾ يشمل بعمـومـه مـراجعَتَهـا في العـدة

ومراجعَتَها بعد انقضاء العدة، وقد علمت أن الإجماع منعقد على أنه لا يملك عليها حقّ الرجعة بعد انقضاء العدة، فيكون هذا العموم مرادًا به الخصوص وهو أحقيته في رجعتها قبل انقضاء عدتها، على أن قوله تبارك وتعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ يشمل المطلقة ثلاثا ويشمل ما دون الثلاث بلا خلاف عند أهل العلم. وقوله تعالى: ﴿إن أرادوا إصلاحا﴾ أي وللأزواج حقّ الرجعة على زوجاتهم المطلقات ما دُمْن في العدّة وما دام الرجل يريد من رجعتها الإصلاح ودفع الضرر عنها، وقد أراد الله عز وجل بذلك لفت انتباه الناس إلى ما كانت تقاسيه المرأة في الجاهلية حيث كان الرجل إذا أراد الإضرار بالمرأة طلقها فإذا قاربت عدّتها على الانتهاء راجعها ثم طلقها مرة ثانية فإذا أوشكت العدة من الطلاق الثاني على الانتهاء راجعها قبل أن تنتهي العدة واستأنف طلاقا ثالثا فإذا أوشكت عدتها من الطلاق الثالث على الانتهاء راجعها واستأنف طلاقا رابعا، فإذا أوشكت عدتها من الطلاق الرابع على الانتهاء راجعها واستأنف طلاقا خامسا وهكذا ولو بلغ مئات المرات فتصير كالمعلقة لا يطلقها فتبتغي الأزواج ولا يؤويها كذوات الأزواج. فأكّد الله تبارك وتعالى على الأزواج الذين طلقوا نساءهم وأرادوا الرجعة قبل انقضاء العدة أنه إنما يحل لهم ذلك إن أرادوا إصلاحا ورغبوا في إقامة بيت الزوجية السعيد، أما إذا كان مرادهم الإضرار بالزوجة والتنكيل بها فإن ذلك يوقع مَن فعله في الذنب والإثم والمعصية، وإن كان له الحق في ذلك قضاء لأن ما في قلبه من النية السيئة لا يَطَّلع عليه إلا الله عز وجل، ولذلك أكّد الله تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله: ﴿ولا تمسكوهن ضِرارًا لتعتدوا﴾. وقوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ يفيد أن للنساء على أزواجهن حقوقا وأن للأزواج على زوجاتهم حقوقا بالمعروف، وأن للرجال على النساء درجة، وقد

بين رسول الله ﷺ ما للرجل على المرأة وما للمرأة على الرجل فقد روى الترمذي وصححه من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقّكم على نسائكم فلا يوطئن فُرُشَكم من تكرهون، ولا يأذَنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقّهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن». كما روى أبو داود والنسائي بسند حسن عن معاوية القُشَيْري رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله ما حقّ زوجة أحدنا عليه؟ قال: «تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «استوصوا بالنساء خيرا» الحديث. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر». كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فُرُشَكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهنّ بالمعروف». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان، لعنتها الملائكة حتى تصبح». وقد جعل الله عز وجل للرجال على النساء درجة وهي كونه قوّامًا عليها كما قال عز وجل: ﴿الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضَهم على بعض وبما أَنفقوا من أموالهم﴾، وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ لتربية خوف الله في قلوب الرجال والنساء ليؤدي كل واحد ما عليه من الحق خوفا من الله ورجاءَ ما عنده من المثوبة.

قال تعالى: ﴿ الطـلاق مرّتان فإمساك بمعـروف أو تسريح بإحسان، ولا يحلّ لكم أن تأخـذوا مما آتيتمـوهن شيئـا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حـدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حـدود الله فلا جناح عليهما فيما افتـدت به، تلـك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾

لقـد وضع الإسـلام للمسلمين أكمل المنـاهج في شئـون الحياة الـزوجيـة وغيرها، وقد أقرت الشريعة الإسلامية مبدأ الطلاق إلا أنها وضعت لهذا المبدأ قيـودا تحدّ من استعمالـه والاستهتـار به، فقـد قسمت الشريعـة الإسـلاميـة الطلاق إلى قسمين: طـلاق السنة وطلاق البـدعة، فطـلاق السّنة أن يطلّق الـرجل امرأتـه في طهـر لم يَمْسَسْها فيـه أو أن تكون حـامـلا تطليقة واحـدة رجعية، ثم لا يتبعها بطلاق آخر، حتى تنقضي عدّتها، وله الحق في رجعتها متى شاء قبل أن تنقضي عـدّتها، وإنما سمّي هذا الطلاق طلاق السنـة لأنه الطلاق الذي يـوافق أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ، أمـا أمر الله عز وجل بـذلك فهو قـوله تبـارك وتعالى: ﴿ يـاأيها النبي إذا طلّقتم النساء فطلّقـوهن لعـدّتهن وأحصـوا العـدّة﴾ وقد فسّر هـذه الآيـة رسـول الله ﷺ وبينهـا بأن المقصود منهـا هو أن يطلّق الرجل امـرأته في طهر لم يمسسها فيـه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديـث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلّق امرأة لـه وهي حائض فذكر عمر لرسـول الله ﷺ، فتغيّظ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليراجعها ثم يمسكهـا حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلّقهـا فليطلّقها طاهرا قبل أن يمسّهـا، فتلك العدّة التي أمر الله أن تطلّق لها النساء» وفي رواية: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا» وفي روايـة لمسلم من طريق أبي الـزّبير أنه سمع عبـد الرحمن بن أيمن (مـولى عزة) يسأل ابن عمر وأبو الـزبير يسمع ذلك: كيف ترى في رجل طلّق امرأته

حائضا؟ فقال: طلّق ابن عمر امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فقال له النبي ﷺ: «ليراجعها»، فردّها، وقال، : «إذا طهرت فليطلّق أو ليمسك»، قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلّقوهن في قُبُل عدّتهن﴾ اهـ أما طلاق البدعة فهو أن يطلق الرجل امرأته وهي حائض أو يطلّقها في طهر مسّها فيه، أو يجمع لها تطليقتين أو ثلاثا في لفظ واحد، فمن طلّق طلاق البدعة عصى الله وعصى رسوله ﷺ ووقع عليه الطلاق كما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، فكان من العوائق التي جعلها الإسلام في طريق الطلاق أنه جعل طلاق السنة لا يكون إلا في طهر لم يمسّ الرجل زوجته فيه وقد قيّده بذلك، لأنه وقت تتجدد فيه الرغبة في مقارفة الزوجة وتميل إليها نفسه، فتضعف الرغبة في الطلاق، وقد تتغير عزيمته، ويثبّت عتبته، وكما ضيّق الإسلام الزمن الذي يسن فيه للرجل الطلاق فقد ضيّق عدد التطليقات التي منحها للزوج حيث كان قبل الإسلام لا حدّ لعدد التطليقات حتى لو طلق الرجل امرأته مائة مرة فلا بأس عليه عندهم، فجعل الإسلام الحد الأقصى الذي يباح للرجل هو ثلاث تطليقات، وله أن يردّها بعد تطليقة واحدة أو تطليقتين ما دام الطلاق رجعيا، وحتى لو انقضت عدتها فله أن يردّها برضاها بمهر جديد وعقد جديد، أما إذا أوقع عليها الطلقة الثالثة فإنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، وكان هذا من أكبر الكوابح التي تكبح جماح الرجل عن الطلاق الثلاث، وقوله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان﴾ أي عدد الطلاق المباح للزوج على زوجته والذي يمكنه فيه أن يردها دون أن تحتاج إلى الزواج من زوج آخر هو مرّتان، فإن طلقها التطليقة الثالثة فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره، وقد بينت السنة كيفية إيقاع الطلاق على الوجه المشروع

المسنون، لكنه لو خالف السنة وطلقها تطليقتين في لفظ واحد أو طلقها ثلاثا في لفظ واحد أو طلقها وهي حائض فإنّ طلاقه يقع و إن كان عاصيا آثما، فقد جاء في لفظ للبخاري من طريق شعبة عن أنس بن سيرين قال: سمعت ابن عمر قال: طلق ابن عمر امرأته وهي حائض، فذكر عمر للنبي ﷺ، فقال: «ليراجعها». قلت: تُحْتَسَب؟ قال: «فَمَهْ؟» وعن قتادة عن يونس بن جُبَيْر عن ابن عمر: قال: «مُرْه فليراجعها» قلت: تحتسب، قال: «أرأيت إن عجز واستحمق؟» وقال أبو معمر: حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عمر قال: حسبت عليّ تطليقة اهـ وقد ساق مسلم رحمه الله حديث ابن عمر بعدة ألفاظ قال: حدثنا يحيى بن يحيى وقتيبة وابن رُمْحٍ واللفظ ليحيى، قال قتيبة: حدثنا ليث، وقال الآخران: أخبرنا الليث بن سعد عن نافع عن عبد الله أنه طلق امرأة له وهي حائض تطليقة واحدة، فأمره رسول الله ﷺ أن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض عنده حيضة أخرى ثم يمهلها حتى تطهر من حيضتها، فإن أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلّق لها النساء. وزاد ابن رمح في روايته: وكان عبد الله إذا سئل عن ذلك قال لأحدهم: أما أنت طلّقت امرأتك مرةً أو مرتين فإن رسول الله ﷺ أمرني بهذا، وإن كنت طلقتها ثلاثا فقد حرمت عليك حتى تنكح زوجا غيرك، وعصيت الله فيما أمرك من طلاق امرأتك. قال مسلم: جوّد الليث في قوله: تطليقة واحدة. ثم ساقه مسلم من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر وفي آخره قال عبيد الله : قلت لنافع: ما صنعت التطليقة؟ قال: واحدة اعتدّ بها. ثم ساقه مسلم من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر، وفي آخره: فكان ابن عمر إذا سئل عن الرجل يطلق امرأته وهي حائض يقول: أمّا أنت طلّقتها واحدة أو اثنتين، إن رسول الله ﷺ أمره أن

يَـرْجِعَها ثم يمهلهـا حتى تحيض حيضـة أخرى ثـم يمهلها حتى تطهـر ثم يطلقها قبل أن يمسّها ، وأمّـا أنت طلّقتها ثلاثا فقـد عصيت ربّك فيما أمرك به من طلاق امـرأتك وبانت منك . ثم ساقه مسلم من طـريق سالم بن عبد الله عن ابن عمر وفي آخره : وكان عبد الله طلقها تطليقة واحدة فحُسِبت من طـلاقها . اهــ أما مـا رواه مسلم عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال : كـان الطـلاق على عهد رسـول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين مـن خلافـة عمر طـلاق الثلاث واحدة ، فقـال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر كـان لهم فيه أناة فلو أمضينـاه عليهم ، فأمضـاه عليهم . فقد جـاء في بعض ألفاظ سنـد هذا الحديث مـا يدل على أنـه من الأمـور المستغربـة عنـد المسلمين ، فقد أخـرج مسلم من طريق ابن جُـرَيج أخبرني ابن طاوس عن أبيه أن أبا الصهبـاء قال لابن عباس : هاتِ من هَنَاتك ، ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر واحدةً؟ فقال : قد كان ذلك فلما كان في عهد عمر تتابع الناس في الطـلاق فأجـازه عليهم اهــ فقول أبي الصهبـاء لابن عبـاس : هـات من هناتك أي أخبارك وأمورك المستغربة وهو يشعر بأن هذا الأمر وهو أن الثلاث تقع واحدة وأن عمر رضي الله عنه هو الذي جعله ثلاثا من الأمور المستغربة عند المسلمين ، علما بأنه قد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يفتي بعـد موت عمـر رضي الله عنه بأن من طلق ثـلاثا بلفظ واحـد أنه تقع عليـه الثلاث ، فقد أخرج أبو داود بسند صحيح من طريق مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقـال إنه طلّق امرأته ثـلاثا ، فسكت حتى ظننت أنه سيردها إليه ، فقال : ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ثم يقول : يا ابن عباس ، يا ابن عباس؟ إن الله قـال : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾ وإنك لم تتق الله فلا أجـد لك مخرجا ، عصيت ربك وبانت منك امـرأتك . وهو يوافق مـا مرّ عند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال لمن طلق امرأته ثلاثا :

وأمـا أنت طلقتها ثـلاثا فقـد عصيت ربك فيما أمرك بـه من طلاق امـرأتك وبـانت منك. وروى البخاري من حـديث عائشـة رضي الله عنها أن رجـلا طلق امرأته ثلاثـا فتزوجت فطلّق فسئل النبيّ ﷺ: أتحلّ للأول؟ قال: «لا، حتى يـذوق عُسَيْلَتهـا كما ذاق الأول». وقـولـه تبـارك وتعـالى: ﴿فإمسـاك بمعـروف أو تسريح بإحسـان﴾ أي فعليكـم أيها الأزواج إمسـاك زوجـاتكم بـالمعروف أو تسريحهن بإحسـان، وهـذه وصيـة من الله تبارك وتعـالى لجميع الأزواج بحسن العشرة سـواء كـان الزواج ابتـداء أو كـان بعـد طلقة أو بعـد طلقتين، كما أنه وصيـة من الله تبـارك وتعالى لجميع الأزواج عنـد ما يـريدون تطليق نسائهم وتسريحهـن أن يكون التسريح بإحسان فـلا يذكـرون نساءهم عند الطـلاق أو بعده إلا بخير، ولا يلحقونهن بأذى من قـول أو فعل، وهذه قاعـدة الإسلام في الحيـاة الزوجيـة، ولا شك أنها اللّبنة الأولى في بنـاء البيت السعيد، وهو تأكيد لما أفاده قـول الله عز وجل في الآية السابقة: ﴿ولهن مثل الـذي عليهن بـالمعروف﴾ وتأكيـد هـذه الـوصية في حق الـرجـال لأنهم هم القـوامـون على النسـاء، وهم أقـدر على إدارة البيت بـالعشرة الحسنـة وتـرك الإضرار، وقد أشار ابن عباس رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسـان﴾ بأنه الميثاق الغليظ الذي جعلـه الله عز وجل للنساء على الرجال في قوله تبارك وتعالى: ﴿وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾ قال ابن جـرير رحمه الله في تفسيره: حدثنـي المثنّى قال: حـدثنا سُوَيـد بن نصر قال: أخبرنـا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء الخراسـاني عن ابن عباس رضي الله عنهما في قـولـه: ﴿وأخـذن منكم ميثـاقا غليظـا﴾ قـال: قـولـه: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسـان﴾ اهـ ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن خير الناس هـو خيرهم لأهله، فقد روى الترمذي بسنـد صحيح من حديث أم المؤمنين عـائشـة رضي الله عنهـا أن رســول الله ﷺ قـال: «خيركم خيركم

لأهلـه، وأنـا خيركـم لأهلي». كما روى الترمـذي وقـال: حـديث حسن صحيح، من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركـم لنسائهم». وقد كان رسول الله ﷺ يحرص على مـؤانسـة نسـائه وإدخـال السرور عليهن، فقـد روى البخـاري ومسلم من حـديث عـائشـة رضي الله عنهـا قـالت: كنت ألعب بالبنـات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، فكـان رسول الله ﷺ إذا دخل يَنْقَمِعْن، فيُسَرِّبهن إليّ، فيلعبن معي. ومعنـى: ألعب بـالبنـات، تعني اللعب التي تلعـب بها الصَّبِيَّـة. وقـولها: ينقمعـن، أي يستترن حيـاء منه، ومعنى: يسرّبهن إليّ، أي يـرسلهن سربا سربـا ويردّهنّ إلي. وقـدكان رسـول الله ﷺ جميل العشرة لنسائه يضـاحكهنّ ويتلطف بهن، وقد أكـد الله تبارك وتعالى على الأزواج أن يحسنـوا عشرة أزواجهم في غير موضع من القرآن العظيم، كما قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهنّ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا﴾. وقوله تعالى: ﴿ ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئـا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حـدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ قد فرض الله تبارك وتعالى للنساء في النكاح صداقـا وبين أنه حق من حقوق الـزوجة لا يحل لأحد أن يأخذ منـه شيئا إلا بطيب نفس منها حيث يقـول عز وجل: ﴿وآتوا النساء صـدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا﴾ وقال عز وجل: ﴿قد علمنا ما فـرضنا عليهم في أزواجهم﴾ وقال عـز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينـا* وكيف تأخذونـه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـذن منكم ميثاقـا غليظا﴾ وشريعة بني إسرائيل تفرض للمرأة مهرا لكنها لا تملّكه لها بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلقهـا لأنها في نظرهم لا يجوز لها أن تتصرف في مالها وهي

ذات زوج . وقد جعل الإسلام لحل رابطة الزوجية ثلاثة طرق ، الطريق الأول الطلاق ، وقد جعله الله عز وجل بيد الزوج ، والطريق الثاني فسخ الحاكم لعقد الزوجية عند وجود أسباب طبيعية أو أسباب شرعية مع امتناع الزوج عن الطلاق ، فالأسباب الطبيعية كعيوب الخلقة المانعة من أداء وظيفة الزوجية كالعُنّة والجَبّ ونحوهما في الرجال ، والأسباب الشرعية كامتناع الرجل في الإيلاء بعد مضيّ أربعة أشهر. أما الطريق الثالث فهو ما ذكره الله عز وجل في هذا المقام الكريم من سورة البقرة وهو المعروف شرعا باسم الخُلْع الذي جعله الله عز وجل مخرجا للزوجة إذا كرهت الزوج لغير سبب من الأسباب التي تعطي الحاكم حق فسخ عقدة النكاح ، وأصل الخُلْع في اللغة هو فراق الزوجة على مال ، مأخوذ من خَلع الثوب لأن المرأة لباس الرجل . وإنما ضُمّت الخاء للتفرقة بين الحسّي وهو خلع الثوب والمعنوي وهو خُلع المرأة ، أما الخُلع في الاصطلاح فهو فِراق الرجل زوجته بعِوَض يحصل لجهة الزوج وهو مشروع بكتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ ، حيث يقول الله عز وجل هنا : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي ولا يجوز لكم أيها الرجال أن تأخذوا من الصداق الذي أعطيتموه لنسائكم شيئا عند رغبتكم في طلاقهن بل عليكم تسريحهن بإحسان حتى لو كنتم أعطيتم إحداهن قنطارا من الذهب فلا تأخذوا منه عند طلاقهن شيئا فإنه سُحْت لا يحل إلا بطيب نفس منها ، لكن إذا كان الرجل غير راغب عنها وكانت هي راغبة عنه ، وصارت لا تطيعه إذا أمرها ، وأصبحت عاجزة عن القيام بحقه الذي فرضه الله له عليها ، ولم يصبر هو على هذا الحال ، وغلب على ظنه أن إصلاحها غير قريب المنال ، لأنها لا تطيق النظر إليه ، ويُخْشَى على الزوج أن تندفع نفسه فيعاملها بمثل معاملتها له ويقصر في

الحق الذي طالبه الله عز وجل لها من الإمساك بالمعروف، ولكونه لا ذنب له معها فلا يُجْبَر على فراقها، وقد أحسّ بهذا الحال المصلحون من أهلها ومن أهله وصاروا يخافون من تقصير كل واحد من الزوجين في حق صاحبه مع علمهم أن المرأة قد استحكم نشوزها فعند ذلك يباح للزوج أن يأخذ منها ما دفعه لها من صداق أو نحوه تفتدي نفسها وتختلع منه بذلك. وقد نص الله تبارك وتعالى على حِلّ المال الذي يأخذه الزوج من زوجته المختلعة في هذه الآية الكريمة، وقد قال البخاري في صحيحه: باب الخُلع، وكيف الطلاق فيه، وقول الله تعالى: ﴿ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾ إلى قوله: ﴿الظّالمون﴾ وأجاز عمر الخلع دون السلطان، وأجاز عثمان الخلع دون عِقَاص رأسها، وقال طاوس: إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصّحبة، ولم يقل قول السّفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. حدثنا أزهر بن جميل حدثنا عبد الوهاب الثقفي حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتِبُ عليه في خُلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردّين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلّقها تطليقة». حدثنا إسحاق الواسطيّ حدثنا خالد عن خالد الحذّاء عن عكرمة أنّ أخت عبد الله بن أبيّ بهذا وقال: «ترُدين حديقته؟» قالت: نعم، فردّتها وأمره يطلّقها. وقال إبراهيم ابن طَهْمان عن خالد عن عكرمة عن النبي ﷺ: «وطلّقها»، وعن أيوب بن أبي تميمة عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إني لا أعْتِبُ على ثابت في دين ولا خلق ولكني لا أطيقه، فقال رسول الله ﷺ: «فتردّين عليه حديقته؟» قالت:

نعم. حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخَرِّميّ حدثنا قُرَادٌ أبو نوح حدثنا جرير بن حازم عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شمّاس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أنْقِم على ثابت في دين ولا خلقٍ، ولكنّي أخاف الكفر، فقال رسول الله ﷺ: «فترُدّين عليه حديقته؟» فقالت: نعم، فردّت عليه، وأمره ففارقها اهـ وقول البخاري: وقال طاوس: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصحبة، ولم يقل قول السفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. قال الحافظ في الفتح: هذا التعليق اختصره البخاريّ من أثر وصله عبد الرزاق قال: أنبأنا ابن جريج أخبرني ابن طاوس وقلت له: ما كان أبوك يقول في الفداء؟ قال: كان يقول ما قال الله تعالى: ﴿إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله﴾ ولم يكن يقول قول السفهاء: لا يحل حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة. ولكنه يقول: إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فيما افترض لكل واحد منهما على صاحبه في العشرة والصحبة. اهـ وهو يشير إلى رد ما زعمه بعض الناس من أنّ الخلع لا يحل حتى تعصي المرأة الرجل في جميع ما يطلبه منها حتى تقول: لا أغتسل لك من جنابة، ولا أبرّ لك قسما، ولا أطيع لك أمرا. وقولها: لا أعتب عليه في خلق ولا دين، أي لا أطعن عليه في سلوكه وأخلاقه، فسلوكه حسن وأخلاقه مرضية، وكذلك هو مستقيم على شرع الله ودينه. وقولها: ولكني أكره الكفر في الإسلام، أي ولكني أخشى إن بقيت معه أن أسيء إليه، وأن أكفر بالعشير وأن أقصر فيما يجب عليّ القيام به من حقه، ولعلها تشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة صلاة الكسوف حيث قال رسول الله ﷺ: «وَأُرِيتُ النار فلم أر منظرا كاليوم قطّ أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء»

قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بكفرهنّ»، قيل: يكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنْتَ إلى إحداهنّ الدّهر كلّه ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط». وقوله عليه السلام: «أتردّين عليه حديقته؟» أي أترجعين إليه بستانه الذي كان دفعه لك صداقا؟ وقوله تبارك وتعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ قد ذكر الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ حدود الله﴾ أربع مرات في هذه الآية الكريمة حيث قال: ﴿إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾ وقال: ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾ ثم قال: ﴿تلك حدود الله﴾ ثم قال: ﴿ومن يتعد حدود الله﴾ وهو يفيد وجوب الوقوف عند مراسيم الشريعة التي رسمها الله عز وجل لسعادة عباده، وأن يحذر المسلم حذرا شديدا من مخالفة أمر الله عز وجل والتعدي على حدوده سواء كانت حقوقا لله تبارك وتعالى أو حقوقا لخلقه، فقيام الزوجة بما عليها للرجل من حقوق هي حدود الله، وقيام الرجل بما عليه للمرأة من حقوق هي حدود الله كذلك، والصداق الذي دفعه الرجل للمرأة هو حق من حقوقها لا يجوز للرجل أن يأخذ منه شيئا بغير طيب نفس منها فإن أخذ من ذلك شيئا بغير رضاها فهو سُحْت وتَعَدٍّ على حدود الله، وإذا خافت المرأة أن لا تقوم بحق زوجها فافتدت بمال واختلعت فقبله منها وطلقها فقد حافظا على حدود الله، وإن استهواهما الشيطان وقصّر كل واحد منهما في حق الآخر وأساء العشرة فقد اعتديا على حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، ولذلك وصف من يتعدى حدوده بأنهم هم الظالمون وجمع بين النهي والوعيد للمبالغة في التحذير والتهديد حيث يقول عز وجل: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ كما أن وضع اسم الله بدل ضميره في المواضع الثلاثة الأخيرة من قوله: ﴿حدود الله ﴾ مع أن السياق يقتضي المجيء بضميره لكن مقتضى الحال من تربية المهابة والحض

على الامتثال اقتضى وضع الاسم الجليل مكان الضمير. هذا وقد وهم بعض الناس من المنتسبين للعلم فجعل الخُلْع فسخا لا طلاقا ظنّا منه أنه لو كان طلاقا لكان للرجل أربع تطليقات بدعوى أن الله تعالى قال في صدر الآية : ﴿الطلاق مرتان﴾ ثم قال في الآية التي تليها : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ قال : فإذا اعتبرنا الخلع طلاقا صار للرجل أربع تطليقات. وهذا فهم عاطل باطل فاسد كاسد واجتهاد مع النص، فقد وقع التصريح في الحديث الصحيح بقوله ﷺ: «اقبل الحديقة وطلقها تطليقة» على أن ابن قدامة رحمه الله ذكر في المغني أن من ذكر أنه فسخ أنه أراد إذا لم يذكر طلاقا، حيث قال رحمه الله : وهذا الخلاف فيما إذا خالعها بغير لفظ الطلاق ولم ينوه، فأما إن بذلت له العِوَض على فراقها فهو طلاق لا اختلاف فيه اهـ و إذا كان الخلع طلاقا فإنه لا يغير ما جعل الله للرجل من التطليقات الثلاث فقط، إذ تطليقة الخلع محسوبة من الثلاث فلو لم يكن طلقها قبل تطليقة الخلع فقد بقي له اثنتان و إن كان طلقها مرة قبلها فلم يبق له إلا تطليقة واحدة فإن طلقها قبلها مرتين كانت تطليقة الخلع متممة للثلاث فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره.

قال تعالى : ﴿فإن طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فإن طلّقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أنْ يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون﴾ و إذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم . ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى حكم الطلاق الذي يجوز للرجل فيه أن يراجع زوجته وهو ما كان في حدود طلقة أو طلقتين ، وأشار إلى وجوب الصداق وأنه لا يحل للزوج منه شيء إلا بطيب نفس من الزوجة ، وأنه يجوز للمرأة في حالة خوفها من تقصيرها في حق زوجها وهو راغب فيها أن تفتدي نفسها منه وأنه يجوز للزوج أخذ هذا العوض ليطلقها ، ذكر هنا أن الرجل إذا طلق زوجته التطليقة الثالثة فإنها لا تحل له بعد ذلك حتى تتزوج زوجا آخر زواجا شرعيا مستوفيا لجميع شروط النكاح ، فإذا طلقها الزوج الثاني وتأيّمت بعده فللزوج الأول أن يتزوجها فقال عز وجل : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ أي فإن فارقها بتطليقة ثالثة بعد التطليقتين السابقتين سواء كانت إحدى التطليقتين السابقتين بعوض وهو الخُلع أو بغير عوض ، فإنها لا تحل له بعد ذلك إلا بشرط أن تتزوج زوجا آخر يعني زواجا شرعيا ، والمقصود من قوله تبارك وتعالى : ﴿حتى تنكح﴾ أي تتزوج ، فالمراد من النكاح هنا العقد أي حتى يعقد عليها زوج آخر عقدا صحيحا ، وكان مقتضى هذا الإطلاق أن مجرد العقد للزوج الثاني يبيحها للزوج الأول ، لكنّ رسول الله ﷺ الذي أُنْزِل عليه الذكر ليبيّنه للناس قد قيّد هذا الإطلاق

فبيّن أن مجرد العقد على الثاني لا يُبيحها للأول حتى يذوق الثاني عُسَيْلتها، أي يدخل بها، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة فطلقني، فبَتَّ طلاقي، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزَّبِير وما معه إلا مثل هُدْبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟» قالت: نعم، قال: «لا، حتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتك». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلّق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا، فطلّقها قبل أن يمسها فسئل رسول الله ﷺ: أتحلّ للأول؟ فقال: «لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأوّل». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله ﷺ وأنا جالسة وعنده أبو بكر فقالت: يا رسول الله إني كنت تحت رفاعة فطلقني فبتّ طلاقي، فتزوجتُ بعده عبد الرحمن بن الزَّبير وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهُدْبة، وأخذت هُدْبة من جلبابها، فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له، قالت: فقال خالد: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ، فلا والله ما يزيد رسول الله ﷺ على التبسّم، فقال لها رسول الله ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى يذوق عسيلتك، وتذوقي عسيلته». فصار سنّة بعدُ. ولفظ مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رفاعة القُرَظِي طلّق امرأته فبتّ طلاقها فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزّبير فجاءت النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنها كانت تحت رفاعة فطلّقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزّبير وإنّه والله ما معه إلا مثل الهدْبة، وأخذت بهدبةٍ من جلبابها، قال: فتبسّم رسول الله ﷺ ضاحكا فقال: «لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي

عسيلته». وأبو بكر الصّدّيق جالسٌ عنـد رسول الله ﷺ وخالد بن سعيد بن العاص جالسٌ ببـاب الحجرة لم يؤذن له، قال: فطفق خالـدٌ ينادي أبا بكر: ألا تـزجـر هـذه عما تجهر بـه عنـد رسـول الله ﷺ؟. وبهذا يصير شرط زواج الرجل بمن طلقهـا ثلاثـا أن يعقد عليهـا زوج آخر يكون راغبـا فيها قـاصدا لدوام عشرتها كما هو المشروع في كل تزويج، والشرط الثاني أن يدخل بها الزوج الثاني ويباشرهـا، فإن قصد الزوج الثاني من الزواج بـالمرأة مجرّد تحليلها للأول صار ملعونا بلعنة رسول الله ﷺ له، وإذا رضي الزوج الأوّل بعمل هذا الزوج الثـاني صـار هو كـذلك ملعـونـا بلعنـة رسول الله ﷺ لـه. فقـد روى أحمد والترمذي والنسائي من حـديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنـه قال: لَعَنَ رسول الله ﷺالواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحَلِّل والمحَلَّل له، وآكل الربـا ومُوكله. قال الترمذي: هـذا حديث حسن صحيح، قال: والعمل على هذا عنـد أهل العلم من الصحابة منهم عمـر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن طلّقها﴾ أي فإن فـارقها الزوج الثاني بعد الدخول بها وبعد مباشرتها ولم يقصد الثـاني بطلاقه إباحتها للأول وتحليلهـا له، وقوله عز وجل: ﴿فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله﴾ أي فلا إثم ولا حرج على الـزوج الذي كـان قد طلق زوجته ثـلاثا ثم تـزوجت بعده زواجا شرعيا ودخل بها الزوج الثاني وقارفها ثم طلقها، أن يتزوجها هذا الزوج الأول زواجـا جـديـدا إن غلب على ظن هـذين الـزوجين أن يقيما حـدود الله فيتعاشرا بالمعروف ويحسن كلّ واحد منهما صحبة الآخر، ويتّقي الله فيه، ولا حـرج على الزوجـة في ذلك كـذلك، وهذا مـن أعظم كوابح الطـلاق وردع الرجـال عن أن يطلقوا غير طلاق السنـة، فإن شيم أكثر النـاس تنفر من أن تعرّض نفسهـا لمثل هذا الحال، لـذلك تتروّى إذا أغراهـا الشيطان بـالطلاق

حذرا من أن تصير زوجته فراشا لرجل آخر ولا سيّما إذا كانت ذات عيال، فما أدق أحكام الشريعة وما أجلّها لصيانة البيوت وحماية الأسر من أسباب الانهيار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف﴾ هذا تأكيد لما أفاده قوله عز وجل: ﴿وبعولتهنّ أحقّ بردّهنّ في ذٰلك إن أرادوا إصلاحا﴾ ولما أفاده قوله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ وقد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وبعولتهنّ أحقّ بردّهن في ذٰلك إن أرادوا إصلاحا﴾ أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ في سورة الطلاق وفي قوله تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ﴾ أي قاربن انقضاء عدّتهن، وأن العلماء قد أجمعوا على أن قوله: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ أي قاربن الخروج من عدّتهن إذ بعد بلوغ الأجل والخروج من العدة لا خيار للزوج في الإمساك، وأن الإجماع منعقد على أنه لا يملك عليها حق الرجعة بعد انقضاء العدة وقد كرّر الله تبارك وتعالى أمره للرجال بإمساك نسائهم بالمعروف أو تسريحهن بإحسان لتنبيههم إلى الاعتناء بذلك والمبالغة في إيجاب المحافظة عليه، والحذر من الإضرار بالمرأة، وردع الرجال عما كان يفعله أهل الجاهلية بنسائهم حيث كان الواحد منهم يطلق امرأته ثم إذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها مرة ثانية حتى إذا قاربت عدتها على الانقضاء راجعها ثم طلقها وهكذا لمجرد إلحاق الأذى بها وإضرارها، فأمرهم الله عز وجل في هذه المقامات بأنهم إذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه حقّ المراجعة أن يحسن في أمرها إذا قاربت عدتها على الانقضاء فإن كان له فيها رغبة في الإمساك راجعها وأمسكها بالمعروف وأحسن عشرتها وخاف الله عز وجل فيها، وإن لم يكن له فيها رغبة تركها حتى تنقضي عدّتها، وأحسن تسريحها فلا يذكرها إلا بخير، ولا يتحدث عنها بما تكره، بل ويمتّعها بما يستطيع من

الهدايا التي تجبر خاطرها كما قال عز وجل: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾. ولذلك جاء في تخيير رسول الله ﷺ نساءه: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنّ وأسرّحكنّ سراحًا جميلا﴾ وقد أُثِرَ أن بعض السلف متّع امرأته عند تسريحها بهديّة عظيمة ثم قال لها عند مفارقتها: متاعٌ قليلٌ من حبيب مفارق. وقوله عز وجل: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا﴾ تأكيد لوجوب الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان وتحذير شديد من إمساك المرأة بقصد الإضرار بها وأن من راجع امرأته في عدتها التي يملك فيها حقّ الرجعة عليها وكان قصده الإضرار بها كان معتديا ظالما آثما يعرّض نفسه لغضب جبار السموات والأرض، ولذلك أتبع الله قوله: ﴿ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا﴾ بقوله عز وجل: ﴿ومن يفعل ذٰلك فقد ظلم نفسه﴾ أي حمّلها ما لا تطيق من غضب الله وما أعده للظالمين، وقد حرمت الشريعة الإسلامية على المسلم أن يلحق الأذى بأحد من خلق الله وأن من ضار أحدًا عاقبه الله بضرر أعظم مما ضرَّ به غيره، فقد روى أبوداود والترمذي وحسنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن ضارّ ضارّ اللهُ به، ومن شاقّ شاقّ اللهُ عليه» ولا شك أن دفع الأذى والضرر عن النفس والغير وعدم المضارّة هو من القواعد الإسلامية التي أطبق عليها علماء الإسلام مستنبطين ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولا تمسكوهن ضِرارًا لتعتدوا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تضارّوهن لتُضَيّقوا عليهن﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا تُضَارَّ والدة بولدها ولا مولودٌ له بولده﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا يُضَارَّ كاتب ولا شهيد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مُضَارٍّ وصيةً من الله﴾ وقرن الله تبارك وتعالى الضرار بالكفر في قوله عز وجل: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضِرارًا وكفرا

وتفـريقا بين المؤمنين وإرصـادا لمن حارب اللهَ ورسـولـه من قبل﴾ وقد أشـار رسول الله ﷺ إلى أن دفع الأذى والضرر عن الناس من أعظم مـا يقرّب العبد إلى ربه، فقـد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وستـون أو سبعـون شعبة أدنـاهـا إماطـة الأذى عن الطريق وأرفعها قـول: لا إله إلا الله». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه عن رسول الله ﷺ أنـه قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجـد غصن شوك فأخّره فشكـر الله له فغفر الله لـه» وفي رواية لمسلم بلفظ: «لقـد رأيت رجلا يتقلب في الجنـة في شجـرة قطعها من ظهـر الطريق كانت تؤذي المسلمين». كما روى البخاري ومسلم من حديث جرير ابن عبـد الله رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: «من لا يـرحم النـاسَ لا يرحمه الله». وفي قوله عز وجل: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هُزُوًا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ مجموعة من التحـذيرات المتتـابعة التي يخوّف الله عـز وجـل بهـا عبـاده المؤمنين مـن التهـاون في أحكـام الله واللعب بحقـوق النساء، وعدم الانضباط في أمر الطلاق، مع تنبيههم إلى وجوب شكر نعمته على هـذه التشريعات الجالبـة لسعادة الـدارين التي جـاءت في كتابـه وعلى لسان رسوله ﷺ لإرشـاد الناس وعظتهم، والله عليم بمن يسلك سبيله ومن ينحرف عنه وهو بكل شيء عليم.

قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهنّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف، ذٰلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذالكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

في الآية السابقة بيان حكم المطلقة التي لزوجها عليها حق الرجعة لأنها لم تخرج من عدّتها من طلاق رجعي ولذلك كان توجيه الأمر الكريم من الله عز وجل للأزواج الذين يملكون حقّ الرجعة بأن يمسكوا بالمعروف قبل نهاية العدة، أو يسرّحوا بمعروف بأن يتركوا المطلقة الرجعية حتى تنتهي عدّتها وتصير أملك لنفسها، وليس لزوجها بعد خروجها من العدة حقّ الرجعة عليها إلا برضاها بعقد جديد ومهر جديد وولي، وفي هذه الآية الكريمة يوجّه الله عز وجل الخطاب لأولياء المطلّقات اللاّتي خرجن من العدة بأن لا يعضلوا من لهم عليهن ولاية التزويج إذا حصل تراض بين المرأة وزوجها الذي بانت منه بخروجها من العدة وزال ما بينهما من شقاق، ورغبا في العودة إلى الحياة الزوجية من جديد، فقال عز وجل: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تَعْضُلوهنّ أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ المراد بأزواجهن هنا أي الذين كانوا أزواجا لهن قبل خروجهن من عدة الطلاق، فإطلاق لفظ الزوج باعتبار ما كان للعلم بذلك. وقد بينت في تفسير الآية السابقة أن معنى قوله عز وجل: ﴿فبلغن أجلهن﴾ أي قاربن انقضاء عدّتهن ولم تنته العدة بعد، أما قوله عز وجل في هذه الآية: ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ فإن بلوغ الأجل هنا هو الخروج من العدة تماما، والذي يحدّد المراد هو السياق الكريم لأنه قال هناك بعد قوله: ﴿فبلغن أجلهن﴾: ﴿فأمسكوهنّ بمعروف أو سرّحوهن بمعروف﴾ فدل ذلك على أن المراد من بلوغ الأجل قرب انتهائه وكان الخطاب موجّها للأزواج. وهنا يقول عز وجل

بعد قوله : ﴿فبلغن أجلهنّ﴾ : ﴿فلا تَعْضُلوهن أن ينكحن أزواجهن﴾ فدل ذلك على أن المراد من بلوغ الأجل انتهاء العدة والخروج منها ، وكان الخطاب موجّهـا للأوليـاء لا للأزواج ، ولا شك أن هـذا درجة في الفصـاحة عـالية ، ومنزلة في البلاغة رفيعة لا يعقلها إلا العالمون ، وهو لون من الإعجاز البلاغي في القرآن العظيـم . وقد أخـرج البخاري في صحيحه أن هـذه الآية نـزلت في مَعْقِل بن يَسَـار المزَنيّ رضي الله عنـه لما طلّقت أختـه وخـرجت من عـدتها ، وجاءها الخطّاب ومن بينهم زوجها الأول فـرغبت فيه وأحبت أن يعود الزواج بينهما وهَوِيَتْه وهَوِيَها فامتنع أخوهـا مَعْقِل بن يسار رضي الله عنه من تزويجها منه فنزلت هـذه الآية الكريمة ، فقد روى البخـاري في صحيحه في باب من قال : (لا نكـاح إلا بولي) من طريق يونس عن الحسن : ﴿فـلا تعضلوهنّ﴾ قال : حدثني معقـل بن يسار رضي الله عنه أنها نزلت فيـه قال : زوّجت أختا لي من رجل ، فطلّقهـا ، حتى إذا انقضت عـدّتها جاء يخطبهـا ، فقلت لـه : زوّجتك وأفرشتك ، وأكرمتك ، فطلّقتهـا ، ثم جئت تخطبها ، لا والله لا تعود إليك أبدا ، وكان رجـلا لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن تـرجع إليه ، فأنزل الله هـذه الآية ﴿فـلا تعضلـوهن﴾ فقلت : الآن أفعل يـا رسول الله ، قـال : فزوّجهـا إياه . وفي رواية للبخـاري ساقها في كتـاب النكاح من طـريق قتادة قال : حـدثنا الحسن أن معقل بن يسار كانت أختـه تحت رجل فطلّقها ، ثم خلّى عنها ، حتى انقضت عدتها ، ثم خطبها ، فحمي معقل من ذلك أَنَفًا ، فقال : خلّى عنهـا وهو يقدر عليها ، ثم يخطبهـا ، فحال بينه وبينهـا ، فأنزل الله : ﴿وإذا طلقتم النسـاء فبلغن أجلهنّ فـلا تعضلوهـنّ﴾ إلى آخر الآيـة ، فدعاه رسول الله ﷺ فقرأ عليـه ، فترك الحميّة ، واستقاد لأمر الله . اهـ وأصل العَضْل في اللسان العربي الحبس والمنع والتضييق ، ولا شك أن تحريم عَضْل الولي في قوله تبارك وتعـالى : ﴿فلا تَعْضُلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا

بينهم بالمعروف﴾ هو دليل ظاهر على أنه لا بد في عقد النكاح من الولي إذ لو لم يكن الوليّ شرطا في صحة العقد لزوّجت نفسها دون الرجوع إليه وهذا يفسر قوله ﷺ: «الثّيب أحق بنفسها من وليها» الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، فإنّ لفظة أحقّ هنا للمشاركة ومعناه أن لها في نفسها في النكاح حقا، ولوليّها حقا، وحقّها أوكد من حقه فإنه لو أراد تزويجها كُفْؤًا وامتنعت لم تُجْبَر، ولو أرادت أن تتزوج كُفْؤًا فامتنع الولي أجبر على عقد النكاح لها، فإن أصرّ على عدم تزويجها وعضلها نقل الحاكم الشرعي الولاية إلى من يليه من الأولياء وسلب ولايته عليها فإن لم يكن لها وليّ زوّجها القاضي. ولا شك أن اشتراط الولي في صحة عقد النكاح هو لحماية كرامة المرأة ووقايتها من قالة السوء. فالولي شرط في صحة العقد، ورضا المرأة بمن تتزوج شرط في صحة العقد كذلك، فإن رغبت الزواج من كفء وعَضَل وليُّها انتقلت الولاية للسلطان، وإن رغبت في غير كفء كان ذلك إشارة سفه فيها، ووليّها يمنعها من ذلك حرصا على مصلحتها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ أي إذا حصل التراضي بين الأزواج والزوجات في العودة إلى الحياة الزوجية على هُدًى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ذلك يُوعَظُ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ في سياق بيان حكم من طلق زوجته تطليقة له فيها حق الرجعة عليها لكنه لم يراجعها حتى انقضت عدتها ثم رغبا في الزواج بعقد جديد، ونَهْي وليها من عَضْلها وهو شبيه بما ساقه في سورة الطلاق بعد بيان حكم من طلق امرأته تطليقة رجعية وأن له أن يمسكها في عدتها بالمعروف أو يتركها حتى تنقضي عدتها وتَبِين منه بالمعروف، حيث قال هناك: ﴿ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾. وتخصيص هذين المقامين بالوعظ مع قوله عز وجل في الآية السابقة: ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم

به﴾ للترهيب من مخالفة هذه التعاليم الإلٰهية، والترغيب في المحافظة عليها، وأصل الوعظ هو التذكير بما يليّن القلب من ثواب الله أو عقابه بطريق الترغيب والترهيب، قال ابن منظور في لسان العرب: الوَعْظ والعِظة والعَظَة والموعظة: النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سِيدَه: هو تذكيرك للإنسان بما يليّن قلبه من ثواب وعقاب، وفي الحديث: «لأجعلنّك عظة» أي موعظة وعبرة لغيرك اهـ. والخطاب بقوله عز وجل: ﴿ذٰلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ للنبي ﷺ ثم رجع إلى خطاب المؤمنين كقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها النبيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهن لعدتهن وأحصوا العدّة واتقوا الله ربكم﴾ ويجوز أن يكون قوله ﴿ذٰلك﴾ بمعنى هذا، كأنه قيل: هذا البيان وهذه التعاليم ينتفع ويتعظ ويعتبر بها من كان مصدقا بالله واليوم الآخر، على أنه في سورة الطلاق قال: ﴿ذالكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فلما جعل الخطاب موجها بصيغة الجمع في سورة الطلاق لم يقل: (منكم) ولما كان الخطاب هنا موجّها بصيغة المفرد قال: ﴿من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ ولا شك أن هذا الأسلوب في القمة من الإعجاز، وهو من أَمثلة كون القرآن العظيم متشابها مثاني، وتخصيص الوعظ بمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر لأن المؤمنين بالله المصدقين بأنهم مبعوثون موقوفون بين يدي ربهم مجزيّون بأعمالهم هم الذين ينتفعون بالوعظ والإرشاد، وتؤثر فيهم النصيحة ويسارعون إلى العمل بوصية الله ووصية رسوله محمد ﷺ ولذلك وصف الله عز وجل القرآن بأنه هدى للمتقين، وقال عز وجل: ﴿سَيَذَّكَّرُ من يخشى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾: وكما قال عز وجل: ﴿وذَكِّرْ فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وجاءك في هٰذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب﴾ وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك

مثلا، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكَلأ والعُشْب الكثير، وكانت منها أَجَادِبُ أمسكت الماء فنفع اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قِيعَان لا تمسك ماء ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثَل مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هُدَى الله الذي أرسلتُ به». اهـ ولما كانت الحياة الزوجية وتكوين البيت السعيد هو الأساس الأول لإقامة المجتمع المثالي نبّه الله تبارك وتعالى هذه التنبيهات السّنيّة وكرّرها للفت انتباه ذوي العقول للعض عليها بالنواجذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذالكم أزكى لكم وأطهر﴾ الإشارة فيه إلى ما تقدم من الوصايا والأحكام التي ذكرها الله عز وجل لإقامة البيت السعيد والاتعاظ بما وعظ الله عز وجل به الأولياء والأزواج من الإمساك بالمعروف أو التسريح بالمعروف وتحريم العضل. ومعنى ﴿أزكى لكم﴾ أي أنمى وأنفع وأعظم بركة لكم في معاشكم ومعادكم، وقوله تعالى: ﴿وأطهر﴾ أي وأنقى لنفوسكم من الريبة والشك مما قد يقع في قلوب الأولياء بسبب تعلق كل واحد من الزوجين بصاحبه، فإن الجمع بينهما على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هو أزكى الطرق وأطهرها وأبعدها عن قالة السّوء. وقوله عز وجل: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ حضّ على المسارعة والامتثال لأوامر الله عز وجل، والابتعاد عن مخالفة أمره، لأن ما يقرّره من التشريع يجلب سعادة الدنيا والآخرة لأنه تشريع العليم الخبير، والإنسان مهما اتسعت مداركه يعجز أن يشرّع لنفسه أو لغيره تشريعا يسعده في الدنيا الآخرة، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟

قال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يُتِمّ الرّضاعة، وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، لا تكلّف نفسٌ إلا وسعها، لا تضارّ والدةٌ بولدها ولا مولود له بولده، وعلى الوارث مثل ذٰلك، فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلّمتم ما آتيتم بالمعروف، واتقوا الله واعلموا أنّ الله بما تعملون بصير﴾.

بعد أن بين الله تبارك وتعالى بعض حقوق الزوجين في حال قيام الحياة الزوجية بينهما، ونظّم للمسلمين أحوال الطلاق، ونظرا إلى أنه إذا حصلت الفرقة بين الزوجين بالطلاق قد يترتب على ذلك تباغض بين الزوجين، وربّما كان لهما طفل صغير، وقد يؤدي هذا التباغض إلى إلحاق الضرر والأذى بهذا الطفل إما من بغض أمه لأبيه فيدفعها الشيطان إلى إيذائه لمضارة أبيه، وإما لرغبة الأم في التزوج بزوج آخر مما قد يحملها على إهمال أمر الطفل، نظّم الله عز وجل هنا حقوق الوالدين ما لهما وما عليهما فيما يتصل برضاع الطفل ويحميه من إضرار أحد الوالدين به، ومع أن شفقة الأم بطفلها هي مضرب المثل إلا أن الشيطان ذئب الإنسان قد يغريها على مخالفة طبيعتها وإلحاق الضرر بولدها، وفي ذلك لفت انتباه الناس إلى أن الله عز وجل أشفق بالولد من والديه وأرحم بعباده من أنفسهم كما جاء في حديث البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسَبْي، فإذا امرأة من السَّبْي تسعى، إذا وجدت صبيّا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أَتُرَوْنَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله، فقال: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها»، وقد سقت هذا الحديث في تفسير سورة الفاتحة. وقوله عز وجل: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حَوْلَيْن

كاملين﴾ قد سيق مساق الخبر والمقصود منه أمر الوالدات بإرضاع أولادهنّ حولين كاملين، والأمر فيه للندب وللحضّ على تربية الطفل بلبن أمه لأنه أصلح للطفل من سائر الألبان ما لم تكن مريضة بمرض يؤثر على صحة الطفل، وكذلك لمراعاة أنّ شفقة الأم على الطفل أتمّ من شفقة غيرها عليه، وهذا إنما يكون للندب في حالة الاختيار لا في حالة الاضطرار، أما في حالة الاضطرار كأن لا يوجد غير الأم أو لا يرضع الطفل إلا منها فعند ذلك يكون الأمر بإرضاعها للإيجاب لا للاستحباب. والدليل على أن الأمر في الأصل للاستحباب لا للإيجاب قوله عز وجل في سورة الطلاق: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهن وَأْتَمِروا بينكم بمعروف وإن تعاسَرْتُم فستُرْضِع له أخرى﴾ وقوله عز وجل: ﴿حولين كاملين لمن أراد أن يتمّ الرضاعة﴾ أي إن الرضاعة تكون لمدة عامين تامَّيْنِ لمن رغب أن يستوفي مدة الرضاع، ولا شك أن تحديد مدة الرضاع بعامين كاملين يثمر فوائد كثيرة منها حاجة الطفل للرضاع هذه المدة فإنه لا يوجد ما يسدّ مسدّ الرضاع في تكوين جسمه وإنشاز عظمه وإنبات لحمه والوفاء بغذائه، وقد فطر الله تبارك وتعالى على ذلك جميع الحيوانات الثديية وإن كان الإنسان أشدها حاجة لذلك الرضاع، ومن فوائد تحديد مدة الرضاع بعامين قطع التنازع بين الزوجين في مدة الرضاع فإذا رغبت الأم في إرضاع الطفل أكثر من عامين لا يُلْزَم الأبُ بدفع الأجرة لما زاد على الحولين، وإذا أراد الأب فطم الولد قبل العامين ولم ترض الأم لم يكن له ذلك. مع أن قوله تبارك وتعالى: ﴿لمن أراد أن يُتِمَّ الرضاعة﴾ يفيد أن إرضاع الطفل لمدة سنتين ليس حتما لازما وأنه يجوز الفطام قبل الحولين، وإنما يلزم الحولان عند التنازع، فإذا رضي الأب والأم بفطامه قبل الحولين جاز ذلك بشرط أن لا يكون فيه ضرر على الطفل، وأيضا فإن الشريعة الإسلامية حرمت بالرضاع ما يحرم من النسب، فيكون الإرضاع الذي يتعلق به

التحريم هو ما كان في مدة الحولين الكاملين، قال الترمذي : باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين، حدثنا قتيبة نا أبو عوانة عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «لا يُحَرِّم من الرضاع إلا ما فَتَق الأمعاء وكان قبل الفطام». هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرّم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرّم شيئا، وفاطمة بنت المنذر بن الزّبير ابن العوام وهي امرأة هشام بن عروة اهـ وقوله: «إلا ما فتق الأمعاء» أي إلا ما شَقَّ أمعاء الرضيع وجرى فيها وأثّر في تغذيته، وقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما مات إبراهيم قال: «إنّ له مُرْضِعًا في الجنة». والمعروف أن إبراهيم بن محمد ﷺ قد مات دون الحولين. أما ما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى أن رضاع الكبير يحرّم كما يحرم رضاع الصغير محتجة بما ثبت أن رسول الله ﷺ قد أمر سهلة بنت سُهيْل بإرضاع سالم مولى أبي حذيفة بعد أن بلغ مبلغ الرجال، ولفظ البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أبا حذيفة بن عتبة بن عبد شمس وكان ممّن شهد بدرا مع النبي ﷺ تبنّى سالما وأنكحه بنت أخيه ـ الحديث ـ وفيه: فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم العامري وهي امرأة أبي حذيفة بن عتبة النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولدا وقد أنزل الله فيه ما قد علمت، فذكر الحديث. أما لفظ مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن سالما مولى أبي حذيفة كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم، فأتت (تعني ابنة سهيل) النبيَّ ﷺ فقالت: إن سالما قد بلغ ما يبلغ الرجال، وعقل ما عقلوا، وإنه يدخل علينا، وإنى أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئا، فقال لها النبي ﷺ : «أرضعيه تحرمي عليه

ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة» فرجعت فقالت : إنى قد أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة . وقد ساق مسلم بعد ذلك من طريق زينب بنت أم سلمة أن أمها أمّ سلمة زوج النبي ﷺ كانت تقول : أبى سائر أزواج النبي ﷺ أن يُدْخِلْن عليهن أحدا بتلك الرضعة وقلن لعائشة : والله ما نرى هذه إلا رخصة أرخصها رسول الله ﷺ لسالم خاصة فما هو بداخل علينا أحد بهذه الرضاعة ولا رائينا اهـ وقد أطبق أكابر الصحابة ، والفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة على أن الرضاع المحرّم ما كان قبل الفطام ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى فطام الطفل في سورة لقمان حيث قال : ﴿وفصاله في عامين﴾ وفي سورة الأحقاف حيث قال : ﴿وحَمْلُه وفِصَالـه ثلاثون شهرا﴾ وقد فهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنها تدل على أن مدة الحمل ومدة الرضاع تتداخل ، فإن ولدته لستة أشهر فرضاعه حولان كاملان ، وإن ولدته لسبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهرا وهكذا ، وقد بيّنتُ أن الحولين الكاملين للرضاع تقطع النزاع ، والعلم عند الله عز وجل . وقوله عز وجل : ﴿وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف﴾ المراد بالمولود له هو الوالد ، والتعبير بالمولود له للإشعار بأن النساء أوعية وقد ولدن الأولاد للآباء ، كما قال الخليفة المأمون بن الرشيد العباسي :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

ولا شك أن في هذا التعبير إثارة للعاطفة لدى الآباء لمراعاة جانب الوالدة والشفقة عليها والإحسان إليها لأنها جاءت له بالولد الذي ينسب إليه دونها ، ولا شك أن إحسان الأب إلى الأم يعود بالخير الكثير على الولد ولتكون الأم قادرة على رعاية مصلحة الطفل ، أي ويجب على الأب تقديم الطعام والكساء للمرضع مدة رضاعها على قدر سعته وبما يتعارفون عليه لقوله عز وجل هنا : ﴿بالمعروف﴾ أي بالمتعارف بينهم من غير إفراط ولا تفريط .

ولذلك قـال عز وجل بعدهـا هنا : ﴿ لا تُكَلَّف نفسٌ إلا وُسْعَهـا﴾ وقال في سورة الطـلاق بعد ذكر نفقـة المرضع : ﴿لِيُنْفِقْ ذو سَعَة من سَعَتـه ومن قُدِر عليه رزقه فلينفـقْ مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفسا إلا ما آتـاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾ وقـوله عـز وجل : ﴿لا تُضـارَّ والدةٌ بـولدهـا ولا مولـودٌ له بولده﴾ أي لا يجوز للأم أن تمتنع عن إرضاع الولد إضرارا بالأب أو أن تطلب أجرا كثيرا لا يطيقه الـرجل مضارة له ، كما لا يجوز لوالـد الرضيع أن يمنع الأم من إرضـاعـه مضارة لها أو أن لا يعطيهـا من النفقـة مـا يكفيها ، والمقصـود تحريم المضارة بينهما وأنه لا يحل لواحد منهما أن يلحق بالآخر أو بالطفل أذى وضررا . وقوله عـز وجل : ﴿وعلى الوارث مثل ذٰلك﴾ هو معطـوف على قوله تبارك وتعالى : ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسـوتهن بالمعروف﴾ كأنه قيل : و إذا مـات والـد الطفل أثناء مـدة الـرضـاع فإن النفقـة التي كانت واجبـة عليـه للمُـرْضِع تنتقل إلى ورثته فيجب على الـورثة رزق المرضع وكسـوتها بالمعـروف بمثل الذي كان على أبيه بقدر أنصبتهم من الميراث . وقوله عز وجل : ﴿فإن أرادا فِصَالا عن تراضٍ منهما وتشـاورٍ فلا جُناح عليهما﴾ أي فإذا رغب الأب والأم في فطام الطفل قبل إتمام الحولين فلهما ذلك بشرط أن يكـون هذا الفطام قـد تم عن رضى واختيار منهما جميعـا دون إجبار من واحـد منهما للآخـر أو إكراه ، وأن يكـون قد حصل الفطام بعـد اتفاق وتأمل و إمعان نظـر فيما يعود على الطفل بالمصلحة ، فإن رضي الأب والأم بالفطام بهذه الصفة قبل الحولين فلهما ذلك و إن رَضِيَـا بتأخير الفطـام عن الحولين لمصلحـة الطفل جـاز لهما ذلك كـذلك ولا حرج ولا إثـم عليهما فيه ، وينبغي لهما أن يأخـذا رأي ذوي الخبرة من الأطبـاء أو غيرهم في تقـديم الفطـام عن الحولين أو تأخيره عنهما .
وقـوله عـز وجل : ﴿و إن أردتم أن تسترضعـوا أولادكم فلا جنـاح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف﴾ أي و إن رغبتم أن تتخذوا مُرْضِعَات يرضعن لكم

أولادكم بسبب تعاسركم في أجـرة الرضـاع، أو امتناع الأم عن إرضاع ولـدها لمرض يمنعها، أو زوج آخـر يحول بينها وبين إرضـاع ولدهـا، أو أبت قبول الولـد إيذاء للـزوج المطَلِّق، ومُضارةً لـه، أو اتفق الوالـدان على أن مصلحة الطفل أن ترضعه مُرضِعة أخرى غير أمه، رغبـة في حصول النجابة له، فإنه لا إثم عليكم ولا حـرج إذا وفّيتم لكل ذي حق حقــه، فأرضيتم أمّ الطفل وأعطيتمـوها مـا تستحق من الأجرة، ووفيتم للظِّئْـر التي اتخذتموها لإرضـاع ولدكم حقّهـا بالجميل لتكون طيبة النفـس مما يحملها على الإحسان لـولدكم والعناية بـه. وقوله عز وجل: ﴿واتقـوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ أي وخافـوا ربكم في جميع تصرفاتكـم واحرصوا على العمل بما يشرعـه لكم، وأيقنوا أنه مطّلع عليكـم لا يغيب عنه شيء من شؤونكم، فراقبـوه مراقبة من يراه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم.

قـال تعالى : ﴿والـذين يتوفـون منكم ويذرون أزواجًـا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرًا فإذا بلغن أجلهنّ فـلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف ، والله بما تعملون خبير﴾

بعـد أن بين الله تبارك وتعـالى عدة المطلقـات ذكـر هنا عـدة المتوفَّى عنهـا زوجها ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعـة أشهـر وعشرا﴾ أي والـذين يمـوتـون من الأزواج ويتركـون وراءهم زوجات ، على هؤلاء الـزوجات أن ينتظرن معتدّات مـدة أربعة أشهر وعشر ليال يعني بأيـامها ، وتوجيـه الخطاب للرجال لأنهم هم القـوامون على النساء المبلّغـون إليهن الأحكام الشرعيـة التي يسمعونها مـن رسول الله ﷺ ، وهذه الآية الكريمة قد نسخت الحكم السّابق لعدة المتوفّى عنها زوجها حيث كـانت قبل ذلك سنة كـاملة بقـوله تبـارك وتعالى : ﴿والـذين يُتَوَفَّـوْنَ منكم ويذرون أزواجا وصيّةً لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلا جنـاح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معـروف ، والله عـزيـز حكيم﴾ ولا غرابة في كون الآيـة المنسوخة جاءت في ترتيب التلاوة بعـد الآية الناسخة ، إذ من المقطوع بـه وجود سـور مكية في تـرتيب التلاوة بعـد سور مـدنية مع أنها متقدمـة عليها في النزول ، وجَعْلُ عـدة المتوفّى عنهـا زوجها هنا أربعـة أشهر وعشرة أيام بلياليهـا تشمل المدخول بها وغير المدخول بها ما لم تكـن حاملا ، فإن كانت المرأة المتوفَّى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل ولو بعد ساعة أو لحظة من مـوت زوجها لقـوله تبـارك وتعالى : ﴿وأُولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ فقد جعل الله تبـارك وتعالى عدة الحامل بوضع حملهـا سواء كانت مطلقة أو متوفًّى عنها زوجها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿فإذا بلغن أجلهنّ فلا جنـاح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعـروف﴾ أي فإذا انقضت عدتهن

فلا حرج عليكم ولا إثم ولا لوم فيما يفعلنه بأنفسهن من التزين وطرح الإحداد ولا إثم عليهن في ذلك ما دمن قد خرجن من عدة الوفاة وما دمن يلتزمن في زينتهن وطيبهن بتعاليم الشريعة الإسلامية. وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿والله بما تعملون خبير﴾ هو تحذير للأولياء وللنساء اللاتي خرجن من عدة الوفاة من مخالفة أمر الله عز وجل. فلا يجوز للولي أن يَعْضُلها بعد خروجها من العدة، ولا أن يمنعها من الزينة بعد ذهاب زمن الإحداد، ولا يجوز للمرأة أن تسرف في زينتها بعد خروجها من حدادها، وقد ألزمت الشريعة الإسلامية المرأة التي مات عنها زوجها بأن تُحِدّ عليه أربعة أشهر وعشرا، قال أهل اللغة: الإحداد والحِداد مشتق من الحدّ وهو المنع يقال: أحدّت المرأة وحدّت وهي حادّ ولا يقال: حادة، وقال الأصمعي: يقال: أحدت ولا يقال: حدّت. أما الإحداد في الشرع فهو ترك الطّيب والزينة للمُعْتَدة عدة الوفاة، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق أيوب عن حفصة عن أم عطية رضي الله عنها قالت: كنا نُنْهَى أن نُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا، ولا نكتحل ولا نَطّيّب ولا نلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْب، وقد رُخّص لنا عند الطهر إذا اغتسلت إحدانا من محيضها في نُبْذة من كُسْت أظفار، وكنا نُنْهَى عن اتباع الجنائز. ثم أخرجه من طريق هشام عن حفصة عن أم عطية قالت: قال النبي ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحدّ فوق ثلاث إلا على زوج، فإنها لا تكتحل ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عَصْبٍ» وقال الأنصاري: حدثنا هشام حدثتنا حفصة حدثتني أم عطية: نهى النبي ﷺ: «ولا تمسّ طِيبا إلا أدنى طُهْرها إذا طهرت نُبْذة من قُسْط وأظفار». قال أبوعبدالله: القُسْط والكُسْت مثل الكافور والقافور اهـ. قال الحافظ في الفتح: قوله: «من كُسْت أظفار»، كذا فيه بالكاف وبالإضافة وفي الذي بعده: «من قسط وأظفار»، بقاف وواو

عـاطفة وهـو أوجـه اهــ وأخرج مسلم هـذا الحديث من طـريق هشـام عن حفصة عن أم عطية رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ قال : «لا تحدّ امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا ، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثــوب عَصْب ولا تكتحل ولا تمسّ طيبـا إلا إذاطَهُــرت نُبْــذة من قُسْط أو أظـفار» . وأخرجه من طريق عبد الله بن نُمَيْر ويزيد بن هارون عن هشام عن حفصة عن أم عطيـة وقالا: «عند أدنى طهـرها نبـذة من قسط وأظفار» . ثم أخرجـه من طريق أيوب عن حفصـة عن أم عطية قالت : كنـا ننهى أن نحدّ على ميّت فــوق ثـلاث إلا على زوج أربعــة أشهــر وعشرا ، ولا نكتحل ولا نتطيب ولا نلبس ثوبـا مصبوغا ، وقـد رُخّص للمرأة في طهـرها إذا اغتسلت إحـدانا من محيضهـا في نبذة من قسط وأظفـار . اهـ ولا معـارضة بين روايـة «قسط وأظفار» وروايـة : «قسط أو أظفار» لأن الـواو محمولة في الـرواية الأولى على العطف وأوفي الرواية الثانية محمولة على الإباحة والتسوية . وإنما جعلت الشريعـة الإسلاميـة عدة المتـوفىَّ عنها زوجهـا أربعة أشهـر وعشرا إن لم تكن حاملا وبوضع الحمل إن كانت حاملا للاحتياط ورعاية حق الميت ، لأنها إن كانت حاملا فالأمر ظاهـر وإن كانت غير حامل فإنه يحتمل أن يكون الرحم مشتملا على حمل فإذا انْتُظِـرَ به هذه المدة ظهـر إن كان موجـودا ، لما جاء في حديث البخـاري ومسلم من حديـث عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه عن رســول الله ﷺ : «إنّ خلق أحـدكم يجمع في بطن أمـه أربعين يومـا نطفـة ثم يكون علقـة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلـك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيـه الروح» . فهـذه ثلاث أربعينـات جملتها أربعـة أشهر، والاحتيـاط بعشر بعـدها ، إذ قـد تنقص بعض الشهور ، وتتجلى أيضـا حركـة الجنين في بطن أمـه ، ولـذلك لـو وضعت بعد لحظـة من وفـاة زوجهـا حلّت للخطـاب في الحال ، فقـد قال البخـاري في صحيحه : بـاب ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن

يضعن حملهن﴾ حدثنا يحيى بن بُكَيْر حدثنا الليث عن جعفر بن ربيعة عن عبدالرحمن بن هُرْمُز الأعرج قال: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن زينب ابنة أبي سلمة أخبرته عن أمها أم سلمة زوج النبي ﷺ أن امرأة من أسلم يقال لها: سُبَيْعة، كانت تحت زوجها تُوُفِّيَ عنها وهي حُبْلَى، فخطبها أبو السنابل ابن بَعْكَك فأبت أن تنكحه، فقال: والله ما يصلح أن تنكحيه حتى تعتدّي آخر الأجلين، فمكثت قريبا من عشر ليال، ثم جاءت النبي ﷺ فقال: «انكِحِي». حدثنا يحيى بن بكير عن الليث عن يزيد أنّ ابن شهاب كتب إليه: أن عُبَيْد الله بن عبد الله أخبره عن أبيه أنه كتب إلى ابن الأرقم أن يسأل سُبَيْعَة الأسلميّة كيف أفتاها النبي ﷺ؟ فقالت: أفتاني إذا وضعتُ أن أنكح. حدثنا يحيى بن قَزَعَة حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المِسْوَر بن مَخْرَمة أنّ سُبَيْعة الأسلمية نُفِسَتْ بعد وفاة زوجها بليال، فجاءت النبي ﷺ فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت. وقد ساق مسلم من طريق ابن وهب حدثني يونس بن يزيد عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله إلى عبد الله ابن عتبة يخبره أنّ سُبَيْعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خَوْلَة وهو في بني عامر بن لُؤَيّ وكان ممن شهد بدرا، فتُوُفِّي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تَنْشَب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجمّلت للخُطّاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعْكَك (رجل من بني عبد الدار) فقال لها: مالي أراك متجملة لعلّك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تمرّ عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حَلَلْتُ حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي. قال ابن شهاب: فلا

أرى بأسًا أن تتزوج حين وضعت وإن كانت في دمها غير أنه لا يقربها زوجها حتى تطهر اهـ وقد ذكّر رسول الله ﷺ بنعمة الله عز وجل حيث جعل عدة المتوفّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا التي نسخت العدة التي كانت سنة كاملة تحدّ فيها المرأة على زوجها الميت، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق حُمَيْد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته هذه الأحاديث الثلاثة قال: قالت زينب: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان، فدعت أمّ حبيبة بطيب فيه صُفْرة - خَلُوق أوغيره - فدهنت منه جارية ثم مسّت بعارضيها ثم قالت: والله مالي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدّ على ميّت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين تُوُفِّي أخوها فدعت بطيب فمسّت منه ثم قالت: والله مالي بالطّيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «لا يحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُحِدّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» قالت زينب: سمعت أمّي أمّ سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا». مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: «لا». ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعَشرٌ، وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبَعْرة على رأس الحول» قال حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبَعْرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفّي عنها زوجها دخلت حِفْشًا ولبست شرّ ثيابها ولم تمسّ طِيبا ولا شيئا حتى تمرّ سنة ثم تُؤْتَى بدابّة - حمار أو شاة أو طير - فَتَفْتَضّ به فقلّما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتُعْطَى بَعْرة فترمي، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره اهـ ولا شك أن مداواة المرأة الحادّ عينيها بالمراهم ونحوها لا خلاف في جوازه عند العلماء.

قال تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خِطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم، علم الله أنكم ستذكرونهنّ ولكن لا تواعدوهنّ سرّا إلاّ أن تقولوا قولاً معروفا، ولا تعزموا عقدة النّكاح حتّى يبلغ الكتاب أجله، واعلموا أنّ الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور حليم* لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسّوهن أو تفرضوا لهنّ فريضة، ومتّعوهنّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى حكم عدة الوفاة، التي شرعها رعاية من الزوجة لزوجها الذي مات عنها ووفاء بحقه بعد موته، وبيّن رسول الله ﷺ أنه يحرم على المرأة الحادّ أن تتجمل للخطاب ونهاها أن تلبس ثوبا صبيغا أو أن تمسّ طيبا إلا شيئا يسيرا عند اغتسالها من الحيض لو كانت تحيض، وحرّم عليها أن تكتحل تنظيما للطبع بالشرع، ذكر الله عز وجل هنا أنه لا تحل خِطبة المرأة الحادّ المتوفَّى عنها زوجها حتى تنتهي عدّتها، لكنه أباح لمن يُضْمِر في نفسه الزواج بها بعد خروجها من العدة أن يعرّض بخِطبتها في العدة دون التصريح بذلك حيث يقول عز وجل: ﴿ولا جُناح عليكم فيما عَرَّضْتُم به من خِطْبة النساء أو أَكْنَنْتُم في أنفسكم﴾ أي لا بأس على راغب الزواج بالمرأة التي مات زوجها أن يضمر في نفسه الزواج منها أو أن يعرّض بخِطْبتها، ولا خلاف عند أهل العلم أن المطلقة الرجعية لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها أو التعريض بها ما دامت في عدتها، أما المطلَّقة المَبْتُوتة فإنه يجوز التعريض بخِطْبتها ولا يجوز التصريح بها كالمتوفَّى عنها زوجها لما جاء في صحيح مسلم من حديث فاطمة بنت قيس أن زوجها طلقها ألبتة، وفي لفظ: طلقها ثلاثا، وفي لفظ: فطلقها آخر ثلاث تطليقات، وأن رسول الله ﷺ قال لها: «اعتَدِّي عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك فإذا

حَلَلْتِ فآذِنِيني» قالت: فلما حللت قال: «انكِحِي أسامة بن زيد». فقوله عليه السلام: «إذا حللت فآذنيني» هو من نوع التعريض بالخطبة وإن كان ﷺ قد أضمر في نفسه أن يخطبها بعد العِدَّة لأسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما، والتعريض هو التلويح بالشيء وعدم التصريح به وهو محاولة إفهام المطلوب بشيء يحتمله ويحتمل غيره، مأخوذ من عُرْض الشيء وهو جانبه كأن المعرِّض يحوم حول الشيء ولا يصرح به. والخِطْبة بكسر الخاء هو ما يذكره الخاطب مُلْتَمِسا به طلب الزواج من المرأة، أما الخُطْبة بضم الخاء فهي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره. يقال: خطب يخطُب خِطْبة أي تقدم إلى المرأة ملتمسا الزواج بها. وخطب يخطُب خُطبة أي تكلّم بكلام بين يدي عقد النكاح أو غيره كخطبة الجمعة وغيرها. ومن أمثلة التعريض أن يقول لولي المرأة أو للمرأة نفسها: إني حريص على الزواج من امرأة صالحة من صفاتها أن تكون كذا وكذا ويذكر أوصافا تكاد تنطبق على هذه المرأة، أو يقول لوليها: إذا انتهت عِدّتها لا تعجلوا بتزويجها لعل الله يرزقها رجلا يعرف قدرها ويُكَرِّمها، أو يقول لها: اصبري على مصيبتك فإنّ الله سيسوق لك خيرا كثيرا فأنت امرأة صالحة. وقوله عز وجل: ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ أي أو أضمرتم في أنفسكم الرغبة في الزواج بها إذا خرجت من عدتها فإنه لا إثم عليكم ولا حرج في ذلك، فتعريضكم بخِطْبة النساء أو إضماركم في أنفسكم أن تتزوجوا بها بعد خروجها من عدتها لا يلحقكم فيه إثم ولا حرج عليكم في ذلك ما دمتم تجتنبون التصريح بخطبتها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهنّ﴾ هو تعليل لبيان رفع الحرج عن الرجال الذين يعرّضون بخطبة النساء وهنّ في عدة الوفاة، أو يضمرون في أنفسهم الزواج بهن بعد خروجهن من العدة، إذ هو يدلّ على أن طبيعة الرجال التي جُبِلُوا عليها ممن له حاجة في الزواج أن يندفعوا عندما يسمعون أن رجلا مات وترك زوجة

تصلح لهم إلى العمل على اقتناصها خوف فواتها عليهم فحرّم عليهم التصريح بخِطْبتها في أثناء العدة وأجاز لهم التعريض لتهذيب الطبع بالشرع مع صيانة كرامة المرأة ورعاية حق زوجها الميت فأذن ببذل بعض الأسباب التي قد تحقّق له بعض ما يتمناه وهو التعريض والتلويح برغبته فيها . وقوله عز وجلّ : ﴿ولَٰكن لا تُواعِدُوهنَّ سِرًّا﴾ أي ولا يحل لكم أن يكون في تعريضكم بخِطْبة النساء في عدّتهن أن تذكروا شيئا عن شَبَقكم ، والعرب تكْني عن مقارفة الرجل أهله وتسمّيه سِرًّا . ومن ذلك قول امرئ القيس :

ألا زعمت بَسْباسةُ اليوم أنّني كَبِرْتُ وأن لا يُحْسِن السِّرَّ أمثالي

وقوله تبارك وتعالى : ﴿إلا أن تقولوا قولا معروفا﴾ أي لكن قد أبحت لكم التعريض فاقتصروا على الألفاظ الكريمة في التعريض برغبتكم ، ولا تقولوا قولا يخدش حياءها أو يثير غريزة الجنس فيها ، ولا بأس أن يذكر الرجل شرفه في قومه ، فقد قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية : حدثنا المثنى قال : حدثنا سويد قال : أخبرنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن سليمان عن خالته سُكَيْنة ابنة حنظلة بن عبد الله بن حنظلة قالت : دخل عليَّ أبو جعفر محمد ابن علي وأنا في عِدَّتي ، فقال : يا ابنة حنظلة ، أنا مَن عَلِمْتِ قرابتي من رسول الله ﷺ ، وحقّ جدّي عليّ ، وقَدَمي في الإسلام ، فقلت : غفر الله لك يا أبا جعفر ، أتخطبني في عدّتي ، وأنت يؤخذ عنك؟ فقال : أو قد فعلتُ؟ إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ وموضعي ، قد دخل رسول ﷺ على أم سلمة وكانت عند ابن عمها أبي سلمة فتُوُفِّيَ عنها فلم يزل رسول الله ﷺ يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتّى أثّر الحصير في يده من شدة تحامله على يده ، فما كانت تلك خِطْبة . اهـ وعبد الرحمن بن سليمان بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة ويعرف بابن الغسيل ، من رجال البخاري ومسلم ، وأبو جعفر هو محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب

رضي الله عنهم، وقد أخرج هذا الأثر المرسل أيضا محمد بن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمة أم سلمة رضي الله عنها قال: أخبرنا الفضل بن دُكَيْن حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل قال: حدثتني خالتي سُكَيْنة بنت حنظلة عن أبي جعفر محمد بن عليّ أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة حين توفي أبو سلمة، فذكر ما أعطاه الله، وما قسم له، وما فضّله، فما زال يذكر ذلك ويتحامل على يده حتى أثّر الحصير في يده مما يحدّثها. اهـ وقد سُقْتُ هذا الأثر لأنه إحدى صور التعريض الجائزة ولا تعد خِطْبة صريحة.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَعْزِموا عُقْدَةَ النكاح حتى يبلُغَ الكتابُ أجلَه﴾ أي ولا تعقدوا عقد الزواج حتى تخرج المرأة من عدتها وينقضي الأجل الذي ضربه الله عز وجل لذلك وهو وضع الحمل لمن كانت حاملاً أو مُضِيُّ أربعة أشهر وعشر لمن لم تكن حاملا في عدة الوفاة، أو مُضِيُّ ثلاثة قروء أو ثلاثة أشهر للمطلقة المبتوتة أو التي بانت من زوجها بعد طلاق رجعي كما مرّ، والمراد بالكتاب هنا هو الحدّ الذي جعله الله ورسمه وفرضه وكتبه في شأن عدة النساء، وقد أجمع العلماء على بطلان عقد النكاح في العدة من غيره ووجوب التفريق بينهما. وقوله تبارك تعالى: ﴿ واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أنّ الله غفور حليم﴾ أي وأَيقنوا أيها الراغبون في الزواج ممن بانت من زوجها بطلاق أو تُوُفِّيَ عنها زوجها أن الله مطّلع على سرائركم ومكنونات ضمائركم فاحذروا أشد الحذر أن تأتوا شيئا مما نهاكم عنه، وإن أغراكم الشيطان بشيء من معصية الله فسارعوا إلى التوبة، ولا تيأسوا من روح الله لأنه غفور حليم لا يعجل بالعقوبة. وبعد أن بين الله تبارك وتعالى أحكام من عليهن عدّ ة من النساء شرع في بيان أحكام المطلقات اللاتي لا عدة عليهن وهن المطلقات قبل الدخول بهن، وهن على قسمين القسم الأول من طُلِّقَتْ قبل الدخول ولم يُسَمَّ لها مهر، والثاني من

طلقت قبل الدخول وقد سمّي لها مهـر، فقال عز وجل: ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مـالم تمَسُّوهنّ أو تفـرضوا لهنّ فـريضة﴾ قـال القرطبي رحمه الله: لما نهى رسـول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الـذّوق وقضـاء الشهوة، وأمـر بـالتـزوج لطلب العصمة والتماس ثـواب الله وقصـد دوام الصحبـة، وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جـزءا من هذا المكروه، فنزلت الآيـة رافعة للجنـاح في ذلك إذا كـان أصل النكـاح على المقصد الحسن اهـ والمطلقـات التي مضى ذكرهن في هـذه السـورة الكريمـة قبل ذلك هي التي دخل عليها زوجهـا وكان قـد فرض لها مهـرا، وقد بين الله تبـارك وتعالى أنها استحقت كـامل مهرهـا بالدخـول حيث قال عـز وجل: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا ممـا آتيتموهن شيئا إلا أن يخافـا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جنـاح عليهما فيما افتدت به﴾ وفي هذه الآيـة الكريمة يبيّن الله تبـارك وتعـالى حكم المطلقـة التي يطلقها زوجهـا قبل الـدخـول بها وقبل أن يفـرض لها صَدَاقـا معلومـا، وقـد نفى الله تبارك وتعـالى الحرج على من طلق امـرأتـه قبل الدخـول وقبل تسميـة الصَّـدَاق، وفرض لها على زوجهـا متعـة بحسب يُسْره وعُسْره، حيث يقـول عز وجـل: ﴿ومتّعوهن على الموسع قَـدَرُه وعلى المقْترِ قَدَرُه متاعًا بالمعروف حقا على المحسنين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ما لم تمسّـوهن أو تفرضـوا لهنّ فريضـة﴾ أي من قبل أن تـدخلوا بهن أو تقـدّروا وتحدّدوا لهن صداقا، و«أو» في قـوله تعالى: ﴿أو تفرضـوا﴾ بمعنى الواو على حد قولـه تبارك وتعالى: ﴿ولا تُطِعْ منهم آثما أو كفورا﴾ أي وكفـورا، وكقوله عز وجل: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفـر أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ معناه: وجـاء أحد منكم مـن الغائط وأنتم مـرضى أو مسافـرون. وإذا كان المراد من نفي الجنـاح هو عـدم وجوب المهـر فـ«أو» على معنـاها الأصلي لأن المهـر لا يجب إلا عنـد المسيس أو فـرضـه عنـد العقـد، وإن كـان يتنصف

بالطلاق قبل المسيس . وقولـه عز وجل : ﴿ومَتِّعُوهن على الموسِع قَدَرُه وعلى المقْترِ قَدَرُه﴾ أي وأعطوهنّ شيئا من المال يكـون متاعا لهن ، والتعبير بـ«على» في قولـه عز وجل : ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قـدره﴾ بعد الأمر بقـوله : ﴿ومتعوهن﴾ لتأكيـد وجوب المتعة للمطلقة قبل المسيس ولم يكن قـد فرض الزوج لها صـداقا معلـوما . وفي قولـه تبارك وتعـالى : ﴿حقا على المحسنين﴾ زيـادة في تأكيد الإيجاب ، وتخصيص المحسنين بـالـذكر لأنهم هم المنتفعـون بأوامر الله الـوقّافون عند حـدوده . والموسع هو الموسر الذي اتسعت حـاله ، والمقْترِ هو المقِلُّ في المال ، وتقييـد المتاع بالمعـروف لأنه لا حـدّ له وإنما يعطي كلّ واحد بحسب أحواله وبما عُرف في الشرع من الاقتصاد والتوسط . وأصل المتاع ما ينتفع به انتفاعا غير بـاقٍ بل منقضيا عن قريب ، ولهذا يقال : الدنيا متاع ، ويُسمّى التلذّذ بالشيء تمتعا به لانقطاعه بسرعة ، وصارت المتعة تُطْلَق على ما يُعْطَى للمـرأة مما ينتفع به عند طـلاقها ، وقد جعلها الله تبـارك وتعالى غير محدودة بحَدّ لأنها كالنفقة التي أوجبها الله تبـارك وتعالى للزوجات ، فهي راجعة إلى يُسْر الزوج وعُسْره مع مـراعاة حال المرأة أيضا بقدر الطاقـة ، وقوله عز وجل : ﴿قَدَرُه﴾ أي قَـدْر طاقته وإمكانه ، والقَدْر بسكـون الدال والقَدَر بفتح الـدال لغتان بمعنـى واحد ، وقـد قـرأ ابن كثير وأبو بكـر عن عـاصم بسكون الـدال . وقد اتفق أهل العلم على أن المراد بالمسيس في هذه الآيـة هو المفارقة ، وعبّر عنهـا بالمسيس تأديبا للعباد في اختيـار أحسن الألفاظ التي لا تخدش حياءً ، وهذا هو دَيْدَن دين الإسلام ، ولله الحمد والمنة .

قال تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النّكاح، وأن تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم، إنّ الله بما تعملون بصير* حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوُسطى وقوموا لله قانتين* فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى حكم المطلقة قبل الدخول بها التي لم يسمّ لها زوجها مهراً، وأنّ لها على زوجها متعة الطلاق بحسب يسره وعسره، بيّن هنا حكم المطلقة قبل الدخول بها التي سمّى لها زوجها صداقا حيث يقول: ﴿وإن طلّقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهنّ فريضة فنِصْفُ ما فرضتم﴾ أي وإن طلقتم النساء من قبل الدخول بهن وقد كنتم قدّرتم لهن صداقا فالواجب على الزوج لزوجته إذا طلقها قبل الدخول وبعد تحديد المهر هو نصف المهر الذي قدّره الزوج لها ويبقى نصف المهر له، ولا خلاف عند أهل العلم أنّ من تزوّج امرأة وسمّى لها مهرًا ومات قبل الدخول بها فإنّ لها المهر كاملا وعليها العدة ولها الميراث الذي تستحقه الزوجة من زوجها الميت، وقد أجمع أهل العلم أيضا على أن الزوج إذا طلق زوجته بعد أن قارفها أنّ لها المهر كاملا ولو لم تكن قد زُفّت إليه ما دام أن ذلك قد حصل بعد عقده عليها، أما إذا خلا بها خَلْوة صحيحة خالية من الموانع فإنه يجب لها المهر كاملا وإن لم يمسّها، وقد أجمع على ذلك الخلفاء الراشدون المهديون وسائر أصحاب رسول الله ﷺ، واعتبروا الخَلْوة الصحيحة بمنزلة المسيس، وأن عليها العدة، كما أن الإفضاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ هو الخلوة كما حُكي عن الفراء فقد قال: الإفضاء: الخَلْوة دخل بها أو لم يدخل اهـ واللغة تؤيد ذلك فإن الإفضاء مأخوذ من الفضاء وهو الخلاء

فكأنه قيل: وقد خلا بعضكم إلى بعض، وقد فسّر غير واحد من أئمة اللغة قوله تعالى: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي خلا الرجل بامرأته سواء قارفها أم لم يقارفها. وقوله عز وجل: ﴿إلا أن يَعْفُون﴾ أي إلا أن تعفو وتتنازل المرأة عن نصف المهر الذي استحقته بالطلاق قبل الدخول بعد أن سُمِّيَ لها الصداق، فإنّ نصف المهر صار خالص حقها ولها أن تتنازل عنه أو عن بعضه للذي طلقها ما دامت مؤهلة لذلك بأن كانت عاقلة بالغة رشيدة، وقد ثبتت النون في قوله عز وجل: ﴿يعفون﴾ مع أنها مسبوقة بأن؛ لأن هذه النون نون النسوة فالفعل المضارع هنا مبني لاتصاله بنون النسوة ووزنه (يفعُلْن) بخلاف ما لو قلت: الرجال يعفون فإن وزنها (يفْعُون) والواو فيها ضمير جماعة الذكور وقد حذفت منها الواو التي هي لام الفعل (يعفو) لالتقائها مع واو الضمير حذر التقاء السّاكنين، والنون في قولك: الرجال يعفون، علامة الرفع لأنه من الأفعال الخمسة التي تُرْفَعُ بثبوت النون وتنصب وتجزم بحذفها، فلو أدخلت (أن) على قولك: الرجال يعفون، لوجب حذف النون فتقول: جاز للرجال أن يعفوا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ لا شك أن عقدة النكاح بيد الوليّ قبل عقد النكاح وعند عقده، أما بعد عقد النكاح فإن عقدة النكاح بيد الزوج، وبالنظر إلى أنه إذا طلقها قبل الدخول بها بانت منه في الحال ولا يملك عليها حقّ الرجعة لأنها لا عدة لها، فصار قوله تبارك وتعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ يحتمل الزوج ويحتمل الولي، ولا شك أن الذي له الحق في العفو عن شيء من الصداق هو من يملك التصرف في الصَّدَاق بَذْلا أو إمساكا، وقد جعل الله تبارك وتعالى مهر المطلقة قبل الدخول نصفين: نصفا للزوجة التي طُلّقت ونصفا للزوج الذي طلقها، وقد ذكر الله تبارك وتعالى عفو المرأة عن حقها أو بعض حقها في قوله عز وجل: ﴿إلا أن يعفون﴾ ولما

كان الزوج هو الذي يملك النصف الآخر من المهر فلا شك أن عفوه عنه أو عن بعضه للزوجة التي طلقها لا سيما إذا كانت قد قبضت المهر كاملا قبل الطلاق، وتنازُلَه لها عن ذلك داخل دخولا أوّليًّا في قوله عز وجل: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ غير أن المطلقة إذا كانت صغيرة أو غير رشيدة وكان أبوها مسئولا عن مهرها وله الحق في التصرف فيه كوليّ اليتيم فإنه حينئذ يكون داخلا تحت قوله عز وجل: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وكون الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج أظهر لإجماع العلماء على أن ما تستحقه المرأة من المهر هو حق خالص لها ليس لوليها حق التسامح فيه أو العفو، وقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ هو حضّ على التسامح فيما بينهما، والخطاب فيه للرجال والنساء حيث سياق الكلام فيهم جميعا، وغُلِّبَ التذكير لأن الرجال قوامون على النساء وهم الأصل في الخطاب، والنساء فرع فيه، ألا ترى أنك تقول في الرجل: جالس، فإذا أردت المرأة قلت: جالسة، فصار اللفظ الدال على المذكر هو الأصل والمؤنث فرعه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ أي وأن يعفو بعضكم عن حقه أو بعض حقه لدى الآخر أقرب إلى اتصافه بتقوى الله عز وجل، وصيرورته مع المتقين، لأنه إذا عفا عن بعض حقه الذي يستحقه تقربا إلى الله عز وجل والتماسا للأجر والثواب من عنده عز وجل كان ولا شك أبعدَ عن الظلم وأخْذِ ما ليس له، ومن كان بهذه المثابة كان من المتقين. وقوله عز وجل: ﴿ولا تَنْسَوُا الفضْلَ بينكم﴾ أي ولا يحملكم السّبب الذي من أجله حصل الطلاق على التباغض والتنافر، وعليكم أن تتذكروا ساعاتٍ من الإحسان والمودة التي كانت حصلت بينكم حتى حصل عقد الزواج، فالكرامُ وأهلُ الفضل يتذكرون ما يكون بينهم وبين غيرهم من الإحسان عندما يصير بينهم بعض الجفوة، ويغلّبون جانب الإحسان على جانب الإساءة، وهذا هو

الخلق الذي يعمل الإسلام على تربيته وتنميته في نفوس المسلمين وسلوكهم كما قال عز وجل: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم* وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم* وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾. وقوله عز وجل: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ ترغيب في التسامح وحضّ على الإحسان والعفو، وترهيب من ظلم أحد المتفارقَيْن للآخر بسبب ما يلقيه الشيطان بينهما بسبب الطلاق. وقوله تبارك وتعالى: ﴿حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ هذا أمر من الله عز وجل بالمحافظة على الصلوات الخمس وتأكيد المحافظة على الصلاة الوُسْطى، وفي توسيط الأمر بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى بين سياق ذكر أحكام النكاح والطلاق والعِدَد والمحافظة على الأولاد للتنبيه على ما تؤديه الصلاة لنفس الإنسان من الاستقرار والطمأنينة وهو يخوض في خضمّ الحياة، وفيه إشارة إلى أن المرأة الصالحة التي ينبغي أن يحرص المؤمن على اختيارها لتكون زوجة له يجعلها الله عز وجل قُرّة عَيْن هي وأولادها لزوجها كما أشار إلى ذلك عز وجل في قوله تبارك وتعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُن﴾ وقد ربط رسول الله ﷺ بين النساء والطِّيب والصلاة فيما رواه النسائي من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُبِّبَ إليّ من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة». وفي لفظ: «حُبِّب إلي النساء والطِّيب وجُعلت قُرة عيني في الصلاة». كما أن في إيراد الصلاة في هذا المقام إشارة إلى أنه لا ينبغي للمسلم أن يشغله عن الصلاة شيء من نفس أو أهل أو ولد، قال أبو السعود العماديّ في تفسيره المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): ولعلّ الأمر بها في تضاعيف بيان

أحكام الأزواج والأولاد قبل الإتمام للإيذان بأنها حقيقة بكمال الاعتناء بشأنها والمثابرة عليها من غير اشتغال عنها بشأنهم بل بشأن أنفسهم أيضا كما يُفْصِح عنه الأمر بها في حالة الخوف، ولذلك أمر بها في خلال بيان ما يتعلق بهم من الأحكام الشرعية المتشابكة الآخذ بعضها بحُجْزة بعض. اهـ ولا شك أن إقامة الصلاة من أكبر العون على تخطّي هموم الحياة الدنيا كما قال عز وجل: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وكما كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَه أمر قام إلى الصلاة، والمراد بالمحافظة على الصلاة في قوله عز وجل: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ هو المواظبة على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، مع حفظ حدودهن وحقوقهن على الوجه الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله وفعله صلوات الله وسلامه عليه، والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر، فقد روى البخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله ﷺ: «ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال يوم الخندق: «حبسونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم أو أجوافهم نارا».
وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا كما شغلونا عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس». وفي رواية للبخاري رحمه الله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس جعل يَسُبُّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلّي حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صلّيتُها» فنزلنا مع النبي ﷺ بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب. وقد أخرجه مسلم من

حـديث على رضي الله عنه قـال: لما كـان يوم الأحـزاب قال رسـول الله ﷺ: «ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا كما حبسونـا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمـس» وفي لفظ لمسلم من حديث على رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب وهو قاعد على فُـرْضة من فُرَض الخندق: «شغلونا عن الصلاة الـوسطى حتى غربت الشمس مـلأ الله قبورهم وبيـوتهم نارا». وفي لفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صـلاة العصر ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارا» ثم صلاّها بين العشائين بين المغرب والعشاء. اهــ ومعنى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي وقفوا في صلاتكم خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه. وقوله عز وجل: ﴿فإن خِفْتُم فرِجالا أو رُكبـانا فإذا أمِنْتُم فاذكروا الله كما علَّمكم مـا لم تكونوا تعلمون﴾ أي فإن أصـابكم خوف من عـدو أو سَبُع أو سَيْل ولم تتمكّنوا من القيـام لله في صلاتكم قـانتين فصلّوا بحسَب قـدرتكم رجالاً أي مُشـاةً على أرجلكم أو ركبانـا أي راكبين على مراكبكم كيف أمكنكـم مستقبلي القبلة أو غير مستقبليهـا، بـركوع وسجـود أو إيماء، فإذا زال الخوف عنكم فـالتـزمـوا بالمحافظـة على القيام في صلاتكم خاشعين لله كما علمكم مـا كنتم تجهلونه من أمور دينكم وصفة صلاتكم. وقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: فإذا كان خوف هو أشدَّ من ذلك صَلَّوْا رجالا قياما على أقدامهم أو ركبانـا، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليهـا، وأخرجه مسلـم بلفظ: وقال ابن عمر: فإذا كان خوف أكثر من ذلك فصلّ راكبا أو قائما تُومئ إيماءً.

قال تعالى : ﴿ والذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكم وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيّةً لأزواجِهم متاعًا إلى الحوْلِ غيرَ إخْراجٍ ، فإن خَرَجْنَ فلا جُناح عليكُم فيما فَعَلْنَ فى أنفُسهنَّ مِن معْرُوف ، والله عَزيزٌ حكيمٌ﴾ وللْمُطَلَّقاتِ متاعٌ بالمعروف حقًّا على المتقين﴾ كذلك يبيّنُ الله لكم آياته لعلكم تعقلونَ﴾

قد بينت في تفسير قوله عز وجل : ﴿والذين يُتَوفَّوْن منكم ويذرون أزواجًا يتربّصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشرا﴾ الآية ، بأنها ناسخة لقوله عز وجل : ﴿والذين يُتَوَفَّون منكم ويذرون أزواجا وصيّةً لأزواجهم متاعًا إلى الحول غَيْرَ إخراج﴾ وذكرت أنه لا غرابة في كون الآية المنسوخة جاءت في ترتيب التلاوة بعد الآية الناسخة ، إذ من المقطوع به وجود سور مكية في ترتيب التلاوة بعد سور مدنية مع أنها متقدمة عليها في النزول ، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ما نَنْسَخْ من آية أو نُنْسِها﴾ الآية ، أن النسخ قد يكون للآية وحكمها ، وقد يكون للتلاوة مع بقاء الحكم ، وقد يكون النسخ للحكم مع بقاء التلاوة كعدة المتوفَّى عنها زوجها حيث كانت عدتها سنة كاملة لا تخرج فيها من بيتها لقوله تعالى : ﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج﴾ فقد نسخ حكمها مع بقاء تلاوتها بقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين يتوفّون منكم ويذرون أزواجا يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير﴾ فإن قال قائل : كيف ينسخ الحكم وتبقى التلاوة مع أن التلاوة هي دليل الحكم فلو رفع المدلول لبقي الدليل بلا فائدة؟ فالجواب أن الفائدة موجودة وهي التعبّد بلفظها حيث لا تزال قرآنيّتها التي أبقاها العليم الخبير الحكيم . فمن قرأ منها حرفا فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، فقد روى الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، عن ابن

مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف». ومعنى قوله عز وجل: ﴿وصيّة لأزواجهم متاعًا إلى الحول غير إخراج﴾ أي يوصيكم الله عز وجل ويعهد إليكم يا أولياء التركة بأن تقدّموا للزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ما يمتعهن لمدة سنة كاملة من النفقة والسكنى ولا تخرجوهن من بيوتهن مدة الحول. وقد نسخ هذا الحكم من إيجاب النفقة والسكنى للمتوفى عنها زوجها بما جعل الله تبارك وتعالى لها من الميراث، كما نسخ الحول بأربعة أشهر وعشر كما تقدم. وقوله عز وجل: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ أي فإن انتهت عدّتهن وخرجن من الإحداد فلا حرج عليكم فيما يفعلن بأنفسهن من التجمل للخطاب والتزيّن ما دام في حدود المعروف شرعا، وقوله عز وجل: ﴿والله عزيز حكيم﴾ وعيد لمن خالف أمر الله من الأولياء والنساء المتوفّى عنهن أزواجهن وإشعار بأن شرع الله عز وجل مبني على الحكمة التامة التي فيها صيانة حقوق الأحياء والأموات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾ هذا هو ختام المسك لأحكام النكاح والطلاق والعِدَد والرضاع في هذا المقام الكريم، وقد ختم الله عز وجل هذه الأحكام بلفت الانتباه إلى رعاية حق الزوجة المطلقة بتقديم متعة لها عند طلاقها، وهذه المتعة غير المتعة التي فرضها الله عز وجل للمطلقة قبل المسيس التي لم يُسَمَّ لها مهر، فإن المتعة لغير المطلقة قبل المسيس التي لم يُسَمَّ لها مهر إنما تكون على سبيل الهدية من المطلّق لمطلّقته للإشعار ببقاء المعروف والإحسان بينهما، وقد أرشد إلى ذلك قوله عز وجل: ﴿يا أيها النبيّ قل لأزواجك إن كنتن تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكنّ وأسرّحكنّ سراحا جميلا﴾ ونساء النبي ﷺ قد دخل بهن رسول الله ﷺ وسمّى لهن مهرا،

ففي هـذه الآية الكـريمـة الحضّ على تمتيع المطلقات المدخـول بهن بما تيسّر، وقد متّع رسول الله ﷺ الجَوْنِيَّةَ بِرَازِقِيَّيْـنِ. فقد روى البخاري من حديث أبي أُسَيْدٍ رضي الله عنـه قال: خرجنـا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حـائط يقال لـه: الشـوط، حتى انتهينـا إلى حـائطين فجلسنـا بينهما، فقـال النبي ﷺ: «اجلسـوا ههنـا» ودخل، وقد أُتِيَ بـالجونيّـة فأُنْـزِلَتْ في بيت، في نخل، في بيت، أُمَيْمَةُ بنت النّعمان بن شراحيل، ومعها دايتهـا حاضنة لها، فلما دخل عليهـا النبي ﷺ قـال: «هبي نفسك لي» قـالت: وهل تهبُ الملكـةُ نفسَهـا للسُّوقـة؟ قال: فأهـوى بيده يضعُ يده عليهـا لتسكن، فقالت: أعـوذ بالله منك، فقال: «عـذت بمَعَاذٍ» ثم خـرج علينا فقال: «يـا أبا أسيـد، اكْسُها رازقيّتين، وألحقها بأهلها» وقال الحسين بن الوليد النّيسابوريّ عن عبد الرحمن عن عبـاس بن سهل عن أبيـه وأبي أسيـد قالا: تـزوّج النبي ﷺ أميمـة بنت شَرَاحِيل، فلما أُدْخِلَتْ عليه بسط يـده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمـر أبا أسيد أن يجهّـزها ويكسوهـا ثوبين رازقيين. حدثنـا عبد الله بن محمد حـدثنا إبراهيم بن أبي الوزيـر حدثنا عبد الرحمن عـن حمزة عن أبيه، وعن عباس بن سهل بن سعـد عن أبيـه بهذا. اهـ قـال الحافظ ابن حجـر في فتح البـاري: قولـه: فأنزلت في بيتٍ في نخلٍ في بيتٍ أميمـةُ بنت النعمان بن شراحيل. هو بالتنوين في الكلّ وأميمة بالرفع إمـا بدلا عن الجونية وإما عطف بيان، وظنّ بعض الشرّاح أنه بالإضـافة فقال: في الكلام على الرواية التي بعـدها: تزوج رسـول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، ولعل التي نـزلت في بيتها بنت أخيهـا. وهو مردود، فإنّ مخرج الطريقين واحـد، وإنما جاء الوهـم من إعادة لفظ «في بيت» وقد رواه أبـو بكر بن أبي شيبة في مسنـده عن أبي نعيم شيخ البخـاري فيـه فقال: في بيت في النخل أميمـةُ الخ، اهــ وقـوله في الحديث: «اكسهـا رازقيين» أي أعطهـا رازقيين كسوة ومتعـة لها، قـال في القامـوس المحيط عن

الرازقية : ثياب كتّان بيض اهـ وقال الجوهري في الصّحاح : والرّازقية ثياب كَتّان بيض ، قال لبيد يصف ظُرُوف الخمر:

لها غَــلَلٌ من رازِقيّ وكُرْسُـفٍ بأيْمــان عُجْم يَنْصُــفُون المَقَــاوِلا

أي يخدمـون الأقيـال اهـ وقـال ابن منظـور في لسـان العرب : والـرّازقيـة والرّازقي : ثياب كَتّـان بيض ، وقيل : كلّ ثوب رقيق رازقيّ ، وقيل : الرازقيّ الكتّان نفسه ، قال لبيد يصف ظروف الخمر:

لها غــلل من رازقيّ وكرسـف بأيمــان عجـم ينصـفون المقـاولا

أي يخدمون الأقيال . وأنشد ابن بَريّ لعوف بن الخَـرِع :

كــأنّ الظّبــاء بها والنّعــا ج يُكْسَيْــن من رازقيّ شــــعارا

وفي حديث الجونية التي أراد النبيّ ﷺ أن يتزوجها قال : «اكسها رازقيين» وفي رواية : رازقيتين ، هي ثيـاب كَتّان بيض اهـ وقـوله تبارك وتعـالى : ﴿حقا على المتقين﴾ بتخصيص حقيته للمتقين للتنبيه على أن أوامر الله عز وجل إنما ينتفع بها المتقون ، كما تقـدم نظيره كثيرا ، وقوله تبارك وتعـالى : ﴿كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره : كما بينت لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم أيها المؤمنون ، وعرفتكم أحكامي ، والحقّ الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات ، فكذلك أبيّن لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنـزلتها على نبيّي محمد ﷺ في هذا الكتاب ، لتعقلـوا ــ أيها المؤمنـون بي وبرسـولي ــ حـدودي ، فتفهمـوا الـلازم لكم من فرائضي ، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم ، وعاجلكم وآجلكم ، فتعملوا بـه ليَصْلُح ذاتُ بينكم ، وتنالوا بـه الجزيل من ثوابي في معـادكم اهـ وفي قـوله عـز وجل : ﴿لعلكم تعقلون﴾ إشعـار بأن من لم يستفدْ من أنـوار أحكام الشريعة الإسلامية ويحرصْ على أن تكـون منهجه ونبراسه ليس بعاقل حتى ولو كـان في نظر الناس من أعقل الناس ، كما أشـار إلى ذلك رسول الله

ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنّة، وحدثنا عن رفعها قال: «ينام الرجل النّومة فتُقْبَضُ الأمانة من قلبه فيظلّ أثرها مثل أثر الوَكْتِ، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر المَجْلِ، كجَمْر دَحْرَجْتَه على رجلك فنَفِطَ فتراه مُنْتَبِرًا، وليس فيه شيء، ويصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا، ويقال للرجل: ما أعقله، وما أظرفه، وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبّة خردل من إيمان، ولقد أتى عليّ زمان، ولا أبالي أيّكم بايَعْتُ، لئن كان مسلما رَدَّه عليَّ الإسلامُ وإن كان نصرانيا ردّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ فما كنتُ أبايع إلا فلانا وفلانا». اهـ وقوله: «نزلت في جَذْر قلوب الرجال» أي في أصل قلوب الناس وهو كناية عن خلق الله تعالى في تلك القلوب قابلية حفظ الأمانة. والوَكْتَة هي الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه، والمَجْلُ هو أثر يحدث لليد من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة، ويقال: نَفِطَتْ اليد إذا صار بين الجلد واللحم ماء فوقه قشرة رقيقة كأنها بَثْرَة مُنْتَبِرة منتفخة. وفي هذا الحديث نصّ ظاهر على أن العقل الحقيقي هو ما يقود الرجل والمرأة للعمل بشريعة الإسلام، والعضّ عليها بالنواجذ.

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، إنّ الله لذو فضل على النّاس ولّكنّ أكثر النّاس لا يشكرون* وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم* من ذا الّذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون* ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾ أنّ هذا هو أول مقام من المقامات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة الشاهدة بقدرة الله على إحياء الموتى المنْكِرَة على مُنْكِر البعث بعد الموت وكأنه يقول لهم: قد أحييت الموتى فعلا، وكلّ ما وقع فعلاً فهو ممكن عقلاً، فكيف ينكر عاقلٌ البعثَ بعد الموت؟ والمقام الثاني في قوله عز وجل في قصة البقرة وقتيل بني إسرائيل: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾. والمقام الثالث في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ والمقام الرابع قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوما أو بعض يوم، قال: بل لبثت مائة عام، وأحيا الله أمامه حماره الذي كان قدمات معه وقال له: انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما؟ والمقام الخامس في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أو لم تؤمن قال: بلى ولّكن ليطمئن قلبي، قال: فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾. والملاحظ أنّ الله تبارك وتعالى بعد

أن ذكر أحكـام النكاح والطلاق والعـدد والرضـاع ختمها بقولـه عز وجل : ﴿كـذٰلك يبين الله لكم آيـاته لعلكـم تعقلون﴾ ثم ضرب المثل بقـدرتـه على إحياء الموتى بقوله عز وجل : ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحيـاهم﴾ وقد نبه في قصة إحياء قتيل بني إسرائيل بتذييلهـا بقولـه عز وجل : ﴿كـذٰلك يحيي الله الموتى ويريكم آيـاته لعلكم تعقلون﴾ كما لوحظ أنه تبارك وتعالى ذيل ذكر المقام الأول من مقامات إحياء الموتى في سـورة البقرة بقـوله عـز وجل : ﴿ثم بعثناكم من بعـد موتكم لعلكم تشكـرون﴾ كما ذيل هذا المقـام هنا بقـوله عز وجـل : ﴿فقال لهم الله مـوتـوا ثم أحيـاهم إن الله لـذو فضل على النـاس ولٰكنّ أكثـر النـاس لا يشكـرون﴾ وهذا إعجـاز بلاغي عـرفه الـذين سمعوه من أسـاطين البلاغـة وأرباب الفصاحـة من قريش وأيقنوا أنه من عند الله و إن كـانوا جحدوا ذلك كما قـال عز وجل عنهـم : ﴿قد نعلم إنّـه ليحـزنك الـذي يقولـون فإنّهم لا يكذّبونك ولٰكن الظالمين بآيـات الله يجحدون﴾ لقد كان الواحد من المشركين المعاديـن للإسلام ينصـت لبعض آية من كتـاب الله فيخر ساجـدا لما وقع في قلبه من بـلاغتها وفصاحتهـا وما اشتملت عليه الجملـة القصيرة من المعاني الغزيرة كما حدث لبعضهم عندما سمع قوله عز وجل : ﴿فلما استيأسوا منه خلصـوا نجيًّا﴾ أيقن أن هـذا الكلام فـوق قـدرة البشر. ولذلك قـال بعض رؤساء المشركين في وصفه وقد استمع له : إن له لحَلاوة و إنّ عليه لطَلاوة و إن أعلاه لمثمر وإن أسفلـه لمغدق أو معذق وإنه يعلـو ولا يُعلى عليه اهـ وإنك لتجد الآيات المتشـابهة المثاني تتباعد أمـاكنها في كتاب الله وقد يكـون بعضها مكيا وبعضهـا مدنيـا وتحسبها آية واحـدة مع ما وُضع لكل واحـدة منها من علامات فارقة وشارات مميزة تنـاسب ترنيم مكانها وجَرْس موضعها ، ونبرات الأحرف التي تتركب منهـا ولذلك قال عز وجل : ﴿حم* تنـزيل من الرحمن

الرحيم * كتاب فُصِّلت آياته قرآنا عـربيا لقوم يعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تـر إلى الذين خـرجوا من ديـارهم وهم ألـوف حذر الموت فقـال لهم الله موتوا ثـم أحياهم﴾ أي ألم تنظر بعين بصيرتـك ويَنْتَهِ علمك إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم عدد كبير بلغوا ألوفا مؤلفة، فرارا من الموت، فأماتهم الله عز وجل ثم أحياهم ليعلموا أن الحذر لا ينجي من القدر وأن الأعمار بيد القهار فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمـون ولو كانوا في بروج مشيدة وأينما كانوا يدركهم الموت، والمقصود تربيـة نفوس المسلمين وتقوية عزيمتهم على الجهاد في سبيل الله لأنهم لـن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم بإعـلام رسول الله ﷺ ومن يَتَأَتَّى منـه أن يُـوَجَّهَ إليـه هـذا الإخبار بقصـة قـوم من بني آدم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم لِيَرَوْا هم وكلّ من جاء من بعـدهم ممن يصل إليه العلم بقصتهم أن الإماتـة إنما هي بيد الله وحده وأنه هو وحده القادر على إحياء الموتى كذلك، فهو لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، وعلى المسلم أن يطمئن إلى قدر الله وقضائه ويرضى به، وفي هذا أيضا تقـديم بين يدي الأمر بـالقتال في سبيل الله ومجاهدة أعـداء الله بالنفس والمال في قوله تبارك وتعالى بعدهـا مباشرة: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم* من ذا الذي يقـرض الله قرضا حسنـا﴾ الآية ولم يَصِحَّ خبر عن رسول الله ﷺ في بيان جنس هؤلاء الذين خرجوا من ديـارهم وهم ألوف حذر الموت فقـال لهم الله موتـوا ثم أحياهم، كما لم يصح خبر عـن رسول الله ﷺ في أن فرارهم كان من الطاعـون أو من خوفهم من الجهاد في سبيل الله، وإنما جاء علم اليقين بأنهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فأصابهم ما فرّوا منـه وجاءهم الموت الـذي كـانوا يحذرون، كما قـالت أعرابيـة لما فـرّ ولدهـا فأصابته المنية في طريق هروبه فقالت في قصيدة لها ترثيه:

والمنايـــــا رُصَّــــدٌ   للفـــتى حيـــث سَــــلَك

على أن الإسلام قد حذّر من الفرار من الطاعون، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عن الطاعون: «إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدُمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه». كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين، فليس من عبد يقع في الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد. كما حذر الإسلام أشد التحذير من الفرار من الزحف، وعدّه في السبع الموبقات. فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتّولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وقوله عز وجل: ﴿فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ الأمر في قوله عز وجل: ﴿موتوا﴾ أمر كونيّ قدريّ لا يتخلف أبدا على حد قوله تبارك وتعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ ولذلك حذف من الكلام قوله: فماتوا، لأنه معلوم قطعا، ودلّ عليه قوله عز وجل بعدها: ﴿ثم أحياهم﴾ المرتّب على موتهم كأنه قيل: أراد الله عز وجل موتهم فماتوا، ثم أحياهم الله عز وجل. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لذو فضل على الناس ولَكنّ أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي إن الله تبارك وتعالى لصاحب جود وإحسان وإنعام على عباده، ولكن أكثر بني آدم لا يعترفون للمنعم الجليل بنعمته بسبب انقيادهم للشيطان الذي تعهّد بصرفهم عن شكر الله، وإضلالهم عن الصراط المستقيم وحملهم على الجحود

ونكـران النّعم، كما قـال الله عـز وجـل: ﴿قـال فبما أغـويتني لأقعـدنّ لهم صراطك المستقيم* ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وقليل من عبادي الشكـور﴾ وقد أشـار الله عـز وجل إلى أن الشكر نقيـض الكفر حيث يقـول تبارك وتعـالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان مـن نطفة أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فجعلنـاه سميعا بصيرا* إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإمـا كفورا﴾ وقوله عز وجل: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلمـوا أنّ الله سميع عليم﴾ أي وجـاهدوا أعـداء الله لإعـلاء كلمـة الله وابذلـوا أنفسكم في سبيل الله وأيقنوا أن الله معكم يسمع خفقـات قلـوبكم ويعلم مـا تكنّـه صـدوركـم. والمقـاتل في سبيل الله ينـال إحـدى الحسنيين، الشهادة في سبيـل الله أو النصر على أعداء الله، والشهـداء أحياء عنـد ربهم يـرزقـون يفـرحـون بما آتـاهم الله من فضلـه ويستبشرون بـالـذين سيلحقون بهم من قـوافل الشهداء: ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون. وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قـرضا حسنا فيضـاعفه له أضعـافا كثيرة﴾ القرض ما قدّمتَه وسلّفتَـه وأعطيتَه لِتُقْضَاه. والمقصود من إقراض الله عـز وجل بـذل النفس والنفيس في سبيل الله وإعـانـة المجاهـدين، وتجهيـز الغـازين، كما يشمل كذلك الصـدقـات على الفقراء والمسـاكين، وفي قولـه تبارك وتعالى: ﴿من ذا الـذي يقرض الله قرضا حسنـا﴾ درجة عُلْيا في الحض على النفقـة في سبيل الله وعلى الفقراء والمسـاكين، وكأنّ الذي يقـدم المال في هذا الـوجه إنما يسلّمـه لله عز وجل الغنـي الحميد الـذي لا تنفد خـزائنه ولا تغيض على كثـرة العطـاء والجود والإحســان. وهـو شبيـه بما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجـل يقول يوم القيـامة: يـا ابن آدم مَرِضْـتُ فلم تَعُدْني، قـال: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنّ عبدي فلانا مَرِض فلم

تَعُدْه؟ أما علمتَ أنك لو عُدْتَـه لوجَدْتَني عنده؟ يا ابن آدم استطعَمْتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت ربّ العـالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطْعِمْه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمْتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلم تَسْقِني، قال: يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تَسْقِه، أما علمتَ أنك لو سَقَيْتَـه لوجدتَ ذلك عندي» . اهـ أي لـوجدت جزاء هـذا العمل عندي مدّخرا لك في موازينك، وقوله : ﴿قـرضا حسنا﴾ أي طيبا خالصا لله لا مِنّة فيه ولا أذًى لمن أعطيته، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ أي فيوفّيـه الله أجره وقـرضه مضـاعفا فـوق ما أعطى سبعمائة ضعـف، وقد تزيد، فإنه يعطي من يشاء بغير حساب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يَقْبِض ويَبْسُط وإليه تـرجعون﴾ أي والله هـو القابض الباسـط يضيّق على من يشاء بعدله ويوسّع على من يشـاء بفضله، ومرجع جميع الخلائق ومصيرهم إلى الله وحده، وسيجزي كلّ عامل بما عمل، فافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

قال تعـالى : ﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قـالوا لنبي لهم ابعث لنـا ملكًـا نقـاتل في سبيـل الله قـال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا قـالوا : ومالنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخـرجنا من ديارنا وأبنائنـا فلمّا كتب عليهم القتال تولّـوا إلاّ قليلا منهم ، والله عليم بـالظالمين* وقال لهم نبيّهم إنّ الله قد بعث لكم طـالوت ملكًا ، قالـوا أنّى يكون له الملك علينـا ونحن أحقّ بالملك منـه ولم يؤت سعـة من المال ، قال إنّ الله اصطفـاه عليكم وزاده بسطة فى العلـم والجسم والله يؤتي ملكه مـن يشاء ، والله واسع عليم* وقال لهم نبيّهم إنّ آيـة ملكه أن يأتيكم التابوت فيـه سكينة من ربّكم وبقيّة ممّا تـرك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكـة ، إنّ فى ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

بعد أن أمـر الله تبارك وتعـالى المؤمنين بالقتـال في سبيل الله وبذل المال في الجهاد ووجوه الخير، ساق هنا قصّة من قصص بني إسرائيل تكشف تعنّتهم مع أنبيائهم ونكوصهم عن الجهاد في سبيل الله حتى ولو كانوا هم الملحِّين في طلب القتال ، وتـرشد إلى أنّ نصر الله قريب من المحسنين ، وأنـه كم من فئة قليلة غلبت فئـة كثيرة بإذن الله وأن الله مع الصابرين . وفي إيراد هـذه القصة تحذير للمسلمين من أن يسلكـوا سبيل المتعنتين العاصين المذكـورين في هذه القصة ، وحضٌّ لهم على التَّأَسِّي بـالصالحين المذكورين في هذه القصـة ، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى زمـان هذه القصة ، واسْمَيْ قائِدَيْ فـريقَيْها من المؤمنين والكافـرين ، وذكر فيها عبرا عظـاما ، وقد انتهت بتمليك داود عليـه السلام على بني إسرائيل ومـا أنعم الله به عليـه من الـمُلْكِ والحكمـة وأنه علَّمـه مما يشـاء ، وقد بـدأ الله تبارك وتعـالى هذه القصـة هنا فـذكر أنها حـدثت لبني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ، والظاهر من سياق القرآن الكريم يدل

على أن جالوت رأس الوثنيين أوقع ببني إسرائيل، فأجْلَى رجالهم، وسبى نساءهم وذراريَّهم، وتمكن من أرضهم وبلادهم، وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر، يشرح لهم التوراة ويحكم بها فيهم، ويبين لهم ما غيّروه وبدّلوه وحرّفوه من الكلم عن مواضعه، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلّما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي». فلما اشتد تسلّط جالوت ومن معه من الوثنيين على بني إسرائيل قال وُجَهَاؤهم وأعيانهم لنبي من أنبيائهم: ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله. والظاهر أنهم لم يكن قد فرض عليهم قتال أعدائهم فأخبرهم نبيّهم عليه السلام أنه يخشى عليهم أن يَنْكِلوا عن القتال إذا فرض عليهم، ولا يفوا بما التزموا به فقالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، أي أخذت منا البلاد، وسُبِيَتْ الأولاد، فأخبرهم نبيهم عليه السلام أن الله قد عيّن لهم ملكا منهم هو طالوت، فاعترضوا على هذا التعيين وقالوا: كيف يعيّن الله علينا طالوت ملكا ولم يكن في آبائه من ملك؟ فنحن أحقّ بالملك منه مع أنه فقير قليل المال، فأجابهم نبيّهم عليه السلام بأن الله عز وجل قد اختاره ملكا على بني إسرائيل، وقد فضّله من بينكم لمهام الملك وأعطاه الله بسطة في العلم والجسم، فهو أعلم منكم بشئون الحرب وتدبير الأمور، وأشدّ منكم قوة وصبرا وجَلَدًا لملاقاة الأعداء، فلا تعترضوا ولا تتعنّتوا، وأنتم تعلمون أن الله هو الذي اختاره وعيّنه ملكا عليكم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيّهم إن الله تبارك وتعالى جاعلٌ لكم آية على صحة مُلْك طالوت عليكم وهي رجوع الصندوق الذي يشتمل على بعض آثار موسى وهارون، وقد عَجَزْتُم عن إرجاعه من يد مغتصبيه، ولن يطلب منكم بذل مجهود في

استرجاعه، بل سيجيء الصندوق تحمله الملائكة، لا تَرَوْن أحدا من بني آدم يحمله أو يرافقه، وسيكون فيه طمأنينة لبني إسرائيل ودلالة ظاهرة على أن الله تبارك وتعالى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، فصدّقوا وَعْد الله، وسارعوا إلى طاعة طالوت وآمنوا بما أخبرتكم به عن الله عز وجل إن كنتم صادقين في إيمانكم بالله عز وجل، والله تبارك وتعالى قادر على إهلاك الكافرين والانتصار منهم بدون حرب بينهم وبين المسلمين، وإنّما يَشْرَعُ القتال ليبلو بعضكم ببعض ويتخذ منكم شهداء، وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. وقوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ أي قد أتاك العلم يا محمد فيما أقصه عليك من القصص الحق عن الملأ من بني إسرائيل من بعد وفاة موسى عليه السلام. والملأ: هم أشراف القوم ووُجَهَاؤهم وأعيانهم، وقد يراد بالملأ القوم، وهو اسم جمع كالرهط والقوم، لا واحد له من لفظه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ قالوا لنبي لهم ابعَثْ لنا مَلِكًا نقاتلْ في سبيل الله﴾ أي حيث قالوا لنبيّ من أنبيائهم أقم لنا ملكا نقاتل تحت رايته أعداء الله لإعلاء كلمة الله. وقوله عز وجل: ﴿قال هل عَسَيْتُم إنْ كُتِبَ عليكم القتالُ ألا تقاتلوا﴾ هذا استئناف بياني كأن سائلا سأل: فماذا قال لهم نبيهم حينئذ؟ فقيل: قال: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ أي هل عسيتم ألا تقاتلوا إن فرض عليكم القتال، كأنه قال لهم: هل أتوقّع منكم أن تجبُنُوا وتَنْكِلوا عن قتال ومنازلة أعدائكم إن أُلْزِمْتُم بقتالهم؟ وقد وقع ما توقع نبيهم حيث تولّوا عن القتال إلا قليلا منهم، وقوله عز وجل: ﴿قالوا: وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي وأي شيء يمنعنا من قتالهم، ثم أكدوا زعمهم بعِلّة قوية موجبة للقتال وهي قولهم: ﴿وقد أُخْرِجْنا من ديارنا وأبنائنا﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتال تَوَلَّوْا إلا قليلا منهم﴾

أي فلما فرض عليهم القتال وألزموا به جبنـوا ولم يقدموا على قتال أعدائهم بل تولّوا ورجع أكثرهم عن القتال، ولم يثبت منهم إلا القليل الذين جاوزوا النهر مع طـالوت، وقـد طـوى الله تبارك وتعـالى جملا كثيرة هنـا لأنها معلومـة من السياق إذ تقدير الكـلام: فسأل نبيّهم ربه عز وجل أن يكتب عليهم القتال وأن يعيّن لهم ملكا ليقـاتلوا تحت لوائه، فاستجـاب الله لنبيهم وفرض عليهم القتـال وعيّن لهم ملكـا ليقاتـل بهم فلما كتب عليهم القتـال تولـوا إلا قليـلا منهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله عليم بـالظالمين﴾ وعيد شديد لهؤلاء الذين أعرضوا وتـولّوا عن القتال ونكلوا عنه بعد طلبهم لـه، وتناقضت أفعالهم مع أقوالهم، ووضع الاسم الظاهر مـوضع الضمير حيث قال: ﴿بالظالمين﴾ ولم يقل: بهم، لتسجيل صفـة الظلم عليهم وبيـان أنهم هم الـذين ظلمـوا أنفسهم، وقوله عز وجل: ﴿وقـال لهم نبيّهم: إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾ أي وأخبرهم نبيّهم وقال لهم: إن الله أجابكم إلى ما سألتم وعيّن لكم طـالوت ملكـا. وهذا شروع في تفصيل بعـض ما أُجْمِل في قـوله عـز وجل: ﴿تَـوَلَّوْا﴾ حيث كـان من أوّل تـوليهم وتعنتهم وإعـراضهم عن أمر الله هـو إنكارهم إمرة طالوت رضي الله عنه وتمردهم عليه حيث قال عز وجل عنهم: ﴿ قالـوا أنّى يكون لـه الملك علينا ونحن أحقّ بـالملك منه ولم يُـؤْتَ سَعَةً من المال﴾ أي قالوا مستبعدين جدّا أن يكـون طالوت ملكا عليهم: كيف يكون له التملك علينا والحال أنه لا يستحق التملّك لوجود من هو أحق بأن يكون ملكا علينـا من أبناء ملوكنـا الأولين، ولعدم ثرائه وغنـاه فهو رجل فقير قليل المال؟ وقولـه عز وجل: ﴿قـال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطَـة في العلم والجسم﴾ هـو بيـان لـردّ شبهتهم وفسـاد رأيهم من وجـوه، الأول: أن الله اصطفـاه عليكـم واختـاره وهـو العليم الخبير فكـان من الـواجب عليكم والتأدب مع نبيكم أن تسارعوا إلى الرضى والقبول لا أن تتعنّتوا وتعترضوا على

أمر الله الذي أخبركم به نبيكم عليه السلام، والله أعلم بمصالحكم منكم، وقد خصّ الله تبارك وتعالى طالوت بالملك والإمرة من بينكم. والوجه الثاني: أن الله تبارك وتعالى زاد طالوت بسطة في ا العلم، والعلم من الكمالات الحقيقية التي جعل الله لها أثرا عظيما في صلاح الدولة وشئون السياسة وتدبير أمور الحرب و إحباط خُطَط الأعداء ومعرفة أحوال الناس والوفاء لكل ذي حق بحقه. والوجه الثالث: أن الله تبارك وتعالى زاده بسطة في الجسم والناس يعرفون عادة أن العقل السليم في الجسم السليم، ولا شك أن الرجل القويّ الشديد الجامع لصفة العلم وصفة القدرة والقوة أحقّ من يتولى أموركم ويكون له الملك عليكم، إذ قوة الجسم مع قلة العلم والمعرفة قد تكون مهلكة، كما أن زيادة العلم مع عجز الجسم وضعفه قليلة الجدوى. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن تدبير شئون الدولة في الحرب والسلم يحتاج إلى هذين الوصفين: بسطة العلم وبسطة الجسم، كما أشار إلى أن الأجير الصالح هو من تتوافر فيه قوة الجسم والأمانة حيث قال في كتابه الكريم: ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ زيادة توبيخ وتعنيف للمعترضين على أمر الله بتعيين طالوت ملكا، إذ الله عز وجل هو مالك الملك يؤتي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء، والله جليل العطاء واسع الفضل عليم بمن يليق بالملك عليكم، وهو أعلم بمصالحكم منكم. وقوله عز وجل: ﴿ وقال لهم نبيهم إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذُلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي إنّ علامة اختيار الله لطالوت ليكون ملكا عليكم أن يجيئكم صندوق العهد المشتمل على بعض آثار موسى وهارون حتى يصير بين أيديكم دون أن تروا حاملا من البشر له بل تحمله الملائكة، وهو معجزة من الله عز وجل أجراها

لنبيهم تصديقا لـه على أن الله تبارك وتعـالى قـد اختار لهم طـالوت ملكـا . وليست هذه معجـزة لطالوت بل هـي معجزة لنبيهم تصديقـا لما أخبر به من شأن طـالوت . والسكينة : الطمـأنينة ، والبقيـة : الأثر الباقـي ، والمراد بآل مـوسى وآل هـارون : هو مـوسى وهـارون ، ويـؤتى بآل في مثـل هذا المقـام للتفخيم كما قـال رســول الله ﷺ لأبي مـوسى الأشعــري فيما رواه البخـاري ومسلم من حديثـه رضي الله عنه : «لقـد أوتيت مزمـارا من مزامير آل داود» . اهـ والمراد داود نفسه عليه السلام .

قال تعـالى : ﴿فلما فصل طالوت بـالجنود قـال إنّ الله مبتليكم بنهر فمن شرب منـه فليس منّي ومن لم يطعمـه فإنـه منّي إلا من اغترف غـرفـة بيـده ، فشربوا منه إلا قليلا منهـم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قـالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئـة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصّابـرين* ولما بـرزوا لجالوت وجنـوده قـالوا ربنـا أفـرغ علينـا صبرا وثبّت أقدامنـا وانصرنـا على القوم الكـافـرين* فهـزموهم بـإذن الله وقتل داود جالـوت وآتـاه الله الملك والحكمـة وعلّمه ممّا يشـاء ، ولـولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لفسـدت الأرض ولّكنّ الله ذو فضل على العـالمين* تلك آيـات الله نتلـوهـا عليك بـالحقّ ، وإنّك لمن المرسلين﴾

عندمـا أبصر بنو إسرائيل التـابوت مقبـلا عليهم تحمله الملائكـة أظهروا الإذعان والانقيـاد لطالـوت ورضوا به ملكًـا عليهم ، فَتَهَيَّئُوا لقتـال أعدائهم وكان من بينهم داود عليـه السلام ولم يكن قد بُعِثَ بعد ، فلما خـرج طالوت بجيشه متجها لقتـال جالوت ومن معه من الـوثنيين أراد أن يجعل لهم اختبار تصفيـة وتنقية فأخبرهم أن الله سيختبرهـم بنهـر يمرون بـه وهم عطاش وأنـه يمنعهم من الشرب من هـذا النهر فمن شرب منـه لا يشهد القتـال ، ومن لم يشرب منـه فإنـه مؤمـن يجاوز النهر مع المؤمنين وقـد أبيح للـواحـد منهم أن يغترف غُرْفة بيده لا يذوق من النهر غيرها ، فعصى أكثرهم وشربوا من النهر، وتولـوا معرضين ، فلـم يجاوز النهر مع طـالوت سـوى بضعة عشر وثلثمائة . وهذا الاختبـار والابتلاء دليل ظـاهر على علم طـالوت ، وشهـادة جليّةٌ على أهليته للملك وقيادة الجيوش وأنـه ذو خبرة ودراية بنفوس بني إسرائيل الذين لا يثبتـون على حـال ، ولا يستقـرون على هـدًى شأنُهُم عصيـان أنبيـائهم

وملوكهـم ، فجعل لهم هذا الاختبار قبـل لقاء العدو ليتميـز من يصبر منهم ممن لا يصبر، ولا شك أن رجوع هـؤلاء قبل لقاء العـدو لا يؤثـر كتأثيره حال لقاء العـدو، فكان هذا أحد معـالم علم طالوت رضي الله عنـه الذي زاده الله فيه بسطـة ، ومن الحكمة أيضا منعهم مـن الشرب من النهر والاكتفاء بغُـرْفة تَبُلُّ ريقهم ولا تؤذيهم في صحتهم ، إذ مـن العلوم التجريبيـة أن المجهود من السير يضرّه شرب الماء إلا ما يَبُلُّ الريق ولا يـزال بعض قادة الجيوش إلى اليوم يحرّمـون على جنودهم أن يشربـوا في أثناء زحفهم على عـدوهم لما يترتب على ذلك من الضرر بصحتهم ويسمحون لهم عند شدة العطش في أثناء الزحف أن يكتفوا ببل ريقهم بَـلاً خفيفا ، وقد يصاب الإنسـان بالعمى إذا شرب في مثل هـذا الحال ، وقولـه عز وجـل : ﴿فلما فَصَل طالـوت بالجنـود﴾ أي فلما خـرج طالـوت بـالعسكر وشخص بهم من بلـده ، وارتحل في طـريقه للقـاء العدو، وقـوله عـز وجل : ﴿قال إنّ الله مبتليكم بنهَـر﴾ أي إن الله عز وجل سيختبركم بمروركم عنـد نهر عذب الماء وأنتم عطاش ، وقولـه تبارك وتعالى : ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ أي من كَرَعَ وارتـوى فإنه ليس على منهاجي ، والظاهـر أنه نظير قول رسـول الله ﷺ : «فمن رغب عن سنتي فليس مني» . الذي رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث أنس رضي الله عنه قال : جاء ثلاثـة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبِرُوا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبـه وما تأخر، قال أحـدهم : أمّا أنا فأنا أصلي الليل أبـدا ، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أَعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجـاء رسـول الله ﷺ ، فقـال : «أنتم الـذين قلتم كـذا وكـذا؟ أمـا والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ومَن لم يَطْعَمْه فإنه

مني﴾ أي ومن لم يذق من ماء النهر شيئا فإنه على منهجي ويتجاوز النهر معي لقتال أعداء الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا من اغترف غُرْفَةً بيده﴾ أي لكن من تناول بيده غرفة من النهر فإنّ الله تبارك وتعالى يتجاوز عنه ولا يحرّم ذلك عليه، والغُرْفة بضم الغين هي الشيء المغتَرف، والغَرْفة بفتح الغين هي المرة الواحدة من الاغتراف وهو التناول باليد أو بالمغرفة. وما لم تغرفه لا يسمى غرفة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ أي فعصى أمْرَ طالوت أكثرُ جيشه وشربوا من النهر سوى عدد قليل منهم امتنع عن الشرب من النهر طاعة لطالوت رضي الله عنه وجاوزوا النهر معه، وقد جاء في بعض الآثار الصحيحة أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت رضي الله عنه وعنهم كانوا بضعة عشر وثلثمائة رجل بعدد أصحاب رسول الله ﷺ الذين شهدوا بدرا معه صلوات الله وسلامه عليه، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدّة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر بضعة عشر وثلثمائة. قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن. وفي لفظ للبخاري عن البراء قال: كنا أصحاب محمد ﷺ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ولم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلثمائة. وفي لفظ للبخاري رحمه الله من حديث البراء رضي الله عنه قال: كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلثمائة وبضعة عشرة بعدّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ الآية، أي فلما عبر طالوت النهر هو والذين آمنوا معه وجدوا أن عدوّهم جالوت لعنه الله قد حشد جنودا كثيرة، وأعد عدّة عظيمة فقال بعض المؤمنين من أصحاب طالوت رضي الله عنهم: لا طاقة ولا قدرة

لنـا اليـوم على قتـال هـذا العـدو الكثير، كـأنهم استَقَلُّـوا أنفسهم عن لقـاء عـدوهم، فشجّعهم علماؤهم العالمون بـأن وعد الله حقّ وأن النصر من عنـد الله ليس بكثـرة العَـدَد وقـوة العُـدَد، وأنـه ينبغي للمسلم أن يـرغب في الاستشهـاد ولقاء الله في سبيـل الله قائلين لهم: كم من جماعـة قليلـة غلبت جماعة كثيرة بإذن الله وعونه ونصره فاصبروا واحتسبوا واستعينوا بالله إن الله مع الصـابرين بتأييـده وقدرتـه، ولا غالب لمن كـان الله معه، وفي قـولهم: ﴿لا طاقة لنا اليوم﴾ يشعر بـرغبتهم في تأجيل لقاء العدوّ يومئذ لا أنهم أرادوا ترك قتال العدو والنكـول مثل الذين لم يجاوزوا النهر، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربنـا أَفْرِغْ علينا صَبْرًا وثَبِّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكـافرين﴾ أي ولما ظهروا لقتـالهم وتصافُّـوا قالوا: ربنـا اصْبُبْ علينا صبرا واحبس أنفسنـا عن الجزع وثبت أقدامنـا بتقوية قلـوبنا حتى نـرسخ في مقارعـة عدونا ولا نتـزلزل في أرض المعركـة وأعنّا على هذا العـدو حتى تكون الغلبة لنا عليه، واهزم الكافرين وزلـزل أقدامهم واملأ قلوبهم رعبا منا حتى نتمكن من سحقهم. وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿فهزمـوهم بإذن الله وقتل داودُ جـالوتَ﴾ أي فـاستجاب الله عـز وجل دعاءهـم، ونصرهم على أعـدائهم، ومكّن لهم في الأرض، وقتل داودُ جالوتَ ملكَ الوثنيين، وقـد سارع طالوت بالتنازل عن الملك لداود عليه السـلام، وصار أحد جنود داود عليه السلام، وقد أثنى الله تبـارك وتعالى على طـالوت، ووصفـه بأوصاف كـريمة، أمـا ما زعمـه بعض المفسرين والإخبـاريين مـن أن طـالـوت حسـد داود، وأصيب بالجنون وهام على وجهه في الصحـراء فإنه زعم باطل، وأكاذيب إسرائيلية لا دليل عليها من خبر ثـابت، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وآتـاه الله الملك والحكمة وعلمـه مما يشـاء﴾ أي ومنح الله عـز وجل داود عليه السـلام الملك على بني إسرائيل، وبعثه نبيا رسولا، وأنزل عليه الزبور، وعلمه ما يحتاجه بنو إسرائيل

من المنهج القويم، وعلمه صنعة لَبُوس، وألانَ له الحديد، فصنع الدروع التي قد تسمّى الزرَدَ وكان أوّل من صنعها على الوجه الأمثل من بني آدم، وقد أرشده الله تبارك وتعالى إلى الطريقة المثلى في صناعتها فجعلها حِلَقًا بعد أن كانت صفائح ليسهل استعمالها، وأمره عز وجل أن يعملها سابغات، تغطي كلّ جسم لابسها، ويجرّها على الأرض، وتصلح للأجسام المختلفة طولا وعرضاً فيعمّ نفعها جميع المقاتلين، وأمره أن يقدّر في السَّرْد أي في نسج الدّرع وهو إدخال الحَلَقات بعضها في بعض، ولا تُجْعَل المسامير غلاظا فتكسر الحلْقة، ولا دِقَاقا فتتَقَلْقَل فيها، ولا تزاد في متانتها فتَثْقُل على المقاتل، وهذه نعمة جليلة لفت الله تبارك وتعالى انتباه المؤمنين إلى وجوب شكره عليها حيث يقول عز وجل: ﴿وعلّمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكم لِتُحْصِنكم من بَأْسِكم فهل أنتم شاكرون﴾ كما يسّر الله عز وجل لداود عليه السلام قراءة الزبور وخفّفه عليه حتى إنه كان يقرؤه بمقدار ما تُسْرَج دَوَابُّه كما أخبر بذلك الصادق المصدق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد المرسلين محمد ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابّه فتُسْرَج فيقرأ القرآن قبل أن تُسْرَج دوابّه، ولا يأكل إلا من عمل يده» والمراد بالقرآن في هذا الحديث هو الزبور الذي أنزله الله عز وجل على داود عليه السلام حيث يقول عز وجل: ﴿وآتينا داود زَبُورًا﴾ كما يطلق لفظ القرآن بمعنى القراءة، أي قراءة داود الزبور، وقد منح الله عز وجل داودَ عليه السلام صوتا جميلا يتغنى به وهو يقرأ الزبور ويترنّم، وقد وصف رسول الله محمد ﷺ ترنُّم داود بالزبور بصَوتِ المزامير، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يا أبا موسى لقد أُوتِيتَ مزمارا من مزامير آل داود» وقد سقت هذا الحديث قريبا في

تفسير قوله عـز وجل: ﴿مما ترك آل موسى وآل هارون﴾. وقـوله عز وجل: ﴿ولـولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسـدَت الأرضُ ولَكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ولولا أن الله تبارك وتعـالى تفضّل وأنزل الشرائع وفرض فيها على المؤمنين أن يدفعوا شر الكافرين، وأن يأمـروا بالمعروف وينهوا عن المنكر لعمّ الفساد والشرّ في الأرض، وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلا فقد روى البخـاري من حـديـث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قـال: «مَثَلُ القائم في حـدود الله والواقع فيها كمثل قوم اسْتَهَمُـوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استَقوا من الماء مرّوا على من فوقهم. فقالـوا: لو أنّا خَرَقْنا في نصيبنا خَرْقًـا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعا» وقولـه عز وجل: ﴿تلك آيات الله نتلوهـا عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ أي هذه الآيات التي تقدم ذكرها وقصصت عليكم فيها ما قصصت لكم من القصص الحق شـاهدة بأنّ محمـدا هـو رسول الله ﷺ وأنـا أشهد بأن محمـدا رسول من جملة رسلي الـذين أرسلتهم لينيروا الطريق للإنسانيـة ويرشدوا إلى صراط الله المستقيم.

قال تعالى: ﴿تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات، وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القُدس، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات ولٰكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولٰكنّ الله يفعل ما يريد﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة طالوت رضي الله عنه مع بني إسرائيل وأنهم اختلفوا فمنهم من أطاعه لقتال الجبارين ومنهم من عصاه وشرب من النهر بعد أن نهاهم عن الشرب منه، وأن الله تبارك وتعالى نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة، وأنه مكّن داود من قتل جالوت وأعطاه الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء وذكر عز وجل أنه شرع جهاد أعدائه حتى لا يعمّ الفساد في الأرض وأكّد أنّ محمدا ﷺ رسول من رسل رب العالمين، ذكر هنا أنه فضّل بعض هؤلاء الرسل على بعض فجعل بعضهم كَلِيمَه وهو موسى عليه السلام ورفع بعضهم درجات فوق درجات موسى وغيره وهو محمد ﷺ وجعل عيسى ابن مريم كَلِمَتَهُ ورُوحًا منه، وقد لاحظت في غير موضع من القرآن الكريم أن الله تبارك وتعالى يذكر داود عليه السلام في مقامِ مواساة رسوله محمد ﷺ وتسليته مما يلقاه من أذى اليهود أو المشركين ومقامِ التفضيل بين المرسلين ليُثَبِّتَ قَلْبَ رسوله محمد ﷺ ويشعره بأن نواصي العبادَ بيد الله عز وجل يصرّفها كيف يشاء فيهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا، وأن ما يلقاه الإنسان من أذى في جهاد أعداء الله وعند دعوتهم إلى الله عز وجل ليس دليلا على منزلته عند الله إذ لا شك أن موسى عليه السلام أحد أولي العزم من المرسلين وهو أفضل من داود عليه السلام ومع ذلك قد مكّن الله لداود ما لم يمكّنه لموسى عليه السلام فقد لقي موسى عليه السلام

من أذى قومه ما لقي فصبر، ومكّن لداود فجعله ملكا كريما وسلّطه على بني إسرائيل يحكم فيهم فيسمعون له ويطيعون، ليعلم الناس أن الأمر بيد الله، ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلّهم جميعا ولم يختلفوا على أنبيائهم ورسلهم ولم يقتتلوا، كما قال عز وجل: ﴿ذٰلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولٰكن ليبلو بعضَكم ببعض﴾ فقد ذكر الله تبارك وتعالى في سورة الإسراء وهي مكية في سياق ما يلقاه رسول الله ﷺ من أذى قومه وتعنّتهم بعد أن قال: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا* أو خلقًا مما يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرّة، فَسَيُنْغِضُون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا﴾ وبعد أن يقرّر أن بعث العباد سهل عليه ويحذرهم من اتباع الشيطان يقول عز وجل: ﴿وربّك أعلم بمن في السمٰوات والأرض، ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا﴾. كما ذكر عز وجل في سياق بيان ما يلقاه رسول الله ﷺ من أذى قريش في أقسى ما مرّ برسول الله ﷺ من أذاهم له في سورة ص وهي مكية حيث يقول عز وجل: ﴿وقالوا ربنا عَجِّل لنا قِطَّنَا قبل يوم الحساب* اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأَيدِ إنه أوّاب* إنا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق* والطيرَ محشورةً كلّ له أوّاب* وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ وفي هذا المقام من سورة البقرة يواسي رسول الله محمدا ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وأذاهم ومكرهم وكيدهم فيقص عليه ما جرى بين اليهود ونبيٍّ لهم وطالوت وما كان من تعنتهم مع نبيهم ومع طالوت وكيف اختلفوا على طالوت، وعصوا أمره ثم يذكر داود عليه السلام وكيف مكّن الله له في الأرض ثم يذكر أن محمدا ﷺ رسول من المرسلين ثم يذكر التفضيل بين الرسل حيث يقول عز وجل: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي هؤلاء رسلي الذين قصصت عليك قصتهم في هذه السورة وهم موسى وإبراهيم

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ويجوز أن يكون المراد بالرسل في قوله: ﴿تلك الرسل﴾ هم ما ذكرهم الله في قوله عز وجل: ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ فيشمل جميع رسل الله عز وجل المذكورين في هذه السورة وغيرها. وقد أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وأن محمدًا رسول الله هو أفضل الأنبياء والمرسلين جميعا، ولا شك أن القرآن الكريم قد صرح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض في هذا المقام الكريم من سورة البقرة وفي سورة الإسراء كما ذكرت آنفا، ولا معارضة بين هذا التصريح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض وبين ما ورد من الأحاديث الكثيرة الصحيحة التي قد يفهم منها النهي عن تفضيل محمد ﷺ أو تفضيل بعض الأنبياء على بعض، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما يهودي يعرض سِلْعة له، أُعْطِيَ بها شيئا كَرِهه أو لم يَرْضَهُ قال: لا، والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فلطم وجهه قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا؟ قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إنّ لي ذمّة وعهدا، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: «لم لَطَمْتَ وجهه؟» قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال: «لا تفضّلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنْفَخُ في الصور فيُصْعَق مَن في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله» قال: «ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أوّل من بُعِثَ فإذا موسى عليه السلام آخِذ بالعرش، فلا أدري أحُوسِبَ بصَعْقته يوم الطّور أو بُعِثَ قبلي؟ ولا أقول إنّ أحدًا أفضل من يونس بن مَتَّى» فهذا الحديث ونحوه محمول على أنه من باب تواضعه ﷺ إذ أنّ تواضع الرّفيع القدر لا يُنزل من قدره. ولا شك عند أهل العلم أن أولي

العزم من المرسلين أفضل ممن سواهم من الأنبياء والمرسلين، وأن أفضل أولي العزم محمد ﷺ ثم أبوه إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليهم وسلم أجمعين، غير أنه إذا كان المقام مقام تنازع بين أهل الأديان وسببا لإثارة الشرّ و إلحاق الضّرر بالمسلمين فإنه ينبغي الكفّ عن التفضيل على حد قوله تعالى: ﴿ولا تسُبّوا الذين يدعون من دون الله فيسُبّوا الله عَدْوًا بغير علم، كذالك زيّنا لكل أمة عملهم، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبّئهم بما كانوا يعملون﴾ فإن الأصنام والأوثان تستحق السّبّ لكن إذا كان سبّ الأصنام يثير عابديها على المسلمين فإنه يُنْهَى عن سبّها لذلك. وكذلك التّفضيل على وجه الفخر أو الحمية والعصبيّة، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ في منع التفضيل بين الأنبياء. وقوله في الحديث عن موسى عليه السلام: «فأكون أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطّور أو بعث قبلي». لا يدلّ على أنّ موسى أفضل من محمد ﷺ إذ القاعدة عند أهل العلم أنّ المزِيَّة لا تنافي الأفضلية، أي إن ثبت لأحد مَزِيَّة على أحد في جانب من جوانبه لا يدل على أن صاحب هذه المزية أَفضل من الآخر، ومثال ذلك أنّ رسول الله ﷺ رأى في منامه أن بلالاً رضي الله عنه يمشي بين يديه في الجنة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لبلال عند صلاة الفجر: «يا بلال حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَفَّ نعليك بين يَدَيَّ في الجنة» قال: ما عملت عملا أرجى عندي أني لم أتطهر طُهُورا في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطُّهور ما كُتِبَ لي أن أصلّي. وفي لفظ لمسلم«: فإني سمعت الليلة» وفي لفظ له بدل: دَفَّ نعليك: خَشْفَ نعليك. والدّف الحركة الخفيفة والخَشْف الحركة الخفيفة أيضا فالدّف والخشْف بمعنى واحد. وقد جاء في رواية الترمذي وابن خزيمة وأحمد من

حديث بريـدة رضي الله عنه في حديث بلال رضي الله عنـه هذا أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال بِمَ سبقتني إلى الجنـة؟» ولا يخطر على بال مسلم أن بلالا أفضل من رسول الله ﷺ لهذه المزية. وقوله عز وجل: ﴿منهم من كلّم الله﴾ المقصود بالـذي كلمه الله عز وجل هو موسى عليه السـلام كما قال عز وجل عن ذلك: ﴿قـال ياموسى إني اصطفيتك على الناس بـرسالاتي وبكـلامي فخـذ ما آتيتك وكن من الشـاكرين﴾ وفي قـوله عـز وجل: ﴿منهم من كلّم اللهُ﴾ دليل قطعي على إثبـات صفـة الكلام لله عـز وجل وهـو مـذهب أهل السنة والجماعة فهم يجزمون ويعتقـدون أن الله عز وجل يتكلم متى شاء وأنّى شاء، وفيهـا ردّ وإفحام لأهل الأهواء المنكـرين إثبات صفة الكـلام لله، وما أجمل قول أبي عمرو بن العلاء عندما حاول بعض كبار أهل الأهواء أن يَرْشِيَه ليقرأ قولـه عــز وجل: «منهـم مـن كلَّم الله» بنصب لفظ الجلالـــة، فقال له أبو عمرو بن العلاء رحمه الله: هب أني قـرأت كما تريد فماذا تفعل في قوله عز وجل: ﴿فلما جـاء موسى لميقـاتنا وكلمـه ربُّه﴾؟ فبُهِتَ هـذا المنحرف، وهذا من فضل الله على أهل السنة والجماعة فإنك لا تجد مسألة يختلف معهم أهل الأهواء فيها إلا وجـدتَ مع أهل السنة دليلا قاطعـا من كتاب الله تعالى أو من صحيح وصريح السنة النبويـة، ولن تجد لأهل الأهواء فيها دليلا غير التخبّط والاضطراب واتبـاع الأهواء، فللـه الحمد والمنـة. وقولـه عز وجل: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ يعني محمدا ﷺ الذي خصه الله عز وجل بمزايا لم يعطها أحدا سواه، فقـد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث جـابر بن عبـد الله رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خمسـا لم يُعْطَهُنّ أَحَدٌ قبلي، نُصِرْتُ بالـرّعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهـورًا فأيّما رجل من أمّتي أدركتـه الصلاة فليصلّ، وأُحِلّتْ لي الغنـائم ولم تَحِلّ لأحـد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفـاعة، وكـان النبي يُبْعَثُ إلى قـومـه خاصـة

وبُعِثْتُ إلى النـاس عـامّـة». كما رفعه الله عـز وجل ليلـة المعـراج إلى سـدرة المنتهى، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وآتينـا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي ومنحنا عيسى ابن مريم المعجزات الظاهرات الدّالة على أنه رسول الله، إذ صار يبرئ الأكْمَـه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويخلق من الطين كهيئـة الطير فينفخ فيـه فيكون طيرا بإذن الله، وقـوله عـز وجل: ﴿وأيدنـاه بروح القُـدُس﴾ أي وقويناه وأعنّاه بالروح المقدّسة أي المطهّرة والمراد جبريل عليه السلام والإضافة في روح القـدس من إضـافة الموصـوف إلى الصفـة، وقـد مرّ في تفسير الآيـة السابعة والثمانين زيادة بيان لمعنى: ﴿وآتينـا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بـروح القدس﴾. وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولـو شـاء الله ما اقتتل الـذين من بعدهم من بعـدما جاءتهم البينـات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولـو شاء الله ما اقتتلوا﴾ الآيـة. أي ولو أراد الله عز وجل إرادة كـونية ألا يختلف النـاس بعد مجيء الـرسل إليهم بـالمعجـزات فيؤمن بعضهم ويكفـر بعضهم وألا يفرض على المؤمنين قتـال الكافرين لنفذت مشيئتـه وما اختلف الناس في أنبيـائهم وما اقتتلـوا ولكن قضى الله عز وجل اختـلافهم واقتتالهم لحكمتـه البالغـة فاختلفـوا واقتتلـوا، إذ لو شـاء الله عز وجل لهدى النـاس جميعا، ولكن الله الـذي يفعل ما يريـد اقتضت حكمته البالغـة أن يوفق مَن عَلِمَ فيهم الخير بفضله وأن يخذل من علم فيهم الشر بعدله، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنـوا أنفقوا ممّا رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون . ﴾

هذا مقـام آخر من مقـامات الحض على الإنفـاق التي كرّر الله عـز وجل الأمر فيها بالبذل والإنفاق في طرق الخير وأفعال البرّ ولا سيما ما كان في تأييد المجاهدين في سبيل الله . وهذا التأكيـد لحمل النفس على السخاء بالمال بعد الحض على بذل النفس في سبيل الله ، لأن بذل النفس هـو أقصى غاية الجود كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إن ضنّ البخيل بها   والجود بالنفس أسمى غاية الجود

ولما كان بعض النـاس قد لا يقدر على الجهاد في سبيل الله وكانـت معاونة الغـازين بالمال تعتبر مشـاركـة في الغزو أكـد الأمر بـالإنفـاق وأورده مقرونـا بـالجهاد في مـواضع حيث قـال عـز وجل : ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقُـوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ بعد قولـه عز وجل في سياقة الجهـاد : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقـاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ الآيات ، وكما قال عـز وجل : ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وكما قال عز وجل هنا : ﴿يا أيها الذيـن آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ بعد قوله عز وجل مباشرة : ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولّكنّ الله يفعل ما يريد﴾ فالله تبارك وتعـالى يأمر المؤمنين بمكـافحة الكـافرين بـالقتال بالأنفـس وبإنفاق الأموال في معـاونة المجـاهدين . والأمـر بالإنفـاق هنا يشمل الـزكاة الـواجبة ويشمل التطوع بالصدقة . وقـوله تبارك وتعالى : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلَّـة ولا شفاعـة﴾ أي سارعـوا بالإنفـاق قبل أن تموتوا ويجيئكـم يوم القيامة حيث لا تتمكنون فيـه من عمل صالح إذ قد انتهت دار العمل وجاء

يـوم الحسـاب والحصاد والجزاء فـلا يستطيع أحـد استـدراك النفقـة ببيع أو شراء، إذ لا بيع في هذا اليـوم ولا شراء، كما لا يوجد لمن كفر بـالله خليل يوم القيامـة فإن الخلّة تنقطع عـن جميع الكافـرين كما قال عز وجـل: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عـدوّ إلا المتقين﴾ والخلّة بضم الخاء هي خالص المودّة مأخوذة من تخلّل الأسرار بين الصديقين، والخلالة بكسر الخاء والخلالة بفتح الخاء والخلالة بضم الخاء هي الصداقة والمودة كما قـال النابغة الجعدي رضي الله عنه:

وكيف تواصـل من أصـبَحَتْ خِلالتـه كأبـي مَـرْحَـب

وأبو مـرحبٍ كنايـة عن الظل الذي لا دوام لـه ولا بقاء. أمـا الخلّة بفتح الخاء فهي الحاجة والفقر، وقوله عز وجل في سورة الزخرف: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ يفيـد أن قوله عز وجل هنـا: ﴿ولا خلّة﴾ عام أريد به الخصوص لأن آية الزخـرف مكية وهذه الآية مدنية، ولا نسخ في الأخبار. كما أخبر تبارك وتعالى أنه لا يوجد يـوم القيامة شفاعة لمن كفر بالله، وقولـه تبارك وتعـالى هنا: ﴿ولا شفاعـة﴾ عام أريـد به الخصـوص كذلك، لثبوت الشفاعة لأهل الإيمان بكتاب الله تبـارك وتعالى وبسنة رسوله ﷺ ففي القرآن الكريم إثبات الشفاعة في آيـة الكرسي التي تلي هذه الآية مباشرة وهي قولـه عز وجل فيها: ﴿من ذا الـذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ فأثبت الشفـاعة بإذن الله، كما أثبتهـا في قـولـه تبـارك وتعـالى في سـورة الأنبيـاء بقـولـه عـز وجل: ﴿ولا يشفعـون إلا لمن ارتضى وهم من خشيتـه مشفقـون﴾ فأثبت الشفاعـة لمن ارتضى، وقد ذكر شَرْطَي الشفاعـة المُثْبَتَة للمؤمنين في قولـه عز وجل في سورة النحم: ﴿وكم من ملك في السموٰات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعـد أن يأذن الله لمن يشـاء ويرضـى﴾ وقد تقـدم الحديث الـذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله

ﷺ في دعوة فرفع إليه الذراع فكانت تعجبه فنهس منها نَهْسَة وقال: «أنا سيد ولد آدم» الحديث، فقد أثبت فيه الشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ، وقد سقته بتمامه مع تحقيق معنى الشفاعة في تفسير قوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما لا تَجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقْبَل منها شفاعة ولا يُؤْخَذ منها عَدْل ولا هم ينصرون﴾ على أن في تذييل هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ إشعارا بأن هذا الشأن خاص بالكفار فإنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يعني تعالى ذكره بذلك: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيل الله مما رزقناكم من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم، وكذلك كان ابن جريج يقول فيما بلغنا عنه، حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثني حجاج عن ابن جريج قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ قال: من الزكاة والتطوع ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خُلّة ولا شفاعة﴾ يقول: ادّخروا لأنفسكم عند الله في دنياكم من أموالكم، بالنفقة منها في سبيل الله والصدقة على أهل المسكنة والحاجة، وإيتاء ما فرض الله عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عنده مما أعدّه لأوليائه من الكرامة، بتقديم ذلك لأنفسكم ما دام لكم السبيل إلى ابتياعه بما ندبتكم إليه، وأمرتكم به من النفقة من أموالكم ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه﴾ يعني من قبل مجيء يوم لا بيع فيه، يقول: لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه بما أمرتكم به أو ندبتكم إليه في الدنيا قادرين، لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب لا يوم عمل واكتساب وطاعة ومعصية، فيكون لكم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ أو بالعمل بطاعة الله سبيل، ثم أعلمهم تعالى ذكره أن ذلك اليوم مع ارتفاع العمل الذي يُنَال به رِضَى الله أو الوصولُ إلى كرامته بالنفقة من الأموال إذ كان لا مال هنالك يمكن إدراك ذلك به، يومٌ لا مخالّة فيه نافعة

كما كانت في الدنيا ، فإن خليل الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه وأراده بسوء والمظاهرة له على ذلك ، فآيسهم تعالى ذكره أيضا من ذلك ، لأنه لا أحد يوم القيامة ينصر أحدا من الله ، بل ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين﴾ كما قال الله تعالى ذكره وأخبرهم أيضا أنهم يومئذ مع فقدهم السبيل إلى ابتياع ما كان لهم إلى ابتياعه سبيل في الدنيا بالنفقة من أموالهم ، والعمل بأبدانهم ، وعدمهم النصراء من الخلّان والظّهراء من الإخوان ، لا شافع لهم يشفع عند الله كما كان ذلك لهم في الدنيا ، فقد كان بعضهم يشفع في الدنيا لبعض بالقرابة والجوار والخلة وغير ذلك من الأسباب ، فبطل ذلك كلّه يومئذ ، كما أخبر تعالى ذكره عن قِيلِ أعدائه من أهل الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها : ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عامّ والمراد به خاصّ ، وإنما معناه : ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ لأهل الكفر، لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أصل الظلم هو تجاوز حدّ الاعتدال ووضع الأمور في غير مواضعها ، والاعتداء سواء كان على نفس أو عرض أو مالٍ ، وأعظم أنواع الظلم هو الشرك بالله ، والكفر به ، وجحود آياته ، وتكذيب رسله ، كما قال عز وجل : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وإنما يحدث الظلم بسبب ظلمة القلب ، وليس كلّ ظلم كفرا ، لما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحابه : وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فنزلت : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله

ﷺ: «إنـه ليس بـذاك، ألا تسمـع إلى قـول لقمان لابنـه: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآيـة: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسـوا إيمانهم بظلم﴾ شقّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالـوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسـول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمعـون إلى قول لقمان: ﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾» وهـذا يدل على أن قولـه تبارك وتعـالى: ﴿والكافـرون هم الظـالمون﴾ أي والجاحدون لله المكـذبون بـه وبرسلـه هم الموصـوفون بأنهم أظلم النـاس الواصلـون أقصى درجـات الظلم، على أن الظلم ظلمات يـوم القيـامـة فقـد روى البخـاري ومسلم من حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة» كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقـوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامـة، واتقوا الشح فإنّ الشحّ أهلك من كـان قبلكم، حملهم على أن سفكـوا دمـاءهم واستحلّـوا محارمهم». وقـد حذّر الإسـلام من عواقب الظلم بجميع أنـواعه وقـد أخبر رسول الله ﷺ أن الله يقول في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فـلا تظالموا». الحديث، كما وصف الله تبارك وتعالى الحال الفظيعة التي يؤول إليها الظالمون يوم القيامة حيث يقول: ﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخـرهم ليوم تشخص فيه الأبصار* مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئـدتهم هواء* وأنذر الناس يـوم يأتيهم العذاب فيقـول الذين ظلمـوا ربنا أخـرنا إلى أجل قـريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال* وسكنتم في مسـاكن الـذين ظلمـوا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنـا بهم وضربنـا لكم الأمثال* وقـد مكروا مكـرهم وعند الله مكـرهم وإن كان مكـرهم لتـزول منه الجبال* فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾. وكما قال

عـز وجل : ﴿وأنذرهم يـوم الآزفة إذ القلـوب لـدى الحناجـر كاظمين، مـا للظـالمين من حميم ولا شفيع يطـاع﴾ هــذا وينبغي للمسلم أن يكثـــر من الاستغفار من ظلمـه لنفسه، فقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله علمني دعاء أدعـو بـه في صـلاتي، قـال : «قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنـوب إلا أنت، فاغفرلي مغفرة من عنـدك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» .

قال تعالى: ﴿الله لا إلّه إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السمٰوات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيّه السّمٰوات والأرض ولا يؤوده حفظهما، وهو العليّ العظيم﴾.

بعد أن بيّن الله عز وجل أنّ النّاس اختلفوا لمّا جاءتهم الرسل بالبينات، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وأمر المؤمنين بالبذل في مكافحة أعداء الله وأن الكافرين الظالمين المكذبين بالله وبرسله لن يشفع فيهم يوم القيامة شافع، ذكر هنا جملة من صفاته الكريمة وأسمائه الحسنى وبين أنه لا يجرؤ أحدٌ يوم القيامة على الشفاعة لأحد إلا بإذن الله، وقد بيّن قبل ذلك فيما أنزل على رسوله ﷺ بمكة في سورة طه وفي سورة الأنبياء وفي سورة النجم أنه لا شفاعة إلا لمن مات على الإيمان فرضي الله عنه، كما أوضحت ذلك في تفسير الآية السابقة. وهذه آية الكرسي وهي أعظم آية في كتاب الله، وقد جعل الله تبارك وتعالى فيها وضمّنها ما لم تتضمنه أية واحدة أخرى في كتاب الله عز وجل، وما تضمنته إنما تتضمنه آيات كثيرة لا آية واحدة، وقد جعل الله تبارك وتعالى فيها من الخصائص الشيء الكثير كما صحت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فقد قال البخاري في صحيحه: قال عثمان بن الهيثم حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني، فإني محتاج وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كَذَبَك وسيعود» فعرفتُ أنه سيعود لقول

رسول الله ﷺ إنه سيعود، فَرَصَدْتُه، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعليّ عيالٌ، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخلّيت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذه آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي؟» قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إلَه إلا هو الحيّ القيوم﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان» اهـ فقراءة آية الكرسي تطرد الشياطين، وتحفظ المسلم من شرهم وخبثهم وقد روى مسلم من حديث أُبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم﴾ قال: فضرب في صدري وقال: «والله لِيهْنِك العلمُ أبا المنذر». وقد اشتملت هذه الآية العظيمة على عشر جمل، الجملة الأولى هي قوله عز وجل: ﴿الله لا إلَه

إلا هو﴾ أي الله الذي لا يستحق العبادة إلا هو ولا تجوز العبادة لسواه، وقد اشتملت هـذه الجملة على كلمة التـوحيد التـي هي مفتاح الإسـلام ومفتاح الجنة، وقد تقـدم مزيد بيان لمعنـاها في تفسير قوله عـز وجل: ﴿وإلهكم إله واحد لا إلـه إلا هو الرحمن الـرحيم﴾ والجملة الثـانية من الجمل العشر التي اشتملت عليهـا هـذه الآية العظيمـة هي قـوله عـز وجل: ﴿الحي القيـوم﴾ والحيّ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو الحي القيـوم، والحيّ القيوم مذكوران معا في القرآن في ثلاث سـور: أوّلها في هذا المقام من سورة البقـرة والثاني في مطلع سورة آل عمـران: ﴿الم* الله لا إله إلا هو الحي القيوم* نـزّل عليك الكتاب بالحق﴾ والثالث في سورة طه: ﴿وعَنَت الـوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما﴾ وهذان الاسمان من أعظم أسماء الله الحسنى حتى قيل إنهما الاسم الأعظم، فإنهما يتضمنـان إثبات صفـات الكمال لله عـز وجل أكمل تضمّن وأصدقه، فعلى هذين الاسمين الكـريمين مدار الأسماء الحسنى كلّها وإليهما ترجع معانيها، لأن الحياة مستلـزمة لجميع صفات الكمال، والقيوم متضمن كمال غناه وكمال قـدرته، والله تبـارك وتعالى مـوصوف بـالحياة لا يمـوت أبدا ولذلك قال عز وجل: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ فحياته عز وجل حياة كـاملة باقيـة لازمة لذاتـه لا تقبل الفناء أبدا، بخـلاف حياة غيره فإنها حياة ممكنة قابلة للزوال والفناء، والقيـوم هو القائم بنفسه فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته عز وجل له. والجملة الثالثـة من جمل هذه الآية العظمى هي قـوله تبارك وتعالى: ﴿لا تأخـذه سِنَةٌ ولا نـوم﴾ السِّنَة مقـدِّمـة النوم وهي حـالـة فتور وارتخاء تسبق الاستغـراق في النـوم، وقد يطلق عليهـا اسم النُّعـاس، ونفي السنـة والنوم مستلـزم لكمال حياته وقيوميته. قال ابن جرير رحمه الله: ﴿الله لا إله إلا هو الحي﴾ الذي لا يموت ﴿القيوم﴾ على كل مـا هو دونه بالـرزق والكلاءة والتدبير والتصريف

من حال إلى حـال ﴿لا تأخذه سنـة ولا نوم﴾ لا يغيّره ما يغير غيره ولا يُـزيله عما لم يَـزَلْ عليه تنقّل الأحـوال وتصريف الليالي والأيـام، بل هو الـدائم على حال، والقيّوم على جميع الأنـام، لو نام كان مغلوبا مقهـورا لأن النوم غالب النائم قـاهره، ولو وَسَنَ لكـانت السموات والأرض وما فيهما دكًّـا، لأن قيام جميع ذلك بتدبيره وقـدرته، والنوم شـاغل المدبّر عن التدبير، والنّعـاس مانعٌ المقدّر عن التقـدير بـوَسَنِه اهـ وقد روى مسلم في صحيحه مـن حديث أبي مـوسى رضي الله عنه قـال: قام فينـا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقـال: «إن الله عز وجلّ لا ينام ولا ينبغي له أن ينـام، يخفض القسط ويرفعه، يُرْفَع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لـو كشفـه لأحـرقت سُبُحـات وجهه مـا انتهى إليـه بصره من خلقـه». اهـ وسبحات وجهـه أي نوره وجـلاله وبهاؤه. أما الجملـة الرابعـة من جمل هذه الآية الكريمـة فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿له مـا في السمٰوات وما في الأرض﴾ أي إنّ جميع الكـــائنـــات في السمـــوات وفي الأرض ملـك لله وتحت قهـــره وسلطانـه، فهو خالقها ومـدبّرها والمهيمن عليهـا، والإنس والجن والملائكة جميعا عبيـد له، وكما قال عـز وجل: ﴿ إنْ كُلُّ من في السمٰوات والأرض إلا آتي الرحمن عَبْدًا۞ لقد أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا۞ وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾ وإذا كان الله عـز وجل هو مـالك جميع ذلك بغير شريك ولا ند وهـو وحده خـالق كل شيء، فـلا تنبغي العبـادة إلا له وحـده لا شريك لـه. والجملـة الخامسة من جمل هـذه الآية الكريمة هـي قوله تبارك وتعـالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنـده إلا بإذنه﴾ أي من هـذا الذي يجرؤ على أن يشفع لأحـد من غير إذن الله له بالشفـاعة؟ والمراد بالاستفهام هنـا النفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه بسبب عظمـة الله وكبريائه وجلاله فلا يتجـاسر أحد على أن يشفع لأحد إلا أن يأذن الله له في الشفاعة، ولذلك عندما يطلب الناس من الأنبياء

ليشفعوا لهم عند الله في الموقف العظيم فيتأخر عنها الأنبياء ويحيلهم آدم على نوح ثم يحيلهم نوح على إبراهيم ثم يحيلهم إبراهيم على موسى ثم يحيلهم موسى على عيسى ثم يحيلهم عيسى على سيد المرسلين محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين فيأتي رسول الله ﷺ تحت العرش ليستأذن في الشفاعة ويخر لله ساجدا ضارعا إليه في الإذن له بالشفاعة ويُلْهَمُ تحميدات وتقديسات لله عز وجل ما أُلْهِمَهَا من قبلُ فينادى: يا محمد ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تُشفع. أما الجملة السادسة من جمل هذه الآية العظيمة فهي قوله عز وجل: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي إنّ علمه محيط بجميع خلقه وسائر الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها لا يتحرّك متحرك منها ولا يسكن ساكن إلا بعلمه كما قال عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ والجملة السابعة من جمل هذه الآية العظمى هي قوله عز وجل: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي ولا يطّلع أحد من خلق الله مِن مَلَك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهما على شيء من علم الله إلا بما أراد الله تبارك وتعالى اطّلاعه على ذلك وأطلعه عليه كما أنه لا يعلم أحد شيئا عن ذاته المقدسة وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى إلا بما يُعَلِّمه الله من ذلك، ولذلك يقول عز وجل: ﴿ ولا يحيطون به علما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَدًا* ليعلم أنْ قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عَدَدًا﴾ ولذلك أخبر عز وجل عن ملائكته قولهم: ﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ وإذا كان العلم لله وحده، وغيره لا يعلم شيئا من العلم إلا ما يعلّمه الله فكيف يُعْبَدُ غيرُ الله؟ والجملة الثامنة من جمل هذه

الآية العظمى هي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّه السموات والأرض﴾ هذه الجملة هي التي سميت الآية كلّها باسم كلمة منها فقيل لها آية الكرسي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد سئل: هل العرش والكرسيّ موجودان أو أن ذلك مجاز؟ فأجاب: الحمد لله، بل العرش موجود بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها، وكذلك الكرسي ثابت بالكتاب والسنة وإجماع جمهور السلف، وقد نقل عن بعضهم أن كرسيّه علمه وهو قول ضعيف فإن علم الله وسع كلّ شيء كما قال: ﴿ربّنا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رحمة وعلما﴾ والله يعلم نفسه ويعلم ما كان وما لم يكن، فلو قيل: وسع علمه السموات والأرض لم يكن هذا المعنى مناسبا، ولا سيما وقد قال تعالى: ﴿ولا يَؤُودُه حِفْظُهما﴾ أي لا يُثْقِلُه ولا يَكْرِثُه وهذا يناسب القدرة لا العلم، والآثار المأثورة تقتضي ذلك اهـ. أما الجملة التاسعة فهي قوله عز وجل: ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي لا يُتْعِبُه حفظُ السموات والأرض وهذا النفي مستلزم لكمال قدرته، يقال: آدَه الأمر، إذا بلغ منه المجهود وأتعبه، وقد نفى الله عز وجل عن نفسه المقدسة أن يصيبه تعب من حفظ السموات والأرض كما أنه لم يصبه تعب في خلق السموات والأرض كما قال عز وجل: ﴿ولقد خلقنا السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مَسَّنَا من لُغُوب﴾ وفيها ردّ على اليهود قبحهم الله الذين يزعمون في أول صفحة من التوراة التي حرّفوها بأيديهم أن الله تعب لما خلق السموات والأرض واستراح يوم السبت. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرا. أما الجملة العاشرة من هذه الآية العظمى فهي قوله عز وجل: ﴿وهو العلي العظيم﴾ أي وهو عز وجل الكبير المتعال القاهر فوق عباده.

قال تعالى: ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرّشد من الغيّ، فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليمٌ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى اختلاف الناس بعد مجيء الحق وأن منهم من آمن ومنهم من كفر، وقد حضّ على مكافحة الكفر، حتى لا يعم الفساد في الأرض، وذكر آية الكرسيّ المشتملة على أصول أسمائه الحسنى وصفاته العلى، الدالة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده، قال هنا: ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرّشد من الغيّ﴾ ولا نزاع عند أهل العلم أنّ من ارتد عن الإسلام بعد الدخول فيه وأبى أن يرجع إلى الإسلام بعد أن يُبَيَّنَ له بطلان ما قد يكون عنده من شبه أنه يجب قتله، لما رواه البخاري في صحيحه من طريق عكرمة قال: أُتِيَ علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ: «لا تعذّبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه» اهـ وقد أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على قتال المرتدين ومانعي الزكاة وعلى رأس أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ شيخ الأمة الإسلامية وأفضلها بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق ومعه عمر الفاروق رضي الله عن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين، وقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لو منعوني عَنَاقا كانوا يؤدونه على عهد رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما تُوُفِّي نبيّ الله ﷺ واستُخْلِفَ أبو بكر وكفر من كفر من العرب، قال عمر: يا أبا بكر، كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم منّي ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابُه على الله»؟ قال أبو بكر:

والله لأقـاتلنّ من فرّق بين الصـلاة والزكـاة، فإنّ الـزكاة حق المال، والله لـو منعوني عَنَاقًا كانوا يـؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله مـا هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صـدر أبي بكر للقتال، فعـرفت أنه الحق. اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى دعوة أبي بكر لقتال المرتدين في محكم كتابه حيث يقـول عز وجل: ﴿قل للمُخَلَّفين من الأعراب سَتُـدْعَوْن إلى قوم أُولي بأس شديد تقاتلونهم أو يُسْلِمُـون فإن تطيعوا يؤتكم اللهُ أجرا حسنا و إن تَتَولَّوْا كما تولَّيْتُم من قبلُ يُعذِّبْكم عذابـا أليما﴾ وفي هذه الآية الكريمة شهادة من الله سجلها في كتابـه الكريم بصحة إمامة أبي بكر وخـلافته رضي الله عنه لأن هذه الآية نزلت في معاتبة المخَلَّفين عن غزوة تبوك ولم يقاتل رسول الله ﷺ بعد غزوة تبـوك أحدا، ولم يدع رسول الله ﷺ إلى قـوم ليس لهم إلا الإسلام أو السيف بعد نزول هذه الآية قطعا، فكانت هذه الآية شاهد صدق على صحة خلافة الصديق وشرعيـة دعوته لقتال المرتدين ومانعي الزكـاة، وقد صار هذا الحكم معلـومـا من دين الإسـلام بالضرورة، وقـد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي موسى الأشعـري رضي الله عنه قـال: أقبلت إلى النبي ﷺ، ومعي رجـلان من الأشعريين، أحدهما عن يمينـي، والآخر عن يساري، ورسول الله ﷺ يَسْتَاكُ، فكلاهما سأل، فقـال: «يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس!» قـال: قلت: والذي بعثك بـالحق ما أطلعـاني على ما في أنفسهما، وما شَعَرْتُ أنهما يطلبان العمل، فكأني أنظـر إلى سِواكه تحت شَفَتِهِ قَلَصَتْ، فقال: «لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبـا موسى أو يـا عبد الله بن قيس إلى اليمن» ثم أتبعـه معاذَ بنَ جبل، فلما قدم عليه ألقى له وسادة قال: انـزل، وإذا رجل عنده مُوثق، قال: ما هذا؟ قـال: كـان يهوديـا فأسلم ثم تهوّد، قـال: اجلس، قـال: لا أجلس حتى يُقْتَل، قضـاءُ الله ورسولـه، ثلاث مـرات، فأمر بـه فقُتِلَ، ثم تذاكـرنا قيـام

الليل، فقال أحدهما: أمّا أنا فأقوم وأنام، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي. اهـ ولا يستطيع أحد أن ينكر مثل هذا الحكم في شريعة الإسلام لحفظ الدين وحماية الشريعة من التلاعب بها، وحفظ الدين من الكليات الخمس التي اتفق عليها جميع النبيين والمرسلين، على أن جميع الأنظمة الأرضية كالشيوعية ونحوها من المذاهب الباطلة لا يُسْمَح لأحد ممن يُبْتَلَى بالوقوع تحت سيطرة المتسلطين بها أن يَلْمِزَها أو أن يطعن عليها فضلا عن إعلان كفره بها، وهذا لا جدال فيه، وقد أجمع المسلمون على أنّ من أدّى الجزية عن يد وهو صاغر من أهل الكتاب وكذلك المجوس فإنه يُقَرُّ على دينه من اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ولا يُكْرَه على الدخول في دين الإسلام، وفي ذلك يقول الله عز وجل في أهل الكتاب: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله ولا يَدِينون دينَ الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجِزْيَة عن يَدٍ وهم صاغرون﴾ وقد ألحق أصحاب رسول الله ﷺ المجوسَ بأهل الكتاب لأنّ لهم شبهة كتاب، وقد أُثِرَ عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في المجوس: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم». وإن كان هذا الأثر فيه بحث عند أهل العلم إلا أنّ الإجماع منعقد على العمل بحكمه، والإجماع حجة مستقلة لإثبات الأحكام، وما دامت هذه القواعد والأصول التي ذكرتُ قد أجمع عليها المسلمون كان قوله عز وجل: ﴿لا إكراه في الدين﴾ عامًّا أريد به الخصوص وهم أهل الكتاب ومن في حكمهم لأنهم لا يكرهون على دين الإسلام إن أدّوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وما أُثِرَ من سبب نزول هذه الآية الكريمة يؤيد ذلك حيث كان أهل يثرب من الوثنيين يعتقدون أن دين اليهود من أهل الكتاب خير من دينهم وكانت المرأة إذا كانت مقلاتا أي لا يعيش لها ولد أو لا يعيش لها إلا

ولـد واحد نـذرت إن جاءت بـولد أن تهوّده ليعيش على اعتقـادها فلما جـاء الإسلام وأيقنـوا أنه الـدين الحق الذي قد نسخ الله بـه الأديان كلّهـا أراد آباء الأولاد الـذين تهوّدوا أو تنصروا من العرب أن يقهـروهـم على الدخـول في دين الإسلام وتـرك اليهودية أو النصرانيـة فنزلت هـذه الآية، قال ابن جـرير رحمه الله: حدثنا محمد بن بشّار قـال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عـن ابن عباس قال: كـانت المرأة تكون مِقْـلاتًا فتجعل على نفسهـا إن عاش لها ولـد أن تهوّده فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كـان فيهم من أبناء الأنصـار، فقالوا: لا ندع أبنـاءنا، فأنزل الله تعالى ذكـره: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ اهـ قال في القاموس المحيط: والمقْلاتُ ناقة تضع واحدا ثم لا تحمل وامرأة لا يعيش لها ولد، اهـ وقد حاول بعض الناس أن يجعلها دليلا على حرية الدين وأنّ للإنسان أن يدخل أي دين شاء ويخرج منه متى شاء، وقد ربطوا ذلك بقوله عز وجل: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وبقوله عز وجل: ﴿أفأنت تُكْرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وهذا فهم عـاطل باطل فـاسد كـاسد، ينـاقـض القواعد المقـررة المعلومـة من دين الإسـلام بـالضرورة، وقـد جهل هؤلاء أن الأمـر في اللسـان العـربي قـد يأتي للإباحة وللاستحباب وللإيجاب كما يأتي للتهـديد كقوله عز وجل: ﴿اعملوا مـا شئتم﴾ وللتعجيـز والإهانـة كقـولـه عـز وجل: ﴿قل كونـوا حجـارة أو حـديدا* أو خلقـا مما يكبر في صـدوركم﴾ وقد يكـون للصيرورة وللتسخير كقولـه عز وجـل: ﴿كونوا قـردة خاسئين﴾ ومعنى: ﴿قـد تبين الرشـد من الغيّ﴾ أي قـد اتضح الهدى من الضلال. وقـولـه عز وجل: ﴿فمن يكفـر بالطـاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بـالعروة الـوثقى لا انفصام لها﴾ أي فمن خلع الأنداد والأوثـان وما يدعـو إليه شيـاطين الإنس والجن من عبادة غير الله فقـد ثبت في أمـره واستقام على الصراط المستقيـم الذي يـوصلـه إلى

جنات النعيم، وقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وأصل العروة ما يجعل في الدّلو أو في الكوز من المقبض ليستمسك به من يتناوله. ومن عادة صانعها أن يحكمها حتى لا تنقطع. وقوله: ﴿لا انفصام لها﴾ أي لا انقطاع لها فلن يسقط المستمسك بها ولن يهلك، وقد روى البخاري ومسلم من طريق قيس ابن عُبَاد قال: كنت جالسا في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فصلّى ركعتين تجوّز فيهما ثم خرج وتبعته فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة. قال: والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدّثك لم ذاك؟ رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، ورأيت كأني في رَوْضة ذَكَر من سَعَتها وخضرتها، وَسْطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عُرْوة فقيل لي: ارْقَهْ، قلت: لا أستطيع، فأتاني مَنْصَفٌ فرفع ثيابي من خلفي فَرَقِيتُ حتى كنتُ في أعلاها، فأخذت بالعروة، فقيل له: استمسِكْ. فاستيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ فقال: «تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العُرْوة عُرْوة الوُثْقَى فأنت على الإسلام حتى تموت». وذلك الرجل عبد الله بن سَلاَم. اهـ والمَنْصَف والمِنْصَف والوَصِيف هو الخادم. وقوله عز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ إشعار بأن ما يتلفظ به الإنسان أو ينطوي عليه من مُعْتَقَدِ لا يَخْفَى على الله لأنه سميع عليم.

قال تعـالى : ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النـور والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغـوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات ، أولّئك أصحاب النّار هم فيها خالدون* ألم تر إلى الـذي حاجّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت قـال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الـذي كفر، والله لا يهدى القوم الظالمين . ﴾

بعد أن ذكر الله عـز وجل أن الكافر بالطاغـوت المؤمن بالله قد استمسك بالعروة الـوثقى لا انفصام لها ، ذكر هنا أثر الإيمان بـالله على النفس الإنسانية وما يجلبه لها من نور البصيرة وطمأنينة النفس ومعرفة طريق الرشاد ، واتضاح الرؤية عند وقوع المدلهّات وأن الانقيـاد للطاغوت من شياطين الجن والإنس يوقع في الحيرة والشك والارتياب وانطماس معـالم الحقّ ، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ أي الله متولّي أمور الذين آمنـوا به واستجـابوا لرسلـه وناصرهم ، ومـؤيدهم ومـوفّقهم للهدى ، ويدفع عنهم الرّدى ، ويُحِبُّهُم ويستعملهم في مرضاته ، والولي اسم من أسماء الله الحسنى كما قال عـز وجل : ﴿وهو الولي الحميـد﴾ وكما قال : ﴿أم اتخذوا من دونـه أولياء فـالله هـو الوليّ وهـو يحيي الموتى وهـو على كل شيء قديـر﴾ والوليّ : المحبّ والنصير والظهير والمعين والقيّم ، وضـدّ العدوّ، ومن كان الله وليّه كـان وليّا لله يـدفع الله عنه ما يكـره ، وكفى بالله وليـا وكفى بالله نصيرا ، ومن أعظم آثـار ولايـة الله لعبـده أيضـا تيسير سبيل الـرشاد لـه ، وتـوفيقـه لطاعته ، فيحافظ على حدود الله ويسعى في كل ما يقربه إلى الله عز وجل وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى قال : من عادى

لي وليّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنّه» اهـ وبهذه المنزلة يعيش المؤمن في كنف الله ورعايته وتأييده وتسديده وتوفيقه، وتتنزّل عليه الملائكة عند الموت بما يطمئن خاطره ويثلج صدره، فلا خوف عليه ولا حزن كما قال عز وجل: ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ وقد عرفهم الله عز وجل بقوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فكلّ المؤمنين المتقين أولياء لله والله وليّهم، وقد استحوذ الشيطان على بعض الناس من المنتسبين للإسلام، فأوقعهم في حبائله وشباكه، وأغراهم باتخاذ بعض المنتسبين للصلاح وسائط وشفعاء، وسماهم لهم أولياء، فاستجاروا بهم، وسألوهم حوائجهم، فأوقعهم فيما وقع فيه المشركون في الجاهلية الأولى وأعادوا معنى سُوَاع ويَغُوث ويَعُوق ونَسْرٍ وَوَدٍّ، وصاروا لا يعرفون في الشدائد غير أوليائهم ولا يستغيثون إلا بهم وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقالوا: هم يقربوننا إلى الله زلفى، فحكم الله عليهم بالكفر والكذب على الله حيث يقول عز وجل فيهم: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ وقد صار هؤلاء الجاهلون يطوفون حول أضرحة أوليائهم كما يطوف المسلمون بالكعبة مع أن الله عز وجل لم يشرع الطواف حول أي مكان في الدنيا سوى الكعبة المشرفة، وصاروا يذبحون لأضرحتهم القرابين وينذرون لهم النذور، ويخافونهم في السر والعلانية، وينسبون إليهم النفع والضر وقضاء الحاجات

وتفريج الكربات، وقد ادعى هؤلاء الجاهلون لهؤلاء الموتى صفات لا تثبت إلا لله عز وجل فحسبوا أنهم يسمعون أصواتهم وأنهم يكشفون الضرّ عنهم، ويستوي في ذلك من يناديهم من بعيد أو من قريب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ قد أجمع المفسرون على أن المراد ههنا من الظلمات والنور هو الكفر والإيمان، وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمَن مثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّن للكافرين ما كانوا يعملون﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لنور الإسلام الذي يهتدي به المؤمنون، ومثلا لظلمات الكفر التي صار بها الكفار يعمهون حيث يقول في مَثَل أنوار الإسلام الصافية النقية الخالية من الشوائب والشبهات: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزّجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ وقال عز وجل في مَثَل الظلمات التي يعيش فيها الكفار وما هم عليه من الضياع: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب * أو كظلمات في بحر لُجّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور﴾ ومعنى إخراج الله الذين آمنوا من الظلمات إلى النور هو أنهم إذا حاول الشيطان إيقاعهم في الشبهات والضلالات بصّرهم الله عز وجل وأنار لهم الطريق كما قال عز وجل: ﴿إنّ الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ كما أشار الله عز وجل إلى أن ولايته لعبده تثمر نصره وتأييده حيث

يقول تبارك وتعالى: ﴿إنّ وليّيَ الله الذي نـزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين* والذين تـدعون من دونـه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ وقـوله تبارك وتعـالى: ﴿والذين كفـروا أولياؤهم الطـاغوت يخرجـونهم من النور إلى الظلمات﴾ أي ومن اتخذ غير الله وليًّـا تشعبت بــه الطّـرق وتلقفتـه الأهـواء فأخرجته عن فطرة الله التي فطر عليهـا الناس، وألقت به في مَهَامِهِ الضلال وقد أشـار الله تبارك وتعـالى بقوله: ﴿أوليـاؤهم الطاغـوت﴾ إلى تَشَتُّتِ أمور الكافرين، وتباين وتشعّب طرقهم، وأن شياطينهم يدعونهم إلى سبل معوجّة تبعـدهم عن الصراط المستقيم كما قـال عـز وجل: ﴿وأن هـٰذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السّبل فتفرق بكـم عن سبيله﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه وصّى كل نبي ورسول من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام أن يأمـروا قومهم بعبـادة الله وحده والكفر بـالطاغـوت حيث يقول عـز وجل: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ والطاغوت اسم يطلق على المذكـر والمؤنث والواحـد والجمع، ومن استعمالـه في الواحـد قول الله تبـارك وتعالى: ﴿يـريدون أن يتحـاكموا إلى الطـاغوت وقـد أُمِرُوا أن يكفروا به﴾ ومن استعمالـه في الجمع قول الله تبارك وتعالى هنـا في هذا المقام: ﴿أوليـاؤهم الطـاغـوت﴾ والطـاغــوت: الشيطـان والكـاهن وكلّ رأس في الضلال، وكلّ ما عُبِدَ من دون الله وهــو راضٍ، ومن دعا الناس إلى عبادته، والحكم بغير مـا أنـزل الله حكم بـالطـاغـوت، وقـولـه عـز وجل: ﴿أولٓئك أصحاب النـار هم فيها خالدون﴾ أي هـؤلاء الذين اتخذوا الطاغـوت أولياء فأخرجـوهم من فطرة الإسلام التي فطـر الله عليها الناس، واجتالـوهم عنها وأوقعـوهم في ظلمات الكفر وديـاجير الجهالـة هم أصحـاب النار الملازمـون لجهنم يوم القيامة المخلّدون في عذابها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيـم رَبِّـيَ الذي يحيي ويميت

قال أنـا أحيي وأميت قال إبراهيم فـإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الـذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بعـد أن ذكر الله تبارك وتعـالى في الآية السـابقة مـا يفيد تـأييده لأوليـائه وأن أولياء الطـاغوت مقهورون مدحورون في ظلمات الكفر والجهل ذكـر هنا صورة مشرقة من صور نصره لأوليائه و إذلالـه لأولياء الطاغـوت مهما كانت منـزلتهم في أعين الناس حيث قص تبارك وتعالى قصة ملك الكلـدانيين الذين بعث الله فيهم إبراهيم عليه السلام، فلما دعاه إبراهيم عليه السلام إلى عبادة الله الذي يحيي ويميت حاجّ إبـراهيم في ربه وحـاول إطفاء نـور الله بفمه، فقال: أنـا أحيي وأميت فأقتل من أشـاء وأترك مـن أشاء ممن يستحقّ القتل، فأجـابـه إبراهيم عليـه السلام مبطلا تمويهه وتضليله مظهرا قصور مـا استدل به وبطلانه؛ لأن هذا ليس إحيـاء حقيقيا ولا إمـاتـة حقيقيـة وقال لـه: إن الله يأتي بـالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر. ومعنى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبـراهيم في ربـه﴾ أي هل رأيت مثل هـذا الـذي خـاصم إبـراهيم في ربـه؟ والمقصود التعجيب من فعل ولي الشيطان هذا الذي بدّل نعمة الله كفرا فبدل أن يشكر الله على ما آتاه من الملك كفر به وادعى لنفسـه الإلّهية وصار طاغوتا من الطواغيت، وقوله عز وجل: ﴿فبُهِتَ الذي كفر﴾ أي انقطع عن الجدال وبطلت حجته، وعلم أنه لا طاقة له بمخاصمة إبراهيم وفوجئ بما لم يكن له في الحسبان من الحجـة الدامغة التي أفحمه بها خليل الـرحمن، وهكذا يُنْصَر أوليـاء الله ويُهْزَم أولياء الشيطـان. ولذلك يقـول عـز وجل: ﴿ الذين آمنـوا يقاتلون في سبيل الله والـذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقـاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ المقصود من الهداية هنا هي هـداية التوفيق والإعانة والتسديد والتأييد، يحرم الله الكفـار منها عدلا، ويمنحهـا لأوليائه فضلا. أما هـداية

البيان فإنها مبذولـة لجميع المكلفين على حد قوله تبارك وتعـالى : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ أي بينا لهم طريق الخير وطريق الشر فاختاروا الكفر على الإيمان . وأما ما ذكره بعض المفسرين من أن المناظرة هذه قد جرت بين إبراهيم وهذا الملك عندما قدم إبراهيم لطلب الطعام منه ، وأن الملك رفض بعد المناظرة إعطـاء إبراهيم طعاما ، فاشتد حـزن إبراهيم عندما اقترب من منـزل أهلـه كيف يدخل على سـارة و إسحـاق بـدون طعام فمـلأ جُوَالِقَيْـه ترابـا ليؤنس أهلـه عند دخـوله عليهم فلما نـام انقلب التراب دقيقًا أبيض خالصًا . فصنعت سارة منه طعاما ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الطعام فقـال لسارة : مـن أين لك هذا؟ قـالت : من جُـوَالِقِك ، أي من غِـرَارتك ، فذهب إلى الجوالق الآخـر فإذا هو مثله إلخ فهذا كـذب ظاهر وخبر مختلق ، و إسحاق لم يولد إلا بالشام .

قال تعالى: ﴿أو كـالذى مرّ على قريـة وهي خاوية على عروشهـا قال أنّى يحيى هٰذه الله بعد مـوتها؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثـه قال: كم لبثت قال: لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مـائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبيّن له قال: أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾

بعد أن عجّب الله عز وجل نبيّه محمدا ﷺ مـن الذي حاج إبراهيم في ربه وكان ملكـا ومع ذلك نصر الله إبراهيم عليـه السلام عليه، عجّب هنـا نبيّه محمدًا ﷺ من الذي مرَّ على قرية وهي خـاوية على عروشها فقال: أنَّى يحيي هذه الله بعد مـوتها لينبه عباده بذلـك على أنّ قدرته تامّـة وأنه لا يعجزه شيء وأنّ إحيـاء الموتى سهل يسير عليه تبـارك وتعالى. كأنـه قيل: هل رأيت مثل الذي خـاصم وجادل إبراهيم في ربـه؟ أو هل رأيت مثل الذي مرّ على قـرية وهي خـاوية على عروشهـا قال أنّى يحيي هـذه الله بعد مـوتها؟ ولم يثبت عن رسـول الله ﷺ خبر صحيح يثبت اسم الـذي مـرّ على القـريـة الخاويـة على عروشها هذه، قال ابن جـرير رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إنّ الله تعالى ذِكرُهُ عجّب نبيه ﷺ ممّن قـال: - إذ رأى قرية خاوية على عروشهـا - أنّى يحيي هـذه الله بعد موتها؟ مع علمـه أنه ابتـدأ خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمـه بقدرته على ابتـدائها حتى قال: أنّى يحييهـا الله بعد موتها؟ ولا بيـان عندنا من الوجـه الذي يصحّ من قِبَلِه البيـانُ على اسم قائل ذلك، وجائز أن يكون ذلك عُـزَيْرًا، وجائز أن يكون أُورْمِيَا، ولا حـاجة بنا إلى معرفـة اسمه، إذ لم يكن المقصود بـالآية تعـريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعـريف المنكـرين قدرة الله على إحيـائه خلقه بعـد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيـده الحياة والموت ـــ من قريش ومن كان

يكـذّب بذلك من سـائر العرب ـــ وتثبيت الحجّـة بذلك على من كـان بين ظهراني مُهَاجَر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيـل ، بإطلاعه نبيّه محمدا ﷺ على مـا يزيل شكّهم في نبـوّته ، ويقطع عـذرهم في رسالتـه ، إذ كانت هـذه الأنبـاء التي أوحاهـا إلى نبيـه محمـد ﷺ في كتابـه ، من الأنبـاء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومـه ، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب . ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهـم ، بل كان أميّا ، وقومه أميّون ، فكان معلوما بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره أن محمدا ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي مـن الله إليه ، ولو كـان المقصود بذلـك الخبر عن اسم قائل ذلك لكانت الـدَّلالة منصوبـة عليه نصبا يقطع العـذر ويزيل الشّك ولكنّ القصد كـان إلى ذمّ قِيلِه فأبان تعـالى ذكره ذلك لخلقه اهـ كما أنه لم يثبت عن رسول الله ﷺ ما يبيّن اسم القـرية التي مرّ عليها قائل هذه المقـالة ، فتعيينها قول على الله بلا علم ، إذ لـو كان في تعيينها مصلحة لعيّنهـا الله عز وجـل ، ومـا دام القـرآن العظيم قـد نكّرهـا ، ولم يعيّنهـا رسـول الله ﷺ فمن أين لنـا تعريفهـا؟ وقوله عـز وجل : ﴿وهي خاويـة على عروشها﴾ أي وهي سـاقطة على سُقُفها خـالية من أهلهـا يعني أنها سقطت سُقُفها ثم سقطـت جدرانها فوق سقوفها ، يقال : خوت الدار أي خلت من أهلها أو سقطت ، والعروش جمع عـرش وهو سقف البيت وكـلّ ما هُيِّئَ ليُسْتظَلّ بـه ، وقـوله عـز وجل : ﴿قال أنّى يحيي هـٰذه الله بعد موتها﴾؟ ظـاهر هذا السياق الكـريم يُشْعِرُ أنّ قائل هذه المقالة كان مؤمنًا بـالله مقرا به عز وجل فيكون الاستفهام عن كيفية إحيائهـا بعد موتها ، ولا يكون بـذلك شاكا في قدرة الله عـز وجل على إحياء الموتى وإنما هو شبيه بقـول إبراهيم عليه السلام الذي ذكـره الله عز وجل عنه في الآية التي بعـدها مباشرة حيث قـال : ﴿ربّ أرني كيف تحيي الموتى﴾ وهو شبيه بقول زكريا عليه السلام الـذي ذكر الله عز وجل عنه عندما بشّر بيحيى

عليه السلام: ﴿قال ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذٰلِكَ الله يفعل ما يشاء﴾ وهو شبيه أيضا بقول العذراء البتول مريم الذي ذكره الله عز وجل عنها بقوله تبارك وتعالى: ﴿قالت ربّ أنّى يكون لي ولد ولم يمْسسني بشر قال كذٰلك الله يخلق ما يشاء﴾ غير أن هذا القائل لم يطلب أن يرى بعينه كيفية إحياء الموتى وإنما يستفهم عن كيفية إحيائهم، وكان الجواب من الله عز وجل أن أراه الله عز وجل ذلك في نفسه وفي حماره الذي أماته الله عز وجل معه، ومما يؤكد أنه كان مؤمنا قوله عز وجل عنه في نهاية هذه الآية: ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ هذا هو المقام الرابع من مقامات إحياء الله الموتى فعلا، ليكون دليلا قطعيا على قدرة الله على إحياء الموتى عقلا، لأن من المسلّمات العقلية أنّ كلّ ما وقع فعلا كان دليلا على أنه ممكن عقلا، وقوله عز وجل: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ أي فتوفاه الله عز وجل وقبض روحه فاستمرّ ميتا مائة سنة ثم ردّ إليه روحه، وقوله عز وجل: ﴿قال كم لبثتَ قال لبثتُ يوما أو بعض يوم﴾ لا يلزم من هذا السياق الكريم أن يكون قد كلمه الله بنفسه بعد أن بعث فيه الحياة بغير واسطة إذ لا مانع في مثل هذا التعبير أن يكون القائل له هذا القول هو أحد ملائكة الله، ولا يلزم أيضا أن يكون هذا الرجل نبيا أو رسولا إذ أن الله تبارك وتعالى قد يبعث ملكا لغير النبي أو الرسول كما في قصة الرجل الذي زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكا على مدرجته وبشره بأن الله تبارك وتعالى قد أحبه لأنه أحبّ في الله، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مَدْرَجَته مَلَكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإني

رسول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببته فيه. وقد ذكر بعض المفسرين أن سبب قوله: ﴿يوما أو بعض يوم﴾ هو أنه لما سأله: كم لبثت؟ نظر إلى الشمس فوجدها نحو الموضع الذي رآها فيه عند موته فقال: لبثت يوماً، ثم بعد تمعّن قليل تذكر أنها لم تكن قد وصلت إلى هذا الموضع من السماء فقال: أو بعض يوم، ولا إشكال في مثل ذلك عند أهل العلم، وكما قال عز وجل في قصة أصحاب الكهف: ﴿قال قائل منهم كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم﴾ مع أنهم لبثوا أكثر من ثلثمائة عام. وقوله: ﴿كم لبثت﴾ أي ما مقدار المدة التي مكثت هنا؟، وقوله عز وجل: ﴿قال بل لبثت مائة عام﴾ أي بل مكثت ميّتا مائة سنة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه﴾ أي فانظر بعينيك إلى ما كنت تحمله معك من طعام وشراب فإنه على حاله لم تغيّره السنوات المائة التي مرّت عليه بل حفظه الله من أن يتسرب إليه الفساد أو يتغير بطول هذه المدة التي مرّت عليه، وقوله عز وجل: ﴿وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزُها ثم نكسوها لحما﴾ أي وأمعن نظرك إلى حمارك لتتأكد أنه ميّت ولترى بعينيك كيف يحييه الله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ معطوف على مقدر يقتضيه السياق كأنه قيل: فعلنا ما فعلنا لتنظر بعينيك كيفية إحياء الله الموتى وليعتبر من يعلم بقصتك من الناس أن الله عز وجل أحياك بعدما أماتك مائة عام، حيث إن هذا آية من آيات الله الشاهدة الناطقة بأنه لا يعجزه شيء وهو على جمع عباده بعد موتهم إذا يشاء قدير، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾ أي وبعد أن تنظر إلى حمارك ميّتا كرّر النظر إليه لتشاهد عظام حمارك كيف نحييها فتتحرك وترتفع في أماكنها ثم نغطّيها باللحم ليعود حمارك حيّا كما كان أول مرة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مادة النشوز: وأصل هذه المادة

هو الارتفـاع والغلظ، ومنه النَّشْز من الأرض وهو المكـان المرتفع الغليظ ومنه قوله تعـالى: ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزهـا﴾ أي نرفع بعضها إلى بعض، ومن قرأ ﴿نُنْشِرُهـا﴾ أراد: نحييها اهـ وقال البخـاري في صحيحه في تفسير سورة البقـرة: ﴿نُنْشِرُها﴾ نخرجها. اهـ وقراءة (نُنْشِزُها) من السبع المتـواترة وقد قرأ بها حمزة والكسـائي وابن عامر وقرأ البـاقون: (نُنْشِرُها) بالـراء. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿فلما تبيّن له قال أعلم أنّ الله على كل شيء قـدير﴾ أي فلما اتضح له مـا أراد وتحقق بالمشاهدة مـا علمه من قدرة الله وعرف كيفيـة إحياء الله الموتى قال: أعلم أن الله على كل شيء قـدير، وأن ما شاء الله كـان وما لم يشأ لم يكن وأنـه إذا أراد شيئا قـال له كن فيكـون. وقد قـرأ حمزة والكسائي: ﴿قال اعْلَمْ أنّ الله على كل شيء قدير﴾ وقـرأ أكثر القراء: ﴿قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير﴾ فعلى القراءة الأولى هو أمرٌ من الله عز وجل له بأن يتيقّن ويعلم علم مشاهـدة ما كان قـد علمه من تمام قدرة الله قبل تلك المعـاينة، وهو شبيـه بتذييل الآية التـالية التي ذكـر فيها طلب إبراهيم عليـه السلام أن يريه الله كيف يحيي الموتى حيث قال: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطّير فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهنّ جزءًا ثم ادعهنّ يأتينك سعيا، واعلم أنّ الله عزيز حكيم﴾

هذا هو المقام الخامس والأخير من المقامات التي ذكرها الله عز وجل في سورة البقرة لتكون دليلا يقينيا وبرهانا قطعيا على أن إحياء الموتى سهل يسير على الله عز وجل وردٌّ على من أنكر البعث بعد الموت من المشركين والملاحدة وغيرهم؛ لأن ما وقع فعلا هو داخل في دائرة الإمكان العقلي قطعا، وقد كرر الله تبارك وتعالى هذا الأمر في هذه السورة المباركة خمس مرات، كما أكثر الله عز وجل من ذكر أدلة إحياء الموتى في كتابه الكريم وجعل ذلك أحد الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السّور المكية وهي الإقرار بأنه لا إله إلا الله والإقرار بأن محمدًا رسول الله والإقرار بالبعث بعد الموت، وقد كان جدال الكفار في إنكارهم للبعث كثيرا بل كان أشدّ من إنكارهم للتوحيد والرسالة، فلا جرم أن الله تبارك وتعالى ساق له من الأدلة القطعية والبراهين اليقينية ما يشفي القلوب التي هيأها الله عز وجل لقبول الشفاء، وقوله عز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ هذا دليل آخر من أدلة ولاية الله عز وجل للمؤمنين بتأييدهم بالمعجزات، وهو نص صريح على أن إبراهيم عليه السلام كان عند سؤاله موقنا بالبعث بعد الموت وبقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، وأورده الله عز وجل في صورة السؤال والجواب ليكون أوقع في النفس وأثبت للمقصود وهو يقين إبراهيم عليه السلام في قدرة الله على بعث الموتى من قبورهم وتقرير صورة حسية من صور إحياء الله للموتى على يد عبد من عبيده الصالحين،

أي واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم: رب أطلعني على صورة من صور إحيائك للموتى، فقال الله عز وجل وهو العليم الخبير بإيمان إبراهيم ويقينه: ألم تعلم ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني أن أريك كيف أحيي الموتى؟ وأراد الله بهذا السؤال وهو العليم بأن إبراهيم عليه السلام هو أثبت الناس إيمانا ويقينا بذلك ليكون في جواب إبراهيم تقرير بأنه عليه السلام مؤمن بذلك، لم يدخله شكّ قط فيه، فتتربّى ملكة اليقين في قلوب السامعين بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، حيث كان الجواب: ﴿بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ أي أنا موقن مقر بالبعث وقدرة الله على إحياء الموتى، ولكني أحببت أن أضم إلى علم اليقين عين اليقين، وليكون أحد الأدلة المحسوسة على قدرة الله على إحياء الموتى، ولا يخطر على بال ذي بال أن إبراهيم كان شاكا، وقد كان جوابه الصريح أنه موقن مؤمن، وأما ماورواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقّ بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي» فإن المقصود من هذا الحديث هو الثناء على هؤلاء الأنبياء الثلاثة وبيان علوّ درجاتهم وارتفاع منازلهم وأن إبراهيم لو كان شاكًّا في قدرة الله على البعث لكنتُ أولى بالشك منه لأنه إمام الحنفاء وخليل الرحمن، وما دام لم يخطر على بال أحد أن محمدًا ﷺ يشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فكذلك إبراهيم عليه السلام، وهذا الأسلوب من الأساليب البلاغية المعروفة بتأكيد بالمدح بما يشبه الذم على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهنّ فُلُولٌ من قِرَاع الكتائب

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثم اجعل

على كل جبل منهن جزءا﴾ أي إن أردت ذلك فخذ أربعة من الطير فضمّهن إليك وقطّعهن واخلطهن خلطا تتداخل فيه لحومها وأعصابها وعظامها حتى تصير كأنها قطعة لحم واحدة ثم بعد طحنهن على هذا الوصف فرّق لحومهن المختلطة على ما حولك من الجبال واجعل على كل جبل منهن جزءا من أجزاء اللحوم المختلطة بعظامها وعصبها. وهذه الصفة في تقطيع الطيور وخلط بعضها ببعض مأخوذة من قوله تبارك وتعالى: ﴿فصرهنّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا﴾ الذي يدل على أن كلّ جزء مما يوضع على كل جبل يشتمل على جزء من أجزاء الطيور الأربعة وهذا لا يتأتى إلا إذا خلطت خلطا تاماً يتداخل به بعضها في بعض. وقد قرأ حمزة: ﴿فَصِرْهُنَّ إليك﴾ بكسر الصاد. وقرأ الباقون: ﴿فصُرْهُنّ إليك﴾ بضم الصاد وقد نقل غير واحد من أئمة اللغة أن القراءتين بمعنى واحد لا فرق في ذلك بين كسر الصاد أو ضمها، وقد فهم من استعمال العرب لهذه المادة أنها تدور على معان منها: الضمّ والإمالة والإقبال والتقطيع والتجزئة، قال في القاموس المحيط: صَوِرَ كفرح مال وهو أَصْوَر، وصار وجْهَه يَصُورُه ويَصِيرُه أقبل به والشيءَ قطعه وفصّله اهـ وقال الجوهري في الصحاح: وأصاره فانصار أي أماله فمال. ثم قال: وصاره يَصُورُه ويَصِيرُه أي أماله، وقرئ قوله تعالى: ﴿فصرهنّ إليك﴾ بضم الصاد وكسرها قال الأخفش: يعني وَجِّهْهُن، يقال: صُرْ إليّ وَصُرْ وجهك إليّ أي أقبل عليّ، وصُرت الشيء أيضا قطّعته وفصّلته قال العجاج:

صُرنْا به الحُكْم وأعيا الحَكَما

فمن قال هذا جعل في الآية تقديما وتأخيرا كأنه قال: خذ إليك أربعة من الطير فصرْهنّ. اهـ وهذا الرجز الذي نسبه الجوهري للعجاج وكذلك ابن منظور، قد نسبه بعضهم لرؤبة بن العجاج. وقال ابن منظور في لسان

العرب: وصار الشيءَ صَوْرًا وأصاره فانصار: أماله فمال، قالت الخنساء:

لظلّت الشُّهْبُ منها وهي تَنْصارُ

أي تصدّع وتفلّق. ثم قال: وفي التنزيل العزيز: ﴿فصُرْهن إليك﴾ وهي قراءة عليّ وابن عباس وأكثر الناس، أي وجّههن، وذكره ابن سِيدَه في الياء أيضا لأن صُرتُ وصِرْت لغتان، قال اللحياني: قال بعضهم: معنى صُرْهنّ وجّههنّ ومعنى صِرْهنّ قطعهنّ وشققهنّ والمعروف أنهما لغتان بمعنى واحد اهـ والشاهد الذي ذكره ابن منظور عن الخنساء أورده ابن جرير في تفسيره بلفظ: لظلت الشُّمُّ منها وهي تنصار، يعني بالشّم الجبال أنها تتصدع وتتفرق، ومن استعمال صُرْت بمعنى أَمَلْت قول الطِّرِمّاح:

عفائف إلا ذاك أو أن يَصُورَها　　　هوًى والهوى للعاشقين صَروع

فمعنى يصورها يميلها. ومن استعمال هذه المادة بمعنى التقطيع قول توْبة بن الحميّر في ليلى الأخيلية:

فناديت ليلى والحُمُول كأنها　　　مَوَاقير نخل زعزعَتْها دَبُورُها

فقالت: أرى أن لا تفيدَك صحبتي　　　لهيبة أعداءٍ تلَظَّى صُدُورُها

فمدّت ليَ الأسباب حتى بلغتُها　　　برِفْقِي وقد كاد ارتقائي يَصورُها

فقوله: يصورها أي يقطعها. وفي قوله عز وجل: ﴿فصُرْهن إليك﴾ إشعار بأن يتمكن من النظر إلى هذه الطيور قبل تقطيعها وطحنها وتوزيعها على الجبال، ليعرف ألوانها وسماتها حتى إذا أعاد الله لها الحياة لا تختلف عما كانت عليه من السمات والألوان وفي ذلك من دلائل القدرة ما تعجز العقول عن الإحاطة به. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثم ادْعُهُنّ يأتينك سَعْيا﴾ أي ثم نادِ هذه الطيور التي قطّعتها وطحنتها وفرّقت أجزاءها على الجبال وقل لهن: تعالَيْن إليّ بإذن الله، يَجِئْن إليك مُسْرِعات كأنهن ما مسّهن شيء قبل ذلك ويقبلن عليك لا يتأخرن عن دعوتك. وإذا كان المنادي لهن عبد صالح من

عباد الله فما بالك لو كان الداعي لهنّ ربّ العالمين، ومع ما في هذه القصة من الآيات العجيبة الـدالة على قدرة الله التامة التي لا يعجـزها شيء فإنها كذلك آيـة من آيات الله في تكـريم أوليائه وتأييـدهم وإعزازهم، وقـوله عـز وجل: ﴿واعلم أن الله عـزيز حكيم﴾ قـال ابن جـريـر رحمه الله: يعني تعالى ذكـره بـذلك: واعلم يا إبـراهيم أن الـذي أحيا هـذه الأطيـار بعد تمزيقك إيـاهنّ وتفـريقك أجزاءهنّ على الجبـال، فجمعهنّ وردّ إليهنّ الرّوح حتى أعـادهنّ كهيئتهن قبل تفـريقكهنّ «عزيز» في بطشـه إذا بطش بمن بطش من الجبـابرة والمتكبّرة، الذين خالفوا أمره، وعصـوا رسله، وعبدوا غيره، وفي نقمته حتى ينتقم منهم «حكيم» في أمـره اهـ ومن حكمـة الله عز وجل التـامة أنـه يجيب السائلين بعلمه وبما يقتضيـه المقام، ولذلك لم يُرِ الـذي قال: أنى يحيي هذه الله بعـد موتها؟ لما مـرّ على قرية وهي خـاوية على عروشها قـدرتَه على إحياء الموتى إلا بعد أن أماته مائة عام وأمات حماره معه، وأرى إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى في الحال، فسبحان من له الحجّة البالغة والحكمة التامة.

قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم* الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

هذا مقام من مقامات الحض على الإنفاق في سبيل الله عز وجل، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية الأولى من هاتين الآيتين: وهذه الآية مردودة إلى قوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ والآيات التي بعدها إلى قوله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ من قصص بني إسرائيل وخبرهم مع طالوت وجالوت، وما بعد ذلك من نبأ الذي حاجّ إبراهيم مع إبراهيم، وأَمْرِ الذي مرّ على القرية الخاوية على عروشها، وقصة إبراهيم ومسألته ربّه ما سأل، مما قد ذكرناه قبل ــ اعتراضٌ من الله تعالى ذكره بما اعترض به من قصصهم بين ذلك، احتجاجا منه ببعضه على المشركين الذين كانوا يكذّبون بالبعث وقيام الساعة، وحضا منه ببعضه للمؤمنين على الجهاد في سبيله الذي أمرهم به في قوله: ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم. ﴾ يعرّفهم فيه أنه ناصرهم وإن قلّ عددهم وكثر عدد عدوّهم ويعدهم النّصرة عليهم، ويعلّمهم سنّته فيمن كان على منهاجهم من ابتغاء رضوان الله أنّه مؤيدهم، وفيمن كان على سبيل أعدائهم من الكفار بأنه خاذِلهم، ومفرّق جمعهم، وموهن كيدهم، وقطعا منه ببعضه عذر اليهود الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَر رسول الله ﷺ بما أطلع نبيّه عليه من خفيّ أمورهم، ومكتوم أسرار أوائلهم وأسلافهم التي لم يعلمها سواهم، ليعلموا أنّ ما أتاهم به محمد ﷺ من عند الله، وأنه ليس بتخرّص ولا اختلاق، وإعذارًا منه به إلى أهل النفاق

منهم، ليحذروا بشكّهم في أمر محمد ﷺ أن يحلّ بهم من بأسه وسطوته مثل الذي أحلّهما بأسلافهم الذين كانوا في القرية التي أهلكها فتركها خاوية على عروشها ــ ثم عاد تعالى ذكره إلى الخبر عن الذي ﴿يقرض الله قرضا حسنا﴾ وما عنده له من الثواب على قرضه فقال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ يعني بذلك: مثل الذين ينفقون أموالهم على أنفسهم في جهاد أعداء الله بأنفسهم وأموالهم ﴿كمثل حبّة﴾ من حبّات الحنطة أو الشعير أو غير ذلك من نبات الأرض التي تُسَنْبِل رَيْعَها، بذرها زارع فـ ﴿أنبتت﴾ يعني: فأخرجت ﴿سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة﴾ يقول: فكذلك المنفق ماله على نفسه في سبيل الله، له أجره سبعمائة ضعف على الواحد من نفقته اهـ والحبة اسم جنس لكل بذرة يبذرها الباذر في المزرعة مما يُقتات من حِنْطة أو شعير أو دُخْن أو أرز أو ذرة أو غيرها، وقد اشتهر إطلاق اسم الحبّ على البرّ كما قال المتَلَمِّس:

آليت حَبّ العراق الدّهرَ أطعَمُه ... والحَبّ يأكله في القرية السوس

أما الحِبّة بكسر الحاء فهي بذرة البقل مما ليس بقوت كما في حديث الشفاعة: «فيَنبُتُون كما تنبت الحِبّة في حَمِيل السّيل» أما الحبّة بضم الحاء فهي الحبّ، والحِبّ الحبيب. والسّنبلة على وزن فُنعُلة من: أسبل الزرعُ إذا صار فيه السنبل أي صار فيه حبّ مستور كما يُسْبَل الشيء بإسبال السّتر عليه، وقد يقال لها: سَبَلَة، وقد ادعى بعض أهل العلم أنه لا يعرف من الحبوب ما تكون في سنبلته مائة حبة سوى الدخن، قال القرطبي رحمه الله: قلت: هذا ليس بشيء فإن سنبل الدّخن يجيء في السنبلة منه أكثر من هذا العدد بضعفين وأكثر على ما شاهدناه. قال ابن عطية: وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبّة فأما في سائر الحبوب فأكثر، ولكنّ المثال وقع بهذا القدر اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ أصل الضّعف في اللغة المِثْل

فإذا قلت لشخص : لك مـــائة وضعفهـا ، أي لك مـائة ومثلهـا فيصير لـه مئتان ، وكان من فضل الله على المؤمنين أنه من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئـة فلا يجزى إلا مثلها كما قال عز وجل : ﴿من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جـاء بالسيّئة فلا يُجْزَى إلا مثلهـا وهم لا يُظْلَمون﴾ وقد أشار في هذه الآية إلى أن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف وقد قال في آية القرض السابقة : ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ وقال هنا : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء﴾ فردّ عز وجل تضعيف الحسنات إلى مشيئته ، وهو يشعر مع قولـه في آية القرض : ﴿فيضاعفـه له أضعافا كثيرة﴾ أنّ الله تبـارك وتعالى قـديـزيد المنفـق أكثر من سبعمائة ضعف فضـلا منـه وجـودا ، ولا شك أن المنفقين في سبيل الله يتفاوتون فيما ينفقون ، ولا يستوي من أنفق مما يحب وهو صحيح شحيح بمن أنفق وهو ليس كذلك ، ومردّ ذلك إلى الله وحده العليم الخبير بنوايـا خلقه وأحـوال عباده والـوجه الـذي تنفق فيه النفقـة من أبواب الخير. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من تصدّق بعِدْل تمرة من كسب طيّب ، ولا يقبل الله إلا الطّيّب ، فإنّ الله يتقبّلهـا بيمينـه ثم يربّيهـا لصـاحبها كما يـربّي أحَدُكم فَلُوَّه ، حتى تكون مثل الجبل» اهـ ولا شك أن الجبل يزيد على التمرة بأضعـاف لا يكاد يحصي عددهـا الإنسان ، وقـد جاء في حـديث مسلم عن عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه قـال : جاء رجل بنـاقة مخطـومة فقـال : يا رسـول الله ، هـذه في سبيل الله فقـال : «لك بها يـوم القيـامـة سبعمائة نـاقـة مخطومة» وقد أشار رسول الله ﷺ في حـديث فضل الصوم إلى أن الله قد يزيد في جـزاء الحسنة أكثـر من سبعمائة ضعف ، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «كلّ عمل ابن آدم يُضَاعَف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعـف قال الله تعالى : إلا الصوم

فإنه لي وأنا أجزي بـه يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فـرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقـاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». الحديث وقولـه تبارك وتعالى في تـذييل الآية: ﴿والله واسع عليم﴾ يشعر بأن فضلـه ومضاعفته الحسنات لا يقـف عند حدّ. وقد قـال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: في هـذه الآية دليل على أن اتخاذ الزرع من أعلى الحِرَف التي يتخـذهـا الناس، والمكـاسب التي يشتغل بها العمّال، ولـذلك ضرب الله به المثل فقـال: ﴿مَثَل الذين ينفقون أمـوالهم﴾ الآية، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «مـا من مسلم يغرس غرسـا أو يزرع زرعـا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صـدقة» وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض» يعنى: الزرع، أخـرجه الترمذي، وقـال ﷺ في النخل: «هي الراسخـات في الوَحْل المطعمات في المَحْل» وهذا خـرج مخرج المدح، والزراعة من فروض الكفـاية، فيجب على الإمـام أن يجبر النـاس عليهـا، وما كـان في معنـاهـا من غـرس الأشجار، ولقي عبدُ الله بن عبد الملك ابنَ شهـاب الزهري فقال: دُلّني على مال أعالجه، فأنشأ ابن شهاب يقول:

أقـول لعبـد الله يـوم لقيتـهُ	وقـد شدّ أحلاس المَطِيّ مُشَرِّقا
تتبّع خبايا الأرض وادْعُ مليكَها	لعلك يـوما أن تجُـاب فتُرْزَقـا
فيؤتيك مالاً واسعـا ذا مثابـة	إذا ما مياه الأرض غارت تدفُّقا اهـ

وقـول القـرطبي: وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ مـا من مسلم يغـرس غرسا. الحديث هو في البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه وقول القـرطبي في حديث عـائشة: «التمسـوا الـرزق في خبايـا الأرض»: أخرجـه الترمذي، هو وهم من القرطبي رحمه الله، فلم يخرجه الترمذي، وإنما أخرجه الـدارقطني والبيهقي بسنـد ضعيف، وحديث النخل: هـي الراسخـات في

الوحل لم أجد له أصلا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى على الإنفاق في سبيل الله ورغّب في ذلك أعظم ترغيب، ووعد المنفقين بعظيم الأجر وجزيل الثواب حذر أشدّ التحذير من إتباع المنْفَق عليهم بمنّ أو أذى، وبيّن أن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ولا يلحقون المنْفَقَ عليهم بمنّ أو أذى لهم الجزاء الجزيل والأجر الحسن عند الله عز وجل، وأنّ الله تبارك وتعالى يطمئنهم عند الموت بأنهم لا يخافون فيما يستقبلونه من أهوال القيامة والفزع الأكبر، وأنهم لا يحزنون على ما خلّفوه وراءهم في الدنيا من الأولاد ولا ما فاتهم من زهرة الحياة الدنيا وزينتها، وأنهم قادمون على ربّ رحيم، جواد كريم. والمنّ: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، والأذى: هو السبّ والتشكي، وقد يكون الأذى من ثمرات المنّ، حيث يتحدث بأنه أعطى فلانا فيؤذيه بذلك، وقد يبذل المال للمجاهدين ثم يتحدث بأنه أعطى المجاهدين، ولكنهم مقصّرون فيؤذيهم بذلك كذلك، فبين الله تبارك وتعالى أن الذين يرغبون في الأجر من الله يجب أن يكون بذلهم لوجه الله لا يريدون من الناس جزاء ولا شكورا.

قال تعالى : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى، والله غني حليمٌ* يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه ترابٌ فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شيء ممّا كسبوا، والله لا يهدي القوم الكافرين﴾

بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى من إتباع الصّدقة بالمنّ والأذى ليحفظ للمنفقين في سبيل الله ثواب ما أنفقوه وليمنحهم الطّمأنينة في الدّنيا والآخرة، أكّد هذا التحذير هنا من إتباع الصدقة بالمنّ والأذى حيث يقول: ﴿قولٌ معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ الآيتين. وهذا من أعظم أسباب غرس حبّ الخير وبذل النفقة في سبيل الله ابتغاء وجه الله في نفس الإنسان حتى يصير ذلك ملكة له، وليحفظ على المنْفَق عليهم كرامتهم، وليرفعوا هامتهم، فلا يلحقهم ذلّ، ولا يصيبهم همّ بسبب منّة من يمتنّ عليهم من خلق الله، وليبيّن للمسلمين أن كرامة المسلم وعزّته فوق سائر الماديّات فالمال ظل زائل وعارية مستردة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾ أي كلام طيب ووعد بخير، ودعاء المسلم لأخيه بأن يفرّج الله كربته ويزيل عسرته، وردّ على السائل بالكلام الحسن والقول الجميل، وستر لما قد يبدر من السائل من إلحاح، وصفحٌ عن زلة أخيه المسلم أحبّ إلى الله عز وجل من صدقة يتصدق بها الإنسان ثم يلحقها بالمنّ والأذى وقوله عز وجل: ﴿والله غنيّ حليم﴾ أي والله عز وجل غني عن نفقة المنْفِقِين وصدقة المتصدقين وهو قادر على أن يحوّل الحال فيجعل السائل غنيا والمسئول محتاجا، وهو حليم لا يعاجل بالعقوبة التي يستحقها المنّان والمؤذي. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنّ مَنَّ

الإنسان على من أعطاه من كبائر السيئات، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنّان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». قال القرطبي رحمه الله: والعرب تقول لما يُمَنّ به: يدٌ سوداء، ولما يُعْطَى من غير مسألة: يد بيضاء، ولما يُعطَى عن مسألة: يدٌ خضراء وقال بعض البلغاء: من منّ بمعروفه سقط شكره، ومن أُعجِب بعمله حبط أجره. وقال بعض الشعراء:

وصاحب سلَفَتْ منه إليَّ يَدٌ | أبطا عليه مكافاتي فعاداني
لما تيقّن أن الدّهر حاربني | أبدى النّدامة فيما كان أولاني

وقال آخر:

أفسدتَ بالمنّ ما أسديتَ من حَسَن | ليس الكريم إذا أسدى بمنّان

وقال أبو بكر الورّاق فأحسن:

أَحسَنُ من كلّ حَسَنْ | في كلّ وقت وزمنْ
صنيعة مَرْبوبةٌ | خالية من المِنَنْ

وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل: فعلت إليك، وفعلت، فقال له: اسكت فلا خير في المعروف إذا أُحْصِيَ اهـ على أن العاقل ينبغي أن يشكر الله إذا سأله سائل أن لم يكن هو السائل، ولله در أبي بكر بن دريد حيث يقول:

لا تَدخُلنّك ضجرة من سائل | فلخير دهرك أن تُرى مسئولا
لا تَجْبَهَنْ بالرّدّ وجه مؤمِّل | فبقاء عزّك أن تُرى مأمولا
تلقى الكريم فتستدلّ بِبِشْره | وتَرى العُبوس على اللئيم دليلا
واعلم بأنك عن قليل صائر | خَبَرًا فكن خبرًا يروق جميلا

وقد جعل رسول الله ﷺ من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبيّ ﷺ:

«لا تحقرنّ من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» ومن أمثلة العرب: الكرم شيء هين، وجهٌ بشوش وكلام ليّن. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى﴾ هذا هو التحذير الثالث من إتباع الصدقة بالمنّ والأذى وهو أشدّ التحذيرات الثلاثة، حيث بيّن الله عز وجل أن المنّ والأذى يبطلان ثواب الصدقة التي يلحقها المنّ والأذى، ثم شبّه المنّانَ المؤذِيَ المنفَق عليه بما يجب على المؤمن بالله ورسوله أن ينفر منه ولا يقع فيه ويحذره أشدّ الحذر حيث شبّهه بالذي ينفق ماله رئاء الناس وبالذي ينفق وهو لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وَمَثَلُ هؤلاء جميعا كَمَثَلِ الصخر الأملس الذي غطاه ترابٌ خفيف فنزل عليه مطر غزير فأزال ما عليه من التراب الذي كان يُظَنُّ فيه أنه ربما يُنْبت لو نزل عليه المطر، فانكشف الصفوان وأيقن كلّ من يراه أنّ الوابل الذي أصابه لن ينبت نباتا ولن يثمر ثمرة، ولن ينتفع أحد منه بحال من الأحوال، وذلك لأن عمل المرائي مردود؛ لأنه من الشرك الخفي، والله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله الكريم فهو جل وعلا أغنى الشركاء عن الشرك. قال الإمام أحمد في المسند: حدثنا يونس ثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جَزَى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً». ثم ساق من طريق إبراهيم بن أبي العباس ثنا عبدالرحمن بن أبي الزناد عن عمرو بن أبي عمرو عن عاصم بن عمر الظَّفَريّ عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم» فذكر معناه، ثم ساق من طريق إسحاق بن عيسى ثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن عمرو بن عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن

لبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، إن الله تبارك وتعالى يقول يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً» اهـ وقد أخرج المنذريّ حديث محمود ابن لبيد هذا في الترغيب والترهيب ثم قال: رواه أحمد بإسناد جيد. وقد أخرجه كذلك الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام وقال: أخرجه أحمد بإسناد حسن. كما أن الكافر الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر لمّا كان لا يصدّق بألوهية الله وربوبيته ولا يؤمن بأنه مبعوث بعد موته ومجزي بعمله فلا يتأتى منه على ذلك أن يعمل عملا لله عز وجل، ولو صنع شيئا من المعروف فإن الله تبارك وتعالى لا يتقبله منه لأنه إنما يتقبل من المتقين وكما قال عز وجل في الكفار: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هَبَاءً منثورا﴾ ولا شك أن تشبيه عمل الذي يُتْبع صدقته بالمنّ والأذى بالمرائين والكفار هو غاية في التحذير من هذا العمل حتى يجتنبه المسلم فلا يبطل صدقته بالمنّ والأذى ولا يعمل عملا يصير به في صفوف المرائين والكافرين. والصفوان: الصّفا وهي الحجارة الملس، وتقدم مزيد بيان لذلك في قوله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ والوابل هو المطر الشديد العظيم قال امرؤ القيس:

ساعةً ثم انتحاها وابل ساقط الأكناف واهٍ منهمر

والصَّلد هو الحجر الصّلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره وهو أملس، كما قال رؤبة بن العجاج:

لمّا رأتني خَلقَ المُمَوَّه برّاق أصلاد الجبين الأجْلَه

يعني أنّ جبينه قد زال شعره فصار يبرق كأنه صفاةٌ ملساء لا نبات عليها. وقوله عز وجل: ﴿لا يقدرون على شيء مما كسبوا﴾ أي لا يتمكن المرائي والكافر والمانّ المؤذي من تصدق عليه من الحصول على ثواب نفقاتهم لأن

المرائي قد ردّ عمله الرياء وكذلك الكافر لا يتقبل الله منه شيئا، وكذلك المانّ المؤذي من تصدّق عليه قد أبطل عمله كما أخبر بذلك ربّ العزة جل وعلا فلا ينتفع هؤلاء يوم القيامة بما بذلوه من المال لأنهم أبطلوه بأعمالهم، وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ تحذير للمسلم من عمل يشبه عمل الكافرين، الذين خذلهم الله عز وجل، فلعبت بهم الشياطين، وصرفتهم عن صراط الله المستقيم.

قال تعـالى : ﴿ومثل الذين ينفقون أمـوالهم ابتغاء مرضـات الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنّة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطلّ ، والله بما تعملـون بصير * أيـودّ أحـدكم أن تكـون لـه جنّـة من نخيل وأعناب تجرى مـن تحتها الأنهار له فيهـا من كلّ الثمـرات وأصابـه الكبر وله ذرّية ضعفاء فأصابها إعصار فيـه نار فاحترقت ، كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكّرون . ﴾

هذان مثلان آخران أحدهما للذين ينفقون أموالهم في أنواع البر ابتغاء وجه الله ، وهم على يقين بأنّ وعـد الله حق لمن أنفق مالـه ابتغاء مـرضاتـه ، والمثل الآخر لمن ينفق ماله رئاء الناس أو يتبع ما أنفق منّا أو أذى ، فقال عز وجل في مثل الأبـرار الـذين لا يريـدون من النـاس جـزاءً ولا شكورًا إنما يفعلـون مـا يفعلونـه لوجه الله : ﴿ومثل الذين ينفقـون أموالهم ابتغاء مرضـات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنّة بـربوة أصابها وابل فـآتت أُكُلها ضعفين﴾ أي ومثل الـذين يبذلـون أمـوالهم طلبا لمرضـاة الله واحتسـابا لما عنـده للمحسنين من جزيل الأجر ويقينا بأن وعد الله حقّ كمثل من له بستان على نَشْز من الأرض انهمر عليه المطر الشديد العظيم فأثمر هذا البستان ضعفي ما تثمر البساتين التي تشبهـه وتضارعه ، وإذا كـان ضعف الشيء هـو مقداره مع زيـادة مثله عليه فإن ضعفيه يعادل أربعة أمثاله ، وهذا لا شك بالنسبة لما تثمره البساتين عادة يكون مضرب المثل في البركة والنماء . وأصـل الجنة في اللغة هي البستان وهي قطعـة أرض تنبت فيهـا الأشجـار حتى تغطيهـا ، وهي مـأخـوذة من الاجتنـان وهـو الاكتنـان والاستتـار، وسمّيت الجنّـة لأن من يـدخلهـا يجتنّ ويستتر تحت أشجارهـا ومنه الجنّ لأنهم مستـورون عن النـاس ، ومنه الجنين لاجتنانه واستتـاره في بطن أمه . والربوة بفتح الراء وبضمهـا أيضا هي المكان

النّشز الظـاهر المستـوي المرتفع عن السيل، وكون الجنّة بـالربـوة يفيد حسن ثمارها لأنّ مـا ارتفع من الأرض عن المسايل والأودية يكون أغلظ، وجنـان ما غلظ من الأرض تكون أحسن وأزكى ثمرا وزرعا وغرسا من الأرض المنخفضة الواقعـة في المسايل والأوديـة، وقد تغنّت العـرب بوصف جنّـات الرّبـا فقال بعضهم:

مَن مُنـزلي في روضـة برَبَـاوة بين النخيـل إلى بقيـع الغرقدِ

والرَّباوة لغة في الرّبوة، وقال أعشى بني ثعلبة في وصف روضة من رياض الحزن يفوح منها ريح كأنه المسك، يشبّه بها ريح صاحبته:

إذا تقـوم يَضُـوع المسـك أصْـورة والزّنبق الـورد مـن أردانها شَمِل

ما روضة من رياض الحَزْن مُعْشِبة خضـراء جاد عليها مُسْبِل هَطِل

يضاحك الشّمس منها كوكب شرق مُؤَزَّر بعميـم النَّبْـت مُـكْتَـهِل

يـوما بأطيب منهـا نَشْـرَ رائحـة ولا بأحسن منهـا إذ دنـا الأصُل

ومعنى: يضـوع المسك أي تنتشر رائحتـه، وقـوله: أصـورة أي قطعـا، وقوله: والـزّنبق الورد، الزّنبق دُهْن الياسمين وورد وأحمره أجوده والظـاهر أنه المراد هنا. والحزْن مـا غَلُظ من الأرض، وقولـه: جاد عليهـا مُسْبِل هَطِل أي انهمر عليها الجَوْد وهو المطـر الغزير أو ما لا مطر فوقـه في القوة، وهو مُسْبِل أي مرسل مـاءه على الأرض، وهطل أي منتشر غزير دائم. وقـال الصِّمَّة بن عبدالله:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الرّبى وما أحسـن المصطاف والمَترَبَّعا

ودعوى بعض المفسرين بأن طيب جنات الرّبى خـاص برياض نجد هي دعوى غير صحيحـة لأن الله تبارك وتعالى ذكـر امتنانـه على عيسى ابن مريم وأمه بأنـه آواهما إلى ربوة ذات قـرار ومعين حيث يقول: ﴿وجعلنـا ابن مريم وأمّـه آية وآوينـاهما إلى ربوة ذات قـرار ومعين﴾ وهي لا شك في غير جزيـرة

العـرب . كما ذكرت قـريبا مـدح الشـاعر روضـة بربـوة بين النخيل إلى بقيع الغرقد، وهي من نواحي المدينة المنورة .

ومجيء هذا التمثيل بهذه الصفة في القرآن شاهد من شواهد الإعجاز؛ لأن النبي محمدا ﷺ نشأ في واد غير ذي زرع، وقوله عـز وجل : ﴿فآتت أكلها﴾ أي فأعطت ثمارها التي تـؤكل، والوابل : المطر الشديـد الضخم القطر، وقد تقدم قريبا مزيد تعريف له، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فإن لم يصبهاوابل فطلٌّ﴾ هو تأكيد لمدح هـذه الرّبوة بأنها إن لم يصبها وابل فـإنّ الطّل يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين وذلـك لكرم هذه الأرض وطيبها، قال المبرّد في قولـه عز وجل : ﴿فطـلّ﴾ تقديره : فطـلٌّ يكفيها، والطّلّ هـو المطر الضعيف بل هـو أضعف المطر حتى يطلق عليـه اسم : النّدى، وقـوله عـز وجل : ﴿والله بما تعملـون بصير﴾ ترغيب وترهيـب قال ابن جـرير رحمه الله : يعني بـذلـك جل ثنـاؤه ﴿والله بما تعملـون﴾ أيها النـاس في نفقـاتكم التي تنفقونها ﴿بصير﴾ لا يخفى عليه منهـا ولا من أعمالكم فيها وفي غيرها شيء، يعلم من المنفِق منكم بـالمنّ والأذى والمنفق ابتغـاء مـرضـات الله وتثبيتـا من نفسه، فيحصي عليكم حتى يجازي جميعكم جزاءه على عمله إن خيرًا فخيرا، وإن شرا فشرا، وإنما يعني بهذا القـول جـل ذكـره التحـذيـر من عقـابـه في النفقات التي ينفقها عباده، وغير ذلك من الأعمال أن يأتي أحد من خلقه ما قد تقـدم فيه بالنهي عنه، أو يفـرّط فيما قد أمر بـه، لأن ذلك بمَرْأَى من الله ومسمع، يعلمـه ويحصيـه عليهم، وهـو لخلقـه بـالمرصـاد اهـ وقـولـه عـز وجل : ﴿أيـودّ أحدكم أن تكـون لـه جنّة مـن نخيل وأعناب تجري من تحتهـا الأنهار لـه فيها من كل الثمـرات وأصـابه الكبر ولـه ذريـة ضعفاء فأصـابها إعصار فيـه نارٌ فاحترقت﴾ هـذا هو المثل الآخـر في هذا المقام الكـريم الذي ضربه الله عز وجل لمن ينفق ماله رئاء الناس أو يتبع ما أنفق منّا أو أذى، بأنه

يبطل بريـائه أو بمنّه وأذاه ثمرة عملـه فلا يفيده بشيء وهـو في أمسّ الحاجة إليه مع مـا يصيبه عند ذلك من الحسرة والنـدامة والحزن، وقد شبهـه الله عز وجل بـرجل تقدمت بـه السّنّ وبلغ من الكبر عتيّا وقـد فقد القـدرة على أن يعمل بنفسه عمـلا ينفعه، وقد ازداد حسرة وحـزنا بسبب أن لـه أولادا عجزة ضعـافـا لا يتمكنـون من جلب نفـع لهم أو لأبيهم أو دفع ضرّ عنهم أو عن أبيهم، وكان لهذا الرجل بستان يـانع الثمار من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وقد اشتمل البستان مع نخيله وأعنـابه وأنهاره على كل ما تشتمل عليه البساتين من الـزروع والثمار، وبينما هو يتهيّأ لجني ثماره وتحصيـل ريعه لينفق منه على نفسه وعلى ذريته الضعاف العاجزين أرسل الله عز وجل على بستانه إعصارا فيه نار فأحرقت البستـان وذهبت بجميع ما فيه. فكم تكون حسرته وحزنه عند ذاك، وهكذا من أنفق ماله رئاء الناس أو أتبع ما أنفق منا أو أذى يحصل له يوم القيامة أضعاف ما أصاب ذلك الرجل الذي احترق بستانه من الحزن والهم والغم والكرب العظيم، لأن هـذا الرجل قـد يعطف عليه بعض النـاس فيحسنون إليـه ويمـدون لـه يد العـون، ولكن المرائين ونظـراءهم لا يجدون من يمـدّ لهم يـد العـون عنـد الله يـوم القيـامـة، ولا شك أن جـواب الاستفهـام في قولـه عز وجل: ﴿أيـود أحـدكم﴾ الخ، هو أن يقـول كلّ من عنده مثقال ذرة من عقل: لا أودّ ولا أتمنّى ذلك ولا أحبّ أبدا أن يصير لي ما صار له، قال البخاري في صحيحه: باب قـوله: ﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تتفكرون﴾ حدثنا إبراهيم أخبرنا هشـام عن ابن جريج سمعت عبـد الله بن أبي مليكة يحدّث عن ابن عبـاس قال: وسمعت أخـاه أبا بكـر بن أبي مليكة يحدّث عن عبيـد بن عمير قال: قال عمر رضي الله عنـه يوما لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هـذه الآية نزلت ﴿أيود أحـدكم أن تكون له جنّـة﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمـر فقال:

قـولـوا: نعلم أو لا نعلم، فقــال ابن عبـاس: في نفسي منهـا شيء يـا أمير المؤمنين، قـال عمـر: يـا ابن أخي قل ولا تَحْقِـرْ نفسك، قـال ابن عبـاس: ضُرِبَتْ مثـلا لعمل، قال عمـر: أي عمل؟ قـال ابن عباس: لعمل، قـال عمر: لرجل غنيّ يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعـاصي حتى أغرق أعمالـه اهـ والإعصار في اللغـة: الريح الشـديدة التي تهبّ من الأرض إلى السماء كالعمود بها سَمُوم تلتف وتدور بسرعة فتتولد فيها نــارٌ تشتعل بها الحرائق، وقـد تتسبب في تـدمير المدن والقـرى وإحـداث الفيضانات. وهذا فيه إشـارة كذلك إلى الإعجاز العلمي في القرآن العظيم، لأن هذا النـوع من الريـاح نادر في أرض الحجاز وإن كـان معروفـا، كما قال بعض الشعراء:

إن كنت ريحًا فقد لاقيت إعصارا.

وقوله تبارك وتعـالى: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ أي كـذلك يوضح الله لكم الحجج الشـاهـدة بأن محمدا رسـول الله كي تتدبـروا وتتفهموا من أين هذه العلوم الكونيـة والشرعية التي جاء بها هذا الأمي الذي ما قرأ كتابا ولا خطّه بيمينه؟ وتعلموا أنه رسول من رب العالمين.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم وممّا أخرجنالكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منْه تنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه، واعلموا أنّ الله غنيّ حميد﴾.

بعد أن حض الله تبارك وتعالى على الإنفاق في سبيل الله وفي سائر أبواب الخير ابتغاء مرضاة الله واحتسابا للأجر والثواب عنده عز وجل وحذر أشد التحذير من إتباع الصدقة بالمن والأذى وبيّن أن الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعونها بالمن والأذى يصيرون كالمرائين والكافرين الذين لا يتقبّل الله منهم، وأنهم يبطلون أعمالهم ويحرمون أنفسهم من أجرها، وجّه عباده المؤمنين ورغّبهم في الإنفاق من المال الجيد الذي يحصلون عليه من مكاسبهم في التجارة أو مما تخرجه مزارعهم، وحذّرهم أن تكون نفقتهم وصدقتهم من رديء المال وخسيسه ورذيله ممّا لو أُعْطوه لكرهوه وعافوه، والمراد بالطيبات في قوله تعالى هنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا أَنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ هي الأنواع الجيّدة من الأموال، أما المراد بالطيبات في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ فهي أنواع المال الحلال، لأن الإنسان لا يُحَرَّص فيما يأكله إلا على أن يكون حلالا، بخلاف ما ينفقه في أبواب البر فإنه مع اشتراط كونه حلالا فإنه ينبغي أن يختار أجود المال وأحسنه وأحبّه إليه للتقرب به إلى لله عز وجل كما قال تبارك وتعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ والمقصود أنّ الإنسان إذا كانت عنده أموال بعضها جيد وبعضها رديء فلا ينبغي له أن يعمد إلى الرديء لينفق منه في أبواب البر كأن يكون عنده أنواع جيدة من التمر وفيها بعض الحشف، فيخرج الحَشَف في الصدقات، ويبقي لنفسه الأنواع الجيدة المختارة، فنهى الله تبارك وتعالى المسلم عن ذلك، أما إذا كان الإنسان لا يجد عنده إلا الأنواع

الرديئة فإن له أن يخرج منها لأن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها، وكما قيل: الجود من الموجود، ولذلك يدفع الله تبارك وتعالى نار جهنم يوم القيامة عن وجه المسلم الذي تصدّق بشقّ تمرة، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرة». وأخرجه مسلم من حديث عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوّذ منها ثم ذكر النّار فأشاح بوجهه فتعوّذ منها ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة». وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه تَرْجُمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة». كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا غير تمرة، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: «من ابْتُلِيَ من هذه البنات بشيء كنّ له سترا من النار». كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمرات، فأعطت كلّ واحدة منهما تمرةً ورفعَتْ إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتْها ابنتاها فشقّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعَتْ لرسول الله ﷺ فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار». وكما

أن المسلم لا ينبغي له أن يحتقر شيئا يتصدق به ما دام لا يجد خيرا منه فقد حذّر رسول الله ﷺ من يُعْطَى من أخيه المسلم شيء أن يحتقره مهما كان حتى ولو كان فِرْسِنَ شاة، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا نساء المسلمات لا تَحْقِرَنّ جارة لجارتها ولو فِرْسِن شاةٍ». والفرسن: عظم قليل اللحم، وهو للبعير وللشاة موضع الحافر للدابة والقدم للإنسان ويقال له في البعير والشاة والبقرة: ظِلْف، وقد روى أحمد وأبوداود والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن أم بُجَيْد قالت: قلت: يا رسول الله إن المسكين ليقف على بابي حتى أستحي فلا أجد في بيتي ما أدفع في يده فقال رسول الله ﷺ: «ادفعي في يده ولو ظِلْفًا محرقًا». وقوله عز وجل: ﴿ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ أصل قوله عز وجل: ﴿ولا تيمموا﴾ أي ولا تتيمّموا فحذفت إحدى التّاءين تخفيفا وقد حذفت كذلك في ثلاثة وعشرين موضعا في كتاب الله عز وجل وهي: ولا تفرّقوا، توفّاهم، تعاونوا، فتفرّق بكم، تلقّف (على إحدى القراءتين) ولا تولّوا «في الأنفال» تنازعوا، تربّصون، فإن تولّوا «في النور» لا تكلّم، تلقّونه، تبرّجن، تبدّل، تناصرون، تجسّسوا، تنابزوا، لتعارفوا، تميّزُ، تخيّرون، تلهّى، تلظّى، تنزّل الملائكة. والتّيمّم في اللغة هو القصد، قال الأعشى ميمون بن قيس في مدح قيس بن معد يكرب الكِنْدِي:

تيمّمت قيسا وكم دونه ... من الأرض من مَهْمَهٍ ذي شَزَن

وكما قال عامر بن مالك مُلاعِبُ الأسنّة في ضِرَار بن عمرو الضّبّيّ:

يمّمته الرّمح شَزْرًا ثم قلت له ... هَذِى البسالة لا لعبُ الزَّحَاليق

وكما قال امرؤ القيس:

تيمّمتها من أَذْرِعات وأهلُها ... بيثرب أدنى دارِها نظرٌ عال

وكما قال أيضا :

ولما رأت أن المنيّة وردها ... وأنّ الحصى من تحت أقدامها دامي

تيمّمَتِ العينَ التي عند ضارج ... يفيء عليها الظّل عَرْمَضُها طامي

والعرمض الطّحلب. وضارج هو الجبل المعروف في القصيم باسم جبل ضاري، وكما قال حميد بن ثور الهلالي :

سل الرّبع أنَّى يمّمَتْ أمُّ طارق ... وهل عادة للرّبع أن يتكلّما

وقال الشافعي رحمه الله :

عِلمي معي أينما يمّمت يتبعني ... صدري وعاء له لا بطن صندوقِ

والمراد بالخبيث في قوله عز وجل هنا : ﴿ولا تيمّموا الخبيث﴾ هو الرديء ضد الجيد، والعرب يطلقون على كل شيء يعافونه كلمة خبيث ويقولون : هو خبيث الطّعم ، وهو خبيث اللّون ، قال ابن منظور في لسان العرب : يقال في الشيء الكريه الطعم والرائحة : خبيث ، مثل الثوم والبصل والكرّاث اهـ فمعنى : ﴿ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تنفقون﴾ أي ولا تقصدوا إلى الرديء من مكاسبكم في التجارة أو ما يخرجه الله لكم من الأرض فتجعلوا منه صدقاتكم وتتركون الطيّب الجيّد لأنفسكم ، وقوله عز وجل : ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تُغْمِضوا فيه﴾ أي ولستم ترضونه لأنفسكم لو أُعطِيتُمُوه إلا بإغماض منكم وكراهية في أخذه، فلا تجعلوا لله مالا ترضونه لأنفسكم، والإغماض يطلق على التساهل وعلى غض البصر، قال الجوهري في الصحاح : وغمّضت عن فلان إذا تساهلت عليه في بيع أو شراء، وأغمضت، قال الله تعالى : ﴿ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾ يقال : أغمِضْ لي فيما بعتني كأنك تريد الزيادة منه لرداءته والحط من ثمنه اهـ والتعبير بقوله : ﴿ولا تيمموا﴾ يفيد أنه لو حصل واختار المنفق نوعا جيدا لإخراجه في النفقة في سبيل الله وكان فيه بعض الحشف القليل فإنه لا يضره،

وقـولـه عــز وجل : ﴿والله غني حميـد﴾ أي والله تبـارك وتعــالى غير محتـاج لصدقاتكم وهو غني عن جميع خلقـه ، وهـم فقراء محتاجون إليه في كل وقت وحين ، وإنما يأمـركم بـالجود على الفقراء والمحتـاجين من إخـوانكم فأنفقـوا عليهم من أمـوالكـم الجيـدة ، ومـا أنفقتم من شيء فهــو يخلفـه وهـو خير الـرازقين ، وعليكـم أن تحمـدوا الله عـز وجل على مــا أنعم بـه عليكـم وهـو المحمود في جميع أفعـاله وأقواله وقـدره وشرعه ، وهو إنما يأمركم بما يأمـركـم به لتحصلوا على مرضــاته ، وتفوزوا بالنعيم المقيم في جناتـه وكما قال عز وجل : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ .

قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، والله واسع عليم* يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا، وما يذّكر إلاّ أوْلواْ الألباب* وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمه، وما للظالمين من أنصار﴾

بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن ينفقوا من طيبات مكاسبهم ومزارعهم، وحذّرهم أن يتعمّدوا إخراج النوع الرديء من أموالهم، حذّرهم هنا من وساوس الشيطان التي يلقيها في قلوب بعض الناس حيث يوسوس لهم أنّ إخراج بعض أموالهم يؤدي إلى نقصها، وأنه ينبغي إمساكها خوف الفقر وأنه في الوقت الذي يقبّح لهم فيه البذل في أبواب الخير فإنه يحضّهم على ارتكاب الفواحش والوقوع فيما يغضب الله تبارك وتعالى، وهذه وظيفة الشيطان ذئب الإنسان، ينهاه عن الخير ويأمره بالشر، والله تبارك وتعالى يعد المنفقين بأن يخلف عليهم أضعاف ما أنفقوا، ويرزقهم من حيث لم يحتسبوا، مع مغفرة ذنوبهم وتكفير سيئاتهم، فإن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، فقد روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار قال: «لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلّك على أبواب الخير: الصوم جُنّةٌ، والصدقةُ تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار» الحديث. وأخبر رسول الله ﷺ أن الصدقة لا تنقص المال، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما

زاد الله عبدا بعفو إلا عزّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه». ولو ظن ظانّ أنه إذا أخرج من مائتي ألف خمسة آلاف فإن مائتي الألف قد نقصت هذه الآلاف الخمسة، لأنا نقول له: وما يدريك أنّ الله تبارك وتعالى قد دفع عنك من الشرّ والأذى والأمراض والآفات ما كان يكلّفك أضعاف أضعاف هذه الآلاف الخمسة لو أمسكتها عن الإنفاق، والعبرة بالكيف لا بالكمّ فالقليل المبارك خير من كثير لا بركة فيه. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الشيطان دائما يخوّف المنْفِق من الفقر وأن الله تعالى يسدّد المؤمن بالملك الموكّل به فَيَعِدُه بالخير، فقد قال الترمذي: حدثنا هنّاد حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مُرّة الهمدانيّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ للشيطان لمّةً بابن آدم وللملك لمّة، فأما لمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم قرأ: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعلمه مرفوعا إلا من حديث أبي الأحوص اهـ وفي بعض نسخ الترمذي: حسن صحيح غريب. وقوله عز وجل: ﴿ والله واسع عليم﴾ أي والله تبارك وتعالى يسع خلقه كلّهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير لا تنفد خزائنه على كثرة العطاء وهو عليم بنفقاتكم وصدقاتكم يحصيها لكم ويجزيكم بها أحسن الجزاء من واسع جوده وفضله مع ما يخلفه عليكم في الدنيا كما قال عز وجل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ وقوله عز وجل: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ أي يعطي الفقه في الدين والانقياد لأمر الله من يشاء من عباده فيشرح صدورهم للإسلام، وينير بصائرهم لمعرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ، وأصل الحكمة ما يمتنع به الإنسان من السّفه والوقوع في القبيح

ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه، لأن الحكمة مأخوذة من الإحكام وهو إتقان الفعل والقول، وقوله عز وجل: ﴿ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرا﴾ أي ومن يعط الحكمة والفقه في دين الله فقد حصل على الخير الكثير، وقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ الفقه في دين الله والاستمساك بشرعه دليل على أن الله تبارك وتعالى يريد الخير لمن مُنح ذلك فقد روى البخاري ومسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدين» الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما يذّكّر إلا أوْلواْ الألباب﴾ أي وما يتعظ بما يجيء عن الله عز وجل وينتفع به إلا أصحاب العقول. وقوله عز وجل: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه﴾ هذا ترغيب وترهيب من الله عز وجل يفيد أن جميع تصرفات الإنسان عند الله علمها فمن كانت نفقته أو نذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه جازاه بالذي وعده من الخير الكثير والعطاء الجزيل ومضاعفة الحسنات ومغفرة السيئات، ومن كانت نفقته أو نذره رئاء الناس أو متبعةً بالمن والأذى أو قدّم في صدقته رديء ماله، أو امتنع عن بذل الخير طاعة للشيطان الذي خوّفه من الفقر، فإنّ جميع ذلك يعلمه الله عز وجل، ويثيب كلّ عامل بما عمل، والنذر هو أن يوجب الإنسان على نفسه شيئا لله عز وجل لم يكن في الأصل واجبا عليه. قال في القاموس: ونذر على نفسه ينذِر وينذُر نذرًا ونذورًا أوجبه كانتذر، ونذر ماله، ونذر لله سبحانه كذا، أو النذر ما كان وعدا على شرط، فعليّ إن شفى الله مريضي كذا نذرٌ، وعليّ أن أتصدّق بدينار ليس بنذر اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: ويعني بالنذر ما أوجبه المرء على نفسه تبرّرا في طاعة الله وتقرّبا به إليه من صدقة أو عمل خير اهـ وقال القرطبي في تعريف النذر: هو ما أوجبه المكلّف على نفسه من العبادات مما لو لم يوجبه لم يلزمه، تقول: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله اهـ

والنذر من أنـواع العبادة فلا يجوز أن يجعل منه شيء لغير الله عـز وجل، وقد كـان أهل الجاهليـة الأولى ينذرون لأصنـامهم وأوثـانهم، وقـد وقع كثير من المنتسبين للإسلام فيما وقع فيه أهل الجاهلية الأولى فنذروا للمنتسبين للصلاح من الموتى، وهم بـذلك يشركـون بـالله عز وجل ويعتقـدون أن هـؤلاء الموتى ينفعون ويضرون، فيجعلـون لهم نذورا من أمـوالهم تقربـا إليهم مدعين أنهم شفعاؤهم عند الله، والغالب في النذر أن يلتـزم الناذر بعمل طاعة في مقابلة استجلاب نعمة أو استدفاع نقمة وقد يعتقد بعض الناس أن النذر هو الذي يجلب النعمة أو يدفع النقمة وقد نبّه رسول الله ﷺ إلى أن النذر لا يقدّم شيئا ولا يؤخره، وقد أجمع أهل العلم على أن من التزم بطاعة في مقابلة استجلاب نعمة أو استدفـاع نقمة فحصل له ما يـريد أنه يجب عليه الوفـاء بنذره، وقد أثنى الله تبـارك وتعـالى على الموفين بالنـذر وجعلهم في جملـة الأبـرار وقمّتهم حيث يقول: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مـزاجها كافورا* عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا* يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾ الآيات. وقد سـاق البخاري من طريق سعيد بن الحارث أنـه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: أو لم يُنْهَوْا عن النـذر؟ إن النبي ﷺ قال: «إن النذر لا يقدم شيئا ولا يـؤخر وإنما يُسْتَخْرَج بالنذر من البخيل». ثم سـاقه البخاري رحمه الله من طريق عبـد الله بن مرّة عن عبـد الله بن عمر: نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «إنـه لا يردّ شيئا ولكنه يستخـرج به من البخيل». ورواه مسلم بألفـاظ قـريبة من الألفـاظ التي رواه بها البخـاري، وإذا كـان هذا في نـذر الطاعـة فإن النذر لغير الله من أقبح المعـاصي وأكبر السيئات لأنـه شرك بالله عز وجل، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ومن نـذر أن يعصي الله فلا يعصـه». كما روى مسلم من حديث عمـران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: «لا وفاء لنـذر في

معصية». وقد روى أبو داود بسند صحيح من حديث ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا بِبُوَانَة، فأتى النبيّ ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً بِبُوَانَة، فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟» قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «أوفِ بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصراط المستقيم: أصل هذا الحديث في الصحيحين، وهذا الإسناد على شرط الصحيحين، وإسناده كلّهم ثقات مشاهير اهـ وقوله عز وجل: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ هو وعيد شديد لمن انحرف بنفقته أو بنذره فصرفه لغير الله عز وجل فصار بذلك ظالما بل مرتكبا أفحش الظلم وهو الإشراك بالله عز وجل، ولن ينفعه مَن نَذر له مِن أولياء مِن دون الله، ولن ينصره أحد من عذاب الله، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير حيث قال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ولم يقل: وما لهم من أنصار، لتسجيل صفة الظلم عليهم ولإشعارهم بأن من يصرف شيئا من النفقة أو النذر لغير الله يكون ظالما مشركا بالله.

قال تعالى: ﴿إن تبدوا الصّدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم، ويكفّر عنكم من سيّئاتكم، والله بما تعملون خبير * ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدى من يشاءُ، وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾

لما حذّر الله تبارك وتعالى المنفقين من المراءاة وبين أن الرياء يحبط العمل ويبطله، ذكر هنا أنّ إظهار الصدقات وإعطاءها علانية لا يضرّ صاحبها ولا يبطلها إذا قصد وجه الله عز وجل ولم يرد بذلك رياء ولا سمعة، ولم يكن في إظهارها إيذاء للمُعْطَى بل قد يكون ذلك من مصلحته، إذ قد يكون في ذلك لفت انتباه أهل الخير له لشدة حاجته، وقد امتدح الله تبارك وتعالى حينئذ إظهار الصدقة حيث يقول عز وجل هنا: ﴿إن تبدوا الصدقات فَنِعِمّاً هي﴾ أي إن تعطوا الصدقات علانية فنعم شيئا إبداؤها، وهذا في الصدقات الواجبة ظاهر وفي غير الواجبة إذا كان فيه مصلحة للمُعْطَى كما وصفت قريبا فقد يسارع أهل الخير لإعطائه فيكون الذي أعطاه أولا وأظهر عطيته له سببا في خير كثير له ويكون للذي دلّ عليه بعطائه أجرٌ مثل أجر الذين يتصدقون عليه بسببه، فقد روى مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبْدِعَ بي فاحملني فقال: «ما عندي»، فقال رجل: يا رسول الله أنا أدله على من يحمله، فقال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» كما أنّ الذي يظهر صدقته لمن يُعْلَم أن الناس لا يتفطنون له ليتصدقوا عليه يكون قد سنّ سنة حسنة، فقد روى مسلم من طريق المنذر بن جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ

في صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاةٌ عراةٌ مجتابي النِّمار أو العَباء، متقلّدي السّيوف، عامّتهم من مضر بل كلّهم من مضر، فتَمَعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً، فأذّن وأقام، فصلى، ثم خطب، فقال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ إلى آخر الآية ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾ والآية التي في الحشر ﴿اتّقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد واتقوا الله﴾ «تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع برّه، من صاع تمره»، حتى قال: «ولو بشق تمرة»، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرَّة كادت كفّه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَيْن من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبة، فقال رسول الله ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». وقوله عز وجل: ﴿و إن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أي و إن تبذلوا الصدقات سرّا وتعطوها في الخفاء فهو خير لكم مدّخر عند ربكم، وكلمة ﴿خير﴾ يحتمل أن تكون للتفضيل فيكون إعطاء الصدقة سرّا أفضل من إعطائها علنا وذلك إذا كانت الحالة واحدةً في الإبداء والإخفاء، ويخشى المتصدق على نفسه الرياء، أو إلحاق المنْفَق عليه أذى، وعلى هذا يحمل ما ورد عن رسول الله ﷺ من الحض على صدقة السّر فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، الإمام العادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى

لا تعلم شماله مـا تنفق يمينه ورجل ذكـر الله خاليا ففـاضت عيناه». وروى الطبراني في الكبير بإسنـاد وصفـه المنـذري في الترغيب والترهيب بأنـه إسنـاد حسن من حـديث أبي أمامـة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «صنـائع المعـروف تقي مصـارع السّـوء، وصدقـة السّر تطفئ غضب الـرّب، وصلـة الرّحم تـزيد في العمر» اهـ ومعنى: «تـزيد في العمر» أي يصير العمر مبـاركا يحصل لصاحبـه فيه من الخير ما لا يحصل عليـه غيره إلا في عمر يزيـد عليه بكثير. أما إذا كـان المنْفِق لا يخاف على نفسه الرياء ولا المنّ والأذى بصـدقته وكان إعلان الصـدقة فيه مصلحة ظـاهرة للمُعْطَى كما ذكرت قريبـا فإن قوله تبـارك وتعـالى: ﴿خير لكم﴾ لا يكون للتفضيـل بل يكون المقصـود منـه أن إعطاء الصـدقة حال الإخفاء خير من الخيرات وطـاعة من جملة الطـاعات، وقوله عز وجل: ﴿ويكفّر عنكم من سيئـاتكم﴾ هذه قراءة عبد الله بن عامر وحفص عن عـاصم أي ويستر الله عليكم أيها المنفقـون ويغفـر لكم من خطايـاكم، والتعبير بـ (مِن) التي تفيد التبعيض ليكون العبـد في مسيرته إلى الله عـز وجل بين الخوف والرجـاء، وقرأ أبـو عمـرو وابن كثير وأبو بكـر عن عـاصم: ﴿ونكفّر عنكم مـن سيئاتكم﴾ والـواو على القـراءتين للاستئنـاف لبيـان مـزيـد فضل الله على عباده المنفقين ابتغـاء وجهـه، وقـرأ نـافع وحمزة والكسـائي: ﴿ونكفّر﴾ بـالنـون وسكـون الراء مجزومـا على محل ﴿فهـو خير لكم﴾ الـواقعة في جـواب الشرط، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿والله بما تعملـون خبير﴾ هـو تـرغيب وتـرهيب أي إن الله مطلع على جميع أحـوالكم في سـائر أعمالكم يعلم سركم وعـلانيتكم، وإخفـاءكم وجهـركم فـراقبـوه في عمـوم أفعالكم وقفوا عند حدوده، واسلكوا صراطه المستقيم، ففي ذلك خير لكم في عاجلتكم وآجلتكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾ تبصير الخلق بأن قلوبهم بيد الملك الحقّ، وأن محمدا رسول

الله ﷺ وهو أفضل خلق الله قاطبة لا يقدر على تحويل قلوب العباد إلى طاعة الله ولا يملك التّصرّف والتّسلّط والسّيطـرة عليهم، لأن قلـوب العبـاد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشـاء فيهدي من أراد هدايته فضلا، ويضل من أراد إضلالـه وخذلانه عدلا، كما قـال عز وجل: ﴿لست عليهم بمصيطـر﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿إن عليـك إلا البلاغ﴾ وإذا كـان محمـدٌ رسـول الله ﷺ لا يملك التصرف في قلوب الخلـق ولا يمكنه أن يسيطـر على أفئدة العبـاد فهل يستطيع أحد من خلق الله سـواء كان ملكـا مقربـا أو نبيا مرسلا أو رجـلا صالحا أن يتصرف في قلوب العباد وأن يسيطـر على نفوسهم كما يـدعي بعض المنحـرفين عن الحق من المنتسبين لـلإسـلام بأن أوليـاءهم يسيطرون على الكون ويفعلـون ما يريدون، تعالى الله عما يقـولون علوّا كبيرا.

وقد روى الترمذي من طـريق شهر بن حوشب قـال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كـان أكثر دعـاء رسول الله ﷺ إذا كـان عندك؟ قـالت كـان أكثر دعائه: «يـا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك». قالت: قلت: يـا رسول الله مـا أكثر دعـاءك: يا مقلب القلـوب ثبّت قلبي على دينك؟ قال: «يـا أمّ سلمة إنه ليس آدميّ إلا وقلبه بين أصبعين مـن أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ». الحديث. قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة والنوّاس بن سمعان وأنس وجابر وعبد الله بن عمـرو ونعيم بن عمّار، قال: وهذا حديث حسن اهـ كما روى البخاري مـن طريق سالم عن عبد الله قـال: كثيرا مما كان النبيّ ﷺ يحلف: «لا، ومقلّب القلوب»، كما روى مسلم من حـديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما أنه سمع رسـول الله ﷺ يقول: «إنّ قلـوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلبٍ واحدٍ، يصرّفه حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرّف القلـوب صرّف قلوبنا على طاعتك»، فقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾ للفت

انتبـاه المؤمنين إلى حـاجتهم إلى الله عز وجـل، وأنهم لا غنى لهم عنه طـرفـة عين، وأن رسول الله ﷺ وظيفتـه أن يبلّغ الناس مـا أنزل إليـه من ربه، فعلى النـاس المسارعـة إلى طاعتـه لمصلحتهم هم، ولـذلك قال عـز وجل بعدهـا مباشرة: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾. أي وما تبذلوا من مال في وجوه الخير فنفعـه لكم وعـائد عليكم، وقولـه عز وجل: ﴿وما تنفقـون إلا ابتغاء وجـه الله، وما تنفقـوا من خير يُـوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي ومـادمتم تخرجون صـدقاتكم ابتغـاء مرضـاة الله فقد وقع أجـركم على الله، ولن يضيع عليكم عنـد الله شيء من أعمال البر التي تعملونها سـواء كان المُعْطَى الـذي طلبها مستحقـا لها في نفس الواقع أو غير مستحق لأنكم لستم مطلعين على قلوب الناس ونياتهم، فقـد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: «قال رجل: لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخـرج بصدقته فوضعهـا في يد زانية، فأصبحوا يتحـدثون: تُصُدِّق الليلـة على زانية، قـال: اللهم لك الحمـد، على زانية، لأتصـدّقن بصدقـة فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني فأصبحوا يتحدثون: تُصُدِّق الليلة على غني، قـال: اللهم لك الحمـد، على غني، لأتصـدقن بصـدقـة، فخـرج بصدقتـه فوضعها في يد سـارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُـدِّق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، على زانيـة وعلى غني وعلى سارق. فأُتِيَ فقيل له: أمّـا صدقتك فقـد قُبِلَتْ، أمّا الـزانية فلعلهـا تستَعِفّ بها عن زناهـا، ولعل الغنيّ يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته».

قال تعـالى : ﴿للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعـون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون النّاس إلحافا، وما تنفقوا من خير فإنَّ الله به عليم﴾ .

بعـد أن حضّ الله تبارك وتعـالى على التّصـدّق على الفقراء في قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ أرشد عز وجل هنا إلى أنه ينبغي مراعاة أشد الناس فقـرا، وهم العاجزون عن الاكتساب إما بسبب انقطاعهم للجهـاد في سبيل الله أو لطلب العلم أو عـدم قدرتهم على العمل وهم في نفس الـوقت متعفّفون حتى يظنّهـم الجاهل بأحوالهم الـذي لم يطّلع على ما هم فيـه من الفاقة أغنيـاء، وقد وصف الله تبارك وتعالى هـؤلاء الفقراء الذين خصّهم بمزيد من الحض على مـراعاتهم وبذل الصدقات لهم بخمس صفات، الصفـة الأولى: ﴿الذين أحصروا في سبيـل الله﴾ والصفة الثـانية: ﴿لا يستطيعون ضربا في الأرض﴾ والصفة الثـالثة: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التّعفف﴾ والصفة الرابعة: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ والخامسة: ﴿لا يسألون النّاس إلحافا﴾ ومعنى: ﴿أحصروا في سبيل الله﴾ أصل الإحصار في اللغة أن يعرض للإنسان ما يحول بينـه وبين سفره من مرض أو كبر أو عدوّ أو ذهاب نفقة أو مـا يجري مجرى ذلك، أي إنّ هؤلاء الفقراء حصروا أنفسهم ووقفـوها على الجهاد في سبيل الله لإعـلاء كلمة الله وليس لهم شيء من مـوارد العيش، فوجّـه الله تبارك وتعالى المسلمين إلى رعـاية من كان بهذه المثابة من المسلمين لإزالـة عَيْلَتِهِم، وتقـويـة قلـوبهم، لما في ذلك من تقـوية الإسـلام بتقـويـة المجاهـدين المنقطعين للجهاد في سبيـل الله، أما الصفـة الثانية مـن صفات هؤلاء الفقـراء فهي قولـه عز وجل فيهم: ﴿لا يستطيعـون ضربا في الأرض﴾

أي لا يقدرون على التجارة وأسباب الاكتساب بالسفر لالتماس الرزق لأنهم لما حبسوا أنفسهم على الجهاد منعهم ذلك من الاشتغال بالكسب والتجارة، ولا سيما وأن الكفار كانوا مطبقين عليهم من جميع جهاتهم، أو لأنهم لا خبرة لهم بالتجارة، وأصل الضّرب في الأرض هو السير فيها والسفر كما قال عز وجل: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ الآية.

أما الصفة الثالثة من صفات هؤلاء الفقراء الذين خصّهم الله عز وجل بلفت انتباه المسلمين إلى رعايتهم وبذل المال لهم فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف﴾ أي يظنّهم الجاهل بحالهم الذي لا خبرة له بهم وبما هم عليه من الفاقة والفقر وشدة الحاجة أغنياء بسبب تعفّفهم عن سؤال الناس، وتنزّههم عن طلب شيء منهم، وقد يظهرون أمام الناس في ثياب حسنة، حتى لا يذلّوا أنفسهم لغير الله عز وجل، ولذلك لا يكاد يتفطن لهم إلا من يخالطهم، ولا يعرف فقرهم إلا من يداخلهم، ولا شك أن الله تبارك وتعالى يحب هذا التّعفف من عباده كما حضّ رسول الله ﷺ على التعفف ودعا للمتعففين، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السّفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غِنًي، ومن يستعفف يعفّه الله ومن يستغن يغنه الله» ولا شك أن أصحاب الصُّفّة من فقراء المهاجرين كانوا في أمس الحاجة إلى أن توجّه إليهم أنظار الموسرين كما كان غيرهم ممن حبس نفسه على تلقي الأحاديث من رسول الله ﷺ يكاد يقتلهم الجوع أحيانا ولا يسألون الناس شيئا، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفّة ما منهم رجل

عليه رداء، إما إزار وإما كساءٌ، قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن تُرَى عورته. كما روى البخاري من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيْتُني وإني لأَخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مَغْشِيًّا عليّ فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكَبِدِي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ بي النبيّ ﷺ، فتبسّم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال: «يا أبا هرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الْحَقْ»، ومضى، فاتّبعته فدخل فاستأذن، فأُذِنَ لي، فدخلت، فوجد لبنا في قَدَح، فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة، قال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الْحَقْ إلى أهل الصّفّة فادعهم لي»، قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنتُ أحقّ أن أصيب من هذا اللبن شَرْبَة أتقوّى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يَبْلُغَني من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ، فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، واستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «خُذْ فأعطهم»، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّ عليّ القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يَرْوَى، ثم يردّ عليّ القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد

رَوِيَ القوم كلّهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليّ فتبسّم، فقال: «أبا هِرّ»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «بقيتُ أنا وأنت»، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فاشْرَب»، فقعدت فشربت، فقال: «اشْرَبْ»، فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكا، قال: «فأرني» فأعطيته القدح فحمد الله تعالى وسمّى وشرب الفَضْلة. أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء الفقراء الذين حضّ الله تبارك وتعالى على مزيد العناية بهم فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾ أي أنت يا محمد ومن كان ذا حسّ مرهف، وبصيرة ثاقبة وعلم بمعرفة أحوال الناس بسيماهم تعرفهم عندما تبصرهم بعلامات تتبيّن بها ما هم عليه من الحاجة والفاقة. والسِّيمَا والسيماء والسيمياء، والقصر لغة قريش، والسّيمياء لغة ثقيف وبعض بني أسد، والسيماء لغة بعض العرب الآخرين، ومعناها العلامة، ومنه قول ابن عنقاء الفزاريّ يمدح عُمَيْلة بن كلدة الفزاريّ الذي علم بما أصاب ابن عنقاء الفزاريّ من الدَّيْن والحاجة فقسم ماله نصفين وساهمه عليه فقال ابن عنقاء يمجّده في أبيات منها:

غلام رماه الله بالخير يافعا ... له سيمياء لا تَشُقُّ على البصر
كأن الثّريّا عُلّقت في جبينه ... وفي خدّه الشِّعْرَى وفي وجهه القمر
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه ... ذليل بلا ذلّ ولو شاء لانتصر
كريم نَمَتْه للمكارم حرّة ... فجاء ولا بخل لديه ولا حَصَر

أما الصفة الخامسة فهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ لا يسألون الناس إلحافًا﴾ أي لا يسألون الناس ألبتة فلا يتأتى منهم إلحاف ولا إلحاح، والمقصود من التقييد بالإلحاف هو ذم الملحفين في السؤال الملِحّين فيه، لأن الله يبغض ذلك، وقد روى مسلم من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أن

رسول الله ﷺ قال: «لا تُلِحّوا في المسألة فوالله لا يسألني أحدٌ منكم شيئا فتُخْرِج له مسألته مني شيئا وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته». كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مُزْعة لحم». وهذا الأسلوب البلاغي نظير قوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أي لا شفاعة ولا طاعة لشفيع. وكما قال امرؤ القيس:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمناره　　　إذا سافه العَوْد النّباطيّ جرجرا

فإنه يريد طريقًا غير مسلوك لا اهتداء فيها ولا منار، فقوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾ أي لا سؤال ولا إلحاف منهم، وذلك لما وصاهم به رسول الله ﷺ فقد روى مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانيةً أو سبعةً فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟» وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ فقال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله» وأسرّ كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئا»، فلقد رأيت بعض أولئك النّفر يسقط سَوْطُ أحدهم فما يسأل أحدا يناوله إياه. وقوله عز وجل: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ ترغيب وترهيب.

قـال تعالى: ﴿الـذين ينفقـون أموالهم بـالليل والنّهـار سرّا وعلانيـة فلهم أجرهـم عند ربّهم ولا خوف عليهـم ولا هم يحزنون* الذيـن يأكلون الـرّبا لا يقومـون إلا كما يقوم الذي يتخبّطـه الشيطان من المسّ، ذٰلك بأنّهم قـالوا إنّما البيع مثل الـرّبا، وأحل الله البيع وحـرّم الرّبـا، فمن جاءه مـوعظة من ربّـه فانتهى فلـه ما سلف وأمره إلى الله ومن عـاد فأولٰئك أصحاب النّـار هم فيها خالدون﴾

لما بيّن الله تبارك وتعـالى في الآية السابقـة أن بعض الفقراء يحسبهم الجاهل أغنيـاء من التعفف وأنهم لا يسألون النـاس إلحافا وخصهم عـز وجل بلفت انتبـاه المسلمين إليهم والعنايـة بتحريهم عنـد إخراج الصـدقات لأن الـذين يسألون الناس قـد يحصلون على حاجتهم بالسـؤال فينبغي التفطّن للذين لا يسألـون كما قـال رسول الله ﷺ في الحديث الـذي رواه البخـاري ومسلـم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين الذي تردّه التمـرة والتمرتان، ولا اللّقمة ولا اللّقمتـان إنما المسكين الذي يتعفف، واقـرءوا إن شئتم يعني قـولــه: ﴿لا يسألـون النـاس إلحافـا﴾. وفي روايـة للبخـاري من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال: «ليس المسكين الذي تـردّه الأُكْلة والأُكْلَتـان، ولكن المسكين الذي ليس لـه غِنًى، ويستحيي أو لا يسأل الناس إلحافا». وفي رواية لمسلـم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «ليس المسكين بهذا الطّـوّاف الـذي يطـوف على النـاس فتردّه اللقمة واللقمتـان والتّمـرة والتمـرتان» قـالـوا: فما المسكين يا رسول الله؟ «قال: الذي لا يجد غِنًى يغنيه، ولا يُفْطَن له فيُتَصَدَّق عليه، ولا يسأل النـاس شيئا» اهـ. رغّب هنـا ذوي الغنى واليسار في أكمل

وجوه الإنفاق وهي أن يعمّموا الأوقات والأحوال بـالصدقة فيبذلون في أبواب الخير ليلا ونهارا وسرا وجهرا فمتى نزلت بهم حاجة محتاج عجّلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلّقوهـا بوقت من الأوقات أو حالة من الحالات ولا يضرهم أن كان ذلك سرّا أو جهرا أو ليلا أو نهارا مـا دام مقصدهم رضى الله عز وجل، حيث قال عز وجل هنا: ﴿الذين ينفقـون أموالهم بالليل والنهار سرّا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن النفقة على الأهل إذا ابتغـى بها المنْفِق وجه الله عز وجـل أعطاه الله عز وجل أجر المتصدقين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود البـدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «إذا أنفق الـرجل على أهله نفقـة يحتسبها فهي له صدقة». كما روى البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: «وإنـك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِـرْتَ بها حتى ما تجعل في في امرأتك» وقولـه: «في في امرأتك» يعني في فم امرأتك. كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصـدقت به على مسكين، ودينـار أنفقته على أهلك، أعظمهـا أجرًا الـذي أنفقته على أهلك». كما روى مسلم من حديث ثَوْبـان بن بَجْدَد مولى رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قـال: «أفضل دينار ينفقـه الرجل دينـار ينفقه على عيالـه، ودينار ينفقـه على دابته في سبيل الله، ودينـار ينفقه على أصحـابه في سبيل الله» اهـــ وبهذا ييسّر الله عـز وجل للمسلـم أسبـاب تحصيل الأجـر العظيم في جميع أوقاتـه ليلا ونهارا وسرا وجهرا مع أن بعض هـذه النفقات لا مناص له منها وهي النفقة على زوجتـه وعياله لكن الله تبارك وتعالى يحب من الرجل أن يحسن إلى زوجته وعياله، وأن يوسّع عليهم مما وسّع الله عز وجل به عليه، وبهذا يتبين لكل من له ذرةٌ من عقل أن دين الإسـلام هو الدين الذي

لا غنى للبشرية عنه وأنه منّة الله الكبرى، وبه تمام النعمة على الإنسانية عامة والمسلمين خاصة كما قال عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ ولن تجد البشرية أبدا نظاما يحميها كما يحميها نظام الإسلام وشريعة الله. وبعد هذا البيان الشافي الكافي لطرق الخير ووجوه الإنفاق وبذل الصدقات التي تعتبر دليلا واضحا على صدق المسلم في دعوى الإسلام، أعقب ذلك ببيان حكم الربا لما بين الربا والصدقة من مناسبة التضاد حيث إنّ المنفق يبذل من ماله لدفع عوز الناس ابتغاء وجه الله، وآكل الربا على عكسه تماما فهو يغتنم فرصة حاجة الناس لامتصاص دمائهم، والحصول على أموالهم، ولذلك قرن الله تبارك وتعالى في الذكر بين الصدقة والربا في غير موضع من كتابه الكريم كما في هذا المقام الكريم، وكما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَمْحَقُ الله الربا ويُرْبِي الصدقات﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولَئك هم المضْعِفون﴾ وبهذه المقارنة يتضح للناس الفرق بين منهج الرحمة والإحسان الذي جاء به الإسلام ومنهج الظلم والجور الذي ينتهجه من يعادي الإسلام، وأعظم الناس استغراقا في الربا هم اليهود إخوان القردة والخنازير أعداء الإنسانية ومصّاصو الدماء وآكلو السحت لعنهم الله، وهم قد قسّموا الربا إلى الربا الفاحش والربا غير الفاحش ويدعون أن الربا غير الفاحش قد شرعه لهم موسى وصموائيل كما افتراه لهم واضعو التلمود، وأن الربا الفاحش جائز مع غير اليهود لاعتقادهم أن كلّ ما على الأرض ملك لليهود وأن ما تحت يد «الأمميين» من الأموال مغتصب من اليهود، وعليهم استرداده بجميع الوسائل، وقد حرصوا على السيطرة على الاقتصاد العالمي بواسطة البنوك الربوية. وقوله عز وجل: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من

المسّ﴾ ليس المقصود أن المحرّم من الربا هو أكله فقط فقد أجمع علماء الإسلام على أن الربا يحرم تعاطيه مطلقا سواء كان بأكله أو لبسه أو بناء مسكن منه أو شراء مركب أو غير ذلك من سائر الاستعمالات والتصرفات، وإنما التعبير بالأكل هو نظير قوله عز وجل: ﴿إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ ونظير قوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ وذلك لأن المقصود الأهم من أخذ الأموال هو أكلها وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ما يفيد أن المقصود من أكل الربا هو تعاطيه والتعامل به حيث لعن آكله وموكله وكاتبه وشاهديه، فقد روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومُؤْكِله، وكاتبه وشاهِدَيْه وقال: «هم سواء». وأصل الربا في اللغة الزيادة وقد بين رسول الله ﷺ الأموال الربويّة التي لا تجوز الزيادة فيها ولا تأجيل قبض أحد العِوضين عند التعامل بها فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الذهب بالذهب والفضّة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتّمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلا بِمِثْل، سواءً بسواءٍ، يدًا بيدٍ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد». وفي رواية لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مِثْلاً بِمِثْلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواءٌ». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا

مِثْلا بِمِثْل، ولا تُشِفّـوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الورق بـالورق إلا مِثْلا بِمِثْل ولا تُشِفّوا بعضها على بعض، ولا تبيعـوا منها غائبا بنـاجز». وقد أجمع المسلمون على أنّ كل قرض يجر نفعا فهو ربـا، وقد روى البخاري من طريق أبي بردة بن أبي مـوسى قال: قدمت المدينة، فلقيت عبـد الله بن سَلاَم رضي الله عنه فقـال: ألا تجيء فأطعمك سويقًـا وتمرًا وتدخل في بيت، ثـم قال: إنك بأرض، الربـا بها فاشٍ، إذا كان لـك على رجل حقٌّ فأهدى إليك حِمْل تِبْن أو حِمْل شعير أو حِمْل قَتّ فـلا تأخذه فإنـه ربا. وقـوله عـز وجل: ﴿لا يقومـون إلا كما يقوم الـذي يتخبطه الشيطـان من المس﴾ أي لا يقومـون من قبورهم يـوم القيامة إلا كما يقـوم الذي يتخبّلـه الشيطان من مسه إيـاه، قال القرطبـي: وقالوا كلّهـم: يبعث كالمجنـون عقوبة لـه وتمقيتا عنـد جميع أهل المحشر ويقـوي هـذا التأويل المجمع عليـه أن في قـراءة ابن مسعـود: ﴿لا يقومون يوم القيـامة إلا كما يقوم﴾ اهـ وقد جعل الله تبارك وتعالى هذه الحالة شعارا لأكَلة الربا يوم القيـامة زيادة في خزيهم وتبشيعا لصنيعهم، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رأيت الليلة رجلين، أتياني فأخرجـاني إلى أرض مقدّسة فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم، وعلى شطّ النهـر رجل بين يديه حجارة، فأقبل الـرجل الذي في النهر، فـإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجـر في فيه، فـردّه حيث كـان، فجعل كلما جاء ليخـرج رمى في فيـه بحجـر، فيرجع كما كان، فقلت: ما هـذا الذي رأيته في النهر؟ قال: آكل الربـا». اهـ وما أشبه هذه العقوبة بما فعلوا إذ كان المرابون يعيشـون في الدنيا على امتصاص الدماء المعنوية فعوقبوا بأن يسبحوا ويعيشوا ويعـاقبوا بالانغماس في بحار من الدماء الحسية وما ربك بظلام للعبيد. وقوله عز وجل: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربـا وأحل الله البيع وحرّم الـربا﴾ أجمع المفسرون على أن الذين قـالوا:

إنما البيع مثل الـربـا ، هـم الكفـار، وقد اعترضـوا على تحريم الـربـا ، وكأنهم يقولون : لماذا أبحتم البيع وحرّمتم الربا والربا مثل البيع؟ ولكنهم لغلوّهم في الكفر والعناد قلبوا الحقائق فقالوا : إنما البيع مثـل الربا فجعلوا الربا أصلاً في الحل مشبّها به والبيع فـرعا في الحل مشبّها بالـربا وهذا غايـة انتكاس الفطرة ولذلك جاء التنصيص على التفـريق بينهما حيث قال عز وجل : ﴿وأحل الله البيع وحـرّم الربـا﴾ والفطر السليمـة والعقول المستقيمـة تقرر ذلك الفـرق ، وقوله تبارك وتعـالى : ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فلـه ما سلف وأمره إلى الله﴾ أي فمن أتته مـوعظة ونصيحة و إرشاد من ربّـه فانزجـر عن تعاطي الـربا فـلا عقوبـة عليه فيما مضى ولا يسترد منـه شيء ، وهذا من بـراهين أن القائلين : إنما البيع مثل الربا ، هـم الكفار لأنهم إن ينتهوا عن الكفر ويدخلوا في الإسلام يغفر لهم ماقد سلف ، بخلاف المسلم إذا تعامل بالربا فإنه يُفْسَخ عقـده ويُجْبَر على رد مـا زاد عن رأس مـالـه ، ومعنى : ﴿وأمـره إلى الله﴾ أي ومستقبله بيـد الله يهدي من يشاء فضـلا ويخذل من يشاء عـدلا. وقولـه عز وجل : ﴿ومن عاد فأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ومن استمر من الكفار على كفـره فأولئك أهل النار الملازمون لها المخلّدون فيهـا ، وكلمة «عاد» تستعمل بمعنى : رجع وبمعنى استمـر ومن هذا قوله تبـارك وتعالى : ﴿قل للذين كفـروا إن ينتهوا يغفر لهم مـا قد سلف و إن يعـودوا فقد مضت سنت الأولين﴾ .

قال تعالى : ﴿يمحق الله الرّبا ويربي الصّدقات، والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم* إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصّلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون* يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين* فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون* وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى المآل البشع الذي يؤول إليه أَكَلَة الربا، وأوضح انقلاب فطرتهم حتى قالوا: إنما البيع مثل الربا، مع الفرق الجليّ الذي يدركه كلّ من له ذرّة من عقل فجميع أمم العالم تدرك حلّ البيع، وضرر الرّبا، ورغّب هؤلاء المنتكسين في سلوك السّبيل السّوي بالرجوع إلى الله وتحليل ما أحلّ الله وتحريم ما حرّم، وأنهم إن يتوبوا إلى الله يغفر لهم ما قد سلف منهم من سيئاتهم، وما أكلوه من الربا، ورهّبهم من استمرارهم على غيّهم وضلالهم، أوضح هنا الفرق بين أثر الرّبا في محق البركات وأثر الإنفاق في سعة الثروات فقال عز وجل: ﴿يَمْحَق الله الربا ويُرْبِي الصدقات﴾ أي يُذهب الله عز وجل بركة المال الذي يتعاطى صاحبه الربا، ولا يزال ينقصه حتى يهلكه، وينمي أموال المنفقين ويبارك فيها حتى ينتفعوا بها وتزداد وتكثر مع ما يدفع الله عز وجل عن المنفقين من الآفات، وما يكفر لهم بها من السيئات، فآكل الربا يعامله الله عز وجل بنقيض قصده، فهو يتعاطى الربا ليزيد ماله من أموال الناس باجتلابها وتحصيلها فيذهب الله بركتها ويمحقها، ويجلب له بها الحسرة والهمّ في الدنيا والآخرة، وقد روى ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحد أكثر من الربا إلا كانت عاقبة أمره إلى قلة». وفي لفظ للحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قلٍّ». وقد صححه الحاكم كذلك وأصل المحق هو نقصان الشيء حالاً بعد حالٍ ومنه المحاق بكسر الميم أو فتحها أو ضمّها وهو أن يَسْتَسِرَّ القمر فلا يُرَى غدوة ولا عشيّة وسُمّي محاقا لأنه طلع مع الشمس فمحقته وأذهبت نوره وغطّته، وقوله عز وجل: ﴿والله لا يحب كلّ كفّار أثيم﴾ أي والله تبارك وتعالى يبغض من استمرأ الكفر واستمر عليه وانغمس في المعاصي ولم ينزجر بالموعظة التي جاءته من ربه، وصيغة فعّال تأتي لمجرد النّسبة كلبّان وتمّار وعطّار، وتأتي للمبالغة كسرّاق وتأتي لإفادة الاستمرار على الشيء واعتياده والإقامة عليه كما في قوله عز وجل هنا: ﴿كفّار﴾ لأن أصل الكفر يبغضه الله عز وجل ولو لم تكن فيه مبالغة، وقوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هو ترغيب للكفار في الدخول في الإسلام بعد ترهيبهم ببغض الله لكل كفّار أثيم. وهذه لفتة يلفت بها الله عز وجل انتباه الدعاة إلى الله ألا ييأسوا عند دعوتهم أعداء الله للدّخول في دين الله، كأن الله عز وجل يقول لهؤلاء الكافرين الجاحدين المستغرقين في الربا: أقبلوا على الله واتركوا ما أنتم عليه من الكفر والإثم، وآمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وافعلوا الخير وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فإنكم إن فعلتم ذلك خلّصتم أَنفسكم من النار، وفزتم بجنات النعيم وتجاوز الله لكم عما سلف منكم من الكفر والمعاصي، وعاملكم بما يعامل به عباده الصالحين ويطمئنكم عند الموت بأنكم لا تخافون فيما تستقبلونه من أهوال القيامة والفزع الأكبر وأنكم لا تحزنون على ما تخلّفونه وراءكم في الدنيا من الأولاد ولا ما فاتكم من حظوظ

لأنكم قادمون على رب كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وأنه هو القائل: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أي يا أيها الذين آمنوا واستجابوا لله ولرسوله ﷺ اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترك ما تعاقدتم عليه من ربا، ولا تأخذوا منه شيئا، وقد بينت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف﴾ أن المسلم إذا تعامل بالربا فإنه يفسخ عقده ويجبر على رد ما زاد عن رأس ماله. والظاهر أن قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ إلى آخر آية الدّين من آخر ما نزل من القرآن لأن رسول الله ﷺ قد خطب في حجة الوداع وأمر بوضع الربا وذكر ﷺ في خطبته أن ربا الجاهلية موضوع وأن أوّل ربا يضعه هو ربا عمه العباس رضي الله عنه فقد روى مسلم في صحيحه في قصة حجة الوداع من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال: حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلَتْ له فأتى بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث — وكان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد فقتلته هُذيل — وربا الجاهلية موضوعٌ، وأول ربا أضع من ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلّه» الحديث، وقوله تبارك وتعالى في تذييل هذه الآية الكريمة: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ هو للحض على سرعة الامتثال لأن الله عز وجل أثبت لهم الإيمان في صدر الآية فكان قوله في نهايتها: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي فسارعوا إلى امتثال ما يأمركم به الله،

لِعِلْمِكم أنه لا يأمركم إلا بما فيه الخير لكم في دينكم ودنياكم. وقوله عز وجل: ﴿فإن لم تفعلوا فأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾ أي فإن لم تذروا ما بقي من الربا فكونوا على علم بأنّ الله محاربكم وأن رسوله محمدا ﷺ محاربكم، والويل كلّ الويل لمن حاربه الله ورسوله، ولا شك أن هذا غاية في التهديد والوعيد على تعاطي الربا، فإن من حاربه الله ورسوله ﷺ محروب مدحور مقهورٌ لا محالة، وقد جاء نظير هذا التهديد فيمن عادى وليا من أولياء الله، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. .» الحديث. وقد تقدم قريبا، ووصف قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله حيث قال: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خِلاف أو يُنْفَوْا من الأرض﴾ وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على وجوب حرب أَكَلَة الربا فإن كانوا يعتقدون حلّ الربا فإن قتالهم قتال المرتدين، وإن كانوا يتعاملون به مع اعتقاد أنه حرام فقتالهم قتال البغاة، وقال ابن جرير رحمه الله: حدثني المثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا﴾ إلى قوله: ﴿فَأْذَنُوا بحرب من الله ورسوله﴾ فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه فحقّ على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون﴾ أي وإن رجعتم إلى الله عز وجل ونزعتم عن تعاطي الربا وعزمتم على الابتعاد عن أوضاره وآثامه فلا تأخذوا مما زاد عن رءوس أموالكم شيئا وإذا فعلتم ذلك كنتم غير ظالمين ولا مظلومين في هذا الباب، ولا شك أن تعاطي الربا محرّم في شرائع الأنبياء قبل الإسلام. وقد نص على ذلك كتاب الله تبارك وتعالى حيث يقول

عز وجل : ﴿وأَخْـذِهِمُ الربا وقـد نُهُوا عنه﴾ ولم يبحه الإسلام قط ، وقـد ذكر الله تبارك وتعالى التنـديد به في سورة الروم وهي مكيـة حيث يقول عز وجل : ﴿وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فـلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريـدون وجه الله فأولئك هم المضْعِفـون﴾ أي الذين يضـاعف الله لهم الأجر والمثوبة ، وقوله عز وجل : ﴿وإن كان ذو عسرة فنَظِرَة إلى ميسرة ، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمـون﴾ أي وإن كـان المدين لكم معسرا لا يجد سـداد مالكم عليه من دين أو رأس مـال مما أبحت لكم فعليكم أن تُنْظِروه وتصبروا عليه حتى ييسّر الله له ويجد سدادا ويتمكن من قضـاء حقكم عليه ، وقوله : ﴿وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي وأن تتصدّقوا برؤوس أموالكم أو بعضها مما لكم على هـذا المعسر فإنه أفضل لكم وأحبّ إلى الله عز وجل ، ولـو كنتم تعلمـون مـا لكم من الفضل عنـد الله إن تجاوزتم عن هـذا المعسر بحقكم أو بعض حقكم لسارعتم إلى ذلك ـــ وقد روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه أنه طلب غريما له فتوارى عنه ثم وجده فقال : إني معسر، قال : الله ، قال : الله ، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سره أن ينجيه الله من كـرب يوم القيامـة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه» . كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : «تلقّت الملائكة روح رجل ممن كـان قبلكم ، فقالـوا : عملت من الخير شيئا؟ قال : لا. قالوا : تذكّر، قال : كنت أُدَايِنُ الناس فآمر فتياني أن يُنْظِروا المعسر ويتجوّزوا عن الموسر، قال : قال الله : تجاوزوا عنه» . وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كان رجـل يداين النـاس ، وكان يقـول لفتاه : إذا أتيت معسرا فتجـاوز عنه لعلّ الله عـز وجل يتجاوز عنا ، فلقـي الله فتجاوز عنه» وفي روايـة لمسلم من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «حوسب

رجلٌ ممن كان قبلكم فلم يوجد لـه من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرا، وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى: نحن أحقّ بذلك، تجاوزوا عنـه» وروى مسلم في قصة حديث جابـر رضي الله عنه الطويل من طريق عبـادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قـال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هـذا الحي من الأنصـار قبل أن يهلكوا، فكـان أوّلُ من لقينـا أبـا اليَسَر صـاحب رسـول الله ﷺ ومعه غـلام لـه، معـه ضِمَامـةٌ من صُحُفٍ، وعلى أبي اليَسَر بُرْدة ومَعَافِـريّ، وعلى غلامه بُرْدة ومَعَـافِرِيّ، فقال لـه أبي: يا عمّ إني أرى في وجهك سَفْعَـة من غضب، قال: أجل، كـان لي على فـلان بن فـلان الحراميّ مـال، فأتيـت أهلـه فسلمت فقلت: ثَمَّ هـو؟ قالوا: لا. فخرج عليّ ابن له جَفْـرٌ فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك فدخل تحت أريكـة أمي، فقلت: اخرج إليّ فقـد علمت أين أنت فخرج، فقلت: مـا حملك على أن اختبأت مني؟ قـال: أنـا والله أحـدّثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحـدّثك فأكذبك، وأن أعـدك فأخلفك، وكنتَ صـاحب رسول الله ﷺ، وكنـتُ والله معسرًا. قال: قلت: آلله قـال: الله، قلت: آلله قال: الله، قلت: آلله. قال: الله، قال: فأتى بصحيفته فمحاها بيـده فقال: إن وجـدت قضـاءً فاقضني وإلا أنـت في حِلّ، فأشهد بَصَـرُ عيني هـاتين ووضع إصبعيه على عينيـه وسَمْعُ أذنيّ هـاتين ووعاه قلبي هـذا وأشار إلى مناط قلبه رسولَ الله ﷺ يقول: «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله».

قال تعالى: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

قد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ أن الظاهر أن قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ إلى آخر آية الدَّيْن، من آخر ما نزل من القرآن، وقد أشار البخاري رحمه الله إلى ذلك حيث قال: بابٌ: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ حدثنا قَبِيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن عاصم عن الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: كذا ترجم المصنّف بقوله: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله﴾ وأخرج هذا الحديث بهذا اللفظ ولعله أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس، فإنه جاء عنه ذلك من هذا الوجه، وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ أخرجه الطبري من طرق عنه، وكذا أخرجه من طرق جماعةٌ من التابعين، وزاد عن ابن جريج قال: يقولون: إنه مكث بعدها تسع ليال. ونحوه لابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، ورُوِي عن غيره أقل من ذلك وأكثر، فقيل: إحدى وعشرين، وقيل سبعا، وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية هي ختام الآيات المنزّلة في الربا إذ هي معطوفة عليهن اهـ وقد وسّط الله تبارك وتعالى هذه الآية العظيمة بين آيات الربا وآية الدَّيْن للفت انتباه الناس إلى أن الدِّين هو التوقي في المعاملات والحرص على اكتساب الحلال والحذر كلّ الحذر من تعاطي الربا وسائر المحرمات، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الربا من الكبائر ومن السبع الموبقات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وماهنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتّولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». كما روى البخاري من طريق عَوْن بن أبي جُحَيْفة عن أبيه رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومُوكِلَه ونهى عن ثمن الكلب وكسب البَغيّ، ولَعَن المصوّرين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿واتقوا يوما تُرْجَعُون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي واحذروا أيها الناس يوما يجعل الولدان شِيبًا تُرَدُّون فيه إلى الله عز وجل وتقفون بين يديه بأعمالكم من خير أو شر، فيجازي كلّ نفس بما كسبت. قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس يوما ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيّئات تهلككم أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبَلَ لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّى فيه كلّ نفس أجرها على ما قدّمت واكتسبت من سيّئ وصالح لا تُغادَر فيه صغيرة ولا كبيرةٌ من خير وشرّ إلا أحضرت، فوفّيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون، وكيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها وبالحسنة عشر أمثالها؟ كلا، بل عَدَلَ عليك أيها المسيء، وتكرّم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتّقى امرؤ ربّه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذّر فأعذر، ووعظ فأبلغ اهـ وقد حذّر الله تبارك وتعالى الناس من أهوال يوم القيامة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الوِلدان شِيبًا* السماء مُنْفَطِر به كان وعدُه مفعولاً﴾ وكما

قال عز وجل: ﴿يـا أيها الناس اتقوا ربكم ، إنّ زلزلـة الساعة شيء عظيم* يوم تـرونها تَذْهَل كلّ مُرْضِعة عما أرضعت وتضع كلّ ذات حمل حملهـا وترى النـاس سكارى ومـا هم بسُكـارَى ولَكنّ عذاب الله شـديـد﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها* وأخـرجت الأرض أثقالها* وقال الإنسان مـالها* يومئـذ تحدّث أخبارهـا* بأن ربّك أوحى لها* يومئـذ يصدر النـاس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالهم* فمن يعمل مثقـال ذرة خيرا يره* ومن يعمل مثقال ذرة شرا يـره﴾ وقد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظـة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غُرْلاً ﴿كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾ ألا و إن أول الخلائق يُكْسَى إبراهيم عليه السلام، ألا و إنه سيجاء برجال من أمتي، فيؤخـذ بهم ذات الشّمال، فأقول: يا رب أصحـابي، فيقول: إنك لا تـدري ما أحـدثوا بعـدك؟ فأقول كما قـال العبد الصـالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيـدا ما دمتُ فيهم﴾ إلى قـوله: ﴿العـزيز الحكيم﴾» إلى آخـر الحديث. والمراد بقوله: «أصحابي»، أي إنهم من أمتي، كما روى البخاري ومسلم من حديث عـائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس حفاةً عراةً غـرلاً». قالت عائشة: فقلت: الرجـال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قـال: «الأمر أشد من أن يهمّهُم ذلـك» وفي رواية: «من أن ينظر بعضهم إلى بعض» كما روى الطبراني في الأوسط بـإسناد صحيح من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر النـاس يـوم القيامـة عـراةً حفـاةً» فقالـت أمّ سلمة فقلت: يـا رسـول الله، واسَـوْأتـاه، ينظـر بعضنـا إلى بعض، فقـال: «شُغِلَ النـاس»، قلت: مـا شغلهم؟ قال: «نشر الصحـائف، فيها مثاقيل الـذَّرّ ومثاقيل الخرْدل». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول

الله ، قال الله تعالى : ﴿الذين يُحْشَرون على وجوههم إلى جهنم﴾ أيحشر الكافر على وجهه؟ قـال رسول الله ﷺ : «أليس الـذي أمشاه على الرجلين في الـدنيا قادر على أن يمشيـه على وجهه؟» قـال قتادة حين بلغـه : بلى وعزّة ربّنـا . كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «يَعْرَق الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقهم سبعين ذراعا ، وإنه يُلْجِمهم حتى يبلغ آذانهم» . وفي رواية لمسلم من طـريق سُلَيم بن عامر حـدثني المقـداد بن الأسـود قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : «تُـدْنَى الشّمس يوم القيـامة من الخلق ، حتى تكون منهم كمقـدار ميل» قال سليم ابن عامـر: فو الله مـا أدري ما يعني بـالميل ، أمسافـة الأرض؟ أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قـال : «فيكون الناس على قـدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكـون إلى كعبيــه ، ومنهم من يكـون إلى ركبتيـه ، ومنهـم من يكـون إلى حَقْوَيْه ، ومنهم من يُلْجِمُه العرق إلجاما» قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه . وقـد روى البخاري ومسلم من حـديث عائشـة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قـال : «ليس أحد يحاسب يـوم القيـامة إلا هلك» قلت : أو ليس يقـول الله : ﴿فسوف يُحَاسَبُ حسابا يسيرا﴾؟ فقال : «إنما ذلك العَرْض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك» . كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إنّ الله يدني المؤمن ، فيضع عليه كَنَفَه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول : نعم أي ربّ ، حتى قرّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : سترتُها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، فيُعْطَى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق : ﴿هؤلاء الذيـن كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾»كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنـه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : « هل تدرون مما أضحك ؟» قال : قلنا : الله

ورسـولـه أعلم قـال: «من مخاطبـة العبد ربّـه، يقـول: يـا رب ألم تُجِرْني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقـول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدا مني، قـال: فيقول: كفى بنفسـك اليوم عليك شهيـدا وبـالكرام الكـاتبين عليك شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقـال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعمالِه ثم يخلّي بينـه وبين الكلام، قـال: فيقول: بُعـدًا لكنّ وسحقًا فعنكنّ كنت أنـاضل». كما روى البخاري ومسلم مـن حديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: قـال رسول الله ﷺ: «عـرضت عليّ الأمم، فـرأيت النبي ومعـه الرّهيط، والنبيّ ومعـه الرجل والـرجلان، والنبيّ ليس معـه أحد، إذ رفع لي سوادٌ عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هـذا موسى وقومـه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظـر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمّتك ومعهم سبعـون ألفا يدخلون الجنـة بغير حساب ولا عذاب» ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، فقـال بعضهم: فلعلّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقـال بعضهم: فلعلّهم الذين ولـدوا في الإسـلام فلم يشركوا بـالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسـول الله ﷺ فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقـال: «هم الذين لا يَرْقُـون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتـوكلـون» فقام عُكّـاشـة بن مِحْصَن فقـال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقـال: «أنت منهم» ثم قـام رجـل آخـر فقـال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكّاشة».

قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علّمه الله، فليكتب وليملل الّذي عليه الحقّ وليتّق الله ربّه ولا يبخس منه شيئا، فإن كان الّذى عليه الحقّ سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليُّه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشّهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى، ولا يأب الشّهداء إذا ما دُعُوا، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، ذالكم أقسطُ عند الله وأقومُ للشّهادة وأدنى ألاّ ترتابوا إلاّ أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جُناح ألاّ تكتبوها، وأشهدوا إذا تبايعتم، ولا يضارّ كاتب ولا شهيد، وإن تفعلوا فإنّه فسوق بكم، واتّقوا الله ويعلّمكم الله، والله بكلّ شيء عليم.﴾

هذه أطول آية في كتاب الله، وتسمّى آية الدَّيْن، وقال ابن جرير رحمه الله: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب قال: حدثني سعيد بن المسيب أنه بلغه أنّ أحدث القرآن بالعرش آية الدين اهـ ويكاد أهل العلم يطبقون على الاحتجاج بمراسيل سعيد بن المسيب لأنها فتشت فوجدت كلّها مسانيد قد رواها عن الصحابة رضي الله عنهم، وقد وضعت هذه الآية الكريمة قواعد توثيق المعاملات، وأسباب صيانة الحقوق، وحفظ الأموال التي جعلها الله تبارك وتعالى قياما للناس، وبضبط هذه القواعد يُقْضَى على كثير من المنازعات التي تشتّت شمل الناس، ولما كانت الآيات السابقة قد حذّرت أشدّ التحذير من تعاطي الربا، فقد أذن الله تبارك وتعالى في السَّلَم بهذه الآية الكريمة. والسَّلَم هو بيع موصوف في الذمة إلى أجل ببدل يُعْطَى عاجلاً. وقد عوض الله تبارك

وتعالى المسلمين عن الربا بالسلم واستثناه من قاعدة الربا، وهو يجمع ما قد يكون في الربا من نفع مع كثرة خير السّلم وبركته ومنافعه فإنّ الإنسان إذا كان لديه مال فبدل أن يتعاطى فيه بالربا فقد أذن الله له أن يشتري به قمحا أو شعيرا أو أرزا أو تمرا أو غير ذلك من إنسان محتاج للنقد إلى أجل معلوم فيحصل للمحتاج ما يريده من النقد بما يدفعه للمشتري عند حلول الأجل، فيستفيد البائع والمشتري جميعا ولا يلحق أحدا منهما غَبْن ولا ظلم، وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى ما حرّم لذّة ولا منفعةً إلا وقد وضع للمسلمين من التشريع ما يبيح للمسلمين مثل هذه اللذات والمنافع الخالية من الأوضار والأضرار، فإنه عندما حرّم الربا أباح السّلم وعندما حرّم الزنا شرع الزواج، وقد أغلق الإسلام جميع الأبواب التي تؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل، فحرّم اكتساب المال من طريق الربا أو الرشوة أو التزوير أو الغصب أو الخداع أو الغَرَر أو تلقي الركبان أو المزابنة أو بيع الثمار قبل بُدُوّ صلاحها. ووضع قواعد الأموال الربوية كما ذكرت قريبا، كما أنه شرع للمسلمين من طرق اكتساب الأموال واستثمارها ما يغني ويكفي ويشفي، ويسد حاجة الناس على اختلاف أحوالهم وطبائعهم ومعارفهم وقدراتهم، وقد أوضحت الشريعة الإسلامية أنه لا ينعقد البيع إلا إذا كان عن تراض، وأن يكون العاقد جائز التصرف وأن يكون المبيع مالا، يصح الانتفاع به، من غير ضرورة، وأن يكون المبيع مملوكا للبائع أو مأذونا له في بيعه، وأن يكون مقدورا على تسليمه، وأن يكون معلوما برؤية أو صفة تحصل بها معرفته وأن يكون الثمن معلوما. ورخصت الشريعة الإسلامية في أنواع من المعاملات توسعة على المسلمين ودفعا للأذى والضرر عنهم وسدّا لحاجتهم، فاستثنت بيع العرايا لمّا حرمت الربا والمزابنة، وشرعت كذلك نظام السّلم واستثنته من قاعدة منع بيع الإنسان ما ليس عنده، كما شرعت المضاربة وألوانا من

الشركات وفيها وفي السّلم أبواب واسعة لاستثمار الأموال أحسن استثمار دون مضرة تلحق أحد الطرفين، فلم تجعل الفائدة لأحد المتعاقدين والخسارة على أحدهما كالربا، وبمقارنة المعاملات المشروعة بالمعاملات المحرمة يتضح أن هذا التشريع هو تشريع العليم الحكيم الخبير، ولم تحرّم الشريعة شيئا إلا لدفع ما فيه من الأذى والمفاسد، ولم تبح شيئا إلا وفيه مالا يحصى من المصالح والمنافع والفوائد، وذلك كلّه في إطار قاعدة شرعية مطّردة وهي أن درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح وأنه لا ضرر ولا ضرار. والمتمعّن في آية الدين هذه وما اشتملت عليه من القواعد والفوائد يحسُّ أنه أمام نوع من الإعجاز التشريعي الذي أنزله الله تعالى على النبي الأمي معلّم البشرية منهج سعادتها محمد ﷺ وقد ذكر القرطبي رحمه الله في هذه الآية اثنتين وخمسين مسألة وذكر أنها تتناول جميع المداينات بالإجماع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ أي إذا تعاملتم وتبايعتم بدين أو اشتريتم به إلى وقت معلوم وَقَّتموه بينكم من سَلَم أو غيره مما فيه أحد العِوَضَيْن مؤجلا، فاكتبوا الدّين الذي تداينتموه إلى أجل واجعلوا به صَكًّا لحفظ حقوقكم وقطع منازعاتكم. وحقيقة الدَّيْن عبارة عن كل معاملة يكون أحد العوضين فيها نقدا والآخر في الذمة نسيئة. والعرب يطلقون على الحاضر النقد والعين وعلى الغائب الدين وفي ذلك يقول الشاعر عندما رأى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لما قال له جماعة من السبئية: أنت الله، فأمر رضي الله عنه مولاه قنبرا فحفر حفرتين وملأهما نارا وألقى فيهما من تحقق لعلي رضي الله عنه أنه على هذا المذهب الخبيث فقال الشاعر:

لترم بي الحوادث حيث شاءت ... إذا لم ترم بي في الحفرتين
إذا ما أوقدوا حطبا ونارا ... فذاك الموت نقدا غير دين

ولا شك أن كتابة الدين ليست شرطا في صحة عقد المداينة، كما أن

الإشهاد على عقد البيع ليس شرطا في صحة عقد البيع، وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجّج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلّفت فلانا ألف دينار فسألني كفيلا فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضي بك، وسألني شهيدا فقلت: كفى بالله شهيدا، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلّ مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله مازلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنتَ بعثتَ إليّ بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا. وقوله عز وجل: ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي وليحرّر الصكّ بالدين كاتب فقيه مستقيم يتحرى الحقّ ويخاف الله عز وجل فلا يكتب إلا ما يتفق عليه الطرفان لا يزيد شيئا ولا ينقص شيئا، ولا يكتفي بكلام أحدهما، ويحرر العبارة تحريرا يدفع اللّبس، ويجتنب الكلمات الموهمة لأكثر من معنى، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يأب كاتب أن

يكتب كما عَلَّمَـه الله ، فليكتب ولْيُمْلِل الـذي عليـه الحق وليتّق الله ربـه ولا يَبْخَسْ منه شيئا﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة عن الكتابة لأنه تعاون على البر والتقوى وليحرص على أن تكون كتابتـه على ما يرضي الله عز وجل الذي تفضل عليه وعلمه الكتـابة ، فليلتزم هو بتحرير العبارة القـاطعة للنزاع فقط دون أن يكون لـه هوى لأحـد الطرفين المتعاقـدين ، وعليه أن يسمع مـا يمليه عليه الـذي عليه الدَّيْن المطـالب بالحق لأنـه المقر به الملتـزم له ، فلو قـال له الذي له الحق : لي كذا وكذا ، لا يكتب كلامه حتى يقر به الذي عليه الحقّ ؛ لأنّ الإقرار حجـة قاصرة على المقـر وحده . وعلى هـذا المملي أن يخاف الله عز وجل وأن لا يأتي بعبارة موهمة قد تجلب النزاع عند المطـالبة ، فالواجب كتابة الدين بجميع صفـاته المبيّنة له المعـربة عنه المعرّفة للحـاكم بحقيقة الحال إذا قـدّر للمتـداينين أن يترافعـا إليـه . والتنصيص على أن يكـون الكـاتب غير الطرفين المتداينين لإزالة التهمة ، قال القرطبي : ولم يقل أحدكم ، لأنه لما كان الذي له الـدّين يتّهم في الكتابة الذي عليه الـدين وكذلك بالعكس شرع الله سبحانه كاتبا غيرهما يكتب بالعـدل لا يكون في قلبه ولا قلمه هوادة لأحدهما على الآخر اهـ والإملال والإملاء أن يقول القـائل كلاما فيكتبه الكاتب عنه . والبَخْس : النقص والظلم والمكْس ، وهذا غاية في التوثيق وإقامة العدل .

وقولـه تبارك وتعالى : ﴿فإن كـان الذي عليه الحقّ سفيهـا أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يُمِلّ هـو فلْيُمْلِلْ وليُّـه بـالعدل﴾ أي فإن كـان المدين قـادرا على الإملاء لكنـه لا يُقْبَل إملاؤه لكونـه سفيها أو ضعيفا ، أو كـان غير قادر على الإمـلاء لخرَس أو لِعِيّ أو لجهل باللغـة فليملل وليـه بالعـدل ، والسفيه هـو المبـذّر المتلف لمالـه المحجـور عليـه ، والضعيف هـو الصغير والشيخ الهرِم والمجنون ، فليتولّ وليّه الإملاء على الكاتب بدلا من الذي عليه الدّين ، والمراد بوليه من يلي أمره ويقوم مقامه من قيّم أو وكيل أو مترجم ممن ينصبهم الحاكم

الشرعي ويقيمهم مقامه في التصرف في ماله عنه، وقد أجمع العلماء على أن تصرّف السفيه المحجور عليه دون إذن وليّه فاسد مفسوخ أبدا، لا يوجب حكمًا ولا يؤثّر شيئا كما قال القرطبي رحمه الله. أما إذا كان الرجل يُخْدَع في البيوع فإنه يصحّ عقده ويصح إملاؤه إذا اشترط عند العقد أنه لا خِلاَبَة فإنه يكون له الخيار إذا ثبت الغبن، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رجلٌ لرسول الله ﷺ أنه يخدعُ في البيوع فقال: «إذا بايَعْتَ فقل: لا خِلاَبَة» وقد أورده البخاري في باب ما يكره من الخداع في البيع من طريق عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رجلا ذُكر للنبي ﷺ «أنه يخدع في البيوع فقال: إذا بايعت فقل: لا خِلابة». وفي لفظ لمسلم: أنه كان يقول: لا خِيَابة. فيقلب اللام ياءً. قال الحافظ في الفتح: وكأنه كان لا يفصح باللام للثغة لسانه، ومع ذلك لم يتغير الحكم في حقه عند أحد من الصحابة الذين كانوا يشهدون له بأن النبي ﷺ جعله بالخيار اهـ وهذا الرجل هو حَبَّان بن منقذ بن عمرو الأنصاريّ رضي الله عنه كما ذكر ابن الجارود في المنتقى. ومعنى: يُخْدَع، أي يُغَرّ ويُغْبَن. ومعنى: لا خلابة، أي لا خديعة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممّن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى﴾ أي واستحضروا عند تحرير صك الدّين ذكرين بالغين عاقلين من المسلمين ليتحمّلا الشهادة يكونان معروفين بالضبط والقدرة على ذلك، ولم يقل: شاهدين، وقال: ﴿شهيدين﴾ للإشعار بأنهما متمكنان من تحمل الشهادة قادران على أدائها، وقوله عز وجل: ﴿فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان﴾ أي فإن لم تحضروا شاهدين من الرجال فليشهد رجل وامرأتان، فجعلت الشريعة الإسلامية شهادة المرأتين بشهادة رجل واحد، وذلك لأن الله تبارك

وتعالى جعل فطـرة المرأة وطبيعتها دون جبلّة الـرجل وطبيعته وخلقتـه، فكان الرجـل بما جبله الله عز وجـل أقوى جسما وأكبر دمـاغا وأوسع عقـلا وأقوى عضلا وأعظم استعدادا لشئون الحياة وأقدر على تحمّل مختلف الأعمال وجعل غُـدَد المرأة أكثر رطـوبة وأضعف تحمـلا، واختص النساء بـالحيض والحمل والرضـاع وحضانة الأطفال، ولـذلك جعل الله تبارك وتعالى الرجـال قوامين على النساء، وقد روى البخاري من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قـال: خرج رسـول الله ﷺ في أضحى أو فطـر إلى المصلى، فمرّ على النسـاء فقال: «يا معشر النساء تصـدّقن فإني أُرِيتُكُنّ أكثر أهل النار» فقلن: وبم يا رسـول الله؟ قال: «تكثـرن اللعن، وتكفرن العشير، مـا رأيت من ناقصـات عقل ودين أَذْهَبَ للبّ الرجـل الحازم من إحداكنّ» قلن: وما نقصـان ديننا وعقلنا يـا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهـادة الرجل؟» قلن: بلى، قال: «فذلك من نقصـان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم؟» قلن: بلى، قـال: «فـذلك من نقصان دينهـا». وأخـرج مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصـدّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكـنّ أكثر أهل النار» فقـالت امرأة منهنّ جزلةٌ: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «تكثرن اللعن وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لبّ منكنّ». قالت: يا رسـول الله وما نقصـان العقل والدين؟ قـال: «أما نقصـان العقل فشهادة امـرأتين تعدل شهـادة رجل فهذا نقصـان العقل، وتمكث الليالي مـاتصلي، وتفطر في رمضان، فهذا نقصان الدّين». وقـوله عز وجل: ﴿ممّن ترضون من الشهداء﴾ الظاهر من الأساليب البـلاغية الملاحظة في القرآن الكريم أن هذا القيد يشمل جميع الشهـود من الرجال والنساء في الحقوق وغيرهـا، وذلك أنه قد يذكر أشياء فيقيّد بعضها بقيـد ويترك تقييد الآخر فلا يقيده بهذا القيد مع

أنه مـرادٌ تقييده به فيكتفي بـالمذكور عن المحـذوف، ومثال ذلك قولـه تبارك وتعـالى: ﴿يـا أيها النبي حـرّض المؤمنين على القتـال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قـوم لا يفقهـون* الآن خفَّف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًـا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ فقد قيّد العشرين بأنهم صابرون ولم يقيد بها المائة في قوله عز وجل: ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفـا﴾ مع أن هذا القيد مرادٌ، وقيد المائة بقيـد الصبر في قولـه عـز وجل: ﴿فإن يكن منكم مـائة صـابرة يغلبـوا مائتين﴾ ولم يقيد بها الألف في قولـه عز وجل: ﴿وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين﴾ مع أن هذا القيد مراد مع الألف أيضـا، وكذلك قيد الألف المغلوب بقيـد الكفر في قـوله: ﴿يغلبـوا ألفـا من الذين كفـروا﴾ ولم يقيد بهذا القيـد المائتين المغلـوبتين في قـوله عـز وجل: ﴿يغلبـوا مـائتين﴾ وكـذلك الألفين المغلوبين في قولـه عز وجل: ﴿يغلبوا ألفين﴾ مع أن قيـد الكفر مرادٌ فيهما، وقيّـد قولـه عز وجل: ﴿وإن يكن منكـم ألف يغلبوا ألفين﴾ بقـوله تعـالى: ﴿بإذن الله﴾ مع أن هذا القيـد مراد في الجميع، وهذا من الأساليب البـلاغية التي اعتبرت في إعجاز القرآن وهو معروف في البلاغـة باسم الاحتباك، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿أن تضلّ إحداهما فتُـذَكّر إحـداهما الأخرى﴾ أي أن تنسى إحدى الشـاهدتين وتتردّد في استـذكار الشهادة فتـذكّرها الشـاهدة الثـانية، وهذا بسبـب الرطوبـة التي تغلب على تكويـن غدد النساء لتكـون ألطف في معاملة أطفالها ومَن تحت يدهـا مِن خدم، ولتدخل على زوجها الأنس لما قد يلقاه من متاعب الحيـاة. قال الكرخيّ: من شأن العرب إذا كـان للعلة علةٌ قدّموا ذكـر علة العلة وجعلوا العلة معطـوفة عليها بالفـاء لتحصل الدّلالتان معًـا بعبارة واحـدة كقولك: أعـددت الخشبة أن يميل الجدار فأَدْعِمَـه بها،

فالإدعام علّة في إعداد الخشبة . والميل علة الإدعام ، وإيضاحه أنك لم تقصد بإعداد الخشبة ميل الحائط وإنما المعنى : لأدعم بها إذا مال ، فكذلك الآية ، وهذا مما يعوّل فيه على المعنى ويهجر فيه جانب اللفظ ، فلا يرد : كيف جعل ﴿أن تضلّ﴾ عِلة لاستشهاد المرأتين بدل رجل مع أن علّته إنما هي للتذكير اهـ قال القرطبي رحمه الله : قال أبو عبيد : معنى تضل تنسى ، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا ، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال : ضلّ فيها اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولا يأب الشهداء إذا مادُعُوا﴾ أي ولا يمتنع الشاهد عن أداء الشهادة إذا طُلِب لأدائها عند الحاكم فالشاهد يمشي للحاكم كما قيل في أمثال العرب : في بيته يُؤْتَى الحَكَمُ . ولا شك أن صاحب الحق إن لم يكن تمكينه من حقه إلا بهذا الشاهد فإن أداء الشهادة يكون واجبا ، ويأثم الشاهد إن لم يشهد ، ولو علم الشاهد بحق ولم يذكره صاحب الحق ولم يكن له غيره فإنّ الشاهد إذا حضر وأقام الشهادة لله كان خير الشهداء ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسْأَلَهَا» .
وقوله عز وجل : ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله﴾ أي ولا تملّوا أن تكتبوا صك الدين على أي حال كان من القلة أو الكثرة وتحددوا فيه الأجل المسمى ، وهذا الإرشاد والتوجيه يشعر بخطورة الدّين ووجوب صيانة الأموال التي جعلها الله للناس قياما ، وقد حذرت الشريعة الإسلامية من عدم تسديد الدّين أشد التحذير، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر يكفّر الله عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم»فلما أدبر ناداه . فقال : «نعم إلا الدّين ، كذلك قال جبريل» كما روى

مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين». وقد بشر رسول الله ﷺ من أخذ أموال الناس وهو عازم على قضائها بأن ييسّر الله عز وجل عليه سدادها، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله».

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذالكم أقسط عند الله وأقوم للشّهادة وأدنى ألاّ ترتابوا﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من كتابة صَكّ بالدين وتحرير أجله والإشهاد عليه وأن لا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله هو أعدل عند الله عز وجل وأصحّ وأحفظ وأضبط للشهادة وأقرب ألا تشكّوا في جنس الدّين وقدره وأجله وشهوده، يقال: أقسط الحاكم فهو يقسط إقساطا إذا عدل في حكمه وأصاب الحق فيه، ويقال قسط فلان: إذا جار وظلم وتعدى، وقد استعمل القرآن العظيم أقسط بمعنى عدل، وقسط بمعنى جار حيث يقول عز وجل: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتُقْسِطوا إليهم، إنّ الله يحبّ المقسطين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقْسِطِين﴾ وقال عز وجل: ﴿وأنّا منا المسلمون ومنّا القاسطون فمن أسلم فأولَئك تَحَرَّوْا رَشَدًا* وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا﴾ ولفظ القسط في اللغة من الأضداد يطلق على معنى العدل وعلى معنى الجَوْر ومصدر قسط بمعنى جار القُسُوط يقال: قَسَط يَقْسِط قسوطا إذا جار، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: وأقسط في حكمه: عدل فهو مقسط. وفي التنزيل العزيز: ﴿وأقسِطُوا إن الله يحب المقسطين﴾ والقِسْط الجَوْرُ، والقُسُوط: الجورُ والعدولُ عن الحق، وأنشد:

يشفي من الضِّغْن قُسُوط القاسط

قال: هو من قسَط يَقْسِط قُسُوطًا اهـ ﴿وأقوم للشهادة﴾ أي أصوب لها، قال ابن جرير رحمه الله: وأصله من قول القائل: أقمتُ من عوجه إذا سويته فاستوى، وإنما كان الكتاب أعدل عند الله وأصوب لشهادة الشهود على ما فيه، لأنه يحوي الألفاظ التي أقر بها البائع والمشتري وربّ الدّين والمستدين على نفسه، فلا يقع بين الشهود اختلاف في ألفاظهم بشهادتهم لاجتماع شهادتهم على ما حواه الكتاب، وإذا اجتمعت شهادتهم على ذلك كان فصل الحكم بينهم أبين لمن احتكم إليه من الحكام، مع غير ذلك من الأسباب، وهو أعدل عند الله لأنه قد أمر به، واتّباع أمر الله لا شك أنه عند الله أقسط وأعدل من تركه والانحراف عنه اهـ . وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها﴾ بعد أن أكّد الله تبارك وتعالى على المسلمين إذا تداينوا بدين أن يكتبوه وأن يشهدوا على صك الدين، وألا يسأموا أن يكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله رخّص هنا للباعة والمشترين المتعاملين بالعوضين الحاضرين يدا بيد في ترك كتابة صك بمعاملتهم لأن البائع يقبض الثمن والمشتري يقبض السلعة قبل المفارقة، فلا حاجة لهم في كتابة صك بهذه المبايعة الحاضرة التي من شأنها أن تدار بين التجار، حيث يقول عز وجل: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ وقد قرأ عاصم: ﴿إلا أن تكون تجارةً حاضرةً﴾ بنصب تجارة وبنصب حاضرة، على أن اسم كان ضمير مستتر يعود على المعاملة المفهومة من السياق وتجارةً خبرها وحاضرة صفة لتجارة، وقرأ بقية السبعة برفع تجارة على أنّ كان تامة بمعنى: وقع وحدث، أي إلا أن تقع تجارة حاضرة، وإلى هذا ذهب الأخفش، واعتبرها بعض أهل العلم كان الناقصة وتجارة اسمها وحاضرة صفة تجارة، والخبر جملة تديرونها بينكم فهي

في محل نصب خبر كان الناقصة . وفي قوله عز وجل : ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ يشعر بوجود الحرج والجناح إذا كانت المعاملة فيها دين إلى أجل مسمى ولم تكتب ، وقوله عز وجل : ﴿تديرونها بينكم﴾ قال القرطبي : يقتضي التقابض والبينونة بالمقبوض ، ولما كانت الرِّبَاع والأرض وكثير من الحيوان لا يقبل البينونة ولا يغاب عنه حسُن الكَتْب فيها ولحقت في ذلك مبايعة الدّين فكان الكتاب توثّقا لما عسى أن يطرأ من اختلاف الأحوال وتغيّر القلوب ، فأما إذا تفاصلا في المعاملة وتقابضا وبان كلّ واحد منهما بما ابتاعه من صاحبه ، فيقلّ في العادة خوف التنازع إلا بأسباب غامضة ، ونبّه الشرع على هذه المصالح في حالتي النّسيئة والنقد ، وما يغاب عليه وما لا يغاب بالكتاب والشهادة والرّهن اهـ وقوله عز وجل : ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ يكاد أهل العلم يطبقون على أن هذا الأمر أمر إرشاد وهو يختلف باختلاف الأحوال والسلع فيزداد تأكّده كلّما عظم شأن السلعة ، والمسلمون مع اختلاف أعصارهم وأمصارهم يتبايعون في الأشياء التافهة دون إشهاد ، فمن يذهب ليشتري خبزة لا يحتاج إلى شاهدين يشهدان على البيع ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ باع وكتب ، وباع ولم يشهد ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث العَدّاء بن خالد قال : كتب لي النبي ﷺ : «هذا ما اشترى محمد رسول الله ﷺ من العَدّاء بن خالد ، بيع المسلم المسلمَ ، لا داء ، ولا خِبْثة ولا غائلة» اهـ وقال أبو داود في سننه : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس أن الحكم ابن نافع حدثهم أخبرنا شعيب عن الزهري عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدّثه وهو من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع فرسا من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع رسول الله ﷺ المشي ، وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس وهم لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه ، فنادى الأعرابيُّ رسولَ الله ﷺ فقال : إن كنتَ مُبْتاعا

هذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «أو ليس قد ابتعته منك؟» فقال الأعرابي: لا، والله ما بِعْتُكَه، فقال النبي ﷺ: «بلى قد ابتعتُه منك» فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيدا، فقال خزيمة ابن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: نسخت الصّحف في المصاحف ففقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فلم أجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يُضَارّ كاتب ولا شهيد﴾ يحتمل أن يكون الفعل ﴿يضارّ﴾ مبنيا للفاعل فيكون المعنى ولا يجوز للكاتب أن يلحق ضررا بأحد طرفي العقد في كتابته بالنقص أو بالزيادة، ولا يجوز للشاهد أن يلحق ضررا بأحد المتبايعين في شهادته بالزيادة أو النقص فيها، ويحتمل أن يكون ﴿يضارّ﴾ مبنيا للمفعول فيكون المعنى: ولا يجوز للمتبايعين أو غيرهما أن يلحق ضررا بالكاتب لكتابته أو للشاهد بسبب شهادته، فيكون معنى ﴿ولا يضارّ﴾ على الأول: ولا يضارِرْ، وعلى الثاني: ولا يضارَرْ. والله تبارك وتعالى كما نهى ووصّى بتحريم إلحاق الضرر بأحد من المسلمين عامة في قوله تبارك وتعالى: ﴿غير مُضَارّ وصيةً من الله﴾ وقرن عز وجل الضرار بأكبر الذنوب حيث قال: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرًا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب اللّهَ ورسولَه﴾ فقد حذّر هنا من إلحاق الضرر بالكاتب أو بالشاهد سواء كان إضراره بالقول أو بالفعل، وقد روى أبو داود والترمذي وحسّنه من حديث أبي صِرْمة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من ضارّ أضرّ الله به، ومن شاقّ شقّ الله عليه». وقوله تبارك وتعالى:

﴿وإن تفعلوا فإنــه فسوق بكم﴾ أي وإن خالفتـم ما أمرتم بـه ، أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم ، أي لازم لكم تتصفـون به ، ومن كان به خير لنفسـه لا يفعل مـا يجعلها فـاسقـة بل يحرص كلّ الحرص على أن يكـون من الصالحين ، فلا تضروا الكاتب الذي كتب بالعدل ، ولا تضروا الشاهد الذي شهد بـالحق . وقوله عـز وجل : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ أي وكـونوا على خـوف من ربكم واجعلوا لأنفسكم وقـاية من عـذابه بأن تأتمروا بما أمـر وأن تنزجـروا عما نهى عنه وزجـر ، والله تبارك وتعالى يتفضـل عليكم بتعليمكم ما ينفعكم في دينكم ودنيــاكم ، ويـرسم لكم منهج سعــادتكم ، ويضع لكم فرقانــا تفرقون به بين الحق والباطل ، والهدَى والضلال ، وقـد قال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فـرقانا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْن من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به﴾ وقوله عـز وجل : ﴿والله بكل شيء عليم﴾ يفيد أن ما يضعه لكم من منهج يكون أحسن المناهـج وأوفاها وأنقاها وأكملهـا وأتمّها ، لأنه العليم بجميع أحوال الناس وميولهم وما ينفعهم ويسعدهم في دنياهم وآخرتهم .

قال تعـالى ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبـا فرهان مقبـوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانتـه وليتّق الله ربّه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم﴾

بعد أن حذّر الله تبارك وتعالى من أكل الربا ، وأمر المؤمنين إذا تداينوا بدين إلى أجل مسمى أن يكتبوه ، ووضع لهم أقـوم المناهج في تحرير الصكـوك عند المداينات ورخّص لهم إذا كانت معاملاتهم في تجارة حاضرة يديرونها بينهم ألا يكتبوهـا لانتفاء المحذور عند ذلك ، أوضـح هنا أن الإنسان قد يحتـاج عند التعامل إلى التوثيق بِرِهَان مقبوضة فقال عز وجل : ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كـاتبًا فـرِهان مقبـوضة﴾ ولا شك عنـد أهل العلم أن الرهْن جـائز في الحضر كما هو جـائز في السفر، فإن رسـول الله ﷺ توفّي ودرعه مـرهونـة عند يهودي وكان ذلك في الحضر ولم يكن في السفر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ اشترى طعاما من يهوديّ إلى أجل ورَهَنه دِرْعا من حديد . كما روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : توفّي رسول الله ﷺ ودرعـه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير. وليست إباحة الرهن مشروطـة بكونه في السفر أو عند عدم وجود الكاتب ، إذ المقصود من الشرط هنا هو الغالب ، إذ السفر مظنّة عدم وجود الكاتب وحتى لو وجد الكاتب في السفر أو في الحضر جاز الرهن أيضا لأن المقصـود هو التـوثيق ، فإذا لم يرض البـائع أن يبيع لأجل إلا برهن جـاز ذلك كما دل عليه حديث عائشة المتقدّم المخرّج في الصحيحين . والمعروف في اللسان العـربي أن الشرط قد يجيء في الكلام العـربي لبيان الـواقع أو الغالب فيكون لا مفهـوم له وإن كـان يفيد الإشارة إلى الغـالب أو الواقع كما في قـوله تبـارك وتعالى : ﴿وربـائبكم اللاتي في حجـوركم من نسائكم الـلاتي دخلتم

بهن﴾ فإن كون الربيبة في الحجر لا يؤثر في التحريم أو التحليل فهي محرمة سواء كانت في حجر الرجل أو في غير حجره. وإنما الغالب أن تكون في حجره مع أمها. وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فإن قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين في السفر لا يشترط فيه أن يكون السفر مخوفا، كما جاء في صحيح مسلم من طريق يَعْلَى بن أمية قال: سألت عمر ابن الخطاب، قلت له: قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجبتُ مما عجبتَ منه فسألتُ رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». والمعروف عند أهل العلم أن القيد إذا كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه يكون لا مفهوم له ولا يتقيد به الحكم. وقد قرأ أكثر القراء ﴿فرهانٌ﴾ وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿فرُهُنٌ﴾ والرِّهان جمع رَهْن، مثل كِباش وكَبْش، وحِبال وحَبْل ونحوهما وكذلك «رُهُنٌ» جمع رهن أيضا، وأصل الرهن في اللغة يدور على معنى الحبس والدوام والثبات، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ أي مُحْتَبَسَة بعملها، وقوله عز وجل: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي محتبس بعمله، ومنه قول الشاعر:

نأت بسعاد عنك نوَى شَطُون فبانت والفؤاد بها رهين

والرهن في اصطلاح العلماء هو احتباس العين وثيقةً بالحق ليُسْتَوْفَى الحقّ من ثمنها أو من ثمن منافعها عند تعذر أخذه من الغريم. والمرتهن هو الذي يأخذ الرهن وقوله عز وجل: ﴿مقبوضة﴾ أي مسلّمة مؤدّاة إلى المرتهن، وقد أجمع العلماء على صحة قبض المرتهن أو وكيله، والقبض شرط للزوم الرهن لا لصحته وجوازه، ولا بد من إذن الراهن للمرتهن في القبض. والقبض في

الرهن كالقبض في البيع ، فإن كان من المنقول فقبض المرتهن له أخذه إياه من راهنه منقولا، وإن كان مما لا ينقل كالدّور والأرضين فقبضُه تخلية راهنه بينه وبين مرتهنه دون حائل. وقوله عز وجل: ﴿فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتّق الله ربّه﴾ أي فإن أحسن بعضكم الظّن ببعض في التعامل وحسن الأداء وكان أحد العوضين أو بعضه مؤجلا فلم يكتب الدائن صكا بالدين على المدين، أو كان أحدكم أأتمن أخاه المسلم فوضع عنده أمانة، فإذا جاء وقت الأجل في الدين الذي لم يُكتب به صك أو طلب صاحب الأمانة أمانته فيجب على المؤتَمَن أن يؤدي للذي ائتمنه ما في ذمته من دين أو أمانة، لما في ذلك من شيوع الثقة والطمأنينة بين الناس، وليخلّص نفسه من عذاب الله يوم القيامة، وقد حضَّ الله تبارك وتعالى على ذلك في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها﴾ وأثنى على من يؤدي الأمانة ووبّخ من يخونها حيث يقول عز وجل: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمتَ عليه قائما﴾ وبيّن أن خيانة الأمانة لا تحدث إلا من الظّلوم الجهول حيث يقول عز وجل: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن خيانة الأمانة من أبرز صفات المنافقين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن حفظ الأمانة وأداءها من أعظم أسباب نجاة المؤمنين يوم القيامة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تُزْلَفَ لهم الجنة،

فيأتون آدم صلوات الله عليه فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيأتون إبراهيم ، فيقول إبراهيم : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلا من وراءَ وراءَ ، اعْمَدُوا إلى موسى الذي كلّمه الله تكليما ، فيأتون موسى فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى : لست بصاحب ذلك ، فيأتون محمدا ﷺ فيقوم ، فيؤذن له ، وتُرْسَلُ الأمانة والرحم ، فيقومان جَنْبَتَي الصراط يمينا وشمالا ، فيمرّ أولكم كالبرق» قلت : بأبي وأمّي ، أيّ شيء كَمَرِّ البرق؟ قال : «ألم تروا كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين ، ثم كمرّ الريح ، ثم كمرّ الطير ، وأشدّ الرجال تجري بهم أعمالهم ، ونبيّكم قائم على الصراط يقول : يا ربّ سلّمْ سلّمْ ، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل لا يستطيع السّير إلا زَحْفًا ، وفي حافَتَي الصراط كَلاَليب معلّقة مأمورة بأخذ من أُمِرَتْ به ، فمَخْدُوش ناجٍ ، ومَكْدُوس في النار ، والذي نفس أبي هريرة بيده إنّ قَعْر جهنّم لسبعون خريفا» اهـ فعلى المؤتمَن أن يتقي الله ربّه ، وليحذر عقوبته إن لم يؤد الأمانة ، فإنه يوم القيامة لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وقوله عز وجل : ﴿ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ أي ولا تخفوا الشهادة إن طُلِبْتُم لأدائها ، ومن أخفاها عند طلبها فهو فاجر القلب لا يخاف الله ولا يخشاه ، وهذا تأكيد لقوله تبارك وتعالى في الآية السابقة : ﴿ولا يَأْبَ الشهداء إذا ما دُعُوا﴾ فإن الشاهد يحرم عليه أن يمتنع عن أداء الشهادة كما يحرم عليه أن يكتمها ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال ابن عباس وغيره : شهادة الزّور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك اهـ يعني وكتمان الشهادة بالحق شبيه بشهادة الزور. وقوله : ﴿والله بما تعملون عليم﴾ هو ترغيب وترهيب ليحرص المسلم على الشهادة بالحق

والامتناع عن كتمان الشهادة. وقد ذكـر القرطبي رحمه الله في ختام تفسير هذه الآية الكـريمة كلامـا حسنا حيث قـال: اعلم أن الذي أمر الله تعـالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البين ونفي التنازع المؤدي إلى فساد ذات البين، لئلا يسوّل له الشيطان جحود الحقّ وتجاوز ما حدّ له الشرع، ثم قال: لما أمر الله تعـالى بالكَتْب والإشهاد وأَخْـذ الرّهـان كان ذلك نصا قـاطعا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًّا على الجهلة المتصـوّفة ورِعَاعِها الذين لا يرون ذلك فيخرجـون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفايـة لأنفسهم وعيالهم، ثم إذا احتاج وافتقر عياله فهو إمـا أن يتعرّض لِـمِنَنِ الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أربـاب الدنيا وظَلَمَتِهِم وهـذا الفعل مذمـوم منهيّ عنه، ثم قال: قال الجوزي: وهذا كلّـه خلاف الشرع والعقل وسوء فهم المراد بالمال، وقد شرّفه الله وعظّم قدره، وأمر بحفظه، إذ جعلـه قوامًا للآدمي، وما جعله قـوامًـا للآدمي الشريف فهـو شريف، فقـال تعـالى: ﴿ولا تؤتـوا السفهـاء أمـوالكم التي جعل الله لكم قيـامًـا﴾ ونهى جلّ وعـزّ أن يسلم المال إلى غير رشيد فقال: ﴿فإن آنَسْتُم منهم رُشْدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ ونهى النبي ﷺ عن إضـاعـة المال، قـال لسعـد: «إنك أنْ تَـذَرَ ورثتك أغنيـاء خير من أن تذرهم عـالة يتكفّفون الناس» وقـال: «ما نفعني مالٌ كمال أبي بكـر»، وقال لعمـرو بن العـاص: «نعم المال الصالح للـرجل الصـالح»، ودعـا لأنس، وكان في آخر دعائه: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه»، وقال كعب: يا رسول الله إنّ من توبتي أن أَنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهـو خير لك». قال الجوزي: هـذه الأحاديث مخرّجة في الصحاح. اهـ

قال تعالى: ﴿لله ما فى السّمٰوات وما فى الأرض، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، والله على كلّ شيء قدير﴾ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير﴾ لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الّذين من قبلنا، ربّنا ولا تحمّلنا مالاطاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾

هذه الآيات هي خواتيم المسك من سورة البقرة، والآية الأولى تقرر حقيقة الكون الكبرى وهي أنّ جميع ما في السموات وما في الأرض مملوك لله وحده، وأنه تحت قهره عز وجل مِلكا ومُلكا، وأنه من رحمته بعباده أرسل لهم الرسل، وشرع لهم الشرائع فما أباح لهم فهو المباح وما حرمه عليهم فهو الحرام، وأنه أحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث، وما حرمه إنما حرّمه لدفع الضرر والأذى عن عباده، وما أباحه فهو لمنافعهم ومصالحهم، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم سِرّها وعلنها، وأنه محاسبهم على أفعالهم وطويّات صدورهم، وأنه يغفر لمن يشاء فضلا، ويعذب من يشاء عدلا، وهو لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وهذه الحقيقة التي تقررت في هذه الآية العظيمة تكررت في كتاب الله ليكون الناس على بصيرة في حاضرهم ومستقبلهم حيث قال عز وجل: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يَعْلَمْه الله، ويعلم ما في السمٰوات وما في الأرض، والله على كل شيء قدير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما تكون في شأن، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تُفِيضُون فيه، وما يَعْزُب عن ربك

من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ في آيات كثيرة، إلا أنّ هذه الآية الكريمة قد قررت أمرا زائدا على غيرها من الآيات وهي أن الله عز وجل يحاسب العباد على ما يخفونه في أنفسهم، ولا شكّ أن ما تخفيه النفس إن كان كفرا بالله واعتقادا خبيثا فإنّ الله سيحاسب العبد به إن مات ولم يقلع عنه ولم يتب منه، وإن كان وسوسة تمرّ بالصدر ولا تستقر فيه فإنّ الله تبارك وتعالى قد تفضل على هذه الأمة فلم يؤاخذها بما تحدّثت به صدورها ما لم تتكلم أو تعمل به، وقد خاف أصحاب رسول الله ﷺ خوفا شديدا عند نزول هذه الآية الكريمة، فأنزل الله عز وجل الآية الخاتمة لسورة البقرة: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها مااكتسبت﴾ وأرشدهم فيها إلى كلمات من الدعاء فدَعَوْه فاستجاب لهم، فقال: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا﴾ قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به﴾ قال: نعم، ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال: نعم. فقد قال البخاري في صحيحه: باب ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ ثم ساق من طريق مروان الأصفر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وهو ابن عمر أنها قد نُسِخَتْ ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ الآية. باب ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه﴾ وقال ابن عباس: إصرًا عهدًا، ويقال: غفرانك مغفرتك فاغفر لنا. ثم ساق بسنده من طريق مروان الأصفر عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: أحسبه ابن عمر: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. وروى مسلم

من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه قال: لما نـزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبـدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكُم به الله فيغفر لمن يشاء ويعـذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فـاشتد ذلك على أصحـاب رسـول الله ﷺ، فأتـوا رسول الله ﷺ ثم بـركـوا على الـرّكب، فقالوا: أي رسـول الله كُلّفنا من الأعمال ما نطيق، الصـلاة والصيام والجهاد والصـدقة، وقـد أنزلت عليك هـذه الآية ولا نطيقهـا، قال رسـول الله ﷺ: «أتريـدون أن تقولوا كما قـال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنـا وعصينا، بل قولـوا: سمعنا وأطعنـا غفرانك ربنا وإليك المصير». قـالوا: سمعنـا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأهـا القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرهـا ﴿آمن الرسـول بما أنزل إليـه من ربه والمؤمنـون كلّ آمن بالله ومـلائكته وكتبه ورسله لا نفـرق بين أحد من رسله وقالوا: سمعنا وأطعنـا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلـوا ذلك نسخها الله تعـالى فأنزل الله عـز وجل: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها لها مـا كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تـؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعـم. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين مـن قبلنا﴾ قال: نعم. ﴿ربنـا ولا تحمّلنا مـا لا طاقـة لنا بـه﴾ قال: نعم. ﴿واعف عنـا واغفـر لنـا وارحمنـا أنت مـولانـا فـانصرنـا على القـوم الكـافريـن﴾ قال: نعم. ثم سـاق مسلم من حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسِبْكُم به الله﴾ قال: دخل قلـوبهم منها شيء لم يدخل قلـوبهم من شيء، فقال النبيّ ﷺ: «قولـوا سمعنا وأطعنـا وسلّمنا»، قال: فـألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنـزل الله تعالى: ﴿لا يكلـف الله نفسا إلا وسعهـا لها مـا كسبت وعليها مـا اكتسبت ربنا لا تؤاخـذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قـال: قد فعلت، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملته على الذين من قبلنـا﴾ قال: قد فعلت، ﴿واغفر

لنا وارحمنا أنت مولانا﴾ قال: قد فعلت اهـ والمراد بالنسخ في هذه الأحاديث هو عدم مؤاخذة المسلم بحديث نفسه الذي تضمنه قوله عز وجل: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فقد تجاوز الله عز وجل لأمة محمد ﷺ عن حديث النفس بالآية الناسخة هنا، ولم ينسخ من الآية الأولى إلا ما يتعلق بحديث النفس، أما ما تضمّنته من علم الله عز وجل بكل شيء فهذا من صفات الله عز وجل التي لا تزول أبدا، ولا يقول قائل: كيف نُسِخَتْ الآية هذه وهي متضمنة خبرا والأخبار لا يدخلها النسخ؟ فالجواب كما أشرت هو أن المنسوخ منها فقط هو المعاقبة والمحاسبة على حديث النفس، وهو حكم من الأحكام لا خبر من الأخبار، والأصل في الحكم قبوله للنسخ فلا اعتراض ألبتة، وقد روى أصحاب الكتب الستة من طريق أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلّم به». وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة». وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتُها له حسنة، فإن عملها كتبتُها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتُها سيئة واحدة». ثم ساقه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: عن محمد رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا

أكتبهـا له حسنـة مـا لم يعمل، فإذا عملهـا فأنـا أكتبها بعشر أمثـالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مـا لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها» وقال رسول الله ﷺ: «قالت الملائكة: ربّ، ذاك عبدٌ يريد أن يعمل سيئة، وهـو أبصرُ به، فقـال: ارْقُبُوه فإن عملهـا فاكتبـوها لـه بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جَرَّائي».

وقولـه في حديث أبي هـريرة عنـد مسلم: لما نزلـت على رسول الله ﷺ: ﴿لله مـا في السمٰـوات ومـا في الأرض وإن تبـدوا مـا في أنفسكم أو تخفـوه يحاسبكم به الله فيغفـر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قـدير﴾ فـاشتد ذلك على أصحـاب رسـول الله ﷺ. الحديث، أي خاف أصحـاب رسول الله ﷺ منها ومن محاسبة الله عز وجل لهم على ما يخطر ببالهم وهذا من شدة إيمانهم وعظيم يقينهم وخوفهم من عذاب الله عز وجل، وهذا ولا شك ثمرة خـوفهم من الله فإن المسلم يخاف من ذنـوبه كأنها جبل يـريد أن ينقضّ عليه، بخلاف الكافر فإنه يرتكب أكبر المعاصي ويراها كالذبابة التي يدفعها بيده عن وجهه ومن كان بالله أعـرف فهو من الله أخوف، فقد روى البخاري في صحيحـه من حـديث عبـد الله بن مسعـود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال: «إنّ المؤمن يرى ذنـوبه كأنه قاعـد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنـوبه كذباب مرّ على أنفه فقال بـه هكذا». وقوله في الحديث: فلما اقترأها القوم ذلّت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلّ آمن بالله ومـلائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله، وقالـوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنـا وإليك المصير﴾ أي فلما قرأها الصحـابة رضي الله عنهم ارتـاضت بالاستسـلام لـذلك ألسنتهم. وقولـه في حديث ابن عبـاس: لما نزلت هذه الآية: ﴿إن تبدوا مـا في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ قال: دخل قلوبَهُم منهـا شيء لم يدخل قلوبَهُم من شيء.

أي دخل قلوبهم من أجل تلك الآية شيء لم يدخلها من أجل شيء سواها وذلك لحرصهم على فكاك أنفسهم من النار وغضب الله . وقوله عز وجل : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه﴾ أي وإن تظهروا ما في صدوركم أو تستمروا على كتمانه ، وقوله عز وجل : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ أي صدّق الرسول محمد ﷺ بجميع ما أنزله الله عز وجل إليه في هذه السورة وفي غيرها وكذلك المؤمنون قد صدّقوا بما أنزل إليهم من ربهم على رسول الله محمد ﷺ وأنزل الله عليهم في هذه السورة المباركة الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والحج وأحكام النكاح والطلاق والإيلاء والحيض والحضانة وقصص الأنبياء و إحياءه الموتى وأصول البرّ، وقواعد المعاملات وكيفيّة توثيق الصكوك ، وقد قرر عز وجل في ختام المسك من هذه السورة أن الرسول محمدًا ﷺ قد صدَّق بجميع ذلك وأقر به والتزمه وكذلك المؤمنون قد صدّقوا بجميع ذلك وأقروا به والتزموه ، وقوله عز وجل : ﴿كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ أي كلّ واحد منهم آمن بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله ، وهذا شأن المؤمنين دائما وأبدا ، ولا يتحقق الإيمان إلا بذلك ، فهذه أربعة أركان من أركان الإيمان الستة ، وقد اشتملت بقية هذه الآية والآية التي بعدها على الركن الخامس والركن السادس من أركان الإيمان . ففي قوله عز وجل : ﴿وإليك المصير﴾ إقرار باليوم الآخر، وفي الآية الأخيرة إقرار بالقدر، وقوله عز وجل : ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ أي لا نصير مثل اليهود والنصارى حيث آمن بعضهم ببعض الأنبياء وكفر ببعضهم ، فإن اليهود يزعمون أنهم آمنوا بموسى وجملة من الأنبياء ثم كفروا بعيسى وبمحمد ﷺ ، والنصارى زعموا أنهم آمنوا بموسى وعيسى وجملة من الأنبياء ثم كفروا بسيد المرسلين محمد ﷺ، وقد تقدم في هذه السورة المباركة وصية الله عز وجل للمؤمنين أن يؤمنوا بجميع النبيين لا يفرقون بين أحد منهم حيث قال تبارك وتعالى :

﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وكما قال عز وجل في سورة آل عمران: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ هو معطوف على قوله: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ كأنه قيل: آمنوا وقالوا سمعنا وأطعنا، أي لسنا كاليهود والنصارى الذين قالوا: سمعنا وعصينا. وقوله: ﴿غفرانك ربنا﴾ أي اغفر لنا ربنا مغفرة منك، قال ابن جرير رحمه الله: فإن قال لنا قائل: فما الذي نصب قوله: ﴿غفرانك﴾؟ قيل له: وقوعُه وهو مصدرٌ موقع الأمر، وكذلك تفعل العربُ بالمصادر والأسماء إذا حلت محلّ الأمر وأدّت عن معنى الأمر نَصَبَتْها، فيقولون: شكرا لله يا فلان وحمدًا له، بمعنى اشكر الله واحمده، والصلاةَ الصلاةَ بمعنى صلّوا، ويقولون في الأسماء: اللهَ اللهَ يا قوم اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإليك المصير﴾ أي وإليك يا ربّنا مرجعنا ومآلنا ومصيرنا يوم تبعث عبادك من قبورهم لمجازاتهم على أعمالهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلا وسعها﴾ أي لا يأمر الله أحدًا من خلقه ولا ينهاه إلا في حدود وسعه وقدرته وطاقته، فلا يكلّفه ما لا يطيق ولا يطلب منه عمل المستحيل. وقوله عز وجل: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ أي وقد رفع الله تبارك وتعالى الإصر والأغلال عن أمة محمد ﷺ وخفّف عنهم فلا يحاسبهم بما حدثت به نفوسهم وإنما يحاسبهم على ما فعلوه واكتسبوه من الخير أو الشر، وفي التعبير في جانب الخير بقوله: ﴿لها ما كسبت﴾ وفي التعبير في جانب الشر بقوله: ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ إشعار بكريم فضل

الله وجوده وعفوه وأن الإنسان إذا همّ بالخير وحام حوله احتسبه الله عز وجل له خيرا، وأنه لا يؤاخذ بالشر إلا من وقع فيه واجترحه عن عزم وإصرار. وقوله عز وجل: ﴿ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصْرًا كما حملتَه على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لاطاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ هذه هي الأدعية التي أرشد الله تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ حتى يسألوا الله عز وجل ويدعوه بها، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ربه أنه استجاب لهم حيث جاء في لفظ حديث أبي هريرة عند مسلم أثَر كل دعوة من هذه الدعوات: قال: نعم. وكما جاء في لفظ حديث ابن عباس عند مسلم: قال: قد فعلت. وقد بيّن الله عز وجل في صفات رسول الله ﷺ عند الأنبياء أنه يضع عن أمته إصرهم حيث يقول: ﴿الذين يَتَّبِعُون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ والإصر هو الثِّقَل في التكاليف، والأغلال هي الشدائد التي جعلها الله عز وجل على بني إسرائيل وقيّدهم بها من تحريم الصلاة في غير بناء ومن تحريم الصيد يوم السبت، وكما قال عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلَّتْ لهم﴾ وكذلك تحريم أكل الغنائم وعدم جواز التيمم عند فقد الماء ومؤاخذتهم بالنسيان وما استكرهوا عليه، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأ بهما في ليلة كفتاه». وأورده مسلم من طريق عبد الرحمن بن يزيد قال: لقيت أبا مسعود عند البيت فقلت: حديث بلغني عنك في الآيتين في سورة البقرة فقال: نعم قال رسول الله ﷺ: «الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأهما في ليلة كفتاه». وقد تقدم

في تفسير سورة الفاتحة الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نَقِيضًا من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قطّ إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قطّ إلا اليوم، فسلّم، وقال: أبشر بنورين أُوتيتَهُما لم يُؤْتَهُما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطِيتَه اهـ والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

وهذا آخر ما تيسر من تفسير سورة البقرة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين.


تفسير
سورة آل عمران



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿الٓمٓ* الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم* نزّل عليك الكتاب بالحقّ مصدّقا لما بين يديه وأنزل التّوراة والإنجيل* من قبل هدى للنّاس وأنزل الفرقان ، إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديد ، والله عزيز ذو انتقام﴾ .

هذه سورة آل عمران وسُميت بهذا الاسم لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها آل عمران حيث قال: ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ وقد وصفها رسول الله ﷺ بأنها الزّهراء كما وصف بهذا الوصف سورة البقرة حيث قال ﷺ فيما رواه مسلم من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرءوا الزَّهْرَاوَيْن البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غَمَامَتان أو كأنهما غَيَايتان أو كأنهما فِرْقان من طير صَوافّ تُحَاجَّان عن أصحابهما». الحديث. كما روى مسلم من حديث النّوّاس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعد، قال: «كأنهما غَمَامَتان أو ظُلّتان سَوْدَاوان بينهما شَرْق أو كأنهما حِزْقان من طير صَوافّ تُحاجّان عن صاحبهما» . وقد تقدم هذان الحديثان في تفسير أول سورة البقرة مع شرح بعض ألفاظهما، كما تقدم هناك تحقيق بحث الحروف المفرقة في أوائل السورة مثل: الٓمٓ. كما تقدم تفسير قوله عز وجل: ﴿الله لا إله إلا

هو الحي القيوم﴾ في آية الكرسي. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره في مطلع سورة آل عمران: وأما معنى قوله: ﴿لا إلـه إلاّ هو﴾ فإنه خبرٌ من الله جلّ وعزّ أخبر عباده أن الألوهيّة خاصّة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلاّ له، لانفراده بالربوبية، وتوحّده بالألوهية، وأن كلّ ما دونه فملكه، وأنّ كلّ ما سواه فخلقه، لا شريك له في سلطانه وملكه، احتجاجا منه تعالى ذكره عليهم بأن ذلك إذ كان كذلك، فغير جائزة لهم عبادةُ غيره، ولا إشراك أحد معه في سلطانه، إذ كان كلّ معبود سواه فملكه، وكلّ معَظَّم غيرُه فخلقه وعلى المملوك إفراد الطاعة لمالكه، وصرف خدمته إلى مولاه ورازقه، ومعرّفا كلّ مَن كان مِن خلقه - يوم أنزل ذلك إلى نبيه محمد ﷺ بتنزيله ذلك إليه، وإرساله به إليهم على لسانه صلوات الله عليه وسلامه - مقيما على عبادة وثن أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسيّ أو مَلَك أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنو آدم مقيمة على عبادته وإلاهته، ومُتَّخِذَه دون مالكه وخالقه إلَها وربّا - أنه مقيم على ضلالة، ومنعدل عن المحجة وراكب غير السبيل المستقيمة، بصرفه العبادة إلى غيره، ولا أحد له الأُلُوهة غيره، قال أبو جعفر: وقد ذكر أنّ هذه السورة ابتدأ الله بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به من نفي الألوهيّة أن تكون لغيره، ووصفه نفسه بالذي وصفها به في ابتدائها، احتجاجًا منه بذلك على طائفة من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ من نجران، فحاجّوه في عيسى صلوات الله عليه، وألحدوا في الله، فأنزل الله عز وجل في أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة نَيِّفًا وثمانين آية من أوّلها، احتجاجا عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيّه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقام على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلة، فأبوا ذلك، وسألوا قَبُول الجزية منهم، فقبلها ﷺ منهم، وانصرفوا إلى بلادهم، غير أنّ الأمر وإن كان كذلك، وإيّاهم قصد بالحِجَاج فإنّ من

كان معناه من سائر الخلق معناهم في الكفـر بالله واتّخاذ ما سوى الله ربّا وإلّها معبـودا، معمومـون بـالحُجّة التي حجّ الله تبـارك وتعـالى بها من نزلت هـذه الآيات فيه، ومحجوجون في الفرقان الذي فَـرَقَ به لرسوله ﷺ بينه وبينهم اهـ ومن وجوه المناسبة بين خواتيم المسك مـن سورة البقرة وفواتح الحقّ من سورة آل عمران أنه ذكـر أن الرسول ﷺ والمؤمنين آمنوا بكتـب الله تبارك وتعالى على سبيل الإجمال حيث قـال عـز وجل: ﴿آمن الـرسـول بما أنزل إليـه من ربـه والمؤمنـون كلّ آمن بالله ومـلائكته وكتبـه ورسلـه﴾ وقد فصّل في مطلع هـذه السورة المبـاركة بعض هذه الكتب فـذكر منها هذا القـرآن العظيم المنزل على محمـد ﷺ المصـدّق لما بين يـديـه، وأنـزل التــوراة والإنجيل من قبل هـدى للناس، وأنزل الفرقان، وفي البدء بـذكر القرآن قبل ذكر التوراة والإنجيل ثم ذكره بعدهما للفت الانتبـاه إلى أنه الكتاب المهيمن على ما تقـدمه من الكتب وأن حظّ المؤمنين بـه هو أوفر الحظـوظ، وأن أهله هـم أسعد الخلق بـالله عز وجل. وقوله عـز وجل: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقـا لما بين يديه﴾ أي أنزل عليك يا محمد القرآن بقواعـد الحق الثابتة في العقائد والسلوك ومقرّرا لما جاءت بـه الكتب السماوية التي سبقته، لا اختلاف فيـه ولا تناقض، ولا اعوجاج، يبيّن لكل ذي حق حقه، ويثبـت صدق الرسل فيما أخبروا به عن الله عز وجل، وعن مـلائكته وكتبه واليـوم الآخر. وقوله عـز وجل: ﴿وأنزل التوراة والإنجيـل* مِن قبلُ هُدًى للنـاس﴾ أي وأنزل التوراة على مـوسى بن عمران والإنجيل على عيسى ابن مريم من قبل مجيئك بـالقرآن لإرشاد الناس إلى صراط الله المستقيم وتعـريف بني إسرائيـل بما يـوضّح لهم سبيل الهدى وطريق الرشاد، فلستَ أيها الرسول العظيم بِدْعًا من الرسل، ولا آتيا بمنهج في العقـائد والعـدل والإحسـان ينـاقض منهج الأنبيـاء، بل منهجك متمم لمنـاهجهم، مهيمن عليهم، بل هـو الـذّروة في منـاهج الأنبيـاء والمرسلين،

يفرق بين الحق والباطل في جميع الأعصار والأمصار، ولذلك قال عز وجل: ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي الحقّ الفارق بين الهدى والضلال والرشد والغيّ في جميع ما يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، مبيّنا كذب اليهود في قولهم: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ كما قال عز وجل: ﴿وما قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذَرْهُم في خوضهم يلعبون﴾ وقد زعم بعض المنتسبين للعلم أن «نزّل» تشعر بالنزول على التدريج وأن «أنزل» تشعر بالنزول جملة، وليس هذا القول بسديد بل معنى نزّل وأنزل واحد، والعرب يستعملون كلّ واحد منهما مكان الآخر ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿نزّل عليك الكتاب بالحق﴾ ثم قال: ﴿وأنزل الفرقان﴾ ومما يبيّن ذلك أعظم البيان قوله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً﴾ وكما سيجيء في الآية السابعة: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب﴾ وهذا لا غموض فيه بحمد الله ألبتة، وما التوفيق إلا بالله. والتوراة في اللغة العبرانية معناها الشريعة أو الناموس وهي كتاب الله تبارك وتعالى المنزل على موسى ﷺ نورا وهدى للناس، واليهود المحرفون لكلام الله يزعمون أنها خمسة أسفار هي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين أو الأحبار وسفر العدد وسفر التثنية. والنصارى يطلقون التوراة على جميع كتب العهد القديم وهي المنسوبة عندهم إلى موسى والأنبياء من بعده من بني إسرائيل وتاريخ قضاتهم وأخبار ملوكهم قبل المسيح عليه السلام سواء عرفوا كاتبه أو لم يعرفوه، وقد يطلق بعض المسلمين اسم التوراة على مجموع كتب العهد القديم، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه وجد صفة رسول الله ﷺ في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا

ونذيرا وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، ويفتح عيونا عُمْيا، وآذانا صُمّا، وقلوبا غُلْفا بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فهذا الوصف الذي وجده عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ليس موجودا في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام وإنما هو في نُبُوّات بعض أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام. والإنجيل باللغة اليونانية معناه البشارة، وفي الاصطلاح هو كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام، وقد أجمع المسلمون والنصارى على أن الأناجيل التي بيد النصارى الآن وهي إنجيل متى وإنجيل مرقص وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ليست هي الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام فهي كتب ألفها بعض المنتسبين إلى النصرانية كسيرة للمسيح عليه السلام. وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ هو ترهيب عظيم وتهديد شديد لمن كفر بآيات الله المنزلة على محمد ﷺ من اليهود والنصارى وسائر المشركين الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله محمدًا ﷺ وتنديد بمن جعل لله ولدا كاليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، والعرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وتوبيخ لمن ترك عبادة الحي القيوم الذي لا يموت وعبد من أقر هو بموته، فإن اليهود والنصارى قد أطبقوا على أن العُزَيْر قد مات، وقد أقر النصارى بأن المسيح قد مات ثم قام، فهم أهل لعقوبة العزيز المنتقم الجبار.

قال تعالى: ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء* هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاءُ، لا إلَه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾

في هاتين الآيتين الكريمتين مزيد بيان لتقرير كمال علمه وتمام قدرته لتأكيد كمال حياته وقيوميته، وأنه لا إلَه غيره ولا رب سواه ولا ولد له ولا ندّ ولا نظير، فإن عيسى والعُزَيْر وجميع من عُبِد من دون الله لا يعلم من كان منهم من ذوي العلم إلا ما يطلعه الله عز وجل عليه، وأن الله وحده هو رب كل شيء وسيّده ومليكه وهو الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو علاّم الغيوب، وفي قوله عز وجل: ﴿هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء﴾ آية كبرى وحجة عظمى ناطقة بكمال قدرته وعلمه وعزّه وقهره، حيث صور جميع العباد على الوجه الذي يشاء وهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث وجعل لكل واحد منهم صورة خاصة به دون من سواه من سائر البشر في جميع الأعصار والأقطار من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، مع أن لَوْن نُطَف جميع بني آدم على صورة واحدة، فمن قطرة من هذه النطفة يخلق الله الإنسان إذا أراد، ويصوّره على الصورة التي يريد جل وعلا، لا على ما يريد الأب أو الأم أو غيرهما، فكم من أب نشيط الجسم لا يُنْجِب، وكم من أمّ صحيحة الجسم لا تَحْمِل، وكم من أب أو أمّ يتمنى أن ينجب ذكرا ولا ينجب إلا الإناث وكم من أب أو أمّ يتمنى أن ينجب أنثى ولا ينجب إلا الذكور، ولا يحصل لهما إلا ما أراد الله عز وجل وحده، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لله ملك السمٰوات والأرض يخلق ما يشاء، يَهَبُ لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور* أو يُزَوِّجُهم ذُكْرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما، إنه عليم قدير﴾ والنطفة عندما تندفع إلى رحم المرأة لا وجود لصورة الإنسان فيها ألبتة، وتكون بيضاء مهما كان مصدرها وبعد مدة تتحول إلى قطعة دم حمراء

علقة لا وجود لصورة الإنسان فيها، وبعد مدة تتحول إلى مضغة لا عظام بها، ثم يبدأ التصوير والتخطيط على هذه المضغة إذا أراد الله عز وجل تخليقها، فيكوّن فيها عظامها وأعضاءها التي ينشئها فيها من العدم ثم يكسو العظام لحما ثم ينشئها خلقا آخر، ويطبع وجه الإنسان فيها بطابَع يتميّز به عن سائر بني آدم، ومهما تقارب الشبه بين وجه ووجه فإنه يضع علامة فارقة مميزة له عن سائر الناس، مع أن هذا الوجه لا يزيد عن شبر في شبر، وتستطيع أن تقف على باب مسجد جامع بعد صلاة الجمعة لتتفرّس في وجوه الناس فإنك لن تجد وجهين متفقين في الصورة أبدا، وقد فعل الله عز وجل ذلك ليتعارف الناس، إذ لو كانوا على صورة واحدة ما تعارفوا، وإلى ذلك يشير عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ وكما طبع هذا الوجه بهذا الطابَع المنفرد عن جميع البشر فإنه خطط أطراف أصابع اليدين بخطوط يختلف فيها تخطيط كلّ إصبع عن تخطيط الإصبع الآخر لنفس الإنسان، فتميزت بذلك بصمات أصابع جميع الناس، مع أن هذا البَنَان المخطط لا يزيد عن مساحة نصف درهم تقريبا، وإلى هذا يشير الله عز وجل في الاستدلال على عظيم قدرته بأنه يعيد تخطيط الأنامل بعد موت أصحابها عندما يبعثهم يوم القيامة فيقول: ﴿أيحسَب الإنسان ألَّن نجمع عظامه* بلى قادرين على أن نسوّي بَنَانَه﴾ ويميّز الله عز وجل الإنسان وهو في بطن أمه عند تصويره وتخطيطه بميزات تقربه إلى آبائه أو أمهاته أو أعمامه أو أخواله، وقد ينزعه في ذلك عِرْقٌ بعيد أو عرق قريب، كما نزع رسولَ الله ﷺ عِرْقُ أبيه إبراهيم خليل الرحمن، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أشبه ولد إبراهيم به». وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاما

أسـود، قال: «هل لك من إبل؟» قـال: نعم. قـال: «فما ألوانها؟» قـال: حُـمْرٌ، قـال: «هل فيهـا من أَوْرَق؟» قال: نعـم، قال: «فـأَنّى ذلك؟» قال: لعلـه نَزَعَه عِـرْق، قال: «فلعلّ ابنك هذا نزعـه عرق». اهـ وقـد ذكر رسول الله ﷺ بعض أطوار التخليق التي يمر بها الجنين في بطن أمه فقد روى البخاري ومسلـم من حديث عبـد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنـه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُـجْمَع خلقه في بطن أمـه أربعين يومـا ثم يكـون علقة مثل ذلـك، ثم يكون مضغـة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكـا فيُـؤْمَـر بأربع كلمات، ويقـال لـه: اكتب عملـه ورزقه وأجلـه وشقيّ أو سعيد ثم يُنْفَخ فيـه الروح، فإن الـرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النـــار، ويعمل حتى مـــا يكـــون بينـــه وبين النـــار إلا ذراع فيسبق عليـــه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة». وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذه الأطوار في كتابه الكـريم حيث يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنســان من سُلالة من طين* ثم جعلناه نطفـة في قرار مكين* ثم خلقنـا النطفة علقـة فخلقنا العلقـة مضغة فخلقنا المضغـة عظاما فكسونـا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخـر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ إعجـــاز علميّ، فإن علم التشريح الإنســـاني قـــد اكتشف أن الصنـــدوق العظمي الذي يتكون بداخله الرحم هو أقوى عظام في الإنسان، ومعلوم أن عظام الـرجل في الجملة أقوى مـن عظام المرأة في الجملة كـذلك، إلا أن هذا الصندوق العظمي الـذي يوجـد بداخلـه بيت الجنين أقوى من سـائر عظام أجسام الرجال والنساء حتى قيل: إن نسبة الماء فيه لا تزيد على ثلاثة بالمائة، حتى ذكـر بعض كبـار الأطبـاء المعـــاصرين أنـه يكـاد يعـادل قـوة الحديـد الصلب. وقـد كرر الله تبـارك وتعـالى هـذا المعنى في غير موضع مـن كتابـه

الكريم لتقرير هذا الإعجاز العلمي حيث قال في سورة المرسلات أيضا :
﴿ألم نخلقكم من ماء مهين* فجعلناه في قرار مكين* إلى قدر معلوم* فَقَدَرْنَا فِنِعْمَ القادرون﴾ ولا شك أن هذا التصوير الدقيق في ظلمات البطن والرحم والمشيمة وإخراج هذه البنية العجيبة والتركيب الغريب الممتلئ بالعوالم الكثيرة والأجهزة المختلفة التي تمثل كلّ واحدة منها عالماً متكاملاً، وصار الأطباء يتخصصون في بعض جزئيات أو أجزاء هذا العالَم العجيب الدقيق، الذي صنعه وصوّره الحكيم العليم، القادر على الجمع بين النقيضين والضدين، الذي ركّب هذا الجسم من أعضاء مختلفة في الشكل والطبع والصفة، فبعضها عظام وبعضها غضاريف وبعضها شرايين وبعضها أوردة وبعضها عضلات وأعصاب، وركّب في مؤخرة رأس الإنسان كرتين تديرانه، إحداهما في الجانب الأيسر لتدير شقّ الإنسان الأيمن، والثانية في الجانب الأيمن لتدير شقّ الإنسان الأيسر، وقد احتوت على «بلايين» الأجهزة التي تصدر بواسطتها الإشارات لحركات الإنسان وأفعاله وأفكاره. ومع ذلك كله فقد جعل الإنسان على صورة هي أحسن الصور حتى لا يتمنى إنسان مهما كانت صورته دميمة أن يكون طاووسا، ولذلك قال عز وجل: ﴿والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين* لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ كما أشار عز وجل إلى تفاوت الصور بقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم* الذي خلقك فسوّاك فَعَدَلَكَ* في أي صورة ما شاء ركّبك.﴾ وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه الناس إلى آيته في اختلاف ألوان الناس حيث يقول: ﴿ومن آياته خَلْقُ السموات الأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالِمين﴾ وقد روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه لما بلغه مَقْدَم النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء،

فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد يَنْزِعُ إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني به جبريل آنفا» قال ابن سلام: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، قال: «أما أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الولد فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة ماءَ الرجل نزعت الولد» قال: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله. وفي لفظ لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إذا علا ماؤها ماءَ الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماءُ الرجل ماءَها أشبه أعمامه». وفي لفظ لمسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه أن حبْرًا من أحبار اليهود قال لرسول الله ﷺ: جئت أسألك عن الولد قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فَعَلاَ منيُّ الرجل منيَّ المرأة أَذْكَرَا بإذن الله، وإذا علا منيُّ المرأة منيَّ الرجل آنثا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبيّ. هذا وقد جعل الله تبارك وتعالى هذا التخليق والزوجية بين المخلوقين آية بارزة على قدرته على بعث الموتى حيث قال: ﴿ألم يك نطفة مِن مَنِيٍّ يُمْنَى* ثم كان علقة فخَلَقَ فسَوَّى* فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى* أليس ذٰلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تَذَكَّرون﴾ والملاحظ أن الله تبارك وتعالى بعد أن يذكر تصوير الإنسان وتخليقه في رحم أمه يعلن أنه لا إلّه إلا هو بعد ذلك مباشرة كما قال عز وجل هنا: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذٰلكم الله ربكم له الملك لا إلّه إلا هو فأنّى تُصْرَفُون﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم﴾ تنزيهٌ لله عز وجل أن يكون له ولد أو نِدّ أو شبيه،

وتكذيب لمن زعم أن عيسى إلـه أو ابن إله، ووعيد شديـد لليهود والنصارى والمشركين الـذين قـالـوا: اتخذ الله ولـدًا، أو جعلـوا مع الله إلّها آخـر، وهـو الغـالب الـذي لا يهرب منـه أحد، الحكيم الـذي يبيّن لعبـاده طـريق الخير وطـريق الشر ليهلك من هلك عن بينـة ويحيى من حيّ عن بينـة، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعـالى : ﴿هو الـذى أنزل عليك الكتـاب منه آيـات محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب وأخـرُ متشابهاتٌ فأمـا الذين فى قلـوبهم زيغٌ فيتّبعونَ مـا تشابـه منه ابتغاءَ الفتنـةِ وابتغاءَ تأويلِهِ، ومـا يعلم تأويلهُ إلاّ الله، والـراسخون فى العلم يقولـون آمنّا بـه كلٌّ من عند ربّنا، ومـا يذّكّر إلا أوُلـواْ الألباب* ربّنـا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً، إنّك أنت الوهّاب* ربّنا إنّك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، إنّ الله لا يخلف الميعاد﴾

قد تقدم قريبا ما ذكره ابن جرير رحمه الله عن نصارى نجران وأنهم جادلوا رسول الله ﷺ وحاجّوه في عيسى عليـه السلام وألحدوا في الله، وكان نصارى نجران عندما وفدوا على رسول الله ﷺ في السنـة التاسعة من هجرة رسول الله ﷺ حاولوا الاستدلال على أن عيسى هو ابن الله ببعض ألفاظ في كتاب الله، حاملين لها على غير مـا أريد بها بسبب زيغ قلوبهم ابتغاء الفتنـة والصّدّ عن سبيل الله، فـزعمـوا أنّ في القـرآن دليلا على أن عيسى ابـن الله في قولـه عـز وجل: ﴿وروح منه﴾ إذ حملـوا لفظ «من» في قوله عـز وجل: ﴿وروح منه﴾ على التبعيض فيكون عيسى بعضا من الله تعالى وجزءا منه، وتجاهلوا أنّ«من» في هذا المقام لا يراد بها التبعيض، وإنما يراد بها ابتداء الغاية، أي إن عيسى روحٌ من الأرواح التي ابتدأ الله خلقها، وتعاموا عن الآيات الكثيرة الصريحة في أن عيسى عبدٌ لله وخلقٌ من خلقه، والعبـد لا يكون ولدا، وأن الله لم يلد ولم يولـد ولم يكن له كفـوًا أحدٌ. ولا شـك أن العرب يستعملون كلمـة «من» في معانٍ كثيرة منها ابتداء الغاية كهذه، ومن معـانيها بيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرّجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وتأتي للتعليل كقوله عز وجل: ﴿ممّا خطيئاتهم أُغْرِقُوا﴾ وتأتي للبدل كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بـالحياة الدنيـا من الآخرة﴾ وتـأتي للغاية كقـولك: رأيته مـن هذا

الموضع، حيث جعلتَه غـاية لـرؤيتك، أي محلاّ للابتـداء والانتهاء، وتجيء للتنصيص على العمـوم كقوله تعـالى: ﴿وما من إلّـه إلا الله ﴾ وتأتي للفصل وهي الـداخلة على ثـاني المتضـادين كقـوله تعـالى: ﴿والله يعلم المفسـد من المصلح﴾ وتجيء بمعنى الباء كقوله تعالى: ﴿ينظرون إليك من طرف خفيّ﴾ وتأتي بمعنى «عن» كقـوله تعـالى: ﴿فـويل للقاسيـة قلوبهم من ذكـر الله﴾ وتأتي بمعنى «في» كقـولـه تعالى: ﴿أروني مـاذا خلقـوا من الأرض﴾ وكقولـه تعـالى: ﴿إذا نودي للصـلاة من يـوم الجمعـة﴾ وتأتي بمعنى «عنـد» كقولـه تعـالى: ﴿لن تغنـي عنهم أمـوالهم ولا أولادهم من الله شيئـا﴾ وتأتي بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ وتأتي للتبعيض كقـولـه تعالى: ﴿منهم من كلّـم الله﴾ والسّياق هـو الـذي يحدّد المعنى المراد ويبيّنـه، لكنّ نصارى نجـران تركـوا المعنى الظـاهر المتبـادر الجليّ المحكم، ولجأوا إلى المعنى غير المراد مستغلين تشابه اللفظ لزيغ قلوبهم وفساد نياتهم، ومحاولـة صرف اللفظ عن المعنى المراد بـه إلى شهـوات نفـوسهم والتشبث بباطلهم وسوء معتقدهم. وقد أنـزل الله تبارك وتعالى في شأنهم من أول سورة آل عمـران إلى الآيـة الـرابعـة والثمانين منهـا، ردّ فيهـا بـاطلهم، وأدحض شبهتهم، وبيّن أنهم بسبب زيغ قلـوبهم يتّبعـون مـا تشـابـه من القـرآن، ويتعامـون عن المحكم الصريح الجليّ المثبت أن الله لم يتخذ ولـدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كلّ شيء فقـدّره تقديرا، وعيسى ابن مـريم خلق من خلق الله وعبدٌ مـن عبيده، وقد اقتضت حكمـة العليم الحكيم أن يجعل من القـرآن العظيم محكما وأن يجعل منـه متشـابها، والمحكم هـو الـواضح الجلي الذي لا يخفى علم المراد منه على العامة والخاصـة، والمتشابه هو اللفظ الذي يحتمل أكثـر من معنى كلفظ «من» في قـوله تعـالى: ﴿وروح منـه﴾ وكلفظ «بعد» في قوله تبارك وتعـالى: ﴿والأرضَ بعد ذلك دحاها﴾ فأما أهل الإيمان

الـراسخـون في العلم الثـابتـــون على الحق فإنهم يـردّون متشـابهه إلى محكمـه ويحملـون ألفاظـه على المعنى المتبـادر منهـا فيحملون معنى «مـن» في قولـه تعالى: ﴿وروحٌ منـه﴾ على ما أريد منها وهـي ابتداء الغاية، ويحملـون كلمة «بعـد» في قـوله عـز وجل: ﴿والأرضَ بعـد ذٰلك دحـاهـا﴾ على معنى «مع ذلك» لأنها تستعمل في الكلام الفصيـح أحيانا بمعنى «مع» ومنـه قولـه عز وجل: ﴿عُتُلٍّ بعد ذٰلك زَنِيم﴾ أي مع ذلك، فـلا معارضة بينها وبين قـوله تعالى: ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استـوى إلى السماء﴾ وكذلك قوله تبـارك وتعـالى: ﴿ولا يُسْأَل عن ذنـوبهم المجـرمـون﴾ مع قولـه عـز وجل: ﴿وَقِفُوهُم إنهم مسئـولون﴾ فالراسخون في العلم يحملـون السؤال المنفيّ على سؤال الاستفهـام والاستعلام ويحملون السؤال المثبت على السـؤال لتوبيخهم وتقـريعهم على سوء أعمالهم، وهكـذا يفعل الراسخـون في العلم يحملون مـا تشابه من الآيات على المحكم منها، أما الذين في قلوبهم مرض وانحراف عن سبيل الرشاد فإنهم يحملـون المتشابه على غير ما أريد منـه لحمل آيات القرآن على التناقض، وهو الذي لا يأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه ولذلك وصف الله عز وجل الراسخين في العلم الذي يردون متشابهه إلى محكمه بأنهم يقـولـون: آمنا بـه، كلّ من عنـد ربنـا، فكـلامه عـز وجل لا يتنـاقض ولا يتعارض ولا يتضـارب تعالى الله عن ذلك علـوا كبيرا. ولذلك بعـد أن صدّر الله تبارك وتعالى صدر هذه السورة الزهراء بسياق أدلة جلية على أنه لا إلٰه إلا هو الحي القيـوم وأنه أنزل على محمـد ﷺ القرآن بالحق، كما أنـزل التوراة على مـوسى والإنجيل على عيسى هدى للنـاس، وأنزل الأدلـة الفارقـة بين الحق والباطل، وأن الـذين يكفرون بآيات الله ويحاولـون ضرب بعضها ببعض لهم عذاب شـديد من العزيـز المنتقم الجبار، وفي هذا تقـرير للإيمان بـالله وكتبه ورسلـه، وتحذير شـديـد من التفـريق بين أحد مـن رسله، وهـو يقتضي أن

عيسى عبـد من عبيـد الله ورسـول من رسلـه ليس إلَها ولا ابن إلَـه، شرع في إبطـال شبهة نصـارى نجران ومن على شـاكلتهم من الذين يتركـون المحكم الجليّ الواضح القطعيّ الـدلالة الـذي لا يحتمل إلا معنى واحدا ويستـدلون بالألفـاظ المتشابهة المحتملـة لمعان كثيرة ويتعلقـون ببعض المعاني غير المرادة منهـا مع أن هذه المعـاني المتشابهة لا يمتـاز بعضها عن بعض في الأصل لـو كانت هـذه الألفاظ مفـردة غير واردة في سياق كـلام لأنها إذا كانت واردة في سيـاق كلام فإن هـذا السياق يحدد المراد منهـا، وهذا أمـرٌ معروفٌ في معـاني الحروف، لكن الـــذي في قلبــه زيغ أي ميـل عن الحق إلى البــاطـل يتتبع المتشابهات ويترك الـواضحات الجليـات، وفي ذلك يقول عـز وجل: ﴿هو الـذي أنـزل عليك الكتـاب منـه آيـات محكمات هنّ أمّ الكتـاب﴾ أي هنّ الأصول والقواعد التي يُرْجَع إليهـا عند الاختلاف والاشتباه، لقطعية دلالتها وعدم احتمالها إلا لمعنى واحـد. وقوله تعالى: ﴿وأُخَـرُ متشابهات﴾ أي ومن الكتاب آيات تحتمل أكثر من معنى ابتـلاء واختبارا، وإن كان سياق الكلام يحدّد المراد منهـا، ولا شك عند أهل العلم أن المراد بـالمتشـابه هنـا غير المراد بالمتشابه الذي وصف به القرآن كله في قوله تعالى: ﴿كتابا متشابها مثاني﴾ إذ المراد منه أنـه كلّه يشبـه بعضه بعضـا في الحسن والصـدق والإعجاز، كما أن المراد بالمحكـم الذي وصف بـه القرآن كلّـه في قولـه تبارك وتعـالى: ﴿ كتاب أُحْكِمَتْ آياته﴾ فإن المقصود به أنـه كلّه مُتْقَنٌ لا يتطرق إليه الخلل أو الفساد أو التناقض. وقوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغـاء الفتنـة وابتغـاء تأويلـه﴾ أي فأمـا الـذين في قلـوبهم ميل عن الحق والاستقامـة إلى الأهواء البـاطلة، المنحـرفون عن سنن الـرشاد، المصرّون على الشر والفساد والعناد، فإنهم لا يتعلّقـون بالمحكمات الجليات وإنما يقصدون الألفـاظ المشتبهـات، لا تَــحَرِّيًا للحق بل لطلب فتنـة النـاس عن دينهم

بـالتشكيـك والتلبيس والتأويل البــاطل، حسبما يشتهـون من التـأويـلات الفاسدة والآراء الزائغة، وهم ليسـوا أهلا لتأويل كتاب الله فتأويله يعلمه الله عز وجل من وفّقه من عبـاده الراسخين في العلم الثابتين على الحق المتمكنين من فهم دين الإسـلام الـذين لم يتـزلـزلـوا عن الهدى، ولم تلعب بهم الأهـواء والشبهات والشهـوات، ولذلك قال عز وجل: ﴿ومـا يعلم تأويله إلا الله، والراسخـون في العلم يقـولون آمنا بـه كلٌّ من عنـد ربنا، ومـا يذّكـر إلا أوْلواْ الألباب* ربنـا لا تزغ قلوبنا بعـد إذ هديتنا وهب لنـا من لدنك رحمة، إنك أنت الـوهاب* ربنـا إنك جامع النـاس ليوم لا ريب فيـه، إن الله لا يخلف الميعـاد﴾ أي ولا يحيط بعلمــه إلا الله الـذي أنـزلـه، والثــابتـون على الحق المستقرون على العلم والهدى يسارعون إلى الإيمان بمحكم الكتاب ومتشابهه، ويردون متشابهه إلى محكمـه، ويقولون: المحكم والمتشابـه من القرآن كلّه من عند الله منزّل بالحق لا يتناقض ولا يتضارب ولا يتضادّ ولا يختلف، ولو كان من عند غير الله لوجـدوا فيه اختلافا كثيرا، ولا يكون بحـال هؤلاء الراسخين إلا أصحاب العقول، الـذين يضرعون إلى الله عز وجل أن يثبتهم على الهدى وأن لا يُميل قلوبهم عن الحق بعد مـا عرفوه واطمأنوا بـه وأرشدهـم الله إليه، ويطلبون من الله أن يمنحهـم رحمة من عنده يثبّتهم بها على القـول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة حالة كونهم مقرين بأن الله حاشر الناس ليوم الحساب الذي لا شك فيـه ولا ريب ليجزي كلّ عـامل بما عمل، كما وعد عـز وجل وهو لا يخلف موعـده. هذا ومن العجيب أن بعض الناس حمل المتشـابه هنا على آيـات الصفات، وقـد قـال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله: لا أعلم أحدا من السلف جعلها - يعني آيات الصفات - من المتشابه الداخل في هذه الآية.

قال تعالى: ﴿إنّ الّذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادُهم من الله شيئاً وأُولئك همْ وقودُ النّار* كَدَأْبِ آل فرعونَ والذين من قبلهم، كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديدُ العقاب* قل للذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنّمَ، وبئس المهادُ* قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئةٌ تقاتلُ فى سبيل الله وأُخرى كافرةٌ يرونهم مثليهم رأْيَ العين، والله يؤيّد بنصره من يشاءُ، إنّ فى ذٰلك لعبرة لأولي الأبصار﴾

بعد أن أدحض الله تبارك وتعالى شبهة نصارى نجران ومن على شاكلتهم وحذّر من الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء صرفه إلى معان باطلة أنذر هنا الكافرين بأنهم وقود النار، وقد حذّر رسول الله ﷺ المسلمين من سلوك سبيل هؤلاء الزائغين عن الحق فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكماتٌ هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا وما يذّكر إلا أؤلواْ الألباب﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم».

وقوله عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولٓئك هم وقود النار﴾ أي إن الذين جحدوا الحق وكذبوا رسل الله ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه، وزاغت قلوبهم عن الحق واتّبعوا المتشابهات ابتغاء الفتنة والصدّ عن سبيل الله لن تنفعهم يوم القيامة عند الله عز وجل أموالهم ولا أولادهم ولن تنجيهم من عقوبة الله إنْ أحلّها في العاجلة بهم على تكذيبهم للحق وزيغهم عن طريق الرشاد واتّباعهم للمتشابهات

ابتغاء الفتنة، وهم في الآخرة حطب جهنّم التي وقودها الكفّار والحجارة جزاء الكفر بالله ورسله وكتبه وتحريفهم للكلم من بعد مواضعه، وقوله عز وجل: ﴿كَدَأْبِ آل فرعون والذين من قبلهم، كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم، والله شديد العقاب﴾ أي كسنّة الله تعالى في آل فرعون ومن قبلهم من الذين كفروا كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط لما كفروا بالله وكذبوا رسله وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، فما أغنت عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، وهم حطب جهنم يوم القيامة، والإضافة في قوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ من إضافة المصدر لمفعوله، والمصدر قد يضاف إلى فاعله وقد يضاف إلى مفعوله. وكما قال عز وجل: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب* ذلك بأن الله لم يك مغيّرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الله سميعٌ عليم* كدأب آل فرعون والذين من قبلهم، كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون، وكلٌّ كانوا ظالمين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبلُ ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن كادوا لَيَسْتفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذًا لا يلبثون خِلاَفَكَ إلا قليلا* سُنّةَ مَن قد أرسلنا قبلك مِن رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون* فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون* فلما رَأَوْا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين* فلم يَكُ ينفعهم إيمانهم لما رَأَوْا بأْسَنا سُنّتَ الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ والدأب: السنّة والعادة والشأن والأمر والفعل، كما قال

امرؤ القيس بن حُجْر:

وإنّ شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من مُعَوَّلِ

وقوفًا بها صحبي عليّ مطيّهم يقولون: لا تهلك أَسًى وتجمّلِ

كدأبك من أمّ الحويرث قبلها وجارتها أمّ الرّباب بمَأْسَلِ

أي كشأنك وعادتك وأمرك وفعلك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبها وبكيت دارها ورسمها، فهل تلقى من وقوفك على هذه الديار وتلك الرسوم إلا ما تعودته من أم الحويرث وجارتها أم الرباب بمأسل؟!

وقوله: ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي أهلكهم بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسلهم وجرائمهم، وقوله تعالى: ﴿والله شديد العقاب﴾ أي وكانت عقوبة الله لهم عقوبة العزيز المقتدر المنتقم الجبار. وقوله عز وجل: ﴿قل للذين كفروا سَتُغْلَبُون وتُحْشَرُون إلى جهنّم، وبئس المهاد﴾ أي قل يا محمد لليهود والنصارى والمشركين الذي يكفرون بالله ويكذّبونك: سَتُذَلّون وتقهرون وينالكم خزي في الدنيا، وستُجْمَعون من قبوركم لتكونوا حطب جهنّم، وتكون النار لكم فراشا، وبئس الفراش. وقوله عز وجل: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العين، والله يؤيد بنصره من يشاءُ إنّ في ذٰلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي يجب عليكم أيها الجاحدون أن تعتبروا بما أبصرتموه من تأييد الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يوم بدر، فإنّ ما حدث يوم بدر كان آية ومعجزة وعلامة ظاهرة على أن محمدًا رسول الله ﷺ حقا وصدقا، وقد أيقنتم بما حدث وعلمتم تفاصيله، وفي ذلك آية لكم على أنه سيصيبكم مثل ما أصاب قريشا يوم بدر، وسَتُهْزَمُون وتُغْلَبون وسينتصر محمد عليكم كما هي سنة الله مع أنبيائه ورسله من نصرهم وتأييدهم، وكما هي سنة الله مع أعداء المرسلين من إذلالهم وقهرهم وخذلانهم، فقد علمتم أيها الجاحدون أن

المسلمين كانوا بضعة عشر وثلثمائة وكان المشركون بين التسعمائة والألف ومع ذلك فإنّ الله عـز وجل عند مـا تواجـه الفريقان ببـدر قلّل المشركين في أعين المؤمنين حتى صار المؤمنون يحسبون أن المشركين لا يزيدون على الستمائة وقلّل المسلمين في أعين المشركين حتى كانوا يحسبونهم أقلّ من ثلثمائة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى ذلك حيث بيّن هنا أن المسلمين كانوا يرون المشركين مِثْلَيْهِم رَأْي العين، مع أن المشركين كانوا أكثر من ثلاثة أمثال المسلمين، وقد أرى الله عز وجل رسولَه محمـدًا ﷺ في منامه المشركين قليلا ليبشر أصحابـه بذلك فتقوى نفوسهم وعزائمهم على قتال أعدائهـم الذين يتلاقون معهم على غير ميعاد، وعنـدمـا أقبل المشركـون والمسلمـون على المعـركـة قلّل الله المسلمين في أعين المشركين ليستدرجهم إلى أرض المعـركة وقلّل المشركين في أعين المسلمين، ولا شك أن الله تبارك وتعالى فعل ذلك ليقضي أمرا كـان مفعولا فتتم معركة بدر، وينتصر فيها المسلمـون مع قلة عَـدَدهم وعُدَدهـم وينهزم المشركون مـع كثرة عَـدَدهم وعُدَدهم، وفي ذلـك عظة وعبرة لكل ذي بصر أو بصيرة سـواء من حضر المعركة أو سمع بها مـن الموجودين آنذاك أو الذين يـوجدون بعد ذلك إلى يوم القيامة . وفي ذلك يقول الله عـز وجل: ﴿إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا وهم بالعُـدْوة القُصْوَى والـرَّكْب أسفل منكم، ولو تـواعدتم لاختلفتـم في الميعاد ولَكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلِكَ من هلك عن بينة ويَـحيَى من حَيَّ عن بينة، وإنّ الله لسميع عليم﴾ إذ يُريكَهُم الله في منـامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنـازعتم في الأمر ولَكنّ الله سلّم، إنـه عليم بذات الصـدور﴾ وإذ يُـرِيكُمـوهُم إذ التقيتم في أعينكم قليـلا ويقلّلكم في أعينهم ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور﴾ وقوله عز وجل هنا: ﴿ قد كان لكم آيـة في فئتين التقتـا﴾ أي قـد كـان لكم أيها الكـافـرون الجاحـدون المتّبعـون للمتشـابه الـزائغون عن المحكم عبرة في فرقتين تـواجهتا في ميـدان الحرب،

وقوله عز وجل: ﴿فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ أي إحدى الطائفتين وهي المؤمنة تقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله والطائفة الأخرى كافرة مكذبة بالله ورسله تقاتل تحت لواء الشيطان، وقوله عز وجل: ﴿يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم رَأْيَ العين﴾ أي يبصر المؤمنون أعداءهم ويقدّرونهم بأكثر من ستمائة مقاتل إذ كان المؤمنون بضعة عشر وثلثمائة رجل، وهم يرون الكافرين قدرهم مرتين رأي العين لا مناما ولا وهما، مع أن عددهم في الواقع كان بين التسعمائة والألف لكنّ الله قلّلهم في أعين المؤمنين ليقوّي عزيمة المؤمنين على حربهم، وقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدرا أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النّهر بضعة عشر وثلثمائة اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بالنصر قبل أن تقع المعركة كما قال عز وجل: ﴿و إذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتَودّون أن غير ذات الشَّوْكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين﴾ وقد كان رسول الله ﷺ يحدد أماكن مصارع رؤساء قريش كأبي جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة قبل المعركة، فقد روى مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ كان يُرِينَا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله» قال عمر: فو الذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدّ رسول الله ﷺ اهـ وقد قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون واستشهد من المسلمين أربعة عشر شهيدا ولم يؤسر من المسلمين أحد، وفي لفت انتباه الناس إلى هذه المعركة يقول الله عز وجل: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذٰلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي إن في نصر الله للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة لَعِظَةً لأصحاب العقول، ليعلموا أن سنة الله في خلقه أن ينصر المؤمنين برسله، وأن يُنْزِلَ بأسه بالكافرين الزائغين.

قال تعالى: ﴿زُيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المُقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ذٰلك متاع الحياة الدّنيا والله عنده حسنُ المآب﴾

لما كان حبّ الشهوات هو أحد العوائق الكبار التي تحول بين الإنسان وبين سلوك سبيل الراشدين، وقد نبه عز وجل فيما تقدم أن أموال الكافرين وأولادهم لا تغني عنهم من عذاب الله في العاجلة أو الآجلة شيئا، وضرب أمثلة بما أوقعه بآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين الجاحدين، وبما أنزله بصناديد المشركين من قريش يوم بدر، أرشد هنا في هذا المقام الكريم إلى أن الشريعة تهذّب الطبيعة، وأن ما جبل عليه الإنسان طبعا قد وضع الله تبارك وتعالى أحسن السّبل للاستفادة وقضاء الشهوة منه شرعا، فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا، ولا توجد شهوة محرمة إلا وقد يسّر الله للإنسان بدلها شهوة مباحة، والشرع جاء لتهذيب وتنظيم الطبع، وقوله عز وجل: ﴿زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسَوَّمة والأنعام والحرْث﴾ هذه هي أصول الشهوات التي يتصارع البشر من أجلها، ويكاد حبّ الجاه والرئاسة لا يخرج عن دائرتها، وقد بدأها الله عز وجل بذكر الميل إلى شهوة النساء لأنها في الواقع أخطر الشهوات، وأضرّ فتنة تصيب الناس، وقد نبّه إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة ابن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء». وفي لفظ لمسلم من حديث أسامة بن زيد وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «ما تركت بعدي في الناس فتنة أضر على الرجال من النساء» وفي رواية لمسلم من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإنّ الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». والمراد بالشهوة اشتياق النفس إلى الشيء وحرصها على الاستمتاع به وحيازته، وحبّ الشهوة هو فرح الإنسان بتحصيل ما يشتاق إليه من هذه الأشياء المذكورة وتلذّذه بها، فإن كانت حلالا فهي شهوة ممدوحة وإن كانت حراما فهي شهوة قبيحة مذمومة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك في قوله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وفي بُضْع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وِزْر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». وثنى الله عز وجل بالبنين لأن الزينة بهم أتم من الزينة بالبنات لأن مبنى أمر البنات على الستر والحجاب. والقناطير جمع قنطار وهو أكبر ما عرفته العرب من المعايير والموازين ولذلك ضرب الله عز وجل به المثل في قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إليك﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهنّ قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئا﴾ وقد استعملت العرب موازين كثيرة مختلفة كالدينار والدرهم والرطل، قال في القاموس المحيط: والرطل اثنتا عشرة أوقية، والأوقية إستارٌ وثلثا إستار، والإستار أربعة مثاقيل ونصفٌ، والمثقال درهمٌ وثلاثةُ أسباع درهم، والدرهمُ ستّةُ دَوَانق والدّانِق قيراطان، والقيراط طَسُّوجان، والطَّسُّوج حَبَّتان والحبة سُدُس ثُمُن درهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءا من درهم اهـ والمقنطرة أي المتراكبة المتكاملة المتمَّمة، والمقصود من هذا الوصف التأكيد كقولهم: ألوف مؤلَّفة وإبل مؤبَّلةٌ، ودراهمُ مُدَرْهَمةٌ، والذهب والفضة من المعادن الثمينة التي جعلها الله عز

وجل ثمنا لجميع الأشياء، فمالكهما يحصل بهما على ما يريد، فهما أكمل الوسائل إلى تحصيل مشتهيات النفوس، ولم يزالا مذ أوجدهما الله عز وجل للناس في الذروة في نفوس الناس أفرادًا وجماعات وهما أبرز سمات الغنى وهما من آيات الله عز وجل حيث جبل الناس على شهوتهما مع أنهما من عروق طين الأرض وأحجارها التي لا تأخذ بألبابهم كما يأخذ بها الذهب والفضة، وقد ألف لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني كتابا عن الذهب والفضة سماه: كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، قال في أوله: الحمد لله خالق الخلق وباسط الرزق وقاسم المعيشة بين عباده بأحسن تقدير، وأتقن تدبير، فلم يَعُلْ عليه صغير، ولم يَعْزُبْ عنه حقير، حتى عمّ الجميع بلطفه، ووسعهم بفضله، وأغناهم بحصاة من أرضه، أخرجها لهم من بين حَجَر ومَدَر، لا ينهشها الكلب، ولا يبتلعها الظّليم، ولا تؤذى شمّا ولا مذاقا، فجعل بها نظام دينهم ودنياهم، ومتزوَّدهم إلى معادهم وأخراهم، فأحلّ بها الفروج، ومَلّك بها الرقاب، ورأَبَ بها الصدوع، وسدّ بها الثغور، وأرقأ بها الدّماء، وفكّ بها الأسرى، وسيَّر بها الحاجّ، وقضى بها الفروض، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلواتك سكن لهم﴾ وقال تعالى: ﴿فأنذرتكم نارا تلظّى﴾ إلى آخر السورة، وقرن المال بالولد، قال عز وجل: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ ثم قال رحمه الله: ولما سمعتُ من تَرْداد ذكر الذهب والفضة في كتاب الله عز وجل وفي الأخبار عن رسول الله ﷺ، وأن الله جعلهما حلية أهل الجنة وجمال ملوك بَرِيّته فقال تعالى: ﴿أولَئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحَلَّوْن فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرًا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك، نعم الثواب وحسُنت مرتفقًا﴾ وقوله تعالى: ﴿جناتُ عدنٍ يدخلونها يحلّون فيها من أساور من

ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ وقال تعالى: ﴿يُطَاف عليهم بصحافٍ من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين﴾ وقال تعالى: ﴿ويُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا* قواريراْ من فضة قدّروها تقديرا﴾ ثم ذكر أن الأعشى قال في مواهب الملوك:

وَنَادمْتُ فهْدًا بالمعافِرِ حِقْبة وفهدٌ سَمَاحٌ لم تَشُبْهُ المواعدُ

ووالدُهُ نعمانُ من حَفَداته رُعَيْنٌ وهمْ قومٌ مُلُوكٌ أمَاجدُ

وأكْؤُسهمْ صافي اللُّجَين مُكَلَّل بدُرٍّ وياقوتٍ عليه العساجدُ

هذا بعض ما ذكره الهمداني صاحب كتاب: صفة جزيرة العرب، في كتابه: الجوهرتين. وقد حرم الإسلام الأكل أو الشرب في آنية الذهب والفضة كما حرم على الرجال لبس الذهب، فقد روى البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ نهانا عن الحرير والدِّيباج والشرب في آنية الذهب والفضة وقال: «هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم». وفي لفظ لمسلم: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الفضة والذهب». وفي لفظ لمسلم: «من شرب في إناء من ذهب أو فضة فإنما يجرجر في بطنه نارا من جهنم». كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّمَ لباس الحرير والذهب على ذكور أمّتي وأُحِلَّ لإناثهم». والفضة تسمّى اللُّجَيْن، والذّهب قد يسمى العَسْجَد، ويطلق على الذهب والفضة اسم التِّبر ومنه قول الشافعي رحمه الله:

والتّبر كالتّرب مُلْقًى في أماكنه والعود في أرضه نَوعٌ من الحطب

وقوله عز وجل: ﴿والخيل المسَوَّمة﴾ أي وزُيّن للناس حبّ الخيل المسوّمة

وهي المطَهَّمـة الحِسَان، والمطهّـم هو البـارع الجمال التـامّ الحسن، قال أبـو القاسم الدِّينَوَرِيّ في وصف جواد:

ومُطَهَّمٌ طَرِف العنـان مُـعَوَّد خَوْضَ المهـالك كلّ يوم بِـرَازِ
وإذا توغـّل في ذُرَى مُتَمَـنِّع صَـعْبٍ بعيـد العهد بالمجـتازِ
تركت سنابكه بصُمٍّ صخوره أثرًا يلـوح كنقش صـدْرِ البازي

وقد أحبّ الناس الخيل مذ عُـرِفَت ولا يزالون يحبونها، بل وصف بعضهم ظهرالفرس بأنه أعز مكان في الدنيا حيث يقول:

أعز مكان في الدنا سَرْج سابح

ويقول امرؤ القيس في وصف فرسه:

مِكَـرّ مِفَرّ مقْبِل مدْبرٍ مـعًا كجُلْمود صخر حطّه السيل من عَلِ

وقد قال بعض الحكماء في الخيل: ظاهرها عزّ وباطنها كنزٌ. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الخيـل وحض على اقتنائها لإعلاء كلمة الله حيـث يقول عز وجل: ﴿وأَعِـدُّوا لهم ما استطعتم من قـوة ومن رباط الخيل﴾ وأشـار إلى أن سليمان عليه السلام ذكر أنه يحب الخيل لأن الله ذكـرها له بخير، حيث يقول عز وجل: ﴿إذ عُـرِضَ عليه بالعَشِـيّ الصافِنَات الجِيَـاد* فقال إني أحببت حُبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجـاب﴾، وقوله: ﴿عن ذكر ربي﴾ أي بسبب ذكـر ربي لها بخير، وقـد سمـى الخيل خيرا. وقـد روى البخـاري ومسلم من حـديث أنس رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: «البركـة في نواصي الخيل». كما روى البخاري ومسلم من حديث عروة بن الجعد البارقي رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيهـا الخير إلى يوم القيـامـة الأجـر والمغنم». وقـوله في هـذا الحديث: «إلى يـوم القيـامـة» من المعجزات لأنه لا يـزال إلى اليوم رغم (الصواريخ والقاذفـات) يوجد في جميع جيـوش العالم فـرق الخيالـة والفرسـان. وقد روى البخـاري ومسلم واللفظ

للبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر ولـرجل سِتْـر وعلى رجل وِزْر، فأما الذي له أجـر فرجل ربطها في سبيل الله فأطـال في مـرج أو روضـة فما أصـابت في طِيَلِهـا ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولـوأنها قطعت طِيَلَها فاسْتَنَّت شَـرَفًا أو شَـرَفَيْـن كانت أرواثها وآثارها حسنات لـه، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يُرِدْ أن يسقيها كان ذلك حسنات له، ورجل ربطها تغنّيًا وتعفّفًا ولم ينس حقّ الله في رقـابها ولا ظهورهـا فهي لـه ستر، ورجل ربطهـا فخرا وريـاءً فهي على ذلك وزر». الحديث، وقوله عز وجل: ﴿والأنعام﴾ أي الإبل والبقر والغنم، وقد وصف الله عز وجل مظهرًا من مظاهر زينتها وجمالها حيث يقول: ﴿والأنعامَ خلقها، لكم فيها دفـء ومنافع ومنهـا تأكلون* ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون* وتحمل أثقـالكم إلى بلد لم تكونوا بـالِغيه إلا بِشِقّ الأنفس، إن ربكم لرؤوف رحيم* والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينة، ويخلق مالا تعلمون﴾ وقـوله تعالى: ﴿والحرث﴾ أي والبسـاتين والمزارع، وقد روى أحمد والطبراني من حديث سُـوَيْد بن هُبَيْـرة سمعت النبي ﷺ يقول: «خير المال مُهْرة مأمورة أو سِكَّةٌ مَأْبُـورة». والمراد بالمهرة المأمورة: الفرس الكثيرة النسل، والسِّكّة: النخل المصْطَفّ، والمأبـورة: الملَقَّحة. وقوله تعـالى: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيـا﴾ أي هذه الزينات التي جُبِلْتم على شهـوتها ومِلْتُم لها هي متاع الحياة الدنيا، فاللذة بها لا دوام لها ولا بقـاء وسرعان ما تنقضي وتزول، وقوله عز وجل: ﴿ والله عنـده حسن المآب﴾ أي وعند الله عـز وجل جميل المرجع لعباده الصالحين من اللذات التي لا تزول ولا تفنى في جنات النّعيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أؤنبّئُكُم بخيْرٍ مِنْ ذالكمْ، للذين اتّقوا عند ربّهم جنّاتٌ تجرى من تحتهـا الأنهارُ خالديـن فيها وأزواجٌ مُطهّرةٌ ورِضْـوانٌ من الله، والله بصيرٌ بالعباد* الذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفر لنا ذُنوبنا وقِنَا عذاب النارِ* الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغْفرينَ بِالأسحارِ. ﴾

بعد أن بيّن الله عـز وجل ما تفضل بـه على عباده من لـذات الحياة الـدنيا ونبّه عبـاده إلى أنها لذات فـانية لابقـاء لها ولا دوام بقوله عـز وجل: ﴿ ذلك متـاع الحياة الـدنيا﴾ وأشعـرهم بما أعده للصـالحين من حسن المرجع وجميل المثوبة، أمر نبيه محمدا ﷺ أن يخبر الناس بتفصيل بعض ما عند الله عز وجل من حسن المآب وما أعـد لعباده المتقين من اللـذات الكاملة البـاقية والنعيم الـذي لا يفنى ولا يزول فقـال عـز وجل: ﴿قل أؤنبّئكم بخير من ذالكم؟﴾ أي أأخبركم بأفضـل وأجمل وأحسن ممّـا زُيِّن لكم مـن حب الشهـوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث؟ وقولـه عز وجل: ﴿للـذين اتقـوا عندربهم جناتٌ تجري مـن تحتها الأنهارُ خالدين فيهـا وأزواج مُطَهَّرة ورضوانٌ من الله﴾ هو مستأنـف استئنافًا بيانيا كأن سائلا سأل: ماذلك الخير الذي تتصاغر عنده هذه اللذات السّبع المشْتَهَيات عند جميع الناس؟ فكان الجواب: ﴿للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مُطَهَّرة ورضوان من الله﴾ أي عند الله عز وجل في الدار الآخرة لمن آمنوا بالله عـز وجل وصدّقوا المرسلين وخافوا الله عـز وجل وفارقـوا الـدنيا وهم مـؤمنـون نعيمٌ لا يزول ولَـذَّات لا تفنى في حدائق الخلد التي أعدها الله عز وجل لعباده الصالحين تجري تحت أشجارها وقصورها أنهار من مـاء غير آسِن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لَـذّة للشاربين وأنهار من عسَل مُصَفًّى ولهم فيهـا من كل الثمـرات، حالـة

كونهم ماكثين في هـذا النعيم أبدا لا يَرِيمُون ولا يتحولون ولا يـزولون عنه ولا يعتريهم مـرض ولا شيخوخـة، ولا ينتابهم فيهـا إزعاج، فهم في دار السـلام عنـد ربهم لهم مـا يشـاءون وعنـد الله المزيـد من النعيم المقيم، ولهم في هـذه الجنات زوجـات مطهرات من سـائر الأرجاس والأنجاس والأقـذار والقذى والأذى، فهُنّ لاَ يَبُلْـن ولا يتغـوّطن ولاَ يَبْصُقـن ولا يتمخّطْن ولا يعتريهن حيض ولا نفاس، قاصرات الطّـرف، مقصورات في الخيام، لم يطمثهن قبل أزواجهن إنسٌ ولا جـان، وحتى ما يكـون لهم من أزواجهم المؤمنـات فإنهن يرجعن أبكارا عُرُبًا أترابا، لو أن امرأة منهن اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بين السماء والأرض، وهنّ طـاهرات مطهّرات حِسًّـا ومعنى، فالتمتّع بهن واللذة منهن هو المتاع واللذة على الحقيقة بخلاف التلذذ من نساء الدنيا فهو تلذّذ مع العـوج وسرعة انقضائه وكأن التلـذذ بهن في الدنيا من بـاب المجاز، وهو أشبه شيء بطعام شهي أو شراب لذيذ لا يزيد المتاع والتلذذ به عن وقت وجوده في الفم فإذا ابتلعـه الإنسان ذهبت لذّته وانقضت متعتـه، وقد يجلب بعـد ذلك لصاحبـه الأسقام والأمـراض والعقوبـات والنكبات، وقـوله عـز وجل: ﴿ورضوانٌ من الله﴾ أي وللمتقين عند ربهم زيـادة على ما هم فيه من نعيم الجنة والزوجات المطهرات والخلـود الأبدي السّرمدي في هذا النعيم لذّة تفوق سائر اللذات وهي رضـوان الله عليهم، وقد روى البخاري من حديث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «إن الله يقـول لأهل الجنة: يا أهل الجنـة، يقولون: لبيك ربنا وسعـديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقـولون: ومـا لنـا لا نَـرْضَى، وقـد أعطيتنا مـا لم تُعْطِ أحـدا من خلقك، فيقـول: أنا أعطيكم أفضـل من ذلك، قالـوا: يـا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا». وقد أشار الله عز وجل إلى أن رضـاه على المؤمنين أكبر من جميع نعيم الجنة حيث يقـول عز

وجل : ﴿وعَدَ الله المؤمنين والمؤمنـات جنات تجري من تحتها الأنهار خـالدين فيها ومسـاكنَ طيّبة في جنات عـدن ، ورضوانٌ من الله أكبر، ذٰلك هـو الفوز العظيم﴾ وقولـه عز وجل : ﴿والله بصير بالعباد﴾ هـو ترغيب في الخوف من الله عز وجل والحرص على تقواه وطاعته ، واتبـاع رسوله محمد ﷺ و إخلاص العمل لله وحـده ، وتـرهيب مـن الانجـراف وراء شهـوات الحيـاة الـدنيـا ، والانقطاع وراء لذاتها ، والكفر بالله وتكذيب رسوله ﷺ الذي يؤدي بصاحبه إلى نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة . والعاقل هو الذي يخلص العمل لمرضـاة الله لأنه يعلم أن النـاقـد بصير، ويخفف ظهره من الأوزار لأن العقبـة كَئُود ، ويكثـر من زاد التقوى لأن السفر طـويل ، وقوله عـز وجل : ﴿الذين يقولـون ربنا إنّنا آمنـا فاغفر لنـا ذنوبنا وقنـا عذاب النار﴾ إرشـاد من الله عز وجل لعبـاده الصالحين أن يتـوسلوا إليه تبـارك وتعالى بصـالح أعمالهم وعلى رأسها الإيمان ، حيث قـدّموا بين يدي دعـائهم قولهم : ﴿ربنا إننـا آمنا﴾ ثم سألـوه عز وجل أن يغفـر لهم ذنـوبهم وأن يصونهم من عـذاب جهنم حيث قالوا : ﴿فاغفـر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النـار﴾ ولا شك أن التّوسّل إلى الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وبالأعمال الصالحة قد أرشد إليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة ، وقد ذكـرت في تفسير سورة الفاتحة أن رسول الله ﷺ لفت انتبـاه المسلمين إلى أن الإنسان المسلـم إذا دعا الله تعـالى بعـد أن يذكـر أَرْضَى عمل تقرب به إلى الله عز وجل ، وعمله لـوجهه الكريم كان حَرِيًّا بأن يُستَجاب دعاؤه ، حيث ذكر رسول الله ﷺ قصـة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غـار، فـانطبقت عليهم الصخـرة فلما تضرعـوا إلى الله عـز وجل بأرجى أعمالهم الصالحة انفـرجت عنهم الصخرة ، وخرجـوا يمشون ، الذي أخـرجه البخاري ومسلم مطولا من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وكقوله عز وجل : ﴿ربنا إننا سمعنـا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بـربكم فآمنا ربنا

فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾ فإنهم قدّموا ذكر الإيمان قبل الدعاء، وكذلك ما حكاه الله عز وجل عن المؤمنين في قوله تبارك وتعالى: ﴿إنه كان فريق من عبادي يقولون ربّنا آمنّا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ والتنبيه إلى هذا النوع من التوسل كثير في كتاب الله عز وجل، أما التوسل بغير أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وبغير الأعمال الصالحة التي قصد بها وجه الله فإنه لا يجوز كما لا يجوز التوسل بذوات الأنبياء والصالحين في حياتهم أو بعد مماتهم إذ هو من الشرك المحبط للأعمال نعوذ بالله، وقوله عز وجل: ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنْفِقِين والمستغفرين بالأسحار﴾ نصب الصابرين وما عطف عليه يمكن أن يكون على المدح كأنه قيل: أمدح الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار، ويمكن أن يكون قوله: ﴿الصابرين﴾ نعتا لقوله: ﴿الذين يقولون﴾ باعتباره منصوبا على المدح أو مجرورا على أنه صفة للذين اتّقوا أو بدلٌ منه أو صفةٌ للعباد في قوله عز وجل: ﴿والله بصيرٌ بالعباد﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء المؤمنين المتوسلين إلى الله عز وجل بإيمانهم الضارعين إليه تبارك وتعالى أن يغفر ذنوبهم ويحفظهم من عذاب النار بخمس صفات وهي الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار، والمراد كونهم صابرين في أداء الأعمال الصالحة التي تقربهم إلى الله عز وجل وصابرين عن الوقوع في المحظورات فهم يحبسون أنفسهم عن الشهوات المحرمة، وصابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد فهم راضون عن الله عز وجل في جميع أحوالهم حابسون أنفسهم عن الجزع عند وقوع المكروه بهم، فهم أئمة خير وهدى كما قال عز وجل: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ ولذلك قيل: بالصبر واليقين تُنَال الإمامة في الدين. والصفة الثانية كونهم صادقين، ولا شك أن الصدق يهدي إلى البرّ وأن البرّ يهدي إلى

الجنة . والصفة الثالثة كونهم قانتين أي إنهم يداومون على طاعة الله ويواظبون على العبادة . والصفة الرابعة كونهم مُنْفِقِين أي يبـذلون من أموالهم في مرضاة الله ، ولا يبخلون على أنفسهم وأزواجهم وعيالهم وأرحـامهم وسائر وجوه البر التي تقربهم إلى الله عز وجل . أما الصفة الخامسة فهي الاستغفار بالأسحار، والأسحـار جمع سَحَر وهـو ثلث الليل الأخير إلى الفجر، ومع أن الاستغفـار محبوب مطلوب في جميع الأوقات إلا أنّ وقت السّحر هو أرجى الأوقات لتنزّل الرحمة على عباد الله المستغفرين لأن الله تبارك وتعـالى ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلـة وقت السحـر ويقـول : من يستغفـرني فأغفر لـه ، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : مَن يدعوني فأستجيـبَ له ، من يسألني فأُعْطِيَه ، من يستغفـرني فأغفرَ له» . وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «ينزل الله في السماء الـدنيا لشَطْـرِ الليل أو لثلث الليل الآخر فيقـول : من يدعـوني فأستجيبَ له أو يسألني فأُعْطِيَه ثم يقول : من يُقرض غير عَدِيم ولا ظَلُوم» . وفي لفظ : «ثم يبسط يـديـه تبارك وتعـالى يقـول : من يقرض غير عَـدُوم ولا ظَلُوم» . وقـد أثنى الله تبارك وتعالى على المستغفريـن بالأسحار هنا وفي قـوله عز وجل في سورة الذاريات في وصف عباده المتقين حيث يقول : ﴿إن المتقين في جنـات وعيون* آخـذين ما آتـاهم ربّهم ، إنهم كانـوا قبل ذلك محسنين* كـانــوا قليـلا من الليل مــا يَـهْجَعُون* وبـالأسحــار هم يستغفـرون . ﴾ والاستغفار هـو أقرب الـوسائل إلى مرضـاة الله عز وجل وأعظم أسبـاب رغد العيش وعز الـدنيا وسعادة الآخـرة وفي ذلك كله يقول الله عـز وجل : ﴿وما كان الله مُعَذِّبَـهم وهم يستغفرون﴾ ويقـول عز وجل : ﴿وأن استغفروا ربكم ثم تـوبوا إليـه يُمَتِّعْكم متـاعا حسنـا إلى أجل مسَمًّى ويُـؤْتِ كلَّ ذي فَضْل

فضله﴾ ويقول في نصيحة هودٍ عليه السلام لقومه : ﴿وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مِدْرارًا ويَزِدْكُم قوةً إلى قوتكم﴾ ويقول في نصيحة نوح عليه السلام لقومه : ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّارا* يرسل السماء عليكم مِدْرارًا* ويُمْدِدْكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارا﴾ وقد قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة» . رواه البخاري من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه .

قال تعالى : ﴿ شهد الله أنّه لا إلّه إلا هو والملائكة وأوْلواْ العلم قائما بالقسط ، لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾

بعد أن أثنى الله على المؤمنين المستجيبين لله عز وجل المتوسلين إلى مرضاة الله بإيمانهم بيّن عز وجل هنا أن سبيل المؤمنين هو الصراط المستقيم الذي رضيه الله تبارك وتعالى لخلقه وأنه قد نصب لذلك الدلائل وأقام على صدقه البراهين من إعلانه عز وجل أنه لا إلّه إلا هو وأنه هو القائم بالقسط وأنه العزيز الحكيم وأنه شهد بذلك وقضى به في السموات والأرض ووصّى به عباده وأنزل به كتبه وأرسل به رسله وأن ملائكة الله عز وجل يشهدون بذلك ويقرون به ويدعون إليه ، وأن أولي العلم من أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين يقرون بذلك ويعلنونه ويدعون إليه ويأمرون به ، فإن كلمة التوحيد هي الإعلان الحق بالحقيقة الكبرى التي من أجلها خلق الله الخلق ومن أجلها أنزل الكتب وأرسل الرسل وأقام الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، فأهل توحيده عز وجل إلى الجنة ، وأهل الكفر به إلى النار.
ومعنى : ﴿شهد الله﴾ أي قضى بذلك وحكم ووصّى وأخبر بكلامه وبما أقام في خلقه من آياته في السموات وفي الأرض وفي الأنفس ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ولا ريب أن الله ألزم الخلق التوحيد وأمرهم به ، وقضى به وحكم ، فقال : ﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾ وقال : ﴿أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون﴾ وقال : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلّهين اثنين إنما هو إلّه واحد فإيّاي فارهبون﴾ وقال : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ وهذا كثير في القرآن ، يوجب على العبادعبادته وتوحيده ، ويحرّم عليهم عبادة ما سواه ، فقد حكم وقضى أنه لا إلّه إلا هو، ثم قال

رحمه الله : وشهادة الـرب وبيانـه وإعلامه يكـون بقولـه تارةً، وبفعلـه تارة، فالقـول هو مـا أرسل به رسلـه، وأنزل به كتبـه، وأوحاه إلى عبـاده كما قال : ﴿ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلَه إلا أنا فاتقون﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وقـد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إلَه إلا هـو بقوله وكلامه، وهذا معلوم من جهـة كلّ من بلّغ عنه كـلامه، ولهذا قـال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة، قل هاتوا برهانكم هـٰذا ذكر مَن معيَ وذكر مَن قبلي﴾ وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الـدّالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل وإن لم يكن هنـاك خبر عن الله، وهذا يستعمل فيـه لفظ الشهـادة والدلالـة والإرشاد، فـإن الدّليل يبيّن المدلـول عليه ويظهـره، فهو بمنـزلة المخْبِـر به الشاهد به، كما قيل : سل الأرض من فجّر أنهارها وغرس أشجارها، وأخرج ثمارها، وأحيـا نباتها، وأغطش ليلهـا، وأوضح نهارها، فإن لم تجبـك حوارًا أجابتك اعتبارا، وهو سبحانه شهـد بما جعلها دالّة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها، فإذا كـانت المخلوقات دالة على أنـه لا إلَه إلا هو، وهو سبحـانه الذي جعلها دالـة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه، وبيّن ذلك فهـو الشاهد المبيّن بها أنه لا إلَـه إلا هو، وهـذه الشهادة الفعليـة ذكرهـا طائفـة، قال ابن كيسان : ﴿شهد الله﴾ بتـدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقـه أنه لا إلَه إلا هو. انتهى كـلام ابن تيمية رحمه الله. وقوله عز وجـل : ﴿والملائكة وأؤلوا العلم﴾ أي وأقرّ الملائكة وأهل العلم من الأنبياء والمرسلين بما أخبرهم به الله وشهد بـه فشهدوا بذلك وآمنـوا به، واستيقنوه وأمـروا الناس به ليكـونوا على صراط مستقيم، و«قائما» في قوله تعالى : ﴿قـائما بالقسط﴾ هو منصوبٌ على الحال من الضمير المنفصل الـواقع بعـد إلا، فتكون الحال في حيّـز الشهـادة فيكون المشهود به أمْرَيْن : الوحـدانيةَ والقيامَ بالقسط، والعامل في الحال هو

معنى جملة لا إلَه إلا هو، فإن معناها: تفرّد. والقِسْط: العدل، قال الفخر الرازيّ رحمه الله: واعلم أن هذا العدل منه ما هو متصل بباب الدنيا، ومنه ما هو متصل بباب الدين، أما المتصل بالدنيا فانظر أوّلا في كيفية خِلْقة أعضاء الإنسان حتى تعرف عدل الله فيها، ثم انظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح، والغنى والفقر، والصحة والسُّقْم، وطول العمر وقصره، واللذة والآلام، واقطع بأن كلّ ذلك عدلٌ من الله وحكمة وصواب، ثم انظر في كيفية خِلْقة العناصر وأجرام الأفلاك، وتقدير كلّ واحد منها بقَدْر معيّن وخاصية معينة، واقطع بأن كلّ ذلك حكمة وصوابٌ، أما ما يتصل بأمر الدين فانظر إلى اختلاف الخلق في العلم والجهل، والفَطَانة والبَلاَدة، والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدلٌ وقسط اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولفظ القيام بالقسط كما يتناول القول يتناول العمل فيكون التقدير: يشهد وهو قائل بالقسط عاملٌ به لا بالظلم، فإن هذه الشهادة تضمنت قولا وعملا، فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده فيعبد، وأن غيره لا يستحق العبادة، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء، وأن المشركين به في النار، فإذا شهد قائما بالعدل المتضمّن جزاء المخلصين بالجنة وجزاء المشركين بالنار كان هذا من تمام تحقيق موجب هذه الشهادة، وكان قوله: ﴿قائما بالقسط﴾ تنبيها على جزاء المخلصين والمشركين، كما في قوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ اهـ وقوله عز وجل: ﴿لا إلَه إلا هو العزيز الحكيم﴾ في تكرير قوله عز وجل: ﴿لا إلَه إلا هو﴾ إشعار للمسلمين بأن يشهدوا بما شهد الله عز وجل به وبما شهد به الملائكة وأولو العلم، وتعليم للمؤمنين بأن يكرروا كلمة التوحيد هذه التي جعلها الله عز وجل مفتاح الجنة والتي لو وضعت في كِفّة ووضعت السموات والأرض في كِفّة لرجحت كِفّة «لا إلَه إلا الله» فقد روى

النسائي وابن حبان والحاكم من طريق دَرّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى ﷺ: يا رب علمني شيئا أذكرك به، وأدعوك به قال: قل: لا إلّه إلا الله، قال: يا رب كلّ عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إلّه إلا الله، قال: إنما أريد شيئا تخصُّني به، قال: يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كِفّة ولا إلّه إلا الله في كِفّة مالت بهم لا إلّه إلا الله». وقد قال الحاكم فيه: صحيح الإسناد. والحديث فيه دَرّاج بن سمعان أبو السمح وإن كان ضعيفا إلا أنه عرف بالصدق في حديثه عن أبي الهيثم كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في التقريب حيث قال: صَدُوق في أبي الهيثم. كما روى الترمذي وقال: حسن غريب، وابن ماجه وابن حبان والبيهقي والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الذهبي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سيخلّص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فيَنْشُر عليه تسعة وتسعين سِجِلاّ، كلّ سِجِلّ مثل مَدّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربّ، فيقول: أفلك عذرٌ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول: احضَرْ وَزْنَك، فيقول: يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تُظْلَم، قال: فتوضع السجلات في كِفّة والبطاقة في كِفّة، فطاشت السجلات، وثَقُلَت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيءٌ». وقوله تبارك وتعالى: ﴿العزيز الحكيم﴾ إشارة إلى كمال قدرته وغلبته وقهره، وكمال علمه وإحاطته بجميع خلقه، فلا إلّه غيره ولا رب سواه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إلّه إلا الله، وأنه قائم بالقسط، وأنه العزيز

الحكيم، فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمنت عدله المنافي للظلم، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسّفه، ففيها إثبات التوحيد، وإثبات العدل وإثبات الحكمة وإثبات القدرة اهـ وفي هذه الآية الكريمة ردّ على من زعم أن المسيح ابن الله أو أن العُزَيْر ابن الله أو جعل لله شريكا؛ لأنه لا إلّه إلا الله، فلا نِدّ له ولا شريك ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد، وقد شهد الله بذلك وشهد به ملائكته وأنبياؤه ورسله وسائر أهل العلم من عباده الصالحين.

قال تعالى : ﴿إنّ الدّين عندَ الله الإسلامُ، وما اخْتلفَ الّذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العِلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريعُ الحساب* فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبَعَنِ، وقل للّذين أوتوا الكتَابَ والأميّين أأسلَمْتُم، فإنْ أَسلَمُوا فقد اهتدوا وإنْ تَوَلّوا فإنّما عليك البلاغُ، والله بصيرٌ بالعباد﴾ .

بعد أن قرّر الله عز وجل أنه لا إلّه إلا هو وشهد بذلك كما شهد به ملائكته وأولو العلم من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين أعلن هنا أنّ الدين الحقّ والشرع المرضيّ عند الله عز وجل هو دين الإسلام المقرر لتوحيد الله عز وجل، الذي بُعث به رسول الله محمد ﷺ المطابق في التوحيد لما بعث الله به جميع النبيين والمرسلين، فلا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا وثنية مرضيّةٌ عند الله، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، وقد أغلق الله تبارك وتعالى جميع الأبواب والطرق بعد بعثة محمد ﷺ إلا الطريق الذي يجيء من جهة محمد ﷺ وقد أُثِرَ في الحديث القدسي أن الله عز وجل قال لرسوله محمد ﷺ: وعزّتي وجلالي لو جاءوا من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، ما فتحت لهم إلا أن يجيئوا من طريقك. ومصداق ذلك في كتاب الله تبارك وتعالى حيث يقول الله عز وجل لرسوله وحبيبه وسيّد خلقه محمد ﷺ: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ والمراد بالدين هنا الشرع والعقيدة، وقوله: ﴿عند الله﴾ أي الذي رضيه الله لعباده وبعث به رسله وأنزل به كتبه. والمراد بالإسلام هنا: دين محمد ﷺ وشريعته التي بعثه الله عز وجل بها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ يشير إلى أن الله تبارك وتعالى أوضح

دلائل الدّين الحق، وأزال الشبهات في آيات محكمات واضحات جليات، فمن كفر بالحق بعدما تبين كما فعل اليهود والنصارى فإنه يستحق عقوبة الله العزيز المقتدر، ومعنى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ أي وما تنازع اليهود والنصارى في الإسلام وحاربوه إلا بعد ظهور براهينه، فقد كانوا قبل مجيء محمد ﷺ يبشرون به ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حقدًا وحسدًا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل، والحقد والحسد من أقبح الأخلاق المنتشرة في نفوس اليهود والنصارى، وقوله عز وجل: ﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ أي ومن يجحد الدين الذي جاء به محمد ﷺ المؤيد بالآيات الباهرة والحجج النيرة والمعجزات القاهرة فإنّ من يكفر به لن يُفْلِت من عقوبة الله، ولن يهرب من حسابه، وحسابُ الخلائق عليه سهل يسير، وقوله عز وجل: ﴿فإن حاجّوك فقل أسلمتُ وجْهيَ لله ومَن اتَّبَعَنِ﴾ أي فإن جادلك أهل الكتاب وحاولوا إطفاء نور الله، واتّبعوا ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة والصدّ عن سبيل الله وتَشَبُّثًا بباطلهم واعتقادهم أن لله ولدا، فأخبرهم أنك أسلمت وجهك لله وحده لا شريك له وأنك ومن معك من المؤمنين منقادون لأمر الله، وقّافون عند شرعه، مقرّون بأن الله إلٰه واحد لا شريك له ولا نِدّ ولا نظير ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قل هٰذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتّبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وقوله عز وجل: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأُمّيّن أأسلمتم﴾ أي وبلّغ اليهود والنصارى والمشركين من جميع أجناس الناس أن الله يأمرهم بالدخول في دين الإسلام الذي لا يقبل من أحد دينا سواه، وفي هذا برهان ساطع على عموم رسالته ﷺ إلى جميع الخلق من المكلفين، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن أن الله بعث

محمدا ﷺ بالـرسالة العامـة للعالمين، حيث يقول عز وجـل: ﴿تبارك الذي نزّل الفـرقان على عبـده ليكون للعـالمين نذيـرا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السمٰوات والأرض لا إلٰه إلا هو يحيي ويميت فـآمنوا بـالله ورسـوله النبي الأمي الـذي يـؤمن بـالله وكلماته واتّبعـوه لعلكم تهتدون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومـا أرسلناك إلا كافـة للناس بشيرا ونـذيرا ولٰكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ وقد تواترت الأخبار أن رسول الله ﷺ كتب إلى ملوك الآفاق وطوائف بني آدم عربا وعجما من الكتابيين والأميين يدعوهم إلى عبادة الله وحـده والدخـول في دين الإسلام، كما روى البخـاري في صحيحه من حديث جـابر بن عبـد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: «وكان النبي يُبعث إلى قومـه خاصّة وبُعِثْتُ إلى الناس عامـة». وفي رواية مسلم من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: : «كان كلّ نبيّ يبعث إلى قـومـه خـاصـةً وبعثت إلى كل أحمر وأسـود» وفي روايـة لمسلم من حـديث أبي هـريـرة رضي الله عنـــه أن النبي ﷺ قـال: «وأُرسِلتُ إلى الخلق كافة». كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والـذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هـذه الأمة يهوديّ ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت بـه إلا كان من أهل النار». كما روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وَضُوءَه، ويناوله نَعْلَيْـه فمرض فأتاه النبي ﷺ فـدخل عليه، وأبوه قاعـد عند رأسه، فقـال له النبي ﷺ : «يـا فـلان قل: لا إلٰـه إلا الله» فنظر إلى أبيـه، فسكت أبوه، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أَطِعْ أبا القاسم، فقال الغـلام: أشهد أن لا إلٰـه إلا الله، وأنك رسـول الله، فخرج النبيّ ﷺ وهـو يقول: «الحمد لله الذي أخرجه بي من النار». وقوله عز وجل: ﴿أأسلمتم﴾

ورد على صورة الاستفهام التقريري والمقصود منه الأمر، يعني: أَسْلِمُوا، وإنما جاء في صورة الاستفهام لإشعارهم بأن أدلة الإسلام ظاهرة وحججه واضحة، فالمفروض ممن له عقل أن يسارع إلى الدخول فيه لينجو من عذاب الله، فلا يتأخر عن الدخول في الإسلام بعد هذه البراهين الساطعة والآيات القاطعة بأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه، ولا يتردد في قبوله إلا بليدٌ عنيدٌ لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة سارع إلى قبولها واستمسك بالحق الذي دلت عليه، قال الفخر الرازي: ونظيره قولك لمن لخّصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان: هل فهمتها؟، فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطَب بليدًا قليلَ الفهم اهـ وقوله عز وجل: ﴿فإن أسلمُوا فقد اهتَدَوْا﴾ أي فإن أطاعوك واستجابوا لدعوتك ودخلوا في دين الإسلام وانقادوا للحق فأفردوا الله عز وجل بالألوهية والربوبية وآمنوا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وسلمت قلوبهم من الزيغ الذي يحمل أهله على اتباع المتشابه فقد أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد الذي يؤدي بسالكه إلى جنات النعيم ومرضاة رب العالمين، وقوله عز وجل: ﴿وإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغ﴾ أي وإن أعرضوا عن دعوتك ولم يستجيبوا لأمرك لهم بالدخول في الإسلام واستمروا على كفرهم وضلالهم وعنادهم فإنهم هم الذين يتحملون وحدهم وزر كفرهم وعنادهم، أما أنت فقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، على أبلغ وجه وأكمل بلاغ، وهذه هي وظيفتك ووظيفة إخوانك النبيين والمرسلين من قبلك، فما عليك إلا البلاغ وعلينا حسابهم، كما قال عز وجل: ﴿فذكِّرْ إنما أنت مُذَكِّر* لستَ عليهم بمصيطر* إلا من تولى وكفر* فيعذبه الله العذاب الأكبر* إن إلينا إيابَهُم* ثم إن علينا حسابَهُم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإن

أعـرضوا فما أرسلنـاك عليهم حفيظـا إنْ عليك إلا البـلاغ﴾ وكما قال تبـارك وتعالى : ﴿فإن تـوليتم فاعلموا أنّما على رسـولنا البلاغ المبين﴾ وقـد بلّغ رسول الله ﷺ البلاغ المبين . وقد روى مسلم في صحيحه من حـديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال في خطبته يـوم عرفـة : «وقد تـركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تُسْأَلُون عني فما أنتم قـائلـون؟» قـالـوا : نشهـد أنك قـد بلّغت وأدّيت ونصحت . كما روى البخاري ومسلم من حـديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر : «ألا هل بلّغتُ؟» قالوا : نعم قال : «اللهم اشهد ، فلْيُبلّغ الشاهدُ الغائبَ فرُبّ مبلَّغٍ أوعى من سامع» . وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿والله بصير بـالعباد﴾ تـرغيب وتـرهيب ووعـدٌ ووعيد ، فإنـه عـز وجل مطلع على ضمائر عبـاده وخلجـات صـدورهم ، فمـن يعمل مثقـال ذرة خيرا يـره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

قال تعالى: ﴿إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيين بغير حقّ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذاب أليم* أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين* ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون* ذٰلك بأنهم قالوا لن تمسّنا النار إلا أيّاما معدودات وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون* فكيف إذا جمعناهم ليومٍ لا ريب فيه ووفّيت كلّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن رسوله محمدًا ﷺ ليس عليه إلا أن يبلّغ دعوة الله عز وجل، وأن من تولّى وأعرض عن الاستجابة لدين الإسلام فحسابه على الله عز وجل البصير بجميع أعمال عباده، ذكر هنا بعض قبائح المعْرِضين للدلالة على أنه لن يعرض عن دين الإسلام إلا من كان معوجّ السلوك، معاديا لله ورسله من اليهود والنصارى والأميين، وقد ذكر عز وجل هنا ثلاثة أوصاف هي من أخص صفات اليهود قبحهم الله، وإن كان يشاركهم في الاتصاف بها أو ببعضها النصارى والوثنيون فقال عز وجل: ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾ والصفة الأولى من هذه الصفات الثلاث يشترك فيها اليهود والنصارى والوثنيون الأميون، وهي تشعر بأن من كفر بدين الإسلام فقد كفر بجميع الأديان السماوية، ولا عبرة بادعائه أنه على ملة إبراهيم عليه السلام، لأن الله تبارك وتعالى لا يقبل من أحد دينا بعد بعثة محمد ﷺ إلا الدين المرضيّ عنده وهو دين الإسلام الذي وصفه بقوله عز وجل: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أما الصفة الثانية من هذه الصفات القبيحة فهي قتلهم الأنبياء بغير حق، وهي جريمة بشعة

تتقاصر عنها كبائر الجرائم؛ لأن أنبياء الله أنفع الناس للناس، وهم معصومون من الخطايا والمعاصي والسيئات، فمن قتل نبيًّا من الأنبياء كان أبشع القتلة وأعظمهم جُرْمًا، وقد ندّد الله تبارك وتعالى بهذه الجريمة البشعة التي كان يقترفها اليهود مع أنبيائهم ورسلهم في مواضع من الذكر الحكيم، وذكر أنه سلط الذلة والمسكنة عليهم بسبب هذه الجريمة النكراء وأنهم باءوا بغضب من الله، حيث قال في سورة البقرة: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذّلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ وقال عز وجل في الآية الثانية عشرة بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُرِبَتْ عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أن قوله عز وجل: ﴿بغير الحق﴾ للتشنيع على اليهود لعنهم الله إذ أنّ من سلمت فطرته لا يخطر على باله أن نبيًّا من أنبياء الله يستحق أن يقتل، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبيّ أو قتل نبيًّا، وإمام ضلالة وممثّل من الممثلين». أما الصفة الثالثة من صفات هؤلاء الزائغين عن الحق المنحرفين عن الهدى فهي ما ذكره الله عز وجل عنهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس﴾ أي ويقتلون من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفيه لفت انتباه الناس إلى منزلة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عند الله عز وجل وأن وظيفتهم هي المحافظة على شريعة الله تبارك وتعالى وتذكير الناس بلزوم القسط والعدل وترك الانحراف والجور، وهذا من أعظم مصالح العباد في

جميع الأعصار والأمصار، ومن أعظم أسباب دفع البلاء والشر عن الناس، وقد رتب الله تبارك وتعالى لهؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات الثلاث ثلاثة أنواع من الوعيد وهي قوله عز وجل: ﴿فبشرهم بعذاب أليم* أولَئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾ فالعقوبة الأولى لهؤلاء هي إخبارهم بما أعد الله لهم في نار الجحيم من عذاب لا يخطر على البال ولا يدور في الخيال، والعقوبة الثانية أن جميع ما يعملونه من محاسن الأعمال يبطلها الله عز وجل كما قال: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ مع ما يصيبهم من خزي الدنيا والآخرة، والوعيد الثالث هو ما أفاده قوله تبارك وتعالى: ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي وأنهم لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ولن يشفع فيهم أحد، فما لهم من شافعين ولا صديق حميم، ثم ذكر الله تبارك وتعالى صورة من صور انحراف اليهود تبيّن قبيح سلوكهم، وتقصم ظهورهم في دعواهم أنهم على الحق حيث أشار تبارك وتعالى إلى أن أحبار السوء من اليهود يهجرون العمل بالأحكام المشروعة في التوراة كرجم الزاني الذي استبدلوه بالتحميم وإركاب الزانيين على حمار مقلوبين للتشنيع عليهما إن كان مرتكب الجريمة من الأغنياء، أما إن كان من الفقراء فإنهم يقيمون عليه الحد، وعندما دُعُوا إلى الدخول في الإسلام والاحتكام إلى شرع الله المنزل على محمد ﷺ لم يستجيبوا لدعوة الحق، وبهذا يتضح سوء سلوكهم، ويظهر قبح انحرافهم عن أحكام الله عز وجل في الوقت الذي يتباهون فيه بأنهم من علماء أهل الكتاب وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون﴾ وكما قال عز وجل في نظرائهم من المنافقين: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما

معدودات وغـرّهم في دينهم ما كانـوا يفترون﴾ بيان للسبب الـذي من أجله يفعلون القبائح ويرتكبون الجرائم وهو ما افتراه لهم أحبار السوء بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لن يعذبهم على خطايـاهم، وقد ذكرت في تفسير الآية الثمانين من سورة البقـرة وهي قوله عـز وجل فيها: ﴿وقالـوا لن تمسنا النار إلا أيـاما معدودة﴾ فقلت: وقد افترى لهم أحبار السوء منهم مبادئ التمييز العنصري فكتبوا لهم التلمـود زعما منهم أنه شرح للتـوراة واستنباط من أصـولها مع أن بعض نصـوص التلمود قـد يخالف بعض نصـوص التـوراة، فزعمـوا لهم في التلمود أنّ اليهـود أحب إلى الله من الملائكة، وأنهم من عنصر الله فهـم أبناء الله وأحباؤه، وأطلقوا اسم «الأُمَمِيِّ» على كل من ليس بيهودي، وقرروا لهم أن الموت جزاء الأممـي إذا ضرب اليهوديّ، وأنه لـولا اليهود لارتفعت البركـة من العـالم واحتجبت الشمس، وانقطع المطـر، وأن اليهود يَفْضُلُـون الأمميين كما يَفْضُل الإنسانُ البهيمـةَ، إلى آخر هذه المبـادئ التلمودية التي كـونت نفسية اليهـود الممتلئـة بـالغـرور والافتراء، والتـي جـرفت الكثير من النصـارى في تيارهم، وقد سقت هناك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: لما فتحت خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سمّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعـوا لي مَن كان هنا من اليهود» فجُمِعُـوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقوني عنه؟» فقالوا: نعم يـا أبا القـاسم، فقال لهم رسـول الله ﷺ: «من أبـوكم؟» قالـوا: أبونـا فـلان، فقال رسـول الله ﷺ: «كـذبتم بل أبـوكم فـلان» فقالـوا: صـدقتَ وبَرِرْتَ، فقال: «هل أنتم صادِقِيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذَبناك عرفت كـذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالـوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفوننـا فيها، فقال لهم رسـول الله ﷺ: «اخسئـوا فيها، والله لا نخلفكم فيهـا أبـدا» ثم قـال لهم:

«فهل أنتم صادقـوني عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالـوا: نعم، فقال: «هل جعلتم في هـذه الشاة سمّا؟» فقالـوا: نعم، فقال: «مـا حملكم على ذلك؟» فقالـوا: أردنا إن كنت كـذّابا أن نستريح منك، وإن كنت نبيّـا لم يضرّك اهـ وقـد طالبهم الله تبـارك وتعالى في آيـة سـورة البقرة بـدليل على دعواهم هـذه الكاذبة الخاطئة حيث قال عز وجل: ﴿قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهـده أم تقولـون على الله ما لا تعلمـون﴾ وهنا يُعَجِّب الله عـز وجل من سـوء مصيرهـم، إذا جمع الخلق وحشرهم من قبـورهم ليـوم الفصل والجزاء وجُـوزِيَـتْ كلّ نفس بما اقترفت واجترحت وعملت ولا يظلم ربـك أحـدا، وهناك يعرف هؤلاء اليهـود ومن على شاكلتهم من المغرورين المفترين على الله الكـذب كيف يضمحلّ بـاطلهم وتـذهب زخـارفهم التي زخـرفهـا لهم شيـاطينهم، وجُـوزوا بما اكتسبـوه واقترفـوه من كفـرهم وافترائهم وغـرورهم وقتلهم أنبيـاء الله ورسله والآمـرين بـالمعـروف والناهين عن المنكـر، وسيعلم الذين ظلمـوا أي منقلب ينقلبون، يوم لاينفع الظالمين معـذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الـدار، وكما قال عـز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فـلا تُظْلَمُ نفس شيئـا وإن كـان مثقـال حبـة من خـردل أتينـا بها وكفى بنـا حاسبين﴾

قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك تـؤتي الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممّن تشاءُ وتعـزُّ من تشاءُ وتـذلّ من تشاء بيـدك الخير إنّك على كلّ شيء قـدير* تـولج اللّيل فى النّهـار وتـولـج النّهـار في الليل وتخرج الحي من الميّت وتخرج الميّت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب. ﴾

قال الفخر الرازي في تفسيره: اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة وصحة دين الإسلام، ثـم قال لرسوله: ﴿فإن حـاجُّوك فقل أسلمتُ وجهيَ لله ومن اتَّبَعَنِ﴾ ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بـالله، وقتلهم الأنبياء والصـالحين بغير حق، وذكر شـدّة عنادهم وتمرّدهم، في قـوله: ﴿ألم تـر إلى الذين أوتـوا نصيبا من الكتـاب﴾ ثم ذكر شدّة غـرورهم بقولـه: ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ ثم ذكر وعيدهم بقوله: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾ أمر رسول الله ﷺ بدعاء وتمجيد يدلُ على مباينة طريقه وطريق أتباعـه لطريقة هـؤلاء الكافرين المعـاندين المعرضين، فقـال معلّما نبيّه كيف يمجّد ويعظّم ويدعو ويطلب: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ اهـ والظاهر من السياق يشعـر أن هذا المقـام الكريم قـد سيق لقطع أطماع اليهـود في النبوة، حيث أشـار الله عز وجل في الآيات السـابقة إلى أن الحامل لليهـود ومن على شاكلتهم على عـداوة رسول الله ﷺ والكفر بدين الإسلام هـو البغي والحسد والغرور وما افتراه لهم أحبار السـوء منهم أنهم أحق الناس بالنبوة والملك وهم لا يَـرْضَوْن أن تخرج النبـوة من بني إسرائيل، فـردعهم الله عز وجل ببيـان أن النبوة والملك وجميع ما ينزل على النـاس من الخير هو بيد الله وحده لا يتحكّم فيه أحـدٌ سواه عز وجل، وكما قال عـز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتـوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هٰؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا* أولٓئك الذين لعنهم الله ومن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيرا*

أم لهم نصيب من الملك فإذًا لا يؤتون الناس نَقِيرا* أم يحسُدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكًا عظيما* فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه، وكفى بجهنم سعيرا﴾ وقد شابه اليهودُ الوثنيين من أهل مكة الذين يريدون أن تكون النبوة في رجل ذي مال كثير وهم لا يؤمنون بمحمد ﷺ لأنه ليس ذا مال حيث ذكر الله عز وجل قولهم: ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أَهُمْ يَقْسِمون رحمة ربّك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضا سُخْريا، ورحمة ربّك خير مما يجمعون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَأُنزِلَ عليه الذكر من بيننا، بل هُمْ في شَكّ من ذكري بل لـمّا يذوقوا عذابِ * أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهاب* أم لهم ملك السمٰوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب* جُنْدٌ ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ كما أن في قوله عز وجل: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾ إشارة إلى تحقيق انتقال الملك والعزّ إلى أمة النبي الأمي العربي الهاشمي القرشي محمد بن عبد الله ﷺ وقد كانوا قبل مجيئه أقلّ الأمم شأنا وأبعدهم عن الملك، بل كانوا كما وصفهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه ابن إسحاق، مُصَرِّحا فيه بالتحديث، من طريق محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة رضي الله عنها أن جعفر بن أبي طالب قال للنجاشي: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ويأكل القويُّ منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا مِنّا، نعرف نَسَبَه وصدقه وأمانته وعفافه. الحديث. وعندما كان المسلمون في أضيق العيش

وشــدة الخوف كــان رسـول الله ﷺ يبشّر المسلمين بـأن رايتهم سترتفع على الكثير من أنحـاء الـدنيـا وستكـون العـزة للمسلمين في الأرض، فقـد روى البخاري في صحيحه من حديث عديّ بن حاتم قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكـا إليه الفاقة، ثم أتـاه آخر فشكا قطع السبيل، فقـال: «يا عديّ هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أُنبِئْتُ عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لَتَرَيَنّ الظّعينة ترتحل من الحيرة حتى تطـوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله» قلت فيما بيني وبيني نفسي: فـأين دُعّـار طَيِّئ الـذين قـد سَعَّـرُوا البلاد. «ولئن طالت بك حياة لَتُفْتَحَنّ كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هُرْمُز؟ قال: «كسرى بن هـرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لَتَرَيَنّ الـرجل يخرج ملء كفّه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فـلا يجد أحدا يقبله منه». الحديث، والمراد بـالظعينـة: المرأة في الهودج، والمراد بدُعّـار طَيِّئ: قُطّـاع الطـريق من طَيِّئ، لأن بـلادهم بين العـراق والحجـاز فـلا يمـرّ عليهم أحـد إلا سرقـوه وأخافوه. وقوله: سعّروا البـلاد، أي أوقدوا فيها نار الفتنة وملئوا الأرض شرا وفسادا. وقد أنجـز الله عز وجل لرسوله ﷺ ما وعـد، فلم يطل الزمان حتى وصل مُلْكُ المسلمين إلى الصين شرقا وإلى المحيط الأطلسي غربا وإلى أصقاع أوروبا شمالا وإلى المحيط الهندي جنوبا، وحتى وقف هارون الرشيد أمام بيته فرأى سحابة فقـال: سيري أينما شئت وامطري أينما شئت فسيأتي خراجك.

ومعنى قولـه عز وجل: ﴿قل اللهم مـالك الملك تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعـز من تشـاء وتذلّ من تشـاء بيـدك الخير﴾ أي أيها النبي الكريم ادع ربـك وقل: يا الله يا مـالك الملك، أي ياذا السلطـان على جميع الكائنات، يا مَلِكَ الملوك وما ملكوا، يا من له ملك السموات والأرض، وله الملك كلّـه، يـا من يتصرف في خلقـه كيف يشاء ويفعـل ما يـريـد، لا رادّ لقضـائك ولا معقب لحكمك، فجميع نـواصي عبادك بيـدك، أنت المعطي

وأنت المانع، لا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت، لا يذل من واليت ولا يعـزّ من عـاديت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ، تهب من تشـاء مـا تشـاء من الملك أو النبوة أو الغنى أو الجاه أو العافية أو البنين أو ما شئت أن تمنحه من حظوظ الدنيا ولذاتها ومتـاعها من فضلك وتمنع من تشاء من الملك أو النبوة أو الغنى أو الجاه أو العافيـة أو البنين أو ما شئت أن تمنعه بعدلك، والعـزيز من أردت عزته، والذليل من أردت ذلّته، تعطي وتمنع بحكمتك ومشيئتك، وجميع مَن عُبِدَ سـواك لا يملكون من قِطْمِير، والخير كلّـه في يديك، تتفضل بخيرك على من تشـاء، وتَقْسِم رحمتك وحـدك على مـن تـريـد، وأنت أعلم حيث تجعل رسـالتك، فـلا يعترض على حكمك إلا شقي محروم مطـرود من رحمتك. وقوله عز وجل: ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ تأكيد لما تقدم في الآية الكريمة من أنه مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشـاء ويذل من يشـاء، وأنـه لا يصل إلى أحـد خير إلا منه جلّ وعـلا، وقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿تـولج الليل في النهار وتـولج النهـار في الليل﴾ أي تصرّف الليل والنهـار بحكمتك في نظـام دقيـق محكم متقن عجيب لا يختل طرفة عين، حيث يستويان في وقت معين من السنـة ثم يبدأ النهار يأخذ من الليل قدرا محدودا معينا كل يوم فيزيـد النهار وينقص الليل، وهكذا إلى أمد معين محدود في نظام دقيـق ثم يبدأ الليل يأخـذ من النهار قـدرا محدودا معينا محسوبا (بالثواني) كل يـوم فيزيد الليل وينقص النهار، وهكذا دواليك حتى يستويـا مرة أخرى، وفي هـذا الاختلاف بين طول الليل وقصره وطـول النهار وقصره من الحكم البالغة والمنـافع العظيمة لشئون العباد والبـلاد ومتاع الحياة الدنيا ما لا يحيط به إلا الله عـز وجل، وقد اتعظ بذلك أصحاب العقول كما قـال عـز وجل: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختـلاف الليل والنهـار لآيـات لأولي الألبـاب﴾ وقد لفت الله انتبـاه النـاس إلى هـذه الآية الكـونيـة

العظيمة في مقامات كثيرة من الـذكر الحكيم حيث قال في سورة لقمان: ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويـولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى﴾ وقـال في سورة فـاطـر: ﴿يولج الليل في النهـار ويولج النهار في الليل وسخـر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمِير﴾ وقد تقدم القول في ذلك عنـد تفسير قوله تبـارك وتعالى في سـورة البقرة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ الآيـة الرابعة والستين بعد المائة.

وقـوله عـز وجل: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الـزرع من الحب والحب من الزرع والنخلـة من النـواة، والنواة من النخلـة، والمؤمن من الكـافـر، والكافـر من المؤمن، والطير من البيضـة والبيضـة من الطير، والحيوان مـن النطفة والنطفة من الحيـوان، ولا شك أن المادة (الخام) أي مادة الحياة الموجودة في النواة والحبـة والبيضة والنطفة لا تخرجها عن كونها مواتـا، ولذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحـابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمـواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾،

وقولـه عز وجل: ﴿وتـرزق من تشاء بغير حسـاب﴾ أي وتهب لمن تشاء من الرزق ما تشاء لا ينقص ذلك مما عنـدك شيئا لأن خزائنك لا تنفد ولا يغيض عطاؤك شيئـا من خزائنك، قـال ابن جريـر رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين: اللهم يا مالك الملك تـؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشـاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، دون من ادّعى الملحدون أنـه لهم إلّه وربّ وعبـدوه دونك، أو اتخذوه شريكا معك أو أنـه لك ولـدٌ، وبيـدك القدرة التي تفعل هـذه الأشيـاء وتقـدر بها على كل شيء، تولج الليل في النهار وتولج النهـار في الليل فتنقص من هذا وتزيد في

هذا، وتخرج من ميت حيا، ومن حي ميتا، وترزق من تشاء بغير حساب من خلقك، لا يقدر على ذلك أحد سواك ولا يستطيعه غيرك. اهـ

قال تعالى : ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتّقوا منهم تقاة، ويحذّركم الله نفسه، وإلى الله المصير* قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله، ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض، والله على كلّ شيء قدير* يوم تجدُ كلّ نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملتْ من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذّركم الله نفسه، والله رءوفٌ بالعباد* قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيمٌ* قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحب الكافرين﴾

بعد أن أوضح الله تبارك وتعالى للمؤمنين صورا من قبائح سلوك اليهود والنصارى والوثنيين، وفضح نواياهم الخبيثة، ومقاصدهم الشريرة وحقدهم على دين الإسلام وعلى سيد الأنام محمد ﷺ حذّر المسلمين من موالاتهم ومحبتهم، لأن محبة عدوّ الله وعدوّ المؤمنين لا تصدُرُ إلا من قلب غير مطمئنّ بالإيمان، ولذلك كان أوثق عرى الإيمان هو الحبّ في الله والبغض في الله، ولا شك أنّ من أحمق الحُمْق أن يدّعي أحد محبة الله ومحبّة الشيطان كما قال الشاعر:

تودّ عدُوّي ثم تزعم أنني ... صديقُك ليس النَّوْكُ عنك بعازب

أي أتحبّ عدوي وتواليه ثم تدّعي أنني صديقك وأنك تحبّني، فأنت إذًا أحمق، إذ النّوك بضم النون وفتحها هو الحُمْق والسَّفَه، ومعنى: ليس النوك عنك بعازب، أي ليس الحمق عنك ببعيد . والمعروف من التجارب الإنسانية أن من أحبك أحبّ أحبابك وعادى أعداءك، وقد أراد الإسلام أن يكون المسلمون يدا واحدة على أعدائهم، لا يتمكن أعداؤهم من الوصول إلى أسرار المسلمين أو خططهم العسكرية أو غيرها من طريق من يواليهم من

معسكر المسلمين، لذلك حذّر الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم من موالاة أعداء الله ومحبتهم حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل* إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسّوء وودوا لو تكفرون* لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير* قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبَالا ودُّوا ما عَنِتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وأشار الله تبارك وتعالى إلى أن موالاة المؤمن للكافر فيها فتنة في الأرض وفساد كبير حيث قال عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولَئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم

وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير﴾ والـذين كفروا بعضهم أولياء بعض، إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿والمؤمنون والمؤمنـات بعضهم أولياء بعـض﴾. وقولـه عـز وجل: ﴿لا يتّخذ المؤمنـون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ أي لا يجوز لمؤمن أن يوالي كافرا مهما كانت صلته به، ولا شك أن المؤمن لن يرضى بكفر الكـافر ولن يحب دينه، فإنه لو أحب دين الكافر أو رضي به كان كافرا خارجا من ملة الإسلام، كما أن حسن معاملة المؤمن للكـافر الذي لا يحارب المسلمين غير منهي عنها لقـوله تبارك وتعـالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الـذين لم يقاتلـوكم في الدين ولم يخرجـوكم من ديـاركم أنّ تبرّوهم وتقسطـوا إليهم، إن الله يحب المقسطين﴾ وأثنى الله عـز وجل على من يطعم الأسير حيث جعل من أفضل أعمال البررة إطعام الأسير حيث يقول: ﴿ويطعمـون الطعام على حبه مسكيناويتيما وأسيرا﴾ وقـد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحـابه بالإحسان إلى الأُسَارَى. إنما المنهيّ عنـه هو محبة الكافرين ومصادقتهم واتخاذ بطانـة منهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ هـذا وعيد شـديـد لمن يوالي أحـد الكافـرين، وظـاهـره يفيد أن مـن فعل ذلك بـرئ الله منه، ومن بـرئ الله منـه صـار إلى الهلاك، وهذا النص من نصـوص الوعيـد التي يرى بعض أهل السنـة عدم تأويلهـا لما تضمنته من شـدة التحذيـر حتى يجتنب المسلم موالاة الكفـار في سائر الأحـوال، خوفا من سـوء المآل، وقوله عـز وجل: ﴿إلا أن تتقوا منهم تُقَاةً﴾ أي إلا أن يكـون المسلم في قبضتهم ويجبروه على التلفظ بكلمـة الكفر أو نحوهـا من الأقوال، فإنه إن خـاف على نفسه جاز له أن يعطيهم بلسـانه ويكون قلبه مطمئنا بالإيمان كما قال عز وجل: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْـرِهَ وقلبـه مطمئن بالإيمان ولٰكـن من شرح بالكفـر صـدرا فعليهم غضبٌ من الله ولهم عـذاب عظيم﴾ والتُّقَـاة والتَّقِيَّـة بمعنى واحد، أمّـا مـا

اشتهر عند بعض أهل الأهواء من مذهبهم الخبيث الذي يسمونه « التُّقْيَة» فهو ليس من هذا الباب بل هي تُكَأَة يتوكّأون عليها ليست من الإسلام في شيء، فإنهم إذا تكلموا بباطل فقيل لهم: هذا باطل، قالوا: قلناه تقية.
وقوله عز وجل ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ تأكيد للوعيد السابق وتهديد لمن تسوِّل له نفسه موالاة الكفار، أي ويحذركم الله نقمته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه، وقوله عز وجل: ﴿وإلى الله المصير﴾ أي ومرجع جميع الخلائق إلى الله وحده لا إلى غيره وسيجزي كل عامل بما عمل، وقوله عز وجل: ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله﴾ أي أخبرهم يا محمد أن جميع ما توسوس به صدور الناس وما يعلنونه عند الله عز وجل علمه، فهو يعلم السرائر والضمائر والظواهر ولا تخفى عليه خافية، ولو قال قائل: ذِكْرُ العلم بخفيات السرائر والضمائر ظاهر، فما وجه ذكر العلم بالظواهر وهي ظاهرة للخلق؟ فالجواب: أن الغرض من ذِكْره هو تقرير أن علمه عز وجل بما خفي وبما ظهر في رتبة واحدة ليس بينهما تفاوت فكلاهما ظاهر عنده عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ويعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ هو مستأنف ليس معطوفا على جواب الشرط لأن علمه عز وجل بما في السماوات وما في الأرض لا يتوقف على شرط، فلذلك جيء به مستأنفا وهو من ذكر العام بعد الخاص لتأكيد الخاص وتقريره، وقوله عز وجل: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي كما أن علمه عز وجل محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان ما ظهر منهم وما بطن، ومحيط بجميع ما في السموات وما في الأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والسموات، فإنّ قدرته نافذة في جميع ذلك، قال ابن كثير رحمه الله: وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يُبْغِضُه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم وهو قادر على معاجلته بالعقوبة وإن أنظر من أنظر

منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر اهـ وقوله عز وجل: ﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير مُحْضَرًا وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمَدًا بعيدا﴾ أي يوم المصير والمرجع إلى الله عز وجل تجد كلّ نفس ما عملته من الخير أمامها مشاهَدًا لم يَغِبْ منه شيء فتفرح الفرح الذي لا يعقبه حزن أبدا، وتجد كلّ نفس ما عملته من السوء أمامها مشاهدا لم يغب منه شيء فتنزعج وتتمنى من بغضها لهذا العمل القبيح يوم الحسرة والندامة أنها لم ترتكبه ولم تعص الله ورسوله وتقول: ياليت بيني وبين هذا العمل بُعْدَ المشرقين، وكما تقول كل نفس لشيطانها: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين. فخذوا حذركم أيها العقلاء قبل فوات الأوان. وقوله عز وجل: ﴿ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ أي ويكرر الله عز وجل لكم هذا التحذير وأنتم في دار العمل لرأفته بعباده حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجة ونصب الآيات فله الحمد وله الشكر وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن الجميل، وقوله عز وجل: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾ بيان وميزان لكل من ادّعى حبّ الله ليعرف بواسطة هذا الميزان هل حبّه صحيح أو دعوى كاذبة، فإن كان متّبعا لمحمد ﷺ ومقتديا به، ومصدّقا لخبره، ومقتفيا لأثره ظاهرًا وباطنا فحبّه صحيح ودعواه صادقة، ولْيُبْشِرْ بحب الله له ومغفرة ذنوبه، أما إذا كان غير متّبع لرسول الله ﷺ وغير مصدّق لما جاء به عن الله عز وجل وغير ملتزم لشريعته ﷺ فإن دعواه حُبَّ الله دعوى كاذبة، وفي هذه الآية ردع عظيم لأولئكَ المبتدعة الذين يدَّعون حُبَّ النبي ﷺ بإحداث بدع في دين الله لم يشرعها رسول الله ﷺ ولم يعملها أحد من أصحابه رضي الله عنهم، كإقامتهم موالد ومواسم كعاشوراء والإسراء والمعراج وغيرها، وقد روى

البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها أن الرسول ﷺ قال: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ». كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه مُنْذِرُ جيش يقول: صَبّحكم ومَسّاكم، ويقول: «بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين» ويَقْرِنُ بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول: «أما بعد، فإنّ خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشرّ الأمور محدثاتها وكلّ بدعة ضلالة». الحديث. وقوله عز وجل ﴿قل أطيعوا الله والرسول فإن تَوَلَّوْا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ أي قل للناس كافة: انقادوا لأمر الله وأمر رسوله محمد ﷺ فإن تعرضوا وتخالفوا عن أمره فالله يعاديكم ولا يحبكم؛ لأنكم تكونون كافرين والله لا يحب الكافرين.

قال تعالى: ﴿إنّ الله اصطفى آدمَ ونوحًا وآل إبراهيمَ وآل عمرانَ على العالمين* ذرّيةً بعضها من بعضٍ، والله سميعٌ عليمٌ* إذ قالت امرأتُ عمرانَ ربّ إني نذرتُ لك ما في بطني مُحَرّرًا فتقبّل منّي إنك أنت السميعُ العليمُ* فلما وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعتْ وليس الذّكر كالأنثى وإني سمّيتها مريم وإنّي أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم﴾.

بعد أن قرّر الله على أبلغ وجهٍ وأكمله أن الدين عند الله الإسلام وأوضح سبب تأخر اليهود والنصارى عن الدخول في دين الإسلام وأنّ الحامل لهم على ذلك هو حقدهم وحسدهم وبغيُهم تحكّما في رحمة الله واستكبارا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل، لفت الله عز وجل انتباه اليهود والنصارى وغيرهم إلى أن محمدا ﷺ من ذرية إبراهيم المصطفَيْنَ الأخيار، فليس لبني إسرائيل مزيد اختصاص بإبراهيم خليل الرحمن فإن إبراهيم عليه السلام قد ولد له لصلبه ولدان عظيمان أحدهما بِكْره إسماعيل الذبيح عليه السلام، والثاني إسحاق أبو يعقوب ويعقوب هو إسرائيل، عليهما السلام، الذي تنتمي إليه جميع أسباط بني إسرائيل، أما إسماعيل عليه السلام فلم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخرهم بل فخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي ﷺ، قال ابن كثير في قصص الأنبياء من تاريخه: فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغصن المنيف، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدّرّة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة، وقد ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال: «سأقوم مقاما يرغب إليَّ الخلق كلّهم حتى إبراهيم» اهـ ومهما

كابر اليهود والنصارى فلن يتمكنوا من نفي نسب إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام لأنه لا يزال منصوصا في التوراة التي بأيدي اليهود والنصارى وأن إسماعيل قد ولد لإبراهيم، ولإبراهيم من العمر ستٌّ وثمانون سنة، ولذلك جاء التنصيص في هذا المقام على اصطفاء آل إبراهيم والمراد إبراهيم وذريته من الأنبياء والمرسلين لا عموم ذريته فإن فيهم المحسن والظالم لنفسه كما قال عز وجل: ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأَتَمَّهُنَّ قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذرّيتي قال: لا ينال عهدي الظالمين﴾ ولمّا كانت اليهود والنصارى قد ضلوا في المسيح عليه السلام ضلالا كبيرا، فادعت اليهود أنه ولد زنا وأنّ أمه زانية، وقالوا على مريم بهتانا عظيما، ففرّط اليهود لعنهم الله أشنع التفريط في عيسى وأمه، كما أن النصارى قد أفرطوا وغلَوْا في المسيح فجعلوه ابنا لله سبحانه، واتخذوه وأمّه إلٰهين من دون الله، وجاءوا بقول تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا، أن دعَوْا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، لذلك نصّ الله عز وجل هنا على اصطفاء آل عمران لبيان درجتهم الشريفة الرفيعة من غير تفريط ولا إفراط، وبسط الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم قصة ولادة مريم أم المسيح عليه السلام، العذراء البتول الطيبة الطاهرة سيدة نساء العالمين، كما بسط قصة ولادتها للمسيح عليه السلام ليدرأ بذلك في نحور اليهود والنصارى، وفي ذلك من تقرير توحيد الله عز وجل وأنه لا إلٰه إلا هو وأن محمدا عبده ورسوله الذي أنزل الله عليه هذا الذكر الحكيم الذي يفضح مواقف اليهود والنصارى من المسيح ابن مريم، وفي ذلك إعجاز حيث تفضل على نبيّ الأميين ببيان الحقيقة التي ضيعها الذين أوتوا نصيبا من الكتاب من أحبار السوء ورهبانهم ومعنى: ﴿اصطفى﴾ أي اختار

واجتبى، وأصل الاصطفاء هـو أخذ ما صفا من الشيء كـالاستصفاء، والله تبارك وتعالى يخلق ما يشاء ويختار، ويصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، فمن اختاره الله عز وجل واصطفاه عصمـه من المعاصي والسيئات وربّاه على عينه واصطنعـه لنفسه، وآدم هو أبو البشر عليـه السلام وقد خلقـه الله بيده وأسجد له ملائكته واجتباه وهـداه، وعلمه الأسماء كلها، ونوح عليه السلام هو آدم الثاني فهـو أبو جميع البشر الموجودين على الأرض بعـد الطوفان، لأن الله تبارك وتعالى جعل ذريته هم الباقين وهو أول رسول يحذّر قومه من الشرك بالله، إذ لم يكن قبل قومه شرك في الأرض، وإنما حدث الشرك في قومه الذين بعثه الله عز وجل إليهم، وإبراهيم هو خليل الرحمن. وقوله عز وجل: ﴿وآل إبـراهيم﴾ أي وإبراهيم وآلـه يعني من المرسلين والأنبياء، والمراد بعمـران في قولـه عز وجل: ﴿وآل عمران﴾ هو عمـران والد مريم، وبينـه وبين عمران والد مـوسى قريب من أَلْفَيْ سنـة، وقد نصّ الله تبارك وتعـالى على اسم والد مريم في قـوله عز وجل: ﴿ومـريم ابنت عمران التي أحصنت فـرجها﴾ ولا شك أن آل عمران والـد موسى وهارون قـد دخلوا في قولـه عز وجل: ﴿ وآل إبراهيم﴾ وإنما خصّ بالذكر هنا عمـران والد مريم وجد عيسى عليه السلام لأمّـه لأن المقـام لتحقيق البيـان عـن عيسى وأمـه وإبطـال دَعَـاوَى اليهـود والنصـارى فيـه عليه السـلام. ومعنى اصطفـائهم على العـالمين أي تفضيل هـؤلاء المصطَفَيْن الأخيار على جميع البشر، وليس لعمـران والد مـريم مِن آلٍ سوى مريم وابنها المسيح عليه السلام، وقد كان عمران هذا موصوفا بالتقوى في بني اسرائيل، ومحبـوبا لـدى كبرائهم كما كانت زوجتـه أم مريم كـذلك، وقولـه عز وجل: ﴿ذريّة بعضهـا من بعض﴾ أي إن هؤلاء المصطفين من آل إبـراهيم وآل عمـران جعلهم الله عـز وجل على منهج واحـد في تـوحيـد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر فكلّهم كانوا على دين الإسلام، وهم جميعا

على كلمة سواءٍ، يَحُسُّ من يعرف طريقتهم أنهم أبناءٌ صالحون لآباء صالحين، وقوله: ﴿ذرية﴾ نصب على الحال من الآلَيْن، وقوله: ﴿بعضها من بعض﴾ جملة في موضع نصب صفة لقوله: ﴿ذرية﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿ذريّة﴾ لفت انتباه الناس إلى أن عيسى عليه السلام من ذرية عمران والدِ مريم من جهة أمه ففيه تنديدٌ باليهود الذين فرّطوا فيه وبالنصارى الذين أفرطوا فيه، وثناءٌ على عيسى عليه السلام وعلى أمه، وقد صار من المعروف في الأساليب البلاغية أنك إذا رأيت شخصا يسلك منهج آبائه قلت: ذريةً بعضها من بعض. وقوله عز وجل: ﴿والله سميع عليم﴾ تقرير لاصطفائه من يشاء، وقوله عز وجل: ﴿إذ قالت امرأة عمران ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرَّرًا فتقبّل مني إنك أنت السميع العليم﴾ استئناف لبسط الثناء على آل عمران مع الثناء على زوجته وتقرير إخلاصها لله عز وجل، وإشعار أن عمران والد مريم قد مات وهي في بطن أمها إذ لو كان حيّا ما قررت زوجة عمران نذر ما في بطنها وتحريره لخدمة بيت الله. والنذر هو إيجاب شيء على النفس قربانا، ومعنى: ﴿محرّرا﴾ أي مفرّغا لعبادتك وخدمة بيتك المقدّس خالصا من شواغل الدنيا التي تشغل عن التفرغ والانقطاع عن المسجد، وكأنها تلزم نفسها بأن تتولى بنفسها أو وكيلها جميع ما يحتاجه هذا المحرّر من نفقات الحياة الدنيا وضرورياتها، وقد كان التحرير لخدمة بيت الله قاصرا على الذكور دون الإناث، وقوله عز وجل: ﴿فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي اقبل مني هذا النذر على رضًا منك لأنك لا يخفى عليك سرّي وعلانيتي، وتعلم أني لا أريد بذلك إلا وجهك الكريم، وقوله عز وجل: ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى﴾ أي فلما ولدتها قالت معتذرة متحزنة متوجعة على فوات مقصودها: رب إني ولدت النّسمة التي كانت في بطني أنثى، لعلمها أن الأنثى لا تصلح أن تحرّر لخدمة بيت المقدس، وقوله

عـز وجل : ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ قـرأ عبـد الله بن عـامر وأبـو بكـر عن عـاصم : ﴿وضعتُ﴾ بضم التاء وقـرأ البـاقون بسكـون التاء ، فعلى القـراءة الأولى يكون المقصـود أنها دفعت التوهـم أن يخطر على بـال أحد أنها تخبر الله عـز وجل بـذلك مع تـأكيـد القصـد من الإخبـار وأنـه للتفجع على فـوات مقصودها . وعلى القراءة الثانية يكون المقصود الإشعار بعظمة ما ولدت ، أي وإن كانت أنثى فإنها تفضل نسـاء العالمين كما أنها تفضل الكثير من الـذكور المؤمنين . وقولـه عز وجل : ﴿وليس الـذكر كـالأنثى﴾ أي والأنثى لا تصلح لخدمة بيت المقدس بخـلاف الذكر، فـإنه لا يضره الاختـلاط بالـرجال ولا ينتابـه حيض يمنعه من قربان المسجـد حينا من الدهر كما يضرهـا الاختلاط بالرجال . وقوله تعالى : ﴿وإني سميتها مريم﴾ أي وإني أطلقت على مولودتي اسم مريم ، و قـد استدل به كثير من العلماء على جواز التسميـة في نفس يوم الـولادة ، قـال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيـة : فيـه دليل على جـواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قَبْلَنا ، وقد حُكِيَ مقرّرًا وبذلك ثبتـت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال : «وُلِـدَ لي الليلة ولد سميته بـاسم أبي إبراهيم» . أخـرجاه ، وكذلك ثبت فيهما أن أنـس بن مالك ذهب بأخيـه حين ولدتـه أمّه إلى رسـول الله ﷺ فحنكه وسماه عبـد الله ، وفي صحيح البخاري أن رجـلا قال : يا رسـول الله ولد لي الليلة ولـد فما أسمّيه؟ قال : «سمّ ابنك عبد الرحمن» وثبت في الصحيح أيضـا أنه لما جاءه أبو أُسَيْد بابنه ليحنكه فذُهِلَ عنه فأمر به أبوه فرُدّ إلى منزلهم ، فلما ذَكَرَ رسول الله ﷺ في المجلس سماه المنـذر. فأمـا حديث قتـادة عن الحسن البصري عن سَمُـرة بن جنـدب أن رسول الله ﷺ قـال : «كل غـلام مرتهن بعقيقتـه يـذبح عنه يـوم السـابع ويسَمّى ويحلق رأســه» . فقـد رواه أحمد وأهل السنن وصححـه الترمذي ، وروي «ويُدْمَى» وهو أثبت وأحفظ والله أعلم اهـ وقوله «ويُدْمَى»

أي بدل ويسمّى. وقوله عز وجلّ: ﴿وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي وإني أحصّنها بك وأحصّن ذريتها بك من عدوّنا الشيطان المطرود من رحمة الله، ولم يكن لمريم ذرية قط إلا عيسى عليه السلام، وقد استجاب الله تبارك وتعالى لأم مريم فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فَيَسْتَهِلّ صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم يمسّه الشيطان يوم ولدته أمّه إلا مريم وابنها». هذا، ولا شك أن عمران والد مريم غيرُ عمران والد موسى وهارون وقد حاول بعض أعداء الإسلام في عصرنا أن يلبّسوا على بعض الأغرار بأن القرآن ذكر أن مريم هي بنت عمران والد موسى وهارون ولذلك قال: ﴿يا أخت هارون﴾ مع أن بين مريم وموسى قرونا متطاولة، وجهل هؤلاء أو تجاهلوا أن هارون المذكور مع مريم غيرُ هارون أخي موسى، وأنّ عمران والد مريم غير عمران والد موسى وهارون، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرءون: ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فَرُحْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسَمُّون بالأنبياء والصالحين قبلهم» اهـ وقد نسب إلى محمد بن كعب القرظي الإسرائيلي أنه زعم أن مريم أمّ المسيح هي أخت

موسى وهارون، وهذا من أفحش الخطأ الذي نسب إلى محمد بن كعب القرظي، والمعصوم من عصمه الله.

قال تعـالى : ﴿فتقبّلها رَبُّها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نبـاتًا حسنًا وكفّلها زكـريّا كلّما دخل عليها زكـريّا المحراب وجد عندهـا رزقا قال يا مـريم أنّى لكِ هٰذا قالت هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشـاء بغير حساب* هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لى من لدنك ذرّية طيّبة إنّك سميع الدّعاء* فنادته الملائكة وهـو قـائم يصلّي في المحـراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصـدّقـا بكلمـة من الله وسيّدًا وحصورًا ونبيّـا من الصّالحين* قال ربّ أنّى يكون لى غـلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقرٌ قال كذٰلك الله يفعـل ما يشاء* قال ربّ اجعل لى آية قال آيتك ألاّ تكلّم النـاس ثلاثـة أيّام إلا رمـزًا ، واذكر ربّك كثيرًا وسبّح بـالعشيّ والإبكار﴾

يبيّن الله تبارك وتعالى في هذا المقام الكريم أنه استجاب دعوة امرأة عمران فرضي عن مريم وأحبّهـا وجعلها سيّدة نساء العالمين ، ونشّأهـا تنشئة حسنة وعصمها من الشيطان وربّـاها على عينه تربية كريمـة حيث يقول عز وجل : ﴿فتقبّلهـا ربّها بقَبُول حسن وأنبتهـا نباتـا حسنـا﴾ ولا يلزم من تقبّل الله عـز وجل مريم بقبـول حسن أن تخدم في بيت المقدس لأن الله عـز وجل قد يقبل من الإنسان صدق نيته ويكافئه مكافأة عليها كما وقع في قصة إبراهيم لما أمره الله عز وجـل في منامه أن يـذبح ولـده إسماعيل عليه السـلام فلما أسلما وتلّه للجبين ناداه الله عـز وجل : يا إبراهيم قـد صدّقت الـرؤيا إنا كـذلك نجزي المحسنين ، وصار يطلق على إسماعيل اسم الـذبيح وإن لم يُذبح لاستسـلامه للذبح وانقيـاده لأمر الله عز وجل ، وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿وكفّلها زكـريا﴾ بتشـديد الفـاء أي جعل الله عز وجل زكـريـا كافـلاً لها لِيُتْمِها ، وهي قـراءة عـاصم وحمزة والكسائي ، وقـرأ الباقـون بتخفيف الفاء ، أي وضمّهـا زكريـا وتولّى الإنفـاق عليها واهتـم بتربيتها والقيـام بمصالحهـا ، وقد أشـار الله عز

وجل إلى أن كفالة زكريا لها تمت بالاقتراع بين شيوخ بني إسرائيل أيّهم يكفل مريم لتخاصمهم في ذلك لشدة حرصهم عليها بسبب ما ألقاه الله عز وجل في قلوبهم من حبها وتكريمها حيث يقول عز وجل: ﴿وما كنتَ لَدَيْهِم إذ يُلْقُون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ وقد يسّر الله تبارك وتعالى لزكريا أن تقع القرعة له في كفالة مريم، لتكون في كفالة نبي كريم ورسول عظيم تقتبس منه العلم النافع والعمل الصالح والسلوك السَّوِيَّ، ولأن زكريا عليه السلام كان زوج أختها أو خالتها، وقد وصف رسول الله ﷺ يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم بأنهما ابنا خالة فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صَعْصَعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «ثم صَعِد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد: قيل أَوَ قَدْ أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلَصْتُ، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما». الحديث وقد قضى رسول الله ﷺ للخالة بالحضانة في قصة بنت حمزة بن عبد المطلب لما اختصم فيها علي وزيد وجعفر عندما تَبِعَتْ رسولَ الله ﷺ بعد توقيعه صلح الحديبية وهي تنادي: يا عمّ ياعمّ، فقد روى البخاري من حديث البراء رضي الله عنه في باب عمرة القضاء في سياق كتابة صلح الحديبية قال: فخرج النبيّ ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عَمّ يا عَمّ، فتناولها عليّ فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونَكِ ابنة عمك، حملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر فقال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: هي ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: بنت أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». الحديث. وقوله عز وجل: ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب

وجد عندها رزقا قال يا مريم أنّى لك هٰذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي وقد أنزلها زكريا عليه السلام في أكرم غرفة من قصره وقد لاحظ زكريا أنه كلما دخل عليها القصر وجد عندها ألوانا من الرزق لم يجلبها لها، ولا علم له بمصدرها، فاستغرب ذلك وخاطبها قائلا : يا مريم أنّى لك هذا؟ من أين جاءك هذا الرزق؟ قالت : هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. والمحراب في اللغة القصر. ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿يعملون له ما يشاء من مَحَاريب وتَمَاثيل وجِفَانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ رَاسِيات﴾ وقوله عز وجل: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾ وقد قال أبو عبيدة: المحراب أشرف بيوت الدار، ومنه قول وَضّاح اليمن ونسبه الفخر الرازي إلى عمر بن أبي ربيعة :

ربّة محراب إذا جئتها ... لم أدنُ حتى أرتقي سُلّما

واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى: ﴿إذ تسوّروا المحراب﴾ على أنّ التّسوّر لا يكون إلا من علو. أمّا ما يعرفه الناس في عصرنا والعصور السابقة من التجاويف في جدران المساجد على سمت القبلة ليتبين الناس منها جهة القبلة فإنه غير مراد في الآية بلا شك وإن أطلق الناس عليها اسم المحراب، وقد يكتبون فوقها هذه الآية الكريمة ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا﴾ وهذه التجاويف المذكورة محدثة بعد الصدر الأول في مساجد المسلمين للدلالة على القبلة، وتسميتها بالمحاريب ليست بالوضع اللغوي الحقيقي، ولم يَرِدْ عن رسول الله ﷺ خبر ثابت يحدّد نوع الرزق الذي كان زكريا يجده عند مريم في المحراب، والمهمّ هو أنه كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا جديدا لا علم له بمصدره وليس له من سبب ظاهر، وقد كان زكريا عليه السلام قد بلغ من الكبر عِتِيًّا وقطع من الشيخوخة شوطا كبيرا، قد وهن العظم منه واشتعل رأسه شيبًا، وهو

مظهـر من مظاهـر تحوّل الإنسان من القـوة إلى الضعف كما قال عـز وجل : ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشَيْبَة﴾ وعلى حد قول ابن دُرَيْد في مقصورته :

أمـا تَـرىٰ رأسـيَ حاكَـى لونُه طُرَّةَ صُبْـح تحـت أذيـال الدُّجـا
واشتعل المبْيَـضّ في مُسْـودّه مثل اشتعال النار في جمر الغَضَـا

ومع أن زكـريا عليه السـلام قد صـار إلى هذا الحال من الكِبَر فـإن زوجته كانت عاقرا في شبابها، فلم تحمل أيام شبابها، وقد صارت عجوزا تجمع بين السّببين المنافيين للحمل عـادةً، والظاهر من سياق القـرآن العظيم يشعر أن زكريا عليـه السلام كان مشتغل القلب بذكر صـلاح بني إسرائيل، وأنه كان يـرى تعنّتهـم كشأنهم مع الأنبيـاء والمرسلين، وأنــه كـان يخشـى أن يشتـد انحرافهم عن الصراط المستقيم بعد مـوته، وقد وهن عظمه، ولم يـر في قومه من هو أهل لحمل الرسالة بعـده، وكانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياء كلما هلك نبيّ بعث الله نبيـا آخر، ونظـرا إلى أن زوجته كـانت عاقـرا، فمِن غير المعتاد أن تلـد امرأة مثلها فاهتم بـذلك اهتماما شديـدا، فلما دخل المحراب على مريم ووجد عندها هذا الرزق الـذي لا يعلم له مصدرا، ولا سببا ظاهرا وسألها : أنّى لك هذا؟ قـالت : هو من عنـد الله، سُرْعَان ما تـداعت معاني هذه الحقيقـة في نفسه مع ما يتمناه من أن يمـنّ الله عليه بولد صـالح يَسُوس بني إسرائيل، وإن كـانت أسبـاب ولادة ولـد له مـن زوجته الصـالحة هـذه مفقودة لأنها كانت عـاقرا من أيام شبابها فكيف وقـد صارت عجوزا تجاوزت سنّ اليأس؟ غير أن الرزق الذي منحه الله لمريم حرّك في نفسه الأمل أن يرزقه الله ولدا مع انقطاع الأسباب، فدعا ربه بصوت خافت، وقام يصلي في قصره وقـال في دعائه : ﴿رب هب لي من لـدنك ذرية طيبـة إنك سميع الدعـاء﴾ وقال : رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، وقد عوّدتني أن تجيب دعائي ولم أكن بـدعائك رب شقيـا، وإني خفت وأشفقت على بني إسرائيل

أن يفسدهم من يتولى أمرهم من بعدي، وكانت امرأتي في شبابها عاقرًا، وأنت على كل شيء قدير فهب لي من عندك وامنحني ولدا يرث النبوة والحكم من بعدي كما يرث ذلك من آل يعقوب واجعله ربِّ رَضِيًّا، إنك سميع الدعاء، فاستجاب الله دعاءه وخاطبته الملائكة قائلين له: يا زكريا إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى لم يجعل الله له من قبل سَمِيًّا يكون مُصَدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحَصُورا ونبيا من الصالحين، فقال زكريا: كيف يجيئني الولد وأنا وزوجتي بهذا الحال من الكِبَر؟ فنُودِيَ: كذلك الله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وقد خلقك الله من قبل ولم تك شيئا، قد جئتَ إلى بطن أمك نطفة لا أثر لصورة الإنسان فيها، فسأل الله عز وجل أن يجعل له علامة يعرف بها أن الولد قريب الحصول، قال: آيتك أن تَعْجَزَ عن النطق لمدة ثلاثة أيام وأنت صحيح سَوِيّ، فخرج في الحال على قومه من القصر ليبشرهم بما تفضل الله به عليه ويأمرهم بتسبيح الله وتمجيده والإكثار من ذكره صباحا ومساء، فعجز عن النطق وصار يرمز إليهم ويشير بما يريده من أمرهم بالتسبيح والتحميد والتمجيد لله عز وجل. وإلى ذلك كله يشير الله عز وجل هنا في هذا المقام بقوله: ﴿هُنَالِكَ دعا زكريا ربّه قال ربِّ هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء* فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصَدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحَصُورًا ونبيا من الصالحين* قال ربِّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكِبَرُ وامرأتي عاقر قال كذٰلِكَ الله يفعل ما يشاء* قال ربِّ اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيّام إلا رَمْزًا واذكر ربك كثيرا وسبّح بالعشي والإبكار﴾ وقوله: ﴿هنالك﴾ أي عندما أخبرته مريم أن الرزق الذي عندها لم تجلبه يد البشر، وقوله: ﴿من لدنك﴾ أي من عندك، وقوله: ﴿ذرّية طيبة﴾ أي ولدا صالحا، وقوله: ﴿يبشّرك بيحيى﴾ أي يخبرك خبرا يسرّك بأنك ستنجب ولدا

اسمه يحيى. وقوله: ﴿مصدقا بكلمة من الله﴾ أي مُقِرًّا برسول يُبْعَثُ يكون إيجاده بكلمة من الله، وهو في باب المعجزة أشدّ من يحيى لأن يحيى جاء من أبوين وإن كانا طاعنين في السن بخلاف الرسول الكلمة فإنه بلا أب أصلا وإنما كان بكلمة الله الذي قال له: كن، فكان، وكانت هذه البشارة بعيسى كذلك في هذا الوقت المبكر من حياة مريم، وقوله تعالى: ﴿وسيدًا﴾ أي شريفا كريما عالما فقيها متبوعا حليما، وقوله تعالى: ﴿وحَصُورا﴾ الحَصُور يطلق على معان كثيرة منها أنه الذي يصون نفسه عن الخطايا والدنس، ومنها أنه الذي لا يقدر على قربان النساء، ومنها أنه الضيّق الصدر، والذي يليق بيحيى عليه السلام هو المعنى الأول أي أنه الذي يصون نفسه عن الخطايا والدنس، أما ما ذكر عن يحيى عليه السلام بأنه كان لا قدرة له على قربان النساء أخذًا من قوله تعالى: ﴿وحصورا﴾ فهو قول لا دليل عليه ولم يثبت عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح، وهو نقص في الرجولة ينزه الله عز وجل أنبياءه عنه، مع أن الحصور يطلق على معان كما مرّ، وقد ذكر القاضي عياض في (الشفاء) يرد مقالة من ادعى على يحيى عليه السلام أنه كان لا قدرة له على المباشرة فقال: بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقّاد العلماء وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام اهـ وقوله تعالى: ﴿ونبيا من الصالحين﴾ بشارة أخرى عظمى لزكريا عليه السلام، وليس قول زكريا عليه السلام: ﴿ربِّ أنى يكون لي غلام﴾ الآيتين، شكًّا في قدرة الله، وإنما هو استفهام عن الطريق الذي سيجيء بواسطته الولد، هل هو من طريق زوجته العاقر أو من غيرها؟ والرمز: الإشارة، وقد ساق الله تبارك وتعالى قصة زكريا ويحيى بزيادة تفصيل في سورة مريم حيث يقول: ﴿كٓهيعٓصٓ* ذِكْرُ رحمت ربك عبده زكريا* إذ نادى ربه نداء خَفِيًّا* قال رب إني وهَن العَظْم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا*

وإني خِفْتُ الموالي من ورائي وكـانت امرأتي عـاقـرًا فهب لي من لدنك وَليًّـا* يرثني ويَـرِثُ مِن آل يعقوب واجعلـه ربّ رَضِيًّا* يا زكـريا إنـا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل لـه مِن قبلُ سَمِيّا* قـال رب أنّى يكون لي غـلام وكانت امرأتي عـاقرا وقد بلغت من الكبر عتيـا* قال كذٰلِكَ قـال ربكَ هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا* قـال ربي اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثـلاث ليال سَـوِيّا* فخـرج على قومه من المحـراب فأوحى إليهم أنْ سَبِّحُوا بُكْرة وعَشِيّا﴾ وقال عز وجل في سـورة الأنبياء : ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين* فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجـه إنهم كانـوا يسارعـون في الخيرات ويدعـوننا رَغَبًـا ورَهَبًا وكـانوا لنـا خاشعين﴾

قـال تعـالى : ﴿وإذ قـالت الملائكـة يـا مـريمُ إنّ الله اصطفـاك وطهّـرك واصطفاك على نسـاءِ العالمين* يـا مريمُ اقنتى لربّـك واسجدى واركعى مع الـرّاكعين* ذٰلك من أنباء الغيـب نوحيـه إليك ، ومـا كنت لديهم إذ يلقـون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض مناقب آل عمران وأثنى على زوجته أم مـريم بالثنـاء الحسن الجميل في صـدق إيمانها بالله ، وشـدة حرصهـا على مرضاتـه عز وجل ، وإخلاصها العبادة لله وحـده ، كما أثنى على ابنتها مريم التي عرفت فضل الله عليها وهي صغيرة السنّ ، وذكـر فضله عز وجل عليها بتيسير كفالة عبده الصالح النبي الكريم والـرسول العظيم زكريا عليه السلام لها وتنشئتهـا في هذا البيت النبـوي ، ومـا تفضل الله عـز وجل عليها بـه من الرزق الذي جعلـه الله عز وجل مع قول مريم : هـذا من عند الله حيث كان سببا لـدعوة زكريـا عليه السلام ربه أن يـرزقه ذرية طيبـة ، وأن الله عز وجل استجاب له ووهب لـه يحيى مصدقا بكلمة من الله وسيـدا وحصورًا ونبيا من الصالحين ، جرّد الكلام في هذا المقام لبيان اصطفاء مريم وطهارتها وتفضيلها على نساء العالمين حيث يقول عز وجل : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّـرك واصطفاك على نسـاء العالمين﴾ وقـوله عـز وجل : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم﴾ إلى آخـر الآيتين هو من باب عطف قصة على قصة ، حيث عطف قصـة البنت الصـالحة على قصة أمهـا الصـالحة ، وجرى ذكـر زكريا وزوجته وولده يحيى لـلإشعار بعمق أهل هذا البيت في الطهارة وصدق العبادة لله عز وجل وإخلاص التـوحيد له ، للتنديد باليهـود الذين قالوا على مريم بهتـانا عظيماً ، وبـالنصارى الـذين جعلوهـا وابنها إلٰهين من دون الله ، وجعلـوها والـدة لإلٰهٍ ، تعـالى الله عما يقولـون علوا كبيرا ، وقـوله عـز وجل :

﴿قالت الملائكة يا مريم﴾ صريح في أنّ الملائكة خاطبوا مريم عليها السلام، ولا يلزم من مخاطبة الملائكة لمريم أن تكون نبية، لأن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا من الرجال كما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر﴾ الآية وكما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى﴾ وقد يبعث الله عز وجل المَلَك لمخاطبة غير نبي، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكًا، فأتى الأبرصَ فقال: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: لونٌ حسَن وجِلْد حسَنٌ، ويذهب عني الذي قد قَذِرَني الناس، فمسحه فذهب عنه قَذَرُه، وأُعْطِيَ لونا حسنًا. قال: فأيّ المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل، أو قال: البقر ــ شكّ الراوي ــ فأُعْطِيَ ناقةً عُشَرَاء، فقال: بارك الله لك فيها، فأتى الأقرعَ، فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عنّي الذي قَذِرَني الناس، فمسحه، فذهب عنه وأُعْطِيَ شعرا حسنًا، قال: فأي المال أحبّ إليك قال البقر، فأُعْطِيَ بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قال: أن يرُدّ الله إليّ بصري فأُبْصِرَ الناس، فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحبّ إليك؟ قال: الغنم، فأُعْطِيَ شاةً والدا، فأنتج هذان، وولّد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، ثم إنّه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بَعِيرًا أتبلّغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرةٌ، فقال: كأنّي أعرفك، ألم تكن أبرص يَقْذَرُك الناس، فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: إنما وَرِثْتُ هذا المال كابرًا عن

كابرٍ، فقال: إن كنت كاذبـا فصيّرك الله إلى ما كنتَ، وأتى الأقرعَ في صورته وهيئته فقال لـه مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل مـا ردّ هذا، فقال: إن كنت كاذبـا فصيّرك الله إلى ما كنتَ، وأتى الأعمى في صـورته وهيئتـه فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفـري فلا بلاغ لي اليـوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالـذي ردّ عليك بصرك، شاةً أتبلّغ بها في سفـري، فقال: قد كنتُ أعمى فـردَّ الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع مـا شئت، فوالله لا أَجْهَدُكَ اليوم بشيء أخذتَه لله عز وجل، فقال: أَمْسِكْ مالَك، فإنّما ابْتُلِيتُم، فقـد رضي الله عنك وسَخِط على صـاحبيك» فهـذا الحديث الصحيح المتفق عليـه يثبت أن الله عز وجل قـد يبعث ملكًـا لأحد من عبـاده ليس بنبيّ ولا رسولٍ، كما روى مسلم في صحيحه من حديـث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلا زار أخًـا له في قـرية أخرى فأرصـد الله تعالى على مَـدْرَجَته ملَكًا، فلما أتى عليـه قال: أين تريد ؟ قـال : أريد أخًا لي في هذه القـرية، قـال: هل لك عليـه من نعمة تَـرُبُّها عليـه؟ قال: لا، غير أني أحببتـه في الله تعـالى، قال: فإني رسـول الله إليك بأن الله قد أحبّك كما أحببتَـه فيه. فهـذا الحديث الصحيح أيضـا يثبت أن الله تعالى قـد يرسل ملَكًا إلى بعـض الناس ويخاطبهم وليسـوا بأنبياء. وقـد بشرت الملائكةُ مـريمَ هنا بثـلاث بِشارات، البِشارة الأولى: أن الله اصطفاهـا، أي اجتباها واختارهـا حيث جعلها ذريةً طيبـة لأبـوين طيّبين وتقبّلهـا بقبـول حسن وأنبتهـا نباتـا حسنـا، وخصّهـا بكرامـات عظيمة وإخـلاص التوحيـد لله وشكر نعم الله عـز وجل في صغر سنها، والبِشـارة الثانية: أن الله عـز وجل طهّرهـا ونقاها من أدنـاس اليهود وأرجاسهم وطيّبهـا وعصمها من كل سـوء، وحيث جعلها الصديقـة الطيبة الطـاهرة العـذراء البتول المنقطعـة إلى الله عز وجل وحـده لا شريك له، أمـا البِشارة الثالثة: فهي أن الله عز وجل اصطفـاها وفضلها على نساء العالمين،

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فضل عائشة على النساء كفضل الثَّرِيد على سائر الطعام، كَمَلَ من الرجال كثير، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسِيَة امرأة فرعون». كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل، وأرعاه على زوج في ذات يده» يقول أبو هريرة على إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت عمران بعيرا قط. وهذا يشعر أنه لا معارضة بين هذه الأحاديث الصحيحة الثابتة وبين ما يقتضي تفضيل مريم على عموم نساء العالمين، فحديث أبي هريرة يفيد تفضيل نساء قريش على من ركب الإبل من النساء ومريم لم تركب الإبل قط فلا تكون نساء قريش أفضل منها، وحديث عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه يشعر بتفضيل مريم على خديجة رضي الله عنها بقرينة تقديم مريم عليها في الذكر، وإن كانت الواو العاطفة لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا كما هو مقرر في علم أصول الفقه، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يَحْصُر كاملات النساء في مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، ويشعر بتقديم مريم على آسية رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي وبعد أن بشّرت الملائكة مريم بالبِشارات الثلاث السابقة قالت الملائكة لمريم: اثبُتِي على ما أنت عليه من طاعة الله وإخلاص العبادة له وأديمي ذلك واسكني لله عز وجل واخشعي واخضعي له وكوني من القانتين الركّع السّجود، لتستمري على أعلى درجات السلوك الإنساني في الطهارة والعفاف

ودوام الحب لله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ما قصصته عليك من الأخبار العظيمة عن قصة هذا البيت السعيد بيت عمران والد مريم وما كان من زوجته عندما حملت بمريم وما كان من نذرها، وماذا قالت عند ولادتها، وماذا كافأها الله عز وجل به، وماكان من تنشئة مريم في كفالة زكريا، وقصة الرزق الذي ساقه الله عز وجل لمريم في قصر زكريا، وما ترتب على هذا الرزق؟ ودعاء زكريا ربّه أن يهب له ذرية طيبة، واستجابة الله تعالى له وتفضله عليه بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين، وآية زكريا، وأصل النبأ في اللغة هو الخبر العظيم، وهذه الأخبار التي قصها الله عز وجل وألقاها إلى رسوله وأنزلها إليه في القرآن العظيم من خفيّ أخبار بني إسرائيل التي لم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه يعلمونها، فهي برهان ساطع على أن محمدًا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا. وقوله عز وجل: ﴿وما كنتَ لديهم إذ يُلْقُون أقلامهم أيُّهم يَكْفُل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصمون﴾ تقرير وتأكيد على أن هذه الأخبار مما أوحاه الله وألقاه وأنزله على نبيه محمد ﷺ على أبلغ وجه حيث يقص هذا القصص على نبيه الأمي كأنه كان مشاهدًا لكل هذه التفصيلات الدقيقة حيث يقول: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ أي وما كنت ثاويا مقيما مشاهدا لرؤساء بني إسرائيل وهم يقترعون على من يكون الكفيل لمريم بسبب موت أبيها وحبّهم له ولها، ويلقون سِهَامهم وقِدَاحَهم للاقتراع على ذلك بسبب حرص كل واحد منهم على أن يكون هو الكفيل لها، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وذلك من الله عز وجل وإن كان خطابا لنبيه ﷺ فتوبيخ منه عز وجل للمكذبين به من أهل الكتابين، يقول: كيف يشكّ أهل الكفر بك منهم وأنت تُنبِئُهم هذه الأنباء ولم تشهدها، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور،

ولستَ ممن قرأ الكتب فعَلِم نبأهم، ولا جالَسَ أهلها فسمع خبرهم؟ اهـ

وكما قال عز وجل: ﴿وما كنتَ تتلواْ من قبله من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لارتاب المبطِلُون * بل هو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العلم، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾.

قال تعـالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يـا مريم إن الله يبشّرك بكلمة منـه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقرّبين* ويكلّم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ .

بعد أن بسط الله تبـارك وتعالى قصة ولادة مريم وتنشئتهـا ومخاطبة الملائكة لها بالبشارات الثلاث المتقدمة ، وأمرها بإدامة الاستقامة والطاعة والخشوع لله عز وجل ، وما لفت به انتباه الناس عامة وأهل الكتابين خاصة إلى ما في هذه الأنباء من الآيات الشاهدات على أن محمـدا هو رسول الله ﷺ حقّا وصدقا ، شرع في بسط قصـة ولادة المسيـح عليـه السـلام ، حيث قـال : ﴿إذ قـالت الملائكـة يا مـريم إنّ الله يبشّركِ بكلمة منـه اسمه المسيح عيسى ابن مـريم وجيها في الـدنيا والآخـرة ومن المقرّبين* ويكلّـم الناس في المهد وكهـلاً ومن الصالحين﴾ وهذه هي طـلائع البشائر للصديقة البتول مريم بـولدها المسيح عليه السلام ، وظاهر السِّياق الكريم يشعر أن جمعا من الملائكة حضروا هذه البشائر و إن كان الذي تولى مخاطبة مريم وتمثّل لها بشرًا سويا هو جبريل عليه السلام حيث وصف الله عز وجل المكان الذي جاءتها البشارة بعيسى فيه وما تمّ في ذلك حيث يقول في سورة مريم : ﴿ واذكـر في الكتاب مريم إِذِ انتبَذَتْ من أهلها مكانا شرقيا* فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها رُوحنا فتَمَثَّل لها بشرا سويّا* قالت إني أعوذ بالرحمن منكَ إن كنتَ تقيا* قال إنما أنا رسول رَبّك لأهب لك غلامـا زكيّا* قالت أنّى يكـون لي غلام ولم يَمْسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيّا* قـال كذٰلِكِ قال ربكِ هـو عليّ هيّن ولنجعله آية للنـاس ورحمة منا وكـان أمرا مقضيّـا﴾ ولا مـانع من نسبة الكـلام إلى هـذا الـوفد الكـريم من الملائكة و إن كان المتحدث هو رئيس هـذا الوفد المبارك روح القُدُس جبريل

عليه السلام، ولـه نظائر كثيرة في كتاب الله وفي الأساليب العـربية الفصيحة البليغة، وأعـراف الناس وعـاداتهم في مختلف أعصارهم وأمصـارهم، والمراد بالكلمة في قـوله تعالى: ﴿إنَّ الله يبشِّرك بكلمة منه﴾ أي بـولد عظيم له شأن كبير وسُمِّيَ الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له: كن، فكان، وصـار يطلق على عيسى عليه السـلام كلمـة الله على سبيل التغليب، أعني صار علما بـالغَلَبة، وإن كـان لا يتم شيء إلا إذا قال الله لـه: كن، فيكون.
وقـوله عـز وجل: ﴿ اسمـه المسيح عيسى ابن مـريم﴾تعريف لمريم عليهـا السلام باسم ولدها الذي بُشِّرَتْ به، وفي نسبتـه إليها للتنبيه على أنه يولد من غير أب، إذ المعروف أن الإنسان ينسـب إلى أبيه، وفي هذا تنديـد بالنصارى الـذين اتخذوا المسيح ولـدا لله، تعـالى الله عما يقولـون علـوا كبيرا، كما أن في نسبته إلى مريم تمييزاً لمسيح الهدى عن مسيح الضلالة الدجال، ولفظ المسيح قيل هو عبرانيٌ ومعناه: المبارك، وقيل إنما سمي مسيحا لأنه يمسح ذا العاهة فيبرأ بإذن الله، وقيل: لأنـه كـان مسيح القـدمين أي لا أَخْمَصَ لهما، وقيل: لأن الله مسحه بـالبركة أي خلقه خلقا مبـاركا حسنًا، وقيل: هـو مأخوذ من السياحة وهي الذهاب في الأرض والتنقل فيهـا للدعوة، قال الفيروزآبادي في القامـوس المحيط في مادة (سـاح): والسّياحـة بالكسر والسُّيـوح والسَّيَحَان والسَّيْح: الـذّهاب في الأرض للعبـادة ومنه المسيح ابن مـريم وقد ذكـرت في اشتقـاقه خمسين قـولا في شرحي لصحيح البخـاري وغيره اهــ وقال في مـادة (مسح): والمسيح عيسى ﷺ لبركتـه، وذكـرت في اشتقـاقـه خمسين قـولا في شرحي لمشارق الأنـوار وغيره اهـ وقال ابن منظور في لسان العـرب: قال ابن سِيـدَه: والمسيح عيسى ابن مـريم صلى الله على نبينـا وعليهما، قيل: سُمّي بذلك لصـدقه، وقيل: سُمّي بـه لأنه كان سـائحًا في الأرض لا يستقـر اهـ وقيل: سُمّي المسيح مسيحا لأنـه خرج من بطن أمـه ممسوحا بـالدهن، كما

سُمّي الدجال مسيحا لأنـه كان ممسوح العين، وسيقتل مسيحُ الهُدَى عيسى ابن مريم مسيحَ الضلالة الدجـالَ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ عندما ينزل في آخر الـزمان. أمـا عيسى عليه السـلام فقيل: هو مشتق من العيـس وهو بياض تعلـوه حمرة، وتُسمّى الإبل البيض التي يخالطُ بيـاضَها شُقْـرةٌ عيسًا، وقيل: هو اسم غير مشتق وهو اسم عبرانيّ أو سريانيٌّ، وقـد حرّفة المحرفون وقلبوه وقالوا: يسوع. وقد اشتملت طلائع البشائر على سبع بشارات في قوله عـز وجل: ﴿يبشّركِ بكلمـة منه اسمـه المسيح عيسى ابن مـريم وجيهـا في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ ويكلّـم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين﴾ فالبشـارة الأولى بالـولد والثـانية بتسميتـه، والثالثـة بكونـه وجيها في الـدنيا والآخرة، والرابعة بكونه من المقربين، والخامسة بكونه يكلّم الناس في المهد، والسادسة بكـونه يعيش إلى سن الكهولة وفيـه إشارة إلى أنه لا يعيش إلى سنّ الشيخوخة، وقد كان كما ذكر الله عـز وجل، والسابعة بكونه من الصالحين. ومعنى كونه: ﴿وجيها في الدنيا والآخـرة﴾ أي ذا شرف ووجاهة ومنزلة عالية في الدنيا بما يُنزله الله عليه من الوحي والشريعة وما يؤتيه من المعجزات، وفي الآخرة حيث يشفع عند الله فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه فيقبل الله منه أسوة بإخـوانه من أولي العـزم من المرسلين عليهم الصلاة والسـلام، يقال للـرجل الذي يعظّمه الملوك والناس: وجيـه، وَوَجُهَ فلان إذا عُظِّم، ومنه قول بعض الصحابة رضي الله عنهم: كان الرجل من أصحاب محمد ﷺ إذا حفظ البقرة وآل عمران وَجُهَ في أصحاب رسول الله ﷺ. و﴿وجيهًا﴾ منصوب على الحال والتقديـر: إن الله يبشركِ بهذا الولـد وجيها في الدنيـا والآخرة، والمقصـود أنه حال من «كلمة» فإنها وإن كانت نكرة لكنها صالحة لأن ينتصب بها الحال، وتذكير الحال باعتبار معنى «كلمـة» إذ المراد بها الولد كما أشرتُ، وقد وصف الله تبارك وتعالى في كتابـه الكريم رسوله موسى ﷺ كذلك بـأنه كان عند الله

وجيها، حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ ومعنى كونه من المقربين أي من أهل المنزلة العالية في الفردوس الأعلى مع إخوانه أولي العزم من المرسلين، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويكلّم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي ويخاطب بني إسرائيل لتعريفهم بنفسه، وللبرهان على طهارة أمه وهو حديث عهد بالولادة، والمهد: مَضْجَعُ الصبيّ في رضاعه وما يُمْهَد للرضيع ويوطّأ له لينام فيه من الفراش، وجملة: ﴿ويكلم الناس﴾ في موضع نصب على الحال المعطوفة على قوله عز وجل: ﴿وجيها﴾ كأنه قيل: وجيها ومكلّما الناس في المهد، وقد ساق الله تبارك وتعالى كلامه الذي تكلم به في المهد في سورة مريم حيث يقول: ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا: يا مريم لقد جئت شيئا فريًّا* يا أخت هارون ما كان أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وما كانت أمّك بغيّا* فأشارت إليه قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبيّا* قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا* وجعلني مباركًا أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا* وبرّا بوالدتي ولم يجعلني جبّارًا شقيًّا* والسلام عليّ يوم وُلِدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيّا﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ أنه لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جُرَيْج، وكان جريج رجلا عابدا، فاتخذ صَوْمَعةً، فكان فيها، فأتته أمّه وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفَتْ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا ربّ، أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفَتْ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي ربّ، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تُمِتْهُ حتى ينظر إلى وجوه المومِسَات، فتذاكر بنو إسرائيل

جُرَيْجًا وعبادتهُ، وكانت امرأة بَغيٌّ يُتَمَثّل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننّه لكم، قال: فتعرّضَتْ له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعِيًا كان يأوي إلى صومعته، فأمْكَنَتْه من نفسها، فوقع عليها، فحَمَلَتْ، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زَنَيْتَ بهذه البَغِيّ، فولدت منك، فقال: أين الصّبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتّى أصلّي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبيَّ فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلانٌ الرّاعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبّلونه ويتمسّحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينا صبيٌّ يرضع من أمه فمرّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمّه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثّدي وأقبل إليه، فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثَدْيِه فجعل يرتضع» قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يَمُصُّها، قال: «ومرّوا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرّضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حَلْقَى، مرّ رجلٌ حسن الهيئة فقلتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأَمة وهم يضربونها ويقولون: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فقلتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جبّارا، فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإنّ هذه يقولون لها: زَنَيْتِ، ولم تزْنِ، وسرقْتِ، ولم تسرقْ، فقلت: اللهم اجعلني مثلها». وقوله: ﴿وكهلا﴾ هو منصوب على الحال من فاعل يكلم كأنه قيل: يكلم الناس حالة كونه في المهد وحالة كونه كهلا. والكهل هو ما كَمُل

شبابه واجتمعت قوته قبل سنّ الشيخوخة، مأخوذ من قول العرب: اكتهل النبات، إذا قوي وانتهى منتهاه، ومنه قول الأعشى:

يُضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شَرِقٌ مُؤَزَّرٌ بعميم النبت مُكْتَهِل

والغالب أن يصير الرجل كهلا فيما بين الثلاثين والأربعين، وقد تمتد قوته إلى الخمسين. وفي قوله عز وجل: ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى إلَهًا، لأن الإلَه منزه عن هذه الأحوال التي تدل على الفناء والزوال، وقوله عز وجل: ﴿ومن الصالحين﴾ إشعار ببلوغه أكمل الدرجات العالية، قال الفخر الرازي: فإن قيل: كون عيسى كلمة من الله تعالى، وكونه وجيها في الدنيا والآخرة، وكونه من المقربين عند الله تعالى، وكونه مكلما للناس في المهد وفي الكهولة، كلّ واحد من هذه الصفات أعظم من كونه صالحا، فلم ختم الله أوصاف عيسى بقوله: ﴿ومن الصالحين﴾؟ قلنا: إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحا، لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظبا على النهج الأصلح والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين، في أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات اهـ.

قال تعـالى : ﴿قالت ربّ أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قـال كذٰلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضـى أمرا فإنما يقول له كن فيكـون* ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل* ورسولا إلى بنى إسرائيـل أنّى قد جئتكم بآية من ربّكم أنّى أخلق لكم من الطّين كهيئـة الطّير فأنفخ فيه فيكـون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم ، إنّ فى ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾

لما سمعتْ مريم عليها السلام من روح القدس جبريل ﷺ البشارة بكلمة الله المسيح العظيم الشأن قالت متعجّبة غير منكرة ولا شـاكّةٍ في قدرة الله عز وجل الذي عرفـت نعمته عليها حيث كان يسوق لها ألـوان الرزق العجيب : أنّى يكون لي ولـد ولم يمسسني بشر وليس في تاريخ الإنسـانية كلهـا أن جاء ولدٌ من امرأة بلا زوج وهي نقيةٌ طـاهرةٌ في الذروة من العفاف؟ مع علمها أن الله عـز وجـل خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حـواء مـن غير أمّ ، وقـد سارعت بـالضراعة إلى الله قائلة : ربّ كيف يـوجد هذا الولـد مِنّي؟ فأجابها جبريل عن أمر الله عز وجل قائلا لها : ﴿كذٰلِكِ الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا فإنما يقـول له كن فيكون﴾ أي هكـذا يخلق الله منكِ ولدًا لك من غير أن يمسّك بشرٌ فيجعلـه آيـة للنـاس على كمال قدرتـه وأنـه لا يعجـزه شيء من الخلق ، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ويبتدع ما يريد ، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، فمهما أراد إيجاد شيء من الخلق أوجـده على الوجه الذي يـريد ، لا يحتاج إلى سبب لأنه الربّ المهيمن على كل شيء فإذا قال للشيء كن فيكون . ومما يلفت الانتباه أن زكريا عليه السلام لما قال : ﴿ربّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ أجيب بقولـه : ﴿كذٰلِكَ الله يفعل ما يشاء﴾ وأنّ

مـريم عليها السـلام لما قـالت: ﴿ربّ أنّى يكون لي ولـد ولم يمسسني بشرٌ﴾ أجيبت بقولـه : ﴿كذٰلِكِ الله يخلق ما يشـاء﴾ ولا شك أن ولادة العذراء من غير أن يمسّهـا بشرٌ أبدع وأغـرب وأظهـر وأدلّ على القدرة من ولادة عجـوز عاقـر من زوج بلغ من الكبر عتيّا، لـذلك جاء البيـان البليغ في جانب إيجاد عيسى بقولـه: ﴿يخلق﴾ وفي جانب إيجاد يحيى بقـوله: ﴿يفعل﴾ لأن الخلق ينبئ عن الاختراع والإيجاد وهو أنسب بهذا المقـام من مطلق الفعل الذي وقع في جـواب تعجّب زكـريـا عليه السـلام، كما أن في ذلك تنـديـدا بمن جعل عيسى إلٰها أو ابن إلٰـه لأنـه مخلـوق خلقـه ربّ السمـوات والأرض فهل يليق بإنسـان عنده ذرة من عقل أن يعبـد مخلـوقًا مثلـه؟ وقولـه تعالى: ﴿ويعلمـه الكتاب والحكمة التوراة والإنجيل﴾ ورسـولا إلى بني إسرائيل﴾ هذه هي بقية البشائر التي بشرت الملائكة بها مريم عليها السلام بولادة المسيح وصفاته قبل أن تحمل بـه، وبها تبلغ هذه البشـائر اثنتي عشرة بشارة، وقـوله عـز وجل: ﴿ويعلّمه الكتاب﴾ أي ويعرّفه الكتابـة والخط الذي يخطّه بيده، وفيه لفت انتباه إلى نعمة معرفة الخط والكتابـة، أمّا عدم تعليم النبي ﷺ الخطّ والكتابة فلتمام المعجزة الكبرى حيث يبعثه الله عز وجل معلما للأمم وهو أمّي مبعوث بالكتـاب المهيمن على سائر كتب النبيين، وقـوله: ﴿والحكمـة﴾ هي الفهم والعقل عن الله عز وجل، وإدراك العلوم النافعة، وسلوك الطريق المستقيم، ومعـرفـة السنـة التي يـوحيهـا الله عـز وجل إليـه في غير كتـاب. وقـولـه: ﴿والتوراة﴾ أي ويعلّمـه نصوص التـوراة المنزلة على كبير أنبيـاء بني إسرائيل موسى عليـه السلام ويعرّفه مقـاصدها، وقولـه: ﴿والإنجيل﴾ أي ويعلمه الإنجيل الذي ينزله عليه، وقوله: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ أي ويبعثه الله عـز وجل رسـولا إلى بني إسرائيـل، وهـذه هي أكبر البشـائر الاثنتي عشرة، وأخّرها في الـذكر لاتصالها بما يقوله عيسى عليه السـلام لبني إسرائيل عندما

يبعثه الله عـز وجل إليهم بعـد أن يبلغ أشدّه، وقـد ذكر الله تبـارك وتعالى في سورة مـريم ما يفيد أنه بعـد تمام بشارتها واطمئنانها، نفَخَ فيهـا جبريل عليه السلام فحملت بعيسى عليه السلام وأنه لما ألجأها المخاض ووجع الولادة إلى جـذع النخلة أدركهـا خـوف مـا ستلقاه من اليهـود وهم قـوم بُهتٌ فطمأنها جبريل عليه السلام وعلّمها ما تحتاجه لنفسها وما تفعله وتقوله لقومها حيث يقول الله عـز جل في ذلك: ﴿فحَمَلَتْه فانتبـذت به مكـانا قصيّا* فأجـاءها المخاض إلى جـذع النخلة قالت يـا ليتني مِتُّ قبل هٰذا وكنت نسيـا منسيا* فناداهـا من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريا* وهُـزّي إليك بجذع النّخلـة تُسَاقِطْ عليك رُطَبًـا جَنِيّا* فكلي واشربي وقَـرّي عَيْنًـا فإمّا تَـرَيِنَّ من البشر أحدًا فقـولي إني نذرت للرحمن صـومًا فلن أكلم اليوم إنسيـا* فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئـت شيئا فريّا* يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَـوْءٍ وما كـانت أمّك بغيّا* فأشارت إليـه قالـوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا* قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا* وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصـاني بالصـلاة والزكـاة ما دمت حيّـا* وبرّا بـوالدتي ولم يجعلني جبّارا شقيّا* والسـلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّـا.﴾ وقوله عـز وجل: ﴿أني قد جئتكم بـآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئـة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ هذا شروع في بيان قصة ما وقع لعيسى عليه السلام بعد أن بلغ أَشُـدّه حيث أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل فلما جاءهـم أخبرهم بأنه قـد جاءهم مُرْسَـلا إليهم من الله عز وجـل بمعجزات مؤيّدة له بأنه رسول من رب العالمين، والمراد بالآية في قوله: ﴿قد جئتكم بآية من ربكم﴾ جنس الآية فهي تشمل أكثـر من آية، ولذلك فسّرهـا بأنواع من الآيات وهي أنـه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير فينفخ فيـه فيكون طيرا بإذن الله ويبرئ الأَكْمَـهَ والأبـرص ويحيي الموتى بإذن الله وينبّئهم بما يأكلـون ومـا

يدخـرون في بيوتهم، ثم قـال عن هذه الأنـواع من المعجزات: ﴿إنّ في ذٰلك لآيةً لكم﴾ ومعنى قـوله عز وجـل: ﴿ أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ أي أصـوّر أمامكم من الطين شكل طير ثم أنفخ فيه فيطير بإذن الله، وأنتم تنظـرون إليه وتشاهدونـه بأعينكم، وقد أَذِن الله عز وجـل لعيسى عليه السلام في تصـوير صـورة الطير من الطين والنّفخ فيه ليطير بإذن الله لتكـون هذه المعجزة الحسيّة آيـة ظاهرة على أنـه رسول من رب العالمين، وهذه هي الآيـة الأولى، أما الآية الثانية والآية الثـالثة فقد أخبر الله عز وجل عنهما بقولـه: ﴿وأبرئ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ﴾ والأَكْمَـهُ هو من وُلِدَ ممسوح العينين لا حَدَقـة لعينه، وشفاء الأكمه وإبراؤه ليبصر لا طـاقة لأحد من الأطباء قديما وحـديثا عليه، فهو من أظهر المعجـزات الحسية، والأبرص هو المصاب بـالبَرَص وهو داء معروف يظهر في بيـاضٍ يصيب ويعتري جلد الإنسان يعجز نُطُسُ الأطباء عن علاجه قديما وحـديثا، أما الآية الرابعة فقد أخبر الله عز وجل عنها بقوله: ﴿وأحيي الموتى بإذن الله﴾ أي وأنادي بعض الموتى فيقـومون وأنتم تنظـرون وتعـود لهم الحياة بعـد الموت، وقولـه: ﴿بإذن الله﴾ هو قيد في إبـراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وقيّد بـه هذه الأفعال الخارقة لنفي توهّم الألوهية فيه، فهـو ردّ على النصارى الذين زعموا أنه فعل هذه الأفعـال بوصفه إلٰها، تعـالى الله عما يقولـون علوّا كبيرا، وقد قيـد الله عز وجل بهذا القيد هذه المعجـزات في سورة المائدة حيث يقول: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ وقـد ذكرت في تفسير قـوله عز وجـل في سورة البقرة: ﴿وإن كنتم في ريـب مما نزلنـا على عبدنـا فأتوا بسـورة من مثله﴾ أن معجزات كل نبي كانت تنـاسب أعلى ما وصل إليه قومـه في العلم ليعرفوا أن هذه المعجـزة تفوق كل ما وصلوا إليـه، وأنها ليست من قدرة البشر وإنما هي

من مالك القُوَى والقُـدَر، وأشرت إلى أن من بُعِثَ إليهم عيسى عليه السلام كانوا أبصر الناس في عصرهم بالطب فجعل الله عز وجل معجزة عيسى عليه السلام من جنس ما برعوا فيه فكانت معجزته أنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله. أما الآية الخامسة من الآيات الحسية التي أيّد الله تعالى بها عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فهي أنه يخبرهم بما يأكلون وبما يدّخرون في بيوتهم، أي يقول لأحدهم: أنت أكلت اليوم كذا وتدّخر في بيتك لغدك كذا، مما يقطعون بأنه لا علم لغيرهم به، وقد أخبرهم عيسى عليه السلام بأن هذه آية ينتفع بها من يشرح الله صدره للإيمان، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وأُنَبِّئُكُم بما تأكلون وما تَدَّخِرُون في بيوتكم، إن في ذُلك لآيَةً لكم إن كنتم مؤمنين﴾، وقوله عز وجل: ﴿إن في ذُلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: إن في خلقي من الطين الطيرَ بإذن الله، وفي إبرائي الأكمه والأبرص، وإحيائي الموتى، وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، ابتداءً من غير حساب وتنجيم ولا كهانة وعرافة، لعبرةً لكم ومُتَفكَّرًا تتفكرون في ذلك فتعتبرون به أنى محقّ في قولي لكم: إني رسول من ربكم إليكم، وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يعني إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياته، مقرين بتوحيده، وبنبيّه موسى، والتوراة التي جاءكم بها اهـ.

قال تعالى: ﴿ومصدّقا لما بين يديّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذى حُرّم عليكم، وجئتكم بآية من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون* إنّ الله ربّى وربّكم فاعبدوه، هٰذا صراط مستقيم* فلمّا أحسّ عيسى منهم الكفر قال منْ أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون* ربّنا آمنا بما أنزلت واتّبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾

بعد أن بيّن عيسى عليه السلام لبني إسرائيل المعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة المصدّقة له بأنه رسول من رب العالمين بيّن هنا مضمون الرسالة التي جاء بها من عند الله، فقال: ﴿ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعونِ* إن الله ربّي وربّكم فاعبدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ وقوله: ﴿ومصدّقا﴾ منصوبٌ على الحال من ﴿جئتكم﴾ أي جئتكم بهذه المعجزات وجئتكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومحلاّ لكم بعض الذي حرّم عليكم. ومعنى: ﴿ومصدّقا لما بين يديّ من التوراة﴾ أي ومؤمنا بكتاب الله الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو التوراة ومقرّا بها وأنها من عند الله، وهذا الذي قاله عيسى عليه السلام مُشْعِر بأن رسل الله يصدق بعضهم بعضًا، ويؤمنون بجميع كتب الله، وفيه تنديد باليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وكذبوه، مع أن التوراة فيها إشارة إلى أن الله عز وجل سيرسل لهم مسيحا، لكنهم أَبَوْا أن يكونوا أتباع المسيح الحق، ليكونوا أتباع المسيح الدجال لعنه الله ولعنهم، وقوله عز وجل: ﴿ولأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم﴾ أي ولأرفع عنكم بعض الإصر ولأخفف عليكم فأبيح لكم بأمر من الله عز وجل بعض ما كان محرّما عليكم في التوراة، حيث جعل الله عز وجل لكل نبي شرعة ومنهاجا يلائم أمته ويقوم بصلاح معاشها ومعادها، وكذلك يشرح لهم عيسى عليه

السـلام الـوجـه الصحيح فيما يختلفـون فيـه من المسـائل ويبين لهم الحق والصواب فيما اختلفوا فيـه، كما قال عز وجل في سورة الـزخرف: ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقـوا الله وأطيعونِ* إن الله هو ربي وربكم فاعبـدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ ولا يقول قائل: كيف يكـون مصدقا لما بين يديـه من التوراة ثم يعلن أنه يُحِلّ بعض مـا حُـرّم فيها؟ إذ لا معـارضـة ألبتة في ذلك ولا تنـاقض لأننـا معشر المسلمين نؤمن بالتـوراة والإنجيل وسائر كتب الله مع جزمنـا بأن شريعتنا قد نسخت سـائر أحكام الكتـب السماوية السـابقـة سوى أصـول الـدين التي تطابقت عليهـا جميع النّبوّات كما أشار إلى ذلك قولـه عز وجل: ﴿شرع لكم من الدين ما وَصّى به نوحا والذي أوحينـا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيـه﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعة ومنهاجا﴾، وقوله عز وجل: ﴿وجئتكم بآية من ربّكم﴾ يمكن أن تكون هـذه الجملة تأكيـدا لقوله تعـالى في مطلع المقام السـابق: ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ لتحريـك قلوبهم بسبب بلادة نفوسهم، ويمكن أن تكون هذه الجملة مؤسِّسة لتعـريفهم بأن درب عيسى عليه السلام في رسالته درب مسلوك وهو منهج النبيين والمرسلين حيث يؤيدهم الله عز وجل بآياته، وهم يقرءون ذلك في كتبهم، ثم جرَّد عيسى عليه السلام لهم ما يدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله وحده وتقواه عز وجل في السّر والعلن، بطاعة أوامره والانتهاء عن زواجره، وطـاعة عبده ورسوله عيسى ابن مـريم الذي جاءهم بسعادة الـدنيا والآخـرة لمن أطاعه، وفي ذلك يقـول عز وجل: ﴿فـاتقوا الله وأطيعـونِ* إن الله ربي وربكم فـاعبـدوه هٰذا صراط مستقيم﴾ وهـذه هي خلاصـة دعوة الأنبياء والمرسلين، فإنهم جميعـا جاءوا لتحقيق تقـوى الله عز وجل وطـاعـة المرسلين والإقـرار بأن الله عـز وجل هـو وحـده ربّ كلّ شيء

وسيده ومليكه ومصلحه، والمهيمن عليه والقائم على كل نفس بما كسبت، فعلى كلّ عاقل أن يخلص العبادة لله وحده ويوقن بأنه لا إلّه إلا الله وأنه لا شريك له ولا نِدّ ولا نظير ولا والد ولا ولد ولم يكن له كفوا أحد. ولا شك أن من التزم بهذا المنهج النبوي سار على صراط مستقيم، وطريق قويم. وقوله عز وجل: ﴿فلما أحسّ عيسى منهم الكفرَ قال مَن أنصاري إلى الله﴾ أي فلما أظهر اليهود الكفر بعيسى عليه السلام، وأصرّوا على عدم الإيمان والانقياد له، وفعلوا معه أفعالا من كفرهم به أصبح يحسّ معها أنهم لن يؤمنوا به وأنهم مصمّمون على قتله، وتمالأوا مع الرومان الوثنيين عليه قال عيسى عليه السلام موجّها كلامه للحواريين: من أنصاري إلى الله؟ أي مَن أنصاري في الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده وتأييد دين الله، وإعلاء كلمة الله، ومما يدلّ على أنّ كلامه كان موجّها إلى الحواريين قوله تبارك وتعالى في سورة الصف: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾. وقوله عز وجل: ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ أي قال السابقون الأولون من أتباعه عليه السلام: نحن أنصار الله بتأييدك في الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإعلاء كلمة الله، والتمسك بدينه، والالتزام بشرعه، والوقوف عند حدوده، والسّير على الصراط المستقيم. والحواريون جمع حواريّ، والحواريّ في الأصل هو الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر، أو الخالص، أو هو ناصر الأنبياء، أو القَصّار لأنه يُحَوِّر الثياب أي يُبيِّضها، وذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وسُمّي الحواريون لبياض ثيابهم. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «إنّ لكل نبي حواريًّ، وإن حواريّ الزبيرُ بن العوام». والمتبادر من القرآن العظيم

يشعر أن الحواريين هم السـابقون الأولون مـن أمة عيسى عليه السـلام وكبار أصحابـه وخواصّهم رضي الله عنهم، وقد ذكر الله تبـارك وتعالى الحواريين في كتابه الكريم في مواضع، فذكر ما ألقى الله عز وجل في نفوسهم من المسارعة إلى الإيمان بعيسى عليه السلام وتأييده ونصرته وتصـديقه فيما جاء به عن ربه عز وجل حيث يقول: ﴿وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبـرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمـون﴾ أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى ابن مـريم، ولا شك أنهم ليســوا بأنبيـاء ولا معصـومين من الخطأ، ولـذلك ذكر الله عـز وجل عنهم أنهم قـالوا لعيسى ابن مـريم: هل يستطيع ربّك أن ينزّل علينا مائدة من السماء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون﴾ ربّنا آمنّا بما أنزلتَ واتّبَعْنا الـرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾ أي صدّقنا بالله واشهد أنت يـا عيسى علينا بأننا مسلمون حنفاء لله غير مشركين بـه، فنحن على ملتك وملـة أبيك إبراهيـم خليل الرحمن، وفيـه لفت انتبـاه نصـارى نجران وغيرهم إلى بطـلان مـذهب من أشرك بالله أو قـال: اتخذ الله ولدا، وتصديـقٌ لرسوله محمد ﷺ الـذي جاء بدين الإسلام، الـذي هو دين جميع النبيين والمرسلين عليهم السـلام، وقـوله تعـالى: ﴿ربنـا آمنا بما أنـزلت واتبعنا الـرسول فاكتبنا مع الشـاهدين﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: وهذا خبرٌ من الله عـز وجل عن الحواريين أنهم قـالوا: ﴿ربنـا آمنّـا﴾ أي صدّقنـا ﴿بما أنزلت﴾ يعنـي بما أنزلت على نبيك عيسى من كتـابك، ﴿واتّبعنا الـرسول﴾ يعني بذلك صِرْنا أتباع عيسى على دينك الـذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك، وقوله: ﴿فـاكتبنا مع الشاهدين﴾ يقول: فأَثْبِتْ أسماءنـا مع أسماء الذين شهـدوا بـالحق، وأقـروا لك بالتـوحيـد، وصدّقـوا رسلك، واتّبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كـرامتك، وأَحِلّنـا محلّهم، ولا تجعلنـا ممـن كفـر بك، وصـدّ عن سبيلك،

وخـالف أمـرك ونهيك، يُعـرّف خلقه جل ثنـاؤه بـذلك سبيل الـذين رضي أقـوالهم وأفعالهم ليحتـذوا طـريقهـم، ويتّبعوا منهـاجهم، فيصلـوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذّب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة، في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها، ويحتجّ به على الـوفد الذين حـاجّوا رسول الله ﷺ مـن أهل نجران بأنّ قِيلَ مَن رضي الله عنه من أتبـاع عيسى كان خلاف قِيلِهم، ومنهاجهم غير منهـاجهم اهـ

وقال ابن كثير رحمه الله: قال ابن أبي حـاتم: حدثنا أبو سعيـد الأَشَجّ حدثنا وكيع حدثنـا إسرائيل عن سِمَـاك عن عكرمـة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قولـه: ﴿فاكتبنا مع الشـاهدين﴾ قـال: مع أمة محمد ﷺ، وهـذا إسناد جيد اهـ، ولا شك أن أمة محمـد ﷺ سيشهدون للأنبيـاء يوم القيـامة بأنهم بلّغوا أممهم، بعد أن يشهد كلّ نبي على أمتـه أنه بلّغهم رسالة الله التي أرسله بها، ويكون رسـول الله ﷺ شاهـدا على أمته كما قـال عز وجل: ﴿وكـذٰلك جعلنـاكم أمة وسطـا لتكـونوا شهـداء على النـاس ويكـون الرسـول عليكم شهيدا﴾ وقد ذكرت في تفسيرها ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُدعَى نوحٌ عليه السلام يوم القيـامة فيقـول: لبيك وسَعْدَيْك يـا رب، فيقول: هل بلّغـت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمتـه: هل بلّغكم؟ فيقولون: مـا أتانا من نذيـر، فيقول: من يشهد لـك؟ فيقول: محمـد وأمّته، فيشهدون أنـه قد بلّـغ، ويكون الـرسول عليكم شهيدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وكذٰلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾.

قال تعالى : ﴿ومَكروا ومكَـرَ الله والله خيرُ الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إنّي متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفـروا وجاعلُ الذين اتّبعوك فوق الـذين كفـروا إلى يوم القيـامـة ثم إليّ مـرجعكم فأحكُم بينكم فيما كنتم فيـه تختلفون* فأما الذين كفـروا فأعذّبهم عذابا شديدا في الـدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين* وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ، والله لا يحبّ الظالمين﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أن عيسى عليه السـلام قد أحسّ من قومه الكفر وأنهم قد أصرّوا على ضلالهم ، وأنـه عليه السلام دعا أتبـاعه إلى تأييد دين الله والاستمساك به وأن الحواريين قد استجابوا له ، أشار هنا إلى أن اليهود لعنهم الله لم يقفـوا عند كفـرهم وعنادهم بل تَعَـدَّوْا ذلك إلى الكيد لـه والعمل على التخلص منه بقتلـه ، وتعاونـوا في هذا الإثم الـذي عزمـوا عليه مع الـرومان الوثنيين الـذين كـانوا يحكمون فلسطين وقتئـذ ، وتمالأوا عليه ، واتفـق اليهود والرومان على أخذه والفتك به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنّوا أنهم قد ظفروا به ، نجاه الله تبارك وتعالى من مكرهم وشرهم وكيدهم ، فألقى شبهه على شخص من مبغضيـه فحسبوه عيسى عليـه السلام فأخـذوه ، وقتلوه ، وصلبـوه ، أما عيسى عليـه السلام فقـد رفعه الله إليـه ، وخيَّب مكر الكـافرين ، وردّ كيـد الكائدين ، وفي ذلك يقـول الله عز وجل هنـا في هذا المقام : ﴿ومكـروا ومكر الله والله خير الماكرين* إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكُمُ بينكـم فيما كنتم فيه تختلفون* فأمـا الذين كفـروا فأعذّبهم عذابًـا شديدًا في الـدنيا والآخرة وما لهم نـاصرين* وأمّا الذين آمنـوا وعملوا الصّالحات فيـوفّيهم أجورهم ، والله لا يحبّ الظالمين﴾ وهكـذا قضى الله عز

وجل أن ينصر رسُله والمؤمنين، وأن يخزي أعداءه الكافرين، وقد نصّ الله عز وجل على أن عيسى عليه السلام لم يُقْتَل ولم يُصْلَب، وإنما شُبِّه لليهود الذين كانوا يعرفونه أما الرومان الوثنيون الذين جاءوا لأخذ عيسى عليه السلام فما كانوا يعرفونه، وفي بيان مكر الله بهم وتخييب سعيهم، وما ألقى الله عز وجل من شَبَهِ المسيح على الشخص الذي كان يتقرب منه وهو يُبْغضه ويتمالأ مع اليهود والرومان عليه يقول تبارك وتعالى في اليهود: ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما* وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه، ما لهم به من علم إلا اتّباع الظنّ، وما قتلوه يقينًا* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيمًا﴾. وإن تعجب فعجبٌ أن يصدّق النّصارى اليهودَ في أنّهم قتلوا المسيح وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أنّ عيسى إلّه أو ابن إلّه، كيف يخطر على بال من به أدنى مُسْكَة من عقل أن يعتقد أنّ الإلّه يصلب أو يقتل؟ مع أن إنجيل متى وإنجيل مرقُص يقرّران أنّ الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه، ففي الإصحاح (الفصل) السادس والعشرين من إنجيل متى في الفقرة السابعة والأربعين من هذا الإصحاح يقول: وفيما هو يتكلم إذا يهوذا واحدٌ من الاثني عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشّعب. وفي الفقرة الثامنة والأربعين: والذي أَسْلَمَه أعطاهم علامةً قائلا: الذي أقَبّله هو هو. وفي إنجيل مرقص في الإصحاح الرابع عشر في الفقرة الثالثة والأربعين منه: وللوقت فيما يتكلم أقبل يهوذا واحدٌ من الاثني عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعِصِيّ من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ. وفي الفقرة الرابعة والأربعين: وكان مُسَلِّمُه قد أعطاهم علامةً قائلاً: الذي أقبّله هو هو أمسكوه وامضُوا به بحرص. وقد جاء في أناجيل النصارى المعتمدة عندهم

أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين فصاروا يتردّدون هل هذا هو يسوع الذي أُخذ ليُقْتَل ويُصْلَب أو غيره؟ وقد كان بين المسيح عليه السلام وبين يهوذا الإسخريوطي الذي دخل على المسيح ليُسَلِّمه لليهود والرومان شبه كبير فصاروا لا يدرون عن الذي أُخِذ أهو المسيح أم يهوذا الإسخريوطي؟ وقد نقلت الأناجيل الأربعة التي بيد النصارى الآن، وهي مَتَّى ومرقص ولوقا ويوحنا، قولَ المسيح عليه السلام لأصحابه ليلة عَزْمِ أعدائه على تبييته: كلّكم تَشُكُّون فيّ هذه الليلة. كما جاء في الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل مَتَّى في الفقرة الواحدة والثلاثين، وكما جاء في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص في الفقرة السابعة والعشرين، وقد جاء في إنجيل برنابا التصريح بأن الجنود أخذوا يهوذا الإسخريوطي نفسه ظنا أنه المسيح لأنه أُلْقِيَ عليه شَبَهُه، وقد ذكر (جورج سايل) الإنجليزي في ترجمته للقرآن في سورة آل عمران في الصفحة الثامنة والثلاثين أن يهوذا الإسخريوطي كان يشبه المسيح في خَلْقه، وذكر عن فرقة من أقدم فرق النصارى وهم «السّيرنثيّون والكوبوكراتيّون» أنهم أنكروا صلب المسيح، وصرّحوا بأن الذي صُلِب هو يهوذا الإسخريوطي الذي كان يشبهه شبها تامّا اهـ والنصارى مطبقون على أن يهوذا الإسخريوطي فُقِدَ بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود، وقوله عز وجل: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ أي ودبّر اليهود تدبيرا سيئا لقتل عيسى عليه السلام ودبّر الله عز وجل لحفظ عيسى عليه السلام وصيانته من شر اليهود والرومان، والله تعالى خير المدبّرين، وقد سقت في تفسير قوله عز وجل: ﴿الله يستهزئ بهم﴾ قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما الاستهزاء والمكر بأن يُظْهِر الإنسان الخير والمراد شرّ فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرّم وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلا حسنًا، قال

الله تعالى: ﴿ وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمَنَّا و إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم﴾ فإنّ الجزاء من جنس العمل اهـ وقوله عز وجل: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا﴾ أي وعندما مكر اليهود وجاءوا مع جنود من الرومان لأخذ المسيح عليه السلام لقتله قال الله عز وجل لعيسى عليه السلام: إني سألقي عليك النوم وأرفعك إلى السماء وأخلّصك من اليهود الكافرين الحاقدين الحاسدين، وجمهور أهل السنة والجماعة على أن الله تعالى رفع المسيح إلى السماء بجسده وروحه، ويفسرون التوفي في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾ بأنه إلقاء النوم عليه إلى أن رفعه الله إلى السماء على حدّ قوله تعالى: ﴿الله يتوفّى الأنفسَ حين موتها والتي لم تَمُتْ في منامها﴾ وقوله عز وجل: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي يُنِيمُكم بالليل، ويعلم ما اكتسبتم بالنهار، وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجلين تنازعا في أمر نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام فقال أحدهما: إن عيسى ابن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه، وقال الآخر: بل رفعه الله إليه حيّا، فما الصواب في ذلك؟ وهل رفعه بجسده أو روحه أم لا؟ وما الدليل على هذا وهذا؟ وما تفسير قوله تعالى: ﴿إني متوفّيك ورافعك إليّ﴾؟ فأجاب: الحمد لله، عيسى عليه السلام حيّ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً و إماما مُقْسِطًا، فيَكْسِرُ الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال، ومن فارقت روحُه جسدَه لم ينزل جسده من السماء، وإذا أُحْيِيَ فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: ﴿إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الذين كفروا﴾ فهذا دليل على أنه لم يَعْنِ بذلك الموتَ، إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر

المؤمنين فإنّ الله يقبض أرواحهم ويُعْرَج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصيةٌ، وكذلك قوله: ﴿ومطهّرك من الذين كفروا﴾، ولو كان قد فارقت روحُه جسدَه لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شَكّ منه ما لهم به من علم إلا اتّباع الظن وما قتلوه يقينا* بل رفعه الله إليه﴾ فقوله هنا: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ يبيّن أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه. إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات اهـ وقوله تعالى: ﴿وجاعِلُ الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ يفيد أن الله تبارك وتعالى قضى أنّ من آمن بعيسى عليه السلام وصدّقه وأقر أنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه يعزّه الله ويؤيّده ويرفع منزلته فوق كل كافر في الحياة الدنيا فما بالك بما أعدّه الله للمؤمنين في دار كرامته، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وكقوله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وكقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ ولا شك أنه بعد إرسال محمد ﷺ الذي نسخ الله بشريعته الشرائع السابقة لا يكون الإنسان مُتَّبِعًا لعيسى عليه السلام إلا إذا اتّبع محمدا ﷺ، وقد حكم الله وقضى أن من ادّعى أن عيسى إلَه أو ابن إلَه أو أنّ الله ثالث ثلاثة فهو كافر مشرك يحرّم الله عليه الجنة، وقد خطب بذلك عيسى عليه السلام في بني اسرائيل حيث قال الله فيه: ﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل

اعبدوا الله ربي وربّكم إنه من يُشركْ بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إلّه إلا إلّه واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ولا يتنافى قوله تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ مع ما قد يحدث للمؤمنين من أن يُهْزَمُوا في حرب أو أن يمسّهم قرح فإن الله تبارك وتعالى قد يبتلي المؤمنين ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، والمؤمن عزيز بالله في حالة نصره، وفي حال هزيمته، كما قال كعب بن زهير في أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم:

ليسوا مَفَاريح إن نالت رماحُهُمُو قوما وليسوا مَجَازيعًا إذا نِيلوا

وكما قال حسان رضي الله عنه:

نَسْمُو إذا الحرب نالتنا مخالِبُها إذا الزّعانِف من أظفارها خشَعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوّهمو وإن أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ
كأنهم في الوَغَى والموتُ مُكْتَنِع أُسْدٌ بحَلْية في أرْساغِها فَدَعُ

وقوله عز وجل: ﴿ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ فأمّا الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾ أي ثم مردّكم إلى الله وحده فيقضي بينكم فيما تنازعتم فيه، حيث آمن المؤمنون وكفر الكافرون، فأما الكافرون فلهم خزي الدنيا والآخرة وما لهم من شافعين، وأما المؤمنون فلهم عزّ الدنيا والآخرة، والله عدو للكافرين.

قال تعالى: ﴿ذٰلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم* إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون* الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين* فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين* إنّ هٰذا لهو القصص الحقّ، وما من إلٰه إلا الله، وإنّ الله لهو العزيز الحكيم* فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل ألوانا من صور اصطفاء آل عمران وبسط قصة ولادة مريم العذراء البتول، وكفالة زكريا لها وما كان من شأنه، وما دعا به ربّه، وما تفضل الله عز وجل به عليه حيث وهب له يحيى مصدقا بكلمة من الله، ثم بشارة الملائكة لمريم بمنزلتها عند الله ثم بشارتها بأن تلد المسيح بكلمة من الله ثم ذكر صفات المسيح عليه السلام وخلاصة دعوته إلى الله عز وجل وكفر اليهود به، وإيمان الحواريين به وتأييدهم له، ومكر اليهود لقتل عيسى عليه السلام وتنجية الله له منهم ورفعه إلى السماء وما قضى الله عز وجل به من نصرة أوليائه وإذلال أعدائه، لفت انتباه الناس هنا إلى أنه يقص على رسوله ﷺ القصص الحقّ فيما ذكره من هذه الأخبار المتقدمة فقال: ﴿ذٰلك نتلوه عليك من الآيات والذّكر الحكيم﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد عن آل عمران وكيفية ميلاد عيسى عليه السلام ودعوته نقرؤه ونقصه عليك بما أوحينا إليك من الآيات المتلوة والقرآن العظيم المحكم المتقن الذي لا يتطرق إليه الشك ولا يناله الارتياب، ثم ضرب مثلا لتقرير حقيقة إيجاد عيسى عليه السلام من غير أب فقال تبارك وتعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ أي إنّ إيجاد الله عز وجل عيسى من غير أب سَهْلٌ على الله تبارك وتعالى الذي أوجد آدم من غير

أب ولا أم، فآدم قد خلقه الله تعالى من تراب وقال له: كن، فكان بَشَرا سَوِيّا وإنسانا كريما، فمن أوجد إنسانا من غير أبوين لا يُعْجزُه إيجاد إنسان من غير أب، فمن كان له عقْل فليعقل هذا المثل الحقّ، لأن الأمثال التي يضربها الله عز وجل لا يعقلها إلا العالمون، ولا يستفيد منها إلا المستبصرون، فلو كان عند نصارى نجران أو غيرهم مُسْكةٌ من عقل لأذعنوا للحق، وقوله عز وجل: ﴿كن فيكون﴾ هو شبيه قوله تبارك وتعالى في بشائر مريم بالمسيح: ﴿إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إن إيجاده عز وجل للأشياء لا يتوقف على مادة، بل شأنه عز وجل أنه يقول للشيء الذي يريد إيجاده: ﴿كن فيكون﴾ أي فيوجد في الحال بأمر الله عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿الحقّ من ربّك فلا تكن من الممترين﴾ هو تهجين لليهود والنصارى لموقفهم من عيسى عليه السلام حيث فرّط اليهود وأفرط النصارى حيث قامت مذاهبهم فيه على الامتراء والشك والارتياب، وكما قال عز وجل: ﴿ذلك عيسى ابن مريم، قول الحق الذي فيه يمترون* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلا تكن من الممترين﴾ لا يدل على أن رسولَ الله المعصومَ من الخطايا يقع فيما وقع فيه هؤلاء الممترون، إذ أن من المقرر في علم الأصول أنّ النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، بل المقصود من هذا النهي هنا هو توبيخ الممترين في عيسى عليه السلام على حد قول القائل: إياكِ أعني واسمعي يا جارة. وقوله عز وجل: ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالَوْا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ هذه هي آية المباهلة، وهي تشعر بأن البيان عن الحق قد بلغ الغاية القصوى، فمن لم يؤمن بعد هذه الدلائل الواضحة والحُجَج اللائحة كان معاندًا فادْعُهُ إلى المباهلة، وقوله عز وجل:

﴿فمن حآجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾ أي فمن جادلك في عيسى عليه السلام من بعد هذه الدلائل الواضحات والحجج الظاهرات والبراهين الساطعات، وقوله عز وجل: ﴿فقل تعالوا نَدْعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ أي فقل يا محمد لمن حاجّك في عيسى بعد هذه البينات: أقبلوا وتعالَوْا وهَلُمُّوا نجمع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل أي نتضرّع إلى الله في الدعاء فنجعل لعنة الله على الكاذبين أي نَقُل في دعائنا وضراعتنا وابتهالنا إلى الله: اللهم اجعل لعنتك على الكاذب من الفريقين. وإنما طُلِبَ ضمُّ الأبناء والنساء في المباهلة لأنه أتمّ في الدلالة على ثقة المباهِل بحاله ويقينه من صدق نفسه حيث يُعَرِّض أعزّته ومن يُقَدّمهم على نفسه للخطر لو لم يكن واثقا من كذب خصمه ولأجل أن يهلك خصمه مع أعزته جميعا لو تمت المباهلة، وهذا من أبرز الأدلة على صدق رسول الله ﷺ وكذب النصارى وغيرهم ممن يفتري على الله الكذب، ولذلك امتنع نصارى نجران عن المباهلة ولم يَرْوِ أحدٌ قط لا من المسلمين ولا من النصارى أنهم أجابوا إلى المباهلة، بل أسلم بعضهم لله رب العالمين ودخلوا في دين الإسلام، فعندما طلب الله تبارك وتعالى من حبيبه ورسوله وسيد خلقه وإمام أنبيائه ورسله محمد ﷺ أن يباهل نصارى نجران بادر رسول الله ﷺ إليهم، وقرأ عليهم آية المباهلة، فخافوا أن يباهلوا رسول الله ﷺ وأيقنوا أنّ ما جاء به هو الحقّ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقب والسّيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يُلاعِناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فَلاَعَنَنَا لا نفلحُ نحن ولا عَقِبُنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ معكم رجلا أمينا حقّ أمين»

فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرّاح» فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» وفي لفظ للبخاريّ من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث لنا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين» فاستشرف له الناس، فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ابعث إلينا رجلا أمينا، فقال: «لأبعثنّ إليكم رجلا أمينا حقّ أمين حَقَّ أمين» قال فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجرّاح. وفي رواية لمسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنّ أهل اليمن قَدِموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلا يعلّمنا السنّة والإسلام، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمين هذه الأمة». هذا وقد قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا إسماعيل بن يزيد الرَّقّي أبو يزيد حدثنا فرات عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطَأَ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عِيَانا، ولو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ورأَوْا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير آية المباهلة هذه بعد سياق حديث أحمد هذا: وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم به، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح اهـ وقوله في الحديث: لئن رأيت رسول الله ﷺ، الظاهر أن أبا جهل لعنه الله قال: لئن رأيت محمدا، فعبّر ابن عباس عنه بقوله: رسول الله ﷺ، وهذا من الأساليب العربية الفصيحة ومنه قول الله عز وجل عن اليهود لعنهم الله: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾. وقوله عز وجل: ﴿إنّ هذا لهو القصص الحقّ

وما من إلّـه إلاّ الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ هـذه جملٌ ثلاثٌ اشتملت كل واحـدة منها على ضروب من البـلاغة والفصاحـة في تأكيد الحقيقـة التي تدلّ عليها ، وتثبت أنّ من انحرف عنهـا فقد انحرف عن الصراط المستقيم ، وتبيّن أن هـذه الأنباء التي يقصهـا رسـول الله ﷺ بما أوحى الله إليه من هـذا القرآن العظيم عن عيسى عليه السلام وعن أمـه الصديقة العذراء البتول هي القصص الحقّ الـذي لا يتجـاوز الحقيقـة بحـال ، فمن يسمعـه يكن كمن شـاهد هـذه الأحداث عنـد وقوعهـا ، وأن ما يـدعيه اليهـود لعنهم الله على عيسى وأمـه وما يـدّعيه النصـارى لعنهم الله في عيسى وأمه هـو محض افتراء وقصصٌ مختلق ، ودعـاوى كاذبـة ، وقد أكـد الله تبارك وتعالى هـذا المعنى في قوله عز وجل : ﴿إن هٰذا لهو القصص الحق﴾ بألوان التأكيد حيث أكّده بإنّ واللام واسميـة الجملة ووصف القصص بأنـه الحق . كما أنّ قولـه عز وجل : ﴿وما من إلّه إلا الله﴾ المسوق لتأكيد الـرّد على النصارى الذين جعلوا المسيح وأمـه إلّهين من دون الله ، قد حصر الألـوهيّة الحقّـة في الله وحده على طـريق النفي والإثبات ، فلا إلّه إلا الله ، وقد زاد في تـأكيد ذلك بـ(من) الاستغراقية للتنصيص على العموم إذ من المقرر في علم أصـول الفقه أن النكرة إذا وقعت في سيـاق النفي وجُـرَّتْ بـ(من) كـانـت نصـا في العمـوم واستغـرقت جميع الأفراد ، فقوله عز وجل : ﴿وما من إلّه إلا الله﴾ نصّ في نفي الألوهية عن أي فرد وُصِفَ بها وحصرها في الـواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلـد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، كما أنّ قوله عز وجل : ﴿وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾ قد سيقت فيـه أدوات التأكيد التي سيقت في قـوله عـز وجل : ﴿إن هٰذا لهو القصص الحقّ﴾ وقد ذيّلت بقـوله : ﴿العزيـز الحكيم﴾ لتأكيد كمال قـدرته وعزتـه وحكمته ، وفيه تنديـد بالنصارى أيضـا الذين اتخذوا المسيح إلّها وهم يصدّقون اليهود لعنهم الله في دعواهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه . فالإلّه الحق

هو العـزيز الحكيم القاهر فـوق عباده لا يغلبه غالبٌ ولا يهرب منـه هارب، ولذلك قال في مطلع هذه السورة لإبطال شبـه النصارى وتقرير أنه لا إلّه إلا الله: ﴿هـو الذي يصـوركم في الأرحـام كيف يشاء، لا إلّـه إلا هـو العزيـز الحكيم﴾ وقولـه عز وجل: ﴿فإن تولّـوا فإنّ الله عليم بالمفسدين﴾ هـو وعيد وتهديد لمن أدبر عن سماع هذه القوارع والحجج والبراهين بأن الله لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عـذابه. وكان مقتضى السيـاق أن يقال: فإن الله عليم بهم، لكن مقتضى الحال يقتضي وضع الظاهر موضع الضمير لبيان أنه لا يُعْرِض عن دين محمد ﷺ إلا من يـريد الفساد في الأرض كما قـال عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدُوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾

قال تعـالى : ﴿قل يا أهل الكتاب تعـالوا إلى كلمة سـواءٍ بيننا وبينكم ألاّ نعبدَ إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتّخذ بعضنـا بعضًا أربابًا من دون الله ، فإن تولّوا فقولـوا اشهدوا بأنّا مسلمون* يا أهل الكتاب لم تُحَاجُّـون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أفـلا تعقلون* ها أنتم هٰؤلاء حاججتم فيما لكم بـه علمٌ فلم تحاجّـون فيما ليس لكم بـه علمٌ ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ﴾

بعد أن أمـر الله تبارك وتعـالى رسوله محمـدا ﷺ أن يباهل مَن عـانَدَ الحقّ وأصرّ على أن عيسى إلّه أو ابن إلّـه ، أمره أن يـدعو أهل الكتـاب من اليهود والنصارى إلى كلمة الحق التي يعـرف كلّ منصف من أهل الكتاب أنّها دعوة جميع المرسلين ، وهي إفـراد الله تبـارك وتعالى بـالعبـادة وتحريم الشرك بجميع صـوره وأن لا يتّخـذ بعضهم بعضـا أربـابـا من دون الله ، ولن يستطيع أهل الكتاب من اليهـود أو النصارى أن يكابـروا وينكروا أن توحيـد الله عز وجل و إفـراده بـالعبـادة هو وصيـة جميع الأنبيـاء والمرسلين لأقـوامهم وأنها دعـوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقـوب والأسباط من الأنبياء والمرسلين ، فقد تكرر في التوراة التي بيد اليهود والنصارى أنّ الله إلّه واحد ، ومن ذلك ما جاء في الفقرة التاسعة والثلاثين من الإصحاح الرابع من سفر التثنية : فاعلم اليوم وردّد في قلبك أنّ الـربّ هو الإلّـه في السماء من فـوق وعلى الأرض من أسفل ليس سـواه . وفي الإصحاح الخامس من سفـر التثنية في الفقـرات السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة : أنا هو الربّ إلّهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبـوديـة ، لا يكن لك آلهة أخـرى أمـامـي ، لا تصنع لك تمثـالا منحوتا صورةً مّا مما في السماء من فوق وما في الأرض من أسفل وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ولا تعبـدهنّ لأني أنا الرّب إلّهك إلّـه غيور . وفي

إنجيل متّى في الإصحاح الثاني والعشرين في الفقرة الواحدة والثلاثين والثانية والثلاثين: أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل: أنا إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب. وفي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل مرقس في الفقرة السادسة والعشرين: أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَّيْقة كيف كلمه الله قائلا: أنا إلّه إبراهيم وإلّه إسحاق وإلّه يعقوب. وفي الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه: فجاء واحدٌ من الكتبة وسمعهم يتحاورون. فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله: أيّة وصيّة هي أوّل الكلّ؟ فأجابه يسوع: إنّ أوّل كلّ الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرّبّ إلّهنا ربّ واحد وتحبّ الرّبّ إلّهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كلّ قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي تحبّ قريبك كنفسك، ليس وصيّة أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيّدا يا مُعَلِّم، بالحق قلتَ، لأنه الله واحدٌ وليس آخر سواه. وفي يوحنا في الإصحاح السابع عشر في الفقرة الثانية منه: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلّه الحقيقي وحدك. فهذه شواهد حقّ في كتب أهل الكتاب تقرر أنّ الله هو وحده لا شريك له المستحقّ لأن يُفْرَدَ بالعبادة والتوحيد، وأنه لا يحل لأحد أن يعبد إلّها سواه، ولما وجه رسول الله ﷺ الدعوة إلى ملوك العالم بعد صلح الحديبية ضمّن كتبه إلى ملوك أهل الكتاب هذه الآية الكريمة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس أن نبيّ الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دِحْيَة الكلبيّ وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بُصْرَى ليدفعه إلى قيصر، وكان قيصر لما

كشف الله عنه جنود فارس مشى من حِمْصَ إلى إيلِيَاء شكرًا لما أبلاه الله، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ قال حين قرأه: التمسوا لي هاهنا أحدا من قومه، لأسألهم عن رسول الله ﷺ، قال ابن عباس: فأخبرني أبو سفيان أنه كان بالشام في رجال من قريش قدموا تِجَارًا في المدّة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، قال أبو سفيان: فوجَدَنَا رسولُ قيصر ببعض الشام، فانْطُلِقَ بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلِيَاء فأُدْخِلْنا عليه، فإذا هو جالس في مجلس مُلكه، وعليه التّاج، وإذا حوله عظماء الرّوم، فقال لِتُرْجُمانه: سلهم أيهم أقرب نسبًا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبيّ؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم إليه نسبًا، قال: ما قَرَابَةُ ما بينك وبينه؟ فقلت: هو ابن عمى، وليس في الرّكْب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري، فقال قيصر: أدْنُوه، وأمر بأصحابي فجُعِلُوا خلف ظهري عند كتفي، ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه: إني سائل هذا الرجل عن الذي يزعم أنه نبيّ فإن كذب فكَذِّبوه، قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يَأْثُرَ أصحابي عني الكذب لكَذَبْتُه حين سألني عنه، ولكني استحييت أن يَأْثُرُوا الكذب عنّي فصَدَقْتُه، ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا، فقال: كنتم تتّهمونه على الكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من مَلِك، قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: فيزيدون أو يَنْقُصُون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتدّ أحدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل يَغْدِر؟ قلت: لا، ونحن الآن منه في مُدّة نحن نخاف أن يغدر. قال أبو سفيان: ولم يُمْكِنّي كلمة أدْخِل فيها شيئا أنتقصه به لا أخاف أن تُؤْثَرَ عني غيرها، قال: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم، قال: فكيف

كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دُولاً وسِجالاً، يُدَال علينا المرة ونُدَال عليه الأخرى، قال: فماذا يأمركم؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، فقال لترجمانه حين قلت ذلك له: قل له: إني سألتك: عن نسبه فيكم فزعمت أنه ذو نسب، وكذلك الرسل تُبْعَث في نسب قومها، وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فزعمت أن لا، فقلتُ: لو كان أحد منكم قال هذا القول قبله، قلت: رجل يَأتَمُّ بقولٍ قد قِيلَ قبله، وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا، فعرفت أنه لم يكن لِيَدَعَ الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه ملك قلت يطلب ملك آبائه، وسألتك: أشراف الناس يتّبعونه أم ضعفاؤهم؟ فزعمت أنّ ضعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمّ، وسألتك: هل يرتد أحد سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، فكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب لا يَسْخَطه أحد، وسألتك: هل يغدر؟ فزعمت أن لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل وأنّ حربكم وحربه تكون دُولاً ويدال عليكم المرة وتُدَالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة، وسألتك: بماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة النبي، قد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظنّ أنه منكم، وإن يَكُ ما قلتَ حَقّا فيوشك أن يَمْلِك موضع قدميّ هاتين، ولو أرجو أن أَخْلُص إليه لتجشّمت لُقِيَّه ولو كنت عنده

لغسلت قدميه. قال أبو سفيـان: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ، فإذا فيه: «بسـم الله الرحمن الرحيـم، من محمد عبد الله ورسـوله إلى هِـرَقْل عظيم الروم، سـلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعـوك بدِعَايـة الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلـم يـؤتـك الله أجـرك مـرتين. فـإذا تَـوَلَّيْـتَ فعليك إثم الأَرِيسِيّين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمـة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك بـه شيئا، ولا يتخـذ بعضنا بعضـا أربابـا من دون الله، فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته عَلَتْ أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثـر لَغَطُهم فلا أدري ماذا قالوا، وأُمِر بنا فأُخْـرِجْنا، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلـوت بهم قلت لهم: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، هذا مَلِكُ بني الأصفـر يخافه. وفي لفظ قال أبو سفيان: فما زلت موقنـا بأمر رسـول الله ﷺ أنه سيظهـر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام، وقد عُثِـرَ في القرن الماضي على كتاب بأحـد أديرة سيناء فيـه: بسم الله الرحمن الـرحيم من محمـد رسول الله إلى المقـوقس عظيم القبط، سـلام على من اتبع الهدى أما بعد: أَسْلِمْ تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين فإن تَوَلَّيْت فإن عليك إثم أهل القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكـم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابا من دون الله فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمـون. وقد ذيل بختم: محمد رسول الله. وكـان الختم ثلاثة أسطر، في سطر كلمة «محمد» وفوقها كلمة «رسول» وفوقها كلمة «الله». وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في زاد المعـاد وابن كثير في السيرة النبويـة وغيرهما هذا الكتاب. وقوله عز وجل: ﴿إلى كلمة﴾ المقصود من هذه الكلمة هي الجمل الثلاث التي فَسَّـرَتْها: وهي: أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئـا ولا يتخذ بعضنـا بعضـا أربابـا من دون الله. ومن شـأن العرب أنهم قـد يطلقـون على القصيدة أو الخطبة أو النصيحة كلمةً، كما قـال ابن مالك في أَلْفِيَّتِه: وكِلْمَةٌ

بها كلام قـد يُؤَمّ. أي قد تطلق الكلمة ويـراد ويقصد بها الكلام، وقولـه عز وجل: ﴿فإن تَوَلَّـوْا فقولوا اشهـدوا بأنّا مسلمون﴾ أي فإن أعـرضوا عن دين الإسلام فقولوا لهم: اعترفوا واشهدوا علينـا بأننا مستمسكون بالإسلام وأنكم كافرون مكـذّبون بالمرسلين. وقد كـان رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآيـة في الركعة الثـانية من سنـة الفجر كثيرا، فقـد روى مسلم في صحيحه من حـديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كـان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجـر: قولوا آمنـا بالله ومـا أنزل إلينـا، والتي في آل عمران: تعـالوا إلى كلمـة سواء بيننـا وبينكم. ولما ادّعَت اليهود أن إبراهيم عليه السلام منهم، وادّعَت النصارى أن إبراهيم عليه السلام منهم وتخاصموا في ذلك فوبخهم الله تعالى وفضحهم بما يـدلّ على جهلهم واستغـراقهم جميعا في الضـلال حيث قـال: ﴿يـا أهل الكتاب لم تُحَاجُّـون في إبراهيم وما أُنْـزِلَت التوراة والإنجيل إلا من بعـده أفلا تعقلون﴾ وقـوله عز وجل: ﴿هـا أنتم هؤلاء حـاجَجْتُم فيما لكم به علم فلم تُحَاجُّـون فيما ليس لكم بـه علـم والله يعلم وأنتم لا تعلمـون﴾ قـال الفخـر الرازي: يحتمل في قولـه: ﴿ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكـم به علم﴾ أنه لم يصفهم في العلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محَاجَّتَـه فيما تَدَّعون علمه فكيف تحاجـونـه فيما لا علم لكم بـه ألبتـة، ثم حقق ذلك بقـولـه: ﴿والله يعلم﴾ كيف كـانـت حـال هـذه الشرائع في المخـالفــة والموافقـة ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ كيفيـة تلك الأحوال اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيرهـا: هذا إنكار على من يُحَاجّ فيما لا علم له به فإن اليهـود والنصارى تحاجّوا في إبراهيم بلا علم ولو تحاجّوا فيما بأيـديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم وإنما تكلمـوا فيما لا يعلمون فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم بردّ ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليتها ولهذا قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

اهـ ولا مـانع أن يشمل قولـه عز وجل: ﴿حـاججتم فيما لكم به علـم﴾ ما قـالت اليهود في النصـارى: إنهم ليسـوا على شيء. ومـاقالت النصـارى في اليهود: إنهم ليسـوا على شيء، فقد صدقوا في ذلك وكـان جدالهم على علم فيه.

قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نصرانيًّا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين* إنَّ أولَى النّاس بإبراهيم لَلّذين اتّبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين* ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضِلّونكم وما يضلّون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾

بعد أن قرّر عز وجل بالبرهان جهل أهل الكتاب الذين يحاجّون في إبراهيم وهم يكفّر بعضهم بعضًا وتدّعي كلّ طائفة منهم أنّ إبراهيم كان على ملّتهم، وهذا يدلّ على غباوتهم وبلادتهم، وكونهم عن العقل والعلم بمَعْزِل، صرّح هنا بما نطق به البرهان المتقدم فقال عز وجل: ﴿ما كان إبراهيم يهوديّا ولا نصرانيا﴾ إذ جميع العقلاء وأهل العلم يعلمون أن إبراهيم عليه السلام متقدم في التاريخ قبل اليهودية وقبل النصرانية فكيف يكون يهوديّا على ملّة اليهود المحدثة بعد موته بأكثر من ألف سنة؟ أو كيف يكون على ملة النصارى، والنصرانية إنما أحْدِثَتْ بعده بحوالى ثلاثة آلاف سنة؟ ومما تجدر الإشارة إليه هنا كذلك هو أن موسى عليه السلام لم يأت باليهودية، فهذا الاسم مُخْتَرَع بعد موته بزمن طويل، وكذلك جميع أنبياء بني إسرائيل لم يكونوا يهودًا، وكذلك عيسى ابن مريم عليه السلام لم يأت بالنصرانية بل جميع رسل الله من أولهم إلى خاتمهم محمد ﷺ إنما جاءوا بالحنيفية المسلمة المبرّأة من الشرك المنزهة لله عن النِّدّ والنظير والشبيه والسّميّ والولد، وقد بينت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هُودًا أو نَصَارَى﴾ أننا لم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ إطلاق كلمة اليهود على سبيل المدح، ولم تُستعمل في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ إلا على سبيل الذم، كما بينت هناك أن كلمة النصرانية محدثة، وأنه لا يعرف على التحديد متى أطلقت هذه الكلمة على أهل الإنجيل. ولم توجد هذه الكلمة

في كتب النصارى إلا في أوائل القرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السادس بعد المائة من ميلاد المسيح عليه السلام، وأنه قد يفهم من القرآن الكريم أنهم أحدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾ مع أنها نسبة إلى نصرانة قرية المسيح عليه السلام من أرض الجليل بفلسطين وتسمى هذه القرية أيضا الناصرة ونصورية. وقوله عز وجل: ﴿ولكن كان حنيفا مسلما﴾ تحقيقٌ لملّة إبراهيم عليه السلام التي بعث الله بها جميع النبيين والمرسلين، وقد كرّر الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم هذه الحقيقة ليبين للناس كَذِبَ اليهود المدَّعين أن إبراهيم كان على ملتهم أو أنهم على ملة إبراهيم، وكَذِبَ النصارى المدَّعين أن إبراهيم كان على ملتهم أو أنهم على ملة إبراهيم حيث يقول عز وجل في سورة البقرة: ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، قل بل مِلَّةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنّ إبراهيم كان أمّة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين* شاكرًا لأنْعُمِه، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم* وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين* ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿قل صدق الله فاتبعوا مِلّة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿قل بل مِلّة إبراهيم حنيفا﴾ أن أصل الحنيف في الشرع هو المستقيم على الحق، المائل عن الباطل، ومعنى قوله: ﴿مسلمًا﴾ أي منقادًا لأمر الله ملتزما بشرعه، ولا يراد بالإسلام في هذا المقام الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به محمدا ﷺ، لأنها خاصة بأمة محمد ﷺ كما قال عز وجل: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ فإن لفظ الإسلام يطلق على هذا الدين الذي بعث الله به خاتم المرسلين محمدا ﷺ، ويطلق على الحنيفية مِلّة إبراهيم وجميع الأنبياء والمرسلين، من إخلاص التوحيد لله

والإيمان بكتبه ورسلـه وملائكتـه واليوم الآخـر والقدر خيره وشره مـن الله عز وجل واتِّباع الوصايا العشر التي تضمنها قوله تعالى: ﴿قل تعالَوْا أتْلُ ما حَرَّم رَبُّكم عليكم ألاّ تشركـوا به شيئا وبـالوالـدين إحسانا ولا تقتلـوا أولادكم من إملاق نحن نـرزقكم وإياهم ولا تقربـوا الفواحش ما ظهر منهـا وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ذٰلكـم وصّاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تَقْرَبُـوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدّه وأوفـوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلّف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُرْبَى وبعهد الله أوفـوا، ذٰلكم وصّـاكم بـه لعلكم تـذكـرون﴾ وأنّ هٰـذا صراطي مستقيما فـاتَّبِعُوه ولا تَتَّبِعُـوا السُّبُل فَتَفَـرَّقَ بكم عن سبيله، ذٰلـك وصّاكم بـه لعلكم تَتَّقُون﴾. فهذه الوصـايا العشر اتفقت عليها جميع شرائع النبيين والمرسلين، وتُسَمَّى الإسـلامُ بالمعنى العـامّ، أما الإسلام بـالمعنى الخاص بأمـة محمد ﷺ فهو الـذي جاء بـه القرآن العظيم والسنة النبـوية وهـو أكمل الشرائع وأتمها وأوفاهـا وأبقاها فلن ينسخ حتى ينسخ الليل والنهـار والشمس والقمر، وفي قوله عز وجل في وصف خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿كان حنيفا مسلما وما كـان من المشركين﴾ تنديـد بـاليهود الـذين قـالـوا: عُزَيـرٌ ابن الله، واتخذوا أحبارهم أربـابا من دون الله، وشبّهوا الله بخلقـه، وتنديد بالنصـارى الذين قـالوا: المسيح ابن الله، وجعلـوه وأمّـه إلٰهين من دون الله وقـالوا: الله ثـالث ثلاثة، واتخذوا رهبانهم أربـابا من دون الله، إذ كلّ من أشرك بالله لم يكن على مِلّة إبراهيم لأن إبراهيم عليه السلام لم يك من المشركين، وقد سقت قريبا في تفسير قولـه تبارك وتعالى: ﴿قل يـا أهل الكتاب تعـالَوْا إلى كلمةٍ سـواءٍ بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذ بعضنـا بعضا أربابا من دون الله﴾ كثيرا من نصوص التوراة التي بِيَدِ اليهود والنصارى والأناجيل التي بِيَدِ النصارى المقـررة بأن الله إلٰه واحد لا شريك له، فهـذه النصوص تكذب

اليهود والنصارى الـذين أشركوا بالله فيما يزعمونـه أنهم على ملّة إبراهيم أو أن إبراهيم على ملّتهم، لأنه لا يكون على ملّة إبراهيم إلا من أخلص التوحيد لله عز وجل فهم أولى النـاس بإبراهيم عليه السـلام ولذلك قال عـز وجل هنا: ﴿إنّ أَوْلَى الناس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهٰذا النبيّ والذين آمنوا﴾ أي إنّ أحقّ الناس بـإبراهيم عليـه السلام ثلاثـة أصنافٍ من النـاس، الصّنف الأول هم الذين آمنـوا بإبراهيم عليـه السلام عندمـا بعثه الله عز وجل واتبعـوا شريعته حتى بعث الله عـز وجل بعده رسـولا بشريعة جـديدة خـاصة بـه وبقومـه، والصنف الثاني شخص واحـد هو محمد ﷺ الذي جعله الله عـز وجل أشبه الناس بإبـراهيم عليه السـلام خَلْقًا وخُلُقًـا وهو دعـوة إبراهيم عليـه السلام حيث قـال: ﴿ربنا وابعـث فيهم رسولا منهم يتلـواْ عليهم آيـاتك ويعلمهم الكتـاب والحكمة ويـزكيهم إنك أنت العزيـز الحكيم﴾ أما الصنف الثـالث فهم عامّة المؤمنين الصادقين من أتباع الأنبياء والمرسلين لأنهم جميعا على نَهْج ملّة إبراهيـم عليه السلام، حيث يؤمنـون بالله وكتبه ورسله ومـلائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره وهم منقادون لأمر الله عـز وجل وقّافون عند شرعه، مؤتمرون بأوامره منزجرون عـن زواجره. وقوله عز وجل: ﴿والله وليّ المؤمنين﴾ أي والله عـز وجل نـاصر المؤمنين ومعينهم على عــدوهم، ومـوفّقهم للخير ومكرمهم ومعاملهم بجـوده وإحسانه، وقوله عـز وجل: ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لـو يضلّونكم ومـا يضلّون إلا أنفسهم ومـا يشعرون﴾ هـو تنبيه للمؤمنين إلى حرص طائفة من أهـل الكتاب من اليهود والنصارى على الصّدّ عن سبيل الله وأنهم لم يكتفوا بما هم عليه من العدول عن الحق والإعراض عن قبـول الحجج والبراهين بل يجتهـدون في إضـلال المؤمنين المستجيبين لمحمـد رسـول الله ﷺ بإلقاء بعض الشبهـات، كقولهم: مـا فائدة إرسـال محمد مـا دامت التوراة موجـودة ومحمد مُقِرٌّ بها؟ وقد تجاهلوا أن محمـدا ﷺ قد بعثه الله

عز وجل بالشريعة الكاملة الصالحة لجميع الأمم والشعوب، الناسخة لما سواها من الشرائع السابقة، وقد بشّر به النبيون والمرسلون حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل يبشر به ويقول: ﴿إنّي رسول الله إليكم مُصَدِّقا لما بين يديّ من التوراة ومُبَشِّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى حرص كثير من أهل الكتاب على إضلال المؤمنين وصدّهم عن سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وقوله عز وجل: ﴿وما يُضِلّون إلا أنفسهم﴾ أي وما يعود تمنّيهم إضلال المسلمين إلا على أنفسهم بالوبال والهلاك؛ لأن الله وليّ المؤمنين يثبّتهم على الهدى ويمكّن الحقّ من قلوبهم فلا يضرهم كيد اليهود وغيرهم من أهل الكتاب ولا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله، والإضلال يرد في اللغة بمعنى الإلقاء في الحيرة والشك والريبة، كما يرد بمعنى الإهلاك والتضييع، ومنه قول النابغة الذبياني في رثاء النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني:

فآب مضلّوهُ بعينٍ جليّةٍ ... وغُودر بالجولان حَزمٌ ونائل

أي فرجع مهلكوه وقاتلوه أو فرجع دافنوه الذين أضلوه في الأرض حيث يصير ترابًا منثورًا وأجزاء متفرقة مبعثرة، ومنه قوله عز وجل: ﴿وقالوا أإذا ضَلَلْنا في الأرض أإنّا لفي خَلْق جديد﴾، فاليهود ومَن على شاكلتهم يحرصون على إيقاع المسلمين في الحيرة والشك والارتياب ويودّون إهلاكهم وتضييعهم، والله يحفظ المؤمنين من شرورهم، ويرُدّ كيد اليهود إلى نحورهم، وقوله عز وجل: ﴿وما يشعرون﴾ أي إنهم لا يدرون ولا يعلمون أن هذا يضرهم وحدهم ولا يضر المؤمنين، وفي هذه الآية الكريمة بشارةٌ من الله عز وجل لأصحاب حبيبه ورسوله محمد ﷺ برسوخهم في الإيمان وثباتهم على

دين الإسلام بعون من وليهم فاطر السموات والأرض، وأنهم لن يصيبهم من مكر اليهود سوءٌ، وأن اليهود لعنهم الله مخذُولون مدحورون، وما أحسن قول الشاعر:

إذا كان عون الله للعبد مُسْعِفًا ... تَأَتَّى له من كل شيء مرادُه

وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأولُ ما يقْضِي عليه اجتهادُه

قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون* يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون* وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجهَ النّهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون* ولا تُؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم أو يحاجّوكم عند ربّكم، قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم* يختصّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل حرص طائفة من أهل الكتاب على إضلال المؤمنين، وبشّر المؤمنين بأنه وليّهم وناصرهم ومحبط كيد أعدائهم، وبّخ هنا أهل الكتاب من اليهود والنصارى على استمرارهم على الكفر، وعدم إيمانهم بما يشاهدونه من المعجزات التي أيّد الله تبارك وتعالى بها رسوله ﷺ، القاطعة بأنه رسول ربّ العالمين، وقوله عز وجل في مخاطبتهم: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ليس مدحًا لهم بل هو غايةٌ قصوى في الذم والتوبيخ، إذ المفروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيّدين بالمعجزات، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتاب للتوبيخ والتنديد والذم، كما تقول لمن ينحرف في سلوكه وكان أبوه صالحا: يا ابن الرجل الصالح، وأنت لا تريد الثناء على هذا المنحرف وإنما تريد توبيخه على عدم سلوكه منهج أبيه في الصلاح والاستقامة، ولذلك كرر الله تعالى في هذا المقام نداء اليهود والنصارى بأهل الكتاب توبيخا لهم وتقريعا لأنهم صاروا كمثل الحمار يحمل أسفارا، كما قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثمّ لم يَحْمِلُوها كمَثَلِ الحمار يحمل أسفارًا، بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم

الظّالمين﴾، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تلبسـون الحقّ بالباطل وتكتمـون الحقّ وأنتم تعلمـون﴾ شروع في بيـان ألـوان من قبـائح محاولاتهم إضلال المسلمين والصـدّ عن سبيل الله، وقد رسم إخـوان القردة والخنـازير مخطّطاتٍ للكيد للإسـلام يخلطون فيها الحق بالباطل، ويكتمـون ما يعلمونه من صـدق رسـول الله ﷺ، واللّبس: الخلط، كما تقـدم في تفسير قولـه عـز وجل: ﴿ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ وقد كان من مخطَّطَـاتهم عنـدمـا يُجَابَهُون بالآيـات والبراهين وبما يُـذَكَّـرون بـه من الأوس والخزرج أنصار رسول الله ﷺ حينما يقول الأنصار لليهود: ألستم أنتم الذين كنتم تذكرون لنا قـرب ظهور النبي وأنكم ستؤيدونه وتقاتلـوننا معه؟ فخطّط لهم شياطينهم أن يقـولوا: نحن نقـرّ أنه رسـول الله ولكنه مبعـوث إلى العرب وحدهم. ولا شك أن هذا من خلط الحق بالبـاطل، فإقرارهم بأنه رسول الله هو حق، وقولهم بعدم عموم رسالتـه هو باطل، وهـم يعلمون بطلانه لكنهم رأوا أن هذا اللّون من التّلبيس والتخليط أخطر أثرًا في الصد عن دين الإسلام من إنكـاره جملة وتفصيـلاً، لأن الغِـرَّ وبخـاصة مِن رِعَـاعِهِم يظنـون فيهم الإنصاف إذا قالوا ذلك فلا يـدخلون في دين الإسلام اعتقادا منهم أن محمدا رسول الله إلى العـرب خاصّـة، وقولـه عز وجل: ﴿وقـالـت طائفـة من أهل الكتاب آمِنُـوا بالذي أُنْزِلَ على الـذين آمنوا وَجْهَ النّهار واكفـروا آخره لعلهم يرجعـون﴾ هذه مكيدة خبيثة، ودسيسـة خطيرة، ومكر كُبّارٌ رسمـوهُ وقرّروه ليلبّسوا على ضعفـاء العقول من رعـاعهم وغيرهم أمر دينهم حيـث اشْتَوَرُوا بينهم أن يظهـروا الإيمان بـالنبي محمد ﷺ أوّل النهـار ويصلـوا مع المسلمين صـلاة الصبح ليشيع بين المسلمين أن هـؤلاء اليهـود آمنـوا ودخلـوا في دين الإسلام فتتوجه الأنظار إليهم فإذا جاء آخر النهار أظهروا الكفر بمحمد ﷺ ورجعـوا إلى اليهوديـة ليقـول الرّعـاع الجهلـة من الناس: إنما رجع هـؤلاء إلى

اليهودية بسبب اطلاعهم على عيب في الإسلام ونقيصة في دين المسلمين، فيقع في قلوبهم الشك في الدين الحق وينصرفون عن دين الإسلام، وفي قوله تعالى: ﴿طائفة من أهل الكتاب﴾ ولم يقل: طائفة منهم، مع أن مقتضى السياق أن يأتي بضميرهم لسبق ذكرهم حيث قال: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ، وأنتم تعلمون﴾ لكن مقتضَى الحال يقتضي التنصيص على أنّ هذه الطائفة الماكرة الخبيثة من أهل الكتاب المنحرفين عن الحق وفي قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ على الذين آمنوا﴾ تنصيصٌ على أن هؤلاء اليهود الماكرين يوافقون على أن أتباع محمد ﷺ هم المؤمنون وهذا من فضل الله على المسلمين حيث أطبقت الأمم والشعوب من سائر أنحاء الأرض مع اختلاف أديانهم على أن يطلقوا على أتباع رسول الله ﷺ اسم المسلمين وأن دينهم هو دين الإسلام، وهذه آية من آيات الله عز وجل لإظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون. والمراد بوجه النهار أوّله، قال ابن جرير رحمه الله: وسُمِّي أوّله «وجهًا» له لأنه أحسنه وأوّل ما يواجه النّاظر فيراه منه، كما يقال لأول الثوب «وَجْهُه» وكما قال ربيع بن زياد:

من كان مسرورا بمقتل مالك ... فليأت نسوتَنَا بوجه نهار اهـ

وهذا البيت من قصيدته في رثاء مالك بن زهير حينما قُتِلَ، وبعد هذا البيت يقول ربيع بن زياد:

يجد النساء حواسِرًا يَنْدُبْنَه ... يبكين قبْل تَبَلُّج الأسحار
قد كُنّ يَخْبأْن الوجوه تسترّا ... فاليوم حين بَرَزْن للنُّظّار

وكما قال لبيد:

وتضيء في وجه النهار منيرةٌ ... كجُمانةِ البحريّ سُلّ نظامها

وقد روي: وتضيء في وجه الظلام الخ، وقوله عز وجل: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ هذه صورةٌ أخرى من صور صدّ اليهود رعاعهم عن

الدخول في دين الإسلام حيث قالوا لهم : لا تصدقوا نبيّا من غير بني إسرائيل المقرين بكتب العهد القديم وحده، فلا تصدقوا القرآن ومن أنزل عليه ولا تصدقوا أهل الإنجيل لأنه زيادة على الكتب التي يقرّبها اليهود، وفي ذلك زيادة تضليل لأتباعهم ورعاعهم حيث أظهروا أنه ليس التمييز العنصري وحده هو المانع لهم عن الدخول في الإسلام بل المانع هو أنهم لن يقروا إلا لمن اقتصر إقراره على التوراة وملحقاتها من الكتب المنسوبة للأنبياء قبل عيسى، وقوله عز وجل : ﴿قل إنّ الهدَى هُدَى الله﴾ أي أخبر يا محمد اليهود والنصارى وغيرهم بأنّ دين الله الذي بعث به محمدا ﷺ هو الدين الحق، وهو سبيل الرشاد، ومن وفّق إليه وسار على منهجه فقد هُدي إلى الصراط المستقيم، لأنه دين الله الذي رضيه لخلقه، وحتّمه على عبيده وصانه من التحريف والتبديل، بخلاف اليهودية والنصرانية والوثنية فإنها هوى وليست هُدًى، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ فمن يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا، ولذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يسألوه كل يوم مرات متعددة يقولون في كل ركعة من ركعات صلواتهم : ﴿اهْدِنَا الصراط المستقيم* صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ وقوله عز وجل : ﴿أن يُؤْتَى أحَدٌ مثلَ ما أوتِيتُم أو يُحاجُّوكم عند ربكم﴾ تنديدٌ باليهود الذين يحسدون المسلمين على نعمة الله عليهم بما آتاهم من القرآن العظيم المنزّل على النبي الكريم محمد ﷺ وبما ألهمهم من الحجة البالغة على اليهود الذين يكرهون أن يتفضّل الله على أحد سواهم، أو يُنَزَّل على أحد من غير بني إسرائيل كتابٌ يفضحُ سلوكهم، ويقيم الحجة على انحرافهم وتبديلهم وتغييرهم وحقدهم وحسدهم، وقوله عز وجل : ﴿قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ أي قل لهم يا محمد : ليس إنزال رحمة الله على خلقه بأيديكم، تَحْجُرُونها على من تشتهون، إنما الأمور كلّها بيد الله

وحـده، تحت تصرفه ومشيئتـه، وعلمـه وحكمتـه ورحمته، يهدي من يشـاء فضلا ويضل من يشـاء عدلا، وهو أعلم حيث يجعل رسالتـه، وكما قال عز وجل: ﴿قل اللهم مـالك الملك تؤتي الملك من تشـاء وتنزع الملك ممن تشـاء وتعز من تشـاء وتذل من تشـاء بيدك الخير إنك على كل شيء قـدير﴾ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿والله واسع عليم﴾ أي والله عز وجل ذو سعةٍ بفضله على من يشاء أن يتفضل عليـه من عباده وهـو عز وجل ذو علم بمن هـو أهلٌ منهم للفضل وله الحجة البالغة والحكمة التامـة، وقوله عز وجل: ﴿يختص برحمته من يشـاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي والله عـز وجل يجعل رحمته مقصـورة على من يشاء ويختار من عباده، فيستعمل من يرضى عنه في طاعته، ويخصه بهدايتـه، وييسّر له أسبـاب مـرضاتـه ويجعله أهـلا لتنـزّل رحمته، بخـلاف المنحرفين عن دينه الصادّين عن سبيله، فإنه يخذلهم ولا يؤيدهـم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عـز وجل: ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾: ولـذلك حكمـةٌ ورحمةٌ هـو أعلم بها، كما خصّ بعض الأبـدان بقُوى لا تـوجـد في غيرها وبسبب عـدم القـوة قد تحصل لـه أمـراضٌ وجـوديّـة، وغير ذلك من حكمتـه اهـ وقـال ابن كثير رحمه الله في تفسيرهـا: أي اختصكم أيها المؤمنـون مـن الفضل بما لا يُحَدّ ولا يُـوصَف بما شرّف به نبيكم محمـدا ﷺ على سائر الأنبياء، وهـداكم به إلى أكمل الشرائع اهـ ولا شك أن توفيق الله عز وجل لبعض عباده لأن يعملوا بعمل أهل الجنة حتى يموتوا على الإسـلام، ويمنّ عليهم بجنات النعيم هو أبـرز مثال لرحمة الله وفضله، ولذلك سمّى الله عز وجـل الجنة رحمة، حيث يقول: ﴿ يُدْخِلُ من يشـاء في رحمتـه، والظـالمين أعـدّ لهم عـذابـا أليما﴾ وقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «احتجّت الجنة والنـار فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقـالت الجنّة:

فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما: أنّك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وأنك النـار عذابي أعذّب بك من أشاء، ولِكِلَيْكُمَا عليّ مِلْؤُها».
نسأل الله بأسمائه الحسنى وصفـاتـه العُلَى أن يـدخلنـا في رحمتـه وهـو أرحم الراحمين.

قال تعالى : ﴿ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائما، ذٰلك بأنّهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* بلى من أوفى بعهده واتّقى فإنّ الله يحبّ المتّقين* إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولٰئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى بعض قبائح أعمال اليهود وأقوالهم ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سواءً، فإن بعضهم شرح الله صدره للحق وهداه إلى الصراط المستقيم كعبد الله بن سَلَام رضي الله عنه، وهؤلاء المهتدون من أهل الكتاب صاروا مثلا أعلى في الأمانة، أما من استمر على عناده وضلاله واغتراره بما سطّره أحبار السوء لهم في التلمود من أن جميع ما تحت يد الأمميين من المال هو ملك لليهود وعليهم أن يستردّوه بكل حيلة، وأن يستخلصوه من الأمميين بكل طريق، من سلب ونهب وربا وسرقة ودعارة وخيانة، مهما قلّ هذا المال أو كثر، وقد سقت بعض النصوص التلمودية التي ملأت قلوب اليهود شرّا وبغيا وافتراءً واغترارا عند تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لن تمسَّنا النار إلا أياما معدودة﴾، وأن هذا التلمود قد اشتمل على أسوأ مبادئ التمييز العنصري ومن نصوصه أن سرقة اليهودي أخاه اليهوديّ حرام ولكنها جائزة بل واجبة مع الأممى؛ لأن كل خيرات العالم خلقت لليهود فهي حق لهم، وعليهم تملّكها بأي طريق، وفي التفريق بين من هداهم الله عز وجل من أهل الكتاب فتخلّصوا من المبادئ التلمودية واستجابوا لدين الإسلام، وصاروا قدوة في حفظ الأمانة وصيانتها وبين من خذلهم الله عز وجل فاستمروا على ضلالهم وانغماسهم في المبادئ التلمودية

التي تحضهم على الخيانة، يقول الله عز وجل هنا: ﴿ومن أهل الكتاب مَن إنْ تَأْمَنْه بقنطار يُؤَدِّه إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن تأمنه بقنطار يؤده إليك﴾ أي إن تأتمنه على المال الكثير بإيداعه عنده يحافظ لك عليه ولا يخنك فيه ويسلّمه لك متى طلبته منه، ومعنى: ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما﴾ أي ومنهم الذي إن تأتمنه على المال مهما قلّ حتى ولو كان دينارًا واحدا يخنك فيه ولا يحافظ لك عليه، ولا يسلّمه لك متى طلبته إلا أن تلحّ عليه بالتقاضي والمطالبة والتمكن من استرداده بقهر وغلبة بواسطة الحاكم أو نحوه مما لا حيلة لليهوديّ في مقاومته، وهذه خصال شرّ الناس، وقد ذكر رسول الله ﷺ في صفات أهل النار الخائنَ الذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه، كما جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، وفيه: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِطٌ متصدّق موفّقٌ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قُربى ومُسلم، وعفيفٌ متعفّفٌ ذو عيال» قال: «وأهل النار خمسةٌ: الضّعيف الذي لا زَبْرَ له الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلا ولا مالا، والخائن الذي لا يَخْفَى له طمعٌ وإن دق إلا خانه، ورجلٌ لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل أو الكذب، والشّنظير الفحّاش. وقوله في الحديث: «الذي لا زَبْرَ له» أي لا عقل له يحفظه من الشر وقوله: «لا يبتغون أهلا ولا مالا»، أي لا يسعون في تحصيل منفعة دينية ولا دنيوية ولا نفسية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميّين سبيل﴾ أي إنّ تأصّل الخيانة في نفوسهم إنما هو بسبب

اعتقـادهم أنه لا إثم عليهم ولا حـرج فيما يظلمون بـه مَن سِوَى اليهـود ممن يطلقون عليهم اسم الأمميين سواء كانوا من الأميين العرب أو كانوا من العجم من غير أهل الكتـاب، وتخصيص مـا ذكـروه من رفع الحرج عنهم في أذى الأميين لا يمنع من اعتقـادهم رفع الحرج عنهم في أذى غير العـرب الأميين؛ لأن القاعدة الأصولية أن تخصيص الشيء بالذكر لا ينفي الحكم عما عداه إذا كان القيـد قد خرج للغالب أو لبيـان الواقع. ونصوص التلمود وهـو كتاب فقههم الذي وضعـه لهم أحبار السوء منهم لا يفـرّق في وجوب إلحاق الأذى بين العرب والعجم، فالجميع عند اليهود أمميون ويطلقون عليهم أنهم كلاب وخنـازير، مع أن اليهـود هم إخوان القـردة والخنازيـر لعنهم الله وقبحهم في الدنيا والآخرة وأهلك أعوانهم وأنصارهم، وإخبار الله تبارك وتعالى عن مقالة اليهود هـذه في هذه الآيـة الكريمـة من المعجزات لأنها من خـواص أسرارهم لعنهم الله ولا تـزال إلى اليـوم مجهـولـة عنـد الكثير من علماء العـرب والعجم الذين لا يكـادون يعرفون عن التلمود شيئا، بسبـب حرص اليهود على كتمان أسرارهم كما هـو شأنهم في أسرار الماســونيـة ومـا يعـرف في عصرنـا بـاسم (بـروتـوكـولات حكماء صهيون). والعجيـب أن ما يـدبـرونـه من مخططـات إجرامية شريـرة ضدّ الإنسانية ينسبونه إلى الله عـز وجل افتراءً عليه جل وعلا ولذلك ذيّل الآيـة الكريمة هنا بقـوله عز وجل: ﴿ويقولـون على الله الكذب وهم يعلمـون﴾ وقولـه: ﴿وهم يعلمون﴾ أي وهم مستيقنـون أن هذا الـذي يـزعمونـه من رفع الحرج عنهم في أذى الأميين ليس مـوجودا في التـوراة التي بأيـديهم، ولا في كتب الأنبياء الملحقـة بالتـوراة، وإنما هو من وضع أحبـار السـوء وكَهَنَـةِ الأذى من شيـوخهم. وقولـه تبـارك وتعـالى: ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإنّ الله يحب المتقين﴾ أي ليس الأمر كما يدعي هؤلاء اليهود من أنـه ليس عليهم في أموال الأميين حـرج ولا إثم ولكن من أوفى بعهـده وأدّى

الأمانة لمن ائتمنه، وخاف الله في سره وعلانيته، ووقف عند حدوده، وصدّق رسله وآمن بما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين وعلى رأسهم خاتمهم وإمامهم وسيدهم محمد رسول الله صلى الله عليهم جميعا وسلم فإنه يكون أهلا لمحبة الله عز وجل لأنه يكون في زمرة المتقين والله يحب المتقين، أما دعوى اليهود بأنهم أبناء الله وأحباؤه وهم ينقضون العهد والميثاق ويخونون الأمانة فهي دعوى كاذبة وهم بها يفترون على الله الكذب، ويستحقّون بها غضب الله وسخطه ومقته ولعنته. وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولَٓئك لا خَلاَقَ لهم في الآخرة ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم﴾ أي إنّ الذين يستبدلون ويعتاضون ويأخذون ثمنا قليلا في نظير نقضهم لعهد الله الذي أخذه على الأنبياء والمرسلين وألزمت به الرسل أممهم، بأن يصدّقوا كل نبي يرسله الله إليهم، ويقفوا عند حدود الله، ويؤدّوا الآمانات إلى أهلها، ولا يفتروا على الله الكذب ولا يحلفوا بالله إلا وهم صادقون، أولئك الذين يستبدلون ويعتاضون ويأخذون ثمنا قليلا من حطام الدنيا الفاني وعرضها الزائل، عوضًا عن تركهم عهد الله الذي عهد إليهم ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه، هؤلاء الذين يفعلون ذلك لاحظ لهم في جنات النعيم التي يزعمون أنها لهم خاصة، ولا يكلمهم الله يوم القيامة بما يُدْخِل عليهم الأملَ في النجاة من النار، ولا بما يشعرهم في تخفيف العذاب عنهم، ولا ينظر إليهم بعين رحمته وجوده وإحسانه، ولا يزكيهم أي ولا يطهّرهم من دنس ذنوبهم ورجس كفرهم، ولهم عذاب أليم أي عقاب موجع في نار جهنم، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولَٓئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ أنّ أهل السنة

والجماعة يثبتون صفة الكلام لله عز وجل على الوجه الذي يليق برب العزة ذي الجلال، ومن كلامه تبارك وتعالى القرآن الذي سمعه جبريل من الله عز وجل وألقاه على رسول الله محمد ﷺ، وسقت أدلة كثيرة صريحة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على صحة مذهب أهل السنة والجماعة وبطلان مذهب أهل الأهواء المنكرين إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين صَبْرٍ يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان» فأنزل الله تصديق ذلك: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية، فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما يحدّثكم أبو عبد الرحمن؟ فقالوا: كذا وكذا، قال: فيّ أُنْزِلَتْ، كانت لي بئر في أرض ابن عمّ لي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال: «بَيِّنَتُكَ أو يمينه» قلت: إذًا يحلف عليها يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين صبْرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله يوم القيامة وهو عليه غضبان». وقد أورده البخاري في تفسير هذه الآية من سورة آل عمران، وفي كتاب الأيمان والنذور في باب قول الله تعالى: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تجعلوا الله عُرْضَةً لأيمانكم أن تَبَرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحوا بين الناس والله سميع عليم﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنّ ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا﴾ وفي لفظ لمسلم من طريق جامع بن أبي راشد وعبد الملك بن أَعْيَنَ سمعا شقيق ابن سلمة يقول: سمعت ابن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من حلف على مال امرئ مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان» قال عبد الله : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ إلى آخر الآية ، وفي رواية للبخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى أنّ رجلا أقام سلعة له في السوق فحلف بالله : لقد أعْطِيَ بها ما لم يُعْطَهُ ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت هذه الآية : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا﴾ الآية . والظاهر من سياق القرآن الكريم وهذه الأحاديث الصحيحة أن الآية تحمل على اليهود وعلى من حلف على يمين غموس يقتطع بها حق مسلم ، نظرا لموقعها من السياق ولعموم لفظها .

قال تعالى: ﴿وإنّ منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنّبوة ثمّ يقول للنّاس كونوا عبادًا لى من دون الله ولّكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون* ولا يأمركم أن تتّخذوا الملائكة والنبيّين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى صورًا من ضلالات اليهود والنصارى وافتراءاتهم، وما تحاوله طوائف من أهل الكتاب من وضع مخطّطات إجرامية لصدّ الرّعاع عن الدخول في دين الإسلام، وما طمأن به المسلمين من أنّ هذه المحاولات اليهودية لن تزعزع من عقائد أصحاب رسول الله ﷺ ولن تُزلزل أقدامهم الراسخة في الحق الثابتة على الهدى، وذكر ما توعّد به الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا، ذكر هنا قاصمة من قواصم ظهور اليهود وعملا بشعا من أعمالهم الملتوية لبيان شناعتهم وتقبيح أمرهم وفظاعة جرأتهم في الافتراء على الله، والاستهتار بعقول النّاس حيث يقول عز وجل: ﴿وإنّ منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ أي وإن من أهل الكتاب لفريقا أي طائفة وجماعة وهم اليهود وبخاصة من كان منهم حول مدينة رسول الله ﷺ فإنهم كانوا يحاولون الاستدلال على ما يفترونه من الكذب وعلى أن الحق معهم بجمل يكتبونها بأيديهم، ويدخلونها بين صفحات كتبهم الدّينية التي ينسبونها إلى أنبياء بني إسرائيل ثم يأخذون في قراءة ما كتبوه بأيديهم على الطريقة التي يقرؤون بها كتبهم الدينية بليّ ألسنتهم بالتطريب والإتيان بنغمات صوتية خاصة مع غنّة شديدة ومدّ بالخياشيم ليظنّ من يسمع قراءتهم هذه أن هذا الذي يقرءونه هو

من الكتب التي ينسبونها إلى الأنبياء، ومع أن هذا اللون من الكذب هو أقبح الكذب وأفحشه وأبشعه فإنهم لم يكتفوا بهذا التضليل والتدجيل بل كانوا إذا انتهوا من قراءتهم لما افتروه قالوا لمن يسمعهم من المسلمين أو رعاعهم: هذا كلام الله المنزّل على أنبيائه. والواقع أنه ليس بكلام الله، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي ويدّعون لمن يسمع قراءتهم لما افتروه أنَّ هذا هو كلام الله المنزل على الأنبياء والمرسلين. وما هو بكلام الله، وهم يفترون على الله الكذب وهم مستيقنون أنهم كاذبون على الله، مجترئون في الافتراء، ولذلك كانوا أقبح الناس جرما وأفحشهم ظلما كما قال عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحِيَ إليّ ولم يُوحَ إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته، أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذّب بآياته، إنه لا يُفلح المجرمون﴾. وكما قال عز وجل: ﴿ومَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا، أولَئك يُعرَضون على ربهم ويقول الأشهادُ هٰؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين* الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة هم كافرون﴾ والمراد بالكتاب في قوله عز وجل: ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ هو ما يكتبونه بأيديهم من عند أنفسهم، والمراد بالكتاب في قوله عز وجل: ﴿لتحسبوه من الكتاب﴾ أي من كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله، وكما قال عز وجل: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً فويلٌ لهم ممّا كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون﴾ وأصل اللّيِّ هو عطف الشيء وتحريفه وإمالته عن

استقامته إلى الاعوجاج، يقال: لويتُ يده إذا فتلْتها، ومنه قول فرعان بن أصْبَح بن الأعرف في ولده مُنازِل:

تحوّل مالي ظالما ولَوى يدي — لوَى يَدَهُ الله الذي هو غالبه

ومن ليِّ ألسنة اليهود قولهم لعنهم الله في خطابهم لرسول الله ﷺ: راعنا، وقولهم له ﷺ: السام عليكم، بدل: السلام عليكم، وقد بين الله تبارك وتعالى في جملة انحرافاتهم وسوء أفعالهم وأقوالهم اللّيّ بألسنتهم حيث يقول عز وجل: ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعِنا لَيًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين﴾. وقوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله﴾ كان الكلام من أول السورة إلى هذا المقام الكريم لتحقيق التوحيد وتقرير الرسالة وتقريع أهل الكتاب على شركهم بالله ومخالفة ملة إبراهيم إمام الحنفاء وفضح مخططات اليهود الإجرامية ضد دين الإسلام، الذي هو دين الله الذي ارتضاه لخلقه وبعث به سيد رسله محمدا ﷺ، ولما كان سبب نزول صدر هذه السورة إلى هذا المقام هو ما أثاره نصارى نجران من الشّبه على أن عيسى هو ابن الله وما يزعمه النصارى عامةً من أن عيسى وأمّه إلَهان من دون الله بسَطَ الله عز وجل قصة اصطفاء الله لآل عمران وميلاد مريم وعيسى عليهما السلام وأقام الأدلة القاطعة والحجج الثابتة على أن عيسى عبد من عبيد الله وأن الذي أوجده من غير أب هو الذي أوجد آدم من غير أب ولا أم، ذكر هنا ما يؤكّد بطلان ادعاء النصارى أن عيسى إلَهٌ، وأن هذا القول العاطل الباطل من مفتريات النصارى على المسيح ابن مريم عليه السلام حيث يندّد عز وجل بعقولهم مشيرا إلى أن من له أدنى مُسْكة من عقل لا يصدّق أن رجلا من بني آدم يتفضل الله عز وجل عليه بإيتائه الإنجيل، ويرزقه العلم والنبوة ثم يدعو الناس إلى عبادته من دون الله مع أن

أوّل دعوة يـوجهها الرسول إلى قـومه أن يقول لهم: اعبدوا الله مـا لكم من إلّه غيره واجتنبوا الطـاغوت، ولذلك يقـول عز وجل: ﴿وإذ قـال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلّهين من دون الله قال سبحانك ما يكـون لي أن أقول مـا ليس لي بحق، إن كنتُ قلتُه فقـد علمتَهُ، تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك، إنك أنت علاّم الغُيـوب* ما قلت لهم إلا مـا أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربّكم﴾ والبشر هـو الإنسان. وقوله عز وجل: ﴿ما كـان لبشر أن يؤتيـه الله الكتاب والحكم والنبـوة ثم يقـول للناس كـونوا عبادا لي من دون الله﴾ أي ما يتأتّى في العقل أن يصطفي الله إنسانا ينزل عليه الكتـاب ويرزقـه العلم والنبوة ويـرسله إلى قـومه لتخليصهم من الشرك بـالله فيقـول لهم: اعبدوني وأشركـوا بالله. ويعبّرُ عن هـذا النوع من النفي بـالنّفي التام، لأن نحو قولك: ما كان لزيد أن يفعل هذا، يجيء على قسمين: قسم يكـون النّفي فيـه من جهـة العقل ويعبّر عنه بـالنفي التـام أي مـا يتأتى ولا يتصـوّر حـدوثه وحصـولـه، كهـذه الآية، لأن الله تعـالى لا يعطي الكتـاب والحكم والنبوة لمن تتأتى منـه هذه المقـالة الشنيعة البشعـة، ونحوه قولـه عز وجل: ﴿ما كـان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ ونحـو قوله عز وجل: ﴿ومـا كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ والقسم الثـاني يكـون النفي فيـه بمعنى مـا ينبغي، كقـول أبي بكرٍ الصدّيـق رضي الله عنه: مـا كان لابن أبي قحـافة أن يتقـدم فيصلّي بين يـدي رسـول الله ﷺ. وقولـه عـز وجل: ﴿ولّكن كـونـوا ربّانيين بما كنتم تعلّمـون الكتاب وبما كنتم تدرسـون﴾ أي ولكن من آتاه الله الكتاب والحكم والنبـوّة فإن الذي يتطابق فيـه العقل والشرع والطبع أن يقول لهم: ﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون* ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ وإن الذي يخطـر ببالـه أن الرسـول المبعوث من الله عـز وجل لدعـوة عباد الله إلى

توحيد الله يخون الرسالة ويـدعو إلى عبادة نفسه أو عبادة الملائكة والنبيين من دون الله، الذي يخطر ببـاله ذلك جاهل بالله عز وجل جهـلا مُطْبقا وجاهلٌ بـرسل الله جهلا مطبقًـا، وهـو في نفس الحال ينسب إلى الله عز وجل عـدم العلم بما يصطفي ويختار، ولا يتأتّى ذلك إلا من كافـر فاجر جاهل، فكيف يخطر ذلك ببال من يدّعي أنه مـن أهل الكتاب؟ ومعنى: ﴿كونوا ربّانيين﴾ أي كونوا حكماء حلماء علماء بإخلاص العبادة لله وحده ومعرفة حقوق ربكم عليكم ووضع الأمور في مواضعها وأدّوا لكل ذي حق حقّـه، والربانيون جمع ربّاني، وهو منسوب إلى رَبّان، والرَّبّان هو المعلم للخير ومن يسوس الناس ويعرّفهم أمـور دينهم وأسباب سعادتهم، قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: وقال علي رضي الله عنـه: الربـانيون هم الذين يغـذّون الناس بـالحكمة ويربـونهم عليها اهـ وقـوله عز وجل: ﴿بما كنتم تُعلّمـون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي بسبب كونكم صرتـم علماء معلمين غيركم الذي أنزله الله على رسولكم من الكتاب، وبسبب كونكم صرتم دارسين لهذا الدين الذي تفضل الله عليكم به لتخـرجوا من الظلمات إلى النور ومن الشرك إلى التوحيـد، وفيه حضّ على وجوب نشر العلم ودراسته وتدريسه فإنّ من سلك طريقا يلتمس فيـه علما سلك الله به طـريقا إلى الجنـة، وقولـه عز وجل: ﴿ولا يأمـركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمين﴾ قوله: ﴿ولا يأمركم﴾ بالنصب معطـوف على قوله: ﴿ثم يقول للناس كـونوا عبادا لي﴾ وتوسيط الاستـدراك بين المعطوف والمعطـوف عليه للمسـارعة إلى تحقيق الحق في بيان مـا يليق بشأن الرسـول ويحقّ صدوره عنه، وتخصيص التنـديد بمن اتخذ الملائكـة والنبيين آلهة لأن أهل الكتاب هم أكثـر من عبد الملائكـة والنبيين من دون الله مع اتخاذهـم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله. وقوله عز وجل: ﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ صريح في كفر من يتخذ

الملائكـة والنبيين أربـابـا ، والاستفهام فيـه للتقـريع والتـوبيخ لهؤلاء الـذين انتكست فطرتهم وانقلبت موازينهم ، وانطمست بصائرهم فصاروا يظنون أن أنبيـاء الله المبعوثين بـالتوحيـد يـدعون إلى عبـادة أنفسهم أو عبادة الملائكـة والنبيين ، ولا يُسْتَكْثـر على هؤلاء المجـرمين أن يظنوا أن رسل الله يأمـرون من أسلم أن يعـود إلى الكفر وعبـادة الطـاغوت . وهـذا لا يخطـر ببال أحـد من العقلاء ، سبحان ربك رب العـزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

قال تعـالى : ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتـاب وحكمة ثم جاءكم رسـول مصدّق لما معكم لتـؤمنُنّ به ولتنصرنّـه ، قال أأقررتـم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين* فمن تولّى بعد ذٰلك فأولٓئك هم الفـاسقون* أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السمٰوات والأرض طوعـا وكرْهًا وإليه يُـرجعون* قُل آمنّا بالله ومـا أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيـون من ربّهم لا نفرّق بين أحـد منهم ونحن له مسلمـون* ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين . ﴾

بعد أن بيّن الله بـالدليل القطعي أن رسل الله عـز وجل إنما جاءوا بتـوحيد الله تبـارك وتعـالى وأنـه المعبـود بحق لا شريك لـه ونـزّه رسلـه أن ينـاقضـوا التوحيد ، وأنه يستحيل أن يقع من الرسل أن يـدعوا أحدًا لعبادتهم أو عبادة الملائكة ، أو يأمـروا من أسلم بالكفـر ، وفي هذا تقريـر لتوحيـد الله عز وجل وتنـزيهه عن الشريك بأبلغ برهـان وأقـوى دليل ، ذكر هنـا أن جميع رسل الله عليهم الصـلاة والسلام يصـدّق بعضهم بعضـا لأن الله عـز وجل قد أخـذ عليهم العهد والميثاق بذلك ، وأن رسل الله عليهم الصلاة والسلام قد أعلنوا لأممهم هذه الحقيقة ، والمقصود من ذلك تقرير الرسالة على أكمل وجه ، وأنه لا عذر لمن يدّعي أنه من أتباع النبيين ثم يكذّب سيد المرسلين وخاتم النبيين محمـدًا ﷺ فمن أعـرض عن الحق الـذي جـاء بـه محمـد ﷺ فأولٓئك هم الفاسقـون ، لأن الله لا يقبل من أحد دينا سوى دين الإسـلام . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعـالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثـم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتـؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقـررتم وأخـذتم على ذٰلكم إصري قالـوا أقررنـا﴾ : يخبر تعالى أنـه أخذ

ميثاق كلّ نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام : لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ أيّ مَبْلَغ ثم جاء رسولٌ من بعده ليؤمننّ به ولينصرنّه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتّباع من بعث بعده ونصرته ، ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري﴾ اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : معنى ذلك : الخبر عن أخذ الله الميثاق من أنبيائه بتصديق بعضهم بعضا ، وأخذ الأنبياء على أممها وتُبّاعها الميثاق بنحو الذي أخذ عليها ربّها من تصديق أنبياء الله ورسله بما جاءتها به ؛ لأن الأنبياء عليهم السلام بذلك أرْسِلَت إلى أممها ، ولم يدّع أحدٌ ممن صدّق المرسلين أن نبيا أُرسل إلى أمة بتكذيب أحد من أنبياء الله عز وجل وحججه في عباده ، بل كلّها ــ وإن كذّب بعض الأمم بعض أنبياء الله بجحودها نُبُوّته ـ مقرّةٌ بأنّ من ثبتت صحةُ نبوّته فعليها الدّينونة بتصديقه ، فذلك ميثاق مقرٌّ به جميعهم اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته المسماة بالتدمرية : والله تعالى جعل من دين الرسل أنّ أولهم يبشّر بآخرهم ويؤمن به ، وآخرهم يصدّق بأولهم ويؤمن به . قال الله تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ قال ابن عباس : لم يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حيّ ليؤمنن به ولينصرنّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنه . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أيضا في جواب من سأله عن من عزم على فعل محرم عزما جازما فعجز عن فعله هل يأثم بمجرد العزم أم لا؟ وبعد

تمهيد في أحوال القلوب والأدلة، ووقوع عظيم المدح والثناء لأئمة الهدى، وعظيم الذم واللعنة لأئمة الضلال، وأشار إلى أن إبليس هو رأس أئمة الضلال وأن محمدا رسول الله ﷺ هو رأس أئمة الهدى قال رحمه الله: فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم، كما قال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر، وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به، كما أخذ على كل نبيّ أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء، ويصدّق بمن بعده، قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه﴾ الآية، فافتتح الكلام باللام الموطّئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قَسَم وشرط، وأدخل اللام على (ما) الشرطية ليبيّن العموم، ويكون المعنى: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبيّ المصدَّق الإيمانُ به ونصرُهُ، كما قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه اهـ والتعبير بقوله: لئن بعث محمد وهو حيّ، مع علم الله عز وجل أن محمدا ﷺ لن يبعث وأحدٌ من الأنبياء حيٌّ على الأرض، فالمقصود به تأكيد بعثته ﷺ لكل نبي من الأنبياء ليؤكّدوا على أممهم وجوب المبادرة والمسارعة إلى تصديقه والاستجابة له ﷺ وذلك لعموم دينه وشموله وكماله وبقائه إلى يوم القيامة وحيث خصه الله عز وجل بإرساله للعالمين ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري﴾ أي أأذعنتم لما أخذته عليكم من الميثاق وقبلتموه والتزمتم به، والإصر هو العهد والميثاق الشديد المؤكد. وقوله عز وجل: ﴿قالوا أقررنا﴾ أي قالوا: أذعنَّا لأمرك والتزمنا بعهدك وقبلنا هذا الميثاق، وقوله عز وجل: ﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ أي فكونوا

شهداء على أممكـم بأنكم بلغتموهم الميثـاق الذي أخذه الله عليكـم بالإيمان برسولي ونصرته وأنا شاهد معكم عليهم وكفى بالله شهيدا. وفي هذا الإخبار من التحذير والتأكيد مـا يحمل ذوي العقول على المسارعة والمبادرة إلى الإيمان بمحمد رسـول الله ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿فمن تـولى بعد ذٰلك فأولٓئك هم الفـاسقون﴾ أي فمن أعـرض عن الإيمان بمحمد ﷺ وعن نصرتـه بعد هـذا البيـان الشافي الكـافي فهؤلاء المعـرضـون المكذبـون هم الفاسقـون الخاسرون المنحـرفون عن وصـايا أنبيـاء الله ورسله، وقـوله عـز وجل: ﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السّمٰوات والأرض طوعا وكرهًا و إليه يُـرجعون﴾ هذه الآيـة هي ختـام المسك للآيـات التي أنـزلها الله عـز وجل للـرد على ما أثـاره نصارى نجـران وغيرهم من اليهود والوثنيين من الشّبه، وهي ثـلاث وثمانون آية، أكّـد الله عز وجل فيهـا أن الدين عند الله الإسـلام وأن الله لن يقبل من أحد مهما كان دينـا سواه، وأنه لن يدخل أحد الجنة بعـد بعثة رسول الله ﷺ بهذا الدين إلا من طريقه، وأن عيسى عبـد الله ورسوله ليس إلٰها ولا ابن إلٰه، وأنـه يجب على جميع الأمم أن تسـارع إلى كلمـة الحق فـلا يعبـدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآيـة الكريمة: يقـول تعالى منكرًا على من أراد دينًـا سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك لـه، الذي لـه أسلم من في السمـوات والأرض، أي استسلم لـه من فيهما، طوعًا وكـرها، كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السمـوات والأرض طوعًا وكرهًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أو لم يـروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدا لله وهم داخرونَ* ولله يسجُدُ ما في السمٰوات وما في الأرض من دابـة والملائكـة وهم لا يستكبرون* يخافـون ربّهم من فـوقهم و يفعلون ما يؤمرون. ﴾ فالمؤمن مستسلـم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم

لله كرهًا، فإنه تحت التّسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالفُ ولا يمانع اهـ وقوله عز وجل: ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنّبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ قد تقدم تفسير هذه الآية في تفسير شبيهتها وهي قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ وقد ذكرت في تفسيرها أنّ هاتين الآيتين الكريمتين آية البقرة وآية آل عمران هذه من المتشابه المثاني الذي ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني﴾، على أن لكل واحدة من هاتين الآيتين الكريمتين المتشابهتين من الخواص والسّمات ما يناسب المقام الذي وردت فيه، وقوله عز وجل: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي ومن يرغب في دين غير دين الإسلام فقد ضيّع نفسه في الدنيا ولن يستجيب الله له إذا دعاه، ولن ينتفع بعمل يعمله كصلة الأرحام وإطعام الطعام والإحسان إلى الأيتام كما قال عز وجل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورًا﴾ وكما قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ». وفي رواية لمسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردّ».
وقد حكم الله عز وجل بخسران أعداء الإسلام في الآخرة، وقضى بشقاء كلّ من أعرض عن هذا الدين الحنيف. وإذا كان مجرّد طلب وابتغاء غير دين

الإسـلام يوجب الـرّدّ والخسران فلا شكّ أن تكـون حالُ من تـديّن بغير دين الإسـلام أفظع وأبشـع وأقبح. نسأل الله بأسمائه الحسنى أن يثبّتنـا بـالقـول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال تعالى: ﴿كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرّسول حقٌّ وجاءهُم البيِّناتُ، والله لا يهدِى القوْمَ الظالمين* أولَئك جزاؤُهم أنّ عليهمْ لَعْنةَ الله والملائِكةِ والنَّاسِ أجمعِينَ* خالِدينَ فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العَذابُ ولاَ هُمْ ينظرونَ* إلاّ الّذين تابوا مِنْ بعدِ ذٰلك وأصلحُوا فإنّ الله غفورٌ رحيمٌ* إنَّ الّذينَ كفروا بعد إيمانِهم ثمّ ازدادُوا كفرًا لن تُقبل توبتهم وأولَئكَ هم الضّالون* إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّارٌ فلن يُقبل من أحدهمْ ملْءُ الأرض ذهبًا ولو افتدى به أولَئكَ لهم عذابٌ أليمٌ وما لهم من ناصرينَ* لَنْ تنالُوا البرّ حتّى تُنفِقوا ممّا تُحبّون، وما تُنفقوا من شيءٍ فإنّ الله به عليمٌ﴾.

بعد أن قرر الحقّ جلّ وعلا أن الدين عند الله الإسلام وندّد أشدّ التنديد بأهل الكتاب الذين يَصُدُّون عن هذا الدين الحق، دين الله الذي أسلم له من في السموات والأرض طوعا وكرها بلسان الحال أو بلسان المقال، وأن الإسلام هو دين جميع النبيين والمرسلين، وأن من ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، بيّن هنا الوعيد الشديد لأئمة الضلال من اليهود والنصارى وغيرهم ممن عرف الحقّ وشهد الحجج والبراهين والمعجزات التي أيّد الله بها رسوله محمدا ﷺ ثم استمر على ضلاله وكفره أو أسلم ثم ارتد عن الإسلام، وأن هؤلاء يستحقون لعنة الله ولعنة كلّ لاعن في السموات أو في الأرض، وأن بصائرهم قد انطمست فصارت غير متأهّلة لهدى الله عز وجل، وأن من هؤلاء من علم الله عز وجل أنهم يموتون على الكفر، وأن منهم من يتوب، وأن من تاب منهم قبل الله توبته. وفي تصدير الكلام بقوله عز وجل: ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا﴾ لإراحة بال رسول الله ﷺ من شدة حرصه على هداية هؤلاء وإسلامهم، كما قال عز وجل: ﴿فلعلّك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا﴾

وكما قال عز وجل : ﴿لعلّك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين﴾ . وقد مرّ مثلُ الوعيد الذي جاء في هذا المقام حيث قال عز وجل في سورة البقرة : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولَئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون* إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولَئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ . وهي توضّح أن الذين لا يهديهم الله أبدًا هم من عَلِم جل وعلا أنهم يموتون على الكفر، وأن قلوبهم لن تقبل الهدى، أما من علم الله أن قلوبهم تقبل الهدى فهم الذين أشار إليهم في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولَئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم﴾ وذكرهم هنا بقوله عز وجل : ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في سياق تفسير قوله تعالى : ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم* وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾ قال رحمه الله : فإن قيل : فقد قال تعالى : ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا لن تُقْبَلَ توبتهم وأولَئك هم الضالّون﴾ وقال تعالى : ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ قيل : إنّ القرآن قد بيّن توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقّ وجاءهم البينات ، والله لا يهدي القوم الظالمين* أولَئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون* إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم﴾ وقوله : ﴿كيف

يهدي الله﴾ أي إنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين، ولهذا قال: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً، لا يحصل له الهدى إلى أيّ دين ارتدّ، والمقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا. وكذلك قال في قوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِهَ﴾ ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتدّ، قال: ﴿ثم إنّ ربّك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ﴾ وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تُقبل توبتهم وأولَئك هم الضالون* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقْبَل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به، أولَئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا، قيل: لنفاقهم، وقيل: لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل: لن تُقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تُقبل توبتهم حين يحضرهم الموتُ، فيكون هذا كقوله: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفّارٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿ازدادوا كفرا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا. قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر فقوله: ﴿ثم ازدادوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصرّوا على الكفر، واستمرّوا على الكفر، وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم، ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب

ورجع عن كفره فلم يزْدَدْ، بل نقص، بخلاف المُصِرِّ إلى حين المعاينة فما بقي له زمانٌ يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه. وفي الآية الأخرى قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ وذكر أنّهم ﴿آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا﴾ قيل: لأن المرتد إذا تاب غُفر له كفره فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». فلو قال: إنّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إنّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك وهو المرتدّ التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرًا فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنّ الذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به﴾ أي من مات على الكفر فلن يُقْبَل منه خير أبدا ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربةً، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قُبِلَ منه كما قال تعالى: ﴿ولا يُقْبَلُ منها عدلٌ ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلال﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذاب أليم﴾ فمن مات كافرا لا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ووزنها من جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها ذهبا ما تُقبّل منه، وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث

أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ قال: فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيتَ إلا أن تشرك». وقوله عز وجل: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون، وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ بعد أن بيّن الله عز وجل أن الإنفاق في وجوه الخير لن ينفع الكافر لأن الكفر قد أحبط عمله، أشار تبارك وتعالى هنا إلى أن الذين ينتفعون بما يبذلون لله هم المؤمنون الباحثون عن البر الراغبون فيه الطالبون للجنة، وعرّفهم أفضل الطرق إلى ذلك وهو الإنفاق من المال على حبه، وقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء، وكانت مستقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإنّ أحبّ أموالي إليّ بَيْرُحَاء، وإنها صدقةٌ لله أرجو برّها وذُخْرها عند الله تعالى فضَعْها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخٍ بخٍ، ذاك مالٌ رابح، ذاك مالٌ رابحٌ، وقد سمعتُ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. اهـ والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة



يُوَزَّعُ مَجَّانًا وَلَا يُبَاعُ

تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الثالث

ⓒ عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء
الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦ -٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦-٧٧٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ص.ب١٣٢٧٧ موبايل :٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى: ﴿كلّ الطّعام كان حلاً لبني إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أنْ تنزّل التوراةُ، قُل فأْتوا بالتّوراةِ فاتلُوهَا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فمنِ افترَى عَلَى الله الكذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلك فأُولَئِكَ هُمُ الظّالمونَ* قُلْ صَدَقَ اللهُ، فاتّبِعُوا ملّةَ إبْرَاهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ منَ المُشْرِكِينَ﴾

بعد أن أكّد الله عز وجل أن الدين الحقّ هو دين الإسلام وأن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلماً وما كان من المشركين، وأن من مات على غير الإسلام لن يدفع العذابَ عنه شيء ولو كان له مثل ملء الأرض ذهبا وافتدى به من عذاب الله ما تُقُبّل منه وأن الذي ينتفع بما ينفق هو المسلم المستقيم على الحنيفية ملة إبراهيم، وعرّف المسلمين فضل نفقتهم مما يحبون، وقد أثار اليهود لعنهم الله عز وجل شبهًا حيث قالوا للنبي ﷺ: إذا كنت على ملة إبراهيم فلماذا تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها وقد كانت محرّمة على إبراهيم؟ وأرادوا بإثارة هذه الشبهة الداحضة الخاطئة أيضا إنكار النسخ في الشرائع وأن ما حُرّم على الناس كان مُحَرّما عليهم من لدن آدم عليه السلام، كما أرادوا إثارة الشّبه حول صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وأنكروا أن يكون إبراهيم هو الذي بنى البيت الحرام بمكة، وكانت هذه الشُّبَهُ التي أثاروها سببًا في خزيهم، وتعريف الأمم بجهالتهم وافترائهم على الله وعلى رسله، إذ صاروا كالشاة التي بحثت عن حتفها بظلفها، حيث أعلن عز وجل للعالمين صدق رسوله ﷺ وأنه علّمه ما لم يكن يعلمهُ هو ولا قومه، وعرّف المسلمين بأنهم على المحجة البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وأقام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة المخزية لليهود، إذ قرر عز وجل أن سائر الأطعمة ومنها لحوم الإبل وألبانها التي أباحها الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ وللمسلمين كانت مباحة لإبراهيم عليه السلام ولذريته من أبناء إسماعيل

وإسحاق ويعقـوب، وتحداهم أن يأتوا من التوراة التي بأيديهم بـدليل واحد بأن لحوم الإبل وألبـانها كانت محرمـة علىٰ إبراهيم عليه السـلام، وأفهمهم أن تحريمها إنما صـدر من إسرائيل عليه السـلام حيث حرّمهـا على نفسه لسبب من الأسباب التي دعته إلى ذلك، وقد يكـون حرّمها على نفسه ازدلافا إلى الله عز وجـل وهو يحبّهـا، كما حرّم رسول الله ﷺ العسـل على نفسه وهـو يحبه، وتتضح بهذا المناسبـةُ بين قوله تعالى في الآيـة السابقة: ﴿لن تنـالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وبين قوله عز وجل: ﴿كلّ الطعام كان حلاّ لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه﴾ غير أنـه في الشرائع السماوية السابقة كان إذا حلف الإنسان ألا يأكل طعامًا معينًا صار هذا الطعام محرّما عليه طول عمره ولا كفارة لـه، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمـة محمد ﷺ حيث شرع لهم الكفارة وفـرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عـز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم، والله مولاكم وهـو العليم الحكيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله: وما كـان مبـاحا قبل اليمين إذا حلـف الرجل عليـه لم يَصِرْ حراما، بل له أن يفعله ويكفّـر عن يمينه، وما لم يكن واجبا فعله إذا حلف عليه لم يَصِرْ واجبا عليه، بل له أن يكفّر يمينه ولا يفعله، ولو غلّظ في اليمين بأيّ شيء غلّظها، فأيمان الحالفين لا تغيّر شرائع الدين، وليس لأحد أن يحرّم بيمينه مـا أحله الله، ولا يوجب بيمينـه ما لم يـوجبه الله، هذا هـو شرع محمد ﷺ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حـرّم الرجل شيئا حَرُمَ عليه، وإذا حلف ليفعلنّ شيئا وجب عليه، ولم يكن في شرعهم كفارةٌ، قال تعالى: ﴿كلّ الطعـام كان حـلاّ لبني إسرائيل إلا ما حـرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزّل التوراة﴾ فإسرائيل حرّم على نفسه شيئا فَحَرُم عليه، وقال الله تعالى لنبينا: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله

غفور رحيم﴾ قد فرض الله لكم تَحِلّة أيمانكم﴾ وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين﴾ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عَقَّدْتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذُلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم، واحفظوا أيمانكم، كذٰلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ ولهذا لمّا لم يكن في شرع من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه، أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضِغْثًا فيضرب به ولا يحنث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضِغْث اهـ والتقييد بقوله عز وجل: ﴿من قبل أن تُنَزّل التوراة﴾ لأنه بعد إنزال التوراة على موسى عليه السلام حرّم الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال عز وجل: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظُفُر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذُلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾. وبهذا يتضح جهل أهل الكتاب بكتابهم، وينبلج الحق المصدّق لرسول الله ﷺ وما علّمه الله عز وجل من خواص شريعة أهل الكتاب وأسرارهم، وصارت شبههم سببا في إعلاء راية الإسلام وبيان فضله كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طِيب عَرْف العودِ

وبهذا يتضح أن النسخ الذي ينكر اليهودُ قبحهم الله جوازَه قد وقع في

شرائع أنبيائهم، فهم لا يستطيعون إنكار أن آدم عليه السلام قد شرع الله له أن يزوّج بناته من بنيه ثم حرّم الله ذلك بعد ذلك، وأن التّسرّي على الزوجة كان مباحا في شريعة إبراهيم عليه السلام حيث تسرّى هاجر على سارة رضي الله عنها ثم حُرّم في بعض شرائع بني إسرائيل، وأن الجمع بين الأختين قد أبيح ليعقوب عليه السلام ثم جاء تحريمه بعد ذلك في التوراة التي بأيديهم.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرّمة على إبراهيم عليه السلام فهاتوا التوراة واقرؤوها من أولها إلى آخرها إن شئتم وأظهروا لنا نصّا واحدا منها يصدّقكم في دعواكم أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام، وهذا برهان من أبرز البراهين وأجلاها وأسطعها على أن اليهود كذبةٌ فجرةٌ لا يتورعون عن الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله وأن النبي الأميّ محمدا ﷺ قد أعلمه الله وأطلعه على خفايا أسرار التوراة التي بيد اليهود والنصارى، وأن علماء وأحبار أهل الكتاب الذين كذّبوا رسول الله ﷺ وأثاروا الشبه للصد عن سبيل الله كانوا كمثل الحمار يحمل أسفارا، ولم ينقل أحد قط أن اليهود حاولوا أن يجيئوا بالتوراة وإنّما اندحروا خاسئين، وهذا التحدي بقوله تعالى: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ غير التحدي الذي تحداهم به رسول الله ﷺ لما تحاكموا إليه في أمر الرجل والمرأة الزانيين من اليهود وسألهم رسول الله ﷺ عن حكم الزناة في التوراة، وقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال: فأتوا بالتوراة، فإنهم جاءوا يومها بالتوراة وقرأها رجل منهم لكنه حاول إخفاء نص التوراة في الزناة، حيث وضع يده على آية الرجم، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون،

قال عبد الله بن سَـلاَم رضي الله عنه : كذبتم إنّ فيها الرجم ، فأتـوا بالتوراة ، فنشروها ، فوضع أحدهم يـده على آية الرجم فقرأ ما قبلها ومـا بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يـدهُ ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمـد فيها آية الرجم ، فأمـر بهما رسول الله ﷺ فرُجما ، فـرأيت الرجل يحني على المرأة يقيهـا الحجـارة . وقد أورد البخـاري هـذه القصـة في مـواضع من صحيحـه بألفــاظ متقـاربـة ، حيث أورده في المناقـب والحدود والتـوحيـد والتفسير، وجعله في التفسير في باب قـوله تعالى : ﴿قل فأتوا بالتوراة فـاتلوها إن كنتم صادقين﴾ ولا شك أن قـوله تعـالى : ﴿قل فأتوا بالتـوراة فاتلـوها إن كنتم صادقين﴾ لم يكن في قصـة اليهوديين الزانيين ، بل كان في قصـة دعوى اليهود تحريـم لحوم الإبل وألبانها على إبراهيـم عليه السلام ، ولعـل البخاريّ رحمه الله قد أورد هـذا الحديث عند تفسيرها لمجرد قـوله في الحديث في بعض ألفاظه : فقـال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم فـأتوا بالتوراة فاتلـوها إن كنتم صادقين ، والمعروف عن البخاري رحمه الله أنه قد يورد الحديث في موضع من صحيحه لأدنى منـاسبة ، والظاهر أن نـزول هذه الآية كان متقـدما على قصة هذا الحديث ، فذكر عبد الله بن سـلام رضي الله عنه هذا اللفظ مستفيدا من لفظ الآية الكـريمة ، وليس قـوله تبارك وتعـالى : ﴿فأتوا بالتـوراة فاتلـوها إن كنتم صادقين﴾ دليلا على صحة الاحتجاج بكل ما في التوراة التي بيد اليهود والنصـارى لعنهم الله ، بل المراد فضـح اليهـود وبيـان كـذبهم على الله وعلى رسله ، والاستشهاد عليهم ببعض النصوص المطابقة لملة إبراهيم التي انحرفوا عنها ، ولم يصبها تحريفهـم الذي وقعوا فيه . وقولـه عز وجل : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذٰلك فأولٰئك هم الظالمون﴾ هـو وعيد شديد لليهود الذين يفترون على الله الكـذب ، ويقولون على الله وعلى أنبيـائه مالا علم لهم به ، أو مـا يعلمون أنهم مفترون فيـه على الله وعلى رسله ، وقـوله : ﴿مـن بعد

ذٰلك﴾ أي من بعد ظهور هذه الحجة القاهرة الدالة على صدق رسول الله ﷺ حيث أخبر أحبار اليهود بأنه لا يوجد دليل واحد بأيديهم على أن إبراهيم كان يحرّم لحوم الإبل وألبانها، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة، التي بأيديهم ويقرءوا لإثبات ما يدعونه على إبراهيم فاندحروا، وبُهتوا، ولم يحاول واحد منهم أن يستجيب ويحضر التوراة، فعلم قطعا أن هذا العلم الذي علّمه الله للنبي الأمي هو وحيٌ من الله عز وجل الذي يعلمُ الغيب والشهادة. وقوله عز وجل: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود المفترين على الله ورسله: إن خبر الله هو الخبر الصادق، وإنّ قوله هو القول الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فسارعوا يامعشر أهل الكتاب ويا من يدّعي كذبا وزورًا أنه على ملة إبراهيم إلى الاستجابة لمحمد ﷺ لتصيروا حقا على ملة إبراهيم وادخلوا في دين الإسلام الذي هو الحق الذي لا مرية فيه وهو المنهج الذي لم يأت نبيّ ولا رسولٌ بأكمل ولا أبين ولا أوضح ولا أتمّ منه، الصالح لكل زمان ومكان وعصر ومصر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملّة إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنا، ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ من استطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة﴾ أن اليهود قد أثاروا شبها حول صلة إبراهيم بالعرب وأنكروا أن يكون إبراهيم هو الذي بنى البيت الحرام بمكة، وأن هذه الشُّبَهَ التي أثاروها كانت سببا في خزيهم وتعريف الأمم بجهالتهم وأنهم صاروا كالشاة التي بحثت عن حَتْفِها بِظِلْفِها، ولعلْم الله عز وجل بما يكون وما هو كائن قبل أن يكون، وأن اليهود سيجحدون صلة إبراهيم عليه السلام بالبيت الحرام، أبقى أثر موطئ إبراهيم عليه السلام في الحجر الذي كان يقوم عليه وهو يبني الكعبة ليكون شاهدًا يتوارث العرب العلم به ويسمّونه مقام إبراهيم جيلاً بعد جيل من لدن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام إلى أن بُعث رسول الله ﷺ، وإلى يومنا هذا، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصّخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل

وكما ردع الله اليهود وأدحض شبهتهم في دعواهم أن إبراهيم كان يحرم لحوم الإبل وألبانها وتحداهم أن يأتوا بنصّ واحد من التوراة على ما يزعمون فبهتوا واندحروا خاسئين، وكذلك أدحض الله عز وجل شبهتهم في دعواهم أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام حيث أشار إلى أن مقام إبراهيم عند البيت الحرام آية حسيّة تواتر العلم بها، فمن أنكرها فإنه لا يستكثر عليه أن ينكر أن السماء فوقه وأن الأرض تحته وغير ذلك من البدهيات المسلّمات. وقوله عز وجل: ﴿إنّ أوّل بيتٍ وُضِعَ للنّاس﴾ أي إن أول مسجد وضع في الأرض

ليكون مثـابةً لجميع الناس مشتركا بينهم لإقـامة الطاعات والعبـادات وقبلةً وأمنا، والمراد بالأوليـة هنا الأسبقية على جميع المسـاجد في الأرض، وقد أخبر رسـول الله ﷺ أن المسجــد الأقصى وضع بعـده بأربعين سنــة، ففي لفظ للبخاري من طريق الأعمش حدثنا إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يقول: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قـال: «المسجد الحرام»، قـال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجـد الأقصى»، قلت: كم كـان بينهما؟ قال: «أربعـون سنـة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعـدُ فصلّـه، فإنّ الفضل فيـه». وفي لفظ للبخاري مـن طريق الأعمش حـدثنـا إبراهيم التيميُّ عن أبيـه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يـا رسول الله، أيّ مسجد وُضِعَ أوّلُ؟ قـال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أيّ؟ قـال: «ثم المسجـد الأقصى»، قلت: كم كــان بينهما؟ قـال: «أربعـون»، ثم قـال: «حيثما أدركتك الصــلاة فصلّ والأرض لك مسجـدٌ». وقــد رواه مسلم من طريق الأعمش عن إبراهيم التيميّ عن أبيه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أيّ مسجدٍ وضع في الأرض أوّلا؟ قال: «المسجد الحرام»، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قـال: «المسجـد الأقصى»، قلت: كـم بينهما؟ قـال: «أربعـون سنـةً وأينما أدركتك الصـلاة فصلّ فهـو مسجـدٌ». وفي لفظ لمسلم: «ثم حيثما أدركتك الصلاة فصلّه فإنه مسجدٌ». وفي لفظ لمسلم من طريق الأعمش عن إبراهيم ابن يـزيـد التيمي قـال: كنـت أقـرأ على أبي القـرآن في السُّـدّة، فإذا قـرأت السجدة سجد، فقلت له: يا أبت أتسجد في الطريق؟ قال: إني سمعت أبا ذر يقـول: سألـت رسـول الله ﷺ عن أول مسجـدٍ وضـع في الأرض قــال: «المسجـد الحرام»، قلت: ثم أيٌّ؟ قــال: «المسجـد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عامـا، ثم الأرض لك مسجدٌ فحيثما أدركتك الصلاة فصلّ». ولا شك أن تكليف النـاس بـالصـلاة كـان مشروعـا في دين جميع

الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ونوح وهودٍ وصالح قبل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿أولٓئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّدا و بكيًّا﴾. وقوله عز وجل: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس﴾ يشعر أنه قبلة هؤلاء الأنبياء والمرسلين والهداة المتقدمين، ولا معارضة بين قوله عز وجل: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس﴾ وبين بناء إبراهيم للبيت الحرام، لأن إبراهيم عليه السلام قد بناه على مكانه الذي وضعه الله عز وجل، حيث أعلمه الله عز وجل بمكانه بعد أن صار كالربوة، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ كما أن قوله عز وجل: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ يشعر بذلك أيضا ويفيد أن قواعد البيت الحرام كانت موجودة قبل إبراهيم عليه السلام، غير أن بناء إبراهيم للبيت الحرام قد أبقى الله عز وجل معالمه حتى تهدّم في عهد قريش فأعادت بناءه قبيل بعثة رسول الله ﷺ وقيّض الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ يومها أن تُطْبِق قريش على اختياره ﷺ للحكم في وضع الحجر الأسود مكانه من البيت الحرام وكان رسول الله ﷺ وقتئذ ابن خمس وثلاثين سنة فكان ذلك من بين الإرهاص والمقدمات التي قدّمها الله عز وجل لرسوله ﷺ بين يدي بعثته صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، كما أنه لا معارضة بين حديث الصحيحين بأن المسجد الأقصى وضع بعد المسجد الحرام بأربعين عاما وبين ما عُلِمَ بأن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، لما أشرت قريبًا من أن الوضع غير البناء، فعمل سليمان عليه السلام في بناء المسجد الأقصى كعمل إبراهيم عليه السلام في بناء المسجد الحرام إذ كانا عليهما السلام مجدّدين قد وضع كل منهما الأساس والقواعد فوق أساس وقواعد سابقة، وهذا الحديث

المخرّج في الصحيحين بألفاظ عن أبي ذر رضي الله عنه يفسّر المراد بقوله تعالى: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس لَلَّذي ببكة﴾ ويدلّ على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وقد ورد ذلك صريحا عن عليّ أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أوّل بيت وضع لعبادة الله. اهـ وظاهر الآية الكريمة وكذلك قوله عز وجل: ﴿الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والبادِ﴾ يؤكد ذلك ويؤيده لأن كونه موضوعا للناس يقتضي كونه مشتركا فيه بين جميع الناس، فأما سائر البيوت فليست بهذه المثابة، حيث وضع الله البيت الحرام ليكون موضعا لطاعات لا تجوز إلا فيه كالحج والطواف، فلم يشرع الحج إلى بيت في الأرض سواه، ولا يجوز لمسلم أن يطوف حول مكان في الأرض إلا حول الكعبة، كما جعله الله عز وجل قبلة لأكثر أنبياء الله ورسله ثم حرّم على كلّ الناس أن يتخذوا قبلة سواه. وقوله عز وجل: ﴿لَلّذي ببكّة﴾ أي لَلْبيت الذي ببكّة أي فيها، وبكة علمٌ على البلد الحرام وقد سماها الله عز وجل بأسماء منها: بكة ومكّة والبلد الحرام وأمّ القرى والبلد الأمين. وقوله: ﴿مباركًا وهدًى للعالمين﴾ أما كونه مباركا فلما يسوقه الله عز وجل لأهله من الخيرات والبركات من سائر أنحاء الأرض، ولما يضاعفه الله عز وجل من المثوبة على الأعمال الصالحة فيه حتى جعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه، وأما كونه هدى للعالمين فلما فيه من الآيات العجيبة الدّالة على عظيم قدرة الله حيث يأتيه الناس رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ولما عرفه القاصي والداني مما وضع الله عز وجل فيه من الأمن في جميع الأعصار كما قال عز وجل: ﴿أولم نُمَكّن لهم حرمًا آمنًا يُجْبَى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لَدُنّا ولكن أكثرهم لا

يعلمـون﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿أولم يـروا أنّا جعلنـا حـرما آمنـا ويُتَخَطَّفُ الناس من حـولهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لإيـلاف قريش* إيـلافهم رحلة الشتاء والصّيف* فليعبدوا ربّ هٰذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ فقد كـان أهل مكة ينعمون بالأمن والاستقـرار حتى في الأوقات التي كـان الخوف والاضطـراب يعُمّ جميع بلاد العـالم من حـولها، ويتخطّف الناس في غيرهـا. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿فيه آيات بينات مقـام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾ ردّ على اليهود الزاعمين أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام، وتكذيب لهم بالـدليل الحسي المشاهد بالعيـون، المعلوم بالتواتـر وهو وجود مقام إبـراهيم فيه، ومقـام إبراهيم هـو الحجر الذي قـام عليه إبـراهيم عليه السلام عندما ارتفع البنـاء، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة مجيء إبراهيم بإسماعيل وهاجر إلى مكة ثم قصة بناء البيت الذي أورده البخاري في صحيحـه، وفيه: فجعل إسماعيل يأتي بالحجـارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البنـاء جـاء بهذا الحجـر فـوضعـه لـه فقـام عليـه وهـو يبني وإسماعيل ينـاوله الحجـارة. الحديث، وقد سقتـه بتمامه في تفسير قـوله عـز وجل: ﴿وإذ يـرفع إبراهيم القـواعـد من البيت وإسماعيل﴾ وعندمـا وضع إبـراهيم قدميـه على هذا الحجـر جعل الله مـا تحت قدمَيْ إبـراهيم من ذلك الحجـر دون سـائر أجزائه كـالطين، حتى غـاص فيـه قـدما إبـراهيم عليـه السلام، وانطبعت في الحجر صورة أثر القدمين، فلما رفع إبراهيم قدميه عن الحجر أعـاد الله له صـلابته الحجـرية كما كـان أول مرة، ثم أبقـى الله تبارك وتعالى هذا الحجر على سبيل الاستمرار والدوام مشهورا معروفا مصونا، فهذه آيات شـاهدات على كـذب اليهود وجحودهم ولـذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿فيه آيـات بينات مقـام إبراهيم﴾ ومـا أحسن ما قيل: ليس في العـالم بناءٌ أشرف من الكعبـة، فـالآمـر ببنـائه هـو الملك الجليل، والمهنـدس جبريل،

والباني هو الخليل، والتلميذ هو إسماعيل. وقوله: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ هذا أيضا من جملة الآيات البينات إذ فيه تحقيق دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رب اجعل هٰذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾ وكما قال: ﴿ربّ اجعل هٰذا البلد آمنا﴾ وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام يقتل بعضهم بعضا خارج الحرم فإذا دخلوا الحرم صاروا آمنين مطمئنين، وقد يلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجه ولا يتعرّض له بأذى ما دام في الحرم، فكان هذا من الآيات البينات التي جعلها الله عز وجل فيه، وقد زاده الإسلام حرمة وتعظيما. والضمير في قوله: ﴿ومن دخله﴾ للحرم كله. وقوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين﴾ أي ولله على من استطاع من الناس طريقا يمكنه من الوصول إلى مكة أن يحج هذا البيت، وقد أجمع المسلمون على أن الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحُجّوا» فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». وفي قوله: ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وعيد شديد لمن قدر على الحج ولم يحج، ولمن كذّب بآيات الله التي ذكرها في هذا المقام وغيره.

قال تعالى: ﴿قل يـا أهْلَ الكتاب لم تكفرون بآيـاتِ الله والله شهيدٌ على ما تعملون* قُلْ يا أهلَ الكتاب لِمَ تَصُـدّون عن سبيل الله مَنْ آمن تبْغونَها عوجاً وأنتم شُهداءُ، ومَا الله بغافلٍ عما تعملونَ* يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتـوا الكتاب يرُدُّوكم بعد إيمانكم كافـرين* وكيفَ تكْفُرونَ وأنتُم تُتْلَى عليكُم آيات الله وفيكم رسـولُهُ، وَمَنْ يعتصِم بالله فقـدْ هُدِيَ إلى صراط مستقيم.﴾

بعد أن نوّه الله عز وجل بذكر البيت الحرام بمكة المكرمة بما يفيد أنه أشرف بيت أقيم لعبادة الله عز وجل وأسبق المساجد في الأرض على الإطلاق، وذكر ما فيـه من الهدى والبركات، والآيـات البينات الشـاهدات على بنـاء إبراهيم خليل الرحمن لهذا البيت العتيق بما يردع اليهود الجاحـدين لصلة إبراهيم إمام الحنفاء بهذا البيت الحرام، وذكر عز وجل أنه أوجب حج هذا البيت على من استطاع إليه سبيلا، ووصم من جحد هـذه الآيات، وأنكر وجوب حج هذا البيت بأنه كافر، وأنه لـن يضرّ إلا نفسه بكفره وجحوده لأن الله جل وعلا لا تنفعـه طـاعة الطـائعين، ولا تضره معصيـة العـاصين لأنـه غني عن الخلق أجمعين، أمـر نبيـه ﷺ بتـوجيـه الخطــاب لأهل الكتـاب مـوبّخـا لهم على استمرارهم على الكفر بعد ظهور هـذه البراهين منكرًا عليهم أشدّ الإنكار أن يكون لكفرهم بآيات الله سبب من الأسبـاب حيث يقول عز وجل: ﴿قُل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيـد على ما تعملون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هـذا تعنيـف من الله تعـالى للكفـرة أهـل الكتـاب على عنـادهم للحق، وكفرهم بـآيات الله، وصـدّهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهـدهم وطاقتهم مع علمهم بأن مـا جاء بـه الرسـول حقٌّ من الله، وبما عنـدهم مـن العلم عن الأنبيـاء الأقــدمين، والسـادة المرسلين،

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشّروا به، ونوّهوا به، من ذكر النبي الأميّ الهاشميّ العربي المكيّ سيّد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله علَى ذلك، وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشّر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون أي وسيجزيهم على ذلك ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ لإفادة تشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار على هؤلاء الكفرة الفجرة من أهل الكتاب، وكان مقتضى السياق أن يقال: وهو شهيد على ما تعملون، لكن مقتضى الحال يقتضي إظهار لفظ الجلالة حيث قال: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ لتربية المهابة في نفوسهم، وتهويل الخطب عليهم، لعلهم يرتدعون عن غيهم، وينزجرون عن ضلالهم، وتكرير قوله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ لزيادة التشنيع عليهم حيث صاروا أقبح سلوكا من الأميين الوثنيين في ردّ الحق والصّد عن سبيل الله، وأصبحوا كما قال الله عز وجل فيهم: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾. وقوله عز وجل: ﴿لم تصدّون عن سبيل الله مَنْ آمن تبغونها عوجًا﴾ توبيخ لهم على الإضلال بعد توبيخهم على الضلال، قال أبوالسّعود العماديّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا﴾: أُمِرَ بتوبيخهم بالإضلال إثر توبيخهم بالضلال، والتكرير للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم، وترك عطفه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهم، كما أنّ قطع قوله تعالى: ﴿لِمَ تصدون﴾ عن قوله تعالى: ﴿لم تكفرون﴾ للإشعار بأن كلّ واحد من كفرهم وصدِّهم شناعة على حيالها، مستقلة في استتباع اللائمة والتقريع، وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال، وتشديد التشنيع، فإنّ ذلك العنوان كما يستدعي الإيمان

بما هو مصدّق لما معهم يستدعي ترغيب الناس فيه، فصدّهم عنه في أقصى مراتب القباحة اهـ وصور الصدّ عن سبيل الله التي يقترفها أهل الكتاب كثيرة وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنواع منها في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل ولا سيما اليهود لعنهم الله حيث عدّ صدّهم في سلسلة جرائمهم حيث يقول: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحِلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا﴾ وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وتبغونها عوجا وأنتم شهداء﴾ أي وتريدون أن تكون سبيل الله وشريعته معوجَّة مائلة زائغة عن الحق وأنتم تقرءون في الكتب التي بين أيديكم أن الله إنما يبعث الرسل والأنبياء لدعوة العباد إلى صراط الله المستقيم ودينه القيّم الذي لا زيغ فيه ولا ميل ولا اعوجاج، كما جاء في الوصايا العشر التي تطابقت على الدعوة لها جميع الشرائع: ﴿وأنَّ هٰذا صراطي مستقيما فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ والعِوَج بكسر العين وبفتحها هو الميل والانحراف، والمقصود هنا هو ما يحاوله هؤلاء من إثارة الفتنة بين المسلمين لتشتيت شملهم، وتمزيق وحدتهم، وتفريق كلمتهم، قال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم قال: مرّ شأس بن قيس ــ وكان شيخا قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين شديد الحسد لهم ــ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلْفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتًى شابًا من يهود وكان

معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، وذَكِّـرْهم يوم بُعَاث وما كان قبله، وأنشـدهم بعض ما كـانوا تقـاولوا فيـه من الأشعار، وكـان يوم بعـاث يومـا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكـان الظفر فيـه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلّم القوم عند ذلك، فتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيّين على الرّكب: أوس بن قَيْظي أحـد بني حارثـة بن الحارث من الأوس، وجبّار ابن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقـاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناهـا الآن جَذَعةً، وغضب الفـريقان، وقالوا: قـد فعلنا، السّلاحَ السّـلاحَ، موعـدكم الظاهـرة ـ والظـاهرة: الحرّة ـــ فخرجـوا إليها، وتحاوز النـاس، فـانضمت الأوس بعضهـا إلى بعض، والخزرج بعضهـا إلى بعض، على دعـواهم التي كـانـوا عليها في الجاهليـة، فبلغ ذلك رسـولَ الله ﷺ، فخـرج إليهم فيمن معه من المهـاجـرين من أصحـابه، حتى جـاءهم فقال: «يـا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أَبدَعْـوَى الجاهلية وأنـا بين أظهركم، بعد إذ هـداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم بـه، وقطع به عنكم أمـر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفّارا؟» فعرف القـوم أنها نزغةٌ من الشيطـان، وكيدٌ من عدوّهم، فألقـوا السلاح من أيـديهم، وبكـوا، وعانق الـرجـال من الأوس والخزرج بعضهم بعضـا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قـد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شأس بن قيس ومـا صنع، فأنزل الله في شأس بن قيس ومـا صنع: ﴿قل يا أهل الكتـاب لم تكفرون بآيـات الله والله شهيدٌ على مـا تعملون* قل يـا أهل الكتاب لمَ تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا﴾ الآية، وأنزل الله عز وجل في أوس بن قيظيّ وجبّـار بن صخر ومن كـان معهما من قومهما الـذين صنعوا ما صنعوا عمّا أدخل عليهم شأسُ بن قيس من أمر الجاهلية: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا إن تطيعوا فـريقا من الـذين أوتوا الكتـاب يردّوكم بعـد إيمانكم

كافرين﴾ إلى قوله: ﴿أولَئك لهم عذابٌ عظيم﴾ اهـ وهذا الأثر قد رواه أيضا أبو الشيخ في تفسيره من طريق ابن إسحاق قال: حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال: مر شأس بن قيس وكان يهوديّا عظيم الكفر على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة. وساقه بنحو سياق ابن جرير، وهذا الأثر مرسلٌ وفيه راوٍ مبهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله وحرصهم على إضلال المسلمين حذّر الذين آمنوا من إطاعة هؤلاء المجرمين الذين لا يسلكون إلا الطرق المعوجة الملتوية، وبيّن لهم أن إطاعة أيّ فريق من أهل الكتاب المعاندين للحق يؤدي بمن يطيعهم إلى الردة عن الإسلام والكفر بعد الإيمان، لأن الغلّ والحسد الذي يملأ قلوب هؤلاء على المؤمنين يحملهم على نصب الفخاخ والشباك الشيطانية للمؤمنين ليردوهم عن دين الإسلام، كما قال عز وجل: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ فلا يليق بعاقل أن يتابع مَن كلّ همّه أن يصرفه عن الصراط المستقيم ويسعى في جعله من أصحاب الجحيم. وقوله عز وجل: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ تنبيه للمسلمين إلى عدم الالتفات إلى ما يثيره اليهود أو النصارى من الشبه، وأن الواجب على المؤمنين أن يرجعوا إلى رسول الله ﷺ وأن يستمسكوا بتعاليم الإسلام فإنّ ذلك يعصمهم من شبه أعدائهم، لأن آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ هي الدواء الشافي من كل شبهة، والله يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ومن استنار بكتاب الله، ورجع إلى رسول الله ﷺ في حياته ﷺ وإلى سنته بعد مماته فقد استضاء بنورين لن يضل من اهتدى بهما. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن

يعتصم بـالله فقد هُـدِيَ إلى صراط مستقيم﴾ أي ومن يستمسك بكتـاب الله ويلتجئ إلى الله عز وجل ليـدفع عن قلبه نزغـات شياطين الجن والإنس فإنّ الله عـز وجل يهدي قلبـه وينير بصيرته، ويسلك بـه صراطـه المستقيم، لأن الاعتصام بـالله والالتجاء إليه، والاستجـارة به، وطلب الهدايـة منه والاعتماد عليـه هو العمـدة في الهداية، والعصمـة من كل غـواية والعُـدّة في مباعـدة الشبه، فهو نور السموات والأرض ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّيٌّ يـوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسـه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾.

قال تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمنـوا اتّقوا الله حقّ تقـاتِهِ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمونَ ❁ واعتصموا بحَبْلِ الله جميعا ولا تفـرّقوا ، واذْكُروا نعمتَ الله عليكُم إذ كنتم أعـداءً فألّف بينَ قُلُوبكم فأصبحتُـمْ بنِعْمَتِهِ إخـوانا وكنتمْ على شفـا حفرةٍ من النّار فأنقذكُم مِنْهَا ، كذَلك يبيّن الله لكُم آياته لعلّكم تهتدون . ﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى ضـلال الكفّار في أنفسهم وسعيهم في ضلال غيرهم فهم ضالّون مُضلّون ، وحذّر المؤمنين مـن الوقوع في فخاخهم بيّن هنا أنّ أهل الإيمان هداةٌ مهتـدون يأخذون بمجـامع الطاعات ومعـاقد الخيرات التي يأمـرهم الله عـز وجل بها ويحملـون أنفسهم عليهـا كما يأمـرهم الله عـز وجل ، ويسعـون في نشرهـا بين النـاس حيث يـدعـون إلى الخير ويأمـرون بالمعروف وينهـون عن المنكر ، وقوله عز وجل : ﴿يا أيّها الـذين آمنوا اتقوا الله حقّ تُقَاتـه﴾ أي خافوا الله وراقبـوه باتباع أوامـره واجتناب معاصيـه واعبدوه كأنكم تـرونه فإن لم تكـونوا ترونـه فإنه يـراكم ، لأنه عـز وجل أهل لأن يُتّقى ويُخاف منه ، وقـوله عز وجل : ﴿حق تُقَـاته﴾ أي حقّ تقواه ، والإضـافة بين حق وتقاتـه من إضافة الصفـة إلى موصوفها إذ الأصل : اتقـوا الله التّقاة الحقّ أي الثـابتة فـلا يراكم حيث نهاكم ، ولا تخالفـوا عن أمره ، وهـذا نظير قولـه تبارك وتعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده﴾ وليس هذا من باب التكليف بما لا يطاق بل المراد : اتقوا الله كما يحقّ أن يتّقى بقدر استطاعتكم كما قال عز وجل : ﴿فاتقـوا الله ما استطعتم واسمعـوا وأطيعوا﴾ وقـد بين رسول الله ﷺ حق الله على عباده بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . فقد روى البخاري ومسلم من حـديث معـاذ رضي الله عنـه قـال : كنت رِدْف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مُـؤْخِرة الـرّحْل ، فقال : «يـا معاذ هل تـدري ما حقّ الله على عباده؟ وما حقّ العباد على الله؟» قلت : الله ورسـوله أعلم ، قال : «فإنّ حقّ

الله على العبـاد أن يعبـدوه ولا يشركوا بـه شيئـا، وحقّ العبـاد على الله أن لا يعـذّب من لا يشرك به شيئـا»، فقلت: يـا رسول الله أفـلا أبشّر به النـاس؟ قـال: «لا تبشّرهم فيتّكلـوا». وقـولـه عـز وجـل: ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمـون﴾ أي واستمسكـوا بشريعـة الإسـلام وعَضّوا عليهـا بـالنـواجـذ، والزموها، حتى يأتيكم الموت وأنتم على الإسـلام، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فـلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أنـه لا يخطر على بـال عاقل أنّ قـولـه: ﴿ولا تموتنّ﴾ نهيٌ عن الموت، لأن الموت والحياة بيد الله وحـده، فقد قهر الله تبـارك وتعالى العبـاد على الموت فليس لأحـد من خلق الله كـائنًا من كـان أن يتحكّم فيه، وإنما المقصود بقولـه عز وجل: ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أن يحرص الإنسان على الاستمساك بالإسلام حتى يأتيه الموت وهو ملازم له، فإنّ المرء يموت غالبا على ما يلتزم بـه ويحرص عليه كما أنه يُبعث على ما مات عليه، فمهما حاول الشيطان أن يصرفكم عن شريعـة الإسلام فلا تطيعوه ولا تنقضوا هـذه الشريعة في وقت مـن الأوقات، فقد تأتيكـم مناياكـم في حال نقضكم للملّة فتمـوتون على غير الإسـلام، وقد سقت هنـاك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحـه من طـريق عبـد الرحمن بـن عبد رب الكعبـة قـال: دخلت المسجـد فإذا عبـد الله بن عمرو بـن العاص جـالسٌ في ظل الكعبـة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم، فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنّـا من يصلح خباءه، ومنّا من ينتضل، ومنا من هو في جَشَره، إذ نادى منـادي رسول الله ﷺ: الصـلاةَ جامعـةً، فاجتمعنـا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أوّلها، وسيصيب آخـرها بـلاءٌ وأمورٌ تنكـرونها، وتجيء فتنة فيرقّق بعضهـا

بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هـذه، هذه، فمن أحبّ أن يـزحزح عن النار ويـدخل الجنة فلتأته منيتـه وهو يـؤمن بالله واليـوم الآخر، وليأت إلى النـاس الذي يحبّ أن يُؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخـر ينازعه فاضربـوا عنق الآخر». الحديث، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعـا ولا تفرّقوا﴾ أي وتمسّكـوا بالسّبب الـذي جعله الله لكم لتفوزوا برضوانه وبعزّ الدنيا وسعادة الآخرة وهو كتاب الله تعالى وسنّة رسـوله ﷺ واحـرصـوا أن تكونـوا يـدًا واحدة مجتمعين ولا تختلفـوا فتختلف قلوبكم، قـال ابن جرير في تفسيره: وأصل العَصْم المنع، فكلّ مـانعٍ شيئا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، ومنه قول الفرزدق:

أنـا ابن العاصِـمِين بني تمـيم إذا ما أعظـمُ الحَدَثـان نابـا

ولـذلـك قيل للحبل: عصـامٌ، وللسبب الـذي يتسبّب بـه الـرجل إلى حاجته: عصام، ومنه قول الأعشى:

إلى المرء قيسٍ أطيـل السُّرَى وآخُـذ من كـل حـيّ عُصُـم

يعني بالعُصُم الأسبـاب، أسباب الـذمة والأمان، يقـال منه: اعتصمت بحبل من فـلان، واعتصمتُ حبلاً منه اهـ ولا شك أن العروة الـوثقى التي يجب على العاقل أن يستمسك بها حتى يموت هي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله كما قال عـز وجل: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بالعـروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم﴾ وقد نهى الله تبـارك وتعالى المسلمين عن التّفرق والاختلاف والتنازع في مـواضع من كتابه الكريم ووسم التفرق والاختلاف والتنـازع بأنه من صفات الكفار، وأنـه من أعظم أسباب الفشل وذهـاب الريح، حيـث يقول عـز وجل: ﴿وأطيعـوا الله ورسولـه ولا تنازعوا فتفشلـوا وتذهب ريحكم واصبروا، إن الله مع الصابريـن* ولا تكونوا

كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ كما حذّر رسول الله ﷺ من تفرّق المسلمين، وحضّ على اجتماع كلمتهم وائتلافهم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنّ، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا ولا تجسّسُوا ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا، وأن تناصحوا من ولاّه أمركم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» كما روى البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوٌ تَدَاعَى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى». كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن

يحزنه». وقوله عز وجل: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي وتذكّروا ما تفضل الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام الذي ربط بين قلوبكم برباط الحبّ والإيثار بعد أن كنتم في الجاهلية أعداء يقتل بعضكم بعضا عصبية في طاعة الشيطان والهوى وحيث كنتم تتذابحون ويأكل شديدكم ضعيفكم وأيّام حروبكم مأثورة مشهورة كانت تأكل منكم الحرث والنسل، وتتلف البلاد والعباد، وكنتم على طرف حفرة من جهنم بكفركم الذي كنتم عليه قبل أن يتفضل الله عليكم بالإسلام ولم يكن بينكم وبين النار إلا أن تموتوا على ذلك من كفركم ـ وشفا الحفرة: حرفها وطرفها ـ فاستمسكوا بالإسلام الذي خلّصكم الله عز وجل به من الهاوية. وقوله عز وجل: ﴿كذلك يبين الله لكم آيته لعلكم تهتدون﴾ أي مثل البيان المذكور يبيّن الله لكم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أسباب سعادتكم ويحذركم من أسباب شقوتكم لكي تهتدوا فتجتنبوا طريق الشر وتسلكوا سبيل الرشاد. ولا شك أن ما حصل للأوس والخزرج من الألفة بالإسلام كان آية من آيات الله وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول: ﴿وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عبّاد ابن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلّما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ» قال: كلّما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال:

«لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعْبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعارٌ، والناسُ دثارٌ، إنكم ستلقَوْن بعدي أَثَرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

قال تعالى : ﴿ولتكن منكمْ أمّةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَونَ عن المُنكرِ ، وأولَئك هم المفلحـون* ولا تكونوا كـالّذين تفرّقـوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّناتُ ، وأولَئك لهم عذابٌ عظيمٌ . ﴾

قال الفخر الرازي رحمه الله : اعلم أنه تعـالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتـاب على شيئين (أحـدهما) أنـه عـابهم على الكفـر، فقـال : ﴿ يـا أهل الكتاب لم تكفرون﴾ ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال : ﴿يا أهل الكتاب لم تصـدّون عن سبيل الله﴾ فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أوّلا بالتقوى والإيمان ، فقـال : ﴿اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون* واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾ ثـم أمرهـم بالسّعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة ، فقال : ﴿ولتكن منكم أمـةٌ يدعون إلى الخير﴾ وهذا هو الترتيب الحسـن الموافق للعقل اهـ وقـوله عز وجل : ﴿ولتكـن منكم أمة يَدْعُـون إلى الخير ويأمرون بـالمعروف ويَنْهَـون عن المنكر﴾ أي ولتـوجد منكم جماعةٌ قائدة رائدةٌ داعيـةٌ إلى الخير وآمرة بالمعروف ونـاهيةٌ عن المنكر. و(مِن) في قـوله عـز وجل : ﴿ولتكن منكم﴾ يحتمل أن تكون تبعيضيـة ، وذلك لأن هـذه المهمة الشريفـة الجليلة لا يقـدر على القيـام بها إلا أهل العلم والمعرفـة والنفـوس العاليـة ، وليس كلّ النـاس قادرين على ذلك بـدليل قـوله تبـارك وتعالى : ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافـةً ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الـدين ولينذروا قومهـم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ ويحتمل أن تكـون (مِن) لبيان الجنس أي كـونوا أمـةً داعية إلى الخير وآمـرة بالمعـروف وناهيـةً عن المنكر، وعلى كـل حال فإنّ توجيـه الخطاب إلى الكل مـع إسناد الـدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فـرضيتها على الكفـاية وأنها متحتّمـة على الجميع إلا أنـه إذا قـام بها البعض سقطت عن البـاقين ، ولـو أخلّ بها الكلّ

أثموا جميعا كسائر فروض الكفاية، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ يشعر بحتمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع أفراد المكلفين من الأمة بحسب معارفهم وقدراتهم على تغيير المنكر والأمر بالمعروف وإدراكهم لجدوى ما يقدمون عليه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». هذا ولا بد في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون عالما بما يأمر به أو ينهى عنه ومرتبته من الدين، حتى لا يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف، أو يغلّظ في مقام اللين أو ينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التمادي والإصرار، أو ينكر على رجل رفيع القدر أمام قومه مما يعتبر فضيحةً لا نصيحة، والمراد بالخير في قوله عز وجل: ﴿يدعون إلى الخير﴾ هو الإسلام وشرائعه التي شرعها الله عز وجل لعباده، وجميع ما يجلب للناس المنافع، ويدفع عنهم الأذى والضرر في معاشهم ومعادهم، وسائر أبواب الخير التي تُدْخِلُ على الناس المسرّة، وتحميهم من المضرّة، كإفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام، وإقامة المساجد والمدارس والمستشفيات ونشر العلوم النافعة، كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ وقد رسم الإسلام للدعاة إلى الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أحسن المناهج وأجمل الوسائل حيث يقول عز وجل: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادِلْهم بالتي هي أحسن﴾ وقال عز وجل: ﴿قل هٰذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وقد وضع القرآن الكريم في هاتين الآيتين الكريمتين للدعاة إلى الله قاعدة تحتها ثلاثة أبواب، فالقاعدة

أن يكون الداعي إلى الله الآمر بـالمعروف والناهي عن المنكر على بصيرة، وهي أن يعرف الداعـي الطريق الذي يدعو بـه إلى الله عز وجل، والبصيرة تقتضي أن يكـون الداعي على هـدًى ونور وبينـةٍ ووضوحٍ ومعـرفةٍ بقـواعد الإسـلام وشرائع الدين وأن يعرف أنّ مـا ينكره هو منكر حذّرت منـه شريعة الإسلام، وأن مـا يأمر بـه هـو معروف حضـت عليه أوامـر الله أو أوامـر رسولـه ﷺ. وتقتضي البصيرة في الداعيـة أيضا أن يعـرف درجات المنكـر ويعرف صغـائر السيئات وكبائر الذنوب حتى يكون أسلوبه في تغيير كل منكر بحسب درجة هـذا المنكر، فليس النّهي عن كشف الـرجل فخذه يعـادل النهي عن كشف الرجل إحدى سوأتيه، وليس النهي عن شيء مكروه كراهة تنزيه كالنهي عن الشيء المكروه كراهة تحريم أو المحرَّم، أما الأبواب الثلاثة التي تقع تحت هذه القاعدة التي رسمها الله عز وجل في كتابـه الكريم للدعاة، فالباب الأول أن تكون الدعوة بالحكمة والباب الثاني أن تكون بالموعظة الحسنة والباب الثالث أن يكون الجدال في مـوطن الجدال بالتي هي أحسن، وهذه القاعـدة وأبوابها الثلاثـة هي التي سلكها جميع الأنبيـاء والمرسلين في الدعـوة إلى الله عز وجل وهي تقتضي أن يكون الداعي كـالطبيب الحاذق الماهر، الذي يعطي المريض الدواء بقـدر حاجتـه، وفي الوقت المنـاسب له، وقـد أشاد الله تبـارك وتعالى بـدعاة الخير الآمـرين بالمعـروف والنـاهين عن المنكر، وجعل ذلك من أبـرز سمات الإيمان حيث يقـول عز وجل: ﴿والمؤمنـون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض، يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتـون الزكاة ويطيعون الله ورسـوله، أولَئك سيرحمهم الله، إن الله عزيـز حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الـذين إن مكّناهـم في الأرض أقـاموا الصلاة وآتـوا الزكـاة وأمروا بالمعـروف ونهوا عن المنكـر، ولله عاقبة الأمـور﴾ وقال عـز وجل: ﴿ التـائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون

عن المنكـر والحافظون لحدود الله، وبشر المؤمنين﴾ . وقـولـه عز وجل هنـا : ﴿وأولَئك هم المفلحـون﴾ أي وهؤلاء الـداعون إلى الخير والآمـرون بالمعـروف والناهون عن المنكـر هم الفائزون الناجحون الناجون في الـدنيا والآخرة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ينجيهم الله عـز وجل إذا أنـزل بأسه بـأهل المنكر الـذين نصحهم هـؤلاء فلم ينتصحـوا وزجـروهم فلم ينزجـروا، حيث يقـول عز وجـل : ﴿وإذ قالت أمّـةٌ منهم لم تعظـون قومًـا الله مهلكهم أو معذّبهم عـذابا شـديدا قـالوا معـذرةً إلى ربكم ولعلّهم يتّقون﴾ فلما نسوا مـا ذُكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السّـوء وأخذنا الذين ظلمـوا بعذاب بئيس بما كانـوا يفسقون﴾ . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿ولا تكـونوا كـالذين تفـرّقوا واختلفـوا من بعد مـا جاءهم البينـات، وأولَئك لهم عـذاب عظيم﴾ قـال ابن جريـر رحمه الله : يعني بـذلك جل ثنـاؤه : ﴿ولا تكـونـوا﴾ يـا معشر الـذين آمنـوا ﴿كـالـذين تفـرقـوا﴾ من أهل الكتـاب ﴿واختلفـوا﴾ في دين الله وأمره ونهيـه، ﴿من بعد مـا جاءهم البينـات﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلمـوا الحق فيه فتعمّدوا خلافه، وخـالفوا أمر الله، ونقضـوا عهده وميثـاقه جـراءةً على الله، ﴿وأولَئك لهم﴾ يعني : ولهؤلاء الذين تفـرقوا واختلفـوا من أهل الكتاب من بعـدما جاءهـم ﴿عذاب﴾ من عند الله ﴿عظيمٌ﴾ يقـول جل ثناؤه : فـلا تتفرّقـوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرّق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتَسْتَنّوا في دينكم بسنّتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الـذي لهم اهـ وقد كـان رسول الله ﷺ يحذر أشد التحذير من التفرّق والاختلاف وأنه سبب هلاك الأمم، فقد روى مسلم في صحيحـه من حديث عبـد الله بن عمرو رضي الله عنـه قال : هجّـرت إلى رسول الله ﷺ يوما، قال : فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسـول الله ﷺ يعرف في وجهـه الغضب، فقال : «إنما هلك من كـان قبلكم

بـاختلافهم في الكتـاب». وقد سقت في تفسير قـوله عـز وجل: ﴿ولله على الناس حـج البيت من استطاع إليـه سبيلا﴾ ما رواه مسلم في صحيحـه من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه قـال: خطبنـا رسول الله ﷺ فقـال: «أيها الناس قد فـرض الله عليكم الحجّ فحجوا»، فقال رجل: أكلّ عـام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قـالها ثـلاثـا، فقـال رسـول الله ﷺ: «لـو قلتُ نعم لوجبت، ولما استطعتم»، ثم قـال: «ذروني ما تـركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعـوه». وفي رواية للبخـاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كـان قبلكم بسـؤالهم واختـلافهم على أنبيـائهم، فـإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمـرتكم بأمر فأتوا منه مـا استطعتم». كما روى البخاري من طـريق النزّال بن سبرة عن عبـد الله أنه سمع رجـلا يقرأ آيـة سمع النبيَّ ﷺ خـلافها فأخـذت بيده فـانطلقت بـه إلى النبي ﷺ فقال: «كـلاكما محسنٌ، فاقرآ» أكبرُ عِلْمِي قـال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم». وفي لفظ للبخاري من طريق النزّال بن سبرة الهلالي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجـلا قرأ آيـة وسمعت النبي ﷺ يقرأ خـلافها فجئت بـه النبيّ ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كلاكما محسنٌ ولا تختلفوا فإنّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنـه أن النبي ﷺ بعثه ومعـاذًا إلى اليمن فقال: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّـرا، وتطاوعَـا ولا تختلفا». كما روى مسلم من حـديث أبي مسعود رضي الله عنه قـال: كان رسول الله ﷺ يمسح منـاكبنا في الصلاة ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» الحديث، وفي هذه الوصايا الإلٓهية والتحذيرات النبوية ما ينبّه المسلمين إلى أن سعادتهم في وحدتهم، وأن

الشرّ كلّ الشرّ في تنـازعهم واختـلافهـم ، وأن من سعى إلى تفـريق المسلمين يدخل مع اليهود والنصـارى في الوعيد الذي ذُيّلت به هذه الآيـة الكريمة في قوله عز وجلّ : ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿ يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودّ وجوهٌ، فأمّا الذين اسودّت وجوهُهم أكفرتم بعد إيمانكمْ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون* وأمّا الّذين ابيضت وجوههمْ ففي رحمة الله هم فيها خالدون* تلك آيات الله نتلوها عليكَ بالحقِّ، وما الله يُريدُ ظُلما للعالمينَ* ولله ما في السّمٰوات وما في الأرض، وإلى الله تُرجع الأمور﴾ .

بعد أن حذّر الله المؤمنين من مشابهة اليهود والنصارى في تفرّقهم واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات ونهاهم عن الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء المغضوب عليهم والضالون أكّد هذا التحذير بالترهيب من عاقبة التفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، والترغيب في التمسك بأهداب دين الإسلام بإشعارهم بأن المتفرقين المختلفين تسودّ وجوههم يوم القيامة وأن المستمسكين بالإسلام المبتعدين عن التفرق والاختلاف تبيَضُّ وجوههم يوم القيامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قاعدة في توحّد الملّة وتعدّد الشرائع: فصل: قال الله تعالى لنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون* واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا، واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ إلى قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ فأمرنا بملازمة الإسلام إلى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعا ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وذكر أنه تبيضُّ وجوه وتسودّ وجوهٌ، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوهُ أهل البدعة والفرقة. وذكر أنه يقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم؟﴾ وهذا عائد إلى قوله: ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ فأمر

بملازمة الإسلام، وبيّن أنّ المسودّة وجوههم أهل التفرق والاختلاف، يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم، وقد تأوّلها الصحابة في الخوارج، وهذا نظير قوله للرسل: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وقد قال في البقرة: ﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ الآية، وقال أيضا: ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم في شيء﴾ وقال تعالى: ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُرًا كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ وقال تعالى: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكوننّ من المشركين﴾. ﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ الآية. ونظيرها في الجاثية اهـ. وقوله عز وجل: ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه﴾ أي يوم تشرق وجوه أهل الإيمان المبتعدين عن التفرق والاختلاف وتَسْوَدّ وتَكْلَحُ وجوه أهل الكفر والتفرق والاختلاف. كما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرةٌ* ووجوه يومئذ باسرة* تظن أن يُفْعَلَ بها فاقرة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ مسفرة* ضاحكة مستبشرةٌ* ووجوه يومئذ عليها غبرة* ترهقها قترةٌ* أولَئك هم الكفرة الفجرة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة، أليس في جهنّم مثوى للمتكبرين﴾. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أوّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم كأشدّ كوكب درّي في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين، يُرى

مخّ سوقهن من وراء العظم واللحم من الحسن، يسبّحون الله بكرة وعشيا، لا يسقمون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألُوّة، ورشحهم المسك، على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء». كما روى مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنْجِنا من النار؟ قال: فيُرفع الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أُعْطُوا شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم» ثم تلا: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. وجَعْلُ بياض الوجوه أمارة سعادة أصحابها، وسواد الوجوه أمارة شقاوة أهلها إنما ذلك في الدار الآخرة، أما في دار الدنيا فإن الله تبارك وتعالى جعل ألوان الناس آية على قدرته على كل شيء وأنه جعل اختلاف ألوانهم آية يستدل بها العلماء على ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى كما قال عز وجل: ﴿ومن آياته خَلْقُ السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إنّ في ذٰلك لآيات للعالمِين﴾ فلا فضل لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود أو أحمر أو أصفر إلا بتقوى الله عز وجل، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقد أوضح الله عز وجل ذلك أيما إيضاح حيث يقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: إنّ النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تَفْضُله بتقوى الله». وقوله عز وجل: ﴿فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله

هم فيها خالدون﴾ . اعلم أن من الأساليب البلاغية اللّف والنشر وهو على قسمين : لفّ ونشر مرتّبٌ، ولفّ ونشر مشوَّش، فاللّف والنشر المرتّب أن يذكر شيئين على سبيل الإجمال ثم يذكر بعدهما وصفين يعود الأول منهما إلى الأول، ويعود الثاني إلى الثاني، وهو كثير جدا في كتاب الله كقوله تعالى : ﴿وفاكهةً وأبّا* متاعا لكم ولأنعامكم﴾ فقد ذكر الفاكهة والأبّ وهو المرعى ثم قال : ﴿متاعا لكم﴾ وهو يعود على الفاكهة . ثم قال : ﴿ولأنعامكم﴾ وهو يعود على الأبّ . وكذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿فمنهم شقيٌّ وسعيد* فأما الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق* خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربّك، إن ربك فعّال لما يريد* وأما الذين سُعِدُوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ﴾ ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فقوله : ﴿لتسكنوا فيه﴾ راجع إلى الليل وقوله : ﴿ ولتبتغوا من فضله﴾ راجع للنهار. أمّا إذا رجع الوصف الأول للثاني ورجع الوصف الثاني للأول كالذي في هذا المقام فإنه يسمّى اللّف والنشر المشوّش، فقد قال : ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾ ثم فصّل ما يتصل بالثاني فقال : ﴿فأما الذين اسْودّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ ثم فصّل ما يتصل بالأول فقال : ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ فقد ذكر الشيئين ثم فصّلهما بوصفين يعود الأول من الوصفين على الثاني ويعود الثاني على الأول، والأصل هو اللف والنشر المرتب، فإذا جاء به على سبيل اللف والنشر المشوش فإنه يكون لنكتة بلاغية تلفت انتباه البلغاء إلى لون من ألوان إعجاز القرآن، ففي هذا المقام تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليهما إجمالا، وقدّم في الإجمال ذكر حال السعداء لتعجيل مسرتهم، ثم قدّم في

التفصيل ذكر حال الأشقياء لتعجيل مساءتهم ولما أنّ المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل، والإفضاء إلى ختم الكلام ببيان حسن حال المؤمنين كما بُدِئَ بذلك عند الإجمال، ففي الآية حسن ابتداء وحسن اختتام وهي صور بلاغية يعرفها علماء البديع، وقوله عز وجل: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أي يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم، والمراد بالكفر بعد الإيمان في هذا المقام هو ما أشار الله عز وجل إليه بقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ وهو يشمل كذلك من ارتد عن دين الإسلام بعد الدخول فيه، ليكون تحذيرا للمسلمين من محاولات أهل الكتاب تضليل أهل الإيمان، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أنه جل ثناؤه عنى بذلك جميع الكفار وأن الإيمان الذي يُوبَّخُون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذي أقرّوا به يوم قيل لهم: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ ثم قال رحمه الله: وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين: أحدهما سودًا وجوهه والآخر بيضًا وجوهه، فمعلومٌ ـ إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان ـ أنّ جميع الكفار داخلون في فريق من سُوِّد وجهه، وأنّ جميع المؤمنين داخلون في فريق من بُيِّض وجهه، فلا وجه إذًا لقول قائل: عنى بقوله: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ بعض الكفار دون بعض، وقد عمّ الله جل ثناؤه الخبر عنهم جميعهم، وإذا دخل جميعهم في ذلك ثمّ لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ثم ارتدوا كافرين بعدُ إلا حالةً واحدةً كان معلوما أنها المرادة بذلك، فتأويل الآية إذًا: أولَئك لهم عذابٌ عظيم في يوم تبيضّ وجوه قوم وتسودّ وجوه آخرين، فأما الذين اسودّت وجوههم فيقال: أجحدتم توحيد الله وعهده وميثاقه الذي واثقتموه عليه، بأن لا تشركوا به شيئا وتخلصوا له العبادة، بعد إيمانكم ـ أي بعد تصديقكم به ـ ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يقول:

بما كنتم تجحدون في الدنيا ما كان الله قد أخـذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق ﴿وأما الـذين ابيضت وجوههم﴾ ممن ثبت على عهد الله وميثاقـه، فلم يبدّل دينه، ولم ينقلب على عقبيه بعد الإقرار بالتوحيـد، والشهادة لربّه بالألوهة، وأنّه لا إلـه غيره ﴿ففي رحمة الله﴾ يقول: فهم في رحمة الله يعنـي: في جنته، ونعيمها، وما أعدّ الله لأهلهـا فيها ﴿هم فيها خالدون﴾ أي بـاقون فيها أبدا بغير نهايـة ولا غايـة اهـ وقـوله عـز وجل: ﴿تلك آيـات الله نتلوهـا عليك بـالحق، وما الله يـريد ظلما للعـالمين﴾ أي هذه حجج الله وبينـاته الموضّحـة لأحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة، نقصّها عليك يا محمد لا يعتريها وهـم ولا خطأ، فمن عاقبه بتسو يـد وجهه وتخليده في جهنم، ومن أكرمه بتبييض وجهـه و إدخاله في جنات النعيم، فبغير ظلم منه لأن من عذّبه فبعدله ومن أكرمه فبفضله، ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ بل من كفـر بالله هـو الظالم لنفسـه وقـد قطع الله حجّته حيث أنـزل الكتب وأرسل الرسل وأقـام البراهين على أنه لا إلّه إلا هـو ولا رب سواه، وقولـه عز وجل: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض و إلى الله ترجع الأمور﴾ أي وجميع الخلائق ملك لله وعبيد لـه وهو الحاكم المتصرف في الـدنيا والآخـرة وهو على صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للنّـاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتـؤمنون بالله، ولـو آمن أهلُ الكتاب لكـان خيرًا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون* لن يضرّوكم إلاّ أذى وإن يقاتلـوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لا ينصرون* ضربت عليهم الـذّلـة أين مـا ثقفـوا إلاّ بحبـل من الله وحبل من النّـاس وبـاءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنـة، ذٰلك بأنّهم كـانـوا يكفـرون بـآيـات الله ويقتلـون الأنبيـاء بغير حـقّ، ذٰلك بما عصـوْا وكـانـوا يعتدونَ* ليْسُوا سواءً، من أهل الكتابِ أُمّـةٌ قائمةٌ يتلون آياتِ الله آناءَ اللّيلِ وهم يسجـدون* يؤمنـون بالله واليوم الآخـر ويأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر ويسـارعون في الخيرات وأولٓئك مـن الصّالحين* وما يفعلـوا من خير فلن يكفروهُ، والله عليم بالمتقين﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا دعاةً إلى الخير وآمرين بالمعروف وناهين عـن المنكر وبشرهم بـالفلاح، وحذّرهم مـن سلوك طريـق الضالين المضلين من أهل الكتـاب المتفـرقين المختلفين، ذكـر هنـا بشـارة عظيمـة للمـؤمنين حيث أخبرهم بأنــه جعلهم خير أمـة ظهـرت على الأرض، وأنـه فضّلهم على سائر الأمم وأن أهم سيماهم هـي أنهم يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، حيث قال عز وجل هنا: ﴿كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ ومجيء هذه البشارة في هذا المقـام بعد قـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولتكن منكـم أمة يـدعون إلى الخير ويأمـرون بـالمعـروف وينهـون عـن المنكـر وأولٓئك هم المفلحـون﴾ يفيـد أن المسلمين سارعوا إلى الاستجابة لأمر الله عـز وجل فكانوا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد حازت هذه الأمة قصب السّبق إلى الخيرات حيث جعل الله عـز وجل نبيّهـا أشرف خلق الله، وسيـد ولـد آدم،

وإمام المرسلين، وأعطاه الحوض المورود، والمقام المحمود وهو أول من تفتح له الجنة، وبعثه بأكمل شريعة وأتم دين، وبعثه إلى الناس كافةً، ونسخ بشرعه جميع الشرائع، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان وقُطْر وعصر إلى يوم القيامة، وبارك له ولأمته، ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها وصان الكتاب الذي أنزله عليه من التحريف والتبديل، وجعل لأمته مواسم خير يضاعف لهم فيها الحسنات، وجعل لهم ليلة هي خير من ألف شهر، وأعطاهم ما لم يعط أحدا من العالمين، وجعلهم أنفع بني آدم لبني آدم وقال عز وجل فيهم: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ ولم يعرف في التاريخ أمّةٌ جلبت الخير للناس كأمة محمد ﷺ ولذلك قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ميسرة عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام». كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبيّ ﷺ ومعه الرُّهَيْطُ والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبيّ وليس معه أحدٌ، إذ رُفع لي سوادٌ عظيمٌ فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومهُ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نَهَضَ فدخل مَنْزِلَهُ، فخاضَ الناسُ في أولئك الذين يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ولا عذابٍ، فقال بعضهم: فَلَعَلَّهُم الذين صَحِبُوا رسولَ الله ﷺ، وقال بعضهم: فَلَعَلَّهم الذين وُلِدُوا في الإسلام، ولم يُشركوا بالله، وذكروا أشياءَ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ، فقال: «ما الذين تخوضونَ فيه؟» فأَخْبَرُوه، فقال: «هم الذين لا

يَرْقُـون، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتطَيَّرون، وعلى ربهم يتوكلـون» فقام عُكَّـاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فقال: ادْعُ الله أنْ يجعلني منهم، فقـال: «أنت منهم»، ثم قام رجلٌ آخَرُ فقـال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ». وقـوله عز وجل: ﴿ولو آمنَ أَهْلُ الكتاب لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾ هذا تَنْدِيدٌ بأهل الكتاب بعد الثنـاء على المستجيبين لله ورسوله، وتأنيبٌ لمن لم يـدخل في دين الإسلام من اليهود والنصارى، وترغيب لهم في الـدخول في الإسلام، وأنهم لو دخلوا في الإسلام لحصلت لهم الخيريـةُ التي جعلها الله عز وجل لأمـة محمد ﷺ بل يجعل الله عـز وجـل لهم أجـرين كما جـاء في الحديث الـذي رواه البخـاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يُـؤْتَوْنَ أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتـاب آمَنَ بنبيه وآمن بي، فله أجـران، وعبدٌ مملـوكٌ أدَّى حقَّ الله وحقَّ مـواليـه، فله أجـران، ورجلٌ أدَّبَ أَمَتَـه فَأَحْسَنَ تأديبهـا ثـم أعتقها وتـزوجهـا فله أجـران». وقـوله عـز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثـرهـم الفاسقـون﴾ أي قليلٌ من أهل الكتاب مَـنْ يؤمن بالله وما أُنْزِلَ إليكم وما أُنْزِلَ إليهم، وأكثرُهم على الضلالة والكفر والفسوق والعصيان. وقولـه عز وجل: ﴿لن يَضُـرُّوكم إلا أذًى وإن يقاتلـوكم يُوَلُّوكم الأَدْبَارَ ثم لا يُنْصَرُون﴾ هـذه بشارةٌ للمؤمنين بأن الله عـز وجل ناصرُهم على أعـدائهم الكفرة الفجـرة من أهل الكتـاب، وَوَعْـدٌ من الله عز وجل لعبـاده المؤمنين بتأييدهم على مَنْ عاداهم وبخاصـة على إخوانِ القردة والخنازير من اليهود، وقد أنجز اللهُ وعـده، فأذلَّ أعداءهـم وأرْغَمَ أنوفهم، ومعنى: ﴿لن يضروكم إلا أذًى﴾ أي لن يتمكن اليهـودُ من الغلبـةِ عليكم وإلحاقِ الضرر بكم إلا شيئـا يسيرا يَتَنَبَّـهُ بـه الغـافلُ فيرجعُ إلى الله عـز وجل، ومهما حـاول اليهود من القضاء على دينكم فلن يستطيعوا ذلك بحـال من الأحوال، وقوله عز وجل: ﴿وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبار﴾ أي وإن قابَلُوكم في مَيْدَان الحرب

فَرُّوا منكم منهزمين، فَتَوْلِيَةُ الأدبار كنايةٌ عن الانهزام، لأن المنهزِمَ يُحَوِّلُ ظهره إلى جهة مُقَاتِله هَـرَبًا منه إلى جهةٍ ينجو فيها بنفسه، وطـالبُهُ في أثَرِه، فيكونُ دبُرُه في وجه طالبه، واليهودُ هم أجْبَنُ خلق الله قاطبة كما قال عز وجل فيهم وفي إخوانهم المنـافقين: ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صـدورهم من الله، ذلك بأنهم قومٌ لا يَفْقَهُـونَ﴾ لا يقاتلـونكم جميعا إلا في قُـرًى مُحَصَّنة أَوْ مِـنْ وَرَاءِ جُدُر، بـأْسُهُمْ بينهم شَـدِيـدٌ، تَحْسَبُهُم جميعـا وقُلُـوبُهُم شَتَّى، ذلك بأنهم قـوم لا يعقلـون﴾ وقـولـه عـز وجل: ﴿ثم لا يُنْصَرُون﴾ مُسْتَـأْنَفٌ لإفـادة أنهم غير منصورين عليكم مطلقـا، سواءٌ قاتلـوكم أو لم يقاتلوكم، ولـذلك لم يَعْطِفه على قوله: ﴿وإن يُقـاتلوكم يولوكـم الأدبار﴾ ولو كان معطوفـا عليه لحذفت النون مـن قوله: ﴿لا ينصرون﴾ كما حـذفت من قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإن تَتَوَلَّـوْا يَسْتَبْدِل قَوْمًا غيركم ثم لا يكـونوا أمثالكم﴾ فإنَّ قولـه عز وجل: ﴿لا يكونوا﴾ معطوفٌ بِـ(ثمَّ) على قـوله: ﴿يَسْتَبْدِل﴾ المجزوم في جواب الشرط، وأصله: (يكـونون) فحذفت النـونُ للجزم. وفي هـذه الآية الكريمـة معجزة ظاهـرة حيث تحققت الوُعُودُ التـي أفادتها، وأنجز الله وعـده، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هـذه الآيـة: هكـذا وقـع فإنهم يـوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنـوفهم وكـذلك مَن قبلهم مـن يهود المدينـة بني قينقـاع وبني النضير وبني قريظـة، كلهم أذلّهم الله، وكذلك النصـارى بالشام، كسرهم الصحـابة في غير موطن، وسلبوهم مُلْكَ الشـام، أبد الآبدين ودهر الـداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بـالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ويحكم بملة الإسـلام وشرع محمد عليـه أفضل الصلاة والسـلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزيـر، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسـلام اهـ وقولـه عز وجل: ﴿ضُـرِبت عليهم الـذّلـة أين مـا ثُقِفُـوا إلا بحبل من الله وحبل من النـاس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾ قد تقدم تفسير ضرب الذّلة

والمسكنة عليهم ومعنى: ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من الله﴾ ومعنى: ﴿أين ما ثُقِفُوا﴾ أي حيثما وُجِدُوا فإن الذّلة تلاحقهم وتصيبهم، وقوله عز وجل: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي إلا بإمداد من الله عز وجل يكون بسبب تقصير من يُسلَّط اليهود عليهم لتقصير هؤلاء المنتسبين للإسلام في حق الله وتفريطهم في جنبه وعدم إقامتهم شريعة الله، فإن اليهود الرعاديد الجبناء لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم، وإنما بذنوبنا وتفرّق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلّط عليه من لا يعرفه، كما أنهم قد يُمَدّون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبّا في اليهودية، وإنما لحرب الإسلام، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ معجزة ظاهرة على مدى التاريخ يشاهدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذٰلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾ قد تقدّم بيان معاني مفرداته وجمله عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذٰلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾. وقوله عز وجل: ﴿ليسوا سواءً﴾ أي ليس كل أهل الكتاب على حدّ سواءٍ، بل منهم من شرح الله صدره للإسلام كعبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه وقد كان حبرهم وابن حبرهم، فلما رأى رسولَ الله ﷺ أيقن أن وجهه ليس بوجه كذاب فسارع إلى الدخول في الإسلام، فهو من أهل الكتاب باعتبار ما كان ثم صار من أهل الإسلام وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ، وكذلك ثعلبة بن سَعْية وأسيدُ بن سَعْية وأسد بن عُبَيْد ومن أسلم معهم من اليهود، وهؤلاء ممن آمن من أهل الكتاب قد صاروا بعد الإسلام أئمة مسلمين، من خيرة أصحاب رسول الله

ﷺ، وقد قال الله عـز وجل في بعض مَن آمن مِن أهل الكتاب للثناء عليهم والتنديـد بالمشركين من العـرب: ﴿قل أرأيتم إن كان مـن عند الله وكفرتـم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وهم المؤمنون المشار إليهم قريبًا في قوله عز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثـرهم الفاسقـون﴾ وقد أثنـى الله عز وجل عليهم ووصف اجتهـادهم في طاعة الله وتلاوة القرآن الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿من أهل الكتاب أمةٌ قائمـة يتلون آيات الله آنـاء الليل وهم يسجدون* يـؤمنون بالله واليـوم الآخر ويأمـرون بـالمعـروف وينهون عن المنكـر ويسـارعـون في الخيرات وأولئك من الصـالحين* وما يفعلـوا من خير فلن يُكْفَـروه، والله عليم بـالمتقين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فلن يُكْفَـروه﴾ أي لن يضيع أجرهم عند الله بل سيجزيهم بـه أحسن الجزاء، وكـان مقتضى السيـاق أن يقـال: والله عليم بهم، لكنّ الحال يقتضي وضع الظاهر وهو قـوله: ﴿بالمتقين﴾ موضع الضمير لتسجيل صفة التقوى لهم، وبشارتهم بها.

قال تعـالى : ﴿إن الذين كفروا لن تغنـي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولٓئك أصحاب النار، هم فيها خالدون* مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الـدّنيا كمثل ريح فيهـا صِرّ أصابـت حرث قـوم ظلموا أنفسهم فأهلكتـه، وماظلمهم الله ولٓكن أنفسهم يظلمـون* يا أيها الّذين آمنوا لا تتّخـذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتُّمْ قـد بدتِ البغضاء من أفواههم وما تُخفى صـدورهم أكبرُ، قد بيّنـا لكم الآيـات إن كنتم تعقلون* هـا أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكـم وتؤمنون بالكتاب كلّـه و إذا لقوكم قالـوا آمنّا و إذا خلوا عضّـوا عليكم الأنامـل من الغيظ ، قلْ موتـوا بغيظكم ، إنّ الله عليمٌ بـذات الصّـدور* إن تمسسكم حسنـةٌ تسؤهـم و إن تصبكم سيّئة يفـرحـوا بها و إن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئا ، إنّ الله بما يعملون محيط . ﴾

بعـد أن أثنى الله عز وجل على الطـائفـة المؤمنة مـن أهل الكتاب الـذين استجابـوا لله ولرسـوله وسـارعوا إلى الـدخول في ديـن الإسلام ، حـذّر عموم الكفار من سوء عاقبتهم إذا استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم حذّر المؤمنين من موالاتهم وحبّهم ، وبيّن للمؤمنين أنّ الكفار يتربصون الدوائر بهم ، وقوله عز وجل : ﴿إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولٓئك أصحاب النار، هم فيها خالدون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر: وهذا وعيد من الله عز وجل للأمـة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون ، وأنهم قـد باءوا بغضب منه ، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله وما جاء به محمد ﷺ من عند الله ، يقول تعالى ذكره : ﴿إنّ الذين كفروا﴾ يعني الـذين جحدوا نبوّة محمد ﷺ ، وكذّبوا به ، وبما جاءهم بـه من عند الله ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ يعني : لن تـدفع أموالـه التي جمعها في الـدنيا ، وأولاده الذيـن ربّاهم

فيها، شيئا مـن عقوبة الله يوم القيـامة إن أخّرها لهم إلى يـوم القيامة، ولا في الدنيا إن عجّلهـا لهم فيها، وإنما خصّ أولاده وأمواله لأنّ أولاد الـرجل أقرب أنسبائه إليه، وهو على ماله أقدر منـه على مال غيره، وأمره فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنـه ولده لصلبه ومـاله الذي هـو نافذ الأمـر فيه، فغير ذلك من أقربـائه وسائر أنسبـائه وأموالهم أبعد مـن أن تغني عنه من الله شيئـا، ثم أخبر جل ثنـاؤه أنّهم هم أهـل النـار الـذين هم أهلهـا بقـولـه: ﴿وأولَئك أصحـاب النـار﴾ وإنما جعلهم أصحـابها لأنهم أهلهـا الـذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجـل الذي لا يفارقه وقرينه الذي لا يزايلُهُ، ثـم وكّد ذلك بإخباره عنهـم أنهم ﴿فيها خالدون﴾ أنّ صحبتهم إياها صحبـةٌ لا انقطـاع لها، إذ كـان من الأشيـاء مـا يفـارق صـاحبـه في بعض الأحوال، ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النّارَ التي أُصْلُوها، ولكنّهـا صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع، نعـوذ بالله منها ومّما قرّب منها من قول أو عمل اهـ وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ما ينفقون في هذه الحيـاة الـدنيـا كمثل ريح فيهـا صِـرٌّ أصـابت حَـرْثَ قـوم ظلمـوا أنفسهم فأهلكَتْه﴾ بعـد أن بشر المؤمنين بأن كل ما يفعلـونه من الخير لن يضيـع عند الله عز وجل الذي أعـدّ لهم به أحسن المثوبة وأعظم الأجـر في جنات النعيم حيث يقول: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ بيّن هنا أن الكفار لو أنفقوا أمـوالهم في أبـواب الخير كإطعام الطعـام وصلـة الأرحـام وبنـاء الربـاطـات والإنفاق على الأرامل والمسـاكين والأيتام فإنّ الله عـز وجل لا يتقبّلها منهم، ولا يثيبهم عليها بل يجعلهـا كالهباء المنثـور لأن الله عز وجل لا يتقبل إلا من المتقين، وكما قال عـز وجل: ﴿وقَدِمْنا إلى مـا عملوا من عمل فجعلنـاه هباءً منثورًا﴾ وقال عز وجل: ﴿إنّ الذين كفـروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقـونها ثـم تكـون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبـون﴾ وقـال عـز وجل:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه﴾ وذلك أن الكفر كالنار المحرقة التي تأكل الأخضر واليابس وقد شبّه الله عز وجل ضياع نفقات الكفار سُدى وعدم انتفاعهم بما يبذلونه في أبواب الخير بمن زرع زرعا وأنفق عليه الأموال، وتعب في استنباته وشاركه أصحابه في بذل الجهد فيه فلما دنا وقت الحصاد سلّط الله عز وجل ريحا شديدة البرد مصحوبة بنار كالإعصار المصحوب بالنار فأحرقت هذا الزرع في لحظات مع ما اشتملت عليه من صوت مزعج مخيف، فذهب ما يأمله وبقي له حزنه ورعبه، وإذا كان هذا فيما أنفقوه من الأموال في وجوه الخيرات فما بالك بما أنفقوه في إيذاء رسول الله ﷺ وفي الصد عن سبيل الله وفي تقتيل المسلمين أو تخريب ديارهم فإن الأمر في ذلك أعظم والخطب أطمُّ. والصِّرُّ هو البرد الشديد تحمله الريح، وقد يصحب بنار محرقة، وصوت مزعج، كما قال عز وجل: ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾. وقوله عز وجل: ﴿ظلموا أنفسهم﴾ بيان للسبب الذي أحبط أعمالهم، وضيّع نفقاتهم وهو ظلمهم لأنفسهم حيث كفروا بالله عز وجل وعصوه وتعدّوا حدوده فوضعوا الكفر موضع الشكر، ولذلك قال عز وجل: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسَهم يظلمون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وما فعل الله بهؤلاء الكفار ما فعل بهم، من إحباطه ثواب أعمالهم، وإبطاله أجورها ظلما منه لهم — يعني: وضعًا منه لما فعل بهم من ذلك في غير موضعه، وعند غير أهله، بل وضع فعله ذلك في موضعه، وفعل بهم ما هم أهله، لأن عملهم الذي عملوه لم يكن لله وهم له بالوحدانية دائنون، ولأمره متّبعون، ولرسله مصدّقون، بل كان ذلك منهم وهم به مشركون، ولأمره مخالفون، ولرسله مكذّبون، بعد تقدّم منه إليهم أنه لا يقبل عملا من عاملٍ إلا مع إخلاص التوحيد له، والإقرار بنبوّة أنبيائه،

وتصديق ما جاءوهم به، وتوكيده الحجج بذلك عليهم، فلم يكن ــ بفعله ما فعل بمن كفر به، وخالف أمره في ذلك بعد الإعذار إليه، من إحباط وَفْرِ عمله ــ له ظالما، بل الكافر هو الظالم لنفسه، لإكسابها من معصية الله وخلاف أمره، ما أوردها به نار جهنّم، وأصلاها به سعير سقر اهـ وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خَبَالاً وَدُّوا ما عَنِتُّم﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به محمد ﷺ من عند الله لا تجعلوا لأنفسكم أصدقاء وأخلاء وأصفياء ومستشارين من الكفار، تطلعونهم على أسراركم، لأنهم منطوون على غشكم وخيانتكم لا يقصّرون في إلحاق الشر بكم وهم يبذلون كلّ ما يطيقون في إضعافكم وإضراركم وإفساد ذات بينكم ويتمنّون القضاء عليكم وعلى دينكم، وإلحاق العنت والمشقة بكم وبطانة الرجل هم خاصّة أهله الذين يطّلعون على أسراره ويعرفون مدخله ومخرجه لشدة قربهم منه، ومنه بطانة الثوب وهي ما يلي البطن منه بخلاف الظّهارة، والبطانة السريرة أيضا، ومعنى: ﴿من دونكم﴾ أي من غير مِلّتكم، ومعنى: ﴿لا يألونكم خَبَالا﴾ أي لا يُقَصِّرُونَ في خبالكم، والخبال الفساد، كما قال عز وجل في المنافقين: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ وأصل الخبال ما يلحق الجسم من مرض وفتور فيورثه فسادًا واضطرابًا وخروجًا عن حد الاعتدال، ومعنى: ﴿ودُّوا ما عنتُّم﴾ أي تمنوا عنتكم أي إلحاق أشد الضرر والمشقة بكم، وقوله عز جل: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح لكم أيها المسلمون على صفحات وجوههم وما تسمعونه من فلتات ألسنتهم ومن حرصهم على بقائهم على دينهم، على أن ما تخفيه صدورهم من العداوة لكم أكبر مما بدا من أفواههم، فلا تتخذوا منهم بطانة ولا توالوهم . والعداوة على الدين هي العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى دين الآخر

كما قال الشاعر:

كلّ العداوة قد تُرْجَى إزالتها ... إلا عداوةَ من عاداك في الدّين

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانةٌ تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانةٌ تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله» قال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبوأيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس، عن أبي حيان التيمي عن أبي الزنباع عن ابن أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب فلو اتخذته كاتبا؟ فقال: قد اتخذت إذاً بطانةً من دون المؤمنين اهـ ولا شك أن اتخاذ كاتب أو مستشار للمسلمين من الكفار أخطر ممن يجعل الذئب راعيا للغنم. وقوله عز وجل: ﴿قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ أي قد أوضحنا لكم أيها المؤمنون منهج سعادتكم، وسلامتكم من كيد أعدائكم وما انطوت عليه قلوبهم من بغضكم وبغض دينكم، فلا تتخذوا منهم بطانة، ولا تطلعوهم على أسراركم، ومخططات أمن دولتكم، وتحرّكات جيوشكم، وتوجّهاتكم، وقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ هو للحض على استعمال العقل في تأمل هذه الآيات، وتدبر تلك البينات، لأن من يتخذ بطانة من عدوه يكون كمن يُلْقِم الأفعى يَدَه، ولا يفعل ذلك عاقل. وقوله عز وجل: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ هذا تحذير آخر وتنفير من أن يتخذ المسلم بطانةً من الكافرين بسبب قرابة من رضاع أو مصاهرة أو غير ذلك، لأنه لا يليق بالمؤمن أن يكون الكافر أشد صلابة في دينه الباطل من المؤمن في حقه، فكيف يرضى المؤمن أن يحب كافرا لأجل

قرابة أو نحوها في الوقت الذي يبغضه فيه هذا الكافر تعصبا لدينه الباطل، وهل يليق بمؤمن يصدّق كلّ الكتب السماوية أن يوالي من يكفر بالقرآن العظيم؟ وهل يليق بمؤمن أن يخالل من إذا جلس مع المؤمنين ادّعى أنه مؤمن فإذا انصرف من عند المؤمنين تمنى أن يمزق أجساد المسلمين وأخذ يعض بأسنانه أطراف أصابعه من شدة الغيظ والحنق على الإسلام وأهله؟ وقوله عز وجل: ﴿قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ أي أخبر يا محمد هؤلاء الحاقدين على الإسلام وأهله بأن الله معزّ دينه فليزدد غيظكم حتى تهلكوا لأنكم لن تروا ما يسركم، وعند الله عز وجل علم خفايا صدوركم وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا، إنّ الله بما يعملون محيط﴾ بيانٌ لشدّة عداوة الكفار للمؤمنين كأنه قيل لهم: كيف تتخذون بطانة ممن إذا نزل بكم خيرٌ امتلأت قلوبهم غمّا وهَمًّا وغيظا، وإن أصابكم بلاء طاروا فرحا، وإن تصبروا وتطيعوا أوامر الله وتجتنبوا نواهيه يحفظكم من شرهم، إن الله لا يخفى عليه شيء من كيدهم ومكرهم، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

قال تعالى: ﴿وإذ غدوْتَ منْ أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعد للقتالِ، والله سميعٌ عليمٌ* إذ همّتْ طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما، وعلى الله فلْيتوكّل المؤمنون* ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّةٌ فاتّقوا الله لعلّكم تشكُرون* إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين* بلى، إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هٰذا يُمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين* وما جعله الله إلاّ بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به، وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيمِ* ليقطع طرفا من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين.﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل للمؤمنين أنهم إن يصبروا ويتّقوا يدفع الله عز وجل عنهم كيد أعدائهم وينصر المسلمين على الكفرة، أشار عز وجل هنا إلى معركتين شهيرتين عند العرب والعجم، وهما معركة أحد ومعركة بدر، حيث خالف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ يوم أحد ولم يصبروا فانهزموا، وأنهم لما ثبتوا وصبروا واتّقوا في يوم بدر مع أنهم كانوا قليلين في عَددهم وعُددهم انتصروا. وقوله عز وجل: ﴿وإذْ غَدَوْتَ من أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعد للقتال، والله سميع عليم* إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ أشار الله عز وجل بهاتين الآيتين إلى معركة أحد، وقد كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية، وكانت قريش تريد الثأر لقتلاها يوم بدر، وأجمعت على حرب رسول الله ﷺ، فجمعت جموعها، وخرجت بحدّها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من بني كنانة وأهل تهامة، وأخرجوا معهم نساءهم، ومغنّياتهم، حتى لا يفرّوا، وخرج أبو سفيان على رأس المشركين ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة

لتؤلّب على المسلمين، وتحضّ على حربهم لتثأر لمقتل أبيها وأخيها وعمّها يوم بدر، فأقبلوا حتى نزلوا بِعَيْنَيْن، وهو جبلٌ ببطن السَّبِخة من قناة، على شفير الوادي مقابل المدينة، قرب جبل أحد، يفصل الوادي بينه وبين جبل أحد، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، واستقرّ رأيهم على الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدوّ الله رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رجع بنحو ثلث الناس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبد الله بن عمرو بن حرام السَّلَمِي والد جابر رضي الله عنهما أن يحملهم على متابعة رسول الله ﷺ وقال لهم: تعالو قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، فقال عبد الله بن أبيّ ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتّبعناكم، وقد كادت طائفتان من المؤمنين أن تتأثّرا بكلام عدوّ الله عبد الله بن أُبيّ وتفشلا وهما من بني حارثة وبني سَلِمة لكن الله تعالى عصم هاتين الطائفتين، وثبّتهما على الحق، وبنو سلمة غربي سلع مباشرة وبنو حارثة شمال شرقي سلع وبينهم الخندق كما روى البخاري في صحيحه الحديث رقم (١٨٢٢) نا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني أخي سليمان عن عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (حرم ما بين لابتي المدينة علي لساني) قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة وقال: (أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم) ثم التفت فقال: (بل أنتم فيه). وقد استمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشِّعْب من أحد، في عُدْوة الوادي، وجعل ظهره وظهر عسكره إلى أحد، وأخذ ﷺ يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال، ويسوّي صفوفهم، وأجلس جيشاً من الرّماة فوق جُبَيْل على مقربة من عسكر رسول الله ﷺ بالجنوب الشرقي من أرض المعركة لينضَحوا عن المسلمين بالنَّبْل، وكانوا خمسين رامياً، وليحموا ظهر المسلمين إذا أقبلوا على قتال المشركين الذين كانوا إلى الجهة الغربية من مكان المسلمين وأمّر على الرّماة عبد الله بن

جُبَيْر أخا بني عمرو ابن عوف، وقال رسول الله ﷺ للرّماة وأميرهم: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» حتى قال لهم: «إن رأيتمونا تَخَطّفُنا الطيرُ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» فلما التقى الجمعان أخذ المسلمون يحصدون المشركين حصداً، فهرب المشركون حتى لحق بعضهم بالطائف، وهربت نساؤهم إلى الجبل يشتَدِدْن فيه، ورفعن عن سوقهنّ، حتى بدت خلاخيلهنّ، فلما رأى الرّماة ذلك نسوا وصية رسول الله ﷺ لهم، وأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة. فنهاهم أميرهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه عن النزول وأمرهم بالثبات في مكانهم تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ، لكنّهم في غمرة فرحتهم بهذا النصر اندفعوا إلى أرض المعركة يجمعون الغنائم، ففطن لهم خالد بن الوليد وكان على خيل المشركين في مائة فارس، فاستدار بخيله من ورائهم، وكان عبد الله بن جبير أمير الرماة لم يبرح مكانه حتى استشهد رضي الله عنه، وأخذت فرسان المشركين تصيب المسلمين، وأخذ كثيرٌ من المسلمين يُصْعِدُون ولا يَلْوُون على أحد، ورسول الله ﷺ ثابت يناديهم في أخراهم: «إليّ عبادَ الله، إليّ عبادَ الله»، ولم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً، وقد صرخ إبليس بالمشركين المنهزمين: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم، والتحموا في المعركة مع المسلمين، وأصاب المسلمين غمٌّ شديد، حتى صار يضرب بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: هُزِمَ المشركون يوم أحد هزيمة بيّنة، تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم فنظر حذيفة ابن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي، أبي، قالت: فوالله ما انْحَجَزُوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة منها بقيّة خير حتى لقي الله. زاد في رواية: وقد كان انهزم منهم قوم حتى

لحقوا بالطائف اهـ، وفي تأكيد رسول الله ﷺ على الرماة أن لا يبرحوا مكانهم بعدة تأكيدات إشارةٌ إلى إيقان رسول الله ﷺ بخطورة هذا المنزل الذي بوّأه الرماة، وفيه معجزة من المعجزات حيث كانت بَلْوَى المسلمين من هذا المكان، وأن رسول الله ﷺ لا يقدر على رد المقدور، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: فينا نزلت: ﴿إذ هَمَّتْ طائفتان منكم أن تفشَلا﴾ الآية: قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما يسرّني أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿والله وليّهما﴾. وفي قوله عز وجل: ﴿غَدَوْتَ من أهلك﴾ إشارة إلى قرب أرض المعركة من المدينة التي بها أهل رسول الله ﷺ، وأنه لم يحتج في الوصول إلى أرض المعركة إلى مشقة سفر طويل كالذي احتاجوه يوم بدر ومع ذلك نصرهم الله في بدر، لأنهم صبروا واتّقوا، بخلاف يوم أحد حيث خالف أكثر الرماة أمر رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون من قِبَلِهِم، ولقد عفا الله عنهم. وقوله عز وجل: ﴿أن تفشلا﴾ أي أن تَجْبُنَا عن القتال وترجعا إلى المدينة مع عدو الله عبد الله بن أُبيّ حين رجع من الطريق، وقوله عز وجل: ﴿والله وليّهما﴾ أي والله عز وجل مثبّتهما ودافعٌ عنهما كيد الشيطان فلم ينصرفا، وقاتلا أعداء الله مع رسول الله ﷺ وفاز بعضهم بالشهادة، وقوله عز وجل: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي ويجب على المؤمنين أن تكون ثقتهم بالله وحده واعتمادهم عليه دون غيره، فإنّ النصر بيده وحده لا إله لا غيره ولا معبود بحق سواه، وقوله عز وجل: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ بيانٌ لتأكيد وجوب الاعتماد عليه وحده، وأن النصر إنما ينال بطاعته عز وجل وبطاعة رسوله محمد ﷺ، ومعنى: ﴿أذلّة﴾ أي قليلون في عَدَدهم وعُددهم وليس المراد من ﴿أذلة﴾ في هذا المقام ضد الأعزة، لأن المسلمين أعزة دائماً كما قال عز وجل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ بل المراد

هنا قلة السلاح والمال والعَدَد حيث كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾، ومعنى قوله: ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي فاجعلوا كل همكم تقوى الله عز وجل لكي تفوزوا بتأييده ونصره ويزيدكم من فضله، وتشكروا نعمه. وبدرٌ موضعٌ بين مكة والمدينة وبينه وبين المدينة حوالى خمسين ومائة «كيلومتر» وقد صارت الآن قرية كبيرة وكانت في الأصل من مياه غِفَار، وكان بها سوقٌ في الجاهلية. وقوله عز وجل: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمِدَّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين * بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين﴾ بيان للنصر وذكر لشرطه، فـ (إذ) في قوله عز وجل: ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ ظرف لقوله: ﴿نصركم الله ببدر﴾ وقوله: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ بيانٌ لشرط النصر. وقد أكد الله عز وجل أن الصبر والتقوى هما سبب دفع الشرور عن الإنسان وسبب جلب النصر والرفعة والتأييد له، حيث قال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ وقال هنا: ﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين﴾ وقال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور﴾ وقال: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ وقال عز وجل: ﴿إنه من يتق ويصبرْ فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وقال في سورة النحل: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون* إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقد قام رسول الله ﷺ يحرّض المؤمنين على القتال ويعدهم بنصر الله عز وجل لهم ويبشّرهم بأن الله عز وجل مُمِدّهم بالملائكة، حيث وعده الله عز وجل في البشارة الأولى أنه ممدّه بألف من الملائكة مُرْدِفِين أي يتبعهم غيرهم، ولما اشتدت استغاثة رسول الله ﷺ بربه بشره بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون من

السماء، ثم زاد في طمأنينته بالنصر بأن المشركين لو سارعوا للقائكم الآن والهجوم عليكم وصبرتم واتقيتم فإن الله يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين أي معلِّمين للمؤمنين كيفية القضاء على أعدائهم ومثبتين لهم، كما قال عز وجل: ﴿إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنَان﴾. وقوله عز وجل: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطميناً لقلوبكم وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لأهلك أعداءكم بدون قتال منكم أو إمداد من الملائكة، لأنه ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة التامة البالغة في أمره وقدره، وقوله عز وجل: ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يَكْبِتَهم فينقلبوا خائبين﴾ اللام في قوله عز وجل: ﴿ليقطع﴾ متعلقة بقوله عز وجل: ﴿نصركم الله ببدر﴾ أي نصركم ببدر ليُهلك أئمة الكفر من قريش كأبي جهلٍ وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، فهؤلاء طرف من الذين كفروا قطعهم الله وأهلكهم يوم بدر، وقوله: ﴿أو يَكْبِتَهم﴾ أي يُلحق بهم الذل والإخزاء واللعن والهزيمة والغيظ، وقوله: ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي فيرجع هذا الطرف الكافر إلى أهله خائباً محروماً لم يتحقق له أملٌ، وترجعون أيها المسلمون بالعز والنصر والتأييد وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

قــال تعالى : ﴿ليس لك من الأمـرِ شيءٌ أو يتوبَ عليهمْ أو يعـذّبهم فإنّهم ظـالمون* ولله ما في السّمـٰوات ومـا في الأرض ، يغفـر لمن يشاءُ ويعـذّب من يشاء ، والله غفورٌ رحيمٌ* يا أيّهَا الّذين آمنوا لا تأكلـوا الرّبا أضعافا مضاعفةً واتّقوا الله لعلّكم تفلحـون* واتّقوا النّار الّتي أعدّت للكافـرين* وأطيعوا الله والرّسول لعلّكم ترحمون﴾

بعد أن ضرب الله عـز وجل مثلين : أحدهما ما أصاب المسلمين يـوم أحد مع حرص رسـول الله ﷺ على نصحهم ، وإنزالهم مقاعد للقتـال ، وتشديده على الرماة بأن لا يبرحـوا مكانهم مهما كان ومخالفة أكثر الرمـاة لأمر رسول الله ﷺ وقـد كانـت هذه المخـالفـة لأمر رسـول الله ﷺ هي السّبب المبـاشر فيما أصاب المسلمين من قرح ، وثاني المثلين ما حصل للمسلمين في بدر من نصر الله وتأييده لاعتمادهم على الله وصبرهـم وتقواهـم ، وَاسَى الله عز وجل حبيبه ورسوله محمـدًا ﷺ بأنّ الأمر كلّه لله الحكيم العليم ، فقال عز وجل لـرسوله محمـد ﷺ : ﴿ليس لـك من الأمـر شيء أو يتـوب عليهـم أو يعـذّبهم فإنّهم ظـالمون﴾ أي ليست أمــور الكـون بيـدك ، وإذا كـانت ليسـت بيـد حبيبـه ومصطفـاه محمد ﷺ فإنها من بـاب أولى ليست بيـدغيره من خلق الله ، وإنما هي بيـد الله وحده ، يفعل مـا يشاء ، ويحكم مـا يريـد ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمـه ، وإن تعجب فعجب لأولَئك الذيـن قد ينتسبـون للإسـلام والتّـديّن ثم يعتقـدون أن بعض مشايخهـم ينفعون ويضرون ، ويتصرّفـون في الكون وهم يقـرءون قول الله عز وجل لسيد الأوليـاء والأنبياء والمرسلين محمد ﷺ : ﴿ليس لك من الأمـر شيء﴾ و(أوْ) في قــولـه عـز وجل : ﴿أو يتـوبَ عليهم﴾ هي عـاطفـةٌ لقـولـه عز وجـل : ﴿يتوبَ﴾ على قـولـه عـز وجل :

﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ كأنه قيل: ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذّبهم، وقوله عز وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ جملة اعتراضية لتصبير رسول الله ﷺ وتثبيته للاستسلام لقضاء الله وقدره، ولتنبيه المؤمنين إلى ذلك، ولتقرير توحيد الله عز وجل وأن مردّ الأمور إليه وحده، لتكون نبراسا يهتدي به المسلمون حتى لا يعتقدوا في رسول الله ﷺ ما اعتقدته النصارى في المسيح حيث جعلوه إلَها من دون الله.

وقوله عز وجل: ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي مستحقون لما ينزل بهم من عقوبة الله، فإن تاب الله عليهم فمن فضله، وإن عذبهم فبعدله، لمخالفتهم أمر ربهم وأمر رسوله ﷺ، وقد قال البخاري في صحيحه: بابٌ ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ حدثنا حِبّان بن موسى أخبرنا عبد الله أخبرنا مَعْمَر عن الزهري قال: حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا» بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى قوله: ﴿فإنهم ظالمون﴾. رواه إسحاق بن راشد عن الزهري، حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربّما قال: إذا قال: «سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد، اللهم انْجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر، واجعلها سِنِين كَسِنِي يوسف» يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياءٍ من العرب، حتى أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر حدثنا أبو

عقيل ـ قال أحمد : وهو عبد الله بن عقيل ، صالح الحديث ثقة ـ حدثنا عمر ابن حمزة عن سالم عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اللهم الْعن فلانًا وفلانا ، اللهم الْعَنْ الحارث بن هشام ، اللهم الْعَنْ سهيل بن عمرو، اللهم الْعَنْ صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية : ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ فَتِيبَ عليهم كلّهم . وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية العلائي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا محمد بن عجلان ، عن نافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة ، قال : فأنزل الله : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى آخر الآية . قال : وهداهم الله للإسلام اهـ وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كُسِرت رَباعِيَتُه يوم أحد ، وشُجّ في رأسه فجعل يَسْلُتُ الدّم عنه ويقول : كيف يفلح قومٌ شجّوا نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله» فأنزل الله عز وجل : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾ هو تأكيد لما أفاده قول الله عز وجل : ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ كأنه قيل : إنّ الأمر كلّه في السموات وفي الأرض لمالك السموات والأرض ومَلِكِهما يتصرف وحده في ملكه بما تقتضيه حكمته ولا يُسأل عما يفعل وهو أرحم الراحمين وربّ العالمين . وقال أبو السعود العماديّ في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾الآيتين : والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل ، نصركم عليهم ليهلكهم ، أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصرّوا ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم ، والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخرويّ المخصوص بأشدّ الكفرة كفرًا ، وإلا فمطلق التعذيب الأخروي متحقّقٌ في الفريقين الأوّلين أيضا . ثم قال : ونقل

عن الفرّاء وابن الأنباريّ أنّ (أو) بمعنى (إلاّ أن)، والمعنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به، أو يعذّبهم فتتشفى منهم، وأيا ما كان فهو كلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغزوة أحد إثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهر، لأن كلاّ منهما مبنيّ على اختصاص الأمر كلّه بالله تعالى، ومُنْبِئ عن سلبه عمن سواه اهـ
وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفةً﴾ مناسبة النهي عن أكل الربا في هذا المقام المسوق في شأن غزوة أحد للإرشاد إلى أن أساس كل فوز ونجاح ونصر وسعادة هو تقوى الله عز وجل، وحبسُ النفس عن المحرمات، وأن أكل الحلال والاقتصار على الطيبات من الرزق هو مِلاك قبول الطاعات واستجابة الدعاء والنصر على الأعداء لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، فمن أكل الحرام ـ وأخبثه الربا ـ كان حريًّا بسخط الله وحرمانه من عون الله وتأييده، كما أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ، يا ربّ، فأنى يستجاب لذلك وقد أكد الله عز وجل لفت انتباه المؤمنين إلى أثر الأموال في التقرب إلى الله عز وجل واستجلاب رضوانه والفوز بجنات النعيم حيث صدّر صفات المتقين بعد ثلاث آيات من نهيه عن الربا هنا بقوله عز وجل: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ وليس قوله عز وجل: ﴿أضعافا مضاعفة﴾ شرطا في تحريم الربا، فإنّ الربا محرّم، بل هو من أكبر الكبائر حتى ولو لم يصل إلى الضّعف

فضلا عن الأضعاف المضاعفة، لأن المقصود من إيراد هذا الوصف هو التشنيع على ما كان أهل الجاهلية يفعلونه وتوبيخهم على جشعهم وظلمهم وامتصاص أغنيائهم دماء فقرائهم حيث كان الرجل يُرْبي إلى أجل، فإذا حلّ هذا الأجل قال للمَدِين: زدني في المال حتى أزيدك في الأجل، فيفعل، ويتكرر هذا مرات كثيرة حتى يصير الربا أضعاف أضعاف رأس المال، والقاعدة عند الأصوليين أن القيد إذا كان لبيان الواقع فإنه لا مفهوم له، وقد مثل له الأصوليون بهذه الآية الكريمة. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيد على أن تقوى الله عز وجل هي سبب فلاح المتقين وفوزهم ونصرهم وتأييدهم على أعدائهم، وقوله عز وجل: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ أي احفظوا أنفسكم من الأسباب التي تولجكم في نار جهنم التي رُصِدَت وهُيّئت لمن كفر بالله، وفي هذا تحذير شديد من أكل الربا، وأنه قد يكون سببا في نزع الإيمان من قلوب أَكَلَة الربا وموتهم على الكفر عياذًا بالله، وفي هذا دليل أيضا على أن النار أعدت في الأصل للكفار ولا يمنع ذلك أن يعذَّب بها بعض العصاة من المؤمنين لكنهم لا يُخَلَّدون فيها بل يخرجون منها إما بشفاعة رسول الله ﷺ أو بشفاعة بقية النبيين والمرسلين والملائكة والمؤمنين، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال في حديث طويل: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخْرِج برحمته مَن أراد مِن أهل النار، أمر الملائكة أن يُخْرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امْتُحِشوا، فيُصَبّ عليهم ماء الحياة فينبُتُون تحته كما تَنْبُت الحِبّة في حَمِيل السّيل» الحديث ـ وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن ناسا سألوا رسول الله ﷺ: هل

نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» وساق الحديث إلى أن قال: «فيقول الله عز وجل: شَفَعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيُخْرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حُمَمًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحِبّة في حَمِيل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أُصَيْفر وأُخَيْضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض» فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية! قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه» الحديث. وقوله عز وجل: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ هو حضٌّ وترغيب للعض على النواجذ بأسباب النجاة من النار، والفوز برحمة الرحيم الغفار، بملازمة طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمٰوات والأرض أعدّت للمتّقين* الّذين ينفقون في السّراء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس، والله يحبّ المحسنين* والّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون* أولٓئك جزاؤهم مغفرة من ربّهم وجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين﴾

بعد أن رهّب الله عز وجل المؤمنين من تعاطي الربا وخوّفهم من أسباب سخط الله، وحذّرهم من النار التي أعدّها لأعدائه الكفرة الفجرة، وحضّهم على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ التي تجلب لهم الفلاح والفوز والنصر على الأعداء، رغّبهم في المبادرة إلى الأعمال التي تجلب مغفرة الله ورحمته، وتسكنهم فسيح جنّته، فقال عز وجل: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمٰوات والأرض أُعِدّت للمتقين﴾ وتقديم الترهيب على الترغيب، لأن الترهيب تخلية، والترغيب تحليةٌ، والتخلية مقدّمة على التحلية، كما هو مقتضى الفطرة والطبع، والعقل والشرع، ومعنى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين﴾ أي سابقوا وبادروا إلى الفوز بمغفرة الله وجنّة النعيم الفسيحة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أُعِدّت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ والعَرْض يطلق على معنى السَّعة وعلى ما يقابل الطّول، وهو أقصر الامتدادين، ومن استعمال العَرض بمعنى السّعة قوله عز وجل: ﴿وإن أصابه الشرّ فذو دعاء عريض﴾ على أنه لو كان المقصود من قوله عز وجل: ﴿عرضها السمٰوات

والأرض﴾ هو ما يقابل الطول فإن المراد السعة أيضا لأنه إذا كان عرضها كالسموات والأرض فما بالك بطولها؟ ومعنى : ﴿عرضها السمٰوات والأرض﴾ أي لو جعلت السموات والأرض طبقا طبقا بحيث يكون كلّ واحدة من تلك الطبقات سطحًا مؤلّفًا من أجزاء لا تتجزّأ ثم وُصِل البعض بالبعض حتى صار الكلّ طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السّعة لا يعلمها إلا الله، وفيه إشارة إلى سعة مُلْك الله وأنه ليس مقتصرا على السموات والأرض، وإذا علم أن الجنة فوق السموات السبع وأن سقفها عرش الرحمن، وأن كرسي الله عز وجل وسع السموات الأرض لم يكن هناك محلّ للتساؤل بأنه إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ لأن هذا التساؤل إنما يكون ممن يظن أنّ ملك الله هو السموات والأرض فقط، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشّر الناس؟ قال: «إنّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدّرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة» أُراه: فوقه عرش الرحمن، «ومنه تفجّر أنهار الجنة» قال محمد بن فُلَيْح عن أبيه: وفوقه عرش الرحمن. كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ﷺ ربّه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مَلِك من ملوك الدنيا، فيقول: رضيتُ ربّ، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله

فيقول في الخامسة: رضيتُ ربّ، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك ولذّت عينك، فيقول: رضيتُ ربّ، قال: ربّ فأعلاهم منزلة؟ قال: أولَئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها فلم تر عينٌ ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر». وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، أو آخر أهل الجنة دخولا الجنّة، رجل يخرج من النار حبوًا، فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيُخَيَّل إليه أنها مَلأَى، فيرجع فيقول: يا ربّ وجَدْتُها مَلأَى، فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيّل إليه أنها مَلأَى، فيرجع فيقول: يا ربّ وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنةفإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إنّ لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك؟» قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول: «ذلك أدنى أهل الجنة منزلة» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنّ للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة طولها في السماء ستّون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، ولا يرى بعضهم بعضا». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ في الجنة شجرةً يسير الرّاكب الجَوَاد المُضَمَّر السّريع مائة سنة ما يقطعها». وقوله عز وجل: ﴿أُعِدّت للمتقين﴾ أي هُيئت وزُينت للذين يخافون الله ويقفون عند حدوده، وقوله عز وجل: ﴿الذين ينفقون في السّراء والضرّاء﴾ أي الذين يبذلون أموالهم في مرضات الله والإحسان إلى خلقه من الأقارب والأباعد في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وعموم الأحوال ولا سيما في سبيل نشر

الإسلام وإعـلاء كلمة الله، وقولـه عز وجل: ﴿والكـاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ اعلم أن الغيظ هو ما يعتري النفس من شدة الغضب وسَوْرته، فإن كان سببه الحقد والحسد فهـو كالنار التي تتأجج في الصدر لا يطفئها إلا زوال النعمة عن المحسـود، وهذا هو الذي وصف الله بـه أعداء المسلمين في قوله عز وجل: ﴿وإذا لقوكم قالـوا آمنا وإذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتـوا بغيظكم، إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ وقـد يكون سبب الغيظ أذى يلحقك من شخص دون أذى لحقه منك فتغضب لـذلك، وهذا هو الذي حضّ الله عز وجل على كظمـه هنا، وهو من أبرز صفات المتقين، وكظم الغيظ هو حبسُ النفس عن متابعة هواها في الغضب، وأصل الكظم مَخْرَج النَّفَس ويطلق على الإمسـاك والحبس ومنـه: كظم البعيرُ كظـومـا إذا أمسك على ما في جـوفه ولم يَجْتَر، والمكظوم: المكروب والممتلئ غيظـا وأسفًا، وكظم الغيظ يجمع بين صفتي الصبر والحلم، وقـوله عـز وجل: ﴿والعافين عن الناس﴾ أي والتـاركين عقوبة من أسـاء إليهم وهم قادرون على مجازاتهم واستيفاء حقوقهم، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الكاظمين الغيظ والعافين عن النـاس في مواضع مـن كتابـه الكريـم وجعل الإحسان إلى من أسـاء إلى الإنسـان من أعظم ما يـزدلف به العبـد إلى الله عز وجل حيث يقـول: ﴿ولا تستوي الحسنـة ولا السيئة، ادفع بـالتي هي أحسن، فإذا الذي بينـك وبينه عداوةٌ كأنـه وليّ حميمٌ* وما يُلقّـاها إلا الـذين صبروا وما يُلقّـاها إلا ذو حظ عظيم﴾ وقـال عـز وجل في سـورة الشـورى في وصف المؤمنين: ﴿وإذا مـا غضبوا هم يغفرون﴾ وقال عز وجل في نفس المقام: ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفـا وأصلح فأجـره على الله﴾ وقـال عـز وجل في نفس المقـام أيضـا: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عـزم الأمور﴾ وقـال تعالى: ﴿خذ العفـو وأْمُرْ بالعُـرْف وأعرض عن الجاهلين﴾ وقـال تعالى: ﴿فـاصفح الصّفح الجميل﴾

وقال عز وجل : ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ ولقد كان رسـول الله ﷺ المثل الأعلى في هـذا البـاب ، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنهـا أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يـوم أحدٍ؟ قال : «لقد لقيتُ مـن قومك ، وكان أشدّ مـا لقيته منهم يومُ العقبـة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبـد كِلاَل ، فلم يجبني إلى مـا أردت فـانطلقت وأنا مهمـومٌ على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنـا بقـرن الثعـالب ، فرفعـت رأسي وإذا أنا بسحـابـة قد أظلّتني ، فنظـرت فإذا فيهـا جبريل ﷺ فناداني فقـال : إنّ الله تعالى قـد سمع قول قـومك لك ، وما ردّوا عليك ، وقـد بعث إليك مَلَك الجبال لتـأمره بما شئت فيهم ، فنـاداني مَلَك الجبـال فسلّم عليّ ثم قال : يـا محمد إن الله قـد سمع قـول قومك لك ، وأنـا مَلَكُ الجبـال وقـد بعثني ربي إليك لتـأمـرني بأمــرك ، فما شئتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبَيْن ، فقـــال النبي ﷺ : «بل أرجـــو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» . وروى ابن ماجه بسند رجالُه محتجٌّ بهم في الصحيح من حديـث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قـال رسول الله ﷺ : «ما من جُـرْعةٍ أعظم عنـد الله من جرعـة غيظٍ كظمها عبـدٌ ابتغاء وجه الله» . كما روى أبو داود والترمـذي وحسّنه وابن ماجه من حـديث معاذ ابن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كظم غيظا وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَه دعاه الله سبحـانه على رءوس الخلائق حتى يخيّره من الحور العين ما شاء» . وقـوله عـز وجل : ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييـلٌ مقرّرٌ لمضمـون ما قبله ، وتقرير أن الإنفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن المسيء من الناس من الإحسان الذي يحبه الله عز وجل ويثيب أهله أحسن الثواب .
وقـوله عـز وجل : ﴿والـذين إذا فعلوا فـاحشـة أو ظلموا أنفسهم ذكـروا الله فاستغفـروا لذنـوبهم ومن يغفر الـذنوب إلا الله ولم يصروا على مـا فعلوا وهم

يعلمون﴾ أي والـذين إذا ارتكبوا جريمة من كبـائر السيئات وأقبحها كالـزنا ونحوه أو ضيّعوا على أنفسهم بعض أسباب سعادتها بترك بعض القربات أو فعل بعض السيئات التي لم تبلغ حدّ الفاحشة من المعاصي تذكروا عظمة الله ومقامهم بين يـديه يوم القيـامة فطلبوا من الله عـز وجل مغفرة ذنوبهم وتـابوا إليه، ولا يغفـر الذنوب أحد إلا الله عـز وجل، ولم يقيموا على معصيتهم بل أقلعوا عنها ونـدموا على فعلها وعزموا ألاّ يعـودوا إليها، وهم يعلمون أن من تاب تاب الله عليه وأنه لا توبة مع إصرار ولا ذنب مع استغفار، وهذا كقوله عـز وجل: ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسـه ثم يستغفر الله يجد الله غفـورًا رحيمًا﴾ وهذا من فضل الله على المؤمنين أن قَـرَنَ التائب من الـذنب مهما كان بالمنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعـافين عن الناس المحسنين الذين يحبهم الله عز وجل. وقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن عبـدًا أذنب ذنبا فقـال: رب أذنبت فاغفـره، فقال ربّه: أعَلِمَ عبدي أن لـه ربّا يغفر الذنب ويأخـذ به، غفرتُ لعبـدي، ثم مكث ما شـاء الله ثم أذنب ذنبا فقـال: رب أذنبت ذنبا فاغفره، فقـال ربه: أَعَلِمَ عبدي أن له ربّـا يغفر الذنب ويأخـذ به، غفرتُ لعبـدي، ثم مكث ما شـاء الله ثم أذنب ذنبـا، قـال: رب أذنبتُ ذنبا آخـر فـاغفر لي، فقـال: أعلم عبـدي أن له ربّـا يغفر الـذنب ويأخـذ به غفـرت لعبدي فليفعل ما شاء» اهـ وكما قـال عز وجل: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتـوبون من قريب فأولَئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما﴾ وقوله عز وجل: ﴿أولَئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعـم أجر العاملين﴾ وعد من الله عز وجل لهؤلاء السعداء، جعلنا الله بفضله منهـم.

قـال تعالى: ﴿قـد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظـروا كيف كان عاقبةُ المكذّبين* هٰذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتّقين* ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلونَ إن كنتمْ مؤمنينَ* إن يمسسكم قـرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثلـهُ، وتلك الأيام نـداولها بين النّاس وليعلم الله الّـذين آمنوا ويتّخـذ منكم شهــداءَ، والله لا يحبّ الظّـــالمين* وليمحّص الله الّـــذين آمنـــوا ويمحق الكافرينَ. ﴾.

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أنّ ما أصـاب المسلمين يوم أحد كان بسبب ترك بعـض الرماة مقـاعدهم التـي بوأهم رسـول الله ﷺ إياهـا للقتال، وأن المسلمين انتصروا يوم بدر لأنهم صبروا واتقوا والتزموا بوصايا رسول الله ﷺ ثم أرشـــد الله عــز وجـل المسلمين إلى أسبـاب جلـب الانتصـار على الأعـــداء بالمحافظة على الطاعة والابتعاد عن المعصيـة واجتناب الربا وسائر المحرمات والمسـارعة إلى جنـة عرضهـا السمـوات والأرض بالإنفـاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين ومسارعـة من يقع في معصية إلى الاستغفار والإنابـة والتوبة النصـوح، شرع من هنا في إكمال بقيـة قصة غزوة أحـد وذكر أهمّ أحداثها وما فيها من العبر والعظـات والآيات الشاهدات بأن محمدا هو رسول الله حقـا وصدقا ﷺ، قال البخـاري في صحيحه: باب غـزوة أحد، وقول الله تعـالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبـوّئ المؤمنين مقاعـد للقتال والله سميعٌ عليمٌ﴾ وقولـه جل ذكره: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنـوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين* إن يمسسكم قـرحٌ فقد مسّ القـوم قرح مثلهُ، وتلك الأيـام نداولها بين النـاس وليعلم الله الـــذين آمنـوا ويتّخـــذ منكم شهـداء، والله لا يحبّ الظـالمين* وليمحّص الله الـذين آمنـوا ويمحـق الكـافـرين* أم حسبتم أن تدخلـوا الجنة ولمّا يعلم الله الـذين جاهـدوا منكم ويعلم الصابـرين* ولقد

كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ وقوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾ وقوله: ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتا﴾ الآية. حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عبدا لوهاب حدثنا خالدٌ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم أحد: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب» اهـ وقوله عز وجل: ﴿قد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ هذه تعزية ومواساة من الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم، أي قد مضت مني وقائع نقمة في المكذبين لرسلي المشركين بي كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، قد أمليت لهم ثم أخذتهم فكيف كانت عقوبتي لهم، فلا تظنوا أن نقمتي انقطعت عن عدوي وعدوكم للدولة التي أَدَلْتُهُم بها عليكم لأبتليكم بذلك، فامشوا في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان على مثل ما عليه كفار قريش، فانظروا كيف أحلّ الله عقوبته بالمكذبين وجعل العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة للمؤمنين، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم﴾ الآية، قول هِرَقْل لأبي سفيان في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دُوَلا وسِجَالاً، يُدالُ علينا المرّة ونُدال عليه الأخرى. وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنّ هرقل قال لأبي سفيان: وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمتَ أن قد فعل وأنّ حربكم وحربه تكون دولاً، ويدال عليكم المرّة وتدالون عليه الأخرى وكذلك الرّسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة. وقوله عز

وجل: ﴿هٰذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتّقين﴾ أي هذا الذي أوضحت لكم وعرّفتكموه تفسير للناس وإيضاح للأمم لتعريفهم بالابتلاء بالنصر والهزيمة ومردّ ذلك، وهذا التفسير نورٌ وأدبٌ لمن أطاع الله وأطاع رسوله محمدا ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي ولا تضعفوا ولا تبأسوا على ما أصابكم بأحد من القرح، وقوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم الظاهرون عليهم المرفوعون فوقهم في الدنيا والآخرة، فالعاقبة الحسنة لكم، وكما قال عز وجل: ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأَعْلَوْن والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم﴾ وقال البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه: وكان ابن عباس رضي الله عنهما مع أمه من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه. وقال: الإسلام يعلو ولا يُعلى. وقوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم صدقتم رسولي ﷺ فيما جاءكم به من عندي فلا تهنوا ولا تحزنوا. والمقصود تهييج المسلمين وحضّهم على سرعة الامتثال لأمر الله وأمر رسوله ﷺ والصبر على ما أصابهم من القرح، وقوله عز وجل: ﴿إن يمسسكم قَرْح فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثله﴾ أي إن يكن قد أصابكم في أحد قتل وجراحٌ فقد أصاب عدوّكم في بدرٍ وفي أحد قتل وجراحٌ مثلُ ما أصابكم، حيث كان شهداء بدر أربعة عشر شهيدا، وكان شهداء أحد سبعين شهيدا، وكان قتلى المشركين يوم بدر سبعين قتيلا وكان قتلاهم في أحد نيفا وعشرين قتيلا، وكان من بين قتلاهم يوم أحد صاحب لوائهم، كما أصيبوا بجراحات كثيرة في أحد، وعقر عامّة خيلهم بالنّبل، وقد أُسِرَ من المشركين سبعون يوم بدر ولذلك قال عز وجل: ﴿أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مِثْلَيْها قلتم أنّى هٰذا قل هو من عند أنفسكم﴾، وقوله عز وجل: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي نصرّفها بين الناس للبلاء والتمحيص، وقوله عز وجل: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾

وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ الواو في قوله عز وجل: ﴿وليعلم الله﴾ للدلالة على محذوف كأنه قيل: نداولها بين الناس لحكم جليلة لا تكاد تحصى وليعلم الله الذين آمنوا منكم الخ. وأصل المداولة نقل الشيء من واحد إلى واحد آخر، وقوله عز وجل: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هو شبيه بقوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّايعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ وقوله عز وجل: ﴿لنعلم أيّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمدًا﴾ وقوله: ﴿إلا لنعلم من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه﴾ وقوله عز وجل: ﴿ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ أي وليعلم الله في عالم الوجود والشهادة ما علمه في عالم الغيب قبل الوجود والظهور، ومن الثابت المسلّم المقطوع به أن علم الله متعلّق أزلاً بكل شيء، فمعنى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي وليُرى المؤمنُ من المنافق، كما قال عز وجل: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين* وليعلم الذين نافقوا﴾، وقوله عز وجل: ﴿ويتّخذ منكم شهداء﴾ أي وليكرم من أكرم من المؤمنين بالشهادة في سبيل الله، وقوله: ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ أي والله يبغض المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وفيه تنبيه إلى حبه عز وجل عبادَه المؤمنين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وليمحّص الله الذين آمنوا﴾ أي وليختبر الذين آمنوا حتى يُخلّصهم بالبلاء الذي نزل بهم ويُعلي منازلهم في جنات النعيم، وقوله: ﴿ويَمْحَق الكافرين﴾ أي ويبطل من المنافقين قولهم بألسنتهم ماليس في قلوبهم حتى يحذرهم المؤمنون، ويستأصل كذلك جملةً من الكافرين ويهلكهم. وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرّماة، وأمّر عليهم عبد الله، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا،

وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، حتى بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة. فقال عبد الله: عهد النبيّ ﷺ أن لا تبرحوا، فأبَوْا، فلما أبَوْا صرف الله وجوههم، فأصيب سبعون قتيلا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمدٌ؟ فقال: «لا تجيبوه»، قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إنّ هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدوّ الله، أبقى الله لك ما يخزيك. قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلّ»، قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: « الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبوسفيان: يومٌ بيوم بدر والحرب سجالٌ، وتجدون مُثلةً، لم آمر بها ولم تسؤني. وفي رواية: قال: جعل رسول الله ﷺ على الرّجّالة يوم أحد ـــ وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرّماة ـــ عبد الله بن جبير فقال: «إن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم» فهزمهم الله، فأنا والله رأيت النساء يشتددن، وقد بدت خلاخيلهن، وأَسْوُقُهن، رافعات ثيابهنّ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك قوله تعالى: ﴿والرسول يدعوكم في أُخْراكم﴾ فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبي ﷺ قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة: سبعين أسيرا وسبعين قتيلا، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمدٌ؟ ـ ثلاث مرات ـــ فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي

قحافة؟ ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ـ ثلاث مرات ـ ثم رجع إلى أصحابـه فقال: أمّا هؤلاء فقـد قتلوا، فما ملك عمر نفسـه، فقال: كذبـت والله يا عدوّ الله، إنّ الـذين عددتَ لأحيـاء كلّهم، وقد بقي لـك ما يسـوؤك، قال: يـوم بيوم بـدر، والحرب سجـالٌ، إنكم ستجدون في القـوم مُثْلةً، لم آمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: اعْلُ هُبَل، اعْلُ هُبَلُ، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟» ـ وذكره إلى قولـه: «ولا مولى لكم». وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبـو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّبٌ عليـه بِحَجَفَةٍ، وكان أبو طلحة رجلا راميا، شديد النَّزْعِ، لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الـرجل يمرّ معه الجُعْبة مـن النّبل، فيقول: انثرها لأبي طلحـة، قال: ويُشْرف النبيّ ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبـو طلحة: يا نبي الله بأبي وأمي لا تُشْرِفْ، لا يصيبك سهمٌ من سهـام القوم، نحـري دون نحرك، ولقـد رأيت عـائشة وأمّ سليـم وإنها لمشمرتـان، أرى خَـدَمَ سُـوقهما ينقلان القِـرَب على متونهما، ثـم تفرغانه في أفواه القوم، ثم تـرجعان فتملآنها، ثـم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحـة، إمّا مرّتين وإما ثلاثا من النعاس.

قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين* ولقد كنتم تمنّون الموتَ من قبل أن تلقوهُ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون* وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل بعض أسباب مداولة الحرب بين المسلمين والكافرين من تمييز المؤمنين من المنافقين، وإكرام بعض المؤمنين بالشهادة في سبيل الله، وحبّ الله للمؤمنين وبغضه للظالمين، ولتمحيص الذين آمنوا بمغفرة ذنوبهم ورفع درجاتهم، ومحق الكافرين، شرع هنا يبيّن السبب الأصلي والغاية القصوى من مداولة الحرب بين المؤمنين والكافرين، وأن طلاّب الجنة لا يستكثرون أن يبذلوا في سبيل الوصول إليها كلّ غالٍ ونفيس من أنفسهم وأموالهم، لأنهم طلاّب السلعة الغالية وكما قال أبو فراس:

تهون علينا في المعالي نفوسُنا ومن يطلب الحسناء لم يُغْلِها المهرُ

والجنة أفضل سلعة على الإطلاق، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على الحصول عليها وبذل النفس وكل شيء من الغالي والنفيس في سبيل ذلك، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي أُفْرِدَ يوم أحدٍ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه قال: «من يردّهم عنّا وله الجنة؟» ـــ أو «هو رفيقي في الجنة» ـــ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضا فقال: «من يردهم عنّا وله الجنّة» ـ أو «هو رفيقي في الجنة» ـــ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصَفْنا أصحابَنَا» كما روى البخاري ومسلم في

صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليَرَيَنَّ الله ما أصنع — وفي رواية: لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله ما أُجِدّ — فلما كان يوم أحد، وانكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين — ثم تقدّم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد ابن معاذ، هذه الجنة وربّ النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، فقال سعد: فما استطعت على ما صنع، قال أنس: فوجدنا به بضعة وثمانين ضربةً بالسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل، وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أختُه - وهي الرُّبَيِّعُ بنت النضر - بشامة أو ببنانه، قال أنس: كنّا نُرى - أو نظنّ - أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا﴾. أما لفظ مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: عمّي الذي سمّيت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا، فشقّ عليه، وقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، فإن أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرينّ الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو، أين تمرّ؟ قال: واهًا لريح الجنة، أجده دون أُحُد، قال: فقاتلهم حتى قتل، قال: فوُجِدَ في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة ورمية وطعنةٍ. ثم ذكر نحو ما تقدم، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رجلٌ لرسول الله ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلتُ، أين أنا؟ قال: «في الجنة»، فألقى تمراتٍ في يده، ثم قاتل حتى قتل. كما روى مسلم من حديث أنس بن

مالك رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ أخذ سيفا يوم أحـد فقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطـوا أيديهم ــ كلّ إنسان منهم يقول: أنـا أنا ــ فقال: «من يأخذه بحقّه؟» فأحجم القـوم، فقال سِماك بن خَرَشَةَ أبو دُجَانـة: أنا آخذه بحقه، قـال: فأخذه ففلق به هام المشركين. كما روى البخـاري من حديث سعد بن أبي وقاص: نَثَلَ لي النبي ﷺ كنانتـه يوم أحد فقال: «ارْمِ فداك أبي وأمي» كما روى مسلم من حديث سعـد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ جمع له أبـويه يوم أحـدٍ قال: كان رجل من المشركين قـد أحرق المسلمين فقال له النبي ﷺ: «ارْمِ فـداك أبي وأمي» قال: فنزعتُ له بسهـمٍ ليس فيه نصلٌ فأصبت جنبه، فسقط، فـانكشفت عورتـه، فضحك رسول الله ﷺ، حتى نظرت إلى نـواجذه. ومعنى قولـه في الحديث: جمع له أبويه يـوم أحد، أي قال لـه: فداك أبي وأمي، ومعنى قـوله: قـد أحرق المسلمين، أي أثخن فيهم وصـار كـالنـار التي تحرق من تصيبـه. كما روى البخـاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت على يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحـد رجلين عليهما ثِيابُ بَياضٍ يقاتلان عنـه كأشدّ القتال، مـا رأيتهما قبلُ ولا بعـدُ. وقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث سهل بن سعد وهو يُسأل عن جُرْح رسولِ الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعـرف من كـان يغسل جُـرْح رسـول الله ﷺ ومـن كـان يسكب الماء وبما دُووِيَ، قال: كـانت فاطمة عليهـا السلام بنت رسـول الله ﷺ تغسله وعليٌّ يسكب الماء بالمِجَنّ، فلما رأت فـاطمة أنّ الماء لا يـزيد الدّمَ إلا كثـرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتهـا، فاستمسك الدّم، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُه يـومئذ، وجُـرح وجهـه، وكُسرت البيضـة على رأسه. وقـال ابن إسحـاق: حـدثني يحيى بن عبّاد بـن عبد الله بن الـزبير عن أبيـه عباد عن عبـد الله بن الـزبير عن الزبير أنـه قـال: والله لقد رأيتُني أنظـر إلى خَـدَم هند بنت عتبـة

وصواحبها مُشَمِّرات هوارب، ما دون أَخْذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخَلَّوْا ظهورنا للخيل، فأُتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إنّ محمدًا قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشيّ قال: إنّ حمزة قتل طُعَيْمة بن عديّ بن الخِيَار ببدر، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مطعم: إن قتلتَ حمزة بعمّي فأنت حرّ، قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَيْن، وعَيْنَيْن جبلٌ بحيال أحد، بينه وبينه وادٍ، خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفّوا للقتال، خرج سِبَاعٌ فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أمّ أنمار مُقَطّعة البُظُور، أَتُحادّ الله ورسولَه ﷺ؟ قال: ثم شدّ عليه، فكان كأمس الذاهب، قال: وكَمَنْتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّتِه حتى خرجت من بين وَرِكَيْه، قال: فكان ذاك العهد به. الحديث، ومع أنّ الجولة كانت للمشركين، فقد دفع الله تبارك وتعالى بالرّعب في قلوبهم، فانصرفوا عن أرض المعركة، وامْتَطَوْا إبلهم راجعين إلى مكة، ففرغ المسلمون لشهدائهم وجرحاهم رضي الله عنهم. و(أَمْ) في قوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري حيث انتقل من مواساتهم على ما أصيبوا به من القرح وما بيّن لهم من حِكَمِه إلى بيان الغاية القصوى من مداولة الحرب بين المشركين والمسلمين، وإنكار أن يتمنى الإنسان السلعة الغالية دون بذل ثمن لها، أي أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تُبْتَلُوا بالقتال والشدائد ويظهر المجاهدون والصابرون إلى حيز الوجود والظهور والشهود، وهذا كقوله عز وجل: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين

خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إنّ نصر الله قريب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الٓمٓ * أحسب الناس أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفْتَنُون﴾ ولقد أظهر الله عز وجل المجاهدين والصابرين من أصحاب رسول الله ﷺ حتى صاروا مضرب المثل في الشجاعة والصبر، وعطف الصابرين على المجاهدين ليشمل النساء الصابرات حيث لا جهاد عليهن، ولقد صارت بعض الصحابيات في ذلك مثلا يحتذى، فقد قال ابن إسحاق: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن إسماعيل بن محمد عن سعد بن أبي وقاص قال: مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أمّ فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: كلّ مصيبة بعدك جَلَلٌ. اهـ أي كلّ مصيبة إن سلم لنا رسول الله سهلةٌ يسيرة، فالجلل من الأضداد يطلق على السهل اليسير وعلى العظيم الكبير الكثير. وقوله عز وجل: ﴿ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ هذه الآية إشارة إلى ما كان من حرص بعض أصحاب رسول الله ﷺ على الاستشهاد في سبيل الله ممن لم يكونوا قد حضروا معركة بدر وتمنوا لقاء آخر مع المشركين رجاء النصر على أعداء الله أو الموت في سبيل الله فلما صارت معركة أحد ثبت بعضهم وانهزم بعضهم فكانت هذه الآية الكريمة ثناء على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعتابا للذين انهزموا، ومعنى تمنّيهم الموت هو رغبتهم أن يموتوا شهداء في سبيل الله، وليس ذلك من باب تمنّي الموت الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّينّ أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه». الحديث. ومعنى: ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي فقد شاهدتم الموت عِيَانًا عندما قُتل الثابتون من

أصحاب رسول الله ﷺ بمرأى منكم ومنظر ، وقوله عز وجل : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئًا ، وسيجزي الله الشاكرين﴾ قد سيق لتربية نفوس المسلمين وتوطين قلوبهم على أن محمدا ﷺ لن يخلّد في الدنيا وأن البقاء لله وحده ، الذي يرسل الرسل وينزل الكتب ، فلا يليق بعاقل أن يرتد عن دين محمد إذا مات محمد ، لأن وظيفة محمد ﷺ هي تبليغ رسالة الحي القيوم الذي لا يموت . وأنّ من ارتد عن دينه إذا مات محمد ﷺ أو قتل ، فإنه لا يضر إلا نفسه ومن استمسك بالإسلام في حياة محمد أو بعد موته على حد سواء فهو شاكر لله وسيجزي الله الشاكرين أحسن الجزاء .

وسيقت هذه الآية هنا في قصة غزوة أحد لما أشيع من أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وليس قوله عز وجل : ﴿أفإن مات أو قتل﴾ شكا في علم الله بمصير محمد ﷺ إلى الموت أو القتل ، إذ المقصود الردّ على من أشاع في المعركة أن محمدا قتل ، والواقع أن الله جمع لرسوله ﷺ بين الموت على فراشه والشهادة ، حيث كان من أسباب موته ﷺ أكله من الشاة المسمومة يوم خيبر، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر، فهذا أَوَان وجدتُ انقطاع أَبْهَرِيّ من ذلك السم» . هذا وعندما مات رسول الله ﷺ غلب الحزن على الناس حتى كاد بعضهم يجن ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا بكر قال : أما بعد من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله : ﴿الشاكرين﴾ قال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر. الحديث .

قال تعالى : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابا مؤجّلا ، ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزي الشّاكرين* وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربّيّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحبُّ الصّابرين* وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين* فآتاهم الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحبّ المحسنين﴾

بعد أن بين تبارك وتعالى أن محمدا ﷺ ما هو إلا رسولٌ من رسل الله الكرام عليهم السلام ، الذين بعثهم الله عز وجل ليبلغوا رسالات الله ، وليس عليهم إلا البلاغ ، وقد مضت سنة الله في المرسلين أنهم يُبتلون وتكون لهم العاقبة الحسنة ، وأنهم لا خلود لهم على الأرض ، وأنه يجب على المؤمنين أن يستمسكوا بدينهم بعد موت النبي عليه السلام كاستمساكهم به في حياة النبي ﷺ لأن الله عز وجل هو المعبود وحده لا شريك له وهو الحي الذي لا يموت ، بيّن عز وجل هنا أنه كتب لكل نفس أجلا مسمّى لا يتقدم ولا يتأخر حيث يقول عز وجل : ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً﴾ أي وما كان لروح أن تفارق جسد صاحبها إلا بقضاء الله وقدره الذي جعل لكل نفس أجلا مسمّى ، وأن لكل أجل كتابا ، وكل نفس ذائقة الموت سواء كان بقتل أو بغير قتل إذا جاء أجلها المكتوب لها من غير تقديم أو تأخير كما قال عز وجل : ﴿كلّ نفس ذائقة الموت ، و إنما تُوَفَّوْن أجوركم يوم القيامة﴾ وقال عز وجل : ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة و إلينا ترجعون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لكل أجل كتاب﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إنّ أجل الله لآتٍ ، وهو السميع العليم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا يُنْقَصُ من عُمُره إلا في كتاب﴾ وكما قال عز وجل :

﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمّى عنده ثم أنتم تمترون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولتبلغوا أجلا مسمّى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ وفي ذلك حض على الجهاد في سبيل الله وأنّ الإقدام والشجاعة لا يعجّل الموت، وأن الجبن والفرار لا يؤجل الموت، ومعنى: ﴿كتابا مؤجّلا﴾ أي كتب الله عز وجل كتابا أقّت فيه الآجال فلا تموت نفس إلا إذا جاء أجلها المؤجل لها عند الله عز وجل ولا تتأخر عن أجلها بحال من الأحوال كما قال عز وجل: ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إنّ خَلْق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يُبعث إليه مَلَكٌ، فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقيّ أو سعيدٌ، فوالله إنّ أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باعٍ أو ذراعٍ فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجلَ ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وكّل الله بالرَّحِم مَلَكًا، فيقول: أي ربّ نطفةٌ، أي ربّ علقة، أي ربّ مضغةٌ، فإذا أراد الله أن يقضي خَلْقها قال: أي ربّ أذكر أم أنثى، أشقيٌّ أم سعيد، فما الرزق، فما الأجل، فيُكْتَب كذلك في بطن أمه» هذا ونصب ﴿كتابا﴾ في قوله عز وجل: ﴿كتابا مؤجلا﴾ على المصدر من معنى الكلام الذي قبله فهو مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التي قبله فعامله مضمر تقديره: كتب الله ذلك كتابا، نحو ﴿صُنْعَ الله﴾ و﴿وَعْدَ الله﴾ و﴿كتابَ الله عليكم﴾ وهكذا سائر ما ورد في

القرآن الكريم من نحـو ذلك، وقوله عز وجل: ﴿ومن يرد ثواب الـدنيا نؤته منها ومن يـرد ثواب الآخرة نـؤته منهـا، وسنجزي الشاكـرين﴾ أي من كان عملـه للدنيـا فقط أعطيناه منهـا ماقـدّرنـا له فيهـا ولم يكن له في الآخـرة من نصيب، ومن قصد بعمله الـدار الآخرة أعطيناه ما يأملهُ وفوق مـا يأمله لأنه من الشاكرين الذين تأذّن الله عز وجل بأن يـزيدهم من فضله، ولذلك قال هنا: ﴿وسنجـزي الشاكـرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من كـان يريـد حرث الآخرة نَزِدْ لـه في حرثه ومن كان يريد حـرث الدنيا نؤته منها ومـا له في الآخرة من نصيب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من كان يريد العـاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاهـا مذمومًا مدحورًا* ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيهـا وهو مـؤمن فأولَئك كـان سعيهم مشكـورًا﴾. وقـوله عـز وجل: ﴿وكأيِّن من نبيّ قـاتل معه ربِّيُّون كثيرٌ فما وَهَنـوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا ومـا استكانوا، والله يحب الصابـرين﴾ هذا تأديبٌ يؤدّب الله عز وجل به المؤمنين، ويربي به النفـوس المسلمة على استقبال ما قد يصيبهم من القرح في ميدان الحرب عندما تكون الجولة لأعدائهم عليهم كما حدث في معـركة أحـدٍ، والـواقع أنّ المسلمين وعوا هـذا الـدرس تمامًا، وانصقلت بـه نفوسهم، وخالط مشاعـرهم، وصار مَلَكَة لهم حتى ضرب بهم المثل في هذا السبيل، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته المشهورة «بانت سعاد» في وصف أصحاب رسول الله ﷺ:

ليسوا مَفَاريح إن نالت رماحهمو قومًا وليسـوا مجازيعًا إذا نِيلُـوا

وكذلك وصفهم حسان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدته التي يردّ بها على الزِّبْـرِقان بن بدر عنـدما قدم في وفـد بني تميم وألقى قصيدتـه المشهورة التي مطلعها:

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنـا منّا الملوكُ وفينا تنصـبُ البِيَـع

فأجابه حسّان رضي الله عنه بقصيدته التي يقول فيها في وصف أصحاب رسول الله ﷺ:

نسمو إذ الحربُ نالتنا مخالبُها ... إذا الزعانفُ من أظفارها خشعُوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوّهمو ... وإن أصيبوا فلا خُورٌ ولا هُلُعُ
كأنهم في الوغى والموتُ مُكتَنِعٌ ... أُسْدٌ بحَلْيَةَ في أرساغها فَدَعُ

ومعنى قوله عز وجل: ﴿وكأيِّن من نبيّ قاتل معه ربّيّون كثيرٌ﴾ أي وكثيرٌ من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله وقاتل معهم جموعٌ كثيرة من أتباعهم لتأييد دين الله ونصرة رسلهِ، فقوله: ﴿كأيِّن﴾ هي بمعنى «كم» الخبرية التكثيرية كما قال عز وجل: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ فـ(كم) فيها هي الخبرية التكثيرية، والربّيّون هم الجمع وقد وصف الله عز وجل الربيين المقاتلين مع الرسول بأنهم كثير وهو يدل على أن المراد بالربّيّين العدد أو الجمع الموصوف بأنه كثير، وقوله عز وجل: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ يفيد أن هؤلاء الرّبّيين الكثير المقاتلين مع رسولهم لنصر دينهم قد ابْتُلُوا كثيراً، وصارت الجولة لأعدائهم عليهم مرات، ومع ذلك ثبتوا مع رسولهم ﷺ ولم يفرّوا، واحتسبوا ما نالهم من القرح في سبيل الله عند الله عز وجل وصبروا، وقد مدحهم تبارك وتعالى وأثنى عليهم ووصفهم بقوله عز وجل: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ وهذه الصفات الثلاث هي الذروة في الثبات على الحق، والرسوخ في الإيمان، والصبر عند الشدائد، فقد نفى الله تبارك وتعالى عنهم الوهن عند المصيبة، والضّعف، والاستكانة، وهذا هو المثل الأعلى للعزة بالإسلام والثبات عليه، ومعنى: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ أي فما جَبُنوا، وما استولى الخوف عليهم، وما فترت عزيمتهم بسبب ما مسّهم من القرح، لأنهم يحتسبون ذلك عند الله عز وجل، وقوله: ﴿وما ضَعُفوا﴾ أي وما خارت

قواهم، وقوله عز وجل: ﴿وما استكانوا﴾ أي وما تضعضعوا وما خشعوا أمام عدوّهم، وقد ذكرت قريبا ما أورده البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما أن أبا سفيان نادى بعد المعركة يوم أحد: أفي القوم محمد؟ ــ ثلاث مرات ـ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ـ ثلاث مرات ـ أفي القوم ابن الخطاب؟ ـ ثلاث مرات ــ ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وكيف أجابه عمر إذ قال له: كذبت والله يا عدوّ الله إن الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، وهذا لا شك مظهر من مظاهر عزة الإسلام في نفوس المسلمين بعد معركة أحد مع أن الجولة كانت عليهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾ دليل على أن أبرز صفات الصابرين هي تحمّل الشدائد في سبيل الله، وحبس النفس عن الوهن والضعف والاستكانة وأن من كان بهذه المثابة أحبّه الله عز وجل، ومن فاز بمحبة الله فاز بعز الدنيا والآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ بعد أن أثنى الله عز وجل على هؤلاء المجاهدين في سبيل الله بنفي الوهن والضّعف والاستكانة عنهم، أتبع ذلك هنا بذكر محاسنهم القولية معطوفةً على ما تقدمها من الجمل المبيِّنة لمحاسنهم الفعلية، أي وما كان دأبهم وديدنهم إلا قولهم مع ثباتهم وصبرهم وحسن فعلهم: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾. وهذه الدعوات الأربع تقرّر أن الإنسان السّويّ مهما بلغ من التجلّد والصبر والثبات فإنه يتحتم عليه أن يحارب الغرور من نفسه، وأن يجاهد هواه كما يجاهد عدوّه، وأن يعتقد في قرارة قلبه أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن يخاف على نفسه من حَوْبة المعاصي والتقصير في حق الله، وأن يطلب من ربه مغفرة ذنوبه و إسرافه في أمره، لأن الإنسان كلما كان بالله

أعرف كان من الله أخوف، والمؤمن دائما وأبدا يخاف على نفسه من سيئاته وأنها كالجبل يخاف أن يقع عليه، وأن يسأل الله عز وجل أن يثبّت أقدامه عند لقاء العدو، لأنّ من أخطر ما يسبّب الهزيمة هو زلزلة الأقدام بسبب زلزلة القلوب، ولذلك كان من دعاء أصحاب رسول الله ﷺ الذي كانوا يرتجزون به ومعهم رسول الله ﷺ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلَنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وأن يعتقد المسلم اعتقادا جازما بأن النصر من عند الله فيضرع إلى الله عز وجل أن ينصره على القوم الكافرين. وقوله عز وجل: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾ أي فاستجاب الله عز وجل لهم ومنحهم ثواب الدنيا من التمكين في الأرض والنصر على الأعداء والثناء الجميل، والحياة الطيبة، كما منحهم حسن ثواب الآخرة حيث يدخلهم جنات النعيم ويصيرون في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وإنما خص ثواب الآخرة بالحُسْن للتنبيه على جلالته وعظمته لأنه غير زائل ولا يشوبه تنغيص، ولم يصف ثواب الدنيا بالحُسْن لأنه نعيم زائل مع ما يشوبه من التنغيص، وفي تذييل الآية الكريمة بقوله: ﴿والله يحب المحسنين﴾ بشارة عظيمة للمنكسرين بين يدي الله عز وجل الثابتين على الحق في السراء والضراء بأن الله عز وجل يحبهم وأنهم محسنون، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

قال تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا الّذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين* بل الله مولاكم وهو خيرُ النّاصرين* سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا، ومأواهم النّار وبئس مثوى الظالمين* ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على الاقتداء بأنصار الأنبياء الذين قاتلوا معهم في سبيل الله، فإذا كانت الجولة عليهم ثبتوا على الحق، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وذكر بعض صفاتهم ليتأسّى بهم المؤمنون، حذّرهم هنا من طاعة الكافرين وبخاصة اليهود والمنافقين الذين استغلّوا فرصة ما أصاب المسلمين من القرح وأخذوا يُرْجِفُون بين المسلمين، وينشرون الأكاذيب ويتفوّهون بكلمات من الشّر لزلزلة قلوب المؤمنين كقولهم في تأييد موقف عدو الله عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين: لو أطاعونا ما قتلوا، وقولهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وقولهم: لو كان محمد رسولاً من الله ما جُرح وما هُزم جنوده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي يا معشر من آمن بالله ورسوله من أصحاب محمد ﷺ وأتباعهم: إن تنقادوا للذين كفروا وتتّبعوا ما يلقونه لكم من الشبه، وتصدّقوا ما يفترونه على الإسلام مما يزعمونه نصحا لكم، يحملوكم على الردّة بعد الإيمان والكفر بالله وبآياته وبرسوله بعد الإسلام لأنهم ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً، ويتمنون أن ترجعوا عن دينكم، ولو أطعتموهم خسرتم الدنيا

والآخرة، وقوله عز وجل: ﴿بل الله مولاكم وهو خير النّاصرين﴾ هو إضراب عما يُفْهَم من مضمون ما أفادته الآيـة التي قبله كأنه قيل: إنهم ليسوا أنصارًا لكم ولا أعوانـا ولا أولياء ولا ممن يحبّ الخير لكم حتى تطيعوهم، بل الله هـو وليّكم ومُعِينكم ونـاصركم على أعـدائكم فلا تطلبـوا النصرة إلا منـه فـاستنصروه دون غيره واحـذروا كل الحذر أن تستنصروا بـأعـداء الله وأعـداء المرسلين وأعدائكم فإنهم يبغونكم الغوائل، ويَرْصُدُونكم بالمكاره ويتربصون بكم الدوائر، فـاعتصموا بحبل الله لأنـه تبارك وتعالى خير النـاصرين إذ هو القادر الذي لا يعجزه شيء، العالم الـذي لا يخفى عليه شيء، الكريم الذي يجود على أوليائه بإعزازهم وتكريمهم من واسع فضله وجزيل عطائه، المالك للدنيا والآخرة. وقوله عـز وجل: ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًـا﴾ هذا وعدٌ من الله عز وجل للمؤمنين وبيان للون من ألوان نصر الله عز وجل لهم وطريـقٍ من طرق خذلان عدوّهم، وهو إلقـاء الرّعب مـن المسلمين في قلوب أعـدائهم، وقـد فعل الله ذلك في نفس غزوة أحـد كما نبهت لذلك أكثر من مـرة حيث كانت الجولة للكـافرين ومع ذلك انطلقوا على وجـوههم بعد المعركة ممتطين إبلهم متجهين إلى مكـة، وقد خصّ الله نبيـه محمـدا ﷺ من بين الأنبياء والمرسلين بخصـائص منهـا نصره بـالـرعب مسيرة شهـر، فقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهن أحد قبلي، نُصرت بالـرّعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيّما رجلٍ من أمتي أدركتـه الصلاة فليصلّ، وأُحِلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحـد قبلي، وأُعطيت الشفـاعة، وكـان النبيّ يبعث إلى قـومـه خاصـةً وبعثت إلى الناس عامّةً». ولفظ مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قـال رسول الله ﷺ : «أُعطيت خمسًـا لم يُعْطَهنّ أحـدٌ قبلي، كان

كلّ نبي يُبعث إلى قـومـه خـاصـة وبُعثت إلى كل أحمر وأسـود، وأُحلت لي الغنـائم ولم تحلّ لأحـد قبلي، وجُعلتْ لي الأرض طيّبة طهـورًا ومسجـدًا فأيما رجل أدركتـه الصـلاة صلّى حيث كـان، ونُصِرت بـالـرّعب بين يـدي مسيرة شهرٍ، وأُعطِيتُ الشفاعة» ومعنى قولـه عز وجل: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفـروا الرّعب﴾ أي سأمـلأ قلوب المشركين خـوفًا وفـزعًا وهلعًـا وجزعًـا من المسلمين مما يـزلزل أقـدام المشركين عند ملاقـاة المسلمين، وقولـه عز وجل: ﴿بما أشركـوا بالله مـا لم ينزّل بـه سلطانًـا﴾ أي بسبب شركهم بالله وعبـادتهم لـلأصنـام، وانقيـادهم للشيطـان دون دليل أو برهـان، وقـولـه عـز وجل: ﴿ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾ أي وأجمع لهم مع خزي الدنيا عذابَ الآخرة حيـث يصيرون إلى جهنم خالـدين فيها أبـدا قد جعلها الله عـز وجل مأواهم ومثواهم، والفرق بين المأوى والمثوى أن المأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسـان، والمثوى هـو مكان الإقـامة المنبئـة عن المكث. نعوذ بـالله من مأواهم ومثواهم، وقـوله عـز وجل: ﴿ولقد صدقكم الله وَعْـدَه إذ تَحُسُّونهم بإذنه﴾ هـذا تذكير للمسلمين بأنهم يُنْصَرون على أعدائهـم مادامُوا صـابرين متقين مسارعين إلى طاعـة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ، ولـذلك عندما التقى المسلمون والكـافرون في أحد وبدأت المعـركة كانت قلـوب المسلمين مطمئنةً وأقدامهم ثابتـةً في أرض المعركة وكانت قلوب المشركين مملوءة رعبًـا وفزعًا مع كثـرة عَدَد وعُـدَد المشركين وقلة عَـدَد وعُـدَد المسلمين حتى صار المسلمـون يَحُسُّـون المشركين أي يستأصلـونهم قتلا بإذن الله ولا يثبت أمـامهم أحـدٌ من المشركين وفـرّوا من أرض المعركـة حتى لحق بعضهم بـالطائف كما ذكـرت في تفسير قوله عـز وجل: ﴿وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكـافرين﴾ ما أورده البخـاري في صحيحـه من حـديث البراء بن عـازب، رضي الله عنهما قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشـا من الرّماة، وأمّر عليهم

عبـد الله، وقال : «لا تبرحـوا، إن رأيتمونـا ظهرنـا عليهم فلا تبرحـوا، وإن رأيتمـوهم ظهروا علينـا فـلا تعينونـا» فلما لقينـا هـربوا، حتى رأيت النسـاء يشتـددن في الجبل، رفعن عـن سـوقهنّ حتى بـدت خـلاخلهن، فأخـذوا يقولـون: الغنيمة، الغنيمة، فقـال عبد الله: عهـد النبي ﷺ أن لا تبرحوا. الحديث. فالحَسُّ هو الاستئصال بالقتل كما قال جرير:

تحسّهم السّـيـوف كمـا تسـامـى حـريقُ النار في الأَجَم الحصيد

وقال آخر:

حسسناهم بالسيف حسّا فأصبحت بقـيّتـهم قـد شـرّدوا وتـبدّدوا

والحَسُّ بـالسيف شبيه بـالحشّ والحصد بـالمنجل، حيث كان أصحـاب رسـول الله ﷺ يحصدون المشركين حصـدا كما يحصد الإنسـان الزرع والنبـات بالمنجل، ومعنـى قوله تبـارك وتعالى: ﴿بإذنـه﴾ أي بعلمه وحكمـه وقضائه وتسليطـه إيـاكم عليهم، بسبب إيمانكم وصبركم وتقـواكـم وطـاعتكم لله ولرسـوله محمـد ﷺ، وقولـه عز وجل: ﴿حتى إذا فشلتم وتنـازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّـون﴾ المقصود من فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصيـانهم هـو ما كـان من الـرمـاة عندمـا رأوا المسلمين حصـدوا المشركين وانتصروا عليهم وهربـوا من أرض المعركة وسقـط لواؤهم بعد قتل صـاحبه، وانكشفت أرض المعـركة من المشركين وظهـرت الغنائم، فأخـذ بعض الرمـاة يقولون: الغنيمـة، الغنيمة، فذكّرهـم أميرهم عبـد الله بن جبير رضي الله عنه وعنهم وصيـةَ رسول الله ﷺ لكنهم في غمـرة فرحـة النصر فشلوا أي تـراخَوْا وضعف صبرهم، ونـازعوا أميرهم، وعصَـوْا أمر رسول الله ﷺ حيث أمـرهم بأن لا يبرحوا مكانهم مهما حدث للمسلمين من نصر أو هزيمة إلا إذا أمرهـم رسـول الله ﷺ بالنـزول من مقاعـدهم التي بوأهم إيـاها للقتـال، فكان مـا حدث من الرماة سببا فيما أصاب المسلمين مـن القرح بعد ما أراهم ما يحبون

من نصر الله وتأييده لعباده المتقين، وقد جاء في حديث البخاري الذي سُقْتُ صدره آنفا عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهنّ حتى بدت خلاخلهنّ، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله: عَهِدَ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأَبَوْا، فلما أَبَوْا صرف الله وجوههم. الحديث. وفي لفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل رسول الله ﷺ على الرجّالة يوم أحدٍ ـ وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرماة ـ عَبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تَخَطَّفُنا الطير فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم» فهزمهم الله، فأنا والله رأيت النساء يشتددن وقد بدت خلاخيلهن وأَسْوُقُهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينّ الناس فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين. الحديث. ولا شك أن شؤم المعصية وآثارها السيئة قد تصيب من ارتكبها وينال غُبَارُها من لم يرتكبها، ولذلك نبّه الله تبارك وتعالى المسلمين في هذه القصة إلى هذه الحقيقة ليعلم من يرتكب معصية أنه قد يضرّ المجتمع الذي يعيش فيه وإن لم يشاركوه في هذه المعصية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ بيان لحال الفريقين المتنازعين من الرماة، فالذين يريدون الدنيا هم الذين تركوا مقاعدهم التي بوّأهم إياها رسول الله ﷺ، والذين يريدون الآخرة هم الذين ثبتوا في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول الله ﷺ وعلى رأس هؤلاء أميرهم الجليل عبد الله بن جبير رضي الله عنهم جميعا، وقوله عز وجل: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي ثم ردّكم عن قتال المشركين بعد أن أراكم فيهم ما

تحبون من هزيمتكم إياهم وظهوركم عليهم فصرف وجوهكم عنهم لمخالفة بعضكم أمر رسول الله ﷺ ليختبركم ويمتحنكم ولينبّهكم على الحرص على طاعة أوامر رسوله ﷺ الذي لا يأمركم إلاّ بما فيه خير دينكم ودنياكم، ولقد تفضل الله عليكم فصفح عنكم ولم يدّخر لكم عقوبة مخالفتكم هذه إلى يوم القيامة، بل جعل ما أصابكم في المعركة كفارةً لهذه المخالفة، والله تبارك وتعالى صاحب جُودٍ وإحسان وتَفَضُّل على المؤمنين، ومن جميل وجليل فضله عليهم عفوه عن الرماة الذين تركوا مقاعدهم فلم يستأصلهم، ولم يجعل عقوبتهم بعذاب النار.

قال تعالى : ﴿إذ تُصعدون ولا تلوُون على أحد والرّسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمّا بغمّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون* ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنةً نعاسا يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليةِ يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إنّ الأمر كلّه لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهُنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما فى صُدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم، والله عليمٌ بذات الصّدور﴾ .

لما ذكر الله تبارك وتعالى أنه صرف المسلمين عن المشركين ليبتليهم بين هنا صفة صرفهم عن المشركين فقال عز وجل : ﴿إذ تُصْعِدُون ولا تَلْوُون على أحدٍ والرسول يدعوكم في أُخْراكم﴾ أي صرفكم عنهم حيث انطلقتم على وجوهكم مُبعِدين في الأرض ولا يلتفت أحدٌ منكم إلى ما وراءه ولا يقف أحد لأحد، ورسول الله ﷺ ثابت في أرض المعركة يناديكم من ورائكم : إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، وإنما فصل بين قوله : ﴿صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ وبين قوله : ﴿إذ تُصْعِدون﴾ بقوله عز وجل : ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ لتعجيل البشارة بعفو الله عز وجل عمن فرّ عن رسول الله ﷺ يوم أحد، وأن الله عظيم الفضل والجود على المؤمنين، وفي هذا تنبيهٌ للناس إلى منزلة أصحاب رسول الله ﷺ، وأنه لا يليق بمن ينتمي إلى الإسلام ممن يجيئون بعد الصحابة أن يجعلوا أنفسهم حكّامًا على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، ويتطاولون عليهم، كما يفعل أهل الأهواء الذين يعادون أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وقد نبّه إلى ذلك رسولُ الله ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة عندما كتب كتابا لأهل مكة، وبعثه مع

ظعينةٍ يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يدًا، فأطلع الله عز وجل نبيه ﷺ على ذلك فأرسل عليًا والزبير والمقداد وأدركوا المرأة في روضة خاخ كما أرشدهم إلى ذلك رسول الله ﷺ وأخذوا الكتاب، وأتوا به رسول الله ﷺ فلما قال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال له رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعلّ الله اطّلَعَ إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ولذلك كان مذهب أهل السنة والجماعة التّرضّي على جميع أصحاب رسول الله ﷺ وحبهم جميعًا، والكف عما شجر بينهم أو ذكر عنهم، وحمله على أحسن المحامل، فإن ساعة منهم مع رسول الله ﷺ تعادل دُهُورًا من أعمال غيرهم، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى شيء من ذلك حيث يقول فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تَسُبّوا أصحابي فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصِيفَه». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، لا تسبّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفَه». هذا والعرب يفرّقون بين قولهم: أصعد يُصْعِد إصعادا، وقولهم: صعِد يَصْعَدُ صُعودًا، فالإصعاد هو الانطلاق والذهاب في الأرض المستوية وبطون الأودية والشعاب، أما الصعود فهو الارتقاء والارتفاع على الجبال أو السلاليم أو الدّرج ونحو ذلك من المرتفعات. ومن استعمال الإصعاد بمعنى مطلق السفر قول أعشى قيس في قصيدته التي قالها يمدح بها رسول الله ﷺ قبل أن يحول المشركون بينه وبين الإسلام:

ألا أيُّهذا السّائلي أيـن أَصْعَدتْ ... فإنّ لها من بطن يثرب موعدا

في إحدى روايات هذا البيت، فقد استعمل أصعد بمعنى أبعد في

الذهاب وأمعن فيه . وأنشد أبو عبيدة :

قد كنتِ تبكـين على الإصعـاد فاليـوم سُرِّحْتِ وصاح الحادي

وكما قال الآخر:

هواي مع الركب اليمانين مُصْعِدٌ جنيـب وجثماني بمـكة مُوثَـق

وفي قوله عز وجل : ﴿والرسول يـدعوكم في أخراكم﴾ لفت انتباه إلى ثبات رسـول الله ﷺ وشجاعتـه وكمال طمأنينتـه عنـد مواجهـة الكفـار في أحلك الأوقـات ، وهو شبيـه بموقفـه ﷺ كذلك يـوم حنين عندمـا تولى المسلمـون مـدبـرين قبـل أن تنـزل السكينـة عليهم ، قـال ابن كثير في تفسيره : وفي الصحيحين من حديث شعبة عـن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلا قـال له : يـا أبا عمارة ، أفـررتم عن رسـول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال : لكنّ رسـول الله ﷺ لم يفر، إن هـوازن كانوا قـوما رمـاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فـاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ـ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء ـ وهو يقـول : «أنا النبيّ لا كـذب ، أنا ابن عبـد المطلب» . قلتُ : وهذا في غايـة ما يكون من الشجاعة التـامة ، إنه في مثل هذا اليـوم في حومة الوغى ، وقـد انكشف عنه جيشه ، وهـو مع هذا على بغلـة ، وليست سريعة الجري ، ولا تصلح لفرّ، ولا لكرّ، ولا لهربٍ ، وهو مع هـذا أيضا يركضها إلى وجوههم ، وينوّه بـاسمه ليعرفه من لم يعرفه ، صلـواتُ الله وسلامه عليه دائما إلى يـوم الديـن ، وما هـذا كلّـه إلا ثقةً بـالله وتـوكـلاً عليه ، وعلما منـه بأنـه سينصره ، ويُتِمُّ ما أرسله بـه ، ويظهر دينه على سائر الأديان اهـ وقد قدمت قريبـا ما رواه البخاري من حديـث البراء رضي الله عنه في قصة الرمـاة : فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم ، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم مـا قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا :

والله لنأتينّ الناس فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك قوله تعالى: ﴿والرسول يدعوكم في أُخْراكم﴾ فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿فأثابكم غمّا بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿فأثابكم غمّا بغَمّ﴾ أي فجازاكم بفراركم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم، ومعصيتكم ربّكم ﴿غما بغم﴾ يقول: غمّا على غمّ. وسمّى العقوبة التي عاقبهم بها من تسليط عدوهم عليهم حتى نال منهم ما نال (ثوابا) إذ كان عِوَضًا من عملهم الذي سخطه ولم يرضه منهم، فدلّ بذلك جلّ ثناؤه أن كلّ عوضٍ كان لمعوَّضٍ من شيء من العمل - خيرًا كان أو شرًّا - أو العِوَض الذي بذله رجل لرجل أو يد سلفت له إليه، فإنه مستحق اسم «ثواب» كان ذلك العوض تكرمة أو عقوبة، ونظير ذلك قول الشاعر:

أخاف زيادًا أن يكون عطاؤه ... أَداهِمَ سُودًا أو مُحَدْرَجةً سُمْرًا

فجعل «العطاء» القيود اهـ وهذا الشاعر هو الفرزدق، والمراد بالأداهم جمع أدهم وهو القيد، والمحَدْرجة: السّياط، وقد ألحق الله عز وجل بهم غموما كثيرة منها غمّهم بما أصابهم من العدو في أنفسهم وأموالهم، وغمّهم بالهزيمة، وغمّهم بما أصيب به الرسول ﷺ من الشجة وكسر الرّباعية، والغم الأكبر بما أرجف به المرجفون من أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، وغمهم بما صاروا يخافونه على أنفسهم من غضب الله بسبب معصية ترك مقاعد القتال التي بوّأها رسول الله ﷺ للرماة. وقد بيّن الله عز وجل أنه عفا عنهم وتفضل عليهم لإيمانهم بالله ورسله، وأنه إنما ألحق بهم هذه المصائب لتربية أنفسهم على الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وبيان عجز الإنسان عن معرفة عاقبة الأمور حيث قد يُمْتَحَن بخير تكون عاقبته شرا وقد يمتحن بشرّ تكون

عاقبته خيرا، كما قال عز وجل: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وإذا أسلم الإنسان وجهه لله عز وجل وأطاع الله وأطاع رسولهﷺ فإن عاقبته تكون حميدة ما دام مستمسكا بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، لأن الشريعة لا تأمر الإنسان إلا بما ينفعه في الدنيا والآخرة، وإذا أيقن الإنسان بذلك وعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فإنه لا يحزن على ما فاته أو أصابه كما قال عز وجل: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نَبْرَأَها، إنّ ذٰلك على الله يسير* لكيلا تَأْسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كلّ مختال فخور﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ وعد للمستجيبين لله ولرسوله ﷺ ووعيد لمن لم يستجب لله ولرسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أَمَنَةً نُعَاسًا يغشى طائفةً منكم﴾ هذه آية من آيات الله عز وجل جعلها الله عز وجل للمؤمنين يوم بدر ويوم أحدٍ حيث سلّط النعاس على المؤمنين كما ذكر هنا وكما ذكر عن نعاسهم يوم بدر بقوله تبارك وتعالى: ﴿إذ يُغَشِّيكم النّعاسَ أمنةً منه﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: لقد وقع السيف من يد أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثا من النعاس. كما روى البخاري من حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال: كنت ممن يَغْشَاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، وكان من آية الله أن أنزل النعاس على هذه الطائفة المؤمنة تسكينا لنفوسهم وتطميناً لهم، أما الطائفة الأخرى التي لم ينزل عليها النعاس فقد وصفها الله بصفات، الأولى: أنهم أهمتهم أنفسهم فلا يهمهم إلا نجاة أنفسهم من القتل دون أن يهتموا بنجاة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهذا يشعر بنفاقهم وجبنهم وخوفهم. والصفة الثانية: أنهم يسيئون الظن بالله كأهل الجاهلية

وأن الله لن ينصر رسوله كما قال عز وجل: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزُيِّنَ ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السَّوْء وكنتم قوما بُورًا﴾ والصفة الثالثة: إظهارهم أنهم خرجوا كُرْها ولو كان الأمر لهم ما خرجوا مع رسول الله ﷺ، ومقصودهم بث الفتنة وإساءة الظن برسول الله ﷺ، فردّ الله عز وجل شبهتهم وباطلهم ببيان أن أمر الحياة والموت وسائر الأمور بيده وحده، ثم نبه رسولَه ﷺ إلى نفاق أصحاب هذه المقالة وفضحهم حيث يقول: ﴿قل إن الأمر كله لله، يُخْفُون في أنفسهم ما لا يُبْدُون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هٰهُنا﴾ أي ما قُتِلَ منا أحد. ثم بين عز وجل أن من كتب عليه القتل لن يتأخر عن مكان مصرعه فقال: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ كما قال عز وجل: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ فالحذر لا ينجي من القدر، والتدبير لا يدفع التقدير، فمن كتب الله عليه القتل في مكان لا بد من خروجه وبروزه إلى مصرعه، وقوله عز وجل: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليُمَحِّصَ ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾ أي وقد جعل الله عز وجل الجولة الأولى في أُحُد للمسلمين ثم جعل الجولة الثانية للكافرين لِحِكَمٍ لا يحصيها إلا الله، وليميز الخبيث من الطيب، ويبرز للمؤمنين ما تكنه صدور المنافقين، والله عليم بالسرائر والضمائر.

قال تعالى: ﴿إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفورٌ حليمٌ* يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذٰلك حسرةً في قلوبهم، والله يحيي ويميت، والله بما تعملون بصيرٌ* ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ ممّا يجمعون* ولئن متّم أو قُتلتم لإلى الله تحشرون﴾

بعد أن ذكر عز وجل الآية التي تفضل بها على المؤمنين في معركة أحد من إنزال النعاس عليهم تأمينا لهم وتطميناً، وهي معجزة ظاهرة، ثم ذكر شيئا من فلتات ألسنة المنافقين وفضحهم وكشف سترهم وبين أنه أجرى معركة أحد على هذا الوجه الذي تمت به لحكمٍ جليلة ومنها إظهار ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب، ذكر تبارك وتعالى هنا ما تفضل به على المؤمنين الذين زلّت أقدامهم فانهزموا عن رسول الله ﷺ في أحد وأعلن للعالمين البشارة بعفوه عنهم وتجاوزه عن زلّتهم حيث يقول عز وجل: ﴿إنّ الذين تولَّوْا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿منكم﴾ إشارة إلى أنهم مؤمنون وليسوا منافقين، ومعنى: ﴿تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ أي انهزموا عن رسول الله ﷺ يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد، وقوله عز وجل: ﴿إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان أوقعهم في هذه الزلّة غير المتعمّدة التي لم تكن كفرا ولا عنادا وهم غير معصومين من مثلها، مع أنهم ما أطالوا زمن التّولّي والفرار بل كرّوا ورجعوا، وأحدقوا برسول الله ﷺ واستشهد منهم من استشهد، وكان من

فضل الله عـز وجل عليهم تعجيل بشارتهم بعفـوه عنهم وتجاوزه عن زلتهم، والمعروف كما تقدم قـريبا أن أهم إساءة عرفت عنهم هي تـركهم مقاعدهم. وأكّد الله عـز وجل أنه عفـا عنهم بقوله تبـارك وتعالى: ﴿ولقـد عفا عنكم﴾ وقال هنا: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾، وقوله عز وجل: ﴿إنّ الله غفورٌ حليمٌ﴾ تـذييل لتعليل عفـو الله عنهم وتأكيـده، ولم يؤثـر بحمـد الله عن واحـد من أصحاب رسول الله ﷺ أنـه تكلم بكلمة تشعر بندمـه على الخروج مع رسول الله ﷺ إلى أحد، بل كـان الواحد منهم يتمنى أن يمزّق جسمـهُ قطعة قطعة ولا يشاك رسول الله ﷺ بشوكة، بخلاف من غُمِـزوا بالنفاق وعُرِفوا به فإنهم هم الـذين فضحتهم فلتـات ألسنتهم، كما ذكر الله عـز وجل عنهم في الآيـة السابقـة، ولذلـك حذّر الله تبارك وتعـالى المؤمنين من التشبـه بهم في أقوالهم الدالة على مـرض قلوبهم، ووصفهم بالكفر حيث يقـول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تكونوا كالـذين كفروا وقالوا لإخـوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كـانوا غُـزًّى لو كـانـوا عندنـا ما مـاتـوا وما قُتِلـوا ليجعل الله ذٰلك حسرةً في قلوبهم﴾ وفي هـذا تحذير شديد من أن يقـول أحدٌ هذه المقالـة، وأن من قال عن إنسان سافر للتجارة أو غيرها فمات أو خرج مجاهدا فقتل: لو لم يسافر ما مـات، أو لو لم يجاهـد ما قتل، فإنّ من قـال هـذه المقالـة كفر بـالله المحيي المميت، الذي قدّر لكل نفس أجلا تموت عنـد نهاية أجلها، وحدد لها أرضا لاتفـارق الروح بـدنها إلا فيها، كما قـال عـز وجل: ﴿وما تـدري نفس بأي أرض تموتُ﴾ ولله در الشاعر حيث يقول:

مشـيناها خطًى كُـتِبت علينا ... ومن كُتِبت عليـه خطـى مشـاها

ومـن كـانت منيّتـه بـأرض ... فليـس يموتُ في أرض سـواهـا

ومعنى: ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أي قالـوا هذا القول من أجل إخوانهم الذين ماتوا أو قتلوا، وليس المراد أنهم تحدّثوا بقولهم هذا مع إخوانهم الذين ماتوا أو

قتلوا، وهذا أسلوبٌ معروف عند العرب ومنـه قوله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنـوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾ ومعنى قـوله عز وجل: ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي إذا سـافروا فيها وسـاروا للتجارة أو غيرهـا، والمقصود أنهم ماتـوا في سفرهم هذا، وأصـل الضرب في الأرض هو الذهـاب فيها من قـولهم: ضربت الطير تضرب أي ذهبت تبتغي الـرزق، وضرب في الأرض ضَرْبا وضَرَبَـانا: خرج تـاجرا، ومنه قـوله عز وجل: ﴿وآخـرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة﴾ ومعنى قوله: ﴿أو كانوا غُزًّى﴾ أي أو كانوا غزاة، وإنما عطف قوله: ﴿أو كـانوا غزى﴾ على قوله: ﴿ضربوا في الأرض﴾ من باب عطف الخاص على العام، إذ الخروج في الغزو ضربٌ في الأرض وإنما ذُكِرَ بعد دخوله فيما قبله لأنه المقصـود بالذات في هذا المقام وما ذكر قبله هو توطئة له، على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب في الأرض كما في قصة غـزوة أحد، والغُزّى جمع غازٍ كـركّع وراكع، وصُوّم وصائم ونُـوّم ونائم وشُهّد وشاهد وغُيّب وغـائب، وقوله عز وجل: ﴿ليجعل الله ذٰلك حسرةً في قلـوبهم﴾ أي إذا صـان المسلمـون أنفسهم ولم يتلفظـوا بمثل كـلام هـؤلاء المنافقين الكافرين وأيقنوا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن القعود عن الغزو لن يمنـع من الموت إذا جاء الأجل، وحـرص المسلمون على الخروج إلى الغزو والجهاد كان ذلك حسرة في قلـوب المنافقين ولاسيما إذا وصل المسلمون بسبب الغـزو إلى الغنائم العظيمـة والاستيـلاء على الأعـداء والفوز بـالنصر، وقوله عز وجل: ﴿والله يحيي ويميت﴾ أي والحياة والموت بيد الله وحده فإليه يرجع الأمـر كلّه ولا يحيا أحـد ولا يموت أحدٌ إلا بقضـائه وقدره، وقولـه عز وجل: ﴿والله بما تعملـون بصير﴾ وعـد للمـؤمنين الـذين يمتثلـون تعـاليم الإسـلام ويبتعـدون عن مشـابهة الكفـار والمنـافقين في أقـوالهم وأفعـالهم

واعتقاداتهم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وتهديد لمن لم يمتثل أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متُّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ شروع في تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو أو السفر من القتل في سبيل الله أو الموت ليس مما ينبغي أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون، ويحرص عليه العقلاء الراشدون، لأن الموت سبيل كل حي، كما قال قطريّ بن الفجاءة الخارجي:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحكِ لن تراعي
فإنك لو طلبتِ بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعِي
سبيل الموت غاية كلّ حي ... فداعيه لأهل الأرض داعي
فصبرًا في مجال الموت صبرا ... فما نيلُ الخُلود بمستطاعِ
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطوى عن أخِ الخنع اليَراعُ

والموت في سبيل الله هو من أغلى أماني الصالحين، لعلمهم بما أعده الله عز وجل لمن يموت في سبيل الله من رفيع الدرجات في جنات النعيم، فقد روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقْتَل عشر مرات لما يرى من الكرامة»، وفي رواية ـ: «لما يرى من فضل الشهادة» قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يخاطب جل ثناؤه عباده

المؤمنين، يقول لهم: لا تكـونوا أيها المؤمنـون في شك من أنّ الأمور كلّهـا بيد الله، وأنّ إليه الإحياء والإمـاتة كما شك المنافقون في ذلك، ولكـن جاهدوا في سبيل الله، وقـاتلـوا أعداء الله، على يقين منكم بأنـه لا يقتل في حـرب، ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفـاتهُ، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفـرة والرحمة، وأخبرهم أنّ موتًـا في سبيل الله أو قتلاً في الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها، ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العـدو اهـ وقال الفخر الرازي رحمه الله: إنّ رحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لـوجوه: أحدها أن من يطلب المال فهـو في تعب من ذلك الطلب في الحال، ولعلـه لا ينتفع بـه غدا لأنـه يموت قبل الغد، وأما طلب الرحمة والمغفرة فإنه لا بد وأن ينتفع به لأن الله لا يخلف وعده، وقد قال: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ وثانيها: هب أنه بقي إلى الغـد لكن لعل ذلك المال لا يبقى إلى الغد، فكم من إنسـان أصبح أميرا وأمسى أسيرا، وخيرات الآخرة لا تـزول لقوله: ﴿والباقيـات الصالحات خير عند ربك﴾ وقوله: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ﴾ وثالثها: بتقدير أن يبقى إلى الغد ويبقـى المال إلى الغد لكن لعله يحدث حـادثٌ يمنعك عن الانتفـاع بـه مثـل مـرض وألم وغيرهما، ومنـافع الآخـرة ليست كـذلك، وخامسها: هب أن تلك المنافع تحصل في الغد خالصةً عن الشوائب ولكنها لا تدوم ولا تستمـر، بل تنقطع وتفنى، وكلما كانت اللذة أقـوى وأكمل كان التأسّف والتحسّر عنـد فـواتها أشـدّ وأعظـم، ومنـافع الآخـرة مصـونـةٌ عن الانقطاع والزوال، وسادسها: أن منافع الـدنيا حسّية ومنافع الآخرة عقلية، والحسية خسيسةٌ، والعقليـة شريفةٌ، أترى أنّ انتفاع الحمار بلذة بطنـه وفرجه يساوي ابتهاج الملائكـة المقربين عند إشراقها بـالأنوار الإلهية؟ اهـ وقـوله عز وجل: ﴿ولئن متّـم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ أي ومهما كـانـت أسبـاب

مفارقة أرواحكم أبدانكم سواء كانت بموت أو بقتل، فإنّ مصيركم وحشركم وجمعكم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، المعبود بالحق، العظيم الشأن، الواسع الرحمة، الجزيل الإحسان، الذي يجزي كل عامل بما عمل، ويزيد الصالحين من فضله وجوده وإحسانه، ولا حاكم سواه يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿مالك يوم الدين﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى الموت والقتل في ثلاثة مواضع في هذا المقام من سورة آل عمران تقدّم الموت على القتل في الأول منها وفي الثالث وتقدم القتل على الموت في الثاني وذلك في الأول لمناسبة ما قبله من قوله عز وجل: ﴿إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض والقتل لمن غزا، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد فقدّم الأهم الأشرف، وأما في الثالث فقدّم الموت لأنه أغلب وأكثر، فقد جمعت الآية بين ألوان بلاغية من المعاني والبديع.

قـال تعـالى : ﴿فَبِما رحمةٍ منَ الله لِنْتَ لهم ولـو كُنتَ فظًّـا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورْهُمْ في الأمر فإذا عزمتَ فتوكّلْ على الله ، إنّ الله يحبُّ المتـوكلينَ* إن ينصركم الله فلا غـالب لكمْ وإن يخذلكمْ فمن ذا الّذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فلْيَتوكّل المؤمنون﴾ .

بعد أن أخبر عز وجل أنه تفضل فعفا عن المنهزمين عن رسول الله ﷺ من المؤمنين يوم أحد أشار إلى حسن معـاملة رسول الله ﷺ لهم ، ورحمته بهم وأنه لم يخاطبهم بالتغليـظ والتشديد ولم يقسُ عليهم بسبـب انهزامهم عنه ﷺ ولم يـوبّخ أو يعنّف أحدًا منهم ، وأثنى على رسـولـه ﷺ بسبب لين معاملتـه لهم وأمـره بالعفـو عنهم والاستغفـار لهم ، واستشـارتهم في الشئون ذات البـال ، حيث يقول عـز وجل هنا : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ و(مـا) في قولـه عز وجل : ﴿فبما رحمة﴾ لإفادة تعظيم رحمته ﷺ وتفخيمها وتـوكيدها كأنه قيل : فبسبب رحمة عظيمة طبعك الله عليهـا ، وجعلها لك سجيّة ومَلَكَـةً عاملتَ المنهزمين عنك باللين والرفق والرحمة والتلطـف ، وقد وصف الله رسوله محمدا ﷺبأنه بالمؤمنين رءوف رحيم حيث يقول عز وجل : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عـزيـز عليه مـا عنتّم حـريص عليكم بـالمؤمنين رءوف رحيم﴾ وفي تخصيص رحمتـه ورأفته ﷺ بـالمؤمنين إشعـار بأن أعداء الله وأعـداء المرسلين ليسوا أهـلا لرحمة الله ولا لـرحمة رسولـه ﷺ ولا لرحمة المؤمنين ، وقـد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول في وصف رسـوله محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم : ﴿محمد رسول الله ، والذيـن معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿أذلّـة على المؤمنين أعـزة على الكافـرين﴾ وقـوله عـز وجل : ﴿ولو كنتَ فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾ نفى الله عز وجل عن رسـوله وحبيبـه وسيـد خلقه وأفضل أنبيـائه محمـد ﷺ الفظاظـة وغلظ

القلب، والفظاظة هي الجفوة في العشرة قولا وفعلا، وغلظ القلب هو كونه جافيا قاسيا خاليا من الشفقة والرحمة واللين والرّقة والرفق، والفظاظة تنشأ عن غلظ القلب، وإنما قدّم ذكر الفظاظة على ذكر غلظ القلب لأن الفظاظة هي المُشَاهَد الظاهر المُدْرَك بالحسّ المنبئ عن قسوة القلب وغلظه، وقد كان من أبرز صفات رسول الله ﷺ التي عرّفها الله عز وجل للأنبياء السابقين ليصفوه ﷺ لأممهم حتى يعرفوه إذا بُعث ﷺ أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ هذه الآية التي في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا﴾ قال: في التوراة يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحِرْزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتك المتوكّل، ليس بفظ ولا غليظٍ، ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا.

ومراد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما من قوله: في التوراة، هو من إطلاق كلمة التوراة على مجموع كتب العهد القديم، لا أنها التوراة المنزّلة على موسى ﷺ، وهو اصطلاح لبعض المسلمين وبعض أهل الكتاب، إذ أنّ هذا النص الذي ذكره عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إنما هو موجود في نبوات بعض أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، ومعنى قوله عز وجل: ﴿لانفَضُّوا من حولك﴾ أي لتفرّقوا عنك، ولم يسكنوا إليك وتردَّوا في مهاوي الردى، فمن فضل الله على الناس أن ملأ قلوب رسله إليهم بالرحمة والرفق، ونبّههم إلى ذلك كما قال لموسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما لفرعون: ﴿فقولا له قولا ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾ وقوله عز وجل: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله﴾

هذه قواعد السياسة الرشيدة التي تربط بين الراعي والرعية برباط الحب والثقة والطمأنينة، وفي قوله عز وجل لرسوله وحبيبه محمد ﷺ: ﴿فاعف عنهم﴾ أي تجاوز عن مسيئهم فيما ليس من حقوق الله عز وجل، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا ينتقم لنفسه قط، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما خُيّر النبيّ ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمٌ فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله. وفي رواية لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قطّ بيده ولا امرأةً ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى. كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جبذةً شديدةً، فنظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثّرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك ثم أمر له بعطاء. وفي أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ هنا بقوله تعالى له في المنهزمين عنه يوم أحد: ﴿فاعف عنهم﴾ مع قوله تبارك وتعالى عنهم: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ مع ما قدّمه في وصف المسارعين إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض حيث يقول عز وجل: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ في كل ذلك إشارة إلى حبّ الله عز وجل للعفو عن عباده والصفح عنهم، ولذلك أمر إمام المرسلين محمدا ﷺ بالعفو والصفح في مواضع كثيرة من القرآن العظيم حيث يقول عز وجل: ﴿خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين﴾ ويقول: ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ ويقول: ﴿فاصفح عنهم

وقل سلام﴾ . وقوله عز وجل : ﴿واستغفر لهم﴾ هذه هي القاعدة الثانية من قواعـد السياسة الـرشيدة ، أي واسأل الله عـز وجل أن يغفر للمسيئين ، كما قال عز وجل : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهـم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لـوجدوا الله توابا رحيما﴾ أما القـاعدة الثالثة من قواعـد السياسة الرشيدة فهي قوله عز وجل : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي واستخرج آراءهم فيما تـريد أن تفعلـه من الأمـور ذات البال التـي لم ينزل عليك وحي بها ، تطييبًـا لقلـوبهم وليستنّ بك ولاة أمـور المسلمين مـن بعـدك ، وأصل الاستشـارة والمشـاورة مأخـوذة من قـولهم : شار العسـلَ وأشاره واشتـاره واستشـاره إذا استخرجه من الخلية أو الوَقْبة ، والوَقْبـة هي الكُوّة والنُّقرة في الصخرة ونحوها يتخـذهـا النحل بيتـا ويضع فيهـا العسـل ، وقـد أعظم الله عـز وجل شأن الشورى حيث يأمر هنا أكمل خلقه عقـلا و إدراكا ووعيا وفهما ومعرفة وخبرة بـالأمـور أن يستشير أصحـابـه رضي الله عنهـم فيما لم ينـزل عليـه وحيٌ فيـه ويستخرج ما عندهم من آراء ، وكان ﷺ إذا استشـار أصحابه وأشاروا برأي واحـد أخـذ به ﷺ و إذا اختلفت آراؤهم اختـار الأيسر منهـا على المسلمين ، وقد جعل الله عـز وجل الشورى من أبـرز صفات المسلمين حيث يقـول عز وجل في سورة أطلق عليها اسم سـورة الشورى : ﴿وأَمْرُهم شورى بينهم﴾ ، قال البخـاري في صحيحه : باب قـول الله تعالى : ﴿وأمـرهم شورى بينهم﴾ ﴿وشـاورهم في الأمر﴾ وأن المشـاورة قبل العزم والتّبيّن لقـوله تعـالى : ﴿فإذا عـزمت فتوكّل على الله﴾ فإذا عـزم الـرسول ﷺ لم يكن لبشر التقـدم على الله ورسوله . ثم قال البخاري رحمه الله : وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب أو السنّـة لم يتعدّوه إلى غيره اقتـداء بالنبي ﷺ ، ورأى أبـو بكر قتـال من منع الزكـاة ، فقال عمر : كيف تقاتـل الناس وقد قال رسـول الله ﷺ : «أمرتُ أن

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين ما جمع رسول الله ﷺ ثم تابعه بعدُ عمرُ، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورته، إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدّين وأحكامه، قال النبي ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه» وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شبّانا، وكان وقّافا عند كتاب الله عز وجل اهـ ويتحتم على المستشار أن يمحّض من استشاره النصح وأن يخلص في الاستشارة، وأن يكون أمينا، وأن يشير عليه بما فيه المصلحة، فقد روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسنٌ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». وروى ابن ماجه من حديث أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». قال في الزوائد: إسناد حديث أبي مسعود صحيح، رجاله ثقات اهـ ولا شك أنه ما ندم من استشار، وينبغي أن يستشار في كل أمر أهل الخبرة به بعد الوثوق من سلامة دينهم وعقولهم وحبّهم للخير ونصحهم كما قال الشاعر:

شاور صديقك في الخفيّ المشكل ... واقبل نصيحة ناصحٍ متفضّلِ
فالله قد أوصى بذاك نبيّه ... في قوله: شاورهم وتوكّل

وكما قال الشاعر الآخر:

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبًا ولا تعصه

ومعنى قوله عز وجل: ﴿فإذا عزمت فتوكّل على الله، إنّ الله يحبّ المتوكلين﴾ أي فإذا صحّ عزمك على إمضاء ما تريد، من جهاد عدوك مما رأيت فيه المصلحة لدينك وأمتك فامض لما تريد بغضّ النظر عن خلاف من خالفك ووفاق من وافقك، وكن في عزمك معتمدا على الله وحده ومتوكلا عليه دون غيره راضيا بما يقضيه الله عز وجل لأنه يحب المعتمدين عليه، وفي

هذا دليل ظـاهر على أن بذل الأسبـاب والاستشارة لا ينافي التوكل على الله ، وقوله عز وجل : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم و إن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ أي إن يُعِنْكم الله على عدوكم فلن يغلبكم أحدٌ مهما كان عَدَده وعُدَده ، و إن يخذلكم فيكلكم إلى أنفسكم ويترك نصركم فلن تُنصروا ولو كان معكم من العدد والعُـدد أضعاف ما عند عدوّكم ، فمن نصره الله فهو المنصور ومن لم ينصره الله فهو المقهور، ونصر الله يُنال بطاعته وتقواه فاعتمدوا على الله وحده وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

قال تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، ثم توفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم، وبئس المصير . هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون . لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .﴾

بعد أن أكَّدَ تبارك وتعالى أنَّ مَنْ يَنْصُرُهُ الله لا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ وأن مَنْ يَخْذُلُهُ الله لا يَنْصُرُهُ أَحَدٌ، وأشار إلى أن الاعتماد على الله والتوكُّل عليه هو سبب النصر والفلاح . حذَّر هنا أشد التحذير من الغُلُولِ وبيَّن سُوءَ عاقبته، وأن الله عز وجل يَفْضَحُ الغالَّ يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ومن المُلاَحظ أن الله عز وجل حذَّر في سياق قصة أحد من تعاطي الربا ومن الغلول، وهما من أكبر الكبائر، حتى يجتنب المسلمُ المجاهدُ في سبيل الله ما يُحْبِطُ عمله، ويُبْطِلُ جهاده لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وقوله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ هو شبيه بقوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله﴾ الآيتين. أي ما يتأتى في العقل أن يَصْطَفِي الله إنسانا يبعثه الله عز وجل نبيا فَيَغُلَّ، وقد ذكرت في تفسيرها أن هذا النوع من النفي يُعَبَّرُ عنه بالنفي التام لأن النفي فيه من جهة العقل أي يستحيلُ عقلا أن يَصْدُرَ هذا من نبيٍّ من أنبياء الله المصطفين الأخيار والمقصود من هذا النفي هنا هو تشديد أمر الغُلُول وبيان قُبْح فِعْلِهِ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: الغُلُول بضم المعجمة واللام أي الخيانة في المغنم قال ابن قتيبة: سمى بذلك لأن آخذه يَغُلُّه في متاعه أي يخفيه فيه، ونقل النوويُّ الإجماع على أنه من الكبائر ا . هـ ومعنى قوله عز

وجل: ﴿ومن يغلل يأت بما غَلَّ يوم القيامة﴾ أي ومن يأخذ شيئًا من المغنم خفية يَفْضَحْهُ الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حيث يبعثه حاملا لما غَلَّ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فَذَكَر الغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ وعَظَّمَ أمْرَهُ، قال: لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثُغَاءٌ، على رقبته فرس له حَمْحَمَةٌ يقول: يا رسولَ الله أغثني فأقول: لا أَمْلِكُ لك شيئا، قد أبْلَغْتُكَ، وعلى رقبته بعير له رُغَاءٌ، يقول: يا رسول الله أغثني فأقولُ: لا أَمْلِكُ لك شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامتٌ، فيقولُ: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، أو على رقبته رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. وقوله في الحديث: وعلى رقبته صامتٌ أي فوق عنقه ذهب وفضة أو هو كل مال لا رُوحَ له. كما روى البخاري من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كان على ثَقَلِ النبي ﷺ رجلٌ يقال له كَركَرَةُ فمات، فقال رسول الله ﷺ: هو في النار، فذهبوا ينظرون إليه، فَوَجَدُوا عباءةً قد غَلَّهَا. كما روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا كانَ يومُ خَيْبَرَ أقبل نَفَرٌ من أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: فلانٌ شهيد، وفلان شهيد، حتى مرُّوا على رجل فقالوا فلانٌ شهيد، فقال النبي ﷺ: كلاَّ، إني رأيتُه في النار، في بُرْدَةٍ غَلَّهَا أو عَبَاءَةٍ. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نَغْنَمْ ذَهَبًا ولا وَرِقاً، غَنِمْنَا المتاعَ والطعامَ والثيابَ، ثم انطلقنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عَبْدٌ له، وَهَبَهُ له رجلٌ من جُذَامَ يُدْعَى رِفَاعَةَ بنَ زيد من بني الضُّبَيْبِ، فلما نزلنا الوادي قام عَبْدُ رسولِ الله ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ فَرُمِيَ بِسَهْم، فكان فيه حَتْفُهُ، فقلنا: هنيئاً له الشهادةُ يا رسول الله، قال رسولُ الله ﷺ: كلاَّ والذي نَفْسُ

محمدٍ بيـده، إنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عليه نـاراً، أخذها من الغنـائم يوم خيبرَ، لم تصبها المقـاسم قال: ففزع النـاس، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقـال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: شِرَاكٌ من نارٍ أو شِرَاكَانِ من نارٍ. كما روى مسلم من طريق مُصْعَب بن سعد قال: دخل عبدالله بنُ عمر على ابن عامرٍ يَعُـودُهُ وهو مريض فقال: أَلاَ تدعو الله لي يـا ابن عمر؟ قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لا تُقْبَلُ صـلاةٌ بغير طُهُورٍ، ولا صَدَقَةٌ من غُلُولٍ. وقـولُه عز وجل: ﴿ثمَّ تُوفَّى كل نفس مـا كسبت وهم لا يظلمون.﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره: أي تُعْطَى وافيا جزاء ما كَسَبَتْ، خيراً أو شراً كثيراً أو يسيراً، ووَضع المكسوب مـوضع جزائه تحقيقـاً للعدل، ببيـان ما بينهما من تمام التنـاسب كَمّاً وكَيْفاً كأنهما شيءٌ واحـدٌ، وفي إسناد التَّـوْفِية إلى كل كاسب، وتعليقها بكل مَكْسُوبٍ، مع أن المقصـود بَيَانُ حال الْغَال عند إتيـانه بما غلَّـه يـوم القيامـة، من الـدلالة على فخـامـة شَأنِ اليوم، وهَـوْلِ مَطْلَعِهِ، والمُبَالَغَة في بيان فَظَاعَـةِ حال الغالّ ما لا يَخْفَى، فإنه حيث وُفِّي كلُّ كاسبٍ جَـزَاء ما كسبه، ولم يُنْقَصْ منـه شيء وإن كان جُـرْمُهُ في غايـة القلَّةِ والحقارة فلأنْ لا يُنْقَصَ من جزاء الغـالّ شيء وجُرْمُهُ من أَعْظَم الجَرَائِم أَظْهَرُ وأَجْلَى «وهم» أي كلُّ الناس المدلـول عليهم بكل نَفْسٍ «لا يُظْلَمُونَ» بـزيادة عِقَابٍ أو بِنَقْصِ ثواب اهـ وقولُه عز وجل: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم﴾ أي أيستوي في عقل أحد من آمن بالله وصدق رسول الله ﷺ وعَمِلَ بطاعة الله وسعى في مرضـاته وترك الغُلُول وسائر ما نهاه الله عز وجل من المعـاصي، هل يَسْتَوِي هـذا الصالحُ المطيع هُـوَ ومَن يكفر بـالله، ويُكَـذِّبُ رسلـه، ويَعْصِي ربَّهُ بـالغُلُـول أو غيرهـا من المعـاصي؟ لا يستويان أبداً في عقل مَنْ له أدنى مُسْكَةٍ من عقل، إذ أن الصالح ثوابه الجنةُ والفَـاجِرَ مأواه ومصيره إلى جهنم، وقـوله عـز وجل: ﴿وبئس المصير.﴾ أي

وقَبُحَ وَذُمَّ مَصِيرُ هَؤلاء الفجار، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هم درجاتٌ عند الله﴾ تأكيد لمضمون الآية السابقة، وأن الصالحين والفجارَ لا يستوون، فهم مُخْتَلِفُوا المنازل، حيث يصير المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض في درجات ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض، ويصير الفجار إلى دركات النار التي يَهْوِي بعضُهم إلى بعضها سبعين خريفا، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي إنه لا يظلم أحداً لأنه شهيد على ما عملوا ويجزي كلَّ عامل بما عمل وهذا المقام نظير قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون.﴾ وقوله تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومَن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.﴾ وقال عز وجل: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون.﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. وأما الذين فسَقُوا فمأواهم النارُ﴾ الآية. وحتى في نظر الشيوعيين الذين يقولون: لا إله والكون مادة فإنه لا يستوي عندهم من يسرق أموال الناس ومن يبذل ماله للناس فيما يرونه من مصالحهم، مع انتكاس فطرتهم وانقلاب موازين الحق لديهم، وهل يُسوِّي أحدٌ بين كافل اليتيم وبَيْنَ مَنْ يأكل أموال اليتامى ظلما؟ وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.﴾ بعد أن وصف الله عز وجل حبيبه محمدا ﷺ بكمال الرحمة والشفقة، ووصف له قواعد السياسة الرشيدة وأمر المؤمنين بالاعتماد على الله

والتوكل عليه، والالتجاء إليه وحده لا شريك له في طلب النصر على الأعداء ووصف جميع أنبياء الله بطهارة النفس، وفرَّق بين من اتَّبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله، مما أطبقت العقول على التفريق بينهما حيث لا يستوي الصالحون والفجار في نظر عاقل، ذكر نعمته الكبرى ومِنَّته العظمى على المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ بأنه تَفَضَّل عليهم بأعظم رسول وأفضل نبيٍّ وأكمل شريعة، وأبقى دينٍ وأوفى نظام وأشمله وأدقِّه حيث أنعم عليهم وأحسن إليهم إذ بعث لهم نبياً من أنفسهم يقرأ عليهم القرآن الكريم المشتمل على جميع قواعد العقائد والسلوك والمعاملات وما يتصل بالدنيا وما يتصل بالآخرة وقد جعله الله عز وجل تبيانا لكل شيء ومهيمنا على كل كتاب قبله، فيه نبأ المتقدمين، وخبر المتأخرين وحَلُّ قضايا الناس أجمعين، وهو الفَصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدَى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراطُ المستقيمُ، لا تزيغ به الأهواء، ولا تَلْتَبِسُ به الألسنة، ولا يَشْبَعُ منه العلماء، ولا يَخْلَقُّ عن كثرة الرَّدِّ، كلما تكرر زادت حلاوته، ولا تنقضي عجائبه، وهو مأدُبَةُ الله المعروضة بين عباده لتغذية أجسامهم وأرواحهم، وشفاء أمراضهم وأسقامهم، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِرَ، ومَنْ حَكَمَ به عَدَلَ، ومن استمسك به واتَّبَعَ مَنْهَجَهُ هداه إلى جنات النعيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويزكيهم﴾ أي ويطهرهم بترغيبهم في الطيبات وترهيبهم من المحرمات، وتحذيرهم من سائر النجاسات، سواء كانت حسية أو معنوية ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي ويبين لهم مجمل الكتاب، وقد يَخُصُّ عُمُومَهُ، ويُعَمِّمُ خُصُوصَه، ويُقَيِّدُ مُطْلَقَه، ويطلق مُقَيَّدَه، بوحي من ربه، حيث أسند الله عز وجل بَعْضَ بيان القرآن لرسوله ﷺ حيث يقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم

يتفكرون . ﴾ والحكمة هي الفقه في الدين واتباع سنة النبي الكريم ، وَوَضْعُ الأمور في مواضعها ، وفي قوله عز وجل : ﴿وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين . ﴾ إشارة إلى كمال نعمة الله وتمام منته حيث أخرج الله عز وجل العرب والعجم من الظلمات إلى النور فقد كانت أمم الأرض عند بعثته ﷺ في حيرة وضلالة ، قد نظر الله عز وجل إليهم فمقتهم عَرَبَهُم وعجمهم ، إذ كانوا كلُّهم يتخبطون في دياجير ظلام الجاهلية ، وكانت بلاد العرب لا تعرف غير الغارة والسلب والنهب ، ووأد البنات ، وانتهاك الحرمات ، وكان الرجل المجوسيُّ يتزوج بنته ، ويشعل ناراً ثم يسجد لها ويعبدها ، وكان الأوروبيون لا يقِلُّون في جهالتهم عن الأسيويين والإفريقيين ، فلما جاء الإسلام أرشد الناس إلى قواعد العدل ، وهَدَى إلى الصراط المستقيم . لقد كانت مدينة روما لا يُعْرَفُ فيها طريق مُعَبَّدُ ، ولا سراجٌ يضيء حاراتها وشوارعها ، فلما جاء الإسلام وعرف المسلمون المدنية الحقيقية بلَّطوا الشوارع ونظَّمُوها . وكتب عمر رضي الله عنه إلى عماله في الأمصار بتخطيط الشوارع في الحاضرة والبادية ، وأضيئت الشوارع بالليل ، وانتشر كل هذا بعد ذلك في غرب أوروبا لما دَخَلُوا في الإسلام ، ثم انتشرت هذه المدنية في سائر أوروبا لأول مرة في التاريخ . وقد أشار الله عز وجل إلى نعم الله هذه على الناس حيث يقول : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هٰذا قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوْا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .﴾

بعد أن ذكَّر الله عز وجل المؤمنين بنعمته الكبرى ومنته العظمى بإرسال أفضل رسله وأكمل خلقه محمد ﷺ إليهم بأكمل الشرائع، وأن الله أخرجهم به من الظلمات إلى النور وهداهم به من الضلال المبين الذي كان يحيط بهم من كل وجه، نَبَّهَ هنا إلى إعزازه لعباده الصالحين المتبعين لرسوله محمد ﷺ وأنَّ ما قد يصيبُ المسلمين إنما هو بسبب من تقصيرهم في طاعة هذا الرسول العظيم والنبي الكريم ﷺ، وأجاب عن شبهة أثارها بعض الناس ممن يظنون بالله غير الحق ظنَّ الجاهلية حيث تساءلوا: من أين جاءتنا هذه المصيبة؟ وكيف نُهْزَمُ ورسول الله معنا ونحن مسلمون وهم كافرون؟ والقصد من السؤال هو إثارة الشُّبَهِ بين المسلمين، وقد كان الجواب الذي أجاب الله عز وجل به في هذه الآية الكريمة قاطعا لشبهتهم مُفْحِماً لهم، حيث ذكر أن المشركين إن كانوا نَالُوا من المسلمين مرة فقد نال المسلمون منهم مرتين، وإن كان المشركون أصابوا عددا من المسلمين فقد أصاب المسلمون منهم مثلى العدد الذي أصيب من المسلمين، فالحرب وإن كانت دولا فإن كفة المسلمين كانت راجحة، حيث انتصر المسلمون في بدر وهزم المشركون، وانتصر المسلمون في أول معركة أُحُد فكانت للمسلمين جولتان: جولة في

بدر وجولةٌ في أحد، ولم يحصل المشركون إلا على جولة واحدة، كما أن المسلمين أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة رجلٍ: سبعين قتيلا وسبعين أسيرا، وأصاب المشركون من المسلمين في أحد سبعين شهيدا، فالمسلمون أصابوا منهم مثلَي ما أصابوا من المسلمين. ثم بَيَّن أن ما أصاب المسلمين في أحد ليس بسبب الإسلام بل بسبب مخالفة أمر الإسلام حيث ترك بعض الرماة مقاعدهم التي بوَّأهم إياها رسول الله ﷺ وحذرهم أن يتركوها إلا إذا أَرْسَلَ إليهم، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ أصيبوا بالمصيبة التي أصابتهم. وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هٰذا؟ قل هو من عند أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي إن الله تبارك وتعالى قادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم، كما أنه قادر على التخلية إذا خالفتم وعصيتم، وهو سبحانه لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء وأمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وبعد أن بين عز وجل أن ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب من عند أنفسهم وأنه عز وجل قادر على كل شيء أشار كذلك إلى بعض وجوه الحكمة في جعل الجولة في آخر المعركة يوم أحد للمشركين حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لا تَّبعناكم﴾ أي وما حدث لكم يوم تواجَه الجمعان: جمع المسلمين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وجمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان، وكان التقاء الجمعين يوم أحد، ومعنى قوله: ﴿فبإذن الله﴾ أي فهو كائن بعلم الله وقضائه وقدره وحكمته البالغة التي من جملتها أن تعرفوا أن نصر الله إنما يُجْلَبُ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وهذا تأكيد لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ ومن حكمته كذلك تمييز المؤمنين من المنافقين،

حيث يقول عز وجل: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزلا من نجاح المؤمنين عند هذا الامتحان والابتلاء، إذ ظهر منهم كمال الإيمان والاستسلام لله عز وجل، ولذلك بشَّرهم الله عز وجل أكثر من مرَّة بعفوه عنهم كما تقدم، وقوله عز وجل: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزلا من ظهور نفاق المنافقين، فإن المصائب تبرز العَدُوَّ من الصديق كما قال الشاعر:

جزى الله الشدائد كلَّ خير علمت بها عَدُوِّي من صديقي

وإنما قال عز وجل: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ولم يقل: وليعلم المنافقين كما قال: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ لإفادة ثبات المؤمنين على الإيمان واستمرارهم عليه ورسوخهم فيه وأن النفاق قد حدث لبعض ضعاف الإيمان، فعبَّر في جانب المؤمنين بصيغة اسم الفاعل الدالة على الاستمرار وعبَّر في جانب الآخرين بموصول صِلَتُهُ فِعْلٌ للدلالة على التجدد والحدوث كأنه قيل: وما أصابكم يومئذ فهو كائن بإذن الله ولتمييز الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ هو مستأنف لبيان بعض مواقف المنافقين المخزية ممن كان نفاقهم قد عرف قبل معركة أحد، وهو عبدالله بن أُبَيٍّ ابن سلول لعنه الله ومن معه، الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة عند خروجه ﷺ إلى أحد فلما كانوا في بعض الطريق رجع عبدالله بن أبيٍّ بثلث الجيش، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوِّئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أن رسول الله ﷺ استشار الناس، واستقر رأيهم على الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدو الله عبدالله بن أُبَيٍّ ابن سلُولَ رجع

بنحو ثلث النـاس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبدالله بن عمـرو بن حرام السَّلَمِيُّ والـدُ جابـر رضي الله عنهما أن يحملهم على متـابعة رسـول الله ﷺ، وقال لهم: تعالوا قاتلُوا في سبيل الله أو ادفعُوا، فقال عبدالله بن أبي ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتبعناكـم، وهذه المقالة ولا شك أظهرت لكثير من المؤمنين الذين كانوا يغترون بعبدالله بـن أبي ويحسبونه مسلما حقا أنه رجل سُوءٍ ولـذلك كان إظهار عبـدالله بن أبيٍّ هذه المقـالة من أظهر حِكَم معـركة أحد التي قضاها الله عز وجل وقَدَّرها، فقد أبرزت هذه المقالة مكنون نفسه، وكما قال الشاعر:

ومهما تكـن عنـد امريء مـن خَلِيقَةٍ وإن خالهـا تخـفى على النـاس تُعْلَمِ

فقد فضحه الله عز وجل، وفي قول عبـدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنـه لعبد الله بـن أبيٍّ والذين معـه: تَعَـالَوْا قـاتلـوا في سبيل الله أو ادفعـوا، إشـارةٌ إلى خبرة عبـدالله بن عمــرو بن حـرام رضي الله عنـه بفنـون الحرب، وأن من لا رغبة له في القتال والالتحام في المعركة مع العدو يمكن أن يستفاد منـه بأن يجعل في الخطِّ الخلفي من المعـركة ليحمي ظهـور المقاتلين، وقول عدو الله عبدالله بن أبيٍّ ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتبعناكم هو كـذب ظاهـر من هؤلاء المنـافقين؛ لأنهم يعلمون أن أبـا سفيان مـا جاء بجيشه العـرمرم ونزل عنـد أحد إلا لقتـال المسلمين والثأر لقتلى المشركين يوم بدر، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿هم للكفـر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ إشارة إلى تذبذب المنافقين وترددهم بين الإيمان والكفر. وأنهم قد يقتربون من الكفر حينا ويقتربون من الإيمان حينا كما قال عز وجل فيهم: ﴿مذبذبين بين ذٰلك لا إلى هـؤلاء ولا إلى هٰؤلاء﴾ وكما شبههم الله عـز وجل بقولـه تبارك وتعـالى: ﴿يكـاد البرق يخطف أبصـارهم كلما أضـاء لهم مشـوا فيـه وإذا أظلم عليهم قامـوا﴾ قال شيخ الإسلام ابـن تيمية رحمه الله: لما انهزم المسلمون يـوم أحد،

وشج وجه النبي ﷺ، وكسرت رَبَاعِيَتُه، ارتد طائفة، نافقوا، قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . ﴾ وقال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتَّبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون . ﴾ فقوله: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نَافَقَ ثم جَدَّدَ نفاقا ثانيا، وقوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يبيِّن أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إما أن يَتَسَاوَيَا، وإما أن يكونوا للإيمان أقرب، وكذلك كان، فإنَّ ابن أبيٍّ لما انخزل عن النبي ﷺ يوم أحدٍ، انخزل معه ثُلُثُ الناسِ، قيل كانوا نحو ثلاثمائة، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن، إذ لم يكن لهم داعٍ إلى النفاق، فإنَّ ابن أُبي كان مُظْهِراً لطاعة النبي ﷺ والإيمان به، وكان كلَّ يوم جمعة يقوم خطيبا في المسجد، يأمر باتباع النبي ﷺ، ولم يكن ما في قلبه يظهرُ إلا لقليل من الناس إن ظهر، وكان مُعَظَّماً في قومه، كانوا قد عزموا على أن يُتَوِّجوه، ويجعلوه مثل المَلِكِ عليهم، فلما جاءت النُّبُوَّةُ بَطَلَ ذلك، فَحَمَلَهُ الحسد على النفاق، وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو إليه، وإنما كان هذا في اليهود، فلما جاء النبي ﷺ بدِينِه وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت إليه القلوبُ، لا سيما لما نصره الله يوم بدر، ونَصَرَهُ على يهود بني قينقاع صار معه الدينُ والدنيا، فكان المقتضى للإيمان في عامة الأنصار قائماً، وكان كثير منهم يعَظِّمُ ابن أبيٍّ تعظيماً كثيراً ويُواليه، ولم يكن ابن أبيٍّ أظهر مُخَالَفَةً تُوجِبُ

الامتياز، فلما انخزل يوم أحد وقال: يدع رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان - أو كما قال - انخزل معه خلق كثير، منهم من لم ينافق قبل ذلك اهـ وقول ابن تيمية رحمه الله: يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إما أن يتساويا، وإما أن يكونوا للإيمان أقرب، وكذلك كان. يريد رحمه الله أن هؤلاء المنافقين كانوا قبل هذه الموقعة إما قد تساوى عندهم الإيمان والكفر أو كانوا للإيمان أقرب، لكنهم عند هذه الواقعة كانوا أقرب إلى الكفر وأبعد عن الإيمان، وقوله عز وجل: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون.﴾ أي يظهرون الإسلام بألسنتهم ويبطنون النفاق والله لا تخفى عليه خافية، وذكرُ الأفواه للتأكيد كما في قوله: ﴿يطير بجناحيه﴾. وقوله عز وجل: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.﴾ أي يقولون لأجل إخوانهم في النسب أو الدار والجوار لا أنهم إخوانهم في الدين، الذين استشهدوا يوم أحد: لو أطاعونا وانخزلوا عن محمد كما انخزلنا عنه وقعدنا عن لقاء جيش أبي سفيان ما قتلوا، فوبخهم الله عز وجل وَرَدَّ باطلهم بقوله عز وجل: ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي قل لهم يا محمد إن صدقتم في مقالتكم فادفعوا الموت عن أنفسكم وهو آت لكم لا محالة.

قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوْهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسَسْهم سوء واتَّبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. إنما ذٰلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين.﴾

هذه الآيات هي خواتيم المسك التي نزلت في قصة غزوة أحد، وبعد أن فضح الله مقالة المنافقين الذين أظهروا الشماتة بالمسلمين فيما أصيبوا به من شهدائهم حيث قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وردعهم بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إذا جاءهم إن كانوا صادقين، بشَّر هنا المسلمين بأن شهداءهم أحياء عند ربهم يرزقون، حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون.﴾ أي ولا تظنَّن يا محمد أو يا كل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب أنَّ من فارقت روحه جسده وقتله أعداء الله لاستمساكه بدين الإسلام هو ميِّت كسائر الموتى الآخرين، لأن الله تعالى خصَّهم بمزية لا ينالُها إلا من قتل في سبيل الله حيث أحياهم حياة كريمة خاصة بهم وأجرى عليهم أرزاقهم، فهم يحسون، ويلتذون، ويتنعَّمون، وهم فَرِحُونَ مَسْرُورُون بما منحهم الله من الكرامة والفضل، وبما حباهم به من جزيل الثواب والعطاء والأجر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ، بل أحياءٌ

وَلَٰكِن لا تَشْعُرُونَ . ﴾ أن الله تبارك وتعالى ينبـه المسلمين إلى عدم إطلاق لفظ الموتى على الشهداء الذين يُقتلون في سبيل الله ، سواءٌ كانوا قد قتلوا في معركة مع الكافـرين كشهداء بـدر وغيرهم ، أو قتلوا في غير المعركـة كَسُمَيَّة أمِّ عمَّار ابن ياسر رضي الله عنهـا التي كان عَدُوُّ الله أبـو جهل يُعَذِّبُهَا بالنـار، ويقول لها : اذكري آلِهَتَنَـا بخير، واذكري محمداً بسـوءٍ ، فتشهدُ أنَّ محمـداً رسول الله ﷺ فضَرَبَهَا بِحَرْبَتِهِ فَقَتَلَهَـا فكانت أوّلَ شهيد في الإسـلام ، وقد أخبر الله عز وجل أنَّ الشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقُون ، وليس المقصود من هذه الحياة أنها حياةٌ دنيويـة بل هي حياةٌ بَرْزَخيَّـةٌ خاصةٌ منحها الله تبـارك وتعالى للشهداء ، وقد فسرهـا رسول الله ﷺ ، فقـد روى مسلم في صحيحه من طـريق مسروق قال : سألنـا عبدالله بن مسعود عـن هذه الآية : ﴿ولا تحسبنَّ الـذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقـون﴾ الآية ، قال : إنا قد سألنا عن ذلك ، فقـال : أرواحهم في أجوافِ طير خُضْرٍ، لها قنـاديل مُعَلَّقَةٌ بـالعرش ، تسرح من الجنـة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلـك القناديل ، فـاطَّلع عليهم ربُّهم اطـلاعةً ، فقـال : هل تشتهـون شيئا؟ قـالـوا : أيَّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعـل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا . قالوا : يا ربِّ نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَلَ في سبيلك مرةً أخرى ، فلما رأى أنْ ليس لهم حاجةٌ تُـرِكُوا ، وقوله عز وجل : ﴿ولَٰكن لا تشعرون﴾ يُـوحى بأن حياةَ الشهداءِ لا يعلمهـا إلا الله عز وجل ، وما دام قـد أخبر ربُّ العزة جل وعلا أن الشهـداء أحياء عند ربهم يـرزقون ، وعَلَّمنا رسول الله ﷺ بعض صور من حيـاتهم التي علَّمَهُ الله عز وجل بها فما علينا إلا التسليم ، مع يقيننا أنهم فارقوا الحيـاة الدنيا ، وأن أرواحهم خرجت من أجسادهم كما يدُلُّ عليه الحديث الصحيح المتقـدم حيث قالوا : نريد أن تَـرُدَّ أرواحنا في أجسـادنا حتى نُقتل في سبيلك مـرة أخرى لكننـا لا نُسَمِّيهم

أمواتـا، وإنما نسميهم شهداء، وقد استشهـد في غزوة أحد سبعـون شهيداً، أربعة من المهاجرين وهم حمزة بـن عبد المطلب سيد الشهداء، ومصعب بن عمير، وعبـدالله بـن جحش وشماس بن عثمان المخـــزومي رضي الله عنهم واستشهد من الأنصار ستة وستون شهيـدا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضلـه ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .﴾ أي إن الشهداء عند ربهم أحياء يـرزقون حال كونهم مسرورين بما منحهم الله عـز وجل من فضلـه حيث شرَّفهم بـالشهـادة، والفوز بـالحيـاة الأبدية السعيدة، والـزلفى من الله عز وجل، والتمتع بالنعيم المخلد المُعَجَّل لهم، وهم مسرورون من إخوانهم الـذين تركوهم من خلفهم أحياء في الـدنيا على منهج الإيمان والجهـاد وطـاعـة الله ورسولـه ﷺ وأنهم إذا استشهـدوا في سبيل الله لحقوا بهم ونالوا من كرامـة الله وجوده مثل ما نالوا، وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تـركوه وراءهم، وكما أنهم يستبشرون ويفرحون بالـذين لم يَلْحَقُوا بهم من خلفهم فإنهم يستبشرون ويفرحـون أيضا لأنفسهم بما رزقـوا من نعم الله التي أنعم بها عليهم، وفضله الـذي منحهم إياه، وقـد قـال محمد بـن إسحاق : حـدثني إسماعيل بن أميـة عن أبي الـزبير عن ابن عبـاس قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «لما أصيب إخـــوانكم بأحـد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضْرٍ، تـرد أنهار الجنة، وتأكل مـن ثمارها، وتأوي إلى قنـاديل من ذهب، في ظل العـرش، فلما وَجَـدُوا طيبَ مَشْرَبِهِمْ ومَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يَزْهَدُوا في الجهاد، ولا ينكِلُوا عن الحرب فقال الله تعالى: فأنا أبلغهم عنكم، فأنزل على رسـولـه ﷺ هؤلاء الآيـات: ﴿ولا تحسبنَّ . .﴾ قـال ابن إسحـاق وحـدثني الحارث بن الفضيل عن محمود بن لبيـد الأنصاري عن ابن عباس أنـه قال:

قال رسول الله ﷺ: الشهداء على بارق نهر بباب الجنة. في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشيا. اهـ. وقوله عز وجل: ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ أي ويفرحون أيضا بأن الله يتقبل من جميع المؤمنين أعمالهم الصالحة، ولا يبطل جزاء من صدَّق رسوله وعَمِلَ بما جاء به من عند الله، وقوله عز وجل: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسَسْهم سوءٌ واتَّبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم.﴾ هذه الآيات تتحدث عن قصة غزوة حمراء الأسد التي توجه إليها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من غزوة أحد، وقد ذكرت أكثر من مرة في سياق تفسير الآيات السابقة التي تتحدث عن غزوة أحد أن الله عز وجل ألقى الرعب في قلوب المشركين مع أن الجولة الثانية وهي الأخيرة كانت لهم، فانصرفوا عن أرض المعركة وامْتَطوْا إبلهُم راجعين إلى مكة وقد أَلْهَمَ الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يخرج في اليوم الثاني من معركة أحد في إثر المشركين مخافة أن يرجعوا، ليريهم أن بأصحابه قوةً، وأنَّ معركة أحد لم تخضدْ شَوْكَةَ المسلمين، فَنَدَبَ المسلمين الذين شهِدُوا معركة أحد ـ مع ما بهم من القرح ـ فانتدب منهم سبعون رجلا، فخرج بهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا بحمراء الأسد على الطريق بين مكة والمدينة ـ وهي على بُعد ثمانية أميال من المدينة المنورة، فَعَسْكَروا بها، وكان المشركون قد نزلوا بالرَّوحاء، فلما أفاقوا من رعبهم تلاوموا وقالوا: أصبنا أشراف أصحابِ محمدٍ وقَادَتَهُمْ ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟ فأجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد ذُكِرَ أن مَعْبَدَ ابنِ أبي مَعْبَدِ الخزاعيَّ مَرَّ برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد وكان معبدٌ يومئذ مشركا إلا أنَّ خزاعة مُسْلِمَهُمْ وَكَافِرَهُمْ كانوا عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله ﷺ

بتهامة، صَفْقَتُهُمْ معه ﷺ، لا يُخْفُونَ عنه شيئا، فقال معبدٌ لرسول الله ﷺ: يا محمد، أَمَا واللهِ لقد عَزَّ علينا ما أصابك، وَلَوَدِدْنَا أَنَّ الله عافاك فيهم، ثم انطلق معبدٌ ــ ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ـ حتى لَقِيَ أبا سفيان وَمَنْ معه بالرَّوحاء ـ والرَّوحاء على الطريق بين مكة والمدينة وهي على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة ــ وقد أخذ أبو سفيـان وَمَنْ معه من المشركين أُهْبَتَهُمْ مُجْمِعِينَ الرجعـة لاستئصال المسلمين، وكان معبدٌ الخزاعيُّ قـد تَجَرَّدَ من ثيابه عنـدما أقبل على الرَّوحاء إمعـانا في تخويف المشركين على عادة النذيـر العُريان، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءَك يا معبـد؟ قال: محمدٌ خرج في أصحابه يَطْلُبُكُمْ، في جَمْعٍ لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكـم تَحَرُّقاً، قد اجتمع معه من كان تَخَلَّفَ عنـه في يومكم، ونـدموا على ما صَنَعُـوا، فيهم من الحَنَقِ عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى أرى نـواصي الخيل، قـال: فوالله لقـد أَجْمَعْنَـا الكَـرَّةَ عليهم، لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ، قال: فإني أنهاك عن ذلك، ولقد حملني ما رأيتُ على أنْ قلتُ فيهم أبياتاً من الشعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كَـادتْ تُهَدُّ مـن الأصـوات راحلتـي ... إذ سَـالَتِ الأرضُ بـالجُرْدِ الأبابيـلِ
تـرْدِي بِأُسْدٍ كـرام لا تـنـابِـلـةٍ ... عنـد اللقـاءِ ولا ميلٍ مَعَازيـلِ
فَظَلْتُ عَـدْوا أظنُّ الأرضَ مائـلـةً ... لما سَمَوْا بـرئيسٍ غـيرِ مخـذولِ
فقلـت وَيْلَ ابـن حـرب مـن لقائكـموا ... إذا تَغَطْمَطَتِ البطحـاءُ بالجيـلِ
إني نـذيرٌ لأهـل البَسْلِ ضاحيـةً ... لكل ذي إربَـةٍ منهم ومَعْقـولِ
من جيـش أحْمَدَ لاَ وَخْشٍ تَنَابلَـةٍ ... وليس يُـوصَـفُ مـا أنـذرتُ بالقِيـلِ

وما أن سمع المشركون من معبدٍ ما قال لهم حتى كادت قلوبهم تنخلع من الرعب والذُّعر، فانطلقوا على وجوههم نحو مكة، ولَقِيَ أبو سفيان نَعِيم بن

مسعود الأشجعيَّ أو ركباً من عبد القيس، فجعل لمن لَقِيَ منهم محمداً ﷺ وأخبره أن أبا سفيان والذين معه قد جَمَعُوا لملاقاة محمد ﷺ وصحبه وردَّه عنهم أن يعطيهم أحمالا من زبيب بعكاظ، فجاء نعيم بن مسعود الأشجعي أو الرهط من عبد القيس إلى رسول الله محمد ﷺ وصحبه وقالوا له وللمسلمين: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاحذروا لُقياهم وخافوهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ والمسلمون زادهم ذلك القول إيمانا بالله ويقينا بنصره، وقالوا حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل، ولما تيقنوا أن المشركين هَرَبُوا إلى مكة رجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وأنزل الله عز وجل في قصة حمراء الأسد هذه الآيات. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوْا أجر عظيم.﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أَبَوَاكَ منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسولَ الله ﷺ ما أصاب يومَ أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إِثْرِهِمْ؟ فانتدب منهم سبعون رجلا، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير. كما روى البخاري من حديث ابن عباس قال: حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار، وقَالَهَا محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل اهـ والناس في قوله: ﴿قال لهم الناس إن الناس﴾ هو عام أريد به الخصوص فالمراد بالناس الذين قالوا: هو نعيم الأشجعي أو الرهط من عبد القيس، والناس الذين جمعوا هم أبو سفيان ومن معه. ومعنى: حسبنا الله ونعم الوكيل: أي الله يحفظنا من كل شر ونعم المولى لمن وليه وكَفَلَهُ ممن فوَّض أمره إليه، وقوله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾ أي

رجعوا إلى المدينـة بالنعمـة والفضل وصرف السوء واتبـاع الرضـا . وفضل الله كبيرٌ وقوله : ﴿إنما ذُلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مـؤمنين﴾ أي إنما ذلكم الشيطـان يخوفكم أولياءه المشركين فـلا تخافـوا منهم لأنهم حزب الشيطـان وحزب الشيطـان هم الخاسرون ، وامنعوا قلـوبكم أن يتسرب لها الخوف إلا من الله وحده لأن هذا هو شأن المؤمنين .

قال تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، إنهم لن يضروا الله شيئا، يريد الله ألا يجعل لهم حظًّا في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، ولهم عذاب مهينٌ . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله، و إن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى قصة غزوة حمراء الأسد وما فيها من الدلالة على رسوخ الإيمان في قلوب المهاجرين والأنصار الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح وأن الله عز وجل صانهم من كل شر وأرجعهم إلى المدينة بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله ولما كان رسول الله ﷺ قد أحزنه اندفاع المنافقين في الضلال، وارتداد بعض ضعاف الإيمان إلى الكفر بعد مصاب المسلمين في أحد، وكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على دخول الناس في الإسلام لِيَسْلَمُوا من عذابِ يومِ القيامةِ، وكان هذا الحزن يؤثر على نفس رسول الله ﷺ كما أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين.﴾ لذلك نهى الله عز وجل رسوله ﷺ عن الحزن إذا رأى اندفاع الكفار في كفرهم، وبيّن له ﷺ أن كفر الكافر لا يضُرُّ الله شيئا. وأن الله لو أراد أن يجعل لهم حظًا في الجنة لَوَفَّقَهُمْ للدخول في الإسلام. وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ ومواساة له، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي ولا يؤلمك ما تراه من اندفاع بعض الناس في الكفر،

واتباعهم لشياطين الجن والإنس، وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الرسولُ لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ وقوله عز وجل: ﴿إنهم لن يضروا الله شيئا﴾ زيادةُ تثبيت ومواساة وتسلية لرسول الله ﷺ ولتقرير حقيقة أن معصية العاصين وكفر الكافرين لا يضر الله شيئا وإنما وبال ذلك على مرتكبيه، كما أن طاعة الطائعين لا تنفع الله شيئا؛ لأن الله غني عن العالمين ولذلك قال هنا: ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من طريق سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولانيِّ عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما رَوَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوتُه فاسْتَكْسوني أَكْسكُم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني ولن تبلغوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني، يا عبادي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وإنسكم وجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رجلٍ واحِدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نَقَصَ ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحْصيهَا لكم ثم أوفِّيكم إيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ». قال سعيد: كان أبو إدريسَ الخَوْلَانِيُّ إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثَا على رُكْبَتَيْهِ اهـ والمرادُ بالإرادة في قوله عز وجل: ﴿يريد الله ألا

يجعل لهم حظا في الآخرة﴾ هي الإرادة الكونيـة القَدَرِيَّةُ التي بمعنى المشيئة لا الإرادة الشرعية التي بمعنى المحبـة، والمراد بالحظ هنـا هو النَّصيبُ من نعيم الجنة، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين اشتروا الكفـر بالإيمان لن يضرُّوا الله شيئـا ولهم عذاب أليم﴾ هـو مَزِيـدُ مُوَاسـاةٍ لرسـول الله ﷺ ببيان أن عمـوم الكفار الذين رَضُوا بالكفر بـالله ورسله بَدَلَ الإيمان بالله ورسله هم أصحاب الصفقـة الخاسرة، فإن وَبَالَ كفـرهم عائدٌ عليهم، ولن يضروا الله شيئـا ولن يمنعوا عزَّ الإسلام وانتشاره وارتفـاع رايته في العالمين ولن يتمكنوا بكفرهم من إطفاء نور الله مهما جَمَعُوا وبَذَلُـوا وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على إخلاص اليقين والانقطاع إلى الله وحـده، والرضا بقضائه وقَـدَرِه، وبَذْل النفس والنفيس في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ليسلموا مـن عقوبة الله المؤلمة الموجعة التي أعدها لمن اشترى الكفر بالإيمان، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، ولهم عذاب مهين.﴾ أي ولا يَظُنَّنَّ الـذين كفـروا أنما نُـوَسِّـعُ عليهم في أرزاقهم ورَغَـدِ عيشهم وعـدم تعجيلهم بعقـوبـات معـاصيهم هـو لمصلحتهـم، بل إنما نَفْعَلُ ذلك بهم استـدراجـاً لهم من حيث لا يعلمـون، فإنَّ حكمـة الحكيم اقتضت أنـه إذا سخط على العبد واشتدَّ غَضَبُهُ عليه أَمْلَى لـه وأرخَى له في عيشه ليأخذه أخذ عزيز مُقْتَدِرٍ فيكون ذلك أشـدَّ في العقوبة، وأعظم في الإيلام وفي ذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿والذين كَذَّبُوا بـآياتنا سنستـدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم، إنَّ كيدي متين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم، إنَّ كيدي متين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أيحسبون أنما نمـدُّهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات، بل لا يشعرون.﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يـريـد الله ليعـذبهم بها في الحيـاة الـدنيـا وتـزهق أنفسهم وهم

كافرون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون . ﴾ وأصل الإملاء هو التوسعة والإرخاء يقال : أمليت للبعير في القيد أي أرخيت له ووسعت ، والعاقل إذا تواترت عليه النعم ازداد شكره لله عز وجل مع خوفه أن تكون استدراجاً ، والفاجر إذا تواترت عليه النعم ازداد بَغْياً وكفراً وطغياناً ، والله تبارك وتعالى يعطي الدنيا لمن يحبه ولمن لا يحبُّهُ ، ومن يحبه الله عز وجل إذا أعطاه النعمة شكر الله عليها ، ومن لا يحبه الله إذا أنعم الله عليه بنعمة اعتقد أنها من عِلْمِه وقد قال عز وجل في وصف غرور بعض الكفار بالنعمة : ﴿فإذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون . ﴾ وكما قال عز وجل عن قارون : ﴿إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفَاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ الآيات . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ ، قال : ثم قرأ : ﴿وكذلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أَخْذَهُ أليم شديد . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطَّيِّب ، وما كان الله لِيُطْلِعَكُمْ على الغيب ولكن الله يَجْتَبِي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فَلَكُم أجر عظيم . ﴾ هذه هي خاتمة الآيات التي تحدثت في هذه السورة الكريمة عن غزوة أحد وغزوة حمراء الأسد الملحقة بها ، وقد أشار الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى

الفقه فيما ابتلى بـه المسلمين في غـزوة أحد وفي غـزوة حمراء الأسَـد، وهـو أنَّ المجتمع السعيـدَ لا يقـوم على أفـرادٍ مختلفي العقـائد، متنـاقضي الميـول والاتجاهـات في الباطن في الـوقت الـذي يبدو للنـاس أنهم وحدَةٌ متماسكـة متحابون متعاطفون؛ لأن اختلاط الخبيث بالطيب يُلْحق الضرر بالطيب من حيث لا يـدري أن الذي يخالطُـهُ خبيث، واختـلاط المنافقين بـالمؤمنين دون تمييز أخطر على المؤمنين من أن تختلط بهم الأفـاعي والحيات والعقارب، ولما كان المنافق يبطن كفره ويظهر الإسـلام والانقياد لله ورسوله، وقد حجب الله عز وجل الغيب عن الخلق لأنه وحده هو علام الغيوب، ولا يُظْهِرُ على غيبه أحـدا إلا من ارتضـى من رسـول فإنـه يُطلِعُــه على بعض الغيب، اقتضت حكمـةُ الله عـز وجل أن يُطلعَ رســولـه ﷺ على أشخـاص بعض المنـافقين فَيَعْرِفَهُمْ بأسمائهم أو سيماهم أو لَحْنِ القـول، ولم يكن من الحكمة أن يعرف ذلك كلٌ فـرد من المؤمنين، فلــذلك هيأ الله تبـارك وتعـالى من الحوادث والجولات بين المؤمنين والكـافرين في أُحُـدٍ وغيرهـا فانكشف نفـاق كثير من المنـافقين وعـرف المؤمنـون الخبيث من الطيب والعـدوَّ من الصـديق، وعلى المؤمن أن ينقـاد لله وأن يستجيب لرسلـه عليهم الصـلاة والسلام ومن يـؤمن بالله ورسله ويتق الله عز وجل في جميع شأنه فله عند الله عز وجل أجر عظيم وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مـا كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ أي ما كـان الله ليترك المؤمنين يندسُّ في صفوفهم المنـافقون دون تمييز، ولـذلك قـال: ﴿حتى يميـز الخبيث مـن الطيب﴾ وأشـار إلى أنـه ليس من الحكمة إطـلاع كلِّ فرد فـردٍ من المؤمنين على نفاق كـل فرد فرد مـن المنافقين حيث يقول: ﴿ومـا كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبـي من رسله من يشاء﴾ أي فيطلع الـرسول على بعض الغيب، ومن ذلك تعـريفه ببعض المنافقين، وقد ذكـر الله تبارك وتعالى الكثير من صفاتهم في سـورة التوبة التي

فضحتهم وبينت مخازيهم، وقال عز وجل في سورة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم. ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنّهم في لحن القول، والله يعلم أعمالكم.﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ حذيفة رضي الله عنه ببعض أسماء المنافقين، وكان يُسَمَّى صاحب سرِّ رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين.

قال تعالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السموٰت والأرض، والله بما تعملون خبير. لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق. ذٰلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد. الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين.﴾

بعد أن حرَّضَ الله تبارك وتعالى على بذل النفس في الجهاد في سبيل الله، وأكَّد ذلك بصور تجعل مَن به رشد يحرص على القتال لإعلاء كلمة الله، شرع هنا في التحريض على بذل المال في سبيل الله، وأكد ذلك ببيان الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في وجوه الخير التي أوجب الله على الأغنياء بذل جزء معين فيها وعلى رأسها الزكاة التي جعل الله تبارك وتعالى من مصارفها ما يبذل للغزاة، وقوله عز وجل: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة،﴾ أي ولا يظنَّنَّ الذين يكنزون أموالهم ويشحون بها فلا يخرجون منها ما فرض الله عليهم فيها أنهم يفعلون خيراً لأنفسهم بل هم يفعلون لأنفسهم شرا ويقدمونها إلى عذاب الله، وأن الله تبارك وتعالى سيجعلها عليهم طوقا في أعناقهم يوم القيامة وفي قوله عز وجل: ﴿بما آتاهم الله من فضله﴾ أي هو عاريةٌ بأيديهم جعلهم الله عز وجل مستخلفين فيه، وقد جاد به عليهم، وقد أكد الله عز وجل وخامة عاقبةِ البخل بتَخْطِئَةِ أهله المتوهمين خَيْرِيَّتَهُ، حيث قال: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم﴾ ثم قال: ﴿بل هو شر لهم﴾ للتنصيص على شَرِّيَّتِهِ المفهومة من نفي

خيريته للمبالغة في تأكيد أنـه شرٌّ لهم ، ولا خير لهم فيه بحال من الأحوال ، ثم قال عز وجل : ﴿سيطـوَّقون ما بخلوا بـه يوم القيامة﴾ لبيـان كيفية شَرِّيته بِذكر صورة مزعجة مخيفة من صور عقوبة أهله عند الله يوم القيامة ، وقد قال البخـاري في صحيحه : بـابٌ ﴿ولا يحسبن الـذين يبخلون بما آتـاهم الله من فضله هـو خيرا لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوَّقـون ما بخلـوا به يوم القيـامة ، ولله ميراث السمٰوات والأرض ، والله بما تعملـون خبير. ﴾ سيطـوقـون كقـولك : طَوَّقْتُهُ بِطَوْقٍ ، حدثني عبدالله بن منير سَمِعَ أبـا النضر حدثنا عبدالرحمن هو ابن عبدالله بن دينار عن أبيـه عن أبي صالح عن أبي هريرةَ قـال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ آتـاه الله مالاً فلم يـؤدِّ زكاتـه مُثِّلَ لـه مالُـه شجاعـاً أَقْرَعَ ، لـه زَبِيبَتَانِ ، يُطَوَّقُهُ يوم القيامة يأخذ بِلِهْـزِمَتَيْهِ يعني بِشِدْقَيْهِ ، يقول : أنا مَالُكَ ، أَنَا كَنْـزُكَ ، ثم تلا هـذه الآية : ﴿ولا يحسبنَّ الـذين يبخلون بما آتـاهم الله من فضله﴾ إلى آخر الآية ، والمراد بالشجاع الأقـرع هو الثعبان الذي ابْيَضَّ رأسُه من كثرة السم ، وقولـه عز وجل : ﴿ولله ميراث السمٰوات والأرض﴾ المقصود منـه بَيَـانُ أنَّ هؤلاء البخـلاءَ الـذين يَشُحُّـونَ فلا يُـؤَدُّونَ حقَّ الله في أمـوالهم سينتقلون عنها لا محالة ، إذ لا بقاء إلا للحى القيـوم الذي له ملك السموات والأرض ، وقد كانت أموال الناس عاريةً بيد من جعلهم مُسْتَخْلَفِينَ فيها فإذا ماتوا رُدَّتْ العـارية إلى صاحبها الذي كـان قد أعارهم إياهـا ، وقد فاتهم أن يُقَدِّموا لأنفسهم خيرا إذا بَخِلُوا بحق الله عز وجل فيها ولم يُؤَدُّوا ما ألزمهم الله تبارك وتعـالى بأدائه منهـا ، ومآل جميع مـا في السموات والأرض لـه وحده لا شريك لـه كما قـال عـز وجل : ﴿إنـا نحن نـرث الأرض ومن عليهـا وإلينـا يرجعـون . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿والله بما تعملـون خبير﴾ وعيد شديـد للذين يبخلون بما آتـاهم الله من فضله ، ولكل من يخالف أمر الله عـز وجل ، ووعد للمحسنين من عبـاد الله حيث أخبر عز وجـل أنه ذو خبرة وعلم بجميع مـا

يفعلـه عباده، محيط بـذلك كله وسيجـازي المحسن بإحسـانه من فضلـه، ويجازي المسيئين بعـدلـه، ولا يظلم ربك أحـدا مـع عفـوه عمن يشـاء من عباده. وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿لقـد سمع الله قول الـذين قـالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب مـا قالـوا وقتلهـم الأنبياء بغير حقٍّ﴾ هـذه صورة من صور جهل الإنسـان بربـه وعدم معـرفته بخـالقه ورازقه، حيـث قال بعض هؤلاء الجاهلين: إن الله فقير ونحن أغنياء، ولا شـك أن اليهود يعتبرون أجرأ خلق الله عز وجل على وصف الله تبـارك وتعالى بما لا يليق بـه، فهم يصفون الله عز وجل بالبخل والشُّح كما قال تبـارك وتعالى عنهم: ﴿وقالت اليهود يَدُ الله مغلولـة، غلت أيديهم ولعنـوا بما قالـوا، بل يداه مبسوطتـان ينفق كيف يشاء،﴾ وقد أضاف الله تبـارك وتعالى إلى قبيح قولهم هذا قبيح فعلهم حيث قال هنا: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ وفي هذا السياق الكريم تحذير شديد للمسلمين المَدْعُـوِّينَ للبـذل في سبيل الله من أن تتـأثـر نفـوس بَعْضِهِم من بعض ما يلقيه اليهـود من الشُبَه وما يفترونه من وصـف الله بما لا يليق به عز وجل، وفي اقتران مـا وَصَفُوا الغَنِيَّ الكريـم بأنه فقير وأنهم أغنياء بـأنهم قتلة الأنبياء مما يجعل من له مسكة من عقل يحذر منهم أشد الحذر، ولا يتشبه بهم في فعل ولا خبر، والسين في قـولـه عـز وجل ﴿سنكْتُبُ مَا قَـالُـوا﴾ لتأكيـد الوعيـد، أي لن يفوتنا أبدا تسجيلـه عليهم وتدوينُه في صحائفهم لكـونه في غاية الجُرْم والمقصـود أنه سيعذبهم به ويـذيقهم عذاب الحريق ولن يغفر لهم هـذه الخطَيئـة أبـدا، فـلا يأملـون عفـو الله عنهم بحـال من الأحـوال، كما سنكتب عليهم قتلهم أنبيـاء الله بغير حق ولـن نعفـو عمن قتل نبيـا أبـدا، وتَـوَسُّطُ هذا الـوعيـد بين جرأتهم في وصـف الله بأنه فقير وأنهم أغنيـاء وبين جرأتهم في قتلهم الأنبياء لتعجيل مَسَاءَتِهِم وأنه لن يَمْحُوَ هذه الخطايا بحال من الأحوال، حيـث صاروا أجرأ خلق الله على الله وعلى رسلـه، ولا شك أن

كل ذنب يـرتكبه إنسـان يكتب عليـه في صحيفة عملـه، وهو مكتـوب قبل ذلك في اللوح المحفوظ، غير أنَّ مَنْ يَتَفَضَّلُ الله بعفوه عن ذنبه أو يتوبُ توبةً نصوحـا في الوقت الـذي تقبلُ فيه توبتـه فإنَّ الله عز وجل يمحـو سيئته من صحيفته ولا يـؤاخذه بِزَلَّته، أمـا هذا القول البَشِعُ على الله عـز وجل وكذلك قتل الأنبياء فقـد أشار الله عز وجل بقولـه: ﴿سنكتب ما قالـوا﴾ إلى أنه لن يمحو هذه السيئـة أبدا ولن يغفر لمرتكبها بحال من الأحوال ولـذلك قال عز وجل بعدهـا: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق.﴾ أي ونقـول للقائلين بأن الله فقير ونحن أغنيـاء، القـاتلين أنبياء الله بغير حـق نقول لهم: ذُوقُـوا عـذاب الحريق أي عذاب نار محرقةٍ مُلْتَهِبَةٍ، فالنار اسم جامعٌ للملتَهِبة وغير المُلْتَهِبة قـال ابن جريـر: وإنما الحريق صفة لما يـرادُ أنها مُحْرِقةٌ كما قيل: عـذاب أليم يعني: مؤلم. ووجيع يعني مـوجع اهـ فإن قـال قائل: كيف قيل: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حـق﴾ والمعروف أن الذين قـالوا: إن الله فقير ونحن أغنيـاء هم المعـاصرون لـرسـول الله ﷺ ولم يكن من أولئـك أحـدٌ قتل نبيـا من الأنبيـاء فالجواب: أن المعاصرين منهم القـائلين بأن الله فقير راضون بما فعل أوائلهم وأسلافهم من قتل من قتلوا من الأنبياء، وكانوا على منهاجهم من استحلال ذلك واستجازته، وقد هَمُّوا بقتل النبي ﷺ أكثـر من مرة فهم لم ينسلخوا من أعمال آبائهم البشعـة، ولم يخرجوا عن كـونهم إخوان القـردة والخنازيـر وقتلة الأنبياء، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم وأنَّ الله ليس بظَلاَّم للعبيد.﴾ قال ابن جـرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وأمـا قوله: ﴿ذلك بما قدمت أيـديكم﴾ أي قولنا لهم يـوم القيامة: ﴿ذوقـوا عذاب الحريق﴾ بما أسْلَفَتْ أيديكم، واكْتَسَبَتْهَـا أيام حياتكم في الدنيـا، وبأن الله عدلٌ لا يجُورُ فَيُعَـاقب عبدا لـه بغير استحقاق منـه العقـوبة، ولكنـه يجازي كلَّ نفس بما كسبت، ويوفِّي كلَّ عـاملٍ جزاء ما عَمِلَ، فجازى الـذين قال لهم ﴿ذلك﴾

يوم القيامة من اليهود الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ، فأَخْبَرَ عنهم أنهم قالوا: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ وقتلوا الأنبياء بغير حق بما جَازَاهُمْ به من عذاب الحريق، بما اكْتَسَبُوا من الآثام، واجْتَرَحُوا من السيئات، وكذبوا على الله بعد الإعذار إليهم بالإنذار، فلم يكن تعالى ذِكْرُهُ بما عاقبهُم به من إذَاقَتِهِمْ عذابَ الحريق ظالما ولا واضعاً عُقُوبَتَهُ في غير أهلها، وكذلك هو جل ثناؤه غيرُ ظَلَّامٍ أَحَداً من خلقه، ولكنه العادلُ بينهم والمُتَفَضِّلُ على جميعهم بما أَحَبَّ مِنْ فَوَاضِلِهِ ونِعَمِهِ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿الذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلينا ألاَّ نؤمن لرسولٍ حتى يأتينا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النارُ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبيناتِ وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كنتم صادقين.﴾ هذا بيان لفرية أخرى من مفتريات اليهود على الله وعلى رسله حيث زعموا أن الله وصَّاهم ألا يُصَدِّقُوا رسولا من الرسل أو نبيا من الأنبياء إلا إذا قدَّم أَمَامَهُمْ قربانا لله عز وجل وجاءت النار وأكلت هذا القربان وهم يبصرون. وأرادوا بهذه الفرية الطعنَ في نبوة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ حيث لم يجئهم بقربان تأكله النار، كما أنهم يَعْتَلُّون بهذه الدعوى الكاذبة أمامَ رعاعهم حيث يُوهِمُونَهُمْ أنهم لم يدخُلُوا في دين محمد لأنه لم يجئهم بقربان تأكله النار، والثابت أن الله عز وجل لما جعل الغنائم محرمة على بني إسرائيل كانوا إذا جمعوا الغنائم جاءت نار فأكلتها، تَعنَّتَ بعضهم فطلبوا من بعض أنبيائهم أنهم لن يصدقوهم مهما جاءوا بالمعجزات إلا إذا كانت إحدى هذه المعجزات أن يُقَرِّبَ النبي قربانا وتَأْتِي النارُ فتأْكُلَهُ وقد أيد الله عز وجل بعض أنبيائه بهذه المعجزة، وليست لكل نبيٍّ ولا شرطا في تصديق جميع الرسل، لأن الله عز وجل إذا أَيَّد الرسول بأي معجزة كانت وَجَبَ تصديقه، ومعجزاتُ موسى عليه السلام عند فرعون كانت بأمور ليس من بينها نارٌ تأكل القربان، فَرَدَّ الله عز وجل هنا باطلهم، وأفحمهم في شبهتهم، حيث قال: ﴿قل قد

جـاءكم رسـل من قبلي بـالبينـات وبـالـذي قلتم فلم قتلتمـوهم إن كنتم صادقين . ﴾ أي قد جاءتكم الرسل قبل محمد ﷺ بمعجزات كثيرة وبالمعجزة التي طلبتموهـا تعنتاً لا استرشادا . فلم قَتَـلَ أسلافكم هؤلاء الأنبيـاء الذين جـاءوهم بما طلبـوا ورضيتم أيها المعـاصرون من أبنـائهم فعلهم إن كنتم أنتم تطلبون المعجزة لـلإرشاد لا للتَّعَنُّتِ ، مع أن محمداً ﷺ قد جـاءكم بالبينات الحسية والمعنوية التي يؤمن على مثلهـا البشر، وأنتم تعرفون في قرارة نفوسكم أن محمدًا رسول الله كما تعرفون أبناءكم ولكنكم تكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون .

قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير . كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنةفقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرا، وإن تصبروا وتتَّقوا فإنَّ ذٰلك من عزمِ الأمورِ . ﴾

بعد أن أبطل تبارك وتعالى شبهة القائلين لرسوله محمد ﷺ إن الله عَهِدَ إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النارُ، وأفحمهم بما لا يدع مجالا للشك أنهم متعنتون لا مسترشدون ذكر لرسوله محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا به بعد هذه البينات، واستمروا على التكذيب كان الحامل لهم هو العناد لا طلب الحق، لأن شُبَهَهُم قد أزيلتْ، ومُفْتَريـاتِهِمْ قد أبطلتْ فلا تبتئسن بتكذيبهم، فإن هذا التكذيب لك ليس أمراً مختصا بك من بين سائر الأنبياء بل شأنُ جميع الكفار تكذيب جميع الأنبياء والطعن فيهم مع أنَّ حالهم في ظهور المعجزات على أيديهم وفي نزول الكتب إليهم كَحَالِكَ ومع هذا فإنهم صبروا على ما نَالَهُم من أولئك الأمم واحتملوا ما تَعَرَّضُوا له من الأذى في سبيل تبليغ رسالة الله عز وجل، فكن مُتَأَسِّيا بهم، سالكا مسلكهم، حيث يقول عز وجل: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿فإن كذبوك فقد كُذب رسل من قبلك﴾ أي فلستَ أول مكذَّب حيث كُذب إخوانك المرسلون من قبلك، ولا شك أن مما يُهَوِّنُ على النفس مُصيبتها كونها عامةً كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولكن لا أزال أرى عجولا ... ونائحةً تَنُوحُ ليوم نحس

وما يبكين مثلَ أخي ولكن أُسَلِّي النفس عنه بالتأسي

والمراد بالبينات: المعجزاتُ والحُجَجُ والبراهينُ الدالة على صدقهم، والمراد بالزبُر: الكتبُ كما قال امرؤ القيس:

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرتُهُ فَشَجَاني كَخَطِّ زَبُورٍ في عَسِيبِ يماني

وعلى هذا فالعطف في قوله: ﴿والكتاب المنير﴾ لمزيد فضله وتأكيد شرفه، وقد يراد بالزبر الصحف وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل، وقد يراد بالزُّبر: الزواجر والمواعظ من الزَّبْرِ وهو الزجر يقال: زَبَرْتُ الرجلَ إذا زجرتُه عن الباطل وسمي الكتاب زبورا لما فيه من الزَّبْرِ والزجر عن مخالفة الحق، وقد سُمِّي كتاب داود عليه السلام زبورا لكثرة ما اشتمل عليه من الزواجر والمواعظ، والمراد بالمنير: أي الواضح المضيء الذي ينير الطريق للسالكين إلى الله عز وجل فيسيرون على منهج الرشد، وهم على بصيرة وبرهان وصراط مستقيم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا الذكر في مقام آخر من كتابه الكريم في سورة فاطر حيث قال: ﴿وإن يكذبوك فقد كذَّب الذين مِنْ قَبْلِهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير.﴾ وقوله عز وجل: ﴿كلُّ نفسٍ ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة﴾ هو لتأكيد تسلية رسول الله ﷺ والمبالغة في إزالة الحُزْنِ من نفسه، وفيه وعيد لِلْمُتَمَادِينَ في ضلالهم، المعاندين للحق بعد ما تَبَيَّنَ، المكذبين لرسول الله ﷺ مع ظهور براهين صدقه ومعجزاته ﷺ، وكأنه قيل لهؤلاء المعاندين: لن تُفْلِتُوا من عقاب الله، فستموتون، وستلقون من عقاب الله وعذابه ما تُجْزَوْن به على عنادكم وكفركم واستمراركم على ضلالكم وغيِّكم، ولستم بمخلَّدِين في هذه الدنيا، بل أنتم راحلون عنها منتقلون إلى دار الحساب والجزاء في الآخرة حيث تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. والدنيا ليست دار جزاء وإنما هي دار العمل، وقوله عز وجل:

﴿فمن زُحْـزِحَ عن النار وأدْخِلَ الجنـة فقـد فاز، ومـا الحياة الـدنيا إلا متـاع الغُرُورِ. ﴾ بعد أن أوضح تبارك وتعالى أن مَردَّ الناس إلى الله عز وجل وأن كل نفس تُوفَّى مـا كسبت وهم لا يظلمون أشار إلى أن الناس في الآخـرة فريقان: فريق في الجنة وفـريق في النار، لأنهم إما شقي أو سعيد، ﴿فأمـا الذين شَقُوا ففي النار لهم فيهـا زفير وشهيق. خالدين فيها مـا دامت السمٰوات والأرض إلا مـا شـاء ربك إن ربك فعَّـال لما يـريد. وأمـا الـذين سُعِدُوا ففي الجنـة خـالـدين فيهـا مـا دامت السمٰوات والأرض إلا مـا شـاء ربك عَطَـاءً غير مجذوذ. ﴾ ولذلك قـال عز وجل هنا: ﴿فمن زُحْزِحَ عَنِ النـار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز، ومـا الحياة الدنيا إلا متَاعُ الغـرور. ﴾ أي فمن نُحِّي عن النار وأبعد عنهـا فقد نجـا وظفر بـالنعيم المقيم، ومـا لذات الـدنيـا وشهواتها وزينتهـا وزَخَارِفُهَا إلا مُتْعَةٌ مُضمَحِلَّةٌ لا بقـاء لها ولا دوام فلا يركن إليها إلا المغرورون المخدوعـون، وقد روى مسلم في صحيحـه من حديث عبـدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قـال: كنا مـع رسول الله ﷺ في سفـر، فَنَزَلْنَـا مَنْزِلا، فمِنَّا من يصلح خِبَاءَهُ ومنا مَنْ ينتضل ومنـا مَنْ هو في جَشَرِهِ إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جـامعةً، فاجتمعنا إلى رسـول الله ﷺ، فقال: إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كـان حقـاً عليـه أن يَـدُلَّ أُمَّتَهُ على خير مـا يعلمـه لهم، ويُنْـذرهم شَرَّ مـا يعلمـه لهم، وإن أمتكم هـذه جعل عـافيتهـا في أولها، وسيصيب آخـرها بـلاءٌ وأمورٌ تنكـرونها، وتجيء فتنـة فيُرَقِّقُ بعضها بعضـا، وتجيء الفتنـة فيقولُ المؤمن هـذه مُهْلِكَتِي ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقـول المؤمن: هذه، هـذه. فمن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عـن النار ويُدْخَلَ الجنـة فَلْتَأْتِهِ مَنِيتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخـر ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه. الحديث. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولَتَسْمَعُنَّ من الـذين أوتوا الكتـاب من قبلكم ومن الذين أشركـوا أذًى كثيرا، و إن تصبروا

وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. ﴾ هذا مقامٌ آخَرُ من مقامات مواساة رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وإشارة إلى أن أذى أعداء الإسلام للمسلمين لن يتوقَّف، وأنهم سيبذلون كلَّ ما يُمْكِنُهُم من إيذاء المسلمين في أنفسهم وفي أموالهم، والغرض من هذا الإعلام هو أن يوطِّنَ المسلمون أنفسهم على الصبر وعدم الجزع مما قد يصيبهم مستقبلا، لأن من عادة النفس إذا تهيأت للبلاء قبل نزوله، كان وقوعه أخفَّ وقْعًا عليها ومعنى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسْمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ أي لتُخْتَبَرُنَّ بشيء من الأذى يصيبكم في أموالكم وأنفسكم لرفع درجاتكم أو تكفير سيئاتكم، وسَيَنَالُكُمْ أذًى كثيرٌ من الكتابيين والمشركين. قال البخاري في صحيحه: بابٌ، «ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً» حدثنا أبو اليمان أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزهريِّ قال: أخبرنا عروةُ بن الزبير أنَّ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخبره أنَّ رسول الله ﷺ رَكِبَ على حمار، على قَطيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وأردف أسَامة بن زيد وَرَاءَهُ يَعُودُ سعد بن عبادَةَ في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعةبدر، قال: حتى مَرَّ بِمَجلسٍ فيه عبدالله بن أبيٍّ ابن سَلُولَ، وذلك قبل أنْ يُسْلِمَ عبدالله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عَبَدَةِ الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رَوَاحَةَ، فلما غَشِيتِ المجلس عَجَاجةُ الدَّابةِ خَمَّرَ عبدالله بن أبيٍّ أنْفَهُ بردائه، ثم قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسَلَّمَ رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدالله بنُ أبيٍّ ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رَحْلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبدالله بن رَوَاحَةَ: بلى يا رسول الله، فاغْشَنَا به في مجالسنا، فإنا نُحِبُّ ذلك، فاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يَتَثَاوَرُونَ، فلم

يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سَكَنُوا، ثـم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادةَ، فقال له النبي ﷺ: يـا سعد ألم تَسْمَعْ ما قال أبو حُبابٍ؟ يريد عبدالله بن أبي، قال: كذا وكـذا. قال سعد بنُ عُبَادَةَ يا رسول الله، اعْفُ عنـه، واصفح عنه، فـوالذي أَنْـزَلَ عليك الكتابَ لقـد جاء اللهُ بـالحق الـذي أَنْزَلَ عليـك لقد اصطلح أَهْـلُ هذه البُحَيْرةِ على أنْ يُتَـوِّجُـوه فَيُعَصِّبُوهُ بالعصابة، فلما أبى الله ذلـك بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك فَعَلَ به ما رأيت، فَعَفَا عنـه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابُه يَعْفُونَ عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أَمَرَهُم الله، ويَصْبِرونَ على الأذَى، قال الله عز وجل: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ الآية، وقال الله: ﴿ودَّ كثير من أهـل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفـارا حسدا من عنـد أنفسهم﴾ إلى آخر الآيـة، وكان النبي ﷺ يتأوّل العفـو ما أمره الله بـه، حتى أذِنَ الله فيهم، فلما غـزا رسول الله ﷺ بدراً، فَقَتَلَ الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعَبَـدَة الأوثـان: هذا أمرٌ قـد تَـوَجَّـه، فَبـايَعوا الـرسـول ﷺ على الإسلام، فأسلَمُوا. وقوله عز وجل: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذٰلك من عزم الأمـور.﴾ أي وإن تحبسوا أنفسكم عن الجزع فيما تتعـرضـون له من الابتـلاء والاختبار في أموالكم وأنفسكم وما تتعرضـون له من أذى الذين أوتوا الكتاب والمشركين وتحتسبـوا ما تصـابـون به من ذلك عنـد ربكم فإنكم تكـونون قـد أخذتم بأحسن مناهج الـرشد مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليـه ويَلْتزِمَ به.

ولذلك أمر الله عز وجل المسلمين بالصبر والتقـوى في هذه المقامات المتقاربة من سورة آل عمـران للتأكيد على المسلمين بسلـوك هذا المنهج الـرشيد حيث قـال: ﴿وإن تصبروا وتتقـوا لا يضركم كيـدهم شيئـا﴾ وقـال: ﴿بلى، إن تصبروا وتتقـوا ويأتـوكم من فورهـم هٰذا يمـددكم ربكم بخمسـة آلاف من

الملائكة مسَـوِّمِين . ﴾ لينال المسلمون بـذلك الدرجـات العلى ويحصلوا على الفوز في الـدنيا والآخرة وليكـونوا من المحسنين كما قال عـز وجل : ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

قال تعـالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الـذين أوتوا الكتاب لتبيننـه للناس ولا تكتمونـه فنبذوه وراء ظهـورهم واشتروا به ثمنـا قليلا فبئـس ما يشترون . لا تحسبن الـذين يفرحـون بما أتـوا ويحبون أن يحمـدوا بما لم يفعلوا فـلا تحسبنهم بمفـازة من العـذاب ولهم عـذاب أليم . ولله ملك السمٰوات والأرض ، والله على كل شيء قديـر. إن في خلق السمٰوات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . ﴾

بعد أن أشار الله تبـارك وتعالى إلى بعض أقوال اليهود المنحـرفة من زعمهم أن الله فقير وهم أغنياء ، وما افتروه على الله حيث قـالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسـول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ومـا ردَّ الله عز وجل به شبهتهم ، وأدحض فـريتَهُم ، وقَبَّح فعلهم حيـث وصفهم بأنهم قتلـةُ الأنبيـاء ، ووَطَّنَ نفـوس المسلمين على استقبـال ما ينـالهم من أذى المشركين واليهـود بـالصبر وتقـوى الله عز وجل ، ذكـر عز وجل هنـا قبيحـةً من قبائحهم وهي نبـذهم كتاب الله وراء ظهورهم وبيعه بثمن زهيد من حطام الدنيا الفانية حيث يقول عـز وجل : ﴿وإذ أخـذ الله ميثـاق الذيـن أوتوا الكتـاب لَتُبَيِّنُنَّـهُ للنـاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : هذا تـوبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الـذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنـوا بمحمد ﷺ ، وأن يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ في النـاس فَيَكُـونُوا على أُهْبَـةٍ من أمـره ، فإذا أرسلـه الله تابعـوه ، فكَتَمُـوا ذلك وتَعوَّضُوا عما وُعِدُوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدُّونِ الطفيف ، والحظِّ الدنيويِّ السَّخيف ، فَبِئْسَتِ الصفقةُ صَفْقَتُهُمْ ، وبئست البيعةُ بيعَتُهُم ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ ، فَيُصِيبَهُم ما أصابهم ، وَيَسْلُكَ بهم مَسْلَكَهُمْ ، فَعَلَى العلماء أن يَبْـذُلُوا ما بِأَيـديهم من العلم النافـع ، الدالِّ على

العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئـا، فقد ورد في الحديث المرويِّ من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: من سئل عن علم فكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجام من نار اهـ وقولُه عز وجل: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الـذين يفرحون بما أتَوْا ويُحِبُّون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمفازة من العـذاب ولهم عذاب أليم﴾ هذا وعيد لكل مَنْ يعملُ معصية ويفرحُ بها، ولكل مَـنْ يُحِبُّ أن يُثْنَى عليه بِفِعْلٍ لم يَفْعَلْه، كما هو شأن المنافقين واليهـود، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رجـالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ وسلم كانـوا إذا خَرَجَ النبي ﷺ للغزو تَخَلَّفُـوا عنه وفَرِحُـوا بمقعدهم خلاف رسـول الله ﷺ، فإذا قَدِمَ النبي ﷺ اعْتَذَرُوا إليه وحَلَفُـوا، وأَحَبُّوا أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلـوا فنزلت: ﴿لا تحسبـن الذين يفـرحون بما أتـوا ويحبون أن يحمـدوا بما لم يفعلـوا فلا تحسبنَّهم بمفـازة من العـذاب﴾ كما روى البخـاري ومسلم واللفظ لمسلم أن مروان قـال: اذهب يا رافع ـ لبوَّابـه ـ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امـرئ منا فَرِح بما أتَى وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معـذبا لنُعَذَّبَنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أنزلتْ هذه الآية في أهل الكتـاب، ثم تـلا ابنُ عبـاس: ﴿وإذ أخذ الله ميثـاق الـذين أُوتُـوا الكتـاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تكتمـونه﴾ هـذه الآيـة، وتلا ابن عبـاس: ﴿لا تحسبن الـذين يفـرحون بما أتـوا ويحبـون أن يحمدوا بما لم يفعلـوا﴾ وقـال ابن عباس: سألهم النبيُّ ﷺ عن شيء فكَتَمُـوهُ إياه وأخبروه بغيره، فَخَرَجُـوا قد أَرَوْهُ أن قد أخبروه بما سألهم عنه واسْتَحْمَدُوا بذلـك إليه، وفَرِحُوا بما أتَوْا مِنْ كتمانهم إيـاه ما سألَهم عنـه اهــ ولا شك أن حديث أبي سعيـد الخدري نصٌّ متفق عليه بأن هـذه الآية نزلت في المنافقين ولا يمنع ذلك أن تكـون نزلت في المنافقين وفي اليهـود كما أنَّ قولَ ابن عبـاس رضي الله عنهما: إنما أنزلـت هذه الآية في أهل الكتاب، لا يمنَعُ أن تكون أنـزلت فيهم وفي المنافقين، والسياق

العام للآيات هو في المنافقين واليهود كما أن لفظ هذه الآية عام يشمل الوعيد لكل مَنْ فعل فعـلا غير محمود وفـرح بـه ، وأحبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل سـواء كـان منتسباً لـلإسـلام أو كان من أهـل الكتاب لأن العبرة بعمـوم اللفظ لا بخصوص السبب وإن كـان السَّبَبُ يدخل فيه دُخُولاً أَوَّلِيًّـا لأن اللفظ العامَ سِيقَ من أجلـه فلا يخرج منـه كما نص على ذلك الأصـوليُّون ، أمَّـا ما يفعلـه الإنسان من عمل صالح ، ويفرح بتوفيق الله عز وجل له وإعانته عليه فليس بـداخل في هـذا الـوعيـد حيث أخبر رسـول الله ﷺ أن المؤمن تَسُرُّهُ حَسَنَتُـهُ وتَسُوؤُه سيئتُه فقد روى الترمذي من طريق عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال خَطَبَنَا عمرُ بالجابية فقال : يا أيها الناس إني قُمْتُ فيكم كَمَقَامِ رسول الله ﷺ فينا ، فقال : أُوصِيكم بأصحابي ثم الذين يَلُونَهُم ثم الذين يَلُونَهُمْ ، ثم يَفْشُو الكذِبُ حتـى يَحْلِفَ الرجلُ ولا يُستحلَفَ ، ويَشْهَـدَ الشاهـدُ ولا يُسْتَشْهَدَ ، أَلاَ لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بـامرأة إلا كان ثَـالِثَهُمَا الشيطان عليكم بالجماعـة ، وإياكم والفرقَةَ ، فإن الشيطان مع الواحـد ، وَهُوَ من الاثنين أَبْعَدُ ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجنةِ فَلْيَلْزَمِ الجماعة ، مَنْ سَرَّتْهُ حسنتُهُ وَسَـاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك المؤمنُ . قال أبو عيسى : هـذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غـريبٌ من هذا الـوجه ، وقـد رواه ابنُ المبارك عن محمد بن سُوقَةَ وقـد رُوِيَ هذا الحديث من غير وجهٍ عن عُمَرَ عن النبي ﷺ اهـ ومعنى قـوله : ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العـذاب ولهم عذاب أليم . ﴾ أي فلا تَظُنَّنَّ يا محمـد هؤلاء الذين هذه صِفَتُهُمْ بمنجـاة من عقوبة الله وشديـد عذابه ، وقـد أُعِدَّ لمن هـذه صِفَتُهُ عقابٌ مـؤلمٌ موجعٌ ، ويجوز أن يكـون الخطاب بقـوله : ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ وبقـوله : ﴿فـلا تَحْسَبَنَّهُم﴾ لكل من يتأتى منه الحسبـانُ ، والمقصود على كل حـال هو قَطْعُ طَمَعِ هـؤلاء المنافقين واليهود في النجـاة من عذاب الله وأليم عقـابه ، وفي توجيـه الخطاب لغيرهم للتنبيه على بطلان آراء هؤلاء المنافقين واليهود والحَطِّ من قدرهم ، لا أَنَّ رسول

الله ﷺ يظنُّ أنهم بمنجاة من عـذاب الله وعقوبتـه إن كان الخطـاب له ﷺ، وذِكْـرُ قولِـه: ﴿فـلا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بعد قـولـه: ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ للتأكيد وطُـولِ الفصل بين المفعـول الأول وهو قـولـه: ﴿الذين يفـرحـون بما أتوا ويحبـون أن يحمـدوا بما لم يفعلوا﴾ والمفعـول الثاني وهـو قولـه: ﴿بمفازة من العـذاب﴾ والمفازة هي الصحراء والفلاةُ والبرية القفر الخالية من الماء، مأخوذة من الفوز وهو يطلق على النجـاة والظَّفَرِ بـالخير وعلى الهلاك فهو من الأضـداد قال في القاموس المحيط: والمَفَازَةُ المَنْجَاةُ والمَهْلَكَـةُ والفَلاَةُ لا ماءَ بها وفَوَّزَ مات وقال الجوهري في الصحاح: الفَوْزُ: النجاةُ والظَّفَرُ بالخير، والفَوْزُ أيضاً: الهَلاَكُ، تقول منهما: فَازَ يَفُوزُ، وفَوَّزَ أي مات، ومنه قولُ الشاعر:

فَمَنْ للقَوافي شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَـــا ... إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَـــرْوَلُ

وقال الكُمَيْتُ:

وما ضـرهــا أنَّ كعبــاً ثَـــوَى ... وَفَـوَّزَ مِن بعـده جَـــرْوَلُ

وأفازه الله بكذا فَفَازَ به أي ذهب به، وقـوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي بمنجاة منه، والمفازة أيضا واحدة المفاوز قال ابن الأعرابي: سُمِّيَتْ بذلك لأنها مَهْلَكَةٌ من فوَّز أي هَلَكَ وقال الأصمعي: سميت بذلك تَفاؤُلا بالسلامـة والفوز اهـ قال أبو السعود العماديُّ في تفسير قـوله عز وجل هنا: ﴿ولهم عذاب أليم﴾: بعدما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حَقَّقَ أن لهم فـرداً منـه لا غـايـة لـه في المدَّةِ والشِّـدَّةِ، كما تُلَـوِّحُ بـه الجملـة الاسميـة، والتنكير التفخيميُّ والوصف اهــ وقـوله عـز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السَّمَـٰوات والأرض،﴾ أي ولله وحــده لا شريك لـه السلطـان القــاهـر في السمـوات والأرض يتصرف فيهما، كيف يشـاء ويـريد إيجاداً أو إعـدامـا أو إحياء أو إماتَة أو تعذيباً أو إثـابةً دون أن يكون لغيره شائبةُ دَخْلٍ في شيء من ذلك بـوجه من الـوجوه، وقولـه تعالى: ﴿والله على كـل شيء قديـر﴾ زيادة

تقرير لكمال مالكيته وتمام قـدرته وشمول مشيئته لكل شيء في السموات وفي الأرض، وفي ذلك تنديد بالذين قالوا إنَّ الله فقير، وأنهم لن يفلتوا من عقاب الله مَلِك السمــوات والأرض ومَــالِكِهما، وربِّ كل شيء وسَيِّــدِهِ، الحَكَم العَدْلِ، الـذي له المُلْك وله الحُكْمُ، وله الخَلْـقُ وله الأمر، وقولـه عز وجل: ﴿إنَّ في خلق السَّمٰـوات والأرض واختــلاف الليل والنهــار لآيــات لأولي الألباب.﴾ استئناف سيق لتقرير مضمـون ما سَبَق من اختصاصه عز وجل بالسلطان القاهـر، والمُلْك الباهر، والقدرة الكاملة الشاملـة، وتصديرُ هذه الجملـة الكريمـة بإنَّ لتأكيـد الاعتنـاء بتحقيق مضمونها ولفتِ انتبـاه ذوي البصائر للتفكـر فيها، ليشـاهدوا براهين ألـوهيته وربـوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، كما قال عـز وجل: ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض﴾ وقد ذكر عز وجل في هـذا المقام: خلق السموات والأرض، واختلافَ الليل والنهار. وقد قال عـز وجل في سورة البقرة: ﴿إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْكِ التي تجري في البحـر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من مـاء فأحيـا بـه الأرض بعد مـوتها وبث فيهـا من كل دابـة وتصريف الـريـاح والسحــاب المُسَخَّـر بين السماء والأرض لآيــات لقـوم يعقلون.﴾ ولما كان المقام في سورة البقرة مقام سياق أدلة ألوهيته حيث قال: ﴿وإلٰهكم إلٰه واحـد لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الـرحيم.﴾ ناسب أن يُفَصِّلَ دلائل التوحيـد، أما في هذا المقـام فإنَّ المقصود هـو ردع القائلين بأن الله فقير وردع الذيـن يفرحـون بما أتوا ويحبون أن يحمـدوا بما لم يفعلوا فـاكْتُفِيَ في هـذا المقام بذكـر شواهد مُلْكِهِ وقـدرته، حيث نبه على ذلك بخلقـه السموات والأرض وتعاقب الليل والنهـار وتكوير الليـل على النهار وتكويـر النهار على الليل، حيث إنَّ من كان له لبٌّ وفهم فإنه يرى في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيـات وحُجَجاً وبراهينَ تدل على أن الله تعـالى هو الحق المبين،

الغني عن العـالمين، الملك القـدوس السـلام المؤمن المهيمن العزيـز الجبـار المتكبر الخالق البارئ المصور، جل جلالـه وتقدست أسماؤه، ولا يدرك ذلك إلا أولـو الألباب أي أصحـاب العقـول، ولذلك ختم هـذه الآيـة الكريمـة بقولـه: ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ كما ختم آيـة سورة البقرة بقولـه: ﴿لآيات لقوم يعقلون.﴾

قال تعالى: ﴿الـذين يذكرون الله قياما وقعـودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربَّنا مـا خلقت هٰذا بـاطلا سبحـانك فقنا عـذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئـاتنا وتوفنـا مع الأبرار. ربنا وآتنا مـا وعدتنا على رسلك ولا تخزنـا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.﴾

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعالى شَـوَاهِدَ مُلْكِـهِ وقُدْرَتِهِ ونبَّـه إلى أنه إنما يَنْتَفِعُ بهذه البراهين والآيات أُولُـو الألْبَابِ وأصحـابُ العقول، ذكـر هنا جُمْلَـةً من صِفَات أولى الألبـاب وهي تَـدُورُ بين الذكـر والفِكْرِ وهما أبـرَزُ صفات أولى الألباب وأصحاب العقول فقال عز وجل: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنـوبهم ويتفكـرون في خلق السمٰوات والأرضِ﴾ أي الـذين يُشغِلُـونَ ألسنتهم بذكـر الله عز وجل وتحميده وتقـديسه وتمجيده والثناء عليـه وشكره على آلائه، وترديد أسمائه الحسنى وصفاتـه العلى فإنه من أحبَّ شيئا أكثر من ذكره في سائر أحواله كما قال عنترة:

ولقد ذَكَرْتُكِ والرماحُ نَوَاهِـــلٌ منِّي وَبِيضُ الهند تَقْطُرُ من دَمِـــي

ولقد أشـار الله عز وجل بقـوله: ﴿قيـاما وقعـودا وعلى جنوبهم﴾ إلى أنهم يستغرقون عموم أحوالهم وأوقاتهم، ولا يفترون عن ذكره وشكره والثناء عليه، وهم يـرَدِّدُون فِكْـرَهُمْ وَنَظَـرَهُمْ فيما يحيـط بهم وتقعُ عليـه أَعْيُنُهُم من العـالَم العُلْويِّ والسُّفْلِيِّ حيث يجدون صُنْعًـا بديعًا مُحْكَماً مُتْقَناً، يـدل على أنَّ خالقه وصانعَهُ ومُبْدِعَهُ إِلٰه واحدٌ حيٌّ قيومٌ متصف بجميع صفات الكمال لذاته منزه عن كل نقص، له الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، وقد ذم الله تبارك وتعالى مَنْ لا يتفكر في خلق السموات والأرض حيث يقـول عز وجل: ﴿وكَأَيِّنْ من

آية في السمٰوات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها مُعرِضونَ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم، ما خلق الله السمٰوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمًّى،﴾ وقد ذكر الله عز وجل أن ذوي الألباب الذاكرين الله عز وجل المتفكرين في خلق السموات والأرض يقولون: ﴿ربنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سبحانك﴾ أي يا سَيِّدَنا ومَالِكَنَا ومُدَبِّرَ أمورنا ومُصْلِح شئوننا ما خَلَقْتَ وأوْجَدْتَ السموات والأرض البديعة الصُّنْعِ، العظيمة الشَّأنِ باطلاً أي عَبَثاً عَارِياً عن الحكمة تَنَزَّهْتَ عن ذلك يا عليم يا حكيم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى خلق السموات والأرض بالحق في مقام إثباته للبعث والحساب وجزاء الكافرين بالنار وجزاء المؤمنين بالجنة وأنَّهُ لو لم يكن هناك حسابٌ وثوابٌ وعقابٌ يوم القيامة لكان خَلْقُ السموات والأرضِ وما بينهما باطلاً أي عَبَثاً وَلَعِباً يتنزه الله عز وجل عنه حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وما خَلَقْنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلاً، ذٰلك ظَنُّ الذين كفروا، فَوَيلٌ للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار.﴾ إذ ليس كُلُّ فاجرٍ وظالم ينال جزاء فجوره وظلمه في الحياة الدنيا، فكم من مجرم يُفْلِتُ من يد حُكَّام الحياة الدنيا، لكنه لن يفلت من يد الحَكَم العدل الذي يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا، وفي ما حكاه الله عز وجل عن هؤلاء الصالحين من تقدمة هذا القول: ﴿ربنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطلاً سبحانك﴾ المقْرونِ بالتفكر في خلق السموات والأرض إشعارٌ بالتوسل إلى الله عز وجل بين يَدَي الدعاء بالعمل الصالح وتنزيه الله عز وجل عن كل نقص ولذلك رَتَّبُوا الدعاء على هذا التوسل بالفاء حيث قالوا: ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي فَصُنَّا واحفظنا وأَجْرِنَا من عذاب جهنم. وقوله عز وجل: ﴿ربنا

إنك من تـدخل النار فقـد أخزيتـه وما للظـالمين من أنصار. ﴾ بيـانٌ لتضرع الصالحين إلى الله عز وجل وجُؤارِهم إليه سبحانه بذكر السبب الذي يحملهم على طلب الوقاية من عذاب النار، لأن من دَخَلَهَا أُخْزِيَ خِزْيا لا خِزى أكبر منه، وعُذِّبَ عـذابا لا عذابَ أشدُّ منـه، وأهينَ إهانة لا إهانـةَ أفْظَعُ منها، حيث لا يـدفع عنهم عـذابَ الله دافع، وكـان مقتضى السيـاق أن يقـال: ومـالهم من أنصـار، لكنَّ مقتضى الحال اقتضـى وَضْعَ الظـاهـر وهـو لفظُ الظالمين مـوضع الضمير لذمهم والإشعار بسبب دخولهم النـار وهو ظُلْمهم بوضعهـم معصية الله موضـع طاعته وأنَّ الله عـز وجل ما ظلمهم بـإدخالهم النار، ولكنهم هم الظالمون، وقوله عز وجل: ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي لـلإيمان أن آمنوا بـربكم فآمنـا . ﴾ هـذا تَوَسُّلٌ ثـانٍ بين يدي خمس دعـوات طَلَبُوهـا من الله عز وجـل، حيث توسلـوا إليه تبـارك وتعالى بأنهم استجـابوا لرسول الله محمد ﷺ لما سمعوه يدعو إلى الإيمان فآمنوا بالله وصَدَّقُوا المرسلين، ولا شك أن كلَّ داعٍ إلى الإيمان من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم بإحسان إلى يوم القيامة إنما يَدْعُون على منهج كتاب الله وهَدْي رسول الله ﷺ، والذين يستجيبـون لهم هم في حكم المستجيبين لـرسول الله ﷺ والـدعـوةُ الأولى من الدعوات الخمس هي طلب مغفرة ذنوبهم، والدعوة الثانية هي طلب تكفير سَيِّئَاتهم، والدعوةُ الثالثة هي أن يلْحِقَهُم الله عـز وجل بالصالحين ويتوفاهم مع الأبرر ويختم أعمالَهُم بالصـالحات، والدعوةُ الرابعـة هي أن يؤتيهم الله عز وجل مـا وعـدهم على ألسنـة رسلـه من نعيم الجنـة لمن مـات على الإيمان، والدعـوة الخامسة هي أن يُنْجِيهُم من النـار المخزيـة يوم القيـامة، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿ربنا فـاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنـا وتوفنا مع الأبرار. ربنـا وآتنـا مـا وعـدتنـا على رسلك ولا تخزنـا يـوم القيـامـة، إنك لا تخلف الميعاد. ﴾ وفي بـدء الدعـوات في هذا المقـام الكريم بسـؤال الله عز وجل أن

يَقِيهُم عذاب النار المُخْزِيَةِ لمن يَدْخُلُهَـا، وخَتْم هذه الدعوات بسؤال الله عز وجل أن لا يُخْزِيهُم يوم القيامة بدخول النار إشارةٌ إلى أن الفائز السعيد هو من زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة، ولله در القائل:

تَقُولُ مَالَكَ لمْ تَضْحَك وقد نَظَرتْ عَيْنَاكَ مُضْحِكَ ثُكْلَى ذَاتَ أَفْكارِ
فَقُلْتُ يَمْنَعُ ضِحْكِي جَهْلُ عاقبتي وإنما يضـحك النـاجي من النارِ

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يـا أمة محمـد: والله لو تعلمـون ما أعلم لَضَحِكْتُمْ قليـلاً ولبكيتم كثيراً» في حديث الكسوف وفي تذييل هذه الدعوات بقوله عز وجل: ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ إشعار بكمال الضراعة والابتهال إلى الله عـز وجل بالثناء عليه بأنه لا يخلف الميعاد والمقصود من هذا النفي التأكيد بأنـه صادق الوعدِ والإشارة إلى أنهم لا يخافـون مـن خُلْفِ وعـده عـز وجل ولكنهم يخافـون مـن أن يُـزِلَّهُم الشيطان ويَخْشَوْن على أنفسهم من سوء العاقبة نسأل الله عـز وجل أن يُثبتنا بالقـول الثابت في الحياة الـدنيا وفي الآخرة إنـه سميع الدعاء. والمراد بـالميعاد الوَعْـدُ، وقولُه عـز وجل: ﴿فاغفر لنـا ذنوبنا وكفِّر عنـا سيئاتنا﴾ هـو شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما كان قولَهُم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنـا﴾ هذا وقد كان رسـول الله ﷺ إذا قام من نومه قَعَـدَ فنظر إلى السماء ثم قـرأ: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيـات لأولي الألباب﴾ فقـد أخرج البخاري من طريق شَرِيكِ بن عبـدالله بن أبي نَمِرٍ عن كُـرَيْبٍ عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: بتُّ عنـد خـالتي ميمـونـةَ، فَتَحدَّثَ رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رَقَدَ فلما كان ثلث الليل الآخِرِ قعد فنظـر إلى السماء، فقال: ﴿إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.﴾ ثم قـام فتوضأ، واسْتَنَّ فَصَلَّى إحدى عشرةَ ركعةً ثم أذَّنَ بلالٌ، فصلى ركعتين ثم خـرج فَصَلَّى الصبح وفي لفظ للبخاري

من طريق مَخْرَمَـةَ بن سليمان عن كُرَيْبٍ عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال : بِتُّ عند خالتي ميمونة ، فقلتُ : لأَنْظُرَنَّ إلى صلاة رسول الله ﷺ ، فَطُرِحَتْ لرسول الله ﷺ وِسادةٌ ، فنام رسول الله ﷺ في طُولِهَا ، فجعل يَمْسَحُ النومَ عن وجهه ، ثم قرأ الآيات العشر الأواخـر من آل عمران حتى خَتَمَ ، ثم أتى شَناً مُعَلَّقًا ، فأخذه فتـوضأ ، ثم قام يصلي ، فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مثلَ مـا صَنَعَ ، ثم جئت فَقُمْتُ إلى جَنْبِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ على رأسي ، ثم أَخَذَ بأُذُنِي فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا ، ثـم صلى ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثـم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين ، ثـم صلى ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثم أوتـر . كما روى البخـاري ومسلم من طـريق مَخْرَمَةَ بن سليمان عـن كُرَيْبٍ مـولى عبـدالله بن عباس أن عبـدالله بن عبـاس أخبره أنـه بـات عنـد ميمـونـة زوج النبي ﷺ وهي خـالتُـه ، قـال : فاضْطَجَعتُ في عرض الوسادةِ واضْطَجَعَ رسول الله ﷺ وأهلُه في طُولِهَا ، فنام رســول الله ﷺ حتى انتصف الليلُ ، أو قَبْلَـهُ ، بقليل ، أو بَعْـدَهُ بقليل ثم استيقظ رسـول الله ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّـوْمَ عن وجهـه بِيَدَيْـهِ ثم قـرأ العَشْرَ الآيات الخواتِمَ من سـورة آل عمران ، ثم قـام إلى شنٍّ مُعَلَّقَةٍ ، فَتَـوضَّأَ منها ، فَأَحْسَنَ وُضُـوءَهُ ، ثم قام يصلي ، فَصَنَعْتُ مِثْلَ مـا صَنَعَ ، ثم ذهبت فَقُمتُ إلى جنبـه ، فَـوَضَعَ رسولُ الله ﷺ يَـدَهُ اليمنى على رأسي ، وأخـذ بأذني بيـده اليمنى يَفْتِلُهَـا ، فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثـم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتـر ثم اضطجع حتى جـاءه المُؤَذِّنُ ، فقـام فصلى ركعتين خَفِيفَتَين ، ثم خـرج فصلى الصبح . وفي لفظ لمسلم من طريق محمـد ابن علي بن عبـدالله بن عباس عن أبيـه عن عبـدالله بن عباس أنـه رقد عنـد رسول الله ﷺ ، فاستيقظ فَتَسَوَّكَ وتـوضأ وهو يقول : ﴿إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألبـاب .﴾ فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قـام فصلَّى ركعتين فأطال فيهما القيام والركـوع والسجود

ثم انصرف فنام حتى نَفَخَ ثم فَعَلَ ذلك ثلاثَ مراتٍ ستَّ ركعات، كُلُّ ذلك يَسْتَاكُ ويتوضأ ويقرأ هؤلاءِ الآيات، ثم أوتر بثلاثٍ، فأذَّن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نُوراً، واجعل في سمعي نُوراً، واجعل في بَصرِي نُوراً، واجعل من خلفي نُوراً، ومن أمامي نُوراً، واجعل من فوقي نُوراً ومن تحتي نُوراً، اللهم أعطني نُوراً، اهـ والظاهر أن رواية محمد بن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس كانت في ليلة أخرى. والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله في الحديث: قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران هو تَجَوُّزٌ لأنها إحدى عشرة آية لا عشرُ آيات، هذا والأوصاف التي ذكرها الله عز وجل لذوي الألباب في هذا المقام تُشبِهُهَا الأوصاف التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الوارد في فضل مجالس الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربُّهم وهو أعلم: ما يقول عبادي قال: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول هل رأوني فيقولون لا والله ما رأوك فيقول كيف لو رأوني قال يقولون لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحاً فيقول فماذا يسألون قال: يقولون يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها قال: يقولون والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار. الحديث.

قال تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب. لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله، وما عند الله خير للأبرار. وإن من أهل الكتاب لمن يُؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلاً، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من صفات أولي الألباب التي اشتملت على بيان مواظبتهم على ذكر الله، وتفكرِهم في خلق السموات والأرض، وضراعتِهِم وابتهالِهِم إلى الله عز وجل أن يَقِيهُم عذاب النار المخزية لمن دَخَلهَا، وسؤالهم ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم وأن يتوفاهم مع الأبرار وأن يدخلهم الجنة، وأن لا يخزيهم يوم القيامة، بعد تقديم الثناء عليه والتوسل بذلك وباستجابتهم لداعي الإيمان، وانخراطهم في سلك المؤمنين بين يدي دعائهم ثم ختم هذا الدعاء بالثناء عليه بِصِدْقِ وَعْدِه وأنه لا يخلف الميعاد، ذكر عز وجل هنا أنه استجاب لهم دعاءهم ولم يُخَيِّبْ رجاءَهم حيث قال تبارك وتعالى: ﴿فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فَأَجَابَهُم سَيِّدُهُمْ ومالِكَهُمْ ومُصْلِحُ شُئُونِهِم وَمُدَبِّرُ أمورهم، والعربُ يستعملون استجاب له واستجابه وأجابه بمعنى واحد كما قال عز وجل هنا: ﴿فاستجاب لهم﴾ وقال في سورة الشورى: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدُهُم من فضله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ

إذا دعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُم خُلَفَاء الأرض﴾ وقد جَمَعَ الشاعرُ كعبُ ابن سعدِ الغَنَوِيُّ بَيْنَ استجاب وأجاب في بيت من شعره في رثاء أبي المِغْوَارِ حيث يقول :

وَدَاعٍ دَعَا : يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى   فَلَمْ يَستَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يدعونه ويسألونه حوائجهم، ويبتهلون إليه وحده حيث يقول : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستَجيبوا لي وليؤمنوا بي لَعلَّهم يَرشُدُون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيَدخُلون جهنَّم داخرين . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ بعد أن بشَّرَ الله تبارك وتعالى عباده الصالحين بأنه استجاب لهم دعاءهم حضَّ عموم عباده على الإقبال على طاعته ، والتَّزَوُّدِ بالأعمال الصالحة ، من أي لون كانوا أو من أي جنس ، لأن الله عز وجل لا ينظر إليهم باعتبار ذكورهم أو إناثهم أو صورهم أو ألوانهم أو أنسابهم أو أوطانهم وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم فمهما عمل العبد عملا فإنه عز وجل يُحْصِيه ويحفظه ويثيب عامله عليه ، ولا يَفُوتُه شيء من عمل خلقه ولو كان مثقال ذرة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ بِغَضِّ النظر عن جِيله أو قَبِيله أو كونه ذكراً أو أنثى فالكلُّ لآدم وآدم من تراب ، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم ، ولما كانت أعمالُ الخير متفاوتة الدرجات ذكر الله تبارك وتعالى هنا صورا مُشْرِقةً من أعمال الخير وَجَعَلَهَا تبارك وتعالى في الذروة من العمل الصالح المُسْتَجْلِبِ لرضوان الله عز وجل ، ووعَدَ أَهْلَهَا بتكفير سيئاتهم ، وإدخالِهِم جنات تجري من تحتها الأنهار حيث قال عز وجل هنا : ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقَاتلُوا وَقُتِلُوا لأكفِّرنَّ عنهم

سيئـاتهم ولأدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تجري من تحتهـا الأنهارُ ثـوابا من عنـد الله ، والله عنده حُسْنُ الثواب . ﴾ وهذه الصفات يـدخل فيها المهاجرون إلى الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ والمهاجرون من مكة إلى المدينة ، ويدخل فيها كذلك سائر من يهاجر مـن دار الكفر إلى دار الإسلام إلى يوم القيامـة ، وكذلك كلُّ منْ أخْرجُـوا من ديارهـم بسبب استمساكهم بـدين الإسلام إلى يوم القيـامة ، وكذلك كلُّ مـن أُوذيَ في سبيل الله ، وجَاهَدَ أعـداءَ الله ، وفاز بـالشهادة في سبيل الله ، وفي هذا حض لأصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان على الصبر وتقوى الله عز وجل ليفوزوا بما وعد الله عـز وجل في هذا المقام الكريم من الذكر الحكيم أصحاب هـذه الصفات بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات النعيم . وقـوله عز وجـل : ﴿ثوابا مـن عند الله ، والله عنده حُسْـنُ الثواب﴾ إشـارة إلى أن الثواب الـذي يثيبُ الله عـز وجل بـه المؤمنين جزاءً لهم على مـا عملوا وأبلُوا في الله عز وجل تَمَسُّكاً بدينـه و إعزازاً لشرعه ونُصْرةً لرسله وكتبه ، وجهاداً في سبيلـه هو ثوابٌ عظيم لا يبلغـه وصف الواصفين لأنـه عطاءٌ من عند الله العظيم الكـريم الذي أخبر عنه رسـولُه وخاتَمُ أنبيـائه وأفضلُ خلقه محمدٌ ﷺ فيما رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : قال الله تعـالى : أعددت لعبـادي الصالحين مـا لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطـر على قلب بشر ، واقرءوا إن شئتم : ﴿فـلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ . وقوله عز وجل : ﴿لا يَغرنك تقلب الـذين كفروا في البـلاد . متاع قليـل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . ﴾ هـذا خطـاب لكل من قـد يغترُّ بما يشـاهـد ما عليـه الكفـار من الترف والنعمـة والغبطة والسرور ورغد العيش والصحة مما أمـدَّهم الله عز وجل به إملاء لهم واستـدراجـاً لأنـه قـريب الـزوال ، سريع الاضمحـلال ، ثم ينتقلـون عنـه ويخلِّفونَه وراءهم ، ويستقبلـون الحسرة التي لا تنتهي والحزن الذي لا يزول في

نـار جهنم كما قال عـز وجل : ﴿مـا يُجادل في آيات الله إلا الـذين كفروا فـلا يغررك تقلُّبُهُم في البلاد . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمـــون . وأملي لهم إنَّ كيـــدي متين . ﴾ ومعنى : ﴿لا يَغُـــرَّنَّكَ﴾ أي لا يَخْدَعَنَّكَ ، والتَّقلُّبُ في البلاد كِنـايةٌ عن التَّنَقُّلِ والأسفـار في طلب التجارات وجلْبِ الأرزاق والحصول على ملـذات الحياة الدنيـا من جهات الأرض ؛ لأن الـدنيـا هي جَنَّتُهم ، وهي في الـواقع سِجْن المؤمن ؛ لأن النعيم الحقَّ والمتـاعَ الذي لا يـزول ، ولا تُدْرِكُـه المُنَغِّصَاتُ ، هو متـاع الجنة ونعيمُهَـا . وقد روى مسلم من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال : الدنيـا سِجْنُ المؤمن وجنَّةُ الكافر. وقولـه تبارك وتعالى : ﴿لَكن الذين اتَّقوا ربَّهم لهم جنَّات تجري من تحتهـا الأنهار خالـدين فيها نُـزلا من عند الله ، ومـا عند الله خير لـلأبرار. ﴾ لما ذكـر عز وجل حـال الكفـار بِقلَّةِ نفع تقلبهم في التجـارة وتصرفهم في البلاد واستدراجهم برغد العيش مما قد يتوهم مُتَوَهِمٌ أنَّ التجارة من حيث هي مختصة بـذلك فاستدرك أن المتقين وإن تَقَلَّبُوا في البـلاد فإنه لا يضرهم ذلك وأنَّ لهم ما وعدهم الله عز وجل من جنات النعيم ، ومعنى قوله تبـارك وتعالى : ﴿نـزلا من عنـد الله﴾ أي ضِيَافَـةً وإكـراما من الله عـز وجل للمتقين ، والنُّـزُلُ في الأصل هو مَـا يُعَدُّ ويُهَيَّأ للضيـف إكرامـاً لَهُ ، ثـم صـار يطلق على كل رزقٍ وعطـاءٍ ومكـافأةٍ ومنـه قـولـه تعـالى : ﴿ أولَئك لهم رزق معلومٌ . فواكهُ وهم مُكْرَمُـون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بِكَأْسٍ من معين . بيضاء لـذة للشاربين . لا فيها غَـوْلٌ ولا هم عنها يُنـزَفُـون . وعنـدهم قـاصرات الطـرف عِينٌ . كأنهن بيض مكنـون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لي قرينٌ . يقول أئنك لمن المصـدقين . أءِذا متنا وكنـا تـرابا وعظـامـا أءِنَّا لمدينـون . قـال هل أنتم مطلعون . فـاطلع فرآه في سواء الجحيـم . قال تالله إن كـدت لتردين . ولولا

نعمـة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحـن بميتين . إلا مـوتتنـا الأولى ومـا نحن بمعـذبين . إن هٰذا لهو الفوز العظيم . لمثـل هٰذا فليعمل العـاملون . أذٰلك خير نزلا أم شجـرة الزَّقُّوم . ﴾ وكما قـال عز وجل فيما أعـده لأعدائه في النـار: ﴿فنـزلٌ من حميم﴾ وكما قـال عز وجـل فيما أعده لأوليـائه في الجنـة : ﴿ولكم فيهـا مـا تشتهي أنفسكم ولكم فيهـا مـا تـدَّعـون . نـزلا من غفـور رحيم . ﴾ وقوله عـز وجل : ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ هذا تـذييل للإشعار بأن الصفات المذكورة هي من أعمال البر التي من مـات عليها كان مع الأبرار تحقيقا لدعوتهم : ﴿وتوفَّنا مع الأبـرار . ﴾ وأن الذي أعده الله للأبرار لا تدانيه نعمة من نعم متـاع الحياة الدنيـا الزائلـة الفانية التي منحت للـذين تقلبوا في البـلاد . وقولـه عز وجل : ﴿وإنَّ من أهل الكتـاب لَمَنْ يؤمنُ بـالله وما أنـزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولٰئك لهم أجرهم عنـد ربهم ، إن الله سريع الحساب . ﴾ هذا بيـان لمحاسن بعض أهل الكتـاب الذين سـارعوا إلى الإيمان بـالله وتصديق رسـوله محمـد ﷺ والإيمان بالقرآن وبالتوراة المنزلة على موسى وبالإنجيل المنزل على عيسى عليهما السلام كعبد الله بـن سلام رضي الله عنه ، وقـد ذكر عـز وجلٍ لهٰؤلاء مَنْقَبَتَيْنِ : الأولى ظهورُ الخشوع لله عليهم المنبعث من إيمانهم ، والثـانيةُ أنهم يخالفون المحرفين للكلم من بعـد مواضعـه الكاتمين للحق من أهل الكتـاب ، فهم لا يَرْضَـوْنَ ببيع ما علمـوا من الحق بِعَرَضٍ من الدنيـا ، وَيؤْثِرون أمـرَ الله عز وجل على هَوَى أنفسهم ، وقـوله عز وجل : ﴿أولٰئك لهم أجرهـم عنـد ربهم﴾ إشارةٌ إلى علو منزلتهم عند الله ، وأنهم يؤتَـوْنَ أجرهـم مرتين بما صبروا ، ويُعْطَوْنَ كِفْلَيْن من رحمة الله ، وفي قـوله عـز وجل في فواتح سـورة آل عمران : ﴿نـزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . ﴾ وقوله في خواتم السـورة : ﴿وإنَّ من أهل الكتـاب لمن يؤمن بـالله ومـا أنزل إليكـم وما أنـزل

إليهم﴾ تأييد للقول بأن الحروف المفرقة في أوائل السور إشارة إلى التحدي والإعجاز حيث يذكر الله عز وجل عقب هذه الحروف في افتتاحيات السُّورِ القرآن صراحة أو ضمنا ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمن به أو مكذِّبٍ له وأن المؤمنين يحصل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بِخِزي الدنيا وعذاب الآخرة ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذمِّ المكذبين وبيان سوء عاقبتهم كما أشرتُ إلى ذلك في افتتاحية سورة البقرة. وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الله سريع الحساب﴾ تأكيد لنفوذ علمه بجميع أعمال خلقه. كما قال عز وجل ﴿ونَضَعُ الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين.﴾

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقوا الله لعلكم تفلحون﴾

هذه خاتمة المسك من سورة آل عمران، وقد أمر الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى وبين لهم أن تطبيق هذه الأوامر الأربعة يوصلهم إلى الفلاح والفوز والنجاة، ولما كانت هذه السورة المباركة اشتملت على قصة وفد نصارى نجران حيث نزل في ذلك نحو ثمانين آية من صدرها واشتملت على قصة غزوة أحد حيث نزل في ذلك نحو ستين آية، وفي كل قصة من القصتين تجلت ألوان من الصراع بين الحق والباطل، انتهت بظهور الحق واندحار الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، ولما كانت المجابهة بين الحق والباطل تقتضي من المؤمنين التزام الصبر لأنه دعامة من أهم دعامات النصر، ذكر الله عز وجل هذه الصفة الكريمة في مواطن كثيرة من هذه السورة الكريمة، وبدأ ذلك بالثناء على الصابرين حيث جعلهم على رأس عباده الصالحين حيث يقول: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذالكم، للذين اتَّقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.﴾ وقال عز وجل في تثبيت المؤمنين وتحذيرهم من اتخاذ بطانةٍ كافرة في الآية التي تلتها مباشرة الآياتُ التي نزلت في قصة غزوة أحد وحمراءِ الأسد وكأنها بمثابة التمهيد لذلك حيث يقول عز وجل: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا، إن الله بما يعملون محيط.﴾ ثم قال عز وجل في مقدمات قصة غزوة أحد وحمراء الأسد مذكرا عباده المؤمنين بنصر الله لهم يوم

بدر: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هٰذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. ﴾ ثم قال عز وجل في فقه غزوة أحد: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ﴾ ثم قال عز وجل: ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وَهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين. ﴾ ثم قال عز وجل لتوطين نفوس المؤمنين على ما سيصيبهم من الأذى من أعداء الإسلام: ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرا، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذٰلك من عزم الأمور. ﴾ ثم ختم هذه السورة المباركة بهذه الآية الكريمة حيث أمر المؤمنين فيها بالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون. ﴾ والفرق بين الصبر والمصابرة أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع مما يصيبها من مصيبة أو يلزمها من تكاليف وما قد تتعرض له من شهوات مُحرمَةٍ، وأما المصابرة فهي مُغَالَبَةُ أعداء الله بالصبر في مواطن الحروب، وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشدَّ منه وأشقَّ، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ورابطوا﴾ أي أقيموا في الثغور رابطين خَيْلَكُم فيها مترصدين للعدوِّ، مستعدين له، كما قال عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى المرابطين في سبيل الله لحفظ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين بالأجر الجزيل والثواب الجليل فقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعديِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم

من الجنة خير من الدنيا وما عليها، وروحةٌ يروحُها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوةُ خير من الدنيا وما عليها. كما روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه أجريَ عليه عَمَلُهُ الذي كان يعمل، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُهُ، وأمنَ الفتَّانَ، كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن فَضَالَةَ بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كلُّ ميِّت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطا في سبيل الله، فإنه يُنَمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤمَن من فتنة القبر، كما روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل، كما روى ابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: من مات مرابطا في سبيل الله أُجريَ عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأَمِنَ من الفتَّانِ، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع الأكبر. كما روى الترمذي وقال: حديث حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: عينان لا تَمَسُّهما النار: عَيْنٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرُس في سبيل الله. هذا ويدخل في معنى المرابط في سبيل الله من ربط فَرَسَه وأعده للجهاد في سبيل الله وإن كان في أهله وقد أشار رسول الله ﷺ إلى فضله، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: طوبى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فرسه في سبيل الله، أَشْعَثَ رأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة. الحديث. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مِنْ خير معاش الناس لهم رجلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَانِ فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كُلَّما

سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طـار على متنه، يبتغي القتل أو الموتَ مَظَانَّهُ. الحديث. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم مـن حديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قيـل يا رسول الله: فـالخيل قال: الخيل ثـلاثة: هي لـرجل وِزْرٌ وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجل أجرٌ، فأما التي هي لـه وِزْرٌ فرجلٌ رَبَطَهَا رِيَاء وفخرا ونِواءً لأهل الإسلام فهي له وِزرٌ، وأما التي هي له سِتْرٌ فَرَجُلٌ ربطها في سبيل الله ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظهـورها ولا رقـابها، وأما التي هي لـه أجر فـرجل ربطها في سبيل الله لأهـلِ الإسلام في مَرْجٍ وروضـةٍ، فما أكلتْ من ذلك المرج أو الـرَّوْضَةِ من شيء إلا كُتِب لـه عَدَدَ مـا أَكَلَتْ حسنـاتٌ، وكُتِبَ لَهُ عَـدَدَ أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طِوَلَها فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنـاتٍ، ولا مَرَّ بها صاحبها على نهر فَشَرِبَتْ منه ولا يريد أن يَسْقِيَهَا إلا كتَب الله له عَدَدَ ما شَرِبَتْ حسناتٍ. الحديث. كما روى البخاري في صحيحـه من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: مَن احْتَبَسَ فـرساً في سبيل الله إيمانـا بالله وتصديقـا بِوَعْـدِه فإنَّ شِبَعَهُ ورِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَـهُ في ميزانه يوم القيامة. يعنـي حسناتٍ. كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الأعمال الصالحة تُعَدُّ رِبَاطاً فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قال: أَلاَ أَدُلُّكُمْ على مـا يمحو الله به الخطـايا، ويرفع به الـدرجات؟ قالوا: بلى يـا رسول الله، قال: إسْباغُ الوُضُـوءِ على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظـار الصلاة بعد الصلاة، فذالكم الرباطُ، فذالكم الـرباط، وهذه البشارة لمن أسبغ الوضوء على المكاره وأكثـر الخطا إلى المساجد وانتظـر الصلاة بعد الصلاة بأنـه مرابط شبيهة ببشارة رسول الله ﷺ مَنْ صلى في مسجد قباء ركعتين بأنَّ له أجْرَ عُمْرَةٍ فقد روى الترمذي وقال حـديث حسن غريب عن أسيْدِ بنِ ظُهَيْرٍ الأنصاري رضي الله عنـه وكان من أصحـاب النبي ﷺ يُحَدِّثُ عن النبي ﷺ أنه قـال:

صلاةٌ في مسجد قباء كعمرةٍ، وقد صححه المنذري في الترغيب والترهيب حيث قال: ولا نعرف لأسَيْدٍ حديثا صحيحا غير هذا. اهـ كما روى أحمد والنسائي وابن ماجه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث سهل بن حُنَيْفٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ تَطَهَّرَ في بيته، ثم أتى مسجد قباءَ فصلى فيه صلاةً كان له كأجر عمرة. ولا خلاف عند أهل العلم على أن من كانت عليه عمرةٌ فصلى ركعتين في مسجد قباء لا تسقط العمرة عنه بهذه الصلاة التي صلاها في مسجد قباء، إذ المقصود بيان عظيم الأجر لمن صلى في مسجد قباء، وكذلك بيان عظيم الأجر لمن أسبغ الوضوء على المكاره وأكثر الخطا إلى المساجد وانتظر الصلاة بعد الصلاة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون.﴾ هذا هو الأمر الرابع من هذه الأوامر التي اشتملت عليها هذه الآية الخاتمة الجامعة لأسرار الأحكام والحِكَم التي سيقت من أجلها هذه السورة المباركة، وتقديم الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة في الذكر قبل الأمر بتقوى الله عز وجل لأن الصبر والمصابرة والمرابطة كلَّها من أسباب تقوى الله عز وجل كجميع الأوامر والنواهي التي جاءت في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسول الله محمد ﷺ إذ كلها تدور في فلك تربية تقوى الله عز وجل في نفوس عباده ليفوزوا في العاجلة والآجلة، ويَسْعَدُوا في الدنيا والآخرة، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى القرآن العظيم هُدًى للمتقين، وقد نَبَّهَ الله تبارك وتعالى إلى ذلك عند ذكر كثير من الأحكام والعبادات سواءٌ كانت بدنية أو مالية أو غير ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولٰكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة

والموفون بعهـدهم إذا عَاهَدُوا والصابـرين في البأساء والضراء وحينَ البأسِ، أولٓئك الذيـن صدقوا وأولٓئك هـم المتقون . ﴾ ثم قال في تشريـع القصاص : ﴿ولكم في القصـاص حيـاة يـا أولى الألبـاب لعلكم تتقـون . ﴾ ثم قـال في تشريع الوصيـة : ﴿حقا على المتقين . ﴾ ثم قال في تشريع الصيـام : ﴿يا أيها الـذين آمنـوا كتب عليكم الصيـام كما كتب على الـذيـن من قبلكم لعلكم تتقون . ﴾ ثم قـال : ﴿كذالك يبين الله آياتـه للناس لعلهم يتقـون . ﴾ وقد تم تفسير هذه السـورة المباركة بعـد صلاة فجر يـوم الخميس السادس عشر من شعبان سنة تسع وأربعمائة وألف من الهجـرة النبوية بمنزلنا بمدينـة الرياض فلله الحمد والمنة .





تفسير سورة النساء



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا .﴾

هذه سورة النساء ، وقد يطلق عليها اسم سورة النساء الطولى ، كما قد يطلق على سورة الطلاق سورة النساء القُصرى ، وسميت سورة النساء لأن الله شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث اسْتَنْشَقْنَ ريح العزة والكرامة ، وجعل لهن نصيبا من الميراث بعد أن كنَّ نصيبا من الميراث ، وفرض الله لهن على الأزواج مهرا ، جعله حقا خالصا للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء ، وحرَّم على الرجال عَضْلَهُنَّ ، في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام ، ومناسبة افتتاحية هذه السورة الكريمة لخاتمة السورة التي قبلها أنه ذكر في ختام السورة السابقة الأمر بتقوى الله عز وجل حيث قال : ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون .﴾ وذكر في افتتاحية هذه السورة الكريمة الأمر بتقوى الله عز وجل حيث يقول : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إنَّ الله كان عليكم رقيبا .﴾ كما أن الله عز وجل قال في خواتيم المسك من سورة آل عمران : ﴿أني لا أضيع عَمَلَ عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ وقال في مطلع سورة النساء : ﴿خلقكم من نفس واحدة وخَلَق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء﴾ مما يؤكد أن

بعضهم من بعض، فالمناسبة بين خواتيم سورة آل عمران ومطلع سورة النساء في غاية الوضوح والظهور. وهذه السورة مدنية فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: وما نَزَلَتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلا وأنا عنده ﷺ تعني أنه قد تزوجها ودخل عليها قبل نزول سورة البقرة وسورة النساء، وهذا يَرُدُّ قولَ بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ حيث وقع في كتاب الله فهو مكي. ولأنه قد وقع في البقرة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وقال: ﴿يا أيها الناس كُلُوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ وسورة البقرة مدنية كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها المذكور آنفاً، قال ابن كثير في تفسيره: والبقرة جَمِيعُها مدنية بلا خلاف اهـ ومما ينبغي لفت الانتباه إليه من وجوه إعجاز القرآن أَنَّ الله تبارك وتعالى افتتح سورتين من القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ وهما سورةُ النساء هذه وسورة الحج، ومن العجيب أن سورة النساء هي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، وسورة الحج هي السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن. كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة النساء أمرهم بتقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿ يا أيها النَّاس اتقوا ربكم﴾ كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة الحج أمرهم بتقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ ومن العجيب كذلك أنه بعد توجيه النداء إلى الناس وأمرِهِمْ بتقوى ربهم في سورة النساء علل ذلك بذكر نشأتهم الأولى، وأنه بعد توجيه النداء إلى الناس وأمْرِهِمْ بتقوى ربهم في سورة الحج علل ذلك بذكر نشأتهم الثانية ومَعَادِهِمْ، فسبحان من أَنْزَلَ هذا الكتابَ الذي أحكمت آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لدن حكيم خبير. وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الناسُ﴾ خطاب يَعُمُّ جميع المكلفين الموجودين عند مجيء هذا الخطاب كما يَعُمُّ من يجيء من الناس ويبلغُ حدَّ التكليف إلى يوم القيامة، ولا خلاف عند علماء أمة محمد ﷺ أَنَّ

آخر هذه الأمـة مُكَلَّفٌ بما كُلِّفَ به أَوَّلُهَا، وقد صدَّر الله عـز وجل أوامر هذه السورة المبـاركة بتقـواه عز وجل وهي مـراقبته في السر والعلن والعسر واليسر والشـدة والرخـاء والمنشط والمكـره، وفي جميع الأحـوال، وقولـه عـز وجل: ﴿الذي خلقكم من نفس واحـدة﴾ تنبيه على قدرته عز وجـل وأنه لا يعجزه شيء حيث خلق جميع الناس من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وأشكالهم وصورهم وأقطـارهم وأعصارهم، والمراد بـالنفس الواحـدة التي خلق الله عز وجل منهـا جميع الناس هـو آدم عليه السـلام، وقـد خلقه الله عـز وجل من قبضة قَبَضَهَـا من تراب الأرض وقد اجتمع في هـذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض، ولذلك جـاء بنو آدم على هذه الألوان كما روى أحمد وأبو داود والترمـذي وقـال الترمـذي: حسـنٌ صحيح من حـديث أبي مـوسى الأشعـري رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: إنَّ الله خلق آدم من قبضـة قَبَضَهَا من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسـود وبين ذلك، والسَّهْـلُ والحَزْنُ وبين ذلك، والخبيثُ والطيِّبُ وبين ذلك. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال: خَلَقَ الله آدم طُولُهُ ستـون ذراعا، ثم قال: اذهب فَسَلِّمْ على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يُجِيبُونَك فإنها تَحِيَّتُكَ وتحيةُ ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالـوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمةُ الله، فكلُّ مَن يَـدْخُلُ الجنـةَ على صـورة آدم، فلم يـزل الخلق ينقص حتى الآن. وقولـه عز وجـل: ﴿وخلق منها زوجهـا﴾ هو زيادة تنبيـه على عظيم قـدرته ونعمته، أي وخلق وأوجد من هذه النفس الواحدة زوجةً لهذه النفس تسكن إليها وتطمئن بها والمراد بهذه الزوج حواء عليها السلام أمُّ جميع بني آدم حيث خلقها الله عـز وجل من ضِلَعٍ من أضلاع آدم كما روى البخـاري ومسلم من حديـث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: استـوصوا بـالنساء

خيرا، فإنَّ المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعــوج شيء في الضِّلَع أعـلاه، فإن ذَهَبْتَ تقيمه كسرتَـه، وإن تركتـه لم يزل أعـوجَ، فاستـوصوا بـالنساء خيرا.
ووصف النفس بأنها واحـدة مع أن المراد بها آدم وهو ذكرٌ لمراعـاة لفظ النفس فإنَّ لفظ النفس مؤنث حتى لو أريـد به المذكر، كما أن لفظ الزوج يطلق على الذكر وعلى الأنثى فيقال: هذا زوج فـلانة وهذه زوج فلان. وقد بين الله عز وجل أن من آيـاتـه أن خلق للـرجل زوجـة يسكن إليهـا حيث يقـول تبـارك وتعـالى: ﴿هو الـذي خلقكم من نفس واحـدة وجعل منها زوجهـا ليسكن إليهـا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ومن آيـاته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنــوا إليهـــا وجعل بينكم مـــودةً ورحمةً، إن في ذلك لآيـــات لقــوم يتفكرون.﴾. ففي تخصيص الله عز وجل الذكور بصفاتٍ وأعضاءِ الذكورية وتخصيص الإنـاث بصفـاتٍ وأعضـاءِ الأنوثيـة مما يُهَيِّئُهُنَّ للحمل والـولادة والإرضاع وغير ذلك آيـات وبراهين لذوي البصائر والأفكار الـذين يُعْمِلُونَ نظرهـم ويتدبرون في خلـقِ الذكر والأنثى فيعـرفون أن ذلك صُنـعُ الله الذي أتقن كلَّ شيء، وأنـه لا إله غيره ولا معبـود بحق سواه وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وَبَثَّ منهما رجـالا كثيرا ونسـاءً﴾ أي وذَرَأَ ونَشَرَ وفرَّق من النفس الـواحـدة وزوجهـا يعني آدم وحـواء ذكورا كثيرين وإنـاثـاً كثيرةً وفي قولـه عـز وجل: ﴿ونساءً﴾ ولم يقل: ونساءً كثيرة اكتفاء على طريق الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بالاكتفاء حيث ذكر هذا الوصف مع الرجال فاكْتُفِيَ بذكره في ذلك عن ذكـره في النســاء وقـولـه: ﴿رجـالاً﴾ و ﴿نسـاءً﴾ ولم يقل: ذكـورا وإنـاثـا لتأكيد الكثـرة والمبـالغـة فيهـا بوصـول الكثير من النـوعين إلى مبلغ الإنجاب على أن وصف الذكـر بالرجولية قـد يطلق عليه من وقت ولادته كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخـاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ألحقوا الفـرائض بأهلها فما بَقِيَ فهو لأوْلَى رجلٍ

ذَكَرٍ . وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿واتقـوا الله الذي تسـاءلون بـه والأرحام﴾ أي وامْلَئُوا قلـوبكم بالخوف من الله عز وجل حتى تكـونوا على حذر شـديد من مخالفة أمره أو الوقوع في معاصيـه ، واحذروا أن تقطعوا أرحامكم ، وهذا على قراءة ﴿والأرحام﴾ بالنَّصْبِ ، وهي قراءة القراء السبعة ما عدا حمزة فإنه قرأها بالجر وفي قـراءة العامـة هذه إشعار بخطـورة قطع الرحم ، وتنبيـه إلى وجوب التـواصل بين الأقارب ، ولـذلك وَعـدَ الله عز وجل الـرحمَ بأن مَنْ وصلهـا وصله الله ومن قطعها قطعه الله ، فقـد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : إن الله تعالى خَلَقَ الخلقَ حتى إذا فَرَغَ منهم قامت الرحم فقالت : هـذا مقامُ العائذ بك من القطيعة قال نعم ، أمـا تـرْضِينَ أنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَك وأَقْطَـعَ مَنْ قَطَعَك ، قـالت : بلى ، قـال : فَذَلِكِ لَكِ ثم قال رسـول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقَطِّعُـوا أرحامكم . أولَئك الـذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم . ﴾ وفي قولـه عز وجل : ﴿الذي تساءلون بـه﴾ تنبيه للعباد على أن الله عـز وجل قد جبـل النفوس على الإقـرار به حتى في الجاهليـة إذ كانوا يقـرون به ، ويسأل بعضهم بعضا به عـز وجل فيقول الإنسان منهم لمن أراد منه حاجـةً أسألك بالله ، كما يفعل ذلك المسلمون أيضـا ولذلك جاء في قصة الأبـرص والأقرع والأعمى التي رواهـا البخاري ومسلم من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أنـه سمع النبي ﷺ يقول : إن ثـلاثـة من بني إسرائيل أبرص وأقـرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم . الحديث ، وفيه أنـه قال لـلأبرص : أسألك بالذي أعطاك اللـون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أَتَبَلَّغ عليه في سفري . وأنه قال لـلأعمى : أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري . وقد حض رسول الله ﷺ على قضاء حـاجة من سأل بالله ، فقد قال أبو داود : حـدثنا عثمان بن أبي شيبـة ثنا جـرير عن الأعمش عن مجاهـد عن

عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأَعْطُوهُ. الحديث وقال النسائي: أخبرنا قتيبة قال: حدثنا أبو عَوَانَةَ عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والأرحام﴾ بالجر على قراءة حمزة معطوف على الضمير المجرور في قوله: ﴿الذي تَسَاءَلُونَ به﴾ أي ويسأل بعضكم بعضا بالرحم، والسؤال بالرحم على غير قصد القسم جائز والمقصودُ به الاستعطاف، وليس من باب القسم بغير الله الذي جعله رسولُ الله ﷺ شركا وكفرا، فإذا قلتَ: أسألك بالرحم أي أسألك بسبب الرحم فإنه لا يكون إقساما بالرحم، ولذلك جاز؛ لأن الرحم توجب لأصحابها بَعْضِهِمْ على بعض حقوقا، وقوله عز وجل: ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾ أي إن الله عز وجل مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم مُطَّلِعٌ على سَرائركم وظواهركم شهيد عليكم فراقبوه مراقبة مَنْ يراه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم.

قال تعالى: ﴿وآتـوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلـوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكـم، إنه كان حوبًا كبيرا. وإن خفتم ألا تقسطـوا في اليتامى فانكحـوا ما طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعـدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا﴾.

بعد أن صدَّر الله تبارك وتعالى هذه السورة المباركة بأمر الناس بتقوى ربهم الـذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجها، وبث منهما رجـالاً كثيراً ونساءً، ثم أكـد ذلك الأمر حيث أمـرهم مرة ثـانية في نفس الآيـة بتقوى الله الذي يسأل بعضهـم بعضا به حتى في جـاهليتهم، وحذرهم بعـد ذلك من قطيعـة الرحم، شَرَعَ يُـوصي عباده بـوجوب رعـاية اليتـامى والمحافظـة على حقوقهـم، وصيانـة أموالهم، في ثماني أيات بـدأت من الآية الثـانية مـن هذه السورة الكريمة إلى نهاية الآية التاسعة منها، نبه فيها بصفة خاصة إلى حقوق اليتيمات وحـذَّر أولياءهن مـن العبث بهذه الحقوق أو تضييعهـا ولا سيما فيما يتصل بشأن الزواج منهن، وبيَّن الطريق السَّوِيَّ لتدريب اليتامى على حُسْن المحافظـة على أموالهم إذا بلغـوا سنَّ الرُّشْدِ، ولما كـان المال قد جعلـه الله عز وجل قيامـا للناس وكما قيل: المالُ عَصَبُ الحيـاة - صدَّر الله عـز وجل هذه الوصايـا بوجوب المحافظـة على مال اليتيم مطلقا حيث يقـول تبارك وتعالى: ﴿وآتوا اليتـامى أموالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بـالطيب، ولا تأكلـوا أموالهم إلى أموالكـم، إنه كـان حوبا كبيرا﴾ ثـم ختم هذه الـوصايـا بقولـه تعالى: ﴿إن الـذين يأكلـون أمـوال اليتامـى ظلما إنما يأكلون في بطـونهم نـارا وسيصلـون سعيرا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وآتوا اليتـامى أموالهم﴾ أي وأعطوا اليتامى أموالهم التي هي لهم تحت أيـديكم، باعتبـاركم أوصياء عليهم، وهـذا الأمر يشمل صورتين: الأولى أن يكون اليتيم دون سنِّ الرُّشد وحينئذ يكون الوصى

مأمورا بأن يـدفع له مـا يحتاجـه من الطعام والكسوة وسـائر نفقاتـه من مال اليتيم الـذي تحت يـد الـوصي، إذ أنـه قبل البلـوغ لا يجوز أن يُمَكَّنَ من الاستبداد بكامل مـاله، كما قال عز وجل: ﴿فإن آنستم منهم رشـدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ والصـورة الثانيـة هي تسليمه كـاملَ مالِه بعـد بلوغ الـرشد، وأطلق عليه اسم اليتيم باعتبـار ما كان، وفي التعبير به إشعـار بسرعة الدفع إليـه حيث هو قـريب العهد بتسميتـه يتيما، وهـو شبيه بقـوله عـز وجل في المطلقة الـرجعية: ﴿وإذا طلقتم النساء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُـوهنَّ بمعروف أو سَرِّحُوهُنَّ بمعروف﴾ إذ المراد من بلـوغ الأجل هو مقاربة بلـوغه، لأنه إذا انتهى الأجل وانقضت العدة فإنـه لا يملك عليها حق الـرجعة كما أوضحت ذلك في تفسير سورة البقرة، وقوله عز وجل: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ تحذير شديد للأوصياء وغيرهم من أكل المال الحرام مطلقا، وتغذية الجسم به بَدَلَ تغذيته بالحلال الطيب، ويدخل في ذلك التحذير من أكل مال اليتامى من بـاب أولى إذ السيـاق فيـه، وقولـه عـز وجل: ﴿ولا تأكلـوا أمـوالهم إلى أمـوالكم﴾ هو تحذيـر آخـر شديـد لـلأوصياء وغيرهم من الطمع في أمـوال اليتامى، وتنديد بمن يكون غنيـا من الأوصياء ولا يَتَوَرَّعُ عن ضَمِّ مال اليتيم إلى مالـه بقصد زيادة ثـروة الوصي وسَلْبِ حق اليتيم، وفيـه إشارةٌ إلى أن من كان فقيراً من الأوصياء فإن له الحقَّ أن يأكل من مـال اليتيم بالمعروف كما قال عز وجل: ﴿ومـن كان غنيا فليستعفف ومـن كان فقيرا فليأكل بـالمعروف﴾ والتعبير بـالأكل في قـوله عـز وجل: ﴿ولا تأكلـوا أمـوالهم﴾ لأنه المقصـود الأعظم من الاستيـــلاء على المال، وليس ذلك قصراً للتحـــريم على الأكل وحده بل المقصود منه النهي عن أكل أمـوال اليتامى والاستيلاء عليها بطريق غير مشروع سواء كان أكـلا أو شربا أو كسوة أو مركبا أو مسكنـا أو إتلافا أو إهداءً أو غير ذلك من وجوه إضـاعة مال اليتيم. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿إنه

كـان حوبًـا كبيراً﴾ أي إنَّ التعدي على أمـوال اليتامى إثم عظيم وجـرم كبير وذنب مُهْلِكٌ لصـاحبـه مُتْلِفٌ لـه فـالحُوبُ هو الإثم والهلاك، وقـولُـه عـز وجل: ﴿وإن خِفْتُم ألا تُقسِطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثْنى وثلاث ورباع﴾ بعد أن أمر الله عز وجل في الآيـة السابقة بإيتاء اليتامى أمـوالهم وحـذَّر من إتلافهـا وأكلهـا شرع هنـا في التنبيه على حقـوق النسـاء اليتيمات ووجَّه الخطاب لأولياء يتامى النساء بوجوب المحافظة على حُقُوقِهِنَّ وبخاصـة إذا كان وليُّ اليتيمـة ممن يباح لـه الزواجُ بها، وحذَّرَهُـم من أفعال أهل الجاهلية حيث كان الواحد من هـؤلاء الأولياء إذا كانت عنده يتيمة وهو وليهـا، فإن كانت جميلـة ولها مالٌ رغب فيهـا لما لها وجمالها وتزوجهـا دون أن يعدل في صداقها، فحذَّرهم الله عز وجل من ذلك وأمرهم إذا لم يتمكنوا من الإقسـاط في حق يتـامى النساء الـلاتي تحت ولايتهم أن يبتعـدوا عن الـزواج منهن، وأن الله عز وجل قد وسع عليهم بأن أباح لهم أن يتزوجوا ما طاب لهم من النسـاء مثنى وثـلاث ورباع، ومعنـى قولـه عـز وجل: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتـامى فانكحوا مـا طاب لكم من النساء مثنى وثـلاث ورباع﴾ أي وإن خشيتم وعلمتم من أنفسكم أنكم لن تعدلوا في يتـامى النساء اللاتي تحت ولايتكم بإعطـائهـن حَقَّهُنَّ في الصـداق وحسن العشرة وعـدم أكل أمـوالهن فلا تنكحـوهنَّ وقـد وسَّع الله عز وجل عليكـم فتزوجـوا غيرهنَّ من النسـاء إن شئتم تـزوجتم زوجتين أو ثـلاث زوجـات أو أربع زوجـات من طيبـات النساء، وقـد أجمع علماء الأمة ممن يُعْتَـدُّ بإجماعهم على تحريم الجمع بين أكثر من أربع نساء قال الشـافعي رحمه الله: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وهذا الذي قـاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء اهـ وقد قال أبوداود في سننـه: باب في من أسلم وعنده نساءٌ أكثر

من أربع أو أختان . حدثنا مسدد ثنا هشيم ح وثنا وهب بنُ بقية ، أخبرنا هشيم عن ابن أبي ليلى عن حميضة بن الشمردل عن الحارث بن قيس قال مسدد : ابن عميرة وقال وهب : الأسدي قال : أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ : اختر منهن أربعًا . قال أبو داود : وحدثنا به أحمد بن إبراهيم ثنا هشيم بهذا الحديث فقال : قيس بن الحارث مكان الحارث بن قيس قال أحمد بن إبراهيم هذا الصوابُ ، يعني قيس بن الحارث . حدثنا أحمد بن إبراهيم ثنا بكر بن عبدالرحمن قاضي الكوفة عن عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى عن حميضة بن الشمردل عن قيس بن الحارث بمعناه اهـ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما سبب نزول هذه الآية الكريمة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله : ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ قالت : يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حَجْر وليها تُشَارِكُه في ماله ، فَيُعْجِبُهُ مالُها وجَمَالُها ، فيريدُ وَلِيُّها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِطَ في صداقها فَيُعْطِيهَا مثلَ ما يُعْطِيهَا غيره ، فَنُهُوا أن ينكحُوهُنَّ إلا أنْ يُقسِطُوا لَهُنَّ ويَبْلُغُوا بهن أعلى سُنَّتِهِنَّ من الصَّدَاق ، وأمِرُوا أن يَنْكِحُوا ما طاب لهم من النساء سِواهنَّ ، قال عروةُ : قالت عائشة : ثم إن النَاسَ اسْتَفْتَوْا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ في النساء قل الله يُفْتِيكُمْ فيهن وما يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت : والذي ذَكَرَ الله تعالى أنه يُتْلَى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها : ﴿وإن خفتم أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء﴾ قالت عائشة : وقولُ الله في الآية الأخرى : «وتَرْغَبُون أن تنكحوهُنَّ» رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حَجْرِهِ حين تكون قليلة المال والجمال

فَنُهُوا أن يَنكِحُـوا ما رَغِبُـوا في مالها وجمالها من يتـامى النساء إلا بـالقسط من أجل رَغْبَتِهِمْ عنهن. وفي لفظ لمسلم من طـريق عـروة عن عائشـة في قولـه: ﴿وإن خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتـامى﴾ قالت: أُنـزِلَتْ في الرجل تكـون له اليتيمة وهو وليُّها ووارثُها ولها مـالٌ، وليس لها أحدٌ يُخَاصِمُ دونَها فلا يُنْكِحُهَا لما لها، فَيَضُرُّ بها، ويسيء صُحْبَتَهـا، فقـال: ﴿إن خفتم أن لا تُقسِطُـوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ يقول: ما أحْلَلْتُ لكم وَدَعْ هذه التي تَضُرُّ بها، وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: ﴿وما يُتْلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾ قـالت: أُنزِلَت في اليتيمـة تكون عند الـرجل فتَشْرَكُهُ في مـاله، فيرغب عنها أن يَتزَوَّجها، ويَكْرَهُ أن يُزَوِّجها غَيْرَهُ فَيَشْرَكه في ماله، فَيَعضِلُهَا، فلا يتزوجها ولا يزوجهـا غَيْرَهُ. وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: ﴿يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية قالت: هي اليتيمة التي تكـون عند الـرجل لعلها أن تكـون قـد شرِكَتْهُ في مـاله حتى في العَـذْق فيرغب يعني أن ينكحها ويَكْره أن يُنكِحَهَا رجلا فَيَشْرَكُهُ في مالـــه فَيَعْضِلُهَا اهـ وفي لفظ للبخاري من طـريق عروة أنـه سأل عـائشة عن قـوله تعـالى: ﴿وإن خفتم أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُـلاثَ ورُبَاعَ فإن خفتم أن لا تعـدلـوا فواحـدةً أو مـا ملكت أيمانكم ذُلك أدنى أن لا تَعُـولُوا.﴾ قـالت: يا ابـن أختي، اليتيمة تكـون في حَجْر وليهـا فيرغب في مالها وجمالها، يريـد أن يتزوجها بأدنى من سنة صـداقها، فَنُهُوا أن يَنكحوهُنَّ إلا أن يُقْسِطُـوا لَهُنَّ فَيُكْمِلُوا الصـداقَ، وأُمِرُوا بنكـاح مَنْ سِوَاهُنَّ من النساء، وقوله عز وجل: ﴿فإن خفتم أن لا تعـدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾ أي وإن خشيتم وعلمتم من أنفسكـم أنكم لا تستطيعـون العـدل بين الزوجتين أو الزوجات إن عَدَّدْتم الزوجات فاقتصروا على التزوج من امرأة

واحـــدة أو على الجواري السرارى حيث لا يجب القَسْـمُ بينهن وإن كـــان مستحبا ، وقوله عـز وجل : ﴿ذٰلك أدنى ألا تعولوا . ﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تَجُورُوا ، فـالعَوْلُ يطلق على الميل يقـال : عَـالَ الميزانُ عَـوْلاً إذا مالَ وعـال في الحكم أي جَـارَ وظلم ، ولا شك أن شريعـة الإسلام عنـدمـا أباحت تعـدد الزوجات إلى أربع واشترطت في التَّعَدُّدِ أن يتوافر رُكْنُ العدل من جانب الزوج بين الزوجـات ، كانت أكمل الشرائع السماوية في هذا البـاب كما هي كذلك في كل تشريعاتها ففـي التوراة التعدد ولـو إلى مئات ، والـذين حرَّمُـوا التعدد سَقَطُـوا في بــراثن الخليـلات ، مـع أن التعـدد إلى أربع قــد يكـون ضرورة شخصية ، وقد يكون ضرورة طبيعيـة وقد يكون ضرورة اجتماعية ، والأصل في الحياة الـزوجية السعيـدة أن يكون للرجل زوجـة واحدة وقـد تمس الحاجة إلى كفالـة الرجل الواحد لأكثـر من زوجة ، وأن ذلك التعدد قد يكـون لمصلحة الأفراد من الـرجال والنساء ، كما قـد يكون لحمايـة المجتمع وحفظه من أدران الفساد ، ولله الحكمة البالغة .

قال تعـالى: ﴿وآتوا النسـاء صَدُقـاتهن نحلة فإن طبن لكم عـن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا. ولا تـؤتوا السُّفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا. ﴾

بعد أَنْ وَصَّى الله تبارك وتعالى بوجوب رعاية حقوق يتامى النساء وذكر في سياق ذلك إرشـاده لأولياء يتامى النسـاء إذا خافوا عَدَمَ استطـاعتهم للعدل فيهن أن يتـزوجـوا من غيرهن حيث وسَّـع عـز وجل عليهم وعلى غيرهم من الرجال أن يَتَزَوَّجُوا من طيبـات النساء مثنى أي اثنتين أو ثُلاث يعني ثلاثا أو رُباعَ يعني أربعا فإن علموا من أنفسهم عجزا عن العدل في القَسْم عند تعدد زوجاتهم فليقتصروا على زوجة واحدة حتى لا يجوروا، إذ أن مَن تزوج امرأتين فمال إلى إحـداهما جاء يـوم القيـامة وأَحَـدُ شقيـه مائل، وإن لم يتمكنـوا من الـزواج مـن حـرة فليقتصروا على مـا تحت أيـديهم من الجواري السراري إن وُجِدْنَ، وقد قال النسائي: أخبرنا عمرو بـن علي قال حدثنا عبدالرحمن قال حدثنـا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بَشير بن نَهِيكٍ عن أبي هـريرة عن النبي ﷺ: «من كـان له امـرأتان يَمِيلُ لإِحْـدَاهُمَا على الأخرى جـاء يومَ القيامة أَحَـدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ». وقال ابن ماجـه: حدثنا أبو بكـر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بَشِير بن نَهِيكٍ عن أبي هريرة قـال: قال رسـول الله ﷺ: «من كانت لـه امـرأتان يميل مع إحـداهما على الأخرى جاء يومَ القيامة وأَحَدُ شِقَّيْـهِ سَاقِطٌ». وقال أبو داود في سننه: حدثنا أبو الوليد الطيـالسيُّ ثنا هَمَّامٌ ثنا قتادةُ عن النضر بن أنس عن بشير بن نَهِيكٍ عن أبي هـريرة عن النبي ﷺ قـال: «من كانت لـه امرأتـان فَمَالَ إلى إحداهما جاء يوم القيامـة وشِقُّهُ مائل». وقال الترمذي: حدثنا محمـد بن بَشَّارٍ حدثنا عبدالرحمن بنُ مهدي حـدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن

نَهيك عن أبي هـريرة عن النبي ﷺ قـال: «إذا كان عنـد الرجل امرأتـان فلم يَعْدِلْ بينهما جَاءَ يوم القيامة وشِقُّهُ ساقط». قال أبو عيسى: وإنما أَسْنَدَ هذا الحديث هَمَّامُ بنُ يحيى عن قتـادة، ورواه هشام الـدَّسْتَوَائيُّ عن قتـادة قال: كان يُقَـالُ. ولا نعرف هذا الحديثَ مـرفوعا إلا من حـديث هَمَّام، وهَمَّامٌ ثقةٌ حافِظٌ اهـ وقد أرشـد رسول الله ﷺ من لم يستطع من ذوي النشاط الزواجَ أن يصوم فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قـال لنا رسـول الله ﷺ: «يا معشر الشبـاب من استطاع منكـم البـاءة فَلْيتزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ لِلْفَـرْج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَـاءٌ». وبعد هذه الوصية الكـريمة من الله عز وجل برعـاية حقوق يتـامى النساء، وتحذيـر الرجـال من الجَوْرِ على الزوجـات مطلقا فَـرَضَ على الرجال هنا إيتاء النساء صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً حيث يقول عز وجل: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلـة﴾ أي وأَعْطُوا النساءَ مُهُورَهُنَّ عَطِيَّةً واجبةً وفـريضةً لاَزِمَةً، وقد حتمت الشريعـة الإسلاميـة في هذه الآية المهـر للنساء على الـرجال، ولم تُبِحْ لأحَدٍ أن يتزوج بـلا مهر بحال من الأحوال وحرمت نكـاح الشِّغَارِ، وقد أشار الله عـز وجل إلى أنه أذِنَ لنبيهﷺ دون غيره من الأمّـة أن يتزوج من المرأة التي وهبت نفسهـا للنبي ﷺ إن رغب في نكـاحهـا بلا مهـر ولم يجز الله عـز وجل ذلك لغير رسـول الله ﷺ مطلقـا حيث يقـول تبارك وتعـالى: ﴿يـا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنَّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنـاتِ عمك وبنـاتِ عماتك وبنـاتِ خـالك وبنـاتِ خـالاتك الـلاَّتي هَاجَـرْنَ معك وامرأة مـؤمنة إن وَهَبَتْ نَفْسَهَـا للنبي إن أراد النبي أن يستنكحهـا خالصـةً لك من دون المؤمنين، قـد علمنـا ما فـرضْنـا عليهم في أزواجهم ومـا ملكت أيمانهم لكيـلا يكـون عليك حـرج، وكـان الله غفـورا رحيما.﴾ وبتحتيم المهر على الزوج للزوجة وجَعْلِهِ حقا خالصا لها تتصرف فيه

كيف تشاء تكون المرأة في ظل الشريعة الإسلامية قد تميزت على نساء العالمين، لأن كتب العهد القديم وإن كانت قد فرضت للمرأة مهرا لكنها لا تُمَلِّكُهُ لها بالفعل إلا إذا مات زوجُها أو طلَّقَهَا، لأنها لا يحل لها عندهم أن تتصرف في مالها وهي ذات زوج. وفي قوله عز وجل: ﴿نِحْلَةً﴾ إشارة إلى أن هذا المهر عطيَّة من الله للمرأة، كما أنه يجب على الرجل أن يعطي زوجته المهر بطيب نفس منه، والصَّدُقَاتُ جمع صَدُقَةٍ بفتح الصاد وضم الدال وهو اسم من أسماء المَهْر يقال فيه: صَدُقة بفتح الصاد وضم الدال ويقال فيه: صَدَقة بفتح الصاد والدال، ويقال فيه: صَدْقة بفتح الصاد وسكون الدال، وصَدَاق بفتح الصاد وصِداق بكسر الصاد. كما أن النحلة تطلق على العطية من غير عوض عن طيب نفس كما أن في التعبير بها كذلك في هذا المقام إشعارًا بسموٍّ مقصد هذه العطية في الإسلام وقال الزجاج ﴿نحلةً﴾ تَدَيُّنا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا.﴾ أي فإن طابت أَنْفُسُهُنَّ لكم عن شيء من الصداق ووهبنه لكم دون خديعة أو إضرار منكم لهن فخذوه وانتفعوا به، وما أكلتم منه على هذه الصفة فهو هَنِيءٌ مَرِيءٌ، وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وُجُوه التصرفات المالية كما أشرت إلى ذلك قريبا في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ والمقصود من قوله عز وجل: ﴿فكلوه هنيئا مريئا﴾ هو المبالغة في إباحة الانتفاع به وإزالة أية تَبِعَةٍ بسببه، والهنيء المريء هو السائغ الطيب المحمود العاقبة الذي لا تنغيص فيه، الجالبُ للمسرة المزيل للمَضرَّة، والتعبير بقوله: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا﴾ ولم يقل فإن وهبن لكم منه شيئا للتأكيد على ضرورة التأكد من رضا المرأة وأن عطاءها هو عن طيب نفس لا يشوبه إكراه أو خداع من الزوج أو غيره، وهذا في غاية لفت الانتباه إلى صيانة حقوق النساء في الإسلام وإحاطتهن بسياج حصينة تحميهن من

العَبَث بحقوقهن. وقوله عز وجل: ﴿ولاَ تُـؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالكم التي جَعَلَ الله لكم قيـامـا﴾ بعد أن أمـر الله عـز وجل أوصيـاء اليتامى بإيتـاء اليتـامى أموالهم، كما أمر عز وجل بإيتاء النساء صدقاتهن نحلة نَهَى عز وجل هنا عن تمكين السفهـاء مـن التصرف في أمـوالهم، وحـرَّمَ إطـلاق أيـديهم فيهـا، واستبـدادهم بها، مُبَيِّنـاً تبارك وتعـالى أن الله عـز وجل جعل الأمـوال قيامـا للناس، تقـوم عليها معايشهم، وتقوى بها أجسـامهم وأنفسهم، ويَحْصُلُونَ بها على الكثير من مصالح دينهم ودنيـاهم، ويبتعد الإنسان الرشيـد بسببها عن مقعد الحسرة والندامـة ولذلك كثرت وصايا الإسلام بـالمحافظة على المال وصيـانته حتى قطعت يـد السـارق في ربع دينار، وفي قـولـه عز وجل هنـا: ﴿أمـوالكم التي جعل الله لكم قيـامـا﴾ وقـولـه عـز وجل في سـورة المائدة: ﴿جعل الله الكعبـة البيت الحرام قيـامـا للنـاس والشهـر الحرام والهدي والقلائد﴾ إشارة إلى أن قيام الناس وصـلاح معاشهم ومعادهم لا بد فيه من أمرين ضروريين وهما الدين الذي يُقَـوِّمُ أرواحهم والمالُ الذي يُقَوِّمُ أبدانهم، وقد رسم الله عـز وجل للمسلمين أحسن المناهـج للتصرف في الأموال حيث يقـول: ﴿ولا تجعل يـدك مغلولـة إلى عنقك ولا تبسطهـا كُلَّ البسط فتقعـد ملـوما محسـورا﴾ وقـال في وصف عبـاده الصالحين: ﴿والـذين إذا أنفقـوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذٰلك قواما﴾ والسفهاء جمع سفيه، والسَّفَه في اللغة يطلق على معان منهـا: الجنون والجهلُ والطَّيْشُ وخِفَّـةُ العقل وعدمُ الـرشد وصِغَرُ السِّن والانحـراف عن سواء السبيل، وبهذا قد يكون السَّفَـهُ صفةَ ذم كما قد لا يكون صفةَ ذم كصغـر السِّنِّ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ينهى سبحانه عن تمكين السفهـاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياما أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها، ومن هنا يؤخذ الحجرُ على السفهـاء، وهم أقسام، فتـارةً يكون الحجـر للصِّغَرِ فإنَّ الصَّغير

مسلوبُ العبارة، وتارةً يكون الحجرُ للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفَلَس وهو ما إذا أحاطت الديونُ برجل وضاق مالُه عن وفائها اهـ وظاهر السياق يُشْعِرُ أن قوله: ﴿أموالكم﴾ يريد الأموال المملوكة للسفهاء بإرث أو غيره بدليل قوله عز وجل في نفس الآية: ﴿وارزقوهم فيها واكسُوهُم﴾ وإنما جاءت الإضافة للمخاطبين لأنهم هم المسئولون عن التصرف فيها، ولتهييج عواطفهم بشدة المحافظة عليها كما يحافظون على أموالهم التي يمتلكونها، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿ثم أنتم هـٰؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ ومعلومٌ أنَّ الرجل منهم ما كان يقتل نفسه وإنما كان بعضهم يقتل بعضا، كما أن في إضافة الأموال للمخاطبين إفادة نَهْي كل إنسان عن تسليم ماله لسفيه من السفهاء وعن إضاعة المال لأي سبب كان، وهذا من كمال تنبيه الناس إلى أن المالَ هو عَصَبُ الحياة، وأن إتلافه وتبذيره هو من أعمال الشياطين ولذلك قال عز وجل: ﴿إنَّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿التي جعل الله لكم قياما﴾ قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: اعلم أنه تعالى أمر المكلفين في مواضع من كتابه بحفظ الأموال قال تعالى: ﴿ولا تبذِّرْ تبذيرا. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ وقال تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ وقد رغَّبَ الله في حفظ المال في آية المداينة حيث أمر بالكتابة والإشهاد والرهن، والعقلُ أيضا يؤيد ذلك لأن الإنسان ما لم يكن فارغ البال لا يُمْكِنُهُ القيامُ بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكونُ فارغ البال إلا بواسطة المال، لأنه به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار، فمن أراد الدنيا بهذا الغَرَضِ كانت

الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المُعِينَـةِ له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المُعَوِّقات عن كسب سعادة الآخرة اهـ وقوله عز وجل: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ أي أَجْرُوا عليهم ما يحتاجونه من الطعام والمسكن والكُسوة من هذه الأموال التي لهم تحت أيديكم وتصرفكم، وإنما قال عز وجل: ﴿وارزقوهم فيها﴾ ولم يقل: وارزقوهم منها، إشارة إلى أنه ينبغي لمن تحت يده أموالُ السفهاء أن يسعى في إنمائها بالوجوه المشروعة كالاتجار بها واستثمارها لتكون نفقة السفيه من أرباحها لا من أصولها، وقوله عز وجل: ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أي وأحسنوا كلامكم مع السفهاء وقولوا لهم قولا جميلا يؤثر في القلب فيزيل السفه أو يقلصه لأن القول غيرَ الجميل لا يزيد السفيه إلا سَفَهاً، وقد تؤثر الكلمة الحسنة اللينة الجميلة في نفس السفيه تأثيرا تجعله من أرشد الراشدين.

قال تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاحَ فإن آنستم منهم رشْداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبدارا أن يكبروا، ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم، وكفى بالله حسيبا. للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثر، نصيبا مفروضاً﴾.

بعد أن نَهَى الله تبارك وتعالى أولياءَ السفهاء عن تمكين السفهاء من الاستبداد بأموالهم وأمرهم أن يرزقوهم فيها ويكسوهم ويقولوا لهم قولا معروفا، أمر هنا أوصياء اليتامى بتدريب من تحت أيديهم من اليتامى على حسن التصرف في المال بأن يعطوهم قليلا من المال ويأذَنُوا لهم في التصرف فيه لاختبارهم ومعرفة مَنْ يحسن التصرف، ومن يسيء التصرف فإن نمّاه وأحسن التصرف فيه كان ذلك أمارةَ نجابته وتوسم الخير فيه، وإن أساء التصرف فيه وبذّره وبدَّدَهُ كان ذلك أمارةَ تَمَكُّنِ السفه منه، على أنه إذا نجح هذا اليتيم في الاختبار وأحسنَ التصرف في المال فإنه لا يجوز دفع جميع ماله له إلا بشرطين: هما بُلُوغُ الحُلُم وإيناس الرشد وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بَلَغُوا النكاحَ فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعُوا إليهم أموالهم﴾ أي واختبروا أيها الأوصياء يتاماكم قبل بلوغهم الحُلُم بتدريبهم على التصرف في قليل من المال تحت إشرافكم فإذا بلغوا الحُلُمَ وأدركوا السن الذي يصلحون فيه للنكاح والإنجاب، وعلمتم منهم الرشد بما أبصرتموه من حسن تصرفهم فيما اختبرتموهم به من المال القليل، وأنهم صاروا أهلا للتصرف في جملة أموالهم، فادفعوا أموالهم إليهم. ولا شك أن اختبار اليتامى يتفاوت بحسب بيئتهم وظروف حياتهم وما يليق بحالهم، فإن كانوا من أهل التجارة

فيكـون اختبارهم وتـدريبُهُم في البيع والشراء، وإن كانـوا من أهل الزراعـة فيكـون اختبـارهـم وتـدريبهم في هــذا الشأن وكـذلك الصُّنَّـاع وأصحـاب الحرف، وسائر الأمور التي يُعْرَفُ به نجابةُ اليتيم أو سفاهته. وبلوغ النكاح يكون بالاحتلام وهـو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الـدافق الذي يكون منه الـولد وهـو المني وإذا استيقظ رأى ذلك في ثيـابـه، كما قـال تبارك وتعـالى: ﴿وإذا بَلَغَ الأطفـالُ منكم الحُلُمَ فليستأذنـوا كما استأذن الـذين من قبلهم﴾ وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية ثلاثة أشيـاء يُعْرَفُ بها بلوغ النكاح في الذكور والإناث، وشَيْئَيْنِ يُعْرَفُ بأي واحد منهما البلوغُ في الإنـاث، فالأشياء الثلاثة المشتركة بين الذكـور والإناث هي الاحتلامُ أو بلـوغ خمس عشرة سنة أو نبات الشعرِ الخشن المعـروف بالعانـة، وأما يختص بالإنـاث فهو الحيض والحَبَل.

وقد روى البخاري في صحيحه من طريق نافع قال حدثني ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عَـرَضَهُ يوم أُحُد وهـو ابن أَرْبَعَ عَشَرَةَ سنةً فلم يُجِزْنِي، ثم عَـرَضَنِي يـوم الخنـدق وأنا ابـن خمس عشرة سنةً فأجـازني، قـال نـافعٌ: فَقَدِمْتُ على عمر بن عبـدالعزيز وهو خليفةٌ، فَحَدَّثْتُـهُ هذا الحديث فقال: إنَّ هـذا لَحَدٌّ بين الصغير والكبير، وكتب إلى عُمَّالِهِ أن يَفْـرِضُـوا لمن بَلغ خمس عشرةَ. وقال أبو داود: حـدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيـان أخبرنا عبدالملك ابن عمير حـدثني عطية القُـرَظِيُّ قال: كنـت من سَبْي بني قريظـة فكانـوا ينظـرون فمـن أنبت الشعـرَ قُتل ومَنْ لم يُنْبِتْ لم يُقْتَـلْ فكنتُ فيمن لم يُنْبِت. حـدثنا مسـدد ثنـا أبـو عوانـة عن عبـدالملك بن عمير بهذا الحديث قـال: فكَشَفُـوا عانتي فَـوجَـدُوهَـا لم تنبت فجعلوني في السَّبي، وروى ابـن ماجـه والترمذي وقـال: هذا حديث حسن صحيح من طـريق عبدالملك بن عمير عن عطية القرظيِّ قال: عُرِضْنَا على النبي ﷺ يوم قريظة فكان مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ ومن لم يُنْبِتْ خُلِّيَ سبيلُه، فكنتُ ممن لم يُنْبِتْ فَخُلِّيَ سبيلي. وأورد النسائي في

باب متى يقع طلاقُ الصبي، من طريق عبد الملك بن عمير عن عطية القرظيِّ قال: كنت يوم حُكْمِ سَعْدٍ في بني قريظة غلاما، فَشَكُّوا فِيَّ، فلم يجدوني أَنْبَتُّ فاسْتُبْقيتُ فها أنَا ذا بَيْنَ أَظْهُرِكُم. اهـ وقد أجمع العلماء على أن حيض الأنثى أو حَبَلَهَا يُعْتَبَرُ بُلُوغا، وفي التعبير بالدفع في قوله عز وجل: ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ تنبيه إلى وجوب الإعطاء بالفعل وعدم جواز التأخير، وقوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوها إسرافا وبِدَارا أن يَكْبَرُوا﴾ هو تأكيد للأمر بالدفع وتقرير له وتشديد في النهي عن حبسها عنهم، وإشارة إلى جواز أكل الوصي من مال اليتيم بالمعروف عندما يكون الوصي فقيراً، وقد نَهَى الله عز وجل هنا عن أمرين: الأول تحريم أكل الوصي من مال اليتيم على طريق الإسراف، والثاني تحريم أكل الوصي من مال اليتيم على طريق الاغتنام منه قبل بلوغ اليتيم وقبل انتزاعه من الوصي، وأصل الإسراف تجاوزُ الحد المباح إلى ما لم يبح على طريق الإفراط، وقوله عز وجل: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ هذا تصريح بجواز أكل الوصي الفقير من مال اليتيم بالمعروف بعد التلويح بذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوها إسرافا﴾ كما ذكرتُ ذلك قريباً، وقد أخرج البخاري في التفسير من طريق هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ومنْ كان غنِيا فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كان فقيرا فَلْيَأْكُل بالمعروف﴾ أنها نَزَلَتْ في مال اليتيم، إذا كان فقيرا أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. وأخرج البخاري في البيوع في باب (من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والكيل والوزن) من طريق هشام بن عروة عن أبيه أنه سمع عائشة رضي الله عنها تقول: ﴿ومن كان غنيا فَلْيَسْتَعفِفْ ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ أنزلت في والي اليتيم الذي يُقيم عليه ويُصلح في ماله، إن كان فقيرا أكل منه بالمعروف. وأخرجه مسلم في التفسير من صحيحه من

طريق عَبْدَةَ بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالت: أنزلت في والي مال اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. ثم أخرجه من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله تعالى: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالت: أنزلت في ولي اليتيم أن يُصيبَ من ماله إذا كان محتاجاً بقدر مالِهِ بالمعروف. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ أي فإذا أعطيتم يا معشر ولاة اليتامى أموال الذين بَلَغُوا من اليتامى النكاح وبعد إيناس الرشد منهم وسَلَّمتوهم أموالهم بالفعل فأشهدوا عليهم باستيفائهم ذلك منكم وأنكم قد برئتم من عهدة أموالهم التي كانت تحت أيديكم لهم. وبهذا النظام الدقيق المحكم في حفظ أموال اليتامى وهي تحت يد الوصي، وفي صيانتها فلا تُسلَّمُ لليتيم إلا بعد بلوغ النكاح وإيناس رُشْدِه وفي التنبيه على الإشهاد عند الاستيفاء، وأن الوصي قد برئت ذمته، مع الوصايا السابقة المحكمة المُتْقَنَةِ برعاية حقوق اليتامى وحقوق النساء في هذا المقام الكريم من سورة النساء مع ما سيجيء من التشريعات السامية والأنظمة الدقيقة البديعة التي ترسم للإنسانية أكرمَ المناهج وأحْكَمَ الأنظمة، قد سَمَتْ شريعة الإسلام فوق كل تشريع، وارتفعت على كل نظام، ومن أَحْسَنُ من الله حكما لقوم يوقنون. وقوله عز وجل: ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ دليل على ما امتازت به الشرائع السماوية على الأنظمة الأرضية، إذ أن من أبرز الفروق بين التشريعات السماوية وبين القوانين الوضعية أن الشريعة لا تقتصر على مجرد وضع النظام الرشيد السَّديد بل تعمل على تربية النفس على الخوف من الله عز وجل وأن مَنْ يخالف تشريع الله يتعرَّضُ لِسَخَطِ الله ومقته وغضبه، فيكون الإنسان رقيبا على نفسه في تطبيق شرع الله، بخلاف الأنظمة الوضعية

فإنها لا تلتفت إلى ذلك ولا تقدر عليه، فلو فُرِضَ أن المسلمَ كانَ في صحراء خاليةٍ، بعيدا عن أعين الناس، ورأى إحدى المغريات المحرمة عليه، فإنه لا يعتبر نفسه خاليا، لعلمه أن عين الرقيب الحسيب تراقب حركاته وسكناته كما قال الشاعر:

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خَلَوتُ ولكن قل: عَلَيَّ رقيبُ

ففي تذييل هذه الآية الكريمة المشتملة على هذه التشريعات الرشيدة السديدة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ لفت انتباه إلى هذه الحقيقة، حيث ذَيَّلَها بهذا الوعيد الشديد لمن جَحَدَ الحقَّ أو ظَلَمَ الخَلْقَ، والحسيب تأتي بمعنى المحاسب وبمعنى الكافي، إذ يقول الإنسان لمن ظلمه: حَسْبُهُ الله، أي يحاسبه الله على ما يفعل من الظلم، وتقول: حسيبك الله وحسبُكَ أي كافيك، وهذا الوعيد لولي اليتيم إعلام له أن الله تعالى مُطَّلعٌ عليه يَعْلَمُ باطنه كما يعلم ظاهره حتى يَحْذَر من تضييع شيء من مال اليتيم كما أن فيه وعيدا لمن بلغ من اليتامى واستوفى حقه من وصيه حتى يحذر من أن ينكر شيئا قد استوفاه من وصيه ويدعي عليه ما ليس له بحق. كما أن فيه وعيدا للشهود حتى يحذروا من تغيير الشهادة أو كتمانها، وقوله عز وجل: ﴿للرجال نَصيبٌ مما تَرَكَ الوالدان والأقربون وللنساء نَصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قَلَّ منه أو كثر، نصيبا مَفْرُوضاً﴾ شروع في إبطال ما كان عليه عادةُ أهل الجاهلية من حرمان النساء والأطفال من الميراث حيث كانوا يقولون: إنما يرث من يَحْمِي الذمار ويدافع عن القبيل ويحوز الغنائم. ولما كان إخراج الناس عن عاداتهم يشق عليهم تدرج الإسلام في إثبات حق النساء والأطفال في الميراث، لِيَسْهُلَ على المسلمين تَلَقِّيه، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بيَّن فيها أن الإرث غيرُ مُخْتَصٍّ بالرجال بل هو مشترك بين الكبار والصغار من الذكور والإناث سواء كان الميتُ والدا أو

قريبا ثمَّ أكَّد عز وجل هذا الحقَّ بقوله: ﴿مما قلَّ منه أو كَثُرَ﴾ حتى لا يختص الرجال بأدوات الموتى من الرجال بل صار للأنثى حق في فرس الرجل وسيفه، وعباءته وعمامته، ورمحه ونعله وعصاه. ثم أكَّد عز وجل ذلك بقوله: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي حظا مُحَتَّما لا بد من تسليمه لمستحقه، كما أن في تخصيص النساء بالذكر والنصيب كالرجال للإيذان بأصالتهن في استحقاق الميراث، واقْتُصِرَ في هذه الآية الكريمة على مجرد إثبات حق الرجال والنساء في الميراث وأنه نصيب مفروض، وذكر ذلك على سبيل الإجمال لتتَشَوَّفَ النفوس إلى معرفته وتستعد لتلقّيهِ.

قال تعالى: ﴿وإذا حَضَر القسمة أُولُواْ القربى واليتامى والمساكين فارْزُقُوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا. ولْيخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا. إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا. يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كنَّ نساء فوق اثنتين فلهن ثُلُثا ما تَرَكَ و إن كانت واحدة فلها النِّصف، ولأبويه لكل واحد منهما السُّدُسُ مما ترك إن كان له ولدٌ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة فلأمه السُّدس، من بعد وصية يوصِي بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا، فريضة من الله، إنَّ الله كان عليما حكيما﴾

بعد أن مَهَّدَ الله تبارك وتعالى لبيان أنصبة المواريث وأثبت حق النساء في الميراث وأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان النساء من الميراث لَفَتَ عز وجل هنا انتباه الناس إلى أن بعض الأقارب لا يرثون مع أنهم قد يشتركون في الحزن على الميت للقرابة التي بينهم وبينه، فأمر عز وجل بمنح من حضر قسمة التركة من الأقارب الذين لا يرثون جَبْراً لخواطرهم شيئا يسيرا من التركة عند قسمتها لا سيما إذا كان الميت لم يوص لهم بشيء من التركة، وذلك إذا كان الورثة كبارا بالغين راشدين ممن يحق لهم مثل هذا التصرف، لما في ذلك من حسن العشرة والأدب الجميل وصلة الأرحام، وكذلك بمنح من حضر القسمة من اليتامى والمساكين إشاعة للإحسان ورحمةً بهؤلاء حيث قال عز وجل: ﴿وإذا حضر القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراءُ من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل فإنَّ أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوْا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شيءَ

يُعْطَوْنَه، فأمر الله تعالى وهو الرءوف الرحيم أن يُرضَخ لهم شيءٌ من الوسط يكون براً بِهِمْ، وصدقةً عليهم، وإحسانا إليهم، وَجَبْراً لِكَسْرِهم اهـ وقد قال البخاري في صحيحه باب ﴿وإذا حَضَرَ القسمة أوْلوا القربى واليتامى والمساكينُ﴾ الآية، حدثنا أحمد بن حُمَيْد أخبرنا عُبَيْدُ الله الأشجَعِيُّ عن سفيانَ عن الشيباني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وإذا حضر القسمةَ أوْلوا القربى واليتامى والمساكين﴾ قال: هي مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة. تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقولُ البخاري هنا: تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس قد وصله البخاري في كتاب الوصايا حيث قال: بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمة أوْلوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ حدثنا محمد بن الفضل أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نُسِخَتْ، ولا والله ما نُسِخَتْ ولكنَّها مما تهاونَ الناسُ، هما واليان: والٍ يرث وذاك الذي يرزقُ، ووالٍ لا يرث فذاك الذي يقول بالمعروف، يقول: لا أملك لك أن أُعطيك اهـ وقولُ ابن عباس رضي الله عنهما: ولكنهما مما تَهَاوَنَ الناسُ. يَدُلُّ على أن الأمر في قوله عز وجل: ﴿فارزقوهم منه﴾ للإرشاد والاستحباب لا للإيجاب لأنه لو كان للإيجاب ما تهاون الناس وهم من السلف الصالح رضي الله عنهم الذين كانوا أحرص الناس على أداء الواجب وعمل الخير، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا.﴾ هذا تحذير وتخويف لولاة اليتامى وأمرٌ لهم بالحِرصِ الشديد على مصالح اليتامى ورعايتهم في أموالهم وأبدانهم وأخلاقهم وسلوكهم، وأن يكونوا لهم كما يكون الأب الرحيم لولده البارّ، ويُنَبِّهُهُم إلى أنَّه كما يَدِينُ الإنسانُ يُدَانُ، فَلْيَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِهم صُورةً يَتَخَيَّلُون فيها أنهم في سياقة

الموت وأنهم يُخلفون وراءهم ذريةً صغارا عاجزين، فهل يرضون أن يقوم الأوصياء على ذريتهم الصغار الضِّعاف بالإساءة إليهم والتقصير في رعايتهم وأكل أموالهم إسرافاً وبداراً أن يكبروا؟ وما دام لا يرضى أحد لنفسه بذلك فلا يجوز له أن يرضى لأيتام غيره الذين هم تحت ولايته بذلك بل عليه أن يعاملهم كما يحب أن تُعَامَلُ ذريته الضِّعَافُ من بعده، فَلْيتق الله عز وجل في أيتام غيره الذين جعلهم الله عز وجل تحت ولايته وليحسن إليهم في تربيتهم وتعليمهم ومراعاة حسن سيرتهم وسلوكهم، وليحافظ على سلامة أموالهم وأبدانهم وأن يرعاهم كما يرعى أبناءه وذريته، وأن يعدل فيهم بالفِعْلِ والقَول السديد الرشيد وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا.﴾ هذه هي الآية الأخيرة من الآيات التي ساقها الله عز وجل في صدر هذه السورة المباركة التي يوصي عز وجل فيها عباده بوجوب رعاية اليتامى والمحافظة على حقوقهم، وصيانة أموالهم، وأبدانهم وأخلاقهم، وقد توعَّد الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما سواءٌ كانوا أوصياء عليهم أو كانوا غير أوصياء بأنهم سيصلون سعيرا وأن الذي يأكلونه من أموال اليتامى ظلما هو نار يدخلونها في بطونهم بأنفسهم، ومعنى قوله عز وجل ﴿ظلْما﴾ أي بغير حق، وقوله عز وجل: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ هو غاية قصوى في التقبيح والتنفير، كما أن قوله عز وجل: ﴿وسيصلون سعيرا﴾ هو غاية قصوى في التهديد والوعيد، ومعنى: ﴿وسيصلون سعيرا.﴾ أي وسيدخلون نارا هائلة محرقة متَّقِدة مشْتَعِلة ذات لَهبٍ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن أكل مال اليتم ظلما من أكبر الكبائر حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إنه كان حوبا كبيرا.﴾ وقال: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ وقال: ﴿وسيصلون سعيرا.﴾ وقد حذَّر الله عز وجل من قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حيث يقول

تبارك وتعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ في سُورَتي الأنعام والإسراء، وقد عـدَّ رسول الله ﷺ أكل مال اليتيم في السبع الموبقـات فقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: اجتنبوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قالـوا: يا رسول الله وما هنَّ؟ قـال: الشركُ بالله والسِّحْرُ وقتل النفس التى حـرَّمَ الله إلا بالحق وأكْلُ الـربا، وأكـل مال اليتيم، والتَّـولِّي يـوم الزحـف، وقَذْف المُحْصَنَـاتِ المؤمنات الغافلات. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملـة في قوله عز وجل: ﴿للرجـال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما تـرك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كَثُـرَ، نصيبـا مفـروضا.﴾ وقـد أحكم الله تبـارك وتعـالى الميراث لـلأولاد ولـلآباء، ولـلأزواج، وللكلالـة، ولما كان ميراث الأولاد والآبـاء والأزواج لا يسقط بحال قَـدَّم الله بيان أحكام ميراث الأولاد ذكورا وإناثـا والآباء، حيث قـال عـز وجل: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم للـذكـر مثل حظ الأنثيين﴾ أي يأمـركم الله عـز وجل ويعهـد إليكـم ويفـرض عليكم في شأن مـا يستحقـه أولادُكم من تركاتكم وأمـوالكم بعد موتكم، وقوله عـز وجل: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ جملة مسـوقة لبيـان الوصيـة وتفسيرها، أي للذكـر منهم مثل نصيب الأنثيين فإذا خَلَّفَ الميت ذكـرا واحـدا وأنثى واحـدة فللذكـر سهمان وللأنثى سهم، وإذا كان الـوارث جماعة من الذكور وجماعـة من الإناث كان لكل ذكـــر سهمان ولكل أنثى سهـم، وإذا حصل مع الأولاد وارث آخـــر كالأبـوين وأحد الـزوجين فهم يأخذون سهـامهم ويكون البـاقي بين الأولاد للـذكـر مثل حظ الأنثيين، ومن حكمـة جعـل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل أن الشريعـة الإسلامية الغـراء أوجبت على الرجل أن ينفق على المرأة، فبهذا يكـون نصيبها في الميراث مسـاويا لنصيب الرجل تـارة وقد تكـون أوفر

حظًّا منه، فلو فرضنا أن ميتـا مات عن ولدين: ذكر وأنثى وترك ثلثمائة ألف مثلا كـان للذكر مـائتا ألف وللأنثـى مائة ألف. فإذا تزوج هـو فإنَّ عليه أن يعطي امرأته مهرا، وأن يعد لها مسكنا، وأن ينفق عليها من ماله سواء كانت فقيرة أو غنية ففي هـذه الحالة كـانت ماليته بينـه وبين زوجته فيكـون نصيبه بالفعل مسـاويا لنصيب أخته، وقـد يكون أقلَّ منه على أنه إذا وُلِـدَ له أولاد يكون عليـه نفقتهم وليس على أمهم منهـا شيء، وأما أخته فإنها إن تـزوجت أخذت مهـرا من زوجها، وتكون نفقتهـا على بعلها، ويمكن أن تستثمـر ما ورثته من أبيهـا وتُنَمِّيَه لنفسها دون أن تطـالَبَ بنفقات على بيت الـزوجية أو على أولادها، ولله الحكمـة البالغـة، وقولـه عز وجل: ﴿فإن كنَّ نسـاءً فوق اثنتين فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما ترك وإن كانت واحدةً فلها النِّصْفُ﴾ أي وإن مات الميتُ وخَلَّفَ بنتين فما فوق فلهما أو فلهن ثُلثَـا التركة، وإن كان خلَّف بنتـا واحدة فلها نصف التركة، ويُفْهَـمُ من ذلك أنه لو خلَّفَ ولداً واحداً فقـط كانت له التركة كلُّهـا وفي التنصيص على النساء إبطال لما كـــان عليـه أهل الجاهلـية من حـرمان النسـاء من الميراث، وفي هـذا التعبير لون من الإعجـاز والإيجاز بليغ، وإذا كان الله عـز وجل قد جعل لـلأخت الواحـدة النصف وللأختين الثلثين في قوله عز وجل: ﴿إن امرؤ هَلَكَ ليـس له ولد وله أخت فلها نصف ما تـرك وهو يرثها إن لم يكن لها ولـد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان ممـا ترك﴾ فإنَّ البنتين أولى من الأختين بأن يكـــون لهما الثلثـان، والقـرآن العظيم يفسر بعضه بعضا، وقـد تفطن البخاري رحمه الله لذلك فأورد حديـث جابر رضي الله عنـه في تـوريث الأختين الثلثين تحت قـولـه تعـالى: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية للدلالة على أن للبنتين الثلثين كالأختين حيث قال البخاري: باب قوله ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ حدثنـا إبراهيم بنُ موسى حدثنا هشام أن ابن جُرَيج أخبرهم قال أخبرني ابنُ المنكدر عن جـابر رضي الله عنه قال:

عادني النبي ﷺ وأبـو بكر في بنِي سلِمةَ ماشيين فـوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئا فدعا بماء فتـوضأ منه ثم رشَّ عليَّ فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يـا رسول الله فنزلت: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وقـد رواه مسلم أيضا قـال شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله: وأما ميراث البنتين فقـد قال تعـالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ وإن كانت واحدةً فلها النصف﴾ فدَلَّ القرآن على أن البنت لها مع أخيها الـذكر الثلث، ولها وحـدها النصف، ولما فـوق اثنتين الثلثان، بقيت البنت إذا كان لها مع الـذكر الثلث لا الـربع، فأن يكون لها مع الأنثى الثلث لا الـربع أولى وأحرى، ولأنـه قـال: ﴿وإن كـانت واحـدة فلهـا النصف﴾ فقيد النصف بكونها واحدةً فَـدَلَّ بمفهومه على أنه لا يكون لها إلا مع هـذا الوصف، بخـلاف قوله ﴿وإن كنَّ نساء﴾ ذكـر ضمير ﴿كنَّ﴾ و ﴿نســاءً﴾ وذلك جمع، لم يمكن أن يقــال: اثنتين، لأن ضمير الجمع لا يختص باثنتين، ولأن الحكم لا يختص باثنتين فلـزم أن يقال: ﴿فوق اثنتين﴾ لأنه قد عُرِفَ حكم الثنتين، وعُرِفَ حكم الواحدة، وإذا كانت واحدة فلها النصف، ولما فـوق الثنتين الثلثان، امتنـع أن يكون للبنتين أكثر من الثلثين فـلا يكـون لهما جميع المال، لكل واحـدة النصف فإنَّ الثـلاث ليس لهن إلا الثلثان. ثم قـال رحمه الله: وأيضا فإن الله لما قال في الأخوات: ﴿وإن كـانتا اثنتين فلهما الثُلثـان ممـا تـرك﴾ كـان دليـلا على أن البنتين أولى بـالثلثين من الأختين ثم اسْتَشْهَد رحمه الله بسنة رسول الله ﷺ حيث أعطى ابنتي سعد بن الربيع الثلثين ثم قـال: وهذا إجماع لا يصح فيـه خلافٌ عن ابن عبـاس اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولأبويه لكل واحـد منهما السُّدُسُ مما ترك إن كان له ولد﴾ أي وإذا كان للميت أبـوان وأولاد فيفرض لكل واحد من الأبـوين السُّدُسُ، فإن لم يكن للميت إلا بنتٌ واحـدة فُرِضَ لها النصف ولـلأبوين لكل واحـد منهما السُّدُسُ، وأخـذ الأبُ السدسَ الباقي بالتعصيب، فَيُجْمَعُ لـه في هذه

الحالة بين الفرض والتعصيب، وقوله عز وجل: ﴿فإن لم يكن له ولدٌ وَوَرِثه أبواه فلأمه الثُّلثُ﴾ أي فإن لم يكن للميت ولد ذكر أو أنثى وانفرد الأبوان بالميراث فيفرض للأم ثلث التركة ويكون الباقي للأب بالتعصيب المحض. أما إذا لم ينفرد الأبوان بالميراث بأن كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوجُ النصف وإن كانت زوجة أخذت الربع ويكون الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة للأم ثلثه وللأب ثلثاه، وبهذا أفتى عمر وعثمان وأصح الروايتين عن علي وبه يقول زيد بنُ ثابت وابن مسعود وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة، وقوله عز وجل: ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السُّدُسُ﴾ هذا هو الحال الثالث من أحوال الأبوين وهو اجتماعهما مع الإخوة سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا ولكنهم مع ذلك يَحْجُبُون الأم من الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس فإن لم يكن للميت وارث سوى الأبوين أخذت الأم السدس وأخذ الأب الباقي من التركة، ويكاد الإجماع ينعقد على أن الأخَويْنِ كالإخوة في حجب الأم عن الثلث إلى السدس، وقوله عز وجل: ﴿من بعد وصية يُوصي بها أو دين﴾ أي إن تقسيم التركة إنما يتم بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصية الشرعية وقد حكى ابن جرير إجماع الأمة على ذلك وقال ابن كثير: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدينَ مقدم على الوصيةاهـ وإنما قدمت الوصية في الذكر وإن كانت مؤخرة عن الدين في الوفاء للاهتمام بها وتحريص الورثة على تنفيذها، وقوله عز وجل: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيُّهم أقرب لكم نفعاً، فريضةً من الله، إن الله كان عليما حكيما.﴾ أي إنكم يَخْفَى عليكم في حقيقة الأمر مَنْ هو الأنْفَعُ لكم في دنياكم وأخراكم أيأتيكم هذا النفع من جهة آبائكم أو من جهة أبنائكم فقد يكون الأب أنفع وقد يكون الابن أنفع فاقتضت حكمة الحكيم العليم أن يفرض هذه الفرائض بحكمته البالغة على هذا المنهج العظيم والتقسيم البديع.

قال تعالى : ﴿ولكم نصف ما تـرك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ، مـن بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تـركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن ممـا تركتم ، من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحـد منهما السُّدس ، فإن كـانـوا أكثر من ذٰلك فهم شركـاء فى الثلث ، من بعـد وصيـة يُوصَى بها أو دين غير مُضَـارٍّ، وصيـة من الله ، والله عليم حليم . تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتهـا الأنهار خالـدين فيها ، وذٰلك الفـوز العظيم . ومن يعص الله ورسولـه ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين .﴾

بعد أن أوضح الله تبـارك وتعالى أنصبة الأولاد ذكورا وإنـاثا من ميراثهم في تركـة والدهم ، وبيَّن كذلك نصيب الأبوين من ميراثهما من ولـدهما شَرَعَ هنا يُفَصِّل ميراثَ الزوج من زوجته وميراثَ الزوجة من زوجها ، ثم ميراثَ الإخوة لأمٍّ ، وبـدأ عز وجل ببيـان نصيب الزوج من ميراثـه في زوجته حيث يقـول : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولـد ، فإن كان لهن ولد فلكم الـربع مما تـركن﴾ يعني عز وجـل أن الزوج يستحق من تـركة زوجتـه نصف التركة إذا كـانت الزوجـة ماتت ولم تترك ولـدا أو ولدَ ولـدِ مهما تَسَلْسَلَ ، فإن كانت الزوجـة الميتة تركت ولداً أو وَلَدَ وَلَـدِ مهما تَسَلْسَلَ ، ذكرا كان أو أنثى ، واحدا كـان أو أكثر، وسـواء كان الولـد من هذا الـزوج أو من زوج آخر فإنَّ الزوج يستحق ربع تركة زوجته التي تركـت ولدا ، وقوله عز وجل : ﴿من بعد وصيـة يوصين بها أو دين﴾ أي إنما يستحق الـزوج هـذا النصيب من الميراث بعد سـداد دين الميت وتنفيذ وصيته ، وقـد ذكرت في تفسير الآية السـابقة أن الإجماع منعقد على تقديم الدَّيْنِ على الوصيـة وأشرت إلى سبب تقديم الوصية

في الذكر على الدين وأن ذلك لـلاهتمام بها وتحريص الورثة على تنفيذها، ولا سيما أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكـان إخراجها شاقا على الورثة كما أن في تقديم الـوصية على الدين في الـذكر تذكيرا بنعمـة الله عز وجل على الميت حيث أطعمه الله عز وجل من ماله نصيبا يتقرب به إلى الله عز وجل في أبواب الخير التي يوصي فيها الميت ليستدرك ما فاته أيام مُهْلته، حتى لا ينقطع عنه ثواب العمل الصالح بعد موتـه، حيث إن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، منها الصدقة الجارية، وقـد جمع الله عز وجل بين الوصية والدين لِيَعْرِفَ المسلمون أن سهام الورثة إنما تعتبر بعـد الوصية كما تعتبر بعد الدين، ومن مظاهـر تقديم الدين على الـوصية أن الدَّيْنَ لو استغـرق التركة سقطت الوصية وسقط حقّ الورثة في الميراث. وقوله عز وجل: ﴿ولهنَّ الرُّبع مما تركتم إنْ لم يكن لكم ولدٌ، فإن كان لكم ولد فلهنَّ الثمنُ مما تركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ يعنـي عز وجل أن الزوجة تستحق من تـركة زوجها ربع التركة إذا كان الزوج قد مات ولم يترك ولداً أو وَلَدَ ولَدِ مهما تسلسل، فإن كان الزوج الميـت تَرَكَ ولداً أو ولَـدَ وَلَدِ مهما تسلسـل، ذكرا كان أو أنثـى، واحداً كان أو أكثـر، وسواء كـان الولد من الـزوجة الـوارثة أو من زوجـة أخرى فإن الـزوجة إنما تـرث الثمن فقط مـا دام زوجها الميت قـد تـرك ولدا، وقـد أجمع العلماء على أن الزوج إنْ مات وتـرك زوجة واحدة فلها هذا الـذي ذكر الله عز وجل من الربع عنـد عدم الولد للـزوج أو الثمن عند وجود الولـد للزوج فإن كان الميت تـرك زوجتين أو ثلاثا أو أربعـا فإنهن يشتركن جميعا في هـذا الذي فرض الله عز وجل من الربع أو الثمن فهو فرض الزوجة الواحدة أو الزوجتين أو الثـلاث أو الأربع. ولا خـلاف في ذلك عنـد أهل العلم، وقـولـه تبـارك وتعالى: ﴿وإن كان رجـلٌ يورَثُ كَلاَلَةً أو امرأة ولـه أَخٌ أو أختٌ فلِكلِّ واحدٍ منهـا السُّـدس، فإن كـانـوا أكثـر من ذٰلك فهم شركـاء في الثُّلث.﴾ أصلُ

الكَلاَلَةِ في اللغة يطلق على معانٍ كثيرة مختلفة منها الإعياء ومنه قولُ الأعشى :

فأَلَيْتُ لا أَرْثَـى لها من كَــلاَلَـــةٍ ولا من حَفى حتى تلاقى محمــدا

وقيل هي من قولهم : تكلَّلـه الشيء إذا أحاط به ومنه الإكليل وهـو التاج والعصابة المحيطة بالرأس وكما قال امرؤ القيس :

أَصَـاحِ تَـرَى بَرْقـاً أُرِيكَ وَمِيضَــهُ كَلَمْـعِ اليَـدَيْـنِ في حَبِيٍّ مُكَـلَّـــلِ

وقد ذكـر الله تبارك وتعـالى ميراث الكلالة في مـوضعين من كتابـه الكريم حيث قال عـز وجل هنا : ﴿وإن كان رجل يـورث كَلاَلَة أو امـرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السُّدس﴾ والموضع الثاني في آخر آية من سورة النساء وهي الآية المعـروفة بآيـة الصيف حيث يقول عـز وجل : ﴿يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكَلاَلَة ، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخـوةً رجالا ونسـاءً فَلِلـذَّكَرِ مثْلُ حظ الأنثيين .﴾ وقـد أجمع العلماءُ على أن الإخوة في الموضع الأول هم الإخوة للأم لقـوله تبارك وتعالى : ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ ولا خلاف بين أهل العلم على أنَّ الإخوة للأب والأم أو الأخوة لأب ليس ميراثهم كذلك وأن المراد بـالإخوة في آية الصيف هم الإخـوة الأشقاء أو الإخوة لأب حيث ترث الأخت المنفردة النصف من أخيهـا الذي ليس له ولد وإذا انفرد الأخ ورث جميع تـركة أخته التي مـاتت وليس لها ولد ، ولا شك أن الأخ لا يـرث شيئا أبـدا من ميراث أخته التي ليس لها ولـد إذا كان لها والـد ، فـاتضح من الآيتين الكريمتين أن الكـلالة هـو من مـات وليس له والـد ولا ولـد ، ودلت الآيتان على أن الإخـوة كلَّهم كـلالة ، قـال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿فلكل واحد منها السُّدسُ ، فإن كانوا أكثر من ذٰلك فهم شركاء في الثلث﴾ : وإخـوة الأم يخالفون بقية الـورثة من وجوه : أحـدها أنهم يـرثون من أدلـوا به وهي الأم ، والثـاني : أن ذكورهم وإنـاثهم في الميراث

سواء، والثالث: لا يرثون إلا إن كان مَيِّتُهُم يُورَثُ كَلاَلَةً فلا يرثون مع أبٍ ولا جَدٍّ ولا وَلَدٍ ولا ولَدِ ابنٍ، الرابع: أنهم لا يُزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي وإن كان الميتُ المُورِّثُ لا والد له ولا ولد سواء كان ذكرا أو أنثى وقد خلَّف هذا الميتُ وارءه أخاً لأمه أو أختًا لأمه فإن نصيب الأخ من الأم أو الأخت هو السدس من التركة لكل واحد منهما، فإن كان الإخوة لأم أكْثَرَ من ذلك مهما كان عددهم. فليس لهم من التركة إلا الثلث يشتركون فيه بالتساوي، الأنثى والذكر فيه سواء، وقوله عز وجل: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غَير مضارٍّ﴾ تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن الوارث إنما يستحق نصيبه الذي جعله الله عز وجل له بعد سداد دين الميت وتنفيذ وصيته، حيث ذكر ذلك في آيتي المواريث هنا أربع مرات وقد قيد في المرة الرابعة بقيد عدم المضارة للورثة من الموصي، وهذا القيد مرادٌ في المرات الثلاث السابقة فلا يجوز للموصي أن يدخل الضرر على الورثة كأن يوصي لوارث أو يوصى بما زاد على الثلث، أو أن تكون وصيته لقصد الإضرار بالورثة دون قصد القربة إلى الله عز وجل، أو أن يُقر بدينٍ كاذبًا أو أن يُوصى في مرض الموت بدين ليس عليه ليضر بالورثة أو ببعضهم، وبهذا التشريع المحكم المتقن تُصان حقوقُ الورثة كما تصان حقوقُ مُورثيهم، فما أجمل وأدقَ وأعظم هذا التشريع الذي شرعهُ الحكيم العليم، وبعث به النبي الأميَّ سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله عز وجل: ﴿وصيةً﴾ هو مصدر مؤكد لقوله تبارك وتعالى في صدر الآية السابقة: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وقد أضافه إلى الله زيادة في تأكيده وتحريم التهاون فيه وتضييعه، كما قال عز وجل في تذييل الآية السابقة: ﴿فريضة

من الله﴾ وهذا كله تأكيد لحفظ حقوق الورثة من التلاعب بها وكذلك صيانة حقوق المُورّثين، وقد تقدم أن معنى ﴿يوصيكم﴾ أي يفرض عليكم، فذيل الآية الأولى بمصدر من معنى يوصيكم وذيّل الآية الثانية بمصدر من لفظ يوصيكم حيث قال في الآية الأولى: ﴿فريضة من الله، إن الله كان عليما حكيما.﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿وصيةً من الله، والله عليم حليم.﴾ لتنبيه عباده إلى سُموِّ تشريعه، وتحذيرِ مَنْ ضَيَّع هذه الفرائض بأنه لولا حِلْمُ الله عز وجل لعاجله بالعقوبة، ثم زاد تأكيد ذلك ببيان أن هذه الفرائض التي فرضها في شأن اليتامى والنساء والمواريث هي حدود الله التي حدَّها لعباده ليلتزموا بها ويقفوا عندها ولا يجوز لهم مجاوزَتُهَا وأنه أعَدَّ لمن حافظ على حدود الله جنات تجري من تحتها الأنهار كما أَعَدَّ لمن ينتهك حرمات الله ويتعدَّى حدوده ناراً يَخْلُدُ فيها، وله عذاب مهين، حيث يقول عز وجل: ﴿تلك حُدُودُ الله، ومنْ يُطِعِ الله ورسولَهُ يُدْخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، وذلك الفوزُ العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويَتَعَدَّ حدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارا خالدًا فيها وله عذابٌ مُهِينٌ.﴾ وحدود الله تبارك وتعالى هي الأشياء التي بيَّن تحريمها أو تحليها وأمر بالوقوف عندها قال الأزهري: حُدُودُ الله عز وجل ضربان: ضربٌ منها حُدُودٌ حَدَّها للناس في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحلَّ وحرَّم، وأمر بالانتهاء عما نَهَى عنه منها. ونَهَى عن تَعَدِّيها، والضربُ الثاني عقوباتٌ جُعِلَتْ لمن رَكِبَ ما نهى عنه، اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: قال: ابن الأثير: وفي الحديث ذكر الحد والحدود في غير موضع، وهي محارمُ الله وعُقُوباتُهُ التي قرنها بالذنوب، وأصل الحد: المنع والفصل بين الشيئين فكأن حُدُودَ الشرع فَصَلَتْ بين الحلال والحرام، فمنها ما لا يُقْرَبُ كالفواحش المحرَّمةِ ومنه قولُه تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ ومنه ما لا يُتَعَدَّى كالمواريث المُعَينة

وتزويـج الأربع . ومنه قـوله تعـالى : ﴿تلك حدود الله فـلا تعتدوهـا﴾ ومنها الحديث : إنى أَصَبْتُ حَـداً فَأَقِمْـهُ عليَّ أي إني أصبت ذنبا أَوْجَبَ عليَّ حـدًّا أي عقوبـة اهـ وقد يطلق الحد على مـا هو حق لله عـز وجل مما فيه عقـوبة مقدرة كحد الزنا والقذف والسرقة ، أو لم تكن فيه عقوبة مقدرة كالتعزير ومنه الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي بُـردة الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقـول : لا يجلد فـوق عشرة أسواط إلا في حـد من حدود الله ، أي إلا في حق من حقوق الله . وفي قوله عـز وجل في وصف أهل الجنة ﴿خالدين فيها﴾ بالجمع ، وفي وصف أهل النار ﴿خالدًا فيها﴾ لمراعاة معنى مَنْ في الجمع ومـراعـاة لفظهـا في الإفراد مع الإشـارة إلى مـا لأهل الجنـة من الاجتماع على سرر متقابلين والإشارة إلى ما فيه أهل النار من الوحشة والانفراد في سجن الجحيم ، مع العذاب المهين ، نسأل الله بمنه أن يحشرنا مع السعداء إنه عفوٌّ كريم برٌّ رحيم .

قال تعالى : ﴿والَّـٰتِي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . والَّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إنَّ الله كان توابا رحيما . إنما التـوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالـة ثم يتوبون من قريب فأولَئك يتـوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما . وليست التـوبة للذين يعملون السيئـات حتى إذا حضر أحدَهُم الموتُ قال إني تبت الأَنَ ولا الذين يموتون وهـم كفار، أولَئك أعتدنا لهم عذابا أليما . ﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بصيانة الأموال وأكد بصفة خاصة على صيانة حقـوق اليتامى ، وحقـوق النساء ورغَّـبَ في أثناء ذلك في صيـانة الأعـراض حيث أمر الرجال بأن ينكحوا ما طـاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع مما يُثْمِرُ العِفَّـةَ وحمايـــةَ الأعـراض شرع هنـا في تشريع عقـوبـة الاعتـداء على الأعراض ، وتَدَرَّج في تحديد هذه العقوبة لنَقْلِ الناس من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام ، حيث أَمَرَ الله تبـارك وتعالى هنا بِسَجْن المرأة التي تزني حتى تموت ، وأشار عـز وجل إلى أنَّ هذا الحكم ليـس هو الحكمَ النِّهَـائيَّ في هذه الجريمة البشعة وإنما هو تمهيد قبل تقرير الحكم النهائي الذي يستمر إلى قيام السـاعة حيث يقـول : ﴿والـلاتي يأتين الفاحشـة من نسـائكم فاستشهـدوا عليهن أربعة منكم فإن شَهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموت أو يجعل الله لهنَّ سبيلا . ﴾ قال الفخر الرازي : اعلـم أنه تعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة الأمرَ بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالجميل وما يتصل بهذا الباب ضمَّ إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينـه من الفاحشة ، فـإنَّ ذلك في الحقيقة إحسان إليهنَّ ، ونظر لهنَّ في أمر آخرتهن ، وأيضـا ففيه فائدة أخرى : وهو أن لا يجعل أمـر الله الـرجال بـالإحسـان إليهن سببا لترك إقـامـة الحدود عليهن

فيصير ذلك سببا لوقوعهن في أنواع المفاسد والمهالك، وأيضا فيه فائدة ثالثة، وهي بيان أن الله تعالى كما يستوفي لخلقه فكذلك يستوفي عليهم، وأنه ليس في أحكامه محاباةٌ ولا بينه وبين أحد قرابةٌ، وأنَّ مَدارَ هذا الشَّرْعِ الإنصاف والاحتراز في كل بابٍ عن طَرَفَي الإفراط والتَّفريطِ اهـ ومعنى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ أي واللاتي يَفْعَلْنَ الجريمة البشعةَ المستقبحة المُسْتَهْجَنَةَ الكبيرة والمراد بالفاحشة هنا زنى النساء المسلمات، والخطاب في قوله عز وجل: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ للولاة والحكام والقضاة ومعنى: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي فاطلبوا ممن يدَّعي هذه الجريمة الفاحشة على المرأة إحضار أربعة رجال من المسلمين يشهدون بأن هذه المرأة المدَّعى عليها ارتكبت هذه الجريمة، وأنهم شاهَدُوا ما يَشْهَدُون عليه بلا شك ولا ظن بل بالمعاينة، ولا بدَّ في هؤلاء الشهود أن يكونوا رجالاً، فلا تقبل في هذه الشهادة شَهَادَةُ النساء، ولا بد أن يكون هؤلاء الشهودُ معروفين بالعدالة لأن الله اشترط عدالة الشهود في البيوع والرجعة، وهذا أكبر وأعظم وأولى.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعل الله لهنَّ سبيلا.﴾ هذا هو حكم الله عز وجل على من زنت من النساء وثبت لدى الحاكم الشرعي زناها بشهادة أربعة رجال عدول من المسلمين أن تُسْجَنَ إلى أقربِ الأجلين وهما مَوْتُهَا أو أن يجيء تشريع يَنْسَخُ هذا الحكم حيث أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿أو يَجْعَلَ الله لهنَّ سبيلاً.﴾ وقد كان هذا الحكم هو الطور الأول في هذا الشأن وكان يشمل كلَّ زانية بكرا كانت أو ثيبا، وقد استمر هذا الحكم حتى جاء الطور الثاني من أطوار هذا الحكم في سورة النور حيث قال عز وجل: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جَلْدةٍ﴾ وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ أنَّ هذا الحد الذي بيَّنته هذه الآية

وهي الآيـة الثانيـة من سـورة النور هـو حـدُّ زنا البكـر رجـلا كان أو امـرأةً، وأضافت إليـه السنَّةُ تغريب عـام، وأن حدَّ الثيب المُحْصَنِ هو جلـده مائة ورجمه بالحجارة إلى الموت رجلا كان أو امرأة، وأن هذا هو السبيل الذي أشار الله عز وجل إليه بقوله تبـارك وتعالى: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا.﴾ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خُذُوا عني، خذوا عني، فقـد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جَلْدُ مائة ونَفى سنـة، والثيبُ بالثيب جَلْدُ مائةٍ والـرجْمُ، ومعنى قوله ﷺ: خذوا عني، خـذوا عني: أي تَلَقَّوْا هذا الحكم مني واحفظوه، ومعنى قـوله ﷺ: فقد جعل الله لهن سبيـلا، أي فقد بيَّن الله تبارك وتعـالى السبيل الذي أجملـه في قولـه عز وجل: ﴿أو يجعل الله لهن سبيـلا﴾ ونسخ به مـا كان قـد شرعه في حق اللائي يأتين الفـاحشة من النساء بقولـه تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوت حتى يتوفَّاهنَّ الموتُ أو يجعل الله لهنَّ سبيـلا.﴾ وقوله ﷺ: البِكْرُ بالبِكْـر جَلْدُ مـائةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ أي حـدُّ زنا البكـر بالبكـر أنْ يُضْرَبَ كلُّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ وأنْ يُغرَّبَ عاما، والمرادُ بـالبِكر هنا هو من لم يجامعْ في نكاح صحيح وهو حرٌّ بـالغٌ عاقلٌ، وقوله ﷺ: والثيبُ بالثيِّبِ جَلْـدُ مائةٍ والرجم أي وحدُّ زنـا الثيب بالثيـب أن يضرب مائة جلدة وأن يـرجم بالحجـارة حتى يموت، والمراد بالثَّيِّب هنا هو الحرُّ البـالغ العاقل المجامع في نكاح صحيح، وقوله ﷺ: البكر بالبكر وقوله الثيب بالثيب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له فلو زَنى بكـر بثيب أو ثيب ببكر فإن حَدَّ الثيب غير حد البكـر فلكل واحد منهما حـده وقـد بَيَّنَ ذلك رسـول الله ﷺ في حـد العسيف في الحديث المتفق عليه عند البخـاري ومسلم من رواية أبي هريرة وزيـد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك

الله إلا قَضَيْتَ لي بكتاب الله ، فقـال الآخرُ وهو أفقـه منه : نعم فـاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي ، فقال : قل ، قال : إن ابني كـان عسيفاً على هذا ، فزنَى بامرأتـه ، وإني أخبرت أنَّ علي ابني الرجم ، فافتديت منـه بمائة شاة ووليدةٍ ، فسألت أهلَ العلم فأخْبَرُوني أن مـا على ابني جَلْدُ مـائة وتغريب عـام ، وأن على امـرأة هـذا الـرجم ، فقال رسـول الله ﷺ : والـذي نفسي بيـده لأَقْضِيَنَّ بينكما بكتاب الله : الـوليدة والغنَمُ ردٌّ عليك ، وعلى ابنك جلدُ مـائة وتغريب عامُ ، واغـدُ يا أُنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفـت فارجمها . وقد أشـار عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن الرجم ثبت بقرآن نُسِخَ لفظه وبقي حكمه ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عمـر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب فقال : إنَّ الله بعث محمـدا بالحق ، وأنـزل عليه الكتاب ، فكـان فيما أنزلَ الله عليه آيـة الرجـم ، قرأنـاها ، ووَعَيْنَاهَـا ، وَعَقَلْنَاهـا ، فَرَجَـمَ رسولُ الله ﷺ ، وَرَجَمْنَا بَعْدهُ ، فأخْشَى إن طال بالناس زمان أن يقولَ قائل : ما نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله ، وإن الرجم حقٌّ في كتاب الله على من زنى إذا أُحْصِنَ من الرجـال والنساء إذا قامت البينـة ، أو كان الحَبَلُ ، أو الاعتراف . اهـ وقد أجمع أهل السنة والجماعـة على ثبوت رجم الزاني المحصن وأنه حكْمٌ محكمٌ إلى يوم القيـامة . أما الطور الثالث من أطـوار تشريع عقوبة الزنـا فهو نسخ جلد الثيب قبل رجمه حيث لم يأمر رسـول الله ﷺ بجلد التي زنى بها العسيف أي الأجير وإنما أمر أُنيساً برجمهـا إن اعترفت ولم يذكر الجلد كما تقدم قـريبا في حـديث الصحيحين من روايـة أبي هريرة وزيـد بن خـالد رضي الله عنهما ، كما أنه ﷺ رَجَمَ مـاعزا ، والغـامدية ، والجُهَنيـةَ واليهوديَّ ، واليهودية ، ولم يثبت بخبر صحيح أنه جلدهم قبل الرجم . وقوله عز وجل : ﴿والَّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابـا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إن الله كان تـوابا رحيما . ﴾ أي ومن فَعَلَ هـذه الفـاحشة وهي الـزنـا منكم أيها الرجـال

فعُقُوبَتُهُ أن يؤذى بها يردعُ مثلـه من الضرب بالنعال والجريد دون حد محدود، والتثنية في قـوله عـز وجل: ﴿واللذان يأتيـانها منكم﴾ لبيان صِنْفى الـرجال البكر والثيب، وقد علمتَ أن هذا الحكم قد نسخ وصار إلى جلد البكر مائة وتغريب عـام ورجم الثيب بالحجـارة إلى الموت. هذا، وبينـة إثبات الـزنا لم تتغير في سائر هذه الأطـوار فلا بُدَّ فيها من أربعة شهود عـدول من الرجال، كما أشار الله عز وجل إلى ذلـك في سورة النور حيث يقول: ﴿والذيـن يَرْمون المحصنات ثم لم يأتـوا بأربعة شهـداء فاجلـدهم ثمانين جلدة﴾ الآيتين. وفي جعل الشهـود لإثبـات الـزنـا أربعـة سترٌ على العبـاد وتغليظ على المدَّعِي، وإشعار بعظم جـرم الزنـا وبشاعتـه، وكَرَاهيـة لإشاعـة الفاحشة في الـذين آمنوا، هـذا وقد كانت شريعة التـوراة تقضي برجم الزاني مطلقا بكـرا كان أو ثيبا ففي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية في الفقرة ٢٠ و٢١ فيمن تزوج فتـاة على أنها بكر، فلـم يجد لها عُذرَةً يقول: ولكـن إن كان هـذا الأمر صحيحا لم تُوجَدْ عُذْرَة للفتاة يُخْرِجُون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجالُ مدينتهـا بالحجـارة حتى تموت، وفي الفقرتين ٢٣ و٢٤ منـه: إذا كانـت فتاةٌ عذراءُ مخطـوبةً لرجل فوجـدها رجل في المدينة واضطجع معها، فأخـرجوهما كليهما إلى بـاب تلك المدينـة وارجموهما بالحجـارة حتى يمـوتـا. ولا شك أن التشريع الإسلامي قـد رفع الله عز وجل به الإصر والأغـلال التي كانت على بني إسرائيل. وقولـه عز وجل: ﴿فإن تـابا وأصلحا فأعـرضوا عنهما، إن الله كان توابا رحيما. إنما التـوبة على الله للذين يعملون السُّوءَ بِجَهَالَـةٍ ثم يتوبون من قريب فأولَئك يتـوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما. وليست التـوبة للذين يعملون السيئـات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إني تبتُ الآن ولا الذين يمـوتون وهم كُفَّـارٌ، أولَئك أعتدنـا لهم عذابا أليما. ﴾ أي فـإن عرفتم صحة التوبة من هؤلاء المذنبين فـلا تعنفوهما ولا تُثَرِّبُوا عليهما فلا تُعيِّرُوهما إن

الله يتـوب على التائبين، وهـو أرحم الراحمين. وهـو يقبل تـوبة التـائب غير المُصِرِّ، فمن تاب تـاب الله عليه، إلا من تاب عند الموت أو مات كـافرا فإن الله عز وجل لا يقبل توبته، وقد هيأ الله لمن مات كافرا عذابا أليما في جهنم، وبئس المصير، عياذا بالله منها.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا.﴾

بعد أن ذكر عز وجل جملة من التشريعات التي تحمي حقوق النساء، وتصون كرامة المرأة، وأكد عز وجل على مشاركة المرأة أخاها في الميراث، وأن لها نصيبا من الميراث كما أن للذكر نصيبا من الميراث وأعلن عز وجل أن هذه الفرائض والتشريعات هي حدود الله، وبشر من يحافظ على حدود الله بجنات تجري من تحتها الأنهار، وحذَّر منْ يتعدى حدودَ الله بأنه يُعَرِّضُ نفسه لعذاب الله في نار الجحيم، ثم بَيَّنَ عقوبة الزانية والزاني في الطور الأول من أطوار تشريع عقوبة هذه الجريمة ورغَّب في التوبة وحذَّر من الإصرار على المعصية، أخذ في بيان المزيد من حقوق النساء ورفع ما كان يصيبُ المرأة من العَنَتِ في الجاهلية حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحلُّ لكم أن تَرِثُوا النساء كَرْهَا ولا تَعْضُلُوهنَّ لتَذْهَبوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إلا أن يأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبيِّنَةٍ﴾ وهو يشير عز وجل بذلك إلى أن أهل الجاهلية كانوا أحيانا يعتبرون المرأة نصيبا من الميراث وأنه يُحَرِّم ذلك على المؤمنين، كما يَنْهَى المؤمنين عن عضل النساء ظُلْماً وعُدْوَاناً، قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بنُ مقَاتِلٍ حدثنا أسباط بنُ محمد حدثنا الشَّيْبَانِيُّ عن عكرمة عن ابن عباس قال الشيباني: وذَكَرَهُ أبو الحسن السُّوَائِيُّ ولا أظُنُّهُ ذكره إلا عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ قال: كانوا إذا مات الرجلُ كان أولياؤهُ أَحَقَّ بامرأته، إن شاء بَعْضُهُم تزوَّجها وإن شَاءُوا زَوَّجُوها، وإن شاءوا لم يُزَوِّجُوهَا، فهم

أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هـذه الآية في ذلك. وبهذا الخبر الصحيح الثابت في سبب نزول هذه الآية الكـريمة يتبيّن فضل الله عز وجل على النساء في ظل شريعة الإسـلام حيث أوجب رعايـة حقوقهن وحتم على الـرجال دفع الضر عنهن وحـرَّمَ جَعْلَهنَّ نصيبا من الميراث بعـد أن قرر لهن نصيبـا من الميراث، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا لا يحل لكم أن تـرثوا النسـاء كرها﴾ أي يا معشر من آمن بـالله ورسوله لا يجوز لكم أن تعتبروا امرأة ميتكم ميراثا لكم وتجعلـوا أنفسكم أحق بها من نفسها وأوليائها مكـرهين لها على ما تشاءون دون رضـاها، فإن هذا الفعل من أقبح أفعال الجاهليـة التي أنقذكم الله منها حيث أرسل لكم نبيَّ الرحمة محمـدا ﷺ وأنزل عليه الكتاب المشتمل على حماية حقوق المرأة من عبث الجاهلين، وتعنت الظـالمين، وهداكم به إلى الصراط المستقيم، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولا تعضُلُوهنَّ لتذهبـوا ببعض ما آتيتموهنَّ﴾ هـذه هي الوصية الثـانية من وصايا هـذه الآية الكريمـة بتحريم الإضرار بالنسـاء، أي ولا يحل لكم يا أزواج النساء أن تحبسوا المرأة وتمنعـوها من التمتع بالحياة الزوجية الكريمة لأجل أن تحملوها على إعطائكم بعض ما بذلتمـوه لها من صـداق أو غيره وتستردوه منها دون أن يكـون منها تقصير في حقكم، قال ابن جرير رحمه الله: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها والإضرار بها وهو لصحبتها كارهٌ، ولفـراقها مُحِبٌّ، لتفتديَ منه ببعض ما آتاهـا من الصداق وإنما قلنا: ذلك أولى بالصحـة لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل المرأة إلا لأحد رجلين إمـا لزوجها بالتضييق عليهـا وحبسها على نفسه وهو لَهَا كارهٌ، مُضَارَّةً منـه لها بذلك ليأخذ منها ما آتاها بافتـدائها منه نَفْسَهَا بذلك، أو لـوليِّها الذي إليه إنكـاحها، وإذا كان لا سبيل إلى عضلهـا لأحد غيرهما وكـان الوليُّ معلـوما أنـه ليس ممن آتـاها شيئـا فيقال إنْ عَضَلَهَـا عن النكاح: عَضَلَهَا ليذهب ببعض ما آتاها كان معلوما أنَّ الذي عَنَى الله تبارك

وتعـالى بنهيه عـن عَضْلِهَا، هـو زَوْجُهَـا الذي لـه السبيلُ إلى عضلهـا ضراراً لِتَفْتَدِيَ منه اهـ وقد حرَّم الله عز وجل الإضرار بـالمرأة في جميع صور الإضرار وبخاصة من يُلْحِقُ الإضرار بزوجته ليستردَّ منها بعض ما دفعه لها من صداق حيث قال عز وجل في سورة البقـرة: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئا إلا أن يخافـا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فـلا جناح عليهما فيما افتدت بـه، تلك حـدود الله فلا تعتدوهـا، ومن يَتَعَـدَّ حدود الله فأولَٰئك هم الظـالمون.﴾ وقـال عـز وجل في نفس السـورة أيضـا: ﴿ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذُلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هُزُوًا.﴾ وقال هنـا: ﴿ولا تعضلوهنَّ لتذهبوا ببعض مـا آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وقال في نفس هذا المقام أيضا: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطـارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونـه بهتانا وإثما مبينـا. وكيف تأخـذونـه وقـد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـذن منكم ميثاقا غليظـا.﴾ وقال عز وجل في سورة الطـلاق: ﴿ولا تُضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ وحـرَّم على ولي نكـاح المرأة عضلهـا إذا رغبت في زوج كفء حيث يقول في سـورة البقرة: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهُنَّ فـلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضـوْا بينهم بالمعروف﴾ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي لا يحل لكم إلحاق الأذى بالمرأة إلا في حالة ارتكابها جريمة ثـابتة فلكم في هذه الحالة إيـذاؤها بالقدر الـذي أذن الله لكم فيه في كتابـه أو في سنة رسـوله محمـد ﷺ، وبعد أن صـدَّرَ الله عز وجل هـذه الآية الكريمـة بنَهيَيْنِ أحدهما قـوله تبارك وتعـالى: ﴿لا يحل لكم أن ترثـوا النساء كـرها﴾ والثـاني قـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولا تعضلـوهنَّ لتذهبـوا ببعض مـا آتيتمـوهن إلا أن يأتين بفـاحشـة مبيِّنة﴾ أَتْبَعَ ذلـك في نفس الآية بـوجـوب الإحسان إلى النساء وعشرتهن بالمعروف مبيِّناً الحكمـة العظيمة في هذه الوصية

الإلهية حيث يقول: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهنَّ فَعَسَى أن تكرَهُوا شيئا وَيَجْعَلَ الله فيه خيرا كثيرا.﴾ ومعنى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي وأحسنُوا صُحْبَتَهُنَّ وأَدُّوا حقوقهن التي فرض الله عز وجل عليكم لهن، وخافوا الله فيهن، ولا تسيئوا معاملتهن، وتَجَمَّلُوا لهن في أقوالكم وأفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحبون أن يتجملن لكم في أقوالهن وأفعالهن وهيئاتهن، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي المسلمين بالنساء كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: استوصوا بالنساء خيرا. الحديث، كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عمرو بن الأحوص الجُشَمِيِّ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكَّر وَوَعَظَ ثم قال: ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هنَّ عَوانٍ عندكم، ليس تَمْلِكُون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فَعَلْنَ فاهجروهنَّ في المضاجع واضربوهن ضَرْباً غير مُبَرِّح، فإن أطَعْنَكُم فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبيلا، ألا إنَّ لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فَحَقُّكُمْ عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ من تكرهون ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكْرهُون، ألا وحقُّهُنَّ عليكم أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهن وطعامهنَّ. ومعنى قوله ﷺ: هُنَّ عوانٍ عندكم، أي هنَّ شبيهاتٌ بالأسيرات، فالعواني جمع عانية قال في القاموس: والعواني: النساء لأنهن يُظلَمْنَ فلا ينتصرن، والتعنية الحبس اهـ والعاني الأسير، وقد شبه رسول الله ﷺ الزوجة في دخولها في طاعة الزوج تحت حكمه بالأسير وقوله ﷺ: فإن فَعلْنَ فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، يشعر بأن ذلك إنما يجوز للزوج إذا ارتكبت زوجته هذه الفاحشة المبيِّنة، وأن المراد بها النشوز وعدم الانقياد، وليس المراد الزنا لأن الزنا ليست عُقُوبته أن تضربَ المرأة ضربا غير مُبَرِّحٍ، والضرب المُبَرِّحُ هو الشديد الشاقُّ، وقد روى أبو داود بسند

صحيح من حديث إيـاس بن عبدالله بن أبي ذباب رضي الله عنـه قال: قال رسول ﷺ: لا تَضْرِبُـوا إماءَ الله فجاء عمر رضي الله عنـه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذَئِرْنَ النسـاءُ على أزواجهن، فَرَخَّصَ في ضَرْبِهِنَّ، فأطاف بـآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثيرٌ، يَشكُونَ أزواجهن، فقال رسـول الله ﷺ: ولقد أطاف بآل بيت محمـد نساءٌ كثيرٌ، يَشكُـونَ أزواجهن، ليس أولئك بخيـاركم. ومعنى: ذَئِرْنَ أي اجْتَرأْنَ، ومعنى أطـاف أي أحـاط، ومعنـى: بـآل بيت محمـد أي بأزواج رسول الله ﷺ ورضي الله عنهن. وقـوله عز وجل: ﴿فإن كَـرِهْتُمُوهُنَّ فعسى أن تَكْرَهُوا شيئـا ويجعَلَ الله فيه خيرا كثيرا.﴾ هذا هو التوجيـه الرشيد والحكمة الغاليـة البليغة التي تُرَبِّي في نفس المسلم التسليم لأمـر الله، والرضا بقضاء الله في كل نازلة تنـزل بالإنسان سواء كانت متصلة بـالحياة الزوجية أو غيرهـا كما قـال عز وجل: ﴿كتب عليكـم القتال وهـو كـره لكم وعسى أن تكـرهوا شيئـا وهـو خير لكم وعسى أن تحبـوا شيئا وهـو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.﴾ ولا شك أن الاستمساك بهذه الوصية الإلهية هو الأساس المكين لبناء البيت السعيد فإن المسلم قد يَسُوؤه خُلُقٌ من زوجته لكنه إذا فكَّر وَجَـدَ بها نِعَماً جليلـة وخيرا كثيراً، من سكـون النفس والأولاد ممـا لا يستطيع الإنسان حَصرهُ، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يَفْرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِهَ منها خُلُقاً رَضِيَ منها آخر، أو قال: غيرهُ. ومعنى: يَفْرَكُ يُبْغِضُ والعاقل يَرَى أن كمال النعمة إنما يكون في الجنة، وكما قال الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القَـذَى ... ظَمِئْتَ وأيُّ الناس تَصْفُـو مَشَارِبُـهْ

فينبغي للمسلم أن يحرص على أن يكـون خيراً لأهلـه فقـد روى الترمـذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم.

قال تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكـان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتـانا وإثما مبينا* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكـم ميثاقا غليظـا. ولا تنكحوا مـا نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَفَ، إنه كَانَ فاحشة ومقتا وساء سبيلا.﴾

بعد أن بيَّن عـز وجل في الآية السابقة وجـوب معاشرة الزوجة بـالمعروف، ورغَّب الزوج في الصبر على ما قد يراه من بعض ما يكره من خَلْقٍ أو خُلُقٍ في زوجته، شَدَّدَ النكير هنا على الزوج الذي يرغب في طلاق زوجته ليتزوج بَدَلَهَا زوجةً أخـرى وكان قـد أكثر لها الصـداق ويُحَاوِلُ أن يأخذَ بعض مـا ثبت في ذمته لها من صداق، فَحرَّمَ على الزوج أن يأخـذ شيئا من صداق زوجته التي يرغب في طـلاقها مـا دامت ليست ناشـزا ولم تأت بفاحشـة، ولا يجوز له أن يستكثر صداقا التزم به لها مهما بلغ حتى لـو كان قنطارا من الذهب، ما دام قد دخل بها وأفضى إليها وأفضت إليه، وسياق الآيـة الكريمة يشعر بأن هذا الزوج لا يريـد الجمع بين زوجتين وإنما يريد تطليقَ زوجة ليتـزوج بَدَلَهَا زوجةً أخـرى ولا يفعل ذلك عـادةً إلا من كان كـارهـا للـزوجة الأولى التـي يريـد طـلاقهـا، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وإن أردتم استبـدال زوج مكـان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخـذوا منه شيئا﴾ أي وإن رغب أحدكم في فراق زوجتـه ليتزوج بَـدَلَهَا زوجةً أخـرى فـلا يحل له أن يظلم الـزوجـة التي يريـد طلاقهـا، بأن يَقْهَرَهَا ويأخذ شيئـا مما كان أَصْـدَقَهَا حتى ولو كان أَصْـدَقَهَا قنطارا من الذهب لأنه صار حقا خـالصا لها لا يجوز لأحد أن يأخذ منه شيئا إلا بطيب نفس منها، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿أتأخذونه بهتـانا وإثما مُبينا.﴾ هو توبيخ للزوج الذي يحاول الاستيلاء على مهـر زوجته وأكله بالباطل، وأن مَنْ فَعَلَ ذلك كـان مـرتكبا لعـدة جـرائم وهي أَخْـذُهُ مالَ غيره ظلما، وأنـه

بمحاولة استرداد المهر من زوجته يَبْهَتُهَا إذ قد يَظُنُّ من يُحْسِنُ الظنَّ به أنه ما أخذ ذلك إلا لوقوفه على خيانة من زوجته، وأنَّ مَنْ أخذ شيئا من المهر الذي كان دفعه لزوجته بغير طيب نفس منها يكون قد ارتكب إثماً واضحًا وجريمة فاضحة، قال في القاموس: بَهَتَهُ كمَنَعَهُ بَهْتاً وَبَهَتاً وَبُهْتَاناً قال عليه ما لم يَفْعَلْ، والبَهِيتَةُ: الباطلُ الذي يُتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلَانِهِ، والكذِبُ كَالْبُهْتِ بالضم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا.﴾ هو زيادةٌ في تأكيد توبيخ من يأخذ شيئا من مهر زوجته التي أصدقها إياه، وتشديد في الإنكار على من فعل ذلك مع بيان أنه قد استوفى منها مُقَابِلَ هذا الصداقِ بإفضائه إليها، وإفضائِهَا إليه، وأن بينها وبينه ميثاقا غليظا حيث أخذها بأمانة الله واستحل فرجها بكلمة الله، فكيف يليق بمسلم أن يفعل ذلك وينتهك هذه الحرمات، وينقض تلك المواثيق، وقوله عز وجل: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي وقد وصل بعضكم إلى بعض وصار الزوج وزوجَتُه كأنهما جسمٌ واحد لا يَحْجِزُ بينهما شيءٌ، وكَشَفَ خِمَارَهَا واطلَّع منها على ما لم يُبَحْ لوالديها الاطلاعُ عليه منها، وأصل الإفضاءِ في اللغة الوصولُ والمخالطة والمباشرةُ ويقال للشيء المختلط فضاً ومنه قول الشاعر:

فقلت لها يا عمتي لكِ ناقتي ... وتَمْرٌ فَضاً في عَيْبَتِي وزَبِيبُ

ويقال: القوم فَوْضَى فَضاً أي مختلطون لا أمير عليهم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأخذْنَ منكم ميثاقا غليظا.﴾ أي وأعطيتموهُنَّ عهدا مُوَثَّقاً مُغَلَّظاً مُشَدَّداً عند عقد نكاحكم عليهنَّ أن تُمْسِكُوهُنَّ بمعروف أو تُسَرِّحُوهُنَّ بإحسان وأنكم إنما تستحلون التمتع بهن، ومخالَطَتَهُنَّ بهذا الصداق فكيف تَسْتَبِيحُونَ نقض هذا الميثاق الغليظ الذي ألزمكم الله عز وجل والتزمتم به لنسائكم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله

عنهما أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بعرفة: فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فُروجهُنَّ بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فرشَكُم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، ولهن عليكم رِزقُهُنَّ وكسْوتُهُنَّ بالمعروف. الحديث. وقال البخاري في صحيحه: بابُ الشروط في النكاح، وقال عمر: مَقَاطعُ الحقوق عند الشروط، وقال المِسْورُ بن مخرَمة: سمعت النبي ﷺ ذكر صِهْراً له فأثنى عليه في مصاهرته فأَحْسَنَ قال: حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لي، حَدَّثَنَا أبو الوليد هشام بنُ عبدالملك حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة عن النبي ﷺ قال: أحقُّ ما أوفيتم من الشروط أن توفُوا به ما استحللتم به الفروج. ورواه مسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: إن أحقَّ الشروط أن يُوفى به ما استحللتم به الفروج. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَفَ﴾ شروعٌ في بيان مَنْ يَحْرُمُ نكاحها من النساء، وقدَّم تحريم ما نكح الآباء على غيره من المحرمات، وجعله في آية خاصة، ولم يَسْرُدْهُ مع سائر المحرمات في الآية الأخرى لأنه على قبحه كان فاشياً في الجاهلية، ولذلك ذَمَّهُ الله عز وجل بأكثر مما ذمَّ به الزنا حيث قال في الزنا: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا.﴾ وقال في نكاح زوجة الأب: ﴿إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا.﴾ وقد كان من تناقضات الجاهلية أنهم يُحرِّمُون زوجةَ الابن المتَبنَّى ولا يحرمون نكاح زوجة الأب كما كانوا كذلك يستبيحون الجمع بين الأختين، ولا شك أن الجمع بين الأختين أقلُّ في القبح وإهانةِ الرحم من نكاح زوجة الأب ولذلك بدأ الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء بتفظيع نكاح زوجة الأب، وتبشيعه، وختم المحرمات من النساء في الآية التالية بتحريم الجمع بين الأختين، وختم كلا منهما بقوله عز وجل: ﴿إلا ما قد

سلف﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: حدثني محمد بنُ عبدالله المُخَرِّمِيُّ قال: حدثنا قُرَادٌ حدثنا ابن عُيَيْنَةَ وعمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحَرِّمُون ما يَحْرُمُ إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ اهـ وهذا الخبر الصحيح الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما إنما كان في جاهلية العرب أما أهل جاهلية العجم فقد كان بعضهم يستبيحون الزواج من الأخوات والبنات، وقد أجمع أهل العلم على أنه بمجرد عقد نكاح الأب على المرأة يحرمها على الابن وإن لم يدخل بها الأب، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ الآية يُحَرِّمُ الله تعالى زوجات الآباء تكرمةً لهم، وإعظاما واحتراما أن توطأ من بعده، حتى إنها لَتَحْرُمُ على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مُجْمَعٌ عليه اهـ وقولُ ابن كثير رحمه الله: أن تُوطَأَ من بعده، أي أن يطأها الابن من بعد أبيه. والتعبير بما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ لأن المقصود تبشيعُ هذا النكاح والتنفيرُ منه وذلك لأن العرب يُعَبِّرُون بمنْ عن ذات العاقل ويُعَبِّرُون بما عن غير العاقل أو عن صفة العاقل لا ذاته، ومن ذلك ما أُثرَ أن أكثم بنَ صيفي حكيم العرب عندما علم ببعثة رسول الله ﷺ عَزَمَ على التوجه إليه ولقائه فقال له بنوه: أنت قد كَبِرتْ، ويشُقُّ عليك السفر ونحن نكفيك فتوجه رجلان من بَنِيهِ إلى النبي ﷺ، وسألاهُ: مَنْ أنت؟ وما أَنْتَ؟ فقال: أما من أنا فأنا محمد بنُ عبدالله وأما ما أنا فأنا محمد رسول الله، فسألاه أن يقرأ عليهما شيئاً من القرآن، فقرأ عليهما: ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون.﴾ فرجعا إلى أبيهما أكثم بن صيفي وقالا له: سألناه عن

نسبه فأبى أن يرفع نسبه وسألناه عن صفته فأخبرنا أنه رسول الله وسألناه عما جاء به فقرأ علينا هذه الآية: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ الآية. فقال أكثم بن صيفي: يا قوم سارعوا إلى اتباع هذا الرجل فإنه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن سَفْسَافِهَا. وعلى هذا الأسلوب العربي الفصيح البليغ جاء التعبير بها في قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ للتنديد بمن يجلس من زوجة أبيه مجلس أبيه منها، ويُقَارِفُهَا كما قَارَفَهَا أبوه، ولا شك أن العاقل يشمئز من ذلك تمام الاشمئزاز ولا يرضاه لنفسه أبداً، وقد قال أبو داود في سننه: حدثنا مُسَدَّدٌ ثنا خالد بنُ عبدالله ثنا مطرف عن أبي الجهم عن البراء بن عازب قال: بينا أنا أطوف على إبل لي ضَلَّتْ، إذْ أقبل رَكبٌ أو فوارسُ معهم لِوَاءٌ، فجعل الأعرابُ يطيفون بي لمنزلتي من النبي ﷺ إذ أتَوْا قُبَّةً فاستخرجوا منها رجلا فَضَرَبوا عُنُقَهُ، فسألت عنه فذكروا أنه أعرس بامرأة أبيه اهـ وإلا في قوله: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ بمعنى بعد أي بعد ما مضى منه ما مضى مما كان لا ينبغي لعاقل أن يقارفه. وليس قوله عز وجل: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ تقريراً لما كانوا عليه في الجاهلية من نكاح ما نكح الآباء. وأنه معفوٌ عنه، فإن سياق القرآن العظيم وما وَصَفَ به هذا النكاح بعد قوله: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ من قوله: ﴿إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا﴾ يأبى ذلك، بل إنما جاء قوله عز وجل: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ لإفادة أنهم كانوا في جاهليتهم يقترفون ذلك، وقد أشرت إلى ذلك قريباً، وأن العربَ ما نكحوا من المحرمات سوى زوجة الأب والجمع بين الأختين وأنه تبارك وتعالى عَقَّبَ تحريم نكاح زوجة الأب بقوله: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ كما عَقَّبَ بذلك تحريم الجمع بين الأختين، ولم يُعَقِّبْ غيرهما من المحرمات بهذا التعقيب لأنه لم يكن سلف منه شيء في جاهلية العرب، وقد وصف الله تبارك تعالى نكاح ما نكح الآباء بأنه فاحشة ومقتٌ وأنه ساء سبيلا، والفاحشة هي الجريمة

الكبيرة المستَبْشَعَةُ المستقبحة، والمقتُ هو أشدُّ البُغْضِ المقرون بالغضب والاستحقار، ومعنى ﴿وساء سبيلا﴾ أي بئس طريقا ومنهجاً ما كنتم تفعلونه من نكاح ما نكح آباؤكم من النساء المُسْتَقْبَحِ عقلا وشرعا وعادةً وعُرْفاً.

قال تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم الَّـٰتِي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم الَّـٰتِي في حجوركم من نسائكم الَّـٰتِي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفورا رحيما.﴾

بعد أن صدَّر الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء في النكاح بتحريم نكاح زوجة الأب وَجَعَلَهَا في آية خاصة بها تشديداً في التحذير من نكاحها بسبب ما كان يقترفه أهل الجاهلية من ذلك، أتبع ذلك ببيان تحريم نكاح ثلاث عشرة امرأة جَمَعَهُنَّ في آية واحدة وهي قوله تبارك ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرَّضَاعَة وأمهاتُ نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحَلاَئلُ أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفوراً رحيماً.﴾ وهذه النساء المحرمات منهن سَبْعٌ حرمت بسبب النَّسب واثنتان بسبب الرضاعة، وأربع بسبب المصاهرة، وكُلُّهُنَّ مُحَرَّمَاتٌ على التأبيد إلا الجمع بين الأختين فإنه تحريم مؤقَّتٌ بالجمع إذ يجوز إذا بانت منه زوجته أن يتزوج أختها عند خلائها من موانع النكاح، ولذلك جعل الله عز وجل الجمع بين الأختين آخر هذه المحرمات بالرغم من أن أهل الجاهلية كانوا يقترفون ذلك لكنْ لما كان تحريمها مؤقتا أَخَّرهَا في الذكر، وقد ألحقت السنةُ الصحيحة تحريمَ الجمع كذلك بيْنَ المرأة وعمتها والمرأة وخالتها فقد روى الجماعة من حديث أبي

هــريـرة رضي الله عنـــه قــال : نَهَى النبي ﷺ أن تُنْكَحَ المرأة على عمتهــا أو خالتهــا . وبهذا تكون المحرمـات بسبب المصاهـرة سَبْعاً ، فالمحـرمات بسبب النسب هُنَّ الأم والبنت والأخت والعمـة والخالـة وبنتُ الأخ وبنتُ الأخت ، والمحرمتان بسبب الـرضاع هي الأم من الرضاعة والأخت من الرضـاعة ، أما السَّبْعُ المحرمـاتُ بالمصـاهرة فهي زوجة الأب كما تقـدم في الآية السـابقة وأمُّ الزوجة وبنتُ الزوجة المدخول بها المعـروفةُ بالربيبة ، وزوجةُ الابن والجمعُ بين الأختين والجمعُ بين المرأة وعمتهـا والجمع بين المرأة وخـالتها ، ولا نـزاع عنـد أهل العلم في أن المراد بقوله تبارك وتعـالى : ﴿حُرِّمت عليكم أمهاتكم﴾ الآية هـو تحريم نكاح هـؤلاء النسـوة ، والمرادُ بالأم في الآيـة هي كلُّ أنثى لها عليك ولادةٌ ، فيدخل في ذلك أُمُّكَ التي حملتك في بطنها وأمهاتها وجَدَّاتُها وأمُّ الأب وجدَّاتُه وإن عَلَوْنَ ، والمراد بـالبنت هي كلُّ أنثى لك عليها وِلادةٌ فيدخل في ذلك بنتك لصلبك وبناتها مهما نَزَلْن ، وبنت ابْنِكَ وبناتُها مهما نَزَلْنَ كذلك ، والمراد بالأخت كـلُّ أنثى شَارَكَتْكَ في أبـويك أو أَحدِهما ، والمراد بالعمـة كلُّ أنثى شاركتْ أباكَ أو جَدَّكَ في أبويـه أو أحدِهما مهما كان ، والمراد بالخالة كلُّ أنثى شاركت أمَّكَ في أبويها أو أحـدِهما مهما كان ، والمراد ببنت الأخ كلُّ أنثى كـان لأخيك عليهـا ولادةٌ فيـدخل في ذلك بنت أخيك لصلبـه وبنـاتُها مهما نَزَلْنَ . و المراد ببنت الأخت كلُّ أنثى لأختك عليها ولادة فيدخل في ذلك بنت أختك التي حملتهـا في بطنها وبنـاتُهَا مهما نَزَلْنَ ، وقـوله تعالى : ﴿وأمهـاتكم اللاتي أرضعنكم وأخـواتكم من الرضاعـة﴾ الرضاعـة هي امتصاص الطفل اللبن من ثـدي المرأة فإذا أرضعت المرأة طفلا حـرمت عليه لأنها صـارت أمًّا لَهُ ، وحرمت عليه بنتها لأنها صـارت أخته ، وحرمت عليه أخت من أرضعته لأنها صارت خالَتَهُ ، وأمُّها لأنها صـارت جدَّته ، وبنت زوجها صاحب اللبن لأنها أختُه ، وأختُ زوجهـا صاحب اللبن لأنها صارت عَمَّتَـهُ ، وأم صاحب

اللبن لأنها صارتْ جدَّتَه، وبنـاتُ بني المرأة التي أرضعته وبناتُ بناتها لأنهن بناتُ إخوته وبناتُ أخواته وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أرِيـد على ابنـة حمزة فقـال: إنها لا تحل لي، إنها ابنـةُ أخي من الرضـاعة ويَحْرُمُ من الـرَّضَـاعَةِ مـا يَحْرُمُ من النسب، وفي لفظ للبخاري من طـريق عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن أن عـائشةَ زوجَ النبي ﷺ أخبرتها أن رسـول الله ﷺ كـان عنـدهـا وأنها سمعـت صـوت رجلٍ يستأذن في بيت حفصـة، قـالت: فقلت: يا رسـول الله هـذا رجل يستأذن في بيتك، فقـال النبي ﷺ أُرَاهُ فلانا، لعم حفصةَ من الرضاعـة، قالت عائشة: لو كان فلانٌ حياً ـ لعمهـا من الرضاعة ـ دَخَلَ عليَّ؟ فقال: نعم، الرضـاعة تُحَرِّمُ ما تُحَرِّمُ الولادةُ. وفي لفظ لمسلم من طـريق عروة عن عائشة أنها أخبرتـه أن عَمَّهَا من الرضـاعة يُسَمَّى أفلح استأذن عليها فَحَجَبَتْهُ، فأخبرتْ رسـول الله ﷺ فقال لها: لا تَحْتَجِبِي منـه فإنه يَحْرُمُ من الـرضـاعة مـا يَحْرُمُ من النسب. وفي لفظ لمسلم من حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: ويَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من الـرحم. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: قال العلماء: يُسْتَثْنَى من عمـوم قولـه: يَحْرُمُ من الرضـاع ما يحرم من النسب أربع نسوة، الأولى: أم الأخ في النسب حـرام لأنها إمَّا أمٌّ وإما زوج أب، وفي الرضاع قد تكون أجنبيةً فتُرْضِـعُ الأخ فلا تَحْرُمُ على أخيه، الثانية: أمُّ الحفيد حـرام في النسب لأنها إمَّا بنـتٌ أو زوجُ ابنٍ، وفي الرضـاع قـد تكون أجنبيـة فترضع الحفيدَ فلا تَحْرُمُ على جَـدِّه، الثالثة: جَدَّةُ الـولدِ في النسب حرام لأنها إمَّا أمٌّ أو أُمُّ زوجة، وفي الرضاع قد تكون أجنبيـةً أرضعت الولدَ فيجوز لوالده أن يتزوجهـا، الرابعةُ: أختُ الـولدحـرامٌ في النسب لأنها بنتٌ أو ربيبةٌ، وفي الرضـاع قد تكون أجنبيـةً فتُرْضِعُ الوَلَـدَ فلا تَحْرُمُ على الوالـد اهـ ولا شك أن محرمية الرضـاع إنما تختص بتحريم التناكح وجواز الخلوة والنظر والمسـافرة أما

ما عدا ذلك من التوراث ووجوب الإنفاق والعتق بالملك فهذا خاص بالنسب ولا دخل للرضاع فيه، ولو رَضَعَ عُمَرُ من عائشة مَثَلاً، ولعائشة بنون وبناتٌ ولعُمَرَ إخوةٌ لم يرضعوا من عائشة فإن جميع أبناء وبناتِ عائشة يكونون إخوةً لِعُمَرَ مهما اختلفت أعمارهم ولا يكون إخوةُ عمر من النسب الذين لم يرضعوا من عائشة إخوةً لأبناء وبنات عائشة لأن الحرمة إنما تنتشر بين كل اثنين رضعا من ثدي المرأة مهما اختلفت أوقات رضاعهم. وقد وَرَدَ الرضاعُ في هذه الآية الكريمة مطلقا لم يُقَيَّدْ بمقدار مُعَيَّنٍ وقد قَيَّدَ رسول الله ﷺ هذا الإطلاق بأن المصة والمصتين لا تُحَرِّمُ وأن الرضاع المُحَرِّمَ هو ما كان خَمْسَ رضعات مشبعات، وقد جعل الله تبارك وتعالى من وظائف رسول الله محمد ﷺ أن يُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم حيث يقول عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ وبيانه ﷺ للذكرِ يشمل تقييدَ المطلق و إطلاق المقيد وتخصيص العموم وبيانَ المجمل وقد أخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ وسلم: لا تُحَرِّمُ المَصَّةُ والمَصَّتانِ. كما أخرج مسلم من حديث أم الفضل رضي الله عنها قالت: دخل أعرابي على نبي الله ﷺ وهو في بيتي فقال: يا نبيَّ الله إني كانت لي امرأة، فتزوجتُ عليها أخرى، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرأتي الحُدْثَى رضعةً أو رضعتين، فقال نبيُّ الله ﷺ: لا تُحَرِّمُ الإمْلاَجَةُ والإملاجتانِ. وفي لفظ لمسلم من حديث أم الفضل أن نبي الله ﷺ قال: لا تُحَرِّمُ الرضعةُ أو الرضعتان أو المصة أو المصتان. اهـ والمصة هي المرةُ الواحدةُ من المصِّ ويقال لها: الإملاجةُ والرضعةُ وهي تَنَاوُلُ الثدي برفق وامتلاجُ لَبَنِهِ أي امتصاصُهُ لِمَرَّةٍ واحدة، يقال: امْتَلَجَ اللَّبَنَ أي امتصه، وأملجه أَرْضَعَهُ. كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أُنْزِلَ من القرآن: عَشْرُ رَضَعَاتٍ معلوماتٍ يُحَرِّمْنَ ثم نُسِخْنَ بِخَمْسٍ معلوماتٍ، فَتُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وَهُنَّ فيما

يُقرَأُ من القرآن اهـ ولا نزاع عند أهل العلم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وأن قراءة الآحاد تكون شاذةً ولا تجوز القـراءة بها في الصلاة، وقد أجمع المسلمون كذلك على أن قولَ عائشة رضي الله عنهـا: فَتُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وَهُنَّ فيما يقرأ من القرآن. أنه لا تجوز قراءة خمس رضعات معلومات على أنها قرآن، لأنها لم تخرج عن كونها قراءة آحـاد فهي منسوخة التلاوة قطعـاً، ولا نسخ بعد رسول الله ﷺ قال النووي رحمه الله في قـول عائشة رضي الله عنها: فتُـوفِّيَ رسول الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقْرأ من القـرآن: معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنـزاله جداً حتى أنـه ﷺ تُوُفِّيَ وبعض النـاس يقرأ: خمس رضعـات ويجعلها قـرآنا مَتْلُوًّا لكونه لم يبلغـه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يُتْلى اهـ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وأمهات نسائكم﴾ أي وحُـرمت عليكم والدات زوجـاتكم ولم يشترط الله تبارك وتعـالى في تحريم أم الـزوجة الـدخولَ بـالزوجـة، وقـد ذهب عامـة أهل العلم والفقهاء السبعـة والأئمة الأربعة إلى أن مجرد العقد على البنت يُحَرِّمُ أمهـا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وربائبكم الَّـٰتِي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكـونوا دخلتم بهن فلا جُناح عليكم﴾ أي وحُرِّمت عليكم بناتُ زوجاتكم إذا كنتم دخلتم بهن، قـال القـرطبي رحمه الله: أجمع العلماء على أن الـرجل إذا تـزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حَلَّ لـه نكاح ابنتها اهـ وذلك لأن العقد على الأم لا يحرم البنت وإنما تَحْرُمُ إذا كـان دخل بأمها، والتقييد بقـوله عـز وجل: ﴿الـلاتي في حجوركم﴾ خـرج مخرج الغـالـب فـلا مفهوم لـه إذ الغالبُ هـو أن تكون الربيبة وهي بنـت الزوجة من غير الزوج في حَجْـر أمها ولذلك قـال عز وجل: ﴿فإن لم تكـونوا دخلتم بهن فـلا جناح عليكم﴾ ولم يقيد بكـونها في حَجْر الـزوج فلم يقل: ولم تكن في حجـوركم. وهذا ظـاهر بحمد الله، وقولـه عز وجل: ﴿وحلائل أبنائكم الـذين من أصلابكم﴾ أي

وحرمت عليكم بسبب المصاهرة أيضا زوجـات أبنائكم الذين من أصلابكم بخلاف الأبناء بالتبني فإن زوجة الابن بالتبني حلال إذا طلقها الابن المتبنَّى، وقد ألحقت السنة زوجة الابن من الرضاع بزوجة الابن من الصلب، وحلائل أبناء الأبنـاء كحلائل الأبناء في التحـريم، ويكفي في تحريم زوجة الابن مجردُ عقـد الابن عليها حيث لم يُشْتَرَط الـدخول في النـص الكريم. وقـولُه تبـارك وتعـالى: ﴿وأن تجمعـوا بين الأختين إلا ما قـد سلف﴾ أي وحُـرِّمَ عليكم أن يكونَ تحت الـرجل منكم أختـان سواء كان على طـريق الزواج أو على طـريق مُلْكِ اليمين قال ابن كثير رحمه الله: وقد أجمع المسلمـون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمت عليكم أمهـاتكم وبناتكم وأخـواتكم﴾ إلى آخر الآيـة، أن النكاح وملك اليمين في هـؤلاء كلهن سـواءٌ، وكـذلك يجب أن يكـون نظراً وقيـاسـاً الجمعُ بين الأختين وأمهات النسـاء والربائب، وكذلك هو عنـد جمهورهم، وهم الحجةُ المحجوجُ بها مَنْ خَالَفَهَا وشذَّ عنها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله كـان غفورا رحيما.﴾ تعـريف بجوده وكـرمـه حيث شرع لأمة محمـد ﷺ أحسن الشرائع ورفع عنهم الإصْرَ والأغـلال ولم يُـحَمِّلهم فـوق طـاقتهم وخفف عليهم.

قـال تعالى: ﴿وَ الْمُحْصَنَـاتُ مِنَ النِّسَـاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَـابَ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَأُحِلَّ لَكُـمْ مَـا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُـوا بِـأَمْـوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـافِحِينَ، فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِـهِ مِنْهُنَّ فَآتُـوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ فَرِيضَـةً، وَلَا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾

بعد أن ذكر الله تبـارك وتعالى في الآيتين السابقتين المحرمـات من النساء في النكاح على التأبيد وختم بأحد أنواع التحريم المؤقت وهو الجمع بين الأختين شرع هنـا يبين بعـض أنـواع التحـريـم المؤقت الأخـرى حيث يقـول: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي وحرِّمت عليكم النساء ذواتُ الأزواج إلاَّ مـا مَلَكْتُمـوهُنَّ بـالسبي فإن السبي يقطع عصمـة زوجهـا الكافر، وهي حلالٌ لمن وقعت في سهمه بعد استبراء رحمها، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ بعث جيشـا إلى أوطـاس فلقَـوا عدُوًّا، فقـاتلـوهم، فظَهـروا عليهم، وأصـابـوا لهم سَبايـا، فكأنَّ نـاسـاً من أصحاب رسـول الله ﷺ تَحَرَّجُـوا من غِشْيـانهنَّ من أجـل أزواجهن من المشركين، فأنـزل الله عـز وجل في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَـاتُ مِنَ النِّسَـاءِ إلا مَـا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي فهُنَّ لكم حَـلاَلٌ إذا انقضت عِدَّتُهنَّ. ومعنى قولـه: إذا انقضت عدتهن أي تـم استبراء أرحامِهنَّ بوضع الحمل أو بحيضة أو بمضيِّ شهـر لمن لا تحيض. وفي هذا المعنى يقول الفرزدق:

وذاتُ حَلِيـلٍ أَنْكَـحَتْهَا رِمَاحُنَـا حَـلاَلٌ لمـن يَبْنِي بِهَـا لم تُطَـلَّقِ

وقد قـرأ جميعُ القُرَّاء قـوله عـز وجل هنا: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَـاءِ﴾ بفتح الصـاد، وقـد استعمل العرب ثَـلَاث كلمات على صـورة اسم المفعـول وهم يـريـدونها على معنـى اسم الفـاعل وهي أَحْصَنَ فهــو مُحْصَنٌ وأَلْفَجَ بمعنى

أَفْلَسَ فهو مُلْفَجٌ وأَسْهَبَ أي أكثر الكلام فهو مُسْهَبٌ وقد يقولون فيها: مُحْصِنٌ، ومُسْهِبٌ ومُلْفِجٌ، وأصل الإحصان في اللغة المنع، وقد ورد في القرآن الكريم لأربعة معانٍ، أحدها الحرية كما في قوله تعالى: ﴿والذين يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثم لمْ يأْتُوا بأربعة شُهَدَاءَ فاجْلِدوُهُمْ ثمانينَ جَلْدَةً﴾ أي والذين يقذفون الحرائر، بدليل أنه لو قَذَفَ غير حُرٍّ لم يُجْلَد ثمانين وكذلك قوله عز وجل: ﴿ومَنْ لم يَسْتَطِعْ منكم طوْلاً أن يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المؤمناتِ فمن ما ملكت أَيْمَانُكم من فتياتكم المؤمناتِ﴾ والثاني من معاني الإحصان هو الْعَفَافُ ومنه قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ وقوله: ﴿مُحْصِنِين غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وقوله: ﴿والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي أَعَفَّتْهُ. والمعنى الثالثُ من معاني الإحصان الواردة في القرآن الكريم هو الإسلام ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا أَحْصَنَّ فإن أَتَيْنَ بفاحشة﴾ على قراءة من قرأ بفتح الهمزة والصاد، أي أَسْلَمْنَ. والمعنى الرابع من معاني الإحصان الواردة في القرآن الكريم هو التَّزَوُّج ومنه قوله تعالى: ﴿والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي والمتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي، وقوله عز وجل: ﴿كتَابَ الله عليكم﴾ أي كتب الله عز وجل تحريم ما حرَّم من النساء وتحليل ما أحل منهن كتابا عليكم، فقوله: ﴿كتَابَ الله﴾ بالنصب على أنه مصدر من غير لفظ الفعل، وقوله عز وجل: ﴿وأُحِلَّ لكم ما وَرَاءَ ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحْصِنِينَ غير مسافحين﴾ أي وأبيح لكم سِوَى ما حُرِّم عليكم من النساء المذكورات في الآيتين السابقتين وفي صدر هذه الآية إرادة أن تطلبوا النساءَ بأموالكم متزوجين غير زانين. ومعنى ﴿بأموالكم﴾ أي بما تُؤْتُونَ من الصداق في الزواج أو الثمن في التَّسَرِّي، وأصل السفاح في اللغة مأخوذٌ من السفح وهو الصَّبُّ، وإنما سُمِّيَ الزنا سفاحا لأن الزاني لا غرضَ له إلا صبُّ مائه دون هدف كريم. وقوله عز وجل: ﴿فما اسْتَمْتَعْتُمْ به مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ فريضةً، ولا جُناح عليكم فيما تراضَيْتُمْ به من بعد الفريضة، إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي فما تمكنتم من التلذذ بأي نوع من التلذذ والانتفاع من زوجاتكم اللاتي عقدتم نكاحهن فَوَفُّوا لهُن مُهورهُن فريضة لازمةً فرضَها الله عز وجل عليكم لَهُنَّ كاملةً غير منقوصةٍ مادام قد حصل لكم منهن تَلَذُّذٌ ولو بالخلوة، مادامت الخلوة صحيحةً، ولا حرج عليكم ولا إثم إذا تنازل أحدكم عن بعض حقه أو كامل حقه لدى الآخر بعد استقرار الفريضة حيث يجوز للمرأة أن تعطي زوجها ما طابت نفسها به من حقها عليه من الصداق، كما يجوز للرجل أن يعطي زوجته أكثر من الفريضة والصداق المسمى بينهما عند العقد، والله تبارك وتعالى عليم حكيم، يجزي المحسن بإحسانه ولا يضيع عنده شيء من عمل خير يعمله الزوج أو الزوجة لله عز وجل، وفي تشريعه حِكَمٌ ساميةٌ لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى، وقد ادَّعى بعض الناس أن قوله عز وجل: ﴿فما اسْتَمْتَعْتُمْ به مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ دليل على جواز نكاح المتعة لورود لفظ ﴿استمتعتم﴾ ولفظ ﴿أجورهن﴾ مع أن لفظ الاستمتاع أتم في الزوجة، وكذلك قد سَمَّى الله تبارك وتعالى المهر أجراً في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن وآتُوهُنَّ أجُورَهُنَّ﴾ وهي المهور قطعاً، وكذلك قال عز وجل: ﴿لا جناح عليكم أن تنكحوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أجورهُنَّ﴾ وهي المهور قطعاً، وقال تعالى: ﴿ياأيها النبي إنا أَحْلَلْنَا لك أزواجك الَّتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن. ولاشك أن المتعة قد أبيحت بالسُّنَّة ثم حرمت وكانت إباحتها ضرورة فكانت تقدَّرُ بقدرها إلى أن أعلن رسول الله ﷺ أنها حُرِّمَتْ إلى يوم القيامة والظاهر أنها أبيحت ثم حُرِّمت ثم أبيحت ثم حرمت. قال النووي: والصواب المختارُ أن التحريم والإباحة كانا مرتين، وكانت حلالاً قبل خيبر ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ثم

حرِّمت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة ثم قال النووي : قال القاضي : واتفق العلماءُ على أن هـذه المتعة كانت نكـاحاً إلى أجل ، لا ميراث فيها ، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها اهـ. وقد روى البخاري ومسلم من حـديث علي رضي الله عنه قال : نَهَى رسول الله ﷺ عن المتعة عام خيبر. وفي لفظ للبخاري ومسلم عن علي رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ نهى عن متعة النسـاء وعن أكل الحُمُـرِ الأهلية يوم خيبر. كما روى مسلم من حديـث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : رخَّص رسولُ الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثة أيام ثم نَهَى عنها . وفي لفظ لمسلم من طريق الرَّبيع بن سَبْرَة عن أبيـه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إني كنت أذِنتُ لكم في الاستمتاع من النسـاء و إن الله قد حرَّم ذلك إلى يـوم القيـامة فمن كـان عنـده منهن شيء فَلْيُخَلِّ سبيلهـا ، ولا تأخـذوا إذا آتيتموهن شيئـاً . وفي لفظ لمسلم من حديث سبرة أنه كـان مع رسول الله ﷺ فقال : يـاأيها الناس إني قـد كنت أذنت لكم في الاستمتاع مـن النساء ، وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شيء فَلْيُخَلِّ سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً ، وفي لفظ لمسلم عن سبرة قال : أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثـم لم نخرج منها حتى نهانا عنها اهـ. وقد كان فتح مكـة في أواخر شهر رمضان من السنة الثامنـة للهجرة وأوطاسُ كانت في شوال من السنة الثامنة للهجرة كذلك ، وأوطاس وادٍ في ديار هوازن من أوديـة الطـائف قرب حنين ، وقـد أخـرج الطبراني في الأوسط من طـريق إسحـاق بن راشـد عن الزهـري عن سـالم : أُتِيَ ابنُ عمـر فقيل لـه : إن ابن عباس يأمـر بنكاح المتعة فقـال : معاذ الله ، ما أظن ابن عبـاس يفعل هذا ، فقيل : بلى ، قال : وهل كـان ابن عباس على عهـد رسول الله ﷺ إلا غـلاماً صغيراً . ثم قال ابن عمر: نهانـا عنها رسول الله ﷺ وما كنـا مسافحين اهـ.

ومن أبرز أدلة تحريم المتعة كذلك وجوه ساقها الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية حيث قال: الأول: أن الوطء لا يحل إلا في الزوجة أو المملوكة لقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ وهذه المرأة لا شك أنها ليست مملوكة، وليست أيضاً زوجة، ويدل عليه وجوه: أحدها: لو كانت زوجةً لحصل التوارثُ بينهما، لقوله تعالى: ﴿ولكم نصفُ ما ترك أزواجكم﴾ وبالاتفاق لا توارث بينهما، وثانيها: ولثبت النسب لقوله عليه الصلاة والسلام: الولد للفراش، وبالاتفاق لا يثبت، وثالثها: وَلَوجَبَتِ العِدَّةُ عليها لقوله تعالى: ﴿والذين يُتَوَفَوْنَ منكم ويذرون أزواجا يتربَّصْنَ بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا﴾ اهـ.

وقد أعلن عمر رضي الله عنه بمشهد من أصحاب رسول الله ﷺ النهي عن المتعة وكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهما من أئمة أصحاب رسول الله ﷺ موجودين، ووافقوا عمر رضي الله عنه على إعلان تحريمها يوم وقع فيها عمرو بن حريث رضي الله عنه لعدم علمه بتحريمها، ولاشك أن علياً رضي الله عنه لا يوافق عمر رضي الله عنه إلا وهو مطمئن أن ذلك هو حكم رسول الله ﷺ، وقد تقدمت الرواياتُ الصحيحة الثابتة عن علي رضي الله عنه بأن رسول الله ﷺ حرَّم المتعة بعد الترخيص فيها، هذا ولا نزاع عند أهل العلم أن المتعة لم تُبَحْ في الإسلام عندما أبيحت إلا في الغزو، ولم تُبَح للمقيمين أبداً، وأنها عندما أبيحت كانت للضرورة، كما أشار إلى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري في صحيحه عنه من طريق أبي جمرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ، واللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْروفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المُحْصَنَاتِ من الْعَذَابِ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ، وأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لكم، واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

بعد أن بيَّن الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء على التأبيد، وأنه حرَّم الجمع بين الأختين، وحرم نكاح المتزوجات إلا ذوات الأزواج اللائي مُلِكن بالسبي حيث يقطع السَّبْيُ عصمة زوجها الكافر، وشدَّد على الأزواج في وجوب المحافظة على حقوق الزوجات، والتزام حدود الله فيهن، والحرص على العفاف وصيانة الأعراض، بيَّن هنا أنه يجوز للحر المسلم أن يتزوج أمةً مسلمةً إذا كان عاجزاً عن أن يتزوج حرةً مسلمةً لقلة ذات يده وفقره، وأنه لابد من إذن سيد الأمَةِ في زواجها، وأنه يجب الوفاء للأمة بمهرها مع الحرص على اختيار الأمة العفيفة المعروفة بحُسْن السيرة والسلوك وفي أثناء السِّياق ندَّد بالتمييز العنصري وبيَّن أن المسلم أخو المسلمة بِغَضِّ النظر عن نسبها ولونها، حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَات﴾ أي ومن لم يقْدر منكم أيها الأحرار المسلمون على مؤنة نكاح حرة مؤمنة عفيفة بسبب قلة ذات يده فليتزوج أمة مملوكة مسلمة، والطَّوْل هو الفَضْلُ والقدرة والسعة والغِنى كما في القاموس، وإنما اشترط الله عز وجل فيمن يتزوج أمةً أن يكون عاجزاً عن الزواج من الحرة المسلمة لحرص الشريعة الإسلامية على تَجَنُّبِ استرقاق الحر المسلم، وذلك بسبب أن الحُرَّ المسلم إذا تزوج الأمة يصيرُ أبناؤه

منها عبيداً لسيدها، إذ الأولاد يتبَعُون أمَّهم حـريةً ورقًّا ويتبعُونَ خير الأبوَين دِينـاً، فالإسـلام يحرص على سـدِّ كل طريـق يؤدي إلى استرقـاق الحُرِّ المسلم ويعملُ على تحريـر الأرقاء، ولما كـان قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُم طَـوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَـاتِ المُؤْمِنَـاتِ فَمِن مـا مَلَكَـتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَـاتِكُمُ المُؤْمِنَات﴾ قـد يفهَمُ منـه مَـنْ لا خبرةً لـه بأسرار وحِكَم التشريع الإسلامي أن ذلك تمييـزٌ عنصري دفع ذلك الوَهْمَ وأبعـد ذلك الخاطر حيث عقَّب بقوله: ﴿واللهُ أَعْلَمُ بإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُم مِّنْ بَعْض﴾ أي ولا تشَكَّكُوا في إيمان أحد بسبب لـونه أو عنصره فعليكم أن تكتفوا بما يظهـر لكم من انقياد الشخص لتعاليم الإسـلام، وكِلُوا السرائر إلى الله وحده فإنه هـو وحده علام الغيوب، وَرُبَّ أمةٍ مؤمنة تَفْضُل الحرة المؤمنة في إيمانها، وبعضكم من جنس بعض في النسب والـدين، فلا يترفع الحُرُّ عن نكـاح الأمة مـادام يخشى على نفسه الوقوع في العنت وارتكاب ما حرَّمَ الله عز وجل من الفاحشة وما أحسن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

الناسُ من جهة التمثيل أكْفَاءُ   أَبُوهُـمُـوا آدَمُ والأُمُّ حَـــوَّاءُ

ولذلك قـال عز وجل في خواتيـم المسك من سورة آل عمران: ﴿فـاستجاب لهم ربُّهم أني لا أُضيعُ عَمَـلَ عَـامِـلٍ مّنكم من ذكـــر أو أنثى بعضُكُـم مّن بعض﴾ وقـال عز وجل في مطلع سـورة النساء: ﴿يـاأيها الناسُ اتقـوا ربكم الـذي خلقكم من نفس واحـدة وخلق منها زوجهـا وبَثَّ منهما رجـالاً كثيرا ونساء﴾ ولم تعرف الإنسانيـة في تاريخها الطويل ديناً أو نظـاماً حارب التمييز العنصري كما حاربـه دينُ الإسلام الـذي بعث الله به النبي الهاشمـيَّ القرشيَّ الأميَّ محمداً ﷺ، واعتبر التمييز باللون أو الجنس من عمل الجاهلية ولذلك نبه رسولُ الله ﷺ أبا ذر لما عَيَّرَ عَبْداً له بأمـه حيث قال له: يـاابنَ السوداء: فقال له رسول الله ﷺ: إنك امرؤ فيـك جاهلية، فقد روى البخاري ومسلم

عن المَعْرُورِ بن سُوَيد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه مثلُها، فسألتُه عن ذلك، فذكر أنه سابَّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعَيَّرَهُ بأمه فقال النبي ﷺ: إنك امْرُؤٌ فيك جاهليةٌ، هم إخوانكم وخَوَلُكُمْ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكل، وَيُلْبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأَعينُوهُمْ. بل جعل الإسلام لمن كانت له أمةٌ فأدبها وأعتقها وتزوجها أنَّ له أجْرَيْن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيه وآمنَ بمحمد والعبدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدَّبَهَا فأحْسَنَ تأديبها، وعَلَّمَهَا فأحْسَنَ تعليمَهَا، ثم أَعْتَقَهَا فتزوجها، فله أجران. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى الشرط الأول من شروط جواز نكاح الأمة المؤمنة وهو العجز عن نكاح الحرة المسلمة، ذكر هنا بقية الشروط التي تبيح نكاح الأمة المؤمنة وهي أن يكون الزواج بإذن سيدها وأن يعطيها الزوج مهراً بالمعروف، وأن تكون الأمةُ معروفة بالعفاف وحسن السيرة والسلوك، ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ بيانٌ على أن السيد هو وليُّ أمته، لا تُزَوَّجُ إلا بإذنه، وكذلك هو وَلِيُّ عبده فليس للعبد أن يتزوج بغير إذن سيده، وقد أجمع على ذلك علماءُ الإسلام، وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسنٌ عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أَيُّما عبدٍ تزوَّجَ بغير إذن سيده فهو عاهر، وقد أخرجه أيضاً ابن حبان والحاكم وصححاه. وإذا كان مالكُ الأمة امرأةً فإنه يزوج الأمة منْ يُزَوِّجُ سيدتها بإذنها وقد روى ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: لا تُـزَوِّجُ المرأةُ المرأة، ولا تُزَوِّجُ المرأةُ نَفْسَهَـا. قال الحافظ ابن حجـر في بلـوغ المرام: ورجـالـه ثقـات، وقـولـه تبـارك وتعـالى: ﴿وآتُـوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ بِـالْمَعْروف﴾ قـال ابن كثير رحمه الله: أي وادفعوا مُهُـورهُنَّ بالمعـروف أي عن طيب نفس منكم، ولا تَبْخَسُوا منه شيئاً استهانةً بهن لكونهن إمـاءً مملوكات اهـ. وقـوله عز وجل: ﴿مُحْصَنَـاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِـذَاتِ أَخْدَان﴾ تأكيدٌ على وجوب الحرص على أن تكون الأمـةُ التي يرغب الحر في الزواج منها معروفة بـالعفاف وحسن السيرة والسلوك وقد لوحظ أن الله تبـارك وتعالى قال في شأن التـزوج من الحرائر المسلمات: ﴿مُحْصِنِينَ غير مسـافحين﴾ وقـال في شأن تـزوج الحر المسلم من الأمة المسلمـة: ﴿مُحْصَنَـاتٍ غَيْرَ مُسَافِحـاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْـدَان﴾ وهذا يشعـر بأن وقوع الـزنا مـن الحرة المسلمة أَمْـرٌ يكاد يكون نادراً، ولذلك قالت هند رضي الله عنها لما بايعت رسول الله ﷺ، وقال في البيعة: «ولا يزنين» قـالـت: أوَ تَزْني الحرةُ؟ أما الإماء فكـان العفافُ فيهن قليلاً، لأنهن لا يحتجبن، وتخرج الأمةُ إلى كل موضع يـرسلها أهلها إليه وهي متبذلـة، وقد تعجـز عن الامتناع، وقد كـان بعض أهل الجاهلية يُقَـدِّمُ أمته لضيوفه على أنه نوع تكريم عنـدهم، حتى ولو كرهت الأمة ذلك كما قال عز وجل: ﴿ولا تُكْرِهوا فَتَيَاتِكُمْ على البِغَـاءِ إن أردْن تَحَصُّنًا لتبتغوا عَرَض الحياة الـدنيا﴾ وكـان آخرُ من فعَلَ ذلك عبـد الله بن أبي ابن سَلول رأس المنـافقين لعنه الله. وكـانت بعضُ الإماء تعلن ذلك وتتخـذ رايات تنْصِبُها عنـد دارها ولا تمنع أحـداً من نفسها، كما كـان بعض الإماء يتخـذن الأخدان فـلا تُبِيحُ نفسها إلا لصديق واحد سرًّا، ولا تجهر بذلك، ولذلك أفرد الله تبارك وتعالى كلَّ واحـد من هذين القسمين بـالـذكر، ونصَّ على تحريمهما معـاً، وأنَّ من كانت من الإماء على أحد هذيـن الوصفين لا يجوز للحر المسلم أن يتزوجها، حيث قال عز وجل هنا: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَان﴾

فالمراد بالمحصنات هنا العفائف وقد أكَّدَ ذلك بقوله عز وجل: ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾أي غير زانيات جهراً، ومعنى: ﴿ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي أخلاءَ يزنون بهن سراً، والأخدان جمع خِدْنٍ، وهو الصاحب والصديقُ على الفاحشة، ويقال له أيضا: خَدِين، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذين القسمين أيضاً عندما أباح للمسلم أن يتزوج كتابية حيث يقول في سورة المائدة: ﴿والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإذا أُحْصِنَّ فإن أَتَيْنَ بفاحشة فعليهن نصفُ ما على المحصَنَاتِ من العذاب﴾. بعد أن بين الله تبارك وتعالى حقوق الأمة المسلمة إذا تزوجها المسلم الحر الذي لم يستطع نكاح المحصنات المؤمنات، بيَّن هنا ما يجب في حق الأمة إذا ارتكبت فاحشة الزنا بعد إحصانها، وقد قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿أَحْصَنَّ﴾ بفتح الهمزة والصاد وقرأ الباقون ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد، وفُسِّرَت ﴿أَحْصَنَّ﴾ بمعنى أسلمن، وفُسِّرت ﴿أُحْصِنَّ﴾ بمعنى: تزوجْنَ. وقد ذهب غير واحد من أئمة أهل العلم إلى أن التنصيص على جعل حد الأمة إذا أحصنت على النصف من حد الحرة، للدلالة على أن تنصيف الحد على غير المحصنة من باب أولى، وقد أورد البخاري من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: إذا زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهذه الآية صريحةٌ في أن حد الأمة بعد الإحصان هو نصف عذاب الحرائر، والذي يتنصف من عذاب الحرائر هو الجلد لا الرجم فتكون هذه الآيةُ قد أثبتت حد الأمة الزانية بعد الإحصان، ويكون حديث الشيخين قد أثبت حد الأمة الزانية قبل الإحصان، وهو عين حد الأمة

المحصنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ، وأَنْ تصْبِرُوا خَيْرٌ لكم، واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ أي إن نكاح الحر المسلم للأمة كما يُشْترط فيه ألا يكون الراغب في الزواج قادراً على التزوج من الحرة المؤمنة كذلك يشترط فيه أن يخشى على نفسه العنت أي الوقوع في الزنا، وأصل العنت هو الضرر الشديد الشاق، والمقصود به هنا الشبق الشديد والغلمة العظيمة التي قد تؤدي بالإنسان إذا لم يُنَفِّس لها إلى الأمراض الشديدة فربما حمله ذلك على الزنا فَيُعَرِّض نفسه للعذاب الشديد، ومعنى: ﴿وأَنْ تصْبِرُوا خَيْرٌ لكمْ﴾ أي وصبركم على بقائكم عُزَّاباً مع صيانتكم أنفسكم عن الوقوع في الحرام خير لكم من نكاح الأمة، لأنه يُفْضي إلى استرقاق أولادكم، والتذييل بقوله: ﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ لإشعار من اضطر إلى نكاح الأمة مع ما فيه من خشية استرقاق الولد بأنه أهل لمغفرة الله ورحمته مادام قصده إعفاف نفسه.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيم● وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ● يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً● ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحيماً ● وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانا وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً، وكانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً●﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة في خاتمة تشريع جواز أن ينكح الحر المسلم الأمة المسلمة أنه شَرع هذا لمن خَشِيَ العنت منكم مما يفيد أنه عز وجل يُحبُّ رَفْعَ العَنَتِ والحَرَج والمشقة عن المسلمين حيث بعث رسوله محمداً ﷺ بالحنيفية السمحة وبالدين اليُسْر كما قال عز وجل: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَجَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يريد اللهُ بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسْرَ﴾ شرع هنا يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها بجملة تأكيدات لتكون ماثلةً دائماً أمام عقول المسلمين ليشكروا نعمة الله عليهم وليجتنبوا التنطع في الدين الذي أَهْلَكَ مَنْ كان قبلهم حيث شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عليهم، وهذه الآيات الستُّ التي سيقت بين ما سبقها من الآيات التي تقرر حقوق النساء وما يليها مما يتعلق بالنساء أيضاً للفت الانتباه إلى معرفة نعم الله عل عباده، وشكره على جميع ما يسَّره لنا وسهَّله علينا إحساناً منه وجوداً وكرماً وفضلاً، والتحذير من مخالفة أمره وارتكاب معاصيه. والحذَر من دعاة الضلالة الذين يريدون صرفَ المسلمين عن دينهم، واجتنابِ أكل أموال الناس بالباطل، وقتلِ النفس، والبُعْدِ عن كبائر السيئات، ولاشك أن تربية النفس الإنسانية على هذا السلوك السَّويِّ مما يُمَكِّنُهَا من إدراك تيسير شرع الله، الداعي إلى تحريم الاعتداء على الأموال

والأنفس، وأنـه لا يحل لأحد أن ينتهك حـرمة النفس سـواء كانت لـذكر أو أنثى أو حُـرٍّ أو عبد، ولا أن ينتهك حـرمة المال الـذي قَرَنَ الله عـز وجل بين تحريمه وتحريم قتل النفس في آية واحدة، والإرادة في قـوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم﴾ وفي قوله: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْكُم﴾ وفي قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُم﴾ هي الإرادة الشرعيـة التي هي بمعنى المحبـة لا الإرادة الكـونية القَـدَرِيَّـةُ، والـلام في قولـه عـز وجل: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ بمعنى أَنْ، لأنها جاءت بعد قـوله عز وجل: ﴿يريد اللهُ﴾ والعرب قـد استعملت في أساليبها الفصيحة التعـاقب بين لام كيْ وبين أن بعد أمـرتُ وأردتُ فتقول: أردتُ أن تفعل، وأردتُ لتفعل وأمرتُ أن تفعل وأمرت لتفعل بمعنى واحد كما قال عز وجل: ﴿يُريـدُونَ أن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْـوَاهِهِم﴾ وقال عز وجل: ﴿يُـريدُونَ لِيُطْفِئُـوا نُـورَ الله بأفـواههم﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وأُمِـرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لـرب العالمين﴾ وقـال: ﴿وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لـرب العالمين﴾ وقـال عز وجل: ﴿قل إني أُمِرْتُ أَنْ أكون أولَ من أسلم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وأمرت أن أعدل بينكم، وكما قال عـز وجل: ﴿قل إني أُمِرْتُ أن أَعْبُدَ الله مُخْلِصا لَـهُ الدِّين. وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ المسلمين﴾ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ويَتوبَ عَلَيْكُمْ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيم﴾ أي يُحِبُّ اللهُ عز وجل أن يُوضِّحَ لكم سَبِيلَ سعادتكم ومَنْهج رُشْدِكم بما شرعه لكم من الشريعـة السمحة المشتملة على خير ما يَنْفَعُكُمْ في دينكم ودنياكم، حيث حـرَّم عليكم ما حرَّم من المفاسـد وأَذِنَ لكم فيما يعُود عليكم بـالجليل من المصـالح والمنـافع والفوائد، كما أنـه عـز وجل يُحِبُّ أن يُعَرِّفَكُمْ طرائق من سبقكم من الأمم لتعرفوا فضل الله عز وجل عليكم حيث هـداكم إلى صراطه المستقيم الـذي بعث بـه الأنبياء والمرسلين، وكيف كـان عاقبـة الذين انحـرفوا عن دين أنبيـائهم ورسلهم، كما أنه عـز وجل يُحِبُّ أن

يتوب عليكم إذْ رَسَمَ لكم المنهج الذي يوصِلكم إلى مرضاة الله، ويُسَهِّلُ عليكم الابتعاد عن المعاصي والمحارم، والله عز وجل ذو علم بما يُصْلِحُ عباده في معاشهم ومعادهم، حكيم في شرعه وقدَرِهِ وأقواله وأفعاله، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ أي والله عز وجل يحب أن تستقيموا على شرعه، فيرضى عنكم ويتجاوز لكم عن هفواتكم، ويُحِبُّ عُبَّادُ الهوى المنغمسون في الشهواتِ المحُرَّمةِ، المنحرفون عن منهج الهداية والرُّشْدِ أن تنحرفوا انحرافاً كبيراً لتكونوا مثلهم كما قال عز وجل: ﴿وَدُّوا لو تكفرون كما كَفَرُوا فتكونون سواءً﴾ وكما قال عز وجل عن إبليس لعنه الله: ﴿إن الشيطان لكم عَدُوٌّ فاتخِذُوهُ عدُوًّا، إنما يَدْعُو حِزْبَهُ ليكونوا من أصحاب السعير﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُم﴾ أي يحب الله تبارك وتعالى التخفيف على أمة محمد ﷺ، ولذلك رفع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على مَنْ قبلهم، وجعل عز وجل التخفيف على المسلمين من القواعد الشرعية الأساسية التي تنبني عليها الأحكام الشرعية، ولذلك جعلَ الصلاةَ الرباعية للمسافر ركعتين، وأجاز لمن كان على جَنَاح السفر أن يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، وجعل التيمم بالصعيد الطاهر لمن لا يقدر على استعمال الماء في الوضوء أو الغسل، وأجاز للمريض أن يصلي قاعداً أو على جَنْب، وقال عز وجل: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين. فإن خفتم فرجالا أو ركبانا﴾ وقال عز وجل: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فَلْتَقُمْ طائفةٌ منهم معك ولْيَأْخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولْتَأْتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ولْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأسلحتهم﴾ وأباح الغنائم لأمة محمد ﷺ ولم يبحها لأحد قبلهم، وخفف فريضة الصلاة على المسلمين فجعلها خَمْسًا بَدَلَ خمسين

وقـال رسول الله ﷺ في حـديث الإسراء والمعراج : فلما جـاوزتُ نادَى مُنَـادٍ : أمْضَيْتُ فـريضتي ، وخَفَّفْتُ عن عبـادي كما جـاء في لفظ للبخـاري . ومن أقرب صور التخفيـف لهذه الآية في كتاب الله عز وجل أنه أبـاح للحر المسلم العاجز عن الـزواج من الحرة المسلمة أن يتزوج أمة عفيفـة مسلمة حيث قال قبل هذا المقام مباشرة في كتاب الله عز وجل : ﴿ومَنْ لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنـات المؤمنات فمن مـا ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنـات﴾ الآيـة . وقولـه عز وجل : ﴿وخُلِقَ الإنسـانُ ضَعِيفًا﴾ أي أنشأ الله عـز وجل الإنسـانَ على جِبِلَّـةٍ يَسْتَمِيلُهُ الهَوَى والشهـوة ، ويَسْتَشِيطُـهُ الخوفُ والحزنُ ، وتؤلمه الشوكـة إذا شاكته ، ولا يتمالك نَفْسَهَ أمام المُغْـرِيَاتِ إلا مَنْ عصمه الله عز وجل فاعتصم بحبل الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، وقد روى مسلم في صحيحـه من طـريق حماد بن سلمـة عن ثـابت عن أنس أن رسـول الله ﷺ قال : لما صَوَّرَ اللهُ آدمَ في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليسُ يُطيفُ به ، ينظر مَاهُوَ؟ فلما رآه أَجْوَفَ عَـرَفَ أنه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتمالَكُ . قال النووي في شرح مسلم : الأجـوفُ صاحبُ الجَوْفِ وقيل : هـو الذي دَاخِلُـهُ خَالٍ ، ومعنى لا يَتَمَالَكُ : لا يملك نفسه ويَحْبِسُهَا عن الشهوات . وقيل : لا يملك دفع الـوَسْوَاسِ عنـه ، وقيل : لا يملك نفسه عنـد الغضب ، والمراد : جنس بني آدم اهـ . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنـا عبد الصمد ثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عـز وجل آدمَ تركه ما شاء الله أن يَدَعَـهُ ، فجعل إبليسُ يُطِيفُ بـه يَنْظُرُ إليـه ، فلما رآه أجوفَ عَـرَفَ أنه خَلْقٌ لا يَتَمالَكُ . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تكُـونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنكُم﴾ أي يامَعْشَرَ المُسْتَجِيبِينَ لله ولـرسولـه ﷺ لا تَسْتَحِلُّـوا أموال النـاس بـالباطـل وتأكلوهـا بغير حق ، وتَسْتولُـوا عليها بطرق غير مشروعـة كالـربا والقمار والغصب والرشـوة وسائر

المكـاسب التي نهت عنها شريعـة الإسـلام، وقد وسَّع الله عـز وجل عليكم حيث أبـاح لكم الحصـول على الأموال بطـريق التجـارة وتَبَـادُلِ السِّلَع التي تحصل لكم وتتمُّ بين المتعـاقـدين عن تـراض وطيب نفس منهما في إطـار مـا رسمتـه الشريعة الإسـلاميـة لكم، فلو حصـل التراضي بين المتعاقـدين على صفقة محرمة كالربا ونحوه فإن هذا العقد باطل، و إضافة الأموال للمخاطبين بقـولـه عز وجـل: ﴿ لا تأكلوا أمـوالكم﴾ لِيَعُمَّ التحـريم أكل مـال نفسـه بالبـاطل كبذله في المعاصي، كما يعم التحـريمُ أكل مال غيره بالبـاطل، وقد تقـدم أكثـر من مـرة أن التنصيص على تحريم الأكل بغير حق لا يبيح أخـذ أموال النـاس بغير حق لغير الأكل، إذ أن تخصيص الأكل بالـذكر لأنـه هو المقصود الغـالب من الاستيـلاء على الأموال، وقـوله عز وجـل: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي ولا يقتل بعضكم بعضـاً، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله جل ثناؤه: ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾ فإنه يعني: إن الله تبارك وتعالى لم يـزل رحيما بخلقه، ومن رحمته بكم كفُّ بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنـون بتحريم دمـاء بعضكم على بعض إلا بحقهـا، وحظْرِ أكْل مـال بعضكم على بعض بـالبـاطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهْلَكَ بعضُكُمْ بعضاً قتلاً وسَلْبًا وغَصْبًا اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيـهِ نَارًا، وكانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ أي ومن يقع في جـريمة من هاتين الجريمتين العظيمتين وهي أكلُ الأموال بالباطل أو قتلُ النفس مُنْتَهِكًا حـرماتِ الله، متجـاسراً على حـدوده فسـوف نورده نـارا، يَصْلى بها فَيَحْتَرِقُ فيها، وكـان إصْلاَءُ هذا المجرم النـارَ و إحراقهُ سهـلاً على الله يسيرا؛ لأنه لا يعجز عن شيء ولا يفـوته شيء، لأنه إذا أراد أمراً إنما يقول لـه كن فيكون، وجميع خلقه في قبضته يفعل بهم ما يشـاء ويحكم فيهم بما يريد لا رادَّ لقضائه

ولا معقب لحكمه . وقد تقدم أن نُصُوصَ الوعيد إن وردت في حق من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهي تحت مشيئـة الله عز وجل ، إن شاء عذَّب و إن شاء عَفَا لقوله تبـارك وتعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر مـادون ذٰلك لمن يشـاء﴾ في آيتين من كتـاب الله عـز وجل في هـذه السـورة المباركة .

قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً﴾

بعد أن حذَّر الله تبارك وتعالى من ارتكاب بعض الكبائر كأكل أموال اليتامى ظلماً، وانتهاك حدود الله وفرائضِهِ التي حدَّها وفَرَضَهَا في المواريث للرجال والنساء، وارتكابِ الفاحشة، وتعدي الزوج على الزوجة بأخذ مهرها أو بعضه ظلما عند طلاقها، وتَزَوُّج الابن بزوجة الأب، ثم أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس يعني بغير حق، وقدَّم في الآية السابقة الوعيدَ الشديدَ لمن فعل ذلك عدوانا وظلماً ترهيباً، وَعَدَ تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من اجتنب الكبائر بأن الله عز وجل يغفر له ما دونها من السيئات ويُدْخِلُه الجنة ترغيباً، على طريقة الأسلوب القرآني العظيم في الترغيب والترهيب، الذي يسلك بالنفس الإنسانية الرشيدة صراط الله المستقيم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ أي إن تبتعدوا عن كبائر الإثم والفواحش، وتَصُونُوا أنفسَكم عن الاقتراب منها، فلا ترتكبوا شيئاً منها، ولا تُضَيِّعوا شيئاً من فرائض الله التي فرضها عليكم، ونهاكم عن تضييعها، فلكم وَعْدٌ من الله عز وجل بتكفير ما دون الكبائر من المعاصي واللَّمَمِ، وإدْخالِكُمْ جناتِ النعيم. وقد ورد في القرآن العظيم ما يفيد أن الذنوب تنقسم إلى كبائرَ وصغائرَ كما في هذه الآية الكريمة، وكما قال عز وجل في سورة النجم: ﴿الذين يَجْتَنِبُونَ كبائرَ الإِثْمِ والفواحشَ إلا اللَّمَمَ﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ كذلك إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الصلواتُ الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكَفِّرَاتٌ ما بَيْنَهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ، وبهذا يتضح أن

ترك الكبائر واجتنابها يُكَفِّرُ الصغـائرَ كما أن المحافظة على الصلوات الخمس والجمعـة وصيامِ رمضـان مكفِّـراتٌ للصغـائر كذلـك، وقد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن مسعـود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امـرأةٍ قُبْلَةً فأتى رسـولَ الله ﷺ، فَذَكَرَ ذلـك له، فأنْـزِلَتْ عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاَةَ طَرَفَي النهـار وَزُلَفًـا من الليل، إن الحسنـات يُـذْهِبْنَ السيئـاتِ، ذٰلـك ذكـرى للذاكـرين﴾ قال الـرجل: أَلِيَ هذه؟ قـال: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا من أمتي. وفي لفظ لمسلم من حـديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه أن رجـلاً أَتَى النبي ﷺ فذكر أنـه أصاب من امرأة إما قبلـةً، أو مَسًّا بِيَدٍ، أو شيئاً، كأنـه يَسأَلُ عن كفـارتها قال: فأنـزل الله عـز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاَةَ طَرَفَيِ النهـار وَزُلَفًـا من الليل، إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئاتِ، ذٰلك ذكـرى للذاكرين﴾ قال: فقال الرجل: أَلِيَ هـذه يارسول الله؟ قـال: لمن عَمِلَ بها من أمتي. وفي لفظ لمسلم من حـديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه قال: جـاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسـول الله إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها ما دُونَ أن أَمَسَّها، فَأنَا هَذَا، فاقْضِ فِيَّ مـا شئتَ، فقال له عمر: لقد سَتَرَكَ اللهُ لـو سترتَ نفسَك، قال: فلم يَـرُدَّ النبيُّ ﷺ شيئـاً، فقـام الرجل فـانطلق، فَأَتْبَعَـهُ النبيُّ ﷺ رجـلا دَعَاهُ، وتلا عليـه هذه الآيـة: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاَةَ طَرَفَيِ النهـار وَزُلَفًـا من الليل، إن الحسنـات يُـذْهِبْنَ السيئـاتِ، ذٰلـك ذكـرى للذاكـرين﴾ فقال رجـل من القوم: يـانبي الله، هذا لـه خاصَّةً؟ قـال: بل للناسِ كافةً. وفي لفظ لمسلم: فقال معاذٌ: يارسول الله، هذا لهذا خاصَّةً أو لنـا عامَّـةً؟ قال: بل لكم عـامَّةً. وبهذه النصـوص من كتاب الله عـز وجل وصحيح سنـة رسول الله ﷺ يتضح أن السيئـات تنقسم إلى كبائرَ وصغـائرَ، وقد فـرَّق غَيْرُ واحدٍ من أئمـة أهل العلم بَيْنَ الكبيرة والصغيرة بأن الكبيرة ما توعد الله عـز وجل عليها بعذاب أو لعنة أو غضب أو تهديد بعقوبـة عاجلة

أو آجلة ، وأن الصغيرة ما سواها ، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الكبائر أكبر من بعض ، ولاشك أن الشركَ بالله هو أكبر الكبائر، ويليه بقيةُ السبع الموبقات ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : اجتنبوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ ، قيل : يارسول الله وما هُنَّ؟ قال : الشركُ بالله ، وقتلُ النفسِ التي حرَّمَ الله إلا بالحق ، والسحرُ ، وأكلُ الربا ، وأكلُ مال اليتيم ، والتَّوَلِّي يوم الزَّحْفِ ، وقذفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ . وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سُئِلَ عن الكبائر، فقال : الشرك بالله ، وقَتْلُ النفس ، وعُقُوقُ الوالدين ، — وقال — ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى ، قال : الإشراك بالله وقولُ الزُّورِ — أو شهادةُ الزُّور. كما أخرج البخاري ومسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يارسول الله ، قال : الإشراك بالله وعقوقُ الوالدين — وكان متكئاً فَجَلَسَ فقال — : ألا وشهادة الزور، ألا وقَوْلُ الزُّور، فمازال يُكَرِّرُهَا حتى قلنا : ليته سَكَتَ . كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلتُ يارسولَ الله أيُّ الذنبِ أَعْظَمُ؟ — وفي رواية — أَكْبَرُ؟ قال : أن تَجْعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ . قلت : ثم أيٌّ؟ قال : أن تقتل وَلَدَكَ مخافة أن يَطْعَمَ معك . قلت : ثم أيٌّ؟ قال : أن تُزانِيَ حَلِيلَةَ جارك . فأنزل الله عز وجل تصديقها : ﴿والذين لا يَدْعُونَ مع الله إلٰهًا آخرَ ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعلْ ذٰلك يلق أثاما﴾ كما روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : الكبائر الإشراكُ بالله وعقوقُ الوالدين وقتلُ النفس ، واليمينُ الغموسُ . كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ :

من أكبرالكبائر أن يلعن الرجلُ والديه، قالوا: وكيف يلعن الرجلُ والديه؟ قال: يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أمَّه فَيَسُبُّ أمَّه اهـ. ومن الكبائر اليأس من رَوْح الله، والقنوطُ من رحمة الله، والأمنُ من مكر الله، وسوءُ الظن بالله، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿إنه لا يَيْأَسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ من رحمة ربه إلا الضالُّون﴾ وقوله عز وجل: ﴿أفَأَمِنُوا مكرَ الله فلا يأمن مكر الله إلا القومُ الخاسرون﴾ وقوله تعالى: ﴿ولَكن ظَنَنْتُمْ أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذالكم ظَنُّكُمْ الذي ظننتم بربكم أرْدَاكم فأصْبَحْتُم من الخاسرين﴾ ومن الكبائر الزنا وعمل قوم لوط وشربُ الخمر والمخدِّرات وأكلُ لحم الخنزير، والسرقة والغِيبَةُ والنميمة والحسد والغش، والاعتداءُ على الآمِّينَ البيتَ الحرام، وقتالُ المسلمين بغير حق، وأن يقول الإنسان لأخيه المسلم ياملعون أو ياكافر، أو ياعدُوَّ الله، وإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿والذين يُؤْذُونَ المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكْتَسَبُوا فقد احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وإثما مُبِينا﴾ كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: سِبَابُ المسلم فُسُوقٌ، وقِتَالُهُ كُفْر. كما روى البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا يَرْمِي رجلُ رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارْتَدَّتْ عليه إن لم يكن صاحبُه كذلك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه وهو من أهل بيعة الرضوان أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عُذِّب به يوم القيامة، وليس على رَجُل نَذْرٌ فيما لا يملكه، ولَعْنُ المؤمن كَقَتْلِهِ. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ قَذَفَ مملوكه بالزنا يُقَامُ عليه الحدُّ يوم القيامة إلا

أن يكـون كما قـال. كما روى مسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: اثنتان في الناس هُمَا بِهِم كُفْرٌ: الطعن في النسب والنياحة على الميت. كما روى مسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حَمَلَ علينا السلاحَ فليس منـا، ومَنْ غشنا فليس منا. كما روى البخاري ومسلـم من حديث عبـدالله بن مسعود رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: لكل غـادرٍ لواءٌ يـوم القيامة، يقـال: هذه غَـدْرَةُ فلان. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة أنا خَصْمُهُمْ يوم القيامة: رجل أَعْطَى بي ثم غَـدَرَ، ورجلٌ باع حُرًّا فأكَلَ ثَمَنَهُ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِهِ أجره. كما روى مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثةٌ لا يكلمهم اللهُ يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يـزكيهم، ولهم عذابٌ أليم. قـال: فقرأهـا رسولُ الله ﷺ ثـلاثَ مِرَارٍ، قـال أبـو ذر: خابـوا، وخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يـارسول الله؟ قـال: المُسْبِلُ، والمنَّانُ، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالْحَلِفِ الكاذب. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قـال: لَعَنَ الله الواصلة والمستـوصلة، وأنـه قال: لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّر مَنَـارَ الأرض، وأنه قـال: لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لغير الله، وأنه ﷺ قـال عن المدينة: مَنْ أحدثَ فيها حَدَثـاً أو آوى مُحْدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. إلى غير ذلك من الآيـات والأحـاديث الصحيحـة المشيرة إلى أنـواع شتى من الكبـائر. وليس لقـائل أن يقول: إذا كـان اجتنـابُ الكبائر يكفـر الصغائر ألاَ يكونُ في ذلك إغـراءٌ بارتكاب الصغائر وأنها تصير كـالمباح؟ لأنَّا نقـول: إن استحـلال الصغيرة أو الإصرارَ عليها يجعلهـا كبيرةً من الكبـائر، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وندخلكم مُـدْخَلاً كريما﴾ أي وندخلْكم الجنة إدخالاً كريماً طيبـاً حيث يحشر الله المتقين إلى الرحمن وفـدا تستقبلهم الملائكة مهنئين مُسَلمين يقولون لهم: سلام عليكم ادخلوا الجنـة بما كنتم تعملون. ويقولون

لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحْبَرُون، ويقولون لهم: ادخلوها بسلام آمنين. كما قال عز وجل: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا. ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْدًا﴾ وكما قال عز وجل في حشر أعدائه إلى النار: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبُكْما وصُمًّا مأواهم جهنم كلما خَبَتْ زدناهم سعيرا﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما المُدْخَلُ الكريم فهو الطيب الحَسَنُ المُكَرَّمُ بنفي الآفات والعاهات عنه، وبارتفاع الهموم والأحزان ودخولِ الكدر في عيش مَنْ دخله، فلذلك سماه الله مُدْخلاً كريما اهـ.

قال تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مما اكْتَسَبْنَ، واسْأَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ، إنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾

بعد أن نَهَى اللهُ عز وجل المؤمنين عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وحرَّمَ عليهم قتلَ أنفسهم، وتوعَّدَ من فعل ذلك عدوانا وظلماً بأنه سوف يصليه نارا، وبشر المؤمنين بأن اجتناب الكبائر يُكَفِّرُ اللهُ به الصغائر، حذَّرَ هنا من داءٍ وبيل كان سبباً لأول ذنب عُصِيَ اللهُ عز وجل به وهذا الداء الوبيلُ والمرض الفَتَّاك هو الحسد الذي حَمَلَ إبليس لعنه الله على التكبر والامتناع عن السجود لآدم، كما كان سبباً لأول قتل نفس وقع على الأرض حيث قتل أحدُ ابني آدم أخاه، إذ قرَّبا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، فَقَتَلَ الذي لم يُتَقَبَّلْ قُرِبَانُهُ أخاه الذي تُقُبِّلَ قربانُه حَسَدًا له، وفي هذا التحذير هنا يقول الله عز وجل: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ﴾ أي ولا تتشهّوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض، وارضوا بما قَسَمَ اللهُ عز وجل لكم من رزق، وأيقنوا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها الذي قضاه الله عز وجل لها، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم في الرزق، وانظروا إلى من هو دونكم حتى تعرفوا نعمة الله عليكم، ولا تَزْدَرُوها فَتُصَابُوا بداء الحسد الذي يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطب. واعلم أن تَمَنِّي الإنسان ما منحه الله لغيره ينقسم إلى قسمين: قسمٍ مذموم وقسم ممدوح، فالمذموم هو أن يتمنى الإنسانُ زوالَ النعمة عن غيره وانتقالها إليه سواء كانت نعمة دنيوية أو دينية، وهذا هو الحسدُ الذي ذمه الله عز وجل في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿أم يحسدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله﴾ وأشار إلى شره وضرره حيث

يقول: ﴿قل أعوذ بـرب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسقٍ إذا وَقَبَ. ومن شر النفاثات في العُقَد. ومن شر حاسدٍ إذا حَسَدَ﴾ كما حذَّر منه رسولُ الله ﷺ فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: لا تباغضـوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تقاطَعُـوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يَهْجُـرَ أخاه فوق ثلاث. كما روى أبو داود من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إيـاكم والحسَدَ، فإنَّ الحَسَدَ يأكل الحسنات كما تأكُـلُ النار الحطبَ أو قال: العُشْبَ، وتمنى زوال النعمة عن الغير هو المقصود بالنهي هنـا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُـمْ على بَعْضٍ﴾ أما القسم الثـاني من تمني الإنسان مـا منحه الله لغيره فهو الغِبْطَةُ وهو ممدوح وقد يطلق عليه اسم الحسد تجوزاً وتوسعاً، وهو أن يتمنى مثل النعمـة التي أنعم الله بها على الغير دون زوالها عن صاحبهـا، ويكون هـذا من باب التنافس في أعمال الخير والبر، وقد أرشـد رسولُ الله ﷺ إلى أنـه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحـداً على نعمـة أنعم الله عز وجل عليـه بها ويتمنى مثلها لنفسه دون زوالها عن صاحبها إلا في خصلتين اثنتين، الأولى: أن يرى إنسـاناً قـد منحه الله مالا وسلطـه على إنفاقـه في الحق فهو يتمنى أن يكون مثله، والثـانية أن يرى إنسانـا قد منحه الله علماً فهو يقـوم به آناء الليل والنهار عَمَلاً وتعليماً، فهو يتمنى أن يكونَ مثلَه، فقد روى البخاري ومسلم من حـديث ابن مسعـود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال: لا حَسَـدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحق، ورجلٌ آتاه الله حِكْمَةً فهو يقضي بها ويعلمها. والمراد بقولـه ﷺ: لا حسد أي لا غبطة، كما روى البخاري ومسلم مـن حديث عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآن فهـو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه مـالا فهو ينفقه آناء الليل وآنـاء النهار، كما روى الترمذي

وقال: حديث حسن صحيح عن أبي كبشة عمرو بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ثلاثةٌ أُقْسِمُ عليهن، وأُحَدِّثُكُمْ حديثا فاحفظوه: ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلِمَ عبدٌ مَظْلَمةً صَبَرَ عليها إلا زاده اللهُ عزاً، ولا فَتَحَ عَبْدٌ بابَ مسألَةٍ إلا فتح اللهُ عليه بابَ فقرٍ، أو كلمةً نحوها، وأُحَدِّثُكُمْ حديثًا فاحفظوه، قال: إنما الدنيا لأربعة نَفَرٍ: عبدٌ رزقه اللهُ مالا وعلما فهو يتقي فيه ربَّه، ويصل فيه رَحِمَهُ، ويَعْلَمُ لله فيه حقًا، فهذا بأفضلِ المنازل، وعبدٌ رزقه اللهُ علما ولم يرزقْهُ مالاً، فهو صادقُ النية يقول: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فلان فهو بِنِيَّتِهِ، فأجرهما سواءٌ، وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يَخْبِطُ في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل، وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ فيه بعمل فلان، فهو بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سواءٌ، وقد قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية، أو بدنية، أو خارجية، أما السعادات النفسية فَنَوْعَانِ: أحدهما ما يتعلق بالقوة النظرية، وهو الذكاءُ التامُّ والحَدْسُ الكاملُ والمعارفُ الزائدةُ على معارف الغير بالكمية والكيفية، وثانيهما: ما يتعلق بالقوة العملية، وهي العِفَّةُ التي هي وَسَطٌ بين الخمود والفجور، والشجاعة التي هي وسط بين التهور والجُبْن. واستعمالُ الحكمة العملية الذي هو تَوَسُّطٌ بين البَلَهِ والجَرْبَزَةِ، ومجموع هذه الأحوال هو العدالةُ، وأما السعادات البدنيةُ: فالصحةُ والجمالُ والعمرُ الطويل في ذلك مع اللذة والبهجة، وأما السعادات الخارجية: فهي كثرة الأولاد الصلحاءِ، وكثرةُ العشائر، وكثرةُ الأصدقاءِ والأعوانِ، والرياسةُ التامةُ، ونفاذُ القولِ، وكونُه محبوباً للخلق حَسَنَ الذِّكْرِ فيهم، مُطَاعَ الأمر فيهم، فهذا هو الإشارة إلى مجامع السعادات، وبعضُهَا فِطريَّةٌ لا سبيل للكسب فيه، وبعضُها كَسْبِيَّةٌ،

وهذا الـذي يكون كَسْباً متى تأمّل العـاقل فيه يَجِدْهُ أيضـاً مَحْضَ عطاءِ الله، فإنـه لا ترجيحَ للـدواعي وإزالـة العـوائق وتحْصيل المُوجباتِ، وإلا فيكـونُ سببُ السَّعْيِ والجِد مشتركـاً فيـه، ويكـون الفـوْزُ بـالسعـادة والـوصـولُ إلى المطلـوب غيرَ مشتركٍ فيــه، فهـذا هـو أقسـام السعــادات التي يفضل اللهُ بعضهُم على بعض فيهـا، ثم قـال الفخر الـرازي رحمه الله: إن الإنسـان إذا شاهد أنواع الفضائلِ حاصلةً لإنسان، ووجد نفسه خالياً عن جملتها أو عن أكثـرها، فحينئـذٍ يتَأَلَّمُ قلبُـهُ ويَتَشَوَّشُ خـاطـرُهُ، ثم يعرض ههنـا حالتـان: إحداهما: أن يتمنى زوالَ تلك السعاداتِ عن ذلك الإنسان، والأخرى: أن لا يتمنى ذلك، بل يتمنى حصولَ مثلها له، أمـا الأول فهو الحسدُ المذمومُ؛ لأن المقصودَ الأولَ لِمُدَبِّرِ العالَـمِ وخَـالِقِه الإحسانُ إلى عَبيده، والجُودُ إليهـم، وإفـاضةُ أنـواع الكرم عليهم، فمتى تَمَنَّى زوالَ ذلك فكأنـه اعترَض على الله تعالى فيما هو المقصودُ بـالقصدِ الأوّلِ من خَلْقِ العالمَ وإيجادِ المكلَّفين، وأيضاً ربما اعتقـد في نفســه أنه أحقُّ بتلك النِّعَـم من ذلك الإنسان، فيكـونُ هـذا اعتراضاً على الله وقَـدْحًا في حكمتـه، وكلُّ ذلك مما يُلْقيـه في الكفر وظلمات البِدْعَةِ، ويُزِيلُ عن قلبه نُـورَ الإيمان، وكما أنَّ الحسَدَ سببٌ للفساد في الدين فكـذلك هو السببُ للفسـاد في الدنيـا، فإنه يَقْطَعُ المودَّةَ والمحبـةَ والموالاة، ويَقْلِبُ كلَّ ذلك إلى أضـدادها، فلهـذا السَّبَبِ نَهى الله عبـادَهُ عنه فقـال: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ ممَّـا اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ ممـا اكْتَسَبْنَ﴾ أي للرجـال حظ ونصيبٌ وقسط من ثواب الله أو من عقابـه على ما اكتسبوه وعملوه من أعمال الخير أو الشر وللنساء حظ ونصيب وقسط من ثواب الله أو من عقـابه على ما اكتَسَبْنَهُ وعَمِلْنَـهُ من أعمال الخير أو الشر، كما قـال عـز وجل في خـواتيم الســورة السابقـة: ﴿فاستجاب لهم ربُّهم أني لا أُضِيعُ عَمَلَ عـامِلٍ منكم من ذكر أو

أنثى بَعْضُكُمْ من بعض﴾ فعلى الرجال والنساء أن يَسْعَوْا إلى اكتساب الأعمال الصالحة، وليجتنبوا ارتكابَ ما حرَّم الله، ولْيَحْذَرُوا الحسدَ فإنه يَضُرُّهم ولا ينفعهم، ولذلك قيل عن الحسد: ما أعدلَه بدأ بصاحبه فقتله، وكما قال الشاعر:

اصبر على كيد الحَسُو ... د فإنَّ صَبْرَكَ قاتلُهْ
فالنارُ تأكل نفسها ... إن لم تَجِدْ ما تأكُلُهْ

وقد أرشد رسولُ الله ﷺ المسلمين إلى الطريق السَّويِّ الذي يحميهم من أن يتحاسدوا وهو أن ينظروا إلى مَنْ دونهم في الرزق فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: انظروا إلى مَنْ هو أسفلُ منكم، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم، فهو أجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم. وفي رواية للبخاري: إذا نظر أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه في المال والخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أسْفَلُ منه، كما أرشد الله عز وجل الرجالَ والنساء إذا رأَوْا فَضْلَ الله ونعمه على بعض عباده ألا يتمنوا زوالها عنه، وعليهم أن يَسألُوا الله من فضله حيث يقول عز وجل هنا: ﴿واسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِه﴾ إرشاد من الله تبارك وتعالى لعباده ألا تتعلق نفوسهم بما في أيدي الخلق، وأن يتوجَّهوا إلى الخالق الرازق الجواد الكريم ليعطيهم من فضله، ويمنحهم من خزائنه التي لا تنفد، فَلْيَسْألوهُ عز وجل ولْيَضْرَعُوا إليه ولْيَطْلُبُوا منه ولْيُلِحُّوا عليه في جميع ما يُهَيِّئُ لهم الحياة الطيبة، ويقولوا: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فهو سبحانه يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فضله، وقد روى الترمذي من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أَسْتَجِبْ لكم، إن الذين يستكبرون عَنْ عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ ثم قال الترمذي: هذا

حديث حسن صحيح اهـ كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار كما روى مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : اللهم إني أسألك الهُدى والتقى والعفافَ والغنى ، كما روى مسلم من حديث طارق بن أُشَيْم رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعُو بهؤلاء الكلمات : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني ، وقوله : «إن الله كان بكل شيء عليما» ترغيب وترهيب .

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ، والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ، إنَّ الله كانَ عَلَى كُلِّ شيْءٍ شَهِيدا. الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ، والَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبِيلاً، إنَّ الله كان عَلِيًّا كَبِيرًا﴾

بعد أن نهى الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات أن يَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ الله به بعضهم على بعض، تحذيراً لهم من داء الحسد الوبيل، وأنه من عمل عملاً من ذكر أو أنثى فله جزاؤه عند الله عز وجل، وحضَّهم على التماس الفضلِ وطَلَبه من الله عز وجل العليم بكل شيء، بيَّن هنا أنه شرع لكل ذي حق حقَّه من تركة الوالدين والأقربين ومن ملكت أيديهم فلا يحل لأحد أن يَتعدّى على ما شرع الله عز وجل الشهيد على كل شيء، وأشار إلى قوامة الرجال على النساء بما فضل الله عز وجل به الرجال على النساء في تكوينهم وبسبب ما أنفقوا من أموالهم، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ، والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قال البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من صحيحه: باب قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ، والَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ، إنَّ الله كانَ عَلَى كُلِّ شيْءٍ شَهِيداً.﴾ مَوالِيَ: أولياء ورثةً، عاقدت: هو مولى اليمين، وهو الحليفُ، والمولى أيضا: ابن العم، والمولى: المنعمُ المُعتِقُ، والمولى: المليكُ، والمولى: مولى في الدِّين. حدثني الصَّلتُ بن محمد حدثنا أبو أسامة عن إدريس عن طلحة بن مُصرِّفٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي

الله عنهما: ﴿ولكلٍّ جعلنا مَـوَالِيَ﴾ قال: ورثـة ﴿والذين عَـاقَدَتْ أيمانُكُمْ﴾ كان المهـاجرون لَمَّا قَـدِمُوا المدينـة يرث المهـاجر الأنصـاريَّ، دون ذوي رحمه لـلأُخـوة التي آخى النبي ﷺ بينهـم. فلما نَـزلت: ﴿ولكل جعلنـا مـوالى﴾ نُسخت، ثم قـال: ﴿والـذيـن عَـاقَـدَتْ أيمانُكُمْ﴾ من النصر والـرِّفَـادَةِ والنصيحـة، وقـد ذَهبَ الميراث، ويـوصي له، سمع أبـو أسـامـة إدريس، وسمع إدريس طلحـة. وقـال البخـاري في كتـاب الفـرائض: بـاب ذوي الأرحام حدثني إسحاق بن إبراهيم قال: قلتُ لأبي أسامة: حدَّثكُمْ إدريس حـدثنا طلحـة عن سعيد بن جبير عن ابن عبـاس: ﴿ولكل جعلنا مـوالى﴾ ﴿والذين عَـاقَدَتْ أيمانُكم﴾ قال: كـان المهاجـرون حين قدموا المدينـة يرثُ الأنصاريُّ المهاجريَّ دون ذوي رحمه للأُخوَّةِ التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿جعلنا مَـوَالِيَ﴾ قال: نسختْها: ﴿والذين عَـاقَدَتْ أيمانكم﴾ اهـ. واستعمال كلمة «موالى» بمعنى الـورثة والعصَبة شائع عند العـرب، ومنه قولُ الفضل بن العباس:

مَهْلاً بَنِي عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا ... لاَ تَنْبِشُوا بيننا ما كان مدفونا

ومن استعمال الموالى بمعنى العصبة قولُ زكريا عليه السلام: ﴿وإني خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتي عاقراً فهب لي مـن لَدُنْكَ وليا﴾ وقد تقرَّرَ نسخُ الميراثِ بالحلف، وبالتَبَنِّي وبالمؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار كما قال عز وجل: ﴿وأوْلواْ الأرحـام بَعْضُهُمْ أولى ببعض في كتاب الله﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وأوْلـواْ الأرحـام بعضُهم أولى ببعض في كتـاب الله من المؤمنين والمهـاجـرين إلا أن تفعلـوا إلى أوليـائكـم معـروفـاً، كـان ذٰلك في الكتـاب مسطورا﴾ وقـد روى البخاري ومسلم من حـديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قـال رسول الله ﷺ: ألحقوا الفرائض بأهلهـا، فما بَقِيَ فهو لأوْلى رَجُلٍ ذكر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ

عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ إشعار بسبب زيادة إرث الرجال على النساء في غير الإخوة لأم وتفضيل الرجال على النساء حيث كانت النبوةُ مختصة بالرجال وكذلك الإمامة العُظْمى ومناصب القضاءِ والإمامةُ الصغرى في الصلاة، والجهادُ والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق وكذلك تَحمُّلُ الدية التي على العاقلة، والولايةُ في النكاح، والطلاق والرجعة، وتعدُّدُ الزوجات، وانتسابُ الأبناءِ، وهذا هو السبب الأول من أسباب قوامة الرجال على النساء الذي ذكره عز وجل بقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أما السببُ الثاني من أسباب قوامة الرجال على النساء فهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي وبما ساقُوا إليهنَّ من صداق، وأنفقوا عليهن من نفقة. وقوامون جمع قوَّام وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب والحفظ والصيانة والحماية والرعاية، فقد جعل الله عز وجل الزوج أميراً على بيت الزوجية، والطبعُ والشرعُ يقتضيان أن يكون لكل رعيَّة راع يسُوسُ أمرها ويُدبر شأنها، حتى حضَّ رسولُ الله ﷺ الرفقةَ المسافرين أن يُؤَمِّرُوا عليهم واحدا منهم، فقد روى أبو داود بإسناد حسن من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: إذا خرج ثلاثةٌ في سفر فَلْيُؤَمِّرُوا أحدَهم. وليست قوامةُ الرجل على المرأة قوامة استبداد و إهانةٍ وحَجْرٍ وتسلُّط، فقد حض رسول الله ﷺ مَنْ وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً أن يرفق بهم وألا يَشُقَّ عليهم، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئول عن رعيته: الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسئولٌ عن رعيته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيِّده ومسئولٌ عن رعيته، وكُلُّكُمْ راعٍ ومسئول عن رعيته. كما روى مسلم

من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: اللهم مَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أمتي شيئًا فَشَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه، ومَنْ وَلِيَ من أمر أمتي شيئا فَرَفَقَ بهم فارْفُقْ به. وقد كان رسول الله ﷺ يوصي الرجال بزوجاتهم خيراً فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من كا ن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خُلِقْنَ من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضلَعِ أعلاه، فإن ذهبت تقيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإن تركته لم يَزَلْ أعوجَ، فاستوصوا بالنساء خيرا، فالرجل هو المسئول الأول في البيت وله القوامة فيه، وعليه تَبعاتُ هذه القوامة، التي جعلها الله عز وجل للرجال على النساء حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ولهن مثلُ الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجةٌ، والله عزيز حكيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ، والَّـٰتِي تخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ في الْمَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبيلاً، إنَّ الله كان عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ هذا بيان من الله عز وجل للأزواج يُوضِّح لهم فيه أحسنَ سُبل القوامة على النساء حيث قسم النساء إلى قسمين: نساء صالحات، ونساءٍ غير صالحات، فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتاتٌ حافظاتٌ للغيب بما حَفِظَ الله، ووصف غير الصالحات بالناشزات، وأشار إلى أن نشوزَ النساء على أنواع، وأنه ينبغي للزوج أن يعالج كلَّ نوع من أنواع النشوز بالعلاج الملائم له، فلا يشتد في موضع اللِّين، ولا يلين في موضع الشدة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾ أي فالنساء الصالحات هن المطيعاتُ لأزواجهن، الخائفاتُ من الله عز وجل، الصائناتُ لأعراضهن وحقوق أزواجهن في الغيب، كما يصنَّ أعراضهن وحقوق أزواجهنَّ عند وجودهم معهن، والمرأة إذا كانت بهذه المثابة كانت

خيراً من كل كنوز الدنيا، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحةُ. وقال أبو داودَ في سننه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا يحيى بن يعلي المحاربي ثنا أبي ثنا غيلان عن جعفر بن إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال: كَبُر ذلك على المسلمين فقال عمرُ رضي الله عنه: أنا أُفَرِّجُ عنكم، فانطلق، فقال: يانبي الله، إنه كَبُرَ على أصحابك هذه الآيةُ، فقال رسول الله ﷺ: إن اللهَ لم يفرض الزكاة إلا لِيُطَيِّبَ ما بَقِيَ من أموالكم، وإنما فَرَضَ المواريث لتكون لمن بَعْدَكُمْ، فكبَّر عمرُ، ثم قال له: أَلَا أُخبِرُكَ بخير ما يَكْنِزُ المرءُ؟ المرأةُ الصالحةُ، إذا نظرَ إليها سَرَّتْهُ، وإذا أَمَرَهَا أطاعته، وإذا غَابَ عنها حَفِظَتْهُ، ومعنى قوله عز وجل: ﴿والَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ في المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ﴾ أي ومن خشيتم من زوجاتكم أن تُسيئ صحبتكم وتكدِّر صفاء حياتكم الزوجية بسبب ما يبدرُ منها من بوادر الجنوح إلى النشوز حيث بدأت تترفع عليكم ولا تسارع إلى طاعتكم، وتحاولُ تنغيص معيشتكم فهذه آمارات نشوزها — يقال: نشزت المرأة إذا استعصت على زوجها وأبغضته، وحينئذ فاسلكوا أيْسر السُبل لتقويم اعوجاجها، وابدأوا بوعظها وتخويفها من الله عز وجل، وتعريفها بحق الزوج على زوجته، وذكِّروها بما أعدَّ الله عز وجل للصالحات، وما توعَّد به الناشزات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأت، فبات غضبان عليها، لَعَنَتْهَا الملائكةُ حتى تصبح. وفي رواية لهما: وإذا باتت المرأة هاجرةً فِراشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح. وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في

السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنهـا . فإذا أصرت على النشوز بعد الوعظ ولم تتعظ فعند ذلك يهجرها في المضجع . فإن أصرت على النشوز ولم يُفِدْ فيها الهَجْرُ فقد أبيح له أن يضربها ضرباً خفيفا لعلـه يُفيدُها فترجع عن نشوزها ، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ضرب الزوجة لا يكون إلا للضرورة وأن الأولى تركه فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن إياس بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تضربـوا إماءَ الله ، فجاء عمر رضي الله عنـه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ذئِرْنَ النساءُ على أزواجهن ، فَـرَخَّصَ في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يشكُونَ أزواجهنَّ فقـال رسول الله ﷺ : ولقد أطاف بآل بيت محمد نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم . ومعنى : ذَئِرْنَ أي اجترأن ، ولاشك أن من أعظم طرق التربية الحديثة أن تُعلِّقَ عصاك حيث يـراها ولدك ، وليـس ذلك حَضًّا على الضرب ، وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿فَـإِنْ أَطَعْنَكُمْ فـلا تَبْغُـوا عَلَيْهِنَّ سبِيـلاً ، إنَّ الله كـان عَلِيًّـا كَبِيرًا﴾ أي فإن انقدن لكم وتركن النشـوز فخافوا الله فيهن ، وتناسوا ما يكـون قد بَدر منهن من إساءة لكم ، واعلمـوا أن الله فوقكم وهـو رقيب عليكم ، وهو منتقم ممن ظلم زوجته وبغَى عليها ، وهو يحب العافين عن الناس .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَآ إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا. وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والمساكين والجارِ ذي الْقُرْبَى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إِنَّ الله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل ما ينبغي للزوج أن يُعالج ما يخافُه من نشوز زوجته عندما تبدو بوادر جنوحها واستعصائها عليه، وأنه ينبغي له أن يبدأ بوعظها، فإن لم تستجب للوعظ عالجها بالهجران، فإن لم يؤثر فيها الهجرانُ ولم ترجع عن غيِّها، عالجها بالضرب غير المُبرِّح لعله يفيدها، فإن استقامت وَجَبَ عليه خوفُ الله فيها، وعدم تذكيرها بما سلفَ منها، وهذا كله إذا كان الزوج راغباً في الزوجة حريصاً على الإحسان إليها، أما إذا كان كلٌّ واحد من الزوجين يشتكي من سوء معاملة الزوج الآخر له وأنهما في شقاق مُفْسِدٍ لذاتِ البين، ولم يتضح مصدرُ هذا الشقاق، فقد أرشد الله عز وجل هنا منْ يهمه أمرهما من الحكام أو ذوي الحل والعقد من المسلمين، أو أهل الخير العاملين على إصلاح ذات البيْن بيْن الناس أن يبعثوا حكمًا من أهله وحكماً من أهلها لدراسة أحوالهما، ومحاولة معرفة سرِّ نزاعهما وشقاقهما، وبذل الجهد للإصلاح بينهما، حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَآ إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما﴾ وإن علمتم أيها الناس ﴿شِقَاقَ بَيْنِهما﴾ وذلك مشاقة كل واحد منهما صاحبه، وهو إتيانهُ ما يشقُّ عليه من الأمور، فأما من المرأة فالنشوز وتركُها أداء حقِّ الله عليها الذي ألزمها اللهُ لزوجها، وأما من الزوج،

فَتَرْكُهُ إمساكها بالمعروف أو تسريحها بإحسان، والشِّقاقُ مصدرٌ من قولِ القائل: شاقَّ فلانٌ فلانا، إذا أَتى كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبه ما يَشُقُّ عليه من الأمور، فهو يُشَاقهُ مشاقةً وشقاقاً، وذلك قد يكون عداوةً اهـ. وقوله عز وجل: ﴿ شِقَاقَ بَيْنِهما﴾ من إضافة المصدر إلى ظرفه كقوله عز وجل: ﴿بل مكرُ الليل والنهار﴾ وكقولك: يُعجبني صومُ يوم عرفة. وإضافة المصادر إلى الظروف جائزةٌ لحصولها فيها والأصل: وإن خفتم شقاقاً بينهما. وقوله عز وجل: ﴿فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَا﴾ أي فاختاروا رجلاً صالحاً عدلاً ثقة ذا خبرة بالحكم، ودقائق الأمور يرتضيه الزوج، ورجلاً صالحاً عدلاً ثقة ذا خبرة بالحكم ودقائق الأمور ترتضيه الزوجة وأرسلوهما لدراسة مشاكل الزوجين الحاصل بينهما الشقاق ومحاولة رأب الصدع وإصلاح ذات بيْنهما، بتخويفهما من الله عز وجل وبيان حقوق الزوج على زوجته والزوجة على زوجها، فإن تمكنا من الإصلاح بينهما وإزالة أسباب نزاعهما فهذا هو المطلوب، وإن تبين لهما أن الأمر بين الزوجين معضل، وأنه لا سبيل للإصلاح بينهما وأن كلَّ واحد من هذين الزوجين لا يستطيع أن يقوم بما يجب عليه من حق للآخر وأنهما لن يقيما حدود الله التي فرضها للزوج على زوجته وللزوجة على زوجها واتضح للحكمين أن التفريق بينهما هو السبيل الأقوم فرّقا بينهما، والتعبير بقوله عز وجل: ﴿حَكَمًا﴾ لإفادة نفوذ رأيه ووجوب العمل بقوله عند اتفاقه مع الحَكَم الآخر، قال أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكَمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ في الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان اهـ. وقد روى الدارقطني بسند صحيح ثابتٍ من طريق محمد بن سيرين عن عَبيدة في هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهما فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَا﴾ قال: جاء رجل وامرأةٌ إلى علي رضي الله عنه مع كل واحد منهما فِئَامٌ من الناس،

فَأَمَرَهُم فَبَعَثُوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا مـن أهلها وقال للحَكَمَيْن: هل تَدْرِيَانِ ما عليكما؟ عليكما إن رأيتُمَا أَنْ تُفَرِّقَا فَـرَّقْتُما، فقالت المرأة: رضيتُ بكتاب الله بما عَلَيَّ فيه ولِي، وقـال الزوجُ: أما الفُـرْقَةُ فلا، فقـال عليٌّ: كَذَبتَ، واللهِ لا تبرح حتى تُقِرَّ بمثل الـذي أَقرَّتْ به. والتقييد بكـون أحد الحكمين من أهل الزوج والحكم الثاني من أهل الزوجـة لأن أقاربهُما أعرفُ بحالهما من الأجانب وأشَدُّ طلبـاً لإصلاح ذاتِ بَيْنهما، فإن لم يـوجد من أهلهما من يصلح لـذلك جاز بعثُ حَكَمْين من غير أهلهما، وفائدة بعث الحكمين أن يخلو كل واحد منهما بالطَّـرَف الذي يمثلـه، ويستكشفُ حقيقة حـاله، ليعـرف منه سبب المشـاقة، ويستنبط منـه ما يبنى عليـه حكمهُ من بقـاء النكاح أو التفـريق، وقوله عـز وجل: ﴿إِنْ يُرِيدَآ إِصْلاَحًا يُـوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ هذا إرشادٌ للحكمين بأن يَحْرِصَـا على إصلاح ذات البين، وتحذيـرٌ لهما من أن يكون قصـد الحَكَم الانتصار للطرف الذي يمثلـه، بل على كل واحد من الحكمين أن تكون نيته صحيحـةً، وأن يكون قلبـه نـاصحاً خـالصـاً لوجـه الله سـاعياً في الخير مـا استطـاع، دون انحيـاز إلاَّ إلى الحق، وإذا علم الله عـز وجل منهما صِـدْقَ نيَّتهما، وأنهما يريدان الإصلاح ما استطاعـا إليه من سبيل، فإنه تبارك وتعالى يؤيدهما، ويُسَـدِّدُهما، ويوفقهما إلى الرأي السديد، والحكم الرشيـد، وقوله عـز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هـو وعد ووعيـد، وترغيب وتـرهيب لكلٍّ من الحَكَمين والـزوجين، بأن يحْرِصـوا على مـا يُرْضي الله، ويجتنبـوا مـا يغضبه عز وجل، لأنه لا تخفى عليه خـافية، وقوله عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِـهِ شَيْئًا﴾ إلى آخـر الآية، استئنـافٌ لبيان حق الله عـز وجل على عباده وحقـوق الوالدين والأقـارب واليتامى والمسـاكين والجيران والأصحاب وأبنـاء السبيل ومـا جعله الله عـز وجل تحت يـد الإنسان مـن حيوانـات أو خَدَم، بعد بيـان الأحكام المتعلقة بحقوق الزوجين، وقد صَـدَّرَ هذه الحقوق

ببيـان حق الله عـز وجل على عبـاده ؛ لأن حق الله تبـارك وتعـالى هـو أَعْظَمُ الحقوق وآكَدُهَا ، وأَهمُّهَـا ، إذ جميع الأعمال الصالحةِ لا تُقبَلُ إلا ممن أَدَّى هذا الحقَّ لله عز وجل ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي ابذلـوا أقصى الحُبّ وغـاية الـذُّلِّ والخشوع والقنـوتِ والإخبات والخوف والرهبة والرغبة والطاعة لله وحـده ، ولا تجعلوا لله أندادا ، ولا تَبْذلوا شيئاً من العبادة لغيره فإنـه لا يقبل من العمل إلا ما كان خـالصاً لوجهـه الكريم على منهج رسوله العظيم ﷺ ، أما الحقُّ الثاني من هـذه الحقوق فهو حقُّ الوالدين بِبِرِّهما ولينِ الجانب لهما والإحســان إليهما وفي هـذا الحق يقــول عــز وجل : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أي وأَحْسِنوا بالوالدين إحسانا يقال : أحسنتُ بفلان وأحسنتُ إلى فلان كما قال كثيرِّ عزة :

أَسِيئي بنا أو أَحْسِني لا ملومةً   لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إن تقلت

وقد قَرَنَ الله عز وجل حقَّ الوالدين بحقه تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكـريم تنبيهاً على وجـوب بِـرِّهما وتعظيم حقهما حيث قـال عز وجل هنـا : ﴿واعبدوا الله ولا تُشْرِكـوا به شيئا وبالـوالدين إحسانا﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وإذْ أَخَذْنا ميثاقَ بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبـالوالدين إحسانا﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿وقضى ربك أَلاَّ تَعْبُدُوا إلا إيـاهُ وبالوالـدين إحسانـا ، إما يَبْلُغَنَّ عِنْـدَكَ الكبَرَ أحَدُهُما أو كِـلاَهُما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهـرهما وقل لهما قولا كـريما . واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الـذُّلِّ من الرحمة وقُـلْ ربِّ ارْحَمْهُمَا كما ربَّيَاني صغيرا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أن اشْكُرْ لي وَلِـوَالِدَيْكَ إليَّ المصير﴾ وأما الحقُّ الثالث فهو حقُّ الأقـارِبِ والأرحام وجعله عز وجل بعد مرتبـة حق الوالدين حيث قال عز وجل : ﴿وبذي القُرْبَـى﴾ لأن القرابة إنما تكون في الغالب من جهة أحد الأبوين وبالتبعية لهما ، وأما الحقُّ الرابع والخامسُ فهو حَقُّ اليتامى والمسـاكين حيث يقـول عـز وجل : ﴿واليتامـى والمساكين﴾ أي واستـوصـوا

باليتامى والمساكين وأَحْسِنوا إليهـم وتعطفوا عليهم، وأما الحقُّ السادسِ فهو حقُّ الجار ذي القربى حيث يقول عز وجل: ﴿والجارِ ذي القربى﴾ أي الجار الجامعِ بين الجوار في الـدار والقرابة في النسب، وأمـا الحقُّ السابعُ فهـو حقُّ الجار الذي لا يَرْبطُكَ به نَسَبٌ حيث يقول عز وجل: ﴿والجارِ الجُنُب﴾ أي والجار البعيد الـذي لا قرابـة بينك وبينه، وقـد أكَّد رسـولُ الله ﷺ على حق الجار تأكيداً شديداً فقد روى البخـاري ومسلم من حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: مـازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سَيُوَرِّثُهُ. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال: والله لا يؤمنُ، واللهِ لا يـؤمن، واللهِ لا يؤمنُ، قيل: مَنْ يارسـولَ الله؟ قال: الذي لا يَأْمَنُ جـارُهُ بوائقه. والمراد بالبـوائق الغوائلُ والشرور. وفي روايـة لمسلم: لا يدخل الجنـةَ مَنْ لا يأمَنُ جـارُه بوائقَـهُ. وفي رواية للبخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: من كان يـؤمنُ بـالله واليوم الآخـر فـلا يؤذ جـارَهُ» الحديث. كما روى مسلم من حـديث أبي شُريح الخُزَاعيِّ رضي الله عنـه أن النبي ﷺ قـال: من كان يؤمـن بالله واليوم الآخر فَلْيحسِنْ إلى جاره. الحديـث. وأرشد رسول الله ﷺ أن الجار الأقرب باباً أحقُّ بالإكرام فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قـالت: قلتُ: يارسـول الله إن لي جارين، فـإلى أيِّهما أُهدِي؟ قال: إلى أقربهما منكِ باباً. أما الحقُّ الثامنُ فهو حقُّ الصاحب بالجَنْبِ والمراد بالصاحب بالجنب هو من الْتَـأَمَتْ بينك وبينه صحبةٌ وصار بجنبك في سفر أو حضر أو رافقك في تجارة أو طلب علـم أو أي عمل من الأعمال قـال ابن جريـر: حدثني المثنى قال حدثنـا سُويدُ بن نصر قال أخبرنـا ابن المبارك عن حيوة قـال حدثني شرحبيل بن شريك عن عبـد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قـال: إن خير الأصحـاب عنـد الله تبـارك وتعـالى خَيْرُهُم

لصاحبه، وخَيْرَ الجيرانِ خَيْرُهُم لجاره اهـ. وقد أخرجه الترمذي من طريق ابن المبارك وهذا الحديث صحيح الإسناد. أما الحقُّ التاسع فهو حقُّ ابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن المال، ولو كان غنياً في بلده والسبيل الطريق وسمي المسافر ابن سبيل لملازمته الطريق. أما الحق العاشر من هذه الحقوق التي تضمنتها هذه الآية الكريمةُ فهو ما خوَّلَكَ الله عز وجل وجعله تحت تصرفك وسُلْطتك من حيوان أو إنسان، وقد روى مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: كفى بالمرءِ إثماً أن يحبس عمن يملك قُوتَهُم. كما روى أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جعل يُوصي أمته في مرض الموت يقول: الصلاةَ الصلاة وما ملكت أَيْمَانُكُمْ، فجعل يُردِّدُهَا حتى ما يفيض بها لسانه. قال في الزوائد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ أي إن الله يبغض المتكبر المُعْجَبَ بنفسه المفتخر المتطاول على خلقه المتباهي بمنصبه وحَسَبه ونسبه على من دونه من عباد الله، وقد روى مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى أَوْحَى إليَّ أن تَواضعُوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد ولا يفخر أحدٌ على أحد.

قال تعالى: ﴿الَّـذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ويَكْتُمُـونَ ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَعْتَدْنَـا لِلكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا. والَّـذِينَ يُنْفِقُون أَمْوَالَهُم رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُون بِـاللهِ وَلاَ بِالْيَوم الآخِرِ، وَمَنْ يكُنِ الشَّيْطَانُ لَـهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا. وَمَـاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

بعد أن أرشـد الله تبارك وتعـالى في الآية السـابقة إلى قـواعد البرّ، وأصـول مكـارم الأخـلاق، ومحاسن الصفـات، وأُسُس التكـافل الاجتماعي، ونَـدَّدَ بِـذَوي الكبر والعُجبِ والخُيـلاء المتعالين على خلـق الله، الذين لا يقـومـون بحق الله عـز وجل أو بحقوق خلقـه عليهم، الـذي يأنفون من أقـاربهم إذا كانوا فقراء، ومن جيرانهم إذا كانوا ضعفاء، أتبع ذلك هنا بالتنديد بالبُخلاء المنَّاعين للخير الحريصين على الشح حتى بالكلمة النـافعة، كما ندَّد بالمرائين الكافرين بالله واليوم الآخر حيث يقـول عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبُخْلِ ويَكْتُمُونَ مـا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِـه﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعـالى ذامًّا الذين يبخلون بأمـوالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله بـه من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنب والصاحـب بالجنب وابن السبيل وما ملكـت أيمانهم من الأرقاء، ولا يدفعـون حقَّ الله فيها، ويأمـرون الناس بالبخل أيضـا، وقد قـال رسول الله ﷺ: وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البخل؟ وقـال: إيـاكم والشـحَّ فإنـه أهلك مَنْ كـان قبلكم، أمرهم بالقطيعـة فَقَطَعُوا، وأَمَرَهم بالفجـور فَفَجروا. اهـ، والبُخل داء يصيب الإنسـانَ يمنعه من البـذل والجود والكرم والعطـاء، ويحمله على الشح وشـدة الحرص على عـدم الإنفـاق ممـا يملك، وأسـوأُ البخل الشحُّ بالكلمة الطيبة وعدم نفع الناس ولـو بإرشادهم إلى الطريق السَّويِّ. ولذلك

أشـار الله عز وجل إلى أنـه لا يفلح إلا مَنْ سلم من الشُّحِّ، حيث يقول عـز وجل في وصف الأنصار رضي الله عنهم الباذلين مـا في أيديهم، المصونين من الشح: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ، ومَنْ يُوقَ شحَّ نفسِهِ فأولَئك هم المفلحـون﴾ وقال عـز وجل في نصيحـة عباده: ﴿فـاتقوا الله مـا استطعتم واسمعـوا وأطيعـوا وأنفقـوا خيرا لأنفسكم، ومَنْ يُـوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ فأولَئك هم المفلحـون﴾ كما أشار رسـول الله ﷺ إلى أن الشح يَحْمِلُ صَاحِبَـهُ على ارتكـاب كل شر واجتنـاب كل خير فقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يـوم القيـامـة، واتقـو الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أهلك من كـان قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ على أن سَفَكُـوا دمـاءَهُمْ، واسْتَحَلُّـوا محارِمَهُمْ. كما روى البخاري في صحيحه من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: لو قد جاء مَالُ البحرين لقد أعطيتكَ هكذا وهكذا ثلاثاً، فلم يَقْدَمْ مَالُ البَحْرَيْنِ حتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، فلما قَدِمَ على أبي بكرٍ أَمَرَ مناديًا، فنادَى: مَنْ كان له عنـد النبي ﷺ دين أو عِدَةٌ فَلْيَأْتِنِي، قال جابر: فجئتُ أبا بكـرِ فَأَخْبَرْتُـهُ أنَّ النبي ﷺ قال: لـو جاء مالُ البحـرين أَعْطَيْتُكَ هكذا وهكذا ثـلاثا، قال: فأعطاني، قـال جابر: فَلَقيتُ أبا بكـر بعد ذلك فَسَـأَلْتُـهُ فلم يُعْطِنِي، ثم أَتَيْتُـهُ فلم يُعْطِنِي، ثم أتيتـه الثـالثـة فلم يُعطني، فقلت لـه: قـد أتيتـك فلم تعطني، ثم أتيتكَ فلم تعطنـي، ثم أتيتك فلم تعطني، فإمَّـا أنْ تُعْطِيَني وإما أن تَبْخَلَ عَنيِّ، فقـال: أَقُلْتَ: تَبْخَلُ عني؟ وأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ من البُخْلِ؟ قـالها ثلاثـا، مـا مَنَعْتُكَ من مَـرَّةٍ إلا وأنا أُرِيـدُ أَنْ أُعْطِيَكَ اهـ. ومـع أن البُخلَ هو أدوأ الأدواء وعلة العلل، فـإن الله عز وجل أشار هنا إلى أن بعض الناس لا يكتفي من الشر بكونه بخيلاً، بل يدعو غيره إلى البخل ويحض عليـه، وأن بَعْضهم يَـزْداد شرُّهُ وبخلـهُ فـلا يقتصرُ على

البخل بالمال بل يبخلُ بـالكلمة الطيبة، ويكتم ما يعـرفه من الخير أو العلم النـافع عن عبـاد الله حتى لا يستفيـدوا منـه، وقد جمع الله هـذه الأوصـاف الثلاثـة المذمومـة البالغة أقصى درجـات الحقد على الإنسـانية وبُغضِ الخير لها، المنـاقضة لما اقتضتـه الآية السـابقة من وجـوب الإحسان والبـذل والجود والكـرم والوفـاءِ لكلِ ذي حقٍّ بحقـه حيث يقـول عز وجـل هنا: ﴿الَّـذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَـأْمُرُونَ النَّـاسَ بِالْبُخْلِ ويَكْتُمُونَ مـا آتَاهُـمُ اللهُ مِنْ فَضْلِـه﴾ وهذه الخصال الكريهة الممقوتـة هي أخصُّ صفات اليهود قبحهم الله، وإن كانت قد توجد في غيرهم، وهذا المقامُ في هـذه السورة شبيهٌ بما ذكره الله عز وجل في سورة الحديد حيث يقول عز وجل: ﴿واللهُ لا يُحبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ويأمرون الناس بالبخل، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هو الْغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وأعتدنـا للكافرين عذابا مُهِينًا﴾ قال ابـن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وأعتدنا﴾ وجعلنا للجاحدين نعمة الله التي أنْعَمَ بها عليهم من المعرفة بنبوة محمد ﷺ، المكذبين به بعد عِلْمِهِمْ به، الكاتمينَ نَعته وصِفَتَهُ مَنْ أَمَرَهُم الله ببَيَانِه له من الناس ﴿عذابا مُهِينًا﴾ يعني العقاب المُذِلَّ مَنْ عُـذِّب بِخُلُودِهِ فيه، عَتَـادًا له في آخرته، إذا قَـدِمَ على ربه وَجَدَهُ، بما سَلَفَ منه من جُحُودِهِ فرضَ اللهِ الذي فَـرَضَهُ عليه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿والَّـذِينَ يُنْفِقُون أَمْـوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّـاسِ وَلاَ يُؤْمِنُـون بِـاللهِ وَلاَ بِالْيَـومِ الْآخِرِ﴾ هـذا هو القسم الثـالث من المنحرفين عن منهـج الرشد وهم الـذين ينفقـون أموالهم رئاء النـاس ولا يؤمنـون بالله ولا بـاليوم الآخـر، إذ أنه تبـارك وتعالى لما ذكر أهل البرِّ والإحسـان السالكين منهج الرشد ذكر ثـلاثة أصناف من أضـدادهم، فالصنف الأول هـو كل مختـال فخور، والصنف الثـاني هم البخـلاء الذين يأمـرون الناس بـالبخل ويكتمون مـا آتاهم الله من فضلـه، والصنف الثالث هم من ينفقون أموالهم لا لـوجه الله عز وجل ولكن ينفقونها

رئاءَ النـاس ولا يؤمنـون بـالله ولا باليـوم الآخـر. وقد أخبر رسـول الله ﷺ أن الذين ينفقون أموالهمَ رئاءَ الناس طلبـاً للسمعة والجاه لا رغبةً فيما عند الله عز وجل ولا ابتغاء وجهـه يكونـون في أول من تُسْجَرُ بهم نـارُ جهنم يوم القيـامة فقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث أبي هـريـرة رضي الله عنـه قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: إن أوّل النـاسِ يُقْضَى يوم القيـامة عليـه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها. قال: قاتَلْتُ فيك حتى اسْتُشهِدْتُ، قـال كَذَبْتَ، ولكنَّكَ قـاتلتَ لأنْ يقالَ جـريءٌ فقد قيلَ، ثم أُمِـرَ به فَسُحِبَ على وجهـه حتى أُلْقِيَ في النـار، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العلمَ وعَلَّمَهُ، وقرأَ القرآنَ، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَـهُ نِعَمَهُ، فَعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها، قال: تعلَّمتُ العلمَ، وعلَّمتُه، وقرأتُ فيـكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العلمَ ليُقَالَ عالمٌ وقرأت القرآن لِيُقالَ هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهـه حتى أُلْقِيَ في النار، ورجـلٌ وَسَّعَ الله عليه، وأعطـاه من أصناف المال كُلِّـه، فأُتِيَ بـه، فَعَرَّفَـهُ نعَمَهُ فَعـرَفَها، قـال: فما عَمِلْتَ فيها، قـال: مـا تـركتُ من سبيل تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيهـا إلا أَنفقتُ فيهـا لَكَ، قـال: كَذَبْتَ، ولكنكَ فَعَلْتَ ليقالَ: هو جَـوَادٌ، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه ثم أُلْقِيَ في النار. وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ بيـان للسبب الذي نشأت عنه هذه الخصالُ المذمومـة التي ذكرها الله عـز وجل بقولـه: ﴿إن الله لا يُحِبُّ من كـان مختالا فخـورا. الذين يبخلـون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهـم الله من فضله، وأعتدنا للكافرين عذابـا مهينا. والذين ينفقـون أموالهم رئاءَ الناس ولا يـؤمنون بالله ولا بـاليوم الآخر﴾ وأنهم صـاروا إلى هذه الأوصاف الخبيثة بسبب مصـاحبتهم للشيطان والانقياد له والاقتران به ومُخالطته وملازمته، وقد قضى الله عز وجل وكتب أن مَنْ صار وليًّـا للشيطان وقرينـاً له فإنـه لا يهتدي إلى الخير، ولا يسلك سبيل

الرشـاد، وأن الشيطان يضلـه ويهديه إلى عـذاب السعير كما قال عـز وجل: ﴿ومن يَعْشُ عن ذكـر الـرحمن نُقَيِّـضْ لـه شيطـانـا فهـو لـه قـرينٌ. وإنهم لَيَصُدُّونَهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جـاءنا قال: ياليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتَّبعُ كلَّ شيطان مـريد. كُتِبَ عليه أنـه مَنْ تَوَلَّاهُ فأنه يُضِلُّه ويَهْدِيه إلى عذاب السعير﴾ ومعنى: ﴿وَمَنْ يكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي ومن يكن الشيطان صـاحبه وخليله فبئس الصاحبُ وبئس الخليل الشيطـان، ولاشك أن مصاحبـة الشرِّير لا تأتي بخير، وأن الإنسـان على دين خليلـه، وقـد حَـذَّرَ رسـولُ الله ﷺ من جلسـاء السـوء فقـد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إنما مَثَلُ الجليس الصالح وجليس السُّـوءِ كحامل المسك ونافخ الكير، فحـاملُ المسك إمَّـا أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتـاعَ منـه، وإما أن تَجِدَ منـه ريحاً طيبـةً، ونافـخُ الكير إما أن يُحْرِق ثيـابَك وإمـا أن تَجِدَ منـه رِيحاً مُنْتِنَةَ. ومـا أحسَنَ قول عديٍّ بن زيد:

عن المرءِ لا تَسْأَلْ وأَبْصِرْ قَرينَهُ ... فإنَّ القَرِينَ بالمُقَارِنِ مُقْتَدِ

وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ والْيَـوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَكَـان اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي وأيُّ ضرر يُصيبهم لـو تـركـوا طـاعـة الشيطان واستجابـوا للرحمن وصَدَّقُوا بـالله الواحد الأحد الفـرد الصمد الذي نصب لعباده أدلة ألوهيته وربوبيته في كل شيء في السموات والأرض كما قال الشاعر:

فياعجبا كيف يُعْصَى الإلَـه ... أم كيف يجحده الجاحـد

وفي كـل شـيء له آيـةٌ ... تَـدُلُّ على أنه الواحـد

ومـاذا يضرهم لو آمنـوا بأنهم مبعـوثون بعـد الموت ومجْزِيُّون بأعمالهم وقـد

قامت البراهين على أن الذي خلقهم أول مرة من العدم المحض لن يعجز عن إعـادتهم بعد الموت ليجـزي الذين أسـاءوا بما عملـوا ويجزي الذين أحسنـوا بالحسنى، وماذا يضرهم لو بذلـوا شيئاً يسيراً مما خولهم الله عز وجل من المال في الإحسان إلى الـوالدين وذي القربى واليتامى والمسـاكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصـاحب بـالجنب وابن السبيل ومـا ملكت أيمانهم علماً بأن كل ما يُبْذلُ في أبـواب الخير يخلفه الله عز وجل العليم بنوايـا خلقه، كما قال تبـارك وتعـالى: ﴿وما أنفقتـم من شيء فهو يُخْلِفُـهُ وهـو خير الـرازقين﴾ ولا خلاف عند عقـلاء البشر أن الإحسان إلى الخلق خيرٌ من الإساءة إليهم، وأن نفع الناس ليس كإلحاق الأذى بهم، ولا ينازع في ذلك إلا الشيطان وقرناؤه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا. فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له وبالإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما تحت يد الإنسان من حيوان أو إنسان ثم أعقب ذلك بذم المختال الفخور والبخلاء ومن يأمر الناس بالبخل، ومن يكتم ما أتاه الله من فضله، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وبيَّن أن هؤلاء المذمومين هم قرناءُ الشياطين ثم حضَّ على الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزق الله عز وجل ووبَّخ من لم يؤمن ولم ينفق في طاعة الله أعلن عز وجل هنا أنه تبارك وتعالى هو الحكم العدلُ ذو الإحسان والجود والفضل حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وهذا بيانٌ لكمال عدله، وقوله عز وجل: ﴿وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.﴾ وهذا بيان لواسع جوده وفضله. فمن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فهو عز وجل لا يبخس مثقال ذرة من أعمال المؤمنين، ولا يحمِّلُ مُسيئاً أكثر من إساءته كما قال عز وجل: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين﴾ وكما قال عز وجل عن العبد الصالح لقمان أنه قال: ﴿يابُنَيَّ إنها إن تَكُ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض

يأتِ بها الله ، إن الله لطيف خبير﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالَهم . فمن يَعْمَلْ مثقـالَ ذَرَّةٍ خيرا يَرَه . ومَنْ يعمل مثقالَ ذرة شرا يَرَهُ . ﴾ والمقصود من نفي الظلم عن ذاته المقدسة هو إثباتُ كمال عدله ، ومعنى ﴿مثقــالَ ذرة﴾ أي وزن ذرة وتطلق على أصغــر النمل كما تطلق على الجزء الذي لا يقبل الانقسـام ، كما تطلق على الواحـدة من الهَبَاءِ الظـاهرِ في ضوء الشمس النافذ من ثُقبٍ في حجـرة مظلمة . وقال في القاموس المحيط : الذَّرُّ صغـار النمل ومائةُ منها زِنَـةُ حبة شعير، الواحدة ذرة اهــ . وقد ضرب الله عز وجل مثلاً بـالذرة وبحبة الخردل لأنهما أصغر وأَدَقُّ مـا يُوزَنُ فلا شيء أصغرُ من الذرة أو حبة الخردل ، وأصل : ﴿تَكُ﴾ تكُنْ قال الزجاج : الأصل في تك تكون فسقطت الضمـة للجزم ، والواو لسكونها وسكـون النون ، وأما سقوط النـون فلكثرة الاستعمال تشبيهـاً بحروف اللين لأنها سـاكنة فَحُـذِفَتْ استخفافا اهـ . وقـوله : استخفافا أي طلبا للتخفيف . وقد تَضَمَّـنَ قوله عز وجل : ﴿وإن تك حسنةً يضـاعفها﴾ أنَّ مـا يفعله الإنسان من شر لـو كان وزن ذرة فإنه لا يجازيـه إلا به ، وأن ما يفعلـه الإنسان من خير ولـو كان وزن ذرة فإن الله عز وجل يضـاعفه له من فضلـه وجوده وإحسانـه وأنه لا يضيعُ عند الله شيءٌ مهما كان . وقوله عز وجل : ﴿ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ أي ويعط من عنده الأجـر العظيم وهو الجنـة ، وقد روى البخـاري في صحيحه من طريق زيد بن أسلم عن عطـاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطـويل ، أن الله تعالى يقول للشافعين : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرة من إيمان فأخرجوه ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفوا . قال أبو سعيـد : فإن لم تُصَـدِّقُوني فـاقـرءوا : ﴿إنَّ اللهَ لا يَظْـلِمُ مثقـالَ ذرة وإنْ تَكُ حَسَنَةً يضـاعِفْهَا﴾ وقـد أخرج مسلم هـذا الحديث أيضاً من طريـق زيد بن أَسْلَمَ عن عطـاء بن يسار عن أبي سعيـد الخُدريِّ : وفيه : ثم يقـول : ارْجِعُوا

فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرة من خير فأَخرجُوه، فيُخرجون خلقاً كثيرا ثم يقولون: ربنا لم نَذَرْ فيها خيرا، وكان أبو سعيد الخدريُّ يقول: إن لم تُصَدِّقُوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إنَّ الله لا يظلم مثقالَ ذرة وإن تكُ حَسَنَةً يضاعِفْهَا ويؤْتِ من لدنه أجرا عظيما﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ بعد أن ذكر عز وجل أنه لا يظلم الناس يوم مجازاتهم بأعمالهم، وأشار إلى أن من جاء بالسيئة ولو كانت مثقال ذرة لا يُجزى إلا بمثلها، ومن جاء بالحسنة ولو كانت مثقال ذرة ضاعف الله عز وجل مثُوبتهُ عليها، وأنه عز وجل يعطي الجنة التي عرضُها السموات والأرض والتي ذكر رسول الله ﷺ أن مقدار قوس فيها خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَقَابُ قَوْسٍ في الجنة خيرٌ مما تَطْلُعُ عليه الشمسُ أو تغرب، ذكر عز وجل هنا مَشْهَداً من مشاهد القيامة حيث يشهدُ كلُّ رسول على أمته، ويشهد محمد ﷺ للأنبياء بالتبليغ وعلى الأمم المكذِّبَةِ بالتكذيب، وفي هذا ترهيب للمكذبين وترغيب للمستجيبين لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام. وكما قال عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وَسَطًا لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: يُدْعَى نوحٌ يومَ القيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعْدَيْكَ ياربِّ. فيقولُ: هل بَلَّغْتَ؟ فيقولُ: نَعَمْ، فيقالُ لأمته: هل بَلَّغَكُمْ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقولُ: مَنْ يَشْهَدُ لك؟ فيقولُ: محمدٌ وأُمَّتُهُ، فَيَشْهَدُونَ أنه قد بَلَّغَ، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا، فذلك قوله جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسَطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ والوَسَطُ: العدل اهـ. وكما قال عز وجل: ﴿ويوم نَبْعَثُ في كل أمة

شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأشرقت الأرضُ بِنُورِ ربِّها وَوُضِعَ الكتابُ وَجِيءَ بالنبيين والشهداء﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: أَقْرأُ عليك وعليك أُنْزِلَ؟ قال: فإني أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غيري، فقرأتُ عليه سورةَ النساءِ حتى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ قال: أَمْسِكْ، فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفانِ. وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: اقرأْ عَلَيَّ القرآن، قال: فقلت: يارسول الله أقرأُ عليك وعليك أُنْزِلَ؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، فقرأتُ النساء حتى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ رفعتُ رأسي أو غَمَزَنِي رجلٌ إلى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رأسي فرأيتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اقرأ عليَّ، قال: قُلْتُ: أقرأ عليكَ وعليك أُنْزِلَ؟ قال: إني أشتهي أن أَسْمَعَهُ من غيري، قال: فقرأتُ النساءَ حتى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ قال لي: كُفَّ أو أَمْسِكْ؛ فرأيت عينيه تَذْرِفَانِ. اهـ وبكاءُ رسول الله ﷺ عند سماع هذه الآية يُشْعِر بما تضمنته هذه الآية الكريمة من هول المطلع، وشدة الأمر، وعظيم نعمة الله عز وجل على رسوله وحبيبه محمد ﷺ حيث ينصبهُ الله عز وجل شهيداً في الموقف العظيم، ويرفعه على جميع النبيين والمرسلين، وهذه درجةٌ من الدرجات العالية التي اختص الله بها نبيه محمدا ﷺ، المشار إليها بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات﴾ والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية للتوبيخ والتحذير من هول ما يلقاه يوم القيامة كلُّ مختال فخور، يبخل بماله ويأمر

الناس بـالبخل ويكتم ما آتـاه الله من فضله ، والـذين ينفقون أمـوالهم رئاءَ الناس ولا يـؤمنون بـالله ولا باليـوم الآخر قـرناءُ الشيـاطين : أي فكيف حالُ هؤلاء يوم القيامة الذي يجعل الولدان شيبا ، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وقوله عـز وجل : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَـوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَـوَّى بِهِم الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَـدِيثًا .﴾ بيـانٌ لما يصيب الكافـرين المكذبين لله ورسوله ﷺ من الهول والفزع الأكبر، وتفسير للحال المسئول عنها بقولـه : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمـة بشهيد وجئنا بك على هـٰؤلاء شهيدا﴾ كأنه قيل : فكيـف حال هؤلاء يـوم القيامة؟ فكـان الجواب : يكونـون بحال مُحزنةٍ مُفجعـةٍ يودُّون ويتمنـون لو تسـوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حـديثا وليس العطف في قوله عـز وجل : ﴿الذين كفروا وعَصَوُا الرسـول﴾ للمغايرة بل هـو مـن عطف الخاص على العـام لمزيـة في الخاص إذ أن المقصـود من معصيتهم الـرسول هنـا هو تكذيبهـم له ، وجحودهـم رسالتـه ، وكتمانهم ما عرفوه من صفاته التي وصفت لأمم الأنبياء السابقين حتى صاروا يعرفونه كما يعرفـون أبناءهم ، فلما جاءهم مـا عرفوا كفـروا به فلعنة الله على الكـافرين ، وفائدة ذكر معصية الرسول بعد قوله : كفروا لشدة تفجيعهم بأنَّ هذا الرسول العظيم ﷺ سيشهـد عليهم يوم الحسرة والنـدامة والفزع الأكبر بـأنهم عَصَوه وكذَّبُوه ، فأفاد عطفُ الخاص على العام هنا التنـديد والتحذيرَ لعلهم يتوبون ويذَّكَّـرون ويرجعون عن غيهم وضـلالهم قبل فوات الفـرصة عليهم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿لـو تُسَوَّى بهم الأرضُ﴾ أي يصيرون ترابا كما تصير البهائم على حد قوله عز وجل : ﴿يوم ينظر المرءُ ما قدمت يداه ويقولُ الكافرُ ياليتني كنتُ ترابا﴾ فهم لشدة ما يصيبهم من الخوف والخزى والهلع يتمنون أن تنشق الأرض بهم وتبتلعهم ، وقولـه عز وجل : ﴿ولا يكتمون الله حـديثا﴾ أي إنهم يوم القيـامة يعترفون بجـرائمهم ولا يكتمون من الله شيئاً ويقـرُّون بأن الله عز

وجل لم يظلمهم مثقال ذرة، وبخاصةٍ بعد أن يحلفوا بالله أنهم ما كانوا مشركين، فيختم الله على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يعملون وأنهم كانوا مشركين، كما قال عز وجل: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجُلُهم بما كانوا يكسبون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزَعُون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرْجَعُون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا.﴾

بعد أن وصَّى الله عز وجل بمجامع الخير وأصول البر والإحسان في قوله عز وجل: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ إلى قوله ﴿وما ملكت أَيْمَانُكُمْ﴾ ثم حذَّر من قبائح الصفات ومجامع السوءِ في قوله عز وجل: ﴿إنَّ الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ إلى قوله: ﴿ومَنْ يكن الشيطان له قرينا فَسَاءَ قرينا﴾ ثم حض على الإيمان بالله واليوم الآخر وبيَّن أنه عز وجل سيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة وأنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، وحذَّر المكذبين لرسول الله ﷺ من موقف الحسرة والندامة حين ينصِبُ الله محمدا ﷺ شاهدا عليهم يوم القيامة، وأنهم يتمنَّون يومئذ أن تُسَوَّى بهم الأرضُ، شرع هنا يُوصي بالصلاة وصِيَانتها، لأنها رأس العبادات بعد توحيد الله عز وجل وأهم أمور الإسلام، وأول ما يحاسب به العبدُ يوم القيامة. وقوله عز وجل: ﴿يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا هو الطورُ الثالث من أطوار تحريم الخمر حيث كان الطور الأول هو التنديد بشربها حيث يقول عز وجل في سورة النحل وهي مكية: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقًا حَسَنًا﴾ وكان الطور الثاني من أطوار تحريم الخمر هو قوله عز وجل: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قُلْ فيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ومَنَافِعُ للناس وَإِثمهما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أما الطور الرابع والأخير فهو قوله عز وجل: ﴿يا

أيها الـذين آمنـوا إنما الخمـر والميسر والأنصـابُ والأزلام رجسٌ من عمل الشيطـان فـاجتنبـوه لعلكم تفلحون. إنما يـريـد الشيطـان أن يُـوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر ويَصُـدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْـرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي يامعشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ لا تشربوا الخمر في أوقات الصلاة ومواضعها أي المساجد لتتمكنوا من أداء الصلاة وأنتم في حـال صحوٍ تام وتمييزٍ لكل ما تتلفَّظـون به وعلم بما تقولونه وما تتلونه من كتاب الله، ولاشك أن هذا خطوةٌ ذات أثرٍ بالغ في المنع من شرب الخمـر وتدريبٌ للمدمنين على تـركها، لأن من تمكن مـن السيطرة على هواه فترك الخمر في أوقـات الصلاة استطاع بهذا التدرُّج أن يصـون نفسه منها في جميع الأوقات، ولذلك عندما نزل قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿إنما الخمـر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطـان فاجتنبـوه لعلكم تفلحـون. إنما يريـد الشيطـان أن يُوقِـع بينكم العداوة والبغضـاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصـلاة فهل أنتم منتهون﴾ قالوا: انتهينـا، انتهينا يـارب. وهذا الطـريق الذي سلكـه القرآن العظيم في حمايـة الناس مـن شرور الخمر هو الأسلـوب الأمثل في تـربية النفس الإنسـانية على سلوك السبيل السـويِّ وحمايتها من سائر الأوضـار، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وَلاَ جُنبًا إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوا الصلاة ومواضعها وهي المساجد حالة كونكم جُنبـاً إلا مجتازين فيها حتى تغتسلوا من الجنابة، والجُنُب المحتلم أو المقارف أهله، ويطلق على الـواحد والمثنى والجماعة وعلى الـذكر والأنثى، وقـد روى أبو داود بسنـد صححه ابن خـزيمة من حـديث عـائشة رضي الله عنهـا قالت: جـاء رسـول الله ﷺ وَوُجُوهُ بيـوتِ أصحابـه شارعةٌ في المسجـد فقال: وَجِّهُوا هذه البيـوتَ عن المسجد. ثم دخل رسول

الله ﷺ ولم يصنع القومُ شيئا رَجَاءَ أن يَنْزِلَ فيهم رخصةٌ، فخرج إليهم فقال: وَجِّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أُحِلُّ المسجدَ لحائض ولا جنب.
وهذا الحديث من رواية أَفْلَت بن خليفة عن جسرة عن عائشة، وأفلتُ وَثَّقَهُ ابن حبان وقال أبو حاتم: هو شيخ، وقال أحمد بن حنبل: لا بأس به، وروى عنه سفيانُ الثوري وعبد الواحد بنُ زياد، وقال في الكاشف: صدوق، وقال في البدر المنير: بل هو مشهورٌ ثقةٌ، وقال العجلي في جَسْرَةَ: تابعية ثقة، وذكرها ابن حبان في الثقات. وقال الحافظ ابن حجر: وأما قولُ ابن الرفعة في أواخر شروط الصلاة: إنَّ أفلتَ متروك فمردودٌ لأنه لم يقله أحد من أئمة الحديث. وأما ما رواه سعيدُ بنُ منصور في سننه قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالاً من أصحاب النبي ﷺ يجلسون في المسجد وهم مُجْنِبُونَ إذا توضأوا وضُوءَ الصلاة، وكذلك ما رواه حنبل بن إسحاق صاحبُ أحمدَ قال: حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يتحدثون في المسجد وهم على غير وضوء، وكان الرجل يكون جنبا فيتوضأ ثم يدخل المسجدَ فيتحدث. ففي كلا الإسنادين هشام بن سعد وهو وإن كان من رجال مسلم، إلا أن البخاري أو مسلماً قد يخرج للرجل حديثا في موضع ولا يخرج حديثه في موضع آخر لعلة، ولعل من علته ثبوت حديث منع الحائض والجنب من المساجد وكراهية التحدث بغير ذكر الله وقراءة القرآن في المسجد وقول رسول الله ﷺ للحائض « غير ألا تطوفي بالبيت حتى تغتسلي» في حديث عائشة المخرج في الصحيحين. وقد قال أبو حاتم في هشام بن سعد: إنه لا يحتج به، وضعَّفَه ابن معين وأحمد والنسائي، وقد ثبت بهذا أن الجنب ممنوع من المكث في المسجد، أما المجتاز في المسجد إما للخروج منه أو الدخول فيه مثل أن يكون قد نام في المسجد

فأجنب فيجب عليه الخروج منه، أو يكون الماء في المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه للضرورة من غير إقامة فهذا كله جائز وقد روى سعيد بن منصور في سننه من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان أحدُنا يمر في المسجد جُنُبًا مجتازا. وتأويل قوله عز وجل: ﴿إلا عابري سبيل﴾ بالمجتازين في المسجد للخروج منه أو للدخول لأخذ الماء منه أو لكون طريقه عليه ضرورة أَوْلَى من تأويل ذلك بالمسافرين لوجهين: الأول: أن المسافر الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم مع قوله ﴿إلا عابري سبيل﴾ فيحتاج إلى إضمار شيئين: عدم الماء، وذكر التيمم، وأما على تأويله بالمجتاز فلا يُحْتَاجُ إلى إضمار شيء، والوجه الثاني: أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد ذلك فلا يحمل هذا على حكم مُعَادٍ في نفس الآية، ويدل على ذلك أيضاً أن جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله عز وجل: ﴿حتى تغتسلوا﴾ وهو يَدُلُّ على أن حكم الجنابة باقٍ على الجنب إلى غاية هي الاغتسال. وقوله عز وجل: ﴿وإن كنتم مَرْضَى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ هذا بيانٌ للأسباب الداعية للتيمم وهي المرض أو السفرُ أو المجيءُ من الغائط أو ملامسةُ النساء. وأصلُ التيمم في اللغة القصدُ وفي الشرع هو القصد إلى الصعيد لمسح الوجه واليدين بنية استباحة الصلاة ونحوها، وهو من خصائص هذه الأمة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهر وجعلت لي الأرضُ مسجدا وطهورا فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ. الحديث، وفي لفظ لمسلم من حديث حذيفة: وجعلت تُرْبَتُهَا لنا طَهُوراً إذا لم نجد الماء. وقد أذن الله عز وجل بالتيمم في آيتين من كتابه الكريم وهما هذه الآيةُ وآيةُ

المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلَكُمْ إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطَّهَّرُوا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ والظاهر أن آية النساء هذه متقدمة في النزول على آية المائدة إذ أن آية النساء قرنت بقوله عز وجل: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ وهو الطور الثالث من أطوار تحريم الخمر، أما آية المائدة فقد نزلت بعد تحريم الخمر؛ لأن صدر سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، ومن المعلوم أن الطور الرابع والأخير من أطوار تحريم الخمر جاء في سوءة المائدة فآية النساء حَرِيَّةٌ بأن تُسَمَّى آية التيمم، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناسُ معه، وليسُوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبي بكر الصدِّيق فقالوا: ألَا ترى ما صَنَعَتْ عائشةُ، أقامتْ برسول الله ﷺ والناسِ، ولَيْسُوا على ماء وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ وَاضِعٌ رأسَهُ على فَخِذِي قَدْ نَامَ، فقال: حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء وليس معهم ماءٌ، فقالت عائشةُ: فَعَاتَبَنِي أبو بكر وقال ما شاء اللهُ أن يقول، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بيده في خَاصِرَتِي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فَخِذِي، فقام رسولُ الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزلَ اللهُ آيةَ التيمُّم، فقال أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ: مَا هِيَ بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فَبَعَثْنَا البعير الذي كنتُ عليه فأصَبْنَا العِقْدَ تحته اهـ. وقد أباحت هذه الآية الكريمة للمرضى والمسافرين ومَنْ جاء من الغائط ومَنْ لَامَسَ النساء إذا لم يجدوا ماء أن يتيمَّمُوا، وعدم وجدان

الماء قد يكـون بِعَدَمِـه جملة أو عدمِ بعضـه أو أن يخاف بطلبه فـوات رفقته أو ضياع راحلته أو يخاف لصوصا أو سَبُعًا أو عطشا على نفسه أو غيره إذا توضأ بها معه من الماء، أو احتاجه لطبيخ يَطْبُخُهُ أو لا يقدر على استعمال الماء أو لا يجد من يناوله، أو أن يكـون الماء في بئر لكنه لا يقدر على الوصـول إليه لعدم وجـود آلة لنـزعـه، أو كان مـريضًـا يضره الماءُ أو يـؤخرُ بُـرْأَهُ، والمَرْضَى جمع مريـض، والمرض خروج البدن عـن حد الاعتـدال بسبب علة أو جـراحة أو غيرها. وقوله: ﴿أو على سفر﴾ يعني مسافـرين وقوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغـائط﴾ أي أو قضى أحدكـم حاجتـه التي تنقض الـوضوء من سـائر الأحداث التي تـوجب الطهارة الصغرى وأصل الغـائط المكان المنخفض ثم صار يستعمل بمعنى الكنيف وبيت الخَلاَء والمقصـود الحدث الأصغر، وإن كان العرف خص الغائط بالخارج من الدبر وصار يستعمل في مقابلة البول. وقـوله عـز وجل: ﴿أو لامستم النساء﴾ هـو كنـاية عن الجماع، وليس هـذا تكـريرا لقـولـه عز وجل في نفس الآيـة: ﴿ولا جنبـا إلا عابـري سبيل حتى تغتسلوا﴾ إذ أن أحد البيـانين لوجوب اغتسال الجنب عنـد وجود الماء والثاني بيـان لجواز تيممه عنـد فقد الماء أو عـدم القدرة على استعمالـه فلا تكـرار في الآية. قال البخاري في صحيحـه: بابٌ إذا خاف الجُنُبُ على نفسه المرَضَ أو الموتَ أو خاف العطـشَ تَيَمَّمَ، ويُذْكَرُ أن عمـرو بن العاص أجْنَـبَ في ليلة باردة فَتيمم وتلا: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كـان بكم رحيما﴾ فَذُكِرَ للنبي ﷺ فلم يُعَنِّفْـهُ اهـ. وقـولـه عز وجـل: ﴿فتيمموا صعيـدا طيبـا فامسحـوا بـوجوهكم وأيـديكم﴾ أي فاقصـدوا ترابـا طاهـرا فاضربـوا عليه وامسحـوا بوجوهكم وأيديكم منه وقد أوضحت السنة كيفية التيمم وبَيَّنَتْ مجمله، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: بعثني النبي ﷺ في حاجة فأجنبـت فلم أجد الماءَ فَتمرَّغْتُ في الصعيد

تَمَرَّغَ الدابـة، ثم أتيتُ النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقـال: إنما كان يكفيك أن تقولَ بيديك هكذا، ثم ضَرَب بيـديه الأرَض ضربةً واحدةً، ثم مَسَح الشمالَ على اليمين وظاهر كَفَّيْهِ ووجهَـه. وفي رواية للبخاري: وضرب بكفيه الأرَض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيـه. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللهَ كـان عَفُوًّا غفورًا﴾ هو بيانٌ لحبه عز وجل للتيسير على عباده فيما يشرعه لهم من الأحكام وما يتفضل به عليهم من الرُّخَصِ، وما يعامل به المؤمنين من العفو المغفرة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ. وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا. مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً.﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل فضله على عباده المؤمنين بما يَسَّرَه لهم من التشريع المَبْنيِّ على التيسير، وأباح لهم التيمم بالتراب الطاهر للعاجز عن استعمال الماء، تحقيقا لما بشَّر الله به الأنبياء حيث وصف لهم رسوله محمدا ﷺ بأنه النبيُّ الأميُّ الذي يحل لأمته الطيبات ويُحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وبعد أن أشار قريبا إلى بعض أخلاق اليهود المذمومة بأنهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله شرع هنا يعدِّد بعض قبائح اليهود ويندِّدُ بسلوكهم المشين ليزداد المسلمون استمساكاً بدينهم الذي منَّ الله به عليهم وفضَّلَهُمْ به على سائر الأمم، ويَحْذرُوا من «مخططات» اليهود ومكرهم السيىء حيث يبذلون كل جُهد لإطفاء نور الإسلام، والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون، وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أُوتُوا نصيبا من الكتاب يَشترُونَ الضَّلاَلَةَ ويريدون أن تَضِلُّوا السبيلَ. والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين: يُخْبِرُ تعالى عن اليهود — عليهم لعائنُ اللهِ المتتابعةُ إلى يوم القيامة — أنهم يشترون الضلالة بالهُدَى ويُعْرِضُونَ

عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء ا لأولين في صفة محمد ﷺ لِيَشْتَرُوا به ثمنا قليلا من حُطَامِ الدنيا، ﴿ويُرِيدُونَ أن تَضِلُّوا السبيل﴾ أي يَوَدُّونَ لـو تكفرون بما أُنْزِلَ عليكم أيها المؤمنون وتتركـون ما أنتم عليـه من الهدى والعلم النافع ﴿واللهُ أَعْلَـمُ بأعدائكم﴾ أي هـو أعلم بهم، ويُحذِّرُكُمْ منهم، ﴿وكَفَى بالله وَلِيًّا وكَفَى بالله نصيرا﴾ أي وكفى بالله وَلِيًّا لِمَنْ لجأ إليه، ونَصِيرًا لمن استنصره اهـ. والخطاب في قـوله عـز وجل: ﴿ألم تر﴾ لكل مَنْ تتأتى منه الرؤيـةُ من المؤمنين، وتوجيهُهُ إليه ﷺ هنـا مع توجيهه في قوله تعالى: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ إلى جماعة المؤمنين للإيذان بكمال شُهْرَةِ شناعة حالهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يَتَعَجَّبُ منها كلُّ مَنْ يراها، ومعنى: ﴿أوتـوا نصيبـا من الكتـاب﴾ أي أُعْطُـوا حَظًّـا من المعـرفـة بكتب الأنبياء التي وَصَفَتْ رسولَ الله ﷺ فعرفُـوا منه نَعْتَهُ ﷺ وحَقِّيَّةَ دين الإسلام، فبـدَّلُوا نعمـة الله كفرا، وقـوله عـز وجل: ﴿يَشْتَرُون الضلالـة ويريـدون أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ.﴾ هذا تحذير للمؤمنين أن يَسْتنصحوا أحدا من اليهود وأعداء الإسـلام في شيء من أمر دينهم أو يسمعـوا شيئا من طعنهم في الـدين لأنهم جمعـوا في نفـوسهم أَخَسَّ الصفـات المُنَفِّـرة عن قـربـانهم إِذْ هُمْ ضـالُّـون في أنفسهم راغبـون في إضلال غيرهم، والتعبير بقـولـه: ﴿يشترون الضلالـةَ﴾ للـدلالـة على شدة حـرصهم على سلـوك الطـريق المُعْوَجَّـة، وأنهم يختـارون الضلالة بَدَلَ الهُدَى، والكفر بَـدَلَ الإيمان، والتكذيب بالحق بَدَلَ التصديق به، وفي قوله عز وجل: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ تأكيدٌ لتحذير المسلمين من الوقـوع في شِبَاكِ اليهـود وفِخَاخِهِم التي ينصبـونها لإيقاع المسلمين في الحَيْرَةِ والضلال، ولفتُ الانتبـاه إلى ما انطوت عليه نفوس هـؤلاء اليهود من الغش والعداوة والحسد، قال ابنُ جرير رحمه الله: وأما قوله ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ فإنه يقول: فبالله أيها المؤمنون فَثِقُوا وعليه فتوكَّلُوا، وإليه فَارْغَبُوا

دون غيره يَكْفِكُمْ مُهِمَّكُمْ، ويَنْصُرْكُمْ على أعدائكم، ﴿وكفى بالله وليًّا﴾ يقول: وكَفَاكُمْ وحَسْبُكُمْ بالله ربكم وَلِيًّا يَليكُمْ ويَلي أموركم، بالحياطة لكم والحراسة من أن يَسْتَفِزكُمْ أعداؤكم عن دينكم أو يَصُدُّوكم عن اتِّباع نبيكم، ﴿وكفى بالله نصيرا﴾ يقول: وحَسْبُكُمْ بالله ناصرا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى مَنَ بَغَاكم الغَوَائِلَ، وبَغَى دينكم الْعِوَجَ اهـ. وقوله عز وجل: ﴿من الذين هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وعَصَيْنَا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ ورَاعِنَا ليًّا بأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْنًا في الدِّينِ﴾ بعد أن وصف الله عز وجل اليهودَ في الآيتين السابقتين بأنهم يحرصون على الضلالة ويشترونها، وأنهم يحبون إضلال المسلمين ذكر عز وجل هنا صُوراً أخرى من قبائح أفعالهم وأقوالهم بأنهم يحرفون الْكُتُبَ التي بأيديهم المنسوبة للأنبياء المشتملة على صفة محمد رسول الله ﷺ وبعض الأحكام التي لا يحبونها كَرَجْمِ الزاني وقطع يد السارق فاستبدلوها بتحميم الوجه والتَّجْبِيهِ وترك إقامة الحد مطلقا على الشريف و إقامته على الضعيف، كما أنهم كانوا يفسرون ما في التوراة التي بأيديهم وكتب العهد القديم بما يوافق شهواتِهِم وأهواءَهم و إن خالف المراد منها افتراءً على الله ورسله، كما أنهم كانوا إذا خاطبوا رسول الله ﷺ استعملوا الكلام المحتمل للخير والشر وهم يريدون الشر ويُوهِمُون أنهم يريدون الخير ويلْوون ألسنتهم بالكلام، فكانوا إذا سَلَّمُوا على رسول الله ﷺ قالوا: السامُّ عليكم يوهمون أنهم يريدون: السلام عليكم والواقع أنهم يَقْصِدُون: الموت عليكم لأن المراد بالسام الموت، كما كانوا يقولون للنبي ﷺ: راعِنَا وهي كلمة سَبٍّ بلغتهم وهم يوهمون أنهم يريدون بها: انْظُرْنَا وراعنا سمعك، واستمع لنا. كما كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمع غير مُسْمَعٍ، يريدون: اسْمَعْ لا سَمِعْتَ، وهم يظهرون ويُوهِمُون أنهم يريدون: اسمعْ لا سمعت مكروها. وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكَلِمَ عن

مَوَاضِعِهِ﴾ أي من الذين صاروا يهودا قَوْمٌ أو فريق أو مَنْ يحرفون الكلم الذي يقرأونـه في كتبهم أو يخاطبون به رسـول الله ﷺ عن مواضعه ومقـاصده التي وُضِعَ لها، والعرب تقـول: مِنَّا يقول كذا ومنَّـا لا يقوله أي منا من يقـول كذا ومنا من لا يقـوله، أو منا فـريق يقول كذا ومنا فـريق لا يقوله. كما قـال عز وجل: ﴿وَمَا مِنَّا إلا له مقام معلوم﴾ أي ومـا منا إلا من له مقام معلوم، وكما قال ذو الرُّمَّة:

بَكَيْـتُ عَلَى مَيٍّ بِهَا إذ عَـرَفْتُهَـا وَهِجْت الْهَوَى حتـى بَكَى الْقَوْمُ مِنَ أَجْلِي
فَظَلُّـوا وَمِنْهُم دَمْعُـهُ غـالبٌ لـه وآخَـرُ يَثْنِي دَمْعَـةَ العَيْنِ بِـالهمْل
وَهَلْ هَمَلاَنُ الْعَيْنِ رَاجِـعُ مَا مَضَى مِنَ الْـوَجْـدِ أَوْ مُـدْنِيكِ يـامَيُّ من أَهْلِي

فقول ذي الرُّمة: ومنهم دَمعُه أي ومنهم مَنْ دَمعُه. وكما قال النابغة:

كـأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِـي أُقَيْـشٍ يُقَعْقَعُ خـلْفَ رِجْلَيْـهِ بِشَـنِّ

يعني كأنك جملٌ من جمال بني أقيش. وكما قال تميم بن مُقبل:

وما الدَّهْـرُ إلا تَارَتَـانِ فَمِنْهُمَا أَمُـوتُ وأُخْـرى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

يعني بقوله: فمنهما أمـوتُ أي فمنهما تارةٌ أموتُ فيها. وقـد جرت العرب في أساليبها البلاغية على حذف بعض الكلام إذا كان المحذوف معلوما حتى ولو كان ركنا من أركان الجملة كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

وحذف ما يعلم جائز كما تقول: زيدٌ، بعد: مَنْ عِنْدَكُمَا

والتحريفُ هـو التغيير والتبديل والكَلِمُ جمع كلمة، ومواضعُـه أي أماكنه أو مقاصده وقـد جَمَعَ أحبار السوء من اليهود بين تغيير نفس الحروف أحيانا وتبديلها بما يشتهون وبين تأويلها بالتأويـلات الفاسدة وصرف معانيها إلى ما يوافق أهـواءهم، وقوله عـز وجل: ﴿ليًّا بألسنتهم وطَعْنًا في الدين﴾ أي إن هؤلاء اليهود لعنهم الله كانوا يحرفـون الكلِمَ من بعد مواضعه ويلوون ألسنتهم

بالكلام المحتمل للخير والشر على طريقة تُوهِم المسلمين بأنهم يريدون الخير ويَعْرِفُ أتباعهم من اليهود أنها سَبٌّ للإسلام والمسلمين فيمتنع رَعَاعُ اليهود عن الدخول في الإسلام إذ يقولون: هؤلاء أحْبَارنَا يَسُبُّونَ نبيهم ولا يعرف أنهم يَسُبونَـهُ، ولو كان نبيا لعرف ذلك، مع أنهم لما قالوا لرسول الله ﷺ: السامُ عليكم قال: وعليكم فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّامُ عليكم. قالت عائشة: فَفَهِمْتُهَا فقلتُ: وعليكم السَّامُ واللعنةُ، قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: مَهْلاً ياعائشةُ إن اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمرِ كلِّه، فقلت: يارسول الله: أَوَ لم تَسْمَعْ ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلتُ: وعليكم. وقد نبَّه الله عز وجل المسلمين إلى التَّفَطُّن لدسائس اليهود هذه فحذَّرَ من استعمال هذه الكلمات حتى يُغْلِق الباب على اليهود قبحهم الله فقال للمسلمين: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا، وللكافرين عذابٌ أليم﴾ وقال هنا منددًا باليهود وموَبِّخًا لهم على سوء أدبهم ومُحَذِّرًا لهم من لَيِّ ألسنتهم وغمزهم في الدين: ﴿ولو أنهم قالوا سَمِعْنَا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقومَ ولَكِنْ لعنهم اللهُ بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا. ياأيها الذين أُوتُوا الكتاب آمِنُوا بما نَزَّلْنَا مُصَدِّقا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَا أو نَلْعَنَهُم كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، وكان أمرُ اللهِ مَفْعُولاً.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولَكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ أي ولكنَّ الله تبارك وتعالى أَخْزَى هؤلاء اليهودَ الذين يَلْوُون ألسنتهم في مخاطبة الرسول ﷺ ويغمزون في الدين فأقصاهم وأبعدهم عن الرُّشْدِ والْهُدَى لجحودهم نبوة محمد ﷺ التي كانوا يبشرون بها قبل مجيئه ﷺ فلا يؤمنُ منهم إلا عَدَدٌ قليل، وقد آمن عبد الله بن سلام رضي الله عنه في جماعة قليلة منهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين أوتوا

الكتاب آمنوا بما نَزَّلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نَطْمِسَ وجوها فَنَرُدَّهَا على أدبـارها أو نلعنهم كما لَعَنَّـا أَصْحَابَ السَّبْت ، وكـان أمر الله مفعـولا . ﴾ أي يامعشر من انْتَسَبَ إلى الكتب السماوية المُنَزَّلَةِ على الأنبياء سَارِعُوا إلى الإيمان بالكتاب المُنَزَّلِ على محمد ﷺ المُقَرِّرِ لما أنزل الله عز وجل على الأنبياء من قبل أن نَطْمِسَ وُجـوها فَنَسْلُبَ منهـا السمعَ والبصرَ ونُزِيلَ منهـا معالم الاهتـداء ونَـرُدَّها الْقَهْقَـرَى وتَصِيرَ كما وصف الله عز وجل المدبـرين عن الهُدى حيث يقول : ﴿أفمـن يمشي مُكبًّا على وجهه أهـدى أَمَّنْ يمشي سَـوِيًّا على صراط مستقيم . ﴾ وأصل الطمس هو ذَهَـابُ معالم الاهتداء يقال : طـريق طامِسُ الأعلام إذا كانت معالم الاهتداء فيه مندرسةً ضائعة كما قال كعب بنُ زهير في قصيدته بانت سعاد :

مِنْ كُلِّ نَضَّـاحَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأعـلامِ مَجْهُـولُ

قال في القـاموس : الطمُوسُ الـدروس والإمْحَاءُ يَطْمُسُ ويَطْمِسُ وطَمَسْتُهُ طَمْسًـا مَحَوْتُـهُ والشيءَ استأصلتُ أَثَـرَهُ ، ومنـه ﴿وإذا النجـوم طُمِسَتْ﴾ ﴿واطْمِسْ على أموالهم﴾ أَهْلِكْها اهـ ومعنى : ﴿أو نَلْعَنَهُم كما لَعَنَّا أصحاب السبت وكـان أمر الله مفعـولا﴾ أي أو نَطْرُدَهُم مـن رحمتنا كما طـردنا الـذين اعتدوا في السبـت والله يفعل ما يـريد لا رادَّ لقضائه ولا معقـب لحكمه وكما قال عـز وجل : ﴿قل هل أُنبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذٰلك مثوبة عنـد الله ، من لعنه الله وغضب عليـه وجعل منهم القـردة والخنازيـر وعَبـدَ الطاغـوتَ ، أولٰئك شر مَّكانا وأضل عن سواء السبيل﴾ .

قال تعـالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَـا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَـاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً . انْظُـرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا .﴾

قـال أبو السعـود العمادى في تفسير قولـه عز وجل : ﴿إن الله لا يغفـر أن يُشرَك به﴾ : كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ لتقرير ما قَبْلَه من الوعيد، وتأكيد وجوب الامتثال بـالأمر بالإيمان ببيـانِ استحالة المغفـرة بدونـه فإنهم كانوا يفعلـون ما يفعلون من التحـريف، ويطمعون في المغفرة، كما في قولـه تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ وَرِثُـوا الكتـابَ يأخـذون عَـرَضَ هـذا الْأَدْنَى (أي على التحريف) ويقـولون سَيُغْفَرُ لَنَـا﴾ والمراد بالشرك مُطْلَقُ الكفـر المنتظم لكفر اليهود انتظـاما أَوَّلِيًّـا ، فإنَّ الشرع قد نَـصَّ على إشراك أهل الكتابِ قـاطبةً ، وقَضَى بِخُلُـودِ أصناف الكَفَـرَةِ في النار اهـ. وقـوله عـز وجل : ﴿إنَّ الله لا يغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذُلِكَ لمن يَشَـاءُ﴾ دليل قطعي الدلالة لصحة مـذهب أهل السنـة والجماعـة في أن جميع المعاصي تحت مشيئـة الله إن شـاء عذَّب عليها وإن شـاءَ غفر لصاحبها حتى لـو مات ولم يَتُبْ منها إلا الشرك بالله سواء كان شركا أصغر أو كان شركا أكبر فإنَّ مَنْ مات على الشرك لا يغفر الله له أبـدا ولابد من تعذيبـه بنار جهنم إلا أن الشرك الأكبر يُخَلَّدُ صـاحِبُه في النار بخلاف الشرك الأصغر فإن صاحبَهُ لا يخَلَّدُ في النار. وقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي الأسـود الدِّيليِّ أن أبا ذر حَدَّثَـهُ، قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضُ وهـو نائم، ثم أتيتُه وقد استيقظ . فقال : مـامِنْ عَبْدٍ قال لاإله إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دَخَلَ الجنة، قلتُ : وإن زَنَى وإن سَرَقَ؟ قال : وإن زَنَى وإن سرَقَ، قلتُ : وإن زَنَـى وإن سَرَق؟ قال : وإن زَنَى وإن

سَرَق، قلتُ: وإن زنى وإن سَرَق؟ قال: وإن زَنَى وإن سَرَقَ على رَغْمِ أنف أبي ذر، وكان أبو ذر إذا حَدَّثَ بهذا قال: وإن رَغِمَ أَنْفُ أبي ذر اهـ. فمن حقق التوحيد وارتكب كبيرة من الكبائر فإن تاب منها تاب الله عليه وإن أُخِذَ بها في الدنيا كان كفارة له، وإن مات ولم يتب منها فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق أبي إدريس عائذِ الله بن عبد الله الخولاني أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شَهِدَ بدرا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحولَه عِصَابَةٌ من أصحابه: بايعُوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تَعْصُوا في معروف، فَمَنْ وَفَّى منكم فأجرُهُ على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فَعُوقِبَ في الدنيا فهو كفارةٌ له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك. وقوله في الحديث: ومن أصاب من ذلك شيئا يعني غير الشرك بدليل هذه الآية الكريمة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَنْ يُشركْ بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ أي ومَنْ يجعل لله عز وجل نِدًّا فقد اختلق جُرْمًا كبيرا بل قد ارتكب أكبر الجرائم وأعظم الذنوب على الإطلاق، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ: أَيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟ قال: أن تَجْعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ، قلتُ: إنَّ ذلك لَعَظِيمٌ، قلتُ: ثم أيّ؟ قال: ثم أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ تخاف أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: ثم أَنْ تُزَانِي بحليلة جَارِكَ. وقد جعل الله عز وجل مَنْ أشركَ مُفْتَرِيًا لأنه قال زُورًا وإفكًا كبيرا بجحوده وحدانية الله تعالى، وإقراره بأن لله شريكا أو صاحبةً أو وَلَدًا، ومَنْ ادَّعى ذلك كان مُفْتَرِيًا، كما أن كل كاذب في دعوى يَدَّعِيهَا فهو مُفْتَرٍ في كذبه مختلقٌ له. وقد حذرت الشريعة

الإسلامية من الشرك ووسائله أشد التحذير سواء كان شركاً أصغر أو شركاً أكبر، والفرق بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر؛ أن الشرك الأصغر لا يُخْرِجُ من الملة، ولا تَبِينُ به الزوجة، ولا يُخَلَّدُ صاحبُه في النار لو مات من غير توبة منه، ومن الشرك الأصغر الحلفُ بغير الله كالحلف بالنبي أو الوليّ أو البلد أو الولد أو غير ذلك مما سوى الله تعالى فقد روى الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله فقد أشرك. قال الترمذي: هذا حديث حسن اهـ. ولذلك كان الحَلِفُ بغير الله أكبرَ من قتل النفس ومن الزنا وشرب الخمر والسرقة؛ لأن الشرك بنوعيه لا يغفره الله عز وجل إلا بتوبة منه بخلاف سائر المعاصي التي دون الشرك كما قال عز وجل هنا: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء﴾ أمَّا قَسَمُ الله عز وجل بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة والتنبيه على عظيم قدرته وجليل نعمته وعظمته فليس من هذا القبيل؛ لأن الله تعالى له أن يقسم بما شاء، ولا يدخُل في شيء من القياس مع خلقه تبارك وتعالى، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في رَكْب وعمرُ يحلف بأبيه فناداهم رسولُ الله ﷺ: إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصْمُتَ. وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم. ومن الشرك الأصغر قول الإنسان: ما شاء الله وشئت يافلان. أو لولا الله وأنت لكان كذا، وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ومن يُشْرِكْ بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وقال في الآية السادسة عشرة بعد المائة من هذه السورة الكريمة: ﴿إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد ضَلَّ ضلالا بعيدا﴾ لأن الآية الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم عِلْمٌ بصحة نبوته، وأن

شريعته نـاسخةٌ لجميع الشرائع، ومع ذلـك فقد كَابَـرُوا في ذلك وافْتَرَوْا على الله، أمـا الآية الثـانية فهي في شأن قـوم مشركين ليس لهم كتابٌ ولا عنـدهم علم فناسَبَ وصفهم بـالضلال، وقولُـهُ عز وجل: ﴿ألمْ تَرَ إلى الذين يُـزَكُّونَ أنفسَهُم، بلِ اللهُ يُزكِّي مَنْ يشاءُ﴾ بعد أن أشار الله عز وجل إلى بعض جرائم أهل الكتاب وأنهم مع جـرائمهم يطمعون في المغفرة وبَيَّنَ عز وجل استحـالة المغفرة مع الشرك أشـار هنا إلى غرورهم بتزكيتهم أنْفُسَهُمْ حيث يـزعمون أنهم لن تَمَسَّهُمُ النَّـارُ إلا أيـاما معـدودات لأنهم أبنـاءُ الله وأَحِبَّاؤُهُ، وقـالـوا: لن يدخل الجنة إلا مَنْ كـان هُودًا أو نصارى، وتَعَلَّقُوا بالأماني الكـاذبة وفي هذا تنـديـدٌ بمَنْ يَمْـدَحُ نفسـه ويزكيهـا وأن مَنْ زكَّـاهُ اللهُ واستعملـه في طـاعتـه فاستجاب لله ولرسوله ﷺ وإذا عمل عملاً صالحا لا يَغْتَرُّ به فهذا هو الزاكي المُزَكَّى، كما قال عز وجل: ﴿إنَّ الذين هم من خشية ربهم مُشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بـربهم لا يشركون. والذين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أنهم إلى ربهم راجعون. أولَئك يسـارعون في الخيرات وهم لها سابقـون.﴾ ولذلك حرَّمَ الله عز وجل على المسلمين أن يُـزَكُّوا أنفسهم حيث قال عز وجل: ﴿ولله ما في السموات ومـا في الأرض ليجزىَ الذين أَسَاءُوا بما عَمِلوا ويَجْزِيَ الذين أحسنوا بالحُسْنَى. الذين يجتنبون كبائر الإثم والفَوَاحِشَ إلا اللَّمَم، إن ربك وَاسِعُ المغفرة، هـو أعلم بكم إذْ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أَجِنَّةٌ في بُطُـونِ أمهاتكم فلا تزكـوا أَنْفُسَكُمْ هو أعلم بمن اتقى.﴾ وكما نَهَى الإسلامُ الإنسانَ عن تزكية نفسـه فقد نهاه ألا يُزَكِّيَ على الله أحدًا، وذلك كلُّه لمنع الغـرور والاغترار، فقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنـه قال: سَمِعَ النبي ﷺ رجـلا يُثْنِي على رجل ويُطْـرِيهِ في المدح فقال: أَهْلَكْتُمْ أو قَطَعْتُـمْ ظَهْرَ الرجل. كما روى البخـاري ومسلم من حـديث أبي بكرة رضي الله عنـه أن رجلا ذكر عنـد النبي ﷺ فأَثْنـى عليه

رجلٌ خيرا، فقال النبي ﷺ: وَيْحَكَ، قَطَعْت عُنُقَ صاحِبِكَ» يقوله مرارا «إن كا ن أحدُكم مَادِحًا لا مَحالَةَ فليقل: أَحْسِبُ كذا وكذا إن كان يَرَى أنه كذلك وَحَسِيبُهُ اللهُ ولا يُزَكِّي على الله أحدٌ» كما روى مسلم من حديث المقداد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيتم المداحين فَاحْثُوا في وجوههم الترابَ. كما روى مسلم من طريق محمد بن عمرو بن عطاء قال سَمَّيْتُ ابنتي بَرَّةَ فقالت لي زينب بنْتُ أبي سَلَمَة: إن رسول الله ﷺ نَهَى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ بَرَة، فقال رسولُ الله ﷺ: لا تُزَكُّوا أنفسَكُمْ، الله أعلم بأهل البِرِّ منكم، فقالوا: بم نُسَمِّيهَا؟ قال: سَمُّوهَا زينب. وقوله تعالى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أي ولا يَبْخَسُ الله تبارك وتعالى مِن عمل الصالحين مقدار فتيل كما لا يُحَمِّل العاصين إلا ما عملوه ولا يظلمهم مثقال فتيل أو مقدار فتيل كما قال عز وجل: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفْها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ والفتيلُ: هو الخيط الدقيق الرقيق الذي يكون في شَق النواة، ولا يكاد يزن شيئا لحقارته وتفاهته، وقد جعل الله تبارك وتعالى في نواة التمرة ثلاثة أشياء يَضْرِبُ العربُ بكل واحد منها المَثَلَ للشيء التافه الحقير، وهي الفتيلُ والنَّقِيرُ والقِطْمِيرُ، وقد ضربها القرآن كذلك مثلا للشيء التافه الحقير فقال عز وجل هنا: ﴿ولا يُظْلَمُونَ فتيلاً﴾ وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ فهو عز وجل منزه عن ظلم عباده ولو بمقدار فتيل أو ذرة، والقِطْمِير هو القشرة الرقيقة التي في ظهر النواة وقد ضرب الله عز وجل بها مثلا على أن ما عُبِدَ من دون الله لا يملكون شيئا مهما كان تافها ولو كان قِطْمِيرًا حيث يقول عز وجل: ﴿والذين تدعون من د ونه ما يملكون من قطمير.﴾ وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿قل ادْعُوا الذينَ زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض﴾ وقال عز وجل في بيان شح اليهود وأنهم لو كان لهم نصيبٌ من

المُلْك مـا أَعْطَوْا أحدا نقيرا : ﴿أم لهم نصيب مـن المُلْك فإذًا لا يُؤْتُـونَ الناسَ نقيرا . ﴾ والنقير هـو النُكْتَةُ التي في ظَهْـر النـواة كـالنُّقْرَةِ والنُّقْطَـةِ ، وهي لا تساوي شيئـا ، وقوله عز وجل : ﴿انْظُـرْ كيف يفترون على الله الكَذِبَ وكفى بـه إثما مبينا . ﴾ هـذا تعجيبٌ للنبي ﷺ من قبح سلـوك اليهود وجـرأتهم في الافتراء على الله عـــز وجل حيث يـــزكـــون أنفسهم وهم أشـــدُّ خلق الله نجاسةً وأبعدُ بني آدم عن الطهـارة ، ويزعمون أنهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه وأنهم لن تمسهم النـار إلا أيـامـاً معدودات ، ولـو لم يكن لهم جـريمـة سـوى الافتراءِ واختلاقِ الكذبِ على الله عـز وجل لكفاهـم بذلك إثما وجُرْمـا فما بالك وهم غارقـون في بحار الجرائم والآثام التي لا تقـف عند حد ، ولا يُحْصِيهَـا العَدُّ . ولاشك أن الكذب على الله تبـارك وتعالى ليس كالكـذب على غيره فهو أقبحُ الكذب وأعظمـه إثما وجُرْمًا كما قـال عز وجل : ﴿ومَنْ أَظْلَمُ ممن افترى على الله كـذبا أو كـذَّب بآيـاتـه ، إنه لا يفلح الظـالمون . ﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبـا أو كذَّب بآياته﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كـــذبـا أو كـــذَّب بـآيـــاتـه ، إنـــه لا يفلح المجرمون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ومَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أولَئك يُعْرَضُون على ربهم ويقول الأشهادُ هٰؤلاء الذين كَذَبُوا على ربهم ، ألا لعنةُ الله على الظالمين . ﴾ كما أن الكـذب على رسول الله ﷺ ليس كـالكذب على غيره من البشر فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال : إنه ليمنعني أن أحدثكـم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال : مَن تَعمـد عليَّ كذبا فليتبوأ مقعده من النار. وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : إنَّ كَـذِبًـا عليَّ ليس كَكَذِبٍ على أحـد ، فمن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.

قال تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّـذِينَ أُوتُوا نَصِيبًـا مِنَ الْكِتَابِ يُـؤْمِنُونَ بِـالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُولَٰئِكَ الَّـذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَـهُ نَصِيرًا. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْـرَاهِيمَ الكِتَابَ والْحِكْمَـةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا. فَمِنْهُـمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾

هذا بيـانٌ لنوعٍ آخَـرَ من جرائم اليهـود وفضائحهم المنـاقضةِ لكـل كتابٍ سماوي، حيث آمنـوا بالجبت والطـاغـوت وفضلوا عَبَـدَةَ الأوثان على عُبَّـادِ الرحمن، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الـذين أُوتُوا نصيبـا من الكتاب﴾ تأكيـدٌ لتعجيب النبي ﷺ وكلٍّ مـن يتأتى لـه أن يتعجب من قبـائح أفعـال هؤلاء اليهود الذين لا تنتهي قبـائحهم ومخازيهم حيث كرر الله عز وجل ذلك في هذه المقامـات المتتابعة التي ساقها ههنا في سـورة النساء، إذ بدأ الحديث عنهم بقـوله عـز وجل: ﴿ألم تر إلى الـذين أوتـوا نصيبا من الكتـاب يشترون الضلالـة ويريدون أن تَضِلُّوا السبيل﴾ ثـم قال هنا: ﴿ألم تر إلى الـذين أوتوا نصيبا من الكتـاب يؤمنُونَ بـالجِبْتِ والطاغوت ويقـولون للذين كفـروا هٰؤلاء أهدى من الـذين آمنوا سبيلا.﴾ مع أن الله عز وجل قـد وصَّى جميع الأنبياء أن يُوصوا أممهم بالكفر بالطاغـوت حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وبَيَّن أن دعوى الإيمان دون الكفـر بالطـاغـوت لا تفيد مُـدَّعيهـا حيث يقـول عز وجل: ﴿فمن يَكْفُـرْ بالطاغوتِ ويُؤمنْ بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انْفِصَامَ لها﴾ والجبتُ يطلق على الصنم والسحر والكهانة والطِّيرةُ والعيافة والطَّرْق قال الجوهري في الصحاح: الجِبْتُ كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي

الحديث: الطِّيَرَةُ والعيافة والطَّرْق من الجِبْتِ اهـ. وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: الجِبتُ بالكسر الصَّنَمُ والكاهنُ والساحرُ، والسحرُ والذي لا خير فيه وكلُّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى اهـ والحديث الذي أشار إليه الجوهري قد أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بإسناد جيد حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف ثنا حيَّان بن العلاء ثنا قَطَنُ بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: إن العيافة والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ من الجِبْتِ. قال في القاموس: وعِفْتُ الطَّيْرَ أَعِيفُهَا عِيَافَةً زجرتها وهو أن تَعْتَبِرَ بأسمائها ومَسَاقِطِها وأنوائها فَتَتَسَعَّدَ أو تَتَشَاءَمَ والعائفُ المتكهِّنُ بالطير أو غيرها اهـ. والطَّرْقُ هو ضَرْبُ الكاهن بالحَصَى، والطِّيَرَةُ هي التشاؤم وكان أهل الجاهلية إذا أراد الواحد منهم سَفَرًا أو عقد نكاح أو غيره أَرسل طائرا أو نظر في جوِّ السماء إلى طائر فإن وجده اتجه إلى جهة يمينه استبشر وتفاءَلَ وتيمَّن به، ومضى في طريقه واعتقد نجاح خُطته. وإن اتجه الطير إلى جهة الشمال تشاءم وتطيَّر ورجع عن قصده، واعتقد أنه لن تنجح خطتُه إذا مضى فيها، وكانوا يسمون الطير إذا تيامن بالسانح، ويسمُّون الطير إذا اتجه إلى جهة شماله بالبارح، فهو يتيمَّنُون بالسانح ويتشاءمون بالبارح، وقد أنكر بعض عقلاء أهل الجاهلية هذه العقيدة المنكرة، وأعلن أنها لا تضر ولا تنفع وفي ذلك يقول:

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا أَغْدُو عَلَى واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشائمُ كالأيامِنِ وَالأَيامِنُ كالأشَائمْ

وقال آخر:

الزَّجْرُ والطَّيْرُ والكُهَّانُ كُلُهُمُوا مُضَلِّلُونَ ودونَ الغَيْبِ أَقْفَالُ

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ماتَدْري الطَّوَارِقُ بالحصى ولا زَاجِرَاتُ الطَّيرِ مَااللهُ صَانِعُ

وقال آخر

وَمَا عَـاجِلاَتُ الطير تُـدْنِي من الفتي نجاحــــا ولا عن رَيْثِهِنَّ قُصُورُ

وقال آخر:

تَـخَبَّرَ طَـــــيْرَةً فيهَا زِيَـادٌ لِتُخْـــبِرَهُ وَمَـا فيهـــا خَبِيرُ

تَعَلَّـمْ أَنَّـــه لا طَيْـــرَ إلاَّ علـــى مُتَطَـيِّـــرٍ وهـــو الثُّبُورُ

بَلَى شَيْءٌ يُـوَافِقُ بَعْضَ شـــيْءٍ أَحَـــايِينًا وبَـاطِلُــهُ كَثـــيرُ

وقـد أبطل الإسلام هـذه العقيدة القبيحـة فقد روى البخـاري ومسلم في صـحيحيهما من حديث أبي هريرة رضـــي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: لا طِيَرَةَ ولا هَامَـةَ ولا صَفَر. كما عدَّ الإسـلام التطيُّر شركاً فقـد روى أبو داود والترمـذيُّ وصححه هـو وابن حبـان من حـديث ابن مسعود رضي الله عنـه رفعه: الطِّيَرَةُ شِرْكٌ. والطاغوتُ مُشتَق مـن الطغيان، وهو مجاوزة الحد، قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت ما تجاوز بـه العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إلى غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونـه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمـون أنه طاعة الله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهـم ممن أعرض عن عبـادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعتـه ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطــاغوت ومتابعتـه اهـ. ولاشـك أن الطواغيت كثيرة لا تكاد تحصى، وعلى رأسها الشيطان، ومـن دعا الناس إلى عبادة غير الله، ومن رضي أن يُعْبَـدَ من دون الله، ومن رضي أن يحتكم إلى غير مـا أنـزل الله، ومن نُصب ليحكم بغير شريعـة الله. ومع أن الله عــز وجل حـرَّم الجبت والطاغوت في سائر الشرائع السماوية فإن اليهود قبحهم الله كانوا أشد الناس انقيادا للجبت والطاغوت كما قال عز وجل: ﴿واتَّبَعُوا ما تتلواْ الشياطينُ على مُلْك سليمان وما كفر سليمانُ ولَكنَّ الشياطينَ كفـروا يعلمون الناسَ السحر﴾

وكما قال: ﴿قل هل أُنبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذُلك مَثُوبَةً عند الله، مَنْ لَعَنَه اللهُ وغَضِبَ عليه وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ الطاغُوت، أولَئك شرٌّ مكانًا وأَضَلُّ عَنْ سواءِ السبيل﴾ وقوله عز وجل: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أَهْدى من الذينَ آمَنُوا سبيلا﴾ أي ويقول هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب للمشركين من قريش وغيرهم عبدة الأصنام والأوثان: إن دينكم خير من دين محمد وصحبه وسبيلكم أهدى من سبيلهم مع أن الكتب التي بأيديهم المنسوبة للأنبياء تحرم الشرك وتبين أنه أكبر الكبائر وهذا من أوضح الأدلة على انغماس هؤلاء اليهود في الضلالة، وأنهم أعدى أعداء الأنبياء والمرسلين. ولذلك أَتْبَعَ الله عز وجل فضيحتهم هذه بقوله: ﴿أولَئك الذين لَعَنَهُمُ اللهُ ومَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له نَصِيرًا.﴾ أي أولئك المزكون أنفسهم غرورا وافتراء، المؤمنون بالجبت والطاغوت المفضلون دين عُبَّادِ الأوثان على دين عُبَّادِ الرحمن قد لعنهم الله وطردهم من رحمته، وأخزاهم وأبعدهم عن رضوانه وجنته، وخذلهم فلم يستعملهم في طاعته وأعدَّ لهم عذابا أليما، لن يمنعهم منه مانعٌ ولن يدفعه عنهم دافع، قال الفخر الرازي رحمه الله: واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد؛ لأن الذي ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجري مجرى المكابرة، فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالا ممن لا يرضى بمعبودٍ غير الله؟ ومن كان دينُهُ الإقبالَ بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة كيف يكون أقل حالاً ممن كان بالضد في كل هذه الأحوال؟ والله أعلم اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ من المُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاس نَقِيرًا.﴾ هو بيان لتأكيد اتصاف اليهود بالبخل بعد بيان اتصافهم بالجهل والمعاندة والمكابرة، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري أي بل أَلَهُم حظ وقسط من الملك والتَّصرُّف في

خزائن الله، فلو كان لهم تصرُّفٌ في خزائن الله لبخلوا على الناس بأتفه شيء وأحقره ولم يعطوا أحدا مقدار النقرة أو وزن النقرة التي في ظهر النواة بخلاً وشحًّا. وقوله عز وجل: ﴿أم يَحْسُدُونَ الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ هو بيانٌ لتأكيد اتصافهم بالحسد وتمنِّي زوال النعمة عن الناس، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام التوبيخيِّ وهي تفيد الانتقال من وصفهم بالبخل إلى وصفهم بالحسد، والاستفهام لتوبيخهم على هذا الخُلق الذميم الدال على خسة نفوسهم ولؤم طباعهم، فهم لا يبذلون لأحدٍ خيرا مهما كان تافها حقيرا حتى ولو كان نقيرا، ويتمنون زوال النعمة عن الغير ويريدون ألا يُعْطِيَ الله عز وجل أحدا خيرا، فالبخل والحسد يشتركان في الحرص على منع الخير عن الناس وكراهية إنزال رحمة من الله على عباده، وقد قدَّم الله عز وجل وصفهم بالجهل على وصفهم بالبخل والحسد؛ لأن الجهل هو سبب البخل والحسد، والسَّبب مقدَّمٌ على المسبَّب، وتقديم البخل على الحسد ليكون الانتقال من وصفهم بقبيحة إلى وصفهم بأقبح منها لأن البخل منعٌ لما في أيديهم والحسد رغبتهم في منع ما عند الله وهو شرُّ الرَّذائل وأقبح الخصال، وإذا كان المراد بالناس في هذه الآية هو محمد ﷺ فيكون من قبيل العام الذي أريد به الخصوص ويكون شبيها بقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿الذين قال لهم الناس إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا﴾ وكذلك إذا أريد به محمد ﷺ والمؤمنون. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عاتَبَ اليهودَ الذين وَصَفَ صفتهم في هذه الآيات، فقال لهم في قِيلِهِمْ للمشركين مِنْ عبدة الأوثان: إنهم أهدى من محمد وأصحابه سبيلا، على علم منهم بأنهم في قِيلِهِمْ ما قالوا من ذلك كَذَبَةٌ: أتحسدون محمدا وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله، وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب لأن ما قبل قوله: ﴿أم يحسدون

الناس على مـا آتاهم الله مـن فضله﴾ مَضَى بذم القـائلين من اليهود للـذين كفروا: ﴿هٰؤلاء أهدى من الذين آمَنُوا سبيلا. ﴾ فإلحاقُ قوله: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ بذمهم على ذلك، وتقريظ الذين آمنوا، الـذين قيل فيهم ما قيل أشبـه وأولى اهـ. وقـوله عـز وجل: ﴿فقد آتينـا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمة وآتيناهم مُلكًا عظيما. فمنهم مَنْ آمَنَ به ومنهم مَنْ صَدَّ عنه، وكفى بجهنم سعيرا. ﴾ أي فقد جعلنـا في آل إبراهيم وأسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم عليهم السـلام النبوة وأنزلنا عليهم كُتب الله عـز وجل كصحف إبـراهيم وتـوراة مـوسى وزبـور داود وإنجيل عيسى وسائر مـا أنزل على أنبيائه ــــ الذين بعثهم من ذريـة إبراهيم ــــ من كتاب، ومنحهم الحكمة والفقـه في الدين والسنن والشرائع التي أوحـى الله عز وجل بها إلى هـؤلاء الأنبياء عليهم السـلام مما لم يُنـزله في الكتب، ومنحهم كـذلك ملكا عظيما كما تفضل على عبده داود وعبده سليمان عليهما السلام بما ذكره في كتـابه الكـريم حيث يقـول: ﴿وداودَ وسليمانَ إذ يحكمان في الحرث إذْ نفشت فيه غَنَمُ القَوْمِ وكُنَّـا لحكمهم شاهدين. ففهمناهـا سليمان، وكُلاًّ آتينا حكما وعلما، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطيرَ، وكنا فاعلين. وعلمناه صنعة لَبـوسٍ لكم لِتُحْصِنكُمْ مـن بأسكم فهل أنتم شـاكـرون. ولسليمان الـريحَ عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وكُنَّا بِكُلِّ شيء عالمين. ومن الشياطين مَنْ يَغُـوصُونَ له ويعملـون عملا دون ذٰلك وكنـا لهم حافظين. ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد آتينا داود منـا فضلا ياجبَالُ أَوِّبي معه والطيرَ وأَلَنَّا له الحديد. أَنِ اعْمَلْ سابغـات وقَدِّرْ في السَّـرْدِ واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريحَ غُدُوُّهَا شهرٌ ورَوَاحُهَا شَهْرٌ وأسلنا له عَيْنَ القِطْرِ ومِن الجنِّ مَنَ يَعْمَلُ بين يديه بإذن ربـه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُـذِقْهُ من عذاب السعير. يعملـون له مـا يشاء من محاريبَ وتماثيلَ وجِفَـانٍ كالجَوَابِ وقـدور

راسيـاتٍ، اعملوا آلَ داود شكـرا، وقليلٌ من عِبَادِيَ الشكـور. ﴾ ومع ذلك فإن بني إسرائيل منهم مَنْ آمن بما منحه الله عز وجل لهؤلاء الأنبياء ومنهم من كفر به وعدَّه نوعا من السحر، وأسندوه إلى الشياطين، وكفى بنار جهنم التي تحرقهم حيث يكونـون حطباً لها ووقوداً وفي هـذا مواساةٌ لرسـول الله ﷺ كأنه قيل : إذا كان هذا مـوقفهم من أنبياء بني إسرائيل فكيف بك ولست من بني إسرائيل ! ! .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا. إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ، إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أن بني إسرائيل منهم من آمن بما آتاه الله عز وجل آل إبراهيم من الكتاب والحكمة والملك العظيم، ومنهم من كفر به، وعدَّه نوعاً من السحر، وتوعد الكافرين منهم بجهنم التي تسعر بهم، ذكر هنا ما توعد به كل كافر من بني إسرائيل ومن غيرهم، على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بأسلوب اللفِّ والنشر المشوش، حيث قال في الآية السابقة: ﴿فمنهم مَنْ آمَنَ به ومنهم مَنْ صدَّ عَنْهُ﴾ فقدم ذكر من آمن على ذكر من كفر ثم ذكر هنا أمرين يعود الأول منهما على الثاني من المذكورين سابقاً، ويعود الثاني على الأول، وقدم الوعيد هنا على الوعد لارتباط الوعيد لعموم الكافرين بالوعيد بكفار بني إسرائيل الذي ذُيِّلت به الآية السابقة، ولتقديم الترهيب على الترغيب، لأن النفس إذا تأثرت بالترهيب فاستجابت لله رب العالمين صارت أهلاً لما أعده الله لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت من النعيم المقيم في جنات النعيم. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الذينَ كفروا بآياتنا سوف نُصْلِيهِمْ نارًا كلما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَدَّلْنَاهم جُلودًا غَيْرَها ليذوقوا العذابَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: هذا وعيدٌ من الله جل ثناؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من يهود بني إسرائيل

وغيرهم من سائر الكفار وبرسوله، يقول الله لهم: إن الذين جحدوا ما أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ من آياتي — يعني: من آيات تنزيله ووحي كتابه، وهي دلالاته وحججه على صدق محمد ﷺ — فلم يُصدِّقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به — ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نارًا﴾ يقول: سوف نُنضجهم في نار يُصلون فيها أي يُشوون فيها — ﴿كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ يقول: كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت — ﴿بَدَّلْنَاهم جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ يعني غير الجلود التي قد نضجت فانشوت اهـ.

ولا يقول قائلٌ: إن الجلود العاصية إذا احترقت، وجعل الله جلوداً غيرها وعذَّبها كان هذا تعذيبا لجلد لم يعص الله؟ لأنا نقول: إن المقصود من تبديل الجلود هو تبديل الصفة لا تبديل الذات بأن تعاد إلى حالها الأول غير محترقة، فإذا جدَّد الله الجلد، وصار ذلك الجلد الجديد سبباً لوصول العذاب إليه لم يكن ذلك تعذيبا إلا للعاصي، وذلك نظير قول العرب للصائغ إذا استصاغته خاتما من خاتم مصوغ بتحويله عن صياغته التي هو عليها إلى صياغة أخرى: «صغ لي من هذا الخاتم خاتما غيره» فيكسره ويصوغ له منه خاتما غيره، والخاتم المصوغ بالصياغة الثانية هو الأول، ولكنه لما أُعيد بعد كسره خاتماً قيل: هو غيره، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تعالى يُغَلِّظُ جِلْدَ الكافر يوم القيامة حتى يصيرَ غِلَظُ جلده مسيرة ثلاثة أيام، ويجعلُ ما بين مَنْكِبَى الكافر في النار بمقدار مسيرة ثلاثة أيام، ويجعلُ ضرسَ الكافر أو نَابَهُ مثلَ جبل أحد، ليكون أَبْلَغَ في إيلامه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ضِرْسُ الكافرِ أو نَابُ الكافرِ مِثْلُ أحُد، وغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاَثٍ، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة يرفعه قال: ما بَيْنَ مَنْكِبَي الكافر في النار مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المُسْرِع. كما أخبر الله عز وجل أن جلود الكفار تشهد عليهم يوم

القيامة حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ ومعنى: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي ليقاسوا شدته وليحسوا بتجدد ألمه وكربه، والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه وإيجاعه وشدة تأثيره وذلك لأن القوة الذائقة هي أشد الحواس تأثراً، ولاسيما أنهم كانوا يكذبون بعذاب الآخرة ويجحدونه كما قال عز وجل: ﴿وأما الذين فسَقُوا فمأواهم النارُ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعِيدُوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونقول للذين ظلموا ذُوقُوا عذابَ النار التي كنتم بها تكذبون.﴾ وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الله كان عزيزا حكيما.﴾ أي إن الله عز وجل لم يزل ولا يزال قادرا على الانتقام من الظالمين الكافرين الجاحدين، لا يقدر على الامتناع منه أحد، ولايهرب منه هارب، ولا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وهو جلت قدرته حكيم في تدبيره وقضائه، وهذه الجملة التذييلية تعليل لما قبلها من الإصلاء والتبديل، وكان مقتضى السياق أن يقال: إنه كان عزيزا حكيما. لكن مقتضى الحال يقتضي وضع لفظ الجلالة موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة منه جل وعلا. وقوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا لهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ونُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا.﴾ أي والذين أقروا بالله ورسوله وصدقوا بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ وأدُّوا ما أمرهم الله عز وجل به من فرائضه، واجتنبوا ما حرَّم الله عز وجل عليهم من معاصيه، وماتوا على التوحيد سوف يدخلهم الله عز وجل يوم القيامة حدائق الخُلد التي وعد المتقين الصالحين من عباده، تجري من

تحت تلك الجنـات أنهار من مـاءٍ غير آسنٍ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمـه، وأنهار من خمر لـذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، حـالة كـونهم باقين فيها أبـدا بغير نهاية ولا انقطاع لا يريمـون عنها ولا يتحولـون منها، ولهم في تلك الجنـات أزواج بـريئـاتٌ من الأدنـاس والأرجـاس والـريب والحيض والنفاس والغائط والبـول والحبل والبصاق وسائر الأقذار، نقيـات خالصات مخلصات قـاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جـانٌ، وسوف يسكن الله عز وجل أهل الجنة في ظل ظليل لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، بل هم في ظل ممدود دائم بـارد كريم لا سموم معه ولا يحمـوم، ولا يلحقهم حر ولا قر، كما قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الجنـة التي وُعِدَ المتقون تجري من تحتها الأنهارُ أُكُلُهَـا دائمٌ وَظِلُّهَا.﴾ وكما قـال تعـالى: ﴿وأصحـابُ اليَمِينِ ما أصحـابُ اليمين. في سِـدْرٍ مخضـودٍ. وطَلْحٍ منضـودٍ. وَظِلٍّ مَمْـدُودٍ.﴾ وقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال: إن في الجنـة شجـرةً يَسِيرُ الـراكبُ الجوادَ المُضَمَّـرَ السَّرِيعَ مـائةَ عـامٍ ما يَقْطَعُهَـا. وفي لفظ للبخـاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال: إن في الجنة لَشَجَرَةً يسير الراكبُ في ظلها مـائة سنة لا يقطعها. وفي لفظ للبخـاري ومسلم من حديث سهل ابن سعد عن رسـول الله ﷺ قال: إنَّ في الجنة لَشَجَرَةً يسير الـراكبُ في ظلها مائة عام لا يَقْطَعُهَا. وقوله تبارك وتعـالي: ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأمانات إلى أهلهـا وإذا حكمتُمْ بين الناس أن تحكمـوا بالعـدل، إن الله نِعِمَّا يعظكُمْ به، إن الله كان سميعا بصيرا.﴾ مناسبتـه لما قبله أنه عز وجل بعد أن كشف بعض جرائم اليهود وبخاصة ما كتمـوه من صفات رسول الله ﷺ التي كانوا يعرفونه بها كما يعـرفون أبناءهم وضَيَّعُوا أمانة الله وعهدَه وميثـاقه الذي أخذه عليهم بتأييد النبي الكريم ﷺ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل ذهبوا في الضلال

إلى أبعدَ مـن ذلك حيث جعلوا دين المشركين الـذين يعبدون الأصنـام أهدى من دين النبي ﷺ الحامي لجناب التـوحيد من كل شوائب الشرك وتـوعدهم هم وسائر الكفـار بالعذاب الأبـدي السرمدي في نـار جهنم، ووعد المؤمنين بـالنعيم الأبـدي السرمـدي في جنـات ذات ظل ظليل، ولهم فيهـا أزواجٌ مطهرة، وَجَّـهَ الخطابَ هنا إلى جميع المكلفين حيث أمرهم بأداء الأمـانات إلى أهلهـا، ولاشك أنه لـو حـافظ كلّ مكلف على الأمـانـة التي في عنقه سـواء كانت دينية أو دنيـوية وسواء أكانت للأبرار أو للفجـار وأدّاها كما تحملها ولم يخن فيها ما تـورط اليهود فيما تورطوا فيـه، ولسلمت المجتمعات من كثير من الشرور والآثام، وفي تصـدير هـذه الآية الكريمـة المعدودة من أمهـات آيات الأحكـام المتضمنة لجميع الشرع والـدين بكلمة التحقيق والتـوكيد وإظهـار الاسم الجليل بَدل الضمير، والتعبير بقوله عز وجل: ﴿يأمركم﴾ في كل ذلك تفخيم وتوكيـد على وجوب رعـاية الأمانـة والتحذير الشـديد من خيـانتها، وتنقسم الأمـانـات إلى ثـلاثـة أقسـام، الأول: رعايـة الأمـانـة في عبـادة الله بإخلاص توحيـده والمحافظة على شريعته، وصيـانتها من التضييع، وأدائها على الوجه المشروع، الثاني: رعاية الأمانة مع نفسه بصيانة ما أنعم الله عليه به من الأعضـاء فيحفظ لسانـه من الكـذب والغيبة والنميمـة والبهتان وسـائر آفات اللسـان، ويحفظ عينه عـن النظر إلى مـاحرَّم الله، ويحفظ يـده ورجله وسائر أعضـائه عن أن يرتكب بها معصية مـن معاصي الله، الثالث: رعـاية الأمانة مع سائر عباد الله من المؤمنين والكافـرين وما تحت يده من الحيوانات والبهـائم وسائر مـا ولاه الله عز وجل عليـه وقـد عظم الله تبارك وتعـالى شأن الأمانة في مواضع من كتابه الكـريم حيث يقول هنا ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمـانات إلى أهلهـا﴾ وقال: ﴿إنـا عـرضنا الأمـانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يَحْمِلْنَهَـا وأشفقن منها وحملهـا الإنسان﴾ وقـال عز وجل:

﴿والـذين هم لأمـاناتهم وعهـدهم رَاعُـونَ . ﴾ في سـورة المؤمنون وفي سـورة المعارج وقـال عز وجل : ﴿يـا أيها الذين آمنوا لا تخونـوا الله والرسـول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون . ﴾ كما أشار رسـول الله ﷺ إلى عِظَم شأن الأمانة فقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : آيةُ المنافق ثلاث : إذا حدَّثَ كذب و إذا وعد أخلف و إذا اؤْتُمِنَ خان . وجاء في الصحيحين من حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الـرجال . . الحديث ، كما أخرج مسلم من حديـث حذيفة وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ في حديث الشفـاعة : فيأتون محمدا ﷺ فيقومُ فيؤذن له ، وتُرْسَلُ الأمـانةُ والرحمُ فيقومـان جَنْبَتَي الصراط يمينا وشمالا . الحديث . وقـوله تعـالى : ﴿و إذا حكمتم بين الناس أن تحكمـوا بالعـدل﴾ أي و إن الله يأمركم إذا قضيتم بين النـاس أن تقضُوا بالقسطـاس المستقيم وأن يكون أكْبَرُ هَمِّكُم إيصالَ الحق إلى مستحقه مهما كان ، كما قـال عز وجل : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ وكما قال : ﴿و إذا قلتم فاعـدلوا ولو كان ذا قربى﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿فـاحكم بين النـاس بـالحق ولا تتَّبع الْهَوَى﴾ ولا شك أن العدل هو أساس عز الأمم والدول والشعوب وسبب بقائها وازدهارها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا . ﴾ هو ثناءٌ من الله عز وجل على ما يشرعه لعباده من أصول السلوك والمعاملات والقضاء وأنَّ نعم الموعظة ما يعظ الله عز وجل بها خلقه وهو السميع البصير.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل جميع المكلفين سواء كانوا رعاةً أو رعيَّةً بأداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، أمر عز وجل هنا الرعية بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطاعة منْ ولاه الله عز وجل أمرهم منهم، وهذه الآية الكريمة مع الآية السابقة تنتظم بهما السياسة الشرعية الرشيدة، التي تُسعد البلاد والعباد، ويتمتع الناس في ظلها بالأمن والاستقرار، وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالته المعروفة باسم «السياسة الشرعية» وجعل مبناها على هاتين الآيتين الكريمتين حيث قال في صدرها: هذه رسالةٌ مُخْتَصَرَةٌ، فيها جوامعُ من السياسة الإلهية والآيات النبوية، لا يستغني عنها الراعي والرعية، اقتضاها مَنْ أَوْجَبَ اللهُ نُصْحَهُ مِن وُلَاةِ الأمور، كما قال النبي ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه في صحيح مسلم وغَيْرِهِ: «إن الله يَرْضَى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تَعْتَصِمُوا بحبل الله جميعا ولا تَفَرَّقُوا، وأن تناصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكم، وهذه الرسالةُ مبنيةٌ على آيتين في كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تُؤَدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به، إن الله كان سميعا بصيرا. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فَرُدُّوهُ إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذٰلك خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلا.﴾ اهـ. وقد نزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن حُذَافة بن قيس بن عَدِيٍّ السَّهْمِيِّ إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن

عباس رضي الله عنهما ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية.
كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرِيَّةً واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجْمَعُوا لي حطبا، فَجَمَعُوا له، ثم قال: أَوْقِدُوا نارا، فَأَوْقَدُوا ثم قال: ألم يَأْمُرْكُمْ رسول الله ﷺ أن تسمَعُوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بَلَى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضُهم إلى بعض، فقالوا: إنما فَرَرْنَا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك وسَكَنَ غَضَبُهُ، وطُفِئَت النارُ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف. ومعنى: ﴿أطيعوا الله﴾ أي انقادوا لتعاليم كتابه، ومعنى: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي واتبعوا سنته ﷺ، ومعنى: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ أي وأطيعوا أمراءكم وعلماءكم الذين يستنبطون الأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن أصول الدين وقواعده، وقد حضَّ رسول الله ﷺ على طاعة ولي الأمر وحذر أشد التحذير من معصيته مادام لم يأمر بمعصية الله عز وجل، واعتبر رسول الله ﷺ طاعة الأمير من طاعة رسول الله ﷺ، ومَعْصِيته من معصية رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عَصَى اللهَ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عَصَى أميري فقد عصاني. وفي لفظ للبخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عَصَى الله، ومن يُطع الأميرَ فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصاني. وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع

اللهَ، ومن يَعْصِني فقــد عَصَى اللهَ، ومن يطع الأميرَ فقــد أطــاعني، ومَنْ يَعْصِ الأميرَ فقد عصــاني. وبهذا يتأكد وجـوبُ طاعة الأمير مـادام لم يأمرك بمعصية الله فإن أمـرك بمعصية فـلا طاعـة لمخلوق في معصيـة الخالق تبارك وتعالى. ولذلك روى البخاري ومسلم مـن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أَحَبَّ وكَرِه إلا أن يُؤْمَرَ بمعصية، فإن أُمِرَ بمعصيـة فلا سَمْعَ ولا طاعةَ. كما روى البخاري ومسلم من طريق جُنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عُبَادة بن الصامت وهو مـريض، قلنـا: أصلحك الله، حَدِّثْ بحـديث ينفعك الله بـه سمعتـه من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فقال فيما أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسْرنا ويُسرنا، وأثَرة علينا وألا نُنَازِعَ الأمـرَ أهلـهُ، إلا أن تَرَوْا كُفْـرًا بَـوَاحًـا عندكـم من الله فيه بُـرْهَـانٌ، كما روى البخاري من حـديث أنس رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: اسْمَعُوا وأطيعـوا و إن اسْتُعْمِلَ عليكم عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كـأنَّ رأسَه زَبِيبَـةٌ. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: عليك السَّمْعُ والطـاعةُ في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ، ومَنْشَطكَ ومَكْـرَهِكَ، وأَثَـرَةٍ عليك، كما روى مسلم من حـديث أبي ذر رضي الله عنــه قـال: إن خليلي أوصـاني أن أَسْمَعَ وأُطِيعَ و إن كان عبداً مُجَدَّعَ الأطراف. وفي لفظ: و إن كان عبدا حبشيا مُجَدَّعَ الأطراف كما روى مسلـم في صحيحه من حديـث أم الحُصَيْن رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يَخْطُبُ في حجـة الوداع وهو يقـول: ولو اسْتُعْمِلَ عليكم عبدٌ يَقُـودُكُمْ بكتاب الله فـاسمعوا لـه وأطيعوا. وقـد أوجب الإسلام طاعة وليِّ الأمـر حتى لو ضرب ظهرك وأخذ مـالك بغير حق، وأن من خرج على وليِّ الأمـر فمات على ذلك فميتتـه ميتـة جاهليـة، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من رأى

من أميره شيئا يكرهه فَلْيَصْبِرْ عليه، فإنه مَن فارق الجماعةَ شبراً فمات إلا مات مِيتَة جاهليةً، وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مَنْ كَرِهَ من أميره شيئا فَلْيَصْبِرْ، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات مِيتَةً جاهِلِيةً، كما روى البخاري ومسلم من طريق أبي إدريس الخَوْلانيِّ قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن يُدْرِكَنِي، فقلت: يارسول الله إنا كُنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نَعَمْ، قلتُ: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ، قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: قومٌ يَهْدُون بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وتُنكِرُ، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نَعَمْ، دُعَاةٌ على أبواب جَهَنَّمَ مَنْ أجابهم إليها قَذَفُوهُ فيها، قلتُ: يارسول الله صِفْهُمْ لنا، قال: هم من جِلْدَتِنَا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمُرُني إن أدركني ذلك؟ قال: تَلْزَم جماعة المسلمين وإمَامَهُم، قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: فاعْتَزِلْ تلك الفِرَقَ كلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلاَّم قال: قال حذيفة بنُ اليمان: قلتُ: يارسول الله إنَّا كنا بِشَرٍّ فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وَرَاءِ هذا الخير شرٌّ؟ قال: نعم، قلتُ: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال نعم، قلت: كيف؟ قال: يكونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، ولا يَسْتَنُّونَ بسنتي، وسيقوم فيهم رجالٌ، قُلُوبُهم قُلُوبُ الشياطين في جُثْمَانِ إِنْسٍ، قال: قلتُ: كيف أَصْنَعُ يارسولَ الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمعُ وتُطيعُ للأمير، وإن ضُرِبَ ظَهْرُكَ وأُخِذَ مَالُكَ فاسْمَعْ وأَطِعْ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ بعد أن بين الله تبارك وتعالى الأساس

الأول للنظام في الإسلام، وأنه مَبنيٌّ على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولي الأمر من المسلمين المنقادين لأمر الله وأمر رسوله ﷺ الدائرين في فَلكِ الإسلام، ذكر هنا قاعدة كلية تضبط نظام المسلمين وتحميهم من التنافر والتشتت والتفرق وتندرج تحتها جميع الجزئيات من الحوادث التي تحدث للمسلمين والتي قد تثير بينهم نزاعاً واختلافاً تختلف بسببه قلوبهم وتختل به وحدتهم، وتتفرق به كلمتهم وأمرهم، حيث بين عز وجل أنه يتحتم على المسلمين إذا اختلفوا في مسألة من المسائل ألا يقولوا فيها قولا أو يحكموا فيها بحكم من تلقاء أنفسهم أو اتباعاً لشهواتهم بل عليهم أن يرجعوا في كل مسألة أو فتوى أو حكم إلى كتاب الله عز وجل إن كان حكم المسألة منصوصاً فيه، فإن لم يكن حكم المسألة منصوصا فيه وجب عليهم أن يرجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ إن كان الحكم منصوصا فيها فإن لم يجدوا الحكم منصوصا في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ ردوه إلى القواعد التي دل عليها كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أو إلى ما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ أو إلى أهل الحل والعقد من المسلمين القادرين على استنباط الأحكام من أصول الإسلام وقواعده العامة، كما قال عز وجل: ﴿ولو رَدُّوهُ إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لَعَلِمَه الذين يستنبطونه منهم﴾ وعليهم أن يضرعوا إلى الله عند الاختلاف ويسألوه أن يهديهم إلى الحق، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى مسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم ربَّ جَبْرَائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذْنِكَ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. وقد وصف الله عز وجل الذين يرجعون

عند الاختـلاف إلى كتاب الله و إلى سنة رسول الله ﷺ بأنهم هم المؤمنـون بالله واليوم الآخـر وأنهم سيحمدون العاقبـة حيث يقول: ﴿إن كنتم تؤمنـون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ أي إن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو أفضل منهج تنهجه الإنسانية وهو أحسن عاقبة ومآلاً.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرسُولِ رَأَيْتَ المنافقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا. فَكَيْفَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثم جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بالله إِنْ أَرَدْنَا إلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. أُولَئِكَ الذين يَعْلَم اللهُ مَا فى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فى أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا.﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى العباد إلى قواعد السياسة الشرعية الرشيدة التي تُسعد البلاد والعباد ويتمتع الناس في ظلها بالأمن والاستقرار، حيث يكون مرجعهم في جميع قضاياهم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ مع طاعة ولي الأمر الذي يقودهم بكتاب الله ويسلُك بهم هدى النبي ﷺ، وأنهم إن تنازعوا في شيء ردُّوه إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وقد ذكر عز وجل أن هذا المنهج هو خير المناهج على الإطلاق وأنه أحسن الأنظمة في الحال والمآل، شرع هنا في التنديد والتوبيخ والتعجيب ممن يرغب عن هذا المنهج القويم والصراط المستقيم، ويتمرد ويعدل عن شرع الله الحكيم العليم الخبير، ويرغب في التحاكم إلى غير الكتاب والسنة، ويرضى بالانقياد للطاغوت والشيطان، ولو كان هذا المنحرف إلى الطاغوت مبارزاً بالعداوة لله ورسوله مُظهراً للكفر والتكذيب لهان الأمر، لأنه يصير كما قيل في المثل «شِنْشِنَةٌ معروفة من أخزم» لكن العجب العجاب أن يصدر هذا ممن يدعي الإيمان بالله وما نُزل على محمد ﷺ من القرآن وما نزل على الأنبياء السابقين. وهذا من أبرز أدلة جهلهم وتناقضاتهم، وأظهر أمارات نفاقهم وتذبذبهم. وظاهر قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليك وما

أُنْزِلَ من قبلك يريـدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمـروا أن يَكْفُروا به﴾ يعم جميع من عدل عن الحكم أو التحـاكم بالكتاب والسنة إلى مـا سواهما، سواءٌ كـان عربياً أو أعجمياً، وسـواءٌ كان ما يحكم بـه أو يتحاكم إليه قانـوناً وضعياً، أو شخصـاً معيناً أو غير معين، فإن الحكم والتحاكم بـالكتاب أو السنة هو الحق وماذا بعد الحق إلا الباطل والضلال، وهو المراد بالطاغوت، فمن حكم أو احتكم إلى غير شرع الله فهو كافر بالله مـؤمن بالطاغوت، وقد أمـر الله عز وجل جميع المكلفين أن يـؤمنوا بـالله ويكفروا بـالطاغـوت وبعث بذلك جميع رسله وسـائر أنبيائه، كما قال تبارك وتعـالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسـولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغـوت﴾ ولاشك أن من لم يرض بحكم الله يكون منقـاداً للشيطان، ولذلك ذيل الله عـز وجل هذه الآية بقولـه تبارك وتعالى: ﴿ويـريدُ الشيطان أن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلا بعيـدا﴾ أي ويحرص الشيطان عـدُوُّ الناس على إلقـائهم في المهالك، وإبعـادهم عن صراط الله المستقيم، وحرمانهم من أسباب هداهم، وصـدِّهم عما يسعدهم في العاجلة والآجلة، ومعنى: يزعمون أي يدَّعُون زُوراً وكذباً، وأكثر ما يستعمل في القول الذي لا تتحقق صحتـه، والتعبير بقولـه: ﴿يريـدون أن يتحاكمـوا إلى الطاغـوتِ﴾ إشعارٌ بأن مجرد الرغبـة في التحاكم إلى الطاغوت كفـر فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعـلا؟ فذلك لا شك أقبح وأبشعُ وأعظم جُـرماً وأشـدُّ كفرا، وقـوله عـز وجل: ﴿وإذا قيل لهم تعالَـوْا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسـول رأيت المنافقين يَصُـدُّونَ عنك صُدُودًا﴾ زيادةٌ في بشاعتهم ببيـان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى شرع الله بعـد بيان إعراضهم عن ذلك بـرغبتهم في التحاكم إلى الطاغوت وكان مقتضى السياق أن يقال: رأيتهم يصدون عنك صدودا، لكن مقتضى الحال اقتضـى وضع الاسم الظـاهـر حيث قـال: ﴿رأيت المنافقين﴾ بدل الضمير لتسجيل صفة النفـاق عليهم، وأنهم كذبةٌ في دعوى

الإيمان بما أُنزِل إلى الرسول وما أنزل من قبله ﷺ، وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا ينحرف عن التحاكم إلى شرع الله إلا الظالمون الذين في قلوبهم مرض، أو المرتابون، أو الذين يسيئون الظنَّ بالله ورسوله ويخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله حيث يقول عز وجل في سورة النور: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذٰلك، وماأولَئك بالمؤمنين. وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذَا فريقٌ منهم مُعْرِضُونَ* وإن يكن لهم الحقُّ يأتُوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مَرَضٌ أم ارتابوا أم يخافون أن يَحِيفَ الله عليهم ورسولُه، بل أولَئك هم الظالمون. إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولَئك هم المفلحون. ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَه ويَخْشَ اللهَ ويَتَّقْهِ فأولَئك هم الفائزون﴾ وبهذا يتقرر أشد التقرير أن من يُعْرض عن الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يُعْرضُ بسبب عيب في هذا النظام المحكم المتقن الدقيق الوافي الشافي الكافي الصالح لكل زمان ومكان وجيل وقَبِيل، وإنما يُعْرِضُ بسبب علة في نفسه، ومرضٍ في قلبه، وسوء ظن بالله ورسله، ولذلك وصفهم الله عز وجل بأنهم الكافرون الظالمون الفاسقون حيث يقول عز وجل: ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الكافرون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ كما وصفهم بأنهم يُحِبُّون حكم الجاهلية العمياء وأهواءَها، ويفضلونها على شرعة ومنهاج أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين حيث يقول عز وجل: ﴿أفحكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ. ومَنْ أحْسَنُ من الله حُكْما لِقَوْم يوقنون﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم إلى أن الإعراض عن منهاج الله وشرعته يَجْلِبُ للمعرضين مصائب وبلايا ونكبات في العاجلة كما يؤدي بهم إلى عذاب الجحيم في الآجلة حيث يقول هنا: ﴿فكيف إذا أصابتهم مُصِيبةٌ بما قدمت

أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ وقال تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يَفْتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تَوَلَّوا فاعلم أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أن يُصيبَهُمْ ببعض ذنوبهم وإنَّ كثيرًا من الناس لفاسقون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ أي فكيف يكون حال هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ويُعرضون عن شرعة الله ومنهاجه كيف يكون حال هؤلاء المجرمين إذا أنزل الله بهم بعض العقوبات العاجلة، بسبب إعراضهم عن شرعة الله ومنهاجه، وأحل بهم الذِّلَّة والهوان وجعل للمسلمين العزة والسلطان ثم جاءوك بعد أن أيقنوا أنهم لا طاقة لهم بمعارضة شريعتك، وإظهار العداوة لك، واضطرارهم لمصانعتك، وأخذوا يحلفون بالله كذباً وزوراً أنهم ما يرغبون عن شريعتك تكذيباً لك وأنهم إنما تحاكموا إلى ما تحاكموا إليه إحساناً منهم ومداراةً ومصانعة وتجميعاً للقلوب، وهؤلاء المنافقون الذين يحلفون بهذه الأيمان الكاذبة يحكمون على أنفسهم بأنهم لم تَرْدَعْهُم النِّقَمُ التي حلت بهم، وأنهم مستمرون على نفاقهم وخبث طويتهم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يَرْدَعُهُمْ عن النفاق العِبَرُ والنِّقَمُ، وأنهم إن تأتهم عقوبةٌ من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم يُنيبُوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذباً وجُرْأَةً على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلاَّ الإحْسَانَ من بعضنا إلى بعض، والصواب فيما احتكمنا فيه إليه اهـ. ولاشك أن عموم المعاصي تجلب على مرتكبيها المصائب والنكبات كما قال عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويَعْفُواْ عن كثير﴾ وقد تكون المعصية خاصةً وتصيبُ أوضارُها العامةَ كما قال عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لا تُصيبَنَّ

الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لكن تهديد الله عز وجل للذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت بما تَهَدَّدهم به من إصابتهم بالمصائب والنكبات إشعار للناس بخطورة التحاكم أو الحكم بغير ما أنزل الله وبيان لغائلة هذه الجريمة ووخامة عاقبتها. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولَئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعِظْهُمْ وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا.﴾ قد تضمنت هذه الآية الكريمة جملة اسمية وثلاث جمل فعلية وقد اشتملت الجملة الأسمية وهي قوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ على لون من الوعيد الشديد لأولئك المنافقين أي هؤلاء الأباعد المجرمون لا يخفى على الله عز وجل شيء مما اشتملت عليه قلوبهم من الكفر والكذب والنفاق وسوء الأخلاق والزيغ والضلال وفنون الشر والفساد ولن يفلتوا من عذاب الله إن استمروا على ما هم عليه ولم يُغَيِّروا ما في قلوبهم، أما الجمل الفعلية الثلاث وهي قوله عز وجل: ﴿فأعرض عنهم، وعظهم، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ فقد رسمت لرسول الله ﷺ أحسن المناهج التي يسلكها في التعامل مع هؤلاء المنافقين، فالجملة الأولى وهي قوله عز وجل: ﴿فأعرض عنهم﴾ تطلب من رسول الله ﷺ ألا يعبأ بانحرافهم ونفاقهم وألا ينزعج لما يشاهده من سوء سلوكهم وألا يحزنَ لما يسمعه منهم وما يراه من إقبالهم على الطاغوت وإعراضهم عن شرعة الله كما قال عز وجل: ﴿وأعرض عن المشركين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فاصدع بما تُؤْمَرُ وأعرض عن المشركين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فأعرض عن مَنْ تولى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا﴾ أما الجملة الفعلية الثانية فهي قوله عز وجل: ﴿وعِظْهُمْ﴾ أي وذكرِّهُم بما يلينّ قلوبهم على طريق الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وأنذرهم وخوفهم بأس الله وعقوبته، ورغبهم فيما أعد الله عز وجل للتائبين

من ذنوبهم الراجعين عن غيهم وضلالهم، أما الجملة الثالثة من الجمل الفعلية التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة فهي قوله عز وجل: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ أي وليكن حديثك معهم ووعظك لهم بالكلام المؤثِّر الذي يخالط نفوسهم ويستولى على مشاعرهم، ويأخذ بألبابهم، والخطاب وإن كان موجهاً لإمام البلغاء وسيد الفصحاء، من أوتي جوامعَ الكلم محمدٍ ﷺ فهو إرشاد لجميع الواعظين، أن يختاروا أبلغ الكلام وأفصحه وأن يبتعدوا عن المستهجن الركيك. والبلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، أو هي حُسن العبارة مع صحة المعنى، من غير إطناب ممل ولا إيجاز مُخل ولذلك قيل: خير الكلام ما قل ودلّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا. فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

بعد أن ندَّد الله عز وجل بمن يدَّعي الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء ثم يرغب في التحاكم إلى الطاغوت، وأنذر هؤلاء بمصائب تصيبهم وبلايا تلحق بهم وبكل من يتحاكم إلى الطاغوت إلى يوم القيامة، وتوعدهم بأنه عز وجل لا تخفى عليه ما انطوت عليه قلوبهم من الشر والفساد، وأرشد حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ إلى أفضل المناهج التي يسلكها في التعامل مع هؤلاء المنافقين، أعلن هنا أنه ما أرسل أحداً من رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم إلا لتحتكم أممهم إلى مناهجهم، وأنه يتحتم على كل من يدعي الإيمان أن يلتزم بطاعة الرسول الذي يكون حظه من الأنبياء، ثم أشار تبارك وتعالى إلى أنه يفتح باب التوبة أمام من ظلم نفسه بأي نوع من الظلم وبخاصة من أراد التحاكم إلى الطاغوت، بعد أن منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم وأنزل عليه أعظم نظام عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل دقة وعدلاً وشمولاً ووفاءً بجميع ما يحتاجه الناس في كل عصر ومصر وجيل وقبيل. وحضَّ عز وجل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بأن يجيئوا إلى رسول الله ﷺ ويُعلنوا توبتهم من الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت، ويطلبوا من الله عز وجل أن يغفر لهم جريمتهم وأن يتوب عليهم، ولو فعلوا ذلك لاستغفر لهم رسول الله ﷺ ولوجدوا الله تواباً رحيما يقبل توبة التائبين وهو أَرحم الراحمين. وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وماأرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ الآية. وإذن الله تبارك وتعالى ينقسم إلى إذن كوني وإذنٍ

ديني شرعي فالإذن الكوني بمعنى قضائه وقدره ومشيئته وقدرته، ومنه قوله عز وجل: ﴿وما هم بضارِّينَ به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي بمشيئته وقدرته وقضائه وقدره. وأما الإذن الديني الشرعي فهو بمعنى ما أذن الله عز وجل به وأباحه وشرعه وأمر به وذلك كقوله عز وجل: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾ أي مالم يشرعه عز وجل، وكقوله عز وجل: ﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه﴾ أي بأمره عز وجل، وكذلك قوله تبارك وتعالى هنا: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ أي وما بعثنا في أمة من نذير إلا وجبت طاعته على أمته بأمر الله تبارك وتعالى. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لَوَجَدُوا الله توابا رحيما.﴾ ترغيبٌ وإرشادٌ وحض لمن ظلم نفسه حيث رَغِبَ في التحاكم إلى الطاغوت أن يتوب من هذه الجريمة وأن يجيء معتذرا عما بَدَرَ منه ويستغفر الله عز وجل من هذه المعصية الموبقة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستغفر لهم الرسولُ﴾ إذنٌ من الله عز وجل لرسوله ﷺ بالاستغفار لمن جاءه معتذراً من خطيئته، ولاشك أن من حصل منه هذا المجيء والاعتذار صادقا واستغفر له رسول الله ﷺ كان حريا بتوبة الله عز وجل عليه وعفوه تبارك وتعالى عنه، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾ الآية، إشعار لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بتقصيرهم في حق رسول لله ﷺ حيث لم يرضوا بالتحاكم إليه، وصدوا عنه صدودا، بأن من جملة توبتهم أن يجيئو إلى رسول الله ﷺ معتذرين عما بدر منهم في حقه ﷺ، وفي ذلك كسر لشهوات جموحهم، وإعزاز لرسول الله ﷺ، وقد فهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ أن هذا المجيء إلى رسول الله ﷺ خاص بحال حياته صلوات الله وسلامه عليه، وأنه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لا يجيء أحد إلى قبره ليطلب منه الاستغفار له، ولذلك لم يؤثر بسند

صحيح عن واحد من أصحـاب رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك، وأما الحكـاية المكذوبة المنسـوبة إلى العتبي الأخباري المتوفى ٢٢٨ هـ فهي روايةٌ عن أعرابي مجهـول، بنيت على منام، ومثلهـا لو كـان حديثـا أو أثرا عن صحـابي لم يجز الاحتجاج به وبناء الأحكام عليه ولاسيما في الأبواب المؤدية إلى الشرك بالله عز وجل، على أن الله تبارك وتعـالى قد أخبر عن المنافقين الذين كـانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ معتـذرين عن تخلفهم عن الغـزو معه ويطلبون مـن رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم بأنهم لن ينفعهم استغفار رسول الله ﷺ لهم حيث يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لهم أولا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم﴾ على أن العتبي وهو محمد بن عبيد الله بن عمـرو الأموي من ذرية عتبة بن أبي سفيـان بن حرب كـان أحـد شعراء البصرة ولم يكن معـدوداً في أهل الحديث وإنما كـان من رجال الأدب. وقـد وصـف ابن عبد الهادي في كتـابه الصـارم المُنكي هذه الحكاية بأنها مختلقة مكذوبـة حيث قال: ليست هذه الحكاية مما تقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضاً، وقال أيضاً: هذه الحكاية خبر منكر موضوع وأثر مختلق مصنوع، لا يصلح الاعتماد عليه، ولا يحسن المصير إليـه، وإسنـادهـا ظلمات بعضهـا فـوق بعض، وليست بصحيحة ولا ثابتة إلى العتبي، وقد رُويت عن غيره بإسناد مظلم اهـ. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُـوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجًا مما قَضَيْتَ ويُسَلِّمُـوا تسليما.﴾ هذا قسم من الله عز وجل بأجَلِّ مُقْسَم بـه وهو نفسـه المقدسـة بوصف وعنـوان ربوبيتـه لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد مهما كان إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيـه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ، ولابد كذلك أن ينشرح صدره لأحكـام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حـرجًا من أي حكم مـن أحكامهـا، بل يكـون تَلَقِّيه لـه بـالقبول والـرضى

وانشراح الصدر، وأن يُسلم بذلك تسليما وينقاد انقياداً، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحاً وسعادةً وعدلاً وإنصافاً وحقًّا، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: «فلا» فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أُنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ويصدون عنك إذا دعوا إليك يامحمد — واستأنف القسم جل ذكره فقال: ﴿وَرَبِّكَ﴾ يامحمد — ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بي وبك وبما أُنزل إليك — ﴿حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم﴾ يقول: حتى يجعلوك حَكَمًا بينهم فيما اخْتَلَطَ بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه يقال: شَجَرَ يَشجُرُ شُجُورًا وشَجْرًا، وتشاجر القومُ إذا اختلفوا في الكلام والأمر مُشَاجَرَةً وشِجَارًا، ﴿ثم لا يَجِدُوا في أنفسهم حَرَجًا مما قَضَيْتَ﴾ يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما قضيت، وإنما معناه: ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت — أي لا تأثم بإنكارها ما قضيت، وشكِّها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حقٌّ لا يجوز لهم خلافه اهـ. وقد ثبت في الصحاح أن هذه الآية نزلت في خصومة كانت بين الزبير بن العوام ورجلٍ من الأنصار في شرْجٍ من شراج الحرة، والشَّرْجُ مَسيلُ الماء من الحرة إلى السهل، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية تشمل قصة الزبير مع الأنصاري كما تشمل كل ما شجر بين المسلمين من خصومة في أي شيء إلى يوم القيامة، وقد ساقها الله عز وجل على سبيل التعميم حيث قال: ﴿فيما شجر بينهم﴾ ومامن أدوات العموم، وقد روى البخاري في الشِّرْبِ ومسلم في الفضائل من طريق الليث عن ابن شهاب عن عروة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه حدثَّه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري: سَرِّح الماءَ يَمُر، فَأَبَى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ،

فقال رسول الله ﷺ للزُّبير: اسْقِ يازبيرُ ثم أرسل الماء إلى جارك، فغَضِبَ الأنصاريُّ فقال: أَنْ كان ابن عمتك؛ فتَلَونَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يازبيرُ ثم احْبِسِ الماء حتى يَرْجِعَ إلى الجدر، فقال الزبير: والله إني لأَحْسِبُ هذه الآية نَزَلَتْ في ذلك: ﴿فلا وَربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ وقد أخرجه البخاري في باب شِربِ الأعلى إلى الكعبين من طريق ابن جريج قال: حدثني ابن شهاب عن عروة بن الزبير أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبيرَ في شِرَاجٍ من الحرة يسقى بها النخلَ، فقال رسولُ الله ﷺ: اسْقِ يازبير، فأمره بالمعروف، ثم أَرْسِلْ إلى جارك، فقال الأنصاريُّ: أَنْ كان ابنَ عمتك؟ فتَلَونَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: اسقِ ثم احْبِسْ حتى يرجعَ الماءُ إلى الجَدْر، واستوعي له حقَّهُ، فقال الزبير: والله إنَّ هذه الآية أُنْزِلت في ذلك: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾، قال لي ابن شهاب: فقدرَّت الأنصارُ والناسُ قولَ النبي ﷺ: اسق ثم احبس حتى يرجعَ إلى الجَدْر، وكان ذلك إلى الكعبين. الجَدْرُ هو الأصل. كما أخرجه البخاري في الصلح في باب إذا أشار الإمامُ بالصلح فأبىَ حَكَمَ عليه بالحكم الْبَيِّنِ من طريق شعيب عن الزهري قال: أخبرني عروةُ بن الزبير أنَّ الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصارقد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة كانا يَسْقيان به كِلاَهُما، فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسق يازبير ثم أَرسِلْ إلى جارك، فَغَضِبَ الأنصاريُّ، فقال: يارسولَ الله أَنْ كان ابنَ عمتك؟ فتَلَوَّنَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال: اسق ثم احْبِسْ حتى يبلغ الجَدْرَ، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأي سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاريُّ رسول الله ﷺ استوعى للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: قال الزبير: والله ما أَحْسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: ﴿فلا وربك

لا يـؤمنون حتـى يحكموك فيما شجـر بينهم﴾ الآيـة. وأخـرجه البخـاري في التفسير من طريق مَعْمَر عن الزهري عن عـروة قال: خاصم الزبيرُ رجلا من الأنصـار في شَرِيج من الحرة فقـال النبي ﷺ: اسق يـازبير ثم أرسل الماءَ إلى جارك، فقال الأنصاريُّ يارسول الله أَن كان ابنَ عمتك فتلون وجهه ثم قال: اسق يـازبير ثم احبس الماء حتـى يـرجع إلى الجَدْر ثم أرسل الماء إلى جـارك، واستوعى النبيُّ ﷺ للـزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظـه الأنصاري، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعـةٌ، الحديث وقد صرح البخاري في التاريخ الكبير ومسلم في كتـاب التمييز بسماع عروة مـن أبيه. وقـد أشرت آنفا إلى أن نزول هـذه الآية في خصومة الـزبير والأنصاري رضي الله عنهما لا يمنع من أن حكمها عام، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ما فَعَلُوه إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مستقيما. وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ، وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا.﴾

بعد أن أقسم عز وجل بذاته المقدسة مُعنونًا بربوبيته لسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ أنه لن يؤمن أحدٌ من المكلفين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ حتى يكون حكمه أو احتكامه محصوراً في شريعة محمد ﷺ وأن ينشرح صدره لجميع التعاليم والأحكام التي جاء بها رسول الله ﷺ، وأن ينقاد لذلك انقياداً ويسلم تسليما، أشار هنا إلى فضله على أمة محمد ﷺ حيث لم يجعل فيما شرعه لهم إصرًا ولا أغلالا، بل أراد بهم اليُسر ولم يرد بهم العسر، مع أن شأن العبد أن يكون في طاعة ربه، وأن يُسارع إلى امتثال أمره، حتى لو أمره بقتل نفسه أو الخروج من داره، لأن في طاعة العبد لربه فاطر السموات والأرض سعادة لا يحيط بها وصف الواصفين من عز الدنيا ونعيم الآخرة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوه إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا.﴾ أي ولو أنَّا فرضنا عليهم وأمرناهم بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم وأرضهم ما استجاب لذلك وسارع إلى امتثال أمر الله عز وجل إلا القليل من الناس ممن قد شرح الله صدورهم للإسلام وانقادوا لأمر الله فرخصت عليهم أنفسهم وأوطانهم في سبيل مرضاة ربهم، أما من استهواه الشيطان من الناس وهم كثير فإنه يصعب عليهم الامتثال لأمر الله ولاسيما إذا

كان الأمر شاقاً كقتل النفس أو الهجرة من الوطن، مع أن هؤلاء لو سارعوا إلى امتثال أمر الله مهما كان، وفعلوا ما يوعظون به من متابعة محمد رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهراً وباطناً لكان ذلك خيرا لهم في عاجلتهم وآجلتهم ودنياهم وأخراهم حيث يكتسبون الأجر العظيم والثواب الجزيل من الله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحيث يؤدي رضاهم بشريعة محمد ﷺ إلى أمنهم واستقرارهم في ديارهم وأرضهم وما يُسبب ذلك لهم من رغد العيش والحياة الطيبة كما قال عز وجل: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنْزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتَّقَوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ولَنجْزِينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استخلف الذين مِنْ قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الذي ارتضى لهم ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بعد خوفهم أَمْنًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقًا.﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ الآية إشعار بفضل الله على أمة محمد ﷺ حيث لم يأمرهم بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم بل كلُّ أوامر الله عز وجل لأمة محمد ﷺ جاءت بالتيسير ولم تأت بالتعسير، وَرَفَعَ عز وجل عن هذه الأمة الإصرَ والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، فكيف يليق بعاقل أن يعدل عن التحاكم إلى هذه الشريعة العظيمة المشتملة على خير الدنيا والآخرة ويرغب في التحاكم إلى الطاغوت؟ وقوله عز وجل: ﴿وَإِذًا لأَ تَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا

مُسْتَقِيمًا . ﴾ هـذا بيانٌ لمزيـد فضل من الله عـز وجل لمن فعل مـا يوعظ بـه ، فانقاد واستجاب لأمر الله ونهيه ، وأقر بـوعده ووعيده والتزم بأحكام الشريعة الإسـلامية وكَفَـرَ بـالطـاغوت ، وأيقن أن منهج الله هـو خير المنـاهج ، وأن تشريعه الـذي بعث به خاتم أنبيـائه وأفضل رسله هـو أفضل تشريع وأكمله وأتمه وأصدقه ، فبعـد أن أخبرهـم بأن الانقياد لأمر الله وأمر رسـوله ﷺ سبب لخيرهم في دينهم ودنيـاهـم وأشد تثبيتـاً لهم على الحق وتحقيقاً لإيمانهم ، وقـوةً لعـزائمهم و إراداتهم ، وثباتـاً لقلوبهم عنـد مقارعـة جيوش البـاطل ، وورود الشبهـات والشهـوات المضلـة ، ودسـائس الشيطـان المرديـة ، مما يضيء للسـالكين إلى الله عز وجل سبيل سلـوكهم ، ويضع لهم منارات على طـريق مسيرتهم ، وقـد أشـار الله تبـارك وتعـالى إلى ذلك حيث يقـول : ﴿الله نـور السمٰوات والأرض ، مَثَلُ نـوره كمشكاة فيهـا مصبـاحٌ المصبـاحُ في زجاجـة الزُّجَاجَةُ كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ من شجـرة مباركة زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتُها يضيء ولو لم تَمْسَسْهُ نـارٌ، نور على نور، يَهْدِي الله لنوره مَنْ يشاء ، ويضربُ اللهُ الأمثـالَ للنـاس ، والله بكل شيء عليم . ﴾ فطـاعةُ الله وطـاعـة رسوله ﷺ هي سببُ ثبـاتِ القلبِ وقوةِ إرادته ونفاذ بصيرتـه . بعد ذلك كله أخبرهم تبارك وتعالى بقوله عز وجل : ﴿وإذًا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهدينـاهـم صراطـا مستقيما . ﴾ فَبيَّنَ عز وجل بـذلك أنـه زادهم من فضلـه ثـوابين آخـرين على الانقياد لأمـر الله وأمـر رسـوله ﷺ وهما حصـول الأجـر العظيم لهم في الآخـرة ، وهـدايتُهُم الصراط المستقيم حيث يجعل الله لهم على الصراط يوم القيـامة نوراً ويُيسر لهم الورود والعبـور من فوق الجسر المضروب على ظهـر جهنم بعـد انتهـائهم مـن الموقف العظيم ، ويمـرون عليـه بقـدر نورهم ، فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلـة بيمينه ، ومنهم من يعطي دون ذلك

حتى يكون آخر من يعطي نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة حيث يعطى كل إنسان نوره على قدر عمله، والصراط كحد السيف، دحض مَزَلَّةٌ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري في سؤالهم رسول الله ﷺ: هل نرى ربَّنا يوم القيامة. الحديث، وفيه: ثم يؤتى بالجسْر، فَيُجْعَلُ بين ظَهْرَيْ جهنم، قلنا يارسول الله، وما الجسْرُ؟ قال: مَدْحَضَةٌ مَزَلَّة، عليه خطا طيفُ وكَلاليبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لها شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تكون بنجد يقال لها: السَّعْدَانُ، المؤمنُ عليها كالطَّرْفِ، وكَالْبَرْق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والرِّكاب، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مخدوشٌ، ومَكْدُوسٌ في نار جهنم، حتى يَمُرَّ آخِرهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا. الحديث. وفي لفظ لمسلم: قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدقُّ من الشَّعرة وأَحَدُّ من السيف. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما.﴾ هذا بيانٌ لمزيد فضل الله تبارك وتعالى على من أطاع الله وأطاع رسوله محمدا ﷺ حيث بَشَّرهم عز وجل هنا ببشارة عظمى وفرحة كبرى وهي أن يجعلهم في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مامن نبي يَمْرَضُ إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قُبِض فيه أخذته بُحَّةٌ شديدةٌ فَسَمِعْتُهُ يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فعلمتُ أنه خُيِّر. وهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل السعادة الكاملة التي يجب على كل من يحب الخير لنفسه أن يضرع إلى الله أن يحشره في زمرتهم، ولذلك كان بعض أصحاب محمدٍ رسول الله ﷺ يلحُّ على رسول الله ﷺ في أن يسأل الله له أن يجعله رفيقاً

له في الجنـة فقد روى مسلم في صحيحه من طـريق أبي سلمة قـال : حدثني ربيعة بن كعب الأسلمي قـال : كنتُ أَبِيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بِـوَضُوئه وحاجته، فقال لي : سَلْ، فقلت : أسـألك مُرَافقَتَكَ في الجنة، قال : أَو غَيْر ذلك قلتُ : هُـوَ ذاكَ، قال : فَأَعِنِّـي على نفسك بكثرة السجود، وقـال ابن كثير في تفسير هذه الآية : قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد ابن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنـا عبد الله بن عمران حدثنا فُضَيْل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله، إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي، وأحبُّ إليَّ من أهلي، وأحَبُّ إليَّ من ولـدي، وإني لأكـونُ في البيت فـأذكُـرُكَ فما أَصْبِرُ حتى آتِيَكَ فأنظـرَ إليك، وإذا ذكـرتُ موتي ومَـوْتَكَ عـرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مـع النبيين، وإن دخلتُ الجنة خَشِيتُ ألا أَرَاكَ، فلم يَـرُدَّ عليه النبي ﷺ حتى نَزَلَتْ عليه : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولَٰئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهـداء والصـالحين، وحَسُنَ أولَٰئك رفيقا .﴾ وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقـدسيُّ في كتابه في صفة الجنة من طـريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بـن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمـران العـابدي بـه، ثم قـال : لا أرى بإسنـاده بأسا، والله أعلـم اهـ. وقـد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعـة فقال : متى الساعةُ؟ قـال : وماذا أَعْدَدْتَ لها؟ قـال : لا شيءَ إلا أني أحبُّ الله ورسـولـه ﷺ، فقـال : أنت مع من أحْبَبْتَ، قـال أنس : فما فَرِحْنَـا بشيءٍ فَـرَحَنَا بقـول النبي ﷺ : أنت مع من أحببت، قـال أنسٌ : فأنا أحِبُّ النبي ﷺ وأبـا بكر وعمـرَ، وأرجو أن أكـون معهم بِحُبِّي إياهم، وإن لم أعمـل بمثل أعمالهم. كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث عبـد الله بن مسعود رضي الله عنـه قال : جـاء

رجل إلى رسـول الله ﷺ فقـال: كيف تقول في رجل أَحَبَّ قـومـاً، ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحَبَّ. كما روى البخاري من حديث أبي مـوسى قال: قيل للنبي ﷺ: الـرجُلُ يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قـال: المرء مع من أحبَّ. كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ، متى الساعـةُ؟ قال: ماأعددتَ لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاةٍ ولا صوم ولا صدقة ولكني أحِبُّ الله ورسولـه، قال: أنت مع من أحببتَ. ومعنى: ﴿وحَسُـنَ أولَئك رفيقا﴾ أي ونعمت الصحبة والـرفقة مرافقة النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين في الجنة بالاستمتـاع فيها برؤيتهم وزيارتهم وإن كان مقـرهم في الدرجات العلى بالنسبة إلى غيرهم. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك الفضل من الله، وكفى بالله عليما﴾ أي إن هـذا الأجـر الجزيل والثـواب الجميل هـو من محض فضل الله وجوده على هؤلاء وهو عليم بنوايا عباده وأعمالهم، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حـديث عـائشـة رضي الله عنهـا عن النبي ﷺ قـال: سـددوا وقاربـوا وأبشروا فإنه لا يُـدْخلُ أحـدا الجنة عملُـه، قالـوا: ولا أنت يارسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة.

قـال تعالى : ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا خُذُوا حِـذْرَكُمْ فَانْفِـرُوا ثُبَاتٍ أو انْفِـرُوا جَمِيعًا . وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُـمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيـدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْـلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَـأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيماً . فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدنيا بـالآخرة ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فى سبيل الله فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً . ﴾

بعد أن مهد الله تبـارك وتعالى ببيان أن شأن المؤمن أن يسـارع إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مهما كان الأمر الشرعي الموجـه إليه حتى ولو كان هذا الأمر يطلب منـه أن يقتل نفسـه أو يخرج مـن داره وأرضـه ، وذكـر الأجـر الجزيل والثواب الجميل الـذي يثيب الله تبارك وتعالى بـه من أطاع الله وأطاع رسـوله ﷺ في المنشط والمكـره والعُسْر واليسر، أمر المؤمنين هنـا بأن يأخذوا حـذرهم ويتأهبوا لعـدوهم المجاهر المبـارز بالعـداوة ، ولعدوهم المنافق الـذي يدَّعي الإيمان ، ويبطن الكفر والعداوة لله ولرسوله وللمؤمنين حيث يقول عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمَنـوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِـرُوا جَمِيعًا . ﴾ أي ياأيها المستجيبـون لله ولـرسـوله ﷺ احْتَرِزُوا مـن عدوكم وتـأهبوا لـه وكـونـوا على استعداد لملاقاته ، متيقظين لتحركاته ، وانهضوا لقتال عدوكم واخرجوا لحربه إما ثباتٍ أي جماعات متفـرقة سرِيَّةً بعد سرية وفرقة بعد فـرقة وإما جميعاً أي مجتمعين كوكبة واحدة وجيشاً كثيفاً على الوجه الذي يستنفركم إمام المسلمين به كما قال عـز وجل : ﴿انفروا خفافا وثقـالا﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القـرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهـاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا . وقال البخاري في صحيحه : باب وجوب النفير، وما يجب من الجهاد والنية ،

وقولـهِ: ﴿انْفِرُوا خفـافا وثِقـالا وجاهدوا بأمـوالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذٰلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. لو كان عَرَضًا قريبا وسَفَرًا قاصِدًا لاتَّبَعُوكَ ولَٰكنْ بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ، وسيحلفون بالله﴾ الآية، وقولِهِ: ﴿يا أيها الذين آمنـوا مـالكم إذا قيل لكم انفـروا في سبيل الله اثَّـاقَلْتُمْ إلى الأرض، أَرضِيتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة.﴾ إلى قـوله: ﴿على كل شيء قدير﴾ ويُذْكَرُ عن ابن عباس: ﴿انْفِرُوا ثباتٍ﴾ سرايا متفرقين، يقـال أحدُ الثباتِ ثُبَةٌ اهـ والمقصود هـو حض المسلمين على المبادرة إلى طـاعة الإمـام والخروج لقتال العـدو على الوجـه الذي يرى فيه الإمـام مصلحة للمسلمين حتى ولو أمر الـواحد منهم بـالخروج وحـده وجب عليـه المبـادرة إلى طـاعتــه كما قـال قـريط بن أنيف العنبري:

قَومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجِذَيْه لهـم ... طـارُوا إليه زَرافاتٍ وَوُحْدَانَا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

وقولـه عز وجل: ﴿وإنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَـإِنْ أصابتكم مُصِيبَةٌ قـال قد أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إذْ لَمْ أَكُنْ معهم شَهِيـدًا. ولَئِنْ أَصَـابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُـولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا.﴾ بعد أن أمر الله عـز وجل المؤمنين في الآية السـابقة بأن يأخـذوا حذرهم حـذَّرهم هنا ونبههم إلى وجود أشخـاص بينهم يتربصون الـدوائر بالمسلمين ويـنـدسون في جماعة المسلمين وهم منـافقون يظهرون الإسـلام ويبطنون الكفـر وسوء الظن بالله ورسوله ﷺ التماساً للحصول على بعض المغانم العاجلة فقال عز وجل: ﴿وإنَّ منكم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي وإن من الموجـودين في جماعتكم أيها المسلمون لمن ليتأخـرن عن الجهـاد وليتثـاقلن عن الخروج للقتـال، وليحضن غيره ممن ينقاد له ويستجيب لرأيه على التباطؤ والتثاقل والتأخر والتخلف عن الخروج معكم لملاقـاة عــدوكم كما فعل عـدو الله عبـد الله بـن أُبَي ابن سلـول رأس

المنـافقين يوم أحـد، ثم بين الله عـز وجل أن هؤلاء المنـافقين يتـذبذبـون بين الشماتة بكم إن أصابتكم مصيبـة وكانت الدولة في المعركة لعـدوكم، وتباهوا بأن الله قد أنعم عليهم حيث لم يشهدوا المعركـة، وجهلوا أن من شهد المعركة من المؤمنين إن عاش عاش حميـداً وإن مات مات شهيداً أما هـؤلاء المنافقون فمن عاش منهم عاش خائفاً مذعوراً يحسبون كل صيحة عليهم، ومن مات منهم على نفاقه فإنه يكون في الـدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيرا، أما في حالـة انتصاركم في المعركـة وصيرورة الدولة لكم على أعـدائكم فإن هؤلاء المنـافقين يعضُّـون عليكم الأنـامل من الغيظ، ويلعقـون المرَّ من النـدم، ويتحسرون على فـوات فـرصـة مشـاركتهـم لكم في الغنـائم، ويعتبرون أن الحصـول على الغنيمة هـو الفـوز الأكبر والحظ العظيم، وفي ذلك يقول عـز وجل: ﴿فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصـابكم فضلٌ من الله ليَقُـولَنَّ كأن لم تكن بينكم وبينـه مـودةٌ يـاليتني كنتُ معهم فأَفُوزَ فوزًا عظيمًا. ﴾ ومعنى: ﴿إذ لم أكن معهم شهيدا. ﴾ أي إذ لم أحضر المعركـة وأشهدها مع المؤمنين، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينـه مودة﴾ جملة اعتراضيـة بين القول ومقـوله لئـلا يفهم من مطلع كـلامه أن تمنيـه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظـاهرتهم على عـدوهم، وإنما تمنى معية المؤمنين لشـدة حرصـه على حطام الدنيـا والحصول على المال الـذي هو أكبر همه وغاية قصده ومنتهى أمنيته. والمراد بالمودة هنـا ما يتزلف به المنافقون للمؤمنين في وقت السلم، ومـا يقولـونه لهم من معسول الكـلام ويحلفون لهم بالله إنهم منهم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿فَلْيُقَاتِـلْ في سَبِيلِ اللهِ الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة. ﴾ بعد أن نَدَّد عز وجل بالمنافقين الذين ليس لهم همٌّ إلا حطـام الحياة الـدنيا، وأن هـذا هو السبب الـذي يحملهم على التخلف عن رسول الله ﷺ، حضَّ المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله على الجهاد في سبيل الله

وقتال أعداء الله لإعلاء كلمة الله، وبيّن أن الذين يشرون الحياة الدنيا أي يبيعونها لله عز وجل ويشترون الجنة من ملك الدنيا والآخرة هم الذين يحرصون على القتال في سبيل الله كما قال عز وجل: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنةَ، يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وعدًا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن، ومَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العظيم.﴾ وفي التعبير بقوله: ﴿يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ إشعارٌ بأن المؤمن الحق قد تعلقت هِمَّتُهُ بنصرة دين الله سواء كانت الدولة في المعركة له أو كانت عليه، ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم لا يَتَبَاهَوْنَ بالنصر ولا يَذِلُّون عند الهزيمة، كما قال كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد»:

إن الرسولَ لَنُورٌ يستضاءُ به ... مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسْلَمُوا زُولُوا
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ ... عند اللقاء ولا مِيلٌ معازيل
شُمُّ العرانين أبطالٌ لَبُوسُهُمو ... من نسج داود في الهيجا سرابيل
بيضٌ سوابغُ قد شُكَّتْ لها حِلَقٌ ... كأنها حِلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمو ... قوما وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

وكما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

نَسْمُو إذا الحربُ نَالَتْنَا مَخَالِبُهَا ... إذا الزعانفُ من أظفارها خَشَعُوا
لا يَفْخَرُونَ إذا نالُوا عَدُوَّ هُمُو ... وإن أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا هلع

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَنْ يُقَاتِلْ في سبيل الله فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوفَ نؤتيه أجرًا عظيما﴾ أي ومن يجاهد أعداء الله لإعلاء كلمة الله فإن له عند الله أجراً عظيما سواء انتصر على أعدائه، وفاز بالغنيمة مع هذا الأجر العظيم أو

جرح أو قتل في سبيل الله فقـد روى البخاري ومسلم من طـريق الأعرج عن أبي هـريـرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال: تكفَّل الله لمن جـاهـد في سبيله، لا يُخْرِجُه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة أو يرجعـه إلى مسكنه الـذي خرج منـه مع مانـال من أجر أو غنيمـة. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تَضَمَّنَ الله لمن خـرج في سبيله، لا يخرجـه إلا جهـادًا في سبيلي، وإيمانـاً بي، وتصديقـاً برسلي، فهو عليَّ ضامنٌ أن أُدْخِلَهُ الجنةَ أو أَرْجِعَهُ إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غَنِيمـة، والذي نفسُ محمدٍ بيده ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِمَ، لَونُه لَونُ دَمٍ، ورِيحُهُ مِسْكٌ، والذي نفس محمـدٍ بيده لولا أن يَشُـقَّ على المسلمين ما قعدتُ خِـلاَفَ سَرِيَّة تغزو في سبيل الله أبداً، ولكنْ لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ ولا يجدون سَعَةً، ويَشُقُّ عليهم أن يَتَخَلَّفُوا عني والذي نفْس محمدٍ بيده لَوَدِدْتُ أني أَغْزُو في سبيل الله فَأُقْتَلُ، ثم أغْـزُو فَأُقْتَلُ، ثم أَغْزُو فَأَقْتَلُ. كما روى البخـاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنـة مائة دَرَجَةٍ أعدها الله للمجاهدين في سبيـل الله ما بينَ الدرجتين كما بين السماء والأرض. كما روى البخـاري من حديث عبـد الـرحمن بن جُبَيْرٍ رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: ما اغْبَرَّت قَدَمَا عبدٍ في سبيل الله فتَمَسَّهُ النار.

قال تعالى : ﴿وَمَالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجال والنساء وَالْوِلْدَانِ الذين يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لنا من لَدُنْكَ وَلِيًّا واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيرا . الذين آمنوا يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الله والذين كفروا يُقَاتِلُون فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أولياء الشيطانِ إن كَيْدَ الشيطانِ كَانَ ضَعِيفًا . ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيله وأشار إلى أن طُلَّاب الجنة الزاهدين في الدنيا هم الذين من دأبهم وديدنهم الحرصُ على المسارعة لقتال أعداء الله ، وذكر ما أعده لمن خرج مجاهداً في سبيل الله من جزيل الأجر وعظيم الثواب ، وجَّه الخطاب بطريق التعجيب والتأنيب والإنكار والتوبيخ لمن لم يسارع إلى الانخراط في سلك جند الله ، بأسلوب يتضمن الحضَّ الشديدَ والتوكيد البالغ على وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله واستنقاذ المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والصبيان الذين حُبسوا بمكة ولم يتمكنوا من الهجرة والخروج منها إما لصد المشركين لهم وتضييقهم عليهم وإما لضعفهم عن الهجرة ، وكأنه عز وجل يقول : أي عذر لكم في ترك القتال؟ وكيف لا تسارعون إلى تخليص ضعفة المسلمين من أذى المشركين؟ وهل يرضي مسلمٌ صادقُ الإيمان أن ينام قرير العين وإخوانه من رجال ونساء وأطفال يتعرضون للأذى والقهر من أعداء الله بمكة شرفها الله؟ وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدَانِ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هٰذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا . ﴾ أي لا عذر لكم في ترك مقاتلة المشركين لإعلاء كلمة الله ولترفعوا الضيم عن المسلمين المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان الذين يسومهم مشركو مكة

سوء العذاب، ويفتنونهم عن الديـن، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بـذلك جل ثناؤه: ﴿ومالكم﴾ أيها المؤمنون ﴿لا تقاتلـون في سبيل الله ﴾ وفي ﴿المسْتَضْعَفِين﴾ يقول: عن المستضعفين منكم ﴿من الـرجال والنسـاء والوِلْـدانِ﴾، فأما مِن ﴿الـرجال﴾ فإنهم كـانوا قـد أسلمـوا بمكـة، فغلبتهم عشـائرهم على أنفسهم بـالقهـر لهم، وآذوهم، ونـالـوهم بـالعـذاب والمكـاره في أبـدانهم ليفتنـوهم عن دينهم، فَحضَّ الله المؤمنين على استنقـاذهم من أيدي من قـد غلبهم على أنفسهم من الكفـار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصدهم عن دينهم؟ ﴿من الرجـال والنساء والولدان﴾ جمع ولدٍ، وهم الصبيـانُ ﴿الذين يقولـون ربنا أخـرجنا من هـٰذه القريـةِ الظالمِ أَهْلُهَـا﴾ يعني بذلـك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من فتنـة من قد استضعفهم من المشركين: يـاربنا أخـرجنا من هـذه القريـة الظالم أهلها، والعرب تسمي كل مدينـة «قرية» اهـ. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بهذه القرية هنا مكةُ شرفها الله، والموصوف بالظلم في الحقيقة هنا هم أهل مكة المشركون لا مكة قـدَّسها الله، لأنهم ارتكبوا أفحش الظلم وأعظمه وهو الشرك بـالله الذي وصفه الله عز وجل بأنـه ظلم عظيم حيث قال: ﴿إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم.﴾، كما أنهم ارتكبـوا ظلما بشعـا كـذلك حيث يـؤذون ويظلمون الرجال والنساء والصبيان الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وذكر الـوِلْدان بعد الـرجال والنساء لتهييج المؤمنين وحثهم الشـديد على المسـارعة لتخليصهـم من أيدي الكفـرة الفجـرة وللتقبيح والتشنيع على المشركين الـذين بلغ أذاهم وظلمهم الأطفـال غير المكلفين إرغـامـاً لآبـائهم وأمهاتهم، وجـر لفظ «الظالم» تبعا للقـرية على القـاعدة المعروفـة عند علماء

قواعد اللغـة العربية بالنعت السَّببي وقـد أخبر ابن عباس رضي الله عنهما أنه هـو وأمه كـانا من المستضعفين المقصـودين في هذه الآيـة الكريمـة فقد قـال البخـاري في صحيحه : بـاب قـولـه : ﴿وما لكم لا تقـاتلـون في سبيل الله والمستضعفين من الرجـال والنساء﴾ الآيـة حدثني عبـد الله بن محمد حـدثنا سفيـان عن عُبيـد الله قـال : سمعتُ ابن عبـاس قـال : كنتُ أنـا وأمي من المستضعفين . حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مُليكـة أن ابـن عبـاس تَـلاَ : ﴿إلا المستضعفين مـن الـرجـال والنسـاء والولـدان﴾ قال : كنت أنـا وأمي ممن عَـذَرَ الله اهـ وقد سمَّـى رسول الله ﷺ جملة مـن المستضعفين بمكة حيث كان يـدعو على قـريش ويقنت لتخليص المستضعفين من أيدي المشركين فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينا النبيُّ ﷺ يصلي العشاء إذ قال : سمع الله لمن حَمِدَهُ ، ثم قال قبل أن يَسْجُدَ : اللهم نَجِّ عياشَ بن أبي ربيعـة ، اللهم نَجِّ سَلَمَة بن هشـام ، اللهم نَجِّ الوليـدَ بنَ الوليـد ، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشْـدُدْ وَطْـأَتَكَ على مَضَرَ ، اللهم اجعلهـا سنينَ كَسِنِي يُوسُفَ . وفي رواية لمسلم من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف أنهما سمعا أبا هريرة يقول : كان رسول الله ﷺ يقول حين يفْرُغُ من صلاة الفجـر من القـراءة ويُكَبِّرُ ويرفع رأسـه : سمع الله لمن حَمِدَهُ ، ربنا ولك الحمدُ ثم يقول هو قائم : اللهم أَنْجِ الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشـام وعيَّـاشَ بن أبي ربيعـــة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشْـدُدْ وطأتك على مضرَ واجعلها عليهم سنين كَسِنِـي يوسف ، الحديث . وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلمة أن أبا هريرة حدَّثهم أن النبي ﷺ قنت بعد الركعة في صلاةٍ شهرا إذا قال : سمع الله لمن حَمِدَهُ يقول في قنـوته : اللهم أَنج الوليدَ ابنَ الـوليـد ، اللهم نَجِّ سلمة بـن هشام ، اللهم نَجِّ عيـاش بن أبي ربيعـة ،

اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشـدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلهـا عليهم سنين كَسِنِـي يـوسف. الحديث. وفي روايـة للبخـاري من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي سلمة بن عبد الرحمن قالا: وقـال أبو هـريرة رضي الله عنـه: وكان رسـول الله ﷺ حين يرفـع رأسه يقـول: سمع الله لمن حمده، ربنـا ولك الحمـد، يـدعـو لِـرِجَـالٍ فَيُسَمِّيهِمْ بأسمائهم فيقولُ: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشـدُدْ وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وأهـل المشرق يومئذ من مضر مخالفـون له، وفي لفظ للبخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعـة الآخرة يقـول: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعـة، اللهم أنج سلمة ابن هشـام، اللهم أنج الـوليـد بن الـوليـد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشـدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلهـا سنين كَسِني يوسف. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد عن أبي هريرة قال: لما رفع النبي ﷺ رأسـه من الركعـة قال: اللهم أنج الـوليـد بن الوليـد وسلمة بن هشـام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشدُدْ وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسـف، وفي لفظ للبخاري من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كـان إذا قال: سمع الله لمن حمده في الركعة الآخرة من صلاة العشـاء قنت: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج الوليـد بن الوليـد، اللهم أنج سلمة بن هشـام، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهـم اجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف. وفي قـوله عز وجل: ﴿الـذين يقولون ربنا أخـرجنا من هٰذه القـرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا.﴾ إشعارٌ ببيان تبرم المستضعفين من المقام بين ظهراني المشركين، وحرصهم على الخروج

من مكـة مـادام أهلها ظـالمين، وتضرُّعهم إلى الله عـز وجل أن ييسِّر لهم ولاة صـالحين يصونـون لهم حرمتهم وكـرامتهم، ويتمكنـون في ظلهم من إقامـة شعائر دينهم، ولاشك أن هذه الصفـات التي وصف الله عز وجل بها هؤلاء المستضعفين تفيد أنهم معذورون في ترك الهجرة وأنهم ليسوا ظالمين في مقامهم بمكة تحت ولايـة المشركين، لأنهم لا يجدون حيلة ولا يهتـدون سبيلا كما قـال عز وجل: ﴿إن الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِي أنْفُسِهِم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قـالـوا ألم تكن أرض الله واسعـةً فَتُهَـاجـروا فيهـا، فأولَئكَ مأواهم جهنم وسـاءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجـال والنساء والوِلـدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيـلا. فأولَئك عسى اللهُ أن يَعْفُوَ عنهم، وكان اللهُ عَفُوًّا غفورًا﴾ وقولُه تبـارك وتعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقـاتلون في سبيل الطاغوت، فَقَاتِلُـوا أولياء الشيطانِ إن كيـد الشيطان كـان ضعيفـا﴾ هذا تهييـجٌ آخر للمـؤمنين وحضٌّ لهم على القتال في سبيل الله ببيان أنهم يقـاتلون في طاعة الله ورضـوانه، وأن أعداءهم يقاتلـون في طاعـة الشيطان، وإن الله مـؤيدٌ حـزبه ونـاصرهم وإن الشيطان ليعجز أن يقاوم كيـد الله وتدبيره، فهو يهرب لمجرد سماعـه ذكر الله ويخنس، ومن أمثلة هربـه من أوليائه ما حدث يوم بدر إذ أخـذ يمنِّي أولياءه ويعدهم فلما تراء الجمعـان خذل أولياءه وفرَّ عنهم، كما قـال عز وجل ﴿وإذ زيَّن لهم الشيطـان أعمالهم وقـال لا غالـب لكم اليـوم من النـاس وإني جـارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نَكَصَ على عقبيه وقـال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا تَرَوْن إني أخاف الله، والله شديـد العقاب﴾ وفي قوله تعالى: ﴿الذي آمنـوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطـاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ دليل على أن كل من قـاتل في غير سبيل الله فهو مقـاتل في سبيل الطاغـوت وأن كل من قاتل في سبيل الطـاغوت فهو مقاتلٌ تحت لـواء الشيطان المقهور

المدحور عياذاً بالله منه .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وأَقِيمُوا الصلاة وآتوا الزكاة فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتالُ إذا فَرِيقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناسَ كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ علينا القتالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قريبٍ، قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ والآخرةُ خَيْرٌ لمن اتَّقَى ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلا. أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككم الموتُ ولو كُنْتُمْ في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ، وإن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يقُولُوا هٰذه من عِنْدِ الله وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقولوا هٰذه من عِنْدِكَ، قُلْ كُلٌّ من عِنْدِ اللهِ فما لهٰؤلاء القوم لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثا. مَا أَصَابَكَ من حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وما أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نفْسِكَ، وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا.﴾

بعد أن حرَّض الله تبارك وتعالى المؤمنين على القتال في سبيل الله وهوَّن عليهم لقاء أولياء الشيطان أشار هنا إلى ما كان يتمناه المؤمنون من فرض القتال قبل أن يُفرض عليهم، ويطلبون من رسول الله ﷺ وهم بمكة أن يأذن لهم بالميل على أعدائهم بالسيوف، وأن رسول الله ﷺ كان ينهاهم عن ذلك ويقول: لم نؤمر بقتال، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وكان ذلك لحكمة سديدة رشيدة حيث لم يكن القتال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم. ومنها أنهم كانوا في البلد الحرام الذي حرَّم الله القتال فيه منذ خلق السموات والأرض، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وصار للمسلمين دولة وأنصار ومنعة أذن الله عز وجل لهم بالقتال، فلما فرضه الله تبارك وتعالى انزعج لذلك المنافقون الذين في قلوبهم مرض وكرهوا ذلك كراهة شديدة، كما قال عز وجل: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلَتْ سورةٌ فإذا أُنْزِلت سورةٌ محكمةٌ وذُكِرَ فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مَرَضٌ ينظرون إليك نَظَرَ المَغْشِيِّ عليه من الموت فأولى لهم. طاعةٌ وقولٌ

معروف﴾ وقد قال ابن إسحاق حدثني معبد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه أن أباه كعب بن مالكٍ حدثه في قصة بيعة العقبة الثانية قال: فلما بايعنا رسول الله صرخ الشيطانُ من رأس العقبة بأنفذِ صوتٍ سمعتُه قط: ياأهل الجباجب — والجباجبُ: المنازل هل لكم في مُذمَّم والصُّباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم، قال: فقال رسول الله ﷺ: هذا أَزب العقبة، هذا ابنُ أَزْيَبَ، أتسمع ياعدو الله، أما والله لأفرغَنَّ لَكَ، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: ارْفَضُّوا إلى رحالكم، فقال له العباس بن عُبَادَةَ بن نضلة: والذي بعثك بالحق إن شئتَ لنَمِيلَنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا. فقال رسولُ الله ﷺ: لم نُؤْمَرْ بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم، ولاشك أن قوله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يَخْشونَ الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشية﴾ ظاهرٌ في أن هذا الفريق كان من المنافقين لأن المؤمنين الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ لا ينطبق عليهم هذا الوصف بحال أبدا، وقد جاء النص في آية سورة محمد على أن الذين في قلوبهم مرض هم الذين خافوا عندما فرض القتال خوفاً شديداً، وخير ما يُفَسِّرُ القرآنَ هو القرآن ثم سنة رسول الله ﷺ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أَيْدِيَكم وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناس كخشية الله أو أشدَّ خَشْيةً﴾ الآية، قد جاء هذا النص الكريم على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بالاستخدام وهو ذكر لفظ مشترك بين معنيين يراد به أحدهما ثم يذكر ضميره أو إشارةٌ له أو لفظه بمعناه الآخر فقد ذكر عز وجل هنا أولاً الراغبين في الجهاد وقد مُنعوا منه حينا من الدهر ثم ذكر الذين كادت قلوبهم تنخلع جزعاً لما فُرض القتال، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً

خفيفا فمرت به فلما أثقلت دَعَوَا الله ربّهما لئن آتيتنا صالحا لنكونَنَّ من الشاكرين. فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى اللهُ عما يشركون. أَيُشركون ما لا يخلق شيئا وهم يُخْلَقُون.﴾ إذ المراد بقوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ هو آدم، وأن المراد بزوجها في قوله: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ هي حواء، أما قوله عز وجل: ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به﴾ إلى آخر الآيات فهو انتقال واستطراد بعد ذكر آدم وزوجته إلى ذكر الجنس والذرية. وهو شبيه كذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين.﴾ فالمخلوق من الطين آدم والمخلوق من النطفة بنوه وذريته. وهو كذلك شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد زَيَّنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوما للشياطين.﴾ فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها. وهذا الأسلوب من المحسنات البلاغية البديعية المعنوية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يخشون الناسَ كخشية الله أو أشدَّ خشيةً﴾ إشعار بأن هذا الخُلق لا يصدر من مؤمن بالله عز وجل فإنَّ خشية الناس كخشية الله أو أشد نظير من اتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، وإذا كان من أحبَّ غير الله كحبه لله صار وثنيا فلا شك أن من كان يخشى غير الله كخشيته لله أو أشد يعتبر أعمق في الوثنية ممن أحب غير الله كحبه لله. وليس قوله عز وجل: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ دليلا على أنهم مؤمنون لقولهم: ﴿ربنا﴾ لأن الكفار والمنافقين يقرون بالله ولكنهم يشركون به كما قال عز وجل: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل أفلاتذكرون. قل من رب السمٰوات السبعِ وربُّ العرش العظيم. سيقولون لله، قل أفلا تتقون. قل مَنْ بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يجير ولا يجارُ عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل فأنى

تُسْحَرُون . ﴾ ولها نظائر كثيرة في كتاب الله الكريم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خير لمن اتقى ولا تُظْلَمُونَ فتيلا . ﴾أي وقال هؤلاء المنزعجون المذعورون بسبب فرض الجهاد : ياربنا لِمَ فَرَضْتَ علينا القتال هلا أخرت إيجابه علينا لنتمتع بالحياة ونموت على فرشنا؟ فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم : متاعُ الدنيا قليل ، فلن تخلدوا فيها ، فلو انقدتم لأمر الله ، واستجبتم لما يشرعه لكم ، ورضيتم به صرتم من جملة المتقين الذين أعد الله لهم المتاع الدائم الأبدي السرمدي الجزيل مما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يقاس نعيم الدنيا الزائل القليل بمتاع الآخرة الدائم الكثير، والآخرة خير لمن اتقى ولا يظلم أحدٌ من عمله الصالح مثقال أو مقدار فتيل ، كما لا يُحمَّل أحدٌ غير ما عمل من السيئات مقدار أو مثقال فتيل ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿أينما تكونوا يُدْرِككُمُ الموتُ ولو كنتم في بروج مُشَيَّدَةٍ﴾ أي إن الموت الذي تفرون منه ، وتكرهون فرضية القتال خوف نزوله بكم ، وأصبحتم من أجله تخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية هو مُدْرِكُكُم لا محالة على الصفة التي قضاها في الأزل أحكم الحاكمين وربُّ العالمين سواءٌ كنتم في بيوتكم أو في المعارك والحروب ، أو في جو السماء ، أو على متن الماء فلا تظنوا أن خوفكم من الموت يُبعده عنكم فلو كنتم في قصور منيعة وحصون حصينة وقلاع متقنة وبروج عالية شاهقة محكمة لا تنالها الرماح ، ولا تقدر على تدميرها آلات الحرب فإن الله عز وجل يتوفاكم على الصفة التي قضاها عليكم من موت أو قتل ، كما قال عز وجل : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرزَ الذين كُتِب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم﴾ ، ولله در الشاعر إذ يقول :

ومن كانت منيته بأرض   فليس يموت في أرض سواها

وكم من الأبطال خاضوا غمار المعارك الطاحنة كسعد بن أبي وقاص وخالد ابن الوليد الذي يؤثر عنه أنه قال عند موته : لقد شهدت كذا وكذا موقعا وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا ذا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء . وقد جاء في البخاري عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد قال : لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما صبرت معي إلا صحيفة يمانية اهـ. فالحرص على الجهاد لا يُقرِّب أجلا بعيدا ، والخوف والهرب من القتال لا يُبْعد أجلا قريبا كما قال عز وجل : ﴿قل لن يَنْفَعَكُم الفِرارُ إن فَرَرْتُم من الموت أو القتل وإذًا لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلا . ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وإن تُصِبْهم حسنةٌ يقولوا هٰذه من عند الله وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا هٰذه من عندك﴾ أي وإن يُصِبْ هؤلاء الرعاديد رخاءٌ وسلامةٌ وصحةٌ في أبدانهم قالوا : هذه من عند الله وإن يُصِبْهُمْ جدبٌ وقحط ونقصٌ في الثمار والزُّرُوعِ أو غير ذلك مما لا يفرحون به قالوا : هذه المصيبة جاءتنا بسبب انقيادنا لك واتباع دينك ، ولا شك أن هذا لا يصدر من مؤمن يؤمن بالله ورسله . وليس قولُهُم : هذه من عند الله دليلاً على إيمانهم بالله إذ لو آمنوا بالله ما طعَنُوا على رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ وما أساءوا الظن به وما تشاءموا من بعثته ﷺ التي كانت أيمن بعثة عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل المديد ، ولكنهم نهجوا منهج من سبقهم من الكفار الذين تشاءموا من رسلهم عليهم السلام كما قال عز وجل : ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ وكما ذكر عز وجل عن قوم صالح : ﴿قالوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وبمن معك﴾ وقوله عز وجل : ﴿قل كُلٌّ من عند الله فما لهٰؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين : كلٌّ ما أصاب الإنسان من خير أو غيره فهو بقضاء الله وقدره ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لكن هؤلاء الجاهلين لا يعرفون أدب الحديث والتأدُّبَ في نسبة الأشياء

إلى الله عز وجل، ثم عَرَّفهُم فقه الحديث وأدب الخطاب فقال: ﴿ما أصابك من حسنة فَمِنَ الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي ينبغي لمن عرف الأدب مع الله عز وجل أن يقول عندما يصيبه خير: هذا من عند الله وجوده وفضله، وأن يقول عندما يصيبه شر: هذا بسبب تقصيري في حق الله عز وجل وبسبب سيئاتي وذنوبي، كما قال عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وقوله عز وجل: ﴿وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾ هو مواساة لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من أذى الكافرين والمنافقين وإعلامٌ للناس أن محمداً رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وقد أدى الرسالة على أكمل وجه، وكفى بالله شهيداً.

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عليهم حَفِيظًا . وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ، وكَفَى بالله وَكِيلاً . أَفَلاَ يَتَدبَّرُونَ الْقرْآن، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا . وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْر مِنَ الْأَمْنِ أو الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ منهم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عليكم ورحمتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إلاَّ قَلِيلا﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض دسائس المنافقين وفَضَحَهم في سلوكهم المعوج وأخلاقهم القبيحة التي يعاملون بها أكرم خلق الله محمداً ﷺ حيث كانوا إذا أصابتهم سيئة قالوا: هذه من عندك أي بسببك مع أن سفارته ﷺ كانت أيمن سفارة للإنسانية كلها بل كانت خيراً حتى للحيوانات العجماوات التي كرَّر الوصاة بها والإحسان إليها في سكرات الموت ﷺ حيث كان يقول: الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم. وقد كان هؤلاء المنافقون قد وقعوا تحت التأثير اليهودي الخبيث في التفريق بين الله ورسوله حيث قالوا نؤمن بالله ونكفر بمحمد وعيسى عليهما السلام وأراد المنافقون تقليد اليهود في ذلك حيث أظهروا أن الحسنة التي تصيبهم تكون من الله وأن السيئة التي تصيبهم تكون من الرسول ﷺ، بيَّن عز وجل هنا أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله عز وجل، فمن ادَّعى الإيمان بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فهو كاذبٌ في دعوى الإيمان بالله حيث قال عز وجل هنا: ﴿مَن يطع الرسولَ فقد أطاع الله﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من ادَّعى الإيمان بالله وكفر بالرسول ﷺ فهو كافر حقاً وأن الله عز وجل قد أعدَّ له عذاباً مهيناً حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفرِّقُوا

بين الله ورُسُلِهِ ويقولون نؤمن ببعض ونكفُرُ ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقًّا، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهِينًا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفَرِّقُوا بين أحد منهم أولَئك سوف يُؤْتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيما.﴾ وقوله عز وجل: ﴿ومَنْ تَوَلَّى فما أَرْسَلْنَاكَ عليهم حفيظا.﴾ هذه مواساة لرسول الله ﷺ ووعيدٌ وتهديدٌ لهؤلاء المنافقين ومن سلكوا طريقهم من اليهود وسائر من أعرض عن دين محمد ﷺ ببيان أن رسول الله ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين وليس عليه إلا البلاغ، وليس بمصيطر على قلوب الناس فيهدي من أراد، بل قلوبُ العباد بيد فاطر السموات والأرض وهو الحفيظ على أعمال جميع عباده والمهيمن على سائر خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿لَسْتَ عليهم بمصيطر. إلا مَنْ تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما أنت عليهم بجَبَّارٍ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد.﴾ ولذلك ذيل الله تبارك وتعالى الآية السابقة بقوله عز وجل: ﴿وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا.﴾ ثم قال: ﴿مَنْ يطع الرسولَ فقد أطاع اللهَ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عَصَمُوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ثم قرأ ﴿إنما أنت مُذكِّر. لستَ عليهم بمُسَيْطِرٍ.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويقولون طاعةٌ فإذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الذي تقولُ والله يكتبُ ما يُبَيِّتُونَ﴾ بيَانٌ لقاصمة من قواصم ظهور المنافقين حيث كانوا إذا صاروا بحضرة رسول الله ﷺ أظهروا أنهم مطيعون ثابتون على الطاعة، فإذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ استغرق فريق من هؤلاء المنافقين ليلهم في التدبير والكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين

والعمل على الطعن في دين الإسلام، ولا يعلمون أن الله عز وجل لهم بالمرصاد يُحصي عليهم ما بيَّتوه لرسول الله ﷺ وللإسلام وللمسلمين، وأنه عز وجل مُحْبِطٌ كيدهم، وجاعلٌ تدميرهم في تدبيرهم، وفي قوله عز وجل: ﴿ويقولون طاعة﴾ برفع ﴿طاعة﴾ إشعارٌ بمحاولتهم إفهام المسلمين أنهم ثابتون على الطاعة مستقرون عليها، لأن العرب إذا أرادت الدلالة على مجرد الفعل نصبت، وإذا أرادت الثبات والاستقرار والدوام رفعت وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا المعنى في قصة تسليم الملائكة على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿إذ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاما قال سلامٌ﴾ حيث كان ردُّه عليه السلام لتحيتهم بأحسن منها لأنهم لما نصبوا سلاما أثبتوا مجرد التحية والسلام، فردَّ عليهم بسلام دائم ثابت مستقر فقال: سلامٌ ومعنى ﴿برزوا من عندك﴾ أي خرجوا من عندك ومعنى ﴿بَيَّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول﴾ العرب يقولون للأمر الذي يُطيلون فيه التفكير، ويستغرقون ليلهم في تأمله: هذا أمر مبيَّت، وقد جرت العادة أنهم لا يبيتُون من أمرهم إلا ما كانوا يكرهون أن يطلع غيرهم عليه، كما قال عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم إذ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِن القول وكان الله بما يعملون محيطا.﴾ قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: وكل عمل عُمل ليلاً فقد بُيِّت، ومن ذلك: بَيَّتَ العدوَّ وهو الوقوعُ بهم ليلا، ومنه قولُ عبيدة بن همام:

أَتَوْنِي فلم أرض ما بَيَّتُوا ... وكانوا أَتَوْنِي بشَيْءٍ نُكُرْ
لأُنْكِحَ أَيِّمَهُمْ مُنْذِرًا ... وَهَلْ يُنْكِحُ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرْ

يعَني بقوله: (فلم أرض ما بَيَّتُوا) ليلا، أي ما أَبْرَمُوهُ ليلا وعَزَمُوا عليه، ومنه قولُ النمر بن تولب الْعُكْلِيِّ

هَبَّتْ لِتَعْذُلَنِي من الليل اسْمَعِ ... سَفَهًا تُبَيِّتُكِ الملامَةُ فَاهْجَعِي اهـ

ومعنى قوله عز وجل: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا.﴾ أي فلا يحزنك مكرهم وسوء فعلهم، ولا ما يدبرونه ضدك وضد الإسلام والمسلمين، ولتكن ثقتك بالله واعتمادك عليه في إحباط كيدهم، وإبطال مكرهم فالله عز وجل بالمرصاد لهم، وهو عز وجل يكفيك شرهم ويردُّ كيدهم إلى نحورهم وقوله عز وجل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لَوَجَدُوا فيه اختلافًا كثيرا.﴾ هذا توجيه من الله عز وجل لجميع المكلفين وبخاصة المنافقين واليهود والمشركين إلى أن يتدبروا هذا القرآن العظيم وأن يُعملوا فيه فكرهم وأن ينظروا فيما اشتمل عليه من الأخبار عن الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، وما احتواه من الأحكام والحِكَم والعلوم الكونية والإنسانية والدينية والدنيوية، وفي أسلوبه وفصاحته وبلاغته التي فاقت كل ما وصفه البلغاء وتحدث به الفصحاء، مع سلامته عن أي تناقض أو اضطراب أو اختلاف، مع أنه كتاب كبير، فلو كان من عند غير الله مهما كان هذا الغير لوُجِد فيه تناقض واختلاف واضطراب كثير، وقال عز وجل: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وقد تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله، ومع ذلك لم ينقل عن أحد من أساطين الفصاحة والبلاغة والبيان من كفار قريش أو غيرهم أنه وجد في هذا القرآن العظيم اختلافاً قليلاً أو كثيراً بل قال بعض رؤساء المشركين: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق. ولم يدَّع أحد من أعداء الإسلام أنه أخبر عنه بخبر غير صحيح، فهؤلاء الفريق من المنافقين الذين قالوا: طاعةٌ، فلما برزوا من عند رسول الله ﷺ بيَّتُوا غير الذي يقول رسول الله ﷺ، فأخبر الله عز وجل رسوله ﷺ بخبرهم، فما ادَّعى واحدٌ منهم أن ما أخبر القرآن به في شأنه يختلف عما وقع منهم مع أنه إخبارٌ بالغيب. وفي التعبير بالكثير في قوله: ﴿لَوَجَدُوا فيه اختلافا كثيرا﴾ للفت الانتباه إلى أنه لطوله

وعلومه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً فكيف وهو مع ذلك لم يوجد فيه أدنى اختلاف، فنفيُ الكثرة ليس لإثبات القلة، بل هو على حد قوله عز وجل: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ إذ المقصود: لا طاعة ولا شفاعة للكافرين يوم القيامة وكما قال امرؤ القيس:

على لا حب لا يُهْتَدَى بمناره إذا سَافَهُ العَوْدُ النباطيُّ جَرْجَرا

إذ المقصود: لا منار ولا اهتداء، فكذلك قوله تبارك وتعالى هنا: ﴿لَوَجَدُوا فيه اختلافا كثيرا﴾ يعني أنهم لم يجدوا فيه اختلافاً كثيراً ولا قليلا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ هذا مثال لرعونة المنافقين وأشباههم من المرجفين الذين يبادرون إلى نشر الإشاعات وإذاعة الأخبار دون تحقق وتثبت أو دون رَوِيَّةٍ مما قد يُلْحق الأذى بالأبرياء، ويسبب بلبلة الأفكار واضطراب الآمنين، وأن الإنسان السَّويَّ هو الذي إذا جاءه خبر مثيرٌ لا يتحدث به حتى يرجع إلى ذوي العلم الذين يستطيعون استنباط الأمور من مصادرها الصحيحة قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ولنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ فقال: لا. فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلتُ: أطلقتهُنَّ؟ قال: لا، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يُطَلِّقْ رسول الله ﷺ نساءَهُ. ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكنتُ أنا استنبطت ذلك الأمر اهـ وفي قوله عز وجل: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ أسلوب بلاغي

بديعي يعـرف عند علماء البـديع باسم الجناس الـلاحق وهو مـا اختلف فيه اللفظان في حرفين متبـاعدين مخرجاً كأمر وأمن. وفيـه كذلك من المحسنات البـديعية الأسلـوب المعـروف عند البـلاغيين بـاسم الطباق وهـو الجمع بين لفظين متضـادين في المعنى حيث قال ﴿من الأمن أو الخوف﴾ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولـولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطـان إلا قليلا.﴾ أي ولولا جـود الله عليكم وفضله بما حذركم من عـدوكم وعرفكم بـه من أصول سعادتكم وأمنكم لانقدتم للشيطان إلا من عصمه الله منكم وهم قليل.

قال تعالى : ﴿فَقَـاتِلْ فى سبيل اللهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ ، وَحَرِّضِ المؤمنين عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بـأْسَ الَّذِيـنَ كفروا ، واللهُ أَشَـدُّ بأسًـا وَأَشَدُّ تَنْكِيـلا . مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَـةً حَسَنَةً يَكُنْ لَـهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَـاعَة سَيِّئَـةً يكُنْ له كِفْلٌ مِنْهَا ، وكانَ اللهُ على كل شىء مُقِيتًا . ﴾

بعد أن أمر الله عـز وجل بالقتال في سبيل الله وأثنى على الذيـن يسارعون إليـه ، وندَّد بـالذين لا يحرصـون عليه ، ووبخهم أشـدَّ التوبيخ ، وفضح مـا يُسِــرُّونه من سوء المعتقـد ، وما يبيِّتـونه من قبيح التـدبير، وأوضح أن طاعـة رسول الله ﷺ طاعةٌ لله عز وجل الذي أرسله ، وأرشد رسوله ﷺ إلى الإعراض عنهم والاعتماد على الله وحـده ، وحضَّ على تدبُّـر القـرآن العظيم ، والتثبت عند مجيء أمـرٍ من الأمن أو الخوف أمر رسـوله ﷺ هنا بقتـال أعداء الله وألا يعبأ بتخلـف المتخلفين ، وأن يحرِّض المؤمنين على القتـــال حيـث يقـــول : ﴿فَقَـاتِلْ في سبيـل الله لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَك﴾ والفـاء في قـولـه عـز وجل : ﴿فقاتل﴾ لترتيب ما بعـدها على ما قبلها أي إذا كان هؤلاء المنـافقون يفعلون مـا يفعلون من التثبيـط والتبييت والإرجاف فتقـدم أنت للقتـال ، فإنك غير مسئول عن تخاذلهم ، والله ناصرك ومؤيدك ، وقـوله تبارك وتعالى : ﴿وحَرِّضِ المؤمنين﴾ أي وحُضَّ المؤمنين وحثهم على مقارعة أعداء الله وقتالهم ، ورغِّبهم في ذلك ، وبيِّن لهم مـا أعـد الله عز وجل للمجـاهـدين في سبيلـه من جليل الأجر وعظيم المثـوبة ، وقـد سارع رسول الله ﷺ إلى امتثـال أمر ربـه ، وكان يحرض المؤمنين على القتال ويحضهم عليه ، ويرغِّبهم فيه ، ويشجعهم مما كان يحمل الواحد منهم على رمي ما بيده من تمرات حِـرصًا على منازلة أعداء الله ، والمسارعة إلى جهاد المشركين رغبةً في الفوز بالشهادة في سبيل الله ، وكان يقول لهم ﷺ : قومـوا إلى جنة عرضهـا السموات والأرض ، ويقـول : إذا لقيتموهم

فاصبروا، واعلموا أن الجنـة تحت ظلال السيوف. ويقول: لقـاب قوسٍ في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغـرب، ويقول: لَغَدْوَةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خير ممـا تطلع عليه الشمس وتغـرب. فقد روى مسلم في صحيحـه من حديث أنس رضي الله عنه قال: انطلق رسـول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال عمير بن الحمام: بخٍ بخٍ، فقـال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك: بخٍ بخٍ؟ قال: لا والله يارسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلهـا، قال: فإنك من أهلهـا. قال: فأخـرج تمرات من قَرَنـه فجعل يأكل منهن، ثم قـال: لئن أنـا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحيـاةٌ طويلـة، قـال: فرمى بما كان معه من التمـر ثم قاتلهم حتى قُتل. كما روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد قال: قـال رسول الله ﷺ: رباطُ يوم في سبيل الله خير من الدنيـا وما عليها. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: لَغَـدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الـدنيا ومـا فيها. كما روى البخـاري في صحيحـه من حديث عبـد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: فإذا لقيتموهم فـاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظـلال السيوف. وقـد أمر الله رسـوله ﷺ بتحـريض المؤمنين على القتال في غير موضع من كتـابه الكريم حيث قال عـز وجل هنا: ﴿وحَرِّضِ المؤمنين﴾ وكما قال عز وجل في سورة الأنفال: ﴿ياأيها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنين على القتال﴾ ولاشك أن النفس الإنسانية تتأثر بالتحريض والتذكير، ولاسيما إذا كان التحريض من خبير فصيح بليغ، فإنها تنبعث فيها الهِمَّةُ على مناجزة الأعداء، والـدفاع عن حوزة الإسلام وأهلـه، ومقاومة الأعداء ومصـابرتهم، ولذلك يقول عز وجل: ﴿وذَكِّر فإنَّ الـذكرى تنفع المؤمنين.﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَسَى الله أن يَكُفَّ بَأْسَ الذين كفروا﴾ إطماع من الله تبارك وتعالى

للمؤمنين وَوعدٌ منه عز وجل بنصرهم وتأييدهم وإلقاء الرعب والفزع في قلوب أعدائهم، كما قال عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعدوكم وآخرين من دونهم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله أشد بأسًا وأشدُّ تَنْكِيلا﴾ أي والله وحده قادر على الانتصار من الكافرين وتدميرهم وإيقاع أشد العقوبات بهم كما قال عز وجل: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليَبْلُوَ بعضكم ببعض﴾ لأنه عز وجل إذا أراد أن يأخذ أعداءه أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فهو تبارك وتعالى ذو البطش الشديد، الفعال لما يريد، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿والله أشدُّ بأسا وأشدُّ تنكيلا﴾ يقول: والله أشد نكايةً في عدوه من أهل الكفر به منهم فيك يامحمد وفي أصحابك، فلا تَنكُلنَّ عن قتالهم، فإني راصدهم بالبأس والنكاية والتنكيل والعقوبة لأوهن كيدهم وأضعف بأسهم، وأعلي الحق عليهم، والتنكيل مصدر من قول القائل: نكَّلت بفلان فأنا أنكِّل به تنكيلا إذا أوجعته عقوبة اهـ. وقوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حَسَنَةً يكُنْ له نَصِيبٌ منها ومَنْ يَشْفَعْ شفاعةً سيئةً يكن له كِفْلٌ منها﴾ بعد أن أمر الله عز وجل رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بالقتال في سبيل الله وتحريض المؤمنين على القتال ذكر هنا أن من يسارع إلى الانضمام لجند الله وتكثير حزب الله ويحرض المؤمنين على قتال أعداء الله يجعل الله تبارك وتعالى له أجراً عظيماً وحظاً كريماً من ثواب الله تعالى الذي أعده للمجاهدين في سبيله، دون أن ينقص من أجورهم شيئا، لأن من دل على خير فله مثل أجر فاعله، ومن ناصر أعداء الله على أولياء الله فلهُ من الأوزار والآثام مثل آثامهم وأوزارهم دون أن ينقص من أوزارهم شيء، ومادةُ شفع تدور في اللغة على معنى الازدواج، والزيادة، والإعانة، فالشفعُ: الزوج، وهو ضد الوتر وتقول: شَفَعَ ناظري إذا صار يرى الخَطَّ خطين والشخصَ

شخصين، قال في القاموس المحيط: وعينٌ شافعةٌ تنظر نظرين، وشُفِعَتْ لي الأشباح بالضم أي أَرَى الشخص شخصين لضَعْف بصري وانتشاره، ثم قال: وإنه ليشفع عليَّ بالعداوة أي يُعين عليَّ ويضارُّني. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حَسَنَةً﴾ أي مَن يزد عملاً إلى عمل، ثم قال: وكأميرٍ صاحب الشفاعة وصاحب الشُّفعة بالضم وهي أن تشفع فيما تطلب فتضمه إلى ما عندك فتشفعه أي تزيده، وعند الفقهاء حقُّ تملك الشِّقص على شريكه المتجدِّد ملكه قهراً بعوض اهـ. وإذا كان قوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعة حسنة يكن له نَصِيبٌ منها ومَنْ يشفع شفاعةً سيئة يكن له كفل منها﴾ قد سيق للحض على المسارعة لتأييد دين الإسلام والانضمام لجند الله والتحذير من الانضمام إلى جند الشيطان وتأييد أعداء الله فإن عموم لفظه يشمل هذا الذي سيق من أجله ويشمل كذلك من يشفع لإنسان في باب من أبواب الخير ويدخل عمله هذا في باب الشفاعة الحسنة كما يشمل من يعين ظالماً على ظلمه ويتعاون على الإثم والعدوان أو يشفع لشخص ليتولى عملاً لا يكون كفؤاً له، ويدخل هذا في باب الشفاعة السيئة؛ وقد حض رسول الله ﷺ على الشفاعة للناس في أبواب الخير وحذر تحذيراً شديداً من الشفاعة السيئة فقد روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائلُ أو طُلبت إليه حاجةٌ قال: اشفعوا تُؤْجَرُوا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجة أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا فَلْتُؤْجَرُوا، ولْيَقْضِ الله على لسان نبيه ما أَحَبَّ. وقال البخاري: باب الشفاعة في وضع الدَّين حدثنا موسى حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن عامر عن جابر رضي الله عنه قال: أُصيب عبد الله وترك عيالاً ودَيْناً فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضاً من دينه

فأبوا، فأتيت النبي ﷺ فاستشفعت بـه عليهم، فأبوا فقال: صَنِّف تمرَكَ كلَّ شيء منه على حدتـه، عِذْقَ ابن زيد على حـدة، واللِّينَ على حدةٍ، والعجوة على حدة، ثم أحضرهـم حتى آتيك، ففعلتُ، ثم جاء ﷺ، فقعـد عليه، وكال لكل رجل حتى استوفى، وبقي التمـر كما هو كأنه لم يُمسَّ، الحديث.
كما روى البخـاري من حديث ابن عبـاس أن زوج بريـرة كان عبـدًا يُقال لـه مُغيث كأني أنظر إليـه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيـل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعبَّاس: يـاعباسُ ألا تَعجب من حبِّ مغيث بـريرة، ومن بُغض بريرة مغيثًـا؟ فقال النبي ﷺ لو راجعته؟ قالت: يارسـول الله تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع. قالت: لا حاجة لي فيه. ومن أمثلـة الشفاعة السيئة الشفاعة في الحدود إذا رفعت إلى السلطان وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث عـائشة رضي الله عنهـا أن قـريشا أهمَّتهم المرأة المخـزوميـة التي سرقت، فقـالوا: من يُكلِّم رسـول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامـة حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلَّم رسولَ الله ﷺ، فقـال: أتشفع في حدٍّ من حدود الله. الحديث وقـال أبو داود في سننـه: حـدثنا أحمد بـن عمرو بن السرح ثنـا ابن وهب، عن عمـر بن مـالك عن عُبيـد الله بن أبي جعفـر عن خـالـد بن أبي عمران عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: مَنْ شَفَعَ لأخيه بشفاعة فَأَهْدَى لـه هديةً عليها فقبلهـا فقد أتى باباً عظيماً من أبـواب الربا. والكفل والنصيب بمعنى واحـد، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وكـان الله على كل شيء مُقِيتًـا.﴾ أي وكان الله عـز وجل ولا يـزال مقتدرا حفيظـاً شهيداً حسيبـاً لا يفوته شيء من أعمال عباده خيراً كـانت أو شراً، فاجتنبوا الشر وافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

قال تعالى : ﴿وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إن اللهَ كَانَ على كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۞ اللهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ حَدِيثًا﴾

بعد أن رغبَّ الله عز وجل في الجهاد وقتال أعداء الله وأمر رسوله ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال ، وأشار إلى أن الناس ليسوا سواءً فمنهم من يسارع إلى داعي الخير وينضمُّ إليه ، ومنهم من يسارع إلى داعي الشر وينضم إليه ، نبَّه هنا إلى أن دين الإسلام هو دين السلام ، وأنه لا يجوز لأحد أن يفهم من الحض على الجهاد أن الإسلام دينٌ دَمَوِيٌّ ، فهو عندما يأمر بالقتال إنما يأمر به لمصلحة الإنسانية ، ولذلك نبه المسلم إلى أنه حتى لو كان في أرض المعركة ولقيه رجل من الجانب الذي فيه الكفار وسلَّم عليه وجب على المسلم أن يرد عليه السلام والتحية بأحسن منها أو بمثلها وألا يلحق به أيَّ أذى مادام قد سلم عليه ، وحذَّر المسلم من سوء الظن بمن يسلم عليه ويحييه حيث يقول عز وجل : ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبيَّنُوا ، إن الله كان بما تعملون خبيرا . ﴾ قال البخاري في صحيحه : حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ قال : قال ابن عباس : كان رَجلٌ في غُنيمةٍ له فَلَحِقَهُ المسلمون ، فقال : السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غُنيمَته ، فأنزل الله في ذلك إلى قوله : ﴿عَرَضَ الحياة الدنيا﴾ تلك الغُنيمة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منها أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي وإذا حيَّاكم أحدٌ بتحية الإسلام فأجيبوه على تحيته بأحسن منها أو بمثلها . وأصل التحية الدعاء بالحياة وطُولِها ثم

استعملت في كل دعـاء، وكانت العـرب إذا لقي بعضهم بعضاً في الجاهليـة يقول: حيَّـاك الله ثم استعملها الشرع في السلام وهـي تحية الإسلام قـال عز وجل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يـوم يلقـونهُ سَـلاَمٌ﴾ وقـال عز وجل: ﴿فـإذا دخلتم بيوتـاً فَسَلِّمُوا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً﴾ ولاشك أن تحية الإسلام خيرالتحيات التـي يحبها الله عز وجل كما أشـار إلى ذلك تبارك وتعـالى حيث يقول: ﴿و إذا جاءوك حَيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ به الله و يقولون في أنفسهم لولا يُعَذِّبُنَا الله بما نقول، حَسْبُهُـمْ جَهنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فبئس المصير.﴾ وكما أن تحيـة الإسلام محبـوبـةٌ إلى الله عز وجل فهي كـذلك لها مـزيـة على غيرها إذ السـلام دعـاءٌ بالسلامة من الآفـات الدينية والدنيوية، وهي مستلـزمة لطول الحياة، وليس في الدعاء بطول الحياة تلك السلامة، ولأن السلام من أسماء الله الحسنى فهو أعظم خيراً وبـركـة من جميع تحيات أهـل الجاهلية التي كـانـوا يحيي بعضهم بعضاً بها كقولهم حياك الله، أو أنعم صبـاحاً أو أنعِم مساء، أو أنعَم الله بك عيناً، أو أبيت اللَّعـن، فإن تحية الإسلام أجمع وأعم وأفضل مـن ذلك كله، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه التحية كانت من أول ما دار من حوار بين آدم عليه السلام والملائكة وأنها تحية الملائكة والنبيين والمرسلين وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله أدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قـال: اذهب فَسَلِّمْ على أولئك النفر، وهم نفرٌ من الملائكـة جلوسٌ، فـاستمع ما يُحَيُّـونَكَ، فإنها تحيَّتُكَ وتحية ذريتك، فـذهب، فقال: السـلام عليكم، فقالوا: السلام عليـك ورحمة الله، قال: فَزادوه: ورحمة الله. قال: فكل من يـدخل الجنة على صـورة آدم وطـوله ستـون ذراعاً، فلم يـزل الخلق ينقص بعده حتى الآن، وقد ذكر الله تبـارك وتعالى سلامه على عباده المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابـه الكريم حيث قال: ﴿قيل يانـوح اهبط بسلام منا

وبـركات عليك وعلى أمـم ممن معك﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿قل الحمـد لله وسلام على عبـاده الذين اصطفـى﴾ وقال في أهل الجنـة: ﴿لهم فيها فـاكهةٌ ولهم ما يدَّعـون. سلام قولا من ربٍّ رحيم.﴾ وقال عـز وجل: ﴿سلام على نوح في العالمين.﴾ وقـال عز وجل: ﴿سلام على إبراهيم﴾ وقـال عز وجل: ﴿سـلام على موسى وهـارون.﴾ وقال عـز وجل: ﴿سلام على إليـاسين.﴾ وقـال عـز وجل: ﴿سبحـــان ربك ربِّ العـــزة عما يصفـون. وســـلام على المرسلين. والحمد لله رب العـالمين.﴾ وقد أمـر الله عز وجل نبيـه محمداً ﷺ بالسـلام على المؤمنين حيث قـال: ﴿وإذا جاءك الذيـن يؤمنون بـآياتنـا فقل سلامٌ عليكم.﴾ وقال عز وجل: ﴿تحيتهم يوم يَلْقَـوْنه سلامٌ﴾ وقال ﴿الذين تتوفاهـم الملائكـة طيبين يقولون سلام عليكم﴾ وقـال عز وجل: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل بـاب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.﴾ وقـال عز وجل: ﴿وسيق الـذين اتَّقَـوْا ربَّهم إلى الجنة زمـرا حتى إذا جاءوهـا وفُتِحَتْ أبوابها وقـال لهم خزنتها: سلام عليكم طبتـم فادخلوها خـالدين﴾ وقال عز وجل في حق يحيى عليه السلام: ﴿وسلام عليه يوم وُلِدَ ويوم يموت ويوم يُبْعَثُ حَيًّـا.﴾ وقال في حق عيسى عليـه السلام: ﴿والسـلام عَلَيَّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حَيًّـا.﴾ وتخصيص هذه الأوقات الثلاثة وهي يوم الـولادة ويوم الموت ويـوم البعث لأنها أشدُّ الأوقات حـاجة إلى السـلامة والكرامـة. وقد رغَّب الإسـلام في السلام تـرغيباً شـديداً فقـد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: تُطعم الطعام وتقرأ السلام على مَنْ عرفتْ ومن لم تعرف. كما روى مسلـم في صحيحه من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَ لا أدلكم على شيء إذا فَعلْتُمـــوه تحاببتم؟ أفْشُـــوا الســـلام بينكم. كما روى

الترمـذي وقال حـديث صحيح عن عبـد الله بن سـلام رضي الله عنه قـال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : يـاأيها النـاس أفشوا السـلام وأطعموا الطعـام وصِلوا الأرحـام وصلُّوا والناس نيام تـدخلوا الجنة بسـلام . كما روى أبو داود والترمذي وقال : حديث حسنٌ عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليكم ، فردَّ عليه ، ثم جلس ، فقال : عشرٌ، ثم جـاء آخر فقال : السـلام عليكم ورحمة الله ، فردَّ عليـه ، فجلس ، فقال : عشرون ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فردَّ ، فجلس ، فقال : ثلاثون . وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى آداب السلام وكيفيته بقـوله وفعلـه ﷺ فقد روى البخـاري في صحيحه من حـديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادهـا ثلاثاً حتى تُفْهم عنه وإذا أتى على قـومٍ فسلم عليهم سلم عليهـم ثـلاثـا . كما روى أبـو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح عن أبي جُرَيٍّ الهُجَيْمِيِّ رضي الله عنهُ قـال : أتيت رسـول الله ﷺ فقلتُ : عليك السـلامُ يارسـول الله ، فقـال : لا تقل : عليك السلام فإنَّ عليك السلام تحيـة الموتى . كما روى أبو داود بإسناد صحيح من حـديث أبي أمامـة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : إن أولى الناس بـالله من بدأهم بـالسلام ، كما روى البخاري ومسلـم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فـوق ثلاث ليـالٍ ، يلتقيان فيعرض هـذا ويعرض هـذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام . وقد كـان رسول الله ﷺ يسلم على الصبيان فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه مَرَّ على صبيان فَسلم عليهم وقال : كان رسـول الله ﷺ يفعله ، كما أنه لو سلم الإنسـان على إنسان ثم فارقـه ولو قليلاً ثم رجع إليـه فإنه يستحب له أن يسلم عليه مهما تكـرر ذلك فقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصـة المسيء صلاته

أنه جاء فصلى ركعتين ثم جاء إلى رسول الله ﷺ فسلَّم عليه، فردَّ عليه السلام، فقال: ارجع فصلِّ فإنك لم تصل فرجع فَصلَّى ثم جاء فسلَّم على النبي ﷺ حتى فعل ذلك ثلاث مرات. كما ينبغي الحرص على أن يسلم الرجل على زوجته وأهله إذا دخل عليهم فقد روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: يابنيَّ إذا دخلت على أهلك فسلِّم تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يُسلِّم الراكب على الماشي والماشي على القاعد، والقليل على الكثير. وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يُسلِّم الصغير على الكبير، والمارُّ على القاعد والقليل على الكثير، ونبَّه الإسلام إلى الردِّ على اليهود والنصارى إذا سلَّموا على المسلم فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم. كما يجوز للمسلم إذا مرَّ على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين أن يسلم عليهم فقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مرَّ بمجلس فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود فسلَّم عليهم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَحَيُّوا بأحسَنَ منها أو رُدُّوها﴾ أي فليكن ردُّكم على من سلم عليكم بأحسن من سلامه أو بمثله على الأقل فإذا قال المسَلِّم مثلاً: السلام عليكم فيكون الرد وعليكم السلام ورحمة الله. فإذا قال المسَلِّم: السلام عليكم ورحمة الله فيكون الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فإذا قال المسَلِّم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيكون الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وأهلاً وسهلاً ومرحباً أو نحو ذلك فيكون قد حياه بأحسن من تحيته، فإذا اقتصر على مثل تحية المسَلم جاز ذلك. قال ابن كثير

رحمه الله : عن الحسن البصري : السلام تطوع والردُّ فريضة وهذا الـذي قاله هـو قول العلماء قـاطبة اهــ. وقولـه عز وجل : ﴿إن الله كـان على كل شيء حسيبـا . الله لا إلَـه إلا هو لَيَجْمَعَنَّكُـمْ إلى يوم القيـامـة لا ريب فيـه ، ومن أصـــدق من الله حـــديثـا . ﴾ أي إن الله عـز وجـل محاسبكم على أعمالكم ومجازيكم بها فلا تتهاونوا في تطبيق شريعـة الإسلام التي شرعها الله عز وجل لسعـادتكـم في الـدارين ، وسيجمعكم الملك الحق المبين الــذي لا يستحق العبادة أحد سواه ، في عرصات القيامة ، ولا أحد أصدق من الله قولاً .

قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا. وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ ولا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرا. إلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ، فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لكم عَلَيْهِمْ سَبِيلا.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المسلمين بأن يحيُّوا من حيَّاهم بأحسن من تحيته أو بمثلها، ويقتضي هذا الأمر أن من ألقى إليهم السلام لا يحرصون على قتله حتى ولو كان في الجانب الذي به الكفار المحاربون، وذكرهم بأن مصير جميع الخلائق إليه وحده حيث يجمعهم في عرصات القيامة ويجزي كل عامل بما عمل، أشار هنا إلى ما كان من المؤمنين في شأن المنافقين الذين رجعوا من الطريق يوم أحد وانخذلوا عن رسول الله ﷺ وعلى رأسهم عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول حيث انقسم المسلمون في شأنهم بعد غزوة أحد إلى فرقتين: فرقة تقول: نقتُلهم وفرقة تقول: لا نقتلهم ماداموا يظهرون أنهم مسلمون ولم يُعلنوا الكفر صراحة، فذكر عز وجل هنا للمسلمين صوراً تبيِّن للمسلمين بعض أحكام الدماء، وتحذِّرهم من قتل المنافقين الذين لم يعلنوا الكفر صراحة، وتنبههم إلى الحذر من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وبدأ ذلك بقوله عز وجل: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كَسَبُوا﴾ فقد روى البخاري في صحيحه في باب غزوة أحد من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما خَرَج النبي ﷺ إلى غزوة أحد رجع ناسٌ ممن خرج معه،

وكان أصحـاب النبي ﷺ فـرقتين: فرقة تقـول: نقاتلهـم، وفرقـةً تقول: لا نقـاتلهم، فنـزلت: ﴿فما لكـم في المنـافقين فئتين واللهُ أركسهم بما كسبـوا﴾ وقـال: إنها طيبة تنفـي الذنـوب كما تنفي النـار خَبَثَ الفضـة. وأخرجـه في التفسير من صحيحـه من حديث زيـد بن ثابت رضي الله عنـه ﴿فما لكم في المنـافقين فئتين﴾ رجع ناسٌ من أصحـاب النبي ﷺ من أحـد وكان النـاس فيهم فرقتين: فـريقٌ يقول: اقتُلهم، وفـريقٌ يقول: لا فنـزلت: ﴿فمالكم في المنافقين فئتين﴾ وقـال: إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النـار خبث الفضة.
وقد فرَّق مسلم هـذا الحديث وجعله حديثين فروى في بـاب ذكر المنافقين في أواخر صحيحه من حديث زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد، فَرَجَعَ نـاسٌ ممن كان معـه، فكان أصحـاب النبي ﷺ فيهم فرقتين قـال بعضهم: نقتلهم، وقـال بعضهم: لا، فنـزلت: ﴿فما لكم في المنـافقين فئتين﴾ وروى في كتاب الحج من صحيحـه من حديث زيد بن ثـابت عن النبي ﷺ قال: إنها طيبـة يعني المدينة وإنها تنفي الخبث كما تنفى النـار خبث الفضة. قـال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح رواية البخاري التي أخرجها في غزوة أحد: قوله: «رجع ناس ممن خرج معه» يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في المغازي، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيـه رأي النبي ﷺ على الإقـامـة بالمدينـة، فلما أشـار غيره بـالخروج، وأجـابهم النبي ﷺ فخـرج، قـال عبـد الله بن أبيٍّ لأصحـابـه: أطـاعهم وعصـاني، عَـلام نقتُل أنفسنـا، فرجع بثُلث النـاس، قـال ابن إسحـاق في روايته: فاتبعهـم عبد الله بن عمرو بن حرام وهـو والد جابر، وكـان خزرجياً كعبـد الله بن أبَيٍّ، فناشـدهم أن يرجعـوا، فأبوا، فقـال: أبْعَدَكُمُ اللهُ اهــ.
ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ أي أيُّ شيء لكم في الاختـلاف في أمرهم؟ ولماذا تختلفـون فيهم ورسول الله ﷺ بينكم؟ وفي هـذا

رسمٌ للسياسة الإسلامية نحو المنافقين وغيرهم، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله، وأن يحذروا التنازع والاختلاف، فإنه لا يؤدي إلى خير، وقد عُلم أن رسول الله ﷺ كان لا يحب قتل المنافقين إذا بدرت منهم بوادر سوء، حتى لايتحدث الناس الذين لا يعلمون حقيقة نفاقهم ويقولوا: محمد يقتل أصحابه. ومعنى ﴿والله أركسهم بما كَسَبُوا﴾ أي والله عز وجل نكَّسهم وردَّهم في كفرهم ومنعهم من القتال معكم حرمانًا لهم بسبب الكفر والمعاصي، مع أنهم لو حضروا المعركة ما زادوا المسلمين إلا خبالا، فكره الله عز وجل أن يشهدوا معكم المعركة فخذلهم عن شهودها، ولم يوفقهم لحضورها. وقوله عز وجل: ﴿أتريدون أَنْ تَهْدُوا من أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سبيلا.﴾ أي أتحسبون أن حرصكم الشديد على هداية قلوبهم ينفعهم وقد أراد الله عز وجل إضلالهم، ومن أراد الله عز وجل إضلاله وخذلانه وعدم توفيقه فلن يستطيع أحد مهما كان إدخال الهداية في قلبه المنكوس المركوس، وقوله عز وجل: ﴿ودُّوا لو تكفُرُون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجرُوا في سبيل الله﴾ هذا بيان لما استقر في قلوب جميع أعداء رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام والمسلمين من حرصهم الشديد على ردة المسلمين عن الإسلام ورجوعهم إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله منه، وفيه لفت انتباه الناس إلى الفرق بين قلوب المؤمنين التي تبالغ في الحرص على هداية الناس وقلوب أعدائهم التي تبالغ في الحرص على إضلالهم وردَّتهم حتى يكونوا في الضلالة سواء. وقد ذكر الله عز وجل هذا الخُلق الذميم في اليهود والمشركين والمنافقين حيث قال عز وجل: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حَسَدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وقال عز وجل: ﴿ما يَوَدُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّل عليكم من خير من ربكم﴾ وقال هنا: «ودُّوا لو

تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تَوَلَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا.﴾ يشمل تحريم موالاة جميع أصناف الكفار سواءٌ كانوا منافقين أو يهودا أو نصارى أو مشركين، وجعل تبارك وتعالى هذا التحريم مُغيًّا بغاية وهي هجرتهم في سبيل الله فإن هاجروا في سبيل الله صاروا أولياء للمسلمين بغض النظر عما كانوا عليه قبل الهجرة. والهجرة تُطلق على ثلاثة أوجه: هجرةٌ وانتقالٌ من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وكانت متحتمةً من مكة إلى المدينة قبل الفتح، وقد غَلب على أصحاب هذه الهجرة اسم المهاجرين، وهجرة من النفاق وهي داخلةٌ في هذا المقام دخولاً أولياً لأن السياق فيها، والمراد بها: أن يترك الشخص نفاقه ويخرج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيل الله صابراً محتسباً لا لغرض من أغراض الدنيا، وهجرةٌ عن جميع المعاصي وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان، وأخرى تحصل بالانتقال من أعمال الكفار إلى أعمال المسلمين قال ﷺ: المهاجر من هجر ما نَهى الله عنه. وقال المحققون: الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مأموراته وفعل منهياته، ولما كان كلُّ هذه الأمور معتبراً لا جَرم ذكر الله تعالى لفظاً عاماً يتناول الكلَّ فقال: ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ فإنه تعالى لم يقل: حتى يهاجروا عن الكفر بل قال: ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر ومهاجرة شعار الكفر، ثم لم يقتصر تعالى على ذكر الهجرة بل قيَّده بكونه في سبيل الله، فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ومن شعار الكفر إلى شعار

الإسلام لغرض من أغراض الدنيا، إنما المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن تولَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا ولا نصيرا.﴾ أي فإن أعرضوا عن الانقياد لدين الله وأظهروا الكفر فأسِروا من تمكنتم من أخذه منهم وأسره، واقتلوا منهم من قدرتم على قتله أينما أصبتموهم من أرض الله ولا تتخذوا منهم خليلاً يُواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم فإنهم هم العدوُّ لا يألونكم خبالا، وَدُّوا عنتكم ومشقتكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين يصِلُون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إلا الذين يصلُون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ فإن تولّى هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأَبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، سِوى مَن وصل منهم إلي قوم بينكم وبينهم مُوادعة وعهدٌ وميثاقٌ فدخلوا فيهم، وصاروا منهم ورضوا بحكمهم، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضياً بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم: أَلا تُسبى نساؤهم وذراريهم ولا تُغنم أموالهم اهـ. وقوله عز وجل: ﴿أو جاءُوكم حَصِرَتْ صُدُورُهم أن يقاتلوكم أو يُقَاتِلُوا قَوْمَهُم، ولو شاءَ اللهُ لَسَلَّطهُمْ عليكم فَلَقَاتَلُوكُمْ، فَإِنِ اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وَأَلْقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سَبِيلاً.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿أو جاءوكم حَصِرَت صُدُورُهم﴾ الآية: هؤلاء قومٌ آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حَصِرة صدورهم أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم، ﴿ولو شاء الله لَسَلَّطَهُمْ عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لُطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم

وأَلْقَـوْا إليكم السَّلَمَ﴾ أي المسالمة ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيـلا . ﴾ أي فليس لكم أن تقـاتلوهم مـادامت حالهم كـذلك ، وهؤلاء كـالجماعة الـذين خـرجوا يـوم بدر من بني هـاشم مع المشركين فحضروا القتـال وهم كارهـون كـالعباس ونحـوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئـذ عن قتل العباس وأمـر بأسره اهـ .

قال تعالى : ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُم كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ويُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ، وأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا . وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً ، ومن قتل مؤمنا خَطَأً فتحريرُ رقبة مؤمنةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ إلا أَنْ يَصَّدَّقوا ، فَإِنْ كان من قومٍ عَدُوٍّ لكم وهو مؤمنٌ فَتَحرِيرُ رقبةٍ مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين تَوْبَةً من الله ، وكان الله علياً حكيما . ومَنْ يَقْتُلْ مؤمنا مُتَعَمِّدًا فَجزاؤُهُ جَهَنم خَالِدًا فيها وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وأَعَدَّ له عَذَابًا عَظِيماً . ﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية السابقة حكم من وصل من الكفار إلى قوم بينهم وبين المؤمنين موادعةٌ وعهدٌ وميثاقٌ ودخلوا معهم في عهدهم وميثاقهم وصاروا منهم ورضوا بحكمهم وأن الله عز وجل لم يجعل للمؤمنين عليهم سبيلا ، بيَّن هنا حكم طائفة أخرى من الكفار الذين جعل الله عز وجل للمؤمنين عليهم سبيلاً وسلطاناً مبينا ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ستجدون آخرين يريدون أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها﴾ أي ستجدون فريقاً آخر من الكفار بهم شَبَهٌ من بعض الوجوه بالفريق المذكور في الآية السابقة من جهة حرصهم على أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم إلا أنهم يغايرونهم في أنهم أخبث نيةً وأشدُّ ارتكاساً في الكفر، وأعمق في العداوة لكم ، ولو تمكنوا من القضاء عليكم ما تأخروا عن ذلك ، فهم إذا كانوا بينكم أظهروا لكم أنهم معكم وإذا صاروا بين أعدائكم أظهروا الحرص على استئصالكم ، بخلاف الفريق المذكور في الآية السابقة فإنهم ما كانت تنشرح

صدورهم لقتالكم بل كانوا يضيقون إذا اضطرُّوا للوقوف ضدكم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى ثلاثة شروط إن توفرت في هذا الفريق الشرِّير كفَّ المسلمون عن قتالهم، و إن لم تتوفر فيهم هذه الشروط الثلاثة قاتلهم المسلمون، وهذه الشروط الثلاثة هي المدلول عليها بقوله عز وجل: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويُلقوا إليكم السَّلَمَ ويَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ فإذا أخلوا بهذه الشروط الثلاثة فإن الله تبارك وتعالى جعل للمسلمين عليهم حجة وسلطانا وسبيلا حيث يقول: ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولَئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا.﴾ أي فإن لم يكف هؤلاء الشريرون عن التعرض لكم بوجه من الوجوه التي تُلحق الأذى بكم ولم يعقدوا معكم هدنةً وصلحاً، ولم يكفوا أيديهم عن قتالكم ويداوموا على مسالمتكم فقاتلوهم وأسروا من تمكنتم من أسره منهم، واقتلوا من قدرتم على قتله ممن لم يستأسر لكم منهم، وأبشروا بنصر الله لكم فإنه عز وجل مسلطكم عليهم. وقوله عز وجل: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خَطَأً﴾ أي ما يليق بمؤمن متُّصفٍ بوصف الإيمان ولا يحل له أبدا أن يتعمد قتل مؤمن؛ لأن الله عز وجل حرم دم المؤمن في جميع الشرائع السماوية ولا يحل دمه إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والارتداد عن دين الإسلام كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارقُ للجماعة. لكن يمكن أن يقع أن يقتل المؤمن مؤمناً خطأً، إذ قد يقع بسببٍ يتعذر الاحتراز منه أو بسبب فوق الطاقة البشرية، ، والخطأ في القتل يحدث لأسباب كثيرة يجمعها عدم قصد القتل فقد يقصد المسلم رمي مشرك أو طائر فيصيب مسلماً، أو يرى شخصاً عليه شعار الكفار في أرض المعركة فيرميه ويكون هذا القتيل قد أسلم لكن

الذي رماه يحسبه كافرا، أو يضرب شخصاً مسلماً بمالا يقتل غالبا كأن يضربه بيده أو بعصا خفيفة أو نحوها مما لا يُعهد في مثله أن يقتل، أو يكون نائماً فينقلب على شخص فيقتله وهو لا يشعر بذلك وكما حدث للمسلمين في معركة أحد عندما قتلوا اليمان والد حذيفة رضي الله عنهما وهم لا يشعرون من شدة حزنهم وحذيفة رضي الله عنه يقول: أبي، أبي، فلما قتلوه قال حذيفة: يغفر الله لكم. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بَعَثَنا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرقة من جُهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم قال: ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: فقال لي: ياأسامة أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يارسول الله إنما كان متعوذاً، قال: أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث المقداد بن عمرو الكنديِّ أنه قال: يارسول الله إن لقيت كافراً فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذمنِّي بشجرة وقال: أسلمتُ لله، أَأقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله، قال: يارسول الله فإنه طرح إحدى يديَّ، ثم قال ذلك بعد ما قطعها أَأقتله؟ قال: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال. وقد بين الله تبارك وتعالى حكم من قتل مؤمناً خطأ فقال عز وجل: ﴿ومَنْ قَتَلَ مؤمنا خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنةٍ وديةٌ مسلمة إلى أهله إلا أن يَصَّدَّقوا، فإن كان من قوم عَدُوٍّ لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله، وكان الله عليماً حكيماً.﴾ أي فمن قتل مؤمناً

خطأ وأهل القتيل مسلمون يجب على القاتل إعتاق نفس مسلمة وتحريرها من الرق حقًّا لله عز وجل كما تجب لورثة القتيل ديةٌ مؤدَّاةٌ لهم يقتسمونها كسائر المواريث ولا نزاع عند أهل العلم في أن الدية في قتل الخطأ إنما تجب على العاقلة، والعاقلة هم عصبة القاتل ولورثة القتيل أن يتنازلوا عنها فتسقط الدية حينئذ، أما الكفارة فلا تسقط بحال. وهذا هو القسم الأول من الأقسام الثلاثة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية، أما القسم الثاني فهو أن يقتل المسلم مؤمناً خطأ لكن أولياءه كفار محاربون للمسلمين فإنه لا دية لهم، ولكن يتحتم على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. أما القسم الثالث فهو أن يكون المقتول مؤمنا وأهله كفار لكنهم أهل ذمة وهدنة وعهد فلهم دية قتيلهم لكنها ليست ميراثا لأن الكافر لا يرث المسلم، ويتحتم على القاتل إعتاق إنسان مسلم وتحريره من الرق، فإذا لم يجد القاتل الذي وجبت عليه الكفارة إنساناً مملوكاً لعدم وجوده أو عدم قدرة القاتل على شرائه فإنه يتحتم عليه صيام شهرين متتابعين يسرد صومهما إلى آخرهما لا يتخلل ذلك إفطار في النهار المحدد من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس فإن أفطر من غير عذر مرض أو حيض أو نفاس ابتدأ صيام الشهرين من أولهما. وقوله عز وجل: ﴿توبةً من الله وكان الله عليما حكيما.﴾ تنبيه إلى أن من قتل مؤمنا خطأ فرض الله عز وجل عليه ما فرض في هذه الآية لما حصل منه من التقصير فيكون هذا الإعتاق أو صيام شهرين متتابعين كفارةً لما حصل منه وإن كان الله تبارك وتعالى تجاوز لمن لم يتعمد الخطأ كما تجاوز عن النسيان لكنه فرض عليه الكفارة ليحترز المسلم ويبالغ في الاحتياط حتى لا يقع في هذا الخطأ الذي يؤدي إلى إزهاق الأرواح المصونة المحترمة. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿فتحرير رقبة مؤمنة﴾ إعلام بحرص الإسلام على تحرير الرق وفك الرقاب، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿إلا أن يصَّدَّقوا﴾ إشعار بأن تنازل أهل القتيل عن

الدية أو بعضها يعتبر صدقة في موازين حسناتهم عند الله يوم القيامة كما أن في هذه الآية العظيمة بياناً بوجوب حفظ العهود والمواثيق ومراعاة حقوقها، والتفريقُ بين الكفار المسالمين وغير المسالمين وقد اشترط الإسلام في رقبة الكفارة أن تكون مؤمنة لحرص الإسلام على عزة المسلمين وحريتهم، ويكفي في إثبات إيمان الرقبة أن تكون مقرةً بالله وبرسوله محمد ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قال: وكانت لي جارية تَرعى غنماً لي قِبَلَ أحُدٍ والجَوَّانية فاطَّلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجلٌ من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظَّم ذلك عليَّ، قلتُ: يارسول الله أفَلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أَيْنَ اللهُ؟ قالت: في السماء، قال: منْ أنا؟ قالت: أنت رسولُ الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة. وقد أجمع العلماء على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل. وبعد أن بين الله تبارك وتعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال: ﴿ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فيها وغَضِبَ الله عليه وَلَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عذابا عظيما.﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومَنْ يقتل مؤمناً عامدًا قتله مُريداً إتلاف نفسه ﴿فجزاؤه جهنم﴾ يقول: فثوابه من قتله إياه ﴿جهنم﴾ يعني: عذاب جهنم ﴿خالدا فيها﴾ يعني: باقياً فيها، والهاء والألف في قوله ﴿فيها﴾ من ذكر ﴿جهنم﴾، ﴿وغضب الله عليه﴾ يقول: وغَضِبَ الله عليه بقتله إياه متعمداً، ﴿ولعنه﴾ يقول: وأبعده من رحمته وأخزاه، ﴿وأَعَدَّ له عذابا عظيما﴾ وذلك ما لا يعلم قدر مبلغه سواه تعالى ذكره. ثم نقل ابن جرير رحمه الله إجماع أهل التأويل على أنه إذا ضرب رجلٌ رجلاً بحدّ حديدٍ يجرح بحدِّه أو يبضع ويقطع فلم يُقلعْ عنه ضرباً به حتى أتلف نفسه وهو في حال

ضربه إياه بـه قاصدٌ ضربه : أنـه عامد قتله اهـ, ولاشك أن شريعة الإسلام عظَّمت أمـر قتل المسلم وذكـرت أنـه من أكبر الكبـائر وقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعـود أن رسول الله ﷺ قال : أولُ ما يُقْضَى بين النـاس يوم القيـامة في الـدماء ، وكـان مقتضى ظـاهر قـوله عـز وجل : ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾ أنَّ من قتل مؤمنا متعمداً فلا توبة له ، لكن الله تبـارك وتعالى ذكـر قبول تـوبته في سـورة الفرقـان حيث يقول : ﴿والـذين لا يدعون مع الله إلَهًا آخر ولا يقتلون النفـس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما . يُضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهَانا . إلا من تاب وآمن وعمل عَمَـلاً صالحاً فأولَئك يبدل الله سيئـاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً . ﴾ .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ولا تقولوا لمن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدنيا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كثيرةٌ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنَ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا، إِنَّ اللهَ كَانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ والمُجَاهِدونَ في سبيل الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى، وفَضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ على القَاعِدِينَ أجْرًا عظيماً. دَرَجَاتٍ منه ومغفرةً وَرَحْمَةً، وكان الله غفوراً رَحِيماً.﴾

بعد أن ذكر عز وجل جملة من أحكام الدماء وحذَّر أشدَّ التحذير من سفك دماء المسلمين، وبين أن المؤمن ما كان ليقتل مؤمناً إلا بطريق الخطأ، وتوعد من قتل مؤمناً متعمداً بعذاب جهنم وغضب الله ولَعْنته، لفت انتباه المسلمين هنا مرةً أخرى إلى وجوب التثبت حتى لا يريقوا دم امرئ مسلم بغير حق حيث يقول عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمَنُوا إذا ضربتم في سبيل الله فتَبينوا ولا تقولوا لمن ألْقَى إليكم السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنا﴾ ومعنى: إذا ضربتم في سبيل الله أي غزوتم وسرتم في الأرض إلى الجهاد في سبيل الله، ومعنى: ﴿فتَبَيَّنُوا﴾ أي فتَثَبَّتُوا، كما قرأ به حمزة والكسائيُّ، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمنا﴾ أي ولا تقولوا لمن حَيَّاكم بتحية الإسلام: إنك لست من أهل الإسلام، إنما تسليمك حيلةٌ وتعوذٌ من القتل فتقدُموا عليه بالسيف لتقتلوه وتأخذوا ماله، ولكن عليكم أن تكفُّوا عنه وتقبلوا ما ظهر منه، فأنتم لم تشُقُّوا عن قلبه، وقد تقدَّم في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُمْ بتحية فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منها أَوْ رُدُّوهَا﴾ سببُ نزول قوله عز وجل: ﴿ولا

تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمنا تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا﴾ وهو ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غُنَيْمَةٍ له فلحقه المسلمون، فقال السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَتَهُ فأنزل الله عز وجل ذلك. كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً﴾ الآية قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما في سرية الحرَقَة من جهينة عندما لحق رجلاً منهم فقال الرجل: لا إله إلا الله، وظن أسامة رضي الله عنه أن الرجل إنما قالها متعوذاً فقتله، وما كان من رسول الله ﷺ عندما بلغه ذلك، وكذلك حديث المقداد بن عمرو الكنديِّ رضي الله عنه. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي بكر ابن أبي شيبة من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الحُرَقَاتِ من جهينة، فأدركتُ رجلاً فقال: لا إله إلا الله فَطَعَنْتُهُ، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُهُ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ أَقَالَ لا إلَه إلا اللهُ وقَتَلْتَهُ؟ قال: قلتُ: يارسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أَفَلاَ شَقَقْتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يُكرِّرها على حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا فَعِندَ الله مغانم كثيرة﴾ هو تنفير من الإقدام على قتل من ألقى السلام بالإشارة إلى أن العجلة وعَدَمَ التأني في مثل هذه الأمور إنما تحصل ممن همُّه وقصدُه حُطام الدنيا الفاني وعرضها الزائل، والمؤمنون من شأنهم أنهم إنما يَرْجون ثواب الله وما أعده لعباده الصالحين، وما وعدهم من الحياة الطيبة ورغد العيش، وإذا كان ذلك كذلك فعند الله عز وجل ثواب الدنيا والآخرة كما قال تبارك وتعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعِنْدَ الله ثوابُ الدنيا والآخرة، وكان الله سميعا بصيرا.﴾ وقال عز وجل في سورة الشورى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها

وماله في الآخرة من نصيب﴾ صَانَ الله عز وجل جميع أصحاب رسوله ﷺ وخيرة خلق الله عز وجل بعد الأنبياء عن أن يكونوا ممن لا هَمَّ لهم إلا حُطَامُ الحياة الدنيا. وفي هذا السياق الكريم إشعارٌ بأن الأحكام إنما تناط بالظواهر، وعند الله عز وجل وحده العلم بالبواطن والسرائر. والتعبير بقوله: ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ لتأكيد التنفير من أن تتعلق همة الغازي بالعَرَض الذي لا بقاء له ولا دوام، وسُمِّيَ متاع الحياة الدنيا عرضاً لأنه عارض زائل فإنه لا بقاء له ولا دوام. فالدنيا كلُّها عرض زائل، والأموال فيها عاريةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ولذلك نبَّه الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث سَمَّى الغنيمةَ عَرَضاً أي سريعة الفناء قريبة الانقضاء وقوله تبارك وتعالى: ﴿كذلك كنتم من قبلُ فَمَنَّ الله عَلَيكُمْ فتَبَيَّنُوا﴾ أي إنكم كنتم في أول مجيء الإسلام وأنتم بمكة تُخْفُونَ إيمانكم عن قومكم كما أخفى هذا الذي ألقى إليكم السلام إيمانه عن قومه، ثم مَنَّ الله عز وجل عليكم بإعزازكم حتى أظهرتم دينكم، فتثبتوا ولا تَعْجَلُوا بقتل من أردتم قتله ممن التبس عليكم أمرُ إسلامه فلعل الله أن يكون قد مَنَّ عليه من الإسلام بمثل الذي قد مَنَّ به عليكم وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان وقد جاء في لفظ للبخاري في حديث المقداد بن عمرو الكندي حليف بني زهرة الذي سقته من رواية البخاري ومسلم في تفسير قوله عز وجل: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ﴾ قال البخاري: وقال حبيب بن أبي عمرة عن سعيد عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ للمقداد: إذا كان رجلٌ مؤمنٌ يُخْفِي إيمانه مع قوم كُفَّارٍ، فأظهر إيمانه، فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل. وقوله عز وجل: ﴿إن الله كان بماتعملون خبيرا.﴾ هو تهديد ووعيد وتحذير من الإقدام على قتل من قال: لا إله إلا الله، أو ألقى السلام إلى المسلمين، وأنه لابد من التثبت والتبيُّن والتأني في الحكم على مَنْ أظهر شعائر الإسلام إذ في التأنِّي

السلامة وفي العجلة الندامة، وكثيراً ما تورث العجلة همًّا وإبطاءً وتخلُّفاً كما في المثل: رُبَّ عَجَلَةٍ وَهَبَتْ رَيْثًا، ولا تستحب العجلة إلا في المسارعة إلى الخيرات كما في قوله عز وجل: ﴿وما أعجلك عن قومك ياموسى. قال هُمْ أُولاءِ على أَثَري وعجلتُ إليك ربِّ لِتَرْضى.﴾ وقوله عز وجل: ﴿لا يَسْتَوي الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غَيْرُ أولي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُون في سبيل الله بأموالهم وأنْفُسِهِمْ﴾ أي لا يتعادل المتخلِّفون عن القتال في سبيل الله من أهل الإيمان والتصديق بالله وبرسوله المُؤْثِرُونَ للدَّعَةِ والراحةِ والقعودِ في منازلهم على مقاساة صعوبة الأسفار ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله وقتالهم امتثالاً لأمر الله إلا أهل العذر منهم كالأعمى والأعرج والمريض الذين عذرهم الله عز وجل وأباح لهم التخلف والقعود عن الجهاد للضرر الذي أصابهم مما لا يتمكنون معه من الخروج والمشاركة في المعارك، لا يستوي هؤلاء القاعدون غيرُ ذوي العذر ولا يتعادلون بالمجاهدين في سبيل الله لإعلاء راية الإسلام ونشر شريعته، المستفرغين جُهدهم وطاقتهم في قتال أعداء الله وأعداء رسله، الباذلين أنفسهم وأموالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، قال البخاري في صحيحه: بابٌ ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت حتى جلستُ إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى عليه «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاءه ابن أمِّ مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يارسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذُهُ على فخِذي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حتى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ

أُولي الضَّرَرِ﴾ حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنين﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابنُ أمِّ مكتوم فَشَكَا ضَرَارَتَهُ، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ﴾ حدثنا محمدُ بن يوسف عن إسرائيل عن أبي إسحاقَ عن البراء قال: لما نزلتْ: ﴿لا يَسْتَوي القاعدون من المؤمنين﴾ قال النبيُّ ﷺ: ادعُوا فلانا، فجاءه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ أو الكَتِفُ، فقال: اكْتُبْ: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنينَ والمجاهدون في سبيل الله﴾ وخَلْفَ النبي ﷺ ابنُ أمِّ مكتومٍ، فقال: يارسول الله أنا ضَرِيرٌ، فنزلت مَكانها: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضَّرَرِ والمجاهدون في سبيل الله﴾ حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشامٌ أنَّ ابنَ جُرَيْجٍ أخبرهم ح وحدثني إسحاقُ أخبرنا عبد الرزَّاق أخبرنا ابن جريج أخبرني عبد الكريم أن مِقْسماً مولى عبد الله بن الحارث أخبره أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما أخبره: لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إلى بَدْرٍ. اهـ وقوله عز وجل ﴿فَضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً﴾ أي جعل الله عز وجل للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم مَزِيَّةً ومنزلةً ومرتبةً وطبقةً فوق القاعدين غير أولي الضرر، أما أولو الضرر فظاهر السياق يدل على أنهم في درجة المجاهدين بحسب نياتهم ويشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم من مَسِيرٍ، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة يارسول الله؟ قال: نَعَمْ، حَبَسَهُم العُذْرُ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكُلاً وَعَدَ الله الحسنى﴾ أي ولكل واحد من القاعدين والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم من المؤمنين وعدٌ من الله بالحسنى أي بالجنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا

عظيما . درجاتٍ منـه ومغفرةً ورحمةً ، وكـان الله غفورا رحيما . ﴾ أي ومنح الله عـز وجل من جوده وفضلـه المجـاهديـن وخصهم به على القـاعـدين ثوابـاً جزيلاً ، أعلى بـه درجاتهم في جنات النعيم وشملهم بمغفـرة ورحمة منه وكان الله ولا يزال متصفـاً بالمغفرة والرحمة ، ومجيء كـان في مثل هذا ، ونحو قـوله : ﴿وكان الله عليما حكيما . ﴾ للتنبيـه على أنه عـز وجل متصف بهذه الصفات أزلاً ولا يزال متصفاً بها فهي من صفات ذاته . وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً : إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله مـا بين الـدرجتين كما بين السماء والأرض . كما روى مسلم من حـديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : ياأبا سعيد من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمـد نبياً وجبت له الجنة ، فعجـب لها أبو سعيد فقال أعـدها عليَّ يـارسول الله ففعل ، ثم قـال : وأخرى يـرفع بها العبد مـائة درجة مـا بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . قال : وما هي يا رسول الله؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله .

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الْأَرْضِ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُم جَهَنَّم وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وكان الله عَفُوًّا غَفُورًا. وَمَنْ يُهَاجِرْ في سَبِيلِ الله يَجِدْ فى الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كثيرًا وَسَعَةً، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن رغَّب الله تبارك وتعالى في قتال الكفار الذين يحبسون المؤمنين بمكة ويُضَيِّقُونَ عليهم ويسومونهم سوء العذاب حيث قال: ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدَان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيرا.﴾ وحضَّ عز وجل على الهجرة والجهاد بيَّن هنا أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين رغَّب المسلمين وحضَّهم على استنقاذهم وتخليصهم من أيدي المشركين هم الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، أما من تكاسل عن الهجرة مع قدرته عليها ورضي بالعيش مع المشركين فإنه غير معذور في التخلف عن الهجرة لأن المسلمين وقتئذ في أمسِّ الحاجة إلى مَنْ يُكثر سوادهم من المسلمين، ولأن في المقام مع المشركين لغير عذر تكثيراً لسواد المشركين وتقوية لهم على المسلمين مع ما يُعرض هؤلاء المتخلفين عن الهجرة للتأثر بفتنة المشركين وموالاتهم، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة متحتمة على كل من قدر عليها حتى فتح الله عز وجل لرسوله ﷺ مكة وصارت دار إسلام فأعلن رسول الله ﷺ نسخ وجوب الهجرة من

مكة إلى المدينـة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيـة و إذا استنفـرتم فانفـروا. وقـد بين الله عـز وجل هنا أن دعـوى الـذين تكـاسلوا عن الهجـرة مع تمكنهم منهـا لو جـزمـوا عليها وزعمـوا أنهم كانـوا مستضعفين في الأرض هي دعوى كاذبة، وأن عُـذْرَهُمْ غيرُ مقبول حيث قال عز وجل هنا: ﴿إنَّ الذين توفاهم الملائكة ظَالِمِي أنْفُسِهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قـالوا ألم تكن أرضُ الله واسعـةً فتهاجـروا فيها، فأولَئك مأواهم جهنمُ وسـاءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجـال والنساء والوِلْـدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيـلا. فأولَئك عسى الله أن يَعْفُو عنهم، وكان الله عفُوًّا غفورًا﴾ قال البخـاري في صحيحه: باب ﴿إن الذين تَـوَفاهُـم الملائكة ظـالمي أنفسهم قـالـوا فيم كنتم قـالوا كنـا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها﴾ الآية. حدثنا عبد الله ابن يزيـد المُقرئ حـدثنا حَيْـوَة وغيره قالا: حـدثنا محمـد بن عبد الـرحمن أبو الأسود قال: قُطِعَ على أهل المدينة بعثٌ، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانـوا مع المشركين يُكثرون سَوَادَ المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السَّهْمُ فيـُـرمَي به، فيصيب أحـدهم فيقتله، أو يُضرب فيقتل. فأنزل الله: ﴿إن الـذين تَوَفاهُـم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآيـة. باب ﴿إلا المستضعفين من الـرجال والنسـاء والوِلْـدان لا يستطيعون حيلـةً ولا يهتدون سبيلا﴾ حدثنـا أبو النعمان حدثنا حماد عن أيـوب عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما إلا المستضعفين قـال: كانت أمي ممن عـذر الله. باب قوله: ﴿فأولَئك عسى الله أن يَعْفُو عنهم، وكان الله عفُـوًّا غفورًا﴾ حدثنا أبو نعيم حدثنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمـة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سَمِعَ الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: اللهم نَجّ عياش بن أبي ربيعة، اللهم نجِّ سلمة بن هشام، اللهم نجِّ الوليد بن الوليد، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن الذين تَوَفاهُم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم حالة كونهم ظالمي أنفسهم حيث رضوا بالقعود مع المشركين، وبتكثيرهم سواد الكفار، وبموالاتهم، وتركوا الهجرة التي فرضها الله عز وجل على كل من قدر عليها وقتئذ، وهم يعلمون أن الذين يتركون الهجرة وهم قادرون عليها تنقطع الولاية بينهم وبين المسلمين كما قال عز وجل: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا.﴾ فأكسبوا أنفسهم بذلك غضب الله وسخطه، وحمَّلوها ما لا تطيق من عذاب الله، وإن الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم، يوبخونهم عند الموت وهم ينزعون أرواحهم من أبدانهم ويغلظون لهم القول، ويقولون لهم: لِمَ رضيتُمْ بالقعود مع المشركين، وكثَّرْتُم سوادهم، وصِرْتُم في الصف المعادي لرسول الله ﷺ؟ ولم يكن لهؤلاء جوابٌ على سؤال الملائكة إلا أن يدَّعُوا كذبا وزورا أنهم كانوا تحت وطأة الكفار، وكان المشركون يستضعفونهم، ويمنعونهم من الهجرة، وقوله عز وجل: ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتَهَاجِرُوا فيها﴾ أي أجابتهم الملائكة برفض قبول دعواهم وقالوا لهم: ألم تكن أرض الله وبلاده فسيحة فتنتقلوا إليها، وتقيموا دينكم وشريعتكم، وتؤيدوا المسلمين، وتُكثِّروا سَوادهم، وأنتم لا تعجزون عن ذلك إذ يمكنكم أن تجدوا حيلة في الفرار من أرض الكفر والقهر والتسلط على المسلمين كما فعل المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة فوجدوا فيها المأوى والأمن، أو الذين هاجروا إلى المدينة فوجدوا فيها العزَّة والأمن

والاستقرار ونشر دين الله و إقامـة شرعه، وتأييد رسولـه ﷺ، ومن الثابت أن الله عز وجل قـد وكَّل ملائكة لقبض أرواح المؤمنين، ومـلائكةً لقبض أرواح الكـافرين كما قـال عز وجل: ﴿قل يتـوفاكم ملَك الموت الـذي وكل بكم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة بَاسِطُوٓا۟ أيديهم أَخْـرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبيَّ الله ﷺ قـال: كان فيمن كـان قبلكم رجلٌ قتل تسعـةً وتسعين نفسـاً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فـدُلَّ على راهب، فأتـاه فقـال: إنه قتل تسعـةً وتسعين نفساً فهل لـه من توبـة؟ فقال: لا. فقتلـه، فكَمَّلَ به مائةً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالمٍ فقال: إنه قتل مائة نفسٍ فهل لـه من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينـه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنَّ بها أناسـاً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا تـرجع إلى أرضك فإنها أرضُ سـوءٍ، فـانطلـق حتى إذا نصَّف الطـريق أتـاه الموت، فاختصمت فيـه ملائكة الـرحمة وملائكـةالعذاب، فقالت مـلائكة الرحمة: جاء تائبـاً مُقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت مـلائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتـاهـم ملكٌ في صـورة آدميٍّ، فجعلـوه بينهم أي حكماً، فقال: قيسُـوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهـو له، فقاسوا فـوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضتـه مـلائكـة الـرحمة، وقـولـه عـز وجل: ﴿فأولَئك مأواهـم جَهَنَّمُ وسـاءت مصيرا.﴾ أي فهـؤلاء الـذين لم يهاجـروا وظلموا أنفسهم، واستمـروا على ذلك إلى الموت حتى توفتهم الملائكـة ظالمي أنفسهم مصيرُهم في الآخـرة جهنمُ وهي مسكنهم وسـاءت جهنم لأهلهـا الذين صـاروا إليها مصيرًا ومسكنًا ومأوًى ثم بيَّن عـز وجل المستضعفين حقًّا وصدقاً وأنهم هم المعذورون المقبولُ عذرهم حيث حبسهم المشركون وقهروهم على البقاء في قبضتهم فقال عز وجل: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولـدان لا يستطيعون حيلـةً ولا يهتدون سبيلا. فـأولَئك عسى الله أن يَعْفُو

عنهم، وكان الله عفُوًّا غفورًا. ﴾ أي وقد استثنى الله عز وجل من هذا الوعيد الشديد مَنْ حبسه العذر حقيقة من عجزة الرجال الضعاف والنساء والصبيان الذين لا يقدرون على الهجرة ولا حيلة لهم في الخروج من بين ظهراني المشركين لضعف أجسامهم وعدم بصرهم بالطريق، وعجزهم عن الانفلات من قبضة المشركين فهؤلاء لعل الله عز وجل يعفو عنهم للعذر الذي هم فيه ماداموا مؤمنين بالله وبرسوله ﷺ لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ولا إيثاراً منهم لدار الكفر على دار الإسلام. والتعبير بقوله عز وجل: ﴿فأولَئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ للتنبيه على تأييس من ترك الهجرة اختياراً وإيثاراً لدار الكفر على دار الإسلام. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغَمًا كثيرا وسعةً﴾ ترغيب في الهجرة في سبيل الله، وإعلامٌ لمن كَرِه الهجرة من وطنه الكافر أهله بالله خوفاً على نفسه من مشقة الهجرة أو أن تصيبه فاقة وفقرٌ إن خرج من ماله وبلده بأن الله عز وجل يعده بالغنى ورغد العيش والحياة الكريمة فمن ترك شيئا لله عوَّضه الله عز وجل خيراً منه، ويسَّر له تبارك وتعالى دنياه ودينه، وأوجد له من السعة والنعم الجليلة والمراتب العظيمة في دار هجرته ما يُرغم به أنوف أعدائه.

وقوله عز وجل: ﴿ومن يخرجْ من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفورا رحيما. ﴾ هذا وعدٌ كريم من الله عز وجل لمن خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله محمد ﷺ ثم أصابته مصيبة الموت قبل أن يصل إلى دار هجرته بأن الله تبارك وتعالى يمنحه أجر المهاجرين كاملاً غير منقوص فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً، وأن الله عز وجل يُبَشِّره بمغفرة منه ورحمة، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا. وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَك وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وليَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأَسْلِحَتَهُمْ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أو كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ للكافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل فضله على المهاجرين بإتمام نعمته عليهم وإعطائهم ثواب الهجرة غير منقوص بمجرد مفارقتهم بيوتهم مهاجرين إلى الله ورسوله ذكر عز وجل هنا فضله على جميع المؤمنين بما يسره لهم من التشريع حيث رخص لهم في قصر الصلاة الرباعية في السفر، وفيه إيماءةٌ إلى الحض على الهجرة إلى الله ورسوله والجهاد في سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاة﴾ أي وإذا سرتم في الأرض وصرتم على سفر فليس عليكم حرج ولا إثم ولا وزر أن تخففوا من صلاتكم التي فرضها الله عز وجل عليكم، وقد بين رسول الله ﷺ ما يقصر من الصلاة ومقدار قصره حيث أوضح ﷺ أنه لا قصر إلا في الصلاة الرباعية. وهي الظهر والعصر والعشاء أما الصبح والمغرب فلا قصر فيهما، وأن قصر الرباعية يكون بجعلها ركعتين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر وفي رواية للبخاري: ثم هاجر ففرضت أربعًا وأقرت صلاة السفر على

الأول، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، كما روى أحمد بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول ما افترض على رسول الله ﷺ الصلاة ركعتان ركعتان إلا المغرب فإنها كانت ثلاثاً ثم أتم الظهر والعصر والعشاء الآخرة أربعاً في الحضر وأقر الصلاة على فرضها الأول في السفر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ أي إن خشيتم أن ينالكم الكفار بمكروه، وهذا الشرط لبيان الواقع عند نزول هذه الآية وهو ما كان يتعرض له المسلمون من أذى من المشركين إذ كان غالب أسفار المسلمين مخوفة، حيث كان المشركون حرباً للإسلام وأهله، والقاعدة عند الأصوليين أن الشرط إذا كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه لا مفهوم له، وعلى هذا فإن قصر الصلاة لا يشترط فيه خوف فتنة الذين كفروا ولذلك روى مسلم في صحيحه من طريق يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب ﴿ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته. وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أنبأنا أبو إسحاق سمعت حارثة بن وهب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، آمن ما كان، بمنى ركعتين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الكافرين كانوا لكم عَدُوًّا مُبِينًا.﴾ تذكير بنعمة الله عز وجل على المؤمنين بما يسره لهم من التشريع وتحذيرٌ من أهل الكفر ببيان أن قلوبهم مملوءةٌ بالعداوة للمسلمين. وقوله عز وجل: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فَلْتقم طائفةٌ منهم مَعَكَ ولْيَأْخُذُوا أسلحتهم﴾ الآية، بعد أن بيَّن الله عز وجل فضله على المسلمين بالترخيص لهم في قصر الصلاة الرباعية في

السفـر شرع في بيان نعمـة أخرى وهي مـا تفضل عز وجل بـه على المسلمين فسهَّل عليهم كيفية الصلاة في حالة الخوف تيسيراً على المسلمين وحرصاً على سلامتهم، ولذلك كان من المقـررات عند علماء أصول الفقه أن المشقة تجلب التيسير، وفي هذا تنبيه أيضـاً لمزية الصلاة وفضلها وأنه يجب المحـافظة عليها في سـائر الأحوال من الصحـة والمرض والخوف والأمن وفي ذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿حـافظوا على الصلوات والصـلاة الوسطى وقومـوا لله قانتين. فإن خفتم فـرجـالا أو ركبـانـا فإذا أَمِنتُّـمْ فـاذكـروا الله كما عَلَّمَكُمْ مـالم تكـونـوا تعلمون.﴾ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وإذا كنت فيهم فأَقَمْتَ لهم الصلاة﴾ أي وإذا كنت يامحمد حاضراً في أصحـابك وشهدت معهم القتال فأردت أن تقيم بهم الصلاة وتؤديها معهم، وهذا الأسلوب نظير قوله عز وجل: ﴿ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهُنَّ لعدتهن﴾ ونظير قوله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتكَ سكَنٌ لهم﴾ وقد فهم منها جميع أصحاب رسـول الله ﷺ وجوب أخذ الزكـاة من أصحابها بعد رسول الله ﷺ وقاتـل أبو بكر رضي الله عنه ومعه أصحـاب رسول الله ﷺ من مَنَعَ الزكاة مُـدعياً أن المأمور بأخذهـا في الآية هو رسول الله ﷺ وأنـه هو الذي يصلي عليهم فإذا مـات رسول الله ﷺ انقطع وجـوب الزكـاة. فبين أبو بكـر رضي الله عنـه أنهم مخطئـون ووافقه على ذلك جميع أصحـاب رسـول الله ﷺ ولذلك ذهب عامة العلماء إلى أن صـلاة الخوف مشروعة إلى يوم القيامة. ولا عبرة بشذوذ مـن شذ وادعى أنها كـانت خاصـة برسـول الله ﷺ. وقولـه عز وجل: ﴿فلتقم طائفة منهم معك وليأخـذوا أسلحتهم﴾ أي فاجعل الجماعة فرقتين فرقة تصف وراءك وتصلي معك ركعـة وهم يحملون أسلحتهم، وفرقة تقف وراءكم لحمايـة ظهـوركم وتكـون في نحـر العـدوِّ، فإذا سجـدت بهذه الطائفة وأنهيت السجود من الركعـة الأولى قمت وثَبَتَّ قائماً، وقامت الطائفة

التي صلت معك ركعةً فأتمت لنفسها الركعة الثانية فإذا سلمت هذه الطائفة قامت في وجه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصفت وراءك وصليت بهم الركعة الثانية بالنسبة لك فإذا أنهيت السجود من ركعتك الثانية ثَبَتَّ جالساً، وقام الذين خلفك فصلوا وأتموا لأنفسهم الركعة الثانية وسلمتم جميعاً، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق صالح بن خوات بن جبير الأنصاري عمن صلى مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صلت معه وطائفة وجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم. وقد بيَّن هذا الحديث المتفق على صحته بعض ما جاء مجملاً في هذه الآية الكريمة، التي تدل دلالة ظاهرة على وجوب صلاة الجماعة، وهذه الرواية تبيِّن إحدى كيفيات صلاة الخوف، وقد صحت الروايات عن رسول الله ﷺ التي تبيِّن كيفية أخرى من كيفيات صلاة الخوف فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قِبل نجد، فوازينا العدو، فصافناهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي بنا، فقامت طائفة معه، وأقبلت طائفة على العدو، وركع بمن معه وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاءوا فركع بهم ركعة وسجد سجدتين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين. وقد أورد مسلم رحمه الله في صحيحه كيفية ثالثة من حديث جابر بن عبد الله قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ، وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف الآخر في

نحر العـدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقـام الصف الذي يليـه، انحدر الصف المؤخر بالسجـود وقاموا ثـم تقدم الصف المؤخـر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنـا جميعا، ثـم رفع رأسه من الـركـوع ورفعنا جميعـاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الـذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحور العـدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحـدر الصف المؤخر بـالسجود فسجدوا، ثـم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعا. وهـذا الحديث يفيد أن تغير كيفية صلاة الخوف جـاء بحسب موقع العدو من القبلة، وأنه إذا كان جهة القبلـة كانت كيفية صلاة الخوف مغايرة لكيفيتها إذا كـان العدو لغير جهـة القبلة. وهذه الأخبـار الصحيحة الثـابتة تفيد أن صلاة الخوف ركعتان، أما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة. فقد قـال النووي رحمه الله: قوله: وفي الخوف ركعة. المراد ركعـة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفـرداً، قال: وهـذا التأويل لابـد منـه للجمع بين الأدلـة اهـ ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿وليأخـذوا حـذرهم وأسلحتهم﴾ أي وليحـذروا حـذراً شديـداً وليحملـوا أسلحتهم، وقد ذكر الله عز وجل في الطائفة الأولى الأمر بأخذ الأسلحة فقط وذكر في الطائفـة الثانية الأمر بأخذ الحذر والأسلحة للتنبيـه على أن العدو قد لا ينتبـه للمسلمين في أول الصلاة فإذا ركعـوا انتبه العـدو لذلك وقـد يغتنم الفرصـة فيهجم على المسلمين حينئذ فنبه الله المسلمين في هـذا الموضع زيادة تنبيه حيث أمرهم بأخذ الحذر والأسلحة، وقوله عز وجل: ﴿وَدَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم مَيْلَـةً واحدة﴾ هذا بيان لسبب الأمـر بأخـذ الحذر والسـلاح في الصلاة، أي تمنى الـذين كفـروا لـو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم التـي تقاتلونهم بها وعن أمتعتكم التي بها

بلاغكم في سفركم فتسهون عنها فيحملون عليكم وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم حملة واحـدة فيصيبون منكم غـرة ويستأصلونكم.

وقـولـه عـز وجل: ﴿ولا جنـاح عليكـم إن كـان بكـم أذى من مطـر أو كنتم مرضى أن تضعـوا أسلحتكم وخذوا حـذركم، إن الله أعد للكـافرين عـذابا مهينـا.﴾ أي ولا حرج عليكم إن كـان عليكـم مطـر يؤذيكم أو كـانت بكم جراحة أو مرض يتعبكم بسببـه حمل السلاح في الصلاة ألا تحملوا أسلحتكم في الصلاة، واحترسـوا منهم أن يميلوا عليكم أثناء صلاتكم فـلا تغفلوا عن تحركاتهم، وكونوا على أهبة واستعداد لملاقاتهم، وثقوا بأن الله معكم وقد أعدَّ لأعدائكم الكـافرين عذاباً مُـذلاً لا يخرجون منه أبداً وهـو نار جهنم، وأنتم على خير مادمتم مسترشدين بدين الإسلام مستمسكين بتعاليمه.

قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وعلى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاة ، إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . وَلا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كما تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . ﴾

بعد أن بين الله عز وجل للمسلمين كيفية من كيفيات صلاة الخوف عقب الترخيص لهم بقصر الصلاة في السفر، وقد اشتملت صفة صلاة الخوف على حركات وأعمال لا يؤذن فيها إلا في صلاة الخوف ، كما أن صلاة السفر قد نقصت في الرباعية وصارت ركعتين بدل أربع ركعات ، نبه الله عز وجل المسلمين إلى ذكره وشكره بعد الفراغ من صلاة السفر وصلاة الخوف ، وأن يحرص المسلم على الاشتغال بذكر الله عز وجل في كل أحواله من القيام والقعود وعند الاضطجاع على جنبه ، وأن يديم ذكره عز وجل بالتهليل والتكبير والدعاء بنصر الإسلام و إعلاء رايته و إعزاز أهله وخذلان أعدائه ، فإن ذكر الله عز وجل من أعظم أسباب النصر كما قال تبارك وتعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . ﴾ كما أن في الإكثار من ذكر الله عز وجل بعد صلاة السفر المقصورة وصلاة الخوف التي اشتغل المصلي فيها بالكثير من الحركات التي لا تجوز في غير صلاة الخوف نوع جبرانٍ لهذا القصر وتلك الحركات . على أن الله عز وجل قد أرشد عباده إلى الإكثار من ذكره بعد قضائهم عباداتهم حيث يقول عز وجل : ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ ووصف عباده الصالحين ذوي الألباب بأنهم يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم حيث يقول : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ الآية . وقد روى

الترمذي بسند حسن من حديث عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنه أن رجلاً قال: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله. ولذلك أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى أوراد من ذكر الله عز وجل بعد كل صلاة من الصلوات الخمس فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام، كما روى البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلَّم قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ. كما روى مسلم من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان يقول دبر كلِّ صلاةٍ حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاةٍ. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضلٌ من أموال يحجون ويعتمرون، ويجاهدون ويتصدقون، فقال: ألا أعلمكم شيئاً تدركون من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بلى يارسول الله، قال: تسبحون وتحمِّدون وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: من سبح الله في

دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثـلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطايـاه وإن كانت مثل زبد البحر كما روى البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات: اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمـر، وأعوذ بك من فتنـة الدنيـا، وأعوذ بك من فتنـة القبر. كما روى أبـو داود بسنـد صحيح من حـديث معـاذ رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ أخـذ بيده وقـال: يامعاذ، والله إني لأحبـك، فقال: أوصيك يـامعاذ لا تـدعن في دبر كل صـلاة تقـول: اللهم أعني على ذكرك وشكـرك وحسن عبـادتك، ومعنـى قـولـه عـز وجل: ﴿فـإذا قَضَيتُمُ الصـلاة﴾ أي أديتموها وفرغتم منها، فالقضاء هنا بمعنى الأداء كما قال الشاعر:

قَضَى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ   وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَـا

وقوله عز وجل: ﴿فإذا اطمأننتـم فأقيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتم فجوِّدوا صـلاتكم وأدوها وأقيمـوهـا كما أُمـرتم بحدودهـا، وخشـوعهـا، وركوعهـا وسجـودها وجميع شئونها، ولا تتخللوهـا بـالتحركـات التي أُبيحت لكم في صلاة الخوف، وعدلـوا أركانهاوراعوا شروطها، ولا تخرجـوها عن أوقاتها التي بينهـا لكم رسول الله ﷺ، ولا تضيعـوها، وقـوله عـز وجل: ﴿فإذا قضيتم الصـلاة فـاذكـروا الله قيـامـاً وقعـوداً وعلى جنـوبكم فإذا اطمأننتم فأقيمـوا الصـلاة﴾ شبيهٌ بقـوله عـز وجل: ﴿فإن خفتم فرجـالا أو ركبانـا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون.﴾ وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتابًا مَوْقُوتـا.﴾ قال البخاري في صحيحه: باب مواقيت الصلاة وفضلهـا، وقوله: ﴿إنَّ الصلاة كـانت على المؤمنين كتابا موقـوتا.﴾ موقتاً وقته عليهم. حدثنا عبد الله بن مسلمة قال: قرأت على مالك عن ابن

شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخَّر الصـلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخَّـر الصلاة يوماً وهـو بالعراق، فدخل عليـه أبو مسعود الأنصـاري فقال: مـاهذا يامغيرة؟ أليـس قد علمت أن جبريل ﷺ نـزل فصلى فصلى رسـول الله ﷺ، ثـم صلى فصلى رسـول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم قال: بهذا أُمرت، الحديث. وفي لفظ للبخـاري ومسلم من طريق ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخـرَّ العصر شيئاً، فقال له عروة: أما إن جبريل قـد نزل فصلى أمـام رسـول الله ﷺ، فقال لـه عمـر: اعلم ما تقـول يـاعـروة، فقال: سمعـت بشير بن أبي مسعود يقـول: سمعت أبـا مسعـود يقـول: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: نزل جبريل فأمَّني فصليت معـه، ثم صليت معـه، ثم صليت معه، ثم صليـت معه، ثم صليت معـه، يحسب بأصابعه خمس صلوات. كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: قـال رسـول الله ﷺ: وقت الظهـر إذا زالت الشمس، وكـان ظـل الـرجل كطولـه، مالم يحضر العصر، ووقت العصر مالم تصفـر الشمس ووقت صلاة المغـرب مالم يغب الشفق، ووقت صـلاة العشـاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صـلاة الصبـح من طلـوع الفجـر مـالم تطلـع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قـرني الشيطان. كما روى مسلم من حديث بريدة قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن وقت الصلاة، فقال له: صلِّ معنا هذين — يعني اليومين — فلمازالت الشمس أمر بلالاً فأذن، ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقـام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمـره فأقام المغـرب حين غابت الشمـس، ثم أمره فأقـام العشاء حين غـاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجـر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بـالظهر فأبرد بها فأنعم أن يبرد بها، وصلى العصر والشمس مـرتفعة —

أخَّرها فوق الذي كان — وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل، وصل الفجر فأسفر بها، ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل: أنا يارسول الله، قال: وقت صلاتكم بين ما رأيتم، وقوله في حديث عبد الله بن عمرو «وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله مالم يحضر العصر» أي ووقت صلاة الظهر يبدأ من زوال الشمس ويستمر وقتها حتى يصير ظل الرجل مثله. وقوله: «ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط» هذا بيان لوقت الاختيار المستحب في صلاة العشاء الذي يبتدئ من غيبوبة الشفق إلى نصف الليل، وأما وقت العشاء في الاضطرار فهو ممتد من نصف الليل إلى طلوع الفجر، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: ليس في النوم تفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى. وهو يفيد امتداد وقت كل صلاة إلى دخول وقت الصلاة الأخرى غير أن الإجماع منعقد على أن صلاة الفجر ينتهي وقتها بطلوع الشمس، ولا يبتدئ وقت الظهر إلا من زوال الشمس، وقد أكد حديث عبد الله بن عمرو ذلك وبيَّنه، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. وقد بينت هذه الأحاديث الصحيحة مجمل قوله عز وجل: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ المفيد لفرضيتها وتوقيتها. وقوله عز وجل: ﴿ولا تَهِنُوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما. ﴾ ترغيبٌ للمؤمنين في الهجوم على أعداء الله ورسوله المحاربين للمسلمين وتشجيع لحزب الله على ملاحقة حزب الشيطان لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، أي ولا تضعفوا في طلب

الكفار لقتالهم وملاحقتهم لاستئصال شأفتهم، فإن أصابتكم آلام وأوجاع وجراح في محاربتهم فإنهم تصيبهم الجراح والأوجاع والآلام ومع ما يصيبهم من الجراح والأوجاع والآلام فإنهم يقاتلونكم تحت راية الشيطان وأنتم تقاتلونهم تحت راية الإسلام، وتأملون من الله مولاكم نصره وتأييده ومثوبته لكم بالحسنى والنعيم المقيم، وأعداؤكم لا مولى لهم إلا الشيطان، وكيده ضعيف، فلا تخافوهم واعتصموا بحبل الله، العليم بمصالح خلقه وبأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة، الحكيم في تدبيره وقضائه وقدره، وأمره ونهيه المعزّ لأوليائه المذلّ لأعدائه، وثقوا بوعده إنه عز وجل لا يخلف الميعاد.

قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بالحقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَرَاكَ اللهُ، وَلا تَكُنْ للخائنِينَ خَصِيماً* واسْتَغْفِرِ اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيما . ولا تُجَادِلْ عن الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أثِيما . ﴾

بعد أن حرض الله عز وجل المؤمنين على مهاجمة الكفار وملاحقة أعداء الله وقتالهم لتكون كلمة الله هي العليا ، وبيَّن لهم أنهم على خير سواء كانوا غالبين في المعارك أو مغلوبين ، أعلن تبارك وتعالى هنا أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ لإقامة العدل بين الناس ، وأنه يتحتم عليهم أن يكونوا قوامين بالقسط ولو على أنفسهم ، وأنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يجور عن منهج القرآن ، بل يجب الحكم بهذا الكتاب العظيم ، والسير على منهاجه في معاملة الناس بغض النظر عن عداوتهم أو محبتهم كما قال عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فاللهُ أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تَعْدِلُوا ، وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرًا . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قوم على أَلا تَعْدِلوا ، اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى واتقوا الله ، إنَّ الله خبير بما تَعملونَ . ﴾ وأنه يجب العدل في معاملة المنافقين والكافرين كما يجب العدل في معاملة المسلمين وأنه ينبغي للمسلمين أن يتفطنوا فلا يدافعوا عن أحد إلا ببينة ، ولا يغتروا فيجادلوا عن المنافقين الخائنين لله ولرسوله وللمسلمين ، لأن العدل تقوم به السموات والأرض ، ولذلك أثر عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه لما بعثه رسول الله ﷺ خَارِصًا على أهل خيبر من اليهود وعلموا بقدومه أعدُّوا له رشوة يرشونه بها حتى يخفف عنهم في الخرص فرفض قبول رشوتهم وقال لهم : ياإخوان القردة والخنازير والله ما تركتُ وجهاً أحب إلي من

وجه رسول الله ﷺ ولا أقبلت على وجه أبغض إليَّ من وجوهكم، ولا يمنعني حبي لرسول الله ﷺ وبغضي لكم أن أقيم العدل فيكم، فقالوا: بهذا العدل قامت السموات والأرض قال أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقرئ الإسفرائيني بها قال: أخبرنا الحسن بن محمد بن إسحاق حدثنا يوسف بن يعقوب حدثنا عبد الواحد بن غياث حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبيد الله بن عمر — فيما يحسب أبو سلمة — عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الأرض والزرع والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يغّيبوا شيئاً فإن فعلوا فلاذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مَسْكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله ﷺ لعم حُيَيٍّ: ما فعل مسك حييٍّ الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان حييٌّ قبل ذلك دخل خربة، فقال: قد رأيت حييًّا يطوف في خربة ههنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحُقيق وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب وسبي رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، وأراد أن يجليهم منها، فقالوا يامحمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يُضمِّنهم الشطر، فشكوا لرسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه

فقال: ياأعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على ألا أعدل عليكم، فقالوا بهذا قامت السموات والأرض، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي إنا أوحينا إليك هذا القرآن العظيم لتقضي للناس في قضاياهم وتفصل بينهم في منازعاتهم على نور هذا الكتاب الملازم للحق والعدل والصدق بما علمك الله عز وجل وعرفك وأطلعك بما أنزل عليك من الوحي، ووضع لك من قواعد العدل والإنصاف للولي والعدو، وأن لا يؤخذ أحد إلا بجريرته، مع التثبت في الحكم، وعدم قبول دعوى أحد على أحد إلا ببرهان، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنه قد يقضي بين المتخاصمين بما يقدمه كل واحد منهما من حجة، وقد يكون بعضهم أقوى بحجته من بعض، فإذا قضى لأحد بسبب حجته القوية التي قد تكون مخالفة للواقع فإنه يقضي له بقطعة من النار فقد روى البخاري في كتاب الحيل من صحيحه: بابٌ حدثنا محمد بن كثير عن سفيان عن هشام عن عروة عن زينب ابنة أم سلمة عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: إنما أنا بشرٌ وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعةً من النار. وقال البخاري في كتاب الأحكام من صحيحه: باب من قُضي له بحق أخيه فلا يأخذه، فإنَّ قضاء الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن زينب ابنة أبي سلمة أخبرته أن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرتها عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل

بعضكم أن يكـون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صـادق فأقضي له بـذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها. ثم ساقـه في باب القضـاء في كثير المال وقليله من حـديث أم سلمة رضي الله عنها قـالت: سمع النبي ﷺ جلبة خصام عنـد بابه، فخـرج عليهم فقال: إنما أنـا بشرٌ، وإنـه يأتيني الخصم، فلعـل بعضـاً أن يكـون أبلغ من بعض، أقضي له بذلك، وأحسب أنـه صادق، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخـذها أو ليدعها. وأخرجه مسلم من طـريق أبي معاوية عن هشام بن عـروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمـة قالت: قال رسول الله ﷺ: إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فـلا يأخذه، فإنما أقطع لـه به قطعة من النـار، ثم ساقـه من طريق ابن شهـاب أخبرني عروة بن الـزبير عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمـة زوج النبي ﷺ أن رسـول الله ﷺ سمع جلبـة خصم ببـاب حجرتـه فخـرج إليهم فقـال: إنما أنـا بشر، وإنـه يأتيني الخصـم فلعل بعضهم أن يكـون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملهـا أو ليذرها. وقولـه عز وجل: ﴿ولا تكن للخائنين خصيما. واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما. ولا تجادل عن الـذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خوانا أثِيماً.﴾ هـذا إرشاد من الله عز وجل لرسولـه ﷺ ولجميع المؤمنين بألا يجادلوا ويدافعوا عن الخونة مهما كـانوا سواء كانوا من المنافقين أو كانـوا من غير المنافقين، فمن عرفت خيانته لا يجوز لمن يـؤمن بالله واليـوم الآخر أن يـدافع عنه ويحامي لـه، وأنه ينبغي للمـؤمن أن يحرص على أن يستغفـر ربـه وأن يتوب إليـه عـز وجل ويحرص على رضى الله تبارك وتعالى الذي يحب المستغفرين ويتـوب عليهم لأنه عز وجل هو الغفور

الرحيم، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الدفاع والمحاماة عن الخونة وبين تبارك وتعالى أنه لا يحب الخائنين فلا يحل لمسلم أن يدافع عمن لا يحبهم الله عز وجل، لأن من دافع عن الخونة كان راضياً بالخيانة مقرراً لها مدافعاً عن مرتكبي المعاصي والآثام، وهذا لا يليق بمسلم. وإيراد التحذير بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ المعصوم من كل ذنب المبرء من كل عيب صلوات الله وسلامه عليه إنما هو من باب قولهم: إياك أعني واسمعي ياجارة، على أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، وأن الأمر بالاستغفار لا يقتضي أن يكون المستغفر قد ارتكب معصية وذنباً، غير أن توجيه الخطاب بهذه الوصايا إلى رسول الله ﷺ للفت انتباه المسلمين إلى شدة الحذر من الدفاع عن المنافقين حتى ولو كانوا في مخاصمة مع اليهود أو غيرهم والمعلوم أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جميعاً كانوا لا يعلمون نفاق بعض المنافقين وكانوا يغترون بما يرونه من ظهورهم بمظاهر المسلمين، ولذلك جاء في حديث الإفك أن سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه دافع عن عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين حيث لم يكن عالماً بنفاقه لما كان يظهره عدو الله من الطاعة والتذكير كل يوم جمعة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿الذين يختانون أنفسهم﴾ أي يُخَوِّنون أنفسهم فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة، ولاشك أن من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب الجميل وأوصلها إلى العقاب الوبيل، فكان ذلك منه خيانة لنفسه، ولذلك يقال لمن ظلم غيره: قد ظلمت نفسك، والتعبير بقوله ﴿إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾ للإشعار بأن الإنسان إذا كثرت منه الخيانة والإثم كان حريًّا بغضب الله وسخطه وعدم رضاه عنه. وفي هذا عظيم التهديد والوعيد لمن يكون بهذه المثابة ولمن يدافع ويجادل عنه وقد روى البخاري من حديث خولة بنت عامر الأنصارية وهي امرأة حمزة رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطًا. هاأنتمْ هٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أم من يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً. وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَة أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فقد احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.﴾

بعد أن حذر تبارك وتعالى أشد التحذير من الجدال والدفاع والمحاماة عن المنافقين وسائر الخونة، وأنذر الخوَّان الأثيم ببغض الله له، والويل كل الويل لمن أبغضه جبار السموات والأرض العزيز المقتدر، وبَّخ هنا المنافقين بما يدل على سفاهة عقولهم، وشدة غباوتهم حيث يقول عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ من الناس﴾ يستخفي هؤلاء الذين يختانون أنفسهم ما أتوا من الخيانة، وركبوا من العار والمعصية ﴿من الناس﴾ الذين لا يقدرون لهم على شيء إلا ذكرهم بقبيح ما أتوا من فعلهم، وشنيع ما ركبوا من جرمهم إذا اطلعوا عليه، حياءً منهم وحذراً من قبيح الأحدوثة ﴿ولا يستخفون من الله﴾ الذي هو مُطَّلِعٌ عليهم، لا يَخْفَى عليه شيء من أعمالهم، وبيده العقاب والنكال وتعجيل العذاب، وهو أحق أن يستحى منه من غيره، وأولى أن يعظم بألا يراهم حيث يكرهون أن يراهم أحدٌ من خلقه ﴿وهو معهم﴾ يعني: والله شاهدهم ﴿إذْ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى من القول﴾ يقول: حين يسوون ليلاً ما لا يرضى من القول، فيغيرونه عن وجهه ويكذبون فيه اهـ وهذا المقام شبيه بما ذكره الله عز وجل عن المنافقين في

الآيـة الحاديـة والثمانين من هـذه السـورة المبـاركـة حيث يقـول عـز وجل :
﴿ويقولون طـاعة فإذا بَرَزُوا من عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَـةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الذي تقولُ والله يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فأَعْرِضْ عنهم وتَوَكَّلْ على الله وكَفَى بالله وكيلا .﴾ وقوله عز وجل : ﴿هَاأَنْتُمْ هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فَمَنْ يجادل اللهَ عنهم يوم القيـامـة أم من يكـون عليهم وكيـلا .﴾ تأنيب وتـوبيخ وتهجين لمن يجادل ويحامي عن المنـافقين والخونة بأنهم إن دافعـوا عنهم في الحياة الـدنيا ودفعـوا عنهم عقـوبة جرائمهم التـي يستخفون بها من الناس ولا يستخفـون من الله فهل يستطيعون المحاماة والدفاع والجدال عنهـم عند الله يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلـب سليم ، ويفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . وماذا يكـون صنيع هؤلاء يوم القيامة بين يدي من يعلم السر وأخفى ، وهل يظن أحد من هؤلاء المجادلين عن المنافقين والخونة أن يقوم وكيـلاً عن المنافقين في عـرصات القيـامة يجادل عنهم ويـدفع عنهم عـذاب جبار السمـوات والأرض؟ ثم بعـد هـذا الترهيب شرع يسلك معهم مسلك الترغيب ، فدعاهم إلى التوبة والرجوع إلى الله عز وجل والاستغفار من خطاياهم التي اكتسبـوها ويخبرهم عن جوده وكرمه وقبولـه توبة التائبين مهما كانت ذنوبهم وخطـاياهم ، وأنه لا ينبغي لمن يريـد الخير لنفسه أن يقنط من رحمة الله ، ولا أن ييأس من عفـوه ، فقـال عـز وجل : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُـوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَـهُ ثم يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غفـورا رحيما .﴾ وهو يفيـد سعة رحمة الله وأنه لا يرد من تاب إليه وأقبل عليه ولو كانت خطاياه مثل زبد البحر قال ابن جـريـر : يعني بذلـك جل ثناؤه : ومن يعمـل ذنباً وهـو السـوء ، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بإكسابه إياها مـا يستحق به عقوبة الله ﴿ثم يستغفر الله﴾ يقول : ثم يتوب إلى الله بإنابته مما عمل من السوء وظلم نفسه ، ومراجعته ما يحبه الله من الأعمال الصـالحة التي تمحو ذنبـه ، وتذهب جـرمه ﴿يجد الله غفـورا رحيما﴾

يقول: يجد ربه ساتراً عليه ذنبه، بصفحه له عن عقوبة جرمه، رحيما به، إلى أن قال رحمه الله: حدثني محمد بن المثنى قال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن عاصم عن أبي وائل: قال: قال عبد الله: كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنبا أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض فقال رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبد الله: ما آتاكم الله خير مما آتاهم، جعل الله الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ وقال: ﴿ومَنْ يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ حدثني يعقوب قال: حدثنا هشيم قال: حدثنا ابن عون عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت، فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها، فقال ابن مغفل: مالها؟ لها النار، فانصرفت وهي تبكي، فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿من يعمل سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما.﴾ قال: فمسحت دمعها ثم مضت، حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿ومَنْ يعملْ سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ قال: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيرا، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال اهـ وقوله عز وجل: ﴿ومن يَكْسِبْ إثْما فإنما يَكْسِبُهُ على نفسه، وكان الله عليما حكيما.﴾ بعد أن رهب الله عز وجل من معصيته ورغب في التوبة والاستغفار من المعاصي والسيئات ذكر هنا على سبيل الترهيب والترغيب أيضاً أن أي ذنب يرتكبه الإنسان فإنه هو وحده الذي يتحمل عقوبته وأن وبال ذلك راجع إليه وحده فلا تزر وازرة وزر

أخرى، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فمرتكب المعصية لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً. ومن يأت ذنبا متعمداً فإنما يكتسب ويجترح وبال ذلك الذنب وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره، ولن يبلغ العبد نفع ربه فينفعه، ولن يبلغ ضره فيضره، كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، ياعبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خطيئةً أو إثما ثم يَرْمِ به بريئًا فقد احْتَمَلَ بُهْتَانًا وإثما مُبِينًا.﴾ هذا ترهيب عظيم من أن يرتكب الإنسان شيئا مما يسوء سواء كان متعمداً أو غير متعمد ثم يلصقه بإنسان بريء منه لم يقترفه، وأن من يفعل ذلك فقد تحمل بعمله هذا فرية وكذباً وإثماً عظيماً وجرماً فظيعاً، والفرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد أما الإثم فلا يكون إلا عن

عمد. والبهتان هوالفرية والكـذب بأن يقول على الإنسان ما ليس فيه قال في القاموس المحيط: بهتـه كمنعه بَهْتًا وبَهَتًا وبُهتانا قال عليـه مالم يفعل والبهيتة الباطل الذي يتحير من بطـلانه والكذب كالبهت بـالضم اهـ والبهتان أقبح من الغيبة والنميمـة وقد روى البخاري ومسلم من حديث حـذيفة رضي الله عنه قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: لا يدخـل الجنة قتـاتٌ. وفي رواية مسلم: نمام ووصف الله عز وجل الغيبة بأقبـح الأوصاف التي تجعل العاقل ينفر منهـا أشد النفـور حيث يقول عز وجـل: ﴿ولا يَغْتَبْ بَعْضكُمْ بعضا، أيحب أحـدكم أن يأكل لحم أخيــه مَيْتًـا فكَـرِهْتُمـوه﴾ وقـد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قـال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيـه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتـه، وفي لفظ لمسلم: إذا قلت لأخيك ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ماليس فيـه فقد بهته. ولاشك أن كلمة واحدة مـن غيبة أو نميمة أو بهتـان قد تحول بين الإنسـان وبين الموت على الإسـلام لأنها من سخط الله وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبـد ليتكلم بـالكلمـة مـن رضـوان الله لا يلقي لها بـالاً يـرفعـه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم، وفي رواية للبخاري ومسلم: يهوى بها في النـار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإنما كان البهتـان أقبح من الغيبة والنميمة لأن صـاحبه يفترى ما يقول. ولذلك قال الشاعر:

لي حيلةٌ فيما ينم وليس في الكذاب حيله ... من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليله

وقد وصف الله عـز وجل هنا من يـرمي البرىء بجريرتـه هو بأنـه قد احتمل بهتانا وإثما مبينا، وقال عز وجل في سورة الأحزاب: ﴿والذين يُؤْذُونَ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا.﴾

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أن يُضِلُّوكَ وما يُضلون إلا أَنْفُسَهُـمْ وَمَا يَضُرُّونَك مِنْ شَيْءٍ، وَأَنْـزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَـابَ والْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَـالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً. لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَـةٍ أو مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً.﴾

بعد أن أوضح الله عز وجل لرسولـه ﷺ وللمؤمنين بعض مواقف المنافقين الذين يُبَيِّتُونَ مـا لا يَرْضَى من القول وندد بمـن يجادل عن المنافقين والخونة، مما يشعر بشدة ما يحكمه المنافقون من نفاقهم سعياً لإضلال المسلمين، وبعد ما ساقـه عز وجل من الترغيب والترهيب أوضح هنا أنه عصم رسـوله محمداً ﷺ بفضلـه ورحمتـه، فـلا يستطيع الغـواة من شيـاطين الإنس والجن أن يضلوه، ومهما حاولوا من ذلك فلن يضروا إلا أنفسهم، وبين أنه تفضل على هذا النبي العظيم والرسـول الكريم فاختاره واصطفاه، وآتـاه القرآن والنبوة، وعلمه مالم يكن يعلمه هو ولا قومـه حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمتـه لهمت طـائفـة منهم أن يضلوك﴾ أي ولـولا أن الله تبـارك وتعالى تفضل عليك فعصمـك وصانك وأيدك بتـوفيقه لك و إحسـانه إليك وكشف عورات المنـافقين وتعريفك بها يبيتونـه لك مما لا يـرضى الله عز وجل من أقـوالهم وأفعـالهم وتدبيراتهم السيئـة لـلإسـلام والمسلمين، وتثبيتك على طـريق الرشـاد وسلوك الصراط المستقيم لقصـدت فرقـة منهم أن يزلّـوك عن طريق الحق، ويوقعوك في الحيرة والشك، ولكـن ما عصمك الله عز وجل به وما أعانك من تأييده وتسـديده صرفهم عنك وحال بينهم وبين إيقاعك فيما يشتهون، ووقاك شرهم وحماك من سوء صنيعهم وما أحسن قول الشاعر:

وقايـة الله أغنـت عـن مضـاعفة ... مـن الدروع وعـن عـال من الأطم

ولله در الشاعر إذ يقول:

إذا كــان عـون الله للعبـد مسـعفا تـأتيَّ لـه من كــل شــيء مــراده
وإن لم يكـــن عـون مـن الله للفتى فأول ما يقضـــى عليــه اجتــهاده

فقد صـان الله تبارك وتعـالى رسولـه ﷺ وعصمه، وجعل تـدبير المنافقين واليهود ضد رسول الله ﷺ تدميراً لهم ولا يحيق المكـر السيء إلا بأهله. وقوله عز وجل: ﴿ومـا يُضِلُّونَ إلا أنفسهم وما يَضُرُّونكَ من شيء﴾ أي ولن تُـؤثر محاولتهم إضـلالك عليـك بشيء أبـداً، لأن الله عـز وجل قـد صــانك من الضـلال وعصمك من معصيتـه فلن تستطع شيـاطين الجن والإنس صرفك عن صراط الله المستقيم، ولن يعـــود وبـال مـاأرادوه مـن الإضـلال إلا على أنفسهم، وقـد أخبر رسول الله ﷺ أن الله عز وجـل قد عصمه مـن الشيطان حتى صـــار الشيطـان الْــمُوَكَّلُ بـــه لا يأمـره إلا بخير فقـــد روى مسلم في صحيحه من حـديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: مـا منكم من أحـد إلا وقد وكل بـه قـرينـه من الجن: قـالوا: وإيــاك يـارسول الله؟ قـال: وإياي، إلا أن الله أعـانني عليـه فأسلم فلا يأمـرني إلا بخير، وفي لفظ: وقد وكل بـه قرينه من الجن وقرينـه من الملائكة. كما روى مسلم من حديث عـائشة رضي الله عنهـا أن رسول الله ﷺ خرج من عنـدها ليلا قـالت: فغـرت عليه، فجاء فـرأى ما أصنع، فقـال: مالـك؟ أغرت؟ فقلت: ومـالي لايغـــار مثلي على مثلك فقـال رسـول الله ﷺ: أقــد جـاءك شيطانك؟ قالت: يارسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم، قلت: ومع كل إنســان؟ قـال: نعم، قلت: ومعـك يـارسـول الله؟ قـال: نعم، ولكن ربي أعاننـي عليه حتى أسلم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وأنزل الله عليـك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾ بيان للنعم الكبرى، والمنن العظمى التي تفضل الله بها على أكرم خلقـه، وأفضل رسله، وسيد ولد آدم محمـد بن عبد

الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونهج منهجهم إلى يوم الدين، ومعنى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي وأوحى الله عز وجل إليك القرآن الحكيم، المشتمل على تبيان كل شيء المهيمن على كل كتاب أنزل، وفيه هدى ورحمة، وشفاء لما في الصدور، وآتيناك من بحار الحكمة مالم نعطه أحداً سواك، ففهمناك الكتاب، وأرشدناك إلى الصواب، فوضعت كل أمر في موضعه اللائق به، وعرفت مجمل الكتاب فبينت للناس ما نزل إليهم، وهديت إلى السداد، وسلكت منهج الرشاد، وعرّفت عباد الله أسباب سعادتهم، في عاجلتهم وآجلتهم، ولم تترك شيئاً يعود عليهم بالخير في دنياهم أو أخراهم إلا أمرتهم به، وحضضتهم عليه، ولم تترك سبيلاً يصيبهم منه شر في عاجلتهم أو آجلتهم إلا نهيتهم عنه وحذرتهم منه، فلا تأمرهم إلا بخير ولا تنهاهم إلا عن شر، حتى قال المشركون لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: لقد علمكم نبيكم كل شيء. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان رضي الله عنه قال: قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة قال: فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم، وفي لفظ لمسلم من حديث سلمان رضي الله عنه قال: قال بعض المشركين وهو يستهزئ: إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة، فقال: أجل، إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة ونهى عن الروث والعظام وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار. قال في القاموس المحيط: والحكمة بالكسر العدل، والعلم، والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل وأحكمه أتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد اهـ وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَكَ

مـالم تكن تَعْلـم﴾ أي وآتـاك علـوم الأولين والآخـرين ، وأخبـار السـابقين واللاحقين ، وعلوم الدنيا والآخـرة ، مما لم تكن تعرفه أنت ولا قومك من قبل كما قال تبارك وتعـالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليـك ما كنتَ تَعْلَمُهَا أنت ولا قـومك من قبل هـٰذا فـاصبر إن العـاقبة للمتقين . ﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿ذٰلك من أنباء الغيب نُوحيهِ إليك ومـا كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿كذٰلك نَقُصُّ عليك من أنباء مـا قد سَبَقَ ، وقد آتيناك من لَّدُنَّا ذِكْرا . مَنْ أَعْرَضَ عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا . خالدين فيه وساءَ لهم يوم القيامة حِمْلا . ﴾ وكما قال عز وجل ﴿إنَّ هٰذا القرآن يَقُصُّ على بني إسرائيلَ أكثر الـذي هم فيه يختلفون . ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿ومـا كنت بجـانـب الْغَـرْبِيِّ إذ قضينـا إلى مـوسى الأمـرَ ومـا كنتَ من الشاهدين . ولٰكنا أنشأنا قرونـا فتطاول عليهم العُمُرُ ، وما كنت ثَاوِيًا في أهل مدين تتلواْ عليهم آياتنا ولٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين . وما كنتَ بجانب الطور إذْ نادَيْنَا ولٰكِنْ رحمةً من ربك لتنـذر قـومـا مـا أتـاهم من نـذيـر من قبلك لعلهم يتذكرون . ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وكذٰلك أوحينا إليك رُوحًا من أمـرنا ، ما كنتَ تدري مـا الكتابُ ولا الإيمانُ ولٰكن جعلنـاه نُورًا نَهْدِي بـه مَنْ نشاءُ من عبـادنـا ، و إنك لَتَهْـدِي إلى صراط مستقيـم . صراط الله الـذي لـه مـا في السمٰوات ومافي الأرض ، أَلا إلى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ . ﴾ وكما قال عز جل : ﴿كما أرسلنـا فيكم رسولا منكم يتلـواْ عليكم آيـاتنـا و يزكيكم و يعلمكم الكتـاب والحكمة و يعلمكم مالم تكونوا تعلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسـولاً من أنفسهم يتلـواْ عليهم آيـاتـه ويـزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين . ﴾ وكما قال تبـارك وتعالى : ﴿هـو الذي بعث في الأميين رسـولاً منهم يتلـواْ عليهم آياتـه و يزكيهـم ويعلمهم الكتاب والحكمة و إن كـانوا من قبل لفـي ضلال مبين .

وآخرين منهم لمَّا يَلْحَقُوا بهم، وهو العزيز الحكيم. ذٰلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشـاء، والله ذو الفضل العظيم.﴾ ولذلك كلـه ذيل الله تبـارك وتعالى هـذه الآية الكريمة بقولـه لحبيبه ﷺ ﴿وكان فضلُ الله عليك عظيما﴾ وبعد أن بيَّن عز وجل فضلـه العظيم على محمد سيد المرسلين ﷺ شرع يُبيِّن بعض قـواعد الخير التي أوحى بها إلى رسـولـه ﷺ حيث يقـول: ﴿لا خير في كثير من نجـواهم إلا من أمر بصـدقة أو معـروف أو إصلاح بين النـاس، ومن يفعل ذٰلك ابتغاء مرضات الله فسوف نـؤتيه أجرا عظيما.﴾ أي لا خير فيما يتناجى به النـاس ويخوضون فيـه من الكلام سواء كـان سرًّا أو جهرا إلا مـا كان لنفع الناس وإيصال الخير لهم أو دفع الأذى والضر عنهم مما يثمـر سلامة أبدانهم وأرواحهم وصـلاح معاشهم ومعـادهم كالأمـر بالصـدقات على المحتـاجين والأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر وإصـلاح ذات البين، وفي هـذا تنديـد بالمنحرفين عن منهج رسول الله ﷺ الذين يبيِّتون ما لايرضى من القول، وثناءٌ على المؤمنين الذين يحرصون على طـاعة الله وطاعة رسولـه ﷺ فلا يستعملون ألسنتهم إلا في الثناء على الله ونفع عبـاده سواءٌ كان كـلامهم وذكرهم سراً أو جهـراً وأكثر مـا تستعمل النجوى فيما كـان سراً من الكلام وقـد تستعمل في الجهر كذلك قال ابن منظور في لسان العرب: وفي التنزيل العزيز: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ قال أبو إسحاق: معنى النجـوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة والاثنان، سراً كان أو ظاهـراً وقوله أنشده ثعلب: (يَخْرُجْنَ من نَجِيِّهِ للشاطِي) فسره فقال: نجيه هنا صوته، وإنما يصف حاديًا سوَّاقًا مصوِّتًا اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَنْ يفعل ذٰلك ابتغاءَ مـرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ قال الفخـر الرازي: والمعنى أن هذه الأقسـام الثلاثة من الطـاعات وإن كـانت في غايـة الشرف والجلالة إلا أن الإنسـان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ولطلب مـرضاته، فأما إذا أتى بها للريـاء والسمعة انقلبت القضية

فصارت من أعظم المفـاسد، وهـذه الآية من أقوى الـدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعـاية أحوال القلب في إخلاص النية، وتصفيـة الداعية عن الالتفـات إلى غرض سـوى طلب رضـوان الله تعالى ونظيره قـوله تعـالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقولـه: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: إنما الأعمال بالنيات. اهـ.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا. إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونه إلا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إلا شَيْطَانًا مَرِيدًا. لَعَنَهُ اللهُ﴾

بعد أن ندد بالمنحرفين عن منهج النبي المصطفى محمد ﷺ الذين يبيتون ما لا يرضى من القول، وأثنى على المؤمنين الذين يحرصون على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ الذين لا يستعملون ألسنتهم إلا في الثناء على الله ونفع عباده، شرع هنا يندد بمن يشاقق الرسول محمداً ﷺ وينحرف عن منهج المؤمنين ويتوعدهم بالخذلان في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرسولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا.﴾ أي ومن يسلك طريقاً مناقضاً لمنهج رسول الله ﷺ ويخالف هدي هذا الرسول الكريم ﷺ فيصبح في شق وجانب معادٍ للشق والجانب الذي فيه رسول الله ﷺ وشريعته وهديه، من بعد ما ظهر له الحق واتضح، وتبين له أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي به من عند نفسه، وأصل المشاقة والشقاق يرجع إلى معنى الخلاف والعداوة، فمن عادى رسول الله ﷺ فإن الله خاذله لا محالة في الدنيا، ومصليه نار جهنم في الآخرة، وكذلك من خرج على جماعة المسلمين، وسلك طريقًا ومنهجاً غير طريقهم ومنهجهم فإن الله عز وجل خاذله لا محالة في الدنيا ومصليه نار جهنم في الآخرة، ولو قال قائلٌ: هل هناك فرق بين مشاقة الرسول وبين اتباع غير سبيل المؤمنين قلنا: من عادى نصوص الكتاب والسنة كان مشاقاً لرسول الله ﷺ ومتبعاً لغير سبيل المؤمنين لأن أصل سبيل المؤمنين هو متابعة نصوص الكتاب والسنة. وقد

يجدّ للمؤمنين قضايا بعد رسول الله ﷺ لا يكون منصوصاً على حكمها في الكتاب أو السنة ويجمع فقهاء المسلمين على حكمها فإنَّ هذا الإجماع يكون حجة مستقلة لا يحل لمسلم أن يخالفه؛ لأن المسلمين لا يجتمعون على ضلالة أبدا حيث عصمهم الله عز وجل من الاجتماع على الباطل، فمن خالف إجماع فقهاء المسلمين أهل السنة والجماعة أتباع أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين وعلي بن أبي طالب وسائر أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان فقد اتبع غير سبيل المؤمنين واستحق هذا الوعيد الشديد من خذلان الله له في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غير سبيل المؤمنين﴾هذا ملازمٌ للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم. وقد وردت أحاديث صحيحةٌ كثيرةٌ في ذلك قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً في كتاب أحاديث الأصول، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها، والذي عوّل عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي نكله إلى ما اختار لنفسه، ونخذله. ولا نمدّه، بل نجعله والياً لما تولاه من الضلال ونخلِّ بينه وبين هواه، ولاشك أن من وكل إلى نفسه وهواه تاه في بيداء الضلالة، وضاع في صحراء الغوايه والسعيد من استعمله الله عز وجل في طاعته، وتفضل عليه بتأييده وتوفيقه، فأناب إلى ربه، وأسلم وجهه إلى بارئه وخالقه وتضرع إلى مولاه وقال ياحي ياقيوم يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي أو إلى

أحـد من خلقك طـرفـة عين، فـإنك إن وكلتني إلى غيرك وكلتني إلى عجـز وضعف وفاقـة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ونُصْلِـهِ جهنم وساءت مصيرا.﴾ أي ونجعله صلاء نار جهنم يعني: ندخلـه فيها ونحرقه بها، وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصيراً ومسكنـا ومأوى. وقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أَنْ يُشْرَكَ به ويغفر مـا دون ذُلك لمن يشاء، ومَنْ يُشْرِكْ بالله فقد ضلَّ ضلالا بعيـدا.﴾ هذا ترهيبٌ من الاستمـرار على مشاقة الرسـول واتباع غير سبيل المؤمنين، وترغيبٌ في الرجوع إلى الله عز وجل وطـاعة رسوله ﷺ واتباع سبيل المؤمنين، وتقدم تفسيرها عند الحديث على قوله عز وجل: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك بـه ويغفر ما دون ذُلك لمن يشاء، ومَنْ يُشْرِكْ بـالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وبينت هناك سبب تذييل كل آية من الآيتين بما ذُيِّلَتْ به، وقوله عز وجل: ﴿إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلا إنَاثًا وإنْ يَدْعُونَ إلا شَيْطَانًا مَرِيدًا. لَّعَنَهُ اللهُ.﴾ هـذا بيانٌ للضـلال البعيد الـذي تاه فيـه المشركون بسبب انحـرافهم وبعـدهم عن منهج رسـول الله ﷺ واتبـاعهم غير سبيل المؤمنين الـذين لا يعبدون إلا الله ولا يشركـون به شيئاً، فقد انحصرت عبـادة هؤلاء المشركين في تناقضات دعـاهم إليها إبليس وجنوده من مردة الشيـاطين، فعبدوا الملائكة وجعلوهم إناثـاً وقالوا: هم بنات الله، واتخذوا الأصنـام وأطلقوا عليها أسماء الإناث كـالعُزَّى ومناة ونـائلة، مع أنهم كانـوا يكرهون البنـات، وإذا ولدت امرأة أحـدهم أنثى اسود وجهه. وقـد يهجر بيتها من أجل بنتهـا التي ولدتها كما قالت إحداهن:

مَالأَبى حمزة لا يأتينا يَظَلُّ بالبيت الذي يلينا غَضْبَان أن لا نلِدَ البنينَا

وَهم في جميع مـا يعبـدون واهمون متناقضـون مترددون، لا يجتمعـون إلا في قـاعدة واحـدة وهي انقيادهـم للشيطان المريـد، الذي أوقعهم في الضـلال البعيـد، وقـد كـان بعضهم يعبدون أصنـامـاً يجعلـون بعضهـا لجلب الخير

وبعضها لدفع الضر وبعضها للانتقـام، وبعضها لغير ذلك، وكانوا إذا مرُّوا بـواحدة منهـا سجدوا لها وتضرعـوا إليهـا وبكوا عنـدهـا، فإذا مروا بأخـرى خجلوا أن يبكـوا عندها لبكائهم عنـد الأولى كأنهما جارتان متباغضتـان رضا إحداهما في سخط الأخرى كما قال الشاعر:

وكيف تَرَى ليـلى بعيـن تـرى بِهَا سـواها وما طَهَّرْتَهَا بالمدامـع

فقـد روى البخاري ومسلم من طـريق عـروة عن عـائشة رضي الله عنهـا قـال: قلت: أرأيت قول الله تعـالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعـائر الله فمن حج البيت أو اعتمـر فلا جنـاح عليه أن يطـوف بهما﴾ قلت: فوالله مـا على أحد جناحٌ ألا يتطـوف بهما، فقالت عائشة: بئس مـا قلت يابن أختي، إنها لـو كانت على مـا أوَّلتها عليـه كـانت: فلا جنـاح عليه أن لا يطَّـوَّف بهما. ولكنها إنما أنزلت في الأنصـار: كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمنـاة الطاغية التي كـانوا يعبـدونها عنـد المشلَّل، وكان من أهلَّ لها يتحـرج أن يطـوف بالصفـا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يـارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهليـة، فأنزل الله عز وجل ﴿إنَّ الصفا والمروة من شعـائر الله فمن حج البيت أو اعتمـر فـلا جُنَـاح عليـه أن يَطَّـوَّف بهما.﴾ الحديث. وإنما كـانوا يتحـرجون أن يطَّـوَّفوا بـالصفا والمروة من أجل إسـاف ونائلة المنصوبتين على الصفا والمروة فقد روى النسائي بسند قوي عن زيد بن حـارثة قـال: كـان على الصفـا والمروة صنمان من نحـاس يقال لهما: إسـاف ونـائلة وقـال الحافظ ابن حجـر في فتح الباري: وروى الفـاكهي وإسماعيل القـاضي في الأحكام بإسنـاد صحيح عن الشعبي قـال: كـان صنم بالصفـا يُدعى إساف ووثن بالمروة يُدعى نـائلة اهـ وقد وبخ الله تبارك وتعالى المشركين الذين يرضـون بعبادتهم للإناث وهم يكرهون الإنـاث حيث قال عز وجل: ﴿ويجعلون لله البنـات سبحانه ولهم مـا يشتهون. وإذا بشر أحـدهم بالأنثى

ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به ، أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّهُ في التراب ، ألا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ ولله المَثَلُ الأعلى ، وهو العزيز الحكيم . ولو يؤاخذ اللهُ الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولَكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . ويجعلون لله ما يكرهون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بُشر أحدهم بما ضَرَب للرحمن مَثَلا ظل وجهه مُسْودًّا وهو كظيم . أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وهو في الخِصَامِ غيرُ مبين . وَجَعَلُوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ ويُسْأَلُون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فاستفتهم ألربك البناتُ ولهم البَنُونَ . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . أَلا إنهم من إفكهم ليقولون . وَلَدَ اللهُ وإنهم لكاذبون . أَصْطفَى البناتِ على البنين . مالكم كيف تحكمون . أَفَلا تَذَكَّرُونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أفرأيتم اللات والعُزَّى . ومناةَ الثالثة الآخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذًا قسمةٌ ضِيزَى . إن هي إلا أسماءٌ سَمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يَتَّبِعُون إلا الظَّنَّ وما تَهْوَى الأنفسُ ولقد جاءهم من ربهم الهُدَى . أم للإنسان ما تمنَّى . فللَّه الآخرة والأولى . وكم من مَلَكٍ في السموات لا تغني شفاعَتُهُم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تسمية الأنثى . ومالهم به من علم إن يتَّبِعُون إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يغني من الحق شيئا . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن يَدْعُونَ إلا شيطانا مريدا . لعنه الله﴾ أي وما يعبد هؤلاء المشركون في الحقيقة إلا شيطانا متمردًا قد أخزاه الله وطرده من رحمته وأبعده عن كل خير، وقدَّر على من تولاه أنه يضله ويهديه إلى عذاب النار كما قال عز وجل : ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطانٍ مَرِيدٍ .

كُتِبَ عليه أنه مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ويَهْدِيهِ إلى عذاب السعير. ﴾ وإن تعجب فعجب أن يلعب الشيطـان بعقـول بعض من ينتسب إلى الإسـلام حيث وجدت في بلادهم بناياتٌ من قبابٍ وأضرحة يزعمون أن تحتها وليًّا يستغيثون به وينذرون لـه ويدعونه كما يـدعو المؤمنون الواحـدَ القهار، والكثير من هذه الأبنية لا شيء تحتها وإنما هـي حبائل الشيطان قد نصبها أولياؤه، وحتى لو كـان تحتها عبـدٌ صـالح ما جـاز لمسلم أن يتخـذه شريكا لله، تعـالى الله عما يشركون.

قـال تعـالى : ﴿وَقَـال لأَتَّخِذنَّ مِنْ عِبـادِكَ نَصِيبًـا مَّفْـرُوضًـا . وَلأضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآ مرنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُـنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ ولآ مـرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَـانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًـا . يَعِدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ ومـا يَعِـدُهُـمْ الشَّيْطَـانُ إلا غُـرُورًا . أُولَئِكَ مَـأْوَاهُـمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عنْهَـا مَحِيصًا . والَّذِيـنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالِدِينَ فيها أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلا . ﴾

بعـد أن بَيَّنَ تبارك وتعـالى أن المشركين في ضـلال بعيـد، وأنهم تاهُـوا عن منهج الرشد بسبب انقيادهم للشيطان الذي جعلهم يعبدون مَن جعلوه إناثاً مع كرههم لولادة الإناث وأنهم في الحقيقة لا يعبدون إلا الشيطان المريد الذي لعنـه الله وأخـزاه وطرده مـن رحمته وأبعـده عن طـرق الخير شرع يبين للنـاس خطـوات الشيطـان ليحـذر من يريـد الخير لنفسـه أن يتبع هـذه الخطـوات الشيطانية التي تلقي بمن يسلكها في بيداء الغواية والحيرة والضلالة فقال عز وجل : ﴿وَقَـال لأَتَّخِذنَّ مِنْ عِبـادِكَ نَصِيبًـا مَّفْـرُوضًـا . وَلأضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآ مرنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآ مرنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ ومعنى : ﴿وَقَال لأَتَّخِذنَّ مِنْ عِبـادِكَ نَصِيبًـا مَفْرُوضًـا . ﴾ أي وقـال الشيطـان مـؤكدًا كـلامـه بـالقسم : لأستـولين على فريـق مقدر من عبـادك بـوسـوستي، ولأجعلنهم ينقادون لي، وينضـوون تحت لوائي ورايتي، ويصيرون من حـزبي، ويأتمرون بأمري، وأجُرُّهم إلى مرادي كما يجرُّ الإنسان دابته التي احتنكها فوضع الرَّسن في فمها وقادهـا حيث يشاء، وإن كنت لا أتسلط على المخلصين من عبادك الـذين أخلصتهم لنفسـك فأخلصـوا الـدين لك . وقـد أعلن إبليس هـذا الإعـلان عندمـا لعنـه الله وطرده من رحمتـه، ويئس من عفـو الله ومغفرتـه، وطلب المهلـة والإنظار إلى يـوم الـدين، وإلى ذلك يشير الله تبارك وتعـالى في

مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك أَلا تَسْجُدَ إذْ أمَرتُكَ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخَلَقْتَهُ من طين. قال فاهْبطْ منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أَنْظِرْني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المُنْظَرِين. قال فَبِمَا أغْوَيْتَني لأَقْعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم. ثم لآتِيَنَّهُمْ من بين أيديهم ومِنْ خَلْفِهِمْ وعن أَيْمَانِهِمْ وعن شمائِلِهِمْ ولا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شاكرين. قال اخرج منها مَذْءُومًا مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم منكم أجْمَعِينَ.﴾ وقال في سورة الحجر: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون. فإذا سَوَّيْتُه ونفخت فيه من رُوحي فَقَعُوا له ساجدين. فسجد الملائكة كُلُّهم أجمعون. إلا إبليس أَبَى أنْ يكون مع الساجدين. قال ياإبليس مالك ألا تكونَ مع الساجدين. قال لم أكن لأَسْجُدَ لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإنَّ عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يُبْعَثُون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم. قال ربِّ بما أغويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط عَلَيَّ مستقيمٌ. إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلا من اتَّبَعَكَ من الغاوين. وإنَّ جهنم لَمَوْعِدُهُمْ أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جُزْءٌ مقسوم.﴾ وقال عز وجل في سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسْجُدُ لمن خلقتَ طينا. قال أرأيتكَ هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ لئن أَخَّرْتَنِ إلى يوم القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تَبِعَكَ منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءً مَوْفُوراً. واستفزز من استطعتَ منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك وَرَجِلِكَ وشاركهم في الأموال والأولاد وَعِدْهُمْ، وما

يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ وكفى بربك وكيلا . ﴾ وقوله : ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي ووالله لأوقعنهم في الحيرة والشك والضلالة والبعد عن الصراط المستقيم ولأزلزلن قلوبهم بالوسوسة ولأصرفنهم عن أسباب الفوز بجنات النعيم ، ولأحملنهم على العمل بما يوقعهم في دركات الجحيم . وقوله : ﴿ولأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي ووالله لأزيغن قلوبهم عن الهدى ولأملأنها بالغرور ولأخدعنهم بالأماني الكاذبة ، ولأعلقن نفوسهم بما يلهيهم عن أسباب سعادتهم حتى تأتيهم مناياهم قبل أن يدركوا أمانيهم ، بل قد تكون منيتهم في أمنيتهم . وقوله : ﴿ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام﴾ أي ووالله لآمرنهم بتشقيق آذان الأنعام لجعلها بحيرة يتقربون بها للأصنام فليشققنها ، وقد ندَّد الله تبارك وتعالى بمن فعل ذلك حيث قال : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حام ولَكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون . ﴾ وقوله تباركَ وتعالى : ﴿ولآمُرَنَّهمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله﴾ أي ووالله لآمرنهم بتغيير خلق الله وتبديل فطرة الله التي فطر الله الناس عليها فليغيرن ذلك استجابة للوسوسة التي أملأ بها صدورهم . ولما كان التغيير لفظاً مجملاً بينت السنة النبوية ما يكون من التغيير مشروعاً وما يكون ممنوعاً ، فمن التغيير المشروع الختان وحلق العانة وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وصبغ شعر الرأس واللحية بالورس والزعفران أو بالحناء أو بالحناء والكتم ، ومن التغيير الممنوع المعتبر من عمل الشيطان حلق بعض رأس الصبي وترك بعضه ، المعروف بالقزع والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والمتنمصات والمتفلجات للحسن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : الفطرة خمس : الخِتان والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

خالفوا المشركين، أوفروا اللحى وأحفوا الشوارب. وفي رواية: أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحي. كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: وقِّت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم. كما روى البخاري ومسلم من طريق نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن القزع قيل لنافع: ما القزع؟ قال: يحلق بعض رأس الصبي ويترك البعض. كما روى مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى صبياً قد حلق بعض رأسه وترك بعضه فنهاهم عن ذلك وقال: احلقوا كله أو اتركوا كله. كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة. كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن المغيرات خلق الله، فجاءته امرأةٌ فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: مالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ، ومن هو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه. كما روى أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أحسن ما غير به الشيب الحناء والكتم. كما روى أبو داود بإسناد جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ قد خضب بالحناء فقال: ما أحسن هذا: قال: فمر آخر قد خضب بالحناء والكتم فقال: هذا أحسن

من هذا، ثم مر آخر قد خضب بالصفرة فقال: هذا أحسن من هذا كله.

وقوله تعالى: ﴿ومن يتخذ الشيطانَ ولِيًّا من دون الله فقد خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا.﴾ أي ومن ينقد للشيطان ويكفر بالرحمن فقد أفسد دنياه وآخرته.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غرورا.﴾ أي يلقي الشيطان في نفوس أوليائه الوعود الكاذبة والأماني الباطلة حتى إذا حصحص الحق تبرأ منهم واندحر الشيطان وأولياؤه كما قال عز وجل: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إنَّ الله وعدكم وَعْدَ الحقِّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لِيَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولُومُوا أنفسكم﴾ ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما يَعِدُهُمْ الشيطانُ إلا غرورا.﴾ أي وما يلقى الشيطان في نفوس أعداء الله من وعوده الكاذبة وأمانيه الباطلة إلا الغرور والخداع الذي لا يحصلون من ورائه إلا على النكد والنصب، وصاروا كالذي يطلب السراب كما قال عز وجل: ﴿والذين كفروا أعمالُهُم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولَئك مأواهم جهنم ولا يَجِدُونَ عنها مَحِيصًا.﴾ أي هؤلاء المنقادون للشيطان مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ولا يستطيعون أن يجدوا مهرباً منها، وليس لهم عنها مفرٌّ ولا خلاص ولا مناص، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا وَعْدَ اللهِ حقًّا، ومن أصدقُ من الله قيلا.﴾ هذا ترغيب في طاعة الرحمن بعد الترهيب من طاعة الشيطان، أي والذين صدقوا الله ورسوله فأقروا لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وأدوا ما فرض الله عليهم، سيسكنهم الله عز وجل يوم القيامة فسيح الجنان التي تجري من تحتها الأنهار حالة كونهم باقين فيها أبدا لا يريمون عنها ولا يتحولون منها، وهذا هو الوعد الحق واليقين

الصادق؛ لأنه وعدٌ من العزيز الكريم المقتدر ولا أحد أصدق وعدًا منه، وحديثه أصدق الحديث، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا. وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً. وَللهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُحِيطًا.﴾

بعد أن بيَّن تبارك وتعالى أن من أهم خُطوات الشيطان إلقاء الأماني الكاذبة في قلوب الناس شرع هنا يقرر القاعدة المانعة الجامعة التي تنير الطريق الحق أمام السالكين وتكشف لهم الفرق بين أماني المغرورين وبين ما يتمناه المؤمنون، حتى يُعرف الفرق بين الأماني الشيطانية وبين الوعود الرحمانية، فمن بنى مشتهياته على الأماني الكاذبة والوعود الزائفة التي يلقيها الشيطان في نفسه ويغره بها فهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ومن أمثلة ذلك ما توهمه المشركون من أن أصنامهم تنفعهم وتشفع لهم عند الله فإذا جاءوا يوم القيامة تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وكذلك ما ألقاه الشيطان وأعوانه في نفوس أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هودًا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.﴾ ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يتمناه بعض من ينتسب إلى الإسلام من رضا الله وهو لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي حقوق الله ولا حقوق عباده ويظن أن مجرد انتسابه إلى الإسلام يكفيه دون أن يعمل بعمل أهل الإسلام، ولذلك لم يكن الإيمان بالتمني ولكن بما وقر في القلب

وصدقه العمل ، وقد روى الترمذي وقال حديثٌ حسنٌ عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . وفي ذلك يقول تبارك وتعالى هنا : ﴿ليس بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب ، مَنْ يعمل سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ له من دون الله وَلِيًّا ولا نصيرا . ومَنْ يَعْمَلْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولَئك يَدْخُلُونَ الجنة ولا يظلمون نقيرا .﴾ أي ليس الدين والجزاء بشهوات الناس وتمنياتهم وأهوائهم المنحرفة عن دين الله ورسوله ﷺ ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل الدين الحق هو ما أنزله الله تبارك وتعالى في كتابه ، وجاء به رسوله وسيد خلقه محمدٌ ﷺ ، وحساب الخلائق وثوابهم وجزاؤهم عند الله إنما يكون بما يضعه الله عز وجل من موازين القسط يوم القيامة فمن يشرك بالله عز وجل ويرتكب السوء فإن الله تبارك وتعالى يجزيه بذلك ولا يستطيع أحدٌ كائنا من كان أن يدفع عنه من عذاب الله شيئا مهما كانت صلته به في الحياة الدنيا فلا يجد قريباً أو حبيباً له أو نصيراً ينصره من عقاب ربه ، ومن آمن بالله وكتبه ورسله وعمل بطاعة الله وطاعة رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ سواء كان هذا المؤمن ذكرا أو كان أنثى فهؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات يدخلهم الله عز وجل في رحمته ، ويسكنهم فسيح جنانه ، ولا يضيع من أعمالهم الصالحة مقدار نقير أو وزن نقير وهي النقرة التي في ظهر النواة ، بل كل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ : قاربوا وسدِّدُوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها ، ثم بيَّن تبارك وتعالى الدين الحق الذي لا

يقبل من أحد ديناً سواه، وهو الحنيفية السمحة دين الإسلام ملة إبراهيم إمام الحنفاء وخليل الرحمن، الذي بعث الله به سيد خلقه، وأفضل رسله، محمداً ﷺ وأكمل له الدين، وأتم به النعمة، وآتاه الشريعة الوافية الشافية الكافية الباقية إلى يوم القيامة فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ حَنِيفًا، واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيلا.﴾ هذا بيانٌ للدين الحق المورث لجنات النعيم ورضوان رب العالمين، المشتمل على إظهار كمال العبودية والخضوع والانقياد لله تعالى الموافق لما بعث الله تعالى به رسله وأنزل به كتبه وأوحاه إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أشار الله تبارك وتعالى هنا إلى الشرطين اللذين لا يقبل من عامل عملاً إلا بهما، فالشرط الأول أن يكون العمل خالصًا لوجه الله الكريم خالياً من شوائب الشرك، والشرط الثاني أن يكون هذا العمل صواباً موافقاً لما شرعه الله عز وجل وبعث به رسوله ﷺ وبهذين الشرطين يكون الاعتقاد حسنًا والعمل حسنًا، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن صحة الدين وحسنه لا يتأتى إلا بتحقيق هذين الشرطين في غير موضع من كتابه الكريم كما ذكر هنا وكما في قوله عز وجل: ﴿ومن يُسْلِمْ وجهه إلى الله وهو محسنٌ فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أحسنُ دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع ملة إبراهيم حنيفا.﴾ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد وأخلص العمل لربه عز وجل ولم يشرك بالله شيئاً حالة كونه محسنا فيما يعمل فلا يتقدم بين يدي الله ورسوله ولا يعمل إلا بما شرعه الله عز وجل بما أنزله في كتابه أو بعث به رسوله ﷺ، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام الذي كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين.﴾ والحنيف هو المائل عن الشرك قصدا على بصيرة من ربه المقبل على الحق

بكُلِّيته لا يرده عن ذلك رادٌّ ولا يصدُّه عن سبيل الله صادٌّ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً.﴾ هذا بيان لمنزلة إبراهيم عند الله عز وجل وأنه انتهى إلى درجة الخُلة التي هي أرفع مقامات المحبة والاصطفاء وأعلى درجاتها، قال البخاري في صحيحه: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا.﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم، وقد ثبت أن الله عز وجل قد اتخذ محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا، وفي لفظ له: لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله. قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية عند قول الطحاوي رحمه الله في رسول الله ﷺ: (وحبيب رب العالمين): ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة وهي الخلة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا: وقال: ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن، والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد اهـ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى فضله على أبيه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ،

فحسَّن النبـي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي مـن التكـــذيـب ولا إذ كنت في الجاهليـة، فلما رأى رسول الله ﷺ مـا قد غشيني ضرب في صـدري ففضت عـرقًا، وكأنما أنظـر إلى الله عز وجل فـرَقًا، فقـال لي: ياأبي أرسل إليَّ أن اقـرأ القرآن على حـرف فرددت إليه أن هـوِّن على أمتي، فرد إليَّ الثانيـة: اقرأه على حـرفين، فرددت إليـه: أن هون على أمتي فـرد إلي الثالثـة: اقرأه على سبعـة أحـرف، فلك بكل ردَّةٍ رردتكهـا مسألـة تسألنيهـا، فقلـت: اللهم اغفـر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم ﷺ. كما أشـار رسول الله ﷺ كذلك إلى أن خلتـه ﷺ أعلى من خلة إبراهيم عليـه السلام، وأن خلة إبـراهيم كانت من وراء وراء ففي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: يجمع الله تبارك وتعـالى الناس، فيقـوم المؤمنون حتى تـزلف لهم الجنة، فيـأتون آدم فيقـولون: يـاأبانـا استفتح لنـا الجنة، فيقـول: وهل أخرجكم من الجنـة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلـك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال: فيقـول إبراهيم: لست بصاحـب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء. الحديث. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض، وكان الله بكل شيء محيطا.﴾ قال ابن جرير في تفسير هـذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ لطاعته ربه، و إخلاصه العبادة له، والمسارعة إلى رضاه ومحبته لا من حاجة به إليه و إلى خلته، وكيف يحتاج إليه و إلى خلته وله ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير ملكاً، والمالك الذي إليـه حاجـة ملكه دون حاجتـه إليه؟ يقـول: فكذلك حـاجة إبراهيم إليـه، لا حاجتـه إليه فيتخـذه من أجل حاجتـه إليه خليـلا، ولكنه اتخذه خليلا لمسـارعته إلى رضـاه ومحبته يقـول: فكذلـك فسارعـوا إلى رضاي ومحبتي لأتخذكم لي أولياء ﴿وكان الله بكل شيء محيطـا.﴾ ولم يزل الله محصيا

لكل ما هو فاعلُه عبادُه من خير وشر عالماً بذلك، لا يخفى عليه شىء منه، ولا يعزب عنه منه مثقال ذرة اهـ. والحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



يوزع مجانا ولا يباع

تهذيب التفسير وتجريد التأويل

مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الرابع

ⓒ عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٠-٧٧٥٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٤)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٧٧٥٠-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٠-٧٧٥٤-٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٤)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ فِى يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً . ﴾

قد ذكرت في مطلع تفسير هذه السورة الكريمة أنها سميت سورة النساء لأن الله تعالى شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء ، وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث استنشقن عبير العزة والكرامة ، وجعل لهن نصيبا من الميراث بعد أن كن نصيبا من الميراث ، وفرض الله لهن على الأزواج مهراً جعله حقا خالصا للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء ، وحرَّم على الرجال عضلهن في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام ، وقد صدَّر الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بأمر جميع المكلفين بتقوى الله عز وجل الذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء وأشار إلى تأكيد حق الأرحام ووجوب الإحسان إليهم ، وبعد أن ساق في تقرير حقوق النساء نحو خمس وثلاثين آية من صدر هذه السورة المباركة ، ونبه أثناء ذلك إلى وجوب رعاية حقوق اليتامى عامة وحقوق يتامى النساء بخاصة ، ثم أمر عز وجل بعبادته وحده لا شريك له وبوجوب الإحسان للوالدين ولذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت يمين الإنسان ، ونهى عن الاختيال والفخر والبخل والرياء والكفر بالله واليوم الآخر ، وحض على وجوب طاعة رسول الله ﷺ وضرورة الاحتكام إلى شريعته ، وأشار إلى منزلته ﷺ عند ربه ، وبيَّن ما تفضل الله به على عباده من تيسير التشريع ، وندَّد بمن يعادي رسول الله ﷺ من المنافقين واليهود وسائر

الكفرة، وفضح مواقفهم المخزيـة لهم في الدنيا والآخرة وحرَّض المسلمين على قتـال أعـداء الله حتى تكـون كلمة الله هي العليـا، وشرع لهم صـلاة السفـر وصـلاة الخوف ثم شرح لهم خطـوات الشيطـان التي يضل بها من ينقـاد لـه حتى يحذرهـا المسلمون وختم ذلك ببيـان الدين الحق الـذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، ولما كان بعض المسلمين من شدة حرصهم على صيانة حقوق النساء واليتـامى وخوفهم من الله عز وجل أن يقصروا في هذه الحقـوق صاروا يسألون رسول الله ﷺ مـزيداً من البيان عن حقوق النســاء واليتامى فأنزل الله عـز وجل هنا قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ في النســاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عليكم في الكتـاب في يتَامى النساء اللاتي لاَ تُؤْتُـونَهُنَّ مَا كُتِبَ لهن وَتَـرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُـوهنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الـوِلْدَانِ وأَنْ تَقُـومُوا لليتـامَى بِالْقِسْطِ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ به عَلِيماً.﴾ وقد أخرج البخاري في الشركـة في بـاب شركـة اليتيم وأهل الميراث ومسلمٌ واللفظ لمسلم من طـريق يونس عن ابن شهـاب أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عـائشة عن قول الله: ﴿وإنْ خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فَانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾ قالت يا ابن أختي هي اليتيمـة تكون في حجر وليها تشاركه في مـالـه فيعجبـه مـالها وجمالها فيريـد وليهـا أن يتـزوجهـا بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغـوا بهن أعلى سنتهن من الصـداق وأمـروا أن ينكحوا مـا طـاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هـذه الآية فيهن، فأنـزل الله عز وجل: ﴿ويَسْتَفْتُـونَكَ في النساء قل اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وما يُتْلَى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَتَـرْغَبُـونَ أن تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قـالت: والـذي ذكـر الله تعالى أنـه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وإنْ خِفْتُمْ ألا تُقْسِطُوا في

اليتامى فَانْكِحُوا ما طاب لكم من النسـاء﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَـرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ رغبـة أحدكم عن اليتيمـة التي تكون في حجـره حين تكون قليلـة المال والجمال، فنهـوا أن ينكحـوا ما رغبـوا في مـالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن. ثم ساق مسلم من طريق أبي صـالح عن ابن شهاب أخبرني عـروة أنه سأل عائشـة عن قول الله: ﴿و إن خفتم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامى﴾ قال مسلم: وساق الحديث بمثل حـديث يـونس عن الـزهـري وزاد في آخـره: من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال، ثم ساق مسلم من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿وإن خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامَى﴾ قالت: أنزلت في الرجل تكون له اليتيمة وهـو وليها ووارثها ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها، فلا ينكحها لما لها فيضُـرُّ بها ويسيء صحبتها، فقال: إن خفتم ألا تقسطوا في اليتـامى فانكحـوا ما طـاب لكم من النساء، يقـول: ما أحللت لكم، ودع هـذه التي تضرُّ بها. ثم ساق مسلـم من طريق عبـدة بن سليمان عن هشـام عن أبيه عن عـائشـة في قولـه: ﴿وَمَا يُتْلَى عليكم في الكتـاب في يتامى النساء الَّلاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ مـا كُتِبَ لهن وتَرْغَبُونَ أن تنكحوهن﴾ قالت: أنزلت في اليتيمـة تكون عند الرجل فتشركـه في ماله فيرغب عنها أن يتـزوجها ويكره أن يزوجها غيره فيشركـه في ماله، فيعضلها، فلا يتزوجهـا ولا يزوجها غيره. حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسـامة أخبرنا هشام عن أبيه عن عائشة في قـوله: ﴿ويستفتـونك في النساء قـل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية، قـالت: هي اليتيمـة التي تكون عنـد الرجل لعلهـا أن تكـون قد شركتـه في مالـه حتى في العـذق، فيرغب عن أن يَنكحها ويكـره أن يُنكحهـا رجلاً فيشركـه في مالـه فيعضلها اهـ وقد قال البخاري في كتـاب التفسير من صحيحه: باب قوله: ﴿ويستفتونك في النســاء قل الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ومـا يتلى عليكم في الكتاب في

يَتَامَى النساء﴾ حدثنا عبيد بن إسماعيل حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكُمْ فِيهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿وتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ قالت: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فتشركه في ماله حتى في العذق فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية اهـ وأصل الاستفتاء في اللغة هو السؤال عن أمر أو عن حكم مسألة وهذا السائل يسمى المستفتي والمسئول الذي يجيب: هو المفتى وقيامه بالجواب هو الإفتاء وما يجيب به يسمى الفتوى بفتح الفاء والفتيا بضم الفاء وفي إسناد الإفتاء في هذه الآية الكريمة إلى الله تبارك وتعالى إشعار بخطورة منصب الإفتاء وجلالته ولذلك قيل في الفتوى إنها توقيع عن الله تبارك وتعالى، والمعلوم عند أهل العلم أنه لا يحل لمسلم أن يُسمى الله تبارك وتعالى باسم أو يصفه بصفة إلا بما سمى الله عز وجل به نفسه أو وصف به ذاته المقدسة من الأسماء والصفات أو أخبر بذلك عنه رسوله ﷺ، فأسماء الله عز وجل وصفاته إنما تطلق إذا ثبتت عن الله عز وجل أو عن رسوله ﷺ، ولله الأسماء الحسنى؛ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل الله يُفْتيكم فيهن﴾ أي قل يامحمد للمستفتين في النساء: الله عز وجل يبيِّن لكم ما تسألون عنه من أحكام النساء، وقوله عز وجل: ﴿وما يُتْلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونَهُنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الوِلْدَانِ﴾ إحالة إلى الآية الثالثة من هذه السورة الكريمة وهي قوله عز وجل: ﴿وإن خفتُمْ ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُلاَث ورباع﴾ وما بعدها مما بيَّن الله عز وجل فيه حقوق يتامى الإناث ويتامى الذكور في هذه السورة وفي غيرها مما نزل من القرآن الكريم قبل هذه الآية، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿والمستضعفين من الوِلْدان﴾ تنفير من ظلم

اليتامى وحضٌّ على الإحسان إليهم بسبب ضعفهم وعجزهم عن مقاومة من يـريد ظلمهم، وقـد شدد الله تبـارك وتعـالى النكير على من ظلمهم وتوعـد ظـالميهم بعذاب النـار حيث قال تبـارك وتعالى: ﴿إن الـذين يأكلون أمـوال اليتـامى ظلما إنما يأكلـون في بطونهم نـاراً وَسَيَصْلَـوْنَ سَعِيراً.﴾ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ تأكيـدٌ لوجوب المحافظة على حقوق اليتامى والعـدل في معاملتهم سواء كانـوا ذكوراً أو إناثا، كما قـال عز وجل: ﴿ويسألـونك عن اليتامى قل إصـلاح لهم خيرٌ و إن تخالطوهم فإخـوانكم، والله يعلم المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ ولـذلك قال عز وجل هنا: ﴿ومـا تَفْعَلُوا مِن خير فإنَّ الله كان به عليما.﴾ قال ابن جـرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومهما يكن منكم أيها المؤمنـون من عدل في أموال اليتامى، التي أمركم الله أن تقوموا فيهـم بالقسط والانتهاء إلى أمر الله في ذلك وفي غيره و إلى طاعته ﴿فإنَّ الله كـان به عليما.﴾ لم يزل عالما بما هـو كائنٌ منكم، وهو مُحْصٍ ذلك كله عليكم، حافظٌ له، حتى يجازيكم به جزاءكم يوم القيامة اهـ ولاشك أن تـذييل هـذه الآيـة الكريمـة بهذا التـذييل هـو تهييج وحضٌّ على المسارعـة والمبادرة إلى فعل الخيرات والمبرات لليتامى وغيرهم للفـوز في الجنان بأعلى الدرجات.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ من بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا، وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ، وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ الله كان بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ، وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن أجاب الله تبارك وتعالى المستفتين رسول الله ﷺ في شئون النساء عما سألوا عنه وفوق ما سألوا عنه حيث زادهم وصيةً بحقوق يتامى النساء خاصة واليتامى عامةً شرع هنا يبين لهم مزيدًا من الأحكام التي تُربِّي في نفوسهم حسن العشرة الزوجية، ووجوب الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان حيث يقول عز وجل: ﴿وإن امرأةٌ خافت من بَعْلِهَا نشوزا أو إعراضا فلا جُنَاح عليهما أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وكان اللهُ وَاسِعًا حكيما.﴾ وظاهر هذا السياق الكريم يشعر أن المرأة في هذا المقام حريصة على بقاء الحياة الزوجية راغبةٌ في زوجها لكنها تخشى أن يفارقها إما لكبر سنها أو لغير ذلك، كما حدث لسودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها حين تقدم بها السنُّ وخافت أن يفارقها رسول الله ﷺ وهي حريصةٌ على أن تموت وهي في عصمة رسول الله ﷺ رجاء أن تبعث في نسائه يوم القيامة لتكون مع رسول ﷺ في منزله في الجنة وقد عرفت حبَّ رسول الله ﷺ لعائشة، فطلبت منه ﷺ أن تتنازل عن ليلتها لعائشة رضي الله عنهما، فقد روى البخاري في الهبة والشهادات من طريق يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها معه، وكان يقسم لكل امرأة منهن يومها وليلتها، غير أن سودة بنت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا

رسول الله ﷺ، وقال البخاري في كتاب الصلح من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وإن امرأةٌ خَافَتْ من بعلها نشوزاً أو إعراضا﴾ قالت: هو الرجل يرى من امرأته مالا يعجبه: كبَرًا أو غيره، فيريد فراقها، فتقول: أمسكني واقسم لي ما شئت، قالت: فلا بأس إذا تراضيا. وقال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل أخبرنا عبد الله أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حلٍّ، فنزلت هذه الآية في ذلك. وقال البخاري في كتاب النكاح من صحيحه: باب ﴿وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ حدثني محمد بن سلام أخبرنا أبو معاوية عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ﴿وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا﴾ قالت: هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها ويتزوج غيرها، تقول له: أمسكني ولا تطلقني، ثم تزوج غيري فأنت في حلٍّ من النفقة علي والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فلا جُنَاحَ عليهما أن يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًا، والصُّلْحُ خير﴾ وقال البخاري في كتاب النكاح أيضاً: باب المرأة تهب يومها من زوجها لضرتها، وكيف يقسم ذلك؟ حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا زهير عن هشام عن أبيه عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يقسم لعائشة بيومها ويوم سودة اهـ وقال مسلم في كتاب الرضاع من صحيحه: حدثنا زهير بن حرب حدثنا جرير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدةٌ، قالت: فلما

كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يارسول الله: قد جعلت يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين، يومها ويوم سودة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جُنَاحَ عليهما أن يُصْلِحَا بينهما صُلْحًا﴾ أي وإن توقعت زوجة من زوجها ﴿نشوزا﴾ أي ترفعاً عليها بترك مضاجعتها أو التقصير في نفقتها لبغضه لها وطموح عينه عنها ﴿أو إعراضا﴾ بأن لا يكلمها ولا يأنس بها، وهي حريصة على البقاء في عصمته فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل منها ذلك فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا حرج عليه في قبوله منها، ماداما قد تصالحا على ذلك، وقد قرأ عاصمٌ وحمزة والكسائي ﴿أن يُصْلِحَا بينهما صلحا﴾ وقرأ الباقون: ﴿أنْ يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًا﴾ بفتح الياء وتشديد الصاد وفتح اللام، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى: فلا حرج على الزوجة والزوج أن يوقعا بين نفسيهما صلحاً، وعلى القراءة الثانية يكون المعنى: فلا حرج على الزوجة والزوج أن يتصالحا بينهما صلحاً حيث تتنازل المرأة عن حقها أو بعضه ويقبل الرجل منها ذلك على أن يمسكها في عصمته. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والصُّلْحُ خير﴾ أي والصلح بترك بعض الحق استدامة للرابطة الزوجية وتماسكا بعقد النكاح خير من الفرقة والطلاق لأن الوفاق أحب إلى الله من الفراق. قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿والصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مال أو وطءٍ أو غير ذلك ﴿خير﴾ أي خير من الفرقة، فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر، وقال عليه السلام في البغضة: إنها الحالقة يعني حالقة الدين لا حالقة الشعر اهـ وقد

روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟ قال: قلنا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة. ومعنى قوله ﷺ: هي الحالقة أي هي الماحية المزيلة للمثوبات والخيرات. هذا ولا ينبغي للزوجة أن تعتبر الزوج معرضاً عنها بمجرد الصدود عنها فإن مطلق الإعراض والصدود قد يحدث للإنسان مع من يحب كما قال الشاعر:

إني لأَمْنَحُكِ الصُّدُودَ وإنني ... قَسَمًا إليكِ مع الصدود لأَمْيَلُ

بل المراد: الإدبار عنها بالكلية. ومعنى قوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفسُ الشُّحَّ﴾ أي وقد جبلت أنفس النساء على شدة الحرص على أنصبائهن من أنفس أزواجهنَّ وأموالهم، فشح المرأة بنصيبها من زوجها في المبيت والنفقة ملازمٌ لها كأنه حاضرها لا يغيب عنها ولا تكاد تنساه. قال ابن جرير رحمه الله: والشح: الإفراط في الحرص على الشيء، وهو في هذا الموضع: إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقته اهـ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿وأحضرت الأنفس الشحَّ﴾ تنبيه للزوجين بأن يحذرا من اتباع الهوى، وتحريضٌ لهما على الصلح، فإن من حارب شح نفسه أفلح، كما قال عز وجل: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولَٰئك هم المفلحون.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ حضٌّ للزوجين على أن يحسن كل واحد منهما صحبة الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يخاف الله عز وجل فيه بعد أن شرع لهما جواز تنازل أحدهما للآخر عن بعض حقه قِبَلَه في مقابلة بقاء عقدة النكاح لما في ذلك من المصالح كرغبة سودة بنت زمعة في أن ترافق رسول الله ﷺ في الجنة وتحشر في نسائه ﷺ ورضى الله عنهن جميعا، وقد يكون للمرأة أولاد من هذا الزوج وترضى بالبقاء في عصمته لتكون

بالقرب منهم لترعاهم وتحسن إليهم، وفي سبيل ذلك تتنازل للزوج عن حقها عليه أو عن بعض حقها. وفي قوله عز وجل: ﴿فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ وعد بحسن المثوبة للمحسنين المتقين ووعيد بالعقوبة للمسيئين الذين لا يخافون الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُواْ أن تَعْدِلُوا بين النساء ولو حَرَصْتُمْ فلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي ولن تقدروا أيها الأزواج عند تعدد زوجاتكم أن تقيموا العدل على أكمل وجه بين الضرائر مهما حاولتم أن تقيموا العدل بينهن، لأنكم بحكم جبلتكم وطبيعتكم لن تستطيعوا أن تساووا بين الضرائر من جميع الوجوه لتفاوت النفوس في الميول والشهوات والغرائز الجنسية، والله تبارك وتعالى إنما يكلفكم من العمل ما تطيقون، ولا يحملكم مالا تستطيعون، وميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من غيرها مما لا يدخل تحت طاقة الإنسان وقدرته، غير أنه لا يجوز للزوج إذا أحب إحدى زوجاته أكثر من الأخرى أن يندفع وراء هذا الحب فيجور على من كان ميله لها أقل ويتركها كأنها معلقة بين السماء والأرض فهي محرومة من الصعود أو الاستقرار والمراد تركها كأنها ليست متزوجة وليست مطلقة، وقد كان بعض أهل الجاهلية إذا كرهوا المرأة أهملوها بالكلية وصارت كالشيء المعلق الذي لا يستفاد منه، ومنه ما جاء في حديث أم زرع: قالت الثالثة: زوجي العشنق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق. والأصل وجوب العدل في المبيت والنفقة وهذا شيء في مقدور الإنسان بخلاف الحب والميل الغريزي، ولذلك روى أحمد وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك. يعني القلب، وقد توعد الإسلام من يجور من الأزواج في هذا القسم المقدور عليه، فقد روى أبو داود والترمذي

والنسائي وابن ماجه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إذا كانـت عند الرجل امرأتـان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيـامة وشقه ساقط . فـإذا تصالح الزوج والـزوجة على إمسـاكها مع تـرك حقها في القسم وكـان الـزوج على خوف من الله عـز وجل وتقـوى فـلاحرج عليـه كما تقـدم ولـذلك قـال عـز وجل هنـا : ﴿وإن تصلحـوا وتتقـوا فإن الله كـان غفـورا رحيما﴾ .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلا مِنْ سَعَتِه، وكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيما. ولله ما في السموات وما في الأرض، وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لله ما في السَّمٰواتِ وَمَا في الْأَرْضِ، وكانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا. ولله ما في السموات وما في الأرض، وَكَفَى بالله وَكِيلا. إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخَرِينَ، وَكَانَ اللهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا. مَنْ كان يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا والْآخِرَةِ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. ﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى الزوجة إذا أحست من زوجها نشوزا أو إعراضا أنه لا حرج عليها ولا على زوجها إذا تصالحا على أن تتنازل الزوجة لزوجها عن حقها أو بعض حقها قِبَله مقابل بقائها في عصمته مادام الزوج يوافقها على ذلك، وحضهما تبارك وتعالى على الصلح، وبيَّن لهما أن الصلح خير، مع تنفير الزوجة والزوج من الشح الذي قد يحول بين الزوجين وبين التصالح الذي قد يثمر بقاء عقدة النكاح وجمع الشمل بين الزوجين. وحذر الزوج أشد التحذير من الجور على الزوجة و إهمالها حتى تصير كالمعلقة التي لا هي أيمٌ ولا هي متزوجة، أشار عز وجل هنا إلى الحالة التي يبلغ فيها النفور بين الزوجين إلى حدٍّ لا يتمكن فيه الزوجان من إقامة حدود الله التي رسمها لكل واحد منهما، وأن بقاء عقدة النكاح في هذه الحالة لن تزيدهما إلا نفورا وتقصيرا في حق بعضهما وارتكاب بعض المآثم والمعاصي مما يجعل الطلاق خيرا من بقاء الحياة الزوجية لأن بقاء الحياة الزوجية حينئذ لا يجلب لهما إلا نكد العيش ومرارة الحياة كما قال الشاعر:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

لذلك طمأن الله تبارك وتعالى الزوجين هنا بأنه لن يضيعهما، وأنه سيجود

على كل واحد منهما من واسع عطائه بما يغنيه عن صاحبه الذي لم يتمكن معه من إقامة حدود الله التي رسمها للحياة الزوجية السعيدة حيث يقول تبارك وتعالى هنا: ﴿وإن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كلا من سعته، وكان الله واسعا حكيما.﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: فإن أبت المرأة التي قد نشز عليها زوجها — إذ أعرض عنها بالميل منه إلى ضرتها لجمالها أو شبابها، أو غير ذلك مما تميل النفوس له إليها — الصلح بصفحها لزوجها عن يومها وليلتها، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة وما أوجب الله لها عليه وأبى الزوج الأخذ عليها بالإحسان الذي ندبه الله إليه بقوله: ﴿وإنْ تُحْسِنُوا وتتقوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ وإلحاقها في القسم لها والنفقة والعشرة بالتي هو إليها مائلٌ، فتفرقا بطلاق الزوج إياها ﴿يُغْنِ اللهُ كُلا من سَعَتِهِ﴾ يقول: يغن الله الزوج والمرأة المطلقة من سعة فضله، أما هذه، فبزوج هو أصلح لها من المطلق الأول، أو برزق أوسع وعصمة، وأما هذا، فبرزق واسع وزوجة هي أصلح له من المطلقة، أو عفة، ﴿وكان الله واسعا﴾ يعني: وكان الله واسعاً لهما في رزقه إياهما وغيرهما من خلقه ﴿حكيما﴾ فيما قضى بينه وبينها من الفرقة والطلاق، وسائر المعاني التي عرفناها من الحكم بينهما في هذه الآيات وغيرها، وفي غير ذلك من أحكامه وتدبيره وقضاياه في خلقه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض﴾ أي وجميع ما في السموات وما في الأرض لله تبارك وتعالى ملكاً ومُلكاً، فهو المالك الحاكم في السموات وجميع العالم العلوي وهو المالك الحاكم في الأرض وجميع العالم السفلي، فلا يوجد شيء في السموات أو في الأرض إلا وهو في ملك الله وتحت سلطانه يتصرف فيه كيف يشاء ويحكم فيه بما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وفي هذا طمأنة لقلب الزوجين المتفارقين بأن مالك السموات والأرض

وملكهما الـذي يعلم السر والنجـوى لن يضيـع أحـدا من الـزوجين اللـذين تفارقـا خوفا من تضييع حـدود الله التي رسمها للحياة الزوجيـة السعيدة وأن التفارق لم يكن بطراً ولا اتباعـاً للشهوات الجامحة والطيش والتهور، والملاحظ أن الله تبـارك وتعالى ذكـر مالكيتـه للسمٰوات والأرض في هـذا «الثُّمْن» أربع مرات حيث قال: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض، وكان الله بكل شيء محيطـا﴾ في الآية السـادسـة والعشرين بعـد المائة، وقـال هنا: ﴿ولله مـا في السمٰوات وما في الأرض، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله، وإن تكفـروا فإن لله مـا في السمٰوات ومـا في الأرض، وكان الله غنيـا حميدًا. ولله مـا في السمٰـوات ومـا في الأرض، وكفى بالله وكيـلا.﴾ في الآيتين الواحدة والثـلاثين بعد المائة والثانية والثـلاثين بعد المائة. ولاشك أن ذكـره لمالكيتـه للسمٰوات والأرض في هـذه المواضع يقتضي تقـريـره وتأكيـده لمضمون مـا يقع هذا الذكر في حيـزه، وقد أشار إلى ذلك ابن جـرير رحمه الله حيث قال: يعني بذلك جل ثناؤه: ولله جميع ملك ما حوته السمٰوات السبع والأرضون السبع من الأشيـاء كلها، وإنما ذكـر جل ثناؤه ذلك بعقب قـوله: ﴿وإن يتفرقا يُغْنِ اللهُ كُلا من سَعَتِهِ﴾ تنبيهًا منه خَلْقَهُ على موضع الرغبة عند فراق أحـدهم زوجته، ليفزعـوا إليه عند الجزع من الحاجـة والفاقة والـوحشة بفراق سكنه وزوجته، وتذكيراً منه له أنـه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميـع الأشياء، فغير متعذر عليـه أن يغنيه وكل ذي فـاقة وحـاجة، ويؤنس كل ذي وحشة اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَـدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ أي ولقد أمرنا جميع أهل الكتب السماوية التي نزلـت قبل القرآن العظيم كما أمرناكم في القـرآن الكريم بتقوى الله تبارك وتعالى، وإخلاص العبـادة لله وحده لا شريك له، والخوف منه في السر والعلن، والحذر من معـاصيـه وتعـدى حـدوده، وإسـلام الـوجـه لله

وحده، واتباع رسله، وذلك هو الدين الحق الذي بعث الله به جميع الرسل وأنزل به جميع الكتب، وهو ملة إبراهيم الحنيفية السمحة، فإن تطيعوا الله ورسوله محمدا ﷺ تهتدوا وتفلحوا وتفوزوا بسعادة الدارين، وإن تكفروا فلن تضروا إلا أنفسكم ولن تضروا الله شيئا لأنه غني حميد، لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولذلك قال هنا: ﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمٰوات وما في الأرض، وكان الله غنيًّا حميدًا.﴾ أي وإن تعرضوا عن وحي الرحمن، وتنقادوا إلى وسوسة الشيطان، فلن تضروا من له ملك السموات والأرض، الذي يؤتي ملكه من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لأن الخلق خلقه، هم الفقراء إليه، وهو الغني عنهم، وهو المحمود لذاته، وصفاته، وأفعاله، المستحق للحمد في السراء والضراء، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغَنِيُّ الحَمِيدُ. إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويأت بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وما ذٰلك على الله بعزيز﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فإنَّ الله لَغَنِيٌّ حميد.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومَنْ يَتَوَلَّ فإنَّ اللهَ هو الْغَنِيُّ الحَمِيدُ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فكفروا وتَوَلَّوْا، واستغنى اللهُ، والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿له ما في السمٰوات وما في الأرض، وإنَّ الله لهو الغَنِيُّ الحميدُ.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأض، وكفى بالله وكيلا.﴾ هذا تأكيد لمالكيته عز وجل لجميع ما حوت السموات والأرض وبيان لحفظه عز وجل لخلقه ولتدبيره إياهم على ما يريد، وأنه القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الحفيظ الشهيد على كل شيء، وقوله

تبارك وتعالى : ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها النـاسُ وَيأت بآخَـرِينَ ، وكانَ الله على ذٰلك قديرا . ﴾ تقرير وتأكيد لتمام قدرته ، وكمال مشيئته ، وتهديدٌ لأعدائه بأنه لو أراد استئصالهم لاستأصلهم ، فما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قديرٌ، ولا يمتنع عليه شيء ، ولا يعجزه إذهاب الكافرين وإفناؤهم وتبديلهم بناس صالحين يؤيدون رسله ، ويؤمنون بكتبه ، كما قال عز وجل : ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بخلقٍ جديدٍ . وما ذٰلك على الله بعَزِيز. ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وإنَّ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكمْ . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿مَنْ كان يُرِيدُ ثوابَ الدنيا فَعِنْدَ الله ثوابُ الدنيا والآخرة . ﴾ هذا ترغيب للمنحرفين عن الصراط المستقيم بالرجوع إليه ، وتوجيههم إلى الإقبال على الله عز وجل ، وتأنيب لمن كان لا هم له إلا حطام الحياة الدنيا بأنه لو أراد الخير لنفسه لم يقتصر على ثواب الدنيا الذي لا بقاء له ولا دوام ، بل جعل همته متعلقة بنعيم الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول ، على أن كل نعيم في الدنيا والآخرة إنما هو بيد الله وحده الذي له ملك السموات والأرض ، وله الدنيا والآخرة ، كما قال عز وجل : ﴿مَنْ كان يريد العاجلة عجَّلْنَا له فيها ما نشاء لِمَنْ نُرِيدُ ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مَدْحُورًا . وَمَنْ أراد الآخرة وسَعَى لها سَعْيَهَا وهو مؤمنٌ فأولٰئك كان سَعْيُهُمْ مشكورا . كُلا نُمِدُّ هٰؤلاء وهٰؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . ﴾ على أن طلاب الدنيا وحدها لا يحصل لهم كُلُّ ما يريدون ، بخلاف طلاب الآخرة فإنه يحصل لهم كل ما يريدون ، وفوق ما يريدون ، كما قال عز وجل : ﴿من كان يريد حرثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وكان الله سميعا بصيرا . ﴾ تذييل لتوبيخ المرائين ، وتنبيههم إلى أن أعمالهم لا تخفى على السميع البصير.

قال تعالى: ﴿يَـاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِـالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُـوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَـابِ الَّذِي نَزَّل عَلَى رَسُولِهِ والْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَن يكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِـهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا.﴾

لما كان القرآن العظيم إنما أنزل على رسول الله ﷺ لدلالة الخلق على الحق، وإقامـة العدل، كما قال عـز وجل: ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ وقـد ساق الله تبارك وتعـالى في هذه السـورة المباركـة صوراً مشرقـة رسم فيها حقـوق النساء واليتامى وبخاصة يتامى النساء والوالدين وذي القربى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصـاحب بالجنب وابن السبيل، والمماليك، وأوجب على جميع المكلفين تقوى الله عـز وجل وضرورة الاحتكام إلى شريعتـه والكفر بالطاغوت، ونبه عبـاده إلى أنه وصى جميع الأمم بتقوى الله عز وجل، الذي له مـا في السموات ومـا في الأرض الغني الحميد، المهيمن على جميـع خلقه، القادر على كل شيء الـذي بيده وحده ثـواب الدنيا والآخرة، وجّـه الخطاب هنا للمؤمنين حيث أمرهم بأن يكونوا قوامين بالقسط شهداء لله، وأن يلتزموا بـذلك في جميع أحـوالهم وأقـوالهم مهما كـانت، وأن الله تبـارك وتعـالى أولى بجميع العبـاد من أنفسهم، وأنـه لا يجوز أن يحول الهوى دون إقـامـة الحق والعدل، وفي ذلك يقول: ﴿يـاأيها الذين آمنُوا كونوا قـوامين بالقِسْطِ شهداءَ لله ولو على أنفسكـم أو الوالديـن والأقربين، إن يكن غنيـا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تَتَبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا، وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامين بالقِسْطِ

شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أن تعدلوا﴾ أي يامعشر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ، المصدقين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، احرصوا أشد الحرص، وابذلوا كل ما في وسعكم لإقامة العدل وإزالة الجور والظلم، ولا تعدلوا عن العدل يمينا أو شمالا، ولا تأخذكم في إقامته لومة لائم، ولا يصرفكم عنه صارفٌ مهما كان، وأقيموه حتى على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، ولا تنحرفوا عنه من أجل غِنى غنيٍّ، أو فقر فقير، فالله عز وجل أولى بكل إنسان من نفسه، إذ هو رب الجميع وسيدهم ومالكهم ورازقهم والمهيمن عليهم، واجتهدوا غاية الاجتهاد أن تكون إقامتكم للعدل ابتغاء وجه الله ورغبة فيما عنده من جميل المثوبة وعظيم الأجر، وطلبا لمرضاته، وهو وحده الذي بيده ثواب الدنيا والآخرة، وقولوا الحق ولو كان مرًّا فإنه أحلى عاقبة ومآلاً، إذ بالعدل قامت السموات والأرض، والمراد بكون الإنسان قوامًا بالقسط شهيدا لله على نفسه أو والديه والأقربين هو أن يقر الإنسان بما عليه من حق لغيره، أو أن يقر بما على والده أو والدته أو أقاربه من حق للغير تحقيقاً للعدالة وإقامة للقسط، ولا نزاع عند أهل العلم في جواز شهادة الإنسان على والديه أو أقاربه بما يعرفه من الحقوق عليهم، ولا تعتبر الشهادة على الوالدين والأقربين من باب قطيعة الرحم بل هو من باب صلة الرحم بتخليصهم من أسباب سخط الله، وعقوبته لمن أكل الحقوق وضيعها، فهي إعانة لهم وليست إعانة عليهم، وهذا بخلاف الشهادة لهم فإنها لا تقبل من الإنسان لنفسه أو لوالديه أو أقاربه دفعاً للتهمة، وكما يجب ويتحتم على المؤمن أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عز وجل ولو على نفسه أو والديه أو أقاربه فإنه يجب ويتحتم عليه أن يكون قواماً بالقسط شاهداً لله عز وجل ولو على عدوه، وأن يلتزم بالعدل في الرضا والغضب والحب

والبغض وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، ولا يجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قومٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى واتقوا اللهَ، إن الله خبير بما تعملون.﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى القائمين بالقسط بأن يجعل لهم منابر من نور يوم القيامة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا. كما توعد تبارك وتعالى القاسطين الجائرين بأنهم يكونون حطب جهنم يوم القيامة حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وأما القاسطون فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا.﴾ وحذر عز وجل من اتباع الهوى وبيَّن أنه يضل عن سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله، إن الذين يَضِلُّونَ عن سبيل الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يوم الحساب.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أن تَعْدِلُوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وحب من تحبون أو بغض من تبغضون على ترك العدل في أموركم وشئونكم بل الزموا العدل وقوموا بالقسط في جميع أحوالكم وقضاياكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرًا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وإن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ قال مجاهد وغير واحدٍ من السلف: تلووا أي تحرِّفوا الشهادة وتغيروها، واللَّيُّ هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿وإنَّ منهم لفريقًا يَلْوُون ألسنتَهم بالكتاب﴾ الآية، والإعراضُ هو كتمان الشهادة وتركها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإنه آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وقال النبي ﷺ: خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فإنَّ الله كانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا.﴾ أي وسيجازيكم بذلك اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسولِهِ والكتابِ الذي نَزَّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبلُ، وَمَنْ

يَكْفُر بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسِلِهِ واليوم الآخرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا . ﴾ هذا الخطاب الكريم يشمل المؤمنين حقـا ، وليس المقصود منه تحصيل الحاصل ، بل المراد حضُّ المؤمنين على الثبات على الإيمان وأركانه والإعلام بأن من ضيع منها ركنـا فقد كفر وضل ضلالا بعيـدا ، كما يشمل من آمن من المنافقين ثم مرض قلبه ونافق كما أشار إلى ذلك المثـل الذي ضربه الله عز وجل للمنافقين في أوائل سورة البقرة حيث قال عز وجل : ﴿مَثَلُهُـمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَـاءَتْ مَا حَـوْلَـهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَـرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ . ﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل هنا في الآية التي تلي هذه الآية حيث يقول : ﴿إنَّ الـذين آمَنُوا ثـم كفروا ثم آمنـوا ثم كَفَـرُوا ثم ازْدَادُوا كُفْـرًا . ﴾ الآية . ثم قـال بعـدها مبـاشرة : ﴿بَشِّرِ المنـافقينَ بأنَّ لَهُمْ عـذابا أَلِيمًا . ﴾ والمراد مـن توجيـه الخطاب لهم في هذا المقـام هو ترغيبهم في الإيمان الـدائم ودعوتهم إلى الثبات على الحق واجتناب التذبذب وتعـريفهم بأركان الإيمان ، كما يشمل الخطاب الكريم هنا أهل الكتاب الذين يصـدقون في الجملة ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض ، والمقصـــود من مخاطبتهم حضهم على الإيمان المطلق وتعـــريفهم بالإيمان النـافع ، وإرشادهم إلى أركـان الإيمان ، وأن من ضيَّع ركنا منهـا فقد ضل ضلالا بعيـدا . والمقصود بالكتاب الـذي نزَّل الله على رسوله هـو القرآن العظيم المنزَّل على محمـد ﷺ ، والمقصود بالكتاب الذي أنـزل الله من قبل هو جميع الكتب المنزلة على المرسلين قبل نزول القـرآن ، فالمراد بالكتاب هو جنس الكتاب المنتظم لجميع الكتب السماويـة السابقة ، فهو وإن كـان لفظه مفردًا فالمقصود منـه العموم كلفظ الطفل في قوله تبـارك وتعالى : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الذين لم يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ إذ المقصود بالطفل هنا هم الأطفال وقد ذكرت هذه الآية الكـريمة خمسة من أركان الإيمان الستـة التي بيَّنها رسول الله ﷺ في حـديث جبريل عندمـا سأل رسـول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحســان

وعلم الساعة، حيث أجابه عن سؤاله: ما الإيمان؟ فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره كما جاء في لفظ مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بيْنا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يامحمد أخبرني عن الإسلام. قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي: ياعمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. ففي هذا الحديث الصحيح ذكر أركان الإيمان الستة بزيادة ركن الإيمان بالقدر خيره وشره عما ذكرته الآية الكريمة، ومن المسَلَّمات أن من وظيفة رسول الله ﷺ أن يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم كما قال عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا﴾

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّـذِينَ آمنوا ثم كَفَرُوا ثم آمَنُوا ثـم كَفَرُوا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيـلا . بَشِّرِ المنافقين بِـأَنَّ لَهُمْ عَذَابًـا أَلِيما . الذين يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ المؤمنين ، أَيَبْتَغُونَ عندهم الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعًا . وَقَدْ نَـزَّلَ عَلَيْكُمْ فى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكفَرُ بها وَيُسْتَهْـزَأُ بها فَـلا تَقْعُـدُوا معَهُمْ حتى يَخُوضُـوا فِي حَـدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ، إِنَّ اللهَ جَامِعُ المنافقين وَالكَافِرِينَ في جَهَنم جَمِيعًا . ﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بـالثبات على الإيمان وأركانه وأعلمهم بأن من ضيَّع ركنـاً من هـذه الأركان فقـد كفـر وضل ضلالا بعيـدا ، ورغب المنافقين الذين لاحت لهم أنوار الإيمان ثم مرضت قلوبهم وعميت بأن يرجعوا عن ضـلالهم ويستمـروا على الإيمان الدائم ، ودعـاهم إلى الثبـات على الحق واجتناب التذبذب بين الإيمان والكفـر، وعرَّفهم بأركان الإيمان ، وحض أهل الكتاب الـذين يصدقون في الجملة ببعض الأنبيـاء وببعض الكتب السماوية ويكفـرون ببعض الأنبيـاء وببعض الكتـب السماويـة ودعـاهم إلى الإيمان المطلق ، وعرفهم بالإيمان النافع ، وأرشدهم إلى أركان الإيمان ، حذر هنا أشد التحذير من التذبذب بين الإيمان والكفر، وتوعد من فعل ذلك واستمر عليه ولم يثبت على الإيمان إلى الموت بأن الله لن يغفـر لـه ولن يهديـه سبيـلا حيث يقول عز وجل : ﴿إِنَّ الـذين آمنُوا ثم كفروا ثم آمنوا ثـم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ولا لِيَهْدِيَهُمْ سبيلا . ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجـع عنـه ، ثم عـاد فيـه ثـم رجع ، واستمـر على ضلاله ، وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجًا ولا مخرجًا ، ولا طريقًا إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿لم يكن الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا . ﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تُقبل توبته ومن مات كافرا، فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازْدَادُوا كفرًا لن تُقْبَلَ تَوبَتُهُمْ وأولَئك هم الضَّالُّونَ. إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرضِ ذَهَبًا ولو افتدى به، أولَئك لهم عذابٌ أَلِيم وَمَالَهُمْ مِن ناصِرِين.﴾ وهؤلاء الذين لا تُقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا: قيل لنفاقهم، وقيل لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل لن تقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: ﴿ولَيْسَتِ التوبةُ للذين يَعْمَلُونَ السيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموتُ قال إني تُبْتُ الآنَ وَلا الذين يَمُوتُونَ وهم كُفَّارٌ﴾ وكذلك قوله: ﴿إنَّ الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازْدَادُوا كُفْرًا لم يكن اللهُ ليغفر هم ولا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا.﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: ﴿ازْدَادُوا كفرا﴾ ثبتوا عليه حتى ماتوا، قلت: وذلك لأن التائب راجعٌ عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر، فقوله: ﴿ثم ازْدَادُوا﴾ بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر، واستمروا على الكفر وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره، فلم يَزْدَدْ بل نقص، بخلاف المصرِّ إلى حين المعاينة، فما بقي له زمانٌ يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه، وفي الآية الأخرى قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا، قيل لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه، فعوقب بالكفر الأول والثاني، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قيل: يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: من أحسن في الإسلام لم

يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر. فلو قال: إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم، كان هؤلاء الذين ذكرهم في آل عمران فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم﴾ بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا بعد ذلك، وهو المرتد التائب، فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يُغفر له كفره السابق أيضا فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرا، فلا يدخلون في الآية اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَشِّر المنافقين بأنَّ لهم عذابا أَلِيمًا.﴾ هذا وعيد شديد لمن استمر على نفاقه ولم يرتدع بالتحذير والإنذار الذي ذكره الله عز وجل في الآية السابقة تخويفا للمذبذبين بين الإيمان والكفر، ومعنى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما.﴾ أي وأخبر أيها الرسول العظيم الذين يكتمون الكفر ويظهرون الإسلام خبراً مؤلماً موجعًا يظهر أثره على بشرة وجوههم حتى تنكمش حزنا وألما بما أعد الله عز وجل لهم من العذاب في نار جهنم. وأصل البشارة الخبر بما يسر أو يسوء مما يظهر أثره على البشرة حيث تنطلق الأسارير عند سماع الخبر السار، وتنكمش وتتجعد عند سماع الخبر المحزن المفجع المؤلم، والبشرة هي ظاهر الجلد. وأكثر ما تستعمل البشارة في الخبر السار، فإذا استعملت في الخبر المسيء المحزن قُيدت بما يدل عليه كقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أليم.﴾ وكقوله عز وجل هنا: ﴿بَشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذابا أليما.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعًا.﴾ بيان لصفة من صفات المنافقين الذين أمر رسول الله ﷺ أن يبشرهم بأن لهم عذابا أليما، وإبراز للعلة التي دعت هؤلاء المنافقين إلى أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين حيث ظن هؤلاء المنكوسون المركوسون أن موالاتهم لليهود تجلب العزة والقوة والمنعة لهؤلاء الرعاديد

المنافقين، وهم في هذا كالغريق يتعلق بالغريق، فإن الله تبارك وتعالى كتب الذلة والمسكنة على اليهود وضربها عليهم أينما ثقفوا، والعزة لله وحده، فهو الذي يعزّ من يشاء ويذل من يشاء، وقد أعلن أن العزة والغلبة والمنعة والقوة قد كتبها عز وجل لأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنا ورسلي، إنَّ الله قَوِيٌّ عزيز.﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿هم الذين يقولونَ لا تُنْفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى يَنْفَضُّوا، ولله خزائن السمٰوات والأرض ولٰكنَّ المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين ولٰكنَّ المنافقين لا يعلمون.﴾ فمن أراد العزة فليطلبها من الله، وليعتصم بحبله، كما قال عز وجل: ﴿مَنْ كان يريد العِزَّةَ فلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّل عليكم في الكتاب أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ، إنَّ الله جَامِعُ المنافقين والكافرين في جَهَنمَ جَمِيعًا.﴾ تحذير للمسلمين من مجالسة من يظهر الكفر بآيات الله أو من يستهزئ بها، وأنه لا يحل لمسلم أن يقعد معهم إلا إذا كفوا ألسنتهم عن إظهار الكفر بآيات الله وعن الاستهزاء بها، وأن من جالس هؤلاء الكافرين والمستهزئين بآيات الله راضيا بعملهم مقرًّا لهم فهو كافر مثلهم مشارك لهم في المآثم والمعاصي مركوس معهم في نار جهنم حيث يجمع الله فيها المنافقين والكافرين جميعا. والذي نَزَّل الله في الكتاب للتحذير من مجالسة الذين يظهرون الكفر بآيات الله أو الاستهزاء بها هو قوله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿وإذا رأَيْتَ الذين يخوضُونَ في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غَيْرِهِ، وإما يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين.﴾ والمراد بآيات الله في هذا المقام هو القرآن العظيم والذكر الحكيم، أي وإذا سمعتم الكفر بآيات الله أو سمعتم الاستهزاء بها في مجلس

فلا تجلسوا مع الكافرين بآيات الله أو المستهزئين بها حتى يتركوا هذا الكفر وهذا الاستهزاء، وقد أوقع السماع على الآيات والمراد سماع الكفر والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبد الله يلام أي سمعت اللوم في عبد الله. وهذه الآية الكريمة وإن كانت مسوقة للتحذير من مجالسة من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه فقد حملها كثير من الأئمة على النهي كذلك عن مجالسة أهل الباطل الذين يُظهرون باطلهم في مجلسهم ويتبجحون به. قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي غير الكفر ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ فدل بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، قال الله عز وجل: ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم، وبنحو ذلك كان جماعة من الأئمة الماضين يقولون تأوّلا منهم هذه الآية أنه مرادٌ بها النهي عن مشاهدة كل باطل عند خوض أهله فيه، ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى قال: حدثنا إسحاق قال: حدثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي وائل قال: إن الرجل ليتكلم بالكلمة في المجلس من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليهم، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: صدق أبو وائل، أو ليس ذلك في كتاب الله؟: ﴿أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إنكم إذًا مِثْلُهُمْ﴾ حدثني المثنى قال حدثنا إسحاق

قال : حـدثنا عبـد الله بن إدريس عن العلاء بـن المنهال عن هشام بـن عروة قال : أخـذ عمر بن عبـد العزيـز قومـا على شراب فضربهم ، وفيهم صائم ، فقالوا : إن هـذا صائم ، فتلا : ﴿فلا تقعـدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذًا مثلهم﴾ اهـ .

قال تعالى: ﴿الَّذِين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لكم فَتْحٌ من الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للكافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونمنعكم مِنَ الْمُؤْمِنِين، فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُم يَوْمَ القيامَةِ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِينَ على المؤمنين سبيلا. إنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُون اللهَ إلا قَلِيلا. مُذَبذَبِينَ بَيْنَ ذٰلك لا إلى هَؤلاء ولا إلى هَؤلاء، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سَبِيلا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بما أعد الله لهم من العذاب الأليم، وذكر بعض صفاتهم القبيحة، وحذر المسلمين من مجالسة من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها في مجلسه شرع يبيِّن هنا مزيدًا من صفات المنافقين البشعة فقال عز وجل: ﴿الَّذِين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لكم فَتْحٌ من الله قالوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ للكافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونمنعكم مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ أي الذين ينتظرون ما يحل بكم من نصر أو هزيمة فإن فتح الله لكم ونصركم على أعدائكم وجعل لكم الظفر والغلبة وغنمتم تظاهروا بأنهم معكم وتوددوا إليكم بألسنتهم، وإن كانت الجولة للكافرين على المؤمنين وأصابتكم هزيمة ابتلاء وامتحانا توددوا للكافرين وازدلفوا إليهم، وادعوا لهم أنهم إنما انتصروا على المسلمين بسببهم حيث أحاطوهم وصاروا كأنهم حصنٌ لهم ولم يمكنوا المسلمين منهم، فهؤلاء المنافقون جبناء رعاديد، لا هَمَّ لهم إلا أن يصانعوا من تكون الجولة له، فهم كالنبات المعروف باسم «عباد الشمس» الذي يوجه وجهه إلى جهة الدفء والشمس، وقد فضح الله عز وجل خبيئتهم، ونبه المسلمين إلى أن يبيِّنوا للمنافقين أن المسلمين على خير عظيم سواء كانت الجولة لهم أو كانت عليهم، فهم على إحدى الحسنيين: إما النصر على أعداء الله وإما الشهادة

في سبيل الله، والعاقبة للمتقين، حيث يقول عز وجل: ﴿قل هل تَـرَبَّصُون بنا إلا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ ونحن نتربَّصُ بكـم أن يُصِيبَكُمُ اللهُ بعذابٍ من عِنْدِهِ أو بأيدينـا فتَرَبَّصُوا إنـا معكم مُتَرَبِّصُونَ.﴾ وقـوله عز وجـل: ﴿فاللهُ يَحْكُمُ بينكم يومَ القيامة﴾ أي فاللهُ تبارك وتعالى يقضي بين عباده يوم القيامة وهو عز وجل لا تخفى عليـه خـافيـةٌ، فـلا تغتروا أيها المنـافقـون ولا تظنـوا أن حقن الإسـلام لدمـائكم ورفع السيف عنكم في الحيـاة الـدنيـا ومعاملتكم معـالمة المسلمين ينجيكم من عقاب الله يوم القيامة الذي تبلى فيه السرائر وينكشف ما في الضمائر، وإنما أجـرى الإسلام عليكم أحكام المسلمين في الحياة الـدنيا ظاهرا لإظهـاركم الإسلام. ولله الحكمة البالغة. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وَلَنْ يجعل اللهُ للكـافريـن على المؤمنين سبيلا.﴾ قـال ابن جـرير رحمه الله: وأمـا قوله: ﴿فَالله يَحْكُمُ بينكم يوم القيـامة، ولن يجعل اللهُ للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾ فلا خلاف بينهم في أن معناه: ولن يجعـل الله للكافرين يومئذ على المؤمنين سبيلا، ذكـر الخبر عمن قال ذلـك: حدثنا ابـن وكيع قال: حـدثنا جرير عن الأعمش عن ذرٍّ عن يُسَيـع الحضرمي قال: كنت عند علي ابن أبي طالـب رضوان الله عليه فقـال رجل: ياأمير المؤمنين أرأيت قـول الله: ﴿ولن يجعل الله للكافـرين على المؤمنين سبيلا﴾ وهم يقاتلوننـا فيظهرون ويقتلون؟ قال له عليٌّ: ادنـه ادنه ثم قال: ﴿فالله يحكم بينكم يـوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيـلا﴾ يوم القيامة، حـدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنـا عبـد الـرزاق قـال: أخبرنـا الثـوري عـن الأعمش عن ذَرٍّ عن يسيع الكندي في قـوله: ﴿ولن يجعل الله للكـافرين على المؤمنين سبيـلا.﴾ قال: جـاء رجل إلى علي بن أبي طـالب فقال: كيف هـذه الآيـة: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.﴾؟ فقـال علي: ادنه: ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامـة، ولن يجعل الله﴾ يوم القيـامة: ﴿للكافـرين على المؤمنين سبيلا.﴾

اهـ وفي هذا ردع للمنافقين وترهيب لهم من موالاة الكافرين ببيان أن ما قد يحدث من جولة للكافرين على المؤمنين في بعض الأحيان فلا دوام له ولا بقاء، لأنه إنما يحدث للابتلاء وتكون العاقبة للمؤمنين، إذ العز الأبدي والنصر السرمدي فإنه للمؤمنين وحدهم يوم القيامة، ولن يكون للكافرين فيه جولة أبداً على المؤمنين، فلا توالوا الكافرين أيها المنافقون لأن دولتهم لا دوام لها، ووالوا المؤمنين أصحاب العز الأبدي والنعيم السرمدي. وقوله عز وجل: ﴿إنَّ المنافقين يخادعون اللهَ وهو خَادِعُهُمْ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إلاَّ قَلِيلا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إلى هٰؤلاء وَلا إلى هٰؤلاء، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سبيلا.﴾ هذا بيانٌ لطرف آخر من قبائح أعمال المنافقين وكشفٌ لما هم عليه من الجهل ونقص العقل وقلة العلم، وقد تقدم في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة في وصف المنافقين: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون.﴾ أن هذا بيان جليٌّ لما عليه المنافقون من جهلهم بالله عز وجل وعدم معرفتهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى إذ يظنون بالله ظن السوء ويحسبون أنه تجوز عليه حِيَلهم وأنه تخفى عليه سرائرهم فهم لذلك يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ويظنون أن الله لا يعلم ذلك، وأنهم ينجون من عذابه إذا نطقوا بالشهادتين وإن خالف ذلك سريرتهم وطويتهم وأنهم يحسبون أنه يروج على الله كما قد يروج على بعض المؤمنين، والواقع أن خداعهم إنما يرجع وباله عليهم وحدهم، وأن الله تعالى يدفع عن المؤمنين مكرهم ويدرأ في نحورهم ولذلك قال عز وجل في سورة النساء: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن المنافقين يظنون يوم القيامة أنهم يخدعون الله عز وجل بالأيمان الكاذبة الفاجرة كما كانوا يفعلون ذلك مع المؤمنين في الدنيا حيث كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ ويحلفون أنهم مصدقون بالإسلام وأنهم

يشهدون أن محمدا رسول الله واتخذوا أيمانهم جُنَّةً وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون.﴾ والخِداع أن يوهم الإنسان صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ليوقعه فيه من حيث لا يشعر، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به ليغتر بذلك. اهـ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وهو خادعهم﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نَقْتَبِسْ من نوركم﴾ إلى قوله ﴿وبئس المصير.﴾ وقد ورد في الحديث: من سمَّع سَمَّعَ الله به، ومن رايا رايا الله به. اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى﴾ بيانٌ لتباطؤهم وتثاقلهم وتكاسلهم إذا قاموا إلى أفضل الأعمال وأشرفها بعد الشهادتين وهي الصلاة، لا ينشطون لها ولا يفرحون بها بل هي ثقيلة عليهم، وهذه الصفة من أخص صفاتهم الظاهرة كما قال عز وجل: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسَالَى﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق الأعمش قال: حدثني أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم، ثم آمر رجلا يؤم الناس، ثم آخذ شُعلاً من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد. وأخرجه مسلم من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: إنَّ أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ثقل

الصلاة على غير المنيبين إلى الله حيث يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا لا يذكر الله فيها إلا قليلا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُرَاءُونَ الناسَ ولا يَذكُرُونَ الله إلا قليلا. مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلك لا إلى هٰؤلاء ولا إلى هٰؤلاء﴾ كشفٌ لخبث بواطنهم وفساد سرائرهم وانحراف طوياتهم وكفرهم بالله واليوم الآخر وحيرتهم في سلوكهم، وانغماسهم في الشك والتردد والتذبذب. فهم إن حضروا الصلاة أو عملوا شيئا من المعروف فعلوا ذلك رياءً وسمعة لا رغبة فيما عند الله، ولا يكاد يخطر على بالهم ذكر الله وهم ليسوا مع المؤمنين ظاهرا وباطنا، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين وهم أشبه شيء بالشاة العائرة بين الغنمين أي المتحيرة المترددة لا تدري أي الغنمين تتبع فهي تكر في هذه مرة وفي هذه مرة لا تستقر على حال كما وصفهم بذلك أفصح الخلق الذي أوتي جوامع الكلم محمد رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. وفي لفظ: تكر في هذه مرة وفي هذه مرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيلا.﴾ تذييل لبيان أسباب حيرتهم وذبذبتهم إذ حرمهم الله عز وجل من توفيقه، وخذلهم فلم يسددهم، ومن يضلل الله فلا هادي له.

قـال تعـالى : ﴿ياأيها الـذين آمنـوا لا تَتَّخِـذُوا الكَافِـرِينَ أَوْلِيَـاءَ من دُونِ المؤمنين، أَتُرِيدُون أن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـانًا مُبينًا . إنَّ المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إلا الَّذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فأولَئك مع المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ، وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا .﴾

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بأن يبشر المنافقين بأن لهم عذابا أليمًا الذين يتخـذون الكافرين أوليـاء من دون المؤمنين وأوضح بعض صفات المنافقين التي فضحتهم، وجـه الخطاب هنـا للمؤمنين وحـذرهم أن يتخذوا الكـافرين أوليـاء من دون المؤمنين فقـال عـز وجل : ﴿ياأيها الـذين آمنـوا لا تتخـذوا الكـافـرين أوليـاء من دون المؤمنين﴾ أي يـامعشر من استجـاب لله ولرسوله ﷺ وأقر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره : لا تجعلـوا أعـداء الله ورسلِـه بطـانتكم وخـاصتكم، ولا تصـاحبـوهم ولا تصادقوهم ولا تسروا إليهم بالمودة، ولا تفشوا إليهم أسرار المؤمنين، لأنهم لا يألونكم خبالا، ودُّوا ما عنتـم، وقد أعقب الله تبارك وتعالى نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين بتحذيرين شديدين رادعين أشد الردع عن اتخاذ الكـافـرين أوليـاء مـن دون المؤمنين الأول منهما قـولُـه عـز وجل : ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينـا﴾ والثاني منهما قوله عز وجل : ﴿إنَّ المنـافقين في الـدَّرْك الأسْفَل من النـار ولن تجد لهم نصيرا .﴾ وقـد أفـاد التحـذيـر الأول مـن هـذين التحـذيـرين أن من ادعـى الإيمان وهـو مـوال للكافرين فهـو كاذب في دعواه سالك سبيل المنافقين سـاع في تعريض نفسه لعقـوبـة الله وعـذابـه الـذي يسلطـه عـز وجل على أعـدائه من المنـافقين والكافـرين، وأفاد التحـذير الثاني أن عقـوبة المنافقين يـوم القيامـة هي أشد

العقوبات التي لن يستطيع أحد دفعها عنهم، وهم وإن جمعهم الله في جهنم مع الكافرين لكنهم يكونون في الدرك الأسفل من النار، ومعنى: ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا.﴾ أي أتحبون أن تعرضوا أنفسكم لغضب الله وعذابه بإيجابكم الحجة الظاهرة على أنفسكم بأنكم مستحقون لسخط الله وأليم عقابه حيث واليتم أعداءه، وقد علمتم أن من والى أعداء الله فليس من الله في شيء كما قال عز وجل: ﴿لا يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلك فليس من الله في شيءٍ إلا أن تَتَّقُوا منهم تُقَاةً، ويُحَذِّرُكم اللهُ نَفْسَهُ، وإلى الله المصير.﴾ والمراد بالدرك الأسفل من النار هو الطبق الأسفل من أطباق جهنم وقعرها السحيق، قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إن المنافقين في الدَّرْكِ الأسفل من النار﴾ إن المنافقين في الطَّبَق الأسفل من أطباق جهنم وكل طبقٍ من أطباق جهنم «درك» وفيه لغتان: دَرَك بفتح الراء ودَرْك بتسكينها اهـ وظاهر القرآن الكريم يشعر أن المنافقين وآل فرعون يكونون في قعر جهنم وفي أشد العذاب كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ الساعةُ أَدْخِلُوا آلَ فرعونَ أَشَدَّ العذابِ.﴾ وبعد هذا الترهيب من سلوك طريق المنافقين رغب الله عز وجل المنافقين ومن نحا نحوهم وسلك منهجهم في التوبة إلى الله عز وجل والرجوع إليه وإصلاح أعمالهم، والاعتصام بالله عز وجل، وإخلاص الدين لله، وبشرهم بأن من أقلع عن النفاق وتاب إلى الله عز وجل وأصلح أعماله واعتصم بالله وأخلص دينه لله فسيحشره الله عز وجل مع المؤمنين الذين يمنحهم من فضله الأجر الجزيل والثواب الجميل يوم القيامة، ويسعى نورهم على الصراط بين أيديهم وبأيمانهم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بالله وأخلصوا دينَهُم لله فأولَٰئك مع المؤمنين وسوف يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من طريق

الأعمش قال: حدثني إبراهيم عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله فجاء حذيفة حتى قام علينا، فسلَّم ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم، قال الأسود: سبحان الله، إن الله يقول: ﴿إنَّ المنافقين في الدرك الأسفلِ من النار﴾ فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، فتفرَّق أصحابه، فرماني بالحصا، فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكه، وقد عرف ما قلت، لقد أُنزل النفاق على قومٍ، كانوا خيرا منكم ثم تابوا، فتاب الله عليهم والمراد بعبد الله في هذا الحديث: هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وإنما تبسم رضي الله عنه عند سماع كلام حذيفة رضي الله عنه لأنه عرف مراد حذيفة وصدق مقالته وأن مقصوده ألا يغتر الإنسان بما هو عليه من الاستقامة والصلاح لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء فلا ينبغي للعبد أن يأمن مكر الله قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث: قوله «لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم» أي ابتلوا به لأنهم كانوا من طبقة الصحابة، فهم خير من طبقة التابعين لكن الله ابتلاهم فارتدوا، ونافقوا فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعادت له الخيرية، فكأن حذيفة حذر الذين خاطبهم وأشار لهم ألا يغتروا، فإن القلوب تتقلب، فحذرهم من الخروج من الإيمان، لأن الأعمال بالخاتمة، وبيَّن لهم أنهم وإن كانوا في غاية الوثوق بإيمانهم، فلا ينبغي لهم أن يأمنوا مكر الله، فإن الطبقة الذين من قبلهم وهم الصحابة كانوا خيرا منهم، ومع ذلك وجد بينهم من ارتد ونافق، فالطبقة التي هي من بعدهم أمكن من الوقوع في مثل ذلك، وقوله «فتبسم عبد الله» كأنه تبسم تعجبًا من صدق مقالته اهـ والاستثناء في قوله عز وجل: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخْلَصُوا دينَهُم لله فأولَئك مع المؤمنين﴾ الآية يدل على أن من ارتكب ذنبا مهما كان ثم تاب إلى الله عز وجل توبة نصوحا وأصلح واعتصم بالله

وأخلص دينه لله فإن الله عـز وجل يتوب عليه، كما قال تبـارك وتعالى: ﴿قل يـاعبـادي الـذين أسرفـوا على أنفسهم لا تقنطـوا من رحمة الله، إن الله يغفـر الذنوب جميعا، إنه هو الغفـور الرحيم.﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قولـه: ﴿إلا الذين تابـوا وأصلحوا واعتصموا بـالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجـرا عظيما.﴾ قال أبو جعفر: وهذا استثنـاءٌ من الله جل ثناؤه، استثنـى التائبين من نفاقهـم إذا أصلحوا، وأخلصوا الـدين لله وحده، وتبرأوا من الآلهة والأنـداد، وصدقوا رسـوله، أن يكـونوا مع المصرِّين على نفـاقهم حتى توافيهم منـاياهم — في الآخـرة، وأن يـدخلوا مـداخلهم من جهنم، بل وعدهـم جل ثنـاؤه أن يحلهم مع المؤمنين محل الكرامة، ويسكنهم معهم مسـاكنهم في الجنة، ووعدهـم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء فقـال: ﴿وسوف يؤتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ قال أبو جعفر: فتأويل الآية: ﴿إلا الـذين تابوا﴾ أي راجعوا الحق، وآبوا إلى الإقرار بوحدانيـة الله، وتصديق رسوله وما جاء بـه من عند ربه من نفاقهم، ﴿وأصلحـوا﴾ يعني: وأصلحـوا أعمالهم فعملـوا بما أمـرهم الله بـه، وأدوا فرائضه، وانتهوا عما نهاهم عنه، وانزجـروا عن معاصيه، ﴿واعْتَصَمُوا بالله﴾ يقـول: وتمسكـوا بعهـد الله، وقـد دللنـا فيما مضـى قبل على أن الاعتصـام التمسك والتعلق فـالاعتصام بـالله: التمسك بعهده وميثـاقه الـذي عهد في كتابـه إلى خلقه من طـاعته وتـرك معصيته، ﴿وأَخْلَصُـوا دِينَهُم لله﴾ يقول: وأخلصـوا طـاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله فأرادوه بها، ولم يعملـوهـا رئاء الناس، ولا على شكٍّ منهم في دينهـم وامتراءٍ منهم في أن الله محص عليهم ما عملوا، فمجـازي المحسن بإحسانه والمسـيءِ بإساءته ولكنهم عملـوها على يقين منهم في ثـواب المحسن على إحسانـه، وجزاء المسيء على إسـاءته، أو يتفضل عليه فيعفو، متقربين بها إلى الله، مريدين بها وجه الله، فذلك معنى

إخلاصهم لله دينهم. ثم قال جل ثناؤه: ﴿فأولَئك مع المؤمنين﴾ يقول: فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين بعد توبتهم، وإصلاحهم، واعتصامهم بالله، وإخلاصهم دينهم، أي: مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الدرك الأسفل من النار. ثم قال: ﴿وسوف يُؤْتِ اللهُ المؤمنين أجرا عظيما.﴾ يقول: وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم له، وعلى إيمانهم ثوابا عظيما، وذلك درجات في الجنة، كما أعطى الذين ماتوا على النفاق منازل في النار وهي السفلى منها، لأن الله جل ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما يَفْعَلُ اللهُ بعذابكم إنْ شَكَرتُمْ وآمَنتُمْ، وكان الله شاكرا عليما.﴾ هذا تقريرٌ لما تقدم في الآية السابقة من إثابته عز وجل التائبين وتأكيد على أنه لا حاجة لله عز وجل في تعذيب من يعذب من العصاة وإثابة من يثيب من الطائعين لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين فهو الغني عن العالمين، وإنما مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنما هو كفرهم بالله ورسله وجحودهم لآلاء الله ونعمه فمن شكر وآمن فله الجزاء الجميل ومن كفر وجحد فله العذاب الوبيل، وما في قوله عز وجل: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ استفهامية مفيدة للنفي على أكمل وجه وآكده كأنه قيل: أي شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؟ أيتشفى به من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به نفعا وهو الغني الحميد، أم يستدفع به ضرًّا وهو الفعال لما يريد، إنما يعذبكم بذنوبكم، ويثيبكم بشكركم وإيمانكم، فمن فعل خيرا فليحمد الله ومن فعل شرا فلا يلومن إلا نفسه، والله شاكر للطائعين طاعتهم فيثيبهم على العمل الصالح القليل الأجر الجميل الجزيل، وهو العليم الخبير ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلاَّ مَن ظُلِمَ، وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا. إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا. إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا. أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه لا يعذب الشاكرين المؤمنين الذين أحسنوا سريرتهم بالإيمان وعلانيتهم بالشكران، وأومأ إلى حبه لهم ولسلوكهم لأنه لا يعذب من يحب، ولذلك رد على اليهود والنصارى لما قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فقال لنبيه ﷺ: ﴿قل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أشار هنا تبارك وتعالى إلى حبه للقسط بين عباده وأنه لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، وأنه يكره من العبد أن يجهر بالسوء من القول لأحد من الناس إلا أن يكون مضطرا إلى ذلك ببيان ظلم من ظلمه حيث لا سبيل إلى دفع ظلمه عنه إلا بذلك فإن له حينئذ أن يخبر عنه من يدفع ظلامته عنه سواء كان قد ظلمه في نفسه أو ماله حيث يقول عز وجل: ﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهَرَ بالسُّوءِ من القول إلا مَنْ ظُلِمَ﴾ وهو عز وجل يشير بذلك إلى أن الظالم مستحق لعذاب الله لأن الله لا يحب الظالمين، فمن جهر لأحد بالسوء من القول بلا حق كان ظالما يشمله هذا الوعيد، ويندرج عمله ضمن الأعمال التي يبغضها الله ولا يحبها، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أن مطل الغني ظلم يحل عرضه وعقوبته فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول

الله ﷺ قال: مطل الغنى ظلم، وإذا أتبع أحدكم على مليءٍ فليتبع. وقال البخاري في كتاب الاستقراض من صحيحه: باب لصاحب الحق مقال، ويذكر عن النبي ﷺ: لَيُّ الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال سفيان: عرضه: يقول: مطلتني وعقوبته: الحبس اهـ وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا عبد الله بن المبارك عن وبر بن أبي دليلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال ابن المبارك: يحل عرضه: يغلظ له، وعقوبته: يحبس له. وقال النسائي: أخبرني محمد بن آدم قال: حدثنا ابن المبارك عن وبر بن أبي دليلة عن محمد بن ميمون عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: حدثنا وكيع، قال حدثنا وبر بن أبي دليلة الطائفي عن محمد بن ميمون بن مسيكة وأثنى عليه خيرا، عن عمرو بن الشريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح قول البخاري: ويذكر عن النبي ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته: والحديث المذكور وصله أحمد وإسحاق في مسنديهما وأبو داود والنسائي من حديث عمرو بن الشريد بن أوس الثقفي عن أبيه بلفظه، وإسناده حسن اهـ ومعنى: لي الواجد أي مطل الغنى. وقال ابن ماجه في الصدقات من سننه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالا: ثنا وكيع ثنا وبر بن أبي دليلة الطائفي حدثني محمد بن ميمون بن مسيكة «قال وكيع: وأثنى عليه خيرا» عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ: لي الواجد يحل عرضه وعقوبته. والتنصيص على التحذير من الجهر بالسوء أي من رفع الصوت بالطعن في عرض المستور لغير المظلوم هو لبيان الواقع، فالجهر ليس قيدا بل مثله الإسرار كذلك إلا أن الجهر أشد أذى من

الإسرار، وكما يحرم الجهر بالسوء من القول فإنـه يحرم الجهر بالسوء من الفعل كذلك، فقيـد القول لا مفهوم لـه كذلك، والتنصيص عليه لأنـه الغالـب. ولاشك عند أهل العلم في جـواز جرح الشهود والرواة بما يعـرفه الجارح فيهم من شر وسوء إقامـةً للقسط وحفظا للحق، ولا يحل لمسلم أن يجرح مسلما بما ليس فيـه، فقـد روى البخـاري في صحيحه في كتـاب الشهـادات في بـاب الشهداء العـدول، وقول الله تعـالى: ﴿وأَشهدوا ذَوَىْ عَـدْلٍ منكم﴾ و﴿ممن ترضَوْنَ من الشهداء﴾ من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن عتبة قـال: سمعت عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه يقول: إن أنـاسا كـانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكـم، فمن أظهر لنا خيرا أمنَّاه وقرَّبنـاه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبـه في سريرته، ومن أظهر لنـا سوءاً لم نأمنه، ولم نصدقـه، وإن قال: إن سريـرته حسنـة. وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وكان الله سميعا بصيرا.﴾ تـذييل متضمن لـوعد الـوقافين عنـد حدود الله، ولـوعيد المنتهكين لحرمات الله ومقرر لمضمون مـا قبله وأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية فهـو سبحانه يسمع دبيب النملة ويرى حـركاتها في الليلة الظلماء على الصخـرة الصماء، ولا يغيب عنـه مثقـال ذرة في الأرض ولا في السماء، قـال الفخر الرازي رحمه الله في قـوله تعالى هنا: ﴿وكـان الله سميعا بصيرا.﴾ وهو تحذيـر من التعـدي في الجهـر المأذون فيــه، يعني: فليتق الله، ولا يقل إلا الحق، ولا يقذف مستـورا بسوءٍ، فإنـه يصير عاصيـا لله بذلك، وهـو تعالى سميع لما يقوله، عليم بما يضمـره اهـ وقوله تباك وتعـالى: ﴿إنْ تُبْدُوا شيئا أو تُخْفُوهُ أو تَعْفُوا عن سُـوءٍ فإنَّ الله كان عَفُوًّا قديرا.﴾ قـال الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة: اعلم أن معاقد الخيرات على كثرتها محصورة في أمرين: صـدقٍ مع الحق وخُلُقٍ مع الخلق، والذي يتعلق بـالخلق محصور

في قسمين : إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم، فقوله : ﴿إن تبدوا خيرا أو تخفوه﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله : ﴿أو تَعْفُوا﴾ إشارة إلى دفع الضر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر اهـ ومجيء كان في مثل قوله عز وجل : ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ ومثل قوله عز وجل : ﴿وكان الله عَفُوًّا قديرا .﴾ لتنبيه العباد بأن هذه الصفات ثابتة لله عز وجل وهو متصف بها أزلا ولا يزال متصفا بها، فهي صفات ذات لله تبارك وتعالى، قال الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة : مازال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبديا، ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخلق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم، ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير اهـ قال ابن أبي العز في شرح قول الطحاوي : مازال بصفاته قديما قبل خلقه إلخ : أي أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال : صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصِف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها، لأن صفاته سبحانه صفات كمال، وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده، ولا يرد على هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير، والإماتة والإحياء، والقبض والبسط والطي والاستواء والإتيان والمجيء والنزول والغضب والرضى، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا،

ولكن أصل معناه معلوم لنا، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه لما سئل عن قوله تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ وغيرها: كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذٰلك سبيلا. أولٓئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهِينًا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفَرِّقُوا بين أحدٍ منهم أولٓئك سوف يؤتيهم أجورهم، وكان الله غفورا رحيما.﴾ بعد أن حذَّر الله تبارك وتعالى المؤمنين من سلوك سبيل المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وأن هؤلاء المنافقين إن استمروا على نفاقهم إلى الموت صاروا في الدرك الأسفل من النار، وبيَّن عز وجل عدله مع عباده وفضله عليهم، وأنه يكره أن يجهر أحد بالسوء من القول إلى أحد إلا من كان مظلوما فله أن يجهر ببيان ظلم من ظلمه وحض عباده على بذل الخير سرًّا وعلنا، والعفو عن المسيئين رجاء ما عند الله وترغيبا للمسيئين في الرجوع إلى الله شرع هنا يوضح السبيل المعوج الذي يسلكه أهل الكتاب ويبين عز وجل حكمه فيهم حتى يرتدع المنافقون عن موالاتهم وتقليدهم، ويبين السبيل القويم والصراط المستقيم الذي يسلكه المؤمنون ترغيبا لمن يريد الخير لنفسه في سلوك سبيلهم حيث ذكر عز وجل هنا أن أهل الكتاب يكفرون بالله ورسله ويرغبون في التفريق بين الله ورسله حيث يزعمون أنهم يؤمنون بالله ويكفرون ببعض الأنبياء ككفر اليهود بعيسى ومحمد عليهما السلام وكفر النصارى بسيد المرسلين محمد ﷺ ويزعمون أن هذا السبيل المعوج هو سبيل الله، وجهلوا أن الكفر برسول واحد أو بنبي واحد هو كفر بجميع أركان الإيمان، ولذلك أخبر عز وجل أن هؤلاء هم الكافرون حقا وأنه هيأ لهم عقابا مذلاً لهم في نار جهنم، وأوضح أن العبد لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع أركان الإيمان وأن

من سلك سبيل المؤمنين مبشر بعظيم الدرجات وتكفير السيئات . وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في مواضع من كتابه حيث يقول : ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين . ﴾ مع أنه لم يجئهم إلا نوح عليه السلام ولكن الله عز وجل جعل تكذيب نوح تكذيبا لجميع المرسلين ، وكذلك قوله عز وجل : ﴿كذبت عاد المرسلين . ﴾ وقوله : ﴿كذبت ثمود المرسلين . ﴾ وكذلك قوله ﴿كذبت قوم لوط المرسلين . ﴾ وقوله : ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين . ﴾ وكما قال في سورة القمر : ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وقال : ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ .

قال تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابا مِنَ السَّمَاءِ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ، ثم اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَات فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ، وآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا. وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لهم لا تَعْدُوا في السَّبْتِ وأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ الله وقَتْلِهِم الأنْبِيَاءَ بغير حق وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهم فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً. وبِكُفْرِهِمْ وقولهم على مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوه ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ، وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويومَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ الله كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.﴾

بعد الترهيب من سلوك سبيل أهل الكتاب المعوج والترغيب في سلوك طريق المؤمنين المستقيم شرع عز وجل هنا يذكر فضائح اليهود وتناقضاتهم وتعنتهم مع أنبياء الله ورسله وانتهاكهم لحرمات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وغير ذلك من المخازي التي يندى لها الجبين مما يُنفِّر من له مسكة من عقل أن يسلك سبيلهم أو أن ينقاد لهم ويواليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابا من السماء﴾ إلى آخر هذه الآيات، وقد ذكر الله عز وجل في هذا المقام من فضائح اليهود وقواصم

ظهورهم وكبريات جرائمهم خمس عشرة جريمة قاصمة، الأولى: تعنتهم مع شيخ المرسلين وخاتم النبيين وأفضل خلق الله أجمعين محمد ﷺ حيث طلبوا منه ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يبصرون نزوله بأعينهم، يكون موجهاً إليهم بأشخاصهم يخبرهم أن محمدا هو رسول الله، وتعامى إخوان القردة والخنازير والجبت والطاغوت عن الكتاب الكريم والذكر الحكيم والقرآن العظيم الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سمعنا قرآنا عَجَبًا. يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمنا به ولن نُشْرِكَ بربنا أحدا.﴾ وقد شارك اليهود لعنهم الله إخوانهم أهل الجاهلية من مشركي قريشٍ حيث قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنَّةٌ من نخيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا. أَوْ تُسْقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينا كِسَفًا أو تأتي باللهِ والملائكة قَبِيلاً. أَوْ يكُونَ لَكَ بيتٌ من زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى في السماء ولن نُؤمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إلا بَشَرًا رَسُولاً.﴾ أما القاصمة الثانية من القواصم والجرائم التي ارتكبها أهل الكتاب فقد وجهوها لكليم الله موسى عليه السلام الذي خلصهم الله به من العذاب المهين من فرعون، وبعد أن أمره الله فضرب لهم طريقا في البحر يبسًا، وأغرق الله عدوهم فرعون وهم ينظرون، مع ما شاهدوه من المعجزات الأخرى التي أجراها الله عز وجل على يد موسى عليه السلام ومع هذه الآيات الكبرى قالوا لموسى عليه السلام: أرنا الله جهرة، ونسبة السؤال لمعاصري رسول الله ﷺ من اليهود وإن كان السائلون هذا السؤال القبيح أباءهم الأقدمين لكن هؤلاء الموبخين راضون بما فعل آباؤهم ماشون على منهجهم، وقد وصف الله عز وجل هذه القاصمة بأنها أكبر من القاصمة الأولى حيث قال مواسياً لرسوله وحبيبه محمد ﷺ: ﴿فقد سأَلُوا مُوسَى أكبرَ من ذٰلك فقالوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ وقد

تقدم تفسير ذلك في قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ﴾ أما القاصمة الثالثة فهي ما ذكرها الله عز وجل بقوله : ﴿ثم اتخذوا العِجْلَ من بعد مَا جَاءَتْهم البيناتُ﴾ وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿وإذْ وَاعَدْنَا موسى أربعين ليلةً ثم اتخذتُمُ العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذُلك لعلكم تشكرون . ﴾ وفي تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾ ، ومعنى قوله عز وجل هنا : ﴿وآتينا موسى سلطانا مُبِينًا . ﴾ أي وقد ارتكبوا هذه الجريمة الشنيعة مع مشاهدتهم لما أيد الله عز وجل به موسى عليه السلام من الحجة الظاهرة القاهرة التي تُعرِّف عباد الله بجلال الله وعظمته ، وأنه لا إله إلا الله ، أما القاصمة الرابعة فهي عدم امتثالهم لأمر الله عز وجل لما أمرهم أن يدخلوا الباب سجدا ، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير الآية الثامنة والخمسين من سورة البقرة ، أما القاصمة الخامسة من قواصم وجرائم اليهود فهي اعتداؤهم في السبت ، وقد تقدم بيان ذلك في تفسير قوله عز وجل : ﴿ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين . فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خَلْفَهَا وموعظة للمتقين . ﴾ أما القاصمة السادسة فهي دأبهم على نقض العهود والمواثيق الغليظة ، والقاصمة السابعة : كفرهم بآيات الله ، والقاصمة الثامنة : قتلهم الأنبياء بغير حق ، وقد تقدم بيان ذلك في سورتي البقرة وآل عمران . أما القاصمة التاسعة فهي قولهم : قلوبنا غلف . وقد تقدم تفسير ذلك في قوله عز وجل : ﴿وقالوا قُلُوبُنا غُلْفٌ ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ﴾ وقال عز وجل هنا : ﴿بل طَبَعَ الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا . ﴾ والطبع الرين والختم ، وقد شابه اليهودَ إخوانهم مشركو العرب كما ذكر الله عز

وجل عنهم حيث يقول : ﴿وقالوا قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مما تَدْعُونَا إليه وفي آذَانِنَا وَقْرٌ ومن بَيْنِنَا وبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إننا عَامِلُون . ﴾ وقد طبع الله عز وجل على قلوب جميع الكافرين كما قال : ﴿خَتَمَ الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غِشَاوَةٌ ولهم عذابٌ عظيم . ﴾ أما القاصمة العاشرة فهي قولهم على مريم بهتانا عظيما ، حيث نسبوها إلى الزني وهي الطيبة الطاهرة العذراء البتول ، وقد جعل الله عز وجل رمي مريم بهذا البهتان كفرا كما توعد من رمى الصديقة بنت الصديق الحصان الرزان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنهم لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، أما القاصمة الحادية عشرة فهي دعواهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم وتباهيهم بذلك وافتخارهم به ، ولفظ : ﴿رسول الله﴾ إن اعتبر من تتمة قول اليهود فهو من تهكمهم به على حد قول مشركي قريش في حق محمد ﷺ : ﴿وقالوا ياأيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون . ﴾ وعلى حد قول فرعون في حق موسى عليه السلام : ﴿إنَّ رسولكم الذي أُرْسِلَ إليكم لمجنون . ﴾ كأنهم قالوا : قتلنا المسيح عيسى ابن مريم هذا الذي يدعي أنه رسول الله ، ويمكن أن يكون منصوبا بأعنى مقدرة ، تفظيعا لعظم ما تباهوا به ، وقد أَكَّدَ الله تبارك وتعالى عدم تمكنهم من قتله وأنهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما ألقى الله عز وجل شبهه على أحد الماكرين بعيسى عليه السلام فقتلوا هذا الماكر، وأشار الله عز وجل إلى أنهم في شك من القتيل ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ومكروا ومَكَرَ اللهُ والله خير الماكرين . ﴾ إلى قوله : ﴿واللهُ لا يحب الظالمين . ﴾ أن إنجيل متى وإنجيل مرقص يقرران أن الذين أرادوا قتل المسيح وصلبه لم يكونوا يعرفونه ، وسقت نص الفقرة السابعة والأربعين والثامنة والأربعين من الفصل (الإصحاح) السادس والعشرين من إنجيل متَّى ونص الفقرة الثالثة والأربعين والرابعة والأربعين من الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقص ما

يجزم بأنهم في شك واختلاف فيمن قُتل، وذكرت أنه قد جاء في أناجيل النصارى المعتمدة عندهم أن الله أوقع الشك حتى في قلوب الحواريين فصاروا يترددون: هل هذا هو يسوع الذي أخذ ليقتل ويصلب أو غيره. وقلت هناك: وإن تعجب فعجب أن يصدق النصارى اليهود في أنهم قتلوا المسيح، وصلبوه وبخاصة من انحرف عن الحق وزعم أن عيسى إله أو ابن إله، كيف يخطر على بال من له أدنى مسكة من عقل أن يعتقد أن الإله يصلب أو يقتل. ونقلت هناك ما ذكره «جورج سايل» الإنجليزي في ترجمته للقرآن أن فرقة من أقدم فرق النصارى أنكرت صلب المسيح وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الإ سخريوطي الذي كان يشبهه شبهاً تاماً. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا لَيُؤْمِنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا. ﴾ هذا تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ولم يمت، وفيه إشارة إلى أنه ينزل إلى الأرض آخر الزمان ليقتل المسيح الدجال ويقيم شريعة محمد ﷺ ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويريق الخمر ويضع الجزية ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، وأن جميع اليهود والنصارى يتيقنون يومئذ أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وقد بين ذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة، واقرأوا إن شئتم: ﴿وإنْ مِنْ أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته ويَوْمَ القيامة يكون عليهم شهيدا. ﴾ والأحاديث الصحيحة الثابتة في نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة وقتله الدجال قد بلغت حد التواتر، وهو من عقائد أهل

السنة والجماعة ، وقد حكى غير واحد من الأئمة كفر من أنكر نزول المسيح قبل يوم القيامة ، أما القاصمة الثانية عشرة فهي انغماسهم في الظلم الذي عجل الله بعض عقوبتهم بسببه حيث حرم عليهم بعض الطيبات التي كانت أحلت لهم ، والقاصمة الثالثة عشرة هي صدهم عن سبيل الله والمبالغة في صرف الناس عن الدين الحق ، والقاصمة الرابعة عشرة هي تعاطيهم الربا مع تحذير أنبياء بني إسرائيل لهم عن تعاطيه ، وفي قوله عز وجل : ﴿وقد نُهُوا عنه﴾ رد على واضعي التلمود الذين زعموا لليهود أن الربا غير الفاحش جائز مع اليهودي وأن هذا شرع موسى وصموائيل افتراء على الله ورسوله ، وأن الربا الفاحش جائز مع غير بني إسرائيل . أما القاصمة الخامسة عشرة فهي أكلهم أموال الناس بالباطل ، وفي قوله عز وجل : ﴿وَأَعْتَدْنَا للكافرين منهم عذابا أَليمًا .﴾ ترهيب لمن استمر على كفره وارتكابه هذه القواصم من اليهود وترغيب في الرجوع إلى الدين الحق والاستجابة إلى إمام المرسلين وشيخ النبيين محمد ﷺ .

قال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ، والْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ، وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا. إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كما أَوْحَيْنَا إِلى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وسُلَيْمَانَ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا. وَرُسُلا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلا لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ، وكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وَكان اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا.﴾

بعد أن ندد الله تبارك وتعالى بالسلوك اليهودي الشائن وذكر خمس عشرة قاصمة من كُبريات جرائم اليهود أوضح عز وجل هنا أن أهل الكتاب ليسوا سواء، وبين أن منهم طائفة راسخة في العلم صاروا في جملة المؤمنين، قد استجابوا للحق الذي بعث الله به رسوله محمدا ﷺ وآمنوا بالقرآن العظيم وبالحق الذي أنزله الله على جميع رسله وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا صحيحا صادقا، وأن الله عز وجل أعد لهم أجرا عظيما حيث يقول عز وجل هنا: ﴿لَكِنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنْزِلَ إليك وما أُنْزِلَ من قَبْلِكَ﴾ الآية. وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿ضُرِبت عليهم الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءُوا بِغَضَبٍ من الله وضُرِبَتْ عليهم المَسْكَنَةُ، ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياءَ بغير حق، ذٰلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون. ليسوا سواء، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولٰئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن

يُكْفَرُوهُ، واللهُ عليمٌ بـالمتقين. ﴾ والراسخـون في العلم منهم أي المتعمقون في العلم من أهل الكتـاب ذوو القدم الثـابتـة على الحق، المستقرون على اتبـاع الهدى، ونصب المقيمين في قـولـه تعالى: ﴿والمقيمين الصـلاة﴾ على المدح، أي وأمدح المقيمين الصلاة، ونظيره قـوله تبارك وتعالى: ﴿والموفـون بعهدهم إذا عاهدوا والصابـرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ بنصب الصابرين على المدح والتعظيم، ومن عـادة العرب أنهم إذا أرادوا لفت الانتبـاه إلى شيء يمدحونه أو يـذمونه غيروا إعرابه ولم يجعلوه على نسق مـا قبله أو بعده. ومنه قولـه تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والـذين هادوا والصابئون والنصـارى﴾ الآية.

ومن ذلك قـول الخِرنق بنت هفـان إحـدى نساء بني سعـد بن ضبيعـة رهط الأعشى في رثاء زوجها بشر بن عمرو بن مـرثد وابنها علقمة بن بشر وأخويها حسان وشرحبيل، ومن قتل معهم من قومها:

لا يبعــدن قومي الذين همو　　　ســم العداة وآفـــة الجـــزر
النـــازلين بكـــل معتـــرك　　　والطيبـــون معـــاقد الأزر

فقد نصبت النـازلين على المدح مع أن ما قبلـه مرفوع، ومـا بعده مـرفوع، لكنها لما أرادت لفت الانتبـاه إلى شجاعتهم نصبته قبل تمام كلامهـا وفي هذا ردٌّ على من زعم أن النصب على المدح لا يأتي إلا بعد تمام الخبر، وهو مذهب لا دليل عليه، وقد كثـر النصب على المدح قبل تمام الخبر، كما تقدم وكما قال الشاعر:

إلى الملك القـــرم وابـــن الهمـــام　　　وليثَ الكتيبـــة في المزدحـــم
وذا الرأي حـين تغـــم الأمـــور　　　بذات الصليل وذات اللجم

فقـد نصـب «ليث الكتيبـة» و«ذا الـرأي» على المدح مع أن الاسم قبلهما مخفوض، وكما قال الشاعر:

فليت التي فيها النجوم تواضـــعت　　　على كـل غث منهمـــوا وســـمين

غيـوثَ الورى في كـل محـل وأزمـة أسـودَ الشـرى يحميـن كل عرين

فقد نصب غيـوث الورى وأسـود الشرى على المدح وكما قال الشـاعر ابن خياط :

وكـل قـوم أطـاعوا أمـر مرشـدهم إلا نمـيرا أطـاعت أمـر غاويهـا

الظـاعنين ولما يُظعنـوا أحـداً والقائلـون لمـن دار نُخليهـا

وفي قوله عـز وجل : ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخـر﴾ لفت انتباه إلى بطلان دعوى عامة اليهود والنصارى بأنهم يـؤمنون بالله واليوم الآخر حيث زعموا أن العزير ابن الله وكما زعمت النصارى أن المسيح ابن الله فمن ادعى أن لله ولداً لم يكن إيمانـه بالله إيماناً صحيحـاً ، وكذلك من زعـم أن البعث يوم القيـامة بعث أرواح لا بعث أجسام وأن أجسـام البشر لا تحيا بعـد الموت فإن إيمانـه باليوم الآخـر إيمان غير صحيح ، ولذلك يقول عز وجل : ﴿قـاتلوا الذين لا يؤمنون بـالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمـون ما حرم الله ورسولـه ولا يدينون دين الحق من الـذين أُوتُـوا الكتاب حتى يُعْطُـوا الجزيـة عن يـدٍ وهم صاغـرون . وقـالت اليهـودُ عزَيـرٌ ابنُ الله وقـالت النصـارى المسيحُ ابنُ اللهِ ذٰلك قـولهم بأفـواههم يُضَاهِئُـونَ قول الـذين كفروا من قبلُ ، قـاتلهم الله أنَّى يُؤْفَكُـونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُم ورُهْبَـانَهُم أربابـا من دون الله والمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ ومـا أُمروا إلا لِيَعْبُدُوا إلَهًا وَاحِدًا لا إلَه إلا هو، سبحانه عما يُشرِكونَ . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أولٰئك سنـؤتيهم أجرا عظيما . ﴾ إشـارة إلى علو مـرتبة الـذين استجابـوا لله وآمنوا بـرسولـه محمد ﷺ من أهل الكتـاب كعبد الله بن سـلام رضي الله عنه وجماعة القسيسين والرهبـان الذين بكوا عند سماع القـرآن وسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وسـائر أركان الإيمان الذين أشار الله عز وجل إليهم في قوله تعالى : ﴿ذٰلك بأن منهم قسيسين ورُهْبَانًا ، وأنهم لا يستكبرون . و إذا سمعوا ما أُنْـزِلَ إلى الرسولِ ترى أعينهم تَفِيضُ من الدمع ممـا عَرَفُوا من الحق

يقولـون ربنا آمنا فاكتبنـا مع الشاهدين . ومالنـا لا نؤمنُ بالله وما جـاءنا من الحق ونطمع أن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصـالحين . فَأَثَابَهُم اللهُ بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيهـا ، وذٰلك جَزَاءُ المحسنين . ﴾ ففي الإشارة بقـولـه عز وجـل : ﴿أولَئك﴾ المتضمنة لمعنى البعـد إشعـارٌ بعلـو درجتهم وارتفاع منـزلتهم في الفضل ، وقولـه عز وجل : ﴿سنـؤتيهم أجرا عظيما﴾ أي سنعطيهم جـزاءً حسنا كبيرا في جنـات الخلـد حيث يمتعون فيهـا بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر من النعيـم المقيم ، وقـد ثبت بالكتاب والسنة أن من آمن من أهل الكتاب بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ أن الله عز وجل يعطيه أجـره مرتين حيث يقول عز وجل : ﴿الـذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يُتْلى عليهم قالـوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولَئك يُؤتَـوْنَ أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآيتين . كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنـه قال : قـال رسـول الله ﷺ : ثـلاثة لهم أجـران : رجل من أهل الكتـاب آمن بنبيـه وآمن بمحمد ، والعبـد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كـانت عنده أمـة يطؤهـا فأدبها فأحسن تأديبهـا ، وعلمهـا فأحسن تعليمها ، ثم أعتقهـا فتزوجها ، وفي تذييل هذه الآية الكريمـة بقوله تعالى : ﴿أولَئك سنؤتيهم أجرا عظيما . ﴾ مع تذييل الآية السـابقة بقوله عز وجل بعد تعـداد قصائم وجرائم اليهـود : ﴿وأعتـدنـا للكافـرين منهـم عذابـا أليما . ﴾ ضرب في الفصـاحـة والبـلاغـة والإعجـاز القـرآني رفيع ، وتنـاسـب وتنـاسق بلغ الـذروة في بـاب الترهيب والترغيب ، لا جـرم أنه كتـاب أحكمت آيـاته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير. وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿إنـا أوحينا إليـك كما أوحينا إلى نـوح والنبيين من بعـــده ، وأوحينـا إلى إبـــراهيم و إسماعيل و إسحـاق و يعقـــوب والأسباط وعيسى وأيوب و يونس وهارون وسليمانَ ، وآتينا داودَ زَبُوراً . ورسلا

قـد قَصَصْنَاهُمْ عليك من قَبْلُ ورسـلا لم نَقْصُصْهُمْ عليك وكلَّمَ اللهُ مُـوسَى تكْلِيما * رسـلا مُبَشِّرين ومنـذرين لئـلا يكـونَ للنـاس على الله حُجَّـةٌ بعـد الرُّسُلِ، وكان الله عـزيزا حكيما﴾ تقرير وتأكيـد على أنَّ محمدا رسول الله ﷺ ليس بـدعًـا من الـرسـل، ولم يسلك غير درب المرسلين، وأن علماءَ أهل الكتـاب يعلمون ذلك، ويعـرفـونه كما يعـرفـون أبناءهم، لكنَّ أشقيـاءهم يكتمونه والراسخين في العلم منهم طُلَّاب الهدى يؤمنون به ويستجيبون له، وليس على الـرسل إلا البلاغ، ولا يُعْجِـزُ الله شيءٌ. وفي هاتين الآيتين تنـديد وتهديد لليهـود الذين حملهم بُغْضُهُمْ للحق الذي جاء بـه محمد ﷺ على أن يدَّعُوا أنَّ الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء كما حكى الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه إذ قالوا ما أنزل الله على بَشَر من شيءٍ قل مَنْ أنزل الكتـابَ الذي جاء بـه موسى نُـورًا وهُدًى للناس تَجعَلُـونَهُ قراطيسَ تُبْـدُونَها وتُخْفُونَ كثيرًا وَعُلِّمْتُمْ ما لم تَعْلَمُـوا أنتم ولا آباؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُم في خَوْضِهِم يَلْعَبُـون﴾ وقد تَضَمَّنَ قـولُه تعالى: ﴿إنـا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نـوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبـراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقـوب والأسبـاط وعيسى وأيوب ويُـونُسَ وهـارون وسليمان، وآتينـا داود زبـورا. ورسـلا قـد قصصنـاهم عليك من قبـلُ ورسـلا لم نَقْصُصْهُمْ عليك﴾. الآيتين، تضمن ممـاثلـة رسـول الله ﷺ لسـائر رسل الله صلى الله عليهم وسلم في الـوحي والرسالـة وإيتاء الكتـاب، وهو شبيـه بقولـه تبارك وتعـالى: ﴿شرع لكم من الدين مـا وَصَّى به نـوحا والـذي أوْحينا إليك ومـا وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ ولا تقتضي هذه المماثلـة أنْ تكون شرائع الأنبيـاء واحدة، بل لكـل نبي شرعته ومنهـاجه الملائم لأمتـه كما قـال عـز وجل: ﴿لكل جعلنـا منكم شِرْعـةً ومِنْهَـاجًـا﴾ فأصولُ الدين لجميع الأنبياء والمرسلين واحدة، وفروعُ الدين متفاوتةٌ بحسب

الأمم وما يلائمها من الأحكام، وإلى ذلك أشار رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليما.﴾ رد على من نفى صفة الكلام عن الله عز وجل، فإن التأكيد بالمصدر ينفي المجاز والتأويل، قال النحاس: أجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازا. اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، وكان الله عزيزا حكيما.﴾ أي أرسلت رسلا يبشرون المؤمنين بالجنة وكريم ثوابها وينذرون العاصين بالنار وأليم عقابها حتى لا يحتج الجاحدون الضالون فيقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءهم البشير النذير عليه وعلى إخوانه النبيين من ربهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إليك أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكة يَشْهَدُونَ، وَكَفَى باللهِ شَهِيدًا. إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا. إنَّ الذين كفروا وظلموا لم يكن الله لِيَغْفِرَ لهم ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقا. إلا طَرِيقَ جَهنَّمَ خَالِدِينَ فيها أَبَدًا، وكان ذٰلك على الله يَسِيرًا.﴾

بعد التنديد باليهود وسياق صور من جرائمهم مع أنبياء الله ورسله، والثناء على المؤمنين من أهل الكتاب الذين سارعوا إلى تصديق محمد رسول الله ﷺ واستقاموا على شرائع الإسلام، وبيان ما أعد الله لهم من الأجر العظيم والثواب الجليل، وبعد إعلان أن محمدا رسول الله ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن صفة الوحي الذي أنزل عليه ﷺ كصفة الوحي الذي أنزله الله على نوح وسائر النبيين، وخص بالذكر منهم من يعلن أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم من النبيين، نبه تبارك وتعالى هنا إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس في حاجة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له وشهادة الملائكة المكرمين، وكفى بالله شهيدا. وفي هذا مواساة كافية شافية لرسول الله ﷺ مما يلقاه من تعنت اليهود وسفاهتهم وسؤالهم كتابا ينزل عليهم من السماء موجها لأشخاصهم ليعترفوا ويشهدوا بأن محمدا رسول الله ﷺ، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي أنزل عليك القرآن العظيم الذي يعلم السر في السموات والأرض ويعلم من يستحق أن ينال هذا الشرف العظيم ومن هو أهل أن ينزل عليه الكتاب من السماء، والله وحده هو الذي يعلم حيث يجعل رسالته، كما قال عز وجل ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتِيَ رسلُ الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمْ يقولون افتراه قل فأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لكم

فاعلموا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله وأَن لا إلَه إلا هُوَ فهل أنتم مسلمون﴾ ولا شك أن قوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْـزَلَهُ بعلمه﴾ يتضمن الثناء العظيم على رسول الله ﷺ وأنه خيرة الله من خلقـه، وصفيه من عبـاده، المتأهل لأن ينزل الله عليـه هذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم، كما يتضمن أن القرآن فيه علم الله الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويبغضه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والحاضر والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته العلي وأسمائه الحسنى التي لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا أن يعلمـه الله عز وجل بها. قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير قـوله عـز وجل: ﴿شَهِدَ اللهُ أنـه لا إلَه إلا هُـوَ والملائكة وَأُوْلُـواْ العِلْمِ قـائما بِـالْقِسْطِ، لا إلَـه إلا هـو العـزيـزُ الحكيمُ. إن الـدين عنـدَ اللهِ الإسلام.﴾ فصلٌ: وكذلك قوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يشهد بما أَنْزَلَ إليك أنزله بعلمه والملائكـةُ يشهدون، وكفى بـالله شَهِيـدًا.﴾ فإن شهادتـه بما أنـزله إليـه هي شهادتـه بأن الله أنزله منـه، وأنه أنـزله بعلمه، فما فيـه من الخبر هو خبرٌ عن علم الله ليس خبراً عمن دونه، وهذا كقوله: ﴿فإن لم يَسْتَجِيبُوا لكم فاعلموا أنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ الله﴾ وليس معنى مجرد كونـه أنزله أنه هـو معلوم له، فإنَّ جميع الأشياء معلومةٌ له، وليس في ذلك مـا يدل على أنها حق، لكن المعنى: أنزله فيه علمـه، كما يقال: فلان يتكلم بعلم، ويقـول بعلم، فهو سبحانه أنـزله بعلمه، كما قال: ﴿قل أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السمٰوات والأرض﴾ ولم يقل تكلم بـه بعلمه، لأن ذلك لا يتضمـن نزولـه إلى الأرض، فإذا قـال: «أنزلـه بعلمـه» تضمن أن القـرآن المنزل إلى الأرض فيـه علم الله، كما قـال: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فيه من بَعْد ما جاءك من العلم﴾ وذلك يتضمن أنه كلام الله نفسه، منـه نـزل، ولم ينـزل من عنـد غيره، لأن غير الله لا يعلم مـا في نفس الله من العلم — ونفسـه هي ذاتـه المقـدسة — إلا أن يعلمـه الله بـذلك، كما قـال

المسيح عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ ما في نفسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِكَ إنك أنت عَلاَّمُ الْغُيُوبِ.﴾ وقالت الملائكة: ﴿لا عِلْمَ لنا إلا ما عَلَّمْتَنَا﴾ وقال: ﴿ولا يُحيطُونَ بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال: ﴿فلا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحَدًا. إلاَّ مَنِ ارْتَضَى من رسول﴾ فغيبه الذي اختص به لا يظهر عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول، والملائكة لا يعلمون غيب الرب الذي اختص به، وأما ما أظهره لعباده فإنه يعلمه من شاء، وما تتحدث به الملائكة فقد تسترق الشياطين بعضه، لكن هذا ليس من غيبه وعلم نفسه الذي يختص به، بل هذا قد أظهر عليه من شاء من خلقه، وهو سبحانه قال: ﴿لَكن اللهُ يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ فشهد أنه أنزله بعلمه بالآيات والبراهين التي تدل على أنه كلامه وأن الرسول صادق، وكذلك قال في هود: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وادْعُوا مَن استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين.﴾ لما تحداهم بالإتيان بمثله في قوله: ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾ ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فعجزوا عن ذا وذاك، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا، فإن الخلائق لا يمكنهم أن يأتوا بمثله ولا بسورة مثله، وإذا كان الخلق كلهم عاجزين عن الإتيان بسورة مثله، ومحمد منهم علم أنه منزل من الله، نزَّله بعلمه، لم ينزله بعلم مخلوق، فما فيه من الخبر فهو خبر عن علم الله، وقوله: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض﴾ لأن فيه من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ما يدل على أن الله أنزله، فذكره ذلك يستدل به تارةً على أنه حق منزل من الله لَكن تضمن من الأخبار عن أسرار السموات والأرض والدنيا والأولين والآخرين وسر الغيب ما لا يعلمه إلا الله، فمن هنا نستدل بصدق أخباره أنه من الله، وإذا ثبت أنه أنزله بعلمه تعالى استدللنا بذلك على أن خبره حق، وإذا كان خبراً بعلم الله فما فيه من الخبر يستدل به عن الأنبياء وأممهم، وتارة عن يوم القيامة وما فيها، والخبر الذي يستدل به

لابد أن نعلم صحته من غير جهته، وذلك كإخبـاره بالمستقبلات فوقعت كما أخبر، وكإخباره بـالأمم الماضية بما يـوافق ما عند أهـل الكتاب من غير تعلم منهم، وإخباره بأمور هي سرٌّ عنـد أصحابها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النبيُّ إلى بعض أَزْوَاجِهِ حديثا﴾ إلى قوله: ﴿نَبَّـأَنِيَ الْعَلِيمُ الخَبِيرُ﴾ فقوله: ﴿أنزله الذي يعلم السِّرَّ في السمٰوات والأرض﴾ استـدلال بأخباره، ولهذا ذكره تكـذيبا لمن قال هو ﴿إِفْـكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عليه قـوم آخَرُون﴾. وقوله: ﴿أَنْـزَلَهُ﴾ استدلال على أنـه حق وأن الخبر الـذي فيه عن الله حـق، ولهذا ذكر ذلك بعـد ثبـوت التحدي وظهور عجز الخلق عن الإتيان بمثلـه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الـذين كفروا وصَـدُّوا عن سبيل الله قـد ضلوا ضـلالا بعيدا﴾ زيـادة تقريـر وتأكيد لسلوك اليهود الشنيع حيث يكفـرون بالله ويصدون غيرهم عن سبيل الله ووسمهم بأنهم قد جـاروا عن قصد الطريق جوراً شـديداً، لا يلتفتون إلى داعي الهدى، ولا يستجيبـون للنداء الحق، قال ابـن جريـر رحمه الله: القول في تأويل قـوله: ﴿إِنَّ الـذين كفـروا وصَدُّوا عن سبيل الله قـد ضَلُّوا ضـلالا بعيدا.﴾ قال أبـو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: إن الذين جحـدوا يامحمد نبوتك بعد علمهم بها، من أهل الكتـاب الذين اقتصصت عليك قصتهم، وأنكروا أن يكـون الله جل ثناؤه أوحى إليـك كتابه ﴿وصَـدُّوا عن سبيل الله﴾ يعني عن الدين الـذي بعثك الله به إلى خلقه، وهو الإسـلام، وكان صدهم عنه: قيلهم للناس الذين يسألونهم عن محمد من أهل الشرك: ما نجد صفة محمد في كتابنا وادعاؤهم أنهم عُهِـد إليهم أن النبوة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود، وما أشبـه ذلك من الأمور التي كانـوا يثبطون الناس بها عن اتباع رسول الله ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله، وقوله: ﴿قد ضَلُّوا ضلالا بعيدا﴾ يعني: قد جاروا عن قصد الطـريق جوراً شديدا، وزالوا عن المحجـة، وإنما يعنـي جل ثنـاؤه بِجَـوْرِهِـمْ عن المحجة وضـلالهم عنهـا

إخْطَاءَهُمْ دِينَ الله الذي ارتضاه لعباده، وابتعث به رسله، يقول: من جحدَ رسالة محمد ﷺ وصد عما بعث به من الملة من قَبِل منه، فقد ضل فذهب عن الدين الذي هو دين الله الذي ابتعث به أنبياءه. ضلالا بعيدا. اهـ
وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا. إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا، وكان ذٰلك على الله يَسِيرًا.﴾ هو إخبار منه عز وجل عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله محمد ﷺ الظالمين لأنفسهم بجحودهم دين الله وبصدهم عن سبيل الله وقد أجرموا في حق أنفسهم حيث سلكوا بها طريق الضلال، وأجرموا في حق عباد الله حيث صدوهم عن دين الله حسداً للعرب، وبغياً على رسول الله محمد ﷺ وقد علم الله عز وجل أن هؤلاء مستمرون على كفرهم وظلمهم إلى أن يموتوا، فقضى الله تبارك وتعالى لذلك بأنه لم يكن ليعفو عنهم، بل لابد من عقوبتهم بنار جهنم وفضحهم على رءوس الخلائق يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يخذلهم فلا يوفقهم ولا يسددهم ولا يعينهم ولا يؤيدهم بل يكلهم إلى أنفسهم فلا يسلكون إلا الطريق الذي يوصلهم إلى نار جهنم، حيث يكبهم فيها أبدا، لا يتحولون منها، ولا يموتون فيها، بل كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، وذلك سهل على الله يسير.

قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قد جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فى السمٰوات والْأَرْضِ ، وَكَانَ اللهُ عليمًا حَكِيمًا . يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ ، إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ، انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَافِي السمٰوات وما فى الْأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا . ﴾

بعد أن نبـه الله تبارك وتعـالى إلى أن محمدا ﷺ ليـس في حاجـة إلى شهادة اليهود له بأنه رسول الله بل تكفيه شهادة الله له بذلك وكفى بالله شهيدا ، وقد شهدت الملائكة لمحمـد ﷺ بأنه رسول الله ، وفي إعلان ذلك مواسـاة لرسول الله ﷺ مما يلقـاه من تعنت اليهود وسفاهتهـم وسؤالهم كتابـا ينزل عليهم من السماء موجهًـا لأشخاصهم ليعترفوا ويشهـدوا بأن محمدا هو رسـول من عند الله ، وجه الخطاب هنا إلى جميع المكلفين على طريقـة تلوين الخطاب فأمرهم بأن يؤمنوا بأن محمدًا هو رسـول من الله وشفع هذا الأمر بتنبيه المكلفين إلى أن إيمانهم بالله وبرسوله محمـد ﷺ يجلب لأنفسهم خير الدنيا والآخرة ، وأن من كفر فلا يضر إلا نفسه ، تنبيها على أن الحجـة قد لزمت وأن البرهان قد سطع ولم يبق لأحـد بعد ذلـك عذرٌ في عـدم القبـول حيث يقول عـز وجل هنـا : ﴿ياأيها النَّـاسُ قد جـاءكم الرسـول بالحق من ربكم فـآمِنُوا خيراً لكم ، وإن تَكْفُرُوا فـإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض ، وكان الله عليما حكيما . ﴾ قـال أبو السعود العمادي : وقولـه عز وجل : ﴿قد جاءكم الـرسولُ بالحق من ربكم﴾ تكريرٌ للشهـادة وتقريرٌ لحقية المشهـود به وتمهيدٌ لما يعقبه مـن الأمر بالإيمان ، وإيراده عليه الصـلاة والسلام بعنوان الرسـالة لتأكيد وجـوب طاعته ، والمراد بالحق هو القـرآن الكريم اهـ ومعنى : ﴿فآمِنُوا خَيْرًا لكم﴾ أي فصـدقوا بالله

وبالرسول الذي قد جاءكم بالحق من ربكم يكن ذلك خيرا لكم، وفي هذا ترغيب، وقوله عز وجل: ﴿وإنْ تَكْفُرُوا فان لله ما في السمٰوات والأرض﴾ هو ترهيب من الكفر بالله وبالرسول ﷺ، ومعنى: ﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمٰوات والأرض، وكان الله عليما حكيما.﴾ أي وإن تجحدوا وتكذبوا محمدا ﷺ فيما جاءكم به من الحق من ربكم فإنكم لن تضروا الله شيئا ولن تضروا إلا أنفسكم لأن الله غني عنكم فوبال معصيتكم وجحودكم عائد عليكم، وذلك أن لله ما في السمٰوات والأرض ملكا وخلقا وتصرفا لا يخرج من ملكوته وقهره شيء من السمٰوات والأرض ومن كان هذا شأنه فهو قادرٌ على تعذيبكم بسبب كفركم وجحودكم لا محالة، وهو عز وجل عالم بأحوال جميع خلقه، يقضي بالحكمة في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وبعد التنديد بقواصم وكبريات جرائم اليهود في حق رسل الله عليهم الصلاة والسلام، من التعنت معهم وقتل بعضهم، وبعد توجيه النصح لجميع المكلفين وتعريفهم بأن محمدا ﷺ قد جاء بالحق من ربه وأن من أطاعه سعد ومن عصاه خاب وخسر ولا يضر إلا نفسه، وجه الخطاب هنا بعنوان أهل الكتاب الذي يشمل في الأصل اليهود والنصارى ونهاهم عن أمرين خطيرين هما الغلو في الدين والقول على الله بغير الحق، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دِينِكُمْ، ولا تقولوا على الله إلا الحَقَّ، إنما المسيحُ عيسى ابن مَرْيَمَ رسولُ اللهِ وكَلِمتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه فآمِنُوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ، انْتَهُوا خيرا لكم، إنما الله إلَه واحدٌ سبحانه أن يكون له ولدٌ، له ما في السمٰوات وما في الأرض، وكَفَى بالله وكيلا.﴾ ولا شك أن قوله عز وجل في هذه الآية الكريمة بعد النهي عن الغلو في الدين والنهي عن القول على الله بغير الحق: ﴿إنما المسيح عيسى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه فآمنوا بالله ورُسُلِهِ ولا تقولوا ثلاثةٌ﴾ يدل

على أن المخاطب بهذا الخطاب أولا وبالذات هم النصارى الذين غلوا في المسيح وجعلوه إلها وابن إله وقالوا: الله ثالث ثلاثة، وإنما جاء الخطاب عاما لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزيْر هو ابن الله، سبحانه أن يكون له ولد، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقا أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾ الآية، وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم قال: زعم الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله. ثم رواه هو وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن الزهري كذلك، ولفظه: إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسولُه. وقال علي بنُ المديني: هذا حديث صحيح مُسْنَد، وهكذا رواه البخاري عن الحميدي عن سفيانَ بن عيينة عن الزهريِّ به، ولَفْظُهُ: فإنما أنا عبد فقولوا: عَبْدُالله ورسولُه اهـ والغلو هو مجاوزة الحد، والإطراء هو الغلو في المدح والكذب فيه، ومن المقرر عند أهل العلم أن سبب كفر بني آدم وخروجهم من الدين الحق هو الغلو في الصالحين، ولذلك حذر رسول الله ﷺ من الغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه حماية لجناب التوحيد وسدًّا لذريعة الشرك، كما نهى عن التنطع في الدين، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنطعون. قالها ثلاثا.

كما روى أحمد والترمذي وابن ماجه واللفظ له قال: حدثنا علي بن محمد حدثنا أبو أسامة عن عوف عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: القط لي حصى. فلقطت له سبع حصيات هن حصى الخَذْف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين، والغلو والإطراء هو الطغيان الذي ذكر الله تبارك وتعالى أنه يجلب لمرتكبه غضب الله وقد حذر الله تبارك وتعالى عنه أشد التحذير حيث يقول: ﴿ولا تَطْغَوْا فيه فَيَحِلَّ عليكم غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عليه غَضَبِي فَقَدْ هَوَى.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ معك ولا تَطْغَوْا، إنه بما تعملون بَصِيرٌ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما المسيح عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسولُ الله وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريمَ وَرُوحٌ منه﴾ هذا تعريفٌ بحقيقة المسيح، وبيانٌ للقول الحق فيه، وردعٌ للنصارى الذي غلوا فيه وأفرطوا واتخذوه إلها من دون الله وقالوا: هو ابن الله، وردعٌ لليهود الذين فرَّطوا فيه فجعلوه ولد زنى وقالوا على أمه بهتانًا عظيماً وجحدوا رسالته وكذبوه، وقد قصر الله تبارك وتعالى المسيح على الرسالة فمن جاوز به هذه المنزلة فقد غلا وأفرط وقال على الله غير الحق وافترى إفكا كبيراً. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مريم﴾ أي خلقه الله تعالى بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنشأ عن الكلمة التي قال الله له بها كن فكان وقد قلت في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة والأربعين من سورة آل عمران: ﴿إذ قالت الملائكة يامريم إنَّ الله يبشرك بِكَلِمة منه﴾ أي بولد عظيم له شأنٌ كبير، وسمى الولد كلمة لأنه وجد بكلمة من الله حيث قال له: كن فكان، وصار يطلق على عيسى عليه السلام كلمة الله على سبيل التغليب أعني صار علما بالغلبة، وإن كان لا يتم شيء إلا إذا قال الله له كن

فيكون اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وروحٌ منه﴾ أي هو روحٌ من الأرواح التي خلقها الله عز وجل وأرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام، ولهذا كان يسمى كلمة الله وروح الله والإضافة فيهما للإشعار بعلو مرتبة عيسى عليه السلام وطهارته. وقد قال البخاري في صحيحه: قوله: «ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلا» قال أبو عبيد: كلمته: كن فكان، وقال غيره: وروح منه: أحياه فجعله روحا، ولا تقولوا ثلاثة، حدثنا صدقة بن الفضل حدثنا الوليد عن الأوزاعي قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، قال الوليد: حدثني ابن جابر عن عمير عن جنادة وزاد: من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء اهـ وقال مسلم: حدثنا دواد بن رشيد حدثنا الوليد يعني ابن مسلم، عن ابن جابر قال حدثني عمير بن هانئ قال حدثني جنادة بن أبي أمية حدثنا عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: من قال: أشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء اهـ ومعنى قوله تعالى: ﴿فآمِنُوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، إنما اللهُ إلَه واحدٌ سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السمٰوات وما في الأرض، وكفى بالله

وكيلا . ﴾ أي فصدقوا وأيقنوا بأن الله واحد أحد ليس له ولد ولا صاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله رسوله ، فآمنوا به كإيمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلها ولا ابن إله ، ولا تدَّعوا أن عيسى وأمه إلهين مع الله ، واحذروا ذلك أشد الحذر لتسعدوا وتفلحوا ، فإنه لا إله إلا الله تنزه وتقدس أن يكون له ولد أو صاحبة ، لأنه مالك السموات والأرض ، فجميع ما فيهما ملكه وخلقه وعبيده وهم تحت تدبيره ومشيئته وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء فكيف يكون له صاحبةٌ أو ولد ، كما قال عز وجل : ﴿بديع السمٰوات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم . ﴾

قال تعالى : ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون عبدًا للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ، وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عن عِبَادَتِهِ ويَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إليه جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ من فَضْلِهِ وأَمَّا الذين اسْتَنْكَفُوا واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ولا يَجِدُونَ لهم من دُونِ الله وَلِيًّا ولا نَصِيرًا . يأَيُّها الناسُ قد جاءكم بُرْهَانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينا . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ فى رحمة منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطا مستقيما . ﴾

بعد أن بين الله عز وجل أن عيسى ابن مريم مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى صفة فوقها وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وأنه ليس لأحد أن يرفعه فوق منزلته فيدعي له الألوهية أو أنه ابن الله أو شريكه كما ادعت النصارى عليهم لعائن الله أو أن يجحد رسالته أو يحط من قدره كما فعلت اليهود، لعنهم الله، وساق في ذلك البرهان القاطع والحجة الساطعة الشافية الكافية على أن جميع ما في السموات وما في الأرض مملوكون لله عز وجل وتحت قهره وهيمنته وسلطانه مما ينفي أن يكون له ولد أو شريك أو صاحبة أوضح عز وجل هنا أن عيسى عليه السلام خاضع لله عز وجل يبذل لربه أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب، وأن الملائكة المقربين خاضعون لله عز وجل يبذلون له أقصى غاية الذل مع أقصى غاية الحب، وأن من استنكف عن عبادة ربه واستكبر فله العذاب الأليم الذي لا يستطيع أحد أن يدفعه عنه وأن عباد الله الذين يبذلون له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل المستمسكين بشريعة المرسلين سيجدون عند الله عز وجل الأجر العظيم والثواب الجزيل مع ما يتفضل الله عز وجل عليهم به من النظر إلى وجهه الكريم، حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكون

عبـدًا لله ولا الملائكـة المقـربـون﴾ الآيتين، وأصل الاستنكـاف هـو الأنفـة والامتنـاع، فمعنى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكـون عبـدا لله ولا الملائكـةُ المُقَـرَّبُونَ﴾ أي لن يأنف ولن يمتنـع ولن ينقبض المسيح عيسى عليه السـلام ولا الملائكة المقربون من كونهم عبيـداً لله بل بذْلُهم أقصى غاية الحب وأقصى غاية الذل لله وحده هو قرة أعينهم وراحة نفوسهم، ولا يرضون أبداً لأحد أن يشرك بالله شيئاً ولـذلك ذكر الله عز وجل عن عيسى عليه السـلام أنه يقول: ﴿ما قلتُ لهم إلا ما أمَرْتَنِي به أنِ اعْبُدُوا اللهَ ربي وربَّكم﴾ وقال عز وجل عن الملائكة: ﴿وَمَنْ عنـده لا يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادتـه ولا يَسْتَحْسِرُون. يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهار لا يَفْتُرُونَ.﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وقالوا اتخذ الـرحمن ولدا، سبحانه، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ. لا يَسْبِقُونَـهُ بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيـديهم ومـا خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُـونَ إلا لمن ارتضى وهم مـن خَشْيَتِـهِ مُشْفِقُـونَ.﴾ وقـولـه عـز وجل: ﴿وَمَنْ يسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَـادِتِـهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعًا.﴾ وعيد شديد لكل من استنكف واستكبر عن عبادة الله، والاستكبار التعاظم والتعالي، والنسبـة بين الاستنكاف والاستكبار هي العموم والخصوص المطلق والاستكبار أعـم مطلقا، فكل استنكاف استكبار وليس كل استكبـار استنكـافـا، فمن تعـالى عن الشـيء أنفـةً يقـال لـه مستنكف، ومن تعـالى ولو بـدون أنفة يقـال له: مستكبر ومتكبر. وجـواب الشرط محذوف تقديره: فلـه عذاب أليم في نار الجحيم، وقـد حذف جواب الشرط لدلالة ما بعده عليه، وهـو قوله عز وجل: ﴿فَسَيحْشُرُهُمْ إلَيْه جَمِيعًا. فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدُهُمْ من فَضْلِهِ وأما الـذين استنكفـوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عـذابـا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وَلِيًّا ولا نَصِيرًا.﴾ ومعنـى قوله عـز وجل: ﴿فَسَيحْشُرُهم إليـه جَمِيعًا.﴾ أي فسيبعث الله عز وجل الخلائق ويجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه ويجازي كل

عامل بما عمل فمن استنكف واستكبر عن عبادة ربه عـذبه يوم الجزاء عذابا أليما ولا يجد له من دون الله وليـا ولا نصيرا. ومن آمن وعمل الصـالحات وفاه أجره الجميل وأثابه جنات النعيم وتفضل عليه بالنظر إلى وجهه الكريم، قال أبـو السعـود العمادي في قـولـه عـز وجل: ﴿فسيحشرهـم إليـه جميعـا﴾ أي المستنكفين ومقابليهم المدلـول عليهم بذكر عدم استنكـاف المسيح والملائكة عليهم السـلام، وقد تـرك ذكر أحـد الفريقين في المفصل تعـويلا على إنبـاء التفصيل عنـه وثقة بظهـور اقتضاء حشر أحـدهما لحشر الآخر ضرورة عمـوم الحشر للخلائق كافة كما ترك ذكر أحد الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى: ﴿فأمـا الـذين آمنوا بـالله﴾ الآيـة مع عمـوم الخطاب لهما اعتمادًا على ظهـور اقتضاء إثابـة أحدهما لعقاب الآخر ضرورة شمـول الجزاء للكل اهـ وقال ابن جرير: القول في تأويل قوله: ﴿فأمـا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورَهم ويزيدهم من فضله وأمـا الذين استنكفوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليًّـا ولا نصيرا.﴾ قال أبو جعفـر: يعني جل ثناؤه بـذلك: فأما المؤمنون المقـرون بوحدانية الله، الخاضعـون له بالطـاعة، المتذللون له بالعبوديـة، والعاملون الصالحات من الأعمال، وذلك: أن يَرِدوا على ربهم قد آمنـوا به وبـرسله وعملوا بما أتـاهم به رسلـه من عند ربهم، من فعل ما أمرهم به، واجتناب ما أمرهـم باجتنابه ﴿فَيُوَفيهِمْ أُجورَهُمْ﴾ يقول: فيؤتيهم جـزاء أعمالهم الصاحلـة وافيا تامـا، ﴿ويَزِيدُهـم من فضله﴾ يعني جل ثناؤه: ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها، من الفضل والـزيادة مالم يعرفهم مبلغـه، ولم يَحُدَّ لهم منتهاه، وذلك أن الله وعـد من جـاء من عباده المؤمنين بـالحسنـة الواحـدة عشر أمثـالها من الثواب والجزاء، فذلك هو أجر كل عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحـدودُ مبلغـه، والـزيـادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كـان كل

ذلك من فضله على عبـاده غير أن الذي وعـد عباده المؤمنين أن يـوفيهم فلا ينقصهم من الثـواب على أعمالهم الصـالحة هـو مـا حـد مبلغـه من العشر، والـزيادة على ذلك غير محدود مبلغهـا ، فيزيـد من شاء من خلقـه على ذلك قدر مـا يشاء ، لا حد لقدره يـوقف عليه ، ثم قال رحمه الله : وقولـه : ﴿وأما الذين استنكفـوا واستكبروا﴾ فإنه يعني : وأمـا الذين تعظمـوا عن الإقرار لله بالعبودة ، والإذعـان له بالطاعـة ، واستكبروا عن التذلل لألوهتـه وعبادته ، وتسليم الربوبية والوحدانية له ، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عذابا أليما﴾ يعني : عذابا موجعًا ﴿ولا يجدون لهم من دون الله وليًا ولا نصيرا﴾ يقـول : ولا يجد المستنكفون من عبادته والمستكبرون عنها إذا عـذبهم الله الأليم من عذابه سوى الله لأنفسهم ﴿وَلِيًّا﴾ ينجيهم من عـذابه وينقذهم منـه ، ﴿ولا نَصِيرًا﴾ يعني : ولا ناصرًا ينصرهم فيستنقذهم من ربهم ، ويـدفع عنهم بقوته مـا أحل بهم من نقمته ، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم مـن أهل الدنيا في الدنيا بسوء من نصرتهم والمدافعة عنهم اهـ هذا وبعـد أن أورد الله تبارك وتعـالى الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار الوثنيين واليهود والنصارى وأجاب عن جميع شبهـاتهم ، وألزمهم بـالبراهين القـاطعة التـي تخر لها صم الجبال بما يقـرر أن محمدا هـو رسول رب العالمين عمم الخطـاب ووجهه إلى جميع المكلفين فـدعا جميع الناس وسائر الفرق والطوائف إلى الاعتراف بـالنور والبرهان الذي بعث به إليهم أفضل خلقه وخـاتم أنبيائه ورسله محمدًا ﷺ فقـال : ﴿ياأيها النَّاسُ قد جـاءكم بُرْهَـانٌ من ربكم وأنزلنا إليكـم نُورًا مُبينًا . فأمـا الذين آمنـوا بالله واعتصموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ في رحمة منه وَفَضْلٍ ويهديهم إليه صراطا مستقيما . ﴾ والبرهـان هو الـدليل القـاطع والحجة المزيلـة للشبهـات ، والنور المبين هـو الضياء الواضح الذي يبين للسـالكين المحجة الواضحة ، ويكشف لهم سبل السلام حتى ينهجوها ، ويحذرهم مـن مخاطر الطريق التي يحاول الشيطان أن

يوقعهم فيها، فمن آمن بالله واعتصم به هداه الصراط المستقيم ومن انقاد للشيطان أوصله إلى نار الجحيم، والعاقل من سلك سبل السلام والمخذول من سلك السبيل المعوج كما قال الشاعر:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج   طريقان شتى مستقيم وأعوج

وقد وصف الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ﷺ والقرآن العظيم الذي أنزله عليه بأنه برهان ونور وسراج منير كما قال هنا: ﴿قد جاءكم برهانٌ من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا.﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين. يَهْدِي به اللهُ من اتَّبَعَ رضوانه سُبُلَ السلام ويُخْرِجُهُم من الظلمات إلى النور بإذنه ويَهْديهم إلى صراط مستقيم.﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿أَوَ مَنْ كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يَمْشي به في الناس كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون.﴾ وقال في سورة الأعراف: ﴿فالذين آمنوا به وعزَّرُوه ونصروه واتَّبَعُوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ معه أولئك هم المفلحون.﴾ وقال في سورة الأحزاب: ﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا مُنيرًا.﴾ وقال في سورة الشورى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جعلناه نورا نَهْدِي به من نشاء من عبادنا، وإنك لَتَهْدِي إلى صراط مستقيم. صراطِ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، أَلا إلى الله تصير الأمورُ.﴾ وقال في سورة الجاثية: ﴿هذا بَصَائِرُ للناس وَهُدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون.﴾ وقال في سورة التغابن: ﴿فَآمِنُوا بالله ورسوله والنُّور الذي أنزلنا، والله بما تعملون خبير.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأما الذينَ آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفَضْلٍ ويَهْدِيهِمْ إليه صراطا مستقيما.﴾ أي فأما الذين صدقوا بالله جل جلاله ورضوا به ربا وأقروا بوعده ووعيده وصدقوا كتبه ورسله واستمسكوا بالعروة

الوثقى مدة حيـاتهم الدنيوية فسيدخلهم ربهم في جنته ويـزيدهم من فضله ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليهم من أهل طاعته، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السـلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيـم المفضي إلى روضات الجنات اهـ.

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفتِيكُمْ في الْكَـلاَلَةِ، إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ له وَلَدٌ وَلَـهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ، وَهُـوَ يَرِثُهَا إن لم يكُن لها ولَدٌ، فإن كَـانتا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَـرَكَ، وإن كانوا إِخْوَة رجَالا ونِسَـاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْل حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ، يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أن تَضِلُّوا، واللهُ بكل شيْءٍ عَلِيمٌ.﴾

هذه الآيـة الكريمة هي ختـام المسك من هذه السورة العظيمـة، واختتام السـورة بها للفت الانتباه إلى عظمـة شـأن المواريث ووجـوب العنـايـة بها، والـوقوف عنـد حـدودهـا كما نبه إلى ذلك عـز وجل بعـد ذكـر أكثر أحكـام المواريث في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من هـذه السورة عقب ذكر آية الشتـاء في الكـلالة حيـث قال: ﴿تلك حُـدُود الله، ومَنْ يطع اللهَ ورسـولَـه يدخلْـه جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خـالدين فيهـا، وذٰلك الْفَوْزُ العظيمُ. ومن يَعْصِ اللهَ ورسـوله ويتَعَـدَّ حدودَهُ يُـدْخلهُ نـارًا خالـدا فيها ولـه عذابٌ مُهِينٌ.﴾ وهذه آية الكلالة التي ختم بها سورة النساء تسمى آية الصيف لأن آية الكـلالة التي في أوائل السورة نزلت في الشتـاء وآية الكلالة هـذه نزلت في الصيف. وقد تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة أن الكلالة في أصل اللغة تطلق على معان كثيرة منها الإعياء ومنه قول الأعشى:

فآليت لا أرثي لهـا مـن كـــلالة ... ولا مـن حـفى حتى تلاقي محمـدا

وقيل هي من قولهم: تكللـه الشيء إذا أحاط به ومنه الإكليل وهـو التاج والعصابة المحيطة بالرأس كما قال امرؤ القيس:

أصـــاح ترى برقا أريـك وميضـــه ... كلمـع اليديـــن في حبـــي مكـلل

وقد ذكـر الله تبارك وتعالى الكـلالة في مـوضعين في هذه السورة الكـريمة حيث قال عز وجل: ﴿وإن كان رجل يُـورَثُ كَلاَلَةً أو امرأةٌ وله أَخٌ أو أختٌ فلِكُلِّ واحد منهما السُّدُسُ، فإن كانوا أكثَرَ من ذٰلك فهم شركاءُ في الثلث﴾

وحيث قال هنا: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قل الله يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ الآية، وقد أجمع العلماء على أن الإخوة في الموضع الأول هم الإخوة لـلأم، وأن المراد بالإخوة في هذا الموضع الذي ذكرته آية الصيف هم الإخوة الأشقاء أو الإخوة لأب.

واتضح من الآيتين الكريمتين أن الكلالة هو من مات وليس له والد ولا ولد ودلت الآيتان على أن الإخوة كلهم كلالة. وهذه الآية الكريمة التي ختمت سورة النساء هي آخر آية نزلت من القرآن الكريم، قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه: باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قل اللهُ يفتيكم في الكَلاَلَةِ إنِ امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أخت فلها نِصْفُ ما تَرَكَ وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ﴾ والكلالة مَنْ لم يرثه أب أو ابن وهو مصدر من تكلله النسب، حدثنا سليمان ابن حرب حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمعت البراء رضي الله عنه قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ وقال في كتاب الفرائض من صحيحه: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: آخر آية نزلت خاتمة سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ وقال مسلم في صحيحه: حدثنا علي بن خشرم أخبرنا وكيع عن ابن أبي خالد عن أبي إسحاق عن البراء قال: آخر آيةٍ أنزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ في الكَلاَلَةِ﴾ حدثنا محمد بن المثنى وابن بشار قالا: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب يقول: آخر آية أنزلت آية الكلالة وآخر سورة أنزلت براءة، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي أخبرنا عيسى (وهو ابن يونس) حدثنا زكرياء عن أبي إسحاق عن البراء أن آخر سورة أنزلت تامة سورة التوبة، وأن آخر آية أنزلت آية الكلالة، وقد أخرج الشيخان رحمهما الله أن سبب نزول آية الكلالة هذه هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فقد قال البخاري في كتاب الوضوء من

صحيحه: باب صب النبي ﷺ وضوءه على المغمى عليه، حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابرا يقول: جاء رسول الله ﷺ يعودني وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب عليَّ من وضوئه، فعقلت، فقلت: يارسول الله لمن الميراث، إنما يرثني كلالة، فنزلت آية الفرائض، وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه: باب وضوء العائد للمريض، حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر غُنْدَرٌ حدثنا شعبة عن محمد بن المنكدر قال سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: دخل عليَّ النبي ﷺ وأنا مريض، فتوضأ، فصب عليَّ أو قال: صبوا عليه، فعقلت، فقلت: لا يرثني إلا كلالة، فكيف الميراث؟ فنزلت آية الفرائض. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عمرو بن محمد بن بكير الناقد حدثنا سفيان ابن عيينة عن محمد بن المنكدر سمع جابر بن عبد الله قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي عليَّ، فتوضأ ثم صب عليَّ من وضوئه فأفقت، قلت: يارسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد عليَّ شيئا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ وقال أبو داود في سننه: باب في الكلالة، حدثنا أحمد بن حنبل ثنا سفيان سمعت ابن المنكدر أنه سمع جابرا يقول مرضت فأتاني النبي ﷺ يعودني هو وأبو بكر ماشيين، وقد أغمي عليَّ فلم أكلمه، فتوضأ وصبه عليَّ، فأفقت، فقلت: يارسول الله كيف أصنع في مالي ولي أخوات؟ قال: فنزلت آية المواريث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ﴾ باب من كان ليس له ولد وله أخوات، حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا كثير بن هشام ثنا هشام — يعني الدستوائي — عن أبي الزبير عن جابر قال: اشتكيت وعندي سبع أخوات فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فنفخ في وجهي، فأفقت، فقلت: يارسول الله ألا أوصي لأخواتي بالثلث؟ قال: أحْسِنْ قلت: الشطر؟ قال: أحسِنْ، ثم خرج

وتركني، فقال: ياجابر، لا أُراك ميتا من وجعك هذا، وإن الله قد أنزل فبين الذي لأخواتك، فجعل لهن الثلثين، قال: فكان جابر يقول: أنزلت هذه الآية فيَّ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ﴾ كما روى مسلم في صحيحه من طريق سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة أن عمر بن الخطاب خطب يوم جمعة فذكر نبي الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئا أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله ﷺ في شىء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شىء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: ياعمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يستفتونك﴾ يعني في الكلالة ولم يذكرها في السؤال اكتفاء بورودها في الجواب في قوله: ﴿قل الله يُفتيكم في الكلالة﴾ والمستفتي هو جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وإنما أورده بصيغة ضمير الجماعة لإفادة تعميم هذا الحكم لجابر وغيره، والسائل قد يكون واحداً لكنه لم يرد بسؤاله حكماً خاصًّا به، ولذلك اعتبر السؤال عاماً منه ومن غيره، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنِ امْرُؤٌ هلك﴾ أي إن مات إنسان، فامرؤ فاعل لفعل محذوفٍ يفسره المذكور بعده. وقوله عز وجل: ﴿ليس له ولَدٌ وله أخت فلها نصف ما ترك﴾ أي مات هذا الميت غير ذي ولد وقد ترك أختاً من أبيه وأمه أو من أبيه فقط فلهذه الأخت نصف تركة أخيها هذا، وقوله عز وجل: ﴿ليس له ولد﴾ يعني ولا والدٌ، وإنما ترك ذكر الوالد لأنه معلوم، إذ لو كان الوالد موجودا لم ترث الأخت من أخيها شيئا بالإجماع، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وهو يَرِثُهَا إن لم يَكُنْ لها ولد﴾ أي وإذا كانت الأخت هي الميتة ولم يكن لها ولد ولا والد فإن أخاها سواء كان شقيقا لها أو كان من أبيها فقط فإنه يرث جميع تركة أخته هذه. وهذا كله إذا لم يكن مع هذا الأخ وارث آخر من ذوي الفرض كزوج أو أخ لأم فإن قدر أن معه من له فرض كزوج أو أخ من أم فإن صاحب الفرض

يأخذ فرضه ويصرف الباقي للأخ لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كانتا اثْنَتَيْنِ فلهما الثُّلُثَانِ مما ترك﴾ أي وإن كان الميت الموروث كلالة قد ترك أختين فإنهما يستحقان ثلثي التركة بينهما مناصفة، وقوله عز وجل: ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ بعد قوله تبارك وتعالى: ﴿كانتا﴾ الدال على اثنتين تنبيه على أن المعتبر في اختلاف الحكم هو العدد دون أي وصف آخر من صغر أو كبر أو صالح أو طالح أو غير ذلك من الصفات. وقد سئل الأخفش: ما فائدة قوله ﴿اثنتين﴾ و﴿كانتا﴾ لا يفسر إلا باثنتين؟ فقال: أفادت العدد العاري عن الصفة لأنه يجوز في ﴿كانتا﴾ صغيرتين أو حرتين أو صالحتين أو طالحتين، فلما قال: ﴿اثنتين﴾ أفاد إطلاق العدد على أي وصف كانتا عليه اهـ وقوله تعالى: ﴿وإن كانوا إخوةً رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي وإن كان الورثة كلالة إخوة مختلطة ذكورا وإناثا فللذكر مثل حظ الأنثيين مهما كان العدد، وهذا بخلاف الإخوة من الأم فقط المذكورين في آية الكلالة الشتوية فإن نصيب الذكر منهم كنصيب الأنثى على حد سواء كما تقدم في تفسير الآية الثانية عشرة من هذه السورة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم.﴾ أي يوضح الله عز وجل لكم منهاج السعادة ويعطي كل ذي حق حقه كراهية أن تضلوا أولئلا تضلوا أي تنحرفوا عن قصد السبيل والله وحده هو المحيط بجميع خلقه الخبير بما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون.





تفسير سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُـودِ، أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . ﴾

هذه سورة المائدة، وإنما سميت سورة المائدة لأن الله تبـارك وتعالى قد ذكر قصة المائدة في هـذه السورة في الآيـة الثانيـة عشرة بعد المائة وفي الآيـة الثالثـة عشرة بعد المائة وفي الآية الـرابعة عشرة بعد المائة وفي الآية الخامسـة عشرة بعد المائة حيث قـال تبـارك وتعالى ﴿إذ قـال الحواريـون يـاعيسى ابنَ مـريمَ هل يستطيع ربُّكَ أن يُنَزِّلَ علينا مائدةً مـن السماء قال اتَّقُوا اللهَ إن كنتم مؤمنين . قالوا نـريد أن نأكل منها وتَطْمَئِنَّ قلـوبُنَا ونَعْلَمَ أنْ قَدْ صَدَقْتَنَـا ونكونَ عليها من الشاهدين . قال عيسى ابنُ مَـرْيَمَ اللهم ربَّنَا أَنْزِلْ علينا مائدةً من السماء تكونُ لنـا عِيدًا لأَوَّلِنَا وآخِرِنـا وآيَةً منكَ وارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الـرازقين . قال الله إني مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكْفُرْ بعـدُ منكم فإني أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَـذِّبُهُ أَحَدًا من العالمين . ﴾ ومناسبـة هذه السورة لما قبلها أنه عز وجل لما ذكـر في ختام سورة النساء أنـه يبين الأحكام والشرائع ويضع أكمل المنـاهج لعباده المؤمنين حتى لا يضلوا، شرع في هذه السورة الكريمة يبين لعباده جملة عظيمة من الأحكام الشرعية والقـواعد الدينيـة والمناهج الربـانية قال الإمـام ابن تيمية رحمه الله : سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريـم والأمر والنهي اهـ وقد افتتح الله تبارك وتعالى هذه السـورة الكريمة بقوله عز وجل : ﴿يـا أيها الذين آمنـوا﴾ ولم يفتتح بهذه الافتتاحيـة سوى هـذه السورة وسـورة الحجرات وسورة الممتحنـة ، وقد لوحظ أن الله تبارك وتعـالى خاطب المؤمنين

في سورة المائدة هذه بقوله عز وجل: ﴿يـاأيها الـذين آمنوا﴾ في ستة عشر موضعا، ومن المعلوم بالاستقراء أن الله تبارك وتعالى إذا خاطب المؤمنين بهذا الخطاب أعقبه بأمرهم بخير أو بنهيهم عن شر، ولذلك أُثِر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يـاأيها الذين آمنوا﴾ فـارعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه فقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر حدثني معن وعوف أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إليَّ، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ فـارعها سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولاشك أن نداء المؤمنين بهذا الوصف من أعظم أسباب الحض على سرعة الامتثال والانقياد لما يأمرهم الله عز وجل به أو ينهاهم عنه عقب هذا النداء. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوْفُوا بـالعقود﴾ أي أدوا لكل ذي حق عليكم حقه الذي تعاهدتم على أدائه والوفاء به سواء كان حقا لله عز وجل عليكم مما يقتضيه إيمانكم وانقيادكم لأوامره عز وجل وأوامر رسوله ﷺ أو كان حقا لبعضكم على بعض تعاهدتم على الوفاء به من الأمانات والبيوع والأنكحة والشركات والأيمان وسائر المعاهدات مما لا يتناقض مع كتاب الله ولا مع سنة رسول الله ﷺ، وسواء كان إيجابه عليكم من الله عز وجل ابتداءً أو أن تكونوا قد أوجبتموه على أنفسكم والتزمتم به من نذر أو يمين أو نحو ذلك مما حض الشرع على الوفاء به، وهذه الجملة الموجزة قد وضعت قاعدة كلية يندرج تحتها من الجزئيات ما لا يحيط به إلا الله عز وجل مما يجلب للناس سعادة الدنيا والآخرة في كل عصر ومصر وجيل وقبيل ولو لم يكن للناس إلا هذه الجملة لكفتهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم وصف المؤمنين بأنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ووصف الكافرين والمنافقين بأنهم ينقضون العهود والمواثيق حيث يقول تبارك

وتعالى: ﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولَئك هم الخاسرون.﴾ وقال عز وجل: ﴿أَفَمَن يعلم أنما أُنْزِلَ إليك من ربك الحقُّ كمن هو أعمى، إنما يتذكر أوْلُواْ الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يَصِلُونَ ما أمر الله به أن يوصل ويَخْشَوْنَ ربهم ويخافون سُوءَ الحساب. والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وَأَنْفَقُوا مما رزقناهم سرًّا وعلانيةً ويَدْرَءُون بالحسنة السَّيِّئَةَ أولَئك لهم عقبى الدار. جناتُ عدن يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وَذُرِّيَّاتِهِمْ والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب. سلامٌ عليكم بما صبرتم، فَنِعْمَ عُقْبَى الدارِ. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللهُ به أن يُوصَلَ ويُفْسِدُون في الأرضِ أولَئك لهم اللعنة ولهم سُوءُ الدارِ.﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ومِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ الله لئن آتانا من فضله لَنَصَّدَّقَنَّ ولنكُونَنَّ من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بَخِلُوا به وتَوَلَّوْا وهم معرضون. فأعقبهم نِفَاقا في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَهُ بما أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وبما كانوا يَكْذِبُونَ.﴾ وقال تعالى في المؤمنين: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم رَاعُونَ.﴾ وقال في الكافرين: ﴿لا يَرْقُبُونَ في مؤمنٍ إلا ولا ذمةً وأولَئك هم المعتدون.﴾ كما وصف رسول الله ﷺ المنافقين بالغدر ونقض العهد فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان. زاد مسلم في رواية له: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث

كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. وأنذر رسول الله ﷺ الغادر بأنه سترفع له راية غدره أمام الأولين والآخرين يوم القيامة، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواءٌ، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان. وفي رواية لمسلم: لكل غادر لواءٌ يوم القيامة يعرف به، يقال: هذه غدرة فلان. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه العمل ولم يوفه أجره. وقد جعل الله تبارك وتعالى في قمة أعمال الأبرار الوفاء بالنذر حيث يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بها عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا. يُوفُونَ بالنذر ويخافون يوما كان شَرُّهُ مستطيرا. ويُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّهِ مسكينا ويتيما وأسيرا.﴾ الآيات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّتْ لكم بَهِيمَةُ الأنعام إلا ما يُتْلَى عَلَيكُمْ غَيْرَ محلي الصَّيْدِ وَأَنْتُم حُرُمٌ، إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.﴾ شروع في تفصيل وبيان ما عهد به إلى أمة محمد ﷺ الذين انقادوا إلى أمر الله الذي أمرهم وطالبهم أن يوفوا به، وتذكير لهم بما تفضل به عليهم حيث أحل لهم أكل ما ذكروا اسم الله عليه من لحوم ذبيحة بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية المذكورة في قوله عز وجل: ﴿ومن الأنعام حمولةً وفَرْشًا، كلوا مما رزقكم اللهُ ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشيطان، إنه لكم عَدُوٌّ مُبِينٌ. ثمانيةَ أزواجٍ من الضأن اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ، قل ءالذكرين حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشتملت عليه أرحامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنينِ، قل ءالذكرينِ حرَّمَ أم الأنثيين أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداءَ إذا وصاكم الله بهذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِبًا لِيُضِلَّ

الناسَ بغير علم، إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين. ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أنـا خلقنا لهم مما عَمِلَتْ أيـدينا أنعامـا فهم لها مالكون. وَذَلَّلْنَـاهَا لهم فمنها رَكُـوبُهُمْ ومنها يأكلـون. ولهم فيها منـافعُ ومشاربُ أفـلا يَشْكُرُون. ﴾ وإضافة البهيمة إلى الأنعام للبيان كثوب الخز، وإفرادها لإرادة الجنس، وقد ألحق الله تبارك وتعالى بقوله عـز وجل: ﴿أُحِلَّتْ لكم بهيمة الأنعام﴾ نوعين من الاستثناء، الأول: قـوله: ﴿إلا مـا يُتْلى عليكم﴾ والثاني: قـوله: ﴿غير مُحِلِّي الصَّيْدِ وأنتم حُرُمٌ﴾ وقد بَيَّن عز وجل بالاستثناء الأول ما حَرَّمه من بهيمة الأنعام تحريما مؤبدا، وبَيَّنَ بالاستثناء الثـاني ما حرمه من بهيمة الأنعام تحريما مـؤقتًا، إذ المراد بقـولـه عـز وجل: ﴿إلا ما يتلى عليكـم﴾ أي إلا ما يقـرأ في كتاب الله تعـالى تحريمه عليكم وهـو ما ذكره في قـوله عـز وجل: ﴿إنما حَرَّمَ عليكم الميتة والدَّمَ ولحم الخِنْزِير ومـا أُهِلَّ به لغير الله فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عـادٍ فلا إِثْمَ عليـه، إنَّ الله غفور رحيم. ﴾ وفي قـولـه عز وجل: ﴿حُـرِّمَتْ عليكـم المَيْتَـةُ والـدَّمُ ولحمُ الخنزيـرِ ومـا أُهِلَّ لغير الله بـه والمنخنقة والموقـوذةُ والمتردِّيَـةُ والنطيحةُ ومـا أَكَلَ السَّبُعُ إلا مَا ذَكَّيْتُمْ ومـا ذُبِحَ على النُّصُبِ﴾ وفي قوله: ﴿قل لا أَجدُ في ما أُوحِيَ إليَّ محرما على طاعم يَطْعَمُه إلا أن يكون مَيْتَةً أو دما مسفـوحا أو لحم خِنْـزِيرٍ فإنـه رِجسٌ أو فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله بـه، فمن اضطر غيرَ بـاغ ولا عادٍ فإنَّ ربك غفـورٌ رحيم. ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، كما بين عز وجل بـالاستثناء الثاني أن ما كـان من بهيمة الأنعام صيدًا كـالبقر الوحشيـة والتيوس البريـة فإنه يحرم عليهم صيده في حـالة الإحـرام بالحج أو بالعمرة فإذا تحلل المحـرم من إحرامه جاز لـه صيد البر مالم يكن في الحرم كما قـال عز وجل: ﴿لا تقتلـوا الصيد وأنتم حُـرُمٌ﴾ وكما قال: ﴿وحُـرِّم عليكم صَيْـدُ البَرِّ مادمتم حُـرُمًا﴾ وكما قـال: ﴿وإذا حَلَلْتُمْ فاصْطَـادُوا﴾ ومعنى: ﴿وأنتم حُرُمٌ﴾ أي وأنتم محرمون، وواحد الحُرُم حرام يقال: رجل حرام، وقوم

حرم قال المضرَّب بن كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني :

فقلت لهـا فيئـي إليـكِ فإننـي حـرام وإني بعـد ذاكِ لبيـب

فمعنى قولـه : حرام أي محرم ومعنى قولـه : لبيب أي ملبٌّ ، وقد استعمل الشاعر هنـا «بعد» بمعنى مع كما في قوله تعـالى : «والملائكة بعد ذٰلك ظهير» وكما في قوله تعالى : ﴿عُتُلٍ بعـد ذٰلك زنيم . ﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿والأرضَ بعد ذٰلك دحاهـا﴾ أي مع ذلك وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآيـة بقوله : ﴿إن اللهَ يَحْكُمُ ما يُـريدُ . ﴾ للتنبيه على أنه عز وجـل يقضي في خلقه بما يشاء من التحليل والتحـريم ، ولا يُـحِل الحكيم العليم إلا الطيبـات التي تُصلح أبـدان العبـاد وأرواحهم ، ولا يحرم إلا الخبـائث التي تضر أبـدان العبـاد أو أرواحهم وأخلاقهم كما قال عز وجل في وصـف حبيبه محمد ﷺ : ﴿يأمرهم بـالمعـروف وينهـاهم عن المنكـر ويُحِلُّ لهم الطيبـات ويحرم عليهم الخبـائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحرامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا، ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وتَعَاوَنوا على الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدْوَانِ، واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يوفوا بالعقود وامتن عليهم بما أباح لهم من بهيمة الأنعام ونبههم إلى وجوب اجتناب ما حرمه عليهم من هذه البهائم تحريما مؤبدا وما حرمه عليهم منها تحريما مؤقتا بوقت كونهم محرمين، ولفت انتباههم إلى جليل حكمته وحُكمه فيما يحرم ويحلل، شرع عز وجل يعهد إلى عباده المؤمنين ويوصيهم بالمحافظة على شعائر الله وينهاهم عن التعدي عليها ويحذرهم من انتهاكها ويطلب منهم أن يحترموا الشهر الحرام فلا يقاتلوا فيه وأن يحترموا الهدى والقلائد وقاصدي بيت الله الحرام، وأباح لهم الصيد بعد التحلل من الإحرام وحضهم على أن يعدلوا في معاملة أعدائهم وألا يحملهم صد مشركي قريش لهم عن المسجد الحرام يوم الحديبية أن يعتدوا عليهم، وأمرهم بالبر والتقوى وأن يتعاونوا على ذلك، وحذرهم من التعاون على الإثم والعدوان، وأكد عليهم بملازمة تقوى الله عز وجل والخوف من أليم عقابه حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائرَ الله ولا الشهرَ الحرامَ ولا الْهَدْيَ ولا القلائدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحرامَ﴾ الآية. وشعائر الله تطلق على حرمات الله وحدوده ومراسيم شريعته وأمره ونهيه وفرائضه وسائر معالم دينه كما تطلق على مناسك الحج ومشاعره والهدي والبدن المهداة قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: وأولى التأويلات بقوله: ﴿لا تُحِلُّوا شعائر الله﴾ قول عطاء الذي ذكرناه من

تـوجيهه معنى ذلك إلى : لا تحلـوا حـرمات الله ، ولا تضيعـوا فرائضـه ، لأن الشعـائر جمع «شعيرة» والشعيرة فعيلة من قـول القائل : قـد شعر فـلان بهذا الأمر إذا علم به ، فـالشعائر: المعالم من ذلك ، وإذا كان ذلـك كذلك ، كان معنى الكلام : لا تستحلـوا أيها الذين آمنوا معالم الله ، فيـدخل في ذلك معالم الله كلها في منـاسك الحج : من تحريم ما حـرم الله إصابته فيهـا على المحرم ، وتضييع ما نهى عن تضييعه فيهـا ، وفيما حرم من استحلال حرمـات حرمه ، وغير ذلك من حدوده وفرائضه ، وحلاله وحرامه ، لأن كل ذلك من معالمه ، وشعائره ، التي جعلها أماراتٍ بين الحق والباطـل ، يعلم بها حلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وإنما قلنا : ذلك القول أولى بتأويل قوله تعالى : ﴿لا تُحِلُّوا شعائر الله﴾ لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها نهيًا عامًّا من غير اختصـاص شيءٍ من ذلك دون شيء ، فلم يجز لأحـدٍ أن يـوجـه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها ، ولا حجة بـذلك كذلك اهـ

ومعنى قـولـه تبـارك وتعالى : ﴿ولا الشهـر الحرام﴾ أي ولا تستحلـوا الشهـر الحرام فتستبيحوا قتـال أعدائكم من المشركين فيـه ، والمراد بالشهـر الحرام هنا الجنس أي الأشهـر الحرم وهي ذو القعـدة وذو الحجة والمحـرم ورجب مضر الـذي بين جمادى وشعبان ، وقـد نص الله تبـارك وتعـالى على أنـه حرَّم هـذه الأشهر الأربعة منذ خلق السموات والأرض حيث يقول عز وجل : ﴿إنَّ عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خَلَقَ السمٰوٰتِ والأرضَ منها أربعةٌ حُرُمٌ ، ذٰلك الدِّين القيم ، فـلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافَّـةً كما يقاتلونكم كافـةً ، واعلموا أَنَّ الله مع المتقين . ﴾ وقد نـدد عز وجل بتـلاعب المشركين بهذه الأشهر الحرم حيث كـانـوا إذا أرادوا الغارة فيهـا على أعدائهم غيروا اسم الشهر الحرام وأجلوه إلى الشهـر الذي بعده وأطلقوا اسم الشهر الحرام على الشهر الـذي يليه وهذا العمل الذي كانـوا يعملونه يسمى

النسيء، فبين الله عز وجل أن عملهم هذا زيادةٌ في الكفر حيث يقول: ﴿إنما النسيء زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حرَّمَ الله فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ، زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالهم، والله لا يَهْدِي القومَ الكافرين.﴾ وقد شدد رسول الله ﷺ التأكيد على حرمة الأشهر الحرم في خطبته يوم النحر في حجة الوداع فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، وقال: أي شهرٍ هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع. وقوله عز وجل: ﴿وَلا الْهَدْيَ﴾ أي ولا تتعرضوا للهدي بسوء ولا تحبسوه عن بلوغ محله، وقد كان المشركون من قريش قد صدوا رسول الله ﷺ ومنعوه من الوصول إلى المسجد الحرام عام الحديبية ومنعوا الهدي أن يبلغ محله يعني بيت الله الحرام كما قال عز وجل: ﴿هُمُ الذين كفروا وصَدُّوكم عن المسجد الحرام وَالْهَدْيَ معكوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ والهدي هو ما يهدى إلى بيت

الله الحرام من ناقـة أو بقرة أو شـاة تقربا إلى الله تبـارك وتعالى. وقـد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلـك في قوله عز وجل: ﴿هَـدْيًا بَالِغَ الكعبةِ﴾ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿والقلائد﴾ أي ولا تستحلوا القلائد ولا تنتهكوا حرمتها، والقلائد جمع قـلادة وهي في الأصل مـا يجعـل حـول العنق للـزينـة أو لغيرهـا والمراد بالقـلائد هنا ما كان العـرب يفعلونه بأنفسهم أو بهدايـاهم المهداة إلى البيت الحرام ليعلم من يـرى ذلك بأن صاحبـه مسالم لا يـرغب في قتال أحـد، وأن بهيمـة الأنعام التي وضعت عليهـا القلادة هـي هدى لله عـز وجل وقد أقـر الإسلام تقليد الهدي، فقد روى البخـاري ومسلم من حديث الصديقة بنت الصـديق أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها قـالت: أهدى النبي ﷺ مـرة إلى البيت غنماً فقلدها. وفي رواية لهما عنها قالت: فَتَلْتُ قلائدها من عهنٍ كان عندي، ثم بعث بها مع أبي. وفي روايـة لهما أيضا من حديثهـا رضي الله عنها قالت: فتلت قلائد بدن النبي ﷺ بيدَيَّ، ثم قلدها وأشعرها، وأهداها، فما حرم عليه شيء كان أحل لـه. كما روى مسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القـرآن عبد الله بن عبـاس رضي الله عنهما قـال: صلى رسول الله ﷺ الظهـر بذي الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعـرها في صفحة سنامها الأيمن وسَلَتَ الدم عنهـا، وقلدهـا نعلين، ثم ركب راحلتـه، فلما استـوت به على البيـداء أهل بالحج. وقـد كان من عـادة العرب أنهم يتخـذون قلائدهم التـي يعلنون بها مسالمتهم من لحاء الشجر أي من قشره ويضفرونه ويُـحِكمون جدله وفتله ثم يجعلونه قلادة، ويعيبون أشـد العيب من اعتدى على أصحاب هذه القلائد كما قال الشاعر حذيفة بن أنس الهذلي:

ألا أبلغا جُـل السـواري وجابـرا ... وأبلغ بني ذي السهم عني ويعمَـرا
وقـولا لهـم عني مقـالة شـاعر ... ألمَّ بقـول لم يحـاول ليفخـرا
لعلكمـوا لما قتَلـتم ذُكِرتمـوا ... ولن تتركـوا أن تقتلـوا من تعمـرا

ألم تقتلوا الحِرجَين إذ أعرضا لكم   يمران بالأيدي اللحاء المضفرا

قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط في مادة «حرج»: إنما عني بالحرجين رجلين أبيضين كالودعة، فإما أن يكون البياض لونهما، وإما أن يكون كنى بذلك عن شرفهما، وكان هذان الرجلان قد قشرا لحاء شجر الكعبة ليتخفرا بذلك، والمضفَّر: المفتول كالضفيرة اهـ أما ما ثبت عن رسول الله ﷺ من الأمر بقطع الأوتار والقلائد من أعناق الإبل فإن المراد منه ما كان أهل الجاهلية يفعلونه حيث كانوا يقلدون الإبل أوتار القسي لئلا تصيبها العين بزعمهم فنهى النبي ﷺ عن ذلك كما نهى عن كل تميمة وهي ما يعلق خشية العين فمن تعلق تميمة فلا أتم الله له، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عباد بن تميم أن أبا بشير الأنصاري أخبره أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره قال: فأرسل رسول الله ﷺ رسولا قال عبد الله بن أبي بكر: حسبت أنه قال: والناس في مبيتهم: لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت، قال مالك: أُرى ذلك من العين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا آمّينَ البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا﴾ أي ولا تتعرضوا بأذى لقاصدي البيت الحرام وزوار الكعبة المشرفة الذين يعتمرون أو يحجون طلبا لفضل الله ومرضاته، وهذا وإن كان الخطاب فيه للمؤمنين ففيه تنديد بكفار قريش الذين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية فهو على حد قول الشاعر: إياك أعني واسمعي ياجارة، وهو مع ذلك نصيحة للمؤمنين إلى يوم القيامة حتى لا يصد أحد من المسلمين المعروفين بالاستقامة وعدم الإفساد في الأرض عن الحج أو العمرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي وإذا حللتم من إحرامكم وكنتم في غير الحرم جاز لكم صيد البر الذي كان محرما عليكم بسبب الإحرام المستفاد من قوله تبارك وتعالى في الآية السابقة:

﴿غير مُحِلِّي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ وقوله عز وجل: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم منعوكم من زيارة المسجد الحرام يوم الحديبية أن تظلموهم، ثم أمر عز وجل المؤمنين بقواعد الخير وأصول التكافل الاجتماعي حيث قال: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾.

قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُم الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ به وَالْمُنْخَنِقَةُ والْمَوْقُوذَةُ والْمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلا ما ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلامِ، ذٰلِكُمْ فِسْقٌ، الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ، الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِينًا، فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.﴾

هذا شروع في بيان المحرمات من المطاعم، وتفصيل لما أجمله الله عز وجل من محرمات بهيمة الأنعام في قوله تبارك وتعالى في الآية الأولى: ﴿إلا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾، وقد ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من محرمات المطاعم أحد عشر نوعا، تقدم تفسير الأنواع الأربعة الأول منها وهي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به في تفسير الآية الثالثة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة، أما النوع الخامس من هذه الأنواع فهو المنخنقة أي الحيوان الذي فارق الحياة بسبب الخنق سواء كان بعصر حلقه والضغط على عنقه حتى يموت كما كان أهل الجاهلية يفعلون حيث كانوا يخنقون البهيمة فإذا ماتت أكلوها، أو كان هذا الخنق لها بغير قصد كأن تتخبل في وثاقها فتموت أو أن تخنق بحبل الصائد أو أن تدخل رأسها بين عودين في شجرة عند الرعي أو غيره فتموت من ذلك فبأي وجه اختنقت فهي حرام لا يحل أكلها، والنوع السادس هو الموقوذة وهي التي تضرب أو ترمى بشيء ثقيل غير محدد كخشب أو حجر أو غيرهما حتى تفارق الحياة، وقد كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها، فقد روى البخاري ومسلم من طريق الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المعراض فقال: إذا أصبت بحده فكل، فإذا أصاب

بعرضه فقتل فإنه وقيذ فلا تأكل. وفي لفظ للبخاري من حديث عدي رضي الله عنه قال: قلت: وإنا نرمي بالمعراض؟ قال: كُلْ ما خزق، وما أصاب بعرضه فلا تأكل. وفي لفظ مسلم: قلت له: فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: إذا رميت بالمعراض فخزق فكله، وإن أصابه بعرضه فلا تأكله. قال ابن التين: المعراض عصا في طرفها حديدة يرمى الصائد بها الصيد فما أصاب بحده فهو ذكي فيؤكل، وما أصاب بغير حده فهو وقيذ اهـ ومعنى خزق أي نفذ فيه السهم وجرحه. والنوع السابع: المتردية وهي البهيمة التي تقع من مكان مرتفع كجبل أو نحوه أو تسقط في بئر فتموت بذلك. والنوع الثامن: النطيحة وهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها لأن القرن ليس آلة تذكية. واعلم أن دخول الهاء في هذه الكلمات الأربع، أعني: المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة إنما كان لأنها صفات لموصوف مؤنث وهو البهيمة كأنه قيل: حرمت عليكم البهيمة المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة قال الفخر الرازي: فإن قيل: لم أثبت الهاء في النطيحة مع أنها كانت في الأصل منطوحة فعدل بها إلى النطيحة، وفي مثل هذا الموضع تكون الهاء محذوفة كقولهم: كف خضيب، ولحية دهين، وعين كحيل؟ قلنا: إنما تحذف الهاء من الفعيلة إذا كانت صفة لموصوف يتقدمها، فإذا لم يذكر الموصوف وذكرت الصفة وضعْتَها موضع الموصوف، تقول: رأيت قتيلة بني فلان بالهاء لأنك إن لم تدخل الهاء لم يعرف أرجل هو أو امرأة اهـ والنوع التاسع من محرمات المطاعم ما أكل السبع وهي البهيمة التي عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب ونحو ذلك من كل حيوان له ناب يفترس به ويعدو على الناس والدواب، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وما أكل السَّبُعُ﴾ أي وما أكل السبع بعضه وأفضل بعضه وماتت البهيمة من ذلك، ففي الكلام محذوف تقديره

وما أكل منه السبع، لأن مـا أكله السبع فقد نفد ولا حكم له لأنـه قد صار معدوما لا وجود له بين أيدي الناس، وقد أجمع علماء المسلمين على تحريم ما أكل السبع منه وماتت البهيمة من ذلك حتى لو كان السبع قد جرحها وسال منها الدم ولـو من مذبحها، وقد كان أهل الجاهليـة يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقـرة أو نحو ذلك فحـرم الله ذلك على المؤمنين. فإن قـال قائل: أليست المنخنقـة والموقوذة والمترديـة والنطيحة ومـا أكل السبع في معنى الميتة وقـد نص على تحريم الميتة في أول هذه الآيـة فلماذا هذا التنصيص على هـذه الخمس؟ فالجواب أن العـرب كانـوا يفرقـون بين الميتة التي مـاتت حتف أنفهـا وبين هذه الخمس ولا يطلقـون على هذه الخمس اسم الميتـة كما يسمون من مات من الناس حتف أنفه ميتـاً ويسمون من فارق الحياة بضربه بـالسيف ونحـوه قتيـلا كما كـانـوايفـرقـون بين الميتـة وبين هـذه الخمس في الاستعمال حيث كـان الكثير من أهل الجاهليـة لا يأكلـون الميتـة ويأكلـون المنخنقة والموقـوذة والمتردية والنطيحـة وما أكل السبع، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ أي إلا ما أدركتم فيه الروح من هـذه الأشياء فذبحتموها أي فريتم أوداجها وأنهرتـم دمها بمحدد قاطع من حـديد أو قصب أو زجاج أو حجر أو غيره مما يقطع المرىء والحلقوم والودجين مع ذكر اسم الله، ولا يجوز الذبح بالسن والظفر فقـد روى البخاري ومسلم من حديث رافع بن خديج قال: قلـت: يارسـول الله إنا لاقوا العـدو غدا وليسـت معنا مـدى؟ فقال: اعجل أو أرن، ما أنهر الـدم وذكر اسم الله عليـه فكل، ليس السن والظفر، وسأحدثك أمـا السن فعظم وأما الظفـر فمدى الحبشـة. الحديث. والعرب يطلقون التذكيـة على الذبح وعلى النحر والنحر هـو الطعن في اللبة والمنحر. والنوع العاشر من محرمات المطاعم ما ذبح على النصب قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة قال

ابن جريـج : وهي ثلثمائة وستون نصبا كـانت العرب في جـاهليتها يـذبحون عندهـا وينضحون ما أقبل منها إلى البيـت بدماء تلك الذبـائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، وكـذا ذكره غير واحد ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الـذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كـان يذكر عليها اسم الله ، فالـذبح عند النصب من الشرك الذي حـرمه الله ورسولـه ، وينبغي أن يحمل هذا على هذا لأنـه قد تقدم تحريم مـا أهل به لغير الله اهـ والنـوع الحادي عشر من محرمات المطـاعم مـا كان يذبحـه أهل الجاهليـة على طـريق القمار والميسر حيث كـانـوا يضربـون بقـداح الميسر ويستقسمـون بها لهوا ولعبـا وكـان عقلاؤهم يقصـدون بها إطعـام المسـاكين والمعـدمين وأصل الاستقسـام طلب القسم والنصيب ، والأزلام جمع زلم بفتح الزاي وضمهـا وهو القِدْح قـال في القاموس : القـدح بالكسر السهم قبل أن يراش وينصل اهـ وقال في باب الميم فصل الزاي : الزلم محركة وكصرد الظلف أو الـذي خلفـه ، وقِـدْح لا ريش عليـه ، وسهام كـانـوا يستقسمـون بها في الجاهلية اهــ وكان للعرب ثـلاثة أنـواع من الأزلام ، النوع الأول ثلاثـة قداح يتخذها كل إنسان منهم لنفسه ، مكتوب على أحدها : افعل وعلى الثاني : لا تفعل ، ويترك الثالث مهملا بدون كتابة ويضـع هذه الثلاثة في خريطة وهي وعاء من جلد ، فإذا رغب في عمل شيء أدخل يده في الخريطة وأخرج واحدا منها فإن كان الآمر أقدم على الفعل ، وإن كـان الناهي انزجر عنه ، وإن كان المهمل أعاد الضرب . وهـذه هي التي استقسم بها سراقة بن مـالك حين هم بالنبي ﷺ يوم الهجـرة ، والنوع الثاني من أزلام العرب سبعة قـداح كانت عند هبل وكانت كذلك عند الكهان وقد كتب فيها ما يدور بين الناس من النوازل كالديات ، ومنكم ، ومن غيركم ، وملصق ، ونحو ذلك ، وكانوا يضربون بها ويحتكمـون بحكمها . والنـوع الثـالث قـداح الميسر التي كـانوا يضربـون بها

مقامرة ولهوا ليلتزم ما يقع عليه السهم بتقديم الذبائح، وهذه هي المرادة هنا والعلم عند الله عز وجل، ولما كان الاستقسام بالأزلام لا خير فيه سواء كان لطلب الخيرة في الأمور أو كان للتقامر فقد أرشد الله تبارك وتعالى المسلمين إلى الاستخارة المبنية على التوكل على الله وطلب الخيرة من العليم الخبير القدير فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري — أو قال — في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته. والإشارة في قوله تعالى: ﴿ذٰلكم فسق﴾ للمحرمات من المطاعم المذكورات في هذه الآية أي تناول هذه المحرمات خروج على طاعة الله وتمرد على شرع الله، وعدم وفاء بالعقود التي أخذها الله عز وجل على عباده وأمرهم بالوفاء بها في قوله عز وجل: ﴿أَوْفُوا بالعقود﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿اليومَ يَئِسَ الذين كفروا من دينكم فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ﴾ أي الآن قد انقطع طمع الكفار في القضاء على الإسلام وحصل لهم اليأس من قهركم وتغيير دينكم، فقد ارتفعت رايته وأشرقت أنوار تعاليمه، فليكن أكبر همكم العض عليه بالنواجذ، وتطبيق تشريعاته وانزعوا من قلوبكم الخوف من أن يقضي المشركون على دينكم، وليكن خوفكم من الله وحده، فعليه توكلوا، فقد تمت لكم النعمة، ولذلك قال بعدها: ﴿اليومَ أكملتُ

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلْف كما قال تعالى: ﴿وتمت كلمةُ ربك صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ أي صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا.﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام وأنزل به أشرف كتبه اهـ وقد روى البخاري ومسلم من طريق سفيان عن قيس أن طارق بن شهاب قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا، فقال عمر: إني لأعلم حيث أنزلت وأي يوم أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت، أنزلت بعرفة ورسول الله ﷺ واقف بعرفة. قال سفيان: أشك كان يوم جمعة أم لا يعني ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكا في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري رحمه الله فإن هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم اهـ وقوله عز وجل: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن ألجأته الضرورة بسبب المجاعة إلى أكل شيء من هذه المطاعم المحرمة ليسلم من الموت فمادام لم يمل إلى المعصية فإن الله لا يؤاخذه بما أكله من هذه المحرمات حالة كونه مضطرا.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لكم الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم من الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تَعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُم واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ واتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ، وَمَن يكفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وهو فى الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ.﴾

بعد أن فصَّل عز وجل ما حرمه من المطاعم على المؤمنين إلا ما اضطروا إليه شرع عز وجل يُفصِّل لهم ما أحله وأباحه لهم من المطاعم والطيبات من الرزق التي كان أهل الجاهلية يحرمون بعضها على غير بصيرة كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ويعلمهم عز وجل حكم الزواج من الكتابيات حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قل أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ﴾ الآيتين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ أي يستفتونك ويطلبون منك تفصيل وبيان ما أبيح لهم من المطاعم بعد أن عرفوا ما حرم عليهم منها ويقولون لك أيها النبي الكريم: ماذا أحل لنا؟ وقد أجابهم الله عز وجل بأكثر مما سألوا عنه حيث بيَّن لهم أنه أباح لهم الطيبات وكذلك ما صادته لهم الجوارح المعلَّمة التي أرسلوها لتصيد لهم وذكروا اسم الله عليها عند إرسالها، وأنه أحل لهم المستلذات التي لا ضرر فيها ولا خبث، وأنه أباح لهم ذبائح أهل الكتاب، وأذن لهم في إطعام أهل الكتاب من ذبائحهم، كما أباح لهم نكاح الحرائر العفيفات من المؤمنات ونكاح الحرائر العفيفات من الكتابيات، ولا شك عند أهل العلم أن جواب السائل بأكثر مما سأل عنه مما يحتاجه أمر تقتضيه الحكمة وهو داخل تحت أسلوب

الحكيم، ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الوضوء بماء البحر أجاب بطهارة ماء البحر وحل ميتته فقد روى أصحاب السنن وصححه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطهور ماؤه الحل ميتته.
والمراد بالطيبات في قوله عز وجل: ﴿قل أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيباتُ﴾ المستساغات من الأطعمة والأشربة التي طيبها الله عز وجل، ولا تضر من طعمها، ولم يرد نص عن الله أو عن رسوله ﷺ يقتضي تحريمها والمنع من تناولها، وقد خلت من الخبث. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم من الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تَعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ واتَّقُوا اللهَ﴾ أي وأحل لكم صيد المعلمة من السباع والكلاب والطير الكواسب التي ترسلونها على الصيد وتؤدبونها بما ألهمكم الله عز وجل فتعرف أداب الصيد فلا تصيد لنفسها بل تصيد لكم ولا تأكل من الصيد بسبب تدريبكم لها على ذلك إلا ما أطعمتموها أنتم منه بعد أن توصله لكم، فكلوا من الصيد الذي أمسكته لكم هذه الجوارح المعلمة، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد، وخافوا ربكم. والجوارح جمع جارحة، وهي الكواسب من السباع والكلاب والطير التي تقبل التعليم، وأصل الاجتراح: الاكتساب يقال: فلان جارحة أهله أي كاسبهم ومنه قوله تعالى: ﴿اجترحوا السيئات﴾ أي اكتسبوا المعاصي والذنوب ومعنى: ﴿مكلبين﴾ أي مرسلين هذه الجوارح على الصيد لتصيده لكم بعد تعليمها وتدريبها على ذلك قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: ومُكلِّبٌ: مضرٍّ للكلاب على الصيد، معلِّمٌ لها، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير، وفي التنزيل العزيز: ﴿وما عَلَّمْتُمْ من الجوارح مُكَلِّبِينَ﴾ فقد دخل في هذا الفهد، والبازي،

والصقر، والشاهين، وجميع أنواع الجوارح، والكلَّاب صاحب الكلاب، والمكلِّب الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد، وفي حديث الصيد: إن لي كلابًا مكلبة فأفتني في صيدها، المكلبة: المسلطة على الصيد، المعودة بالاصطياد التي قد ضَرِيتَ به، والمكلِّب بالكسر: صاحبها والذي يصطاد بها اهـ والعرب قد يطلقون اسم الكلب على سائر السباع كما تطلق على النابح سواء كان ضارياً أو غير ضار. قال الجوهري في الصحاح: وقد ضرى الكلب بالصيد يضرى ضراوة أي تعود، وكلب ضار وكلبة ضارية، وأضراه صاحبه أي دربه وعوده، وأضراه به أيضاً أي أغراه اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مما عَلَّمَكُمُ الله﴾ أي تدربونهن وترشدونهن إلى طرق الاصطياد التي هداكم الله إليها وعرفكموها وتؤدبونهن حتى لا يأكلن من الصيد لتعلموا أنها صادت لكم لا لأنفسها، وحتى إذا أرسلتموها استرسلت وإذا زجرتموها انزجرت، وإذا دعوتموها استجابت، وإذا أردتموها لم تفر منكم، وصار ذلك معلوما منها، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فكلوا مما أَمْسَكْنَ عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي فمتى كان الجارح معلَّماً وخرج إلى الصيد بإرسال صاحبه الذي ذكر اسم الله عليه عند إرساله وأمسك الصيد على صاحبه حل صيده لكم وإن قتله، وقد أجمع على ذلك أهل العلم، وقد روى البخاري من طريق زكرياء عن عامر عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن صيد المعراض قال: ما أصاب بحده فكله وما أصاب بعرضه فهو وقيذ، وسألته عن صيد الكلب، فقال: ما أمسك عليك فكل، فإن أَخْذ الكلب ذكاة، وإن وجدت مع كلبك أو كلابك كلباً غيره فخشيت أن يكون أخذه معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكره على غيره، ثم ساقه من طريق عبد الله بن أبي السفر عن الشعبي، وفيه: فقلت: أرسل كلبي؟ قال: إذا أرسلت كلبك، وسميت فكل، قلت: فإن

أكل؟ قال: فلا تأكل، فإنه لم يمسك عليك، إنما أمسك على نفسه، قلت أرسل كلبي فأجد معه كلبا آخر؟ قال: لا تأكل، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على آخر، ثم ساقه البخاري من طريق همام بن الحارث عن عدي رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله إنا نرسل الكلاب المعلمة؟ قال: كل ما أمسكن عليك، قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن. الحديث. وقد ساقه مسلم من طريق عاصم عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أمسك عليك فأدركته حيًّا فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، وإن وجدت مع كلبك كلباً غيره وقد قتل فلا تأكل فإنك لا تدري أيهما قتله. الحديث. وأخرجه من طريق همام بن الحارث عن عدي بن حاتم قال: قلت: يارسول الله إني أرسل الكلاب المعلمة فيمسكن عليَّ وأذكر اسم الله عليه فقال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل. قلت: وإن قتلن؟ قال: وإن قتلن مالم يشركها كلب ليس معها. الحديث، ثم ساقه من طريق بيان عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ قال: إنا قوم نصيدُ بهذه الكلاب؟ فقال: إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك وإن قتلن إلا أن يأكل الكلب، فإن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه، وإن خالطها كلاب من غيرها فلا تأكل. وساقه من طريق عبد الله ابن أبي السفر عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: وسألت رسول الله ﷺ عن الكلب فقال: إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، فإن أكل منه فلا تأكل فإنه إنما أمسك على نفسه، قلت: فإن وجدت مع كلبي كلبًا آخر فلا أدري أيهما أخذه؟ قال: فلا تأكل فإنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله، إن الله سريع الحساب﴾ أي وراقبوا الله

عز وجل في جميع شئونكم ولا تعتدوا بتحليل ما حرم أو تحريم ما أحل فإنه عز وجل حافظ لجميع أعمالكم لا يثقله محاسبتكم جميعا في مثل طرفة عين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لكم الطيباتُ﴾ المراد باليوم الزمن الحاضر بمعنى الآن كما ذكر ذلك الزجاج وابن الأنباري ونظيره قولك: كنت بالأمس شابا واليوم قد صرت شيخا، ولا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ولا باليوم يومك الذي أنت فيه، وتقول: قد كنت في غفلة واليوم استيقظت أي الآن استيقظت، وتقول: كان فلان يزورنا واليوم يجفونا أي والآن ومنه قول الشاعر النمر بن تولب:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نُسر

أي فزمان لنا وزمان علينا ولم يقصد يوما لا ينضم إليه غيره. وقد كرر الله تبارك وتعالى تحليل الطيبات تأكيدا على جزيل فضله وواسع عطائه وتنديدا بمن يتجاوز الحلال الطيب إلى الحرام الخبيث. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وطعام الذين أُوتُوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم﴾ أي وذبائح أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى حلال لكم وذبائحكم حلال لهم قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد ابن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعي والسدي ومقاتل بن حيان يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين اهـ والمقصود من قوله عز وجل: ﴿وطعامكم حِلٌّ لهم﴾ كما قال الزجاج: معناه حلال لكم أن تطعموهم اهـ قال أبو محمد البغوي الملقب بمحيي السنة في تفسيره: فيكون خطاب الحِلِّ مع المسلمين، وقيل لأنه ذكر عقيبه حكم النساء ولم يذكر حل المسلمات لهم فكأنه قال: حلال لكم أن تطعموهم حرام عليكم أن تزوجوهم اهـ وإطلاق الطعام هنا على الذبائح من إطلاق العام الذي أريد به الخصوص لأن ما سوى الذبائح

محللـة قبل أن تكـون لأهل الكتـاب وبعـد أن صــارت لهم، فـلا يحرم من طعـامهم إلا مـا نص الشرع على تحريمـه على المسلمين. وقـولـه عـز وجل: ﴿والمحصَنَاتُ من المؤمنـات والمحصناتُ من الذين أُوتُـوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتمـوهن أجـورهن محصنين غير مسـافحين ولا متخـذي أخـدان﴾ أي وأحل لكم التزوج من الحرائر العفيفـات المؤمنات وأحل لكم كـذلك التزوج من الحرائر العفيفـات من النصرانيات واليهوديـات إذا فرضتم لهن مهـورهن حالـة كونكم أعفَّـاء عن الزنـا جهرا وسرًّا، وقد تقـدم في تفسير الآية الـرابعة والعشرين والخامسة والعشرين من سورة النساء بيان معاني الأجور والإحصان والسفاح والأخدان. ومعنى قوله عـز وجل: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهـو في الآخرة من الخاسرين﴾ تحذيـر من الله عز وجل لمن تشكك في تحريم مـا حرم الله أو تحليل مـا أحل، وتنبيه لمن تـزوج يهودية أو نصرانيـة أن يكون على حذر من أن يعجبه جمالها فيتأثر بدينها، بل عليه أن يبذل الوسائل لنقلها إلى دين الإسلام، فإن تأثـر هو بدينها فقـد حبط عمله وبطل ما فعل من الخير وإن مـات على ذلك كـان في الآخـرة من الخاسرين، كما قـال عـز وجل: ﴿ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دينه فَيَمُتْ وهو كافر فأولَئك حَبِطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلى الصَّلاةِ فاغْسِلُوا وُجُوهكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلى الكَعْبَيْنِ، وإن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا، وإن كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ منكم من الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكم مِنْهُ، مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ولَكن يريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل ما أحله لعباده من المطاعم والمناكح التي لا غنى لهم عن التزود بها في الحياة الدنيا وقد ذيل الآية السابقة بما يلفت الانتباه إلى أن تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم هو من شرائع الإيمان حيث قال ﴿ومن يكفر بالإيمان فقط حبط عمله﴾ الآية. شرع هنا يبين لهم ما لا غنى لهم عنه من زاد الآخرة وبدأ بأهم ما يجب الوفاء به من العهود بعد الإيمان وهو الصلاة التي هي عماد الدين والتي قد سماها الله عز وجل إيمانا حيث قال: ﴿وما كان الله ليُضيعَ إيمانكم﴾ يعني صلاتكم عند البيت ولما كانت الصلاة لابد لها من الوضوء ولا يقبلها الله من أحد إلا إذا كان متطهرا لها، لا جرم بدأ عز وجل بذكر شرائط الوضوء فقال: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ ومعنى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وهذا أسلوب مشهور في اللسان العربي كما تقول: إذا آخيت فآخ الصالحين، وكذلك قال عز وجل: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.﴾ والاستعاذة إنما تطلب قبل الشروع في قراءة القرآن ولا يخطر ببال عاقل أن المقصود من قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ إلخ أن يتوضئوا أثناء قيامهم إلى الصلاة وعند تلبسهم بفعلها إذ لا يجوز تأدية

أي جزء من الصلاة بدون الطهارة فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ. كما روى مسلم من طريق مصعب بن سعد قال: دخل عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما على ابن عامر يعوده وهو مريض فقال: ألا تدعو الله لي يا ابن عمر؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول، وكنتَ على البصرة، وفي لفظ لمسلم من طريق همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: لا تقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ. وقد وصف رسول الله ﷺ الوضوء بأنه شطر الإيمان أي الصلاة، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. وهذه الآية حرية أن تسمى آية الوضوء، إذ قد بدأ الله عز وجل الأحكام فيها ببيان أعضاء الوضوء ما يغسل منها وما يمسح، وهي أربعة أعضاء، أمر بغسل ثلاثة منها وهي الوجه واليدان إلى المرفقين والرجلان إلى الكعبين وأمر بمسح الرأس، وهذه هي الطهارة الصغرى التي تفرض على من أراد الصلاة إذا كان محدثا حدثًا أصغر، أما الحدث الأكبر وهو الجنابة الموجبة لغسل جميع الجسم فقد بينها عز وجل بقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا﴾ والمقصود الطهارة الكبرى بغسل جميع البدن، والوجه في اللغة مأخوذ من المواجهة، وهو عضو مشتمل على أعضاء، وحدُّه في الطول من مبتدأ سطح الجبهة إلى أسفل الذقن ومنتهى اللحيين، وحده عرضا ما بين الأذنين. ومعنى قوله عز

وجل: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي واغسلوا أيديكم إلى المرافق، فالمرافق هي نهاية ما يجب غسله في اليدين، والغاية هنا داخلة في المُغَيَّا، والمرافق جمع مرفق وهو موصل الذراع بالعضد، ولما كانت اليد تطلق عند العرب من أطراف الأصابع إلى الكتف حدد الله عز وجل ما يجب غسله منها بحد المرافق، كما أن الرِّجْل تطلق من أطراف الأصابع إلى الحد الأعلى من الفخذ ولذلك حدد الله تبارك وتعالى ما يجب غسله منها بحد الكعبين، والكعبان هما العظمان الناشزان عند ملتقى الساق والقدم في جانب القدم، ولكل قدم كعبان عن يمنتها ويسرتها، وقد قرأ ابن عامر والكسائي ونافع ويعقوب وحفص عن عاصم بنصب اللام من قول عز وجل: ﴿وأرجلكم﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة وأبوعمرو وأبوبكر عن عاصم بالجر، وقد بينت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ أن فرض الرِّجلين في الوضوء هو الغسل لا المسح فتكون قراءة الجر جاءت للمجاورة، وقد أفرد النحاة للجر على المجاروة بابا خاصا، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية عن الجر على المجاورة: وهذا سائغ ذائع في لغة العرب شائع. وقال الإمام الحسين بن مسعود الفراء محيي السنة البغوي في تفسير هذه الآية: خفض اللام في الأرجل على مجاورة اللفظ لا على موافقة الحكم كما قال تبارك وتعالى: ﴿عذابَ يوم أليمٍ﴾ فالأليم صفة العذاب ولكنه أخذ إعراب اليوم للمجاورة، وكقولهم: جحرُ ضبٍّ خربٍ فالخرب نعت الجحر وأخذ إعراب الضب للمجاورة اهـ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه كان يغسل رجليه في الوضوء ولم يثبت قط أنه مسح عليهما إلا أن يكون لابساً للخفين، وتوعد من ترك شيئا من القدمين دون غسل في الوضوء بالويل وعذاب النار فقد قال البخاري في كتاب العلم من صحيحه: باب من رفع صوته بالعلم، حدثنا أبو النعمان عارم بن الفضل قال: حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن

عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثا، ثم قال البخاري في كتاب الوضوء من صحيحه: باب غسل الرجلين ولا يمسح على القدمين، حدثنا موسى قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف النبي ﷺ عنا في سفرة سافرناها، فأدركنا وقد أرهقتنا العصر، فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: ويل للأعقاب من النار، مرتين أو ثلاثا. وقد أخرج مسلم في صحيحه من طريق مخرمة بن بكير عن أبيه عن سالم مولى شداد قال: دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ يوم توفي سعد بن أبي وقاص فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر فتوضأ عندها فقالت: ياعبد الرحمن أسبغ الوضوء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ويل للأعقاب من النار ثم ساق مسلم من طريق هلال بن يساف عن أبي يحيى عن عبد الله بن عمرو قال: رجعنا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر فتوضئوا وهم عِجال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله ﷺ: ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء. ثم ساق من طريق أبي عوانة عن أبي بشر عن يوسف ابن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا النبي ﷺ في سفر سافرناه، فأدركنا وقد حضرت صلاة العصر فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى: ويل للأعقاب من النار. ثم ساق مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً لم يغسل عقبيه فقال: ويل للأعقاب من النار كما روى البخاري من طريق محمد بن زياد قال سمعت أبا هريرة وكان يمر بنا والناس يتوضئون من المطهرة قال: أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم ﷺ قال: ويل للأعقاب من النار. وقد أخرجه مسلم رحمه الله في صحيحه من طريق محمد

ابن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه رأى قوماً يتوضئون من المطهرة فقال : أسبغوا الوضوء فإني سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : ويل للعراقيب من النار، وفي رواية لمسلم من طريق أبي الزبير عن جابر أخبرني عمر بن الخطاب أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه ، فأبصره النبي ﷺ فقال : ارجع فأحسن وضوءك فرجع ثم صلى . وقد فسر رسول الله ﷺ قوله تبارك وتعالى : ﴿يـاأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ بقوله وفعله ﷺ أوضح تفسير وبين ذلك أعظم تبيين ، ونبه إلى وجوب غسل الكفين قبل إدخالهما في المطهرة لمن استيقظ من النوم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده . كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا استيقظ أحدكم من منامه فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه . كما روى البخاري ومسلم عن حمران بن أبان مولى عثمان ابن عفان رضي الله عنه أن عثمان دعا بوضوء فغسل كفيه ثم تمضمض واستنشق واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات ثم اليسرى مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا . الحديث . كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنهما في صفة وضوء النبي ﷺ قال : ومسح رسول الله ﷺ برأسه فأقبل بيديه وأدبر . كما أخرج أبو داود من حديث المقدام أنه ﷺ لما بلغ مسح رأسه وضع كفيه على مقدم رأسه فأمرّهما حتى بلغ القفا ثم ردهما إلى المكان الذي بدأ منه ، كما أخرج أبو داود والنسائي

وصححه ابن خزيمة من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ــ في صفة الوضوء ــ قال : ثم مسح برأسه وأدخل إصبعيه السباحتين في أذنيه ، ومسح بإبهاميه ظاهر أذنيه . كما أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله ابن زيد رضي الله عنهما ــ في صفة الوضوء : ثم أدخل ﷺ يده فمضمض واستنشق من كف واحدة . هذا ومع كون الطهارة شرطا في صحة الصلاة ومع حب الله تبارك وتعالى للمتطهرين فقد بشر رسول الله ﷺ من يحسن وضوءه بدرجات عالية فقد روى مسلم من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن كنتم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا﴾ أي وإن أصابتكم جنابة فلا تقربوا الصلاة حتى تغتسلوا وتفيضوا الماء على جميع بدنكم . وقد تقدم بيان معنى قوله عز وجل : ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتَيَمَّمُوا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ في تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء . والإرادة في قوله عز وجل : ﴿ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ ولكن يريد لِيُطَهِّرَكُم ولِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عليكم لعلكم تشكرون﴾ هي الإرادة الشرعية لا الإرادة الكونية القدرية ، أي ما يحب الله عز وجل أن يجعل عليكم فيما يشرعه لكم من الدين وما ألزمكم به من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة حرجاً وضيقاً وعنتا ومشقة و إنما يريد الله عز وجل نظافة بواطنكم وظواهركم وطهارة نفوسكم وأبدانكم ومغفرة ذنوبكم وتكفير سيئاتكم ، وأن يُذهب الرجس عنكم وأن يُكْمِلَ لكم أكمل المناهج بما اشتملت عليه من الشمول والكمال والدوام والصلاحية لكل زمان ومكان لكي تشكروا لله عز وجل على ما خصكم به من هذه النعم العالية والتشريعات السامية .

قال تعـالى : ﴿واذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـاقَهُ الَّـذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَـا وَاتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ عَلِيـمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. يَـاأَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُوا كُـونُوا قَـوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِـالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنكُمْ شَنَآنُ قَـوْم على أَلَّا تَعْدِلُـوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـوَى واتَّقُوا اللهَ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عَظِيمٌ. والَّذِيـنَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيم. يَـاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اذكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَـوْمٌ أَن يَبْسُطُـوا إِلَيْكُمْ أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْـدِيَهُمْ عَنكُمْ واتَّقُـوا اللهَ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

بعد أن أمر الله عـز وجل في صدر هذه السورة الكريمـة المؤمنين بأن يوفوا بالعقـود وعهد إليهم بما يجب عليهم أن يلتزموا بـه من تحليل ما أحل الله لهم وتحريم مـا حـرم عليهم، وبين لهم أكمـل المنـاهج وأحسنهـا ممـا يجلب لهم سعـادة الدنيـا والآخرة إن استمسكـوا بها وسـاروا على منوالها، وأعلمهم أنـه أكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة، وختم الآيـة السابقة بتأكيد ذلك حيث قال: ﴿وليُتِمَّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ أمر المؤمنين هنا ونبههم إلى أن يجعلوا هذه النعم وتلك العهود والمواثيق التي التزموا بها لله عز وجل بمقتضى عقـد الإيمان نُصْب أعينهم، فـلا ينسوهـا ولا يغفلـوا عنها حيـث يقول عـز وجل: ﴿واذكروا نعمـة الله عليكم وميثاقـه الذي وَاثَقَكُمْ بـه إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقـوا الله﴾ والمراد بالنعمة هنـا جنسها فتشمل سائر نعمـه عز وجل وبخاصة ما لفت انتباههم إليه منهـا ههنا. والمراد بذكرها شكر الله عز وجل عليها والإقرار بأنه تبارك وتعالى هو مسديها والمتفضل بها، والمراد بذكر الميثاق هو الـوقوف عند حـدود الله والائتمار بأمره والانزجـار عما زجر عنه، وطـاعة رسـول الله ﷺ في السر والعلن والمنشط والمكره، والـوفاء ببيعتـه كما قال عـز

وجل : ﴿إنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إنما يُبَـايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيديهِمْ ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسـه ومَنْ أَوْفَى بما عَـاهَدَ عَلَيْـهُ اللهَ فَسَيُـؤْتِيهِ أَجْـرًا عَظِيماً﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿واتقوا اللهَ ، إنَّ الله عليم بذات الصدور﴾ أي وراقبوا الله تبارك وتعـالى في أعمالكم وأيقنوا أنـه لا يخفى عليه شيء ممـا في صدوركم وخفايا نفوسكم ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شُهَدَاءَ بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْـدِلوا﴾ أي كونوا قوامين لله بالحق ، ولا يحملنكم بغض قوم على تركَ العدل فيهم بل استعملوا العدل مع كل أحـد عدواً كـان أو صديقـاً . وقولـه عز وجل : ﴿هُـوَ﴾ ضمير راجع إلى العدل المستفاد من قوله عز وجل : ﴿اعـدلوا﴾ ودلالة اعدلوا على العدل هنا من بـاب دلالة التضمن ، وهي دلالـة اللفظ على جزء معناه ، إذ الفعـل يدل على الحدث والـزمـان ، أما المصـدر فإنـه يـدل على الحدث وحـده ، فلفظ : ﴿اعـدلوا﴾ يـدل على الحدث والزمن المستقبل ، والعـدل مصدر يـدل على الحدث فقط بغض النظـر عن زمـانـه . وقد استعمـل القرآن الكـريم دلالـة التضمن في مواضع كثيرة كما هـو هنا وكما في قوله تبـارك وتعالى : ﴿وإن قيل لكم ارْجِعُوا فارْجِعُـوا هو أزكى لكم﴾ فقوله عـز وجل : ﴿هو﴾ ضمير يعود على الرجوع المدلول عليه بقوله : ﴿ارْجِعُوا﴾ وكقوله تعالى : ﴿فَمَن تطوَّعَ خيرا فهو خير له﴾ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿هو أقرب للتقوى﴾ أي عدلكم مع أوليائكم وأعـدائكم أقرب إلى أن تكونـوا من المتقين ، وأن تصانـوا من عذاب النار يوم القيـامة ، وقال ابن كثير رحمه الله : وقوله ﴿هـو أقرب للتقوى﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الـذي ليس في الجانب الآخر منه شيء كما في قوله تعـالى : ﴿أصحابُ الجنة يومئذ خير مُسْتَقَـرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلا﴾ اهـ ومعنى قولـه تبارك وتعـالى : ﴿واتقوا الله ، إنَّ الله خبير بما تعملـون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأما قوله : ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ فإنه يعني :

واحذروا أيها المؤمنون أن تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءه الذي بين لكم، فيحل بكم عقوبته، وتستوجبوا منه أليم نكاله ﴿إنَّ الله خبير بما تعملون﴾ يقول: إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلاف له، محصٍ ذلكم عليكم كله، حتى يجازيكم: المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا، اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لَهُم مغفرةٌ وأجر عظيمٌ* والذين كفروا وكذَّبُوا بآياتنا أولَئك أصحابُ الجحيم﴾ بيان لما اقتضاه قوله عز وجل في تذييل الآية السابقة: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ من الوعد والوعيد، حيث وعد هنا المستجيبين لله ولرسوله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم وتوعد الكافرين المكذبين بملازمة الجحيم، وقد ساق الله تبارك وتعالى هذا البيان هنا بأسلوب بلاغي حيث قال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فذكر الوعد ولم يذكر الموعود مما يجعل النفوس تتطلع إليه وتشرئب لمعرفته فجاء به على سبيل الاستئناف البياني كأن السائل يسأل: ماذا وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ فكان الجواب ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ أي لهم تكفير خطاياهم ومنحهم الثواب الجزيل وإسكانهم جنات النعيم، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: فإن قال قائل: إن الله جل ثناؤه أخبر في هذه الآية أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولم يخبر بما وعدهم فأين الخبر عن الموعود؟ قيل: بلى، إنه قد أخبر عن الموعود، والموعود هو قوله: ﴿لهم مغفرةٌ وأجر عظيم﴾ وقال الفخر الرازي: فإن قيل: لم أخبر عن هذا الوعد مع أنه لو أخبر بالموعود به كان ذلك أقوى؟ قلنا: بل الإخبار عن كون هذا الوعد وعد الله أقوى، وذلك لأنه أضاف هذا الوعد إلى الله تعالى فقال ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ والإله هو الذي يكون قادرًا على جميع المقدورات، عالمًا بجميع المعلومات، غنيًّا عن كل

الحاجات، وهـذا يمتنع الخلف في وعـده، لأن دخول الخلف إنما يكـون إما للجهل حيث ينسى وعده، وإمـا للعجز حيث لا يقدر على الوفـاء بوعده، وإما للبخل حيث يمنعه البخل عن الوفاء بالوعد، وإما للحاجة، فإذا كان الإله هو الذي يكـون منزهاً عن كل هذه الوجوه كـان دخول الخلف في وعده محالا، فكان الإخبار عن هذا الوعد أوكد وأقوى من نفس الإخبار عن الموعود به، وأيضا فلأن هذا الوعـد يصل إليه قبل الموت فيفيده السرور عند سكرات الموت فتسهل بسببه تلك الشـدائد، وبعد الموت يسهل عليه بسببـه البقاءُ في ظلمة القبر وفي عـرصة القيـامة عند مشـاهدة تلك الأهوال اهـ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآيـاتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ بيان لوعيد الكفار المكذبين بعد بيان وعـد المؤمنين الصالحين قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: من السنـة السنية القرآنية شفع الوعد بـالوعيد والجمع بين الترغيب والترهيب إيفـاء لحق الـدعوة بـالتبشير والإنـذار اهـ وقولـه تبـارك وتعالى: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا اذكروا نِعْمَتَ الله عليكم إذْ هَمَّ قـومٌ أن يَبْسُطُوا إليكم أَيْـدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم واتَّقُـوا الله، وعلى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ﴾ حض للمؤمنين على أن يوفوا بعقودهم وأن يشكروا نعمت الله عليهم، حيث أعزهم بالإسلام وأعـز الإسلام بهم، وحماهم من كيد أعدائهم، ومكن لهم في الأرض، وألقى الرعب في قلوب من يريد بهم شرا وصانهم من شرهم وأمرهم عز وجل بتقواه والتوكل عليه، لأنـه وحده القادر على كل شيء، وقد وقعت حوادث كثيرة هم فيهـا بعض الكافرين بقتل رسول الله ﷺ أو قتل أصحـابه رضي الله عنهم وكانت للكـافرين في ذلك قـدرة على تنفيذ مـرادهم الشرير، ولكن الله عز وجل حمى رسـوله ﷺ وحمى أصحابه من شرور أعـدائهم وحال بينهم وبين ما يشتهون صيانة لرسوله ﷺ وإعزازاً لدينه فقد روى البخاري في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد،

فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاه، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فهاهو ذا جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ، ثم قال البخاري: وقال أبان: حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلةٍ تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه، فقال: تخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، فتهدده أصحاب النبي ﷺ. الحديث. وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا أبان بن يزيد حدثنا يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع قال: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بشجرة، فأخذ سيف نبي الله ﷺ فاخترطه، فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله، قال: فتهدده أصحاب رسول الله ﷺ فأغمد السيف، وعلقه. الحديث. قال البخاري رحمه الله بعد سياقه حديث جابر رضي الله عنه من طريق أبان: وقال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث اهـ وقد حاول نحو ثمانين رجلا من مشركي قريش يوم الحديبية أن يميلوا على المسلمين يريدون غرة رسول الله ﷺ وأصحابه فكفهم الله عز وجل عنهم، واستسلموا للمسلمين فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على

رسول الله ﷺ مـن جبل التنعيم متسلحين يريـدون غرة النبي ﷺ وأصحـابه فأخـذهم سِلْماً فاستحياهـم فأنزل الله عـز وجل : ﴿وَهُوَ الذي كـفَّ أَيْدِيَهُمْ عنكم وأَيْـدِيَكُمْ عنهم ببطن مكة من بعـد أن أَظْفَرَكُمْ عليهم﴾ وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنـون﴾ أي واحرصوا أيها المؤمنون على ملازمة تقوى الله وحافظوا على العهود والمواثيق ، واعتمدوا على الله وحده وألقوا أزمة أموركم إليه ، واستسلمـوا لقضائه ، وثقوا بنصره وعونه ، إذ أن هذا هو دأب المؤمنين المقرين بالله ورسلـه ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وآتَيْتُمُ الزَكَاةَ وآمَنتُمْ بِرُسُلِى وعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ، فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَد ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ، وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُم وَاصْفَحْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُم اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يوفوا بالعقود وأن يشكروا نعمة الله عليهم وأكد عليهم ذلك بعدة تأكيدات أشار هنا إلى أن من أبرز صفات اليهود والنصارى أن ينقضوا العهود والمواثيق ولا يوفوا بها، تحذيراً للمسلمين من سلوك سبيل هؤلاء الخائنين وكأنه يقول لهم: لا تكونوا أيها المؤمنون مثل أولئك اليهود والنصارى في هذا الخلق الذميم، لئلا تصيروا مثلهم فيما نزل بهم من اللعن والذلة وقسوة قلوبهم وجرأتهم في الكذب على الله وعلى رسله، وإغراء العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولقد أخذ اللهُ مِيثَاقَ بني إسرائيل وَبعثْنَا منهم اثْنَىْ عَشَرَ نقيبا وقال اللهُ إني معكم﴾ الآيات الثلاث إلى قوله عز وجل: ﴿وسوف ينبئهم اللهُ بما كانوا يَصْنَعُونَ.﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وبعثنا منهم اثنى عشر نَقيبًا﴾ أي ووصينا وأمرنا موسى عليه السلام أن يجعل على أسباط بني إسرائيل اثنى عشر نقيبا بعدد أسباطهم، على كل سبط منهم نقيب يرعى مصالحهم، ويشرف على شئونهم، وينقب عن أمورهم، إذ النقيب: كبير القوم، المسئول عنهم،

وهو أكبر مكانة من العريف، واختيار النقباء سياسة شرعية رشيدة، ولذلك لما تمت بيعة العقبة الثانية في العقبة الثالثة الأخيرة وقد بايع رسولَ الله ﷺ فيها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهما نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي أم منيع، فلما تمت البيعة اختار رسولَ الله ﷺ منهم اثنى عشر رجلا وسماهم النقباء اقتداء بموسى عليه السلام كما جاء في الخبر الصحيح من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وكان من النقباء عبادة ابن الصامت والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر وأسعد ابن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وقال الله إني معكم﴾ أي وأخبر الله عز وجل بني إسرائيل بواسطة موسى عليه السلام أنه تبارك وتعالى عليم بكل ما يذرون وما يفعلون، وأنهم تحت قدرته وعلمه لا تخفى عليه من شئونهم خافية، والمقصود تنبيههم إلى العناية بأوامر الله ونواهيه، وحملهم على الجد والاجتهاد في تطبيق شرع الله عز وجل، كأنه يقول لهم: إني معكم أسمع كلامكم، وأرى أعمالكم، وأعلم ما في ضمائركم، وأنا رقيب على سائر تحركاتكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ هذه صورة العهد والميثاق الذي أخذه الله عز وجل على بني إسرائيل وحدد فيه ما عليهم، وما لهم إن وفوا به، وقد ألزمهم فيه عز وجل بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بجميع رسل الله وتأييدهم وأن يتعاونوا على الخير ويبذلوا المال ابتغاء وجه الله ويتركوا الربا. قال الفخر الرازي رحمه الله: إن الكلام قد تم عند قوله: ﴿وقال اللهُ إني معكم﴾

والمعنى: إني معكم بالعلم والقدرة فأسمع كلامكم، وأرى أفعالكم، وأعلم ضمائركم، وأقدر على إيصال الجزاء إليكم، فقوله ﴿إني معكم﴾ مقدمة معتبرة جداً في الترغيب والترهيب، ثم لما وضع الله تعالى هذه المقدمة الكلية، ذكر بعدها جملة شرطية، والشرط فيها مركب من أمور خمسة، وهي قوله: ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا﴾ والجزاء هو قوله: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيئاتكم﴾ وذلك إشارة إلى إزالة العقاب، وقوله: ﴿ولأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾ وهو إشارة إلى إيصال الثواب اهـ ومعنى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي ونصرتموهم وشددتم أزرهم وقويتموهم، وتدور مادة التعزير في اللغة على التقوية والتفخيم والتعظيم والمنع والردع والإجبار على الأمر والضرب الشديد، فتعزير الرسل نصرتهم وتعزير المسيء تأديبه وردعه ليقوى جانب الشرع وتعظم أوامر الدين. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: التعزير: مصدر عزره وهو مأخوذ من العزر وهو الرد والمنع، واستعمل في الدفع عن الشخص كدفع أعدائه عنه ومنعهم من إضراره، ومنه: ﴿وآمنتم برسلي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ وكدفعه عن إتيان القبيح، ومنه: عزره القاضي أي أدبه لئلا يعود إلى القبيح، ويكون بالقول وبالفعل بحسب ما يليق به اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بعد ذلك منكم فقد ضَلَّ سواء السبيل.﴾ أي فمن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل شيئا مما ألزمته به وخالف الميثاق من بعد عقده وتوكيده، ونقضه بعد أن أقربه، فقد أخطأ الطريق الواضح وتاه في بيداء الضلالة وعمى عن الصراط المستقيم، ولاشك عند أهل العلم أن من كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل أيضا، وإنما قيد هنا بقوله عز وجل: ﴿فمن كفر بعد ذلك﴾ للتشنيع على هؤلاء اليهود المدعين للعلم، الذين انحرفوا عن منهج الرشد بعد العهد والميثاق، لأن الضلال بعد ذلك أظهر، ومن انحرف بعد العلم

كان أفجر وأكفر، والمراد بسواء السبيل وسط الطريق، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فبما نَقْضِهِمْ ميثاقَهُم لَعَنَّاهُمْ وجعلنا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عن مواضعه ونَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا به ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ على خائنة مِنْهُمْ إلا قَلِيلا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ واصْفَحْ، إنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذه صورة لبعض العقوبات التي عجلها الله عز وجل لناقضي العهود من اليهود وهي لعنهم وطردهم من رحمة الله، وجعل قلوبهم قاسية لا تتعظ بموعظة ولا تلين لقبول الهدى، ولا تميل لداعي الخير وفسدت فهومهم وساءت تصرفاتهم واجترأوا على الكذب على الله والافتراء عليه وتبديل كلامه وتحريفه عن مواضعه، وتركوا العمل بشريعة الله رغبة عنها، وميلاً إلى باطلهم وما يفترونه مما يلائم شهواتهم، ويحقق لهم جشعهم وبغيهم، وقد صار الغدر والخيانة من أخص صفاتهم التي يتوارثها منهم أبناؤهم جيلا بعد جيل، ومهما حاولوا كتمان غدرهم و إسرار خياناتهم فإن ذوي البصيرة لا يزالون يطلعون على خياناتهم وغدرهم، وقد نبه الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول: ﴿ولا تزال تَطَّلِعُ على خائنة منهم﴾ كهمهم بقتل رسول الله ﷺ غدرا بإلقاء حجر عليه في حائطهم وكوضعهم السم في شاة مصلية له لقتله ﷺ، وقد صانه الله عز وجل من غدرهم وشرورهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا قليلا منهم﴾ استثناء لبيان أن بعضهم قد هدى الله قلبه فلم ينغمس في الغدر والخيانة التي انغمس فيها اليهود وانشرح صدره للإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وقوله تبارك وتعالى: ﴿فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين.﴾ ترغيب في العفو عن المسيء والصفح عنه وأن ذلك إحسان يحبه الله عز وجل ويحب المتصفين به، والفرق بين العفو والصفح أن العفو هو ترك المؤاخذة على الذنب، والصفح هو الإعراض عن المسيء وعدم ذكر إساءته، وأصله من الإعراض بصفحة الوجه كأنه أعرض بوجهه عن ذنبه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن

الذين قالوا إنَّـا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسُوا حَظًّا مما ذُكِّرُوا بِـهِ فَأَغْرَيْنَا بَينهم الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيـان لقبائح النصارى وجنـاياتهم عقب بيان جرائم اليهود وخياناتهم، وفي قوله عز وجل: ﴿قالوا إنا نصارى﴾ إشارة إلى أن هذا الاسم أطلق عليهم بتسميتهم لأنفسهم لا بتسمية الله تعالى لهم، وقد ذكرت في تفسير الآية الحادية عشرة بعد المائة من سورة البقرة أن النصارى جمع نصراني، والنصرانية في الأصـل نسبة إلى نصرانة وهـي قرية المسيـح عليه السـلام مـن أرض الجليل بفلسطين وتسمى هـذه القـريـة أيضـا النـاصرة ونصـوريـة، ولا يعـرف على التحـديـد متى أطلقت هـذه الكلمـة على أهل الإنجيل، ولم توجـد هذه الكلمة في كتب النصارى إلا في أوائل القـرن الثاني بعد ميلاد المسيح عليه السلام في عهـد الإمبراطور «تراجان» الموجود في العام السـادس بعـد المائة من ميـلاد المسيح عليه السـلام، وقـد يفهم من القـرآن الكريم أنهم أحـدثوا هذا الاسم إذ يقول الله تبـارك وتعالى: ﴿الذين قالـوا إنا نصارى﴾ اهـ والواقـع أن هذه التسمية لا تقتضي مـدحا ولا ذمـا في الأصل لأنها نسبة إلى وطن المسيح، والمعلوم أن النسبـة إلى البلاد لا تقتضي مدحا ولا قدحا لوجود الصالح والطالح فيها وليست من عمل الإنسان الذي يمدح به أو يذم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قولـه تعالى: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخـذنا ميثاقهم فَنَسُوا حظـا مما ذُكِّرُوا بـه﴾ قال أبو جعفر: يقـول عز ذكره: وأخذنـا من النصارى الميثاق على طاعتـي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثـاقي الذي أخذته عليهم منهاج الأمـة الضالة من اليهود، فبدلوا كذلك دينهم، ونقضوه نقضهم وتركوا حظهم من ميثاقي الذي أخـذته عليهم بـالوفـاء بعهدي، وضيعـوا أمري اهـ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي فصاروا أحزابا مختلفة متنافرة متناقضة يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا، وقد أغروا

بهذه العداوة والتصقت في قلوبهم وقوله تبارك وتعالى : ﴿وسوف ينبئهم الله بما كـانوا يَصْنَعُـون﴾ وعيد شـديـد لهم على نقضهم الميثاق ، وتـركهم العمل بما أمرهـم الله عز وجل به ، وكفرهـم بمحمد ﷺ كما قال عز وجل : ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكم كَثِيرًا مما كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عن كَثِيرٍ، قَدْ جَاءَكُم من الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاط مستَقِيم. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هو الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئًا إنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، والله على كل شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

بعد أن حض الله تبارك وتعالى المؤمنين على أن يوفوا بالعقود وحذرهم من مشابهة اليهود والنصارى الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ونبه عباده إلى عقابه الذي عجله لليهود والنصارى ناقضي الميثاق مع ما ادخره لهم من أليم العذاب يوم القيامة شرع هنا يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الاستجابة لرسول الله ﷺ المبعوث من الله عز وجل بالنور المخرج من الظلمات، المرسل إلى الناس كافة ليبين للناس كل ما يحتاجونه لسعادتهم في المعاش والمعاد وليقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون، ويفضح أحبار السوء ورهبان الضلال الذين يكتمون من التوارة والإنجيل ما يتوهمون أن إعلانه يُذهب رئاستهم على غوغائهم ورعاعهم كصفة محمد ﷺ والبشارة به، ويبين ما غيروه من الأحكام كرجم الزاني الذي غيروه إلى الجلد والتحميم وهو جلدهما أربعين جلدة بحبل مطلي بالقار ثم يسود وجههما ثم يحملان على حمارين ووجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما. وفي التعبير بقوله عز وجل: ﴿ياأهل الكتاب﴾ تنديد بهم إذ لم يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ وقد ذكرت في تفسير الآية السبعين من سورة آل عمران أن قوله عز وجل في مخاطبتهم: ﴿يَاأَهْلَ الكتاب﴾ ليس مدحاً لهم بل هو غاية

قصوى في الذم والتوبيخ، إذ المفـروض فيمن كان من أهل الكتاب أن يكون أسرع الناس إلى تصديق رسل الله المؤيدين بالمعجـزات، فإذا لم يذعنوا للآيات التي يؤيد الله بها المرسلين كان وصفهم بأنهم أهل الكتـاب للتوبيخ والتنديد والـذم، كما تقول لمن ينحـرف في سلوكـه وكـان أبوه صـالحا: يا ابن الـرجل الصالح وأنت لا تـريد الثناء على هذا المنحـرف وإنما تريد توبيخـه على عدم سلوكه منهـج أبيه في الصلاح والاستقامة وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قـد جَاءَكُمْ رَسُولُنَـا يُبَيِّنُ لكم كثيرا مما كنتم تُخْفُـونَ مِنَ الكتَابِ ويَعْفُـو عَن كثير﴾ أي قد بعثنا لكم نبينا ورسـولنا محمدا ﷺ المبعوث للنـاس كافة حالـة كونه ﷺ يبيِّن لكم ياأهل الكتاب الكثير مما كتمتموه من الأخبار والأحكام كبشائر المرسلين بمحمد ﷺ ووصف أمتـه ووجوب الإيمان به ونصرتـه وكرجم الـزناة، ويترك كثيرا مما كتمتموه فلا يعلنه لعدم الحاجة إلى إعلانه مع كثرته إنذارًا لكم، وفيما أعلنه لكم دليل كاف شاف في إثبات رسالته ﷺ ومعجـزة ظاهرة باهرة قاهرة على أنـه رسول من رب العـالمين، إذ العرب والعجم الـذين كانـوا في جزيـرة العرب وما حـولها لا يشكون في أنه ﷺ كان أميًـا لا يقرأ ولا يكتب، ولا علم له بكتـابهم قبل أن يوحى إليه، كما أن مـا عفا عنـه مما كتموه معجـزة أخرى حيث يعرفون أن النبي ﷺ عالم بما يخفونه فيكون ذلك داعياً لهم إلى الإيمان به ﷺ، ففي هذا ترغيب وتـرهيب وإقامة للبرهان على أكمل وجه وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتـابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رضوانه سُبلَ السـلام ويخرجهم مـن الظلمات إلى النـور بإذنـه ويهديهم إلى صراط مستقيم.﴾ تأكيـد وبيـان لعمـوم رسـالتـه ﷺ وشمـولها لجميع أهل الأرض عربهم وعجمهم من أميين وكتابيين، وأن رسالته ﷺ ليست منحصرة في بيان مـا كان يخفيـه أهل الكتـاب من الحق بل هـو نور منير وسراج وهـاج يضيء السبيل للسالكين، ويـرشد الحائرين، قـد بعثه الله عز وجل بـالكتاب المنير

ليفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَهْدِي به اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رضوانَهُ سُبُلَ السلام﴾ هداية الإرشاد والتوفيق والإعانة والتسديد والتأييد، والضمير في قوله: ﴿به﴾ عائد على الكتاب المبين، وهو القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل على محمد ﷺ، ومعنى: ﴿من اتَّبَعَ رضوانه﴾ أي التمس رضى الله وقصد بعمله وجه الله عز وجل مع امتثال شريعة محمد ﷺ والعمل بها، والانقياد لها، والمراد بسبل السلام: طرق السلامة والنجاة وسعادة الدنيا والآخرة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويُخْرِجُهُمْ من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ويخرج المتبعين لرضاه، الملتمسين هداه، المنقادين لشرعه، الذين يتبعون ولا يبتدعون، فيجعلهم على بصيرة في سلوكهم، ونور من ربهم، يمشون به في الناس، بتوفيق الله وهداه. ويرشدهم ويسددهم إلى صراط الله المستقيم ودينه القويم، وينفي عنهم الضلالة، ويحميهم من أن تتسلط عليهم الشياطين، فهم في سلوكهم ينهجون صراط الذين أنعم عليهم، ويجتنبون صراط المغضوب عليهم والضالين. ولاشك عند أهل السنة والجماعة أن الله تبارك وتعالى يرضى عن أوليائه ويسخط على أعدائه، نعوذ برضاه من سخطه وبعفوه من عقوبته ونعوذ به منه لا نحصي ثناءً عليه، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: و﴿إذنه﴾ في هذا الموضع تحبيبه إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سبل السلام اهـ وقوله عز وجل: ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن المسيح عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وفي تأكيد هذا القول بإن وضمير الفصل ودخول الألف واللام على الخبر برهان على أن من ادعى أن المسيح إله

أو ابن إله أو أن الله ثالث ثلاثة فقد نفى ألوهية الإله الحق الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولاشك أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح ، ويقولون : إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء ، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم ، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا ، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم ، فالنسطورية اعتقدوا حلول الله جل وعلا في المسيح ابن مريم ، واليعقوبية اعتقدوا اتحاد الله جل وعلا بالمسيح ابن مريم ، وفي قوله عز وجل : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ معجزة لرسول الله ﷺ حيث أعلن كفر من ادعى أن المسيح إله ، وبيَّن أن الله إله واحد ، والمعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فكما بيَّن رسول الله ﷺ لليهود ما كتموه ، بيَّن للنصارى أساس ضلالهم ، وسبب انحرافهم ، فمن أين للأمي هذا العلم الذي يجابه به اليهود والنصارى ويوجه العالم إلى الصراط المستقيم؟ لكنه رسول رب العالمين ﷺ ، وقد أطلعه الله تبارك وتعالى على علوم من الغيب بما أنزل عليه من الكتاب المبين وبما أوحاه إليه من أخبار الأولين والآخرين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وَأُمَّهُ ومن في الأرض جميعا ، ﴾ هذا برهان قاطع وحجة دامغة على فساد من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم ، ببيان أن عيسى مشاكل لمن في الأرض من بني آدم في الصورة والخلقة والتركيب معرض لما يتعرض له سائر بني آدم من الأعراض والصغر والكبر والتغيير، والأكل ، والشرب ، وغير ذلك والواجب على كل عاقل أن يعتقد أن الله هو القادر على كل شيء الذي لا يفنى ولايزول ولا يعجزه شيء ولا

يفوته شيء ولا يلحقه نقص بحال من الأحوال إذ هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وقد أورد الله تبارك وتعالى هذا الدليل في جملة شرطية قدَّم فيها الجزاء على الشرط والتقدير إن أراد الله أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره، ثم أكد ذلك ببيان مالكيته لكل ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وأن جميع ذلك تحت قدرته ومشيئته وملكه وتصرفه حيث قال عز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السمٰوات والأرض وما بينهما﴾ وعيسى عليه السلام هو وأمه ملك لله عز وجل داخل تحت قهره وسلطانه فهو وحده عز وجل هو الإله الحق الذي لا تصح الألوهية إلا له ولا يستحقها أحد سواه وتخصيص مريم بالذكر هنا مع اندراجها في ضمن من في الأرض لزيادة تأكيد عجز المسيح. قال أبو السعود العمادي: ولعل نظمها في سلك من فرض إرادة إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل ذلك لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجا لحال بقية من فرض إهلاكه كأنه قيل: قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن في الأرض وقد أهلك أمه فهل مانعه أحد؟ فكذا حال من عداها من الموجودين اهـ وفي قوله عز وجل: ﴿يَخْلُقُ ما يشاء﴾ زيادة تقرير وتأكيد لربوبية وألوهية الحي القيوم وإزاحة لما قد يعتري النصارى من شبهة كون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ببيان أن الله تعالى يخلق ما يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة يخلق الإنسان من غير أب ولا أم كما خلق آدم عليه السلام وتارة من غير أم كما في حق حواء عليها السلام، وتارة من غير أب كما في حق عيسى عليه السلام. وقد ذيل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لتحقيق ذلك كله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ، ولله مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا ما جَاءَنَا من بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

بعد أن بيَّن الله تبارك وتعالى بعض ما ارتكبه اليهود والنصارى من نقض العهود والمواثيق، وما اختصت به كل طائفة منهما على حدة من الكفر، ذكر هنا ما اتفقت عليه الطائفتان من افترائهم على الله ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، حيث قال عز وجل: ﴿وقالت اليهودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ وقد جاءت نصوص كثيرة في كتب «العهد القديم» التي يقر بها اليهود والنصارى تدعي أن بني إسرائيل هم أولاد الرب، وهي ولاشك من افتراءات أحبار السوء على الله عز وجل، ففي «الإصحاح» الرابع عشر من سفر التثنية في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح»: «أنتم أولاد للرب إلهكم» وفي «الإصحاح» الثاني من سفر أيوب في الفقرة الأولى من هذا «الإصحاح»: وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضا في وسطهم ليمثل أمام الرب. وفي المزمور الثاني من مزامير داود في الفقرة السابعة منه: إني أخبر من جهة قضاء الرب. قال لي: أنت ابني. أنا اليوم ولدتك ا. هـ والظاهر أن الذين كذبوا على الله وحرفوا الكلم من بعد مواضعه هم الذين وضعوا التلمود لليهود ونصوا فيه على أنهم أبناء الله وأحباؤه فقد جاء في التلمود: إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة وأنهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه. وقد اعتقد هؤلاء الضالون أن الله منحهم الصورة البشرية تكريما لهم أما غيرهم ويسمونهم «الأمميين» فهم مخلوقون من طينة شيطانية أو

حيوانيـة نجسة ، وأن الله إنما منح «الأميين» الصورة البشريـة ليسهل التعامل معهم ، وقـد وصف إخـوان القـردة والخنـازيـر من عـداهم بأنهم كـلاب وخنازير ، وقد بيّن الله عز وجل كذب هؤلاء ، ورد افتراءهم بقوله تبارك وتعالى في هذا المقام : ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم أبناء الله وأحباءه ما عـاقبكم على معاصيكم ، وأنتم مقـرون بأن الله يعذبكم في نـار جهنم حيث قلتم : ﴿لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ والفطر السليمة موقنة بأن الوالد لا يعذب ولـده ولا يلقيه في نار جهنم ، ولـذلك روى مسلم في صحيحه من حـديث عمر بن الخطـاب رضي الله عنـه أنه قـال : قدم على رسـول الله ﷺ بسبي ، فإذا امـرأة من السبي تبتغـي ، إذا وجـدت صبيًـا في السبي أخـذتـه فألصقته ببطنها وأرضعتـه ، فقال لنا رسول الله ﷺ : أترون هـذه المرأة طارحة ولدهـا في النار؟ قلنـا : لا والله وهي تقدر على ألا تطـرحه ، فقـال رسول الله ﷺ : الله أرحـم بعبـاده من هذه بـولدهـا . وقـد أخرجـه البخاري من روايـة الكشميهني عنه بلفـظ : قُدم على النبي ﷺ بسبي ، فإذا امرأة مـن السبي قد تَـحلّب ثـديها بسقي ، إذا وجدت صبيـا في السبي أخـذته فألصقتـه ببطنها وأرضعته ، فقال لنـا النبي ﷺ : أتُرون هذه طارحة ولدهـا في النار؟ قلنا : لا ، وهي تقدر على ألا تطرحه ، فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها . ولاشك أن من ادعى أنـه من أبناء الله فـإنه قـد ارتكب جرمـاً عظيماً وأنـه أكبر جرمـاً وأعظم إثماً ممن زعم أن الله قد اتخذ ولـدا ، وحصر ذلك في المسيح أو العزير ، مع أن الله تبارك وتعالى قد وصف الذين قالوا اتخذ الله ولدا بأنهم جاءوا بشيء منكر فظيع تكـاد السموات تتفطر منـه حيث يقول عز وجل : ﴿وَقَـالُوا اتَّخَذَ الـرحمنُ وَلَدًا * لقَـدْ جِئتُمْ شَيْئًـا إِدًّا * تكـادُ السموٰاتُ يَتَفَطَّـرْنَ مِنـهُ وتَنْشَقُّ الأَرْضُ وتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَـدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إن كُلُّ مَنْ في السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ إلا آتي الـرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وقد أبطل الله

تبارك وتعالى دعـوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحبـاؤه بخمسة براهين تدحض شبهتهم، وتفضح مقالتهم، البرهان الأول: هو قوله تبارك وتعالى: ﴿فلم يُعَذِّبُكُمْ بِـذُنُوبِكُمْ﴾ كما تقدم، والبرهـان الثاني: هو قولـه عز وجل: ﴿بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ أي كذبتم فلستم أبنـاء الله لأن الله تبارك وتعالى لم يلـد ولم يولـد ولم يكن لـه كفوا أحـد، ولستم أحبـاءه إن عصيتموه وكـذبتم رسله، وأشركتم بـه مالم ينـزل به سلطانـا، بل أنتم خلق من بني آدم خلقكم كما خلق سـائر البشر لا مـزيـة لكـم عليهم في شيء من التكـوين البشري، فأنتم وسائر بني آدم في البشرية سـواء، والبرهان الثالث هو قـوله عز وجل: ﴿يغفـر لمن يشـاء ويُعَذِّبُ من يَشَـاءُ﴾ أي إن جميع بني آدم تحت مشيئـة الله ورحمته وعدله، فمن أطاعه وصدق رسلـه وآمن بكتبه وملائكته واليوم الآخر وقدره خيره وشره وحلـوه ومره، وأقـام أركان الإسـلام جازاه بمغفـرة ذنوبـه، وتكفير خطاياه وأدخلـه جنات النعيم فضلا منه، ومن عصـاه وكذب رسله وكتبـه ولم يؤمن بـاليـوم الآخر والقـدر خيره وشره وحلـوه ومره ولم يقم أركـان الإسـلام عذبـه بعدلـه ولا يظلم ربك أحـدًا، والأمر في ذلك كلـه راجع إلى مشيئته وعـدله وفضلـه. والبرهان الرابع: هـو قولـه عز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السمٰوات وَالْأَرْضِ وما بَيْنَهُمَا﴾ أي إن جميع العوالم العلوية والسفلية وما بينهما وما فيهما من مكلفين وغير مكلفين هي ملك لله عز وجل وحده لا شريك له يتصرف فيهـا كيف يشاء ويحكم فيهـا بما يـريد، لا راد لقضـائه، ولا معقب لحكمه، ولا نسب بينـه وبين أحد من خلقـه، فالكل تحت مشيئتـه وقهره، لأنـه رب كل شيء وسيده ومليكـه، فدعـواكم أيها اليهود والنصـارى بأنكم أبناء الله وأحبـاؤه دعوى كاذبـة، وفرية قبيحـة، وجرأة على فاطـر السموات والأرض، فويل لكم عند قيامكم بين يديـه يوم القيامة، أما البرهان الخامس فهـو قولـه عز وجل: ﴿وإليـه المصير﴾ أي ومرجع جميع الخلائق إلى الله عـز

وجل ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فلو أنكم تدبرتم الأمر، ورجعتم عن هذه الأكاذيب وتركتم القول على الله بغير الحق، واستجبتم لرسول الله محمد ﷺ وعزرتموه، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأقرضتم الله قرضا حسنا لفزتم عند لقاء الله يوم القيامة، فعجلوا المتاب لتسعدوا يوم الحساب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَاأَهْلَ الكتابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ ولا نَذِيرٍ فَقد جَاءَكُمْ بَشِيرٌ ونذيرٌ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي يامعشر اليهود والنصارى قد أتاكم مبعوثنا يرشدكم إلى الهدى، ويوضح لكم معالم الدين، ومنهج الرشد، على انقطاع من الرسل وبعد مدة متطاولة من بعثة آخر رسول أرسل إليكم، وبعد فتور من الوحي ومزيد احتياج منكم إلى بيان الشرائع والأحكام التي لا غنى لكم عن معرفتها وقد بعثه الله عز وجل إليكم لئلا تكون لكم حجة وكيلا تقولوا وتعتذروا عن ضلالكم وانحرافكم بأنكم ما جاءكم رسول من ربكم يرشدكم إلى الخير ويحذركم من الشر، فقد أرسلت إليكم أكمل مبشِّر وأعظم منذِر والله عز وجل قدير على كل شيء، ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن. وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بأن آخر رسول أرسله الله عز وجل إلى بني إسرائيل هو عيسى ابن مريم عليه السلام فقد روى البخاري من طريق أبي سلمة أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عَلاَّت ليس بيني وبينه نبي. وأخرجه مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي وأخرجه من طريق همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة، قالوا: كيف يارسول الله؟ قال: الأنبياء إخوة

من عـلات، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحـد، فليس بيننـا نبي. ولاشك أن نفي وجـود نبي بين عيسى ومحمـد صلى الله عليهما وسلم ينفي وجود رسـول بينهما، لأن نفي النبـوة يقتضي نفي الرسـالـة بخلاف نفي الـرسـالة فإنـه لا يقتضي نفي النبوة لأن كل رسول نبي وليـس كل نبي رسولا، ومدة الفترة التي كانت بين رسـول الله ﷺ وبين عيسى عليه السلام نحو ستمائة سنـة فقد قال البخاري في صحيحه: حدثني الحسن بن مـدرك حدثنا يحيى بن حماد أخبرنا أبو عـوانة عن عاصم الأحـول عن أبي عثمان عن سلمان قال: فترةٌ بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ستمائة سنة. والمراد أن الله عز وجل بعث محمدا ﷺ على فترة من الـرسل، وانقطـاع من الـــوحي وطمـوس من السبل وتغير الأديان وشيوع الكفر في العالم فكانت النعمـة به أتم، والحاجة إليه قد بلغت الغايـة، إذ أن الفساد كـان قد عم جميع البـلاد، ونظر الله عـز وجل إلى أهل الأرض فمقتهم عـربهم وعجمهم غير بقـايـا من أهل الكتـاب منقطعين في الصوامع والأديـرة، لم يلبثوا أن انقرضوا أيضا، فقـد روى مسلم في صحيحه من حـديث عياض بن حمار المجـاشعي رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم مـا جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشيـاطين فاجتـالتهم عن دينهم، وحـرمت عليهم مـا أحللت لهم، وأمـرتهم أن يشركوا بي مـالم أنـزل بـه سلطانـا، وإن الله نظـر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. الحديث.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فيكم أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وآتَاكُمْ مالم يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لكم ولا تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ، وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فى الْأَرْضِ، فَلَا تَأْسَ على الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل ما اتفقت عليه طوائف أهل الكتاب من الباطل والافتراء على الله عز وجل حيث قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأبطل الله مقالتهم بخمسة براهين، وأنَّبهم على عدم إذعانهم لما جاء به البشير النذير محمد ﷺ الذي بعثه الله عز وجل ليرشدهم إلى الهدى ويوضح لهم معالم الدين على فترة من الرسل وانقطاع من الوحي شرع هنا يواسي رسوله محمدا ﷺ على ما يلاقيه من تعنت أهل الكتاب وبخاصة اليهود قبحهم الله ولعنهم، حيث بيَّن أن اليهود قد ورثوا عن آبائهم المتقدمين التمادي في الغي، والبعد عن الحق وشدة المخالفة للأنبياء، مع كثرة نعم الله عليهم، وتتابع أياديه وآلائه لهم، وكأنه يقول لحبيبه محمد ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن عنادهم للحق من عاداتهم وعادات أسلافهم وأوائلهم، وتَعَزَّ بما لاقاه أخوك موسى كليم الله من عنادهم ونكوصهم عن الحق، واذكر إذ قال لهم رسول الله موسى ﷺ: ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم وآلاءه التي

تفضل عليكم بها، ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة فأبوا أن يدخلوا، وقالوا لموسى عليه السلام: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. فعاقبهم الله عز وجل بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة. وقوله عز وجل: ﴿إذ جعل فيكم أنبياءَ وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين﴾ تفصيل لبعض نعم الله العظيمة التي أنعم بها على بني إسرائيل، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ أي خصكم بمزية عظيمة حيث تفضل عليكم بإكثار الأنبياء حتى لا ينقطع التذكير بالله عز وجل عنكم وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما مات نبيٌّ بعث الله عز وجل لهم نبيا آخر يسوسهم ويرشدهم إلى مصالح دنياهم وأخراهم وتعيين ملوكهم.
فقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي حازم قال: قاعدت أبا هريرة خمس سنين فسمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿وجَعلكم مُلُوكًا﴾ أي وصيَّركم أحرارا تملكون أمر أنفسكم بعد ما كنتم في أيدي القبط يستعبدونكم، وأورثكم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله عز وجل فيها، وتمت كلمته الحسنى عليكم بما صبرتم، وصرتم أعزة يحكمكم ملك منكم مع ما تفضل الله به عليكم من الغنى واتخاذ الخدم بعد أن كنتم بأيدي آل فرعون خدما، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً؛ قال: فأنت من الملوك. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وآتاكُم مالم

يُؤْتِ أحدا من العالمين﴾ أي وتفضل عليكم فأنزل عليكم المن والسلوى بعد أن فلق لكم البحر وصرتم تمشون بين جدارين من الماء كأنهما جبلان عظيمان، وجعل لكم الطريق بين الماءين يبسا، لا بلل فيه ولا وحل، وظلل عليكم الغمام وفجر لكم من الحجر اثنتى عشرة عينا بعدد أسباطكم، وفضلكم على عالمي زمانكم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المُقَدَّسَةَ التي كتَبَ الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إنَّ فيها قَوْمًا جَبَّارِينَ وإِنَّا لن نَدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا منها فإنا داخلون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ صورة جلية على تمادي بني إسرائيل في الغي، وبُعدهم عن الحق وشدة مخالفتهم لأوامر المرسلين، ومواساة لحبيب الله وسيد رسله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ليصبر على ما يلقاه منهم من تعنت وأذى بعد بيان نعم الله عز وجل عليهم، وأنهم لم يشكروا آلاء الله ونعمته الكبرى ببعث محمد ﷺ إليهم وإرساله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. والمراد بالأرض المقدسة: بيت المقدس، والمقدسة المطهرة المباركة. ومعنى ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي فرض عليكم دخولها لقتال الكفار المستحوذين عليها وتطهيرها من مظاهر كفرهم وشركهم وتخليصها من أيديهم، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي ولا تنكلوا عن الدخول إليها ولا تجبنوا عن مقاتلة أعداء الله ولا تنقلبوا على أعقابكم مخالفين لأمر الله عاصين لرسوله ﷺ فتبوءوا بالخسران وترجعوا بالخيبة والحسرة والندامة وغضب الله. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قالوا ياموسى إنَّ فيها قوما جبارين وإِنَّا لَنْ ندخُلَها حتى يخرجوا منها﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فاذهب أنت وربك فَقَاتِلا إنا هـٰهُنَا قاعِدُونَ﴾ أي قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام إنه لا طاقة لنا بقتال أهل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها، لأن أهلها أقوياء أشداء عتاة، ولن ندخلها أبدا

ماداموا فيها، فإن خرجوا من تلقاء أنفسهم دخلناها وسكنا فيها، فإن كنت مصرًّا على قتالهم فاذهب أنت وربك لقتالهم ونحن نجلس هنا حتى تطهرها أنت وربك من هؤلاء الجبارين. ولاشك أن هذا العمل من بني إسرائيل يعتبر الغاية القصوى في السفاهة، والبلادة وتضييع الحق والتخلي عن نصرة دين الله، والجبن عن ملاقاة أعداء الله، ولاشك أن هذا الموقف المخزي الذي وقفه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام يذكرنا بالموقف المشرف الكريم الذي وقفه أصحاب رسول الله ﷺ من رسول الله محمد ﷺ يوم بدر عندما التقت الفئة القليلة المؤمنة بالفئة الكثيرة الطاغية الباغية، حيث قال قائلهم لرسول الله ﷺ: والله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يارسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ من الذين يَخَافُونَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا

ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتـلا إنا هـٰـهنَا قاعدون﴾ أي لما نكل بنو إسرائيل عن طاعـة الله عز وجل وعصـوا رسوله مـوسى ﷺ وأبوا أن يـدخلوا القرية التي أمرهم موسى عليـه السلام بدخولها انبرى لهم رجلان من الموقنين بوعـد الله الخائفين من الله الشاكريـن لأنعم الله التي تفضل بها عليهما وأخذا يحرضانهم على طاعة الله عز وجل ويحضانهم على اقتحـام القرية وولوجها من بابها ، ويـؤكدان لهم أنهم إن فعلـوا ذلك نصرهم الله عز وجل على الجبـارين وجعل لهم الغلبـة عليهم إن تـوكلـوا على الله واعتمـدوا عليـه والتجأوا إليـه مـاداموا قـد أعلنوا أنهم مـؤمنون بـالله ، فإن من شأن من آمن بالله أن يتـوكل عليه ، ومن يتوكل على الله فهـو حسبه يؤيده وينصره مهما كـانت قوة عدوه ، لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

وقد وصف الله تبـارك وتعالى هذين الرجلين بـوصفين أحدهما الخوف والثاني أن الله أنعم عليهما . ومقتضى السيـاق والمقام يقتضي أنهما إنما يخافـان من الله عـز وجل مما يحملهما على امتثـال أمره والـوقـوف عند حـدوده والمسارعـة إلى مـرضاتـه ، كما أن شكر المنعم من أعظم أسبـاب صيانـة النعمة وزيـادتها ، فأصـرُّوا على عـدم الامتثال ، وقـوله ﴿قـال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فَافْرُقْ بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فـلا تأس على القوم الفـاسقين﴾ أي قال مـوسى عليه السـلام : ياسيدي وخالقي ومالـك أمري ومصلح نفسي أنا لا أقدر على حمل أحد على مـا أحب وأريـد من طاعتك والائتمار بأمـرك والانتهـاء بنهيك إلا على نفسي وعلى أخي ، وهذا كقول القائل : ما أملك من الأمر شيئا إلا كذا وكذا بمعنى لا أقدر على شيء غيره . ومعنـى : ﴿فَافْـرُقْ بيننا وبين القـوم الفاسقين﴾ أي فافصل بيننا وبين الخارجين على طاعتك ، العاصين لرسلك فإنك تقضي ولا يقضى عليك ، وقوله عز وجل : ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون

في الأرض﴾ أي فأخبر الله عز وجل موسى عليه السلام بأنه قضى على بني إسرائيل بأنهم لا يدخلون هذه الأرض المقدسة ويتيهون دونها مدة أربعين سنة، وقد مات هارون وموسى عليهما السلام قبل دخولها، ولما حضرت الوفاة موسى عليه السلام سأل ربه أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، فأدناه الله عز وجل منها، ودفن إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر. وقوله تعالى: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ مواساة لمحمد رسول الله ﷺ بسبب ما يلقاه من أذاهم أي فلا تحزن على ما يصيبك من هؤلاء الخارجين على طاعة الله.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولم يتقبل مِنَ الْآخَرِ قال لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ من الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِن أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَٰلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَه نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ، قَالَ يَاوَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

بعد أن واسى الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ على ما يلقاه من تعنت اليهود، وأن هذا هو شأنهم مع أنبياء الله ورسله عليهم السلام وذكر له أن أخاه موسى كليم الله عليه السلام ذكَّرهم بنعم الله عليهم بين يدي أمره لهم بدخول الأرض المقدسة ليطهروها من الوثنيين وأنهم لم يطيعوا أمره، أردف ذلك هنا بقصة ابني آدم المفيدة أن عداوة أهل الشر والحسد والبغي وأذاهم لأهل الخير قديمة جدًّا، وكيف قتل أحد ابني آدم أخاه حسدا له عندما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وفي هذا تنديد باليهود الذين امتلأت قلوبهم بالشر والحسد لرسول الله ﷺ بسبب ما أنعم الله عز وجل عليه من نعمة النبوة والرسالة وما آتاه من العلم والحكمة والخير، وتسلية ومواساة له ﷺ وتذكير بما يؤول إليه حال الحاسد من الحسرة والندامة، وأن العاقبة الحسنى للمتقين، ومعنى قوله عز وجل: ﴿واتْلُ عليهم نَبَأَ ابْنَيْ آدمَ بالحق﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً عليه وحسداً له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل

القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى: ﴿واتل عليهم نبأَ ابْنَيْ آدم بالحق﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، وقوله: ﴿بالحق﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إنَّ هٰذا لَهُوَ الْقَصَصُ الحقُّ﴾ وقوله: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ وقال: ﴿ذلك عيسى ابنُ مريمَ قولَ الحق﴾ اهـ وقوله عز وجل: ﴿إذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ من أَحَدِهِمَا ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر قال لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتقين﴾ يعني قد قدم كل واحد من الأخوين قربانا إلى الله عز وجل، فتقبل الله عز وجل قربان أحدهما ولم يتقبل قربان الآخر بل رده والظاهر أنهم كانوا يعرفون قبول القربان بعلامة يظهرها الله عز وجل لهم كأن تأتي نار فتأكل القربان المتقبل، أو يعرّفهم نبيُّهم ذلك بواسطة الوحي، والعلم عند الله عز وجل، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن سبب قبول القربان في هذا الموضع هو تقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿إنما يَتَقَبَّلُ الله من المتقين﴾ وظاهر سياق القصة يدل على أن الأخ الذي لم يتقبل قربانه كان مبتلى بداء الحسد وهو الداء الذي كانت أول معصية بسببه حيث حمل إبليس عل الغرور والكبر والامتناع عن السجود لآدم، كما حمل هذا الداء الوبيل الأخ الذي لم يتقبل قربانه على قتل أخيه الذي تقبل قربانه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ﴾ استئناف بياني نشأ عن سؤال مقدر يدل عليه سياق الكلام كأنه قيل؟ فماذا قال من لم يتقبل قربانه؟ قيل: قال لأخيه لحقده عليه وحسده له: والله لأزهقن روحك، وقوله عز وجل: ﴿قال إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ من المتَّقِينَ﴾ استئناف بياني أيضا نشأ عن سؤال مقدر يدل عليه

سياق الكلام كأنه قيل : فماذا كان موقف الأخ الصالح الذي تُقبل قربانه من تهديد أخيه له بالقتل؟ قيل : قال لأخيه : إنما أُتِيتَ من قبَل نفسك لا من قِبلي ، حيث إنك مبتلى بداء الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقد قضى الله عز وجل أنه لا يتقبل إلا من المتقين ، وقوله عز وجل : ﴿لئن بَسَطتَ إليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إليك لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .﴾ أي والله لئن مددت إلي يدك لتزهق روحي ما أنا بماد يدي إليك لأزهق روحك ولأمسكن يدي عنك خوفا من الله عز وجل لأن الله عز وجل حرم على الإنسان قتل أخيه بغير حق ، ومجرد عزمك على قتلي لا يبيح لي أن أقتلك ، وفي هذا تحذير شديد من الأخ الصالح لأخيه الحسود من سوء مغبة قتل النفس وإزهاق روح المسلم بلا حق لعله يرتدع فيمتنع عن الإقدام على قتل أخيه ، وقوله عز وجل : ﴿إني أريد أن تَبُوأَ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذُلك جزاء الظالمين﴾ هذا تحذير آخر من العبد الصالح لأخيه الحسود يخوفه فيه من عقاب الله عز وجل ويوضح له فظاعة وبشاعة قتل المؤمن بغير حق ، كأنه يقول له : أنا أكره أن ألقى الله عز وجل بمعصية وإثم لذلك أكف يدي عنك ولا أقتلك فإن قتلتني لقيت ربك بإثم قتلي مع ما ظهر منك من الآثام الأخرى كالحسد وغيره مما حال بينك وبين قبول قربانك ، إذ من المعلوم شرعا أن من ظلم أحدا قد يحمل من سيئاته يوم القيامة إذا لم توف حسناته بما عليه إن كانت له حسنات ، كما جاء في حديث المفلس ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت

حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطـاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النـار. وليس قولـه: ﴿إني أُرِيدُ أن تَبُـوأَ بإثمي وإثمك فتكون من أصحـاب النار﴾ من باب تمني الشر للغير قال الفخـر الرازي رحمه الله: هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يـريد قتله، وكان ذلك قبل إقدام القاتـل على إيقاع القتل بـه، وكأنه لما وعظـه ونصحه قال لـه: وإن كنت لا تنزجر عـن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلابـد وأن تترصد قتلي في وقت أكـون غافـلا عنك وعاجـزاً عن دفعك، فحينئـذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبـان، وهذا مني كبيرة ومعصية، وإذا دار الأمر بين أن يكون فـاعل هذه المعصية أنا وبين أن يكـون أنت، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي، ومن المعلـوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة وعلى هذا الشرط لا يكون حراما، بل هو عين الطاعة ومحض الإخلاص اهــ وقد صح الخبر عـن رسول الله ﷺ أن هـذا الأخ الذي قتل أخـاه قـد حملـه الله عـز وجل كفـلا من إثم كل قتيل يقتل ظلما إلى يـوم القيامـة فقد روى البخـاري ومسلم من حديث عبـد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأولِ كفل من دمها، لأنه أول من سن القتل، ومعنى كونه سن القتل أي فتح بابه وجعله سيرة للنـاس وطريقـا فهو متبـوع في هذا الفعل القبيح وقـد سن هذه السنة السيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وقوله عز وجل: ﴿فطَوَّعَتْ لـه نَفْسُهُ قَتْلَ أخيـه فَقَتَلَهُ فأصبح من الخاسرين﴾ أي فـزينت له نفسه وطاوعتـه وشجعته على قتل أخيه وسهلت له ذلك فـأقدم على ارتكاب هذه الجريمة البشعة مستسهلا لها غير مكترث بعاقبتها، وأزهق روح أخيه ولم تردعه هذه النصـائح من أخيه الصالح، فأصبح القاتل من الخاسرين حيث باع آخـرته واستجلب لدنيـاه الحسرة والندم فرجع بـالصفقة الخاسرة، وخسر

الدنيا والآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ في الأرض لِيُرِيَهُ كيف يُوَارِي سَوْءَةَ أخيه، قال يَاوَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أنْ أكونَ مثل هٰذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أخي فَأَصْبَحَ من النَّادِمِينَ﴾ أي فأثار الله عز وجل غرابا يحفر في الأرض فيثير ترابها ليدفن فيها غرابا آخر ميتا وابن آدم القاتل ينظر إلى الغراب الذي حفر الأرض حتى وارى ودفن جيفة الغراب الميت، فقال ياحسرتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأدفن أخي كما دفن هذا الغراب أخاه، فحفر لأخيه القتيل ودفنه، وظاهر هذا السياق الكريم يشعر بأن الدفن كان غير معروف، وأن هذا القتيل هو أول مدفون في الأرض من بني آدم، وأن القاتل كان يجهل دفن جيفة أخيه حتى أرشده إلى ذلك ما رآه من فعل الغراب بأخيه. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في سياق تعداد نعمه على الإنسان جعله بعد موته في قبر حيث يقول عز وجل: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ * من أيِّ شيء خَلَقَهُ * من نطفة خلقه فَقَدَّرَهُ * ثم السبيلَ يَسَّرَهُ * ثم أماتَهُ فأقْبَرَهُ﴾ وفي بعث الغراب لتعليم ابن آدم دفن الميت آية من آيات الله عز وجل وإرشاد إلى ما أودعه الله في الحيوانات والطيور من ألوان الهداية كما قال عز وجل: ﴿قال فمن ربكما ياموسى * قال ربُّنَا الذي أعطى كل شيء خَلْقَهُ ثم هَدَى﴾ وكما أشار الله عز وجل إلى ذلك في سورة النمل عن قصة النملة وقصة الهدهد. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ أي فصار من المتحسرين حيث ارتكب جريمة من أكبر الكبائر دون أن يحصد لنفسه نفعا من ورائها بل جمع بسببها الخسران والحسرة. نسأل الله عز وجل أن يعصمنا من السوء، وأن يحفظنا من كل أسباب الخسران والحسرة والندامة إنه رءوف رحيم.

قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ .

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أن عداوة أهل الشر لأهل الخير قديمة، وندد باليهود الحاسدين رسول الله ﷺ على ما أنعم الله عز وجل عليه به من النعم العظام، وضرب مثلا للحسد الذي حمل صاحبه على قتل أخيه وسفك دمه ظلما وعدوانا، وما ترتب على ذلك من الخسران والحسرة والندامة للذي قتل أخاه بغير حق، بيَّن عز وجل هنا أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه، ولما كان بنو إسرائيل هم أشد الناس سفكا للدماء حتى استباحوا دماء أنبيائهم وأزهقوا أرواح الكثير من رسلهم كتب الله عز وجل في وصاياه لأنبياء بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا. قال القاضي أبو بكر ابن العربي في كتابه أحكام القرآن في تفسير هذه الآية: لم يخل زمان آدم ولا زمن من بعده من شرع، وأهم قواعد الشرع حماية الدماء عن الاعتداء، وحياطته بالقصاص كفاً وردعاً للظالمين والجائرين، وهذا من القواعد التي لا تخلو عنها الشرائع، والأصول التي لا تختلف فيها الملل، وإنما خص الله بني إسرائيل بالذكر للكتاب فيه عليهم، لأنه ما كان ينزل قبل ذلك من الملل والشرائع كان قولا مطلقا غير مكتوب، بعث الله إبراهيم فكتب له الصحف، وشرع له دين الإسلام وقسم ولديه بين الحجاز والشام، فوضع الله إسماعيل بالحجاز مقدمة لمحمد ﷺ، وأخلاها عن الجبابرة تمهيدا له، وأقر إسحاق بالشام، وجاء منه يعقوب،

وكثرت الإسرائيلية، فامتلأت الأرض بالباطل في كل فجٍّ، وبغوا، فبعث الله سبحانه موسى وكلمه وأيده بالآيات الباهرة، وخط له التوراة بيده، وأمره بالقتال، ووعده النصر، ووفى له بها وعده، وتفرقت بنو إسرائيل بعقائدها، وكتب الله جل جلاله في التوراة القصاص محددًا مؤكدًا مشروعا في سائر أنواع الحدود، إلى سائر الشرائع من العبادات وأحكام المعاملات، وقد أخبر الله في كتابنا بكثير من ذلك اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتل نفسا بغير نَفْسٍ أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومَنْ أَحْيَاها فكأنما أَحْيَا النَاسَ جَمِيعًا﴾ أي لأجل حماية الدماء عن الاعتداء شرعنا وجوب صيانة الأنفس، وأغلظنا على من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض ففرضنا في ذلك القصاص، وجعلناه على بني إسرائيل في كتاب مكتوب محرر حتى لا يغفلوا عن ذلك لما علمناه ممايكون منهم من الجرأة على إزهاق الأنفس ظلما وعدوانا، وأعلمناهم أن من قتل نفسا لا تستحق القتل حيث لم تكن اعتدت على نفس وأزهقتها بغير حق، أو لم تكن النفس المقتولة قد أفسدت في الأرض بما يجعل قتلها مشروعا كالزنا بعد إحصان أو الارتداد عن دين الإسلام، أو محاربة الله ورسوله وإخافة السبيل وقطع الطريق، فمن قتل نفسا واحدةً مصونةً فكأنما قتل الناس جميعا فأما بالنسبة إلى المقتول فكأنما انتهت الحياة كلها على الأرض، وأما بالنسبة للقاتل فالمنتهك لحرمة نفس واحدة كالمنتهك لحرمة كل النفوس وقد ضرب ابن عطية رحمه الله لذلك مثلا برجلين حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئا فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرته وطعم الآخر ثمر شجرته كلها، فقد استويا في الحنث، ولاشك أن سياق التحذير من قتل النفس بهذا الأسلوب البلاغي يدفع من به مسكة عقل أن يرتدع عن إزهاق النفوس المصونة، على أن الله تبارك وتعالى قد جعل جزاء من قتل النفس المؤمنة متعمدا جهنم

خـالدا فيهـا وغضب الله عليه ولعنـه وأعد لـه عذابـا عظيما، وهذا العـذاب الأليم قد بلغ حدًّا لـو قتل الناس جميعا لكان وفاءً لـه، كما أن من أحيا نفسا بإنقاذهـا من الهلاك قد أعد الله عـز وجل له من الجزاء الجميل مـا يعادل من أحيا الناس جميعـا، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول ما يقضـى بين الناس يوم القيامة في الـدماء فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم مـن حديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنـه قال: قـال رسـول الله ﷺ: أول مـا يقضى بين الناس يوم القيامة في الـدماء. كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لن يزال المؤمن في فسحة من دينه مـالم يصب دمـا حـراما. كما روى البخـاري من طـريق إسحـاق بن سعيـد سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمر قـال: إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيهـا سفك الدم الحرام بغير حله. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولقـد جـاءتهم رُسُلُنَـا بـالبينـات ثم إنَّ كثيرا منهـم بعـد ذٰلك في الأرض لمسرفون﴾ أي ولقد أرسلنا إلى بني إسرائيـل رسلنا بالبراهين والحجج والدلائل الواضحة الناطقة بتقريـر ما كتبنا عليهم، وتحذيرهم من إزهاق الأنفس التي حـرم الله قتلهـا، ووجـوب المحافظـة على سـلامـة الأرواح وإحيـاء الأنفس والعمل على استنقاذها من الهلاك، وأن المرسلين قد بلغوا بني إسرائيل بذلك وأوصلوا إليهم رسالة ربهم، وبعد ذلك كله وتجديد العهد إليهم مرة بعد مرة حيث جـاءتهم الـرسل تترى فإنهم مسرفـون في القتل، وإزهـاق الأرواح بـلا حق، كما قـال عـز وجل: ﴿وإذ أخـذنا ميثـاقكم لا تسفكـون دمـاءكم ولا تُخْرِجُونَ أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هٰؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجُون فريقا منكم من ديارهـم تَظَاهَرُونَ عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتُوكم أُسَـارَى تُفَادُوهُمْ وهو مُحَرَّمٌ عليكم إِخْرَاجُهُم، أفتـؤمنون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض، فما جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلك منكم إلا خِـزْيٌ في الحياة

الدنيـا ويوم القيامـة يُرَدُّون إلى أشـد العذاب، وما اللهُ بغـافل عما تعملون * أولَئك الـذين اشْتَرَوُا الحياةَ الـدنيا بالآخـرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العـذابُ ولا هم يُنْصَرُون * ولقد آتينا موسى الكتاب وقَفَّيْنَا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُسِ، أفَكُلَّمَا جاءكم رسولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُم اسْتَكْبَرتُمْ فَفَرِيقًـا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًـا تَقْتُلُونَ﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: القول في تأويل قولـه عز ذكره: ﴿ولقد جـاءتهم رسُلُنَا بالبينـات ثم إنَّ كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ قال أبو جعفـر: وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم بـه: أن رسلــه صلـوات الله عليهم قــد أتت بني إسرائيل الــذين قص الله قصصهم، وذكر نبأهـم في الآيات التي تقدمت، من قـوله: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا اذكروا نعمـة الله عليكم إذْ هَمَّ قَوْمٌ أن يَبْسُطُـوا إليكم أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى هـذا الموضع «بالبينـات» يعني بالآيات الـواضحة، والحجج البينة على حقيقـة ما أرسلوا بـه إليهم، وصحة مـا دعوهم إليـه من الإيمان بهم، وأداء فرائض الله عليهم، يقــول الله عــز ذكــره: ﴿ثـم إنَّ كثيرا منهم بعــد ذلك في الأرض لَمُسْرِفُـون﴾ يعني: أن كثيرا من بني إسرائيل، والهاء والميم في قـولـه: ﴿ثم إن كثيرا منهم﴾ من ذكـر بني إسرائيل، وكذلـك في قولـه: ﴿ولقد جـاءتهم﴾. ﴿بعـد ذلك﴾ يعني: بعد مجيئ رسل الله بـالبينات، ﴿في الأرض لمسرفـون﴾ يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمر الله ونهيه، ومحادُّو الله ورسـولـه، باتبـاعهم أهـواءهم، وخـلافهم على أنبيـائهم، وذلك كـان إسرافهم في الأرض اهـ وإذا كان الإسراف قبيحـا في باب الأمـوال فإنه أشـد قبحـا وأعظم إثما في بـاب إزهــاق الأرواح البريئـة وقتل الأنفس بغير حق، وأصل الإسراف في اللغـة هو الإفـراط في الشيء يقـال: أسرف فلان في هـذا الأمر إذا تجاوز مقـداره فأفرط فيـه وفي التنزيل الكـريم: ﴿ومن قُتِلَ مظلـوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يُسْرِفْ في القتل إنه كان منصورا﴾ قال ابن منظور

في لسان العرب : قال الزجاج : اختلف في الإسراف في القتل فقيل : هو أن يقتل غير قاتل صاحبه ، وقيل : هو أن يقتل هو القاتل دون السلطان ، وقيل : هو أن لا يرضى بقتل واحد حتى يقتل جماعة لشرف المقتول وخساسة القاتل ، أو أن يقتل أشرف من القاتل ، قال المفسرون : لا يقتل غير قاتله ، وإذا قتل غير قاتله فقد أسرف ، والسَّرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد أخبر الله عز وجل أنه لا يحب المسرفين حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكُلُوا واشربوا ولا تُسْرِفُوا ، إنه لا يحب المسرفين﴾ .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُاْ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إلا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد أن بيَّن الله عز وجل أنه عهد إلى عباده بتحريم قتل النفس بغير حق، وأنه وصى بذلك تحذيرا من الوقوع فيه وأنه كتب من أجل ذلك على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا وأن رسل الله صلى الله عليهم وسلم قد جاءوا بني إسرائيل وأكدوا عليهم بذلك وأقاموا لهم الحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ومع ذلك فإن بني إسرائيل لم يرتدعوا ولم ينزجروا عن سفك الدماء المحرمة المصونة زاد هنا من تأكيد وجوب صيانة الأنفس والأموال والابتعاد عن الفساد في الأرض، وتجنب كل ما يُروِّع أمن الأمة ويثير الذعر والرعب بين أبنائها من قطع الطريق وإخافة السبيل والتعدي على الأعراض أو الخروج على إمام المسلمين وجماعتهم وشق عصا الطاعة وإشهار السلاح، وأعلم عز وجل عباده بما يستحقه المفسد في الأرض من العقوبة والنكال حيث يقول عز وجل: ﴿إنما جَزاءُ الذين يحاربون اللهَ ورسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأرض فسادا أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيدِيهم وأَرْجُلُهُمْ من خلاف أو يُنْفَوْا من الأرض، ذُلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تَقْدِرُوا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في قصة العرنيين والعكليين وقد أورد البخاري رحمه الله في التفسير من صحيحه في باب ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن

يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُـوا﴾ إلى قوله : ﴿أو يُنْفَـوْا من الأرض﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قـدم قوم على النبي ﷺ فكلمـوه فقالـوا : قد استـوخمنا هـذه الأرض ، فقـال : هذه نَعم لنـا تخرج ، فاخـرجـوا فيها ، فـاشربوا من ألبـانها وأبوالها ، فخرجـوا فيها ، فشربوا من أبوالها وألبانها ، واستصحـوا ، ومالوا على الراعي فقتلـوه ، واطَّردوا النَّعم . الحديث ، وأخـرج في المغازي في بـاب قصة عُكْل وعرينة من حديث أنس رضي الله عنه أن نـاسا من عكل وعرينة قدموا المدينـة على النبي ﷺ ، وتكلموا بـالإسلام ، فقـالوا : يـانبي الله إنا كنـا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف ، واستوخموا المدينة ، فأمـر لهم رسول الله ﷺ بذود وراع ، وأمرهم أن يخرجـوا فيه ، فيشربوا مـن ألبانها وأبوالها فـانطلقوا حتى إذا كـانوا نـاحيـة الحرة كفروا بعـد إسـلامهم وقتلـوا راعي النبي ﷺ ، واستاقـوا الـذود ، فبلغ النبي ﷺ ، فبعث الطلب في آثـارهم ، فأمـر بهم ، فسمـروا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ، وتـركوا في ناحية الحرة حتى ماتـوا على حالهم ، وقد ساقه البخـاري أيضا في كتاب المحاربين وقول الله تعـالى : ﴿إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسـوله ويَسْعَـوْنَ في الأرض فسادا أَن يُقَتَّلُـوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأرجلُهم من خِلافٍ أو يُنْفَـوْا من الأرض﴾ من حديث أنس رضي الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا ، فاجتووا المدينة فأمرهم أن يأتـوا إبل الصـدقـة ، فيشربـوا من أبـوالها وألبـانها ، ففعلـوا ، فصحـوا ، فـارتدوا ، وقتلـوا رعاتها واستـاقـوا الإبل فبعث في آثارهم ، فـأُتي بهم ، فقطع أيـديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ثم لم يحسمهم حتى ماتـوا . ثم ساقـه في باب : لم يُسق المرتدون المحاربون حتى مـاتوا ، من حديث أنس رضي الله عنه قال : قـدم رهط من عكل على النبي ﷺ كانـوا في الصفة ، فاجتـووا المدينة ، فقالـوا : يارسـول الله أبغنا رِسـلاً ، فقال : مـا أجد لكم إلا أن تلحقـوا بإبل رسـول الله ﷺ ، فأتوهـا ، فشربوا مـن ألبانها وأبـوالها حتى صحوا وسمنـوا ،

فقتلوا الـراعي واستاقوا الـذود، فأتى النبيَّ ﷺ الصريخ، فبعث الطلب في آثـارهم، فما ترجل النهـار حتى أُتي بهم، فأمر بمسـامير فأحميت، فكحلهم وقطع أيديهم وأرجلهم، ومـا حسمهم، ثم ألقوا في الحرة يستسقـون فما سقوا حتى مـاتوا. وسـاقه البخـاري في كتاب الـديات في بـاب القسامـة ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن نفرا من عكل ثمانية قدموا على رسـول الله ﷺ فبـايعـوه على الإسـلام، فـاستـوخموا المدينـة، فسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، قـال: أفلا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبـون من ألبانها وأبـوالها؟ قالوا: بلى، فخـرجوا، فشربـوا من ألبانها وأبـوالها، فصحـوا فقتلـوا راعي رسـول الله ﷺ، وأطـردوا النعم، فبلغ ذلك رسـول الله ﷺ، فأرسل في آثارهم، فـأُدركوا فجيء بهم، فأمـر بهم فقطعت أيـديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم، ثم نبـذهم في الشمس حتى ماتـوا. وفي لفظ لمسلم من حـديـث أنس رضي الله عنـه قـال: إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الـرعاء. وسمل الأعين وسمرها بمعنى واحـد وهو فقؤها و إذهاب نورها بأي شيء كان، وقد تقدم في لفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنــه قــال: فأمــر بمسـامير فأحميـت فكحلهم، أي أدخل المسامير المحماة في أعينهـم فأعماهم بها جزاء وفـاقا لما صنعـوه بالـرعاء. وفي وصف من يقطع السبيل ويثير الرعب بين النـاس ويعمل على عدم استتباب الأمن والاستقرار بأنه محارب لله ورسـوله وساعٍ في الأرض فسادا تهديـد شديد بأن من فعل ذلك يعرض نفســه لحرب الله له ولحرب رسوله ﷺ لـه، وكذلك لحرب إمام المسلمين وجماعتـه الملتزمين بشرع الله، ولاشك أن من حـاربه الله محروب، ومن غالبه الله مغلوب، وأن الله عز وجل يمكن رسوله ﷺ ويمكن عباده الصالحين من قطع دابره والقضـاء على إفساده. وهذا شبيه بما هدد الله عز وجل به المستحلين للربا حيث قال: ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما

بقي من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقطَّعَ أَيْدِيهِم وأَرْجُلُهُمْ من خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هذا هو الذي سماه الفقهاء حد الحرابة أو حد قطاع الطريق . وهو تقتيلهم أو تصليبهم ، أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو نفيهم من الأرض إذا قدر عليهم قبل أن يتوبوا ، وقاطع الطريق لا يخلو عن حال من أحوال خمس : الأولى : أن يكون قد قَتل وأخذ المال فإنه يتحتم قتله وصلبه ولا يدخله عفو ، قال ابن المنذر: أجمع على هذا كل من نحفظ عنه من أهل العلم . وظاهر سياق الآية الكريمة يدل على أنه يصلب بعد أن يقتل ، والمقصود من صلبه أن يشتهر أمره ، ويرتدع غيره ، أما الحالة الثانية من أحوال قاطع الطريق : أن يَقتل لكنه لم يأخذ مالا فإنه يُقتل لكنه لا يصلب ، وإن رأى الإمام صلبه تعزيرا صلب . أما الحالة الثالثة : أن يأخذ المال لكنه لم يقتل أحدا ، فإنه تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ، وهذا معنى قوله عز وجل : ﴿من خلافٍ﴾ وتقطع يده ورجله في وقت واحد ولا ينتظر اندمال اليد في قطع الرجل بل يقطعان معا . والحال الرابعة : أن يخيف السبيل لكنه لم يقتل ولم يأخذ مالا فإنه ينفى من الأرض . أما الحال الخامسة من أحوال قاطع الطريق فهي أن يتوب قبل أن يُقدر عليه ، فإن تاب قبل أن يقدر عليه سقطت عنه حدود الله وأُخذ بحقوق الآدميين من الأنفس والجراح والأموال إلا أن يُعفى له عنها . قال ابن قدامة رحمه الله في المغني : لا نعلم في هذا خلافا بين أهل العلم اهـ . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ذٰلك لهم خِزْيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي هذا الذي ذكرته من عقوبة الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا من قتلهم أو من صلبهم أو من قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أومن نفيهم من الأرض هو لهم في عاجل

حياتهم خزي وذل وفضيحة وهَوَانٌ مع ما ادخره الله عز وجل لهم من العذاب العظيم في نار جهنم يوم القيامة قال ابن جرير رحمه الله : القول في تأويل قوله عز ذكره : ﴿ذٰلك لهم خِزْيٌ في الدنيـا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله : ﴿ذٰلك﴾ هـذا الجزاء الذي جازيت به الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فسادا في الدنيا من قتل أو صلب أو قطع يـد ورجل من خلاف ﴿لهم﴾ يعني : لهؤلاء المحـاربين ﴿خِـزْيٌ في الدنيـا﴾ يقول : هو لهم شر وعـار، وذلة ونكال وعقوبة في عاجل الـدنيا قبل الآخرة، يقال : أخـزيت فـلانا فخـزى هو خـزياً. وقـوله : ﴿ولهم في الآخـرة عذابٌ عظيم. ﴾ يقول عـز ذكره : لهؤلاء الذين حـاربوا الله ورسولـه وسعوا في الأرض فسـادًا، فلم يتـوبـوا من فعلهم ذلك حتى هلكـوا ﴿في الآخـرة﴾ مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ﴿عذابٌ عظيمٌ﴾ يعني : عذاب جهنم اهـ ولا معارضة بين جمع الله عـز وجل العقوبة في الدنيا والآخـرة لمن حـاربـوا الله ورسولـه وسعـوا في الأرض فسـادا وبين مـا ثبت في صحيحي البخاري ومسلم من حـديث عبادة بن الصـامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أتبايعونني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا. الحديث . وفيه ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة لـه ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبـه و إن شاء غفر له» لأنـه ليس من هذه الذنـوب المذكورة في هذا الحديث محاربـة الله ورسولـه والسعي في الأرض بـالفسـاد وهو يـدل على أن المحاربين لله ورسوله الساعين في الأرض بالفساد قد ارتكبوا جرما لا يغفره الله إلا بتوبة صاحبه منه ، ولذلك قال بعدها ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أَنَّ الله غفـور رحيم﴾ وهذا يدل على شناعـة المحاربة وعظيم ضررها لأن نعمـة أمن الشعوب واستقـرارها في الـذروة من النعم ، و إشـاعة

الخوف و إفساد الأمن قتل للأمم و إهلاك للشعوب، ولذلك امتن الله تبارك وتعالى على عباده بنعمة الأمن حيث قال: ﴿أَوَ لم يَرَوْا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾.

قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْـوسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مـافى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَـهُ لِيَفْتَدُوا بِـهِ مِنْ عَـذَابِ يَوْمِ الْقِيَـامَـةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ . يُرِيدُونَ أَن يَخْرجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ .

بعد أن أشـار الله تبارك وتعالى في قصة ابني آدم إلى أن تقـوى الله عز وجل هي سبب الفـلاح والنجـاح والفوز في الـدنيـا والآخـرة وتقبل الأعمال حيث قال : ﴿إنما يَتَقَبَّـلُ الله من المتقين﴾ وأشار عـز وجل إلى أنه فـرض على عباده صيانـة النفوس وحض على إحيائهـا وأنه كتب ذلك على بني إسرائيل وأرسل إليهم الرسل بالبينات وعرفهم أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل النـاس جميعـا ومن أحياهـا فكأنما أحيـا النـاس جميعا ، أكـد على المؤمنين هنـا ملازمـة تقوى الله عـز وجل وحضهم على الالتجـاء إليه وحـده والتوكل عليه وطلب جميع حوائجهم منه جل جلاله ، ومجاهدة أعدائه الذين يحاربون الله ورسـوله ويسعـون في الأرض فسادا ، حيـث يقول هنـا : ﴿يَاأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وابْتَغُوا إليه الوسيلة وجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقد تضمنت هذه الآيـة الكريمة ثلاثة أوامـر، الأول : أمر المؤمنين بتقوى الله عز وجل ، والثاني : أمر المؤمنين بأن يبتغـوا إلى الله وحده الوسيلة ، والثالث : أمر المؤمنين بأن يجاهـدوا في سبيل الله ، وقد نبـه عز وجل المؤمنين إلى أنهم إذا اتقوا ربهم وطلبـوا الوسيلـة إليه وحـده ، وجاهـدوا في سبيله أفلحـوا وفازوا ، ومعنى قـوله عـز وجل : ﴿وابْتَغُوا إِلَيْـهِ الْوَسِيلَـةَ﴾ أي واطلبوا إلى الله وحـده حوائجكم ولا تطلبوها من أحـد سواه ، ولو كان ملكا مقربـا أو نبيا مرسلا ، فإن لله وحـده ما في السموات ومـا في الأرض ، ولو اجتمع مـں ڧ السموات ومن في الأرض على أن ينفعوا أحدا بشيء ما نفعـوه إلا بشيء كتبه الله له ، ولو

اجتمعوا على أن يضروه بشيء ما ضروه إلا بشيء كتبه الله عليه، وما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، ولذلك أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إذا سألوا أن يسألوا الله وحده وإذا استعانوا أن يستعينوا بالله وحده فقد روى الترمذي من طريق قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال: ياغلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ وأصل الوسيلةفي اللغة: الحاجة وتطلق على القربة وما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهي كذلك عَلَم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، والمراد بالوسيلة في قوله تعالى: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ هو المعنى الأول والثاني من معاني الوسيلة، أي واطلبوا منه عز وجل وحده حوائجكم ولا تطلبوها من غيره وأديموا التقرب إليه، ومن استعمال الوسيلة بمعنى الحاجة قول عنترة العبسي لامرأته لما لامته في فرس كان يؤثره على سائر خيله ويسقيه من لبن إبله:

لا تذكري مُهري وما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجرب
إن الغبوق له وأنت مسوءة ... فتأوهي ما شئت ثم تَحَوَّبي
كذب العتيق وماء شن بارد ... إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي
إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

فهو ينذرها بالطلاق إن هي ألحت عليه بالملامة في فرسه لأنه حصنه ويقول لها: أنت إن وقعت في الأسر أسرعت فتكحلت وتخضبت لمن أسرك،

ويقـول: إن أخـذوك تكحلت وتخضبت لهم، فقد استعمل عنترة الـوسيلـة بمعنى الحاجة، أي إن الـرجال يحتـاجون لمثلك أمـا أنا فإني محتـاج إلى فرسي لأقـاتل عليه أعـدائي. أما اتخاذ الأشخـاص وسائط بين الله عـز وجل وبين عبـاده فإنه من سمات المشركين الـذين عبـدوا غير الله واتخذوا أولياء وسـائط وشفعاء، وقد أخبر الله عز وجل أنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيجزيهم على كذبهم على الله وكفرهم حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿أَلا للهِ الدينُ الخالصُ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيـه يختلفون، إنَّ الله لا يهدي من هـو كاذب كَفَّـارٌ﴾ فلا يحل لمسلم أن يتوسل إلى الله بذوات الأشخاص ولا بمن فـارق الدنيا منهم مطلقا أما سؤال الصالحين من الأحياء أن يسألوا الله عز وجل ويضرعوا إليه لكشف الضر أو جلب الخير فإنـه مشروع ولـذلـك روى البخـاري في صحيحـه من حـديث أنس رضي الله عنه أن عمـر رضي الله عنـه كان إذا قحطـوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب وقال: اللهـم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتـوسل إليك بعم نبينا فـاسقنا، فيسقون. ولـو كان التـوسل بمن فارق الدنيـا جائزا لتوسل عمر بـرسول الله ﷺ ولم يتوسل بالعبـاس رضي الله عنه، ومن التـوسل المشروع أن تقـدم بين يـدي حـاجتك ودعـائك الثنـاء على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى كما أرشدت إلى ذلك سورة الفاتحة، ومن أنواع الوسيلة الشرعية أن تدعو الله تعالى بعد أن تذكر أرضى عمل تقربت به لله عز وجل وعملته لوجهه الكريم كما في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فـانطبقت عليهم الصخرة فتضرع كل واحـد منهم إلى الله تعـالى وذكر عمـلاً صالحا وقال: اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغـاء وجهك فافرُج عنا مـا نحن فيه، فـانفـرجت عنهم الصخـرة، وخرجـوا يمشـون كما روى ذلك البخاري ومسلم من حـديث عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما. أما الـوسيلة

التي يطلبها المسلم لـرسول الله ﷺ حيث يقول : اللهم آت محمدا الـوسيلة . فهي دار رسـول الله ﷺ وهي أعلى منزلـة في الجنة ، وقد حـض رسول الله ﷺ المسلمين على أن يسألـوا الله الوسيلـة لرسـول الله ﷺ فقد روى البخـاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الـوسيلة والفضيلـة ، وابعثه مقـاما محمـودا الذي وعـدته ، حلـت له شفـاعتي يـوم القيامـة ، كما روى مسلم من حـديث عبـد الله بن عمـرو بن العـاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقـول : إذا سمعتم المؤذن فقولـوا مثل مـا يقـول ، ثم صلوا عليَّ ، فـإنه من صلى عليَّ صـلاة صلى الله عليـه بها عشرًا ثم سلوا الله لي الـوسيلة فإنها منزلـة في الجنة لا تنبغي إلا لعبـد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنـا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفـاعة . وقد نـدد الله تبارك وتعـالى بالمشركين الـذين كـانوا يعبـدون الجن ويتوسلـون بهم فأسلم الجن وأخلصوا التوحيد لله عز وجل واستمر هؤلاء المشركون في التوسل بـالجن حيث يقول تبـارك وتعـالى : ﴿قل ادْعُـوا الذين زعمتـم من دونه فـلا يملكـون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولَئك الـذين يَـدْعُونَ يبتغـون إلى ربهم الوسيلة أَيُّهُمْ أقربُ ويرجون رحمتـه ويخافون عَذَابَهُ ، إن عَذابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ والمراد أن المشركين الـذين يعبـدون غير الله كـالـذين عبـدوا المسيح والعزيـر والملائكة والجن يجهلـون أن عيسى والعزيـر والملائكة والجن الـذين أسلموا لا يطلبون حوائجهم إلا من الله وحده ويتبرأون ممن اتخذهم وسائل أو جعلهم شفعاء ليقربوهم إلى الله زلفى فأيهم أقـرب إلى الله؟ الذين أخلصوا له التوحيـد أم الذين أشركـوا بالله مـالم ينزل به سلطـانا؟ وقـد روى البخاري في صحيحه مـن حديث عبـد الله بن مسعود ﴿إلى ربهم الـوسيلة﴾ قـال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم اهـ

وأسعد خلق الله بالله من أرجع أمره كله لله ولم يتعلق بأحد سواه، وما أحسن قول الشاعر:

وقائلـةٍ مـات الكـرام فمـن لنـا	إذا عضـنا الدهـر الشديد بنابه
فقلـت لهـا من كـان غايـة همـه	سُـؤالاً لمخلـوق فليس بنا به
لئن مات مَن يُرجى فمعطيهم الذي	يُرجُّـونه بـاق فلـوذوا ببـابه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثلَه معـه لِيَفْتَدُوا بـه من عـذابِ يومِ القيـامـة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عـذابٌ أليم. يريـدون أن يخرجوا من النار ومـاهم بخارجين منها ولهم عـذاب مقيم﴾ هذا تأكيـد لوجوب امتثـال المؤمنين للأوامـر الثلاثـة القاضيـة بوجـوب اتقاء الله وابتغـاء الـوسيلة إليـه والجهـاد في سبيلـه، وحض للمؤمنين على المسـارعـة والمسابقة إلى تحصيل أسباب مرضـاة الله عز وجل قبل الارتحال من هذه الدنيا لأنها مزرعة الآخرة، فإن من مات على الكفـر لو توسل إلى الله عز وجل ببذل ملء الأرض ذهبا أو ببـذل جميع ما في الأرض ومثله معه لـو كان يملك ذلك ليدفع الله عنـه العذاب يوم القيامـة ما تقبل الله منه قـربانه، وما أخـرجه من النار، كما قـال عز وجل: ﴿إنَّ الذين كفـروا وماتـوا وهم كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ من أحدهم مِلْءُ الأرض ذهبـا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ، أولَئك لهم عـذاب أليمٌ وَمَالَهُمْ من ناصرين.﴾ وقد روى البخـاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: ياابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقـال: هل تفتدي بقراب الأرض ذهبـا؟ قال: فيقـول: نعم يـارب، فيقـول الله تعالى: كـذبت، قـد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار. وقد أكد الله تبارك وتعالى تيئيس من مات على الكفر من رحمة الله وأنهم مهما صرخوا واستغاثوا ليخرجوا من النار فإن الله عز وجل لا يخرجهم منهـا ولهم فيها عذاب دائم مستمر كما

قال عز وجل : ﴿كلما أرادوا أَن يَخْرُجُوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ وكما قال عز وجل : ﴿تَلْفَحُ وجُـوهَهُمُ النارُ وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تُتْلَى عليكم فكنتم بها تكَذِّبُونَ . قالوا ربَّنَا غَلَبَتْ علينا شِقْوَتُنَا وكُنَّا قوما ضالين * ربَّنَا أَخْرِجْنَا منها فإن عُدْنا فإنَّا ظالمون * قال اخْسَئُوا فِيهَا ولا تُكَلِّمُونِ﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿إن الذين كفروا بآياتنـا سوف نُصْلِيهِمْ نارًا كلما نَضِجتْ جُلُودُهـم بدلناهم جلـودا غيرها ليـذقوا العـذاب ، إن الله كان عزيزا حكيما﴾ .

قال تعالى: ﴿والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بما كَسَبَا نَكَالا مِنَ اللهِ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِن اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رحيمٌ. أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد أن بشّع الله تبارك وتعالى جريمة الاعتداء على النفس، وشدد النكير على من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فسادا وشرع للزجر عن ذلك حد المحاربة وقطاع الطريق بأن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض، وحض المسلمين على تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه وحده والجهاد في سبيله ليفلحوا ويفوزوا، مما يقتضي صيانة الأنفس والأموال شرع هنا يبين حد السرقة ردعًا لمن يعتدي على الأموال المحروزة المصونة فيأخذها على طريق الخفية عقب بيان حكم من يعتدي على أموال المسلمين فيأخذها على طريق المحاربة وقطع الطريق، وأصل السرقة في اللغة هي: الأخذ خفية، وشرعا هي أخذ مال محروز قيمته ربع دينار فصاعدا على وجه الخفية وليس للآخِذ حق فيه ولا شبهة، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: ويقال لسارق الإبل الخارب بخاء معجمة، وللسارق في المكيال مطفف، وللسارق في الميزان مخسر، في أشياء أخرى ذكرها ابن خالويه في كتاب (ليس) قال المازري ومن تبعه: صان الله الأموال بإيجاب قطع سارقها، وخص السرقة لقلة ما عداها بالنسبة إليها من الانتهاب والغصب، ولسهولة إقامة البينة على ما عدا السرقة بخلافها، وشدد العقوبة فيها ليكون أبلغ في الزجر، ولم يجعل دية الجناية على العضو المقطوع منها بقدر ما يقطع به حماية لليد، ثم لما خانت هانت، وفي ذلك إشارة إلى الشبهة التي نسبت إلى أبي العلاء المعري في قوله:

يـدٌ بخمـس مئينٍ عسـجدٍ وُديـت ... ما بالهـا قطـعـت في ربـع دينـار

فأجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله:

صيانة العضو أغلاها، وأرخصها ... صيانة المال فافهـم حكـمة الباري

وشرح ذلك أن الدية لـو كانت ربع دينار لكثرت الجنـايات على الأيدي، ولو كان نصاب القطع خمسمائة دينار لكثرت الجنايات على الأموال، فظهرت الحكمـة في الجانبين، وكان في ذلك صيـانة مـن الطرفين اهـ هذا وفي روايـة أخـرى لبيت القـاضي عبـد الـوهـاب المالكي، وقيل هـو لعلَم الـدين السخاوي:

عز الأمـانة أغـلاها، وأرخصـها ... ذل الخيـانة فافهم حكـمة الباري

ومن قول القـاضي عبد الـوهاب في الـرد على شبهة أبي العـلاء المعري: لما كـانت أمينـة كـانت ثمينة، ولما خـانت هـانت. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿والسارق والسارقـة فاقطعوا أيديهما﴾ أي والرجل الذي يسرق فـاقطعوا يده والمرأة التي تسرق فـاقطعوا يـدها، والتنصيص على السـارقة مع أن الشريعـة جرت على إدراج النسـاء في الأحكام الـواردة في شأن الرجـال بطريق الـدلالة لمزيد الاعتنـاء بالبيان والمبـالغة في الزجـر، وتقديم الـرجال في الذكـر في باب السرقة لأن السرقة في الغالب تحتاج إلى الجرأة والرجال عليها أقدر، وقدم ذكر النساء في باب الـزنا على ذكر الرجـال حيث قال عز وجل: ﴿الـزانية والزاني فاجلـدوا كلَّ واحد منهما مـائة جلدة﴾ لأن الغـالب أن المرأة هي الأساس في باب الـزنا ولـو امتنعت ما وقعت الجريمـة غالبا. وجمع الأيـدي في قولـه عز وجل: ﴿فاقطعوا أيـديهما﴾ لأن العرب كانوا إذا ذكروا شيئـا مُوَحدًا من خَلق الإنسان مضافا إلى اثنين فصاعدا جمعوه فيقـولون: قد هشمنا رءوسهما وملأنا ظهورهما وبطـونهما ضربا وكما قـال عز وجل: ﴿فقـد صغت قلـوبكما﴾ وقد بينت السنة اليد التي تقطع كما بينت محل القطع، وقد أطبق علماء أهل السنة

والجماعة على أن يد السارق التي تقطع هي اليمنى وأن موضع القطع يكون من مفصل الكف من الساعد أي من الرسغ، كما بينت السنة النبوية النصاب الذي تقطع اليد بسرقته، فقد أخرج البخاري من طريق ابن شهاب عن عمرة عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: تقطع اليد في ربع دينار فصاعدا. ثم رواه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير وعمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قال: تقطع يد السارق في ربع دينار. ثم أخرجه من طريق محمد بن عبد الرحمن الأنصاري عن عمرة بنت عبد الرحمن حدثته أن عائشة رضي الله عنها حدثتهم عن النبي ﷺ قال: يُقطع في ربع دينار، أما مسلم رحمه الله فقد أورده من طريق ابن شهاب عن عروة وعمرة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا. وساقه كذلك من طريق الزهري عن عمرة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع السارق في ربع دينار فصاعدا. وساقه من طريق سليمان بن يسار عن عمرة أنها سمعت عائشة تحدث أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقطع اليد إلا في ربع دينار فما فوقه. وساقه من طريق أبي بكر بن محمد عن عمرة عن عائشة أنها سمعت النبي ﷺ يقول: لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعدا. ولا معارضة بين حديث عائشة هذا وبين ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قطع في مِجَنٍّ ثمنه ثلاثة دراهم. لأن ربع الدينار صرفه ثلاثة دراهم على أساس أن الدينار اثنا عشر درهما، هذا وإذا سقط القطع عمن سرق أقل من ربع دينار فإنه لا يسقط عنه التعزير الرادع له عن المعاودة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿جزاءً بما كَسَبَا نَكَالا من الله والله عزيز حكيم.﴾ أي مجازاةً على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك وهو اليد التي سرقت تنكيلا من الله

عز وجل بهما على ارتكاب جريمتهما والله غالب قاهر قادر على الانتقام ممن يخالف أمره ويعتدي على أموال الآخرين كما أنه جل جلاله حكيم في أمره ونهيه وشرعه وقدره فله الحمد وله الشكر. وفي تذييل الآية بقوله عز وجل ﴿والله عزيز حكيم﴾ إشارة إلى كمال تشريعه الذي يصون العباد والبلاد ويحفظ النفوس والأموال، وأن من اعتدى على شرع الله لن يفلت من العزيز الحكيم. ومن الأسرار البلاغية التي اشتمل عليها هذا التذييل ما حكى الأصمعي، قال: قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلت والله غفور رحيم سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: ﴿والله عزيز حكيم﴾ فقال: أصبت، هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: ياهذا، عز، فحكم، فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن تَابَ من بعد ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فَإِنَّ الله يتوبُ عليه، إنَّ الله غفور رحيم﴾ أي فمن ندم من السُّرَّاق من بعد ما سرق وعزم على ألا يعود، واستقام على المحافظة على حدود الله وحقوق عباده فإن الله عز وجل يقبل توبته لأنه عز وجل غفور رحيم، أما حد السرقة فإنه لا يسقط عن السارق إذا تاب مادام قد رفع إلى السلطان. قال ابن تيمية رحمه الله: فلا يجوز تعطيل الحد لا بعفو ولا بشفاعة ولا بهبة ولا غير ذلك، ولهذا اتفق العلماء ـ فيما أعلم ـ على أن قاطع الطريق واللص ونحوهما إذا رُفعوا إلى ولي الأمر ثم تابوا بعد ذلك لم يسقط الحد عنهم، بل تجب إقامته، فإن كانوا صادقين في التوبة كان الحد كفارة لهم، وكان تمكينهم من ذلك من تمام التوبة بمنزلة رد الحقوق إلى أهلها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تَعْلَمْ أنَّ الله له مُلْكُ السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، والله على كل شيء قدير﴾ الاستفهام فيه للتقرير

والمخاطب به النبي ﷺ وكل من يصلح له الخطاب، والمعنى: قد علمت أن الله لـه ملك السمـوات والأرض وهـو الذي يقضي بين خلقـه بحكمـه وهـو العليم القـديـر وفيـه ردع لليهـود والنصارى الـذين قـالـوا: نحن أبنـاء الله وأحباؤه، وتـأكيد لفت انتباه النـاس إلى كمال تشريع الله عز وجـل لهم، وأنه تبارك وتعـالى أعلم من خلقه بمصالحهم، وأنـه يضع لهم من الأنظمة ويبين لهم من التشريعات مـا يحمي به أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقـولهم، وأنه يفعل ما يشـاء ويحكم بما يريد عـدلا ورحمة، ومن ذلك تفريقـه عز وجل في الحكم بين من يحاربون الله ورسولـه ويسعون في الأرض فسادا وبين من يسرق أمـوال الناس، كما أنـه لعلمه بصـالحي عباده وطـالحيهم يتقبل من المتقين، ويبطل أعمال الكافـرين الجاحدين، وقال ابن جريـر رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبـو جعفر: يقول جل ثناؤه لنبيـه محمد ﷺ: ألم يعلم هؤلاء يعني القـائلين: ﴿لن تمسنـا النـار إلا أيـامـا معـدودةً﴾ الـزاعمين أنهم أبنـاء الله وأحبـاؤه، أن الله مدبـر ما في السمـوات وما في الأرض ومُصرِّفـه وخالقـه، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أراده، لأن كل ذلك ملكه، وإليه أمره، ولا نسب بينه وبين شيء ممـا فيهما ولا مما في واحدة منهما، فيحابيه بسبـب قرابته منه، فينجيه من عـذابه وهُوَ بِهِ كـافر، ولأمره ونهيه مخالف، أو يـدخله النار وهو له مطيع لبعد قرابته منه، ولكنه يعذب من يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بـالقتل والخسف والمسخ وغير ذلك من صنوف عذابـه، ويغفر لمن يشـاء منهم في الدنيـا بالتـوبة عليـه من كفره ومعصيتـه، فينقذه من الهلكـة وينجيه من العقـوبة ﴿والله على كل شيء قـدير﴾ يقـول: والله جل وعز على تعذيب من أراد تعذيبَه من خلقه على معصيتـه، وغفران ما أراد غفرانه منهم باستنقاذه من الهلكة بالتوبة عليه وغير ذلك من الأمور كلها قادر، لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والعباد عباده اهـ.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ومِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وإن لم تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا، وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزي ولهم فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.﴾

بعد البيانات الكثيرة المتقدمة المتضمنة مواساة رسول الله ﷺ فيما يلقاه من تعنت اليهود، وأشباههم من أعداء المرسلين، وبعد تقرير الأحكام الرادعة لمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأض فسادا، أو يسرق الأموال المصونة المحروزة، وبعد الترغيب في التوبة إلى الله عز وجل الذي له ملك السموات والأرض القادر على كل شيء الفعال لما يريد، نهى هنا رسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ عن التأثر والاكتئاب والحزن والمبالاة بسبب ما يلقاه من أعداء الله المسارعين في الكفر وبخاصة المنافقين واليهود حيث يقول عز وجل هنا: ﴿يـاأيها الرسول لا يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعُونَ في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا﴾ وفي خطاب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بعنوان الرسالة تشريف عظيم له ﷺ ومواساة شافية وإشعار بما يوجب عدم الحزن، وتقريع للمنافقين واليهود وغيرهم من المسارعين في الكفر الذين يكذبون رسول الله ﷺ، ولم يخاطب الله عز وجل رسوله محمدا ﷺ بوصف الرسالة في القرآن العظيم إلا في موضعين اثنين فقط أحدهما هنا والثاني في قوله تبارك وتعالى في نفس هذه السورة: ﴿ياأيها الرسولُ

بَلِّغ مَا أُنْزِلَ إليك من رَبِّكَ﴾ ومعنى: ﴿لا يَحْزُنْكَ الذين يُسَارِعُونَ في الكُفْرِ﴾ أي لا تهتم ولا تبال بتهافتهم في الكفر وسرعة انغماسهم في الضلال، قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للكفرة عن أن يحزنوه عليه الصلاة والسلام بمسارعتهم في الكفر لكنه في الحقيقة نهي له عليه الصلاة والسلام عن التأثر من ذلك والمبالاة بهم على أبلغ وجه وآكده، فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وقلع له من أصله، وقد يوجه النهي إلى المسبب ويراد به النهي عن السبب كما في قوله: لاأرينك ههنا يريد نهي مخاطبه عن الحضور بين يديه اهـ. وأصل المسارعة في الشيء الوقوع فيه بسرعة ورغبة، والتعبير بفي في قوله عز وجل: ﴿يسارعون في الكفر﴾ ولم يقل: يسارعون إلى الكفر للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر منغمسون فيه وإنما يتقلبون في أبوابه، ويتحولون من ضلال إلى ضلال، وقوله عز وجل: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قُلُوبهُم ومن الذين هادوا﴾ بيان للمسارعين في الكفر. والمراد بالذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: المنافقون، والمراد بالذين هادوا: اليهود. وقوله عز وجل: ﴿سَمَّاعُون لِلْكَذِبِ سماعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لم يَأْتُوكَ﴾ زيادة في تقرير مواساة رسول الله ﷺ وتثبيت فؤاده، بزيادة بيان صفات أعدائه التي تدل على أنهم منحطو التفكير، سيئو السلوك، مما يدعو إلى عدم المبالاة بهم، فبعد أن بيَّن عز وجل أنهم يسارعون في الكفر وأنهم إما ضعاف الشخصية منافقون، وإما يهود واليهود معروفون بالانغماس في تكذيب الأنبياء، والجرأة في الافتراء على الله وعلى رسله، وصفهم كذلك بأنهم مفتونون قد صرفت قلوبهم عن سماع الحق والاستجابة له، وأنهم يبالغون في الاستجابة والانقياد للباطل وقبول الكذب، وأنهم خاضعون منقادون لقوم بعيدين لا يَجْرُءُونَ على مواجهتك، متأثرون بما يدسه

لهم هؤلاء البعداء من أحبار السوء، وبما يزودونهم به من الأباطيل والشبهات والشهوات مما يظنون أنه يحزن رسول الله ﷺ ويرهقه ويحمله ما لا يطيقه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِه﴾ بيان لصفة أخرى قبيحة من صفات القوم الآخرين الجبناء عن مقارعة الحجة المكتفين بالدس وتحريف كلام الله الذي وضعه الله عز وجل مواضعه وأثبت ما أحله وما حرمه وما وضعه وبينه من الحدود والحقوق فاجترأ هؤلاء على الله عز وجل وحرفوا كلامه بتغيير حروف منه لا توافق شهواتهم، أو بتأويل كلام الله على غير المراد منه إمعانا في التضليل، وانغماسا في الشهوات، وإثارة للشبهات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَقُولُونَ إنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوه وإن لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا.﴾ هذه صورة من صور دس البعداء من أحبار السوء لرعاعهم وبيان لقبيحة من قبائح تحريفهم للكلم من بعد مواضعه، حيث كانوا قد غيروا حكم رجم الزانيين وبدلوه واصطلحوا فيما بينهم على جلد كل واحد منهما مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين فظن أحبار السوء هؤلاء أنهم ربما يتمكنون من الحصول على فتوى من محمد ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله، آملين أنهم إن تمكنوا من ذلك أصابوا هدفين برمية واحدة حيث روجوا باطلهم وأشاعوا السوء على رسول الله ﷺ، وجهلوا أن الله تبارك وتعالى قد عصمه من الناس، وحفظه من شر كل دساس، وقد حدث أن زنى رجل يهودي بامرأة يهودية فدس أحبار السوء إلى أتباعهم أن يحكِّموا محمدا ﷺ في شأن الزانيين، وقالوا لهم: إن حكم بالجلد والتحميم فاقبلوا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوا حكمه لأنه يكون مناقضا لحكم الله فاحذروا منه ولا تستمعوا له بعد ذلك، فكشف الله سترهم وأخزاهم وفضحهم فقد قال البخاري في المناقب من صحيحه: باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أبناءهم وإنَّ فريقا منهم ليَكْتُمُونَ الحقَّ وهم

يعلمون . ﴾ حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك بن أنس عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا، صدق يامحمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة.

وأخرجه مسلم من طريق نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسود وجوههما ونحمِّلهما ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين، فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه. كما روى مسلم من حديث البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلا من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال؟ لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف، فجعلنا التحميم والجلد

مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله: ﴿إنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ يقول: ائتوا محمدا ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَٰئك هم الكافرون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَٰئك هم الظالمون﴾ ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَٰئك هم الفاسقون﴾ في الكفار كلها. وقد بيَّن الله تبارك وتعالى أن سبب مسارعتهم في الكفر وانغماسهم في الكذب وانقيادهم لأحبار السوء، وموقف أحبار السوء من رسول الله ﷺ هو أنهم مفتونون مخذولون نجسو القلوب حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدِ الله فتنته فلن تَمْلِكَ له من الله شيئا، أولَٰئك الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّر قلوبَهم﴾ والمقصود من الإرداة هنا الإرادة الكونية القدرية، وقوله عز وجل: ﴿لهم في الدنيا خِزيٌ ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي لهؤلاء المنافقين واليهود فضيحة وذل وهوان في الدنيا عقوبة عاجلة، وقد أعد لهم في القيامة عذاب جهنم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿سَمَّاعُونَ للكذب أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ، فإن جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بينهم أو أَعْرِضْ عنهم وإن تُعْرِضْ عنهم فَلَن يَضُرُّوكَ شيئا وإن حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ، إن اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ زيادة تأكيد لقبح ما عليه المنافقون واليهود من الاستجابة للكذب والانقياد له مع ردهم للحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ومع ذلك فهم أكالون للسحت وهو الربا والرشوة وكل حرام خبيث يسحت آكله ويجلب له العار والخزي في الدنيا والآخرة، فقد جمع هؤلاء بين الغذاء الخبيث للقلب وهو الكذب والانقياد له وبين الغذاء الخبيث للجسم وهو استغراقهم في أكل السحت والمبالغة في تحصيله. وفي قوله عز وجل: ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا

ترافعوا إليه، فإن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ثم طمأنه عز وجل بأنه إن أعرض عنهم فلن يتمكنوا من إلحاق أي ضرر به ﷺ، ولا معارضة بين هذا التخيير وبين قوله عز وجل: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ لأنه ﷺ إذا اختار أن يحكم فلن يحكم بينهم إلا بما أنزل الله ولذلك قال هنا: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط، إن الله يحب المقسطين﴾ وقد أخبر الله عز وجل هنا أنه يحب المقسطين كما بشر رسول الله ﷺ المقسطين بأنهم على منابر من نور فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماوُلُّوا.

قال تعالى : ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُم يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاة فيها هُدًى ونُورٌ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِين هَادُوا والرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكانوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِأَيَاتى ثَمَنًا قَلِيلا ، وَمن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هم الْكَافِرُونَ . وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ والْعَيْنَ بالْعَيْنِ والأَنف بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ والسِّنَّ بالسن وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لـه ، وَمَن لم يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من قبائح أفعال اليهود وأقوالهم ، وأخزاهم وفضحهم ، عَجَّبَ هنا حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ من تناقضاتهم وسوء مكرهم حيث دس أحبار السوء إلى رعاعهم أن يحكموا رسول الله محمدا ﷺ في شأن الزاني والزانية من اليهود لعلهم يتمكنون من الحصول على فتوى منه ﷺ بتقرير ما حرفوه من شريعة الله وما غيروه من حدود الله ، ففضحهم الله عز وجل وأخزاهم وكشف سترهم وصاروا كعنز السوء التي بحثت بظلفها عن حتفها ، وبيَّن الله عز وجل أن حكم الله عز وجل في الزناة من رجمهم موجود في التوراة التي بأيديهم ، حيث يقول عز وجل : ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ فقد شاعت فضيحتهم وانكشف تناقضهم ، وأعز الله رسوله ﷺ ، وأظهره عليهم ، وقامت الحجة على المنافقين واليهود بأن محمدا ﷺ على صراط مستقيم . وقوله عز وجل : ﴿وعندهم التوراةُ فيها حُكْمُ الله﴾ أي وبأيديهم التوراة المشتملة على حكم الله في القضية التي حكموك فيها وهي أن حد الزاني الرجم ، وهذا يقرر أنهم لم يتمكنوا من تحريف التوراة تحريفا كليا ، وإنما وقع التحريف في بعض ألفاظها ، وأن

بعض الأحكام التي شرعها الله عز وجل لبني إسرائيل في التوراة لم تتبدل كرجم الزناة والقصاص، وإن كان أحبار السوء قد انحرفوا عن العمل بها فبدلوا الرجم بتسويد وجه الزاني وتشهيره وجلده، كما أن بعض صفات رسول الله ﷺ قد بقيت في التوراة وإن حاول اليهود كتمان كل صفة تدل عليه ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿ثم يَتَوَلَّوْنَ من بعد ذٰلك، وما أولٰئك بالمؤمنين﴾ تقريع لهؤلاء اليهود الذين علموا أن رسول الله ﷺ إنما يحكم بحكم الله، ومع ذلك لا يسارعون إلى الإيمان به والاستجابة له وإنما يزدادون إعراضا عن الحق، وبعداً عن الإيمان، ولذلك قال: ﴿وما أولٰئك بالمؤمنين﴾ قال ابن جرير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وما أولٰئك بالمؤمنين﴾ يقول: ليس من فعل هذا الفعل أي من تولى عن حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه في خلقه بالذي صدق الله ورسوله فأقر بتوحيده ونبوة نبيه ﷺ لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فيها هُدًى ونورٌ﴾ ثناء من الله عز وجل على التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام وأنها نزلت مشتملة على الهدى والنور، فهي تدل على الطريق المستقيم وتهدي إلى الرشد وتنير للسالكين منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي هذا تنديد باليهود الذين انحرفوا عنها وحرفوا كلمها من بعد مواضعه، وسلكوا طرقا معوجة دعاهم إليها أحبار السوء وأصحاب التلمود. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يحكم بها النَّبِيُّونَ الذين أسلموا للذين هَادُوا﴾ أي يقضي بها أنبياء الله ورسله المنقادون لأمر الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وينفذون أحكامها في بني إسرائيل الذين تهودوا، لا يفرقون في ذلك بين شريف وضعيف. وقوله عز وجل: ﴿والربانيون والأحبار بما اسْتُحْفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي ويقضي بالتوراة أيضا فقهاء بني إسرائيل العارفون بالله وعلماؤهم بسبب انقيادهم لأمر الله الذي عهد إليهم أن

يحفظوا كتـابه من التحـريف والتبديل ولا يبـدلوه ولا يضيعـوه، وكانـوا عليه رقباء يحمونه من التغيير والتبديل ويشهدون أنه حق، وقوله عز وجل: ﴿فلا تَخْشَوُاْ الناسَ واخشونِ ولا تَشْتَرُوا بآيـاتي ثمنا قليلا﴾ تثبيت لأفئدة المسلمين وتحذيـر لهم من تضييع كتاب الله وحـدوده لسبب من رهبة أو رغبـة وتنديـدٌ بأحبـار السوء من اليهـود الـذين ضيعوا حـدود الله وحـرفوا الكلم من بعـد مـواضعـه قـال الفخر الـرازي رحمه الله: واعلم أنـه تعـالى لما قـرر أن النبيين والربانيين والأحبار كانوا قائمين بإمضاء أحكام التوراة من غير مبالاة خاطب اليهود الـذين كانـوا في عصر رسول الله ﷺ ومنعهم من التحـريف والتغيير، واعلم أن إقدام القـوم على التحريف لابد وأن يكـون لخوف ورهبة، أو لطمع ورغبة، ولما كان الخوف أقـوى تأثيرا من الطمع قدم تعالى ذكـره فقال: ﴿فلا تخشوُا الناسَ واخْشوَنِ﴾ والمعنى: إياكـم وأن تحرفوا كتابي للخوف من الناس والملوك والأشراف فتسقطوا عنهم الحدود الواجبة عليهم وتستخرجوا الحيل في سقوط تكـاليف الله تعالى عنهم، فـلا تكونوا خـائفين من الناس، بل كـونوا خائفين مني ومن عقابي. ولما ذكـر أمر الرهبة أتبعه بأمر الـرغبة فقال: ﴿ولا تَشْتَرُوا بـآياتي ثمنـا قليـلا﴾ أي كما نهيتكم عن تغيير أحكـامي لأجل الخوف والـرهبـة فكـذلك أنهاكم عـن التغيير والتبـديل لأجل الطمع في المال والجاه وأخذ الـرشوة، فإن كل متـاع الدنيـا قليل، والرشوة التي تـأخذونها منهم في غاية القلة. والرشوة لكونها سحتا تكون قليلة البركة والبقاء والمنفعة، فكذلك المال الذي تكتسبونه قليل من قليل، ثم أنتم تضيعـون بسببه الدين والثواب المؤبد والسعـادات التي لا نهاية لها اهـ ومن المقرر عنـد أهل العلم أن خوف السر من غير الله شرك أكبر ومعنى خـوف السر: أن يخاف العبـد من غير الله تعـالى أن يصيبه مكـروه بمشيئتـه وقدرتـه وإن لم يبـاشره، لأنه اعتقـاد للنفع والضر في غير الله تعالى ولذلك حذر تبارك وتعالى من ذلك في غير موضع من

القرآن العظيم كما قال تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فارهبونِ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كَاشِفَ له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله، يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم.﴾ وقال هنا: ﴿فلا تَخْشَوُا الناسَ واخْشَوْنِ﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الكافرون﴾ أي ومن لم يرض بحكم الله وشرعه وحَكَم بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم غير الله أحسن من حكم الله فهو الكافر المارق من دين الله، وقد وصف الله عز وجل في هذا المقام من حكَم بغير ما أنزل بأنه كافر كما ذكر في هذه الآية، ووصفه بأنه الظالم كما ذكر في تذييل الآية التي تليها حيث قال عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ ووصفه بأنه الفاسق حيث يقول عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ وفي هذا وعيد عظيم لمن عدل عن حكم الله عز وجل وحكم بالطاغوت، وسياق الآيات وإن كان في اليهود والنصارى فإن عموم اللفظ ووجوب تحكيم شرع الله والرضا به يقتضي شمول هذا الوعيد لكل من لم يحكم بما أنزل الله سواء كان من الأمم السابقة أو من أمة محمد ﷺ، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هٰذا ما كَنَزْتُم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ فإن السياق وإن كان في الأحبار والرهبان لكنه ورد بلفظ العموم الذي يشمل كل من فعل ذلك. وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ أن التعبير بقوله: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ إشعار بأن مجرد الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت كفر، فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعلا؟ فذلك لا شك أقبح وأبشع وأعظم جرما وأشد كفرا. كما قلت في تفسير قوله

عز وجل: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ هذا قسَم من الله عز وجل بأجل مقسم به وهو نفسه المقدسة وبوصف وعنوان ربوبيته لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد ـ مهما كان ـ إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ، ولابد كذلك أن ينشرح صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجا من أي حكم من أحكامها، بل يكون تلقيه له بالقبول والرضى وانشراح الصدر وأن يسلم بذلك تسليما وينقاد انقيادا، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحا وسعادة وعدلا وإنصافا وحقا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ إلى آخر الآية أي وفرضنا على بني إسرائيل في التوراة أن من قتل نفسا عدوانا وظلما قتل بها ومن فقأ عينا بغير حق تفقأ عينه وأن الأنف يجدع بالأنف وأن الأذن تقطع بالأذن وأن السن تقلع بالسن وكذلك كل ما يمكن فيه التماثل إذا حصل ذلك عدوانا وظلما. ومعنى ﴿والجروحَ قصاص﴾ أي وسائر الجراحات التي يمكن القصاص فيها والمماثلة ففيها القصاص كالشفتين واللسان والأنثيين والقدمين واليدين وغيرهما، فأما ما لا يمكن القصاص فيه من رض في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منه التلف إن اقتص منه ففيه أرش وحكومة، وفي قوله عز وجل ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ الآية توبيخ آخر شديد لليهود، فبعد أن وبخهم على تركهم ما كتبه عليهم من رجم الزاني، حيث بدلوه بالجلد والتحميم والتشهير وبخهم في هذه الآية أيضا بتعديهم على ما كتبه الله عليهم في التوراة من قصاص النفس بالنفس حيث لم يرض بنو النضير بذلك ظلما وعدوانا وجعلوا النفس من بني النضير بنفسين من بني قريظة ولا

يقتلون النضري إذا قتل القرظي، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ أي فمن عفا عن القصاص ممن تعدى عليه وتجاوز له عن القود أو الأرش فإن الله تبارك وتعالى يكفر ذنوب هذا الذي عفا، لأنه عز وجل يحب العفو، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي ومن أعرض عن التحاكم إلى شريعة الله ولم يرض بقضاء الله فأولئك هم المبالغون في الظلم المتعدون لحدود الله الواضعون للشيء في غير موضعه.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ من التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَموعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ. وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بما أنزَلَ اللهُ فِيهِ، وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

بعد أن وبخ الله عز وجل اليهود على انحرافهم عن كتاب الله واستغراقهم في الكذب مع المنافقين، وتحريفهم لكلام الله من بعد مواضعه، وتغييرهم لما شرعه الله عز وجل وكتبه عليهم في التوراة من رجم الزاني والقصاص في القتلى والجروح، وبيَّن أنهم لم يهتدوا بهدَى التوراة ولم يستنيروا بنورها وحكم عليهم بأنهم كافرون ظالمون شرع هنا في الحديث عن عيسى ابن مريم الذي جاء عقب أنبياء إسرائيل الذين حكموا بالتوراة وأن عيسى عليه السلام جاء مصدقا للتوراة وأن الله عز وجل أعطاه الإنجيل المشتمل على الهدى والنور وأن الإنجيل موافق لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والعرض والمال وما يصونها من الحدود، وإن اقتضت حكمة الله عز وجل أن يبيح لعيسى عليه السلام وأمته بعض ما كان محرماً على بني إسرائيل حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وقَفَّيْنَا على آثارهم بعيسى ابنِ مريمَ مُصَدِّقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيلَ فيه هُدًى ونُورٌ﴾ الآيتين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقَفَّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي وبعثنا

عيسى ابن مريم وأرسلناه إلى بني إسرائيل عقيب أنبيائهم ورسلهم الذين حكموا بالتوراة، وجاء عيسى عليه السلام مصدقا لكتابنا الذي أنزلناه من قبله على موسى عليه السلام مؤمنا بأنه كلام الله وأنه حق وأنه هدى ونور، وأعطينا عيسى عليه السلام الإنجيل المشتمل على الهدى والنور فهو هدًى يهدي إلى الحق وهو نور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ويخرج من اتبعه من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والمعرفة وكمال البصيرة، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمُصَدِّقًا لما بين يديه من التوراة وهُدًى وموعظةً للمتقين﴾ أي وآتينا عيسى الإنجيل المشتمل على الهدى والنور حالة كون هذا الإنجيل مصدقا وموافقا لما في التوراة من أصول قواعد الدين وحفظ الكليات الخمس التي لا سعادة للبشرية في دينها ودنياها إلا بصيانتها وحالة كون هذا الإنجيل هدى وكونه زاجرًا عن المعاصي لمن يخافون الله عز وجل إذ هم الذين يستفيدون من شريعة الله ويستضيئون بأنوارها ومعارفها، وقد وصف الله تبارك وتعالى الإنجيل في هذا المقام بهذه الصفات الخمس وهي كونه مشتملا على الهدى ومشتملا على النور وكونه مصدقا لما بين يديه من التوراة وكونه في نفسه هدى وكونه موعظةً أي مشتملا على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة. وقوله عز وجل: ﴿ولْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ أي وأمرنا أتباع الإنجيل بأن يلتزموا بأحكامه وأن يقفوا عند حدوده، وأن يحلوا حلاله وأن يحرموا حرامه، وأن يؤمنوا بكل ما أوجب عليهم الإيمان به، مما يحتم عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ الذي لم يكتف مَنْ أنزل الله عليه الإنجيل أن يشير إليه إشارة بل حدد لهم اسمه بأفصح عبارة ولم يخبرهم بذلك سرًّا بل خطب بذلك في بني إسرائيل علانية وجهرا فقال: ﴿يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فمن استجاب

لمحمد ﷺ من معاصريه وممن جاء بعدهم إلى يوم القيامة من النصارى فقد ارتضى حكم الإنجيل ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالإنجيل وفسق عن أمر الله . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولٰكن ليبلوكم فيما آتاكم فَاسْتَبِقُوا الخيرات﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقا لما بين يديه من الكتاب﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقا عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الذين أُوتُوا الْعِلْمَ من قبله إِذَا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّدًا ويقولون سبحان ربنا إِنْ كان وعدُ رَبِّنَا لمفعولا﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيئ محمد عليه السلام لمفعولا أي لكائنا لا محالة ولابد اهـ ويلاحظ أن الله تبارك وتعالى سمى في هذا المقام كتابه الذي أنزله على موسى باسم التوارة وسمى كتابه الذي أنزله على عيسى باسم الإنجيل وأطلق على كتابه الذي أنزله على محمد عليه السلام اسم الكتاب إشارة إلى أن القرآن العظيم هو الفرد الكامل الحقيق بأن يسمى كتاباً على الإطلاق لتفوقه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضل الكتب وقد أنزله الله عز وجل على أفضل الرسل عليهم الصلاة

والسلام، وقد خصه الله عز وجل بمزايا لا توجد في غيره، من العموم والشمول والدوام والبقاء والصلاح لكل عصر ومصر وجيل وقبيل فلا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وإذا نزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حكم به ولا يحكم بكتاب سواه. ومعنى قوله: ﴿ومُهَيْمِنًا عليه﴾ أي ورقيبا على سائر النصوص السماوية المحفوظة عن التغيير حيث يشهد لها بالصحة ويقرر أنها حق من عند الله، وهو أمين عليها باقٍ في الإشادة بها لأنه محفوظ عن التغيير والتبديل والتحريف كما قال عز وجل: ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب يقال إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده: قد هيمن فلان عليه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَاحْكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُم عما جَاءَكَ من الحقِّ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزله إليه وهو القرآن الذي خصه بشريعته، يقول تعالى ذكره: احكم يامحمد بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح، والقود والنفوس، فارجم الزاني المحصن واقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلما، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف، فإني أنزلت إليك القرآن مصدقًا في ذلك ما بين يديه من الكتاب، ومهمينا عليه، رقيبا يقضي على ما قبله من سائر الكتب قبله، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود ـ الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا ـ عن الذي جاءك من عند الله من الحق وهو كتاب الله الذي أنزله إليك، يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم، ولا تتركن العمل بذلك اتباعاً منك

أهواءهم، وإيثارا لها على الحق الذي أنزلته إليك اهـ وقوله عز وجل: ﴿لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجا﴾ أي اقتضت حكمتنا أن نبعث لكل أمة رسولا منهم وخصصناه بشريعة ومنهاج ونظام ملائم لهم، يتناسب مع جيلهم وقبيلهم وحالهم، ولا معارضة بين قوله عز وجل هنا: ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ وبين قوله عز وجل: ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تَتَفَرَّقُوا فيه﴾ وقوله تبارك وتعالى بعد ذكر جماعة من المرسلين: ﴿أولَئك الذين هَدَى اللهُ فبهداهم اقْتَدِه﴾ إذ أن جميع الأنبياء متفقون في أصول الدين وقواعد السلوك وتحريم الفواحش والمحافظة على النفس والدين والعقل والعرض والمال، أما في الفروع فقد اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يبعث كل رسول بشريعة تلائم قومه، ولما كان محمد ﷺ خاتم النبيين جعل الله عز وجل شريعته وافية بجميع حاجات البشر في سائر الأعصار والأمصار صالحة لكل زمان ومكان وجيل وقبيل، لا تنسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر وتفنى الدنيا، وتنتهي الحياة على الأرض، والشريعة والشرعة هي الطريقة الظاهرة الواضحة التي يتوصل بها إلى النجاة. وأصل الشرعة والشريعة في كلام العرب: مشرعة الماء وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عِدًّا لا انقطاع له ويكون ظاهرا مَعينا لا يسقى بالرِّشاء، والمنهاج هو الطريق الواضح البيِّن المستقيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدةً ولَكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات﴾ الآية. أي ولو أراد الله تبارك وتعالى جعلكم أمة واحدة على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ منها شيء لفعل ذلك ولجعلكم أمة واحدة ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى

نسخ الجميع بشريعة عبده ورسوله وأكمل خلقه محمد ﷺ الذي بعثه إلى أهل الأرض قـاطبـة وختم به النبيين ، وقـد شرع عـز وجل الشرائع مختلفـة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم على طاعته ويعـذبهم على معصيته ، وقد اقتضت حكمته ذلك حيث شرع لكل أمة ما يـلائمهم ، فسارعوا إلى الخيرات وبادروا إلى اكتساب المبرات بطاعـة الله عز وجل وطاعة رسولـه محمد ﷺ فإن مردكم ومصيركم إلى الله عز وجل وسيحاسبكم على ما قدمتم وما أخرتم .

قال تعالى: ﴿وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بما أَنزَلَ اللهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. أَفَحكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

بعد أن أثنى الله عز وجل على كتابه الكريم المنزل على نبيه العظيم سيد الخلق وأفضل الرسل ووصَف هذا الكتاب العظيم بأنه مصدق للكتب السماوية ومهيمن عليها حيث اشتمل على ما فيها من الحق الثابت وبيَّن ما ألحقه أحبار السوء بها من التحريف والتغيير والتأويل الفاسد، واحتوى القرآن على جميع ما يحتاجه الناس لمعاشهم ومعادهم إلى يوم القيامة، وأشار إلى علوم الدنيا والآخرة التي لم تذكر في كتاب سماوي سواه كما أقر بذلك المنصفون من غير أتباعه، وقد نقلت الصحف السعودية الصادرة في يوم الجمعة الموافق للثامن من شهر صفر سنة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة عن رئيس ألمانيا الغربية أنه ذكر أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي فسر علم الأجنة حيث قالت هذه الصحف: اعترف رئيس جمهورية ألمانيا الغربية «ريتشارد فايتسكر» أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي استطاع أن يفسر علم الأجنة، وقال الرئيس الألماني الذي كان يتحدث في ندوة عقدها مع طلبة وطالبات الجامعات الألمانية: إن هذا العلم عجز عن تفسيره العلماء حيث لم يشر إليه غير الكتاب الكريم وهو كتاب الله عز وجل اهـ وبعد ثناء الله عز وجل على هذا القرآن العظيم وأمر نبيه ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بهذا الكتاب العظيم وتحذيره ﷺ من اتباع أهوائهم المنحرفة عن الهدى والعدل المائلة إلى الشهوات والشبهات بعد ذلك كله أعاد التأكيد على رسوله سيد البشر محمد ﷺ أن

يلتزم بأحكام هـذا القرآن وأن يحذر من اتباع أهواء أعـداء الله الذين يحرصون على فتنته ﷺ ولـو عن بعض ما أنزل الله، حيث يقول عـز وجل هنا: ﴿وأَنِ احكُمْ بينهم بما أنزل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ واحْـذَرْهُمْ أن يَفْتِنُوكَ عن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأن اقض بينهم بـالقرآن الذي أنزلـه الله عز وجل عليك واتبع تعـاليمـه، ولا تنقـد لآراء وشهـوات الـذين لم ينقـادوا للحق من أهل الكتاب وغيرهم، وكـن على حذر منهم فإنهم يحرصـون على أن يصرفوك عن أحكـام الله وحدوده التي أنـزلت إليك أو عن بعضها إن عجـزوا عن صرفك عن جميعها، وأن في قـوله عـز وجل: ﴿وأن احكم بينهم﴾ مفسرة بمعنى أي كقوله عز وجل: ﴿فأوحينـا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ ومجيء أن في هـذا المقام لتأكيـد وجـوب الحكم بما أنـزل الله حيث اشتمل قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنـزل الله﴾ بعد قولـه تعالى في الآية السـابقة: ﴿فَاحْكُمْ بينهم بما أنـزل الله﴾ على مزيد من تأكيد الحكم بما أنـزل الله، وهو يلفت الانتباه إلى أنه يتحتـم على كل من يريد العدل والإحسـان ألا يحيد قيد أنملة عـن الحكم بكتاب الله، وأن الذيـن في قلوبهم مرض لا يحبـون الحكم بشريعة الله ويحملهم انقيادهم لأهوائهم على محاولة صرف قضاة الشريعة عن التحاكم إليها، والاحتكام بها، وأنهم إن عجزوا عن صرف الناس عن جميعها فسيحـاولـون صرفهم عن بعضهـا، ولـذلك لفت الله عـز وجل الانتبـاه إلى وجـوب مـلازمـة الحكم بما أنــزل الله حيث أورد ذلك بأمـر ونهي وتحذيـر متتـابعـات حيث قـال عـز وجـل: ﴿وأن احكم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعـض ما أنزل الله إليك﴾ مع ما اشتملت عليه الآية السابقة من لفت الانتبـاه إلى ذلك. وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب لمن فعل ذلك أو انقاد له مصائب عاجلة وبلايا ورزايا تنزل بساحتهم حيث يقول عز وجل هنا: ﴿فإن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما

يريدُ اللهُ أن يُصِيبَهُم ببعض ذنوبهم﴾ أي فإن أعرضوا عن الحكم بشريعة الله المنزلة على أفضل خلقه محمد ﷺ فأيقن أن الله عز وجل سيصيبهم بمصائب عقوبة لهم على بعض ذنوبهم مع ما يدخره لهم من عذاب جهنم في الآخرة وفيه إشارة إلى أن بعض الذنوب يعجل الله عقوبة أهلها مع ما يدخره لهم في الآخرة كالحكم بغير ما أنزل الله، لأن ذلك يشتمل على البغي على شريعة الله وهو أفحش البغي، وقد روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح من حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿ياأيها الناس إنما بَغْيُكُمْ على أنفسكم متاعَ الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون.﴾ وقد أشار الله عز وجل في غير موضع من كتابه إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله يجلب على أهله مصائب وبلايا عاجلة إشعارا بفداحة جرم تحكيم أهواء الناس وشهواتهم والإعراض عن تحكيم شريعته حيث يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ إليك وما أُنزِلَ من قبلك يريدون أن يتحاكَمُوا إلى الطاغوت وقد أُمِرُوا أن يكفروا به ويريد الشيطانُ أن يضلهم ضلالا بعيدا * وإذا قيل لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيتَ المنافقين يَصُدُّونَ عنك صدودا * فكيف إذا أصابتهم مُصِيبَةٌ بما قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ثم جَاءُوكَ يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولَئك الذين يَعْلَمُ اللهُ ما في قلوبهم فأَعْرِضْ عنهم وَعِظْهُم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا * وَمَا أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جَاءُوكَ فاسْتَغْفَرُوا اللهَ واستغفر لهم الرسولُ لَوَجَدُوا اللهَ توابا رحيما * فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجًا مما قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ والإرادة في قوله عز وجل: ﴿يريدُ اللهُ أن

يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ هي الإرادة الكونيـة القدرية، وفي ذلك لفت انتباه إلى عدله وأنه لا يظلم أحدا، والتعبير بـالبعض في قوله: ﴿ببعض ذنوبهم﴾ إشعار بفـداحة جـرم من يعرض عن تحكيم شريعـة الله، والإشارة إلى أن لهم ذنـوبا كثيرة ولـو يؤاخـذهم الله بجميع ذنوبهم مـا ترك على ظهـرها من دابـة منهم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإنَّ كثيرا من النـاس لَفَاسِقُـونَ﴾ هذه جملـة اعتراضية تذييلية لتقرير مضمون مـا قبلها مشتملة على مواساة رسول الله ﷺ ممـا يـلاقيه من عنت اليهـود وغيرهم، أي وإن كثيرا من النـاس لمتمـردون في الكفر مصرون عليه، خارجـون عن الحدود التي شرعها الله عز وجل لعباده، منحـرفـون عن الحق إلى الضـلال، وعـن النـور إلى الظلمات، نـاكبـون عن الهدى، كما قال عـز وجل: ﴿وما أَكْثَرُ النـاسِ وَلَوْ حَـرَصْتَ بمؤمنين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿وإن تُطِعْ أَكْثَـرَ مَن في الأرض يضلـوك عن سبيل الله، إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلا يَخْرُصُونَ﴾ والكيِّس من الناس من اتبع الحق ولو كان مع رجل واحد، واجتنب الباطل ولـو كان عليه الكثير من الناس، وكما أشار إلى ذلك العليم الحكيم حيث قال: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ وكما قال دواد عليه السلام فيما حكى الله عز وجـل عنه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات وقليل مـا هم﴾. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿أَفَحُكْمَ الجاهليـة يبغون﴾ أي أيريدون التحاكم بأحكام أهل الجاهلية الذين لا يؤمنون بكتاب ولا ينقادون لـرسول، وإنما يبنـون أحكامهم على الهوى والجهـل، والمداهنة، والاستفهام للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم، والتوبيخ لهم، فإن التولي عن حكم رسـول الله ﷺ منكـر فظيع عجيب، وطلب حكم الجاهليـة أقبح وأعجب وأغـرب وأعظم كفـرا وأشـد فسقـا وظلما. قـال ابن كثير رحمه الله: وقـولـه تعالى: ﴿أفحكم الجاهليـة يبغـون، ومَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لقـوم يُـوقِنُونَ﴾ ينكـر تعالى على من خـرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل

خير، النـــاهي عن كل شر، وعَـــدَل إلى مـــا ســـواه من الآراء والأهـــواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهليـة يحكمـون بـــه من الضـلالات والجهـالات مما يضعــونها بـآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم بـه التتار من السيـاسات الملكيـة المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) وهـو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانيـة والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكـام أخذها من مجرد نظـره وهواه، فصارت في بنيـه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كـافر يجب قتـاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسـوله، فـلا يُحكِّم سواه في قليل ولا كثير، قال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يَبْغُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلـون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ من الله حُكْمًا لقوم يـوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعـه وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الـوالدة بـولدها، فإنـه تعالى هـو العالم بكل شيء، القــادر على كل شيء، العـــادل في كل شيء اهــــ ولاشك أن الجاهلية لا يـرضى عاقل أن ينقاد لأحكـامها سواء كـانت جاهلية عـربية أو كانت جـاهلية أعجميـة، وسواء كـانت جاهليـة قديمـة أو كانت جـاهلية حديثة، إذ كلها تدور في فلك الهوى والجهل مبتعدة عن المنهج الذي وضعه الحكيم العليم الخبير بطبـائع خلقـه، ومصـالح عبـاده، ومن الـمُجرَّبات المسلَّمات أن جميع القوانين الوضعية لا بقاء لها ولا دوام ولا شمول ولا تربي في نفوس الناس مـا تربيه شريعة الله في نفـوسهم من النفور من الجرائم في السر والعلن، والغيب والشهـادة، ولـذلك عــد رسـول الله ﷺ فيمن هم أبغض النـاس إلى الله من ابتغى في الإسـلام سنـة الجاهلية، فقـد روى البخـاري في صحيحـه من حـديث ابـن عبـاس رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال:

أبغض النـــاس إلى الله ثـلاثـة : ملحـــد في الحرم، ومبتغ في الإســـلام سنـة الجاهلية، ومُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق ليهريق دمه .

قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ، بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسَى اللهُ أن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ* وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ .

بعد أن أوضح الله عز وجل انحراف اليهود عن التوراة، وانحراف النصارى عن الإنجيل، وحذر رسوله ﷺ عن اتباع أهوائهم، وشدد النكير على من حكم بغير ما أنزل الله، ووصف من ينحرف عن الحكم بما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ بأنه راغب في حكم أهل الجور والضلال من الجاهليين، معرض عن حكم الله الذي هو أحسن الأحكام وأتقنها وأعدلها وأرحمها وأشملها وأدقها وأبقاها وأنقاها وأوفاها بمصالح العباد والبلاد مما يقر به أهل اليقين والبصيرة، وجه الخطاب هنا للمؤمنين كافة ونهاهم عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وندد بالمنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يتخذون اليهود والنصارى أولياء حيث يقول عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ أي يامعشر من آمن بالله ورسوله محمد ﷺ وانقاد لأحكام الله وشريعة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى بطانة لكم وأحبابا وأنصارا وحلفاء على أهل الإيمان، لأنهم لا يألونكم خبالا ويتمنون عنتكم ومشقتكم، ويحرصون على إلحاق الأذى بكم وقوله تبارك وتعالى : ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ مسوق لتعليل النهي وتأكيد إيجاب الاجتناب عن المنهى عنه، والمراد أن اليهود مطبقون على عداوتكم لا تجدون يهوديا واحدا يواليكم وأن النصارى مطبقون على عداوتكم لا تجدون نصرانيا

واحدا يواليكم، ومع أن النصارى يعادون اليهود كما أن اليهود يعادون النصارى لكنهم قد اتفقت كلمتهم على عداوتكم ومضارتكم يبذلون كل ما يطيقون في إلحاق الأذى والعنت والغوائل بكم فكيف يليق بمن آمن بالله ورسوله محمد ﷺ أن يوالي من يعادي الله ورسوله ﷺ، وليس المراد أن اليهود أولياء للنصارى ولا أن النصارى أولياء لليهود، وإنما سيق الكلام على سبيل الإجمال تعويلا على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين اليهود والنصارى وأن ذلك من البدهيات المسلمات، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ تحذير شديد من موالاة اليهود والنصارى، وزجر أكيد للمؤمنين عن إظهار صورة الموالاة لهم وإن لم تكن موالاة في الحقيقة، فإن من والاهم صار حريا أن يعد منهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من خالطت قلبه بشاشة الإيمان لا يتأتى منه أن يوالي أعداء الله مهما كان، حيث يقول عز وجل: ﴿لا تَجِدُ قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ولو كانوا آباءَهُمْ أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عَشِيرَتَهُمْ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً، ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ، وإلى اللهِ الْمَصِيرُ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي إن الله عز وجل اقتضت حكمته وعدله ألا يعين القوم المعتدين على الخير وألا يسددهم وألا يوفقهم إلى الرشد، والمراد بالهداية هنا هي هداية التوفيق والتسديد والإعانة قال أبو السعود العمادي: وقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين﴾ تعليل لكون من يتولاهم منهم، أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تنبيها على أن توليهم ظلم، لما أنه تعريض لأنفسهم للعذاب الخالد، ووضع للشيء في غير موضعه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فترى الذين

في قلوبهم مَرَضٌ يُسَارِعُون فيهم يقولون نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ، فَعَسى اللهُ أن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِن عِندِهِ فَيُصْبِحُوا على ما أَسَرُّوا في أنفُسِهِمْ نادِمِينَ﴾ مزيد تشنيع على من يتولى أعداء الله وينحرف عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين، وبيان لذبذبة هؤلاء الذين لا يميلون للحق ولا يتبعون الهدى، وإنما يوالون اليهود والنصارى ويندفعون في الالتصاق بهم توهما منهم أن الدولة ستكون لهم، وأن المال والغنى بأيديهم، وقد خابوا وخسروا، فنصر الله عز وجل رسوله والمؤمنين، وأذل اليهود والنصارى والمنافقين، والمخاطب بقوله عز وجل: ﴿فتَرَى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾ هو رسول الله ﷺ وكل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب، والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، فالمراد بالمرض النفاق الذي يصيب القلب فيكون أخطر عليه من جميع الأمراض الحسية التي تصيب القلب اللحمي الصنوبري الشكل، ومعنى: ﴿يسارعون فيهم﴾ أي يندفعون في موالاتهم والالتصاق بهم والتودد إليهم وإظهار محبتهم، وقوله عز وجل: ﴿يقولون نَخْشَى أن تُصِيبَنَا دائرةٌ﴾ أي يقول هؤلاء المنافقون في تعليل اندفاعهم في موالاة اليهود، والنصارى: إننا نتولاهم ونتودد إليهم مخافة أن تدور علينا الدوائر وأن يصيبنا الدهر بمكروه وأن يجور علينا الزمان لأنه إذا أصابنا شيء من ذلك كانت لنا يد عند اليهود والنصارى فيدفعون الشر عنا ويمدون يد العون والمساعدة لنا، وهذا ولا شك بسبب مرض قلوب هؤلاء المنافقين وعدم يقينهم بنصرة الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين، ولذلك عجل الله مساءة هؤلاء المنافقين ببيان أن الفتح قريب وأن الغلبة والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن المنافقين لن يفروا من عقوبة الله حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فَعَسَى اللهُ أن يَأْتِيَ بالفتح أو أمرٍ من عنده فَيُصْبِحُوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمين﴾ أي فلعل الله أن يجيء لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالنصر من عنده أو عقوبة تنزل باليهود والنصارى

وتخزي المنافقين حتى يصيروا مفعمين حسرة وندما بعد زوال ما تعلقوا به، وتُنَبِّهُ الغافلين إلى أن حزب الله هم الغالبون، وأن وعد الله حق حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادنا المرسلين * إنهم لَهُمُ المنصورون * وإن جُنْدَنا لَهُمُ الغالبون﴾ وقد صدق الله وعده، ونصر رسوله وجاء بالفتح لعباده المؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وارتفعت راية الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، في وقت قصير من ظهور الإسلام، حتى قال هارون الرشيد وقد رأى سحابة تمر من فوق رأسه: سيرى أينما شئت، وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك، ولا يزال اسم الإسلام عزيزا ولله الحمد والمنة، وسيستمر عزيزا كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى حبيب الله ورسوله وسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه من حديث معاوية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله. وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون. وفي لفظ للبخاري من حديث معاوية رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك. وفي لفظ للبخاري من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون. كما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك. وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم

أمر الله وهم ظاهـرون. وفي لفـظ لمسـلم من حديث معاويـة رضـي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لاتزال طـائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهـم من خذلهم أو خـالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهـرون على الناس، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُ الذين آمنوا أَهـٰؤُلاءِ الذين أَقْسَمُوا بـالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ استئناف لبيان ما صار إليـه المؤمنون من العزة والثبات على الحق، ومـا صار إليه المنـافقون من الحسرة والنـدامـة والخسران، وتعجب المؤمنين من جـرأة المنـافقين في الحلف بالله كذبـا بأنهم مؤمنون وأنهم مع المسلمين وتأكيد أيمانهم الفـاجرة بألوان من التأكيد إمعانا في إخفاء نفاقهم، ففضحهم الله، وأخبر عز وجل أن المنافقين قد خسروا صفقتي الدنيا والآخرة إذ أبطل الله عـز وجل ما بذلوه من صلاة أو زكـاة أو أعمال برٍّ، لأنها لم تكن لله عـز وجل وإنما كـانت رياء ونفـاقا، وقـد قضى الله عز وجل أنـه لا يقبل من أحد عملا إلا إذا كـان خالصا لـوجه الله وصـوابا على منهـج رسول الله ﷺ. والمشـار إليـه في قولـه: ﴿أهـٰؤلاء﴾ هم المنافقون، ومعنـى: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي غاية اجتهادهم فيهـا حيث حلفوا بأغلظ الأيمان وأكدوها بأنواع التأكيد، قـال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبـارك وتعـالى: ﴿حَبِطَتْ أعمالُهم فأصبحـوا خـاسرين﴾: يقـول الله تعـالى ذكـره، مخبرًا عن حالهم عنـده بنفـاقهم وخبث أعمالهم: ﴿حَبِطَتْ أعمالهم﴾ يقـول: ذهبت أعمالهم التي عملوهـا في الدنيـا باطـلا لا ثواب لها ولا أجـر، لأنهم عملـوهــا على غير يقين منهم بأنها عليهم لله فـرض واجبٌ، ولا على صحـة إيمان بـالله ورسولـه، وإنما كـانـوا يعملونها ليـدفعـوا المؤمنين بها عن أنفسهم وأمـوالهم وذراريهم، فأحبط الله أجرهـا، إذ لم تكن له، ﴿فَـأَصْبَحُوا خاسرين﴾ يقـول: فأصبح هؤلاء المنـافقون عند مجيء أمـر الله بإدالة المؤمنين على أهل الكفـر، قد وكسوا في شرائهـم الدنيا بـالآخرة، وخـابت صفقتهم، وهلكوا. اهـ.

قال تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم. إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون. ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين. وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى وحذرهم أشد التحذير من ذلك، وندد بالمنافقين الذين يوالون أعداء الله وينحرفون عن رسول الله ﷺ وعن المؤمنين ويندفعون في الالتصاق باليهود والنصارى توهماً منهم أن الدولة ستكون لأعداء الله ورسوله، وقطع عز وجل أطماع أعدائه ووعد رسوله ﷺ والمؤمنين بالفتح والنصر، وأشار إلى أن موالاة أعداء الله سبب من أسباب الارتداد عن الإسلام، شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق، تنبيها منه عز وجل لعباده بأن من يرتد عن دين الإسلام لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا، وتربيةً لملكة الطمأنينة في نفوس المؤمنين عندما يواجهون ردة فردية أو جماعية فيستيقنون أن هذه الردة كسحابة صيف لا تلبث أن تزول، وذلك لما سبق في علم الله عز وجل أنه سيرتد فئام من الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.﴾ وهذا شبيه بقوله عز وجل : ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.﴾ قال ابن

جـرير رحمه الله في تفسير هـذه الآية : وكـان هـذا الوعيـد من الله لمن سبق في علمه أنه سيرتد بعد وفاة نبيـه محمد ﷺ، وكذلك وعده من وعد من المؤمنين ما وعـده في هذه الآية لمن سبق في علمـه أنه لا يبدل ولا يغير دينه ولا يـرتد، فلما قبض الله نبيه ﷺ ارتد أقوام من أهل الوبر وبعض أهل المدر، فأبدل الله المؤمنين بخير منهم كما قال تعالى ذكره، ووفى للمـؤمنين بوعده، وأنفذ فيمن ارتد منهم وعيده اهـ وقد أشار الله تبـارك وتعالى إلى أن مصادقة أهل الكتاب قد تؤدي إلى الردة عن دين الإسلام حيث يقول عز وجل : ﴿ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقـا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كـافرين﴾ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم : وفي هذه الآيـة الإشارة إلى التحـذير عن مصـادقة أهـل الكتاب إذ لا يُـؤْمَنُون أن يفتنـوا من صادقهم عن دينـه اهــ والردة الخروج من الإسـلام، والكفرُ بعـد الإيمان بارتكـاب ما ينقض الإسـلام كالشرك بـالله أو السجود لـلأصنام، أو الذبح لغير الله، أو كمن جحد الربوبيـة أو الألوهية أو اعتقد أن لله صاحبة أو ولدا، أو أن الله حل في أحد من خلقـه أو اتحد به، أو ادعى أن العبد رب أو أن الرب عبدٌ كأهل وحدة الوجود أو كذب بكتب الله أو ملائكته أو رسله أو اليوم الآخـر أو القدر خيره وشره أو ادعى النبوة أو صدق من ادعـاها، أو استهزأ بـالله أو رسوله أو كتـابه، أو كـان مبغضاً لرسـول الله ﷺ أو أنكر أن يكون أبو بكر صـاحبا لرسول الله ﷺ أو رمى الصديقة بنت الصـديق عائشة أم المؤمنين وقد برأهـا الله عز وجل في كتابه، أو أنكر شيئـاً يُعلم بالضرورة أنه من دين الإسلام أو اعتقد أن الأحكام الوضعية أحسن من الأحكام الشرعية، وقوله تبـارك وتعالى : ﴿فَسَوْفَ يأتي الله بقوم يُحِبُّهُمْ ويحبـونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبل الله ولا يخافون لَوْمَةَ لائـم﴾ تقرير وتأكيد لبيان أن من ارتد عن الإسلام لا يضر الإسلام شيئا ولايضر إلا نفسه بحرمانها

من السعادة وسيظهر الله عز وجل للإسلام من يجاهد في سبيل إعلائه ويقيم الله عز وجل من يؤمن بما جاء به رسول الله ﷺ وينصر دينه، وأن هذا الأمر سيستمر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿فإن يَكْفُرْ بها هٰؤلاء فقد وكَّلْنَا بها قوما ليسوا بها بكافرين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إلا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا،﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين﴾ أي أرقاء رحماء متواضعين بينهم أشداء على الكفار لا يذلون لهم ولا يستكينون أمامهم، كما قال عز وجل: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أَشِدَّاءُ على الكفار رُحَمَاءُ بينهم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي يبذلون جهدهم لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الإسلام ويقولون الحق ولو كان مُرًّا، ولا يمنعهم من طاعة الله وإقامة حدوده عَذْلُ عاذلٍ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون بالقسط استجابة لأمر الله عز وجل حيث يقول: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامينَ بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين.﴾ وكما قال عز جل: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألَّا تَعْدِلُوا،﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء، والله واسع عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿ذٰلك فَضْلُ الله﴾ فإنه يعني هذا النعت الذي نعتهم به تعالى ذكره، من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فضل الله الذي تفضل به عليهم، والله يؤتي فضله من يشاء من خلقه منة عليه وتطولا، ﴿والله واسع﴾ يقول: والله جواد بفضله على من جاد به عليه، لا يخاف نفاد خزائنه فتتلف في عطائه، ﴿عَلِيمٌ﴾ بموضع جوده وعطائه، فلا يبذله إلا لمن استحقه، ولا يبذل لمن استحقه إلا على قدر المصلحة، لعلمه بموضع صلاحه له من

موضع ضره اهـ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ تأكيد آخر في تنبيه المؤمنين وتعريفهم بمن يتولونه، وتحذير لهم من ولاية أعداء الله، قال أبو السعود العمادي في تفسير هذه الآية: لما نهاهم الله عز وجل عن موالاة الكفرة، وعلله بأن بعضهم أولياء بعض لا يتصور ولايتهم للمؤمنين، وبيَّن أن من يتولاهم يكون من جملتهم، بيَّن ههنا من هو وليهم بطريق قصر الولاية عليه، كأنه قيل: لا تتخذوهم أولياء لأن بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون فاختصوهم بالموالاة، ولا تتخطوهم إلى غيرهم، وإنما أفرد الولي مع تعدده للإيذان بأن الولاية أصالة لله تعالى، وولايته عليه السلام وكذا ولاية المؤمنين بطريق التبعية لولايته عز وجل، ﴿الذين يقيمون الصلاة ويُؤْتُونَ الزكاةَ﴾ صفة للذين آمنوا، لجريانه مجرى الاسم أو بدل منه أو نصب على المدح أو رفع عليه، ﴿وهم راكعون.﴾ حال من فاعل الفعلين، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات، من إقامة الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين، وأما قوله: ﴿وهم راكعون﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى

اهـ وما ذكره بعض المفسرين من أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ مر به سائل وهو راكع فتصدق عليه فنزلت هذه الآية فهو غير سديد، إذ لم يثبت ذلك بخبر صحيح، والعلم عند الله عز وجل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ زيادة حض على ولاية الله ورسوله والمؤمنين بتأكيد أن من تولى الله ورسوله والذين آمنوا كان من حزب الله، وقد قضى الله عز وجل أن يكون حزبه هو الغالب، وفي ذلك تحذير عظيم من موالاة أعداء الله، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ قال أبو جعفر: وهذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده جميعا: الذين تبرأوا من حلف اليهود وخلعوهم رِضًى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم: أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم، لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون دون حزب الشيطان اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يتولَّ اللهَ ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون﴾ ألوان من البيان وأساليب الفصاحة والبلاغة والبرهان العقلي ما تتطامن أمامه رءوس الفصحاء ويعترف بالعجز عن مجاراته أئمة البلغاء، وشيوخ العقلاء، وأرباب البراهين، فمقتضى السياق أن يقال: ومن يتولهم لأنه تقدم ذكرهم في الآية السابقة، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى أن ولاية الله هي الأصل وولاية رسول الله ﷺ وولاية المؤمنين هي تبع لولاية الله عز وجل، ولذلك جعل الله رسوله والمؤمنين حزبا، وأضافه إليه تبارك وتعالى حيث قال: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وكان مقتضى السياق أيضا أن يقال: فإنهم الغالبون

لكن مقتضى الحال اقتضى المجيء بالاسم الظاهر موضع الضمير للتنصيص على أنهم حزب الله تعظيما لهم، وإثباتاً لغلبتهم بالطريق البرهاني كأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهو معهم وهم جميعا حزب الله، فلهم الغلبة والنصر على أعدائهم لأن حزب الله هم الغالبون. فقد اشتمل الكلام على دليل برهاني حذف من مقدماته ما دل عليه المقام. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتُوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياءَ﴾ الآيتين. تنفير من موالاة أعداء الإسلام سواء كانوا كتابيين أو مشركين غير كتابيين الذين يستهزئون بشرائع الإسلام عموما وبالصلاة والأذان خصوصا ويعدون هذه الشرائع لعباً لأن بصائرهم منطمسة، وعقولهم فاسدة ولذلك ذيل الله تبارك وتعالى هذا المقام بقوله: ﴿ذٰلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ. قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ، مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ. وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حكى الله عز وجل عن أهل الكتاب أنهم اتخذوا دين الإسلام هُزوًا ولعباً مما ينفر من ولايتهم أشد التنفير. أمر نبيه محمدا ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب يسألهم: ماذا تعيبون من دين الإسلام؟ وما الذي يحملكم على اتخاذه هزوا ولعبا؟ ولماذا تحقدون علينا؟ هل في سلوكنا ما يدعوكم إلى أن تكرهونا وتسخطوا علينا؟ نحن لا نعلم شيئا حملكم على بغضنا إلا أننا آمنا بالله وكتبه ورسله وأن أكثركم قد فسق عن الإيمان بالله وكتبه ورسله، فأي الفريقين يستحق أن يبغض ويكره؟ الفريق المؤمن بالله وكتبه ورسله المنقاد لشرعه، أم الفريق الفاسق عن أمر الله، المكذب لرسل الله وكتب الله، الذين لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وقد عبدوا الطاغوت الذي أمروا أن يكفروا به؟ هذه صورتنا، وهذه صورتكم فأي الفريقين يستحق أن ينقم منه وأن يكره ويحقد عليه؟ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قُلْ ياأَهْلَ الكتاب هل تَنقِمُونَ منا إلا أَنْ آمنا بالله وما أُنزِلَ إلينا وما أُنزل من قَبْلُ وَأَنْ أكثركم فَاسِقُونَ﴾ أي قل يا محمد للمنتسبين للتوراة وللمنتسبين للإنجيل المصرين على الفسق والكفر والعداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين: هل تعيبون علينا شيئا سوى استمساكنا بالإيمان بالله وكتابه المنزل على محمد ﷺ

وسائر الكتب السماوية السابقة، وأننا لم نتبعكم على فسقكم ولم نسلك سبيلكم المنحرف المعوج حيث تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض، وإيراد السؤال على هذا الأسلوب هو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم وهو أسلوب من أساليب البديع كقوله عز وجل: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد.﴾ ومن أمثلة تأكيد المدح بما يشبه الذم قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم … بهن فلول من قراع الكتائب

وكقول الشاعر:

ولا عيب فيه غير أني قصدته … فأنستني الأيام أهلا وموطنا

وكقول الشاعر:

فتى كملت أوصافه غير أنه … جواد فما يبقى من المال باقيا

وكقول الشاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم … تعاب بنسيان الأحبة والوطن

وكقول الشاعر:

ولا عيب في معروفهم غير أنه … يبين عجز الشاكرين عن الشكر

وكقول الشاعر:

ليس به عيب سوى أنه … لا تقع العين على شبهه

وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل هل أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عند الله، من لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْه وجَعَل مِنْهُم الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السبيل﴾ شرح لبيان ألوان فسقهم، وما استوجبوه من لعنة الله لهم، وغضبه عليهم وقد مسخ بعضهم قردة وخنازير، وخذلهم حتى عبدوا الطاغوت، فهل في الناس من هو شر من هؤلاء؟ وهل يليق بعاقل أن يتولاهم وأن يتودد إليهم وأن يرضى بأن يعد منهم؟ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل هل أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ، من لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوتَ، أولَئك شَرٌّ مَكَانًا وأَضَلُّ عن سَوَاءِ السبيل﴾ أي قل يامحمد معلنا لأوليائك الذين لا يوالون إلا الله ورسوله والمؤمنين ولأعدائك الذين ينحرفون بولايتهم عن الله ورسوله والمؤمنين: هل أخبركم بشر الناس جزاء عند الله يوم القيامة؟ وكأن سائلا سأل: من هم شر الناس جزاء عند الله يوم القيامة؟ فكان الجواب هم من أبعدهم الله عن رحمته، وسخط عليهم، وعاقبهم عقوبة عاجلة لم يعاقب أحدا ممن سبق من الناس بمثلها حيث مسخهم قردة وخنازير، وخذلهم فعبدوا الطاغوت وقد علموا أنه يجب الكفر بالطاغوت، فهؤلاء هم شر خلق الله من بني آدم وهم أبعد خلق الله عن الصراط المستقيم، وهذه هي صفات اليهود المعلومة بالضرورة، فهي كناية عنهم، ولم يصرح بذكر اليهود لكبتهم عن تهييج لجاجهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم إلى أنه مسخ بعض اليهود قردة وخنازير أي جعل بعضهم قردة وبعضهم خنازير حيث قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿ولقد عَلِمْتُمُ الذين اعْتَدَوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قِردَةً خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يَدَيْهَا وما خَلْفَهَا ومَوْعِظَةً للمتقين﴾ وقال عز وجل في سورة الأعراف: ﴿فلما عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عنه قُلْنَا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين﴾ وذكر عز وجل في هذا المقام من سورة المائدة أنه جعل منهم القردة والخنازير، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل يارسول الله: القردة والخنازير هي مما مسخ؟ فقال النبي ﷺ: إن الله عز وجل لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى سيمسخ قوما قردة وخنازير قبل يوم القيامة عقوبة عاجلة لهم في الدنيا لاستحلالهم كبائر الفواحش فقد روى البخاري في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن

غنم الأشعري قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني: سمع النبي ﷺ يقول: ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علَم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم يعني الفقير لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فيبيتهم الله، ويضع العلَم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا جَاءُوكُمْ قالوا آمَنَّا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، واللهُ أَعْلَمُ بما كانوا يكتمون﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم، وتقرير لذبذبتهم وترددهم وعدم ثباتهم على ما قد يتلفظون به في مجلس رسول الله ﷺ أو في مجالس المسلمين من دعواهم أنهم مؤمنون قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به، واللهُ أعلم بما كانوا يكتمون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وإذا جاءكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم: ﴿آمَنَّا﴾ أي صدقنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ واتبعناه على دينه، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم، ويضمرونه في صدورهم، وهم يُبدُون كذبا التصديق لكم بألسنتهم: ﴿وهم قد خرجوا به﴾ يقول: وقد خرجوا بالكفر من عندكم كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكم عن كفرهم وضلالتهم، يظنون أن ذلك من فعلهم يخفى على الله، جهلا منهم بالله، ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ يقول: والله أعلم بما كانوا ـ عند قولهم لكم بألسنتهم ـ: آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به، يكتمون منهم بما يضمرونه من الكفر، من أنفسهم اهـ يعني رحمه الله: والله أعلم منهم بأنفسهم فلا يخفى عليه ما يضمرونه من كفرهم. وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ وهذه صفة المنافقين منهم، أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم

منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وقد دخلوا﴾ أي عندك يامحمد ﴿بالكفر﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم، ثـم خرجوا وهو كامـن فيها، لم ينتفعوا بما قـد سمعـوا منك من العلم، ولا نجعـت فيهم المواعظ ولا الـزواجـر، ولهذا قال: ﴿وهم قـد خرجوا بـه﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقولـه تعالى: ﴿واللهُ أعلمُ بما كانـوا يكتمون﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطـوي عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقـه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم، فإن عـالم الغيب والشهدة أعلم بهم منهم، وسيجـزيهم على ذلك أتم الجزاء اهـ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿وَتَرَى كثيرا منهم يُسَـارِعُونَ في الإثم والْعُـدْوَانِ وأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ ما كانـوا يَعْمَلُونَ﴾ بيـان لقبائح أخـرى من قبائح اليهـود لتقريـر اندفـاعهم في المعاصي، واستغـراقهم في الآثام، وأكل السحت من الـربا والـرشوة وغيرهما من الأمـوال المحـرمـة، والخطـاب لـرسـول الله ﷺ أو لكل من يتأتى لـه أن يخاطب بهذا الخطاب، والتعبير بقـوله: ﴿وترى﴾ للإشـارة إلى ظهور حالهم وانكشـاف سوء سلـوكهم حتى يستطيع المخـاطب أن يعـاين منهم بسهولـة اندفـاعهم في المعاصي واستغـراقهم في الآثام، وحـرصهم على أكل السحت الذي تأكل النار الأجساد التي نبتت منـه، ولاشك أن من كانت هذه حاله، وتلك خصاله فإنه بعيد عن قبول الخير، قريب من كل شر، ولذلك أقسم الله عز وجل على سـوء عملهم حيث ذيل هذه الآيـة الكريمـة بقولـه عز وجل: ﴿لبئس ما كـانوا يعملـون﴾ قال ابن جريـر رحمه الله: يقول الله تعـالى ذكره: ﴿لبئس ما كـانوا يعملون﴾ يقـول: أقسم لبئس العمل ما كان هـؤلاء اليهود يعملـون في مسارعتهم في الإثم والعـدوان، وأكلهم السحت اهــ وقد أشـار رسـول الله ﷺ إلى أن اليهـود كـانـوا يحتـالـون للحصـول على الحرام بكل مـا يستطيعون من الوسائل وطرق الاحتيال، فإنهم لما حرمت عليهم شحوم البقر والغنم عمدوا إلى إذابتها وبيعها وأكل ثمنها، فقد روى البخاري ومسلم من

حـديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود ، حرمت عليهم الشحـوم ، فجملوها ، فبـاعوهـا . وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله يهود ، حرمت عليهم الشحوم ، فباعوها وأكلوا ثمنها .

قـال تعالى: ﴿لَـوْلا يَنْهَاهُمُ الـرَّبَّانِيُّـونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَـوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ، لَبِئْسَ مَـاكَانُـوا يَصْنَعُـونَ. وَقَالَتِ الْيَهُـودُ يَـدُ اللهِ مَغْلُولَـةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ولُعِنُوا بِمَا قَـالُوا، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَـاءُ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْـكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا، وَأَلْقَيْنَـا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلى يَوْمِ القِيَـامَةِ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَـارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَـا اللهُ، وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا، واللهُ لا يُحِبُّ المفسدين﴾.

بعد أن أوضح عـز وجل الفرق بين سلوك المؤمنين المستجيبين لـرسول الله ﷺ وسلوك أهل الكتاب وبخاصـة اليهود منهم وبيَّن انحرافهم عن الصراط المستقيم وأن أكثـرهم فاسقـون، وأن الله لعنهم وغضب عليهم وجعل منهم قردة وخنازيـر وأنهم عبدوا الطاغوت وأنهم قـد شاع فيهم الانغماس في الإثم والعدوان وأكل السحت وجه هنا عتـابا لفقهائهم وعلمائهم على تقصيرهم في نهيهم عن قـولهم الإثم وأكلهم السحت مشيرا إلى أن هؤلاء اليهـود قد مَـرَدُوا على قول الإثم وأكل السحت، وأن هذا صار صناعة لهم ثم أضاف إلى ذلك أنهم قـد قالـوا على الله عز وجل قـولا قـد بلغ في الدلالـة على سوء سلـوكهم وخبث نفوسهم وسفاهة عقـولهم مبلغا لم يعرف في أهل الجاهلية نظيره حيث قالوا: يد الله مغلولة، وقد قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، ثم أشار إلى أنهم يعملون على إشعـال نار الحروب والسعي في الأرض بالفسـاد وفي ذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿لـولا ينهاهم الـربانيـون والأحبار عن قـولهم الإثم وأكلهم السحت، لبئس ما كـانوا يصنعـون﴾ إلى قوله تبـارك وتعالى: ﴿والله لا يُحِبُّ المفسديـن﴾ وقد صـدَّر الله تبارك وتعالى هـذا المقام بحـض الفقهاء والعلماء على الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه إشـارة إلى تحمل الفقهاء والعلماء مسئـولية تـوجيـه أممهم وشعوبهم إلى الخير عنـدمـا يـرون منهم انحرافًـا عن

الصراط المستقيم، وأن عليهم أن يحذروهم من الوقوع في المعاصي التي تجلب عليهم سخط الله وعقوبته، وفي قوله عـز وجل: ﴿لَبِئْسَ ما كانوا يَصْنَعُونَ﴾ إشارة إلى أن هـؤلاء اليهود قبحهم الله قد مـردوا على قول الإثم وأكل السحت حتى صار صناعة لهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ولُعِنوا بِمَا قَالُوا، بَلْ يَـدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ شروع في بيان قبـائح أخرى من قبائح اليهـود البشعة التي لم يشـاركهم فيها حتى أهل الجاهلية إذ قال هؤلاء اليهود لعنهم الله: ﴿يَدُ الله مَغْلُولَةٌ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعـالى عن اليهود عليهم لعـائن الله المتتـابعة إلى يـوم القيامـة بأنهم وصفوه ـ تعـالى عن قولهم علوًّا كبيرا ـ بأنـه بخيل، كما وصـفوه بأنه فقير وهم أغنياء، وعبروا عـن البخل بأن قالـوا: ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُـولَةٌ﴾ اهـ وقـد استعمل القرآن العظيم التعبير باليد المغلولة كناية عن البخل والشح كما استعمل اليد المبسوطة في الكناية عن البذل والإنفاق، والجود والعطاء، فإذا كان المنفق قد بلغ حد الإسراف والتبذير قيل: بسط يـده كل البسط، وفي ذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿وَلاَ تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُـولَـةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ وقد رد الله تبارك وتعالى على هؤلاء المجرمين مقالتهم، وقابلهم فيما اختلقـوه وتفوهـوا بـه فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُـوا بما قـالوا، بل يَـدَاه مَبْسوطتـان يُنفِق كَيْفَ يشاء﴾ قـال ابن كثير رحمه الله: وقد رد الله عـز وجل عليهم مـا قالـوه، وقـابلهم فيما اختلقـوه وافتروه وائتفكوه، فقـال: ﴿غُلَّتَ أَيْـدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَـالُوا﴾ وهكـذا وقع لهم، فإن عندهـم من البخل والحسـد والجبن والـذلة أمراً عظيماً كما قـال تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملـك فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النـاسَ نَقِيرًا * أم يحسدون الناس على ما آتـاهم الله من فضله﴾ الآية، وقـال تعـالى: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الـذِّلَّةُ﴾ الآيـة، ثم قـال تعـالى: ﴿بل يـداه مَبْسُوطَتَـانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي بل هو الـواسع الفضل، الجزيل العطاء،

الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك لـه الـذي خلق لنـا كل شيء ممـا نحتاج إليـه، في ليلنـا ونهارنـا، وحضرنا وسفرنا، وفي جميع أحوالنا، كما قال: ﴿وآتاكُمْ مِن كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ، وإن تَعُدُّوا نِعْمَـتَ الله لا تُحْصُوهَـا، إنَّ الإنسَانَ لَظَلُـومٌ كَفَّارٌ﴾ والآيـات فيها كثيرة، وقد قـال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنـا عبد الرزاق حدثنـا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحَّـاءُ الليلَ والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنـه لم يغض مافي يمينـه، قال: وعـرشه على الماء، وفي يـده الأخـرى الفيض يـرفع ويخفـض، وقـال: يقـول الله تعـالى: أَنفِق أُنْفِقْ عليك. أخرجاه في الصحيحين: البخـاري في التوحيد عن علي بن المديني، ومسلم فيـه عن محمـد بن رافع كـلاهما عن عبـد الـرزاق بـه اهــ والـذي في البخاري في التوحيد من طريق علي بن المديني بدل قوله: «فإنه لم يغِضْ ما في يمينه» فإنه لم يَنْقُصْ مافي يمينه. وقد أورده البخاري أيضا في التوحيد عن أبي اليمان أخبرنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: وفيه: فإنه لم يغض مـا في يـده، وقال: عـرشـه على الماء، وبيده الأخـرى الميـزان يخفض ويـرفع. وأمـا زيـادة: يقـول الله تعـالى: أنفـق أنفق عليك. فليست عنـد البخاري في التـوحيد وإنما أوردها في تفسير سورة هـود من طريق أبي اليمان. وروايـة مسلم من طـريق محمـد بن رافع إنما أوردهـا مسلم في كتاب الـزكـاة بلفظ: وقال رسـول الله ﷺ: إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك، وقـال رسول الله ﷺ: يمين الله ملأى، لا يغيضها، سحَّـاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغض مافي يمينـه، قال: وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض يرفع ويخفض. وفي بعض نسخ مسلم: وبيده الأخرى القبض، كما أن في روايـة البخـاري عن علي بـن المديني: وبيـده الأخـرى

الفيض أو القبض. والمراد بـالفيض: الإحسـان والإعطـاء الـواسع والمراد بالقبض التقدير، كما قال عـز وجل: ﴿يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِرُ﴾. وفي قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿بل يـداه مبسوطتـان ينفق كيف يشـاء﴾ دليل قطعي يستدل به أهل السنـة والجماعة على إثبات اليدين لله عـز وجل من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل. فإنـه عـز وجل ﴿ليس كمثلـه شيء وهـو السميع البصير﴾ قال الإمـام محيي السنة الحسين بن مسعـود الفراء أبـو محمد البغوي في تفسير قوله عز وجل: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾: ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه. وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وقـال النبي ﷺ: كلتـا يديـه يمين. والله أعلم بصفـاتـه، فعلى العباد فيهـا الإيمان والتسليم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيرًا منهم مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن ربِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ بيان لقبيحة أخرى من قبائحهم لعنهم الله، وبرهان على انتكـاس فطـرتهم، وانقلاب الموازيـن عندهم، فبـدل أن يسـارعـوا إلى الإيمان بما أنزل على محمـد ﷺ وأن يستضيئوا بنـوره ويهتدوا بهداه صـاروا كلما أنزلت آية كفروا بها فازدادوا بذلك كفرا وطغيانا قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كثيرا مِنهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ من ربك طغيانا وكُفْرًا﴾ أي يكون ما آتاك الله يـامحمد من النعمة نقمة في حق أعـدائك من اليهود وأشباههم، فكما يـزداد به المؤمنـون تصـديقـا، وعملا صـالحا، وعلماً نـافعـاً، يزداد بـه الكـافرون الحاسـدون لك ولأمتك طغيانـاً وهـو المبالغـة والمجاوزة للحـد في الأشيـاء، وكفراً أي تكـذيبا، كما قـال تعـالى: ﴿قل هو للـذين آمنوا هُـدًى وَشِفَاء والذين لا يؤمنـون في آذانهم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمًى، أولَئك ينادون من مكان بعيد﴾ وقال تعالى: ﴿ونُنَزِّلُ من القرآن مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ للمؤمنين وَلا يَزِيدُ الظالِمِينَ إلا خَسَارًا.﴾ اهـ وقـد أشار الله تبارك وتعالى إلى سبب انتكاس القلـوب حتى تكـره الإيمان وتحب الكفـر وبيَّن أن سبب ذلك هـو التكبر في

الأرض بغير الحق حيث يقول عز وجل : ﴿سَأَصْرِفُ عن آيَاتِيَ الذين يَتَكَبَّرُون في الأرض بغير الحق و إن يَرَوْا كُلَّ آيَـةٍ لا يُؤْمِنُـوا بِهَا و إن يروْا سَبِيلا الـرُّشْدِ لا يتخذوه سبيلا ، و إن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذُلك بأنهم كَذَّبوا بآياتنا وكانوا عنا غافلين﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وأَلْقَيْنَا بينهم العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بيان آخر لقبيحـة أخرى من قبائحهم وتأكيد على فساد قلوبهم وأنها مليئـة بالحقـد والحسد والضغينـة ليس ذلك على المسلمين وحـدهم بل إنهم يبغض بعضهم بعضا ويحسد بعضهـم بعضا ويحقد بعضهم على بعض كما ذكـر ذلك تبارك وتعـالى في حق النصـارى حيث قـال : ﴿فأغرينـا بينهم العداوة والبغضـاء إلى يوم القيـامة﴾ وقـال هنا في حق اليهـود ﴿وألقينا بينهم العـداوة والبغضاء إلى يـوم القيـامـة﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿بـأْسُهُمْ بينهم شدِيدٌ ، تَحْسَبُهُمْ جميعا وقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا للحرب أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ هذا بيان آخر لقبيحة أخرى من قبائحهم حيث إنهم لا ينفكـون عن محاولة إشعـال الحروب و إثـارة الفتن بين الأمم والشعوب ، ولـو تمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الإجـرامية لأهلكوا الحرث والنسل ولكن الله تبارك وتعـالى يحبط كيدهم ، ويحول بينهم وبين مـا يشتهـون وقولـه تبارك وتعـالى : ﴿وَيَسْعَوْنَ في الأرض فَسَادًا﴾ بيانٌ آخر لقبيحة أخرى من قبائحهم وتأكيد لما انطوت عليه نفوسهـم الشريرة من حـرصهم الشديد وسعيهم الحثيث للفساد في الأرض ، وحرمان أهلها من أسباب الأمن والاستقرار، ولذلك نجد أصابع الـدول في عصرنا تشير إليهم في أمـريكا الجنـوبيـة وهم يدربـون العصابـات لتجار المخدرات ، كما تشير إليهم في جنوب أفريقيـا وسائر أنحاء العالم وهم يمدون المنحرفين البغاة بأسبـاب استشراء شرورهم ، ولذلك استحقوا غضب الله عليهم وبغضه لهم ، لأنه عز وجل يكـره المفسدين في الأرض ولذلك ذيل هذا المقام بقوله الكريم : ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ولو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِن رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ. يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

بعد أن وصف الله تبارك وتعالى اليهود بقبائح الصفات التي يتصفون بها، مما يقتضي أنهم يستحقون كل أنواع الذم، وما بيَّنه عز وجل من تهجين طريقتهم الداعية إلى تنفير كل ذي عقل من ولايتهم، بيَّن في هذا المقام أنهم لو تابوا إلى الله لتاب الله عليهم، لأنه عز وجل جواد كريم واسع المغفرة، وأن الإيمان يـجُبُّ ما كان قبله، فلو آمن أهل الكتاب وخافوا ربهم لجمع لهم سعادتي الدنيا والآخرة، فكفر عنهم سيئاتهم التي اقترفوا ولو كانت مثل زبد البحر وأسكنهم جنات النعيم، كما أنه عز وجل يفيض عليهم من بركات السماء والأرض حتى يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وفي هذا لفت انتباه للدعاة إلى الله عز وجل ألا تحملهم معاصي الناس وعظائم جرائمهم على ترك دعوتهم، وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقد سلك الله عز وجل في دعوتهم إليه طريق الترهيب والترغيب ليتأسى بذلك الدعاة إلى الله. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو أَنَّ أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ لِحَثِّ أهل الكتاب على الإيمان والتقوى وإقامة شرع الله بوعدهم بسعادة الدارين وزجرهم عن الإخلال بذلك لأن الإخلال بذلك يفضي إلى حرمانهم من نعيم

العاجلة والآجلة، وفي ذلك تنبيه على أن ما يصيبهم من الضنك والضيق إنما هو من شؤم جناياتهم ومعاصيهم لا لقصور في فيض الكريم الجواد الذي لا تنفد خزائنه، إذ يداه مبسوطتان سحَّاء الليل والنهار، ينفق كيف يشاء، والمراد بالكتاب في هذا المقام: هو الجنس المنتظم للتوراة والإنجيل، قال أبو السعود العمادي: وإنما ذُكِروا بذلك العنوان تأكيداً للتشنيع، فإن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به، وإقامتهم له لا محالة، فكفرهم به، وعدم إقامتهم له، وهم أهله، أقبح من كل قبيح، وأشنع من كل شنيع اهـ والترغيب في الإيمان والتقوى بالوعد على ذلك بسعادة الدارين هو منهج رشيد في الدعوة إلى الله عز وجل، وهو الوعد الحق، الملائم لسنن الفطرة، الصالح لجميع أهل الأعصار وسائر الأمصار، لا يشذ عن ذلك إلا شاذ مختل الفكر والفطرة. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم أن الإيمان والتقوى والاستقامة على الطريقة الشرعية يجلب رغد العيش والأمن والاستقرار في الدنيا ويئول بصاحبه إلى جنات الفردوس في الدار الآخرة، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمَنُوا واتَّقَوْا لكَفَّرْنَا عنهم سيئاتِهم ولأدخلناهم جنات النعيم * ولو أنهم أَقَامُوا التوراة والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليهم من ربهم لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم.﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عليهم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ﴾ وقال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطريقة لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ وقوله عز وجل: ﴿لأَكَلُوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ هو كناية عن كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض والذي يأتيهم من كل مكان حتى يصير عيشهم رغدًا، وحياتهم هنيئة طيبة كما قال عز وجل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة طَيِّبَةً ولنجزينهم أجرهم بأَحْسَنِ ما كانوا يعملون﴾ وقال عز وجل: ﴿وَضَرَبَ اللهُ

مثلا قريةً كـانت آمِنةً مُطْمَئِنَّة يأتيها رزقُها رَغَدًا من كـل مكان فكَفَرَتْ بِأَنعُم الله فأذاقهـا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والْخَوْفِ بما كـانوا يَصْنَعُونَ﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿منهم أُمَّـة مقتصـدة وكثير منهم ساء مـا يعملـون﴾ أي من أهل الكتـاب جماعة مقتصدة أي سـالكة سواء السبيل، ملتزمة بالحق، مـؤمنة بما أنزل الله من كتاب مبتعدة عن منهج الغلو والإفراط كما أنها مبتعدة عن منهج التفريط والتقصير، فـلا تقـول على الله إلا الحق ولا تفـرق بين الله ورسلـه ولا تـؤمن ببعض كتب الله وتكفـر ببعضهـا، وعلى رأس هؤلاء الصـالحين عبـد الله بن سلام رضي الله عنـه، وقوله عـز وجل: ﴿وكثير منهم ساء مـا يعملون﴾ أي وكثير من أهل الكتاب سيئـة أعمالهم قبيح سلوكهم فهم إما غالـون مُفْرِطون كمن يـدَّعي أن العـزيـر ابـن الله، ومن يـدعي أن المسيح ابـن الله، وإمـا مقصرون مُفرِّطون كمن يدعي أن المسيح لغير رِشْدَةٍ، ويقول على مريم بهتانا عظيما. وقوله عـز وجل: ﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغْ مـا أُنزِلَ إلَيْك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْت رِسَالَتَهُ، والله يَعْصِمُكَ من النَّـاسِ﴾ هذا تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ، وأن أعـداءه مهما كثروا، ومهما أعلـن من معايبهم وسـوء سلـوكهم الذي أمره الله عز وجل بإعلانـه فإنهم لن يتمكنوا منه ﷺ، لأن الله عز وجل يعصمه منهم ويكفيه شرهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿يا أيها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ من ربك وإن لم تفعل فما بلَّغْتَ رسـالتـه، والله يعصمك من النـاس، إنَّ الله لا يهدي القـوم الكافرين﴾ قال أبو جعفر: وهذا أمر من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدا ﷺ بإبلاغ هؤلاء اليهود والنصارى من أهل الكتابين الذين قص تعالى ذكره قصصهم في هذه السـورة، وذكر فيها معـايبهم، وخبث أديانهم، واجتراءهم على ربهم، وتوثبهم على أنبيـائهم، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم إيـاه، ورداءة مطاعمهم ومآكلهم، وسـائر المشركين غيرهم ما أنزل عليـه فيهم من معايبهم، والإزراء

عليهم، والتقصير بهم، والتهجين لهم، وما أمرهم به، ونهاهم عنه، وألا يشعر نفسه حذرًا منهم أن يصيبوه في نفسه بمكروه ما قام فيهم بأمر الله، ولا جزعاً من كثرة عددهم وقلة عدد من معه، وألا يتقي أحدًا في ذات الله، فإن الله تعالى ذكره كافيه كل أحد من خلقه، ودافع عنه مكروه كل من يبغى مكروهه، وأعلمه تعالى ذكره أنه إن قصَّر عن إبلاغ شيء مما أنزل إليه إليهم فهو في تركه تبليغ ذلك ــ وإن قلَّ مالم يبلِّغ منه ــ فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذنب بمنزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئاً. اهــ ولاشك أن صيانة الله تبارك وتعالى نبيه محمدا ﷺ من أعدائه ودفع شرورهم عنه معجزة ظاهرة وآية باهرة قاهرة، فقد كانوا يتعاهدون ويتعاقدون في مكة على قتله ﷺ فإذا مرَّ بهم طأطأوا رءوسهم كأن عليها الطير، فقد قال محمد بن إسحاق: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: قلت له: ما أكثرُ ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرْنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرَّق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ــ أو كما قالوا ــ فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالبيت فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ. قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أتسمعون يامعشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذَّبح، قال: فأخذت القومَ كلمتُه حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول،

حتى إنه ليقول: انصرف ياأبا القاسم، فوالله ما كنتَ جهولا. قال: فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: نعم، أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: فقام أبوبكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشدُّ ما رأيت قريشا نالوا منه قط اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي إن الله عز وجل لا يسدد ولا يؤيد ولا يوفق إلى الرشد من حاد عن طريق الحق، وجار عن قصد السبيل وجحد ما أنزل الله من كتاب أو ما أرسل من رسول. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ دليل ظاهر على مروق من ادعى أن محمدا ﷺ كتم شيئا من القرآن، وأن من ادعى ذلك فقد افترى الكذب على رسول الله ﷺ، وقد روى البخاري في التفسير من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿ياأيها الرسول بَلّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربك﴾ الآية. وأخرجه في كتاب التوحيد من صحيحه عن مسروق عن عائشة قالت: من حدثك أن النبي ﷺ كتم شيئا من الوحي فلا تصدقه، إن الله تعالى يقول: ﴿ياأيها الرسولُ بَلِّغْ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْت رسالتَهُ﴾ وأورده مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه من طريق مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿ياأيها

الرسولُ بلغ مـا أنزل إليك من ربك و إن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالَتَـهُ﴾ اهـ وقد شهدت له أمته بـإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة في أعظم المحـافل عند خطبته في حجة الـوداع عندمـا قال : أيها الناس إنكم مسئـولون عني فما أنتم قـائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت .

قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوراةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن ربِّكُمْ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن ربِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وفَرِيقًا يَقْتُلُونَ. وَحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حث الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على الإيمان والتقوى ووعدهم إن استجابوا لذلك بتكفير سيئاتهم مهما عظمت، وإدخالهم جنات النعيم مع ما يعجله لهم من طيبات الحياة الدنيا، وأثنى عز وجل على الذين سارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ من أهل الكتاب، وأمر رسوله محمدا ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه لأهل الكتاب وغيرهم وألا يخشى في الله لومة لائم، وطمأنه بأنه عز وجل يعصمه من الناس ويكلؤه برعايته، ويصونه من كيد أعدائه، وفي هذا من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ أمام أعدائه من كل لون وجنس ومذهب ما ينطبق عليه قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

بعد ذلك كله أمر نبيه ﷺ أن يوجه الخطاب إلى أهل الكتاب معلناً لهم أنهم لن يكونوا على خير أبدا حتى يدينوا بكل كتاب أنزله الله عز وجل، ولن ينفعهم أبدا دعواهم أنهم يؤمنون ببعض كتب الله ماداموا قد كفروا ببعضها، علما بأنها جميعا تدعو إلى كلمة سواء وهي إخلاص العبادة لله وحده والبراءة من الشرك، وألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وأن يؤمنوا بما أنزل

الله من كتاب وبما أرسل من رسول ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزِلَ إليكم من ربكم﴾ ، ولاشك أن هذا القول لأهل الكتاب يشق عليهم جدا لكن رسول الله ﷺ لن يتوانى في إبلاغهم ما أمره الله عز وجل أن يبلغهم إياه ، وقد نفى الله عز وجل عن أهل الكتاب في هذا الخطاب كل شيء يمكن لأحد أن يعتد به من الدين ، والعرب تقول : هذا ليس بشيء إذا أرادت تحقيره وتصغير شأنه وعدم الاعتداد به حتى صار لا يليق بأن يسمى شيئا لظهور بطلانه ، ووضوح فساده ، ففي هذا التعبير من التحقير والتصغير ما قد بلغ الغاية من ذلك . وقوله عز وجل هنا : ﴿وليَزِيدَنَّ كثيرًا منهم ما أُنزِلَ إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ تأكيد لما تقدم قبل هذه الآية بثلاث آيات ، وقد كرره عز وجل بلفظه لبيان شدة غلوهم في العناد والمكابرة ، وللفت الانتباه إلى انتكاس فطرتهم ، وانقلاب الموازين عندهم مما يؤكد لمن عنده أدنى مسكة من عقل أنهم ليسوا على شيء وقوله تبارك وتعالى : ﴿فلا تَأْسَ على القوم الكافرين﴾ أي فلا تحزن يامحمد ولا تتأسف بسبب استمرار هؤلاء المتنكسين على كفرهم وجحودهم ، فإن غائلة كفرهم إنما تعود عليهم ، وليس عليك إلا البلاغ المبين ، وقد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوفٌ عليهم ولاهُمْ يحزنون﴾ هو لتحقيق وتأكيد أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله ، وأن سائر أهل الملل والنحل ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله وعلى رأسهم شيخ المرسلين محمد ﷺ الذي أتم الله به الدين وأكمل به النعمة والرسالة . وقد تقدم شبيهه في قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله

واليوم الآخـر وعمل صالحا فلهم أجـرهم عند ربهم ولا خـوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ وقـد ذكرت في تفسيرها أن هـذه قاعـدة قضى الله عز وجل بها وهي تشمل جميع أجناس المكلفين في جميع الأعصار والأمصار وهي أنه لا يستحق أجر الله وحسن مثوبته والنعيم المقيم في جنات النعيم إلا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل الصـالحات، فآمن بجميع النبيين وصـدق جميع المرسلين وعلى رأسهم شيخهم وإمامهم وسيدهم محمـد بن عبد الله ﷺ الذي قضي الله بأنه بعد بعثتـه لن يدخل الجنة أحد إلا مـن طريقه واتباع منهجـه وسنته والعمل بشريعته، وذكرت أن قوله عز وجل: ﴿إن الذين آمنوا﴾ يعني المسلمين من أمة محمـد ﷺ وأن معنى ﴿الذين هادوا﴾ أي صـاروا يهودا وأن النصارى هم المدعون أنهم على دين المسيح منسـوبون إلى نصرانة قرية المسيـح عليه السلام فإنها يقـال لها النـاصرة ويقال لها: نصرانـة، والصـابئون هـم عبدة النجـوم والكواكب والملائكـة، وقد كـان العرب يطلقـون اسم الصابئ على المائل عن دين إلى دين آخـر، حتى كـانوا يلقبـون أفضل الخلق بعـد الأنبياء أصحـاب محمـد ﷺ بـالصبـاة، ويسمون خـاتم المرسلين: الصـابئ لأنـه ﷺ خـالف دينهم. وقوله تبارك وتعالى في هذه الآية: ﴿والصابئون﴾ بالرفع وقد كان نسق الكلام أن يقـال: والصابئين بالنصب عطفا على اسم إن، لأن عـادة العرب إذا أرادوا لفت الانتبـاه إلى شيء غيروا إعرابه ولم يجعلـوه على نسق مـا قبله أو بعـده، ونظير ذلك قـوله تبـارك وتعـالى: ﴿والموفـون بعهدهم إذا عـاهـدوا والصابـرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾ وقوله تبـارك وتعالى: ﴿لَّٰكِنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، والمقيمين الصـلاة، والمؤتون الـزكاة والمؤمنـون بـالله واليوم الآخـر﴾ الآية وقـد سقت الأدلـة الـواضحـة من كـلام العرب على ذلك في تفسير الآيـة الثـانيـة والستين بعـد المائة مـن سـورة النسـاء، وكما أشرت إلى ذلـك في تفسير الآيـة

السابعة والسبعين بعد المائة من سورة البقرة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رسول بما لا تَهْوَى أَنْفُسُهُم فَرِيقًا كَذَّبُوا وفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تشنيع على بني إسرائيل ببيان أن القاعدة عندهم مع أنبياء الله ورسله ليست اتباع الحق من حيث إنه حق، بل مدار قبولهم للحق أو رده هو شهوات أنفسهم وأهواؤها، فإذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه، وربما قتلوه، ولا يقبلون من الحق الذي يجيء به الأنبياء والمرسلون سوى ما يشتهونه وتميل إليه أنفسهم التي جبلت على حب العلو في الأرض بغير الحق واتباع الشهوات، وهذا أقصى ما توصف به النفس الإنسانية من الذم وأقبح أخلاق بني آدم، وفيه تسلية ومواساة لرسول الله ﷺ، وقد تقدم مزيد بيان لذلك في تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وقَفَّيْنَا من بَعْدِهِ بالرسل وآتينا عيسى ابنَ مَرْيَمَ البيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاه بِرُوحِ الْقُدس، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُم فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وفي قوله عز وجل هنا: ﴿لقد أَخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا﴾ الآية مزيد بيان لما ندد الله عز وجل به في هذه السورة من نقض بني إسرائيل للعهود والمواثيق، وفي ذلك تحذير شديد للمؤمنين من نقض العهود والموثيق التي افتتح الله عز وجل هذه السورة الكريمة بأمر المؤمنين بالوفاء بها حيث قال في مطلع هذه السورة: ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل وشدة تمردهم عن الوفاء بعهد الله، وهو متعلق بما افتتح الله به هذه السورة، وهو قوله: ﴿أَوْفُوا بالعقود﴾ فقال: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وحَسِبُوا أَلا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثم تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثم عَموا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، واللهُ بصير بما يعملون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول

تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليـون ـ الذين وصف الله تعالى ذكـره صفتهم: أنه أخذ ميثاقهم، وأنـه أرسل إليهم رسلا، وأنهم كانوا كلما جـاءهم رسول بما لا تهوى أنفسـهم كـذبوا فـريقا، وقتلـوا فريقـا ـ أن لا يكـون من الله لهم ابتلاء واختبار بـالشدائد من العقوبات بما كـانوا يفعلون ﴿فعَمُوا وصَمُّـوا﴾ يقول: فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الـذي أخذته عليهم، من إخلاص عبادتي، والانتهـاء إلى أمـري ونهيي، والعمل بطـاعتي، بحسبـانهم ذلك وظنهم، ﴿وصَمُّوا﴾ عنه ــ ثم تبت عليهم، يقول: ثم هديتهم بلطف مني لهم حتى أنابـوا ورجعوا عما كانوا عليـه من معاصي وخلاف أمري، والعمل بما أكـرهه منهم، إلى العمل بما أحبه، والانتهـاء إلى طاعتي وأمـري ونهيي، ﴿ثم عَمُوا وَصَمُّوا كثير منهم﴾ يقـول: ثم عموا أيضا عـن الحق والوفاء بميثـاقي الذي أخذته عليهم: من العمل بطاعتي، والانتهـاء إلى أمري، واجتناب معاصيَّ ﴿وَصَمُّـوا كثير منهم﴾ يقـول: عمى كثير مـن هـؤلاء الـذين كنت أخـذت ميثاقهم من بني إسرائيل باتبـاع رسلي والعمل بما أنزلت إليهم من كتبي ـ عن الحق وصمـوا بعد تـوبتي عليهم، واســتنقاذي إيـاهم من الهلكة ــ ﴿والله بصيـر بما يعملون﴾ يقول: ﴿بصير﴾ فيرى أعمالهم خيرها وشرها، فيجازيهم يـوم القيـامـة بجميعها، إن خيرا فخيرا، وإن شرًّا فشرًّا. اهــ وقـد قـرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿وحَسِبُوا ألا تكونُ فتنةٌ﴾ برفع نون تكون، وقرأ الباقون بنصب نون تكـون، وفي هاتين القراءتين لفت انتباه إلى فقـه الكلمات العربية وأسرارها حيث إن قـراءة الرفع موجهـة إلى أنَّ أنْ مخففة من الثقيلة والتقـدير: أنه لا تكـون فتنة، وقراءة النصب مـوجهة على أنها أن الناصبـة للفعل، قال الإمام أبو الفـرج ابن الجوزي في تفسيره: قال أبو علي: الأفعال ثـلاثة: فعل يدل على ثبات الشيء واستقراره نحـو العلم والتيقن، وفعل يدل على خلاف الثبات والاستقرار، وفعل يجذب إلى هذا مـرة وإلى هذا أخرى، فما كان معناه

العلم وقعت بعده أنَّ الثقيلة، لأن معناها ثبوت الشيء واستقراره كقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحقُّ المبين﴾ ﴿ألم يَعْلَمْ بأن الله يَرَى﴾ وما كان على غير وجه الثبات والاستقرار نحو: أطمع وأخاف وأرجو وقعت بعده أن الخفيفة كقوله: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله﴾، ﴿تخافون أن يَتَخَطَّفَكُمُ الناسُ﴾ ﴿فَخشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُما﴾ ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي﴾ وما كان مترددًا بين الحالين مثل: حسبت وظننت، فإنه يجعل تارة بمنزلة العلم، وتارة بمنزلة أرجو وأطمع، وكلتا القراءتين في ﴿وحَسِبُوا ألا تكون فتنةٌ﴾ قد جاء بها التنزيل، فمثل مذهب من نصب ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نَجْعَلَهُمْ﴾ ﴿أم حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أن يَسْبِقُونا﴾ ﴿أم حَسِبَ الناسُ أن يُتْرَكُوا﴾ ومثل مذهب من رفع ﴿أيحسبون أنما نُمِدُّهم﴾ ﴿أم يحسبون أنَّا لا نسمعُ سِرَّهُمْ﴾ اهـ والله أعلم بأسرار كتابه.

قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ من يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ، وَمَامِنَ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ، انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . ﴾

بعد ما ذكره الله تبارك وتعالى من ترهيب أهل الكتاب وترغيبهم ، وما أمر به نبيه ﷺ من إبلاغ ما أنزل إليه من ربه ، وألا يخاف في الله لومة لائم مؤكدا له أنه يعصمه من الناس ويحفظه من كيدهم وشرورهم ، وأمره بعد ذلك أن يعلن لأهل الكتاب وغيرهم أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا بجميع كتب الله ورسله ، وبيّن أن بني إسرائيل إنما ينقادون لهوى أنفسهم وشهواتها ، وقد كان لليهود النصيب الأكبر في هذه القبائح ، شرع هنا في تفصيل بعض قبائح النصارى و إبطال أقوالهم الفاسدة وغلوهم في المسيح ابن مريم عليه السلام ، وقد افتتح عز وجل هذا المقام هنا بأن أقسم تبارك وتعالى على كفر من قال : إن الله هو المسيح ابن مريم مبينا أن المسيح عليه السلام إنما أمر بني إسرائيل أن يعبدوا الله ربه وربهم ، وأنذرهم بأن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة حيث يقول عز وجل هنا : ﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ الله هو المسيحُ ابنُ مريم وقال المسيحُ يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم اللهُ عليه الجنةَ ومأواه النارُ وما للظالمين من أنصار﴾ وقد قلت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابنُ مريمَ﴾ في الآية السابعة عشرة من هذه السورة الكريمة : أي أقسم أن من ادعى أن المسيح

عيسى ابن مريم هو الله فقد خلع ربقة الإسلام، وجحد الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر، وقد كرر الله تبارك وتعالى في هذه الآية وهي الثانية والسبعون من سورة المائدة نفس هذا القسم بحروفه تبشيعاً لجريمة من يدعي أن الله هو المسيح ابن مريم، وتنفيراً من الوقوع فيه، وتحذيراً من ولاية مدعيه، وقد أوضحت في تفسير الآية السابعة عشرة من هذه السورة أن أول من ادعى ألوهية المسيح عليه السلام هو شاول اليهودي الذي سمى نفسه «بولس» وقد ادعت النسطورية من النصارى أن الله حل في المسيح، ويقولون: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم، كما ادعت اليعقوبية من النصارى أن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط اللبن بالماء واتحدا، ولذلك أعلنوا أن الله هو المسيح ابن مريم. ولاشك أن إعلان كفر من ادعى أن المسيح إله معجزة لرسول الله ﷺ لأن المعلوم أنه عند بعثة رسول الله ﷺ كان السائد عند النصارى القول بألوهية المسيح عليه السلام فمن أين للأمي هذا العلم الذي يُجابهُ به هذه المقالة الذائعة الشائعة ويشرح به للنصارى أساس ضلالهم وسبب انحرافهم، وأحبارهم لا يزالون يقرأون في كتب العهد القديم والجديد ما يؤيد أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم قد جاءوا بوجوب توحيد الله عز وجل، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا اللهَ رَبِّي وربَّكُمْ إنه مَن يشرك بالله فقد حرَّمَ الله عليه الجنة ومأواه النار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصار﴾ هذه جملة حالية من فاعل قالوا بتقدير قد، وهذه الجملة الحالية قد سيقت لتأكيد فساد قول من ادعى أن الله هو المسيح ابن مريم بالتنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم حيث ذكر لهم المسيح أنه عبد مربوب لله سيده وسيدهم ومالكه ومالكهم ومدبر أمره ومدبر أمورهم المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء

الحسنى والصفات العلى، وأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام، وسيصلى نارا تلظى، تكون مأواه ومرجعه ومصيره ومسكنه الدائم الذي لا يخرج منه ولا يتحول عنه مادام قد مات على شركه وكفره، ولن يجد يوم القيامة شفيعا يشفع له ولا نصيرا ينصره. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أي أقسم أن من ادعى أن الله ثالث ثلاثة فهو كافر قد خلع ربقة الدين الحق وانغمس في الضلال والكفر وألقى نفسه في الهاوية وهو قَمِنٌ بأن يوصف بأنه ليس على شيء. والمراد من قولهم: ﴿ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ أي إن الله وعيسى ومريم آلهة ثلاثة، وهذه مقالة طائفة من النصارى حيث جعلوا عيسى وأمه إلهين وأن الله عز وجل إله ثالث أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، كما وبخهم عز وجل على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قُلْتَ للناس اتخذوني وأُمِّيَ إلَهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق، إن كنتُ قلتُه فقد عَلِمْتَهُ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت عَلامُ الغُيُوب﴾ وقد قال بعض النصارى إن الله جوهر واحد مكون من ثلاثة أقانيم قال الفخر الرزاي: واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى اهـ والعرب إذا قالوا لشيء: هو ثالث ثلاثة وأرادوا أنه واحد منهم وأنه بعض الثلاثة فلا يجعلونه إلا مضافا ويقولون: ثالث ثلاثة بدون تنوين لفظ ثالث، أما إذا أرادوا أنه ليس واحدًا منهم فإنهم حينئذ يقولون: هذا ثالث اثنين بالإضافة ويقولون: هذا ثالثٌ اثنين بالتنوين بمعنى: هذا ثلَّث اثنين أي صيرهما ثلاثة بنفسه، أو يقولون: هذا ثالثٌ ثلاثة بالتنوين ونصب ثلاثة، ولا تجوز حينئذ الإضافة لأنهم لم يريدوا أنه بعض الثلاثة، ولاشك أنه ما من شيئين في الوجود إلا والله عز وجل ثالثهما

بعلمه كما قال عز وجل: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ وعلى هذا المعنى يحمل قول رسول الله ﷺ: قال الله تعالى أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه، فقد قال أبو داود في باب الشركة من سننه: حدثنا محمد بن سليمان المصيصي ثنا محمد بن الزبرقان عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أبي هريرة رفعه قال: إن الله يقول: أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما. اهـ ورجال هذا السند كلهم ثقات، ومحمد بن الزبرقان من رجال البخاري ومسلم وأبو حيان التيمي هو يحيى بن سعيد بن حيان التيمي الكوفي من رجال الشيخين كذلك وأبوه سعيد بن حيان وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما من إلَهٍ إلا إلَهٌ واحد﴾ هو تحقيق لحقيقة الألوهية بإثباتها لله وحده لا شريك له ونفيها عن جميع ما سواه بأدق عبارة وأكمل بيان على طريق النفي والإثبات بأسلوب هو نص في الاستغراق حيث نفى الإلهية عما سوى الله عز وجل وساقه بنكرة منفية مسبوقة بمِن وقد أطبق علماء أصول الفقه على أن النكرة إذا جاءت منفية مسبوقة بمن فهي نص في استغراق جميع أفرادها ثم أثبت الألوهية لله وحده لا شريك له، وقوله عز وجل: ﴿وإن لم يَنتَهُوا عَمَّا يقولون لَيَمَسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ترهيب لمن قالوا إن الله ثالث ثلاثة بتأكيد أن من استمر على هذه المقالة يعرض نفسه لعقاب أليم موجع، يعذبه به جبار السموات والأرض، وكان مقتضى السياق أن يقال: ليمسنهم عذاب أليم لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لتأكيد التنصيص على كفرهم وأن الله لم يظلمهم شيئا ولكنهم هم الظالمون المستحقون للعذاب الشديد بسبب كفرهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أفَلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم﴾ ترغيب لأصحاب هذه المقالة المدعين أن الله ثالث ثلاثة بالرجوع إلى

الحق، والإيمان بالواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وتحريض لهم على التوبة إلى الله عز وجل وحض لهم على أن يستغفروا الله من هذه المقالة الفاجرة، وإشارة إلى أن من تاب إلى الله تاب الله عليه مهما كانت معصيته ومهما عظمت جريمته، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنَّ الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما المسيحُ ابنُ مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ كانا يأكلان الطعام﴾ شرح لحقيقة المسيح ابن مريم عليه السلام وبيان لمنزلة أمه، ونفيٌ لألوهية المسيح وأمه بالدليل المحسوس الملموس وأن عيسى عليه السلام إنما هو رسول من رسل الله عليهم السلام، وهو بشر مثلهم، قد أجرى الله تبارك وتعالى على يده ما شاء الله أن يجريه من الآيات حيث كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله، كما أجرى الله عز وجل على أيدي من سبقه من المرسلين ما شاء الله أن يجريه على أيديهم من الآيات كما جعل عصا موسى حية تسعى، وفلق له البحر لما ضربه بعصاه وغير ذلك من الآيات وكناقة صالح التي أخرجها له من الصخر في آيات كثيرة مشابهة لما أجراه على يد عيسى عليه السلام، ووالدة عيسى لم تكن سوى صديقة أي تسارع إلى تصديق الله فيما يجيئها من الخبر عنه بطريق كتبه ورسله كما قال عز وجل في حق مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بكلمات ربها وكتبه﴾ ووجه الاستدلال على بطلان ألوهية عيسى وأمه بقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ أي إنهما كانا محتاجين إلى الطعام، والإله الحق هو الذي يكون غنيا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلها، كما أن قوله عز وجل: ﴿ وأمه صديقة ﴾ برهان على أنه ليس بإله، لأن من كان له أم، فقد حدث بعد أن لم يكن، وقد تضمنت سورة

الإخلاص بيان صفة الإله الحق حيث يقـول عز وجل : ﴿قل هو الله أحد ❁ الله الصمد ❁ لم يلد ولم يولد ❁ ولم يكن له كفوا أَحَدٌ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظـر أنى يؤفكون﴾ تعجيب من حال من لم ينـزجر عن ادعاء الألوهية لهما بعد هذا البيان الشافي الكافي .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا، وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ. لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون. تَرَى كثيرا منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفي الْعَذَابِ هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولَٰكِنَّ كثيرا منهم فاسقون﴾.

بعد أن أقام عز وجل الدليل القاطع والبرهان الساطع على أن عيسى عليه السلام رسول من رسل الله كسائر المرسلين عليهم الصلاة والسلام وقد أقسم عز وجل على كفر من قال إن الله هو المسيح ابن مريم وعلى كفر من قال: إن الله ثالث ثلاثة، وبيَّن المذهب الحق في المسيح عليه السلام وأمه الصديقة مريم العذراء البتول رضي الله عنها شرع هنا في توبيخ وتبكيت من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار مشيرًا إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم، وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين، واتباع أهواء الضالين وفي ذلك يقول: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَالا يَمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفعا، والله هو السميع العليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا أيضا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على النصارى القائلين في المسيح ما وصف من قيلهم فيه قبل، يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: ﴿قل﴾ يامحمد لهؤلاء الكفرة من النصارى، الزاعمين أن المسيح ربهم، والقائلين إن الله ثالث

ثلاثة = أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم، وهو الذي خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم= شيئا لا يملك لكم ضرا ولا نفعا؟ يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله، والذي زعم من زعم منهم أنه لله ابن، لا يملك لهم ضرا يدفعه عنهم إن أحله الله بهم، ولا نفعا يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم، يقول تعالى ذكره: فكيف يكون ربا وإلها من كانت هذه صفته؟ بل الرب المعبود الذي بيده كل شيء، والقادر على كل شيء، فإياه فاعبدوا، وأخلصوا له العبادة، دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون، وأما قوله: ﴿والله هو السميع العليم﴾ فإنه يعني تعالى ذكره بذلك: ﴿والله هو السميع﴾ لاستغفارهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه ـــ ﴿العليم﴾ بتوبتهم لو تابوا منه، وبغير ذلك من أمورهم اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبينًا له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية، فقال تعالى: ﴿قل﴾ أي يامحمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرًا ولا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم، ﴿واللهُ هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيءٍ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد، لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق ولا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قبلُ وَأَضَلُّوا كثيرا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ بيان لسبب ضلال الكثير من الناس وهو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين، والغلو هو مجاوزة الحد والإطراء وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿يا أَهْلَ الكتاب لا تَغْلُوا في

دينكم﴾ في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة النساء أن المخاطب بهذا الخطاب أولا وبالذات هم النصارى الذين غلوا في المسيح وجعلوه إلها وابن إله وقالوا: الله ثالث ثلاثة، وإنما جاء الخطاب عاما لليهود والنصارى لأن اليهود لعنهم الله قالوا على الله غير الحق فزعموا أن العزير هو ابن الله سبحانه أن يكون له ولد، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا عبد الله ورسوله. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قل ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً على أباطيل اليهود ثم تكلم ثانياً على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال: ﴿ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غَيْرَ الحق﴾ والغلو نقيض التقصير، ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير، وقوله: ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر أي لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق، أي غلوًّا باطلا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿قل ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غيرَ الحق﴾ الآية أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلها من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديما ﴿وَأَضَلُّوا كثيرا وَضَلُّوا عن سواء السبيل﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال اهـ وفي قوله عز

وجل: ﴿لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعـوا أهواء قوم قـد ضلوا من قبل وأَضَلُّوا كثيرا وضَلُّوا عن سواء السبيل . ﴾ تحذير من الغلو في الدين ومن اتباع أهـواء الضـالين المضلين ، وقد أكـد الله تبـارك وتعـالى ضلال شيـوخ هـؤلاء المنحـرفين حيث وصف مذاهبهم بأنها أهـواء وأنهم قـد انغمسوا في الضـلال قديما ، وبأنهم أضلوا كثيرا من الناس وأبعدوهم عن مناهج المرسلين ، وبأنهم قد انحرفـوا عن طريق الرشاد ومنهج السعادة والاستقامـة والسداد . والأهواء جمع هـوى وقـد ذكـر غير واحـد من أهل العلم أن الشرع لم يـذكـر الهوى إلا مقرونا بالذم كقـوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تتبع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله﴾ وكقوله عز وجل : ﴿إنَّ الساعة آتيةٌ أَكَادُ أُخْفيهَا لِتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى . فـلا يَصُدَّنَّـكَ عنها من لا يـؤمن بها واتَّبَعَ هَـوَاهُ فَتَـرْدَى﴾ وكقـوله تعـالى : ﴿أرأيتَ من اتخذ إلٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيـلا﴾ وكقوله : ﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه وَأَضَلَّـهُ الله على علم وختم على سمعه وقلبـه وجعل على بصره غِشَاوَةً فمن يَهْدِيهِ من بعد الله ، أفلا تَذَكَّرُونَ﴾ وكقوله عز وجل : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ وكقولـه عز وجل : ﴿وأما من خاف مَقَـامَ ربه ونَهَى النفس عن الهَوَى * فإنَّ الجنة هي المأوى﴾ وقـوله تبارك وتعالى : ﴿لُعِنَ الَّـذِينَ كَفَروا من بني إسرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مـريم ، ذٰلك بما عَصَـوْا وكـانـوا يعتدون * كانـوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكر فعلـوه ، لَبِئْسَ ماكانـوا يَفْعَلُون * تَرَى كثيرًا منهم يَتَوَلَّـوْنَ الذين كفـروا ، لَبِئْسَ ما قَـدَّمَتْ لهم أَنفُسُهُمْ أن سَخِطَ الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ومَا أُنزِلَ إليه ما اتخذوهم أولياءَ ولٰكنَّ كثيرا منهم فاسقون﴾ تقـريع للمنافقين الذين يوالون أعداء الله وأعـداء المرسلين بزيـادة تأكيد سوء سلـوك الكثير من بني إسرائيل حتى استحقـوا أن يلعنـوا على لسان رسـولين كـريمين من رسل بني إسرائيل وهما داود وعيسى عليهما السلام ، وبيان للسبب الـذي لعنوا من أجله ، وهو

أنهم عصاة معتدون لا يتناهون عن منكر وقع بينهم، ولا يغارون إذا انتهكت حرمات الله، ومن كان هذا سلوكه فبئس هذا السلوك، ومع بشاعة هذه الجرائم الصادرة عنهم المسببة للعنهم فإنهم يتولون أولياء الشيطان وعباد الأوثان من المشركين، ويعادون أولياء الرحمن وأهل القرآن، فهل يحتاج من عنده أدنى مسكة من عقل إلى دليل على اعوجاجهم وانحرافهم أوضح من هذا الدليل؟ وقد استحقوا بسلوكهم هذا غضب الله وسخطه ومقته، وجلبوا لأنفسهم الخلود في نار الجحيم، ومن كان صادقا في دعوى الإيمان بالله ورسوله وكتابه لن يتخذ المشركين الوثنيين الذين لا ينتمون لكتاب ولا يؤمنون برسول أولياء فكيف يليق بعاقل أن يتولى من يوالي الوثنيين ويعادي الموحدين؟ وقد لفت الله تبارك وتعالى انتباه عباده في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم إلى أمور منها: أن الإنسان بعمله لا بنسبه حيث إن بني إسرائيل وهم من سلالة الأنبياء العظام إبراهيم وإسحاق ويعقوب قد كفر منهم من كفر، وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول في حق خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق، ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون﴾ ومنها: أنه إذا فشت المعاصي في قوم ولم يتناهوا عن المنكر حلت عليهم لعنة الله، ومنها: سوء سلوك الكثير من بني إسرائيل في ماضيهم وحاضرهم ففي الماضي لعنهم داود ثم عيسى عليهما السلام، وفي الحاضر يبصر من له بصر سوء سلوكهم حيث يتولون الوثنيين أولياء الشيطان ويعادون المسلمين عباد الرحمن حيث يقول عز وجل في هذا المقام: ﴿ترى كثيرا منهم يَتَوَلَّوْنَ الذين كفروا، لبئس ما قَدَّمَتْ لهم أنفُسُهُم أن سَخِطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزِلَ إليه

ما اتَّخَذُوهُمْ أولِيـاءَ ولكِنَّ كثيرا منهم فاسِقُـونَ . ﴾ نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفـاته العلى أن يسلك بنا صراطـه المستقيم، وأن يختم لنـا بخاتمة السعـادة إنه جـواد كـريم رءوف رحيم. وبهذا تم تفسير الجزء السـادس من القرآن الكريم. والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارى، ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا ما أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مَعَ الشاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ونَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَثَابَهُم اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيهَا، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى من اتخذ معبودا غير الله الحي القيوم وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار وأشار إلى أن من عبد غير الله فقد عبد من لا يملك لعابديه ضرا ولا نفعا وأعرض عن عبادة النافع الضار الحي القيوم السميع العليم وأعلن عز وجل أن سبب ضلال الكثير من الناس هو الغلو في الدين واتباع أهواء الضالين شرع هنا في تأكيد ما انطوت عليه نفوس اليهود والمشركين والنصارى نحو المسلمين وأن أشد الناس على الإطلاق عداوة للمؤمنين هم اليهود وأن الوثنيين الذين لم يتبعوا كتابا ولم ينقادوا لرسول من رسل الله صلى الله عليهم وسلم يشاركون اليهود في نفس هذه الدرجة من العداوة للذين آمنوا، وأن النصارى هم أقرب الطوائف الثلاث ليناً وأملاً في قبول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ وأقل تعنتاً، والمقصود من ذلك رسم الطريق للدعاة إلى الله عز وجل بتعريفهم بنفوس المدعوين حتى يكونوا على بصيرة فيما يستقبلونه في دعوة هؤلاء الطوائف، ولاشك أن معرفة الداعية بنفوس المدعوين له أثر كبير في أسباب نجاح الدعاة في دعوتهم إلى الله عز وجل، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿لَتجدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ

آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّـذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَـوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّا نَصَـارى﴾ أي إن قصـدت أن تعـرف مَن أشـد النـاس عـداوة للمـؤمنين، وتتبعت أحوال الطوائف طُرًّا، وأحطت بما لديهم خبراً، واجتهدت في تعرف أحوالهم الظـاهرة والباطنـة، وسعيت في تطلب ما عندهم من الأمـور البارزة والكامنة لتجـدن أشد الناس عدواة للمؤمنين اليهود والـذين أشركوا ولتجدن النصــارى أقـرب من اليهــود والمشركين قبــولاً للحق، ولاشك أن الــذين استجابوا للإسلام من النصارى كانوا أكثر من اليهود والمشركين بكثير. وليس هذا مدحا للذين قالوا إنـا نصارى من حيث كونهم نصارى وهم يقولون: إن الله هو المسيح ابن مـريم وماداموا يقـولون: إن الله ثالث ثلاثـة، والمعلوم أن المدح في الجملة لا يقتضي كون كـل واحد من أفراد هذه الجملة ممـدوحا، بل إنما ينصرف المدح لمن يستحقـه منهم، وقـد أشار الله تبـارك وتعـالى إلى ذلك حيث يقول في بيان سبب كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا: ﴿ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانـا وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الـرسول ترى أعينهم تَفِيضُ من الدمع ممـا عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنـا فاكتبنا مع الشاهديـن. ومالنا لا نؤمن بالله ومـا جاءنا من الحق ونطمع أن يُـدْخِلَنَا رَبُّنَا مع القوم الصـالحين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورهبـانا﴾ ليس ثناء على كل قسيس أو راهب، وليس مدحا لهذين الوصفين، إنما الثناء على من كان قسيسا أو راهبـا ثم عرف أن دين محمد ﷺ هو الـدين الحق وأنه دين الإسلام وأن من يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه فسارع إلى الدخول في الإسـلام واستمسك بشرائعـه، ولـذلك لا يوصف أحـد من هـؤلاء بعـد الـدخـول في الإســلام بأنـه قسيس أو راهب، كما لا يــوصف اليهـودي أو النصراني إذا دخل في الإســـلام بأنــه يهودي أو نصراني، والقسيـس والقُسُّ والقَسُّ والقِسُّ هـو رئيس النصارى في العلم والـدين، وأصله في اللغـة تتبع

الشيء وطلبه، قال رؤبة بن العجاج يصف نساء عفيفات لا يتتبعن النمائم:

يصبحن عن قس الأذى غوافلا

ويقال: تقسست أصواتهم بالليل أي تسمعتها. والرهبان جمع راهب وهو من كان من النصارى يتعبد في الصوامع ولا يخالط الناس من الرهبانية والترهب وهو التعبد في الصوامع مع اعتزال النساء، وقد ابتدع النصارى الترهب، وشددوا على أنفسهم فيه كما قال عز وجل: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إلا ابتغاء رضوان الله﴾ استثناء منقطع أي لم نفرضها عليهم لكنهم ابتدعوها من قبل أنفسهم اجتهادا منهم في طلب مرضاة الله، فصاروا كمن أجهد نفسه في السير وانبت، فلا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينهى عن التشدد والتنطع في الدين، ويأمر بالرفق وبالتيسير. وقد ثبت أن النجاشي لما سمع القرآن من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بكى وفاضت عينه من الدمع حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية: حدثني محمد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة بنت أبي أمية ابن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه. ثم سلاه

أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوافي دينك، وجاءوا بدين، ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي ثم قال: لا ها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني. قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوا ـــ وقد دعا

النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ــ سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الـذي قد فـارقتم فيه قـومكم ولم تدخلـوا في ديني ولا في دين أحد من هـذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب، فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقـه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصـدق الحديث، وأداء الأمانـة وصلة الـرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والـدماء، ونهانـا عن الفواحش وقـول الزور وأكل مـال اليتيم وقذف المحصنـات، وأمرنـا أن نعبد الله وحـده لا نشرك به شيئـا، وأمرنـا بالصـلاة والزكاة والصيـام ــ قالـت: فعدد عليه أمور الإسـلام ــ فصدقنـاه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنـا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينـا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينـا قومنا فعذبونـا، وفتنونا عن ديننـا، ليردونـا إلى عبـادة الأوثـان من عبـادة الله تعـالى، وأن نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جـوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقـال له النجاشي: هل معك مما جـاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال لـه جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقـرأه عليَّ، قالت: فقرأ عليه صـدراً من: ﴿كهيعص﴾ قالت: فبكى والله النجـاشي حتى اخضلت لحيتـه، وبكت أسـاقفته حتى أخضلـوا مصـاحفهم، حين سمعـوا ما تـلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جـاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحـدة، انطلقـا فـلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكـادون. إلخ الحديث.

وبكاء النجاشي وأساقفتـه لما سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ ممـا تُفسَّر به هذه

الآيات وإن كانت هذه الآيات مدنية وقصة النجاشي وأساقفته كانت قبل الهجرة إذ لا مانع يمنع من صدقها عليهم ووصفها لحالهم وحال أمثالهم ممن أشار الله عز وجل إليهم في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿إنَّ الذين أُوتُوا العلمَ من قبله إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّون للأذقان سُجَّدًا. ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكُونَ ويزيدُهُم خشوعا﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي وأي شيء يحول بيننا وبين الإقرار بوحدانية الله وبما أنزل على رسوله محمد ﷺ من القرآن ونرجو أن يحشرنا ربنا يوم القيامة مع الصالحين ويلحق منازلنا بمنازلهم في الفردوس الأعلى، ومعنى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولَئك أصحاب الجحيم﴾ أي فجزاهم الله بإحسانهم في أقوالهم وأفعالهم جنات تجري من تحتها الأنهار لا يخرجون منها ولا يتحولون عنها لأن هذا هو جزاء المحسنين. أما من كفروا بالله وكذبوا بآياته فهم أصحاب النار المخلدون فيها الملازمون لها، جزاء كفرهم وتكذيبهم، وما ربك بظلام للعبيد.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَكُلُوا مما رزقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّبًا، واتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ. لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ بِاللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُم ولَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام، ذٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ، واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

بعد أن ذكر عز وجل أن من النصارى قسيسين ورهبانا استجابوا لله ولرسوله محمد ﷺ وأنهم بكوا وفاضت أعينهم من الدمع عند سماع القرآن مما عرفوا من الحق وأنهم ضرعوا إلى الله عز وجل أن يكتبهم في الصالحين وأن يحشرهم في زمرة أمة محمد ﷺ وأن الله تبارك وتعالى استجاب دعاءهم، ووعدهم جنات النعيم، وتوعد الكافرين بملازمة عذاب الجحيم، نبَّه المؤمنين في هذا المقام وحذرهم من التنطع في الدين والتشبه بالقسيسين والرهبان الذين حرموا على أنفسهم الطيبات التي أحلها الله عز وجل لهم من المطاعم والمشارب وسائر الملذات المباحة، فانحرفوا عن فطرة الله التي فطر عليها الناس، وانقطعوا وعجزوا، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ياأيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم ﷺ أنه حق من عند الله ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُم﴾ يعني بـ «الطيبات» اللذيذات التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إياها، كالذي فعله القسيسون والرهبان، فحرموا على أنفسهم النساء، والمطاعم الطيبة، والمشارب اللذيذة، وحبس في الصوامع بعضُهم أنفُسَهم، وساح في

الأرض بعضهم، يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حد الله الذي حد لكم فيما أحل لكم وفيما حرم عليكم فتجاوزوا حده الذي حده، فتخالفوا بذلك طاعته، فإن الله لا يحب من اعتدى حده الذي حده لخلقه، فيما أحل لهم وحرم عليهم اهـ وقد أراد بعض أصحاب رسول الله ﷺ أن يعتزلوا النساء وأكل اللحم وأن يتركوا الطيب فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك فقد روى البخاري في صحيحه من طريق حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقد أخرجه مسلم من طريق ثابت عن أنس أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقد قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟ لكني أصوم

وأفطـر، وأنام وأقـوم، وآكل اللحم، وأتزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني، ثم سـاق ابن كثير رحمه الله بعض الآثـار المرسلـة ثم قـال: ولها شاهـد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقـدم ذلك ولله الحمد والمنة اهـ والظاهر أن نسبة حـديث الصحيحين هنا إلى عائشة رضي الله عنها وَهْمٌ لأنـه من روايـة أنس رضي الله عنـه فيهما لا من روايـة عـائشـة رضي الله عنها، والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحب المعتدين﴾ تنفير من التشبه بالذين كفروا من بني إسرائيل الذين لعنوا على لسـان داود وعيسى ابن مريم الـذين وصف الله عـز وجل سوء أفعـالهم بقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿لُعِنَ الذين كفـروا من بني إسرائيل على لسـان داود وعيسى ابن مـريم ذٰلك بما عَصَـوْا وكانـوا يعتـدون﴾ وبيان أن من حـرم على نفسه ما أحلـه الله له، أو حلل ما حرم الله عليـه معتد أثيم مستحق لغضب الله ومقته وسخطه. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وَكُلُوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الـذي أنتم به مؤمنون﴾ زيـادة تأكيد لتجنب الرهبـانية، وتحريض على التمتع بما ساقه الله عـز وجل للمسلم من الرزق الحلال الطيب، وتحذير من تنـاول الحرام الخبيث، وتذييل الآيـة بقولـه عز وجل: ﴿واتقـوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ تأكيد للوقوف عند حدود الله وتحذير من الاعتداء عليها فإن الإيمان بالله عز وجل يوجب المبالغة في التقوى والانتهاء عما نهى الله عز وجل عنه. هذا ولما كـان المسلم قد يسبق منه أن يحرم على نفسه شيئـا مما أحله الله عز وجل له لعارض من العوارض التي قـد تعتريه فيحلف أنه لن يتناول هذا الشيء الـذي حـرمـه على نفسه ولا يقصـد من ذلك تعنتـا وتنطعـا وتشـددا واعتداءعلى حدود الله كما فعل الذين كفروا من بني إسرائيل ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، أعقب الله تبـارك وتعالى نهيـه عن تحريم ما أحل الله ببيان أنه عز وجل قد فرض للمسلمين تحلة أيمانهم ورفع عنهم الحرج والإصر

والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿كل الطعام كان حِلا لبني إسرائيل إلا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراةُ﴾ أنه في الشرائع السماوية السابقة كان إذا حلف الإنسان ألا يأكل طعاما معيناً صار هذا الطعام محرما عليه طول عمره ولا كفارة له، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عز وجل: ﴿ياأيها النبي لم تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ الله لك تبتغي مَرْضَاتَ أزواجك، والله غفور رحيم * قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانكم، واللهُ مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وما كان مباحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يصر حراما، بل له أن يفعله ويكفر عن يمينه، وما لم يكن واجبا فعله إذا حلف عليه لم يصر واجبا عليه، بل له أن يكفر يمينه ولا يفعله، ولو غلظ في اليمين بأي شيء غلظها، فأيمان الحالفين لا تغير شرائع الدين وليس لأحد أن يحرم بيمينه ما أحله الله، ولا يوجب بيمينه مالم يوجبه الله، هذا هو شرع محمد ﷺ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حرم الرجل شيئا حرم عليه، وإذا حلف ليفعلن شيئا وجب عليه، ولم يكن في شرعهم كفارة، قال تعالى: ﴿كلُّ الطعام كان حِلا لبني إسرائيلَ إلا ما حرَّمَ إسرائيلُ على نفسه من قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التوراةُ﴾ فإسرائيل حرم على نفسه شيئا فحرم عليه، وقال الله تعالى لنبينا: ﴿ياأيها النبي لم تُحَرِّمُ ما أحل الله لك تبتغي مَرْضَاتَ أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحل الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يُحِبُّ المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون * لا يؤاخذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمانَ فكفارته إطعامُ عَشَرَةِ مساكينَ من أوسط ما تطعمون

أهليكم أو كِسْوَتُهُم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فَصِيَامُ ثلاثةِ أيام، ذٰلك كفارةُ أيمانكم إذا حَلَفْتُمْ، واحفظوا أيمانكم، كذٰلك يبين اللهُ لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ ولهذا لما لم يكن في شرع من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضغثًا فيضرب به ولا يحنث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضغث. اهـ وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولٰكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور حليم﴾ أن الأيمان بالنسبة للمحلوف به تنقسم إلى قسمين: قسم لا يجوز بحال من الأحوال فهو محظور أبدا وهو الحلف بغير الله وذكرت أدلة تحريمه وأنه شرك وكفر، أما القسم الثاني من أقسام اليمين بالنسبة للمحلوف به فهو الحلف بالله عز وجل بذاته المقدسة أو باسم من أسمائه الحسنى أو بصفة من صفاته العلى، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: يمين اللغو والثاني اليمين المنعقدة والثالث: اليمين الغموس، وعرفت هناك كل قسم من هذه الأقسام وبينت حكمه، وذكرت أن اليمين الغموس قد تسمى اليمين الصبر، واليمين الفاجرة واليمين الكاذبة واليمين الزور، وقد أوضح الله تبارك وتعالى هنا كفارة اليمين المنعقدة حيث قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذٰلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ فمن حلف على يمين فرأى أن يرجع عنها وأن يكفر عن يمينه فليفعل، وكفارته أن يطعم عشرة مساكين من أوسط طعام أهله أو يكسوهم أو يعتق رقبة فأي واحدة من هذه الثلاث فعل أجزأه ذلك وصار مكفرا عن يمينه فإن عجز الذي لزمته الكفارة عن ذلك وجب عليه أن يصوم ثلاثة أيام، وقوله عز وجل: ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ أي لا تضيعوا أيمانكم، بل صونوها وأدوا ما

يجب عليكم فيها ولا تتهاونوا بها، وقوله عز وجل: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ أي مثل ذلك البيان البديع المحكم يبين الله لكم أعلام شريعته وأحكام دينه لتشكروا الله عز وجل على ما تفضل به عليكم حيث منحكم دينا قويما غير ذي عوج، وجعلكم على ملة سمحة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ. وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.﴾

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله، وحذرهم من التنطع في الدين، ونهى عن مشابهة الرهبان والقسيسين الذين حرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله لهم، وأشعرهم أن تحريم الطيبات اعتداء على حق الله تعالى وحده الذي له أن يحلل ويحرم، وأشار إلى أنه عز وجل قد وسع على أمة محمد ﷺ إذ فرض لمن حرم على نفسه شيئا من الطيبات وحلف على ألا يقربها أن يكفر عن يمينه بخلاف ما كان على الأمم السابقة الذين كانوا إذا حرم أحدهم شيئا وحلف على ذلك صار هذا الشيء محرماً عليه طول عمره ولم يشرع لهم الكفارة ليعرف المؤمنون بمحمد ﷺ فضل الله عليهم ويشكروه على ما يسره لهم من الشريعة السمحة الكاملة الصالحة لأهل كل عصر ومصر إلى يوم القيامة، شرع هنا ينهى المؤمنين عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ويوضح لهم الآثار السيئة المترتبة على اقتراف هذه المحرمات حيث يقول عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصابُ والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ وقد ذكرت في تفسير قوله عز

وجل: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثْمُهُمَا أكبر من نفعهما﴾ أنه لما كان العرب في جاهليتهم قد استغرقوا في شرب الخمر وغلبتهم حتى صار بعضهم لا يكاد يصحو منها وكان تحريمها دفعة واحدة قد يؤدي إلى نفرتهم عن الإسلام كما ذكر عن الأعشى أنه لما توجه إلى المدينة ليسلم وعلم بذلك مشركو قريش خافوا أن يكون لشعره أثر في نشر دعوة الإسلام فلقيه بعضهم في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم أنه يريد محمدا ﷺ، فقالوا: لا تصل إليه، فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال للفقراء، فقال: إن اصطناع المعروف واجب، فقالوا له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرت شيخا فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلما رجع من الطريق سقط عن البعير فانكسرت عنقه، فمات فلم يصل إلى منزله، فكان من حكمة العليم الخبير التدرج في تشريع تحريم الخمر على أربعة أطوار، حيث أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ قبل الهجرة وهو يعدد آلاءه ونعمه على خلقه، ويذكرهم بآياته وآثار قدرته، فقال في سورة النحل: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حَسَنًا﴾ ففي هذا إيماءة إلى التنديد باتخاذ المسكر من ثمر النخيل والعنب بجعله خمرا، حيث عطف عليه الرزق الحسن كأنه قال لهم: تجعلونه رزقا رديئا ورزقا حسنا، ولا شك أن هذا الأسلوب في لفت انتباه النفس إلى التوقف عن شرب الخمر في الدرجة العليا من أساليب التربية والتعليم والتحذير، قال في القاموس المحيط: والسكر محركة الخمر اهـ أما الطور الثاني فكان في هذا المقام الكريم من سورة البقرة حيث يقول: ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾

وبعد أن بيَّنت معنى الخمر والميسر ذكرت أن الطور الثالث من أطوار تشريع تحريم الخمر هو النهي عن شرب الخمر عند قربان الصلاة حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَقْرَبُوا الصلاة وأنتم سُكَارَى حتى تعلموا ما تقولون﴾ ثم كان الطور الرابع والأخير هو الجزم والتصريح بتحريمها مطلقا حيث يقول عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطانُ أن يُوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاء في الخمر والميسر ويَصُدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم مُنْتَهُونَ﴾ فقد روى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من طريق أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً فنزلت الآية التي في البقرة ﴿يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ الآية، قال: فدعي عمر فقرئت عليه، قال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تَقْرَبُوا الصلاة وأنتم سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة ينادي: ألا لا يَقْرَبَّن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بيِّن لنا في الخمر بياناً شفاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فهل أنتم مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا، وقد صحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي. وقد قرن الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة المائدة بين الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وحكم عليها جميعا بأنها رجس من عمل الشيطان للتنفير الشديد من الخمر والميسر وتفظيع تعاطيهما حيث ربطهما مع عبادة الأوثان التي هي أكبر الكبائر وأفحش الجرائم برباط واحد وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الخمر والميسر في هذه الآية بألوان من فنون التأكيد حيث صدرت بنداء أهل الإيمان المقتضي للانزجار عنهما وقرنا بالأنصاب والأزلام وسماهما رجسا من عمل

الشيطان الذي لا يعمل إلا الشر ولا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر وأمر باجتنابهما المقتضي للابتعاد عنهما، وأشار إلى أن تعاطيهما يورث الخيبة والخسران وأن الابتعاد عنهما من أعظم أسباب الفلاح، وقد حصر الخمر والميسر في النجاسة وفي كونهما من عمل الشيطان مؤكدا ذلك بإنما مما يجعلهما شرا بحتا لا خير فيهما بوجه من الوجوه، ثم أضاف إلى ذلك بيان بعض مفاسدهما الدينية والدنيوية حيث قال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاءَ في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ فقد أكد العليم الحكيم الخبير أن الخمر والميسر يورث كل واحد منهما لمن يتعاطونه العداوة والبغضاء ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة. وهذا أمر مشاهد ملموس محسوس، فإن الخمر أم الخبائث تجعل صاحبها يلعن نفسه ويلعن أباه وأمه وقد يُلقِي بأحب الناس إليه في التنور، وكم حدث بسببها من شجار، وكم أوصلت من يتعاطاها إلى الخزي والحسرة والندامة والعار والشنار. وأما الميسر وهو القمار فكم خرب من دار، وكم أجلس صاحبه محزونا مسلوب الأهل والمال ممتلئا بالحقد والبغض لرفقاء السوء من مقامريه الأشرار، فلله الحمد والشكر على نعمة الإسلام الذي أرشد الله به العباد إلى سبل السلام. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ تأكيد للنهي عن قربان الخمر والميسر، وإيراده بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف عنهما بالفاء إيذانا بأن الأمر في الزجر والتحذير وكشف ما فيهما من المفاسد والشرور والقبائح قد بلغ الغاية القصوى وأن الأعذار قد انقطعت بالكلية وأصبح من له أدنى مسكة من عقل يعرف أنهما شر بحت ونجس صرف، وتخصيص الصلاة بعطفها على ذكر الله مع أنها من جملة أفراد الذكر للتنبيه على عظيم فضلها وهي ولا شك عماد الدين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا،

فإن تـوليتم فاعلمـوا أنما على رسولنا البـلاغ المبين﴾تأكيد وحـض على امتثال أوامر الله عز وجل وأوامـر رسوله ﷺ والانقياد لجميع تعـاليم الإسلام وتحذير شديد من مخالفة تعاليم الله وتعاليم رسـوله ﷺ فإن تعاليم الله وتعاليم رسوله ﷺ لا تأمــر إلا بخير ولا تنهى إلا عن شر، وتهديـد عظيم لمن أعــرض عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بأنه يعرض نفسه لعقاب الله لأن الحجة قد قامت عليه، وانتهـى عذره، وانقطعت علتـه، لأن رسول الله ﷺ قـد بلغ الرسـالة وأدى الأمانة وأقام الحجة وليس على الـرسول إلا البلاغ المبين، وليست قلوب العباد بيده ولا سيطرة له عليها. وقد صح الخبر أن ناسا لما سمعوا ما ذكر الله عز وجل هنـا عن الخمر والميسر خافوا على من كـان يشرب الخمر ويأكل من الميسر ومات أو استشهـد قبل التحريم فـأنزل الله: ﴿ليس على الذيـن آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مـا اتَّقَوْا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتقَوْا وأَحْسَنُوا، والله يحب المحسنين﴾ لتأكيد رفع الحرج عنهم لأنهم لم يطعموا شيئا من ذلك بعد التحريم، وقد كانوا وقافين عند حدود الله مؤتمريـن بأمر الله وأمـر رسوله ﷺ أي لا جنـاح ولا حرج ولا إثم على مـؤمن يعمل الصـالحات إذا طعم شيئاً مـن الخمر أو الميسر أو غيرهما قبل أن ينـزل تحريمه مـادام لم يطعمه بعد التحـريم وكان مجتنبا للمحظـورات مستمرا على الإيمان وعمل الصالحات ثم خاف الله عز وجـل في اجتنابه محارمه فثبت على اتقـاء الله في ذلك والإيمان بـه ولم يغير ولم يبــدل، ثم اتقى وأحسن، أي ثم خاف الله وراقبه كأنه يراه فكـان بذلك محسنا، إذ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والله يحب المحسنين.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ، وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.﴾

قد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين في أول آية من هذه السورة المباركة إلى تحريم الصيد على المحرمين بحج أو عمرة، حيث قال عز وجل: ﴿غير محلي الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾، وأذن لهم في الآية الثانية منها أن يصيدوا بعد التحلل من الإحرام حيث يقول عز وجل: ﴿وإذا حَلَلْتُمْ فاصطادوا﴾ وبعد أن حذر عز وجل أشد التحذير من الخمر والميسر، وبيّن أضرارهما الدينية والدنيوية، وأعلن أنه لا جناح على من قارفهما قبل نزول تحريمهما لأنه لم يجترئ على حرمات الله، وأثنى على المؤمنين الوقافين عند حدود الله عز وجل، الذين يراقبون الله تبارك وتعالى في أفعالهم، ووصفهم بالإحسان، وبشرهم بأنه عز وجل يحبهم، شرع هنا في تنبيه المؤمنين وتحذيرهم من قتل الصيد وهم محرمون بحج أو عمرة أو حالة كونهم داخل حدود الحرم وأعلمهم أنه سيختبرهم بشيء من الصيد وهم محرمون يقترب منهم حتى يستطيع المحرم أن يأخذه بيده أو يصيبه برمحه فمن خاف الله عز وجل لن يتعرض لهذا الصيد بأذى مادام محرما، وهذا الامتحان والاختبار شبيه بما اختبر الله عز جل به بني إسرائيل الذي قصه الله عز وجل عن أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر إذ ابتلاهم وامتحنهم، فكانت الحيتان ترفع رءوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها ـ والصيد

محرم عليهم يوم السبت ـ فإذا ذهب يوم السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر، فاحتالوا على صيدها بوسائل، كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر، فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت ثم تجاهروا بالمعصية وصاروا يصيدون يوم السبت، فجعلهم الله قردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث خرجوا عام الحديبية يريدون البيت الحرام وهم محرمون فجعل الصيد يسقط عليهم تناله أيديهم ورماحهم، فخافوا الله عز جل وعصمهم تبارك وتعالى من تناوله، وحماهم من معصيته ومخالفة أمره، ولاشك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على خوف أصحاب رسول الله ﷺ من ربهم، وأنهم أهل لأن يشرفهم الله بصحبة أفضل خلقه محمد ﷺ وأن يكونوا أفضل أتباع الأنبياء على الإطلاق، كما أنه لا شك أن من احترس من اقتراف المحرم تحريما مؤقتا كان أبعد خلق الله عن اقتراف المحرمات على التأبيد ولاسيما الخمر والميسر، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يـاأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أليم﴾ أي يا معشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ ليختبرنكم الله تبارك وتعالى بشيء من الصيد أي ببعض الصيد المحرم عليكم اصطياده وأنتم محرمون يسقط عليكم ويغشاكم هذا الصيد البري في رحالكم حيث تصيرون متمكنين من صيده بواسطة أيديكم أو بواسطة رماحكم ليتميز المطيع من العاصي وليبرز في عالم الوجود ما كان معلوما لله عز وجل قبل الخلق والتكوين من طاعة المطيع ومعصية العاصي ويظهر من يخاف الله عز وجل ويراقبه في الغيب والشهادة ويتسم بالإحسان الذي يحبه الله عز وجل، وأما من اعتدى على حرمات الله بعد هذا الإعلام والبيان والإنذار فإنه

يستحق العقـاب الموجع المؤلم. ثم شرع تبـارك وتعـالى في تأكيـد تحريم قتل الصيد على من كـان محرما، وبيان الجزاء المرتب على المحـرم إذا قتل الصيد، والتحذيـر الشديد من معاودة ارتكـاب هذا المحظور حيث يقـول عز وجل: ﴿يـاأيها الذين آمنـوا لا تقتلوا الصيـد وأنتم حُـرُمٌ، ومن قتله منكم مُتَعَمِّـدًا فجزاءٌ مِثْـلُ مَا قَتَلَ من النَّعَم يحكم بـه ذَوَا عَدْلٍ منكم هَـدْيًا بَالِـغَ الكعبة أو كفارةٌ طَعَـامُ مَسَاكِينَ أو عَـدْلُ ذٰلك صيـاما لِيَـذُوقَ وَبَالَ أمـره، عفا اللهُ عما سَلَفَ، وَمَنْ عَاد فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ، واللهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ومعنى: ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرُمٌ﴾ أي لا تقتلوا الصيـد وأنتم محرمونَ بحج أو عمرة وكذلك وأنتم داخلون في الحرم. وقـوله عـز وجل: ﴿ومن قتله منكم متعمـدا فجزاءٌ مثلُ ما قتَلَ من النَّعَم﴾ الآية. أي ومن قتل منكم وهو محرم أو في الحرم صيدا وقد قتله متعمدا قتله قاصدا إزهـاق روحه، فعليه جزاءٌ فإذا كان لهذا الصيد نظيرٌ من بهيمة الأنعام وهـي الإبل والبقر والغنم ألزم بتقديم قـربان مثله من بهيمـة الأنعام يـذبح في مكة ويفـرق لحمـه على مساكين الحرم، وقـد قضى أصحاب رسول الله ﷺ وحكموا في النعامة ببـدنة أي ناقة، وفي بقرة الوحش ببقـرة، وفي الغزال بعنـز، وفي الضبع بكبش وقـد روى أبـو داود وابن ماجـه والدارمي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله ﷺ عن الضبع قال: هـو صيد ويجعل فيه كبش إذا صاده المحـرم اهـ أما إذا كان الصيد الذي قتله المحرم لا مثيل لـه من بهيمة الأنعام فعلى من أصابه أن يتصـدق بقيمته وسـواء في ذلك من قتل الصيـد وهـو محرم عمـدا أو ناسيـا لإحرامه، وقد فسروا قوله تعالى: ﴿فمن قتله منكم متعمدا﴾ أي قاصدا قتله يعني ولـو كان نـاسيا لإحـرامـه. قال الإمـام محيي السنة البغـوي في تفسيره المسمى «معـالم التنزيل» في تفسير قـوله تبـارك وتعالى: ﴿يحكم بـه ذَوَا عدل منكم﴾ أي يحكم بالجزاء رجلان عدلان، وينبغي أن يكونا فقيهين ينظران إلى

أشبـه الأشيـاء بـه من النعم، فيحكمان بــه، وممن ذهب إلى إيجاب المثل من النعم عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن عمر وابن عباس وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم حكموا في بلدان مختلفة، وأزمان شتى بالمثل من النعم، فحكم حـاكمهم في النعامـة ببدنـة وهي لا تساوي بـدنة، وفي حمار الـوحش ببقـرة وهي لا تسـاوي بقــرة، وفي الضبع بكبش وهي لا تسـاوي كبشا، فدل أنهم نظروا إلى ما يقرب من الصيد شبهاً من حيث الخلقة، وتجب في الحمام شـاة، وهي كل مــا عَبَّ وهـدر من الطير كـالفــاختـة والقُمـريِّ والدُّبْسيِّ، وروى عن عمر وعثمان وابـن عباس رضي الله عنهم أنهم قضوا في حمام مكـة بشاة، أخبرنـا أبـو الحسن السرخسي أخبرنـا زاهر بـن أحمد نا أبـو إسحاق الهاشمي نا أبـو مصعب عن مالك عن أبي الزبير عن جـابر بن عبد الله أن عمـر بن الخطاب رضي الله عنـه قضى في الضبع بكبش، وفي الغـزال بعنز، وفي الأرنب بعناق، وفي اليربوع بجفرة. اهــ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أو كفارة طعامُ مساكين أو عدل ذٰلك صياما﴾ بيانٌ للواجب على من قتل صيدا وهو محرم ولم يجد مثيلا لهذا الصيد فإنه يخير قاتله بين أن يشتري بقيمته طعاما فيطعمـه للمسـاكين لكل مسكين نصف صـاع أو أن يصـوم عن كل نصف صاع يـوما ليكـون عدل الطعـام، ولابد أن يكـون الحكمان اللذان يحكمان في جـزاء الصيـد من أهل الخبرة والدرايـة مع وجـوب عـدالتهما. وقولـه تبـارك وتعـالى: ﴿ليـذوق وبـال أمـره﴾ أي قضـى الله تبـارك وتعـالى بهذا الجزاء أو الكفارة على من قتل الصيد وهو محرم ليحس بفداحـة جريرته وليرتدع عن أن يعود لارتكاب هذا المحظور. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ليذوق وَبَـالَ أمره﴾ قـال أبو جعفـر: يقول جل ثناؤه: أوجبـت على قاتل الصيد محرمًـا ما أوجبت من الجزاء والكفـارة الذي ذكرت في هـذه الآية، كي يذوق وبال أمره وعذابه، يعني بأمـره: ذنبه وفعله الذي فعله من قتله ما نهاه

الله عز وجل عن قتلـه في حال إحرامـه، يقول: فألـزمته الكفارة التي ألـزمته إياها لأذيقه عقـوبة ذنبه بإلزامه الغرامة والعمل ببدنـه مما يتعبه ويشق عليه، وأصل الوبال: الشدة في المكروه، ومنـه قول الله عز وجل: ﴿فعصى فرعونُ الـرسول فأخـذناه أخـذًا وَبِيـلاً.﴾ اهـ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿عفـا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيـز ذو انتقام.﴾ إخبار من الله عز وجل بعفوه وتجاوزه عمن قتل صيدا وهو محرم قبل نزول هذا التحريم لدفع ما قد يحوك في نفوس هؤلاء الذين فعلوا ذلك من الوسواس، كما طمأن المسلمين لما خافوا على مـن مات وهو يشرب الخمر قبل نزول تحريمهـا على نفي الجناح عليهم في قوله عـز وجل: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملـوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا مـا اتقوا وآمنـوا﴾ الآية. ثم حذر عـز وجل أشد التحـذير من ارتكاب جـريمة قتل الصيد في حالـة الإحرام وهدد من استمـر على ارتكاب هذه الجريمة بعد النهي عنها بأنه يعرض نفسه لعقوبة الله العزيز ذي الانتقام ولفظ «عاد» قد يأتي بمعنى: استمر ومنه قـوله عز وجل: ﴿قل للذين كفروا إن يَنْتَهُوا يُغْفَـرْ لهم ما قد سلف وإن يَعُـودُوا فقد مضت سُنَّتُ الأولين﴾ أي وإن يستمروا على كفـرهم فقد عرفوا مـا أوقع الله تبارك وتعالى بـالأمم الماضية المكـذبـة الكـافرة. فـالعـود يستعمل في الـرجـوع إلى الشيء كما يستعمل في الاستمرار على الشيء والمضي فيه.

قال تعـالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البَحْرِ وطَعَـامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وللسَّيَّـارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْـدُ الْبَرِّ مَادُمْتُـمْ حُرُمًـا ، وَاتَّقُـوا اللهَ الَّذِي إِلَيْـهِ تُحْشَرُونَ . جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَـةَ الْبَيْتَ الحرامَ قِيَـامًا للنـاسِ والشَّهْـرَ الحرامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَـلائِدَ ، ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مافى السمٰوات وما فى الأرضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . اعْلَمُـوا أَنَّ اللهَ شَـدِيـدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ . مَـا عَلَى الـرَّسُـولِ إلا الْبَلاغُ ، والله يعلم ما تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . ﴾

بعد أن نهى الله عز وجل وتعالى عن قتل الصيد لمن كان محرما وأوجب على من قتل الصيـد وهو محرم جزاء المثل يحكـم به اثنان ذوا عـدل من أهل الخبرة من المسلمين أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره ، بيَّن هنا أن الـذي يحرم قتله على المحرم هـو صيد البر وأن صيد البحـر حلال للمحرمين وأكـد تحريم صيد البر حيث يقـول عز وجل : ﴿أُحلَّ لكـم صيدُ البحر وطعامه متاعًا لكم وللسيارة وَحُرِّمَ عليكـم صيد البر مادمتم حُرُمًا﴾ أي وأبيح لكم أن تصيدوا ما شئتم من الحيوانـات البحرية وأن تأكلوا من لحومها وتتـزودوا منهـا سـواء كنتم محرمين أو محلين بلاغـا ومنفعـة وتـوسعـة من الله عزوجل عليكم مقيمين ومسافرين طريًّـا وقديدا . والمراد بصيد البحر: ما لا يعيش إلا في الماء ويفرخ ويبيض فيه من السمك وسائر أنواع الحيتان ، والمراد بالبحـر: الماء مطلقا سواء كان عـذبا فراتـا أو ملحا أجاجا ، وسـواءكان الماء جاريا أو راكدا ، والمراد بالسيارة : القافلة المسافرون ، فالسيارة جمع سيار وهو الكثير السير في السفر، وهـذا امتنان من الله تبارك وتعـالى بما يسَّره على عباده المؤمنين حيث أبـاح لهم صيـد البحـر فلهم أن يصيـدوه ولهم أن يقتلـوه وأن يأكلوه بلا حـرج عليهم ولا عقوبة تلحقهم ، بخلاف صيـد البر فإنه لا يحل لهم أن يقتلوه وأوجب على من قتله جـزاء أو كفار ةوتوعد بـالعقاب والانتقام

ممن يتعدى على صيد البر وهـو محرم كما تقدم في الآية السابقـة، ولذلك أكد هنا تحريم صيد البر قتلا أو أكلا حيث يقول عز وجل: ﴿وَحُرِّمَ عليكم صيد البر مـادمتم حـرمـا﴾ بخلاف صيـد البحـر فقـد أحل لهم أن يصيـدوه وأن يأكلوه، وقـد أذن رسول الله ﷺ للمحرم أن يأكل من صيـد البر إذا لم يصده هو ولم يكن قد أعان عليه من صاده أو دله عليه أو أشار إليه أو قد صِيد من أجلـه، فقـد روى البخاري ومسلم مـن حديث أبي قتـادة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ خـرج حاجا، فخرجـوا معه، فصرف طائفـة منهم، فيهم أبو قتادة، فقال: خذوا ساحل البحـر حتى نلتقي، فأخذوا ساحل البحر، فلما انصرفـوا أحــرمـواكلهم إلا أبــا قتـادة لم يحرم، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حمر وحش، فحمل أبـو قتادة على الحمـر، فعقر منهـا أتـانا، فنـزلوا فأكلـوا من لحمهـا، وقالـوا: أنأكل لحم صيد ونحن محرمـون؟ فحملنا مـا بقى من لحم الأتان، فلما أتوا رسول الله ﷺ، قـالوا: يارسول الله إنا كنا أحـرمنا، وقد كان أبـو قتادة لم يحرم، فـرأينا حمر وحش، فحمل عليهـا أبو قتـادة، فعقر منهـا أتانًـا، فنزلنـا فأكلنا من لحمهـا، ثم قلنا: أنأكل لحم صيـد ونحن محرمون؟ فحملنا ما بقى من لحمها، قال: أمنكـم أحد أمره أن يحمل عليها؟ أو أشار إليها؟ قالـوا: لا. قال: فكلوا ما بقى من لحمها. اهـ وقـوله في هذا الحديث (خرج حاجا) أراد الحج اللغوي وهو قصد البيت والإحرام على سبيل التوسع في اللفظ لأنه لاشك أن هـذه القصة كـانت عام الحديبيـة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيحين وكان النبي ﷺ قد خرج معتمرا فإطلاق الحج على العمرة جاء على سبيل التوسع وهو صحيح في اللغـة. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله الذي إليه تُحْشَرُون.﴾ ترغيب في طاعة الله وترهيب من معصيته بتذكير عباده وتنبيههم بأن مردهم إلى الله وأنهم مجموعون بين يديه يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملـوا ويجزي الذين أحسنـوا بالحسنـى قال ابن جـرير رحمه الله:

القول في تأويل قوله: ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تقدُّم من الله تعالى ذكره إلى خلقه بالحذر من عقابه على معاصيه، يقول تعالى ذكره: واخشوا الله أيها الناس واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم، وفي غيرها، فإن لله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿جَعلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياما للناس والشهرَ الحرامَ والهدي والقلائد، ذٰلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ قال الفخر الرازي: اعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها هو أن الله تعالى حرم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم، فبيَّن أن الحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير، فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا والآخرة اهـ وقد بين الله تبارك وتعالى في سورة النساء أنه جعل الأموال قياما للناس حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما﴾ كما بين عز وجل هنا أنه جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد، للإشارة إلى أن قيام الناس وصلاح معاشهم ومعادهم لابد فيه من أمرين ضروريين وهما الدين الذي يقوِّم أرواحهم، والمال الذي يقوِّم أبدانهم، ولاشك أن تعظيم البيت الحرام والشهر الحرام والهدي والقلائد من أعظم أسباب الطمأنينة والأمن لأم القرى ولقاصدي البيت الحرام من جميع جهات الأرض، وقد أكد الله تبارك وتعالى على وجوب تعظيم شعائره وحرماته، وأن ذلك يجلب الخير والسعادة لمن يعظم هذه الشعائر والحرمات حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك ومن يُعَظِّمْ حرماتِ الله فهو خير له عند ربه﴾ ويقول:

﴿ذلك ومن يُعَظِّمْ شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوب﴾ وقد صدر الله سورة المائدة بتنبيه المؤمنين إلى تحريم شعائر الله وتعظيمها مما يأمن به الوحش والطير والإنسان ونص في ذلك على تحريم الصيد عل المحرمين وتحريم انتهاك شعائر الله ومناسك الحج والشهر الحرام والهدي والقلائد والآمِّين البيت الحرام حيث قال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا أوفُوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حُرُمٌ، إن الله يحكم ما يريد. ياأيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائر الله ولا الشهرَ الحرامَ ولا الهديَ ولا القلائد ولا آمّينَ البيتَ الحرامَ يبتغُون فضلا من ربهم ورضوانا، وإذا حللتم فاصطادوا،﴾ وقد ذكرت في تفسير الآية الثانية من هذه السورة المباركة المراد بالشهر الحرام والهدي والقلائد، وقد سقت في تفسيرها ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. وقال: أي شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذا الحجة قلنا: بلى. قال: أي بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلدة؟ قلنا: بلى، قال: فأي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد فليبلغ الشاهد

الغـائب، فـرب مبلَّغ أوعى من سـامع. وفي هـذا الحديث إشـارة إلى أن الله تبارك وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام والشهـر الحرام والهدي والقلائد قياما للناس وصيانة لدينهم وسلامة لأبدانهم وحماية لدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وقد ألقى الله تبارك وتعالى في نفوس النـاس حتى أيام الجاهلية تعظيم الكعبة البيت الحرام حتى كرر الله تبـارك وتعالى في كتابـه الكريم امتنانـه بذلك على أهل مكة ومن حـولها حيث يقول: ﴿وقـالوا: إن نتبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ منْ أرضنا، أو لم نمكن لهم حَرَمًا آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كلِّ شيء رزقا مِن لَدُنا ولَكنَّ أكثرهم لايعلمـون﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم يـروا أنا جعلنا حرمـا آمنا ويُتَخَطَّفُ الناسُ من حـولهم،﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿ ذٰلك لتعلموا أنَّ الله يعلم مـا في السمٰوات وما في الأرض وأنَّ الله بكل شيء عليـم. اعلموا أنَّ الله شديد العقاب وأنَّ الله غفور رحيم. ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم مـا تبدون ومـا تكتمـون.﴾ أي صيرت لكم أيها الناس الكعبـة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد كي تعلموا أن من شرع لكم هذا الشرع القـويم مما بـه قوامكم ومصـالح دينكم ودنيـاكم علما منه بمنـافعكم ومضاركم أنـه كذلك يعلم جميع ما في السموات ومـا في الأرض وأنه لا يخفى عليـه شيء من أعمالكم، وهو محصيهـا عليكم ومجازيكم بها وأيقنـوا أنه عـز وجل شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأناب إليه رحيم بعبـاده المؤمنين، وليس على الرسـول إلا البلاغ، لا سيطـرة له على قلوب الناس، والله عـز وجل وحده هو الذي يعلم مـا أعلنتم وما أخفيتم، وهذا التـأكيد العظيم على علم الله تبـارك وتعالى لتربية ملكـة الخوف من الله تبارك وتعـالى في نفوس عباده، فإن من تربت فيـه ملكة الخوف من الله وقف عند حدوده وائتمر بأوامره وانزجر عن معاصيه، وصار من المحسنين.

قال تعـالى: ﴿قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ ولـو أَعْجَبكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ، فَاتَّقُـوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَـابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. يَأَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا لا تَسْـأَلُواعَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُـوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا، وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ. قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثَم أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

بعـد أن نبه تبـارك وتعالى النـاس إلى أنـه لا قوام لهم إلا بـدين الله، فمن استمسك بالدين طابت له الدنيا وفاز في الآخرة، ومن كفر بالدين لم تطب له الدنيا ولم يسعد في الآخرة شرع هنا في الحض على الاستمساك بشريعة الله و إن قل المستمسكون بها، والتنفير من الانحـراف عن الهدى و إن كثر المنحـرفون عنه فأمر نبيه وحبيبه وسيد خلقه محمدا ﷺ أن يلفت انتباه من قد يغتر بكثرة الطالحين وقلة الصالحين بأن الخبيث والطيب لا يستويان، فمن كان له عقل و إدراك لحقائق الأشياء أيقن أن الرشد في سلوك الصراط المستقيم وأن الغواية اتباع المنحرفين فليس المحسن كالمسيء كما قـال عز وجل: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملـوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أمن نجعل المتقين كـالفجار﴾ وفي ذلك يقول عز وجل هنـا: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ والكاف في قوله عز وجل: ﴿ولـو أعجبك﴾ لمن يـوجه رسـول الله ﷺ لـه الخطاب ممن قـد يغتر بكثرة المنحـرفين فيستدل بكثـرتهم على صحة مذهبهـم، وليس المخاطب بها رسول الله ﷺ لأنـه صلوات الله وسـلامه عليـه لا يعجبه كثـرة الخبيث، ومما يؤكد أن الخطـاب في قوله ﴿ولو أعجبك﴾ ليس لـرسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قال بعدها مباشرة: ﴿فـاتقوا الله ياأولي الألباب لعلكم تفلحون﴾ أي فراقبوا ربكم في جميـع أعمالكم، واحذروا عقابه، وائتمروا بـأمره، وانتهوا عما نهاكم عنه يـاذوي العقول وتجنبوا الحرام مهما كـان واقنعوا بالحلال واكتفـوا به

لعلكم تفـوزون في الدنيا والآخـرة، وأيقنوا أن الله عـز وجل طيب لا يقبل إلا طيبا، فلو تصدق إنسان بقنطار من مال حرام فإنه ــ مهما أعجب من يراه ــ فإنه لا يساوي عند الله جناح بعـوضة، ولا يعدل من تصدق بنصف تمرة من مال طيب، فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قـال رسول الله ﷺ: أيها النـاس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يـا أيها الرسل كُلُوا من الطيبات واعملوا صـالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا كلوا من طيبات مـا رزقناكم﴾ ثم ذكر الـرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يـديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك. كما روى البخاري في صحيحـه من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قـال: قال رسـول الله ﷺ: من تصـدق بعـدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعـد إلى الله إلا الطيـب، فإن الله يتقبلهـا بيمينـه ثم يـربيهـا لصاحبها كما يربى أحـدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل. وفي رواية لمسلم من حديث أبي هـريرة أن رسول الله ﷺ قال: مـا تصدق أحد بصـدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخـذها الـرحمن بيمينه وإن كانـت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكـون أعظم من الجبل كما يربي أحـدكم فلوه أو قلـوصه، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يتصدق أحد بتمـرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينـه، فيربيها كما يربي أحدكم فلوه أو قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشيـاءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّل القرآنُ تُبْدَ لَكُمْ عفا الله عنهـا، والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحـوا بها كـافـرين﴾ تعليم للمـؤمنين وتـربيـة لهم على أحسن مناهج السلـوك عند الاستفسـار وطلب ما يحتـاجون إلى معرفتـه من العلم،

وتعريف لهم بآداب السؤال، وتحذير لهم من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يثير أسئلة لا حاجة له فيها ولا فائدة من سؤالها، وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين، وترهيب من أن يكون السؤال سببا لحرمان المسلمين من خير أو جلب المشقة عليهم، أو أن يعود بالعاقبة السيئة على السائلين، والخطاب وإن كان موجها للمؤمنين فإنه ردع لغيرهم على حد قول القائل: إياك أعني واسمعي يا جارة، لأن المؤمنين لا يسألون رسول الله ﷺاستهزاء أبدا، ولايتأتى من مؤمن ذلك بحال من الأحوال، وقد صحت الأخبار التي تؤكد أن هذه الآية الكريمة تشمل هذه الصور كلها حتى قيل في كثير من هذه الصور: إن هذه الآيةَ نزلت فيها، فقد روى البخاري في التفسير في باب قوله: ﴿لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكُم﴾ من طريق موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان، فنزلت هذه الآية: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساق البخاري من طريق أبي الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تَسُؤكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. وأخرج البخاري في كتاب الفتن من صحيحه في باب التعوذ من الفتن من طريق قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم، فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاحى

يُدعى إلى غير أبيه فقال: يانبي الله من أبي؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط، قال قتادة: يذكر هذا الحديث عند هذه الآية: ﴿يا أيا الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ وأخرج البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه في باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف مالا يعنيه وقوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساق من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن النبي ﷺ قال: إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته، وقد أخرج مسلم هذا الحديث من طريق عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته. ثم ساق مسلم من طريق موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال: بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: عرضت عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً، قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه. قال: غطوا رءوسهم ولهم خنين، قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبي؟ قال: أبوك فلان، فنزلت: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم﴾ ثم ساقه مسلم من طريق ابن شهاب قال: أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى لهم صلاة الظهر، فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أمورا عظاما. الحديث، وفيه: فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يارسول الله؟ قال: أبوك

حذافة . ثم قال مسلم : قال ابن شهاب : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قالت أم عبد الله بن حذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعت بابن قط أعق منك ، أأمنت أن تكون أمك قد قارفت بعض ما تقارف نساء أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ قال عبد الله بن حذافة : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم عفا الله عنها ، والله غفور حليم﴾ تنبيه للمسلمين إلى الاحتراز من كثرة الأسئلة بعد رسول الله ﷺ لما تحدثه من بلبلة أفكار المسلمين ، أما في حياة رسول الله ﷺ فإن من يسأل عن شيء فإن الوحي قد ينزل بجوابه وبيانه وقد يكون في هذا البيان تضييق عليكم ، لأن الله عز وجل قد فرض لكم فرائض وحدد حدودًا وحرم أشياء وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها . كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا ، فقام رجل : فقال : أكل عام يارسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله ﷺ : لو قلت : نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾ تحذير مما وقع فيه بعض أمم الأنبياء السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء ، فإذا جاءتهم انتكسوا وكفروا بها .

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ ولا سَائِبَةٍ ولا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلى مَا أَنزَلَ اللهُ وإلى الرسول قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عليه آباءَنَا، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُم أنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

بعد أن حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من دسائس بعض الذين في قلوبهم مرض ممن يسأل أسئلة لا فائدة من سؤالها وقد يريد بها الاستهزاء بالمسئول أو إثارة الشكوك والشبهات والنزاع بين المسلمين، ورهبهم من الوقوع فيما وقع فيه بعض من كفر من الأمم السابقين حيث كانوا يسألون أنبياءهم المجيء بأشياء فإذا جاءتهم كفروا بها وازدادوا ضلالا شرع هنا في توبيخ الكفار الذين يسلكون سبيل آبائهم الجاهلين حيث سلكوا في عبادتهم سبلاً لم يشرعها الله فاتخذوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي التي لم يشرعها الله، حيث يقول عز وجل: ﴿ما جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا حامٍ ولَكِنَّ الذين كفروا يَفْتَرُونَ على الله الكذِبَ وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله عز وجل البحيرة ولا السائبة ولا الوصيلة ولا الحامي ولكن الجاهلين الجاحدين يختلقون على الله دينا لم يشرعه، وينسبون إلى الله مالم يقله، وأكثرهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا. ولفظ ﴿جعل﴾ يجيء في اللغة العربية لمعان كثيرة، فتأتي ﴿جعل﴾ بمعنى شرع كقوله عز وجل هنا ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ أي ما شرع الله عز وجل ذلك، وتأتي بمعنى بيَّن كقوله عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ وتأتي بمعنى خلق كقوله عز وجل: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ وتأتي بمعنى التشريف كقوله عز

وجل: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس﴾ وتأتي لمعان غير هذه المعاني كما نص على ذلك أئمة اللغة. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: قال الأزهري: قال أبو إسحاق النحوي: أثبت ما روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة كانت إذا نُتِجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرا بحروا أذنها أي شقوها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تُحْلأ عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المعيي المنقطَع به لم يركبها، وجاء في الحديث: أن أول من بحر البحائر وحمى الحامي وغير دين إسماعيل عمرو بن لُحَيٍّ بن قَمَعَةَ بن جُنُدب اهـ وقوله: قمعة بن جندب خطأ وصوابه: قمعة بن خِنْدَف كما في البخاري ومسلم، فقد روى البخاري في المناقب في باب قصة خزاعة من طريق أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: سمعت سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس، والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال: وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصْبه في النار، وكان أول من سيب السوائب. وأخرج البخاري في تفسير هذه الآية من سورة المائدة من طريق الزهري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمراً يجر قصبه، وهو أول من سيب السوائب. وأخرج في صحيحه من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أخا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار. ثم أخرج مسلم من طريق ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، وأما السائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل

عليها شيء، وقال ابـن المسيب: قال أبو هريرة: قـال رسول الله ﷺ: رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النـار، وكان أول من سيب السيوب اهـ وعمـرو بن لحي منسـوب إلى جـده فهـو عمرو بن عـامـر بن لحي، وقـومـه خزاعة، ويقال لخزاعة بنو كعـب نسبة إلى جدٍّ لهم، وقد أسند البخاري رحمه الله إلى سعيد بن المسيب رحمه الله قـال: والوصيلـة الناقة البكـر تُبكِّر في أول نتاج الإبل ثم تُثَنِّي بعدُ بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم أن وصلت إحداهما بـالأخـرى ليس بينهما ذكـر، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعـدود فإذا قضى ضرابـه ودَعـوه للطـواغيت وأعفـوه من الحمل فلم يحمل عليـه شيء، وسمـوه الحامي، وقال لي أبـو اليمان: أخبرنـا شعيب عن الزهـري: سمعت سعيدًا اهــ والمقصود أن أهل الجاهلية كانـوا يجعلون لأصنامهم هـذه الأنواع من أنعامهم، وقـد وبخهم الله تبارك وتعـالى على ذلك وبيَّن أنهم منقادون في ذلك للشيطـان حيث يقول عـز وجل: ﴿إن يَدْعُـونَ من دونه إلا إنـاثا و إن يَـدْعُـون إلا شيطـانـا مَريـدًا. لَعَنَـهُ اللهُ، وقـال لأتخذَنَّ من عبـادك نصيبـا مفروضا. وَلأُضِلَّنَّهُمْ ولأُمَنِّيَنَّهُمْ ولآ مُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام﴾ الآية. وكما قال عـز وجل: ﴿وقـالوا هٰذه أنعـام وحرث حِجْـرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا مـن نشاء بزعمهم وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سَيَجْزِيهم بما كانـوا يفترون. وقالوا مافي بُطُونِ هٰذه الأنعام خالصةٌ لـذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا و إن يكـن مَيْتَةً فهم فيـه شركاء، سَيَجْزِيهم وَصْفَهُـمْ، إنه حكيم عليم﴾ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولَكنَّ الـذين كفـروا يفترون على الله الكـذبَ وأكثرهم لا يعقلـون﴾ هـذا تأكيد على أن المشركين الجاهلين الـذين بحروا البحيرة وسيبوا السائبة وجعلوا الوصيلة والحامي معتدون على دين الله، يقولون الكذب على الله ويشرعون مـالم يشرعه الله، فهم في ذلك كالأنعام بل هم أضل سبيـلا، كل همهـم تقليـد آبـائهم الجاهلين وعلى رأسهم عـدو الله

عمرو بن لحي لعنه الله، قال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هي عنده قربة، ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعًا لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم اهـ

وقوله: ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ ينفي العقل عن أكثرهم لأن بعضهم قد عقل أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مفتراة على الله ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بَلْدَحٍ قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكارًا لذلك وإعظامًا له. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا قيل لهم تَعَالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حَسْبُنَا ما وَجَدْنا عليه آباءنا، أَوَ لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ توبيخ للمشركين على انقيادهم لدين أهل الجاهلية وتسفيه لهم على عنادهم للحق واستعصائهم على من يدعوهم إلى الهدى وشريعة رب العالمين ومبالغتهم في الانقياد للجهلة الضالين الذين لا يعلمون شيئا ولا يهتدون، لأن الاقتداء إنما يكون حسنا إذا كان المقتدى به عالما مهتديا، وآباء هؤلاء أشد جهلا من أنعامهم فكيف يقتدي هؤلاء بهم ويستعصون على سيد المرسلين ورسول رب العالمين، ومعنى: ﴿حَسْبُنَا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي يكفينا الدين الذي وجدنا عليه آباءنا فلا نحل إلا ما أحلوه ولا نحرم إلا ما حرموه، ومعنى: ﴿أَوَ لَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون﴾ أي أينقادون لآبائهم ولو كانوا أجهل من

داوبهم؟ وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أَوَ لـو كان آباؤهـم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون﴾ وكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتَّبِعُـوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليـه آباءنا، أَوَ لو كـان الشيطان يدعوهم إلى عـذاب السعير﴾ وقوله تبـارك وتعالى: ﴿يـاأيها الـذين آمنـوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتـديتم، إلى الله مرجعكم جميعـا فينبئكم بما كنتم تعملـون﴾ إعـلام لدعـاة الهدى بأنهم لا يضرهم ضلال الضالين ماداموا قـد أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر وقـالوا لهم تعالـوا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسول، لأن قلـوب العباد ليست بأيدي أحـد من خلق الله، وليس على الرسول إلا البـلاغ كما أنه ليس على دعاة الهدى سـوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر، وإرشاد الخلق إلى الحق، وجزاء الجميع عند الله عـز وجل، فمن أحسن فله الحسنى ومن أساء فعليها، وسـيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقـلبون، ولذلك قـال عـز وجل هنـا: ﴿إلى الله مـرجعكم جميعـا فينبئكم بما كنتـم تعملـون﴾ ونصب ﴿أنفسكم﴾ في قـوله ﴿عليكم أنفسكـم﴾ على الإغراء أي احفظـوا أنفسكم وصونـوها من معصيـة الله وأسباب سخطه، ونـاصبها ﴿عليكم﴾ لأنـه هنا اسم فعل بمعنى الزمـوا. وقد روى أبو داود وابن ماجـه والترمذي واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب من طـريق عتبة بن أبي حكيم حدثنا عمرو ابن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قـال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا، سألت عنهـا رسول الله ﷺ فقال: بل ائتمـروا بالمعروف وتنـاهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من ورائكم

أيـاما الصبر فيهن مثـل القبض على الجمر، للعـامل فيهن مثل أجـر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم . الحديث .

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فى الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ، تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ. فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ. ذَٰلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ، واتَّقُوا اللهَ واسْمَعُوا، واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

بعدما أشار الله تبارك وتعالى إلى ما عليه الدعاة الهداة أتباع محمد رسول الله ﷺ من دعوة الغواة إلى ما أنزل الله وإلى اتباع سنة رسول الله ﷺ، وندد باستمساك الضالين بعادات وعقائد آبائهم الجاهلين، وطمأن نفوس المؤمنين بأنهم لا يضرهم من ضل مادام المؤمنون يسلكون سبيل الهدى، وأشار إلى أن المؤمنين والكافرين صائرون إلى الله لا محالة، منتقلون عن هذه الدنيا مجزيون بأعمالهم، ساق هنا ثلاث آيات وهي — وإن كانت للتنبيه على دقة أحكام شريعة الإسلام التي تحفظ على الناس دينهم وأموالهم — فهي كذلك لتأكيد رجوع الناس إلى الله وانتقالهم إلى الدار الآخرة، وللتنبيه على أن الموت نازل بساحتهم لا محالة. وقد أفادت حكما عزيز الوقوع حيث تقبل فيه شهادة غير المسلم على المسلم، وقد اشترط الله عز وجل في قبول هذه الشهادة ألا يوجد من يؤديها من المسلمين وأن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، إذ الأصل عدم قبول شهادة غير المسلمين على المسلمين، وقد نزلت هذه الآيات الثلاث بسبب أن رجلاً من بني سهم خرج في تجارة إلى الشام مع تميم بن أوس الداري وعدي بن بدّاء وكانا نصرانيين، فمات السهمي بأرض ليس

فيها مسلم ، وكان عندما أحس بدنو أجله دفع متاعه إلى تميم الداري وعدي ابن بداء ووصاهما بإيصال متاعه إلى أهله وكان في هذا المتاع جام من فضة مخوص من ذهب أي إناء من فضة قد نقش فيه صورة الخوص من الذهب . وبعد موته وجدا الجام فأعجبهما فأخذاه وباعاه ، فلما قدما بتركته عثر أهله على وصيته ، فسألوا تميما وعدياً عن الجام فأنكراه ، فرفعوهما إلى النبي ﷺ فأمرهم أن يستحلفوهما ، فحلفا ، ثم عثر على الجام بمكة فلما سئل الذي هو بيده قال : اشتريته من تميم الداري وعدي بن بداء فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآيات فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا : لشهادتنا أحق من شهادتهما و إنَّ الجام لصاحبهم ، قال البخاري رحمه الله في كتاب الوصايا من صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بَيْنِكُمْ إذا حضر أَحَدَكُمُ الموتُ حِينَ الوصِيَّةِ اثنان ذَوَا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذًا لَمِنَ الآثمين * فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مَقَامَهُمَا من الذين استحق عليهم الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بالله لشهادَتُنَا أَحَقُّ من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين * ذُلك أدنى أن يأتُوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بعد أَيْمَانِهِم ، واتقوا الله واسمعوا ، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقال لي علي بن عبد الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن أبي القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي ابن بداء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصًا من ذهب ، فأحلفهما رسول الله ﷺ ، ثم وجد الجام بمكة ، فقالوا ابتعناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أوليائه فحلفا : لشهادتنا أحق

من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينكم﴾ اهـ وقد أخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآيات المباركة أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة رجلين عدلين من المسلمين فإن كان الموت قد حضره وهو يضرب في الأرض – أي كان في سفر – ولم يكن معه أحد من المؤمنين فليُشْهِد شاهدين ممن حضره من غير المسلمين، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة حيث يجتمع المؤمنون المصلون أنهما ما كذبا وما بدلا، وأن ما شهدا به حق، وأنهما ما كتما فيه شهادة، حكم بشهادتهما، وهذا كله إذا حصل ارتياب وشك في شهادتهما، فإن عثر واطُّلِعَ على أن الشاهدين كذبا وكتما حلف رجلان يكونان من أولى أولياء الموصي ويشهدان بالله أن صاحبهم أوصى بكذا وكذا وأن هذا الذي عثر عليه هو من تركته وأن شهادة هذين الكافرين غير صحيحة وأنهما كذبا وكتما، فإن أدى الوليان الأوليان هذه الشهادة حكم بها الحاكم وغُرِّم الشاهدان السابقان ما عثر عليه من خيانتهما، وقد حدث هذا من تميم الداري عندما كان نصرانيا، ثم أسلم رضي الله عنه وهو أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة بن دارع بن عدي بن الدار بن هانئ بن حبيب بن لخم، وقد وفد هو وأخوه نعيم ابن أوس على رسول الله ﷺ فأسلما وأقطعهما رسول الله ﷺ حبري وبيت عينون بالشام وصحب تميم رسول الله ﷺ وغزا معه، وجمع القرآن، وأم بالمسلمين في صلاة القيام في عهد عمر رضي الله عنه، وقد حدث عنه رسول الله ﷺ على المنبر بقصة الجساسة والدجال، وقد سكن تميم الشام بعد مقتل عثمان رضي الله عنهما. والظاهر أن مثل هذه الحادثة لم تتكرر في عصر رسول الله ﷺ لكنها وقعت عندما كان أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه بالكوفة، فقد قال أبو داود في سننه: باب شهادة أهل الذمة وفي الوصية في

السفر، حدثنا زياد بن أيوب ثنا هشيم أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاء هذه ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وإنها لوصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما. وقد وصف ابن كثير رحمه الله في تفسيره سند هذا الحديث بأنه صحيح، ووصفه الحافظ ابن حجر في فتح الباري بأن رجاله ثقات. وقد اشتملت هذه الآيات المباركة على صور بلاغية وأساليب بيانية عالية، كقوله عز وجل: ﴿شهادة بينكم﴾ بإضافة الشهادة إلى البين، المشعر بأن هذه الشهادة لوصل ما انقطع، إذ البين يأتي بمعنى الوصل وبمعنى الفرقة. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: البين في كلام العرب جاء على وجهين: يكون البين الفرقة ويكون الوصل اهـ وقد جاء في التنزيل الكريم: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ و أو في قوله عز وجل: ﴿أو آخران من غيركم﴾ ليست للتخيير بل هي للتعقيب كأنه قيل: ليشهد اثنان ذوا عدل منكم إن وجدا، فإن لم يوجدا فآخران من غيركم أي من غير ملتكم أيها المؤمنون. ومعنى: ﴿لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى﴾ أي يقولان في يمينهما: لا نشتري بقسمنا عوضا نأخذه ولا نريد بيميننا عرضا من أعراض الحياة الدنيا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فصل: الذي يدل عليه القرآن في سورة المائدة في آية الشهادة في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا﴾ أي بقولنا، ولو كان ذا قربى حذف ضمير كان لظهوره أي ولو كان المشهود له، كما في قوله: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾ وكما في قوله: ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ إلى قوله: ﴿إن يكن غنيا

أو فقيرا﴾ أي المشهود عليه، ونحو ذلك لأن العادة أن الشهادة المزورة يعتاض عليها، وإلا فليس أحد يشهد شهادة مزورة بلا عوض ــ ولو مدح ــ أو اتخاذ يدٍ. وآفة الشهادة: إما اللَّيُّ وإما الإعراض: الكذب والكتمان، فيحلفان لا نشتري بقولنا ثمنا أي لا نكذب ولانكتم شهادة الله، أو لا نشتري بعهد الله ثمنا، لأنهما كانا مؤتمنين فعليهما عهد بتسليم المال إلى مستحقه، فإن الوصية عهد من العهود. وقوله بعد ذلك: ﴿فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثما﴾ أعم من أن يكون في الشهادة أو الأمانة، وسبب نزول الآية يقتضي أنه كان في الأمانة فإنهما استشهدا وائتمنا، لكن ائتمانهما ليس خارجا عن القياس بل حكمه ظاهر فلم يحتج إلى تنزيل، بخلاف استشهادهما، والمعثور على استحقاق الإثم ظهور بعض الوصية عند من اشتراها منهما بعد أن وجد ذكرها في الوصية، وسئلا عنها فأنكراها. اهـ وقوله عز وجل: ﴿الأوليان﴾ أي الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وارتفع الأوليان بتقدير: هما، كأنه قيل: من الشاهدان؟ فأجيب: الأوليان اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فيقسمان بالله لشهادتُنَا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذًا لمن الظالمين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فيقسم الآخران اللذان يقومان مقام اللذين عثر على أنهما استحقا إثما بخيانتهما مال الميت، الأوليان باليمين والميت من الخائنين ــ ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ من شهادتهما﴾ يقول: لأيماننا أحق من أيمان المقسمين المستحقين الإثم، وأيمانهما الكاذبة ــ في أنهما قد خانا في كذا وكذا من مال ميتنا، وكذا في أيمانهما التي حلفا بها ــ ﴿وما اعتدينا﴾ يقول: وما جاوزنا الحق في أيماننا اهـ وقوله عز وجل: ﴿إنا إذًا لمن الظالمين﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله أي إنا إن اعتدينا في يميننا لمن الظالمين الواضعين الشيء في غير موضعه المتجاوزين الحق، وقوله عز وجل: ﴿ذُلك أدنى أن يأتُوا

بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن تُردَّ أيمان بعد أيمانهم﴾ لفت انتباه الناس إلى حكمة التشريع، ودقة أحكام الشريعة، وما تثمره في النفس البشرية من التقويم والردع عن الباطل، والإشارة بقوله ﴿ذٰلك﴾ للحكم الذي تقدم تفصيله، أي ذلك أدنى وأقرب أن يأتوا بالشهادة على وجهها ويخافوا عذاب الآخرة بسبب العقوبة على اليمين الكاذبة أو يخافوا الافتضاح على رءوس الأشهاد بإبطال أيمانهم. وقوله: ﴿واتقوا الله واسمعوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي وخافوا الله أيها الناس وانقادوا لشرعه، ولا تفسقوا عن أمره، لأن الله لا يوفق الفاسقين بل يخذلهم ولا يسددهم، وإنما يوفق لطاعته عباده الصالحين المنقادين لشرعه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ. إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فى الْمَهْدِ وَكَهْلا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِى، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله محمدًا ﷺ بتبليغ الرسالة والقيام بأعبائها، وبيَّن له أنه يحفظه ويصونه ويعصمه من شرور الناس، وقد قام رسول الله ﷺ بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة على أكمل وجه لا يخشى في الله لومة لائم، وأمر الله تبارك وتعالى المكلفين بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حيث قال في الآية الثانية والتسعين من هذه السورة المباركة: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين﴾ ثم أكد ذلك في الآية الثامنة والتسعين فقال: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ وطمأن عز وجل دعاة الهدى بأنهم لا يضرهم من ضل ماداموا مستمسكين بالهدى، وأن مرجع جميع العباد إلى الله يوم القيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى شرع هنا في خواتيم المسك من هذه السورة الكريمة يذكر بعض المشاهد العظيمة من مشاهد القيامة لتأكيد ما تقرر من أنه ليس على الرسل إلا البلاغ وعلى الله وحده حساب الخلائق حيث يقول عز وجل: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت عَلاَّمُ الغيوب﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فيقولُ مَاذا أجبْتُمْ قَالُوا لا

عِلْمَ لنا إِنَّكَ أَنتَ عَـلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ قال أبـو جعفر: يقول تعالى ذكـره: واتقوا الله أيها الناس، واسمعوا وعظه إياكم، وتذكيره لكم، واحذروا يوم يجمع الله الـرسل، ثـم حذف واحـذروا، واكتفى بقولـه: ﴿واتقوا اللهَ واسمعـوا﴾ عن إظهاره، كما قال الراجز:

علفتهـا تبنـا ومـاءً بـاردًا حتى شتـت همـالة عينـاها

يـريد: وسقيتهـا ماء بـاردا، فاستغنى بقـوله: «علفتهـا تبنا» من إظهـار «سقيتها» إذ كـان السامع إذا سمعـه عرف معناه، فكـذلك في قولـه: ﴿يوم يجمع الله الـرسل﴾ حذف «واحـذروا» لعلم السامع معنـاه، اكتفاءً بقـوله: ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾ إذ كان ذلك تحذيرا من أمر الله تعالى ذكره خلقه عقابه على معاصيه، وأما قوله: ﴿ماذا أجِبْتُمْ﴾ فإنه يعني به: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدي والإقـرار بي، والعمل بطاعتي، والانتهاء عن معصيتي، قالـوا: لا علم لنا: اهـ والمراد بقولـه: لا علم لنا أي نحن لا نعلم ما غاب عنا من أحوالهم وأسرارهم ولا ندري ما فعلوه بعدنا من تحريف الـدين ومخالفـة المرسلين، إذ لا يعلم الغيب إلا الله وحده عـز وجل ولـذلك قـالوا: إنك أنت عـلام الغيوب. وقـد قـال البخاري في صحيحـه: حدثنـا سعيد بن أبي مـريم حدثنـا محمد بن مطـرف حدثني أبو حـازم عن سهل بن سعد قال قـال النبي ﷺ: إني فرطكم على الحوض، من مر عليَّ شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدا، ليردن عليَّ أقوام أعـرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم، قـال أبو حـازم: فسمعني النعمان بن أبي عيـاش فقال: هكـذا سمعتَ من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته وهو يزيد فيها: فأقـول إنهم مني، فيقال: إنك لا تـدري ما أحـدثوا بعـدك، فأقول: سحقًـا سحقًا لمن غيَّر بعـدي. وقال مسلم في صحيحـه: حـدثنا قتيبـة بن سعيـد حدثنـا يعقوب (يعني ابن عبـد الرحمن القـاري) عن أبي حازم قـال:

سمعت سهلا يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : أنا فرطكم على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا ، وليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم ، قال أبو حازم : فسمع النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا الحديث فقال : هكذا سمعت سهلا يقول؟ قال : فقلت : نعم ، قال : وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيقول : إنهم مني ، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقًا سحقًا لمن بدَّل بعدي ، وقوله في الحديث : أعرفهم أي يجعل الله عز وجل لأمة محمد ﷺ علامات يعرفون بها يوم القيامة كما جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن حوضي أبعد من أيلة من عدن ، لهو أشد بياضا من الثلج ، وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم ، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه . قالوا : يارسول الله أتعرفنا يومئذ؟ قال : نعم ، لكم سيماء ليست لأحد من الأمم ، تردون على غرًّا محجلين من أثر الوضوء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إذْ قال الله ياعيسى ابنَ مَرْيم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره المعروف بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ : شروع في بيان ما جرى بينه تعالى وبين واحد من الرسل المجموعين من المفاوضة على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه تعالى وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين ، وتخصيص شأن عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلا من بين شئون سائر الرسل عليهم السلام مع دلالتها على كمال هول ذلك اليوم ، ونهاية سوء حال المكذبين بالرسل لما أن شأنه عليه السلام متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نُعِيت عليهم في السورة الكريمة جناياتهم ، فتفصيله أعظم عليهم ، وأجلب لحسرتهم وندامتهم وَأَفَتُّ في أعضادهم ، وأدخل في صرفهم

عن غيهم وعنادهم اهـ وقال الفخر الرازي : اعلم أنا بيَّنا أن الغرض من قوله تعالى للرسل : ﴿ماذا أُجِبْتُمْ﴾ توبيخ من تمرد من أممهم ، وأشد الأمم افتقارا إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام ، لأن طعن سائر الأمم كان مقصورا على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم ، فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله ، والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم اهـ والتعبير بالماضي في قوله عز وجل : ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم﴾ للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة وحكايته حكاية الحال الواقعة ، وهو شبيه بقوله عز وجل : ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾ وكذلك قوله عز وجل : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وَجَدْنَا ما وَعَدَنَا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نَعَمْ ، فأذَّنَ مُؤَذِّنٌ بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ والتعبير عن المضارع بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه أسلوب بلاغي يُعدل فيه عن مقتضى الظاهر إلى مقتضى الحال كما هو مدون في علم المعاني من علوم البلاغة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿إذ أيَّدْتُك بروح القدس﴾ أي إذ أعنتك وقويتك بالروح المقدسة أي المطهرة والمراد جبريل عليه السلام والإضافة في روح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقد تقدم نظير هذا المقام في سورة البقرة حيث يقول عز جل : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ في الآية السابعة والثمانين ، وكذلك في الآية الثالثة والخمسين بعد المائتين من سورة

البقرة حيث يقول عـز وجل : ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيـدناه بروح القدس﴾ وقوله تبارك وتعالى في هـذا المقام : ﴿تكلم الناسَ في المهد وكهلا﴾ تقدم نظيره في الآيـة السادسة والأربعين من سـورة آل عمران حيث يقـول عز وجل : ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلا﴾ وقد تقـدم تفسيره هناك ، وقوله عز وجل : ﴿وإذْ علمتك الكتاب والحكمـة والتوارة والإنجيل﴾ هـو شبيه قـوله عز وجل في الآية الثامنة والأربعين من سورة آل عمران حيث يقول عز وجل : ﴿ويُعَلِّمُـهُ الكتـاب والحكمـة والتـوراة والإنجيل﴾ وقـد تقـدم تفسير ذلك هناك ، وقوله عـز وجل : ﴿وإذْ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكونُ طيرا بإذني وتبرئُ الأكمـه والأبرص بإذني وإذ تُخْرِجُ الموتَى بـإذني﴾ هو شبيه قوله عز وجل في الآية التاسعة والأربعين من سورة آل عمران : ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيـة من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيـه فيكون طيرا بإذن الله وأُبْـرِئُ الأكمه والأبـرص وأُحْيِي الموتى بإذن الله﴾ وقد تقدم تفسير ذلك هناك ، وقـوله عز وجل : ﴿وإذ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بـالبينات فقال الـذين كفروا منهم إنْ هـذا إلا سحر مبينٌ﴾ تذييل للفت الانتباه إلى آية من آيات الله ونعمة من نعمه العظيمة على عبده ورسـوله عيسى عليه السلام بصيـانته من أعدائه اليهود الـذين امتلأت قلـوبهم بالعـداوة لعيسى عليه السـلام لما جـاءهم بالبينـات فصانـه الله من شرورهم ، وعصمـه من سوء مكـرهم ، وحفظه من أن تمتـد إليه أيـديهم فلم ينـالوه إلا بألسنتهم حيث وصفـوه بأنـه سـاحـر مبين ، وفي هذا تثبيت لفـؤاد رسول الله ﷺ وتأكيـد لما أخبره الله به حيث قـال له في الآية السـابعة والستين من هذه السورة : ﴿ياأيها الـرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس﴾ وتسلية لرسول الله ﷺ من وصف المشركين لـه بأنه سـاحـر ، وأن مـا جاء بـه سحـر مبين ببيان أن إخـوانـه من

المرسلين جوبهوا من أممهم الكافرة بمثل هـذه المقالـة الفاجـرة، كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى في قـوله: ﴿كذلك ما أتى الـذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ. إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّون يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هل يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً من السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِن الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وآخِرِنَا وآيَةً مِنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قال اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا من الْعَالَمِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل ما أيد به عبده ورسوله عيسى عليه السلام من الآيات والبراهين المشتملة على النعم الجليلة عليه وعلى أمه المبرئة لهما من كل سوء المقررة أن عيسى ليس إلها ولا ابن إله وإنما هو عبد الله ورسوله وذيل ذلك كله بما يقرر أنه صان عيسى عليه السلام من أن تمتد إليه يد أعدائه من اليهود مما يثبت به فؤاد رسول الله ﷺ ويؤكد له أن الله عز وجل يعصمه من شرور الناس شرع هنا يذكر استجابة الحواريين لعيسى ﷺ ومسارعتهم إلى الإيمان به نبيا رسولا للتنبيه على فضل السابقين إلى الإيمان بالرسل، مما تقر به نفوس المؤمنين الأولين المستجيبين لرسول الله ﷺ، حيث يقول عز وجل: ﴿وإذْ أَوْحَيْتُ إلى الحواريين أَنْ آمِنُوا بي وبِرَسُولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي وإذ ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم تصديق عيسى عليه السلام وتأييده ونصرته فسارعوا إلى الإيمان به نبيا رسولا وانقادوا لأمره، واتبعوا ما جاء به من عند الله، ولم يجعلوه إلها ولا ابن إله، فمعنى: ﴿أوحيت إلى الحواريين﴾ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم إذ من معاني الوحي في اللغة الإلهام والقذف في القلب، والحواريون جمع حواري وهو في الأصل الوزير أو من يصلح للخلافة أو الناصر أو الخالص أو هو ناصر الأنبياء أو القَصَّار

لأنه يحور الثياب أي يبيضها ، وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : وسمي الحواريون لبياض ثيابهم اهـ وقيل حواري الرجل خاصته ، والمتبادر من القرآن العظيم يشعر بأن الحواريين هم السابقون الأولون من أمة عيسى عليه السلام وكبار أصحابه رضي الله عنهم وخواصهم ، ولاشك أن الحواريين ليسوا بأنبياء وليسوا بمعصومين من الخطأ ، ولذلك ذكر الله عز وجل عنهم أنهم قالوا لعيسى عليه السلام : ﴿هل يَسْتَطِيعُ ربُّكَ أن يُنزِّلَ علينا مائدة من السماء﴾ فخوفهم عيسى عليه السلام من مغبة هذا السؤال ، وأمرهم بتقوى الله عز وجل ، وأنه لا ينبغي لمسلم أن يقترح على الله الإتيان بالآيات ، لأن سنة الله عز جل قد جرت أن من اقترح على الله آيةً ، ولم يؤمن بها إذا جاءت أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ونبه عيسى عليه السلام الحواريين إلى أن مقتضى إيمانهم ألا يتقدموا على الله باقتراح مثل هذه الآية ، وأن يعلموا أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، غير أن الحواريين ذكروا لعيسى عليه السلام أنهم إنما طلبوا إنزال مائدة من السماء لأنهم يريدون أن يأكلوا منها ، وأن تطمئن قلوبهم بزيادة الإيمان واليقين إذا رأوا هذه الآية الحسية ، ويزدادوا علما بأن عيسى عليه السلام قد صدَقهم ، ويكونوا عليها من الشاهدين ، ولا شك أن سؤال الحواريين هذا أخف من سؤال أصحاب موسى عليه السلام إذ قال بعضهم لموسى عندما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهةٌ ، وأخف من قول أصحاب موسى لموسى : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، وقد رأى عيسى عليه السلام أن المصلحة تقتضي بأن يتضرع إلى الله عز وجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيدا وفرحا ومسرة للمؤمنين في عاجلتهم ، وينتفع بالإيمان بها مَنْ بعدهم من المؤمنين ، وتكون آية من الآيات الشاهدات على أن الله هو رب كل شيء وسيده

ومليكه، وأن أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فأخبر الله عز وجل عيسى عليه السلام بأنه منزل عليهم هذه المائدة المطلوبة، وأنه من يكفر بالله بعد رؤيته لهذه الآية الباهرة والمعجزة القاهرة فإن الله سيعذبه عذابا لم يعذب مثله في شدته أحدًا من العالمين، والمائدة هي الخوان عليه طعام، فإذا لم يكن على الخوان طعام فإنه لا يسمى مائدة، والأصل في الخوان أن يتخذ من خشب وينصب على قوائم، فإذا كان الطعام على جلد أو فراش أو شيء بلا قوائم فإنه يقال له سفرة، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرققا حتى مات اهـ وإنما كان يأكل على السفرة لأنها عادة العرب، كما أن الخوان من عادة العجم. وإيراد قصة المائدة للفت الانتباه إلى أن المؤمنين الذين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين غير معصومين من الخطأ وإبراز صبر الأنبياء والمرسلين في تعاملهم مع أتباعهم من المؤمنين حيث يسوسونهم بالحكمة، ويصبرون على ما قد يبدر منهم، ويوجهونهم أحسن توجيه، ويحذرونهم من المزالق التي قد تردى من انزلق إليها، ولاشك أن الاعتصام بمنهج الأنبياء والمرسلين هو سبيل النجاة للدنيا والآخرة، وأن الإنسان مهما أوتي من العقل فلا غنى له بحال عن دين الإسلام الذي هو صراط الله المستقيم. هذا وقد سميت السورة كلها باسم المائدة، والعيد هو يوم السرور الذي يتكرر وكل يوم فيه جمع، قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: قال ابن الأعرابي: سمي العيد عيدًا لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد اهـ وقد زعم بعض الناس أن المائدة لم تنزل بدعوى أن الحواريين لما سمعوا الوعيد الشديد على من كفر بها بعد نزولها خافوا وأبوا أن تنزل عليهم، وصريح القرآن شاهد على نزولها حيث يقول عز وجل: ﴿قال الله إني مُنَزِّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين﴾ فقد أكد الله تبارك وتعالى تنزيلها عليهم

بجملة تأكيدات، منهـا أنه قال: ﴿قال الله إني مُنَـزِّلها عليكم﴾ فأسند القول إلى نفسه المقدسة ومنها أنه أكد تنزيلها بإن حيث قال: ﴿إني مُنَزِّلها عليكم﴾ قال أبو السعود العمادي في قوله: ﴿نريد أن نأكل منها﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد بالسـؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحـة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى بـل نريد أن نأكل منهـا أي أكل تبرك وقيل أكل حـاجة وتمتـع ﴿وتطمئنَّ قُلُوبُنَـا﴾ بكمال قدرتـه تعالى وإن كنا مـؤمنين به من قبل فإن انضمام علم المشـاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب ازدياد الطمأنينة وقوة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ﴾ أي علما يقينيا لا يحوم حوله شائبة شبهةٍ أصلا اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله: ﴿وآيةً منك﴾ فإن معناه: وعـلامة وحجـة منك يارب على عبـادك في وحدانيتك، وفي صدقي على أني رسول إليهم بما أرسلتني به ﴿وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾ وأعطنا من عطائك، فإنك يـارب خير من يعطي وأجود من تفضل، لأنه لا يدخل عطـاءه مَنٌّ ولا نكد.. ثم أكد ابن جريـر رحمه الله نزول المائدة حيث يقـول: وبعد فإن الله تعـالى ذكره لا يخلف وعـده، ولا يقع في خبره الخلف، وقد قال تعالى ذكره مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك: ﴿إني مُنَزِّلُهَا عليكم﴾ وغير جائز أن يقول تعالى ذكره: ﴿إني مُنَزِّلُهَا عليكم﴾ ثم لا ينزلها، لأن ذلك منه تعالى ذكره خبر، ولا يكون منه خلاف ما يُخبر، ولو جاز أن يقول ﴿إني منزلها عليكم﴾ ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول فمن يكفر بعد منكم فإني معذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعـذبه، فلا يكون لوعده ولا لـوعيده حقيقة ولا صحة، وغير جائز أن يـوصف ربنا تعالى ذكـره بذلك اهـ هـذا وما نقل عن كثير من المفسرين في صفـة المائدة المنـزلة على عيسى عليـه السـلام والحواريين، وفيما احتوتـه هذه المائدة من ألوان الطعـام وأسمائه لم يثبت شيء منه بخبر صحيح

عن رسول الله ﷺ، قال ابن جرير رحمه الله : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال : كان عليها مأكول، وجائز أن يكون كان سمكا وخبزا وجائز أن يكون ثمرًا من ثمر الجنة، وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل اهـ ومعنى قوله عز وجل : ﴿فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين﴾ أي فمن يجحد آيات الله ويكفر بها بعد معاينته ما اقترح من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة القاهرة فإني أعاقبه عقوبة ما عاقبت بها غيره من عالمي زمانه، ليكون ذلك نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين، هذا وقد يستعمل العرب المائدة أو الخوان بمعنى السفرة فقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدت خالتي إلى النبي ﷺ ضِبابا وأقطا ولبنا فوضع الضب على مائدته، فلو كان حراما لم يوضع، وشرب اللبن وأكل الأقط . وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدت خالتي أم حفيد إلى رسول الله ﷺ سمنًا وأقطًا وأضبًا فأكل من السمن والأقط وترك الضب تقذُّرا، وأكل على مائدة رسول الله ﷺ ولو كان حراما ما أكل على مائدة رسول الله ﷺ . كما روى مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ بينما هو عند ميمونة وعنده الفضل بن عباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى إذ قرب إليهم خوان عليه لحم، فلما أراد النبي ﷺ أن يأكل قالت له ميمونة : إنه لحم ضب، فكف يده، وقال : هذا لحم لم آكله قط، وقال لهم : كلوا، فأكل منه الفضل وخالد ابن الوليد والمرأة، وقالت ميمونة : لا آكل من شيء إلا شيء يأكل منه رسول الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ، وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. قَالَ اللهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. للهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

هذا هو المشهد الأخير من مشاهد القيامة التي ذكرها الله عز وجل في خواتيم المسك من سورة المائدة، وفي هذا المشهد العظيم زيادة تأكيد لما تقرر في المشهد الأول من أن رسل الله صلى الله عليهم وسلم لا يعلمون ما أحدثته أممهم من بعدهم من تغيير دين الله وعبادة الأصنام والأوثان وسائر صور الشرك بالله، وأنهم برآء من كل قول أو فعل يناقض دين الإسلام، وفي سياق هذا المشهد على هذه الصورة تنديد بالنصارى الذين جعلوا عيسى وأمه إلهين من دون الله وتقريعهم وتبكيتهم على رءوس الخلائق يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، وفي ذلك ردع وترهيب من الشرك بالله وترغيب في إخلاص التوحيد لله عز وجل، وتكذيب للمفترين على الله وعلى رسله، وفي قوله عز وجل هنا: ﴿وإذ قال الله ياعيسى ابنَ مريم﴾ بإيراده بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع كما في قوله عز وجل: ﴿إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾، والعرب قد يستعملون إذ بمعنى إذا لعلم السامع بالمراد تخفيفا وبلاغة كما في قول أبي النجم:

ثم جـزاه الله عـنا إذ جـزى جنـات عـدن في العـلالي العلا

أي إذا جزى، وكما في قول أعشى بني نهشل الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل بن دارم النهشلي:

فألآن إذ هـازلتهن فإنمـا يقلـن ألا لم يذهب الشيخ مذهبًا

أي إذا هازلتهن. وكما قال عز وجل: ﴿ولو تَـرَى إذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ﴾ أي إذا فـزعوا. والسـؤال في قولـه عـز وجل لعيسى عليه السـلام: ﴿أأنت قلتَ للنـاس اتخذوني وأمِّـيَ إلهَين من دون الله﴾ ليس لـلاستفهـام لأن الله عـلام الغيـوب، وهو يعلـم أن عيسى عليه السـلام لم يقل للنـاس: اتخذوني وأمِّيَ إلهين من دون الله وإنما المقصـود من السؤال هـو إعـلام عيسى عليه السـلام وتعريفه أن قـومه غيروا دينهم بعده وخالفـوا عهده، وقالوا عليـه ما لم يقله، ليكون ذلك توبيخـا لمن ادعى عليه ذلك وليكون إنكاره بعـد السؤال أبلغ في تكذيبهـم، مع ما في الجواب من تحقيق التـوحيد وبطلان الشرك وإبـراز أهم وظائف الأنبياء والمرسلين مع ما اشتمـل عليه الجواب من الأدب العالي الذي أدَّب الله تبارك وتعالى به رسله المنزِّهين له عن الند والنظير وعن كل ما لا يليق به تبـارك وتعالى ومعنـى قوله: ﴿سبحـانك ما يكـون لي أن أقول مـا ليس لي بحق﴾ أي تنـزيها لك يـارب أن أفعل ذلك أو أتكلم بـه، لأني عبـد مخلـوق فكيف أدعي ذلـك، ومعنى قـولـه: ﴿تعلم مـا في نفسي ولا أعلم مـا في نفسك، إنك أنت عـلاَّمُ الغيوب﴾ قـال ابن جريـر الطبري في تفسيره: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره، مخبرا عن نبيـه عيسى ﷺ: أنه يبرأ مما قالت فيه وفي أمـه الكفرة من النصـارى أن يكـون دعاهم إليـه أو أمـرهم به، فقـال: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قُلْتُهُ فقد عَلِمْتَهُ﴾ ثم قال: ﴿تَعْلَمُ ما في نفسي﴾ يقول: إنك يـارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطـق به ولم أظهره بجـوارحي، فكيف بما قـد نطقت به وأظهـرته

بجوارحي؟ يقول: لـو كنت قد قلت للناس: ﴿اتخذوني وأمِّيَ إلَهين من دون الله﴾ كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به فكيف بما قد نطقت به ﴿ولا أعلم ما في نفسك﴾ يقول: ولا أعلـم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليـه لأني إنما أعــلم من الأشـياء مـا أعلــمتنيه ﴿إنك أنت عَـلاَّمُ الغُيُـوب﴾ يقول: إنك أنـت العالم بخـفيات الأمــور التي لا يطـلع عليهـا سواك، ولا يعلمها غيرك اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبـدوا الله رَبِّي وربّكم﴾ ينفي عيسى عليه السـلام أن يكون قـد صدر هـذا القول منـه على أبلغ وجـه وآكده حيث نفى عليـه السـلام أن يكون قـد صدر منه قول مغاير لما أمـره الله عز وجل به، ويدخل في ذلك نفي أن يكون قد قـال لهم: ﴿اتخذوني وأمِّيَ إلَهين من دون الله﴾ دخولا أوليًا أي مـا أمرتهم إلا بما أمرتني به، والـذي أمرتني به هو أن أطلب منهـم إخلاص العبادة لك وحدك فقلت لهم: اعبدوا الله سيدي وسيـدكم ومالكي ومالككم ومصلحي ومصلحكم ومدبـر أمري ومدبـر أموركم، وابـذلوا له أقصى غـاية الحب مع أقصى غاية الذل ولا تشركوا به شيئا. وقوله: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا مادُمْتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيبَ عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ أي وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهـم ومدة داومي بينهم شاهدا عليهم وعلى أفعـالهم وأقـوالهم فلما قبضتني إليك كنت أنت وحـدك الحفيظ عليهم دوني لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم، وأنت تشهد على كل شيء لأنـــه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء فـأنت على كل شيء شهيد، وقـوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبـادكَ وإن تغفر لهم فإنك أنت العـزيز الحكيم﴾ أي أنـا لسـت عليهم بمسيطـر، وقلـوبهم بيـدك تضـل من تشـاء وتعذبه عدلا وتهدي من تشاء وتغفـر له فضلا فإنهم جميعا عبادك وأنت ربهم وأنت العزيـز القاهر الذي لا يفوتـه شيء الحكيم في جميع أفعاله وأقـواله قال

ابن كثير رحمه الله : وقوله : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله ندًا وصاحبةً وولدًا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب اهـ وليس في قوله تعالى هنا: ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ ما يُفْهِم أن من مات على الشرك قد يغفر له، لأن الكلام منصب على جملة من جاءهم عيسى عليه السلام، وفيهم من آمن به على أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ومنهم من كفر به في حياته بينهم، ومنهم من كفر به بعد رفعه إذ زعم أنه إله أو ابن إله، والمقصود من السياق يفيد أن عيسى عليه السلام ما قال لهم إلا ما أمره الله عز وجل به أن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأنه يشهد لمن أجابه مدة حياته بينهم ويشهد على من عصاه مدة حياته كذلك، فلما رفعه الله إليه ارتفع علمه عن أحوالهم وكان الله وحده هو الرقيب عليهم لا يعلم عيسى من أمرهم شيئا سواء في ذلك من اتبعه على الهدى أو ضل عن سواء السبيل، فمرد الجميع إلى الله يعذب من يشاء من العصاة عدلا ويثيب ويغفر لمن يشاء فضلا، لأن الجميع عباده، وهو العزيز الحكيم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تَبِعَنِي فإنه مني﴾ الآية، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه وقال: اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عز وجل: ياجبريل اذهب إلى محمد ـــ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ـــ وهو أعلم ـــ فقال الله :

يـاجبريل اذهب إلى محمد فقل: إنـا سنـرضيك في أمتك ولا نسوءك. وقـال البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه: باب: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما تـوفيتنـي كنتَ أنت الـرقيب عليهـم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ حدثنـا أبو الوليد حدثنا شعبـة أخبرنا المغيرة بن النعمان قال سمعت سعيـد بن جبير عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: خطب رسـول الله ﷺ فقال: ياأيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عراةً غرلاً ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده وعـدا علينا إنا كنـا فاعلين﴾ إلى آخر الآيـة ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يـارب أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري مـا أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبـد الصالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفيتني كنتَ أنت الرقيـب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. باب قوله: ﴿إنْ تعذبهم فإنهم عِبَادُكَ وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيـز الحكيم﴾ حدثنا محمد بن كثير حدثنا سفيان حدثنـا المغيرة بن النعمان قال: حدثني سعيد بن جبير عن ابن عبـاس عن النبي ﷺ قـال: إنكم محشـورون، وإن نـاسًـا يـؤخـذ بهم ذات الشمال، فأقـول كما قـال العبـد الصـالح: ﴿وكنتُ عليهم شهيـدا مـادمْتُ فيهم﴾ إلى قوله: ﴿العزيزُ الحكيمُ﴾ اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قال الله هٰذا يومُ ينفع الصادقين صِدْقُهُم، لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدا، رضي الله عنهم ورَضُـوا عنه، ذٰلك الفـوز العظيم. لله مُلْكُ السمٰوات والأرض ومـا فيهن، وهـو على كل شيء قـديـرٌ﴾ بيـان للترغيب في الصـدق وعظيم منفعتـه وجليـل مـا يترتب عليـه فإن الصــدق لا يأتي إلا بخير ونفع لصاحبـه لكن نفعـه في الدنيا قـد لا يخلص من الهمـوم والغموم أمـا نفعه في الآخـرة فإنه خـال من الأحـزان والأكدار إذ يهدي صـاحبه لجنـات تجري من

تحتها الأنهار لا يريــم منها ولا يتحول عنها ولا يلحقه فيهـا هرم ولا شيب ولا مرض ولا هم مع رضـاه وفرحه بها منَّ الله به عليه ورضـوان من الله أكبر وهذه هي الغاية القصوى في الفوز والفلاح مع النجاة من النار، وذلك كله لصدقه مع الله وتجنبه افتراء الكـذب على الملك الحق الموجد لجميع الكـائنات المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فإن جميع ما في السموات وما الأرض هي ملكه وتحت قهـره ومشيئته لا نـدَّ له ولا شريك ولا نظير ولا وزيـر ولا صاحبـة ولا والد ولا ولد، ولم يكن له كفوًا أحد لا إله غيره ولا رب سواه. وبهذا تم تفسير سورة المائدة بحمد الله.



تفسير
سورة الأنعام



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السمٰواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلا وأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.

المناسبة بين أول آية من سورة الأنعام وهي مكية وآخر آية من سورة المائدة وهي مدنية ظاهرة فإن الله تبارك وتعالى أخبر في الآية الخاتمة لسورة المائدة المباركة بأن له ملك السموات والأرض وما فيهن وقد افتتح سورة الأنعام بأنه الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهذا أحد البراهين الظاهرة على تمام التناسق والتناسب بين آيات القرآن العظيم، وأن كل آية من آياته مرتبطة تمام الارتباط بالآية التي قبلها والآية التي بعدها كما أن كل سورة من سوره مرتبطة تمام الارتباط بالسورة التي قبلها والسورة التي بعدها وهذه إحدى صور الإعجاز القرآني، فقد ذكر في سورة المائدة صوراً من افتراءات اليهود والنصارى والمشركين على الله عز وجل وعلى رسله كما اشتملت سورة الأنعام على صور كثيرة من افتراءات المشركين على الله وعلى رسله، وقد قال عز وجل في سورة المائدة ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولٰكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون.﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وكذٰلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قَتْلَ أولادهم شُرَكاؤُهم لِيُرْدُوهم ولِيَلْبِسُوا عليهم دينَهُمْ ولو شاء الله ما فَعَلُوهُ فذرهم وما يَفْتَرُونَ. وقالوا هٰذه أنعام وحرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إلا مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُهَا وأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عليها افْتِرَاءً عَلَيْهِ، سَيَجزِيهِمْ بما كانوا

يَفْتَرُون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿قـد خَسِرَ الذينَ قَتَلُوا أولادهم سَفَهًا بغير علم وحَرَّمُوا ما رزقهم الله افتراءً على الله قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدينَ﴾ وقد افتتح الله تبارك وتعالى سورة الأنعام بحمده كما افتتح بالحمد سورة الفاتحة وسورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في سورة الفاتحة: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أنه في حَيِّز الحمد من هذه السُّور يلفت الله انتباه الخلق إلى موجبات حمده وشكره ومدحه والرضا بما يصدر عنه، ففي سورة الفاتحة لَفَتَ الانتباه إلى أنه رب العالمين. الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، وأنه وحده هو المستحق للعبادة فلا يجوز أَنْ يُصْرَفَ شيء منها لغيره، وأنه هو وحده المستعان، وأنه الهادي إلى الصراط المستقيم. وفي سورة الأنعام لفت الانتباه إلى أنه وحده هو خالق السموات والأرض وجاعلُ الظلمات والنور، وفي سورة الكهف يلفت الانتباه إلى نعمته العظمى وحجته البالغة حيث أنزل القرآن العظيم والذكر الحكيم على خير خلقه وأفضل رسله وخاتم أنبيائه عبده محمد ﷺ ليرسم للإنسانية طريقَ سعادتها ومنهجَ رُشْدِها وعزها، وفي سورة سبأ يلفت الانتباه إلى أن جميع ما في السموات وما في الأرض لله عز وجل مِلكًا ومُلكًا، فهو المستحق للحمد في الدنيا والآخرة، وفي سورة فاطر يلفت الانتباه إلى أنه وحده هو الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة رسلاً وأنه على كل شيء قدير، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، وقد ذكرت أن الحمد هو الثناء على الله رب العالمين بالجميل على ما أسدى من النعم، وعلى ما اتصف به من الأسماء الحسنى والصفات العلى، والرضا بقضائه وقدره، فهو المحمود قبل حمد الحامدين وشكر الشاكرين، والشكر هو الاعتراف والإقرار للمنعم بنعمته، وضده الكفر، والمدح نقيض الذم، والرضا ضد السخط، وكل من الشكر والمدح والرضا داخل في حقيقة

الحمد، فحمد الله عز وجل يقتضي من العبد الثناء على الله والإقرار بآلائه ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، ووصف الله عز وجل بجميع صفات الكمال التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، وتنزيهه عن كل نقص، وخضوع القلب والجوارح واللسان لله عز وجل، لأن جميع ما يصدر عن الله عز وجل يستحق الحمد عليه سواء كان مما يعده العبد ضرًّا أو نفعا كالعافية والبلوى، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والحياة والموت، وغير ذلك، فالله عز وجل محمود على كل حال، لما أسبغ من نعم ظاهرة وغير ظاهرة، وقد وهم من زعم أن الحمد هو الثناء باللسان وحده، وأن الشكر يكون باللسان وبالقلب وبالجوارح مستدلاً بقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

فإن الحمد يشمل الشكر والمدح والرضا. ومعنى ﴿الحمد لله﴾ أي مجامع الحمد والثناء والشكر والمدح والرضا إنما يستحقها الله المعبود بالحق وحده. وقوله تبارك وتعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ تنبيه على استحقاقه وحده عز وجل للحمد بأنه هو وحده الخالق لجميع الكائنات ذواتها وصفاتها، وأحوالها وأعراضها وعلويها وسفليها لا شريك له في شيء من ذلك قال القرطبي رحمه الله في الجامع لأحكام القرآن: قوله تعالى: ﴿الذي خلق السمٰوات والأرض﴾ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته فقال: ﴿الذي خلق﴾ أي اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع، والخلق يكون بمعنى الاختراع ويكون بمعنى التقدير وقد تقدم وكلاهما مراد هنا، وذلك دليل على حدوثهما، فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية من غير أودٍ، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم وأودعها السحاب والغيوم علامتين، وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات، وبث فيها من كل دابة آيات، وجعل فيها الجبال أوتادًا، وسبلاً فجاجًا، وأجرى فيها

الأنهار والبحار، وفجر فيها العيون من الأحجار، دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، وبيَّن بخلقه السموات والأرض أنه خالق كل شيء. اهـ ولاشك أن السموات والأرض آيتان باهرتان من آيات الله، قد جعلهما الله تبارك وتعالى ونصبهما لتذكير عباده بأنه لا إله غيره ولا رب سواه، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فأقام لعباده من الشواهد ما هو ثابت وما هو متغير، حيث جعل السموات والأرض آيتين ثابتتين طول الدهر، وجعل للعباد آيات متجددةً لتنبيههم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزَيَّناها ومالها من فروج. والأرض مددناها وألقينا فيها رواسِيَ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ وقال تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأنعام: ﴿الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ قال القرطبي رحمه الله: واختلف العلماء في المعنى المراد بالظلمات والنور فقال السدي وقتادة وجمهور المفسرين: المراد سواد الليل وضياء النهار، وقال الحسن: الكفر والإيمان، قال ابن عطية: وهذا خروج عن الظاهر، قلت: اللفظ يعمه، وفي التنزيل: ﴿أَوَ من كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثَلُهُ في الظلمات﴾ والأرض هنا اسم للجنس فإفرادها في اللفظ بمعنى جمعها وكذلك: ﴿والنور﴾ ومثله: ﴿ثم يُخْرِجُكم طِفْلا﴾

وقال الشاعر: كلوا في بعض بطنكموا تعِفوا

وقد تقدم، وجعل هنا بمعنى خلق، لا يجوز غيره، قاله ابن عطية، قلت: وعليه يتفق اللفظ والمعنى في النسق، فيكون الجمع معطوفا على الجمع والمفرد معطوفا على المفرد فيتجانس اللفظ وتظهر الفصاحة. والله أعلم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَروا بربهم يعدلون﴾ أي ومع

ظهور أدلة التوحيد وما نصبه الله عز وجل من البراهين الثابتة والمتجددة أمام أعين عباده فلا يزال الذين كفروا متمادين في ضلالهم مستمرين في غيهم مستغرقين في شركهم حيث يعدلون به بعض خلقه ويشركون معه غيره مع اعترافهم بأن الله هو ربهم وأنه هو الذي خلق السموات والأرض كما قال عز وجل: ﴿قل لمن الأرضُ ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل أفلا تَذَكرون * قل مَنْ رَبُّ السمٰواتِ السبع وربُّ العرشِ العظيمِ * سيقولون لله، قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله، قل فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولئن سألتهم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنى يُؤْفَكُونَ﴾ والتعبير بقوله: ﴿ثم﴾ لتبشيع عمل الكافرين واستغراقهم في الشرك وتراخيهم في الضلال، واستمرارهم على غيهم وطول انغماسهم في كفرهم مع معاينتهم الآيات الدالة على توحيده فلو عطف في هذا المقام بالواو ونحوها لم تفد في توبيخهم وتسفيههم ما تفيده ﴿ثم﴾ ومعنى ﴿بربهم يعدلون﴾ أي يشركون معه غيره ويساوون به سواه يقال: عدل كذا بكذا أي سوَّى بينهما، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قَضَى أَجَلا وأَجَلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تمترون.﴾ يلفت عز وجل انتباه الإنسان إلى النظر في نفسه بعد أن لفت انتباهه إلى النظر فيما يحيط به من العوالم العلوية والسفلية، لتكون براهين قدرته محيطة به من كل جانب قريبة من كل ناظر كما قال بعض أهل العلم:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل ... للعالم العلوي ثم السفلي
تجد به صنعا بديع الحكم ... لكن به قام دليل العدم
وكلما جاز عليه العدم ... عليه قطعا يستحيل القدم

قال الفخر الرازي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ والمشهور أن المراد منه أنه تعالى خلقهم من آدم وآدم كان مخلوقا من طين، فلهذا السبب قال: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وعندي فيه وجه آخر

وهو أن الإنســان مخلوق من المني ومن دم الطمث، وهما يتولـدان من الدم، والدم إنما يتـولد من الأغذيـة، والأغذية إمـا حيوانيـة و إما نباتيـة فإن كانت حيوانية كان الحال في كيفية تولد ذلـك الحيوان كالحال في كيفية تولد الإنسان فبقى أن تكون نباتية فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية ولاشك أنها متولدة من الطين فثبت أن كل إنسـان متولد من الطين، وهذا الـوجه عندي أقرب إلى الصواب، إذا عرفت هذا فنقول: هنـا الطين قد تولدت النطفة منه بهذا الطريق المذكـور ثم تولـد من النطفة أنـواع الأعضاء المختلفـة في الصفة والصورة واللون والشكل مثل القلب والدماغ والكبد وأنواع الأعضاء البسيطة كالعظام والغضاريف والرباطـات والأوتار وغيرها، وتولد الصفات المختلفة في المادة المتشابهة لا يمكن إلا بتقدير مقدرٍ حكيم، ومدبرٍ رحيم، وذلك هو المطلوب. اهـــ ومعنى قولـه تعالى: ﴿ثم قضى أجـلا﴾ أي حكم وقدر لكل واحـد منكم أجـلا لا يتعـداه ولا يتجاوزه بحـال وقهـره على ذلك فإذا جـاء أجلهم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمـون، وقد ذهب غير واحـد من أئمة أهل العلم بالتفسير إلى أن الأجل المسمى عنده هو من وقت وفاة الإنسان إلى وقت بعثه يـوم القيامـة أي مدة مقامـه في البرزخ، ومعنى ﴿ثم أنتم تمترون﴾ أي ثم بعـد طول معاينتكـم لحجج الله الباهـرة الدالة على أنـه على كل شيء قـديـر تشكون في وقـوع البعث بعـد الموت مع مشـاهـدتكم في أنفسكم من الشواهد مـا يقطع أسباب الشك والامتراء لأن من قدر على إفاضـة الحياة وما يتفرع عليها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لشيء منها أصلاً كـان أهون عليه وأقدر على إفاضتها على مـادة قد استعدت لها وقـارنتها مـدة الأجل الأول، وقـد لـوحظ أن السور المكيـة تـدور في فلك حقائق ثـلاث وهي تقرير توحيـد الله عز وجل ووجوب الإيمان باليـوم الآخر ووجوب الإيمان بالمرسلين.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِى السَّمَٰوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ. وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

بعد أن بيَّن تبارك وتعالى كمال قدرته على كل شيء مما يزيل كل ارتياب في قدرته عل البعث والنشور شرع هنا يقرر كمال علمه وأنه لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى يبرهن كثيرا على البعث والنشور بذكر كمال قدرته وعلمه حيث قال هنا بعد توبيخ من يمتري في إحياء الموتى بعد أجل برزخهم: ﴿وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يعلم سِرَّكُمْ وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل يُحْيِيهَا الذي أنشأها أَوَّلَ مرة وهو بكل خَلْق عليم﴾ وقال عز وجل: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هٰذا شيء عجيب * أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رَجْعٌ بعيد * قد علمنا ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم وعندنا كتابٌ حَفِيظٌ﴾ الآيات، إلى قوله عز وجل: ﴿كذٰلك الخُرُوجُ﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وهو الله في السمٰوات وفي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي وهو أي المستحق لجميع المحامد، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، الذي خلقكم من طين وقدر لكل واحد منكم أجله، وقهره عليه، لا يتأخر عن أجله إذا جاء لحظة واحدة ولا يتقدم لحظة، ذلك هو الله أي المألوه المعبود بالحق في السموات والمعبود بالحق في الأرض، المحيط بما تنطوي عليه صدور خلقه، وما توسوس به نفوسهم، وما تتلفظ به

ألسنتهم، أو تبديه جوارحهم، الذي يعلم السر وأخفى، ﴿سواء منكم من أَسَرَّ القولَ ومَن جَهَرَ به ومن هو مُسْتَخْفٍ بالليل وسَارِبٌ بالنهار﴾ ويعلم كل ما تجترحونه، ويحيط بكل ما تعملونه من خير أو شر فيحصيه عليكم ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ففروا إليه وحده ولا تعدلوا به أحدًا من خلقه، ولا تشكوا في قدرته على البعث والنشور، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وهو الذي في السماء إِلَهٌ وفي الأرض إِلَهٌ، وهو الحكيم العليم﴾وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَأْتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها مُعْرِضِينَ. فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ شروع في تقرير الحقيقة الثالثة من الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية، فبعد أن قرر الحقيقة الأولى وهي إثبات أنه لا إله إلا الله في الآية الأولى من هذه السورة ثم قرر الحقيقة الثانية وهي إثبات البعث بعد الموت في الآية الثانية وأكد هاتين الحقيقتين في الآية الثالثة شرع في تقرير الحقيقة الثالثة وهي إثبات النبوة والرسالة، فقال عز وجل: ﴿وَمَا تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * فقد كذَّبُوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أَنباء ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وما تجيء هؤلاء الكافرين معجزةٌ وخارقةٌ من خوارق العادات على يديك يؤيدك بها رب الناس، تكون حجةً وعلامةً ودلالةً من حجج ربهم وأعلامه ودلالاته على أنك رسول رب العالمين إلا أعرضوا عنها وصدوا عن قبولها، وكذبوا بها، ولم يستفيدوا منها، وتركوا النظر فيها، وانصرفوا عنها مستهزئين بها، كما قال عز وجل: ﴿اقتربت الساعةُ وانشق القمر * وإن يَرَوْا آيةً يُعْرِضُوا ويقولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وكذبوا واتَّبَعُوا أهواءهم، وكلُّ أمر مُسْتَقِرٌّ * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مُزْدَجَرٌ * حكمةٌ بَالِغَةٌ فما تُغْنِ النُّذُرُ﴾ فلا تعجب أيها النبي الكريم من إعراضهم. ولا تبتئس بما يصدر من سفاهتهم، فإنهم لو كانت

لهم عقول لسارعوا إلى تصديقك والإيمان بك لأنك إنما جئتهم بالحق الأبلج، فانغمسوا في الباطل اللجلج، وكذبوا بما لا يجوز أن يكذَّب، وردوه دون أن يتدبروا ما يجره عليهم تكذيبهم وسوء فعلهم، فسيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة ما يكون كفاءً لإعراضهم وتكذيبهم واستهزائهم، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿فقد كذَّبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: فقد كذَّب هؤلاء العادلون بالله، الحقَّ لما جاءهم وذلك الحق هو محمد ﷺ، كذبوا به، وجحدوا نبوته لما جاءهم، قال الله متوعدا على تكذيبهم إياه، وجحودهم نبوته: سوف يأتي المكذبين بك يامحمد من قومك وغيرهم ﴿أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلتي التي آتيتهم، ثم وفى لهم بوعيده لما تمادوا في غيهم، وعتوا على ربهم فقتلهم يوم بدر بالسيف اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا من قبلهم من قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ في الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّن لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجعَلْنَاالْأَنْهَارَ تجري من تحتهم فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ تقرير لما توعد الله عز وجل به الكفار الذين كذبوا رسوله محمدا ﷺ في قوله: ﴿فَسَوْفَ يأتيهم أنباء مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ بتذكيرهم بما يعرفونه بمعاينة الآثار وسماع الأخبار عن الأمم الماضية التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد، وقد كانت هذه الأمم أشد من قريش قوة وأعظم منهم بأسًا وأكثر أموالا وأولادا، كما قال عز وجل: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إِرَمَ ذاتِ العِمَادِ * التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البلاد * وثمودَ الذين جَابُوا الصَّخْرَ بالوادِ * وفرعَوْن ذي الأوتاد * الذين طَغَوْا في البلاد * فأكْثَرُوا فيها الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربُّكَ سَوْطَ عذابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وقد أكد الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في

مقامات كثيرة من كتابه الكريم فذكر إبادته لأمم كثيرة ماضية كانوا أشد قوةً من كفار مكة ومن حولها من المكذبين برسوله محمد ﷺ وأن تلك الأمم الغابرة لما نزل بهم بأس الله لم تك تدفع عنهم قوتهم من عذاب الله شيئا حيث يقول عز وجل: ﴿أفلم يَهْدِ لَهُم كم أهلكنا قبلَهم من القرون يَمْشُونَ في مساكنهم، إن في ذٰلك لآيات لأُولي النُّهَى﴾ وقال عز وجل: ﴿أوَ لَمْ يَهْدِ لَهُم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم، إن في ذٰلك لآيات أفلا يسمعون﴾ وقال عز وجل: ﴿كالذين من قبلكم كانوا أَشَدَّ منكم قوةً وأكثر أموالا وأولادًا فاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فاستمتعتم بخَلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخُضْتُمْ كالذي خَاضُوا، أولٰئك حَبِطَتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة وأولٰئك هم الخاسرون * ألم يأتهم نَبأُ الذين من قبلهم قوم نوح وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيم وأصحابِ مَدْيَنَ والمؤتفكات، أَتَتْهُمْ رسُلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولٰكن كانوا أَنفُسَهُمْ يظلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿فأخذتهم الصيحةُ مُشْرِقِينَ * فجعلنا عَالِيهَا سَافِلَهَا وأمطرنا عليهم حجارةً من سِجِّيل * إنَّ في ذٰلك لآياتٍ للمتوسمين * وإنها لَبِسَبِيلٍ مُقِيم * إن في ذٰلك لآيةً للمؤمنين * وإن كان أصحابُ الْأَيْكَةِ لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإِمَامٍ مبين * ولقد كذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا يَنحتُونَ من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أَشَدَّ منهم قوة وأَثَارُوا الأرضَ وعمروها أَكْثَرَ مِمَّا عَمروهَا وجاءتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولٰكنْ كانوا أَنفُسَهُم يظلمون﴾ وقال عز وجل: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم، كَانُوا هُمْ أشدَّ منهم قوةً وآثارًا في الأرض فأخذهم اللهُ بذنوبهم وما كان لهم من الله من

وَاقٍ. ذٰلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب﴾ وقال عز وجل ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * فلما رَأَوْا بَأْسَنَا قالوا آمنا بالله وَحْدَهُ وكفرنا بما كُنَّا به مشركين * فلم يك يَنفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بأسنا سُنَّتَ اللهِ التي قد خَلَتْ في عبادِهِ وخَسِرَ هنالك الكافرون﴾ والضمير في قوله ﴿من قبلهم﴾ للمشركين المكذبين المعاندين لمحمد رسول الله ﷺ المذكورين في قوله عز وجل: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والمراد بالقرن: الأمة والجماعة والجِيل من الناس على حد قول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهمُ ... وخُلِّفت في قرن فأنت غريب

وضمير الغائبين في قوله: ﴿مكناهم﴾ راجع إلى القرن، وجُمع الضمير باعتبار كون القرن جمعا في المعنى. وضمير المخاطبين في قوله: ﴿مالم نمكن لكم﴾ للمشركين المعاندين الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، وكان مقتضى السياق أن يقال: مالم نمكن لهم، لكن مقتضى الحال اقتضى الالتفات من الغيبة إلى الخطاب لدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي الضميرين، ومعنى قوله: ﴿مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم﴾ أي أعطيناهم من أسباب القوة ما جعلهم متمكنين في أرضهم مالم نعطكم مثله يامعشر قريش ومن معكم من المكذبين بالحق لما جاءهم، ومكنه في الأرض ومكن له فيها لغتان بمعنى واحد فهو يتعدى بنفسه تارة وبالحرف تارة أخرى نظير: نصحته ونصحت له وقد أورده القرآن الكريم باللغتين هنا وكما قال عز وجل: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ وقال عز وجل: ﴿إنا مَكَّنَّا له في الأرض﴾ وقال عز وجل: ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا﴾ وقال عز وجل:

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ ومعنى: ﴿وأرسلنا السماء عليهم مدرارا﴾ أي وأنزلنا عليهم الغيث والمطر الغزير المتتابع النافع، والمدرار هو الكثير الدر المغزار، ومعنى: ﴿وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم﴾ أي وسخرنا لهم الأنهار المستمرة على الجريان بين مزارعهم وبساتينهم، فكانوا في بسطة ورغد من العيش والقدرة على التقلب في الأرض، وقوله: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ أي فلما كذبوا رسلهم وعصوا أمر ربهم دمرناهم بسبب كفرهم وسيئاتهم ولم يستطيعوا دفع عقوبة الله لما نزلت بهم واستبدلنا قوما غيرهم كما قال عز وجل: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْك كِتَابًا فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إنْ هَـٰذَا إلا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَقَـالُوا لَوْلا أُنـزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ولَـوْ أَنزَلْنَـا مَلَكًا لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُون. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلا ولَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ. وَلَقَدَ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِـالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فى الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ.﴾

بعد أن وبخ الله تبـارك وتعالى الـذين كفروا وكـذبوا بـرسولـه محمد ﷺ لما جاءهم، وتوعدهم بعقوبة من الله عز وجل تنزل بهم إن استمروا على كفرهم وتكذيبهم للحق الـذي جاءهم، وذكـرهم بما حل بالأمم المكـذبة قبلهم من العـذاب الشديـد والعقاب المبيـد وهم يعـرفون ذلك بمعـاينة الآثـار وسماع الأخبار شرع هنـا في مواساة حبيبه ورسـوله وسيد خلقه محمـد ﷺ بإعلان أن هؤلاء المكذبين لم يكـذبوك لشبهة فيك، و إنما يكذبـونك جحودًا للحق، ولو جئتهم بكل آية لردوها، وقالوا إنما سكـرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون، وقد ساق الله تبـارك وتعالى في هذا المقام الكـريم صورتين من صور تعنتهم، فذكـر عز وجل أنه لـو نزل عليك كتابـا محررا مكتوبا في صحيفـة واحدة غير متفرقة فشاهدوه بأعينهم ولمسوه بأيديهم لطعنـوا فيه وقالوا إنه سحر، كما ذكر عز وجل أنهم يطعنون في نبوة محمد ﷺ لكونه بشرا، وهم لا يؤمنون بالرسول البشرى ولا يرضون إلا بالرسول الملكي مشتركا مع البشري أو مستقلاً وحده، وهم بهذا يسلكون منهج جميع الأمم الكـافرة التي كـذبت رسلها لأنهم بشر، بل كانت هذه أول شبهـة رد بها قوم نوح رسالة نوح عليـه السلام كما ذكر عز وجل: ﴿فقال الملأ الذين كفـروا من قومه ما نراك إلا بشرًا مِثْلَنَـا﴾ وهذا أمر عجيب وفساد في الرأي ظاهر فقد جهلوا أن إرسال الرسول من البشر هو من أعظم نعم الله على خلقـه لأنـه هو الـذي يتكلم بلسـانهم، ويتمكنـون من

مجالسته والاستفادة منه، ولو أرسل الله لهم ملكًا لأرسله في صورة البشر، وقد وصف الله تبارك وتعالى سائر المكذبين للرسل بأنهم ردوا دعوة الحق التي جاء بها المرسلون بدعوى أن الرسل بشر حيث يقول عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿قالت رُسُلُهُمْ أفي الله شكٌّ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أجل مُسَمًّى قالوا إنْ أنتم إلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تريدون أن تصدونا عما كان يَعْبُدُ آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نَحْنُ إلا بشرٌ مِثْلُكُمْ ولَكنَّ الله يَمُنُّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وهذه الشبهة في غاية الضعف قد ردها الله تبارك وتعالى في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول في سورة الإسراء: ﴿وما منع الناسَ أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهُدَى إلا أن قالوا أَبَعَثَ اللهُ بشرا رسولاً * قل لو كان في الأرض ملائكةٌ يَمْشُونَ مطمئنين لَنَزَّلْنَا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ وقد بين عز وجل أنه لو أرسل رسولا غير بشر وجعله من الملائكة ما أطاقه الناس، ولا يتمكنون من معايشته ولذلك قال في هذا المقام من سورة الأنعام: ﴿ولو جعلناه مَلَكا لجعلناه رجلا ولَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ فالذي يفرون منه لابد وأن يقعوا فيه، ولا طاقة للبشر على مصاحبة الملائكة في دار الدنيا فإن جبريل عليه السلام عندما تبدى لرسول الله ﷺ وهو المهيأ لاستقبال الوحي ورأى ﷺ جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، له ستمائة جناح، يملأ الأفق، خاف رسول الله ﷺ ورعب منه ورجع إلى أهله وقال: زملوني، وذلك من شدة الخوف. فلو أن جبريل عليه السلام جاء للبشر غير المهيئين للرسالة والوحي ما تمكنوا من الاستفادة منه، ولذلك يتوعد الله عز وجل المكذبين المعاندين الذين يردون رسالة الرسل بدعوى أنهم بشر وأنهم لا يؤمنون إلا إذا جاءهم رسول ملكي حيث يقول عز وجل في سورة الفرقان: ﴿وقال الذين لا يَرْجُونَ لقاءنا

لولا أُنزِلَ علينا الملائكةُ أو نَـرَى ربَّنَا لقد استكبروا في أنفسهم وعَتَوْا عُتُوًّا كبيرا * يوم يَرَوْنَ الملائكةَ لا بشرى يومئذ للمجـرمين ويقولون حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ وفي قولـه عز وجل هنا: ﴿ولـو نَزَّلْنا عليك كتابـا في قرطاس فَلَمَسُـوهُ بأيديهم﴾ إعلان بأن هؤلاء المكذبين بالحق قد بلغـوا الدرجة القصوى في العناد والمكابرة والسفسطة حتى أصبحوا لا يخجلون من رد حقائق الأشياء وينكرون وجودها مهما بلغت في الظهور والـوضوح والقـوة وأنهم مهما عاينـوا من آيات الله التي يؤيد بها رسوله محمدا ﷺ فإنهم يكـذبون بها، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك بمؤكدات حيث قيـد الكتاب بكونه في قـرطاس وقيد اللمس بكونـه بالأيدي وهذه درجـة عليا في إفادة اليقين، ومع ذلك فـإن هؤلاء الجاحدين لا يـزالون شـاكين مكـذبين بعد معـاينتهم للحجـة المحسـوسـة الملموسـة التي يـرونها بأعينهم ويمسـونها بأيـديهم، ويقـولون: هـذا سحـر ظـاهر قـوي، وكـان مقتضى السياق أن يقـال: لقالوا إن هـذا إلا سحر مبين لكن مقتضى الحال والمقام اقتضى وضع الاسم الموصول موضع الضمير لتسجيل وصفهم بالكفر الذي تفيـده صلة الموصـول ومعنى: ﴿إنْ هـٰذا إلا سحر مبينٌ﴾ أي مـا هذا الكتاب المنزل من السماء الذي شاهدناه بأعيننا ولمسناه بأيدينا إلا سحر ظاهر قوي سَحَرَنَـا به محمد. وهذا القول من الكافـرين هو دأب المفحَم المحجوج وديـدن المكابـر اللجوج، وهـو مسلك جميع الأمم الكافـرة في سائر الأزمـان الغابـرة. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وقالوا لولا أنـزل عليه مَلَكٌ ولو أنزلنـا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرون * ولو جعلناه مَلَكًا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يَلْبِسُـونَ﴾ تسجيل لبعض مقترحـات هـؤلاء الجاحـدين الكـافـرين وتشنيع عليهم بها حيث ادعـوا أنهم لايصدقـون إلا الـرسـول الملكي الذي ينـزل من السماء ولا يؤمنون بـالرسول البشري إلا إذا أنزل عليه ملك ليكون معـه نذيرا، كما حكى الله عز وجل عنهم ذلك حيـث يقول: ﴿وقالـوا مَالِ هٰذا الـرسولِ

يأكل الطعامَ ويمشي في الأسواق لولا أُنزِلَ إليـه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا﴾ وقد أدحض الله عز وجـل شبهتهم وأخزاهم في مقالتهـم وبيَّن أن تلبيسهم مردود عليهم، وأن طلبهم هذا شاهد على جهالاتهم وسخافة عقولهم، لأن الرسول الملكي الذي يطلبون إمـا أن يأتيهم وينزل عليهم بصورتـه الملكية أو أن ينزل عليهم بصورة بشرية، فلـو جاءهم الملك بصورته الملكيـة لانخلعت قلوبهم من الـرعب، وهلكـوا من شـدة الخوف لأن النفـوس البشريـة غير مهيأة للتعـايش في الدنيـا مع الملائكـة بصـورهم الحقيقية، ولـو جـاءهم الملك في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه لأن الناس حينئذ يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلـك فيزدادون في شبهاتهم ومشكـلاتهم وضلالتهم ويخذلهم الله عـز وجل فيقعـون في خلط فـوق خلطهم واشتبـاه مع اشتبـاههم، والتبـاس زائد على التباسهم، ومعنى: ﴿لـولا أُنزِلَ عليه مَلَك﴾ أي هلا أنـزل على محمد ملك من ملائكة السماء يكون معه نذيرا، ومعنى قوله ﴿ولو أنزلنا ملكا لَقُضِيَ الأمر ثم لا يُنظَـرُون﴾ أي ولو أجبنـا اقتراحهم وأنـزلنا عليهم ملكـا من السماء على صورته الملكية لانخلعت قلوبهم عند رؤيتـه وهلكوا، ولم يؤخَّروا طرفة عين، كما أن من دأب الله في الكافـرين أنه إنما ينزل الملائكة على المجـرمين بإبادتهم كما قال عز وجل: ﴿وقالـوا يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكـرُ إنك لمجنون * لَوْمَا تَأتينا بالملائكة إن كنتَ من الصادقين * ما نُنَـزِّلُ الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذًا مُنظَـرِينَ﴾ ومعنى قولـه عـز وجل: ﴿ولو جعلنـاه مَلَكـا لجعلناه رجـلا ولَلَبَسْنَا عَلَيْهم ما يَلْبِسُونَ﴾ أي ولو أجبنا اقتراحهم ولكنا لم ننزل عليهم الملك في صورته الملكية وأنزلناه في صورة بشرية لوقعوا فيما فروا منه، قال محيي السنة أبو محمد البغوي في قوله عز وجل: ﴿وَلَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسُونَ﴾ أي خلطنا عليهم ما يخلطـون وشبهنا عليهم فلا يـدرون: أملك هو أو آدمي اهـ وقـوله تعالى: ﴿ولقد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ من قَبْلِكَ فَحَاقَ بِـالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُمْ ما كانوا

به يَسْتَهْزِئُونَ. قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ هو مواساة لرسول الله محمد ﷺ بأن ما يلاقيه من المشركين من التكذيب والاستهزاء به قد لقيه إخوانه المرسلون من مشركي أممهم وأن العاقبة الحسنى كانت لرسل الله ومن آمن بهم وأن المستهزئين الذي سخروا من المرسلين قد نزل بهم بأس الله وحاقت بهم عقوبته، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحذيره للذين كذبوا رسوله ﷺ بعدة تأكيدات حيث قال في الآية الخامسة من هذه السورة الكريمة: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أَنبَاء ما كانوا به يستهزئون﴾ ثم أكد لهم ذلك بلفت انتباههم إلى أنهم يعرفون ما حل بالأمم المكذبة بما يشاهدونه من الآثار وبما يسمعونه من الأخبار حيث يقول عز وجل في الآية السادسة: ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ ثم أكد ذلك في الآية العاشرة حيث يقول: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سَخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾ ثم يزيد الأمر تأكيدا فيقول في الآية الحادية عشرة: ﴿قل سِيرُوا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين﴾ ومعنى ﴿حاق﴾ أي أحاط بهم وشملهم ولزمهم وقضى عليهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي قل يامحمد لمن كذبوك وجحدوا الحق الذي جئت به: اضربوا في الأرض وجولوا في مشارقها ومغاربها ثم اعتبروا بما تشاهدونه من آثار المكذبين الجاحدين المستهزئين بالمرسلين، هذا وقد حاق بالمستهزئين برسول الله ﷺ ما توعدهم الله به فأنزل بهم عقوبته وكفاه شرهم، وقتل باقي صناديدهم يوم بدر، كما قال عز وجل: ﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾.

قـال تعالى : ﴿قُل لمن مَـا في السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ قُل للهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِـهِ الرَّحْمَةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَـةِ لا رَيْبَ فيه ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ .

بعد أن ساق عز وجل أدلة التوحيد والبعث والرسالة وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية ، شرع هنا في تأكيد هذه الحقائق الثلاث في صورة بلاغية حيث أمر رسوله ﷺ بتوجيه السؤال للمشركين المكذبين بالبعث الجاحدين برسالـة محمد ﷺ قائلا لهم على سبيل التبكيت والإلجاء : ﴿لمن ما في السمٰوات والأرض﴾ أي لمن الكـائنات جميعـا خلقًا وملكـا وتصرفا ، قـال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿قل لمن ما في السمٰوات والأرض قل لله ، كَتَبَ على نفسه الرحمةَ ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يـوم القيامة لا ريب فيـه ، الـذين خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فهم لا يـؤمنـون﴾ : في الآيـة مسـائل «المسألـة الأولى» اعلم أن المقصود من تقريـر هذه الآية تقرير إثبات الصـانع ، وتقرير المعاد وتقرير النبوة ، وبيانه أن أحوال العالم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هـذه الأجسـام موصـوفـة بصفـات كـان يجوز عليهـا اتصافهـا بأضـدادهـا ومقابـلاتها ، ومتى كان كـذلك فاختصـاص كل جزء من الأجـزاء الجسمانية بصفته المعينة لابـد وأن يكون لأجل أن الصانع الحكيم القـادر المختار خصه بتلك الصفة المعينة ، فهـذا يدل على أن العالَم مع كل ما فيـه مملوك لله تعالى ، وإذا ثبت هـذا ، ثبت كـونـه قـادرا على الإعـادة والحشر والنشر لأن التركيب الأول إنما حصل لكونه تعالى قادرًا على كل الممكنات ، عالما بكل المعلومات ، وهذه القدرة والعلم يمتنـع زوالهما ، فوجب صحة الإعادة ثانيـا ، وأيضا ثبت أنه تعـالى ملك مطاع ، والملك المطاع مـن له الأمر والنهي على عبيـده ، ولابد من مبلِّغ ، وذلك يـدل على أن بعثة الأنبيـاء والرسل من الله تعـالى إلى الخلق

غير ممتنع، فثبت أن هذه الآيـة وافية بإثبـات هذه المطالب الثـلاثة، ولَـمَّـا سبق ذكر هذه المسائل الثلاث ذكر الله بعـدها هذه الآية لتكون مقررة لمجموع تلك المطالب من الـوجه الـذي شرحناه، والله أعلم. «المسألة الثـانية» قـوله تعـالى: ﴿قل لمن مـا في السمٰوات والأرض﴾ سؤال، وقـولـه: ﴿قل لله﴾ جواب، فقد أمـره الله تعالى بالسؤال أولا ثم بالجواب ثـانيًا، وهذا إنما يحسن في الموضع الـذي يكـون الجواب قـد بلغ في الظهـور إلى حيث لا يقـدر على إنكاره منكـرٌ، ولا يقدر على دفعـه دافع، ولما بيَّنا أن آثـار الحدوث والإمكان ظاهرة في ذوات جميع الأجسام وفي جميـع صفاتها، لا جرم كان الاعتراف بأنها بأسرها مِلْك لله تعـالى ومُلْك له ومحل تصرفـه وقدرته، لا جـرم أمره بـالسؤال أولاً ثم بالجواب ثـانيًا، ليدل ذلك على أن الإقـرار بهذا المعنى مما لا سبيل إلى دفعه ألبتة، وأيضا فالقوم كانوا معترفين بأن كل العالم ملك لله، وملكه وتحت تصرفـه وقهـره وقـدرتـه بهذا المعنـى، كما قـال: ﴿ولئن سـألتهم مَنْ خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ ليقـولُنَّ الله﴾ ثم إنـه تعالى لما بيَّن بهذا الطريـق كمال إلٰهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقـات بالكلية، أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ على نفسه الرحمة﴾ فكأنه تعالى قال: إنه لم يرض من نفسه بأن لا ينعم، بل أبدًا ينعم، وأبدًا يعد في المستقبل بالإنعام، ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلـك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم اهـ وقال ابـن جرير الطبري رحمه الله: وقوله: ﴿كتب على نفسه الـرحمة﴾ يقول: قضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقـوبة، ويقبل منهم الإنـابة والتوبـة، وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليـه بالتوبة، يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العـادلين بي الجاحدين نبوتك يامحمد، إن تابـوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي أن رحمتي وسعت كل شيء اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش

أن رحمته تغلب غضبه، فقد روى البخاري ذلك في كتاب التوحيد من صحيحه في أبواب حيث أورده في باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه هو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. وأورده في باب: وكان عرشه على الماء من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي. وأورده في باب قوله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي. وأورده في باب قول الله تعالى: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لما قضى الله الخلق كتب كتابًا عنده: غلبت ـــ أو قال: سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش. وأورده في كتاب بدء الخلق في باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعِيدُه﴾ من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي. وقد أورده مسلم في صحيحه من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الله عز وجل: سبقت رحمتي غضبي. وفي لفظ لمسلم من طريق الحارث بن عبد الرحمن عن عطاء بن ميناء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب

غضبي. ومعنى كون رحمة الله تغلب غضبه أو تسبق غضبه عز وجل هو أنه عز وجل يثيب على الأعمال الصالحة من المحسنين ويقبل التوبة عن المسيئين ويعفو عن السيئات كما قال عز وجل: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفُو عن السيئات﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في الآية الرابعة والخمسين من هذه السورة المباركة حيث يقول: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه مَنْ عَمِلَ منكم سوءًا بِجَهَالَةٍ ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم.﴾ وكما كتب عز وجل على نفسه الرحمة تفضلا وإحسانا فقد حرم على نفسه المقدسة الظلم فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرمًا فلا تظالموا. الحديث. قال شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله: فالله سبحانه قد كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم فهو لا يفعل خلاف ما كتب ولا يفعل ما حرم ثم قال: إن الظلم الذي حرمه الله على نفسه مثل أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها، ويعاقب البريء على ما لم يفعل من السيئات، ويعاقب هذا بذنب هذا، أو يحكم بين الناس بغير القسط، ونحو ذلك من الأفعال التي ينزه الرب عنها لقسطه وعدله وهو قادر عليها، وإنما استحق الحمد لأنه ترك هذا الظلم وهو قادر عليه، وكما أن الله منزه عن صفات النقص والعيب فهو أيضا منزه عن أفعال النقص والعيب. ثم قال رحمه الله: ليس المراد بذلك مجرد كتابته أنه يفعل وهو كتابة التقدير، كما قد ثبت في الصحيح «أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» فإنه قال: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ ولو أريد كتابة التقدير لكان قد كتب على نفسه الغضب كما كتب على نفسه الرحمة، إذ كان المراد مجرد الخبر عما سيكون، ولكان قد حرم على نفسه كل

مالم يفعله من الإحسان كما حرم الظلم. ثم قال رحمه الله: ونظير ما ذكره من كتابته على نفسه كما تقدم قوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: يامعاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه ألا يعذبهم. ومنه قوله في غير حديث: كان حقا على الله أن يفعل به كذا. فهذا الحق الذي عليه هو أَحَقَّهُ على نفسه بقوله ونظير تحريمه على نفسه وإيجابه على نفسه ما أخبر به من قسمه ليفعلن، وكلمته السابقة كقوله: ﴿ولولا كلمةٌ سبقت من ربك﴾ وقوله: ﴿لأَملأنَّ جهنم﴾ و﴿لَنُهْلِكَنَّ الظالمين﴾ ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتِهِم ولأُدْخِلَنَّهُمْ جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إلَيهم﴾ ونحو ذلك من صيغ القسم المتضمنة معنى الإيجاب. ثم قال رحمه الله: وكتابته على نفسه ذلك تستلزم إرادته لذلك ومحبته له ورضاه بذلك، وتحريمه الظلم على نفسه يستلزم بغضه لذلك وكراهته له، وإرادته ومحبته للفعل توجب وقوعه منه، وبغضه له وكراهته لأن يفعله يمنع وقوعه منه، فأما ما يحبه ويبغضه من أفعال عباده فذلك نوع آخر اهـ وقوله عز وجل: ﴿ليَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون اهـ وقوله عز وجل: ﴿الذين خَسِرُوا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ أي الذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون برسوله محمد ﷺ ولا يقرون بالبعث والنشور.

قال تعـالى : ﴿وَلَهُ مـا سَكَنَ فى اللَّيْلِ والنَّهارِ ، وَهُـوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَـاطِرِ السَّمَـٰـواتِ والأَرْضِ وهو يُطْعِمُ ولا يطعَم ، قُلْ إِنِّى أُمِرتُ أَنْ أَكُـونَ أول مَنْ أَسْلَمَ وَلا تكُـونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّ أَخَـافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَـذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . مَن يُصْرَفْ عَنْـهُ يَـوْمَئِذٍ فَقَـدْ رَحِمَهُ ، وَذَالِكَ الفَوْزُ المُبِينُ﴾ .

بعد أن بين الله تبـارك وتعالى أن جميع ما في السمـوات وما في الأرض ملك لله عز وجل وحـده لا شريك له وأشـار إلى أن هذه الحقيقة يُقِـرُّ بها المشركون الـذين اتخذوا مع الله آلهة أخـرى ونبَّه العبـاد إلى أن مَـرَدَّهُمْ جميعا إلى الله عـز وجل وأنـه من رحمتـه أرسل الـرسل وأنـزل الكتب ليهلك من هلك عن بينـة ويحيـا من حيَّ عن بينـة أَكَّـدَ عز وجل هنـا أنَّ لله وحـده مـا سكن في الليل والنهار، وأنه لا تخفى عليه خافيةٌ مهما كانت في السماء أو في الأرض ، ثم أَمَر نبيه وسيـد رسله وخـاتم أنبيائه أن يـوبخ المشركين وأن يَقْطَعَ كل أمل لهم فيما يحاولونـه ويَودُّونَه من أن يميـل رسول الله ﷺ إلى آلهتهم وأن يُعْلِمَهم ويُعْلِنَ لهم أنه أُمِرَ أن يكون أول من أسلم من أمته ، وأنه يخاف إن عصى ربَّه عذابَ يوم القيامة وفي هذا كله تقريرٌ لحقيقة التوحيد وحقيقة الرسالة وحقيقة البعث بعد الموت وفي هذا شَبَهٌ بقوله تبـارك وتعالى : ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبـدون * ولا أنتم عابدون ما أعبـد * ولا أنا عابد مـا عبدتم * ولا أنتم عـابـدون ما أعبـد * لكم دينكم ولي دين﴾ وهـو شبيـه أيضـا بقولـه تبـارك وتعالى : ﴿قل أَفَغَيْرَ اللهِ تأْمُروني أعبـد أيها الجَاهِلُونَ * ولقد أُوحي إليك وإلى الـذين من قبلك لئن أَشْرَكْتَ ليَحْبَطَنَّ عملُكَ ولَتكُـونَنَّ من الخاسرين * بل الله فـاعبد وكُن من الشـاكرين﴾ وفيـه شَبَـهٌ بقولـه تعالى : ﴿قل إنَّ صـلاتي ونُسُكِي ومَحْيَايَ وممـاتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذٰلك أُمِـرتُ وأنا أَوَّلُ

المسلمين * قلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبًّا وهـو ربُّ كلِّ شيء، ولا تَكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ إلا عليهـا، ولا تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخـرى، ثـم إلى ربكم مَـرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كُنْتُمْ فيه تَخْتَلِفُـونَ﴾ والعرب يستعملون «سكن» بمعنى استقـر وحَلَّ فيكون من السُّكْنَى فيشمل المتحرك والساكن ويستعملونـه أيضا من السكون الذي هو ضدُّ التحرك وعلى هذا يكون فيه اكتفـاءٌ بأحد الضدين لدلالته على الآخر كما قـال عـز وجل: ﴿سَرَابيلَ تَقِيكُم الحرَّ﴾ أي والبرد فـاكتفي بـذكـر أحـد الضـدين عن ذكر الآخـر لأن السـامع يعرف المراد قطعـا. ولا شك أن جميع الكائنات متحركهـا وساكنها مملوك لله عز وجل وحـده لا شريك له ولذلك قدم الجار والمجرور لإفـادة الحَصْر المقرر أنَّ كلَّ الكائنات المتحركـة والساكنة لطيفةً كانت أو كثيفة في أي زمان أو مكـان هي لله تبارك وتعالى وحده، فهو عـز وجل الـذي يُسْكِنُ الـريح أو يحركهـا كما يُسْكِنُ الحر والبرد وعمـوم مـا يَسْكُنُ أو يتحرك، قـال العلامة ابن منظـور في لسان العرب المحيط: وقـوله تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قـال ابن الأعرابي: معناه وله ما حَلَّ في الليل والنهار، وقال الزجاج: هذا احتجاج على المشركين لأنهم لم يُنكِرُوا أن ما اسْتَقَرَّ في الليل والنهـار لله أي هو خالقه ومُـدَبِّرُهُ فالذي هـو كذلك قادرٌ على إحياء الموتى، وقال أبـو العباس في قوله تعـالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ قـال: إنما الساكن من الناس والبهـائم خاصة قـال: وَسَكَنَ: هَدَأَ بعد تَحَرُّكٍ وإنما معناه والله أعلم: الخَلْقُ اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير قـوله تعـالى: ﴿ولـه مـا سكن في الليل والنهار﴾ أي كـل دابة في السمـوات والأرض الجميعُ عِبَـادُهُ وخَلْقُـهُ وتحت قهـره وتصرفه وتـدبيره لا إلـه إلا هـو، ﴿وهـو السميـع العليم﴾ أي السميع لأقـوال عبـاده، العليم بحـركـاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قـال تعـالى لعبده ورسـولـه محمـد ﷺ الذي بعثـه بـالتـوحيـد العظيم وبـالشرع القويـم وأمره أن يـدعـو النـاس إلى صراط الله

المستقيم ﴿قل أغير الله أتخذ وليـا فاطـرِ السمٰـوات والأرض﴾ كقولـه : ﴿قل أَفَغَيْرَ اللهِ تأمروني أعبـدُ أيها الجاهلون .﴾ والمعنى : لا أتخذ وليًّـا إلا الله وحده لا شريك له ، فإنـه فاطـر السمٰوات والأرض أي خـالقهما ومبدعهما على غير مثال سـابق ﴿وهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ أي وهو الرزاق لخلقـه من غير احتياج إليهم كما قال تعـالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ﴾ الآيـة ، وقرأ بعضهم ههنا ﴿وهـو يُطْعِمُ ولا يَطْعَمُ﴾ أي لا يأكل ، وفي حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيـه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعـا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فـانطلقنا معه ، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يـديه قـال : الحمـد لله الذي يُطعِم ولا يَطْعَم ، ومنَّ علينـا فهـدانا وأطعمنـا وسقانا من الشراب ، وكسـانا من العرى ، وكل بلاء حسن أبـلانا ، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانـا من العرى ، وهدانا من الضلال ، وبصَّرنـا من العمى ، وفضلنـا على كثير ممـن خلق تفضيـلا ، الحمـد لله رب العالمين اهـ والاستفهـام في قوله عز وجل : ﴿أفغير الله أتخذ وليـا﴾؟ للإنكار أي لا أتخذ غير الله وليًّـا لا بطـــريق الاستقـلال ولا بطـــريق الاشتراك ، والاستفهـام الإنكـاري مسلط على المفعول الأول لا على الفعل لـلإعـلام بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولي مطلقا كما في قوله تعالى : ﴿أغيرَ الله أبغي ربا﴾ وكما في قوله تعالى : ﴿أفغيرَ الله تأمرونيِّ أعبدُ أيها الجاهلون﴾ والمراد بالولي هنا المعبود ، كما في قوله تعالى : ﴿ألا لله الدينُ الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفَى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كَفَّارٌ﴾ والعجيب الغريب أن تجد أن بعض المنتسبين للإسلام يتخذون من دون الله أولياء ويسمونهم بهذا الاسم ويجعلون على قبـورهم قبابًـا ، وينادونهم ويستغيثـون بهم طالبين منهم جلب

النفع أو دفع الضر كما كان يفعل أهل الجاهلية قبل الإسلام، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بن علي الشوكاني في رسالته المسماة: شرح الصدور في تحريم رفع القبور:

أعادوا بها معنى سُوَاعَ ومثله	يغوث وودٌّ ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم نحروا في سوحها من بحيرة	أهلت لغير الله جهلا على عمد اهـ

وقد ندد الله تبارك وتعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم بمن يتخذ غير الله وليا أي معبودًا كما في هذا المقام وكما قال عز وجل: ﴿قل من رب السمٰوات والأرض قل اللهُ، قل أفاتخذتم من دونه أولياءَ لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضَرًّا، قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ أم هل تستوي الظلماتُ والنورُ، أم جعلوا لله شركاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فتشابه الخلقُ عليهم، قل اللهُ خالقُ كلِّ شيء وهو الواحدُ القهارُ.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويومَ يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقولُ أأنتم أضللتم عبادي هٰؤلاء أم هم ضَلُّوا السبيل. قالوا سبحانك ما كانَ ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولٰكن مَتَّعْتَهُمْ وآباءَهُمْ حتى نَسُوا الذكر وكانوا قوما بُورًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أم اتخذوا من دونه أولياءَ فاللهُ هو الوليُّ وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قديرٌ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني أُمِرْتُ أن أكونَ أولَ مَنْ أَسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ من المشركين﴾ أي قل إن الله تبارك وتعالى أمرني أن أكون أول من يخلص له التوحيد من هذه الأمة وأول المنقادين لأمره المصدقين بما أنزل عليَّ من الكتاب وأنه نهاني أشد النهي وأوكده أن أشرك بالله شيئا، وفي هذا قطعٌ لطمع المشركين الذين يودون أن يزحزحوا رسول الله ﷺ عن جادة توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له والدعوة إلى صراط الله المستقيم، وفي هذا تقرير

للتوحيد والرسالة على أكمل وجه، ولاشك أن كل نبي هو أول المؤمنين من أمته، كما قال عز وجل عن موسى عليه السلام: ﴿قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ وقوله تعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾ تقرير للبعث بعد الموت وتأكيد في تربية النفوس على الإيمان بذلك حتى يصير الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ملكة مستولية على مشاعر المؤمنين مركوزة أمام بصائرهم ليفعلوا الخير ويجتنبوا الشر ويفوزوا بجنات النعيم، ومعنى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين﴾ أي أنذر يامحمد أمتك وحذرهم من عذاب يوم القيامة لمن عصى الله عز جل وبخاصة من ارتكب أكبر الكبائر وهو الشرك بالله، وأعلمهم أن عذاب يوم القيامة عذاب شديد وأن يوم القيامة عظيم الهول فظيع الشأن لأنه يوم يجعل الولدان شيبًا، فالسعيد من صرف الله عز وجل عنه عذاب يوم القيامة، ومن يصرف الله عنه عذاب يوم القيامة فقد نجاه وأنعم عليه وأحسن إليه وشمله برحمته، ومن شمله الله عز وجل برحمته فقد فاز فوزًا عظيمًا ظاهرًا كما قال عز وجل: ﴿فمن زُحْزِحَ عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور﴾ فالفوز المبين الحق هو في دخول الجنة والنجاة من النار، وقد اشتمل قوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * من يُصْرَفْ عنه يومئذ فقد رحمه، وذلك الفوز المبين.﴾ على صور بلاغية حيث أكد الخوف بإن في قوله: ﴿إني أخاف﴾ وهو أفضل خلق الله أجمعين ثم فصل بين الفعل ومفعوله بالجملة الشرطية وهي قوله: ﴿إن عَصَيْتُ ربي﴾ وحذف جواب الشرط لدلالة قوله: إني أخاف عذاب يوم عظيم على هذا المحذوف. وفي قوله تعالى هنا: ﴿وذلك الفوز المبين﴾ مع قوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿فأما الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته، ذلك هو الفوز المبين﴾ بالمجيء بالواو في الأولى وحذفها من الثانية، والمجيء بالضمير في الثانية وحذفه من الأولى، وليس في القرآن بهذا اللفظ غيرهما فهما من المتشابه المثاني، مع بعد موقعيهما في الكتاب الكريم.

قال تعالى: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وإن يَمْسَسْكَ بخَيْرٍ فَهوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ، وهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ. قُلْ أَيُّ شيءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيد بَيْنِي وبَيْنَكُمْ، وَأُوحِيَ إلَيَّ هَٰذَا القُرآن لأُنذِرَكُمْ به وَمَن بَلَغَ، أَئنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلهة أُخرى، قُلْ لا أَشْهَدُ، قل إنَّما هُوَ إلَهٌ وَحِدٌ وَإنني بَرِيءٌ ممَّا تشرِكُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن لـه ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم وأمر نبيه وحبيبه محمدًا ﷺ أن يوبخ المشركين وأن يقطع كلَّ أمل لهم فيما يحاولونه وَيَوَدُّونَهُ من أن يميل رسول الله ﷺ إلى آلهتهم، وأن يُعْلِمهُم ويُعلنَ لهم أنه أُمِر أن يكون أول من أسلم من أمته وأنه يخاف إن عصى ربَّهُ عذاب يوم القيامة، ضرب هنا مثلا للحض على إخلاص التوحيد لله وحده والبراءةِ من كل معبود سواه بِبَيَانِ أنه إن مسَّ الإنسان ضُرٌّ لا يكشفه إلا الله وحده، وإن مسَّه خير فهو من الله وحده ولا يحفظه له أحد سواه تبارك وتعالى لأنه عز وجل هو وحده القادر على كل شيء النافعُ الضار الذي لا يعجزه شيء ولا يكون في الكون شيء إلا بقضائه وقدره وحكمته وعلمه، حيث يقول هنا: ﴿وإن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كل شيء قَدِيرٌ. وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وهو الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وقد روى الترمذي وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خَلْفَ النبي ﷺ يوما فقال: يا غلام إني أُعَلِّمُكَ كلماتٍ احفظ الله يَحْفَظْكَ، احفظ الله تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلْتَ فاسْأَلِ الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله، واعلم أن الأمة لو اجْتَمَعَتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وإنِ اجْتَمَعُوا على أن يَضُرُّوكَ بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ. قال ابن جرير

الطبريُّ رحمه الله: القولُ في تأويل قوله: ﴿وإن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو وإن يَمْسَسْكَ بخير فهو على كل شيء قدير﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن يُصِبْكَ اللهُ ﴿بِضُرٍّ﴾ يقول: بِشِدَّةٍ في دنياك، وشَظَفٍ في عيشك وضِيقٍ فيه، فلن يَكْشِفَ ذلك عنك إلا الله الذي أَمَرَكَ أن تكون أولَ من أَسْلَمَ لأمره ونهيه، وأَذْعَنَ له من أهل زمانك، دونَ ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام ودُونَ كلِّ شيء سواها من خَلْقِهِ ﴿وإن يَمْسَسْكَ بخير﴾ يقول: وإن يُصِبْكَ بخير، أي برخاءٍ في عيش، وسَعَةٍ في الرزق وكثرةٍ في المال فتقرّ أنه أصابك بذلك «فهو على كل شي قدير» هو القادرُ على نفعك وضرِّك وهو على كل شيء يريده قادرٌ، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المهينة، التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها، يقول تعالى ذكره: فكيف تعبد من كان هكذا؟ أم كيف لا تخلص العبادة وتُقِرُّ لمن كان بيده الضرُّ والنفع والثوابُ والعقابُ، وله القدرة الكاملة والعزَّةُ الظاهرة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ إثبات لصفة الفوقية والعُلوِّ لله عز وجل على جميع خلقه، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله تعالى ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلى، النافين عن الله عز وجل ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ مع إيمانهم ويقينهم بأن الله عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وعُلوُّ الله عز وجل على خلقه مركوز في الفطر السليمة ثابت بالكتاب والسنة في مواضع كثيرة فقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه المقدسة بأنه استوى على العرش في سورة الأعراف وفي سورة يونس وفي سورة الرعد وفي سورة طه وفي سورة الفرقان وفي سورة السجدة وفي سورة الحديد، وقد وصف عز وجل كرسيه

بأنه وسع السموات والأرض وقال عز وجل: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ وقال هنا: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ وقال في سورة النحل في وصف ملائكته: ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ وقال في عيسى عليه السلام: ﴿إني متوفيك ورافعك إليَّ﴾ وقال: ﴿بل رفعه الله إليه﴾ ويقول عز وجل: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سَنَةٍ﴾ وقال عز وجل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من ربك بالحق﴾ وقد روى البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: كانت زينب تَفْخَرُ على أزواج النبي ﷺ تقول: زَوَّجَكُنَّ أَهالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي الله تعالى من فوق سبع سماوات. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فإذا سألتم الله فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فإنه أوسَطُ الجنة وأَعْلَى الجنة وفوقَه عَرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، وقد ذكر الشيخ عليُّ ابن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية على قول الطحاوي رحمه الله: وهو مستغن عن العرش وما دونه محيطٌ بكل شيء وفوقهُ، وقد أَعْجَزَ عن الإحاطة خلقه قال ابن أبي العز رحمه الله: وأما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ ﴿يخافون ربَّهم من فوقهم﴾ ثم قال رحمه الله: وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقيةِ المُطْلَقَةِ من كل وجه فله سبحانه وتعالى فوقيةُ القَهْر وفوقيةُ القَدْرِ وفوقيةُ الذات، ومن أثبت البعض ونَفَى البعضَ فقد تَنَقَّصَ وعُلُوُّهُ تعالى مُطْلَقٌ من كل الوجوه اهـ وقوله تبارك وتعالى ﴿قُلْ أي شيءٍ أكبرُ شَهَادةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وأُوحيَ إليَّ هٰذَا القرآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ، أَئنَّكُمْ لَتَشْهَدونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخرَى، قُلْ لاَ أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰه وَاحِدٌ وإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ تقريع للمشركين بالله المكذبين بالرسالة المنكرين للبعث وتوبيخ لهم على ردهم ما دعاهم إليه محمد ﷺ من وجوب الإيمان بالله

ورسولـه واليوم الآخر مع أنـه قد بَرْهَـنَ على دعواه بأعظم شهادة في الـوجود وأكبر بينة وهي شهادة الله الملك الحق المبين الذي أيـده بالقرآن الذي تحداهم بأقصر سورة منـه، المقرر لعموم رسـالة محمد ﷺ وشمـولها لمن تصل إليه من الإنس والجن من لدن بعثتـه ﷺ إلى يوم القيـامة، قال ابن جـرير رحمه الله: القــول في تأويل قــولـه: ﴿قل أي شيء أكبر شهــادةً قل الله شهيــد بيني وبينكـم﴾ قال أبو جعفر: يقول تعـالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الـذين يكذبون ويجحدون نبـوتك من قومك: أيُّ شيءٍ أعظم شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشيـاء شهادةً ﴿الله﴾ الذي لا يجوز أن يقع في شهـادتـه مـا يجوز أن يقـع في شهـادة غيره من خلقـه من السهـو والخطأ والغلط والكـذب، ثم قل لهم: إن الـذي هـو أكبر الأشيـاء شهادةً شهيدٌ بيني وبينكم بالمُحِقِّ منا من المُبْطِلِ، والرشيد منا في فعله وقوله من السفيه، وقد رضِينا به حكماً بيننا. اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكلُّ أحــد يعلم أن الله أكبر شهــادةً، فلما قــال: «قل أي شي أكبر شهــادةً» عُلِمَ أن الله أكبر شهـادة من كل شيء، فقيل لـه: ﴿قل الله شهيـد بيني وبينكم﴾ ولما قال: ﴿اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾ كان في هذا ما يغنى عن قولـه: إن الله أكبر شهادةً، وذلك أنَّ كـونَ اللهِ أكبر شهادةً هـو معلوم، ولا يثبت بمجرد قولـه «أكبر شهادةً» بخلاف كونه شهيـدا بينه وبينهم فإن هذا ممـا يُعْلَمُ بـالنص والاستـدلال، فينظـر: هل شهد الله بصـدقـه وكـذَّبهم في تكذيبه؟ أم شهد بكذبـه وصدَّقهم في تكذيبه؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيـات: بكلامه الذي أنزله، وبما بين أنه رسول صادقٌ، ولهذا أعقبه بقولـه: ﴿وأوحي إليَّ هٰذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ﴾ فإنَّ هذا القـرآن فيه الإنذارُ، وهو آيـةٌ شهد بها أنه صادق، وبـالآيات التي يُظْهِرُهـا في الآفاق وفي الأنفس حتى يتبين لهم أنـه الحق، وقولـه في هذه

الآية: ﴿قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ وكذلك قوله: ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم﴾ وكذلك قوله: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾ وكذلك قوله ﴿هو أعلم بما تُفِيضُون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم﴾ فَذَكَرَ سبحانه أنه شَهيدٌ بينه وبينهم ولم يقل: شاهدٌ علينا، ولا شاهدٌ لي، لأنه ضَمَّنَ الشهادة الحُكْمَ فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم، والحُكْمُ قَدْرٌ زَائدٌ على مجرد الشهادة، فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة. وأما الحاكمُ فإنه يحكم بالحق لِلْمُحقِّ على المُبْطِلِ ويأخذ حَقَّهُ مِنْه، ويعامل المحقَّ بما يستحقه والمبطلَ بما يستحقه. وهكذا شهادة الله بين الرسول ومتبعيه وبين مُكَذِّبِيهِ، فإنها تتضمن حكم الله للرسول وأتباعه، يحكم بما يظهره من الآيات الدالة على صدق الرسول على أنها الحق، وتلك الآيات أنواع متعددة ويحكم له أيضا بالنجاة والنصر والتأييد، وسعادة الدنيا والآخرة، ولمكذبيه بالهلاك والعذاب، وشقاء الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله﴾ فَيُظْهِرهُ بالدلائل والآيات العلمية التي تُبَيِّنُ أنه حق، ويُظْهِرهُ أيضا بنصره وتأييده على مخالفيه، ويكون منصورًا كما قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزانَ ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ﴾ فهذه شهادةُ حُكْم كما قدَّمنا ذلك في قوله: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد، قل إنما هو إلّه واحد وإنني بريء مما تشركون﴾ تأكيدٌ على إيجاب التوحيد وتحذيرٌ من الشرك بأبلغ وجوه التأكيد وأعظم طرق البيان حيث أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن ينكر على المشركين ادعاءهم لله شريكا مُورِدًا ذلك بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي مفيدا أن من يدعى لله شريكا فهو شاهد زُورٍ يجب على كل عاقل أن يحذر من مثل هذه الشهادة الفاجرة وأن يجتنبها وأن يخلص التوحيد لله وحده وأن يتبرأ من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿الَّـذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ يعرفـونه كما يَعْرِفُونَ أَبْنَـاءَهُمْ، الَّذِينَ خَسِروا أَنفُسَهُمْ فهم لا يُؤمِنُونَ* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبا أو كَذَّبَ بآياتهِ، إنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. ويَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤكم الَّذينَ كُنْتُمْ تَـزْعُمُونَ. ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أن قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَـا مَاكُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أنفُسِهِمْ، وضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ﴾

بعد أن بَيَّـنَ الله تبارك وتعالى أنه شهد لرسوله ﷺ وأن شهادة الله هي أَجَلُّ شهادة وأكبرها وأعظمها أردف ذلك هنا ببيان أن أهل العلم من أهل الكتب السابقة موقنون بمحمد ﷺ وأنه رسـول الله وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بسبب صفاته التي جاءت في الكتب السماوية السابقة حيث كانت رسلُ الله صلى الله عليهم وسلم يـوصون أممهم بـه، ويحضونهم على اتباعـه إذا بُعِثَ، وقد وَقَفَ آخـرُ أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم خطيبـا يُبَشِّرُ بمحمد ﷺ يقول لهم: «يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يَدَيَّ من التوراة ومبشرا بـرسول يأتي من بعـدى اسمـه أحمد» وقد أشـار الله تبارك وتعـالى إلى شهادة أهل العلم من أهل الكتاب الأول بتصـديق محمد ﷺ في غير موضع من القـرآن العظيم حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿ويقـول الذين كفـروا لست مُرْسَـلاً، قل كفى بالله شهيـدا بيني وبينكم ومن عنده عِلـمُ الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن كـان من عند الله وكفرتم به وشهـد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثلـه فآمـن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظـالمين﴾ كما أشار الله تبـارك وتعالى إلى معـرفة أهل الكتاب أن محمـدا هو رسـول الله حقا وصدقـا في مواضع من كتابـه الكريم حيث يقول: ﴿ولما جـاءهم كتاب من عنـد الله مُصَدِّقٌ لما معهم وكـانوا من قبل يستفتحـون على الذين كفـروا فلما جـاءهم ما عـرفوا كفـروا به، فَلَعْنَـةُ اللهِ على الكافـرين﴾ وكما قال عـز وجل

﴿الـذين آتيناهـم الكتاب يعـرفـونه كما يعـرفـون أبناءهـم وإن فريقـا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمـون﴾ وقال هنا: ﴿الذيـن آتيناهم الكتاب يعرفـونه كما يعرفون أبنـاءهم، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ وقـد قال محمد ابن إسحاق في السيرة النبوية: وحدثني عـاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيـد عن عبد الله بن عباس قال: حـدثني سلمانُ الفارسي من فيـه وساق الحديث إلى أن قـال: لحقت بصـاحب عمـورية فأخبرتـه خبرى فقال: أقم عنـدي، فأقمت عند خير رجل، على هـدى أصحابـه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كانت لي بقراتٌ وغُنَيْمَةٌ، قال: ثم نزل به أمْرُ الله، فلما حُضرَ قلت له: يا فلان، إنى كنتُ مع فلان فأوصى بي إلى فلان، ثم أَوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فُلَانٌ إليك، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بُنَى واللهِ ما أَعْلَمُهُ أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمُرُكَ به أن تأتيه، ولكنه قد أَظَلَّ زمـانُ نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهَاجِـرهُ إلى أرض بين حَرَّتين، بينهما نخل، به عـلامـاتٌ لا تخْفَى، يأكل الهديـة، ولا يأكل الصـدقة، وبين كتفيـه خـاتم النبـوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فـافعل، الحديث. وقـوله عـز وجل: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ تأكيد لتقـرير ما ذكره تبارك وتعالى في الآيـة الثانية عشرة من هذه السـورة الكريمة ببيان أن الـذين ضيعوا أنفسهم حيث غبنوها حظها وأوبقـوها وأتلفوا أغلى رأس مالهم فهؤلاء بسبب انتكاس فطـرتهم وانطماس بصيرتهم لا يؤمنون بـالله ولا يصدقون بـرسول الله ﷺ مهما جاءهـم من الآيـات ومهما تواترات على صدقـه ﷺ من الشهادات، إذ قد شهد الله عز وجل له وعرفه أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم بأنه النبي المبعوث بدين إبراهيم الذي يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، في كتفه خـاتم النبوة كزر الحَجلة، يأكـل الهدية ولا يأكل الصدقة في عـلامات

أخرى لا تخفى، وقوله عز وجل: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّبَ بآياته، إنه لا يُفْلِحُ الظالمون﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ومن أشدُّ اعتداءً وأَخْطأُ فِعْلاً وأخطلُ قولا ﴿ممن افترى على الله كذبا﴾ يعني: ممن اختلق على الله قيلاً باطلا واخترق من نفسه عليه كذبا، فَزَعَمَ أنَّ له شريكا من خلقه، وإلَها يُعْبَدُ مِن دونه، كما قاله المشركون من عَبَدَةِ الأوثان، أو ادَّعَى له ولدا أو صاحبة كما قالته النصارى ﴿أو كذَّب بآياته﴾ يقول: أو كذَّب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذبت بها اليهود ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاءَ في الجنان، والمفترون عليه الكذبَ، والجاحدون بنبوة أنبيائه اهـ وقد جمع المشركون واليهود والنصارى أفحش الظلم حيث كَذَّبُوا بما جاء به رسول الله ﷺ من الحق، وضمُّوا إلى هذا التكذيب افتراءَ الكذب على الله حيث كان المشركون إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، وحيث كان اليهود والنصارى يزعمون أن شريعتهم غير قابلة للنسخ وأن الله أمرهم وعهد إليهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، وقالت اليهود: عزيرٌ ابنُ الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، ثم ذكر عز وجل مشهدًا من مشاهد القيامة يُعَجِّبُ فيه رسولَ الله ﷺ من أن الكذبَ والافتراء يلازم أعداء الله حتى في عرصات القيامة إذ يحلفون بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين حيث يقول عز وجل هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للذين أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤكم الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تكُن فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أن قالوا واللهِ ربِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظر كَيْفَ كَذَبُوا على أنفسهم، وَضلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وفي إيراد هذا

المشهد العظيم تقرير للحشر والبعث بعد الموت الذي أنكره المشركون أشد الإنكار مع ما تضمنه هذا المشهد من توبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس الأشهاد وبيان حيرتهم ويأسهم من شفاعة أصنامهم وأوثانهم لهم، وقد كانوا يزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ويعبدون من دونِ الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هٰؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ ولذلك يوبخهم عز وجل في هذا المقام وقد نزلت بهم الطامَّة والداهية التامة حيث يناديهم: ﴿أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾ أي وما كان جوابهم ومعذرتهم ومقالتهم إلا أن حلفوا بالله ربهم أنهم ما كانوا مشركين، وظنوا أن كذبهم في عرصات القيامة ينفعهم، قال أبو إسحاق إبراهيم بنُ السَّرِيِّ الزجَّاج في كتاب معاني القرآن وإعرابه: وتأويلُ هذه الآية تأويلٌ حسَنٌ في اللغة لطيف، لا يفهمه إلا مَنْ عرف معاني الكلام وتَصَرُّفَ العرب في ذلك، والله جل وعز ذكر في هذه الأقاصيص التي جرت في أمر المشركين وهم مُفْتَتِنونَ بشركهم أَعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرَّأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين ومِثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يُحِبُّ غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فتقول له: ما كانت مَحَبتكَ لفلان إلا أن انْتَفَيْتَ منه اهـ وقد نقل المفسرون عبارة الزجاج هذه بألفاظ، فقال محيي السنة البغوي في معالم التنزيل: وقال الزجاج: في قوله: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يُفْتَنُ بمحبوب، ثم يصيبه فيه محنة، فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنته إلا هذا، كذلك الكفار فُتِنُوا بمحبة الأصنام، ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عز وجل: ﴿ثم لم تكن فتنتهم﴾ ومحبتهم للأصنام ﴿إلا أن قالوا

والله ربنا ما كنا مشركين﴾ اهـ وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: وقال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جدا، أخبر اللهُ عز وجل بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يُحِبُّ غاويا، فإذا وقع في هلكة تبرأ منه، فيقال: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه اهـ وقال الفخر الرازيُّ: قال الزجاج: تأويل هذه الآية حَسَنٌ في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتَصَرُّف العرب في ذلك، وذلك أن الله تعالى بيَّـنَ كونَ المشركين مفتونين بشركهم متهالكين على حبه، فأعلم في هذه الآية أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرأوا منه وتباعدوا عنه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين، ومثاله: أن ترى إنسانا يحب غاويا مذموم الطريقة، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له: ما كانت مَحَبَّتُكَ لفلان إلا أن انتفيت منه اهـ وقد ساق ابن الجوزي في تفسيره قول الزجاج بعبارة أخرى، وقد أشار ابن تيمية رحمه الله إلى أن من شأن النفس الخائنة أن تدافع وتجادل الله بالباطل حيث قال رحمه الله: وهذا من شأن النفس حتى إنه يوم القيامة يريد أن يدفع عن نفسه ويجادل الله بالباطل قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبُوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾. وقد جاءت الأحاديث بأن الإنسان يجحد أعماله يوم القيامة حتى يشهد عليه سمعُهُ وبصرهُ وجوارحهُ، وقال تعالى: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصارُكُمْ ولا

جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم، وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : ومعنى النظر في هذا الموضع النظر بالقلب لا النظر بالبصر وإنما معناه: تَبَيَّنْ فاعلم كيف كَذَبُوا في الآخرة. اهـ والمقصود تعجيب رسول الله ﷺ وغيره من كذبهم الصريح بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا، ومعنى ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم أصنامهم وأوثانهم بعد أن زَيَّل الله بين الأصنام وعابديها وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسْحَبونَ * في الحميم ثم في النار يُسْجَرونَ * ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنَّا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا، كذلك يُضل الله الكافرين﴾

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَن يَستَمِعُ إليكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفى آذانِهِمْ وقرا، وإن يَـرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بهَا، حتى إذا جـاءوك يجادلونك يَقُولُ الَّـذِينَ كفرُوا إِنْ هَٰذَا إلا أَساطِيرُ الأَولِينَ* وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وينئـون عنه وإن يُهْلِكُونَ إلاَّ أَنفُسَهم وَما يَشْعـرُونَ. وَلَو تَرَى إذ وُقِفوا على النَّارِ فقَـالوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآيات رَبِّنَا ونكونَ من المُؤْمِنينَ. بل بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادوا لِـمَا نُهُوا عَنْهُ وإنَّـهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

بعـد أن بيَّـنَ الله تبـارك وتعـالى أن أهل العلم من أهل الكتـاب موقنـون بمحمد ﷺ وأنـه رسول الله حقًـا وصدقا وأنهم يعـرفونـه كما يعرفـون أبناءهم وبيَّن تبارك وتعالى أن أشد الناس ظلما من افترى على الله كذبا أو كذب بآياته وذكر مشهـدا من مشاهـد القيامـة يُعَجِّب فيه رسـول الله ﷺ من أن الكذب والافتراء من صفات أعداء الله حتى في عـرصات القيامة، مع مـا يفيده ذكر هذا المشهـد من تقرير النشر والحشر وتـوبيخ المشركين وتقريعهم على رءوس الأشهاد يـوم القيامة شرع هنـا في زيادة تقرير مـا تضمنه المقام المتقـدم ببيان حال المشركين عند سماع القرآن في الدنيا، وبيان ما سيصدر عنهم يوم الحشر الأكبر، وما يلاقونـه من الحسرة والندامة يوم القيامة، حيـث ذكر هنا مشهدا من مشاهـد الآخرة يُظْهِـرُ فيه الكافـرون حسرتهم على تكذيبهم بـآيات ربهم ويتمنـون أن يرجعـوا إلى الدنيـا ليُصَدِّقـوا رسول الله ﷺ وأعلم الله عـز وجل رسـولـه ﷺ أنهم لو رُدُّوا إلى الـدنيـا لعـادوا إلى تكذيب رسـول الله ﷺ بعـد معاينتهم نـار جهنم بأبصارهم، وفي ذلك يقول الله تبـارك وتعالى: ﴿ومنهم من يَسْتمع إليك وجعلنا على قلـوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقـرًا﴾ قال ابن جـريـر الطبري رحمه الله: القـول في تأويل قـولـه: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلـوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا﴾ قـال أبو جعفر:

يقول تعالى ذكـره : ومن هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنـام من قومك يا محمـد ﴿من يستمع إليك﴾ يقـول : مـن يستمع القـرآن منك ، ويستمع مـا تدعوه إليه من توحيد ربك وأَمْرِه ونَهْيِه ولا يفقه ماتقول ، ولا يُوعيه قلبه ، ولا يتدبره ، ولا يصغى لـه سمعه ليتفقهه فَيَفْهَمَ حُجَجَ الله عليه في تنـزيله الذي أنـزلـه عليك ، إنما يَسْمَعُ صـوتك وقـراءتكَ وكـلامكَ ، ولا يعقل عنك مـا تقول ، لأن الله قد جَعَلَ على قلبه ﴿أَكنَّةً﴾ وهي جمع كِنَانٍ وهو الغِطاء ، مثل سِنَانٍ وأسنةٍ ، يقال منه : أَكْنَنْتُ الشيءَ في نفسي ، وكَنَنْتُ الشيء إذا غَطَّيته ، ومن ذلك ﴿بَيْضٌ مكنون﴾ وهو الغطاء ، ومنه قولُ الشاعر:

تَحْـتَ عَيْـن كِنَـانُنَا ظِـلُّ بُـرْدٍ مُرَحَّـلُ

يعنى : غطاؤهم الذي يكنهم «وفي آذانهم وقـرا» يقول تعالى ذكره : وجعل في آذانهم ثِقَلاً وصَمَما عن فهم مـا تتلوه عليهم والإصغـاء لما تدعـوهم إليه ، والعَرَبُ تفتح الـواو من الوَقْـر في الأُذن وهو الثِّقَلُ فيهـا ، وتكْسِرُها في الحمل فتقول : هو وِقرُ الدابَّة ، ويقال من الحمل : أو قَرتُ الدابةَ فهي مُوقَرَةٌ ، ومن السَّمْع وَقَرْتُ سمعه فهو موقور، ومنه قول الشاعر:

ولي هَامَةٌ قد وقَّرَ الضَّرْبُ سَمْعَهَا

وقـد ذُكِرَ سماعـا منهم : وُقِرَتْ أُذُنُـهُ ، إذا ثقلت فهي مـوقورة ، وأوقـرتِ النخلـة فهي مـوقِرٌ، كما قيل : امرأة طـامث ، وحـائضٌ ، لأنـه لاَحَظَّ فيـه للمذكـر ، فإذا أريد أنَّ الله أوقرهـا قيل : مُوقَـرةٌ ، وقال تعالى ذكـره : «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهـوه» بمعنى : أن لا يفقهوه كما قال : ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لكم أن تَضلُّوا﴾ بمعنى : أن لا تضلوا لأن الكنَّ إنما جُعِـلَ على القلب لئلا يفقهه لا ليفقهه اهـ وقولـه تبارك وتعالى : ﴿وإن يَـرَوْا كُلَّ آيةٍ لا يـؤمِنُوا بهَا ، حتى إذاجَاءوكَ يُجَادِلونك يَقُولُ الَّذيـنَ كَفَروا إن هٰذا إلا أساطيرُ الأَوَّلِينَ﴾ قال ابن جريـر رحمه الله : قال أبو جعفـر: يقول تعالى ذكـره : وإن ير هؤلاء العـادلون

بربهم الأوثـان والأصنام الـذين جَعَلْتُ على قلـوبهم أكنَّة أن يفْقهوا عنـك ما يسمعـون منك ﴿كلَّ آيـة﴾ يقول: كلَّ حجـة وعـلامة تـدلُّ أهلَ الْـحِجَى والفهم على توحيد الله وصدق قولك وحقيقة نبوتك ﴿لا يؤمنوا بها﴾ يقول: لا يصدقون بها ولا يقـرون بأنها دالة على ما هي عليه دالـة ﴿حتى إذا جاءوك يجادلونك﴾ يقـول: حتى إذا صاروا إليك بعـد معاينتهم الآيات الـدالة على حقيقـة ما جئتهم بـه «يجادلونك» يقـول: يخاصمونك «يقـول الذين كفـروا» يعنى بذلك: الـذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها يقـولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حجج الله التي احتج بها عليهم، وبَيَانَهُ الذي بَيَّنَهُ لهم «إنْ هذَا إلا أساطير الأوَّلين» أي مـا هذا إلا أساطير الأولين، والأسـاطير: جمع إسطارة، وأُسطورة مثل: أُفكُوهة وأُضْحوكة، وجـائزٌ أن يكون الواحد «أَسطارًا» مثل: أَبيات وأَبابيت وأقوال وأقاويل، من قول الله تعالى ذكره: ﴿وكتابٍ مسطور﴾ من سطـر يسطر سطرا، فـإذا كان من هـذا فإنَّ تأويله: مـا هذا إلا مـا كتبه الأولون اهـ والمراد من قول الطبري رحمه الله: وجـائزٌ أن يكون الواحد أسطارا هو أن تكون أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فأساطير جمع الجمع مثل أبابيت جمع أبيات وأبيات جمع بيت فأبابيت جمع الجمع وكذلك أقاويل جمع أقوال، وأقوال جمع قول، فأقـاويل جمع الجمع، ومعنى قوله عز وجل ﴿وهم يَنْهـونَ عَنْهُ وَيَنْـئَـونَ عَنْـهُ﴾ أي وهـؤلاء المشركون الجاهلـون، المفترون على الله الكذب المكذبون بآيات الله، المجادلون بالباطل الواصفون كلام الله الذي هو أحسن الحديث وأصدقه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأنه أساطير الأولين وخـرافات المتقدمين، هـؤلاء الجاهلون قد انغمسـوا في الكفر والضلال إلى الغاية القصوى ومع ذلك فإنهم لم يكتفوا بجريمة وصف القرآن بأنه أسـاطير الأولين بل بذلـوا كلَّ ما يطيقـون في نهي الناس عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ مخافة أن تجذبهم حلاوة ما يسمعـون منه إلى الدخول في الإسلام

كما ضمُّوا إلى ذلك كذلك حِرْصَهُمْ على النأى والتباعد عن رسول الله ﷺ إظهارًا لغاية نفورهم منه وتأكيدا لِنَهْيهم عنه، ولقد كانت قريش تبذل قصارى جهدها في تنفير العرب عن رسول الله ﷺ ويصفونه بأنه ساحر وبأنه شاعر وبأنه مُعَلَّمٌ مجنون، ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون، ومعنى قوله: ﴿وينْئونَ عنه﴾ أي ويتباعدون عنه، وفي قوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْهُ ويَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾ أسلوب من أساليب البديع وهو الجناس المُعَرَّف في علم البديع من علوم البلاغة بأنه تشابه لفظين في النطق واختلافهما في المعنى، وهو أنواع منها: الجناس المضارع وهو ما يكون باختلاف ركنيه في حرفين لم يتباعدا مَخْرَجًا، إما في الأول نحو قولهم: ليل دامس وطريق طامس، وإما في الوسط نحو قوله عز وجل هنا: ﴿وَهُمْ يَنْهَونَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ وإما في الآخر نحو قوله صلى الله عليه وسلم: الخيل معقود في نواصيها الخير ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وإن يُهْلِكُونَ إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي وما يُتْلِفُ ولا يُعْطِبُ هؤلاء المكذبون الذين يَنْهَوْنَ عنه وينأون عنه إلا أنفسهم ولا يعود وبالُ عملهم إلا عليهم وهم لا يُحِسُّون بفداحة جُرمهم وفظاعة ما يحيق بهم وما يَجُرُّهُ عليهم كفرهم بالله وصدهم عن سبيله حيث يحملون يوم القيامة أوزارهم ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم كما قال عز وجل: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذي يضلونهم بغير علم، أَلا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقِفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين. بل بَدَا لهمْ ما كانوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّا لَعَادُوا لما نُهوا عَنْهُ وَإنهم لكاذبون﴾ هذا مشهد آخر من مشاهد القيامة يُبَيِّن اللهُ تبارك وتعالى فيه حال الذين كذبوا بالحق لما جاءهم وكانوا ينهونَ عنه وينأون عنه ويُقرر حالة من حالاتهم المفزعة في عرصات

القيـامة لتأكيـد مـا تضمنه مـا حذرهم بـه الله عـز وجل حيث قال في الآيـة السابقـة : ﴿وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعـرون﴾ والمخاطب في قولـه عز وجل : ﴿ولو ترى إذ وقفـوا على النار﴾ كلُّ من تتأتي منه الرؤيـة ، للإشارة إلى بيان نهاية سُوء أحوالهم وبلوغها الغـاية القصوى من الشناعة والفظاعة حتى أصبحت لا يختص باستغـرابها رَاءٍ دُونَ رَاءٍ بل كـل من تتأتى منـه الـرؤيـة يتعجب من هولها وفظاعتها وقد حُـذِفَ جواب «لو» ثقة بظهوره ، وإشارة إلى الذهـاب فيه كلَّ مـذهب يعنى : لرأيت أمـرا فظيعا ، وهَـوْلاً خطيرا ، ومنظرًا هائلا وقد أفرد علماء البـلاغة للحذف بابا في علم المعاني مـن علوم البلاغة ، واعتبروه من أعظم أساليب الفصـاحة حتى قال عبـد القاهر الجرجـاني : إنه بابٌ دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى فيه تَرْكَ الـذكر أفصح من الذكر الخ . . ومعنى قولـه : «وقِفُوا على النار» أي عرِضوا على النـار ، قال ابن جرير رحمه الله : وقيل «وقفـوا» ولم يقل : أُوقفوا ، لأن ذلك هـو الفصيح من كلام العـرب اهـ وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿فقـالوا ياليتنـا نُرَد ولا نُكَـذِّب بآيات ربنـا ونكون من المؤمنين* بل بـدَا لهم ما كـانوا يخفونَ من قبلُ ولو رُدُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأَوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالـوا : ﴿يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكـذب بآيات ربنا ونكـون من المؤمنين﴾ يَتَمَنَّوْنَ أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله تعالى : ﴿بل بَـدَا لهم ما كانوا يُخْفـون من قبل﴾ أي بل ظهر لهم حينئـذ ما كـانوا يخفـون في أنفسهم من الكفر والتكـذيب والمعانـدة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة ، كما قال قبله بيسير: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلى أن قالـوا والله ربنا ما كنـا مشركين . انظر كيف كَذَبـوا على أنفسهم﴾ اهـ ومعنى

«بل» في قوله تعالى: ﴿بل بَدَا لهم ما كـانوا يُخْفُونَ من قبل ولو ردُّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ للإضراب الإبطالي أي ليس الحال كما زعموا، فهي بمعنى «كلا» والمعنـى ليس الحامل لهؤلاء الكفرة على تمنيهم وطلبهم الـرجعة إلى الـدنيا هـو الـرغبـة في الإيمان بل حملهم على ذلك ما ظهـر لهم من أنَّ مـا أضمروه من الكـذب على الله وزعمهم بأنهم ما كانـوا مشركين لا ينفعهم وأنه لن ينجـو إلا من آمن في الـدنيـا ومـات على الإيمان وبين عـز وجل أنهم لـو رجعوا إلى الدنيـا لرجعوا إلى الكفر وأنهم متمرسون على الكـذب، كما قال عز وجل قبل آيتين من هذه الآيـة ﴿وإن يَرَوْا كل آية لا يؤمنـوابها﴾ وفي هذه الآية دليل قطعي على شمول علم الله عز وجل لما كان وما يكون وما هو كائن وأنه عـز وجل يعلم ما لا يكـون لو كـان كيف يكون، وهـو مذهب أهل السنـة والجماعة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ومَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ. وَلَو تَرَى إذْ وُقِفُوا على رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالحَقِّ، قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُوقوا العَذَابَ بِمَا كنتُمْ تَكْفُرُونَ. قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إذَا جَاءَتْهُم السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ، أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ. وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ولَلدارُ الآخِرةُ خَيْرٌ للذين يتَّقُونَ، أفلا تَعْقِلُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى مشهدا من مشاهد القيامة بَيَّنَ فيه موقف الذين كفروا حين عرضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الحياة الدنيا دار العمل ليؤمنوا وبيَّنَ العليمُ الخبيرُ أنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نهُوا عنه، مما يدل على أنهم مَجْبُولون على الكذب، مطبوعون على الكفر، مُعَوَّدون لمخالفة الأمر والنَّهْي بيَّنَ عز وجل هنا: أن هؤلاء الكافرين لو رجعوا إلى الحياة الدنيا لرجعوا إلى الكفر وتكذيب المرسلين ولقالوا وردَّدوا ما كانوا يقولونه وَيُرَدِّدُونهُ قبل معاينة النار من مقالتهم: ما هي إلا هذه الحياةُ الدنيا لا مَعَادَ بعدها وما نحن بمبعوثين، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَقَالُوا إنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وما نحن بِمَبْعُوثِينَ﴾ ثم ذكر عز وجل مشهدًا آخر من مشاهد القيامة يبين فيه موقف الذين كفروا حين يُعْرَضُونَ على ربهم وما يَئُولُ إليه حالهم فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى ربهم، قال أَلَيْسَ هٰذا بالْحَقِّ، قالُوا بَلَى ورَبِّنَا، قال فَذُوقُوا العَذَابَ بما كُنتُمْ تَكْفرونَ﴾ أي ولو ترى يا من تتأتي منه الرؤية هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث بعد الموت المكذبين بأن العباد موقوفون بين يدي ربهم مجزيون بأعمالهم لو تراهم في موقفهم عند عرضهم على الله عز وجل يوم القيامة أي لرأيتهم في منظر تقشعر منه الأبدان ويشيب منه الوِلْدَانُ وقد سألهم ربُّهم سؤالَ توبيخ وتقريع قائلا

لهم: أليس هذا البعثُ والنشرُ بعد المات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقا؟ فأجابوا قائلين: بلى والله إنه لَحَقٌّ وقد أكدوا إقرارهم بالقسم إظهارا لكمال يقينهم بحقيقته، وإيذانا بصدور ذلك عنهم رغبة وطَمَعًا في نفعه، فأيأسهُم عز وجل من رحمته وقَطَعَ أطماعهم في انتفاعهم بالإيمان في عرصات القيامة ما داموا قد ماتوا على الكفر بالله تعالى حيث قال عز وجل: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي فَأَحِسوا بطعم العذاب بسبب كفركم في الدنيا، ولا معارضة بين قوله عز وجل هنا: ﴿قال أليس هٰذا بالحق، قالوا بلى وربنا، قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وبين قوله تبارك وتعالى ﴿ولا يكلمهم اللهُ يوم القيامة﴾ لأن المنفى هو الكلام النافع لهم المشتملُ على رحمتهم أو تكريمهم والمُثْبَتُ هو الكلام المشتمل على توبيخهم وتقريعهم وإهانتهم قال محيي السنة الإمام البغوي في تفسير قوله عز وجل: ﴿أليس هٰذا بالحق﴾ يعني أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم: ﴿واللهِ ربنا ما كنا مشركين﴾ في موقف آخر، وفي يوم القيامة مواقف، ففي موقف يقرون وفي موقف ينكرون اهـ وقد ذكر الله تبارك وتعالى عَرْضَ العباد على الله يوم القيامة لمحاسبتهم حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فإذا نُفِخَ في الصور نفخةٌ واحدةٌ * وحُمِلَت الأرض والجبال فَدُكَّتا دكَّةً واحدةً * فيومئذ وَقَعَتِ الواقِعَةُ * وانشقت السماءُ فهي يومئذ واهيةٌ. والمَلَكُ على أرجائها وَيَحْمِلُ عرشَ ربك فوقهم يومئذٍ ثمانيةٌ * يومئذ تُعْرَضُونَ لا تخفى منكم خافيةٌ * فأما مَنْ أُوتيَ كتابهُ بيمينه فيقولُ هَاؤمُ اقرءُوا كِتَابِيَهْ * إني ظننت أني مُلاقٍ حسابيَهْ * فهو في عيشَة راضيةٍ * في جنة عاليةٍ * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أُوتيَ كتابهُ بشِمَالِهِ فيقول يا ليتني لم أُوتَ كتابِيَهْ * ولم أَدْرِ ما حسابِيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عن ماليه * هلك عن سلطانيهْ * خذوه

فَغُلُّوهُ * ثم الجحيمَ صَلُّوهُ * ثم في سِلْسلةٍ ذَرْعُهَا سبعون ذراعـا فاسلكُوه * إنـه كـان لا يؤمن بـالله العظيم * ولا يَحُضُّ على طعـام المسكين﴾ وقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عـائشة أم المؤمنين رضي الله عنهـا أن النبي ﷺ قال: مَنْ نُوقِشَ الحسابَ عُـذِّبَ، فقلت: أليس يقول الله: ﴿فأما مَنْ أُوتِيَ كِتَـابَهُ بِيَمينـهِ * فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَـابًا يَسِيرًا * ويَنقَلِبُ إلى أَهْلِـهِ مَسْرورًا﴾ فقال: إنما ذلك العَـرْضُ، وليس أحد يُحَاسَبُ يـوم القيامة إلا هَلَكَ: وقـولهُ تبارك وتعـالى: ﴿قدْ خَسِرَ الَّـذينَ كَذَّبوا بلِقـاءِ الله حتى إذا جَاءَتْهُم السَّـاعَةُ بَغْتَةً قالـوا ياحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنَا فِيهَـا وهم يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ، ألا ساءَ مَا يَـزِرُونَ * وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ ولَلـدَّارُ الآخرة خَيْرٌ للذِينَ يَتَّقُونَ، أفلاَ تَعْقِلُونَ﴾ مَسُوقٌ لترسيخ حَقِّيَّـةِ البعث بعد الموت، وتَرْبِيَةِ مَلَكَةِ الإيمان بالدار الآخرة في النفوس، وَعَرض مشهد مـن مشاهد القيامة يُظْهِرُ ما يلاقيـه المكذبـون من الحسرة والندامة ومـا يحملونـه على ظهورهم من الأوزار والآثام مع التأكيد على ما جلبوه لأنفسهم من الهلاك والخسران حيث ضَيَّعُوا على أنفسهم نَعِيمَ الجنات في الـدار الباقية، ورَضوا ببعض الملـذات واطمأنُّوا بها في الدار الدنيا الفانية، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قـد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقـاء الله﴾ أي قد هَلَكَ ووكِسَ من كفر بعرض العباد على الله يوم القيامـة وكذَّب بالبعث بعد الموت وبالحساب والجزاء قال ابن جـرير الطبريُّ رحمه الله: القول في تأْويل قـوله: ﴿ قد خسر الذين كذَّبـوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعـةُ بَغْتَةً قالوا يـا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَـا فيها﴾ قـال أبو جعفر: يعنى تعـالى ذكره بقـوله: ﴿قـد خَسِرَ الذين كَذَّبُـوا بِلِقَاءِ الله﴾ قد هلك وَوُكِسَ في بيعهم الإيمان بـالكفر ﴿الذين كـذبوا بلقـاء الله﴾ يعنى الذين أنكـروا البعث بعد الممات والثـواب والعقابَ والجنـة والنـار من مشركي قريش ومَنْ سَلَكَ سبيلهم في ذلك. ﴿حتى إذا جـاءتهم

الساعةُ﴾ يقول حتى إذا جاءتهم الساعةُ التي يبعث اللهُ فيها الموتى من قبورهم، وإنما أُدْخِلَتِ الألِفُ واللامُ في ﴿الساعة﴾ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قَصْدُ الساعة التي وصفت ويعني بقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً من غير علم مَنْ تفجؤهُ بوقت مفاجأتها إياه يقال منه: بَغَتَتْهُ أبغتُه بغتة، إذا أخذته كذلك. ﴿قالوا يَاحَسْرَتَنَا على ما فرَّطْنَا فيها﴾ يقول تعالى ذكره: وُكِسَ الذين كذبوا بلقاء الله بِبَيْعِهِمْ مَنَازِلَهُمْ من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعةُ بغتة قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا وتَبَيَّنوا خسارة صفقةِ بَيْعِهِمْ التي سلَفَت منهم في الدنيا تَنَدُّمًا وتَلَهُّفًا على عظيم الغَبْنِ الذي غبنوه أنفسهم وجليل الخسران الذي لا خسران أجل منه: ﴿ياحَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾ يقول يا نَدَامَتَنَا على ما ضَيَّعْنَا فيها، يعني صَفْقَتَهُمْ تلك. والهاءُ والألِفُ في قوله ﴿فيها﴾ من ذكر الصفقة، ولكن اكتفى بدلالة قوله: ﴿قد خَسِرَ الذين كذَّبوا بلقاء الله﴾ عليها من ذكرها إذ كان معلوما أن الخسران لا يكون إلا في صفقة بَيْعٍ قد جَرَتْ. وإنما معنى الكلام: قد وُكِسَ الذين كذَّبوا بلقاء الله ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من الله رضوانه وجَنَّتَهُ بالكفر الذي يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته، ولا يشعرون ما عليهم من الخسران في ذلك حتى تقوم الساعة فإذا جاءتهم الساعةُ بغتة فَرَأَوْا ما لحقهم من الخسران في بيعهم قالوا حينئذ تَنَدُّمًا: ﴿يَا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾، ثم قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أوزارَهم على ظُهُورِهِمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَزرونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كَذَّبوا بلقاء الله ﴿يحملون أوزارَهم على ظهورهم﴾ وقوله: ﴿وهم﴾ مَن ذكرهم ﴿يحملون أوزارهم﴾ يقول: آثامَهُمْ وذُنُوبَهُمْ، واحِدُها وِزْرٌ يقال منه: وَزَرَ الرجُلُ يَزِرُ إذا أَثِمَ قال الله: ﴿أَلَا سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾ فإن أُرِيد أنهم أُثِّمُوا قيل قد وُزِرَ القومُ

فهم يُوزَرُونَ، وهم مُوزَرُونَ، اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَا الحَيَاةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ ولَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يَتَّقُونَ، أفلا تعقلون﴾ تحذير وترهيبٌ من الاغترار بالحياة الدنيا الفانية والانقطاع لها، وترغيب في الأعمال الصالحة المورِثة لجنات النعيم في الدار الآخرة الباقية، فإن متاع الحياة الدنيا أشبه باللهو واللعب إذا قيس بنعيم الآخرة قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وما الحياةُ الدنيا إلا لَعِبٌ ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾ قال أبو جعفر: وهذا تكذيبٌ من الله تعالى ذكره هؤلاء الكُفَّار المنكرين البعث بعد الممات في قولهم: ﴿إن هي إلا حياتُنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى ذكره مكذباً لهم في قيلهمْ ذلك: ﴿ما الحياةُ الدنيا﴾ أيها الناس ﴿إلا لَعِبٌ ولَهْوٌ﴾ يقول: ما باغي لذات الحياة التي أدنيت لكم وقرَّبْتُ منكم في داركم هذه ونَعيمها وسرورها فيها، والمتلذذ بها والمُنَافِسُ عليها إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بِملاذِّها، أو تأتيه الأيام بفَجَائعها وصروفها فَتَمِرُّ عليه وتَكدُرُ، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا ويورِثه منه تَرَحا، يقول: لا تغتروا أيها الناس بها، فإن المغتر بها عما قليل يَنْدَمُ، ﴿ولَلدَّارُ الآخرة خيرٌ للذين يتقون﴾ يقول ولَلْعَمَلُ بطاعته والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبْقَى منافعها لأهلها ويدوم سرورُ أهلها فيها خير من الدار التي تفنَى وشيكا، فلا يبقى لعُمالها فيها سرور ولا يدوم لهم فيها نعيم ﴿للذين يتقون﴾ يقول للذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه والمسارعة إلى رضاه ﴿أفلا تعقلون﴾ يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به من أن الحياة الدنيا لعب ولهو وهم يرون من يُختَرمُ منهم ومن يهلك فيموت ومن تَنُوبُهُ فيها النوائب وتصيبه المصائب وتفجعه الفجائع ففي ذلك لمن عقل مدّكر ومزدجَر عن الركون إليها

واستعباد النفس لها ودليلٌ واضح على أن لها مدَبِّرًا ومُصَرِّفا يلزم الخلق إخلاص العبادة له بغير إشراك شيء سواه معه اهـ وفي التزهيد في الدنيا والتحذير من أن يجعلها الإنسان كل همه وفي الترغيب في الآخرة يقول عز وجل: ﴿إنما الحياة الدنيا لَعِبٌ ولهْوٌ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم﴾ ويقول عز وجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبونك وَلَكِنَّ الظالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا، ولاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ من نَبَإِيْ المرسَلِينَ. وإن كان كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهمْ فإن استطعتَ أن تَبْتَغِي نفقا في الأَرْضِ أو سلَّما في السماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بآيةٍ، وَلو شاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى فَلاَ تكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾.

بعد أن ذكر عز وجل مشهدا من مشاهد القيامة بيَّنَ فيه موقف الذين كفروا حينَ عُرِضوا على النار وما أصابهم من الحسرة والندامة وأنهم تَمَنَّوْا أن يُرَدُّوا إلى الدنيا دار العمل ليؤمنوا وبيَّنَ عز وجل أنهم لو رُدُّوا لعَادوا لما نُهُوا عنه ثم ذكر عز وجل مشهدًا آخر من مشاهد القيامة بيَّنَ فيه موقف الذين كفروا عند عرضهم على ربهم يوم القيامة وذكر فيه إقرارهم بالحق، وما يؤول إليه حالهُم من الخسران والهلاك وسوء العذاب والحسرة والندامة ولفت تبارك وتعالى الانتباه إلى حقية البعث ورهَّبَ من الاغترار بالحياة الدنيا ورغَّبَ في الأعمال الصالحة المورثة لجنات النعيم شرع هنا في تقرير أن كفار مكة مقِرُّونَ في قرارة قلوبهم بأن محمدا هو رسولُ الله حقا وصدقا لما يعرفونه من صدقه فإنهم ما جرَّبُوا عليه كذبا قط قبل أن يخبرهم بأنه رسول الله وقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، وأشار عز وجل إلى أن تكذيب قريش لرسول الله ﷺ هو من باب جحود الحق مع إقرار القلب بحقيته ثم وَاسَى رسوله ﷺ بأن رُسُلَ الله عليهم الصلاة والسلام صبروا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حتى أتاهم نصر الله، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿قد نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يقولون فإنهم لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظالمين بآيات يَجْحَدونَ * ولقد كُذِّبتْ رُسُلٌ مِن قبلكَ فَصَبَرُوا على ما كُذِّبُوا وأُوذوا حتى

أَتَاهُمْ نَصْرُنَـا ، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَات الله ، وَلَقَـدْ جَاءَكَ من نبأ المُرسَلِينَ﴾ ومعنى ﴿قد﴾ في قوله تبارك وتعالى ﴿قد نعلم﴾ هو التحقيق وتأكيد العلم بما ذكر في حيزها المفيد لتأكيد الوعيد، والأصل في قد أنها إذا دخلت على الفعل الماضي أفادت التحقيق كقوله تعالى : ﴿قد أفلح من زكاها * وقد خَابَ من دَسَّاهَا﴾ أما إذا دخلت قَدْ على الفعل المضارع فإنها تستعمل كثيرًا في التقليل نحو: قد يَصْدُقُ الكـذوبُ، كما تستعمل في التحقيق كما في قوله عز وجل هنـا : ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ وكما في قوله تبارك وتعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وجهك في السماء﴾ وكقوله تبـارك وتعالى : ﴿قد يَعْلَمُ ما أنتم عليـه﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿قـد يَعْلَمُ الله المُعَوِّقِينَ منكم﴾ ونحو قـول الشاعر الهذلي أو عبيد بن الأبرص .

قد أَتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرًّا أَنَامِلُـه ... كَـأَنَّ أَثْوَابَهُ مجَّتْ بِفِرْصَاد

ولا تستعمل قد مع الفعـل المضارع للتحقيق إلا عند كـون الأمر في غـاية الوضـوح بحيث لا يخطر على البـال إرادة التقليل، ويكون التعبير بـالمضارع لنكتـة بلاغيـة كإرادة التجدد أي قـد علمنـا ما يتجـدد لك من الحزن والغم عندما يتجدد منهم ما يتجدد من سـوء قولهم لك وتكذيبهم إياك، وقد كان رسول الله ﷺ يتأسف على ما يـلاقيه من قومه من الأذى وعلى ما يقـابلون به دعوتـه من أقوالهم القبيحة كقـولهم : إنه سـاحر أو شاعـر أو كاهن أو معلم مجنون، كما يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أن الذي يعلمه بشر أو أنه أساطير الأولين، وقـد كان رسول الله ﷺ من شـدة حرصه على إيمانهم يكـاد يبخع نفسه من الحزن كما قـال عز وجل : ﴿فَلَعَلَّكَ بـاخِعٌ نَفْسَكَ على آثارِهِمْ إن لم يُـؤْمِنوا بهذا الحديث أَسَفًـا﴾ وكما قال عز وجـل ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقَوْلُـه تبارك وتعالى : ﴿فإنَّهم لا يُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظَّالمين بآيات الله يَجْحَدونَ﴾ كَشْفٌ لحقيقـة ما انطوت عليه نفوس المشركين

من أهل مكة وأنهم في قرارة قلوبهم يوقنون بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا وأنَّ تكذيبهم له ﷺ هو من باب جحود الحق مع العلم بحقيته عنادًا واستكبارا، كما قال عز وجل في فرعون وقومه: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مُبْصِرَةً قالوا هٰذا سِحْرٌ مُبِينٌ. وجَحَدُوا بها واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا، فانظر كيف كانَ عاقِبَةُ المُفْسِدِينَ﴾ وقد أبرز أبوطالب هذه الحقيقة وأعلن أنه موقنٌ بأن محمدًا هو رسول الله وإنما يمنعه من الدخول في الإسلام ما يخشاه من مسبة آبائه الذين ماتوا في الجاهلية حيث يقول في لاميته المشهورة:

فَوَاللهِ لَوْلاَ أَنْ أَجيءَ بِسُبَّةٍ ... تُجَرُّ عَلى أَشْيَاخِنَا في المَحَافِلِ
لكنَّا اتَّبَعْنَاهُ على كلِّ حَالةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قولِ التهَازُلِ
لقد علمُوا أنَّ ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلاَ يُعْني بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ
حدِبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وحميتُهُ ... وَدَافَعْتُ عنه بالذُّرا والكلاكِلِ

وكما قال أبو طالب في نونيته المشهورة:

ودعوتني وعلمتُ أنك صادق ... ولقد صدقتَ وكنتَ قبلُ أمينا
وعرضتَ دينا قد علمتُ بأنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولَقَدْ كُذِّبَت رُسُلٌ من قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وَأُوذُوا حتى أَتَاهم نَصْرُنَا﴾ مواساةٌ لرسول الله ﷺ وتسلية من الله تبارك وتعالى له عما يناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق ببيان أنَّ إخوانه من المرسلين قد نالهم الأذى الشديد من أممهم فكذبوهم كما كذبته قريش وألحقوا بهم من المكروه فصبروا على ما نالهم من التكذيب والأذى حتى حكم الله بينهم فنصر رسُلَهُ والذين آمنوا، وأهلك الكافرين، فاصبر كما صبروا فإن نصر الله قريب، كما قال عز وجل: ﴿حتى إذا استيأس الرسلُ وظَنُّوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نَصْرُنَا فَنُجِّي مَن نَشَاءُ ولا يُرَدُّ بأْسُنَا عَنِ القَوْمِ

المجرمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله﴾ أي لا نَاقِضَ لما حكم الله، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، كما قال عز وجل ﴿ولقد سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أنا وَرُسُلي، إن الله قَوِيٌّ عزيز﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولَقَدْ جَاءَكَ من نبإِ المُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد قَصَصْنَا عليك من أخبار الرسل مع أممهم الذين كذبوهم وكيف نَصَرْنَا رسلنا على أعدائهم وأيدناهم على من كذبوهم وجعلنا العاقبة الحسنى لعبادنا الصالحين، وأخذنا أعداء الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال عز وجل: ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِرَ * فدعا ربَّه أني مغلوبٌ فانتصرْ * فَفَتَحْنَا أبواب السماء بماء منهمر * وفَجَّرْنَا الأرض عيونا فالتقى الماءُ على أمر قد قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ على ذات ألواح وَدُسُرٍ * تجرى بأَعْيُنِنَا جَزَاءً لمن كان كُفِرَ﴾ وقال عز وجل: ﴿كَذَّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُرِ * إنا أرسلنا عليهم ريحا صَرْصَرًا في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَاسَ كأنهم أَعجاز نخلٍ منقَعِرٍ * فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذبت ثمودُ بالنذر * فقالوا أبَشرا منَّا واحدًا نَتَّبِعُهُ إنا إذًا لفي ضلال وسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أَشر * سَيَعْلَمُونَ غدًا من الكذابُ الأَشرُ * إنا مُرْسِلُوا الناقةِ فتنةً لهم فارتقبهم واصطبر﴾. إلى قوله عز وجل: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كَهَشِيم المُحْتَظِرِ﴾ وقال عز وجل: ﴿كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بِسَحَرٍ. نِعمةً من عندنا، كذلك نجزى من شَكَرَ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين﴾ إشارة إلى أن ما قصَّ الله تبارك وتعالى من قصص الأنبياء هو قصص بعضهم لا قصص جميعهم، كما قال

عز وجل ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قَصَصْنَا عليك ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك﴾ وقوله تبارك وتعـالى : ﴿وإن كان كَبُرَ عليك إعراضُهم فإن استطعت أن تبتَغِيَ نَفَقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السماء فتأتِيَهُـمْ بآية ، ولـو شاء اللهُ لَجَمَعَهُمْ على الهُدى فلا تكونَنَّ من الجاهلينَ﴾ تأكيـد وحض لرسول الله ﷺ على الصبر ببيان أنه أمر لا محيد عنـه أصلا ، وأنه ليس بيد أحد من خلق الله هداية الكافرين وأن قلوبهم بيد الله وحده ، يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشـاء عدلا ، وأن الجاهلين هم الـذين لا يُفَـوِّضونَ أمـورهم إلى الله ، ولا يستسلمـون لأقـدار الله ، ومعنى قـولـه عـز وجـل ﴿وإن كـان كَبُرَ عليك إعـراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقـا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآيـة ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فـلا تكونن من الجاهلين﴾ أي وإن كـان عَظُمَ عليك يا محمـد إعـراض هؤلاء المشركين عنك ، وتكـذيبهم لك ، وانصرافهم عن تصـديقك فيما جئتهم بـه من الحق ، وشـق عليك ذلك ولم تصبر على ما يصيبك من أذاهم فلا يخطر على بـالكَ إجابتهم إلى ما يقترحونه من الآيـات لأنك لو صعـدت إلى السماء أو هَبَطْتَ إلى أعماق الأرض لتأتيهم بآية ليؤمنوا بها فلن يؤمنوا ، وهذا ليس في استطاعتك ومقدورك فما عليك إلا الصبرُ، واحتسـاب مـا يصيبك عنـد الله عـز وجل ولـو شـاء الله عـز وجل هـدايتهم لهداهم أجمعين فـأَبعـد الحزن عن نفسك ولا يشتـد تحسُّركَ على تكـذيبهـم ولا تجزع على إعـراضهم عنك لأن الجزع مـن صفـات الجاهلين ، لأنهم هم الـذين إذا مسَّهُمْ الأذى جزعـوا ، أما المؤمنـون فإنهم إن أصـابتهم الضراء صبروا ، وإن أصابتهم النعماء شكروا ، وأنت أول المؤمنين وقد تقرر أن رسول الله ﷺ معصوم مـن المعاصي فإذا ورد نهيه عن شيء كقولـه تعالى هنا : ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ولا تكونَنَّ من المشركين * ولا تَدْعُ من دون الله مـا لا ينفعك ولا يَضُرُّكَ﴾ فإن ذلك لا يقتضي إمكان

الوقوع فيه لما تقرر من القاعدة الأصولية أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، والنَّفَقُ في الأرض هو الطريق النافذ في باطن الأرض، والسُّلَّم هو المصعد والدَّرَج، وجواب الشرط في قوله عز وجل: ﴿فإن استطعت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء فتأتيهم بآية﴾ محذوف للعلم به تقديره: فافعل أي إنك لا تستطيع ذلك فاصبر حتى يحكم الله، وقد صبر رسول الله ﷺ كما أمره الله عز وجل وحض أصحابه على ذلك وبشرهم بأن أمر الإسلام سيتم فقد روى البخاري من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون.

قـال تعالى : ﴿إنما يَسْتجِيبُ الَّـذينَ يَسْمَعُونَ ، والمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُم إليـه يُرْجَعُونَ . وَقَـالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْـهِ آيةٌ من رَبِّهِ ، قل إنَّ اللهَ قـادرٌ على أَن يُنَزِّلَ آيةً ولَكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . وَمَا من دابَّةٍ فى الأَرْضِ ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمم أَمثَالكُمْ ، مَـا فرَّطْنَا فى الكِتَـابِ من شيء ، ثمَّ إلى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ . والَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا صُمٌّ وَبُكمٌ فى الظُّلُمَاتِ ، مَن يَشإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ومن يشأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

بعـد أن قرر فيما مضـى أن على قلوب الكفـار أكنـةً مانعـةً من الفقـه وفي آذانهم وَقرا حاجزا من السماع وَوَاسَى رسوله ﷺ بضروب من المواساة ، وحذره من أن يكْبُرَ عليـه إعـراض هؤلاء المعـرضين عنـه ، أكَّد ذلك هنـا بأن هـؤلاء الكفار من قبيـل الموتى الذين لا يجيبـون من يناديهم ، ولو أراد الله عـز وجل إحياء قلوبهم بالإيمان لأحياهـا فهو وحده القادر على أن يجمعهم على الهدى لو شاء ، حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿إنما يستجيب الذين يَسْمَعُونَ ، والموتى يَبْعَثُهُمْ الله ثم إليـه يُـرْجَعُـونَ﴾ قال ابـن جريـر الطبريُّ رحمه الله : القـول في تأويل قـولـه : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعـون ، والموتى يبعثهم الله ثم إليـه يرْجَعُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقـول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : لا يَكْبُرَنَّ عليك إعـراضُ هؤلاء المعـرضين عنك وعن الاستجـابـة لـدعائك ، إذا دعـوتهم إلى توحيـد ربهم والإقرار بنبوتك ، فإنه لا يستجيب لـدعائك إلى ما تدعـوه إليه من ذلك إلا الـذين فتح الله أسماعهم لـلإصغاء إلى الحق ، وسَهَّل لهم اتِّبـاعَ الرُشْـد ، دُونَ من ختم الله على سمعه فـلا يَفْقَهُ من دعـائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتِهَا فَهُمْ كما وصفهم به الله تعالى ذكـره : ﴿صُمٌّ بكْمٌ عُميٌ فهـم لا يعقلـون﴾ ﴿والموتى يَبعَثُهُم الله﴾ يقـول : والكفـار يبعثهم مع الموتى ، فجعلهم تعـالى ذكـره في عـداد الموتى الـذين لا

يسمعون صوتا، ولا يعقلون دعاء، ولا يفقهون قولا، إذ كانوا لا يتدبرون حُجَجَ الله، ولا يعتبرون آياته، ولا يتذكرون فينزجرون عمّا هُمْ عليه من تكذيب رسل الله وخلافهم، ثم قال رحمه الله: وأما قوله: ثم إليه يُرْجَعُونَ. فإنه يقول تعالى ذكره: ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفار الذين يَحول اللهُ بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئا فيثيبُ هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب، ويعاقب هذا الكافر بما أوعد أهل الكفر به من العقاب، لا يظلم أحدا منهم مثقال ذرة اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه، قل إن الله قادر على أن يُنَزِّلَ آية ولَكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ بيان لشدة عنادهم وفرط جهلهم وبلوغهم الغاية في الضلال والطغيان حيث لم يقتنعوا بما شاهدوا من المعجزات وما جاءهم من الآيات البينات التي تخر له صم الجبال، حتى اجترأوا على ادعاء أنها ليست من قبيل الآيات واقترحوا أن تمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم عذاب أليم كما ذكر ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ كما اقترحوا أن تُنَزَّلَ عليهم الملائكة أو يكلِّمَهُم الموتى أو يَفْجُرَ لهم من الأرض ينبوعا أو يكون له بيت من ذهب أو يرقى في السماء أو يأتيهم بالله عز وجل كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنهم حيث يقول: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنةٌ من نخيل وعنب فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلَالَهَا تفجيرا * أو تسقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا يعجزه أن ينزل آية، وأنه قادر على خرق نظام الكون إذا اقتضت حكمته ذلك، لكن

هـؤلاء الجاهلين لا يعـرفون أنهم لـو اقترحـوا آيـة ثم لما جاءتهم لم يـؤمنـوا بها أهلكهم الله عز وجل، كما قـال تبارك وتعالى هنـا : ﴿قل إن الله قادر على أن ينزِّلَ آيةً ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وما مَنَعَنَا أن نرسل بالآيات إلا أن كـذَّبَ بها الأولون، وآتينا ثمودَ الناقـة مُبْصِرَة فظلموا بها، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ وكما أشار إلى ذلك عز وجل في قصة المائدة حيث يقول : ﴿قال الله إن مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكفر بَعْـدُ منكم فإني أعذبهُ عذابا لا أُعَذِّبُهُ أحدا من العالمين﴾ وفي قوله تبـارك وتعالى : ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه﴾ دليل ظاهر على بطلان دعـوى التفريق بين «نَزَّلَ» و«أنْزَلَ»، حيث زعم بعض المشتغلين بعلوم أصـول التفسير أن نَزَّلَ تكون فيما نَزَلَ بـالتدريج وأنزل تكون فيها نزل جملة، لأن الآية لا تنزل بالتدريج وقد أشرت إلى ذلك في غير هذا الموضع أيضا ورددت على قـائلي هذه المقالة بهذه الآية وبقـوله تبارك وتعال : ﴿وقـال الذين كفروا لولا نُـزِّلَ عليه القرآن جملـة واحدةً﴾ وبينت أن نَـزَّلَ وأنزل تأتي بمعنـى واحد، ونحـو ذلك مَهَّلَ وأمهل، ومنـه قـوله تبـارك وتعـالى : ﴿فَمَهِّلِ الكـافـرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْـدا﴾، و﴿لـولا﴾ بمعنى هـلاَّ، والمقصود من قوله تعالى ﴿ومـا من دابَّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمَمٌ أَمثَـالُكم﴾ لفت انتبـاه النـاس ولا سيما هـؤلاء المعـانـدين الجاحـدين المقترحين للآيـات إلى أن الله عز وجل قـد أقام الآيـات في أنفس الناس وفيما يشـاهدونـه من دواب الأرض وطيور السماء حيث خلق من كل جنس منهـا زوجين اثنين ذكرا وأنثى في تركيب عجيـب، وحيث فاوت بين هؤلاء الخلائق في صـوَرهم ومـداركهم وطبائعهم وأعطـى كل شيء منها خلقـهُ ثم هـدى، فترى كلَّ جنس منها يألف جنسه، وكلَّ عَالَمٍ منها يتـوالد ويتكاثر في عالمه، وكلُّ هـذه الأمم من الإنس والطير والدواب تتشـابه في أمـور كثيرة كمعرفـة طعامهـا وشرابها وسائر مـا به قِـوامُهَا وبقـاءُ جنسها، فـالناس يتفـاوتون في

أشكالهم وألوانهم وطبائعهم والدواب تتفاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها، والطيور تتفاوت في أشكالها وألوانها وطبائعها ومع تباعد المواطن التي قد توجد فيها هذه الخلائق من الناس والدواب والطيور فإنَّ الله عز وجل قد جعل لكل فرد منها أجهزة لطعامه وشرابه وبوله وبرازه فللناس والدواب والطيور قلب وكبد ورئتان وكذلك سائر أجهزة الهضم وأجهزة التنفس وأجهزة للهجوم على حاجتها وأجهزةٌ للدفاع عن أنفسها، وكلُّ جهاز من هذه الأجهزة عَالَمٌ دقيقٌ عجيبٌ عظيمٌ، وكلُّها خاضعة للنظام الذي جعله لها فاطرُ السموات والأرض الذي خلق كل شيء وأحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين. ففي هذا التماثل والتشابهِ بين العوالم البشرية والعوالم الحيوانية من الدواب والطيور آيات بيناتٌ شاهداتٌ بأن الذي صنعها هو الله الحي القيوم الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، الذي لا يعجزه أن يُنزِّل آية متى اقتضتها حكمته البالغة ومشيئته التامة التي لا راد لها، ولا يشك في ذلك إلا الجاهلون الذين لا يعلمون، وقد لفت القرآن الكريم الانتباه إلى بعض هذه العوالم فيما قصه من قصة النمل والنحل والهدهد وغيرها، وفي قوله ﴿بجناحيه﴾ مع أن قوله ﴿يَطِيرُ﴾ يغنى عنها، لدفع ما قد يتوهم من أن الطيران قد يقصد به السرعة على حد قول قريط بن أنيف:

قومٌ إذا الشَّر أَبْدَى نَاجِذيْهِ لهم طَارُوا إليه زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا.

قال الزجاج في كتابه معاني القرآن وإعرابه: وقال: ﴿يطير بجناحيه﴾ على جهة التوكيد، لأنك قد تقول للرجل: طِرْ في حاجتي أي أَسْرِعْ اهـ وقال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: فإن قال قائل: فما وجهُ قوله: ﴿ولا طائرٍ يطير بجناحيه﴾ وهل يطير الطائرُ إلا بجناحيه؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة؟ قيل: قد قدَّمنا القول فيما مضى أن الله تعالى ذكره أنزل هذا

الكتاب بلسان قوم وَبلُغَاتِهِم وما يتعارفونه بينهم، ويستعملونه في منطقهم خاطبهم، فإذْ كان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا: كلمت فلانا بفمي ومشيت إليه برجلي وضربته بيدي، خاطبهم تعالى بِنَظِيرِ ما يتعارفونه في كلامهم ويستعملونه في خطابهم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَافَرَّطْنَا في الكتاب من شيء﴾ جملة اعتراضية للفت الانتباه إلى أن القرآن الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الأمي محمد ﷺ آيةٌ بينة وحجة كافية للدلالة على أنه رسول الله حقا وصدقا، فقد اشتمل على تبيان كل شيء ينير للإنسانية طريقها ويرشدها إلى منهج رشدها وَوَجَّهَ الناس إلى النظر في آيات الله الكونية في النفوس والدواب والطيور مما لم تكن تعرفه العرب والعجم ولا سيما أهل مكة الأميين، وكما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عليك الكتاب تِبْيَانًا لكل شيءٍ وهُدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ثم إلى ربهم يُحْشَرُونَ﴾ أي ثم يحييهم بعد مماتهم يوم القيامة ليجزي كلَّ نفس بما كسبت ويقتص للجلحاء من القرناء، والمقصود تأكيد الحشر والنشر وأن الحياة بعد الموت والرجوع إلى الله يوم القيامة ليس قاصرا على بني آدم وكما قال عز وجل: ﴿وإذا الوحوش حُشِرَتْ﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: لَتُؤَدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلْحَاءِ من الشاة القرناء. قال العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: وفي الحديث إن الله ليؤدِّي الحقوق إلى أهلها حتى يَقْتَصَّ للشاة الجَلْحَاءِ من الشاة القَرْنَاءِ نَطَحَتْهَا قال الأزهري: وهذا يبين أن الجلحاء من الشاة والبقر بمنزلة الجماءِ التي لا قَرْنَ لها. وفي حديث الصدقة: ليس فيها عَقْصاءُ ولا جَلْحَاء، هي التي لا قرن لها اهـ وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ أن ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها

بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كوني ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ أي كنت حيوانا فأرجع إلى التراب ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما اهـ وقولهُ تبارك وتعالى : ﴿والذين كذّبوا بآياتنا صم وبُكْمٌ في الظلمات﴾ تأكيدٌ لما أفاده قوله عز وجل : ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ ببيان أن هؤلاء الجاحدين الكافرين قد سُلِبَتْ منهم لطائف السمع والبصر والكلام وإن بقيت معهم صور آذانهم وألسنتهم وأعينهم فهم صم بكم عمى ، كما قال عز وجل : ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ وقوله ﴿في الظلمات﴾ عبارة عن العمى ولا شك أن الأصم الأبكم إذا كان بصيرا ربما يفهم شيئًا بإشارة غيره وإن لم يفهمه بعبارته وربما يعبر عما في نفسه بإشارته لانعدام عبارته أما إذا كان مع ذلك أعمى أو كان في الظلمات فإن باب الفهم والتفهيم مُنْسَد عليه تماما ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ تأكيد لمضمون قوله عز وجل قريبا : ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهُدى﴾ .

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إن أتاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَو أَتَتْكُم السَّاعةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ. بل إيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إلَيْهِ إن شَاءَ وتَنسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ. ولَقَدْ أَرْسَلْنَا إلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلهُم يَتَضَرَّعُونَ. فَلَوْلاَ إذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ولَكن قَستْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُم الشَّيْطَانُ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ. فلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإذَا هم مُبْلِسُونَ. فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الذينَ ظَلَمُوا، والحمد للهِ ربِّ العَالَمِينَ﴾.

بعد أن بين عز وجل كمال عراقة المكذبين وتمام استغراقهم في الجهل والضلال ووصفهم بأنهم صُمٌّ وبُكْم في الظلمات شرع في تقريعهم وتوبيخهم وتبكيتهم على تكذيبهم بآيات الله وكفرهم به واتخاذهم الأوثان والأصنام شركاء له عز وجل فأمر رسوله ﷺ بأن يُبَكِّتَهُمْ ويوبخهم ويلْقِمهُم الحَجَرَ بما لا سبيل لهم إلى إنكاره فيقول لهم: أخبروني إن حلَّت بكم عقوبة من الله في دنياكم أو جاءتكم الساعة وقامت القيامة أتفزعون حينئذ إلى أصنامكم وأوثانكم وتدعونها لكشف الضر ودفع العذاب عنكم أم تفزعون إلى الله وحده وتَنْسَوْنَ أصنامكم وأوثانكم؟ ولا جدال عندهم في أنهم كانوا دائما لا يفزعون في النكبات التي تصيبهم إلا إلى الله وحده كما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضُرَّهُ مرَّ كأن لم يَدْعُنَا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ، كذلك زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفَرِحُوا بها جاءتها ريحٌ عاصفٌ وجاءهم الموج من كل مكان وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدِّينَ لئن أنجيتنا من هٰذه لنكونَنَّ من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هُمْ يَبْغُونَ في الأرض بغير الحق﴾ الآية. وكما

قال عز وجل: ﴿وما بكم من نِعْمة فَمِنَ الله ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْئَرُونَ. ثم إذا كشَفَ الضُّرَّ عنكم إذَا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعوا اللهَ مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البَرِّ إذ هم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعوا ربَّهُمْ منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رَحْمَةً إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دعا ربَّه منيبا إليه ثم إذا خَوَّلَهُ نعمةً منه نسي ما كان يَدْعُو إليه من قبلُ وجعل لله أندادا ليُضِلَّ عن سبيله، قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿قلْ أَرأَيْتكُمْ إن أَتَاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعةُ أَغيْرَ الله تَدْعُونَ إن كنتم صادقين. بل إياه تدعون فيكشفُ ما تدعون إليه إن شاء وتنسوْنَ ما تُشْركون﴾ والعربُ إذا أرادت الاستخبار عن شيء قالت للمخاطب: أرأيت، بمعنى أَخْبِرْني، وإذا كان المخاطَبُ اثنين أو اثنتين قالت العرب: أرأيْتُما، وإذا كان المخاطَبُ جماعة قالت العرب: أرأيتمْ فإذا أرادت تأكيد الخطاب وزيادة لفت انتباه المخاطب زادت الكاف وفتحت التاء فتقول: أرأيتَكَ وأَرأَيْتكُمْ كما قال عز وجل: ﴿أرأيْتَكَ هٰذا الذي كرَّمتَ عَلَيَّ﴾ وكما قال هنا: ﴿قل أرأيتكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين: أخبروني ﴿إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعةُ أغيرَ الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي إن أصابتكم عقوبة من الله في دنياكم أو جاءتكم الساعة وقامت القيامة أتفزعون حينئذ إلى أوثانكم وأصنامكم وتَدْعونَهَا لكشف الضُّر والعذاب عنكم إن كنتم مُحِقِّينَ في دعواكم وزعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر؟ وقوله عز وجل: ﴿بل إيَّاهُ تَدْعُونَ فيكشفُ ما تَدْعُونَ إليه إن شاءَ وتنسَوْنَ ما تُشرِكُونَ﴾ أي إنكم لا تدعُونَ في الشدائد أصنامكم وأوثانكم ولا تفزعون إليها لدفع الضر عنكم بل تفزعون إلى الله وحده ليكشف الضر عنكم لعلمكم أنه هو وحده

القـادر على كشف الضر عـن عبـاده، وهـو سبحـانـه لا يكشف الضر إلا بمشيئته وحكمته، فقد يكون من الحكمة أن يكشف العذاب الدنيوي عنهم وقد يكون من الحكمة ألا يكشف العـذاب الدنيوي عنهم كما أنه لا يكشف عذاب الآخرة عن المشركين أبدا، قال الزجاج «بل» استدراك، وإيجابٌ بعد نفي، تقول: ما جاء زيد بل عمرو، فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ جل وعز أنهم لا يدْعُونَ في حـال الشـدائد إلا إيـاه، وفي ذلك أعظم الحجـة عليهم، لأنهم قـد عبـدوا الأصنام اهـ وقـال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قـوله: ﴿بل إياه تـدعون فيكشف مـا تدعون إليـه إن شاء وتنسون مـا تشركون﴾ قـال أبو جعفـر: يقول تعـالى ذكـره مُكَذِّبًـا لهؤلاء العـادلين بـه الأوثان : مـا أنتم أيها المشركـون بـالله الآلهة والأنـداد، إن أتـاكم عـذابُ الله أوأتتكم السـاعـة بمستجيرين بشيء غير الله في حـال شـدة الهول النـازل بكـم من آلهة ووثن وصنم، بل تـدعـون هنـاك ربكم الذي خلقكـم، وبه تستغيثـون، وإليـه تَفْزَعُونَ دون كـل شيء غيره ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ يقـول: فَيُفَرِّجُ عنكم عند استغاثتكم بـه وتضرعكم إليه عَظِيمَ البلاء النازل بكـم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم لأنه القادر على كل شيء ومالكُ كل شيء، دون مـا تدعونه إلها من الأوثـان والأصنام ﴿وتنسـون ما تشركـون﴾ يقول: وتنسـون حين يأتيكم عـذابُ الله أوتأتيكم الساعـةُ بأهوالها مـا تشركونـه مع الله في عبادتكم إيـاه، فتجعلونه لـه ندًّا من وثن وصنم وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتـدعونه إلها اهـ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿ولقـد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعـون. فلـولا إذْ جـاءَهم بـأسنـا تضرعـوا ولَكنْ قست قلوبهم وزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ تقريـر للرسالة ومواساة للرسول ﷺ بِبَيَانِ أنه ﷺ ليس بدعا من الرسل وأن إخوانه المرسلين قد كذبتهم أممهم وأن الله عز وجل كـان يبتليهم عند تكذيبهم بالبأسـاء والضراء ليتضرعوا إلى

الله عز وجل ويرجعوا إليه، ويقلعوا عن الشرك وتكذيب المرسلين لكنهم لم يفزعوا إلى الله ليكشف الضر عنهم بل كانوا يتمادون في الضلال والغي ولا يتأثرون بالزواجر التي تنزل بهم بسبب قسوة قلوبهم وتحجر أفئدتهم وانطماس بصائرهم وانقيادهم للشيطان الذي سوّل لهم وأملى لهم، وزيّن لهم سُوءَ أعمالهم فاستحسنوها، وفي هذا إماءة إلى أن كفار قريش لا يفزعون في الضراء إلا إلى الله وحده لكنهم كانوا إذا كشف الله الضر عنهم نسُوا نعمة الله عليهم وأشركوا في العبادة أصنامهم وأوثانهم بخلاف من أشار الله عز وجل إليهم هنا من الأمم السابقة حيث كانوا لا يفزعون إلى الله عند نزول البأساء والضراء بهم، والمراد بالبأساء: الأهوال والشدائد والدواهي والحروب والمراد بالضراء الأمراض والأوجاع والآفات والأسقام والآلام، ومعنى: ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي سلطنا عليهم هذا العذاب من بأس الله ليتضرعوا إلى الله ويفزعوا إليه ليرفع العذاب عنهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فلولا إذ جاءهم بأْسُنَا تَضَرَّعوا ولكِنْ قست قلوبهم وَزَيَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي فَهَلاَّ تضرعوا إلى الله عز وجل عندما جاءهم بأس الله ونزلت بهم عقوبته التي أحلها بهم للتذكير والتخويف، لكنهم لم يتضرعوا إلى الله ولم تلِنْ قلوبهم خوفا منه عز وجل بل قست قلوبهم وتحجرت أفئدتهم فأقاموا على تكذيبهم لرسل الله وكفرهم بآيات الله وأصروا على عنادهم واستكبروا عن أمر ربهم استهانة بعقاب الله واستخفافا بأمره عز وجل، وحسَّنَ لهم الشيطان أعمالهم القبيحة فاستحسنوها، واستمرؤوها وانغمسوا فيها وغفلوا عما ذُكِّروا به من البأساء والضراء، ولم يتضرعوا إلى الله تبارك وتعالى ليرفع الضُّرَّ عنهم ولم ينيبوا إليه انقيادًا للشيطان الذي سوّل لهم وأملى لهم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ أي فلما اشتدت غفلتهم، وتَرَكُوا ما وُعِظُوا

به، ولم ينيبوا إلى الله عز وجل ولم يتضرعوا، أَمْلَيْنَا لهم واستدرجناهم فرفعنا البأساء والضراء عنهم، وفتحنا عليهم استدراجا منًّا لهم أبواب كل ما كنا سددنا عليهم بابه عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء فبدلنا مكان الضيق سعة ومكان المرض صحة ومكان الشدة رخاء، فازدادوا كفرا وطغيانا، وفَرِحُوا بما أوتوا ولم يتنبهوا إلى أن ذلك استدراج من الله عز وجل وكيدٌ لهم ومكرٌ بهم فلما صاروا إلى حال حَسِبُوا فيها أن هذا النعيم لن يزول عنهم وبلغوا الغاية في المتاع واشتد تعلقهم بملاذهم وشهواتهم أخذهم الله عز وجل أخذ عزيز مقتدر فأنزل بهم عذابه فجأةً فإذا هم هالكون يائسون من رحمة الله، لا يستطيعون الإجابة ولا يتمكنون من التوبة والإنابة، وهذا المقام في كتاب الله تبارك وتعالى شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يَضَّرَّعُونَ * ثم بَدَّلْنَا مكانَ السيئة الحسنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراءُ والسراءُ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ أي استؤصلوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد بسبب ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم لرسل الله ولله عز وجل الحمد والثناء على انتصاره لأوليائه وقطعه لدابر أعدائه قال العلامة ابن منظور في لسان العرب: وقطع الله دابرهم أي آخر من بقي منهم، وفي التنزيل: ﴿فَقُطِعَ دابر القوم الذين ظلموا﴾ أي استؤصل آخرهم، ودَابرة الشيء كدابره، وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أنَّ دابِرَ هؤلاء مقطوع مُصْبِحِينَ﴾ قولُهُمْ: قطع الله دابره قال الأصمعيُّ وغيرهُ: الدابرُ: الأصل أي أذهب الله أصْلَه، وأنشد لِوَعْلَةَ:

فِدى لكما رِجْلَيَّ أمي وخالتي ... غَدَاةَ الكُلاَبِ إذ تُحَزُّ الدَّوَابِرُ

أي يقتل القوم فتذهب أصولهم ولا يبقى لهم أثر اهـ وقال الزجاج رحمه

الله : وقوله : ﴿فَقُطِعَ دابِر القوم الـذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ حَمِدَ اللهُ عـز وجل نفسهُ على أن قطع دابـرهم واستأصل شأفتهم، لأنه جل وعـز أرسل إليهم الـرسل، وأَنْظَرَهُـم بعد كفـرهم، وأخـذهم بالبأسـاء والضراء، فَبَالَغَ جل وعز في إنذارهم و إمْهَالِهِمْ، فحَمِـدَ نفسهُ لأنه محمود في إمهالِهِ مَن كفر به وانتظارِهِ توبته اهـ.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصارَكُمْ وخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يـأْتِيكُمْ بِهِ، انظرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثم هُمْ يَصْـدِفُونَ * قل أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عـذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظَّـالِمُونَ. ومَا نُرْسِلُ المُرْسلينَ إلا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَـنْ آمَنَ وأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. والذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُم العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

بعد أن أمـر الله تبارك وتعـالى رسولـه ﷺ بأن يُقَرِّعَ قريشـا ومن معهم من الكفار ويوبخهم على تكذيبهم بآيات الله ويُقيمَ عليهم الحجة الدامغة بأنهم في شدائدهـم لا يفزعـون إلا إلى الله وحده وينسون أصنـامهم وأوثـانهم، مما يقطع بأن آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها من دون الله لا تملك نفعا ولا ضرا، أمر رسوله ﷺ بتكرير تقريعهم وتبكيتهم وتوبيخهم مرة ثانية وثالثة إلزاما لهم بعد إلـزام وإقامـة للحجة بعـد الحجة وبـرهانـا بعد البرهان، لينقطعـوا عن الشرك بالله من كل وجـه ولتستبين سبيل المجرمين وينسـدَّ كلُّ طريق للشرك كليـة مع تعجيب رسـول الله ﷺ من عـدم تأثر بعـض هؤلاء بما عـاينـوا من الآيات البـاهرة والحجج القاهرة الظـاهرة، ويؤكد وظـائف المرسلين، تأكيدا للرسـالة حيث يقول عز وجل: ﴿قل أرأيتم إن أخـذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إلَـه غير الله يأتيكم به، انظـر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * قل أرأيتكم إن أتاكـم عذابُ الله بغتة أو جَهْرَةً هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظالمون * ومـا نرسل المرسلين إلا مُبَشِّرينَ ومُنْذرينَ فمن آمنَ وأصلح فلا خَوْفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنُـونَ * والذين كذَّبوا بآيـاتنا يَمَسُّهُم العذاب بما كانوا يفسقـون﴾ قال ابن جرير الطبري: القول في تـأويل قوله: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قُلُـوبِكُمْ مَنْ إلَهٌ غير اللهِ يأتيكُمْ به انظر كيف نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَ هم يَصْدِفُونَ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثانَ والأصنامَ المكذبين بك: أرأيتم أيها المشركون بالله غَيْرَهُ إن أصمَّكُمُ الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فَطَبَعَ عليها، حتى لا تفقهوا قولا، ولا تُبْصِرُوا حجةً، ولا تَفْهَمُوا مفهومًا، أيُّ إله غيرُ الله الذي له عِبَادَةُ كلِّ عابد ﴿يأتيكم به﴾ يقول: يَرُدُّ عليكم ما ذَهَبَ اللهُ به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فَتَعْبُدُوه أو تشركُوهُ في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، ، وعلى رَدِّهِ عليكم إذا شاء، وهذا من الله تعالى ذكره تعليمٌ نَبِيَّهُ الحجةَ على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا، وإنما يَسْتَحِقُّ العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقَبْضُ والبَسْطُ، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجزُ الذي لا يَقْدِرُ على شيء، ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات﴾ يقول: انظر كيف نُتَابِعُ عليهم الحُجَجَ، ونَضْرِبُ لهم الأمثالَ والعِبَرَ، ليعتبروا ويَذَّكَّرُوا فينيبوا ﴿ثم هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يقول: ثم هم مع مُتَابَعَتِنَا عليهم الحُجَجَ، وتَنْبِيهِنَا إياهم بالعبر، عن الادِّكار والاعتبار يُعْرِضُونَ. يقال منه: صَدَفَ فلانٌ عني بوجهه فهو يَصْدِفُ صُدوفا وصَدْفا أي عَدَلَ وأعرض ومنه قولُ ابنِ الرِّقاع:

إذا ذَكَرْنَ حَدِيثا قُلْنَ أَحْسَنَهُ ... وهُنَّ عن كل سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

وقال لبيد:

يُرْوى قَوَامِحَ قَبْلَ الليل صَادِفةً ... أَشْبَاهَ جِنٍّ عليها الرَّيْطُ والأُزُرُ

فإن قال قائل: وكيف قيل ﴿مَنْ إله غيرُ الله يأتيكم به﴾ فَوَحَّدَ الهاء وقد مضى الذكرُ قبلُ بالجمع فقال: ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم﴾؟ قيل: جائزٌ أن تكون الهاءُ عائدةً على السمع فتكون مُوَحَّدَةً لتوحيد السمع، وجائزٌ أن تكون مَعْنِيًّا بها: من إلهٌ غير الله يأتيكم بما

أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة فتكون مُـوَحَّدة لتوحيد ما ، والعربُ تفعل ذلك إذا كَنَّت عن الأفعال وحَّدَت الكنايـة ، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفـاعيل ، كقولهم : إقبـالُكَ وَإِدْبَـارُكَ يعجبني ، اهـ ولا شك أن كفـار قريش ومن كان على شاكلتهم كانـوا مقرين بأن الله عز وجل هو الذي جعل لهم السمع والأبصـار والأفئـدة ، وأنـه لا يملكهـا أحدٌ سـواه ، كما قـال عـز وجل : ﴿والله أخـرجكم من بطـون أمهـاتكم لا تعلمـون شيئـا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئـدة لعلكم تشكرون﴾ وقـال عز وجل : ﴿وهـو الذي أنشأ لكم السمع والأبصـار والأفئدة ، قليلا مـا تشكرون﴾ وقـال عز وجل : ﴿قل مَن يرزُقُكمْ من السماء والأرض أَمَّـن يَمْلِكُ السمع والأبصار ومن يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميت ويخرج الميت من الحي ومن يـدبر الأمـر فسيقولـون الله ، فَقُلْ أفــلا تتقـون * فـذلكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بعـد الحق إلا الضـلال فأنى تُصْرَفُـونَ﴾ وقولـه تبارك وتعـالى : ﴿قل أرأَيْتَكُمْ إن أتـاكم عذابُ الله بغتـة أو جهرةً هل يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظَّـالِمُونَ﴾ إنذار للمشركين بعد إنذار وتخويف لهم عقب تخويف وتـرهيـب إثـر تـرهيب ، فبعـد أن خـوفهـم بأخـذ أسماعهم وأبصارهم والختم على قلـوبهم خَوَّفَهُمْ مرة أخـرى بعذاب عـام شامل يأتيهم بغتة أو جهرة يُبيدُ القوم الظالمين وينجو منه القوم المؤمنون ، ومعنى الآية : قل لهم يا محمد : أخبروني أيها المشركون الجاهلون المكـذبون إن جاءكم عقابُ الله وحلَّ بكم عـذابه مفـاجأة دون أن تَتَقَـدَّمَهُ أمـارات أو عـلامات أو جـاءكم عذاب الله بعـد أن تَقَدَّمَتْهُ أمـارات وتحذيراتٌ وعـلاماتٌ عاينتمـوها قبل أن يحل بساحتكم العقـاب الشديـد والعذاب المبيـد الذي لا يعـاقب الله به إلا القوم الظـالمين الذين عبدوا من دون الله مـا لا ينفعهم ولا يضرهم ولم يخلصوا العبـادة للحي القيوم النـافع الضـار ، فظلموا بـذلك أنفسهم حيث وضعـوا العبادة في غير مـوضعها وقـد جرت سنـة الله تبارك وتعـالى في أخذه لأعـداء

المرسلين أن يأخذ بعضهم بغتةً وأن يأخذ بعضهم جهرة لحكمته البالغة كما قال عز وجل: ﴿أفَأَمِنَ الذين مَكَرُوا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذابُ من حيث لا يشْعُرُونَ. أو يأْخُذَهم في تَقَلُّبِهِمْ فما هم بمُعْجِزينَ. أو يأخذهم على تَخَوُّفٍ فإنَّ ربكم لرءوف رحيم﴾ فأَخْذُهُمْ بِخَسْفِ الأرض بهم أو بمجيء العذاب من حيث لا يشعرون أو بأخذهم في تقلبهم كل هذه الأنواع من باب أخذهم بغتةً، أما الأخذُ على تَخَوُّف وهو التنقص بتسليط الأمراض والنكبات عليهم قبل حلول العذاب المبيد فهو من باب أخذهم جَهْرَةً والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿هل يُهْلَكُ إلا القوم الظالمون﴾ بمعنى النفي أي لا يُهْلَكُ بعذاب الله المبيد إلا القوم المشركون الذين عبدوا غير الله حيث وضعوا العبادة في غير موضعها وكذبوا المرسلين.

وقولهُ تبارك وتعالى: ﴿وما نُرْسِلُ المرسلين إلاَّ مُبَشِّرينَ ومُنذرينَ﴾ أي وما نرسل المرسلين إلا لِيُرَغبوا عباد الله عز وجل في طاعة الله ويخوفوهم ويحذروهم من معصيته تبارك وتعالى، قال الزجاج رحمه الله: أي ليس إرسالهم بأن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات، وإنما يأتون من الآيات بما يُبَيِّنُ الله به براهينهم وإنما قَصْدُهُم التبشير والإنذار اهـ وقد أشرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وبَشِّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنَّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أن البشارة هي الخبر العظيم الذي يظهر أثره على البشرة سواء كان بالخير فتنطلق أسارير الوجه فرَحًا أو كان بالشر فتنكمش بَشَرَةُ الوجه وتنقبض حزنا قال ابن سيده: والتبشير يكون بالخير والشر كقوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ اهـ فإذا اجتمعت البشارة مع النذارة في سياق كانت البشارة في الخير والنذارة في التخويف والتحذير من الشر كما في هذا المقام من قوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكونَ للناس على الله حُجَّةٌ بعد

الرسل﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ ونظائر ذلك. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا يمسُّهم العَذَابُ بما كانوا يَفْسُقُون﴾ بيانٌ لأهم صُور التبشير والإنذار وذلك بإعلام المؤمنين الصالحين أنهم قد أَحْرَزُوا أنفسهم من الخوف والحزن عند لقاء الله مع الحياة الطيبة في الدنيا ودخول جنات النعيم في الدار الآخرة، وإعلام المكذبين بآيات الله ورسله أنهم قد خسروا أنفسهم بما جلبوه لها من الخوف والحزن عند لقاء الله حيث يذوقون سوء العذاب بسبب فسقهم عن أمر الله وتكذيبهم بآيات الله ورسل الله عليهم الصلاة والسلام وسُلُوك مسلك الترغيب والترهيب في دعوة الخلق إلى الخالق وتعريفهم بما ينفعهم وما يضرهم هو أفضل مناهج التربية والتعليم لأنه مبني على معرفة أحوال النفس الإنسانية وما يؤثر فيها، وما تتأثر به من الرجاء أو الخوف، والوعد أو الوعيد، وقد سلك القرآن العظيم هذا المسلك القويمَ وكذلك سلكه رسول الله ﷺ وقد سلكه من قبله ﷺ جميعُ الأنبياء والمرسلين إذ لا تكاد تخلو النصوص الواردة في كتاب الله أو عن رسله عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله من أسلوب الترغيب والترهيب والتبشير والتحذير ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة، ولتستبين السبيلُ أمام العباد لينهج العقلاءُ أهلُ الخير والصلاح سبيلَ الفلاح، وليعرف المنحرفون أنهم ضلوا سواء السبيل، وكما قال الشاعر:

أَمامَكَ فانظر أيَّ نَهْجَيكَ تنهجُ ... طريقان شتى مستقيم وأعوج

ومن صور التبشير والتحذير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

أعدت للكافرين . وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار كلما رُزِقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هٰذا الذي رزقنا من قبل وأُتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ وقد لُوحِظَ أن القرآن الكريم قد يقدم الترغيب على الترهيب وقد يقدم الترهيب على الترغيب بحسب مقتضيات الأحوال إذ لكل مقام ما يناسبه من المقال، وهو لونٌ من ألوان إعجاز القرآن .

قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ولاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ ولاَ أَقُول لَكُمْ إنى مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إِلَيَّ، قُلْ هلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى والبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ. وأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ ليس لهم مِن دُونِهِ ولِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. ولاَ تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبهمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِن شيءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شيءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ من الظَّالمينَ. وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولوا أَهْؤلآءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشَّاكِرِينَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أن المشركين قالوا: ﴿لولا نُزِّلَ عليه آية من ربه﴾ وساق عز وجل الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه عز وجل له القدرة الشاملة على إنزال ما يشاء من الآيات وأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وأن إنزال الآيات إنما يكون بمشيئته وحكمته لا بحسب أهواء الجاهلين ومقترحاتهم وتَوَعَّدَهُمْ بالعقوبة إن استمروا على عنادهم وبيَّنَ عز وجل وظيفة أنبيائه ورسله وأنها مقتصرة على تبليغ الرسالة وتبشير من أطاعهم بالنعيم المقيم و إنذار من عصاهم بالعذاب الأليم وأن الرسل ليس بأيديهم أن يتصرفوا في الكون كما يشاءون وأنهم لا يستطيعون خرق نظام السموات والأرض، أمر نبيَّه وحبيبه وسيد رسله محمداً ﷺ أن يخبر الجاهلين أن التصرف في الكون وخزائنه هو لله وحده وليس مفوضا إلى أحد من خلقه وأن يخبرهم أنه ﷺ لا يعلم الغيب الذي استأثر الله عز وجل بعلمه وأن يوبخهم على ما اقترحوه عليه من بعض الآيات كأن يرقى في السماء مُبَيِّنًا هم أن ذلك إنما يطلب منه لو كان قد أخبرهم بأنه مَلَكٌ لأن الرقيَّ في السموات من شأن الملائكة، وأن يخبرهم ﷺ بأنه متبع لما جاءه من الوحي من عند الله وأن وظيفته ﷺ مقصورة على اتباع الوحي حيث يقول عز وجل هنا: ﴿قل

لا أقـول لكم عنـدي خـزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقـول لكم إني مَلَكٌ إن أتبع إلا ما يـوحَى إليَّ﴾ قال أبو اسحـاق الزجاج رحمه الله: وقـوله: ﴿قل لا أقول لكـم عندي خـزائنُ الله﴾ هذا متصل بقـوله: ﴿لولا نُـزِّلَ عليه آيـةٌ من ربه﴾ فأعلمهم النبي ﷺ أنه لا يملك خـزائن الله التي بها يَرْزُق ويُعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى وما سيكون إلا بوحي من الله عـز وجل: ﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾ أي المَلَكُ يُشـاهـد من أمور الله عـز وجل ما لا يشاهده البَشَرُ، فأَعْلَمَهُمْ أنـه يتبع الوَحْي فقال: ﴿إن أَتَّبعُ إلا ما يوحى إليَّ﴾ أي مـا أنبأتكم به مـن غيب فيما مضى وفيما سيكون فهـو بوحي من الله، فأمـا الإنبـاءُ بما مضى فأخبـارٌ بقصص الأمم السالفـة والأخبـار بما سيكـون كقــولـه: ﴿غُلبت الـرومُ في أدنـى الأرض وهم من بعــد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بضْعِ سنينَ﴾ فوجـد من ذلك ما أنبأ به، ونحـو قوله: ﴿واللهُ يعصمك من النـاس﴾ فـاجتهـدوا في قتله، فلم يصلـوا إلى ذلك وقـولـه: ﴿ليظهره على الـدين كله﴾ وما يُـرْوَى من الأخبار عنه بما يكـون أَكْثَرُ من أن يُحْصى اهـ وقال ابن جريـر الطبريُّ رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل لا أقول لكم عنـدي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقـول لكم إني مَلَكٌ إن أَتَّبعُ إلا مـا يُوحَى إليَّ قل هل يستـوي الأعمى والبصيرُ، أفلا تتفكـرون﴾ قال أبـو جعفر: يقـول تعالى ذكـره: قل لهؤلاء المنكرين نُبُوَّتَـكَ: لست أقول لكم إني الربُّ الذي له خزائنُ السمـوات والأرض فأَعْلَمُ غُيوبَ الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الربُّ الـذي لا يَخْفَى عليه شيء فتكذبوني فيما أقـول من ذلك لأنه لا ينبغي أن يكـون ربًّا إلا من لـه مُلكُ كل شيء، وبيـده كلُّ شيء، ومَن لا يخفى عليه خافية وذلك هـو الله الذي لا إله غيره ﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾ لأنه لا ينبغي لِمَلَكٍ أن يكون ظاهرا بصـورته لأبصار البَشَر في الدنيا فَتَجْحَدوا ما أقـول لكم من ذلك ﴿إن أَتَّبعُ إلا مـا يُوحَى إليَّ﴾ يقول: قـل لهم: ما أَتَّبعُ

فيما أقول لكم وأدعوكم إليـه إلا وَحْيَ الله الذي يوحيه إليَّ وتنزيلَه الـذي يُنزله عليَّ فأَمضِي لوحيه، وأئتمر لأمره وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عُذْرَكُمْ على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقـول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونُه، بل ذلك مـع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمـة البالغة فما وجه إنكـاركم ذلك؟ وذلك تنبيهٌ من الله تعـالى ذكره نَبِيَّـهُ ﷺ على موضع حجتـه على منكـري نبـوتـه من مشركي قــومـه. ﴿قل هل يستـوي الأعمى والبصير﴾ يقول تعالى ذكره: قل يـا محمد لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق والبصيرُ به، والأعمى: هو الكافر الـذي قد عَمِيَ عن حجج الله فلا يَتَبَيَّنُهَا فَيَتَّبِعُهَـا، والبصيرُ: المؤمن الذي قـد أبصر آياتِ الله وحُجَجَـهُ، فاقتـدى بها واستضاء بضيائهـا، ﴿أفلا تتفكرون﴾ يقول لهؤلاء الذي كذبـوا بآيات الله: أفلا تتفكـرون فيما أَحْتَجُّ عليكم به أيها القومُ من هذه الحجج فتَعلَمـوا صحة مـا أقول وأدعـوكم إليه، من فسـاد ما أنتم عليـه مقيمون من إشراك الأوثـان والأنـداد بـالله ربكم وتكـذيبكم إيـاي مع ظهـور حجج صـدقي لأعينكم فتَدَعُوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿وأنذر بـه الذين يخافون أن يُحْشَرُوا إلى ربهم ليس لهم من دونـه وليٌّ ولا شفيعٌ لعلهم يتقـون﴾ بيـان و إرشاد إلى أن قلـوب الناس ليست سـواء عند تلقي الإنذار فـالعُمي الصُّمُّ البُكْمُ الذين ختم الله على قلـوبهم لا ينتفعون بإنـذار المنذرين ومـن ليسوا كـذلك من الناس قـد ينتفعـون بالإنـذار ويتأثرون بـالموعظة فيـدخل في قلوبهم الخوفُ من الله عـز وجل، وينزجـرون عما يُنْهَونَ عنه، ويقفون عند حـدود الله لعلهم ينجون من عذابه يوم القيامـة الذي لا ينفع فيه وليٌّ ولا شفيع إلا بإذن الله ورضاه كما قال عز وجل: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعـة إلا من أذِنَ له الرحمنُ وَرَضِيَ له قولاً﴾ وكما قـال عز وجل:

﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وكما قال عز وجـل ﴿ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿يـوم لا يغني مولى عن مـولًى شيئًا ولا هم ينْصَرون * إلا من رحـم الله، إنه هو العزيز الرحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الـذين يَدْعُونَ ربهم بالغـداة والعَشِي يريدون وجهـه ما عليك من حسـابهم من شيء وما مـن حسابك عليهم من شيء فتطْـردَهم فتكـون من الظالمين﴾ تنبيـهٌ إلى أن من انتفع بالإنذار وانقـاد لأمر الله واستجاب لرسـوله ﷺ فإنه يكون ذا مكانة ومنزلة عـالية عند الله عز وجل بغض النظر عن فقره وغناه ونسبـه وحسبه، لأن العزة لله ولـرسولـه وللمؤمنين، وتنديـدٌ بالجاهلين الذين يقيسون الناس بمنازلهم الدنيوية فيزدرون الفقراء ومن لا نسب لهم ولا حسب حيث كـان هـؤلاء الجاهلـون يطلبون مـن رسول الله ﷺ إبْعَـاد فقـراء المسلمين عن مجلسه، ويسمونهم الأشرار ويسخرون منهم، فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث سعد بن أبي وقـاص رضي الله عنه قـال: فيَّ نَزَلَتْ: ﴿ولا تطرد الـذين يدْعُـونَ ربَّهم بالغداة والعَشيِّ﴾ قـال: نَزَلَتْ في ستـة: أنا وابن مسعود منهم. وكان المشركون قالوا له: تُدْنِي هؤلاء؟ ثم ساق مسلم من حديث سعـد رضي الله عنه قال: كنـا مع النبي ﷺ ستة نفرٍ فقـال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قـال: وكنتُ أنا وابن مسعود ورجل من هذَيْل وبلال ورجلان لسْتُ أُسَمِّيهمَا فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدَّث نَفْسَهُ فأنزل الله عز وجـل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بـالغداة والعشي يـريدون وجهـه﴾ وقـد أمر الله رسـوله ﷺ أن يجعل هـؤلاء المؤمنين جُلَسَاءَهُ وأَخِصَّـاءَهُ حيث قال: ﴿واصبر نفسك مـع الذين يـدعون ربهم بالغـداة والعشي يريدون وجهـه ولا تَعْدُ عينـاك عنهم تريد زينـة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فرُطًا﴾ واحتقار الفقراء خُلُق الجاهلين من المتقدمين والمتأخرين كما قال عز وجل عن قوم نوح

عليه السلام: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بَادِيَ الرأي﴾ وطلبوا من نوح عليه السلام طردهم فردَّ عليهم فقال: ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون * ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم، أفلا تذكرون * ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني مَلَك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا اللهُ أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قالوا أنؤمن لك واتبعك الأَرْذَلُون * قال وما علمي بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تُبْعد عن مجلسك هؤلاء الفقراء الصالحين الداعين ربهم ليلا ونهارا وصباحا ومساء الذين أخلصوا قلوبهم وأسلموا وجوههم لله عز وجل لا يعبدون إلا الله ولا يدْعُونَ أحدا سواه، ومعنى قوله تبارك وتعالى ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهُمْ فتكونَ من الظالمين﴾ أي إنما حساب عباد الله من الأغنياء والفقراء على الله وحده وليس الرسول بمسئول عن حسابهم على أعمالهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ كما أنه ليس على الرسول إلا البلاغ من الترغيب والترهيب، فهو مسئول عما أنيط به كما أن الأمة مسئولة عما أنيط بها فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس للإنسان إلا ما قدمه لنفسه من عمل صالح، ولا يتحمل إلا وزر ما اجترحه من الأعمال، وليس الغنَى أو الفقر هو المعيار الذي يقاس به الإنسان فالمرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإنما أرزاق العباد بيد الله وحده يُوسِّع على من يشاء ويضيق على من يشاء امتحانا وابتلاء فلا يدل غنى الغني على رضا الله عنه ولا يدل فقر الفقير على سخط الله عليه، ولذلك قال: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهٰؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأَعْلَمَ

بالشـاكرين﴾ قال ابن جـرير رحمه الله : وأما قـولهُ : ﴿ليقولـوا أهٰؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا﴾ يقول تعـالى : اختبرنا الناس بالغنى والفقـر، والعز والذل، والقوة والضعف والهدى والضـلال كي يقول من أضلـه الله وأعماه عن سبيل الحق للذين هـداهم الله ووفقهم : ﴿أهٰؤلاء مَنَّ الله عليهم﴾ بالهدى والـرشد وهم فقراء ضعفاء أذلاء ﴿من بيننا﴾ ونحن أغنياء أقوياء استهزاءً بهم ومعاداة للإسلام وأهله اهـ وقـوله : ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ أي إنما يهدى الله من يعلم أنـه يشكره على نعمائه ويعترف بألـوهيتـه وربوبيتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جاءَكَ الَّذِينَ يؤْمِنُونَ بآياتنا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ ربكم عَلَى نَفْسِهِ الرحمة أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ منكم سُوءًا بِجهالَةٍ ثم تابَ من بَعْدِهِ وأَصْلَحَ فأَنَّهُ غفُورٌ رَحِيمٌ. وكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ. قُلْ إِني نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دونِ اللهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا من المُهْتَدِينَ. قُلْ إِنى عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِن الحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ. قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتعْجِلُونَ به لَقُضِي الأَمْرُ بَيْني وَبَيْنَكُمْ واللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض قبائح الجاهلين حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآية يخرق بها نظام الكون، وحيث طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطرد الفقراء من مجلسه، وبعد أن نهى الله عز وجل حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدًا ﷺ أن يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، مشيرا بذلك إلى عظيم منزلتهم عند الله عز وجل شرع هنا في حض رسول الله ﷺ على زيادة تكريم المؤمنين، وتبشيرهم بما يدخل السرور على قلوبهم بغض النظر عن فقرهم وغناهم وأيأَسَ المشركين من أن يتمكنوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى باطلهم وعبادة غير الله وأَمَرَ رسوله ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات أنه ﷺ ليس بيده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده، وأن يقول لهم: لو كانت الآيات التي تقترحونها بيدي لآتيتكم بها، ولكنها بيد الله الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين ولا يظلم أحدا، وهو أعلم بالظالمين، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ إلى

قوله عز وجل: ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي فَأَكْرِمْهُمْ برَد السلام عليهم، وبشرْهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلا منه وإحسانا وامتنانا ﴿أنه من عمل منكم سوءًابجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل اهـ وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وإذا جاءك يا محمد القومُ الذين يُصَدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا فيُقِرونَ بذلك قولا وعملا، مُسْتَرْشِديكَ عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبة؟ فلا تؤيسهم منها، وقل لهم: ﴿سلام عليكم﴾ أَمنة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها. ﴿كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة﴾ يقول قَضى ربكم الرحمة بخلقه ﴿أنه من عَمِلَ منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ ثم قال رحمه الله: ومعنى قوله: ﴿أنه من عمل منكم سوءا بجهالة﴾ أنه من اقترف منكم ذنبا فجهل باقترافه إياه ثم تاب وأصلح ﴿فأنه غفور﴾ لذنبه إذا تاب وأناب وَرَاجَعَ العملَ بطاعة الله، وترك العَوْدَ إلى مثله مع الندم على ما فرط منه ﴿رحيم﴾ بالتائب أن يعاقبه على ذنبه بعد توبته منه اهـ وقال الزجاج رحمه الله: ومعنى يعملون السوء بجهالة أي ليس بأنهم يجهلون أنه سوء، لو أتى المسلم ما يجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءًا، ولم يوقع سوءًا، وقولك: عمل فلان كذا وكذا بجهالة يحتمل أمرين، فأحدهما أنه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروها، والآخر أقدم عليه على بصيرة، وعلم أن عاقبته مكروهة، فآثر العاجل فجُعِلَ جاهلا، فإنه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعافية الدائمة فهذا معنى: ﴿من عمل منكم سوءا بجهالة﴾ اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجيء أنَّ مرتين مرة مع الشرط ومرة

مع الجزاء: ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاءقوله تعالى: ﴿إنه من يتق ويصبر فإنَّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ فلا يقال: إنها أعيدت لطول الكلام، ونظِيرُه قوله تعالى: ﴿إنه من يأت ربَّه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يَحْيى﴾ ونظيره: ﴿أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين، ألا ترى تأكيد قوله ﴿غفور رحيم﴾ بأنَّ غيرُ تأكيد ﴿من عمل منكم سوءا بجهالة فأنه غفور رحيم﴾ له بأن؟ وهذا ظاهر لاخفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نُفَصِّل الآيات ولتستبين سبيلُ المجرمين﴾ أي وهكذا نُبَيِّن ونُفَصِّل ونميز للناس أعلامنا وحججنا وأدلَّتنا ليتضح الطريق المستقيم ليسلكه المؤمنون ولتستبين السبيل المعوجة التي يسلكها الكافرون المجرمون، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل المبشرين المنذرين وليرتدع المكذبون الجاهلون الذي يصفون الذكر الحكيم بأنه أساطير الأولين، مع أنه تبيان لكل شيء يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم، مما جدَّ ويجد لهم إلى يوم القيامة ويرسم أحسن المناهج، ويهدي المستقيمين إلى سواء الصراط وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله، قل لا أتبع أهواءكم قد ضَلَلْت إذا وما أنا من المهتدين﴾ تنديد بالمشركين وأصنامهم وما يعبدون من دون الله، وتحذير شديد من مسلكهم وتقريع بأنهم سلكوا الطريق المعوج تقليدا لأهوائهم وأهواء آبائهم، فهم يعبدونها على محض الهوى والتقليد الأعمى والضلال البحت لا على سبيل البينة والحجة والبرهان، فهم يعبدون ما يصنعون، ويدعون من الأحجار ما ينحتون فلو كان لهم أدنى مسكة من عقل ما عبدوها، وهم لا يضرعون إليها عند الشدائد بل يضرعون إلى الله وحده

ويقرون بأن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مملوكة لله عز وجل حيث كانوا يقولون في تلبيتهم بالحج : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هُوَ لَكَ ، تملكه وما مَلَكَ ، وكانوا يقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿قل إني نُهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ قطع لأطماع بعض المشركين الذين كانوا يطمعون في أن يميل رسول الله ﷺ إلى باطلهم ، وفي قوله عز وجل : ﴿قل لا أتَّبع أهواءكم قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين﴾ تأكيد على أن عبادة غير الله هي سبيل المجرمين ، وأنها مبنية على الهوى المحض ، وأن من سلكها فهو ضال عن سواء السبيل ، وليس من المهتدين الراشدين المفلحين الفائزين ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به﴾ تحقيق لما عليه رسول الله ﷺ من سبيل الهُدى والرشاد وما يسلكه من الصراط المستقيم وما يهتدي به من البرهان البَيِّنِ والحجة الواضحة التي هداه إليها ربه تبارك وتعالى كما قال عز وجل : ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيَما ملَّة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى : ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لمَّا جاءَني البينات من ربي وأُمرتُ أن أُسْلِمَ لرب العالمين﴾ وقوله عز وجل : ﴿وكذبتم به﴾ تأكيد لقبح طريق المشركين المكذبين بالبينات التي جاء بها رسول الله ﷺ أي وكذبتم بربي وربكم الذي جعلني على بينة منه ، ولم تكتفوا بمعجزة القرآن وهو الآية العظمى والحجة البالغة واستعجلتم نقم الله وعذابه ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ما عندي ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله يَقُصُّ الحق وهو خير الفاصلين﴾ أي ليس بيدي شيء من الآيات التي تقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده وما أخبركم به من إهلاك أعدائه الذين كذبوا رسله هو القصص الحق ، والحكم بيده وحده وهو الذي يفصل بين رسله وأعدائهم وهو خير الفاصلين ، فإنه لا يظلم

مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين الجاهلين المقترحين للآيات: لو كانت الآيات التي تقترحونها بيدي لآتيتكم بها ولأجبتكم فيما طلبتم مني، والمقصود من ذلك تأكيد نفي أن تكون الآيات بيد رسول الله ﷺ، وليس في هذا ما يدل على أنه لو كان العذاب بيده لأنزله بقريش، لأنه لا ذكر في هذا المقام لاستعجالهم العذاب، وقد عُلِمَ أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يستأني بهم لعل الله يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليكم يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُد؟ قال: لقد لَقِيتُ من قومِكِ ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلاَلٍ فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بِقَرْنِ الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرتُ فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بعث الله إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني مَلَكُ الجبال فَسَلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا، وفي لفظ لمسلم: فناداني مَلَكُ الجبال، وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سَمِعَ قولَ قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطبِق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا وقوله عز وجل: ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ تحذير من الظلم،

ووعيد شديد للظـالمين، والظلم في الأصل هو وضع الشيء في غير موضعه، وأبشع الظلم هــو الشرك بـالله، وتكــذيب المرسلين، والظلم ظلمات يــوم القيامة، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . .

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فى البَرِّ والبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقة إلاَّ يَعْلَمُهَا ولاَ حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ ولاَ يَابسٍ إلاَّ فى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل رسوله محمدًا ﷺ أن يخبر المشركين المقترحين للآيات بأنه ﷺ ليس عنده شيء من الآيات التي يقترحونها لأن الآيات بيد الله وحده، لأنه عز وجل هو القادر على كل شيء وهو الذي يقص الحق وهو خير الفاصلين وهو وحده الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال عباده وهو أعلم بالظالمين، شرع هنا في تقرير كمال علمه عز وجل وبيان اختصاص المقدورات الغيبية به تبارك وتعالى وأنه عز وجل استأثر بمفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بعلمه، وأن جميع الكائنات مسجلة في كتاب عند الله عز وجل، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء كما أطلع رسوله المصطفى وحبيبه المجتبى ﷺ على أشراط الساعة وأماراتها وما يكون في بعض مواقف القيامة، وكما يعلم الإنسان حمل المرأة بانتفاخ بطنها وانقطاع طمثها ونحو ذلك، وفي ذلك يقول: ﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبَّةٍ في ظلمات الأرض ولا رَطْب ولاَ يابس إلا في كتاب مبين﴾ ومعنى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلَمُهَا إلا هو﴾ أي وعند الله خزائن الغيب قد استأثر سبحانه بها، وبما يتوصل به إليها، وقد فسَّر رسول الله ﷺ مفاتح الغيب التي استأثر الله عز وجل بعلمها بأنها الخَمْسُ الواردة في قوله عز وجل: ﴿إنَّ الله عنده علْمُ الساعة ويُنَزِّلُ الغيث ويَعْلَمُ ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ فقد روى البخاري في

بـاب الاستسقـاء من طريق عبـد الله بن دينـار عن ابن عمـر رضي الله عنهما قـال: قال رسـول الله ﷺ: مفاتح الغيب خمس لا يعلمهـا إلا الله، لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غـدا، وما تـدري نفس بأي أرض تموت ومـا يدري أحـد متى يجيء المطر، وأورده في تفسير سـورة الأنعام من طريق سالم بن عبـد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: مفاتح الغيب خمسٌ: ﴿إن الله عنـده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾ وأورده في كتاب التوحيد من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما عـن النبي ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلـم ما تغيضُ الأرحام إلا الله، ولا يعلـم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم السـاعة إلا الله، أما مـا ثبت عن رسول الله ﷺ أنه أوتي مفـاتيح خزائن الأرض فإن المقصـود منه أن أمتـه ﷺ تفتح أكثر المعمـورة وتملك خزائن كسرى وقيصر كما أشـار أبـو هـريرة رضي الله عنـه إلى ذلك فقد روى البخـاري في صحيحه من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بعثت بجـوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وبينـا أنا نائم رأيتُني أوتيت بمفـاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يـدي قال أبـو هريـرة فقد ذهب رسـول الله ﷺ وأنتم تلغثونها أو تـرْغثونها أو كلمـة تشبِهُهَا، وأخـرجه مسلم من حديـث أبي هريرة رضي الله عنـه بلفظ: قال قـال رسول الله ﷺ: بعِثتُ بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب وبينـا أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فَـوُضِعَتْ في يـدي. قال أبـو هـريرة: فـذهب رسـول الله ﷺ وأنتم تنتثلـونها. ومعنى تنتثلـونها: تستخـرجون مـا فيهـا، ومعنى تلغثـونها: أي تأكلـونها، ومعنى ترغثـونها: أي تـرضعونها وقـد أخرج البخـاري ومسلم في

صحيحيهما من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إني فَرَطٌ لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلي حَوضي الآن، وإني أُعْطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ولكن أخاف عليكم أن تَنَافسوا فيها، هذا والمقصود من قوله ﷺ في حديث عقبة بن عامر: والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى أي والله ما أخاف على مجموعكم، فليس المراد نفي وقوع الشرك في أفراد من أمته ﷺ، وإنما المراد أنَّ تَنَافُسَهُمْ على الدنيا هو أخطر عليهم، وأشد ضررا على مجموعهم، لأنه يضر الصالحين والطالحين. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بَرِّيِّها وبَحْرِيِّها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قال الصرصريُّ.

فلا يخفى عليه الذَّرُّ إمَّا   تَرَاءَى للنواظر أو توارى اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريُّ رحمه الله: يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري ولا في الأمصار والقرى إلا اللهُ يعلمها ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ يقول: ولا شيء أيضا مما هو موجود أو مما سيوجد ولم يوجد بعد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسومٌ عَدَدُهُ ومَبْلَغُهُ، والوقت الذي يوجد فيه، والحال التي يفْنَى فيها، ويعنى بقوله: ﴿مبين﴾ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رسم فيه على ما رسم اهـ والمقصود بيانُ كمال علمه وقدرته ولفتُ الانتباه إلي عجائب خلقه بِضَرْبِ أمثلة ينتفع بها من له أدنى مسكة من عقل، وقدم ذكر الورقة

لأنها تشاهد في جميع أنحاء الأرض ولا يعلم عَدَدها ووقت وجودها وفنائها وحركاتها وسكناتها إلا الله وحده ثم ذكر ما هو أضعف من الورقة وهو الحبة ثم ذكر مثالا يجمع الكل وهو الرطب واليابس وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنه قد كتب جميع حركات خلقه وسكناتهم في الكتاب المبين، وأن كل شيء يجرى بمقدار كتبه في اللوح المحفوظ، كما ذكر عز وجل أن القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌّ في كتاب مبين﴾ وقد سماه الله تبارك وتعالى أم الكتاب حيث يقول عز وجل: ﴿وعنده أُمُّ الكتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لَعَلِيٌّ حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ وقد أشار الله تبارك إلى أنه كتب مقادير الخلائق في هذا الكتاب بعلمه وحكمته لا لضلال أو نسيان، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى﴾ كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء. وقد سمَّى رسول الله ﷺ اللوح المحفوظ الذكر فقد روى البخاري رحمه الله في كتاب بدء الخلق من صحيحه من حديث عمران بن حُصيْن رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلَّ شيء وخلق السموات والأرض. وأخرجه في كتاب التوحيد عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: اقْبَلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: بشَّرتَنا فأعطنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قَبِلْنَا، جئناك

لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمـر ما كان، قال: كان الله ولم يكن شيء قبلـه، وكـان عـرشـه على الماء، ثم خلق السمـوات والأرض وكتب في الذكـر كلَّ شيء، ثم أتاني رجل فقـال: يا عمران أَدركْ نـاقتك فقد ذهبت، فـانطلقت أطلبهـا، فإذا السرابُ ينقطع دونها، وأَيْمُ اللهِ لـوَدِدْتُ أنها قـد ذهبت ولم أقم، وقال أبـو داود في سننه: حدثنـا جعفر بن مسافـر الهذلي ثنا يحيى بن حسان ثنـا الوليد بن ربـاح عن إبراهيم بن أبي عبلـة عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصـامت لابنه: يا بُنَيَّ إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن مـا أصابك لم يكن ليخطئك، ومـا أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسـول الله ﷺ يقـول: إن أول ما خلق الله القلم، فقـال لـه: اكتب قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قـال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم السـاعة يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني. كما أخرج البخـاري في كتاب النكاح من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قلت يا رسول الله إني رجل شاب، وأنـا أخاف على نفسي العَنتَ ولا أجد ما أتزوج به النساء، فسكت عني، ثم قلت مثلَ ذلك، فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك فسكت عني، ثم قلت مثل ذلك، فقـال النبي ﷺ: يا أبا هـريرة جَفَّ القلم بما أنت لاقٍ. الحديث. وقد أخرج مسلم عن جـابر قال: جاء سراقة بن مالك بن جُعْشُم قـال: يا رسول الله بَيِّـنْ لنا ديننـا كأنا خُلِقْنَا الآن فيما العَمَلُ اليومَ أفيما جفت به الأقلامُ وجرت به المقادير أم فيما نستقبل قال لا بل فيما جفت به الأقـلام وجرَت بـه المقادير، الحديث كما أخـرج الترمذي في سننه وقال: هذا حديث حسن صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسـول الله ﷺ يوما فقـال: يا غـلام إني أُعلِّمُكَ كلماتٍ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهكَ إذا سألـت فـاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بـالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعـوك بشيء لم ينفعوك

إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام وجفت الصحف، ولا شك أن الإيمان باللوح والقلم من عقائد أهل السنة والجماعة ولذلك قال الإمام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته المشهورة: ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رُقِمَ.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ، أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ﴾

بعد أن أعلم عز وجل عباده أن مفاتح الغيب بيده وحده لم يعطها لملك مقرب ولا لنبي مرسل وأنه لا يعلمها إلا هو عز وجل، وَقَرَّرَ بذلك كمال علمه، وأنه لا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن في الأرض ولا في السماء إلا بإذنه قد أحاط به علما وأحصاه عددا، لا يخفى عليه رطب ولا يابس، وأن ذلك قد كتبه عز وجل في كتاب مبين، شرع هنا في لفت انتباه الناس إلى بعض آيات قدرته وعلمه التي أقامها فيهم، وما يُجْرِيه عليهم من أدلة قدرته، وقهره لخلقه، وعلوهِ على عباده، وأكدَ أنَّ مَرَدَّ جميع العباد إليه ليحاسبهم على أعمالهم ويحكم بينهم بعلمه وعدله وهو أسرع الحاسبين، لأنه القادر على حساب جميع الخلائق في وقت واحد كحساب نفس واحدة كما أن بعث جميع الخلائق في وقت واحد كبعث نفس واحدة وذلك على الله يسير وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويَعْلَمُ ما جرحتم بالنهار﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ألاَ لَهُ الحُكْمُ وهو أسرَعُ الحاسبين﴾ قال الزجاج رحمه الله: وقوله عز وجل: ﴿وهو الذي يتوفَّاكم بالليل﴾ أي يُنِيمُكُمْ فَيَتَوَفَّى نفوسكم التي بها تُمَيِّزون، كما قال عز وجل: ﴿الله يتوفى الأَنفُسَ حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ ومعنى: ﴿يَبْعَثُكُمْ فيه﴾ أي يُنَبِّهُكُمْ من نومكم فيه في النهار ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم اهـ والنوم يسمى الوفاة الصغرى والموتة الصغرى

وقد جعل الله تبارك وتعالى النوم آية من آياته ليكون تذكرة للإنسان بالموتة الكبرى كما جعل الاستيقاظ من النوم تذكرة للبعث بعد الموت، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إن في ذٰلك لآيات لقوم يسمعون﴾ وقدنَصَبَ الله تبارك وتعالى أمام الأعين آيات كثيرةً تذكر بالآخرة وما فيها، وإلى ذلك يشير عز وجل في قوله: ﴿أفرأيتم النار التي تورُونَ * ءَأَنتُمْ أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين﴾ أي جعلنا نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. كما جعل الله تبارك وتعالى الروح ــ وقد يطلق عليها لفظ النفس ــ آية من آياته واستأثر تبارك وتعالى بعلم حقيقتها وكيفيتها إعلاما بكمال قدرته وعلمه ولم يُطْلِعْ أحدا من خلقه إلا على قليل من آثارها، فهي في الجسم دليل حياته وإذا فارقت الجسم مات وفارق الحياة. وقد تُسْلَبُ بعضُ خصائصها من الجسم كالتمييز وهو ما يُفْقَدُ من الإنسان ويُقْبَضُ منه عند النوم فيرفع القلم عن النائم حتى يستيقظ ولا يؤاخذ بما يفعله أثناء نومه مع أن النائم قد يرى حُلْما يعقله في نومه ويميزه ويذكره إذا استيقظ من نومه، كما أن الجنين عند ما يَخْرُجُ من بطن أمه حيا يكون لا تمييز له كما قال عز وجل: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾. وقد تفارق الروحُ الجسد كالشهداء وقد سماهم الله عز وجل أحياء، ونهى عن تسميتهم أمواتا فقال عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات، بل أحياءٌ ولٰكن لا تشعرون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياءٌ عند ربهم يرْزَقُونَ﴾ وقد وصف رسول الله ﷺ الروح بأنها تُقْبَضُ عند النوم وتُرْسَلُ عند الاستيقاظ من النوم وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل

الأخرى إلى أجل مسمى﴾ قال: وهذا بيان لكون النفس تقبض وقت الموت ثم منها ما يُمْسَكُ فلا يرسل إلى بدنه وهو الذي قضى عليه الموت ومنها ما يرسل إلى أجل مسمى، وهذا إنما يكون في شيء يقوم بنفسه لا في عرض قائم بغيره فهو بيان لوجود النفس المفارقة بالموت، والأحاديث الصحيحة توافق هذا، كقول النبي ﷺ: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، وقال لما ناموا عن صلاة الصبح: إن الله قبض أرواحنا حيث شاء. وقال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق، ألاَ لَهُ الحُكْمُ وهو أسرع الحاسبين﴾ فهذا تَوَفٍّ لها بالنوم إلى أجل الموت الذي ترجع فيه إلى الله، وإخبارٌ أنَّ الملائكة تتوفاها بالموت ثم يُرَدُّونَ إلى الله، والبَدَنُ وما يقوم به من الأعراض لا يُرَدُّ إنما يُرَدُّ الرُّوحُ، وهو مثل قوله في يونس: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله﴾ وقال تعالى: ﴿إن إلي ربك الرُّجْعَى﴾ وقال تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ وقال تعالى: ﴿قل يتوفاكم مَلَكُ الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ وتوفى الملك إنما يكون لما هو موجود قائم بنفسه، وإلا فالعَرَضُ القائم بغيره لا يُتَوَفَّى فالحياة القائمة بالبدن لا تتوفى، بل تزول وتعدم كما تُعْدَمُ حركتُهُ وإدراكُهُ اهـ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: اللهم باسمك أموت وأحْيَا وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور وأخرجه من حديث

أبي ذر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال: باسمك نموت ونحيا، وإذا استيقظ قال: الحمد الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. وأخرجه مسلم في صحيحه من حيث البراء رضى الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه قال: اللهم باسمك أحيا وباسمك أموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، ويؤثر أن رسول الله ﷺ شبَّه النوم بالموت والبعثَ بالاستيقاظ من النوم عندما أمره الله بالجهر بالدعوة فقال لقريش: إن الرائد لا يَكْذِبُ أهله، فقد أثر أنه قال لهم في هذا المقام: والله لتموتُن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتُحاسَبُنَّ بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا. كما ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل في التاريخ وكذلك صاحب السيرة الحلبية وغيرهما، ولم أقف لهذا الأثر على سند متصل. وقد أكد الله تبارك تعالى أن الروح من أمر الله، وأن الله تبارك وتعالى قد استأثر بعلم حقيقتها وكيفيتها حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بينا أنا مع النبي ﷺ في حرث وهو متكئٌ على عسيب، إذْ مرَّ اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلُوه عن الرُّوح فقال: ما رَابَكُمْ إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا سَلُوهُ فَسألُوهُ عن الروح، فأمسك النبيُّ ﷺ فلم يردَّ عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحَى إليه فقمت مَقَامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ وفي قوله: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ بعد ذكر كون الروح من أمر الله وحده لَفْتُ انتباه الناس إلى أن قوله تعالى في هذا المقام: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ بعد قوله عز وجل: ﴿وعنده مفاتح الغيب

لا يعلمها إلا هو﴾ الآية يشير إلى بعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم مع الإشارة إلى تمام الارتباط بين كل آية وما يليها، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ومعنى قوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطُون﴾ أي واللهُ هو الغالب لجميع عِباده العالي فوق جميع خلقه، وقد اقتضت حكمته أن يبعث عليكم ملائكة، منهم مَن وكَّلهم بحفظ أبدانكم بسبب أمر الله لهم بذلك كما قال عز وجل ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ ومنهم ملائكة موكَّلون بحفظ أعمالكم يحصون عليكم ما تفعلونه كما قال عز وجل: ﴿وإنَّ عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ومنهم ملائكة موكلون بقبض أرواح العباد وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ملائكة الرحمة هم الذين يقبضون أرواح المؤمنين وأن ملائكة العذاب يقبضون أرواح الكافرين فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحولُ بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصَّفَ الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملكٌ في صورة آدمي

فجعلوه بينهم أي حكماً فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة.
ولا معارضة بين قوله تعالى هنا: ﴿توفته رسلنا﴾ وكذلك قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلُنا يتوفونهم﴾ وبين قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملكُ الموت الذي وُكِّل بكم﴾ إذ قد يراد بالواحد الجنس، ومعنى: ﴿وهم لا يُفَرِّطُون﴾ أي وهؤلاء الحفظة لا يغفُلون ولا يتوانَونَ ولا يُضيعونَ وقوله عز وجل: ﴿ثم رُدُّوا إلى الله مولاهم الحقِّ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾. أي ثم ردَّهم الله تبارك وتعالى بعد الموت ليقفوا بين يدي ربهم الإله الملك الحق الخالق الذي لا إله غيره الذي له الحكمُ وحده يوم القيامة، وله وحده القضاءُ بين عباده، قال ابن جرير رحمه الله في قوله: ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم أيها الناس وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها لأنه لا يحسب بعقد يد ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين اهـ.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ تَدْعُونَهُ تضَرُّعًا وخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثم أنتُمْ تُشْرِكونَ * قلْ هو القَادِرُ على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تحتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بأْسَ بَعْضٍ، انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ. وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قل لست عليكم بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن لفت الله عز وجل انتباه الناس إلى بعض آيات قدرته وعلمه التي أقامها فيهم وما يُجْرِيه عليهم من أدلة قدرته، وقهره لخلقه، وعُلُوِّهِ على عباده وأكَّد أن مَرَدَّ جميع العباد إليه ليحاسبهم على أعمالهم، ويحكم بينهم بعلمه وعدله، شرع هنا في توبيخ المشركين من قريش ومَن على شاكلتهم مرة أخرى بلفت انتباههم إلى أنهم إذا وقعوا في ورطة في ظلمات البر والبحر توجهوا بالضراعة إلى الله وحده ونَسُوا أصنامهم وأوثانهم وأخلصوا الدعاء جهرا وسرا وتَذلُّلاً لله وحده فإذا نجاهم الله من ورطتهم وكشف عنهم ضرهم رجعوا إلى شركهم وعبادة أصنامهم وأوثانهم، ثم حذَّرهم بأنهم لن يفلتوا من عذاب الله إذا أراده بهم، وبيَّن لهم أنهم ليسوا بِمَنْجًا من عذاب الله في أية لحظة وعلى أي حال فهو القادر على أن يرسل عليهم حاصبا من السماء أو أن يخسف بهم الأرض أو أن يُسَلِّط بعضهم على بعض فيقتل بعضهم بعضا، ثم وَاسى رسوله وحبيبه وسيد خلقه محمدا ﷺ وبين له أنه على الحق وأن ما جاء به من عند الله هو الحق، وأن قلوب العباد بيد الله وحده وأن العاقبة الحسنى ستكون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين وفي ذلك يقول: ﴿قل مَن يُنَجِّيكُمْ من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخُفْيَةً لئن أنجانا من هٰذه لَنَكُونَنَّ من الشاكرين﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿لكل نبإ مُسْتَقَرٌّ، وسوف تعلمون﴾

ومعنى : ﴿قل من يُنجِّيكُمْ من ظلمات البر والبحر تدعُونَه تضرعا وخُفْيَةً لئن أنجانا من هٰذه لَنكُونَنَّ من الشاكرين . قل الله يُنَجِّيكُمْ منها ومن كل كَرْب ثم أنتم تشركون﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين واسألهم على سبيل التقريع والتوبيخ والتقرير: من تَلْجَئُونَ إليه إذا كنتم في البر أو كنتم في البحر وأحاطت بكم الظلمات ونزل بكم الضُّر وأشرفتم على الهلاك ، إنكم لن تضرعوا إلا إلى الله وحده إذ تدعونه حينئذ جهرا وسِرًّا وتتعهدون بأنكم ستعرفون نعمة الله عليكم وتقولون : لئن خَلَّصنَا الله من هذه الورطة وكَشَفَ عنا هذا الضر لنكونن من الشاكرين المؤمنين المخلصين لله وحده ، ثم أمر نبيه ﷺ بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للدلالة على أن هذا هو الجواب المتعين الذي لا جواب غيره ولتوبيخهم على نقضهم للعهد وكفرانهم للنعمة فقال : ﴿قل الله يُنجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ ثم أمر نبيه ﷺ أن يخبر قريشا ومن على شاكلتهم بأنهم لن يفلتوا من الله ، ولن يهربوا من عقابه في البر أو في البحر وأنه قادر على أن يرسل عليهم عذابا من السماء من حاصب أو حجارة أو سحاب عارض يمطرهم بعذاب الله كالذي أرسله الله عز وجل على قوم هود أو يرسل عليهم مطرا منهمرا كالذي سلطه على قوم نوح أو كسفا من السماء كعذاب يوم الظُّلَّة الذي أرسله على قوم شعيب ، أو أن يخسف بهم الأرض من تحت أرجلهم أو أن يسلِّط بعضهم على بعض فيقتل بَعْضُهُمْ بعضا . وهذا المقام قد ساق الله عز وجل له نظائر كثيرة وصرَّف فيه الآيات في غير موضع من كتابه الكريم ولذلك ذيله هنا بقوله : ﴿انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ حيث يقول عز وجل : ﴿ربكم الذي يُزْجي لكم الفُلْكَ في البحر لتبتغوا من فضله ، إنه كان بكم رحيما . وإذا مسَّكم الضُّرُّ في البحر ضَلَّ من تَدْعُونَ إلا إياه فلما نجَّاكم إلى البَرِّ أعرضتم ، وكان الإنسان كفورا * أفأمنتم أن يَخْسِفَ بكم جانب البر أو يرسلَ

عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمِنتم أن يعيدكم فيه تارةً أخرى فيرسِلَ عليكم قاصفا من الريح فيغْرقَكم بما كَفَرْتُمْ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا﴾ وكما قال عزل وجل : ﴿هو الذي يُسَيِّرُكُمْ في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجَرَيْنَ بهم بريح طيبة وفرِحُوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظَنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدينَ لئن أنجيتنا من هـٰذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يَبْغونَ في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم مَتَاعَ الحياةِ الدنيا ثم إلينا مرجعكم فَنُنَبِّئُكُمْ بما كنتم تعملون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أَمَّنْ يَهْديكم في ظلمات البر والبحر ومن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بين يَدَيْ رحمته ، أإلَهٌ مع الله ، تعالى الله يشركون﴾ وقد قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه : حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ، قال : ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ويُذيقَ بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أهون أو هذا أيسر، وقال البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه : حدثنا عليُّ بن عبد الله حدثنا سفيان قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول : لما نَزَلَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال : أعوذ بوجهك فلما نزلت : ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شيعا ويُذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال : هاتان أَهْوَن أو أيسر وقال في كتاب التوحيد من صحيحه : حدثنا قتيبةُ بن سعيد حدثنا حماد بن زيد عن عمرو عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿قل هو القادر على

أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك، فقال: ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أعوذ بوجهك قال: ﴿أو يَلْبِسَكُمْ شيعا﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا أيسر وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه العقوبات أربعة أنواع حيث عدَّ قوله عز وجل: ﴿أو يلبسكم شيعا﴾ عقوبة من هذه العقوبات كما عدَّ قوله عز وجل: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ عقوبة أخرى حيث قال رسول الله ﷺ كما جاء في رواية البخاري من طريق علي بن عبد الله هاتان أهون أو أيسر وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله زَوى لِي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنَّ أمتي سَيَبْلغُ مُلْكُها ما زُوي لي منها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأحمرَ والأبيضَ، وإني سألت ربي لأمتي ألاَّ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وألا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا مِنْ سِوَى أنفسهم فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وإن ربي قال: يا محمد: إني إذا قَضَيْتُ قضاءً فإنه لا يُرَدُّ وإني أعطيتك لأمتك ألا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وألا أُسَلِّطَ عليهم عَدُوًّا من سوى أنفسهم يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها - أو قال مَنْ بَيْنَ أقطارها حتى يكون بعضهم يُهْلِكُ بعضا وَيَسْبِي بعضهم بعضا. كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرَّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصَلَّيْنَا معه، ودعا ربَّه طويلا ثم انصرف إلينا فقال صلى الله عليه وسلم: سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدةً، سألت ربي ألا يُهْلِكَ أمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغَرَق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فَمَنَعَنيهَا - والمقصود أن الله تبارك وتعالى استجاب لرسوله ﷺ فلن يسلط على أمته عذاب استئصال يأتيها من فوقها أو من تحت أرجلها، وهذا لا يمنع أن

يخسف الله بـواحد أو أكثر مـن هذه الأمـة أو أن ينزل عذابـا من السماء على واحد أو أكثـر من هذه الأمة، وقولـه تعالى: ﴿وكَذَّب بِهِ قَـوْمُكَ وهو الحقُّ، قل لَسْتُ عليكم بوكيل﴾ أي وكـذبت قريش بما جاءهم بـه الصادق الأمين محمـد ﷺ من القرآن العظيم والـذكر الحكيـم الذي صرَّفنـا فيه من الآيـات لعلهم يتـذكـرون وضربنـا لهم فيـه من كل مثل لعلهم يـرتـدعـون عن غيهم وضـلالهم، وقـد بلغَ هذا الـذكـر في الحقيـة أعلى الدرجـات، لكن قلـوبهم الجاحـدة عميت عن المسـارعـة إلى قبول هـذا الحق، فأخبرهم أيها الـرسـول الكـريم أنك لست بمسئـول إلا عن تبليغهم رسـالـة ربك، وأمـا هـدايتهم فليست بيـدك، ولَسْتَ بمسيطـر على قلوبهم قـال ابن كثير رحمه الله: يقـول تعالى: ﴿وكذَّب به﴾ أي بالقـرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿قَوْمُكَ﴾ يعنى قـريشـا وهـو الحقُّ أي الـذي ليس وراءه حـقٌّ، ﴿قل لستُ عليكم بـوكيل﴾ أي لستُ عليكم بحفيظ، ولسـتُ بمـوَكَّلٍ بكم، كقـولـه: ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شـاء فليـؤمن ومن شـاء فليكفـر﴾ أي إنما عليَّ البـلاغ وعليكم السمعُ والطاعةُ، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة اهـ وقـوله تعالى: ﴿لكل نبأ مستقر﴾ هذه الجملة القليلـة الحروف قـد شملت من المعـاني مـا تعجـز الأقـلام عن تسطيره من الحكمة البالغة والمعجزة الظاهـرة وأصدق الأمثال السائرة ولم يسمع نظيرها في غير القرآن الكريم، وقد اشتملت على الـوعد والوعيد والترغيب والترهيب، فكل خبر يلفت انتباه النـاس لا بد وأن يُعْرَفَ في المستقبل صدقـه أو كذبه، وقـد اشتملت أخبار القـرآن العظيم وأخبـار الرسـول الكريم ﷺ على أمـور دنيوية وأخـروية، ولم يتخلف خبر عن موعده إذا جاء أجلـه، كالإخبار عن القتال بين فـارس والروم وغلبة الـروم في قوله عـز وجل: ﴿غُلِبَتِ الروم. في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. في بضع سنينَ، لله الأمر من قبل

ومن بعد، ويـومئذ يفرح المؤمنـون * بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العـزيز الـرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعـده ولَكنَّ أكثر النـاس لا يعلمون﴾ وقـد وقعت، وكـالإخبار عما يقـع يوم بـدر، وقـد وقع، ولذلـك قال عـز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولتعلمُنَّ نبأه بعـد حين﴾ ولـذلك قـال عز وجل هنـا: ﴿وسـوف تعلمون﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مع القَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. وذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُم الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ منْهَا، أُولَئك الَّذينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كانوا يَكْفُرُونَ﴾.

بعد الترغيب في مجالسة الصالحين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وزيادة تكريمهم بتبشيرهم بفضل الله عليهم بأنه من عمل منهم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم، شرع في الترهيب من مجالسة من يستهزئ بكتاب الله، ويكفر به أو يخوض في حديث يريد به إيذاء رسول الله ﷺ مُبيِّنًا رفع الإصر عن الذي يجلس في مثل هذا المجلس ناسيا هذه الوصية، مرشدا له بالقيام من مثل هذا المجلس عند التذكر، وأن الذين يخشون ربهم لا يتحملون شيئا من أوزار الفاسقين، حيث يقول عز وجل: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿أولَئك الذين أُبْسِلُوا بما كَسبُوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون﴾ والمخاطب بقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ هو كل فرد فرد من آحاد أمة محمد ﷺ ويدخل في عمومهم رسول الله ﷺ دخولا أوليا، ومعنى «يخوضون في آياتنا» أي يندفعون فيها على غير بصيرة فيستهزئون بها ويكذبونها، وأصل الخوض هو المشي في الماء

الضحل القليل على الأرض لا عُمْقَ لـه، ويستعمـل في كل منـدفع في شيء على غير بصيرة لأن الخائض لا يـرى موضع قـدمه في المخـاضة، فهـو يضع قدمـه حيث لا يدري وقد يقع في الهاويـة، قال العلامة ابن منظـور في لسان العـرب المحيط: والخوض: المشي في الماء، والموضعُ مخاضـة وهي مـا جـاز الناس فيها مشاة وركبانا، وجمعهـا المخاض والمخاوض أيضا، عن أبي زيد، وأخضت في الماء دابتي وأخـاض القـومُ أي خـاضت خَيْلُهُمْ في الماء، وفي الحديث: رُبَّ متخـوض في مـال الله تعـالى؛ أصل الخوض: المشيُ في الماء وتحريكـه ثم استعمل في التلبس بـالأمـر والتصرف فيـه، أي رُبَّ متصرف في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله، والتخوض تَفَعُّل منه، وقيل: هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن، وفي حديث آخر: يتخوضون في مال الله تعـالى. والخوض: اللَّبْسُ في الأمـر، والخوضُ من الكـلام: ما فيـه الكـذبُ والباطل، وقد خاض فيه، وفي التنزيل العزيز: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنـا﴾ وخاض القـوم في الحديث وتخاوضوا أي تفـاوضوا فيـه، وأخاض القـوم خيلهم إخـاضـة إذا خـاضـوا بها الماء، والمَخَـاضُ من النهـر الكبير: الموضِعُ الذي يتخضخض ماؤه فَيُخَاضُ عند العبـور عليه: ويقال المخاضة بالهاء أيضا. اهـ ومما يدل على أن الخطـاب في قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنـا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديـث غيره﴾ هو للعموم وإن كان واردا بلفظ الواحد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وما على الذين يتقون من حسـابهم من شيء﴾ قـال ابن كثير. رحمه الله وقـولـه: ﴿وإذا رأيت الـذين يخوضون في آياتنا﴾ أي بالتكـذيب والاستهزاء ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿وإما يُنْسِيَنَّكَ الشيطان﴾ والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس

أحد معهم ناسيا ﴿فلا تقعد بعد الذكرى﴾ بعد التذكر ﴿مع القوم الظالمين﴾ ولهذا ورد الحديث: رُفِعَ عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وقال السدى عن أبي مالك وسعيدُ بن جبير في قوله: ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ قال: إن نسيت فذكرت فلا تقعد معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهْزَأُ بها فلا تقعدوا معهم حتي يخوضوا في حديث غيره، إنكم إذًا مثْلُهُمْ﴾ الآية، أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه اهـ ولا شك أن قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾ قد نزل بمكة قبل الهجرة، ولم يكن في مكة إلا المؤمنون والكافرون فلم يكن أحد من المؤمنين إذا جلس مع من يخوضون في آيات الله يرضى أبدا عنهم أو يوافقهم، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء﴾ أما قوله تعالى: ﴿وقد نزَّلَ عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ الآية فقد نزل بالمدينة وقد كان فيها مؤمنون وكفار ومنافقون، ولا شك أن المنافقين كانوا يفرحون بما يصدر عن الكفار من الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، لذلك شدَّدَ الله عز وجل النكير على من يجلس مع من يخوضون في آيات الله ويوافقهم بقلبه، وإن أظهر الإسلام وهو منافق فقد حكم بأنه مُسَاوٍ ومماثلٌ لهؤلاء الكافرين الخائضين حيث قال عز وجل: ﴿إنكم إذًا مِثْلُهُمْ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا﴾ ومذهب عامة أهل السنة والجماعة جواز وقوع النسيان من رسول الله ﷺ في بعض الأفعال وإن كان معصوما من نسيان ما أمر بتبليغه حتى يُبَلِّغَهُ صلى الله عليه وسلم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إنما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أنْسَى كما تَنْسَوْنَ،

فإذا نسيتُ فـذكِّروني. وإسنـاد التَّنْيسـة إلى الشيطان في قـولـه تبارك وتعـالى ﴿وإما يُنسِينَّك الشيطـان﴾ هو ظاهر في حق غير المعصـوم من الشيطان من الداخلين في عموم الخطـاب مع لفت الانتباه إلى الأدب في إسناد الخير إلى الله عز وجل وإسناد الشر إلى الشيطان على حد قـوله تبارك وتعالى في قصة أيوب عليه السلام: ﴿واذكـر عبدنا أيوب إذ نَـادَى ربَّه أَني مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولَكن ذِكْـرَى لعلهم يتقون﴾ أي وليـس على المؤمنين الذين يتقـون ربهم شيء من أوزار الخائضين الظالمين لأنـه لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس لـلإنسان إلا مـا سعى، فلكـل نفس مـا كسبت، وعليهـا مـا اكتسبت، وإنما نَهَيْنَـا المؤمنين عن الجلوس مـع الخائضين وأمرناهم بـالقيام من مجلس هـؤلاء حتى يَكُفُّوا عن الخوض في آيات الله، لما في ذلك من ردع هؤلاء الخائضين، ويُعْتبرُ هذا القيـامُ نوعـا من أنواع العقـوبة والتعـزير كما يدخـل فيها يسمى بالحرب النفسية في هـذا العصر الحديث، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وذَرِ الذين اتخذوا دينهم لَعِبًا ولَهْوًا وغرتهم الحياةُ الدنيا، وذكر به أن تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ لَيْسَ لها من دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شفيعٌ وإن تَعْـدِلْ كُلَّ عَـدْلٍ لاَ يُـؤْخَـذْ مِنْهـا﴾ الآيـة حضٌّ لرسول الله ﷺ وللمسلمين على الصبر على ما يلاقونه من تعنت الكفار وأذاهم، وترغيبٌ في الإعراض عنهم بعدم الحزن على ما يصيبهم من استهزاء المشركين بهم، وأن على المسلمين أن يُـوَالُـوا تـذكير هـؤلاء الكفـار ووعظَهم وتـرهيبهم مما تـوعـد الله عـز وجل به أعـداءه من الشراب الحميم والعـذاب الأليم، وهـذا المقام الكـريم شبيـه بقولـه تبـارك وتعالى: ﴿فأعـرض عنهم وَعِظْهُمْ وقل لهم في أنفسهم قـولا بليغـا﴾ وقـد وصف الله تبـارك وتعـالى الخائضين في آياته بأنهم اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا، وفي هذا تقبيح لمنهجهم وتنفير من سلوكهم، واللَّعِبُ ضد الجِدِّ ويقال لكل من عمل

عمـلا لا يُجْدِي عليه نفعـا إنما أنت لاعب، واللَّهْـوُ ما تشـاغلتَ به عما هـو أجـدى عليك منـه، وشرُّ اللعب واللهـو أن يَعَضَّ الإنسـان بالنـواجـذ على أسباب تهلكته في العاجلة والآجلة، وأن يجعل ذلك دِينًا له ومنهجا يحارب به من يدعوه إلى سعادة دنياه وأخـراه، وهذا العمل لا يكون إلا من مغرور، ولما كان هؤلاء الخائضـون في آيات الله المستهزئون بشريعة الله قـد اختاروا أسباب شقوتهم، ولم تتعلق آمـالهم بغير الحياة الـدنيا الزائلـة الفانيـة وصفهم الله عز وجل بأنهم اتخذوا دينهم لعبـا ولهوا وغرتهم الحيـاة الـدنيا، لأن مَنْ لَهَا بمتـاع زائل عن النعيم السرمـدى الذي لا يفنى ولا يـزول وهو مع هـذا صائر إلى أن يرتهن بعمله هذا في سجن جهنم خالدا مخلدا فهو لا شك مغرور وقد أمر الله رسوله ﷺ ودعـاة الهدى أن يُحذِّروا هؤلاء المغرورين من عـذاب الله فقال عز وجل: ﴿وذكِّـر بـه أن تُبْسَلَ نفس بما كسبـت ليس لها من دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ و إن تَعْـدِلْ كلَّ عَـدْلٍ لا يـؤخـذ منهـا﴾ ومعنى ﴿أن تُبْسَل نفس بما كسبت﴾ أي أن تـرتهن وتحبس نفس بما اجترحت من الخوض في آيـات الله والاستهـزاء بشريعـة الله قال ابن كثير رحمه الله: يقـول تعـالى: ﴿وذر الـذين اتخذوا دينهم لعبـا ولهوا وغـرتهم الحيـاة الـدنيـا﴾ أي دَعْهمْ وأعـرض عنهم وأمهلهـم قليلا فإنهم صائرون إلى عـذاب عظيم، ولهذا قال: ﴿وذَكِّرْ به﴾ أي ذكر الناس بهذا القرآن، وحَذِّرْهُمْ نقمةَ الله وعذابَـهُ الأليم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿أن تُبْسَلَ نفس بما كسبت﴾ أي لئلا تُبْسَـلَ، قال الضحاكُ عن ابن عباس، ومجاهدٌ وعكرمـة والحسنُ والسدى: تبسل: تُسْلم وقال الوالبي عن ابن عباس: تفتضح، وقال قتادةُ: تحبس، وقال مَـرَّةَ وابنُ زيد تُؤْخَذ، وقال الكلبي: تُجْزَى، وكُلُّ هذه الأقوال والعبارات متقـاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلـوب كقوله: ﴿كلُّ نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين﴾ وقوله: ﴿ليس لها من دون الله

وليٌّ ولا شفيع﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ وقوله: ﴿وإن تعدل كلَّ عَدْلٍ لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كلَّ مبذول ما قُبِلَ منها، كقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم مِلْء الأرض ذهبا﴾ الآية وكذا قال ههنا: ﴿أولئك الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾ اهـ والمراد بالحميم هنا هو الماء الذي بلغ أقصى درجات الحرارة وما يسيل من عرق أهل النار وقيحهم وصديدهم كما قال عز وجل﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ أي قد انتهى حرُّهُ، وكما قال عز وجل: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي بلغت الغاية في حرارتها وكما قال: ﴿وسُقُوا ماءً حميما فَقَطَّعَ أمعاءهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿كالـمُهْلِ يغلي في البطون كغلي الحميم﴾ وكما قال: ﴿وإن يستغيثوا يُغَاثوا بماء كالمُهْل يَشوي الوُجُوهَ، بئس الشرابُ وساءت مُرْتفقا﴾ وكما قال عز وجل ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يُسيغُهُ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضرنَا ونُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِى اسْتَهْوتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إلَى الهُدَى ائتِنَا، قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَب العَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ واتَّقُوهُ، وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِالحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيكُونُ، قَوْلُهُ الحَقُّ، وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ ينفخ فى الصُّورِ، عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ، وَهُوَ الحكيم الخَبيرُ﴾.

بعد أن ساق الله عز وجل صورًا مشرقة مقررةً أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن البعث بعد الموت حق فالساعة آتية لا ريب فيها وهي الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها جميع السور المكية شرع هنا في توبيخ الذين يتخذون من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر قاطعا كلَّ طمع يُرَاوِدُ قلوبَ المشركين الذين يحرصون على ردة المسلمين عن دين الإسلام مُشَبِّهًا حيرة المشركين وانقيادهم للشياطين بحيرة من أضلته الشياطين عن الصراط المستقيم وأوقعته في المهامِهِ المهلكة وجرفته عن سواء السبيل فلا يهتدى لمسلك يدفع عنه شرا أو يجلب له خيرا، لأنه انحرف عن هدى الله عز وجل الذي يهدى به من يشاء إلى الحياة الطيبة وجنات النعيم، شارحا معالم سبيل الهدى والنجاة، بأنه الاستسلام لرب العالمين، وإقامة الصلاة وتقوى الله الذي إليه الحشر والنشر، وهو الذي لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء، عالم الغيب والشهادة الحكيم الخبير، وفي ذلك يقول: ﴿قل أَنَدْعُواْ من دُون اللهِ ما لا يَنفَعُنَا ولا يضرنا وَنُرَدُّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿عالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير.﴾ ومعنى قوله عز وجل ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ من دون الله ما لا ينفعنا ولا يَضُرُّنَا ونُرَدُّ على أعقابنا بعد إذْ هَدَانَا اللهُ﴾

أي قل يا محمد أنت ومن معك من المؤمنين لهؤلاء المشركين الذين يطمعون في ردتكم عن الإسـلام ويحاولـون أن تنصرفـوا عن دينكم الأبلـج إلى بـاطلهم اللجلج : أنعبد من دون الله حجرا أو خشبا أو مـا شابههما من أصنام وأوثان لا تقدر على نفعنا أو ضرنا ، ولا تملك لنا أو لغيرنا أو لأنفسها جَلْبَ خير ولا دفع شر، ونترك عبـادة الملك الحي القيـوم الـذي بيـده وحـده النفعُ والضرُّ والحياة والموت الذي تفـزعون إليه وحده عند الشدائد وتقـرون بأنه هو لا غيره الذي يُنَجِّيكم من ظلمات البر والبحر، إننا لن نفارق ديننا أبدا ولن نعبد غير الله عز وجل ولن نرتد على أعقابنا بعـد أن هدانا الله عز وجل لدين الإسلام ، والمقصود من قوله عز وجل : ﴿ونُرَدُّ على أعقـابنا﴾ هو الرِدَّة عن دين الإسلام والاستفهام للتوبيخ والإنكار أي لن نـدعو غير الله الذي لا إله بحق سواه ، ولن نرتـد عن ديننا أبـدا ، وقد كـان أصحاب رسـول الله ﷺ أشد ثبـاتا على تمسكهم بدين الإسلام من الجبال الرواسي ، وقـد سأل هرقل أبا سفيان : هل يرتد أحد عن دين محمد بعد أن يدخل فيه ، فأجـابه أبو سفيان ـ وكان يومئذ مشركا ـ لا يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديـث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : أخبرني أبـو سفيان أن هِرَقْلَ قـال له : سألتك هل يزيـدون أم ينقصون فـزعمت أنهم يزيـدون ، وكذلك الإيمان حتى يَتِمَّ ، وسألتك هل يـرتد أحـدٌ سَخْطَةً لِدينـه بعد أن يدخل فيه فـزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القلوبَ ، لا يَسْخَطُهُ أحد . وقـد ضرب الله تبارك وتعالى هنا مَثَلاً لمن أشرك بالله تبارك وتعالى تقبيحا لفعله واستهجـانا لسلوكه وتنفيرا من الوقوع في مثل مـا وقع فيه فقـال : ﴿كـالذي استهـوتـه الشياطينُ في الأرض حيرانَ لـه أصحابٌ يـدعونـه إلى الهدى ائتنا﴾ كما ضرب لـه مثلا في سـورة الحج حيث يقـول : ﴿ومن يُشْرِكْ بـالله فكأنما خَرَّ من السماء فَتَخْطَفُـهُ الطير أو تَهْوِي بـه

الرِّيحُ في مكان سحيق﴾ فالمَثَلُ الأول يُشَبِّهُ المشرك بالإنسان الـذي لعبت به الشياطين وزينت له ترك سبيل الهدى، وجَرَّتْه إلى الضياع في المفاوز والمهامه، فتفرقت به السُّبُلُ وصـار لا يدري أين يتجه، وحار في أمـره، وترَدَّدَ فلم يهتد إلى أي جهة يسير وازدادت حيرتـه عندما بـدأ يسمع أصواتا يعـرف أصحابها تناديه من جهـات شتى: أقبل إلينا لنهديك إلى طريق الهدى، وفي قـوله عز وجل: ﴿قل إنَّ هُدَى الله هـو الهُدَى﴾ تنبيه إلى أن بعض دعـاة الضلالـة قد يسمـون ضـلالتهم هُـدًى، مع أنهم ليســوا على شيء، فينبغي أن يعلم أن الهدى محصور في شريعـة الله ودين المرسلين، فمن دعا إلى غير ديـن الله فهو داع إلى الضلالة، ومن دعا إلى التمسك بشريعة الإسلام فهو داع إلى الهدى، أما المثل الثاني الذي ضربـه الله عز وجل للمشرك فهو تشبيهه بمن سقط من السماء فتخطفته الطير فمـزقته والتَهَمَتْـهُ فإن سلم من الطير ألقت به الـريح فسقط في الحضيض. قـال الجوهـري في الصحـاح: واستهــواه الشيطـان استهامه اهـ وقال الفيروز آبادى في القـاموس المحيط: واستهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقلـه أو استهامتـه وحَيَّرَتْهُ أو زينت لـه هواه اهــ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وأُمِرْنَـا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقـوهُ وهو الذي إليه تُحْشَرُونَ﴾ بيانٌ لأهم معالم طريق الهُدَى والنجاة وتكذيبٌ لمن يزعم أنه من دعاة الهدى وهو يـدعو إلى غير دين الله، قال ابن جـرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل إن هُدَى الله هو الهدى وأُمِـرْنَا لنُسْلِمَ لرب العالمين﴾ يقول تعـالى ذكـره لنبيه محمـد ﷺ: قل يـا محمـد لهؤلاء العادلين بـربهم الأوثـان، القـائلين لأصحابك: اتَّبعُـوا سَبِيلَنَا ولنَحْمِلْ خطـايـاكم، فإنَّا على هـدى: ليس الأمـر كما زعمتم، ﴿إنَّ هُـدَى الله هـو الهدى﴾ يقـول: إنَّ طـريق الله الذي بَيَّنَـهُ لَنَا وأَوْضَحَهُ، وسبيله الـذي أمرنا بلـزومه، ودينَهُ الذي شرعـه لنا فَبَيَّنَهُ هـو الهدى والاستقامـة التي لا شك فيهـا، لا عبادة الأوثـان والأصنام

التي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل وأَمرنا ربنا وربُّ كل شيء تعالى وجهه لنسلم له: لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فَنُخْلِصَ ذلك لـه دون مـا سواه من الأنـداد والآلهة، ثم قـال ابن جـريـر رحمه الله في تأويل قـوله: ﴿وأن أقيمـوا الصـلاة واتقـوه، وهو الـذي إليـه تحشرون﴾: فتأويل الكلام: وأمـرنا بإقامـة الصلاة، وذلك أداؤُهـا بحدودها التي فـرضت علينا ﴿واتَّقُـوهُ﴾ يقول: واتقـوا ربَّ العـالمين الذي أمـرنـا أن نُسْلِمَ لـه، فَخَافُـوهُ واحـذروا سَخَطَهُ بأداء الصـلاة المفروضـة عليكم، والإذعـان له بـالطاعـة، وإخلاص العبادة له ﴿وهو الـذي إليه تُحْشَرُونَ﴾ يقول: وربكم رب العالمين هو الذي إليه تُحْشَرُونَ فَتُجْمعونَ يوم القيامة، فيجازي كل عَاملٍ منكم بعمله وَتُـوَفَّى كلُّ نفس مـا كَسَبَتْ اهـ وقـولُـه تبارك وتعـالى: ﴿وهـو الـذي خلق السمٰوات والأرض بالحق ويـومَ يقولُ كُنْ فَيَكُونُ، قَوْلُـهُ الحقُّ، وله الملك يوم ينفَخُ في الصور، عـالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيمُ الخبير﴾ إثبـات وتأكيد على أن حشر العباد إلى الله تبـارك وتعالى يوم القيـامة حقٌّ لا ريب فيـه، فنبَّه بقـوله: ﴿وهـو الـذي خلق السمٰـوات والأرض بالحق﴾ على أنـه لا بـد من البعث والجزاء لأنه لـو لم يكن بعثٌ ولا جزاءٌ لكـان خلقُ السموات والأرض عبثـا ولعبا وبـاطلا وخـاليـا من الحكمة لأنـه لـو لم يكن جزاء ولا حسـاب لاستوى الصالحون والفجار وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بـاطلا، ذلك ظَنُّ الـذين كفروا، فـويلٌ للذين كفـروا من النـار. أم نجعل الـذين آمنـوا وعملوا الصـالحات كـالمفسـدين في الأرض أم نجعل المتقين كـالفُجَّار﴾ أي إن يـوم الحساب كائن لا محالـة لأنه لـو لم يكن حساب ولا بعث لكـان خلق السموات والأرض وسـائر العوالم عبثـا ولعبا، لأنها تكون حينئذ إنما خلقت للفناء ولا يخطر هذا إلا ببال الجاحدين الأشقياء فهلاك ودمار في جهنم لهؤلاء الجاحدين المكـذبين بالبعث بعد الموت، إنه لو

لم يكن بعث ولا حساب لاستوى الصالح والمفسد، والتقى والفاجر، ولا يمكن لعاقل أن يسوى بينهما فشتان بين من يغضُّ طرفه إن بدت له جارته وبين من ينهب النساء للخنا والفجور، وشتان بين من يَمُدُّ يد المساعدة والإنفاق للفقراء والمساكين وبين من يَمُدُّ يده لنهب أموال اليتامى والمستضعفين، وليس كلُّ من يعمل شرا يعاقب عليه في الدنيا فقد لا يقع المجرم في قبضة من يقيم العدل عليه في الدنيا، إذ قد يرتكب جرمه دون أن يطلع عليه أحد من الناس فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يقيم العدل بين عباده يوم القيامة وأن يجزي كل نفس بما كسبت، والكفار مقرون بأن الله هو الذي خلق السمٰوات والأرض فإذا لم يُقِرُّوا بالبعث والجزاء كان ذلك منهم إنكارًا لحقية خلق السمٰوات والأرض، ولذلك قيَّد هنا خلق السموات والأرض بقوله: ﴿بالحق﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقتَ هٰذا باطلا سبحانك فَقِنَا عذابَ النار﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويوم يقول كن فيكون، قوله الحق، وله المُلْكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّور، عالمُ الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير.﴾ مزيد تأكيد لحقية الحشر والنشر وأنه كائن لا محالة ببيان أنه سهل يسير على الله الذي إذا أراد شيئا إنما يقول له: كن فيكون، وهو تبارك وتعالى قد أخبر بأن البعث كائن، وقوله عز وجل حق لا مرية فيه ولا شك، وهو تبارك وتعالى مَلِكُ يوم الدين ومَالكُه، وأنه تعالى إذا أمر إسرافيل بالنفخ في الصور فنفخ فيه وَدَعَا العباد إلى ربهم خرجوا مسرعين إلى الداعي كأنهم جراد منتشر، قد أحياهم عالمُ الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن النفخ في الصور يكون مرتين مرة للإفناء ومرة للإنشاء أي نفخة للصعق ونفخة للبعث حيث يقول عز وجل: ﴿ونفخ في الصُّور فَصَعِقَ من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قِيَامٌ

ينظرون﴾ والصُّـور هو القرن والمراد به : بـوقٌ ينفخ فيه ، قال الترمذي حـدثنا سُـوَيْـدُ بن نصر أخبرنا عبـد الله بن المبـارك أخبرنـا سليمانُ التيمي عن أسلم العجلى عن بِشْر بن شَغَـاف عن عبـد الله بن عمـرو بن العاص قـال : جـاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : مـا الصُّورُ؟ قال : قَرْنٌ يُنْفَخُ فيـه . قال أبو عيسى هذا حديث حسن ، وقد روى غير واحد عن سليمان التيمي ولا نعرفه إلا من حديثه اهـ. والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة المائدة ٨١

تَهذِيبُ التَّفسِيرِ وتَجرِيدُ التَّأوِيلِ

مِمَّا أُلحِقَ بِهِ مِنَ الأَبَاطِيلِ ورَدِيءِ الأَقَاوِيلِ

عَبدُ القَادِرِ شَيبَةُ الحَمدِ
عُضوُ هَيئَةِ التَّدرِيسِ بِقِسمِ الدِّرَاسَاتِ العُليَا
بِالجَامِعَةِ الإِسلَامِيَّةِ سَابِقاً
وَالمُدَرِّسُ بِالمَسجِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجُزءُ الخَامِسُ

فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط 2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٠٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٧-٧٧٥٥-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٥)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٢٢٧/٦ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٠٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٧-٧٧٥٥-٠٠٠-٦٠٣-٩٧٨(ج٥)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠ فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ ص.ب ١٣٢٧٧ موبايل: ٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩ بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قال إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقومكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ. وكذلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيم مَلكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْـمُوقِنِينَ. فلمَّا جنَّ عَلَيْـهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِن لَـمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ القَـوْمِ الضَّالِّينَ * فلما رأى الشمس بازغة قـال هٰذا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يـا قَوْمِ إِنِّي بَـرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُـونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْض حَنِيفًا وَمَا أَنَا من الـمُشْرِكِينَ﴾.

بعد تقريع المشركين وتـوبيخهم على اتخاذهم أصناما آلهة لا تضر ولا تنفع وهم يدَّعُونَ أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام وأنهم يحبونه، شرع هنا في إيراد ذكر إبراهيم عليه السلام وما كان من تقـريعه وتوبيخه لمن يتخذ أصناما آلهةً مبينا أنهم في ضلال مبين حيث يقول عـز وجل: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أَتَتَّخِـذُ أصنامـا آلِهَةً إنى أَراكَ وَقَوْمَـكَ في ضلال مُبِينٍ﴾ إلى قـوله عـز وجل: ﴿إني وَجَّهْتُ وَجْهِيَ للـذي فَطَـرَ السـمـٰـوات والأرض حنيفـا وما أنـا من المشركين﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر﴾ نص صريح على أن آزر هو والد إبراهيم عليه السلام، وقد زعم بعض أهل الأهواء أن آزر لم يكن أبًا لإبراهيم عليه السلام بدعوى وجوب أن يكون آباء الأنبياء مسلمين وهي دعوى مردودة بصريح القرآن في هذا المقـام، كما تردُّهَا السنة الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يَلْقَى إبراهيم أباه آزرَ يوم القيامة وعلى وجه آزر قترةٌ وغَبَرَةٌ، فيقول لـه إبراهيم: ألم أقل لك لا تَعْصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبـراهيم يا رب إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون فأيُّ خزْيٍ أخزى من أبي، الأبعد، فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة

على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار اهـ والذيخ بكسر الذال المعجمة بعدها ياء ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع الكثير الشعر، والاستفهام في قوله: ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ للتقريع والتوبيخ والإنكار، ومعنى: ﴿أتتخذ أصناما آلهة﴾ أي أتجعل لنفسك أوثانا تعبدها وتخضع لها وهي لا تضر ولا تنفع؟ ومعنى قوله: ﴿إني أراك وقومك في ضلال مبين﴾ أي إني أعلم أنك ومن سلك مسلكك من قومك تائهون عن الحق، غارقون في بحار الضلال والضياع والحيرة والجهل، لا يشك في ذلك من له أدنى مسكة من عقل، فإنكم تعبدون ما تنحتون. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك نُرِي إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض وليكون من الموقنين﴾ أي وكما آتينا إبراهيم رشده من قبل ومنحناه البصيرة في الدين فعرف ما عليه أبوه وقومه من الضلال المبين نُبَيِّنُ له وجه الاستدلال بآيات الله الكونية في السموات والأرض على أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحق سواه ليكون عالما وموقنا، ولا شك أن علم اليقين هو أعلى مراتب العلم، وقد ساق الله تبارك وتعالى هنا صورة من صور دعوة إبراهيم عليه السلام التي سلكها في دعوته قومه إلى الله عز وجل حيث اتخذ هذا الأسلوب الحكيم الذي تنقطع به الشبهة وتتضح به المَحَجَّةُ، ويستدرج به الخَصْمَ ليعرفوا جهلهم، ويستبين خطؤهم ولا يتأتى هذا الأسلوب إلا من خبير بمعرفة ما عليه القوم حتى يتمكن من اجتثاث أصول باطلهم، وقد كان قوم إبراهيم عليه السلام من عبدة الكواكب، ولذلك ناظرهم عليه السلام فيها واستدرجهم ليقيم عليهم الحجة بأنهم ليسوا على شيء في عبادتها، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبا قال هٰذا ربي﴾ أي فلما تغشاه الليل وستره أبصر نجما من النجوم التي يعبدها قومه قال إبراهيم عليه السلام لقومه:

أهذا يصلح لأن يكون ربًّا يُعْبَدُ وأصفه بأنه ربي؟ وحذف الاستفهام في مثل قوله: هذا ربي سائغ شائع في اللسان، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه عبدة الكواكب وقد جاء حذف حرف الاستفهام في مواضع من القرآن الكريم ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَإِن مِتَّ فهم الخالدون﴾ أي أفهم الخالدون. ومنه قوله تعالى: ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ أي أنموت ونحيا؟ وكذلك قوله تبارك وتعالى ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ أي أنموت ونحيا؟ ومن أمثلة حذف الاستفهام مع كونه مرادًا قولُ أبي خراش الهذلي:

رَفَوْني وقالوا يَاخُوَيْلِدُ، لَا تُرَعْ فقلتُ، وأنكرتُ الوُجُوهَ هُمُوا هُمُوا

يعني: أَهُمْ هُمْ، ومن ذلك أيضا قولُ أوس بن حجر أو الأسود بن يعفر النهشلي:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإن كنتُ داريا شُعَيْثَ بنَ سَهْمٍ أم شُعَيثَ بنَ مِنْقَرِ

بمعنى أشعيث بن سهم، ولا شك أن توجيه خليلِ الرحمن الإنكارَ بأسلوب الاستفهام هو أسلوب حكيم في زلزلة قواعد باطلهم، وله أثر كبير في نفوسهم حيث يلفت انتباههم إلى النظر فيما يرشدهم إليه دون تهييجهم عليه، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ أي فلما غاب هذا النجم قال إبراهيم عليه السلام أنا لا أحب هذا الآفل ولا يتعلق قلبي به، بل أحب الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يزول وهو الله الحي القيوم، والمراد أن يوجه هؤلاء المشركين إلى أنهم على خطأ في عبادة هذا الكوكب لأنه إنما يعبدونه ويضرعون إليه عندما يكون مشاهداً ظاهرا فإذا غاب عنهم لا يوجهون إليه شيئا من عبادتهم وإن كانوا نصبوا له أصناما وهياكل وتماثيل، وهم يعلمون أنها ليست هي حقيقة الكوكب وإنما هي تمثال له، فبَيَّنَ إبراهيم عليه السلام بذلك أن المستحق للعبادة هو الحي القيوم القائم على كل نفس بما كسبت الذي يستجيب لعباده في كل وقت،

قال ابن تيمية رحمه الله : فإن الآفل هو الـذي يغيب تارة ويظهـر تارة فليس هو قائما على عبـده في كل وقت ، والذين يعبدون ما سـوى الله من الكواكب ونحوهـا ويتخذونها أوثـانا يكونـون في وقت البزوغ طـالبين سائلين وفي وقت الأفـول لا يحصل مقصـودهم ولا مرادهم فـلا يجتلبـون منفعـة ولا يدفعـون مضرة ، ولا ينتفعـون إذ ذاك بعبادة ، فبَيَّنَ مـا في الآلهة التي تُعْبَـدُ من دون الله من النقص وبَيَّنَ مـا لربـه فـاطر السمـوات والأرض من الكمال بأنـه الخالق الفاطـر العليم السميع البصير الهادي الرازق المحيي المميت اهـ ومعنى قـوله تبارك وتعالى : ﴿فلما رأى القمـر بازغا قال هٰـذا ربي فلما أَفَلَ قَالَ لَئِن لم يهْدِنِي رَبِّي لأَكُـونَنَّ من القوم الضـالين﴾ أي فلما أبصر إبراهيم عليـه السلام القمـر طالعـا قال : أهذا يصلح لأن يكـون ربا يعبـد ، فلما غاب القمر نبَّـه إبراهيم عليـه السلام قـومـه إلى أنـه لا يجوز لهم أن يتعلقوا بهذا الـذي غـاب عنهم ، وعليهم أن يطلبوا الهداية من الله وحـده لأن نواصي جميع الخلق بيده ، فمن لم يهده الله فلا هادي له ، وكان من القوم الضـالين . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿فلما رأى الشمس بازغـةً قال هٰذا ربي هـذا أكبر فلما أَفلَتْ قال يـا قوم إني بَرِيءٌ مما تشركُونَ﴾ أي فلما أبصر إبراهيم الشمـس طالعة قال : أهذا يصلح أن يكون ربا يعبد؟ هذا أكبر من القمر والنجـم وأبرزُ ظهورا وأثرا ، وهو عليه السلام بهذا الأسلوب الواقعي يضع قومـه أمام برهان لا يستطيعون الانفلات منه إذا ما شاهدوا الشمس وهي تغرب وتغيب ولذلك قال : ﴿فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وَجْهِي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفـا ومـا أنا من المشركين﴾ . أي فلما غـابت الشمس جـرَّد خليل الـرحمن إبراهيم عليـه السلام الـدعوة إلى تـوحيد الله عـز وجل وإخلاص العبـادة له وحده تبـارك وتعالى فقـال : يا قـوم إني بريء من عبـادة أصنامكم وأوثـانكم وأندادكـم ومُوَالاتِهِنَّ وبذل أي حـب لهن ، فكيدوني بها جميعا ثـم لا تنظرون فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما وجهت وجهـي وجعلت قصـدي بعبـادتي للـه

خالق السمٰوات والأرض وما فيهما ومخترعهما على غير مثال سابق حالة كوني حنيفا أي مائلا إلى الدين القيم ولن أكون مشركا أبدا . وهذا أسلوب في المناظرة رفيع قال ابن كثير رحمه الله : والحقُّ أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فَبَيَّنَ في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وَبيَّنَ في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل، وأشدهن إضاءةً وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فَبَيَّنَ أوّلاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلٰهية فإنها مسخرةٌ مقدرة بسَيْرٍ مُعَيَّنٍ لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا، ولا تملك لنفسها تصرفا بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرةً لما لهُ في ذلك من الحِكَم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فَبَيَّنَ فيه مثل ما بَيَّنَ في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلٰهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿قال يا قوم إني بريء مما تشركون﴾ أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلٰهُ اهـ.

قال تعالى: ﴿وَحَاجَّه قَومُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونى في اللهِ وقد هَدَانِ، وَلاَ أَخَافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إلاَّ أن يَشَاءَ رَبِّى شيئا، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، أفلا تتذكرون* وكيف أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمن إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. الَّذِينَ آمنُوا ولم يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُم الأَمْنُ وَهُم مُهْتَدونَ. وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاها إبراهيم على قومه، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، إن رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

بعد أن أقام إبراهيم عليه السلام على قومه الحجة البالغة وعجزوا عن الردِّ على ذلك وانقطعوا، ذكر عز وجل هنا أنهم لما انقطعوا لجئوا إلى تخويفه من بطش آلهتهم به حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وحاجَّهُ قومُه، قال: أَتُحاجُّوني في الله وقد هَدَانِ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاءَ ربِّي شيئا﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ومعنى: ﴿وحَاجَّهُ قومه﴾ أي وجادله قومه وخاصموه بالتهديد لا بالبرهان حيث زعموا أنهم يخافون عليه من أن تصيبه آلهتهم بسوء لبراءته منها وكفره بها، يقال حاجَّهُ أي نازعه وجادله وخاصمه، ويقال حَاجَّه فلم يَحْجُجْهُ أي فلم يأت بحجة ولا برهان ويقال حاجَّهُ فَحَجَّهُ أي خاصمه فغلبه وأقام عليه الحجة، ومنه ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: حَاجَّ موسى آدَمَ عليه السلام فقال له: أنت الذي أخرجتَ الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني أو قدَّره على قبل أن يخلقني. قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: فَحَجَّ آدمُ موسى. أي فغلب آدم موسى في هذه المحاجة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال أتحَاجُّونّي في الله وقد هَدَانِ، ولا أخافُ ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا﴾ أي وقال إبراهيم عليه السلام

قاطعـا لأطماع قومـه في تهديدهم لـه بتخويفـه من آلهتهم ومحاولة صرفـه عن توحيد الله : أتجادلـونني في أنه لا إله إلا الله ولا معبود بحـق سواه وقد بصَّرني ربي وأرشدني إلى الحق وهداني إلى تـوحيده و إخلاص العبادة لـه وحده ، ولن يصرفني عن ديني أقـوالكم الفاسـدة وشُبَهُكُم الكاسدة فلسـتُ بخائف من آلهتكم لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرًا ولا نفعا ، قال ابن كثير رحمه الله : يقـول تعالى مخبرا عن خليلـه إبـراهيم حين جادلـه قـومه فيما ذهب إليـه من التوحيد ، وناظروه بِشُبَهٍ من القـول أنه قال : «أَتُحَاجُّوني في الله وقد هدانِ» أي تجادلونني في أمر الله وأنه لا إلـه إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينـة منه ، فكيف أَلْتَفِتُ إلى أقـوالكم الفاسـدة وشُبَهكم الباطلـة ، وقولـه : ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا﴾ أي ومن الدليل على بطلان قـولكم فيما ذهبتم إليـه أن هذه الآلهة التي تعبـدونها لا تُـؤَثِّـرُ شيئا ، وأنـا لا أخافها ولا أُبَاليهَا ، فإن كان لها كيد فكيدُوني بها ، ولا تنظرون ، بل عاجلوني بذلك ، وقوله تعالى : «إلا أن يشاء ربي شيئا» استثناء منقطع ، أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عـز وجل ، «وَسِعَ ربي كلَّ شيءٍ علما» أي أحـاط عِلْمُـهُ بجميع الأشياء ، فـلا يخفى عليه خـافية ، «أفلا تتـذكرون» أي فيما بَيَّنْتُـهُ لكم ، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة بـاطلة فتنزجـروا عن عبادتها اهــ وقوله تبـارك وتعالى : ﴿وكيف أَخَافُ ما أشركتُمْ ولا تخافونَ أنكم أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَـمْ يُنَزل بِه عَلَيْكُمْ سُلْطَـانًـا ، فَأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَقُّ بـالأَمنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ﴾ تَعَجُّبٌ و إنكـار لسلوك قومه المعوج حيث انقلبت عندهم الموازين إذ يزعمون أنهم يخافون على إبراهيم عليـه السلام أن تصيبـه أصنامهم بسـوء بسبب براءتـه منها وهي لا تضر ولا تنفع ولا يخافـون على أنفسهم أن يصيبهم جَبَّـار السمـوات والأرض النافع الضـار الذي بيده ملكـوت كل شيء بسوء وهم يشركون بـه ما لا ينفع ولا يضر وما لا برهان لهم به ، قال ابن جرير رحمه الله : القولُ في تأويل قوله :

«وكيف أَخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطانا فأيُّ الفَرِيقَيْنِ أحقُّ بالأمنِ إن كنتم تعلمون». قال أبو جعفر: وهذا جوابُ إبراهيم لقومه حين خَوَّفُوهُ من آلهتهم أن تَمَسَّهُ، لذكره إياها بسوء، في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أَخَافُ وأَرْهَبُ ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر لدفعت عن أنفسها كَسْرِي إياها وضَرْبي لها بالفأس، وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككمَ في عبادتكم إياه ﴿ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطانا﴾ يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حجة، ولم يَضَعْ لكم عليه برهانا، ولم يجعل لكم به عذرا، «فأي الفريقين أحق بالأمن» يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربي مخلصا له العبادة، حنيفا له ديني، بريئا من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصناما لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهانا ولا حجة ﴿إن كنتم تعلمون﴾ يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أَحْتَجُّ به عليكم فقولوا وأخبروني، أي الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بالأمن؟ اهـ وقد اشتمل قوله: «فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون» على أعلى الدرجات في أدب البحث والمناظرة، باستنزال الخصم عن درجة المكابرة، مع إلجائه إلى الجواب الحق إن كان الخصم معه نوع من العلم فإن كان مستغرقا في الجهل عُرِّفَ بالجواب الذي لا محيد عنه ولذلك جاء بيان الجواب في قوله عز وجل: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظُلْمٍ أولَئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾. أي الأحق بالأمن هم الذين أخلصوا التوحيد لله عز وجل ولم يخلطوا إيمانهم بشرك فإن الله تبارك وتعالى يكلؤهم ويحفظهم ويبعثهم يوم القيامة آمنين لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون. وقد أثبت الله تبارك وتعالى هنا الأمن للذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم

بظلم كما أثبت لهم أنهم مهتدون أي مصيبون سبيل الرشاد، سالكون طريق النجاة، وقد فسَّر رسول الله ﷺ الظلم في هذه الآية بأنه الشرك فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّنا لم يَظْلِمْ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قلنا: يا رسول الله أيُّنَا لا يظلم نَفْسَه؟ قال: ليس كما تقولون ﴿لم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ بِشِرْكٍ أَوَ لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانهم بظلم﴾ شَقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمانُ لابنه وهو يعظه: ﴿يَابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذاك، ألا تَسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الاية ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شقَّ ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيُّنَا لم يلبِس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذاك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق

ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يابُنَيَّ لا تُشْرِكْ بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وتلك حُجَّتُنَا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم﴾ إشارة إلى ما شرح الله عز وجل له صدر خليله إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مناظرة قومه. وما ألزمهم به من الحجة البالغة والبرهان القاطع حتى حَجَّهُمْ وغَلَبَهُمْ وأبطل شبهتهم، وقطع عذرهم، وأفحمهم، أي وهذه بَيِّنَتُنَا لقَّنَّاها إبراهيم وبصرناه إياها، وعرَّفْناه بها، وهديناه إليها ونَصَرنَاه بها على قومه، ومعنى قوله عز وجل: ﴿نَرْفَعُ درجات من نشاء﴾ قال ابن جرير رحمه الله: والدرجات جمع درجة، وهي المرتبة، وأصل ذلك مراقي السُّلَّم ودَرَجه، ثم تستعمل في ارتفاع المنازل والمراتب، ثم قال رحمه الله: فمعنى الكلام إذًا: «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه» فرفعنا بها درجته عليهم، وشَرَّفْنَاهُ بها عليهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا فآتيناه فيها أجره، وأما في الآخرة فهو من الصالحين ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ أي بما فعل من ذلك وغيره، وأما قوله: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فإنه يعني: إن ربك يا محمد ﴿حكيم﴾ في سياسته خَلْقَهُ، وتَلْقِينِهِ أنبياءَهُ الحُجَجَ على أممهم المكذبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره «عليم» بما يؤولُ أمرُ رسُلِهِ والْمُرْسَلِ إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياه، وهلاكهم على ذلك أو إنابَتِهِمْ وتَوْبَتِهِمْ منه بتوحيد الله تعالى ذِكْرُهُ وتصديق رُسُلِهِ والرجوع إلى طاعته، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فأتَسِ يا محمد في نفسك وقومك المُكَذِّبيكَ والمشركين، بأبيك وخليلي إبراهيم ﷺ واصبر على ما يَنوبُكَ منهم صَبْرَهُ، فإني بالذي يؤول إليه أَمْرُكَ وأمرُهُمْ عَالِمٌ، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم اهـ.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَـهُ إِسْحَـٰـقَ ويَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا، ونُـوحًا هدينا من قَبلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وسُلَيْمَـٰـنَ وأَيُّوبَ وَيُـوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰـرُونَ، وكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْـمُحْسِنِينَ. وَزَكَرِيَّـا وَيَحْيَ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّـٰـلِحِينَ. وَإِسْمَـٰعِيلَ والْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا، وَكُلاًّ فَضَّلْنَا على الْعَـٰلَمِينَ. وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّـٰـتِهِمْ وإخـوانهم وَاجْتَبَيْنَـٰـهُمْ وَهَدَيْنَـٰـهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ذَٰلِكَ هُـدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَـاءُ مِنْ عِبَـادِهِ، وَلَوْ أَشْرَكُـوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّـا كَانـوا يَعْملُـونَ. أولَئِكَ الَّـذِينَ آتَيْنَـٰـهُم الْكِتَـابَ والْحُكْمَ والنُّبُـوَّةَ، فَإِن يَكْفُـرْ بِهَا هَـٰـؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَـٰـفِرِينَ﴾.

بعد أن بيَّن الله تبارك وتعـالى أن إبراهيم عليه السـلام كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين وأن قومه لما خَوَّفُوه من أن تصيبه آلهتهم بسوء لم يعبأ بهم ولا بآلهتهم وأن الله تبـارك وتعالى آتاه الحجـة عليهم، ورفع درجته، ذكر هنـا أنه كـان من فضل الله على إبـراهيم عليـه السـلام ومـا جزاه بـه على طـاعتـه لله وإخلاصه التوحيد له ويقينه في نصر الله لأنبيائه ورسله أنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب، لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد أنه ليس بدعـا من الرسل، وأنه ﷺ على المنهج الذي سلكه من قبلـه إخوانه الأنبياء والمرسلون وأن الله تبارك وتعالى قد آتاه الكتاب والحكم والنبوة كما آتى الذين من قبلـه من المرسلين صلوات الله وسلامه عليـه وعليهم أجمعين. قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قـوله عز وجل: ﴿ووهبنا له إسْحَـٰـق ويعقوب كَلاًّ هَدَيْنَا ونُـوحًا هَدينا من قبل﴾ قال أبو جعفر: يقول تعـالى ذكرهُ: فجزينا إبراهيم ﷺ على طـاعته إيـانا وإخـلاصه توحيـدَ ربه، ومفـارقته دِينَ قـومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجتـه في عِلِّيِّين، وآتيناه أجره في الدنيـا، ووهبنا له أولادا خصصناهم بالنبـوة، وذريةً شرفناهم منا بالكـرامة، ، وفضلناهم على

العالمين، منهم ابنـه إسحاقُ وابنُ ابنه يعقــوبُ «كُلاًّ هَـدَيْنَا» يقول: هـدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصـواب من الأديان «ونوحا هدينا من قبل» يقـول: وهدينـا لمثل الذي هـدينا إبـراهيم وإسحاق ويعقـوب من الحق والصواب، فـوفقناه لـه نوحا من قبل إبـراهيم وإسحاق ويعقـوب اهـ والضمير في قولـه تبارك وتعالى: ﴿ومن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يمكن أن يعـود على إبراهيم عليه السلام لأن الكـلام سيق من أجله، وعلى هذا يكون أيـوب عليه السلام من ذرية إبراهيم أما لوط عليه السلام فلم يكن من ذرية إبراهيم عليه السلام لأنه ابـن أخيه كما هو المعـروف عند أهل العلـم ولا إشكال في ذلك لأنـه قد بعثه الله في زمان إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وقال بعض أهل العلم: إن الضمير في قولـه عز وجل: ﴿ومن ذريتـه﴾ راجع إلى نوح عليه السـلام لأنه أقرب مـذكور، وقد أشـار الله تبارك وتعـالى في سورة الحديد إلى أنـه قد حصر النبوة في ذرية نـوح وإبراهيم عليهما السلام حيث قال: ﴿ولقد أرسلنـا نوحا وإبراهيم وجعلنـا في ذريتهما النبوة والكتـاب﴾ فيكون قـوله تبـارك وتعالى في سـورة العنكبوت: ﴿ووهبنـا لـه إسحاق ويعقـوب وجعلنـا في ذريته النبـوة والكتاب﴾ دليلا على أن كل الأنبياء والمرسلين بعد موت إبراهيم عليه السلام هم من ذريتـه، ولا شك أنه قـد وُلِدَ لإسحـاق يعقوبُ وهو إسرائيـل وإليه ينتسب سائر أسبـاطهم، وكانت فيهم النبـوة حتى ختموا بعيسى ابـن مريم وهو من بني إسرائيل لنسب أمه فيهم، أما الفـرع الثاني من ذرية إبراهيم فهو إسماعيل عليهما السـلام، ومن ذريتـه خـاتم الأنبيـاء والمرسلين، الجوهـرة الباهرة، والدرة الزاهرة صاحب المقام المحمود والحوض المورود محمد ﷺ وقد ذكـر الله تبارك وتعـالى في هذا المقـام من سـورة الأنعام أسماء ثمانيـة عشر من الأنبياء والمرسلين ولم يصح عن رسول الله ﷺ تحديد لعدد الأنبياء والمرسلين، وقد ذكر الله تبـارك وتعالى في مواضع أخرى من الكتـاب الكريم أسماء سبعة

منهم، وبهذا يكون عـدد الأنبياء والمرسلين الذين قصهم الله تبـارك وتعالى في القرآن الكريم خمسة وعشرين جمعهم بعض الشعراء في قوله :

في تلكَ حُجَّتُنَا منهم ثمانيـــــةٌ　　　مـن بعد عشر ويبقى سبعةٌ وَهُمُوا

إدريسُ هودٌ شُعَيْبٌ صالحٌ وكذا　　　ذو الكفل آدمُ بالمختار قد خُتِمُوا

وقد أشار الله تبارك وتعـالى إلى كثرة الأنبياء والمرسلين، وأن منهم من قَصَّ خبره على رسوله محمد ﷺ ومنهم من لم يقصص عليه حيث يقول عز وجل في سورة غـافر: ﴿ولقد أرسلنا رسـلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وقـد أوضحت الكلام على ذلك في كتـابي: قصص الأنبياء: القصص الحق، كما تحدثـت فيه عن قصة كل رسـول من رسل الله المذكورين في هذا المقام وغيره بما ثبت في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وكذلك نجـزى المحسنين﴾ تبشير لكل محسن من عباد الله في أي زمان أو مكان بأن الله تبارك وتعالى مـؤيِّدُهُ وناصرهُ ورافعُ درجته كما أيد إبراهيم وهؤلاء الصالحين، أي وكما جزينـا إبراهيم وهؤلاءالصالحين من أنبياء الله ورسله ورفعنا درجاتهم ونصرناهم على أعـدائهم وآتيناهم أجرهم في الدنيا وأعْدَدْنا لهم المساكن الطيبة في جنـات النعيم فإنا نجازي كلَّ محسن من عباد الله إلى يـوم القيامـة كـذلك، قـال أبـو السعود العمادي: والمراد بـالمحسنين الجنس وبمماثلة جزائهم لجزائه عليه السلام مطلق المشابهة في مقابل الإحسان بالإحسـان والمكافأة بين الأعمال والأجزيـة من غير بخس لاَ الـمُمَاثَلَةُ من كل وجـه ضرورةَ أن الجزاء بكثرة الأولاد ممـا اختص به إبـراهيم عليـه السلام اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلٌّ من الصالحين﴾ أي وكلُّ مَنْ ذَكَرْنَا من هؤلاء الـذين سَمَّيْنَـا لكم هم من عبـاد الله الصـالحين الهداة المهتـدين إلى الصراط المستقيم الذين أنعم الله عز وجل عليهم واجتبـاهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وكلاًّ فَضَّلْنـا على العالمين﴾ أي وقد فضَّلْنَـا كلَّ واحد من هـؤلاء المذكورين

على سائر المخلوقين الذين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، وقد اختار الله تبارك وتعالى الأنبياء من أكمل خلقه، فعندما أخذ الله عز وجل طِينة آدم اختار منها الأنبياء، واختار من الأنبياء المرسلين، واختار من المرسلين أولى العزم، واختار من أولى العزم الخليلين إبراهيم ومحمدا عليهما السلام، وقد بيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى أنه فضَّل بعض النبيين على بعض حيث يقول: ﴿تلك الرسلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بعض، منهم مَن كَلَّمَ اللهُ ورفع بعضهم درجات﴾ وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آبائهم وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وإخْوَانِهِم واجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضا من آباء هؤلاء الذين سماهم تعالى ذكره ﴿وَمِن ذُرِّيَّـاتِهِمْ وإخوانهم﴾ آخرين سواهم، لم يُسَمِّهِمْ، للحق والدين الخالص الذي لا شرك فيه، فَوَفَّقْنَاهم له ﴿واجتبيناهم﴾ يقول: واخترناهم لِدِينِنَا وبلاغ رسالتنا إلى مَنْ أرسلناهم إليهم، كالذي اخترنا ممن سَمَّيْنَا يقال منه اجتبى فلان لنفسه كذا إذا اختاره واصطفاه، يجتبيه اجتباءً، ثم قال رحمه الله: ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ يقول: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير مُعْوَجّ، وذلك دِينُ الله الذي لا عِوَجَ فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه اللهُ ربُّنَا لأنبيائه، وَأَمَرَ به عِبادَهُ اهـ ولم يقصص الله تبارك وتعالى قصص من أشار إليهم من الأنبياء والمرسلين في هذا المقام لكثرتهم لأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وكما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ ولله الحكمة البالغة، ومعنى «مِنْ» في قوله عز وجل: ﴿ومِنْ آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ التبعيض لأن بعض آباء الأنبياء كان كافرا، كما أن بعض ذرية هؤلاء كان كافرا ومن أمثلة هؤلاء الكافرين من آباء الأنبياء آزر، ومن أمثلة هؤلاء الكافرين من ذرية هؤلاء الأنبياء ابن نوح الذي غرق مع الكافرين وقوله

تبارك وتعـالى : ﴿ذلك هُدَى الله يهدى بـه من يشـاء من عباده ولـو أشركوا لحبط عنهم ما كـانوا يعملـون﴾ زيادة بيانٍ على أن الهدى هـو هدى الله وأن دين الله الذي يرتضيه هو الصراط المستقيم الـذي أرشد إليه الناس، ووفَّق له من يشاء من أنبيائه ورسله وعباده الصالحين وتحذيرٌ شديد من الشرك وتنديد بـالمشركين، ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿ولـو أشركـوا لحبط عنهم مـا كـانـوا يعملون﴾ أي ولو اتخذ واحد من هؤلاء الصـالحين ندًا لله عز وجل لأبطل الله تبـارك وتعالى جميع أعمالـه الصـالحة التي سبقت هـذا الإشراك، كما قال عـز وجل : ﴿ولقـد أوحي إليـك وإلى الـذين من قبلك لئـن أشركت لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ولَتَكونَنَّ من الخاسرين﴾ ولا شك أن الأنبياء معصومون من الشرك، وقد جاء هذا التحذير بأسلوب الشرط، والكلام إذا سيق على سبيل الشرط لا يقتضي الوقوع، قال ابن كثير رحمه الله : وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ وكقوله : ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذنـاهُ من لَدنَّـا إن كنا فـاعلين﴾ وكقولـه : ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى ممـا يخلق ما يشاء، سبحانه هو الله الـواحد القهار﴾ اهـ وقولُـه تبارك وتعـالى : ﴿أُولَئك الذين آتينـاهـم الكتاب والحكم والنبـوة، فإن يكفر بها هٰؤلآء فقد وكَّلْنَـا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾ تقرير للنبـوة والرسالة وثنـاءٌ على المرسلين ببراءتهم من الشرك واستمسـاكهم بما أنـزل الله من الهدى والـوحي، وتهديدٌ لمن كفـر بمحمـد صلى الله عليه وسلم، والإشـارة بأولئك لعلو منزلة الأنبياء المذكوريـن، كما أن الإشارة بقوله : هؤلاء راجعة للمشركين الكـافـرين من قـريش وغيرهم الذيـن يكذبـون بـالكتـاب وبالـرسـول ﷺ وبالرسالة، والمراد بالكتاب الجنس فيعم كل الكتب السماوية والمراد بالحكم الفقـه في الدين والمراد بـالنبوة مـا يشمل الرسـالة . ومعنى : ﴿فإن يكفـر بها هٰؤلآء فقد وكلنا بها قـوما ليسوا بها بكافرين﴾ أي فإن يجحـد هٰؤلاء الكفار ما

أنـزل الله من الكتـاب وما أرسل مـن رسول فإن الله لا يعجـزه إهـلاكهم إن استمروا على جحودهـم، وأن يستبدل قوما غيرهم يؤمنـون بكتب الله ورسله ولا يكفرون بها كما قـال عز وجل: ﴿وإن تتـولوا يستبـدل قومـا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ ومعنى: ﴿فقد وكَّلْنَا بها قـوما ليسوا بها بكافرين﴾ أي فقد أرصدنـا لها من يؤمن بها ويحبهـا أكثر من حبه لنفسـه وولده ووالـده والناس أجمعين، ويخالط الإيمان بها بشاشة قلبه فلا يَسْخَطُهَا أبدا.

قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ، قُلْ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَـٰلَمِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا ما أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِن شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَـٰبَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدَى للنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أنه كان من فضل الله على إبراهيم عليه السلام وما جزاه به على طاعته لله وإخلاصه التوحيد له، ويقينه في نصر الله لأنبيائه ورسله أنه وهب له إسحاق ويعقوب وجعل في ذريته النبوة والكتاب لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وتأكيد أنه ليس بدعا من الرسل، ونـدَّد بالمشركين الذين يدَّعُون محبة إبراهيم عليه السلام وهم يناقضون مذهبه وبَيَّن عز وجل أن الشرك يحبط كلَّ عمل صالح، وبشر نبيه ﷺ بانتصار الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء والمرسلين أكد هنا أن هؤلاء الأنبياء والمرسلين هم المستقيمون على منهج الهُدى وأمر نبيه ﷺ بسلوك منهجهم والاقتداء بِهُداهم في الاستمساك بشريعة الله والوقوف عند حدود الله، واجتناب الشرك بالله، وطَلَبَ من رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينبه المشركين إلى حجة ظاهرة تثبت أن محمدا هو رسول الله ﷺ حقا وصدقا وتُدْحِض حُجَّتهُمْ وباطلهم، حيث انتصب ﷺ لدعوتهم إلى الهدى والنجاة والفوز بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة وهو لا يسألهم على ذلك أجرا وهو قد جاءهم بالدين الذي يحصل لمن يتمسك به الشرفُ الرفيعُ مهما كان جنسه أو لونه أو مكانه أو زمانه، وهو تذكير للعالمين، وليس على رسول الله ﷺ إلا البلاغ، ثم وبَّخ المشركين واليهود الذين ينكرون الرسالة ويزعمون أن الله عز وجل ما أنزل كتابا ولا وَحْيًا على بشر، وأمر رسوله ﷺ أن يسألهم: من أنزل الكتاب الذي جاء به

موسى نـورا وهدًى للناس ، ولن يستطيع أحد من هـؤلاء المشركين واليهود أن ينكر نـزول التوراة على موسى فإنهم جميعـا مقرون بذلك لا يستطيعـون إنكاره بحـال ، وفي ذلك يقول تبـارك وتعـالى : ﴿أُولَئِكَ الـذين هَدَى اللهُ فَبِهُـدَاهم اقْتدهْ ، قل لا أسألكم عليـه أجرا إن هو إلا ذكـرى للعالمين﴾ إلى قولـه تبارك وتعالى : ﴿والـذين يؤمنون بـالآخرة يـؤمنون به وهم على صـلاتهم يحافظون﴾ والإشارة في قول تبـارك وتعال : ﴿أولَئك الذين هَدَى الله فبِهـداهم اقتده﴾ إلى الأنبيـاء المشار إليهم بقـوله عـز وجل : ﴿أولئك الـذين آتيناهم الكتـاب والحكم والنبـوة﴾ ومعنى : «هَـدَى اللهُ» أي هـداهم الله ووفقهم إلى الصراط المستقيم وصـانهم من الانحـراف عن دينه القـويم ، وجعلهم أئمـة الهُدَى . ومعنى قولـه عز وجل ﴿فَبِهُدَاهُم اقتـده﴾ أي فانهج منهجهم واتبع سبيلهم والزم هـداهم في الاستمساك بشريعة الله ، والـوقوف عند حـدوده فيما يوحَى إليك كما التـزمـوا بحدود الله فيما أَوْحَـى إليهم ، وما شرع لهم ، كما قـال عـز وجل : ﴿شَرَعَ لكم من الـدين مـا وَصَّى به نـوحـا والـذي أوحينا إليك ومـا وَصَّيْنَا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أَقِيموا الدِّينَ ولا تَتَفرَّقُوا فيه﴾ ولا خلاف عند أهل العلم في أن الأنبيـاء متفقون في أصول الشريعـة وأنَّ لكل رسول من رسل الله صلى الله عليهم وسلم منهجـا يـلائم أمتـه ، كما قـال عـز وجل : ﴿لكلٍّ جعلنـا منكم شرعـةً ومنهـاجـا﴾ فما ثبت نَسخُـهُ من شرائع الأنبيـاء السابقين فإنه لا يعمل به بعد النسخ ، وقـد اقتدى رسول الله محمد ﷺ بداود عليه السلام في السجدة ، فقد قال البخاري في تفسير سورة الأنعام : حدثني إبراهيم بن مـوسى أخبرنا هشام أنَّ ابن جُـرَيْج أخبرهم قال : أخبرني سليمانُ الأحولُ أن مُجاهِـدًا أخبره أنه سأل ابن عباس أَفِي ص سجـدةٌ؟ فقال : نَعَمْ ، ثم تـلا : ﴿ووهبنا لـه إسحـاق ويعقوب﴾ إلى قـولـه : «فَبِهُدَاهُم اقْتَـدِهْ» ثم قال : هُـوَ منهم . زاد يزيدُ بنُ هـارونَ ومحمدُ بنُ عُبَيْـدٍ وسهلُ بنُ يوسفَ عن

العَوَّامِ عن مجاهد قلتُ لابن عباس فقال: نَبِيُّكُمْ ﷺ مِمَّنْ أُمِرَ أن يقتدىَ بهم، وقال البخاري في تفسير سورة ص: حدثنا محمدُ بنُ بَشَّارٍ حدثنا غُنْدَرٌ حدثنا شعبة عن العوَّام قال: سألت مجاهدًا عن السجدة في ص قال: سُئِلَ ابنُ عباس فقال: «أولَئك الذين هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِهْ» وكان ابن عباس يسجد فيها حدثني محمد بنُ عبد الله حدثنا محمدُ بنُ عُبَيْدٍ الطَّنَافِسِيُّ عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال: سألتُ ابنَ عباس: من أين سَجَدْتَ؟ فقال: أَوَ ما تقرأ: «ومن ذريته داود وسليمان» «أولَئك الذين هَدَى اللهُ فبهداهم اقتده» فكان داود ممن أُمِرَ نبيكم ﷺ أن يقتدى به فسجدها داودُ عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ اهـ وقولهُ تبارك وتعالى: ﴿قل لا أَسْئَلُكُمْ عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ هو كقوله عز وجل: ﴿وما تَسْئَلُهُمْ عليه من أجر، إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ والاحتجاج على صدق رسول الله ﷺ بعدم سؤاله أجرا على تبليغ الرسالة قد سلكه المرسلون قبله ﷺ، كما ذكر عز وجل ذلك في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عن نوح عليه السلام ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله﴾ في سورة هود ويقول عنه في سورة الشعراء: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾ ويقول عن هود عليه السلام ﴿وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على رب العالمين﴾. ويقول عن صالح عليه السلام: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أَجْرِىَ إلا على رب العالمين.﴾ ويقول عن لوط عليه السلام: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أَجْرِيَ إلا رب العالمين﴾ ويقول عن شعيب عليه السلام: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين﴾ ولا شك أنَّ من ينتصب للدعوة لإقامة أقوم المناهج وأحسن أساليب الحياة الطيبة التي تجلب عز الدنيا وسعادة الآخرة ويحفظ للناس أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم دون أن يطلب منهم أجرا في مقابلة

عمله هذا مع تعرضه لتكذيب المكذبين وعناد المعاندين وافتراء المفترين وأذى السفهاء الجاحدين لا بـد وأن يكون صادقا وقوله تبـارك وتعالى : ﴿وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَـدْرِهِ إِذْ قالـوا مـا أنزل اللهُ على بَشَر من شيء﴾ بيـانٌ لجهل المشركين واليهود بـالله عز وجل وعدم معرفتهم لأسمائه الحسنى وصفـاته العُلَى ونفيهم لرحمة الله و إحسانه وجوده حيث زعموا أنـه لم ينزل كتابا ولم يرسل رسولا، ولا شك أن إنكار الـرسالة طعنٌ في الله تبـارك وتعالى ونسبةٌ لـه إلى الظلم والسفه والعبث وعدم الإحسان إلى خلقه بترك عبـاده سُدًى يتخبطون في معايشهم ، مع أن النـاس في حاجـة إلى النبوة والرسـالة والكتـاب أشد من حـاجتهم إلى الطعـام والشراب لأن الإنسـان مـدني بـالطبع كما يقـرر علماء الاجتماع فـلا يستغنى عن الناس ولا يستغنى النـاس عنه ولو تـرك الناس لأنفسهم لسلب القوى الضعيف والغنى الفقير والعزيـز الذليل ولصاروا كحيوانـات الغابات لذلك كـانوا في أمس الحاجة إلى نظام يكفل لكل ذي حق حقـه ، والبشرية تعجز عن وضع مثل هذا النظام لخضوع الإنسـان للمؤثرات البيئية والنفسية لذلك اقتضت حكمة أرحم الراحمين ورب العالمين العليم الخبير أن يبعث في كل أمة نذيرا يرسم لها منهج سعـادتها وعزها في الدنيا والآخرة، فمن زعم أن الله لم يرسل رسولا ولم ينزل كتابا على بشر فهو جاهلٌ بالله عز وجل حاقدٌ على الناس ومعنى : «وما قَدَرُوا الله حق قـدره» وما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفـوه بأسمائه الحسنى وصفـاته العلَى ، وقـد وصف الله تبارك وتعـالى في هذا المقام من أنكروا الرسالة بأنهم ما قدروا الله حقَّ قدره ، كما وصف من اتخذ ندًّا لله عـز وجل بأنه مـا قدر الله حق قـدره حيث قال في سـورة الحج : ﴿يا أيها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعـوا له إن الذين تَدْعُونَ من دون الله لن يخلُقُـوا ذُبَابًا ولو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذبـابُ شيئا لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب * ما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْره ، إنَّ الله لقـويٌّ عَزِيزٌ﴾ وكما قال عز وجل

في سورة الزُّمَر: ﴿قل أفغير الله تأمرونِّي أعبد أيها الجاهلون * ولقد أُوحِيَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركتَ لَيَحْبَطنَّ عَمَلُكَ ولتكونَنَّ من الخاسرين * بل الله فاعْبُدْ وكُن من الشاكرين * وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قدره والأرضُ جميعا قَبْضَتُهُ يوم القيامة والسمٰوات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فيجب على من يريد السعادة لنفسه أن يَقْدُرَ اللهَ عز وجل حق قدره كما يجب عليه أن يتقي الله حقَّ تقاته وأن يجاهد فيه حقَّ جهاده كما قال عز وجل: ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده﴾ وقال: ﴿اتقوا الله حقَّ تقاته﴾ والمراد من حق قدره وحق جهاده وحق تقاته ما كان مأمورا به أي حق جهاده الذي أمركم به، وحقَّ تقاته التي أمركم بها، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به، فصدِّقوا الرسول ﷺ فيما أخبر، وأطيعوه فيما أَوْجَبَ وأمر، على قدر استطاعتكم لأنه عز وجل لا يكلف نفسا إلا وسعها، أما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يُذَمُّ أحد على تركه، كالإحاطة بالثناء على الله وإحصاء ذلك فإنه خارج عن طاقة البشر، ولذلك قال رسول الله ﷺ في دعائه وهو ساجد: لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك فقد روى مسلم في صحيحه من حديث الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: اللهم إني أعوذ برضاك من سَخَطِكَ، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أُحْصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك. وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس﴾ نقضٌ لما زعمه المشركون واليهود المُغَرِّرُون بالمشركين الذين ادَّعَوْا أن الله تعالى ما أنزل على بشر من شيء، وقطعٌ لشبهتهم على أكمل وجه، وإلزامٌ لهم بها لا سبيل لهم إلى إنكاره أصلا، فإن المشركين كانوا مقرين بنزول التوراة على موسى عليه السلام وكانوا يقولون: لو أنا أُنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، كما أن اليهودي إذا أنكر نزول التوراة على موسى

كان خارجا عما يدعيه من اليهودية، ووصفُ الكتاب بكونه نورا وهدى للناس لزيادة التقريع والتوبيخ، وقوله: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ نَعْيٌ على اليهود الذين حرَّفوا التوراة وغيروا فيها، وزيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم، حيث كانوا يظهرون من أجزاء التوراة ما يشتهون ويخفون ما لا يشتهون، فقد كتموا صفة رسول الله ﷺ وأخفوا أحكام الرجم وحد السرقة ونحوهما، واتبعوا تعاليم التلمود العنصرية التي وضعها لهم أحبار السوء مما لا وجود لها في التوراة كما أشار إلى ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تُخْفُونَ من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ وقوله: ﴿قل الله﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عنهم إشعارا بتعين الجواب الذي لا محيد عنه وإعلاما بأنهم أُفحِمُوا ولم يقدروا على النطق بالجواب خجلا، أي قل لهم: الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وقوله عز وجل ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي ثم دَعْهُم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون: أَلَهُم العاقبة أم لعباد الله المتقين.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ، لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ .

بعد أن أفحم المشركين واليهود الذين زعموا أن الله ما أنزل على بشر من شيء جهلا وحسدا، وكذَّبهم في هذه الكلمة الشنعاء بتقرير أمر لا يستطيعون دَفْعَهُ وهو أنه عز وجل أنزل التوراة على موسى فأبطل بذلك حجتهم وأدْحَضَ زعْمَهُمْ، شرع هُنا في بيان ما سيق الكلام من أجله وهو تحقيقُ رسالة محمد ﷺ وأن الله الذي بعث موسى ﷺ وأنزل عليه التوراة هو الذي بعث محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن المبارك المصدقَ للتوراة ولسائر الكتب السماوية التي تقدمته حيث إنها تدعو إلى توحيد الله ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له والإيمان بجميع المرسلين وكلها متفقة أيضا في الكليات الخمس وهي حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، كما أنها كلها متفقة على وجوب الإيمان باليوم الآخر، وبجميع كتب الله وملائكته، وقد تَوَعَّدَ الله تبارك وتعالى المفترين على الله الكذب بالعذاب المهين المذل لهم عند سكرات الموت وفي البرزخ وفي الجحيم، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الذي بين يديه﴾ إلى قوله

تبارك وتعالى : ﴿لقد تقطع بينكُمْ وضَلَّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وهٰذا كتابٌ أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومنْ حَوْلَهَا﴾ أي وهذا القرآن كتابٌ موصوف بأنه أنزله الذي أنزل التوراة على موسى وهو مبارك أي عظيم المنافع كثير الخيرات لا تُحْصَى فوائده ويحصل لمن استمسك به عز الدنيا وسعادة الآخرة، مشتمل على المنهج الذي لا غنى للبشرية عنه أبدا، لتعرف به ربها ورسولها ومالها وما عليها، وتزدلف بتلاوته إلى ذي الجلال والإكرام، وهو كذلك موصوف بأنه مُصَدِّقُ الذي بين يديه أي مُقَرِّرٌ ومُوَافِقٌ لما جاء في جميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله من أصول الدين، نافٍ عنها ما ألحقه أحبار السوء بها، ولذلك قالت الجنُّ لما سمعت القرآن : ﴿إنا سَمِعْنَا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ وقال ورقة بن نوفل : إنَّ هذا والذي جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة، وكذلك قال النجاشي. وقوله : ﴿ولتنذر أمَّ القرى ومن حَوْلَهَا﴾ معطوف على معنى ما قبله أي وهو مثبت لكون محمد ﷺ نذيرا لأم القرى ومن حولها والمراد بأم القرى مكة لأن بها البيت الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس، والمراد بمن حولها جميع ما يحيط بها من مشارق الأرض ومغاربها وشماليِّها وجنوبيِّها، كما قال عز وجل : ﴿تبارك الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكون للعالمين نذيرًا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لأنذركم به ومن بَلَغَ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وَقُلْ للذين أُوتُوا الْكِتَابَ والأُمِّيِّنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فإنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فإِنَّمَا عليك الْبلاَغُ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ وفي التعبير بقوله عز وجل : ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾ في مجيئه مغايرا لنسق ما قبله وعطفه عليه بالواو لِلَفْتِ الانتباه إلى تأكيد ما سيق الكلام من أجله وهو إثبات أنَّ محمدا هو رسول الله حقا وصدقا وأن الله عز وجل أنزل

عليه هٰذا الكتاب العظيم ليكون للعالمين نذيرا وقولُهُ تبارك وتعالى ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يُحَافِظُونَ﴾ تنديد بالمشركين واليهود بالإشارة إلى أن الذي يحملهم على الكفر بهذا القرآن العظيم هو كفرهم بالقيامة واستبعادهم لها، فأما من انشرح صدره للإيمان باليوم الآخر وأيقن أن بديع السمٰوات والأرض لا يعجزه بعث الموتى وأن ذلك سهل عليه يسير، فإنه يؤمن بالرسالة والقرآن ويحرص على المحافظة على الصلوات، فإن قيل: إن أهل الكتاب يؤمنون باليوم الآخر وهم مع ذلك لا يؤمنون بالقرآن فالجواب: أن إيمانهم باليوم الآخر إيمان غير صحيح فلا يعتد به لأنهم لا يؤمنون ببعث الأجسام وإنما يزعمون أن البعث للأرواح فقط، ولذلك قال عز وجل في سورة التوبة: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورسوله ولا يَدِينونَ دين الحق من الذين أُوتُوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ ولذلك سارع من كان على بصيرة بدين موسى أو عيسى عليهما السلام من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام والنجاشي إلى الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه من الكتاب، فإن قيل: لم خصَّ الصلاة بالذكر مع أن المطلوب من المؤمن أن يحافظ على جميع الطاعات؟ فالجواب: أن تخصيص الصلاة بالذكر للتنبيه على أنها أشرف العبادات وأعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة. كما روى الترمذي وقال حديث حسن صحيح من حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاةُ، فمن تركها فقد كفر. كما روى الترمذي وقال حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أَوَّلَ ما يُحَاسَبُ به العبدُ يومَ القيامة من عمله صلاتُهُ، فإن

صَلَحَتْ فقد أفلح وأَنْجَحَ، وإن فَسَدَت فقد خاب وخَسِرَ. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء ومَن قال سأُنزِلُ مِثْلَ ما أنزل الله﴾ قال ابن تيمية رحمه الله: لما ذكر الله سبحانه قولَ الذين ما قدَرُوا اللهَ حقَّ قدره حيث أنكروا الإنزال على البشر، ذكر المتشبهين به، المدَّعِينَ لمماثلته من الأقسام الثلاثة فإن المماثل له، إما أن يقول: إنَّ الله أَوْحَى إليَّ، أو يقول: أُوحِيَ إليَّ وأُلْقِيَ إليَّ وقيل لي، ولا يُسَمِّي القائل، أو يُضيفَ ذلك إلى نفسه، ويذكر أنه المُنْشِئُ له، ووجه الحصر: أنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره وإذا ذكره فإما أن يجعله من قول الله أو من قول نفسه، فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى الله، وفيما حذف فاعله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء ومَن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ وتَدَبَّرْ كيف جعل الأوَّلَيْنِ في حيز الذي جعله وحيا من الله ولم يُسَمِّ الموحِي؟ فإنهما من جنس واحد في ادِّعاء جنس الإنباء، وجعل الآخر في حيز الذي ادَّعَى أن يأتي بمثله. ولهذا قال: ﴿ممن افترى على الله كذبا﴾ ثم قال: ﴿وَمَن قال سَأُنزِلُ مثل ما أنزل الله﴾ فالمفترى للكذب والقائل: أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيء من جملة الاسم الأول وقد قرن به الاسم الآخر، فهؤلاء الثلاثة المدَّعون لِشَبَهِ النبوة، وقد تقدم قبلهم المكَذِّبُ للنبوة، فهذا يَعُمُّ جميع أصول الكفر التي هي تكذيبُ الرسل أو مضاهاتهم، كمسيلمة الكذاب وأمثاله اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمَرَاتِ الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو ترى يا محمد، حين يغمر الموت بسكراته هؤلاء الظالمين العادلين بربهم الآلهة والأنداد، والقائلين: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ والمفترين على الله

كـذبـا ، الـزاعمين أنَّ الله أوْحَى إليهم ولم يُـوحَ إليهم شيء ، والقـائلين : ﴿سأُنزِلُ مثلَ ما أنزل الله﴾ فتُعَايِنهم وقد غشيتهم سكراتُ الموت ، ونزل بهم أمـرُ الله ، وحَانَ فنـاء آجالهم والملائكـةُ بـاسِطُو أَيْـدِيهِمْ يضربون وُجُـوهَهُمْ وأدبارهم ، كما قال جل ثناؤه : «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبـارهم . ذلك بأنهم اتبعوا مـا أسخط اللهَ وكرِهُـوا رضوانـه» يقولـون لهم : أخرجـوا أنفسكم . والغمرات جمع غمرة ، وغمـرة كل شيء كثرتـه ومعْظَمُهُ ، وأصله الشيءُ الذي يَغْمُرُ الأشياءَ فيُغَطِّيهَا ، ومنه قولُ الشاعر :

وهــل يُنْجِي من الغمرات إلا بُرا كَـاءُ القتـــال أو الْفِرَارُ

ثم قـال ابن جريـر رحمه الله : فإن قال قـائل : ما وَجْـهُ قولـه : ﴿أخرجـوا أنفسكم﴾ ونفوسُ بني آدم إنما يُخْرِجُها من أبـدان أهلها ربُّ العالمين؟ فكيف خُوطِبَ هؤلاء الكفار ، وأمِرُوا في حال الموت بإخراج أنفسهم؟ فإن كان ذلك كذلك فقد وجب أن يكون بنـو آدم هم يقبضون أنفس أجسامهم؟ قيل : إن معنى ذلك بخـلاف الـذي إليـه ذهبـتَ ، وإنما ذلك أمـرٌ من الله على أَلْسُن رُسُله الـذين يقبضون أرواح هؤلاء القـوم من أجسامهم بأداء مـا أَسْكَنَهَا ربُّها من الأرواح إليه ، وتسليمها إلى رسلـه الذين يتَوَفَّوْنَهَا . القـول في تأويل قوله : ﴿اليومَ تُجْزَوْنَ عذابَ الهُون بما كنتم تقولـون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ قال أبو جعفر : وهذا خبر الله جل ثناؤه عما تقول رسلُ الله التي تقبض أرواح هؤلاء الكفـار لها ، يخبر عنها أنها تقول لأجسامهـا ولأصحابها : أخرجوا أنفسكم إلى سخط الله ولعنته ، فإنكم اليـوم تُثَابُونَ على كفركم بالله ، وقِيلِكُمْ عليـه الباطلَ ، وزعمكم أن الله أوحـى إليكم ولم يُوحِ إليكم شيئـا ، وإنكارِكُمْ أن يكـون الله أنزلَ على بشر شيئا ، واستكباركم عن الخضـوع لأمر الله وأمر رسولـه ، والانقياد لطاعته «عذاب الهون» وهـو عذابُ جهنم الذي يُهِينُهم فيُذِلُّهُمْ حتى يعـرفوا صغـار أنفسهم اهـ وقولـه تبارك وتعـالى : ﴿ولقد

جئتمونـا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتـركتم ما خوّلناكم وراءَ ظهـوركم وما نَـرَى معكم شفعـاءَكم الـذين زعمتم أنهم فيكم شركـاءُ، لقـد تقطع بينكم وضل عنكم مـا كنتم تَـزْعُمُـونَ﴾ هذا خبر من الله عـز وجل عما هـو مـوبخٌ ومقَرِّعٌ به أعـداء المرسلين على رءوس الأشهاد يوم القيامـة إذ يقول لهم: ولقد أتيتمونـا منقطعين عن الأهل والمال والولـد حينما دعوناكم مـن قبوركم ونفخ الصور فخرجتم مسرعين قد أحييناكم كما خلقنـاكم أول مرة وقد بعثناكم من قبـوركم حفاة عـراة غُرْلاً لم تنتفعـوا بما ملكنـاكم، فتركتموه وراء ظهـوركم ولم تكتسبوا منه عملا صـالحا ينفعكم في الدار الآخرة، وقد تَبَرَّأَتْ منكم آلهتُكُم التي اتخذتموهـا مـن دون الله فـلا تستطيع الشفـاعـة فيكـم، وقـد تقطعت الأسباب بينكم وضل عنكم ما كنتم تفترون، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿وعُرِضُوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة، بل زعمتم أَلَّن نجْعَلَ لكم مـوعدا﴾ وبقـوله عـز وجل ﴿ويـوم يقول نَـادُوا شركائي الـذين زعمتم فَدَعَوْهُمْ فلم يستجيبـوا لهم وجعلنا بينهم مَوْبقًا﴾ وبقـوله عز وجل: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ في آيات كثيرة جدا.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فى ظُلُماتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ ، إِنَّ فى ذَالِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

بعد أن قرر عز وجل أدلة التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت على أكمل وجه شرع في لفت انتباه عباده إلى ألوان من الآيات الكونية الشاهدة بأنه لا إله إلا هو، الدالَّةِ على كمال علمه وقدرته وبالغ حكمته وجليل صُنْعِهِ حيث يقول عز وجل : ﴿إنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنوى ﴾ إلى قوله عز وجلَّ ﴿ إنَّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إنَّ اللـه فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ من الحَيِّ ﴾ أي إن الله هو الذى يفْلِقُ أي يَشُقُّ الحَبَّةَ اليابسة فيخرج منها الزرع الحىَّ النامي كالأرز والحنطة والشعير والدخن والذرة والبرسيم ويشق النواة اليابسة الجامدة فيخرج منها الشجر كالنخل والخوخ والمشمش ، وقد لوحظ أن الحبة أو النواة إذا وضعت في الأرض وأصابها الماء ومضت مدة من الزمن شَقَّ الله تبارك وتعالى فى هذه الحبة أو النواة شقًّا من أعلاها وشقًّا من أسفلها فيخرج من الشق الأسفل جذر الشجرة الذى يغوص في الأرض لإمداد الشجرة بأسباب حياتها وبقائها

بالقَدْر الـذى يريده الله لها ، ويخرج من الشق الأعلى الزرع والشجـر بسيقانه وأغصـانه وأوراقـه وما يتـولد فيـه بعد ذلك من المنـافع والثمار، وفي هذا آيـةٌ عظيمة تلفت انتباه ذوي الفكر إلى عجائب قدرة الله ، فإنَّ باطن الأرض جرم كثيف صلب قـد لا تنفذ المسلـة القـوية فيـه ولا يغوص فيـه السكين، ومع ذلك فإنَّ الله عز وجل يُمَكِّنُ لعـروق الشجرة أن تنفذ فيه وتغـوص في باطن هذه الأرض مع أن هـذه العروق في غـاية الـدقة والضعف بحيث لـو دلكها الإنسان بأصابعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، كما أن الزرع والشجر الذى ينبت من الحبة اليـابسة الجامدة أو النـواة اليابسة الجامـدة ينمو ويكبر ويحمل من الأوراق والثمار وجميع خصـائص الأصل الـذي منـه الحبـة أو النـواة ، حتى توجد فيه بمشيئة الله الحبة الجامدة اليابسة أو النواة الجامدة اليابسة ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ يخرج الحي من الميت ومُخْرِجُ الميتِ من الحي ﴾ والعرب قد يريدون بالحي كل ما ينمو من الحيوان والنبات ، وبالميت ما لا ينمو كالنطفة والحبة الجامدة والنـواة اليابسة ، وكذلك مـا لا روح فيه . وفَلْقُ الحب والنوى وإخراجُ الحى من الميت والميت من الحي يجيء على مقدار قدَّره العزيز العليم لمنافع الناس وأنعامهم فيما يحتاجونه من أقواتهم وفاكهتهم وأدويتهم وغيرها ، كما أشـار إلى ذلك حيث قال عن خلقـه عز وجل لـلأرض : ﴿ وبارك فيهـا وقَدَّرَ فيهـا أقواتها فى أربعـة أيام سـواءً للسائلين ﴾ وكما قـال تعالى في سـورة عَبَس : ﴿ فَلْيَنظُـر الإنسـانُ إلى طعامـه* أَنَّـا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّـا * ثم شَقَقْنَـا الأرضَ شَقًّا * فأنبتنـا فيها حَبًّا * وَعِنبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًـا ونَخْلاً * وحَدَائِقَ غُلْبًا * وفاكهـةً وأَبًّا * مَتَاعًا لكم ولأنعامِكُمْ ﴾ ومعنى قولـه تبارك وتعالى : ﴿ذٰلكم الله فأنى تُؤْفكـون ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : وأمـا قوله : ﴿ذٰلكم الله﴾ فإنه يقول : فاعلُ ذلك كلِّه اللَّهُ جل جلاله ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ يقول : فأي وجـوه الصَّدِّ عن الحق أيها الجاهلـون تُصَدُّونَ عن الصـواب وتُصْرَفُونَ ،

أفـلا تتدبـرون فتعلمـون أنـه لا ينبغي أن يُجْعَلَ لمن أنعم عليكم بفلق الحب والنوى ، فأخـرج لكم من يابس الحب والنـوى زروعا وحُرُوثًـا وثمارا تتغذون بِبَعضِهِ وتتفكهون ببعضه شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يبصر. اهــ وقـولـه تبارك وتعـالى : ﴿ فَـالِقُ الإصْبَـاحِ وجَعَلَ الَّليْلَ سَكَنًـا والشمسَ والقمرَ حسبانا ﴾ أي هو سبحانه هو الذى يشق عمود الصبح عن ظلمة الليـل ويفلق ظلام الليل عن غـرة الصباح ، فيضيء الـوجود ويستنير الأفق ويذهب الليل بظـلام رواقه ، ويجيء النهار بضيـائه وإشراقه ، فينتشر أهل الحاجـات لطلب حاجـاتهم بعـد أن سكنوا بـالليل ، واستراحوا ، وقـد جعل تبارك وتعالى الشمس والقمر يجريان في منازلهما بحساب مُقَدَّرٍ مُقَنَّنٍ لا يتغير ولا يضطرب لحظة واحدة منذ خلق الله السموات والأرض ، وكلٌّ واحد منهما يسلك منـازلـه في الصيف والشتــاء ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تـدرك القمـر ولا الليل سـابق النهـار وكـل في فَلَكٍ يسبحـون﴾ ويترتب على ذلك مصالح العبـاد والبلاد ، وتتـواجد بـذلك الفصول الأربعـة واختلافُ الليل والنهار طولا وقصرا ، ويعرف الناس السنين والشهور والأيام والحساب ، وقد نبه الله تبارك وتعالى عباده بذلك ليكونوا على بصيرة فيما يحيط بهم ويشاهدونه من آياتـه الكونية التى تجري بمقـدار دقيق عجيب ، ولذلك ذيل هـذا المقام ونحوه بقوله عز وجل : ﴿ ذٰلك تقدير العزيز العليم ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجري لمستقر لها ، ذٰلك تقدير العزيز العليم * والقمر قَـدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عاد كالعُرْجُونِ القديم * لا الشَّمسُ ينبغي لها أن تـدرك القمر ولا الَّيْلُ سـابقُ النهار، وكلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُون ﴾ . وكما قال عز وجل : ﴿ وزَيَّنَّـا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذٰلك تقـدير العزيـز العليم ﴾ وقد أشـار الله عز وجل إلى أن مجيء الليل والنهار هو من رحمة الله بعبـاده حيث يقول عز وجل : ﴿ قل أرأيتم إن

جعل الله عليكم الليْلَ سَرْمَدًا إلى يـوم القيامة مَنْ إِلَـهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بِضِياءٍ أفلا تسمعـون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سَرْمَدًا إلى يوم القيـامة مَنْ إِلَـهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيـه أفلا تُبْصِرُونَ * ومِن رحمتـه جعل لكم الليْلَ والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ومعنى قولـه تبارك وتعالى : ﴿ وهـو الذى جعل لكم النُّجُـومَ لِتَهْتَدُوا بها فى ظُلُمات البر والبحـر، قد فَصَّلْنَـا الآياتِ لقـوم يعلمون ﴾ أى والله الـذى يفلق الحب والنوى ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي والذي يفلق الإصباح، وقـد جعل لكم الليل سكنا والشمس والقمـر حسبانـا هو الـذى خلق لكم الكـواكب وجعلها أدلـة لكم إذا ركبتم السفن فى البحار أو كنتم في الفيـافي والقفار وضللتم الطريق أو تحيرتم فيها ليلا فلم تهتدوا إلى الجهة التي تريدون فإنكم تستدلون بهذه النجوم إلى وجهتكم، وتعرفون بها سبيلكم فتسلكونه، وتنجـون بها من ظلمات البر أو البحر التى تحيـط بكم، كما قال عـز وجل : ﴿وعلاماتٍ، وبالنَّجم هم يهتدون ﴾ وقـد مَيَّزَ اللهُ تبارك وتعالى الأدلة لكم، وفرَّق الحجـج والبراهين فيكم، ليتدبـرها أولو العلـم بالله منكم، وليعـرفها العقـلاءُ فَيُنِيبُوا مِن غَيِّهم، وينـزجروا عـن ضلالهم وخطئهم، وقـولُه تبـارك وتعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّـذِى أَنشَأَكُمْ مِن نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ فَمُسْتَقَـرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَـدْ فَصَّلْنَـا الآيـاتِ لِقَـوْمٍ يَفْقَهُـونَ ﴾ لفت انتباه النـاس إلى آيـات الله البـاهـرة وحججـه الظـاهـرة في إنشـاء جميع البشر مع اختـلاف ألـوانهم وألسنتهم وطبائعهـم من نفس واحدة وهي آدم عليـه السلام، وإنشـاء مستقر لهم فى الأرض التي جعلها لهم ذلولا، ومستـودعٍ لهم في البرزخ، كما قال عز وجل : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنهـا نخرجكم تارة أخرى ﴾ والمستقر : هو المكـان الـذى يحصل فيـه الاستقـرار والمستـودع : المكـان الـذى تجعل فيـه الوديعة، وقد قال تبارك وتعالى فى مطلع هذه السورة الكريمة : ﴿ هو الذى

خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجلٌ مُسَمًّى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ﴾ وقد ذكر الإمام البغوي عن مجاهد أنه قال : مستقر على ظهر الأرض فى الدنيا ومستودع عند الله في الآخرة ا هـ وقال أبوالسعود العمادي في تفسيره : ﴿قد فصلنا الآيات﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر من هذه الآية ونظائرها ﴿لقوم يفقهون﴾ غوامضَ الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر، فإن لطائف صنع الله عز وجل فى أطوار تخليق بنى آدم مما تحار في فهمه الألباب ، وهو السِّرُّ فى إيثار «يفقهون» على «يعلمون» كما ورد في شأن النجوم ا هـ وقولُهُ تبارك وتعالى : ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كلِّ شيء فأخرجنا منه خَضِرا نخرج منه حَبًّا مُتراكِبا ومن النخل من طَلْعِهَا قِنْوانٌ دَانِيةٌ وجناتٍ من أعناب والزيتون والرُّمَّان مُشْتَبِها وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إنَّ فى ذٰلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ زيادة تنبيه العباد إلى جزيل نعم الله عليهم ، بأنه وهو الذي أنشأهم قد أوجد لهم من رزقه ما يحتاجونه في معاشهم من الغذاء والفاكهة ، وأبرز لهم فيها حجته البالغة الدالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وجوده وإحسانه ، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على جملة كبيرة من البراهين الدالة على أن الله هو رب كل شيء وسيده ومليكه ، مع ما اشتملت عليه من تذكير العباد بأن هذه الأدلةَ هى نِعَمٌ لله عز وجل يجب على العباد أن يشكروا الله عليها ويخصوه بالعبادة ، ولا يتوجهوا بشيء من العبادة لسواه . ومعنى قوله عز وجل : ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ أي والله المستحق للعبادة وحده الذى يفلق الحب والنوى ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحي الذى فلق الإصباح وجعل الليل سكنا

والشمس والقمـر حسبـانا، وجعل لكم النجـوم لتهتـدوا بها فى ظلمات البر والبحر، وأنشأكم من نفس واحدة هو وحـده الذى أنزل عليكم المطر وجعل الماء أصـلا لكل شيء حي، وأخـرج بـه من غـذاء الأنعـام والبهـائم والطير والـوحش وأرزاق بني آدم وأقـواتهم وفـاكهتهم مـا يتغذون بـه فينبتـون عليـه وينمون مدة استقرارهم على الأرض، وفى قوله : ﴿فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبًّا متراكبًـا﴾ لفت انتباه إلى عظيم قدرة الله حيث أخرج مـن الحبة مادة خضراء لا وجود للحب فيها ثم يرتفع عـودها وتحمل سنبلة بها حب متراكب بعضُـه على بعض فى نظام دقيق عجيب. وقـوله: ﴿ومن النخل من طلعهـا قنوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعناب والزَّيتـون والرُّمان مشتبها وغير مُتَشابِهٍ﴾ لفت انتباه الناس إلى النخـل وما يخرج منها من الثمرة حيث تكـون في أول ظهورها كنعلين مُطْبَقَيْنِ والحَمْلُ بينهما منضـود والطَّـرَف مُـــحَدَّدٌ ثم يتفتح، وقشره يسمى الكُفُرَّى وهـو وِعَاءُ الطَّلْع، والقِنْـوان جمع قِنْو وهـو العِذْق، أى ومن النخل ما قنوانها دانية أى قريبة التنـاول بسبب قصر النخلة، ومنها ما قنوانها بعيدة لطـول النخلة، وقـد حذف القسم الثاني لـدلالة الأول عليـه كما قال: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أى وسرابيل تقيكم البرد، كما يلفت انتبـاه الناس إلى أشجـار الأعناب والـزيتون والـرمان ومـا تحمل من ثمار وما يـوجد بينهـا من التشابه فى أشيـاء والاختلاف فى أخرى ثم دعاهـم إلى النظـر فى ثمره عند أول بُدُوِّه وعنـد نضجه ليشاهـدوا عجائب صنع الله ولذلك قـال : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن في ذٰلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاءَ الجنَّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير عِلْم، سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السموٰات والأرض أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة وخلق كلَّ شيءٍ وهو بكل شيء عليم * ذٰلكم الله ربكم لا إلٰه إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ .

بعد أن ساق عز وجل جملة كبيرة من البراهين والحجج والأدلة الظاهرة الباهرة الدالَّةِ على أن الله عز وجل هو ربُّ كُلِّ شيء وسيدُه ومليكُه مع تذكير العباد بأن هذه الأدلـةَ هي كذلك نِعمٌ لله عز وجل يجب على العباد أن يشكروا الله عليها ويخصوه بالعبادة ولا يَتَوَجَّهُوا بشيء من العبادة لأحد سواه، شرع هنا في التنديد بمن جعل لله شريكا من خلقه وتوبيخ هؤلاء الذين ما قدروا الله حَقَّ قَدْرِه فجعلوا الجنَّ شركاءَ لله، واختلقوا له بنين وبناتٍ بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون، ولله الأسماء الحسنى والصفاتُ العُلَى . وفي ذلك يقول : ﴿وجعلوا لله شركَاءَ الجنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بغير علم، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ لا تُدْرِكُه الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصَار وهُوَ اللطيفُ الخَبِيرُ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقد اتخذوا الجنَّ أندادا لله عز وجل فعبدوهم واستعاذوا بهم واعتقدوا أنهم يدفعون عنهم الشر، مع أن الجنَّ خلقٌ من خلق الله وعبيدٌ من عبيده نواصيهم بيده يتصرف فيهم كيف يشاء ويحكم فيهم بما يريد، وقد خلق الله عز وجل الجنَّ من النار وخلق الملائكة من النور وخلق آدم من الطين، وقد قال تبارك وتعالى : ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفَخَّار * وخلق الجانَّ من مارج من نار﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :

خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجانُّ من مارج من نار، ، وخُلِقَ آدم مما وُصِفَ لكم. وقد أشار الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم إلى الذين ضلوا فعبدوا الجن حيث يقول: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن فَفَسَقَ عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياءَ من دوني وهم لكم عَدُوٌّ، بئس للظالمين بَدَلاً﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يَعْبُدُونَ * قالوا سبحانك أنت وليُّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أَكْثَرُهُم بهم مؤمنون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يَعُوذُونَ برجال من الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَخَرَقُوا له بَنِينَ وَبَنَـٰتٍ بغير علم﴾ أي وتخرصوا وكذبوا واختلقوا لله عز وجل بنين وبنات حيث زعمت اليهود أن العزير ابنُ الله، وزعمت النصارى أن المسيح ابنُ الله، وزعم بعض مشركي العرب أن الملائكة بناتُ الله. قال البخاري في كتاب بدء الخلق من صحيحه: قال مجاهد: ﴿وجعلوا بينه وبين الجِنة نَسَبًا﴾ قال كُفَّار قريش: الملائكة بناتُ الله، وأمهاتُهُنَّ بناتُ سَرَوَاتِ الجن، قال الله: ﴿ولقد علمت الجِنَّةُ إنهم لَمُحْضَرُونَ﴾ سَتُحْضَرُ للحساب اهـ كما بين عز وجل أن الجن لا يعلمون الغيب حيث قال: ﴿فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ فهؤلاء لم يقدُروا الله حق قدره وهذا ولا شك من جهلهم بصفات الله تعالى ولذلك قال عز وجل ﴿سُبْحَـٰنَهُ وتَعَـٰلى عما يصِفون﴾ قال الزجاج: أي بَرَاءَتَهُ من السُّوء، ومعنى سبحانه التبرئة عن كل سُوء، لا اختلاف بين أهل اللغة في معنى التسبيح أنه التبرئة لله جل وعز اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: القولُ فى تأويل قوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَى عما يصفون﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: تَنَزَّه اللَّهُ وَعَلاَ فارتفع عن الذي يصفه به هؤلاء الجهلةُ من خلقه فى ادِّعائِهِمْ له شركاء

من الجن واختراقِهم له بنين وبنات، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته لأن ذلك من صفة خلقه الذين يكون منهم الجماع الذى يَحْدُثُ عنه الأولاد، والذين تضطرهم لضعفهم الشهواتُ إلى اتخاذ الصاحبة لقضاء اللذات، وليس اللهُ تعالى ذكره بالعاجز فيضطره شيء إلى شيء، ولا بالضعيف المحتاج فتدعوه حاجته إلى النساء إلى اتخاذ صاحبة لقضاء لذة، وقولُه ﴿تعالى﴾ تفاعل من العُلُوِّ والارتفاع اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿بَدِيعُ السمٰوات والأرض أَنَّى يكونُ له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم﴾ بيانٌ لاستحالة ما نسبوه إليه تبارك وتعالى من الشريك والولد وتقريرُ تنزهه عن ذلك بالدليل القاطع والبرهان الساطع، قال ابن كثير رحمه الله: ﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مُبْدِعُهُمَا وخالِقُهُمَا ومُنْشِئُهُمَا ومُحْدِثُهُمَا على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البِدْعَةُ بِدعةً لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿أَنَّى يكُونُ له وَلَدٌ﴾ أي كيف يكون له ولد ﴿ولم تكن له صاحبةٌ﴾ أي والولدُ إنما يكون متولدا بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسِبُهُ ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالقُ كلِّ شيء فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولدا * لقد جئتم شيئا إِدًّا﴾ إلى قوله ﴿وكُلُّهُمْ آتِيهِ يومَ القيامة فَرْدًا﴾، ﴿وخَلَقَ كُلَّ شيء وهو بكل شيء عليمٌ﴾ فَبَيَّنَ تعالى أنه الذى خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم فكيف يكون له صاحبةٌ من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأَنَّى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيء فَاعْبُدُوهُ، وهو على كل شيء وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهو اللطيفُ الخَبير﴾ تقرير لأنواع التوحيد الثلاثة وهي توحيد الله عز وجل في ربوبيته، وتوحيده فى ألوهيته، وتوحيده فى أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولا نجاة للعبد إلا بتحقيق توحيد الله في ربوبيته

وتوحيده في إلَهيته وتوحيده في أسمائه الحسنى وصفاته العلى. والمشركون لا ينازعون في توحيد الربوبية فإنهم كانوا يقرون بأن الله هو خالق كل شيء حتى آلهتهم ولذلك كانوا يقولون في تلبيتهم في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ، لكنّ هؤلاء المشركين كانوا ينازعون في توحيد الألوهية المقتضي لوجوب إخلاص العبادة لله وحده ويقولون: أجعل الآلهةَ إلّها واحدا إنَّ هذا لشيء عُجَابٌ، وقد كانت أعظم وظائف المرسلين هي دعوةُ الناس إلى توحيد الله في ألوهيته وتعريفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى حتى لا يشركوا به شيئا على أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، وأن توحيد الربوبية لا يتضمن توحيد الألوهية، وقد اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان على أنواع التوحيد الثلاثة، فَعَرَّفَتِ الناسَ بأن الله هو ربُّ كل شيء وسيده ومليكه ومصلح شأنه ومدبر أمره وأنه وحده هو المستحِقُّ لأن يُعْبَدَ فلا يُشْرَكَ به شيء فلا إلّه إلا هو، وأنه تعالى هو خالق كل شيء، فالواجب على العباد أن يبذلوا له أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذُّل، ويكون إخباتُهم وإنابتُهم إليه وتوكلُهم عليه وطاعتُهم له في أمره ونهيه واتباع رسله وتصديق كتبه فإنه تبارك وتعالى على كل شيء وكيل أي حفيظ رقيب يقوم بتدبير خلقه وأرزاقهم وأقواتهم يكلؤهم بالليل والنهار، وقد وصف عز وجل نفسه المقدسة بأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، ومعنى ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أي لا تحيط به أبصار خلقه لجلاله وعظمته ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي وهو يحيط بِكُنْه الأبصار وحقيقتها وكيفية إبصارها على الوجه الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

قال الشيخُ ابنُ أبي العز شارحُ العقيدة الطحاوية رحمه الله: فقولُه ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ﴾ يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يُدْرَكُ بحيث يُحَاطُ به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قَدْر

زائدٌ على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لَمُدْرَكُونَ * قال كَلا﴾ فلم يَنْفِ موسى الرؤية وإنما نَفَى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالربُّ تعالى يُرَى ولا يُدْرَكُ، كما يُعْلَمُ ولا يحاط به علما، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه، وأما الأحاديث عن النبي ﷺ وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، فمنها حديث أبي هريرة أن ناسًا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا: قال: فإنكم ترونه كذلك، الحديث أخرجاه في الصحيحين بطوله، وحديث أبي سعيد الخدري أيضا في الصحيحين نظيره، وحديث جرير بن عبدالله البجلي قال: كنا جلوسا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته. الحديث. أخرجاه في الصحيحين وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره، وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن. أخرجاه في الصحيحين. ومن حديث عدي بن حاتم: وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أحدُكُم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، فيقول: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب. أخرجه البخاري في صحيحه. وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول قالها، ولولا

أني التزمت الاختصــار لسقت ما في الباب من الأحاديث ا هــ ولفظ حديث صهيب الذي أشار إليه ابن أبي العز قد ساقه بلفظ : قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿للذين أحسنـوا الحسنى وزيادةٌ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنـةِ الجنةَ ، وأهلُ النـارِ النارَ، نـادَى مُنَـادٍ: يـا أهل الجنة إن لكم عنـد الله مـوعـدا يريـد أن يُنْجِزَكُمُـوهُ، فيقولون: مـا هو؟ ألم يُثْقِلْ موازيننَـا ويُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ويـدخلْنا الجنة ويُجِرْنَا مـن النار؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطـاهم شيئا أحبَّ إليهم من النظـر إليه، وهـي الزيـادة. وقولُـه تبـارك وتعالى: ﴿وهـو اللطيف الخبير﴾ أي والله عز وجل هـو الذي لا تخفى عليه خافيـة من خلقه سواء كانت في السمٰوات أو في الأرض وهو الـرفيق بعباده كما قال عز وجل: ﴿إنها إن تك مثقـالَ حبة من خـردلٍ فتكن في صخرة أو في السمٰـوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ .

قال الله تعالى : ﴿قد جاءكم بصآئر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نصرِّف الآيات وليقولوا دَرَسْتَ ولنبينه لقوم يعلمون * اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إلٓه إلا هو وأعرض عن المشركين * ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظًا وما أنت عليهم بوكيل * ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم، كذٰلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئُهم بما كانوا يعملون﴾ .

بعد أن نَدَّدَ اللهُ عز وجل بمن جعل لله شريكا من خلقه وَوَبَّخَ هؤلاء الذين ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِهِ فجعلوا الجنَّ شركاء لله، واختلقوا له بنين وبنات بغير علم، ونَزَّهَ نفسه المقدسة عما يصفه به هؤلاء الجاهلون، وعَرَّفَ عباده ببعض أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، شرع هنا في تأكيد رسالة رسوله محمد ﷺ وبيان ما اشتمل عليه القرآنُ الكريم والحكمةُ التي جاء بها رسولُ الله ﷺ من الهُدَى والنور الذي يضيء لمن تمسك به سبيلَ الرشاد، ويهدي إلى الصراط المستقيم، ويُبَيِّن للناس منهج سعادتهم وعزهم في الدنيا والآخرة، لا يدع شيئا من الخير إلا دَلَّ الناس عليه ورغبهم فيه، ولا يدع شيئا من الشر إلا نهى الناس عنه وحذَّرَهم منه، وجعلهم على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وعرفهم أن من اهتدى فلنفسه ومن ضل فلا يضر إلا نفسه، وأن رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ، ونَبَّهَهُم إلى أنه صَرَّفَ الآيات وفصَّلها ليهتدي بها من يشاء الله هدايته، ولتستبين سبيل المجرمين الذين لا يؤمنون بالكتاب ولا يصدقون بالرسالة، ولِيَعْرِفَهُ الذين يعلمون، وحضَّ رسولَه ﷺ على الاستمساك بالذي أُوحِيَ إليه، والإعراض عن المشركين وواساه بأنه غير مسيطر على قلوب العباد وليس بمسئول عن معصية

العصاة، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قد جاءكم بصآئر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِيَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ أي قد جاءكم القرآن الذي يضيء لكم معالم معاشكم ومعادكم، وينير لكم طريق سعادتكم، وتدركون به ما ينفعكم وما يضركم، والبصائر جمع بصيرة، وهي النور الذي به يهتدي الإنسان إلى الصراط المستقيم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي فمن استنارت بصيرته وانشرح صدره للإسلام واتبع هُدَى الله الذي جاء به محمد ﷺ فقد جلب الخير لنفسه وأنقذ نفسه من النار، ومن انطمست بصيرتُه، وعَمِيَ قَلْبُهُ فكذَّبَ بالحق لما جاءه فإنه يضر نفسه ولا يضر الله شيئا، ووبالُ عمله السيئ لا يتحمله أحد سواه. وقد بين الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم أن عَمَى العين لا يضر صاحبه عند الله عز وجل وإنما الذي يضر صَاحِبَهُ هو عَمَى القلب حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فإنها لا تَعْمى الأبصار ولكن تَعْمَى القُلُوبُ التي في الصدور﴾ فالعَمَى الحقيقي هو عَمَى القلب لا عَمَى العين، إذ رُبَّ إنسان عميت عينه هو أعظم بصيرةً من كثير من المبصرين، كما أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأَضَلُّ سبيلا﴾ هو عَمَى البصيرة لا عَمَى البصر، ولذلك قال عز وجل: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكا ونَحْشُرُهُ يوم القيامة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيرا * قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تُنسى﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وما أنا عليكم بِحَفِيظٍ﴾ أي ولستُ عليكم بمسيطر، فلا سلطان على قلوبكم إلا لله وحده، وما على الرسول إلا البلاغ، وهذا تنبيه من الله لرسوله محمد ﷺ أن يقول لهم ذلك، مواساةً له، وإرغاما لهم، وقولُه تبارك وتعالى:

﴿وكذٰلك نُصرِّف الآيات وليقولوا دَرَسْتَ ولِنُبَيِّنَـهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ به شَبَهٌ من قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وكـذٰلك نُفَصِّل الآيات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجـرِمِينَ﴾ ومعنى ﴿دَرَسْتَ﴾ أي عَلَّمَكَ القـرآن بَشَرٌ، كما حكى الله تعـالى عنهم ذلك حيث يقول: ﴿وقـالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُمْلَى عليـه بكرة وأصيلا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ولقد نعلم أنهم يقـولون إنما يُعَلِّمُهُ بشَرٌ، لِسـانُ الذي يُلْحِدُونَ إليـه أَعْجَمِيٌّ وهٰذا لِسَـانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿أَنَّى لهم الذكـرى وقد جـاءهم رسول مبين * ثم تَـوَلَّوْا عنـه وقالـوا مُعَلَّمٌ مجنون﴾ والواو في قـوله تعـالى: ﴿وليقولـوا دَرَسْتَ﴾ للعطف على محذوف يـدل عليه السيـاق أي لتلزمهم الحجـة وليقـولوا درست ولنبينـه لقـوم يعلمون، وقـال أبوحيان في البحر المحيط: ولا يتعين ما ذكره المُعْرِبُونَ والمفسرون من أن اللام في ﴿وليقـولـوا﴾ لام كي أو لام الصيرورة، بل الظاهـر أنها لام الأمـر والفعل مجزومٌ بها لا منصـوبٌ بإضمار أن، ويـؤيده قـراءةُ من سكَّنَ الـلام، والمعنى عليه متمكن، كأنـه قيل: ومثل ذلك نُصَرِّفُ الآياتِ وليقولوا هم مـا يقولون من كونك دَرَسْتَهَا وتَعَلَّمْتَهَـا أو دَرَسَتْ هي أي بَلِيَتْ وقَدُمَتْ، فإنه لا يُحْفَلُ بهم، ولا يُلْتَفَتُ إلى قولهم، وهو أمرٌ معناه الـوعيدُ والتهديدُ وعدمُ الاكتراث بهم وبما يقولـون في الآيات، أي نُصَرِّفُهَا وَلْيَدَّعُـوا فيها ما شـاءوا فلا اكتراث بـدعواهم اهـ وضمير الغـائب في قولـه عـز وجل: ﴿ولنبينه﴾ للقـرآن أو الكتاب لأنه المقصود من قوله عز وجل: ﴿وكذٰلك نصرف الآيات﴾ ومعني قوله تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إليك من ربك لا إلٰه إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ أي استمسك بالـذي أُوحِيَ إليك من سيدك ومالكك ومصلح أمـرك ومدبـر شأنك الذي لا معبـود بحق سواه، ولا تعبأ ولا تلتفت إلى مـا يقوله المشركـون الذين يقولون: دَرَسْتَ، ولا ينتفعـون بما أنزله الله عليك من القرآن العظيم والـذكر الحكيم، فإنهم سيعلمـون أنك على الحق، وأنهم على

ضلالـة، فاثبت أنت ومن معك من المؤمنين على الحق الـذى أُوحِيَ إليك، ولا تكترث بأذى المشركين، فإنَّ العاقبة للمتقين، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولو شـاء اللهُ ما أشركـوا﴾ أي ولو أراد الله عـز وجل إرادة كَوْنيـةً أن لا يشركوا مـا أشركوا، فإنـه ما شاء الله كان ومـا لم يشأ لم يكن، وقلوبُ عباده بيـده وحده يهدي من يشـاء فضلا، ويضل من يشـاء عدلا، ومـا ربك بظلام للعبيـد، فمن علم الله فيه خيرا هـداه ومن علم انتكاس قلبه وارتكاس نفسـه أضله، وليس ذلك إلا لله وحده، ولذلك قال بعدها: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظا ومـا أنت عليهم بـوكيل﴾ أي وما أرسلنـاك عليهم حفيظـا ومـا أنت عليهم بجَبَّارٍ تَقْهَرُهُمْ على مـا تريـد، وتُكْـرِهُهُم على ما تحب، ومـا أنت بمهيمن عليهم، ولستَ عليهم بمسيطر، إنْ أنـت إلا نذير، ومـا عليك إلا البلاغ، وفي هذا مـواساةٌ لرسول الله ﷺ وتثبيـتٌ لفؤاده، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿ولا تَسُبُّوا الذين يَدْعُونَ من دون الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوًا بغير علم، كذلك زَيَّنَّا لكل أمـة عَمَلَهُمْ ثم إلى ربهم مَرْجِعُهُـمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بما كانـوا يَعْمَلُـونَ﴾. هذه الآيـة الكريمة ترشـد إلى قاعدة جليلة من قواعد وأصـول السياسة الشرعية التي لا غنى عنها للـراعي والرعيـة، وهي تمثل صورةً من صـور الحكمة التي ينبغي لدعـاة الهدى أن يَتَحَلَّوْا بها المشـار إليها في قـوله عـز وجل: ﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وكما قال عز وجل لموسى وهارون عليهما السـلام لما بعثهما إلى فـرعون: ﴿فقُـولا لـه قـولا لينـا لعله يتـذكـر أو يخشى﴾ وقـد نَبَّهَتْ هذه الآيـة الكـريمة إلى أن الشيء قـد يكون مشروعـا في الأصل لكن فعله في بعض الحالات قد يكون وسيلة إلى ارتكاب محظور يفوق مصلحته ويـؤدي إلى مفسدة أكبر وأخطـر، والمعلوم من هَـذي الديـن سَدُّ ذرائع الشر والفسـاد، وأن درء المفاسـد مقدم على جلب المصـالح وأن أكبر

الشَّرَّين يُدْفَعُ بأخفهما فلو تساوت المصلحة مع المفسدة ترك الفعل لدرء المفسدة فما بالُك لو كانت المفسدة التي تترتب على الفعل أكبر؟ ولذلك نهى الله عز وجل المسلمين في هذا المقام الكريم من كتابه العظيم عن سب أصنام المشركين مع أن هذه الأصنام مستحقة للسب والشتم، لكن إذا كان سبُّها يؤدي إلى اندفاع أوليائها حتى يفقدُوا شعورهم فيسبوا الله عز وجل عَدْوًا بغير علم مع أنهم كانوا يعتقدون أن الله أكبر من آلهتهم لكنهم يعمهون عن ذلك بسبب ما استثارهم من سب آلهتهم، فيحملهم جَهْلُهُم وتَسَرُّعُهم وحماقتهم على سب الله عز وجل. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تعليل النهي عن الصلاة في وقت طلوع الشمس وغروبها: إن النهي إنما كان لسد الذريعة وما كان لسد الذريعة فإنه يُفْعَلُ للمصلحة الراجحة، وذلك أن الصلاة في نفسها من أفضل الأعمال وأعظم العبادات كما قال النبي ﷺ: استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة. فليس فيها نفسها مفسدة تقتضي النهي، ولكن وقت الطلوع والغروب الشيطانُ يقارن الشمس وحينئذ يسجد لها الكفار، فالمصلي حينئذ يتشبه بهم في جنس الصلاة، فالسُّجُودُ وإن لم يكونوا يعبدون معبودهم ولا يقصدون مقصودهم لكن يشبههم في الصورة، فَنُهِي عن الصلاة في هذين الوقتين سَدًّا للذريعة حتى ينقطع التشبه بالكفار، ولا يتشبه بهم المسلم في شركهم، كما نُهي عن الخلوة بالأجنبية، والسفر معها، والنظر إليها لما يُفْضي إليه من الفساد، ونهاها أن تسافر إلا مع زوج أو ذي محرم، وكما نهى عن سب آلهة المشركين لئلا يسبوا الله بغير علم، وكما نهى عن أكل الخبائث لما يفضي إليه من حيث التغذية الذي يقتضي الأعمال المنهي عنها، وأمثال ذلك. ثم إن ما نهى عنه لسد الذريعة يباح للمصلحة الراجحة، كما يباح النظر إلى المخطوبة، والسفر بها إذا خيف ضياعها كسفرها من دار الحرب مثل سفر أم كلثوم وكسفر عائشة

لما تخلفت مع صفوان بن المعطل فإنـه لم يُنْهَ عنه إلا لأنـه يفضي إلى المفسدة، فإذا كان مقتضيـا للمصلحة الراجحـة لم يكن مفضيا إلى المفسدة ا هـ. وقد ساق شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله في إعـلام الموقعين تسعة وتسعين وجها في الاستدلال لإثبـات قاعدة سد الـذرائع فَلْيَضَعْ دعاةُ الهُدَى نُصْبَ أعينهم أن الله عز وجل منع المسلم أن يعمل عمـلا جائزا يؤدي إلى محظـور، وأنه نهاه عن كل عمل فيـه مصلحـة إذا كـان يترتب عليـه مفسـدة أكبر مـن هـذه المصلحة، وأن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحـة وجب تركها لأن ما يؤدي إلى الشر شر، فلو رأيت إنسانا على مفسدة وعلمت أنك لو نهيته عنها ارتكب مفسـدة أكبر منهـا لحماقته فإنك تكف عنـه حتى تعلم أنـه على حـال يتقبل منك، فالأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر، والنهي عن المنكر قـد يقبح إذا أدَّى إلى زيـادة المنكر، وغلبـة الظن قـائمة مقـام العلم في هـذا البـاب. قـال شيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله: وقولـه: ﴿زينـا لكل أمـة عملهم﴾ هـو بتـوسيط تـزيين الملائكـة والأنبيـاء والمؤمنين للخير، وتـزيين شيـاطين الجن والإنس للشر قال تعـالى: ﴿وكـذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتلَ أوْلَادِهِم شُركاؤُهُم ليُرْدُوهُمْ وليَلْبِسُوا عليهم دينهم﴾ ا هـ ومعنى ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كـانوا يعملون﴾ أي ثم مـرجع الجميع ومعادهم إلى الله فيجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾.

قال تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جآءَتهم آيةٌ ليؤمننَّ بها ، قل إنَّما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ .

بعد أن أكَّدَ الله تبارك وتعالى رسالة رسوله ونبيه محمد ﷺ وبَيَّنَ ما اشتمل عليه القرآن الكريم والحكمة التي جاء بها رسولُ الله ﷺ من الهُدَى والنور الذي يضيء لمن تمسك به سبيل الرشاد ويبين للناس منهج سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ويجعلهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، شرع في تأكيد عناد المكذبين ومكابرتهم وسوء سلوكهم حيث لم يكتفوا بالآية الكبرى والبينة العظمى التي أيَّد الله عز وجل بها رسوله محمدا ﷺ وهي القرآن العظيم الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فعاندوا وكابروا وتخبطوا وراوغوا وَلَجَؤُوا إلى التحكم على رسول الله ﷺ فطلبوا منه ﷺ أن يأتيهم بآية يقترحونها ، وبذلوا أقصى ما عندهم من تأكيدات الأيمان بالله لئن جاءتهم آيةٌ من هذه الآيات التي يقترحونها ليؤمِنُنَّ بها ، وقد اقترحوا أن يفجر لهم أرض مكة أنهارا وينابيع أو يكون له جنة من نخيل وعنب أو يكون له بيت من ذهب أو يصعد إلى السماء ويرونه بأعينهم مؤكدين أنهم لن يكتفوا بمشاهدتهم لِرُقِيِّه حتى يأتيهم بكتاب من السماء يقرؤونه كما اقترحوا أن يكلمهم بعض موتاهم بأن محمدا هو رسول الله ، وقد جهل هؤلاء أن الآيات بيد الله وحده ، وتناسَوْا ما أكدَّه الله عز وجل في مواضع من كتابه الكريم بأن الآيات لا يأتي بها إلا الله عز وجل وأن رسول الله ﷺ ليس بيده المجيء بالآيات ، كما أنه ليس بيده هداية قلوب قومه ، وإنما هدايتهم بيد الله وحده ، وأن المجيء بالآيات المقترحة قد يكون سببا في إهلاكهم إذا كفروا بها بعد مجيئها ، كما قال عز وجل : ﴿قال الله إني مُنَزِّلُهَا عليكم فمن يكفر بعدُ

منكم فإني أعذبـه عذابا لا أعـذبه أحداً من العَالَمِينَ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وقالـوا لولا نـزِّل عليه آية من ربـه ، قل إن الله قادر على أن يُنَـزِّل آية ولَكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وقالوا لن نـؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنـا من الأرض ينبوعـا * أو تكـون لك جنة من نخيل وعنب فَتُفَجِّـر الأنهار خِـلاَلَهَا تفجيرا * أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينـا كِسَفًـا أو تأتي بـالله والملائكة قبيـلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو تـرقى في السماء ولن نؤمن لـرقيك حتى تنـزل علينـا كتابـا نقـرؤه ، قل سبحـان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وما مَنَعنَـا أن نرسل بالآيـات إلا أن كذَّب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفا﴾ وقال عز وجل في هذا المقام من سورة الأنعام : ﴿ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلَّمهم الموتى وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيء قُبُلاً ما كـانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولَكنَّ أكثـرهم يجهلـون﴾ ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿وأقسمـوا بـالله جَهْـدَ أيمانهم﴾ أي وحَلَفُوا بالله مؤكدين أيمانهم بكل مـا يستطيعون من أنواع توكيد الأيمان ، وفي هذا إشـارة إلى أنهم مع شركهم بالله فإنهم يعظمـون الله ولكنهم لحماقتهم وعدم صبرهم على سماع سب أصنامهم قـد يندفعون لسب الله عز وجل عَـدْوًا بغير علم ، ومعنى قولـه عز وجل : ﴿لئن جـاءتهم آيةٌ ليـؤمِنُنَّ بها﴾ أي قالوا نقسم بـالله لئن أتتنا آية خارقة مما نقترحهـا على محمد لَنُصَدِّقَنَّ بمجيئها أنه رسول الله ، وأنَّ ما جاءهم به حقٌّ من عند الله ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن المسارعة إلى تأكيد الأيمان كذبا وفجورا هو دأب هؤلاء المشركين إذ كانوا يعيبون على بعض السلوك المعـوج الذي يقترفه اليهود والنصارى فيقسم هـؤلاء المشركون بـالله جهـد أيمانهم أنهم لـو جاءهـم نذيـر أدنى من مـوسى وعيسى ليكـونن أهدى من اليهـود والنصـارى فلما جاءهم أعظم المنـذرين وشيخ المرسلين محمد ﷺ ما زادهم إلا نفـورا ، كما قال عز وجل : ﴿وأقسموا

بـالله جهد أيمانهم لئن جـاءهم نـذيـر ليكونُنَّ أهـدى من إحـدى الأمم فلما جـاءهم نذيـر مازادهـم إلا نفـورا * استكبارا في الأرض ومكـر السَّيِّىء ، ولا يَحِيقُ المكر السَّيِّىء إلا بأهله﴾ ومعنى قولـه عز وجل : ﴿قل إنما الآياتُ عند الله﴾ أي قل يا محمـد لهؤلاء المقترحين للآيات : إن الله هو وحـده القادر على الإتيان بالآيات . ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وما يُشْعِرُكُمْ أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ التفـات للفت الانتباه بأن هؤلاء الذين يقترحـون الآيات ويقسمون بـالله أنهم يصدقـون بها إذا جـاءتهم قـد لعب الشيطـان بهم وانقادُوا لَـهُ فما يُدْرِيكُم أنها إذا جـاءتهم آمنوا بها ، فإنَّ من طبع الله على قلبـه لن يؤمن مهما رأى من الآيات ، ولو كـان هؤلاء صادقين لكفاهم ما جـاءهم من آية القرآن البينة وحجته الظـاهرة ومعجزته القاهرة . ومعنى قـوله عز وجل : ﴿ ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّل مرة ونَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ونحول قلوبهم وأعينهم فلا يفقهون بقلوبهم ولا يبصرون بأعينهم ما يرونه من الأدلة والبراهين فيستمرون على ما كانوا عليـه من العناد والمكابرة ولا ينتفعون بما اقترحوا من الآيات إذا جاءتهم فلا يؤمنـون بها كما أنهم لم يؤمنوا بما أيدنا به رسولنـا محمدا ﷺ من الحجة العظمى وهي القـرآن الكريم وما شـاهدوه من انشقاق القمر، حيث كـانوا كُلَّما شاهدوا آيـة أعرضوا وقالـوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم فَخَذَلْنَاهُم وتركناهم في ضلالهم يتحيرون ويترددون ، عقوبةً لهم على عنـادهم ومكابرتهم ، فإنَّ السيئة تجلـب السيئة كما أن الحسنة تجلب الحسنـة . قال شيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمه الله : فمن عمل بما علم أورثه الله عِلْمَ ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿والذين اهتدَوْا زادهم هُدًى وآتاهم تقواهم﴾ وقال تعـالى : ﴿ولو أنهم فعلوا ما يُوعَظُونَ بـه لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذًا لآتينـاهم من لدنـا أجرا عظيما * ولهدينـاهم صراطا مستقيما﴾ وقال تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله وآمِنُـوا برسوله يؤتكم كِفْلَيْنِ من رحمته

ويجعلْ لكم نُوراً تَمْشُونَ به ويغفرْ لكم، واللهُ غفورٌ رحيم﴾ وقال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ وقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين * يَهْدِي به اللهُ من اتَّبَعَ رضوانَه سُبُلَ السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ وشواهدُ هذا كثيرةٌ في الكتاب والسنة، وكذلك مَن أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعًا لهواه فإن ذلك يُورِثُهُ الجهلَ والضلالَ، حتى يَعْمَى قلبُه عن الحق الواضح، كما قال تعالى: ﴿فلما زاغُوا أزاغ الله قُلُوبَهُم، والله لا يَهْدِي القومَ الفاسقين﴾ وقال تعالى: ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مَرَضًا﴾ وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا، قل إنما الآيات عند الله وما يُشْعِرُكُمْ أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونُقَلِّبُ أفئدتَهُمْ وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّلَ مَرَّةٍ ونَذَرُهُمْ في طغيانهم يَعْمَهُونَ﴾ وهذا استفهام نفي وإنكار، أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة. وعلى قراءة من قرأ «إنها» بالكسر تكون جزما بأنها إذا جاءت لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أَوَّلَ مرة، ولهذا قال مَن قال من السلف كسعيد بن جُبَيْر: إنَّ مِن ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإنَّ مِن عقوبة السيئةِ السيئةَ بعدها، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: عليكم بالصدق فإن الصدق يَهْدِي إلى البر، وإن البِرَّ يَهْدِي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يَصْدُق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقًا، وإياكم والكذبَ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولايزال الرجل يَكْذِبُ ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كَذَّابا. فأخبر النبيُّ ﷺ أن الصدقَ أصلٌ يستلزم البِرَّ، وأن الكذب يستلزم الفجور اهـ. وقال ابن تيمية رحمه الله أيضا: ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قولُه تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ

أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا من تمام قوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم﴾ الآية، فذكر أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لَـمَّا لم يؤمنوا به أول مرة، وهذا عدم الإيمان اهـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في موضع آخر: هذه تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ، منها قولُه: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾ والآية بعدها أشكلت قراءة الفتح على كثير بسبب أنهم ظنوا أن الآية بعدها جملة مبتدأة، وليس كذلك لكنها داخلة في خبر أن. والمعنى: إذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنا أفعل بهم هذا لم يكن قَسَمُهُمْ صدقا بل قد يكون كذبا، وهو ظاهر الكلام المعروف أنها أَنَّ المصدرية ولو كان «ونُقَلِّبُ» الخ كلاما مبتدأ لزم أن كل من جاءته آيةٌ قُلِّبَ فؤادُهُ، وليس كذلك، بل قد يؤمن كثير منهم اهـ وقد قلتُ في تفسير قوله تبارك وتعالى في الآية الخامسة عشرة من سورة البقرة: ﴿وَيَمُدُّهُمْ في طغيانهم يَعْمَهُونَ﴾ أي يزيدهم على وجه الإملاء والتركِ لهم في عُتُوِّهم وتمرُّدِهم كما فعل بنظرائهم في قوله عز وجل: ﴿ونُقَلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ يعني نذرهم ونتركهم فيه ونُمْلِي لهم ليزدادوا إثما على إثمهم وضلالا فوق ضلالهم وعُتُوا على عُتُوِّهِمْ، والطغيان مجاوزة الحد والغُلُوُّ في الكفر، والإسرافُ في المعاصي والظلم، ومعنى «يعمهون» أي يتيهون في الضلالة ويتحيرون ويتردَّدُونَ ولا يهتدون سبيلا، قال في القاموس المحيط العَمَهُ التحيُّرُ والتردُّدُ، وقد عَمِهَ بالكسر فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ، والجمع عُمَّهٌ قال رؤبة:

ومَهْمَهٍ أطرافُه في مَهْمَهِ أعمى الْهُدَى بالجاهلين العُمَّهِ

وأرض عَمْهَاءُ: لا أَعْلاَمَ بها، وذهبت إِبِلُهُ العُمَّهَي إذا لم يدر أين

ذَهَبَت اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب : قال ابن الأثير: العَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر اهـ هذا وقد أرشد الله تبارك وتعالى العباد إلى أسباب فوزهم ونجاتهم بالالتجاء إليه والاعتماد عليه والانتهاء عن معاصيه فقال : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قَدْرًا﴾ وقال عز وجل : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذاب أليم﴾ وقال عز وجل : ﴿ وإما يَنزَغَنَّكَ من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ . وقال عز وجل : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاسْتَغْفَرُوا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولَئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ وعلى العبد أن يكثر من سؤال الله عز وجل أن يُثَبِّتَهُ بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة وأن يقول : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام برحمتك أستغيث فأصلح لي شأني كلَّه ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين. ولله در القائل :

إذا كان عون الله للعبد مسعفا تأتى له من كل شيء مراده

وإن لم يكن عونٌ من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال تعالى : ﴿ ولو أنّنا نـزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كلّ شيءٍ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولٰكن أكثرهم يجهلون * وكذٰلك جعلنا لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غـرورا، ولو شـاء ربك ما فعلوه فـذرهم وما يفترون * ولتصغـىٰ إليه أفئـدة الذين لا يؤمنون بـالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون * أفغير الله أبتغي حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزلٌ من ربك بالحق فلا تكوننَّ من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً، لا مبدّل لكلماته، وهو السميع العليم﴾

بعد أن أكد الله عز وجل ما وقع فيه المكـذبون المشركون من العناد والمكابرة والمراوغـة حيث لم يكتفوا بـالآية العظمى والحجـة الكبرى ولَجَؤوا إلى التحكم على رسول الله ﷺ حيث طلبوا منه أن يأتيهم بآيـة يقترحونها وبذلوا أقصى ما عندهم من تأكيد الأيمان بالله لئن جاءتهم آيةٌ من هذه الآيات المقترحة ليؤمنن بها، وأمـر نبيـه ﷺ أن يقول لهم : إنما الآيـات عنـد الله، وبَينَّ عـز وجل أن قلوب العباد بيده يُصَرِّفُها كيف يشاء فيهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عـدلا، شرع هنا في بيـان الحكمة الـداعية إلى تـرك الإجابـة إلى ما اقترحـوه، وتأكيد كذبهم في أيمانهم الفـاجرة على أبلغ وجه وآكده وأنه تعـالى لو أعطاهم مـا طلبـوه من إنـزال الملائكة وإحيـاء الموتى حتى يكلمـوهم ويبينـوا لهم أن محمـدا هو رسـول الله حقا وصـدقا بل لـو زاد على ذلك بأن يحشر عليهم كلَّ شيء مما طلبـوه ومما لم يطلبوه قُبُلاً أي مـواجهة وعيانـا ما كانوا ليـؤمنوا إلا أن يشاء الله، ثم واسَى رسوله محمدا ﷺ على ما يـلاقيه من أذى قومه وتكذيبهم وعنادهم وبَيَّنَ له أن إخـوانه من الأنبياء والمرسلين قد لاَقوا مثل الـذي يلاقيه من أذى الشياطين المتمـردين من الإنس والجن، وأن الله عـز وجل ناصره كما

نصرهم، وأن أهل الكتاب موقنون بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا، وأكَّد الله عز وجل أن كلمته نافذة، وأن شريعته تامة لا محالة، حيث يقول عز وجل: ﴿ولو أننا نَزَّلْنَا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وتمت كلمةُ ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولو أننا نَزَّلْنَا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحَشَرْنَا عليهم كل شيء قُبُلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾ أي ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمِنُنَّ بها بل لو أننا لم نقتصر على إيتائهم ما اقترحوه ههنا من آية واحدة من الآيات بل نَزَّلْنَا إليهم الملائكة وشهدوا لهم بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا، وأحيينا لهم الموتى فخاطبوهم وأخبروهم بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا، وجَمَعْنَا لهم كل الخوارق والمعجزات وشاهدوها عيانا، وشهِدَتْ لهم بأن محمدًا هو رسول الله حقا وصدقا ما كانوا ليؤمنوا ويصدقوا بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا إلا من هدى الله عز وجل منهم وشرح صدره للإسلام وانتفع بما جاء به محمد ﷺ، فأما من سبقت شقوته وحقت عليه كلمة العذاب، فإنه لن يؤمن مهما رأى من الآيات كما قال عز وجل: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمةُ ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كلُّ آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ إشارة إلى أن هؤلاء المشركين ليسوا سواء، فأكثرهم قد غلبه الجهل وانطمست بصيرته فانسدت طرق الخير عن قلبه وسمعه وبصره، ومنهم من لم يغلق الجهل قلبه وسمعه وبصره فلا يمنع أن يزول غطاء الغفلة الذي على قلبه وسمعه وبصره فَيُصَدِّق بالحق الذي جاء به محمد ﷺ ويتغير حاله، ويقبل هُدَى الله إذا شاء الله عز وجل ذلك، وقولُه عز وجل ﴿وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عَدُوًّا شياطين الإنس والجِنِّ يُوحِي

بعضهم إلى بعض زُخْـرُفَ الْقَوْلِ غروراً ولـو شاء ربك مـا فَعَلُوه فـذرهم وما يفترون﴾ مَسُوقٌ لمواساة رسـول الله ولحضه على الصبر على ما يلاقيـه ببيان أن عداوة صناديد المشركين له ﷺ ليست بدعا بل هي سنة الله التي قد خلت مع جميع النبيين والمرسلين حيث جعل الله عـز وجل لكل نبي عـدوا شيـاطين الإنس والجن يـوحي بعضهم إلى بعض زخـرف القـول غـرورا مع أن الله عـز وجل قـادر على ردع هؤلاء المشركين ومنعهم من أذى الأنبيـاء والمرسلين لكنه يبتلي عبـاده الصـالحين ليرفع درجـاتهم بصبرهم على أذى المكـذبين بهم من أقوامهم، كما قـال عز وجل: ﴿ولقد كُـذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبُـوا وأُوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله، ولقـد جاءك من نبأ المرسلين﴾ وكما قـال عـز وجل: ﴿ما يقـال لك إلا مـا قـد قيل للـرسل من قبلك، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليـم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فاصبر كما صبر أوْلـواْ العــزم من الـرسل ولا تستعجل لهم﴾ وكما قــال عـز وجل: ﴿ذٰلك ولـو يشاء الله لانتصر منهم ولٰكن ليبلـواْ بعضكم ببعض﴾ قـال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعـالى ذكره لنبيه محمد ﷺ مُسَلِّيَهُ بذلك عما لَقِيَ من كَفَـرَة قومـه في ذات الله وَحَـاثًّا لَـهُ على الصبر على مـا نال فيـه: ﴿وكذٰلك جعلنـا لكل نبي عدوًّا﴾ يقـول: وكما ابتليناك يا محمـد بأن جعلنا لك من مشركي قومك أعداءً شيـاطينَ يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليصدوهم بمجـادلتهم إياك بـذلك عن اتّباعك والإيمان بـك وبما جئتهم به من عند ربـك، كذلك ابتلينا مَن قبلَـكَ من الأنبياء والرسـل بأن جعلنا لهم أعـداءً من قـومهم يـؤذُونهم بـالجدال والخصـومـات، يقـول: فهـذا الـذي امتحنتك بـه لم تُخَصَّصْ به من بينهم وحـدك، بل قد عَمَمْتُهُم بـذلك معك لأبتليهم وأختبرهم مع قــدرتي على منع مَنْ أذاهم من إيـذائهم، فلم أفعل ذلك إلا لأعـرف أولي العزم منهم مـن غيرهم، يقول: فـاصبر أنت كما صبر

أوْلواْ العزم من الرسل اهـ. وقد ذكرت في تفسير الآية الرابعة عشرة من سورة البقرة ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزِئونَ﴾ أن الشيطان هو المتمرد من الإنس والجن والدواب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإنَّ الله تعالى قد أخبر أنه جعل لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، وإيحاؤهم هو وسوستُهم وليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر بل قد يشاهد، قال تعالى: ﴿فوسوس لهما الشيطانُ ليبديَ لهما ما وُورِيَ عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لَمِنَ الناصحين﴾ وهذا كلام مَن يعرف قائله، ليس شيئا يُلْقَى في القلب لا يُدْرَى ممن هو، وإبليس قد أُمِرَ بالسجود لآدم فأبى واستكبر، فلم يكن ممن لا يعرفه آدم، وهو ونَسْلُهُ يَرَوْنَ بني آدم من حيث لا يرونهم، وأما آدمُ فقد رآه، وقد يرى الشياطين والجنَّ كثيرٌ من الإنس لكن لهم من الاجتنان والاستتار ما ليس للإنس. وقد قال تعالى: ﴿وإذ زيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفئتانِ نكَصَ على عَقِبَيْهِ وقال إني بريء منكم﴾ وفي التفسير والسيرة أن الشيطان جاءهم في صورة بعض الناس وكذلك قوله: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكْفُر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله ربَّ العالمين﴾ اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زُخْرف القول غُرُورا﴾ أي يوسوس بعضهم إلى بعض ويُزَيِّنُون لهم الأعمال القبيحة المعادية لدين الله بالأقوال المزخرفة المموهة المزينة التي لا طائل تحتها سوى محاربة الله ورسله ليَغْتَرَّ بها من سمعها فيضل عن سبيل الله فظاهرها ترياق وباطنها سم زُعاف زُعَاقٌ، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ تأكيد على

أن كل شيء بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وأن الله عز وجل لو شاء لَهَدَى الناس جميعا ، وحضٍّ لرسول الله ﷺ على الصبر على ما يصيبه منهم ، ولذلك قال عز وجل : ﴿فذرهم وما يفترون﴾ أي دع أذاهم وتوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء واصفح عنهم وأعرض عن الجاهلين . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولِيَرْضَوْهُ وليقترفوا ما هم مقترفونَ﴾ عطف على غرورا المفعول لأجله أي ليَغُرُّوا ولتصغى ، وما بينهما اعتراض ، كأنه قيل : يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليَغُروهُم به ولتميل إليه أفئدتهم وليرضوه لأنفسهم بعدَ ما مَالَتْ إليه أفئدتهم وليقترفوا أي وليكتسبوا بموجب ارتضائهم له ما هم مقترفون له من القبائح ، قال أبوحيان رحمه الله : ترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أوَّلاً يكون الخداع فيكون الميل ، فيكون الرضا فيكون الفعل أي الاقتراف ، فكُلُّ واحد مُسَبَّبٌ عما قبله ا هـ وقولُه تبارك وتعالى : ﴿أفغير الله أبتغي حَكَمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله غَيْرَهُ ، الذين يعبدون غيره ﴿أفغير الله أبتغي حَكَمًا﴾ أي بيني وبينكم ﴿وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مُفَصَّلاً﴾ أي مُبَيَّنًا ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق﴾ أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ كقوله : ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا أشك ولا أسأل ا هـ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿وتمت كَلِمتُ ربك صدقا وعدلا ، لا مُبَدِّلَ لكلماته ، وهو السميع العليم﴾ بشارةٌ لرسول

الله ﷺ وللمؤمنين بكمال الدين وانتصار الإسلام وبيانٌ بأن هذا الكتاب المنزل على محمد ﷺ كامل من حيث ذاتُه كما هو كاملٌ من حيث إنه مُنَزَّل من عند الله بالحق، وإشارةٌ إلى أنه محفوظ من التغيير والتبديل ولن يستطيع أحد الزيادة فيه أو النقصان منه، كما قال عز وجل: ﴿إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ والمراد بكلمة الله عز وجل هنا القرآن الكريم إذ قد تطلق الكلمة ويراد بها الكلام كما قال ابن مالك في ألفيته: وكلمة بها كلام قد يُؤَم. ومعني قوله عز وجل ﴿صدقا وعدلا﴾ أي صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام فكلُّ ما أخبر به القرآن الكريم فهو حق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل والميزانُ القسط وكلُّ ما نهى عنه فهو الباطل، وهو لا يأمر إلا بالمصلحة ولا ينهى إلا عن المفسدة. ومعنى ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا رادَّ لقضائه، ولا مُغَيِّر لحكمه، ولا خُلْفَ لوعده، وكل ما أخبر به فهو كائن وواقع في حينه وأجله الذي أخبر الله أنه واقع فيه. وقوله تبارك وتعالى ﴿وهو السميع العليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: فإن معناه: والله السميع لما يقول هؤلاء العادلون بالله، المقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنُنَّ بها، وغير ذلك من كلام خلقه، العليم بما تؤول إليه أيمانهم من بِر وصدق وكذب وحنث وغير ذلك من أمور عبادِهِ. اهـ

قال تعالى : ﴿ وإن تُطع أكثرَ من في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله ، إن يتَّبعون إلا الظن وإن هم إلاَّ يخرصون * إن ربك هو أعلم من يضلُّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين * فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين * وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرَّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ، وإن كثيرا ليضلُّون بأهوائهم بغير علم ، إن ربَّك هو أعلم بالمعتدين * وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون * ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ .

بعد أن أرشد الله العباد إلى وجوب الاحتكام إلى الله وحده وأنه لا يجوز لأحد أن يحتكم إلى غير الله عز وجل وقد تفضل الله تبارك وتعالى فأنزل القرآن العظيم مُفَصَّلا واضحا ، وَاضِعًا للعباد أكمل المناهج وأصولَ الدين وقواعدَ الأحكام التي لا غنى للبشر عنها ، مرشدًا لهم إلى ما يحل لهم وما يحرم عليهم ، صالحا لكل جيل وقبيل وزمان ومكان حتى تقوم الساعة ، لا يتغير ولا يتبدل ، شرع هنا في بيان أن الناس مهما كانوا لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم قانونًا ونظامًا يُصْلِحُ دنياهم وآخِرتهم ، وأنهم لو وضعوا نظاما لكان مبناه على الظنّ والخَرْص ، فإنهم يخضعون لشهواتهم المتناقضة وآرائهم القاصرة ، فمن اتَّبَعَهُمْ ضَلَّ وحاد عن الصراط المستقيم ، مع أن هذه الشريعة الكافية الشافية التي جاءت من عند الله قد بعث الله عز وجل بها النبي الأمي محمدا ﷺ ليُحِلَّ للناس الطيبات ويُحَرِّمَ عليهم الخبائث ويَضَعَ عنه إِصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿وإن تُطِعْ أكثر مَن في الأَرْضِ يُضِلُّوك عَن سَبِيلِ اللهِ ، إن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإنْ هُمْ

إلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ تحذيرٌ من سلوك منهـج لم يشرعه الله عز وجل وبيانُ أنَّ الهُدَى هو في اتباع تعاليم الإسلام مهما قَلَّ سـالكوها، وأن الضلال والضياع هو في اتباع آراء الناس وأهوائهم مهما كثر سالكوها ولو كانوا أكثر أهل الأرض، أي وإن تَتَّبِعْ أكثر من في الأرض ممن لم يهتـدوا بشريعة الله يحيروك ويُضَيِّعُوكَ عن الصـراط المستـقيم، لأنهم يخضعـون في أحكـامهم وقـوانينهم وأنظـمتهم لشهواتهم المتناقضة وما تُؤَثِّرهُ بيئتُهم فيهم، ولا يبنون أحكامهم إلا على الظن والخرص والـرجم بـالغيب، ولـذلك رأينا أن الأنظمـة التي لا تهتـدي بنـور الإسـلام لا تلبث أن تتكشف عـوراتها وتحتـاج إلى تعـديل وتبـديل وتغيير، والإنسانُ قـد يرى الشيء حسنـا ثم لا يلبث أن يـراه سيئا ولله در الشـاعر إذ يقول:

يُقْضَى على المرء فى أيـــام محنتـــه حتى يـرى حسنا ما ليس بـالحسن

وقولـه تبارك وتعالى: ﴿إن ربك هو أعْلَمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلـه وهو أعلم بـالمهتدين﴾ وعيـد لمن ينحرف عن شريعـة الله ويتبع هواه أو هـوى غيره من المنحرفين عن دين الله، وَوَعْدٌ لمن ينقاد إلى كتـابِ الله وهَدْيِ رسوله محمد ﷺ وتقريرٌ لمضمون الآيـة السابقة وتأكيدٌ لما أفادته من التحذيـر، ومَن في قوله عز وجل: ﴿هو أعلم من يَضِلُّ عن سبيله﴾ لـلاستفهام وهي مبتدأ ويضل هو الخبر والجملة في مـوضع نصب بيعلم المقدرة ومثله قولـه تعالى: ﴿لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قال الزجـاج: وقولُه: ﴿إن ربك هو أعلم مَن يَضِلُّ عن سبيله﴾ مـوضع مَنْ رفعٌ بالابتداء ولفظهـا لفظ استفهام. المعنى: إن ربك هو أعلم أيُّ الناس يَضِلُّ عن سبيلـه، وهذا مثل قوله: ﴿لِنَعْلَمَ أيُّ الحزبَيْنِ أحصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ اهـ وقولُه تبـارك وتعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بـآياتِهِ مؤمِنِينَ﴾ شروع في تفصيل بعض الأحكـام المُنَزَّلة في الكتاب المُفَصَّل، المُبَيِّنَةِ لنعمـة الله على المؤمنين بما أَحَلَّ لهم من الطيبات وما

حـرَّم عليهم من الخبائث المقتضيـةِ لجلب المصـالح لهم ودفع الضرر عنهم، المؤْذِنَةِ بـأن المؤمنين يسلكون صراط الله المستقيم، الفـاضحةِ لما عليـه أعداءُ رسول الله ﷺ من السفاهـة والجهالة والضلالة واتّباع أهـواء الذين يضلونهم بغير علم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا. والفاء في قوله عز وجل: ﴿فكلوا﴾ هي الفصيحة كأنه قيل: إذا علمتم أن الحلال هو ما أحل الله، وأن الحرام هـو مـا حـرَّم الله، وأن الجاهلين يحرمـون ويحللـون انقيـادا لأهوائهـم وشهواتهم، فكلـوا يا من تنقـادون لأمر الله وأمـر رسولـه محمد ﷺ الذبيحة التي ذُكِـرَ اسمُ الله عليها عند تذكيتها، ولا تأكلـوا الميتة التي ماتت حتف أنفها ولا ما لم يُـذْكَر اسمُ الله عليه عند ذبحـه، ما دمتم قد أيقنتم بأن حكم الله هو خير الأحكام وأن خبره هو أصدق الأخبار، وأن الجاهلين الذين يأكلـون الميتاتِ ليسـوا على شيء، وإنما يتبعـون أهـواء الذين يضلـونهم بغير علم. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وما لكم أَلَّا تـأْكُلُوا مما ذُكر اسم الله عليـه وقد فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ عليكم إلا ما اضطررتـم إليه﴾تحريضٌ للأكل مما ذكر اسم الله عليـه، وإنكارٌ لأن يكـون هناك سَبَبٌ يحملهم على تـركِ الأكل مما ذكـر اسم الله عليـه أي وأيُّ سبب حـاصل لكم في أن لا تأكلوا ممـا ذكـر اسم الله عليـه أو وأيُّ غرض لكم يحملكم على أن لا تأكلـوا ممـا ذكر اسم الله عليـه، والحال أن الله عز وجل قـد بين لكم ما حرَّمه عليكم من أكل الميتـات والدم المسفوح ولحم الخنزير، ومـا أهل به لغير الله فإنه لا يحل لمسلم أن يأكل شيئا من هذه المحرمات إلا أن يكون مضطرا لبقـاء رمقه فإنه يجوز له أن يتناول من ذلك بقدر ضرورته، وقد كان من فضل الله أن جَعَلَ الطيباتِ المباحاتِ كثيرةً جدا، وحَصَرَ المحرمـاتِ وفَصَّلها في مواضع كثيرة من كتابـه في الآيات المكية والمدنية، حيث قال في هذه السورة المكية: ﴿قل لا أجد فيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طاعم يَطْعَمُهُ إلا أن يكون ميتةً أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رِجْسٌ

أوْ فِسْقًا أُهِلَّ لغير الله بـه، فمن اضْطُـرَّ غير بـاغ ولا عـادٍ فإنَّ ربك غفـور رحيم﴾ وقـال عز وجل في سورة النحـل وهي مكية: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نِعْمَتَ الله إن كنتم إيـاه تعبدون * إنما حَرَّم عليكم الميتة والدَّمَ ولحم الخِنزيرِ وما أُهِلَّ لغير الله بـه فمن اضْطُرَّ غير باغ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم * ولا تقـولوا لما تصف أَلْسِنَتُكُمُ الكَـذِبَ هذا حلال وهـذا حَرَام لِتَفْتَرُوا على اللهِ الكذبَ، إنَّ الذين يفترون على الله الكذبَ لا يفلحون﴾ وقال في سورة البقرة وهي مـدنية: ﴿ياأيها الذين آمَنُوا كلوا من طيبـات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرَّمَ عليكـم الميتة والدمَ ولحمَ الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله فمن اضْطُرَّ غيرَ بـاغ ولا عادٍ فلا إثم عليه، إن الله غفور رحيم﴾ وقـال عــز وجل في سـورة المائدة وهي مـدنيــة: ﴿حُـرِّمَتْ عليكم الـمَيْتَةُ والـدم ولحم الخنزير ومـا أهلَّ لغير الله به والمنخنقةُ والموقـوذَة والمتردِّية والنطيحـةُ وما أكَلَ السَّبُعُ إلا مـا ذكيتم وما ذُبِحَ على النُّصُبِ وأن تَسْتَقْسِمـوا بـالأزلام، ذٰلكم فِسْقٌ، اليـومَ يئسَ الـذيـن كفـروا من دينكم فـلا تَخْشَـوْهُم واخْشَـوْنِ، اليومَ أكملت لكـم دينكم وأتْمَمْتُ عليكم نعمتي وَرَضِيتُ لكم الإسـلام دينـا، فمن اضطـر في مَخْمَصَـةٍ غيرَ متجـانف لإثم فإن الله غفـور رحيم﴾. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الكتـاب والسنة قد عَلَّقَا الحِل بـذكـر اسم الله في غير مـوضع، كقولـه: ﴿فكلـوا ممـا أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ ﴿فكلوا مما ذكر اسمُ الله عليه﴾ ﴿وما لكم ألاَّ تأكلوا ممـا ذكـر اسـم الله عليـه﴾ ﴿ولا تأكلـوا ممـا لم يُـذكَـرِ اسمُ الله عليـه﴾ وفي الصحيحين أنه قال: ما أنهر الـدمَ وذكِرَ اسم الله عليه فكلوا. وفي الصحيح أنه قـال لعَدِيٍّ: إذا أرسلت كلبك الْمُعَلَّمَ وذكـرت اسم الله فقتل فكُلْ، وإن خالط كَلْبَك كلابٌ آخَر فـلا تأكل، فإنك إنما سَمَّيْتَ على كلبك، ولم تُسَمِّ على غيره، وثبت في الصحيح أن الجن سألوه الـزاد لهم ولدَوَابِّهم فقال: لكم

كُلُّ عظم ذُكِرَ اسم الله عليه أوفر ما يكون لحما، وكلُّ بعرة علفا لدوابكم. قال النبي ﷺ: فلا تَسْتَنْجُوا بهما، فإنهما زادُ إخوانكم من الجن، فهو ﷺ لم يُبِحْ للجن المؤمنين إلا ما ذكر اسم الله عليه، فكيف بالإنس ا هـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإنَّ كثيرا لَيُضِلُّونَ بأهوائهم بغير علم﴾ تأكيدٌ للتنديد بالجاهلين الذين يُحَرِّمُونَ ويُحَلِّلُون من عند أنفسهم انقيادا لشهواتهم واتباعا لما يوحيه إليهم شياطينهم، وقد كان المشركون يجادلون المسلمين في شأن أكل الميتة ويزعمون أنها أفضل من المذكاة، ويزخرفون كلامهم بأن الميتة قتلها الله والمذكاة قتلها الناس وما قتله الله أفضل مما قتله الناس، يحاولون بذلك إضلال المسلمين والتغرير بهم فَنَدَّدَ الله تبارك وتعالى بهؤلاء المشركين الجاهلين مُبَيِّنًا أنهم إنما يتبعون الهوى والشهوة بلا بصيرة ولا علم ثم تَوَعَّدَهُم على ذلك فقال عز وجل: ﴿إنّ ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ أي إن ربك هو أعلم بهؤلاء الضالين المضلين الذين يتجاوزون حدود الله ويعتدون بتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله، وسيجزيهم على ذلك بما يستحقون، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وذَرُوا ظاهر الإثم وبَاطِنَه، إن الذين يكسِبُون الإثم سَيُجْزَوْن بما كانوا يقترفون﴾ أمر من الله عز وجل بترك المعاصي ظاهرها وباطنها وسرها وعلانيتها سواء كانت في المطاعم كالميتة وما لم يذكر اسم الله عليه أو في المشارب كالخمر أو في المناكح كالزنا والطواف عراة، كما قال عز وجل: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل إنما حرَّمَ رَبِّيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ وقد توعد من يكتسب الإثم بالوعيد الشديد فقال: ﴿إن الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْن بما كانوا يقترفون﴾. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويركبون معاصي الله ويأتون ما حَرَّم الله ﴿سَيُجْزَوْن﴾ يقول: سَيُثِيبُهُمُ الله يوم القيامة بما كانوا في الدنيا يعملون من معاصيه اهـ. وقوله

تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسم الله عليه وإنه لَفِسْقٌ﴾ أي ولا تأكلوا أيها المؤمنون مِمَّا مات حتف أنفه أو لم يذكر اسم الله عليه عند ذبحه، وما أهل به لغير الله فإنَّ أكل ذلك فسق وانقيادٌ للشيطان وخروجٌ عن طاعة الرحمن، وقوله عز وجل: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ قال الترمذي: حدثنا محمد بن موسى البصري الحَرَشِيُّ حدثنا زياد بن عبد الله البكَّائي حدثنا عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس قال: أَتى أُناس النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله؟ فأنزل الله: ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ إلى قوله ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب. قال ابن كثير: وقال الطبراني: حدثنا علي بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خَاصِمُوا محمدا وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام! فنزلت هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير أخبرنا إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمرو بن عبد الله عن وكيع عن إسرائيل به، وهذا إسناد صحيح اهـ.

قال تعالى : ﴿ أومن كان ميتة فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها ، كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى مثل ما أوتي رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون * فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون * وهذا صراط ربك مستقيمًا ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾ .

بعد أن بَيَّنَ الله تبارك وتعالى أن الناس لا يستطيعون أن يضعوا لأنفسهم نظاما وقانونا يُصْلِحُ دنياهم وآخرتهم ، وأنهم لو وضعوا نظاما لكان مبناه الظن والخرص واتباع أهوائهم وشهواتهم ، وأن من اتبعهم على ذلك ضل عن سواء السبيل ، وأن الصراط المستقيم هو ما شرعه العليم الخبير ، وأرسل به رسله وبعث به النبي الأمي محمدا ﷺ الذي جاء بالشريعة الكاملة الشاملة التامة الصالحة لكل زمان ومكان وجيل وقَبيل ، وأن الحلال هو ما أحله الله وأن الحرام ما حرَّم الله ، وحضَّ عباد الله على الأكل من المباحات الطيبات وحذرهم من المعاصي عموما ومن أكل الميتات وما لم يذكر اسم الله عليه خصوصا ونَدَّدَ بالمشركين الذين يجادلون المسلمين في المَيْتَاتِ وما لم يذكر اسم الله عليه ، شرع هنا في بيان أن المسلمين هم الأحياء حقيقة وأنهم يسلكون منهجهم على نور وبصيرة ، وأن المشركين وسائر الكافرين أموات ، صُمٌّ وبكم في الظلمات ، قد ضلوا سواء السبيل ، بسبب ما زينته لهم شياطين الإنس والجن ، ثم واسى رسوله محمدًا ﷺ وبين له أنه كما جعل في قريته مكة

أكابـر ورؤساء من المجـرمين يدعـون إلى الكفر ويصـدون عن سبيل الله كأبي جهل وأبي لهب وعتبـة وشيبـة ابني ربيعـة والوليـد بن عتبـة وأميـة بن خلف وأمثالهم، كذلك جعل لكل نبي عـدوا من المجرمين هم كبراء قومهم وهـم لا يضرون إلا أنفسهم ثم تـوعَّدَهم بـالصغار عنـد الله والعذاب الشديـد حيث يقول عز وجل: ﴿أَوَمَن كان مَيْتًا فأَحْيَيْنـاهُ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مَثَلُهُ في الظلمات ليس بخارج منها﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وهٰذا صراط ربك مستقيما، قد فَصَّلْنـا الآيٰـتِ لقـوم يَذَّكرون﴾ والمقصـود من قولـه تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كـان مَيْتًا فأَحْيَيْنـاهُ وجعلنا لـه نورا يمشي بـه في الناس كمن مَثَلُـهُ في الظلمات ليس بخـارج منهـا﴾ تنفيرُ المسلمين عن طـاعـة المشركين بـالإشـارة إلى أن المسلمين مستضيئـون بأنـوار الـوحي الإلٰهي وأن المشركين مستغرقون في ظلمات الكفر والجهل، فكيف يتأتى من مسلم أن ينقاد لكافر؟ والهمزة لـلاستفهام المقصـودِ منه الإنكـار والنفي، والمراد وجـوبُ الاعتصام بالـرسالة والعض عليهـا بالنواجذ، وعـدم الالتفات إلى ما يلقيـه الكفار من الشُّبَه تبعا لما يوحيه إليهم شياطينهم من زخرف القول غرورا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قاعـدة نافعة في وجوب الاعتصام بالـرسالة» وبيـان أن السعادة والهدى في متـابعة الرسـول ﷺ، وأن الضلال والشقاء في مخالفته، وأن كل خير في الوجود إمـا عام وإما خاص فمنشؤه من جهة متابعة الرسول وأن كل شرٍّ في العالم مختـص بالعبد فَسببُهُ مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة، والرسالةُ ضرورية للعباد، لا بُـدَّ لهم منها، وحاجتُهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والـرسالـةُ رُوحُ العالَمَ ونورُه وحيـاتُه، فـأيُّ صلاح للعـالم إذا عَدِمَ الـروحَ والحياة والنـور، والـدنيا مُظْلِمَـةٌ ملعـونةٌ إلا مـا طلعت عليـه شمسُ الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشْرِقْ في قلبه شمسُ الرسالة، وينـاله من حياتها

ورُوحِهَا فهو في ظلمـة ، وهو من الأموات ، قال الله تعـالى : ﴿أَوَمَن كان مَيْتًا فأَحْيَيْنـاهُ وجعلنـا لـه نورا يمشي بـه في النـاس كمن مَثَلُـهُ في الظلمات ليس بخارج منها﴾ فهذا وصف للمؤمن كان مَيْتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالـة ونور الإيمان ، وجعل له نورا يمشي به في الناس ، وأمـا الكافر فميت القلب في الظلمات ، وسَمَّى الله تعـالى رسالتـه رُوحًا ، والـروح إذا عُدِمَ فَقَـدْ فُقِدَت الحيـاة ، قال الله تعـالى : ﴿وكذٰلك أوحينا إليك رُوحًـا من أمرنـا ، ما كنت تدري مـا الكتابُ ولا الإيمانُ ولَكِنْ جعلناه نورا نَهْدِي بـه من نشاء من عِبَادِنَا﴾ فذكـر هنا الأصلين وهما الروح والنور، فالروحُ الحيـاة ، والنورُ النُّورُ اهـ وقولُه تبارك وتعالى : ﴿كذٰلك زُيِّنَ للكـافرين ما كانوا يعملون﴾ تأكيد لما تقرر من أن الهدى هـدى الله ، فمن هداه الله زين في قلبه الإيمان وحببـه إليه وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيـان ووفقه للخيرات ، ومن لم يهده الله خذله فاستهـوته الشياطين وأوحت إليـه زخرف القول غـرورا ، وانتكس ، وَزُيِّنَ له سُوءُ عمله فرآه حسنا ، وانصرف عن آيات الله كما قال عز وجل : ﴿سأصرف عن آيـاتِيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يَـرَوْا كلَّ آية لا يـؤمنوا بها وإن يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لا يتخذوه سبيلا وإن يَرَوْا سبيل الْغَيِّ يتخذوه سبيلا ، ذٰلك بأنهم كذَّبـوا بآياتنـا وكانوا عنها غـافلين﴾ وقولُه عـز وجل : ﴿وكذٰلك جعلنا في كل قريـة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومـا يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ مواسـاةٌ لرسول الله ﷺ ببيان أنه عز وجل كما جعل في قـريته مكة أكابر ورؤساء من المجرمين يصـدون عن سبيل الله ويُدَبِّرُون الشر ضد رسول الله ﷺ والمؤمنين كـذلك جعلنا لكل نبي عَـدُوا من المجرمين يصـدون عن سبيل الله ويُدَبرون الشر ضـد رسل الله عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين بهم فَرجَعَ سـوء مكرهم عليهم ونصر الله رسله وأهلك عدوهم . كما أشـار تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله : ﴿وقد مكـر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم

ما تكسب كلُّ نفس، وسيعلم الكُفَّارُ لمن عقبى الدار﴾ وكما قال عز وجل في قوم صالح عليه السلام: ﴿وكان في المدينة تسعةُ رهط يفسدون في الأرض ولا يُصْلحون * قالوا تقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلَه ثم لنقولَنَّ لِوَلِيِّه ما شهدنا مَهْلِكَ أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم أنَّا دمَّرناهم وقومَهُم أجمعين * فتلك بيوتُهم خَاويةً بما ظلموا، إن في ذٰلك لآيَةً لقوم يعلمون﴾ وقَولُه تبارك وتعالى: ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمن حتى نُؤْتَى مِثْلَ ما أوتِيَ رُسُلُ اللهِ، الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ تنبيه وتأكيد على أن هؤلاء الأكابر المجرمين المجادلين بالباطل المغرورين الماكرين المكر السيء المقترحين للآيات قد بلغ بهم الجهل والحسد والغرور أنهم لو جاءتهم آية من الآيات التي يقترحونها فإنهم لن يؤمنوا بالرسول بل يتحكمون في رحمة الله ويطلبون أن يجيء الْوَحْيُ بالرسالة لهم كما جاء الوحي إلى رسل الله عليهم الصلاة والسلام، وجهل هؤلاء الحاقدون الحاسدون المغرورون أن الرسالة ليست منصبا يحصل عليه من يشتهيه بلِ هي منصب يختار الله عز وجل له صفوةَ عباده الصالحين وكملةَ خلقه المُطَهَّرِينَ الطاهرين المصطفين الأخيار، الذين رباهم الله عز وجل على عينه وهيَّأهم لهذا المنصب الجليل، ولذلك قال هنا: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه، كما قال عز وجل: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، إن الله سميع بصير﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. ولا شك أن الرسل كانت تبعث في نسب قومها. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا التعنت في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول:

﴿بل يـريد كُلُّ امـرئ منهم أن يُؤْتَى صُحُفًـا مُنَشَّرَةً﴾ وقولُـه تبارك وتعـالى: ﴿سَيُصِيبُ الذين أجرمـوا صَغَارٌ عند الله وعذابٌ شديد بما كـانوا يمكرون﴾ وعيد لهؤلاء المجرمين بالخزي العظيم والعذاب الشديد الأليم يوم القيامة بين يَدَيْ ربِّ العالمين وأحكم الحاكمين بسبب تعنتهم وتكبرهم ومكرهم السيء، والصَّغَـارُ هـو الذُّل والضيـم والهوان، قال أبـواسحـاق إبـراهيمُ بنُ السَّرِيِّ الزجاجُ: ﴿سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله﴾ أي هم وإن كانوا أكابر في الدنيا سيصيبهم صَغارٌ عند الله أي مَذَلَّـةٌ اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فمن يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسـلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضَيِّقًا حَـرَجًـا كـأنما يصَّعَّـدُ في السماء، كـذلك يجعل الله الـرجسَ على الـذين لا يـؤمنـون﴾ المقصـود من الإرادة في هـذا المقـام الكـريم هي الإرادة الكـونيـة القدريـة، والمراد من الهداية هنـا هو التوفيق والإعـانة والتسـديد، ومعنى: ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ أي يفسح قلبه ويـوسعه لقبول الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ ويُهَوِّنه عليه ويسهلـه له ويزينه فيه ويفرحه بـه بلطفه ومعونته حتى يستنير الإسـلام في قلبـه فيضيء لـه ويحسّ بحلاوتـه ولـذتـه، وتخالط بشاشته شغاف قلبه فلا يُقَدِّم عليـه نفسا ولا والدا ولا ولدا ولا بلدا ولا شيئا من متاع الحياة الدنيا مهما كان. ومعنى قوله عز وجل: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَـرَجًا كأنما يَصَّعَّـدُ في السَّمَاءِ﴾ أي يجعل قلبـه ضيقا أشـد الضيق لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفـذ فيه، كأنه كُلِّف بالصعـود إلى السماء، حيث يعجز وينقطع تَنَفُّسُهُ. قال الـزجاج: الحَرَجُ في اللغة أضْيَـقُ الضيق. وقال ابن منظـور في لسان العرب: وتَصعَّـدَ النَّفَسُ: صَعُبَ مَخْرَجُهُ، وهـو الصُّعَدَاءُ وقيل الصُّعَداء النَّفَس إلى فـوق ممدود، وقيل هو النَّفَسَ بتَـوَجُّع وهو يتنفس الصعداء ويتنفس صُعُـدًا، والصُّعداء: هي المشقة أيضا اهـ ولا شك أن من خذلـه الله عز وجل يصير صدره ضيقا أشد

الضيق إذا سمع دلائل التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت فيثقل عليه ذلك وتضعف إرادتـه عن ترك مـا هو عليـه من الباطل الـذي زُخْرِفَ في قلبـه ولم ينشرح صدره إلا للكفر والضلال ويكون مَثَلُهُ مَثَلَ من صعد في طبقات الجو العليا حيث يشعر بضيق شديـد في التنفس، وكلما صعد في جو السماء أكثر شعر بضيق أشـد، والعربُ يعرفون أن الإنسان إذا طلع جبـلا فإنه كلما ازداد في الصعود ضاق تنفسه. وقد أدرك العلماء في عصرنـا أن في هذه الآية معجزة من معجزات القـرآن بعد أن تمكن البشر من الصعود إلى طبقـات الجو العليا بالطـائرات و(الصواريخ) وأدركوا يقينـا أن طبقات الجو العليا أقل كثـافة في الهواء من الطبقات التي هي أسفل منهـا، وأنه كلما صعد الإنسـان إلى طبقة أعلى شعـر بضيق التنفس والحرج الشـديـد في الصـدر. وقـولـه عـز وجل: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ أي كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا كأنما يَصَّعَّدُ في السماء فإنه يخذل الذين علم أنهم لن يؤمنوا فتثقل عليهم أدناسُ أوزارهم، ويُطْبِقُ الـرانُ على قلوبهم، فلا ينفكون عن أسبـاب عـذابهم وشقـوتهم، ويَضِيقُـون بـالحق، ولا تنشرح صـدورهم لـلإسلام. وقـولُـه تبارك وتعـالى: ﴿وهـٰذا صراطُ ربك مستقيما، قد فَصَّلْنَـا الآيـٰتِ لقوم يـذكرون﴾ قال ابن جـرير رحمه الله: قال أبوجعفـر: يقول تعالى ذكره: وهذا الذي بَيَّنَّا لك يا محمد في هـذه السورة وغيرها من سور القرآن هُوَ ﴿صراط ربك﴾ يقـول: هو طـريق ربك ودينـه الذي ارتضـاه لنفسه دينـا، وجعلـه مستقيما لا اعوجـاج فيه، فـاثْبُتْ عليـه، وحَرِّمْ مـا حرمتـه عليك، وأحلل مـا أحللته لك فقـد بينـا الآيـات والْحُجَجَ على حقيقة ذلك وصحتـه ﴿لقوم يـذكرون﴾ يقـول: لمن يتذكر مـا احتج الله به عليـه من الآيات والعبر فيعتبر بها، وخص بها الذين يتذكـرون لأنهم هم أهل التمييز والفهم، وأولوا الحجى والفضل اهـ.

قال تعـالى : ﴿لهم دار السَّلام عنـد ربهم وهو وليهـم بما كانـوا يعملون * ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنـا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنـا ، قال النار مثواكم خـالدين فيها إلا مـا شاء الله ، إن ربَّك حكيم عليم * وكـذٰلك نولِّي بعض الظـالمين بعضا بما كـانـوا يكسبون * يـا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينـذرونكم لقاء يومكم هٰذا ، قالـوا شهدنا على أنفسنا وغـرَّتهم الحياة الدنيا وشهـدوا على أنفسهم أنهم كانوا كـافرين * ذٰلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ .

بعد أن بَيَّنَ اللهُ تبارك وتعـالى أن دين الإسلام هو صراط الله المستقيم ، وأن أهل الفهم والـوعـي والعقل هم الـذين يعقلـون عن الله ورســولـه وتنفعهم الذكـرى شرع هنا في بيان مآل من تمسك بصراط الله المستقيم ومـآل من انقاد لشيـاطين الجن والإنس ، وجعل الله على قلـوبهم الرجس ، حيـث يقول عـز وجل في مـآل السعـداء : ﴿لهم دار السـلام عند ربهم وهـو وليهم بما كـانـوا يعملون﴾ ثم يقول في مآل الأشقياء : ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثـرتم من الإنس وقال أوليـاؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضُنَـا ببعض وبَلَغْنَا أجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لنا ، قال النارُ مثـواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ إلى قـوله عـز وجل : ﴿ولكل درجاتٌ ممـا عملوا ومـا ربك بغافل عما يعملون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كـانوا يعملون﴾ أي للمتبعين دينَ الإسـلام ، السالكين صراطَ الله المستقيمَ دارُ السـلام وهي الجنـةُ المُعَدَّةُ لهم عنـد ربهم جـزاءً لهم بما كانـوا يعملون من طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ التماسا لرضوان الله ورحمته ،

والله عز وجل وَلِيُّ هؤلاء الصالحين في الدنيا والآخرة، يثبتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والذين يتولاهم الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، فهم في رعاية الله وعنايته وتأييده ونصره كما قال عز وجل: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البُشْرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ وإنما سميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها من العاهات والآفات والأمراض والأوصاب، كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ينادي منادٍ: إن لكم أن تَحْيَوْا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أبدا، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدا، وإن لكم أن تَنْعَمُوا فلا تبأسوا أبدا. وجميع حالاتها مقرونة بالسلام، حيث يقول عز وجل: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ وقد امتَنَّ الله تبارك وتعالى على عباده بأنه يدعوهم إلى الجنة دار السلام حيث يقول: ﴿واللهُ يَدْعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ ومعنى قوله: ﴿ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي ويوم يحشر هؤلاء المشركين المغرورين مع أوليائهم من شياطين الجن والإنس الذين كانوا يوحون إليهم زخرف القول غرورا ليجادلوا به المؤمنين فيما حرمه الله من الميتة، فيجمعهم

جميعا في موقف القيامة ويقول لشياطين الجن موبخا لهم : يا معشر الجن قد أضللتم كثيرا من الإنس واستكثرتم من إضلالهم وإغوائهم، كما قال عز وجل : ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني، هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جِبِلًّا كثيرا أَفَلَمْ تكونوا تعقلون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلت لَنَا﴾ أي وقال أولياء شياطين الجن الذين أطاعوهم من الإنس في التكذيب بدين الله واتَّبَعُوهم في مجادلة المؤمنين ومحاولة صدهم عن سبيل الله معتذرين إلى الله عز وجل يوم القيامة حين لا تنفع الظالمين معذرتهم نادمين حين لا ينفع الندم : ﴿ربنا استمتع بعضُنَا ببعض وبَلَغْنَا أجلنا الذى أَجَّلْتَ لنا﴾ أي اندفعنا في التمتع بما يوحيه كلٌّ واحد منا إلى صاحبه مغترين بذلك حتى صرنا نتلذذ بطاعة بعضنا لبعض، ونسارع إلى هواه غير ناظرين إلى عواقب ما نحن عليه من المتاع الزائل القليل وعِشْنَا على ذلك مدة حياتنا الدنيا التى قدَّرْتَ أجَلَنَا فيها، حتى فارقنا ذلك بالموت، قال ابن منظور في لسان العرب المحيط : وقد ذكر الله تعالى المتاع والتمتع والاستمتاع والتمتيع في مواضع من كتابه، ومعانيها و إن اختلفت راجعةٌ إلى أصل واحد، قال الأزهري : فأما المتاع في الأصل فكل شيء يُنْتَفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَوَّدُ والْفَنَاءُ يأتي عليه اهـ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى حرص الجاهلين على الاستمتاع بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتِهَائِهِم بها عن النظر في العواقب الحقة حيث يقول عز وجل : ﴿كالذين من قبلكم كانوا أشدَّ منكم قوة وأكثر أموالا وأولادًا فاسْتَمْتَعُوا بخلاقهم فاسْتَمتعْتُمْ بخَلَاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بِخَلَاقهم وخضتم كالذى خَاضُوا، أولَئك حَبِطَتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولَئك هم الخاسرون﴾ وقولُه تبارك وتعالى : ﴿قال النارُ مثواكم خالدين فيها

إلا ما شاء الله﴾ هذا خبر من الله تبارك وتعالى عما هو قائل لشياطين الجن وأوليائهم من الإنس يوم القيامة، وأخرج الخبر عما هو كائن مُخْرَجَ الخبر عما كان لتقدم الكلام قبله بمعناه ولتحقق وقوعه، أي قال الله لأولياء الجن من الإنس ولشياطينهم من الجن الذين تقدم خبره عنهم: ﴿النار مثواكم﴾ أي نار جهنم هي مقر إقامتكم الذي تثوُون فيه أي تُقِيمون فيه ﴿خالدين فيها﴾ أي لابثين فيها غير مخرجين منها، وقوله عز وجل: ﴿إلا ما شاء الله﴾ تنبيه إلى أنه ليس كل من يدخل جهنم يخلد فيها لأنه لا يخلد فيها إلا من مات على الشرك الأكبر، ولا شك أن طاعة شياطين الجن والإنس تكون في الشرك بالله عز وجل وفيما دون الشرك من المعاصي كالزنا والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك من الفواحش وكبائر السيئات، ولما كان الخلود الأبدي السرمدي في النار إنما يكون لمن مات على الشرك الأكبر، أما من مات من أهل الكبائر على الإيمان وأوبقته سيئاته في نار جهنم فإنه لا يخلد فيها وإنما يخرج منها بعد أن تمتحشه النار، ويقبل الله عز وجل فيه شفاعة الشافعين أو يخرجه بمحض فضله فقد روى البخاري من حديث عمران بن حُصَيْن قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج أقوام من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويُسَمَّوْنَ الجهنميين. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ يقول الله تعالى: من كان في قلبه مثقالُ حبة من خردل من إيمان فأخرجوه فيخرجون قد امتحشوا وعَادُوا حمما فَيُلْقَوْنَ في نهر الحياة، فينبتون كما تَنْبُتُ الحِبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْل، ألم تَرَوْا أنها تخرج صفراء ملتوية. وقولُه عز وجل: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ تأكيد على أنه عز وجل يهدي من يشاء فضلا ويضل من يشاء عدلا وأن كل شيء يجري بمشيئته وحكمته وعلمه ومن ذلك إحلالُه المؤمنين دارَ السلام وعقابُه للمجرمين بالعذاب الغرام، وقولُه

تبارك وتعالى: ﴿وكذٰلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ إلى قوله: ﴿ولكل درجات مما عملوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ ترهيبٌ من الظلم العظيم وهو الشرك بالله الذي لا يغفره الله إلا بتوبة منه، وقد حرَّم الله الجنة على من مات مشركا، وإشارةٌ إلى أن الإصرار على المعصية يجلب المزيد من المعاصي، وتأكيدٌ على أنَّ من يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين يخذله الله ويوليه ما تولى، وتنبيهٌ على عموم مشيئة الله وحكمته وعلمه وعدله ورحمته، ولذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليقطع عذر الكافرين حتى لا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وتقريرٌ بأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية من عمل عباده مهما كان، وأنه يجزي كل عامل بما عمل، ولا يظلم ربك أحدا، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذٰلك نُوَلي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون﴾ أي وهكذا نكِلُ بعض الظالمين إلى بعض خذلانا مِنا لهم، جزاء وعقوبة على إصرارهم على المعاصي حتى صار بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول غرورا، ويستمتع بعضهم ببعض، حتى جعل الله مأواهم جهنم وساءت مصيرا، وقولُه عز وجل: ﴿يا معشر الجنِّ والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هٰذا، قالوا شَهِدْنا على أنفسنا وغرتهم الحياةُ الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ تقرير للجن والإنس الذين كفروا يعلنونه في عرصات القيامة، يقرون فيه بأن الله عز وجل أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب المشتملة على الترغيب والترهيب، وبيان الحق من الباطل، والمعاد والحشر، ومآل المؤمنين والكافرين يوم القيامة، كما يعلنون في هذا الموقف العصيب الرهيب أنهم غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها الفانية وشياطينها الذين زخرفوا لهم القول غرورا حتى كفروا بالله وكذبوا المرسلين. والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ للتقرير، وقولُه عز وجل: ﴿رسل منكم﴾ أي منذرون تعرفون

لسانهم وتفهمون كلامهم كما قال عز وجل: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى أن الجن كانوا ملزمين بالإيمان بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله عز وجل إلى الإنس حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وإذ صَرَفْنَا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حَضَرُوه قالوا أنصتوا فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم مُنذِرِينَ * قالوا يا قَوْمَنَا إنا سَمِعْنَا كتابا أُنزِلَ من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يَهْدِي إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أَجِيبُوا دَاعِيَ الله وآمِنُوا به يَغْفِرْ لكم من ذنوبكم ويُجِرْكُم من عذاب أليم * ومَن لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياءُ، أولٓئك في ضلال مبين﴾ وقال عز وجل: ﴿قل أُوحِيَ إلَيَّ أنه استمع نَفَرٌ من الجن فقالوا إنا سَمِعْنَا قرآنا عَجَبًا * يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا به ولَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا وأنه تعالى جَدُّ رَبِّنَا ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ذٰلك أن لَمْ يكن ربُّك مُهْلِكَ القُرَى بظلم وأهلها غافلون﴾ أي إنما أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب ليهلك من هلك عن بينة ويَحْيَى من حَيَّ عن بينة فمن انحرف عن الصراط المستقيم وأخذناه بذنوبه لم نكن ظالمين له وإنما هو الذي ظلم نفسه، وما عَذَّبْنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب للتنبيه والتذكير وإزالة الغفلة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولكل دَرَجاتٌ مما عَمِلُوا، وما ربك بغافل عما يعملون﴾ أي ولكل عامل من الجن أو من الإنس منازل في الآخرة يُنْزِلُهُ الله عز وجل فيها بحسب عمله من الطاعة أو المعصية وليس الله عز وجل بغافلٍ ولا ساهٍ ولا لاهٍ عما يعمله عباده، كما قال عز وجل في وصف منكري البعث: ﴿أولٓئك الذين حَقَّ عليهم القولُ في أمم قد خَلَتْ من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم وهم لا يظلمون﴾.

قال تعالى : ﴿وربُّك الغني ذو الرحمة ، إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذريَّة قوم آخرين * إن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدَّار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ .

بعد الترغيب في الإيمان ببيان مآل السعداء ، والترهيب من الكفر ببيان مآل الأشقياء ، شرع الله عز وجل هنا في تأكيد غِنَاهُ عز وجل عن عباده ، وأنه من أجل اتصافه عز وجل بالرحمة أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمهل العصاة فلم يعاجلهم بالعقوبة مع قدرته على إبادتهم والمجيء بغيرهم ، كما أكَّد أن القيامة حقٌّ ، وأن الله عز وجل لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، ومهما تفرقت أجزاء الناس في الأرض بعد موتهم فإن جمعهم وبعثهم سهل عليه يسير، ثم أمر نبيه ﷺ أن يواجه الكفار بتشديد التهديد وتكرير الوعيد بأنهم إذا استمروا على ما هم عليه من الكفر فلن يفلحوا ، وسيرون ما يحل بهم من الخزي في الحياة الدنياوفي الآخرة ، وأنه ﷺ سيستمر على ما هو عليه من دين الإسلام والدعوة إلى الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وستكون له وللمؤمنين عقبى الدار وفي ذلك يقول : ﴿وربك الغني ذو الرحمة ، إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إنَّ ما تُوعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وربك الغَنِيُّ ذو الرحمة﴾ أي وربُّكَ يا محمد الذى ربَّاكَ على عينه واصطفاك لرسالته هو الغني عن جميع خلقه من جميع الوجوه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وهم الفقراءُ إليه في جميع أحوالهم لأنه بيده حياتُهم ومماتُهم وضرهم

ونفعهم وأرزاقُهم وأقواتهم وهو مع ذلك رحيم بهم، يثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، ويجزيهم على العمل الصالح القليل بالأجر العظيم الجليل، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن يشأ يُذهبْكم ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ أي هو عز وجل قادر على إهلاك المكذبين واستبدالهم بقوم صالحين يخلفونهم في الأرض يعملون بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وهذا سهل على الله يسير كما أهلك القرون الأولى المكذبين، ونَجَّى المؤمنين الصالحين، وجاء بالمعاصرين من سلالة هؤلاء الناجين، وهذا شبيه بقوله تبارك وتعالى؛ ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراءُ إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذٰلك على الله بعزيز﴾ وبقوله عز وجل: ﴿والله الغني وأنتم الفقراءُ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ وبقوله عز وجل: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين، وكان الله على ذٰلك قديرا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين﴾ أي إنَّ الذي تُوعَدُونَه من اضمحلال الكفر وإذلال أهله وانتصار الإسلام وإعزاز أهله، ومن القيامة والحساب والعقاب والثواب وتفاوت درجات المؤمنين ودركات الكافرين لواقع لا محالة، ولا ريب فيه ولا شك ولن يستطيع أحدٌ مَهْمَا كان أن يُعْجزَ الله ولن يتمكن كافرٌ أبدا أن يفلت من عقاب الله، ولن يضيع عملُ عاملٍ مهما كان كما قال عز وجل: ﴿إنها إن تكُ مثقالَ حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السمٰوات أو في الأرض يأت بها الله، إن الله لطيف خبير﴾ فإن الله عز وجل قادر على إعادة الخلق ومجازاتهم وإن صاروا ترابا ورفاتا، وهو سهل عليه كما قال عز وجل: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة، إن الله سميع بصير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولله غَيْبُ السمٰوات والأرض، وما أمر الساعة إلا كَلَمْحِ البصر أو هو أقرب، إنَّ الله على كل شيء قدير﴾ وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أولم يَرَوْا

كيف يُبدئ اللهُ الخلقَ ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بَدَأ الخلقَ، ثم اللهُ ينشئ النَّشْأَةَ الآخرة، إن الله على كل شيء قدير* يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقْلَبُونَ * وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ، وهو السميع العليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ إنما توعدون لصادق * وإن الدين لواقع﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون مَن تكونُ له عاقبةُ الدار، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، وتَحَدٍّ لهؤلاء المكذبين وإبرازٌ لعدم المبالاة بهم، بالإعلان لهم بأنه ﷺ ثابتٌ على الحق الذي جاء به من عند الله، وأنه ﷺ في غاية الوثوق بانتصار الإسلام واضمحلال الكفر. وهذا شبيه بموقف شعيب عليه السلام فيما ذكره الله عز وجل عنه حيث يقول: ﴿ويا قومِ اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون مَن يأتيه عذاب يخزيه ومنَ هو كاذبٌ وارتقبوا إنى معكم رقيب﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المؤمنين واثقون في نصر الله مطمئنون لما وعد الله عز وجل به رسوله ﷺ حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون﴾ والمقصودُ من الأمر في قوله: ﴿اعْمَلوا على مكانتكم﴾ التهديد، ومعنى ﴿على مكانتكم﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم في بذل كلِّ ما تستطيعون، فالمكانة مصدر مكن إذا تمكن أبلغ التمكن، وهذا غايةٌ في عدم المبالاة بهم وبكيدهم، ولا يُرادُ من مثل هذا الأمر طلبُ الفعل لأن الأمر قد يرد لطلب الفعل نحو قوله عز وجل: ﴿وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ وكقوله عز وجل: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم

خيرا﴾ وقد يكون الأمر للإباحة كقوله عز وجل: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ وتأتي هذه الصيغة للإكرام نحو قوله عز وجل: ﴿ ادخلوها بسلام آمنين﴾ كما ترد صيغة الأمر للإهانة كقوله عز وجل: ﴿ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم﴾ وتأتي للتهديد كقوله عز وجل: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وكقوله عز وجل: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ وكقوله عز وجل هنا: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ وتأتي صيغة الأمر أيضا للتعجيز نحو قوله عز وجل: ﴿قل كونوا حجارة أو حديدا * أو خلقا مما يكبر في صدوركم﴾ وتأتي للتسخير كقوله عز وجل: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ وتأتي للتكوين كقوله عز وجل: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ وتأتي للتسوية كقوله عز وجل: ﴿اصبروا أو لا تصبروا﴾ وتأتي للتمني كقول الشاعر:

أَلا أيها الليل الطويل ألا انجلي　　　بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وتأتي للاحتقار كقوله عز وجل: ﴿قال لهم موسى أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُونَ﴾ وتأتي بمعنى الخبر الماضي كقول رسول الله ﷺ: إذا لم تستح فاصنع ما شئت أي صنعت ما شئت وكقوله عز وجل: ﴿أَسْمِعْ بهم وأَبْصِر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم، وتأتي للتعجيب كقوله عز وجل: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فَضَلُّوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ وتأتي للتكذيب كقوله عز وجل: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾، وتأتي للاعتبار كقوله عز وجل ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ وتأتي للمشورة كقوله: ﴿فانظر ماذا ترى﴾ وبهذا يتضح أن صيغة الأمر قد ترد لغير طلب الفعل كما في قوله عز وجل هنا: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ فليس لأحد أن يَدَّعي أن قوله عز وجل: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ دليل على جواز الثبات على الكفر قال الزجاج رحمه الله: فإن قال قائل: فكيف يجوز أن يأمرهم النبي ﷺ أن يقيموا على الكفر فيقول لهم: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ فإنما معنى هذا الأمر المبالغة

في الوعيد، لأن قوله لهم: ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ قد أعلمهم أن من عمل بعملهم فإلى النار مَصِيرُه، فقال لهم: أقيموا على ما أنتم عليه إن رضيتم العذاب بالنار اهـ. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله: وقولُه تعالى ذكره لنبيه: قل لقومك: ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أمر منه له بوعيدهم وتهدّدهم لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادوا من معاصي الله اهـ والمخاطبون يعلمون علم اليقين أن قوله لهم: ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ ليس إذنا لهم بالاستمرار على الكفر وأنهم موقنون بأن هذا الأمر للتهديد كما قال لهم في سورة الكهف: ﴿فمن شاء فَلْيُؤْمِنْ ومن شاء فليكفر﴾ لأنه قال لهم بعدها مباشرة: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارًا أحاط بهم سُرَادِقُها، وإن يَستغيثوا يُغَاثوا بماء كالمُهْل يَشْوِي الوُجُوهَ، بئس الشرابُ وساءت مرتفقا﴾ فلا يخطر ببال عاقل أن قوله ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ إِذْنٌ وتخييرٌ بين الإيمان والكفر، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ تنبيهٌ على كمال وثوق رسول الله ﷺ من نصر الله عز وجل له وللمؤمنين وأن الكافرين سيصيبهم الخزي والذلة والهوان في الدنيا والآخرة، وأنهم لن يفلحوا لأنهم قد ارتكبوا أفحش الظلم حيث أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وسيعلمون أن محمدا هو الحق وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، كما قال عز وجل: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿فَسَوْفَ تعلمون من تكون له عاقبة الدار، إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي أتكون لي أو لكم، وقد أنجز الله موعوده لرسوله ﷺ أي فإنه تعالى مَكَّنَهُ في البلاد، وحَكَّمَهُ في نواصي مخالفيه من العباد، وفَتَحَ له مكة، وأظهره على من كذّبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن

والبحرين وكلٌّ ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاتـه في أيام خلفـائه رضي الله عنهم أجمعين كما قال الله تعـالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلى، إن الله قوي عزيز﴾ وقال: ﴿إنا لننصر رسلَنَا والذين آمنوا في الحيـاة الدنيـا ويـوم يقوم الأشهـاد * يـوم لا ينفع الظالمين معـذرتهم ولهم اللعنة ولهم سُوءُ الدار﴾. وقال تعالى: ﴿ولقد كتبنـا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عباديَ الصالحون﴾ وقـال تعالى إخبارا عن رسله: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنُهْلِكَنَّ الظـالمين * ولَنُسْكِنَنَّكُم الأرض من بعـدهم، ذٰلك لمن خـاف مقامي وخـاف وعيـد﴾ وقال تعـالى: ﴿وَعَـدَ اللهُ الذين آمنـوا منكم وعملـوا الصـالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الـذين من قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الـذى ارتضى لهم ولَيُبَـدِّلنهـم من بعـد خـوفهم أمنـا، يعبـدونني لا يشركـون بي شيئـا﴾ الآيـة. وقـد فعل الله ذلك بهذه الأمـة المحمدية، وله الحمد والمنة أوّلاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا اهـ.

قال تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هٰذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصلُ إلى شركائِهم، ساء ما يحكمون * وكذٰلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هٰذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما في بطون هٰذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم * قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علمٍ وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ .

بعد أن أكد تبارك وتعالى غناه عز وجل عن عباده، وأنه من أجل اتصافه عز وجل بالرحمة أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمهل العصاة فلم يعاجلهم بالعقوبة مع قدرته على إبادتهم والمجيء بغيرهم وأكد أن القيامة حق وأمر نبيَّه ﷺ أن يواجه الكفار بتشديد التهديد وتكرير الوعيد بأنهم إذا استمروا على كفرهم فلن يفلحوا وسيرون ما يحل بهم من الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ستكون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، شرع هنا في بيان ضلال المشركين من قريش وجهلهم وسفاهتهم فذكر عز وجل صورا من أفعالهم وأقوالهم تبرهن على أنهم لم يرضَوْا أن عدلوا بمن خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى حيث عبدوا أوثانا وأصناما لا تضرهم ولا تنفعهم وجعلوهم شركاء لله حتى فَضَّلُوا هذه الأصنام على خالقهم ورازقهم رب العالمين وحتى أطاعوا شركاءهم وشياطينهم في قتل أولادهم وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّم الله، وفي ذلك يقول عز

وجل : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبـا فقالوا هذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا﴾ إلى قـوله تبارك وتعالى : ﴿قد ضَلُّوا وما كـانوا مهتدين﴾ وقد أشار ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن رضي الله عنهما إلى أن المؤمن إذا أراد أن يعرف ما كـان عليه أهل الجاهلية من الجهل والسفاهة والضـلالة ليشكر الله الذي أخـرجه من ظلمات الجاهلية إلى نـور الإسلام فليقرأ هـذه الآيات .
فقد قال البخاري في صحيحـه حدثنا أبوالنعمان حدثنا أبـوعَوَانَةَ عن أبي بشْرٍ عن سعيـد بن جبير عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال : إذا سَرَّكَ أن تَعْلَمَ جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام : ﴿قد خَسِرَ الذين قتلوا أولادهم سَفَهًـا بغير علم﴾ إلى قولـه : ﴿قد ضَلُّوا ومـا كانـوا مهتدين﴾ ومعنى قولـه عز وجل : ﴿وجَعَلُوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعـام نَصِيبًا﴾ أي وعَيَّنُوا لله عز وجـل قسما ونصيبا مما خلقه وحده لهم وبـرأه من الزروع والثمار ومن المواشي ، وعَيَّنُوا لأصنامهم وأوثانهم نصيبا من هذا الذي خلقه الله وذرأه وبـرأه لهم ، وقد دلَّ على هـذا المحـذوف قولُـه عـز وجل : ﴿فقـالوا هـٰذا لله بزعمهم وهٰذا لشركائنا﴾ والإشارة في قوله : ﴿هٰذا لله﴾ للنصيب الذي عينوه لله من الحرث والأنعام والإشارة في قوله : ﴿وهـٰذا لشركائنا﴾ للنصيب الذي عينـوه لأصنـامهم وأوثـانهم الـذين جعلـوهم شركـاء لله عــز وجل ، ومعنى﴿بزعمهم﴾ أي بـدعواهم التي زعمـوها بلا بينـة ولا برهـان وبقولهم الذي لا حقيقة له . ومعنى قوله عز وجل : ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كـان لله فهو يصل إلى شركـائهم ، ساء ما يحكمـون﴾ قال ابن جـرير رحمه الله : حـدثني إسحاق بن إبـراهيم بن حبيب بن الشهيد قـال : حدثنـا عتـاب بن بشير عن خَصيف عن عكـرمـة عـن ابن عبـاس : ﴿فما كـان لشركائهم فـلا يصل إلى الله﴾ الآية . قال : كـانوا إذا أدخلوا الطعـام فجعلوه حُزَمًـا جعلوا منها لله سَهْمًا ، وسهما لآلهتهم ، وكان إذا هبت الـريحُ من نحو

الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله رَدُّوهُ إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقَرُّوهُ ولم يَرُدُّوهُ، فذلك قولُه: ﴿ساء ما يحكمون﴾ اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُمْ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يَفْتَرُون﴾ أي وكما لعبت الشياطين بعقول هؤلاء الجاهلين فظهر من سخافة عقولهم وسفاهة آرائهم أَنْ جعلوا لأصنامهم نصيبا من الحرث والأنعام التي خلقها الله عز وجل وحده لا شريك له وجعلوا لله عز وجل منها نصيبا وحَرَصُوا على صيانة نصيب أصنامهم ولم يَحْرِصُوا على صيانة النصيب الذي جعلوه لله، كذلك لعبت الشياطين بعقولهم فَحَسَّنَتْ لهم قتلَ أولادهم من الفقر أو خشية الفقر وَوَأْدَ بناتهم خشية العار، وقد جهل هؤلاء أن ا لشياطين فعلت بهم ذلك القبيح وأوقعتهم في هذه الجريمة المناقضة للفطرة ليهلكوهم ولِيَخْلِطُوا عليهم دينهم، وقد خذلهم الله عز وجل ولو أراد إرادة كونية عدم هذا الفعل منهم ما فعلوه، فَدَعهم يا محمد فسيحكم الله عز وجل بينك وبينهم وسيجزيهم على ما يفترونه ويختلقونه من الكذب على الله تبارك وتعالى، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: وكما زينت الشياطينُ لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأدَ البناتِ خشية العار اهـ وقد حذَّر الله تبارك وتعالى من هذه الجريمة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل في الوصايا العشر الواردة في هذه السورة المباركة: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ ويقول في سورة الإسراء: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خِطْئًا كبيرا﴾ وقال عز وجل: ﴿وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجه مُسْوَدًّا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء

ما بُشِّرَ بـه ، أَيُمْسِكُهُ على هُـونٍ أم يَدُسُّـهُ في التراب ، أَلاَ سَاءَ مـا يحكمون﴾ وقال عـز وجل : ﴿وإذا الموءودة سُئِلَتْ * بأي ذنب قُتِلَتْ﴾ ووصف رسولُ الله ﷺ جـريمة قتل الـولـد التي كـان يرتكبهـا أهل الجاهليـة بأنها من أكبر الكبـائر فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث عبد اللـه يعني ابن مسعـود رضي الله عنه قـال : سألت النبي ﷺ : أَيُّ الـذنب أعظم عنـد الله؟ قــال : أن تجعل لله نِـدًّا وهـو خلقـك ، قلتُ : إن ذلك لعظيم ، قلتُ : ثم أيّ؟ قال : وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك ، قلت : ثم أيّ؟ قال : أن تُزَانِيَ حليلة جارك . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿وقالوا هٰذه أنعامٌ وحرثٌ حِجْـرٌ لا يَطْعَمُهَا إلا من نشـاء بـزعمهم وأنعام حُـرِّمت ظهـورُها وأنعـام لا يـذكـرون اسم الله عليهـا افتراء عليـه ، سيجـزيهم بما كـانـوا يفترون﴾ بيـانٌ لقبيحةثـالثة من قبائح وجهـالة وسفاهـة مشركي قريش ومن سلك سبيلهم من الكفـار، حيث كـانـوا ينقادون لشيـاطينهم في لعبهـا بعقـولهم ويفترون الكـذب على الله عـز وجل فيـزعمـون أن الله عـز وجل حـرَّم وحَجَـر بعض الأنعـام وبعض الزروع فـلا يحل لأحـد أن يطعم منها شيئـا إلا بإذنهم ، كما افتروا على الله عز وجـل فزعموا أنـه تبارك وتعـالى حرَّم عليهم ركـوب بعض الأنعـام كذِبًـا على الله وتحكما فاسـدا كما حرَّمـوا ذكر اسم الله عـز وجل على بعض أنعامهم لا إن أوْلَدُوها ولا إن ركبوها ولا إن حلبوها ولا إن حَمَلُوا عليها ولا إن نحروهـا انقيادا لشيـاطينهم واتباعـا لأهوائهم مع دعـواهم أن الله هو الـذي أمـرهم بـذلك ، وهم يفترون على الله ، ولذلـك قال تبـارك وتعـالى : ﴿سيجزيهم بما كـانوا يفترون﴾ أي سيعاقبهم الله عز وجل بسبب مـا اقترفوه من الافتراء على الله والكـذب عليـه ، وقــد وبَّخَ الله تبـارك وتعـالى المشركين الجاهلين في غير موضـع من كتابه الكـريم على جرأتهم على الله في التحـريم والتحليل انقيادا لشيـاطينهم وانغماسا في جهلهم حيث يقول تبـارك وتعالى :

﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أَذِنَ لكم أم على الله تفترون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولٰكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذبَ وأكثرُهُم لا يعقلون﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وقالوا ما في بطون هٰذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومُحَرَّمٌ على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾ بيانٌ لمزيد من قبائح المشركين بافترائهم على الله حيث تحكموا بآرائهم الفاسدة ومذاهبهم الكاسدة فحرموا ما في بطون بعض الأنعام على النساء وأباحوه للرجال إن خرج حيا، أما إذا خرج ميتا فيباح أكله للرجال والنساء، وهذا دينٌ ما أنزل الله به من سلطان، وقولٌ على الله بغير حق ولذلك قال عز وجل: ﴿سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول جل ثناؤه: ﴿سيجزي﴾ أي سيثيب ويكافئ هؤلاء المفترين عليه الكذبَ في تحريمهم ما لم يحرمه الله وتحليلهم ما لم يحلله الله وإضافتِهم كَذِبَهُم في ذلك إلى الله، وقوله ﴿وَصْفَهُمْ﴾ يعني بوصفهم الكذبَ على الله وذلك كما قال جل ثناؤه في موضع آخر من كتابه ﴿وتصف أَلْسِنَتُهُم الكذِبَ﴾ والوصف والصفة في كلام العرب واحد، وهما مصدران مثل الوزن والزنة اهـ وقوله عز وجل: ﴿قد خَسِرَ الذين قتَلُوا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بغير علم وحَرَّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذبَ، العادلون به الأوثانَ والأصنامَ، الذين زَيَّنَ لهم شركاؤهم قَتْلَ أولادهم وتحريمَ ما أنعمتُ به عليهم من أموالهم، فقَتَلُوا طاعةً لها أولادهم وحرَّموا ما أحل الله لهم وجَعَلَهُ لهم رزقا من أنعامهم ﴿سَفَهًا﴾ منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلك جَهالَةً منهم بِمَا لَهُمْ وعليهم، ونَقْصَ عقولٍ وضعفَ أحلامٍ منهم،

وقِلَّةَ فهم بعاجل ضُرِّه وآجل مكـروهه من عظيم عقاب الله عليه لهم ﴿افتراء على الله﴾ يقول: تكَذُّبًا على الله وتَخَرُّصًا عليه الباطل ﴿قد ضَلُّوا﴾ يقول: قد تـركـوا مَحَجَّـةَ الحق في فعلهم ذلك وَزَالُـوا عـن سـواء السبيل ﴿وما كـانـوا مهتدين﴾ يقول: ولم يكـن فَاعِلُوا ذلك على هُدًى واستقامـةٍ في أفعالهم التي كانـوا يفعلون قبل ذلك، ولا كـانوا مهتدين للصـواب فيها ولا مُـوَفَّقِينَ له، ونزلت هذه الآية في الذين ذكر الله خَبَرَهُمْ في هذه الآيات من قوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعـام نصيبـا﴾ الـذين كـانوا يَبْحـرُونَ البحـائر ويُسَيِّبُونَ السـوائب ويئـدون البنـات اهـ.

قال تعالى : ﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشات والنخل والزَّرع مختلفا أكله والزيتون والرُّمـان متشابها وغير متشابه، كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصـاده ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين * ومن الأنعام حمولة وفرشًا، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين﴾ .

بعد أن ساق عز وجل صورا من قبائح أفعال المشركين وأقوالهم التي تبرهن على أنهم لا يعقلـون، وأنهم يفترون على الله الكـذب، وأنهم خسروا أنفسهم وضلوا وما كانوا مهتدين شرع هنـا في بيان أنه عز وجل هو الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي اجترأ هـؤلاء المشركون فحرموا منهـا ما شاءوا وأحَلُّوا مـا شاءوا بآرائهم الفـاسدة مع العلم بأنهم لـو سألتهم لأقروا بأن الله هو وحـده الخالق المنشئ لها، لكنهم اتبعوا خطـوات الشيطان وانقـادوا له، فألقى بهم في مهامـه الضلال والضَّيـاع، وفي ذلك يقول عـز وجل: ﴿وهو الذي أنشأ جنـات معروشـات وغير معروشـاتٍ والنخل والزرع مختلفـا أُكُلُه والزيتـون والرمـان متشابها وغير متشـابه﴾ إلى قـوله عـز وجل: ﴿ولا تتبعوا خُطُوَاتِ الشيطان، إنـه لكم عدو مبين﴾ قال الفخر الـرازي في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنـات معروشات وغير معروشات﴾ الآية: اعلم أنه تعالى جعل مـدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التـوحيد والنبوة والمعـاد و إثبات القضـاء والقدر، وأنـه تعالى بَـالَغَ في تقريـر هذه الأصـول، وانتهى الكلام إلى شرح أحوال السعـداء والأشقياء، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة، وكلماتهم الفـاسدة، في مسـائل أربعة، والمقصـودُ التنبيـهُ على ضعف عقولهم، وقلـة محصولهم، وتنفير الناس عن الالتفـات إلى قولهم، والاغترار بشبهاتهم، فلما

تَمَّمَ هذه الأشياء عاد بعـدها إلى ما هو المقصود الأصلي، وهو إقـامة الدلائل على تقرير التوحيد، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ واعلم أنه قد سَبَقَ ذكرُ هـذا الدليل في هذه السورة، وهو قولُه: ﴿وهـو الذي أنزل من السماء ماءً فأخـرجنا به نبـاتَ كل شيء فأخرجنـا منه خَضِرا نخرج منـه حَبًّا متراكبـا ومن النخل من طلعهـا قِنْوانٌ دانيـةٌ وجنـاتٍ من أعنـاب والزيتـون والرمان مشتبها وغيرَ متشابهٍ، انظـروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِهِ، إن في ذٰلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ فالآية المتقدمـةُ ذكر تعالى فيها خمسة أنواع، وهي الزرع والنخل وجنات من أعنـاب والزيتون والـرمان، وفي هـذه الآية التي نحن في تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها، لكن على خلاف ذلك الترتيب لأنه ذكر العنب ثم النخل ثم الـزرع ثم الـزيتون ثم الـرمان، وذكـر في الآيـة المتقدمـة ﴿مشتبها وغير متشابـه﴾ وفي هذه الآية ﴿متشابها وغير متشـابه﴾ ثم ذكر في الآية المتقدمـة ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعِـهِ﴾ فأمر تعالى هنـاك بالنظر في أحوالها والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم، وذكر في هذه الآية ﴿كُلُوا من ثمره إذا أثمر وآتُوا حقه يـوم حصاده﴾ فأذن في الانتفاع بها، وأَمَرَ بصرف جزء منها إلى الفقـراء، فالـذي حصل به الامتيـاز بين الآيتين أنَّ هناك أمـرا بـالاستدلال بها على الصـانع الحكيم، وهـاهنا أذن في الانتفـاع بها، وذلك تنبيـه على أن الأمر بـالاستـدلال بها على الصانع الحكيم مُقَـدَّمٌ على الإذن في الانتفـاع بها، لأن الحاصل من الاستـدلال بها سعـادةٌ روحـانيـةٌ أبـديـةٌ، والحاصل من الانتفاع بهذه سعـادةٌ جسمانيةٌ سريعـةُ الانقضاء، والأولُ أولى بـالتقديـم، فلهذا السبب قـدَّم الله تعـالى الأمـرَ بالاستـدلال بها على الإذن بالانتفاع بها اهـ.

والمعروشات هي الأعنـاب وغيرها من الأشجار المرفوعـات على ما يحملها من عـريش ونحـوه، وغير المعـروشـات هي مـا لم تـرفع على عـريش لعـدم

حاجتها له وفي هذا لفت انتباه الناس إلى كمال قدرة الله وعلمه وحكمته حيث أخرج للناس من ا لمعروشات وغير المعروشات الثمار التي تفضل الله عز وجل فأنعم بها على عباده لغذائهم وفاكهتهم وأدويتهم وسائر حاجاتهم، ومن عجائب آيات الله في أغصان شجرة العنب وهي تنمو وتتمدد فوق عريشها أنه يخرج منها خيوط دقيقة، ذات قرون تلتف في منظر عجيب دقيق حول أعواد العريش ليستمسك بها الغصن حتى لا يسقط على الأرض، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هَدَى. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿والنخل والزرع مختلفا أُكُلُه﴾ أي وأنشأ النخل والزرع وخلق لكم في النخل والزرع ثمرا مختلفا في هيئته وكيفيته ولونه وطعمه وفائدته ومنها ما يُدَّخَرُ ومنها ما لا يَصلُحُ للادخار، والأكُلُ هو الثمر الذي يؤكل، وقولُه عز وجل: ﴿والزيتونَ والرمانَ متشابها وغير متشابه) أي وأنشأ الزيتون والرمان وقد أودع هذه الْمُنْشَآتِ من الطبائع ما يشهد بأنها من آيات الله الدالة على بديع صنعه وجليل حكمته حيث يكون منها ما هو متشابه في اللون والشكل وهو مختلف في الطعم واللذة، وقد تتشابه أوراقه ولا يتشابه ثمره كالزيتون والرمان، ومن المعلوم أنك قد تأخذ عنقودين من عنب أو رمانتين متشابهين في الصورة واللون والشكل ثم تجدهما مختلفين في الحلاوة والحموضة، فبعضها حلو وبعضها حامض وبعضها مُزٌّ أي بين الحامض والحُلْو. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ هذا تنبيه من الله تبارك وتعالى لعباده أن يُحِلُّوا ما أحل الله تعالى لهم وأن يحرموا ما حرَّم الله عليهم، وفي قوله عز وجل ﴿إذا أثمر﴾ إباحةٌ لأصحاب الزروع والأشجار أن يأكلوا من ثمر مزارعهم وبساتينهم متى أثمرت هذه البساتين، ولا حظر عليهم في ذلك حتى لا يخطر على بال واحد منهم أنه لا يجوز الأكل منها قبل إعطاء المساكين، لأنه إنما يجب التصدق

على المساكين منهـا بعد حصـادها ولـذلك قال عـز وجل : ﴿وآتوا حقـه يوم حصاده﴾ والظـاهر أن هـذا الحق كان شيئـا قد فـرضه الله عـز وجل في أول الإسلام على أهل الثمار لمن حضرهم يوم الحصـاد من المساكين والفقراء وذوي القـربى ، ولم يكن مُقَـدَّرًا بمقدار معين . والمقصـود منـه تطييبُ نفـوس من حضرهم يوم الحصاد من المحتاجين ، وتدريبٌ قبل فرض الزكاة المقدرة المعينة التي جعلها الله عـز وجل ركنا من أركـان الإسلام وحـدَّد الإسلام أنصبـاءها ومصارفها ، والظاهر كذلـك أن إعطاء المساكين يوم الحصاد والصرام شريعة سـابقـة كما أشار الله تبـارك وتعـالى حيث يقـول : ﴿إنـا بَلَـوْناهم كما بَلَـوْنَـا أصحاب الجنـة إذ أقسموا لَيَصْرِمُنَّهَـا مُصْبحين * ولا يَسْتَثْنُونَ فطـاف عليها طائف من ربك وهم نـائمون * فأصبحت كـالصَّرِيم * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أن اغْدُوا على حـرثكم إن كنتم صارمين * فـانْطَلَقُوا وهم يتخـافتون * أن لا يَـدْخُلَنَّهَا اليـوم عليكم مسكين * وَغَدَوْا على حَرْدٍ قادرين﴾ . إلى قـوله عـز وجل : ﴿عَسَى ربُّنَا أن يُبْدِلَنَـا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قـال ابن جرير رحمه الله في تفسير قولـه تعالى : ﴿وآتـوا حَقَّهُ يـوم حصاده﴾ كـان ذلك فـرضا فرضـه الله على المؤمنين في طعامهم وثمارهم التي تُخْرِجُهـا زروعُهم وغُروسُهُم ثم نسخه الله بالصدقة المفروضة والوظيفة المعلومة من العُشْر ونصف العُشر، وذلك أن الجميع مجمعـون لا خِلاَفَ بينهم : أن صـدقة الحرث لا تـؤخذ إلا بعد الدِّياس والتنقيـة والتذرية ، وأن صدقة التمر لا تـؤخذ إلا بعد الإجزاز، فإذا كان ذلك كـذلك ، وكان قـولُه جل ثناؤه : ﴿وآتُـوا حقه يـوم حصاده﴾ يُنْبِئ عن أنه أمرٌ من الله جل ثناؤه بإيتاء حقه يوم حصاده ، وكان يومُ حصاده هو يوم جَدِّه وقطعه ، والْحَبُّ لا شك أنه في ذلك اليوم في سنبله ، والتمر وإن كان ثمـر نخل أو كَرْمٍ غيرُ مُسْتَحْكَمٍ جُفُـوفُهُ وَيُبْسُـهُ ، وكانت الصـدقة من الحَبِّ إنما تؤخذ بعد دِيـاسه وتذريته وتنقيته كَيْلاً ، والتمر إنما تـؤخذ صدقته

بعد استحكام يُبْسِهِ وجفافه كَيْلاَ عُلِم أن ما يؤخذ صدقة بعد حين حصده غيرُ الذي يجب إيتاؤه المساكين يوم حصاده، فإن قال قائل: وما تنكر أن يكون ذلك إيجابا من الله في المال حقا سوى الصدقة المفروضة؟ قيل: لأنه لا يخلو أن يكون ذلك فرضا واجبا أو نفلا، فإن يكن فرضا واجبا فقد وجب أن يكون سبيلُه سبيل الصدقات المفروضات التي من فرَّط في أدائها إلى أهلها كان بربه آثما ولأمره مخالفا، وفي قيام الحجة بأن لا فرض لله في المال بعد الزكاة يجب وجوب الزكاة سوى ما يجب من النفقة لمن يلزم المَرْءَ نفقته ما ينبئ عن أن ذلك ليس كذلك، أو يكون ذلك نَفْلاً، فإن يكن ذلك كذلك فقد وجب أن يكون الخيارُ في إعطاء ذلك إلى رب الحرث والثمر، وفي إيجاب القائلين بوجوب ذلك ما ينبئ عن أن ذلك ليس كذلك، وإذا خرجت الآيةُ من أن يكون مرادا بها الندب وكان غير جائز أن يكون لها مَخْرَجٌ في وجوب الفرض بها في هذا الوقت عُلِمَ أنها منسوخة اهـ وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ تحذير من التبذير في الأموال بإنفاقها في غير الوجوه المشروعة ومنعها من مستحقيها، وتنبيهٌ على رعاية الاقتصاد في السلوك، قال ابن الأعرابي: السرف تجاوز ما حُدَّ لك اهـ وقد كان رسول الله ﷺ يحض على الاقتصاد لأنه أيسر طرق الوصول إلى المأمول من الخير والبر، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إن الدين يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدِّينَ أحد إلا غلبه، فَسَدِّدُوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدْوَة والرَّوْحَة وشيء من الدُّلْجَة. وفي رواية له: سَدِّدُوا وقاربوا واغْدوا ورُوحُوا، وشيء من الدلجة، ، الْقَصْدَ، القَصْدَ تَبْلغُوا. كما روى مسلم من حديث جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاته قَصْدًا، وخُطْبَتُهُ قَصْدًا. وقد نَبَّهَ الله تبارك وتعالى إلى الاقتصاد في الأكل والشرب وحذَّر من الإسراف في غير هذه الآية

كذلك حيث يقـول في سورة الأعـراف : ﴿يا بني آدم خُـذُوا زينتكم عند كل مسجد وكلـوا واشرَبُوا ولا تسرفـوا ، إنه لا يحب المسرفين﴾ وكما قـال في سورة الإسراء : ﴿وآتِ ذا القربى حقه والمسكين وابنَ السبيل ولا تُبَـذِّرْ تَبْذِيرا * إن المبذرين كـانوا إخوان الشياطين وكـان الشيطان لربه كفـورا﴾ إلى أن يقول : ﴿ولا تجعل يَـدَكَ مغلـولـة إلى عنقك ولا تبسطها كلَّ البَسْـطِ فتقعد ملـومـا محسورا﴾ . وكما قال في وصف عباده الصالحين : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذٰلك قَوَاما﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ومن الأنعام حمولة وفـرشا ، كلـوا ممـا رزقكم الله ولا تتبعوا خطـوات الشيطـان ، إنه لكم عـدو مبين﴾ أي وأنشأ من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم حمولةً أي قويةً تستطيع حمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بـالغيه إلا بِشِق الأنفس ، وفرشا أي ضعيفة لا تستطيع حمل الأثقـال لكنكم تنتفعـون بلحمهـا وألبـان ذوات اللبن منهـا وتتخذون من أصـوافها وأوبـارها وأشعـارها أثاثـا ومتاعـا إلى حين ، فتَمَتَّعُوا بالأكل منها واشكروا الله الذي رزقكمـوها ، ولا تنقادوا للشيطان فتحرموا أو تحللوا تبعا لما يزخرفه لكم لأنه عدو ظاهر العداوة لكم .

قـال تعـالى : ﴿ثمانية أزواج من الضـأن اثنين ومن المعـز اثنين، قـل ءآلذكـرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحـام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صـادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقـر اثنين، قل ءآلذكـرين حـرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كـذبـا ليضـل النـاس بغير علم، إن الله لا يهـدي القـوم الظالمين * قل لا أجد في مـا أوحي إلي مُحَرَّمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾.

بعد أن بَيَّنَ عـز وجل أنه هو الخالق لكل شيء من الـزروع والثمار والأنعام التي اجترأ هؤلاء الجاهلـون المشركون فَحَرَّمُوا منهـا ما شاءوا وأحلوا مـا شاءوا بآرائهم الفاسدة زاعمين أن الله تعالى هـو الذي حرَّمها عليهم افتراءً على الله، وانقيـادًا للشيطان، شرع هنـا في إفحـام هؤلاء الجاهلين المشركين وتقـريعهم بتحرير المواد التي تَقَوَّلُوا فيها على الله عز وجل وبيان أنه لا سند لهم في تحريم مـا حـرَّموا إلا الافتراء على الله، ونفى أن يكـون للمشركين علم أو مشـاهـدة بتحـريم شيء منها، فقـد ذكر في الآيـة السـابقة أنـه خلق من الأنعام حمولـة وفرشـا، وفَصَّل هنا الحمولـة والفرش إلى ثمانية أزواج أي أنـواع وهي لا تخلو عن أن تكون في بطون أمهاتها أو انفصلت عنها حية أو ميتة، وأمر نبيه محمدا ﷺ بتقريع المشركين وإفحـامهم على طريقـة الاستفهام الإنكـاري التوبيخي بتوجيـه السؤال لهم عن كل مادة من مـواد افترائهم حيث كانوا يحرمـون ذكور الأنعام تارة وإنـاثها تارة أخرى كما كـانوا يحرمون ما في بطـون الأنعام في حال ويحلـونها في حالـة أخـرى، كما كانـوا يخصون ببعضهـا الـرجال دون النسـاء ويبيحـونها للنساء مع الـرجال تـارة أخرى، وكـرر الأمر بـذلك للمبالغـة في

التبكيت والتقريع والإلزام والإفحام حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ومعنى ﴿ثمانية أزواج﴾ أي ثمانية أفراد أي أنواع. قال ابن سيده: الزوج: الفردُ الذي له قرين اهـ فيطلق لفظ الزوج على المفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه ويحصل منهما النسل، وكذا يطلق على الاثنين، والمراد هنا: الإطلاق الأول. وقوله ﴿من الضأن اثنين ومن المعز اثنين﴾ إلى قوله ﴿ومن البقر اثنين﴾ بدل تفصيلي من ﴿ثمانية أزواج﴾ والضأنُ: ذوات الصوف من الغنم. والمراد بقوله: ﴿من الضأن اثنين﴾ الكبش والنعجة يعني الذكر والأنثى والمعز: ذوات الشَّعر من الغنم. والمراد بقوله: ﴿ومن المعز اثنين﴾ التيس والعنز يعني الذكر والأنثى، والضأن اسم جمع وكذلك المعز، وقدم هذه الأربعة في التفصيل مع تأخر أصلها وهو الفرش في الإجمال لكونها عرضة للأكل الذي هو مُعْظَمُ ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر في الاقتصار على الأمر بالأكل من غير تعرض للمنافع الأخرى كالحمل والركوب التي حرَّمُوها في السائبة والوصيلة والبحيرة والحامي. والهمزة في قوله: ﴿قل ءَ الذَّكرين حرَّمَ أم الانثيين﴾ للإنكار، والمقصودُ إنكار التحريم لكنه أورده في صورة إنكار المفعول ليطابق ما كانوا يدَّعونه من التفصيل في المفعول، فإذا أنكر المفعول كان إنكارا للفعل بطريق برهاني، والمراد بالذكرين: الكبش والتيس، والمراد بالأنثيين: النعجة والعنز، وانتصاب الذكرين بِحَرَّمَ، وقد عطف عليه الأنثيين، وأمَّا في قوله تعالى: ﴿أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ عبارة عن أم العاطفة، وما الموصولة، وقد حصل الإدغام بسبب التقاء ميم أم ساكنة مع ما بعدها، ومعنى: ﴿اشتملت﴾ أي احتوت، وأرحام جمع رحم وهو محل الجنين. ومعنى: ﴿أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين﴾ أي أم حرَّم الذي اشتملت عليه أرحام

أنثى الضأن وأنثى المعز من الأجنة، ومعنى: ﴿نبئوني بعلم إن كنتم صادقين﴾ أي أخبروني بأمر تستيقنونه عن سبب التحريم، والأمر للتعجيز، أي قل يا محمد لمن حرَّم بعض الذكور تارة وبعض الإناث تارةً أخرى: من أين جاء التحريم؟ فإن كان من جهة الذكورة فجميع الذكور إذَنْ حرام، وإن كان التحريم لعلة الأنوثة فجميع الإناث إِذَنْ حَرَامٌ، وإن كان التحريم بسبب اشتمال الرحم فجميع الذكور والإناث إذن حرام فمِنْ أين جاء التخصيص؟ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الذكر والأنثى أي الجمل والناقة وأنشأ من البقر اثنين هما الذكر والأنثى أي الثَّوْر وأنثاه، وأم في قوله تبارك وتعالى: ﴿أم كنتم شُهَدَاءَ إذ وصاكم الله بهذا﴾ هي أم المنقطعة التي تَرِدُ بمعنى بل التي للإضراب والهمزة التي للإنكار، والإضراب في بل إضرابٌ للانتقال من توبيخهم بنفي العلم عنهم إلى توبيخهم بنفي حضورهم وقت الإيصاء بالتحريم المزعوم، ومعنى ﴿شهداء﴾ أي حاضرين، ومعنى: ﴿وصاكم الله﴾ أي عهد إليكم. والإشارة في قوله عز وجل: ﴿بهذا﴾ لما زعموه من تحريم ما حرموه وادَّعَوْا أن الله هو الذي حرَّمه عليهم، وقد سيق هذا الكلام الكريم لتبكيتهم وإفحامهم وقطع كل شبهة لديهم وإلزامهم بما لا فرار لهم من الإقرار على أنفسهم بأنهم مفترون كاذبون، ولما كان الكذب على الله عز وجل هو أقبح الكذب وأفحشه أردف تبارك وتعالى هذا البيان بقوله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كَذِبًا لِيُضِلَّ الناسَ بغير علم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ والفاء في قوله تعالى: ﴿فمن أظلم﴾ هي الفصيحة، ومَنْ استفهام إنكاري أي فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم. ولم يقل: فمن أظلم منكم، وقال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ ليثبت لهم هذه الأوصاف القبيحةَ، وهي

أنهم ظالمون مفترون كاذبون ضالـون مضلون جاهلون، ولِيَعُمَّهُمْ ومن على شاكلتهم كذلك أيضا ومعنى قوله هنا: ﴿افترى على الله كذبا﴾ أي حرَّم ما لم يحرمه الله ونَسَبَ ذلك التحريمَ إلى الله افتراءً عليه. والهدايةُ في قوله عز وجل: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ هي هداية التوفيق والإعانة والتسديد، لا هداية البيان. قال ابن جرير رحمه الله: وأما قولُه: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ فإنه أمرٌ من الله جل ثناؤه نَبِيَّهُ ﷺ أن يقول لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين قَصَّ قصصهم في هذه الآيات التي مضت، يقول له عزَّ ذكره: قل لهم يا محمد: أيَّ هذه سألتكم عن تحريمه حرَّم ربُّكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإن أجابوك عن شيء مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أَخَبَرًا قلتم: «إن الله حرَّم هذا عليكم»، أَخْبَرَكم به رسول عن ربكم أم شَهِدْتُم ربَّكم فرأيتموه، فوَصَّاكم بهذا الذي تقولون وتُزَوِّرُونَ على الله؟ فإن هذا الذي تقولون من أخباركم عن الله أنه حرام بما تزعمون على ما تزعمون، لا يُعْلَمُ إلا بوحي من عنده مع رسول يرسله إلى خلقه، أو بسماع منه، فَبِأَيِّ هٰذين الوجهين علمتم أن الله حرَّم ذلك كذلك، برسول أرسله إليكم فأنبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك، وقال لكم: حَرَّمْتُ ذلك عليكم، فسمعتم تحريمه منه، وعَهْدَهُ إليكم بذلك؟ فإنه لم يكن واحدٌ من هذين الأمْرَيْنِ، يقول جل ثناؤه: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾ يقول: فمن أشدُّ ظلما لنفسه وأبعدُ عن الحق ممن تَخَرَّصَ على الله قِيلَ الكذب، وأضاف إليه تحريم ما لم يُحَرِّمْ وتحليل ما لم يُحَلِّلْ ﴿لِيُضِلَّ الناسَ بغير علم﴾ يقول: ليصدهم عن سبيله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول: لا يُوَفِّقُ اللهُ للرشد من افترى على الله وقال عليه الزُّورَ والكذب وأضاف إليه تحريم ما لم يُحَرِّمْ، كُفْرًا بالله، وجحودًا لنبوة نبيه محمد

ﷺ اهـ وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿قل لا أجـد فيما أوحي إليَّ مُحَرَّمًا على طـاعم يطعمه﴾ الآية رَدٌّ على المشركين الذين حرَّمُـوا بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلـة والحامي، وبيانٌ لما حرَّمه الله عـز وجل لتأكيد افتراء المشركين على الله عز وجـل وأنهم حرَّمـوا ما لم يحرمه الله، والتعبير بقـوله: ﴿قـل لا أجد﴾ وبقولـه: ﴿فيما أوُحِيَ إليَّ﴾ للإيـذان بأن منـاط الحل والحرمة هو الـوحي، ومعنى ﴿طـاعم﴾ أي آكل وهو يشمل الـذكـر والأنثى ففيه ردٌّ على قـولهم: ﴿ومحرَّمٌ على أزواجنا﴾ والتقييد بقوله: يَطْعَمُهُ لزيادة التقرير، وقولُه ﴿إلا أن يكون ميتـة﴾ الاستثناء من موصـوف ﴿مُحَرَّمًا﴾ المحذوف والتقديـر: لا أجد حيوانا من الأزواج الثمانيـة محرما إلا حيوانا متصفا بـالموت و إلا الدَّمَ المسفوحَ ولحمَ الخنـزيـر ومـا ذبح لغير الله. والمراد بـالمسفـوح هـو الـدم السـائل من الذبيحة، والتقييد باللحم في قولـه عز وجل: ﴿أو لحم خنزير﴾ للإشارة إلى أنه نجس العين لا تحله التذكية، والضمير في قوله عز وجل: ﴿فإنه رجس﴾ للحم الخنزيـر، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعـراب قد سيقت لتعليل تحريم لحم الخنزير، والرجس: الخبيث النجس، ولا شك أن الخنزير خبيث لـذاتـه، وضرره وأكلـه النجاسـات. وقـد أثبت التحليل أنـه أكبر أسبـاب الإصابة بالدودة «الشريطية» لآكليه. وقوله: ﴿أو فسقا﴾ عطف على ﴿لحم خنزير﴾ وقوله: ﴿أُهِلَّ لغير الله به﴾ صفة لقوله: ﴿فسقا﴾ والمراد به ما ذبح لغير الله من القـرابين، وسميَ فسقا لتـوغله في الخروج عن طـاعة الله، وقـد تقدم في تفسير الآية الثـالثة والسبعين بعد المائة من سـورة البقرة ما يبين المراد من ألفاظ هذه الآيـة الكريمة، كما سقت في تفسير الآية التـاسعة عشرة بعد المائة من سـورة الأنعـام ما يشبـه هـذه الآيـة الكريمـة من القـرآن العظيم، والحصر في المحـرمـات الأربع المذكـورة في هذه الآيـة وشبيهـاتها من الآيـات الكريمة المباركة هو حصرٌ نِسْبِيٌّ لا ينافي أن يرد بعده تحريم شيء سواه. وقد

نهى رسـول الله ﷺ عن أكل كل ذي نـاب من السبـاع وذي مخلب من الطير وعن أكل الحمر الأهلية فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي ثعلبة الخُشَنِي رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كـل ذي ناب من السباع، كما روى مسلم من حديـث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن كل ذي ناب من السبـاع وعن كل ذي مخلب من الطير. كما روى البخاري ومسلم من أحـاديث علي وابن عمر وجابر بن عبـدالله والبراء وابن أبي أوفى وأبي ثعلبة وأنس بن مالك رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ نهى عن الحمر الأهلية.

قال تعـالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرَّمنا كل ذي ظفـر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا مـا حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظمٍ، ذٰلك جـزينـاهم ببغيهم وإنـا لصادقـون * فإن كـذَّبـوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين * سيقـول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذٰلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون * قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ .

بعد أن أفحم الله تبارك وتعـالى المشركين الجاهلين فيما تَقَوَّلُوا على الله تبارك وتعـالى وبيَّن أنه لا سنـد لهم في تحريم مـا حرَّمـوا إلا الافتراء على الله ونَفَى أن يكون للمشركين علم أو مشاهدة بتحريم شيء منها، وحَصَر المحرماتِ التي ثبت تحريمها على النـاس كافة، شرع هنا في ذكـر ما حرَّمـه الله عز وجل على اليهود خاصة عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم، ثم واسى رسوله ﷺ ورغَّب في الاستجابـة له، ورهَّب من الإعراض عنـه، ثم ذكر عز وجل فنًّـا آخر من فنـون كفر أهل الجاهليـة وأخبر عنه قبل وقـوعه منهم فـوقع كما أخبر به عـز وجل حيث حكى عنهم أنهم سيعتذرون عن كفريـاتهم وافتراءاتهم فيقولون : لو شـاء الله ما أشركْنـا ولا آباؤنا ولا حـرَّمنا من شيء، وبيَّن تبـارك وتعالى أن حجتهم داحضة وأن حجة الله هي البالغة حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وعلى الذين هادُوا حـرَّمنا كل ذي ظُفُرٍ﴾ إلى قوله تبارك وتعـالى : ﴿قل فلله الحجة البالغة فلـو شاء لهداكم أجمعين﴾ والمراد بالذين هـادوا : اليهود، وقدم الجار والمجرور للدلالـة على الحصر، والجملة معطوفة على مضمون الآيـة السابقة، أي لا أجد محرما إلا هذا وإلا ما حـرَّمه الله على اليهود خاصة بسبب ظلمهم وبغيهم . والمراد بـذي الظفـر : مـا له إصبع غير مشقـوق من دابـة أو طـائر

كالبعير والنعامة والوزِّ والبط. وقوله عز وجل: ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شُحُومَهُمَا إلا ما حَمَلَتْ ظهورُهُما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم﴾ أي وحرمنا على اليهود شحوم البقر والغنم إلا ثلاثة أنواع من هذه الشحوم فالأول هو الشحم الذي حملته ظهور البقر والغنم وعلق بها. والثاني هو شحم الحوايا وهي الأمعاء والمصارين والثالث هو الشحم المختلط بعظم البقر أو الغنم، وما عدا هذه الأنواع الثلاثة فقد حرمه الله على اليهود عقوبة لهم كشحم البطن، وشحم الكُلَى، وهذا الذي حرَّمه الله عز وجل على اليهود بسبب بغيهم هو غير الذي حرَّمه إسرائيلُ على نفسه، المذكور في قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ الطعام كان حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حرَّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أن تُنَزَّلَ التوراة﴾ والإشارة في قوله عز وجل: ﴿ ذٰلك جزيناهم ببغيهم﴾ للتحريم الذي ألزم الله عز وجل به بني إسرائيل عقوبة لهم، أي هذا الذي حرمنا على الذين هادوا من الأنعام والطير ذوات الأظافير غير المنفرجة ومن شحوم البقر والغنم قد حرمناه عليهم عقوبة مِنَّا لهم وجزاء عاجلا على أعمالهم السيئة من الظلم والبغي، كما قال عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإنا لصادقون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرمنا عليهم من الشحوم ولحوم الأنعام والطير التي ذكرنا أَنَّا حرمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرَّمه إسرائيل على نفسه وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه اهـ وقد أخبر رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل لما حرَّم الله عليهم الشحوم احتالوا فَجَمَلُوهَا ثم باعوها وأكلوا ثمنها، فقد روى البخاري من حديث عمر رضي

الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود ، حُرِّمَتْ عليهم الشحـوم فَجَمَلُوهَـا فباعوها . كما أخـرج البخـاري من حـديث جابـر بن عبـد الله رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال : قـاتل الله اليهـود ، إن الله لما حـرَّم شحومها جملـوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه ، وفي لفظ للبخاري من حـديث جابر ابن عبد اللـه رضي الله عنهما : سمعت النبي ﷺ قال : قـاتل الله اليهود ، لما حرَّم الله عليهم شحـومها جملـوها ثم باعـوها فأكلـوها . ومعنى جملـوها أي أَذَابُوهَا ، وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قـال : قاتل الله اليهـود ، إن الله عـز وجل لما حـرَّم عليهم شحومهـا أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثَمَنَـهُ ، وفي رواية لمسلم من حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : لعن الله اليهود ، حُـرِّمت عليهم الشحوم فجملـوها فباعوها ، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله اليهود حرَّمَ الله عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها . وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هـريرة قال : قـال رسول الله ﷺ : قاتل الله اليهـود ، حُرِّمَ عليهم الشحم ، فباعوه وأكلوا ثمنه . وقولُـه تبارك وتعالى : ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يُـرَدُّ بأسُهُ عـن القوم المجرمين﴾ قـال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى : فإن كـذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهـود ومن شَابَهَهُمْ فقل : ﴿ربكـم ذو رحمة واسعة﴾ وهـذا تـرغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسـوله ﴿ولا يُـرَدُّ بأسه عن القـوم المجرمين﴾ تـرهيب لهم في مخالفتهم الـرسول خـاتم النبيين ، وكثيرا مـا يقرن الله تعـالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قـال تعالى في آخـر هذه السـورة : ﴿إن ربك سريعُ العقـاب وإنه لغفور رحيم﴾ وقال : ﴿وإن ربك لـذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديـدُ العقاب﴾ وقـال تعالى : ﴿نَبِّئْ عبـادِي أني أنا الغفـور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ وقال تعالى : ﴿غافـر الذنب وقابل التَّوْب شديد

العقاب﴾ وقال: ﴿إن بَطْش ربك لَشَدِيد * إنه هو يُبْدِئ ويعيد * وهو الغفور الوَدُودُ﴾ والآيات في هذا كثيرةٌ جدا. اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أَشْرَكْنَا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنَا من شيء، كذٰلك كذَّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأْسَنَا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تَخْرُصُونَ﴾ بيانٌ لجهل المشركين وأنهم لم يعرفوا الله عز وجل إذ ظَنُّوا أن مُجَرَّدَ صدور الشرك منهم وتحريم ما حرَّموا يكفيهم في الدلالة على مشروعية ما صنعوا زعما منهم أن مشيئة الله بصدور الفعل منهم تقتضي رِضَى اللهِ عن عملهم، وخلطوا بين مشيئة الله ورضاه، وحسبوا أَنَّ ما شاءه هو راض عنه، والحال ليس كذلك فإن المشيئة هي الإرادة الكونية القدرية وليست ملازمة للإرادة الشرعية التي تدل على رضى الله ومحبته، وهو لا يأمر إلا بما يحب ويرضى، وهو لا يرضى لعباده الكفر، والواقع الصحيح أن الاحتجاج بقدر الله ومشيئته ينبغي أن يلاحظ فيه أمران: فالقَدَرُ إما أن يقترن بمصائب أو أن يقترن بمعايب، إذ قد يرتكب الإنسان جريمة كالشرك أو الزنا أو السرقة أو القتل أو شرب الخمر، فإذا قيل له: لِمَ فعلتَ ذلك؟ قال: قَدَرُ اللهِ أو مشيئةُ الله أو قضاء الله، ونسب جريمته إلى القدر والمشيئة. وهذا خطأ فإنه لا يصح الاحتجاج بالقَدَر على ارتكاب المعايب، لأن الله لم يبين له القَدَرَ قبل ارتكابه الجريمة ولم يأذن له في ارتكابها، أما إذا أصيب إنسان بمصيبة من المصائب التي لم يقع فيها بإرادته واختياره كالمرض أو الفقر أو كأن ينقلب وهو نائم على شخص فيقتله أو تنفلت منه حصاة أو نحوها على شخص بدون قصد فتصيبه أو تغلبه عينه رغم أنفه فينام عن الصلاة فإن له أن يحتج في كل هذه المصائب بالقدر ويقول: قدَّر اللهُ وما شاء فعل، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بـالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فـلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان. وهـؤلاء المشركون لم يذكروا المشيئـة على جهة التوحيد وإنما ذكـروها على جهة التكذيب للـرسول ﷺ لما نهاهم عن الشرك وأخبرهم أن الله منع من الشرك وأنه لم يحرم ما حـرموه ولذلك ردَّ الله عز وجل عليهم بقـوله: ﴿كذٰلك كذَّب الـذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنـا﴾ أي كذلك كذبت الأمم السـابقة الرسل حتى حلت بـالمكذبين عقوبـة الله، كما قال عز وجل: ﴿وقـال الذين أشركوا لـو شاء الله ما عبدنـا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حـرَّمنا من دونـه من شيء، كذٰلـك فعل الذين من قبلهم، فهـل على الرسل إلا البـلاغ المبين * ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أنِ اعبـدوا اللهَ واجتنبوا الطاغوت فمنهم مَن هَدَى الله ومنهم مَن حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كـان عاقبـةُ المكـذبين﴾ وكما قـال عز وجـل: ﴿وقالـوا لـو شـاء الرحمن مـا عبدناهم، مـا لهم بذٰلك من علم إن هم إلا يَخْرُصُونَ * أم آتيناهـم كتابا من قَبْلـه فَهُمْ بـه مستمسكون﴾ ولـذلك قـال هنـا: ﴿قل هل عنـدكم من علم فتخرجـوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصـون﴾ أي هل عندكم من كتـاب عن الله عز وجل بأنـه راض عن شرككم وتحريم مـا تحرمون فإن كـان عنـدكم علم فأبرزوه لنـا وأظهـروه وبينوه، والـواقع أنكم لا علم عنـدكم بما تقـولـون وتفعلون فأنتـم لا تتبعون في شرككم وتحريـم ما تحرمـون إلا الـوهم والخيال والرأي الفاسـد، وما أنتم إلا تفترون على الله فيما ادعيتموه. قال ابن كثير رحمه الله: وقـولُـه تعالى: ﴿قل فللـه الحجـةُ البـالغة فلـو شـاء لهداكم أجمعين﴾ يقول تعـالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قل﴾ لهم يا محمـد ﴿فلله الحجة البـالغة﴾ أي لـه الحكمة التـامة والحجـة البالغـة في هداية مـن هدى

وإضلال من ضل ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فكُلٌّ ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾ وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمَنَ مَن في الأرض﴾ وقوله ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأَمْلأَنَّ جهنم من الجِنَّةِ والناسِ أجمعين﴾اهـ.

قـال تعالى : ﴿قل هلمَّ شهـداءكم الذين يشهـدون أن الله حرم هـٰذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواءَ الذين كذَّبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدِلون * قل تعـالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهـر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرّم الله إلا بالحق، ذالكم وصـاكم به لعلكم تعقلـون * ولا تقربوا مـال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميـزان بالقسط لا نكلف نفسًا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كـان ذا قربى وبعهد الله أوفوا، ذالكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هٰذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله، ذالكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ .

بعـد أن قطع الله جميع شبه الكفـار الـذين افتروا على الله وأفحمهم حيث أثبت أن الله عز وجل لم يـرسل إليهم وحيا بما زعموا، ولم يكلمهم مشـافهة، طَالَبَهُمْ هنـا بإحضار شهـودهم على ما زعمـوا إن كان لـديهم شهود، ليبين أنهم ليس لديهم شهود ألبتة حيث يقـول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شهدآءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم هٰذا فإن شَهِدُوا فلا تَشْهَدْ معهم، ولا تتبع أهواء الذين كَذَّبُوا بـآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بـربهم يَعْدِلُون﴾ أي قل يا محمـد لهؤلاء السفهـاء الجاهلين المشركين الذين جعلـوا لله ممـا ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ولأوثانهم نصيبا وقالـوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء وأنعام حـرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليهـا، وقالوا ما في بطون هذه الأنعـام خالصة لذكورنـا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركـاء، وقد انقطعوا عن أن يُثْبِتوا أن الله أوحى إليهم أو شـافههم بذلك التحريم والتحليل، قـل لهم : هاتوا شهـداءكم الذين يشهـدون أن الله حرَّم

عليكم مـا تزعمـون أنه حـرَّم عليكم ما حـرمتموه من الحرث والأنعـام، فإن اجترءوا وجاءوك بشهود يشهدون أن الله هو الذي حرَّم عليهم فلا تكترث لهم ولا تبال بشهادتهم فإنهم يكونون شهـودا كذبةً فجرة لا تقبل لهم شهادة. ولا تتأثر بهم فإنَّ أمورهم مبنية على الكذب والهوى وهم لا يؤمنون بقدرة الله على بعث الموتى وهم يعدلون بربهم الأوثـان والأصنام، وليس في قوله عز وجل: ﴿فـلا تشهد معهم﴾ مـا يدل على أن رسـول الله ﷺ قـد تتأتى منه الشهـادةُ معهم، فإنه ﷺ معصوم من ذلك، بل المراد تحذير أمته من أن يتأثروا بشهادة هؤلاء وأمثالهم لو شهدوا بالباطل المقطـوع ببطلانه. قال ابن جرير رحمه الله: قال الله لنبيه: ﴿فإن شهـدوا﴾ يقول: يا محمد فإن جـاءوك بشهداء يشهدون أن الله حرَّم ما يـزعمون أن الله حرَّمه عليهم ﴿فلا تشهـد معهم﴾ فإنهم كذبةٌ وشهودُ زور في شهادتهم بما شهدوا به من ذلك على الله، وخَاطَبَ بذلك جل ثناؤه نَبِيَّـهُ ﷺ، والمرادُ به أصحابُه والمؤمنـون به ﴿ولا تَتَّبِعْ أهواء الذين كـذبوا بآياتنا﴾ يقول: ولا تُتابِعْهُم على مـا هم عليه من التكذيب بوحي الله وتنزيله في تحريم ما حـرَّم وتحليل ما أحل لهم، ولكنِ اتبع مـا أُوحي إليك من كتاب ربك الذي لا يأتيـه الباطل من بين يـديه ولا من خلفـه ﴿والذين لا يـؤمنون بالآخـرة﴾ يقول: ولا تتبع أهواء الذين لا يـؤمنون بالآخرة فَتكَـذِّبَ بما هم به مكذبون من إحيـاء الله خلقه بعد مماتهم، ونَشْرِهِ إيـاهم بعد فنائهم، ﴿وهم بربهم يعدلـون﴾ يقول: وهم مع تكذيبهم بالبعـث بعد المات، وجُحُودِهم قيام الساعة، بالله يعدلون الأوثانَ والأصنام، فيجعلونها له عِدْلاً، ويتخذونها له نِدًّا، يعبدونها من دونه اهـ.

وقـال القاضي أبـوبكر ابن العـربي: وليس في الآيـة الرضـا بالشهـادة ثم الإنكار، إنما فيها طلبُ الدليل واستدعـاءُ البرهان على الدعوى، فإن العرب تحكَّمَتْ بالتحريم والتحليل، فقال الله لنبيـه: قل لهم: هاتُوا شهداءكم بأن

هذا من عند الله أي حجتكم حتى نسمعها وننظر فيها. فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾؟ قلنا: هذا تحذيرٌ من الله لنبيه لِتَعْلَمَ أُمَّتُهُ المعنى، فإن قال شهداؤهم مثلَ ما يقولون فلا تقله معهم، فهذا دليل على أن الشاهد إذا قال ما قام الدليل على بطلانه فلا تقبل شهادته اهـ وبعد أن أظهر عجزهم عن إخراج شيء يمكن أن يستدلوا به على تحريم ما حرَّموا، وبعد أن بَيَّنَ ما حرَّمه الله عز وجل من الأطعمة على الناس عموما وعلى اليهود خصوصا شرع هنا في بيان ما حرَّمه الله عز وجل من محرمات العقائد والسلوك بأسلوب حكيم حيث أَمَرَ نبيَّهُ ﷺ أن يقول لهم: تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم، وَذَكَرَ الوصايا العشر التى أطبق جميع النبيين والمرسلين على وصية أممهم بمراعاتها والقيام بحقها، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وهذه الوصايا العشر التي وصت بها هذه الآيات الثلاث قد وصى بها جميع النبيين والمرسلين، وقد ذكر عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن من سره أن ينظر إلى صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات مشيرا بذلك إلى أنها محكمات لم ينسخ منها شيء وهن محرمات على بني آدم كلهم، فقد قال الترمذي في التفسير من جامعه: حدثنا الفضل بن الصبَّاح البغدادي حدثنا محمد بن فضيل عن داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال: من سَرَّهُ أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات: ﴿قل تعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربُّكم عليكم﴾ الآية إلى قوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ قال أبوعيسى: هذا حديث حسن غريب اهـ.

وهذه الوصايا العشر هي تحريم الشرك بالله، وتحريم الإساءة إلى الوالدين وتحريم قتل الأولاد من إملاق، وتحريم الفواحش الظاهرة والباطنة، وتحريم

قتل النفس التي حرم الله إلا بـالحق، وتحريم أكل مال اليتيم، وتحريم بخس الكيل والميزان، وتحريم قول الزور، وتحريم نقض العهد، وتحريم الخروج عن صراط الله المستقيم، وقـد أورد الله تبارك وتعـالى خمس وصـايـا منها بصيغـة النهي عنهـا وأورد أربع وصايـا منها بصيغة الأمـر المراد به النهي عـن ضده، وجمع في الـوصيـة العـاشرة بين الأمـر والنهـي حيث قـال فيهـا: ﴿وأن هٰـذا صراطي مستقيما فـاتبعـوه ولا تتبعـوا السبل فتفـرق بكم عن سبيلـه﴾ وقـد اشتملت هـذه الصيغ على ألـوان من الفصاحـة والبـلاغـة والبيان ومـراعـاة مقتضيـات الأحوال مـا يعجـز عن التعبير عنه أربـاب الفصـاحة وأسـاطين البيان، وقد بـدأ هذه الوصايـا بتحريم الشرك لأنه من مـات وهو يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة، وقد ثَنَّى بالـوصية بالوالدين لعظيم حقهما، ولذلك قـرن الله عز وجل الـوصية بهما بـالوصيـة بتوحيـده في غير موضع من القـرآن الكريم حيث يقول: ﴿واعبـدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالـدين إحسانا﴾ وقـال: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيـاه وبالـوالـدين إحسانـا﴾ وقال عـز وجل: ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظـه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم * ووصينا الإنسان بوالديه حملتـه أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أَنِ اشكر لي ولـوالديك إليَّ المصير﴾ وكـان مقتضى سياق الـوصية الثـانية أن يقال: «ولا تُسِيئُوا إلى الوالدين» لكن لما كـان النهي عن الإساءة إلى الوالدين لا يتحتم منه وجـوب الإحسان إليهما عـدل عن مقتضى السياق إلى مقتضى الحال فقـال: ﴿وبـالـوالـدين إحسـانـا﴾ ليشمل تحريم الإسـاءة ووجـوب الإحسـان إليهما. أي وأحسنوا بـالوالـدين إحسانـا، وكذلك الحال في سـائر الأوامر الواردة في هذه الآيات الثلاث حيث كان السياق يقتضي مجيئها بصورة النواهـي فعدل بها إلى صيغة الأوامـر لإفادة تأكيـد النهي عن أضدادهـا مع زيـادة مـا يفيـده لفظ الأمـر، ولا شك في ظهـور المراد من ذٰلك، لأن هـذه

الأوامـر لما وردت مع النـواهي وتقـدمهـن جميعـا فِعْلُ التحـريم واشتركن في الدخـول تحت حكمه عُلِمَ أن التحـريم راجع إلى أضدادهـا وهي الإساءة إلى الـوالدين وبخس الكيل والميـزان وتـرك العدل في القـول ونكث العهد، أمـا الـوصية الثـالثـة فهي قولـه: ﴿ولا تقتلوا أولادكـم من إملاق نحن نـرزقكم وإياهم﴾ أي ولا تقتلوا أولادكم بسبب الفقر فرزقكم ورزقهم على الله وحده، أما الوصية الرابعة فهي قولُه: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ أي ولا تأتــوا فـاحشـــة من الفـواحش بحـــال من الأحــوال سرا أو علنـا، والفواحش جمع فـاحشة وهي مـا يشتد قبحـه من الذنوب والمعـاصي كالـزنا وعمل قوم لـوط وكشف العورة أو وصفهـا أو النظر إليها، وتتنـاول أيضا كل قبيح مستبشع. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وفي قـوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال اهـ والوصية الخامسة هي قولـه تعالى: ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بـالحق﴾ أي ولا تقتلوا النفس التي لم يبح الله قتلها لكـونها نفس مسلم أو معاهـد إلا إذا ارتكبت ما يبيح قتلها من أن تقتل نفسا فَتُقْتَلَ قَوَدًا بها، أو تزني وهي محصنة فترجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل. وقد جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثـلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتاركِ لـدينه المفارق للجماعـة. كما روى البخاري من حديث عبـد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: من قتل معاهدا لم يرح رائحـة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامـا. ومعنى قوله: ﴿ذٰلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ أي هذه الوصايا الخمس وصاكم الله بها وعهد إليكم بذلك لتعقلوا وتحبسـوا أنفسكم عن ارتكاب القبائح المذكـورة، والوصية السـادسة هي قـولُـه تعالى: ﴿ولا تقـربـوا مـال اليتيم إلا بـالتي هي أحسنُ حتى يبلغ

أشـده﴾ أي ولا تأكلـوا مـال اليتيم ظلما ولا تتنـاولـوا منـه شيئـا حتى يحتلم فتجتمع قوته، فإن آنستم منه رشدا فليدفـع وليه له ماله، وعلى وليه قبل دفع المال له أن يكون تصرفه فيه بما فيه صلاحه، وإن كان الولي فقيرا فله أن يأكل منه بالمعـروف كما قال عز وجل: ﴿ومن كان غنيـا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بـالمعـروف، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهـدوا عليهم، وكفى بـالله حسيبا﴾ والوصيـة السابعة هي تحريم بخس الكيل والميـزان ووجوب إيفائهما بالعدل المستطاع، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾. والـوصية الثامنة هي قـوله تعالى: ﴿وإذا قلتم فاعدلـوا ولو كان ذا قربى﴾ أي ولا تتكلموا إلا بـالحق ولا تشهدوا الزور مهما كان المشهـود له أو عليـه، والوصية التـاسعة هي قـوله تعـالى: ﴿وبعهد الله أَوْفُوا﴾ أي ولا تنقضـوا العهود والمواثيـق وأتموها لمن عاهـدتموه، ومعنى قـوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلكم وصـاكم به لعلكم تذكرون﴾ أي هذه الـوصايا الأربع المذكورة في هذه الآية قد وصـاكم الله بها لتتعظوا وتتفكروا في عواقب أموركم، فتسلكـوا الصراط المستقيم. أما الـوصية العـاشرة فهي قولـه تبارك وتعـالى: ﴿وأن هٰذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعـوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله﴾ أي وأن هـذا الـذي وصاكم بـه ربكم هـو المنهج القـويم والصراط المستقيم الذي يـدعو إليـه محمد ﷺ فاعملـوا به ولا تسلكوا طـريقا سـواه ولا تتخذوا منهجا غيره فإنكم إن التزمتم بهذا المنهج الذي ارتضاه الله لعباده أوصلكم إلى الجنة، وإن انحـرفتم عنه واتبعتم سُبُل الشيطـان صرتم إلى النار كما قـال عز وجل: ﴿ومن يشـاقق الـرسول مـن بعد مـا تبين لـه الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه مـا تولى ونُصْلِهِ جهنم وسـاءت مصيرا﴾ فاستمسكوا بصراط الله المستقيم لتكونوا في عداد المتقين.

قال تعـالى : ﴿ثم آتينا مـوسى الكتـاب تمامًا على الذي أحسـن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهٰذا كتابٌ أنزلناه مبارك فاتبعـوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقـولوا إنما أنزل الكتـاب على طائفتين من قبلنا و إن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينـةٌ من ربكم وهدى ورحمة ، فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ، سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾ .

بعد أن ذكر تبارك وتعـالى الوصايا العشر أشار هنا إلى أن هذه الـوصايا قد وصى الله تبارك وتعالى بها بني آدم مذ أوجـدهم وكلفهم ، وأنه عز وجل كان يبعث في كل أمـــة رسـولا يُفَصِّلُ لقـومـه الحلال والحرام مـع التـزامهم بهذه الوصايا العشر ، وأنه قد آتى موسـى عليه السلام الكتاب وهو التوراة مشتملا على أحسن المناهج التي لا غنى لقومـه عنها وفيه تفصيل كل شيء يهدي إلى الصراط المستقيم ، كما أنزل على محمد ﷺ الكتاب الكريم وهو القرآن العظيم والذكـر الحكيم الكثير البركات والخيرات ليرحم الله عـز وجل من استمسك بهديه ، وليقطع عـذر الكافرين حتـى لا يقولوا مـا جاءنا من بشير ولا نـذير وذلك لتقرير الرسالة ولتأكيد أن محمدا ﷺ ليس بدعا من الرسل ، وقد توعد الله عـز وجل المكـذبين به المعـرضين عنـه بـالعقـاب الذي يستحقـونـه على تكذيبهم و إعـراضهم ، وفي ذلك يقول عز وجل : ﴿ثم آتينا مـوسى الكتاب تمامـا على الذي أحسن وتفصيـلا لكل شيء وهُدًى ورحمةً لعلهم بلقـاء ربهم يؤمنون * وهٰذا كتـابٌ أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقـوا لعلكم تُرْحَمُونَ﴾ إلى قوله : ﴿سنجـزي الذين يصـدفون عن آيـاتنـا سُوءَ العـذاب بما كانـوا يصدفـون﴾ و﴿ثُم﴾ في قـوله تبـارك وتعـالى : ﴿ثم آتينـا موسى الكتـاب﴾ لترتيب إيتـاء

موسى الكتاب وتراخيه على ما تقدمه من إيحاء الله لأنبيائه ورسله السابقين بالوصايا العشر التي حَرَّمَهَا الله عز وجل قبل إيتاء موسى الكتاب، وجعلها محرمةً في جميع شرائع الأنبياء والمرسلين من أولهم إلى خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين. ومعنى قوله عز وجل: ﴿تَمَامًا على الذى أَحْسَنَ وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقآء ربهم يؤمنون﴾ أي لتتم نعمتنا على الذي أحسن أي على كل من كان محسنا صالحا من أتباع موسى عليه السلام مع وفاء هذا الكتاب بسائر الأحكام على المنهج الذي أحسن رعاية مصالح قوم موسى عليه السلام، وجاء ملائما لزمانهم وأحوالهم، كما أن هذا الكتاب قد جاء فيه تفصيل كل شيء من العقائد وسائر الأمور الدنيوية والأخروية التي لا غنى لبني إسرائيل عنها في جميع ما يتعلق بمعاشهم ومعادهم، كما أنه قد اشتمل على الهدى والرشاد والرحمة والرأفة التي يستنير بها من يؤمن بهذا الكتاب ليصدق بلقاء الله والحشر والنشر والثواب والعقاب. كما قال عز وجل: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأْخذُوا بأحسنها﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هُدًى ونُورٌ﴾. والإشارة في قوله تعالى: ﴿وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ للقرآن العظيم والذكر الحكيم المنزل على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه وتحياته وبركاته عليه وعليهم أجمعين. وفي ذكر القرآن بعد ذكر التوراة مباشرة لفت انتباه مشركي العرب واليهود الذين كانوا ينكرون القرآن والرسالة وتقريعهم على قولهم: ما أنزل الله على بشر من شيء كما قال عز وجل: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعُلِّمْتُم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم

يلعبون * وهٰذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ الآية . كما أن في هذا الاقتران بين التوراة والقرآن تقريعا وتوبيخا للعرب الجاهلين المكذبين الذين كانوا يعيبون على أهل الكتاب من اليهود والنصارى عدم الاستمساك بهدي كتابهم ويُقْسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم أدنى نذير ليكونن أهدى من اليهود والنصارى فلما جاءهم أعظم المنذرين مازادهم إلا نفورا . كما قال عز وجل : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانم لئن جاءهم نذير ليَكُونُنَّ أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا﴾ ولم يذكر الله عز وجل الإنجيل هنا لأن التوراة كانت أشهر منه في جزيرة العرب كما أنه كان مُتَمِّماً لها فهي كالأصل بالنسبة له ، مع أنه أشار إلى الإنجيل في الآية التالية حيث قال : ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ الآية . ولذلك قال عز وجل مخبرا عن الجن أنهم لما سمعوا القرآن قالوا : إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى حيث يقول عز وجل : ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصِتُوا فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أُنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ وفي قوله عز وجل في وصف القرآن ﴿كتاب أنزلناه مبارك﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن المنزل من الله كتاب مبارك كامل شامل لجميع مصالح العباد لا ينسخ حتى ينسخ الليل والنهار والشمس والقمر، فالمبارك هو ما يأتي من قِبَلِهِ الخير الكثير المتتابع النامي ، والبركة الكثرة في كل خير. ومعنى قوله عز وجل : ﴿فاتبِعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ أي انقادوا لهذا القرآن فاجعلوه إماما تتبعونه وتعملون بما فيه وتحلون حلاله وتحرمون حرامه وتنهجون منهجه فإنه الصراط المستقيم ، واحذروا أن تضيعوه أو تتعدوا حدوده أو تستحلوا محارمه ، واحرصوا أشد الحرص على صيانته من التحريف لترحموا فتنجوا من عذاب الله

وأليم عقابه وتفوزوا بجنات النعيم، وتخلدوا في رحمة الله، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ الآيتين بيان بأن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن العظيم المبارك على نبيه محمد ﷺ رحمة بالناس وقطعا لعذر المشركين الجاهلين حتى لا يعتذروا يوم القيامة بأنهم ما جاءهم بشير ولا نذير فلا يتأتى منهم أن يقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين أي جماعتين من قبلنا ويعنون بهما اليهود والنصارى، قال ابن جرير رحمه الله: وأما: ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ فإنه يعني: أن تقولوا: وقد كنا عن تلاوة الطائفتين الكتابَ الذي أُنزلت عليهم «غافلين» لا ندري ما هي ولا نعلم ما يقرءون، وما يقولون، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله دوننا، ولم نُعْنَ به ولم نؤمر بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حجة، فقطع الله بإنزاله القرآن على نبيه محمد ﷺ حجتهم تلك اهـ. وقد وصف رسول الله ﷺ ربنا تبارك وتعالى بأنه لا أحدَ أحب إليه العذر من الله فقد جاء في لفظ للبخاري في صحيحه من حديث المغيرة قال: قال سعد بن عُبَادة: لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفَحٍ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: تَعْجَبُونَ من غَيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، واللهُ أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه العُذْرُ من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحَبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة. كما أشار عز وجل إلى قطع عذر المشركين بإرسال الرسل في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبةٌ بما قدَّمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أَرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكونَ من المؤمنين * فلما جاءهم الحقُّ من عندنا قالوا لولا أُوتِيَ مثلَ ما أُوتِيَ موسى، أو لم يَكْفروا بما أُوتِيَ موسى من قبلُ قالوا سِحْرانِ تظاهرا وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرون * قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أَتَّبِعْهُ إن كنتم

صادقين * فإن لم يستجيبوا لك فـاعلم أَنما يتَّبِعُون أهواءهـم، ومن أَضَلُّ ممن اتَّبَعَ هواه بغير هـدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ . وقولُـه تبارك وتعالى: ﴿أو تقولـوا لو أنا أُنزل علينـا الكتاب لكنا أهدى منهم فقـد جاءكم بينة من ربكم وهـدى ورحمة﴾ عطف على قولـه تعالى: ﴿أن تقولـوا إنما أنزل الكتـاب على طـائفتين من قبلنـا وإن كنـا عن دراستهم لغـافلين﴾ لتقـريع المشركين أيضا وقطع العلـة التي كانوا يَعْتَلُّونَ بها ويعلنـونها، فبعد أن بَيَّنَ أن مجيء القـرآن العظيم يقطع اعتـذارهم فـلا يُمْكِنُهُم أن يـدَّعُـوا عنـد حلـول العقاب بهم أنهم ما جـاءهم من بشير ولا نذير حيث كان الكتـاب المنزل من الله قد نزل على بني إسرائيل ولم ينزل عليهم، ثم قطع العلة التي كانوا يعتلون بها مُـدَّعين أنهم أسرع لطاعـة الله من أهل الكتاب متبـاهين بقوة أذهـانهم، متفـاخرين بحسن أفهـامهم، حيث كـانوا يُقْسِمُـون بالله جهـد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهـدى من إحدى الأمم يعني اليهود والنصارى، فقطع علتهم هذه أيضـا حيث قال: ﴿فقد جاءكم بينـة من ربكم وهدى ورحمةٌ﴾ وقـد فصَّل الله تبارك وتعـالى ذلك في سـورة فاطـر وبَيَّنَ علة استمـرارهم على الكفر والعناد بعد أن جاءهـم أعظم المنذرين محمد ﷺ فقال: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جـاءهم نذير ليكـونُنَّ أهدى من إحـدى الأمم فلما جاءهم نذيـر مازادهم إلا نفورا * استكبارا في الأرض ومكـر السيىء، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنت الأولين، فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويـلا﴾ . ومعنى قولـه: ﴿فقـد جاءكم بينـة من ربكم وهـدى ورحمة﴾ أي فقد أتـاكم كتاب مـن ربكم هو حجـة واضحة بلسـان عـربي، فيـه البيـانُ وقطعُ الشبهـات عنكم، وتفصيلُ الحلال والحرام يهدي القلوب إلى طـريق ربها وباريها ويرشـد النفوس إلى أسباب عزهـا وسعادتها، وهو رحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويعملون بما فيه. وقوله تبارك وتعالى:

﴿فمن أظلم ممن كذَّب بآيـات الله وصَدَفَ عنها، سنجزي الـذين يَصْدِفُون عن آياتنا سُوءَ العـذاب بما كانوا يصدفون﴾ بيان للوعيد الشـديد الذي توعد الله بـه من كذَّب بـآيـات الله التي بعث بها رسولـه ﷺ وأعـرض عنها وصـدَّ الناس عنها، قـال في القاموس: وصَدَفَ عنـه يَصْدِفُ أعرض وفلانـا صرفه كأصدفه اهـ. أي لا أحد أعظم جرما وأكبر إثما ممن كذب بآيات الله وأعرض عنهـا ونهى النـاس عن الإيمان بها فلم يكتـف بكـونـه ضـالا بل أضل غيره كذلك، وسيعـاقبه الله عـز وجل العقاب الـذي يستحقه على هـذه الجريمة التي اقترفهـا، ويُحَمِّلُـهُ وزر جريمتـه، وكما قـال عز وجل: ﴿الـذين كفـروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾.

قـال تعـالى : ﴿هل ينظـرون إلاَّ أن تـأْتيهم الملائكـة أو يأتيَ ربك أو يأتي بعض آيـات ربك ، يوم يأتي بعـض آيات ربك لا ينفع نفسًـا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ، قل انتظروا إنَّـا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانـوا شيعًا لست منهم في شيء ، إنما أمرهـم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * من جاء بالحسنة فلـه عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهـم لا يظلمون﴾ .

بعد أن أشار تبـارك وتعالى إلى أنه قد أنزل القرآن العظيم على رسـوله محمد ﷺ رحمة بالناس وقطعـا لعذر المشركين الجاهلين حتى لا يقولوا مـا جاءنا من بشير ولا نذيـر، ولئلا يكـون للناس على الله حجـة بعد الـرسل ، شرع هنا في بيان ألـوان من تعنت الكفار الذين لم يكفهم ما أنـزل الله من البينات والهدى فذكر عز وجل أنهم لا يَرْعَوُون عن التمادي في المكابرة واقتراح ما ينافي الحكمة في التشريع وَوَبَّخَهُم على استغـراقهم في السفـاهـة والضـلال حيث كـانـوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهـم بالملائكة أو أن يجيء الله إليهم أو يَخْرِقَ لهم نظام الكون ، كما قال عز وجل : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأر ض ينبوعـا * أو تكون لك جنـة من نخيل وعنب فَتُفَجِّـرَ الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينـا كِسَفًـا أو تأتي بـالله والملائكـة قبيلا﴾ إلى قـوله : ﴿قل سبحـان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وقال الذين لا يَـرْجُونَ لقاءنا لولا أُنزِلَ علينـا الملائكة أو نرى رَبَّنَا ، لقد استكبروا في أنفسهم وَعَتَـوْا عُتُوًّا كبيرا﴾ ثم وَبَّخَ اليهود والنصـارى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهـم كأنهـم لا يعلمون، ثم رغَّب عـز وجل في الحسنات ورهَّب مـن السيئات . وفي ذلك يقـول : ﴿هل ينظـرون إلا أن تأتيهم الملائكـة أو يأتيَ ربـك أو يأتِيَ بعض آيـاتِ ربك﴾ إلى

قوله تعـالى : ﴿ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مِثْلَهَا وهم لا يُظْلَمُـون﴾ وقولُه تعالى : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكـة أو يأتي ربك أو يأتِيَ بعضُ آيات ربك﴾ الآية ، شبيهٌ بقـوله تعالى في سورة البقـرة : ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ وقُضِيَ الأمر، وإلى الله تُرْجَعُ الأمور﴾ كما أن به شَبَهًـا من قولـه تبـارك وتعالى في سـورة النحل ؛ ﴿هل ينظـرون إلا أن تأتيهم الملائكـةُ أو يأتي أمـرُ ربك﴾ ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿هل ينظـرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيـات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفســا إيمانُها لم تكن آمنت مـن قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ أي لماذا لم يسارع هـؤلاء إلى الدخـول في الإسلام، وقد كشفـت لهم كل شبهة من الشبهات التي يتعللون بها؟ وماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون أن يعاينوا عقابا من الله ينزل بهم في الـدنيا فإذا رأوه آمنوا؟ أو ينتظرون عقـاب الله لهم في الدار الآخرة؟ هل يـرغبون في تقليد بني إسرائيل الـذين قالوا لموسى عليـه السلام : لن نؤمن لـك حتى نرى الله جهرة، فأخـذتهم الصاعقـة وهم ينظرون؟ إن الإيمان عند نزول عذاب الله بالمكـذبين لاينفعهم، كما قال عز وجل : ﴿فلولا كانت قـرية آمنت فنفعهـا إيمانها إلا قوم يـونس لما آمنوا كشفنـا عنهم عذاب الخِزْيِ في الحيـاة الـدنيـا ومتعنـاهـم إلى حين﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿فهل ينتظـرون إلا مِثْلَ أيـام الذين خَلَـوْا من قبلهم، قل فـانتظـروا إني معكم من المنتظرين * ثمَّ نُنَجِّي رسلَنـا والذين آمنوا، كذلك حقًّـا علينا نُنْجِ المؤمنين﴾ كما أنَّ الإيمان عند مجيء الله لفصل القضاء بين العباد يـوم القيامة لا ينفع من مـات على الكفـر، كما قـال عـز وجل : ﴿وليست التـوبـة للـذين يعملـون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إنـي تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتـدنا لهم عذابا أليما﴾ وقـد فسر رسولُ الله ﷺ المراد من بعض الآيـات التي إذا جـاءت لا ينفع نفسـا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو

كسبت في إيمانها خيرًا بأنه طلوع الشمس من مغـربها، فقد روى البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحـه من طريق أبي زُرْعةَ حدثنا أبـوهريرة رضي الله عنـه قـال: قال رسـول الله ﷺ: لا تقـوم السـاعـةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا رآهـا الناسُ آمن مَنْ عليها، فـذاكَ حين لا ينفع نفسا إيمانُها لم تكن آمنت من قبل. ثم قال البخـاري: حدثنى إسحاق أخبرنا عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقوم السـاعة حتى تطلع الشمس مـن مغربها، فإذا طلعت ورآهـا الناس آمنـوا أجمعـون، وذلك حين لا ينفع نفسـا إيمانها، ثم قـرأ الآيـة. وسـاق البخاري في كتاب الـرقاق من صحيحه من طريق أبي الزنـاد عن عبد الرحمن عن أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: لا تقـوم الساعـة حتى تطلع الشمس من مغـربها، فإذا طلعت فرآهـا الناس آمنـوا أجمعون فـذلك حين لا ينفع نفسـا إيمانها لم تكن آمنت مـن قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. الحديث. وفي لفظ لمسلم في صحيحه من طريق العلاء وهو ابن عبد الرحمن عن أبيـه عن أبي هريـرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تقـوم الساعـة حتى تطلع الشمس من مغـربها، فإذا طلعت من مغـربها آمن النـاس كلهم أجمعـون، فيومئـذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا.

ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿لا ينفع نفسـا إيمانها لم تكـن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ أي لا ينفع كافـرا لم يكن آمن قبل طلوع الشمس من مغـربها إيمانٌ بعـد هذا الطلـوع، ولا ينفع مـؤمنـا لم يكن عمل صـالحا قبل الطلوع عمـلٌ صالح بعد الطلـوع لأن حكم الإيمان والعمل الصالـح حينئذ حكم من آمن أو عمل عند الغـرغرة وذلك لا يفيد شيئا كما قـال عز وجل: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنـا﴾ قـال ابن جريـر الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل انتظروا إنا منتظـرون﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى

لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء العـادلين بربهم الأوثانَ والأصنامَ: انتظروا أن تأتيكـم الملائكـة بـالموت فتقبض أرواحكم، أو أن يأتي ربكـم لفصل القضـاء بيننـا وبينكم في موقف القيـامـة، أو أن يأتيكم طلـوع الشمس من مغربها فَتُطْـوَى صحف الأعمال، ولا ينفعكم إيمانكم حينئذ إن آمنتم، حتى تعلمـوا حينئـذ المحقَّ منـا من المبطل، والمسيئَ من المحسن، والصـادق من الكاذب، وتتبينـوا عند ذلك بمن يحيق عذابُ الله وأليمُ نكالـه. ومَن الناجي منا ومنكم ومَن الهالك، إنـا منتظرو ذلك، ليجزل الله لنـا ثوابه على طـاعتنا إياه وإخلاصِنا العبـادةَ له، وإفرادِناه بالربوبيـة دون ما سواه، ويفصلَ بيننا وبينكم بـالحق، وهو خير الفـاصلين اهـ والمراد بالـذين فرقـوا دينهم وكـانوا شِيَعًـا هم اليهـود والنصارى كما قـال عـز وجل: ﴿ومـا تفرق الـذين أُوتـوا الكتاب إلا من بعد مـا جاءتهم البينة﴾ ولئن كان اليهود والنصـارى يدخلون في ذلك دخولا أوَّليًا فإن لفظ الآية يَعُمُّ كلَّ من كان على شاكلتهم ممن يُفرِّقون دينَ الله ويشتتون شمل المسلمين ويمـزقون وَحْدَتَهُمْ من أهل الأهـواء والبدع إلى يوم القيامة، قال الزجاج: ومعنـى: ﴿وكانوا شِيَعًا﴾ أي كانوا متفرقين في دينهم، يعني بـه اليهـود والنصارى، لأن النصـارى بعضهـا يكَفِّر بعضـا، وكذلك اليهود، وهـم أيضا أهل التـوراة، وبعضهم يكفر بعضا أعني اليهود تكفر النصـارى والنصارى تكفر اليهـود، وفي هذه الآيـة حَثٌّ على أن تكون كلمةُ المسلمين واحـدة، وأن لا يتفرقـوا في الدين، وأن لا يبتـدعوا البِـدَعَ ما استطاعـوا. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: والظـاهر أن الآية عـامة في كل من فـارق دين الله، وكـان مُخَالِفًـا له، فإن الله بعث رسـولـه بـالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شِيَعًا﴾ أي فِرَقًا كأهل الملل والنِّحَل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قـد بَرَّأَ رسـولَه ﷺ ممـا هم فيـه. اهـ وقـد روى أبوداود والترمـذي وقال

حديث حسن صحيح عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجِلَت منها القلوب وذَرِفَت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مُوَدِّع فأوصنا، قال: أُوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تَأمَّر عليكم عبد حبشي، وإنه مَن يَعِشْ منكم فَسَيَرَى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحْدثَاتِ الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿لست منهم فى شيء﴾ أي أنت بريء منهم كما أنهم بـرآءُ منك، والعرب تقول: لست مني ولستُ منك في شيء أي كل واحد منا بريء من صاحبه، ومن هذا ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: فمن رغب عن سنتي فليس مني. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون * مَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يُظْلَمُون﴾ أي إنما مردُّ أمورهم إلى الله فهو وحده المالك لهم المتصرف فيهم، نواصيهم بيده يفعل بهم ما يشاء فيهدي من أراد هدايته فضلا ويخذل من لم يرد الله هدايته عدلا، وسيجازي كل عامل بما عمل، فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ولم يفعل ما يحبط هذه الحسنة حتى لقي الله عز وجل بها كافأه الله عز وجل بعشر أمثالها، ومن ارتكب معصية ولم يغفرها الله عز وجل له حتى لقي الله عز وجل بها جازاه بمثلها، ولا يظلم ربك أحدا.
والمراد بالحسنة هنا فعل المأمور والمراد بالسيئة هنا ارتكاب المحظور، وأصل لفظ الحسنة يطلق على النعمة كما يطلق على العمل الصالح، كما أن لفظ السيئة قد يطلق على المصيبة كما يطلق على العمل المحظور. ومثال الإطلاق الأول للحسنات والسيئات قولُه عز وجل: ﴿إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ وقولُه عز وجل: ﴿إن تصبك حسنةٌ تسؤهم وإن

تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنـا من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ وقولُه عز وجل : ﴿وبلوناهم بـالحسنات والسيئات لعلهم يرجعـون﴾ ومثال الإطلاق الثاني الآية التي هنا وكذلك قوله عز وجل : ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملـوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ وقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري مـن حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يَـرْوِي عن ربـه عز وجل قـال : قـال : إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بَيَّن ذلك فمن هَمَّ بحسنـة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كا ملة ، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة ، ومـن هَمَّ بسيئة فلم يعملهـا كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة . وقد أشار رسـول الله ﷺ إلى أن من هم بسيئة فلم يعملها إنما تكتب لـه حسنة إذا كان تـرك السيئة خوفا من الله فقـد جاء في لفظ لمسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قالت الملائكة : رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهـو أبصر به فقال : ارقُبُوه فإن عملها فـاكتبوها لـه بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جَرَّائي .

قال تعـالى : ﴿قل إنَّني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملـة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين * قـل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين * لا شريك له وبـذالك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى ربًّـا وهو رب كل شيء ، ولا تكسب كـل نفس إلا عليها ، ولا تـزر وازرة وزر أخـرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتـم فيه تختلفـون * وهو الـذى جعلكم خـلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجـات ليبلوكم في مـا آتاكم ، إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم﴾ .

هذه خواتيم المسك من سورة الأنعام يأمر الله تبارك وتعالى فيها رسوله ﷺ أن يبين للناس أن الهداية بيـد الله وحده ، وأن الدين الحق هو مـا عليه رسول الله محمد ﷺ ، وأنه الصراط المستقيم وهو الدِّين القيم الذي لا اعوجاج فيه ، وهو ملة إبـراهيم إمام الحنفاء وأبي الأنبياء ، الـذي لم يشرك بالله شيئا ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّـا ، كما يأمر الله تبارك وتعـالى رسولـه محمدا ﷺ أن يعلن أن صلاته ونُسُكَه ومَحْيَاهُ ومَمَاتَه لله رب العالمين لا شريك له ، وأن الله تبارك وتعالى قد أمره بإخـلاص التوحيد لله عز وجل ، وأنـه ﷺ أولُ المسارعين إلى الامتثال والانقيـاد إلى مـا أمـره الله عـز وجل بـه من أمـة الإسـلام التي هي خير أمـة أخـرجت للناس ، كما أمـره عز وجل أن ينكـر ويُنَدِّدَ بمن يتخـذ إلَها غير الله الـذي هو رب كل شيء وسيـده ومليكه ولا شريك لـه في ربوبيتـه وألوهيتـه وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وأن كلَّ إنسان مسئول أمام الله عز وجل عن عمله ولن تتحمل نفسٌ آثمةٌ إثم نفس آثمة أخرى ، وأن مرجع جميع العباد إلى الله ليجـزي كل نفس بما كسبت من خير أو شر، فـإنـه عـز وجل هـو الـربُّ الجليلُ المالكُ وحـده لأرواح عبـاده وأرزاقهـم ، وقـد جعلهم يخلف بعضهم بعضا ويعلم الحيُّ منهـم أنه قد هلك من كـان قبله ، وأنـه صار خلفـا له في

الأرض بعد هلاكه، وأنه لا بقاء له على هذه الأرض بعده إلا بالأجل الذي أَجَّله الله له، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي بيده المُلْكُ وهو على كل شيء قدير* الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسنُ عملا، وهو العزيز الغفور﴾ وكما قدَّر آجال عباده قدَّرَ كذلك أرزاقهم وفاوت بينهم في الرزق حتى يتخذ بعضهم بعضا سُخْرِيًّا ليختبرهم فيما خوَّلهم فيه من فضله وَمَنَحَهُم من رزقه، ليتميز الشاكرون من الكافرين، وهو عز وجل عالمٌ بهم وبما يكون منهم قبل وجودهم، وهو مجازيهم بأعمالهم وهو سريع العقاب لأعدائه، وهو الغفور الرحيم لأوليائه. وفي هذا يقول تبارك وتعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين﴾ إلى آخر السورة الكريمة. ومعنى ﴿إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ أي إنني أرشدني ربي ووفقني إلى المنهج المعتدل الذي لا اعوجاج فيه، والمقصود به دين الإسلام الذي هو صراط الذين أنعم الله عليهم الذي أوصى الله تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ أن يسألوا الله في كل ركعة من ركعات صلواتهم أن يهديهم لسلوكه حيث يقول عز وجل في سورة الفاتحة التي لا صلاة لمن لم يقرأ بها: ﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضَّالين﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى دينه الذي بعث به محمدا ﷺ بأنه صراط مستقيم وأكد ذلك في مواضع كثيرة من القرآن العظيم وذكر ذلك في هذه السورة مرات حيث قال في الآية السادسة والعشرين بعد المائة من هذه السورة: ﴿ وهٰذا صراط ربك مستقيما، قد فصلنا الآيات لقوم يذَّكَّرون﴾ وقال في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة: ﴿وأن هٰذا صراطي مستقيما فاتَّبِعُوه ولا تَتَبِعُوا السبل فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله، ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ وقال هنا: ﴿قل إننى هداني ربي إلى صراط مستقيم دِينا قيمًا ملة إبراهيم حنيفا، وما كان من المشركين﴾ وهَدَى قد وَرَدَ في

القرآن الكريم متعديا بنفسه كقوله عز وجل: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وكقوله تعالى: ﴿ويَهْدِيَكَ صراطا مستقيما﴾ وكقوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ وَوَرَدَ متعديا باللام كقوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهٰذا﴾ وكقوله تعالى: ﴿قل الله يهدي للحق﴾ وورد متعديا بإلى كقوله تعالي هنا: ﴿هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ وكقوله تعالى: ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ وهو يتعدى إلى مفعولين بنفسه كقوله تعالى: ﴿ويَهْدِيَكَ صراطا مستقيما﴾ وقد يتعدى إلى أحد المفعولين بنفسه و إلى الثاني بواسطة حرف الجر كما في هذه الآية، وقولُه عز وجل: ﴿دِينًا﴾ قد انتصب على البدل من محل ﴿إلى صراط﴾ لأن محلـه النصب على أنـه المفعـول الثـاني لِهَدَي قـال الزجاج: وأما نصب ﴿دينا قيمًا ملة إبراهيم﴾ فمحمولٌ على المعنى، لأنه لما قال: هداني إلى صراط مستقيم، دلَّ على عرَّفني دينا قيما، ويجوز أن يكون علي البدل من معنى: هداني إلى صراط مستقيم، المعنى: هداني صراطا مستقيما دينا قيما، كما قال جل وعز: ﴿ويهديَك صراطا مستقيما﴾ ﴿ملةَ إبراهيم﴾ بدل من ﴿دينا قيما﴾ و﴿حنيفا﴾ منصوب على الحال من إبراهيم، المعنى: هداني وعرفني ملة إبراهيم في حال حنيفيته اهـ وقد قرأ عاصم وعبدالله بن عامر وحمزة والكسائي ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وتخفيف الياء وقرأ ابن كثير ونافع وأبوعمرو ﴿قَيِّمًا﴾ بفتح القاف وتشديد الياء، وهما بمعنى واحد، والمراد به القائم الثابت المعتدل الذي لا اعوجاج فيه بحال من الأحوال، المقيمُ لمن استمسك به، ومن لزمه نجا من الانحراف وسَلِمَ من الضياع في مهامه الضلال، وعرف سبيل الرشاد. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان من المشركين﴾ تنديد بمن يدَّعي أنه يحب إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصاري والمشركين، وهم يسلكون منهجا مناقضًا لملة إبراهيم عليه السلام، ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانا، حيث عبد العرب الأصنامَ

والأوثانَ، وقالت اليهود: عزيرٌ ابنُ الله. وقالت النصارى: المسيحُ ابنُ الله، وقد نبَّـه الله تبارك وتعالى إلى هذه الحقيقـة في مقامات كثيرة من كتابـه الكريم حيث يقـول: ﴿إن إبراهيم كـان أمـة قـانتا لله حنيفـا ولم يك من المشركين﴾ وقال عـز وجل: ﴿قل صَدَقَ اللهُ، فـاتَّبِعُوا ملة إبـراهيم حنيفا ومـا كان من المشركين﴾ وقال عـز وجل: ﴿ما كـان إبراهيـم يهوديا ولا نصرانيا ولكـن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين﴾ وفي قولـه تبارك وتعالى: ﴿قل إنَّ صلاتي ونُسُكِي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمِـرْتُ وأنا أول المسلمين﴾ تجريـدٌ لتـوحيد الله تبـارك وتعـالى في ألـوهيته وربـوبيتـه وأسمائه الحسنى وصفـاته العُلَى، ففي قـولـه: ﴿صلاتي ونسكي﴾ إشـارة إلى توحيـد الإلهية لله وحده، وفي قوله: ﴿ومحياي ومماتي﴾ إشـارة إلى توحيد الربوبية وفي قـولـه: ﴿رب العالمين﴾ إشـارة إلى تـوحيـد الله عـز وجل في أسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿قل إنَّ صـلاتي ونُسُكي ومحيـاي ومماتي لله رب العـالمين * لا شريك لـه وبـذلك أُمِرْتُ وأنـا أول المسلمين﴾ قال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكره لنبيـه محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمـد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثـان والأصنام الـذين يسألونك أن تتبع أهـواءهم على الباطل من عبـادة الآلهة والأوثان ﴿إنَّ صـلاتي ونُسُكي﴾ يقول: وذبحي ﴿ومحياي﴾ يقول: وحياتي ﴿ومماتي﴾ يقول: ووفاتي ﴿لله رب العالمين﴾ يعني أن ذلك كلَّـه له خالصـا دون ما أشركتم بـه أيها المشركون من الأوثـان ﴿لا شريك له﴾ في شيء من ذلـك من خلقه، ولا لشيء منهم فيـه نصيب، لأنـه لا ينبغي أن يكـون ذلك إلاَّ لَـهُ خالصـا ﴿وبـذلك أُمِـرْتُ﴾ يقـول: وبـذلك أمـرني ربي ﴿وأنا أول المسلمين﴾ يقـول: وأنـا أَوَّلُ من أَقَـرَّ وأذْعَنَ وخضع من هذه الأمة لربه بأن ذلك كذلك اهـ وقولُه عز وجل: ﴿قل أغيرَ الله أَبْغِي ربًّا وهـو ربُّ كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليهـا ولا تَزِرُ

وَازِرَةٌ وِزْرَ أخري ثم إلى ربكم مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بما كنتم فيه تختلفون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه، ﴿أَغَيْرَ الله أبْغي ربا﴾ أي أطلب ربا سواه ﴿وهو رب كل شيء﴾ يُرَبِّينِي ويحفظني ويَكْلَؤني ويُدَبِّر أمري، أي لا أتوكل إلا عليه، ولا أُنِيبُ إلا إليه، لأنه ربُّ كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاصَ العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يُقْرَنُ بالآخر كثيرا في القرآن، كقوله تعالى مُرْشِدًا لعباده أن يقولوا له: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقولِه: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقولِه: ﴿قل هو الرحمن آمَنَّا به وعليه توكلنا﴾ وقولِهِ: ﴿ربُّ المشرق والمغرب لا إلَه إلا هو فاتخذه وكيلا﴾ وأشباهِ ذلك من الآيات. وقولُه تعالى: ﴿ولا تكسب كلُّ نفس إلا عليها، ولا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ إخبارٌ عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تُجَازَى بأعمالها إن خيرا فخيرا، وإن شرا فَشَرًّا، وأنه لا يُحْمَلُ من خطيئة أحد علي أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ اهـ ولا معارضة بين هذا وبين قوله ﷺ: وَمَن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيء. الذي رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه. وكذلك ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه كان أول من سنَّ القتل. لأن الداعي إلى الضلالة إنما يحمل مثل أوزار من أضلهم وذلك من عمله، ولم تسقط عن الضالين أوزارهم. وقولُه عز وجل: ﴿ثُمَّ إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنت فيه تختلفون﴾ لتأكيد البعث بعد الموت وأن

العباد مسئولـون عن أعمالهم ومجزيون بها. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وهو الذي جعلكم خـلائف الأرض ورفع بعضكم فـوق بعض درجـات ليبلـوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقـاب وإنه لغفـور رحيم﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعـالى: ﴿وهو الذي جعلكم خـلائف الأرض﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعـد جيل، وقرنًا بعد قـرن، وخَلَفًا بعد سلف، قالـه ابن زيد وغيره، كقوله تعـالى: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفـون﴾ وكقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ وقولِهِ: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ وقولِهِ: ﴿عسى ربكم أن يُهْلِكَ عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقولُهُ: ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخـلاق والمحاسن والمسـاوئ والمنـاظر والأشكـال والألوان، ولـه الحكمـة في ذلك، كقـوله تعـالى: ﴿نحن قسمنـا بينهم معيشتهم في الحيـاة الدنيـا ورفعنا بعضهم فـوق بعض درجات ليتخـذ بعضهم بعضا سخـريا﴾ وقوله: ﴿انظر كيف فضلنـا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيـلا﴾ اهـ ومعنـى قـولـه ﴿ليبلـوكم في مـا آتـاكم﴾ أي ليختبركم فيما منحكم، ومعنى قوله: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ أي إن الله سريع العقاب لأعدائه وهو الغفور الرحيم لأوليائه.

وقد اتضح سبيل الـرُّشد المبشَّرُ سالكوه بمغفرة الله ورحمتـه، وتعرت سُبُلُ الغي المنذَرُ سـالكوها بسخط الله وعقـوبته، وجاء البيـان بذلك على أكمل وجه وأتمه، فليختر الإنسان لنفسه ما يحب لها، كما قال الشاعر:

أمـامك فـانظـر أيَّ نهجيك تنهج   طـريقـان شتى مستقيم وأعـوج

والحمد لله رب العالمين، وبهذا تم تفسير سورة الأنعام وما توفيقي إلا بالله



تفسير
سورة الأعراف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ * كتابٌ أُنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أوْليآء، قليلا ما تذكرون * وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾.

هذه سورةُ الأعراف، وهي مكية، وإنما سميت سورة الأعراف لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها الأعراف حيث قال: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجالٌ﴾ وحيث قال: ﴿ونَادَى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بِسِيمَاهُمْ﴾ والأعراف مكانٌ مُشْرِفٌ بين الجنة والنار كما سيأتي تحقيق القول فيه إن شاء الله تعالى، والمناسبة بين سورة الأعراف وسورة الأنعام أن السورتين تتحدثان عن تقرير التوحيد والرسالة والبعث بعد الموت كما أن السورتين تتحدثان عن افتراء المشركين واليهود والنصارى على الله عز وجل وتحريم ما لم يحرمه وتحليل ما حرمه كما حكاه الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام، وكما حكى عنهم في سورة الأعراف حيث ذكر عن المشركين أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، وكانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة ـ الرجال والنساء ـ زاعمين أن الله أمرهم بهذا، وفي هذا يقول عز وجل عنهم: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واللهُ أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ إلى أن يقول: ﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين * قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا

في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرَّم رَبِّيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾. وكما حكى عن أهل الكتاب: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم، سَنَزِيد المحسنين * فبدَّلَ الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ أما المناسبة بين آخر سورة الأنعام وأول سورة الأعراف فإنه عز وجل أشار في آخر سورة الأنعام إلى أنه أهلك القرون والأمم الخالية، وجعل الحاضرين خلائف الغابرين، وجعل آجال عباده وأرزاقهم بيده وحده لابتلائهم واختبارهم ليظهر المطيع من العاصي، ثم أشار في صدر سورة الأعراف إلى أن وظيفة رسول الله ﷺ هي تبليغ الرسالة وأن الله عز وجل قد أنزل عليه الكتاب لينذر به وذكرى للمؤمنين، فمن أطاعه سعد ومن عصاه شقي، وأن الله عز وجل قد أهلك الكثير من الأمم الماضية لما عَتَوْا عن أمر ربهم وعَصَوْا رسله فجاءهم بأسُ الله بياتا أو هم قائلون. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ هو من الحروف المفرقة في أوائل بعض السُّور، وقد أطنبت في الحديث عليها في تفسير أول سورة البقرة في قوله تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ونبَّهْتُ هناك إلى أنه مما يؤيد أن المقصود من ذكر هذه الحروف المفرقة في أوائل السور هو الإعجاز والتحدي وإثبات أنه من عند الله أن الله تبارك وتعالى يذكر عَقِبَ هذه الحروف في افتتاحيات السور القرآن صراحة أو ضمنا ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمنٍ به أو مُكَذِّبٍ له، وأن المؤمنين يحصل لهم عِزّ الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة، ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذم المكذبين وبيان سوء عاقبتهم، ومن أمثلة ما ذكرتُ قولُه

تبارك وتعالى هنا بعد ذكر قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ﴿كتٰبٌ أنزل إليك فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ وفي خواتيم المسك من سورة الأعراف هذه قال: ﴿هٰذا بصآئر من ربكم وهدى ورحمةٌ لقوم يؤمنون * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ إلى آخر السورة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كتابٌ أُنْزِلَ إليك فلا يكن في صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ أي هذا القرآن يا محمد كتابٌ أنزله الله إليك فَلْيَتَّسِعْ صدرك له، ولا تضق بحمله وحفظه، ولا تخش تَفَلُّتَهُ من قلبك فقد تكَفَّلْنا بجمعه في صدرك، ولا تخف من تبليغه لأمتك، لأن ربك يعصمك من الناس، فأنذر به الكافرين والمنحرفين، وذكِّر به المؤمنين، فما عليك إلا البلاغ المبين، فلا تَبْخَعْ نفسك إن لم يصدقوك، ولا تجزع لإعراضهم عنك، واصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إيمان قومه وإسلامهم وأنه كان يضيق صدره ويشتد حَرَجُه لما يراه من إصرار قومه على الكفر حيث يقول عز وجل: ﴿فلعلك باخع نَفْسَكَ على آثارهم إن لم يؤمنوا بهٰذا الحديث أَسَفًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى نحو ما أشرتُ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار المُجَاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: أَلَا إن ربي أمرني أن أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتم مما علمني يومي هذا: كلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبدا حَلَالٌ، وإني خلقت عبادي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنهم أَتَتْهُمُ الشياطينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُمْ أن يشركوا بي ما لم أُنزِلْ به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وعَجَمَهُمْ إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبْتَلِيَكَ وأَبْتَلِيَ بك، وأنزلت عليك كتابا لا يَغْسِلُهُ الماءُ، تَقْرَؤُهُ نائما وَيَقْظَانَ، وإن الله

أمرني أن أُحَرِّقَ قريشا، فقلت: رَبِّ إذًا يَثْلَغُوا رأسي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً. الحديث

ولا شك أن نزول القرآن العظيم على النبي الأمي محمد ﷺ وضَبْطَهُ له وقيامَهُ به هو الآية العظمى والمعجزة الكبرى، ويكفي في الإشارة إلى هذا العبء العظيم قولُه تبارك وتعالى: ﴿إنا سَنُلْقِي عليك قولا ثقيلا﴾ وقولُه عز وجل: ﴿لو أنزلنا هٰذا القرآن على جبل لرأيْتَهُ خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ وقد كان رسولُ الله ﷺ يَتَفَصَّدُ جَبِينُهُ عَرَقًا حين ينزل عليه الوحيُ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث بنَ هشام رضي الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الْوَحْيُ؟ فقال رسول الله ﷺ: أحيانا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عني وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي المَلَكُ رجلا فَيُكَلِّمُني فَأَعِي ما يقول، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه يَنْزِلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرقًا. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذَكَّرُون﴾ التفات من توجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ إلى توجيه الخطاب إلى جميع المكلفين. قال أبوالسعود العماديُّ في قوله تبارك وتعالى: ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم﴾ كلامٌ مستأنفٌ خُوطِبَ به كافة المكلفين بطريق التلوين، وأُمِرُوا باتباع ما أُمِرَ النبيُّ ﷺ قبله بتبليغه بطريق الإنذار والتذكير، وجَعْلُهُ مُنَزَّلاً إليهم بواسطة إنزاله إليه ﷺ إثر ذِكْرِ ما يصححه من الإنذار والتذكير لتأكيد وجوب اتباعه اهـ وقال القاضي أبوبكر ابن العربي في أحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذكرون﴾ قال علماؤنا: معناه: أحِلُّوا حَلاَلَهُ، وحَرِّمُوا حَرَامَهُ، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، واستبيحوا مُبَاحه، وَازْجُروا وَعْدَهُ، وخافوا وعيده، واقتضوا

حكمه، وانشروا من عِلْمِه علمَه، واسْتَجِسُّوا خباياه، وَلِجُوا زواياه، واستثيروا جاثمه، وفُضُّوا خاتمه، وألحقوا به مُلاَئِمَهُ اهـ. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم قال تعالى مخاطبا للعالَمَ: ﴿اتَّبِعُوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اقْتَفُوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿قليلا ما تذكرون﴾ كقوله ﴿وما أكْثَرُ الناس ولو حرصتَ بمؤمنين﴾ وقولِهِ: ﴿وإن تطع أكثر مَن في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الآية. وقولِه: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ اهـ وقولُه عز وجل: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسُنَا بَيَاتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ إنذار للكفار بما جرى على الأمم الماضية التي كذبت رسلها وأصرت على الكفر، وكم للتكثير أي قُرًى كثيرة ومعنى ﴿أهلكناها﴾ أي قضينا بتدميرها لما أصرت على تكذيب رسلها، ومعنى: ﴿فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون﴾ أي فَحَلَّ بها عذابُنَا ليلاً أو ضُحًى في وقت نومهم، أو غفلتهم ولهوهم، حيث اغتروا بما هم فيه من الأمن والراحة فجاءهم العذاب ونزل بهم ما يكرهون في وقت الأمن والراحة، كما قال عز وجل: ﴿أفَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوَأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون﴾. قال الزجاج: ومعنى ﴿بياتا﴾ ليلا، يقال: بات بياتا حَسَنًا، وبِيْتَةً حسنة، والمصدر في الأصل بَيْتًا، والبَيتُ بَيْتُ الشعر وكذلك بيتُ المَدَر، وإنما أصل تسميته من أنه يصلح للمبيت، ويقال لفلان بيتةٌ وليلةٌ وبَيْتُ ليلة، أي ما يكفيه من القوت في ليلة. ومعنى ﴿أو هم قائلون﴾ أي أوجاءهم بأسنا نهارا في وقت القائلة، يقال: قِلْتُ، من القائلة، فالمعنى: إنهم جاءهم بأسنا غفلة، وهم غير

متوقعين له، إما ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائلون كأنهم غافلون. اهـ.
ومعنى قوله عز وجل: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسُنَا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان دعاؤهُم وقولُهم وتضرعُهُم عند نزول العذاب بهم إلا الاعترافُ بجناياتهم والإقرارُ بجريمتهم نادمين على تكذيبهم لرسلهم حين لا ينفعهم نَدَمُهُم كما قال عز وجل في خواتيم المسك من السورة السابقة: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، قل انتظروا إنا منتظرون﴾ والدعوى في لسان العرب تأتي بمعنى الادعاء والدعاء. قال سيبويه: تقول العرب: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين أي في دعائهم اهـ والمراد بالدعوى هنا هو الدعاء كما قال عز وجل في سورة الأنبياء ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين * فلما أَحَسُّوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركُضُوا وارجِعُوا إلى ما أُتْرِفْتُم فيه ومساكنكم لعلكم تُسْئَلُون * قالوا يا ويلنا إنَّا كنَّا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾.

قال تعالى : ﴿فلنسئلن الذين أُرسل إليهم ولنسئلن المرسلين * فلنقصنَّ عليهم بعلمٍ وما كنّا غآئبين * والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولَئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولَئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ .

بعد أن أثنى الله تبارك وتعالى على القرآن العظيم وَوَصَّى رسولَه محمدا ﷺ بأن يوسع صدره لما يُلْقَى إليه من الوحي وأن ينذر به الكافرين ويعظ به المؤمنين، وأمر جميع المكلفين باتباع القرآن والوقوف عند حدوده ونهاهم عن عبادة غير الله، وحذرهم من أن يقعوا في مثل ما وقعت فيه الأمم التي كذبت رسلها فأنزل الله بهم بأسه الشديد وعقابه المبيد، ولم ينفعهم إيمانُهم لما رأوا بأس الله، شرع هنا في تأكيد الرسالة والبعث بعد الموت والحساب ووزن الأعمال وفلاح المؤمنين وخسران الظالمين حيث يقول عز وجل: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ومن خفت موازينه فأولَئِكَ الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بـآيَاتِنَا يظلمون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين * فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلم وما كُنَّا غآئبينَ﴾ أي فَلَنَسْأَلَنَّ الأمم يوم القيامة عما أجابت به رسل الله الذين أرسلهم إليهم سؤال تقريع وتوبيخ لا سؤال استفهام واستعلام، وَلَنَسْأَلَنَّ رُسُلَ الله عما أجابتهم به أممهم لتأكيد توبيخ المكذبين، وتقرير تكريم المرسلين، فَلَنُخْبِرَنَّ كلَّ عامل بما عمل من خير أو شر ولنحاسبنه على ما قدم وأخَّر، ولم يغب عنا ولم يَخْفَ علينا شيء من أعمالهم حين عملوا ما عملوا لأنه لا يغيب علينا شيء في السموات ولا في الأرض وإن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها اللهُ اللطيفُ الخبير الشهيد على عباده، الرقيب عليهم المهيمن على

حركاتهم وسكناتهم، وهذا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يومَ يَجْمَعُ الله الرسلَ فيقولُ ماذا أُجِبْتُمْ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾. وكما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ يا رب، فيقول: هل بَلَّغْتَ؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغَكُمْ؟ فيقولون ما أتانا من نذير، فيقول: مَن يشهدُ لَكَ؟ فيقُولُ: محمدٌ وأُمَّتُهُ، فيشهدون أنه قد بلَّغَ، ﴿ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ فذلك قولُه جل ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ قال ابن جرير رحمه الله: القولُ في تأويل قوله ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إليهم وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: لَنَسْأَلَنَّ الأمم الذين أرسلتُ إليهم رسلي ماذا عَمِلَتْ فيما جاءتهم به الرسل مِن عندي مِنْ أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أَمَرْتُهُم به، وانتهَوْا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عَصَوْنِي فَخَالَفُوا ذلك ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين﴾ يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلْتُهُم إلى الأمم، هل بَلَّغَتْهُمْ رسالاتي وَأَدَّتْ إليهم ما أمرتُهُم بأدائه إليهم، أم قَصَّرُوا في ذلك فَفَرَّطُوا ولم يُبَلِّغُوهُمْ؟ ثم قال ابن جرير رحمه الله: فإن قال قائل: وكيف يَسْأَلُ الرسلَ والْمُرْسَلَ إليهم وهو يخبر أنه يقص عليهم بِعِلْمٍ بأعمالهم وأفعالهم في ذلك؟ قيل: إن ذلك منه تعالى ذكره ليس بمسألة استرشاد، ولا مسألة تَعَرُّفٍ منهم ما هو به غير عالم، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخَبَرُ، كما يقول الرجلُ للرجل: ألم أُحْسِنْ إليك فأسأتَ؟ وألم أَصِلْكَ فَقَطَعْتَ؟؟ فكذلك مسألةُ اللهِ المرسلَ إليهم بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النُّذُرَ فتنذركم عذابي وعقابي في هذا اليوم مَن كَفَرَ بِي وعَبَدَ غيري؟ كما أخبر جل ثناؤه أنه قائل لهم يومئذ:

﴿ألم أعهـد إليكم يا بني آدم ألا تعبـدوا الشيطـانَ إنه لكم عَدُوٌّ مبينٌ * وأَنِ اعْبُـدُونِي هٰذا صراط مستقيم﴾ ونحـو ذلك من القول الـذي ظَاهِـرُهُ ظاهـرُ مسألةٍ، ومعناه الخبرُ والقصصُ وهـو بعدُ توبيخٌ وتقريرٌ، وأمـا مسألةُ الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذيـر، فقيل للرسل: هل بَلَّغْتُمْ ما أُرْسِلْتُمْ به؟ أو قيل لهم: ألم تُبَلِّغُـوا إلى هؤلاء مـا أُرْسِلْتُمْ بـه؟ كما جاء الخبر عن رسـول الله ﷺ، وكما قـال جل ثناؤه لأمـة نبينـا محمد ﷺ: ﴿وكـذالك جعلنـاكم أمة وسطـا لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ فكُلُّ ذلك من الله مسألـةٌ للـرسل على وجـه الاستشهــاد لهم على من أُرْسِلـوا إليـه من الأمم، ولِلمُـرْسَلِ إليهم على وجـه التقـريـر والتـوبيخ، وكلُّ ذلك بمعنى القصص والخبر اهـ وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿والْوَزْنُ يـومئذ الْحَقُّ، فمن ثَقُلَتْ مَـوَازِينُه فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَـوَازِينُه فَأُولَـٰئِكَ الذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بما كانـوا بآيَـٰتِنَا يَظْلِمُـونَ﴾ بعد أن أثبت الله عز وجل أنـه يسأل الأمم والرسل ويحاسبهم على مـا عملوا أثبت هنـا أنه يـزن أعمال عباده الـوزن الحق إظهارا لعدله لينكشف للعبـاد ما قدَّموا من الأعمال في دنيـاهـم وتظهر جميع الأشياء بحقـائقها وبأوصـافهـا وأحـوالها على ما هي عليـه في أنفسهـا من الحُسْن أو القبح، وقد آمن أهل السنة والجماعة بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ من أن الله تبـارك وتعـالى يضع الموازين القسط ليـوم القيـامـة وأن أعمال العباد توزن فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل، كما قال عز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فلا تظلم نفس شيئـا وإن كان مثقال حبة من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وقال عز وجل: ﴿فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأُمُّهُ هاوية

* وما أدراكَ مَاهِيهْ * نارٌ حـامية﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّور فلا أنسـاب بينهم يومئـذ ولا يَتَسَاءَلُـون * فمن ثَقُلَتْ موازينُـه فأولَـئِكَ هم المفلحـون * ومن خفت مـوازينـه فأولَـئِك الـذين خَسِرُوا أنفسهم في جهنم خالـدون﴾ وقد روى أحمد في مسنده والترمـذي وابن ماجـه كلهم من طريق الليث بن سعـد حـدثني عـامـر بن يحيى عن أبي عبـدالـرحمن الحُبُلِيِّ قـال: سمعت عبدالله بن عمـرو بن العاص يقول ـ وهذا لفظ الترمـذي قال رسول الله ﷺ: إن الله سَيُخَلِّصُ رجـلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيـامة، فَيَنْشُرُ عليـه تسعة وتسعين سِجِـلا، كلُّ سِجِلٍّ مثل مَـدِّ البصر، ثم يقـول: أَتُنْكِرُ مِن هذا شيئا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظـون؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَفَلَكَ عُـذْر؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيقـول: بَلَى إنَّ لك عنـدنا حسنةً، فـإنه لا ظُلْم عليك اليـومَ، فَتَخْرُجُ بِطَـاقَـةٌ فيها: أشهـد أن لا إلَه إلا الله وأشهـد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احْضَرْ وَزْنَكَ، فيقـول: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ مع هـذه السِّجِلَّاتِ، فقـال: إنك لا تُظْلَمُ، قـال: فَتُوضَعُ السجـلاتُ في كفة، والبطاقـة في كفة، فطاشت السجلاتُ، وثَقُلَتِ البِطـاقةُ فلا يثقل مع اسم الله شيء. قال أبوعيسى: هذا حـديث حسن غريب، وقد رواه الحاكم في المستدرك من طريق الليث بن سعد عن عـامر بن يحيى عن أبي عبدالرحمن المَعَافِرِي الحُبُلِيِّ أيضا وقال: هذا حديث صحيح لم يُخَرِّجْ في الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي على ذلك. وقد أشار القرآن العظيم والسنـة النبويـة إلى أن من مات على الكفـر يحبط الله عز وجل مـا قد يكـون عمله من أعمال الخير، فلا يثبت في ميزانه شيء من الحسنات حيث يقول عز وجل: ﴿أولَـئِك الـذين كفروا بآيات ربهم ولقـائه فَحَبِطَتْ أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيـامة وزنا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وقدمنا إلى مـا عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ كما روى البخـاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

عن النبي ﷺ أنه قال: إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وَزْنًا﴾ كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الكلمات الصالحة وبعض الأفعال الصالحة يكون لها ثِقَلٌ عظيم في الميزان عند الله يوم القيامة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. وقد ختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث العظيم. كما روى أبوداود والترمذي واللفظ له من طريق أم الدرداء من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما شَيْءٌ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَنٍ. قال أبوعيسى: وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنسٍ وأسامةَ بن شَريكٍ وهذا حديث حسن صحيح. وقد أنكر بعض أهل الأهواء الميزان ووزن الأعمال يوم القيامة بدعوى أن الأعمال أعراضٌ لا تقبل الوزن وإنما يقبل الوزنَ الأجسام. وقد جهل هؤلاء أن الله قادر على قلب الأعراض أجساما كما صح الخبر عن رسول الله ﷺ أنه يؤتى بالموت كبشا فيوقف بين الجنة والنار فَيُذْبَحُ ويقال: خلود لا موت. قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: فإن أنكر ذلك جاهل بتوجيه معنى خبر الله عن الميزان وخبر رسوله ﷺ عنه وِجْهَتَهُ وقال: أَوَ بالله حاجة إلى وزن الأشياء وهو العالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعده وفي كل حال؟ أَوْ قال: وكيف تُوزَن الأعمالُ والأعمالُ ليست بأجسام توصف بالثقل والخفة وإنما توزن الأشياء لِيُعْرَفَ ثِقَلُهَا من خفتها، وكثرتها من قِلَّتها، وذلك لا يجوز إلا على الأشياء التي توصف بالثقل والخفة والكثرة والقِلة؟ قيل له في قوله: وما وجه

وزن الله الأعمالَ وهو العالم بمقاديرها قبل كونها : وزنُ ذلك نظيرُ إثباته إياه في أم الكتاب واستنساخه ذلك في الكتب من غير حاجة به إليه ومن غير خوف من نسيانه وهـو العالم بذلك في كل حالٍ وَوَقتٍ قبل كونـه وبعد وجوده، بل ليكون ذلك حجة على خلقه كما قال جل ثناؤه في تنزيلـه : ﴿كلُّ أمة تُدعَى إلى كتابها اليـوم تجزون ما كنتم تعملـون * هٰذا كتـابنا ينطق عليكـم بالحق﴾ فكذلك وزنُه تعالى أعمال خلقه بالميزان، حجةً عليهم ولهم، إما بالتقصير في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميـم اهـ. فمن ثقلت موازينه بالإيمان والأعمال الصالحة فاز وأفلح وصار في عيشة راضية في جنة عالية، ومن خفت موازينه لخلوها من الخير فقد خاب وخسر لكفره بالله ولجحوده لآياته وتعديه على الحق، فأُمُّه هاوية ، وما أدراك ما هِيهْ ، نار حامية . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى : ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايشَ، قليلاً ما تشكرون * ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أناخيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أَنظرنِي إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءُوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ .

بعد أن أكَّد الله تبارك وتعالى الرِّسالةَ والبعثَ بعد الموت والحسابَ ووزنَ الأعمالِ، وفَلاَح المؤمنين، وخُسْرَانَ الظالمين الجاحدين الكافرين شرع هنا في تذكير الناس بما أفاض عليهم من النعم، وفي تحذيرهم من الانقياد لإبليس عدو الله وعدوهم، الذي جعل أكبر همه إغْوَاءَ الناس وصرفَهم عن شكر الله، وضَرَبَ عز وجل لهم أمثلة من صُوَر العداوة المتمكنة في نفس إبليس لآدم وذريته، حيث يقول عز وجل : ﴿ولقد مَكَّنَّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها مَعَايِشَ، قليلا ما تشكرون﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿قال اخرج منها مذءُوما مدحورا لَمَن تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ولقد مَكَّنَّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي ولقد أقدرناكم وَوَطَّأنا لكم وسَهَّلْنَا عليكم التصرف في الأرض وجعلناها لكم قرارا تستقرون فيها، ومهادا تمتهدونها، وفراشا تفترشونها وهديناكم إلى وسائل معايشكم من الغذاء والكساء والدواء، وصيرناها لكم ذلولا تمشون في مناكبها وتأكلون من رزق الله الذي يَسَّرَهُ لكم فيها من أنواع المطاعم النافعة

لأجسامكم، وتشربون من الماء الذي أنزله لكم من السماء فسلكه ينابيع في الأرض، منه شراب ومنه شجر فيه تُسِيمُون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، فعليكم أن تشكروا نِعَمَ الله عليكم، وقليل من عبادي الشكور، إن الإنسان لظلوم كَفَّار، وقد اتفق القراءُ السبعة فيما تواتر من قراءاتهم على قراءة ﴿معايش﴾ بالياء قال ابن كثير رحمه الله: وقد قرأ الجميع ﴿معايش﴾ بلا همز إلا عبدالرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذي عليه الأكثرون بلا همز. اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: قرأ ذلك عامة قرأة الأمصار ﴿معايش﴾ بغير همز، وقرأه عبدالرحمن الأعرج: ﴿معائشَ﴾ بالهمز، قال أبوجعفر: والصواب من القراءة في ذلك عندنا: ﴿معايش﴾ بغير همز، لأنها «مَفَاعِل» من قول القائل: عِشْتَ تعيش، فالميم فيها زائدة، والياء في الحكم متحركة، لأن واحدها مَفْعَلَة «مَعْيَشَة» متحركة الياء، نقلت حركة الياء منها إلى العين في واحدها، فلما جمِعَتْ رُدَّت حركتها إليها لسكون ما قبلها وتحرُّكِها، وكذلك تفعل العرب بالياء والواو إذا سكن ما قبلهما وتحركتا، في نظائر ما وصفنا من الجمع الذي يأتي على مثال «مفاعل» وذلك مخالف لما جاء من الجمع على مثال «فعائل» التي تكون الياء فيها زائدة ليست بأصل، فإن ما جاء من الجمع على هذا المثال فالعرب تهمزهُ كقولهم: هذه مدائن، وصحائف ونظائرهما، لأن مدائن جمع مدينة والمدينة فَعِيلَة من قولهم: مدنت المدينة، وكذلك صحائف جمع صحيفة والصحيفة فعيلة من قولك: صحفت الصحيفة، فالياء في واحدها زائدة ساكنة فإذا جُمِعَتْ هُمِزَت، لخلافها في الجمع الياءَ التي كانت في واحدها، وذلك أنها كانت في واحدها ساكنة، وهي في الجمع متحركة اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ إلى قوله: ﴿قال اخرج منها مذءوما مدحورا

لَمَن تَبِعَكَ منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ تذكيرٌ بنعم عظيمة فائضة من الله تبارك وتعالى على آدم وذريته تُوجبُ على جميع الناس شكر الله عز وجل عليها، وتحذيرٌ لهم من طاعة إبليسَ الذي أظهر العداوة لأبيهم آدم عليه السلامُ وتَعَهَّد بإفساد ذريته وصرفهم عن طاعة الله، وفي قوله عز وجل: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ تنبيهٌ على عظيم قدرة الله عز وجل حيث قدَّرَ إيجاد آدم وذريته فأوجده من طين غير مصور ثم سواه وصوَّره في هذه الصورة البشرية الكريمة حيث خطَّطَهَ وشقَّ حواسه، ونفخ فيه من روحه ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وصوَّرهم على صورته الآدمية، وقد روى أحمد وأبوداود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك، كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته. ولهذا نسب الخلق والتصوير في هذا المقام إلى المخاطبين مع أن المقصود الأصلي هو خلق آدم وتصويره بدليل قوله عز وجل: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ إشارة إلى أن لهم حظًا من خلقه وتصويره لأن الخلق والتصوير قد سَرَى إلى ذريته، قال ابن جرير رحمه الله: ﴿ولقد خلقناكم﴾ ولقدخلقنا آدم ﴿ثم صورناكم﴾ بتصويرنا آدمَ، كما قد بينا فيما مضى من خطاب العرب الرجلَ بالأفعال تُضيفها إليه، والْمَعْنِيُّ في ذلك سَلَفُهُ، وكما قال جل ثناؤه لمن بين أَظْهُر المؤمنين من اليهود على عهد رسول الله ﷺ: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وما أشبه ذلك من الخطاب

المُوَجَّه إلى الحي الموجـود، والمرادُ به السلفُ المعـدومُ فكذلك ذلك في قـوله: ﴿ولقد خلقنـاكم ثم صورنـاكم﴾ معناه: ولقد خلقنـا أباكم آدم ثم صـورناه اهـ. ومما يـؤكد أن هـذا هو المراد قـولُه عـز وجل بعدهـا مباشرة: ﴿ثـم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وقد ذكر الله عز وجل قصة خلق آدم وأمر الملائكة بـالسجـود لـه وامتنـاع إبليس أبي الجان من السجـود لآدم في سبع سـور من القرآن الكـريم، وهي سورة البقرة والأعراف والحجـر والإسراء والكهف وطه وص. وقد سقت نصـوصها في تفسيرها من سورة البقـرة، وقلت هناك: وفي تكـرير هـذه القصـة في هذه السـور وفي تصريفهـا هذا التصريف البـلاغيَّ المعجزَ حجةٌ قاهرة، وآية باهرة، شـاهدة ناطقة بأن القرآن من عند الله، وفيه تنبيهٌ أيُّ تنبيـه وتحذير أشـدُّ التحذيـر من إبليس عَـدُوٍّ أبينا آدم وعـدوِّنا، إذ المقصود من تصريف هذه القصة تأكيد العداوة بين إبليس وذرية آدم وأن كل فساد في الأرض إنما هـو من عمل إبليس وجنوده، وفي ذلك ذكر لمن كـان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقـد نَقَلْتُ هناك قول القرطبي رحمه الله في تفسيره: واختلف الناس في كيفيـة سجود الملائكة لآدم بعد اتفـاقهم على أنه لم يكن سجـودَ عبادة. كما ذكـرت هناك أن إبليس لم يكن من الملائكـة وإنما كان من الجن، وكان لـه ذرية وليس للملائكة ذرية فهم لا يتنـاسلون. وقد نص القـرآن الكـريم على أن إبليس كـان من الجن حيث يقـول عـز وجل في سورة الكهف: ﴿وإذ قلنـا للملائكة اسجدوا لآدم فسجـدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظـالمين بَدَلاً﴾ وممـا لا شك فيـه عند العلماء بلغـة العـرب أنهم كانـوا يستثنـون من الجنس ومن غير الجنس، كما في هـذا المقـام ويسمى الاستثنـاء المنقطع، ومن التصريف البـلاغي اللافت لـلانتباه أنـه عز وجل قـال هنا: ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾ وقال في سورة ص: ﴿قال يا إبليس ما

منعك أن تسجد لما خلقت بيدَيَّ﴾ ولا شك عند أهل العلم بالتفسير والتأويل أن المراد في الموضعين هو توبيخ إبليس على عدم السجود، وقد ذكرت في تفسير الآية الرابعة والثمانين بعد المائة من سورة البقرة في قوله عز وجل: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين﴾ أن العرب قد تحذف الحرف وهو مراد أو قد تذكره وهو غير مراد لعلم السامع بالمراد كقوله تبارك وتعالى: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف﴾ أي قالوا تالله لا تفتأ تذكر يوسف. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا يأتل أوْلواْ الفضل منكم والسعة أن يؤتُوا أولى القربى﴾ أي ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن لا يؤتوا أولي القربى ومنه قول امرئ القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا   وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرح قاعدا لأن العرب لا يستعملون فَتِئَ وبرح إلا منفية، فإذا جاءت بغير حرف النفي عُلِمَ قطعا أنه مراد، ومثال زيادة لا وهي غير مرادة قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي ليعلم أهل الكتاب. ويكون الحذف أو زيادة الحرف لقصد بلاغي يقتضيه فقه اللغة وفصاحة العبارة ومقتضى الحال والمقام. وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل: ﴿ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾: إن في الكلام محذوفا قد كفى دليل الظاهر منه وهو أن معناه: ما منعك من السجود، فأحوجك أن لا تسجد ــ فَتَرَكَ ذكر «أحوجك» استغناء بمعرفة السامعين قوله: ﴿إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ أن ذلك معنى الكلام، مِن ذِكْرِه، ثم عمل قولُه ﴿ما منعك﴾ في ﴿أَنْ﴾ ما كان عاملا فيه قبل «أحوجك» لو ظهر، إذ كان قد ناب عنه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتَه من طين﴾ أي منعني من السجود أني أفضل من آدم لأني مخلوق من نار وآدم مخلوق من طين والنار خير من الطين، قال ابن جرير رحمه الله: جهل عدوُّ الله وجه الحق وأخطأ سبيل الصواب، إذ

كان معلومـا أن من جوهر النار الخفة والطيشَ والاضطـراب والارتفاعَ عُلُوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الـذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السـابق على الاستكبار عن السجـود لآدم، والاستخفاف بأمر ربـه فأورثه العطَب والهلاكَ، وكان معلـوما أن من جوهر الطين الـرزانة والأنـاة والحِلْم والحياء والتثبُّت، وذلك الـذي هو في جـوهره من ذلك كـان الداعي لآدم بعد السعـادة التي كانت سبقت له من ربـه في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومَسْأَلتِه ربَّه العفوَ والمغفرة اهـ.

وعلى فـرض أن النـار خير من الطين فـلا يتحتم أن يكـون المخلـوقُ من الأفضل أفضلَ فإن الفرع قد يختص بها لا يكون في أصله، فالتِّبْرُ من التراب، ومن قصر بـه عمله لم يبلغ بـه نسبه، والضمير في قولـه عز وجل: ﴿فـاهبط منها﴾ راجع إلى المنزلة والرحمة التي كان فيها في الملكوت الأعلى مع الملائكة، والأمـر بهبوط إبليس وخـروجه من هـذه الـرحمة أمر كـوني قدري، وهـو غير الهبوط الـذي أنزل بـه إلى الأرض مع آدم وحواءفي قـوله: ﴿اهبطـوا بعضكم لبعض عدو﴾ ومعنى: ﴿إنك من الصـاغرين﴾ أي من الذليلين الحقيرين، ومعنى ﴿أنظـرني إلى يـوم يبعثـون﴾ أي أمهلني ولا تُمِتْني إلى يـوم البعث والنشـور، ومعنى: ﴿إنك من المنظـريـن﴾ أي من الـذين أُجِّل مـوتهم فـلا يموتون إلا عند النفخـة الأولى التي يصعق بها من في السموات والأرض وهو الوقت المعلوم لموت من لم يمت مـن أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، ومعنى: ﴿قـال فبما أغـويتني﴾ إلى قـولـه تعـالى: ﴿لأمـلأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي كما أضللتني لأَصُدَّنَّ ذرية آدم عن طـريق الحق ولأغوينهم من جميع جهاتهم ليكفـر أكثرهم فأكد الله عـز وجل طرد إبليس من رحمتـه مقيتا مذموما أبشع الذم موصوما بالذلة والصَّغار، مأبونا بالخزي والعار، وتوعد عز وجل كل من انقـاد للشيطان وكفـر بالرحمن أن يجعلـه فيمن تمتلئ بهم جهنم وبئس القرار.

قال تعالى : ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلٰهما بغرور، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ .

بعد أن ذكَّر الله عز وجل الناسَ بما أفاض عليهم من النعم وحذَّرهم من الانقياد لإبليس عدو الله وعدوهم الذي جعل أكبر همه إغواءَ الناس وصَرْفَهم عن شكر الله ، وذكر المثَلَ الأول من صُوَر العداوة المتمكنة في نفس إبليس لآدم وذريته ، شرع هنا في ذكر المَثَلِ الثاني من صُور عداوة إبليس لآدم وذريته ، الذي يبرز فيه ما قام به إبليس لإخراج آدم من الجنة ، وما بذل في سبيل ذلك من اليمين الفاجرة والتغرير، حتى تمكن من مراده ، وما تفضل الله عز وجل به من توفيق آدم وزوجته للمسارعة إلى التوبة من أكلهما من الشجرة وما كان من أمر الله الكوني القدري لآدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض لتكون لهم مستقرا ومتاعا إلى حين . وأشار إلى أنه قضى وقدَّر أن تكون حياة آدم وذريته وإبليس وذريته على الأرض مدة الحياة الدنيا التي قضى الله عز وجل لكل واحد منهم أجله فيها ، وفي ذلك يقول : ﴿ويا آدَمُ اسْكُنْ أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُون﴾

ومما يلفت الانتباه في التصريف البلاغي في سياق هذه القصة في مقاماتها من القرآن الكـريم أنه قد يحذف من مقام مـا ذكره في المقام الآخر ليكـون المذكور دليلا على المحذوف كقوله في سورة البقرة : ﴿وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنـة﴾ وقـال هنا : ﴿و يـاآدم اسكن أنت وزوجـك الجنة﴾ وقـال في سـورة البقرة : ﴿وكلا منها رغدا حيث شئتما﴾ وقال هنا : ﴿فكلا من حيث شئتما﴾ وقال في سـورة البقرة : ﴿فأزَلَّهما الشيطان عنها فأخـرجهما مما كانا فيـه﴾ وقال هنا : ﴿فوسـوس لهما الشيطان لِيُبْدِيَ لهما ما وُوري عنهما من سَـوْآتِهِمَا وقال ما نهاكما ربكما عن هٰذه الشجـرة إلا أن تكونـا ملكين أو تكونـا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن النـاصحين * فدلاهما بغـرور، فلما ذاقا الشجـرة بدت لهما سوآتهما وطفقـا يخصفان عليهما من ورق الجنـة وناداهما ربُّهما ألم أَنْهَكُمَا عن تلكما الشجـرة وأقـل لكما إن الشيطـان لكما عـدو مبين﴾ . وقـال في سـورة البقرة : ﴿فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ وقال هنا : ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وقال في سـورة البقرة : ﴿وقلنا اهبطـوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وقال هنا : ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ وقد تقـدم الكلام في تفسير هذه القصة في سورة البقـرة ، وقد بينت فيها أن الله عز وجل أذن لآدم أن يسكن هـو وزوجه حواء الجنـة وأباح لهما ما في الجنـة يأكلان منه رغـدا حيث شاءا ، ونهاهما عن الأكل من شجـرة معينة ، وحـذَّرهما من إبليس ، غير أن حكمـة الله البالغـة اقتضت أن ينسى آدم هذا التحذير وأن يعمل إبليس بما يستطيعه من وسوسة ومن أيمان كاذبـة بأنه ناصح لآدم ولـزوجه حتى أكل آدم وزوجُـه من الشجرة من غير قصد و إنما عن نسيـان كما قال عز وجل : ﴿ولقد عَهِـدْنَا إلى آدم من قبل فنَسِيَ ولم نجد له عزما﴾ وليس في القـرآن أو في السنة النبوية ما يدل على

أن هـذه الوسـوسة كـانت في الجنـة ، وظاهـر القرآن أن إبليس وسـوس لآدم وحواء قبل دخول الجنة لاقتران الوسوسة بقوله : ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهـا رغدا حيـث شئتما ولا تقربا هـٰذه الشجرة فتكـونا مـن الظالمين * فأزلهما الشيطـان عنها﴾ والمقصـود أن الله تبارك وتعالى لحكمتـه البالغـة مكَّنَ إبليس من الـوسوسـة لآدم ليعرف بنوه أن إبليس حـريص على حرمـانهم من دخول الجنـة كما قال عز وجل : ﴿إن الشيطـان لكم عدو فـاتخذوه عدوًّا إنما يدعـو حزبه ليكونـوا من أصحاب السعير﴾ وقد شرحت هنـاك معنى الزوج ومعنى : ﴿حيث شئتما﴾ ومعنى : ﴿ولا تقـربا هـٰذه الشجرة﴾ وأنـه لم يصح عن رسول الله ﷺ خبر في تعيين الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها فلا حاجـة إلى تكلف تعيينها ولا إلى معرفـة نوعهـا ، ومعنى قوله تبـارك وتعالى : ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما مـا ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هـٰذه الشجـرة إلا أن تكـونـا مَلَكين أو تكـونـا من الخالـدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور﴾ أي فحدث الشيطانُ آدم وحـواء وألقى في نفسيهما وزين لهما الأكل مـن الشجـرة التي نهاهما الله عنهـا ليخـرجهما من الجنة وليـزيل ستر الله الـذي قضى أن يستر بـه عورتيهما مـا لم يأكـلا من الشجرة ، وقـد استعمل الشيطـان معهما طرق التغـرير والخديعـة والمكر حيث زعم لهما أن الأكل من هـذه الشجرة يورثهما صفـات الملائكة أو الخلود الأبدي كما أكثر لهما من الأيمان الكاذبة الفاجرة بأنه ناصح لهما ولا يريد بهما إلا الخير، والظاهر أن آدم عليه السلام لم ينقد لإبليس إنما أصابه النسيان فنسي كما قـال عز وجل : ﴿ولقـد عهـدنا إلى آدم مـن قبل فَنَسِي ولم نجد لـه عزمـا﴾ وقد عَلِمَ إبليـس لعنه الله عنـدما رأى آدم مُصَوَّرًا مـن الطين أجوفَ وعرف أنه لا يتمالك ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لما صَوَّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ،

فجعل إبليس يُطِيفُ به، يَنْظُر ما هو؟ فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ، فمازال إبليس يخدعهما ويحلف لهما بأنه لهما من الناصحين، ويزخرف لهما الأكل من الشجرة حتى نسيا النصيحة والعهد الذي عهد الله عز وجل لآدم ألا يأكل هو وزوجه من الشجرة، فلما ذاقا الشجرة أي تَنَاوَلاَ شيئا يسيرا منها قصدًا إلى معرفة طعمها، ظهر لكل واحد منهما ما كان قد ستره الله عز وجل من عورتيهما التي يسوء انكشافها، وأخذا يلزقانِ وَيخْرِزَان عليهما من ورق الجنة ليستترا به، وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه آكل منها لا محالة، لأنه لابد وأن يُسْكِنَهُ الأرض ويَعْمُرَها هو وذريتُه من بعده، ويجعل فيهم خيرا كثيرا وعبادا صالحين وأنبياءَ ومرسلين، وقد أعلم الله عز وجل الملائكة قبل خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة وإن كان لابد من الابتلاء والاختبار والامتحان والأمر والنهي، وقد نسِيَ آدم وأكل من الشجرة، فعاد إلى الأرض، كما قال عز وجل: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وكما قال عز وجل هنا: ﴿فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُونَ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ إشعارٌ بأنه ينبغي تنبيهُ الغافلين وتذكيرُ الناسين إلى ما وقعوا فيه، وأن المؤمن إذا وقع في مخالفة سارع إلى التوبة والإنابة، وبيانُ فضل الله عز وجل بتوبته على التائبين، وتنديدٌ بِعَدُوِّ الله إبليسَ ومن يدور في فلكه من الذين إذا وقعوا في معصية أصروا واستكبروا استكبارا، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وناداهما ربُّهما ألم أَنْهَكُمَا عن تِلكُمَا الشجرة وأَقُلْ لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ونَادَى آدَمَ وحَوَّاءَ ربُّهما: ألم أنهكما عن أكل ثمرة الشجرة التي أكلتما ثمرها، وأُعَلِّمْكُماَ أن إبليس لكما عدو

مبين، يقول: قد أبان عداوتـه لكما بترك السجود لآدم حسدًا وبغيًا، ثم قال رحمه الله: القول في تأويـل قوله: ﴿قـالا ربنا ظلمنـا أنفسنا وإن لم تغفـر لنا وترحمنـا لنكونن من الخاسرين﴾ قـال أبوجعفر: وهـذا خبر من الله جل ثناؤه عن آدم وحواءَ فيما أجاباه به، واعترافِهما على أنفسهما بالذنب، ومسألتِهما إياه المغفرةَ منـه والرحمةَ خلافَ جـوابِ اللعينِ إبليس إياه، ومعنى قولـه: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ قال آدمُ وحواءُ لربهما: يا ربنا، فَعَلْنَا بأنفسنا من الإساءة إليها بمعصيتك وخلافِ أمرك من أكـل الشجرة التي نهيتنا عن أكلها ﴿وإن لم تغفـر لنـا﴾ يقـول: وإن أنت لم تستر علينـا ذنبنـا فتغطيــه علينـا وتترك فضيحتنا به بعقوبتـك إيانا عليه ﴿وترحمنا﴾ بتعطفك علينا، وتَـرْكِكَ أَخْذَنا بـه ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ يعني: لنكـونن من الهالكين اهـ وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعـض عدو ولكم في الأرض مستقر وَمتاعٌ إلى حين﴾ أمرٌ مـن الله عز وجل لآدم وحـواء وإبليس بالهبـوط إلى الأرض، وهو أمر كوني قدري أراده الله وقضاه، ولا رادَّ لقضائه وقدره، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قـال عز وجل في سـورة طـه: ﴿ قال اهبطـا منها جميعـا بعضكم لبعض عَـدُوٌّ﴾ وهو أمر لآدم وإبليس، ولا شـك أن حواءَ تبعٌ لآدمَ عليهما السـلام، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿ بعضكم لبعض عَـدُوٌّ﴾ يعني أن العداوة ثابتة مستقرة دائمة بين آدم وإبليس وذريتيهما لا تزول ألبتة، وقولُه عز وجل: ﴿ولكم في الأرض مستقـر ومتاع إلى حين﴾ قـد تقدم تفسيره في سـورة البقرة، وقولُه عز وجل: ﴿قال فيهـا تَحْيَوْنَ وفيها تموتون ومنها تُخْرَجُونَ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سماواتـه إلى أرضـه: ﴿فيهـا تَحْيَوْنَ﴾ يقـول: في الأرض تَحْيَـوْنَ، يقول: تكـونون فيهـا أيام حياتكم ﴿وفيهـا تموتون﴾ يقـول: في الأرض تكون وفاتكم ﴿ومنهـا تخرجون﴾ يقول: ومـن الأرض يخرجكم ربكم ويحشركم إليه

لبعث القيامة أحياء اهـ وهذا قضاء الله عز وجل أن يجعل الأرض مستقرا لآدم ولذريته من بعده إلى يوم القيامة ، وقد قدَّر ذلك وقضاه قبل خلق السماوات والأرض ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء . وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلق الإنسان من الأرض يعيش عليها ويموت فيها ومنها يبعث في غير موضع من كتابه الكريم كما في هذا المقام ، وكما في قوله تبارك وتعالى : ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ألم نجعل الأرض كِفَاتا * أحياء وأمواتا﴾ .

قال تعالى : ﴿ يـا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يـواري سوءاتكم وريشًا ولباس التقوى ذٰلك خير، ذٰلك من آيات الله لعلهم يذكرون * يا بني آدم لا يفتننكم الشيطـان كما أخـرج أبـويكم من الجنـة ينـزع عنهما لبـاسهما ليريهما سـوءاتهما، إنه يـراكم هو وقبيلـه من حيث لا ترونهم، إنـا جعلنا الشيـاطين أولياء للـذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فـاحشة قالـوا وجدنا عليها آبـاءَنا والله أمرنـا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشـاء أتقولون على الله مـا لا تعلمون * قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين، كما بدأكم تعـودون * فريقًا هـدى وفريقا حق عليهم الضـلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ .

بعد أن بَيَّنَ المثَـلَ الثاني من صُـوَر عداوة إبليس لآدم وذريتـه وأشار إلى أنَّ من أهم مقـاصـد إبليس هـو أن تنكشف سـوآتُ بنـي آدم وعـوراتُهم وأن انكشاف العورة هو أَوَّلُ سوء أصاب الإنسان مِن قِبَلِ الشيطان، ومن المعلوم أنَّ انكشاف عورات الرجال والنساء من أكبر أسباب فساد الأخلاق وانحلال المجتمعـات، وقد حَـرَصَ إبليس على ذلك أشد الحرص حتى لعب بعقـول أهل الجاهلية فصاروا يطوفون بـالبيت الحرام عراة رجالا ونساء ويعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله، وأنـه عز وجل قد أمرهـم بذلك، كما أننا لازلنا نشـاهد حرص المفسدين في الأرض على دعوة النساء إلى التبرج والتكشف ليسهل لهم ما يريـدون من تفسخ الأمة والوصول إلى مـا يشتهون من التفكك والانحلال والانغماس في الشهوات، فلما نبـه الله عز وجل النـاس إلى حرص إبليس على انكشـاف عوراتهم شرع هنـا يبين لبني آدم أنـه عز وجل لم يتركهم سُـدًى بل تفضل عليهم وأنـزل إليهم كل ما يحتـاجون إليـه في دينهم ودنياهم ليسلكـوا الصراط المستقيم، وأنه لا نجاة ولا سعادة لهم إلا بطـاعة الله ورسله والانقياد

لأمره والوقـوف عند حدوده، ومخالفة الشيطان الـرجيم وفي ذلك يقول: ﴿يا بني آدم قد أنـزلنا عليكم لبـاسا يواري سـوآتكم ورِيشا ولبـاسُ التقوى ذٰلك خير﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿فريقا هَـدَى وفريقا حقَّ عليهم الضـلالة، إنهم اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ و معنى قوله عز وجل: ﴿قد أنـزلنَا عليكم لباسا يُـوَاري سَوْآتِكُمْ ورِيشًا﴾ أي قـد يسرنا لكم اللباس والرياش الذي تسترون به عـورتكم وتحصلون عليه من ظهور الأنعام ومن النباتات التي نبتت بسبب ما أنزله الله من الأمطار. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبـوجعفر: يقول جل ثنـاؤه للجهلة من العـرب الذين كانـوا يَتَعَرَّوْنَ للطـواف، اتِّبـاعـا منهم أَمْـرَ الشيطـان، وتـركًـا منهم طـاعـةَ الله فعـرَّفهم انخداعهم بغروره لهم، حتى تمكن منهـم فسلبهم من ستر الله الذي أنعَمَ به عليهم، حتى أبـدى سـوآتهم وأظهـرهـا مـن بعضهم لبعض مع تفضل الله عليهم بتمكينهم ممـا يسترونها بـه، وأنهم قـد سار بهم سيرتـه في أبـويهم آدم وحـواء اللـذين دَلاَّهُما بغـرور حتى سلبهما ستر الله الـذي كـان قـد أنعم بـه عليهما، حتى أبـدى لهما سوآتهما فَعَـرَّاهُمَا منه ﴿يـا بنى آدم قـد أنزلنـا عليكم لبـاسا﴾ يعني بإنـزالـه عليهم ذلك خَلْقَهُ لهم ورزقَـهُ إيـاهم، واللباس: مـا يلبسون من الثياب، ﴿يوارى سوآتكم﴾ يقول: يستر عوراتكم عن أعينكم، وكنى بـالسـوآت عن العـورات، واحدتها سـوأة وهي فَعلـة من السـوء وإنما سميت سوأة لأنـه يسوء صاحِبَها انكشـافُها من جسده اهـ. وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: يمتن تعـالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والـريش، فـاللباس ستر العـورات وهي السـوآت، والـرياشُ والـريشُ مـا يتجمل بـه ظـاهـرا، فـالأول من الضروريـات، والـريش من التكمـلات والزيادات اهـ. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لفظ الإنزال في القرآن يَرِدُ «مُقَيَّـدًا» بأنه منه كـالقرآن، وبالإنزال من السماء ويُـرادُ به العُلُو كـالمطر

و«مطلقا» فلا يختص بنوع، بل يتناول إنزال الحديد من الجبال والإنزال من ظهور الحيوان وغير ذلك. وقال في موضع آخر: النزول في كتاب الله عز وجل ثلاثة أنواع: نزولٌ مقيد بأنه منه، ونزولٌ مقيد بأنه من السماء، ونزولٌ غير مقيد لا بهذا ولا بهذا، فالأول لم يرد إلا في القرآن كما قال تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربك بالحق﴾ وقال تعالى: ﴿نَزَّلَه رُوحُ القُدُس من ربك بالحق﴾ وقال تعالى: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ ثم قال رحمه الله: وأما النزول المقَيَّدُ بالسماء فقوله: ﴿وأنزلنا من السماء﴾ والسماء اسم جنس لكل ما علا فإذا قُيِّدَ بشيء معين تَقَيَّدَ به، فقولُه في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو، ثم قد بينه في موضع آخر بقوله: ﴿أأنتم أنزلتموه من المُزْنِ﴾ وقوله: ﴿فترى الْوَدْقَ يخرج من خلاله﴾ أي إنه منزل من السحاب، ثم قال رحمه الله: وأما «المطلق» ففي مواضع منها ما ذكره من إنزال السكينة بقوله: ﴿فأنزل الله سَكِينَتَهُ على رسوله وعلى المؤمنين﴾ وقوله: ﴿هو الذي أنزل السَّكِينة في قلوب المؤمنين﴾ إلى غير ذلك، ومن ذلك «إنزال الميزان» ذكره مع الكتاب في موضعين، ثم قال رحمه الله: وذكر تعالى إنزال النعاس في قوله: ﴿ثم أنزل عليكم من بعد الغم أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طائفةً منكم﴾ هذا يومَ أحد، وقال في يوم بدر: ﴿إذ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً منه﴾ والنعاسُ ينزل في الرأس بسبب نزول الأبخرة التي تدخل في الدماغ، فتنعقد فيحصل منها النعاس، ثم قال رحمه الله: وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد، والحديدُ يُخْلَقُ في المعادن. ثم قال رحمه الله: ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات فلم يقل: أنزل النبات ولا أنزل المرعى، وإنما استعمل فيما يُخْلَقُ في محل عالٍ، وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام، وقال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم وريشا﴾ الآية. ثم قال رحمه الله: والقرآن مقصوده جنس اللباس

الـذي يُلْبَسُ على البَـدَن وفي البيـوت كما قـال تعـالى : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سَكَنًـا﴾ الآية . فـامتن سبحانـه عليهم بما ينتفعون بـه من الأنعام في اللباس والأثـاث، وهذا ــ والله أعلم ـ معنى إنـزاله ، فإنـه يُنْزِلُـه من ظهور الأنعام وهـو كسوة الأنعام من الأصـواف والأوبار والأشعار، وينتفع بـه بنو آدم من اللبـاس والـريـاش فقد أنـزلها عليهم . ثم قـال رحمه الله : فإذا كـان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين ، فـإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بَنُـو آدم حتى ينزل ، فقـد تبين أنه ليس في القـرآن ولا في السنة لفظ نـزول إلا وفيه معنى النزول المعروف ، وهذا هو اللائق بـالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العـربُ نزولا إلا بهذا المعنى اهـ. ولا شك أن الله تبارك وتعـالى قد تفضل على بني آدم بما يستر عـورتهم وبما يتجملون بـه في حياتهم ، والعـرب تطلق الريش والـرياش على الفـاخر من اللباس ومـا يتزين بـه من الثياب ، وقولُه تبارك وتعالى : ﴿ولبـاس التقوى ذٰلك خير﴾ تنبيه على وجوب التَّسَرْبُلِ بسربال تقوى الله عـز وجل والتحلي بها وملازمة خوف الله وخشيتـه والوقوف عند حدوده . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قـوله عز وجل : ﴿وتزوَّدُوا فإن خير الزاد التقـوى﴾ لما أمرهـم بـالزاد للسفر في الـدنيا أرشـدهـم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى إليها كما قال : ﴿وريشا ولباسُ التقوى ذٰلك خير﴾ لما ذكر اللبـاس الحِسِّيَ نَبَّهَ مرشـدا إلى اللباس المعنـوي وهو الخشوع والطـاعةُ والتقوى ، وذكر أنه خير من هذا وأنفع اهـ ولا شك أن الإنسان مهما لبس من الثياب فإنه عارٍ إذا تجرد من تقوى الله كما قال الشاعر:

إذا المرء لم يلبس ثيـابـا من التقى تقلب عـريـانـا وإن كـان كـاسيـا
وخير لبـاس المرء طـاعـةُ ربـه ولا خير فيمن كـان لله عـاصيـا

وقد نهى رسول الله ﷺ عن لبس الحرير والديبـاج للرجال وعن جَرِّ الثوب

خيلاء، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تَلْبَسُوا الحرير فإن من لبِسَه في الدنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخرة. كما روى البخاري ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: نهانا النبي ﷺ أن نشرب في آنية الذهب والفضة وأن نأكل فيها وعن لُبْسِ الحرير والديباج وأن نجلس عليه. كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرَّ إزاره بَطَرًا، كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: من جَرَّ ثوبه خُيَلاَءَ لم ينظر الله إليه يوم القيامة. وتذييل الآية الكريمة بقوله عز وجل: ﴿ذٰلك من آيات الله لعلهم يَذَّكَّرون﴾ للفت الانتباه إلى الاعتبار والادكار فيما تضمنه هذا المقام الكريم من الحجج والأدلة والبراهين الشاهدة بأن محمدا رسولُ الله وأن هذا القرآن من عند الله، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ إلى آخر الآية. أي يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان بغروره فيزين لكم كشف عوراتكم، فقد علمتم ما فعل بأبويكم آدم وحواء حتى تسبب في إخراجهما من الجنة وكَشْفِ الستر الذي كان يستر سوآتهما، واحذروا من إبليس وذريته أشد الحذر لأنهم يرونكم ويجرون منكم مجرى الدم وأنتم لا ترونهم، فمن انقاد لوسوستهم ضل عن سواء السبيل كما قال عز وجل: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا﴾. وقد قضى الله عز وجل أن يكون الجن أجساما لطيفة نارية كما قضى أن تكون الملائكة أجساما لطيفة نورانية، وقد تتشكل الجن في صُوَر يراها بعض الناس أحيانا، كما في قصة أسير أبي هريرة الذي كان يأخذ من تمر الصدقة الذي كان يحرسه أبوهريرة عندما وكَّله رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان كما رواه البخاري. وقوله عز وجل: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله

أمرنا بها﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ تنديدٌ بالمشركين على سوء سلوكهم وقبح معتقداتهم، وافترائهم على الله وإرشاد إلى السلوك الذي يرتضيه الله عز وجل، فقد كانوا يطوفون بالبيت عراة ويزعمون أن الله أمرهم بذلك، وأن هذا هو منهج آبائهم فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بأن فعلهم هذا هو فاحشة - وهي ما يشتد قبحه من المعاصي - والله لا يأمر بالفحشاء، أَتُسْنِدُون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، إنما يأمر الله عز وجل بالاستقامة في عبادته في مَحَالِّها ولا يتأتى لكم ذلك إلا باتباع المرسلين وإخلاص الدين لله فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه صوابا على منهج رسوله ﷺ، وسيجزي الله كل عامل بما عمل حيث يحشركم يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا، فريقا قد علم الله فيهم الخير فهداهم ووفقهم وفريقا علم الله فيهم الشر فخذلهم وحقت عليهم الضلالة، فانقادوا للشياطين وتركوا شريعة الله ويحسبون أنهم مهتدون. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة، قال عروةُ: كان الناس يطوفون في الجاهلية عراةً إلا الحُمْس والحُمْسُ قريش وما ولدت. الحديث. وفي قوله عز وجل: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ شبيه بقوله عز وجل: ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: إنكم محشورون حفاة عراة غُرْلاً، ثم قرأ: ﴿كما بدأنا أول خلق نُعِيدُهُ، وعدًا علينا، إنا كنا فاعلين﴾.

قال تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين * قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذٰلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون * ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

بعد أن نبَّه عز وجل على أن إبليس لعنه الله حريص أشدَّ الحرص على انكشاف عورات الرجال والنساء ونَدَّدَ بمن انقاد للشيطان في ذلك من أهل الجاهلية حتى جعلوا ذلك التعرى عند الطواف بالبيت الحرام دينًا ومعتقدًا وبيَّن عز وجل أنه لم يترك الناس سُدًى بل تفضل عليهم وأنزل لهم كل ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم ليسلكوا الصراط المستقيم، شرع هنا في تأكيد وجوب ستر العورة مطلقا وبخاصة عند الصلاة فإنها لا تصح إلا مع ستر العورة، مع التنديد بمن كانوا يحرمون الطيبات من الرزق فلا يتناولون في الحج طعامًا دسمًا، ونبه عز وجل إلى أنه تبارك وتعالى إنما خلق الطيبات من الرزق من أجل الذين آمنوا خاصة، وإنما ينتفع بها المشركون وسائر الكفرة في الدنيا على سبيل المشاركة والتبعية للذين آمنوا وأنها خالصةٌ للمؤمنين يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد من الكافرين، وأنه عز وجل إنما حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق والشركَ بالله والافتراء على الله، وفي ذلك يقول: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ولكل أمة أجَلٌ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون﴾ وقد روى مسلم في

صحيحه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تَطُوفُ بالبيت وهي عريانة فتقول: مَن يُعِيرني تطوافًا، تجعله على فرجها، وتقول

اليومَ يبدُو بعضُه أو كُلُّه ... فما بَدَا منه فلا أُحِلُّهُ

فنزلت هذه الآية: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ والمقصود من الزينة هنا المأمور بأخذها عند كل مسجد هي لبس ما يستر العورة للرجل وللمرأة، والتعبير بالزينة عن اللباس الساتر للعورة عند كل مسجد للإشارة إلى أنه ينبغي للمسلم أن يلبس ما يتجمل به عند الصلاة والاجتماع بالناس، كما حض رسول الله ﷺ على لبس الثياب النظيفة. قال ابن ماجه: باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة: حدثنا حرملة بن يحيى ثنا عبدالله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن يزيد بن أبي حبيب عن موسى بن سعيد عن محمد بن يحيى بن حَبَّانَ عن عبدالله بن سَلاَم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة: ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبِ مِهْنَتِهِ. قال في الزوائد: إسناده صحيح ورجالة ثقات اهـ. وقال أبوداود في سننه: حدثنا النُّفَيْلِيُّ ثنا مسكين عن الأوزاعي ح وثنا عثمانُ بن أبي شيبة عن وكيع عن الأوزاعي نحوَه عن حسان بن عطية عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلا شعِثًا قد تفرق شعره فقال: أَما كان يجد هذا ما يُسَكِّنُ به شعره؟ ورأى رجلا آخر عليه ثيابٌ وَسِخَةٌ فقال؛ أَمَا كان هذا يجد ماءً يغسل به ثوبه؟ حدثنا النُّفَيْلِيُّ ثنا زُهَيْر ثنا أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ في ثوب دُونٍ: فقال: أَلَكَ مالٌ؟ قال: نعم، قال: من أيِّ المال؟ قال: قد أتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: فإذَا آتاك الله مالا فَلْيُرَ أَثَرُ نعمةِ الله عليك وكرامَتِهِ اهـ. وأخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن

مسعود عن النبي ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من كِبْر، قال رجلٌ: إن الرجل يُحِبُّ أن يكون ثوبُه حَسَنًا ونعله حَسَنَةً؟ قال: إن الله جميل يحب الجَمَالَ، الكِبْر بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس. قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره: وهذا الأمر بالزينة عند كل مسجد أصلٌ من الأصول الدينية والمدنية عند المسلمين، وكان سببا في تعليم القبائل المتوحشة القاطنة في الكهوف والغابات أفرادًا وجماعاتٍ لُبْسَ الثياب عند دخولها في حظيرة الإسلام، وكانوا قبل ذلك يعيشون عراةَ الأجسام رجالا ونساء، حتى ذكر بعضُ المُنْصِفِينَ من الإفرنج أنَّ لانتشار الإسلام في أفريقية مِنَّةً على أوروبا بِنَشْرِهِ للمدنية بين أهلها، إذ ألزمهم بترك العُرْي، وأوجب لُبسَ الثياب، فكان ذلك سببا في رواج تجارة المنسوجات، وبهذا نقل الإسلام أمما وشعوبا كثيرة من الوحشية إلى الحضارة الراقية اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ولا تُسْرِفوا، إِنَّهُ لا يحب المسرفين﴾ أي وتَنَاوَلُوا ما يتيسر لكم من الأطعمة الطيبة والأشربة المباحة التي لا غنى لكم عنها في الحياة الدنيا لتقيم أصلابكم ولتتلذذوا بها من الضروريات والكماليات، والْزَمُوا حَدَّ الاعتدال لأن تجاوز حد الاعتدال إسراف يبغضه الله ويبغض مُقْتَرِفِيهِ، فمن أكل من الطيبات إذا أَحَسَّ بالجوع، وكفَّ عن الأكل إذا شعر بالشبع وإن كان يستلذ الزيادة لم يكن مسرفا في أكله، ومن شرب من الطيبات إذا أَحَسَّ بالعطش واكتفى بما يزيل عطشه لم يكن مسرفا في شربه، والمُعَوَّلُ عليه في الإنفاق عُرْفُ المعتدلين على قَدْرِ يُسْرِهِم وعُسْرِهم، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه كان مسرفا، يُعَرِّضُ نفسه لسخط الله، وتؤول حالُه إلى اللَّوم والحسرة كما قال عز وجل: ﴿ولا تجعل يَدَكَ مغلولة إلى عنقك ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فتقعد مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قل من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرِّزْقِ﴾ تنديد وتوبيخ واستنكار وتقريع

لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يَتَعَرَّوْن عند طوافهم بالبيت الحرام ويحرمون على أنفسهم الطيبات من الرزق وتحذير لمن يحرم شيئا برأيه الفاسد، ولا يكتفي بجريمته في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرَّم الله بل يضيف إلى ذلك جريمة كبرى أخرى وهي أن يَدَّعِيَ أن الله هو الذي حرَّم ذلك الذي زعم تحريمه. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يَتَعَرَّوْنَ عند طوافهم بالبيت ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم من طيبات الرزق: مَنْ حَرَّمَ - أيها القومُ - عليكم زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله الذي رَزَق خلقه لمطاعمهم ومشاربهم اهـ.
وظاهر اللفظ الكريم يدل على أن جميع أنواع الزينة مباح إلا ما خصه الدليل ويدخل تحت هذا العموم نظافة الملبس والبدن وجمال المركب والمسكن كما يدخل تحت الطيبات من الرزق كل ما يُستلذ ويُشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ما دام في حدود الاعتدال وتجنب الإسراف والتبذير وكذلك الطِّيبُ والنساءُ التي أباح الله عز وجل، وقد حض رسول الله ﷺ المسلمين أن يكونوا كالشَّامَة في الناس، قال أبوداود: حدثنا هارون بن عبد الله ثنا أبو عامر يعنى عبد الملك بن عمرو ثنا هشام بن سعد عن قيس بن بشر التغلبي قال: أخبرني أبي وكان جليسا لأبي الدرداء، وساق قصة ابن الحنظلية رضي الله عنه وفيها: ثم مَرَّ بنا يوما آخر فقال له أبو الدرداء: كلمة تنفعنا ولا تضرك، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامَة في الناس، فإن الله لا يحب الفُحشَ ولا التفحش. قال أبو داود: وكذلك قال أبو نعيم عن هشام قال: حتى تكونوا كالشامَة في الناس، وقد امتن الله تبارك وتعالى بما خلق من الزينة حيث يقول: ﴿والأنعامَ خلقها لكم فيها

دِفْءٌ ومنافعُ ومنها تأكلون * ولكم فيها جَمَالٌ حين تريحون وحين تَسْرَحُونَ * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفس، إن ربكم لرءوف رحيم * والخيلَ والبِغال والحمير لتركبوها وزينةً، ويَخْلُقُ ما لا تعلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة﴾ تنبيه إلى أن الله تبارك وتعالى إنما أوجد هذه الزينة والطيبات من الرزق من أجل عباده المؤمنين، وإنما ينتفع بها الكفار على سبيل المشاركة والتبعية للمؤمنين مدة الحياة الدنيا، أما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين خالصةٌ لهم لا يشاركهم فيها أحد من الكافرين، ولا ينبغي لعاقل أن يغتر بما قد يشاهد من توسعة في الرزق على بعض الكافرين وضيق في الرزق على بعض المؤمنين فإن الكافر يتمتع قليلا ثم يصير إلى النار والمؤمن يصبر قليلا إذا ضيق عليه في الرزق ثم يصير إلى الجنة كما قال عز وجل: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ولذلك وصف رسول الله ﷺ الدنيا بأنها سجن المؤمن وجنة الكافر فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ولما حرَّم رسول الله ﷺ الذهب والحرير على الرجال قال: هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة. كما جاء في البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه فإن المقصود أن الكفار يتمتعون بها متاعا قليلا ثم يصيرون إلى النار أما المؤمنون فإنهم يتمتعون بالطيبات التي أبيحت لهم في الدنيا ثم يتمتعون بالزينة والطيبات من الرزق التي لا تخطر على البال ولا تدور في الخيال مما لا عين رأت ولا أذن سمعت في جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأُتُوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون. وقولُه عز وجل: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ قال الطبري رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: كما بينت

لكم الـواجب عليكم في اللبـاس والـزينـة والحلال من المطـاعم والمشـارب والحرام منهـا وميــزت بين ذلك لكم أيها النـاس، كـذلك أبين جميعَ أدلتي وحججي، وأعـلام حلالي وحـرامي وأحكامي لقـوم يعلمون مـا يُبَيَّنُ لهم، ويفقهون ما يُمَيَّزُ لهم اهـ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قل إنما حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحشَ ما ظهر منهـا وما بطن والإثم والبَغْيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله مـا لم يُنَزِّلْ به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ردع وزجر للذين يفعلون المعاصي كطوافهم بـالبيت عراة ويحرمون مـا أحل الله كامتنـاعهم عن أكل الدسم في الحج وتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانـا ويفترون على الله الكذب وينسبون جرائمهم وقبـائح أفعالهم إلى الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا، وقد تقدم تفسير الفـواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام في قولـه عز وجل: ﴿ولا تقربوا الفواحش مـا ظهر منها وما بطن﴾ في الآية الواحدة والخمسين بعـد المائة. والمراد بالإثم عموم المعاصي، فَعَطْفُهُ على الفـواحش من باب عطف العام على الخاص لتأكيد الـزجر عن الفـواحش ما ظهـر منها ومـا بطن، وعطف الثلاثـة التي تليه عليـه وهي: ﴿والْبَغْيَ بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمـون﴾ من بـاب عطف الخاص على العـام لمزيـة تأكيـد الـزجـر عن الخاص لِوُلُوغِهِمْ فيه مع شدة ضرره وكبير خطـره، وقولُه عز وجل: ﴿ولكل أمـة أجلٌ فإذا جـاء أَجَلُهُمْ لا يستأخـرون سـاعةً ولا يستقـدمـون﴾ تهديـدٌ للمشركين المكـذبين المفترين على الله المرتكبين للفـواحش ووعيــدٌ لهم على افترائهم على الله وإصرارِهم على الشرك والاستمـرار على الكفر، وإنـذارٌ لهم بأن ينزل بهم ما نزل بأمثـالهم من الأمم التي كذَّبت رسلَها قبلهم، أي ولكل جماعة اجتمعت على تكـذيب رسوها أجلٌ ووقتٌ لحلول العقوبـة بهم ونزولِ العذاب بساحتهم فـإذا جاء الوقت الذي وقَّته اللهُ لهلاكهـم لا يتأخرون عنه

لحظة ولا يتقـدمون لحظـة ، ولا يُرَدُّ بأسُهُ عن القـوم المجرمين ، وكما قـال عز وجل : ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذيـن خَلَوْا من قبلهم ، قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم نُنَجِّي رسلَنَا والذين آمنـوا ، كذلك حقا علينا نُنج المؤمنين﴾ .

قال تعالى : ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعًا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هٰؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكلٍ ضعف ولَكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ .

بعد أن قصَّ عز وجل قصة امتناع إبليس عن السجود لآدم وما وسوس به له ولزوجه حتى أخرجهما من الجنة وكان سببًا في أن يبدي لهما ما وُوري عنهما من عوراتهما مما يؤكد عداوة إبليس لآدم وذريته ووجه النداء لبني آدم يبين لهم منته عز وجل عليهم بما أنزل عليهم من لباس يستر عوراتهم ، ثم ناداهم مرة ثانية لتحذيرهم من الشيطان ثم ناداهم مرة ثالثة وأمَرَهُم بأن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وأن يسلكوا المنهج المعتدل والصراط المستقيم وبين أن لكل أمة أجلاً مُعَينًا لا يتقدم ولا يتأخر، ناداهم هنا للمرة الرابعة فبين لهم ما يحصل للمطيعين وللعاصين وذكَرَ بعضَ المشاهد التي تنال المفترين على الله أو المكذبين بآياته عند الموت وبعده في عرصات القيامة حيث يقول عز وجل : ﴿يا بني آدم إما يأتينَّكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولَئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿فذوقوا

العذاب بما كنتم تكسبون﴾ وقولُهُ عز وجل: ﴿يا بني آدم إمَّا يأتينَّكم رسل منكم يَقُصُّون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولَئك أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾ بيانٌ لما عهد به عز وجل إلى جميع المكلفين من ذرية آدم منذ وجدوا على الأرض حيث عرَّفَهم بما أعده لأهل طاعته المتبعين لأنبيائه ورسله وما أعده لأعدائه المكذبين برسله المنقادين للشيطان والهوى المستكبرين في الأرض بغير الحق، أي يا ذريةَ آدم إن يأتكم رسولٌ من رسلي الذين أختارهم وأبعثهم إليكم بآياتي، وهم من أنفسكم وعشائركم وقبائلكم تعرفون صدقهم وسيرتهم قبل إرسالهم إليكم، يتلون عليكم آيات ربكم ويعرفونكم أسباب سعادتكم وطريق نجاتكم ويحذرونكم من الشيطان عدو أبيكم آدم وعدوكم ويقيمون لكم الأدلة والحجج على أن الله عز وجل أرسلهم إليكم وأيدهم بالمعجزات والبراهين، فمن آمن منكم بما جاءه به رسول الله وخشي اللهَ واتقاه ودخل في زمرة المصلحين فإن الله عز وجل يحييه حياةً طيبة ويبعثه يوم القيامة آمنًا ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكةُ هٰذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ وأما الذين كذبوا بآيات الله ولم يصدقوا المرسلين وتكبروا فى أنفسهم عن الانقياد لرسل الله، وكانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون فجزاؤهم عند الله عز وجل أن يُخَلِّدَهم في نار جهنم، يحيط بهم سُرَادِقها، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهْلِ يَشْوِي الوجوه بئس الشراب وساءت مُرْتَفَقًا.

ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته أولَئك ينالهم نَصِيبُهُم من الكتاب﴾ أي فلا أحدَ أعظم ظلما وأشد جُرْما وأكبر إثما ممن اختلق على الله زُورًا من القول كالذين إذا فعلوا فاحشة قالوا: الله أمرنا بها، ولا أَحَدَ أعظمُ ظلما وأشدُّ جُرْما وأكبر إثما ممن ردَّ دعوة المرسلين وكذَّب بالآيات التي يبعث الله بها رسله الدالة على وحدانية الله

ونبوة أنبيـائه، هؤلاء المفترون على الله الكذب والمكـذبون بـآيات الله يصيبهم حظهم وما قضـاه الله عز وجل في كتابـه على المفترين على الله والمعرضين عن ذكره مـن ضنك المعيشة في الحياة الـدنيا ومـا يبتليهم به من المتـاع القليل ثم يضطرهم إلى العذاب الغليظ والخزي الأبدي السرمدي، كما قال عز وجل في كتابـه الكريم: ﴿ومن أعرض عن ذكـري فإن له معيشةً ضنكـا ونحشره يوم القيـامة أعمى * قـال ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقـد كنتُ بصيرا * قال كـذٰلك أتتك آياتنـا فَنَسِيتَهَـا وكذٰلك اليـوم تُنسَى * وكـذٰلك نجـزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشَدُّ وأبقى﴾ وكما قال عز وجل: ﴿قل إن الذين يفترون على الله الكـذب لا يفلحون * متاعٌ في الدنيا ثم إلينـا مرجعهم ثم نذيقُهم العـذابَ الشديد بما كـانوا يكفرون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومن كفر فـلا يحزُنْكَ كُفرُهُ، إلينـا مرجعهم فننبئهم بما عملـوا، إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نَضْطَرُّهُم إلى عذاب غليظ﴾ فما يصيب المفترين على الله والمكذبين بـآياته من متاع الحيـاة الدنيا هو متـاع قليل قضاه الحكيم الخبير وكتبـه في اللوح المحفـوظ ولن يصيبهم إلا مـا كتبه الله وقـدره عليهم، قـال ابن جـريـر رحمه الله في معنى ﴿أولَئك ينـالهم نصيبهم من الكتـاب﴾: معنى ذلك: أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب مما كُتِبَ لهم من خير وشر في الدنيـا ورزق وعمل وأجل، وذلك أن الله جل ثناؤه أَتْبَعَ ذلك قـولَهُ: ﴿حتى إذا جـاءتهم رسلنا يتـوفونهم قـالوا أيـن ما كنتم تـدعون من دون الله﴾ فأبـان بإتباعه ذلك قوله: ﴿أولَئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أنَّ الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كـان مَقْضِيًّا عليهم في الدنيا أن ينـالهم لأنه قد أخبر أنَّ ذلك ينـالهم إلى وقت مجيئهم رسله لتقبض أرواحهـم، ولو كـان ذلك نصيبهم من الكتاب أو ممـا قد أعد لهم في الآخرة لم يكن محدودا بأنـه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفـاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة

لا آخِرَ له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلــود فيه اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلـوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾. قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ الآية، يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، قالوا: ﴿ضَلُّوا عنا﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي أَقَرُّوا واعترفوا على أنفسهم ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ اهـ. وقال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ قال أبوجعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾ إلى أن جاءتهم رسلُنا، يقول جل ثناؤه: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآيات ربهم ينالهم حظوظهم التى كتب الله لهم، وسبق في علمه لهم من رزق وعمل وأجل وخير وشر في الدنيا إلى أن تأتيهم رسلُنا لقبض أرواحهم، فإذا جاءتهم رسلنا يعني مَلَك الموت وجنده ﴿يتوفونهم﴾ يقول: يستوفون عددهم من الدنيا إلى الآخرة ﴿قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله﴾ يقول: قالت الرسل: أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم، لا يدفعون عنكم ما قد جاءكم من أمر الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزل بساحتكم من عظيم البلاء؟ وهَلاَّ يغيثونكم من كَرْبِ ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجابهم الأشقياءُ فقالوا: ضلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله، يعني بقوله: ﴿ضلُّوا﴾ جارُوا وأخذوا غير طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا، يقول الله جل ثناؤه: وشهد القوم حينئذ على أنفسهم أنهم

كانوا كافرين بالله، جاحدين وحدانيته اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خَلَتْ من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ترهيب من موقف الحسرة والندامة في الدار الآخرة، وإبرازٌ لمشهد من مشاهد القيامة يتبارى فيه كل فوج من أهل الضلال في لعن الذين أضلوهم وكانوا سببا في قذفهم في جهنم حتى إذا اجتمعوا جميعا في النار صاروا يلعن بعضهم بعضا، وصار الأتباع يدعون الله أن يجعل عذاب قادتهم في الضلالة ضعف العذاب الذي يلاقونه، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا المشهد في أكثر من موضع في كتابه الكريم حيث قال عز وجل: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضُكم بعضا﴾ وقال عز وجل: ﴿يوم تُقَلَّبُ وجوهُهُم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مَرْحَبًا بهم، إنهم صَالوا النار * قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرارُ * قالوا ربنا مَن قدَّمَ لنا هذا فَزِدْهُ عذابا ضعفًا في النار﴾. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم﴾ هي الأوزارُ الحاصلةُ لِضَلَال الأتباع وهي حاصلة من جهة الآمر ومن جهة المأمور الممتثل، فالقدرتان مُشْتَرِكَتَانِ في حصول ذلك الضلال، فلهذا كان على هذا بعضه وعلى هذا بعضُهُ، إلا أن كل بَعْضٍ من هذين البَعْضَيْن هو مثل وزر عامل كامل، كما دلت عليه النصوص مثل قوله: مَنْ دعا إلى الضلالة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خَلَتْ من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمةٌ لعنت أختها حتى إذا ادَّارَكُوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاَهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا

من النار قال لكل ضِعْف ولَكِن لا تعلمون﴾ فأخبر سبحانه أن الأتْبَاعَ دَعَوْا على أئمة الضلال بتضعيف العذاب كما أخبر عنهم بـذلك في قوله: ﴿وقالوا ربنـا إنا أطَعْنَـا سـادتنا وكبراءنـا فأضلـونـا السبيلا * ربنـا آتهم ضعفين من العـذاب والعنهم لَعْنًـا كبيرا﴾ وأخبر سبحانـه أن لكل من المتَّبَعِينَ والأتبـاع تضعيفـا من العـذاب ولكن لا يعلم الأتبـاع التضعيف اهـ. ومعنى: ﴿ادخلوا في أمم قـد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النـار﴾ أي اذهبوا إلى جهنم في جماعـات وأفـواج هم أشبـاهكم ممن سبقـوكم في الضـلال والإضـلال من الجن والإنس. ومعنى: ﴿اداركوا فيهـا جميعا﴾ أي اجتمعـوا جميعا في النار. والمراد بأخراهم الذيـن انقادوا لدعاة الضلال. والمراد بأُولاَهم دعاة الضلال، ومعنى: ﴿عـذابا ضِعفا﴾ أي عذابا مضاعَفًـا قال الزجاج: لأن الضعف في كلام العـرب على ضربين: أحدهما المِثْل والآخـر أن يكون في معنى تضعيف الشيء اهـ. ومعنى قـوله: ﴿وقالت أولاهم لأخـراهم﴾ الآية أي وقال القـادة ودعاة الضلال لأتبـاعهم: نحن وأنتم في الكفر سـواءٌ فقد كفـرتم كما كفرنـا وانقدتم لنـا كما انقدنـا نحن للشياطين الـذين أضلونـا فما يصيبكم من عـذاب جهنم هو من كسبكم وجـزاء ضلالكم فـلا فضل لكم علينا، وهكذا تبرأ الذين اتُّبِعُـوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، ولم يَفُز سوى أتباع المرسلين.

قال تعالى : ﴿ إن الـذين كذبوا بآياتنـا واستكبروا عنها لا تفتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلـون الجنة حتى يلج الجمـل فى سمِّ الخياط ، وكذلـك نجزي المجرمين * لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غـواشٍ ، وكذلك نجزي الظالمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولَئك أصحاب الجنـة هم فيها خـالدون * ونـزعنـا ما فى صـدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا ومـا كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ .

بعـد أن ذكـر عز وجل أن المؤمنين لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون ، وأن الذين كذبـوا بآياته واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هـم فيها خالدون ، وشرح تبارك وتعـالى بعض ما ينـال المفترين على الله أو المكذبين بـآياتـه عند الموت وبعده فى عرصات القيـامة ، أكَّد هنا أن الذين كذبـوا بآياته واستكبروا عنهـا قد حـرَموا أنفسهم من مغفـرة الله ورحمته وجُـوده فلا تفتَّح لهم أبـواب السماء عنـد موتهم ولا يـدخلون الجنـة عند بعثهم وأن جـزاءهم عند الله عـز وجل أن يكـون لهم من جهنم مهـاد ومن فـوقهم غـواش ، وأن الـذين آمنـوا وعملوا الصالحات يعاملهم الله عز وجل بإحسانه وجوده ويدخلهم في رحمته ويسكنهم فسيح جنته ، قد نزع مـا في صدورهم من غل ، فهم في دار السلام متحابـون ، حامـدون شاكـرون ، حيث يقول عـز وجل : ﴿إن الذين كـذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبـواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجمَلُ في سَمِّ الخياط﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ونودوا أن تلكم الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملـــون﴾ ومعنى ﴿لاَ تُفَتَّـحُ لهم أبـــواب السماء﴾ أي لا تفتح لأرواحهم أبـواب السماء عنـد الموت . قـال ابن جـريـر الطبري رحمه الله في تفسيره : حدثنـا أبوكُرَيْبٍ قال : حـدثنا أبوبكـر بن عياش عن الأعمش عن

المنهـال عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكـر قبضَ رُوح الفـاجر، وأنـه يُصْعَدُ بها إلى السماء، قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقـولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدْعَى بها في الدنيـا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحـون له، فـلا يُفْتَحُ له، ثم قرأ رسـول الله ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلـون الجنة حتى يلج الجمل فى سَمِّ الخِيَـاط﴾ اهـ والمراد بـالجمل البعير، وسَمُّ الخيـاط هـو ثقب الإبـرة، والخِياط والمِخْيَطُ بمعنى واحـد وهو الإبـرة، والمقصود من قـوله عـز وجل: ﴿ولا يدخلـون الجنة حتى يلج الجَمَلُ في سَمِّ الخِياط﴾ هو استحـالة دخـول الكفار الجنـة لأنـه علَّق دخـولهم الجنة على أمـر مستحيل ومـا عُلِّق وجـودُه على المستحيل فهـو مستحيل، لأن دخـول الجمل فى خـرق الإبـرة مستحيل، وقد قال عـز وجل: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حَـرَّم الله عليه الجنة ومأواهُ النارُ﴾ قال ابن جـرير رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿ولا يـدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخياط﴾ يقـول جل ثناؤه: ولا يدخل هـؤلاء الذين كذَّبوا بـآياتنا واستكبروا عنها الجنة التي أعدهـا الله لأوليائه المؤمنين أبدا، كما لا يلج الجمل في سَمِّ الخِياط أبـدا، وذلك ثَقْبُ الإبرة، وكلُّ ثَقب في عين أو أنف أو غير ذلك فإن العرب تسميـه سَمًّا، وتجمعه سُمُـوما، والسِّمامُ في جمع السَّم القاتل أشهر وأفصح من السمـوم، وهو في جمع السَّم الذي هو بمعنى الثقب أفصح، وكلاهما في العرب مستفيض. وقد يقـال لواحد السُّموم التي هي الثقـوب سَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وضمها، ومن السَّم الـذي بمعنى الثقب قولُ الفرزدق:

فَنَفَّسْتُ عَن سَمَّيْـهِ حَتَّى تَنَفَّسَـا   وقلتُ لـه: لاَ تَخْشَ شَيئـا وَرَائِيَـا

يَعْنِى بِسَمَّيْهِ، ثقْبَـىْ أَنْفِهِ. وأما الخِيـاط فإنه المِخْيَطُ وهي الإبـرة قيل لها: خِيَاط ومِخْيَط كما قيل: قِنَاعٌ وَمِقْنَع وإزار ومئزر وقِرَام ومِقْرَم ولِحَاف ومِلْحَف

اهـ وقوله عز وجل: ﴿وكذالك نجزي المجرمين﴾ تذييل لتأكيد أن هذا العذاب ليس خاصا بمن كانت جريمته التكذيبَ بآيات الله والاستكبار عنها بل يشمل كلَّ الذين ارتكبوا جريمة الكفر بالله وبرسله ويدخل في زمرتهم المكذبون المستكبرون دخولا أوَّليًّا فإنهم أئمة المجرمين المرتكبين لأقبح الجرائم وأبشعها، كما ذيل الآية التالية بقوله: ﴿وكذالك نجزي الظالمين﴾ ليجمع لهم بين هذين الوصفين القبيحين، قال أبوالسعود العمادي: عبَّر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بكل واحد من ذَيْنِكَ الوصفين القبيحين، وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة والظلم مع التعذيب بالنار للتنبيه على أنه أعظم الجرائم والجرائر اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ﴾ أي لهؤلاء المكذبين بآيات الله المستكبرين عنها المجرمين الظالمين فُرُشٌ من نار جهنم ولُحُفٌ منها فَهُم قد أحاطت بهم النار من تحتهم ومن فوقهم وغطتهم من كل نواحيهم وجهاتهم نعوذ بالله أن نكون من أهلها، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولَئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ بيان لما أعَدَّ الله عز وجل لأوليائه من النعيم المقيم بعد بيان ما توعد به أعداءه من عذاب الجحيم، وقولُه عز وجل: ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ جملة اعتراضية بين المبتدأ وهو قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وبين الخبر وهو قوله: ﴿أولَئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ومن بلاغة هذه الجملة الاعتراضية لفت الانتباه إلى مِنَّة الله العظيمة على المؤمنين الذين عملوا الصالحات بأن هذه الأعمال الصالحة لم يكن في التكليف بها حَرَجٌ عليهم بل هي في وُسْعِهِم ولم تخرج عن قدرتهم وطاقتهم كما قال عز وجل في خواتيم المسك من سورة البقرة: ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفسا إلا وُسْعَهَا﴾ وكما قال في سورة الطلاق: ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما

آتاها﴾ وكما قال عز وجل في سورة الحج: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حَرَجٍ﴾ كما أنَّ من فوائد هذه الجملة الاعتراضية أيضا تنبيه الكافرين بأن الجنة مع عظم قدرها يتوصل إليها بالعمل السهل اليسير الذي لا حرج فيه لعلهم يذكرون ويتوبون، قال ابن جرير الطبريُّ رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولَئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ قال أبوجعفر: يقول جل ثناؤه: والذين صدَّقوا الله ورسولَه وأقروا بما جاءهم به من وحي الله وتنزيله وشرائع دينه، وعملوا ما أمرهم الله به فأطاعوه وتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه ﴿لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ يقول: لا نكلف نفسا من الأعمال إلا ما يسعها فلا تُحْرَجُ فيه ﴿أولَئك﴾ يقول: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أصحاب الجنة﴾ يقول: هم أهل الجنة الذين هم أهلها دون غيرهم ممن كفر بالله وعمل بسيئاتهم ﴿هم فيها خالدون﴾ يقول: هم في الجنة ماكثون، دائمٌ فيها مُكْثُهم، لا يخرجون منها، ولا يُسْلَبُونَ نعيمها اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونُودُوا أَن تِلْكُمُ الجنةُ أورِثْتُمُوها بما كنتم تعملون﴾ بيان لكمال نعيم أهل الجنة بعد بيان كمال شقاء أهل النار، وقد وصف الله تبارك وتعالى حال هؤلاء السعداء في هذه الآية بما يؤكد كمال سعادتهم حيث نُقِّيَتْ صدورُهُم من الغل والحقد والحسد والبغضاء فلا يحسد أحد منهم أحدا على علو منزلته ورفيع درجته، وهم جميعا تجري من تحتهم أنهار الجنة. وقد وصف الله عز وجل هذه الأنهار بأنها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مُصَفًّى، كما أنهم جميعا راضون شاكرون يلهجون بالثناء على الله عز وجل مقرون بأن ما عملوه من الصالحات

كان من توفيق الله لهم، ولولا توفيقُ الله لهم وجُودُه عليهم ما هُدُوا إلى الصراط المستقيم الذي سلكوه حتى أوصلهم إلى الجنة، وقالوا: لقد تحقق لنا عِيَانًا ما كُنَّا قد آمَنَّا به غيبا مما أخبرنا به رسلُ ربنا في الدنيا بأن المكذبين برسل الله يعذبون في جهنم، وأن المؤمنين ينعمون في الجنة، ومن كمال سعادتهم أن يُنَادَوْا بأن ما هم فيه من النعيم المقيم هو لهم ميراث أبدي سرمدي لا يُنْـزَعُ منهم بحال من الأحوال، لأنهم آمنوا برب العالمين وصدَّقُوا المرسلين. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ما تضمنته هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيث قال: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي ادخلوا الجنة بعملكم الصالحات وكما قال عز وجل: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدَقَنَا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنِعم أجرُ العاملين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وتلك الجنةُ التي أُورِثتُمُوها بما كنتم تعملون﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن المؤمنين يُنْزَعُ ما في صدورهم من غل وهم على قنطرة بين الجنة والنار، فقد قال البخاري في الرقاق من صحيحه: حدثني الصَّلْتُ بن محمد حدثنا يزيد بن زُرَيْعٍ ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المُتَوَكِّل النَّاجِيِّ أن أبا سعيدٍ الخُدريَّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فَوَالذي نَفْسُ محمدٍ بيده لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا. وفي إقرارهم بأنهم لولا أن الله وفقهم ما هُدُوا إلى سلوك الصراط المستقيم، وفي مناداتهم بأنهم أُورثوا الجنة بعملهم تأكيد على أهمية فضل العمل بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مع التنبيه على كمال فضل الله

عليهم بتوفيقه لهم حيث أسكنهم الجنة على أعمال هو الذي وفقهم لها، ولولا هُدَاهُ ما اهْتَدَوْا، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ الآية، فقد سمى الله ذلك بيعا مع أنه عَوَّضَهُم على نفوس هو خالقها وأموالٍ هو رازقها، وقد أشار إلى ذلك رسولُ الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: سَدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدْخِلُ أحدا الجنةَ عَمَلُهُ، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة. ولا يفهم من قوله عز وجل: ﴿ونُودُوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ أن يكون ما في الجنة كان لغيرهم ثم انتقل إليهم كما ينتقل الميراث من الميت إلى وارثه فلله عز وجل ميراث السموات والأرض، وهو خير الوارثين، وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بأنهم ورثة الفردوس كما قال عز وجل: ﴿أولَئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ ودعا خليلُ الرحمن ربَّه عز وجل فقال: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾.

قال تعالى : ﴿ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أن قد وجدنا ما وَعَدَنَا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم، فأذن مؤذِّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهم بالآخرة كافرون * وبينهما حجاب، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم، لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، ادخلوا الجنَّة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرتهم الحياة الدنيا، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون﴾.

بعد أن أَكَّدَ عز وجل أن الذين كَذَّبُوا بآيات الله واستكبروا عنها قد حَرَمُوا أنفسهم من مغفرة الله ورحمته وجُودِه فلا تفتح لهم أبواب السماء عند موتهم ولا يدخلون الجنة عند بعثهم وأن جزاءهم عند الله أن يكون لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعاملهم الله بإحسانه وجوده، ويدخلهم في رحمته، ويسكنهم فسيح جنته، قد نَزَعَ ما في صدورهم من غل، فهم في دار السلام متحابون حامدون شاكرون، ذكر عز وجل هنا بعض مشاهد القيامة لتأكيد أن وعد الله حق وأن القيامة حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، وأن المؤمنين يُمَكِّنُهم الله عز وجل وهم في منازلهم في الجنة من الاطلاع على أهل النار وهم في دركاتهم في جهنم فيُنَادِي أهلُ الجنة أهلَ النار بأن الله عز وجل قد حقق لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله

من نعيم الجنة لمن صدَّق بالغيب، فهل تحقق لكم يا أهل النار ما أخبرتكم به رسلُ ربكم بأن الله قد أعَدَّ جهنم لمن كذَّب رسله ولم يؤمن بوعد الله فكذبتم رسلَ ربكم ولم تؤمنوا بالغيب. والمقصودُ من هذا النداء وهذه المحاورة هو تَحَدُّثُ المؤمنين بنعمة الله عليهم في جنات النعيم وفرحهم بما رأوه من الكرامة والسعادة مع مزيد من التوبيخ للكافرين وتقريعهم وتصغيرهم وتحقيرهم وإهانتهم وزيادةِ حسرتهم وندامتهم، وهذا شبيه بما ذكر الله عز وجل في سورة الصافات عن المؤمن وقرينه الكافر حيث قال عز وجل: ﴿أولَئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنات النعيم * على سرر متقابلين * يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غَوْل ولا هم عنها يُنزَفُون * وعندهم قاصرات الطرف عِينٌ * كأنهنَّ بيض مكنون * فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لى قرين * يقول أَءِنَّكَ لمن الْمُصَدِّقين * أءِذا مِتْنَا وكنا ترابا وعظاما أَءِنَّا لمدينون * قال هل أنتم مُطَّلِعُون * فاطَّلَعَ فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كِدْتَ لَتُرْدِينِ * ولولا نعمة ربي لكنتُ من الْمُحْضَرِينَ * أفما نحن بميِّتين * إلا موتَتَنَا الأولى وما نحن بمعَذبين * إن هٰذا لهو الفوز العظيم * لمثل هٰذا فليعمل العاملون﴾. ولقد قَرَّعَ رسولُ الله ﷺ صناديد المشركين الذين قُتِلُوا يوم بدر، بعد أن جَيَّفُوا، فناداهم بمثل هذا النداء الذي ينادي به أهلُ الجنة أهلَ النار، ففي لفظ للبخاري من طريق قتادة قال: ذَكَرَ لنا أنسُ ابن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أَمَرَ يوم بدر بأربعةٍ وعشرين رجلا من صناديد قريش فَقُذِفُوا في طَوِيٍّ من أطواءِ بدر خبيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَةِ ثلاث ليال، فلما كان ببدرٍ اليومْ الثالثَ أَمَرَ براحلته فَشُدَّ عليها رَحْلُها ثم مَشَى واتَّبَعَهُ أصحابه، وقالوا: ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكِي، فَجَعَلَ يناديهم بأسمائهم

وأسماء آبائهم، يا فُلانُ بنَ فلان، ويا فلانُ بنَ فلانٍ أَيَسُرُّكُم أنكم أطعتم الله ورسولَه، فإنا قد وجدنا ما وعـدنا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا؟ قال: فقال عمرُ: يا رسـول الله ما تُكَلِّمُ من أجساد لا أرواحَ لها، فقال رسولُ الله ﷺ: والذي نفسُ محمـد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم. قـال قتادةُ: أحياهـم الله حتى أسمعهم قـولَه توبيخا وتصغيرا ونقيمـةً وحسرةً ونَدَما، وفي لفظ لمسلم من طريق ثـابتٍ البُنَانيِّ عن أنس بن مالك أن رسـول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثـا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: يا أبـا جهل بنَ هشام يا أميةُ بنَ خلف يـا عتبةُ بنَ ربيعة يا شيبـةُ بنَ ربيعة أليس قد وجدتم مـا وعد ربكم حقا فـإني قد وجدت مـا وعدني ربي حقـا. وفي هذا يقـول عز وجل: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجـدنا ما وَعَدَنَا ربُّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكـم حقا قالوا نعم﴾ إلى قوله عز وجـل: ﴿فاليوم ننساهم كما نَسُـوا لقاء يـومهم هـٰذا ومـا كانـوا بـآياتنـا يجحـدون﴾ ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿ونادى أصحـابُ الجنة أصحابَ النار أن قـد وجدنا ما وعـدنا ربنا حقا﴾ إلى قـوله عـز وجل ﴿وهم بالآخرة كـافرون﴾ أي قـال أهل الجنة لأهل النـار: إنا قـد وجـدنا مـا وَعَـدَنَا بـه ربُّنـا من البعث والنشور والنعيم التـام للمؤمنين حقا فهل أيقنتم الآن أن ما وعد الله عز وجل الكافرين المكذبين من البعث والنشور والخزي الأبدي السرمدي والعذاب المقيم في نار جهنم حقا، فأجـاب أهل النار: نَعَم وجـدنا مـا وعدنا ربنـا على ألسنة رسلـه من البعث والنشور والعذاب المقيم في نار جهنم حقـا، فنادى منادٍ بين أهل الجنة وأهل النار يسمعـه الفريقان: أن لعنة الله أي غضبـه وسخطه وعقوبتـه على الذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله وحـاولوا أن يُغَيِّرُوا دين الله وأن يبدلوه عما جعله الله له من استقامته، وهم كافرون بالساعة والبعث والنشور والثواب والعقاب والجنة والنار. وقولُهُ عـز وجل: ﴿وبينهما حجاب﴾ أي وبين أصحاب الجنة

وأصحاب النـار ساتر يحجب نعيم أهل الجنة عن أهل النـار حتى لا يتنعموا بمنظره، ويحجب عـذاب أهل النار عن أهل الجنة حتى لا يتأذوا وينـزعجوا من منظره مع تمكين الله عـز وجل أهلَ الجنة من مخاطبة أهل النـار والاطلاع عليهم لتوبيخهم وتصغيرهم وتحسيرهم وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿وعلى الأعراف رجال يعـرفون كـلا بسيماهم﴾ إلى قوله عـز وجل: ﴿ادخلوا الجنـة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ الأعـرافُ في اللغة جمع عُرْف وهو كلُّ عـالٍ مرتفع، وأصحـاب الأعراف قـوم استـوت حسنـاتهم وسيئاتهم فلـم يستحقوا الجنـة بالحسنات ولا النار بالسيئات فكانـوا على مكان عالٍ بين الجنة والنار ينظرون إلى أهل الجنة تارة وإلى أهـل النار تارة أخرى فإذا نظروا إلى أهـل الجنة سلموا عليهم وضرعوا إلى الله أن يدخلهم الجنة، وإذا نظروا إلى أهل النار ضرعوا إلى الله أن لا يدخلهـم النار. قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله: فصـاحب الخشية لله ينيب إلى الله، كما قال: ﴿وأُزلفت الجنـةُ للمتقين غير بعيد * هٰذا ما توعدون لكل أواب حفيظ * من خَشِيَ الـرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوهـا بسلام ذٰلك يوم الخلـود﴾ وهذا يكـون مع تمام الخشية والخوف، فأما في مباديها فقد يحصل للإنسان خوف من العذاب والذنب الذي يقتضيه فيشتغل بطلب النجـاة والسـلام، ويعرض عـن طلب الرحمة والجنـة، وقـد يفعل مع سيئـاتـه حسنات تـوازيها وتقـابلهـا، فينجو بـذلك من النـار ولا يستحق الجنة، بل يكـون من أصحاب الأعراف، وإن كان مـآلهم إلى الجنة، فلَيْسُـوا ممن أزلفت لهم الجنة، أي قـربت لهم، إذ كـانـوا لم يأتوا بخشيـة الله والإنـابة إليـه اهـ. ومعنى: ﴿يعـرفون كـلا بسيماهم﴾ أي يعرف أصحـاب الأعـراف أهل الجنـة بسيماهم وأهل النـار بسيماهم، فأهل الجنـة تعـرف في وجوههم نضرة النعيم، وأهل النار تعـرفهم بسواد وجوههم وزرقتها، والسِّيما والسِّيماءُ والسِّيمياءُ والسِّيمـةُ هي العلامة المميزة ومعنى: ﴿ونـادَوْا أصحابَ

الجنة أن سلام عليكم﴾ أي إذا نظر أصحابُ الأعراف أصحابَ الجنة نادَوْهُمْ أن سلام عليكم أي حلت عليكم أمنةُ الله فلن تبأسوا أبدا، وقولُه عز وجل: ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ أي إن أصحاب الأعراف في هذا الحال الذي يسلمون فيه على أهل الجنة لم يكونوا قد دخلوا الجنة بعدُ، وهم يطمعون في دخولها طمعا في سعة رحمة الله الذي نجاهم من النار. وقولُه عز وجل: ﴿وإذا صُرِفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ أي وإذا حُوِّلَت أنظار أصحاب الأعراف جِهَةَ أهل النار ورأوا ما هم فيه من شديد العقاب وسوء العذاب ضرعوا إلى الله عز وجل قائلين: ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء الكافرين في نار جهنم، ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار يعرفونهم بعلامتهم قائلين لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ماذا أفادكم تألبكم وتكبركم في الأرض بغير الحق، ثم زادوهم تحسيرا وتقريعا فأشاروا إلى من تواضعوا لله عز وجل في الدنيا وانقادوا لأمر الله ولاسيما فقراء المؤمنين كصهيب وعمار وبلال وسلمان وخباب الذين رفع الله منازلهم في جنات النعيم، وكان الكفار يحتقرونهم في الدنيا ويزدرونهم ويسمونهم الأشرار: أهؤلاء الذين أقسمتم أنهم لا يستحقون رحمة الله ظنا منكم أن فقرهم دليل سُوء فهمهم حيث كنتم تعتقدون أنه لو كان هناك جنة ونار لكنتم أحق بالجنة منهم لغناكم وفقرهم، وجهلتم أن المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وأن الله عز وجل إنما ينظر إلى الناس بأعمالهم وقلوبهم لا بأجسامهم وأموالهم، ثم ختم مشهد أصحاب الأعراف بقول الله عز وجل لهم: ﴿ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ ثم ذكر عز وجل مشهدا آخر من مشاهد القيامة فقال: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فاليوم

ننساهم كما نَسُوا لقاء يـومهم هٰذا وما كانوا بآيـاتنا يجحدون﴾ أي واستغاث أهل النار بأهل الجنـة قائلين لهم : أفرغوا علينـا من الماء أو مما رزقكم الله من الطعام وأنهار اللبن والعسل والفواكـه ، فيجيب أهلُ الجنة أهل النار بأن الله حـرم شرابَ أهل الجنة وطعـامهـا على الكافـرين الـذين كفـروا بالله ورسلـه والذين اتخذوا دين الله الذي أرسل به رسله سخرية ولعبا وخدعهم عاجل ما كانوا فيـه من العيش والدَّعَة عن الأخذ بنصيبهم من الآخـرة حتى ماتوا على ضلالتهم ، قـال تعالى : فاليوم نتركهـم في العذاب كما تركوا العمل في الـدنيا للقاء الله يـوم القيامـة ، وكما كانوا بـآيات الله يجحـدون فيكذبـون الرسل ولا يصدقـون بلقاء الله عـز وجل ويرفضـون جميع حجج الله وآياتـه التي أيد بها رسله ، وأقامها برهانـا على أن قولَه الصدقُ ووعدَه الحقُّ ، وأن من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

قال تعـالى : ﴿ولقد جئناهم بكتـاب فصَّلناه على علم هـدى ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله ، يـوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنـا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل، قد خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون * إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيـام ثم استوى على العرش يُغْشى الليل النهار يطلبـه حثيثا والشمس والقمـر والنجوم مسخرات بأمـره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾.

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعـالى بعض مشاهـد القيامـة لتأكيـد أن وعد الله حق، وأن القيـامة حق، وأن الجنـة حق، وأن النـار حق، وذكر المنـاداةَ بين أهل الجنة وأهل النـار بما يتضمن ما آلَ إليـه المؤمنون من النعيم التـام وما آلَ إليـه أهل الكفر من الشقـاء التام بَيَّنَ عـز وجل هنا أنـه قد أزاح علل هـؤلاء الخاسرين الأشقياء في دار الدنيا ووقت التكليف فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل القـرآن العظيم كما أنزل الكتـب السابقة قـد فَصَّل فيـه جميع ما يحتـاجه النـاس في معـاشهم ومعـادهم وهـو العليم الخبير. وقـد شرح فيما أنـزل من الكتاب طـريقَ السعداء وطُـرُقَ الأشقياء، لِيَهْلِكَ من هلك عن بينـة ويحيى من حَيَّ عن بينــة، وأشـار عـز وجـل إلى أن الكـافـرين الــذين انطمست بصائرهم قـد كفروا بالغيب الذيْ أخبرت بـه الرسل وأنزل الله بـه الكتب فلا يصـدقون إلا عنـدمـا يقع بهم عذاب الله في نـار جهنم حيث لا ينفع نفسـا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا. كما أشار عز وجل هنا إلى أنه قد أقام البراهين بـالآيات القرآنية والآيات الكونيـة الشاهدة بأن الله هو الحق وأن وعـده الحق وأنـه أحكم الحاكمين ورب العـالمين حيث يقـول عـز وجل : ﴿ولقد جئنـاهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقـوم يؤمنون﴾

إلى قـوله عـز وجل: ﴿تبارك اللهُ ربُّ العـالمين﴾ ومعنى قولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولقد جئناهم بكتابٍ فصلناه على علم هدًى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ أي ولقد بعثنا إليهم مع رسـولنا بكتاب أوضحنـا فيه للعبـاد جميع ما يحتاجـون إليه في معاشهم ومعـادهم، وبَيَّنَّا فيـه ما يحبـه الله ويرضاه، ومـا يكرهـه ويبغضه، وبشرنا فيه المطيعين بـالجنة وكريم نعيمها، وحذرنـا العاصين من النار وأليم عقـابها، ونبهنـا إلى أسرار الكـون وغيـوب الماضي والحاضر والمستقبل، ومـا يشتمل عليه من أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، ولا شك أن المتدبر لآيات هذا الكتاب وجُمَلِهِ وحروفه يوقن أنه تنزيل من حكيم عليم قد أحكمت آياته ثم فصلت من لـدن حكيـم خبير، يهدي الله بـه أصحـاب الفطـر السليمـة والعقول المستقيمـة فيدخلـون في رحمة الله ويؤمنـون بكتاب الله ورسـول الله، ويسلكون الصراط المستقيم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على القرآن العظيم في مواضع من كتابه الكريم بأنـه أنزله الله بعلمه، كما قال عز وجل: ﴿لَكِنِ الله يشهد بما أَنْزَلَ إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنـزِلَ بعلم الله وأن لا إلَه إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿قل أنزله الذى يعلم السر في السمٰوات والأرض، إنه كـان غفورا رحيما﴾ وقـولـه تبارك وتعـالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويلَه، يوم يأتي تأويلُه يقول الذين نَسُوهُ من قبل قد جاءت رُسُلُ ربنـا بـالحق فهل لنا من شُفَعَـاءَ فَيَشفَعُـوا لنـا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غيرَ الـذى كنـا نعمل، قد خَسِرُوا أنفسهم وَضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي هل ينتظر هؤلاء المكذبون فلا يؤمنون حتى يشـاهدوا بأنفسهم الحقيقة التي توعد الله عز وجل بها المكذبين وما يؤول إليه أمـرهـم من مصيرهـم إلى النار تحقيقا لما توعدهم الله به في كتابه الكريم، يَوْمَ يأتي تأويل هذا الوعيد ويقع ما توعدهم الله به يوقنون بأن إيمانهم حينئذ لا ينفعهم، فَيُقِرُّ هؤلاء بأن ما جاءت به إليهم رسل الله هو

الحق، ويتمنى هؤلاء الذين تركوا كتاب الله وكذبوا بما جاء به من الوعد والوعيد أن يجدوا شفيعا يشفع لهم أو أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا فيها بما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب ويعملوا الصالحات، ويسلكوا الصراط المستقيم، وقد خابوا وخسروا وضيعوا أنفسهم وغاب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ولي لهم ولا شفيع، ولا منقذ لهم من نار جهنم. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر حيث يقول عز وجل: ﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بَدَا لَهُمْ ما كانوا يُخْفُونَ من قبل ولو رُدُّوا لَعَادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ وبعد أن بين عز وجل أنه قد أزاح علل الكفار فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لتعريف العباد بربهم وأنه لا إله إلا هو وأن وعده الحق أشار عز وجل إلى أنه أقام الآياتِ الكونيةَ كذلك للدلالة على أنه لا إله إلا هو وأنه عز وجل له وحده الخلق والأمرُ تبارك اللهُ ربُّ العالمين حيث يقول هنا: ﴿إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يُغْشي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثا والشَّمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ بأمره أَلَا لَـهُ الخَلْقُ والأمرُ، تبارك اللهُ ربُّ العالمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام﴾ أي إن سيدكم ومالككم ومُصلحَ شئونكم ومدبر أموركم ومن بيده نواصيكم المستحقَّ لأن يُعْبَدَ وحده لا شريك له هو الله الذي أوجد السموات والأرض وأبدعهما وأنشأهما وأحدثهما على غير مثال سبق وكوَّنَهُما في ستة أيام أي في مقدار ستة أيام لأن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن القرآن أخبر في غير موضع أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق على صحته: أن آخر المخلوقات

كان آدم، خُلِقَ يومَ الجمعة، وإذا كان آخر الخلق كان يوم الجمعة دَلَّ على أن أوله كان يوم الأحد لأنها ستة، وأما الحديث الذي رواه مسلم في قوله: خلق الله التربة يوم السبت، فهو حديث معلول قَدَحَ فيه أئمة الحديث كالبخاري وغيره، قال البخاري: الصحيح أنه موقوف على كعب اهـ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضا: وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السموات والأرض، وهو الدخان الذي هو البخار، كما قال تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ وهذا الدخان هو بخار الماء الذي كان حينئذ موجودا، كما جاءت بذلك الآثار عن الصحابة والتابعين، وكما عليه أهل الكتاب، كما ذكر هذا كله في موضع آخر، وتلك الأيام لم تكن مقدار حركة هذه الشمس وهذا الفَلَك، فإن هذا مما خُلِقَ في تلك الأيام، بل تلك الأيام مقدرة بحركة أخرى. وكذلك إذا شَقَّ اللهُ هذه السموات وأقام القيامة وأدخل أهلَ الجنةِ الجنةَ قال تعالى: ﴿ولهم رزقهم فيها بُكرةً وعشيًا﴾ وقد جاءت الآثار عن النبي ﷺ بأنه تبارك وتعالى يتجلى لعباده المؤمنين يوم الجمعة، وأن أعلاهم منزلة من يرى الله تعالى كل يوم مرتين، وليس في الجنة شمس ولا قمر، ولا هناك حركة فَلَك، بل ذلك الزمان مقدر بحركات، كما جاء في الآثار أنهم يعرفون ذلك بأنوار تظهر من جهة العرش اهـ. وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام في غير موضع من كتابه الكريم فقال في سورة يونس: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ وقال في سورة هود: ﴿وهو الذى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلُوَكم أَيُّكم أحسنُ عَمَلاً﴾ وقال عز وجل في سورة الفرقان: ﴿الذي خلق السمٰوات والأرضَ وما بينهما في ستة

أيـام ثم استوى على العـرش﴾ وقـال في سـورة السجدة: ﴿الله الـذي خلق السموات والأرض ومـا بينهما فى ستة أيام ثـم استوى على العرش﴾ وقـال عز وجل في سورة ق: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مَسَّنَا من لُغُـوبٍ﴾ وقـال في سورة الحديـد: ﴿هـو الـذي خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيام ثـم استوى على العرش﴾ وقولُه عـز وجل: ﴿ثم استوى على العـرش﴾ قال الشيخ الإمـام محيي السنـة أبـو محمد الحسين بن مسعـود الفراء البغوي في تفسيره ﴿معـالم التنزيل﴾ أهل السنة يقـولون: الاستواء على العرش صفـة لله تعالى بلا كيف، يجب على الـرجل الإيمان به، ويكل العلم فيـه إلى الله عز وجل، وسأل رجل مـالك بن أنس عن قـوله: ﴿الـرحمن على العـرش استوى﴾ كيف استـوى؟ فأطرق رأسـه مليا، وعـلاه الرحضـاء، ثم قـال: الاستـواء غير مجهـول، والكيـف غير معقـول، والإيمان بـه واجب، والسؤال عنه بـدعة، وما أظنك إلا ضالا. ثم أمر به فَأُخْـرِجَ اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره هذه الآية: إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مـالك والأوزاعي والثـوري والليث بن سعد والشـافعي وأحمد وإسحـاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحـديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهـه شيء من خلقـه وليس كمثله شيء وهـو السميع البصير بل الأمـر كما قال الأئمـة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخـاري قال: من شَبَّهَ الله بخلقـه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسـه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبـار الصحيحة على الوجه الـذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يُغْشِي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثا) أي يأتي بالليل على النهار فيغطيه ويذهب

نور النهار، كما أنه يأتي بالنهار على الليل فيغطيه ويذهب ظلام الليل، وقد حذفت إحدى الجملتين لدلالة الحال عليها ومعنى: ﴿يطلبه حثيثا﴾ أي يطلب كل منهما الآخر طلبا حثيثا أي سريعا، والمقصود أن تعاقب الليل والنهار يحصل بحركة هي أشد الحركات سرعة وأكملها شدة وقد ذكر علماء الفلك أن الإنسان المسرع جدا لا يكاد يرفع رجله ويضعها حتى يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل، وقوله عز وجل: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره﴾ بالنصب عطفا على ﴿السموٰات والأرض﴾ أي وخلق الشمس والقمر والنجوم مذللاتٍ بقهره ومشيئته و إذنه وأمره الكوني، وكما قال عز وجل في سورة النحل: ﴿وسخَّر لكم الليلَ والنهار والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بأمره، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ ومعنى قوله: ﴿ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأمر﴾ أي هو وحده المُوجِدُ للكائنات وهو وحده الذي له الحكم والأمر والنهي والتشريع كما قال عز وجل: ﴿إنِ الحكْمُ إلا لله أمر ألَّا تعبدوا إلا إياه﴾ وقوله عز وجل: ﴿تبارك الله ربُّ العالمين﴾ أي تقدس وتعاظم وتنزه وتعالى وارتفع وتطهر سيدُ الخلائق ومالكهم ومصلحهم، ولا تطلق صفة «تبارك» إلا على الله وحده فهي صفة خاصة به عز وجل وهو الذي يُتَبَرَّكُ باسمه في كل أمر.

قال تعالى: ﴿ادعوا ربّكم تضرعًا وخُفية، إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا، إنَّ رحمت الله قريب من المحسنين * وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابًا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، كذٰلك نخرج الموتى لعلكم تذكَّرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾.

بعد أن بَيَّنَ عز وجل أنه قد أزاح علل الخاسرين الأشقياء في دار التكليف فلم يترك عذرا لمعتذر حيث أنزل الآيات المتلوة وأقام الآيات الكونية، وأن الكافرين لم يصدقوا بوعد الله ووعيده إلى أن يَقَعَ بهم عذابُ الله وأليم عقابه في نار الجحيم، شرع هنا في تحريض عباده وحضهم على إخلاص العبادة لله وحده وألا يعتدوا على حقه عز وجل، وأن يجتنبوا الإفساد في الأرض وأن يعبدوه خوفا من غضبه وعقوبته وطمعا في رضاه ورحمته، ثم نَبَّهَهُم إلى بعض البراهين المحسوسة الدالة على آثار رحمته الشاهدة بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بما أنزل عليها من الماء، كما نبههم إلى أن النفوس الطيبة تقبل الهدى كالأرض الطيبة التي تنتفع بالغيث، وأن النفوس الخبيثة لا تقبل الهدى كالأرض الخبيثة السبخة التى لا تنتفع بالغيث، حيث يقول عز وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَةً، إنه لا يحب المعتدين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿والبلد الطيب يَخْرُجُ نباتُهُ بإذن ربه والذى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِدًا، كذٰلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ادْعُوا ربَّكُمْ تضرعا وَخُفْيَةً﴾ أي اعبدوا الله سيدكم ومالككم ومصلح أموركم متذللين له، مستكينين مبتعدين عن الرياء وأفردوه بنوعي الدعاء وهو دعاء العبادة ودعاء المسألة. قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله في قوله عز

وجل: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَـةً، إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا في الأرض بعـد إصـلاحهـا وادعـوه خـوفـا وطمعـا، إن رحمت الله قـريب من المحسنين﴾ هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألـة، فإن الدعـاء في القرآن يراد بـه هذا تارة وهـذا تارة، ويـراد به مجموعهما، وهما متـلازمان، فإن دعـاء المسألة هـو طلب ما ينفع الـداعي، وطلبُ كشف ما يضره ودفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود، لابد أن يكون مـالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر تعالى على من عَبَـدَ مِن دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعـا، وذلك كثير في القرآن كقـوله تعالى: ﴿ولا تـدع من دون الله مـا لا ينفعـك ولا يضرك﴾ وقـال: ﴿ويعبـدون مـن دون الله مـا لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ فَنَفَى سبحـانـه عن هـؤلاء المعبـودين الضر والنفع، القـاصر والمتعـدي، فـلا يملكـون لأنفسهم ولا لعـابـديهم، وهـذا كثير في القرآن، يُبَيِّنُ تعـالى أن المعبود لابدّ أن يكون مـالكا للنفع والضر، فهو يـدعو للنفع والضر دعـاء المسألة، ويـدعو خـوفا ورجـاء دعاءَ العبـادة، فَعُلِمَ أن النـوعين متلازمـان، فكلُّ دعاءِ عبـادةٍ مستلـزمٌ لدعـاء المسألة، وكلُ دعـاءِ مسألةٍ متضمنٌ لدعاء العبادة. ثم قال رحمه الله: إذا عُرِفَ هذا فقوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعـا وخُفيةً﴾ يتناول نـوعي الدعـاء، لكنه ظاهـر في دعاء المسألة، متضمن دعـاء العبادة، ولهذا أمر بإخفـائه وإسراره، قال الحسنُ: بَيْنَ دعوة السر ودعوة العـلانية سبعون ضعفا، ولقد كـان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسْمَعُ لهم صوتٌ، أي ما كانت إلا همسا بينهم وبين ربهم عز وجل، وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية﴾ وأنه ذكر عبدا صـالحا ورضي بفعله فقـال: ﴿إذ نادَى ربَّـه نداء خفيـا﴾ اهـ. ولما رفع أصحاب رسـول الله ﷺ أصواتهم بالتكبير وهم في طريق خيبر أمـرهم رسول الله ﷺ ألا يرفعـوا أصواتهم فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من

حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما غزا رسولُ الله ﷺ خيبر أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على وادٍ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: اربَعُوا على أنفسكم، إنكم لا تَدْعُونَ أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم، وأنا خَلْف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: يا عبدالله بن قيس، قلتُ: لبيك رسول الله، قال: ألاَ أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ أي إن الله عز وجل يبغض الذين يعتدون على حدوده ويتجاوزون شرعه، فمن دعا غير الله فهو معتد ومن عَبَدَ الله بغير شرعه فهو معتد، ومن عَبَدَ الله بشرعه رياء وسمعة فهو معتد، ولا نجاة إلا لمن عَبَدَ الله عز وجل بشرعه الذي بعث به رسوله وأنزل به كتابه وكان في عبادته مخلصا لله عز وجل، ولذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه من أحدث في شرعه ما ليس منه فهو ردٌّ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ، وفي رواية لمسلم: من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ. ولا شك أن الله تبارك وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا صوابا، ومعنى كونه خالصا أن يكون لوجه الله، ومعنى كونه صوابا أن يكون على منهج رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ متضمن للنهي الشديد عن الاعتداء كأنه قيل: ادعوا ربكم تضرعا وخُفْيَة ولا تعتدوا. ولهذا قال بعدها: ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تُفسِدُوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي ولا تُعْرِضُوا عن شريعة الله ولا تتولوا عن دين محمد ﷺ فإنكم إن أعرضتم عن شريعة الله وتوليتم عن دين محمد ﷺ أفسدتم في الأرض

وعملتم على إبطال أسباب صلاحها وفلاحها وسعادة أهلها، فإن مجيء رسول الله إليكم هو أهم أسباب فلاحكم وصلاحكم إن أطعتموه فأخلصتم التوحيد لله وأفردتم ربكم بالعبادة والدعاء، وسلكتم صراط الله المستقيم الذي يحفظ لكم أنفسكم وأموالكم وأعراضكم وعقولكم، وتجنبتم المعاصي فإن كل شر في العالم وكل فتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو فسببه مخالفة المرسلين، وانتهاكُ حرمات الدين، كما قال عز وجل: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ فلا صلاح للأرض إلا بتحكيم شريعة الله والانقياد لأمره، قال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبوجعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ لا تشركوا بالله في الأرض ولا تعصوه فيها وذلك هو الفساد فيها. اهـ وقال الإمام البغوي رحمه الله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ أي لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها بِبَعْثِ الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أَضَرَّهُ بعد الإصلاح، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أَضَرَّ ما يكون على العباد فَنَهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتَّذَلُّلِ لديه، فقال: ﴿وادعوه خوفا وطمعا﴾ أي خوفا مما عنده من وبيل العقاب وطمعا فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية اهـ. وإنما قال عز وجل: ﴿قريب من المحسنين﴾ ولم يقل قريبة من المحسنين لأن لفظ قريب

إذا كان بمعنى المسافة يستوى فيه المذكر والمؤنث. قال أبوعمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القُرْب يعني القرابة وبمعنى المسافة تقول العربُ: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة وقريبٌ منك إذا كانت بمعنى المسافة اهـ وقولُه تعالى: ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثِقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات، كذٰلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾ تنبيه إلى بعض الآيات الكونية التي يسوقها الله عز وجل للدلالة على أنه على كل شيء قدير، وأنه يحيي الموتى وأنه الرزاق ذو القوة المتين فبَيَّنَ عز وجل أنه هو وحده الذي يبعث الرياح ويرسلها إرسالا كونيا مبشراتٍ بمجيء المطر ونزول الغيث بعدها فهي تُثير السحاب ويسوقه الله إلى الأرض الجرز المرتفعة الشامخة، ويُشَاهَدُ هذا السحابُ الثقال الذي يزن آلافَ آلافِ القناطير وهو يجري في طبقات الجو حتى يُنَزِّلَهُ الله بقدر مقدر على ما يشاء من الأرض فَيُخْرِجِ الله به من كل الثمرات ويحيي به الأرض بعد موتها، إن الذي أحياها لمحيي الموتى، فعلى العقلاء أن يتذكروا نعمة الله عليهم وقدرته على التصرف فيهم بما يشاء والحكم فيهم بما يريد. كما قال عز وجل: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفُلْكُ بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين * الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السَّماء كيف يشاء ويجعله كِسَفًا فترى الودْق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبلِ أن يُنَزَّلَ عليهم من قبله لَمُبْلِسِينَ * فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها، إن ذٰلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والذى نَزَّل من السماء ماء بِقَدَرٍ فأنشرنا به بلدة

مَيْتًـا، كذٰلك تُخرَجُـون﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ أَوَ لم يَـرَوْا أنا نسـوق الماء إلى الأرض الْجُرُزِ فنخرج به زرعًا تأكل منـه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ وقد روى مسلم في صحيحـه من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال: بينا رجلٌ بفـلاة من الأرض فسمع صـوتا في سحـابـة: اسْقِ حديقـة فلان، فَتَنَحَّى ذلك السحابُ فأفرغ مـاءه في حرة فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّرَاج قد استوعبت ذلك الماءَ كلَّه، فَتَتَبَّـع الماءَ فإذا رجلٌ قائم في حديقته يُحَوِّلُ الماءَ بِمِسحاته، فقال له: يا عبدالله ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبدالله لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتا في السحاب الـذي هذا ماؤه يقـول: اسق حديقـة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أمَّا إذْ قلتَ هذا فإني أنظـر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيـالي ثُلُثًا وأَرُدُّ فيها ثُلُثَهُ. وقـوله تعالى: ﴿والبلد الطيب يَخْرُجُ نبـاتُه بإذن ربه﴾ الآيـة. قال ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير: قـال المفسرون: هذا مَثَلٌ ضربـه الله تعالى للمـؤمن والكافـر، فالمؤمنُ إذا سمع القـرآن وعقله انتفع بـه وبَانَ أثـره عليه فَشُبِّـهَ بالبلد الطيب الـذي يُمرع ويُخصب ويحسن أثـر المطر عليه، وعكْسُه الكافر اهـ. ومعنى: ﴿كذٰلك نصرف الآيات لقوم يشكرون﴾ أي كذلـك نبين الحجج ونصرف البراهين آية بعـد آية ونضرب مثلا بعـد مثل لقوم يستجيبون للحق ويعترفون بنعم الله.

قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من ربّ العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون * فكذّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، إنهم كانوا قوما عمين﴾ .

بعد أن حرَّضَ الله تبارك وتعالى العباد على إخلاص العبادة لله وحده، وألا يَعْتَدُوا على حقه، وأن يجتنبوا الإفساد في الأرض، وأن يعبدوه خوفا من غضبه وعقوبته وطمعا في رضاه ورحمته، ونبههم إلى بعض البراهين المحسوسة الدالة على آثار رحمته الشاهدة بقدرة الله عز وجل على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بما أنزل عليها من الماء، كما نبههم إلى أن النفوس الطيبة تقبل الهُدَى كالأرض الطيبة التي تنتفع بالغيث، وأن النفوس الخبيثة لا تقبل الهُدَى كالأرض السبخة التي لا تنتفع بالغيث، وفي هذا مواساةٌ لرسول الله ﷺ حتى لا يبتئس بما يلقاه من المكذبين، شرع في ذكر بعض قصص الأنبياء مع أممهم وَمَا لاَقَوْه منهم لتثبيت فؤاده ﷺ وللعظة والذكرى وبشارة المؤمنين ونِذَارة المكذبين، وبدأ بقصة نوح عليه السلام لأنه أول رسول كذبه قومه ولم يؤمن به إلا قليل، فنجاه الله والذين معه، وأغرق المكذبين، حيث يقول هنا: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فَقَالَ يَا قَوْم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بَآياتنا إنهم كانوا قوما عَمِينَ﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ تقرير للرسالة والتوحيد والبعث وهي

الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السُّوَرُ المكية، فهي أهم مهمات الدين التي لا سعادة لأحد إلا إذا استقرت في نفسه وأيقن بها قلبُه، ولن تفتح أبواب الجنة إلا لمن لقي الله عز وجل مؤمنا بها، وكان نوح عليه السلام أولَ أولي العزم من المرسلين، وأولَ رسول أرسله الله عز وجل يحذر من الشرك بالله عز وجل إذ كانت أمته هي أول الأمم المشركة على ظهر الأرض، وقد كان بين نوح عليه السلام وبين آدم عشرة قرون كلهم على الإسلام. فقد روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله عز وجل: ﴿وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تذرن وَدًّا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونَسْرًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أَنِ انْصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسَمُّوهَا بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولَئك وانتسخ العلم عُبِدَتْ اهـ. قال ابن جرير الطبري رحمه الله: القولُ في تأويل قوله: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يَا قَوْمِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيرُهُ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ قال أَبوجعفر: أقسم ربنا جل ثناؤه للمخاطبين بهذه الآية أنه أرسل نوحا إلى قومه مُنْذِرَهُم بأسه، ومُخَوِّفَهُمْ سَخَطَهُ، على عبادتهم غَيْرَهُ، فقال لمن كَفَرَ منهم: اعبدوا الله الذي له العبادة، وَذِلُّوا لَهُ بالطاعة، واخْضَعُوا له بالاستكانة، وَدَعُوا عبادةَ ما سواه من الأنداد والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجب عليكم العبادةَ غَيْرُهُ، فإني أخاف عليكم إن لم تفعلوا ذلك ﴿عَذَابَ يَوم عظيم﴾ يعني: عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم بمجيئه إياكم بِسَخَطِ ربكم اهـ. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي قال له سادة قومه وكبراؤهم ووجوههم ورؤساؤهم

وأشرافهم وقادتهم رَادِّين دعوة التوحيد مكذبين برسول ربِّ العالمين الذي بعثه لهم لإنقاذهم من الشرك والضلالة: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي إنا لنعتقد أنك تائهٌ عن الحق، ضائعٌ عن الرشد، مائلٌ عن نهج آبائنا، واقعٌ في خطأ ظاهرٍ وضلال بَيِّن. قال ابن كثير رحمه الله: وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله: ﴿وإذا رأوهم قالوا إنَّ هٰؤلاء لضالون﴾ ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه، وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هٰذا إفك قديم﴾ إلى غير ذلك من الآيات اهـ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قال يا قومِ ليس بي ضلالة ولٰكني رسول من رب العالمين * أُبَلِّغُكُمْ رسالاتِ ربي وأنصح لكم وأعلمُ من الله ما لا تعلمون * أَوَعَجِبْتُم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون﴾ بيان شافٍ كافٍ وحجةٌ مفحمةٌ ملزمة من نوح عليه السلام وإيضاحٌ لمنهج الفلاح والرشد والعدل الذي يدعو قومه إليه لينقذوا أنفسهم من النار وغضب الجبار، فقد ردَّ عليهم ما ادَّعوه عليه من الضلال بأَنْ نَفَى عن نفسه أن يكون به أي نوعٍ من أنواع الضلالة ألبتة، ووصف نفسه بما يكون به أبعد الخلق عن الضلال، حيث اختاره الله عز وجل ليكون رسول الله إليهم، ولا شك أن رسول رب العالمين يكون متصفا بأشرف الصفات وأجلها، وأهدى قومه طريقا وأقْوَمَهُم سبيلا وأرجَحَهُم عقلاً، وأعظمَهُم نصحًا، والمعروف أن الرائد الناصح لا يكذب أهله، وأشار نوح عليه السلام بأن الله تبارك وتعالى قد منَّ عليه بأنواع من العلوم التي تجلب لمن تمسك بها عز الدنيا وسعادة الآخرة ثم وجَّه نوح عليه السلام لقومه سؤال توبيخ وتقريع: أَوَتستغربون وتعجبون وتستبعدون أن يجيئكم رسول من ربكم يحمل لكم الذكر الذي يدلكم على طريق الهدى ويرشدكم إلى الصراط المستقيم ويخوفكم ويحذركم من أن يَحِلَّ بكم عذاب من الله إن كذبتم رسوله وعصيتم أمره، ولتعرفوا

حدود الله فتجتنبوا محارمه، وتكونوا من المتقين، ولتنالكم رحمة الله إن آمنتم برسوله ووقفتم عند حدوده. وفي مناداة نوح عليه السلام قومه بقوله: يا قوم هو أسلوبٌ من أساليب استمالة قلوبهم نحو الحق، وتنبيهٌ على أن محمدا ﷺ ليس هو أول من كذبه قومه، وفي ذلك مواساة لرسول الله ﷺ، وتثبيتٌ لفؤاده صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. وفي قوله: ﴿ولَكني رسول من رب العالمين﴾ استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهداية، فإن رسالة رب العالمين مستلزمة له لا محالة، وقولُه: ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها، وجمع الرسالات لتنوع معانيها، وتعدد مطالبها، وفي قوله: ﴿وأنصح لكم﴾ تنبيه على أنه إنما يريد لهم الخير ويحب لهم ما يحب لنفسه، والهمزة في قوله: ﴿أَوَعجبتم﴾ للاستفهام الإنكاري والواو للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل: أَسْتَبْعَدْتُم وعجبتم من أن جاءكم ذكر من سيدكم ومالككم ومربيكم ومصلح أموركم أنزله على رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه، قال ابن جرير: : وفتحت الواو من قوله: ﴿أَوَعجبتم﴾ لأنها واو عطف دخلت عليها أَلِف الاستفهام اهـ وسبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام كقوله تعالى: ﴿وهل نُجَازِي إلا الكفور﴾ إلا الألف فإنها تدخل على الواو ولا تدخل عليها الواو. ولما كانت أعظم وظائف النبيين والمرسلين هي دعوة الخلق إلى عبادة الخالق وحده لا شريك له أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث قال في مطلع قصة نوح: ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ وقال في مطلع قصة هود بعدها: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ وقال في مطلع قصة صالح: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ فالدعوة إلى التوحيد هي أهم وظائف

المرسلين وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفُلْك وأغرقنا الذين كـذبوا بآياتنـا، إنهم كانوا قومـا عَمِينَ﴾ بيان لما أصاب قوم نـوح عليه السلام من العقـوبة لما تمادَوا على تكذيبـه ومخالفة أمره، وأن الله عـز وجل قد انتقم لأوليـائه من أعـدائه وخلَّص رسولـه والمؤمنين من مكـرهم وكيـدهم، ونصر نبيـه نوحـا عليـه السلام. وفي هـذا تحذيـر لكفار قـريش وغيرهم من المكـذبين بمحمد ﷺ ليحـذروا حتى لا يصيبهم مـا أصاب قـوم نوح عليـه السـلام، ومعنى قولـه عز وجل:﴿إنهم كـانـوا قومـا عمين﴾ أي إن قوم نـوح الذين كـذبوا وأصروا على الكفر مع طـول المدة التي لبثها فيهم وكثـرة نصحه لهم بـالليل والنهار وفي السر والعـلانية، كما قـال عـز وجل في سورة نـوح: ﴿قال ربِّ إني دعـوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعـائي إلا فرارا * وإني كلما دعوتُهم لتغفـر لهم جعلوا أصـابعهم في آذانهم واستَغْشَـوْا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إني دعوتهم جهارا * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾ فانتقـم الله عز وجل منهم، وسلط عليهم الطـوفان لأن قلـوبهم قد عميت عن الحق، وانطمست بصائرهم عـن معرفة الله عـز وجل والإيمان به وبرسوله ﷺ، يقال: ر جلٌ عَمٍ إذا كان أعمى القلب وجمعه عَمُونَ، ويطلق كذلك على من انغلق عليـه الأمر وجهل عاقبتـه كما قال زهير بن أبى سلمى المزني في معلقته المشهورة:

وأعلم مـا في اليـوم والأمس قبلـه ولكنني عن علـم مـا في غـد عَمِ

وقد ذكـر الله تبارك وتعـالى عقوبتـه لقوم نـوح عليه السـلام لما أصروا على تكذيبـه ﷺ فقال في سورة الصافـات: ﴿ولقد نادانا نـوح فلنعم المجيبون * ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريتـه هم الباقين * وتركنا عليه في الآخرِين * سـلام على نوح في العالمين * إنا كذٰلـك نَجزي المحسنين *إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغـرقنا الآخَرين﴾. وقال في سـورة القمر: ﴿كذبت

قبلهم قوم نـوح فكذبوا عبدنـا وقالوا مجنـون وازدجر * فدعا ربـه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمـر قد قُـدِرَ * وحملناه على ذات ألـواح ودسر * تجري بأعيننا جـزاءً لمن كان كُفِرَ * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر﴾ .

وقـال تعـالى في سورة الحاقـة : ﴿إنـا لما طغى الماء حملنـاكم في الجاريـة * لنجعلها لكم تذكـرة وتعيها أذن واعية﴾ وقال في سورة الأنبيـاء : ﴿ونوحا إذ نادى من قبلُ فـاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكـرب العظيم * ونصرناه من القوم الـذين كذبوا بآيـاتنا إنهم كانـوا قوم سَوْءٍ فأغرقنـاهم أجمعين﴾ وقال في سـورة هود : ﴿وأُوحي إلى نـوح أنه لن يـؤمن من قـومك إلا من قد آمن فـلا تبتئس بما كانوا يفعلون * واصنع الفلك بـأعيننا ووحينا ولاتخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليـه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يُخزيـه ويَحِلُّ عليه عذاب مقيم * حتى إذا جـاء أمرنا وفار التنـور قلنا احمل فيهـا مـــن كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القـول ومن آمن وما آمن معـه إلا قليل * وقال اركبـوا فيها بـاسم الله مجريها ومرسـاها إن ربي لغفـور رحيم﴾ وقـال فى سـورة المؤمنـون : ﴿قـال رب انصرني بما كـذبـون * فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليـه القول منهم ولا تخاطبني في الـذين ظلموا إنهم مغـرقـون * فإذا استـويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجـانا من القوم الظالمين * وقل رب أنزلني مُنـزلا مباركا وأنت خير المنزلين * إن في ذُلك لآيات و إن كنا لمبتلين﴾ .

قال تعالى: ﴿وإلى عـاد أخاهم هودا، قال يا قـوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره، أفـلا تتقون * قال الملأ الـذين كفروا من قومـه إنَّا لنراك في سفـاهة وإنَّا لنظنك من الكاذبين * قال يا قـوم ليس بِي سفاهة ولَكني رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربي وأنـا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينـذركم، واذكروا إذ جعلكم خلفـاء من بعد قوم نـوح وزادكم في الخلق بصّطـة فاذكـروا ءالاء الله لعلكم تفلحون * قـالوا أجئتنا لنعبـد الله وحده ونذر مـا كان يعبد آبـاؤنا فأتنا بها تعـدنا إن كنت من الصـادقين * قـال قـد وقع عليكم مـن ربكم رجس وغضب أتجادلـونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نـزّل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظـرين * فأنجيناه والـذين معه بـرحمة منا وقطعنـا دابر الـذين كذبـوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعـالى قصة نوح عليه السلام وأنه عليـه السلام دعا قومـه إلى عبادة الله وحده لا شريك لـه، وأن قومـه كذبوه، فأغـرقهم الله عز وجل بالطـوفان وأنجى نـوحا والذين معـه في الفلك، أَتْبَعَ ذلك بذكـر قصة هود عليه السلام مع قومه، فذكر دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن قومه كـذبوه وسفَّهُوهُ، وأن هودا عليه السـلام أجابهم بالحجة القـاطعة والآية الساطعـة فأصروا على ضلالهم وسفاهتهم واستعجلوا عـذاب الله فانتصر الله عز وجل لهود عليه السـلام والذين آمنوا معه وقَطَعَ دابر المكـذبين الكافرين. وفي ذلك يقول: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هُودًا، قـال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيرُهُ، أفلا تتقون﴾ إلى قولـه: ﴿وقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كذبوا بآيـاتنا وما كانوا مؤمنين﴾ وعاد قوم هـود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقـاف الواقعة باليمن بين عُمَان وحضرموت المطلـة على البحر بناحيـة الشَّحْر، وتصل إلى الـدهناء

وعـالج، والأحقـاف جمع حقف وهـو المعـوج مـن الـرمل أو الـرمل العظيم المستدير المستطيل المشرف، وهـودٌ عليه السلام هو أول رسـول عربى ذكر الله عز وجل قصته في القرآن الكريم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ أي ولقـد أرسلنا إلى عاد أخاهم هـودا كأنه قيل: لقد أرسلنا نـوحا إلى قومـه وأرسلنا إلى عاد أخاهم هـودا، ومعنى كونه أخـاهم أي واحدا منهم في النسب، كما تقـول لـرجل عـربي: يـا أخـا العـرب بغض النظـر عن دينـه ومذهبه. كما تطلق الأخـوة على المصاحبة والمخالطـة، وقد وُصِفَ رسولُ الله ﷺ بأنه أخـو قريش وصـاحب قريش كما قـال عز وجل: ﴿ومـا صاحبكم بمجنون﴾ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿أفلا تتقون﴾ أي أفـلا تخافون انتقام الله عز وجل منكم إذا عبدتم غيره وأشركتم به ما لم ينزل عليكم به سلطانا، وهو وحـده خـالقكم ورازقكم، فـاتقـوه واجتنبـوا أسباب سخطـه، وقفـوا عنـد حدوده، حتـى لا يحل بكم عذاب من الله كما حل بقـوم نوح عليـه السلام.
وقولـه عز وجل: ﴿قالَ الملأ الـذين كفروا من قومه إنـا لنراك في سفاهـة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ بيـانٌ لما قابل بـه قومُ هود دعـوته لهم ومـا نَصَحَهُمْ به حيث وَاجَهُوهُ بقبيح الكلام ووصفـوه عليه السلام بأنه مستغـرق في السفاهة والطيش والبُعْـد عن الحِلْم والعقل، متمكن في الضـلال ومفـارقـة الحق والصـواب والرشـد. كما أعلنوا لـه أنهم لا يصدقـونـه بحال، وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولَكني رسول من رب العالمين * أُبَلِّغُكُمْ رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ بيانٌ لما أجاب بـه هود عليه السلام قومَهُ على ما نسبوه إليـه من السفاهة والكذب حيث لم يقابل سفاهتهم بـالسفاهة بل قابلها بـالحِلْم والإغضاء والرزانة وكمال الشفقة والـرأفة والإحسان كما فعل رسول الله نوح عليـه السلام مع قومه، وفي هـذا إشعار بأن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم كانوا في أعلى الـذروة من مكارم الأخلاق، وصبروا على ما

أصابهم في الله عز وجل، وفي هذا مواساةٌ لرسول الله ﷺ على أكمل وجه من وجوه المواساة، والفرق بين قوله في قصة نوح عليه السلام: ﴿وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ وقولِه في قصة هود عليه السلام: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ هو أن ما ذكره نوح عليه السلام هو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث، وما ذكره هود عليه السلام هو جملة اسمية تدل على الثبوت والاستقرار والاستمرار. ومن المقرر في علم المعانى من علوم البلاغة أن الجملة الفعلية تفيد الاستمرار التجددي إذا كان فعلها مضارعا كما أن الجملة الاسمية تفيد الدوام والاستمرار إذا كان خبرها مفردا، ولا شك أن نوحا عليه السلام قد ذكر الله عز وجل عنه ما يفيد أنه كان يجدد كثيرا دعوته لقومه كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿قال رب إني دعوت قومى ليلا ونهارا﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاءَ من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصۜطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيد لكونه عليه السلام كان ناصِحًا أمينا حريصا على نجاة قومه من المهالك وتحذيرهم من أن يصيبهم ما أصاب قوم نوح من قبلهم، ولا شك أنهم كانوا على علم بما أصاب قوم نوح عليه السلام، وقد ذكَّرهم هود ﷺ بنوعين من نعم الله العظيمة الجليلة عليهم: الأول: أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح الذين أهلكهم الله بدعوته وجعلهم من ذرية الصالحين الذين نجاهم من الطوفان وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. والثاني: أنه زادهم في الخلق بصطة. أي شدة بأس وقوة ومنحهم أجساما لم تمنح لسواهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ما كان عليه قوم هود من البسطة في الخلق والجسم إذ ذكر عز وجل أنه لم يُخْلَقْ مثلُهم في البلاد، وأنهم كالنخيل في عظم الأجسام حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بِعَادٍ * إرَمَ ذاتِ العماد * التى لم يُخْلَقْ مِثْلُهَا في البلاد﴾ وقال عز وجل: ﴿وأما عادٌ فَأُهْلِكُوا بريح صرصر عاتية * سخرها

عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوما فترى القوم فيها صَرْعَى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ . قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿أُبَلِّغُكُم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخَلْقِ بَصْطة فاذكروا ءَالاء الله لعلكم تفلحون﴾ قال أبوجعفر: يعني بقوله: ﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ أؤدي ذلك إليكم أيها القوم ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ يقول وأنا لكم في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله ناصحٌ فاقبلوا نصيحتي، فإني أمين على وحي الله، وعلى ما ائتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل بل أُبَلِّغُ ما أُمِرتُ كما أُمِرْتُ ﴿أَوَعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾ يقول: أوعجبتم أن أنزل الله وحيه بتذكيركم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضلالة على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ يقول: فاتقوا الله في أنفسكم واذكروا ما حل بقوم نوح من العذاب إذ عَصَوْا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم ربكم خلفاء في الأرض منهم، لما أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلككم ويبدل منكم غيركم، سنته في قوم نوح قبلكم على معصيتكم إياه وكفركم به ﴿وزادكم في الخلق بَصْطة﴾ زاد في أجسامكم طولا وعِظَمًا على أجسام قوم نوح، وفي قُواكم على قُواهم، نعمة منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقُواكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد ﴿لعلكم تفلحون﴾ يقول: كي تفلحوا فتدركوا الخلود والبقاء في النعيم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده اهـ. وقولُه تبارك

وتعالى: ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذرَ ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ بيانٌ لموقف قوم هود منه لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وما نصحهم به وحذرهم من أن يصيبهم ما أصاب المكذبين من قوم نوح قبلهم فكان جوابُهم أن أنكروا على هود ﷺ مَجِيئَهُ بدعوة توحيد الله عز وجل وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، والإعراض عن عبادة الأصنام والأوثان، واستعجلوا ما توعدهم به من عذاب الله على كفرهم بالله وتكذيبهم لرسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان من الصادقين فيما يقول ويتوعد، وموقف كفار قوم هود شبيه بموقف كفار قريش من رسول الله ﷺ لما دعاهم إلى توحيد الله عز وجل وتوعدهم بالعذاب إن أصروا على تكذيبه ﷺ حيث أنكروا عليه دعوة التوحيد واستعجلوا العذاب كما قال عز وجل: ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هٰذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلَهًا واحدا إنَّ هذا لشيء عُجَابٌ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ وقولُه عز وجل: ﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نَزَّل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي قد حل بكم وقرب من ساحتكم عذاب من الله وسخط بسبب انقيادكم للشيطان الذي استولى على قلوبكم فضاقت بالحق وانشرحت للباطل كما قال عز وجل: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرحْ صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حَرَجًا كأنما يَصَّعَّدُ فى السماء، كذٰلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ والتعبير بقوله ﴿قد وقع﴾ لتحقق مجيئه، كما قال عز وجل: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ ومعنى: ﴿أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان، فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أى أتخاصمونني في هذه الأصنام التي

سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وعبدتموها وهي لا تضر ولا تنفع وما جعل الله لكم على عبادتها برهانا ولا حجة ولا دليلا، فارتقبوا عذاب الله على كفركم به وتكذيبكم لرسوله ﷺ إني معكم من المرتقبين لما يقع عليكم من عقاب الله الذي ينصرنا به عليكم، وقولُه تعالى: ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ أي فخلَّصنا هودا والذين آمنوا معه من مكر كفار قومه ونصرناه عليهم وشملناه برحمتنا وإحساننا واستأصلنا المكذبين فلم نُبقِ منهم أحدا، لأنهم كذبوا بحججنا ولم يكونوا مصدقين بالله وبرسوله هود عليه السلام. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم أنه أهلك عادا بالريح حيث يقول: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأما عادٌ فأُهلكوا بريح صرصر عاتية * سخَّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: نُصرتُ بالصَّبَا وأُهْلِكتْ عاد بالدَّبُورِ.

قال تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هٰذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه، قالوا إنَّا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولٰكن لا تحبون الناصحين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى قصة هود عليه السلام مع قومه وأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن قومه كذبوه وسَفَّهُوهُ، وأن هودا عليه السلام شرح لهم دعوته بالحجة القاطعة فأصروا على ضلالهم وسفاهتهم، واستعجلوا عذاب الله، فانتصر الله عز وجل لِهُودٍ والذين آمنوا معه وقطع دابر الكافرين. أتبع ذلك بذكر قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وأنه دعاهم إلى عبادة الله وقد أيده الله عز وجل بمعجزة قاهرة ظاهرة وهي ناقة الله، وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله وأن لا يتعرضوا لها بأذى، وحذرهم من أنهم إن تعرضوا لها بأذى أصابهم عذاب مؤلم، ونبههم إلى أنهم خلفاء لقوم هود الذين أهلكهم الله لما أصروا على تكذيبه، وذكَّر صالح قومه بنعم الله عليهم وأمَرَهُم بالإيمان بالله وبشكر نعمه وأن لا يفسدوا في الأرض، فلم يسمعوا ولم يطيعوا، وعقروا الناقة واستعجلوا عذاب

الله فأخذتهم الـرجفة فأهلكتهم، وخلَّص الله عز وجل صالحا والـذين آمنوا معـه من شرهم ومكـرهم، وفي ذلك يقـول عز وجل: ﴿وإِلَى ثَمُـودَ أخـاهـم صالِحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلَه غيره﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فتولى عنهم وقـال يا قـوم لقـد أبلغتكم رسالـة ربي ونصحت لكم ولَكن لا تحبـون الناصحين﴾ وصالحٌ عليه السلام هو ثـاني رسول عربي بعد هود صلوات الله وسلامـه عليهما بعثه الله في جزيرة العـرب، وقد أرسله الله عز وجل إلى قـومه ثمود، وكانوا يسكنون الحِجْر وهي الأرض المعـروفة باسم ديار ثمود أو مدائن صالـح وتقع على بُعد نحـو ثمانين وثلثمائة «كيلو متر» شمال غرب مـن المدينة المنورة، ويقع في جنوبيها الآن مدينة العلا، ولايزال بعض آبارها ولاسيما البئر المعروفـة ببئر الناقـة باقية إلى الآن، كما لا تزال آثـار ثمود من البيوت والمقـابر موجودة حتى الآن وبخاصة البيوت التي كـانوا ينحتونها في الجبال. وقوله عز وجل: ﴿وإلى ثمـود أَخـاهم صـالحا﴾ أي ولقـد أرسلنـا إلى ثمـود أخـاهـم صـالحا. ومعنى قـولـه عز وجل: ﴿قـد جـاءتكم بينـة من ربكم﴾ أي قـد جـاءتكم حجة من الله وبـرهان ظـاهـر بتأييدي من ربكم، لتعـريفكم بأني صادق فيما أبلغكـم عن الله عز وجل وأدعـوكم إليه من إخـلاص العبادة لله وحده وأني رسـول الله إليكم، والظاهر أن صالحا عليـه السلام قد جاء قـومه بحجج وبـراهين وآيـات فلم يؤمنـوا بها كما قـال عز وجـل: ﴿ولقد كـذَّب أصحابُ الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين﴾ وطلبوا منه آية معينة ليؤمنوا إذا جـاءتهم وتحدَّوْه بذلك، فحذرهم بأنهم إذا جاءتهم الآية التي يطلبـونها ولم يؤمنـوا فإنهم يأتيهم عـذاب قـريب، كما قال عـز وجل في سورة الشعـراء: ﴿قالوا إنما أنت من المُسَحَّرين * مـا أنت إلا بشرٌ مثلُنا فأت بـآية إن كنت من الصـادقين﴾ فأيَّـد الله عز وجل نبيـه ورسـوله صـالحا ﷺ وأخـرج لهم ناقـة من الصخر وكـانت آيةً مبصرة أي واضحـة جلية ومعجـزة

ظاهرة دالة على قدرة الله ووحدانيته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، وكانت هذه الآية مشتملة على آيات، فهي قادرة على شرب جميع مياههم، لكن صالحا عليه السلام اتفق معهم على أنها تشرب يوما لا يشاركونها في الماء ويشربون يوما لا تشاركهم في الماء، ونهاهم صالح ﷺ أن يمسوها بِسُوءٍ. وقولُه تعالى: ﴿هٰذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسُوء فيأخُذَكم عذاب أليم﴾ بإضافة الناقة إلى الله مع ما فيها من تشريف الناقة فهي من إضافة الخلق إلى الخالق. أي هذه الناقة التي أخرجها لكم الله عز وجل من الصخر هي ناقة الله التي جعلها لكم آية قاهرة ومعجزة ظاهرة دالة على أن الله لا يعجزه شيء، فاتركوا هذه الناقة ترعى في أرض الله ولا تقربوها بأذى، إنكم إن مسستموها بسوء حل بكم عذاب موجع كما قال عز وجل في سورة هود: ﴿ويا قوم هٰذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسُوء فيأخذكم عذاب قريب﴾ وقد حذَّر صالح ﷺ قومه من أن يتعرضوا للناقة بأذى في نفسها أو مطعمها، كما حذرهم من التعرض لسقياها حيث قال عز وجل: ﴿فقال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسقياها﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ تحذيرٌ من صالح ﷺ لقومه من أن يصيبهم إن أصروا على تكذيبه عذابٌ مثل العذاب الذي أصاب قوم هودٍ عليه السلام لما أصروا على تكذيبه، وهم على علم بما جرى لقوم هود وأن الله عز وجل قطع دابرهم، وتحريضٌ لهم على الإيمان بالله ورسوله وشكر نعم الله التي امتن عليهم بها حيث أنزلهم وبوأهم في الأرض منزلا يأمنون فيه، وقد يَسَّرَ لهم العيش الرغيد والمساكن المريحة التي يتمتعون في بعضها صيفا وفي بعضها في الشتاء حيث كانوا يتخذون من سهول الأرض قصورا وينحتون

الجبال بيوتا وقد امتلأت أرضهم بالجنات والبساتين والعيون والزروع والنخيل كما قال عـز وجل : ﴿أتتركـون فيما هَـٰهُنَا آمنين * فى جنـاتٍ وعيون * وزروع ونخل طلعهـا هضيم *وتنحتـون من الجبـال بيـوتـا فـارهين * فـاتقـوا الله وأطيعـون﴾ . وقد أكَّـد صـالح ﷺ على قـومه أن يعـرفـوا نِعَمَ الله عليهم وأن يشكـروه عليها وأن يلهجـوا بـالثناء على الله الـذي تفضل عليهم بهذه الآلاء وحذَّرَهم أشـد التحذير أن يَعْثَوْا في الأرض مفسـدين ، وقولُه تبـارك وتعالى : ﴿قال الملأ الذي استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسلٌ من ربه قالوا إنَّـا بما أُرْسِلَ به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتـم به كافرون﴾ . قال ابن جرير رحمه الله : قـال أبوجعفر: يعني جل ثناؤه بقولـه : ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ قـال الجماعة الذين استكبروا من قـوم صـالحٍ عن اتِّبـاع صـالحٍ والإيمان بـالله وبـه ﴿للـذين اسْتُضْعِفُـوا﴾ يعني : لأهلِ المسكنـة من تُبَّاعِ صالحٍ والمؤمنين بـه منهم دون ذَوِي شَرَفِهم وأهلِ السؤدد منهم ﴿أتعلمـون أن صالحا مـرسل من ربـه﴾ أرسله الله إلينا وإليكم ، قال الـذين آمنوا بصالح من المستضعفين منهم : إنا بما أرسل الله به صالحًا من الحق والهُدَى مؤمنون . يقول : مصدقون مُقِرُّون أنه من عنـد الله ، وأن الله أمَـرَ بـه ، وعن أمـر الله دعانـا صـالح ﴿قـال الـذين استكبروا﴾ عن أمر الله وأمـر رسوله صـالح ﴿إنَّا﴾ أيها القوم ﴿بـالذى آمنتم به﴾ يقـول : صَدَّقْتُم به من نبوة صـالح ، وأن الذى جاء بـه حق من عند الله ﴿كافرون﴾ يقول : جاحدون منكرون لا نُصَـدِّق به ولا نُقِرُّ اهـ . وقولُه تبارك وتعالى : ﴿فَعَقَرُوا الناقـة وعَتَوْا عن أمر ربهم وقالوا يا صـالح ائتنا بما تعدنا إن كنتم من المرسلين * فأخـذتهم الـرجفـة فأصبحـوا فى دارهم جـاثمين﴾ أي فَقَطَعُوا قوائم الناقـة حتى سقطت على الأرض ونحروها ، وتكبروا وتَجَبَّرُوا عن اتِّباع صـالح ﷺ واستَعْلَوا عن الحق ، وقالـوا يا صـالح : هات ما تعدنا من

عـذاب الله ونقمته إن كـان الله قـد أرسلك إلينـا ، استعجالا للعـذاب تهكما منهم وجهـلا ، فسلط الله عز وجل عليهم صيحـة زعزعتهم وحـركتهم حتى سقطوا صرعى منكفئين على رُكَبِهم ميتين لا حـراك بهم . وقد ذكـر الله تبارك وتعالى أنهم لما استعجلوا العذاب قال لهم صـالح ﷺ : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعـد غير مكذوب ، وقد أصر تسعـة رهط من المفسدين في الأرض على قتل صالح و إلحاقه بالناقة ، وتقـاسموا بالله لَنُبيتَنَّهُ وأهله أي لنكبسنَّهُ في داره بـالليل مع أهلـه فلنقتلنـه ولنجحـدن قتلـه فلنقـولن لأوليـاء دمـه من المشركين : ما شهدنا مهلكه ولا مهلك أهله و إنا لصادقون ، ودَبَّرُوا ودَبَّرَ الله ، فنجاه ومن معـه من المؤمنين وأرسل الله عز وجل عليهم الصيحـة من فوقهم ورجفـة من تحتهم كما قال عـز وجل : ﴿ومكـروا مكرا ومكـرنا مكـرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبـة مكرهم أنا دمَّرناهم وقومهم أجمعين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فلما جاء أمرنا نجينا صـالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خـزي يومئـذ إن ربك هـو القـوي العزيـز * وأخـذ الذيـن ظلموا الصيحـةُ فأصبحـوا في دارهم جاثمين * كأن لم يَغْنَـوْا فيها أَلاَ إن ثمـود كفروا ربهم ألا بُعْدًا لثمود﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كـانوا يكسبـون﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿فنادَوْا صاحبهـم فتعاطى فعقـر فكيف كان عـذابي ونذر * إنـا أرسلنـا عليهم صيحة واحـدة فكانـوا كهشيم المحتظر﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿كـذبت ثمود بطغـواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسولُ الله ناقةَ الله وسقياهـا * فكذبوه فعقروها * فَدَمْدَمَ عليهم ربهم بذنبهـم فسواها * ولا يخاف عقبـاها﴾ . وفي إسنـاد عقر النـاقة إليهم مع أن الذى عقرها هو أشقى ثمـود وحده لأنهم جميعا راضون بعقرها ، وهم الذيـن دعوه إلى عقرهـا كما قال عـز وجل : ﴿فنادوا صاحبهـم فتعاطى فعقر﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن زمعة قال : خطب

رسول الله ﷺ فذكر الناقة وذكَرَ الذي عقرها فقال: ﴿إذِ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ هذا إخبار من الله عز وجل عن خروج صالح من بين قومه الذين عَتَوْا عن أمر ربهم حين أراد الله إحلالَ العقوبة بهم وإرسالَ العذاب عليهم وقال لهم صالح عليه السلام: لقد أديت لكم ما أمرني الله بأدائه إليكم من الرسالة، وبذلت لكم النصح في تحذيركم من سوء ما يصيبكم إن أصررتم على الكفر بالله وتكذيب رسوله، ولكنكم لا تحبون الناصحين لكم في الله، الناهين لكم عن اتباع أهوائكم وشهوات أنفسكم التي تشقيكم في الدنيا والآخرة. هذا وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مَرَّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قَنَّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرض ثمود فاستَقَوْا من آبارها وعَجَنُوا به العجين فأمرهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَرِيقُوا ما استقَوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة. هذا ولا ذكر لعاد وثمود في الكتب التي بيد اليهود والنصارى من كتب العهد القديم أو الجديد مما يُشعر بأن اليهود قد حَرَصُوا على إزالة كل ذكر للنبوة في الأمة العربية حسدا للعرب، وكراهية أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل، وقد ورد في القرآن العظيم ما يقرر أن موسى ﷺ قد حذر بني إسرائيل من أن يحل بهم ما حل بقوم هود وقوم صالح حيث يقول عز وجل: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ الآية.

قال تعالى : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء، بل أنتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون * فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل قصة صالح ﷺ وأنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن الله عز وجل أيده بمعجزة ظاهرة وآية مبصرة حيث أخرج لهم من الصخر ناقة، وقد حذرهم صالح ﷺ من أن يمسوها بسُوء وأنهم إن تعرضوا لها بأذى أصابهم عذاب أليم، وذكَّرهم بنعم الله عليهم إذ جعلهم خلفاء من بعد عاد وبوأهم في الأرض يتخذون من سهولها قصوراً وينحتون الجبال بيوتا ونهاهم أن يعثوا في الأرض مفسدين، وأن المستكبرين في الأرض من رؤسائهم حاولوا فتنة المستضعفين من المؤمنين، وأن هؤلاء المستضعفين من المؤمنين أعلنوا أنهم مؤمنون بالله ومصدقون برسوله صالح ﷺ وأن الذين استكبروا عتوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة واستعجلوا العذاب فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وأن الله تبارك وتعالى خَلَّص صالحا والمؤمنين من شرورهم وردَّ كيدهم إلى نحورهم، أتبع ذلك بذكر قصة لوط عليه السلام، حيث يقول عز وجل : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ وقولُه عز وجل : ﴿ولوطا﴾ أي ولقد أرسلنا لوطا، وقد كان لوط عليه السلام من أهل بابل المعروفة ببلاد الكلدانيين، وقد آمن لإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى فلسطين، وقد بعثه الله عز وجل إلى أهل سدوم وما حولها من دائرة الأردن وكانوا من أكفر

خلق الله وأفجرهم، ولم يكن لهم اسم معروف يجمعهم كعاد وثمود ومدين ولذلك جاء التعبير البلاغي بقوله: ﴿ولوطا﴾ مغايرا للتعبير في قصة هود وصالح وشعيب حيث قال: ﴿وإلى عاد أخاهم هودا﴾ وقال: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾ وقال: ﴿وإلى مدينَ أخاهم شعيبا﴾.

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن لوطا عليه السلام بدأ قومه بدعوتهم إلى توحيد الله وتقواه حيث يقول: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين * أتأتون الذكران من العالمين﴾ والمراد من الأخوة في قوله تعالى: ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط﴾ هي الخلطة والمصاحبة لا أخوة الدين أو النسب أو السلوك. وقد كانت رسل الله صلى الله عليهم وسلم يبدءون قومهم بعد دعوتهم إلى توحيد الله بنهيهم عن أكبر جرائمهم كما ظهر في دعوة لوط عليه السلام وكما فعل شعيب عليه السلام حيث بدأ بتحذير قومه من بخس الكيل والميزان، ولذلك قال لوط عليه السلام لقومه: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي أتفعلون تلك الفعلة المتناهية في القبح وترتكبون هذه الجريمة البشعة التي ابتدعتموها في الفجور، لم يسبقكم إليها أحد من العالمين، لنفرة الطباع منها، والاشمئزاز من مقارفتها، مع ما فيها من محاربة الفطرة، والاستفهام للتوبيخ والتقريع والإنكار. وجملة: ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ مستأنفة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع. وقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ زيادة في تأكيد الإنكار والتوبيخ والتقريع، وقد أُكِّدَ بإن واللام واسمية الجملة، والمقصودُ منه بيانُ تلك الفاحشة الفظيعة، والتنفيرُ منها بأقوى أدوات التنفير، أي إنكم لَيَنْزُو ذكُورُكُم على ذكوركم لانقلاب

فِطَرِكم حتى ارتكبتم الطامة من الفواحش واشتهيتم الرجس النجس بمقارفة الذكور وتركتم السبيل السوي من شهوة النساء، وشذذتم في شهوتكم عن العالمين. وقد أطبقت أمم الأرض على استنكار هذه الجريمة ونفرت منها البهائم وسائر الحيوانات العجماوات إلا الخنزير والحمار، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى عقوبة قوم لوط أن تنقلب الأرض بهم كما انقلبت فطرتهم وأن يجعل عاليها سافلها ثم يُمْطِر عليهم حجارة من سجيل. لأنهم أسرفوا في جريمتهم وتجاوزوا كل حد. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكان عذابُ كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان اهـ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أُنَاسٌ يتطهرون * فأنجيناه وأهلَه إلا امرأته كانت من الغابرين *وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ بيان لجواب قوم لوط عليه السلام وأنهم لم يقابلوا دعوته عليه السلام التي دعاهم فيها لسعادتهم ونجاتهم وما نصحهم به بجواب من الأجوبة إلا قول بعضهم لبعض: أخرجوا لوطا ومن معه من أهله المؤمنين أي إلا هذا الكلام الذي يستحيل في نظر ذوي الفطر المستقيمة أن يكون جوابا لكلام لوط عليه السلام وردًّا على ما وجَّهَهُ لهم من النصح والإرشاد وسعادة الدارين، وليس المراد أنه لم يصدر عنهم جوابٌ عن مقالات لوط عليه السلام ومواعظه إلا هذه المقالة الباطلة كما هو المتسارع إلى الأفهام بل المراد أنه لم يصدر عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم

وبين لوط عليه السلام إلا هذه الكلمة الشنيعة، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الترهات حسبما حكي عنهم في سائر السور الكريمة، وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القصر كما قال أبوالسعود العمادي في تفسيره. وقولُه عز وجل: ﴿إنهم أناسٌ يتطهرون﴾ تشنيع على قوم لوط بأنهم عابوا لوطا ومن معه من المؤمنين بغير عيب، وجعلوا علة الأمر بإخراج لوط والمؤمنين من قريتهم هو تنزههم وتطهرهم من الفواحش والخبائث، وافتخروا بما هم فيه من القذارة، وهكذا حال من انقلبت فِطَرُهُم «كالشيوعيين» في عصرنا الحاضر، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ بيان لنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين. ومعنى قوله: ﴿كانت من الغابرين﴾ أي كانت من الهالكين، ومعنى: ﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ أي وأرسلنا عليهم حاصبا وأسقطنا عليهم حجارة من سجيل. وقد بين الله تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكريم كيفية إنجاء لوط ومن آمن معه من أهله وكيفية إهلاك الذين كذبوه حيث يقول عز وجل في سورة هود: ﴿ولما جاءت رسلنا لوطا سِيءَ بهم وضاق بهم ذَرْعًا وقال هٰذا يوم عصيب * وجاءه قومه يُهْرَعُونَ إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هٰؤلاء بناتي «يعني زوجاتكم» هُنَّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخْزُونِ في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حق «أي من رغبة وشهوة» وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لي بكم قوة أو آوِي إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنَّا رُسُل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بِقِطْعٍ من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إنَّ موعدهم الصبح، أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مُسَوَّمَةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ وقال في

سورة الحجر: ﴿فلما جـاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكـرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق و إنا لصادقون * فأسر بأهلك بِقِطع من الليل واتَّبِعْ أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضُوا حيث تؤمرون * وقضينا إليـه ذٰلك الأمر أنَّ دابر هـؤلاء مقطوع مصبحين * وجـاء أهل المدينة يستبشرون * قـال إن هـٰؤلاء ضيفي فلا تفضحـون * واتقـوا الله ولا تخزون * قالوا أولم ننهك عن العالمين * قـال هٰؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنـا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذٰلك لآيـات للمتوسمين * و إنها لبسبيل مقيم * إن في ذٰلك لآية للمؤمنين﴾ . وقال في سورة الأنبياء : ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فـاسقين * وأدخلنـاه فى رحمتنـا إنـه من الصـالحين﴾ وقـال في سـورة الشعراء : ﴿كذبـت قوم لوط المرسلين * إذ قال لهم أخوهـم لوط أَلاَ تتقون * إني لكم رسول أمين * فـاتقوا الله وأطيعـون * وما أسألكم عليـه من أجر إن أجريَ إلا على رب العالمين * أتـأتون الذكران من العالمين * وتـذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرَجين * قال إني لعملكم من القـالين * رب نجني وأهلي مما يعملون * فنجينـاه وأهله أجمعين * إلا عجـوزا في الغـابرين * ثم دمـرنا الآخـرين * وأمطـرنا عليهم مطرا فسـاء مطر المنذَرين * إن في ذٰلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ . وقـال في سورة النمـل : ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون * فأنجيناه وأهلـه إلا امرأته قدرناها من الغابـرين * وأمطرنا عليهم مطرا فسـاء مطر المنذَرين﴾ وقال تعـالى في سورة

العنكبوت : ﴿ولـوطا إذ قال لقومـه إنكم لتأتون الفاحشـة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئِنكم لتأتون الرجـال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرني على القوم المفسدين * ولما جـاءت رسلُنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنـا مهلكواْ أهل هٰذه القرية إن أهلهـا كانوا ظالمين * قال إن فيهـا لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لنُنَجِّيَنَّه وأهله إلا امـرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لـوطا سِيءَ بهم وضاق بهم ذرْعًا وقـالوا لا تخف ولا تحزن إنا مُنَجُّوكَ وأهلك إلا امـرأتك كانت من الغابـرين * إنا منزلـون على أهل هٰذه القـرية رجـزا من السماء بما كانـوا يفسقون * ولقـد تركنـا منها آيـة بينة لقـوم يعقلون﴾ . وقـال تعالى في سورة الصـافات : ﴿وإن لـوطا لمن المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمـرون عليهم مصبحين وبـالليل أفـلا تعقلـون﴾ وقـال في سـورة النجم : ﴿والمؤتفكة أهـوى فغشاهـا ما غَشَّى﴾ وقال في سـورة القمر: ﴿كـذبت قوم لوط بـالنذر * إنا أرسلنا عليهم حـاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحـر* نعمة من عندنا كذٰلك نجزي من شكـر﴾ الآيات . هذا ومن غرائب الأمور إطلاق لفظ لوطي على من يأتي الذكران وقـد شاعت هذه اللفظة واستعملها العلماء والعوام ، وهو إطلاق غير صحيح فـلا يجوز أن تنسب هذه الجريمة إلى لوط عليه السلام فيقال لمرتكبها لوطي ، كما لا يجوز أن يقال في أبي جهل وأبي لهب إنهما محمديـان ، ولا سبيل لصحة هذا الإطلاق بحـال ، ولم يرد خبر صحيح عن رسـول الله ﷺ في تسميـة أهل هـذه الجريمة لـوطيين بل الآثـار الـواردة تقول : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط الخ .

قال تعالى : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشيآءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذٰلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل قصة لوط مع قومه، وما أوقعه بالمكذبين به من أنواع العذاب، شرع هنا في ذكر قصة شعيب عليه السلام مع قومه، وكانوا يسكنون الأرض المعروفة باسمهم قرب معان من أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط المعروفة باسم البحر الميت على طريق يسلكه العرب في أسفارهم إلى الشام، كما أنها على طريق يسلكه المسافرون بين مصر والشام والحجاز بالقرب من خليج العقبة، والظاهر أنهم كانوا بعد هلاك قوم لوط بزمان غير بعيد كما أن أرضهم غير بعيدة من قرى قوم لوط عليه السلام، كما يرشد إلى ذلك قوله عز وجل فيما قال شعيب لقومه : ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ كما قرن عز وجل قصته وذِكْرَه بقصة لوط وذِكْره في سورة الأعراف هنا وفي سورة هود وفي سورة الشعراء وفي سورة العنكبوت وفي سورة الحِجر وفي سورة التوبة وفي سورة ق، وقد وُصِفَ شعيبٌ عليه السلام بأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان قومه أهلُ مدين كفارا وكانوا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، وكانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى منها الأيكة وهي شجرة أو غيضة تنبت السدر والأراك كما كانوا من أسوأ الناس معاملة وتعديا على الأموال، يطففون في المكيال والميزان ويبخسون الناس أشياءهم

ويفسدون في الأرض بعـد إصلاحها، وقـد سماهم الله عز وجل مـدين باسم قبيلتهم كما وصفهم بأنهم أصحاب الأيكة. وقد تـوهم بعض الناس فزعم أن شعيبا أُرسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ هما مدين وأصحاب الأيكة وهذا قول مردود وفهم غير سديد، فإن مـدين هم أصحاب الأيكة، وإنما قال عـز وجل: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبـا﴾ وقال في أصحاب الأيكـة: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ولم يقل: أخوهم، لأنـه لما ذكر مدين وشعيبٌ في نسبهـا ـ قال: ﴿أخـوهم﴾ ولكنه لما ذكر أصحاب الأيكة وشعيبٌ غير مشـارك لهم في أيكتهم قال: ﴿ إذ قال لهم شعيب﴾ ولم يقل أخوهم، وَهُمْ هُمْ، وهي إشـارة بلاغية، وجملـة الأوصاف التي وصف الله عز وجل بها أصحابَ الأيكة هي جملة الأوصاف التي وصف الله بها أهل مـدين. وفي قولـه عز وجل: ﴿وإلى مـدين أخاهم شعيبـا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مـدين أخاهم شعيبا، وقـولُه عز وجل: ﴿قال يـا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيرُه، قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ تنبيه على تأكيد أن أهم وظائف الأنبياء والمرسلين هي الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وأن الله عـز وجل يؤيـد رسلـه بالبينـات التي يؤمـن على مثلها البشر، وقـولُه تبـارك وتعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسـوا الناس أشياءهم، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصـلاحها، ذُلكم خير لكم إن كنتم مـؤمنين * ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدُون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا، واذكروا إذ كنتم قليـلا فكثَّركم وانظـروا كيف كـان عاقبـةُ المفسـدين﴾ تنبيـه على أهم الوصـايا التي وصَّى بها شعيب ﷺ قـومه بعـد دعوتهم إلى التـوحيد، ومعنى قـولـه عز وجـل: ﴿فأوفُوا الكيـل والميزان﴾ أي أَتِمُّوا للنـاس بـالكيل الـذي تكِيلُون به وبالـوزن الذي تَزِنُون به، ولا تنقصوا المكيـال والميزان، ولا تكونوا من المطففين ﴿الـذين إذا اكتـالوا على النـاس يَسْتَـوْفُون * وإذا كَـالُـوهم أو وزنـوهم يخسرون﴾. وفي تقديم شعيـب عليه السـلام الـوصية بإيفـاء الكيل

والميـزان على بقية وصـاياه بعـد توصيتهم بتـوحيد الله عـز وجل تنبيهٌ للنـاس ليحترزوا من هذه الجريمـة النكراء ولذلك قـال عز وجل: ﴿ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرُون * أَلَا يظن أولَئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يـوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ ثم وصـاهـم أن لا يبخسوا النـاس أشياءهـم، وأن يتركـوا الإفساد في الأرض، وأن لا يقطعوا الطـريق، وأن لا يَصُدُّوا عن سبيل الله، وأن يذكـروا نعمة الله عليهم بتنميتهم وتكثيرهم، وأن يعتبروا بما حل بالمكـذبين قبلهم من قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لـوط وهم يعلمون ما حل بهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم منها شيئا ولا تخونوهم فيها وتأخذوها على وجه البخس وهو الظلم والنقص، ويشمل ذلك تحريم الغصب والسرقة والرشوة والاستيلاء على حق الغير بطريق الحيل والمخادعة كتعييب السلع والتزهيد فيها ظلما، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرض بعد إصـلاحها﴾ أي ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيـه وقد بيَّن الله تبـارك وتعالى لكم مـا أحل وما حـرَّم حيث بعث لكم رسولا منكم يـرشدكم إلى الصراط المستقيم الـذي يحفظ لكل ذي حق حقه، فـلا تجوروا عن هـذا الصراط، ولا تعدلـوا عن شريعـة الله فإن العـدول عن شريعة الله يُظْهِـرُ الفساد في الأرض، وقولُـه عز وجل: ﴿ذُلكم خير لكم إن كنتم مـؤمنين﴾. قال ابن جريـر رحمه الله: ﴿ذُلكم خير لكم﴾ يقـول: هذا الذى ذكرت لكم، وأمرتكم به، من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وإيفاء الناس حقوقهم من الكيل والوزن، وترك الفساد في الأرض، خير لكم في عـاجل دنياكم وآجل آخـرتكم عنـد الله يوم القيـامة ﴿إن كنتم مـؤمنين﴾ يقول: إن كنتم مُصَدِّقِيَّ فيما أقـولُ لكم، وَأُؤَدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه اهـ. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تَقْعُدُوا بكل صراط تُوعِدُون وتَصُدُّون عن

سبيل الله من آمن بـه وتَبْغُونَهَا عِـوَجًـا واذكروا إذ كنتم قليـلا فَكَثَّرَكُمْ وانظـروا كيف كـان عـاقبة المفسـدين﴾ أي ولا تجلسـوا على الطـرقات لتهـديـد المارة وتخويفهم وترويعهم وللصـد عن سبيل الله بالبطش بالمؤمنين الذين صـدقوا شعيبا عليه السلام، وأنتم تحاولون الاعوجاج والعدول عن القصد وترغبون في النهج المعـوج وتكرهون الصراط المستقيـم. قال ابن جـرير رحمه الله وقـولُه: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثَّـركم﴾ يُذكِّرهم شعيب نعمة الله عنـدهم بأنْ كثَّر جماعتهم بعد أن كانـوا قليلا عددهم، وأنْ رفعهم من الذلة والخسـاسة يقول لهم: فاشكـروا الله الذي أنعم عليكـم بذلك، وأخلصـوا له العبـادة، واتقوا عقوبتـه بالطـاعة واحـذروا نقمته بترك المعصيـة ﴿وانظروا كيـف كان عـاقبةُ المفسدين﴾. يقول: وانظروا مـا نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين عَتَوْا على ربهم وعصـوا رسلـه من المَثُلاتَ والنقمات، وكيف وجـدوا عقبى عصيـانهم إياه؟ ألم يهْلك بعضَهم غَـرَقًا بالطـوفان، وبعضَهم رجما بـالحجارة وبعضهم بالصيحة؟ والإفساد في هذا الموضع معناه: معصية الله اهـ. وقولُه عز وجل: ﴿وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهـو خير الحاكمين﴾ وعد ووعيـد وترغيب وتـرهيب وبيانٌ لما ألقى الله عـز وجل في قلب شعيب عليه السـلام من الثقة في انتصـار الله عز وجل للمؤمنين وإنزال عقوبته بأعـدائه الكافرين، وتسلية للمؤمنين وتثبيت لأفئـدتهم. ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وإن كـان طـائفةٌ منكم آمنـوا بالـذى أرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ أي وإن كان فريق منكم يـا أهل مدين قد صدقـوني وآمنوا بما أرسلني الله عز وجل به، وفـريق منكم قد كفـر بي ولم يصدقني فيما أرسلني الله عـز وجل به فانتظـروا حتى يفصل الله بين الفريقين فيعـز أولياءه ويذل أعـداءه وهو خير الفاصلين. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وإن كان طائفة

منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾قال أبوجعفر: يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وإن كان طائفةٌ منكم﴾ وإن كانت جماعة منكم وفرقة ﴿آمنوا﴾ يقول: صدَّقوا بالذي أُرسلتُ به من إخلاص العبادة لله، وترك معاصيه وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين فاتَّبَعُوني على ذلك، ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ يقول: وجماعة أخرى لم يصدقوا بذلك ولم يتبعوني عليه ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا﴾ يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ﴿وهو خير الحاكمين﴾ يقول: والله خيرُ من يفصل، وأعدلُ من يقضي، لأنه لا يقع في حكمه مَيْلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباةٌ لأحدٍ اهـ. وقد ذكر الله تبارك وتعالى في مقامات من كتابه الكريم أن شعيبًا عليه السلام بيَّن لقومه أنه لا يسألهم على تبليغ الرسالة أجرا، ولا يطلب منهم عن نصيحته لهم عوضا، وأن قومه سخروا منه، واستهزءوا به وبصلاته، وقالوا: «إنما أنت من المسحرين . وما أنت إلا بشر مثلنا»، تماما كما قال الكفار لرسول الله محمد ﷺ ولإخوانه الأنبياء من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد قالوا له: يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ندع عبادة الأوثان والأصنام التى عبدها آباؤنا من قبل مجيئك لنا ودعوتك إيانا؟ وهل صلاتُك تُقَيِّدُ حريتنا في التصرف في أموالنا كيف نشاء من نهب أو سلب أو غصب أو رشوة أو تطفيف الكيل والميزان، كنا قبل دعوتك نظنك حليما رشيدا، وقد جهل هؤلاء أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم قد اتفقت دعوتهم على وجوب صيانة النفس والمال والعرض والعقل مع المحافظة على دين الله وتحليل ما أحل وتحريم ما حرَّم وأنه لا يحل لأحد أن يأخذ من مال غيره شيئا من غير طريق مشروع، وقد أجابهم شعيب عليه السلام بأن الله تفضل عليه وهداه إلى هذا الدين الذي يسلك بهم صراط الله المستقيم، وأن هذا رزق حسن تفضل الله به على عباده، وأنه مستمسك بهذا

الدين وأنه لـن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، ولا يـريد لهم إلا الخير والإصلاح ما استطـاع، وأن التوفيق بيد الله وحده عليـه يتوكل و إليه ينيب، ومع بيـانه الواضح ودعوته المشرقـة وفصاحة عبارته قالوا له: يـا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول، و إنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز، ولا شك أن فى هذا القصص من أخبار شعيب عليه السـلام مع قومه تثبيتا لفؤاد رسول الله ﷺ ومواساة للمؤمنين، وتطييبا لخواطـرهم على ما يلاقونه من أذى من المشركين، ليستقـر في نفوسهم أن نصر الله قـريب، وأن العاقبـة الحسنى للمؤمنين وأن دائرة السَّوْء على الكافرين.

قال تعـالى : ﴿قال الملأ الـذين استكبروا من قومـه لنخرجنك يـا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ، قال أو لو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذبا إن عـدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منهـا ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنـا ، وسع ربنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كـذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كـذبوا شعيبا كـانوا هم الخاسرين * فتـولى عنهم وقـال يا قـوم لقد أبلغتكم رسـالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه أرسل شعيبا عليه السلام إلى قومه مدين ، وأنه أمرهم بإخلاص العبادة لله وحـده ، وأن الله عز وجل أيده بالبينات التي يـؤمن على مثلهـا البشر ، وأنه ﷺ أمـرهم بإيفـاء الكيل والميـزان ، ونهاهم أن يبخسوا النـاس أشياءهم ، ونهاهم عن الإفسـاد في الأرض بعد إصـلاحها ، ونهاهم عن قطع الطريق وإخافة المارة ، كما نهاهم عن الصد عن سبيل الله ، وعن حرصهم على سلوك الطريق المُعْـوَجِّ والمنهج غير الرشيد ، وذَكَّرهم بنعم الله عليهم ، وخوفهم أن يصيبهم ما أصاب المكذبين بالرسل قبلهم كقوم نوحٍ وقوم هود وقوم صالح ، وما قوم لوط منهم ببعيد ، وتوعدهم بأن الله سَيَفْصِلُ بين الفريقين فينصر أولياءه ويُهْلِك أعداءه . شرع في بيـان جواب قومِ شعيب له ، وأن رؤساء قومه المستكبرين تطـاولوا عليه وعلى من معه من المؤمنين بعد أن سمعوا هذه المواعظ القيمـة ، والنصائح البينة وتوعـدوهم بالنفي والإبعاد من أرضهم أو الإكـراه على الدخـول في ملتهم ومشاركتهم فيما هم عليـه من الكفر والفسـوق والعصيان ، وأن شعيبًا عليـه السلام بيَّن لهم أنَّ من دخل في

ملتهم فقد أعظم الفرية على الله عز وجل، وأنـه ومن آمن معه قد توكلوا على الله الـذي يحميهم من شر أعدائهم غير أن هـؤلاء الكـافرين المكـذبين أصروا على كفرهم وتكذيبهم فأخذتهم الـرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، ونجّى الله شعيبًا ومـن معه من المؤمنين. وفي ذلك يقـول تبارك وتعـالى: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومـه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنـوا معك من قريتنا أو لَتَعُودُنَّ في ملتنـا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لقـد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم فكيف آسَى على قوم كـافرين﴾ ومعنى قوله عز وجـل: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قـريتنا﴾ أي لَنَنْفِيَنَّكَ يا شعيب ومن معك من المؤمنين من مـدينتنا وأرضنـا، وهكذا لم يأت نبيٌّ قـومه بـالرسـالة إلا عـادوه وهددوه بالإخراج من بلده، ولذلك قال ورقة بن نوفل لما أخبره رسول الله ﷺ بما جاءه من الوحي في غار حراء: هـذا الناموس الذي أنزل الله على موسى، يـا ليتني فيها جَـذَعًا، ليتني أكـون حيًّا إذ يخرجك قـومك، فقال رسـول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُم؟ قـال: نعم، لم يأت رجل قـط بمثل مـا جئتَ بـه إلا عُودِي. كما رواه البخـاري. والمراد بالقـرية هنـا المدينة كما قـال عز وجل في مكة: ﴿وكأيِّن من قـرية هي أشدُّ قـوةً من قريتك التى أخـرجتك أهلكناهم فـلا ناصرَ لهم﴾ والمراد بـالعَـوْد فى قولـه عـز وجل: ﴿أو لَتعودُنَّ في ملتنـا﴾ الصيرورة أي لتصيرن في ملتنـا، والعرب يستعملـون عاد بمعنى رجع إلى مـا كـان عليه، وبمعنى: استمـر ومنه قـوله عـز وجل: ﴿قل للذين كفـروا إن ينتهوا يُغْفَرْ لهم ما قـد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنتُ الأولين﴾ أي وإن يستمروا على كفرهم، وتأتي عاد بمعنى صار كـالذي في هذا المقام، قال ابن منظور في لسان العرب: تقول: عاد الشيء يعود عَوْدًا ومَعَادًا إذا رجع وقد يرد بمعنى: صار، ومنـه حديث معاذ: قال لـه النبي ﷺ: أَعُدْتَ فَتَّانًا يـا معاذ أي صِرْتَ، ومنـه حديث خـزيمـة، عَادَ لَهَا النَّقَـادُ مُـجْرَنْثِمًا أي صار. اهـ

وهكذا كانت كل أمة تهدد رسولها وتتوعده بالنفي من أرضهم أو الصيرورة في ملتهم كما قال عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لَتَعُودُنَّ في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لَنُهْلِكَنَّ الظالمين * ولَنُسْكِنَنَّكم الأرض من بعدهم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿أَوَ لو كنا كارهين﴾ أي أتخرجوننا من قريتكم وتصدوننا عن سبيل الله وتُجبروننا على الدخول في دينكم ولو كنا كارهين لذلك. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نَجَّانا الله منها﴾ أي قد أعظمنا الفرية على الله واختلقنا عليه الكذب إن صرنا إلى ملتكم ودخلنا في دينكم، لأن دينكم مبني على إقرار الشرك بالله واتخاذ الأنداد والأوثان من دونه، وذلك أقبح الكذب وأعظم الظلم والافتراء على الله، الذي له ما في السموات وما في الأرض وهو رب كل شيء وسيده ومليكه، وقد خلَّصنا الله تبارك وتعالى من الشرك به، فلن نشرك بربنا أحدا. وقوله عز وجل: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربُّنَا كل شيء علما﴾ أي وما ينبغي لنا ولا يتأتى منا أن نصير إلى دينكم وندخل في ملتكم، ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فإنه إن كان قضى على أحد من أهل ديننا أن يصير إلى دينكم ويرتد عن الدين الحق فإن مشيئة الله نافذة، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمِهِ ومشيئتِهِ الكونيةِ القدريةِ، وهو ربنا الذي بيده نواصينا وهو مالك أمورنا ومدبر شئوننا ومصلحُ أحوالنا، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كلَّ شيء علما، على الله توكلنا، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ تيئيسٌ لكفار قوم شعيب عليه السلام من دخول شعيب ومن معه من المؤمنين في ملتهم وصيرورتهم إلى دينهم، وبيانٌ بأن شعيبا ومن معه من المؤمنين قد استسلموا لله الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، واعتمدوا عليه عز وجل في تثبيتهم على الدين الحق الذي بعث الله به

شعيبًا عليه السلام، وأعلنوا ضراعتهم إلى الله عز وجل أن يفصل بينهم وبين أعدائهم وأن يقضي بينهم بالحق وأن ينصر رسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين، فإنه عز وجل خير الفاصلين وأحكم الحاكمين. وقولُه عز وجل: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ بيانٌ بأن كفار قوم شعيب قد أصروا على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم والصد عن سبيل الله، وتنفير الناس من الدخول في دين شعيب عليه السلام. قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: وقالت الجماعة من كفرة رجال قوم شعيب ــ وهم الملأ ــ الذين جحدوا آيات الله، وكذبوا رسوله، وتمادَوْا في غيهم لآخرين منهم: لئن اتبعتم شعيبًا على ما يقول، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله، والانتهاء إلى أمره ونهيه، وأقررتم بنبوته ﴿إنكم إذًا لخاسرون﴾ يقول: لمغبونون في فعلكم، وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون، إلى دينه الذي يدعوكم إليه، وهالكون بذلك من فعلكم. اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيبًا كأَن لم يَغْنَوْا فيها، الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين﴾ بيانٌ لما أصابهم بعد إصرارهم على تكذيب شعيب عليه السلام وبعد أن بلغوا أقصى غايات الضلال والإضلال، وأن الله تبارك وتعالى قد سلط عليهم عقوبةَ زلزلتهم زلزالا شديدًا من تحتهم، وسحابةَ عذابٍ أظلتهم من فوقهم، وصيحةً لم تُبْقِ منهم باقية فصاروا في أرضهم التي هددوا شعيبًا وصَحْبَهُ بإخراجهم منها أجساما ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم. واستؤصلوا وقُطِعَ دابرهم، وخسروا الدنيا والآخرة، وفاز شعيب ومن آمن معه، ولم يلحقهم خُسْرَانٌ ومعنى: ﴿كأَن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لم يقيموا بهذه الأرض ولم ينزلوا فيها، كما قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أَنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

والعرب يسمون المنزل الأنيس مَغْنىً، كما قال الشاعر:

ولقد غَنَوْا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد

وكما قال رؤبة:

هاجت ومِثْلي نَوْلُه أن يَرْبَعا حمامةٌ هاجت حَمَامًا سُجَّعَا

أبكت أبا الشعثاءِ والسَّمَيْدَعَا وعَهْدُ مَغْنَى دِمْنَةٍ بِضَلْفَعَا

بادت وأمسى خَيْمُهَا تَذَعْذَعَا

وقد وصف الله تبارك وتعالى كيفية إهلاك الذين كذبوا شعيبا، فقال هنا: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾. وقال تعالى في سورة هود: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يَغْنَوْا فيها، ألا بُعْدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ وقال في سورة الشعراء في قصة شعيب مع قومه: ﴿فكذبوه فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلَّةِ، إنه كان عذابَ يومٍ عظيم﴾ وقال في سورة العنكبوت: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قومِ اعبدوا الله وارجو اليوم الآخِر ولا تعثوا في الأرض مُفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ بتكرير قوله: ﴿الذين كذبوا شعيبا﴾ لبيان علة ابتلائهم بعقوبة قولهم للمؤمنين: ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذًا لخاسرون﴾ ولتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحق هؤلاء المكذبون من العذاب على جهلهم وافترائهم، ولتحذير كفار قريش من مغبة استمرارهم في تكذيب رسول الله محمد ﷺ.

ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم فكيف آسَى على قومٍ كافرين﴾ قال ابن جرير رحمه الله:

قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: فأدبر شعيب عنهم، شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم عذاب الله، وقال لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذبوه حُزْنًا عليهم: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي﴾ وأديَّتُ إليكم ما بعثني به إليكم مِن تحذيركم غَضَبَهُ على إقامتكم على الكفر به، وظلم الناس أشياءهم ﴿ونصحت لكم﴾ بأمري إياكم بطاعة الله ونهيكم عن معصيته، ﴿فكيف آسَى﴾ يقول: فكيف أحزن على قوم جَحَدُوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، وأتوجع لِهَلاكهم؟!اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فكيف آسَى على قوم كافرين﴾ أي إنهم لا يستحقون أن يُحزَنَ عليهم لأنهم هم الذين أهلكوا أنفسهم بسبب إصرارهم على الكفر بربهم وتكذيب رسولهم.

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون * ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون * تلك القرى نقص عليك من أنبائها، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوبهم الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾.

بعد أن ذكر تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام تثبيتًا لفؤاد رسول الله ﷺ وطُمَأْنِينَةً لأصحابه رضي الله عنهم ومواساةً لهم على ما يلاقونه من أذى كفار قريش لهم ليستقر في نفوسهم أن نصر الله قريب من المؤمنين، وأن وعد الله حق، كما قال عز وجل: ﴿إنا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والَّذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وفي ذلك كله تحذير لكفار قريش ومن تبعهم من المكذبين وتخويف لهم بأنهم باستمرارهم على تكذيبهم لرسول الله محمد ﷺ يُعَرِّضُون أنفسهم لعقوبة من الله تحل بهم، لينزجروا عما هم عليه من الكفر والتكذيب، شرع هنا في تأكيد ذلك ببيان أن هذا هو سنة الله في الذين خَلَوْا من قبل، وأنه ما أرسل في قرية من نذير إلا ابتلى أهلها ليحذرهم من تكذيب رسلهم، وأن هذا ليس خاصا بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط أو قوم شعيب بل هو عام لجميع الأمم،

وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضَّرعون * ثم بدَّلنا مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عَفَوْا وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي وما بعثنا في مدينة من رسول وكذبه أهلها إلا ابتلينا أهل هذه القرية بالشدة والنقص في أموالهم وأنفسهم، وسلَّطنا عليهم الأوصاب والجدب ليتضرعوا إلى الله ويصدقوا رسوله ﷺ، فلم يتضرعوا ولم ينيبوا فبدَّل الله عز وجل حالهم واختبرهم بالسعة ورغد العيش حتى كثرت أموالهم وأولادهم فلم يشكروا الله على ذلك، ولم ينيبوا إلى الله ونسبوا ما أصابهم من الشدة أوَّلا ومن الرخاء ثانيًا إلى الدهر، ولم يتفطنوا إلى هذا الامتحان والابتلاء، فأهلكهم الله عز وجل وسلط عليهم العذاب والعقوبة التي فاجأتهم وأصابتهم على غِرَّة منهم وهم لا يدرون ولا يشعرون بوقت هجوم العذاب عليهم، بسبب انطماس بصائرهم حيث لم يتفطنوا عندما سلط الله عليهم البأساء والضراء أولا وزعموا أنها لم تكن عقوبة لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله ﷺ حتى أخذهم أخذ عزيز مقتدر، واستأصل شأفتهم وقطع دابرهم. وهذا ولا شك بخلاف حال المؤمنين الذين إذا أصابتهم الضراء صبروا واحتسبوا ذلك عند الله عز وجل وإذا أصابتهم السراء شكروا ربهم على ما أنعم به عليهم. كما روى مسلم في صحيحه من حديث صُهَيْب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عَجَبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره له كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاءُ صبر فكان خيرا له. والمراد بالقرية في هذا المقام مدينة الأمة وأم قراها كما أشار الله تبارك وتعالى

إلى ذلك في قوله عز وجل: ﴿وما كان ربك مُهْلِكَ القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا، وما كنا مُهْلِكِي القرى إلا وأهلُهَا ظالمون﴾ وقولُه عز وجل: ﴿ثم بدَّلنا مكان السيئةِ الحسنة﴾ أي جعلنا مكان ما يسوؤهم من الشدة والقحط والأوصاب ما يسرهم من الرخاء والسراء، وغيَّرنا أحوالهم من نكد الحياة إلى رغد العيش امتحانًا واختبارًا وابتلاء. وقولُه تبارك وتعالى ﴿حتى عَفَوْا﴾ أي كثروا، ولفظ عفا يستعمل لمعان كثيرة، فيقال: عفا يعفو إذا أعطى وعفا يعفو إذا ترك حقًّا، وعفا القوم أي كثروا، وعفا النبت والشَّعَر وغيره يعفو فهو عاف أي كثر وطال، قال ابن منظور في لسان العرب: وفي الحديث أنه ﷺ أمر بإعفاء اللحى، هو أن يُوَفَّرَ شعرها ويُكَثَّر ولا يُقَص كالشوارب من عَفَا الشيءُ إذا كثر وزاد. اهـ

ومن ذلك قول لبيد:

ولكنا نُعِضُّ السيفَ منها　　　بأسْوُقِ عَافياتِ الشَّحم كُومِ

وقولُه تبارك وتعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ ترغيب في الإيمان والتقوى وترهيب من الكفر والتكذيب بالرسل، أي ولو أن هذه الأمم وأصحاب هذه المدائن صدقت بربها وخافت من عقابه وآمنت بما أرسل الله عز وجل لها من رسول وانقادت لما يأمرها الله عز وجل به وعملت بشريعة الله تبارك وتعالى لفتح الله عليهم أبواب الخيرات وتابَعَ عليهم سعة أرزاقهم فأرسلَ السماء عليهم مدرارا، وأَمَدَّهُمْ بأموال وبنين وجعل لهم جنات وأنهارا، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولفاضت عليهم البركاتُ من الأرض بالنبات والثمار وكثرة المواشي والأنعام، كما قال عز وجل: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفَّرنَا عنهم سيئاتِهم ولأدخلناهم جناتِ النعيم * ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنْزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم

ومن تحت أرجلهم﴾ ومن الأمور المُجَرَّبَة أن كلَّ أمة طَبَّقَتْ شريعة الله عز وجل وانقادت لأوامر الله ونواهيه ووقفت عند حدوده فاضت عليها الخيراتُ والبركاتُ وعَمَّهَا الأمنُ والاستقرارُ، وأنها إذا ابتعدت عن تطبيق شريعة الله أذاقها الله عز وجل لباس الجوع والخوف كما قال عز وجل: ﴿وضرب الله مَثَلا قريةً كانت آمِنَةً مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بِأَنْعُمِ الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذابُ وهم ظالمون﴾ ولذلك قال هنا: ﴿ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المعاصي والمحارم والآثام. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أهلُ القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أَوَ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون * أفأمِنوا مكر الله، فلا يأمَنُ مكر الله إلا القومُ الخاسرون﴾ تخويف وتحذير لكفار قريش ولكل من كفر بالله وكذب المرسلين، وانتهك الحرمات، ولم يُقِمْ شرع الله، وترهيب لهؤلاء أن يُنزِلَ اللهُ بهم عُقُوبَتَهُ وأن يفاجئهم بعذابه ليلا أو نهارا، أو أن يستدرجَهُم ثم يأخذَهُمْ أخذَ عزيز مقتدر. والاستفهام في قوله: ﴿أفأمِنَ أهل القرى﴾ وفي قوله: ﴿أَوَمِنَ أهل القرى﴾. وفي قوله: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ للتوبيخ والتقريع، والفاء في قوله ﴿أفأمن﴾ للعطف على مقدر يقتضيه المقام وكذلك الواو في قوله ﴿أوأمن﴾ وكذلك الفاء في قوله ﴿أفأمِنُوا مكر الله﴾ والمراد بمكر الله ما يستدرج به أعداءه من النعم حتى إذا فرحوا بما أُوتُوا أخذهم بغتة فإذا هم مبلسون، كما قال عز وجل: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزَيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون * فلما نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أخذناهم بغتة فإذا هُمْ

مبلسون * فَقُطِعَ دَابِرُ القومِ الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين﴾ والتعبير بأهل القرى وتكريره لتحذيرهم بأنهم مهما كان جمعهم فإنهم لن يُعجِزوا الله إن أصروا على الكفر به وتكذيب رسوله كما أنهم مهما كثروا فإن الله تبارك وتعالى كفيل بأن يمدهم ببركات من السماء والأرض إن آمنوا بالله ورسوله واستقاموا على شريعة الله لأن جميع الإنس والجن من الأولين والآخرين لو وقفوا في صعيد واحد وسأل كلٌّ واحد منهم مسألة وأعطى الله كل سائل ما سأل ما نقص ذلك مما عند الله إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، والتعبير بقوله: ﴿وهم يلعبون﴾ لتوبيخ الكفار على أعمالهم التي لا تجلب لهم نفعًا ولا تعود عليهم بالخير ولا تنقذهم من النار. قال الزجاج: وقوله: ﴿وهم يلعبون﴾ يقال لكل من كان في شيء لا يُجْدِي أو في ضلال: إنما أنت لاعب، وإنما قيل لهم: ﴿ضُحًى وهم يلعبون﴾ أي وهم في غير ما يُجْدِي عليهم. اهـ كما أن قوله عز وجل: ﴿وهم يلعبون﴾ للتنبيه على أنهم مستغرقون في اللهو، متمكنون في الغفلة وشر قلوب الخلق هو القلب اللاهي الغافلُ الجاحد لآلاء الله المكذبُ برسل الله صلى الله عليهم وسلم. وفي قوله عز وجل: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ ترهيب شديد من الأمن من مكر الله، ولذلك أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يُؤتُون ما آتَوْا وقلوبهم وَجِلَةٌ أنهم إلى ربهم راجعون. وقال: ﴿أولَئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ . وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَ لم يَهْدِ للذين يَرِثُونَ الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول: أَوَ لم يَبِنْ للذين يُسْتَخْلَفُونَ في الأرض بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعَتَوْا عن أمر ربهم ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ يقول؛ أنْ لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلَهم فأخذناهم بذنوبهم وعَجَّلْنَا لهم بأسنا كما

عجلناه لمن كـان قبلهم ممن ورثوا عنه الأرض، فأهلكناهم بـذنوبهم ﴿ونطبع على قلـوبهم﴾ يقول: ونختم على قلـوبهم ﴿فهم لا يسمعـون﴾ موعظـة ولا تذكيرًا، سَمَاعَ منتفعٍ بهما. اهـ وهذا شبيـه بقوله عز وجل: ﴿أفلم يهد لهم كما أهلكنـا قبلهم مـن القـرون يمشـون في مسـاكنهـم إن في ذٰلك لآيـات لأولي النُّهَى﴾ وبقولـه: ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القـرون يمشون في مسـاكنهم إن في ذٰلك لآيات أفـلا يسمعـون﴾ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بـالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذٰلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ هـذا إخبار من الله تبارك وتعالى بأنه أهلك هـؤلاء الذين استأصلهم من أهل القـرى كقوم نـوح وعاد وثمـود وقوم لوط وقـوم شعيب، الذين قص قصصهم لعلمـه عز وجل أنهم مصرون على التكذيب وأنهم لن يـؤمنوا أبدا كما قـال عز وجل: ﴿وأُوحي إلى نـوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كـانوا يفعلون﴾ وقال بعد قصة نوح في سورة يونس: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبـوا به من قبل، كذٰلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي وكما طبع الله عز وجل على قلوب الأمم المكذبة التي أهلكها كذلك يطبع على قلوب من علم أنهم لن يؤمنوا من قومك، وما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من عهد ولقد وجـدنا أكثرهم فاسقين خـارجين عن الطاعة حيث كـانوا يطلبون من أنبيائهم آيـات يقترحونها غير الآيات والمعجـزات التي جاءتهم من قبل، ويعاهـدونهم على الإيمان إن جاءتهم فإذا جـاءتهم الآية مبصرة نقضـوا العهد وكانوا بها كافرين.

قال تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين * وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين * حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال الملأ من قوم فرعون إن هٰذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم * وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقُوا فلما ألقّوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾.

بعد أن ذكر تبارك وتعالى قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام بالأسلوب البلاغي الذي يقتضيه المقام المفيد للتأسي والاقتداء في الصبر والاحتساب بهؤلاء الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام والتحذير من السير في ركاب المكذبين بهم الذين عاقبهم الله بأنواع من العقوبات الرادعة لمن يكذب بالمرسلين، ثم أكد ذلك ببيان أن هذه هي سنة الله في الذين خلوا من قبل وأنه ما أرسل في قرية من نذير إلا حذرهم من تكذيب رسولهم، وأن هذا ليس خاصًا بقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط أو قوم شعيب، بل هو عام لجميع الأمم المكذبة الماضية، شرع هنا في ذكر قصة موسى عليه السلام وساقها على سبيل الإطناب، حيث بسطها أكثر من غيرها، لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها لأن فرعون قد بلغ من السلطان والتسلط والقهر لبني إسرائيل ما لم يبلغه أحد من المكذبين حتى

ادعى أنه الرب الأعلى، وقال لقومه: ما علمت لكم من إله غيري، وعلا في الأرض، ولم تنتشر قصة نبي من أنبياء الله السابقين انتشار قصة موسى مع فرعون، لذلك كانت العبرة بها أكبر والعظة بها أبلغ، وثُمَّ في قوله تبارك وتعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها﴾ لإفادة التراخي وطول الوقت بين زمن موسى عليه السلام وزمن مَن قَصَّ الله عز وجل قصصهم من الرسل الذين سبقوه، كما أشار إلى ذلك في مقامات أخرى من الكتاب الكريم حيث قال في سورة يونس بعد ذكر قصة نوح: ﴿ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، كذلك نطبع على قلوب المعتدين * ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هٰذا لسحر مبين﴾ الآيات. وقال عز وجل في سورة «المؤمنون» بعد ذكر إهلاك قوم نوح وبعض الأمم التي كذبت رسلها: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين * ما تسبق من أمة أَجَلَهَا وما يستأخرون * ثم أرسلنا رسلنا تترى كلّما جاء أمةً رسولُها كذبوه، فأتْبَعْنَا بعضَهم بعضا وجعلناهم أَحَادِيثَ، فَبُعْدًا لقوم لا يؤمنون * ثم أرسلنا موسى﴾ الآيات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ هو مُوجَزٌ لقصة موسى عليه السلام مُقَدَّمٌ بين يَدَيْ تفصيل أنبائها، التي تفيد أن الله عز وجل قد بعث موسى عليه السلام إلى فرعون مؤيدا بالآيات والمعجزات التي يؤمن على مثلها البشر، فكفر بها فرعون وقومه فماذا كانت عاقبتهم؟ فلقد أغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ولقد أخذ فرعون يصرخ عندما أدركه الغرق يقول: آمنت بالذي آمنَتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، وشفى الله قلب موسى ومن معه من المؤمنين، وفي هذا تثبيتٌ تامٌّ لفؤاد رسول الله ﷺ ومن

معه من المؤمنين، والواو في قوله عز وجل: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ للاستئناف والشروع في تفصيل أنباء قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، وفرعون لقب ملك مصر في زمن موسى عليه السلام وليس اسما لهذا الطاغية، وقد استعمل العرب الفرعنة بمعنى الكبر والتجبر، قال ابن منظور في لسان العرب المحيط: فَرْعَن: الفرعنة: الكبر والتجبر، وفرعونُ كلِّ نبيٍّ مَلِكُ دهره قال القَطَامِيُّ:

وَشُقَّ الْبَحْرُ عن أصحاب موسى وَغُرِّقَتِ الْفَراعِنَةُ الكِفَارُ

الكِفارُ: جمع كافر كصَاحِبٍ وصِحابٍ، وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه من هذا، وإنما تُرِكَ صرفُه في قول بعضهم لأنه لا سَمِيَّ له، كإبليس فيمن أخذه من أَبْلَسَ، قال ابن سيده: وعندي أن فرعون هذا العَلَمَ أعجميٌّ، ولذلك لم يُصْرَف، الجوهري: فرعونُ لقب الوليد بن مُصْعَبٍ ملكِ مصر، وكلُّ عاتٍ فرعونٌ، والعُتَاة الفراعنةُ، وقد تَفَرْعَنَ، وهو ذو فَرْعَنَةٍ أي دَهَاءٍ وتكبر. اهـ ومعنى: قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ على أن لا أقولَ على الله إلا الحقَّ﴾ أي إني جديرٌ وقَمِنٌ وحَرِيٌّ وخليق بسبب أني رسول رب العالمين أن أكون أبعد الناس عن الافتراء على الله الذي اختارني وأرسلني إليكم. ومعنى قوله: ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل مَعِيَ بني إسرائيل﴾ أي قد أرسلني الله عز وجل إليكم وأيدني بالبرهان القاطع والمعجزة القاهرة الشاهدة بأني مبعوث من الله الذي خلقكم وهو مالككم وسيدكم ورازقكم، فأطلق بني إسرائيل وخَلِّ عنهم وخَلِّصهم من العذاب المهين الذي يلاقونه منكم، وقد كانت رسالة موسى ﷺ ذات شقين: الأول: دعوة فرعون وقومه وبني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والثاني: تخليص بني إسرائيل من العذاب المهين الذي يلاقونه من فرعون وملئه، وإلى ذلك يشير قولُه تبارك وتعالى: ﴿ولقد فَتَنَّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أَدُّوا إِلَيَّ عبادَ

الله إني لكم رسـول أمين * وأن لا تَعْلُـوا على الله إني آتيكم بسلطـان مبين﴾ وقـولُـه تبـارك وتعـالى: ﴿قـال إن كنتَ جئت بـآيــة فَأْتِ بها إن كنت من الصادقين * فألقـى عصاه فإذا هي ثعبـان مبين * ونزع يده فإذا هـي بيضاء للناظـرين﴾ أي قال فرعـونُ لعنه الله لموسى ﷺ: إن كنتَ قـد حضرتَ إلينا ومعك البرهـان الذي تشير إليـه فأبرزه لنـا حتى نـراه ونشاهـده إن كنت من الصادقين في أنك رسولٌ من رب العالمين، وأن معك آيـةً تؤيدك فيما تدعي، وقـولُه عـز وجل: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبـان مبين * ونزع يـده فإذا هي بيضاءُ للناظرين﴾ أي فرمى مـوسى ﷺ عصاه على الأرض أَمَامَ فرعون وملئه فانقلبت العصـا حية لا يخطـر على بال من يـراها إلا أنها ثعبـان حقيقي يهتز ويتحرك كما يتحـرك الثعبان تماما، وسـارع موسى ﷺ فأخرج يـده من درعه ورفعها في وجه فـرعون وقومه فإذا هي بيضاء تتـلألأ من غير برص ولا مرض وهم يعرفون أن موسى عليه السلام آدم اللون أسمر البشرة، وقد جرت السنة الإلهية في أن يبعث الله كل نبي بمعجـزة تفوق أعلى درجات العلم الـذي برع فيه قومه ليكـون أظهر للحق، ويعرفوا أنه من عنـد الله وأنه لا يقدر على مثله البشر، ولذلك أرسل محمدًا ﷺ بالقرآن وجعله معجزته الكبرى لأن قوم محمد ﷺ قد بـرعوا في الفصاحـة والبيان والبلاغـة حتى أقاموا للخطبـاء والشعراء منابـر في أسواق عكـاظ ومجنة وذي المجـاز، وكما أرسل عيسى عليـه السلام بإبراء الأكمه والأبـرص وإحياء الموتى بإذن الله، لأن قومه قـد بلغوا في الطب شأوا لم يُسْبَقُوا إليه، وقـد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن فرعون وقـومه قد أيقنوا في نفوسهم عندما رأوا العصا قد انقلبت إلى حية تسعى وأن يد موسى صارت بيضاء مـن غير سوء واعتقـدوا أن هذه آيـة قاهرة فـوق ما كـانوا يطلبـون من موسى ولكنهم جحدوها ظلماً وعُلُوّاً حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتُنَـا مبصرةً قالـوا هٰذا سحـر مبين * وجحدوا بها واسْتَيْقَنَتْهَـا أنفسهم ظلماً

وَعُلُوًّا، فانظر كيـف كان عاقبة المفسدين﴾ وقولُـه تبارك وتعالى: ﴿قال الملأ من قـوم فرعون إنَّ هـٰذا لساحـر عليم * يريـد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون * قالوا أَرْجِهْ وأخـاه وَأَرْسِلْ في المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم﴾ إشـارة إلى أن قوم فـرعـون وقفوا من الآيـة التي جـاء بها موسى عليـه السلام نفس الموقف الذي وقفه فرعون منها، إذ أن الله تبارك وتعالى أسند هذا الكلام أيضًـا إلى فرعون ممـا يقضي بتطابق رأي فـرعون وملئه فيما تشـاوروا فيه حيث قال في سورة الشعراء: ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * قال للملأ حوله إن هٰذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحـره فماذا تأمـرون * قـالـوا أرجـه وأخـاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحَّار عليم﴾ وهـذا الجواب من فرعون وملئه بعد أن رأوا آية العصـا واليد هو نوعٌ من الخداع لأتبـاعهم من الرعاع حتى لا يسـارعوا إلى الإيمان بمـوسى عليه السـلام، وحيلـةٌ من حيلهم لإطفاء نـوره وإخماد كلمته، ومعنى: ﴿فماذا تأمرونَ﴾ أي فماذا تشيرون به علينا؟ ومعنى: ﴿أرجه وأخـاه وأرسل في المدائن حاشرين * يـأتوك بكل ساحـر عليم﴾ أي أمهله وأخاه هارون ولا تعجل بمعاقبتهما واجعـل بينك وبينه موعدًا واجمع له كل سحار عليم، فـابعث رجالك إلى سـائر أنحاء مـدائن مملكتك ومدارس السحـر فيها حـاشرين أي جـامعين لك كل خبير متمكن من فنون السحـر ليغلبوا موسى ويقضوا على سحره ويبطلوا دعـوته، وقد أشارالله تبارك وتعالى إلى ذلك في سورة طه حيث يقول: ﴿قال أجئتنـا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحـر مِثْلِهِ فاجعل بيننا وبينك مـوعدا لا نُخْلِفُهُ نحن ولا أنت مكانـا سُوًى * قال موعـدكم يوم الزينـة وأن يُحْشَرَ الناسُ ضُحًى * فتـولى فرعـونُ فجمع كيده ثم أتـى﴾ وقولُـه تبارك وتعـالى: ﴿وجاء السحـرةُ فرعونَ قالوا إنَّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾

أي فأرسل فرعون في المدائن حاشرين فحشروا السحرة وجمعوهم عند فرعون، فلما اجتمعوا قالوا لفرعون: هل لنا ثواب ومكافأةٌ إذا غَلَبْنَا موسى وأبطلنا سحره نستحقه عندك؟ قال: نعم لكم عندي مكافأة وأجر وأزيدكم على ذلك بأن تكونوا أقرب الناس إليَّ في مجلسي، وأجعلكم مستشاريَّ في كل أموري. وقد أشار الله تبارك وتعالى في سورة الشعراء إلى أن فرعون وملأه لم يكتفوا بجمع السحرة لموسى بل جمعوا رعاعهم للمغالبة وإظهار التأييد للسحرة حيث يقول عز وجل: ﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم * فَجُمِعَ السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نَتَّبِعُ السحرةَ إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرةُ قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذًا لَمِنَ المقربين﴾ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿قالوا يا موسى إما أن تُلْقِيَ وإما أن نكون نحن الملقين * قال أَلْقُوا فلما أَلْقَوْا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أي فلما اجتمع السحرة مع موسى في الموعد والمكان المتفق عليهما بين موسى وفرعون قال السحرة لموسى عند المبارزة: أتختار أن تُلْقِيَ عصاك أوّلا أو نلقي نحن عِصِيَّنَا أوّلا فكان من الحكمة البالغة أن وفّق الله عز وجل موسى عليه السلام فقال لهم: أَلْقُوا أنتم أولا، لأنهم إذا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم وبهروا الناس ببهرجهم وأخافوهم من حبالهم وعصيهم التي صاروا يرونها ويخيل إليهم أنها تسعى ثم ألقى موسى عصاه فانقلبت حية وابتلعت جميع حبالهم وعصيهم أيقن الناس بمعجزة موسى عليه السلام، ولذلك خرَّ السحرة ساجدين. ومعنى: ﴿سَحَرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ أي خَيَّلُوا إلى أعين الناس وصرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل حتى أدخلوا الرعب في قلوبهم وحتى أوجس في نفسه خيفة موسى عليه السلام بسبب هذا

السحر العظيم، كما قال عز وجل: ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أوَّلَ من ألقى * قال بل ألقُوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خِيفةً موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾.

قال تعالى: ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون ءَآمنتم به قبل أن آذن لكم إن هٰذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبرا وَتَوَفَّنَا مسلمين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن السحرة خَيَّرُوا موسى عليه السلام بين أن يكون هو البادئ بإلقاء عصاه أو أن يكونوا هم البادئين، وأن موسى عليه السلام أمرهم أن يكونوا هم أول من ألقى، وأنهم لما أَلْقَوْا يعني حبالهم وعصيهم سحروا أَعْيُنَ الناس وأدخلوا الفزع والرعب والرهبة والخوف في قلوبهم بسبب ما جاءوا به من السحر العظيم، شرع عز وجل هنا فَبَيَّنَ أنه أَوحى إلى موسى بإلقاء عصاه فابتلعت جميع حبالهم وعصيهم التي خُيِّلَ إلى الناس أنها حَيَّاتٌ وثعابينُ، وأن الله تبارك وتعالى قد أظهر برهان موسى ﷺ وأيده بهذه المعجزة الباهرة، وأبطل ما جاء به السحرة، فاندحر فرعون وقومه وانقلبوا أذلة صاغرين، إلا السحرة، فإنهم عندما عاينوا هذه الآية العظيمة وأنها ليست من قبيل السحر خَرُّوا ساجدين لله تبارك وتعالى، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، فسارع عدو الله فرعونُ المخذولُ إلى توجيه اللوم للسحرة معاتبًا لهم أوّلا على إيمانهم قبل استئذانه بذلك، ثم أخذ في توجيه التهم لهم بأنهم تمالئوا مع موسى وهارون ليفسدوا في الأرض وليخرجوا منها أهلها، ثم توعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن يُصَلِّبَهُم في جذوع النخل ليردهم بذلك عن الدين الحق إلى دينه الباطل، فأعلنوا أنهم

لن يـرجعوا عن الـدين الحق أبـدا مهما أُوذُوا في الله عز وجل ونَـدَّدُوا بفرعـون وبدينه الباطل وتضرعوا إلى الله عز وجل أن يُفْرِغَ عليهم صبرا وأن يثبتهم على الإيمان حتى يمـوتوا مسلمين. وفي ذلك يقـول تبارك وتعـالى: ﴿وأوحينا إلى موسـى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف مـا يأفِكُون﴾ إلى قـوله تبـارك وتعالى: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرًا وتَوَفَّنَا مسلمين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأوحينا إلى مـوسى أن ألق عصاك فإذا هي تَلْقَفُ مـا يأفكـون﴾ أي وأمرنـا موسى عليـه السلام بإلقـاء عصاه فألقـاها فـانقلبت حية عظيمـة وانطلقت بسرعة هـائلة تأخذ حبـالهم وعصيهم وتبتلعها حتى أَفْنَتْهَـا عن آخرها والْتَقَمَتْهَـا جميعا ولم تُبْقِ من إفكهم وكذبهم وبـاطلهم شيئا، وقـولُه تبارك وتعـالى: ﴿فوقع الحق وبطل مـا كانـوا يعملـون﴾ أي فظهـر الحق واستقر في نفـوس الحاضرين أن موسى رسول من رب العالمين، وبطل السحر وذهبت مخايله وتمويهاته، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿فَغُلِبُوا هنالك وانقلبـوا صاغـرين﴾ أي فَهُزِمَ فرعـون وملؤه واندحروا وصـاروا في مكان مبارزتهم أذلاء مقهورين مدحـورين مبهوتين بعد أن كـانوا متكبرين متعـالين متغطـرسين متعجرفين، وقـولُـه تبارك وتعـالى: ﴿وَأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالـوا آمنا برب العالمين * ربِّ موسى وهارون﴾ قال ابن جـرير رحمه الله: قـال أبوجعفر: يقـول تعالى ذكـره: وأُلْقِيَ السحرة عنـدما عـاينوا من عظيم قـدرة الله، ساقطين على وجـوههم سُجَّدًا لـربهم، يقولـون: ﴿آمَنَّا بـرب العالمين﴾ يقولـون: صدَّقْنا بما جـاءنا بـه موسى، وأنَّ الذي علينا عبادتـه هو الذي يملك الجن والإنس وجميع الأشياء وغير ذلك، ويُدَبِّرُ ذلك كلَّه، ﴿رب موسى وهارون﴾ لا فرعون. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قـال فـرعـون آمنتم بـه قبل أن آذن لكم إن هـٰذا لمكر مكـرتموه في المدينـة لِتُخْرِجُوا منهـا أهلها فسوف تعلمون﴾ إلى قوله: ﴿وتـوفنا مسلمين﴾ بيان لما صار عليه حـال فرعون المتردد بين الخَوَر والذُّل من ناحيـة والتكبر والغطرسة

من ناحية أخرى حيث بدأ بالمعاتبة للسحرة على إيمانهم بموسى قبل استئذانه، وهذا يدل على استخذائه وحُمْقِهِ ثم انتقل إلى اتهامهم بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذا المكر والتدبير الذي أدى إلى هزيمتهم ثم انتقل الى التهديد بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وصلبهم على جذوع النخل، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يُخْبِرُ تعالى عما توعَّد به فرعون لعنه الله السحرةَ لما آمنوا بموسى عليه السلام، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله: ﴿إنَّ هٰذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي إن غَلَبَتَهُ لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وهو يعلم وكلُّ من له لُبٌّ أنَّ هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ماجاء من مدين دعا فرعونَ إلى الله وأظهر المعجزاتِ الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعونُ في مدائن ملكه، ومَعَامِلَةِ سلطنته، فجمع سحرةً متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملأ من قومه، وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعطاء الجزيل، ولهذا قد كانوا أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك، والتقدُّمِ عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحدا منهم، ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعونُ يعلم ذلك، وإنما قال هذا تَسَتُّرًا وتدليسًا على رعاع دولته وجَهَلَتِهِم كما قال تعالى: ﴿فاسْتَخَفَّ قومَهُ فأطاعوه﴾ فإن قوما صدَّقوه في قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ من أجهل خلق الله وأَضَلِّهم. اهـ ومعنى قوله: ﴿إنَّ هٰذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي إن هذا الصنيع الذي صنعتموه من سجودكم وإعلانكم بأنكم آمنتم برب موسى وهارون هو تدبير تم بينكم وبين موسى وخدعة وحيلة اتفقتم عليها في المدينة قبل مجيئكم إلى هنا لتكون الدولة في مصر لكم أنتم وموسى وتطردوا الكبراء

والرؤساء منهاوقولُه: ﴿فسوف تعلمون﴾ تهديـد ساقه عدوُّ الله فرعونُ بطريق الإجمال للتهويل والترويع ثم فَصَّلَهُ فقـال: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأُصَلِّبَنّكم أجمعين﴾ أي لأقطعن من كل واحد منكم رجله اليمنى ويـده اليسرى أو رجلـه اليسرى ويـده اليمنى، ثم لأصلبنكم أي لأُعَلِّقَنكم على جـذوع النخل لتبقى جثثكم شـاهـدا على تنكيلي بكم، وقـولـه تبـارك وتعالى: ﴿قالـوا إنا إلى ربنا منقلبون * ومـا تنقم منا إلا أن آمنا بـآيات ربنا لما جاءتنا، ربنـا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين﴾ قـال ابن جرير الطبري رحمه الله: قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: قال السحرةُ مُجِيبَةً لفرعون، إذْ توعَّدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ يعني بالانقـلاب إلى الله الرجـوع إليه والمصير، وقـولُه: ﴿ومـا تنقم منـا إلا أن آمنا بآيات ربنا﴾ يقـول: ما تنكر منا يا فرعـون وما تجد علينا إلا من أجل أن آمنا أي صدَّقنا ﴿بـآيات ربنا﴾ يقول: بحجج ربنا وأعلامـه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد سوى الله الذي له ملك السموات والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسألتـه الصَبْرَ على عـذاب فـرعـون، وقبض أرواحهم على الإسـلام فقالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبرا﴾. يَعْنُـون بقولهم: ﴿أفرغ﴾ أنزل علينا حَبْسًا يَحْبِسُنَا عن الكفـر بك عند تعـذيب فرعـون إيانـا ﴿وتوفنـا مسلمين﴾ يقول واقبضنا إليك على الإسـلام دين خليلك إبراهيـم ﷺ لا على الشرك بك. اهـ وقد وصف الله تبـارك وتعالى مـا كان من موسى والسحـرة ومن فرعـون وملئه وكيف سـارع السحرة إلى الإيمان بمـوسى عندمـا ألقوا حبـالهم وعصيهم ثم ألقى موسى عصاه وانقلبت حية هائلة عظيمة وابتلعت جميع ما صنعوا فأيقن السحرةُ أن هـذا لا يقدر عليه البشر ولا يأتي بـه إلا الله مالك القُـوَى والقُدَر فخروا لله ساجدين معلنين إيمانهم بالله ورسله صابرين على كل بلاء يصيبهم في مرضـاة الله، فذكـر ذلك هنا في سورة الأعـراف، وقال عـز وجل في سورة

طه : ﴿فتـولى فرعونُ فجمع كيده ثم أتى * قـال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فَيُسْحِتَكُم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قـالوا إنْ هٰذان لسـاحران يريـدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المُثْلَى * فَأَجْمِعُـوا كيدكم ثم ائتوا صفًّا ، وقد أفلح اليومَ مَن استعلى * قالوا يا مـوسى إما أن تلقي وإما أن نكون أولَ من أَلْقَى * قـال بل أَلْقُـوا فإذا حبـالهم وعِصِيُّهم يُخَيَّـلُ إليـه من سحـرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خِيفَةً مـوسى * قلنا لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فَأُلْقِيَ السحـرةُ سُجَّدًا قالوا آمنـا برب هارون وموسى * قـال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الـذي علمكم السحر فَـلَأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخـل وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عذابا وأبقـى * قالوا لن نؤثـرك على ما جاءنـا من البينات والذي فطـرنا فاقض مـا أنت قاضٍ إنما تقضي هٰذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحـر، والله خير وأبقى﴾ وقـال عـز وجل في سـورة الشعـراء : ﴿فَجُمِعَ السحـرةُ لميقات يـوم معلـوم * وقيل للناس هـل أنتم مجتمعون * لعلنـا نَتَّبِعُ السحرة إن كانوا هـم الغالبين * فلما جاء السحرةُ قالوا لفـرعون أَئِنَّ لنا لأجرا إن كنـا نحن الغالبين * قـال نعم وإنكم إذًا لمن المقـربين * قال لهم مـوسى أَلْقُوا مـا أنتم مُلْقُونَ * فألقوا حبـالهم وعصيهم وقالـوا بعزة فرعـون إنا لنحن الغالبون * فألقى مـوسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكـون * فَأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنـه لكبيركم الذي علمكم السحـر فَلَسَوْفَ تعلمـون ، لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خـلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضَيْرَ إنـا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أَن كنا أَوَّلَ المؤمنين﴾ .

ومن وجوه التصريف البلاغي في هذاالمقام أنه قال هنا: ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هـٰذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ وقال: ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ وفي سورة طه وفي الشعراء قال: ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لا ضَيْرَ إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فإن جرس الكلام «وموسيقاه» وكونَهُ فوق القمة من الفصاحة والبلاغة من ميزان الحروف اقتضى أن يجيء كل نصٍّ من هذه النصوص على الوصف الذي جاء به ليكون وجها مشرقًا من وجوه إعجاز القرآن المتشابه المثاني، الذي يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، والتعبير بِثُمَّ في قوله هنا: ﴿ثم لأصلبنكم﴾ وبالواو في قوله في طه وفي الشعراء: ﴿ولأصلبنكم﴾ لأن الواو صالحة للمهلة والتراخي فهي لمطلق الجمع ولا تقتضي التعقيب.

قال تعـالى : ﴿وقال الملأ من قـوم فرعـون أتذر مـوسى وقومـه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك، قـال سنقتل أبناءهـم ونستحـي نساءهم وإنا فـوقهم قاهـرون * قال موسى لقومـه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يـورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالـوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنـا، قـال عسى ربكم أن يهلك عـدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظـر كيف تعملون * ولقـد أخذنا آل فـرعون بـالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هٰذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، ألا إنما طائرهم عند الله ولٰكن أكثرهم لا يعلمون﴾ .

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعـالى أنه أوحى إلى مـوسى عليه السـلام أن يُلقي عصـاه لتبتلع مـا ألقـاه السحـرة من عصيهم وحبـالهم التي انقلبت في أعين المشاهـدين إلى ثعابين تُخِيفُ النـاظرين وتـرهبهم وأن يُخرِج يدَهُ من درعـه آيةً أخرى حيث تصير بيضـاء تَتَلألأ من غير برص ولا مرض، وأن مـوسى عليه السلام لما ألقى عصاه التقمت جميع إفكهم فانقلبـوا صاغرين وأُلْقِي السحرة ساجدين وأعلنوا إيمانهم برب العالمين رب مـوسى وهارون، فتوعدهم فرعون بقطع أيـديهم وأرجلهم من خلاف وصَلْبِهم، وأن السحـرة لم يَعبَئـوا بوعِيـد فـرعـون وتهديـده وسألـوا الله عـز وجل أن يفـرغ عليهم صبرا وأن يتـوفـاهم مسلمين، شرع هنا في بيان موقف قوم فرعـون بعد انقلابهم صاغرين، حيث سلكـوا سبيل المهـزوم في المحاجـة، العـاجـز عن إظهار الحجـة فأخـذوا في تحريض فرعـون على التنكيل بقوم موسى عليـه السلام وتشديـد العذاب على بني إسرائيل، وإغراء فـرعون بهم لعل ذلك يَثْنِيهم عن الوقوف صفًـا واحدًا مع موسى عليه السلام والانتصار للديـن الحق، وقد سارع فرعون فأعلن أنه سيـوقع ببني إسرائيل أشـد العـذاب، ويجدد عليهم العقـوبة التي كـان قـد

تـراخى فيها وهي تقتيلُ أبنـائهم واستحيـاءُ نسائهم وقهـرُهم و إذلالهم بشتى وسائل القهـر والإذلال، وأن موسى عليـه السلام عندمـا سمع وعيد فـرعون وتهديده قال لقومه من بني إسرائيل: لا يُرْهبكم وعيدُ فرعون وتهديده واطلبوا من الله عز وجل أن يعينكم على عـدوكم واحبسوا أنفسكم عن الجزع ممـا قد يلحقكم من أذاه وأيقنـوا أنَّ الله عـز وجل نـاصركم عليه فـإنه تعـالى مـالك الأرض وما فيها ومن فيها يُعِزُّ من يشاء ويذل من يشاء والعاقبة للمتقين فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: لقـد وقع علينا الأذى من فرعون من قبل أن يبعثك الله إلينا رسولا ومن بعدما بعثك الله إلينا رسولا، فقد عَانَيْنَا من فرعون وقومه صنـوفَ الاضطهاد والعذاب دهرا طويلا فبشرهم مـوسى عليه السلام بأن نصر الله قـريب من المحسنين، وقـال لهم: أرجـو أن تستقيمـوا فتكـونَ العاقبـةُ الحسنى لكم، وأن يهلك الله عز وجل عـدوكم ويمكنكم في الأرض امتحانا لكم لتصبروا في الضراء وتشكـروا في السراء، وقد بدأت بشائر النصر للمؤمنين فسلط الله تبارك وتعالى على فرعون وقومه الجدب والقحط والجوائح التي تصيب ثمارهم كي يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بالله ورسوله، لكنهم صاروا إذا رأوا بريقا من العافية والخصب والرخاء وما يحبونه من دنياهم أسندوا ذلك إلى أنفسهم، و إذا رأوا الجدب والقحط وقلـة الثمرة ومـا يسوؤهم في دنيـاهم تشاءمـوا من موسى ونسبوا ذلك إلى مجيئـه عليه السلام لهم وتشاءمـوا كذلك من المؤمنين الذين اتبعـوا موسى عليه السلام. والواقع أن سبـب شؤمهم هو كفرهم بالله ورسوله ومعاداة أوليائه. لكنهم جاهلون لا يعرفون أن كفرهم هو سبب بلائهم. وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقـومه ليفسدوا في الأرض ويـذرك وآلهتك﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿أَلا إنما طائرهـم عند الله ولَكن أكثرهـم لا يعلمون﴾ والمقصود مـن الاستفهام في قول قـوم فرعـون لفرعـون ﴿أتذر مـوسى وقـومه ليفسـدوا في الأرض ويذرَك

وآلهتك﴾ هو تحريضهم فرعون وإثارتـه وتهييجه لإيقاع أشد العذاب بموسى وقـومه أي أتترك مـوسى وقومـه طليقين حتى يتمكنـوا من الإفساد في بـلادك بنشر دينهم ويكُفُّوا النـاس عن الانقياد لك وعن عبادة آلهتك؟ والظـاهر أن قوم فـرعون لما أحَسُّوا الـذلةَ والصَّغارَ في نفـس فرعون بعـد أن التقمت عصا موسى ما ألقاه السحرة خافوا أن يراود فرعونُ موسى على أن يكف موسى عن التنديـد بفرعون وديانتـه و يكُفَّ فرعونُ عن إلحاق الأذى بموسى وقـومه وتتم بينهما معاهـدة مصالحة ومسـالمة. وفي قولـه: ﴿وآلهتك﴾ إشعار بأن فـرعون وقومه كانـوا يعبدون أربابا كثيرة، وقد ادعى لهم فـرعون أنه ربهم الأعلى، وقد بلغ الـذروة في الاستخفاف بقـومه عنـدما قـال لهم: ما علمت لكم من إلـه غيري، ولا شك أن بقـايـا آثـارهم تـدل على كثرة معبـوداتهم. وفي قـولـه: ﴿سَنُقَتِّلُ أبنـاءهم ونستحيي نسـاءهم﴾ دون أي وعيد لموسـى عليه السـلام إشعار بما وقر في قلب فرعون من المهابـة لموسى عليه السلام وخوفه من إلحاق الأذى به وعلمه في قـرارة نفسه بأن موسى رسول من رب العـالمين لكنه جحد ذلك مع الاستيقان به هو وقومه. ومعنى قـوله: ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشـاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ أي قال مـوسى عليـه السلام لقومـه ناصحًـا لهم ومبشرًا ومواسيًـا ومحذرا من أن يلحقهم الضجر من وعيـد فرعون وتهديـده: اطلبوا العـون من الله عز وجل على فرعون وقـومه واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قـد يصيبكم من آل فرعون من المكاره، وأيقنـوا أن فرعـون وقومه مملـوكون لله يفعل بهم مـا يشاء ويحكم فيهم بما يريد وأن الأرض لله يُمَكِّن فيها من يشاء من عباده، وستكون العاقبة الحسنى لكم لأن العاقبـة الحسنى للمتقين، وقد أنجز الله تبارك وتعـالى لقوم موسى ما وعدهم به كما سيجيء في الآية السابعة والثلاثين بعد المائة من هذه السورة حيث يقول عز وجل: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مشارق

الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعونُ وقومُهُ وما كانوا يَعْرِشُون﴾ ولا شك أن تهديد فرعون لقوم موسى بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم وزيادة قهرهم وإذلالهم قد أخاف بني إسرائيل وأحدث في نفوسهم الرعب، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله عز وجل في سورة يونس: ﴿فما آمن لموسى إلا ذُرِّيةٌ من قومه على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم، وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكَّلْنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونَجِّنَا برحمتك من القوم الكافرين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قالوا أُوذِينَا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قال عسى ربكم أن يُهْلِكَ عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظرَ كيف تعملون﴾ أي قال قومُ موسى لموسى عليه السلام حين قال لهم: ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ قد وقع علينا الأذى من فرعون وقومه قبل أن تجيئنا برسالة الله إلينا حيث كان فرعون يأمر بتقتيل أبنائنا واستحياء نسائنا، ويقع علينا الأذى من فرعون وملئه بعد مجيئك بالرسالة من الله إلينا حيث أمر فرعون الآن بتقتيل أبنائنا واستحياء نسائنا وإلحاق أنواع القهر بِنَا، فأجابهم موسى عليه السلام حاضًّا لهم على الصبر والثبات فقال لهم: لعل اللهَ ربَّكم أن يهلك عدوكم فرعونَ وقومه ويجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، وتتمكنون في البلاد، لا تخافون أحدًا من الناس، فيرى ربكم ما تعملونه بعد أن يُمَكِّنَ لكم في الأرض وسيجازيكم على ما يكون منكم من الخير أو الشر، فإن من دأب عباد الله الصالحين أنهم إذا مُكِّنَ لهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر وأعْلَوْا راية الدين. كما أشار إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من ينصره، إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا

الـزكاة وأمـروا بالمعـروف ونَهَوْا عن المنكـر ، ولله عاقبـة الأمور﴾ وقـولُهُ تبـارك وتعـالى : ﴿ولقـد أخـذنـا آل فـرعـون بـالسنين ونقص من الثمـرات لعلهم يذَّكرون* فإذا جاءتهم الحسنة قالـوا لنا هٰذه وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّروا بموسى ومن معـه ، أَلَا إنما طـائرهم عنـــد الله ولَٰكنَّ أكثـرهـم لا يعلمـون﴾ شروع في تفصيل تسليط عقوبـات الله تبارك وتعالى على آل فرعـون ، ومبادئ الانتصار لموسى وقـومه مع بيان جهـل آل فرعون وتماديهم في الغي والضـلال ، وقَلْبِهم لحقـائق الأشياء ، وعـدم ارتداعهم بما يشـاهـدونه من الآيـات الكونيـة التي يمتحنهم الله عز وجل بها تأييـدا لموسـى عليـه السلام ، والمراد بآل فـرعون : فرعـونُ وقومُه ، والمرادُ بالسنين : القحط والجدب ، من قـولهم : أسنت القوم أي أجدبوا . كما قال عبدالله بن الزِّبَعْـرَى في هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ :

عَمرو الذي هَشَمَ الثَّرِيدَ لقومه　　　　قَوْم بمـــكةَ مُسْنِتِينَ عِجَاف

وقـد استعمل العرب السنـة بمعنى الحوْل وبمعنى الجدب وهو المراد هنـا كما وصفت . والمراد بنقص من الثمـرات : هـــو قلـة الثمـرات التي تحملهـا أشجـارهـم أو إصـابتهـا بـالآفـات التي تقلل محصـولهم من الثمار. ومعنى : ﴿لعلهم يذَّكرون﴾ أي كي يتعظوا ويرتدعـوا ويتوبوا إلى الله ويصدقوا موسى وهارون صلى الله عليهماوسلم . ومعنى قوله عز وجل : ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هٰذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي فإذا نَفَّسْنَا لهم بين الحين والحين وأصبناهم بنوع من الرخاء امتحـانا وابتلاء نسبوا ما أصابهم من الخير لأنفسهم وأنهم حصلـوا على ذلك بسبب ذاتي لهم كما قال قـارون : ﴿إنما أُوتيتُه على علم عنـدي﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ثم إذا خَوَّلْنَـاه نعمة منا قال إنما أوتيتـه على علم﴾ أما إذا أصـابهم قحط أو جدب نسبـوه إلى موسى ومن معـه من المؤمنين وجعلـوا ذلك بـزعمهم من شـؤم مجيء مـوسى إليهم

وإيمان من آمن به، وقالوا ما أصابتنا هذه المصائب إلا من شؤمك وشؤم من معك، فازدادوا بذلك جهلا على جهلهم وضلالا فوق ضلالهم، وسلكوا نفس المسلك الذي سلكه المكذبون من قبلهم ومن بعدهم ولم يعتبروا ولم يتعظوا ولم يتذكروا، وقد ذكر الله تبارك وتعالى عن قوم صالح عليه السلام أنهم: ﴿قالوا اطَّيَّرْنا بك وبمن معك، قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تُفْتَنُون﴾ كما ذكر عز وجل عن أصحاب القرية في ردهم على المرسلين: ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾ ومعنى قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي إن أسباب بلائهم وما حل بهم من العقوبات عند الله علمه وهو وحده المدبر لكل شيء، ولكن أكثرهم جاهلون بالله ولا يدرون أن المعاصي تجلب المصائب. والتطير هو التشاؤم وهو الفأل السيئ ضد التيمن وهو الفأل الحسن. وقد نهى رسول الله ﷺ عن الطِّيرة وقال: الطيرة شرك كما رواه أبوداود والترمذي وصححه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وقد كانوا في الجاهلية إذا عزموا على أمر مُهِم أرسلوا طائرا أو نظروا في جو السماء إلى طائر فإن وجدوه اتجه يمينا فرحوا ومضوا في طريقهم وإن اتجه شمالا تشاءموا ورجعوا عن قصدهم واعتقدوا عدم نجاح خطتهم وقد أطلقوا على ذلك اسم التطير حتى ولو تشاءموا من سماع اسم لا يرضونه أو شهر أو يوم أو مكان، فأبطل الإسلام ذلك وحذر منه، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا طيرة ولا هامة ولا صفر.

قال تعالى: ﴿وقالوا مهما تأتنا بـه من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطـوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيـات مفصلات فاستكبروا وكانوا قـوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يـا موسى ادع لنا ربك بما عهد عنـدك لئن كشفت عنا الـرجز لنؤمنن لك ولنـرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنـا عنهم الـرجـز إلى أجل هم بـالغـوه إذا هم ينكثـون * فانتقمنـا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كـذبوا بآيـاتنا وكانوا عنهـا غافلين * وأورثنا القـوم الذيـن كانوا يستضعفـون مشارق الأرض ومغـاربها التي بـاركنا فيهـاوتمت كَلِمَتُ ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمـرنـا ما كـان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾.

بعد أن ذكر الله تبـارك وتعالى أن قوم فرعون أخـذوا في تحريض فرعون على التنكيل بقوم موسـى عليه السلام وتشديد العـذاب على بني إسرائيل وإغراء فرعون بهم لعل ذلك يَثْنيهم عن الوقوف صفًـا واحدًا مع موسى عليه السلام والانتصار للـدين الحق، وقد سـارع فرعـون فأعلن أنه سيـوقع ببني إسرائيل أشـد العذاب ويجدد عليهم العقـوبة التي كـان قـد تراخى فيهـا وهي تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، وأن موسى عليه السلام عندما سمع وعيد فرعون وتهديده لقوم موسى عليه السلام قـال لبني إسرائيل: لا يرهبكم وعيد فرعون وتهديده واطلبوا من الله عـز وجل أن يعينكم على عدوكم، واحبسوا أنفسكم عن الجزع مما قد يلحقكم من أذاه، وأيقنـوا بنصر الله وتأييده لكم، فقال بنو إسرائيل لموسى: لقـد وقع علينا الأذى من فـرعون من قبل مجيئك إلينـا ومن بعد ما جئتنا وعـانينا من فرعون وقومه صنوف العـذاب دهرًا طويلا فطمأنهم موسى عليـه السلام بأن نصر الله قريب من المحسنين ورجـا الله عز وجل أن تكون العـاقبة الحسنى لبني إسرائيل، وأن يمكن لهم في الأرض، وقـد بدأت

العقوبـات تتوالى على فـرعون وقومـه حيث سلط الله عليهم الجدب والقحط أحيانا كثيرة والـرخاء في بعض الأحيان ليبتليهم بالحسنـات والسيئات لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم لكنهم كانوا إذا أصابهم الرخاء نسبوه إلى أنفسهم وإذا أصابتهم الضراء نسبـوها إلى مجيء موسـى إليهم تشاؤما منـه، شرع عز وجل يبين هنا أن فـرعون وقومـه تمادوا في غيهم وضلالهم وأكـدوا لموسى عليه السلام بأنهم لن يؤمنوا بـه مهما جاءهم به من الخوارق والمعجزات واعتبروا أنَّ كل ما يجيئهم بـه موسى عليه السـلام هو سحر، فسلط الله عليهم الطـوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مُفَصَّـلات فاستكبروا ولم ينزجروا حتى اشتد بهم الرجز فطلبوا من موسى أن يسأل ربه كشف العذاب عنهم ووعدوه أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل إن كشف الرجز عنهم، فلما كشف الله عز وجل الـرجز عنهم امتحانـا لهم إذا هم ينقضون عهـدهم ويستمرون على كفـرهم وغيهم وضـلالهم، فـانتقم الله عـز وجل منهم فأغـرقهم وأورث بني إسرائيل مشـارق الأرض ومغـاربها ومكَّن لهم فيها وحقـق لهم ما وعـدهم بـه موسى عليه السلام وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمـؤمنين﴾ إلى قوله: ﴿ودَمَّرْنا ما كـان يصنع فرعون وقومـه وما كـانوا يعرشـون﴾ وقولـه عز وجل: ﴿وقالـوا مهما تأتنا بـه من آية لتسحـرنـا بها فما نحن لك بمـؤمنين﴾ بيـان لتمـرد فرعـون وقـومـه وعتـوهم وعنـادهم للحق وإصرارهم على الباطل، حيث أعلنـوا لموسى عليه السـلام أنهم لن يصدقـوه أبدا مهما جاءهم بـه من الخوارق والمعجزات وقالـوا له: إن جئتنا بكـل آية لتخدعَنَـا بها وتلفتنا عما نحن عليـه فلن نصدقك أبـدا، ولن ننقـاد لك بحـال من الأحـوال، وعنـدمـا وصلـوا إلى هـذا الحد من التعنت والجحـود والكفران، بـدأت عقوبـات الله تتـابع عليهم، وقد جعل الله عـز وجل هذه العقوبات لافِتةً لانتباه الإنسان إذا كان عنده ذرة من العقل، فهي

عقوبات مـؤذيةٌ مزعجةٌ واعظةٌ شاهـدةٌ بأن الله قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء، وهذه العقوبات هي الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم، حيث يقول عـز وجل: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّلَ والضفـادع والدم آيات مُفَصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قومـا مجرمين﴾ والمراد بالطوفان المياه الجارفة والسيـول المغـرقـة لمزارعهـم دون أن يلحق ببني إسرائيل منهـا أذى، والجراد معروف، وقـد سلطه الله عـز وجل عليهم فأتلف زروعهم وثمارهم ولم يصب بني إسرائيل بـأذى، على أن في تمكين الجراد منهم لفت انتبــاه إلى عجــزهم وضعفهم أمام هذا الجراد الضعيف، الذي جعل الله عـز وجل في صورته آيةً من آيات قدرته، كما قال شريح رحمه الله: الجرادة فيهـا خِلقة سبعة جبابرة، رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرهـا صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورِجلاها رِجْلا جمل، وذَنَبُها ذنَب حيـة، وبطنها بطن عقرب. اهـ أما القُمَّلَ فإنـه يُطْلَقُ على السـوس الذي يتـوالد في الحبـوب فيأكل لُبَّهـا ويُبْقي قشرهـا، كما يطلق القُمَّلَ على صغار الـذر وعلى القَمْل والبراغيث ونـوع من القراد، ويطلق أيضـا على دُوَيبة خبيثة الـرائحة شديـدة الأذى تشبه الحَلَمَ، فصار هذا القُمَّلُ يخالطهم في جميع أحوالهم لا يلمسون شيئا إلا وجدوه فيه، وأما الضفـادع فهي دابة نهريـةتَنِقُّ كثيرا، وقد قال الحافـظ ابن حجر في فتح الباري: وذكـر الأطباء أن الضفدع نوعـان: بَرِّيٌّ وبحري فـالبري يقتل آكله والبحري يضره. اهـ وقد سلط الله عز وجل على قوم فرعون الضفادع فملأت بيوتهم وطعامهم وشرابهم، ثم سلط عليهم الدم فصـاروا لا يتناولون شيئا إلا وجدوه مغطى بالدم وقد امتزجت به مطاعمهم ومشاربهم وكان من آيات الله أن صـان بني إسرائيل من كل هـذه العقـوبـات. ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿آيـاتٍ مُفَصَّلاتٍ﴾ أي عـلامـات ودلالات على صحـة نبوة مـوسى عليـه السـلام ومعجزات مـؤيدات لصدقـه في أنه رسـول من رب العالمين، وقـد

جعلها الله عز وجل متواترة متتابعة يتلو بعضها بعضا . وقد فَصل بينها ، وبَيَّنها لهم حتى لا يشكل على عاقل أنها آيات من الله عز وجل ، وأنها تحذير من نقمة تكون أكبر منها ، كما فعل بهم لما عتوا فأغرقهم في اليم وقضى عليهم ، وقولُه تبارك وتعالى : ﴿فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره : فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من الآيات والحجج عن الإيمان بالله وتصديق رسوله موسى ﷺ، واتِّباعه على ما دعاهم إليه ، وتعظموا على الله وعَتَوْا عليه ﴿وكانوا قوما مجرمين﴾ يقول : كانوا قوما يعملون بما يكرهه الله من المعاصي والفسق عُتُوًّا وتَمَرُّدًا . اهـ ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشَفْتَ عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي ولما نزلت بهم هذه العقوبات وهي الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم وآلمتهم ألما شديدا صاروا يلجئون إلى موسى عليه السلام ليدعو الله لهم ليكشف عنهم هذا الرجز، ويَعِدُونَه بأنه إذا كشف الرجز عنهم آمنوا به وأرسلوا معه بني إسرائيل ، وهذا شبيه بما كان بين قريش وبين رسول الله محمد ﷺ حينما دعا الله عز وجل أن يعينه على قريش بسنين كسني يوسف أو أشد فاستجاب الله عز وجل له ، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله ليكشف عنهم هذا العذاب ، وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون إن كشفت عنا العذاب ، فلما كشف الله عنهم العذاب استمروا على كفرهم وضلالهم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري في باب إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط ، من طريق مسروق قال : أتيت ابن مسعود فقال : إن قريشا أَبطأوا

عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبوسفيان فقال: يا محمد جئتَ تأمر بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا فادع الله، فقرأ: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قولُه: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ يوم بدر ثم قال البخاري: وزاد أسباط عن منصور: فدعا رسول الله ﷺ فَسُقُوا الغيث. وهكذا لجأ قوم فرعون إلى موسى عليه السلام ليدعو الله عز وجل حتى يكشف الرجز عنهم، فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف عنهم الرجز الذي أنزله بهم ورفع العذاب عنهم إلى أجل هم بالغوه أي ليستوفوا أيامهم التي جعلها الله لهم من الحياة أجلا، إذا هم ينقضون عهودهم التي عاهدوا موسى عليها ويقيمون على كفرهم ولا يرسلون بني إسرائيل، فلما نكثوا عهودهم أنزلنا بهم نقمتنا فَسُقْنَاهُم إلى البحر وأغرقناهم فيه، وقد فعلنا بهم ذلك بسبب تكذيبهم بآياتنا التي أيدنا بها موسى عليه السلام وبسبب ما أقمناه لهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة بأن الله على كل شيء قدير، وأن أعداءه لا يستطيعون الإفلات من عقابه والهروب من عذابه مهما كانوا عليه من القوة والبطش إذا أصروا على الكفر به وتكذيب رسله والغفلة عن آياته التي ينصبها أمامهم، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُسْتَضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صَبَرُوا ودمَّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ بيان لما وعد به موسى بني إسرائيل حيث رجا الله عز وجل أن يمكن لهم في الأرض وأن يستخلفهم فيها حيث قال لهم: ﴿استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ وقال لهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقد تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل

بما صبروا، وأنجز لهم وعده وأهلك عدوهم واستخلفهم في الأرض وجعلهم مسيطرين على مشارقها ومغاربها في الشام ومصر ومنحهم بركاتها التي باركها بها حيث مكن لرسوله سليمان عليه السلام فيها وسخر له الريح تحمله إلى أطرافها غدوها شهر ورواحها شهر، وجاءته ملكة سبأ منقادة وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين. وكما قال عز وجل: ﴿ونريد أن نَمُنَّ على الذين اسْتُضْعِفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض وَنُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ وقد أنهى الله عز وجل بهذه الآيات في هذا المقام من هذه السورة المباركة قصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون * إن هٰؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلٰهًا وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفى ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾.

بعد أن قصَّ الله تبارك وتعالى قصة موسى وما لقيه من المتاعب من فرعون وأَنْهَى هذه القصة بإغراق فرعون وجنوده في اليم، وإنجاء موسى ومن تبعه من بني إسرائيل، شرع هنا في ذكر قصة موسى مع بني إسرائيل، فما أن استراح موسى عليه السلام من متاعب فرعون وملئه حتى بدأت متاعبه من بني إسرائيل، حيث رأوا ــ بعد نجاتهم من فرعون ورؤيتهم معجزة كبرى حيث ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجعل لهم طريقا في البحر يَبَسا ورأوا بأعينهم غرق فرعون ومن معه ــ رأوا قوما يعبدون أصناما لهم قد عكفوا عليها فقالوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فوبخهم موسى عليه السلام وبَيَّنَ لهم أن هؤلاء الوثنيين يهلكون أنفسهم بهذا الشرك فهم مبطلون وعملهم باطل، وذكَّرهم بفضل الله وآلائه عليهم وتخليصهم من العذاب المهين الذي وقع عليهم من فرعون وملئه، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا ببني إسرائيل البحر فَأَتَوْا على قوم يعكُفُون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهًا كما لهم آلهةٌ، قال إنكم قومٌ تجهلون﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي وقطعنا بموسى وقومه البحر وعبرنا بهم من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقي، وقد بيَّن الله تبارك وتعالى

كيفية عبورهم البحر حيث قال عز وجل: ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا ولا تَخْشَى * فأتبعهم فرعونُ بجنوده فَغَشِيَهُمْ مِن اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ * وأضل فرعونُ قومه وما هَدَى﴾ وقال عز وجل: ﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم مُتَّبَعُونَ * فأرسل فرعونُ في المدائن حاشرين * إنَّ هٰؤلاء لَشِرذِمَةٌ قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فأتبعوهم مُشرِقِينَ * فلما تَرَاءى الجمعان قال أصحابُ موسى إنا لَمُدْرَكون * قال كلا إنَّ مَعِي رَبِي سَيَهْدِينِ * فأوحينا إلى موسى أَنِ اضْرِبْ بعصاك البحر فانفلق فكان كلُّ فِرْق كالطَّوْدِ العظيم * وأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرينَ﴾ وقد أقر رسول الله ﷺ على أن إغراق فرعون وقومِهِ ونجاة موسى وقومِهِ كان في اليوم العاشر من المحرم فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قَدِمَ المدينة فوجد اليهود صيامًا يوم عاشوراء فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما هذا اليومُ الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يومٌ عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه وغَرَّقَ فرعونَ وقومه، فصامه موسى شكرا، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق بموسى منكم، فصامه رسولُ الله ﷺ وأَمَرَ بصيامه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿فأَتَوْا على قوم يَعْكُفُون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون * إنَّ هٰؤلاء مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون﴾ أي وبعد أن قطعنا ببني إسرائيل البحر بعد هذه الآيات الكبار التي شاهدوها ورأوها بأبصارهم في فلق البحر لهم وإغراق عدوهم فلم تزجرهم تلك الآيات ولم ينتفعوا بهذه العِبَر ولم يتعظوا بهذه المواعظ المُبْصِرَة التي صنعها الله عز وجل لهم فما أن خرجوا من البحر حتى مَرُّوا بقوم عاكفين

على أصنام لهم يلازمونها ويقيمون حولها ويعبدونها من دون الله فقال بعض جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: اتَّخِذْ لنا صنما نعبده كما يعبد هؤلاء أصنامهم وتماثيلهم، فوبخهم موسى عليه السلام، ونَبَّهَهُم إلى أن هذا الطلبَ جهالةٌ منكم، فإن العبادة لا تنبغي ولا تصح إلا لله الواحد القهار، إنكم أيها القوم تجهلون عظمة الله وحقه في أن يُفْرَدَ بالعبادة وأن يُخَصَّ بالألوهية فكيف لا تعلمون أنه لا إله إلا الله، وأن الإقرار بكلمة التوحيد يقتضي أن لا يُصْرَفَ شيء من العبادة مهما كان إلا لله وحده لا شريك له. إنَّ هؤلاء العاكفين على أصنامهم مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون أي هالك فاسد، ومضمحل زائل لا يعود على أهله إلا بالشر ولا يجلب شيئا من الخير لهم فكُلُّ عبادةٍ لغير الله باطلة، والله أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معه غيره رَدَّهُ وشِرْكَهُ وأحبط عمله، ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال أغيرَ الله أَبْغيكم إلَهًا وهو فضَّلكم على العالمين﴾ أي أأَطْلُبُ لكم شيئا تعبدونه غير الله، الذي فضَّلكم على عَالَمِي زمانكم حيث بعث إليكم رسوله وكليمه موسى، فعليكم أن تعرفوا نعمة الله عليكم ولا تَنْسَوْا هذه الآلاءَ التي منحكم إياها ولا يليق بواحد منكم أن يطلب معبودًا غير الله عز وجل ليشابه المشركين عَبَدَةَ الأوثان، ولا شك أنه لم يكن كلُّ بني إسرائيل قد طلب إلها آخر، وإنما هو طلب بعض جهلتهم، وقد ذكر كثير من المفسرين ومؤلفي السيرة النبوية خبرا من طريق معمر عن الزهري عن سنان بن أبي سنان الديلي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ فمررنا بسدرة، فقلت، يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذاتُ أنواط، وكان الكفارُ ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون عليها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. إنكم تركبون سَنَنَ من كان قبلكم. قال ابن كثير في تفسيره: أورده ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم

من حـديث كثير بن عبـدالله بن عمرو بـن عوف المزني عن أبيـه عن جـده مرفوعا . اهـ أقـول : قال الحافظ ابن حجر في التقريب : كثير بن عبـدالله بن عمـرو بـن عـوف المزني المدني ضعيف من السـابعـة ، منهم مـن نسبـه إلى الكذب . اهـ فإن صح هـذا الخبر حُمِلَ على أنه قـول واحد من حدثـاء العهد بالجاهليـة كما جاء مصرحًـا به في روايـة عن أبي واقد الليثي قـالوا : وقـد كان لكفار قـريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمـة خضراءُ يقال لها : ذات أنـواط يأتـونها كل سنـة فيُعَلِّقُـونَ عليها أسلحتهـم ، ويذبحـون عنـدهـا ، ويعكفون عليهـا يوما ، قال أبـوبكر الطرطوشي المالكي : فـانظروا رحمكم الله أينما وجـدتم سـدرةً أو شجرة يقصـدهـا النـاس ويعظمونها ويـرجـون البُرْءَ والشفـاء من قِبَلِها فاقطعوها . اهــ والاستفهـام في قولـه : ﴿أَغَيْرَ اللهِ أبغيكم إلَهًا﴾ للإنكار والتعجب والتوبيخ . وقولُه تبارك وتعالى : ﴿وإذ أَنجَيْنَاكم من آل فرعونَ يسومونكم سوء العـذابِ يُقَتِّلُونَ أبناءكم وَيَسْتَحْيُون نِسَاءَكُمْ ، وفي ذٰلكم بَـلاءٌ من ربِّكُم عَظِيمٌ﴾ قـال ابن جـريـر رحمه الله في تفسير قولـه عـز وجل : ﴿وإذ أنجينـاكم من آل فـرعـون يسـومـونكم سُـوءَ العـذاب﴾ قـال أبوجعفـر: يقول تعالى ذكره لليهـود من بني إسرائيل الذين كانـوا بين ظهراني مهـاجَر رسـول الله ﷺ : واذكـروا مع قِيلكم هـذا الذي قلتمـوه لموسى بعـد رؤيتكم من الآيـات والعِبَر، وبعـد النعم التـي سَلَفَتْ مني إليكم والأيـادي التي تَقَـدَّمَتْ ـــ فِعْلَكُمْ مـا فعلتم ـــ ﴿إذ أنجينـاكم من آل فرعـون﴾ وهم الذين كانـوا على منهاجه وطريقته في الكفـر بالله من قومه ﴿يسـومونكم سُوءَ العذاب﴾ يقول : إذ يُحَمِّلُونكم أَقبح العذابِ وسَيِّئَهُ . اهـ وهذه الآية الكريمة شبيهـةٌ بقـولـه تبارك وتعـالى في سـورة البقـرة حيث يقـول عـز وجل : ﴿وإذ نَجَّيْنَاكم من آل فرعون يسومونكم سُـوءَ العذاب يذبحون أبناءكم وَيَسْتَحْيُونَ نساءكم ، وفي ذٰلكـم بلاء من ربكم عظيـم﴾ كما أن بها شَبَهًـا من قولـه تبارك

وتعالى في سورة إبراهيم حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذْ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سُوءَ العذاب وَيُذَبِّحونَ أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ وقد ذكرت في تفسير آية سورة البقرة أن قوله عز وجل: ﴿يُذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ هو تفسير لقوله عز وجل: ﴿يسومونكم سُوء العذاب﴾ والعطف بالواو في سورة إبراهيم حيث قال عز وجل: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ للإشارة إلى أن فرعون وجنده كانوا يُوقعون ببني إسرائيل ألوانا من العذاب المهين وكان منها قتلُ أبنائهم واستحياءُ نسائهم، فعطف بالواو في سورة إبراهيم لبيان أنهم كانوا يعذبونهم بالذبح واستحياء النساء وغير ذلك، إذ كانوا يكلفون الذكور بالأعمال القذرة والشاقة من قطع الحجارة من الجبال وحملها ونقلها لبناء قصور آل فرعون، ومن الحراثة والزراعة وحمل القاذورات، واستخدام النساء في أعمال غير كريمة وفي خدمة نساء آل فرعون مبالغةً في إذلال بني إسرائيل وشدة إيذائهم، ولذلك وصف الله تبارك وتعالى ذلك بقوله: ﴿وفي ذٰلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ في تذييل هذه الآيات في هذه المقامات الثلاث من الذكر الحكيم، كما أشار عز وجل إلى أن العذاب الذي كان يوقعه فرعون وجنوده ببني إسرائيل كان عذابًا مُهِينًا حيث يقول تبارك وتعالى في سورة الدخان: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المُهِين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين﴾ كما وصف ما أوقعه فرعون وجنوده ببني إسرائيل بأنهم صاروا في كرب عظيم حيث يقول عز وجل: ﴿ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون * ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم﴾ والمقصود من هذه الآيات هو تذكير بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ ولمن يجيء بعدهم منهم بأن هذا الإنجاء لآباءهم هو إنجاء لهم، إذ أن تنجية الآباء هي تنجية للأبناء والذرية

إذ لو هلك الآباء تحت التعذيب ما وُجدَ هؤلاء الأبناء، والمراد بالبلاء الامتحان والاختبـار بالخير والشر ليظهـر في عالم الـوجـود، الشاكـرون والصابـرون أو الجاحدون والكـافرون كما قال عز وجل: ﴿وبلـوناهم بالحسنـات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ وكما قال تبارك وتعـالى: ﴿ونَبْلُوكُم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعُونَ﴾.

قال تعالى : ﴿ وواعـدنا موسى ثلاثين ليلةوأتممناهـا بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلـة ، وقال مـوسى لأخيـه هارون اخلفنى في قـومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسـدين * ولما جاء مـوسى لميقـاتنا وكلمـه ربـه قال رب أرنى أنظـر إليك ، قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر مـوسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قـال يا مـوسى إنى اصطفيتك على الناس بـرسالاتى وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾ .

بعد أن نَجَّى الله موسى وقومه وأغرق فرعون وجنده ، وجاوز عز وجل ببني إسرائيل البحر ورأوا قـوما يعكفون على أصنام لهم وقـالوا يا مـوسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وأن موسى عليه السلام وبخهم على ذلك وذكرهم بنعمة الله عليهم حيث نجـاهم من آل فرعـون ، وأن العبادة لا تجوز إلا لله وحـده فهو المستحق لجميع أنواعهـا ومن عَبَدَ غيرَ الله فهو هـالك وعمله مضمحل زائل فاسد لا يعود عليه إلا بالشر والعذاب ، وقـد كان موسى عليه السلام عندما بعثه الله إلى فرعـون إنما بعثه بأصول الدين من التـوحيد وإقامة الصـلاة لذكر الله ووجوب الإيمان بـالبعث بعد الموت ، ولم يكن قد أنزل عليـه التوراة ، فلما انتهت مهمة مـوسى عليه السلام الخاصة بفـرعون وملئه ، وأغرق الله فـرعون وجنده ، وخَلَصَ موسى إلى سيناء وصـار مختصا ببني إسرائيل وهم في حاجة مـاسَّةٍ إلى نظـام يشمل حوائجهم في معـاشهم ومعادهم ، هَيَّأَ الله عـز وجل مـوسى عليه السـلام لِيُلْقِيَ عليه التـوراة المشتملة على الأحكـام التي تسلك بأهلها صراط الله المستقيم ، وحالةُ موسى عليه السلام هذه تُشْبِهُ حالة رسول الله محمد ﷺ في حيـاته النبـوية قبل الهجرة وبعـدها ، فإن القـرآن المكي كان ينزل لتقرير التوحيد والرسالة والإيمان بالبعث بعد الموت أما القرآن المدني فإنه

زيادة على ذلك جاء بتقرير نظام الدولـة الإسلامية و إقامة المجتمع السعيد، وما يحتاجه كل فرد لصلاح معاشه ومعاده، وقد واعد الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أربعين ليلة يتهيأ فيها لتلقي الشريعة، وقد سأله بعض قومه من المتعنتين المتنطعين أن يريهم الله جهرة، وأن يسأل ربـه ذلك، ولما أراد موسى التوجه لميقات ربه قال لأخيه هارون: أنت خليفتي على بني إسرائيل فأصلح أمورهم ولتكن سِياسَتُكَ لهم سِيَاسَةً رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، فلما جاء موسى لميقات ربه وقد اختار من قومه سبعين رجلا لهذا الميقـات فلما انتَهَوْا إلى الجبـل وكلَّم اللهُ موسى تكليما قـال مـوسى: ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظـر إلى الجبل فإن كان هذا الطُّور لا يَنْهَدُّ إذا تَجَلَّى اللهُ له فإنك تقدر على رؤيتي، وأراد الله عز وجل أن يضرب لموسى وغيره مثلا على أن الله عز وجل قد احتجب بـالنور عن خلقه لأنهم لم يُهَيَّئُوا في هذه الحياة الدنيا لرؤية الله، وإنما يرونه في الدار الآخرة، إذا ماتوا على الإيمان. كما قال عز وجـل: ﴿وُجُوهٌ يومئذ ناضرةٌ * إلى ربها نـاظرة﴾ لأن المؤمنين يجعلهم الله عـز وجل في الـدار الآخـرة أهـلا للتمتع بـالنظـر إلى وجـه الله الكـريم، بخـلاف حالهم في الـدنيا، فـإن حجابـه عز وجل النـور أو النـار لو كشفـه لأحـرقت سبحات وجهـه مـا انتهى إليه بَصَرُهُ من خلقـه، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلـة وأتممناها بِعَشْر فَتَمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة﴾ أي وأوحينا إلى موسى أن يهيئ نفسه لمناجاتنا وكلامنا وتَلَقِّي التوراة منا بلا واسطة في موعد وَقَّتْنَاهُ له بثلاثين ليلة وعشر ليال فَبَلَغ الميقاتُ تمام أربعين ليلةً، وفي هـذا التعبير من الدقـة ما ليس فيها لـو قيل: واعدنـاه شهرا وعشر ليال لأن الشهر القمري قد يكون تسعـا وعشرين ليلة كما يكون ثلاثين ليلة، كما أن الشهر عنـد القبط قد يكـون ثلاثين ليلة، وقـد يكون إحـدى وثلاثين ليلة، والأشهـر التي تتعلق بها العبادات هي الأشهـر القمرية، كما قـال عز

وجل ﴿يسألـونك عن الأهلة قل هي مـواقيت للناس والحج﴾ وثبـوتها يكون مبنيًا على رؤية الهلال، ويحتاج إلى تحريه، وقد أراح الله عز وجل موسى عليه السـلام من انتظـار رؤيـة الهلال وتحريـه لأن الله العليم الخبير يعلم أن هـذا الشهر من الميقـات المؤقت لموسى عليه السـلام هو ثـلاثون ليلـة وليس تسعا وعشرين ليلة، ومعنى قـوله عز وجل: ﴿وقال موسـى لأخيه هارونَ اخْلُفْنِي في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفْسِـدِينَ﴾ أي ولما عَزَمَ موسى عليـه السلام على التوجه لميقات ربه وَصَّى أخاه نبي الله ورسوله هارون عليهما السلام وقال لـــه: أنت خليفتـي على بني إسرائيل حتى أرجع مـن منـاجـاة الله وتلقي الشريعـة، فأصلح أمورهـم بحملك إياهم على طـاعـة الله وعبادتـه ولتكن سياستك لهم سياسة رشيدة، واحذر دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، ولا تمكن أحـدا منهم من العمل بغير طاعـة الله، لأن إظهـار المعصية إفسـاد في الأرض، وليس مقصـود مـوسى عليـه السلام أنـه يخاف على هـارون أن يتبع سبيل المفسدين، لأنـه يعلم أن هارون عليه السلام نبي كـريم ورسول عظيم يعصمه الله عـز وجل من سلوك سبيل المفسدين، وإنما المقصود هـو التذكير والتنبيه والتحـذير لبني إسرائيل من الفساد في الأرض على حد قـول القائل: إياكِ أعني واسمعي يا جـارة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما جاء مـوسى لميقاتنا وكلمه ربُّـه قال ربِّ أرني أَنظرْ إليك، قال لن تـراني ولَكن انظر إلى الجبل فإن استقـر مكانـه فسوف تـراني، فلما تجلى ربُّـه للجبل جعله دكًّـا وخَرَّ مـوسى صَعِقًا، فَلَمَّا أفـاق قال سبحـانك تبت إليك وأنـا أولُ المؤمنين﴾ أي ولما جاء موسى لميقـات الله تعالى وحَصَلَ له التكليـم من الله وبلغ هذه المرتبة العـالية التي سُمِّيَ بسببها كليمَ الله سأل الله عز وجل أن ينظر إليه فقال: ﴿ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني﴾ أي لأنه لـن يطيق بَشَرٌ النظر إليَّ وهو في دار الدنيا لأن حجاب ذي الجلال والإكرام النورُ لو كشفـه لأحرقت سبحات وجهه ما

انتهى إليـه بصره من خلقـه كما جـاء في صحيح مسلم حيث قـال رحمه الله : حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة وأبوكرَيْب قـالا: حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مُـرَّة عن أبي عُبَيْدَة عن أبي موسى قال : قـام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله عز وجل لا ينـامُ ولا ينبغي له أن ينام ، يَخْفِضُ القسط ويـرفعه ، يُـرْفَعُ إليه عمـلُ الليل قبل عمل النهار وعَمَلُ النهـار قبل عمل الليل ، حجابُـه النور ـــ وفي رواية أبي بكر ــ النارُ، لو كشفـه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهــه ما انتهى إليه بَصَـرُهُ من خلقــه ــ وفي روايـــة أبي بكر عن الأعـمش ـــ ولم يقـل حدثنا . اهـ وقد زعم بعض أهل الأهواء أن قـوله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿لن تراني﴾ دليل على استحـالة الرؤية في الدنيا والآخرة بدعوى أنَّ ﴿لَنْ﴾ تفيد تأبيـد النفي ، وجهلوا أن الله عز وجل قال في اليهـود : ﴿فتَمَنَّوُا الموتَ إن كنتم صـادقين﴾ ثم قـال : ﴿ولن يَتَمَنَّوْهُ أبـدا بما قـدمت أيــديهم﴾ مع أنهم سَيَتَمَنَّـوْنَ الموت وهم في جهنـم ، إذ يُنَـادُونَ مع نظـرائهم من الكفار: ﴿يـا مـالكُ ليقض علينا ربك﴾ وقـولـه تبارك وتعـالى لموسى عليه السلام : ﴿ولَكن انظر إلى الجبل فإن استقـر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربُّه للجبل جعلـه دكًّا وخـرَّ موسى صعقـا فلما أفاق قـال سبحانك تبت إليك وأنـا أول المؤمنين﴾ أي إذا أردت أن تعرف أنك في هـذه الدنيـا لن تطيق النظـر إليَّ فانظـر إلى الجبل ذلك الطور الأشم فإن كـان هذا الطُّـور لا يَنْهَـدُّ إذا تجلى الله لـه فإنك تقـدر على رؤيتي ، وأراد الله عـز وجل أن يضرب لموسى وغيره مثلا على أن الله عـز وجل قد احتجب عن خلقه بـالنور لأنهم لم يُهَيَّئُوا في هذه الحيـاة الدنيا لرؤية الله تعالى ، وإنما يـراه في الجنة من يموت على الإيمان ، وقد كـان موسى عليه السلام قـد اختار من قومـه سبعين رجلا لهذا الميقـات فلما تجلى الله تبارك وتعـالى للجبل جعله دكـا أي مـدكوكـا مستويـا بالأرض وخر مـوسى صعقا أي وسقط موسى مغشيا عليه ، وقـد خر كذلك

السبعون رجلا الذين كانوا مع موسى عليه السلام، فلما أفاق موسى عليه السلام من صعقته اعتذر إلى الله عز وجل وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، ولما رأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لايزالون في صعقتهم دعا اللهَ عز وجل أن يكشف عنهم، واعتذر إلى الله عز وجل بأنه أراد بِسُؤالِهِ أن يقطع شبهة هؤلاء السفهاء الذين كانوا سألوه قبل أن يتوجه لميقات ربه أن يريهم ربَّهم جهرة، وقد أجاب الله عز وجل دعوة موسى عليه السلام، فأفاق السبعون من صعقتهم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى صعقة السبعين رجلا في الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث يقول عز وجل: ﴿واختار موسى قومَهُ سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي أَتُهْلِكُنَا بما فعل السفهاءُ منا إن هي إلا فتنتُك تُضِل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن قول بعض بني إسرائيل لموسى عليه السلام: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، هو من أكبر الكبائر حيث يقول عز وجل: ﴿يسألك أهل الكتاب أن تُنَزِّلَ عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذُلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ بثبوت رؤية المؤمنين ربهم في الجنة، وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أخرجها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن، ولا ينفيها إلا من زاغ عن مذهب أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء وقد سقت جملة من هذه الأحاديث التي أخرجها البخاري ومسلم في صحيحيهما في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ كما سقت دليلا من صريح كتاب الله تبارك وتعالى في ذلك حيث يقول عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة﴾

وقـولُه تبـارك وتعالى : ﴿قـال يـا موسى إني اصطفيتك على النـاس برسـالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشـاكرين﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يذكر تعالى أنه خاطب مـوسى بأنه اصطفاه على عَالَمِي زمانه برسـالاته وكلامه ، ولا شك أن محمدًا ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه الله بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعُه أكثرُ من أتبـاع الأنبياء كلِّهم ، وبَعْدَه في الشرف والفضـل إبراهيمُ الخليلُ ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السـلام ، ولهذا قال الله تعالى له : ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي من الكـلام والمناجاة ﴿وكن من الشـاكرين﴾ أي على ذلك ، ولا تطلب ما لا طـاقة لك به . اهــ وهذ المقـام من الأدلة القطعيـة على ثبوت صفة الكلام لله عز وجل ، ولله الحمد والمنة .

قال تعالى: ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها، سأوْريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذالك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون * واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أنه واعد موسى عليه السلام أربعين ليلة يتهيأ فيها لتلقي التوراة وأن موسى عليه السلام وصّى أخاه هارون عليه السلام أن يخلفه في بني إسرائيل وأمره أن يصلح أمورهم وأن تكون سياسته لهم سياسة رشيدة، وحذره من دعاة الضلالة المفسدين في الأرض، وأن موسى عليه السلام لما جاء لميقات ربه وكلمه الله تكليما سأل موسى ربه أن ينظر إليه فأفهمه الله عز وجل أنه لن يستطيع ذلك وضرب له ولغيره مثلا بأن ينظر إلى الجبل فلما تجلى الله عز وجل للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، فلما أفاق اعتذر إلى الله عز وجل وقال: تبت إليك وأنا أول المؤمنين، فبشره الله عز وجل بأنه اصطفاه على عالمي زمانه برسالاته وبكلامه، وأمره أن يستمسك بما يوحيه الله عز وجل إليه وأن يكون من الشاكرين، شرع هنا في بيان أنه عز وجل قد كتب لموسى في الألواح بيان جميع ما تحتاجه بنو إسرائيل من التشريعات الشاملة لمعاشهم ومعادهم وما يسلك بهم صراط الله المستقيم وأنه تبارك وتعالى أمر موسى عليه السلام أن يستمسك بتعاليم هذه الشريعة

وأن يأمر بني إسرائيل أن يستمسكوا بها ، وتوعد تبارك وتعالى من ينحرف عن صراطه المستقيم ويفسق عن أمر الله ويتكبر في الأرض بغير الحق بأن يخذله الله عز وجل فلا يسدده ولا يعينه على الخير ولا يهديه سبيل الرشاد ، فتنطمس أمامه الحقائق فيرى الغي رشدًا والرشد غيًا . وذكر عز وجل أن قوم موسى عليه السلام قد اتخذوا من بعد خروجه للميقات عجلا جسدا له خوار وجعلوه إلها وعبدوه ، وأنه لما سُقِط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا تابوا إلى الله وندموا على جريمتهم وفي ذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلا لكل شيء﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا رَبُّنا ويَغْفِرْ لَنَا لنكونَنَّ من الخاسرين﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظةً وتفصيلا لكل شيء﴾ أي وكتبنا لموسى عليه السلام في ألواح الشريعة من كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل ومما لا غنى لهم عنه من معرفة ربهم وأحكام دينهم ومراسيم شريعتهم وما يتعظون به ويرقق قلوبهم وجعلنا فيها تبيان كل شيء حتى لا يضلوا إن استمسكوا بهذه الشريعة ، والألواح جمع لَوح قال ابن منظور في لسان العرب المحيط : اللَّوح : كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب . الأزهري : اللَّـوح صفيحة من صفائح الخشب ، والكتفُ إذا كتب عليها سميت لوحا ، واللوح : الذي يكتب فيه . اهـ وظاهر قوله تبارك وتعالى ﴿وكتبنا له في الألواح﴾ يدل على أن موسى عليه السلام تلقى التوراة من ربه مكتوبة في الألواح ، وأنها نزلت جملة واحدة ، أما القرآن العظيم فقد أنزله الله عز وجل على نبيه ﷺ مُفَرَّقًا في ثلاث وعشرين سنة تثبيتًا لفؤاد رسول الله ﷺ كما قال عز وجل : ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً ، كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادكَ وَرَتَّلْناه ترتيلا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وقرآنا فَرَقْناه لِتَقْرَأَهُ على الناس على مُكْثٍ ونَزَّلْناه تنزيلا﴾ وقد وصف

الله عز وجل التوراة بالهدى والنـور وأن فيها تفصيل كل شيء حيث يقول عز وجل: ﴿ثم آتينا موسى الكتـاب تماما على الذي أَحْسَنَ وتفصيلا لكل شيء وهـدى ورحمةً لعلهم بلقاء ربهم يـؤمنون﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿إنـا أنزلنـا التوراة فيها هُـدًى ونور﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿فخذها بقوة وَأْمُـرْ قومك يأخذوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي فاستمسك بأحكام التوراة وعض عليها بالنواجذ وأمر بني إسرائيل بأن يستمسكـوا بها ويلتزمـوا بأحكامهـا ويعضوا على تعـاليمها بـالنـواجـذ فإنها قـد اشتملت على أحسن التعـاليم التي تسلك بأصحـابها والملتزمين بها صراط الله المستقيم، ولفظ أحسن قد يرد لغير التفضيل وكذلك لفظ خير، ومن ذلك قوله تبارك وتعـالى: ﴿واتبعوا أحسن ما أُنْزِل إليكم من ربكم﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿أصحـاب الجنة يـومئذ خيرٌ مُسْتَقَـرًّا وأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ وقد تكـون بعض الأحكام الشرعية على التخيير بين الحسن والأحسن كـالتخيير بين القصـاص والعفـو، إذ العفــو أفضل وأحسن، كما قـال عـز وجل: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعينَ بالعين والأنف بالأنْف والأذنَ بالأذن والسن بـالسن والجروحَ قصاص، فمن تصـدق به فهـو كفارةٌ له﴾ وكما قال عز وجل ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلُهَا فمن عفا وأصلح فأجره على الله، إنـه لا يحب الظـالمين * ولمن انتصر بعـد ظلمـه فأولَئك مـا عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغُون في الأرض بغير الحق، أولَئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفـر إن ذُلك لمن عزم الأمور﴾ والشرائع السماوية تأمـر بالعـدل وتحض على العفو في مقامـات كثيرة ومعنى قولـه عز وجل: ﴿سـأُريكم دار الفاسقين﴾ أي ستبصرون وتـرون بأعينكم عاقبـة من خـالف أمري وخـرج عن طاعتـي، وكيف يكون مـآلهم من الهلاك والدمـار والتباب والخسران؟ وفي هذا حض على الاستمساك بالتوراة ووعيد شديد لمن تكبر عنها وخـرج على تعاليمها وكفـر بها، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿سأصرف

عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإنْ يَرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها وإنْ يَرَوْا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإنْ يَرَوْا سبيل الغي يتخذوه سبيلا، ذٰلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبِطت أعمالهم، هل يُجْزَوْن إلا ما كانوا يعملون﴾ وعيد شديد أيضا لمن تكبر في الأرض بغير الحق وتهديدٌ له بأن الله عز وجل سيخذله ولا يسدده ولا يوفقه للخير فتنطمس الحقائق أمامه فيرى الرشد غيا والغيَّ رشدا فيضيق صدره إذا سمع ذكر الله وينشرح صدره للطاغوت كما قال عز وجل: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ فهؤلاء المتكبرون في الأرض بغير الحق يُحرَمون من الانتفاع بآيات الله الكونية والمتلوة، قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ﴿سأصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال بعض السلف: لا ينال العلم حييّ ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا، وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سأصرف عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال: أَنزِعُ عنهم فَهْمَ القرآن وأصرفهم عن آياتي. اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون﴾ قال أبوجعفر: يقول تعالى ذكره: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق وَكُلُّ مُكَذِّبٍ حجج الله ورسله وآياته وجاحدٍ أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، ومُنْكرٍ لقاء الله في آخرته ذَهَبَتْ أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبتت، لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضي الله، فصارت

أعمالهم عليهم وبالا، يقول الله جل ثناؤه: ﴿هل يُجْزَوْنَ إلا ما كانوا يعملون﴾ يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثوابُ أعمالهم الخلودَ في نار أحاط بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه. اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِيِّهِمْ عجلا جَسَدًا له خُوَارٌ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، اتخذوه وكانوا ظالمين * ولما سُقِطَ في أيديهم ورَأَوْا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربُّنا ويَغْفِرْ لَنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي وعكف قوم موسى من بعد أن فارقهم متجها لميقات الله على صنم صنعه لهم السامري من حليهم عجلا جسدا يخرج من فمه صوت البقر مع أن هذا التمثال لا حياة فيه، وقد عَموا عن أنه لا يكلمهم ولا يهديهم، فعبدوه من دون لله وارتكبوا أقبح الظلم وأبشعه حيث أشركوا بالله وعبدوا تمثالا على صورة مجسمة لعجل، وقد أضلهم به السامري لما شعر أنهم مائلون لعبادة الصور والتماثيل حيث طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها مثل الأصنام التي رأوا قوما يعكفون عليها بعد أن جاوز الله بهم البحر، وقد روَّج له دعاة الضلالة منهم وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، وقد نصحهم هارون عليه السلام وقال لهم: يا قوم إنما فُتِنْتُمْ به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، والظاهر أن موعظة هارون عليه السلام أثرت في بعضهم فندموا وتابوا إلى الله وعلموا أنهم قد ضلوا وقالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين، قال الزجاج: والجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز، إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولما سُقِط في أيديهم﴾ هو كناية عن ندمهم على ما فرط منهم يقال للنادم على ما فعل المتحسر على مافرط منه: سُقِطَ في يده. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ أي وعلموا أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا فتابوا من جريمتهم وآبوا إلى ربهم وثابوا إلى رشدهم.

قال تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا، وكذلك نجزي المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون * واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾.

بعد أن ذكر الله عز وجل أنه قد كتب لموسى في الألواح بيان جميع ما تحتاجه بنو إسرائيل من التشريعات الشاملة لمعاشهم ومعادهم، وما يسلك بهم صراط الله المستقيم وأنه عز وجل أمر موسى عليه السلام أن يستمسك بتعاليم هذه الشريعة وأن يأمر بني إسرائيل بأن يَدُورُوا في فَلَكِهَا، وتوعد من ينحرف عنها ويفسق عن أمر الله ويتكبر في الأرض بغير الحق بأن يخذله الله عز وجل فتنطمس أمامه الحقائق فيرى الرشد غيا والغيَّ رشدا، وذكر عز وجل أن قوم موسى قد اتخذوا من بعد خروجه للميقات عجلا جسدا له خوار وجعلوه إلها وعبدوه، وأنه لما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا تابوا من جريمتهم وندموا على خطيئتهم، شرع عز وجل هنا يبين موقف موسى من قومه حين رجع إليهم، وموقفه من أخيه هارون عليه السلام، وموقف

هارون عليه السلام من ذلك، وتوعد عز وجل الذين اتخذوا العجل ورغَّبَ في التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وذكَر قصةَ صَعْق السبعين الذين كانوا مع موسى عليه السلام في الميقات، وضراعة موسى إلى الله عز وجل أن يَمُنَّ عليهم بالإفاقة من صعقتهم، وأن يغفر لهم ويرحمهم، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفًا﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أَسِفًا﴾ أي ولما عاد موسى إلى قومه من ميقات ربه رجع إليهم ممتلئا غَضَبًا وحزنا، وسَبَبُ رجوعه غضبان أَسِفًا أن الله تبارك وتعالى قد أعلمه وهو في المناجاة أن قومه قد عبدوا عجلا صَنَعَهُ لهم السامري، كما ذكر ذلك عز وجل حيث يقول: ﴿وما أَعْجَلَكَ عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أَثَري وعَجِلْتُ إليك رب لترضَى * قال فإنا قد فَتَنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسِفًا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿قال بئسما خلفتمونى من بعدي أعجِلْتُم أمر ربكم﴾ أي بئس وقَبُحَ وذُمَّ الفعلُ الذي فعلتموه من عبادة العجل بعد فراقي إياكم وخَلَفْتُمُوني في قومي وديني بهذا الشر الذي ارتكبتموه، أرغبتم أن يُعَجِّلَ الله أمره بإنزال العذاب بكم وأن يحل عليكم غضب من ربكم، وأنتم قد علمتم أن الله عز وجل قد أنزل عقوبته بفرعون وقومه لما عَتَوْا عن أمر ربهم، وشهدتم بأنفسكم مصارعهم، وقوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَى الألواح وأخذ برأس أخيه يَجُرُّهُ إليه، قال ابنَ أُمَّ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشْمِتْ بِيَ الأعداءَ ولا تجعلني مع القوم الظالمين * قال ربِّ اغفر لي ولأخي وأَدْخِلْنَا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ بيان لموقف موسى عليه السلام من أخيه وخليفته في قومه أثناء غيابه هارونَ عليه السلام، وموقفِ هارونَ من ذلك، وما اعتذر به لموسى عليه السلام، وأن موسى عليه السلام

قبل عذره وسأل الله عز وجل أن يغفر لـه ولأخيه هارون وأن يدخلهما في رحمة أرحم الـراحمين. ومعنى: ﴿وألقى الألواح وأخـذ برأس أخيـه يجره إليه﴾ أي ووضع ألـواح التوراة على الأرض بسرعـة وأمسك بـرأس هـارون وأخذ يجذبـه نحوه ليعاتبه على عدم ردعه لهؤلاء الذين عبدوا العجل، ومعنى قوله: ﴿قال ابنَ أُمَّ إن القـوم استضعفـوني وكـادوا يقتلـونني فـلا تشمت بي الأعـداء ولا تجعلني مع القوم الظـالمين﴾ أي فاعتذر هارون عليه السـلام لموسى ﷺ وقال مخاطبا لـه: يا ابن أمي لا تجذبني هكـذا ولا تأخذ بـرأسي، فقد نصحت لهم وحذرتهم من عبادتهم العجل وشركهم بالله وقلتُ لهم يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري، وأنهم قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينـا موسى، فأصر دعـاة الضلالة منهم على بـاطلهم، واستضعفوني وكادوا يقتلونـنـي فلا تفعل بي شيئا يكون سببا لشماتتهـم بي، ولا تؤاخذني بما فعل هؤلاء الظـالمون فإني نهيتهم عن المنكر فلم ينتهوا وزجرتهم فلم ينـزجروا. وقد حاول هـارون عليه السلام أن يستدر شفقـة موسى عليه السـلام وحنانه فناداه بقـوله: يا ابن أمي مع أنـه شقيقه فهو أخـوه لأبيه وأمه، لأن ذكـر أمه يجعله أرق له وأكثر حنانا وشفقـة عليه صلوات الله وسلامه عليهما. وقد قبل مـوسى اعتـذار أخيـه هـارون عليهما السـلام وقـال: ﴿رب اغفـر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الـراحمين﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعـالى في سورة طه مزيد بيان لما كان بين مـوسى صلى الله عليه وسلم وقومه من عبدة العجل وما أجـابوه بـه، وما ذكـروه عن السامـري، وموقـف هارون عليـه السلام، ومعاقبة السامري وتحريق العجل ونسفـه في اليم، والتأكيد على أنه لا إله إلا الله الذي وسـع كل شيء علما حيث يقول تبـارك وتعالى: ﴿فرجع مـوسى إلى قومه غضبان أسِفًا، قال يـا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا، أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يَحِلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * قالوا ما

أخلفنا موعدك بِمَلْكِنَـا ولكِنَّا حُـمِّلْنَا أوزارا من زينة القوم فقذفنـاها فكذلك ألقى السامـري * فأخرج لهم عجلا جسـدا له خُـوارٌ فقالوا هٰذا إلهكم وإلٰه موسى فَنَسِيَ * أَفَلا يَرَوْنَ أَلا يَـرْجِعُ إليهم قولا ولا يملك لهم ضَرًّا ولا نفعا * ولقد قـال لهم هارونُ من قبلُ يا قـوم إنما فُتِنتُمْ به وإنّ ربكم الرحمٰنُ فـاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عـاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارونُ ما منعك إذْ رأيتَهم ضلُّوا * أَلا تَتَّبِعَـنِ أَفَعَصَيْتَ أمري * قال يا ابن أمَّ لا تأخـذ بلحيتي ولا برأسي إني خَشِيتُ أن تقـول فَـرَّقْتَ بين بني إسرائيل ولم تَـرْقُبْ قـولي * قـال فما خَطْبُكَ يَـا سَـامِـرِيُّ * قـال بَصُرْتُ بما لم يَبْصُرُوا بـه فَقَبَضْتُ قَبضـةً من أثـر الـرسول فَنَبَـذْتُهَا وكـذٰلك سـوَّلَتْ لي نفسي * قـال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مِسَـاسَ وإن لك موعدا لن تُخْلَفَهُ وانظر إلى إلهك الـذي ظَلْتَ عليه عـاكفا لَنُحَـرِّقَنَّـه ثم لَنَنسِفَنَّهُ في الْيَمِّ نَسْفًـا * إنما إلٰهكم الله الـذي لا إلٰه إلا هـو، وَسِعَ كلَّ شيء علما﴾ وقولُـه تبارك وتعـالى: ﴿إنَّ الذيـن اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذِلَّـةٌ في الحياة الـدنيا، وكذٰلك نجزي المفترين * والـذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعـدها وآمنوا إن ربك من بعدهـا لغفور رحيم﴾ وعيـد لعبدة العجل ولكل مُفْتَرٍ على الله، ووعـد لكل من وقع في المعـاصي ثم أقلع عنها وتـاب إلى ربـه وانقاد لشرعـه ظاهـرا وباطنـا، أي إن الذين عبـدوا العجل واتخذوه إلها من دون الله وأصروا على ذلك وأشربـوا في قلـوبهم العجل بكفـرهم سيحل بهم سخط من ربهم ويصيبهم الذل والهوان في الحيـاة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشـد وأشق، وهذا جزاء كل من يفتري على الله ويتخذ إلها غيره، ويصر على ضـلالته، وأما من وقع في المعـاصي واجترح السيئات سواء كـانت شركـا أو ما دونه مـن الكبائر لكنه أقلع عنهـا وتاب منهـا وانقاد لشرع الله ظاهـرا وباطنـا فإن الله عز وجل يعفو عنه ويغفر له ويتوب عليه لأنـه هو الغفور الرحيم، كما قال عز وجل:

﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون﴾ وقولُه عز وجل: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواحَ وفي نسختها هُدًى ورحمة للذين هم لربهم يَرْهَبُون﴾ أي ولما سكن عن موسى الغضب حمل ألواح التوراة وقد كُتِبَ فيها هدى أي بيانٌ لكل ما يحتاجه بنو إسرائيل وتفصيلٌ لكل شيء وفيها رحمة للخلق بإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في دنياهم ودينهم وينتفع بذلك منهم الذين يخشون ربهم ويخافونه ويمتنعون عن المعاصي من أجل ربهم فيسلكون صراطه المستقيم. ولفظ سكت يكون بمعنى سكن ومصدره السكْتُ، ويكون بمعنى انقطع عن الكلام ومصدره السكوت. قال الزجاج في تفسيره: يقال: سكت يَسْكُتُ سَكْتًا إذا هو سَكَنَ، وسكت يَسْكُتُ سُكوتًا وسَكْتًا إذا قطع الكلام. اهـ هذا وفي قوله: ﴿أخذ الألواح﴾ دليل على أنها لم تتكسر عندما ألقاها، ولم يثبت في خبر صحيح أن الألواح تكسرت عندما ألقاها موسى عليه السلام. قال القرطبي رحمه الله: قال أبوالفرج الجَوْزيُّ: مَنْ يُصَحِّحُ عن موسى عليه السلام أنه رماها رَمْيَ كَاسِرٍ؟ والذي ذُكِرَ في القرآن ألقاها، فمِنْ أين لنا أنها تكسرت؟اهـ وقولُه تبارك وتعالى: ﴿واختار موسى قَوْمَهُ سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإياي أتُهلكنا بما فعل السفهاءُ منا إن هي إلا فتنتك تُضِل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾ قد أشرت في تفسير قوله: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ إلى أن موسى عليه السلام لما أفاق من صعقته واعتذر إلى ربه ورأى موسى عليه السلام أن السبعين الذين معه لايزالون في صعقتهم دعا الله عز وجل أن يكشف عنهم وأن الله عز وجل قد

أجاب دعوة موسى عليه السلام فأفاق السبعون من صعقتهم، ومعنى الآية: واصطحب موسى معه لميقاتنا سبعين رجلا من خيار قومه وفضلائهم، فلما تجلى الله للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا وأخذت الصعقة السبعين الذين كانوا معه، فلما أفاق موسى اعتذر إلى ربه ودعا الله أن يكشف عن السبعين صعقتهم، وقال: رب لو أردت أهلكتنا من قبل أن نسألك الرؤية، أتهلكنا بعمل سفهائنا الذين قالوا: أرنا الله جهرة، وأنت وحدك تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد وتختبر عبادك فتضل من تشاء عدلا وتهدي من تشاء فضلا، أنت حافظنا وناصرنا فاستر علينا واحفظنا وأدخلنا في رحمتك وأنت خير من صفح عن جرم وعفا عن ذنب.

قال تعالى: ﴿واكتب لنا في هٰذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنَّا هدْنا إليك، قال عذابي أصيب به من أشاءُ ورحمتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوٰة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرَّسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولٓئك هم المفلحون﴾.

بعد أن بين الله تبارك وتعالى موقف موسى من قومه حين رجع إليهم وموقفه من أخيه هارون عليهما السلام وموقف هارون عليه السلام من ذلك وما توعد الله عز وجل به عُبَّاد العجل، وقصة صعق السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه، وأن موسى عليه السلام تضرَّع إلى الله عز وجل أن يمنَّ عليهم بالإفاقة من صعقتهم وسأل الله عز وجل مغفرته ورحمته بيَّن في هذا المقام بقية دعاء موسى عليه السلام وما أجابه الله تبارك وتعالى به مبينًا سعة رحمة الله وشروط التأهل لها، حيث لا ينالها إلا المتقون، المؤتون الزكاة، المؤمنون بآيات الله التي يؤيد بها رسله، المتبعون لرسول الله محمد ﷺ إذا بعث، المعروف لأهل الكتب السماوية بما وصفه المرسلون لأممهم من صفاته وبخاصة في التوراة والإنجيل، المبعوث بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإباحة الطيبات وتحريم الخبائث، وتيسير التشريع، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وأيده ونصره واتبع النور الذي أنزل معه، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿واكتبْ لنا في هٰذه الدنيا حسنة وفي الآخرة﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿فالذين آمنوا به وعزَّرُوهُ ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولٓئك هم المفلحون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿واكتب لنا في هٰذه الدنيا حسنة وفي

الآخرة﴾ أي وتفضل علينا وامنحنا وحقق لنـا خير الدنيا والآخرة، بأن تحيينا حياة طيبة في الدنيا وتجعل رزقنا فيها رغدا، وتمنحنا الصحة والعافية والأمن، وتحفظنـا من الشرور والمعـاصي والآثـام، ولا تجعـل عيشنـا نكـدا، ومتعنـا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنـا، وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامـا، وتوفنا مسلمين غير خزايـا ولا نادمين ولا مفتونين، واجعلنـا في الفردوس الأعلى في جنـات النعيم، ودعوة مـوسى عليه السـلام هذه شبيهة بدعوة المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء بها فيقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنـة وقنا عـذاب النار. ومعنى قـوله: ﴿إنـا هدنـا إليك﴾ أي تبنا وأنبنا ورجعنـا إليك، قال في القـاموس المحيط: الـهَوْدُ التـوبة والـرجوع إلى الحق. ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿قـال عذابي أصيـب به من أشـاءُ ورحمتي وسعت كل شيء﴾ أي قـال الله تعالى مجيبـا لموسى عليه السـلام مبيِّنًا لـه أنه يعـاقب من يشـاء من عصـاة عباده ويعفـو عمن يشـاء لا راد لقضـائه ولا معقب لحكمـه، ولا يظلـم ربك أحـدا، وأن رحمتـه غلبـت غضبـه، وأنها وسعت كل شيء في الـدنيا، حيث أنـزل عز وجل جـزءًا من مائة جـزء من رحمته إلى الأرض فمن هـذا الجزء من رحمة الله يتعاطف الخلق ويتراحمون وبها تعطف الـوحش على ولـدها، وأمسك عنـده تسعـا وتسعين رحمة خص بها عبـاده المؤمنين يوم القيـامـة، فقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي، وفي رواية: غلبت غضبي، وفي روايـة: سبقت غضبي، كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: جعل الله الرحمة مـائة جزءٍ، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنـزل في الأرض جزءا

واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه، وفي رواية للشيخين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: إن لله تعالى مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخَّر الله تعالى تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة. وفي لفظ لمسلم من رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله تعالى مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم وتسع وتسعون ليوم القيامة، وفي لفظ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمةٍ، كل رحمة، طِبَاقَ ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمةً، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يومُ القيامة أكملها بهذه الرحمة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من رحمته أنه من عمل سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإن الله يغفر له ويرحمه حيث يقول عز وجل: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ بيان لشروط التأهل لرحمة الله الدائمة في جنات النعيم التي جعلها الله عز وجل رحمته الخاصة بالمؤمنين التي لا تفنى ولا تزول، فلا يريمون منها ولا يتحولون عنها بحال من الأحوال، وأول هذه الشروط المؤهلة للجنة تقوى الله عز وجل ويشمل ذلك طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ومنها إيتاء الزكاة، والإيمان بآيات الله الكونية والمتلوة، واتباع الرسول النبي الأمي، والمراد به محمد رسول الله ﷺ الذي لم

يبعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق أن يبشر به أمته حتى يؤيدوه وينصروه عندما يبعثه الله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ، قال أأقررتم وأخذتم على ذٰلكم إصري قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾ وقد وصفه الله عز وجل هنا بأنه الرسول النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الذي يحل الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عن الإنسانية الإصر والأغلال التي كانت عليهم، وأنه لن يفلح إلا من آمن به وعزَّره ونصره واتبع النور الذي أنزل معه. وهذه الصفات التي وصف الله عز وجل بها نبيه محمدًا ﷺ، قد وصفه بها كل نبي من أنبياء الله ورسله لأمته وبشر قومه به حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم خطيبا في بني إسرائيل يقول لهم: ﴿إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديَّ من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ ولذلك كان علماء أهل الكتاب يعرفون صفات النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم بسبب بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ ووصفهم له لأممهم حتى يؤمنوا به إذا جاء، ومن صفاته عندهم أنه يُبْعَثُ بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام، وأنه يخرج بأرض العرب، وأنه يهاجر إلى أرض سبخة ذات نخيل بين لابتين، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وأن في كتفه خاتم النبوة كزر الحجلة. وفي التوراة التي بيد اليهود والنصارى: سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم مثلك يا موسى، أنزل عليه توراة، وأجعل كلامي على فيه. ولم يأت أحد من الرسل يذكر أن معجزته كلام الله غير محمد ﷺ الذي جعل الله معجزته الكبرى، وآيته العظمى القرآن العظيم والذكر الحكيم، الباقي محفوظا بحفظ الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها، والتوراة معناها الشريعة كما جاء أيضا في وصف رسول

الله ﷺ في التـوراة: تجلى الله أو جـاء الله من طور سينـاء وأشرق من ساعير واستعلى أو استعلن من جبال فاران، وهو إشارة إلى دين موسى الذي أوحى الله إليه به في طـور سيناء. وبشارة بعيسى عليه السلام الـذي أنزل الله عليه الوحي في جبـال ساعير من أرض الجليل بقـرية تدعى النـاصرة، ويقال لها أيضا: نصرانة التي سُمِّيَ من ينتمي إلى المسيح عليـه السلام بها فيقال لهم: النصارى. وقـوله: واستعلى أو استعلن مـن جبال فـاران أو من بريـة فاران بشارة واضحة جليـة بمحمد ﷺ الذي أنزل الله تعالى عليـه الوحي ببرية أو جبال فاران وهي أرض مكة بـلا خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب. وهذه البشارة الواردة في التـوراة تطابق ما جاء في قوله تعـالى: ﴿والتين والزيتون * وطور سينين * وهٰذا البلد الأمين﴾ فالتين والزيتـون جبلان بالأرض المقدسة بعث الله عندهما عيسى عليه السلام، وطـور سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عنده وآتـاه التوراة فيه، والبلد الأمين هو مكة المكـرمة التي بعث منها محمـد ﷺ. وقد روى البخـاري في صحيحه من حـديث عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما قـال: وجدت في التـوراة في صفـة النبي محمد ﷺ يقـول الله سبحانه: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبـدي ورسـولى سميتك المتـوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخـاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم بـه الملة العـوجـاء، ويفتح عيونـا عميا وآذانـا صما، وقلـوبا غلفـا بأن يقولوا: لا إلـه إلاّ الله اهـ والمراد بالتوراة في هـذا الحديث بعض كتب العهد القديم. والمراد بكونـه أميا أنه ما كان يتلو قبله مـن كتاب ولا يخطه بيمينه، وأمته الأميـون الذين كانـوا قبل بعثته لا يكتبون ولا يحسبـون. والمراد بالإصر التكاليف الثقيلة إذ أصل الإصر الثقـل والشدة والضيق والحبس، والأغلال التي كانت عليهـم كالقتل في القصاص وعـدم قبول الـدية، وتحريم العمل

يوم السبت وعـدم قبول الصلاة إلا في أبنية خـاصة وعدم جـواز التيمم عند فقد الماء، وقد كان من حرَّم على نفسه شيئا باليمين فلا كفارة له وصار محرما عليه إلى يوم القيـامة، ومعنى: «وعزروه» أي أيـدوه وعظموه ووقروه، والمراد بالنور الذي أنزل معه الكتاب والسنة النبوية.

قال تعالى: ﴿قـل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الـذي له ملك السمٰوات والأرض لا إلٓه إلاَّ هو يحيي ويميت فئامنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

بعد أن ذكـر الله عز وجل بقيـة دعاء مـوسى عليه السـلام وما أجـابه الله تبـارك وتعالى بـه مبينـاً سعة رحمة الله الـذي يقبل تـوبـة التائبين ويغفـر لهم ويرحمهم كما أشـار إلى ذلك قولـه عز وجل في دعاء حملـة العرش ومن حـوله للمؤمنين حيث يقـولون: ﴿ربنـا وسعت كلَّ شيء رحمةً وعلما فاغفـر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعـدتهم ومن صلح مـن آبـائهم وأزواجهم وذريـاتهم، إنك أنـت العـزيـز الحكيم * وقهم السيئـات ومن تق السيئات يـومئذ فقـد رحمته، وذٰلك هـو الفـوز العظيم﴾ وبين عـز وجل شروط التأهل لـرحمة الله حيث لا ينـالها إلا المتقون، المؤتـون الزكـاة، المؤمنون بـآيات الله التي يـؤيد بها رسلـه، المتبعون للـرسـول النبي الأمي إذا بُعِثَ، المعـروف لأهل الكتب السماويـة بما وصفـه المرسلون لأممهم من صفاتـه وبخاصة في التوراة والإنجيل، المبعـوث بالأمر بـالمعـروف والنهي عن المنكـر وإبـاحـة الطيبـات وتحريم الخبـائث وتيسير التشريع، وأنه لـن يفلح إلا من آمن به وأيـده ونصره واتبع النور الـذي أُنزل معه، شرع هنا فأمر نبيه ورسوله محمدا ﷺ أن يعلن لجميع بني آدم من جميع أجناسهم وألـوانهم وأمصارهم وأعصارهم ممن عاصره أو يجيء بعـده إلى يوم القيـامـة أنـه رسول الله إليهـم جميعا، وقـد بعثـه إليهم الله الـذي لـه ملك السمـوات والأرض الـذي لا يستحق العبـادة أحـد سـواه، الـذي يحيي ويميت، فبيده وحده إيجاد الخلق وإعدامهـم وإحياؤهم بعد موتهم، فَعَلى

العباد أن يصدقوا بالله الذي لا إلّه إلا هو ويقرُّوا بألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأن يصدقوا برسوله محمد ﷺ ليهتدوا ويسعدوا، ثم أثنى الله عز وجل على بعض قوم موسى الذين انقادوا للحق وصدقوا بجميع المرسلين، وبخاصة رسول الله محمد ﷺ الذي لم يبعث الله عز وجل رسولا إلا وصف لأمته صفته، وعرفهم به حتى صاروا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، كما أكد ذلك عبد الله بن سلام وسلمان الفارسي رضي الله عنهما فيما صح عنهما من الخبر بذلك، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له مُلْكُ السمٰوات والأرض لا إلّه إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم موسى أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ والمقصود الذي سيق له قوله عز وجل: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾ بيانُ عموم رسالته ﷺ إلى جميع البشر، وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك في مقامات كثيرة من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ ويقول عز وجل: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ ويقول عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا﴾ ويقول عز وجل: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ ويقول عز وجل: ﴿وأوحِيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومَن بَلَغ﴾ وقال تعالى: ﴿وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم، فإن أسلموا فقد اهتدوا﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ويقول تبارك وتعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ولو سألت يهوديا أو نصرانيا أو غيرهما من أهل الأديان عن أتباع محمد ﷺ لقال: هم المسلمون. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث

جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أُعطيت خمسا لم يعطهنَّ أحد قبلي، نصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعثتُ إلى الناس عامةً. وقد رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما بلفظ: قال رسول الله ﷺ: أُعْطِيتُ خمسا لم يعطهن أحدٌ قبلي، كان كل نبي يبعثُ إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى كل أحمرَ وأسودَ، وأحلت لي الغنائم ولم تُحَلَّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيِّبة طَهُورًا ومسجدًا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرتُ بالرُّعب بين يديْ مسيرةِ شهر، وأُعطيتُ الشفاعة. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار. وقوله عز وجل: ﴿الذي له ملك السمٰوات والأرض لا إلٰه إلا هو يحيي ويميت﴾ بيان وتقرير بأن الذي أرسل محمدا ﷺ هو الملك الحق المبين الذي له السلطان التام في السموات والأرض الذي لا ينبغي أن تكون الألوهة والعبادة إلا له وحده جل ثناؤه، وهو القادر على إنشاء وخلق كل شيء وإحيائه، وإفنائه إذا شاء وإماتته، وهو رب كل شيء وسيده ومليكه، له الخلق وله الأمر، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ أي فصدقوا بالله وصدقوا برسوله النبي الموصوف بالأميّ الذي ما كان يتلو من قبل بعثته كتابا ولا يخطه بيمينه، وقد بعثه من الأميين فصار يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فصاروا أئمة الدنيا علما وسلوكا وأبصر خلق الله بالكون وما فيه من

الآيـات الشاهـدة على أن الله هو رب كل شيء وسيـده ومليكه كما أشـار إلى ذلك قولـه عز وجل: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسـولا منهم يتلوا عليهم آياتـه ويزكيهم ويعلمهـم الكتاب والحكمة وإن كـانوا من قبل لفـي ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم، وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله يؤتيـه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقد جعل الله عز وجل معجـزته الكبرى وحجته العظمى كتابه الكريم الجامع لجميع ما تحتاجه الإنسانية من نظام يجلب لها سعـادة الدنيـا والآخرة في جميع أعصارهـا وأمصارهـا وألوانها وأجناسها، وبدأ إنزال الكتاب عليه بقوله عز وجل: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الإنسـان ما لم يعلـم﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وعلمك مـا لم تكن تعلم وكان فضـل الله عليك عظيما﴾ وكان من آيـات الله في هذا الكتاب الكـريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفه أنه كان ينزل على هذا النبي الأمي وقد يكون النـازل في المرة الواحدة سورة طويلة كسـورة الأنعام فيقرؤها جبريل على رسـول الله ﷺ مـرة واحـدة فتنطبع في قلب رسـول الله ﷺ فـلا ينسى منها حـرفا واحدا، ولما كـان يردد الآيـة أو الجملة عندمـا يسمعها من جبريل في أول نزول القرآن ويحرك بها لسـانه من شدة حرصـه عليه، قال الله عز وجل له: ﴿لا تحرك بـه لسانك لتعجل به * إن علينا جمعـه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه﴾ وقد ثبّتَهُ الله عز وجل في قلبه مع طوله وكونه كتابا متشابها مثـاني، فكان حفظه ﷺ لهذا القرآن - وهو النبي الأمي - معجزة ظـاهرةً وحجةً بـاهرةً، لأن القرآن أشـدُّ تفلُّتًا من صدور الـرجال من الإبل المعقلة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال: «إنما مثل صـاحب القـرآن كمثل صاحب الإبل الـمُعَقَّلة، إن عاهـد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت. كما

روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهوَ أشدُّ تَفَصِّيًا من الإبل في عقلها. وقد وصف الله تبارك وتعالى نبيه الأمي محمدا ﷺ بأنه يؤمن بالله وكلماته وأمر جميع الناس باتباعه ليكونوا من المهتدين، وقوله عز وجل: ﴿ومن قوم موسى أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي ومن بنى إسرائيل طائفة يتبعون الحق ويعدلون بسبب الاستمساك به فيصدقون بجميع المرسلين ويؤمنون بالنبي الأمي ومن هؤلاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه. وقد أشار الله تبارك وتعالى بذلك إلى أن أهل الكتاب ليسوا سواء، كما قال عز وجل: ﴿من أهل الكتاب أمةٌ قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولَئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروهُ، والله عليم بالمتقين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أولَئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب﴾ وقال عز وجل: ﴿إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلَى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولَئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾.

قال تعـالى : ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسبـاطاً أمما ، وأوحينـا إلى موسىٰ إذ استسقاهُ قومـه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتـا عشرة عينا قد علم كل أناسٍ مشربهم ، وظللنـا عليهم الغمام وأنزلنـا عليهم المنَّ والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قيل لهم اسكنـوا هٰذه القـرية وكلوا منهـا حيث شئتم وقـولوا حطـة وادخلوا الباب سجدا نغفـر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبـدل الذين ظلموا منهم قـولاً غير الـذي قيل لهم فأرسلنـا عليهم رجـزاً مـن السماء بما كـانـوا يظلمون﴾ .

بعد أن أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يعلن لجميع بني آدم من جميع أجناسهم وألوانهم وأعصارهم وأمصـارهم ممن عاصره أو يجيء بعده إلى يوم القيـامة أنه رسول رب العالمين إليهم جميعا ليعبـدوا الله وحده لا شريك له وأنَّ عليهم أن يصدقـوا بالله ورسـوله ليهتـدوا ويسعدوا ، ثم أثنى عز وجـل على بعض قوم موسـى الذين انقـادوا للحق وصدقـوا بجميع المرسلين وبخاصـة رسول الله النبي الأمي محمـد ﷺ . شرع هنـا في شرح بعض أحـوال بنـي إسرائيل مع موسى عليه السلام مبينـا بعض ما أنعم به عليهم مندِّدًا بما كانـوا يقابلون به نعم الله وأوامره من الجحود والعصيـان حتى أرسل عليهم رجزا من السماء بما كانـوا يظلمون ، وقـد ساق الله عـز وجل ذلك في صور بـلاغية من المتشـابه المثاني تأكيدًا على نبوة ورسالة الرسول النبي الأميّ محمد ﷺ ، وفي ذلك يقول تبارك وتعـالى : ﴿وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسبـاطا أمما ، وأوحينـا إلى موسى إذ استسقاه قـومه أن اضرب بعصاك الحجر فـانبجست منه اثنتا عشرة عينـا قد علم كل أناس مشربهم﴾ إلى قـوله تبارك وتعالى : ﴿فأرسلنـا عليهم رجزا من السماء بما كانـوا يظلمون﴾ ومعنى قوله عـز وجل : ﴿ وقطعناهـم اثنتي عشرة

أسباطا أمما﴾ أي وقد فرقنا بني إسرائيل فرقًا اثنتي عشرة وقوله : ﴿أسباطا﴾ بدل من ﴿اثنتي عشرة﴾ كأنه قال : جعلناهم أسباطا ، وفرقناهم أسباطا كما قال الزجاج ، وقد تقدم تفسير الأسباط في سورة البقرة ، وقوله ﴿أمما﴾ نعت ﴿أسباطا﴾ والأمم جمع أمة والمراد بها الجماعة كما قال عز وجل : ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون﴾ أي وجد عليه جماعة من الناس يسقون . وقد ساق الله تبارك وتعالى في هذا المقام من سورة الأعراف وهي مكية قصة الاستسقاء وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى والأمر بأن يسكنوا القرية وأن يأكلوا منها من حيث يشاؤون ، وأن يقولوا حطة وأن يدخلوا الباب سجدا ، وذكر عصيانهم هذه الأوامر وإرسال الرجز عليهم وساقها في سورة البقرة وهي مدنية حيث قال : ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون * وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ الآية وكلا السياقين يشبه بعضه بعضا في الحسن والجمال والإتقان مع اختلاف في العبارة واتفاق في المعاني على صورة قد بلغت في البلاغة أعلى الدرجات ، واشتملت على دُرَر المعاني والبيان والبديع من مناسبة المقال للمقام ، حيث قدَّم قصة الاستسقاء في هذا المقام على غيرها مع أنها جاءت في سورة البقرة متأخرة عن بقية هذه الأحوال ، وذلك لبدئه بيان هذه الأحوال هنا بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وقطَّعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما﴾ فناسب أن يتبع ذلك مباشرة بذكر الاستسقاء لأن الحجر الذي ضربه موسى بعصاه قد انفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط ، بخلاف سورة البقرة فإنه لم يذكر

هناك أنه قطع بني إسرائيل أسباطا اثنتي عشرة فرقة، ومن أظهر هذه الأبواب البديعية في هـذا المقام الاحتباك وهو أن يثبت قيدا في مقـام ويحذفه في المقام الآخر لدلالة المذكور على المحذوف، وهـذا الباب من أعظم أبواب البلاغة، وقد ورد كثيرا في كتـاب الله عز وجل كقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ إن يكن منكم عشرون صابـرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مـائة يغلبوا ألفًـا من الذين كفروا بأنهم قـوم لا يفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلـم أن فيكم ضعفًا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبـوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين﴾ فقد قيـد العشرين في قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾ بقيدين وهو كـون العشرين منكم، وكونهم صابرين، ثم قال: ﴿يغلبـوا مائتين﴾ ولم يقيدهـا بقيد، ثم قـال: ﴿وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفـا من الذين كفـروا﴾ فلم يقيد المائة هنا بقيـد الصبر اكتفاء بـالقيد السابق وهو كـونهم صابرين، وقيد الألف بكونهم من الـذين كفروا، فكان قـوله: ﴿مـائتين﴾ مقيدا بهذا القيـد في المعنى أي يغلبـوا مائتين من الـذين كفـروا، وقـال: ﴿يغلبوا ألفين بإذن الله﴾ فكـان إذن الله قيـدا في الجميع، وهكذا في هذا المقـام حيث قال عز وجل: ﴿إذ استسقاه قـومه فقلنا اضرب بعصـاك الحجر﴾ وقـال في سورة البقـرة ﴿وإذ استسقى موسى لقـومه فقلنـا اضرب بعصاك الحجر﴾ فدل المذكـور على المحذوف في المقامين وعلم أن قوم موسى طلبوا منه الاستسقاء فـاستسقى لهم، وأن الأمر بضربه الحجر بعصاه مرتبٌ على استسقـائه لا على استسقائهم، وقال في سورة البقـرة ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقال هنا: ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾ فدل على أن الانفجار والانبجاس بمعنى واحد، وهو إشارة إلى كنوز فقه اللغة العربية التي لا يستطيع إنسان مهما كان أن يحيط بلغات القبـائل المتحدثة بها، وقال هنا: ﴿وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهـم المن والسلوى كلوا من طيبات ما

رزقناكم، وما ظلمـونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وقـال في سورة البقرة: ﴿وظللنـا عليكم الغمام وأنـزلنـا عليكم المن والسلوى كلـوا من طيبـات مـا رزقناكم، ومـا ظلمونـا ولَكن كانوا أنفسهم يظلمـون﴾ بتوجيـه الخطاب في سـورة البقـرة إلى بني إسرائيل المعـاصرين لـرسـول الله صلى الله عليـه وسلم تقـريعا لهم، لأن النعمـة على آبائهم نعمـة عليهم، وهم لم يشكروا النعمـة العظمى حيث بعث فيهـم رسـول الله خـاتم النبيين و إمـام المرسلين الـذي يعرفـونه كما يعرفون أبنـاءهم فلم يؤمنوا بـه وكذبوه، وعلم أن قولـه في سورة البقـرة: ﴿وظللنـــا عليكم الغمام وأنـزلنـــا عليكم المن والسلـوى﴾ أي على آبائكم، وخير ما يُفَسَّر القـرآن بالقرآن. وفي قوله عـز وجل في سورة البقرة: ﴿و إذ قلنا ادخلـوا هٰذه القرية فكلـوا منها حيث شئتم رغدا﴾ وقـال في هذا المقام: ﴿و إذ قيل لهم اسكنوا هٰذه القريـة وكلوا منها حيث شئتم﴾ فقال في سورة البقرة ﴿قلنـا ادخلوا﴾ وقال هنا: ﴿قيل لهم اسكنـوا﴾ فدل ذلك على أن موسى عليه السلام قال لهم اسكنوا هذه القرية بأمر من الله عز وجل، كما دل أيضا على أن المراد بـالدخـول هو الولـوج إلى القريـة للسكنى لا للعبور، والتعبير في هـذا المقام بقـوله: ﴿قيل لهم﴾ وتـرك هذا القيـد في سورة البقـرة لدلالة المذكور هنا على المحذوف هناك، ولا منـافاة بين التعبير بالفاء في قوله في سورة البقرة: ﴿فكلـوا منها حيث شئتم رغدا﴾ والتعبير بالـواو في قوله في هـذا المقام: ﴿وكلـوا منها حيث شئتم﴾ لما عُلِم في علم معـاني الحروف بأن الحرف قـد يستعمل في معـان كثيرة قد يتـلاقى في بعضهـا مع بعض معـاني الحروف الأخرى، فالواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيبا ولا تعقيبا فلا تتعارض مع الفاء المقتضيـة للتعقيب، ويكون التعبير بـالفاء في سـورة البقرة للـدلالة على أنهم سيجدون ما يـرغبون في أكله بمجرد دخول القريـة ولا يحتاجون إلى كبير عناء في الحصول على ذلك، والتعبير بالواو في هذا المقام لا ينافي ذلك،

وقد أشرت في تفسير قولـه تبارك وتعالى: ﴿ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ بأن مجيء التعبير بقولـه: ﴿ثم﴾ في هذا المقـام لا يتنافى مع التعبير بالـواو في قولـه عز وجل في طـه والشعراء: ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾ إلى أنـه لا تنافي بين الحرفين في الدلالـة على المقصود وحذف كلمـة «رغدا» في هـذا المقام للدلالـة عليها بذكرهـا في سورة البقرة. وهذا سر من أسرار إعجاز القـرآن و إشارة إلى تعاور الحروف والكلمات، ومجيء بعضها مكان بعض، ولذلك قال في هذا المقام: ﴿وقولـوا حطة وادخلـوا الباب سجـدا﴾ وقال في سـورة البقرة: ﴿وادخلـوا الباب سجـدا وقولوا حطة﴾ بـالتقديم والتأخير لما ذكرت قريبـا من أن الواو لمطلق الجمع لا تقتضي ترتيبـا ولا تعقيبا، كما أنه لا منافاة بين معنـى قوله في سورة البقرة: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ وقـوله هنا: ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ و إنما المغـايرة اللفظيـة جاءت للتصريف البـلاغي ولفت الانتباه إلى أن هـذا الكتاب العظيم الذي نزل على النبي الأمي قـد أحكمت آياته ثم فصلت من لـدن حكيم خبير. ومجيء الواو في قـولـه تعالى في سـورة البقـرة: ﴿وسنزيـد المحسنين﴾ وحذفهـا هنا حيث قال: ﴿سـنـزيد المحسنين﴾ لدلالـة المذكور على المحـذوف مع أن حذف الـواو قد يفيـد الاستئنـاف المترتب على تقديـر سـؤال نشأ من الإخبـار بـالغفـران كـأنـه قيل: فماذا بعـد الغفـران، فقيل: ﴿سنزيـد المحسنين﴾ ولا فرق بين قوله عـز وجل في سورة البقرة: ﴿فأنـزلنا على الذين ظلمـوا رجزا من السماء بما كـانوا يفسقون﴾ وقـوله هنـا ﴿فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون﴾ حيث سجل عليهم في سورة البقرة أنهم ظالمون فاسقون، فانطبق عليهم هنا كونهم ظالمين فاسقين أيضا لكنه في هذا المقام أورد ضميرهم حيث قـال ﴿عليهم﴾ وفي سورة البقرة قال: ﴿على الـذين ظلموا﴾ فـذيَّل الآيـة بقـوله ﴿يفسقـون﴾ وهنـا ذيل الآيـة بقولـه: ﴿يظلمون﴾ ولا شك أنهم خـارجون عن طـاعة الله ظـالمون لأنفسهم، هذا

وقد مر تفسير ألفاظ هذه الآيات في سورة البقرة، وقد بينت أن أرسل وأنزل المذكورين في قوله في سورة البقرة: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء﴾ وفي سورة الأعراف هنا: ﴿فأرسلنا عليهم رجزا من السماء﴾ هما بمعنى واحد، أي سلطنا عليهم عذابا من فوقهم وأطلقناه عليهم بسبب ظلمهم وفسقهم حيث عصوا ربهم، وبدّلوا قولا غير الذي قيل لهم، ولا يظلم ربك أحدا.

قال تعالى: ﴿وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذالك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون * فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين * وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيمٌ * وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾.

بعد أن شرح الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وبين بعض ما أنعم به عليهم وندَّد بما كانوا يقابلون به نعم الله وأوامره من الجحود والعصيان حتى أرسل عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون، مما يتضمن مواساة رسول الله محمد ﷺ مما يلاقيه من اليهود وغيرهم من الكفار مع تحذير هؤلاء المكذبين من أن يحل بهم ما حل بمن سبقهم من الجاحدين الكافرين شرع هنا في ذكر بعض أحوال بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وما كانوا يعملونه من الحيل والمكر السيئ لارتكاب المعاصي ومخالفة أوامر الله ونواهيه، وموقف بعض صالحيهم الذين قاموا بوعظهم وتذكيرهم لعلهم ينتهون عن غيهم وضلالهم، وموقف بعض القاصرين المتشددين المتنطعين الذين أيقنوا أن هؤلاء العصاة لا توبة لهم وأن الله معاقبهم لا محالة، وأنهم لما نَسُوا ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب شديد بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة ربهم، وأنهم لَمَّا عتوا عما نُهُوا عنه مسخهم قردة خاسئين وأعلن عز وجل أنه

سيسلط على اليهود الكافرين من يذيقهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مع قبوله توبة التائبين، ثم ذكر عز وجل تقطيع بني إسرائيل في الأرض جماعات، منهم من ينيب إلى الله، ومنهم دون ذلك وأنه عز وجل اختبرهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرةَ البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حِيتانُهم يوم سَبْتِهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وبَلَوْناهُم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ والمراد بالسؤال في قوله عز وجل: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ هو تقريع اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ وتوبيخهم على كفرهم برسول الله ﷺ، وإفحامهم بأن محمدا ﷺ وهو الأميّ يعلم حقيقة هذه القصة التي يحرصون على كتمانها وإخفائها، ولا سبيل له إلى معرفتها إلا بالوحي من الله العزيز العليم، وهم موقنون بذلك، مع ما يتضمنه هذا السؤال من تهديدهم بعقوبة من الله على كفرهم برسوله محمد ﷺ، لأنه إذا كان الذين اعتدوا في السبت قد مسخهم الله وجعلهم قردة خاسئين مع أنهم إنما خالفوا فرعا من فروع الشريعة واحتالوا لارتكاب المحرم فما بالك بمن كفروا بالشريعة كلها وكذبوا إمام المرسلين محمدا ﷺ، وجحدوا نبوته؟ قال الزجاج في تفسير هذه الآية: والسؤال على ضربين، فأحد الضربين أن تسأل لتستخبر عما لا تعلم لتعلم. والضربُ الثاني أن تسأل مستخبرا على وجه التقرير، فتقول للرجل: أأنا فعلت كذا؟ وأنت تعلم أنك لم تفعل فإنما تسأله لتقرره وتوبِّخه، فمعنى أمر النبي ﷺ أن يسأل أهل الكتاب عن أهل هذه القرية ـ وقد أخبر الله جل ثناؤه بقصتها ـ ليقررهم بقديم كفرهم، وأن يعلمهم ما لا يعلم إلا بكتاب أو وحي. اهـ ولم يرد نص في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ يُعَيِّن هذه القرية، ومعنى كونها حاضرة البحر أي واقعة على شاطىء البحر قريبة منه

وبحضرته، ومعنى: ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي ينتهكون ما حرَّم الله عليهم ويعتدون على شريعة الله التي حرمت عليهم الصيد في يوم السبت وقد ندد الله تعالى باعتداء اليهود في السبت في سورة البقرة في قوله عز وجل: ﴿ولقد علمتم الذين اعْتَدَوْا منكم في السبت﴾ وصرَّح في سورة النساء بأنه عز وجل حرَّم السبت حيث قال في الآية الرابعة والخمسين بعد المائة: ﴿وقلنا لهم لا تَعْدُوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سَبْتِهِم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم، كذٰلك نَبْلُوهُم بما كانوا يفسقون﴾ أي كانت الحيتان وهي السمك ترفع رؤوسها فوق الماء مقبلة على الساحل يوم السبت ويسهل على من يريد صيدها أن يصيدها ـ والصيد محرم عليهم يوم السبت ـ فإذا ذهب يوم السبت اختفت من الماء القريب منهم فلا يرونها إلى السبت الآخر، اختبارا لهم وامتحانا، فاحتالوا على صيدها بوسائل كأن يحفروا حياضا كبيرة تتصل بالبحر فتدخلها الحيتان يوم السبت ولا تستطيع الرجوع إلى البحر فيصيدونها يوم الأحد والأيام الأخرى غير السبت، وهكذا اختبرهم الله عز وجل فلم ينجحوا في الاختبار، بسبب فسقهم عن طاعة الله وتمردهم على أوامر الله، ومعنى قوله: ﴿شُرَّعًا﴾ أي شارعة ظاهرة على الماء من كل طريق وناحية كشوارع الطرق، ومعنى: ﴿ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم﴾ أي ويوم لا يُعَظِّمونه تعظيمهم السبت، والمراد بقية أيام الأسبوع، لا تأتيهم الحيتان، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ أن الله تبارك وتعالى نبه المؤمنين وحذرهم من قتل الصيد وهم محرمون بحج أو عمرة أو حالة كونهم داخل حدود الحرم وأعلمهم أنه سيختبرهم بشيء من الصيد وهم محرمون، فصار الصيد يقترب منهم حتى يستطيع المحرم أن يأخذه بيده

وذكـرت أن هذا الاختبـار شبيه بما اختبر الله عـز وجل به بني إسرائيل الـذي قصـه الله عز وجل عـن أصحاب القـريـة التي كانـت حاضرة البحـر، فلم ينجحوا في هذا الاختبار فجعلهم الله قـردة خاسئين، أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد نجحوا في الامتحان وفازوا فيه حيث صار الصيد يسقط عليهم وهم محرمون عام الحديبية فخافـوا الله عز وجل وعصمهم الله من تناوله، وحماهم من معصيته ومخالفة أمره، ولا شك أن هذه التربية العملية والنجاح فيها أبرز برهان على أن أصحاب محمد ﷺ أهل لأن يشرفهم الله بصحبة خير المرسلين ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وإذ قـالت أُمَّةٌ منهم لِمَ تَعِظُون قـومًا اللهُ مُهْلِكُهم أو معـذبهم عذابـا شديـدا قالـوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذُكِّرُوا به أنجينـا الذين يَنْهَوْن عن السوء وأخذنا الـذين ظلموا بعـذاب بَئِيسٍ بما كانـوا يفسقون﴾. قـال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن أهـل هذه القريـة أنهم صاروا إلى ثـلاث فرق، فـرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يـوم السبت. كما تقدم بيانه في سورة البقـرة، وفرقـة نهت عن ذلك واعتـزلتهم، وفرقـة سكتت فلم تفعل ولم تنـه ولكنهـا قالت للمنكـرة: ﴿لِمَ تعظـون قومـا الله مهلكهم أو معـذبهم عذابـا شديدا﴾ أي لِمَ تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فـائدة في نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿معـذرة إلى ربكـم﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديـر: هذا معذرة، وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك «معـذرةً إلى ربكم» أي فيما أخذ علينـا من الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر «لعلهم يتقون» يقـولون: ولعلَّ لهذا الإنكار يتقون ما هـم فيـه ويتركونه ويرجعـون إلى الله تائبين، فإذا تـابوا تـاب الله عليهم ورحمهم، قـال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهـون عن السوء وأخـذنـا الذين ظلمـوا﴾ أي ارتكبـوا المعصية ﴿بعـذاب

بئيس﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين، لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيُذَمُّوا . اهـ والبئيس هو الشديد الموجع من البأس وهو الشدة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلما عَتَوْا عما نُهُوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين﴾ أي فلما استحكموا في الفساد واستمروا في التمرد والعناد واستمرءوا صيد السمك وأكله يوم السبت ولم يلتفتوا إلى وعظ الواعظين ونصح الناصحين قلنا لهم كونوا قردة خاسئين، وقد بينت في سورة البقرة أن هذا الأمر بقوله ﴿كونوا﴾ هو أمر كوني أي إنما قلنا لهم كونوا قردة فصاروا قردة، ويعبر البلاغيون عنه بأنه أمر تسخير وتكوين، والأمر الكوني لا يتخلف على حد قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإذْ تَأَذَّن ربك لَيَبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ أي وإذ أعلم ربك ليسلطن على اليهود من يجعل عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمسْكنة وباءوا بغضب من الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذلة أين ما ثُقِفُوا إلا بحَبْل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾ وقد قلت في تفسير قوله عز وجل: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾ أي إلا بإمداد من الله عز وجل يكون بسبب تقصير من يُسَلَّطُ عليهم اليهود في حق الله وتفريطهم في جنبه، وعدم إقامتهم شريعة الله فإن اليهود الرعاديد الجبناء لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم وإنما بذنوبنا وتفرق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعرفه سلط عليه من لا يعرفه، كما أنهم قد يُمَدّون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبا في اليهودية وإنما لحرب الإسلام ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿إلا بحبل من الله وحبل من الناس﴾

معجزة ظاهرة على مدى التاريخ يشاهدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها. هذا وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة بيان فضل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وأنهم أهل الفلاح والفوز والنجاة، كما تضمنت الوعيد الشديد للذين يصرون على المعاصي، وأشارت إلى أنه ينبغي للدعاة إلى الله ألا ييأسوا من رَوْح الله فإنه الغفور الرحيم الذي يقبل توبة التائبين، وكما قال تبارك وتعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿نبّئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقطّعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذُلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون﴾ أي وفرقنا بني إسرائيل في الأرض فرقا وشتتناهم في المشارق والمغارب، فكان منهم المستقيمون ومنهم دون ذلك كانوا طرائق قددا، واختبرناهم بالخير والشر، ليرجعوا إلى ربهم ويتوب المسيئون من غيهم.

قال تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هٰذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه، والدَّار الآخرة خيرٌ للذين يتقون، أفلا تعقلون * والذين يُمَسِّكُون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين * وإذ نَتَقْنَا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوةٍ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام وما كانوا يعملونه من الحيل والمكر السيئ لارتكاب المعاصي، ومخالفة أوامر الله ونواهيه وموقف بعض صالحيهم الذين كانوا يعظونهم ويخوفونهم من الله لعلهم ينتهون عن غيهم وضلالهم وموقف بعض المتشددين المتنطعين الذين أيقنوا أن هؤلاء العصاة لا توبة لهم وأن الله معاقبهم لا محالة وأنهم لما نسوا ما ذكروا به أنجى الله الذين ينهون عن السوء وأخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، وأنهم لما عَتَوْا عما نُهوا عنه مسخهم قردة خاسئين وأعلن عز وجل أنه سيسلط على اليهود الكافرين من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة مع قبوله توبة التائبين، وبين عز وجل أنه قطع بني إسرائيل في الأرض جماعات منهم من ينيب إلى الله، ومنهم دون ذلك، وأنه اختبرهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون. شرع هنا في شرح بعض أحوال الذين جاءوا من بعد هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ليقرر أنهم كانوا خَلْف سَوْء وأكثر تمردًا على كتاب ربهم ومواريث أنبيائهم، فإنهم قد ازدادت دراستهم لكتابهم الذي ورثوه أي انتقل إليهم من أسلافهم، ومع ذلك فإنهم كانوا يرتكبون القبائح ويزعمون أنهم لن يؤاخذوا بها ولن يعاقبوا عليها وأن الله سيغفر لهم، ويتمنون على الله الأماني، ويقولون على الله غير الحق، ولم

يمتنعوا عن المسارعة إلى ارتكاب المحظور متى لاح لهم، وهم يعلمون أن الله قد أخذ عليهم الميثاق في الكتاب الذي بأيديهم ألا يقولوا على الله إلا الحق، وقد قرؤوه وعرفوا ما فيه، ولكنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وباعوا آيات الله بالثمن الزهيد ولو كانوا يعقلون ما باعوا جنات النعيم بهذا الحطام الفاني والعرض الزائل، ثم أثنى الله عز وجل على الذين يستمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة، وبشرهم بالأجر الجزيل ووصفهم بأنهم مصلحون، وذكَّر بني إسرائيل بما فعله الله عز وجل بآبائهم الأولين حيث رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة حتى أيقنوا أنه واقع بهم وأمرهم أن يستمسكوا بالكتاب وألا يتراخوا في تطبيق أحكامه وتنفيذ تعاليمه والعمل بما فيه، ليعرفوا ربهم ويخافوه ويتقوه، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هٰذا الأدنى ويقولون سيُغْفَر لنا وإنْ يَأتِهِم عَرَضٌ مثلُه يأخذوه﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ وقوله عز وجل: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ الآية هو شبيه بقوله عز وجل في سورة مريم بعد ذكر الصالحين: ﴿فخَلَفَ من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يَلْقَوْن غيًّا * إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولٰئك يدخلون الجنة ولا يُظْلَمُون شيئا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله: ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هٰذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾: فتبدل من بعدهم بَدَل سوء، ورثوا كتاب الله فعُلِّموه، وضَيَّعوا العمل به، فخالفوا حكمه، يُرْشَوْن في حكم الله، فيأخذون الرشوة فيه من عرض هذا العاجل ﴿الأدنى﴾ يعني بالأدنى الأقرب من الآجل الأبعد، ويقولون إذا فعلوا ذلك: إن الله سيغفر لنا ذنوبنا، تمنيًا على الله الأباطيل، كما قال جل ثناؤه فيهم: ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون

هٰذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ ﴿وإن يأتهم عرضٌ مثله يأخذوه﴾ يقول: وإنْ أشرف لهم ذنب حرام مثله من الرشوة بعد ذلك أخذوه واستحلوه ولم يرتدعوا عنه، يخبر جل ثناؤه عنهم أنهم أهل إصرار على ذنوبهم وليسوا بأهل إنابة ولا توبة. اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه﴾ أي قد أخذنا عليهم العهد الموثق في الكتاب الذي بأيديهم أن لا يفتروا على الله الكذب وقد قرءوا هذا الكتاب مرة بعد مرة، وهم ذاكرون لذلك لم ينسوه، قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ﴿ألم يؤخذ﴾ على هؤلاء المرتشين في أحكامهم، القائلين: سيغفر اللهلنا فعلنا هذا، إذا عوتبوا على ذلك ﴿ميثاق الكتاب﴾ وهو أخذ الله العهود على بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، فقال جل ثناؤه لهؤلاء الذي قص قصتهم في هذه الآية، موبخا على خلافهم أمره، ونقضهم عهده وميثاقه: ألم يأخذ الله عليهم ميثاق كتابه ألا يقولوا على الله إلا الحق، ولا يضيفوا إليه إلا ما أنزله على رسوله موسى ﷺ في التوراة، وأن لا يكذبوا عليه. اهـ والاستفهام في قوله: ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ للتقرير والتقريع والتوبيخ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾ زيادة تقرير للحقيقة الثالثة من الحقائق الثلاث التي تدور في فلكها السور المكية وهي تقرير أنه لا إله إلا الله وتقرير أن محمدا رسول الله، وتقرير الإيمان بالبعث بعد الموت، لأن تقرير توحيد الله وتقرير رسالة المرسلين وتقرير البعث بعد الموت هي الأسس التي لا سعادة للناس إلا بها، وفي قوله عز وجل: ﴿والدار الآخر خير للذين يتقون، أفلا تعقلون﴾ لفت الانتباه إلى أنه من سفاهة الرأي أن يبيع الإنسان نعيم الجنة بالحطام الزائل من عرض الحياة الدنيا، وأن الذين يتقون الله ويعملون بأوامره

ويجتنبون نـواهيه ويقفون عنـد حدوده هم أهل النعيم المقيم، حيث يمتعهم الله عـز وجل في الجنــة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر، كما قـال عز وجل: ﴿إنَّ المتقين في مقـام أمين * في جنات وعيـون * يلبسون مـن سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهـم بحورٍ عينٍ * يَـدْعُـون فيها بكل فـاكهـة آمنين * لا يـذوقون فيهـا الموت إلا الموتـة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَقَابُ قَـوْسٍ في الجنة خيرٌ مما تطلع عليـه الشمس، والاستفهام في قولـه عز وجل: ﴿أفـلا تعقلون﴾ للتـوبيخ كما أن الالتفـات من الغيبة إلى الخطـاب لتشديد التوبيخ، إذ مقتضى السيـاق أن يقال: أفلا يعقلون، لكن مقتضى الحال من تشـديـد تـوبيخ الـذيـن يبيعـون نعيم الجنـة بعـرض زائل اقتضى الالتفات من الغيبـة إلى الخطاب فقال: ﴿أفـلا تعقلون﴾ وقولـه عز وجل: ﴿والذين يُمَسِّكُون بـالكتاب وأقاموا الصـلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾ أي والذين يعملـون بما في كتاب الله الذي بأيـديهم فيحلون حلالـه ويحرمون حرامه ويقفون عند حدوده، ويستمسكون بتعاليمه التي تقتضي المسارعة إلى تصـديق النبيين، وتأييـد المرسلين والإيمان بمحمـد رسـول الله ﷺ خـاتم النبيين، ويقيمـون الصـلاة بحدودهـا، ولم يضيعـوا أوقـاتها، وكانـوا فيهـا خـاشعين لا يضيع أجـرهم عنـد الله عز وجل لأنهم مصلحـون والله تبـارك وتعالى لا يضيـع أجر المصلحين، قال ابـن منظور في لسان العـرب: ومعنى قوله تعالى: ﴿والذين يُمَسِّكون بـالكتاب﴾ أي يؤمنون به ويحكمون بما فيه، الجوهـري: أمسكتُ بالشيء وتمسَّكت بـه، واستمسكت بـه، وامتسكتُ، كلـه بمعنى اعتصمت وكذلك مسَّكتُ بـه تمسيكا. اهـ وقال الإمـام محيي السنـة أبـو محمـد البغـوي في تفسيره: يقـال: مسَّكت بـالشيء ولا يقـال:

أمسكت بالشيء إنما يقال: أمسكته. اهـ والصلاح ضد الفساد والصالح المستقيم، والإصلاح نقيض الإفساد، وهذه الآية بعمومها تشمل المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى ولم يحرفوه ولم يكتموا منه صفة النبي محمد ﷺ، ولم يتخذوه مأكلة، وسارعوا إلى الإيمان برسول الله محمد ﷺ، كما يشمل المستمسكين بالقرآن من أمة محمد ﷺ، المعتصمين به العاملين بما فيه المحلين لحلاله المحرمين لحرامه الواقفين عند حدوده، ولذلك وصى رسول الله ﷺ المسلمين بكتاب الله تبارك وتعالى، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أوصى بكتاب الله عز وجل وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلةٌ وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ قد ساق الله تبارك وتعالى قصة رفع الجبل فوق رءوسهم في هذا المقام وفي الآية الثالثة والستين من سورة البقرة حيث قال عز وجل: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ كما ذكرها في الآية الثالثة والتسعين من سورة البقرة حيث قال: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا﴾ الآية. كما ذكرها في الآية الرابعة والخمسين بعد المائة من سورة النساء حيث قال: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تَعْدُوا في السَّبْت وأخذنا منهم ميثاقًا غليظا﴾ وكلها جاءت في سياق حكاية جناية من جنايات بني إسرائيل وبيان تمردهم على أحكام الله وعدم قبولهم للحق ونقضهم للعهود والمواثيق حيث لا يستقرون على عهد ولا يستقيمون على ميثاق، وقد قلت في تفسير الآية الثالثة والستين من سورة البقرة: أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا عليكم العهد الموثق بأن تحافظوا على

الشريعة وأن تؤيدوا المرسلين وأن تـؤمنوا بما يبعث الله من نبي وما يرسل من رسـول، وجعلنـا لكم آيـة حِسِّيَّـةً للـدلالـة على قـدرتنـا عليكم وأنكم لا تستطيعون الإفـلات من عقوبـة الله إن عصيتم أمـره وكذبتم رسلـه إذ رفعنا الجبل فوق رءوسكم كأنه سحابـة تظللكم حتى صرتم في رعب وفزع تخشون أن يسقط عليكم فيهلككم وأمـرناكم والحالـة هذه أن تحافظـوا على الشريعة وأن تلتزموا بأحكام التوراة ووصايـاها، وأن تجتهدوا في تنفيذ أوامر الله وطاعة المرسلين لكي تجعلوا لأنفسكم وقـاية من عـذاب النار وسخط الجبـار. وقد بينت أن معنى قوله: ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي خذوا ما أنزلنا عليكم من الشريعـة بجـد وعزيمـة ونشـاط واجتهـاد، ومعنى ﴿واذكروا مـا فيـه﴾ أي احفظوه ولا تنسـوه واجعلوه دائما على ذُكر منكم بـالعمل به وتطبيق مـا فيه على شئون معاشكم ومعـادكم، ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تجعلوا لأنفسكم وقـاية من سخط الله وعـذابـه ولتنتظموا في سلك عبـاده المتقين. لكنهم مع ذلك نقضوا الميثـاق وأعرضوا عن الـوفاء كما قال عـز وجل: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾.

قال تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى ءَادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنَّا عن هـٰذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك ءَاباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذالك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون* واتل عليهم نبأ الذى ءاتيناه آياتنا فانسلخ منها فأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولَكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذُلك مثل القوم الذين كذبوا بئاياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بئاياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾.

بعد أن شرح الله تبارك وتعالى بعض أحوال بني إسرائيل الذين خلفوا من سبقوهم، وكانوا خَلْف سوء وأكثر تمردا على كتاب ربهم ومواريث أنبيائهم، حيث كانوا يدرسون الكتاب الذي انتقل إليهم من أسلافهم ومع ذلك كانوا يرتكبون القبائح ويزعمون أنهم لن يؤاخذوا بها ولن يعاقبوا عليها ويتمنون على الله الأماني، ويقولون على الله غير الحق، وكانوا يسارعون إلى أكل السحت متى عرض لهم، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه مع إقرارهم بأن الذي يأخذونه هو محرم عليهم ثم أثنى عز وجل على الذين يستمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة وبشرهم بالأجر الجزيل، وذكَّر بني إسرائيل بقصة رفع الجبل فوق رءوس آبائهم حتى يستمسكوا بالكتاب ولا يفرطوا فيه، شرع هنا في بيان أنه عز وجل قد أوضح لعباده أنه رب كل شيء ومليكه وأنه لا إله إلا هو، وحذرهم من الشرك به وقصَّ عليهم قصة الذي عرف الحق فانسلخ منه فأَتبعه الشيطان فكان من الغاوين، وضرب له مثلا بالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث وأن هذا المثل ينطبق على سائر

المكذبين بآيات الله الظالمين لأنفسهم الذين يعرفون الحق ولا ينقادون له حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا غافلين﴾. إلى قوله عز وجل: ﴿ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجَبَلَهُمْ عليه قال تعالى ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهوِّدَانه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانه، كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم. ثم قال ابن كثير رحمه الله: قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ثم قال رحمه الله: قالوا ولهذا قال: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ ولم يقل: من آدم من «ظهورهم» ولم يقل: من ظهره «ذرياتهم» أي جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن كقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ وقال: ﴿ويجعلكم

خلفاء الأرض﴾ وقال: ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ ثم قال: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وَقَالا، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ الآية، وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿وإنه على ذٰلك لشهيد﴾ كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، ثم أكد ابن كثير رحمه الله هذا التفسير فقال: فدل على أنه الفطرة التي فُطِروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿أن تقولوا﴾ أي لئلا تقولوا ﴿يوم القيامة إنا كنا عن هٰذا﴾ أي التوحيد ﴿غافلين* أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا﴾ الآية. اهـ وقال الزجاج: ومعنى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ أن كل بالغ يعلم أن الله واحد، لأن كل ما خلق الله تعالى دليل على توحيده، وقالوا: لولا ذلك لم تكن على الكافر حجة، وقالوا: فمعنى: ﴿أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم﴾ دلهم بخلقه على توحيده. اهـ ولا معارضة بين شهادة الفطرة التي فسر بها ابن كثير والزجاج هذه الآية وبين ما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري في كتاب الأنبياء من صحيحه من حديث أنس يرفعه أن الله يقول لأهون أهل النار عذابا: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به قال: نعم قال: فقد سألتك ما هو أهونُ من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك. اهـ فإن قدرة الله عز وجل لا تعجز عن شيء، وكما قال ابن كثير رحمه الله فإن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال، والعلم

عند الله عـز وجل . ومعنى قولـه عز وجل : ﴿أو تقـولوا إنما أشرك آبـاؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ أي أو لئلا تعتذروا بأن آباءكـم قد أشركوا قبـل مجيئكم إلى الدنيا وقـد صرتم ذرية لهم وقلـدتموهم في الشرك بالله ، وما جـاءوا به من الباطل ، وتظنوا أن تقليـدكم لآبائكم المبطلين ينجيكم من شرككم برب العالمين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وكذٰلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ أي وكـذلك نبين البراهين ونقيم الحجج ليتدبروها ولكي يـرجع هؤلاء المكـذبون المشركـون عن تكذيبهم لـرسول الله محمـد ﷺ ويتوبوا من شركهـم بالله عز وجل قبل فوات الأوان ، وضيـاع زمان اكتساب العمل الصـالح ، وقـولـه عـز وجل : ﴿واتل عليهم نبأ الـذي آتينـاه آيـاتنـا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولٰكنه أخلـد إلى الأرض واتبع هـواه فمثلـه كمثل الكلب إن تحمل عليـه يلهث أو تتركه يلهث﴾ إلى قـوله عـز وجل : ﴿وأنفسهم كانـوا يظلمون﴾ قـال الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بـابن قيم الجوزية في كتابه «الفوائد» في قـوله تعـالى : ﴿واتل عليهم نبأ الـذي آتيناه آيـاتنا فـانسلخ منهـا فأتبعـه الشيطان فكـان من الغاوين * ولو شئنـا لرفعناه بها ولٰكنـه أخلد إلى الأرض واتبع هـواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمـل عليه يلهث أو تتركـه يلهث﴾ : فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه ، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمـه ، وذلك من وجـوه : أحدهـا : أنه ضل بعد العلم ، واختـار الكفر على الإيمان عمدا لا جهلا ، وثانيها : أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدا فإنه انسلخ من الآيات بالجملـة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها ، وثالثها : أن الشيطـان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه ، ولهذا قـال : ﴿فأتبعـه الشيطان﴾ ولم يقل تبعـه فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى . ورابعها : أنه غوى بعد الرشد ،

والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا اقترنا فالفرق ما ذكر، وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يُرْفَعْ به فصار وبالا عليه، فلو لم يكن عالما كان خيرا له وأخف لعذابه، وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى، وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض ومَيْلٍ بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد: اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به. قال مالك بن نويرة:

بأبناء حيٍّ من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا

وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع، وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل هواه إماما له يقتدي به ويتبعه، وتاسعها: أنه شَبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همةً، وأسقطها نفسا، وأبخلها وأشدها كَلَباً، ولهذا سمي كَلْبًا، وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب، قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلا لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث وإن تركته على حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما

وقع بالكلب اللاهث وذلك أخس ما يكون وأبشعه . اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب في مادة لهث : الجوهري : لهث الكلب بالفتح يَلْهَث لَهْثًا ولُهاثا بالضم إذا أخرج لسانه من التعب أو العطش ، وكذلك الرجل إذا أعيا ، وفي التنزيل العزيز: ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولَّى هاربا ، وإن تركته شد عليك ونبح ، فيتعب نفسه مقبلا عليك ومدبرا عنك فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان ، قال أبو إسحاق (يعني الزجاج) ضرب الله عز وجل للتارك لآياته والعادل عنها أخس شيء في أخس أحواله مثلا فقال : ﴿فمثله كمثل الكلب﴾ إن كان الكلب لَهْثانَ ، وذلك أن الكلب إذا كان يلهث فهو لا يقدر لنفسه على ضر ولا نفع ؛ لأن التمثيل به على أنه يلهث على كل حال ، حملت عليه أو تركته ، فالمعنى : فمثله كمثل الكلب لاهثا . اهـ وفي قوله عز وجل : ﴿ ذُلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ إشعار بأن هذا المثل ليس خاصا بشخص معين بل يشمل كل من كذب بآيات الله وعرف الحق فأعرض عنه واتبع هواه فقبح مثلهم ، فلهم مثل السوء وقد ظلموا أنفسهم وما عليك أيها الرسول الكريم إلا البلاغ فاتل عليهم ما أوحي إليك من ربك لعلهم يتدبرون ويتذكرون ويتعظون ، ويرجعون عن غيهم وضلالهم .

قال تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولٓئك هم الخاسرون* ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها، أولٓئك كالأنعام بل هم أضل أولٓئك هم الغافلون * ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾.

بعد أن بين الله عز وجل أنه قد أوضح لعباده أنه رب كل شيء ومليكه وأنه لا إله إلا هو، وحذرهم من الشرك وقص عليهم قصة الذي عرف الحق فانسلخ منه فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين وضرب له مثلا بالكلب اللاهث، وأن هذا المثل ينطبق على سائر المكذبين بآيات الله الظالمين لأنفسهم الذين يعرفون الحق ولا ينقادون له، شرع هنا في ترغيب عباده وتحريضهم على أن يتضرعوا إلى الله ليهديهم سبيل الرشاد لأن الهداية بيد الله وحده فمن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وحذرهم من سلوك طريق الضالين الخاسرين فإن من سلكها كان حَرِيًّا بأن يكون في عِداد أهل جهنم التي ذرأ الله لها كثيرا من الجن والإنس الذين انطمست بصائرهم وعميت أعينهم وصُمَّت آذانُهم فصاروا كالأنعام بل هم أضل ثم أرشد عباده إلى أن يدعوا الله بأسمائه الحسنى وأن يدَعوا الذين يُلحدون في أسمائه الذين يُعَرِّضون أنفسهم للعذاب الأليم، على ما يرتكبونه من الجُرْمِ العظيم بالإلحاد في أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، فيسمون الله تبارك وتعالى بغير ما سمَّى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، ويدخل في ذلك أهل التشبيه والتعطيل والتأويل والتحريف وفي ذلك يقول: ﴿من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولٓئك هم الخاسرون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿سَيُجْزَون ما كانوا يعملون﴾ والمراد بالهداية في قوله تبارك وتعالى: ﴿من يَهْدِ اللهُ فهو

المهتـدي﴾ هي هدايـة التوفيـق إلى الدين الحق والإعـانة إلى سلـوك الصراط المستقيم، قال ابن جرير رحمه الله: القـول في تأويل قوله: ﴿من يهد الله فهو المهتـدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ قـال أبـو جعفر: يقـول تعـالى ذكره: الهداية والإضـلال بيد الله، والمهتدي ــ وهـو السالك سـبيل الحق الـراكبُ قصـدَ المحجة في دينـه ــ من هـداه الله لـذلك فـوفقه لإصـابتـه، والضـال: من خذلـه الله فلم يـوفقه لطـاعتـه، ومن فعل الله ذلك به فهـو الخاسر يعني الهالك. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضلَّ له، ومن أضله فقد خـاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جـاء في حديث ابن مسعود: « إن الحمد لله نحمـده ونستعينه ونستهديـه ونستغفره ونعوذ بـالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومـن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك لـه، وأشهـد أن محمـدا عبـده ورسـولـه» الحديث بتمامه رواه الإمـام أحمد وأهل السنن وغيرهم. اهـ ومعنى قولـه تبارك وتعالى: ﴿ولقد ذرأنـا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعـون بها﴾ أي ولقـد هيأنـا للنـار خلقـا كثيرا من الجن والإنس لم ينتفعوا بما أعطـاهم الله عـز وجل من أدوات الاستبصار والهداية والاعتبار، فانطمست بصائر قلوبهم فلم يفقهوا آيات الله التي أقامهـا للدلالة عليه، ولم يعقلوا الحجج والبراهين التـي جعلها الله عز وجل في الآفاق وفي أنفسهم، كما أنهم قد عميت أبصـارهم فلم يستفيدوا مما يشاهدونـه من الآيات والبراهين الثابتة والمتجـددة، وكذلك لم يسمعوا داعي الحق عندمـا يناديهم إلى ما فيـه سعادتهم في العاجلـة والآجلة، ولا شك أن القلب يطلق على قطعـة اللحم الصنـوبـريـة الشكل الموضـوعـة في تجويف الصـدر كما يطلق القلب على اللطيفة الـربانيـة التي تقوم بـالقلب اللحمي

الصنوبـري الشكل والتي بها يحصل الإدراك والعقل والفهم وتـرتسم بسببها العلـوم والمعـارف، وهي البصر الحقيقي للقلب اللحمي وهي التي تميـز بها الإنسـان عن البهائم الأليفـة والوحشيـة فإذا علم الله من العبد طلبـا للحق استعملـه في طـاعتـه فاستنـارت بصيرة قلبـه، وإذا علم منـه بغضـا للحق خذله، وإذا خذله عميت بصيرتـه، كما أن العين تطلق على الجارحة المعروفة التي جعل الله عـز وجل لـلإنسـان منها اثنتين في وجهـه وركب كلَّ واحـدة منهما في حجاجهـا وجهزها بأدوات الإبصار مـن القرنية والعدسـة والشبكية والأعصـاب والمجاري، وهي بهذه المثـابة مـوجـودة في جميع الناس مـؤمنهم وكافرهم، كما أنها موجودة في البهائم الـوحشية والأليفة، وقد تفضل الله عز وجل فأودع في العين الحسيـة لطيفـة ربـانيـة، فإذا علم الله من العبـد خيرا واستعمله في طاعتـه انتفع بهذه اللطيفة الربانية ففـرق بها بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل، وإذا علم الله من العبد شرا خذلـه، فصار يرى الرشد غيا والغي رشـدا كما قال عز وجـل: ﴿وإن يروا سبيل الـرشد لا يتخـذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخـذوه سبيلا﴾ كما تطلق الأذن على الجارحة المعـروفة وهي كذلك موجودة في الحيوانات الأليفة والوحشية، وقد أودع الله عز وجل في أذن الإنسان لطيفـة ربانية تفـرق بين ما تسمعه من الخير ومـا تسمعه من الشر، فإذا خذل الله العبد حرم من فوائد هذه اللطيفة فلا يسمع صوت الحق ولا يستفيد منه، وهذه اللطائف التي جعلها الله عز وجل في القلوب والأعين والآذان هي الثمـرات الحقيقيـة للقلـوب والأعين والآذان فإذا حُـرِم العبـد الاستفادة منها، صارت هذه الجوارح جوارح بهيمية محضة، ولذلك قال الله عز وجل في هـؤلاء الذين لم يستفيدوا من قلـوبهم وأعينهم وآذانهم ولم يهتدوا بها إلى مـا يقربهم إلى الجنـة ويباعـدهم عن النـار: ﴿أولَئك كالأنعـام﴾ ولما كانت الأنعام قـد استفادت من جوارحها فلا ترعى النبـات الذي يضرها ولا

تُقْبِل إلا على ما ينفعها ، وصف الله عز وجل هؤلاء بأنهم أضل من الأنعام حيث قال : ﴿بل هم أضلُّ﴾ ووصفهم كذلك بأنهم شر الدواب حيث قال : ﴿إنَّ شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾ قال : يقول تعالى : ﴿ولقد ذرأنا لجهنم﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿كثيرا من الجن والإنس﴾ أي هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء . اهـ وقال ابن جرير رحمه الله : وقوله : ﴿أولَئك هم الغافلون﴾ يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين وصفت صفتهم القوم الذين غفلوا يعني سهوا عن آياتي وحججي وتركوا تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على ما دلت عليه من توحيد ربها ، لا البهائم التي قد عرَّفها ربها ما سخرها له . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يُلْحِدُون في أسمائه ، سَيُجْزَوْنَ ما كانوا يعملون﴾ قال أبو السعود العمادي في قوله تعالى : ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ تنبيه للمؤمنين على كيفية ذكره تعالى وكيفية المعاملة مع المُخِلِّين بذلك الغافلين عنه سبحانه عما يليق به من الأمور وما لا يليق به إثر بيان غفلتهم التامة وضلالتهم الطامة ، والحسنى تأنيث الأحسن أي الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلُّها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها . اهـ ومعنى الآية الكريمة : أي ولله أكرم الأسماء وأجلها وأحسنها وهي خاصة به عز وجل فاسألوه عز وجل بها وتوسلوا إلى الله تعالى بذكرها ، واعبدوه ونادوه بها ، وسَمُّوه بها ، وهو وحده أعلم بأسمائه وصفاته فلا تسموه

إلا بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ وكل أسمائه حسنى وكل صفاته عُلَى ومَهِّلوا الذين يلحدون في أسمائه فيسمونه بغير ما سمَّى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ من الملحدين المشركين والمعطلين والمشبهين والمؤولين والممثلين والمحرفين والمكيفين، واتركوهم إلى أجل هم بالغوه وسوف يجزون بما كانوا يفترونه على الله وبما كانوا يعملونه من المعاصي والسيئات، وقد تفضل الله تبارك وتعالى على أهل السنة والجماعة فأثبتوا لله ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات العُلَى من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تكييف ولا تعطيل ولا تأويل فإنه عز وجل ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وقد سمى الله عز وجل نفسه حفيظا عليما، وسمى بعض عباده حفيظا عليما وليس الحفيظ العليم الذي سمى الله بهما نفسه كالحفيظ العليم الذي سمى الله بهما بعض عباده، ولذلك قال الخضر لموسى عليه السلام لما ركبا السفينة ووقع عصفورٌ على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر: يا موسى ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفورُ منقاره كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي بن كعب، فأسماء الله وصفاته لا تليق إلا به، وأسماء العباد وصفاتهم لا تليق إلا بهم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلاّ واحدا، من أحصاها دخل الجنة. قال النووي: اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه فليس معناه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبارُ بحصر الأسماء، ولهذا جاء في الحديث: أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم ليعلم أن الأسماء

الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين بـدليل ما رواه الإمـام أحمد في مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل بـن مرزوق عن أبي سلمة الجهني عن القاسم ابن عبد الـرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحـداً قط همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدك ابن عبـدك ابن أمتك نـاصيتـي بيـدك، مـاضٍ فيَّ حكمك، عَـدْلٌ فيَّ قضـاؤك أسألك بكل اسم هـو لك سَمَّيْتَ بـه نفسك أو أنزلتـه في كتابك أو علمتـه أحـدا من خلقك أو استـأثـرت بـه في علم الغيب عنـدك أن تجعل القـرآن العظيم ربيع قلبي ونـور صـدري وجلاء حـزني وذهـاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبـدل مكانه فرحـا». فقيل: يا رسول الله أفـلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمهـا». وقد أخرجه الإمام أبـو حاتم بن حبان البستـي في صحيحه بمثله. اهـ وقد صحح هـذا الحديث ابن القيم وغيره، وأصل الإلحاد في كلام العرب: العـدول عن الصراط المستقيم. وقال الزجـاج رحمه الله: وقولـه: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعـوه بها﴾ لا ينبغي أن يدعـوه أحد بما لم يصف نفسه بـه أو لم يسم به نفسـه، فيقول في الدعـاء: يا الله، يا رحمـن، يا جَـوَادُ ولا ينبغي أن يقول يـا سبحان لأنـه لم يصف نفسه بهذه اللفظـة، وتقول يـا رحيم ولا تقـول: يـا رفيق، وتقـول: يا قـوي، ولا تقـول: يـا جلـدُ. اهـ ولله المثـل الأعلى في السموات والأرض وهـو العـزيـز الحكيم. وقد وصف الله تبارك وتعـالى أسماءه بأنها الحسنى في هذا المقام وفي آخر سورة الإسراء وفي أول سورة طه وفي آخر سورة الحشر حيث قال عز وجل في أواخر سـورة الإسراء: ﴿قل ادعـوا الله أو ادعوا الـرحمن أيًّا مـا تدعـوا فله الأسماء الحسنى﴾ وقال عـز وجل في أوائل سورة طه: ﴿الله لا إلّه إلا هـو له الأسماء الحسنى﴾ وقال في آخر سورة الحشر: ﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى﴾.

قال تعالى : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * والذين كذبوا بئاياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم ، إن كيدى متين* أو لم يتفكروا ، ما بصاحبهم من جِنَّة ، إن هو إلا نذيرٌ مبينٌ* أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون* من يضلل الله فلا هادي له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون* يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السمٰوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون* قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشيرٌ لقوم يؤمنون﴾ .

بعد أن رغَّب الله تبارك وتعالى عباده وحرَّضهم على أن يتضرعوا إليه ويسألوه الهداية والتوفيق إلى سلوك الصراط المستقيم وبعد تعريفهم بأن الهداية بيد الله وحده وتحذيرهم من سلوك طريق الضالين الخاسرين فإن من سلكها كان حريا بأن يكون في عداد أهل جهنم التي ذرأ الله لها كثيرا من الجن والإنس الذين انطمست بصائرهم وعميت أعينهم وصمت آذانهم فصاروا كالأنعام بل هم أضل ، وأرشد عباده إلى أن يتوسلوا إليه بأسمائه الحسنى ، وأن يهجروا الذين يلحدون في أسمائه ويعرضون أنفسهم للعذاب الأليم ، شرع هنا في زيادة تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ وأفئدة المؤمنين ببيان حال جماعة من خلقه قد سلك الله عز وجل بهم صراطه المستقيم فهم بعمل أهل الجنة يعملون ، حيث يهدون الناس بالحق ، ويدُلُّونهم على الصراط المستقيم ، ويقيمون العدل بين الناس ، وحذر تبارك وتعالى الذين يكذبون

بآيـات الله التي بعث بها محمدا ﷺ الذين يسلكون طـريق من ذرأهم الله عز وجل لجهنم، بأنـه سيعاقبهم بعقـوبة الاستدراج والإمـلاء لهم من حيث لا يشعرون، وقد جـاء ذلك على النهج القرآني في الترغيب والترهيب، ثم لفت انتبـاه المكذبين الجاحـدين إلى إعادة النظـر وإعمال الفكر في شأن الصـادق المصدوق أكمل خلق الله عقلا وصدقا وقد كـانوا قبل بعثته يلقبونه بالصادق الأمين ﷺ، وطلب منهم كـذلك النظـر والتفكـر في ملكـوت السمـوات والأرض وسـائر ما يشـاهدونـه من خلق الله وأن يعلموا أن أعمارهم بيـد الله لعلهم يرجعون إلى الله ويطلبون منه عز وجل هدايتهم إلى سواء السبيل حتى لا يخذلـوا فينغمسوا في ضـلالهم وطغيـاهم، والسـاعة آتيـة لا ريب فيهـا، وعلمهـا عنـد الله وحده، وليس بيـد محمـد ﷺ نفع العبـاد أو ضرهم، ولا يملك ذلك إلا الله عز وجل وفي ذلك يقول: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعـدلون﴾ إلى قولـه عز وجل: ﴿إن أنا إلا نـذير وبشير لقوم يـؤمنون﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وممن خلقنـا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ أي وبعض من خلقنـا من الجن والإنس جماعـة كثيرة دعـاة إلى الحق سـالكـون طريق الرشد يعدلون في أحكامهـم وينصفون في معاملاتهم، وقد ذكر رسول الله ﷺ أنـه لا تزال طـائفـة من أمته ﷺ ظـاهـرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا مـن خذلهم حتى يأتي أمـر الله فقد روى البخـاري من حـديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قـال: لا يزال طائفة من أمتي ظـاهرين حتى يأتيهم أمـر الله وهم ظاهـرون. ورواه مسلم في صحيحه من حـديث المغيرة قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: لن يـزال قوم مـن أمتي ظاهـرين على الناس حتى يـأتيهم أمر الله وهم ظـاهرون. كما روى البخاري من حـديث معـاوية بن أبي سفيـان قال: سمعت النبي ﷺ يقـول: من يرد الله بـه خيرا يفقهـه في الـدين، وإنما أنـا قاسم ويعطـي الله، ولن يزال أمـر هـذه الأمـة

مستقيما حتى تقوم الساعة أو حتى يأتي أمر الله . ولفظ مسلم من حديث معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة وفي لفظ لمسلم من حديث معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس . وقد بشر الله تبارك وتعالى الذين يقيمون العدل بين الناس بأنه عز وجل يحبهم حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين﴾ . ويقول عز وجل : ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعَدْل وأقسطوا إنَّ الله يحب المقسطين﴾ . كما بشر رسول الله ﷺ الذين يعدلون بين الناس بأن الله عز وجل يجعلهم على منابر من نور يوم القيامة فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمينٌ : الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم ، إن كيدي متين﴾ ترهيب شديد من التكذيب بآيات الله ، ووعيد لهؤلاء المكذبين بألوان من عقوبات الله لهم في الدنيا والآخرة ، حيث يستدرجهم بالنعمة فيغترون ولا يشكرون ويمهلهم فيظنون أن الإمهال إهمال ، ثم تحيط بهم معاصيهم بعد أن يستغرقوا في الترف والملذات والمعاصي فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر وهم لأهونَ غافلون لا يدرون ما يدبر لهم ولا ما يُكادون به ، قال ابن منظور في لسان العرب : ودَرَّجَهُ إلى كذا واستدرجه بمعنًى ، أي أدناه منه على التدريج ، فتَدَرَّج هو ، وفي التنزيل العزيز: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ قال بعضهم : معناه : سنأخذهم قليلا قليلا ولا نباغتهم . وقيل :

معناه : سنأخـذهم من حيث لا يحتسبون . وذلك أن الله تعـالى يفتح عليهم من النعيم مـا يغتبطون بـه فيركنون إليـه ، ويأنسـون به فـلا يذكـرون الموت ، فيأخذهم على غرّتهم أغفل ما كانوا ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حُمِل إليـه كنـوز كسرى : اللهم إني أعـوذ بك أن أكـون مُسْتَـدْرَجًـا فإني أسمعك تقول : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ . اهـ ومعنى قوله عز وجل ﴿وأملي لهم﴾ أي أمهلهم وأُطوِّلُ لهم كما قـال عز وجل : ﴿ولا يَحْسَبَنَّ الـذين كفـروا أنما نُملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليـزدادوا إثما ، ولهم عـذاب مهين﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿فلما نَسُوا مـا ذُكِّـروا به فتحنـا عليهم أبواب كـل شيء حتى إذا فرحـوا بما أُوتُوا أخذنـاهم بغتة فإذا هـم مبلسون﴾ فقُطِعَ دابِرُ القوم الذين ظلموا ، والحمـد لله رب العالمين﴾ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿إن كيدي متين﴾ أي إن تدبيري قـوي شديد وقولـه تبارك وتعالى : ﴿أو لم يتفكـروا ، ما بصـاحبهم من جِنَّـة ، إنْ هو إلا نـذير مبين﴾ قـال ابن جرير رحمه الله : قـال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره : أو لم يتفكـر هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا فيتدبروا بعقـولهم ويعلموا أن رسولنا الذي أرسلناه إليهم لا جِنَّة به ولا خَبَل وأن الذي دعاهم إليـه هو الدين الصحيح القويم والحق المبين . ثم قال رحمه الله : ويعني بقـوله : ﴿إن هـو إلا نذير مبين﴾ مـا هو إلا نـذير ينذركـم عقاب الله على كفركـم به إن لم تنيبـوا إلى الإيمان به ، ويعني بقـوله : ﴿مبين﴾ قد أبان لكم أيها الناس إنذاره ما أنذركم به من بأس الله على كفركم بـه . اهـ ولا شك أن كفـار قـريش كانـوا مـوقنين بأن محمدا ﷺ هـو أعظم الناس عقـلا وأمانة وصـدقا ، لكنهم كانـوا لجحودهم يسارعـون إلى وصفه بأمور يعلمـون أنه أبعـد الناس عنها حتـى قالوا : معلَّمٌ مجنـون ، ولو تـدبروا لأيقنوا أن المجنون لا يقبـل التعليم ، ولذلك أمر الله تبارك وتعـالى نبيه محمدا ﷺ أن يطلب منهم أن يقومـوا قيامـا خالصا للـه لا تعصب فيه اثنين اثنين

وواحدا واحدا ثم يتفكروا في هذا الذي جاءهم به رسول الله محمد ﷺ من عند ربه، أبه جنون أم لا، لأنهم إن فعلوا ذلك ظهر لهم أنه رسول الله حقا وصدقا، حيث يقول عز وجل: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا، ما بصاحبكم من جنة، إن هو إلا نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السمٰوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ قال الزجاج: أي ألم يستدلوا بما أنبأهم به من ملكوت السموات والأرض ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ أي إن كانوا يُسَوِّفون بالتوبة فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فالمعنى: أولم ينظروا فيما دلهم الله جل ثناؤه على توحيده فكفروا بذلك فلعلهم قد قربت آجالهم فيموتون على الكفر. اهـ وقال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر يقول تعالى ذكره: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في السموات وفي الأرض وفيما خلق جل ثناؤه من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه، ومِنْ فِعْل من لا ينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه، وقوله: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ يقول: فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الكتاب الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله تعالى. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿من يضلل الله فلا هادي له، ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾. تأكيد على أن من خذله الله فلا هادي له، ويذره الله عز وجل مستغرقا في كفره عامهًا متحيرا، كما قال عز وجل: ﴿من يهد الله فهو

المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو، ثَقُلَتْ في السمٰوات والأرض، لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي يسألك الكافرون عن القيامة استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها قائلين لك ﴿أيان مرساها﴾ أي متى وقوعها وقيامها ومجيئها ومحطها؟ ومعنى: ﴿قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء السائلين عن الساعة: إنما علمها عند الله وحده فإنه هو الذي يجليها لوقتها أي يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد ومعنى قوله: ﴿ثقلت في السمٰوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض حيث يبغتهم قيامها، وقوله: ﴿يسألونك كأنك حفيٌّ عنها﴾ أي يسألونك كأنك غير عالم بأن الله قد استأثر بعلمها وأنك تلحف في السؤال عنها، وذلك من شدة جهلهم والمبالغة في تكذيبهم، ولذلك أكد الله تبارك وتعالى ذلك فقال: ﴿قل إنما علمها عند الله ولٰكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. أي ولكن أكثر الناس وهم الجاهلون لا يعلمون أن الله قد استأثر بعلمها، وأن أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب. وقوله عز وجل: ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله﴾ الآية تقرير لحقيقة رسول الله ﷺ ووظيفته بأنه عبد الله ورسوله لا يقدر على جلب نفع لنفسه ولا لغيره ولا يقدر على دفع ضر عن نفسه أو عن غيره إلا بمشيئة الله فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يعلم الغيب، لأن عالم الغيب والشهادة هو رب العالمين، كما قال عز وجل: ﴿عالم الغيب فلا يُظْهِرُ على غيبه أحدا * إلا مَن ارتضى مِن رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رَصَدا * ليعلمَ أنْ قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ وأنه ليس على رسول الله إلا البلاغ المبين لإنذار

من عصاه بالنـار وبشارة من أطاعه بالجنـة ولا ينتفع بذلك إلا المؤمنون وإن تعجب فعجب للـذين يـدْعُون أصحـاب القبـور والأضرحة ويسألـونهم أن يجلبـوا لهم نفعا أو يـدفعوا عنهم ضرًا وهم يقـرؤون هذه الآيـة في حق أفضل الخلق محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون* ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * أَلَهم أرجلٌ يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعينٌ يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها، قلِ ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وَلِيِّيَ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾.

بعد أن ذكر عز وجل حال جماعة من خلقه قد سلك بهم صراطه المستقيم فوفقهم لعمل أهل الجنة، وحذَّر الذين يكذبون بآيات الله التي بعث بها محمدا ﷺ الذين يسلكون طريق من ذرأهم الله عز وجل لجهنم، ونبههم إلى بعض العقوبات التي سيعاقبهم بها من الاستدراج والإملاء لهم من حيث لا يشعرون، ولفت انتباه المكذبين إلى إعادة النظر وإعمال الفكر في شأن الصادق المصدوق محمد ﷺ وطلب منهم كذلك النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض وجميع ما خلق الله، ونبههم إلى أن أعمارهم بيد الله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن علم وقت مجيئها عند الله وحده، وليس بيد محمد ﷺ نفع العباد أو ضرهم وأنه لا يملك ذلك إلا الله وحده، شرع هنا في توبيخ المشركين من قريش وغيرهم على إشراكهم بالله وكفرهم بمن خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها، وندَّد بمن يعبد ما لا يضره ولا ينفعه، ولا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه، ولا يعقل دعاء

من دعاه، وأمر نبيه محمدا ﷺ أن يتحدى المشركين وأصنامهم بأنه ﷺ لا يعبأ بهم، وأنهم مهما بالغوا في الكيد له فلن يطفئوا نور الله، وفي ذلك يقول: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثُم كِيدونِ فلا تُنْظِرون* إن وَلِيِّيَ اللهُ الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين*﴾ والمراد بالنفس الواحدة آدم أبو البشر عليه السلام، ووصْفُ النفس بأنها واحدة تنبيه على كمال علم الله وقدرته حيث أنشأ من هذه النفس الواحدة ما لا يحصي عدده إلا الله من الأنفس المختلفة الألوان والأشكال والألسنة مهما طالت الأعصار وتباعدت الديار كما أشار الله إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكرون* ومن آياته خَلْقُ السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذٰلك لآيات للعالِمين﴾ ومعنى ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ أي وخلق لآدم حواء زوجةً له ليستأنس بها وقد جعلها من جنسه، وأشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى قد خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء. ومعنى قوله: ﴿فلما تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلا خفيفا فمَرَّتْ به﴾ أي فلما واقع الزوج زوجته حملت من نطفة الزوج حملا خفيفا لا ثقل له في البطن فصارت تذهب وتجيء لخفة حملها وسهولته ومعنى: ﴿فلما أثقلت﴾ أي فلما كبر بطنها وثقل عليها حملها، واقترب وقت الولادة، وقوله: ﴿دَعَوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا

جعلا له شركاء فيما آتاهما، فتعالى الله عما يشركون﴾ أي سأل الزوجان ربهما وتضرعا إليه أن يرزقهما ولدا صالحا ليشكراه تبارك وتعالى، فلما تفضل الله عليهما بالولد الصالح لم يقوما بشكر نعمة الله بل جعلا لله شركاء وعَبَدَا غيره، فتنزه الله وتعالى وتقدس عن أن يكون له شريك، والمقصود من الزوجين المشركين هنا من أشرك بالله من الأزواج والزوجات من ذرية آدم، وقد تم الكلام على آدم وحواء عند قوله عز وجل: ﴿ليسكن إليها﴾ مع الإشارة فيه إلى نعمة الله التي أنعم بها على آدم وذريته، أما قوله: ﴿فلما تَغَشّاها حَمَلَتْ حَمْلا خفيفا﴾ إلى قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ هو انتقال بعد ذكر آدم وزوجته واستطراد إلى ذكر الجنس والذرية، وهو أسلوب بلاغي قد ورد كثيرا في القرآن الكريم حيث يذكر الشيء ثم يستطرد إلى ذكر جنسه كما في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ فالمخلوق من الطين آدم، والمخلوق من النطفة بنوه وذريته وكذلك قوله تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين﴾ فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها. أما ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الصمد بن عبد الوارث عن عمر ابن إبراهيم عن قتادة عن الحسن البصري عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره. وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر ابن إبراهيم ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، قال ابن كثير في تاريخه: فهذه علة قادحة في الحديث أنه روي موقوفا على الصحابي، وهذا أشبه، والظاهر أنه تلقاه من الإسرائيليات، وهكذا روي موقوفا عن ابن

عباس ، والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار وذويه ، والله أعلم وقد فسر الحسن البصري هذه الآيات بخلاف هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه إلى غيره اهـ وقال ابن كثير في تاريخه أيضا : فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد . اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه وأشار رحمه الله إلى أن العلة الأولى هي قول أبي حاتم الرازي في عمر بن إبراهيم : لا يحتج به ، والعلة الثانية أنه روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا ، والعلة الثالثة : أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه . قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن : ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ قال : كان هذا في بعض أهل الملل ، ولم يكن بآدم ، وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن : عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فَهَوَّدوا ونَصَّروا . وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك ، وهو من أحسن التفاسير وأَوْلَى ما حُمِلت عليه الآية ، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ لما عَدَلَ عنه هو ولا غيره ، ولا سيما مع تقواه لله وورعه . اهـ وإن تعجب فعجب للذين ينسبون آدم وحواء إلى الشرك بالله ، وأن يكون أوَّل شرك في الأرض من آدم وزوجه ، والمعروف أن الشرك الأصغر أكبر من الزنا والقتل وشرب الخمر والسرقة مع أن المعروف الثابت أنه لم يقع شرك في الأرض إلا في أمة نوح عليه السلام ولا شك أن قوله عز وجل في صلب الآية : ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ دليل ظاهر على أنه ليس المراد آدم وحواء إذ لو

كان المراد آدم وحواء لقال: فتعالى الله عما يشركـان. والآية ظاهرة في أن المراد بـالشرك هنا مـا يعم الشرك الأصغـر والأكبر ولذلك زاد في تـوبيخ المشركين والتنـديد بهم حيث قـال: ﴿أيشركـون ما لا يَخْلُـقُ شيئا وهم يُخْلَقـون * ولا يستطيعـون لهم نصرا ولا أنفسَهم يَنْصرون﴾ وهـــذا ولا شك يشمل الشرك الأكبر والشرك الأصغر، قال شيخ الإسلام ابـن تيمية رحمه الله: وكذلك ذكر الله سبحانه على لسان محمد في الشرك عموما وخصوصا فقال: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقـون * ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سـواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثـالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صـادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيـد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعـون بها قل ادعـــوا شركـاءكم ثم كيـــدونِ فـلا تُنْظِرون﴾ واستفهم استفهـام إنكار وجحود لطرق الإدراك التـام وهو السمع والبصر، والعمل التام وهو اليد والرجل كما أنه سبحانه لما أخبر فيما روى عنه رسوله عن أحبـابه المتقربين إليه بالنوافل، فقـال: ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتـه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التـي يمشي بها. اهـ هذا وقد ضعف ابن العربي في تفسيره الحديث الذي يجعل هذا الشرك قد وقع من آدم وحواء حيث قال: وذلك مذكور ونحوه في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره، وفي الإسرائيليـات كثير ليس لها ثبـات، ولا يعوِّل عليهـا من لـه قلب، فإن آدم وحواء - وإن كان غرهما بالله الغرور - فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وما كانا بعد ذلك ليقبلا منه نصحا ولا يسمعا منه قولا. ثم بين رحمه الله أن المراد بهذا جنس الآدميين فإن حالهم في الحمل وخفته وثقلـه إلى صفة واحدة، إذا خفَّ عليهم الحمل استمروا به، فإذا ثقل عليهم نذروا كل نذر فيه، فإذا ولد

لهم ذلك الولد جعلوا فيه لغير الله شركاء في تسميته وعمله، حتى إن منهم من ينسبه إلى الأصنام ويجعله لغير الله وعلى غير دين الإسلام، وهذا القول أشبه بالحق وأقرب إلى الصدق، وهو ظاهر الآية وعمومها الذي يشمل جميع متناولاتها، ويَسْلَمُ فيها الأنبياء عن النقص الذي لا يليق بجُهَّال البشر، فكيف بسادتهم وأنبيائهم. اهـ. ومعنى قوله عز وجل: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون﴾ أي أيعبدون مع الله أنداداً وأصناما وأوثانا ما لا يقدر على خلق ذبابة وهذه الأصنام وعابدوها مصنوعون مخلوقون بل بعض عابديها أقدر على الحركة منها، وقد يكون العابد هو الصانع لمعبوده كما قال خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ وقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلا لعجز هذه الأصنام حيث قال: ﴿يا أيها الناس ضُرِبَ مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يَسْلُبْهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه، ضعُفَ الطالب والمطلوب * ما قَدَرُوا الله حق قَدْره، إن الله لقوي عزيز﴾ ولهذا قال عز وجل في هذا المقام: ﴿ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون﴾ أي لا يقدرون على نصر عابديهم ولا يستطيعون نصر أنفسهم ممن أرادهم بسوء، فهل يليق بعاقل أن يذل ويعبد من لا يملك له ولا لغيره نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع أن يحمي نفسه ممن أراده بسوء؟ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ الآية، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت لِمَ تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾ ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك، وقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم﴾ الآية أي استنصروا بها عليَّ فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم ﴿إن وليِّيَ اللهُ

الـذي نـزَّل الكتـاب وهو يتـولى الصـالحين﴾ أي الله حسبي وكـافيني وهـو نصيري، وعليه مُتَّكَلي، وإليـه ألجأ، وهو وَلِيِّي في الدنيا والآخـرة، وهو وليّ كل صالح بعـدي، وهذا كما قال هـود عليه السـلام لما قال له قـومه: ﴿إن نقول إلا اعتراك بعـض آلهتنا بسـوء قال إني أُشْهِـدُ اللهَ واشهدوا أني بـريء مما تشركون * من دونـه فكيدوني جميعا ثم لا تنظـرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾ . اهـ

قال تعالى: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون * خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليمٌ * إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

بعد أن وبخ الله المشركين من قريش وغيرهم على إشراكهم بالله، وكفرهم بمن خلقهم من نفس واحدة، وندد بمن يعبد ما لا يملك له نفعا ولا ضرا، ولا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه، ولا يعقل دعاء من دعاه، وأمر نبيه محمدا ﷺ أن يتحدى المشركين وأصنامهم بأنه ﷺ لا يعبأ بهم، وأنهم مهما بالغوا في الكيد له والمكر به فلن يطفئوا نور الله الذي بعثه به، وأن ينبههم إلى أن الله ناصره عليهم لأنه عز وجل وليُّه القادر على الانتصار لأوليائه الصالحين، شرع هنا في توكيد عدم مبالاة رسول الله ﷺ بالمشركين وآلهتهم وأنهم مهما كادوا له فلن يتمكنوا منه لأنه في رعاية وليه فاطر السموات والأرض الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فمن نصره الله فهو المنصور ومن خذله الله فهو المخذول المقهور كما قال الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نَمْ فالمخاوف كلهن أمان

وأكد للمشركين أن أصنامهم أعجز من أن تهدى ضالا، لأنها لا تسمع ولا تبصر ثم أمر نبيه محمدا ﷺ وأتباعه بأن يحسنوا إلى من أساء إليهم، وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى أعدائهم، وأن يأمروا بالمعروف، وأن يعرضوا عن الجاهلين، وأن يستعيذوا بالله من نزغات الشياطين، ووصف المؤمنين بأنهم سريعو العودة إلى طاعة الرحمن إن أصابهم طيفٌ من الشيطان، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا

أنفسهم ينصرون﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مُبصرون﴾ وقوله عز وجل: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا أيضا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه أن يقوله للمشركين، يقول له تعالى ذكره: قل لهم: إن الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم أيها المشركون من دون الله من الآلهة لا يستطيعون نصركم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتكم يقدرون على نصرة أنفسهم، فأيُّ هذين أولى بالعبادة وأحق بالألوهة؟ أمَنْ ينصر وليَّه ويمنع نفسه ممن أراده أم من لا يستطيع نصر وليَّه، ويعجز عن منع نفسه ممن أراده وبغاه بمكروه؟ . اهـ وقوله عز وجل: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ تأكيد على أن المشركين قد خلت آذانهم اللحمية من اللطيفة الربانية التي تفرق بها الأذن بين ما تسمع من الخير وما تسمع من الشر، فهم مهما دعاهم دعاة الخير إلى ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة فإنهم لا يسمعون كما قال عز وجل﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ كما تقدم قريبا، كما أنهم قد خلت أعينهم من اللطيفة الربانية التي تفرق بها العين بين مشاهد الحق ومشاهد الباطل، فمهما رأوا من آيات الله فإنهم لا يستفيدون منها، كأنهم خشبٌ مسندة كما قال عز وجل: ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ فمن رآهم ينظرون إليه يحسب أنهم قد سلمت أعينهم، والواقع أنهم عُمْيٌ عما فيه نجاتهم وفلاحهم، كما قال عز وجل: ﴿أم تحسبُ أنَّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أولَئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ فآلة السمع والبصر موجودة فيهم ولكنهم حُرِموا المقصود الأصلي منها الموصل إلى جنات النعيم، ومن نظر إلى البهائم وهي تنظر إليه وهو من ذوي الفكر أيقن أن

نظـرها إليـه ليس نظر تَفَكُّـر وتَعَقُّل، مع أن هذه البهـائم إذا نَظَرَتْ إلى مـا تحتاجه مـن الطعام أو الشراب أقبلت إليه، وإذا نظرت إلى ما يـؤذيها هربت منه أو حـاولت افتراسـه، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿خذ العفـو وأمر بـالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإمـا ينزغنك من الشيطان نـزغ فاستعذ بـالله، إنه سميع عليم﴾ هـذا المقـام الكريم في التربيـة والتعليم ورسم أحسن منـاهج السلوك لا نظير له في غير القرآن الكريم، ولا نظير له في القرآن الكريم إلا في مقامين آخرين أحدهما في سورة المؤمنون حيث يقول عز وجل: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئـة نحن أعلـم بما يصفـون * وقل رب أعـوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ وثـانيهما في سورة حم السجدة حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تستوي الحسنـة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينـه عداوة كأنـه ولي حميم * وما يُلَقَّـاها إلا الـذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ ولا شك أن الإنسان إذا قـابل إساءة المسيء بالإحسـان إليه دفع كثيرا من شره، ولـذلك قيل: الإنسـان أسير الإحسـان، فهـذه الحيلـة والمجاملـة تجدي مع شياطين الإنس، لكنها لما كـانت لا تجدي مع شياطين الجن ولا تنفع معهم حيلـة لأنـه لا هَمَّ لهم غير إهـلاك الإنســان ودمـاره بـالكلية لتمكن العـداوة بين الشيطان والإنسـان من لدن آدم وإلى أن تقـوم القيامة لذلك أرشد الله تبـارك وتعالى عباده إلى الاستعاذة بالله السميع العليم من نزغ الشيطـان وهمزه ولمزه فإنه عـز وجل هو وحـده القادر على دفع شره، والمراد بـالعفو في قـوله عـز وجل: ﴿خذ العفـو وأمر بـالعُرْف وأعـرض عن الجاهلين﴾ معاملـة الناس بـالإحسان وتـرك التشدد معهم في كل مـا يتعلق بالحقوق المالية والتخلق بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة التي أشار الله عز وجل إليهـا في قوله تبارك وتعـالى: ﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولو كنتَ

فَظًّا غليظَ القلب لانْفَضُّـوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفـر لهم وشاوِرْهم في الأمر﴾ والمراد بالعُرْفِ المعروف، والمراد بالإعراض عن الجاهلين هو الصبر على أذاهم كما قال عز وجل: ﴿قل للـذين آمنوا يغفروا للذين لايـرجون أيام الله ليجزي قومـا بما كانوا يكسبون﴾ وهذه أجمع آية في القـرآن لمكارم الأخلاق وقد قال البخاري في صحيحه: بابٌ «خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين» العرف المعروف. حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينـة بن حصنِ بن حـذيفة فنـزل على ابن أخيـه الحُرِّ بن قيس، وكـان من النفر الـذين يدنيهم عمـر، وكان القراءُ أصحـاب مجالس عمر ومشـاورته، كهولا كانوا أو شُبَّانًا، فقال عيينـة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فـاستأذن لي عليـه، قـال: سأستـأذن لك عليـه، قـال ابن عبـاس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال هِيْ يا ابن الخطاب فوالله مـا تعطينا الجَزْلَ، ولا تحكم بيننـا بالعدل، فغضـب عمر حتى همَّ أن يوقع بـه، فقال له الحرُّ: يـا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيـه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزهـا عمر حين تـلاها عليـه، وكان وقّـافاعنـد كتاب الله. حدثنـا يحيى حـدثنا وكيع عن هشـام عن أبيه عن عبـد الله بن الزبير ﴿خـذ العفو وأمـر بالعرف﴾ قال ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس، وقال عبد الله بن برَّادٍ حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام عن أبيـه عن عبد الله بن الزبير قال: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخـذ العفو من أخـلاق الناس، أو كما قال. اهـ والمراد بالنَّـزغ في قولـه تبارك وتعـالى: ﴿وإما ينـزغنك من الشيطـان نزغ فاستعـذ بالله، إنـه سميع عليم﴾ هو الـوسوسة والإغراء والإفسـاد والإغواء، قال ابن منظـور في لسان العـرب المحيط: النـزغ أن تنزغ بين قـوم فتَحْمِلَ بعضَهم على بعض بفسـاد

بينهم، ونزغَ بينهم ينزَغُ وينزِغُ نَـزْغاً: أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض والنَّزغ: الكـلام الذي يغـري بين الناس، ونَـزَغَهُ حـرَّكه أدنـى حركـة، ونزغ الشيطـان بينهم ينزَغُ وينـزِغُ نزغـاً أي أفسد وأغـرى، وقولـه تعالى: ﴿وإمـا ينزغنَّك من الشيطـان نزغٌ فاستعـذ بالله﴾ نـزغُ الشيطانِ وساوسـه ونخسه في القلب بما يسوِّل لـلإنسان من المعـاصي، يعني يُلقي في قلبه مـا يفسده على أصحابـه وقال الـزجاج: معنـاه إن نالك من الشيطـان أدنى نزغٍ ووسـوسة وتحريكٍ يصرفك عن الاحتمال فاستعذ بالله من شره وامض على حكْمك. اهـ ومعنى: ﴿فاستعـذ بالله، إنه سميع عليـم﴾ أي فاستجر بـالله والتجئ إليه وتحصن به من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه فإنه لا يدفع شره عنك إلا الله السميع العليم، وقـد روى البخاري ومسلم واللفـظ للبخاري من حـديث سليمان بن صرد رضي الله عنـه قـال: كنت جـالسـا مع النبي ﷺ ورجـلان يستبان، فأحدهما احمر وجهـه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمةً لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد. الحديث. وقوله تبارك وتعـالى: ﴿إن الذين اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائف من الشيطان تـذكروا فإذا هم مبصرون﴾ أي إن المؤمنين الذين عرفـوا ربهم واتقوه إذا أصابهم نزغ من الشيطان تذكروا وعد الله ووعيده، فإذا هم مبصرون هدى الله فمنتهـون عما دعاهـم إليه الشيطـان ومـا أغراهـم به وراجعـون إلى ربهم وتائبون من ذنبهم، وقـد فتح الله تبارك وتعالى للمؤمنين بـاب التوبة ورغبهم فيهـا وبشرهم بأنه يحب التـوابين كما قـال عز وجل: ﴿إن الله يحب التـوابين ويحب المتطهـرين﴾، والمؤمن يعلم أن الشيطان لا يـوسوس إلا بـالشر، ولا ينـزغ إلا بما يضر، فإذا صـادف الشيطـان منه غـرة وغفلـة اهتبلهـا، غير أن المؤمن سرعـان مـا يتنبـه من غفلته ويـرجع إلى ربـه ويقلع عن ذنبـه، قـال الترمذي في جامعه: حـدثنا هَنَّاد حدثنا أبو الأحـوص عن عطاء بن السائب

عن مُـرَّة الهَمْـداني عن عبـد الله بن مسعـود قـال : قـال رسـول الله ﷺ : إن للشيطان لَـمَّةً بابن آدم وللمَلَك لمةً فأمـا لمةُ الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأمـا لمةُ المَلَكِ فإيعاد بالخير وتصديقٌ بـالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنـه من الله فليحمـد الله ، ومن وجـد الأخـرى فليتعـوذ بـالله من الشيطـان الرجيـم ، ثم قرأ : ﴿الشيطـان يعدكم الفقـر ويأمركم بـالفحشاء﴾ قـال أبو عيسى : هـذا حـديث حسن غـريب وهـو حديث أبي الأحـوص لا نعلمـه مـرفوعـا إلا من حديث أبي الأحوص . اهــ وقد روى مسلم من حـديث ابن مسعود رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحـد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة .

قال تعالى: ﴿وإخوانهم يمدونهم فى الغي ثم لا يقصرون * وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها، قل إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربى، هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون * وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون * واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين * إن الذين عند ربكَ لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾.

بعد أن أكد الله عز وجل أن رسول الله محمدًا ﷺ لن يبالي بالمشركين وآلهتهم وأنهم مهما كادوا له فلن يتمكنوا منه لأنه في رعاية وليه فاطر السموات والأرض الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وأكد للمشركين أن أصنامهم أعجز من أن تهدي ضالا لأنها لا تسمع ولا تبصر وأمر نبيه محمدا ﷺ وأتباعه بأن يحسنوا إلى من أساء إليهم وأن يصبروا على ما يلقونه من أذى أعدائهم وأن يأمروا بالمعروف وأن يُعرضوا عن الجاهلين وأن يستعيذوا بالله من نزغات الشياطين، ووصف المؤمنين بأنهم سريعو العودة إلى طاعة الرحمن إن أصابهم طيفٌ من الشيطان، شرع هنا في تأكيد انغماس المشركين في الضلالة بسبب ولايتهم للشياطين التي لا تزال تغويهم وتُزَيِّن لهم الباطل وأنهم لا يزالون يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بخوارق اتباعا لشهواتهم، وقد جهلوا أن رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وأن القرآن كاف شاف في إثبات أن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا، وهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية ما بقي الليل والنهار والشمس والقمر، ولو أن هؤلاء المكذبين استمعوا للقرآن وأنصتوا له لسارعوا إلى الإيمان به ولأيقنوا أنه ليس من كلام البشر بل هو كلام مالك القُوَى والقُدَر، ثم ختم مسك هذه السورة بأمر رسوله ﷺ بالإكثار من ذكر الله منبِّها أن الملائكة لا يستكبرون

عن عبادة الله وتسبيحه والسجود له، وفي ذلك يقول ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يُقْصِرون﴾ إلى آخرة السورة. ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وإخوانهم يمدُّونهم في الغيِّ ثم لا يقصرون﴾ أي وإخوان الشياطين من المشركين تمدهم الشياطين في غيهم وتزيدهم ضلالا فوق ضلالهم ثم لا يُقصر الشياطين عن المدد والإمداد، ولا يُقْصِر أولياؤهم من الإنس عن غيهم وضلالهم بل يزدادون ضلالا فوق ضلالهم وكفرا فوق كفرهم. والمد والإمداد يأتيان بمعنى الزيادة، والغي الضلال، والإقصار الكف عن الشيء والانتهاء عنه يقال: أقصر فلانٌ عن الشيء يُقْصِر إقصاراً إذا أمسك وكفَّ عنه وانتهى. وقوله عز وجل: ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾ بيان لتعنت المشركين من قريش وسفاهتهم حيث كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات كأن يفجر لهم من أرض مكة ينبوعا، أو يسقط السماء عليهم كسفا أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يَرْقَى في السماء، أو يكلمهم الموتى وكان رسول الله ﷺ يجيبهم بأن الآيات عند الله، فكانوا يستهزئون ويقولون هلا اصطفيت لنا آية من عندك؟ فأمره الله عز وجل أن يخبرهم بأنه عبدٌ رسول يَتَّبع ما يوحيه الله إليه، وأن الله تبارك وتعالى قد أعطاه القرآن وهو حجة عظمى ومعجزة كبرى يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة واحدة من مثله، كما قال عز وجل: ﴿وقالوا لن نؤمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض ينبوعا * أو تكونَ لك جَنة من نخيل وعنب فتُفَجِّرَ الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقطَ السماء كما زعمتَ علينا كِسَفا أو تأتيَ بالله والملائكة قَبِيلا * أو يكونَ لك بيتٌ من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمنَ لرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنتُ إلا بشرا رسولا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا

عليك الكتاب يُتْلَى عليهم، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ وقال عز وجل هنا: ﴿قل إنما أتبع ما يُوحَى إليَّ من ربي﴾ أي إنما أنقاد لوحي الله وشرعه ولا أتبع أهواءكم الباطلة، واقتراحاتكم الفاسدة الكاسدة، ثم شرع عز وجل في وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن العيب فيكم أنتم أيها المشركون حيث تحاولون التهويش عليه عندما يتلى عليكم ويقول بعضكم لبعض: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون، فلو أنكم استمعتم له وأنصتم عند تلاوته لسارعتم إلى الإيمان به وعلمتم أنه ليس من كلام البشر وأيقنتم أنه كلام الله مالكِ القوى والقُدَر حيث يقول عز وجل: ﴿هٰذا بصائر من ربكم وهدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون * وإذا قرئَ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم تُرحَمون﴾ وقد نبهت كثيرا إلى أن السور المكية المبدوءة بالحروف المفرقة، يفتتحها الله بذكر القرآن صراحة أو ضمنا فَيُمجِّده ويعظمه، ويشير إلى اختلاف الناس فيه بين مؤمن به أو كافر مكذب له، ويبين أن العاقبة الحسنى تكون للمؤمنين به وأن العاقبة السيئة تكون للمكذبين به، ثم يختتم السورة بذكر القرآن صراحة أو ضمنا فيمجده ويعظمه ترغيبا وترهيبا مما يؤكد أن المقصود من الحروف المفرقة في أوائل بعض السور هو الإعجاز والتحدي بهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿هٰذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي هذا القرآن والوحي الذي جئتكم به من عند الله حجج عليكم وبراهين لكم من ربكم تضيء لمن استضاء بها الطريق المستقيم وتحذره من الوقوع في المهالك، وتبين له الحق من الباطل، وهو دلائل تقودكم إلى الحق، فمن اهتدى بهديه أدخله الله عز وجل في رحمته، ولا ينال ذلك إلا المؤمنون. كما قال عز وجل: ﴿قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وكما قال عز وجل عن التوراة: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب

من بعـد مـا أهلكنـا القـرون الأولى بصـائر للنـاس وهـدًى ورحمةً لعلهم يتـذكرون﴾ ومعنـى قولـه تبـارك وتعالى: ﴿وإذا قـرئ القـرآن فـاستمعوا لـه وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ أي وإذا تُلي عليكم كتـاب الله المنزل على محمد ﷺ فأصغوا لـه سمعكم لتتفهموا آيـاته ولتعتبروا بمـواعظه وأمسكـوا عن الكلام لتتمكنوا من ضبط ما تسمعـون حتى تتسرب إليكم أنواره فتضيء لكم طريق الهدى وتبتعـدوا عن طـريق الـرَّدَى وتنخـرطـوا في سلك عبـاد الله المتأهلين للدخول في رحمتـه، يقال: استمع له وتسمَّع أي أصغى ومـال بسمعه نحوه حتى لا يفوتـه منه شيء، وأنصت بمعنى سكت وقد أثنى الله تبـارك وتعالى على الجن وإنصاتهم لاستماع القـرآن، وأشار إلى أنهم لما استمعوا لـه انصرفوا دعاة إلى الله عـز وجل مُحرِّضين قـومهم على الاستجابـة لرسـول الله محمد ﷺ والإيمان به حيث يقول عز وجل: ﴿وإذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قـالوا أنصتوا فلما قُضِي وَلَّوْا إلى قـومهم مُنْذِرين * قـالـوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طـريق مستقيم * يـا قومنـا أجيبـوا داعِيَ الله وآمنوا بـه يغفـر لكم من ذنـوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم* ومن لا يُجِبْ داعي الله فليس بمعجِزٍ في الأرض وليس لـه من دونـه أوليـاءُ، أولَٰئك في ضـلال مبين﴾ وقـولـه تبـارك وتعـالى: ﴿واذكـر ربك في نفسك تضرُّعـا وخِيفـة ودون الجهـر من القـول بـالغُـدُوِّ والآصـال ولا تكن من الغـافلين﴾ إرشـاد إلى أهم أسبـاب الفـوز والفلاح والنصر على الأعداء وتفريج الكربات ودفع الهموم والأحزان وتخفيف القيام بـالتكاليف الدينيـة والدنيويـة فإن الله تبارك وتعـالى كان يأمر رسـوله محمدا ﷺ إذا اشتد تَعَنُّت المشركين معه، وكثر أذاهم له أن يذكر ربه ويسبح بحمده مشيرا إلى أن ذلك يدفع عنـه شر أعدائه، ويشرح صدره، ويجلب له الرضا كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الـذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثْبُتُوا واذكروا الله

كثيرا لعلكم تفلحون﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ولقد نعلمُ أنك يضيق صدرك بما يقـولون * فسبح بحمـد ربك وكن من السـاجدين * واعبـد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿فاصبر على مـا يقولـون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غـروبها ومن آناء الليل فسبح وأطـراف النهار لعلك ترضى﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿فـاصبر على ما يقولـون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب* ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ وكما قال عز وجل ﴿واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلا * ربُّ المشرق والمغرب لا إلّه إلا هو فـاتخذه وكيلا * واصبر على ما يقولون واهْجُـرْهم هجرا جميلا﴾ والمراد بـذكـر الله في النفس: تسبيحـه وتقـديسـه وتهليلـه وتعظيمـه وتكبيره وتمجيده ونداؤه ودعاؤه وسؤاله بأسمائه الحسنـى وصفاته العلى، وتلاوة كتابه مع التفكـر والتـدبـر في آلائه كما قـــال عـز وجل: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهـار لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يـذكرون الله قيامـا وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكـرون في خلق السمٰوات والأرض، ربنـا ما خلقْتَ هٰـذا باطـلا سبحانـك فقنا عـذاب النار﴾ ومعنى: ﴿تضرعـا﴾ أي تخشُّعًا وتذللا وتمسكنًا ورجاء وخضـوعا واستكانة، ومعنى: ﴿وخيفةً﴾ أي وخوفا ورهبة، ومعنى: ﴿ودون الجهر من القول﴾ أي واجمع في ذكرك لربك بين لسـانك وقلبك بصـوت دون الجهر كما قـال عـز وجل عن زكـريا عليـه السلام: ﴿إذ نـادى ربه نداء خفيـا * قال رب إني وَهَنَ العَظْمُ مِنّي واشتعل الرأسُ شَيْبًـا ولم أكن بدعـائك ربِّ شقيا﴾ ولـذلك كان رسـول الله ﷺ يأمر أصحابـه بأن يخفضوا أصـواتهم بالـذكر فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث أبي مـوسى الأشعري قـال: كنا مع رسـول الله ﷺ في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شَـرَفا ولا نهبط في وادٍ إلا رفعنا أصواتنا بـالتكبير قـال: فدنـا منـا رسـول الله ﷺ فقـال: يا أيها النـاس ارْبَعُـوا على

أنفسكم فإنكم لا تـدعـون أصم ولا غـائبـا إنما تـدعـون سميعـا بصيرًا.
الحديث، وفي لفظ للبخاري قال أبو موسى: ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال: «يا عبد الله بن قيس قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة». والغُدُوّ جمع غُدْوَة وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والآصال: ما بين العصر والمغرب. ومعنى: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ أي ولا تكن من اللاهين عن ذكر الله، والمعلوم أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، وقوله عز وجل: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ فيه ثناء على المسبحين الساجدين العابدين من الإنس والجن، وأنهم ينهجون النهج الذي تنهجه الملائكة في عبادة فاطر السموات والأرض والمراد بالذين عند ربك هم الملائكة، لأنهم يسكنون السموات العلى ومنهم حملة العرش ومن حوله، كما قال عز وجل: ﴿ومَن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يَفْتُرُون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في قوله عز وجل: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية: وإنما ذكرهم بهذا ليقتدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث «ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها يُتِمُّون الصفوف الأول فالأول ويتراصُّون في الصف». وهذه أول سجدة في القرآن يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. اهـ وقد تم بحمد الله تفسير سورة الأعراف.



تفسير سورة الأنفال



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

هذه سورة الأنفال، وهي مدنية وقد نزلت هذه السورة أو معظمها في بدر، وكانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة، فقد روى البخاري من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر. وفي لفظ لمسلم من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟: قال: تلك سورة بدر. ومناسبة هذه السورة لسورة الأعراف أنه تعالى ختم سورة الأعراف - وهي مكية - بما حكاه عن الملائكة من إخلاصهم التوحيد لله عز وجل، وافتتح هذه السورة بالحديث عن أهل بدر الذائدين عن حمى التوحيد، وما أمرهم به من تقوى الله عز وجل، وقد ذكر رسول الله ﷺ أن مَنْ شهد بدرا من الصحابة رضي الله عنهم هم خيار المسلمين، وأخبره جبريل عليهما السلام أن من شهد بدرا من الملائكة هم خيار الملائكة فقد روى البخاري في صحيحه من طريق يحيى بن سعيد وهو الأنصاري عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقِيّ عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين أو كلمةً نحوها، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة. اهـ والأنفال جمع نَفَل ويطلق في اللغة على معانٍ: منها الغنيمة والعطية وولد الولد وما تفعله مما لم يجب كالنَّفْل، والمراد بالأنفال في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ

وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ هي الغنائم، قال البخاري: قال ابن عباس: الأنفال المغانم. اهـ وقد سميت الغنائم أنفالا لأنها زيادة من الله تعالى لهذه الأمة بخصوصها إذ كانت محرمة على الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطَهُورا فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وأُعطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعِثتُ إلى الناس عامَّةً». كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزَا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل مَلَكَ بُضْعَ امرأة وهو يريد أن يبني بها ولما يَبْنِ بها، وَلا أحدٌ بَنَى بيوتا ولم يرفع سُقُوفها، ولا أحد اشترى غنما أو خَلِفاتٍ وهو ينتظر ولادها، فَغَزَا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احْبِسْهَا علينا، فَحُبِسَتْ حتى فتح الله عليه، فَجَمَعَ الغنائم، فجاءت - يعني النار - لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غُلُولا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال فيكم الغُلول، فَلْتُبَايِعني قبيلتُك، فلزقت يد رَجُلَيْن أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغُلُولُ، فجاءوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنا فأحلها لنا. والسؤالُ في قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ هو مُبْهَمٌ يُعَيِّنُ المرادَ منه قولُهُ عز وجل: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ ودلَّ ذلك على أنهم سألوه عن الأنفال كيف مصرفها ومن المستحق لها؟ وهذا أسلوب بلاغي حيث يورد السؤال مبهما

ليكون الجواب مُبَيِّنًا له مع الإيجاز، وذلك كقوله تبارك وتعالى: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ فإذا تَطَهَّرْنَ فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ وهذا في القرآن كثير حيث يجيء السؤال مبهما ويكون الجواب دَالا عليه. ومعنى قوله عز وجل: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي مَرَدُّ مصرفها لله بما يُبَيِّنُهُ في كتابه ولرسوله ﷺ بما يُبَيِّنُهُ في سنته ﷺ. والمقصود حسم مادة تنازع المجاهدين في تناول هذه الغنائم وأن يرضوا بما يقسمه الله عز وجل وما يعطيه لهم رسول الله ﷺ منها لما في ذلك من إصلاح ذات بينهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يصرف في طاعة الله ورسوله، ليس المراد به أنه ملك للرسول كما ظنه طائفة من الفقهاء، ولا المراد به كونه مملوكًا لله خَلْقا وقَدَرًا، فإن جميع الأموال بهذه المثابة، وهذا كقوله: ﴿قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنَّ لله خمسه وللرسول﴾ الآية، وقوله: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ إلى قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى﴾ الآية، فذكر في الفيء ما ذكر في الخمس. ثم قال رحمه الله: فما أضيف إلى الله والرسول من الأموال كان المرجع في قسمته إلى أمر النبي ﷺ بخلاف ما سُمِّيَ مستحقوه كالمواريث، ولهذا قال النبي ﷺ عام حُنَيْن: «ليس لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمْسُ، والخُمسُ مردود عليكم». أي ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه إلى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس، ولهذا قال: «وهو مردود عليكم»، بخلاف أربعة أخماس الغنيمة فإنه لمن شهد الوقعة، ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين، والخُمس يرفع إلى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خَلَفُوا رسولَ الله ﷺ في أمته، فيقسمونها بأمرهم، فأما أربعة الأخماس

فإنما يرجعون فيها ليعلم حكم الله ورسوله كما يستفتي المستفتي وكما كانوا في الحدود لمعرفة الأمر الشرعي، والنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم. اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ فيه نوع إجمال بينه الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ الآية، حيث بيَّنَ مصارف الغنيمة وكيفية قسمتها على التفصيل، والفاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ هي الفاء الفصيحة، أي إذا علمتم أن الأنفال لله والرسول فاتقوا الله باجتناب ما يبغضه ولا تتعلق قلوبكم إلا بما يبيحه الله لكم ولا تعملوا عملا يؤدي إلى تنازع المسلمين واختلافهم وتفرق كلمتهم، والبَيْنُ يطلق على الفُرقة وعلى الوصل والمراد هنا الوصل، وذات البَيْن حقيقته، ومعنى: ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي أصلحوا حقيقة وصلكم ببذل الأسباب التي تنشر المحبة بينكم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ أي وانقادوا لأمر الله عز وجل ولأمر رسوله محمد ﷺ، وجواب قوله عز وجل: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، والتعبير بوصف الإيمان لتنشيط المخاطبين وحضهم على المبادرة إلى الامتثال وسرعة الانقياد، فإن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وقد قال مسلم في الجهاد من صحيحه: وحدثنا قتيبةُ بن سعيد حدثنا أبو عَوَانَةَ عن سِمَاك عن مُصْعَب بن سعد عن أبيه قال: أخذ أبي من الخُمس سيفا، فأتى به النبي ﷺ فقال: هَبْ لي هذا، فَأَبَى، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ حدثنا محمد بن المُثَنَّى وابنُ بَشَّار واللفظ لابن المثنى قالا: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك

ابن حرب عن مصعب بن سعد عن أبيـه قال : نَزَلَتْ فِيَّ أربعُ آيات ، أصبت سيفا ، فأتى بـه النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، نَفِّلْنِيهِ ، فقـال : «ضَعْهُ» ، ثم قام فقـال له النبي ﷺ : «ضعـه من حيث أخـذتَه» ثم قـام فقال : نَفِّلْنِيـهِ يا رسول الله فقال : «ضَعْـهُ» فقام فقال : يا رسـول الله نفلنيه ، أَأُجْعَلُ كمن لا غَنَاءَ لـه ، فقال لـه النبي ﷺ : «ضعه من حيث أخذتَـهُ» قال : فنـزلت هذه الآية : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَـالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ وقد ساقه مسلـم في فضائل الصحـابة من صحيحـه من طريق سِماك بن حـرب حدثني مصعب ابن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن ، قال : حَلَفتْ أم سعد أن لا تكلمـه أبدا حتى يكفـر بـدينه ولا تأكلَ ولا تشربَ ، قـالت : زَعَمْتَ أن الله وصَّاك بوالديك ، وأنا أمك ، وأنـا آمرك بهذا ، قال : مَكَثَتْ ثلاثًا حتى غُشِيَ عليها من الجَهـد ، فقام ابنٌ لها يُقَالُ لـه عُمارةُ فسقاها ، فَجَعَلَتْ تـدعو على سعد ، فأنـزل الله عز وجل في القرآن هذه الآيـة : ﴿ووصينا الإنسان بوالـديه حُسْنًـا﴾ ﴿وإن جاهـداك على أن تشرك بي﴾ وفيها : ﴿وصـاحبْهما في الدنيـا معـروفا﴾ قـال : وأصاب رسـول الله ﷺ غَنِيمَـةً عظيمة ، فإذا فيهـا سيف ، فأخـذته ، فأتيت بـه الرسـول ﷺ فقلت : نَفِّلْنِي هـذا السيف ، فأنا من قـد عَلِمْتَ حَالَهُ ، فقال : «رُدَّهُ من حيـث أخذتَهُ» ، فانطلَقْتُ حتى إذا أردتُ أن أُلْقِيَهُ في القَبَضِ لامَتْنِي نفسي ، فرجعتُ إليـه فقلت : أعطنيه ، قال : فَشَدَّ لي صوتَه : «رُدَّهُ من حيث أخذتَهُ» ، قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿يَسأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ﴾ الحديث ، كما روى البخاري ومسلم واللفـظ للبخاري من حديث عبـدالرحمن بن عـوف رضي الله عنه قـال : بينا أنـا واقف في الصف يوم بـدر فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصـار حديثةٍ أسنانها تمنيت أن أكون بين أَضْلَعَ منها ، فغمزني أحدهما فقال : يا عمِّ هل تعرف أبا جهل ؟ قلت نَعَمْ ، مـا حاجتك إليـه يا ابن أخي قـال : أُخبرتُ أنه يسب رسـول الله

ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سوادَه حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يَجُولُ في الناس، قلتُ: ألا إنَّ هذا صاحبُكُما الذي سألتماني فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أَيُّكُمَا قتله»؟ قال كلٌّ واحد منهما: أنا قَتَلْتُهُ، فقال: «هل مَسَحْتُمَا سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر في السيفين فقال: «كِلاكُمَا قَتَلَهُ سَلَبُهُ لمعاذ بن عمرو بن الجموح»، وكانا معاذ ابن عفراء ومعاذ بن عمرو ابن الجموح. اهـ هذا وقد قسم رسول الله ﷺ غنائم بدر وهو في طريق عودته من بدر على من شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار وضرب لعثمان بن عفان رضي الله عنه بسهم وإن لم يشهد بدرا لأنه تخلف عنها بأمر رسول الله ﷺ لتمريض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وقد توفيت في اليوم الذي وصلت فيه البشارة بالنصر إلى أهل المدينة، وقد أعطى رسول الله ﷺ أربعة أخماس الغنيمة للغانمين وأخذ خمسها الذي جعله الله تعالى للنبي ﷺ أو لإمام المسلمين بعد رسول الله ﷺ ينفقه في حاجته وعلى ذوي قرابة رسول الله ﷺ وعلى اليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ومما يؤكد أن رسول الله ﷺ قسم غنائم بدر على ما وصفت هو ما رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق علي ابن الحسين عن أبيه الحسين بن علي أن عليا قال: كانت لي شارفٌ من نصيبي من المغنم يوم بدر وكان رسول الله ﷺ أعطاني شارفا من الخمس يومئذ. الحديث.

قال تعـالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّـذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُـوبُهُم وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَـاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًـا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُـونَ * الَّذِيـنَ يُقِيمُونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّا، لَهُمْ دَرَجَـاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * ﴾

بعـد أن قرر تبـارك وتعالى أن الأنفـال لله والـرسول وأمـر أهل بدر وسـائر المؤمنين أن يتقوا الله وأن يُصلحوا ذات بينهم وأن يطيعوا الله ورسوله، ليَذُوقوا حلاوة الإيمان الـذي ينتسبون إليه مما يحسم مادة تنازع المجـاهدين ويجعلهم كالجسـد الواحد ويـرضون بما يَقْسِمُـه الله عز وجل وما يعطيـه لهم رسول الله ﷺ، شرع هنا في بيـان صفات كملة المؤمنين، وأمارات صـدقهم مع الله عز وجل، ومـا هم عليـه من الحرص على سرعة امتثـال أوامـر الله، وبشرهم بما أعده لهم في دار كرامته من الأجـر العظيم والرزق الكريم حيث يقول: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليتْ عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * ﴾ إلى قوله عز وجـل: ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ وقد وصف الله تبارك وتعالى المؤمنين حقا بخمس صفات منها ثـلاثُ صفاتٍ تـرجع للعبادات القلبيـة، وهي وَجَلُ القلب عند ذكـر الله، وزيادة الإيمان عنـد سماع القرآن. والتـوكل على الله وحـده، والصفة الـرابعة تـرجع إلى العبـادات البـدنية وهي إقـامـة الصـلاة التي هي رأس العبـادات البدنية، والصفـة الخامسة ترجع إلى العبادات المالية، وهي إيتـاء الزكاة التي هي رأس العبـادات الماليـة، ولا شك أن من اجتمعت فيـه هـذه الصفـات الخمس كان حريًّا بالمحافظة على جميع شرائع الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن قيل: إذا كـان المؤمن حقا هو الفاعل للـواجبات التارك للمحـرمات، فقـد قـال: ﴿أولئك هم المؤمنون حقـا﴾ ولم يـذكر إلا خمسـة

أشياء، وكذلك قال في الآية الأخرى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ وكذلك قوله: ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ وأجاب رحمه الله أن يكون ما ذكر مستلزما لما تُرِكَ، فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تُليتْ عليهم آياته مع التوكل عليه، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنا وظاهرا، وكذلك الإنفاق من المال والمنافع، فكان هذا مستلزما للباقي، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه، وقد فسروا «وجلت» بِفَرِقَتْ، وفي قراءة ابن مسعود: «إذا ذكر الله فَرِقَتْ قلوبهم» وهذا صحيح، فإن الوجل في اللغة هو الخوف يقال: حمرة الخَجَل وصفرة الوَجَل، ومنه قوله تعالى: ﴿والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوا وقلوبُهم وَجِلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ قالت عائشة: يا رسول الله هو الرجل يزنى ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: «لا يا ابنة الصِّديق، هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يُقْبَلَ منه»، وقال السدى في قوله تعالى: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنه، وهذا كقوله: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ وقوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ قال مجاهد وغيره من المفسرين: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله فيتركها خوفا من الله، وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور. اهـ على أن لفظ «إنما» في قوله عز وجل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ إلى آخر هذه الصفات لا يفيد حصر الإيمان في هذه الصفات الخمس لأن كلمة «إنما» غير مصرح فيها بنفي ما سوى المذكور في حيزها ولذلك تحتمل أن تجيء لا العاطفةُ بعدها فتقول: إنما أنا إمام لا خطيب،

بخلاف الحصر بالنفي والاستثناء فإن لا العاطفة لا تجتمع معه . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» : وقال ابن عطية : «إنما» لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ، ويصلح مع ذلك للحصر إن دخل في قصة ساعدت عليه ، فجعل وروده للحصر مجازا يحتاج إلى قرينة ، وكلام غيره على العكس من ذلك ، وأن أصل ورودها للحصر لكن قد يكون في شيء مخصوص كقوله تعالى : ﴿إنما الله إلٰه واحد﴾ فإنه سيق باعتبار منكري الوحدانية ، وإلا فلله سبحانه وتعالى صفاتٌ أخرى كالعلم والقدرة ، وكقوله تعالى : ﴿إنما أنت منذر﴾ فإنه سيق باعتبار منكري الرسالة وإلا فله ﷺ صفاتٌ أخرى كالبشارة ، إلى غير ذلك من الأمثلة ، وهي فيما يقال السببُ في قول مَنْ مَنَعَ إفادتها للحصر مطلقا . اهـ والصفة الأولى من صفات المؤمنين في هذا المقام هي الوجل عند ذكر الله عز وجل فإن المؤمن إذا ذكر الله أو سمع ذكره فتذكر مرجعه إلى الله ووقوفه بين يديه وَجِلَ أي خاف وفزِعَ وفَرِق وخشي وَرَهِبَ وأَخْبَتَ كما قال عز وجل : ﴿وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال الزجاج : تأويله : إذا ذُكِرَتْ عظمةُ الله وقدرتُه وما خَوَّفَ به من عصاه وجلت قلوبهم أي فزعت لذلك . اهـ والعرب يستعملون الوجل فيما يخافونه ويرهبونه مما قد يقع بهم من المكروه في المستقبل كما قال معن بن أوس :

لعمرُكَ ما أدري وإني لأوجل على أيِّنا تعدو المنيةُ أَوَّلُ

ولا شك أن المؤمن إذا ذكر الله الجليل الجبار القهار القوي العزيز المقتدر اقشعر جلده كما قال عز وجل : ﴿الله نزَّل أحسن الحديث كتابا متشابها مَثَانِيَ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ ومن شأن الإنسان أنه إذا ذكر حبيبه ارتعد وارتعش واقشعر جلده كما قال

الشاعر أبو صخر الهذلي :

وإني لَتَعْرُونِي لذكراكِ هِزَّةٌ   كما انتفض العصفورُ بلَّلَهُ القَطْرُ

ولا معارضة بين وجل قلب المؤمن عند ذكر الله وبين طمأنينة القلب بذكر الله حيث قال عز وجل : ﴿أَلا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ لأن وجل القلب إنما يكون بتذكر المؤمن عظمة الله وعَرْضَهُ على الله يوم القيامة ومقامه بين يدي جبار السموات والأرض للحساب ، لكنه إذا ذكر الله عز وجل وأكثر من تسبيحه وتقديسه وتحميده وتمجيده وتَـذكَّرَ فضلَه وجُودَه ورحمتَه التي سبقت غضبه دخل على قلبه الرجاء فاطمأن بذكر الله وطمع في إحسانه ، وهذا حال المؤمن فإنه يرجو رحمة الله ويخاف عذابه ، فلا يصل خوفُه إلى القنوط واليأس من رحمة الله ولا يحمله الرجاء على الأمن من عقاب الله ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في وصف عباده الصالحين حيث يقول : ﴿وَيَـرْجُونَ رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغَبًا وَرَهَبًا وكانوا لنا خاشعين﴾ والصفة الثانية من صفات المؤمنين في هذا المقام هي أنهم إذا تليت عليهم آيات الله زادتهم إيمانا ، أي إذا سمعوا القرآن ازدادوا يقينا وتصديقا بأن هذا القرآن من عند الله ، وانضم إلى ما كان في قلوبهم من أنوار المعرفة أنوار جديدة وصار لهم نور على نور كما قال عز وجل : ﴿نُورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ ولا شك أن سماع القرآن بتدبر وتفكر يجلو أبصار القلوب ، ويُذْهب الران عن الصدور، وتتوالى البراهين والحجج ، فيزداد الإيمان رسوخا في قلوب المؤمنين ، ويحس المؤمن بحلاوة الإيمان ، وهذا بخلاف الذين في قلوبهم مرض من المنافقين فإنهم لانطماس بصائرهم يزدادون بسماع القرآن رجسا إلى رجسهم كما قال عز وجل : ﴿وإذا ما أُنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أَيُّكم زادته هذه إيمانا ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم

مرض فزادتهم رِجْسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كـافرون﴾ أما الصفة الثالثة من صفات المؤمنين المذكورة في هذا المقام فهي أنهم على ربهم يتوكلون حيث يقول عز وجل: ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ويعتمدون على الله وحده، ويفوضون أمـورهم إليـه، ولا يلـوذون إلا بجنـابـه ولا يقفـون إلا ببـابـه. ولا يطلبـون حوائجهم إلا منه ولا يرغبون إلا إليه، ويؤمنون بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد حـرض الله تبارك وتعالى المؤمنين على التـوكل عليه في مقـامات كثيرة من القـرآن الكريم وبشَّـــر المتوكلين عليـه بالنصر على عدوهـم والفوز والفلاح حيـث يقول عز وجل: ﴿ومـن يتوكل على الله فهـو حسبه، إن الله بالغ أمره﴾ وقال: ﴿الله لا إلّه إلا هـو، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وقال عز وجل: ﴿إن ينصركم الله فلا غـالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعـده، وعلى الله فليتوكل المؤمنـون﴾ وقال عـز وجل: ﴿الذين قـال لهم الناسُ إن الناسَ قد جَمَعُوا لكم فاخشوهـم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فـانقلبوا بنعمـة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعـوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم*﴾ وقال عز وجل: ﴿وتـوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده﴾ والصفـة الرابعة مـن صفات المؤمنين المذكورة في هـذا المقام هي قوله عز وجل: ﴿الذيـن يقيمون الصلاة﴾ ومعنى: ﴿يقيمون الصلاة﴾ أي يحافظون عليها في مـواقيتها ووضوئها وركـوعها وسجودها وسـائر أركانها وشروطها، ويُجَوِّدُونَهَا. وإقامة الصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وقـد وصَّى الله تبارك وتعالى بها في مقـامات كثيرة جدا في كتـابه الكريم وأشار إلى أن من لم يُصَلِّ من المنتسبين للإسلام لا يُخَلَّى سبيله، وليس أخا للمسلمين حيث قـال: ﴿فإن تابـوا وأقامـوا الصلاة وآتـوا الزكـاة فخلوا سبيلهم﴾ وقال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وقال شقيق بن عبدالله التابعي الجليل: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا

من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، أما الصفة الخامسة من صفات المؤمنين التي ذكرها الله عز وجل في هذا المقام فهي أنهم ينفقون مما رزقهم الله، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق الدينية والدنيوية على نفسه وعلى من يَعُولُ من إنسان أو حيوان، وقد وصف الله تبارك وتعالى أصحاب هذه الصفات بأنهم هم المؤمنون حقا، أي الجديرون بوصف الإيمان، المتحققون به، الحريُّون بأن يقال فيهم: هم المؤمنون، وقد بَشَّرَهُم الله تبارك وتعالى بقوله في هذا المقام: ﴿أولـئك هم المؤمنون حقا، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾ أي المتخلقون بهذه الصفات هم المؤمنون حقا، لهم منازل ومقامات ودرجات في الجنات، ولهم من ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم، وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة لَيَتَرَاءَوْنَ أهل الغُرَف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدُّرِّيّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لِتَفَاضُل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ *﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى أهل بدر وسائر المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم وأن يطيعوا الله ورسوله مما يقتضي أن يكون هواهم تبعا لما جاء به رسول الله ﷺ فيسارعوا إلى امتثال أوامره ويبادروا إلى السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، ويجتنبوا الأَثَرَةَ وما يجلب التنازع بينهم، وبيَّن لهم صفة كملة المؤمنين، ضرب لهم هنا مثلا يغرس في قلوبهم أن الخير والعاقبة الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ وأن الإنسان قد يكره شيئا وهو خير له وقد يحب شيئا وهو شرٌّ له، وذلك كما حدث لفريق من المؤمنين عند الخروج إلى بدر، وقد وعدهم رسول الله ﷺ إحدى الطائفتين العير أو النفير فتمنى بعضهم أن يحصل لهم العير وكرهوا النفير لأنهم لم يكونوا قد تأهبوا لذلك، وأراد عز وجل لهم النفير وجمعهم على غير ميعاد، فكانت عاقبة ذلك أحسن العواقب وفرحوا بنصر الله أشد من فرحهم بما لو حصلوا على العير، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون *﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون *﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ *﴾ أي هذا مثلٌ ضُرِبَ لكم قد شهدتم حقيقته، وأبصرتم واقعه يؤكد لكم أن الخير والعاقبة

الحميدة هي في السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ، وأن الإنسان قد يكره الشيء وهو خير له، وقد يحب الشيء وهو شرٌّ له، ومثال ذلك، أن الله تبارك وتعالى قد أخرج نبيه ﷺ من بيته بالمدينة وهو فيه آمن مطمئن، وأمره بالنهوض إلى بدر ليطلب عير أبي سفيان الصادرة من الشام فيها أموال جزيلة لكفار قريش الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم، فاستنهض رسول الله ﷺ من خَفَّ من المسلمين فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وسار بهم يريد ساحل البحر من طريق بدر، ولما علم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه بعث ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد تعرض لها في أصحابه، فأسرع ضمضم بن عمرو إلى مكة وأخبر أهل مكة بذلك فأخذ أبو جهل يستنفر الناس ويقول: أدركوا عيركم، فخرجت قريش ونفرت على الصعب والذلول في عدد من المقاتلين يتراوح بين التسعمائة والألف ومعهم أكثر من خمسين فارسا، وكان رسول الله ﷺ يبعث العيون لمعرفة مكان أبي سفيان وعيره، فجاءته الأخبار وهو قريب من الصفراء بأن أبا سفيان قد سَاحَل بالعير، وأن مكة قد رمتهم بأفلاذ كبدها، فشاور أصحابه رضي الله عنهم، وقد كره بعض المسلمين ملاقاة قريش، لأنهم لم يكونوا قد استعدوا لملاقاتهم، حيث لم يخرجوا من المدينة لقتال، وإنما خرجوا للعير، وقد بدأ رسول الله ﷺ يبشر أصحابه بإحدى الطائفتين: العير أو النفير. فأبو سفيان في العير وأبو جهل في النفير، والعير ليس فيها قتال، والنفير لا يأخذونه إلا بقتال وشوكة وكان هؤلاء الذين كرهوا القتال يودون أن غير ذات الشوكة تكون لهم يعني العير ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، وعسى أن يكره الإنسان شيئا وهو خير له، وعسى أن يحب شيئا وهو شر له، وهكذا تَمَّ في بدر فقد كانت ثمارها أعظم من ثمار أضعاف عير قريش، وقد روى البخاري

في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحبُّ إليَّ مما عُدِلَ به: أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسَرَّهُ يعني قوله. وقد كان المقداد هو الفارس الوحيد يوم بدر كما قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مُضَرِّب عن علي قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدر غير المقداد. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخِيضَهَا البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغِماد لفعلنا، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرا، ووردت عليهم رَوَايَا قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج، فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول: ما لي علمٌ بأبي سفيان ولكنْ هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأميةُ بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علمٌ ولكنْ هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، في الناس، فإذا قال هذا أيضا ضربوه، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف، قال: «والذي نفسي بيده لَتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم». اهـ وهذه الكراهية التي حصلت من بعض المؤمنين لم تكن جبنًا عن القتال، وإنما كانت منهم لأنهم كانوا يرون أنفسهم في قلة من العدد والسلاح وأنهم لم يخرجوا من المدينة للحرب،

ولم يعلم هؤلاء أن هذه الأسباب كانت من أبرز آيات نصرهم وعزهم كما قال عز وجل: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ يعني في قلة من العدد والسلاح حالة كونكم تقابلون عدوا كثير العدد والعدة والفرسان وقد خرج متهيئا للقتال مستعدا له، وقد كان جدال هؤلاء الذين جادلوا رسول الله ﷺ يدور حول قلتهم في العدد والعدة والفرسان وأنهم ما خرجوا للقتال، وإنما خرجوا للعير وهي لا شوكة فيها وقد وصف الله تبارك وتعالى هؤلاء المجادلين بأنهم جادلوا رسول الله ﷺ في الحق بعدما تبين أي جادلوه في قتال المشركين يوم بدر بعد أن أخبرهم رسول الله ﷺ أنهم مقاتلو كفار قريش ذوي العدد والعُدَّة، ولذلك لما أيقنوا بأنهم ملاقو العدو صاروا في حالة من أيقن أنه ميت لا محالة، وكأنه ينظر إلى الموت بعينه حيث يقول عز وجل: ﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ ولا شك أن من كانت هذه حال بعضهم ثم لما دخلوا المعركة واستقبلوا الموت بصدروهم، أشبعوا عدوهم قتلا وأسرا وجراحة حيث قتلوا من المشركين سبعين رجلا فيهم صناديد قريش كأبي جهل وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف كما أسروا سبعين رجلا ولم يؤسر من المسلمين أحد ولم يستشهد سوى أربعة عشر رجلا، لا شك أن نصر هؤلاء هو النصر العزيز، والشاهدُ العدل على أن وعد الله حق، فقد تحقق لهم ما وعدهم الله عز وجل به على لسان رسوله ﷺ حيث بشرهم قبل المعركة بأنهم سيرجعون بالعير أو النفير كما قال عز وجل: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ أي واذكروا إذ يبشركم الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ بالظفر بعير قريش وما فيها من الأموال أو بالنصر على كفار قريش، وكنتم تريدون العير وما فيها لأنها تكون غنيمة بلا قتال، وهي أسهل من ملاقاة العدو الكثير العَدَد والعُدَد، قال الزجاج: وذاتُ الشوكة ذات السلاح

يقال: فلانٌ شاكٍ في السلاح وشائكٌ في السلاح وشاكٌّ في السلاح بتشديد الكاف من الشِّكَةِ، ومثل شاكي قول الشاعر:

فتوسموني إنني ذاكم   شاكٍ سلاحي في الحوادث مُعْلَمُ اهـ

وهذا البيت لطريف بن تميم العنبري، ويروى: فتعرفوني بدل قوله: فتوسموني وهو بمعناه، وقال ابن منظور في لسان العرب: والشوكة: شدة البأس والحدُّ في السلاح وقد شَاكَ الرجُلُ يَشَاكُ شَوكا أي ظهرت شوكته وحِدَّتُهُ فهو شائك السلاح، وشوكةُ القتال: شدة بأسه، وشوكة المقاتل: شدة بأسه وفي التنزيل العزيز: ﴿وتَوَدُّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ قيل معناه: حدة السلاح وقيل: شدة الكفاح، وفلان ذو شوكة أي ذو نكاية في العدو، وفي حديث أنس: قال لعمر رضي الله عنه حين قدم عليه بالهرمزان: تركتُ بعدى عدوا كثيرا وشوكةً شديدة أي قتالا شديدا وقوةً ظاهرةً، ومنه الحديث: «هلمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه» يعني الحج. اهـ وقوله عز وجل: ﴿ويريد الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماته﴾ قال ابن كثير رحمه الله: أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبا على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ أي ويستأصل شأفة صناديد كفار قريش كأبي جهل وشيبة بن ربيعة وأخيه عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف والأسود بن عبدالأسد المخزومي وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وغيرهم، وكانوا يؤذون رسول الله ﷺ والمؤمنين ويصدون عن سبيل الله، فأراح الله المسلمين من

شرورهم، وقـد أهلكهم الله عـز وجل وقـذف بـالحق على البـاطل فإذا هـو زاهق، وأعز الإسلام وأعلى رايته وأذل عبدة الأصنام وأخزاهم ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿لِيُحِقَّ الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ .

قـال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُـونَ رَبَّكُمْ فَـاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِـدُّكُمْ بِـأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِـهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْـدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيـزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَـةً مِنْهُ ويُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ويُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الـرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُـوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَـهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ *﴾

بعد أن ضرب الله عز وجل مثلا يغرس في قلوب المؤمنين أن الخير والعاقبة الحميدة هي في السمع والطـاعة لله ولرسـوله ﷺ وأن الإنسان قد يكـره شيئا وهو خير لـه، وقد يحب شيئا وهـو شرٌّ له كما حدث لفـريق من المؤمنين عند الخروج إلى بدر، وقد وعدهـم رسول الله ﷺ إحدى الطائفتين العير أو النفير فتمنى بعضهم أن يحصل لهم العير وكـرهوا النفير لأنهم لم يكـونـوا قد تأهبـوا لذلك، وأراد الله عز وجل لهم النفير، وجمعهم على غير ميعاد، فكانت عاقبة ذلك أحسن العواقب، وفـرحوا بنصر الله لهم أشد من فرحهم بما لـو حصلوا على العير، شرع عز وجل هنا يُـذكِّرُ المؤمنين بما كانوا عليه قبل مـلاقاة العدوِّ بعد أن أيقنـوا أنهم ملاقوه لا محالـة، وأنه لا ملجأ لهم إلا إلى الله، فاستغـاثوا ربهم أن يُمِدَّهم بنصر من عنـده، فاستجاب لهم ووعدهم على لسـان رسوله ﷺ أن يمـدهم بألف من الملائكـة مـردفين، وقـد أراهم عـز وجل آيـاتـه، وغشـاهم النعـاس أَمَنَـةً منـه، ونـزَّل عليهم من السماء مـاء ليطهـرهم بـه، ويـذهب عنهم رِجْزَ الشيطـان، وليربط على قلـوبهم، ويثبِّت به أقـدامهم حتى لا تسيخ في الأرض، وأن الله تبـارك وتعالى أوحى إلى الملائكة أنـه معهم

في تأييد المؤمنين، وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا وأخبرهم أنه سيلقي الرعب في قلوب الذين كفروا وحض الملائكة على ضرب أعناقهم وأن يضربوا منهم كل بنان، لأنهم شاقوا الله ورسوله فاستحقوا العقاب الشديد في العاجلة مع ما سيلقونه من عذاب جهنم في الآجلة، ليستحضر المؤمنون هذه الصورة البينة في ذاكرتهم، وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، وليستيقنوا بأن إعداد القوة للعدو وبذل أسبابها وإن كان مأمورا به ليس هو الجالب للنصر، لأن النصر من عند الله، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ذٰلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم إذ تستجيرون بربكم من عدوكم ليلة بدر وتدعونه للنصر عليهم فأجاب دعاءكم وأوحى إلى رسوله ﷺ ليبشركم بأن الله عز وجل مرسل إليكم مددًا وردءًا لكم بألف من الملائكة يُرْدِفُ بعضُهم بعضا ويتلو بعضهم بعضا ويجيئون متتابعين بعضُهم في إثر بعض. قال البخاري في كتاب المغازي من صحيحه من رواية كريمة: باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ، وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُم كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ *﴾ حدثنا أبو نُعَيْم حدثنا إسرائيل عن مُخَارِقٍ عن طارق بن شهاب

قال: سمعتُ ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مَشْهَدًا لأَنْ أكونَ صاحبَه أَحَبُّ إليَّ مما عُدِلَ به، أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنَّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسرَّه يعني قوله، حدثني محمد بنُ عبدالله بن حَوشَبٍ حدثنا عبدالوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللهم إن شئتَ لم تُعْبَدْ»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخرج وهو يقول: «سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّون الدبر» اهـ وقد كان رسول الله ﷺ قد أُعِدَّت له قُبَّة أي عريش فقام فيها يدعو الله عز وجل مستقبلا الكعبة، ويستغيثه تبارك وتعالى، كما روى أحمد واللفظ له ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث عكرمة بن عمار حدثنا سِماك الحنفي أبو زُمَيْل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يومُ بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: «اللهم أين ما وعدتني، اللهم أنجز ما وعدتني، اللهم إنك إن تُهْلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعْبَد في الأرض أبدًا» قال: فمازال يستغيث ربَّه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردَّه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك فإنه سيُنْجِزُ لك ما وعدك، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ *﴾ فلما كان يومئذ والتَقَوْا، فهزم الله عز وجل المشركين، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، الحديث. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذٌ برأس فرسه، عليه أداة

الحرب» كما جاء في لفظ لمسلم في صحيحه من طريق أبي زُميل (هو سِماك الحنفي) حدثني عبدالله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فَخَرَّ مستلقيا، فنظر فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجْهُهُ كضربة السَّوط، فاخضرَّ ذلك أجمعُ، فجاء الأنصاريُّ فحدث بذلك رسولَ ﷺ، فقال: «صدقتَ، ذلك من مدد السماء الثالثة». الحديث. فإن قيل: ما الحكمة في قتال الملائكة مع المسلمين يوم بدر مع أن جبريل وحده قادر على أن يُهلكَهُم بريشة من جناحه؟ فالجواب أن الملائكة كانوا على هيئة المدد مع إضافة أصل الفعل للنبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ليرجعوا بهذا الفضل العظيم والنصر المبين، على حد قوله تعالى: ﴿ذٰلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ والأمر كُلُّه لله وحده، ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم﴾ وقال في سورة آل عمران: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرَفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إذ يُغَشِّيكم النُّعاسَ أَمَنَةً منه﴾ أي اذكروا نعمة الله عليكم إذ يُلْقي عليكم النعاس أي النوم الخفيف أَمَانًا من الله لكم قد أَمَّنكم به ليَدْفَعَ عنكم الخوف من كثرة عدوكم المتهيئ لقتالكم وقلة عددكم وسلاحكم، وقد ألقى الله تبارك وتعالى النعاس على المسلمين في غزوة بدر وفي غزوة أحد كما قال عز وجل في سياق قصة غزوة أحد في سورة آل عمران: ﴿ثم أَنْزَلَ عليكم من بعد الغَمِّ أَمَنَةً نُعاسا يَغْشَى طائفةً منكم﴾ وقال هنا في قصة غزوة بدر: ﴿إذ يُغَشّيكم النعاسَ أمنة منه﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وكأنَّ

ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البـأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهـذا من فضل الله ورحمتـه بهم ونعمتـه عليهم وكما قـال تعـالى: ﴿فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا﴾ ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يـومَ بدر في العـريش مع الصِّدِّيق رضي الله عنـه، وهما يَدْعُـوَان أخذت رسولَ الله ﷺ سِنَـةٌ من النوم، ثم استيقظ مُتَبَسِّماً، فقال: «أبشر يا أبـا بكر، هذا جبريـل على ثناياه النقـع»، ثم خرج من بـاب العريش وهـو يتلو قـوله تعالى: ﴿سَيُهْـزَمُ الجَمْعُ ويُوَلُّـونَ الدُّبُـرَ﴾ اهـ وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿ويُنَزِّلُ عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويُـذْهِبَ عنكم رجز الشيطان وليربط على قلـوبكم ويثبت به الأقـدام﴾ هذه آيـة أخرى من آيـات الله التي مَنَّ بها على المؤمنين يـوم بـدر، وكـان هذا في ليلـة الجمعـة التي وقعت معـركـة بـدر في صبيحتهـا فقد أنـزل الله عـز وجل على المسلمين من السماء ماءً، شرب منـه المسلمـون، وتطهـروا وأذهب الله عنهم رجـز الشيطـان وتخذيلـه وتخويفـه للنفـوس، فطهرهم الله عـز وجل به ظـاهرًا وبـاطنا وثبَّتَ أقـدامهم وشجَّع قلوبهم، قـال ابن جرير: حـدثني هارون بن إسحاق ثنـا مصعب بن المقدام ثنا إسرائيل ثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي بن أبي طالب قال: أصابنا من الليل طش من المطـر - يعني الليلـة التي كـانت في صبيحتها وقعـة بـدر - فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ - يعني قـائما يصلي - وحرض على القتـال. اهـ قـال في القامـوس: الطشُّ والطَّشِيشُ المطر الضعيف وهـو فوق الـرذاذ، وقال الجوهـري في الصحاح: يقـال للترس إذا كـان من جلود ليس فيـه خشب ولا عقبٌ: حجفـةٌ ودرقـةٌ والجمع حَجَفٌ. اهـ وقوله تعـالى: ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكـة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفـروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورَسوله ومن يشاقق الله ورسوله

فإن الله شديد العقاب * ذٰلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار*﴾ بيان لما أمر الله عـز وجل به ملائكتـه من تأييد المؤمنين حيث أعلمهم عـز وجل أنه معهم بنصره وتأييـده وحيث أوصـاهم أن يُقَـوُّوا عـزم المؤمنين وأخبرهم أنـه سَيُرْعب قلوب الكـافرين و يملـؤها خـوفا وجزعـا وهلعا وأمـرهم أن يضربوا رءوس المشركين وأعنـاقهم وأن يضربوا منهم كـل طرف ومَفْصِلٍ من أطـراف أصابع أيديهم وأرجلهم جزاءً لهم بسبب أنهم حاربـوا الله ورسوله وعصوا أمر الله وأمـر رسولـه ﷺ ومن يعص الله ورسـولـه ﷺ فإن الله عز وجـل يعاقبـه عقـابا شـديـدا، ذلكم العذاب الـذي عجلتـه لكم أيها الكفـار فذوقـوه في العاجلة وأيقنوا أنكم صائرون إلى جهنم في الآجلة .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ * فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ المُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكَافِرِينَ * إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ وَإِن تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ المُؤْمِنِينَ *﴾.

بعد أنْ ذكَّر الله تبارك وتعالى المؤمنين بما كانوا عليه من الحال قبل ملاقاة عدوهم يوم بدر بعد أن أيقنوا أنهم ملاقوه لا محالة، وأنهم استغاثوا ربهم أن يُمِدَّهم بنصر من عنده فاستجاب لهم ووعدهم على لسان رسوله ﷺ أن يمدهم بألف من الملائكة مردفين، وقد أراهم عز وجل آياته، وغشاهم النعاس أمنة منه، ونزَّل عليهم من السماء ماء ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجز الشيطان، وليربط على قلوبهم ويثبت به أقدامهم حتى لا تسيخ في الأرض، وأن الله تبارك وتعالى أوحى إلى الملائكة وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا، وأخبرهم أنه سيلقي الرعب في قلوب الذين كفروا، وحضَّ الملائكة على ضرب أعناقهم وأن يضربوا منهم كلَّ بَنَان، جزاء لهم على مشاقتهم لله ولرسوله ﷺ مُعَجَّلاً لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، شرع هنا في تحريض المؤمنين على الثبات والصبر عند لقاء عدوهم، ونهاهم عن الفرار يوم الزحف وحذرهم أشد التحذير من ذلك وتوعد من يفر يوم الزحف بأنه قد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير إلا من كان متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة من المسلمين المجاهدين، وأكد لهم أنه عز وجل هو الذي ينصر عباده المؤمنين، وضرب لهم مثلا بما وقع لهم في معركة بدر ليكون ماثلا

أمام أعينهم حيث تأكدوا أن الله عز وجـل هو الذي قتل أعداءهم، وانتصر للمسلمين، وإنما الأمـر بقتـال أعـداء الله لابتـلاء المسلمين ليرفع درجـاتهم عنده، كما قـال عز وجل في سورة القتال: ﴿فإذا لقيتم الـذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوَثاق فإما مَنًّا بعدُ وإما فداءً حتى تضعَ الحربُ أوزارهـا، ذٰلك ولـو يشـاء الله لانتصر منهم ولٰكن ليبلـو بعضكم ببعض، والـذين قُتِلُـوا في سبيل الله فلن يُضِلَّ أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عَرَّفَها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم *﴾ ثم وعـد عز وجل المؤمنين بأنـه مُوهِنُ كيد أعـدائهم وأنَّبَ المشركين على غرورهم واستمرارهم في ضلالهم، ودعاهـم إلى الاستجابة لله ولـرسـوله ﷺ حتى يسعـدوا بـالله عـز وجل الـذي يؤيـد المؤمنين ويشـد عضدهم، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولُّوهم الأدبار *﴾ إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جـاءكم الفتح وإن تنتهـوا فهـو خير لكم وإن تعـودوا نعـد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولـو كثرت وأن الله مع المؤمنين *﴾ ومعنى قوله عـز وجل: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا إذا لقيتم الـذين كفروا زحفـا فلا تُوَلُّـوهُم الأدبار﴾ قـال ابن جرير رحمه الله: قـال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره: يا أيها الـذين صدقوا الله ورسولـه ﴿إذا لقيتم الـذين كفـروا﴾ في القتـال ﴿زحفا﴾ يقـول: متـزاحفـا بعضكم إلى بعض، والتـزاحف: التداني والتقـارب ﴿فلا تـولُّوهم الأدبـار﴾ يقول: فـلا تولـوهم ظهوركم فتنهـزموا عنهم، ولكن اثبتـوا لهم فإن الله تعالى معكم. اهـ فقولـه تبارك وتعالى: ﴿فلا تولوهم الأدبـار﴾ كناية عن انهزامهم لأن المنهزم يُحَوِّلُ ظهره إلى جهة محاربه هربا إلى ملجـأ وموئل يفر إليه منه خوفا على نفسه، ويتبعـه محاربه في أثره، فَـدُبُرُ المطلـوب حينئذ يكون محاذيًـا وجه طالبـه، ولا شك أن هذا التعبير غايـة في تبشيع الفرار يـوم الزحف والتشنيع

على من يفر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يُوَلِّهِمْ يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ وعيد شديد لمن يفر يوم الزحف بأنه قد عرَّض نفسه لغضب الله وسخطه وصيرورته إلى جهنم إلا أن يكون فراره لسبب من سببين أحدهما أن يكون فراره مكيدة يكيد بها عدوه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه عدوه يحسب أنه هاربٌ منه فَيَكِرُّ عليه ويقتله، فَقَصْدُهُ من فراره طَلَبُ الغِرَّةِ ثم الكَرَّة، والسبب الثاني أن يكون فراره من عدوه لينضم إلى جماعة من المؤمنين ليستعين بهم أو يعينهم على قتال عدوهم. وهذا الوعيد الذي ذكره الله عز وجل في هذا المقام يؤكد أن الفرار يوم الزحف من الكبائر، وقد عدَّه رسول الله ﷺ في السبع الموبقات، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». وقوله عز وجل: ﴿فلم تقتلوهم ولّكن الله قتلهم، ومَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ وَلَّكِنَّ اللهَ رَمَى، وَلِيُبْلِيَ المؤمنين منه بلاء حَسَنًا، إن الله سميع عليم﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يُبَيِّنُ تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم، ولهذا قال: ﴿فلم تقتلوهم ولّكنَّ الله قتلهم﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي بل هو الذي أظفركم عليهم، كما قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْنِ عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم وليتم مدبرين﴾ يُعْلِمُ تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العَدَد، ولا

بلبس اللأمة والعُدَد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها قال: «شاهت الوجوه»، ثم أمر أصحابه أن يَصدُقُوا الحملة إثرها، ففعلوا، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ أي هو الذي بلَّغ ذلك إليهم وَكَبَتَهم بها لا أنت. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: ربِّ إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا، فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تُراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَلِيُبْلِيَ المؤْمِنِينَ منه بلاء حسنا، إن الله سميع عليم * ﴾ أي وليعرِّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا نعمته، وليمحص الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء ويرفع درجاتهم في جنات النعيم، مع ما قد يمنحهم من النصر فإن المجاهد في سبيل الله يفوز بإحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذٰلكم وأن الله مُوهِنُ كيد الكافرين*﴾ قال ابن كثير رحمه الله: هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أَعْلَمَهُمْ أنه مضعف كيد الكافرين فيما يُسْتَقْبَلُ، مصغر أمرهم وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة. اهـ وقوله عز وجل: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هذا تقريع للمشركين حيث كانوا يطلبون من الله النصر والفتح لأحب الفريقين إليه يوم بدر، فرأوا بأعينهم نصر الله

للمـؤمنين وإعـزازهم ودحـر المشركين وإذلالهم، أي إن تستنصروا الله لأحب الفريقين إليه فقد جاء النصر لأحب الفـريقين إليه، قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد يعني ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق حدثني الزهري عن عبدالله بن ثعلبـة (يعني ابن صُعَير) أن أبـا جهل قال حين التقى القـوم: اللهم أقطعنـا للرحم وآتانا بما لا نعرف فَأَحِنْهُ الغداة. فكان المستفتح. وقال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: حـدثني المثنى قال حدثنا أبو صـالح قال: حدثني الليث قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني عبدالله بن ثعلبة بن صُعَيْر العـدوى حليف بني زهرة، أن المستفتح يـومئذ أبـو جهل، وأنه قـال حين التقى القوم: أَيُّنَا أقطع للرحم، وآتانـا بما لا يُعْرَفُ فأَحِنْهُ الغداة، فكان ذلك استفتـاحه، فأنـزل الله في ذلك: ﴿إن تستفتحـوا فقد جـاءكم الفتح﴾ الآية، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿وإن تنتهوا فهـو خير لكم﴾ أي وإن تتركوا أيها الكافرون ما أنتم عليه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله محمد ﷺ وتدخلوا في زمرة المؤمنين فهـو خير لكم في عاجلتكم وآجلتكم، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وإن تعودوا نَعُدْ﴾ أي وإن تستمروا على كفركم بـالله ورسوله نعد بمثل هذه الـواقعة عليكم ونـؤيد رسـولنا والمؤمنين كما أيـدناهم في بـدر، ونُدِمْ عـزهم ونصرهـم، وقـد نبهت في تفسير الآيـة الخامسة والتسعين من سـورة المائدة في قوله عز وجل: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ إلى أن لفظ «عاد» قد يأتي بمعنى استمـر ومنه قـوله عـز وجل: ﴿قل للذين كفـروا إن ينتهوا يغفـر لهم ما قـد سلف وإن يعـودوا فقد مضت سنَّـةُ الأولين﴾ أي وإن يستمروا على كفـرهم فقد عرفوا ما أوقع الله تبارك وتعالى بالأمم الماضية، فالعَوْدُ يستعمل في الرجوع إلى الشيء كما يستعمل في الاستمرار على الشيء والمضيّ فيه، وقوله عز وجل: ﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئـا ولو كَثُرَتْ﴾ أي ولن تفيدكم جموعكم وكثـرة عـددكم وعُدَدِكم شيئـا مهما جمعتم من الجمـوع وأعددتم من السـلاح، فإن

دولتكم إلى زوال، وجموعكم إلى اضمحلال. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ أي وأن الله مع المؤمنين بنصره وتوفيقه وتأييده، ومن كان الله عز وجل معه فلا غالب له، كما قال عز وجل: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ وقد كتب الله عز وجل نصر من نصره وإعزاز حزبه المؤمنين حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، إن الله قوي عزيز﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *﴾

بعد أن حرَّض الله تبارك وتعالى المؤمنين على الثبات والصبر عند لقاء عدوهم، ونهاهم عن الفرار يوم الزحف، وحذرهم أشد التحذير من ذلك وأكد لهم تبارك وتعالى أنه هو الذي ينصر عباده المؤمنين، وضرب لهم مثلا بما وقع لهم في معركة بدر، وأنه إنما أمر المؤمنين بقتال أعداء الله لابتلاء المسلمين ورفع درجاتهم عنده، ووعد المؤمنين بأنه مُوهِنُ كيد الكافرين، وأنَّب المشركين على غرورهم واستمرارهم في ضلالهم، ودعاهم إلى الاستجابة لله ولرسوله حتى يسعدوا بالله عز وجل الذي يؤيد المؤمنين ويشد عضدهم، شرع هنا في توجيه المؤمنين إلى الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وتحذيرهم أشد التحذير من أن يغتروا بما قدَّموا من خير فيتكاسلوا في امتثال أوامر الله أو أوامر رسوله ﷺ، ويصيروا مثل الكفرة الذين يقولون: سمعنا وعصينا، فإن هؤلاء هم شر الدواب عند الله، ولا يليق بمن عرف الله عز وجل أن يتشبه بهم؛ لأنهم لا ينقادون لحق ولا يدلون على خير، قد انطمست بصائرهم، وانسدت مسامعهم وتعطلت آلات الإدراك عندهم، لأن الله تبارك وتعالى قد عاقبهم بمعاصيهم فخذلهم، فأصم آذانهم وأبكم ألسنتهم وأعمى أبصارهم، لما علمه من استغراقهم في الشر، ومعاداتهم للخير، ثم نبه المؤمنين إلى أن الاستجابة لله ولرسوله ﷺ هي أهم أسباب الحياة الطيبة في

الدنيا والآخرة، ولفت انتباههم مرة أخرى إلى الحذر من الغفلة والاغترار مبينا لهم أن قلوبهم بيد الله يحركها كيف يشاء وأن المعاصي سبب للحرمان من الخير، ولا سيما إذا أُعْلِنَتْ دون رادع لها أو ناهٍ عنها فإنها حينئذ تجلب البلاء والعقوبة التي تعم مرتكبها وغير مرتكبها ممن لم ينه عنها، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون* ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب* ﴾ ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولَّوا عنه وأنتم تسمعون* ﴾ أي يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله احرصوا على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وبادروا إلى امتثال ما يأمركم به الله ورسوله ﷺ واحذروا من الوقوع في المعاصي وإياكم والإعراض عن رسول الله ﷺ والإدبار عن هديه ومخالفة أمره أو نهيه إذا سمعتم أمره أو نهيه كما قال عز وجل: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم * ﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ تحذير شديد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ بالتنبيه على أن مخالفة رسول الله ﷺ قد تسلك بالمخالفين مسلك الكافرين، قال ابن جرير رحمه الله: القول في تأويل قوله: ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون* ﴾ قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة رسول الله ﷺ كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا ﴿قد سمعنا﴾ بآذاننا ﴿وهم لا يسمعون﴾ يقول: وهم لا يعتبرون ما يسمعون بآذانهم ولا ينتفعون به، لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعُوه قلوبهم ويتدبروه، فجعلهم الله إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن - وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم - بمنزلة من لم يسمعها، يقول جل ثناؤه لأصحاب رسول الله ﷺ: لا تكونوا أنتم في

الإعراض عن أمر رسول الله، وترك الانتهاء إليه وأنتم تسمعونه بآذانكم، كهؤلاء المشركين الذين يسمعون مواعظ كتاب الله بآذانهم، ويقولون: ﴿قد سمعنا﴾ وهم عن الاستماع لها، والاتعاظ بها معرضون كمن لا يسمعها. اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن شر الدوابِّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ هذه غاية قصوى في تنفير المؤمنين من مشابهة المشركين المعرضين عن أوامر الله وأوامر رسوله محمد ﷺ حيث وصفهم الله عز وجل بأنهم شر الدواب وأنهم الصم البكم الذين لا يعقلون، أي إن شر ما دبَّ على الأرض من البريَّة عند الله عز وجل هم الصُّمُّ عن الخير البكم الذين لا يقولون الحق المحرومون من الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح، ولذلك شبههم الله بالأنعام ووصفهم بأنهم أضل من البهائم حيث قال عز وجل: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِقُ بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يعقلون*﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولَئك كالأنعام بل هم أضل أولَئك هم الغافلون* ﴾ وقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن يوسف حدثنا ورقاء عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿إن شر الدَّوَابِّ عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ﴾ قال: هم نَفَرٌ من بني عبدالدار. اهـ وقد كان بنو عبدالدار هم أصحاب لواء المشركين يوم بدر ويوم أحد، وقد قتل الله تبارك وتعالى صناديد بني عبدالدار من المشركين بأحد، ولم يدخل في الإسلام منهم غير مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة، وقد كان هؤلاء النفر المشركون من بني عبدالدار يتباهون ويقولون: نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد، ولا شك في صحة خبر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما الذي رواه البخاري في هذه الآية، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهي تشمل كلَّ من أعرض عن رسول الله ﷺ،

وتنظمهم في سلك الصم البكم الذين لا يعقلون . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم، ولو أسمعهم لَتوَلَّوْا وهم معرضون﴾ أي ولو علم الله منهم صدق النية في طلب الحق لأعانهم وسددهم وهداهم ووفقهم للخير حتى يصل إلى قلوبهم، ولكنه عز وجل عَلِمَ خُبْثَ نفوسِهم وفساد نياتهم ومقاصدهم وشدة عنادهم فلذلك خذلهم فمهما سمعوا من الذكر فلن يصدقوا، ومهما رأوا من الحجج والبراهين فلن ينتفعوا بها، وقال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر فتأويل الآية إذًا : ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبَرَه، حتى يعقلوا عن الله عز وجل حُجَجَه منه، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم، وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لَتَوَلَّوْا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان بما دلَّهم على صحته مواعظُ الله وعِبَرُهُ وحُجَجُهُ، معاندون للحق بعد العلم به . اهـ وقوله تبارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يَحُولُ بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ ترغيب في الوقوف عند حدود الله والاعتصام بحبل الله والعض على سنة رسول الله ﷺ بالنواجذ، وترهيب شديد عن الإعراض وعدم الاستجابة لله ولرسوله ﷺ، وتقرير لفقه الإسلام وأن الله عز وجل قد بعث رسوله ﷺ بالدين الذي لا حياة للنفوس والقلوب إلا به فأهل الإسلام المتمسكون به هم الأحياء حقا، أما الكافرون المعرضون عن هذا الدين فهم الأموات وإن تحركت أجسامهم وتقلبوا في البلاد شرقا وغربا، كما قال عز وجل : ﴿أَوَ من كان مَيْتًا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه الآية تدل على وجوب المسارعة إلى رسول الله ﷺ مهما كان عليه المدْعُوُّ من الأحوال فقد روى البخاري من حديث أبي سعيد بن المُعَلَّى رضي الله عنه

قـال : كنت أصلي فَمَـرَّ بي رسولُ الله ﷺ فـدعـاني فلم آتِـهِ حتى صليتُ ثم أتيتـه فقـال : «مـا منعك أن تأتينـي ؟ ألم يقل الله : ﴿يـا أيها الـذيـن آمنـوا استجيبوا لله وللـرسول إذا دعـاكم﴾ ؟» ثم قال : «لأعلمنك أعظـم سورة في القرآن قبل أن أخرج» الحديث، وقد سقته بتمامه في تفسير سورة الفاتحة وقوله عز وجل : ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ تحذيـر شديد من ارتكاب أسباب سخط الله ؛ لأن المعصية قد تكون سببا في سلب الإيمان، فعلى العبد المؤمن أن يديم الضراعة لله عز وجـل ليثبته على الإيمان، لأن الله عز وجل قد يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع الثبـات على الإيمان إلا بتوفيق الله وتثبيته كما قال عز وجل : ﴿يثبت الله الذين آمنوا بـالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضـل الله الظالمين، ويفعل الله مـا يشاء﴾ قـال البخاري رحمه الله : بابٌ ﴿يَحُولُ بين المرء وقلبه﴾ حدثنا محمد بن مقاتل أبو الحسن أخبرنا عبدالله أخبرنا موسى بن عقبة عن سالم عـن عبدالله قال : كثيرا مما كان النبي يحلف : «لا ومُقَلِّبِ القلوب». كما أخـرج مسلم في صحيحه من حـديث عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إن قلوب بني آدم كلَّها بين إصبعين من أصابع الـرحمن كقلبٍ واحدٍ يُصَرِّفه حيث يشاء، ثم قـال رسول الله ﷺ : « اللهم مُصَرِّفَ القلـوبِ صَرِّفْ قلوبنـا على طـاعتك» وقال الإمـام أحمد : حـدثنا أبـو معاويـة عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مـالك رضي الله عنه قـال : كان النبي ﷺ يُكثـر أن يقول : « يـا مقلب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك» قال : فقلنا : يا رسـول الله آمنا بك وبما جئتَ به فهل تخاف علينا ؟ قال : «نعم، إن القلوب بين إصبعين مـن أصابع الله تعالى يقلبها». وأخرجه البغوي في تفسيره بسند الإمام أحمد وفي آخره : «يقلبها كيف يشاء». وفي قوله عز وجل : ﴿وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبن الـذين ظلموا منكم خاصـة﴾ الآية تحذير للذيـن لا يستجيبون لله ولرسولـه ﷺ من عذاب

الآجلة والعاجلة وفيه كذلك تحذير للذين لا ينهون الناس عن المنكر، فإن المعصية إذا ظهرت ولم تنكر عمت عقوبتها من باشر ومن لم يباشر ما دام لم ينكرها. فقد روى البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خَرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا».

قــال تعـــالـــى : ﴿وَاذْكُـرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيـــلٌ مُسْتَضْعَفُـونَ فِى الأَرْضِ تَخَافُــونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَـآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُـوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَـةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ *﴾

بعد أن وجَّـه الله تبارك وتعـالى المؤمنين إلى الحرص على طاعـة الله وطاعـة رسـوله ﷺ وحـذَّرهم من أن يغتروا بما قـدَّموا من خير فيتكـاسلوا في امتثـال الأوامر واجتناب الـزواجر، ويصيروا كالذين قالوا سمعنـا وعصينا الذين هم شر الـدواب عند الله، ولا يليق بمن عـرف الله عز وجل أن يتشبـه بهم، لأن الله تبـارك وتعـالى قـد خـذلهم، فأصمهـم وأعمى أبصـارهم، فـانطمست بصائرهم، ونَبَّـه المؤمنين إلى أن الاستجابة لله ولـرسولـه ﷺ هي أهم أسباب الحيـاة الطيبة في الـدنيـا والآخرة، وأكّـد تحذيـرهم من الاغترار، وبيَّن لهم أن قلوب العبـاد بيد الله يُصرفهـا كيف يشاء حيث يحول بين المرء وقلبـه، ولَفَتَ انتبـاههم إلى أن المعاصي تجلب عقـوبـة العاجلـة والآجلة، وأن المعصيـة إذا ظهرت في الناس دون ناهٍ عنهـا أو رادع لها عمت عقوبتها من ارتكبها ومن لم يرتكبها مـا دام لم ينه عنها، ولم يُحَذِّرْ منها، شرع هنـا في تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث بـدَّل خـوفهم أمنـا وآواهـم وأيـدهـم بنصره ورزقهم من الطيبات، وحذّرهـم أشد التحذير من أن يخونوا الله أو يخونوا الرسول ﷺ، أو أن يخونوا الأمانات التي تكون بينهم، وأعلمهم أن الدنيا عرض زائل، وأَنَّ ما مَنَّ الله عز وجل به عليهم من الأمـوال والأولاد هو اختبار لهم، فلا يليق بهم أن يقدمـوا حب أموالهم أو أولادهم على حب الله ورسـوله ﷺ، وبشَّرهم بأن

تقوى الله تسبب لصاحبها النصر والنجاة، وتفريج الكربات، وسعادة الدنيا والآخرة، وتكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم ورغد عيشهم، وفي ذلك يقول: ﴿واذكروا إذْ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم﴾ وقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا تذكيرٌ من الله عز وجل أصحابَ رسول الله ﷺ ومناصحةٌ، يقول: أطيعوا الله ورسوله أيها المؤمنون، واستجيبوا له إذا دعاكم لما يحييكم، ولا تخالفوا أمرهُ و إن أمركم بما فيه عليكم المشقة والشدة، فإن الله يُهَوِّنُه عليكم بطاعتكم إياه، ويُعَجِّل لكم منه ما تحبون، كما فعل بكم إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليل يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم، تخافون منهم أن يَتَخَطَّفُوكُمْ فيقتلوكم ويصطلموا جميعكم، ﴿فآواكم﴾ يقول: فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم، ﴿وأيَّدكم بنصره﴾ يقول: وقوَّاكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم مَن قتلتم ببدر ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ يقول: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبا ﴿لعلكم تشكرون﴾ يقول: لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم. اهـ وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال قتادة بنُ دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ قال: كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس ذُلاًّ، وأشقاه عيشا وأجوعه بطونا، وأعراه جلودا، وأبينه ضلالا، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم رُدِّي في النار يُؤْكَلُونَ ولا يأكلون،

والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشَرَّ منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فَمَكَّنَ به في البلاد، وَوَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللهُ ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهلُ الشكر في مزيد من الله . اهـ

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ تحريض على النصح لله ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم وتحذير من تضييع حقوق الله التي أنزلها في كتابه أو تضييع أوامر رسول الله ﷺ التي بيَّنها في سنته أو تضييع حقوق العباد وودائعهم التي يأتمن بعضهم بعضا عليها، وقد عدَّ رسول الله ﷺ خيانة الأمانة من علامات النفاق فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان»، وقولهُ عز وجل: ﴿واعلموا أنَّما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم﴾ تحذير من أن يحمل حبُّ الإنسان للمال أو للولد على الخيانة لله أو لرسوله ﷺ أو للمؤمنين، فإن المال ظل زائل وعارية مستردة ومن عَصَى الله من أجل ولده يوشك أن يعاقبه الله عز وجل به ويحرمه من منافعه في الدنيا والآخرة، ومن راعى الأمانة فيما خوله الله عز وجل وتفضل عليه به من الأموال والأولاد فإن له الأجر العظيم عند الله عز وجل، فلا ينبغي للعاقل أن يحمله حبه للمال والأولاد على الخيانة، بل عليه أن يوقن أن المال والولد قد جعله الله عز وجل فتنة واختبارًا في الدنيا وربما يكون الولد قد امتلأً قلبه بالعداوة لأبيه وهو لا يدري ولا يشعر كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرًا

لأنفسكم، ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولَئك هم المفلحون * ﴾ وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُمْ أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذْلك فأولَئك هم الخاسرون * ﴾ وقد نبه الله تبارك وتعالى المؤمنين إلى أنه لا ينبغي لهم أن يغتروا بزينة الحياة عن طلب الباقيات الصالحات حيث يقول عز وجل: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرٌ أملا * ﴾ كما أشار تبارك وتعالى إلى أنه يبتلي عباده بالخير والشر امتحانا واختبارا حيث يقول عز وجل: ﴿كلُّ نفس ذائقة الموت، ونبْلوكم بالشر والخير فتنةً وإلينا تُرْجَعُونَ * ﴾ ولا شك أن هذا الأسلوب في التربية والتعليم وغرس محبة الله ومحبة رسوله ﷺ في النفوس وتربية ملكة الحفاظ على الأمانات لدى أفراد الأمة الإسلامية هو أهم دعائم المجتمع الصالح السعيد، وأعظم أسباب الأمن والاستقرار، ولن يؤمن أحد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»، وقد أكد الله تبارك وتعالى على ذلك في كتابه الكريم حيث يقول: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين * ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم * ﴾ بشارة للمؤمنين المتقين بأن الله تبارك وتعالى جاعلٌ لهم بسبب تقواهم نورا في دنياهم يفرقون به بين الحق والباطل، ويهتدون به إلى

الصراط المستقيم ونجاة ونصرا ومخرجا من كل كرب، ووعدهم بتكفير سيئاتهم ومغفرة ذنوبهم من فضله وجوده وإحسانه وهو تبارك وتعالى صاحب الفضل العظيم، كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم، والله غفور رحيم* لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأنَّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم *﴾ فمن اتقى الله تبارك وتعالى فخافه في السر والعلن والغيب والشهادة وفعل أوامره واجتنب زواجره جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ويسَّر له الحياة الطيبة كما قال عز وجل: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغُ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا * ذٰلك أمر الله أنزله إليكم، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِمْ له أجرا *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدَّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان*﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إن للمتقين مفازا * حدائق وأعنابا * وكواعب أترابا * وكأسا دِهاقا *﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى *﴾.

قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، ويَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ * ﴾.

بعد أن ذكَّر الله عز وجل المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث بدَّل خوفهم أمنا، وأيدهم بنصره، وآواهم إلى طيبة الطيبة، ورزقهم من الطيبات، وحذرهم أشد التحذير من خيانة الله ورسوله ﷺ وخيانة الأمانات عامة، ونبههم إلى أن ما مَنَّ به عليهم من الأموال والأولاد هو اختبار لهم فلا يليق بهم أن يقدموا حب أموالهم وأولادهم على حب الله ورسوله ﷺ، وبشرهم بأن تقوى الله عز وجل تسبب لصاحبها النصر والنجاة وتفريج الكربات وتكفير السيئات، وتجلب رغد العيش وسعادة الدارين، شرع هنا في تذكير المؤمنين بنعمته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين إذ نَجَّى رسول الله ﷺ من مكر كفار قريش وتدبيرهم لقتل رسول الله ﷺ أو حبسه أو نفيه، ولا شك أن هذه النعمة تعم رسولَ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة، وفي هذا التذكير بهذه النعمة العظيمة يقول الله عز وجل : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ والمراد بالذين كفروا هنا هم كفار قريش الذين اجتمعوا وتشاوروا في دار الندوة بمكة للقضاء على رسول الله ﷺ، وكان كفار قريش قد أصابهم الرعب والانزعاج عندما تمت بيعة الأنصار الثانية لرسول الله ﷺ عند العقبة، وظهر الإسلام بالمدينة المنورة، وأذن رسول الله ﷺ لبعض المؤمنين بالهجرة إلى المدينة، وأيقن كفار قريش أن محمدا ﷺ قد صار له أنصار وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من مكة إلى المدينة وعرفوا أنهم نزلوا دارا يحب أهلُها من هاجر إليهم وقد صارت لهم بها مَنَعَةٌ، وأيقنوا أن رسول الله ﷺ سيلحق بأصحابه رضي الله عنهم، فاجتمع

أشراف قريش في دار الندوة بمكة ليتشاوروا ويأتمروا في أمر رسول الله ﷺ، وماذا يصنعون به؟ وكانت دار الندوة لقصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمرا ذا شأن إلا بها، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وَهَلِي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب»، كما روى البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال - وهو يومئذ بمكة - للمسلمين: «إني أُرِيتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين»، قالت: فهاجر مَن هاجر قِبَلَ المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسلِكَ، فإني أرجو أن يُؤْذَنَ لي»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه. اهـ وقد كان في أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وبلال وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وعمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، وأبو سلمة بن عبدالأسد المخزومي رضي الله عنهم، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق أبي إسحاق سمع البراء رضي الله عنه قال: أَوَّلُ من قدم علينا مصعب ابن عمير وابن أم مكتوم، ثم قدم علينا عمار بن ياسر وبلال رضي الله عنهم، وفي رواية للبخاري من طريق أبي إسحاق: سمعت البراء رضي الله عنه قال: أَوَّلُ من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، فكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ. اهـ ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم، فلما رأت قريش خروج أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وأيقنوا

أنـه ﷺ سيلحق بأصحـابــه رضي الله عنهم، اجتمع أشراف قـريش في دار الندوة للبحث عن وسيلـة يتمكنون بها من القضاء على رسـول الله ﷺ، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجزري أن مقسما مولى ابن عباس أخبره عن ابن عباس في قـوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفـروا ليثبتوك﴾ قال: تشـاورت قريش ليلة بمكـة فقال بعضهم: إذا أصبح فأوثقوه بالـوثاق يريدون النبي ﷺ، وقـال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخـرجـوه، فأطلع الله نبيـه على ذلك، فبـات عليٌّ على فـراش النبي ﷺ تلك الليلـة، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بـالغار، وبـات المشركون يحرسون عليـا يحسبونه النبـي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا عليـه، فلما رأوا عليا ردَّ الله عليهم مكرهم، فقـالوا: أين صـاحبك هذا؟ فقال: لا أدري، فـاقْتَفَوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعَّدوا في الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هٰهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابـه، فمكث فيه ثلاث ليـال. قال ابن كثير رحمه الله في السيرة النبـوية بعد سياق هذا الحديث: وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله رسـوله ﷺ. اهـ وكذلك حسَّن الحافظ ابن حجر إسنـاد هذا الحديث، وقد جعل الله تبـارك وتعالى في هجرة رسـول الله ﷺ آيات بينات، فقد روى البخـاري ومسلم والترمذي من حـديث أنس بن مالك رضي الله عنـه قال: قـال أبو بكـر: نظرت إلى أقـدام المشركين ونحن في الغار على رءوسنا، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قـدميه أبصرنـا تحت قـدميـه. فقال: «يـا أبـا بكر مـا ظنُّك بـاثنين الله ثَالِثُهُمَا؟» اهــ وكان رسول الله ﷺ قد تـوجه قبل خروجـه من مكة إلى دار أبي بكـر رضي الله عنه، واصطحبـه معـه إلى غـار ثور، فقـد روى البخـاري من طريق ابن شهاب قال: قال عروة: قـالت عائشة رضي الله عنها: فبينا نحن

يوما جلوسٌ في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فِدًى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأُذِن له، فدخل، فقال النبي ﷺ: «أَخْرِجْ مَنْ عندك»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلُك بأبي أنت يا رسول الله قال: «فإني قد أُذن لي في الخروج»، قال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ - بأبي أنت يا رسول الله - إحدى راحلتَيَّ هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثَّمن»، قالت: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز، ووضعنا لهما سُفْرَةً في جِراب، قطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، قال: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال. الحديث. وفي اختيار غار ثور للاكتنان من المشركين سياسة نبوية، إذ أن أول ما ينصرف وَهَلُ المشركين للبحث عن رسول الله ﷺ هو طلبه في شمال مكة لا في جنوبها، ليقينهم أنه إذا خرج من مكة فستكون وجْهَتُهُ المدينة، وغار ثور يقع في جنوبي مكة، على طريق المسافر إلى اليمن، وقد نَصَّ الله تبارك وتعالى على صحبة أبي بكر رضي الله عنه لرسوله وحبيبه محمد ﷺ، وأشار إلى قول رسول الله ﷺ لأبي بكر وهو معه في الغار: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» حيث يقول: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم * ﴾ قال الإمام البغوي في تفسير هذه الآية: قال الحسين بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نص القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعا لا كافرا. اهـ ومعنى

قولـه عز وجل : ﴿وإذ يمكـر بك الذيـن كفروا﴾ أي وإذ يكيد لـك مشركو قريش ويـدبرون للقضاء عليك ويبـذلون مـا يقدرون عليه ضـدك من المكر السيىء، ومعنى قـولـه عـز وجـل : ﴿لِيُثْبِتُـوكَ﴾ أي ليـوثقـوك ويحبسـوك ويسجنوك ، ومعنى قوله عـز وجل : ﴿أو يخرجوك﴾ أي أو لينفوك من مكة . ومعنى قـولـه عـز وجل : ﴿ويمكـرون ويمكـر الله والله خير الماكـرين﴾ أي ويدبرون تدبيرهم السيىء والله يدبر لإعزازك وإذلالهم ، والله تبارك وتعالى خير المدبِّرين ، وكيـده هو الكيد المتين ، وقـد حاق بـالمشركين مكرهم السيىء كما قـال عز وجل : ﴿ولا يحيق المكـر السيىء إلا بأهلـه﴾ وكما قال عـز وجل في قصة تآمر قوم صالح عليه : ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون * قالوا تقـاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلـه ثم لنقولن لوليه مـا شهدنا مهلك أهله وإنـا لصادقون * ومكروا مكـرا ومكرنـا مكرا وهـم لا يشعرون * فانظـر كيف كان عـاقبة مكرهم أنَّـا دمرنـاهم وقومهم أجمعين﴾ وقـد جاء في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه من حـديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه : «رب أعني ولا تُعِنْ عليَّ ، وانصرني ولا تنصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ» . الحديث .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ، إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلا المُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إِلا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً، فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ *﴾.

بعد أن ذَكَّر الله عز وجل المؤمنين بنعمته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين إذْ نجَّى رسولَ الله ﷺ من كيد كفار قريش ومكرهم السيِّئ وتدبيرهم لقتل رسول الله ﷺ أو حبسه أو نفيه وسلَّمه حتى تمكن من الهجرة إلى المدينة المنورة، وهي نعمة تَعُمُّ رسولَ الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة، شَرَعَ هنا في توبيخ كفار قريش والتنديد بعتوهم وعنادهم وافترائهم وسفاهة عقولهم وتحجر أفئدتهم، وغرورهم، حيث زعم بعض رؤسائهم أنه يستطيع أن يقول كلاما مثل هذا القرآن، وَوَصَفَ القرآنَ بأنه أساطير الأولين، مع أنهم موقنون في قرارة نفوسهم أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فقد تحداهم الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ولم يُؤْثَرْ أن واحدا منهم حاول ذلك ألبتة، كما بيَّن عز وجل هنا صورا من آرائهم المنتكسة وأعمالهم المرتكسة حيث كانوا يقولون: ﴿اللهم إن كان هٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ولو كان لديهم أدنى مسكة من عقل لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا للإيمان به والاستجابة للرسول ﷺ، لكنهم لانتكاس عقولهم ورجس أنفسهم وشدة بغضهم لرسول الله ﷺ

فضَّلـوا أن يُمْطِرَ اللهُ عليهم حجـارة من السماء أو أن يأتيهم بعـذاب أليم إن كـان مـا جـاء بـه محمـد ﷺ هـو الحق من عنـد الله، كما بيَّن عـز وجل أنهم مستوجبون لعذاب الله لكنه تبـارك وتعالى قد اقتضت حكمته أن لا يستأصل قوم رسـول الله محمد ﷺ، لعلمـه تبارك وتعـالى أنهم سيدخلـون في دين الله أفواجًـا فكان من رحمتـه أن لا يأخذ جملتهم بـدعاء سفهـائهم ومع ذلك فإن هـؤلاء الذين دعـوا بهذا الـدعاء قـد أهلكهـم الله عـز وجل يـوم بدر بأيـدي المؤمنين وشفى صـدورهم وأذهـب غيظ قلـوبهم، كما بيَّن عـز وجل أنهم يصدون عن المسجد الحرام، ولم تكن صلاتهم عنـده إلا مكاء وتصدية، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنَا قالـوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هٰذا إنْ هٰذا إلا أساطير الأولين﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هٰذا إنْ هـٰذا إلا أسـاطير الأولين﴾ أي وإذا سمعـوا آيـات الله تُتْلى عليهم استهـزءوا وقالوا قد سمعناها ونحن قـادرون على الإتيان بمثلها إذا اشتهينا ذلك ورغبنا فيـه لأن هذا الكـلام أساطير الأولين قـد اكتتبهـا محمد ونحن لا نعجـز عن محاكـاتها، وقد تقـدم بيـان معنى قـولـه: ﴿إن هٰذا إلا أسـاطير الأولين﴾ في تفسير الآيـة الخامسة والعشرين من سـورة الأنعام عنـد قولـه تبارك وتعـالى: ﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنـا على قلـوبهم أكنـة أن يفقهـوه وفي آذانهم وَقْرًا، وإن يَرَوْا كل آيـة لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاءوك يجادلـونك يقول الذين كفـروا إن هـٰذا إلا أسـاطير الأولين * ﴾ وقـد ذكـرت في تفسير الآية الثـالثـة والعشرين والرابعة والعشرين من سورة البقـرة في قوله عز وجل: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلـوا فاتقوا النار التي وقـودها الناس

والحجارة أعدت للكافرين﴾ أنه لم ينقل عن أحد من العرب أنه حاول معارضة القرآن غير ما جاء عن مسيلمة من الهراء؛ فقد أثر عن عمرو بن العاص أنه كان صديقا لمسيلمة الكذاب فاجتمع به مرة، وقال له: يا مسيلمة ماذا نزل عليك من القرآن؟ فقال مسيلمة: يا ضفدع يا ضفدعين نِقِّي كم تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريشا قوم يجهلون، فضحك عمرو بن العاص وقال له: والله إني أعلم أنك تعلم أنك كاذب. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم أن أبا جهل لعنه الله هو الذي طلب من الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو أن يأتيهم بعذاب أليم إن كان الذي جاء به محمد هو الحق من عند الله ولا شك أن أبا جهل هو رأس السفهاء الذين انحطوا إلى هذا الدرك الأسفل من سوء الرأي وفساد الفكر، قال البخاري في صحيحه: باب قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هٰذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ قال ابن عيينة: ما سمَّى الله تعالى مطرًا في القرآن إلا عذابا، وتسميه العرب الغيث وهو قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الغيث من بعد ما قنطوا﴾ حدثني أحمد حدثنا عُبَيْدُ الله بن مُعَاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبدالحميد هو ابنُ كُرْدِيدٍ صاحبُ الزيادي سمع أنسَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فنزلت ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ الآية باب قوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون*﴾ حدثنا محمد بن النضر حدثنا عبيد الله بن معاذ

حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبدالحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ الآية. وقال مسلم في صحيحه: حدثنا عبيدالله بن معاذ العنبريُّ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن عبدالحميد الزيادي أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال أبو جهل: اللهم إن كان هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ إلى آخر الآية. اهـ وإسناد هذا القول لأبي جهل مع أنه في الآية للعموم لرضاهم بقوله ومواطأتهم له فيه، وهذا شبيه بقوله تعالى في عقر ناقة صالح: ﴿فعقروها﴾ مع أن أشقى ثمود هو الذي تولى ذلك لكنهم راضون بفعله. وقد كان عدو الله فرعونُ هذه الأمة أبو جهل بين من أهلكهم الله من صناديد قريش يوم بدر، هذا وقولُ ابن عيينة الذي ذكره البخاري: ما سمى الله مطرا في القرآن إلا عذابا وتسميه العرب الغيث قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذه الترجمة: كذا في تفسير ابن عيينة رواية سعيد بن عبدالرحمن المخزومي عنه قال: ويقول ناسٌ ما سمَّى الله المطر في القرآن إلا عذابا ولكن تسميه العرب الغيث، يريد قوله تعالى: ﴿وهو الذي يُنَزِّلُ الغيث﴾ كذا وقع في تفسير حم عسق، وقد تُعُقِّبَ كلامُ ابن عيينة بورود المطر بمعنى الغيث في القرآن في قوله تعالى: ﴿إن كان بكم أذى من مطر﴾ فالمراد به هنا الغيث قطعا اهـ وقال ابن جرير الطبري: القول في تأويل قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم*﴾ قال أبو جعفر:

يقول تعـالى ذكره : واذكر يامحمـد أيضا ما حلَّ بمن قال : اللهم إن كـان هذا هـو الحق من عندك فأمطـر علينا حجـارة من السماء أو ائتنا بعـذاب أليم إذ مكرت بهم فأتيتهم بعذاب أليم وكان ذلك العـذاب قتلهم بالسيف يوم بدر اهـ ولا شك أن قوله تبارك وتعـالى : ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ من أعظم أبـواب الترغيب في الاستغفار وأنـه يدفع عن المستغفـرين عقوبـة الله ، ومن لـزم الاستغفـار جعل الله لـه من كل ضيق فـرجـا ومن كل شـدة مخرجا . وقوله عز وجل : ﴿ومـا لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانـوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولٰكن أكثـرهم لا يعلمون * ﴾ بيان لاستحقـاق كفار قريش لعقـوبة الله بسبب صـدهم عن المسجد الحرام وإخراج أهلـه منه ، وتحكمهم في شئـونه مع أنهم ليسوا أهـلا لولايـة المسجد الحرام ، لشركهم بـرب البيت ونصبهم للأصنـام حـول الكعبة ، وإنما أوليـاء البيت المؤمنون المتبعون لملـة إبراهيم إمام الحنفاء ، بـاني البيت الحرام ، الذين يتقون ربهم ، وينقادون لشيخ المرسلين محمـد ﷺ ، فهم أولى الناس وأحقهم بـالمسجد الحرام لأنهم هم الـذين يعرفـون حـرمته ، وهم أهلـه ، كما قال عـز وجل : ﴿مـا كان للمشركين أن يعمـروا مسـاجد الله شـاهـدين على أنفسهم بالكفر أولٰئك حبطت أعمالهم وفي النـار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بـالله واليوم الآخـر وأقام الصـلاة وآتى الزكـاة ولم يخش إلا الله فعسى أولٰئك أن يكونوا من المهتدين * ﴾ ثم بين عز وجل أن صـلاة هؤلاء المشركين عند البيت الحرام هي لعب ولهو حيث يقـول عز وجل : ﴿وما كـان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ أي وما كانت صلاة هؤلاء المشركين عند البيت الحرام إلا صفيرا بأفـواههم وتصفيقـا بأيديهم ، لا يـذكـرون الله ، ولا يعرفـون مراسيـم عبادتـه وطاعتـه ، وقوله تبـارك وتعالى : ﴿فـذوقوا العـذاب بما كنتم تكفرون﴾ قـال ابن جـرير رحمه الله : وأما قـوله : ﴿فـذوقوا العـذاب بما كنتم

تكفـرون﴾ فإنه يعني العـذاب الـذي وعدهـم به بـالسيف يـوم بدر، يقـول للمشركين الذين قالوا: ﴿اللهم إن كان هٰذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ الآية حين أتاهم بما استعجلوه من العذاب ﴿ذوقوا﴾ أي اطعموا، وليس بـذوق فم، ولكنه ذوق بـالحسِّ ووجود طعم ألمه بـالقلوب، يقول لهم: فذوقوا العذاب بما كنتم تجحدون أن الله معذبكم به على جحودكم توحيدَ ربكم ورسالة نبيكم ﷺ . اهـ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ، فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعا فَيَجْعَلَهُ فِى جَهَنَّمَ، أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ، نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ*﴾.

بعد أن وَبَّخَ الله تبارك وتعالى كفار قريش ونَدَّدَ بعتوهم وعنادهم وافترائهم وسفاهة عقولهم وتحجر أفئدتهم وغرورهم حيث زعم بعض رؤسائهم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن وَوَصَفَ هذا السفيهُ القرآنَ بأنه أساطير الأولين مع أنهم كانوا موقنين في قرارة نفوسهم أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، كما فضح الحقُّ تبارك وتعالى هؤلاء المشركين وعَرَضَ صورا من آرائهم المنتكسة وأعمالهم المرتكسة حيث سجَّل عليهم مقالتهم البشعة الشنيعة حيث كانوا يقولون: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم إذ لو كان لديهم أدنى مسكة من عقل لقالوا: اللهم إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فاهدنا للإيمان به، وبَيَّنَ عز وجل أنهم مستوجبون لعذاب الله لكنه تبارك وتعالى اقتضت حكمته أن لا يستأصل قوم رسول الله محمد ﷺ لعلمه تبارك وتعالى أنهم سيدخلون في دين الله أفواجًا فكان من رحمته أن لا يأخذ جملتهم بدعاء سفهائهم ومع ذلك فإن الذين دعوا بهذا الدعاء قد أهلكهم الله عز وجل يوم بدر، وبعد أن بيَّن أن صلاتهم عند البيت لم تكن إلا مكاء وتصدية وأن جزاء الكافرين النار،

أعلن عـز وجل هنا أن الكافـرين مهما بذلـوا من أموال للصـد عن سبيل الله فلن يحصلوا إلا على الخيبة ولن يحصلـوا من ثمار بذلهم إلا الغم والهم والحسرة والندامة ولن يتمكنوا من إطفاء نور الله ، وهم سيُهزمون ويُقهرون ويُدحَرُون ، ومصيرهم إلى النار إن مـاتوا على كفـرهم ، وقد قضى الله عـز وجل أن تكون راية الحق ظـاهرة منصـورة وراية البـاطل مخذولة مـدحورة ، ثم رغـب الله عز وجل هـؤلاء الكـافريـن في المسارعـة إلى الإيمان لينـالـوا عفو الله ومغفـرتـه ، وحـذرهم من الاستمرار على الكفـر حتى لا يستوجبـوا غضب الله وعقوبتـه التي أحلها بأعـدائه الغابرين ، ثم أمر المؤمنين بقتال الكـافرين حتى تنطفئ نار فتنتهم ويظهـر دين الله على الدين كله ، وفي ذلك يقـول عز وجل : ﴿إن الـذين كفروا ينفقـون أمـوالهم لِيَصُدُّوا عـن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكـون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبُـونَ﴾ إلى قولـه عز وجل : ﴿وإن تـولوا فـاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير﴾ ومعنى قولـه عز وجل : ﴿إن الذين كفروا ينفقـون أمـوالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ أي إن هـؤلاء المكـذبين من قـريش وغيرهم يبـذلـون أمـوالهم ليحـاولـوا إطفـاء نـور الله ، ومعنى قـولـه تعـالى : ﴿فسينفقـونها ثم تكـون عليهم حسرة ثم يُغْلَبُـون ، والـذين كفـروا إلى جهنم يُحْشَرُونَ﴾ أي فَسَيَبْذُلُونَ أموالهم فتذهب سُدًى وترجع عليهم بالخزي والحسرة والندامـة والهم والغم حيث لا يظفرون بما يـأملون ، فمن عاش منهـم عاش محروبـا مسلـوبا ، مقهـورا مغلـوبـا ، ومن هلك منهم على كفـره فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي حيث مأواه جهنم وبئس المصير. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ليميــز الله الخبيث من الطيـب ويجعل الخبيث بعضـــه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم ، أولّئك هم الخاسرون *﴾ قال ابن كثير رحمه الله : وقولـه تعالى : ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ قـال علي بن أبي طلحة عن ابن عبـاس في قـولـــه : ﴿ليميـز الله الخبيث من الطيب﴾ فيميــز أهل

السعـادة من أهل الشقاء، وقـال السدى: يميـز المؤمن من الكـافر، وهـذا يحتمل أن يكـون هذا التمييـز في الآخرة، كقـوله: ﴿ثم نقـول للذين أشركـوا مكانكم أنتم وشركـاؤكم، فزيلنـا بينهم﴾ الآية، وقولـه ﴿ويوم تقوم السـاعة يومئـذ يتفرقون﴾ وقـال في الآية الأخرى: ﴿يومئـذ يصَّدَّعُون﴾ وقـال تعالى: ﴿وامتازوا اليـوم أيها المجرمـون﴾ ويحتمل أن يكون هـذا التمييز في الـدنيا بما يظهر من أعمالهم للمـؤمنين، وتكون الـلام معللة لما جعل الله للكـافرين من مال ينفقونه في الصَّـد عن سبيل الله، أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز اللهُ الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعــه بقتـال أعـدائه الكـافــرين أو يعصيـه بـالنكول عن ذلك، كقـوله: ﴿ومـا أصـابكم يوم التقى الجمعـان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلـم الذين نافقوا، وقيل لهم تعـالَوْا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكـم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أم حسبتـم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الـذين جاهـدوا منكم ويعلم الصـابـرين﴾ ونظيرتها في براءة أيضـا، فمعنى الآية على هذا: إنا ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبـذلها في ذلك ﴿ليميـز الله الخبيث مـن الطيب ويجعل الخبيث بعضـه على بعض فيركمـه﴾ أي يجمعه كله، وهـو جمع الشيء بعضه على بعـض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثم يجعله ركـاما﴾ أي متراكما متراكبا ﴿فيجعله في جهنم أولٓئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الـدنيا والآخرة. اهـ وقـوله تبارك وتعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهـوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين﴾ ترغيب وترهيب أي رغِّب يا محمد هؤلاء الكافرين في الدخول في الإسلام وأخبرهم أنهم إن أنابـوا إلى ربهم وأسلموا له غفر لهم ما مضى من كفـرهم ومعـاصيهم التي ارتكبوهـا قبل الإسـلام، وتجاوز لهم عما

مضى من قبائح أعمالهم، وحذّرهم من الاستمرار على الكفر، وأَخْبرْهُمْ أنهم إن يستمروا على كفرهم ننتقم منهم كما مضت سنتنا في الأمم الغابرة التي أهلكناها لما كذبت المرسلين، وقد أضيفت السنة إليهم لأنها واقعة عليهم، وهي سنة الله فيهم، وهذه الآية صريحة في أن الإسلام يهدم ما كان قبله من المعاصي، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأُبايعْك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو ؟» قال: قلت: أردتُ أن أشترط، قال: «تشترط بماذا ؟» قلت: أن يُغْفَر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله». الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ أي وقاتلوا أيها المسلمون من كفر بالله حتى تعلو كلمة الله وتنقطع فتنة الشرك بالله، ويكون أمر الله مطاعا مقدما على أمر غيره، ويتمكن المسلم من إظهار دينه دون أن تصيبه فتنة وتكون العبادة والطاعة كلها لله خالصة له دون سواه. قال البخاري في صحيحه: باب قوله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكونَ الدينُ كلُّه لله﴾ حدثنا الحسن بن عبدالعزيز حدثنا عبدالله بن يحيى حدثنا حَيْوَةُ عن بكر بن عمرو عن بُكَير عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا جاءه فقال: يا أبا عبدالرحمن أَلا تَسْمَع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ إلى آخر الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال: يا ابن أخي، أغتر بهذه الآية ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أغتر بهذه الآية التي يقول الله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ إلى آخرها. قال: فإن الله يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا، فكان الرجل يُفْتَنُ في

دينه: إمَّا يقتلـونه وإما يُوثِقُونَهُ، حتى كثـر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: ما قولي في علي وعثمان؟ أما عثمانُ فكان الله قد عفا عنـه، فكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخَتَنُهُ، وأشـار بيده وهذه ابنته أو بيته حيث ترون . اهـ وقوله تبـارك وتعالى: ﴿فإن انتَهَوْا فإن الله بما يعملون بصير * وإن تولَّوْا فاعلموا أن الله مولاكم، نعم المولى ونعم النصير *﴾ أي فإن ثاب هؤلاء إلى الـرشد وأعلنـوا أنهم دخلوا في الإسـلام فاقبلـوا منهم قولهم وأمسكـوا عن قتالهم، فإن قـولهم: لا إله إلا الله يعصم دماءهم وأمـوالهم إلا بحق الإسلام وحسـابهم على الله الذي لا تخفى عليـه خـافية ولا يعـزب عنه مثقـال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين وهو بصير بأعمالهم وأعمال سائر عباده، وإن لم ينتهـوا عن كفرهم وفتنتهم وأدبروا عما دعوتموهم إليه وأصروا على كفرهم وقتالكم فقاتلوهم وأيقنوا بنصر الله لكم لأنه مولاكم يعينكم وينصركم عليهم وهو عز وجل نعم المعين لأوليائه ونعم النـاصر لهم، وقـد أكـد الإسـلام وجـوب الكف عن من أعلن أنـه دخل في الإسلام حيث يقـول عز وجل: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحُرُمُ فـاقتلوا المشركين حيث وجـدتموهم وخذوهم واحْصُرُوهم واقعـدوا لهم كل مَرْصَـدٍ، فإن تابـوا وأقاموا الصـلاة وآتوا الزكاة فخلـوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم *﴾ وقال عز وجل: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ وقد روى البخـاري ومسلم مـن حـديث ابن عمـر رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قال: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتـى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسولُ الله ويقيمـوا الصلاة ويـؤتوا الـزكاة، فإذا فعلـوا ذلك عصموا مني دمـاءهم وأموالهم إلا بحق الإسـلام وحسابهم على الله تعالى». واشتراط إقامـة الصلاة وإيتاء الزكاة إنما هو فيمن أسلم ووجبت عليه الصلاة والزكاة أما من أعلن في

المعركة أنه دخل في الإسلام فإن يجب الكف عنه فورا ولا يُقَاتَلُ بعد أن قال لا إلّه إلا الله فقد روى البخاري ومسلم من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله ﷺ : أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فضرب إحدى يَديَّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال : أسلمتُ لله : أأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ فقال : «لا تقتله» ، فقلت : يا رسول الله قطع إحدى يديَّ ثم قال ذلك بعدما قطعها ، فقال : «لا تقتله ، فإن قتلتَه فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال» . كما روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بَعَثَنَا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرَقة من جهينةَ ، فَصَبَّحْنَا القوم على مياههم ، ولَحِقْتُ أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، فلما غَشِينَاهُ قال لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال لي : «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» قلت : يا رسول الله إنما كان متعوذا فقال : «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟» فمازال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم ، وفي رواية : «أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟» قلت : يارسول الله إنما قالها خوفا من السلاح قال : «أفلا شققت عن قلبه» . الحديث . وهذا من براهين كمال الدين وتيسيره .

وقد تم تفسير الجزء التاسع من القرآن العظيم ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعله خالصا لوجهه الكريم . وكان الفراغ منه بمنزلنا بالرياض ليلة الأربعاء الموافق لليوم الثاني من شهر ذي الحجة للعام الثاني عشر بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل بشارته للمؤمنين بأن الكفار سينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله وأنها ستكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، بشر المؤمنين هنا بأنهم سيغنمون أموال الكافرين وبين لهم أن هذه الغنائم يكون للمقاتلين أربعة أخماسها وأن خمسها يكون لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وأشار إلى أن من آمن بالله وما أنزل على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في بدر يزداد قلبه إيمانا بعظيم قدرة الله وكمال علمه وحكمته وقضائه وقدره وأن الأمور كلها بيد الله وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن حيث

يقول عز وجل : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ ... الخ الآيات الأربع.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ ، أي واعرفوا أن كل شيء قل أو كثر أخذتموه من الكفار قهراً بالقتال فهو غنيمة لكم قد أحللته لكم دون غيركم من الأمم السابقة.

وقوله عز وجل : ﴿ فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين ﴾ الخ بيان بأن الغانمين إنما يستحقون من الغنيمة أربعة أخماسها وأن الخمس الخامس يكون لله ولرسوله وللأصناف الأربعة المذكورة معه هنا. وقد قسم الإسلام الأموال التي تؤخذ من الكفار إلى قسمين فجعل ما يحصل عليه المسلمون بالقتال غنيمة وجعل ما يستولي عليه المسلمون بلا قتال فيئا وجعل جميع الفيء لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وجعل خمس الغنيمة كالفيء تماما يكون لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . فللرسول صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده خمس الخمس ينفق منه على أهله وعلى مصالح المسلمين والخمس الثاني لذي القربى أي أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم ذوي القربى هنا ببني هاشم وبني المطلب دون غيرهم من ذوي القربى وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن أداء الخمس من الإيمان كما أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث وفد عبدالقيس المروي في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا الخمس من المغنم ... الحديث. ولذلك

عنون البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان فقال : باب أداء الخمس من الإيمان وساق هذا الحديث. والخمس الثالث لليتامى الفقراء. واليتيم من مات أبوه وهـو لم يبلغ الحلم. والخمس الرابع للفقـراء والمسـاكين وهـم مـن لا يملكـون شيئاً أو يملكون دون نصاب الزكاة. والخمس الخامس لابن السبيل وهو المسـافر المنقطع عن ماله. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن كنتم آمنتم با لله وما أنزلنـا علـى عبدنـا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ أي إن كنتم صدقتم وأيقنتم بإلهكم ومعبودكم الحق وبما أنزل على عبده ورسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم يوم الفرقان عندمـا تقابل جمع المسلمين حزب الرحمن وجمع المشركين حزب الشيطان يوم بدر الذي فرق ا لله فيه بين الحق والباطل فأعز فيه المسلمين مع قلة عددهـم وعدتهـم وأذل فيه المشركين مع كثرة عددهم وعدتهم ونصر الحق ودحر الباطل وقد أنـزل ا لله عز وجل على رسوله صلى ا لله عليه وسلم فيه سورة الأنفـال أو معظمهـا حتـى سماها ابن عباس رضي ا لله عنهما سورة بدر كما ذكرت في صـدر تفسير هـذه السورة .

كما أنزل ا لله عز وجل على رسوله محمـد صلـى ا لله عليـه وسـلم وهـو في طريقه إلى بدر البشارة بحصول المسلمين على العير أو النفير كما قال عز وجل : ﴿ وإذ يعدكـم ا لله إحـدى الطـائفتين أنهـا لكـم ﴾ وقـد حقـق ا لله لهـم وعـده وحصل لهم النفير والنصر العزيز وكانت عاقبته أحسـن العواقـب وفرحـوا بنصر ا لله لهم أشد من فرحهم لو حصل لهم العير . كما ثبت أن رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم حـدد مصـارع المشـركين قبـل المعركـة بيـوم فقـد روى مسـلم في صحيحه من حديث أنس رضي ا لله عنه قال : قال رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلم : هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا. قال : فما ماط

أحدهم عن موضع يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ لمسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله. قال عمر : فو الذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فهذه كذلك معجزة ظاهرة وآية بينة . وفي ليلة الجمعة التي وقعت معركة بدر في صبيحتها جعل الله تبارك وتعالى للمؤمنين آيات بينات أخرى فأنزل عليهم النعاس أماناً أمّنهم به ليدفع عنهم الخوف من كثرة عدوهم وقلة عددهم كما أنزل عليهم من السماء ماء شرب منه المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وتخذيله وتخويفه للنفوس وطهرهم الله ظاهرا وباطنا وثبت أقدامهم وشجع قلوبهم ، كما قال : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾. وقد مر في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ما ذكره ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه يعني يوم بدر فقال : رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تذييل لبيان أنه عز وجل لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء فمن اعتصم به والتجأ إليه أيده ونصره. وقوله عز وجل : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل

منكم﴾ تذكير للمؤمنين بنعمة الله عز وجل عليهم يوم بدر أي اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنتم نزول بالعدوة الدنيا أي بشفير وادي بدر وشاطئه الأقرب مما يلي المدينة المنورة وأعداؤكم المشركون نزول بالعدوة القصوى أي بشفير الوادي وشطه وجانبه الأبعد من المدينة وقد كانت العدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا يمشي فيها إلا بتعب بخلاف العدوة القصوى وقد كان نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أدنى ماء وجده و لم يكن كافياً فأشار الحباب بن المنذر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل ذلك . وقوله عز وجل : ﴿ والركب أسفل منكم ﴾ أي وعير قريش التي فيها تجارتهم مع أبي سفيان ورفاقه قد صارت أسفل منكم حيث كان أبو سفيان قد فر بها نحو ساحل البحر مبتعداً عن بدر عندما علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج بأصحابه لطلبها.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة ﴾ أي ولو كنتم خرجتم من المدينة وخرج المشركون من مكة على موعد بينكما للتلاقي والقتال في بدر ثم علمتم حالكم وحالهم لاختلفتم أنتم في الميعاد خوفاً منهم واستبعاداً للظفر بهم لكثرة عددهم وعدتهم وقلة عددكم وعدتكم فما بالكم وأنتم قد خرجتم غير مستعدين للقتال فلم يخرج معكم إلا العدد القليل من غير استعداد للحرب وقد علمتم أنكم ما خرجتم إلا للعير و لم يدر ببالكم النفير وإنما

فوجئتم بالعلم بـه وأنتـم في طريقكـم إلى بـدر كمـا روى البخـاري ومسـلم في صحيحيهما من حديث كعب بن مالك رضي ا الله عنه يقول في غزوة بدر : إنما خرج رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم يريـد عـير قريـش حتـى جمـع ا الله بينهـم وبين عدوهم على غير ميعاد اهـ. وقد فعـل ا الله ذلـك لحكمتـه البالغـة وحجتـه الدامغة ليتحقق لكل ذي عقل أن ما اتفق لرسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم من النصر العزيز والفتح المبين ليس إلا صنعاً من صنع ا الله العزيز الحكيم وتدبيراً مـن تدبير البر الرحيم وخارقا من خوارق العادات ليزداد المؤمنون إيمانا وتوكلا علـى ا الله عز وجل وشكرا لنعمه وليعتصموا بحبل ا الله في جميع أمورهـم ويسـارعوا إلى الامتثال لأوامر ربهم ويبادروا إلى طاعة رسولهم محمد صلـى ا الله عليـه وسـلم . وقوله عز وجل : ﴿ ولكن ليقضى ا الله أمرا كان مفعولا ليهلك من هلـك عـن بينة ويحي من حي عن بينة ﴾ أي ولكن ا الله عز وجل جمعكم علـى غـير ميعـاد ليبرز مـا قدره وقضاه من نصره لأوليائه وقهره لأعدائه كـما قال عـز وجـل : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنـا لهـم الغالبون ﴾ حتى لايغتر مغتر بعدده وعدته ولا ييأس مؤمن من نصر ا الله ورحمتـه بسبب قلة عدده أو عدته ولهذا قال في سورة آل عمران عن غزوة بدر الكبرى : ﴿ وما جعله ا الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند ا الله العزيز الحكيم ﴾ وأشار تبارك وتعالى هنا كذلـك إلى أن هـذا النصر العزيـز قـد حققه ا الله عز وجل للمؤمنين ليكون برهاناً شاهداً وحجـة ظـاهرة علـى أن ا الله هو الحق وأن رسوله حق وأن وعده حق حتـى يمـوت مـن يمـوت مـن الكـافرين المكلفين وقد أقيمت عليه الحجة والبرهان ويعيش مـن يعيـش مـن المؤمنـين علـى نور من ربه . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإن ا الله لسميع عليم ﴾ تذييل لتأكيد أن

ا لله تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية ، يسمع دعاء الداعين وتضـرع المتضرعـين واستغاثة المستغيثين وأنه يعلم السر وأخفى ومن أخلص له العبادة وعمل الصالحات ومن أشرك به وعصى رسوله فينصر من أطاعه ويخذل من عصاه.
وقوله عز وجل : ﴿ إذ يريكهم ا لله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن ا لله سلم إنه عليم بذات الصدور ﴾ زيادة تفصيل لما يدبره أرحم الراحمين لإظهار حكمته وعلمه وقدرته حيث أرى رسوله صلى ا لله عليه وسلم في منامه المشركين قليلاً قبل لقائهم فأخبر أصحابه رضي ا لله عنهم بما رأى في منامه من قلة عدوهم فكان ذلك تشجيعا لهم على لقاء عدوهم وتثبيتا لهم ليطرد بذلك عنهم الخوف ويثبت أقدامهم وليس لقائل أن يقول : إن رؤيا الأنبياء وحي ولا يكون إلا صدقا وحقا فكيف يراهم قليلا مع كثرتهم إلا أن الجواب هو أن تفسر القلة بالضعف مع أن ا لله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولاشك أن هذه الرؤيا المباركة كانت من أهم أسباب إقدام المؤمنين على لقاء عدوهم ودفع التنازع بينهم في شأن قتالهم ولا شك أن التنازع والاختلاف من أعظم أسباب الفشل والجبن ولكن ا لله سلم أي أنعم على المؤمنين بالسلامة من الفشل والتنازع حتى قويت قلوبهم واجترءوا على حرب عدوهم وقوله عز وجل : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ تذييل لتأكيد علمه عز وجل بما يخطر في قلوب عباده من الجرأة أو الجبن أو الصبر أو الفزع وأن تدبيره خير تدبير لأنه اللطيف الخبير .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي ا لله أمراً كان مفعولاً ﴾ هي أية أخرى من أعظم آيات ا لله في تلك المعركة وقد رآها الجمعان المتقاتلان بأعينهما يوم بدر حيث قضى عز

وجل بلقاء الجمعين فقلل المشركين في أعين المسلمين وقلل المسلمين في أعين المشركين ليغري بعضهم ببعض وليجترئوا على القتال ويهجم بعضهم على بعض وتقع المعركة التي قضي الله عز وجل أن تكون لإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله كما قال عز وجل : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ ولاشك أن الكفار كانوا أكثر من ثلاثة أمثال المسلمين فلما التحم الجمعان كان المسلمون يرون المشركين مثليهم رأي العين أي حوالي ستمائة مقاتل مع أنهم كانوا بين التسعمائة والألف ويمكن أن يكون الله عز وجل بعد التحام المعركة جعل المشركين يرون المسلمين مثليهم رأي العين لتفاجئهم الكثرة والظاهر أن ذلك كان بسبب تنزل الملائكة لتأييد المؤمنين بأرض المعركة والعلم عند الله عز وجل.

وقوله عز وجل : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي إلى الله وحده مصير الأمور كلها وتدبير شئون عباده ونواصيهم بيده ولابد أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ

لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى ماحققه لأوليائه المسلمين من النصر المبين في بدر وما أظهر في هذه المعركة من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة شرع هنا في بيان أسباب النصر وأسباب الهزيمة في أي معركة تدور بين أوليائه وأعدائه في أي زمان وأي مكان لتكون نبراساً يهتدي به المهتدون من أي لون ومن أي جنس فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ .. الخ الآيات الخمس وقد جعل الله تبارك وتعالى أسباب النصر فيما يأتي :

أولاً :الإيمان المقتضي للتصديق بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره والمقتضى كذلك أن يكون الله ورسوله أحب إلى المقاتل مما سواهما وأن يكون قصده من القتال أن تكون كلمة الله هي العليا.

ثانياً : الثبات عند اللقاء وعدم الفرار إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة.

ثالثاً : كثرة ذكر الله عند لقاء العدو بقلبه ولسانه.

رابعاً : لزوم طاعة الله وطاعة رسوله والبعد عن المعاصي والسيئات.

خامساً : ترك الاختلاف والتنازع لأنه يؤدي إلى الفشل والجبن والهزيمة وذهاب القوة.

سادساً : الصبر وضبط النفس عن الجزع.

سابعاً : الحذر من البطر والرياء والصد عن سبيل الله.

ثامناً : الاحتراس من دسائس الشيطان.

تاسعاً : عدم الاغترار بما قد يكون مع المقاتل من القوة.

عاشراً : التوكل على الله والاعتماد عليه وطلب النصر منه.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ووقر الإيمان في قلوبهم. ومعنى قوله : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ أي إذا تقابلتم مع جماعة من أعدائكم في معركة من المعارك فاثبتوا عند اللقاء ولاتولوا عدوكم الأدبار ولاتفروا. وقد صار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في هذا الثبات و لم يؤثر أن واحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم قتل وهو مدبر بل كانوا يستقبلون الموت بنحورهم كما وصفهم كعب بن زهير :

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم	قوماً وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم	ضرب إذا عرد السود التنابيل
لا يقع الطعن إلا في نحورهموا	ومالهم عن حياض الموت تهليل

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ أي وأكثروا من ذكر الله عز وجل بقلوبكم وألسنتكم وأكثروا من دعائه وطلب النصر منه بصوت غير جهوري لأن ذكر الله عز وجل بهذا الموطن من أعظم أسباب الفلاح والفوز والنصر على الأعداء ولاشك أن ذكر الله عز وجل عند لقاء العدو يدل على أن الإيمان بالله وحبه قد خالط شغاف قلبه حيث يذكر المحب حبيبه عند لقاء عدوه كما قال الشاعر:

ذكـرتك والخطي يخطر بيننا   وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وكما قال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   مني وبيض الهند تقطر من دمي

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي وسارعوا إلى امتثـال أوامر الله ورسوله صلى الله عليـه وسـلم وابتعـدوا كـل البعـد عـن معصيـة الله ورسوله واحذروا مخالفة رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم وعلـى المؤمنـين أن يتذكروا ما أصاب المسلمين يوم أحد و ماجرّت عليهم مخالفة بعـض الرمـاة أمـر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقـد سـبقت في تفسير قوله تبـارك وتعـالى : ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ مـارواه البخـاري في صحيحـه من حديث الـبراء بـن عـازب رضـي الله عنهمـا قـال : لقينـا المشـركين يومئـذٍ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمر عليهم عبدالله بن جبير وقال : لاتبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فـلا تـبرحوا ، وإن رأيتموهـم ظهـروا علينا فلاتعينوننا. فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عـن سوقهن حتى بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمـة فقـال عبـدالله : عهد النبي صلـى الله عليـه وسـلم أن لاتـبرحوا ، فـأبوا ، فلمـا أبـوا صـرف الله وجوههم. الحديث. وفي هذا يقول الله عز وجل : ﴿ ولقد صدقكم الله وعـده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد مـا أراكـم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكـم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ وذكرت في تفسير هذه الآية أن المقصود من فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصيانهم هو ماكان مـن الرمـاة عندمـا رأوا المسـلمين حصـدوا المشـركين وانتصـروا عليهـم وهربـوا مـن أرض المعركـة

وسقط لواؤهم بعد قتل صاحبه وانكشفت أرض المعركة من المشركين وظهرت الغنائم فأخذ بعض الرماة يقولون : الغنيمة الغنيمة فذكرهم أميرهم عبدا لله بن جبير رضي الله عنه وعنهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنهم في غمرة فرحة النصر فشلوا أي تراخوا وضعف صبرهم ونازعوا أميرهم وعصوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أمرهم بأن لايبرحوا مكانهم حتى جاء في لفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما : (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزمهم الله) ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ أي ولاتختلفوا مع بعضكم ولا مع من ولاه الله أمركم فيؤول حالكم إلى الفشل أي إلى الضعف والهزيمة ويذهب ريحكم أي تنكسر شوكتكم وتذهب قوتكم. والعرب يقولون لمن أقبلت عليه الدنيا : الريح مقبلة عليه ويقولون : هبت ريح فلان قال عبيد بن الأبرص :

كما حميناك يوم النعف من شطب والفضل للقوم من ريح ومن عدد

والنعف هو ما انحدر من حزونة الجبل وشطب جبل في ديار بني أسد.

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور) ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ أي واحبسوا أنفسكم عن الجزع عند شدائد الحرب ليكون الله معكم بإعانتكم وتأييدكم وإمدادكم وإنزال النصر عليكم لأنه عز وجل مع الصابرين بعونه وتسديده وتأييده وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبدا لله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر في بعض أيامه التي لقي فيه العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: أيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا

ا لله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. وقوله تعالى : ﴿ ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل ا لله وا لله بما يعملون محيط ﴾ ترهيب من مشابهة الكفار الذين خرجوا من مكة إلى بدر بطرا ورياء وسمعة وصدا عن سبيل ا لله بعد ترغيب المسلمين في الأعمال الجالبة لنصر ا لله لهم وتحذيرهم من أضدادها . قال ابن جرير رحمه ا لله في تفسير هذه الآية : وهذا تقدم من ا لله جل ثناؤه للمؤمنين به وبرسوله أن لا يعملوا عملا إلا لله خاصة وطلب ماعنده لارئاء الناس كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر طلب رئاء الناس وذلك أنهم أخبروا بفوت العير رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه وقيل لهم انصرفوا فقد سلمت العير التي جئتم لنصرتها فأبوا وقالوا : نأتي بدرا فنشرب بها الخمر وتعزف علينا القيان وتتحدث بنا العرب فيها فسُقوا مكان الخمر كؤوس المنايا اهـ. وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن مسلم وعاصم بن عمر وعبدا لله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا عن ابن عباس قال لما رأى أبوسفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها ا لله فارجعوا فقال أبو جهل بن هشام وا لله لا نرجع حتى نرد بدراً ـ وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام ــ فنقيم عليها ثلاثا وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا اهـ. والبطر هو الطغيان في النعم وترك شكرها والفخر والأشر والكبر ، ورئاء الناس أي العمل من أجل السمعة لاحبا في الخير وإنما المقصود ثناء الناس على المرائي ليصفوه بالشجاعة والكرم والبذل وهم يصدون عن سبيل ا لله بمحاربة

أوليائه والعمل على إطفاء نور الإسلام والله متم نوره ولو كره الكافرون لأنه قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ولاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم ﴾ الخ . بيان لما كان من تهييج الشيطان لكفار قريش وتحضيضهم للخروج لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي وقد تخوف الكفار من أن ينقلب عليهم بعض القبائل العربية التي كان بينها وبين قريش ثأر فطمأنهم الشيطان وتعهد لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم بأنه لهم جار وأنه لن يصيبهم أحد من العرب بسوء وزين لهم الخروج لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا غالب لكم إني حافظ لكم من كل معتد يعتدي عليكم فلما وصلوا إلى بدر وأوحى الله إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ورأى إبليس أنه لاطاقة لجنده أمام جند الله نكص على عقبيه أي رجع القهقري وفر وولى مدبراً وقال إني بريء من جواركم إني أرى ما لا ترون أي أبصر مالا تبصرون إني خائف من الله والله شديد العقاب وهذا دأب الشيطان لعنه الله فإنه يغرر بمن يستجيب له حتى إذا أورده المهالك تبرأ منه وادعى الكذوب أنه يخاف الله كما قال عز وجل في سورة الحشر : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾. ولم ير إبليس أدحر ولا أصغر ولا أحقر في يوم من الأيام إلا يوم عرفة ويوم بدر . قال ابن كثير في تفسير هذه الآية وقال مالك بن أنس عن إبراهيم ابن أبي عبلة عن طلحة بن عبيدالله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما رؤي ابليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى

من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رؤي يوم بـدر اهـ. و لله در حسان رضي ا لله عنه إذ يقول :

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهموا لو يعلمون يقين العلم ماساروا

دلاهم بغـــرور ثم أسـلمهم إن الخـبيث لمـن والاه غـرّار

وقال إني لكم جـار فأوردهم شـر الموارد فيه الخزي والعـار

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهـم مـرض غـر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على ا لله فإن ا لله عزيز حكيم ﴾ بيان لموقف المنـافقين مرضى القلوب الذين لايستطيعون حرب الإسلام بسيوفهم كمشركي مكـة فحاربوه بألسنتهم وكما أن ا لله عز وجل نصر المسلمين وهزم المشركين فإنـه كذلك سينصر المسلمين على المنافقين وفي هذا بشارة للمؤمنين بأن ا لله ناصرهم على أعدائهم مهما كانوا وكيف كانوا. والمنافقون والذين في قلوبهم مرض هـم شيء واحد فالنفاق ومرض القلـب هنـا صفتـان لموصـوف واحـد. وقـد تخلـف المنافقون عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يوم بدر فلم يخرج منهم إلا عـدو ا لله رأس المنافقين عبدا لله بن أبي ابن سلول و لم يقاتل ، وقد خرج رئاء وسمعة ، وقد كان يظهر التدين وتغلي مراجل الحقد على الإسلام في قلبه فلا يدع فرصـة إلا اهتبلها لتخذيل المسلمين وتفريق كلمتهم فهو حري أن يكون هو ومن على شاكلته من المنافقين بالمدينة هم الذين قالوا هذه المقالة وهذا شبيه بما حكـى ا لله عز وجل عنهم في سورة الأحزاب حيث قال : ﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا ا لله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يـا أهـل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ إلى غيرها من الآيات التي فضح فيهـا المنـافقين

وكشف سترهم وأخزاهم. أما تفسير أهل هذه المقالة بأنهم من أهل مكة فبعيد لأن النفاق لم ينبت بمكة لأن مكة وقتها كانت تحت سيطرة المشركين وسلطانهم والنفاق هو إظهار الإسلام وإخفاء الكفر ولاداعي له في مكة و لم يثبت بسند صحيح متصل بأنه كان بمكة نفاق أما قوله تعالى في سورة المدثر وهي مكية : ﴿ وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أرد الله بهذا مثلا ﴾ فمرض القلب والكفر صفتان لموصوف واحد كذلك . ومعنى قوله : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ أي خدع هؤلاء المسلمين دينهم وزين لهم قتال أهل مكة وهم ليسوا أكفاء لقتالهم فهم مغرورون مخدوعون وقد أخزى الله هؤلاء المنافقين الذين قالوا هذه المقالة وفضح سترهم وأبلغ للمسلمين مقالتهم فازداد المسلمون إيماناً ويقيناً وازداد المنافقون خذلانا وخسراناً ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ أي ومن يعتمد على الله في كل شئونه ويفوض أمره إليه في سائر أحواله فإن الله يؤيده وينصره لأنه عز وجل عزيز غالب قاهر لايعجزه شيء ولايفوته شيء وهو حكيم في أوامره ونواهيه وتأييد أوليائه وخذلان أعدائه. وقد وصى الله تبارك وتعالى عباده بالتوكل عليه في جميع شئونهم وأشار عز وجل إلى أن التوكل عليه والاعتماد عليه وحده يفرج الكربات ويدفع الغوائل كما قال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقال : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين *﴾.

قال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

بعد ترغيب المسلمين في الأعمال الصالحة التي تجلب لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأوضح لهم أسباب النصر على أعدائهم وأشار إلى تحذيرهم من دسائس الشيطان ووساوسه ووبخ المنافقين على مايطلقونه من سفيه القول ، شرع هنا في ترهيب الكافرين والمنافقين من مآلهم السيء وما سيلقونه عند الموت من ضرب وجوههم وأدبارهم على يد الملائكة الذين يتوفونهم وتبشيرهم لهم بعذاب الحريق وتوبيخهم لهم على سوء اعتقادهم وقبيح أعمالهم وأن الله تعالى قد جرت سنته مع أعدائه كآل فرعون والذين من قبلهم الذين عصوا رسل ربهم وكفروا بنعم الله عليهم أن يوقع بهم أشد العقاب في عاجلتهم وتوعدهم بشديد العذاب في آخرتهم وأنه سيوقع بكل من كذب رسله وكفر بنعمه مثل ما أوقعه بالمكذبين من آل فرعون والذين من قبلهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد * ﴾ أي ولو تعاين

يامحمد حين تقبض ملائكة العذاب أرواح الكافرين من المشركين والمنافقين فتنزعها من أجسادهم وتضرب وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم وماظلمكم الله بهذا العذاب بل هو بما كسبت أيديكم وبما اقترفتم من الآثام والأوزار والمعاصي أيام حياتكم فحلت عليكم هذه العقوبة عند موتكم ويوم ورودكم تذوقون عذاب الحريق والله ليس بظلام للعبيد فلا يعاقب أحداً من خلقه إلا بجرم ارتكبه ولا يعذبه مثل هذا العذاب إلا بمعصيته إياه وتمرده على آياته وتكذيبه لرسله ومعنى قوله عز وجل: ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب *﴾ أي كسنة الله تعالى في فرعون وآله وسنته فيمن كان قبلهم من الذين كفروا كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط لما كفروا بالله وجحدوا بآياته وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق أخذتهم أخذ عزيز مقتدر وقد بطشت بمشركي قريش يوم بدر كما بطشت بهؤلاء المكذبين الذين سبقوهم ولم أظلم أحداً منهم بل أخذتهم بذنوبهم وعاقبتهم بسبب جرائمهم وكانت عقوبة الله لهم عقوبة القوي المقتدر العزيز الجبار. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *﴾. هذا بيان للناس يبين الله لهم سنته في خلقه وأنه قد تفضل عليهم بنعمه وآلائه فمن شكر نعمة الله عليه زاده من نعمه وكلأه برعايته وحفظه من الشرور والآثام ومن كفر بنعمة الله التي أنعم بها عليه سلب منه نعمته وأوقع به عقوبته ، وقد أكد ذلك في مواضع من كتابه الكريم حيث قال هنا : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *﴾ وقال في سورة الرعد : ﴿ له

معقباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه مـن أمـر ا لله إن ا لله لا يغـير مـا بقـوم حـتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد ا لله بقوم سوءاً فلا مرد له ومـالهم مـن دونـه من وال *﴾ وكما قال عز وجـل في سورة النحل : ﴿ وضرب ا لله مثـلاً قريـة كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقهـا رغـــداً مـن كـل مكـان فكفـرت بـأنعم ا لله فأذاقها ا لله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهـم فكذبـوه فـأخذهم العـذاب وهـم ظـالمون *﴾ وكمـا قـال عـز وجـل في سـورة الأحزاب : ﴿ سنة ا لله في الذين خلوا من قبـل ولـن تجـد لسـنة ا لله تبديـلا *﴾ وقوله عز وجل ﴿ كدأب آل فرعـون والذيـن مـن قبلهـم كذبـوا بآيـات ربهـم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين *﴾ هــو تأكيد لقوله عز وجل : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات ا لله ﴾ الآيــة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعـون وكـل كـانوا ظالمين *﴾ أي قد دمر ا لله عليهم فمنهم من أغرقهم ا لله بالطوفـان كقـوم نـوح ومنهم من أرسل ا لله عليه حاصباً وريحاً كقوم هود ومنهم مــن أخذتـه الصيحـة كثمود ومنهم من قلب ا لله عليهم أرضهـم فجعـل عاليهـا سـافلها كقـوم لـوط ومنهـم مـن أخذتـه الرجفـة كقـوم شـعيب ومنهـم مـن خسـف ا لله بـه الأرض كقارون ومنهم من أغرقهم ا لله في اليم كفرعون. وهؤلاء المكذبون جميعاً كـانوا ظالمين لأنفسهم حيث أوردوها موارد حتفهـا بعصيـانهم رسـل ربهـم وكفرهـم بخالقهم فاطر السموات والأرض وما ظلمهم ا لله. وقد أطلـت الحديـث في مثـل هذا المقام من سورة آل عمران عند تفسير قوله عز وجل : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم ا لله بذنوبهم وا لله شديد العقاب *﴾

قال تعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

بعد ترهيب الكافرين والمنافقين من مآلهم السيئ وما سيلقونه عند موتهم من العذاب المخزي لهم كما مضت سنته عز وجل على ذلك وبشرهم بعذاب الحريق في جهنم شرع هنا في بيان أحوال الكافرين الشريرة وأنهم شر الخليقة وأسوأ من مشى على الأرض وأشار إلى أن قلوبهم قد أغلقت على الكفر فهم قد طبعوا على الانحراف عن الحق وعلى التمادي في الباطل وأنهم لا يوثق لهم بعهد ولايقفون في محاربة دين الله عند حد ولايخافون الله ، ولايرقبون في مؤمن إلاًّ ولاذمة ولذلك حض رسوله صلى الله عليه وسلم على أن يضربهم إذا التقى بهم في الحرب ضربة تجعلهم عبرة لمن وراءهم من الكفرة الذين لم يحاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلهم يحذرون ويسارعون إلى الإيمان بالله ورسوله وترك الصد عن سبيله . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ﴾ أي إن شر وأسوء ما دب على الأرض من البرية عند الله عز وجل هم الكافرون بالله ورسله الجاحدون لآيات الله وآلائه ونعمه المنحطون عن درجة البهائم والأنعام والحشرات . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسيره : حكم مترتب على تماديهم في الكفر ورسوخهم فيه وتسجيل عليهم بكونهم من أصل الطبع لايلويهم صارف ولايثنيهم عاطف أصلا ، جيء به على وجه الاعتراض لا أنه عطف على كفروا

داخل معه في حيز الصلة التي حكم فيها بالفعل اهـ. ومعنى قوله تعالى: ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ أي الذين أخذت منهم عهدهم أو الذين عاهدوك إذ المباشر للعهد بالذات بعضهم لاكلهم . وقوله : ﴿ ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون * ﴾ أي الذين كلما عاهدتهم عهداً نقضوه لا يخجلون من ذلك ولا يخافون مغبة نقض العهد وهذا أقرب ما يكون في اليهود ، وقوله : ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ هو شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم أي فإن حاربوك والتقيت بهم في المعركة فنكل بهم تنكيلاً يرعب من وراءهم من الكفار والمنافقين ويزجرهم عن محاربتك والصد عن سبيل الله.

قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

هو بيان لأحكام الذين تشير الدلائل إلى أنهم ينوون نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين بما لاح منهم من أمارات الغدر ومخايل الشر بعد بيان أحكام الناقضين للعهد بالفعل. ومعنى قوله تعالى: ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ أي وإن علمت عن قوم من المعاهدين أنهم يريدون نقض العهد الذي بينك وبينهم فلاتعاجلهم ولاتباغتهم بالحرب حتى تعلن لهم أنك حرب لهم وهم حرب لك وأخبرهم بذلك إخباراً مكشوفاً بأنك قد قطعت ما بينك وبينهم من المعاهدة ولاتناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد حتى لايتوهم متوهم فيك شائبة خيانة أصلا ، وهذه التربية مثل أعلى في الوفاء

والابتعاد عن شبهة الخيانة ، وقد أكد ا لله تبارك وتعالى هذا المعنى بقوله عز وجل : ﴿ إن ا لله لايحب الخائنين ﴾ تحذيراً من الهجوم على العدو المعاهد قبل تحذيره وإنذاره ، وبياناً بأن ا لله لا يحب الخيانة حتى ولو في حق الكفار وهذا من الأمثلة العليا في تأديب المسلمين حتى يكونوا على أرقى درجات السلوك مع الكفار في الحرب والسلم فما بالك مع المسلمين. وقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود في الجهاد والترمذي في سننه والنسائي في الكبرى وابن حبان في صحيحه وأبو داود الطيالسي واللفظ للترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح عن شعبة قال : أخبرني أبو الفيض قال سمعت سليم بن عامر يقول : كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم ، فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول : ا لله أكبر وفاء لاغدر ، وإذا هو عمرو بن عبسة فسأله معاوية عن ذلك فقال : سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول : من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء قال : فرجع معاوية بالناس. وقد ضرب البخاري في صحيحه مثلا لكيفية النبذ إلى الكفار على سواء فقال في الجزية والموادعة مع أهل الحرب : باب كيف ينبذ إلى أهل العهد وقوله: ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ الآية ، حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنا حميد بن عبدالرحمن أن أباهريرة قال : بعثني أبوبكر رضي ا لله عنه فيمن يؤذن يوم النحر بمنى : لا يحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان ، ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر ، فنبذ أبوبكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه النبي صلى ا لله عليه وسلم مشرك اهـ .

قال تعالى :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ ﴾ .

هذا تيئيس للكفار من الانتصار على المسلمين وقطع لأطماع أعداء الله في توهم إطفاء نور الله ومعنى قوله عز وجل: ﴿ ولايحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾ أي ولايخطرن ببال الكافرين أنهم يستطيعون إعجازنا وأن يفلتوا منا فإنهم تحت قهرنا وسلطاننا فمالهم من مفر كما قال عز وجل : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء مايحكمون * ﴾ أي أخطر ببال الذين يرتكبون المعاصي أن يفلتوا منا ، قبح حكمهم وخاب ظنهم وبئس ماخطر ببالهم . وقد أكد الله تبارك وتعالى ذلك بقوله عز وجل : ﴿ إنهم لايعجزون ﴾ أي إنهم لايستطيعون الإفلات من قبضتنا ، وكما قال عز وجل : ﴿ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾ أي ولايخطر ببالك أن الكفار يهربون منا ويستطيعون الفرار من عقوبتنا . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * ﴾ بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه و سلم إذا حارب الكفار أن يضربهم الضربة التي تشرد من خلفهم من أمثالهم وأنه إذا خاف من المعاهدين نكثهم في عهدهم بما لاح له من أمارات ذلك أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء

حتى يدفع كل شائبة من سمة الخيانة عن الإسلام والمسلمين أمر عز وجل المسلمين بأن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من آلات الحرب لمقاتلتهم حسب طاقتهم وقدرتهم لأنه ينبغي للمسلمين بعد توكلهم على الله واعتمادهم عليه في النصر أن يبذلوا الأسباب التي ترهب أعداءهم وتخيفهم لينقطع طمعهم في محاربة الإسلام والمسلمين ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ أي وهيئوا لقتال أعدائكم كل ما تتمكنون من إعداده وتهيئته ، فالإعداد هو اتخاذ الشيء عدة لوقت الحاجة مما يناسب كل زمان ومكان ويكون قوة للمسلمين على أعدائهم من جميع آلات الحرب وأسلحته كالنبال والرصاص والمدافع والدبابات والطيارات والسفن المدرعة والغواصات والقنابل والصواريخ والحصون ونحوها وتدريب أبناء المسلمين على صناعتها وكيفية استعمالها وتعليم ركوب الخيل واختيار الجياد الصافنات منها ، لأن الخيل صالحة للحرب في السهل والجبل ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة " ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي . كما روى مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عز وجل فلايعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي أسيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل " كما روى مسلم من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى. كما

روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضى الله عنه قال : كان أبو طلحة يتترس مع النبي صلى الله عليه وسلم بترس واحد ، وكان أبوطلحة حسن الرمي فكان إذا رمى تشرف النبي صلى الله عليه وسلم فينظر إلى موضع نبله" ومعنى تشرف أي رفع رأسه وأتبع نظره سهم أبي طلحة.

والمراد برباط الخيل ربطها واقتناؤها للغزو ، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة " كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" البركة في نواصي الخيل " كما روى البخاري في صحيحه من حديث عروة بن أبي الجعد البارقي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : الأجر والمغنم " كما روى مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرس بإصبعه ويقول : " الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " الأجر والغنيمة" ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ أي تخوفون به عدو الله وعدوكم من الكفار فلا يجرؤون على محاربتكم ويكفُّون أذاهم عنكم ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ أي وترهبون به قوماً آخرين ممن حولكم من المنافقين من الأعراب وغيرهم لا تعرفونهم لشدة كتمان كفرهم لكن الله يعلمهم فإنه لاتخفى عليه خافية ، وكما قال عز وجل : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم ﴾

ومعنى قوله عز وجل ﴿ وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون* ﴾ أي وما تبذلوه من مال ونفقة في سبيل الله لإعداد آلة الحرب أو تدريب المحاربين أو الإنفاق على المجاهدين لإعلاء كلمة الله يوف لكم أجره وستحصلون على ثوابه كاملاً غير منقوص فإن الله لايضيع أجر من أحسن عملا.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

بعد أن أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم إذا خاف من قوم خيانة أن ينبذ إليهم عهدهم على سواء وأمر المسلمين بإعداد القوة الممكنة لإرهاب أعداء الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يميل إلى صلحهم ومسالمتهم إذا مالوا إلى الصلح والمسالمة وأن يتوكل على الله عز وجل في دفع شرهم إذا كانوا يريدون بالصلح المكر والخديعة ليتقووا ويستعدوا لحرب النبي صلى الله عليه وسلم وبين له صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل سيكفيه شرورهم ويرد كيدهم إلى نحورهم وضرب له مثلاً بما أيده به من النصر في بدر وبتأييده بالمؤمنين الذين كانوا قبل الإسلام أعداء متناحرين متقاتلين فألف بين قلوبهم بفضله وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها. ومعنى ﴿ وإن جنحوا

للسلم فاجنح لها ﴾ أي وإن مالوا إلى المصالحة والمسالمة وطلبوا منك ذلك فمل إلى مصالحتهم ومهادنتهم . ومعنى : ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي صالحهم معتمداً على الله عز وجل في دفع شرهم ومكرهم إن كانوا يطلبون الصلح خداعاً ومكراً ومكيدة ، وأصل الجنوح في اللغة الميل يقال : جنحت الإبل إذا أمالت أعناقها . وقوله عز وجل : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ تذييل لتأكيد طمأنينة قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين بأن الله الذي أمرهم بالجنوح إلى مصالحة الكفار إن مالوا إليها لن يضيع المؤمنين لأنه السميع العليم بجميع النوايا التي ينويها كل فريق فلو كان الكافرون يريدون بالصلح الخديعة فإن الله السميع العليم يعلم سرهم ويسمع نجواهم ويبطل مكرهم ويرد كيدهم إلى نحورهم ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ أي وإن كانوا قد أرادوا بمصالحتك المكر والخديعة استعداداً لقتالك مبطنين ذلك فصالحهم ولا تخش منهم فإن حسبك الله أي لأن الله كافيك بنصره ومعونته ، ومعنى قوله تعالى: ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ أي هو الذي قواك بنصره لك يوم بدر وقواك بالمؤمنين من أهل بدر وغيرهم من المهاجرين والأنصار ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ أي وجمع بين قلوب المؤمنين على الحب في الله عز وجل فصاروا بنعمة الله إخواناً متحابين معتصمين بحبل الله جميعاً بعد ما كانوا أعداء متقاتلين وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها كما قال عز وجل : ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ أي لو كنت

تملك جميع ما في الأرض من الخزائن وبذلته جميعاً لتأليف قلوبهم المتنافرة ما تمكنت من تأليف قلوبهم لشدة ماكان بينهم من العداوات والحروب في يوم بعاث وغيره من أيام جاهليتهم ولكن الله وحده هو الذي ألف بينهم وجمع قلوبهم على الحب في الله حتى صاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر لأنه تعالى عزيز حكيم أي غالب قاهر له الحكمة البالغة فلا يعجزه شيء ولايفوته شيء.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

بعد أن طمأن الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم وحضه على الميل إلى صلح من يميل إلى الصلح من الكفار في قوله عز وجل : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ أكد ذلك هنا وبين عز وجل أنه كافيه وكافي أتباعه من المؤمنين فمعنى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي يا أيها الرسول يكفيك الله ويكفي أتباعك من المؤمنين فيؤيدكم بنصره ويدحر أعداءكم ويرد كيدهم إلى نحورهم مهما تكاثرت أعدادهم وتوافرت أمدادهم ، و (مَن) في قوله عز وجل : ﴿ ومن اتبعك ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول معه أي كفاك وكفى أتباعك الله ناصرا كما في قول الشاعر :

فحسبك والضحاك عضب مهند ---------------

ولا يجوز جعل (مَن) في موضع رفع لما تقرر من أنه لا يجوز أن يقال :

حسبك الله وفلان ، لأن ذلك شرك. كما لا يجوز أن يقال : ما شاء الله وشئت ، لأن هذا القول لّما قاله رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أجعلتني لله ندا ؟ قل : ما شاء الله ثم شئت.

هذا ولاعبرة بقول بعض النحاة : إنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور دون إعادة الجار لأنه مذهب مصادم لعقيدة التوحيد المقررة عند أهل السنة والجماعة وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن هناك أموراً يجوز العطف فيها على الله بالواو وأموراً لا يجوز فيها ذلك لاختصاصها بالله عز وجل حيث قال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ وقال عز وجل ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ لأن الإيتاء يضاف إلى الله وإلى غيره حقيقة وكذلك الشكر أما حسبك الله وكذلك الرغبة والرهبة والإنابة والقنوت فإنه لله وحده وهو من أنواع العبادات التي لا تكون إلا لله وكما قال عز وجل: ﴿ وإياي فارهبون ﴾.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

بعد أن أكد الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأنه

حسبهم وكافيهم في ردع أعدائهم ، حرض نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على حرب أعدائهم ومناجزتهم ومبارزة أقرانهم من الكفار ، والتحريض في اللغة الحث على الشيء بكثرة الترغيب فيه وتسهيله قال في مختار الصحاح : والتحريض على القتال الحث والإحماء عليه ، وقد روى مسلم في صحيحه صفة من صفات تحريض رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين على القتال فقد أخرج من حديث أنس رضي الله عنه في قصة غزوة بدر قال : وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يُقدّمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه ، فدنا المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يارسول الله جنةُ عرضها السموات والأرض ؟ قال : " نعم " قال : بخٍ بخٍ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مايحملك على قولك بخٍ بخٍ ؟" قال : لا والله يارسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل . وقال البخاري في صحيحه : باب التحريض على القتال ، وقوله تعالى : ﴿ حرض المؤمنين على القتال ﴾ حدثنا عبدالله بن محمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن حميد قال : سمعت أنساً رضي الله عنه يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم ، فلما رأى مابهم من النصب والجوع قال : اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة ، فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً   على الجهاد مابقينا أبدا اهـ

والأمر بالتحريض على القتال بعد إخبارهم بأن ا لله عز وجل حسبهم وكافيهم لتجري فيهم سنة ا لله في خلقه من الابتلاء كما قال عز وجل : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء ا لله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل ا لله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم *﴾ وقد اشتملت هاتان الآيتان على الاحتباك المعروف في علم البديع وقد قلت في تفسير قوله عز وجل في سورة الأعراف : ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا * ﴾ ... الآيات الثلاث : (ومن أظهر هذه الأبواب البديعية في هذا المقام الاحتباك وهو أن يثبت قيدا في مقام ويحذفه في المقام الآخر لدلالة المذكور على المحذوف ، وهذا الباب من أعظم أبواب البلاغة ، وقد ورد كثيراً في كتاب ا لله عز وجل كقوله تبارك وتعالى : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفف ا لله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن ا لله وا لله مع الصابرين *﴾ فقد قيد العشرين في قوله : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون ﴾ بقيدين وهو كون العشرين منكم وكونهم صابرين ، ثم قال : ﴿ يغلبوا مائتين ﴾ و لم يقيدها بقيد ثم قال : ﴿ وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا ﴾ فلم يقيد المائة هنا بقيد الصبر اكتفاء بالقيد السابق وهو كونهم صابرين وقيد الألف بكونهم من الذين كفروا فكان قوله ﴿ مائتين ﴾ مقيدا بهذا القيد في المعنى أي يغلبوا مائتين من الذين كفروا. وقال:

﴿ يغلبوا ألفين بإذن ا لله ﴾ فكان إذن ا لله قيدا في الجميع اهـ. وقد دلت الآية الأولى على أنه لا يحل للواحد من المؤمنين أن يفر من عشرة من الكافرين فإن زاد عدد الكفار عن عشرة أمام الواحد المؤمن فله أن يفر ولاحرج عليه وقد نسخت الآية الثانية هذا الحكم فأوجبت على الواحد المؤمن أن يثبت أمام الرجلين من الكفار فإن زاد عدد الكفار عن اثنين أمام الواحد المؤمن فله أن يفر ولاحرج عليه. قال البخاري رحمه ا لله في كتاب التفسير من صحيحه : ﴿ يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون *﴾ حدثنا على بن عبدا لله حدثنا سفيان عن عمرو عن ابن عباس رضي ا لله عنهما: لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ فكُتب ألا يفر واحد من عشرة – فقال سفيان غير مرة – أن لا يفر عشرون من مائتين. ثم نزلت : ﴿ الآن خفف ا لله عنكم ﴾ الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين – زاد سفيان مرة : نزلت ﴿ حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون ﴾ قال سفيان : وقال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا . ثم قال البخاري : ﴿ الآن خفف ا لله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ وا لله مع الصابرين *﴾ حدثنا يحيى بن عبدا لله السُّلمي أخبرنا عبدا لله بن المبارك أخبرنا جرير بن حازم قال : أخبرني الزبير بن خريت عن عكرمة عن ابن عباس رضي ا لله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة فجاء التخفيف فقال : ﴿ الآن خفف ا لله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ قال :

فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم اهـ.
ومعنى قوله عز وجل : ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي من أجل أنهم قوم عمي القلوب منطمسة بصائرهم يتخبطهم الشيطان وتجتنبهم السكينة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وعلم أن فيكم ضعفاً ﴾ أي وعلم أنكم لاقدرة للواحد منكم على قتال عشرة أمثاله إلا بمشقة تفوق قدرتكم وليس هذا علماً حادثاً بل هو علم أزلي ، فهو يعلم حالهم قبل خلقهم وأمرهم بثبات الواحد للعشرة لكنه عز وجل له الحكمة البالغة فيما أمرهم به في الحالة الأولى وفي الحالة الثانية ولاريب أن أمره الأول كان في حال من قلة العدد وكثرة العدو وكثيراً ماتدرج التشريع من التشديد إلى التخفيف كما هو هنا وكما في فرض الصيام من بعد صلاة العشاء أو النوم قبلها إلى غروب الشمس ثم جعل الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس وعلى المسلم الطاعة لله ولرسوله في السراء والضراء والعسر واليسر والله تفضل على عباده فلا يكلف نفساً إلا وسعها. وقوله عز وجل : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ تذييل لتأكيد نصره لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين بسبب معيته للمؤمنين المقتضية لتأييدهم وتسديدهم وفوزهم.

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتحريض المؤمنين على القتال وحض المؤمنين على الثبات أمام أعدائهم وحدد لهم ما يجوز وما لا يجوز من الفرار في المعارك ووعدهم بنصره لهم لأنه معهم بتأييده وتسديده أشار هنا إلى ما مكن للمسلمين من أسر أعدائهم والاستيلاء على أموالهم وإباحتها لهم وقد كان المسلمون أسروا يوم بدر سبعين أسيرا منهم العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب وأبوالعاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها وسهيل بن عمرو والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله عنهم ماذا يفعل بالأسرى ، فأشار أبوبكر رضي الله عنه باستبقائهم وأخذ الفدية منهم وأشار عمر رضي الله عنه بضرب أعناقهم وكان من طبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار الأيسر مالم يكن إثما فاختار رأى أبي بكر فنزلت هذه الآيات الثلاث بتأييد رأي عمر رضي الله عنه وإجازة ما اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى مسلم في صحيحه من طريق سماك الحنفي أبي زميل عن ابن عباس رضي الله عنهما : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبوبكر يانبي الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة

الكفر وصناديدها فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبوبكر ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر قاعدين يبكيان ، قلت : يارسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عُرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وسلم) وأنزل الله عز وجل : ﴿ ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ إلى قوله : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم اهـ. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ أي ما ينبغي لنبي من أنبياء الله إذا تمكن من أخذ الكفار وحبسهم أن يبقيهم أسرى حتى يوسعهم قتلاً ولاشك أن الشرائع السماوية السابقة كلها متفقة على الجهاد لإعلاء كلمة الله وأنها ما كانت تبيح الأسر إلا بعد التقتيل الشديد في أعداء الله. وقد سقت في تفسير سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ﴾ الآيات الثلاث ، بعض نصوص الكتب التي بيد اليهود والنصارى ونقلت مافي الاصحاح (الفصل) العشرين من سفر التثنية في الفقرة العاشرة إلى السادسة عشرة من التوراة التي بيد اليهود والنصارى إذ يقول : حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف .. الخ. وقوله عز وجل : ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ عتاب لمن رغب في قبول

فداء الأسرى و لم يرغب في قتلهم واستئصال شأفتهم . وقوله تعالى : ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ والله يحب لكم النعيم الأبدي السرمدي في الفردوس الأعلى وجنات النعيم ، وهذا ثناء على من أشار بقتل الأسارى واستئصال شأفتهم . والله عزيز أي غالب قادر على تحقيق سعادتكم في الدارين وهو حكيم في أوامره ونواهيه وله الحكمة البالغة. وقوله عز وجل : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره لأهل بدر الذين غنموا وأخذوا من الأسرى الفداء : ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ يقول : لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر في اللوح المحفوظ بأن الله محل لكم الغنيمة ، وأن الله قضى فيما قضى أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين ما يتقون ، وأنه لايعذب أحداً شهد المشهد الذي شهدتموه ببدر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصراً دين الله لنالكم من الله بأخذكم الغنيمة والفداء عذاب عظيم اهـ.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم * ﴾ تجريد للأمر بإباحة الغنائم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن كانت محرمة على جميع الأمم السابقة ، أي فقد أحللت لكم الغنائم وأبحتها لكم فتمتعوا بها كما شئتم أكلاً وشرباً ولباساً وسكناً وغيرها والتعبير بالأكل هنا لأنه المقصود الأكبر من الاستيلاء عليها ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت الأرض لي مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم و لم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى

الناس عامة. ومعنى ﴿ واتقوا الله ﴾ أي وخافوا الله فلا تعودوا لفعل شيء دون أن يكون قد أذن لكم فيه ، وتذييل الآية بقوله عز وجل: ﴿ إن الله غفور رحيم *﴾ لتأكيد عفوه عنهم ومغفرته لهم وإزالة جميع الأوضار المترتبة على ما بدر منهم في شأن الغنيمة والفداء.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

هذه بشارة من الله عز وجل لمن يسلم من الأسرى الذين دفعوافداء للمسلمين بأن الله سيعطيهم خيرا مما أخذ منهم ويغفر لهم وقد حقق الله عز وجل لمن أسلم منهم وعده وقد كان العباس رضي الله عنه ممن أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه الفداء من الأسرى وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه قال : والله لا تذرون منه درهماً . كما روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم بمال من البحرين ، فقال : انثروه في المسجد ، وكان أكثر مال أتيَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة و لم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال : يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : خذ ، فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: يا رسول الله اؤمر بعضهم يرفعه إلي قال : لا قال : فارفعه أنت علي قال : لا فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال : يا رسول الله اؤمر بعضهم يرفعه إلي قال : لا ، قال : فارفعه أنت علي قال : لا فنثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله ثم انطلق فمازال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبعه بصره حتى خفي علينا عجبا من حرصه فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثم منه درهم اهـ.

قال تعالى :

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

بعد أن وعد الله الأسرى إن أسلموا أن يؤتيهم الله خيراً مما أخذ منهم من الفداء وأن يغفر لهم ماكان منهم من الصد عن سبيل الله وكفرهم به وبرسوله توعدهم هنا بأنهم إن عزموا على المكر والخديعة بعد أن يطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله سيمكن رسوله صلى الله عليه وسلم منهم مرة أخرى ولن يفلتوا كما أمكنه منهم يوم بدر فمعنى : ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ أي وإن ينووا في أنفسهم ويضمروا لك السوء بعد أن تطلقهم فسنمكنك منهم ولن يفلتوا من العقاب فجواب الشرط محذوف لظهوره تقديره : إن يريدوا خيانتك أمكناك منهم وقوله عز وجل : ﴿ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ دليل على جواب الشرط المقدر

ومعنى ﴿ فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ﴾ أي فقد سبقت منهم خيانتهم لله بكفرهم به وحربهم لرسوله صلى الله عليه وسلم فأمكن المسلمين منهم يوم بدر حتى أسروهم ، وعند الله مكرهم فهو العليم الحكيم المحيط بسرائرهم وضمائرهم.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

بعد أن رغب الأسرى في الإسلام وولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذرهم من خيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم نبه المؤمنين إلى المستحقين لولايتهم والذين لا يستحقون هذه الولاية وجعل المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض ، وحرم المؤمنين المقيمين بين ظهراني المشركين من ولاية المؤمنين المهاجرين والأنصار حتى يهاجروا وأوجب على المهاجرين والأنصار نصرة المؤمنين الذين لم يهاجروا إذا طلبوا النصرة من المسلمين بشرط ألا يكونوا طلبوا نصرتهم على قوم بينهم وبين المهاجرين والأنصار عهد وميثاق ، وأنه لا ولاية بين مسلم وكافر أبداً حيث قال هنا : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الخ .. الآية. ومعنى ﴿ آووا ونصروا ﴾ أي آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرين من

بلادهم ومنازلهم ونصروهم على أعدائهم وبذلوا أنفسهم في سبيل نصرة الإسلام ولاخلاف بين علماء الإسلام على أن المهاجرين مقدمون على الأنصار قال ابن كثير في تفسيره : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لايختلفون في ذلك ا هـ .

وقال البخاري في صحيحه : باب قول النبي صلى ا لله عليه وسلم : لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار قاله عبدا لله بن زيد عن النبي صلى ا لله عليه وسلم حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة رضي ا لله عنه عن النبي صلى ا لله عليه وسلم أو قال أبو القاسم صلى ا لله عليه وسلم قال : لو أن الأنصار سلكوا وادياً أو شعباً لسلكت في وادي الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار فقال أبو هريرة : ما ظلم بأبي وأمي : آووه ونصروه ، أو كلمة أخرى اهـ. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى ا لله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : اغزوا باسم ا لله في سبيل ا لله ، قاتلوا من كفر با لله ، اغزوا ولاتغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم ا لله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن هم أبوا فاستعن با لله

وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة ا لله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة ا لله ولاذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة ا لله وذمة رسوله ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم ا لله فلا تنزلهم على حكم ا لله ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لاتدري أتصيب حكم ا لله فيهم أم لا اهـ. ولاشك أن قطع الولاية بين المسلمين وبين المؤمنين الذين لم يهاجروا كان قبل فتح مكة وشدة حاجة المسلمين إليهم في دار الهجرة ، فلما فتحت مكة سقط وجوب الهجرة بقول رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : لاهجرة بعد الفتح فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما واللفظ للبخاري ومسلم من حديث عائشة رضي ا لله عنها أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) اهـ. وقد وصف ا لله تبارك وتعالى المهاجرين والأنصار حيث قال : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من ا لله ورضواناً وينصرون ا لله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * ﴾ وقد صار المهاجرون والأنصار أخوة أظهر وأشد من أخوة النسب وقد أرشدهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يتآخوا : اثنين اثنين فيتآخى رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار وكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم هو الذي يؤاخي بينهم فآخى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بين أبي بكر الصديق وخارجة بن زيد رضي ا لله عنهما وآخى بين أبي عبيدة بن الجراح

وأبي طلحة رضي الله عنهما كما رواه مسلم . وكان المتآخيان يتوارثان بهذه الأخوة حتى نزل قوله تعالى بعد غزوة بدر : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ يعني في الميراث وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجريّ الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، فلما نزلت : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ نسخت... الحديث.

ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ ، أي لا يجوز لمسلم أن يتولى كافراً بل يجب على المسلمين قطع كل ولاية مع الكافرين فلا يتوارث أهل ملتين وقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة ابن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. فإذا تولى المسلم الكافر دون المؤمن اشتد ساعد الكفر وفي هذا فتنة في الأرض وفساد كبير حيث يلتبس الحق بالباطل وتنقطع أوثق عرى الإيمان وهو الحب في الله والبغض في الله والضمير في قوله عز وجل: ﴿ إلا تفعلوه ﴾ أي ما أمرتم به من التواصل بينكم وبين بعضكم بعضاً ومن قطع الموالاة بينكم وبين الكفار .

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

هذا ختام المسك من سورة الأنفال أكد فيه عز وجل أن المهاجرين والأنصار قد حازوا الدرجات العلى وفازوا بالنعيم المقيم وهم قد حققوا الإيمان فأثابهم الله بذلك مغفرة لذنوبهم ورزقاً كريماً في جنات النعيم والمراد بالذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم هم الذين هاجروا بعد نزول هذه الآية فمن هاجر قبلها فهو في زمرة السابقين الأولين ومن هاجر بعد نزول هذه الآية فهو على دربهم بفضل الله وبرحمته ، والمراد بأولى الأرحام هنا ذوو القربى من أصحاب الفرائض والعصبات. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وليس المراد بقوله ﴿ وأولوا الأرحام ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة اهـ. ولا شك أن العرب استعملوا كلمة الرحم في العصبات كذلك ومنه قول قُتيلة بنت النضر بن الحارث ترثي أباها حين قتله النبي صلى الله عليه وسلم صبراً بعد أسره في بدر :

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه   لله أرحام هناك تشقق

فقد أطلقت اسم الأرحام على أبناء الأب . وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : ومما يبين أن المراد بالرحم العصبات قول العرب : وصلتك رحم، لا يريدون قرابة الأم ثم استشهد القرطبي ببيت قُتيلة المذكور. وقد قسم الله عز وجل المواريث. والمراد بكتاب الله في الآية الأخيرة هو حكم الله الذي أنزله في كتابه وأوضح فيه لكل ذي حق من الورثة حقه واستقرت به أحكام التوارث وتمت وكملت بحمد الله وله المنة والشكر والثناء الحسن. وبهذا تم تفسير سورة الأنفال و لله الحمد.

تفسير سورة التوبة

قال تعالى :

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾ .

هذه سورة التوبة وتسمى سورة براءة أيضاً وهما أشهر أسمائها ، وهي آخر سورة نزلت من القرآن فقد روى البخاري في صحيحه من حديث البراء رضي الله عنه قال : آخر سورة نزلت براءة اهـ. وكان نزولها بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك في شوال سنة تسع من الهجرة. وكانت سورة الأنفال قد نزلت في غزوة بدر التي وقعت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة ، والمناسبة بين سورة الأنفال وسورة التوبة ظاهرة وهي الشبه الشديد بين السورتين حيث يذكر فيهما شأن القتال والعهود. وقد ذكر في سورة الأنفال أنه إذا خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوم خيانة نبذ إليهم على سواء. وافتتح سورة التوبة بما يفيد أن نبذ العهد إلى الكفار يكون في مدة تصل إلى أربعة أشهر حتى لا يخطر ببال أحد من أعداء الإسلام رائحة خيانة وغدر من المسلمين و لم تفتتح سورة التوبة بالبسملة ولذلك لم تكتب في المصحف في صدرها لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأمر كتاب الوحي بكتابتها في صدر السورة ، قال القرطبي : والصحيح أن التسمية لم تكتب لأن جبريل عليه السلام مانزل بها في هذه السورة قاله القشيري اهـ. ومعنى قوله عز

وجل : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ أي هذه براءة وإعلان بقطع الموالاة ونبذ العهود إلى المشركين الذين كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بدرت منهم أمارات الخيانة أو ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أعدائه. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ أي سيروا وتقلبوا في الأرض آمنين على أنفسكم وأموالكم مدة أربعة أشهر من تاريخ نزولها في شوال سنة تسع من الهجرة إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، فإنكم بعد تمام هذه الأشهر الأربعة تكونون حرباً لنا ونكون حرباً لكم لاعهد لكم ولا أمان لكم بعدها ، وهذا في غاية الإحسان لهؤلاء الأعداء بترك فرصة لهم ليراجعوا أنفسهم وليتدبروا أمرهم لعلهم يرجعون إلى الله ويسعدون بالدخول في الإسلام ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين * ﴾ أي وثقوا وأيقنوا أنكم إن بقيتم على كفركم وعداوتكم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم لن تفلتوا من عقوبة الله وأن الله مخزيكم ومذلكم وناصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم ، والخطاب في قوله عز وجل : ﴿ إلى الذين عاهدتم ﴾ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذي كان يتولى المعاهدة وكان أصحابه رضي الله عنهم كلهم راضين بذلك فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنسب العقد إليهم ، فإنه إذا عقد الإمام عقداً لما يراه من المصلحة وجب على جميع الرعايا الالتزام به.

قال تعالى :

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

بعد أن أنذر المعاهدين من المشركين الذين بدرت منهم خيانة أو ظاهروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبذ إليهم عهودهم وأمنهم أربعة أشهر من وقت نزول الآيتين السابقتين أعلن هنا براءة الله ورسوله من جميع المشركين ينادى عليهم بها يوم الحج الأكبر حتى يتوبوا إلى الله من شركهم وكفرهم با لله ورسوله ، وأن يعرف الناس أنهم ليسوا على شيء حتى يؤمنوا با لله ورسوله ، وأن عليهم أن لايظهروا ضلالهم وفجورهم ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر رضي الله عنه ليحج بالناس في السنة التاسعة من الهجرة بعد فتح مكة وصيرورتها دار إسلام وسيطرة المسلمين عليها وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلن يوم الحج الأكبر أنه لن يحج بعد العام مشرك ولايطوف عريان ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب ليكون تحت إمرة أبي بكر ويساعده في إعلان البراءة من المشركين ، فقد قال البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه : باب قوله : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ آذنهم أعلمهم حدثنا عبدالله بن يوسف حدثنا الليث حدثني عقيل قال ابن شهاب : فأخبرني حميد بن عبدالرحمن أن أباهريرة قال : بعثني أبو

بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين يعني يوم النحر يؤذنون بمنى أن لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان قال حميد : ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة ، قال أبوهريرة فأذّن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان وقد روى هذا الحديث مسلم في صحيحه من طريق ابن شهاب عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف عن أبي هريرة قال : بعثني أبوبكر الصديق في الحجة التي أمّره عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر : لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان قال ابن شهاب : فكان حميد بن عبدالرحمن يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة اهـ . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس ﴾ الآية أي إعلام وإنذار من الله ورسوله إلى عموم الناس من المعاهدين وغير المعاهدين بأن ذمة الله وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بريئة من كل مشرك فمن تاب من الشرك وأخلص العبادة لله عز وجل فقد فاز وسعد وصار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن استمر على شركه وكفره فليتيقن أنه غير قادر على الفرار من عذاب الله وعقوبته بل هو في قبضة الله وتحت قهره ومشيئته ، وبشر يا محمد أي وأخبر الذين كفروا واستمروا على كفرهم خبراً يسوء وجوههم ويظهر أثره على بشرتهم بأن لهم في الدنيا الخزي والنكال وأن لهم في الآخرة المقامع والأغلال.

قال تعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر عز وجل حكم المعاهد الذي بدرت منه خيانة أو ظاهر على المسلمين وذكر براءته من شرك المشركين ذكر هنا حكم المعاهد الذي لم تبدر منه خيانة و لم يظاهر على المسلمين أحداً وكان عهده مؤقتاً بوقت محدد فأوجب على المسلمين أن لا يتعرضوا لهم مدة بقاء معاهدتهم حتى ينتهي أجلها ماداموا على حفاظهم على عهدهم ، ولاشك أن الناس عند نزول هذه الآية صاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، فعصمهم الإسلام وصان أعراضهم وأموالهم ودماءهم فلله الحمد والمنة. وفي تذييل هذه الآية بقوله عز وجل:﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ حض على الوفاء بالعهد وتنبيه على أن مراعاة حقوق العهود من باب تقوى الله عز وجل ومخافته تبارك وتعالى في جميع الأعصار والأمصار ليكون ذلك نبراساً للمسلمين وإعلاماً للأمم بأن شريعة الإسلام هي الكافية الوافية بصيانة العهد.

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

هـذا بيان للأمد الذي تنتهي فيه مدة الأمان التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر بها المشركين عند نبذ العهد إليهم بقوله عز وجل : ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ وأن هذه الأشهر تنتهي بنهاية الأشهر الحرم وانسلاخها في نهاية شهر الله المحرم الحرام ليعلم هؤلاء المشركون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انسلاخ هذه الأشهر سيكون حرباً لهم. ولاشك أن شهر رجب من الأشهر الحرم لكنه غير مراد هنا وغير داخل في أشهر الإمهال الأربعة بإجماع أهل العلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ قال ابن جرير رحمه الله : يعني فإذا انقضى ومضى وخرج يقال منه : سلخنا شهر كذا نسلخه سلخاً وسلوخاً بمعنى : خرجنا منه ، ومنه قولهم: شاة مسلوخة ، بمعنى المنزوعة من جلدها المخرجة منه ، ويعنى بالأشهر الحرم : ذا القعدة وذا الحجة والمحرم اهـ.

ومعنى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أي فاقتلوا المشركين حيث لقيتموهم من الأرض. ومعنى : ﴿ وخذوهم ﴾ أي وأسروهم فالأسير يسمى الأخيذ ، ومعنى : ﴿ احصروهم ﴾ أي وامنعوهم من التصرف في بلاد الإسلام ودخول مكة. ومعنى ﴿ واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ أي وترصدوا لهم في كل طريق ومرقب لقتلهم أو أسرهم قال الفيروز ابادي في القاموس المحيط : رصده رَصْداً ورَصَداً رَقَبَه كترَصَّدَه اهـ. وقال ابن منظور في لسان العرب المحيط: يقال أرصدته إذا قعدت له على طريقه ترقبه اهـ. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * ﴾ أي فإن رجعوا عن الشرك بالله وجحود نبوة سيد رسله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم وأخلصوا العبادة لله وحده وأقروا بنبوة رسول الله صلى

الله عليه وسلم وأطاعوه وأدوا مافرض الله عليهم من الصلاة ، وأعطوا ما أوجب الله عليهم من الزكاة فخلوا سبيلهم أي فلا تحجروا عليهم ودعوهم ولاتتعرضوا لهم بأي أذى فإنهم بدخولهم في الإسلام صاروا إخواناً لكم ، يستحقون منكم التكريم والمؤازرة والحب ، لأن من تاب إلى الله تاب الله عليه وغفر له ورحمه لأنه هو الغفور الرحيم. هذا ولاشك أن صدر الآية جعل قتل المشركين هو من أجل شركهم ، وهذا يقتضي زوال القتل بمجرد النطق بالشهادتين ثم اشترط من أجل تخلية سبيلهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولاتعارض في ذلك لأنه بمجرد نطق المحارب بالشهادتين يجب الكف عن قتاله ، فإذا حضرت الصلاة وامتنع عن إقامتها أو وجبت عليه الزكاة وأبى أن يؤديها يؤخذ ولا يخلى سبيله لأنه رفض بعض أركان الإسلام وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى ، فقد روى البخاري في المغازي وغيرها ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحيهما واللفظ للبخاري من طريق أبي ظبيان قال : سمعت أسامة بن زيد رضي الله عنهما يقول : بعثَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرَقة فصبّحنا القوم فهزمناهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله فكف الأنصاري عنه فطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أسامة أقتلته بعد ماقال لا إله إلا الله، قلت : كان متعوذا ، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم اهـ. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) الحديث ، كما روى البخاري في صحيحه من

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم واستُخلف أبوبكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله . فقال أبوبكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . قال عمر رضي الله عنه : فوالله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفت أنه الحق اهـ.

قال القرطبي في تفسير هذه الآية : قال ابن عباس : رحم الله أبابكر ماكان أفقهه. وقال ابن العربي : فانتظم القرآن والسنة واطردا ، ولاخلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلا كفر ، ومن ترك السنن متهاوناً فَسَق ، ومن ترك النوافل لم يحرج إلا أن يجحد فيكفر لأنه يصير رادّاً على الرسول عليه السلام ما جاء به وأخبر عنه اهـ .

قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ .

هذه بينة أخرى من البينات الجلية الواضحة التي تُظهر للعالمين أن دين الإسلام هو دين العلم والسلم ، وترشد هذه الآية إلى أن الأمر بقتال المشركين ومحاصرتهم ليس حباً في سفك دمائهم بل القصد منه حملهم على الخروج من

الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم ليسعدوا في الدنيا والآخرة وكأنه يقودهم بالسلاسل إلى الجنة ، ولذلك أذن بفتح أبواب دار الإسلام لمن رغب من المشركين الذين يعلنون رغبتهم في معرفة دين الإسلام وسماع القرآن وتعلمه وأن عليهم أن يطلبوا من ولي أمر المسلمين أن يمنحهم أماناً وجواراً ليسمعوا كلام الله ، وأن على إمام المسلمين وولي أمرهم أن يمنحهم هذا الأمان وأن يجيرهم من كل معتد يحاول الاعتداء عليهم مدة بقائهم في دار الإسلام سواء قبلوا الدخول في الإسلام أو رفضوا الدخول فيه. وأن على الإمام وجميع المسلمين حفظهم ورعايتهم ما داموا يطلبون العلم وحتى يرجعوا إلى بلادهم آمنين مطمئنين على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، فإذا وصلوا إلى مأمنهم في ديارهم اعتبرهم الإمام محاربين وصار حرباً لهم كما كانوا قبل الاستجارة وكذلك من دخل للتجارة أو حاملاً لرسالة أو طالباً لصلح أو هدنة أو نحو ذلك وطلب أماناً منح هذا الأمان. وقوله ﴿ أحد ﴾ مرفوع بفعل الشرط المقدر الذي يدل عليه قوله ﴿ استجارك ﴾ كأنه قيل : وإن استجارك أحد من المشركين استجارك. وهذا اللون من الأساليب البلاغية يساق للتأكيد ، وللتنبيه هنا إلى أن ولي أمر المسلمين ينبغي له أن يتأكد أن هذا الراغب في دخول دار الإسلام من المشركين هو مستجير وحريص على هذه الاستجارة لسماع القرآن ، أما إذا ثبت لولي أمر المسلمين أن هذا الشخص قد استغل هذه الحصانة التي منحت له ليتجسس على المسلمين لأعداء المسلمين ويطلع على عوراتهم وثغراتهم وأسرارهم فللإمام قتله إن شاء وله أن يتخذه أسيراً ليبادل به الأسرى من المسلمين ، فالخيرة للإمام في شأنه على ما يراه مصلحة للإسلام والمسلمين. وقد روى البخاري في صحيحه من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال :

أتى النبّي صلى الله عليه وسلم عَيْنٌ من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : اطلبوه واقتلوه... الحديث.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام و حتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. اهـ.

وقال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية : وظاهر الآية إنما هي فيمن يريد سماع القرآن والنظر في الإسلام فأما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين والنظر فيما تعود عليهم به منفعته. اهـ.

ومعنى : ﴿ استجارك ﴾ أي طلب أمانك وجوارك له بحفظه ورعايته لتكون له جاراً أي مجيراً حافظاً له من أن يعتدي عليه أحد من رعيتك. ومعنى : ﴿ فأجره ﴾ أي فأعطه الأمان واجعله في جوارك أي في ذمتك حتى لايعتدي عليه أحد. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ أي حتى يُتْلَى عليه القرآن وتُشرح له معانيه وأحكامه ليزول جهله بالإسلام ويعلم أنه الحق. وفي قوله عز وجل ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ دليل جلي لأهل السنة والجماعة على أن القرآن هو كلام الله ، وأن مايتلوه التالي ومايسمعه السامع هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بمخلوق ولا صفة لمخلوق. قال ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية : وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية : هي ما يسمع منه أو من المبلغ عنه. فإذا سمعه السامع علمه وحفظه فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ،

فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه ـ والمجاز يصح نفيه ـ فلا يجوز أن يقال : ليس في المصحف كلام الله ، ولا: ما قرأ القارئ كلام الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾ وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله ، والآية تدل على فساد قول من قال : إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله فإنه تعالى قال : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ و لم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله والأصل الحقيقة ، ومن قال : إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة وكفى بذلك ضلالاً. اهـ.

ومعنى ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي ثم رُدّه بعد سماعه كلام الله إذا أبى أن يسلم و لم يتعظ بما سمع من كلام الله وأوصله إلى وطنه وبلده الذي يأمن فيه على نفسه. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ذلك بأنهم قوم لايعلمون ﴾ أي هذا التشريع الذي شرعناه لك في إجارة من استجارك لسماع القرآن بسبب أنهم قوم لم يفقهوا حقيقة دين الإسلام و لم يعرفوه ، فمعارفهم قاصرة على ظاهر من الحياة وهم جاهلون با لله.

قال تعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً

يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

بعد أن أشار عز وجل إلى أن الإسلام يأذن بفتح أبواب دار الإسلام لمن يرغب من المشركين في الوقوف على حقيقة هذا الدين وأنه يحتم على ولي أمر المسلمين حماية هذا الراغب في المجيء إلى دار الإسلام لتعلم هذا الدين ومعرفة حقائقه وتأمينه ما دام في دار الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه في بلاد قومه ، أوضح هنا أن الأصل في المشركين أنهم لا يوثق لهم بعهد وأن الغدر من شيمتهم ولكنهم ليسوا سواء ، فمنهم قوم لم يعرفوا بنقض عهد وأن هؤلاء الذين لم تظهر منهم خيانة و لم يعرف منهم غدر و لم ينقضوا مابينكم أيها المسلمون وما بينهم من عهد فإنه يجب الوفاء لهم بعهودهم ولاسيما من كانت معاهدته معكم تمت عند المسجد الحرام في صلح الحديبية فإن معاهدة الحديبية التي تمت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين مشركي قريش قد نصت على أن من دخل في عهد محمد وعقده من العرب دخل فيه ، ومن دخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه ، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمهم وكافرهم ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش وعقدهم ، ولما عَدَت بنو بكر على خزاعة ونقضوا عهدهم ، وأعانت قريش بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح صارت قريش بهذا قد نقضت العهد الذي بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده :

يـارب إن ناشـــدٌ محـــمـدا　حـــلف أبـينا وأبيه الأتلدا
كـنت لـنا أبـا وكـنا ولــدا　ثُمّتَ أسـلمنا و لم ننزع يدا
فانصر هـــداك ا لله نصرا آيِّدا　وادع عـباد ا لله يأتوا مـددا
فيهم رسـول ا لله قد تـجـردا　في فيلق كالبحر يجري مُزْبِداً
أبيض مثل الشمس يسمو صُعُدا　إن سيم خـسفا وجهه تربدا
إن قـريشاً أخــلفوك المـوعدا　ونقضـوا مـيثـاقك المؤكدا
هـم بيتـونا بالوتـير هـــجّدا　وقَتّلـونـا ركّـعـاً وسُـجّدا
وزعـموا أن لستَ تدعوا أحـدا　وهـم أذل وأقــل عــــددا

فتجهز رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لفتح مكة ويسر ا لله له فتحها وأسلمت قريش ودخل الناس في دين ا لله أفواجاً وبقي بعض المشركين من بني بكر الذيـن كانوا في عقد قريش وعهدها على عهدهم مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسـلم لم ينقضوه وقد أمره ا لله عز وجل في الآية الرابعة مـن هـذه السورة بـأن يحـافظ على عهد من لم ينقض عهده من المشركين وأن يتـم إليهـم عهدهـم إلى مدتهـم وقد تقدم الحديث على ذلك في تفسيرها ، وفي قوله تبارك وتعالى في هذا المقـام: ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهـم إن ا لله يحب المتقين * ﴾ تأكيد لمعنى قوله عز وجـل في الآية الرابعة مـن هــذه السـورة : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشـركين ثـم لم ينقصوكـم شيئاً و لم يظـاهروا عليكـم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن ا لله يحب المتقين * ﴾ ومعنى ﴿ كيف ﴾ في قولـه تعـالى : ﴿ كيـف يكـون للمشـركين عهـد عنـد ا لله وعنـد رسـوله ﴾ للتعجب المقصود منـه النفـي والاستبعاد أي لايتـأتى ولا ينبغـي أن يوثـق فيمـن عرف بالخيانة والغدر وأنّى يكـون لـه عهـد ، وهـذا بيـان لأسـباب الـبراءة مـن

المشركين وإيضاح للحكمة الداعية لها.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ أي لكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام من بني بكر و لم ينقضوا العهد واستمروا على الوفاء به و لم ينقصوكم شيئا و لم يظاهروا عليكم أحدا فاستقيموا لهم ، أي أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم. وتذييل هذه الآية والآية الرابعة من تلك السورة بقوله : ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ لبيان أن الوفاء بالعهد من صفات المتقين وأن نقض العهد إنما يكون من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين إلا النادر منهم والآية تشمل من يأتي من المؤمنين إلى يوم القيامة وأن أي عهد بين المسلمين وغيرهم يشمله هذا الحكم ويجب الوفاء به مادام المعاهد لم ينقض عهده و لم تبدر منه بادرة غدر أو خيانة وإن لم تكن المعاهدة عند المسجد الحرام. وقوله عز وجل : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولاذمة ﴾ أي كيف يكون للمشركين الناكثين أيمانهم والمعروفين بالغدر والخيانة عهد ، والحال إنهم إن غلبوكم وتمكنوا منكم وظفروا بكم لايحفظوا لكم قرابة ولاعهداً ، فالرقيب الحافظ ، والإلّ القرابة والرحم ومنه قول حسان رضي الله عنه :

لعمرك إن إلَّكَ من قريش ... كإلّ السّقب من رأل النعام

والذمة العهد والكلام مسوق لتأكيد استبعاد ثباتهم على عهد مع الاستدلال بما هو مشاهد من سلوكهم . وقوله ﴿ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ﴾ استئناف لبيان حالهم عند عدم تمكنهم منكم وعند تسلطكم عليهم حيث إنهم في هذه الحالة يقولون لكم كلاماً حسناً يرضيكم وقلوبهم معارضة لألسنتهم ممتلئة خبثاً وحقداً وكفراً بالله ورسوله.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن حدود الوفاء بالعهود ، وهو يشير إلى أن من التزم الوفاء بالعهد من المشركين هم عدد قليل ، قال الإمام البغوي في تفسيره (معالم التنزيل) فإن قيل هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ ؟ قيل : أراد بالفسق نقض العهد ههنا وكان في المشركين من وفى بعهده وأكثرهم نقضوا ، فلهذا قال : ﴿ وأكثرهم فاسقون ﴾ اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ماكانوا يعملون* ﴾ أي اعتاض هؤلاء المشركون عن اتباع آيات الله بالزهيد من مظاهر الحياة الدنيا الخسيسة واغتروا بذلك وأعرضوا عن أسباب سعادتهم ومنعوا أتباعهم من الدخول في دين الإسلام فقبح ما فعلوا وبئس ماكانوا يعملون. وقوله عز وجل : ﴿ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولاذمة وأولئك هم المعتدون * ﴾ تأكيد لاستبعاد تخلي المشركين عن هذه الصفات الخسيسة من الغدر ونقض العهد.

قال تعالى :

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

هذا تأكيد لما تقدم في الآية الخامسة من هذه السورة المباركة من قوله عز وجل فيها : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ إلا أنه هناك جعل توبتهم من الشرك وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجب تخلية سبيلهم

المقتضية لفك الحصار عنهم والكف عن قتالهم ، أما هذه الآية فقد جعلت توبتهم من الشرك وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مؤذنة بأُخُوَّتِهم لنا في الدين حتى لا يخطر ببال أحد أن مجرد تخلية سبيلهم وفك الحصار عنهم لا يقتضي أخوتهم لنا في الدين ، ففصل الله تبارك وتعالى هذا التفصيل ليزول من قلوب المسلمين أي ارتياب في مودتهم لما كان في النفوس من العداوة لهم قبل توبتهم وإقامتهم للصلاة وإيتائهم للزكاة ولذلك ذيل هذه الآية الكريمة بقوله عز وجل : ﴿ ونفصل الآيات لقوم يعلمون * ﴾. وخصهم بالعلم لأنهم أهل اللسان العربي الذين يفقهون الأساليب البلاغية ويدركون معاني المفردات والتراكيب العربية وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين.

قال تعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

هذه قاعدة عامة لجميع المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن جاء بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة تقرر لهم أنهم إذا عاهدوا أحداً من الكفار ونقض هذا المعاهد الكافر عهده ونكث يمينه الذي وثق به عهده وأضاف إلى نقض عهده ونكث يمينه الطعن في دين الإسلام أو سبّ القرآن أو سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن على المؤمنين أن يقاتلوه وأن يعتبروه إماماً في الكفر مهما كان لأن هذا الصنف من الكفار قد جاوز حد كل عهد ولاشك أن ترك هذا النوع بلا قتال يؤدي إلى إلحاق الذل

بالمسلمين ويعمل على القضاء على الإسلام وإعلاء الباطل على الحق.

وليس المراد بأئمة الكفر في هذه الآية أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف لأن سورة براءة ــ كما تقدم ــ آخر سورة نزلت من القرآن وقد قتل أبو جهل ومن معه من الصناديد الملاعين يوم بدر في السنة الثانية من الهجرة وفتحت مكة في السنة الثامنة و لم يبق فيها إلا مسلم أو مسالم بل المراد بأئمة الكفر هنا هم كل معاهد من الكفار سواء كانوا مشركين أو يهود أو نصارى أو مجوساً أو غيرهم إذا نكثوا أيمانهم ونقضوا عهودهم وطعنوا في دين الإسلام لأن كل من فعل ذلك صار رأساً من رءوس الكفر التي يجب قطعها وتطهير الأرض منها، وهذا المقام في هذه السورة المباركة هو انتقال من أحكام مقاتلة مشركي العرب إلى مقاتلة عموم الكفار من المشركين واليهود والنصارى وغيرهم من الطوائف في الجزيرة العربية وغيرها وبيان أحوال المنافقين بالمدينة وحولها الذين صاروا مطايا لليهود يشتركون معهم في التخطيط للتشويش على الإسلام وأهله ، ومن المعلوم أنه عند نزول سورة براءة في شوال من السنة التاسعة للهجرة النبوية لم يكن قد بقي من المعاهدات التي أمر ا لله بالمحافظة عليها سوى المعاهدة التي كانت بين بعض بني بكر وبين رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم التي عقدت يوم صلح الحديبية و لم ينقضها بعض بني بكر عندما نقضتها قريش إذ ساعدت بعض بني بكر على خزاعة كما مضى بيانه في تفسير هذه السورة ، وكذلك المعاهدة التي تمت بين رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم و بين يُحَنَّة بن رؤبة صاحب أيلة عندما جاء إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في تبوك ، وكذلك المعاهدة التي تمت بين رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وبين أهل جرباء وأذرح عندما أتوه فى تبوك ، وكذلك المعاهدة التى تمت بين رسول

ا لله صلى ا لله عليه وسلم وبين أكيدر دومة الذي أخذه خالد بن الوليد وأتى به إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في تبوك وقد أسلم أكيدر دومة بعد ذلك وقد كان نصرانيا . وقد ردّ ابن عطية في تفسيره على من حمل أئمة الكفر في هذه الآية على أبي جهل وأقرانه فقال : وقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ أي رءوسهم وأعيانهم الذين يقودون الناس إليه. وقال قتادة : المراد بهذا أبو جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهم. قال القاضي أبومحمد : وهذا إن لم يتأول أنه ذكرهم على جهة المثال ضعيف ، لأن الآية نزلت بعد بدر بكثير . وروى عن حذيفة أنه قال : لم يجيء هؤلاء بعد . قال القاضي أبومحمد : يريد : لم ينقرضوا فهم يحيون أبدا ويقاتلون. وأصوب مافي هذا أن يقال : إنه لا يُعْنَى بها معين وإنما وقع الأمر بقتال أئمة الناكثين العهود من الكفرة إلى يوم القيامة دون تعيين ، واقتضت حال كفار العرب ومحاربي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يكون الإشارة إليهم أولاً بقوله ﴿ أئمة الكفر ﴾ وهم حصلوا حينئذ تحت اللفظة إذ الذي يتولى قتال النبي صلى ا لله عليه وسلم والدفع في صدر شريعته هو إمام كل من يكفر بذلك الشرع إلى يوم القيامة . ثم يأتى فى كل جيل من الكفار أئمة خاصة بكل جيل جيل اهـ . وقال ابن جرير الطبري : حدثنا ابن وكيع قال : ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة: ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ قال : ما قوتل أهل هذه الآية بعد. ثم قال ابن جرير : حدثني أبو السائب قال : ثنا الأعمش عن زيد بن وهب قال : قرأ حذيفة ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر ﴾ قال : ماقوتل أهل هذه الآية بعد اهـ. وقوله عزوجل : ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ تأكيد على أن الإسلام لا يحرص على سفك دماء المشركين وإنما يحرص على هدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور . قال أبو

السعود العمادي في تفسير هذه الآية : ﴿ لعلهم ينتهون ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ فقاتلوا ﴾ أي قاتلوهم إرادة أن ينتهوا ، أي ليكن غرضكم من القتال انتهاءهم عن ما هم عليه من الكفر وسائر العظائم التى يرتكبونها لا إيصال الأذية بهم كما هو ديدن المؤذين اهـ ، وقد قال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبى صلى الله عليه وسلم عليه القتل اهـ .

قال تعالى :

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يحافظوا على العهد الذي يكون بينهم وبين الكفار ما دام هؤلاء الكفار محافظين على هذا العهد وطلب من المؤمنين أن يقاتلوا من نكث يمينه الذي وثق بها عهده وطعن في دين الإسلام واعتبره الإسلام رأسا من رءوس الكفر التي يتحتم على المسلمين القضاء عليها ، شرع هنا في تحريض المسلمين وتحضيضهم وترغيبهم في مقاتلة الكفار ذاكراً أسباباً ثلاثة يقتضي كل سبب منها وجوب مقاتلتهم فكيف إذا اجتمعت هذه

الثلاثة فيهم وهي نقضهم للمواثيق وكونهم همّوا بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وأنهم هم البادئون في إيذاء المسلمين والطعن في دينهم ، فقوله عز وجل : ﴿ ألا ﴾ هي للتحضيض والتحريض والحث وتتضمن الإنكار لمن يتوانى فلا يسارع إلى الاستجابة إذا دعاه ولي أمر المسلمين لقتال أعداء الإسلام. وقوله عز وجل : ﴿ قوماً نكثوا أيمانهم ﴾ هو عام يشمل كل قوم نكثوا المواثيق مع المسلمين. والمراد بقوله عز وجل : ﴿ وهمّوا بإخراج الرسول ﴾ أي وعزموا على إبعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة النبوية وهم اليهود ومن صاروا مطايا لهم من المنافقين ، فاليهود قد غدروا ونقضوا الميثاق الذي عاهدوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذلوا كل جهد يستطيعونه لإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة واتخذوا المنافقين مطايا لهم لتنفيذ هذا الغرض الخبيث ، وقد سجل الله تبارك وتعالى على المنافقين هذه المحاولة الخبيثة حيث يقول في كتابه الكريم في سورة (المنافقون) : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا و لله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون *﴾ ولذلك قال عز وجل في هذه السورة : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير *﴾ أما حمل قوله عز وجل : ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾ على قريش وأهل مكة فبعيد لأنهم قد أخرجوه بالفعل ثم فتحت مكة وأسلم أهلها لله رب العالمين فعلام يقاتلون وهم مسلمون ؟ وقوله عز وجل : ﴿ وهم بدءوكم أول مرة ﴾ أي وهم الذين بدءوا بنقض العهد ونكث المواثيق قبل أن تنقضوا عهدهم وتشرعوا في حربهم والبادئ أظلم ، ولاشك أن

هذا يقرر أن المسلمين لايبدءون عدواً مسالما بالقتال ولاسيما من كان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ معناه الإنكار على من يتخلف عن قتالهم وفيه زيادة تحريض المؤمنين على القتال بتقريع من يخشى الكفار على نفسه في الحرب ، أي أتخافون من قتالهم ؟ فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مصدقين بوعدي بنصر المؤمنين ووعيدي بخذلان الكافرين ، لأنكم مادمتم تقاتلون في سبيل الله فلا بد أن تنالوا إحدى الحسنيين وهما النصر أو الشهادة في سبيل الله.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وقوله : ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ ، يقول تعالى : لاتخشوهم واخشوني فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي ، فبيدي الأمر فما شئت كان وما لم أشأ لم يكن اهـ . وقوله عز وجل : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ تجريد للأمر بقتالهم بعد تحريضهم وتحضيضهم عليه وتحذيرهم من التواني في ذلك مشيراً هنا إلى بيان حكمته فيما شرع لهم من الجهاد في سبيل الله مع قدرته عز وجل على إهلاك الكافرين والانتصار منهم دون مقاتلة وأنه فرض على المسلمين مقاتلة الكافرين ليبلو بعضهم ببعض كما قال عز وجل: ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم *﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى المؤمنين في جواب أمره لهم بقتال الكافرين بخمس بشائر كل بشارة منها تدعو إلى قتالهم ، الأولى : أن الله يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين. والثانية : أن

ا لله يخزي الكافرين ويذلهم. والثالثة : أن ا لله ينصر المؤمنين. والرابعة : أن ا لله يشفي صدور المؤمنين. والخامسة : أنه يذهب غيظ قلوب المؤمنين. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يعذبهم ا لله بأيديكم ﴾ أي ينكل بهم ويعاقبهم حيث يمكنكم من قتلهم أو أسرهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويخزهم ﴾ أي وينزل بهم الذل والهوان حيث شاهدوا أنفسهم مقهورين مدحورين مهينين ذليلين بأيدي المسلمين. ومعنى : ﴿ وينصركم عليهم ﴾ أي ويسلطكم عليهم ويجعل لكم الظفر والغلبة ليكونوا مقهورين تحت أيديكم. ومعنى : ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ أي ويبرئ ما قد وقع في قلوب بعض المؤمنين من الهموم والأحزان التي نالتهم من الكفار حيث كانوا يتطاولون عليهم ويلحقون بهم الأذى ، كما أن كل ما يهد الكفر وأهله هو راحة لقلوب جميع المؤمنين وشفاء لصدورهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ أي ويبعد ا لله عن قلوب المؤمنين ما كانت تعانيه مما يصيبها من المكاره والمكايد التي كانت تشتعل ناراً في قلوبهم. وقوله عز وجل : ﴿ ويتوب ا لله على من يشاء ﴾ مستأنف لبيان أن باب التوبة مفتوح ، كما قال عز وجل : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾ فمن تاب إلى ا لله تاب ا لله عليه والإسلام يَجُبّ ما كان قبله من السيئات والمعاصي ، ولذلك جعل ا لله من تاب من الكفار أخاً للمسلمين وأنه صار بتوبته معصوم الدم والمال حيث قال عز وجل : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ وا لله عليم حكيم ﴾ أي وا لله عليم بسرائر عباده حكيم في تصريف أحوالهم يهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً.

وقوله عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون *﴾ هو بيان للحكمة الإلهية في تشريع الجهاد في سبيل الله وفرضه على عباد الله المؤمنين ، وهو تمحيص أهل الحق ومحق أهل الباطل وفضح المنافقين الذين يظهرون الإسلام وقلوبهم كافرة بالله وبرسوله ممتلئة بالعداوة للمؤمنين قد اتخذوا من أعداء الله اليهود بطانة لهم ووليجة. وقد أكد الله تبارك وتعالى هذا المعنى في مقامات كثيرة من القرآن الكريم فقال عز وجل : ﴿ الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين*﴾ وقال عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية. وأم في قوله عز وجل : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ﴾ بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري ، فبعد أن رغّب المسلمين في قتال الكافرين وحضّهم عليه وحرّضهم تحريضاً شديداً بذكر الدواعي التي تحتم على المسلمين مقاتلتهم ، انتقل إلى بيان الحكمة الإلهية في هذا التشريع العظيم وأنكر على من يتوانى عن مجاهدة أعداء الله مبيناً لهم أنه لن يتركهم دون تكليفهم بما يظهر المطيع من العاصي و المؤمن من المنافق وأن سلعة الله الغالية وهى الجنة لا تنال دون بذل ثمن لها من الابتلاء بقتال أعداء الله وبالشدائد التي تظهر من أخلص دينه لله

ومن لم يخلص دينه لله. ومعنى قوله عـز وجـل : ﴿ أم حسبتم أن تـتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسـوله ولا المؤمنـين وليجة ﴾ أي بل أظننتم أن تُهمَلوا فلا تكلفوا بقتال أعداء الله مع أنـه لابـد مـن تكليفكم حتى يظهر في عالم الشهادة والوجود والظهور من جاهد في سبيل الله ومن نافق واتخذ من أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنـين وليجـة أي بطانـة ودخيلة ، فالمراد من قوله : ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ الآيـة أي لم يعلمه ظاهراً موجوداً وهو الذي لا تخفى عليـه خافيـة في الأرض ولا في السمـاء العالم بما كان وبما يكون وبمـا لم يكـن لـو كـان كيـف يكـون ، والمـراد بـالذين يتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة هم المنافقون. وقوله عز وجـل : ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ تذييل لتأكيد أن الله عز وجـل محيـط بجميع خلقـه عالم بسرائرهم وظواهرهم لا يخفى عليه عمل الصالحين المجاهدين في سبيل الله المخلصين دينهـم لله وعمـل المنـافقين الذيـن يتظـاهرون بالإسلام ويخفـون في نفوسـهم الكفـر بـالله ورسـوله والعـداوة لأهـل الإيمـان ويتخـذون مـن اليهـود والمشركين بطانة لهم ويعملون على تخذيل المسلمين وإطفاء نـور الله ويـأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمنافقون.

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

هذا بيان للناس بعدم أهلية المشركين من العرب والعجم للهيمنة على المساجد التي هي بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه والتي بوأ لإبراهيم خليل الرحمن مكان أول بيت وضع للناس وهو المسجد الحرام وأمره أن يقيمه ويعمره ويطهره من جميع النجاسات الحسية والمعنوية كما قال عز وجل : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود *﴾ وقال عز وجل : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * ﴾ وقال عز وجل : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ﴾ وحرّم جميع أنواع الشرك ومظاهره في جميع المساجد ، فقال عز وجل : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً *﴾.

وفى هذا المقام من هذه السورة المباركة التي صدرت بالبراءة من المشركين تمهيد لتجريد الأمر بعدم قربان المشركين للمسجد الحرام في الآية الثامنة والعشرين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نَجَس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم *﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي ما يجوز أن يمكّن المشركون سواء كانوا عرباً أو عجماً وسواء كانوا معاصرين لنزول هذه السورة أو يجيئون بعد ذلك إلى آخر الزمان من الهيمنة على المساجد سواء كان ذلك ببنائها أو التحكم فيها والتسلط على عمّارها من المسلمين لأن المشركين وجميع أنواع الكفار مقرون على أنفسهم

بالكفر ، فلو سألت المشرك عن دينه لأجاب بأنه مشرك وأنه يعبد كذا وكذا ، ولو سألت اليهودي عن دينه لأخبرك بأنه يهودي ولو سألت النصراني عن دينه لأخبرك بأنه نصراني وكذلك جميع أهل الكفر من جميع الديانات ، وماداموا كذلك فهم غير مؤهلين للسيطرة على المساجد التي هي بيوت الله عز وجل المرفوعة لعبادته وحده لا شريك له. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون *﴾ أي هؤلاء المشركون لن يتقبل الله عز وجل منهم عملاً من أعمال الخير كما قال عز وجل : ﴿ وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً *﴾ لأن شروط قبول الأعمال الصالحة أن تكون خالصة لوجه الله وحده ، وأن تكون على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله عز وجل : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين *﴾ بيان للمؤهلين لعمارة المساجد وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر المقيمون للصلاة المؤدّون للزكاة الذين لا يخافون خوف السر إلا من الله وحده فلا يخافون من الأصنام ولامن الأوثان ولامن سائر الأفراد لإيمانهم ويقينهم بأن مقاليد الأمور لله وحده فإن هؤلاء المؤمنين هم الجديرون بعمارة المساجد والهيمنة عليها سواء كانت عمارة حسية أو كانت عمارة معنوية وهؤلاء هم الذين يرجون رحمة الله وهم المهتدون السائرون على صراط الله المستقيم فمعنى ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ قال ابن جرير : يقول : فخليق بأولئك الذين هذه صفتهم أن يكونوا عند الله ممن قد هداه الله للحق وإصابة الصواب. وقال ابن جرير : حدثني المثنى قال : ثنا عبدالله بن صالح قال : ثنا معاوية عن علي عن

ابن عباس : قوله : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ يقول من وحّد الله وآمن باليوم الآخر يقول : أقرّ بما أنزل الله . ﴿ وأقام الصلاة ﴾ يعني الصلوات الخمس ، ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ يقول : ثم لم يعبد إلا الله ، قال : ﴿ فعسى أولئك ﴾ يقول : إن أولئك هم المفلحون ، كقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ يقول : إن ربك سيبعثك مقاما محمودا ، وهي الشفاعة وكل (عسى) في القرآن فهي واجبة اهـ. ومعنى قول ابن عباس : فهي واجبة أي حق ثابت والتعبير بعسى ليكون المؤمن بين الخوف والرجاء في أعماله الصالحة التي يتقرب بها إلى الله عز وجل.

قال تعالى :

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل أن أهل الإيمان هم أهل عمارة المساجد ، ذكر هنا أن المؤمنين بالله واليوم الآخر المهاجرين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم أصحاب الدرجات العلى الفائزون في الدار الآخرة بالفردوس الأعلى في جنات النعيم ، وقد سبقوا بالفضل المسلمين الذين يسقون الحاج ويعمرون المسجد الحرام إذا لم يكونوا من هؤلاء المؤمنين المهاجرين الذين

جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. وقد روى مسلم في صحيحه قال : حدثني حسن بن علي الحُلْواني حدثنا أبو توبة حدثنا معاوية بن سلاّم عن زيد ابن سلاّم أنه سمع أباسلاّم قال : حدثني النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج وقال آخر : ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتم ، فزجرهم عُمر وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله عز وجل : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية إلى آخرها اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ﴾ إلخ ، أي أسويتم بين سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام وبين الهجرة والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله ، فالاستفهام في ﴿ أجعلتم ﴾ لإنكار التسوية ، وقوله عز وجل : ﴿ لا يستوون ﴾ استئناف مؤكد لما علم من إبطال المساواة بين العملين ، فالهجرة والجهاد في سبيل الله أفضل من سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام. ومعنى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ هو امتنان من الله عز وجل على المؤمنين ببيان هذا الحكم المنزل بالوحي المتلو على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي هداهم به إلى الحق فيما اختلفوا فيه ووفقهم لقبوله ، أما الكفار فإن الله عز وجل لا يهديهم هداية توفيق وتسديد بعد ما يبين لهم الحق فلا يقبلونه. وفي هذا تحذير للمسلمين من رد الحق الذي يجيئهم من الله عز وجل أو من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله عز وجل : ﴿ الذين آمنوا

وهاجروا ﴾ إلى آخر قوله : ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ بيان وتأكيد لعدم استواء الفريقين وأن الذين هاجروا وجاهدوا هم أعظم درجة من هؤلاء الذين لم يعملوا عملهم ، ومعنى ﴿ أعظم درجة عند الله ﴾ يعني أعلى منزلة عند الله عز وجل وهم ورثة الفردوس الأعلى.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

هذا تأكيد وتحريض على وجوب قطع الولاية والمحبة بين المسلم والكافر مهما كانت صلة النسب والقرابة بينهما ، وأنه يتحتم على المسلم البراءة من المشرك لأن قطع الولاية بينهما هي أبرز أمارات الدين ولاشك أن أوثق عرى الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله وبهذا يحس المؤمن بطعم حلاوة الإيمان. وقطع الولاية بين المسلم والكافر لا يمنع من صلة القريب الكافر والإحسان إليه ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت لرسول صلى الله عليه وسلم قدِمَتْ عليّ أمي وهى راغبة أفأصل أمي؟ قال: نعم صِلِي أمك. ومعنى راغبة أي طامعة في أن أصلها وكانت أمها يومئذٍ مشركة. وقد بين الله تبارك وتعالى أن حسن معاملة

المسلم للكافر غير منهي عنها حيث يقول عز وجل : ﴿ لا ينهاكم ا لله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين و لم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن ا لله يحب المقسطين *﴾ وأثنى ا لله عز وجل على من يطعم الأسير حيث جعل ذلك من أفضل أعمال البررة حيث قال : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا *﴾. وقد كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يأمر أصحابه بالإحسان إلى الأسرى الكافرين ، إنما المنهي عنه هو محبة الكافر وصداقته واتخاذه بطانة من دون المؤمنين. وقد ذكر ا لله تبارك وتعالى في هذا المقام وجوب قطع الولاية عن الآباء والإخوان إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان ، وأنه يتحتم على المسلم أن يكون حبه لله عز وجل ولرسوله صلى ا لله عليه وسلم. وحبه للجهاد في سبيل ا لله مقدما على حب ماسوى ذلك من كل محبوب للإنسان بجبلته وطبعه كالآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة وهم أقرب الأقارب والأموال المكتسبة والتجارة التي تخافون بوارها بسبب مقاطعة الكفار لكم والقصور والمنازل التي تعجبكم الإقامة فيها، فإذا نازعتكم جبلتكم على عدم تقديم حب ا لله وحب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وحب الجهاد فى سبيل ا لله فانتظروا ما يحل بكم من عقوبة ونكال من ا لله عز وجل ، فإن من آثر الحياة الدنيا على الآخرة مخذول ، ومن قدم الآخرة على الدنيا مهديّ منصور وا لله لا يهدى من فسق عن أمره ولا يسدده ولا يوفقه. وقد أكد ا لله تبارك وتعالى ذلك المعنى وتوعد من يقدم محبوبه على ما يحبه ا لله عز وجل فقال في سورة المجادلة : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون با لله واليوم الآخر يُوَادُّون من حادّ ا لله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون * ﴾.

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المرء لا يؤمن حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي قلابة عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار). كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين). كما روى البخاري أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (والله يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه. فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر).

قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

هذا ترغيب للمؤمنين في الاعتماد على ا لله وحده وقطع الولاية عن كل كافر والوثوق فيما عند ا لله عز وجل وترهيب من مودة أعداء ا لله أو الخوف من ضياع الدنيا عند الاعتصام بحبل ا لله ، فإن ا لله عز وجل هو رب الدنيا والآخرة ، وأن الكثرة إذا لم يكن معها عون من ا لله لا تفيد شيئاً. وقد ضرب ا لله عز وجل هنا أمثلة للمؤمنين بنصر ا لله لهم في مواطن كثيرة ومعارك متعددة أعزّهم ا لله فيها وأذلّ أعداءهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم وعدتهم كيوم بدر والأحزاب وقريظة والنضير وبني المصطلق في المريسيع وخيبر وفتح مكة ، لكنهم لما أعجبوا بكثرتهم يوم حنين لم تغن عنهم شيئاً وولوا مدبرين حتى فاءوا واستجابوا لدعاء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فنصرهم ا لله وأيدهم بجنود لم يروها وألحق الهزيمة بالمشركين فاستولى المسلمون على ذراريهم ونسائهم وأموالهم. وحنين واد بين مكة والطائف على بعد ثمانية عشر ميلاً من مكة قرب ذي المجاز . وكانت وقعة حنين بعد فتح مكة ، وقد خرج إليها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في شوال في عشرة آلاف من المهاجرين وألفين من الطلقاء من أهل مكة الذين أسلموا ، وقد بلغه أن هوازن جمعوا له جموعاً ليقاتلوه وأميرهم مالك بن عوف ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بني هلال وهم قليل وناس من بني عامر وأقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاؤا بقضّهم وقضيضهم ، فسار إليهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في جيش لم يخرج مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم جيش قبل ذلك في مثل عدد هذا الجيش حتى قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلام بن وقش: لن نغلب اليوم من قلة. وقد ساء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مقالة هذا الرجل وكرهها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم. قال

البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين * ثم أنزل الله سكينته ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم *﴾ ثم ساق أحاديث ثم قال : حدثني محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق سمع البراء وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فقال : لكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم ، فأُستُقْبلنا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته البيضاء وإن أباسفيان بن الحارث آخذ بزمامها وهو يقول : أنا النبي لا كَذِب. وفي لفظ للبخاري :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب

كما روى مسلم في صحيحه من حديث العباس بن عبدالمطلب قال : لما كان يوم حنين التقى المسلمون والمشركون فولّى المسلمون يومئذ قال : فلقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وما معه أحد إلا أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب آخذا بغرز النبي صلى الله عليه وسلم لايألو ما أسرع نحو المشركين ، قال فأتيت حتى أخذت بلجامه وهو على بغلة له شهباء ، فقال : يا عباس ناد أصحاب السمُرة ، وكنت رجلاً صَيِّتاً ، فأذّنت بصوتي الأعلى : أين أصحاب السمرة فالتفتوا كأنها الإبل إذا حنت إلى أولادها ، يقولون : يا لبيك يالبيك يا لبيك، وأقبل المشركون فالتقوا هم والمسلمون ، وتنادت الأنصار : يامعشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج فتنادوا يابني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول إلى قتالهم ، فقال : هذا حين حَمِيَ الوَطيسُ ، ثم أخذ بيده من الحصباء فرماهم بها

ثم قال : انْهَزَموا وربّ الكعبة ، انْهَزَموا ورب الكعبة ، قال فوا لله مازال أمرهم مدبرا وحدّهُم كليلا حتى هزمهم ا لله ، قال فكأني أنظر إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يركض خلفهم على بغلته اهـ. وقد أسلمت هوازن بعد المعركة وجاء وفد منهم إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مسلمين وكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قد قسم الغنائم. فسألوا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يرد إليهم سبيهم وأموالهم. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير أن مروان والمسور بن مخرمة أخبراه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قام حين جاءه وفد هوازن مُسْلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم ، فقال لهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : معي من ترون ، وأحبُّ الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين ، إما السبي وإما المال ، وقد كنت استأنيتُ بكم ، وكان أَنظَرهُم رسولُ ا لله صلى ا لله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ، فلما تبين لهم أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في المسلمين فأثنى على ا لله بما هو أهله ثم قال : أما بعد : فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين ، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل ، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايُفيء ا لله علينا فليفعل. فقال الناس : قد طيّبنا ذلك يا رسول ا لله. فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : إنا لاندرى من أذِن منكم في ذلك ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم. فرجع الناس ، فكلمهم عرفاؤهم ، ثم رجعوا إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طَيَّبوا وأذنوا. هذا الذي بلغني عن سبي هوازن اهـ. ومعنى قوله

عز وجل : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ أي ونصركم يوم حنين واذكروا إذ أعجبتكم كثرتكم فقال قائل منكم : لن نغلب اليوم من قلة فلم تنفعكم كثرتكم. ومعنى : ﴿ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ أي وصارت الأرض مع اتساعها ضيقة في أعينكم ثم فررتم من عدوكم وهو أقل منكم عدداً لتعلموا أن النصر ليس بكثرة العدد وإنما هو من عند الله العزيز الحكيم. ومعنى ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ﴾ أي ثم بعد فرار من فر منكم أنزل الله الطمأنينة والأمنة والنصر على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى من معه من المؤمنين وأيدكم بجنود لم تبصروها وقوة لم تعاينوها. ومعنى : ﴿ وعذّب الذين كفروا ﴾ أي وعاقب الذين جحدوا ألوهية ربهم ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهزمهم حتى سبيتم منهم من سبيتم وقتلتم منهم من قتلتم وأسرتم منهم من أسرتم وغنمتم أموالهم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ وذلك جزاء الكافرين * ﴾ أي وهذا الذي فعلنا بهم ليس بظلم منا لهم بل هو عقوبة عاجلة لهم بسبب كفرهم وجحودهم. وقوله عز وجل : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم * ﴾ أي ثم يتفضل الله بتوفيقه للتوبة والإنابة إليه من بعد عذابه الذي ألحقه بأعدائه على من يشاء من الأحياء منهم فيهديه إلى صراطه المستقيم وقد أسلم عامة الأحياء منهم فجبّ الإسلام ماكان منهم من الكفر والمعاصي وغفر الله لهم وأدخلهم في رحمته لأنه غفور رحيم.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

بعد أن مهد في الآية السابعة عشرة من هذه السورة الكريمة وما بعدها بتقرير أن المشركين ليسوا أهلاً لعمارة المساجد وقربانها وأن أهل الإيمان هم أهل المساجد الذين يعمرونها عمارة حسية ومعنوية جرّد الأمر هنا بتحريم قربان المشركين للمسجد الحرام الذي هو قبلة جميع المساجد وأول بيت وضع في الأرض لعبادة الله وحده. كما طمأن المسلمين على أن منعهم المشركين من قربان المسجد الحرام لن يضيق على المسلمين في معايشهم ومتاجرهم التي كان المشركون يروجونها عند المسجد الحرام ووعدهم الله عز وجل بأنه سوف يغنيهم من فضله بمشيئته وعلمه وحكمته ، فقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ الآية.
ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ أي يا معشر من آمن بالله وصدق المرسلين ما الكفار إلا أنجاس فلا تمكنوهم من دخول المسجد الحرام وامنعوهم من قربانه لأن الله عز وجل أمر بتطهيره من النجاسات الحسية والمعنوية حيث قال لإبراهيم عليه السلام : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود * ﴾ فاقتضى ذلك وجوب تطهيره من سائر الأنجاس والأرجاس والمذاهب الهدامة والاعتقادات الباطلة ولا يتأتى ذلك إلا بإبعاد أهلها عن المسجد الحرام .

وقد نزلت سورة التوبة في شوال من السنة التاسعة للهجرة النبوية وحج أبو بكر رضي الله عنه فيها وأعلن أنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان كما تقدم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم * ﴾ أي وإن خشيتم من منع المشركين من قربان المسجد الحرام فقراً وبوار تجارة وكساداً في أسواق مكة فأبعدوا هذه الخشية عنكم وثقوا في أن الله عز وجل سيغنيكم من فضله بمشيئته وعلمه وحكمته. وقد أنجز الله للمسلمين وعده وساق لهم من الخيرات والبركات وجعلهم أعز الأمم وأغناهم وجعل أرضهم مخازن لأنواع من السلع النادرة في العالم.

قال تعالى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

بعد أن فصّل الله تبارك وتعالى أحكام معاملة المشركين الوثنيين في جزيرة العرب وغيرها ، شرع هنا في توجيه المسلمين إلى قتال اليهود والنصارى مبيناً خبث عقائدهم وحرصهم على إطفاء نور الله بأفواههم إلى أن يندفع شرهم عن الإسلام والمسلمين فيؤدوا الجزية للمسلمين عن يد وهم صاغرون ، وأن على المسلمين أن يسعوا إلى نشر تعاليم الإسلام وإعلاء رايته حتى يكون الإسلام ظاهراً على سائر الملل والنحل لتسعد الإنسانية بأنواره وتهتدي به إلى صراط الله المستقيم فتحيا الحياة الآمنة المطمئنة في ظل تشريعاته العادلة وأحكامه الفاضلة التي تحفظ الدماء والأعراض والأموال والعقول ، وقد بعث الله بها شيخ المرسلين وخاتم النبيين محمداً صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين فأتم الله بها النعمة وأزالت عن الإنسانية أوضارها وأزاحت عنها إصرها وأغلالها ، وقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء والمرسلين أن يأمروا أممهم باتباعه حيث قال عز وجل : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين *﴾ فتتابعت وصايا الرسل لأممها باتباع النبي الأمي حتى وقف آخر أنبياء بني إسرائيل خطيباً فيهم يقول : ﴿ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ الآية.

وقد فضح الله اليهود والنصارى في هذا المقام وغيره من كتاب الله عز وجل وبيّن أن عقائدهم التي يعيشون عليها تشابه عقائد الوثنيين من مشركي العرب والعجم ، فاليهود قالوا : عزيرٌ ابن الله والنصارى قالوا : المسيح ابن الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله مع أن أسفار التوراة وكتب

العهد القديم التي يدعى اليهود أنها شريعتهم تحرم عبادة غير الله وتقرر أن الله إله واحد لا شريك له. كما يدعى النصارى أن التوراة التي بأيديهم وبأيدي اليهود وكذلك سائر كتب العهد القديم والعهد الجديد هي شريعتهم مع أنها تحرم عبادة غير الله وتقرر أن الله إله واحد لا شريك له ، وقد جاء في إنجيل مرقص في الإصحاح الثاني عشر منه في الفقرة السادسة والعشرين : (أفما قرأتم في كتاب موسى في أمر العُلَيقة كيف كلمه الله قائلا : أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب) . وفى الفقرة الثامنة والعشرين إلى الثانية والثلاثين منه : (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله : أية وصية هي أول الكل ؟ فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا هي : اسمع يا إسرائيل : الرب إلَهنا رب واحد ، وتحب الرب إلَهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى وثانية مثلها هي تحب قريبك كنفسك ، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين. فقال له الكاتب: جيداً يا معلم ، بالحق قلت ، لأنه الله واحد وليس آخر سواه). وفى إنجيل يوحنا التقرير بأن الله واحد وأن عيسى رسول الله حيث جاء في الفقرة الثانية من الإصحاح السابع عشر منه : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) اهـ. ولم يكتف اليهود والنصارى بضلالهم في أنفسهم وانحرافهم عن كتبهم التي بأيديهم بل عملوا على إضلال الناس وصدهم عن سبيل الله وهم يبذلون كل جهد لمحاربة الإسلام فهم ضالون مضلون.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى

يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون *﴾ أي حاربوا وجاهدوا الذين لا يقرون بألوهية رب السموات والأرض وأنه لا إله إلا هو ، ولا يقرون بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء ويستبيحون ما حرم الله ورسوله من أكل الخنزير والخمر والزنا وغير ذلك من المحرمات التي حرمها الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق أي ولا يدخلون في دين الإسلام الذي هو الدين الحق ويلتزمون به وينقادون له من اليهود والنصارى إلى أن يسلموا أو يؤدوا الجزية وهي خراج يضربه عليهم إمام المسلمين كل عام ولا يفرضه إمام المسلمين إلا على البالغ القادر منهم أما المرأة والصبي والعبد والشيخ الفاني والأعمى والمفلوج من اليهود والنصارى فإنه لا تفرض عليهم جزية. ويشترط عليهم أن يؤدوها منقادين للمسلمين ، وهذه الجزية تحميهم من قتالنا لهم وتفرض علينا حمايتهم ممن يقاتلهم وهي سبيل لتعرفهم على الإسلام وفيها منفعةٌ ظاهرة للمسلمين وتقوية لمواردهم المالية ، فإن قال قائل : إن اليهود والنصارى يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فالجواب أن إيمانهم هذا غير صحيح لأنهم يشركون بالله ويشبهونه بخلقه ، وإيمانهم بالبعث غير صحيح لأنهم يقولون : هو بعث أرواح لا بعث أجسام.

وقوله عز وجل : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون *﴾ بيان يفضح اليهود والنصارى ويوبخهم على شركهم بالله وادعائهم أن لله ولداً وهو قول فاحش ومنكر كبير تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً كما قال عز وجل : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدّاً *﴾ أي ارتكبتم منكرا فظيعاً ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن

أن يتخذ ولداً *﴾ فهـذه الجريمـة المنكـرة اقترفهـا المشـركون مـن العـرب حيـث زعموا أن الملائكة بنات الله ، وارتكبها اليهود حيث زعموا أن العزيـر ابـن الله وارتكبها النصارى حيث زعموا أن المسـيح ابـن الله وارتكبهـا الهنـدوس حيـث زعموا أن كرشنة ابن الله كما ارتكبها البوذيون حيث زعموا أن بـوذا ابـن الله فتساوى في ذلك من تباهوا بـأنهم أهـل الكتـاب ـ وهـم اليهـود والنصـارى ـ والمشركون الوثنيون من العرب والعجم. ولذلك وبخ اليهـود والنصـارى حيـث يقول : ﴿ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي يشابهون قول من سـبقهم من أهل الجاهلية الكفرة المشـركين وليـس معهـم أي دليـل علـى هـذه الدعـوى الكاذبة الفاجرة ، ولذلك قال عز وجـل : ﴿ ذلـك قولهـم بـأفواههم ﴾ أي هـو كلام لا دليل عليه ولا أصل له ولا يتجاوز فـم من ينطق به ويدعـيه فلا بيان لـه ولا برهـان وليس تحته معنى صحيـح . وقولـه عـز وجـل : ﴿ قـاتلهم الله أنـىّ يؤفكون ﴾ أي لعنهم الله وفيه التعجب من شناعة قولهـم وبشـاعة مقـالهم وهـم يعرضون أنفسهم للهـلاك بسـفاهتهم. ومعنـى : ﴿ أنـىّ يؤفكـون ﴾ أي كيـف يضلون عن الحق وهو أبلج ويعدلون إلى الباطل وهو لجلج . وقولـه عـز وجـل : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشـركون *﴾ هـذا بيـان لفضيحـة أخرى من فضائح اليهود والنصارى المستوجبة لقتالهم أي جعل اليهود أحبـارهم وهم علماؤهم وقراؤهم وجعل النصارى رهبانهم وهم المتعبدون أهـل الصوامـع آلهة يعبدونهم من دون الله الواحد القهار كما جعل النصارى المسيح ابـن مريـم إلهاً يعبدونه من دون الله مع أنهم ما أمروا على ألسنة رسلهم إلا أن يعبدوا إلهـاً واحداً لاندّ له ولاشريك ولانظير وهو المستحق لجميـع أنـواع العبـادة ولا يجـوز

صرف شيء منها لغيره مهما كان ، تنزه وتقدس وتعالى عن جميع الأنداد.
وكان علماء اليهود ورهبان النصارى يحلون لأتباعهم ما حرم الله عليهم ويحرمون عليهم ما أحل الله لهم وكانوا ينقادون لهم في التحريم والتحليل وجعلوهم أربابا من دون الله الذي لا حلال إلا ما أحل ولا حرام إلا ما حرم في كتابه أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع قال : ثنا يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن حبيب عن أبى البخْتَري قال : قيل لحذيفة، أرأيت قول الله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ﴾ قال : أما إنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا أحله الله لهم حرموه فتلك كانت ربوبيتهم اهـ. كما كان هؤلاء اليهود والنصارى إذا كان فيهم العبد الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه صوراً ثم عبدوا هؤلاء الصالحين واتخذوهم أربابا من دون الله. وقد سلك اليهود والنصارى في هذا المسلك المنحرف ما سلكه قوم نوح عندما عبدوا غير الله عز وجل واتخذوا وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا وهي أسماء رجال صالحين كما روى البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : (أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسَمّوها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَفَسّخَ العلم عُبدت اهـ. ولذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين قبل موته بأيام من اتخاذ القبور مساجد ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح

فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة).وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم قالا : (لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : (لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) يحذر ما صنعوا. وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها : مارية فذكرت له مارأت فيها من الصور فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله). كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي مات فيه : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد). قالت:(ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجداً) وفي لفظ مسلم : (فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً). كما روى مسلم في صحيحه من حديث جندب رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول : (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذاً من أمتي لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم

وصالحيهم مساجد فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك).

وقوله تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور ا لله بأفواههم ويأبى ا لله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون * ﴾ هو توبيخ للكفار من المشركين واليهود والنصارى على محاربتهم دين ا لله عز وجل الذي بعث به حبيبه ورسوله وخاتم أنبيائه محمداً صلى ا لله عليه وسلم وتيئيس لهم من الانتصار عليه وقطع لأطماعهم التي يبذلونها لإخماد نوره الذي جعله هدى للمتقين وسبيلاً لسلوك صراط ا لله المستقيم في العقائد والعبادات والمعاملات وجميع ما تحتاجه الإنسانية في معاشها ومعادها ، وهو كذلك ترغيب للمسلمين في محاربة هؤلاء الكافرين الذين يصدون عن سبيل ا لله. وقد وصف ا لله عز وجل الإسلام بأنه نور وأن الكفر ظلمات حيث قال عز وجل : ﴿ أو من كان مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون *﴾ وقال عز وجل : ﴿ ا لله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي ا لله لنوره من يشاء ويضرب ا لله الأمثال للناس وا لله بكل شيء عليم *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور ا لله بأفواههم ﴾ أي يرغب هؤلاء الكافرون الجاحدون العابدون غير ا لله من الوثنيين واليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ا لله وخالفوا شرائع ا لله وأوامره ونواهيه ويحاولون بألسنتهم تعطيل الشريعة وإطفاء أنوارها بأقوالهم

التي لا تستند إلى برهان ولا تعتمد على دليل وإنما هي خبط عشواء. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون *﴾ أي وقد قضى الله عز وجل أن تكون كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ولابد أن ينتصر دين الله وتشع أنواره على العالمين ولا يضره من خالفه وحاول صدّ الناس عن الاهتداء به وكرهوا أن ينتصر الحق على الباطل والهدى على الضلال وافتروا على الله الكذب وهم يُدْعَوْنَ إلى الإسلام الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور . وقد أشار الله عز وجل في مقام شبيه بهذا المقام من كتاب الله عز وجل في سورة الصف وذكر نصائح موسى وعيسى لقومهما وتبشير عيسى لقومه بمحمد صلى الله عليه وسلم وحضّهم على اتباعه إذا جاءهم حيث يقول عز وجل : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين * وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون *﴾. وقد بشر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بأن الله عز وجل زوى له الأرض مشارقها ومغاربها وأن ملك أمته سيبلغ ما زوى له منها ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زوى لي منها).

وقد حقق الله عز وجل وعده للمسلمين وأنجز ما وعد به رسوله صلى الله عليه وسلم حيث بلغ ملك المسلمين إلى الصين شرقاً واستولى المسلمون في أوربا على أرض ما يسمى الآن بأسبانيا والبرتغال وجزء من أرض فرنسا وعلى مملكة الروم الشرقية ، واستولى العثمانيون على ألبانيا والبوسنة والهرسك وأماكن في شمال أوربا حتى دخل الإسلام هولندا. وقد أثر أن هارون الرشيد الخليفة العباسي كان جالساً أمام قصره يوماً فرأى سحابة فقال : (سيري أينما شئت وامطري أينما شئت فسيأتيني خراجك). ولازالت أنوار الإسلام تتلألأ في أنحاء المعمورة رغم كيد الكائدين وحسد الحاسدين وحقد الحاقدين وتشويش المشوشين و لله الحمد والمنة ولذلك قال الله عز وجل هنا : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون *﴾.

قال تعالى :

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

هذا بيان لفضيحة الأحبار والرهبان الذين استغلوا مناصبهم أسوأ استغلال ولعبوا بعقول أتباعهم الجاهلين الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، فبيّن عز وجل هنا أن الكثير من هؤلاء الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل

ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة التي يستولون عليها من أتباعهم ولا ينفقونها في بيان الحق الذي جاء به المرسلون. وقد ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه صورة سيئة عن بعض هؤلاء فقد قال ابن إسحاق في السيرة النبوية : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن عبد الله ابن عباس قال : حدثني سلمان الفارسي من فيه ، قال : (كنت رجلاً فارسياً من أهل إصبهان من أهل قرية يقال لها : جَيْ ، وكان أبى دِهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية ، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة ، وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، قال : فَشُغِل في بنيان له يوماً، فقال لي : إني قد شُغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها فاطلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد ، ثم قال لي : ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهم إليّ من ضيعتي وشغلتني عن كل شيء من أمري . قال : فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون وكنت لا أدري ما أَمْرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم ، أنظُر ما يصنعون. فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في أمرهم ، وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن فيه ، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي فلم آتها ، ثم قلتُ لهم : أين أصْلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام. فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي ، وشغلته عن عمله كله ، فلما جئته قال : أي بُنَيّ ، أين كنت ؟ أو لم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت له : يا أبت ، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى

غربت الشمس. قال : أي بُنَيّ ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه. قال : قلتُ له : كلا وا لله إنه لخير من ديننا. قال : فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته. قال : وبعثت إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركْبٌ من الشام فأخبروني بهم. قال : فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم. قال : فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : مَنْ أفضل هذا الدين علماً ؟ قالوا : الأسقُف في الكنيسة. قال : فجئته فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك فأتعلم منك وأصلي معك. قال : ادخل. فدخلت معه قال : وكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له شيئا منها اكتنزه لنفسه و لم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قِلالٍ من ذهب ووَرِقٍ. قال : فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات ، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه و لم يعط المساكين منها شيئاً ، قال : فقالوا لي : وما علمك بذلك ؟ قال : قلت لهم : أنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه. قال : فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءةٍ ذهباً ووَرِقاً ، قال : فلما رأوها قالوا : وا لله لا ندفنه أبداً. قال : فصلبوه ورجموه بالحجارة. الحديث.

وفي تصدير هذا المقام بقوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لتحضيض المؤمنين على قتال اليهود والنصارى الذين يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون ا لله مع أن هؤلاء الأحبار والرهبان من أسوأ خلق ا لله سلوكاً وحتى لو

كانوا صالحين ما جاز اتخاذهم أرباباً من دون الله وهـذا يبين أن هـؤلاء اليهـود والنصارى قد انحطوا إلى درجة هي أحط من درجة المشركين الوثنيين من العرب والعجم.

ومعنى : ﴿ يأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ أي يستولون على أموال النـاس بغير حق كجمعها من أتباعهم بدعوى توزيعهـا علـى الفقـراء والمسـاكين كذبـاً وهم يكنزونها لأنفسهم وكذلـك الحصـول عليهـا بـالتدجيل علـى أتبـاعهم مـن الرعاع حيث يكتبون لهم كتابات كاذبة في نظير أموال منهم ويدعون أنهـا مـن وصايا الأنبياء وهم كاذبون فيها ويأكلون السحت. والتعبير بقولـه: ﴿ يـأكلون أموال الناس ﴾ لأن الأكل هو المقصود الأعظم من الحصول علـى الأمـوال. وإن كانت محرمة عليهم أكلاً أو شـرباً أو لبسـاً أو سـكناً أو غـير ذلـك. وقولـه عـز وجل: ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي وهم مع أكلهم أمـوال النـاس بالبـاطل وانغماسهم في السحت يصدون عن سبيل الله ويقفـون في وجـه الدعـاة إلى الله ويمنعون أتباعهم من اتّباع الديـن الحـق والإيمـان بـالله ورسـوله صلـى الله عليـه وسلم. وقوله عز وجل : ﴿ والذيـن يكـنزون الذهـب والفضـة ولا ينفقونهـا في سبيل الله فبشرهـم بعذاب أليم * ﴾ وعيد شديد لهؤلاء الأحبـار والرهبـان الذيـن استغلوا مناصبهم وثقة أتباعهم فيهم فأفسدوا في الأرض بدل إصلاحهـا وجمعـوا منهم الأموال بدعوى إنفاقهـا علـى المحتـاجين فكنزوهـا ، كمـا أن فيهـا تحذيـراً شديداً لعلماء المسـلمين مـن سـلوك هـذا المسـلك المشـين. وقـد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يكون كنز أحدكم يوم القيامة شجاعاً أقـرع). كما روى البخاري في صحيحـه في التفسـير مـن طريـق زيـد بـن وهـب قـال :

(مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم *﴾. قال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا في أهل الكتاب. قال : قلت : إنها لفينا وفيهم). وقال البخاري في كتاب الزكاة من صحيحه من طريق زيد بن وهب قال : (مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، قال معاوية : نزلت في أهل الكتاب. فقلت : نزلت فينا وفيهم فكان بيني وبينه في ذاك وكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني ، فكتب إليّ عثمان أنِ اقْدَم المدينة فقدمتها فكثر عليّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك ، فذكرت ذاك لعثمان فقال لي : إن شئت تنحيت فكنت قريباً فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمروا عليّ حبشياً لسمعت وأطعت) اهـ

وقوله تعالى : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون *﴾ وعيد شديد لمن يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها في سبيل الله ولا يؤدي زكاتها. ومعنى ﴿ يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ أي يوقد على هذه الأموال في نار جهنم فتحرق بها وجوههم وجنوبهم وظهورهم أي يحيط بهم الحريق والكي ويكون للجباه والجنوب والظهور القسط الأكبر من هذا العذاب. وقوله عز وجل : ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أي يقال لهم : هذا العذاب الذي تذوقونه وهذا الكي الذي يكويكم ويقع بكم هو ما ادخرتموه لأنفسكم بكنزكم للأموال وعدم بذلها

لمستحقيها وترككم الإنفاق في سبيل الله فذوقوا ما كنتم تكنزون وأحسوا طعم عملكم السيء وتدبيركم القبيح ، وقد قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون *﴾ وقال أحمد بن شبيب بن سعيد حدثنا أبي عن يونس عن ابن شهاب عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبدالله بن عمر فقال : (هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أُنزلت جعلها الله طهراً للأموال). وقد روى مسلم في صحيحه من طريق الأحنف بن قيس قال : (كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر وهو يقول : بشر الكانزين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكي من قِبَل أقفائهم يخرج من جباههم. قال : ثم تنحى فقعد ، قال : قلت : من هذا ؟ قالوا : أبو ذر ، قال : فقمت إليه ، فقلت: ماشيء سمعتك تقول قُبَيْلُ ؟ قال : ما قلت إلا شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم). كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمي عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جنباه وجبينه حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار). وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مامن صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار). الحديث.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

بعد أن حرض ا لله المؤمنين على قتال اليهود والنصارى وذكر الأسباب التي تدعو إلى قتالهم ومحاربتهم وبيّن فضائح الأحبار والرهبان ، ذكر هنا صوراً من انحراف الناس عن صراط ا لله المستقيم وابتعادهم عن وصايا الأنبياء والمرسلين وأن من هذه الانحرافات تلاعبهم بالأشهر الحرم التي حرم ا لله عز وجل القتال فيها لحفظ دماء الناس في هذ الأشهر حتى يكون ذلك تدريباً لهم على صيانتها في السنة كلها وقد جعل ا لله القتال في الأشهر الحرم من الكبائر حيث يقول عز وجل : ﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ وهذه الأشهر هي القعدة والحجة والمحرم ورجب لكن هؤلاء الجاهلين المشركين تلاعبوا بهذه الأشهر فإذا اشتهوا القتال والتعدي على أموال الناس ودمائهم لجئوا إلى النسيء وهو تأخير تحريم الشهر الحرام إلى شهر آخر من غير الأشهر الحرم واستباحوا القتال في الشهر الحرام بدعوى أنهم أجلوا تحريمه إلى شهر آخر فيجعلون المحرم صفراً وهكذا فأفسدوا نظام الشهور حتى صار الحج يقع في غير

ذي الحجة بسبب هذا النسيء فوبخهم ا لله عـز وجـل علـى هـذه الجريمـة وهـذه الجرأة على ا لله عز وجل وحض المسلمين على قتالهم. وقد أخـبر ا لله عـز وجـل أنه وضع للنـاس نظـام الشـهور يـوم خلـق السـموات والأرض وأوضـح لهـم أن الشهور التي اختارها لعبادات الناس بعلمه وحكمته هي الشهور الهلالية المرتبطـة بسير القمر في منازله وهـي المحرم وصفـر وربيـع الأول وربيـع الآخـر وجمـادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان ورمضان وشوال والقعدة والحجة وربط بهذه الأشهر الكثير من أمور الدين كما قال عز وجل : ﴿ يسألونك عن الأهلـة قل هي مواقيت للنـاس والحـج ﴾ وكمـا قـال عـز وجـل : ﴿ هـو الـذي جعـل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾. ومـن ثمرات ربط الأمور الدينيـة بالشـهور القمريـة أن يـدور الصيـام والحـج في السـنة الشمسية كلها فتأتي هذه العبادات في الأيام الطويلة والقصيرة والصيف والشـتاء والربيـع والخريـف لمـا في ذلـك مـن الحكمـة البالغـة ، كمـا أن معرفـة الأشــهر والمواقيـت بالأهلـة يشـترك فيهـا العـوام والخـواص مـن النـاس بخـلاف الأشــهر الشمسية فإنها لا يعرفها إلا الحاسبون وهــي مرتبطـة بمواقيـت الزراعـة والحـرارة والبرودة وقد اعتمد الناس الذين لا ينتهجون في منـاهج حيـاتهم شـرائع الأنبيـاء والمرسلين السنة الشمسية لحساباتهم الدينية والدنيويـة فجعلـوا السـنة اثـني عشـر شهراً لكنهم حددوا أيامهـا بثلاثمائـة وخمسـة وستين يومـا وبعـض يـوم والسـنة مرتبطة بدورة الشمس في الفلك دورة تامة.

وقد كان من توفيق ا لله لرسوله محمد صلـى ا لله عليـه وسـلم أنـه في السـنة العاشرة من الهجرة كـان الزمـان قـد اسـتدار كهيئتـه يـوم خلـق ا لله السـموات والأرض فصار العاشر من ذي الحجة في تلك السنة هـو العاشـر مـن ذي الحجـة

على الحال التي كانت يوم خلق الله السموات والأرض. وقد أعلن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال : خَطَبَنَا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُمٌ ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. وقال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى. قال: أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال : أليس البلدة ؟ قلنا : بلى. قال :فأي يوم هذا؟ قلنا : الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى. قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم. قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهدُ الغائبَ فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع) اهـ

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾ أي إن عدد شهور السنة عند الله الذي خلق الشمس والقمر والحركات والأزمنة وربط بها ما يكون من الأحكام الشرعية هي اثنا عشر شهراً هلالية وكتبها في اللوح المحفوظ يوم خلق السموات والأرض وفرض على عباده الالتزام بها فلا يجوز لأحد من خلق الله كائناً من كان تغييرها. وقوله عز وجل ﴿ منها أربعة حرم ﴾ أي من الشهور الاثنى عشر

أربعة أشهر حرّم الله عز وجل على عباده الاقتتال فيها وأوجب البعد عن سفك دماء بني آدم إبانها ، وتأمين الناس حتى يؤدوا فريضة الحج آمنين مطمئنين في ذهابهم إلى مكة وعودتهم إلى بلادهم مهما تناءت وتباعدت ديارهم ،وحرّم رجب في وسط الحول ليكون فرصة أخرى لمن رغب في زيارة المسجد الحرام وأداء العمرة ، كما أن ذلك يدرب الناس على الابتعاد عن سفك الدماء بقية العام. وقوله عز وجل : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي ذلك هو التشريع الثابت المهيمن على جميع أعمال الناس ولا يحل لهم أن ينحرفوا عنه بحال من الأحوال ، وقد بقيت حرمة الأشهر الحرم كما بقيت حرمة البلد الحرام وستبقى إلى يوم القيامة ، ولذلك روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي و لم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة) الحديث. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي شريح العدوي رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن مكة حرمها الله و لم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن با لله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا له : إن الله أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم و لم يأذن لكم وإنما أذن لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبغ الشاهد الغائب) الحديث.

وقوله عز وجل : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أي فلا تعتدوا على حرمة هذه الأشهر الحرم فتسببوا لأنفسكم عذاب جهنم وتُحَمِّلوها من العذاب ما لا

تطيق. وقوله عز وجل : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين *﴾ استئناف مسوق للتحريض على قتال المشركين في غير الأشهر الحرم إلا إذا بدأ المشركون بقتال المسلمين في الأشهر الحرم فإن المسلمين يردون عليهم ويقاتلونهم في الأشهر الحرم كما قال عز وجل : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ وقال هنا : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين *﴾ و (كافة) أي جميعاً ، أي كما يجتمعون لحربكم وقتالكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضاً لقتالهم إذا قاتلتموهم وإذا بدأت الحرب في الشهر الحلال ثم دخل الشهر الحرام و لم يتوقف المشركون عن الحرب فإن المسلمين يستمرون في قتالهم في الشهر الحرام ، فقد ابتدأت هوازن وحلفاؤها من ثقيف جمع جيوشها لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة فسار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال ووقعت معركة حنين ثم بعد هزيمتهم تحصنوا بالطائف فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر الحصار قريباً من أربعين يوما وقد دخل الشهر الحرام فاستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حصارهم أياماً من شهر ذي القعدة الحرام ثم قفل عنهم. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : واستمر الحصار بالمنجنيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام مالا يغتفر في الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ﴾ الآية بيان وتأكيد لما كان عليه المشركون من التلاعب بالأشهر الحرم حيث كانوا يؤجلون تحريم الشهر الحرام إلى شهر آخر حلال فيؤخرون حرمة المحرم إلى صفر دون خجل أو وجل بل كانوا يتباهون بذلك حتى قال شاعرهم عمير ابن قيس :

لقد علمت مَعَدُّ بأن قومي كرام الناس إن لهم كراما

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

وأصل النسيء التأخير ، وقد وصف الله عز وجل عملهم هذا بأنه زيادة في الكفر لأنهم مقرون بأن شهر محرم هو الشهر الحرام بما توارثوه من ملة إبراهيم عليه السلام فإذا اجترءوا على تحليله وتحريم غيره من أشهر الحل كان ذلك منهم زيادة في الهجوم على شريعة الله وتعمقاً في الانغماس في الضلال والفجور. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ليواطئو عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ أي ليوافقوا ما حرم الله في عدد الشهور لا في ذات هذه الشهور وهذه سخافة وانحطاط وتلاعب بشرائع الله ، وكان أول من ابتدع النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف كما ذكر الإمام البغوى في تفسيره. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب وهو يجر قصبه في النار) اهـ. ولاشك أن عمرو بن لحي الخزاعي هو الذي جلب إلى جزيرة العرب أصناماً بأسماء أصنام قوم نوح ودعا إلى عبادتها. وقد ذكر ابن إسحاق في السيرة النبوية أن أول من نسأ الشهور على العرب هو القلمس الكناني ثم بنوه من بعده والله أعلم.

وقوله عز وجل : ﴿ زين لهم سوء أعمالهم ﴾ أي زين لهم الشيطان أعمالهم القبيحة السيئة وزخرفها لهم فحسبوا أنهم يحسنون صنعاً. ومعنى : ﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي والله لا يسدد القوم الجاحدين لآياته وبراهينه ولا يوفقهم إلى طريق الرشاد ، فهداية الرشد والتوفيق والسداد إنما تكون للمؤمنين بالله ورسله ، أما الكافرون فليس لهم إلا هداية البيان إعذاراً وإنذاراً.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، عاتب هنا من تباطأ عن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى غزوة تبوك وكانت في شدة الحر والقيظ وكان الناس في عسرة وقد

طابت الثمار والظلال و لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا وَرّى بغيرها إلا غزوة تبوك كما جاء في صحيح البخاري من حديث كعب بن مالك قال : (و لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أُهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله. وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال) الحديث ، فتثاقل بعض الناس وتباطئوا في الخروج فأنزل عز وجل هذه الآيات لعتابهم وتنبيههم إلى تعرضهم لعذاب الله إذا لم يبادروا للخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جهز عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العسرة من ماله كما ذكره البخاري في صحيحه.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ﴾ أي ما الذي حدا بكم وحصل لكم حين دعاكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لكم : انفروا أي اخرجوا للغزو في سبيل الله تتثاقلون مائلين إلى الراحة والإخلاد إلى أرضكم ومساكنكم . والاستفهام في قوله : ﴿ مالكم ﴾ للعتاب والإنكار على من تثاقل وتباطأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله عز وجل ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ الاستفهام فيه لتشديد العتاب على من تباطأ في الخروج ، أي أهذا رضىً منكم بالدنيا ونعيمها الفاني بدل الآخرة ونعيمها الباقي. ثم زهدهم في هذا النعيم الزائل

ورغبهم في النعيم الباقي فقال عز وجل : ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ ، وهذه ولا شك لشحذ الهمم في طلب نعيم الآخرة الذي لا يزول والحرص على الجهاد في سبيل الله وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث المستورد بن شداد الفهري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع). وقوله عز وجل : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير * ﴾ تهديد لمن لم يستجب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى غزوة تبوك ووعيد لهم بعذاب من الله عز وجل وإهلاكٍ لهم وإيجاد قوم صالحين مستجيبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدلهم ، وإعلان لهم بأن معصيتهم لله ورسوله لا تضر إلا أنفسهم ولن يضروا الله شيئاً لأنه غني عن طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين وهو تبارك وتعالى غالب قاهر لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، وكما قال عز وجل : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾. وقوله عز وجل : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ إعلام من الله عز وجل بأنه متكفل بنصر رسوله وتأييد دينه وإعلاء كلمته دون حاجة إليكم ، إنما يكلف عباده بالجهاد لمصلحتهم ورفع درجاتهم ، وقد ساق الله عز وجل هنا آية ظاهرة وبرهاناً ساطعاً على ذلك حيث نصر رسوله صلى الله عليه وسلم على مشركي قريش عندما تآمروا عليه بمكة ومكروا به لحبسه أو قتله أو نفيه وهو بدون أنصار من الخلق فأبطل الله كيدهم وأضاع مكرهم ونصر نبيه صلى الله عليه وسلم عليهم ، حيث قال عز وجل هنا : ﴿ إذ أخرجه الذين

كفروا ثاني اثنين ﴾ أي حين مكر به الكفار فخرج من مكة منفرداً عن جميع الناس إلا من رجل واحد هو أبو بكر رضي الله عنه. يقال : ثاني اثنين. أي أحد اثنين فقط. فخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته بمكة وقد جعل أهل مكة على بابه مجموعة من الشباب وبأيديهم سيوفهم ليضربوه صلى الله عليه وسلم ضربة رجل واحد إذا خرج من بيته فيحميه الله منهم ويخرج من بينهم فلا يبصرونه ويتوجه إلى بيت أبي بكر رضي الله عنه ويصطحبه معه إلى غار ثور ليكمن فيه حتى يهدأ عنه الطلب. فهذه آية من آيات نصر الله له صلى الله عليه وسلم ، ثم عندما نزل هو والصديق أبو بكر رضي الله عنه إلى الغار بعث الله العنكبوت فنسج على باب الغار فلما تتبع المشركون أثر أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهوا في تتبع الأثر إلى الغار وجدوا نسج العنكبوت فانصرفوا ، ولو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه قال : حدثني أبو بكر رضي الله عنه قال : (كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار ، فرأيت آثار المشركين. قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا. قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟) اهـ وقد سقت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ الآية ما رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة نسج العنكبوت على فم الغار بإسناد حسن وصفه ابن كثير في السيرة النبوية بأنه أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار وذلك من حماية الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما حسّن الحافظ ابن حجر إسناد هذا الحديث.

وفي قوله عز وجل : ﴿ إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ تقرير لآية أخرى باهرة وحجة كبرى ظاهرة تشهد بأن الله عز وجل ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم على أعدائه ولو تباطأ من تباطأ وتثاقل عن الخروج إلى تبوك من يتثاقل ، وتصوير للحالة النفسية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولرفيقه وصاحبه الصديق رضي الله عنه وهما في الغار وقد وقف أعداؤه الكفار على باب الغار ، ولو نظر أحدهم أسفل قدمه لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبيبه وخليله الصديق ، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مطمئن النفس واثقاً بحفظ الله له ولصاحبه غير خائف من المشركين ، وكان أبو بكر حزيناً لا جبناً منه ولا خوفاً على نفسه ، حيث كان حزنه خوفاً أن ينال رسول الله صلى الله عليه وسلم أذى من المشركين وحرصاً على سلامة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطمأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : (لا تحزن إن الله معنا) ، فطابت نفس أبي بكر وزال حزنه وأنزل الله عليه السكينة والطمأنينة وصرف المشركين عن الغار وأيده الله عز وجل بجنود وقوى لم يرها أحد ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغار بعد ثلاثة أيام من الإقامة فيه واتجها إلى المدينة المنورة وصانهما الله عز وجل حتى وصلاها آمنين مطمئنين. والغار نقب عظيم في جبل ثور . وهذه الآية من الشواهد الكثيرة على علو منزلة أبي بكر رضي الله عنه ولم ينص على صحبة أحد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم غير أبي بكر رضي الله عنه ، كما أشار الله عز وجل إلى خلافة أبي بكر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم في قوله عز وجل في سورة الفتح: ﴿ قل للمخلفين من الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون

فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً *﴾ حيث كانت هذه الآية توبيخاً للذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأعراب في غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك صاروا يعتذرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنهم سيدعون إلى قتال قوم أولي بأس شديد لا خيار لهم إلا بالإسلام أو السيف ، وهذا لم يكن إلا في المرتدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الداعي لقتالهم أبا بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو لم تكن طاعته واجبة لما وعد مطيعيه بالأجر العظيم وتوعد من لم يجبه بالعذاب الأليم. ومن المعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحارب مشركين ولا مرتدين بعد نزول هذه الآية لأن ماعدا المشركين والمرتدين يخيرون بين الإسلام أو السيف أو الجزية. فهذه الشواهد القطعية تقصم ظهور أهل الأهواء المنكرين لخلافة أبي بكر رضي الله عنه وصديقيته. قال الإمام البغوي في تفسيره : قال الحسين بن الفضل : (من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لإنكاره نص القرآن ، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً لا كافراً. وقوله عز وجل : ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ لم يكن حزن أبي بكر جبناً منه وإنما كان إشفاقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم) اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم*﴾ أي وأبطل تدبير الكفار وخيب سعيهم وأضاع مكرهم فانقلبوا خاسرين مدحورين لم يصيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه بأذى وانحطت كلمة الكافرين وقد ارتفعت كلمة التوحيد وهي لا إله

إلا الله وهذا ديدنها وديدن أهلها فإنهم هم المنصورون أبداً والأعلون دائما والله غالب على أمره قادر على قهر أعدائه حكيم في تدبيره وصنعه.

قال تعالى :

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

بعد أن عاتب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الخروج في غزوة تبوك وهدد من يتخلف عن دعوة ولي أمر المسلمين إذا دعا للجهاد في سبيل الله ، وأشار إلى أن الأعراب المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتيح الله لهم فرصة الغزو في سبيل الله وسيدعوهم ولي أمر المسلمين لقتال قوم أشداء متمرسين في القتال فمن أطاع هذا الداعي فله الأجر الحسن عند الله عز وجل ومن يتول عنه كما تولى من قبل فله العذاب الأليم ، وساق الشواهد الواضحة على أنه عز وجل قادر على نصرة دينه وإعلاء كلمته بأسباب أو بغير أسباب كما نصر رسوله صلى الله عليه وسلم وصاحبه حيث قال: ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ الآية ، دعا هنا المؤمنين إلى النفير العام إذا دعاهم إليه ولي أمر المسلمين وأن عليهم حينئذٍ أن ينفروا خفافاً وثقالاً فقال عز وجل : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ الآية ، أي إذا دعاكم ولي أمر المسلمين إلى النفير العام فسارعوا إلى تلبية دعوته والخروج معه لقتال أعدائكم من الكفار في منشطكم ومكرهكم وعسركم ويسركم رجالاً وركباناً وبأموالكم وأنفسكم فيما استطعتم حتى تكون كلمة الله هي العليا فإن

ذلك خير لكم. قال ابن جرير رحمه الله : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يقول : هذا الذي آمركم به من النفر في سبيل الله تعالى خفافا وثقالا وجهاد أعدائه بأموالكم وأنفسكم خير لكم من التثاقل إلى الأرض إذا استنفرتم والخلود إليها والرضى بالقليل من متاع الحياة الدنيا عوضاً من الآخرة إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين لكم من فضل الجهاد في سبيل الله على القعود عنه اهـ . هذا وقد جاءت الأحاديث الكثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضح فضل الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال : (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة. ومعنى مخطومة أي مجعول في رأسها الخطام وهو الزمام الذي تشد به الناقة. كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعاً : (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض). كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يا أبا سعيد ، من رضي با لله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة. فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها عليّ يا رسول الله ففعل ثم قال : وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ،الجهاد في سبيل الله. اهـ

قال تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

بعدما ذكر الله عز وجل أحوال المشركين وما تكون عليه معاملتهم في السلم والحرب وأحوال اليهود والنصارى وما تكون عليه معاملتهم في السلم والحرب بدأ هنا في بيان فضائح المنافقين وتعداد مخازيهم وكشف أستارهم حتى أطلق بعض العلماء على هذه السورة اسم الفاضحة لفضحها المنافقين وكشفها عما يبطنونه من الحقد على الإسلام وتربصهم بالمؤمنين ومقالاتهم الخبيثة التي يتفوهون بها فيما بينهم وهممهم المنحطة وأفعالهم الدنيئة ومسارعتهم إلى الأيمان الكاذبة لدرء سيوف المسلمين عنهم واتخاذ هذه الأيمان جنة للصد عن سبيل الله وتكالبهم على الحطام الفاني السريع الزوال. وقوله عز وجل : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ بيان بدناءة نفوسهم وانحطاط هممهم حيث إنهم لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج إلى تبوك سارعوا إلى اختلاق الأعذار لعلمهم ببعد الشقة وخطر لقاء جيوش الروم مع أنهم لو دعوا إلى سفر قريب المسافة والحصول على غنيمة سهلة لسارعوا إلى الخروج. ومعنى : ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ أي لو كانت دعوتك لهم ليحصلوا على عرض قريب أي غنيمة سهلة لا قتال فيها ولا ملاقاة لعدو وهي عرض زائل وحطام فان. ومعنى : ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي وموضعاً قريباً سهلاً. ومعنى : ﴿ لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ والشقة هي

السفر البعيد الذي يقطع بمشقة. أي لسارعوا واستجابوا للنفير ، ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد وكلفتهم سفراً شاقاً عليهم في وقت الحر الشديد وزمان القيظ وهم لا يرجون غير النعيم الزائل ولا ترتفع هممهم إلى طلب النعيم الباقي الأبدي في جنات النعيم لذلك لم يخرجوا معك واختلقوا الأعذار الكاذبة. وقوله عز وجل : ﴿ وسيحلفون با لله لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي وسيتذرعون بالأيمان الكاذبة ويتخذونها جنة ووقاية لهم من غضب المسلمين عليهم جبناً من هؤلاء المنافقين. ومعنى : ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو أطقنا الخروج معكم بوجود السعة والمراكب والظهور التي لا غنى للغازي المسافر عنها والصحة في أبداننا لخرجنا معكم للقاء عدوكم. وقوله عز وجل : ﴿ يهلكون أنفسهم وا لله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ إنذار بأنهم بأيمانهم الكاذبة يستعجلون عقوبة ا لله لهم وا لله يعلم إنهم لكاذبون في أعذارهم وأيمانهم. ولا شك أن اليمين الكاذبة وهي يمين الغموس تغمس صاحبها في نار جهنم ويعجل ا لله عقوبة صاحبها فهي تدع الديار بلاقع ويندر أن يكمل صاحبها سنة واحدة على ظهر الأرض كما جاء في حديث البخاري في باب القسامة في الجاهلية من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما في قصة القرشي الذي قتل أجيره الهاشمي في عقال بعير في سفرهما وأنكر القاتل وطلب أبو طالب من قومه تسليمه ديته مائة بعير أو يحلف خمسون منهم أنه لم يقتله فدفع رجلان عن كل واحد منهما بعيرين وحلف ثمانية وأربعون قال ابن عباس : فوالذي نفسي بيده ما حال الحول ومن الثمانية وأربعين عين تطرف. وقد أهلك ا لله عز وجل المنافقين و لم يبق منهم بعد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلا القليل كما جاء في حديث حذيفة رضي ا لله عنه عند البخاري في تفسير قوله

عز وجل : ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم ﴾ من طريق زيد بن وهب قال : كنا عند حذيفة فقال : ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا من المنافقين إلا أربعة فقال أعرابي إنكم أصحاب محمد تخبرونا فلا ندري ، فما بال هؤلاء الذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا ؟ قال : أولئك الفسّاق ، أَجَلْ لم يبق منهم إلا أربعة ، أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده اهـ

قال تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

بعد أن أوضح الله عز وجل دناءة همم المنافقين وانحطاط نفوسهم وحرصهم على العرض الزائل وانصرافهم عن بذل الجهد في سبيل الحصول على النعيم المقيم الذي لا ينفد ولا يزول وبذلهم الأيمان الكاذبة لدفع سيوف المسلمين عنهم، شرع هنا يبين نوعاً من سلوكهم المعوج حيث خططوا في أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقعدوا واختلقوا أعذارا كاذبة مع أنهم مصرّون على أنهم لن يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أذن لهم في التخلف أم لم يأذن لهم. ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لم يأذن لهم في القعود ثم قعدوا كان ذلك كشفاً ظاهراً لنفاقهم وفضيحة واضحة

لسوء سلوكهم مما يجعل عامة المسلمين وخاصتهم يستقبح فعلهم ولا يدافع عنهم ، وقد افتتح الله عز وجل هذا المقام بالإشارة إلى علو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه حيث بدأ بقوله عز وجل : ﴿ عفا الله عنك ﴾ وهو أسلوب اعتاد العرب أن يبدءوا به خطابهم للمخاطب العظيم ، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب ولم يكن قد أطلعه الله على أحوال المنافقين عموماً قبل نزول هذه السورة التي فضحتهم وكشفت أسرارهم لذلك قبل أعذارهم عندما استأذنوه في عدم الخروج فأذن لهم فأعلمه الله عز وجل هنا أنه لم يستأذنه في التخلف عن الخروج معه إلى تبوك إلا المنافقون وأن المؤمنين بالله واليوم الآخر لم يستأذن منهم في التخلف أحد فكان هذا المقام كشفاً ظاهراً وفضحاً واضحاً للمنافقين المتخلفين حتى عرف عامة المسلمين وخاصتهم أنه لم يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود إلا المنافقون. ولا معارضة بين هذا المقام وبين قوله عز وجل في سورة النور : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم * ﴾ فإن هذا الاستئذان لمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر جامع كصلاة الجمعة أو العيد أو اجتماع لمشورة واضطر أحد المؤمنين أن يخرج من هذا الاجتماع فإن عليه أن يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لمن استأذن منهم إذا شاء. ولا شك أن هذا هو الأدب الإسلامي فيمن كان في اجتماع للمسلمين وأراد الخروج ، فإن عليه أن يستأذن كبيرهم وأن لكبيرهم الحق في الإذن لمن شاء

منهم. قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية المباركة : (وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ، ولهذا قال : ﴿ فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ﴾ الآية. وقد قال أبو داود : حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا : حدثنا بشر هو ابن المفضل عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة). وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذي : حديث حسن اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴾ إعلان بأن من آمن بالله وبالبعث بعد الموت والحساب والجزاء لا يستأذن في القعود عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يرغب بنفسه عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كانوا يبذلون أموالهم وأنفسهم في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُعَرضون أنفسهم لسهام الأعداء حتى لا تصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك أثنى الله عليهم في تذييل هذه الآية حيث قال : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول : والله عليم

بهم. لكنه قال : ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ فوضع الاسم الظاهر مكان الضمير ليثبت لهم صفة التقوى الجالبة لمعية الله عز وجل لهم. وقوله عز وجل : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ الآية فضح للمستأذنين بأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وإعلان بنفاقهم ، ولذلك قال : ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي وشكوا في دين الله فهم يتقلبون في هذا الشك ويتحيرون ويتذبذبون.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

هذا إعلام للمسلمين بأن المنافقين الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعزموا على الخروج وأن استئذانهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مكراً وخديعة لأنهم لو كانت لهم نية في الخروج لتهيئوا له ولأعدوا له العدة اللازمة للخروج من سلاح وغيره ولكن الله عز وجل علم سوء نفوسهم وفساد نيتهم فخذلهم فتمكن الشيطان من إغرائهم بالقعود والتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعدوا مع المرضى والنساء والصبيان ، والله عز وجل يخذل من يشاء عدلاً ويوفق ويسدد من علم فيهم خيراً فضلاً منه وكرماً ، وقد بين الله عز وجل ثمرة خذلانهم وعدم خروجهم بأنه مصلحة للمسلمين لأنهم

لو خرجوا ما أفادوا المسلمين شيئاً بل كانوا يلحقون بهم الضرر من التخذيل والتشويش وإثارة الفتن بين صفوف المسلمين المجاهدين ولا سيما أن في الجيش من المسلمين من لا يعرف هؤلاء المنافقين وقد يحسن بعض المسلمين الظن بهم لما يتظاهرون به من الإسلام ولهؤلاء المنافقين أقارب من المسلمين لا يعرفون نفاقهم ويسمعون منهم. وليس هذا الموقف المشين هو أول موقف لهؤلاء المنافقين في الفساد والإفساد بل سبق منهم مواقف مخزية كثيرة حتى جاء الحق وزهق الباطل وانتصر الإسلام وأعز الله المسلمين وأذل المنافقين وأوقعهم فيما يكرهون. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدَّة ﴾ أي ولو عزم هؤلاء المنافقون المستأذنون على الخروج لتهيئوا له وأعدوا ما يلزم المسافر للجهاد من عدة. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ أي ولكن الله عز وجل أبغض خروجهم مع المسلمين لعلمه بفساد سلوكهم وخبث طويتهم فخذلهم ولم يشرح صدورهم للخروج قضاءاً وقدراً وحكمة منه تبارك وتعالى . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي وسلط الله عز وجل عليهم من يغريهم بالقعود وعدم الخروج وهم مستعدون لتقبل ذلك لما قضاه الله عز وجل من شقوتهم وله الحكمة البالغة ، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل في سورة الأنعام : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ ﴾ الآية ، أن هذا بيان لجهل المشركين وأنهم لم يعرفوا الله عز وجل إذ ظنوا أن مجرد صدور الشرك منهم وتحريم ما حرموا يكفيهم في الدلالة على مشروعية ما صنعوا زعماً منهم أن مشيئة الله بصدور الفعل منهم تقتضي رضى الله عن عملهم وخلطوا بين مشيئة الله ورضاه وحسبوا أن ما شاء الله هو راض عنه والحال ليس كذلك

فإن مشيئة الله عز وجل وهي الإرادة الكونية القدرية ليست ملازمة للإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة فما يكرهه الله عز وجل لا يأمر به شرعاً وكل ما أمر الله به شرعاً هو محبوب لله عز وجل ، ولا يكون في الوجود شيء إلا بقضاء الله وقدره. وقد بين الله عز وجل للناس الأعمال المشروعة والأعمال غير المشروعة وكلفهم في حدود طاقتهم بعمل الصالحات وتجنب السيئات ، وليس لأحد أن يحتج بالقدر على ارتكاب الجرائم والمعايب ولكنه يحتج بالقدر على ما ينزل به من المصائب ويقول : قدّر الله وما شاء فعل. فكراهة الله عز وجل لخروج المنافقين لا تبيح لهم القعود والتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن جميع المقادير بيد الله عز وجل وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وما ذكره الله عز وجل عما كانوا يفعلونه لو خرجوا وأنهم ما كانوا يزيدون المسلمين إلا خبالاً مع علمه وقضائه بأنهم لن يخرجوا لأنه عز وجل يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، على حد قوله عز وجل : ﴿ ولورُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه ﴾ مع أنه عز وجل قضى أنهم لن يعودوا إلى الدنيا أبداً.

وقوله عز وجل : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين *﴾ بيان لما كان يترتب على خروجهم لو خرجوا فإنهم لو خرجوا مع المسلمين ما زادوهم قوة وإنما كانوا يسعون في خبالهم أي في الإفساد بينهم ونشر الشر في صفوفهم والسعي في تخذيلهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾ أي ولأسرعوا فيما يخل بكم متخللين صفوفكم لبث بذور الفتنة بين رجالكم ، وفي رجالكم من يستمع ويصغي لقولهم

ويصدقهم في أكاذيبهم لعدم علمه بنفاقهم مغتراً بما أظهروه بألسنتهم من الإسلام قبل أن يفضح الله أمرهم ويكشف سترهم. وقوله عز وجل : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ أي ولا يخفى على الله عز وجل مكرهم وتدبيرهم السيئ ودسائسهم. والأصل أن يقال : والله عليم بهم. لكنه وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لتسجيل وصفهم بالظالمين المستحقين لعقوبة الله عز وجل بسبب تعديهم وتجاوزهم للحدود وهذا وعيد شديد لهؤلاء المنافقين أي وسيجازيهم الله عز وجل بما يرتكبونه ويثيرونه من الفتن والصد عن سبيل الله. وقوله عز وجل : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة وذلك أول مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس واحدة وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلا كلمته قال عبدالله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى: ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾.

قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

هذا أول مقام يفصّل الله عز وجل فيه ما صدر عن المنافقين من مقالات

وأعمال فضحت نفاقهم وكشفت سترهم حيث يقول عز وجل هنا : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ الآية،وحيث يقول : ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ الآية الثامنة والخمسين من هذه السورة ، وحيث يقول : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾ الآية الواحدة والستين ، وحيث يقول عز وجل : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله ﴾ الآية الخامسة والسبعين ، وحيث يقول عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ﴾ الآية الثامنة والتسعين ، وحيث يقول في الآية الواحدة بعد المائة: ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ الآية، وحيث يقول في الآية السابعة بعد المائة: ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ الآية ، وحيث يقول في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ الآية وما بعدها إلى الآية السابعة والعشرين بعد المائة. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تَفْتِنِّي ﴾ أي ومن المنافقين من يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الخروج معه لغزو الروم ائذن لي ولا تفتني أي اسمح لي بالتخلف عنك وعدم الخروج إلى تبوك لأني إن خرجت معك ورأيت نساء بنى الأصفر يعني بنات الروم فلن أصبر عنهن فأقع في الفتنة يعني الإثم والمعصية فتكون أنت سبباً في فتنتي بهن ، وكذب عدو الله فما حمله على الاستئذان إلا كفره بالله وبرسوله ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي ألا إنهم قد غرقوا في الفتنة والإثم والمعصية بكفرهم بالله ورسوله. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد

الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بنى سلمة: (هل لك ياجدُّ في جلاد بنى الأصفر؟) فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (قد أذنت لك). ففي الجد بن قيس نزلت هذه : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ الآية أي إن كان يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنّا نبخله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأي داء أدوأ من البخل، ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور . وقوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب اهـ

قال تعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بعداوة هؤلاء المنافقين وبغضهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين وحزنهم إذا رأوا تجدد النعم من الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وفرحهم إذا أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المسلمين أذى من عدو أو غيره ، وإفحام لهؤلاء المنافقين بأن المسلمين راضون بقضاء الله وقدره حلوه ومره وأنهم لا بد لهم من إحدى الحسنيين وهي النصر على الأعداء أو الاستشهاد في سبيل الله فهم على خير في السراء والضراء ، وإنذار لهؤلاء المنافقين بأنهم إذا لم يتوبوا إلى الله فإنه سيقع بهم عذاب من عند الله كتسليط البلايا عليهم أو يصيبهم الله بعذاب بأيدي المؤمنين كالقتل أو السبي. وفي قوله عز وجل : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا ﴾ الآية إشعار بأنهم رغم ادعائهم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يبغضونه أشد البغض وأنهم تجاوزوا في ذلك البغض ما يكنونه من العداوة والبغضاء لعموم المؤمنين ، ولذلك جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار . والمراد بالحسنة هنا النعمة والمتاع الحسن والمراد بالمصيبة الأذى والشدة ، ولم يقابل الحسنة في هذا المقام الكريم بالسيئة كما قال في سورة آل عمران: ﴿ وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ لأن الخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن ما يسوء هنا هو في حقه صلى الله عليه وسلم مصيبة يثاب عليها بخلاف المقام في سورة آل عمران لأن الخطاب فيها موجه لعموم المؤمنين ، وأصل المصيبة هي البلوى والأمر المكروه يقع بالإنسان والسيئة ما يسوء الإنسان وهي تعم ما يقع به في دينه أو دنياه. ومعنى قوله : ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ أي وإن يقع بك مكروه يتبجحوا بما صنعوا مدعين أنهم

قد صانوا أنفسهم عن الوقوع في المكاره و لم يعرضوا أنفسهم للمصائب فلم يشهدوا هذه المعارك وينصرفوا عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وهم فرحون بما أصاب المسلمين من أذى مبتهجون بأنهم لم يقع بهم مكروه كما وصف عز وجل الكفار بأنهم كانوا إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وقوله عز وجل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب ا لله لنا هو مولانا وعلى ا لله فليتوكل المؤمنون ﴾ إرشاد من ا لله عز وجل لرسوله صلى ا لله عليه وسلم أن يرد عليهم ويبين لهم بطلان ما بنوا عليهم مسرتهم ويقول لهم : لن يقع بنا إلا ما قدره ا لله عز وجل لنا وقضاه علينا فنحن تحت مشيئته راضون بقضائه وقدره وهو لنا خير على كل حال فإن أصابنا أذى صبرنا وإن جاءتنا نعمة شكرنا فنحن دائرون بين فلكي الصبر والشكر وا لله ولينا وعليه توكلنا واعتمدنا فهو ملجؤنا وناصرنا وعلى كل مؤمن أن يعتمد على ا لله وأن يتوكل عليه فهو نعم المولى ونعم النصير

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم ا لله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * ﴾ أي هل تنتظرون بنا أيها المنافقون إلا أحد أمرين إما أن ننتصر على أعدائنا أو يقع بنا قتل أو جراحة ونحن سعداء في كلتا الحالتين ، لأنه إما نصر على أعداء ا لله أو شهادة في سبيل ا لله وكلا الأمرين حسنى لنا ، أما نحن فننتظر بكم أيها المنافقون أن يصيبكم ا لله بعقوبة من عنده بغير سبب منا أو تظهرون ما أبطنتموه من الكفر فنقتلكم أو نسبيكم فلا ننتظر إلا أن يقع بكم إحدى السوءين فانتظروا ما يقع بنا مما يلقيه الشيطان في قلوبكم وما يعدكم الشيطان إلا غروراً فإنا معكم منتظرون ما يقع بكم مما وعدنا ا لله به وكان وعد ا لله مفعولاً.

قال تعالى :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝٥٥ ﴾ .

هذا إعلام للمنافقين بأن ما يتبجحون به أحياناً من بذل بعض المال الذي لا ينفقونه إلا رياء وسمعة لن يقبله عز وجل منهم سواء بذلوه طواعية أو بذلوه مكرهين رغماً عنهم ، لأن الله عز وجل لا يقبل من العمل الذي ظاهره الخير إلا ما يكون من المؤمنين الذين يحرصون على أن يكون عملهم خالصاً صواباً ، أما المنافقون فإنهم فاسقون عن أمر الله ولا يتقبل الله إلا من المتقين كما قال عز وجل : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين *﴾. وقد أوضح الله عز وجل في هذا المقام بعض سلوكيات المنافقين في نفقاتهم وصلاتهم التي حالت دون قبول أعمالهم فهم قد كفروا بالله وبرسوله ولا يقومون للصلاة إلا كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون مع أن كل سبب من هذه الأسباب كفيل برد أعمالهم وبطلانها. وقد نبّه الله عز وجل إلى أنه لا يغتر عاقل بما رزقهم الله من مال أو أولاد ولا ينبغي لأحد أن يعجب بها لأن الله عز وجل أراد تعذيبهم بها في الحياة الدنيا فظاهرها الخير وباطنها الحسرة والاستدراج ، إذ ليس كل مال أو ولد يجلب السرور والسعادة بل قد يكون المال سبباً لشقوة جامعه والولد سبباً لشقوة أبويه به حيث تكون المشاق والمتاعب في حفظها وازدياد الخوف والغم

بسبب المصائب الواقعة عليها أو توقع ذلك فيها ، وهذا لعدم احتسابهم الأجر فيما يلم بها بخلاف المؤمنين الذين إذا أصابتهم سراء شكروا وإن أصابتهم ضراء صبروا. والأمر في قوله عز وجل : ﴿ أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ بمعنى الخبر ، أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : نفقتكم غير مقبولة سواء كانت طوعاً أو كرهاً. وقوله عز وجل : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا با لله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ أي ما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم وكسلهم في إتيان الصلاة وكونهم كارهين الإنفاق حيث يعتبرونه مغرماً. وقد وصفهم ا لله عز وجل بأنهم لا يقومون للصلاة إلا وهم كسالى في قوله عز وجل في سورة النساء : ﴿ إن المنافقين يخادعون ا لله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون ا لله إلا قليلا ﴾. والخطاب في قوله عز وجل : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ الآية وإن كان موجهاً للنبي صلى ا لله عليه وسلم فإن المراد به جميع المؤمنين ، أي فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم ولا تستحسنوا ما هم فيه من الحطام الفاني لأنه حسرة عليهم في الدنيا وعذاب في الآخرة وهم ينفقون أموالهم للصد عن سبيل ا لله والعمل على إطفاء نور ا لله ثم ينصر ا لله عز وجل رسوله ويعلي كلمته فيزداد المنافقون حسرة على ضياع أموالهم وانتصار الإسلام عليهم وعلى أمثالهم من المشركين واليهود والنصارى كما أن بعض أبناء المنافقين قد أسلموا وصاروا من خيرة أصحاب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كعبدا لله بن عبدا لله بن أبي ابن سلول وكحنظلة غسيل الملائكة وهو ابن الفاسق أبي عامر المعروف بشدة عدائه للإسلام والذي سافر إلى قيصر الروم ليحضه على حرب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بالتعاون مع المنافقين ،

وهؤلاء المنافقون يعلمون أن أبناءهم المؤمنين سيرثون أموالهم وينفقونها في سبيل ا لله فتزداد حسرتهم وعذابهم بأموالهم. وقد أكد ا لله عز وجل هذا المعنى في الآية الخامسة والثمانين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد ا لله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ وا لله عز وجل يعطي الدنيا لمن أحب ولمن لا يحب فليس عطاؤه في الدنيا دليلاً على رضاه كما قال عز وجل : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون *﴾

قال تعالى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

هذا بيان لجزع هؤلاء المنافقين وفزعهم وهلعهم وشدة خوفهم من تمكن المسلمين منهم فهم يلجئون إلى الأيمان الكاذبة واتخذوها جنة لعلها تحميهم من سيوف المسلمين فصاروا يحلفون با لله أنهم مسلمون وأنهم منكم على دينكم والواقع أنهم ما هم منكم وليسوا على دينكم بل هم كافرون با لله وبرسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم ولكنّ شدة فَرَقهم أي خوفهم منكم هو الذي حملهم على الحلف بالأيمان الكاذبة الفاجرة . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أي لو يستطيعون الحصول على مكان يتحصنون به ويلجئون إليه ﴿ أو مغارات ﴾ أي أو غيراناً وسراديب ، فالمغارات جمع مغارة وهي الغار والنقب في الجبل ﴿ أو مُدَّخَلاً ﴾ أي أو سرباً ونفقاً تحت الأرض ﴿ لَوَلّوْا إليه وهم

يجمحون ﴾ أي وهم يسارعون في دخوله والانصراف عنكم إسراعا لا يرده شيء كالفرس الجموح المستعصي على صاحبه ، أي إن هؤلاء المنافقين الذين يؤكدون أيمانهم بأنهم مسلمون وليسوا بمسلمين في الحقيقة ما حملهم على أيمانهم الكاذبة إلا أنهم يخافون منكم أيها المسلمون إذا اطلعتم على بواطنهم وكفرهم ولو كانوا يستطيعون ترك دورهم وأموالهم والالتجاء إلى مكان يلجئون إليه تحصناً منكم في رأس جبل أو قلعة أو جزيرة في البحر لسارعوا بالهروب إلى تلك الأماكن من شدة بغضهم إياكم وخوفهم منكم.

قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

بيان لصورة أخرى من الصور التي فضحت نفاقهم وهي انفلات لسان أحدهم بعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمزه في توزيعه لبعض الصدقات حيث أعطى بعض المؤلفة قلوبهم أكثر من غيرهم فقال بعض المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. أو قال : لم يعدل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد روى البخاري في صحيحه في كتاب استتابة المرتدين ومسلم في الزكاة واللفظ للبخاري من طريق أبي سلمة عن أبي سعيد قال : (بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقسم جاء عبدالله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله. فقال : ويلك من يعدل إذا لم أعدل ؟ قال عمر بن الخطاب :

دعني أضرب عنقه ، قال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرّمِيَّة يُنظَرُ في قُذَذِه فلا يوجد فيه شئ ثم يُنظر في نَصله فلا يوجد فيه شئ ثم يُنظر في رِصافه فلا يوجد فيه شئ ثم يُنظَر في نَضِيِّه فلا يوجد فيه شئ قد سَبَقَ الفَرْسَ والدم ، آيتهم رجل إحدى يديه أو قال : ثدييه مِثْلُ ثدي المرأة أو قال : مثل البَضْعَة تدردر ، يخرجون على حين فُرقة من الناس. قال أبو سعيد : أشهد سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه ، جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم. قال : فنزلت فيه : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ اهـ. وفي لفظ لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه : (فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي) الحديث. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قاسم والله عز وجل هو المعطي فليس لأحد أن يعترض على هذه القسمة لأنه إنما قسم بأمر الله عز وجل ، فقد جاء في الصحيحين من حديث معاوية رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي) الحديث. وفي قوله عز وجل : ﴿ فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإن لم يُعْطَوْا منها إذا هم يسخطون * ﴾ حجة ظاهرة على أن صاحب هذا القول لا منشأ للمزه سوى جشعه وحرصه على حطام الدنيا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أعطاه كما أعطى بعض من يتألفهم في الإسلام لرضي و لم يقل هذه المقالة التي لمز أي عاب فيها سيد الخلق وأكرمهم محمداً صلى الله عليه وسلم.

وقوله عز وجل : ﴿ ولو أنهم رَضُوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا

الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ تنبيه لهؤلاء المنافقين على ما هو خير لهم لو أرادوا الخير لأنفسهم. قال ابن كثير رحمه الله : ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون * ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً حيث جعل الرضاء بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله : ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره اهـ.
وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ أن الله عز وجل أشار إلى أن هناك أموراً يجوز العطف فيها على الله بالواو ، وأموراً لا يجوز فيها ذلك لاختصاصها بالله عز وجل حيث قال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ وقال عز وجل : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ لأن الإيتاء يضاف إلى الله وإلى غيره حقيقة وكذلك الشكر ، أمّا حسبك الله وكذلك الرغبة والرهبة والإنابة والقنوت فإنه لله وحده وهو من أنواع العبادات التي لا تكون إلا لله ، وكما قال عز وجل : ﴿ وإياي فارهبون * ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ وإلى ربك فارغب * ﴾.

قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى اعتراض بعض المنافقين على رسوله صلى الله عليه وسلم ولمزهم إياه في توزيعه للصدقات ، بَيّن عز وجل أنه تبارك وتعالى هو الذي عين المستحقين لهذه الصدقات وبيّن حكمها وتولى أمرها بنفسه و لم يكل قسمتها إلى أحد غيره فجزأها لهذه الأصناف الثمانية. وليس لأحد كائناً من كان أن يعترض على حكم الله عز وجل. وبهذا يتضح سوء أدب المنافقين وانطماس بصائرهم حيث اعترضوا على أعظم خلق الله عدلاً وإنصافاً محمد صلى الله عليه وسلم فزعموا أنه لم يعدل ، وهذا من فلتات ألسنتهم التي فضحت نفاقهم. وعامة أهل العلم على أن الزكاة إنما تجزئ إذا دفعت إلى هؤلاء الأصناف الثمانية أو إلى بعضهم. والفقير هو من لا يملك شيئاً والمسكين هو من يملك دون النصاب أو من يملك مالا يكفي نفقته وعياله وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً). أما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة بشرط أن لا يكونوا من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال : اجتمع ربيعة بن الحارث والعباس بن عبدالمطلب فقالا : والله لو بعثنا هذين الغلامين (قالا لي وللفضل بن عباس) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه فأمّرهما على هذه الصدقات فأدّيا مايؤدي الناس وأصابا مما يصيب الناس. قال : فبينما هما في ذلك جاء علي بن أبي طالب فوقف عليهما فذكرا له ذلك فقال علي بن أبي طالب : لا تفعلا

فوا لله ما هو بفاعل. فانتحاه ربيعة بن الحارث فقال : وا لله ما تصنع هذا إلا نفاسةً منك علينا ، فوا لله لقد نلت صهر رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فما نفسناه عليك. قال علي : أرسلوهما. فانطلقا واضطجع عليّ. قال : فلما صلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الظهر سبقناه إلى الحجرة فقمنا عندها حتى جاء فأخذ بآذاننا ثم قال : أخرِجا ما تُصَرِّران ثم دخل ودخلنا معه وهو يومئذ عند زينب بنت جحش. قال : فتواكلنا الكلام ، ثم تكلم أحدنا فقال : يا رسول ا لله أنت أبرّ الناس وأوصل الناس وقد بَلغْنَا النكاح فجئنا لتُؤَمِّرنا على بعض هذه الصدقات فنؤدي إليك كما يؤدي الناس ونُصيب كما يصيبون. قال: فسكت طويلا حتى أردنا أن نكلمه ، قال : وجعلت زينب تُلْمِعُ لنا من وراء الحجاب أن لا تكلماه. قال : ثم قال : إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد إنما هي أوساخ الناس ، ادعوا لي مَحْمِيَّةَ (وكان على الخُمس) ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب قال : فجاآه. فقال لمحمية: أَنْكِحْ هذا الغلام ابنتك (للفضل بن عباس) فَأَنكحه ، وقال لنوفل بن الحارث : أَنِكح هذا الغلام ابنتك (لي) فأنكَحني. وقال لمحمية : أَصِدق عنهما من الخُمس كذا وكذا اهـ. أما المؤلفة قلوبهم فهم الذين يتألفهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أو الإمام بعده على الإسلام ليدخلوا فيه أو ليثبتوا عليه. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال في حديث : (فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم) الحديث. قال ابن كثير رحمه ا لله في تفسير هذه الآية : وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام : منهم من يُعطَى ليُسلم كما أعطى النبي صلى ا لله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين وقد كان شهدها مشركاً ، قال : فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس

إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا زكريا بن عدي أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ. ورواه مسلم والترمذي من حديث يونس عن الزهري به اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وفي الرقاب ﴾ أي وفي تحرير الرقاب من الرق وهو يشمل معاونة المكاتبين فيدفع لهم من الزكاة ما يساعدهم على عتق رقابهم كما يشمل المساعدة في شراء العبيد وإعتاقهم ليتحرروا من الرق. وقد حض الله تبارك وتعالى على معاونة المكاتبين وتسديد أقساط كتابتهم ليتحرروا حيث يقول عز وجل : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والغارمين ﴾ أي ويُعطى من الصدقات للغارمين وهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو احتاج فاستدان لنفقته أو مسكنه أو نفقة عياله أو غير ذلك فيما ليس معصية لله عز وجل فإنه يعطى من الزكاة لوفاء دينه. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث قبيصة بن المخارق الهلالي رضي الله عنه قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل فيها. فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : ياقبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قَواماً من عيش ـ أو قال سداداً من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثةٌ من ذوى الحِجَى من قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من

عيش - أو قال سِدَاداً من عيش - فما سواهن من المسألة ياقبيصة سُحْتٌ يأكلها صاحبها سحتاً اهـ. والحمالة أن يقع قتال ونحوه بين فريقين فيصلح إنسان بينهم على مال فيتحمله ويلتزمه على نفسه. والجائحة الآفة تصيب مال الإنسان. والقِوام هو ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه. والسِداد ما يسد حاجة المحتاج ويكفيه. و لم يشترط عند الحمالة والجائحة إحضار شهود عليها لأنها عادة تكون معروفة مشهورة بخلاف حالة الفاقة فإنها تخفى ولذلك اشترط فيها ثلاثة شهود بشرط أن يكونوا من ذوي العقول في قوم المحتاج.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ أي ويدفع من الزكاة للغزاة والمجاهدين في سبيل الله حتى ولو كانوا أغنياء. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وابن السبيل ﴾ أي ويدفع من الزكاة لابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن أهله وماله وسمي ابن السبيل لأنه ملازم للسبيل وهو الطريق الذي يقطعه في سفره . فهذه الأصناف الثمانية هي المستحقة لزكاة الأموال التي فرضها الله عز وجل فلا يجوز صرف شيء منها لغير هذه الأصناف الثمانية . ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي واجبة من الله قد أوجب على عباده أن يؤدوها إلى هؤلاء المستحقين لها من الأصناف الثمانية ولا حظّ فيها لغيرهم ، وليس لغيرهم أن يتشوف إليها وفي هذا ردع للمنافقين الذين يلمزون من لم يعطهم من الصدقات. وقوله تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي ولا تخفى على الله خافية وهو الحكيم فيما يشرعه لعباده فشرعه هو الشرع وحكمه هو الحكم لا إله غيره ولارب سواه.

قال تعالى :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ .

أي ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون لآخرين : ﴿ هو أذنٌ ﴾ أي يسمع كل ما قيل له ويصدقه ولا يفرّق بين الصادق والكاذب ، ففضح الله عز وجل هؤلاء المنافقين الحاقدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ووبخهم وكذّبهم ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه أذن خير أي مستمع خير ، فقال عز وجل : ﴿ قل أُذنٌ خيرٍ لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم ﴾ أي هو صلى الله عليه وسلم أذن خير أي لا يستمع إلا لما فيه صلاح العباد وما يعود عليهم بالخير والنفع مفرقاً بين الحق والباطل ، والصدق والكذب بما يلهمه الله عز وجل ويطلعه عليه من أخباركم وأسراركم وهو يؤمن بالله ولا يصدق إلا المؤمنين وهو رحمة لمن تاب إلى الله منكم وتأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم فسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله فإن ذلك خير لكم وأنفع لكم في معاشكم ومعادكم. وقد عدّى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء وعداه إلى المؤمنين باللام لأن الإيمان بالله يقتضي التصديق المطلق به عز وجل ، وأما الإيمان للمؤمنين فيقتضي موافقتهم والتسليم لما يخبرون به لتحريهم الصدق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظيره قوله عز وجل : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ﴾ وقوله عز وجل :

﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾. وقد توعد الله تبارك وتعالى هؤلاء المنافقين بالعذاب الأليم فقال : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ أي والذين يلمزون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصفونه بما لا يليق بخير خلق الله وأكملهم قد أعد الله لهم عقاباً موجعاً وعذاباً مؤلماً إذا استمروا على ماهم فيه من الضلال والنفاق وسوء الأخلاق.

قال تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٣ ﴾ .

تأكيد للمؤمنين بأن هؤلاء المنافقين الذين يطعنون على رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجئون إلى الأيمان الكاذبة عندما يُكشف سترهم فيحلفون إرضاء لكم أيها المؤمنون وخوفاً من سيوفكم ويعتذرون إليكم ويؤكدون معاذيرهم بهذه الأيمان الفاجرة لتقبلوا عذرهم وترضوا عنهم ولو كان بهم مسكة من عقل وذرة من إيمان با لله وبرسوله لسعوا إلى إرضاء الله وابتعدوا عن إيذاء رسوله صلى الله عليه وسلم ولأسلموا ظاهراً وباطناً. والضمير في قوله : ﴿ يرضوه ﴾ للإشعار بأن رضاه صلى الله عليه وسلم مندرج تحت رضا الله عز وجل ولا يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لمن يرضى الله تبارك وتعالى عنه. ولا شك أن من يسعى في رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ساع في رضى الله تبارك وتعالى كما قال عز وجل : ﴿ من يطع الرسول

فقد أطاع الله ﴾. وقوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ الآية استفهام توبيخ لهؤلاء المنافقين ووعيد شديد لهم على مشاقتهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله ورسوله ، أي شَاقَّ الله ورسوله فمصيره المؤكد نار جهنم وبئس المصير كما قال عز وجل : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ ، وكما قال عز وجل : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب *﴾. وقوله عز وجل: ﴿ ذلك الخزي العظيم *﴾ أي هذه العقوبة التي يعاقب الله عز وجل بها هؤلاء المنافقين إذا استمروا على نفاقهم هي الفضيحة الكبرى التي لا تعادلها فضيحة من الفضائح التي يفر منها هؤلاء المنافقون في الحياة الدنيا فيحلفون كاذبين فراراً من الفضيحة عند الناس. ولاشك أن اليهود اتخذوا من المنافقين مطايا لهم واشتركوا معهم في همز الإسلام ولمزه وإطلاق الكلمات التي تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : راعنا. كما تقدم بيانه في تفسير سورة البقرة عند قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا ﴾ وفي تفسير سورة النساء عند قوله عز وجل : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ كما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند التحية : السام عليكم. وقد سلك المنافقون مسلك اليهود وساروا على منوالهم في همز الإسلام ولمزه واغتنام الفرص للتخذيل بين صفوف المسلمين وإيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

وهذا أيضاً بيان من البيانات التي فضح الله عز وجل بها المنافقين في هذه السورة المباركة حيث كانوا يتحدثون فيما بينهم فيخلطون بين الاستهزاء بالله وآياته ورسوله وبين الخوف من أن يكشف الله سترهم ويبلغ مقالاتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن المنافقين كانت تنتابهم أحوال فتارة تشعر أفئدتهم بالإيمان فيدخل الخوف في قلوبهم ويخشون أن ينزل الله فيهم قرآناً يفضحهم وهذه الحالة لا تدوم طويلا فسرعان ما ينطفئ نور الإيمان من قلوبهم ويعودون إلى ما كانوا عليه من النفاق والضلال تارة أخرى حيث يقول عز وجل في المنافقين في أوائل سورة البقرة : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شئ قدير *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على

قلوبهم فهم لا يفقهون *﴾ ، وقد أوضحت في تفسير أوائل سورة البقرة الكثير من أحوال المنافقين وتذبذبهم وحيرتهم وحسرتهم وما يصيبهم من المخاوف وما ينتابهم من الهلع والفزع والرعب ، ولهذا وصفهم الله عز وجل في هذا المقام من سورة التوبة بأنهم يحذرون أن تنزل بشأنهم سورة تفضحهم وتكشف ما في قلوبهم وهم في نفس الوقت يستهزئون بالله وآياته ورسوله حيث يقول : ﴿ يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ أي يخاف المنافقون أن ينزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يفضحهم فيما تحدثوا به سراً وطعنوا فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين وما تفوهوا به فيما بينهم استهزاء وسخرية بالإسلام والمسلمين . ومعنى : ﴿ أن تُنَزَّل عليهم سورةٌ تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ أي أن تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأنهم وأحاديثهم التي يتكاتمونها سورة تعلن للمسلمين ما تكنه لهم قلوب المنافقين ، وهذا الخوف لا يحدث إلا عند وصول بصيص من أنوار الإسلام إلى قلوبهم لكن سرعان ما ينطفئ هذا النور ويعودون إلى السخرية والاستهزاء ولذلك قال الله عز وجل هنا : ﴿ قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ أي إن الله سينزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ما يفضحكم به ويبين له أمركم ، كما قال عز وجل : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم *﴾ كما أشار عز وجل إلى اشتراك اليهود والمنافقين في هذا اللون من الإيذاء حيث يقول : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا

يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير *﴾.

وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ هذا بيان بأنهم يتحيرون في الجواب عندما يفاجئون بكشف همزهم ولمزهم لله ولآياته ولرسوله صلى الله عليه وسلم فتارة يبادرون إلى الحلف بالأيمان الكاذبة وتارة يدعون أنهم ما كانوا جادين فيما يقولون وإنما كانوا هازلين لا يريدون الاستهزاء بالإسلام وإنما يريدون التسلية لبعد الطريق الذي نجتازه كالذي يخوض في الماء ولا يتبين مواضع أقدامه وإنما يلجئون إلى ذلك عندما يضيق عليهم الخناق ولا يرون أن في أيمانهم الكاذبة نجاة لهم ومفراً مما وقعوا فيه. وقد أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن ما صدر منهم هو استهزاء بالله وبآياته وبرسوله صلى الله عليه وسلم وأن ذلك كفر وأنهم لن يقبل منهم عذر عما بدر منهم فقال عز وجل : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين *﴾ أي كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء برب السموات والأرض القادر على كل شئ وعلى الاستهزاء بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم المؤيد بالمعجزات الحسية والمعنوية ، وهذا غاية في توبيخ هؤلاء المنافقين وتقريعهم وتهديدهم ولاشك أن هؤلاء المنافقين قد جمعوا مكفرات ، فإن الاستهزاء بالله كفر كما أن الاستهزاء بآيات الله كفر وكذلك الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر . وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يقبل عذرهم الذي اعتذروا به من أنهم كانوا يخوضون ويلعبون ويُعْلِمهم أنهم كفروا بالله وانطمست قلوبهم بعد ما كانت قد رأت بصيصاً من أنوار الإيمان ، وأشار عز وجل إلى أن بعضهم قد يتوب فيتوب الله

عليه وأن بعضهم لن يوفق للتوبة فيعذبه الله بسبب إجرامه وانخراطه في سلك المجرمين.

قال تعالى :

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

هذا البيان الكريم وصف لأخلاق المنافقين وما انطبعت عليه قلوبهم من الاعوجاج وحبهم للشر وبغضهم للخير ، وقد استشرى هذا الشر في رجالهم ونسائهم حيث قال عز وجل : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ أي يجتمعون في الشر منغمسون في الضلال منصرفون عن طريق الرشد لا يتخذونه سبيلاً مقبلون على سبيل الغي يتخذونه سبيلاً كما قال عز وجل : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ الآية. ولذلك صار هؤلاء المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف حيث قال عز وجل هنا : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أي يبخلون بما آتاهم الله من فضله فلا يمدون يد مساعدة بإحسان لمحتاج ولا ينفقون في سبيل الله. وقوله

عز وجل : ﴿ نَسُوا الله فَنَسِيهمْ ﴾ أي غفلوا عن ذكر الله فقست قلوبهم وانطبع الشر في نفوسهم فخذلهم الله عز وجل ووكلهم إلى أنفسهم فألقوا بها في المهالك. والنسيان يرد في اللغة العربية لأكثر من معنى فهو يستعمل بمعنى الغفلة وضد الذكر وضد الحفظ ويستعمل بمعنى الترك وما تلقيه المرأة من خرق الحيض والنفاس التي يُرمى بها ولا يُلْتَفَتُ إليها وما يضاف من هذا الوصف للناس يحمل على ما يليق بهم وما يضاف إلى الله عز وجل يحمل على ما يليق بالله عز وجل ، وقد قال ثعلب في قوله عز وجل : ﴿ نَسُوا الله فنسيهم ﴾ لا ينسى الله عز وجل ، إنما معناه : تركوا الله فتركهم. وقال الزجاج : تركوا أمر الله فتركهم الله من رحمته وتوفيقه اهـ. وقد وصف الله عز وجل نفسه المقدسة في كتابه الكريم بأنه لا يضل ولا ينسى حيث قال عز وجل : ﴿ وماكان ربك نَسِياً ﴾ وقال عز وجل : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ ومذهب أهل السنة والجماعة على أنه إذا ورد لفظ يحتمل معنيين أو معانى وكان بعضها لا يصلح حمل اللفظ عليه ، حملوه على ما يليق مما هو معلوم نصًا. ويجعلون هذا اللفظ من المتشابه فيحملونه على المحكم ، وقد أطلت الكلام على هذا في تفسير قوله عز وجل : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ من سورة آل عمران وضربت له كثيراً من الأمثلة وبالله التوفيق.

وقوله عز وجل : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ أي إن المنافقين المبطنين الكفر المظهرين الإسلام هم الخارجون عن طريق الحق والرشد ، أعد الله لهؤلاء المنافقين وتوعدهم بأنهم هم والمجاهرين

بالكفر من الوثنيين واليهـود والنصـارى سـيكونون في الدركـات في نـار جهنـم وسيكون المنافقون في الدرك الأسفل من النـار يقيمـون فيهـا أبـداً ولا يتحولـون عنها بحال من الأحوال وهي كافيتهم في العذاب وقد طردهم ا لله من رحمته فـلا يزالون في عذاب مقيم أي أبدي سرمدي. وفعل وعد يأتي في الخير وفي الشـر ، فيقال : وعده خيراً ويقال : وعده شراً. ومصدر وعد في الخـير الوَعْـد والعِـدَة ، ومصدره في الشر الوعيد فالمصدر أو السياق هو الـذي يحدد المعنى المـراد منـه. فمعنى : ﴿ وعد ا لله المنافقين والمنافقـات والكفـار ﴾ أي توعـد ا لله عـز وجـل هؤلاء المنافقين رجالا ونساء وجميع أنواع الكفـار مـن الوثنيـين وأهـل الكتـاب. ومعنى : ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كافيتهم جزاء على كفرهم. ومعنى : ﴿ ولعنهم ا لله ﴾ أي وطردهم من رحمته وأبعدهم عنها فمهما صرخوا واستغاثوا لا تنـالهم رحمة أرحم الراحمين ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

قال تعالى :

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر أن المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الخير وأنهم انحرفوا عن صراط الله المستقيم فخذلهم ، شبههم هنا بمن كان قبلهم من المنحرفين عن دين الله من الوثنيين واليهود والنصارى وقد كانوا أشد من المنافقين قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فانغمسوا في الشهوات والملذات فصاروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام وانحرفوا عن الصراط المستقيم واندفعوا في الباطل على غير بصيرة فسلك هؤلاء المنافقون مسلكهم وانغمسوا في الشهوات والملذات كما انغمسوا وانحرفوا عن الصراط المستقيم كما انحرفوا واندفعوا في الباطل على غير بصيرة كما اندفعوا ، فأذلهم الله وأحبط أعمالهم وأبطل كيدهم وخابوا وخسروا وأعز الله دينه ونصر رسله. ثم وبخ الله هؤلاء المنافقين حيث لم يعتبروا بما وقع للأمم المكذبة برسلها كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم شعيب وقوم لوط إذ جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا رسلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ أي أنتم أيها المنافقون كالذين من قبلكم. وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لمجابهتهم بأنهم على نهج المكذبين من الأمم الخالية وأنهم سيصيبهم عذاب الله وسينصر الله رسوله ويعلي كلمته. ومعنى ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ أي تشابهتم بمن مضوا وسبقوكم من المكذبين المنحرفين. ومعنى ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ أي فتلذذوا بنصيبهم من الحطام الفاني. ومعنى ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخَلاقهم ﴾ أي فنهجتم منهجهم وتلذذتم بنصيبكم من الحطام الفاني الذي صار أكبر همكم كما فعلوا. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ أي واندفعتم في الباطل كخوضهم في الباطل وطعنهم في المرسلين. وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من أمته من يسلك

سبيل الأولين فينحرف كما انحرفوا ، فقد قال البخاري في كتاب الاعتصام من صحيحه : باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : لتتبعُنّ سَنَنَ من كان قبلكم ، حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ابن أبى ذئب عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع) ، فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ؟ قال : (ومَنِ الناسُ إلا أولئك). حدثنا محمد بن عبدالعزيز حدثنا أبو عمر الصنعانيُّ من اليمن عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لتتبعُنّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى : قال : فَمَنْ اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ أي كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطت أعمالكم وخسرتم. وقوله عز وجل : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ﴾ ، الاستفهام في قوله : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ للتقرير أي قد أتاهم وجاءهم خبر الذين من قبلهم وقد عرفوا ما فعل هؤلاء السابقون وما فعل الله بهم وقد ذكر الله عز وجل طوائف ستة وهم قوم نوح عليه السلام وعاد وهم قوم هود عليه السلام وثمود وهم قوم صالح عليه السلام وقوم إبراهيم عليه السلام وأصحاب مدين وهم قوم شعيب عليه السلام والمؤتفكات وهي قرى قوم لوط عليه السلام وسميت بالمؤتفكات أي المنقلبات لأن الله عز وجل قلبها على أهلها وجعل

عاليها سافلها لأنهم كانوا قد انقلبت فطرتهم وصاروا يأتون الذكران من العالمين فقلب الله عليهم أرضهم وكانت أعظم مدنهم سادوم وعمورة من دائرة الأردن ولا تزال معروفة إلى اليوم حيث صار مكانها إلى الآن البحر الميت. وقد خص الله بالذكر هذه الطوائف الستة لأن أخبارهم كانت متداولة في الجزيرة العربية وكانت آثارهم باقية وكان الكثير منها في بلاد العرب وما حولها كالعراق والشام ، وكانوا يمرون عليها بالليل والنهار ويعرفون أخبار أهلها ، كما قال عز وجل في سورة الصافات : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون *﴾ وقد عرفوا أن قوم نوح أغرقهم الله بالطوفان وأن قوم هود سلط الله عليهم ريحاً صرصراً سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. ويعرفون أن ثمود أهلكوا بالطاغية والصيحة القاتلة كما قال عز وجل : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ وقد أهلك الله أعداء إبراهيم عليه السلام وعلى رأسهم النمرود وسلبهم النعم وأن أهل مدين أخذهم عذاب يوم الظلة وكان عذاب يوم عظيم ، وكان سبب إهلاك هؤلاء جميعاً هو أنهم جاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوهم فأهلكهم الله وما ظلمهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم فاتعظوا أيها المنافقون بما وقع للمكذبين قبلكم واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم، وكُفُّوا عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيذاء المؤمنين، واعلموا أن الله عز وجل لا بغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم كما قال عز وجل : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم *﴾

قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل صفات المنافقين الذميمة وأفعالهم القبيحة وما وعدهم به من العقوبة على أفعالهم الشنيعة وذكّرهم بما أصاب به الأمم السابقة التي انحرفت عن صراط ربها وطعنت في رسلها وكذبتهم ، شرع هنا في ذكر صفات المؤمنين الحميدة وأفعالهم المجيدة وما وعدهم به من كريم المثوبة على أفعالهم الصالحة ، فقال عز وجل:﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ الآيتين. والصفة الأولى من صفات المؤمنين هي أن بعضهم أولياء بعض ، أي يحب بعضهم بعضاً ويتوادون ويتراحمون ويتعاضدون فهم كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضاً. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). والصفة الثانية من صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف أي يحضون على فعل الخيرات. والصفة الثالثة من

صفات المؤمنين أنهم يحذرون الناس من الوقوع في الآثام والشرور وينهونهم عما يضرهم في دينهم ودنياهم ومخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. والصفة الرابعة من صفات المؤمنين أنهم يقيمون الصلاة. والصفة الخامسة أنهم يؤدون الزكاة. والصفة السادسة أنهم ينقادون لأوامر الله وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم فما أمرهم الله به أو أمرهم به رسوله صلى الله عليه وسلم ائتمروا ومانهاهم عنه انتهوا.

وقوله عز وجل : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم *﴾ الإشارة فيه للمؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الحميدة. والسين في قوله عز وجل : ﴿ سيرحمهم الله ﴾ للتأكيد والدلالة على أن ذلك مقرر لا محالة ، لأن السين موضوعة للدلالة على الوقوع مع التأخير فإذا كان المقام ليس مقام تأخير لكونه وعداً وبشارة ، فإن السين تتمحض لتأكيد الوقوع. والسين في هذا المقام شبيهة بها في قوله تبارك وتعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزلَ معه أولئك هم المفلحون *﴾. وتذييل هذه الآية بقوله : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ تأكيد لوعده برحمتهم فإنه يعز من أطاعه لأن العزة لله جميعاً يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو الحكيم في قسمته هذه الصفات لهؤلاء المؤمنين وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة و لله الحكمة في جميع ما يفعله وما يأمر به وما ينهى عنه.

وقوله عز وجل : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية ، قال أبو السعود العمادي : هذا تفصيل لآثار رحمته ، والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير والإشعار بعلية وصف الإيمان للوعد المذكور اهـ وفي الجنة من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأهلها خالدون فيها أبداً لا يريمون منها ولا يتحولون عنها ومساكنهم أي منازلهم طيبة القرار حسنة البناء ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصَّالحين مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بشر . واقرؤوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرَّة أعين ﴾.

كما روى البخاري ومسلم عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها).

كما روى البخاري في صحيحه عن أنسٍ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (غَدْوة في سبيل الله أو رَوْحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ولو أنَّ امرأةً من نساءِ أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضَاءَتْ ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحاً ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها).

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ في الجنةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مائة عام لا يقطعُها ولَقابُ قوسٍ أحدِكم في الجنةِ خيرٌ ممَّا طلَعتْ عليه الشمسُ أو تغرب).

كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ للمؤمنِ في الجنة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مُجَوَّفة، عرضُها - وفي رواية : طولُها - ستُون ميلاً ، في كلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ما يرونَ

الآخرينَ ، يطوفُ عليهم المؤمنُ. وجنّتانِ من فضةٍ آنيتُهما ومافيهما.[و] جنّتان من ذهبٍ آنيتُهما وما فيهما. وما بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظروا إلى ربِّهم إلاّ رداءُ الكبرياءِ على وجهِه في جنة عدْنٍ).

كما روى مسلم عن أنسٍ قال : قال رسولُ ا الله صلى ا الله عليه وسلم : (إنَّ في الجنةِ لسُوقاً يأتونَها كلَّ جُمعة فتهبُّ ريحُ الشمالِ فتحْثو في وجُوهِهم وثيابهِم فيزدادونَ حُسناً وجمالاً فيرجعونَ إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهُم: وا الله لقدِ ازدَدتم بعدنَا حسناً وجمالاً. فيقولونَ : وأنتم وا اللهِ لقدِ ازددتم بعدَنا حُسناً وجمالاً).

كما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ قال : قال رسولُ ا الله صلى ا الله عليه وسلم : (إنَّ أولَ زُمرةٍ يدخلونَ الجنةَ على صورةِ القمرِ ليلةَ البدْرِ ، ثمَّ الذينَ يلونَهم كأشدِّ كوكبٍ دُريّ في السماءِ إضاءةً قلوبُهم على قلب رجلٍ واحدٍ لا اختلافَ بينهم ولا تباغُضَ لكلِّ امرىء منهم زوجتانِ من الحورِ العِين يُرى مُخّ سوقهما من وراءِ العظمِ واللحمِ من الحسنِ ، يسبّحونَ ا اللهَ بكرةً وعشيّاً لا يسقمونَ ولا يبولونَ ولا يتغوَّطونَ ولا يتفلونَ ولا يمتخطونَ ، آنيتُهم الذهبُ والفضةُ ، وأمشاطُهم الذهبُ ، ووَقودُ مجامرِهم الألوةُ ، ورشحُهمُ المسكُ ، على خَلْقِ رجلٍ واحدٍ على صورةِ أبيهم آدمَ ستونَ ذراعاً في السماءِ).

كما روى مسلم عن جابر قال : قال رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم:(إن أهل الجنّةِ يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغَوطون ولا يمتخطون). قالوا : فما بالُ الطعام ؟ قال : (جُشَاءٌ ورشحٌ كرشحِ المسكِ ، يُلْهمُونَ التسبيحَ والتحميدَ كما تلهمون النَفَسَ).

كما روى مسلم من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسول ا الله صلى ا الله عليه

وسلم : (من يَدْخُلِ الجنّة ينعَم ولا ييْأس ، ولا تَبْلى ثيابُه ، ولا يفْنى شبابُه).

كما روى مسلم من حديث أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (يُنادي مُنادٍ : إنَّ لكم أنْ تصِحُّوا فلا تسقَموا أبداً ، وإنَّ لكم أنْ تحيَوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أنْ تشِبُّوا فلا تهْرموا أبداً ، وإنَّ لكم أن تنعَموا فلا تبْأسوا أبداً).

كما روى البخاري ومسلم عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أهلَ الجنةِ يترآءونَ أهلَ الغرفِ من فوقِهم كما تترآءَونَ الكوكبَ الدرِّيّ الغابرَ في الأفقِ من المشرقِ أو المغربِ لتفاضُلِ ما بينَهم) قالوا : يا رسولَ الله : تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرهُم. قال : (بَلى والذي نفْسي بيدِه رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلينَ).

كما روى مسلم عن أبي هريرةَ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخلُ الجنَّةَ أقوامٌ أفئدتُهم مثلُ أفئدةِ الطيرِ).

كما روى مسلم من حديث أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ أدْنى مقعَدِ أحدِكم من الجنةِ أن يقولَ له : تمَنَّ ؛ فيتمنّى ، ويتمنّى. فيقولُ له: هل تمنّيتَ ؟ فيقول : نعم. فيقول له : فإنَّ لكَ ما تمنّيتَ ومثلَه معَه).

وقوله عز وجل : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي ورضا الله عز وجل عن المؤمنين أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك. فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولوا : ومالنا لا نرضى يا ربُّ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا ربُّ وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً).

وقوله عز وجل : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم *﴾ أي هذه الجنة ونعيمها ورضوان الله على أهلها هو الظفر الأكبر بأعلى درجات الخير والفلاح والنجاة والنجاح.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ببذل الجهد في ردع الكفار والمنافقين والغلظة عليهم حتى يرجعوا إلى الله أو يكفوا شرهم عن الإسلام والمسلمين ، ويتوعد من استمر منهم على كفره أو نفاقه بأن مصيره إلى النار لتكون مأوى له ومنزلاً أبدياً سرمدياً وبئس المصير والمرجع مصيرهم ومرجعهم وقد كرر الله عز وجل هذا الأمر في كتابه الكريم مرتين حيث ذكره هنا وذكره في سورة التحريم حيث قال فيها : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير *﴾

قال تعالى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن

﴿... يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ .

هذا تشنيع على المنافقين وإعلان للناس بما تواطأ عليه المنافقون من الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة في غزوة تبوك ، وفضح لما تكلموا به من كلمات الكفر ، وأن ديدنهم إذا سئلوا عما قالوا لجئوا إلى الأيمان الكاذبة الفاجرة. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس. فقال : أنشدك با لله كم كان أصحاب العقبة ؟ قال: فقال له القوم : أخبره إذ سألك ؟ قال : كنا نُخْبَرُ أنهم أربعة عشر فإن كنتَ منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد با لله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعَذَرَ ثلاثةً. قالوا : ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حَرَّة فمشى فقال : إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد فوجد قوماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ. وفي لفظ لمسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (في أمتي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط. ثمانية منهم تكفيكهم الدّبَيْلَةُ سراجٌ من نار يظهر في أكتافهم حتى يَنْجُمَ من صدورهم). قال النووي : وهذه العقبة ليست العقبة المشهورة بمنى التي كانت بها بيعة الأنصار وإنما هذه عقبة على طريق تبوك اجتمع المنافقون فيها للغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ. وقد قال البخاري في تفسير قوله عز وجل : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ : حدثنا

إسماعيل بن عبدا لله قال : حدثني إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن موسى بن عقبة قال : حدثني عبدا لله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك يقول : حزنت على من أصيب بالحرّة فكتب إليَّ زيد بن أرقم وبلغه شدةُ حزني يذكر أنه سمع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول : (اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار). وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار فسأل أنساً بعضُ من كان عنده فقال : هو الذي يقول رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : هذا الذي أوفى ا لله له بأذُنه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث : تكميل : وقع في رواية الإسماعيلي في آخر هذا الحديث من رواية محمد بن فليح عن موسى بن عقبة قال ابن شهاب : سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي صلى ا لله عليه وسلم يخطب لئن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير . فقال زيد : قد وا لله صدق ولأنت شر من الحمار. ورفع ذلك إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم فجحده القائل ، فأنزل ا لله على رسوله صلى ا لله عليه وسلم : ﴿ يحلفون با لله ما قالوا ﴾ الآية ، فكان ما أنزل ا لله في هذه الآية تصديقاً لزيد اهـ. وهذا مرسل جيد وكأن البخاري حذفه لكونه على غير شرطه ، ولا مانع من نزول الآيتين في القصتين في تصديق زيد اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وهمّوا بما لم ينالوا ﴾ ، أي وأرادوا الفتك برسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فصان ا لله عز وجل رسوله صلى ا لله عليه وسلم من غدرهم و لم يتحقق لهم ما أرادوا. وقوله عز وجل : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم ا لله ورسوله من فضله ﴾ أي وما للرسول صلى ا لله عليه وسلم عندهم من ذنب إلا أن جعله ا لله عز وجل سبباً لغناهم بما أفاء ا لله عز وجل ووسع عليهم من الغنائم ، وهذا من أساليب البلاغة المعروف بتأكيد المدح بما

يشبه الذم كقوله عز وجل : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ وكقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير * ﴾ دعوة لهؤلاء المنافقين ليتوبوا إلى الله عز وجل ويرجعوا إليه ويخلصوا دينهم لله. وقد تاب الله عز وجل على ثلاثة منهم وعذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ثمانية منهم لن يتوب الله عليهم ولن يدخلوا الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط كما تقدم قريباً في حديث حذيفة عند مسلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومالهم في الأرض من ولى ولا نصير * ﴾ أي ولا يجدون في الأرض أحداً ينجدهم ولا ينصرهم ولا يجلب لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

هذه صورة أخرى من صور المنافقين وديدن يلازمهم وهو سمة من سماتهم

وهو الغدر بالعهد سواء كان هذا العهد مع ا لله عز وجل أو مع أحد من خلقه. وفي هذا المقام بيان بأن بعض هؤلاء المنافقين عاهدوا ا لله عز وجل على أنه إذا أغناهم ووسع عليهم تصدقوا على الفقراء والمساكين وأنفقوا في سبيل ا لله فلما وسّع ا لله عز وجل عليهم غدروا بعهد ا لله فبخلوا بالمال الذي أعطاهم ا لله فلم يتصدقوا على فقير و لم يصيروا صالحين وأعرضوا عن طاعة ا لله وطاعة رسوله صلى ا لله عليه وسلم فجعل ا لله عاقبة فعلهم السيئ نفاقاً ومرضاً ثابتاً متمكناً من قلوبهم لا يفارق قلوبهم إلى يوم يلقون ا لله في الدار الآخرة فلا تنشرح صدورهم للتوبة حتى يموتوا وهم على نفاقهم بسبب هذه الجريمة المنكرة التي ارتكبوها وهي الغدر بعهد ا لله الذي عاهدوه عليه. وفي هذا تحذير شديد من ارتكاب المعاصي مطلقاً وبخاصة الغدر بعهد ا لله وميثاقه لأن المعصية قد تجر المعصية حتى ينطبع على القلب فيعمى تماماً ولا تتسرب إليه أنوار الإيمان. وقد حذّر ا لله عز وجل من الغدر بعهد ا لله وميثاقه حيث يقول : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾ ويقول عز وجل: ﴿ وأوفوا بعهد ا لله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ الآية ، ويقول عز وجل في وصف أولي الألباب: ﴿ الذين يوفون بعهد ا لله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ويقول تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ وقد أعلن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن خلف الوعد والغدر بالعهد من أبرز أمارات النفاق وعلاماته ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان) زاد في رواية مسلم : (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم). كما روى البخاري ومسلم من حديث عبدا لله بن عمرو بن العاص

رضي ا لله عنهما أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومنهم من عاهد ا لله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين* ﴾ أي ومن المنافقين من أقسم با لله لئن أعطانا ا لله مالاً ورزقنا من فضله وجوده لنسارعَنَّ إلى البذل في وجوه الخير وأعمال البر ولنحرصن على أفعال الصالحين من عباد ا لله فنلزم طاعة ا لله وطاعة رسوله صلى ا لله عليه وسلم في السر والعلن. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ أي فلما أعطاهم ا لله من فضله ووسع عليهم بخلوا بمال ا لله فلم ينفقوا منه شيئاً في أبواب الخير و لم يفوا بما عاهدوا ا لله عليه و لم يكونوا صالحين وأعرضوا عن طاعة ا لله وطاعة رسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم وانغمسوا في ضلالهم وشهواتهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ الآية أي فجازاهم ا لله على جريمتهم والغدر بعهدهم مع ا لله نفاقاً في قلوبهم وأورثهم هذا النفاق متمكناً من نفوسهم حتى يوافوا ا لله عز وجل يوم القيامة بهذا النفاق الذي يجعلهم في الدرك الأسفل من النار وذلك بسبب إخلافهم العهد الذي عاهدوا ا لله عليه وبسبب مجانبتهم للصدق وانغماسهم في الكذب. وقوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أن ا لله يعلم سرهم ونجواهم وأن ا لله علام الغيوب* ﴾ أي أجهلوا أسماء ا لله الحسنى وصفاته العلى فلم يعرفوا أن ا لله لا يخفى عليه شيء مما يكنونه في ضمائرهم أو يتناجون به ويتسارونه فيما بينهم وأنه عز وجل يعلم السر وأخفى وأنه ما يكون من

نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا كما قال عز وجل : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم *﴾.

قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾.

هذا إعلان عن صورة أخرى من صور انتكاس المنافقين واندفاعهم في لمز المسلمين وعيبهم والسخرية منهم حيث ذكر الله عز وجل عنهم أنهم يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات فإن تصدق أحد من المسلمين بمال جزيل قال المنافقون : هذا مُرَاء . وإن جاء أحد من المسلمين بمال يسير على قدر جهده وطاقته قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا. فلم يسلم منهم أحد لا من المكثرين ولا من المقلين ، وجهل هؤلاء أن الإنسان قد يتصدق بشق تمرة فيدفع الله بها النار عن وجهه يوم القيامة. وقد كان من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا النار ولو بشق تمرة) كما رواه البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما أُمِرنا بالصدقة كنا نتحامل فجاء أبو عَقِيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة

هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ، فنزلت : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ الآية. ومعنى قوله في الحديث : كنا نتحامل ، أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة لنتصدق. ومعنى : يلمزون ، يعيبون ويسخرون ويستهزئون. والمراد بالمطوعين هم الذين يتبرعون بالصدقة وهي ليست بواجبة عليهم. وأصل المطوعين المتطوعين ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : فأدغمت التاء في الطاء وهم الذين يغزون بغير استعانة برزق من سلطان أو غيره . وقوله : ﴿والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ معطوف على المطوعين ، وأخطأ من قال: إنه معطوف على ﴿ الذين يلمزون ﴾ لاستلزامه فساد المعنى ، وكذا من قال : معطوف على المؤمنين لأنه يفهم منه أن الذين لا يجدون إلا جهدهم ليسوا بمؤمنين اهـ

ومعنى : ﴿ لا يجدون إلا جهدهم ﴾ أي لا يجدون ما يجودون به إلا بجهد ومشقة على قدر طاقتهم ، ﴿ فيسخرون منهم ﴾ أي فيستهزئ هؤلاء المنافقون من هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين يجودون بقدر طاقتهم. وقوله عز وجل:﴿ سخر الله منهم ﴾ أي جازاهم الله عز وجل جزاءً من جنس عملهم ، وهذا نظير قوله عز وجل : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون *﴾ وكما تقدم قريباً في قوله عز وجل : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وقد ذكرت في تفسير سورة البقرة قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (وأما الاستهزاء والمكر بأن يظهر الإنسان الخير والمراد شر فهذا إذا كان على وجه جحد الحق وظلم الخلق فهو ذنب محرم ، وأما إذا كان جزاء على من فعل ذلك بمثل فعله كان عدلاً حسناً قال الله تعالى : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا

إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل اهـ. وقوله عز وجل : ﴿ ولهم عذاب أليم *﴾ أي وللمنافقين عقاب مؤلم في الدرك الأسفل من النار .

قال تعالى :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

هذا قطع لأطماع المنافقين فيما كانوا يحاولونه من استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم مع علمهم بكفر بواطنهم وإنما أرادوا التمويه على المسلمين بأنهم إذا طلبوا الاستغفار لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دليلاً على أنهم مسلمون مؤمنون ، كما قال عز وجل : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ فأعلن الله عز وجل هنا أن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه صلى الله عليه وسلم لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. والأمر في قوله عز وجل : ﴿ استغفر لهم ﴾ معناه الخبر تقديره : أستغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ، فالمقصود التسوية بين الاستغفار وعدمه كما قال عز وجل في سورة المنافقون : ﴿ سواءٌ عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين *﴾ فالاستغفار لهم وعدمه سيان. وقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إني خُيِّرتُ فاخترت ، لو أني أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها).

وهو إشعار من رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بأن استغفاره للمنـافقين لا ينفعهم.

وقوله تعالى : ﴿ ذلـك بـأنهم كفـروا بـا لله ورسـوله وا لله لا يهـدي القـوم الفاسقين *﴾ تعليل لعدم انتفاعهم باستغفار رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم وأن ذلك هو بسبب كفرهم با لله ورسوله وأن الله عـز وجـل لا يسـدد هـؤلاء المنافقين ولا يعينهم بسبب كفرهم وفسقهم.

قال تعالى :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

بيان لحال المنافقين المتخلفين عن الخـروج مـع رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم ومآلهم وأنهم قد امتلأت قلوبهم سروراً وابتهاجاً بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومخالفتهم لأمره صلى الله عليه وسلم لهم بـالخروج ولـو كانت لهم عقول يعرفون بها أسباب سعادتهم لامتلأت نفوسهم حزنا وحسرة ، ولكنهم لانتكاس فطرتهم سروا بما يضرهم وكرهـوا مـا ينفعهـم مـن الجهـاد في سبيل الله بالمال والنفس و لم يكتفوا بتخاذلهم بل صـاروا يخذلـون مـن يتمكنـون من تخذيله ويقولون لهم : لا تخرجوا مع رسـول الله صلـى الله عليـه وسـلم لأن

الحر شديد حيث كان الخروج إلى غزوة تبوك في شدة الحر فوبخهم ا لله عز وجل وتوعدهم بعذاب جهنم ، وأمر نبيه صلى ا لله عليه وسلم أن يخبرهم بأمر لا يتنازع فيه اثنان من ذوي العقول وهو المقارنة بين حرارة الصيف التي يعتذرون عن الخروج بسببها وبين حرارة نار جهنم التي أعدت للمتخلفين المخالفين لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وأن يبين لهم أن فرحهم وضحكهم لتخلفهم أمده قليل وأن حزنهم وبكاءهم لن ينقطع وهم في نار جهنم. كما أمر ا لله نبيه صلى ا لله عليه وسلم أن يخبرهم إذا ردَّه ا لله إليهم بعد غزوة تبوك وطلبت جماعة من هؤلاء المنافقين من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يكونوا في صحبته إذا خرج للغزو مرة أخرى بأن ا لله عز وجل قد حرمهم من شرف صحبة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في الغزو وأنهم لن يخرجوا معه صلى ا لله عليه وسلم أبداً ولن يقاتلوا معه عدواً ، وفي هذا إشارة إلى أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لن يغزو بعد غزوة تبوك. وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن ا لله معنا ﴾ إلى ما تضمنه قوله عز وجل في سورة الفتح : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم ا لله أجراً حسناً ﴾ الآية من أن ا لله عز وجل قد أمر رسوله صلى ا لله عليه وسلم أن يخبر هؤلاء الأعراب بأن ا لله سيتيح لهم فرصة الغزو في سبيل ا لله وسيدعوهم ولي أمر المسلمين - وهو أبو بكر رضي ا لله عنه - لقتال قوم أشداء فإن يطيعوا هذا الداعي يسعدوا وإن يتولوا عنه كما تولوا عن رسوله صلى ا لله عليه وسلم يشقوا.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول ا لله ﴾

أي سُرَّ هؤلاء المنافقون بمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعاهم إلى الخروج إلى تبوك وقعودهم مع نسائهم وذراريهم مشاقين رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ أي وأبغضوا الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر ﴾ أي وقال بعضهم لبعض : لا تخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تذهبوا معه إلى تبوك لأن الحر شديد. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين : نار جهنم التي تصيرون إليها بمخالفتكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى حراً مما فررتم منه من الحر بل هي أشد حراً من النار التي توقدونها وتطبخون عليها إذ نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية ، فقال : فُضِّلت عليها بتسعة وستين جزءاً). كما روى البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً). كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أدنى أهل النار عذاباً ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ أي لو كانوا يفهمون

ويعقلون ذلك ما تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فلْيضحكوا قليلاً ولْيبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون* ﴾ قال ابن الجوزي : قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه التهديد اهـ أي فليس أمراً بالضحك ولا بالبكاء أي إنهم سيضحكون قليلاً ولو ضحكوا بقية عمرهم فهو قليل بالنسبة إلى ما سيلقونه من عذاب النار وهو لا ينقطع أبداً وسيبكون كثيرا في نار جهنم حيث لا ينتهي حزنهم فيها بما اقترفوا من النفاق والمعاصي وقد كان بعض السلف لا يكاد يضحك ، وقد قال بعض الشعراء :

تقول مالك لم تضحك وقد نظرت ... عيناك مُضحِكَ ثكلى ذات أفكار

فقلت يمنع ضحكي جهل عاقبتي ... وإنما يضحك الناجي من النار

وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم ولهم خنين. وفي رواية بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحابه شيء فخطب فقال : (عرضت عليّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً) ، فما أتى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أشدُّ منه ، غَطَّوْا رءوسهم ولهم خَنين. قال النووي رحمه الله : (الخنين بالخاء المعجمة هو البكاء مع غُنَّة وانتشاق الصوت من الأنف).

وقوله عز وجل : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا مَعِي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين* ﴾ أي فإن ردّك الله من تبوك إلى جماعة من المنافقين

المتخلفين في المدينة وأعلنوا لك استعدادهم للخروج معك مستقبلاً في الغزو فقل لهم : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً فقد ضيعتم على أنفسكم شرف الغزو معي حيث رضيتم بالقعود أول مرة أي عندما دعوتكم للخروج معي إلى تبوك فاقعدوا مع الخالفين أي الفاسدين. يقال : فلان خالفة أهله إذا كان فاسداً فيهم ، كما يقال : خلف اللبن أي فسد بطول المكث في السقاء. كما وبخهم مرة أخرى فقال : ﴿ رَضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ أي النساء ورجع في قوله عز وجل : ﴿ فإن رجعك الله ﴾ هي المتعدية ومصدرها الرجْع ومضارعها يرجَع بفتح الجيم بخلاف رجع اللازم كما تقول : رجعت إلى المسجد فإن مصدرها الرجوع ومضارعها بكسر الجيم.

وقد أشار الله تبارك وتعالى في سورة الفتح إلى تحريم خروج المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا * ﴾ ولعل المراد بقوله عز وجل : ﴿ كذلكم قال الله من قبل ﴾ هو قوله عز وجل في هذا المقام من سورة التوبة : ﴿ قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ وسورة الفتح وان كانت نزلت بعد صلح الحديبية مباشرة فإنه لا مانع من أن تكون هذه الآية منها قد نزلت بعد غزوة تبوك لما علم من أن بعض الآيات من بعض السور قد يتأخر نزولها عن السورة زمناً طويلاً حيث لا يختلف أهل العلم بأن سورة المزمل من أول السور نزولاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صدر سورة العلق وسورة المدثر ومع ذلك فإن الآية الأخيرة من سورة المزمل قد نزلت بالمدينة لقوله عز وجل فيها : ﴿ وآخرون يقاتلون في

سبيل الله ﴾ وقد أجمع المسلمون على أن القتال لم يشرع إلا بالمدينة. وليس قولهم للمؤمنين : ذرونا نتبعكم هو توبة من تخلفهم عن تبوك وإنما هو تأكيد لجشعهم وحرصهم على الغنيمة إذا كانت سهلة المأخذ.

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

هذا نهي عن الصلاة على المنافقين والكافرين وتحذير من القيام على قبورهم عند الدفن وإن كان سبب نزول هذه الآية في شأن الصلاة على عدو الله رأس المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول لعنه الله وقد كان من المثبطين عن الخروج إلى تبوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من الذين فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة أصيب عدو الله عبدالله بن أبي بمرض استمر عشرين يوما كان ابتداؤها من ليالي بقيت من شوال وتوفي في ذي القعدة من السنة التاسعة للهجرة ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : لما توفي عبدالله بن أُبي جاء ابنه عبدالله ابن عبدالله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يُكَفِّنُ فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى

ا لله عليه وسلم : إنما خَيَّرني ا لله فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ وسأزيده على السبعين. قال: إنه منافق. قال : فصلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فأنزل ا لله : ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ﴾. ومعنى قوله في الحديث : (وقد نهاك ربك أن تصلي عليه) أي نهاك ربك أن تدعو له وتستغفر له كما جاء بهذا اللفظ في الرواية الثانية عن ابن عمر رضي ا لله عنهما حيث قال : وقد نهاك ا لله أن تستغفر لهم وهذا لابد منه لأن النهي عن الصلاة على المنافقين لم ينزل إلا بعد الصلاة على عبدا لله بن أبي. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عمر بن الخطاب رضي ا لله عنه قال : (لما مات عبدا لله بن أبي ابن سَلُول دُعِيَ له رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وَثَبْتُ إليه فقلت يا رسول ا لله أتصلي على ابن أُبَي وقد قال يوم كذا : كذا وكذا ؟ قال : أُعَدِّدُ عليه قوله. فتبسم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقال : أَخِّر عني يا عمر . فلما أكثرت عليه قال : إني خُيِّرتُ فاخترت ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها. قال : فصلى عليه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية من براءة : ﴿ ولاتصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ إلى قوله : ﴿ وهم فاسقون *﴾ قال : فعجبت بعد من جُرأتي على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، وا لله ورسوله أعلم. كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ لمسلم من حديث جابررضي ا لله عنه قال: أتى النبي صلى ا لله عليه وسلم قبر عبدا لله بن أبي فأخرجه من قبره فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه اهـ ولا شك أن هذا العمل من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كان سياسة

شرعية لتطييب قلب ولده عبدا لله بن عبدا لله بن أبي كما أن فيه إشارة إلى أن قميص رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وريقه لا ينفع من مات على غير الإسلام.

قال تعالى :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

هذا تأكيد لقوله عز وجل في الآية الخامسة والخمسين من هذه السورة المباركة حيث قال عز وجل : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد ا لله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ﴾ فهاتان الآيتان من المتشابه المثاني الذي ذكره ا لله عز وجل بقوله : ﴿ ا لله نَزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ وليس هذا تكريراً مجرداً بل كل آية من الآيتين قد اشتملت على إشارات بلاغية تنبه إلى إعجاز القرآن حيث اقترنت جملها بحروف تناسب مقام كل واحدة من الآيتين وتنادي ببلاغته وأنها في الذروة في مقامها التي سيقت فيه ، فقد قال في الآية الأولى : ﴿ فلا تعجبك ﴾ بالفاء وقال هنا : ﴿ ولا تعجبك ﴾ بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله: ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون* ﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله : ﴿ فلا تعجبك ﴾ وأما في هذه الآية فليس في الآية التي قبلها ذكر للإنفاق فكانت مستأنفة لا تناسبها الفاء وإنما يناسبها الواو التي للاستئناف. وقال تعالى في الأولى : ﴿ فلا تعجبك

أموالهم ولا أولادهم ﴾ وأسقط حرف (لا) هنا فقال : ﴿ وأولادهم ﴾ والسبب أن حرف (لا) دخل في الآية لزيادة التأكيد ليدل على أنهم كانوا معجبين بالأموال والأولاد وإعجابهم بالأولاد أكثر وفي إسقاط حرف (لا) هنا إشعار بتساويهما وعدم الفرق بينهما حيث اختلفت الحالتان. وقال تعالى في الآية الأولى : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم ﴾ بحرف اللام وقال هنا : ﴿ إنما يريد الله أن يعذبهم ﴾ بحرف (أن) لأن جرسها أنسب في هذا المقام ، ولاشك أن اللام و (أن) يتعادلان فتأتي إحداهما مكان الأخرى ، كما قال عز وجل : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ ومعناه وما أمروا إلا أن يعبدوا الله. وكما قال عز وجل : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ وقال : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾. وقال تعالى في الآية الأولى : ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ وقال هنا ﴿ في الدنيا ﴾ فهذه التصاريف البلاغية تلفت الانتباه إلى أن هذا القرآن العظيم قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

قال تعالى :

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

هذا بيان لأخلاق حزب الشيطان من المنافقين وأخلاق حزب الرحمن من المؤمنين يوضح فيه نكوص المنافقين عن الجهاد في سبيل الله وأنهم إذا دُعُوا إلى الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم للجهاد سارعوا إلى الاعتذار بالأعذار الكاذبة والاستئذان في القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن حزب الرحمن يسارعون إلى الجهاد في سبيل الله ويبذلون أموالهم وكل نفيس لديهم فأعد الله لهم الخيرات والنعيم المقيم في جنات النعيم ، وأشار عز وجل إلى أنه لا يقعد عن الجهاد لغير عذر إلا الذين كذبوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعرض عز وجل صورة مشرقة للمؤمنين العاجزين عن الجهاد لعدم قدرتهم على السفر بسبب عدم وجود ما يحملهم إلى أرض الجهاد وأنهم لما جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم وقال لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقونه ويعينهم على الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا با لله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين *﴾ أي وإذا أنزل الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سورة يأمر فيها

المنافقين بالإيمان با لله والجهاد مع رسوله صلى ا لله عليه وسلم ودعـاهم رسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلى الخروج معه في الغَزْوِ سارع أغنيـاء المنـافقين وهـم أولوا الطول منهم القادرون على القتال بأموالهم وأنفسهم واستأذنوا رسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في التخلف وقالوا اتركنا وَأْذَنْ لنـا في القعـود مـع نسـائنا وذرارينا ، وهذا شبيه بقوله عز وجل : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نُزِّلتْ سـورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نَظَر المغشِيِّ عليه من الموت فَأَوْلَى لهـم * طاعـةٌ وقـولٌ معـروف فـإذا عَـزَمَ الأمرُ فَلَوْ صَدَقُوا ا لله لكان خيرا لهم *﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿ ينظـرون إليـك نظر المغشيِّ عليه من الموت ﴾ إعلان بأنهم بلغوا الغاية في الجبن والهلـع فهـم إذا وقع الحرب كانوا أجـبن النـاس وإذا لم تكـن حـرب كـانوا أكـثر النـاس كلامـا وأطولهم ألسنة كما قال عز وجل : ﴿ فإذا جاء الخـوف رأيتهـم ينظـرون إليـك تدور أعينهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت فإذا ذهب الخـوف سـلقوكم بألسنة حداد ﴾ وهـم كما قال الشاعر:

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةً وفي الحرب أشباه النساء الفوارك

ومعنى قوله عز وجل: ﴿ رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف وطُبِعَ على قلوبهـم فهم لا يفقهون*﴾ أي أحب هؤلاء المنافقون لأنفسهم أن تنحـط رجولتهـم وأن يرضوا بأن يكونوا كالنساء وقد جلبـت لهـم هـذه المعـاصي انطمـاس ضمـائرهم فختم ا لله على قلوبهم فلا يفقهون شيئاً ولا يعقلون أسباب السعادة ولا أسـباب الشقاوة. وقوله عز وجل : ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جـاهدوا بـأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون * أعد ا لله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خـالدين فيهـا ذلـك الفـوز العظيـم *﴾ بعـد ذم المنـافقين على

نكولهم وتخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضاهم بأخس صفات الرجولة شرع في الثناء على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين الذين يسارعون إلى الجهاد ويبذلون أموالهم وأنفسهم ووعدهم عز وجل بالخيرات وهي منافع الدارين من النصر والغنيمة في الدنيا والقرار في الفردوس الأعلى وجنات النعيم وأنهم هم الفائزون وأنه أعدّ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار يخلدون فيها لا يريمون منها ولا يتحولون عنها وأنهم لذلك فازوا فوزاً عظيماً ونجحوا نجاحاً كبيراً ، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ بيان بأن الأعراب الذين كانوا يسكنون حول المدينة لم يكونوا سواء فمنهم من جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعا للخروج لغزو الروم في تبوك فبالغ في الاعتذار ليتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم من لم يجئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكشف نفاقه وظهر انه مكذب بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم وتوعد الله الذين أجرموا منهم فقال : ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم * ﴾ أي سيقع بالكافرين منهم عذاب أليم وعقاب موجع. وفي قوله عز وجل ﴿ منهم ﴾ إشعار بأن بعض المعذرين تخلف كسلاً وبعضهم تخلف كفراً أما من قعد عن المجيء والاعتذار فقد نص الله عز وجل هنا على أنهم كانوا كافرين مكذبين بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم كاذبين في دعواهم أنهم مؤمنون بالله وبرسوله صلى اله عليه وسلم.

وقوله عز وجل : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله

غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألاّ يجدوا ما ينفقون ﴾ بيان بأصحاب الأعذار المقبولة التي تبيح لأصحابها التخلف ولا حرج عليهم ، بل قد يشركهم الله عز وجل في أجر الغزاة والمجاهدين. فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (إن أقواماً خَلْفَنَا بالمدينة ما سلكنا شِعْباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العُذْرُ). كما روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : (إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، حبسهم المرض. وفى رواية : إلا شَرَكُوكُم في الأجر). قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو ملازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عَنَّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا ولهذا قال : ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم *﴾ اهـ

وقوله عز وجل : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ الآية . أي ولا حرج على الذين إذا ما جاءوك ليطلبوا منك أن تحملهم معك إلى غزوة تبوك وقلت لهم : لا أجد ما أحملكم عليه فانصرفوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق أبي بردة

عن أبي موسى قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله لهم الحُمْلان إذْ هم معه في جيش العسرة (وهي غزوة تبوك) فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم. فقال : والله لا أحملكم على شيء ، ووافقته وهو غضبان ولا أشعر . فرجعت حزيناً من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مخافة أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد في نفسه عليَّ. فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ألبث إلا سُوَيعَة إذ سمعت بلالاً ينادي : أي عبد الله بن قيس ، فأجبته. فقال : أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك. فلما أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : خذ هذين القرينين وهذين القرينين وهذين القرينين لستة أبعرة (ابتاعهن حينئذ من سعد) فانطلق بهن إلى أصحابك فقل إن الله (أو قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم) يحملكم على هؤلاء فاركبوهن. قال أبو موسى : فانطلقت إلى أصحابي بهن فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملكم على هؤلاء ، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألته لكم ، ومَنَعَهُ في أول مرة ثم إعطاءه إياي بعد ذلك ، لا تظنوا أني حدثتكم شيئاً لم يقله ، فقالوا لي : إنك عندنا لَمُصَدَّقٌ ، ولنفعلَنَّ ما أحببتَ. فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعه إياهم ثم إعطاءهم بعدُ فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء. وفى رواية للبخاري ومسلم واللفظ لمسلم : فلما انطلقنا قال بعضنا لبعض: أغفلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه. لا يبارك لنا. فرجعنا إليه فقلنا : يا رسول الله ، إنا أتيناك نستحملك وإنك حلفت أن لا تحملنا ثم

حملتنا، أفنسيت يا رسول الله ؟ قال : إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها فانطلقوا فإنما حملكم الله عز وجل.

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

بعد أن بين الله عز وجل أنه لا لوم ولا عقوبة ولا سبيل للمؤاخذة على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ووصفهم عز وجل بأنهم محسنون في حالهم هذا ؛ ردَّ الملامة والمؤاخذة على الذين يستأذنون في القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل غنى وطول وسعة وقدرة وانحطت أخلاقهم وأساءوا حيث رضوا بأن يجلسوا مع الخوالف من النساء في البيوت ويتركوا الغزو فختم الله على قلوبهم بما اكتسبوا من المعاصي والذنوب

فهم قد جهلوا سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة ، وأنهم جبناء رعاديد يعتمدون في الدفاع عن أنفسهم على الكذب واختلاق المعاذير وتأكيد كذبهم بالأيمان الكاذبة الفاجرة ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن لا يقبلوا اعتذارهم ويخبروهم بأن الله عز وجل كشف سرهم وفضح أمرهم ، وسيرى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عملهم فيما يستقبلون من الأيام هل يتوبون إلى الله ويذكرون ويرجعون عن نفاقهم أو يستمرون على ضلالهم وغيهم وأنهم لابد ميتون مفارقون لهذه الحياة الدنيا موقوفون بين يدي عالم الغيب والشهادة الذي يعلم السر والعلانية ولا تخفى عليه خافية فيوبخهم على ما اقترفوا من الكفر والنفاق ويجازيهم على ما اكتسبوا أسوأ الجزاء في نار الجحيم ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين قبل رجوعهم من تبوك بأن هؤلاء المنافقين سيسارعون إلى الحلف بالأيمان الكاذبة لتكفوا عن تأنيبهم إذا رجعتم إليهم ويأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يعرضوا عنهم فلا يؤنبوهم لعل ترك تأنيبهم بعد إخبارهم بسوء أعمالهم يؤثر في نفوس بعضهم فيتوبون إلى الله ويؤمنون بالله ورسوله وينخرطون في سلك المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولاشك أن هذا الأسلوب التربوي قد أثر في نفوس الكثيرين منهم فدخلوا في دين الله و لم يستمر على نفاقه إلا اثنا عشر رجلا منهم.

ومعنى قوله عز وجل: ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء *﴾ أي إنما الملامة والمؤاخذة على الذين يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم في القعود من الغزو وهم أهل غنى وطول وسعة وقدرة بدنية على الغزو . وقوله عز وجل : ﴿ إنما ﴾ للمبالغة في التأكيد لا لإفادة الحصر ، فمن ارتكب حداً من حدود الله أو معصية توجب التعزير من المنافقين أو غيرهم من

المؤمنين استحق المؤاخذة وعوقب بما شرع الله عز وجل لمؤاخذته من العقوبة.
وقوله عز وجل : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون* ﴾ هو شبيه بالآية السابعة والثمانين من هذه السورة ، غير أنه في هذا المقام جعله جزء آية ، وفي الآية السابعة والثمانين جعله آية كاملة. كما أنه في المقام الأول قال : ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ وفى هذا المقام قال : ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون * ﴾ وهذا لون من التصريف البلاغي فحذف الفاعل في المقام الأول وبنى الفعل لما لم يسم فاعله ، وفي المقام الثاني سمى الفاعل فبنى الفعل لما سمى فاعله. وفي المقام الأول قال : ﴿ فهم لا يفقهون* ﴾ فسلب منهم الفقه والفهم وفى المقام الثاني سلب منهم العلم ، وهذا شبيه بقوله عز وجل في سورة (المنافقون) : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا و لله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون * ﴾ فنفى عنهم الفقه أولا ثم نفى عنهم العلم ثانياً ، ولاشك أنه لو نفى العلم أولاً لم يكن لنفي الفقه بعد ذلك معنى ، لأن نفي العلم يقتضي نفي الفقه بخلاف نفي الفقه فإنه لا يقتضي نفي العلم فمن انتفى عنه العلم التحق بالدواب والأنعام وخرج من سلك أهل الإدراك والعقل الإنساني.

وقوله عز وجل : ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ بتوجيه الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : لا تعتذروا لن نؤمن لكم ، مع أن صدر الآية كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حيث كانوا يعتذرون له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه لكنه لما كان الجواب من وظيفته

هو صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ قل لا تعتذروا ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي لن نصدقكم على ما تقولون فقد أخبرنا الله عز وجل من أخباركم وأعلمنا بحقيقة أمركم وما كنّتهُ صدوركم. والتعبير بمن في قوله عز وجل : ﴿ من أخباركم ﴾ لأن دأب الكرام إذا عاتبوا لا يستقصون. كما أشار إلى ذلك قوله عز وجل في سورة التحريم : ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ هو دعوة المنافقين إلى التوبة إلى الله وإخلاص العمل لله وحده مع التهديد بفضحهم إذا استمروا على نفاقهم ثم مردهم إلى الله عز وجل ووقوفهم بين يديه يوم القيامة. ومعنى ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون * ﴾ أي فيخبركم بما أعلنتم وأسررتم من أعمالكم فيجازيكم بما عملتم ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره* ﴾.

وقوله عز وجل : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * ﴾ إلى : ﴿ الفاسقين ﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم إنهم رجس أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أي من الآثام والخطايا ، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فإن الفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها

من جحرها للإفساد ويقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها اهـ وقد قال البخاري في صحيحه في تفسير سورة التوبة : باب قوله : ﴿ سيحلفون با لله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ حدثنا يحي حدثنا الليث عن عُقيل عن ابن شهاب عن عبدالرحمن بن عبدا لله أن عبدا لله بن كعب بن مالك قال : سمعت كعب بن مالك حين تخلف عن تبوك : وا لله ما أنعم ا لله عليَّ من نعمة بعد إذ هداني أعظم من صدقي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن لا أكونَ كَذَبْتُهُ فأَهْلِكَ كما هلك الذين كذبوا حين أُنْزِلَ الوحي : ﴿ سيحلفون بـا لله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ إلى ﴿ الفاسقين ﴾ اهـ

قال تعالى :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

هذا بيان بتفاوت الناس في الكفر والنفاق ، وأن الأعراب هم أشد الناس كفراً ونفاقاً وأقلهم معرفة بالعلوم الشرعية المنزلة من ا لله عز وجل على رسوله محمد صلى ا لله عليه وسلم. والأعراب هم سكان البادية والعرب هم المتكلمون

باللغة العربية سواء كانوا من سكان البادية أو الحاضرة. قال في المصباح : وأما الأعراب بالفتح فأهل البدو من العرب ، الواحد أعرابي بالفتح أيضا وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ ، وزاد الأزهري فقال : سواء كان من العرب أو من مواليهم فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء اهـ وقال في مختار الصحاح: البدو : البادية وهي ضد الحاضرة اهـ.

والمقصود من قوله عز وجل : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ الآية يعني جنس الأعراب لا كل الأعراب لقوله عز وجل بعد ذلك : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ﴾ الآية. وقد أخبر ا لله تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين . وقال أبو السعود العمادي في تفسيره : ﴿ أشد كفراً ونفاقاً ﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ونشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم ، وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ إذ ليس كلهم كما ذكر على ما ستحيط به خبراً اهـ. ولا شك أن الأصل في الأعراب هو التنقل والارتحال طلباً للمراعي والتماساً للعشب لرعي مواشيهم ، أما من استقر منهم في مكان لا يرتحل منه وتقرى فيه وصار ذا جماعة في هذا المكان فإن اسم الأعرابية يزول عنه لزوال سببه كما فعل الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود رحمه ا لله حين جعل للبادية هِجَراً يسكنونها وابتنى لهم أبناؤه المساجد والمدارس واجتمعوا فيها بالعلماء ، فقد أصبحوا من سكان القرى لا من أهل البادية.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل ا لله على رسوله ﴾ أي أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل ا لله على رسوله صلى ا لله عليه وسلم. وتذييل الآية بقوله : ﴿ وا لله عليم حكيم ﴾ للتأكيد على علمه وحكمته في تقسيم الأرزاق بين الناس في العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق واللين والشدة. وليس لقائل أن يقول : إذا كان الأعراب جاهلين بما أنزل ا لله على رسوله صلى ا لله عليه وسلم فكيف يصح الاحتجاج بألفاظهم من شعر ونثر ، فإن الجواب هو أن العلماء لا يحتجون بلغتهم في بيان الأحكام الشرعية بل يحتجون بألفاظهم في بيان معاني الألفاظ ، لأن القرآن نزل بلغتهم وكذلك حديث رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كان بلسانهم.

وقوله عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي ومن أهل البادية منافقون يعتبرون نفقتهم التي ينفقونها في جهاد الكفار أو في معونة المسلمين أو في بعض ما ندب ا لله عباده إليه مغرما أي غرامة لا يرجون لها ثواباً ولا يدفعون بها عن وجوههم يوم القيامة عقاباً لكفرهم با لله ورسوله ، بل يعتبرون ذلك خسراناً وهلاكاً للأموال مشتق من الغرام وهو الهلاك ومنه قوله عز وجل : ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي وينتظر أن تحل بكم الدوائر وتنقلب عليكم الأيام فيتخلصوا منكم. والدوائر جمع دائرة وهي ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة وأصلها ما يحيط بالشيء مطلقاً.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ عليهم دائرة السَّوء ﴾ هي جملة معترضة للدعاء على هؤلاء الأعراب المنافقين المتربصين دوائر السوء بالمؤمنين ، أي أحاطت بهم وانقلبت عليهم الأيام ودار عليهم العذاب والهلاك لا عليكم أيها المؤمنون فأنتم

أنصار ا لله وأنصار رسوله صلى ا لله عليه وسلم وأنتم جند ا لله وقد وعد ا لله جنده بالنصر كما قال عز وجل : ﴿ إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون *﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند ا لله وصلوات الرسول ألاَ إنها قربة لهم سيدخلهم ا لله في رحمته إن ا لله غفور رحيم *﴾ بيان بأن الأعراب ليسوا سواء، فمنهم المنافق ومنهم المؤمن المستجيب لله ولرسوله صلى ا لله عليه وسلم ، ولما بيّن فريق المنافقين من الأعراب ، ذكر فريق المؤمنين منهم. ومعنى قوله عز وجل ﴿ ومن الأعراب من يؤمن با لله واليوم الآخر ﴾ الآية أي ومن أهل البادية من يؤمن با لله واليوم الآخر ويَعُدُّ ما ينفق في سبيل ا لله وجهاد أعدائه ومعونة المسلمين قربة يتقرب بها إلى ا لله عز وجل رجاء أن يدفع ا لله بها النار عن وجهه يوم القيامة ورجاء دعوات رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حيث كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا جاءه أحد بصدقة ينفقها في سبيل ا لله دعا له بخير واستغفر له ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبدا لله بن أبي أوفى قال : (كان النبي صلى ا لله عليه وسلم إذا أُتِي بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى). وكما سيأتي في قوله عز وجل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ألا إنها قربة لهم سيدخلهم ا لله في رحمته ﴾ الآية أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سيدخلهم ا لله في رحمته إن ا لله غفور رحيم *﴾.

قال تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل ما تميز به جنس الأعراب من شدتهم في كفرهم ونفاقهم وجهلهم بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر فريقاً من منافقي الأعراب ثم ذكر فريقا من مؤمني الأعراب وما وعد الله به من إدخالهم في رحمته ، ذكر هنا فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان سواء كانوا من أهل البادية كأبي ذر الغفاري الذي كان يسكن البادية قبل هجرته ثم هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو كانوا من سكان الحاضرة من أهل مكة وأهل المدينة وأهل الطائف وغيرهم من سكان القرى والريف والمدن. وقد ذكر الله عز وجل هنا أنه رضي عنهم ورضوا عنه ووعدهم بجنات تجري تحتها الأنهار يسكنون فيها أبداً لا يريمون منها ولا يتحولون عنها وأنهم فازوا الفوز العظيم. والمراد بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم من هاجر الهجرتين أو صلى للقبلتين أو شهد بدراً أو شهد بيعة الرضوان في الحديبية. وأفضل السابقين على الإطلاق أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقد سأل الشعبي ابن عباس رضي الله عنهما عن أول الناس إسلاماً فقال : أبو بكر ، أوَ ما سمعت قول حسان رضي الله عنه :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

ثم بقية الخلفاء الأربعة ثم العشرة المبشرون بالجنة ثم البدريون ثم أصحاب غزوة أحد ثم أهل بيعة الرضوان. وقد بين الله عز وجل فضل من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل فقال عز وجل : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ أي والذين اتبعوا السابقين الأولين بإحسان ونهجوا منهجهم وأحبوا جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين. وقد أكد الله عز وجل ما تضمنته هذه الآية في مواضع من كتابه الكريم حيث قال عز وجل في سورة الحشر : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم *﴾ . فقوله عز وجل : ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ يشمل كل من جاء بعد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ونهجوا منهجهم وسلكوا سبيلهم واستغفروا لهم وأحبوهم من قلوبهم ، وهو شبيه بقوله عز وجل: ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم *﴾ وقد أعمى الله

بصائر أهل الأهواء الذين يسبون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاسيما الشيخين الجليلين وزيري رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ويسبون ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنهما علماً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما وقف على جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فرجف بهم فضربه برجله وقال : (اثبت أحد فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان) كما رواه البخاري. وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سب أحد من أصحابه فقال كما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيبه). لكن أهل الأهواء انعكست عقولهم وانتكست قلوبهم فصاروا يتلذذون بسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر أن رجلاً من أهل الأهواء طعن في بعض أصحاب رسول الله بحضرة أحد علماء السلف فقال له : ادن مني . فدنا منه ، فقال له : هل أنت من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ؟ فقال هذا المنحرف عن الدين الحق : لا. فقال له الشيخ : هل أنت من الأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ؟ قال : لا. فقال له الشيخ : وأنا أقسم بالله أنك لست على منهج الذين جاءوا من بعدهم لأنهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا وأنت تسبهم وتلعنهم وقد امتلأ قلبك غِلاً عليهم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أي أحبهم الله عز وجل وأحبوا الله عز وجل. وقوله عز وجل : ﴿ وأعد لهم جنات تجري

تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم *﴾ قد لوحظ أن ا لله تبارك وتعالى وصف الجنات في سورة التوبة فقال في الآية الثانية والسبعين : ﴿ وعد ا لله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ و لم يقل : ﴿ أبداً ﴾ ، ثم ذيل الآية بقوله : ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فجاء بلفظ (من) قبل (تحتها) وجاء بالضمير المؤكد بعد قوله : (ذلك). كما ذكر وصف الجنة في الآية التاسعة والثمانين فقال : ﴿ أعد ا لله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم *﴾ فأتى بكلمة (من) قبل (تحتها) و لم يأت بالضمير بعد قوله : (ذلك) فقال : ﴿ ذلك الفوز العظيم *﴾ وقال في هذا المقام من سورة التوبة : ﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم *﴾ فلم يأت بكلمة (من) قبل قوله : (تحتها) وجاء بكلمة : (أبداً) بعد قوله : (خالدين فيها). وقال تبارك وتعالى في الآية الحادية عشرة بعد المائة : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم *﴾ فقال : (وذلك) وجاء بالضمير المؤكد فقال : ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ كما لوحظ أن كلمة : (من) لم تحذف مع قوله : (تحتها) في أي مقام آخر من القرآن الكريم غير هذا المقام كما أنه جاء في ثلاثة مقامات فقط قوله : ﴿ من تحتهم الأنهار ﴾ أحدها في سورة يونس عند قوله عز وجل : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم *﴾ وثانيها في الآية الثالثة والأربعين من سورة الأعراف عند قوله عز وجل : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار ﴾ الآية ، وثالثها في سورة الكهف عند قوله عز وجل : ﴿ أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها

على الأرائك ﴾ الآية ، وأعاد الضمير في هذه المقامات الثلاث لأهل الجنة ، أما سائر المقامات الأخرى فقد أعاد الضمير فيها إلى الجنة فقال : (تحتها) أو (من تحتها) وهذا كله من المتشابه المثاني الذي بلغ الذروة في البلاغة وأعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

قال تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

بعد أن بيّن عز وجل أحوال الأعراب مطلقاً وما تميزوا به عن سكان الحاضرة ، وذكر أن منهم منافقين وأن منهم صالحين ، وأتبع ذلك بذكر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار بما يشمل من آمن من الحاضرة والبادية، شرع هنا في بيان منافقي المدينة ومن حولها من الأعراب. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾ أي ومن أحياء العرب القريبة من مدينتكم النبوية من كل جهاتها بعض الأعراب المنافقين وبعض أهل المدينة منافقون أيضاً. ومعنى قوله عز وجل:﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي تمرسوا فيه وأتقنوه حيث يتمكنون من إخفاء نفاقهم. ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ أي لا تعرفهم يا محمد نحن نعلمهم ، وهذا كان قبل أن يعرّفه الله عز وجل بهم كما قال عز وجل في سورة محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله

أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول وا لله يعلم أعمالكم *﴾ ومعنى قوله عز وجل : ﴿ سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم *﴾ أي سينزل ا لله بهم عذاباً بعد عذاب ثم يساقون إلى عذاب عظيم في نار جهنم.

قال تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ .

لما بيّن عز وجل حال المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك من الحاضرة والبادية وحذّر من المنافقين المتمرسين في النفاق من أهل المدينة وممن حولها من الأعراب ، شرع في بيان من تأخر عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم با لله وتصديقهم برسوله صلى ا لله عليه وسلم فقال عز وجل : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى ا لله أن يتوب عليهم إن ا لله غفور رحيم *﴾ قال البخاري في صحيحه : باب قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى ا لله أن يتوب عليهم إن ا لله غفور رحيم*﴾ حدثنا مُؤَمِّلٌ هو ابن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب رضي ا لله عنه قال : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لنا : (أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بِلَبِنِ ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ ، قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ،

ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي : هذه جنة عدن وهذاك منزلك ، قالا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم) ، وقوله : (كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح) برفع شطر قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : خرّجوه على أن (كان) تامة و (شطر) و (حسن) مبتدأ وخبره اهـ

قال تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

أمر الله عز وجل في مقامات كثيرة من كتابه الكريم بإيتاء الزكاة والحض عليها وقد ورد ذلك في السور المكية والمدنية فمن السور المكية التي ورد فيها الأمر بالزكاة أو الحض عليها سورة الأنعام حيث يقول عز وجل : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ وسورة الأعراف حيث يقول عز جل : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ﴾ وفي سورة الرعد : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾ وفي سورة مريم : ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا *﴾ وفيها أيضاً : ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا *﴾ ، وفي سورة المؤمنون حيث يقول : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ وفي سورة النمل حيث يقول : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون

الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون *﴾ ويقول في سورة الروم : ﴿ وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون *﴾ ويقول في سورة لقمان : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون *﴾ ويقول عز وجل في سورة فصلت : ﴿ وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون *﴾ ويقول في سورة الذاريات : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم *﴾ ويقول في سورة المعارج : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم *﴾.

أما السور المدنية فقد أكثر الله عز وجل من الأمر فيها بالزكاة مقروناً بالأمر بالصلاة حيث يقول عز وجل في سورة البقرة في الآية الثالثة والأربعين : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ ويقول في الآية العاشرة بعد المائة : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ويقول في الآية السابعة والسبعين بعد المائتين : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتووا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون *﴾ ويقول في سورة النساء في الآية الثانية والستين بعد المائة : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾ ويقول في سورة التوبة في الآية الخامسة : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم *﴾ ، ويقول في الآية الحادية عشرة : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين *﴾ وقال في هذا المقام من سورة التوبة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ الآية.

والصلاة والزكاة من أهم أركان الإسلام وقد أمر الله عز وجل بهما على

سبيل الإجمال وعهد ببيانهما إلى السنة النبوية. وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الصلاة وأوقاتها وتولى الله عز وجل بيان مصارف الزكاة في كتابه الكريم حيث قال : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ وبيّن رسوله صلى الله عليه وسلم مقادير الزكاة كما بين الأموال التي تجب فيها الزكاة لأن قوله عز وجل في هذا المقام : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ يعم سائر الأموال وهو عام أريد به الخصوص إذ يخرج من الأموال أنواع الأموال التي لا زكاة فيها كالبيوت والأراضي التي ليست للتجارة وكذلك ما نقص من الأموال عن نصاب الزكاة ، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس على المسلم في فرسه وغلامه صدقة). وأخرج مسلم في صحيحه من طريق سفيان بن عيينة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة). كما أخرج مسلم من طريق ابن وهب من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس في العبد صدقة إلا صدقة الفطر) اهـ . أي إن صدقة الفطر يخرجها السيد عن عبده وجوباً. وقد أشار الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري إلى أنه لا خلاف عند أهل العلم في أن الفرس المعد للركوب لا للتجارة لا زكاة فيه وكذلك العبد المعد للعمل لا للتجارة ، أما ما أعد للتجارة من فرس أو عبد ففيه الزكاة إذا بلغت قيمته نصاباً لأن زكاة التجارة ثابتة بالإجماع كما نقل ابن المنذر وغيره فيكون مخصصاً لعموم هذا الحديث اهـ. وتقاس السيارات التي يشتريها أصحابها للركوب على الفرس المعد

للركوب فلا زكاة فيها كذلك مهما بلغت قيمتها ، كما روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس فيما دون خمس أواق صدقة). وبلفظ : (ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل وليس فيما دون خمس أواق صدقة وليس فيما دون خمسة أَوْسُقٍ صدقة). كما روى مسلم من حديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس فيما دون خمس أواق من الوَرِق صدقة وليس فما دون خمس ذود من الإبل صدقة وليس فما دون خمسة أوسق من التمر صدقة).كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ منها قال : (ليس فيما دون خمسة أوساق من تمر ولا حَبّ صدقة). ومنها : (ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة وليس فيما دون خمس ذود صدقة وليس فيما دون خمس أواق صدقة). ومنها : (ليس في حب ولا تمر صدقة حتى يبلغ خمسة أوسق وليس فيما دون خمس ذود صدقة وليس فيما دون خمس أواق صدقة). كما روى البخاري في صحيحه من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر وفيما سقي بالنضح نصف العشر). كما روي البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب له : (هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين والتي أمر الله بها رسوله : في كل أربع وعشرين من الإبل فما دونها الغنم في كل خمس شاة ، فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى ، فإن لم تكن فابن لبون ذكر، فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثى ، فإذا

بلغت ستاً وأربعين إلى ستين ففيها حقة طروقة الجمل ، فإذا بلغت واحدة وستين إلى خمس وسبعين ففيها جذعة ، فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين ففيها بنتا لبون ، فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل فإذا زادت على عشرين ومائة ففي كل أربعين بنت لبون ، وفي كل خمسين حقة ، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل فليس فيها صدقة ، إلا أن يشاء ربها. وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومائة شاة شاة ، فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان ، فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه ، فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاة، فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة من أربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، ولا يجمع بين متفرق ، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية. ولا يخرج في الصدقة هرمة ، ولا ذات عوار ، ولا تيس إلا أن يشاء المصدق ، وفي الرقة ربع العشر ، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها ، ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليس عنده جذعة وعنده حقة فإنها تقبل منه الحقة ويجعل معها شاتين إن استيسرتا له أو عشرين درهماً. ومن بلغت عنده صدقة الحقة وليست عنده الحقة وعنده الجذعة فإنها تقبل منه الجذعة ويعطيه المصدق عشرين درهما أو شاتين).

وهذا الحديث العظيم فرّقه البخاري رحمه الله على أبواب في كتاب الزكاة من صحيحه فساق بعضه في باب لا يجمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له التي فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة

اهـ قال الحافظ في الفتح : قال مالك في الموطأ : معنى هذا الحديث أن يكون النفر الثلاثة لكل واحد منهم أربعون شاة وجبت فيها الزكاة فيجمعونها حتى لا تجب عليهم كلهم فيها إلا شاة واحدة. أو يكون للخليطين مائتا شاة وشاتان فيكون عليهما فيها ثلاث شياه فيفرقونها حتى لا يكون على كل واحد إلا شاة واحدة اهـ . ثم قال البخاري : باب ما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية ثم ساق من حديث أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له التي فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية). وقد فسر بعض أهل العلم الخلطة بالاجتماع في المسرح والمبيت والحوض والفحل. وقد تستعمل الخلطة بمعنى الشركة لكن الشركة أخص من الخلطة. قال الحافظ في الفتح : وفي جامع سفيان الثوري عن عبيدالله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما : ما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية . قلت لعبيدالله : ما يعني بالخليطين؟ قال : إذا كان المراح واحداً والراعي واحداً والدلو واحداً اهـ . قال الصنعاني في سبل السلام : والتراجع بين الخليطين أن يكون لأحدهما مثلاً أربعون بقرة وللآخر ثلاثون بقرة ومالهما مشترك فيأخذ الساعي عن الأربعين مسنة وعن الثلاثين تبيعاً فيرجع باذل المسنة بثلاثة أسباعها على خليطه وباذل التبيع بأربعة أسباعها على خليطه لأن كل واحد من السنين واجب على الشيوع كأن المال ملك واحد اهـ . ثم قال البخاري : باب من بلغت عنده صدقة بنت مخاض وليست عنده ، وساق عن أنس رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه كتب له فريضة الصدقة التي أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم : (من بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة وليست عنده جذعة وعنده حقة). الحديث إلى

قوله : (فإنها تقبل منه بنت مخاض ويعطي معها عشرين درهماً أو شاتين).
وبالرغم من أن البخاري لم يسق في هذا الباب من الحديث ما يكون نصاً على ترجمته فقد قال الحافظ في الفتح نقلاً عن ابن رشيد : إنما مقصده أن يستدل على من بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده هي ولا ابن لبون لكن مثلاً عنده حقة وهي أرفع من بنت مخاض لأن بينهما بنت لبون. وقد تقرر أن بين بنت اللبون وبنت المخاض عشرين درهماً أو شاتين وكذلك سائر ما وقع ذكره في الحديث من سن يزيد أو ينقص إنما ذكر فيه ما يليها لا ما يقع بينهما بتفاوت درجة فأشار البخاري رحمه الله إلى أنه يستنبط من الزائد والناقص والمنفصل ما يكون منفصلاً بحساب ذلك فعلى هذا من بلغت صدقته بنت مخاض وليست عنده إلا حقة أن يردّ عليه المصدق أربعين درهماً أو أربع شياه جبراناً أو بالعكس فلو ذكر اللفظ الذي ترجم به لما أفهم هذا الغرض فتدبره. انتهى كلام ابن رشيد ثم قال الحافظ : قال الزين بن المنير : من أمعن النظر في تراجم هذا الكتاب وما أودعه فيها من أسرار المقاصد استبعد أن يغفل أو يهمل أو يضع لفظاً بغير معنى أو يرسم في الباب خبراً يكون غيره به أقعد وأولى ، وإنما قصد بذكر ما لم يترجم به أن يقرر أن المفقود إذا وجد الأكمل منه أو الأنقص شرع الجبران كما شرع ذلك فيما تضمنه هذا الخبر من ذكر الأسنان فإنه لا فرق بين فقد بنت المخاض ووجود الأكمل منها قال : ولو جعل العمدة في هذا الباب الخبر المشتمل علي ذكر فقد بنت المخاض لكان نصاً في الترجمة ظاهراً ، فلما تركه واستدل بنظيره أفهم ما ذكرناه من الإلحاق بنفي الفرق وتسويته بين فقد بنت المخاض ووجود الأكمل منها وبين فقد الحقة ووجود الأكمل منها والله أعلم اهـ ثم قال البخاري : باب زكاة الغنم وساق عن أنس رضي الله عنه أن

أبا بكر كتب له هذا الكتاب لما وجهه إلى البحرين : (بسم ا لله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرض رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم على المسلمين والتي أمر ا لله بها رسوله صلى ا لله عليه وسلم فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ومن سئل فوقها فلا يعط : في كل أربع وعشرين من الإبل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثى) الحديث إلى قوله : (وفي الرقة ربع العشر فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها شيء إلا أن يشاء ربها). قال المصنف في الفتح : قوله : إلا تسعين ومائة يوهم أنها إذا زادت على التسعين ومائة قبل بلوغ المائتين أن فيها صدقة وليس كذلك وإنما ذكر التسعين لأنه آخر عقد قبل المائة والحساب إذا جاوز الآحاد كان تركيبه بالعقود كالعشرات والمئين والألوف. فذكر التسعين ليدل على أنه لا صدقة فيما نقص عن المائتين اهـ وقد صح الخبر أنه ليس فيما دون خمس أواق صدقة. ثم قال البخاري رحمه ا لله : باب لا تؤخذ في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلا ما شاء المصدق ، ثم أخرج عن أنس رضي ا لله عنه أن أبا بكر رضي ا لله عنه كتب له فريضة الصدقة التي أمر ا لله رسوله صلى ا لله عليه وسلم : (ولا يخرج في الصدقة هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلا ما شاء المصدق).

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ هما صفتان للصدقة أي إن الزكاة مطهرة لأصحاب الأموال مذهبة لأوضار المال وهي كذلك سبب عظيم من أسباب نزول البركة على أصحاب الأموال وأموالهم فالتزكية مبالغة في التطهير وهي تفيد النماء والبركة في المال وقد قال ا لله عز وجل : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين * ﴾. وقد أخبر رسول ا لله صلى ا لله عليه

وسلم وهو الصادق المصدوق أنه ما نقص مال من صدقة فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل). كما روى الترمذي وقال : حديث حسن صحيح من حديث أبي كبشة عمر بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ثلاثة أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال عبد من صدقة) الحديث.

وقوله عز وجل : ﴿ وصَلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ أي وادع للمتصدق بأن الله يباركه ويبارك له ويخلف عليه بخير ويستغفر له فإن هذا الدعاء يملأ قلبه طمأنينة ويفرح بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم له وكذلك دعاء خلفاء المسلمين وأولياء أمورهم للمتصدقين. وقد سقت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما عند الشيخين قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أُتِيَ بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال : (اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى).

وقد منع المرتدون في عهد أبي بكر رضي الله عنه الزكاة بدعوى أن هذه الآية الموجبة للزكاة قد انتهى حكمها بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الله قال فيها : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ﴾ وهذا خاص بالرسول فلا نؤديها لغيره. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول صلى الله عليه وسلم

ولهذا احتجوا بقوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية. وقد ردَّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : (والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية عقالاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعه) اهـ وقال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله : أما قولهم : إن هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعب بالدين ، فإن الخطاب في القرآن لم يرد باباً واحداً ولكن اختلفت موارده على وجوه ، فمنها خطاب توجه إلى جميع الأمة كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ ونحوه ، ومنها خطاب خُصَّ به ولم يُشْركه فيه غيره لفظاً ولا معنى كقوله : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ وقوله : ﴿ خالصة لك ﴾ ، ومنها خطاب خُصَّ به لفظاً وشَرَكه جميع الأمة معنىً وفعلاً كقوله : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ﴾ وقوله : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمتَ لهم الصلاة ﴾ فكلّ من دَلَكَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة، وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة وكذلك كل من خاف يقيم الصلاة بتلك الصفة ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ ، وعلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ﴾ و ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ اهـ

وفي قوله عز وجل : ﴿ وصل عليهم ﴾ دليل واضح لأهل السنة والجماعة الذين إذا صَلَّوْا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير التشهد قالوا :

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وقد يزيدون : ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين مستدلين بهذه الآية الكريمة وبقوله تبارك وتعالى : ﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً * ﴾ أما من يبغضون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يقتصرون على قولهم : صلى الله عليه وآله. والذي حملهم على هذا هو بغضهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين.

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله : هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها. وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق صدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من تصدق بعِدْل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ أي فليعلموا أن الله هو يقبل

توبة المسيئين من عباده متجاوزاً بها عن سيئاتهم التي ارتكبوها فإن باب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من المغرب فيغلق ، وأن الله عز وجل يتقبل صدقات المتصدقين من عباده فيجازيهم بها أضعافاً مضاعفة وأن الله هو التواب الرحيم. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ ألم يعلموا ﴾ للتقرير والتحضيض والتأكيد. ومعنى (عن) في قوله عز وجل : ﴿ عن عباده ﴾ للمجاوزة. والكلام موجه لكافة العباد ليعرفوا ربهم ولا ييأسوا من رحمته ومغفرته لذنوب المذنبين ولو كانت مثل زبد البحر ، وليحرصوا على التصدق من أموالهم. والتعبير بالأخذ في قوله عز وجل : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ لتهييج العباد على البذل والإنفاق في سبيل الله وأن الصدقة تقع في يد الله عز وجل فلا تضيع عنده ، ويجازي عليها أضعافاً مضاعفة وهو الغني الكريم الذي لا تنفد خزائنه ولا ينقص ما عنده على كثرة ما يعطيه ، فمن تصدق بصدقة فليوقن أن الله هو الآخذ لها والمثيب عليها ، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : (يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمتَ أنك لو عدتَه لوجدتني عنده ؟ يا ابن آدم استطعمتُك فلم تطعمني قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أَما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمتَ أنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندي ؟

قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

هذا تأكيد لما جاء في الآية الرابعة والتسعين من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل فيها : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * ﴾ وهو ترغيب في الأعمال الصالحة وترهيب من الأعمال السيئة وإعلام بأن ما يخفيه الإنسان لا يخفى على الله عز وجل وأن الله مخرج ما يكتمون ، وأنه سيفضح المنافقين يوم القيامة كما قال عز وجل : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية * فأما من أُوتيَ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إني ظننت أني ملاق حسابيه * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية * وأما من أُوتيَ كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أُوتَ كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ﴾ ، فالآية الرابعة والتسعون وهذه الآية من المتشابه المثاني ، وقد اشتملت كل واحدة منهما على ألوان من الأساليب البلاغية المناسبة لمقامها. والمقصود من الآيتين غرس الخوف من الله في نفوس الناس سواء كانوا منافقين أو مؤمنين ، وانه لا ينفعهم في دينهم ودنياهم إلا الإخلاص لله عز وجل ، قال البخاري رحمه الله : قالت عائشة رضي الله عنها : إذا أعجبك حُسنُ عمل امرئ فقل : ﴿ اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾.

قال تعالى :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

هذا بيان لقسم من الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه لغزوة تبوك وقد كانت حالهم تختلف عن حال جميع المتخلفين الآخرين حيث كانوا أصدق المتخلفين لهجة ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاءوا إليه صلى الله عليه وسلم واعتذروا إليه فأرجأهم ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزلت توبة الله عليهم وهم الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، وقد قرأ نافع وحمزة والكسائي : ﴿ مُرْجَئُونَ ﴾ وقرأ بقية السبعة : ﴿ مُرْجَوْن ﴾. وقد فسر أحد أصحاب القصة وهو كعب بن مالك رضي الله عنه كلمة ﴿ مرجون ﴾ فقال فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عنه رضي الله عنه : قال كعب : (وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفْنَا عن الغزو ، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه اهـ

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي هم تحت عفو الله ومشيئته إن شاء عذبهم وإن شاء تاب عليهم وعفا عنهم. و(إما) في اللسان العربي إذا قيل : إما كذا وإما كذا لوقوع أحد الشيئين. ولا شك أن الله

عالم بما يصير إليه أمرهم ولكنه خاطب العباد بما يعلمون ليكون الأمر عندهم على الخوف والرجاء حتى ينزل حكمه فيهم ، ورحمته عز وجل تسبق غضبه ، وقد ذيل الآية بقوله عز وجل : ﴿ والله عليم حكيم *﴾ لتأكيد أنه تبارك وتعالى لا يخفى عليه ما يؤول إليه أمرهم لأنه العليم بما كان وبما يكون وبما لا يكون لو كان كيف يكون وهو الحكيم فيما يقضي به بين عباده.

قال تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

هذه صورة أخرى من الصور التي كان المنافقون يخططون بها للقضاء على الإسلام ويحاولون فيها بث الفرقة بين المسلمين وإعداد العدة للتعاون مع اليهود والنصارى لحرب الإسلام وإطفاء نوره. وكان الذي وضع لهم هذه الخطط أبا عامر الفاسق الذي كان يعرف بالراهب وهو خزرجي تنصّر في الجاهلية وكان من أعيان الخزرج وله فيهم منزلة كبيرة ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه

وسلم مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون من الأوس والخزرج والمهاجرين وصارت للإسلام كلمة عالية وأيدهم الله بنصره يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وأظهر العداوة للدين الحق وخرج فاراً إلى مكة لتأليب كفار قريش على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستجابوا له واجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وجاءوا لحرب رسول الله صلى الله عله وسلم يوم أحد ، وقام عدو الله أبو عامر الفاسق بحفر حفائر ليسقط فيها المسلمون وقد وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى هذه الحفر فجرح وجهه صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله). وقد ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليه أن يموت بعيداً طريداً فاستجاب الله دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم. وذكر البغوي في تفسيره أن أبا عامر قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أمات الله الكاذب منا طريداً شريداً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : آمين. فلما فرغ الناس من أحدورأى أبو عامر أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في ارتفاع ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأظهر هرقل استعداده لذلك وأقام عنده أبو عامر وأخذ يكاتب أهل النفاق في المدينة ويعدهم ويمنيهم ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يكون مرصداً له إذا قدم عليهم وسبباً في تفريق كلمة المسلمين ، فشرعوا في بناء مسجد بالقرب من مسجد قباء في الناحية الشمالية منه فلما فرغوا من بنائه قبيل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يأتي إليهم ويصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على

تقريره ، وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم إنما بنوه ليصلي فيه الضعفاء وأهل العلة منهم في الليلة الشاتية وحلفوا أنهم لا يريدون ببنائه إلا الحسنى ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه على جناح سفر ، فلما قفل راجعاً من تبوك واقترب من المدينة نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما دبره المنافقون من الكفر والتفريق بين جماعة المسلمين من أهل مسجد قباء الذي أسس على التقوى من أول يوم ، ونهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه ، وأنزل عليه قوله عز وجل: ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ الآيات الأربع ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه فهُدِمَ هذا المسجد وحُرِّق قبل وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. وقد هلك أبو عامر الفاسق طريداً شريداً بقنسرين من أرض الشام.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين جماعة ابتنوا مسجداً لمضارة مسجد قباء ليصلي فيه بعضهم دون مسجد قباء القريب منه المؤسس على تقوى الله ويصلي بعض أهل مسجد قباء فيه أي في مسجد قباء فيتفرقون ويختلفون بسبب ذلك. وكان من مكر هؤلاء المنافقين وتدبيرهم السيء أن يكون مسجدهم معقلاً من معاقل الكفر بالله ومرصداً للمنافقين ولأبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولَيحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى ﴾ أي وليحلفنَّ بانوه ما أردنا ولا قصدنا ببنائه إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة لهم والتوسعة على أهل العلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو

مسجد قباء. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون * ﴾ أي والله يعلم خُبث ضمائرهم وكَذِبَهم فيما يحلفون عليه. قال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي فيما قصدوا وفيما نَوَوْا ، وإنما بَنَوْهُ ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له : الراهب لعنه الله.

وقوله عز وجل : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ نهيٌ له صلى الله عليه وسلم والأمة تَبَعٌ له عن أن يقوم فيه ، أي يصلي أبداً ، ثم حثه على الصلاة في مسجد قباء الذي أسس من أول يوم بنائه على التقوى ، وهي طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومعقلاً وموئلاً للإسلام وأهله لهذا قال تعالى : ﴿ لَمسجد أسس على التقوى من أول يوم أَحَقُّ أن تقوم فيه ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (صلاة في مسجد قباء كعمرة). وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة ، فالله أعلم اهـ. أما ما رواه مسلم من حديث أبي سلمة بن عبدالرحمن قال : مَرَّ بي عبدالرحمن بن أبي سعيد الخدري قال : فقلت له : كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال : قال أبي : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت : يا رسول الله : أين المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال : هو مسجدكم هذا. ثم قال : سمعت أباك يذكره اهـ فإن هذا الحديث لا يتعارض مع كون مسجد قباء أسس

على التقوى فكلا المسجدين قد أسسهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على التقوى ، ولاشك أن مسجد قباء أسس أول قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مهاجراً حيث نزل أولاً بقباء وأسس المسجد فيها. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير قال : (وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حَرُّ الظهيرة ، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم ، فلما آووا إلى بيوتهم أَوفَى رجل من اليهود على أُطُمٍ من آطامهم لأمر ينظر إليه فَبَصُرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مُبَيِّضين يزول بهم السراب ، فلم يملك اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا جَدُّكم الذي تنتظرونه ، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فَعَدَلَ بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل أبو بكر حتى ظلّلَ عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك ، فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى) الحديث. وقد ألهم الله تبارك وتعالى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو المُلْهَمُ المحدَّث فاستشار المسلمين في وضع ابتداء للتاريخ الإسلامي فاتفق الصحابة رضي الله عنهم وأجمعوا على رأي عمر رضي الله عنه في أن يكون ابتداء التاريخ الإسلامي من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى المدينة. قال البخاري في صحيحه : باب التاريخ : من أين أرّخوا التاريخ ؟ ثم ساق بسنده إلى سهل بن سعد رضي ا لله عنه قال : (ما عَدُّوا من مبعث النبي صلى ا لله عليه وسلم ولا من وفاته ، ما عَدُّوا إلا من مقدمه المدينة). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أفاد السهيلي أن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم ..﴾ لأنه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقاً فتعين أنه أضيف إلى شيء مضمر وهو أول الزمن الذي عزّ فيه الإسلام وعَبَدَ فيه النبيُّ صلى ا لله عليه وسلم ربه آمناً وابتدأ بناء المسجد اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا وا لله يحب المُطَّهِّرين *﴾ قال ابن جرير رحمه ا لله في تفسير هذه الآية : حدثني عبد الأعلى بن واصل قال: ثنا إسماعيل بن صُبَيْح اليشكري قال : حدثنا أبو أُوَيْس المدني عن شرحبيل ابن سعد عن عويم بن ساعدة وكان من أهل بدر قال : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لأهل قباء : (إني أسمع ا لله قد أثنى عليكم الثناء في الطُّهُور ، فما هذا الطُّهُور؟ قالوا : يا رسول ا لله ما نعلم شيئاً إلا أن جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا. وقد وصف الحافظ ابن حجر في التقريب عبد الأعلى بن واصل بأنه ثقة وإسماعيل بن صبيح اليشكري بأنه صدوق ، وأبا أويس المدني بأنه صدوق يهم ، وشرحبيل بن سعد بأنه صدوق اختلط بآخرة ، من الثالثة ، مات سنة ثلاث وعشرين يعني بعد المائة وقد قارب عمره المائة سنة. وذكر أن البخاري أخرج له في الأدب المفرد وأبو داود وابن ماجه.

قال تعالى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

هذا بيان لتجلية الفرق بين مسجد قباء ومسجد الضرار وأنهما لا يستويان، فالأول وضع أساسه ورفع بنيانه على تقوى وخوف من الله عز وجل وأقيم ابتغاء مرضاة الله ، والثاني وضع أساسه وأقيم بنيانه على حافة هاوية وطرف هُوَّة سحيقة سهلة الانجراف إذا جاءها السيل انهار هذا المبنى مع من بناه وهَوَى في مكان سحيق ينتهي بهم إلى جهنم ونار الجحيم ، فشتان ما بين المسجدين وما أبعد البون بينهما. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ﴾ لتقرير خيرية مسجد قباء وفضل أهله الذين أقاموه على تقوى وخوف من الله عز وجل وابتغاء مرضاة الله. والاستفهام في قوله عز وجل : ﴿ أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هار فانهار به في نار جهنم ﴾ لتوبيخ هؤلاء المنافقين الذين بنوا مسجدهم لا على تقوى من الله ولا ابتغاء مرضاته بل لقصد الضرار لأهل مسجد قباء ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وللكفر با لله ورسوله وللتفريق بين المسلمين ومعقلاً للمنافقين ولأبي عامر الفاسق الذي حارب الله ورسوله من قبل. وهذا شبيه بمن أقام بناءه ووضع أساسه على حافة هوة سهلة الانجراف لا يحمي من بناه ولا نفع له فيه بل يُرْدِيه في مكان سحيق يهوي به إلى نار جهنم. والشَّفا حرف الشيء وطرفه

وحافته وشفيره والجرف هي الأرض الرخوة التي يجرفها السيل ويذهب بها. ومعنى (هار) أي سريع الانهيار والسقوط حيث يتداعى بعضه في إثر بعض كما ينهار الرمل إذا حفر بجانبه بئر .

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ أي فسقط ببانيه في نار جهنم. وأصل كلمة جهنم من الجهنام وهي البئر السحيقة البعيدة القاع. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وا لله لا يهدي القوم الظالمين *﴾ أي وا لله لا يوفق القوم المعتدين المتجاوزين طريق الحق السالكين طريق الضلال ولا يسددهم بل يخذلهم ويكلهم إلى أنفسهم التي ترديهم فإذا رأوا سبيل الرشد لا يتخذونه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تَقَطعَ قلوبهم ﴾ أي قد أورثهم هذا الصنيع الشنيع شكاً ونفاقاً لا يغادر قلوبهم حتى يموتوا. و (إلا) في قوله عز وجل : ﴿ إلا أن تقطع ﴾ بمعنى إلى كما قرئ بها شذوذاً عن الحسن البصري ، والمعلوم أن القراءة الشاذة إذا رويت من طريق صحيح فإنها لا تعتبر قرآناً وإنما يستفاد منها في التفسير كأحاديث الآحاد إذا صحت. ومعنى تقطع أي تتفتت.

وقوله عز وجل : ﴿ إلا أن تَقَطَّعَ قلوبُهم ﴾ هو كناية عن أن النفاق قد لزمهم لا يفارقهم أبداً إلى يوم القيامة بسبب بنائهم لمسجد الضرار وهذا كقوله عز وجل : ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا ا لله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون *﴾ وهو إنذار للمؤمنين وغيرهم بأن المعصية قد تحول بين العبد وبين لقاء ا لله على الإيمان كما قال عز وجل : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم *﴾ وقد أثر عن بعض الصحابة رضي ا لله عنهم أنه كان يقول لمماليكه : تزوجوا فإن العبد إذا زنى نزع ا لله

منه سربال الإيمان فإن شاء أمسكه وإن شاء رده.

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل شأن مسجد الضرار الذي أسس على غير تقوى الله والمسجد الذي أسس على تقوى من الله ورضوان ، وأشار إلى ما أعده لكلا الفريقين مما يؤكد أن الأعمال بالنيات لأن كل واحد من الفريقين بنى مسجداً حيث أعد الله لمن بنوا مسجد الضرار نار جهنم ، وأعد لمن بنوا مسجد قباء جزيل فضله ورضاه ، ذكر هنا هذه المبايعة التي تمت بين السيد وعبده والمشتري هو السيد والبائع هو عبده ومملوكه وقد حصل البائع من بيعه على ربح بسبب بيعه هذا لم يحصل على مثله أحد قط في مبايعة تمت في الحياة الدنيا، حيث أعطى الله الجنة ثمناً لنفوس هو خالقها وأموال هو رازقها ، وهذا الثمن يحصل عليه البائع بمجرد نية البيع وتأكيد العزم عليه ، وقد مر في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾

الآية ما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر). فإن المؤمن إذا نوى الجهاد أو خرج من بيته للقتال في سبيل الله حصل على أجر المقاتل سواء قتل في سبيل الله أو رجع إلى أهله سالماً غانماً. فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر وغنيمة أو أدخله الجنة) وفي لفظ : (تضمن الله لمن خرج في سبيله وفي لفظ تكفل الله ـ وفي لفظ للبخاري : وتوكل الله ـ للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة). قال الحافظ في الفتح : وقوله : تضمن الله وتكفل الله وانتدب الله بمعنى واحد ومحصله تحقيق الوعد المذكور في قوله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ أي إن الله عز وجل قد قبل من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيل الله وأثابهم وعوضهم عن أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ للإفادة بأن الثمن مؤجل إلى الدار الآخرة وأنه مكفول لهم ومضمون بوعد من الله عز وجل ، ولذلك قال تبارك وتعالى : ﴿ وعداً عليه حقا ﴾. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلونَ ويُقْتَلُون ﴾ هو استئناف بياني كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة؟ فقيل: ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ أي يجاهدون أعداء الله

لإعلاء كلمة الله ويبذلون في سبيل ذلك أنفسهم وأموالهم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون ﴾ أي فيهيئون أنفسهم لضرب رقاب أعدائهم ويستعدون للموت في سبيل الله. قال أبو السعود العمادي في قوله عز وجل : ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لكون القتال في سبيل الله بذلاً للنفس وأن المقاتل في سبيله باذل لها وإن كانت سالمة غانمة فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضاً كما إذا وجدت المضاربة و لم يوجد القتل من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربة أيضا فإنه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد اهـ.

وقوله عز وجل : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ أي وعداً متحققاً ثابتاً مثبتاً في التوراة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن. والمقصود من ذكر ثبوته في التوراة والإنجيل الإشارة إلي أن هذه المبايعة ليست مختصة بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بل هي شريعته وشريعة المرسلين من قبله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وقوله عز وجل : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ قال أبو السعود العمادي : اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد على نهج المبالغة في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل وافٍ فإن إخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره عنهم فكيف بجناب الخلّاق الغني عن العالمين جل جلاله ، وسبك التركيب وإن كان على إنكار أن يكون أحدٌ أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرض لإنكار المساواة ونفيها لكن المقصود به قصداً مطرداً إنكار المساواة ونفيها قطعاً ، فإذا قيل : من أكرم من

فلان أو لا أفضل منه ، فالمراد به حتماً أنه أكرم من كل كريم وأفضل من كل فاضل اهـ

والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله عز وجل : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ لتشريف المؤمنين وزيادة سرورهم ، أي فسروا غاية السرور وافرحوا غاية الفرح بما تفضل الله عز وجل به عليكم من هذه المبايعة التي ربحتم فيها ربحاً لا تدانيه جميع أرباح الحياة الدنيا. وقوله عز وجل : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي وما حصلتم عليه من الفوز هو أعظم فوز فليستبشر من التزم بهذا العقد ووفّى بهذا العهد بالفوز العظيم من الملك الحق الكريم.

وقوله عز وجل : ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية ، قال الزجاج : الذي عندي أن قوله : ﴿ التائبون العابدون ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر أي التائبون العابدون – إلى آخر الآية – لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا إذا لم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك الجهاد لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض في الجهاد اهـ وقد أشار الله عز وجل إلى أن القاعدين من المؤمنين إذا نصحوا لله ورسوله ولم يقعدوا مشاقة ولا سيما أصحاب العاهات وأدوا فرائض الله فإن الله عز وجل يتفضل عليهم بالجنة أيضاً غير أن منازلهم لا تكون كمنازل المجاهدين في الجنة حيث قال : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ وحيث يقول عز وجل : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاًّ وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما *﴾ والتائبون هم الراجعون إلى الله عز وجل الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا فاستغفروا لذنوبهم ومن

يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. وأما العابدون فهم الذين يبذلون لله عز وجل أقصى غاية الحب مع أقصى غاية الذل ولا يصرفون شيئاً من عبادتهم لغير الله. وأما الحامدون فهم الذين يثنون على الله عز وجل وقد أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم). وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه : (والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض). والسائحون هم الذين يشدون الرحال إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى وأصل السياحة في اللغة كما في القاموس : هي الذهاب في الأرض للعبادة. والراكعون الساجدون هم المصلون ، والآمرون بالمعروف هم الذين يدعون الناس إلى الخير ، والناهون عن المنكر هم الذين يحذرون الناس من الشرور والآثام ، والحافظون لحدود الله هم القائمون بطاعة الله الموفون بعهدهم إذا عاهدوا المنتهون عن المعاصي والآثام.

والواو في قوله عز وجل: ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ قد أطلق بعض العلماء عليها اسم واو الثمانية لأنهم لاحظوا أن المعدود إذا كان هو الثامن جيء بالواو كهذا المقام وكقوله عز وجل: ﴿ عسى به إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً ﴾ لأن أبكاراً هو الثامن في العدد هنا . وقد قال الله تبارك وتعالى عن أهل الجنة : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ وهي ثمانية أبواب. كما قال عز وجل في سورة الكهف : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم

كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ قال القرطبي في تفسيره عن الأستاذ النحوي أبي عبدا لله المالقي : أنهم إذا عدوا : واحداً ، اثنان ، ثلاثة، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة وثمانية. قال القرطبي : وهي لغة قريش.

وقوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين *﴾ أي وأخبر المؤمنين بخبر يدخل السرور عليهم حتى يظهر أثر ذلك السرور على بشرتهم بأن ا لله عز وجل قد وعد بالجنة كل من آمن با لله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وشهد أن لا إله إلا ا لله وأن محمداً رسول ا لله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً وفارق الدنيا على ذلك.

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾.

هذا المقام الكريم من الذكر الحكيم في هذه السورة المباركة (سورة براءة) هو أحد المقامات التي تتجلى فيها صورة البراءة من الشرك والمشركين مهما كانت صلتهم بالمؤمن وحبهم له وحرصهم على سلامته والدفاع عنه. وقد روى

البخاري ومسلم أن هذه الآيات نزلت في أبي طالب ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاستغفار له. وقد مات أبو طالب في السنة العاشرة من البعثة النبوية مع أن سورة براءة قد نزلت في شوال من السنة التاسعة للهجرة ، وليس هناك ما يمنع من ذلك فقد تكون في السورة المدنية آية مكية كما يكون في السورة المكية آية مدنية كسورة المزمل ، وقد أشرت إلى ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ من هذه السورة المباركة ، وقد نقل البغوي عن مقاتل في أول هذه السورة : أن الآيتين الأخيرتين منها من المكي ، وقد جاء في الصحيحين أيضاً بعد ذكر نزول قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ ، ونزلت : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ ، وقال النووي في شرح صحيح مسلم : فقد أجمع المفسرون أنها - أي ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ - قد نزلت في أبي طالب ، ونقل أن الزجاج وغيره نقل إجماعهم على هذا ، وقال النووي : وهي عامة فإنه لا يهدي ولا يضل إلا الله اهـ وقد كان أبو طالب يبذل نفسه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي كفله بعد موت عبدالمطلب لأنه شقيق أبيه عبدالله وقد كان موقناً في قلبه بأن محمداً رسول الله لكنه أبى أن يشهد بذلك خوف لحوق عار بآبائه كما زعم ، وقصائده ودفاعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغاية القصوى ، فهو يمدح بني هاشم وبني المطلب الذين آزروه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اجتمعت قريش وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ألا يعاملوهم ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ،

وعلّقوا صحيفتهم في جوف الكعبة وتقاسموا على الكفر ، وأن أبا طالب دعا بني هاشم وبني المطلب لنصرته وحماية رسول الله صلى الله عليه وسلم من شر المشركين وأنه استجاب لأبي طالب جميع بني هاشم وبني المطلب مؤمنهم بإيمانه وكافرهم بحمية الجاهلية ولم يشذ منهم غير أبي لهب لعنه الله فانحاز إلى قريش ، وقد أثنى أبو طالب على بني هاشم وبني المطلب الذين سارعوا لإجابته والانتصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول :

إذا اجتمعتْ يوماً قريش لِمفْخَرٍ ... فعبد مناف سِرُّها وصَميمُها
وإن فَخرتْ يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سِرِّها وكريمها
تداعت قريش غَثها و سَمِينُها ... علينا فلم تَظفرْ و طاشتْ حُلُومُها
وكنا قديماً لا نُقِرُّ ظُلامةً ... إذا ما ثنوا صُعرَ الرقاب نُقِيمُها
ونَحْمِي حماها كل يوم كريهة ... ونضرب عن أحجارها مَنْ يرومها
بنا انتعش العُودُ الزواءُ وإنما ... بأكنافنا تَنْدى وتَنْمَى أرُومُهَا

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الغداة من فتح مكة وكذلك في حجة الوداع إلى مكان تقاسم المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم تحدثاً بنعمة الله وتذكيراً بأن الله صدق وعده لرسوله وللمؤمنين وأنجزه لهم ومكّن لهم وبدَّلهم بعد خوفهم أمنا كما وعدهم ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال في لفظ مسلم: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمنى ولفظ البخاري : قال النبي صلى الله عليه وسلم من الغد يوم النحر وهو بمنى ثم اتفقا أنه قال : نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر . وذلك أن قريشاً وبني كنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يُسْلِمُوا إليهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني بذلك المُحَصَّب. وفي لفظ للبخاري من حديث أسامة بن زيد قال: قلتُ يا رسول الله أين تنزل غداً -في حجته- قال: وهل ترك لنا عقيلٌ منزلاً؟ ثم قال: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة المحصَّب حيث قاسمتْ قريش على الكفر وذلك أن بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم أن لا يبايعوهم ولا يؤووهم. قال الزهري: والخيف الوادي. وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ننْزِلُ غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. زاد البخاري يريد المُحَصَّب. وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد قدوم مكة: مَنْزِلُنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. وقوله: حين أراد قدوم مكة يعني بعد رجوعه من منى لطواف الوداع. وفي لفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد حنيناً: منزلنا غداً إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر. وهذا الحديث يشعر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب النزول في خيف بني كنانة وهو المحصَّب ويقال له الأبطح والبطحاء وهو مسيل واسع فيه حصباء ينتهي إليه سيل وادي مني فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزله ليتذكر المسلمون ما كانوا فيه، فيشكروا الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الأمن بمكة في المكان الذي تمالأت قريش فيه على قتله وإيذاء من معه، ولما دخلت بنو هاشم وبنو المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش بأن يُعين الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بسنين كسني يوسف أو أشد، فأصاب

قريشاً القحط ، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما واللفظ للبخاري في باب : إذا استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط من طريق مسروق قال : أتيت ابن مسعود فقال : إن قريشاً أبطئوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأخذتهم سَنَةٌ حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ، فجاءه أبو سفيان فقال : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم ، وإن قومك هلكوا فادع الله ، فقرأ : فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. ثم عادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى : ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى ﴾ يوم بدر ، ثم قال البخاري : وزاد أسباط عن منصور : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث. وفي لفظ لمسلم من طريق مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدباراً فقال : اللهم سَبْعٌ كَسَبع يوسف. قال : فأخذتهم سَنَةٌ حصتْ كلَّ شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان فأتاه أبو سفيان فقال : يا محمد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، قال الله عز وجل : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم *﴾ إلى قوله : ﴿ إنكم عائدون ﴾ الحديث. وقد أشار أبوطالب في قصيدته اللامية المشهورة إلى اجتماع قريش وتآمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وبني المطلب ، وأكد أنه لن يسلم محمداً صلى الله عليه وسلم بحال ، وعتب على قريش وأشار إلى استسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، وفي ذلك يقول :

ولما رأيتُ القوم لا وُدَّ فيهموا ... وقد قطعوا كلَّ العرى والوسائِلِ
وقد جاهرُونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوَعُوا أمرَ العَدُوِّ المزايِلِ

وقد حالفوا قوماً علينا أظنة ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل

صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول

وفيها يقول :

أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو مُلِحٍّ بباطل

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه ... وراقٍ ليرقى في حراءٍ ونازل

وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل

وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وفيها يقول :

كذبتم وبيت الله نبزى محمداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل

ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وينهض قوم في الحديد إليكموا ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

وفيها يقول :

وما ترك قوم لا أب لك سيدا ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل

وفيها يقول :

ومر أبو سفيان عنّي معرضاً ... كما مر قيل من عظام المقاول

يفر إلى نجد وبرد مياهه ... ويزعم أني لست عنكم بغافل

ويخبرنا فعل المناصح أنه ... شفيق ويُخفي عارمات الدواخل

أمُطعم لم أخذلك في يوم نجدةٍ ... ولا مُعظمٍ عند الأمور الجلائل

وفيها يقول :

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً عقوبة شر عاجلا غير آجل

بميزان قسط لا يخيس شعيرةً له شاهد من نفسه غير عائل

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا بني خلف قيضا بنا والغياطل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم وآل قصي في الخطوب الأوائل

وسهم ومخزوم تمالوا وألبوا علينا العدى من كل طمل وخامل

وفيها يقول :

أعبد مناف أنتموا خير قومكم فلا تشركوا في أمركم كل واغل

فقد خفت إن لم يصلح الله أمركم تكونوا كما كانت أحاديث وائل

وفيها يقول :

فوالله لولا أن أجيء بسبةٍ تُجَرُّ على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حالةٍ من الدهر جدّا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ لدينا ولا يُعنَى بقول الأباطل

حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذُّرا والكلاكل

وقول أبي طالب : العدو المزايل أي المفارق المجانب البين العداوة. وقوله : أظنّةً أي متهمين. وقوله : بسمراء سمحة أي برمح وقوس مواتية. وقوله : وأبيض عضب من تراث المقاول أي وسيف أبيض قاطع صقيل بتار ورثناه عن آبائنا أشباه الملوك ، أو مما أهدته الملوك لآبائنا ، إذ المقاول جمع مقول كمنبر وهو الملك ويقال له أيضاً القَيْل. وقوله : وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة .. الخ البيت يعني موضع قدمي إبراهيم عليه السلام وأثر قدميه في الحجر لما قام عليه وهو يبني الكعبة وهو المعروف بمقام إبراهيم المذكور في قوله تعالى : ﴿ واتخذوا

من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقد أبقاه الله تعالى شاهداً على أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة وتوارثت معرفة ذلك القبائل جيلاً بعد جيل ، وقد وصفه الله تعالى بأنه من الآيات البينات حيث يقول : ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ﴾. وقول أبي طالب : نبزي محمداً أي نقهره ونبطش به ، والمعنى : لا نقهر محمداً ولا نبطش به وكذب من يظن فينا ذلك. وقوله : ونُسلمهُ أي ولا نُسلمهُ. وقوله : حتى نُصرع حوله أي ولن نُسلم محمداً ولن نخذله حتى نهلك دونه. وقوله : ونذهل عن أبنائنا والحلائل أي وحتى لا يبقى فينا من يتذكر ولده أو حليلته. وقوله : وينهض قوم في الحديد إليكموا نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل ، أي وحتى نكون قد فقدنا عقولنا وصرنا كالروايا وهي الإبل التي تحمل الماء فوقها ذات الصلاصل أي المزاداتُ التي يُسمعُ لها صلصلة. وقوله : وما ترك قوم لا أب لكل سيداً ..الخ البيت ، الذمار هو الحمى ، والذرب هو الفاحش ، والمواكل هو المتخاذلُ الذي يكل أمره إلى غيره ولا رأي له ، وهو يعني أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيدٌ يحمى حماه ، ولا يترك نصرته ويُسيء إليه إلا المتخاذل الذي يكل أمره إلى غيره. وقوله : وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ، يعنى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ذو منزلة كريمة عند الله ، وهو يُستسقى به بالمطر ، وقد أشار أبو طالب بهذا إلى قصة القحط الذي أصاب قريشاً بسبب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ، وأنهم لما اشتد بهم القحط وأجدبوا جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بمكة وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستسقي لهم وأن يطلب من الله أن يغيثهم ، فاستسقى لهم فنزل عليهم الغيث لكنهم مع ذلك استمروا على كفرهم وعنادهم على حد قوله تعالى في ذلك : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان

مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون *﴾ إلى قوله : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾ أي مستمرون على كفركم وضلالكم وعنادكم. وقد ذكر البخاري في صحيحه من حديث عبدا لله بن عمر رضي ا لله عنهما قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي صلى ا لله عليه وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش كلُّ ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبي طالب. وقوله : ثمال اليتامى أي يحوط اليتامى ويرعى شئونهم ويتولى أمورهم ويقوم بحاجتهم. وقوله : عصمة للأرامل أي يعصم الأرامل ويحفظهن ويمنعهن مما يضرهن ويحميهن ، والأرامل جمع أرملة وهي الفقيرة التي لا زوج لها ، وقد يستعمل في الرجال على سبيل التوسع على حد قول الشاعر :

تلك الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر

وقوله : يفر إلى نجد ، أي يخذلنا أبو سفيان ويهرب منا إلى الطائف طلباً لبرد مياهه فالمراد بنجد في هذا البيت هو الطائف لارتفاعها إذ النجد ضد الغور . وقوله : ويُخفي عارمات الدواخل أي ولا يُظهر ما يمتلئ به قلبه من الحقد علينا، فالعارمات هي الدواهي الشديدات ، والدواخل جمع داخلة وهي النية والمذهب. وقوله : لا يخيس شعيرة أي لا يخطئ مقدار حبة شعير . وقوله : غير عائل أي غير جائر . وقوله : قيضاً بنا أي عوضاً عنا. وقوله : والغياطل هم فخذٌ من بني سهم بن عمرو بن هصيص كان يقال لأمهم الغيطلة ، والغيطلة تطلق على الظلمة الشديدة والشجر الملتف واختلاط الأصوات والبقرة الوحشية وغلبة النعاس. وقوله : تمالوا أي تمالئوا واجتمعوا وتشايعوا. وقوله : وألّبوا علينا ، أي سارعوا وجمعوا واجتمعوا علينا بالظلم والعداوة والتحريض والإفساد. وقوله :

من كل طمل ، الطمل هو الرجل الفاحش الذي لا يبالي ما صنع ، وتطلق الطمولة على اللئيم والأحمق واللص. وقوله : وخامل ، الخامل هو الساقط الذي لا نباهة له. وقوله : فلا تُشركوا في أمركم كل واغل ، أي فلا تُدخلوا في شئونكم الواغل وهو الضعيف النّذل الساقط المقصر في الأشياء المتطفل على الناس في طعامهم وشرابهم. وقول أبي طالب : فوالله لولا أن أجيء بسُبّة تُجر على أشياخنا في المحافل لكُنا اتبعناه إلى آخر البيت. أي لولا أن دخولي في الإسلام يُلحق بآبائنا الذّم بأنهم ماتوا على غير الهدى ويسمُهُم أهل المحافل والمجالس بالنقص لذلك لكنت سارعت إلى الدخول في الإسلام ، لأني موقن أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يمنعني من الدخول في دينه إلا التزامي بما كان عليه آبائي ، ويؤكد ذلك أبو طالب بقوله : لقد علموا أن ابننا لا مُكذب لدينا .. الخ ، ولذلك قال أبو طالب في نونيته المشهورة :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوسد في التراب دفيناً
ودعوتني وعلمت أنك صادق ولقد صدقت وكنت قبلُ أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنه من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذارى سبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

وقد استمر حصار قريش لبني هاشم وبني المطلب نحو ثلاث سنوات حتى أصاب المسلمين ومن معهم جهد شديد فأكلوا ورق الشجر والجلود اليابسة ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية ، وكانت قريش تؤذي من أرسل إلى بعض أقاربه شيئا من الصلات ، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفرٌ من قريش كان من أشدهم في ذلك صنيعاً هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث العامري ، وكان هشام واصلا لبني هاشم لرحمٍ كانت بينه وبينهم ، وقام معه في نقض

الصحيفة زهيرُ بنُ أبي أمية بن المغيرة المخزومي وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب فهو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان معهما المطعم بن عدي وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فاتعدُوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا أمرهم على نقض الصحيفة فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس اللباس وبنو هاشم هلكى لا يُباعُ ولا يُبتاعُ منهم؟ والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمةُ ، فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد : كذبت والله لا تُشقُّ. فقال زمعةُ بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كُتبت. فقال أبو البختري : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نُقرُّ به. فقال المطعم بن عديٍّ : صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأُ إلى الله منها ومما كتب فيها ، فقال هشام نحواً من ذلك ، فقال أبو جهل : هذا أمر قُضي بليل ، تُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان. فقام المطعم إلى الصحيفة فشقّها ، وبعد أن شُقّت الصحيفةُ ، خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشّعب وخرج منه من معهم من المسلمين فقال أبو طالب قصيدة داليّة يمتدح فيها أولئك النفر الذين قاموا في نقض الصحيفة ، ويبعث البشرى بذلك إلى المهاجرين بالحبشة ، ويمدح بني هاشم وبني المطلب الذين آزرُوه في نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول أبو طالب :

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا　　على نأيهم والله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت　　وأن كلَّ مَن لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع　　ولم يُلف سحر آخر الدهر يصعد

تداعى لها من ليس فيها بقرقر ... فطائرها في رأسها يتردد
وكانت كفاء رقعة بأثيمة ... لِيُقطع منها ساعد ومقلد
ويظعن أهل المكّتين فيهربوا ... فرائصهم من خشية الشر تُرعد
ويترك حَرّاث يقلب أمره ... أيتهم فيهم عند ذاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة ... لها حدج سهم وقوس ومِرهد
فمن ينش من حضار مكة عزة ... فعزتنا في بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم ننفك نزداد خيراً ونحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد
جزى الله رهطاً بالحجون تجمعوا ... على ملأٍ يهدي لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد
جريء على كل الخطوب كأنه ... شهاب بكفي قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤي بن غالب ... إذا سيم خسفاً وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبني لأبناء العشيرة صالحاً ... إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد
ألظ بهذا الصلح كل مبرإ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا ... على مهلٍ وسائر الناس رقّدٌ
هموا رجعوا سهل بن بيضاء راضياً ... وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شُرِّك الأقوام في حَل أمرنا ... وكنا قديماً قبلها نُتودد
وكنّا قديماً لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدّدُ

فيال قصي هل لكم في نفوسكم | وهـل لكـمـوا فـيما يجيء به غـد
فـإنـي وإيـاكم كـما قال قـائـل | لديك البـيـان لو تكلمت أســود

وقول أبي طالب : بحريّنا يعني الذين بـأرض الحبشـة مـن المسـلمين ، وقـد نسبهم إلى البحر لركوبهـم إيـاه في طريـق هجرتهـم إلى الحبشـة. وقولـه : وا لله بالناس أرودُ ، أي وا لله أرفق بالناس ، ومنه : رويدك أي رفقاً وقـد جـاء بلفظ التصغير لأنهم يريدون به تقليلاً أي ارفق قليلا وليس له مكبر من لفظه. والقرقر: الذليل لأن القرقر في الأصل هو الأرض الموطوءة التي لا تمنع سالكها ، ويجوز أن يكون المراد : ليس بذي هزل لأن القرقرة الضحك. وقوله : فطائرهـا في رأسـها يتردد ، أي فحظها من الشؤم والنحس ملازم لها لا يفارقها. والرقعة بضـم الـراء هي التي تكتب. والمقلـد : موضـوع القـلادة مـن العنـق. وقولـه : ويظعـن أهـل المكتين فيهربوا ، أي ويغادر ويسافر أهل مكة ويفروا منها خوفا على أنفسهم ، والمراد بالمكتين مكة وإنما أوردها بلفظ التثنية لأنهم كانوا يكـثرون في أشعارهم من تثنية البقعة الواحدة كقول الشاعر :

بالرقمتين له أجـــر وأعراس | والحمّتين سقاكِ ا لله من دار

وقول زهير بن أبي سلمى المزني : ودارٍ لها بالرقمتين. وكقول عنترة :

كيف القرار وقد تربع أهلها | بعـنـيـزتـين وأهـلنا بالغـيلم

وكقول عنترة أيضاً :

شَربَت بماء الدُّحرُضين فأصبحت | زوراء تنفر عن حياض الديلم

وكقول الشاعر : تسألني برامتين سلجما.

فالرّقمة الروضة وقـد ثناهـا الشـاعر : وعنـيزة اسـم موضـع وقـد ثناهـا الشـاعر كذلك. والدحرض ماء وقد ثناه كذلك ورامة موضع بالبادية وقـد ثنـاه الشـاعر

أيضاً. والمراد بالمفيضين في قوله : إذا جعلت أيدي المفيضين ترعد ، أي المفيضين بالقداح في الميسر وكان لا يُفيض معهم في الميسر إلا سخيٌّ كأن أبا طالب يصفهم بأنهم يطعمون إذا بخل الناس. وقوله : جزى الله رهطا بالحجون تجمعوا يريد بهم هشام بن عمرو العامري وزهير بن أبي أمية المخزومي والمطعم بن عدي وأبا البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد. وقوله : خطم الحجون ، أي مقدمة الحجون فالخطم المقدمة والحجون موضع بأعلى مكة. وقوله : كأنهم مقاولة أي كأنهم ملوك. وقوله : كأنه إذا ما مشى في رفرف الدرع أحرد ، أي كأن الواحد من هؤلاء الرهط إذا مشى كأنه صقر يمشي بطيئاً لثقل ما عليه من لباس الحرب ، فرفرف الدرع هي فضولها وجوانبها وما تدلى منها ، والحَرَد هي أن تثقل الدرع على الرجل فيتثاقل في المشي فيصير كالمتبختر ، وقد روي بلفظ أجرد بالجيم بدل أحرد بالحاء و الأجرد السبّاق. وقوله جريء على كل الخطوب ، أي شجاع في جميع أحواله وشئونه ، وقد روي : على حل الخطوب ، كما روي على جُلّى الخطوب أي عظائم الأمور وكبار الحوادث. وقوله : هموا رجعوا سهل بن بيضاء الخ البيت ، أي إن هؤلاء الأماجد الذين مزقوا صحيفة المقاطعة تسببوا في عودة سهل بن بيضاء إلى داره بمكة مسروراً كما سُرّ بذلك أبو بكر الصديق ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسهل بن بيضاء هو سهل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر ويعرف بابن البيضاء ، والبيضاء هي أُمُّهُ وهي دعد بنت جحدم ابن أمية بن ضرِب بن الحارث بن فهر ، وبنو البيضاء ثلاثة سهل وسهيل وصفوان. وقول أبي طالب : لديك البيان لو تكلمت أسود ، هو مثل يُضرب لمن يحاول استنطاق من لا ينطق ، وأصله أن قتيلا قتل عند جبل يقال له أسود

و لم يعرف القاتل فقال قائل : لديك البيان لو تكلمت أسود أي أنت أيها الجبل لو كنت تنطق لكشفت حقيقة القاتل وشهدت عليه. هذا وقد كان خروج بني هاشم وبني المطلب من الشعب في السنة العاشرة من البعثة النبوية وقد مات أبو طالب بعد أشهر من خروجهم من الشعب ، وكذلك ماتت خديجة رضي الله عنها في نفس هذه السنة فاشتدت المصائب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صابر محتسب يبلغ رسالة الله والله يعصمه من الناس. وقد كان أبو طالب عضداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يرد عنه كيد المشركين. كما كانت خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إسلام أبي طالب ، ولكن الله يهدي من يشاء ، وهداية القلوب بيد الله وحده ؛ وقد أصر أبو طالب على دين آبائه خشية أن تناله سُبَّةٌ بأنه رغب عن دين عبد المطلب ، فقد روى البخاري في صحيحه من طريق ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة ودخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال : أي عمِّ قل لا إله إلا الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب : فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أُنه عنه ، فنزلت : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ ، ونزلت : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أي

عم ، قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب. فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك فنزلت : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أي عمّ قل لا إله إلا الله كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضُها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك ، فأنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وفي لفظ البخاري من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا

الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ ما كان للنبي ﴾ الآية. وفي رواية مسلم من طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم قل لا إله إلا الله كلمةً أشهدُ بها عند الله. فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضُها عليه ويُعيدُ له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وفي رواية لمسلم من حديث العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال نعم : وجدته في غمراتٍ من النار فأخرجته إلى ضحضاح. وفي رواية للبخاري في صحيحه من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال : هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار . وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث العباس بن عبد المطلب أنه قال : يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك

ويغضب لك؟ قال : نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار . وفي رواية للبخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وذكر عنده عمُّه فقال : لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعلُ في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغُه. وفي رواية لمسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغهُ. وقوله : في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح : الغمرات جمع غمرة بإسكان الميم وغمرةُ الشيء شدته ومزدحمُهُ. والضحضاح أصله الماء اليسير الذي يصل إلى الكعبين والمراد هنا أنه أخرج إلى مكان من جهنم يصل إلى كعبيه فقط كأنه لابس نعلين من النار ولكنه مع ذلك يغلى منهما دماغه. وموت أبي طالب بهذه الصفة آيةٌ بينةٌ على أن الله تعالى هو وحده لا شريك له المهيمنُ على خلقه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لقضائه ، يهدي من يشاء فضلا ويُضل من يشاء عدلا ، وأن الأنبياء والمرسلين وسائر عباد الله الصالحين ليسوا بمسيطرين على خلق الله ، ولذلك صارت زوجةُ نوح وولدُه وزوجةُ لوط وأبو طالب إلى ما صاروا إليه ، وصارت زوجة فرعون إلى ما صارت إليه مما أوضحه القرآن الكريم وجلاّه ، ليعلم الناسُ أن الأمر كله لله ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولله الحكمة البالغة والحجة القاطعة التي يجب الإيمان بها والتسليم لها. كما أن في هذا دليلا ساطعا على الفرق بين علم القلب وتصديقه ، فعامة أهل مكة كانوا في قرارة قلوبهم يعلمون أن محمداً رسول الله وأنه ليس بكذاب ولا ساحر ولا شاعر ولا مجنون على حد قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم إنه ليحزنك

الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون *﴾ وكقوله تعالى في أهل الكتاب : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون *﴾ وكقوله تعالى في قوم فرعون : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم *﴾ أي ما ينبغي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا للمؤمنين أن يطلبوا مغفرة الله عز وجل للمشركين بالله المقرين بألوهية غيره من الأصنام والأوثان ، ولو كان هؤلاء المشركون من أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أقرباء المؤمنين الذين كانوا يحبونهم ، بعد ما اتضح لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن هؤلاء المشركين فارقوا الدنيا وهم مقرون بألوهية أصنامهم وأوثانهم وسائر معبوداتهم من غير الله عز وجل الذي هو أغنى الشركاء عن الشرك ، والذي أنزل في كتابه أنه لا يغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، حيث يقول عز وجل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ في آيتين من سورة النساء ولا يتبين موت المشرك على شركه إلا عند النزع والمعاينة أما قبل ذلك عندما يكون من الممكن دعوة المشرك إلى الإيمان بالله وحده ومناقشته فإنه لم يكن قد تبين أنه من أصحاب الجحيم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو أبا طالب إلى قول لا إله إلا الله قبل المعاينة والنزع بدليل محاورته للنبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية ، فلما هلك على الكفر تبين أنه من أصحاب الجحيم. وقد قال الله عز وجل : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم

الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ لأن المراد بحضور الموت هو النزع والمعاينة أما قبل ذلك فيمكن قبول توبته ، ولا يحرم الدعاء له بالهداية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم اهد دوساً وأتِ بهم مسلمين). فإذا جاءت الغرغرة فإنه لا ينفعه دعاء ولا يجوز للمسلمين الاستغفار له ، لأن قوله عز وجل في هذا المقام : ﴿ ما كان للنبي ﴾ هو بمعنى النهي أي لا يجوز ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ و ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ﴾.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم *﴾ هذا بيان لعذر إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه حيث قال : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين *﴾ وكان قد وعده بهذا الاستغفار في قوله : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً *﴾ ثم جزم على الاستغفار بقوله : ﴿ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾. وقد ذيّل الله تبارك وتعالى قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾ الآية بقوله : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ الذي يشعر بعلية الاستغفار لأن الأوّاه هو الرحيم بعباد الله المتوجع لما يلحقهم من الشر المتأوه لما يتقين أنه يؤذيهم. والتأوه هو أن يسمع للصدر صوت يتنفس الصعداء من حرارة الصدر فيخرج ذلك النَّفَس ويقول المكروب : أوه. والحليم هو الصفوح عمن أساء إليه. كما ذيل الله عز وجل آية سورة الممتحنة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير *﴾ وهو يشعر أيضاً بعلية الاستغفار لإفادته تيقن إبراهيم بحماية الله له من شر أبيه وقد أشرت في تفسير الآية الأولى في هذا المقام بأنه مادام المشرك

حياً متمكناً من المحاورة لم يصل إلى حد النزع والغرغرة فإنه يجوز له الدعاء بالهداية. وقد يعبر الداعي له بطلب المغفرة له والصفح عنه بتوفيقه للتوبة والرجوع إلى الله مع تنازل الداعي عن حقه فيما أصابه من الأذى من جهة المشرك لينال الداعي جزاء الصابرين كما قال عز وجل : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون *﴾ وعلى هذا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين *﴾ وقد نبه الله المسلمين إلى أنه لا يلزمهم أن يتجاوزوا عن سيئات الكفار في حقهم لأن حرص إبراهيم عليه السلام عن التجاوز كان سببها الصفة التي وصفه الله عز وجل بها في قوله هنا : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم *﴾ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكاد يبخع نفسه ويهلكها من شدة حزنه على كفر عشيرته به كما قال عز وجل : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا *﴾ وقال عز وجل : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين *﴾ ولا يطلب من المؤمنين أن يفعلوا ذلك ، ولذلك لما أمر الله عز وجل المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، استثنى الله عز وجل فقال : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ وخص هذا الأمر بإبراهيم عليه السلام مع أبيه ولذلك لم يقل لأستغفرن لكم بل قال : ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾. وقوله عز وجل : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ أي فلما اتضح لإبراهيم أن أباه قد أصر على الكفر حتى فارق الحياة وأيقن أنه مات كافراً انتهى عن الاستغفار له.

وقوله عز وجل : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم

ما يتقون إن الله بكل شيء عليم *﴾ هو قاعدة كلية تفيد أن الله الرءوف الرحيم لا يظلم أحداً من خلقه ولا يعذب عباده إلا بعد البيان لهم ، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فهو يبين لعباده طريق الخير وطريق الشر ويقيم لهم الحجة والبرهان كما قال عز وجل : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ أي بينا لهم طريق الخير وطريق الشر ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي فسلكوا طريق الشر وعدلوا عن طريق الخير ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون *﴾ فمن انحرف عن شرع الله وكفر بالله خذله الله ووكله إلى نفسه فدمرها وأوردها نار الجحيم.

وقوله عز وجل : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم ﴾ قال ابن كثير رحمه الله : يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لن يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ الآية ، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ﴾ الآية قال : بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه لهم معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا اهـ وفي هذا تحذير من ارتكاب المعاصي لأنها سبب للضلال والهلاك وطريق إلى ترك الرشاد والهداية.

وقوله عز وجل : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير *﴾ هذا إعلان للناس جميعاً بأن الله عز وجل هو رب كل شيء وسيده ومليكه وأن له السلطان القاهر والملك التام في السموات والأرض وأنه هو وحده الذي يحيي ويميت ، كما قال عز وجل : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم

أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ فلا نصر ولا عز ولا تمكن في الأرض لأحد كائنا من كان إلا بحول ا لله وقوته ، فلا تشركوا با لله شيئا ولا تقدموا حُب أحد على حب ا لله وحب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ولا تُقدموا بين يدي ا لله ورسوله ، فالحلال ما أحل ا لله ورسوله ، والحرام ما حرّم ا لله ورسوله ، فإن أعداء المسلمين هم الذين لا يؤمنون با لله ورسوله ولا يحرمون ما حرم ا لله ورسوله ولا يدينون دين الحق الذي بعث ا لله به شيخ المرسلين محمداً صلى ا لله عليه وسلم فاتخذوهم أيها المؤمنون عدوا ، ولا تتخذوا منهم أولياء ولا بطانة لكم ولو كانوا آبا كم أو أبناءكم أو إخوانكم أو أزواجكم أو عشيرتكم إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون.

قال تعالى :

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

هذا بيان بفضل ا لله ورحمته وإحسانه وجوده على رسوله وحبيبه محمد صلى ا لله عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم واتبعوه في غزوة تبوك في وقت العسرة حيث كان الخروج إلى تبوك في لهيب الحر وشدة القيظ وقلة الظهر وندرة الزاد ولذلك سميت غزوة العسرة ، وسمي الجيش جيش العسرة حيث اجتمع عليهم عسرة الحر وعسرة

الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقد روى مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد - شك الأعمش - قال : لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة ، قالوا : يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افعلوا ، قال : فجاء عمر فقال : يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال : فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم قال : فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال : ويجيء الآخر بكف تمر قال : ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة ثم قال : خذوا في أوعيتكم قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه قال : فأكلوا حتى شبعوا ، وفضلت فضلة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ ،

قال ابن جرير رحمه الله : يقول تعالى ذكره : لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام وأنصارَ رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظّهر والزاد والماء اهـ والمراد بساعة العسرة أي وقت العسرة ويشمل وقت غزوة تبوك. وقوله تبارك وتعالى : ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق

منهم ﴾ أي من بعد ما بلغ بهم الضيق والجهد والعسرة حداً لولا صيانة الله لهم لزاغت قلوب بعضهم ولكن الله عز وجل صانهم فلم تزغ قلوبهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * ﴾ أي ثم رزقهم الله الإنابة إليه والثبات على الحق لرأفته ورحمته بهم.

قال تعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

بعد أن ذكر الله عز وجل توبته ورضاه عن جميع المؤمنين الذين شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزة تبوك أعلن رضاه وتوبته على الثلاثة الذين خلّفوا وهم المُرجَون لأمر الله وهم كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب الأنصاري السَّلمي وهلال بن أمية بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي ومرارة بن الربيع الأنصاري العامري. وقد روى البخاري ومسلم قصة هؤلاء الثلاثة رضي الله عنهم من طريق عبدالله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدرٍ وإن كانت بدر أذكر في الناس منها كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يريد غزوةً إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرٍ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرٌ لا يجمعهم كتاب حافظ ، يريد الديوان ، قال كعب فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقضِ شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجِدُّ فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئاً فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقضِ شيئاً ثم غدوت ثم رجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يُقدَّر لي ذلك فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعبٌ؟ فقال رجل من بني سلِمة يا رسول الله : حبسه

بُرداه ونظره في عِطفه. فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلتَ ، وا لله يا رسول ا لله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال كعب بن مالك : فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ فأجمعتُ صدقه وأصبح رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قادماً وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى ا لله فجئته فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضَب ثم قال : تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلَّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى إني وا لله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذرٍ ، ولقد أُعطيتُ جدلاً ، ولكني وا لله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن ا لله أن يسخطك عليّ ولئن حدثتك حديث صدقٍ تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو ا لله ، لا وا لله ما كان لي من عذرٍ ، وا لله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي ا لله فيك. فقمت وثار رجال من بني سلِمة فاتبعوني فقالوا لي وا لله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بما اعتذر إليه المتخلفون قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لك ، فوا لله

مازالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما ؟ قالوا مُرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوةٌ فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبَنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرَت في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يُكلمني أحدٌ وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا ثم أصلي قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة النّاس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ماردّ علي السلام ، فقلت يا أبا قتادة ، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ، فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته ، فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار قال فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبطيٌّ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالكٍ فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غسان فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك ، و لم يجعلك الله بدار هوانٍ و لا مضيعة فالْحقْ بنا نواسك، فقلت لما قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها حتى إذا

مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال إنّ رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، قال كعب فجاءت امرأة هلال بن أُمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إنّ هلال ابن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شيءٍ والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدمه فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلةً من حين نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلةً وأنا على ظهر بيتٍ من بُيُوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخٍ أوفى على جبل سَلع بأعلى صوته يا كعبُ بنَ مالك أبشر قال فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يُبشروننا وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون وركَض إليَّ رجل فرساً وسعى ساعٍ من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يُبشرني نزعتُ له ثوبَيَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى

ا لله عليه وسلم فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يُهنّوني بالتوبة يقولون : لتهنك توبةُ ا لله عليك ، قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إليَّ طلحة بن عبيد ا لله يهرول حتى صافحني وهنأني ، وا لله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة. قال كعب فلما سلمت على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وهو يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أُمك ، قال قلت أمن عندك يا رسول ا لله أم من عند ا لله ، قال لا بل من عند ا لله ، وكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمرٍ وكنّا نعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يا رسول ا لله إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى ا لله وإلى رسول ا لله قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك قلت فإنّي أمسك سهمي الذي بخيبر فقلت يا رسول ا لله إنّ ا لله إنما نجاني بالصدق وإنّ من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوا لله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه ا لله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أحسن ممّا أبلاني ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم إلى يومي هذا كذباً وإنّي لأرجو أن يحفظني ا لله فيما بقيت ، وأنزل ا لله على رسوله صلى ا لله عليه وسلم : ﴿ لقد تاب ا لله على النّبيّ والمهاجرين ﴾ إلى قوله : ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ ، فوا لله ما أنعم ا لله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن ا لله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحدٍ. فقال تبارك وتعالى : ﴿ سيحلفون با لله

لكم إذا انقلبتم ﴾ إلى قوله : ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾. قال كعب : وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ﴾. وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو إنّما هو تخليفه إيّانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ أي حتى صاروا في حالة من الوحشة والضيق والكرب والمحاصرة حيث هجرهم الأقارب والأباعد فصارت الأرض مع اتساعها كأنها في أعينهم جُبٌّ. ومعنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أي امتلأت صدورهم ضيقاً من الهم والوحشة. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ أي وتيقنوا أنه لا مفر لهم من الله إلا إلى الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجعل في ورده إذا أوى إلى فراشه قوله : (لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) ، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت. فإنك إن مُت في ليلتك مُت على الفطرة وإن أصبحت أصبت أجراً). وقد روى البخاري ومسلم من حديث البراء رضي الله عنه نحوه إلا أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم

اضطجع على شقك الأيمن ، وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك). وساق الحديث.

وقوله عز وجل : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * ﴾ أي ثم مَنّ عليهم بتوبته وأعلن ذلك في كتابه ورزقهم الثبات ليستمروا ويستقيموا على توبتهم إلى الله عز وجل. والتعبير بثم في قوله عز وجل : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ لتراخي المدة التي ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فيها وهي خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم إلى إعلان التوبة عليهم ، ولا شك أن من كان في مثل حالهم آنذاك تكاد تكون الساعة عليه شهراً ، بخلاف أيام المسرات فإنها تنقضي سريعاً.

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

هذا تنبيه من الله عز وجل وأمر لجميع المؤمنين من وقت نزول هذه الآية إلى يوم القيامة بالاقتداء بهؤلاء الثلاثة الذين خُلِّفوا في ملازمة قول الصدق وتقوى الله عز وجل في السراء والضراء وقد تحققوا أن الصدق منجاة وأن الكذب مهواة ، والصدق لا يأتي إلا بالخير كما قال عز وجل : ﴿ فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾. وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي

إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصدق طمأنينة وأن الكذب ريبة فقد روى الترمذي وقال : حديث صحيح من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة).

قال تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ .

هذا عتاب للمخلفين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسلاً لا نفاقاً و لا كفراً حين ما دعاهم للخروج إلى تبوك ، وبيانٌ لعظيم أجر الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيه إلى ما فات هؤلاء المعذرين من الأعراب وغيرهم من الخير بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر الإمام الطبري رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين أن الله عز وجل عنى بها الذين وصفهم بقوله : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ﴾ الآية ، ثم قال جل ثناؤه : ما كان لأهل المدينة الذين

تخلفوا عن رسول الله ولا لمن حولهم من الأعراب الذين قعدوا عن الجهاد معه أن يتخلفوا خلافه و لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ندب في غزوته تلك كل من أطاق النهوض معه إلى الشخوص إلا من أذن له أو أمره بالمقام بعده فلم يكن لمن قدر على الشخوص التخلف ، فعدّد جل ثناؤه من تخلف منهم فأظهر نفاق من كان تخلفه منهم نفاقاً وعَذَرَ من كان تخلفه لعذر وتاب على من كان تخلفه تفريطاً من غير شك ولا ارتياب في أمر الله إذا تاب من خطأ ما كان منه من الفعل اهـ وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قل لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ الآية ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : إن بالمدينة لرجالاً ، ما سرتم مسيراً و لا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر).

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ أي ما يليق ولا يصح ولا يستقيم لأهل المدينة وقبائل العرب المجاورة لها أن يتأخروا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لقربهم وجوارهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي ولا يرضوا لأنفسهم أن تكون في راحة ودعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشدة والمشقة ، إذ اللائق بمن كان مؤمناً أن يقي بنفسه نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاسيما إذا كان قريب الدار والجوار . وأشار إلى أن هؤلاء المتخلفين حرموا أنفسهم من أجر عظيم حيث يقول : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ و لانصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار

ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ والظمأ : العطش ، والنصب : التعب ، والمخمصة : المجاعة. ومعنى : ﴿ ولا يطئون موطئا ﴾ أي ولا يدوسون بأرجلهم وحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم أرضاً. ومعنى : ﴿ يغيظ الكفار ﴾ أي يغضبهم ويذلهم ويقهرهم. ومعنى : ﴿ ولا ينالون من عدو نيلا ﴾ أي ولا يصيبون من عدوهم قتلا أو أسرا أو سبيا أو غنيمة أو هزيمة. ومعنى قوله : ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح إن ا لله لا يضيع أجر المحسنين * ﴾ أي إلا سُجّل لهم في صحائف أعمالهم أنهم عملوا هذه الأعمال الصالحة التي يجزل ا لله بها الأجر ويُعظِم لهم بها الفضل ، لأنه من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره ، وهم قد أحسنوا لما عملوا هذه الأعمال فكُتِبوا في المحسنين ، وسُجِّلوا في سجلات الصالحين.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم ا لله أحسن ما كانوا يعملون * ﴾ أي ولا يبذل هؤلاء المجاهدون في سبيل ا لله بذلاً قليلاً ولو كتمرة ولا كثيرة كما فعل عثمان ابن عفان رضي ا لله عنه حيث جهز جيش العسرة من ماله، فقد عنون البخاري في صحيحه فقال : باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي رضي ا لله عنه وقال النبي صلى ا لله عليه وسلم : من يحفر بئر رومة فله الجنة فحفرها عثمان ، وقال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزه عثمان اهـ. ومعنى : ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي ولا يمرون بوادٍ من الأودية مقبلين أو مدبرين. ومعنى : ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أي إلا سجل ممشاهم وآثارهم وقيدت لهم حسنات توضع في موازين أعمالهم الصالحة يوم القيامة. وقوله : ﴿ ليجزيهم ا لله أحسن ما كانوا يعملون * ﴾ أي ليثيبهم ا لله عليها أحسن ما يجزى به عباده الصالحين.

قال تعالى :

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى فضل الجهاد في سبيله وحرض المسلمين على القتال ، ذكر هنا ضرورة طلب العلم وحض على التفقه في الدين لإرشاد الناس إلى ما فيه الخير لهم وتحذيرهم مما فيه الشر لهم وتعريفهم بحقوق الله وحقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقوق بعضهم على بعض ، للإشعار بأن الأمة لا يستقيم حالها ولا يستتب أمرها وأمنها إلا بقوة تردع أعداءها وتحمي حماها وتدفع في نحور المعتدين وتحمي حقوق المظلومين ، وعلم ينير لها طريقها ومنهج يقيم لها سلوكها ويهديها سواء السبيل ، لأن السيف مع الجهل أشبه بقوة الأسُود وبطش الحيوانات المفترسة ، كما أن العلم بلا قوة تحميه مآله الاضمحلال والزوال ، وهذا من كمال شريعة الإسلام وأنها دين الفطرة التي تقتضي صيانة الدين والنفوس والعقول والأعراض والأموال ، وقد أشار الله عز وجل في هذه الآية الكريمة إلى أن الجهاد وطلب العلم من فروض الكفاية التي إذا قام بها البعض سقط الطلب عن الباقين وإذا لم يقم بها أحد أثم الجميع. ولما كان الناس ليسوا سواء في فطرتهم وميولهم واستعدادهم وقُدرتهم حيث يتفاوتون في الجهاد وفي طلب العلم ، كما أنه لو فرض الجهاد على الجميع وكذلك طلب العلم لتعطلت المصالح كالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها ، لذلك جعلت الشريعة بعض الفروض فرض عين وبعضها فرض كفاية لتلتئم

مصالح العباد لدنياهم وأخراهم ، فقد يكون الإنسان عاجزاً عن الجهاد ذا قدرة واسعة على طلب العلم ، وقد يكون القادر على الجهاد غير مؤهل لطلب العلم والتفقه في شريعة الله ، ولم يعرف في تاريخ الأمم أمة حرصت على العلم كحرص أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حاز أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قصب السبق في طلب العلم والتفقه لما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يتلوه عليهم من الكتاب ويعلمهم من السنة كقوله عز وجل : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وكقوله صلى الله عليه وسلم : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) رواه البخاري ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه ، وكما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة) ، وكما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). ومن شدة حرص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والتفقه في الدين أنهم كانوا يتناوبون رعاية إبلهم حتى يجلس بعض من لا نوبة عليه في رعاية الإبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يفوتهم شيء من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أفعاله بقدر طاقتهم كما كان يفعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عقبة بن عامر رضي الله عنه ، فقد قال أبو

داود في سننه : حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني ثنا ابن وهب سمعت معاوية - يعني ابن صالح - يحدث عن أبي عثمان عن جبير بن نفير عن عقبة بن عامر قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خُدام أنفسنا نتناوب الرعاية رعاية إبلنا، فكانت عليّ رعاية الإبل فروّحتُها بالعشِيّ فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس فسمعته يقول : ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يقوم فيركع ركعتين يُقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا قد أوجب فقلت: بخ بخ ما أجود هذه ، فقال رجل من بين يَدَيّ : التي قبلها يا عقبة أجود منها ، فنظرت فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقلت : ما هي يا أبا حفص ؟ قال : إنه قال آنفاً قبل أن تجيء : ما منكم من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ثم يقول حين يفرغُ من وضوئه : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله إلا فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء. قال معاوية : وحدثني ربيعة بين يزيد عن أبي إدريس عن عقبة بن عامر اهـ وقال البخاري في صحيحه في كتاب العلم : باب التناوب في العلم وساق بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما عن عمر قال : (كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك) الحديث ، وفي لفظ للبخاري في المظالم من صحيحه عن عمر قال : (إني كنت وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم من الأمر وغيره وإذا نزل فعل مثله) الحديث ، وفي لفظ للبخاري في كتاب النكاح من صحيحه عن عمر

رضي الله عنه قال : (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهم من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلتُ جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره وإذا نزل فعل مثل ذلك) الحديث ، وقد رواه مسلم في كتاب الطلاق من صحيحه عن عمر رضي الله عنه قال : (وكان لي جار من الأنصار فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك) الحديث.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ و ما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أي وما يستقيم للمؤمنين أن يذهبوا ويتوجهوا جميعاً للتفقه في الدين ، لما في ذلك من تعطيل مصالحهم في مزارعهم ومتاجرهم ومصانعهم وجهادهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون * ﴾ أي فهلا قصد وتوجه من كل جماعة من جماعات المسلمين بعضهم وانصرفوا إلى مجالس العلم لتحصيله من مصادره ليتبصروا ويتثقفوا في دين الله لينتفعوا به في أنفسهم وليكونوا على بصيرة في شريعة الإسلام وليقوموا بتعليم جماعتهم ومن يحتاج إلى التفقه في دين الله ، ويرشدوهم إلى ما يسلك بهم طريق الجنة ويبتعد بهم عن طريق أهل النار ، ويحذروهم من غضب الجبار ، وليكونوا هداة مهتدين ، ودعاة مرشدين.

قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

توجيه من الله عز وجل أن يبدءوا بقتال الأقرب فالأقرب من الكفار وأن يحرصوا على أن لا يتركوا موقعاً قريباً من بلاد الكفار ويتجاوزوه إلى ما وراءه من الأماكن البعيدة لأن ذلك يؤدي إلى وجود بُؤر من أهل الكفر وراءهم مما يؤدي إلى خلخلة مواقع المسلمين وضعف مراكز تواجدهم وقطع الطريق بين طرق إمداداتهم ، وهو تنبيه إلى (استراتيجية) لا غنى عنها لمن يريدون إخراج الناس من الظلمات إلى النور. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي و احرصوا على أن يحس الكفار أنكم لا تتهاونون في نشر دين الله وإعلاء كلمته ، وقد انطبع المسلمون على هذا الخلق فصاروا أشداء على الكفار رحماء بينهم كما أخبر عز وجل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم *﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين *﴾ أي وثقوا بنصر الله لكم إذا اتقيتموه وأطعتم أوامره وابتعدتم عن انتهاك محارمه ، لأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، ومن كان الله معه فهو المنصور ومن وكله الله إلى نفسه فهو المخذول المدحور . قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من

سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً ، شرع في قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بواحد وثمانين يوماً فاختاره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام ، وبيّن الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً ، ففرقها على الوجه الشرعي والسبيل المرضي ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة ، وأُمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة ، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وعلت كلمة الله وظهر دينه وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية

مآربها وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رقيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر كقوله تعالى : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ وقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنا الضحوك القتال) يعني أنه ضحوك في وجه وليه قتال لهامة عدوه. وقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه ، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سَفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله ، والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم اهـ.

قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ .

هذا هو المقام الأخير في هذه السورة المباركة من مقامات التنديد بالمنافقين وكشف ما تكنه صدورهم وينفلت من ألسنتهم من الكفر والنفاق. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ أي وإذا أنزل الله عز وجل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم سورة وتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس انشرحت لها صدور المؤمنين وازدادوا بسببها إيماناً في قلوبهم ورسوخاً في دينهم ، لكن المنافقين ليسوا كذلك فمنهم من ينفلت لسانه لبعض إخوانه من المنافقين سخرية واستهزاء ويقول أيكم زادته هذه السورة الجديدة إيماناً وتصديقاً بالله عز وجل وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مشككاً فيها ومستهزئاً بها. وقد تولى الله تبارك وتعالى الجواب قمعاً لهذا المنافق فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون *﴾ أي فأما المؤمنون المصدقون بالله وبكتابه الذي أنزل وبرسوله الذي أرسل فإنهم يزدادون بنزول ما ينزل من القرآن تصديقاً فوق تصديقهم

ويقيناً على يقينهم لما جعل الله عز وجل في قلوبهم وبصائرهم من الأنوار التي تجعلهم يستقبلون ما ينزل من القرآن بشوق وفرح فتتأثر به نفوسهم وتنشرح له صدورهم ويزداد به يقينهم وتصديقهم. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون *﴾ أي وأما المنافقون المريضة قلوبهم فيزدادون حسرة في نفوسهم وضيقاً في صدورهم ورجساً ونجاسة فوق رجسهم ونجاستهم ، وتنطبع على الشر والكفر والنفاق قلوبهم فإذا ماتوا على حالهم فارقوا الدنيا وهم كافرون ، وكما قال عز وجل : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّدُ في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون *﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾. و (إلى) في قوله عز وجل : ﴿ إلى رجسهم ﴾ بمعنى مع. والتعبير بإلى لإفادة انضمام كفرهم الجديد إلى كفرهم القديم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون *﴾ أي أو لم يعتبر هؤلاء المنافقون بما يُسلط عليهم من الامتحان والابتلاء الذي يفضح أسرارهم ويكشف أستارهم في كل سنة مرة أو مرتين مما كان يقتضي رجوعهم إلى الحق وتوبتهم من النفاق والشك لكنهم لانطماس بصائرهم لا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بمصائبهم و لا ينجحون في اختبارهم.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون *﴾ صورة أخرى من صور نفاقهم وهلعهم ومحاولتهم التخفي والتكتم على ضلالهم

وريبهم، وهذا يبرز ما هم فيه من الجبن والذل والخوف ، فبعضهم يلمز كمن قال : أيكم زادته هذه إيماناً وبعضهم يتبادل مع رفاقه النظرات ذلاً وهلعاً وخوفاً من المسلمين ويحاول الهروب من مجلس التلاوة حتى لا يسمع القوارع التي تقرعهم ، فإذا وجدوا غفلة من عيون المسلمين عنهم انصرفوا. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ صرف ا لله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون *﴾ أي خذلهم ا لله فلم تنشرح صدورهم للإسلام بسبب انعدام فقههم وفهمهم ، وهذا كقوله عز وجل : ﴿ فلما زاغوا أزاغ ا لله قلوبهم ﴾ ، وفي قوله عز وجل : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم و ماتوا وهم كافرون *﴾ حجة قاهرة ودليل قطعي على زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين. قال البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه : باب زيادة الإيمان ونقصانه وقول ا لله تعالى : ﴿ وزدناهم هدى ﴾ ، ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ ، وقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص اهـ وقال ابن كثير رحمه ا لله في تفسيره : وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك اهـ وقال الشيخ علي بن محمد بن محمد بن أبي العز الحنفي في شرحه على العقيدة الطحاوية : والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً منها قوله تعالى : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ الأنفال ، ﴿ ويزيد ا لله الذين اهتدوا هدى ﴾ مريم. ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ المدثر. ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ الفتح : ٤. ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا

حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ آل عمران : ١٧٣. وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمَن به ؟ فهل في قول الناس : ﴿ قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ آل عمران : ١٧٣ زيادة مشروع؟ وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع ؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقيناً ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ آل عمران : ١٦٧. وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ التوبة : ١٢٥. وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية ، فقال : حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذي ، قالا : حدثنا فارس بن مردويه ، قال : حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال : حدثنا يحيى بن عيسى قال : حدثنا أبو مطيع عن حماد ابن سلمة عن أبي المهزّم عن أبي هريرة قال : جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ، الإيمان يزيد وينقص ؟ فقال: (لا . الإيمان مكمل في القلب ، زيادته كفر ونقصانه شرك). فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فأجاب : بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة. وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ، ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعمرو بن علي الفلاّس والبخاري ، وأبو داود والنسائي وأبو حاتم الرازي وأبو حاتم محمد بن حبان البستي والعقيلي وابن عدي والدار قطني وغيرهم. وأما أبو المهزم ، الراوي عن أبي هريرة ، وقد تصحّف على الكتّاب ،

واسمه يزيد بن سفيان ، فقد ضعفه أيضاً غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج وقال النسائي : متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع ، حيث قال : لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم النساء بنقصان العقل والدين. وقال صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين). والمراد نفي الكمال ، ونظائره كثيرة ، وحديث شُعب الإيمان ، وحديث الشفاعة ، وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، فكيف يقال بعد هذا : إن إيمان أهل السموات والأرض سواء؟ وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان ؟ وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضاً ، منه قول أبي الدرداء رضي الله عنه : من فِقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص. وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه : هلموا نزدد إيماناً ، فيذكرون الله تعالى عز وجل. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً. وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبدالله بن رواحة رضي الله عنه. وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان : إنصاف من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذل السلام للعالَم. ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه. وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق اهـ وقول ابن أبي العز رحمه الله : ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه هو إشارة إلى ما جاء في صحيح البخاري رحمه الله في كتاب الإيمان حيث قال : بابٌ إفشاءُ السلام من الإسلام ، وقال عمار : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من

نفسك ، وبذل السلام للعالَم ، والإنفاق من الإقتار ، ثم ساق بسنده من طريق أبي الخير عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خير؟ قال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف اهـ وقوله : وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف هو بمعنى وبذل السلام للعالَم أي لمن عرفت ومن لم تعرف.

قال تعالى :

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ .

هذا ختام المسك من سورة التوبة المنزلة على خاتم النبيين وشيخ المرسلين محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. وهاتان الآيتان المباركتان كانتا مكتوبتين عند أبي خزيمة أو خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه. قال البخاري رحمه الله في صحيحه : باب جمع القرآن ، ثم ساق بسنده عن ابن شهاب عن عبيد بن السبّاق أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقُراء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هذا والله خير

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبّع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هو والله خير . فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر اهـ وليس معنى قوله في الحديث : حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره، أنها لم تتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن القرآن يثبت بخبر الواحد لأن مراد زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة ابن ثابت أو أبي خزيمة بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه لكنها كانت محفوظة في صدور القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا لا يكتفون بالحفظ في صدورهم بل كانوا يضمون إلى ذلك وجودها مكتوبة ، وتَواترُ نقلها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأساس في ذلك. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري عند قوله في الحديث: لم أجدها مع أحد غيره ، أي مكتوبة لما تقدم من أنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة ثم قال : والحق أن المراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة لا نفي كونها محفوظة اهـ وقد أورد

البخاري هذا الحديث في تفسير سورة التوبة حيث قال : باب قوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ الآية ثم ساق بسنده عن الزهري قال : أخبرني ابن السبّاق : أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وكان ممن يكتب الوحي ، قال : أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر : قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر : قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : هو والله خير ، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبى بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحدٍ غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ﴾ إلى آخرها ، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . تابعه عثمان بن عمر والليث عن يونس عن ابن شهاب وقال الليث : حدثني عبد الرحمن بن

خالد عن ابن شهاب وقال : مع أبي خزيمة الأنصاري وقال موسى عن إبراهيم: حدثنا ابن شهاب : مع أبي خزيمة وتابعه يعقوب بن إبراهيم عن أبيه وقال أبو ثابت : حدثنا إبراهيم وقال : مع خزيمة أو أبي خزيمة اهـ.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي لقد أتاكم برسالة الله عز وجل إليكم نبي عظيم ورسول كريم من أشرف بيوتكم وأرفع أنسابكم ، حيث يعتبر عمود نسبه صلى الله عليه وسلم في الذروة من أعمدة أنساب العرب ، وقد جرت سنة الله عز وجل أن يبعث الرسل في أنساب قومها أي في أشراف آبائهم وأمهاتهم كما جاء في حديث أبى سفيان مع هرقل عندما سأله : أذو نسب فيكم ؟ قال : نعم هو فينا ذو نسب ، فقال هرقل : وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. كما رواه البخاري وغيره ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم اهـ ولا تكاد قبيلة من قبائل العرب إلا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم صلة نسب بها ، فقد اجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في نزار بنو ربيعة بن نزار وقد صاروا قبائل شتى ، منهم بنو أسد وضبيعة ، ومن بني أسد بكر وتغلب وعنز أبناء وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ر بيعة، ومنهم بنو عبد القيس بن أفصى والنمر بن قاسط ومنهم بنو حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل ، ومنهم بنو عجل بن لجيم ومن بكر أيضا بنو مرة ، ومن ربيعة أيضاً بنو عنزة بن أسد بن ربيعة ، ومن عنزة آل سعود ملوك المملكة العربية السعودية أعز الله بهم الإسلام وأعزهم بالإسلام ، كما اجتمع

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مضر بنو قيس عيلان ، وإلى قيس عيلان ترجع قبائل غطفان ، وهوازن وسُليم ومازن ومن هوازن بنو سعد بن بكر وبنو كلاب وبنو جُشم ومنهم كعب بن ربيعة وبنو هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان ونسبي في بني هلال ، وكذلك بنو نمير وبنو جعدة وبنو قشير وبنو عقيل بن كعب بن ربيعة ومنهم بنو المنتفق وبنو خفاجة ، ومن هوازن أيضاً بنو سلُول وبنو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن ومن قيس عيلان أيضا بنو عبس وذبيان ومن ذبيان بنو فزارة ومنهم عدوان وباهلة ، وفي إلياس يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو تميم بن مُر بن أدّ بن طابخة بن إلياس وبنو ضبة بن أدّ والرباب ومزينة ومن بني تميم زيد مناة بن تميم وعمرو والحارث ومن زيد مناة بن تميم بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناة ومن ذريته مجدد الدين وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله. وفي مدركة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو هذيل بن مدركة وهم رهط عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وفي خزيمة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو أسد والقارة، وفي كنانة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملْكان ومَلْك وعمرو وعامر وعبد مناة ، ومن عبد مناة بنو بكر ومن بني بكر بنو الديل وبنو مدلج وبنو ليث وبنو ضمرة ، وفي النضر يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو يخلد بن النضر ، وفي فهر يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو محارب بن فهر وبنو الحارث بن فهر رهط أبي عبيدة عبد الله بن عامر بن الجراح ، وبنو أسد بن فهر وفهر هو قريش فكل من كان من ولده فهو قرشي ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي ، وقيل إن قريشاً هو النضر بن كنانة والمعتمد عند العلماء هو أن قريشاً لقب فهر بن مالك بن النضر ، وفي غالب

يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو تيم الأدرم ، وفي لؤي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو عامر بن لؤي وبنو سامة بن لؤي وفي كعب بن لؤي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو عدي بن كعب رهط عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد رضي الله عنهما ، وبنو جُمح وبنو سهم رهط عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ويجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب بنو تيم بن مرة رهط أبي بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وفي كلاب بن مرة يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو زهرة بن كلاب رهط آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كذلك رهط سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وفي قصي يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو عبد الدار رهط الشيبيين حجبة الكعبة المشرفة وبنو عبد العزى رهط خديجة بنت خويلد رضى الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن بنى عبدالعزى ورقة بن نوفل والزبير بن العوام رضى الله عنه وفي عبد مناف يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس وفي عبد المطلب يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو أبي طالب علي وجعفر وعقيل ، كما يجتمع معه في عبد المطلب بنو العباس وبنو الحارث وبنو أبي لهب ، وقد كان لآباء رسول الله صلى الله عليه وسلم مجد مميز بين قبائل العرب فجده قصي هو أول من جمع أمر قريش بعد تفرقهم وتشتتهم ، وقد ولي أمر البيت الحرام وأمر مكة كلها ، وكانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز الشرف كله على قريش ، وقد قطع مكة رباعا بين قومه قريش فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة ،

وقد سمّتهُ قريش مُجمعا : لما جمع من أمرها ، وتيمنت به ، فما تنكح امرأة ، ولايتزوج رجل من قريش ، ولا يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره ، واتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى المسجد الحرام تجتمع فيها قريش لقضاء أمورها ، وفي قصي يقول الشاعر :

قُصيّ لعمري كان يُدعى مُجمعا   به جمع ا لله القبائل من فهر

وقد كان عبد الدار بِكر قصي فلما كبر قصي دفع لعبد الدار مفتاح الكعبة وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكانت خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب فيصنع به طعاماً للحجاج ضيافة لهم على أنهم ضيوف ا لله ، وهم أحق الضيف بالكرامة.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي يؤلمه عنتكم ومشقتكم وما يسبب لكم عذابا في الدنيا أو في الآخرة وما يجلب لكم من شر ، وقوله عز وجل : ﴿ حريص عليكم ﴾ أي يبذل أقصى جهده فيما ينفعكم ويرفع الضر عنكم ، ويجلب لكم خير الدنيا والآخرة كالرائد الذي لا يكذب أهله ويسعى في إرشادهم إلى ما فيه رغد عيشهم وجلب السعادة لهم ، وقد كان من أظهر آثار حرصه صلى ا لله عليه وسلم على هداية الناس أنه كان يشتد حزنه إذا استمروا في كفرهم حتى بلغ به الحزن درجة كاد يبخع نفسه أي يهلكها بسبب استغراق الكفار في ضلالهم ، كما قال عز وجل : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا * ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكون مؤمنين ﴾ وقد ضرب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لنفسه في حرصه على الخير للناس ونفعهم مثلاُ فقال فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى رضي ا لله عنه عن النبي صلى ا لله عليه قال :

(إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم إني رأيت الجيش بعينيّ وإني أنا النذير العريان فالنّجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني واتّبع ماجئت به ومثل من عصاني وكذّب ما جئت به من الحق). وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثلي كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدوابُّ التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهنّ ويغلبنه فيتقحمن فيها ، قال : فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلُم عن النار ، هلُم عن النار ، فتغلبوني ، تقحَّمون فيها). وفي لفظ لمسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها ، وأنا آخذٌ بحجزكم عن النار وأنتم تَفلّتون من يدي) اهـ وقد أعلمه الله عز وجل بأن أكثر الناس لا يؤمنون حيث يقول عز وجل : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾.

ومعنى قوله عز وجل : ﴿ رءوف رحيم * ﴾ أي هو صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بكل مؤمن سواء كان عربياً أو كان أعجمياً. والرأفة والرحمة بالمؤمنين كانت من الصفات التي انطبع عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أشار الله إلى ذلك في قوله عز وجل : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وقد أشار الله عز وجل إلى أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو نبي الرحمة حيث يقول عز وجل : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين * ﴾. ومعنى قوله عز وجل : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي

ا لله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم *﴾ أي فإن أعرض الكفار من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين و لم يستجيبوا لك فيما دعوتهم إليه من إخلاص العبادة لله وحده ونبذ ما هم عليه من الكفر والضلال فاستمسك بالعروة الوثقى التي منّ ا لله عز وجل عليك بها وقل : ﴿ حسبي ا لله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم *﴾ أي ا لله عز وجل وحده هو الذي يكفيني شركم ويدفع في نحوركم وينصرني عليكم مهما كان جمعكم ومهما تحزبت ضدي أحزابكم فإني فوضت أمري إلى ا لله وجعلت اعتمادي عليه وهو رب العرش العظيم لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه.

والأمر في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فقل حسبي ا لله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وهو توجيه كذلك لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة أن يقولوا هذا القول مؤمنين به مطمئنين له إذا حزبهم أمر ، وقد قال أبوداود في سننه : حدثنا يزيد بن محمد الدمشقي ثنا عبد الرازق بن مسلم الدمشقي وكان من ثقات المسلمين المتعبدين قال : مدرك بن سعد قال يزيد : شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة بن حلبس عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي ا لله عنه قال : (من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي ا لله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات. كفاه ا لله ما أهمه وسند هذا الحديث حسن قال الحافظ ابن حجر في التقريب : يزيد بن محمد ابن عبد الصمد بن عبد ا لله الدمشقي أبو القاسم القرشي مولاهم صدوق من الحاديةعشرة وقال الحافظ ابن حجر في التقريب عبد الرازق بن عمر بن مسلم الدمشقي العابد ، صدوق من العاشرة ، ويونس بن ميسرة بن حلبس قال الحافظ في التقريب : ثقة عابد مُعمّر من الثالثة وأم الدرداء هي الصغرى من

زوجتي أبي الدرداء. وقد اشتمل هذا الذكر الوارد في هذه الآية الكريمة على أربع جمل : الأولى : حسبي الله والثانية لا إله إلا هو والثالثة : عليه توكلت ، والرابعة : وهو رب العرش العظيم ، وكلها في تقرير تجريد التوحيد لله عز وجل وحده لا شريك له ومن بينها كلمة التوحيد الكبرى التي هي مفتاح الإسلام ومفتاح الجنة. وهي لا إله إلا الله المشتملة على نفي جميع من يستحق أن يكون إلها وإثبات الإلهية لله وحده بطريق الحصر وهي التي دعت إليها جميع الرسل وأنزل الله من أجلها جميع الكتب وقد شهد الله عز وجل لنفسه بهذا التوحيد وشهدت به له ملائكته الكرام ورسله وأولوا العلم حيث يقول عز وجل : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم* ﴾ وقد أوجب الله تبارك وتعالى معرفة معنى لا إله إلا الله حيث يقول : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وأن الله تعالى حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يعني موقناً بمعناها ملتزماً بمقتضاها ومات على ذلك، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله حرّم النار على من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله) ، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من عبد قال : لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة). وكلمة التوحيد تقتضي من العبد أن يُسلم وجهه لله عز وجل لا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله تبارك وتعالى فلا يدعو مع الله أحدا ولا يشرك بالله شيئاً كما قال عز وجل لحبيبه وسيد خلقه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ قل إن صلاتي و نسكي و محياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين *﴾ وقد جهل الكثير من الناس معنى لا إله إلا الله وصاروا إذا حز بهم أمر أو مرض لهم مريض أو نحو ذلك ضرعوا إلى بعض الموتى من أصحاب القبور وصاروا يستنجدون بهم ويسألونهم كشف الضر عنهم مع أن الله عز وجل قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ وقد اعتقد الكثير منهم – مع أنهم يقولون لا إله إلا الله – أن بعض الناس ولاسيما من اشتهر بالصلاح والتدين يعلمون الغيب ، مع أن الله عز وجل يقول في كتابه الكريم عن نفسه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا *﴾ كما اعتقد كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ويذهبون إلى بعض الدجاجلة ليطلعوهم على أنواع من الغيب مع أن الله تبارك وتعالى ذكر أن الجن لا يعلمون الغيب حيث يقول عن سليمان عليه السلام : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نُذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدورٍ راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنسأته فلما خرّ تبينت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين *﴾ وقد بلغ الحال ببعض رجال الطرق الصوفية أن يدعوا أتباعهم إلى عبادتهم صراحة حتى قال قائلهم :

إذا كنت في هم وغم فنادني ... أيا ..... أنجيك من كل ضيقة

فإسمي مكتوب على ساق عرشه ... وفي اللوح محفوظ فأتقن عبادتي

وقد صار أتباعه يرددون هذين البيتين عقب صلواتهم ، فلما وقفت عليهم وسمعت هذا منهم نبهتهم إلى أن هذا شرك أكبر فكيف يقعون فيه وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، فقال بعض مثقفيهم : هذه شطحات من الشيخ ، فحذرتهم من اتباع هذه الشطحات لأنهم لو ماتوا على ذلك حرّم الله عليهم الجنة وكان ذلك في بعض البلاد الإفريقية وقد نظمت قصيدة في الرد على هذين البيتين الشنيعين على نفس الوزن والقافية وسميتها النصيحة فقلت :

بحمد إلهي قد بدأت مقالتي	وقد رمت فيها نصح أهل شريعتي
وذدت عن الحوض المبارك كل من	أراد به سوءاً لحقد ونقمة
وإن سلاحي قول ربي وسنة	أتانا بها المختار خير الخليقة
وأقوال أهل الفضل من سلف مضوا	على خير أخلاق وعلم وحكمة
فيا أيها الإنسان إن إلهنا	هو الأحد المقصود في كل حاجة
فإن كنت في ضيق فربك حاضر	فسله إذن ينجيك من كل ضيقة
وإن كنت في هم وغم فناده	يجبك ويكشف كل هم وغمة
ولا تسألن أحداً سواه وإن يكن	نبياً كريماً قد أتى بالرسالة
فللخالق التصريف جل جلاله	ومن يرج غير الله باء بذلة
فخير الورى المختار ما كان مالكاً	لنفع وذا نتلوه في نص آية
وقد قال للحبر الإمام ابن عمه	مقالة هدي في ابتغا الاستعانة
وقد حذر المختار عند وفاته	من امر عظيم بالغ في الخطورة
بأن لا يرى في الأرض قبر بمسجد	وقد شدد الإنكار في غير مرة
وذلك يرويه البخاري ومسلم	وأعلام أهل العلم خير الأئمة
وقد حدث الحفاظ أن رسولنا	نهى عن وجود القبر تحت بناية

ومن ذاك مروي الصحيح لمسلم ... فأخلص لدين الله دون تعلة

ولا تكتبن فوق القبور ولا تقل ... بتجصيصها فالنهي خير رواية

ولا تنذرن إلا لربك إنه ... قدير على إنصاف كل البرية

وقد قال خير الخلق إن نذوركم ... على رد أمر الله غير جديرة

ومن نذروا للصالحين فإنهم ... بذا أهل شرك في صميم غواية

ولا تأت عرافاً ليشفي ذا ضنى ... ويكشف ستراً عن أمور خفية

فليس لدى العراف علم بغائب ... وآتيه في كفر عميق وغفلة

وربك علام الغيوب وعنده ... مفاتيح كل الغيب من غير ريبة

وقد فرق الجهال دين محمد ... إلى شرعة تبدو وشرع الحقيقة

وقالوا لقول الله ظهر وباطن ... وباطنه يبدو لأصحاب وصلة

وما علموا أن الشريعة نهجها ... طريق الهدى فيها تمام السعادة

وما كان قول الحق مثل مقالهم ... تنزه عن أغراض أهل الضلالة

وإن كنت ترجو للإله تقرباً ... فبالفرض والمسنون خير وسيلة

ومجلس علم عند ربك فضله ... يزيد كثيراًعن سني عبادة

وأمر بمعروف وترك لمنكر ... وبُعدك عن فحش وبغي وغيبة

وتسليم كل الحال لله وحده ... ونهيك نفساً عن مقام خطيئة

فذاك لَعمْر الحق أوضح منهج ... نهايته الحسنى وأفضل قربة

وحبك للأخيار حتم ولازم ... فداوم عليه كي تفوز برحمة

ومن يبتغ الحسنى بأفعال غيره ... فليست له حسنى ولا ظل جنة

وذلك نصحي قد نصحت ومن يرم ... سبيل الهدى فليستمع لنصيحتي

وأختم قولي بالصلاة على الذي ... به ختم الرحمن كل نبوة

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعظم كلمة تُثْقِلُ ميزان العبد عند الله يوم القيامة هي كلمة لا إله إلا الله إذا قالها خالصاً من قلبه ومات عليها ، وأن صاحبها هو أسعد الناس بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه). كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ ومعاذ رديفه على الرحل ـ قال : يا معاذ . قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثلاثاً. قال ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار . قال : يا رسول الله ، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا.

وقد سقت في تفسير قوله عز وجل : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم *﴾ ما رواه النسائي وابن حبان والحاكم من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال موسى صلى الله عليه وسلم : يا رب علمني شيئاً أذكرك به وأدعوك به. قال : قل لا إله إلا الله. قال : يا رب كل عبادك يقول هذا. قال : قل لا إله إلا الله. قال : إنما أريد شيئاً تخصني به. قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهم لا إله إلا الله) ، وقال الحاكم :

صحيح الإسناد. والحديث فيه درّاج بن سمعان أبو السمح وإن كان ضعيفاً إلا أنه عرف بالصدق في حديثه عن أبي الهيثم كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في التقريب حيث قال : صدوق في أبي الهيثم. كما روى الترمذي وقال : حسن غريب ، وابن ماجة وابن حبان والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه الذهبي من حديث عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : (إن ا لله سَيُخَلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا رب. فيقول : ألك عذر ؟ فيقول : لا يا رب. فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا ا لله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول : احضر وزنك. فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لا تظلم. قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم ا لله شيء.

وقد تم بحمد ا لله تعالى ومنته وتوفيقه ما قصدت إليه من تحرير هذا التفسير بعد فجر يوم الثلاثاء الثالث من شهر ذي الحجة الحرام لعام ١٤١٨هـ بمنزلنا بالرياض ، وكان البدء في تفسير قوله عز وجل : ﴿ واعلموا أنما غنتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ﴾ ... إلخ بعد ظهر يوم الإثنين غرة رجب الحرام لعام ١٤١٨هـ سائلاً ا لله عز وجل أن يتفضل بقبوله وأن يجعله في ميزان الأعمال الصالحة وأن يتجاوز عما يكون مني من تقصير ، وما توفيقي إلا با لله والحمد لله رب العالمين.

عبد القادر بن شيبة الحمد

الفهرس

الموضوع الصفحة

من سورة الأنفال

سورة التوبة:

فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط 2..- الرياض،1432هـ
٦ مج.

ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٤ -٦-٧٧٥٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٦/٢٢٧ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٤-٦-٧٧٥٦-٠٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٢٤٩٩٠فاكس: ٢٢٢٣٨٤٩٠ص.ب١٣٢٧٧ موبايل :٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com